التاريخ الإسلامي

— ١ —

قبل البعثة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي

— ١ —

قبل البعثة

الطبعة الثامنة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على منهجه وَبَعْـد:

فإن لكل أمَّةٍ تاريخاً تسجله من منطلق عقيدتها وواقع حياتها، وتحرص على تنقيته من كل ما يخالف تلك العقيدة حتى يكون ناصعاً منسجماً مع ما تصبو إليه نفوس أبنائها، وما تريد أن تنشأ عليه الأجيال في المستقبل، هذا بالنسبة إلى كل أمم الأرض، إلا الأمة المسلمة فإن تاريخها قد لعبت فيه الأيدي المنحرفة في الماضي، وحرَّفته أقلام المستعمرين وأنصارهم في الحاضر، حتى غدا تبعاً لتاريخ الانحراف في الأدوار التي مرَّت، وشبيهاً بتاريخ أوربا في العصر الحديث، يتماشى معه، ويتممه على أرضنا التي نحيا عليها. ومع هذا فلم تبدأ الأقلام الحرة بعد تخط التاريخ الإسلامي بشكله النقي.

إن الأمة القوية تحاول أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة أو التي أخضعتها بالسيف، ولقد طغت الدول الأوربية على البلدان الإسلامية خلال القرون القليلة الماضية، وفرضت تاريخها عليها، وحاولت فرض لغتها أيضاً، إلا أن وجود القرآن الكريم قد حال دون ذلك بالنسبة إلى اللغة، أما التاريخ فقد بقي يدرَّس حتى بعد زوال الاستعمار في البلدان الإسلامية، بل ويعلَّم في أكثر بلدان العالم، يدرس تاريخاً أوربياً خالصاً، وحتى التاريخ المحلي، فإنه يعطى من وجهة نظر أوربا، ذلك لأن الأوربيين كانوا يسيطرون على أكثر أجزاء الكرة الأرضية، وأصبح تاريخهم عالمياً حسب مصطلحهم، لأن أكثر الدارسين كانوا يتجهون إلى أوربا يتلقون فيها

العلم، ويأخذون منها التوجيه، ومن بين ذلك مادة التاريخ التي حرص عليها الأوربيون حرصاً شديداً، وعملوا على توجيهها حسب وجهة نظرهم ومنطلقهم الخاص، وعندما يعود الدارسون إلى مناطقهم التي خرجوا منها، فإنهم يسجلون ما تعلموا، ويدرّسون ما أخذوا وما نهلوا، وينشأ الجيل بعد الجيل على هذا التوجيه، وتسطر الكتب، وتصبح مراجع ومصادر لكل باحث جديد.

هذا التاريخ الذي يزعمون أنه عالمي لا ينطبق بالفعل إلا على أوربا، ولا يشمل غيرها، ويقسّم تاريخ العالم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما مرَّ في أوربا، وهذه الأقسام هي:

١ ـ **التاريخ القديم**: ويبدأ منذ معرفة الإنسان الكتابة حوالي عام ٣٢٠٠ق.م. وينتهي بسقوط مدينة روما بيد البرابرة الجرمان عام ٤٧٦م، ويمتاز أواخر هذا القسم من التاريخ بقيام إمبراطوريات واسعة، وظهور حضارات حسب المفهوم الأوربي.

أما المدة التي سبقت فتعرف باسم ما قبل التاريخ، ويعدّون أن الإنسان كان فيها بدائياً متأخراً، لا يعرف اللباس، ولا يجيد النطق، ولا يحسن التعبير، يستر الشعر جسمه، هذا ما يتفق مع مفهوم أوربا العلماني، إذ لا يأخذون بعين الاعتبار الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله من القديم لهداية البشر منذ أن خلق الناس في الأزمنة الغابرة.

٢ ـ **التاريخ الوسيط**: ويبدأ من سقوط روما عام ٤٧٦م، وينتهي بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني، ويمتاز هذا العصر بسيطرة الكنيسة، ورجالات الإقطاع، وبالجهل.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: ويبدأ من فتح القسطنطينية، وينتهي في الوقت الذي نعيش فيه، ويتسم بالثورة الصناعية، وانتشار العلم، وقيام الحضارة الحديثة حسب المفهوم الأوربي الخاص، كما يقسم هذا الجزء من التاريخ إلى قسمين:

أ ـ التاريخ الحديث: وينتهي بقيام الثورة الفرنسية عام ١١٩٣هـ.

ب ـ التاريخ المعاصر: ويبدأ من قيام الثورة الفرنسية، ويمتد حتى وقتنا الحالي.

وإن نظرة واحدة إلى هذا التقسيم توضح لنا أن هذه الأحداث والسمات الخاصة بكل جزء منها إنما ينطبق على أوربا وحدها، ولا يتفق مع ما سواها.

في التاريخ القديم تتحدث أوربا العلمانية عن الحضارات القديمة، ونحن لا نعدّ هذه المظاهر في مفهومنا حضارات، وإنما مظهراً من مظاهر البناء، فالحضارة تتسم بالصفة الإنسانية، فإذا زالت عنها فإنما هي تسلُّط وإرهاب، وما البناء الذي يعدّونه حضارة إلاً بناء شيَّدته أيد على جماجم إخوتها، ورفعته على جثث آلاف البشر، أُرغموا على العمل به، وأُكرهوا على الكدّ فيه حتى لقوا حتفهم، والسوط على أظهرهم، والسيف مسلط على رؤوسهم. تعدّ أوربا ما بقي من آثار عمرانية حضارة، وما اندثر ضاع معه الناس وما شادوا، ولو أنهم ملؤوا الخافقين عدالةً وسمواً بالنفس، فكأن الظلم باقٍ والعدل زائل.

أما في التاريخ الوسيط الذي امتاز بالإقطاع، وسيطرة الكنيسة، والجهل في أوربا، فإن هذه الميزات لم تكن موجودة إلاً في تلك القارة، فالكنيسة لم تكن مسيطرة إلا في أوربا، أما في بقية أنحاء العالم، فليس هناك من كنائس، وإن وجدت فأصحابها قلة، ولا يمكن لهم السيطرة، ولا يستطيعون الطغيان، وأما الإقطاع فلم يكن هناك إقطاع بالمفهوم الموجود في أوربا، وهو أن يكون عمال الأرض وفلاحوها يباعون ويشترون، ويتصرف بهم المالك كيف يشاء، يقتل من يرغب دون محاسب، ويرتكب من أعمال السوء مع أفراد أسر فلاحية ما يبتغي دون ممانعة، وأما الجهل فلم يكن منتشراً في مكان آخر بالشكل الذي كان ينتشر في أوربا، وبصورة عامة غدت كلمة التاريخ الوسيط تعني التأخر، والجهل، والفوضى، وسوء النظام، والاستهتار بكل القيم، وإذا نظرنا إلى هذا الزمن الذي نتكلم عنه

كيف كانت بلادنا الإسلامية فيه، فنلاحظ انتشار العلم، وسيطرة النظام، ووجود القيم، فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات، وهي قبلة المتعلمين، ومساجدها مراكز إشعاع، هذا إضافة إلى الحضارة التي تتسم بالإنسانية، بل تعدت إلى الرفق بالحيوان، فالحضارة أعمال يبتكرها البشر، وتنظيم وتخطيط لخدمة الإنسان، فإذا لم تخدمه فليست بحضارة.

لقد كان اهتمام الحضارة الإسلامية بالإنسان، والإنسان وحده، الأمر الذي لم يلتفت معه المسلمون إلى البناء والإشادة، وإجبار الناس على العمل وإكراههم على مزاولة أعمال لا تخدمهم، ولا تخدم عقيدتهم، وإنما تخدم حكامهم، كما فعل غيرهم، وإنما انصرفوا إلى الدعوة والفتوحات التي كانت وسيلةً لنشر عقيدتهم فلم يخلِّفوا أبنية، ولم يتركوا قصوراً، ونستطيع أن نعطي صورة بسيطة عن صور من الحضارة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده تجلت في العدل والمساواة وإحقاق الحق والاهتمام بمصالح الرعية بشكل تبقى مثلاً أعلى للحضارة لكل من يريد الخير للبشر، فعاش الناس يومذاك حياة سعيدة ملؤها الراحة والطمأنينة والأمن وتأمين الحاجات الضرورية، ولم يلتفت المسؤولون آنذاك عما سوى ذلك من مظاهر تنهك الإنسان، وليس فيها أية خدمةٍ له، ولا يشعر بأية سعادة في ظلها، وإنما فرضت عليه، وكان يئن من وطأتها. وعندما انتهت الفتوحات، شيَّد المسلمون مواضع لا لخدمة الحكام والرؤساء، وإنما لخدمة رعاياهم وسعادتهم، أماكن على الطرق العامة كانت مراكز للبريد، ثم عرفت فيما بعد باسم (خانات)، على الرغم من وجودها في وقت مبكر، ولكن وصل إلينا هذا من آخر عهد له، والخان: كلمة مختصرة من (خاقان) وهو الأمير باللفظ التركي، وهو الذي ينفق على هذه المراكز، أو تقام باسمه. وكانت هذه المراكز مضافات على الطرق، يحق لكل مارٍّ أن يبقى فيها ثلاثة أيام تقدم له فيها الأطعمة، والشراب، ووسائل النوم والراحة، وكل ما يحتاج دون مقابل، وإلى جانب ذلك يُقدَّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاور. وكان بين المركز والآخر مرحلة، وهي تساوي

الأربعين كيلومتراً تقريباً، وهي مسيرة يوم آنذاك، وقد توجد على مفترق الطرق، وعندها تكون المسافة بين مركزين متتابعين أقل من ذلك، وفي المدن كثير من هذه الخانات لكثرة زوّار المدن وحاجاتهم المستمرة فيها، ولا تزال آثار هذه الخانات قائمة إلى الآن، سواء أكانت في المدن أم على الطرق، وتعرف بأسمائها في أماكنها، وإن زالت معالمها، وهي في المدن على شكل طابقين، وغالباً ما يستعمل الأول ـ وهو الأرضي ـ للحيوانات، والثاني للمسافرين. وقد يكون بجانب كل خان دار للثياب فيما إذا اضطر أحد المسافرين إلى تغيير ثيابه لسببٍ من الأسباب، كأن يصيبها شق أو تمزيق، أو يلحقها أذى من زيت أو دهن، فإنه يستبدلها بالمقياس نفسه، واللون نفسه، والطراز نفسه، ويترك ثيابه دون مقابل ولا منَّة، ويُصلح المركز الثياب المتروكة، وتُنظَّف، ويدبّر أمرها، ويعتني بها، لحاجة تستجد في المستقبل، ولما ضعف المسلمون، وسيطر عليهم غيرهم، انهارت حضارتهم، وأصبحت الخانات أماكن للحيوانات فقط، وغدت كلمة خان تعني: اصطبلاً. وتعدّى الأمر في هذه الحضارة فوصل إلى الخدم، فكانت توجد في المدن دور تسمى: دار (الزبادي)، ومهمتها تقديم الآنية والأوعية إلى الخدم الذي كُسرت آنيتهم معهم وهم في طريقهم إلى جلب حاجات لسادتهم، كي لا يجد هؤلاء الخدم عقوبة تصيبهم، أو أذى ينالهم، أو كلاماً قاسياً يسمعونه من أولئك السادة الذين ربما كان منهم الظالم القاسي أو الجاهل العاصي. وزاد الأمر على ذلك فوصل إلى الرفق بالحيوان، فكان في كل مدينة ما يسمى بـ (مرج الحشيش)، وهو مكان متسع مليء بالأعشاب، محاط بالأسوار، وفيه بعض الحظائر، فإذا ما عجزت دابة عند فلاح في المنطقة عن العمل، فإنه يرسلها إلى ذلك المكان بدلاً من أن يتركها في العراء، فلربما عجزت عن الحركة، وماتت جوعاً، وربما كان في مكان قريب من السكن، وعندها يتفسخ جسمها، وتضرّ بصحة الأهالي، أما إذا نقلت إلى (مرج الحشيش)، وهو ما يشبه مأوى العجزة بالنسبة إلى البشر، فيصبح القائمون على المركز مسؤولين عنها، فإذا كانت تستطيع الرعي سائمة تركت وشأنها ترعى، ولا تستطيع الخروج من المرج، وإذا

كان لا يمكنها ذلك، وضعت في الحظائر، وقُدِّم لها العلف والماء، حتَّى إذا انتهت حياتها، نقلت إلى خارج دائرة السكن لتأكلها سباع الفلاة، أو ليردم عليها التراب. ومن آثار هذه المروج وآخرها: (مرجة الحشيش) في دمشق التي بقيت تحمل هذا الاسم حتى مدة قريبة، ثم أصبحت ملعباً للرياضة، فعرفت باسم (الملعب البلدي)، ثم أقيمت في ذلك المكان أبنية المعرض، وهذا المكان محصور بين نهر بردى وفرعه نهر «بانياس» والتقاء هذين النهرين، أما الجهة الرابعة فكان محجوزاً ببناء الحظائر، وهو مكان المتحف اليوم، مقابل تكية السلطان سليمان العثماني المعروفة، فهل عرفت حضارة من حضارات العالم تحمل أمثال هذه المعاني؟

هذه هي المعاني الإنسانية التي يجب أن تتوفر للنهضة كي تسمى حضارة، أو للمدنية حتى يطلق عليها هذا الاسم، وهو ما يجب أن نرسِّخه في نفوس الأجيال، ونعلمهم إياها باستمرار لينشؤوا على مفهوم الحضارة الصحيح، وما قدَّمته أمتنا في هذا المجال، وما هي القيم التي تحملها الحضارة؟ ويجب ألا ننقل إلى تلك النفوس بعض مظاهر العلم أو البناء ونطلق عليه اسم حضارة، كما هو بالمفهوم الأوربي، فتضيع الحضارة بين بعض مظاهرها الضعيفة، ويتيه النشء بين الاصطلاحات ومداخل التعاريف.

هذا التاريخ بالنسبة إلى أوربا. أما التاريخ الإسلامي فيمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام أيضاً حسب مثلنا وقيمنا وعقيدتنا ومفاهيمنا، وهي:

١ ـ **تاريخ ما قبل الإسلام**: وقد استمر مدة طويلة كانت جاهلية بأكثر معالمها باستثناء جماعات عاشوا مع أنبيائهم، وساروا على نهجهم واتبعوهم، لذا يمكن أن نسمي هذه المدة بالجاهلية الأولى لما فيها من حيدان وانحراف عن منهج الله الذي أنزله على الرسل الذين بعثوا إلى شعوب تلك المدة من الزمن.

٢ ـ **التاريخ الإسلامي**: ويشمل حياة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وقد سار الخلفاء على النهج الذي رسمه الرسول الكريم، لم

يحيدوا عنه قيد أنملة، وبعد ذلك بدأت زاوية الانحراف تظهر منذ انتهاء العهد الراشدي، وبدأ مع الزمن يزداد انفراج زاوية الانحراف شيئاً فشيئاً في العهدين الأموي والعباسي، حتى طغت على الدائرة كلها في نهاية الدولة العباسية. ويمكن أن نلاحظ أن تسجيلنا للتاريخ يجب أن يكون قبل الإسلام بأعوام قبل الهجرة، والتاريخ الإسلامي بالأعوام الهجرية فقط، ليكون لنا تاريخنا المستقل وشخصيتنا المتميزة.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: وهو مرحلة الجاهلية الثانية، حيث انحرف الحكام عن النهج الإسلامي، وبدأت الحكومات تتخبط في الفوضى والجهل، وتسير بالتبعية، وإن كنا لا نستطيع أن نعد جميع الحكام بمستوى واحد، فلربما كان بعضهم أقل انحرافاً من بعضهم الآخر، وقد حكم في هذه المدة المماليك والعثمانيون ومن جاء بعدهم. وإن ظهر أحد منهم بالصلاح والعمل لمصلحة الرعية إلا أنها كانت أياماً قليلة ثم لا تلبث الجاهلية أن تتحكم بالأمر. ومع الأسف فقد اتخذ التقويم الميلادي تقويماً في هذه المدة، الأمر الذي أحدث ازدواجية في تسجيل تاريخنا بصورة عامة، إذ نسجل الأحداث حتى نهاية الدولة العباسية على أثر سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦هـ بالتقويم الهجري، ونسجل بعد ذلك بالتقويم الميلادي، وكذلك المدة التي سبقت هجرة رسول الله صلَّى الله عليه وسلم.

هذا التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي، وبينهما فرق جوهري، فيجب أن نفصل أحدهما عن الآخر لتتوضح عندنا الرؤية، ولنتميز بشخصيتنا التي حرص بعضهم على إلحاقها بالغرب. واستمر ذلك مدة ليست قصيرة من الزمن. كما يجب أن نرسخ هذه الفروق بين الأجيال لتتمسك بتاريخها، وتعتز به، ويجب أن نوضح المعاني الحضارية التي عمل أسلافنا من أجلها، وتوصلوا إلى أزهى الحضارة، وقد خدموا بها العالم، فأسرعوا في تقدمه أشواطاً إلى الأمام.

ومن خلال هذا فإننا سندرس التاريخ الإسلامي على النحو التالي:

١ ـ قبل البعثة.

٢ ـ السيرة.

٣ ـ الخلفاء الراشدون.

٤ ـ الحكومة الإسلامية.

٥ ـ العهد الأموي.

٦ ـ العهد العباسي.

٧ ـ عصر المماليك.

٨ ـ الدولة العثمانية.

٩ ـ العصر الحديث.

وعلى هذا فإن تاريخ العالم إنما كان تاريخاً جاهلياً سيطرت عليه الجاهلية بكل مفاهيمها وقيمها باستثناء مدة وجيزة هي: عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، تغيَّرت فيها المفاهيم والقيم، وتبدَّلت الأرضية التي يعيش عليها المجتمع، ثم لم تلبث أن عادت الجاهلية تسيطر شيئاً فشيئاً حتى عادت لها هيمنتها في النهاية.

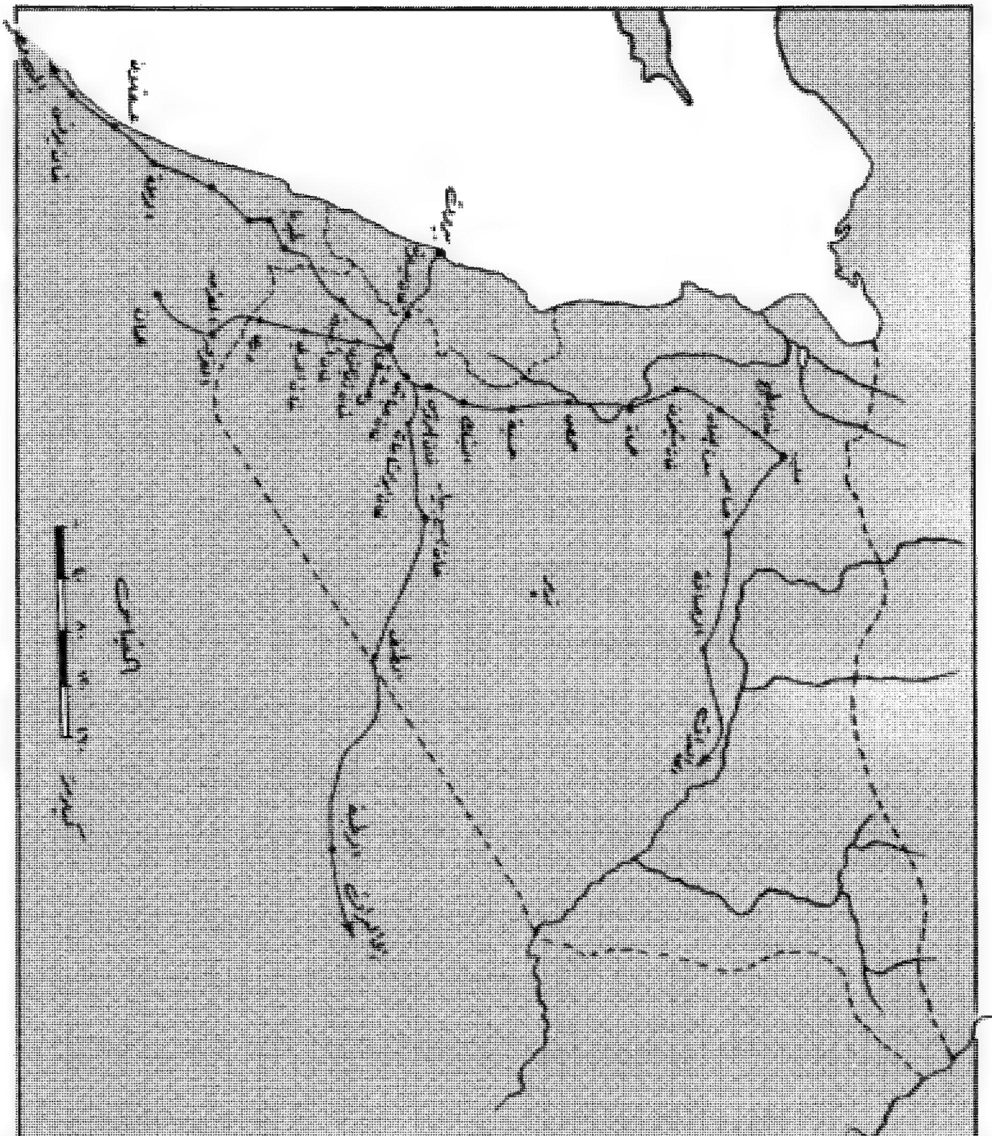
ولا يزال التاريخ ـ وبخاصة القديم منه ـ يأخذ مقتطفات من سجل هذه المنطقة ومن تلك، الأمر الذي يبدو فيه كثير من الفجوات، إضافة إلى أن هناك تعارضاً بيّناً بين ما يخطه المؤرخون الماديون من خلال نظرتهم إلى الحياة، ويفسرون كل شيء من خلال تلك النظرات، ويعدونه حقيقة، ويقدمونه للمجتمعات من خلال آرائهم، وبين الواقع الذي عاشه البشر في تلك المدة، والذي أشارت إليه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله عن الأقوام الماضية التي خالفت أوامر الله، ورفضت دعوة رسلها، لذا فقد أخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم على ما اقترفوه من ذنوب، وما تلك الإشارات الواردة في القرآن بتاريخ مفصل عن منطقة ما، وإنما إشارة إلى حوادث تاريخية فيها العبرة والذكرى من خلال إيرادها، وهي تعطي ضوءاً على التاريخ.

ولقد حرصت أن أملأ تلك الفجوات الموجودة، وأن أتلمس حوادث

التاريخ من خلال الإشارات الواردة في كتاب الله، وأن أضعها ضمن إطارها بحيث لا تخرج عن واقعها، الأمر الذي جعلني أضع هذا القسم تحت العنوان العام (التاريخ الإسلامي) على الرغم من أنه كان قبل الإسلام، وأقصد بذلك التسجيل لهذه المدة من حياة البشر من وجهة نظر إسلامية، وتأريخاً للجماعات التي جاءتها رسلها المعروفون، فما كان القرآن لترد فيه حوادث غير واقعية، وإنما يذكر أحداثاً تاريخية صحيحة لها سجلها في حياة البشر، وفيها العبرة لمن أراد أن يعتبر.

ونرجو من الله أن أستطيع تقديم خدمات لهذا التاريخ الذي وطدت العزم على إصداره ـ إن شاء الله ـ وأن يكون هذا حافزاً لغيري كي يتوسع في هذا المجال، وأن يقدم لأمته ما ترجوه ـ فأنا لا أدعي أنني قمت بعمل جليل كبير، وإنما قدمت الخطوط العريضة ليتوسع فيها أهل العلم وأصحاب الاختصاص ـ مع العلم أنني لن أتقيد بالروايات التاريخية الكثيرة المتشعبة التي وردت في بطون أمهات الكتب، وذلك لأن أولئك المؤرخين قد أجهدوا أنفسهم كثيراً فيما سمّوه بالأمانة العلمية، فنقلوا إلينا كل ما وصل إليهم من أخبار، لذلك جاءت روايات كثيرة متناقضة أحياناً، وأكثرها يخالف رأي الحكام القائمين آنذاك، ويظهر أنها جاءت من خصومهم السياسيين الذين حرصوا على إشاعة هذه الروايات وتسجيلها أكثر من المسؤولين الذين أهملوا وجهة نظرهم، كما أن الحكام قد شجعوا وروّجوا الروايات التي تطعن بمن سبقهم ليبرروا قيامهم هم، ويرفعوا أنفسهم عليهم، لهذا فالروايات كانت بحاجةٍ إلى تحقيق وتدقيق، وتطبيق منهج علماء الحديث على الرواة «الجرح والتعديل»، وسأقبل كل ما طبق على الروايات من هذا المنهج، وسأرفض كل ما سواها، وسيكون الإيمان رائدنا في البحث ما أمكننا ذلك.

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله، وأن يكون سبحانه وتعالى عوننا في كل عمل فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلاَّ به.



الأمّة المُسْلِمَة

لما كنّا نؤرخ للأمة المسلمة فلا بدّ من أن نعطي فكرة عن الأمة وبنائها وعامل تكوينها قبل أن نبدأ بتسجيل تاريخها، ونعطي فكرة عن عقيدتها في التاريخ.

الأمة جماعة من الناس عاشت بعقيدةٍ واحدةٍ على مدار التاريخ، فما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة، فالجماعات الذين اتبعوا الأنبياء الذين بعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشوا بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، واعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أنزل الله إليهم من ربهم، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور، يؤلفون أمّةً واحدةً على مدى هذا التاريخ، فهم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحد؛ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربهم واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مستسلمون لأمر الله، مسلمون لما بعث، وبما قضى. هذه الجماعة هي الأمة المسلمة التي تتميز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها، فالله سبحانه وتعالى بعد أن يُعدّد رسل الله والصالحين من عباده يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

ولا ترتبط الأمة المسلمة ببقعةٍ معينةٍ من الأرض، وإنما ساحة عملها الأرض كلها، فحيثما تمكنت من إقامة حكم الله فذلك مقرها الأول ونقطة

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

انبعاثها، وبعد ذلك تتوسع دائرتها منه بالدعوة ونشر الفكرة حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت لا تعمّ الفكرة الأرض كلها، ولا تحكُم كافةً بما أنزل الله فمهمة الأمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله، حتى تتمكن من تطبيق منهج الله في الدنيا قاطبة. والأرض في نظر الإسلام قسمان:

١ ـ دار الإسلام: وهي البقعة من العالم التي يطبق فيها منهج الله، وإن لم يكن سكانها جميعهم من المسلمين.

٢ ـ دار الكفر: وهي المنطقة من الأرض التي لا تحكم بما أنزل الله ولو كان سكانها كلهم من المسلمين. وليست دار الكفر دار حرب، وإنما دار الحرب جزء من دار الكفر، أعلن إمام المسلمين عليها الحرب وأجاز فيها إجراء أحكام دار الحرب. وتنقلب دار الكفر إلى دار حرب إذن بإذن الإمام، تحت ظروف خاصة منها: الوقوف في وجه الدعوة، والضغط على المسلمين، أو تعريف الأعداء على ثغراتهم، وإعلان الحرب عليهم و... المسلم الموجود في دار الكفر عليه واجب الدعوة، والعمل على نشر الفكرة، والتمكين للمسلمين، ولا يهاجر أحد من هؤلاء المسلمين القاطنين في دار الكفر إلا في حالات:

١ ـ إذا احتاج المسلمون إليه في دار الإسلام ـ إن وجدت ـ حاجة فردية أو عامة، وتقتضي الدعوة وجوده هناك.

٢ ـ إذا كان لا يستطيع إقامة شعائره في دار الكفر، فعليه آنذاك الهجرة والالتحاق بدار الإسلام ليعيش بين المسلمين، يقوم بدوره، ويؤدي عبادته هناك، فأي شيءٍ يمكن للمسلم أن يتساهل فيه سوى العبادة فإنه لا يمكنه أن يتركها أبداً، أو يتساهل فيها، وهو مسلّم بقواه العقلية. أما ما يقوله بعض ضعاف النفوس: من كتم الإيمان والتقية فيجب ألا يصل إلى العبادة أبداً، ولا إلى ما حرم الله، أو تحريم ما أحل وإحلال ما حرم، فإن وصل إلى ذلك فهو الكفر البواح.

٣ ـ إذا طرد من دار الكفر وأجبر على المغادرة[١].

ولا ترتبط الأمة بالأصل، فالخلاف يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين متباينتين، فلقد حدث الخلاف على أشده بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم المشركين وأفراد قبيلتهم قريش، وحتى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى سيفان أحدهما بيد الأب والآخر يحمله الابن، فرّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر. وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين، أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وينتمون إليه مهما كانت الخلافات واهية والأسباب بسيطة، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلا وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة، والذين يرتبطون بأصل واحد بل وقبيلةٍ واحدةٍ، وعشيرةٍ واحدةٍ، وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأمة باللغة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحّد بينهم فكر خاص، فإذا كان الأصل هو الذي يجمع انطبق عليها ما انطبق عليه، وما الصراع الدائم الذي يقع بين أبناء الشعب الواحد إلا نتيجة خلاف العقيدة. ويمكن أن نلحظ على مدى تاريخنا أن أفراداً نلتقي وإياهم بالأصل، ونفترق بالفكر والعقيدة. نجتمع بطرفٍ من اللسان الذي أوجده الأصل، ونختلف بطرف آخر وهو ما فرقتنا فيه العقيدة، فيبقى الطرف الثاني هو الغالب، وهو المتميز باستمرار، فمنذ صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتفق مع الفرس بالمبدأ، لذا حرص على تعلم لغتهم، ويترجم من الرومية وإليها من يعتنق النصرانية ويلتقي مع الروم بالعقيدة، لذا حرص على تعلم لغتهم،

---

(١) ولا يترتب على هذا التعريف في الوقت الحاضر أي إجراء عملي متعلق بالأحكام الفقهية لدار الإسلام أو دار الكفر؛ لأن الطرف الأول غائب اليوم عن سطح الأرض، والعلاقة متبادلة بين الطرفين. فإن غاب طرف اقتضى غياب الأحكام بالنسبة إلى الطرف الثاني. ومن المعلوم أن المواقف العملية لتطبيق الأحكام الفقهية بدار الإسلام ودار الكفر إنما يتخذها إمام المسلمين، وليست عامة أفراد المسلمين بصفتهم الفردية.

واستمر ذلك حتى عُرِّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وحتى في العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في بلاد الشام الشمالية ممن كانوا يجيدون لغتها وهم ممن كانوا يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم بالعقيدة بعد تعلم لغتها، على حين لم يفعل ذلك من لا يتصل بها بفكرة، ولا يلتقي معها بمبدأ، ولو فرضت اللغة الفرنسية على الشعب لما أقبل عليها أحد سوى أبناء دينها، اللهم إذا استثنينا أصحاب المصالح وأرباب التجارة، وما استعملته فرنسا في مناطق نفوذها سارت عليه إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وهولندة وروسيا في الجهات التي سيطرت عليها. إن الذين يعتنقون عقيدة أمة يحرصون على تعلم لغتها، وهذا ما نشاهده في أكثر أرجاء العالم الإسلامي، وهو أن أكثر الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية فكراً، ويتخذونها منهجاً، ويسعون في تطبيقها على أنفسهم، وعلى أسرهم، وعلى مجتمعاتهم، إنما يتعلمون العربية، ويحرصون على التحدث فيها على أنها لغة القرآن الكريم أي: لغة العقيدة التي يدينون بها، فاللغة إذن: لغة العقيدة، وليست لغة الأصل الواحد التي نشأت على أرض معينة، وارتبطت بالبشر الذين عاشوا على تلك الأرض، وتطورت معهم أو واكبت اللغة الأصل على مر الزمن ـ حسب زعم بعضهم ـ.

وليس التاريخ بأكثر ربطاً للمجتمعات من اللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأمة، والأمة مرتبطة بالعقيدة، فالتاريخ يتحدث عن البشر الذين يحملون تلك العقيدة، ومن منطلق العقيدة تُرسم الخطوط العريضة للتاريخ، فالمراحل التي تطبق فيها العقيدة يراها أتباعها ما داموا من حملتها، ومن المتأثرين بها، والداعين لها، والحريصين على تطبيقها أنها مراحل شموخ وارتفاع يجب أن يقتدى بها، ويسار على نهجها، وأن رجالها مثل أعلى من الضرورة بمكان الاقتداء بهم، والتركيز عليهم لتلقين ذلك للأجيال، لترسيخ المعاني في النفوس، على حين يرون أن الفترات التي لم يطبق فيها منهج العقيدة فترات ضعف وانتكاس وتراجع وتأخر، وأن رجال ذلك الزمن لم يكونوا على مستوى المسؤولية، لذلك لم يستطيعوا أن يطبقوا ما اعتقدوا، ولا أن يسيروا على الخط الذي تفترضه عليهم عقائدهم، لذا فقد تعبوا

وأتعبوا، وسببوا ضعفاً في كيان الحكم، تأثرت الأمة بسببه، فوهنت وضعفت شوكتها، وأطمع ذلك الأعداء فيها، لذا تكون هذه الأيام في زوايا ميتة من التاريخ، ويحاولون عدم التركيز عليها والإقلال من شأنها. فالتاريخ الإسلامي لم يصل في مرحلة من مراحل قوته إلى ما وصل إليه أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده، فأول سبب الضعف بعد ذلك إنما يعزى إلى بدء الانحراف عن العقيدة التي يؤمنون بها، وعن السياسة التي سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، والتي تنبع من عقيدتهم، ومع استمرار الانحراف، وزيادة انفراج زاوية ذلك الانحراف زاد الضعف، حتى إذا زاد الانفراج استسلمت الأمة فوقعت أمام أعدائها. فسقطت بغداد عام ٦٥٦هـ بيد المغول، وسقطت غرناطة بيد الإسبان عام ٨٩٨هـ، وتجزأت بعد ذلك أشلاء الأمة، وتفرَّقت كلمة المجتمع، والتاريخ الإسلامي يُدرس في بلاد المسلمين جميعاً، وبخاصة سيرة رسول الله ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين، يدرس عند أصناف متعددين من البشر، وأجناس متغايرين تجمع بينهم العقيدة، ولا يدرس على أنه تاريخ عربي نشأ على أرض عربية، وحملت تلك الرسالة جماعة من العرب إذ لا يجمع بين تلك الأجناس والعرب جامع، ولا تربط بينهم وشيجة سوى الإسلام، ولولا ذلك لما درسوا ذلك الجزء من التاريخ.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والحضارة والثقافة وما إلى ذلك من جوانب فكلها تنبع من العقيدة التي توجهها بالشكل الذي تفرضه، وتقيِّدها بالنهج الذي ترسمه، فللبناء أسلوبه الخاص، وللزخرفة شكلها المعين، وللأفراح طابعها، وللأحزان مراسيمها، وللتعليم طريقته ومنهجه وحتى التحية، والاحتفال، والاستقبال، والسير، واللباس، وكل القضايا الاجتماعية تتدخل فيها العقيدة، وتفرض عليها صفةً خاصة، وسمةً معينة.

وأما ما عرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي، أو المصلحة الاقتصادية التي تجمع بين المجتمعات، أو العناصر التي تكون أمة، فهذا أضعف العوامل أثراً، وأقلها شأناً، حتى في العوامل التي يتبناها المنحرفون

وأصحاب المصالح، فتبقى في مستوى المصلحة فتتغيَّر معها، وتسير تبعاً لها، وتتذبذب حسبها، وما أكثر تغيرات المصلحة وتبدلاتها.

وليست هذه العوامل التي يقال عنها إنها تكوّن الأمة ـ باستثناء العقيدة ـ إلاّ عوامل طرحت على الشعوب الضعيفة، أوجدتها الجهات الأجنبية التي فرضت سيطرتها على هذه الشعوب ـ كما ذكرنا ـ ففرضت معها آراءها، أو توجيهاتها فأخذها تلامذة الغرب وعملاؤه والمفتونون بحضارته المادية، ولا يقصد من ذلك سوى زعزعة المسلمين عن عقيدتهم، وإبعادهم عن مواقعهم التي يحتلونها.

وسنؤرخ للأمة المسلمة، بغض النظر عن الأفكار الدخيلة، والآراء المستوردة. على الرغم من سيطرتها على بعض العقول، وتسلطها على بقاع عديدة، الأمر الذي جعل هوة سحيقة بين الحاكم والمحكوم، حتى إن المتأمل من بعيد ليظن أن هذا رأي الأمة جمعاء وعقيدتها المستحدثة، وذلك بسبب سيطرة الأفكار الغريبة على هذه الأمة، والواقع أن هذا ليس إلا رأي فئة قليلة، تمكنت من السيطرة بواسطة من سبقها، فملأت الدنيا صراخاً بهذه الأفكار المستوردة.

الخَلق الأوّل

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق على هذه الأرض مخلوقاً يكون مستخلفاً فيها، يملك زمامها، وتُطلق يده فيها، ويكشف عما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وقد سخَّر الله لهذا المخلوق كل ما في هذه الأرض، حتى يتمكن من القيام بعملية الاستخلاف المنوطة به، ولا يهمنا هنا أن يكون هذا المخلوق هو أول من وجد على الأرض أم وجدت مخلوقات أخرى قبله، أفسدت وسفكت الدماء، أم أن الجنّ هم الذين فعلوا هذه الفعلة الأمر الذي جعل الملائكة تتساءل أمام الله ـ وقد عرفت ما حدث ـ فتقول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، ولكن المهم هنا أن هذا المخلوق قد وجد، وهو آدم عليه السلام، وهو أول المخلوقات من البشر التي ننتمي إليها نحن، ونتصل بأنسابنا إليه.

ولقد كرم الله هذا المخلوق بأن وهبه العقل الذي يفكر فيه، وبه يختلف عن باقي المخلوقات، الأمر الذي يجعله باستطاعته التمييز بين الخير والشر، والنافع والضار، ويتوقع النتائج التي تؤدي إليها الأعمال التي يقوم بها، هذا التمييز هو الذي يجعلنا لا نطلق عليه اسم حيوان ناطق، فالنطق أمر ثانوي فالببغاء تقلد البشر، وبعض الحيوانات يحاكي الإنسان ببعض التصرفات، ولها أصوات هي نطقها، وطريقة تخاطبها بعضها مع بعض، وأسلوب تعايشها وتفاهمها، فالإنسان إذن مخلوق عاقل، وبالعقل وحده يتميز، ويفترق عن بقية المخلوقات.

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثانيةٍ بأن خلقه على أجمل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

صورة وأكرم خِلقة، وأوجد فيه عنصر الحياء، فهو يسكن إلى أهله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، ويتوارى عن الأعين فيما يقوم به من حاجات خاصة يختلف بذلك اختلافاً بيّناً عن باقي المخلوقات التي تمارس أعمالها الجنسية أمام أسرابها، وتقضي حاجتها أمام فصائلها.

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثالثة بأن جعله منذ بداية خلقه ساتراً عورته، ناطقاً يجيد التحدث، على عكس الصورة التي يعطيها الماديون للإنسان القديم التي تجعل أباهم وأولهم أكثر بدائية منهم، إلا أن الإنسان الذي يتكلمون عنه إنما هو الإنسان الذي تقوقع على نفسه في مجاهل الغابات، أو اعتكف في فيافي الصحراوات، وله وضعه الخاص الذي نتعرض له باختصار، ولا يستنتج من وضعه أنه صورة عن الإنسان القديم، فهذا بيئته أثرت فيه، وذلك خلقه أوجد فيه. إن أصل الإنسان واحد، وهو آدم عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[2]. ولقد كان الإنسان منذ ذلك اليوم كاملاً في شكله الجمالي، وعلى الصورة التي نراه عليها اليوم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[3]. ونلاحظ أن أجسام الفراعنة المحنطة وقد مضى عليها ما يقرب من أربعة آلاف عام، وهي بصورة إنسان اليوم لا تختلف عنه بشيء إلا بالطول الذي يتحدث عنه بعض الناس والذي كان للإنسان القديم، إذ كان العمالقة في بعض جهات جزيرة العرب، واختلفوا بأطوالهم لا بأشكالهم، ولكن انتهوا قبل ألفي عام قبل الهجرة، كما لا يختلف بتطوره الذي يتحدث عنه أصحاب نظرية التطور. وكان آدم عليه السلام منذ أول خلقه يجيد النطق، ويحسن الكلام، ويعرف التعبير ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) سورة التين: الآية ٤.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١].

وكان الإنسان الأول وذريته من بعده، يستر جسمه، ويخفي عورته، هكذا خلق الله آدم، ولكن الشيطان غرَّر به وبزوجه حواء حتى ذاقا الشجرة التي نهاهما الله عنها فبدت لهما سوآتهما حيث عرَّاهما الله من اللباس الذي كساهما إياه قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآها، والمعصية التي ارتكباها، وعندها جعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما، ويخصفان عليهما من هذا الورق كهيئة الثوب ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٢]. فالله سبحانه وتعالى قد أنزل على الإنسان اللباس بأن خلقه لهم أو دلهم على صناعته وذلك ليواري به السوأة. ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٣]، وإذا فسَّر بعضهم اللباس بالمطر إلا أنه قال: الذي يُنبت القطن والكتان، ويقيم البهائم التي منها الأصواف والأوبار والأشعار.

أما الجماعات البدائية التي تعيش في مجاهل القفار والغابات اليوم فليست من مخلفات الإنسان القديم الذي يتصوره الماديون، وينقلون صورته إلى الأطفال لينشؤوا في بُعدٍ عن عقيدتهم التي تصور لهم المخلوقات على الصورة نفسها التي يرونها اليوم. لقد كانت هذه الجماعات جزءاً من أقوام رسل الله الذين بعثوا لهدايتها، فأبوا الدعوة، ورفضوا الفكرة، ووقفوا في

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣١ ـ ٣٣.
(٢) سورة الأعراف: الآيات ١٩ ـ ٢٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

وجه نبيهم، وعتوا عن أمر ربهم فسلط الله عليهم من يحاربهم ويلاحقهم من مكان إلى مكان، فلو كانت هذه الجماعات منعزلة في مواطنها، متقوقعة في مواضعها من الأصل الذي وجدت فيه، لكان المعنى أن أصول البشر متعددة، وهذا ما يخالف العقيدة الإسلامية بل الديانات السماوية كلها، ولو وجدت من الأصل هناك لجاءها هاد، وإلا لما كان عليها حساب ولما حق عليها العذاب ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[(١)]، إذ ما من قوم إلا وجاءهم بشير ونذير. فآدم عليه السلام كان يعلم أبناءه وأحفاده التوحيد ويبلغهم دعوة الله، واستمرت هدايته، حتى كان (شيث) و(إدريس)، ثم كانت دعوة نوح عليه السلام، وهكذا فبداية الخلق لها دعاة وهداة، وفيها قول وتعبير وأسلوب، وللبشر لباس، وسترة، وأدوات تستعمل، واجتماعات يدعى لها الناس، وأحاديث تدور فيها، فمن الجماعات من هدى الله، وقبل دعوة الرسل، وسار حسب إرشاداتهم وتعليماتهم فكانوا أن استخلفوا في الأرض وعمروها حتى حين، وأخذوا من خيراتها، واستفادوا من كنوزها، حتى عتوا عن أمر ربهم، ومن الجماعات من ركب طريق الضلالة أصلاً، وسار على درب الغواية، فكتبت عليه الشقوة، وحبطت أعماله في الدنيا والآخرة، وما له من ناصرين، ووقعت في حمأة الجهل إذ ردَّت دعوة الله، فسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب، ويلاحقها ويقاتلها ويفتك بها، وهي تفر أمامه، ولكنها أينما انتقلت تراه وراءها يجتاز خلفها اليم، ويقطع الفيافي، ويرتقي المرتفعات، حتى دخلت في أماكن مجهولة، أو مناطق نائية لا تصلح لسكن البشر، فأقامت فيها، وتفرقت بطونها بين مجاهلها، وهناك ذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً، إذ أعد الله لهم عذاباً شديداً.

ولما كانت مناطقها التي وصلت إليها حديثاً لا توجد فيها حاجاتها الأساسية من طعام ولباسٍ ومأوى، اضطرت أن تتخذ مما تقدمه لها تلك البيئة من مواد، فمن أقام منها في المناطق الحارة لم يكن بحاجةٍ إلى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

اللباس فظل عارياً، وإنما ستر عورته بلحاء الشجر وأوراقه، ومن عاش منها في البلاد الباردة اتخذ من جلود الحيوانات التي وجدها هناك، واقتات بها لباساً وريشاً، وكما استفادت من موارد بيئتها في اللباس، استفادت منها كذلك في الطعام والسكن، فهذا الإنسان الذي عاش في المناطق الحارة قد عاش على جمع الثمار، والتقاط النباتات والجذور الدرنية، وسكن جذوع الأشجار، وعلى أغصانها، وبنى من أطرافها أكواخاً على فروعها، وذاك الذي عاش في المناطق الباردة قد أقام حياته على لحوم الحيوانات، واتخذ من عظامها أدوات له، وبنى من الثلج له كوخاً، يأوي إليه شتاءً، وفي الصيف من الجلود والإهاب أقام خياماً يسكن فيها، ويجمع صيده.

ولما كانت هذه الجماعات قد وجدت في أماكنها الجديدة التي حلت فيها أشجاراً غير التي اعتادت أن تراها في بيئتها القديمة، وعرفت نباتات لم تكن تعرفها من قبل، وتعرضت لحيوانات لم تكن تتعرض لها في السابق، لذا فقد أطلق كل بطن من القبيلة على هذه الأشياء أسماء خاصة يعرفها هو لا سواه، ويدعوها بها دون غيره، ومن هنا لم تعد تعرف بعض البطون لغة بعضها الآخر، بل عاش كل في متاهاته، وضلَّ كل في مجاهله.

ولما كان كل فرد يعيش لنفسه ضمن أسرة صغيرة قد لا تتعدى الزوج وبعض الأولاد، ولما كان كل يسير في بقاع مجهولة ليحصل على قوته وليؤمن غذاءه، يسير وحده في أغلب الأحيان، ويرى أنواعاً عديدة لم يرها من قبل، سواء أكانت من الحيوانات أم من النباتات، فكان يعطيها صفة خاصة، أو اسماً معيناً، لا يعرفه إلا هو بالذات، فكان يصفه لأسرته بالإشارات، أو يحدثهم عنه بالصفات، فكان أن ضاعت لغة التفاهم فيما بينهم، وسادت لغة الإشارات والأصوات، أو بعض الكلمات التي يعرفها بطن من قبيلة، وأقلها ما تعرفه القبيلة كلها.

وظلت حالة هذه الجماعات إلى هذا العصر تعيش منعزلة في بقاعها عن العالم، مبتعدة في مناطقها عن بقية الشعوب، متقوقعة على نفسها، فنشأت عندها مع الزمن عادات خاصة وتقاليد تنفرد بها عن غيرها، ينظر إليها بعض الناس الآخرين على أنها نوع من البساطة الموغلة في التأخر حتى لتقترب من صفات بعض الحيوانات التي تعيش مجاورة لها، أو كل

منها يقترب من الآخر في مسكنه، ويسابقه في مرتعه وتسلقه على الأشجار، ومن كان منهما أمهر افترس الآخر، ومن كان أكثر قدرة على الحركة أو أسرع في عدوه اتخذ من الآخر وجبة طعام شهية له، فملأ بها بطنه بحيث لا يستطيع بعدها المشي إلا ببطء؛ لأنه لا يعرف متى يحصل على وجبة ثانية، فقد تطول به الساعات حتى يظفر بصيد.

وإذا كانت تلك الجماعات التي يسمونها بدائية لأنها تعيش على درجة من البساطة في مأواها ولباسها، في عاداتها وطعامها، فإن هناك جماعات أخرى تعيش بين أهل الحضارة ولكنها موغلة في البدائية في تفكيرها أكثر من تلك بكثير، ولو أنها تلبس الرياش وما يكتسيه أهل المدن من حُلل، وتتغذى بأنواع الطعام وما اعتاد عليه أهل الحضارة من غذاء، وتسكن القصور وأحسن الأبنية التي أشرف عليها كبار المهندسين، فالبدائية في التفكير أشد مرارة من البدائية في اللباس أو السكن، إذ أن هناك أناساً يلبسون كما نلبس، ويأكلون كما نأكل، ويسكنون حيث نسكن، ولكنهم لم يخرجوا من دائرة رسمها حولهم طفل صغير بعصا يعبث بها ويلهو، ويبقون فيها ما شاء لهم تفكيرهم أن يبقوا حتى يفتحها لهم غيرهم بخطٍ أو بإشارة.. إن هؤلاء لأشد بدائية ولو كانوا في ثياب المدنية، ومن هذه الجماعات من احتفظ بأفكار البدائية عنده ممزوجة بالأساطير والخرافات، إذ لا يزالون يقدسون الحيوانات وبخاصةِ الأبقار، فيتبركون بروثها، ويدّهنون ببولها، إذا وقفت إحداها بالطريق تعطلت حركة المرور، ويزيد الأمر على ذلك فكل المخلوقات مقدسة في نظرهم، إذ في أرواحها كنه التقديس وجوهره، وإن الأعضاء التي تسبب الإنجاب والتواجد هي مصدر إيجاده، لذا أقيمت لها المعابد، وأوجد لها أماكن خاصة بها تمثل فيها هذه الأعضاء مجسمة، وليست هذه المجموعة كبقية الشعوب البدائية. قليلة العدد، صغيرة الحجم، معزولة في رقعة من الأرض، مجهولة بين أمم العالم، بل هي مئات الملايين، تحتل أراضي واسعة، وتسكن بقاعاً ذات أهمية، ولها مركزها بين دول الأرض. ومن هذه الجماعات من كان مسلماً، فعندما حدثت خلافات في المجتمع الإسلامي أيد طرفاً، وتطرف في حبه حتى عبَدَ إمامه، ثم اعتقد

أنه حلّ بالقمر أو حلّ بالشمس، وكانت عقيدته مجموعة أمور باطنية مستمدة من اليهودية، والفارسية المجوسية، والأساطير الإغريقية، والفلسفات النظرية، ثم انكفؤوا على أنفسهم وسط مجتمعهم يظهرون الإسلام ويبطنون غير ما يبدون، ويحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم من بعض الطيبات، ويحلون لأنفسهم ما حرم الله عليهم من النساء، إذ يعدون أن المرأة لا دين لها، بل هي سلعة تباع وتشترى، وتقدم وتهدى، ويتاجر بها، وهي الواسطة المبررة للوصول إلى الغاية، وهؤلاء ليسوا بالقلة أيضاً، إذ يزيدون على المليون، ويقبعون في مناطق جبلية. ومن هذه الجماعات من عبد إلهاً شخصاً، وأدخل في عقيدته النظريات الفلسفية، وانكفأ على نفسه يبرر الأعمال التي يقوم بها، وهذه الجماعة لا تقبل في عدادها جديداً، إذ أن الباب قد أغلق ـ حسب رأيهم ـ. كما أن هناك جماعات كبيرة تعتقد أنها شعب الله المختار، وليس عليها في الأميين من سبيل، ولا وزر عليهم بما يفعلونه مع الآخرين، وأن ديانتهم قد اقتصرت على أتباعها ولا مجال لغيرهم. ولكن هذه الجماعات من بدائيي الفكر لا يسميها الماديون بدائية، وذلك لأنهم يشتركون وإياهم في الجاهلية بالبعد عن العقيدة الصحيحة، ويجتمعون وإياهم على الضلالة والفساد وارتكاب المنكرات، الأمر الذي يدل على أن الماديين في جاهلية، إذ يلتقون وبدائيو الفكر على صعيد واحد، على حين يسمون بدائيي المسكن واللباس بدائيين، لأنهم لا يجتمعون وإياهم في المفاسد، لأن البدائيين منعزلين عنهم، بعيدين عن اللقاء بهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأوقعهم في حمأة الجهل. فضلّ هؤلاء بعقولهم، وتاه أولئك في مواطنهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأضلهم الله باتباعهم أهل البغي، فعبدوا الإنسان وألّهوه، أو قدّسوا الحيوان وأنزلوه منزلة الإله.

إذن يعيش اليوم في العالم أنموذجان من الجماعات البدائية، الأول منهما بدائي في طرق حياته يعيش في بيئات واسعة منعزلة، والثاني منهما بدائي في طرق تفكيره يحتك مع الماديين ويشاركهم في أعمالهم، ويدعمهم في السيطرة على بلاد كثيرة، ويستفيدون منه في تسلّطهم، ويكونون معاً أداة في تحكم الجاهلية.

خطوط عريضة

وجد آدم عليه السلام على أغلب الظن في جنوب غربي آسيا، وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال، وإن كانت هناك آراء تقول: إنه وجد في الهند، وأخرى تنادي بأنه كان في أول أمره في شمالي العراق.

وبدأ البشر يتكاثر في منطقة الخلق الأول، ويزداد عددهم بسرعة، ومن هذا المكان بدأ الانتقال إلى مختلف الجهات، فعمرت البقاع القريبة من الجزيرة إذا عددناها البقعة الأولى للمخلوق الأول، فتعددت بذلك الشعوب، واختلفت اللغات تبعاً للبيئات التي وجدوا فيها، وكانت من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل شعب رسولاً منهم يبلّغهم أوامر ربهم، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمور تفرضها العقيدة، وكان كل رسول يتحدث بلسان قومه حتى يمكن تبليغهم الدعوة، فآمنت جماعات وكفرت أخرى، وبذا تشكلت الأمم وافترقت.

ولما كانت المناطق المأهولة هي الجزيرة العربية وما حولها؛ لذا كانت الرسل في هذه البقاع، إذ بعثت لأقوام هذه الأراضي، ومن هنا نرى أن الرسل الذين نعرفهم لا يتعدون هذه الجهات، وخاصة هذه المناطق التي كانت أكثر سكاناً من غيرها مثل العراق وفلسطين ومصر، إضافة إلى جزيرة العرب، أما المناطق الأخرى فلم تكن آنذاك معمورة ليبعث الله فيها رسلاً، وإن وجد فيها قلة من البشر فإنما هم من الذين فرُّوا إلى تلك النواحي، وهم من أقوام الرسل الذين ذكرنا، ولذا فإن الدعوة تكون قد وصلت إليهم عن طريق رسلهم الذين بعثوا إليهم في مناطقهم الأولى التي كانوا فيها قبل أن يفرّوا، وبهذا ينطبق عليهم الحساب، ويحق عليهم العذاب ما دام الله قد

بعث إليهم رسلاً ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

هذا إضافة إلى الأنبياء الذين كانت مهمتهم هداية البشر دون أن يكلّفوا بحمل رسالة، وعدد هؤلاء كبير جداً، ولا نعرف إلاّ عدداً قليلاً منهم، وربما وجد عدد منهم في وقت واحدٍ، وفي منطقة واحدة، هؤلاء الأنبياء وأولئك الرسل باستثناء آخرهم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام كانت مهمتهم خاصة بأقوامهم لا تتعداها، أو بجماعات منها لا تزيد عليها، لذلك كانت رسالاتهم متعلقة بتلك الأقوام، وعندما تتنزل رسالة عامة فلا بدّ من أن تنسخ كل ما قبلها، وهذا ما كان من رسالة سيد البشر إذ نسخت كل ما قبلها.

لقد سادت الجاهلية كل المدة التي كانت قبل الإسلام إلاّ في أوقات قليلة وفي مناطق محدودة، إذ أنه لم يؤمن بدعوة الأنبياء إلا أفراد قلة من جماعتهم وأقوامهم، ونتج عن هذا أمور كثيرة منها: إن الله قد أهلك هذه الأقوام التي لم تؤمن بما جاء به الأنبياء والرسل، فمنهم من أُغرق، ومنهم من خُسف بهم الأرض، ومنهم من دمرت الريح ديارهم، ومنهم من أمطرتهم السماء بمطرٍ من سجيل، وجاءت بعد هؤلاء الطاغين أقوام أخرى، فبُعثت إليهم الرسل حتى إذا فعلوا ما فعل سابقوهم، كان مصيرهم شأن أولئك الذين سبقوهم، وهكذا.

ولما كان دور الرسل في الحكم ضعيفاً، لذا لم تكن لتتنزل عليهم آيات فيما يتعلق بالحكم والتشريع والقانون تخص سوى قومهم، وهكذا فقد خلت الرسالات السابقة لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين من أي أثر عامٍ للحكم. فرسالة سيدنا موسى عليه السلام كان فيها بعض التشريعات، إذ أن سيدَنا موسى قد كان بمنزلة الحاكم لبني إسرائيل، وحكمه نافذ فيهم، قائم عليهم، إلاّ أن تلك التشريعات كانت خاصة ببني إسرائيل؛ لأنه لم تتعد سيطرته هذا القوم من البشر.

استبد الملوك والمتنفذون والطغاة بشعوبهم، وسخّروهم لأعمالهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، فأقاموا لهم الأبنية بالإكراه، وأنشؤوا لهم المشروعات، وبقيت هذه المنشآت آثاراً عدّها المعاصرون حضارات على

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

الرغم من أنها لم تكن لتحمل أي معنى إنساني، بل كان ظلم الحكام واستبداد الطغاة هو الذي يحمل الناس على العمل في هذه الأبنية، وذهبت آلاف البشر ضحية في كل مركز بناء خدمة لمستبد، أو طاعة لطاغية.

ووضع الملوك والحكام قوانين خاصة من أجل تسيير شؤون شعوبهم، وما كانت هذه القوانين لتخدم سوى مصالح المسؤولين، ولذا فهي بتغيُّرٍ دائم، تتبدل مع تبدل الحكام، وهكذا شأن القوانين الوضعية باستمرار ليس لها صفة الدوام، ولا تخدم سوى الذين وضعت في أيامهم كمسؤولين، ولذا لا نستطيع أن نعدها أبداً جوانب حضارية مهما سما الفكر فيها، حيث لا تخدم الرعايا، ولا مصالحهم؛ لأنها لم توضع أصلاً لهم، وإنما وضعت للحكام.

واستخفَّ أصحاب السلطة بأقوامهم فخضعت لهم، وعبدتهم من دون الله، وغالباً ما كان هؤلاء المتنفذون يستفيدون من أصحاب النفوذ وأصحاب المال الذين يمارسون الضغط السياسي والاقتصادي على المحكومين، ويظهرون الخضوع أمامهم للحاكم، فما يكون من المستضعفين إلاَّ أن يقلدوهم، ويصدقون ما يقوله الكبار عندما يرون أصحاب النفوذ المالي وذوي السلطة يقومون بأعمال العبادة، وإذا ما جاءهم رسول من عند الله، اشتركوا جميعاً في تكذيبه واستنكار ما جاء به ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

أما الشعوب فقد كانت في حالة من التعب الشديد، إذ أنهم إضافة إلى عبادتهم للحكام كانوا يعبدون قوى الطبيعة، وفي كل مكان قوى خاصة. فالشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار الكثيفة، والمناطق الرهيبة، والرعد، والبرق، والسحاب كل هذه قوى تُعبد، وتُقام لها المعابد، وكل منطقةٍ تختلف آلهتها بعضها عن بعض. وكذلك وُجدت الأصنام، وأغلب الظن أن هذه الأصنام كانت أسماء رجال صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٥.

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أيضاً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولكنها لم تعبد حتى ضاعت معرفة الأشخاص عن هذه الأنصاب، وهؤلاء الرجال الصالحون كانوا قد عاشوا قبل سيدنا نوح، عليه السلام، حيث عاش في تلك المدة رجال صالحون بالدرجة الأولى. وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم. وأصبح لكل صنم من هذه الأنصاب عبيد مخصصون له من الناس، ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً. وهذا ما ينتشر في كثير من الأزمان، إذ أن عدداً من أتباع عالم من العلماء يتصورون أنه لا يمكنهم الخشوع في عبادتهم إلاّ إذا تصوروا سيدهم أمامهم، ولربما إذا مات تصوروا ذلك، أو صوَّروا ذلك العالم، ووضعوه أمامهم، وهذه بداية عبادة الأوثان والأصنام.

وكانت الشعوب على درجة من الضعف والإهانة، فالقوي يستخدم الضعيف، والحكام يسخّرون رعاياهم جميعاً، سواءً أكان ذلك في الأعمال العامة أم في الأعمال الخاصة دون أن يستطيع إنسان أن يرفض، أو يفرّ من العمل، وإذا فكر بشيء من هذا فالموت ينتظره دون أية مسؤولية أو محاسبة من أي شخص مهما ارتفع شأنه، أو سما به الوضع، لذا فالشعوب مستضعفة مهانة لا ترتفع قيمتها في كثير من الأحيان عن مستوى الحيوانات، وإذا ما أنكر شخص تصرف مسؤول استغرب الناس هذا الإنكار، وعدوه مجنوناً أو في عقله شيء من ذلك، إذ أن الموت يقف وراء هذا الإنكار، وكذلك فالحاكم يستغرب هذا الإنكار، لأنه ما تجرأ أن يفعل أحد من قبل مثل هذا الفعل.

وعاشت الشعوب على درجة من الفقر إذ لا يستطيع رجل أن يؤمن حاجاته الأساسية، ويعدّ الحاكم أن ما يناله الفرد من رعاياه إنما هو رزق

منه يتعطف به على أفراد مجتمعه، ونتيجة الخوف من المسؤول يؤمن المجتمع بهذا إيماناً مطلقاً بالإكراه، وإن لم يكن بالقناعة، ووراثة هذه المفاهيم.

وعاشت الشعوب على درجةٍ من الجهل، ويحرص أصحاب السلطة على ترك رعاياهم بحالة من الجهل، حتى يتقبلوا كل ما يملونه عليهم من آراء وتعاليم، وما يفرضونه عليهم من عقائد ونظم وطقوس، إذ عندما يفكر المرء فإنه يرفض الخرافات، ويرفض الظلم، ويرفض الإكراه على تعاليم معينة أو أنظمة وطقوس معينة، وهذا ما يخشاه الحكام على مدى التاريخ.

لهذا كله أطلقنا على تلك الأزمنة جاهلية. إذ أن عبادة الأشخاص من الأفراد هي السائدة، والقوانين الوضعية هي التشريعات المعمول بها، وهي التي تتبدل في عهد كل حاكم بناءً على مصلحته ونظرته إلى المجتمع، ونظام السخرة هو المعترف عليه، والظلم والفوضى والبؤس هي الأمور القائمة، والإنسانية لا يوجد لها أي معنى في ذلك الزمن، وفي كل الأزمنة التي تحكم فيها الجاهلية.

ولقد تكاثر السكان في جزيرة العرب وبدؤوا ينتقلون منها إلى مختلف الجهات، وكانت حركة السير بشكل عام تأخذ أحد الاتجاهات التالية:

١ ـ **الشمال الشرقي**: باتجاه بلاد الرافدين، ومن هناك حدثت تنقلات أخرى باتجاه آسيا وأمريكا، أو تجمعات على الطريق قبل الوصول إلى بلاد الرافدين.

٢ ـ **الشمال**: باتجاه الشام، وربما توقفت جماعات عن خط السير إذا ما وجدت ما يناسبها من خصوبة الأرض أو المواقع الحصينة، ومن بلاد الشام حدثت موجات ثانية إلى جهات أخرى من مناطق البحر الأبيض المتوسط.

٣ ـ **الجنوب**: باتجاه بلاد اليمن، وكانت الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب على اتصال بإفريقية مكان مضيق باب المندب، ومن هناك تنتقل الجماعات إلى إفريقية، أو تبحر عن طريق اليَمّ إلى جهة الهند. وقد تكون منطقة من هذه المناطق الثلاث مكان دفع آخر، وربما يعود منها إلى مقرها الأول كما حدث في جنوب العراق بعد طوفان نوح إذ توزّع أبناؤه.

في بلاد الرافدين

لما تكاثر السكان في جزيرة العرب خرجت جماعة منهم واتجهت نحو الشمال الشرقي، وانتهى بها المطاف في جنوب بلاد الرافدين، فاستقرت هناك حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة، فأقامت العمران، وعملت بالزراعة، ولم تلبث أن اتخذت لها أصناماً، وعبدتها من دون الله، كآلهةٍ ترجو خيرها، وتتقي شرها، فبعث الله لها نوحاً عليه السلام، ودعاها إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا تَعبد تمثالاً ولا صنماً ولا طاغوتاً، وأن تعترف بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، فلم يقدر لتلك الدعوة أن تنجح، ولم يؤمن معه إلا قليل من قومه، على الرغم من طول الزمن إذ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان كلما انقرض جيل في حياة سيدنا نوح أوصى الجيل الذي يخلفه بألا يؤمن لنبيه، حتى إذا طالت المدة وكثر الجدال بين الطرفين ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ولما يئس سيدنا نوح عليه السلام من إيمان قومه دعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2]، فأوحى الله إليه بعد ذلك أن يصنع الفلك، لينجّي به المؤمنين، ويُغرق الباقين الذين لم يؤمنوا ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟

---

(١) سورة هود: الآيتان ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

مِنَّهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٌ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]، حتى إذا انتهى العمل، وركب بها من قد آمن مع نوح، ساق الله السحاب فهطلت أمطار غزيرة، وانبجست ينابيع كثيرة، وطغى البحر في منطقة الخليج العربي، وارتفعت مياه البحر المتوسط حتى اتصلت المياه بعضها مع بعض، وامتلأت المنطقة بالمياه وفاضت، وتحركت السفينة باتجاه الشمال، حتى رست على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم، أو ما يسمى الآن جبال (أرارات) حيث كانت تلك المرتفعات تعتو على الماء، ثم انحسر البحر، وهدأت الأمطار، وغاضت المياه، وجفت العيون، وخرج ركاب السفينة منها، واستقروا هناك، وبذا انتقل مقر السكان من جنوبي بلاد الرافدين إلى المنطقة الجبلية في الشمال، وبدأت زيادة السكان مرة ثانية في تلك الجهات، وتكاثر أبناء سيدنا نوح عليه السلام الذين ركبوا معه في السفينة، فخرج سام وأبناؤه نحو الجنوب الغربي باتجاه جزيرة العرب، وتفرقوا هناك، وانطلق حام وأولاده نحو الجنوب، فقامت فئة منهم في جنوبي العراق تارة أخرى، وكانت الأرض قد جفت، وبدت خصوبة أرضها، وتابع الآخرون، فتوزعوا: فسار بعضهم نحو الجنوب الشرقي نحو الهند، واتجه الآخر نحو الجنوب الغربي حيث انتقلوا عبر مضيق باب المندب إلى إفريقية أو أن تلك القارة كانت على صلةٍ بالجزيرة، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال وبقية المناطق فعمروها، وأما ولد نوح الثالث وهو يافث فقد تحرك وذريته نحو الشرق. ومنهم من سار نحو الغرب.

استوطنت الجماعة القادمة من الشمال مع إخوتها في أرض السواد الذي كان يعرف باسم سهل (شنعار)، وسميت هذه الجماعة بالسومريين، ولما كانت الأرض هناك ذات خصوبة ومياه وفيرة فقد اشتغلوا بالزراعة ونبغوا فيها، وبنوا السدود، وشقوا الأقنية، وكتبوا بالأحرف المسمارية. وفي الوقت نفسه رجعت مجموعة من جزيرة العرب، وأقامت بجانب السومريين، وعرفت باسم الأكاديين نسبةً إلى المدينة التي أقاموها، وكانت حاضرتهم،

---

(١) سورة هود: الآيات ٣٦ ـ ٣٩.

وقد تعلم هؤلاء الزراعة من جيرانهم السومريين. ولما كثر سكان المنطقة بدأ يرتحل عنها أقوام، فسكن بعضهم في المرتفعات الشرقية من هذه البقعة، وبنوا مدينة (سوزا) واتخذوها قاعدة لهم، وأطلق عليهم اسم العيلاميين.

كان السومريون القوة الرئيسية في المنطقة قبل أن يتغلب عليهم الأكاديون، وكانت من مدنهم الشهيرة بلدة (أور) التي تقع جنوب نهر الفرات، وكانت مياه البحر تصل إلى القرب منها، وهي غرب (هور الحمّار) اليوم.

عبدت هذه الأقوام التماثيل، وتمادت في غيّها، فبعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام، وقد نشأ في مدينة (أور) السابقة الذكر، وكان أهلها يعبدون الكواكب كما يعبدون التماثيل، فناقشهم في هذه العبادات، وجادلهم، كما ناقش ملكهم، وتغلب عليهم جميعاً، ولكن النقاش والجدال لا يجديان مع الكفار، إذ يرون الحقيقة مرّة، والهزيمة في المناقشة أمر صعب، لذا فهم يصرون على كفرهم وعنادهم، ويحاولون أن يسخروا ممن هزمهم، ويدّعون أن كلامه بسيط، وفيه سخف وخرافة، وهذا ما يستوجب أن يكون مجنوناً فلا يؤبه لكلامه، وقد بدأ دعوته لقومه بمختلف الأساليب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]. كما جادلهم في عبادة الكواكب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2]، ولقد ناقش سيدنا إبراهيم الملك (النمرود) الذي كان يتغطرس على قومه ويستعبدهم، ويدّعي أمامهم الألوهية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[3]. وبعد هذه المناقشات والجدال والدعوة لم يؤمن من هذه الأقوام سوى لوط ابن أخي إبراهيم، وزوجه سارة ابنة عمه، عندها التفت مرة أخرى إلى أبيه يؤكد على دعوته له، ويتلطف به، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٧٠. (٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٧٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[١]. ولما هجر قومه في الله، هاجر من بين أظهرهم ومعه أخوه هاران وزوجه (ملكا)، ولم يكونا مؤمنين، وابن أخيه لوط، وقد آمن وأسلم، وزوجه سارة ابنة عمه، كما سافر معه أبوه آزر حناناً عليه وتعطفاً، وكانت جهة السفر لبلاد الشام، وكان الطريق على مجرى نهر الفرات، حتى وصلوا إلى بلدة (حرّان) التي تقع في تركيا اليوم شمال سورية على مجرى نهر (البليخ)، وقد نسبت إلى أخيه (هاران)، وهناك مات أبوه آزر (تارخ)، فوجد هناك قوماً يعبدون الكواكب فناقشهم في عبادتهم لها، فلم ينفعهم ذلك، بل أصروا واستكبروا، واستمروا في عتوهم. لذلك غادرهم. ويبدو أنهم جماعة من أحفاد وذرية (يافث بن نوح) استقروا في تلك الناحية. واتجه نحو بيت المقدس، وكان طريقه على بحيرة قطينة، ودمشق، وقد مرَّ على بلدة (برزة) وصلَّى هناك، ولا يزال هناك مقام له مكان مصلاه، ومنهم من يزعم أنه ولد هناك. وكانت بلاد الشام قد انتشرت فيها بعض الأقوام، منها القادمة من الجزيرة العربية، ومنها الجماعات التي جاءت منفردة من العراق، وكانت قليلة فلم تعرف، حتى إذا كثرت وزاد عددها اشتهر أمرها، ومنها من قدم من الشمال من أحفاد وذرية (يافث)، وكان أكثر هذه الجماعات يعبد الكواكب، وكانوا يتجهون في عبادتهم إلى القطب الشمالي على جهة نجم القطب، وكان على أبواب دمشق القديمة هيكل لكل كوكب، على كل باب من أبوابها. وكانت نهاية مطاف رحلته إلى شرق بيت المقدس، ثم تابع إلى البلدة التي عرفت باسم (الخليل) فأقام هناك، وجاءت سنوات عجاف فارتحل إلى مصر، وأقام ابن أخيه لوط في جنوبي البحر الميت الذي يسمى بحيرة لوط، ونترك الحديث مع سيدنا إبراهيم إلى موضوع بلاد الشام.

أما الأقوام التي كانت تقيم في جنوبي بلاد الرافدين والتي بُعث إليها سيدنا إبراهيم فقد تمادت في غيِّها، وعتت عن أمر ربها، وظلمت نفسها،

---

(١) سورة مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٨.

فسلط الله عليها جماعات ظالمة مثلها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾[1]، فأتت مجموعات من الجنوب الغربي فرَّت من ظلم لحقها من ظالمين آخرين اشتركوا جميعاً في عتوهم عن طاعة الله وتكذيبهم أنبياءهم، أو كثر عددهم فضاقت عليهم الأرض بمرعاها، فخرجوا يبتغون أرضاً أخرى، أو أجدبت عليهم بعد إخصاب فانطلقوا يفتشون عن دار يحلّون فيها، يجدون فيها الخصب، يحصلون على الكلأ، فوصلوا إلى ديار قوم إبراهيم الخليل الأوائل (السومريون)، فقاتلوهم، وانتصروا عليهم وأقاموا مكانهم، وكانت عاصمتهم مدينة (بابل) لذا عرفت الدولة التي أسسوها باسم الدولة (البابلية) نسبة إلى حاضرتهم. وقد اشتهرت هذه الدولة بالاهتمام بالزراعة، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي وضع قوانينه التي عرفت باسم (شريعة حمورابي) وكانت الغاية منها فرض هيمنته على الدولة، وازدهارها، إلا أن هذه السلطة لا يمكن أن تدوم، وهذه القوانين لا يعمل بها إلا في العهد الذي وضعت فيه ولخدمته، فلم يلبث خلفاء حمورابي أن أصدروا تشريعات جديدة، ولما كانوا قد استمروا في عبادة التماثيل التي ورثوها من الأماكن التي انطلقوا منها، ومن الأرض التي أقاموا فيها، والتي أخذوها من السابقين لهم - أقوام سيدنا إبراهيم - ولم ينتبهوا إلى ما أصابهم من قبل، ولا إلى ما أصاب سابقيهم ولم يعودوا إلى أنفسهم، ويقبلوا دعوة الله من أنبيائهم الذين بعثهم الله إليهم، لذا فقد سلّط الله عليهم أقواماً آخرين، جاء أكثرهم من الشمال، بعضهم من الذين انتقلوا إلى تلك الجهات، وبعضهم من أحفاد يافث بن نوح، وقد عرفوا بأسماء مختلفة حسب الأماكن التي تكاثروا فيها، أو الأصول التي انتموا إليها، أو الأسر التي انتسبوا إليها، ومنهم الحثيون، والميتانيون، والآشوريون. وآل الأمر إلى الآشوريين الذين كانوا في شمالي العراق، وقد اتخذوا من مدينة (نينوى) عاصمة لهم، وهي تقع بالقرب من مدينة الموصل اليوم. وقد ضمت (نينوى) مكتبة عامرة، واستطاع الآشوريون أن يبسطوا

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

نفوذهم على جنوبي العراق وبلاد الشام، وأن يهاجموا المصريين، واشتهر من ملوكهم (سلمنصر الثالث) و (آشور بانيبال). وقد تابع هؤلاء الآشوريون عبادتهم للتماثيل والكواكب، وهو ما أخذوه من سابقيهم، واستمروا عليه، فلم يفكروا، ولم يعملوا عقولهم، ولم يتعظوا بما حلَّ بسابقيهم، ولم يقبلوا من أنبيائهم، وفي النهاية بعث الله إليهم يونس بن متى رسولاً، فدعاهم فلم يؤمنوا، فضاق بهم ذرعاً، فخرج مغاضباً، فركب سفينة في نهر دجلة، وكان يومذاك أكثر اتساعاً، وأوفر غزارة، وأكبر عمقاً، فاضطربت السفينة وماجت بهم، وقد ثقلت بما فيها، ورأوا أنهم غارقون لا محالة إذا استمر الحمل الذي عليها، لذا قرروا أن يقترعوا على من يلقوه في البحر تخفيفاً عنها وخوفاً على أنفسهم فإن ذلك خير من أن يموتوا جميعاً، فاقترعوا فكانت القرعة على نبي الله يونس، فأعادوا الاقتراع مرات ثلاث، وكانت القرعة نصيب يونس عليه السلام في كل مرة، فلما ألقي التقمه الحوت، ويبدو أن بطن الحوت كان مثقوباً، ثم لم يلبث أن خرج الحوت من النهر، ولفظ يونس إذ تضايق منه، ولم يستطع هضمه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾(٢). ورجع يونس عليه السلام إلى قومه فأعاد عليهم النصح والإرشاد والدعوة إلى الله، وكانوا قد ندموا على رفضهم دعوته، وأبدوا أسفهم وبخاصةً أنه وعدهم بحلول العذاب عليهم ونزوله بهم لتعنتهم وظلمهم، فأظهروا الإيمان ونتيجة هذا الندم فقد كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا إلى حين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1]، إلا أن هذه الندامة لم يرافقها العمل الصالح والتقيد بما يأمرهم به رسولهم؛ لذا كان تأجيل العذاب عنهم في الحياة الدنيا مدة ندامتهم، أما في الآخرة فلهم العذاب الذي يستحقونه بما كسبت أيديهم، ولما مرّ الزمن عليهم نسوا ما ندموا عليه، فلما عادوا إلى الظلم والطغيان واقتراف الجرائم وعبادة الأصنام، أرسل الله إليهم جماعات منهم كانوا يحكمونهم، ويخضعون لهم، ويدينون لهم بالولاء، فنهضوا في وجههم، وقاتلوهم، وفي النهاية سقطت نينوى بيد المحاربين الجدد عام ١٢٣٤ قبل الهجرة، وأصبح حكام المنطقة يعرفون باسم الكلدانيين، واتخذوا من بابل أيضاً عاصمة لهم، لذا عرفت دولتهم باسم (الدولة البابلية الثانية)، وكان من أعظم ملوكها بختنصر الذي استولى على بلاد الشام، وفتح القدس، واستباحها لجنده، ثم أخذ اليهود أسرى إلى عاصمته، وقد عرف هذا الحادث باسم (الأسر البابلي)، وقد بقي اليهود في بابل مدة سبعين عاماً، كما هاجم مصر عام ١٢٢٧ قبل الهجرة، وبنى بختنصر برج بابل المشهور، واستمرت هذه الدولة حتى غزاها الفرس عام ١١٦١ قبل الهجرة، وقضوا عليها.

بعد أن تكاثر السكان في بلاد الرافدين، بدأ عدد منهم يتحرك نحو الشرق، ويستقر في مناطق خاصة به، إضافة إلى أن الحروب المتكررة، والثورات الدائمة جعلت عدداً من السكان يغادرون ديارهم، ويفتشون عن بقاع ثانية بعيدة عن مناطق الحروب والغزوات علّهم يجدون فيها الراحة والهدوء، الأمر الذي جعل بلاد فارس تعمر بالبشر، وعندما كثر عددهم، تجمّعوا في دولة، وغزوا الكلدانيين، واحتلوا بلادهم عام ١١٦١ قبل الهجرة، كما هاجموا مصر، وسيطروا عليها، وبقوا فيها حتى جاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها.

ومن بلاد فارس انتقلت جماعات أيضاً نحو الشرق، فراراً بأنفسهم، واستقروا في أواسط آسيا وصحاريها. ومع الزمن نشأ هناك العنصر المغولي الذي أثرت على جسمه تلك الصحاري الباردة، فأخذ سمته الخاصة بها،

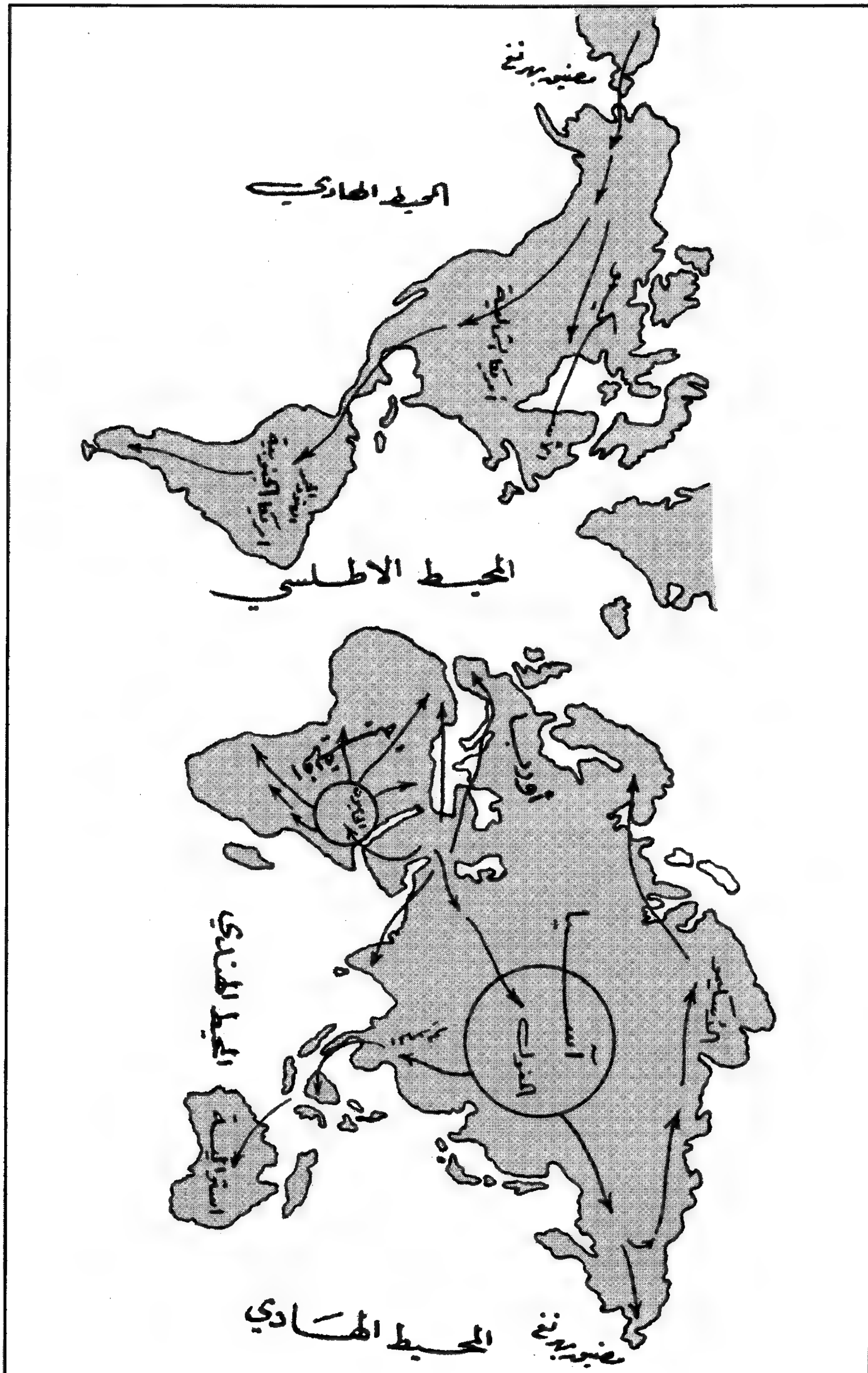
---

(١) سورة يونس: الآية ٩٨.

وقد عاشوا هناك آمنين مطمئنين، وأمدهم الله بأموال وبنين، فتكاثروا بسرعة، وتدفقت عليهم الخيرات، فأعجبهم عددهم، وأبطرتهم النعمة، فكان غناهم ضرراً عليهم، إذ ظنوا أن لهم القوة ولهم العزة والمنعة، وأنه لا غالب لهم فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون، إذ أرسل إليهم جماعات أولي بأس شديد وقوة، فجاؤوهم من جهة الغرب، فجاسوا خلال الديار، وقاتلوا أهلها، ففروا تاركين منازلهم، لا يلوون على شيء من شدة الصدمة وهول الضربة، منهم من اتجه إلى الجنوب، ووصل إلى شبه جزيرة الملايو، ومنهم من سار نحو الشمال، وتفرّق في الصحارى الباردة في شمالي آسيا، وقد توقفت عندها أقدام خصومه لمتاهات الصحراء واتساعها وشدة بردها، ومن هذه القبائل التي لا تزال هناك قائمة إلى اليوم، ومنهم من بقي في مكانه، وهم الضعفاء الذين لا يستطيعون الفرار والانتقال.

ولكن لم تكن هذه النازلة لتعيد إلى تلك الشعوب العصاة صوابها، وترجعها إلى عقلها، بل تمادت في غيّها، وزادت كفراً وعتواً، كما بغى الذين حلّوا محلّهم، فضرب الله بعضهم ببعض، وسلّط جماعات منهم على الآخرين، فأعيدت عليهم الكرة، وحدثت الهجرات مرة أخرى تحت ضغوط أخرى، فتفرق الملاويون في الجزر، ووصلوا إلى استراليا وتاسمانيا، وجزر المحيط الهادي، وانتقل آخرون عن طريق مضيق (بهرنغ). وسواء أكان موجوداً أم كان البر متصلاً، فدخلوا أميركا، وتوزعوا فيها، فمنهم من تابع سيره نحو الجنوب حتى أضناه التعب، وأنهكه الانتقال، فاستقر في أقصى جنوبي أمريكا، أو أنه وصل إلى نهاية المطاف، ومنهم من أقام في الغابات الاستوائية، واتخذ منها ملجأ، ومن مجاهلها ملاذاً له، ومنهم من عاش في البراري في المناطق المعتدلة في أمريكا الشمالية، وبقيت جماعات منهم في المناطق الباردة في أقصى شمال أمريكا.

إن هذه الشعوب جميعها من ملاوية وآسيوية، ومن يسكن منها في أمريكا لتعود إلى أصل واحد، وتمت إلى عرق واحد ألا وهو العرق الأصفر الذي يعرف بالجنس المغولي، والذي أخذ صفاته الأصلية من وسط آسيا في صحراء منغولية، هذا الأصل الواحد والصفات المشتركة بين هذه الشعوب هي التي تحدد هذه الهجرات، وترسم طريق سيرها وخط انتقالها.


المحيط الاطلسي
المحيط الهادي

في بلاد الشّام

كان البشر قد وصل إلى بلاد الشام وتوزّع فيها على شكل تجمعات قليلة أكبرها ما كان في المناطق الخصبة التي تشبه بلاد الرافدين مثل غوطة دمشق، والغوطات الصغيرة الأخرى، ومناطق الساحل، وعلى ضفاف الأنهار، وأقيمت قرى صغيرة هنا وهناك، لذا لم تقم حكومات يمتد نفوذها على مناطق واسعة، وإنما حكومات تشمل هذه القرى أو المدن الصغيرة، وهذا ناشئ أيضاً عن الوحدات التضارسية المتباينة على عكس ما هي الحال في بلاد الرافدين.

ولما وصل الخليل إبراهيم إلى البلاد الشامية، وأقام في منطقة الخليل بعد رحلته من بلاد بابل، أصاب المنطقة سنوات قحط وجوع، فهاجر إلى مصر، ومعه امرأته سارة، فلما رآها ملك تلك الديار، وكان جباراً من الجبابرة أرادها لنفسه، وأمر أن تحضر إليه، ولم تستطع هي ولا زوجها إبراهيم إلا تنفيذ أوامر حاكم البلاد، لذا طلب منها زوجها أن تقول عنه: إنه أخي ويقصد أخوها في الله، وذلك خوفاً من أن يقتله الحاكم ليصطفيها لنفسه، وعندما دخلت على الملك وسألها عن الذي معها. قالت: إنه أخي، وامتنعت عنه بإرادة الله ومشيئته، وعندما علم الملك حقيقة أمرها تركها، وقدَّم لها أمة تدعى هاجر لتخدمها، ولكنه أمرها ورجلها بالخروج من البلاد.

عاد إبراهيم عليه السلام إلى منطقته الأولى (الخليل) ومعه امرأته (سارة)، وأمتها (هاجر)، واستقروا هناك، وكان ابن أخيه لوط عليه السلام في منطقة الغور في مدينة (سدوم) جنوب البحر الميت، إلا أن جماعة من

الجبارين قد هاجموا سيدنا لوط وأسروه، وأخذوا أنعامه وأمواله، وساروا به نحو دمشق، فطاردهم الخليل وعسكر شمال دمشق في (برزة)، ثم عاد منتصراً، ومعه ابن أخيه عليهما السلام، وأقام كل في مستقره الأول.

عاش الخليل إبراهيم مع امرأته سارة عشرين عاماً، وهي عقيم لا تنجب ولداً، فقالت لزوجها: أرى أن تتزوج (هاجر) عسى الله أن يرزقنا منها غلاماً، ففعل، وحملت هاجر، ووضعت ولدها إسماعيل، إلا أن سارة لم تلبث أن دبت الغيرة فيها، ولم تعد تستطيع رؤية هاجر ولا ابنها إسماعيل، كما أن أم إسماعيل قد تعاظمت على سيدتها الأولى، لذا فقد طلبت سارة من زوجها أن يغيِّب عنها هاجر وابنها إسماعيل، وما كان عليه إلا أن يمتثل لأمر الله، فسار بهما نحو الجنوب حتى وصل إلى موضع مكة المكرمة، فتركهما هناك وعاد، وكان إسماعيل رضيعاً. فسألت (هاجر) إبراهيم قبل أن يغادرهما: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيِّعنا. وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[1].

أكلت هاجر ما تركه إبراهيم لها من طعام، وشربت ما أبقاه لها من ماء، ولما نفد أصابها وابنها الظمأ، وبدأت تسعى بين الصفا والمروة تفتش عن الماء، حتى دُلَّت على مكان بئر زمزم، فانبجس منه الماء، وبدأت تشرب ورضيعها منه، ثم سمحت لقبيلة جرهم أن تقيم معها، لتجد فيها الأنس والطمأنينة، ونشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية لغتهم.

عاد الخليل إبراهيم من رحلته إلى الحجاز وقد ترك زوجه (هاجر) وابنه إسماعيل، وأقام ثانية في منطقة الخليل مع امرأته سارة، وكان ابن أخيه لوط، عليه السلام، لا يزال في منطقة الغور في مدينة (سدوم)، وقد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

بُعث إلى قوم كانوا يأتون الفواحش، ويعدون آنذاك من أفجر الناس، وأكفرهم، وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكور من دون النساء، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن ترك الفواحش والمحرمات وما يتعاطونه من منكرات، فتمادوا في ضلالهم، واستمروا في طغيانهم وفجورهم، فأحل الله بهم العذاب الذي جاءهم من حيث لم يحتسبوا، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1]، ولا تزال بلدة (سدوم) تحت مياه البحر الميت وعلى عمق ما يقرب من عشرة أمتار.

وبُشِّر الخليل إبراهيم بولد من زوجه سارة، وذلك بعد مولد سيدنا إسماعيل بحوالي ثلاث عشرة سنة، وكانت البشرى عن طريق الملائكة وهم في طريقهم إلى قوم لوط ليهلكوهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٨٠ ـ ٨٤.

إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾(١).

نشأ إسحاق، عليه السلام، في منطقة الخليل وتزوج، وجاءه غلام سمي يعقوب، عليه السلام، وهو إسرائيل، وبعث إسحاق ليتابع دعوة أبيه إبراهيم الخليل. واضطر ابنه يعقوب أن يرحل إلى أرض حرَّان في شمال بلاد الشام، وأن يقيم فيها مدة من الزمن، وأن يتزوج من هناك من ابنة خاله، ثم يعود مع أهله، وكان قد ولد له عشرة من الأولاد الذكور من عدة نساء أثناء إقامته بحران. كما ولد له اثنان آخران في الأرض المقدسة، أحدهما هو بنيامين شقيق سيدنا يوسف، عليه السلام، وقد توفيت أمه (راحيل) أثناء الوضع، ودفنت في بيت لحم.

وبعث سيدنا يعقوب ليتابع دعوة أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل، في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان يحب أبناءه الصغار يوسف وبنيامين أكثر من غيرهما عطفاً عليهما لوفاة أمهما (راحيل)، وذكرى لها، وحدثت له قصة ابنه يوسف، عليه السلام، المشهورة، وملخصها: أن إخوته قد شعروا بالغيرة والمضايقة من حب أبيهم لأخيهم يوسف أكثر من حبه لهم، لذا أجمعوا أن يتخلصوا من يوسف، وقرروا أن يلقوه في

---

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ ـ ٨٣.

الجب، وكان أبوهم لا يرغب في ذهاب يوسف مع إخوته خوفاً عليه وحباً له، ولكن الأولاد أقنعوا والدهم بحبهم لأخيهم، وطلبوا من أبيهم السماح له بالذهاب معهم حتى ينال حظه في اللعب والتسلية معهم، فوافق، وذهبوا بأخيهم صباح يوم، وعندما رجعوا مساءً عادوا دونه وهم يبكون، وقد ألقوا أخاهم في الجب، وادعوا أمام أبيهم أن الذئب قد أكله.

وجاءت قافلة تتجه من بلاد الشام إلى بلاد مصر، ومرّ ساقيها على الجب ليحمل الماء إليها، فوجد يوسف فأخذه، وعُدّ عبداً بيع في مصر لمصلحة رجال القافلة جميعاً، واشتراه عزيز مصر، ولم يكن له من ولد، وطلب من امرأته أن تعتني به عسى أن ينتفعوا به أو يتخذوه ابناً لهما، وشب يوسف، وكان جميلاً، فراودته امرأة العزيز عن نفسه فأبى، وادعت عندما رآهما زوجها، أنه هو قد حاول الاعتداء عليها، ومع قناعتهم جميعاً بصدقه وزعمها الباطل فقد أدخلوه السجن، وبقي فيه بضع سنين، ثم خرج عندما علم الجميع ببراءته وقدرته على إدارة الأعمال والتخطيط للمستقبل، وأصبح مديراً للإدارة المالية ومخططاً لأعمال التصدير، فكان يوزع القمح على من يأتي من البلاد المجاورة إذ كانت فيها سنوات عجاف، على حين كانت مصر تعيش برخاء وخير كبيرين.

وجاءت القوافل من بلاد الشام تبتاع الحبوب، وتقايض على بعض المنتجات، وكان من جملة من جاء مع القوافل إخوة يوسف، وقد عرفهم لأنه لم يتغير كثير من أجسامهم إذ كانوا كباراً أو على الأقل بعضهم عندما فارقهم، وبمعرفة بعضهم عرف الآخرين، أما هو فقد كان صغيراً عندما انقطع عنهم، وألقي في الجب وانتقل إلى مصر، فتغير جسمه كثيراً لذا لم يعرفوه. وبعد أن أعطاهم حاجتهم من الحنطة، وهي حمل بعير لكل فرد منهم، طلب منهم أن يأتوا في المرة القادمة مع أخ لهم من أبيهم حتى يعطوا حمل بعير إضافي، وإن لم يفعلوا فإنهم لن يحصلوا على أية كمية مهما صغرت، أو أنه لن يكيل لهم أبداً. ورجع الركب إلى أبيهم، وقصّوا عليه ما حدث، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم أخاهم

(بنيامين)، وأقنعوه بذلك بعد محاولته الرفض والامتناع، إذ ذكَّرهم بما فعلوه بشقيقه يوسف، وبعد أن وافق على رحلة ابنه مع بقية إخوته، زوَّدهم ببعض النصائح، وودَّعهم، وانطلقوا في القافلة.

ووصل إخوة يوسف إليه فأعطاهم مطلبهم، وعندما انطلقوا وقطعوا مسافة قصيرة طُلب منهم الوقوف إذ أن صواع الملك مفقود، ففتش عليه في أحمالهم فوجده في رحل بنيامين، فأعيد صاحب الرحل إليه، وكان يوسف قد عرَّف بنيامين على نفسه، ورغب في إبقائه إلى جانبه، ولذا وضع صواع الملك في رحله حتى يحصل على ما تمَّ. وشعر أبناء يعقوب أنهم قد نكلوا بما وعدوا به أباهم، وحاول كبيرهم ألا يعود حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ورجع بقية الإخوة إلى أبيهم، وحدّثوا أباهم يعقوب بما حدث معهم، فتأثر تأثراً عظيماً، وفقد بصره من شدة الحزن، وطلب منهم أن يعودوا مرة أخرى يفتشون عن يوسف وأخيه.

وذهب أبناء يعقوب إلى مصر، وتعرَّفوا على يوسف، وعفا عنهم وعما فعلوه، وشعروا هم أن الله قد فضَّله عليهم، وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ويأتوا بأهلهم جميعاً، ففعلوا. وهكذا انتقل بنو إسرائيل إلى مصر، وبقوا فيها مدة، ومات يعقوب، عليه السلام، فنقل إلى الخليل، ودفن هناك، ثم توفي يوسف، عليه السلام، فحنِّط وبقي في التابوت حتى نقله معه نبي الله موسى، عليه السلام، عندما خرج ببني إسرائيل من مصر.

وضعف أمر بني إسرائيل بعد يوسف، عليه السلام، وكانوا قد تكاثروا فيها، وقد دخلوها ولا يزيد عددهم على المائة، وبدأ الفراعنة يضطهدونهم، وخاصة أن الإسرائيليين كانوا يشيعون أن أحد أبنائنا سيخلّص مصر من ملكها، وسيقتله وذلك جزاءً لما فعله سلفه من الفراعنة الذي حاول أن يعتدي على أمنا سارة زوج أبينا إبراهيم، لهذا أمر فرعون أن يقتل كل مولود لبني إسرائيل وأن تترك الإناث، ولكن أمر الله لا يرد، وولد موسى، عليه السلام، وألقته أمه في النيل ضمن صندوق، فأخذه فرعون، ورباه عنده، ولم يكن ينجب أولاداً، فعندما كبر موسى، عليه السلام، دعا

فرعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وجادله وناقشه، فلم يؤمن فرعون. وبدأ الانقسام واضحاً بين بني إسرائيل والقبط، واختلف رجلان من الفريقين، فاستنجد الرجل الإسرائيلي بموسى على القبطي، فوكزه موسى فقضى عليه، وكادت الحادثة تتكرر، وشاع بين الناس جميعاً أن موسى قوي، ورأى القبط أن يقتلوه، فخاف على نفسه، وفرَّ إلى بلاد مدين، وبقي فيها مدة تقرب من عشر سنوات تزوج خلالها ثم عاد بأهله إلى مصر، وأثناء الطريق كلمه الله في سيناء، وبعثه رسولاً إلى فرعون وملئه، كما بعث الله أخاه هارون ليكون دعماً لأخيه.

دخل موسى، عليه السلام، مصر، وذهب وأخوه هارون إلى فرعون فدعواه إلى عبادة الله الواحد القهار، فأبى واستكبر، وجمع لهما السحرة فكان أن آمنوا، وأبعد قومه عن موسى، عليه السلام، فكان أن آمن بعضهم، وكتموا إيمانهم، وما زاد ذلك فرعون إلاَّ كفراً وعتواً في الأرض، وعلم أن القتال سيدور في المستقبل بين الفريقين: بنو إسرائيل والقبط. لذا أمر فرعون أن يعاد تقتيل أبناء بني إسرائيل واستبقاء نسائهم حتى يكونوا قلة في المستقبل، ولا يستطيعون قتال القبط فيما إذا فكروا بذلك، وإذا وقع فإن عدوهم سيكون قليلاً، وستكون الهزيمة دائرة عليهم. وأصاب عذاب الخزي في الحياة الدنيا فرعون وقومه، وعندها حلفوا لموسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ما هم فيه ليؤمنن بالله وبما يدعو له موسى، وليرسلن معه بني إسرائيل، فرفع الله عنهم، فعادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والاستكبار، وأعرضوا عما جاءهم من الحق، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية أخرى فعادوا إلى إيمانهم ووعدهم وعهدهم، حتى إذا كشفت عنهم أصرُّوا على بغيهم وتكررت معهم الحادثة مرات ومرات، ثم إن موسى قد دعا على فرعون وملئه، واستأذنه بالخروج مع بني إسرائيل إلى عيدٍ لهم، وما كان ذلك إلا حيلة، فخرجوا واستعاروا حلياً من القبط، وساروا متجهين إلى بلاد الشام، وبلغ ذلك فرعون فلحقهم هو وجنوده، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، وأيقنوا أنه لا بدّ من

القتال، وخاف أصحاب موسى، عليه السلام، لقلتهم، واعتقدوا أنهم مدركون، وتوقف بنو إسرائيل أمام البحر حتى اقترب منهم فرعون وجنوده، وعندها أوحى الله لنبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فانطلق بنو إسرائيل بين الفرقتين، وتبعهم فرعون وجنوده، فلما خرج بنو إسرائيل من مكان الماء كان فرعون وجنوده جميعاً في ذلك المكان ـ مكان الماء المفترق ـ فعاد الماء إلى ما كان عليه، فغرق فرعون ومن معه ولم ينج منهم أحد، وكان الجميع قد غرقوا باستثناء جثة فرعون فقد طفت على الماء، فأخذت وحنطت لتكون عبرة لكل طاغية، وكان ذلك البحر امتداداً لخليج السويس، أما بنو إسرائيل فقد خرجوا، وأصبحوا في الضفة الثانية للبحر، أي: في شبه جزيرة سيناء، أو في بلاد الشام.

دخل بنو إسرائيل مصر مع أبيهم إسرائيل (يعقوب) وعددهم لا يزيد على المائة، وخرجوا مع موسى، عليه السلام، ويزيد عددهم على الألف وستمائة رجل عدا الذراري، وبقوا هناك ما يقرب من خمسمائة عام.

ولما خرج بنو إسرائيل من البحر، وغرق فرعون وجنوده، شعروا أنهم أصبحوا في أمن، وأنهم أصبحوا أحراراً فتكبَّروا وعتوا، وبدؤوا يطالبون رسولهم موسى، عليه السلام، بمطالب تدل على أنهم قد نسوا ما كانوا عليه، ونسوا الإيمان الذي بفضله أُنقذوا من فرعون، وبسببه تغلبوا على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[1].

وكانت بلاد الشام قد أصبحت مسرحاً لانتقال أعداد من القبائل وصلت إليها، بعضها جاءت عن طريق العراق، وبعضها الآخر جاء مباشرة من جزيرة العرب، وتوزعت هذه المجموعات في المناطق الخصبة، فمن أقام في المناطق الشمالية عرف باسم العموريين، ومن استقر في الساحل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٨ ـ ١٣٩.

سمي باسم الفينيقيين، ومن عاش في الجهات الجنوبية أطلق عليه اسم الكنعانيين. وقد أقام هؤلاء السكان الجدد بجانب مجموعات سبقتهم إليها سواء أكانوا من الفلسطينيين الذين سكنوا سواحل جنوبي بلاد الشام والسهول الساحلية أم بقايا الجبابرة والعمالقة الذين كانوا متفرقين في البلاد وقلة. ولقد أشركت هذه الجماعات فعبدت غير الله، وجعلت لنفسها أصناماً خضعت لها ودانت، فأرسل الله إليها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، ولكنهم رفضوا الدعوة وتنكروا لها، وركبوا طريق الضلالة. وقد أرسل الله أيوب، عليه السلام، للجماعات التي كانت تقيم في منطقة حوران فعاش بينهم سبعين عاماً يدعوهم، فما آمن له من قومه إلا قليل، ثم ابتلاه الله ثمانية عشر عاماً آخر، وأناب أمره إلى الله، وعافاه الله فعاش سبعين سنة أخرى، يتنقل في شمال سورية على دين الحنيفية دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، إلا أن الناس قد غيَّروا بعده ما دعاهم إليه. كما بعث الله في تلك المنطقة (اليسع)، عليه السلام، وبعث لأهل إنطاكية (يس) قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، ومن هذا يبدو أن أنبياء الله كانوا كثيرين لهذه الأقوام، ولكن لا نعرف إلا بعض رسلهم وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم، وكذلك فإن عدد المؤمنين الذين صدقوا الرسل، وآمنوا بما جاءوا به إنما كان عددهم قليلاً أيضاً. كما أرسل الله نبيّه (إلياس) إلى أهل بعلبك الذين كانوا يعبدون صنماً كبيراً يدعى (بعل)، وإضافة إلى المدينة فهو رسول إلى تلك الجماعات التي كانت تعيش في منطقة البقاع الشمالية،

---

(١) سورة يس: الآيات ١٣ ـ ٢٠.

فدعاهم إلى ترك عبادة بعل، والاتجاه نحو عبادة الله تعالى الذي خلقهم، فكذَّبوه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾[1].

كان على الكليم موسى أن يقاتل مع بني إسرائيل تلك الأقوام الموجودة في بلاد الشام، فقد وجب عليه القتال ما دام قد أصبح سيد قومه الوحيد، وصاحب الكلمة المسموعة، وعليه أن ينفذ فيهم حكم الله، وأن يقاتل من يقف في وجه الدعوة والمشركين عامة، فقال لقومه ذلك، فخافوا وجبنوا، وضعفوا عن القتال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾[2] وذهب الكليم موسى، عليه السلام، لميقات ربه فعبد قومه العجل من بعده قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٢٣ ـ ١٣٢. (٢) سورة المائدة: الآيات ٢٠ ـ ٢٦.

أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾[1]، وكان الرسول موسى، عليه السلام، يذكّرهم بنعم الله عليهم، ويطلبون منه المعجزات والمطالب، ويغفر الله لهم، ويمدهم بمزيد من النعم، ومع ذلك فهم يتنكرون ويرفضون الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وقد تأثر موسى، عليه السلام، منهم أشد التأثر وكذلك أخوه هارون.

توفي الرسول هارون، عليه السلام، وبنو إسرائيل في التيه، ثم لم يلبث أن توفي أخوه موسى، عليه السلام، وقومه لا يزالون في تيههم، وبعد ذلك خرج من بقي من بني إسرائيل من سيناء مع يوشع بن نون.

خرج يوشع بن نون من التيه وسار بهم نحو بيت المقدس، وكان جيشه مقسّماً إلى اثني عشر قسماً حسب الأسباط أبناء النبي يعقوب، عليه السلام. وكان طريقه من ناحية الأردن، وعبر النهر، وحاصر مدينة (أريحا) مدة ستة أشهر، ثم استطاع فتحها، وتوجّه إثر ذلك إلى بيت المقدس فدخلها، وطلب من جنده أن يسجدوا لله الذي هيّأ لهم هذا الفتح العظيم، ولبث فيهم أكثر من ربع قرن ثم توفي، وبدّل بنو إسرائيل ما قيل لهم وما أنزل الله عليهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٣. (٢) سورة البقرة: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

أثناء هذا الزمن جاءت جماعات أخرى من الجزيرة العربية تعرف باسم (الآراميين)، وتنقلت في منطقة الهلال الخصيب، ثم استقرت في سورية، وأسست عدة ممالك نتيجة استقرار كل مجموعة في مكان، وأشهر هذه الممالك: دمشق، وحماة، وسامال التي تقع شمالي البلاد، وتعدّ اللغة السريانية التي تعرف في بعض قرى القلمون من بقايا اللغة الآرامية. ولم تكن دياناتهم لتختلف كثيراً عن ديانات السابقين لهم، إذ كان لكل مدينة إله خاص، وتقدم له القرابين والضحايا والهدايا وسط ساحة مكشوفة، في وسطها تمثال وأمامه مذبح تقدم عليه الضحايا، ومن أشهر آلهتهم التي عبدوها (عشتار) والإلهة (أدونيس).

وتولى أمر بني إسرائيل بعد يوشع بن نون (حزقيل بن بوذي)، إلا أن عهده لم يطل فيهم، وتفرقت بعده بنو إسرائيل، وضعف أمرهم إذ كانوا يقتلون أنبياء الله. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فسلط الله عليهم أعداءً من الداخل إذ استبدل بالأنبياء الذين كان يبعثهم لهم ملوكاً جبَّارين طغاة يسفكون دماءهم ظلماً، ويعذبونهم قهراً، كما سلط عليهم أعداءً من الخارج إذ تغلب عليهم أهل (غزة) و (عسقلان)، وسلبوا منهم التابوت، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبَوا من أبنائهم عدداً كبيراً، وانقطعت بينهم النبوة، وانقسمت دولتهم، واستمر ذلك ما يقرب من أربعمائة عام، إذ بعث الله فيهم بعد ذلك (شمويل) نبياً، فطالبوه بالقتال وأن يعين عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت إمرته، فلما عيَّن عليهم ملكاً تولوا عن القتال قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.

دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾(1).

ولكن بني إسرائيل الذين اعتادوا على المماطلة، وكثرة السؤال، والتهرب من المسؤولية، وعدم الرضا بشيءٍ يطلب منهم الانصياع له والخضوع إليه، فلما طلب منهم نبيهم أن يخضعوا لطالوت، وجدوا في أنفسهم حرجاً إذ رأوا فقر طالوت وهم يقوّمون الأمور بالمال ولا ينظرون إلى العلم والصلاح، مع العلم أن المال أمر زائل، كما أن النبوة بينهم كانت في أبناء السبط (لاوي)، والملك في أبناء السبط (يهوذا)، فلما كان

---

(1) سورة البقرة: الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١.

(طالوت) من أبناء (بنيامين) استغربوا ولم يقبلوا، وإن لم يكن هذا الأمر هو المهم عندهم وإنما الرفض واللجاجة في كل شيء.

وحدث القتال في مرج الصفر جنوب دمشق بينها وبين حوران بين بني إسرائيل وبين خصومهم وذلك في الشمال كما حدث قتال في الجنوب بين إسرائيل وبين أعدائهم الذين يقودهم جالوت، واستطاع داود أن يقتل جالوت واشتهر داود بين قومه، واضطر طالوت أن يتنازل لداود عن الملك، وآتاه الله النبوة إضافة إلى الملك، وكان، عليه السلام، مجاهداً في سبيل الله يقاتل أعداء الله، كثير العبادة والطاعة، وعندما توفاه الله خلفه ابنه النبي سليمان، عليه السلام، بالملك كما بعثه له رسولاً فكان ملكاً رسولاً كما كان أبوه داود قبله.

تابع النبي سليمان، عليه السلام، الجهاد، واستطاع أن يصل إلى دمشق، كما استطاع أن يخضع اليمن، وأن يستذل حكامها من السبئيين، وأن يتزوج ملكتهم بلقيس، وأبقاها على اليمن تخضع لأمره، وقد آمن أكثر قومها، ومن قبل كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، وأنه قد جدد بناء المسجد الأقصى الذي شيَّده يعقوب بن إسحاق، عليهما السلام، أو أبوه النبي إسحاق وكان بين بناء البيت الحرام الذي شيده إبراهيم في مكة وبين البيت المقدس الذي أقامه ابنه في القدس أربعون عاماً، واستمر في ملكه عشرين عاماً، وخلفه ابنه رحبعام، وبعده عادت بنو إسرائيل إلى الفرقة والضعف.

وكان الكلدان قد قوي أمرهم في بلاد الرافدين وهاجموا بلاد الشام، وقصد ملكهم (سنحاريب) بيت المقدس، ولكنه عجز عن دخولها، إلا أنَّ بني إسرائيل لم يحاولوا العظة والبعد عن المعصية، وكانوا لا يتناهون عما يجري في المجتمع من منكرات. قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1] وجاء الكلدان مرة ثانية بقيادة ملكهم (بختنصر) فجاس خلال الديار، وحاصرهم في بيت المقدس، ولما طال عليهم الحصار نزلوا على حكمه، فقتل منهم الثلث، وسبى الثلث، وترك الثلث وهم الشيوخ والعجائز، وهدّم بيت المقدس، وخرَّب الحصون، ودكّ المساجد، وحرق التوراة، وحمل الأموال، وانصرف راجعاً يسوق أمامه السبايا والأسرى والصبيان، وكان ممن أخذ معه (دانيال) أحد أنبياء بني إسرائيل، و (عُزيراً).

وجاء الفرس ـ كما ذكرنا ـ وقضوا على دولة الكلدانيين، ودخلوا بلاد الشام ومصر، وسيطروا على كثير من المناطق، وبقيت لهم الهيمنة مدة من الزمن تقرب من مائتي عام.

وكان الناس ينتقلون من بلاد الشام عن طريق البحر وخاصة الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الأخرى، وكانوا قد أسسوا لهم مراكز في كثير من تلك السواحل وخاصة الجنوبية منها، كما كانوا ينتقلون عن طريق البر، هذا بالإضافة إلى أبناء (يافث) وأحفاده الذين تحركوا لجهة الغرب، وكان هذا الانتقال وهذه الحركة باتجاه الأناضول وإلى أوروبا الجنوبية وخاصة الجهات المشرفة على البحر الأبيض المتوسط حيث الدفء والاعتدال، وبذلك فقد عمرت تلك الجهات بالبشر على حين بقيت أوروبا الشمالية خالية تقريباً، وفيما بعد صارت تنتقل إليها قبائل من حوض الفولغا ومن شمال بلاد القفقاس، ونحن نعلم أن المسلمين عندما قاتلوا الأوروبيين الذين قادهم شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤هـ، كان عدد من القبائل المقاتلة في صفوف شارل مارتل، لا يزال بدائياً إذ كانوا عراة لا يعرفون الثياب بعد. وهكذا عَمُرَ جنوبي أوروبا، وبقي شمالها حتى ذلك الزمن يكاد يكون خالياً، وأكثر المناطق عمراناً أكثر السواحل امتداداً نحو

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٧٨ ـ ٨٠.

الجنوب، ومنها شبه جزيرة البلقان، وشبه جزيرة إيطاليا، وقد كثر السكان فيهما، فأسسوا حكومات، وقوي أمرها، وخرج الإغريق ـ سكان شبه جزيرة البلقان ـ يتوسعون، ويقاتلون من يقف في وجههم، وقادهم الإسكندر الكبير المقدوني فضرب شرقاً حتى وصل إلى وادي السند. أي: دخل بلاد الشام بعد الأناضول، وبلاد مصر، وبلاد الرافدين، وفارس، ووادي السند ثم عاد، وأدركته المنية، فتقاسم قادته ما فتح، فأخذ البطالمة مصر، وكانت عاصمتهم الإسكندرية، وحكم السلوقيون الشام وكانت قاعدتهم إنطاكية، وذلك حوالي عام ٩٥٥ قبل الهجرة.

وقوي شأن الدولة الرومانية التي كان مقرها روما عاصمة إيطاليا اليوم، فورثت الإغريق في مناطق نفوذهم، وسيطرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه كان الفرس قد استقلوا بعد أفول نجم الإغريق، وعادت إليهم قوتهم، وبدأوا في صراع مستمر مع الرومان.

وجاءت مجموعة من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبل الهجرة، وأقامت في جنوبي بلاد الشام في المنطقة المشرفة على خليج العقبة ووادي العربة، واستطاعت هذه المجموعة أن تنتصر على الدويلات الكنعانية في تلك المنطقة، والدويلات الآرامية،وأن تؤسس دولة عرفت باسم: دولة (الأنباط). وقد اتخذت من مدينة (بطرا) قاعدة لها. وقد امتهنوا التجارة بعد الرعي مما قوى مركزهم الاقتصادي والسياسي، ونتيجة موقع بلادهم فقد كانوا عامل توازن بين الدولتين الإغريقيتين البطالمة في مصر، والسلوقيين في إنطاكية. ولما استطاعت الدولة الرومانية دخول بلاد الشام، ضمت إليها أيضاً هذه المنطقة ـ عام ٧٢٨ قبل الهجرة ـ بعد أن تسرب إلى الأنباط الضعف والوهن، ولقد عبد الأنباط ما عبد غيرهم من الأوثان وقوى الطبيعة، وكتبوا بالخط الآرامي، ثم تطور الخط النبطي حتى كان بصورته العربية القديمة.

وتأسست أيضاً دولة في واحة (تدمر) وسط الصحراء، دولة كانت عامل توازن بين الرومان والفرس، ونتيجة التقاء الطرق التجارية في (تدمر)

فقد أَثْرَت البلاد، وأقيمت الأبنية والقصور، ولكن الرومان استطاعوا الانتصار عليهم في النهاية وأسروا ملكتهم زنوبيا، وزالت تلك الدولة التي لعبت دوراً في الحياة السياسية آنذاك.

وفي القرن السابع قبل الهجرة وصلت إلى جنوبي بلاد الشام قبائل بني غسان الذين انطلقوا من منطقة اليمن إثر سيل العرم بعد خراب سد مأرب، وقد استقروا في منطقة (حوران) عند بئر غسان، وتركوا حياة الرعي، وأقاموا في القصور، وكانوا عمالاً للبيزنطيين يحمون لهم حدودهم ضد غارات البدو وهجمات المناذرة عمال الفرس، ولم تكن لهم عاصمة معينة، إذ كانت لهم بصرى، ثم انتقلوا إلى الجابية، وكلاهما في منطقة حوران، ثم توسع نفوذ الغساسنة نحو الشمال على أطراف البادية، فأقاموا لهم قاعدة بالقرب من مركز سادتهم في دمشق، فاتخذوا (جلق) مقراً لهم، وهي على أطراف دمشق إلى الشمال الشرقي منها، وعلى تسعة كيلومترات في الموقع المعروف اليوم باسم (حرستا)، وإذا كانت العاصمتان الأولى والثانية قد خلفوا فيها بعض الآثار نتيجة وجود الصخور، إلا أنهم لم يخلفوا في (جلق) أي أثر بسبب وجود التراب فقط، وإن كان بعض أسماء مراكزهم لا تزال قائمة إلى الآن مثل البلاط، والحدائق، والنهر الغربي الذي شقوه لتكون قصورهم بين نهرين، ولتروى من النهر الذي شقوه، ولما توسعت دمشق واقتربت من جلق اطلق اسم الجزء على الكل، وغدت جلق كلمة مرادفة لدمشق وقد كان الشعراء يزورونهم في قصورهم ومنهم النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت وهو الذي يقول:

لله در عصابة نادمتهم ... بجلق يوماً في الزمان الأول

وانتشرت النصرانية بينهم، وقد استمروا دعماً للرومان حتى الفتوحات الإسلامية حيث وقفوا أيضاً بجانب سادتهم الرومان، وقاتلوا المسلمين بضراوة، وإن كان قليل منهم قد ساعد المسلمين في فتوحاتهم.

أما بالنسبة إلى بني إسرائيل فقد عادوا من بابل بعد أن مات بختنصر

وضعف أمر الكلدان من بعده، وقد بقوا في أسرهم مدة سبعين سنة، ورجعوا إلى بيت المقدس، وأعادوا عمارته من جديد، إلا أن شأنهم بقي ضعيفاً، إذ كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويكذّبونهم، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر الذي يفعلونه، الأمر الذي أبقاهم في ذلة فدانوا للفرس، وخضعوا للإغريق، وحكمهم الرومان، ومن أشهر أنبيائهم في أواخر أيامهم النبي زكريا، عليه السلام، فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الصلاة والصيام والصدقات فرفضوا ذلك، وجاءهم بالدعوة نفسها ابنه النبي يحيى، عليه السلام، وحثهم على ترك المنكرات فعظم ذلك الأمر على ملوكهم أصحاب المصالح والهوى، فأمروا بقتل النبي يحيى، كما قتلوا أباه النبي زكريا.

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث نبيًا لبني إسرائيل يذكرهم بأيام الله ومنته وفضله عليهم، ويعرفهم بالجانب الروحي، وقد طغت عليهم المادة طغياناً كبيراً، وليذكروا قدرة الله العظيمة، وأنها فوق كل قدرة. وقد هيّأ الله جلّ وعلا لهذا النبي البيئة البيتية لتكون علامة الطهر والصلاح، إذ ولدت الأم التي ستنجبه في بيت الفضيلة، وتربت في مكان العبادة عند نبي من أنبياء الله وهو زكريا، عليه السلام، زوج خالتها، وقد عرفت بالعفة والطهارة والعبادة، وقد نبتت على ذلك قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾(١). هذه الفتاة هي التي اصطفاها الله لهذا الأمر الجليل، وقد حملت من غير أب، فكان ذلك

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

مفاجأة لها غريبة مخيفة ومثيرة، وهي التي لم تعرف الرجال، ولم تتصور هذا الأمر أبداً، وكان مفاجأة لقومها إذ جاءتهم بأمر غريب، وهي المعروفة بينهم بالطهر، والمشهورة عندهم بالعفة، ولما كان هذا الأمر مفاجئاً لهم اتهموها بعفتها، والأمر المستغرب يكون مدعاة لمثل هذا الاتهام. لكن الله سبحانه وتعالى المطلع على كل شيء أراد أن يفاجئهم بأمر غريب آخر يردُّ اتهامهم وينفي كلامهم، ويبين لهم قدرته ومعجزاته التي تظهر على لسان نبيه؛ هذا الطفل المولود حديثاً المهيأ لحمل الرسالة ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده دون سواه، وترك الحياة المادية والزهد فيها. وقد سألها قومها عما فعلت، وقد جاءت تحمل مولودها الحديث، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[1]. فماذا تتكلم والأمر غريب مفاجئ؟ ولم يكن لها من بدّ من أن تشير إليه، فإذا به يتكلم، وإذا بالأمر أكثر مفاجأة: مولود جديد ينطق بحكمة بالغة ولسان مبين، الأمر الذي أسكتهم، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[2] وعلى الرغم من أن بني إسرائيل قد بهتوا من كلام الفتى إلا أنهم قد أكثروا الكلام فيه وفي أمه، وكانوا يسمونه (ابن البغية)، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[3]. ولكن عيسى، عليه السلام، بعد أن تكلم وهو مولود جديد سكت حتى تكلم كما يتكلم الأطفال في سن عادية أو تقرب من السنة. وأخذ إلى مصر هرباً من هيرودس ملك اليهود، ثم رجع وهو في سن الثلاث عشرة تقريباً، وأقام في الناصرة، وبعث في الثلاثين من عمره، وعمّد في الأردن، وجادل بني

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) سورة مريم: الآيات ٢٩ ـ ٣٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٥٦.

إسرائيل كثيراً، ووعظ كل من التقى به، وكان يشفي المريض، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وقد لازمه في دعوته الحواريون وعددهم اثنا عشر حوارياً، واختار سبعين رجلاً معهم وأرسلهم إلى قرى بني إسرائيل وإلى بلاد الجليل في شمالي فلسطين للدعوة والتبشير بعبادة الله، والزهد في الحياة الدنيا، ولما رأى ملك بني إسرائيل أن الأمر كاد يفلت من يده عمل للتخلص منه، وتآمر معه بنو إسرائيل، وشكوه ظلماً إلى حاكم فلسطين من قبل الرومان واسمه (بيلاطس)، وكذبوا عليه، ثم أمسكوه، وسلموه إلى الحاكم الروماني، فقضى عليه بالموت صلباً. ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك به، إذ شُبّه لهم غيره فصلبوه، ورفع الرسول عيسى، عليه السلام.

نزلت الكوارث وحلت البلايا بأتباع الرسول عيسى، عليه السلام، بعد ارتفاعه عن هذه الأرض، الأمر الذي جعلهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحياناً، ويستشهدون أحياناً أخرى، وهم في كلتا الحالتين لا شوكة لهم، ولا قوة تحميهم وتحمي ديانتهم، وقد كان قياصرة الروم لا يتورعون عن القتل الذريع في أتباع السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وخاصة القيصرين اللذين جاءا بعد القيصر (طيباروس) الذي عاصر السيد المسيح، وفي عهد الثاني منهما دوّن إنجيل متى بالعبرية أو بالسريانية في الحبشة، ومات متى هناك عام ٥٥٢ قبل الهجرة، ثم ترجم الإنجيل إلى اليونانية. ولم يكن الاضطهاد من قبل الرومان فقط، وإنما من قبل اليهود أيضاً الذين كان أذاهم أشد وأنكى، لأنهم يعيشون معهم، وعلى معرفة بهم وبداخلهم.

وزاد الاضطهاد والأذى في عهد نيرون عام ٥٥٨ قبل الهجرة الذي اتهمهم بإحراق مدينة روما، فتفنن في العذاب وطرقه، وفي عهده كتب مرقس إنجيله عام ٥٦١ قبل الهجرة، وكان في مصر، كما دوّن لوقا إنجيله، وفي آخر عهد نيرون سجّل يوحنا إنجيله. وفرّ في هذه المدة قسم من اليهود من بلاد الشام، وسكنوا وادي القرى، ويثرب، وخيبر، وفدك في الحجاز.

ولقي النصارى الاضطهاد في عهد (تراجان) وكثيراً من الأذى، وكذا في عهد القياصرة كلهم، وإن كان بعضهم أقل أذى وأخف وطأة، ولكن أشدهم كان (دقلديانوس) الذي انتقل إلى مصر وقتَّل الكثير منهم، وهدم الكنائس، وأحرق الكتب، وسجن الأساقفة وذلك عام ٣٧٤ قبل الهجرة، واضطر الكثير منهم في كل الدولة الرومانية أن يظهر الوثنية وأن يخفي النصرانية، الأمر الذي جعل الفكر يضم خليطاً من الديانتين، وزاد في ذلك الفلاسفة الذين استخدموا النظريات العلمية اليونانية لتهذيب الآراء الدينية، فالتحمت الفلسفة بالدين التحاماً عضوياً، ونشأ عن هذا اختلاف في الآراء بين أتباع الكنائس، ووجد قسطنطين أن يجمع بين هؤلاء المختلفين، فعقد مجمع (نيقية) عام ٢٩٧ قبل الهجرة، ولم يكن قد اعتنق النصرانية بعد، وإنما كان لا يزال وثنياً، ونشأ في المجمع خلاف كبير فرض عليهم قسطنطين الرأي الأقرب إلى فكره على الرغم من قلة أتباعه، وانقسمت الكنيسة. ووجدت المذاهب المختلفة المتباينة.

وكانت اليهودية قد انتشرت في مناطق ضيقة في جنوبي بلاد العرب، وسكن بعضهم قرى في الحجاز ويثرب، كما انتشرت في بلاد الخزر. أما النصرانية فقد انتشرت في مصر والحبشة ومنها انتقلت إلى بعض جهات الجزيرة مثل نجران، وفي بقية بلاد الشام إضافة إلى فلسطين، وبلاد الرافدين، ثم أصبحت ديانة الدولة الرومانية. أما بقية الجهات فقد كانت تسود فيها الوثنية التي تختلف بين منطقة وأخرى تبعاً لرجالاتها الذين ظهروا فيها، والذين قد يكونون من الصالحين فعبدهم من جاء بعدهم، وأقاموا لهم التماثيل، ففي الهند كان (براهما) ثم ظهر (بوذا)، وفي الصين كان (كونفوشيوس)، وظهر في فارس (زرادشت)، وكذا في أمكنة كثيرة كان ما كان في هذه البلاد وشبيهاً لها. وبقيت بلاد الشام على هذه الحال حتى جاء المسلمون إليها فاتحين.

في مصر وافريقية

ذكرنا أنه بعد طوفان نوح قد اتجه ابنه سام وبعض أبنائه، وحام بن نوح وعدد من أولاده نحو الجنوب، وقد سكن بعض أولاد سام وأحفاده في موطنهم الأول الذي كان قبل الطوفان في جنوبي بلاد الرافدين، كما توزعوا في الجزيرة العربية فمنهم من تابع السير نحو الجنوب الغربي، واستقر بعضهم في الأحقاف، وتابع آخرون طريقهم إلى أن وصلوا إلى اليمن حتى استوطنوا هناك، كما أن جماعات منهم قد ساروا من جنوب العراق مباشرة نحو الغرب حتى وصلوا إلى شمالي الحجاز فأقاموا هناك. أما حام مع أبنائه فقد غزّوا السير مبتعدين عن البلاد التي حدث فيها الطوفان، فمنهم من انتقل إلى الهند وسواء أكان عن طريق البر أم عن طريق البحر، ومنهم من انتقل إلى إفريقية وسواء أكان موجوداً مضيق باب المندب أم لا ـ كما ذكرنا ـ وعندما وصلت هذه الجماعات إلى إفريقية تفرقت هناك بعد أن جاءتهم أنبياؤهم، ورفضوا ما دعوهم إليه، وأصرّوا على عنادهم واستكبارهم، فانطلق (البوشمن) نحو الجنوب الغربي، وقد لحقهم (الهوتنتوت) يقاتلونهم، وقد سلطهم الله عليهم، وأذاق الأولين من الآخرين ظلماً وعذاباً، واندفع وراء المجموعة الثانية أيضاً (البانتو) يعملون فيهم قتلاً وتشريداً، ولم يختلف هؤلاء عن المجموعتين السابقتين في العقيدة. ولكن ليذيق بعضهم بأس بعض ذلك بما عصوا وكانوا يستكبرون في الأرض، ولم تختلف فئة عن أخرى إلاّ أن الثانية تكون أقوى أجساماً وأكثر ظلماً، ويمكن أن نلحظ هذا التفاوت في البنية حتى هذا العصر، فالبوشمن دون الهوتنتوت، وهؤلاء أقل من البانتو بسطة في الأجسام، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا

عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾(١).

وللسبب نفسه سارت مجموعات أخرى حتى دخلت الغابة الإستوائية فاختفت فيها وضاعت بين مجاهلها عن أولئك الذين يلاحقونها أولئكم هم الأقزام الذين لا يزالون يعيشون في تلك البيئة حتى الآن منذ أن رفضوا دعوة أنبيائهم فسلَّط الله عليهم الزنوج من البانتو فعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً حتى ألجؤوهم إلى تلك المجاهل، فضلُّوا فيها، كما تاه سابقوهم في صحراء (كلاهاري).

وانطلقت جماعة من أولئك الذين نزلوا في شرقي إفريقية نحو الشمال الغربي وكان منهم البربر، كما سارت جماعة أخرى نحو الشمال باتجاه مجرى نهر النيل وفي واديه فأقامت في أسفله، وكان منها المصريون القدماء.

ونتيجة للبيئات المختلفة التي عاشت فيها كل جماعة فقد أثرت عليها مع الزمن، وأعطتها صفة معينة في الجسم والشكل، وسمة خاصة في الحياة الاجتماعية حتى غدت كل واحدة تتميز عن الأخرى بصفات تفرّقها بعضها عن بعض وكأنها ذات أصول متباينة، وأصبحت كل فئة منها رأس قبائل عديدة افترقت عنها وانقسمت منها.

ونتيجة ما كانت تعتقد هذه الجماعات قبل انطلاقها من مكانها الأول يوم جاءتها أنبياؤها بالحق المبين ومقاومةً منها لذلك، وكراهية للنور الواضح، وتمسكاً بما كانت تؤمن، فقد استمرت في عبادتها للأوثان، وتابعت ديانتها القديمة الوثنية بالإضافة إلى ما دخلها مما وجدته في البيئة وبما أخذته من أقوام مجاورين لها في السكن ومشابهين لها في العقيدة فقد جعل لكل جماعة ديانة خاصة بها، وإن كانت تشترك جميعاً في أنها وثنية ظالمة لنفسها.

تكاثر السكان في مصر أكثر من غيرها نتيجة خصوبة التربة والمياه

---

(١) سورة الطلاق: الآيات ٨ ـ ١٠.

الوفيرة التي يحملها نهر النيل، وكانوا على شكل قبائل تعيش على ضفاف النهر، على حين كانت الدلتا آنذاك على شكل أراض مستنقعية ينمو فيها القصب، وكان لكل قبيلة أرضها الخاصة بها، ورؤساؤها، ومعبوداتها، وطقوسها الدينية. وبسبب ما تقتضيه المشروعات العامة من بناء للسدود وشقٍّ للأقنية، فقد وجدت حكومات محلية ضمت كل واحدة منها عدة قبائل أو مجموعة من المدن، وكان لكل حكومة معبودها المعين، وجيشها الخاص بها. ودب التنافس بين هذه الحكومات، وكل منها يطمع في ضم أجزاء إليه، أو أخذ محصولات وفيرة مما عند جيرانهم، أو حماية معبودهم من أن يذل وأن يخزى، وكانت الحرب بين هذه الدول الصغيرة، وتجمعت نتيجة ذلك في دولتين إحداهما في الشمال وعاصمتها (منف)، والثانية في الجنوب وقاعدتها (طيبة) ثم توحدتا على يد (مينا).

كان حاكم مصر يعرف باسم «فرعون»، وهذا الاسم يطلق على جميع الحكام، وينتقل الحكم بالوراثة، «فرعون» ذو صلاحية مطلقة، ويَدَّعي الألوهية، ويستعبد الشعب، ويكلفه بالأعمال سخرةً، ويفعل ما يريد، ويقتل من يشاء دون حساب، وقد أجبر الفراعنة الأوائل الشعب على بناء الأهرامات لهم، فخلَّدوا بذلك ذكرهم، وسجلوا طغيانهم، ولا تزال هذه الأهرامات شاهدة على الظلم آنذاك، والبناء يلعن من أشاده على ظهور أبناء الشعب وجماجم الرجال ويقول: بناء قام على ظلم لا يسمى حضارة لأنه لم يشعر أحد آنذاك بسعادة، وإذا لم يشعر الناس بالسعادة والطمأنينة فليس هناك من حضارة مهما بقي من آثار ومهما بقي من عمران، وفي هذه الأيام وصل الخليل إبراهيم إلى مصر مع امرأته سارة، وأراد فرعون اصطفاء سارة لنفسه، ولكن الله أنقذها منه، وطلب فرعون منهما مغادرة مصر، وأعطاهما (هاجر) خادمة لسارة.

إن الظلم لا يمكن أن يدوم، والقسوة لا يمكن أن تستمر، وصبر الناس لا بدّ من أن ينفد، وتحمّل الأذى له حدود، فقد ثار الناس على حكامهم، وعمت الفوضى، وعادت التجزئة إلى البلاد، الأمر الذي ساعد الرعاة من البلاد الشامية أن يأتوا إلى المنطقة، وأن يصبحوا فيها ملوكاً،

وقد عرفوا باسم (الهكسوس). وفي أيامهم جاء يوسف، عليه السلام، إلى مصر ثم استقدم أباه، وإخوته، وأهله إليه فعاشوا فيها حتى خرجوا منها فيما بعد مع موسى، عليه السلام، وكان هؤلاء الرعاة يعرفون شيئاً من دين إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويميزهم القرآن عن بقية حكام مصر باسم الملوك، على حين يطلق على غيرهم اسم الفراعنة.

لم يكن ملوك الرعاة بأفضل من الذين حكموا قبلهم إذ ورثوا عنهم الاستبداد، وأخذوا عنهم الظلم، وتعلموا منهم استعباد الناس، والاستكبار في الأرض، وبعث الله إليهم يوسف بن يعقوب، عليه السلام، نبياً ورسولاً، ولكن الهوى والمصلحة أعمتهم عن تقبل الحق. فلما اتهمت امرأة العزيز يوسف، عليه السلام، وثبتت براءته، وظهرت خيانتها وكذبها، ومع ذلك فقد أدخلوه إلى السجن ظلماً وزوراً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[1]. ودعاهم يوسف بن يعقوب إلى الحق، ولكن لم يقبلوا منه، وشكّوا فيما جاءهم به، حتى توفاه الله فتنبهوا إلى ما كان يقوله لهم، وقالوا لن يبعث الله بعده أحداً كي نسير معه، تمهيداً لأنفسهم حتى لا يؤمنوا لأحد ولو كان رسولاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ولما لم يرعوا ملوك الرعاة، ويقبلوا الحق الذي جاءهم به يوسف، عليه السلام، سلّط الله عليهم جماعات أكثر منهم ظلماً فأذاقوهم مرّ العذاب، فأذلوهم، واستضعفوهم، وبدؤوا يقتلون الرجال منهم، ويستحيون النساء، هؤلاء الطغاة هم من سكان وادي النيل الأصليين، إذ قام أحد القادة من الجنوب وهو (أحمس) فانتصر على الشمال وحكامهم من الرعاة، ووحّد البلاد، واستبد بالسكان، وأعطاهم الله الفرصة ليرجعوا إلى الحق، ومكنهم من أعدائهم، ووسع لهم رقعة أرضهم إذ وصلت دولتهم إلى حدود

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٥.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٤.

نهر الفرات أيام (تحتمس الثالث)، و (رمسيس الثاني) اللذين حاربا الحثيين في بلاد الشام، وانتهت الحروب بين الدولتين بصلح بعد معركة (قادش) المشهورة. ومع هذا الامتداد الواسع للدولة، والخيرات الكثيرة التي جاءتها من كل مكان، ما كانوا ليؤمنوا ويأخذوا العبرة من غيرهم، ومما حدث لأسلافهم، وبما تمَّ لخصومهم، فلم يتعظوا، بل زادتهم الخيرات بطراً، والنعمة كفراً، والعمران تكبراً، والقوة ظلماً، وأخذوا حيطة من الذين يمكن أن يخلِصوهم الحكم وهم الرعاة، لذا قرروا قتل رجالهم واستحياء نسائهم لتبقى لهم السيطرة في الأرض، والتمكُّن في البلاد، قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾[1].

أرسل الله إلى هؤلاء جميعاً موسى، عليه السلام، ليكون منقذاً لهم مما هم فيه من الظلم والطغيان، ومحذراً لهم من عاقبة الأمر إن استمروا في غيِّهم وتمادوا في عتوهم، وكان فوق كل هذا من عدوهم الذين يخشون أن يقهرهم ويغلبهم على أمرهم، وقد نجا موسى، عليه السلام، من القتل، بإذن الله، وبطريقة أدت إلى أن يربيه فرعون في بيته، ويشرف عليه بنفسه ليكون له في المستقبل عدواً وحزناً، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى

(١) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٦.

بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

لقد نشأ موسى، عليه السلام، نشأة قوية بإذن الله، وأصبح رجلاً يُخشى بأسه، وعلم أنه ليس من آل فرعون، وإنما تربى هو عندهم، لظلمهم وقسوتهم على الرعاة عامة وبني إسرائيل خاصة، وأنه يمت بالأصل إلى بني إسرائيل الذين خافوا على ابنهم من القتل فألقوه في اليم، ولربما كان هذا العلم قد جاءه من أمه التي أرضعته واعتنت به صغيراً فكان يلقاها أو يزورها على علم من فرعون وهو لا يعلم الصلة بين موسى وأمه، ويظن أنه يقرّ لفرعون وأهله بالطاعة، وأنه يعتقد أنه منهم، فبينهم نشأ، وعندهم تربى، وبصلته مع أمه ومن يلتقي بهم عندها صار عنده ميل إلى قومه بني إسرائيل بالفطرة، وكان بعض بني إسرائيل يعرفون ارتباط موسى بهم، ولما كان الخلاف قائماً بين المصريين الأصليين وبين الرعاة، ومنهم بنو إسرائيل فإنه من المحتمل أن يحدث تماس بين الأفراد الذين يعيشون معاً في كل وقت، وأن تندلع شرارة الفتنة في كل لحظة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا

---

(١) سورة القصص: الآيات ٧ ـ ١٣.

بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وصل موسى، عليه السلام، إلى بلاد مدين، ووجد على بعض مائها جماعة يسقون أغنامهم، ولمح امرأتين تمنعان أغنامهما من الورود إلى الماء حتى ينصرف الرعاة إذ لا تريدان الاحتكاك بهم، ووجد الأمر غريباً، فسأل الفتاتين وعرف سبب تأخرهما فأكبر فيهما العفة والحشمة، وأقبل بصورة الرجل الشهم صاحب النخوة والمروءة، وهو الذي آتاه الله القوة فرد أغنام الرعاة، ورفع الصخرة عن البئر، وهي الضخمة التي يعجز عن رفعها عدة رجال، فاستغرب القوم فعلته وقوته، ثم سقى للفتاتين غنمهما، وتركهما تسيران إلى قصدهما، وذهب هو يستظل تحت شجرة هناك، يجد الراحة، ويسبح فكره إلى الوراء وماذا خلّف في مصر؟ ولا يعرف أحداً في هذه الديار، وبينما هو كذلك إذ جاءته إحدى الفتاتين تطلب منه أن يسير معها إلى أبيها ليتعرف عليه إكراماً لما قام به..... ولم يكن له إلا ليمتثل، وسار أمامها بسبب الريح بعد أن كان خلفها... ووجد أباها.. فتعارفا، ووجده رجلاً صالحاً، وطمأنه على أنه قد وصل إلى كنف الأمان.... واستأجره ليعمل عنده ٨ ـ ١٠ سنوات مقابل أن يزوجه إحدى ابنتيه، وعمل عنده، وتم العقد.

انتهت المدة التي اتفقا عليها موسى، عليه السلام، وأبو زوجه، ذلك الرجل الصالح، فأراد أن يعود بأهله من حيث جاء من مصر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وفي الطريق بعثه الله وأمره أن يسير إلى فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ

---

(١) سورة القصص: الآيات ١٤ ـ ٢٢.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾(1).

رأى موسى عليه السلام أن المهمة صعبة فهو يخاف على نفسه من القتل في مصر، إذ كان قد قتل نفساً وفرّ منهم عندما علم أن القوم يريدون أن يقتلوه، وكذلك فهو ليس بالفصيح إذ يتلعثم أثناء الحديث، ولكن المهمة لا بدّ له من أن يقوم بها ويؤديها، فدعا ربه أن يدعمه بأخيه هارون الذي هو أفصح منه لساناً، فاستجيبت دعوته، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾(2).

---

(1) سورة القصص: الآيات ٢٣ ـ ٣٢. (2) سورة القصص: الآيات ٣٣ ـ ٣٥.

وسار موسى، عليه السلام، حتى دخل مصر خائفاً يترقب، ووصل إلى داره، وكلّم أخاه هارون، فوجد أنه قد أوحي إليه، وأوكل بالمهمة مع أخيه موسى، عليهما السلام، ولكنهما خافا من الذهاب إلى فرعون خشية طغيانه على الرغم مما أوحي إليهما بالاطمئنان وعدم الخوف، ولكنها النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ولقد هزتهما الآية هزاً ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ وهزت مشاعرهما، فالله الذي بيده كل شيء، ويملك نفس فرعون وغيره إن شاء أخذها في كل لحظة، إنه معهما يسمع ما يقولون وما يردّ عليهما فرعون ويرى ما يتصرف، فعليهما إذن ألا يخافا.

ذهب موسى وهارون، عليهما السلام، إلى فرعون، وكان اللقاء الأول ونأخذه من كتاب الله ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾[2].

ولما وجد فرعون نفسه عاجزاً عن الجواب أمام الحق الواضح لجأ إلى إظهار المنة والفضل على موسى في التربية والتنشئة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى

---

(١) سورة طه: الأيات ٤٢ ـ ٤٧.
(٢) سورة طه: الآيات ٤٨ ـ ٥٦.

رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وفي اللقاء الثاني أراد فرعون أن يظهر قوته على موسى وأخيه هارون، وأن يهدد من يفكر في الإيمان بما جاء به من قومه، وأن يسخر من قول نبي الله.... فجمع لذلك حشداً من الناس من أعوانه ومخلصيه وبعض وجهاء بني إسرائيل وعندما حضر الجمع بدأ فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى، عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[2]. وهذا فعل الجبابرة والطغاة إذ جاءهم الحق قالوا لمن يحمله إنه مجنون، واتخذوا طريق التهديد. وعندما جاءهم موسى بالآيات البينات قال فرعون عنه: إنه ساحر. ووجه السؤال إلى وجهاء بني إسرائيل أنه يريد أن يسير بكم ويخرجكم من أرضكم فما رأيكم؟ فما كان منهم إلا أن يقولوا له: افحص سحره مع كبار السحرة، وكان السحر شائعاً آنذاك ومنتشراً، فاستحسن فرعون هذا الرأي، وضرب موعداً لموسى ليلتقي مع السحرة، ليريه وليري الناس جميعاً أن موسى قد تعلم السحر أثناء غيابه، وهو يستعمله ليخرج بني إسرائيل من مصر.

وجاء اليوم المحدد، وَجُمِعَ الناس، وجاء السحرة، وخرج فرعون وحاشيته، وجاء موسى، عليه السلام، ووقف فرعون خطيباً في ذلك الحشد ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٨ ـ ٢٢. (٢) سورة الشعراء: الآيات ٢٣ ـ ٣٧.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾(1). هذه المفاهيم التي تقوم عليها الجاهلية دائماً وفي كل مكان، يقوّمون الأمور بالمادة، ويقدرون الرجال بها، ويعرفون الحق بواسطتها، وأحب السحرة أن يستفيدوا من هذا الخلاف فوقف كبيرهم، فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾(2). ووقف موسى، عليه السلام، خطيباً في الحشد ووجه كلامه للسحرة فقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾(3). ثم تكلم السحرة فقال كبيرهم: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾(4). قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾(5). وخاف موسى، عليه السلام، مما رأى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾(6) فبطل الباطل، وظهر الحق، واهتاج أصحاب البغي والعدوان، وألقيت الكلمات جذافاً، قال فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾(7).

---

(1) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٤.
(2) سورة الأعراف: الآيتان ١١٣ ـ ١١٤.
(3) سورة طه: الآية ٦١.
(4) سورة طه: الآيات ٦٢ ـ ٦٥.
(5) سورة الشعراء: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.
(6) سورة طه: الآيات ٦٦ ـ ٧٠.
(7) سورة طه: الآية ٧١.

قال السحرة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾[1] لقد قتل فرعون السحرة، وبطش بالناس، فدب الخوف ووقع الذعر، ولذا لم يؤمن مع موسى، عليه السلام، إلا القليل وحتى من قومه خوفاً من فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وابتدأت المفاصلة بين المؤمنين والكافرين فسكن المؤمنون بعضهم بجانب بعض، واتخذوا بيت موسى قبلة لهم بناءً على أوامر ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

وأخذ الله آل فرعون بالسنوات العجاف، ونقص الأموال، وقلة الأثمار لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً، ولكن إذا جاءهم الخير حسبوا ذلك لحسنٍ في أعمالهم وتخطيطهم، وإذا أصابهم الشر تشاءموا وقالوا لوجود موسى بيننا، ويظن بعضهم أن هذا من قوة سحر موسى فما يزيدهم ذلك إلا عتواً في الأرض واستكباراً، ثم أرسل الله عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع لعلهم يتذكرون بهذه الآيات. فما كان لينفعهم، وإنما كلما جاءتهم آية قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يزيلها عنا فإذا تمّ آمنا بما آمنت، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل كما تريد وترغب، حتى إذا خفف الله عنهم نكثوا بعهودهم، ونقضوا ما وعدوا به، وتنكروا لما قالوا... حتى جاء أمر الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا

---

(١) سورة طه: الآية ٧٢.
(٢) سورة يونس: الآية ٨٣.
(٣) سورة يونس: الآية ٨٧.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ (١).

ووقف بجانب فرعون كل قوى الشر، وأصحاب المصالح ولو كانوا من قوم موسى، ووقف بجانب موسى، عليه السلام، كل قوى الخير ولو كانوا من قوم فرعون. وتضافرت عناصر السوء فكان يمثل الطغيان فرعون، ويمثل المصلحة هامان، ويمثل قارون أولئك الذين أبطرتهم النعمة، مع أن قارون كان من قوم موسى ولكن مصلحته اقتضت أن يكون بجانب فرعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ (٢). ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه القوى الثلاث: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ (٣). أما الذين آمنوا من آل فرعون فقد كانوا يكتمون إيمانهم خوفاً من فرعون ورهباً من سلطته، فلما كان انقسام الفريقين والمفاصلة التامة بدأ كل يأخذ صفه إما بين المؤمنين أو بين الكافرين إذ لا رابطة غير رابطة العقيدة، ولا وشيجة تقوم بين الطرفين غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥. (٢) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٣) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٦.

جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وكان فرعون يتهكم ويحاول أن يظهر سلطته وقوته وأن بإمكانه أن يفعل الكثير والمستحيل، وكان هامان يظهر أيضاً أنه ينفذ كل ما يطلبه فرعون ولو كان مستحيلاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2].

ولما كثر ظلم فرعون وقومه وحاشيته، وزاد فسادهم، ولم يرعووا مع كثرة الآيات كان لا بدّ من أن ينالهم ما نال الأقوام التي سبقتهم، فأوحى الله إلى موسى أن يسير مع بني إسرائيل باتجاه الشرق، ولحقهم فرعون وجيشه وكبار قومه، فكانت النتيجة أن غرق الظالمون بكفرهم، ونجا موسى وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[3].

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٨ ـ ٣٤.
(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) سورة طه: الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

ومع موت فرعون وأسرته وكبار قومه ضعفت الدولة، ولما يبق فيها من يتسلم الأمر، وكانت دولة الفرس قد قويت، فاتجهت نحو مصر ودخلتها بقيادة (قمبيز)، واستمر الفرس، حتى قوي أمر الإغريق، فجاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها عام ٩٥٤ قبل الهجرة، ومع وفاة الإسكندر حكم البطالمة خلفاء الإسكندر مصر، ثم جاء الرومان، وأصبحت مصر ولاية من ولاياتها، ثم انتشرت فيها النصرانية، وأضحت كنيستها خاصة، وتختلف عن كنيسة الدولة الرومانية الأمر الذي جعل بينهما خلافاً، وعرف سكانها بالقبط أو الأقباط، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام، فأنقذ السكان مما هم فيه.

فِي جَزِيرَةِ العَرَب

ذكرنا أن سام بن نوح قد انحدر مع أبنائه وذريته من الجبال حيث رست سفينة أبيه، وبعد مدة من الحياة هناك اتجه إلى جنوبي بلاد الرافدين مهدهم الأول، فاستقرت هناك جماعة تكاثرت فيما بعد وعرفت باسم السومريين، على حين انطلقت جماعات أخرى وتوزعت في الجزيرة العربية، ومنهم عاد، وثمود، وجديس، والعماليق، وإذا كانت العماليق قبيلة خاصة إلا أن هؤلاء كانوا كلهم من العمالقة إذ كانت أجسامهم أكثر طولاً من الذين ظهروا فيما بعد، كما أنهم كانوا من الذين يمتد بهم العمر أكثر، ونستطيع أن نعد سكان الجزيرة قد كانوا كلهم بهذا الشكل حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة تقريباً، وإن بقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك، وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك الجسم من الطول، ولا يعمرون ما كان يعمر به أسلافهم.

وفي هذه البيئة المتشابهة في هذه المنطقة كلها، ظهرت بداية اللغة التي عرفت فيما بعد باسم (العربية)، ومنها حملت البيئة اسمها فأصبح يطلق عليها (بلاد العرب).

أما عاد فقد أقاموا في منطقة الأحقاف في الوادي الذي يعرف اليوم باسم حضرموت، وامتدوا حتى البحر، حيث تعد مدينة (الشحر) التي تقع على الساحل شرق مدينة (المكلاّ) من المدن التي أقيمت على أنقاض ما أشادت عاد. وتعد قبيلة عاد أنها أول قبيلة عبدت الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة وهي (صدا) و (صمودا) و (هرا)، وكانوا أقوياء أصحاب شدة وبأس، وقد أشادوا القصور العالية فوق المرتفعات،

وأجرى الله لهم الوادي، فزرعوا الوادي وسقوا زراعاتهم، فكانت الجنات ذات الزروع والعيون، وعتوا عن أمر ربهم، فأرسل الله إليهم نبياً منهم هو هود، عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله جلّ شأنه، فردّوا ذلك، وأخذتهم العزة بالإثم، وغرّتهم قوتهم، وما شيدوا، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

وكانوا قد كثروا وزاد عددهم حتى انتشر (قحطان بن عاد) وذريته في اليمن، وأسسوا مجموعة خاصة. أما عاد فعندما عتوا عن أمر ربهم أهلكهم بريح صرصر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2].

وأما ثمود التي أقامت في الحجاز بين المدينة وتبوك في شمال وادي القرى في منطقة (العلا)، وقد كانت بعد هلاك قوم عاد، ونطقوا بالعربية أيضاً. وجعلوا أوثاناً لهم عبدوها من دون الله، فأرسل الله إليهم صالحاً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فرفضوا ذلك، وردّوا عليه كما

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٦٥ ـ ٧٢. (٢) سورة الحاقة: الآيات ٦ ـ ٨.

ردّت الأقوام الأخرى، فقالوا: مجنون، وقالوا: ساحر، وسفيه و.... وقد اجتمعت ثمود يوماً في ناديها؛ فجاءها رسول الله صالح، عليه السلام، فدعاها إلى الله، عز وجل، وذكّرهم، وحذّرهم، ووعظهم، فأرادت سفهاء القوم أن تسكته بطلب معجزة، فقالت له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة بشكل معين، وبدؤوا يضعون لها أوصافاً معينة حتى انتهوا قالوا: إن فعلت ذلك آمنا بما جئتنا؛ وإلا فنحن على غير استعداد لأن نستمع إليك بحرف واحد، فأنت وما تشاء، فأخذ عليهم عهداً وموثقاً بما قالوا، ثم انصرف يدعو ربه، فاستجاب له، وكانت الناقة، فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[1]. ولهذه الناقة يوم تشرب فيه ماء ينبوع البلدة، وللسكان يوم يشربون فيه، ولهذه الناقة أن ترعى حيث شاءت، فآمنت جماعة من قوم صالح، واستمرت جماعة أخرى على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وقد تضايق المنكرون من أمر هذه الناقة، فاجتمعوا واتفق رأيهم على أن يعقروها، وينتهوا منها، وأغرت بعض النساء سفهاء القوم بقتل الناقة، وكان عددهم تسعة رجال قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2]، وقد حسّن هؤلاء الرهط للقبيلة قتل الناقة، وأقدموا هم على عقرها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[3]. فمكثوا ثلاثة أيام حسب ما وُعدوا، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[4]، وبعد هذا الموعد جاءتهم صيحة من السماء، من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، فأصبحوا جاثمين في دارهم جثثاً لا حراك فيها كأن لم يغنوا فيها. وقد فكروا بقتل صالح وتآمروا على ذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٧.

(٤) سورة هود: الآية ٦٥.

مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[١].

وأقام إسماعيل، عليه السلام، مع أمه هاجر في جبل (فاران) وهي أرض مكة، وانبجست مياه عين زمزم وكانت قبيلة (جرهم) قد جاءت من اليمن باتجاه الشمال، ومروا على تلك المنطقة، ووجدوا الماء، فطلبوا من (هاجر) أن تسمح لهم بالإقامة بالقرب منها على مقربة من الماء، فوافقت، ونشأ ابنها إسماعيل بينهما، وتعلم لغتهم فاستعرب، وتزوج منهم بعد أن ماتت أمه هاجر.

وكان إبراهيم الخليل يزور أهله وولده بين المدة والأخرى، يطمئن عنهم، ويتفقد الأحوال، وقد قام مع ابنه إسماعيل، عليهما السلام، في بناء البيت الحرام، وذلك في حدود عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة. وبعث إسماعيل بن إبراهيم نبياً ورسولاً لأولئك القوم الذين عاشوا بالقرب منه.

وفي الوقت نفسه كان ابن إبراهيم الخليل الآخر وهو مدين من زوجه (قنطورا بنت يقطن) يعيش في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تعرف اليوم باسم بلاد مدين، ولما كثرت ذريته من بعده، وبدؤوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها في الأرض عوجاً، أرسل الله إليهم رسولاً منهم يذكّرهم بآيات الله عليهم، وهو نبي الله شعيب، عليه السلام، ويبدو أنه كانت لهذه القبيلة منطقة واسعة تشمل الأودية المتجهة نحو خليج العقبة ونحو شمالي البحر الأحمر الذي توجد فيه اليوم ما يسمى باسم (مغاير شعيب)، وكانوا في هذه الجهة ينقصون الكيل والميزان فإذا وزنوا للناس أنقصوهم حقهم، وإذا كالوا لأنفسهم زادوا في نصيبهم. كما شملت المنطقة أرض تبوك، وسكان هذه الجهة قد عبدوا شجرة ضخمة وسط الأيكة وهي غابة معروفة هناك، إضافة إلى عدم الوفاء في الكيل والميزان. وشملت المنطقة أيضاً جزءاً من أرض معان جنوبي الأردن المعروفة الآن، وقال

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

تعالى في حق المجموعة الأولى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[1].

فرفضوا دعوته، وتنكّروا إلى ما أمرهم به، وأبوا أن يتركوا قطع الطريق، وأخذ عشر أموال المارة، ولما أصروا على بغيهم وتنكرهم للطريق المستقيم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جثثاً كأن لم يحيوا فيها، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[2]. وكذلك كان شأن أصحاب الأيكة سكان تبوك، إذ اتهموا نبيهم شعيب بالسحر، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً، فإنهم لا يخافون، ويعلمون عدم صدقه، وعدم صحة ما يقول، وأنزل الله في حقهم ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾[3]

إذن جاءت الصيحة إلى جماعة من قوم شعيب، وأصاب جماعة أخرى منهم

---

(١) سورة هود: الآيات ٨٤ ـ ٨٧. (٢) سورة هود: الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٧٦ ـ ١٨٩.

عذاب يوم الظلة. ويبدو أن شعيباً كان ذا قوة فيهم، وعصبية كبيرة أخافتهم من قتله، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾[1].

ومن أبناء عاد (قحطان) الذي أقام في منطقة اليمن وكثر نسله، فعمروا اليمن، وتزايدوا بسرعة، فكانت تخرج منهم جماعات باتجاه الشمال والشمال الشرقي، ومنهم قبيلة جرهم التي أقامت في مكة، وصاهرت إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام.

ولقد أقام القحطانيون في بلاد اليمن دولة اشتهر أمرها، وكثرت أسفارها، وركب البحر أبناؤها، وعرفت هذه الدولة باسم (معين)، وكان مركزها يقع إلى الشمال الشرقي من صنعاء، وحكمتها أسرة دامت مدة من الزمن، ثم دالت، وجاءت أسرة أخرى عرفت باسم (سبأ) نسبة إلى جدها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد اهتمت بالزراعة، وأقامت لذلك السدود، وكان من أشهرها سد مأرب، وقد عبد أهل سبأ الشمس والقمر والنجوم، ولم ينتبهوا إلى ما أصاب غيرهم من الأمم المجاورة، وكان من آخرهم (بلقيس) التي انتقلت إلى جهات الشام في عهد سليمان بن داود، عليهما السلام، حوالي العام ١٦٠٠ قبل الهجرة الأمر الذي جعل الدولة ضعيفة، فأهملت شؤون الزراعة، وضعفت العناية بالسدود، فتهدمت، وانهار سد مأرب فكان سيلاً عارماً جعل الناس يفرون من منطقتهم، ويتجهون إلى مختلف الجهات، وانقلبت الجنان الوارفة والحدائق الغناء إلى مناطق شبه جافة لا ينبت فيها إلاّ الأثل وقليل من السدر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

---

(١) سورة هود: الآيتان ٩١ ـ ٩٢.

وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[1].

وذلك جزاؤهم إنهم لم يؤمنوا كما آمنت ملكتهم بلقيس، ولم يقبلوا دعوة سليمان بن داود لهم، بل لجّوا في عتوهم فظلموا أنفسهم، فعاقبهم الله بذلك العقاب المادي البسيط عسى أن يرجعوا إلى أنفسهم.

لم يخرج كل أهل اليمن من بلدانهم بعد خراب سد مأرب، وإنما بقيت جماعات منهم متفرقة متوزعة بعيد بعضها عن بعض، الأمر الذي أدى إلى ظهور عدد من الإمارات الصغيرة، تشمل الواحدة منها منطقة زراعية، تسمى (محفداً)، ويعرف سيدها باسم (ذو) أي صاحب، ويجتمع عدد منها بيد أحد (الأذواء) فتؤلف (مخلافاً)، ويسمى سيدها (قَيْل)، ولذا فقد كانت اليمن تتألف من عدد من المخاليف، التي تشكل منها النواة الأولى للدولة. وكانت منطقة (ظفار) قد بدأ يعلو اسمها، فلما انهارت دولة (سبأ) حلت محلها حكومة ظفار وعرفت باسم دولة حمير. وأصبح الملك يعرف باسم (ملك سبأ وحضرموت وذو ريدان) على حين كان أيام المعنيين يسمى ملكاً، وأيام سبأ أطلقوا على الحاكم في البداية اسم (مكرب)، ثم أعطوه لقب ملك. ولكنه في أواخر دولة حمير أصبح يعرف باسم (تبع) وجمعه (تبابعة). وازدهرت تجارة أهل اليمن في عهد كل دولها فوصلت إلى الشام شمالاً، وقطعت اليمّ باتجاه إفريقية والهند. وعندما قويت دولة الرومان رغبت في السيطرة على البحر الأحمر لتأمين تجارتها، ولكن عجزت لوجود الدولة اليمنية التي وقفت في وجه (جالوس) حاكم مصر من قبل الرومان.

وكانت القبائل التي بقيت في اليمن بعد خراب سد مأرب هي:

---

(١) سورة سبأ: الآيات ١٥ ـ ١٩.

مذحج، وكندة، وحمير، والأشعريون، وبجيلة، وأنمار، ومن أنمار كانت خثعم.

أما القبائل التي خرجت فهي الأزد واتجه فرع منها نحو عُمان، وعرفت هناك باسم أزد عمان، واتجه فرع آخر نحو جبال عسير وعرف باسم أزد شنوءة، والغساسنة الذين ذهبوا إلى الشام، والمناذرة الذين أقاموا بالعراق، والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب، وخزاعة التي حلت في مكة محل جرهم.

وكانت بعض فرق من اليهود قد جاءت لقتال العمالقة في بلاد الحجاز، فقضت على أكثرهم، وأقامت مكانهم في تيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى، ويثرب، وكانت تفرّ إلى هذه القرى بعض الجماعات اليهودية عندما تحلُّ بدارهم قارعة، أو يحلّ بهم عذاب أليم سواء أكان أيام بختنصر البابلي أم أيام الرومان، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى اليمن وأن يؤثر على آخر ملوكها وهو (يوسف ذو نواس) الذي تعصب لعقيدته، وجاء إلى نجران وكانت النصرانية قد انتشرت بين أهلها ولم يلحقها بعد التحريف الذي لحق غيرها من المناطق، فدعاهم إلى عقيدته، فأبوا عليه، فأحرقهم في الأخدود، ونجا أحدهم فسار إلى قيصر الروم فطلب منه نجدتهم ما داموا يحملون عقيدة واحدة، فأرسله إلى الحبشة، وكانت قد انتشرت بين أهلها النصرانية واتبعها غالبية السكان، فبعث النجاشي حاكم الحبشة جيشاً قوامه سبعون ألفاً وعليه (أرياط) ومعه (أبرهة الأشرم)، واستطاع هذا الجيش أن يدخل اليمن، وأن يقضي على دولة حمير، ويتخلص من ذي نواس، ويصبح (أرياط) حاكم اليمن من قبل الحبشة، إلا أن أرياط لم يلبث أن اختلف مع أبرهة الأشرم، واستطاع الأخير أن ينتصر، وأن يقضي على خصمه، وأن يصبح سيد اليمن، ولم يكن لملك الحبشة بد من أن يعترف بهذا التغيير.

بنى أبرهة الأشرم كنيسة كبيرة في صنعاء، وأسماها، (القليس)، وأخبر بذلك ملك الحبشة، وأراد أن يوجه أنظار العرب إليها ليحجوا إليها

بدلاً من بيت الله الحرام في مكة، ولكنه لم يستطع، لذا قصد الكعبة ليهدمها كي يضطر العرب للحج إلى القليس وسار بجنده، وكلما حاربته قبيلة انتصر عليها، حتى وصل إلى الطائف، فاستقبلته ثقيف، وأرسلت معه (أبا رغال) ليدله على الطريق، إلا أن الله قد ردّه بأن أرسل عليه طيراً أبابيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾[١]. فهلك أبرهة وأكثر جنده، فقام ابنه (يكسوم) من بعده في اليمن، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، وبعد ذلك استعاد الحكم سيف بن ذي يزن الحميري الذي سار إلى الروم فلم ينصروه، فذهب إلى النعمان بن المنذر عامل الفرس على الحيرة، فوفد به إلى كسرى ملك الفرس فأنجده، وانتصر على الحبشة، وقتل مسروق بن أبرهة واستعاد ملكه، بعد أن حكمت الحبشة اليمن اثنتين وسبعين سنة، وبقي الفرس في اليمن حتى بعثة رسول الله ﷺ، وكان والي الفرس على اليمن هو (باذان) وقد دان بالإسلام هو ومن معه. والعرب الذين أقاموا باليمن ومن خرج منها قد عرفوا بالعرب العاربة لأنهم أصل العرب وأول الذين تكلموا العربية إذ أنهم ينتمون إلى قحطان بن عاد من نسل سام بن نوح، عليه السلام.

وأما العرب المستعربة فهم الذين ينتمون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، إذ لم يتكلم العربية حتى جاورته قبيلة (جرهم) وصاهرها، وتعلم العربية منها، وعندما توفي تولى مكانه ابنه نابت، ثم تغلبت (جرهم) على مكة وحكمتها، واستمرت في حكمها حتى بغت، وأكثرت الفساد فيها، وغدت الفاحشة في البيت الحرام، وزنا رجل اسمه (أساف) بامرأة يقال لها (نائلة)، وكانت عقوبة الله عليهما مباشرة، وكان لهما تمثالان في الكعبة، ليعتبر الناس، وكان أن أدى إلى عبادة هذين التمثالين فيما بعد. ولم يحدث قتال بين (جرهم) وبني إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم لصلة القربى بينهما ولحرمة البيت.

---

(١) سورة الفيل: الآيات ١ ـ ٥.

وجاءت خزاعة من اليمن إثر سيل العرم، وسكنت قرب مكة، فلما بغت (جرهم) قامت إليها خزاعة، ووقف بنو إسماعيل على الحياد، فتغلبت خزاعة، وأجلت جرهم عن البيت، فعادت إلى اليمن على حين حكمت خزاعة مكة، وفي أيامها دخلت عبادة الأصنام، إذ أن أحد حكامها وهو (عمرو بن لحي الخزاعي) قد خرج من مكة إلى الشام، فلما وصل إلى (مؤاب) من أرض (البلقاء) وجد فيها قوماً من العماليق يعبدون الأصنام، فقال لهم: وما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. كما يقال: إن بني إسماعيل وكانوا قد أبعدوا عن أمر البيت فكانوا إذا خرجوا منها أخذوا معهم حجراً من حجارتها، فإذا أظعنوا في مكان وضعوه، وطافوا به على أنه جزء من الكعبة، فانتشرت بعد ذلك عبادة الأصنام والأوثان. وهكذا بُدّل دين إبراهيم، عليه السلام، ولم يبق من أثره إلا تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفات ومزدلفة، وهدي البُدن، والإهلال بالحج والعمرة.

وتكاثر بنو إسماعيل، وكانت كنانة قد أقامت قريباً من البحر، إلى الغرب والجنوب الغربي من مكة، وقريش فرع منها، إذ أن قريش إنما هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقد استطاع أحد وجهاء قريش وهو قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ أن يجُلي خزاعة عن مكة، وأن يحلّ هو محلّها، وكان سيد قريش آنذاك. وكان لقصي من الأولاد عدد أشهرهم عبد مناف الذي كان له هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل فتقاسموا الزعامة، ونافس أمية بن عبد شمس عمه هاشماً، وكان لهاشم عبد المطلب الذي كان سيد مكة يوم حاول أبرهة الأشرم غزوها، ولما رأى أنه لا يستطيع ردّ الأحباش عنها خرج إلى ظاهر مكة وقال: إن للبيت رباً يحميه، فردّ الله كيد الأحباش في نحرهم، وأهلكهم بالطير الأبابيل ـ كما ذكرنا ـ وعرف هذا العام بعام الفيل إذ كان أبرهة يركب فيلاً عظيماً، وفي

هذا العام ولد سيد البشر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عليه أفضل الصلاة والسلام، قبل الهجرة باثنين وخمسين عاماً.

وكان أبناء إسماعيل قد توزعوا في أماكن متعددة فكل من ينتمي إلى فهر (قريش) يعد قرشياً، وهم اثنا عشر بطناً، ومن لا يتصل به من ولد إسماعيل يعد من العرب المستعربة أو العدنانيين، وليس من قريش. ومن أشهرهم: عبد القيس في البحرين، وبنو حنيفة في اليمامة، وتغلب في الجزيرة الفراتية، وعبس، وشيبان، وغطفان في نجد، وثقيف، وسليم، وهوازن في شرقي مكة وشمالها، وغفار، وجهينة، وبلى، وتنوخ على الساحل، وأشجع، وفزارة حول المدينة.

وانتشرت عبادة الأصنام في كثير من ديار العرب، فقد كان صنم (ود) في دومة الجندل (الجوف)، وهو لكلب وقضاعة، وكان (يعوق) لقبيلة مذحج، وكانت أرض الطائف مقره، وكان (نسر) في اليمن، وتعبده حمير، وهو على شكل طير، كما كان (يغوث) بأرض اليمن أيضاً، وتعبده همدان.

إذن فإن الأنبياء الذين جاءوا لسكان بلاد العرب كان عددهم قليلاً، وذلك قبل محمد بن عبد الله وهم: هود وقد كان في الأحقاف حوالي عام ٤٦٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة عاد.

صالح وقد كان في وادي القرى حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل إلى قبيلة ثمود.

شعيب وقد كان في بلاد مدين حوالي عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لشعب مدين وما حولها.

إسماعيل وقد كان في مكة المكرمة حوالي عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة جرهم.

وعلى هذا تكون جزيرة العرب قد بقيت دون نبي أكثر من ٣٤٠٠ عام دون رسول منذ أيام شعيب، عليه السلام، عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة وحتى بعثة رسول الله ﷺ عام ١٣ قبل الهجرة، ولهذا كانت بعثة محمد بن

عبد الله، عليه أفضل السلام، على فترة من الرسل، وكان الناس قد غيرّوا كثيراً وبدّلوا، فأشركوا بالله وعبدوا الأصنام، وارتكبوا المحرمات، وفعلوا المنكرات، وظلموا أنفسهم، وظلموا الناس، وما انتشر في البلاد من عقائد نصرانية ويهودية لم تفعل شيئاً، لأن أتباعها قد حرّفوا ما جاءت به من صفاء، واتبعوا أهواءهم، ولم تكن أعمالهم أفضل بكثير من أعمال المشركين الذين يعيشون معهم إن لم نقل أنها كانت تتشابه في كثير من الطقوس والشعائر، ويتفق بعضها مع بعض. هذا إضافة إلى الجهل وقبول الخرافة والإيمان بالأساطير، ولعلنا نستطيع أن نلقي أضواء على بعض جوانب حياة المجتمعات في تلك الأرض قبيل بعثة رسول الله ﷺ وباختصار شديد.

كان أكثر السكان في البوادي يحيون حياة الرعي والبداوة، ويتنقلون باستمرار بحثاً عن الماء والمرعى، ولا يجدون مجالاً للاستقرار والراحة، وحيث وجدوا ما يسعون إليه ضربوا خيامهم، وأخذوا يفتشون عن مكان سواه، وكثيراً ما يحصل التنازع بين القبائل على إحدى البقاع التي تتوفر فيها المراعي أو عرفت بوجود المياه فيها، ولكل قبيلة منازلها المعروفة وبقاعها المحدودة لا تتعداها، وتقوم الحروب بين هذه القبائل، وقد تستمر السنوات ويكون السبب تافهاً لدرجة. وتقوم حياة هؤلاء السكان على تربية الماشية وما تنتجه من ألبان ولحوم وأصواف، واقتصرت بيوتهم على الخيام لسهولة نقلها معهم حيثما رحلوا، وسهولة اقتلاعها وضربها حيثما حلوا.

وإذا وجدت المياه في مكان قامت عليه واحة، وقامت معه الزراعة، وقامت معه البلدة، وإن كان غالباً ما تكون الزراعة بأيدي العبيد إذ يأنف الناس الزراعة، ويعدونها من عمل الضعفاء كالنساء والعبيد، أما هم فمهمتهم الانتقال وراء الحيوانات أو السعي وراء الغزو، وإذا قامت البلدة شيدت دورها من المادة التي تقدمها لهم الطبيعة بسخاء، فتكون من الحجارة أو الطين، مثل (يثرب) و (الطائف)، و (حجر) وغيرها، كما أن المنطقة التي تقع على أطراف البادية توجد فيها بعض المدن التي قامت

بسبب وجود أسواق يتبادل فيها سكان البادية والحضر منتوجاتهم، الأمر الذي جعل عدداً من المدن تقوم على طول أطراف البادية، وتشتهر بالتجارة مثل مكة، ويثرب، ودومة الجندل وغيرها، وغدا لهذه المدن تجارات واسعة تتجاوز الجزيرة فكان أهل مكة يصلون إلى بلاد الشام في فصل الصيف، وإلى اليمن في فصل الشتاء، وكان سوق دائم في دومة الجندل، لذا كانت المدن هذه طريقاً للقوافل، فهي إذن سوق ومركز على طرق التجارة، كما كانت هناك أسواق موسمية، وأشهرها عكاظ التي تعقد في موسم الحج في كل عام.

ولكل قبيلة أفرادها الذين يفتخرون بها، وتدافع عنهم. وتُعد القبيلة كتلة واحدة تشترك جميعها في دفع الدية إذا اقتضى الأمر، وتحاول أن تأخذ بثأر من يصيبه مكروه من أفرادها. والفرد فيها يطيع ويسمع، فإذا رفض شيئاً لفظته القبيلة وعُدّ طريداً، وقد يأخذ طريقه إلى قبيلة ثانية يتحالف معها ويعد مولى لها. وقد تتحالف قبيلة مع أخرى لصلة في النسب أو لمصلحة ضد قبيلة ثالثة. وربما لفظت قبيلة أحد أفرادها ولم يلجأ إلى غيرها، وإنما يبقى وحيداً، يغير على القوافل، ويسطو على ما ليس له، وهذا ما يسمى بالصعلكة، وقد يلجأ الصعلوك إلى الكسب من الغارة وإعطاء من يجد أنه بحاجة ولا يستطيع الإقدام على ما يقوم به هو لضعف، أو عجز، أو صغر في السن، أو أن تكون امرأة.

ونتيجة للتفاخر بالقبيلة فقد وجدت معرفة النسب، كما وجد لكل قبيلة شاعر يفتخر بأيامها وأحسابها وفضائلها، ولها خطيبها أيضاً المدافع عنها لذا كان للأدب دور بارز في تلك الحياة، وما اشتهر من القصائد، وأجمع على قوتها علقت على جدران الكعبة فعرفت باسم المعلقات.

ومن حياتهم العامة في الانتقال بالأسفار والسير وراء القطعان، فقد رصدوا النجوم وموقع الكواكب، لتهديهم السبيل في سيرهم ليلاً، وتأثروا بالقمر الذي يمدهم بالنور ليلاً حيث يسمرون، لذا كان التقويم على أساسه، على حين أن الشمس تعطيهم الحرارة الشديدة التي تجبرهم على

البقاء في خيامهم نهاراً. وأعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال مستعملة حتى الآن مثل عطارد، والزهرة، والثريا، والفرقدان و. . . . كذلك فقد كان للقيافة ومعرفة الأثر دور كبير في حياتهم العامة.

وكان لطبيعتهم والانتقال وراء الحيوانات في سبيل المرعى والماء أثر في معرفة الجو، وترقب هطول الأمطار، ومعرفة الغيوم الممطرة منها، والخلب، وهو ما عرف بعلم الأنواء.

وأفادوا من النباتات في التداوي، وكان للكاهن أثر في حياتهم الاجتماعية ومداواة مرضاهم، هذا بالإضافة إلى النظر في النجوم، والتطير. . .

أما المجتمع فكان ينقسم إلى طبقات يأتي في رأسها شيوخ القبائل إذ كان لكل قبيلة شيخ لا تخرج القبيلة إلا برأيه، ويساعده مجلس من رجال القبيلة أكثرهم من المسنين الذين يعرفون مساقط القطر وأنساب القبائل أكثر من غيرهم هذا بالنسبة إلى البداوة، أما بالنسبة إلى سكان المدن فكان يأتي في رأس الطبقات الأغنياء وأصحاب التجارة الذين يستطيعون بأموالهم أن يشتروا العبيد، وأن تكون لهم الكبرياء في الأرض، ويضاف إلى الأغنياء الأقوياء الذين لهم عدد من الأولاد والإخوة يستطيعون بهم أن يفرضوا رأيهم، وأن تكون كلمتهم هي المسموعة، وإذا خالفهم أحد أرهبوه بالقوة وأسكتوه بالعنف، لذا يخشى جانبهم وتكون لهم السيادة. وفي مكة بشكل خاص كان يضاف إلى رأس الطبقات سدنة البيت الحرام وحجّابه وحملة لواء قريش. وقد كان قصي بن كلاب سيد قريش هو الذي بيده الحجابة والسدانة وحمل اللواء، وقد تسلم هذا بعد أن تولى أمر مكة من خزاعة، وأحدث الرفادة وهي إطعام الحجيج، والسقاية، وبنى دار الندوة. فلما كبر قصي وضع هذا الأمر في يد أكبر ولده وهو عبد الدار، إلا أن الأبناء قد اختلفوا بعد أبيهم، وانقسمت قريش فرقتين، ثم اتفقوا أن تكون الرفادة والسقاية بيد عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء ودار الندوة في بني عبد الدار، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام.

وقريش كلها كانت تفتخر على العرب، فتقف في مزدلفة على حين تقف بقية العرب في عرفة، وتجبرهم أيضاً على لباس نوع خاص من الثياب أو تستعير من قريش وإلا كان عليهم أن يطوفوا عرايا، واستمر ذلك حتى أبطله الإسلام.

أما بقية أفراد المجتمع فكانوا في الدرجة الثانية إلا إذا قوي أحدهم بماله الذي آتاه الله، أو بعبيده الذين اشتراهم فيما بعد، أو بقوته حيث يستطيع أن يمنع نفسه، حتى إن الضعيف كثيراً ما كان يخشى الفقر فيقتل ولده أو يئد ابنته خوف الفقر والعار. يضاف إلى هذا العبيد والإماء الذين كانوا يكثرون في كل مكان، وعلى كاهلهم تقوم الحياة الاقتصادية، فهم الذين يحلبون النوق والأغنام، ويزرعون إن كانوا يقيمون في الواحات، أو يسيرون وراء الحيوانات بإشراف أحد الكبار، أو يخدمون في القوافل التجارية التي يشرف عليها أحد الزعماء، وقد يمتهنون مهنة أخرى كالحدادة وغيرها وهذه المهن يأنف المجتمع العربي بأفراده أن يعملوا فيها لذا عليهم أن يوكلوها إلى الأرقاء والعبيد واستمر هذا الوضع حتى جاء الإسلام.

وكانت المرأة على مستوى من الانحطاط لا يصل بها إلى درجة الإنسانية إلا في حالات قليلة، فكان يتصرف بها كالمتاع، وكانت الدعارة في صور شتى، شأنه في ذلك شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث. وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذا طهرت من طمثها ـ: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن

يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان مِن أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل. والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عمن جاءها... وهن البغايا وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافه، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك».

وكانت الخمرة والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية، ومن مفاخره كذلك، وكان يجتمع الكثير من الناس من أجل شرب الخمرة ومعاقرتها، وتدار الكؤوس... وتدور الرؤوس... واستمر ذلك حتى جاء الإسلام وحرمهما.

وكانوا يفخرون بالكرم الذي يصل إلى كثير من الأحيان إلى حد الإسراف الذي يجعل المرء بعدها فقيراً معدماً خوفاً من أن ينعت بالبخل أو عدم الكرم على الأقل، وبقي ذلك حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك الإسراف.

وكان القتال بين القبائل بعضها مع بعض ضد قبيلة أخرى، وإن أشهر الحوادث الحربية هي التي دارت رحاها بين القبائل العدنانية نفسها أو بينها وبين القبائل القحطانية، وقد عرفت باسم «أيام العرب» وقد تحدث بين بطني القبيلة الواحدة، كما تم بين عبس وذبيان أو بكر وتغلب، وأشهر هذه الأيام:

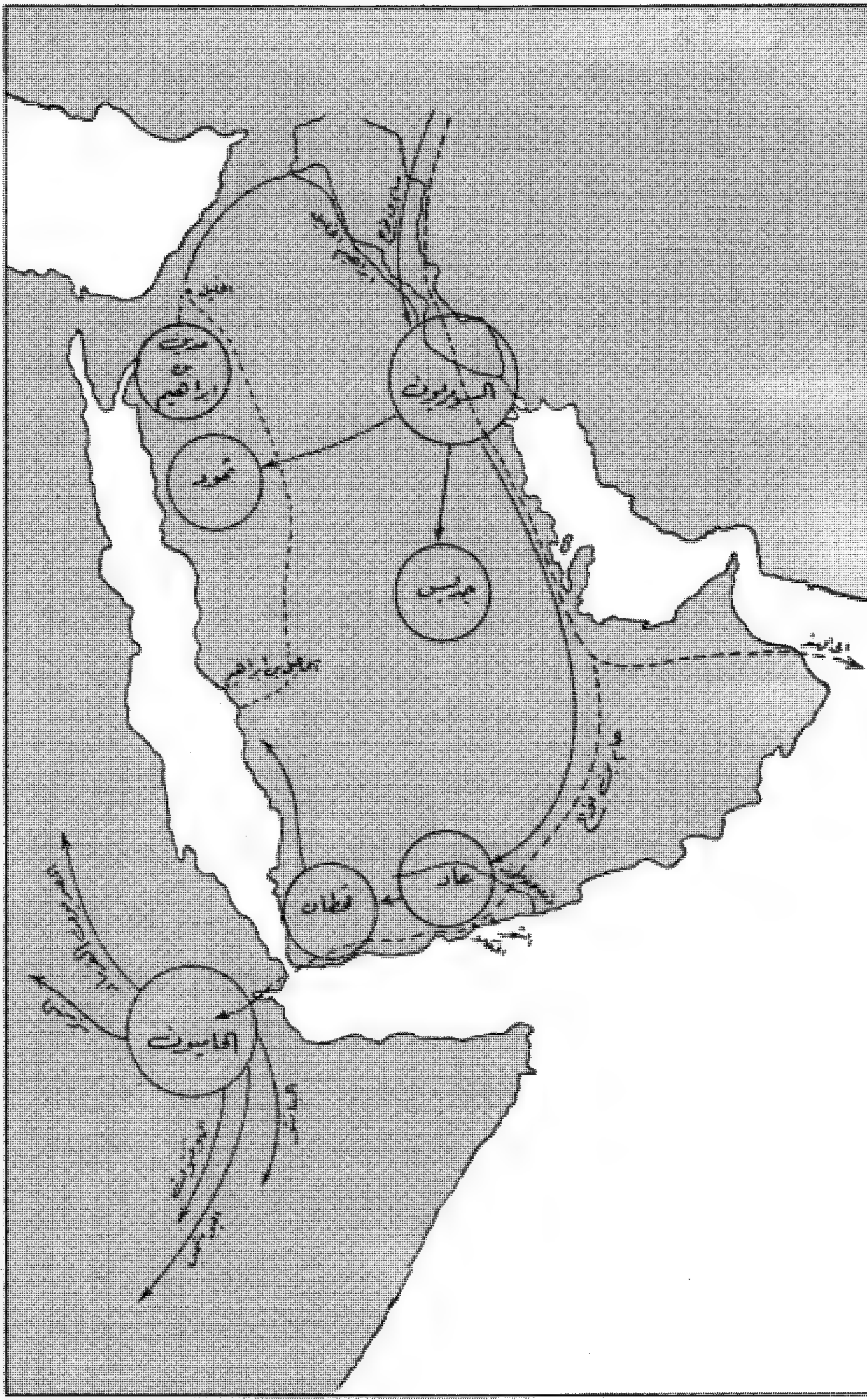
١ ـ حرب الفجار التي دارت رحاها بين قيس من جهة وكنانة وقريش من جهة ثانية، وسميت بحروب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

٢ ـ يوم داحس والغبراء: وقد وقعت بين عبس من جهة وذبيان وفزارة من جهة ثانية.

٣ ـ يوم بعاث: ووقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب.

٤ ـ حرب البسوس: ووقعت بين بكر وتغلب...

هذا المجتمع كان بأشد الحاجة إلى نبي يأخذ بيده نحو الخير ويهديه السبيل، كما كان العالم كله بحاجة إلى رسول يعيده إلى الحق بعدما لعبت أهواء الجاهلية فيه فعاش بحالة من البؤس، وكانت الديانات السماوية قد حُرِّفت وبدلت وأصبحت تعاليميها الموضوعة وفق أهواء واضعيها، وكانت الرسالة الجديدة تقتضي أن تكون عامة للبشر جميعاً، ناسخة ما قبلها وهذا ما كان برسالة محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، وهو ما نجده في القسم الثاني ـ إن شاء الله ـ.


السومريون
ثمود
عاد
قحطان

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الأمة المسلمة	١٥
الخلق الأول	٢١
خطوط عريضة	٢٨
تاريخ بلاد الرافدين وآسيا	٣٣
في بلاد الشام	٤٣
في مصر وإفريقية	٦٤
في جزيرة العرب	٧٩

التاريخ الإسلامي

— ٢ —

السيرة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

[الأحزاب: ٢١]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَبعد: فهذا هو الجزء الثاني من كتاب التاريخ الإسلامي الذي قررت وضعه - بإذن الله - ليعطي صورة واضحة عن هذا التاريخ الطويل، بعد أن عبثت به أيدي مؤرخي الفرق وأدبائها، فبدا مشوهاً. وإذا كان الجزء الأول قد شمل مدة تاريخية طويلة تمتد عشرات القرون، بينما شمل هذا الجزء الثاني مدة لا تزيد كثيراً على نصف قرن، فذلك لأن مرحلة ما قبل الإسلام لا تهمنا كثيراً في مرحلتنا الحاضرة في بناء الأمة وسلوك الأفراد، وانتشار الدعوة، إضافة إلى أننا لا نعرف عن تلك المرحلة شيئاً كثيراً، بل لا تزال بعض نقاط منها غامضة على الرغم من التوسع العلمي، وكشف الحضارات. فقد تأخرت معرفة الكتابة، واندثرت معالم حضارات، وأبيدت أقوام، ولا نعلم عنها شيئاً، وما نعرفه لا يكاد يوثق به، اللهم إلا إذا استثنينا ما ورد منها في القرآن الكريم، والقرآن ليس كتاب علوم يبحث في الحضارات أو تاريخ الأمم، وإنما هو كتاب هداية ومنهج حياة، وإذا كانت قد وردت فيه بعض الآيات التي تشير إلى حياة مجتمعات سابقة فما ذلك إلا لأخذ العبر والدروس منها، وكذلك فقد وردت فيه بعض الآيات الكونية التي تدل على حكمة الله وتدبيره وأنّه هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، لا لتبحث في الفلك والكون.

ولأن سيرة محمد بن عبد الله ﷺ، وهو خاتم الأنبياء وآخر الرسل كانت أسوةً لكل إنسان في سلوكه وعمله، وقدوةً لكل داعية في تصرفه ونشاطه، ونبراساً لكل قائد في منهجه ومعاملته لجنده، وكانت دولته التي أنشأها منهجاً لكل دولة تريد أن تسير على نهج الله، وتطبق شرعه، وترغب لأتباعها السعادة والحياة الفاضلة الكريمة. وسيرة هذا الرسول الكريم سيرة تاريخية كاملة لا توجد فيها أية ثغرة مجهولة أو مرحلة غامضة.

وسيرة الأنبياء والرسل هي التي تصلح أن تكون قدوة للناس على حين لا يصلح غيرها من سير الأبطال والزعماء التي لا تحوي إلا جانباً معيناً من جوانب الكفاءات والقدرات، مكّنها أن تحتل هذا المركز، وصعّد ميولها مصلحة أو هوى، فعنترة أبرزته فتاة، ونابليون أظهره ولعه بالنساء، وكم من رجل مشهور ما طارت شهرته إلا من وراء ماله الذي حرص عليه، أو حبه للزعامة التي سعى إليها، وأمضى حياته في سبيل ذلك، وهذه سبيل غير المسلمين، بينما تشمل سير الرسل والأنبياء جوانب الإصلاح كلها، وقد جبلوا بالفطرة عليها، فالله أعلم حيث يضع رسالته، ولم يكن لرسول غرض في هذه الحياة الدنيا سوى رضاء الله وتنفيذ ما أمره به.

وإذا كان قد كتب في سيرة رسول الله ﷺ، الكثير إلا أن هذا لا يمنع من كتابة الأكثر، فربما أطنب كل كاتب في جانب، وأجاد في ناحية، فيتمم عندها بعض هذه الكتب بعضها الآخر، وتكون الفائدة المرجوة، ولربما سلّط بعض الكتاب الأضواء على ناحية، فاستطاع من خلال ذلك أن يأتي بجديد، فتكون السيرة بذلك أكثر نمواً، وتمدّنا بالجديد باستمرار، ونتلمس منها الخطا الحركية على الدوام، هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من أنها القدوة الصالحة، فهي لذلك بحاجة إلى الكتابة فيها باستمرار، ليطلع النشء عليها، ويتعرف الناس عليها بأساليب مختلفة ومستويات متنوعة، وخاصة أن لكل كاتب قراءً معينين، فلو كتب فيها عدد من الرجال لكان الاطلاع أكثر، ولكانت الفائدة المرجوة أكبر ـ بإذن الله ـ.

وإذا كان المؤرخون السابقون قد اقتصر أكثرهم على ذكر الأحداث

والوقائع والروايات التي وصلت إليهم عن حادثة معينة، فقد حرصت على إعطاء الصفة العامة للسيرة من خلال ما يتراءى لي، وقد أوفق في بعض الجوانب، وقد يجانبني التوفيق في جهات أخرى، وكنت أحرص على قراءة بعض الخطا الحركية في سيرة رسول الله ﷺ، لتكون نبراساً لنا، ودافعاً حركياً لمن يبغي الحركة والدعوة، والذي أرجوه أن يكون عملي خالصاً لله. كما أني لم أكن حريصاً على ذكر الوقائع حسب تسلسلها التاريخي، وإنما كنت أضع الحادثة ضمن إطارها العام بغض النظر عن تاريخها الزمني، وإن كان هذا لم يحدث إلا خلال عدد قليل من الحوادث، ولم تتأخر كثيراً عن زمنها.

وقد قسمت الموضوع إلى أربعة أبواب: تحدثت في الأول منها باختصار عن طبيعة الرسالة، وتكلمت في الثاني منها عن نشأة محمد ﷺ، وشرحت في الثالث منها عن الدعوة في مكة، وجعلته فصولاً ثلاثة هي: دعوة الرسول ﷺ السرية، والجهر بعد ذلك بالدعوة، ثم العمل على تأسيس الدولة، أما الباب الرابع فقد فصّلت فيه عن الدعوة في المدينة وجعلته أيضاً ثلاثة فصول هي: العمل على تأسيس الدولة ومحاولة المشركين القضاء على هذه الدولة، ثم بدء توسع الدولة الإسلامية.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطا والأجر في الآخرة، وهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة المحرم ١٣٩٩هـ

محمود شاكر

الباب الأول

الرِّسَالَة

طبيعة الرّسالة

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل أمةٍ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين، ويعرّفهم بالله جلت قدرته، ويرسم لهم الطريق السوي ليسلكوه، وليعيشوا في راحةٍ وأمن وطمأنينة، فيؤلفون مجتمعاً فاضلاً، وأمة مسلمة قائمةً بأمر الله تطبّق نظامه في الأرض، لتكون أمة مستخلفة في هذه المعمورة كما أراد لها ربها.

وما دام الرسول لشعبٍ من الشعوب فلا بدّ من أن يكون منهم، يخاطبهم بلسانهم، ويتعامل معهم في حياتهم اليومية العادية، وبذلك يكون أسوة لهم، ولا يمكن أن يكون إلا منهم، لأنه لو كان من غيرهم لما فهموه أو لكانت عاداتهم تختلف عن عاداته فيقع الانفصام بين الطرفين، ولا يمكن أن يتمّ الذي أراده الله لهذا الشعب من الهداية والخير، حتى ولو كان من الملائكة لما تمت الحكمة من الرسالة إذ يحتج بنو البشر فيقولون: إنا لا نستطيع أن نقوم بما تقوم به الملائكة فطبيعتنا غير طبيعتهم، وطاقاتنا تختلف عن طاقتهم، وما كان الله ليكلف نفساً إلا وسعها.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[1] ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾[2] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٥.

هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾(١).

ولما كان كل شعب يعيش منعزلاً تقريباً عن بقية الشعوب لصعوبة الاتصالات آنذاك، ولطبيعة الحياة في ذلك الوقت، أرسل الله لكل شعب نبياً، ولكل مجتمع رسولاً خاصاً بهم، فلما تطورت المواصلات وزادت الاتصالات بين الشعوب، كان لا بد من دعوة جامعة لبني البشر تتمثل في رسول يجمع الدعوات، ويختم الرسل، ينسخ ما كان خاصاً بقوم، ويضم ما تشترك به البشرية جمعاء، وهذا ما كان في نهاية المطاف. وكانت دعوة الأنبياء جميعهم إلى عبادة الله وحده والاستسلام والانقياد إليه سبحانه وتعالى، وكانت الجماعات التي تتبعهم أمة مسلمة واحدة من بداية الخلق إلى آخره. يقول الله جلت قدرته بعد أن يعدد أكثر الرسل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾(٢) ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾(٣).

ولما كانت الشعوب كثيرة ومتعددة كان لا بد من أن يكون هذا الرسول الخاتم للأنبياء من أحد هذه الشعوب، ولا داعي لأن تحتج بقية الشعوب على أنه ليس منها، إذ لو لم يكن من واحد منها لكان من غيرها، ولو كان من غيرها لكان قول البقية كذلك، ولكان لها الاحتجاج نفسه، ولكن يمكن أن يكون من شعب وسط بين هذه الأمم، وهذا ما كان في الشعب العربي، الذي تقع بلاده في موقع وسط يمكن أن تكون الدعوة من هذا المكان إليها جميعها، وإذا كانت الأرض كروية ويمكن أن تكون كل بقعة هي المنطقة الوسط إلا أن ما كان معموراً تقريباً لم يكن ليزيد على البر القديم أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وفي منتصف هذه البقعة تقع جزيرة العرب، هذا إضافةً إلى أن القسم الباقي تغطي المياه

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

أكثره، ويقصد بالوسط ما كان من اليابس. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾(١)، وكذلك يجب أن يكون في أمة قد قل فيها الأنبياء لتكون له قيمته إذ لو كان في أمة كثر فيها الأنبياء لعُدّ مثل واحد منهم، وقد اعتاد الناس أن يسمعوا كثيراً بهذه الكلمة، وهذا ما كان في العرب، فلم يكن فيهم من الأنبياء إلا إسماعيل وهود وصالح، عليهم الصلاة والسلام. وكذلك يمكن أن يكون على فترة متباعدة من الرسل في هذه الأمة حتى تتهيأ النفوس لتقبل الدعوة، وتنتظر ذلك النبي لينقذها مما تعاني، فقد مضى على رسالة إسماعيل أكثر من ألفين وخمسمائة عام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾(٢)، وقد كان أهل الكتاب يعلمون بعثة خاتم الأنبياء وقرب موعد ظهوره بل ومكانه حيث كانت كتبهم تشير إلى ذلك، وعرف هذا الأحبار والرهبان وكانوا يستفتحون على المشركين بقرب ظهور الرسول وأنهم سيؤيدونه، ويدعمونه، ويؤمنون به، ويقاتلونهم معه، فلما بعث النبي الكريم، وعرفوه حقاً، أعماهم الحقد، وأضلهم اللؤم، فكفروا به، وعادوه، ووقفوا بكل إمكاناتهم في وجه الدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾(٤)،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٢) سورة المائدة: الآية ١٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٨٩.
(٤) سورة الصف: الآية ٦.

ويبدو من حديث سيدنا سلمان الفارسي، رضي الله عنه، أن النصرانية كانت عند اقتراب بعثة سيدنا محمد ﷺ، قد انتهت بشكلها الصحيح، وحرّفت إلى شكل أقرب إلى الشرك منه إلى التوحيد. قال سيدنا سلمان: «كنت رجلاً فارسياً من أهل (أصبهان)[١] من قريةٍ يقال لها: (جَيّ)[٢]، وكان أبي (دِهقان)[٣] قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته، كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت (قَطْن)[٤] النار الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. قال: فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، وهم يصلّون، وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم، أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي، فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت له: يا أبت، مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير

---

(١) أصبهان: أصفهان مدينة بإيران تقع إلى الجنوب من طهران على بعد ٣٥٠كم منها.

(٢) جي: ناحية أصبهان، وتسمى هناك شهرستان، وهي الآن أطلال خربة.

(٣) الدهقان: المرجع الأول في شؤون الزراعة بالقرية.

(٤) قطن النار: خادم النار.

من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟. قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه، قال: وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. قال: فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قال: فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قال: قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. قال فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. قال: فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه.

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله. قال: فأقمت معه زمناً طويلاً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني قد كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بنيّ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل،

وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالْحق به. قال: فلما مات وغُيّب، لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بنيّ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين[1]، وهو فلان فالحق به.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبه، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِر قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان قد أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، قلت: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بنيَّ والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا، آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية[2] من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فائتِه، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل، على هدي أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حُضِر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وبمَ تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس، آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو

---

(١) نصيبين: بلد من بلاد الجزيرة، وهي الآن في تركيا على الحدود السورية تقابل بلدة القامشلي.

(٢) عمورية: بلدة في تركيا، في الجزء الغربي منها إلى الجنوب الغربي من أنقرة، وهي على بعد عدة كيلومترات منها.

مبعوث بدين إبرهيم، عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجِره إلى أرض بين حرتين[1]، بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل[2]. وقد انتقل سيدنا سلمان إلى هناك وأسلم، وكان من الصحابة المعروفين، رضي الله عنه.

وكذلك فإن أهل الشرك في جزيرة العرب قد شعر بعضهم بما آل إليه أمر قومهم من الشرك والبعد عن دين سيدنا إبراهيم على الرغم من أنهم كانوا يدّعون ذلك. قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنةٍ يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً[3]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم. وقد فارق زيد دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤدة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه. وروي أنه كان يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.

كل هذا يدل على أن الأوضاع كانت بحاجة إلى رسول ينقذ هذه

---

(١) الحرة: الأرض البركانية ذات الصخور الوعرة، والمدينة المنورة تقع بين حرتين إحداهما في الغرب منها والثانية إلى الشرق. (٢) سيرة ابن هشام.

(٣) النجي: الجماعة يتحدثون سراً عن غيرهم، ويقع للاثنين والواحد بلفظ واحد.

البشرية التي تتخبط في الظلمات، وكانت النفوس مهيأة لذلك، والكتب السماوية قد أخبرت، والأحبار والرهبان يعرفون ما في هذه الكتب، وصفات النبي معلومة، وكل شيء يشير إلى ذلك.

فالرسالة الإسلامية جامعة للرسالات ناسخة لها، وهي للبشر جميعاً، وصاحب الرسالة محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والرسل كلهم، وكان من أمة وسط، وكان شهيداً على الناس جميعاً، جاء على فترة من الرسل، وتنطبق أحكام منهجه على أبناء البشر أجمعين.

وتختلف رسالة الإسلام عن بقية الرسالات، فإذا كانت كلها خاصة بشعب أو أمة واحدة، وقد ضمت تشريعات تتفق ومصالح تلك الأمة، وإن بعض هذه الرسالات لم تكن تضم تشريعاً في الأصل، إذ لم تكن لدعوتها دولة قامت في عهد نبيها، فالرسالة الإسلامية كانت جامعة. أما النصرانية مثلاً فليس فيها تشريع عام لأنها لم تقم لها في عهد سيدنا عيسى، عليه السلام، دولة لتتنزل إليها التشريعات، وإنما قامت الدول النصرانية من بعده حين انتشرت الفكرة، ورفع سيدنا عيسى إلى السماء، وهو لم يزد عمره على الثلاثة والثلاثين عاماً، بينما نلاحظ أن سيدنا محمداً، عليه الصلاة والسلام، قد بعث وهو في الأربعين من عمره، وانتشر الإسلام في أيامه وكوّن حكومة في المدينة المنورة امتد سلطانها على جزيرة العرب كاملة. وهذا أمر طبيعي فما نزل من القرآن الكريم قبل أن يكون للإسلام دولة عندما كانت الدعوة لا تزال في مكة لم يكن ليضم تشريعاً، وهذا ما نلاحظه في السور المكية، وإنما نرى التهديد والوعيد للمشركين والوعد والبشرى للمؤمنين، ونرى آيات الله بينات على قدرته، ونعمه على مخلوقاته، أما الآيات التي نزلت في المدينة فكان فيها التشريع لتلك الدولة القائمة للإسلام. أما الديانة اليهودية فقد نزل لها منهج خاص ببني إسرائيل، يتفق وأسلوبهم في الحياة، ولا يصلح لغيرهم من الناس. ولما كانت الديانتان اليهودية والنصرانية ليستا آخر الديانات فقد جدت بعدهما على المجتمعات أمور تحتاج إلى تبيان وحكم، وهذا ما وجد في الرسالة

الإسلامية على كونها آخر الرسالات وخاتمتها، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[1].

كان كل نبي يبعث لقومه فقط، ولمدة معينة من الزمن، فما من أمةٍ إلا وأرسل لها بشير ونذير، وكانت تنتهي هذه المهمة بانتهاء تلك المدة من الزمن، أو بهلاك القوم المنذرين، أو البعد عما كانوا يقترفون من آثام، أو التخلص مما كان يلحقهم من أذى، فإبراهيم، عليه السلام، أرسل لردع قومه عن عبادة الأوثان وتعريفهم على الله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾[3]. وأرسل سيدنا لوط، عليه السلام، لمحاربة الفاحشة التي كان قومه يأتونها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[4]. وأرسل سيدنا شعيب، عليه السلام، لمنع الغش الذي شاع بين بني قومه ولإيفاء الكيل والميزان: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٥٤.
(٣) سورة مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٤.
(٤) سورة الأعراف: الآيتان ٨٠ ـ ٨١.

﴿غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1]. وأرسل سيدنا موسى، عليه السلام، لينقذ قومه من ظلم فرعون وملئه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[2]. وأرسل سيدنا عيسى، عليه السلام، لهداية خراف بني إسرائيل الضالة. وهكذا فلكل نبي مهمة بين قومه.

وامتاز بعض الأنبياء بالإنذار كنوح وموسى، حتى إذا نفذ صبر نوح، دعا على من لم يؤمن من قومه، وما آمن معه إلا قليل: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. واتصف بعضهم بالتبشير والتسامح والعفو كإبراهيم وعيسى. واتصف بعضهم بشهادة الحق كإسحاق ويعقوب. وعُرف بعضهم بالثبات والصبر كأيوب ويحيى و... وهكذا فلكل نبي سمة خاصة في دعوته، ولكن محمداً ﷺ، كانت صفاته تجمع ميزات الأنبياء كلهم. فقد كان بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، لذلك يمكن القول: إن الاقتداء به إنما هو اقتداء بالأنبياء جميعاً، ويمكن أن نجد في سيرته ما يمكن أن نأخذه من سيرهم من الصفات البارزة والسمات الواضحة المعالم.

وكذلك فدعوته تجمع الدعوات السابقة حيث جاءت جامعة فهي لبني البشر كافة، بينما كانت دعوات من سبقه من الأنبياء لأقوام معينة، وقد شملت دعوته هذه الأقوام، وكذلك شملت الزمن كله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. فهي تعمّ الأقوام أجمعين، وكذلك كانت خاتمة الدعوات كلها فلن تنزل بعدها شريعة لتشملها وتشمل الزمن كله، وبذا فتمثّلها إنما يكون تمثّلاً لكل دعوات الأنبياء الآخرين جملةً واحدة، فلو أخذنا دعوة واحدة

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥.
(٢) سورة طه: الآية ٤٧.
(٣) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

سواها لكان أخذاً لجانبٍ واحدٍ وطمساً لبقية الجوانب. وكذلك فهي ناسخة لما قبلها ومتممة لها في الوقت نفسه، فلم يعد للدعوات السابقة بوجودها شأن فقد انتهت مهمتها، أو هلك من كانت لهم، وعلى هذا لا يمكن قبول قول من يقول: إننا ندعو إلى تطبيق الشريعة الموسوية أو الديانة العيسوية ما دامتا من عند الله فإضافة إلى أنهما لا تتضمنان تشريعاً أو نظاماً. وكانتا لبني إسرائيل خاصة، وعملت بهما يد التحريف، فإنهما منسوختان، والمنسوخ لا يعمل به، بل لا يمكن قبول هذه الفكرة لأنها محاولة خبيثة لبذر الشك وإبعاد الناس عن طريق الحق. وكذلك الدعوات التي تنادي بالإبراهيمية. وهي مجموعة الأديان الثلاثة. فهذا تشويه وتلبيس على الخليقة في دعوة الحق.

الباب الثاني

نشأة محمد صلى الله عليه وسلم

عهد الطفولة

لقد كانت الرسالة الإسلامية جامعة الرسالات وخاتمتها، وناسخة ومتممة لها، وكانت لبني البشر كافةً، ولهذا لا بدّ من أن يكون صاحبها على درجةٍ تؤهّله لحمل هذه الرسالة كي يؤدي الأمانة كاملة، ولا شك أن هذا الاختيار كان من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا الرسول من الأمة الوسط بين الأمم، وجعله في قريش أفضل قبائل العرب وأوسطها، ومركزها مهوى أفئدتهم جميعاً منذ أيام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وجعل نسبه في أشرفها، حيث لا يوجد بين أجداده من ولد من سفاح أو غيره، أو يُطعن في نسبه، أو يُعاب.

لقد اختار الله ـ جلّت قدرته ـ هذا النبي من شعب أقرب إلى البداوة التي لم تفسدها المدنية، والبساطة التي لم تغيّرها الرفاهية، ولم يكن من أمّةٍ متحضرةٍ عرفت الفلسفة والمناقشات، وعلمت المعارف والعلوم، تناقش في كل موضوع، وتجادل في كل بحث، ولو كان كذلك لكثر الجدال، وقيل: إن هذا الرجل قد اقتبس من علوم الأقدمين، وخالط الفلاسفة فأخذ عنهم، وفوق كل هذا فقد كان، عليه الصلاة والسلام، أمّياً لا يحسن القراءة ولا

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

يجيد الكتابة لكيلا يقول عنه أحد: إنه قد قرأ على بعض الأعجمين، أو درس الكتب التي كانت خارج الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

لقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله، وتكفّل بالعناية به، منذ أن كان نطفة، حتى وُلد وبُعث، ثم جاهد وأسس دولةً، وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكانت الرعاية الإلهية تحوطه في كل لحظة، فكانت سيرته كاملةً لا انقطاع فيها، وليس فيها مدة مهما قصرت غير واضحةٍ على الناس أو مجهولة في التاريخ لئلا يخفى شيء من السيرة حيث يمكن أن تكون حوادث هذه المدة المجهولة ذات فائدة وتكون أسوة للأتباع في بعض شؤون حياتهم. وحتى اللحظات التي يخلو فيها بنسائه، حيث كنّ يحدّثن عن هذه اللحظات بكل أدب وحكمة، ويجد المرء من ذلك القدوة لعلاقة الزوج بزوجه.

وقد كانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة تاريخية، حدثت في الواقع، وسجلها العلم، وليست من نسج الخيال وتصور الكتّاب، كما لم تكن أسطورة تعتمد على الخرافة، وتُبنى على الوهم، لذا فهي واقعية يمكن أن يتمثلها المرء في الحياة حيث تنسجم مع ما فطر عليه البشر. وهذا الواقع من السيرة معروف لدى الأعداء قبل الأنصار، وعند الخصوم الذين عاصروه قبل أصحابه الذين عاشوا معه.

وكانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة جامعة تشمل جميع نواحي الحياة، فيها حياة الشاب مع أقرانه، والزوج مع أزواجه، والرجل مع أبنائه، والفرد مع مجتمعه، والمرء في محيطه، والقائد مع جنده، والحاكم مع رعاياه، فيها صفة القائد الحكيم المنتصر، وحالة الرجل المنهزم، المرء الذي مات أبناؤه، وفقد زوجته، ومات بين يديه أصحابه، والذي غدر به الغادرون، وحمل عليه الأهل والجوار، وعتا عليه الوجهاء، وخاصمه

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

الزعماء، وناصره المستضعفون، وعُذِّب أمامه أنصاره وهو لا يقدر على شيء. في حياته المنهج الذي شرعه، والطريقة التي سار عليها، فيها علاقة الدولة مع غيرها، فيها حياته في العسر واليسر، والمنشط والمكره، في الشدائد والعقبات، في الهزائم وعند النصر، وبذلك يجد كل إنسان في حالته التي هو فيها مثلاً لها في حياة ذلك الرسول فيأخذ منها ويقتدي بها، كما في هذه السيرة حياة الطفل اليتيم والرجل الفقير، والتاجر المستأمن، والزوج الذي دون زوجه مدة من الزمن، والإنسان الذي مات أبناؤه الذكور عنه، وعاشت الإناث فقط، ثم مُتْنَ كلهن في حياته سوى واحدة منهن، ومن بناته اللاتي أنجبن، ومنهن من كن عقيماً، ومَن تعددت أزواجه فمنهن المرأة المسنة، والفتاة الصغيرة، والمختالة بجمالها، والغيور...

وكانت سيرة سيدنا محمد ﷺ، سيرة عملية يستطيع الناس ممارستها وتطبيقها، فلو كانت فوق مستوى البشر لصعب الاقتداء بها والسير على منوالها، حيث يمكن للرسول تطبيقها بقدرةٍ إلهية، ولم تكن سيرته، عليه الصلاة والسلام، لتجمع تناقضاً بين حوادث متشابهة؛ لأن ذلك أيضاً يحول دون ممارستها. وليس معنى هذا عدم وجود المعجزات له أو أمور خارقة للعادات والمألوف، ولكن كانت هذه المعجزات في غير حياته الإنسانية التي يمكن أن تكون قدوة، فالشجر والحجر قد سلّما عليه، ونبع الماء من بين أصابعه الكريمة، ونزلت الملائكة تنصره في الحرب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[2]، وقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾(1)، وفوق كل هذا فالقرآن الكريم يُعدّ المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، من الناحية الأدبية والتشريعية، حيث اشتهر قومه بالأدب والبلاغة ومع ذلك فقد تحداهم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(2)، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾(3) وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(4)، وفي القرآن الكريم آيات معجزات، سواء أكانت في الإخبار عن الأمم السابقة حيث كانت مجهولة لا يعرفها أهل الجزيرة أبداً، أم في الحديث عن المستقبل كالإخبار عن انتصار الروم قريباً بعد هزيمتهم، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾(5)، أم كانت جوانب اقتصادية واجتماعية وتشريعية تدعو صاحب كل فكر ليقنع بأن ما في القرآن ليس من كتابة إنسان مهما سمت منزلته وعلت عبقريته، إذ لا يمكنه أن يأتي بتشريع يقترب من مستوى ما في القرآن من تشريع، والذي لو طبق لعاش الناس في حياة سعيدة تماماً كما حدث في صدر الإسلام عندما طبق

---

(1) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦. (2) سورة البقرة: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.
(3) سورة هود: الآيتان ١٣ ـ ١٤. (4) سورة الإسراء: الآية ٨٨.
(5) سورة الروم: الآيات ١ ـ ٥.

التشريع الإسلامي، ولم لا؟ والله هو الذي خلق البشر وصوّرهم، فلا شك أن ما يشرعه لهم، وما ينزله عليهم سيؤمن لهم حياة سعيدة من كل جوانبها لا من جانب واحد، ولا يهمل بقية الجوانب، والله على كل شيء قدير.

عندما تتوفر هذه الشروط تكون السيرة صالحة للاقتداء، ومن خلال معرفتنا بسير الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا نجد سوى سيرة سيدنا محمد ﷺ، تتوفر فيها هذه الشروط، لأن كثيراً من الأنبياء لا نعرف من سيرهم إلا النذر اليسير، ومن نعرف من حياتهم الكثير تفوتنا حوادث وأخبار مدة من الزمن من حياتهم، الأمر الذي يحدث انقطاعاً في سيرتهم، وكلهم تقريباً ـ عدا محمد ﷺ ـ تفتقد حياتهم شمول جميع نواحي الحياة، فسيرة سيدنا موسى، عليه الصلاة والسلام، وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، ونعرف الكثير من أخباره، ولكننا نجهل كيف تربّى في بيت فرعون؟ وكيف نجا أخوه هارون من القتل؟ وكيف كانت علاقته مع زوجه وأسرته وأقربائه وأبنائه؟ وهذه نقاط أساسية في الحياة الاجتماعية، وكذلك نجهل النظام الاقتصادي والسياسي الذي سار عليه ودعا إليه. وكذلك لا يمكن الثقة بما ترويه التوراة حيث جمعت أسفارها بعد حياة سيدنا موسى، عليه السلام، بعدة قرون، الأمر الذي جعل التحريف يشمل الكثير منها مع ما أضيف عليها، وما ضاع منها، وبقيت كتابَ سيرةٍ ضمّ الكثير من آراء المؤرخين، ونظرتهم إلى صاحب السيرة، وتصورهم عنه، إضافة إلى المتناقضات التي تضمها، فلكل حادثةٍ روايتان، وقد تكونان متباينتين تماماً.

وسيرة سيدنا عيسى، عليه الصلاة والسلام، لا نعرف منها إلا القليل، إذ لا نعلم إلا شيئاً عن ولادته وطفولته، ثم تغيب عنا مراحل حياته مدة ليست بالقصيرة لتعود إلينا مرة ثانية في السنوات الأخيرة من حياته، إضافة إلى أن الأناجيل قد دوّنت بعد ارتفاعه بأكثر من ستين سنة، بل نجهل اللغة التي دونت فيها، ومن قام بترجمتها؟ فهي إذن كتب سيرة لا يوثق بها لأنه لا يعرف كاتبها وصدقه، ولا غايته وقصده، ثم نُسبت إلى الحواريين،

وحتى الكنيسة لا تعترف ببعض الأناجيل التي تنسب إلى حواريين آخرين حيث لم يرق لها ما تحويه. كما أن رهبان الكنيسة قد اجتمعوا بعد حياة المسيح بعدة قرون ليدرسوا طبيعته، وكذلك فإن حياة سيدنا عيسى لم تشمل جميع نواحي الحياة، فلم تكن له زوج لنعرف العلاقة بينهما، ولم يكن له أبناء، ولم يؤسس دولة يقودها، لنسير على خطاه وهديه في تسيير دفة الحكم وسياسة الأمور الاجتماعية والاقتصادية، ولنعرف كيف تكون علاقتنا مع الحكومات والأمم الأخرى.

هذا بالنسبة إلى الأنبياء والرسل الذين نعرف عنهم الشيء الكثير فكيف بالذين لا نعرف عنهم إلا النذر اليسير أو الذين لا نعرف إلاّ أسماءهم والأقوام التي أرسلوا إليها.

أما سيرة سيدنا محمد ﷺ، فإننا نعرفها كاملة منذ ولادته حتى انتقاله، لا يفوتنا منها شيء، ولا يغيب عنا طرفة منها حتى في خلوته مع نسائه، حيث كان ﷺ يسمح لهن بالتحدث عن تلك الخلوة والنقل عنه، إضافة إلى أن عدداً من الصحابة قد تفرغوا لصحبته والأخذ عنه، ونقلوا إلينا أخباره بدقة وأمانة، ووصلت إلينا بطرق صحيحة، ثقة عن ثقة من غير انقطاع حتى لا يغيب عنا شيء منها. وأنه، عليه الصلاة والسلام، قد عاش ثلاثة وخمسين عاماً بين أعدائه وخصومه، فلم تصل إلينا أخباره من طرفٍ واحدٍ وهو ما دوّن من جانب أصحابه وأتباعه، بل ما سجل من جانب أعدائه وخصومه أيضاً، ومن عاصروه وكان السجل واحداً تقريباً من حيث الصفات الأخلاقية والأمانة والاستقامة. وحكومته دامت أكثر من عشرة أعوام وضم نظامها التشريع الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والإداري، وجميع مرافق الحياة، وكان نجاح التطبيق كاملًا، وهو يصلح لكل وقت، ولأية مجموعة من الناس، وفي أية بقعة من الأرض. وبذا فحياته ﷺ تصلح أن تكون أسوة لمن يريد التأسي من الأفراد، ونظامه يصلح منهاجاً لمن أراد الاقتداء من الحكومات للسير في طريق الحق. إذ يتعرف كل متبع لدين على أمور دينه من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها، ثم يقتدي بها،

ويفرغ حياته في قالبها. وتتعرف كل دولة تريد سبيل الصلاح على طريق سير نبيها في حكومته، ونهجه وشرعه، ثم تقتدي بذلك، وتطبق ذلك عليها وعلى رعاياها، وعلى هذا يجب أن تكون سيرة سيدنا محمد هي السيرة الواجبة الدراسة، الواجبة الاتباع، الواجب التمسك بها.

نشأ محمد ﷺ، في مجتمع جاهلي لا يهتدي إلى الله، ولا يتبع الوسائل التي تؤدي إلى الهداية، وإنما يعبد من دون الله أصناماً وأوثاناً، ويدَّعي أنها تقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾[1]، وإضافة إلى هذا الشرك فقد كان تصورهم عن الله تصوراً خاطئاً إذ كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، وأن هناك صلة نسب بينهم وبين الجن، قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3]، هذه العقيدة جعلت بعض العقلاء في المجتمع يلمسون سوء هذا التصور وجهل هذا المعتقد، وبعده عن الصواب، ولكنهم لم يعرفوا طريق الحق، فانزووا، وادعوا أنهم حنفاء على دين إبراهيم دون أن يتوصلوا إلى التصور الصحيح والحقيقة التي ينشدونها، ولم ينكر هؤلاء الحنفاء جاهلية مجتمعهم، ولم يدعوا إلى تصور صحيح، فكان عملهم سلبياً فلم يؤثروا بأحد، ولم يظهر لعملهم هذا أي مردود. فالعمل لا يفيد بالانزواء، ولا ينفع بالعزلة، ولايجدي بالتحصن في الصوامع، والإسلام دعوة للحق في كل مجال وعلى كل صعيد، والإسلام أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وقتال ضد الباطل، وإذا وجدت المفاسد ولو على نطاق ضيق، ولم ينكرها

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

أحد، فمعنى ذلك تعاون المجتمع على تفشيها ومساعدة منه على انتشارها، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2].

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[3]. فالبقاء في غرفٍ خاصةٍ وفي أماكن العبادة والاقتصار على روادها طريقة لم يعهدها المسلمون الأوائل، ولم يعرفها المصلحون، وإنما سار عليها أولئك الذين قبلوا أسهل الأمور، وأخف الجهاد، وأضعف الإيمان.

نشأ محمد ﷺ في مجتمع يعجّ بالظلم فالقوي يستعبد الضعيف، والغني يستبد بالفقير. والعبودية معروفة، والرق قائم، ومصادره كثيرة، فالغزو والسلب والاعتداء والحروب ـ وما أكثر الحروب، وأيام العرب مشهورة ـ وكل هذا يمد المجتمع بأفواج جديدة من الرق. والأغنياء قلة والفقراء كثرة. وطريقة الإغارة مشهورة، وهي من أكبر وسائل العيش وطرق الرزق والحصول على الغنيمة والربح، والخوف على الحرية موجود في كل خطوة يخطوها الإنسان، والخوف على الملك قائم في كل لحظةٍ يغفل فيها صاحبه أو يضعف عن الدفاع عنه، ولا يستطيع أحد أن يضع حدّاً لما يحدث، ولا أن يغيّر ما يجري، بل لم تقم دعوة لذلك، وإن كان التذمر من الأوضاع القائمة يساور بعض النفوس، ولكن سيطرة الظلم أقوى من الدعوة الكامنة ضده.

نشأ محمد ﷺ، في مجتمع تكثر فيه المفاسد وتعم الرذائل، فالبغاء، والاستبضاع، والزنى الجماعي والإفرادي، وزواج أسبق الرجال إلى من

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩. (٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) رواه مسلم (٤٩) في الإيمان: باب كون النهي عن المنكر من الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري.

مات زوجها أمور كلها قائمة، وخطف الفتيات والاعتداء على الأعراض كله شائع، لا ينكره أحد، ولا تحاربه جماعة، هذا بالإضافة إلى وأد البنات، وقتل الأولاد خشية الفقر أو العار، وكله معروف، ولعب الميسر وشرب الخمر أمور تعد من المفاخر والتباهي، وليس شرطاً أن يكون المجتمع كله يرتكب هذه الأعمال حتى نقول عنها: إنها من صفاته أو إنها ملازمة له، وإنما عدم إنكارها من عدد مقبول دليل الرضى بها، وهذا ما يدعو إلى انتشارها، إلى جانب الأفكار الأخرى، وإن كانت دعوة الإصلاح قد تجد بعض التأييد لو حدثت.

نشأ محمد ﷺ، في أرض العرب التي كانت أطرافها الغنية بيد غير أبنائها، فالأحباش، والفرس، والروم يسيطرون على أجزاء منها، سواء في اليمن، أم العراق، أم الشام، وكانت قبائل عربية تدين لهؤلاء الغرباء بالولاء، وأنصار آخرون لا يؤيدونهم، وليس في العرب من يدعو إلى حرب هؤلاء الغرباء وطردهم، ولو قامت دعوة إلى ذلك لوجدت لها أنصاراً من أجل كسب المغانم على الأقل، فالحرب مصدر رئيسي لها، وهي من أهم موارد الرزق. أما وسط الجزيرة الفقيرة فكانت تنتقل فيه القبائل العربية الكثيرة، وتقوم بينها معارك طاحنة، وصراع دائم، وحروب لا تنفك، تستل السيوف لأتفه الأسباب، وتشرع الرماح لأحقر الأمور، والقبائل تفتخر بأيامها، وتعتز بأمجادها وأبطالها وباختصار: فأوضاع الجزيرة على حالةٍ لا تحسد عليها، والسكان في حالة لا ترتفع إلى مستوى بقية الأمم، وهم في وضع من التفكك، والتجزئة وانتشار الظلم والمفاسد.

نشأ محمد ﷺ في قبيلة تعد من أشرف قبائل العرب، وفي بيت من أفضل بيوت قريش وأمنعها، نشأ يتيماً فلم يعرف الأب، ولم يدرك تماماً الأم، ولم ينعم بحياة الجد ليكون في منتهى حالات اليتم، ولم يشعر بحالات الرخاء والرفاهية عند عمه أبي طالب الكثير العيال القليل المال ليكون في منتهى حالات الفقر، وهو رسول الله وأفضل خلقه، ليكون القدوة لمن فقد أهله والأسوة لمن ذاق مرارة العيش، ولم يعرف من طعم الحياة حلاوة.

نشأ محمد ﷺ، بين قومه فكان صادقاً لا يعرف الكذب، وأميناً لا يعرف الخيانة، ووفياً لا يعرف الغدر، حتى كان معروفاً في مجتمعه بهذه الصفات، مميزاً بها عن غيره، لا يجهل ذلك أحد، ولا يساويه فيها رجل، لا ينكر ذلك عدو، ولا يمكن أن يتهمه خصم. بعث ﷺ، وناصبه قومه العداء، ولكن لم يستطع رجل واحد منهم أن يتهمه بصفة غير لائقة، أو خلق يعيبه به، ولو عرفوا شيئاً من ذلك وقد عاش بينهم أربعين عاماً لأراحهم من التنقيب عن خصلةٍ غير حميدة يتهمونه بها عندما يحل الموسم، ويلتقي بالناس في الحج حتى يبعدوه عنهم، فعجزوا حتى وجدوا أن كلمة ساحر هي أفضل الصفات التي يطلقونها عليه حيث يفرق بدعوته بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والرجل وصاحبته، كما عرضوا فكرة المسّ (أصابه شيء من مس الجن فهو مجنون)، وعندما عرضت كلمة كاذب، قالوا: ما جربنا عليه كذباً.

فالصدق من أولى صفات المسلم التي يجب ألا يبتعد عنها مهما كانت النتائج، ومهما كانت الدواعي، ويكون الصدق في القول، وفي النية، وفي العزم والوفاء به، والصدق بالعمل.

والصدق بالقول هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، ويكون بالإخبار، فإن نقل خلاف ما هو عليه فهو كاذب ومفتر، ويعدّ عندها من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [١] ويقول ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٢]. وعلى الجماعة المسلمة أن تنقي صفها من أولئك الذين يتخذون الكذب ليسوغوا به أعمالهم، وذلك من أخطر الأمراض التي تتعرض لها أثناء سيرها.

والصدق بالنية هو الإخلاص في العمل ليكون خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٢) البخاري ١/٨٣ في الإيمان: باب علامات المنافق، ومسلم (٥٩) في الإيمان: باب بيان خصال المنافق. من حديث أبي هريرة.

والصدق بالعزم على العمل كأن يقول الرجل المريض: لإن عافاني الله لأجاهدن في سبيله، فإذا عوفي دخل الصدق بالوفاء في الجهاد حيث يظهر عند الشفاء نوع من الضعف وتردد في التنفيذ حيث ذكر الله عدم الصدق في الوفاء بالعزم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[1] وهو كما قال سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لأن أقدم فتضرب عنقي أحبُّ إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، رضي الله عنه، إلا أن تسوِّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك، فتتغيّر عن عزمها».

والصدق في العمل يكون بأن لا يختلف ظاهر عمل المسلم عن باطنه.

ومن الصدق: الوفاء بالوعد، والمحافظة على العهد، وعدم الغدر بمن أمنه، وكان ﷺ، أميناً محافظاً على الأمانة أشد المحافظة، وعلى الرغم من العداوة التي كانت بينه وبين قومه، فقد كانوا يحفظون عنده الأمانات، ويحسن أن نذكر: كيف أخّر سيدنا علياً، رضي الله عنه، عن الهجرة معه حتى يؤدي الأمانات التي كانت لقريش عنده إلى أهلها على الرغم من ترك الدار والأملاك لأعدائه أصحاب الأمانات.

والمسلم هو الذي يتصف بهذه الصفات، ويتحراها تحرياً شديداً متخذاً رسول الله ﷺ أسوة حسنة ومثلاً أعلى له.

حملت آمنة بنت وهب الزهرية برسول الله ﷺ، من زوجها عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي بعد أن بنى بها، ولكن الزوج لم يلبث أن توفي، ولم تزد مدة الحمل على الشهرين، توفي وهو عائد من الشام

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٧٥ ـ ٧٧.

بتجارة له، وقد مرّ أثناء رجوعه على أخواله من بني النجار في يثرب، وهناك أدركته منيته. ولما تمّت مدة الحمل ولد ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول، وكان ذلك في ٢٠ نيسان عام ٥٧١ لميلاد سيدنا عيسى، عليه السلام، وهو ما يوافق السنة الأولى من عام الفيل إذ أن المجتمعات كثيراً ما كانت تؤرخ في الحوادث الهامة التي تمر عليها، وحادثة الفيل بالنسبة إلى أهل مكة أمر هام، إذ أراد (أبرهة الأشرم) تهديم البيت الحرام، ولكن الله حماه ورد كيد أعدائه في نحورهم، وقد سماه جده عبد المطلب محمداً، وكانت قابلة سيدنا محمد ﷺ، (الشفاء) أم عبد الرحمن بن عوف، وكان أول من أرضعه (ثويبة) جارية عمه أبي لهب، وحضنته (بركة) أم أيمن أمة أبيه عبد الله. وبهذا نشأ محمد ﷺ يتيماً لا يعرف أباه أبداً، وهي الصورة الأولى من اليُتم التي تجعل المرء يجد في نفسه تعزية فيما لو ولد يتيماً إذ أن سيد البشر قد ولد يتيماً.

وكان من عادة قريش وأهل المدن عامة أن يرسلوا أطفالهم إلى البادية ليتلقنوا فيها سلامة اللسان، وفصاحة اللغة، وكانت العادة أن تأتي المرضعات من البوادي على شكل جماعات يأخذن الرضّع. وجاءت مكة مرضعات بني سعد، وحصلت كل واحدةٍ منهن على أطفال يكفونها، وامتنعن عن أخذ محمد الطفل اليتيم الفقير، أما واحدة منهن وهي (حليمة)، زوجة أبي كبشة، فلم تحصل على أحد، فاضطرت أن تأخذ محمداً ﷺ، ولعل في ذلك حكمة بأن الإنسان لا يعرف الخير أين هو؟ فلربما كان الخير كل الخير في ما أحجم عنه. وما إن أخذت (حليمة) رضيعها وسارت به مع صويحباتها إلا وكانت تشعر باللبن يتدفق في ثدييها، أما هنّ فكن لا يرغبن بالحديث في هذا الموضوع أمامها تعزية ومواساة لها بطفلها الفقير، ولكن إذا انفردت إحداهن بثانية أو انعزلت (حليمة) عن الركب تحدثن وضحكن ورثين لحالها. وما إن وصلت مرضعات بني سعد إلى باديتهن، وكانت مقفرة، وحيوانات القوم تكاد تجفّ أضراعها من الجدب وقلة المرعى، وبوصول محمد ﷺ، الطفل الرضيع إلى أولئك القوم

جادت عليهم السماء بخيرها، واخضوضرت الأرض، وارتفعت الأعشاب، وشبعت الأغنام، فاكتنزت لحماً، وأترعت أضراعها باللبن، بل أضحت تبدو حفَّلاً، وهي سائمة في مراعيها، وشعر بنو سعد بما لحق أراضيهم من خير، وإن كانوا لا يستطيعون عزو ذلك إلى شيء سوى أسرة (حليمة) بالذات التي كانت تشعر بما حل عليها من نعيم، وبما اطمأنت له نفسها عندما حلّ بدارها هذا الرضيع اليتيم محمد ﷺ، وخاصة عندما حدثت له حادثة شق الصدر. تقول (حليمة): بينما هو وإخوته في بَهم[1] لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قدً أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[2]، فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقعاً وجهه، فالتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني، فأضجعاني، فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه، ولا أدري ما هو. فخافت حليمة من تلك الحادثة فردته إلى أمه، وإن كانت لا ترغب في فراقه لما رأت من بركات أثناء وجوده عندها، وليس فقط عندها وإنما حلت في بني سعد كلهم، وفي بواديهم وقطعانهم إضافة إلى هدوئه ولطفه وعلاقته مع إخوته الذين كانوا معه في رعايتها وكنفها.

عاد سيدنا محمد ﷺ إلى أمه، ولم يزد عمره على الرابعة، ولم يلبث عندها إلا قليلاً، إذ سارت به إلى يثرب لزيارة أقربائه، وقبر أبيه، وأثناء عودتها أدركتها منيتها في الطريق ببلدة (الأبواء)[3]. ماتت (آمنة) وهي في مقتبل العمر وأول سن الصبا، ولم يكن أبوه أثناء موته بأكبر منها بكثير فكلاهما دون العشرين من العمر، وقلما يموت الزوجان معاً في هذه السن

---

(١) البهم: الصغار من الضأن والمعز، واحدتها: بهمة.

(٢) يسوطانه: يحركانه.

(٣) الأبواء: بلدة بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وهي إلى الشمال الشرقي من رابغ وعلى مسافة ٤٠كم منها.

المبكرة، ولكن حكمة الله فوق كل حكمة، وتدبيره فوق كل تدبير، إذ يريد الله أن يكون رسوله ـ كما ذكرنا ـ أنموذجاً لكل يتيم ومثلاً لكل فقير، فما من يتيم إلا وهو دونه في اليتم، وما من فقير إلا وهو دونه في الفقر.

توفيت آمنة فانتقلت كفالة الطفل إلى جده عبد المطلب، وحضنته بركة أم أيمن التي ورثها من أبيه فكانت أماً له، وكان لها ولداً مطيعاً، وقد رأت منه من النجابة الشيء الكثير، لم تر مثلها في أقرانه، ولم تعلم هذا في أترابه بل ممن يفوقونه سناً بكثير. وعاش مدة في بيت جده، وربما قال بعضهم: إن الجد هو الأب الثاني، وعبد المطلب سيد قريش وشيخها المطاع، وعلى هذا فقد نشأ محمد ﷺ في بيت الوجاهة فأفاد منه، واقتبس من تربيته، ونشأ على المعرفة بما خالط وسمع من حضور منزل عبد المطلب. ولكن هذه الكفالة لم تطل، ومدة هذه الحياة كانت قصيرة، ومحمد ﷺ كان في سن صغيرة لا تمكنه الإفادة من مركز جده، هذا بالإضافة إلى أن عبد المطلب كان قد أصبح مثقلاً في أواخر حياته فقلّ رواد داره إذ ظهر سادة جدد من بطون قريش كلها، وحتى من بني هاشم بالذات، حيث قام أولاده مكانه، إذ أصبح الزبير سيداً مكان أبيه، وكذلك أبو طالب والحارث وغيرهم، ولم يكن منهم في سن صغيرة سوى حمزة والعباس اللذين كانا في سن قريبة من سن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ومات عبد المطلب ولم يزد عمر رسول الله ﷺ على الثامنة، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه، إذ لم يكن من بين أعمامه جميعهم سوى الزبير وأبي طالب شقيقان لعبد الله والد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم هناك بنات عبد المطلب كلهن شقيقات عبد الله باستثناء صفية، رضي الله عنها، فإنها كانت شقيقة سيدنا حمزة، رضي الله عنه. وكان أبو طالب يحب محمداً حباً جمّاً، فهو ذكرى شقيقه عبد الله الذي مات، ولم تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد، ولم يسعد بزواجه سوى أشهر قليلة، ومات بعيداً، وكان ثانياً وصية أبيه عبد المطلب، ومن جهة ثالثة فقد رأى منه ما لم ير من غيره من الأدب والنجابة والتربية والطاعة، فضمه إلى أولاده

الكثيرين، وكان يعتني به العناية التامة، ويفضله على أبنائه جميعهم.

وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لحظ هذا رسول الله ﷺ، مع صغر سنه، فطلب منه أن يعمل، إلا أن أبا طالب لم يكن برأيه عمل ابن أخيه تكريماً له وتقديراً، ولكنه وافق العم مع طلب الطفل وإلحاحه، فبدأ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟؟ فقال: نعم، كنت أرعاها عى قراريط لأهل مكة»[1]. يقول ابن حجر رحمه الله: قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها.

ومرت السنون، وشعر أبو طالب أن ابن أخيه قد بدأ في مرحلة الشباب، فقد غدا عمره قريباً من الثانية عشرة، ويجب عليه أن يترك عمل الرعي الذي لايعطي من الربح إلا القليل، ولا يقوم به وجهاء القوم، لذا يجب عليه أن يدربه على التجارة مهنة قريش الرئيسية والتي تدر أرباحاً أكثر، ويعمل بها سادة القوم. وسار أبو طالب في تجارة، وصعب على

---

(١) رواه البخاري ٤/٣٦٣ في الإجارة: باب رعي الغنم على قراريط.

محمد ﷺ فراقه، وهو أنيسه، فرقّ له أبو طالب، وأخذه معه، وبذا تحققت رغبة أبي طالب برغبة سيدنا محمد وطلبه. وسارت القافلة إلى بلاد الشام، ووجد أبو طالب من محمد ﷺ، الأخ الرفيق، والولد المطيع، والتاجر المستنير، والزميل ذا العقل الراجح، وكان العم يشعر أنه يصطحب رجلاً كبيراً ذا قلب واسع، وعقل سليم، وخبرة عالية ومعرفة عامة، وكان هذا يسره ويشعره أن لابن أخيه مركزاً عريقاً ينتظره، وسيكون صاحب مركز بين قريش لا ينافسه فيه أحد مع علمه بأهلية قريش ورجالها، ومكانتها، ودرايتها. ووصلت القافلة إلى بصرى الشام من بلاد حوران في الشام، وكانت بها سوق عامة دائمة. وهناك التقى أبو طالب براهب يدعى (بحيرا)، فسأل الراهب أبا طالب عن ظهور نبي في بلاد العرب، فأجابه بأنه لم يظهر إلى الآن.

فقال الراهب: إننا نرى في كتبنا المقدسة أن موعد ظهوره قد حان، وكثيراً ما كان من أهل الكتاب من يهود ونصارى يذكرون قرب بعثة نبي من أرض العرب، ثم سأل الراهب أبا طالب عن الفتى الذي معه؛ ويعني بذلك محمداً، فأجاب أبو طالب: إنه ابني، فقال له: عد به فلربما رآه بعضهم فعرفه فسعى في التخلص منه، فإنه سيكون له خبر(1). لم يكن وقع هذا الكلام غريباً في أذن أبي طالب وإنما كان تحقيقاً لما في نفسه، وتأكيداً لما يتحدث فيه أبو طالب مع نفسه.

عاد أبو طالب مسرعاً بقافلته متخوفاً، وقد زاد حبه له حباً، وحرصه عليه حرصاً، ولما عاد رسول الله إلى مكة انصرف إلى الحياة في خضم مجتمعها، يخالطهم ويتعامل معهم، ويرعى الغنم، فعرفه القوم معرفة تامة.

---

(1) حديث بحيرا الراهب رواه الترمذي (٣٦٢٤) وأصحاب السير، وقد تكلم في متنه، انظر «تاريخ الإسلام» ٣٨/١ للحافظ الذهبي، فقد قال: حديث منكر جداً.

الفصل الثاني

مرحلة الشباب

١ ـ الحياة العامة:

قارب محمد ﷺ الثامنة عشرة من العمر، وغدا في سن الشباب، وكان يتعامل مع المجتمع الذي يعيش فيه، ويتفاعل معه، ويشارك في الأمور العامة والتي كان من أشهرها:

١ ـ **حروب الفُجَّار**: وقد جرت بين قريش وكنانة من جهة، وبين قيس من جهة ثانية، وسببها أن أحد الكنانيين قد قتل أحد القيسيين، وهبت قيس لتأخذ بثأرها، والتقى الفريقان عند (نخلة) شمال شرقي مكة خارج الحرم، وعندما حميت قيس احتمت قريش بحرمها الآمن، فنادت قيس: إن موعدنا العام المقبل في (عكاظ). ولما استدار العام التقى الطرفان في المكان المحدد، وكانت قريش قد جمعت كنانة والأحابيش وحلفاءها، ودارت الدائرة على قيس، ثم تم الصلح بين الجانبين، وعدت القتلى ودفعت الديات.

كان رسول الله ﷺ، قد ناهز العشرين من العمر واشترك في هذه الحرب مع أعمامه، وكان عمه الزبير قائد بني هاشم، ومعه إخوته أبو طالب، والحمزة والعباس، وكان حرب بن أمية قائد قريش. وكان، عليه الصلاة والسلام، ينقل النبال ويجمع السهام.

٢ ـ **حلف الفضول**: وعندما عادت قريش من حرب الفجار تحالفت بعض البطون وتعاقدت على ألا تجد بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد إليه مظلمته. وكان بنو هاشم من

بين هذه البطون المتحالفة، وحضره من بينهم محمد ﷺ، وكان الحلف في دار عبد الله بن جدعان أحد وجهاء قريش. وقد قال رسول الله ﷺ، بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[1].

وشاع خبر الفتى في أندية قريش، وأصبح حديث الناس في كل محفل عن أمانته وصدقه، عن أدبه وسلوكه، عن انفراده ببعض الصفات التي تخوله أن يكون سيداً بل أكبر من ذلك بكثير، وقد عرف بين القوم باسم «محمد الأمين» و «الصادق».

٣ ـ **بناء البيت:** أصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عارم، فتصدعت جدر الكعبة، فأرادت قريش إعادة بنائها من جديد، فجمعت من أجل ذلك المال الحلال، وشرعت في البناء بعد الهدم، وجعل أشرافها ووجهاؤها يحملون الحجارة على أعناقهم لمكانة الكعبة في قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ، فيمن يحمل، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

وتم البناء، وأرادوا وضع الحجر في مكانه، ولكنهم اختلفوا فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت الحرب تنشب بين بطون قريش، واستمر الخلاف أربع ليالٍ، ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان أسن القوم ـ قال: يا قوم لا تختلفوا بل حكِّموا من ترضون بحكمه. فقالوا: نكل الأمر لأول داخل. وما لبثوا إلا قليلاً حتى دخل محمد ﷺ، فاطمأنت القلوب لما يعرفون من صدقه وأمانته، وحكمته ورأيه، وقالوا: هذا محمد الأمين رضيناه.

شرح الوجهاء لسيدنا محمد ﷺ، القضية فما كان منه إلا أن خلع رداءه وبسطه، ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ولترفع، حتى إذا وصلوا به إلى مكانه أخذه بيديه الشريفتين ووضعه في موضعه المحدد.

---

(١) رواه ابن هشام ١/١٣٣ عن إسحاق.

وكان ﷺ، آنذاك في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. ولم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع صغيرة أم كبيرة إلا ويشارك فيها. وهكذا فالإنسان المسلم عليه أن يعيش مع مجتمعه يصل رحمه، ويعود المريض، ويحمل العبء عن بعضهم، ويشارك في الأفراح، ويصلي في مسجد حيه، ويبتاع من سوقه. يقول ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(١). وأدرى الناس بالرجل أهله وجيرانه، فإذا عاملهم المعاملة الإسلامية فلا يكذب، ولا يغش، ولا يغتاب، ولا يتكلم إلا بخير، فإذا فعل ذلك كان عندهم قدوة، وحاولوا أن يقلدوه ويسيروا على نهجه، وإذا أصابه مكروه حموه ومنعوه، ولكن إذا انزوى عنهم وابتعد كان بينهم نكرة لا يؤثر فيهم ولا يستفيد منهم. وكذلك فعليه أن يكون سمحاً في معاملتهم في بيعه وشرائه، كريماً معهم، يقول ﷺ: «رحم الله امرأً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى»(٢)، ويقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٣) ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»(٤). وسأل رجل رسول الله ﷺ، أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»(٥).

وميدان عمل المسلم هو المحيط الذي يعيش فيه، فليمهد هذا الميدان لذلك وليعرفه وليتعهده.

٢ ـ الحياة الخاصة:

كانت حياة رسول الله ﷺ، الخاصة أسوة صالحة للرجل المؤمن حتى قبل البعثة، فما من عمل يقوم به إلا وكان مثلاً أعلى للشباب، إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويتعهده. ومن أعماله الخاصة:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٩) في صفة القيامة: باب مخالطة الناس مع الصبر على أذاهم، وابن ماجه (٤٠٣٢) في الفتن وغيرهما وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري وغيره من حديث جابر. (٣) (٤) (٥) متفق عليه.

١ ـ **كسب الرزق**: كان ﷺ، يرعى الغنم، وكان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب، وذهب بتجارة لخديجة بنت خويلد إلى الشام على جزء من المال يأخذه، وبعد أن تزوج بها كان يتاجر بمالها، ويأكل من عمل يده، ويقول ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً مما يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[١]، ومنّ الله عليه بأن أغناه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[٢].

٢ ـ **السمر**: كان من عادة شباب قريش السهر في الأندية واللهو والشرب فيها، وقول الشعر أحياناً، أو الذهاب إلى الأصنام وعبادتها، ولكن رسول الله ﷺ لم يفعل شيئاً من هذا إذ كان الله سبحانه وتعالى يرعاه ويحول بينه وبين هذه الأعمال منذ صغره حتى لم يكن يحضر الاحتفالات أو الأعياد التي تقام للأصنام، ويقول، عليه الصلاة والسلام: «لما نشأت بُغضت إلي الأوثان، وبُغض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر، كما يسمر الشباب، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك»[٣]. وكان ﷺ، لا يشرب الخمر. فقد حرمها على نفسه على الرغم من أنها كانت شائعة في ذلك المجتمع لدرجة كبيرة، كما لم يكن ليأكل مما يذبح على النصب، كل هذا زاد قومه حباً له.

وهكذا فالمسلم يجب أن يبتعد عن مواطن الشبهات ومواضع التهم، وحذار أن يُقال: إن هذا هو السائد في المجتمع وعلينا المسايرة، فالمسلم

---

(١) رواه البخاري. (٢) سورة الضحىٰ: الآيات: ٦ ـ ٨.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٥ وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه ابن كثير في البداية ٢/ ٢٨٧.

يعيش في المجتمع ليؤثر فيه، ويحاول أن يغير ما فيه من أعمال غير حسنة لا أن يتأثر فيه ويعمل كما يُعمل، فما يفعل هذا إلا الرجل الضعيف الإمّعة، ورسول الله ﷺ يقول: «لا يكن أحدكم إمعة إذا أحسن الناس أحسن، وإذا أساؤوا أساء»[1]. هذا صحيح، ولكن لا يقرب مسلم مواطن السوء فهذا أمر يختلف عن ذاك.

٣ ـ الزواج: أصبح محمد ﷺ، شاباً كامل الرجولة، فقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وغدا هدفاً لكثيرٍ من القبائل والبطون تريد أن تناسبه لتحصل على الشرف شرف القرابة، وما هذا بالذي يخفى على الفتيات، وكل واحدةٍ تريده بعلاً، وإن كان قليل المال، فالمال ظلّ زائل، أما الشرف فأثر دائم، ولكن أنى للفتاة أن تتحدث بما يجول في نفسها في المجتمع القبيلي إلا من كانت من الوجاهة ما تحول بينها وبين نقمة القوم، ومن الشرف ما يمنع أن تتحدث عنها القبيلة، أو من الغنى ما تذود به عن نفسها، أو تكون أرملة ثرية عركت الحياة، وقرفت الزواج، وحضرت منازل الرجال بمالها في مجتمعها من أثر الثراء والوجاهة.

وكانت خديجة بنت خويلد الأسدية ذات شرف ووجاهة، إذ أن بني أسد أحد بطون قريش المشهورة بالمجد والسؤود. وكانت تاجرة تستأجر الرجال في مالها ليتاجروا لها، وتضارب بقية التجار وتنافسهم، وكانت أرملة قد تزوجت أبا هالة، وأنجبت منه ولداً هو (هالة) ربيب سيدنا محمد ﷺ، كل هذا جعلها تستطيع أن تتحدث بما في نفسها.

سمعت خديجة بسيدنا محمد ﷺ وأمانته، وصدقه، ودرايته، وعلمه فاستأجرته ليخرج في مالها إلى الشام وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره. كل ذلك لتستوثق لنفسها. فسافر سيدنا محمد ﷺ، مع غلامها ميسرة، فباعا ما حملا معهما، واشتريا ما عادا به، وربحا ربحاً عظيماً وظهر سيدنا

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٨) وفي إسناده ضعف، وقد صح موقوفاً على ابن مسعود.

محمد ﷺ لميسرة على حقيقته رجلاً لا كالرجال، وإنما معجزة لهم على مدى الأيام. ولما عاد الرجلان إلى مكة، وسمعت خديجة من ميسرة ما رأى من صاحبه، سرت سروراً بالغاً، وطمعت في زواجه، وأرسلت تخطبه لنفسها، وكانت تقارب الأربعين من العمر.

وذهب رسول الله ﷺ، مع أعمامه، ودخلوا على عمها عمرو بن أسد، فخطبوها منه فزوجه منها، وخطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئي[1] معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً، ونبلاً، وفضلاً، وإن كان في المال قلاً فإن المال ظلّ زائل، وأمر حائل، وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق (كذا)» وعلى ذلك تم الأمر.

وقد عاش ﷺ، مع خديجة حياة زوجية هادئة مثالية، وقد عرف كل صاحبه معرفة حقة عن قرب، فعرفت خديجة في زوجها الرجل المثالي في الصدق، والأمانة، والكرم، والوفاء، والمحبة، والخير وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في المستقبل.

٤ ـ **الخلوة:** وفي أواخر العقد الثالث من عمره، حببت إليه الخلوة، ليبتعد عن مشكلات ذلك المجتمع المليئة بالمفاسد الحافلة بالمظالم، المعقدة، الكثيرة المآسي، وليعبد الله على دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، فإن في العزلة صفاء السريرة، وسلوة النفس، فكان، عليه السلام، يرتقي إلى جبل قرب مكة، ويخلو في غار هناك يدعى: «غار حراء» ينظر إلى مكة أمامه صغيرة فتصغر في عينيه مكة ومن فيها والدنيا بأكملها، وينظر إلى

---

(١) الضئضئ ـ بكسر المعجمتين ـ الأصل والمعدن.

أعاليها فيرى أنها دون موضع قدمه فيصغر العظماء، والقادة، والجبابرة، والمتغطرسون في نظره.. وهكذا ينظر المسلم دائماً إلى الطغاة على أنهم دونه بكثير ما دام هو مؤمناً بالله[1].

كان محمد ﷺ، يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد، فيدوم بقاؤه عشرة أيام، وأحياناً شهراً، وكان يتزود لذلك الانقطاع، فإذا فرغ زاده رجع إلى زوجه خديجة فمكث الأيام القليلة ثم عاد لخلوته وهكذا حتى جاءه الوحي الأمين.

ومن هذا يتبين أن على المسلم أن يترك جزءاً من اليوم لعبادته وتفكيره ودعوته، ويوماً من الأسبوع، ووقتاً من الشهر لكي يبقى على صلة بالله لا تلهيه الحياة المادية التي انخرط فيها الناس حتى أنستهم أنفسهم وأهليهم، وأبعدت عنهم أولادهم وتركتهم في فراغ روحي عظيم كل ذلك في سبيل الحرص على المادة والادعاء بأنها ضرورة من ضرورات الحياة، وتحت اسم هذه التعقيدات التي فرضناها على أنفسنا، والمتطلبات الضرورية التي لهثنا في طلبها... هناك فرق بين الحاجة إلى المادة وبين عبادتها، هناك فرق بين الاكتفاء بالحاجة والجشع في الطلب.. فرق بين الضروري والكمالي فرق بين... و...

(١) انظر فصل استعلاء الإيمان في «المعالم».

البعثة

بينما كان رسول الله ﷺ، ذات يوم في غار حراء يتعبد إذ جاءه الوحي، وكان ذلك في ١٧ رمضان عام ١٣ قبل الهجرة وهو ما يوافق أول شباط من عام ٦١٠ من ميلاد سيدنا عيسى، عليه السلام، وكان رسول الله ﷺ قد أتم الأربعين عاماً. وقد قالت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالث، ثم أرسلني فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾»[1] فرجع بها رسول الله ﷺ، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي». فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ،

(١) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٣

وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب بالعبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً[(١)]. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[(٢)].

وفتر الوحي مدة أصح ما قيل فيها: أربعون يوماً، وذلك ليشتد شوق رسول الله ﷺ، إلى الوحي، حتى صار كلما ارتقى جبلاً خطر له أن يرمي نفسه منه خوفاً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى بأن يكون إلى الخلق رسولاً، وكان كلما فكر في ذلك يتبدى له الملك قائلاً له: أنت رسول الله، فيطمئن خاطره، ويبعد عن نفسه ما عزم عليه.. وبقي كذلك حتى عاد إليه الوحي، ومع الشوق كان يتخوف من الوحي لما أصابه في المرة الأولى.

فبينما كان مرة رسول الله ﷺ، يسير إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع بصره فإذا الملك الذي غطّه في غار حراء جالس بين السماء والأرض فرعب أشد الرعب وتذكر ما حدث معه في ذلك الغار، فعاد إلى البيت مسرعاً فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾[(٣)] كما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾[(٤)].

---

(١) أي شاباً ـ وهو بفتح الجيم والذال ـ وذلك ليتمكن من نصرته والإيمان به.
(٢) فتح الباري ١/٢١ ـ ٢٦: كتاب بدء الوحي.
(٣) سورة المدثر: الآيات ١ ـ ٧. (٤) سورة الضحى: الآيات ١ ـ ٤.

وعن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام، رضي الله عنه، سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة، رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1]. وتتابع الوحي بعد ذلك.

كان اللقاء الأول مع الوحي قاسياً ـ كما رأينا ـ وذلك ليشعر رسول الله ﷺ، بقسوة العمل والمهمة الشاقة الملقاة على عاتقه، وكان التنزيل دائماً يحثه على ضرورة الصبر ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]. ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[3]. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[4]. ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾[5]. ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[6]. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾[7]. ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾[8]. ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[9]. ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾[10]. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾[11]. ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

---

(١) فتح الباري ١/٢٥ ـ ٢٦ كتاب بدء الوحي.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠٩.
(٤) سورة هود: الآية ٤٩.
(٥) سورة هود: الآية ١١٥.
(٦) سورة النحل: الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٧) سورة طه: الآية ١٣٠.
(٨) سورة الروم: الآية ٦٠.
(٩) سورة لقمان: الآية ١٧.
(١٠) سورة ص: الآية ١٧.
(١١) سورة ق: الآية ٣٩.

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾[1]. ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾[2]. ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾[3]. ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾[4]. ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾[5]. الصبر على ما يلقى من وجهاء قومه، وغطرسة مجتمعه، وإصرارهم على شركهم، وتعنتهم في سبيل البقاء على عاداتهم الجاهلية وتقاليدهم الفاسدة، والتأكيد على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[6].

كانت آيات الصبر تتنزل في مكة وفي المدينة وفي كل مناسبة، وإذا كانت هذه القسوة التي يلقاها رسول الله ﷺ، أثناء الدعوة تحلو لقلبه الكريم للإكرام الذي أكرمه الله به إذ اختاره من بين عباده ليكون رسوله إلى خلقه، وللنعمة التي أنعمها عليه في هدايته، ورعايته، وكفالته منذ الصغر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾[7] وإذا كان رسول الله ﷺ، يشعر بهذا كله، ويقدره قدره، فإن على الداعية أن يعلم من بداية الطريق أن دربه الذي يسير فيه طويل شاق محفوف بالمكاره مليء بالأشواك، فيه مقاومة للنفس التي تنزع دائماً إلى التحرر من القيود المفروضة عليها، وفيه مقارعة للمجتمع الذي يفضل مصلحته على كل شيء، ويدور دائماً وراء أطماعه، وفيه خلاف مع المتنفذين الذين لا يريدون أن يقف شيء أمام رغباتهم الشخصية، ويحاربون كل من يريد أن يحدّ من سلطانهم أو يقف في وجه أهوائهم وجبروتهم. ويشعر الداعية أيضاً بحلاوة الإيمان في عمله لانتصاره إذا حقق نجاحاً،

---

(١) سورة الطور: الآية ٤٨.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٨.

(٣) سورة المعارج: الآية ٥.

(٤) سورة المزمل: الآية ١٠.

(٥) سورة المدثر: الآية ٧.

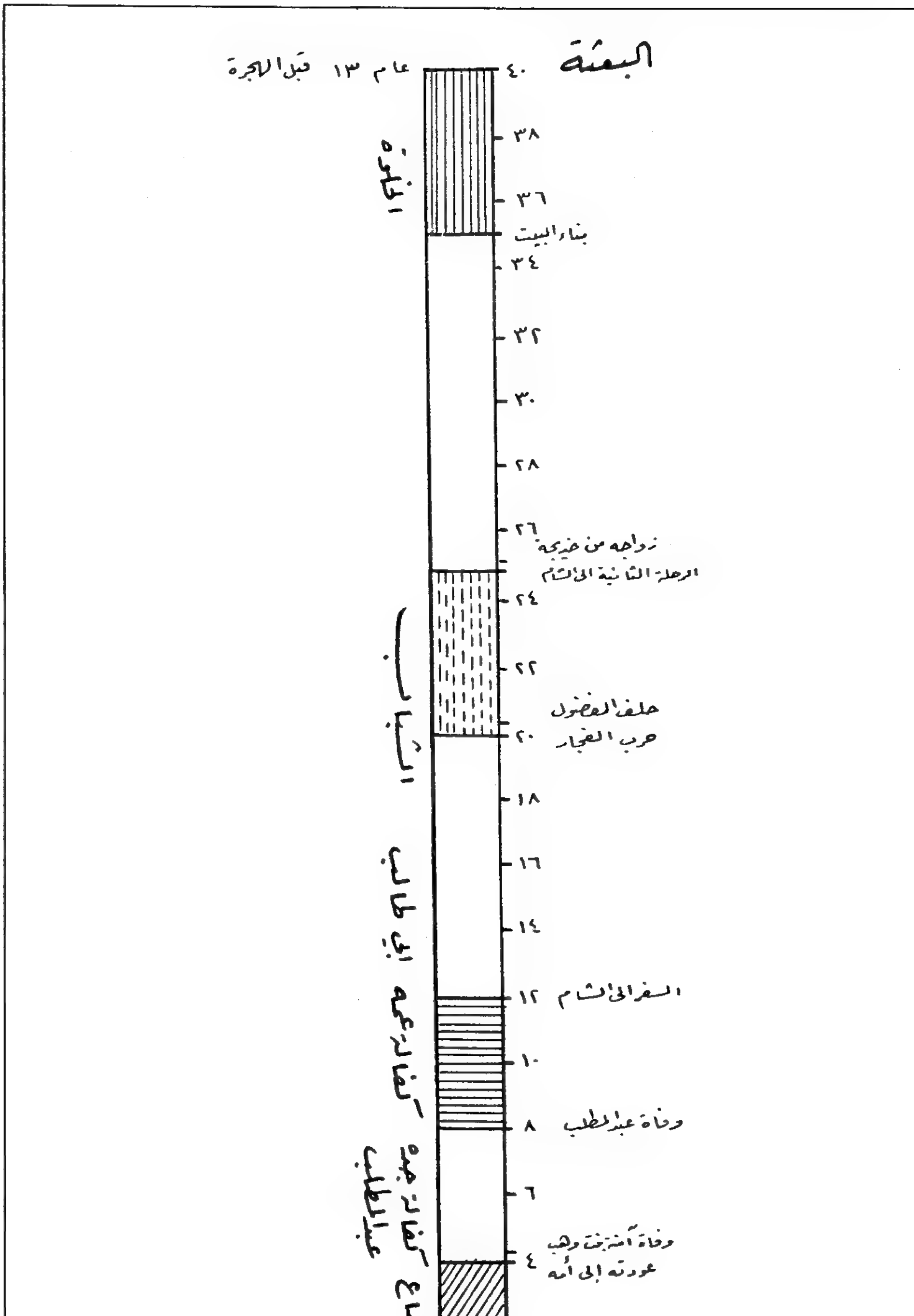
(٦) سورة الزخرف: الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

(٧) سورة الضحى: الآيات ٦ ـ ٨.

ولما ينال من أجرٍ من الله إذ يكون جزاؤه جنات تجري من تحتها الأنهار، وإذا كان يشعر بمرارة العيش أو الضغط عليه والحد من نشاطه من قبل أصحاب النفوذ في هذه الحياة الدنيا الفانية التي ليس فيها إلا متاع الغرور، وهي زمن محدود فإنه يعرف أن الآخرة التي ينال فيها نصيبه هي ذات نعيم لا يزول، ولا نهاية لمدتها، وهي حياة الاستقرار.

الباب الثالث

الدعوة في مكة المكرمة


البعثة
٤٠ عام ١٣ قبل الهجرة
الخلوة
٣٨
٣٦
بناء البيت
٣٤
٣٢
٣٠
٢٨
٢٦
زواجه من خديجة
الرحلة الثانية الى الشام
٢٤
٢٢
حلف الفضول
حرب الفجار
٢٠
الشباب
١٨
١٦
١٤
كفالة عمه أبي طالب
السفر الى الشام ١٢
١٠
وفاة عبد المطلب ٨
كفالة جده عبد المطلب
٦
وفاة آمنة بنت وهب
عودته إلى أمه ٤
الرضاع
٢
المولد
١٢ ربيع الأول عام ٥٣ قبل الهجرة
وفاة عبد الله بن عبد المطلب

الدَّعْــوَةُ سِــرًّا

بُعث محمد ﷺ، فحمل الأمانة، وبدأ يؤدي الرسالة، ويدعو من قومه أولئك الذين تربطهم به روابط القربى القريبة أو الصداقة القوية، أو من يتوقع منهم تلبية الدعوة لدين الحق، فلبى الدعوة أولئك النفر الأوائل لما عرفوا من أخلاقه وصدقه. فآمن ابن عمه (عليّ) الذي يعيش في كنفه، وزوجه (خديجة) التي في بيته، وخادمه (زيد) الذي يخدمه في منزله، وصديقه (أبو بكر) الذي كان على صلة كبيرة معه، وكان دور صديقه كبيراً في دعوة رجال كان لهم أثر عظيم في الإسلام أمثال: (عثمان بن عفان)، و(الزبير بن العوام)، و(عبد الرحمن بن عوف)، و(سعد بن أبي وقاص)، و(طلحة بن عبيد الله)، ومن صدق نبوته ﷺ، تلبية أهله وأصدقائه لدعوته فإنهم هم أكثر من يعرف حقيقته، ويعلم صدقه، ولم يكن إيمانهم من أجل تحقيق مصلحة عاجلة، فهذا أمر رجال الدنيا وطلّابها، وإنما كان إيمانهم بوحي السماء، ولا يمكن أن يؤمن أحد بآخر يدعي النبوة إلا إذا عرف منه الأخلاق التي تخوله تلك المنزلة من الله.

ولم يكن رسول الله ﷺ، يظهر الدعوة في مجامع قريش العامة كالأندية والحرم، وإنما كانت دعوته لأفراد بأعينهم. ولم يكن المسلمون الأوائل يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريشٍ لدينها ووثنيتها، وإنما كانوا يخفون ذلك، وكان كل من أراد العبادة يذهب إلى شعاب مكة، ويصلي هناك مستخفياً. ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم رسول الله ﷺ، على شكل جماعاتٍ يرشدهم ويعلمهم ليكوّن منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها أولئك الذين

يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار رسول الله ﷺ، لذلك الاجتماع دار (الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي)، فكان يلتقي بهم على شكل أسر يعلمهم أمور دينهم، ويوضح لهم الطريق. وكان إلى جانب دار (الأرقم) المركز الرئيسي دور أخرى تكون مراكز فرعية حيث يذهب إليها رسول الله دون انتظام، أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم رسول الله، مثل: دار (سعيد بن زيد)، التي كان يلتقي فيها مجموعة من قومه من بني عدي بينهم: سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام العدوي، ويلتقي معهم خبّاب بن الأرت، وكأن اللقاء كان يضمّ أبناء البيت الواحد إن توفّر العدد في سبيل السرية التامة، وحتى تستفيد النساء اللواتي يصعب خروجهن إلى الاجتماعات.

لم يكن أولئك الذين لبّوا دعوة رسول الله ﷺ، من مجموعةٍ واحدة أو طبقة، كما يقولون هي الفقراء والعبيد والموالي الذين نقموا على النظام الجاهلي الذي منعهم حق الحياة الكريمة، وإنما كان المؤمنون من مختلف المستويات، بل إن بعضهم من وجهاء قريش وأبنائهم، كانوا في طليعة المصدّقين، ومن الذين تعرضوا للأذى أكثر من غيرهم إذ لا يمكن أن نقول: إن نور الفكر محصور في مجموعة أو طبقة من الناس، ولعلنا نرى أولئك السادة من قريش. نحن نعلم أن قريشاً كانت اثني عشر بطناً، ويعد أفراد كل بطن بمنزلة واحدة، وهم السادة، وإن كان يختلف بعضهم عن بعض بالغنى والثراء أو كثرة الأبناء والأفراد، وهذا ما يزيد في المنزلة بعض الشيء، وإن كان ذلك لا يمنع أن نعدّ بقية أفراد قريش دون منزلة السيادة أو مركز الوجاهة، وعندما تتوفر لأحدهم بعض مقومات المال أو البنين يرتفع مباشرة، وهذا ليس للوراثة فيه أي أثر. بل إن قريشاً كانت نفسها وحدة متكاملة متساوية في المنزلة، وتعدّ بقية القبائل دونها وأقل مرتبة منها. ومن هؤلاء الأعيان:

من بني عبد مناف: عثمان بن عفان، خالد بن سعيد بن العاص، عمرو بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهؤلاء الأربعة من بني عبد شمس: قوم أبي سفيان.

من بني هاشم: علي بن أبي طالب، وأخوه جعفر بن أبي طالب.

من بني المطلب: عبيدة بن الحارث.

من بني عبد الدار: مصعب بن عمير.

ومن بني أسد: الزبير بن العوام[١].

ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله.

ومن بني عدي، قوم عمر بن الخطاب: سعيد بن زيد، ونُعيم بن عبد الله النحّام.

ومن بني عامر قوم سهيل بن عمرو: أبو سبرة بن أبي رهم[١]، وسليط بن عمرو، وحاطب بن عمرو، وحطاب بن عمرو، والسكران بن عمرو.

ومن بني الحارث: أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح.

ومن بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأخوه عمير بن أبي وقاص، والمطلب بن أزهر.

ومن بني مخزوم، قوم أبي جهل وخالد بن الوليد: عياش بن أبي ربيعة، وأبو سلمة بن عبد الأسد[١] والأرقم بن أبي الأرقم.

ومن بني سهم، قوم عمرو بن العاص: خنيس بن حذاقة.

ومن بني جمح: عثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبد الله وابنه السائب، وحاطب بن الحارث.

وهذه أشهر بطون قريش وأكثرها وأقواها، فليس من بطنٍ إلا ودخله الإسلام، وكان منه أفراد كثيرون، ومجموعهم أكثر المسلمين في ذلك الوقت أيام كانت الدعوة سراً، بل وحتى وقت الجهر بها. فكيف يقال: إن

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة «بناة دولة الإسلام» بقلم المؤلف، صدر عن المكتب الإسلامي.

أول من أسلم كان من الطبقات الدنيا التي منها الموالي والعبيد؟ وعدد هؤلاء الوجهاء واحد وثلاثون، ولم يزد عدد المسلمين على الستين مسلماً بينهم اثنتا عشرة امرأة هُنَّ: خديجة بنت خويلد، أسماء بنت أبي بكر، أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، أم أيمن زوج زيد بن حارثة وحاضنة رسول الله ﷺ، فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوج سعيد بن زيد، فاطمة بنت المجلل زوج حاطب بن عمرو، فكيهة زوج حطاب بن عمرو، رملة بنت أبي عوف زوج المطلب بن أزهر، أمينة بنت خلف زوج خالد بن سعيد، أسماء بنت سلامة زوج عياش بن ربيعة، سمية زوج ياسر.

وهناك ثلاثة من قبائل أخرى هم: عامر بن ربيعة، عبد الله بن مسعود من هذيل، مسعود القاري من القارة.

أما الموالي وعددهم أربعة عشر منهم: خباب بن الأرت حليف بني زهرة، صهيب بن سنان حليف بني تيم، عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، عمّار بن ياسر، وأبوه ياسر حليف بني مخزوم، زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، واقد بن عبد الله، خالد بن البكير، أخوه عامر، أخوه عاقل، أخوه إياس، حلفاء بني عدي، وعبد الله بن جحش، أخوه عبد، حليفا بني عبد شمس، بلال بن رباح مولى أمية بن خلف.

وبذا يكون عدد المسلمين:

٣١ من وجهاء قريش وأبنائهم.

٠٣ من قبائل أخرى.

١٢ امرأة.

١٤ موالي وحلفاء.

―――

٦٠ مسلماً.

فأكثرية الذين دخلوا في الإسلام يوم كانت الدعوة سراً إنما هم من وجهاء قريش وأبنائهم، وليسوا من الأرقاء والموالي وحلفاء القبائل كما اعتاد

أن يتكلم في ذلك كثير من الذين كتبوا في السيرة، وخاصة من المستشرقين.

أما ما ورد من آيات في شأن الضعفاء: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1]، فإن هذا لا يدل على كثرة الضعفاء، وإنما يدل على المحافظة عليهم، وعلى كل مؤمن مهما كان وزنه الاجتماعي.

وفي هذه الدعوة مخالفة لعادات الجاهلية ونظرة الجاهلية إلى أولئك الضعفاء من الازدراء والاحتقار، ففي الآيات تربية وتعليم وترك لكل ما اعتاده الجاهليون، وليس فيها ما يدل على الكثرة أبدا.

وقد حاول كثير ممن يعادي الإسلام أن يتكلم في هذا الموضوع ليعطي صورة سيئة عن الإسلام فيقول: إن الأغنياء وأصحاب الفكر والمستنيرين لم يقبلوا على الإسلام إلا بعد أن خضد شوكتهم فاضطروا إلى إظهار الإسلام، وهم ينتظرون الفرصة لمحاربته، ولكن الذين آمنوا بالإسلام كانوا من المحتقرين والضعفاء، وكذلك يريد المستغلون في البلاد الإسلامية أن يظهروا الإسلام بأنه التربة الخصبة للفقراء الذين يشكلون أكثرية المجتمع في سبيل استغلال العوام وتسييرهم وراءهم.

غير أن هناك نقطة يجب أن نفهمها وهي أن الذين أسلموا قد كانوا من المستضعفين، ويراد بالمستضعفين أنه لم تكن لديهم القوة ليواجهوا قريشاً، ولم تكن لهم قدرة على حمل قريش لتأدية مهمة ما، فهم من هذه الناحية مستضعفين، كما أنهم مستضعفون لأنهم خارجون عن قبيلتهم بالعرف الجاهلي ما داموا يخالفونها في العقيدة، فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومصعب، والحمزة، وطلحة، وعبد الرحمن، والزبير، وأبو حذيفة مستضعفون ولو أنهم من السادة.

---

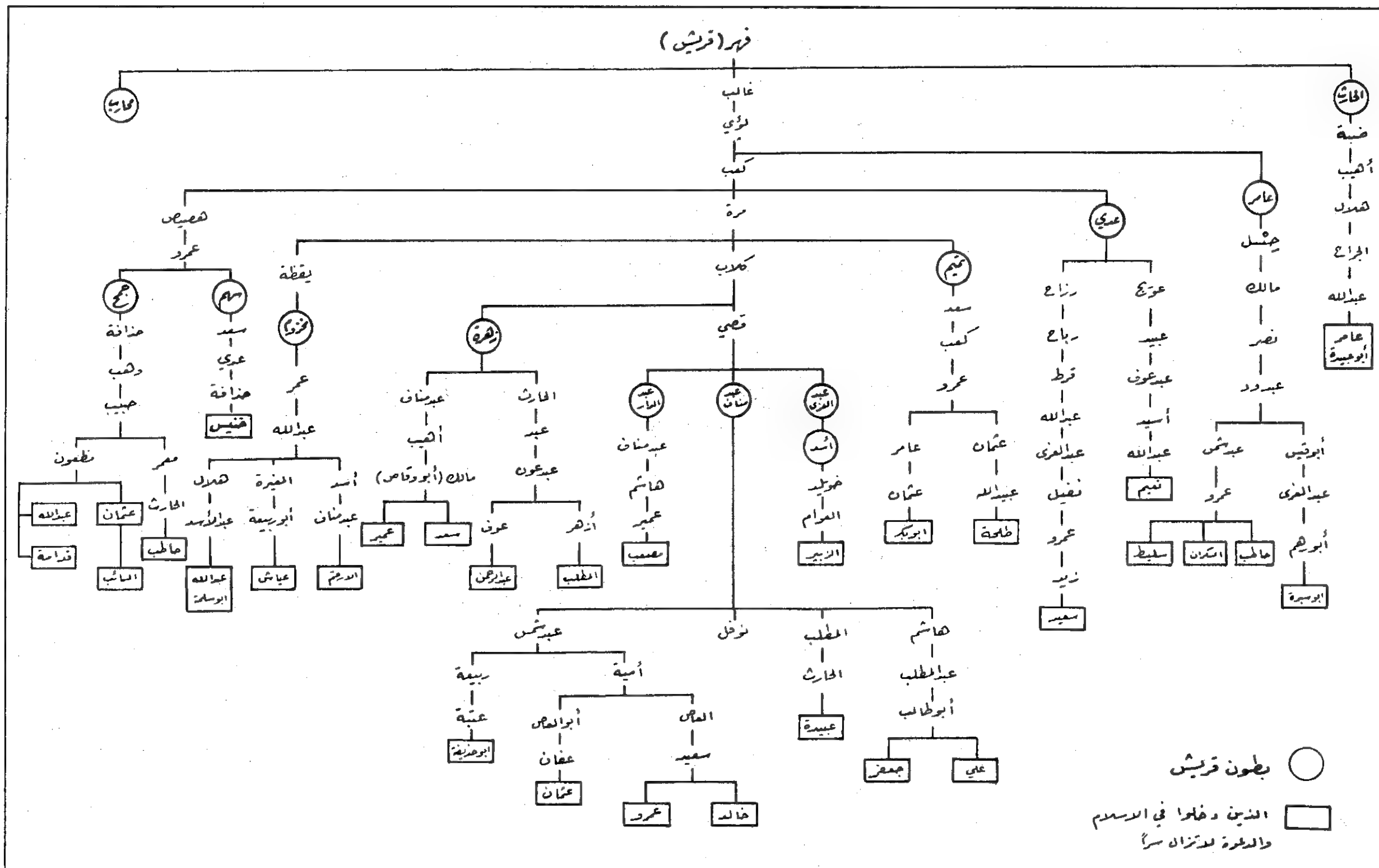
(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

وفي هذه المرحلة من الدعوة فرضت الصلاة فكانت في كل وقت من الأوقات الخمس ركعتين، وفي الإسراء زيدت الركعات في الحضر، فأصبحت أربعاً في كلٍ من الظهر، والعصر، والعشاء، وثلاثاً في المغرب، أما في السفر والفجر فبقيت كما هي عدا المغرب التي هي ثلاث حضراً وسفراً. وكان أصحاب رسول الله ﷺ، إذا أرادوا أن يصلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. واستمرت هذه الدعوة السرية مدة ثلاث سنوات، وقريش لا تعلمها حتى نزل قول الله مخاطباً رسوله الكريم:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٩٤ ـ ٩٦.


فهر (قريش)
غالب
لؤي
كعب
مرة
كلاب
قصي
محارب
الحارث
ضبة
أهيب
هلال
الجراح
عبدالله
عامر أبوعبيدة
عامر
حسل
مالك
نصر
عبدود
أبوقيس
عبدالعزى
أبورهم
أبوسبرة
عبدشمس
عمرو
حاطب
السكران
سليط
عدي
عويج
عبيد
عبدعوف
أسيد
عبدالله
نعيم
رزاح
رباح
قرط
عبدالله
عبدالعزى
نفيل
عمرو
زيد
سعيد
تيم
سعد
كعب
عمرو
عثمان
عبيدالله
طلحة
عامر
عثمان
أبوبكر
عبدالعزى
أسد
خويلد
العوام
الزبير
عبدمناف
عبدالدار
عبدمناف
هاشم
عمير
مصعب
زهرة
الحارث
عبد
عبدعوف
أزهر
المطلب
عوف
عبدالرحمن
عبدمناف
أهيب
مالك (أبووقاص)
سعد
عمير
يقظة
مخزوم
عمر
عبدالله
أسد
عبدمناف
الأرقم
المغيرة
أبوربيعة
عياش
هلال
عبدالأسد
عبدالله أبوسلمة
هصيص
عمرو
سهم
سعد
عدي
حذافة
خنيس
جمح
حذافة
وهب
حبيب
معمر
الحارث
حاطب
مظعون
عثمان
السائب
عبدالله
قدامة
هاشم
عبدالمطلب
أبوطالب
علي
جعفر
المطلب
الحارث
عبيدة
نوفل
عبدشمس
أمية
العاص
سعيد
خالد
عمرو
أبوالعاص
عفان
عثمان
ربيعة
عتبة
أبوحذيفة
بطون قريش
الذين دخلوا في الإسلام والدعوة لاتزال سراً

الجهـــر بالدّعــوة

بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بالجهر بالدعوة، ودعوة الناس جميعاً، فامتثل محمد ﷺ للأمر، وبدأ بالدعوة العامة وبصورة علنية، وهو واثق بوعد الله ونصره ودعمه وتأييده، فصعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته: يا بني فهر (قريش)، يا بني (عدّي)، يا بني الحارث، يا بني.... وجعل يعدد بطون قريش بطناً بطناً، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً عنه لينظر الخبر، حتى إذا اجتمعوا إليه قال، عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: «تباً لك ألهذا جمعتنا»[1]..... ثم أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[2] فقام رسول الله ﷺ، فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»[3]، ثم دعا أقرباءه، فاجتمعوا إليه فقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

(١) متفق عليه.
(٢) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤ ـ ٢١٦.
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

شريك له». ثم قال: «إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون، ولتحاسبُن بما تعملون، ولتجزوُن بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً، أو النار أبداً»[1].

بدأ رسول الله ﷺ الجهر بالدعوة، فكان يدعو الناس في كل مجمع وناد وفي المسجد الحرام يحدثهم، ويتلو عليهم القرآن، كما وينتهز كل عام موسم الحج ليلتقي بالقبائل قبيلة قبيلة، يعرض عليها الإسلام، ويُبيِّن لها الطريق، فيستجيب منهم من يستجيب، ويرفض من يرفض، ويسخر من يسخر. ولكنه في الوقت نفسه الذي كان يدعو فيه قريشاً دعوة عامة في الأندية والمحافل، والقبائل في المواسم، لم يكن ليترك أبداً التربية والعناية الخاصة لأولئك الذين قبلوا الدعوة ليبني منهم القاعدة الصلبة المتينة، فكان يجمع المسلمين في البيوت بشكل سري على شكل مجموعات مغلقة تماماً لا يعرفها أحد خارج أعضائها، بعيدة عن أعين قريش، وعلى غفلةٍ منها، وتتكون هذه الأسر من أولئك الذين عقد عليهم رسول الله ﷺ الأمل في حمل العبء والمهام الجسيمة لنشر الإسلام، وبذا تكوّنت طبقة خاصة من المسلمين الأوائل، قوية في إيمانها، متينة في عقيدتها، مدركة لمسؤوليتها، منقادة لقائدها، مطبقة لكل أمرٍ يصدر عنه باندفاعٍ لا يعادله اندفاع، وحبٍ لا يساويه حب. وبهذه الطريقة استطاع سيدنا محمد ﷺ أن يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة. وبذلك تكون طريقته هذه قدوة لنا في عملنا الذي نسير فيه ودربنا الذي نسلكه حسب هديه ﷺ. ويمكن أن نلاحظ في طريقته النقاط التالية:

أولاً: بدأ الدعوة بعناصر اختارها، فلبت الدعوة وآمنت.

ثانياً: كانت دعوته عامة للناس، وأثناء هذه الدعوة يركِّز ﷺ على من يجد فيهم الإمكانات أو يتوقع منهم ذلك.

---

(١) في إسناده من لا يعرف.

ثالثاً: كان يجمع المؤمنين في مجموعات خاصة لا يعلمها أحد إلا أعضاؤها، وكانت هذه الأسر نواة القاعدة الصلبة التي ثبتت عليها أركان الدعوة.

وعلى هذا يجب أن يكون العمل الإسلامي والدعوة على كل أرض، وفي كل وقت، والسير بالناس في طريق الحق والهدى، ويجب أن تكون الطريق حسب المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ، وفق الخطوط التالية:

أولاً: انتقاء العناصر المؤمنة النشيطة وبدء العمل الإسلامي، ويكون هذا العمل بمثابة الجماعة الإسلامية الأولى، ويلتزم الأفراد بالإسلام التزاماً كلياً، وقد روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: «لا إسلام إلا بجماعة». ولا يضيرنا أبداً ما يقال عن هذا العمل إذ أن الأحزاب السياسية البعيدة عن الإسلام وتصرفاتها قد أعطت صورة سيئة عن كل عمل إسلامي، كما أن الشائعات التي روّجها أعداء الإسلام عن الحركات الإسلامية بقصد تشويه سمعتها أمر غير خافٍ على أحد. ويجب ألا ننسى أن هناك عدد من الذين يستغلون الإسلام في سبيل مصالحهم وأطماعهم الشخصية فينتحلون الإسلام وصفة أبنائه وما هم كذلك، إن هم إلا يكذبون، ويزينون لأتباعهم أعمالهم، ويسوّغون لهم مواقفهم، فيصدق الكثيرون، فأكثر الناس بسطاء وخاصة العوام أو ممن ينتفعون من المنتفعين، هذا بالإضافة إلى أن الحكومات تتخذ لها أنصاراً من بين من يدّعي الإخلاص، وقد يكونون من أهل العلم، وتوجّههم حيث تريد تبعاً لمناهجها ومخططاتها. وما أصحاب النفوذ والسلطان في هذه الآونة من الزمان الذي ضعف فيه المسلمون وضعفت شوكتهم إلا صنيعة دول كبرى يسلمونهم الأمر ليقدموا لهم الخدمات، ويقلّلوا من شأن الدين وأهل العلم، ونظرة واحدة إلى مرتبات العلماء ومن يقومون بخدمة المؤسسات والدوائر الإسلامية كافية لأن تعطي الدليل على ذلك وما يلقاه المخلصون والدعاة على أيدي هؤلاء بين الآونة والأخرى في كل وقت ـ وما خلا منه مصر إسلامي ـ لدليل قوي آخر على ذلك. ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]،

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

ولكنهم يسعون وراء مصالحهم التي يستطيع أن يحققها لهم أصحاب السلطة والنفوذ، لذلك فهم يتبعونهم وينافقون لهم، وكلما ارتقى إنسان تركوا من حطه القدر إلى من رفعه، لذا كان نصيب المتنفذين البقاء مدة أطول في مناصبهم، وبدا لمن ينظر بعين المصلحة والهوى أن أصحاب السلطة لهم الأتباع ومنهم الذين يؤدون العبادات أو يظهرون التدين، ولكن يبدو للذين ينظرون بعين الواقع أن هذا كله زبد يذهب جفاءً بأقل شيء ليظهر في مكان آخر زبداً مرة ثانية، وفي الآخرة يكون هؤلاء من الخاسرين ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[1]، ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

وعلى كل مسلم أن يكون ضمن الصف الإسلامي الصحيح لا ينحرف عنه، ولا يحيد، ولا يبتعد عنه، ولا يقف موقف المتفرج أو الموقف الحيادي ـ كما يزعم بعضهم ـ إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يسمى حيادياً، فالمحايد إنما هو بجانب القوي وضد الضعيف، إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقه، ولكن إذ ترك الأمر فإنما سمح للضعيف أن يؤكل من قبل القوي، والقوي إنما هو صاحب السلطة والنفوذ، فعندما يقف من يدعي الإسلام ويعلن أنه محايد، فإنه يكون بذلك من أنصار السلطة وضد المسلمين قولاً واحداً، ولا ننسى قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الأولى بعد توليه الخلافة: «القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردّ إليه حقه. . .».

وإذا لم يطمئن المسلم إلى هذا الصف أو لاحظ بعض الهنات، فعليه أن يسعى في إصلاحها، فإن وجدها كبيرة، أو أن في الخط انحرافات لا تقوّم، أو لا يصح السير فيها، فعليه أن يفتش عن جماعة أخرى يرتضي سيرها، والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض، وإنما

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤٥.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤.

دعت الظروف لقيامها، أو تعددت بتعدد الأمصار، وإن لم يجد جماعة قائمة فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعة أو يسعى في ذلك ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأدية للفريضة وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه. أما إذا كانت هناك جماعة تؤدي واجبها الإسلامي بحق، وتخلص في العمل، وعمل على إيجاد جماعة أخرى فعمله باطل يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، وعليه وزر كبير، وما من زمن إلا وكانت فيه جماعة من المسلمين تؤدي دورها، وتقوم بعمل جاد ومثمر بغضّ النظر عن هذه الجماعة، وحجمها، وإمكاناتها، وأثرها في المجتمع.

والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام، وخاصة أن الفرد لم يعد له دور في هذه المجتمعات الحالية التي لا تقيم له أي وزن، وتقوم على التكتلات والتنظيمات، فالفرد مهما كان ذا فكر ضاع في خضم هذه الجاهليات، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة، فقد روى الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري أن رسول الله ﷺ، قال: «آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثِيّ(١) جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»(٢) وهذا ما يدل على أن تكوين الجماعة ضروري وهو قبل كل شيء، ثم يليه عدم الخروج من الجماعة حيث أن مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تتكامل إلا بالجماعة والجهود الجماعية. وقد نجد أثناء الطريق من ينفر من الجماعة، ويدعو إلى نبذ التجمع، والاقتصار على الدعوة العامة، فهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما رغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالة فارغة، وإما خوفاً وتهرباً من تحمل المسؤولية.

---

(١) بضم الجيم، جمع جثوة، وهي الشيء المجموع من حجارة وتراب وغيره، والمعنى هنا: أي هو من جماعات جهنم.

(٢) الترمذي (٢٨٦٧) والإمام أحمد، وإسناده صحيح.

ثانياً: تقوم الجماعة بدعوة الناس عامة لالتزام الإسلام، وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة العامة منها والخاصة.

ثالثاً: وتقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية، ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلى العمل، وتشكل منها أسراً خاصة لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا تتناقض الدعوة العامة مع سرية العمل، بل على كل عضو في الجماعة أن يدعو إلى الإسلام علناً، ويجب أن يظهر أثر ذلك في كل تصرفاته وأعماله وأسرته وحياته، ولكنه في الوقت نفسه يخفي جماعته عن الأعين، وخاصة في هذا الوقت الذي تتكالب فيه قوى الشر في العالم كله ضد الإسلام.

رابعاً: يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضم الحياة المادية العنيف، إذ ما إن يقع الفرد حتى يتخبط فيه، ويبدأ بمصارعة التيارات، فأعماله المادية لا يمكن أن يتركها لأنه يتوقف على ذلك نجاحه أو دماره وإفلاسه، وحياته الإسلامية أساسية بالنسبة إليه، ويبدأ التهاون تدريجاً حتى يصبح سيره كسير الماديين الكبار، وليس معنى هذا إهمال متطلباته الأساسية وشؤونه المادية تماماً وأبداً، ولكن أن يعيش الحياة الحرة الكريمة لا يحتاج أحداً، ولا ينصرف إلى المادة فقط، والحياة المادية اليوم تتطلب المزيد من الحاجيات التي تتبدل بين الآونة والأخرى، وأصبح الناس يعدّون الكمالي منها أساسياً فيجب ألا نسير في هذه الحسابات، وألا نكون متأثرين بالمجتمع غير مؤثرين فيه.

خامساً: يجب عدم إهمال الروح المعنوية كالثقة بتأييد الله ونصره إذا استقمنا على الطريقة واتبعنا أوامر الله عز وجل إضافة إلى التدريب والاستعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

وقد نشأ أيام رسول الله ﷺ كل فرد مقاتلاً، حيث كان القتال بين القبائل مستمراً، ويتدرب المرء أثناء الغارات وأيام المعارك، وكذلك كانت أعمال السلب والنهب وقطع الطريق وكلها تستدعي معرفة فنون القتال، فكان كل فردٍ مدرباً بشكل طبيعي، أما الآن فنحن بحاجةٍ إلى العمل والاستعداد لذلك، وقد تغيّرت أساليب القتال، وتبدلت أسلحة الحرب، واختلفت قيادات المعارك، وتنظيمات الجيوش.

هذه طريقة رسول الله ﷺ، وهو الموحى إليه من قبل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1] فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقة غيرها تعدّ ناقصة بل وقاصرة إذ لا يمكن الاعتماد على الدعوة العامة فقط، كما يتبنى ذلك الكثيرون، إذ يكون العمل بلا جماعة، ولا نستطيع بهذه الطريقة تكوين القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور وتمسك بناصيتها، وكذلك ينعدم التنظيم الذي يحتاج إلى السرية لنجاح العمل. ولو لم يكن في صحابة رسول الله ﷺ مثل هذه النواة في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن، وأبي عبيدة، وسعيد بن زيد لضاع كثير من الإسلام أيام الردة، بل لما كان الإسلام خاتم الرسالات وصاحبه خاتم النبيين، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما لا يمكن الاعتماد على القوة فقط كما يتبنى ذلك بعضهم، حيث يضيع الحكم بعد تسلمه بمدة وجيزة إذا لم توجد الفئة الواعية التي يمكنها أن تسير بالحكم إلى النهاية، والفئة المدركة لأوضاع العالم وما فيه من أساليب ماكرة لضرب الإسلام، وكل حركةٍ تهدف إلى النهوض به، أو أن الأفراد الذين يتسلمون مراكز القيادات سيختلف بعضهم مع بعض، وتنتقل المعركة بينهم إلى داخل الصف، وكل يظن أن طريقه هي الصحيحة، وأن اجتهاده هو السليم، والذي يتفق مع الخط الإسلامي الصحيح، وقد حدثت أيام صحابة رسول الله ﷺ، قضايا صعبة لو لم تكن فيهم التربية الإسلامية

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ ـ ٤.

القوية لاختلفوا فيما بينهم ولانقلب بعضهم على بعض قبل أن يتولى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، الخلافة، وقد حدث في هذا العصر أن تسلمت بعض الجماعات غير الإسلامية الحكم، وما إن تربعت على كرسيه حتى ظهرت اتجاهات متناقضة حيث يعمل كل لتأمين هواه، وله اتجاهاته، ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس، وبقيت تتكرر الصدامات المسلحة بين الأجنحة المتعددة بين آونة وأخرى. وكذا إذا لم تأخذ الجماعة الإسلامية نصيبها من التربية، وترسيخ العقيدة في النفوس.

وكذلك لا يصحّ أن تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي أو التخلص من أفراد بأعينهم لسبب من الأسباب. إذ لم يلجأ رسول الله ﷺ لهذه الطريقة أبداً، وكان بإمكانه ذلك وبكل يسر إذ كان يستطيع أن يكلف أحد الصحابة بقتل بعض قادة الكفر كالوليد بن المغيرة المخزومي، أو العاص بن وائل السهمي، أو أبي جهل عمرو بن هشام، أو غيرهم وكان أمره لا يردّ بل ينفذ على أنه نوع من أنواع التعبد، ولكن لم يفعل رسول الله ﷺ مثل هذا الفعل. فإن مثل هذا العمل قد يودي بالجماعة الإسلامية كاملة، أو يعرقل على الأقل مسيرتها مدة ليست قليلة من الزمن كرد فعل من قبل أعداء الإسلام الذين يتكالبون على حربها، بل وتجتمع قوى الشر في العالم أجمع لتنفيذ مثل هذا العمل وتباركه وتؤيده وتدعمه بكل إمكاناتها، ولا يمر يوم دون تحرش بالمسلمين للقيام بمثل هذه الأعمال ليكون ذلك مسوّغاً للقضاء عليهم، أو إشارة من جهات عالمية تحرض المسؤولين في الأمصار الإسلامية للإقدام على مثل هذه التصرفات. ثم لا ندري فلربما يكون أشد أعداء اليوم من الأنصار في المستقبل أو من الدعاة. وكثيراً ما حدث مثل هذا الانعطاف في حياة الكثيرين من الرجال. ورسول الله ﷺ، كان يدعو لأعدائه بالهداية والتأييد فهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام» وعمرو بن هشام هو أبو جهل ألد أعداء الإسلام، فلو كتبت له الهداية لكان أحد سيوف الإسلام، وهذا ما حدث لعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد،

وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وأبي سفيان، رضي الله عنهم جميعاً. وما دام رسول الله ﷺ، لم يقم بمثل هذه الأعمال وحياته في مكة تشبه إلى حد كبير المجتمعات التي نعيش فيها اليوم ونحن مكلفون باتباع سنته، ومسؤولون عن مخالفتها، لذا لم نقم بها نحن، ولا نشجع عليها. وعندما بعث رسول الله ﷺ إلى كعب بن الأشرف من قتله، كان للمسلمين دولة، ويستطيعون حماية المسلمين بل وقتال من تسول له نفسه بالاعتداء على أي فرد منهم.

والجماعة الإسلامية هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وقائدها هو الأمير بالنسبة إلى الدولة الإسلامية، والأمير إنما هو يمثّل رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول من طاعة الله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] فالسمع واجب للقائد، وطاعته في طاعة الله فرض «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2]. وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في خطبة له: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم». ولنعد إلى حديث رسول الله ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وأنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثيّ جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم». والأمير هو إمام المسلمين ورئيسهم، وكما أن طاعته واجبة فالقتال تحت رايته واجب أيضاً، روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ، قال: «الإمام جُنَّةٌ يقاتل من ورائه ويتقى به»[3]. والهجوم عليه والكلام عنه بسوء، مخالفة لأمر الله ورسوله، وخلع للبيعة، وتهديم للعمل الإسلامي، وتفرقة للصف،

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

(٢) حديث صحيح، وهو في «الصحيحين» بلفظ: «لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف».

(٣) رواه مسلم بلفظ: «إنما الإمام جُنَّةٌ فإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا. . .» برقم ٤١٦ في الصلاة.

وتقويض للمجتمع. وقد كان للخليفتين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ هيبة، وللخلافة مركزها أيامهما، لأنه لم يجرؤ أحد أن يتكلم عنهما بسوء أو يتحدث عنهما إلا بخير، لعدم وجود أولئك النفر المنحرفين والخارجين على النظام بين الرعية، ولقرب العهد برسول الله ﷺ، حيث لم تكن السرائر قد فسدت بعد، ولم يندس أصحاب الأطماع بين الصفوف، ومن هنا كانت تنقية الصف يجب أن تتم بين المدة والأخرى بالاختبار والابتلاء للمحافظة على الجماعة الإسلامية والتأكد من خلوها من الشوائب التي قد تتسلل إليها على حين غفلة من أهلها، ولكن عندما تسلل بعض اليهود إلى الداخل، وبدأ أحدهم وهو (عبد الله بن سبأ) يتكلم عن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وينتقل في الأمصار يروج الشائعات، ويزرع بذور الفتنة، والمسلمون لم يعرفوا أمثال ذلك من قبل، فجاءتهم من حيث لم يحتسبوا، ووقع بعضهم في شباكها، وكانت رحابة صدر الخليفة وقوة إيمانه قد فسحت لهم المجال، فحاول أن يجنب المسلمين المصيبة وأن يتلقاها هو بقلبه الكبير، فكان أن زُعزع المجتمع الإسلامي، وحدثت الفتنة، وذهب ضحيتها الخليفة نفسه، وتفرقت كلمة المسلمين، ولم تتوحّد إلا مدداً قصيرة هدأت فيها العواصف لأسباب وقتية، منها قوة الخليفة وسيره في خط سليم بالنسبة إلى أسلافه، ومحاولته رأب الصدع وردم الهوة بين الأطراف المتباينة الآراء، وإما لوجود خطر خارجي داهم يقتضي توحيد الجهود وإنهاء الصراع الداخلي وخاصة في أواخر العهد الإسلامي. وإذا كان المسؤول معرّضاً للحرب الكلامية أو النقد الدائم ضعف مركزه، وقل شأنه، وبالتالي تضعف معه قيمة الدولة. والأمير رئيس المسلمين سمعته من سمعتهم، وقوته من قوتهم، وهيبته من هيبتهم.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته إلى العالم، وهو غاية كل دعوة إسلامية، وأمل كل داعية، وفرض على المسلمين كافة، ومن هنا كان واجب عليهم البيعة لأمير، وقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من خلع يداً من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا حجة له. ومن مات وليس

في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[1] ولا يجوز أن يوجد إلا أمير واحد للمسلمين، فإن نازعه أحد وجب قتاله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[2].

ولما لم توجد اليوم دار للإسلام يطبق فيها شرع الله، فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة طاعته واجبة، والبيعة له حتمية، وإن لم يستطع أن يطبق المنهج ويقوم بتنفيذ الحدود والأحكام: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »، وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ، ولم تكن هناك دولة إسلامية تقيم الحدود، وتطبق منهج الله، فقد قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم»[3]. وتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنة، ومتى أعطى المبايع البيعة كانت أمانة في عنقه لا يحلّ له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عن ذلك لا يجوز له، إلا أن يخلّ الأمير بشروط البيعة فعندها يتم التشاور في استبداله بعد النصح، وطلب الالتزام بالشروط. وليس من شروط البيعة أن يبايع كل فرد، ولكن تنعقد بيعته للأمير بقبوله الانضواء في الصف. ويجب ألا يخطر في بال إنسان أنه لم يبايع ما دام لم يضع يده في يد الأمير ويبايعه. وكل رغبة في تقويض الجماعة أو الإساءة إليها إنما تستهدف أول ما تستهدف القائد بالدرجة الأولى، لذلك نرى التهم تكال للأمير، وتروّج الشائعات ضده وضد جماعته من قبل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الأطماع من المسلمين وهم أصعب هؤلاء وأدهاهم، لذا يجب الحذر منهم، ومعرفة القصد من وراء كل كلمة تقال في هذا المجال. وقد كان المسلمون الأوائل يحافظون على تجمعهم فلا يتعرضون للقيادة إلا بخير، ولا يتلقون إلا من

---

(١) رواه مسلم (١٨٥١). (٢) جزء من حديث رواه مسلم ـ ١٨٤٤ ـ .

(٣) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

المسؤول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدثون إلا له، ويمثله الآن الأمير، وكان ﷺ يوجه اهتمامه وانتباهه الكبير إلى الأسرة التي تعد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء فيها التلقي والعطاء فقط وإنما الحياة بين أعضائها حياة إسلامية تصور الحياة في ظل الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها، وتعطي أهل مكة صورةً عمليةً عنهم حتى تتوضح لهم الحقيقة، ويعرفون صلاحية الدعوة وبالتالي كسبهم إلى صفها، ولم تكن المجموعة التي نشأت في دار (الأرقم بن أبي الأرقم) على يد رسول الله ﷺ، إلا صورة حية لهذا الأنموذج.

بدأت دعوة رسول الله ﷺ تأخذ طريقها إلى النفوس، وتجد فيها مستقرها ومستودعها، ويزداد عدد أفرادها يوماً بعد يوم، وهذا ما أخاف قريشاً وزعماءها، خاف الزعماء على مصالحهم أن تنتهي، وعلى مراكزهم أن يقضى عليها، ويأتي غيرهم من أصحاب محمد، عليه الصلاة والسلام. وخشيت قريش على دينها أن يزول، وعلى أصنامها أن تتحطم، وعلى وثنيتها أن تترك، فأرادت أن تنقذ الموقف وتحتفظ لها بشيء من الهيبة والعقيدة، لذا رغبت في المساومة لإبقاء بعض عناصر الشرك ومظاهر الجاهلية فيما تعتقد. وبينما كان رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، اعترضه بعض زعماء قريش فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظ منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه... وجاء الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة لله وحده ليس لمحمدٍ فيه شيء، إنما هذا أمر الله الذي لا مرد لأمره، ولا راد لحكمه فلا مساومة، ولا اتفاق، ولا لقاء: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[1].

(١) سورة الكافرون الآيات ١ ـ ٦.

تأكيد يليه تأكيد على أن هذه أول خطوة في الطريق يجب أن يسير عليها رسول الله ﷺ كما يجب أن تكون أول الشوط أمام كل داعيةٍ فيتيمز بها خطه، ويعرف بها طريقه في شعوره وسلوكه، ابتعاد عن درب الجاهلية، وانعزال عن دربها، ومفاصلة في طريقها وسلوكها. وإذا كانت بعض أعمال المنحرفين كثيراً ما تتلبس بأعمال المسلمين، وخاصة الجماعات التي تتحدث عنه على الرغم من أن الفارق بينهما بعيد والبون شاسع، فإن السبيل الوحيد للتميز والسير في الخط المستقيم القويم هو الخروج من الجاهلية بجملتها والسير في طريق الإسلام بجملته، والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها، والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

والمفاصلة مفاصلة شعورية لا مفاصلة انعزالية، إذ كان رسول الله ﷺ في مكة يعامل المشركين يبيعهم ويبتاع منهم يدعوهم ويقبل دعوتهم، فقد لبى دعوة (عقبة بن أبي معيط)، وكان جاراً له، وقد دعا إليها عقبة كبراء قريش وفيهم رسول الله ﷺ، وقال له، عليه الصلاة والسلام: «والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله، فتشهد عقبة ثم عاد فنكث، وبدأ يسخر من رسول الله ﷺ. وإذا كانت المفاصلة انعزالية لا يمكن للمرء أن يقوم بالدعوة الإسلامية أصلاً، وهل يدعو إلا البعيدين عن الإسلام؟ فكيف يبتعد عنهم ويدعوهم ويوجههم؟ ولكن يكفي المسلم أن يشعر أنه يختلف عن المحيط الذي يعيش فيه، يختلف في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك، وفي كل جوانب الحياة. وفي الاحتكاك مع مجتمعه يظهر لهم سلوك المسلم وأهمية دعوته ومحاسنها فيؤثر فيهم وهذه غايته، وكلما كان الاحتكاك والتطبيق سليماً كان التأثير واسعاً.

وكثيراً ما يحاول أصحاب الدعوات السائرة في طريق الجاهلية التي تنهل من نبعها، وهي شريكتها في الدنيا والآخرة، يحاول أصحاب هذه الدعوات أن يكسبوا إلى صفهم بعض البسطاء من المسلمين، أو الذين ينتمون إلى الإسلام انتماءً، أو لهم مصالح وأطماع بتزيين جاهليتهم إليهم بأن فيها كثيراً من الإسلام وما يدعو له، وأن ما في أعمالهم لا يخالفه، بل

مما يؤيده، وأنهم عندما يصلون إلى بعض مطالبهم يكونون قد اقتربوا من الإسلام، أو يكونون قد قطعوا مرحلة انتقالية، وهكذا يتدرجون مرحلة إثر مرحلة حتى يستطيعوا تطبيق مبادئهم التي يقرها الإسلام. ذلك ما يقولونه بألسنتهم إذا التقوا بهؤلاء البسطاء والله يعلم ما تخفي قلوبهم، والله يعلم إنهم لكاذبون.

يقول بعضهم: إن الاشتراكية من الإسلام فهي تدعو إلى العدالة وعدم الاستغلال وهذا من الإسلام، أو يقولون إننا ندعو إلى المساواة وعدم سيطرة طبقة على أخرى وهذا ما دعا إليه رسول الله ﷺ وأيده.

ويقول بعضهم: إننا ندعو إلى إنصاف المرأة وإعطائها حقوقها، فالإسلام أول من اعترف بحقها كاملاً ولكن الظروف السيئة التي مرت بهذه البلاد قد جعلها تتردى وتهمل وتعود إلى أسوأ الذي كانت عليه، ونحن نريد أن نعيد إليها مرةً أخرى ما فقدته.

ومنهم من يقول: نعتقد أن الأمة لا يمكن أن تتماسك وتأخذ طريقها اللائق بها إلا عن طريق الأخلاق ومحاربة الرشوة والانتهازية والنفاق، ومتى سادت الأخلاق يمكن عندها الدعوة إلى الإسلام، أما الآن والأخلاق سيئة والفقر مسيطر، ولا أخلاق مع الفقر، وكاد الفقر أن يكون كفراً، لذا فإننا ندعو إلى إزالة الفقر وسيادة الأخلاق حيث لا يمكن الآن أن ندعو إلى الإسلام، لأن المقاومة عنيفة والجهل مستحكم، ويقال عنا إذا فعلنا ذلك: رجعيون ومتخلفون و. . . .

ومنهم من يقول: إننا نعمل بكل جهدنا للوحدة، والإسلام يدعو لها، والآيات التي تحث على اجتماع الرأي ووحدة العمل وتحض على عدم الفرقة كثيرة، ومتى وصلنا إلى ما نبغي، وتمت الوحدة لم يعد أمامنا من طريق إلا الإسلام، فنسلكه، أما الآن فلا يمكننا العمل للإسلام لأنه في البلاد الأخرى قد لا يوافقونا على ذلك، فيحاربوننا، ولكن إذا أصبحت الوحدة صار المجتمع تحت إمرة واحدة تطبق الإسلام، وحتى نحن لا نستطيع تطبيق الإسلام على أنفسنا حتى لا ينفر منا الناس ويبتعد عنا أفراد

المجتمع، فالوحدة طريق يلتقي عليه الجميع على اختلاف أفكارهم، بل لا يستطيع أحد أن يقف في وجهها.

وهكذا جماعات وجماعات توقع في حبالها بعض البسطاء من المسلمين، وتستفيد منهم داخل صفوفها لتخدع الناس بأنها مسلمة وتضلل آخرين وآخرين، وهكذا يضربون بعضهم ببعض ويحاربونهم بأنفسهم، ويهدمون بهم كل ما يحملون في قلوبهم من عقيدة وفكرة. فرق كبير بين طريقة جاهلية تعد الوسيلة غاية، لترفد الجاهلية وتكون داعية لها، وبين دعوة الحق والهداية التي تعد الوحدة والأخلاق والعدالة وسيلة، ويجب أن تكون وسائل الدعوة مشروعة منسجمة مع الإسلام، وليست الغاية سوى عبادة الله تعالى وتطبيق منهج الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله وهذه سبيل الدعوة الإسلامية لا سوى ذلك مهما زينت دعوات الجاهلية. إذ لا يمكن الدعوة إلى الوحدة وكل مجموعة لها أفكار معينة، وارتباطات معينة، وتصرفات معينة، وكلها لا يرضى عنها الإسلام، ولا يقبلها بل يحاربها، ولا يمكن الدعوة إلى الأخلاق، والخمور منتشرة، يعاقرها دعاة الأخلاق، والزنى شائع، ويأتيه دعاة الأخلاق، والربا والرشوة والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يمكن الدعوة إلى العدالة وأنصارها يستبيحون أموال الناس بالباطل، ويثرون على حساب الفقراء، ويحقدون على الأثرياء جشعاً وطمعاً، ويشجعون الكسالى على الأغنياء مكيدة واستغلالاً، والدعوة إلى الإسلام دعوة لكل خير، ونهي عن كل شر دفعة واحدة، لا تجزئة ولا تفرقة، ولا مرحلة ولا تقسيطاً، نأخذ جزءاً ونترك الآخر حتى يأتي وقته، ونرتكب المنكرات وندعو إلى بعض الأعمال المفيدة أو التي لا ضرر فيها، أمور متناقضة يراها كل ذي عقل مجرد، يُعمل عقله، ورسول الله ﷺ، لم يتبع إلا طريقاً واحدة اختارها الله له، وسار هو عليها، لم يحد عنها ـ معاذ الله أن يحيد ـ ولم تكن على مراحل ينعطف بعد كل مرحلة إلى جهة ثانية أو ينتقل بعدها إلى مرحلة جديدة، وإنما كانت دعوة واضحة من أول الطريق متميزة منذ البداية: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ

﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾(١) ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

لم يتزعم رسول الله ﷺ الدعوة إلى التعصب لقومه، والعمل على توحيد بلاد العرب، وقتال الفرس والروم والأحباش الذين كانوا يسيطرون على أجزاء واسعة من أرض العرب، وهو من أشرف قريش أفضل القبائل العربية نسباً، وأجدرها بالدفاع عن الأرض وتحريرها، ولم يعدَّ الدعوة إلى هذه العصبية مرحلة من مراحل عمله، وأن الوحدة من متطلبات الإسلام حتى إذا طرد الأعداء ووحد البلاد وأطاعته القبائل، ولمع نجمه، وملك ناصية الأمر تحول بهم إلى الدعوة إلى الله، وإنما جاءه الأمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾(٣). وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولم يتصدر رسول الله ﷺ الدعوة إلى الأخلاق التي كانت على مستوى منخفض، فالظلم والزنى والبغاء والربا والخمر والميسر وقطع الطريق والإغارة على الناس والقبائل أهم صفات ذلك المجتمع الجاهلي، ومع أن فضائل الأمور يقرها الإسلام ويدعو لها، فإذا ما نجح في هذه الدعوة وسار وراءه الذين يبغون الإصلاح ـ وهم في كل مجتمع كثيرون ـ تحول بهم إلى الدعوة إلى الإسلام.

ولم يناد عليه الصلاة والسلام بالعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس فربما كانت الأكثرية تؤيده حيث كانت طبقة قليلة تتحكم بالأكثرية فتتعامل بالربا، وتكسب الأموال وتسيطر على التجارة، وتملك الرق الذي يمدها

---

(١) سورة الكافرون: الآيات ١ ـ ٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٨.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

بمزيد من الثروة بعمله وإنتاجه، حتى إذا نجحت دعوته، ومشت وراءه الجموع تغلب فيها على الأقلية، وتم له الأمر، ثم انتقل بعدها إلى الدعوة إلى الله.

وهذه كلها ليست بطريقة رسول الله ﷺ، التي أوحى الله إليه بها، وإنما كانت طريقته أن يبدأ دعوته منذ اللحظة الأولى بتعريف الناس بخالقهم، ووجوب انقيادهم له الانقياد التام. حتى إذا استقرت هذه العقيدة في النفوس، أمكن تطبيق حكم الله عليهم، واستقر معه النظام الذي ترتضيه هذه النفوس المؤمنة، وتستسلم كلياً له، وهذا هو الإيمان. وقد جاء العتاب الشديد لرسول الله ﷺ عندما حوّل نظره عن (عبد الله بن أم مكتوم) ذلك الرجل الضرير الذي جاء يستوضح عن بعض الأمور واتجه نحو قادة قريش (عتبة بن ربيعة)و(عمرو بن هشام) و(أمية بن خلف) و(أبي بن خلف) الذين طمع في إسلامهم فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾[1].

ظنت قريش في بداية الأمر أن دعوة محمد ﷺ ستقتصر عليه، وعلى أفراد قلائل تربطهم به بعض الروابط، وتجمعه به بعض اللقاءات، ولهذا فلن يكون لهذه الدعوة أثر في مجتمع مكة، وأنها لن تغير شيئاً من معالمه الواضحة؛ لأنها كانت تعلم أن أمر تغيير الدين شيء عظيم، وتبديل العقيدة أمر صعب مهما كان الدين بدائياً، ومهما كانت العقيدة بسيطة، كما أن إيجاد دين جديد أمر بعيد لن يقدم عليه فرد، وإن حدث فهو صابئ ينتهي أمره بنهايته. ولم تكن قريش لتدرك ما حقيقة هذه الدعوة الجديدة، وما راحة النفس واستقرارها بالعمل لله والجهاد في سبيله، وبمعرفة المصير والاطمئنان إلى النهاية، فإنها على الشرك، والأمر عندها سهل يصنع فتاها

---

(١) سورة عبس: الآيات ١ ـ ١١.

إلهه من تمر، فإن جاع أكله بعد أن عبده. كما اعتقدت قريش في البداية أن أمر محاربة هذه الدعوة الجديدة لن يطول وسينتهي بيسر، وستزول هذه العقيدة بتركها من قبل أتباعها القلائل المغرورين، وإن أخذت هذه الحرب مظهر الشدة منذ البداية فذلك لأن أحلام قريش قد سفهت منذ اللحظة الأولى، وآلهتها قد عيبت، وأصنامها قد استهزئ بها، والمرء لن يتأثر بشيء أكثر مما يتأثر لو أصيب بدينه أو أهين بعقيدته، ولو كان الدين بدائياً والعقيدة وثنية، فإن الإنسان متدين بالفطرة، مرتبط بدينه أشد الارتباط، ومتعلق به أشد التعلق، وإن بدا في بعض المراحل غير مبال به.

رأت قريش في دعوة محمد ﷺ غير ما توقعت، ولمست فيها غير ما كانت تظن، فقد بدأت الدعوة تنتشر بين مختلف الفئات والطبقات والمستويات ودخلها عناصر من بيوتات قريش الأولى التي تقف بشدة في وجه هذا الدين الجديد. فكان بين صفوف المؤمنين الرجل الشريف، والإنسان الوضيع، بينهم السيد المطاع والعبد المباع، وكان بينهم الشيخ الهرم والفتى اليافع، بينهم الرجل الناضج والشاب في مقتبل العمر، وكان بينهم التاجر الغني الثري والخادم المسكين، وبينهم المرأة الفاضلة والأمة المغمورة، وفيهم السيدة الكبيرة والفتاة الصغيرة. وعندما رأت قريش ما رأت غيّرت طريقتها الأولى في الدعوة إلى الكف عن هذا الأمر والرجوع إلى دين الآباء ومحاولة النصح وطلب الاتباع تارة باللين والتوسط، وأخرى بالحزم والتوعد، واستبدلت بذلك كله حرباً عامة شاملة شملت مختلف جوانب الحياة من دعاية وأذى وتجويع ومطاردة وقطيعة وملاحقة شأنها في ذلك شأن الحروب التي تشنّ على الدعاة اليوم، ولننظر إلى جوانب هذه الحرب.

١ ـ **الحرب الدعائية:** أطلقت قريش على محمد ﷺ منذ المدة الأولى لقب صابئ، وكذا نعتت كل متبع له، ثم كان أفرادها يلقبونه تارة بالكاهن وأخرى بالساحر أو المجنون، وتارة يظنون أنه يريد الزعامة أو يبغي الشهرة، وثانية يحسبون أنه قد أصابه شيء من المس، ولنذكر ما قاله

(عتبة بن ربيعة) لرسول الله ﷺ حين كلفه قومه أن يبذل جهده في محاولة يائسة لإقناع محمد ﷺ ليغير خطه ويبدل طريقه.

قال عتبة: «يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت، من السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها».

قال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من مالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (أحد من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى منه» حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه.

قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟». قال عتبة: نعم.

قال رسول الله ﷺ: «فاستمع مني». قال عتبة: «أفعل».

فقال رسول الله ﷺ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ حتى إذا وصل إلى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: الآيات ١ ـ ١٣.

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم مضى رسول الله ﷺ، يقرأ السورة حتى أتمها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ، إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وكان هناك كلام كثير يُتهم به سيدنا محمد ﷺ، وأصحابه معه، ورسول الله لا يبالي بما يقوله قومه عنه. فهو ماضٍ إلى آخر الشوط، سائر إلى نهاية الطريق حتى يبلّغ دعوة ربه ثم يُحكم الله أمره.

ولم يقتصر رسول الله ﷺ، على دعوة قومه، ولم تكن دعوته خاصة بمجتمع، أو قبيلة، أو جنس، أو عرق كغيرها من الدعوات السابقة، وإنما كانت للناس جميعاً، وعليه أن يقوم بها، فكان يغتنم مواسم الحج التي تصل فيها الوفود إلى مكة، فيعرض نفسه على القبائل، ويدعوها إلى عبادة الله، ونبذ ما كانت تعبد من دونه، فرأت قريش أن تسرع للوقوف في وجهه، وتسد هذه الثغرة أمامه خوفاً من استمالة القبائل إليه أو التأثير على الأفراد، فكانت توجه رجالاتها للدعاية ضده، وتنظم أمر الدعاية وتحبك خيوطها، وتحاول أن تحصر أمره في مكة. ولكيلا يختلف رجالاتها بعضهم مع بعض فيما يقولون عنه، ويكذب بعضهم بعضاً: اقترحوا أن يقولوا عن سيدنا محمد ﷺ: إنه كاهن أو مجنون، ولم تقابل هذه الاقتراحات

بالقبول، واتفقوا أخيراً أن يقولوا: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين صاحبته وبنيه، وبين عشيرته التي تؤويه، وكلما جاء موسم الحج أسرع رجال قريش إلى القبائل يعلنون الدعاية ضد محمد، عليه السلام، ويحذرون الناس منه، وهنا يبدأ الصراع الفكري المرير بين رجل فرد وحده، يتحدّى العالم ويسفه الأوثان، وبين مجتمع يستمد وجوده من هذه الأوثان، ويقيم صرح حياته الاجتماعية والاقتصادية على أساسها.

تلقى المسلمون الأوائل هذه الدعاية بصبرٍ وتحمل شديدين، وهل أشد على المرء من أن يسمع دعاية عن قائده وسيده ونبيه أنه ساحر ومجنون؟ ولا يستطيع أن يفعل شيئاً، ثم القول عنه هو إنه من المغرّر بهم وإنه صابئ أو تابع لمجنون، ولكن عليه الصبر ما دام يعتقد أنه على حق، وأن نهايته واضحة ومصيره بيّن: إنها الجنة ماثلة أمام عينيه، فيلقي هذه وراء ظهره ويستمر في الجهاد.

هذه الدعاية ضد المسلمين منذ بداية الدعوة إلى اليوم لم تتبدل، وإن اختلفت أساليبها لاختلاف الوسائل وتغيّر الأساليب وتطور الظروف وتبدل الأحوال. لقد بدأت الدعاية ضد الدعاة بأنهم يدّعون الإسلام ولا يطبّقونه، ويتظاهرون بالدين، وهو منهم بريء، ولكن هذه الدعاية لم تلبث أن فشلت أمام الحق الواضح وتبيّن للناس كذبها وزورها. وأمام هذا الوضوح تبدّلت الدعاية ضد الأفراد والمبادئ، وانتقلت إلى القيادات، لأن الناس يعرفون الأفراد، ويحتكون معهم، ويعاملونهم، ويعيشون بين ظهرانيهم فالكلام الكاذب عنهم لا يصدق مهما كان مصدره إن كانوا صالحين، ومن معرفة الأفراد تعرف المجموعة كاملة، لذا صوّبت الدعاية ضد القادة الذين لا يعرفهم الأفراد في المجتمع جميعاً، ولا يخالطهم الناس كثيراً، وفي هذا خبث كبير فهذه التهم لا تدرك بالحواس، ولا تعرف أضدادها إلا باللقاء، ولا يوجد لقاء، ومع هذا فقد فشلت كل التهم فالمسلم لا يمكن أن يكون إلا مخلصاً صادقاً ناصحاً وفياً مهما كانت المغريات. والمسلم لا يقدم إلا

على حق، ولا يعرف إلا الخير، ولا يحب لنفسه إلا ما يحب للناس عامة والمسلمين خاصة، وكل مسلم يعرف هذا لذا لا يمكن أن يصدق أية تهمة على أخيه، ولكن ذلك ينطلي على الذين لا يعرفون الإسلام سواء أكانوا من أعدائه أم ممن ينتمون إليه إذ يظنون أن جميع الناس أمثالهم يسعون وراء المادة والمنصب والشهوة، وتفتنهم الحياة بمباهجها، بل لا يمكنهم أن يتصوروا أن هناك رجالاً لا يفتنهم عن دينهم شيء مهما كانت الأسباب إذ ليس في الحياة الدنيا عندهم إلا ما هو متاع الغرور.

وإذا كان المسلمون الأوائل قد تحملوا هذا الصراع بالصبر المرير، فإن المسلمين اليوم يمكن أن يتحمّلوا كما تحمّل أسلافهم إن استقاموا على الطريق، وأخلصوا النية. وإن الفرد الذي يخشى ما يقال عنه ويخاف على نفسه من الدعاية لا يصلح للعمل، وسيسقط على الطريق ثم يكون مع الأعداء تدريجياً حتى ينحرف تماماً ويحق عليه القول ويلقى جزاءه يوم الحساب، وإن سقوط بعض الأفراد ليس دليل ضعف وظاهرة مرض، وإنما ظاهرة صحة تنقيها من الشوائب التي تعيق العمل، وتدفع إلى الكسل.

وإذا كان المجتمع الجاهلي في مكة قد حارب الدعوة الأولى ووقف في وجهها خوفاً على مصالحه التي ستزول بنجاح الدعوة، لذا أطلق الدعاية ضدها في كل ميدان وبين القبائل جميعها، فإن العالم اليوم بأسره يحارب الدعوة ويقف في وجه نجاحها متخذاً الوسائل الحديثة والدراسات الفنية جميعها التي توصّل إليها العلم؛ لأن نجاحها نهاية لمصالحه وخاتمة لسيطرة المهيمنين عليه، فالدول الأجنبية تنتهي مصالحها في بلاد المسلمين بنجاح الدعوة الإسلامية، ويبدأ بعدها انتشار الفكر النيّر بين أبنائها للتخلص من الظلم ولنشر الإسلام كما حدث في الماضي. والدول التي يعيش في ربوعها مسلمون تقف في وجه الإسلام لأن معنى نجاحه القضاء على الظلم الذي يمارسه الحكام، وانتهاء سيطرة أصحاب الهوى والمنافع، والتخلص من المفاسد التي يريدها أهل الشهوات، والتطبيق لمنهج الله في الأرض ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾[1].

وسيصبر الدعاة بإذن الله على كل دعاية مهما كانت، ويقفون أمام كل تحدٍّ، لا يخشون كلام الناس، وإنما يزيدهم ذلك إيماناً، ويبغون رضاء الله وحده، ويعاملون الناس بسلوكهم الإسلامي الذي يرتضيه لهم دينهم، ثم يكون لهم النصر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾[3].

٢ ـ الحرب الاقتصادية: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ، قد هاجروا إلى الحبشة، وأصابوا بها أمناً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل، اجتمع رجال قريش، وتداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب الذين يمنعون رسول الله ﷺ منهم، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم كتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب في شعبه واجتمعوا إليه عدا أبي لهب بن عبد المطلب حيث خرج إلى قريش، فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٣) سورة الحج: الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم، حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سراً، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، يرد عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفت أثداء النساء من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذوت الأبدان، وذبلت الأعضاء، وكان رسول الله ﷺ، يمر بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملون، فيرى فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرة ممتلئة بالثقة تشكل مجتمعاً متكافلاً. وبقي الوضع هكذا حتى استيقظ الضمير الإنساني عند بعض رجال قريش، وقد كانت تغطيه ظلمة الوثنية وأوهام الجاهلية، فقاموا بتمزيق الصحيفة، وأعلنوا سخطهم على ما جاء فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم، وقد انتصر الصبر، وعتا على الحرب الاقتصادية وعلى ظلم المجتمع وذوي القربى. وما حدث بالأمس يحدث اليوم، وربما كان أشد مرارة بسبب الوسائل الحديثة والدراسات الفنية حيث أغلقت أبواب الكليات أمام المسلمين، ومنعت عنهم الوظائف، وحوربوا في رزقهم، ولكن المسلم لا يمكن أن يبالي في مثل هذه الأمور إذ يعتقد عقيدة لا يداخلها شك أن الرزق مقدر له، وهو بيد الله وكذلك أجله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[2]. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي ﷺ، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»[3].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٢.
(٢) سورة لقمان: الآية ٣٤.
(٣) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

٣ ـ **الحرب النفسية**: حين حوصر بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب حرموا من الزواج، فأوضاعهم المادية لا تساعد في كثير ولا قليل على الاحتفاظ بمن يحبون للبعد وللوضع الذي هم فيه، فصحتهم أصبحت عرضة للتلف، وأموالهم عرضة للضياع، ومنظر الفرد منهم مال إلى الذبول، والنضارة قد ذوت، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل ما يعتز به الفرد قد سار إلى البوار فطوى الشباب والفتيات ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشباب الذين سجنهم ذووهم، ومنعوا عنهم المال، فأوضاعهم لا تختلف عن أوضاع إخوانهم في الشِّعب.

وحين كان أهل الشِّعب ينزلون في الأشهر الحرم إلى مكة يرى شبابهم صخبها فيذكرون حياتهم الماضية، وهم بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوسة قد أضناها الجوع والألم، فيعافون هذا النعيم الذي يرونه، وينظرون إلى المستقبل فإذا هذا النعيم ينقلب في أعينهم إلى جحيم يتصورونه، ويتملاه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين فيخلد أهله في النار، بينما هم في روضة يحبرون، في الجنة خالدون، فرحون بما آتاهم الله من فضله، فيرى روضة الإيمان في ذلك الشِّعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لا يسمع فيها إلا بكاء الرضع الجياع، وصياح الأطفال مع بعض التأوهات يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد تنطلق من المسلمين الذين يقيمون مع أهلهم، سواء أكانوا على عقيدتهم أم لا.

والحرب النفسية قائمة بما هو شائع وموجود في كل مكان من سفور واختلاط وتهتك وفجور، ويردع الشباب المسلم إيمانهم، ويمنعهم دينهم من أن يتمرغوا في هذه الأوحال، فيترفعون عن الأقذار، ولكنها لواعج النفس وفطرة العاطفة، وتقع الحرب النفسية فينتصر المسلم تارة بالصوم وأخرى بالعبادة، وتارة بالابتعاد عن هذه الأجواء ما أمكنه وهي التي يعيش فيها مكرهاً غير راض. ولعل هذه الحرب من أقوى الحروب وأشدها فتكاً بجسم الأمة، والتي تسير بالشباب نحو الهاوية، وتقودهم إلى طريق

الانحراف، وبالتالي يبيعون كل شيء في سبيل تأمين هذه الشهوات، وقد يكون الثمن إيمانهم.

هذه الحرب النفسية إضافة إلى ما كان المسلمون يلاقونه من سخرية وتهكم، وتكذيب واتهام فيصبر عليهم الإنسان، وإن كانت لا تجد الراحة للنفس سبيلاً.

٤ ـ **الأذى البدني**: غدت قريش على من أسلم من رجالها واتّبع محمداً رسول الله ﷺ، فنالت منه، إذ وثبت كل قبيلة على من كان منها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش برمضاء مكة إذا اشتد الحر، ويفتنون من استضعفوا عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصْلُب، ويعصمه الله منهم.

فكان (أمية بن خلف) يُخرج بلالاً إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال وهو في ذلك البلاء: أحد... أحد، وبقي على هذه الحال حتى أنقذه أبو بكر، رضي الله عنه، وأعتقه.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه، وأمه سمية ـ وكانوا أهل إسلام ـ إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ، ، وهو لا يملك إلا عبرة لهم تغرورق في عينه، وحسرة في كبده فيقول لهم وهو حزين: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1]. أما سمية فقد أصابها سهم في موضع عفافها، وماتت، وكانت أول شهيدة في الإسلام.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام إذا سمع برجل أسلم ذهب إليه، فإن كان له شرف ومنعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك، وهو خير

---

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في «المستدرك» ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وصححه ووافقه الذهبي، وله طرق أخرى يصح بها.

منك، لنسفهن حلمك، ولنخطئن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال له: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.

وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: إن كانوا ليضربون أحدهم ويُجيعونه ويُعطّشونه، حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من المسلمين بل نال الجميع ما نالهم من العذاب حتى رسول الله ﷺ، فإضافةً إلى الإهانة التي أصابته منهم من تكذيب وسخرية وهزء، فيقال إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه لا حر ولا عبد، إضافة إلى هذا فقد هموا بقتله عدة مرات ولكن الله حفظه، وألقوا الشوك في طريقه والتراب على رأسه وفتات العظام وسلا البعير على ظهره فلا يستطيع الارتفاع من السجود حتى تأتي ابنته فاطمة وترفع عنه سلا البعير. وضربه عدد من أفراد قريش، فلم يخلصه من أيديهم إلا أبو بكر، رضي الله عنه، وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. ويجب أن نلاحظ أن رسول الله ﷺ، لم يكن ذلك الرجل الضعيف الذي يستكين هذه الاستكانة، ولكن حكمة الله حتى لا يقع القتال بين أطراف من قريش، ولم يكن المسلمون قد تكاملت قوتهم، ولا اكتمل الدين الإسلامي، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وأصاب رسول الله ﷺ، ما أصابه في الطائف عندما سار إليها، ولم يستطع دخول مكة عندما عاد حتى أجاره (المطعم بن عدي).

كانت قريش تنال من المسلمين، وخاصة المستضعفين منهم، ولم يكن بمقدورهم الرد عليهم إلا بتلاوة آيات من القرآن الكريم، تنال المشركين وتتوعدهم بالنار تارة باسمهم، وأخرى بالتلميح إذ تشير الآيات الكريمة إلى حادثة معينة، فتعرف أشخاصها. وقد كان هؤلاء المستضعفون يهابون الجلوس مع ساداتهم وأشراف قريش فإذا بهم بعد إسلامهم يتجرؤون عليهم ويتوعدونهم بالعاقبة الوخيمة كلما تلوا القرآن الكريم أمامهم وبغيابهم، بل وكل ساعة.

إن أساليب التعذيب اليوم تفوق ما عرفته الجاهلية الأولى بكثير. لقد صبر المؤمنون الأوائل، وحققوا هدفهم في الحياة، ونرجو أن يصل المسلمون إلى مبتغاهم الآن بما صبروا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[١].

٥ ـ **الحرب السياسية**: لم تكن الأمور السياسية بمفهومها الحالي قد وجدت في مكة يوم ظهر الإسلام حيث كان المجتمع صغيراً، والاتصال مع بقية الجهات ضعيفاً، والسياسة لم تلعب إلا دوراً ضئيلاً، إلا أنها اليوم في هذا المجتمع الذي نعيش فيه تعد ركناً كبيراً في الحياة الاجتماعية، فإضافة إلى الدعاية الموجهة من قبل الأعداء الذين لا ينحصرون في مدينة من المدن أو مصر من الأمصار، وإنما يتجاوزون ذلك حتى يشملوا العالم كله، وتتفق على محاربة الإسلام اليهودية، والصليبية، والوثنية، والبدائية لا يتخلف عن ذلك منهم أحد، بالإضافة إلى جاهليي المسلمين الذين يتحكمون في أرض الإسلام، ويسيرون بها حسب مصالحهم وتعاليم أسيادهم.

وإضافة إلى الدعاية الموجهة التي ألمحنا عنها في الحرب الدعائية والتي تشمل وسائل الإعلام كافة، فإن خصوم الإسلام قد بدؤوا يصطنعون تنظيمات تنادي بالفكرة نفسها، وتدعو بالدعوة نفسها، تحمل شعار الإسلام، وتزاود، ولكنها تتحرك من خارج الفكرة، وتتلقى التعليمات من أعداء الإسلام، وقد ترتبط بالحكم الجاهلي، وتستفيد منه، ويسخرها لمصلحته، وقد يكون ارتباطها أبعد من هذا. ويستفيد الخصم من هذا الموضوع أيضاً، إذ يضيع الفرد المسلم وسط الدعاية، وتظهر إشارات الاستفهام حول حملة اللواء حيث يُتهم الجميع، ومن بينهم العمل الصحيح، وتكثر الخلافات بين الرايات.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

٦ ـ **اختلاف المفاهيم**: كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، وتنظم رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام، وتعيش حياة مادية صرفة، تقيس الرجل بمقاييس المادة، وتعد مركزه بتجارته وغناه، وقيمته من قبيلته ونسبه. وعندما بدأ محمد ﷺ، دعوته ظنت قريش أن ذلك لا يعدو أن يكون من هذا القبيل يريد من ورائها عرضاً من أعراض الدنيا، ولكن عندما عرضوا عليه الملك، والجاه، والمال، والنساء ورفض ذلك كله وأعرض عنه، استغربوا رفضه، واستغربوا أن تنطلق دعوته من غير هذه المنطلقات فاتهموه بالجنون، ولما لم يُجد معه شيء من الاتهام والعروض والمقاومة، واستمر في طريقته لا يبالي بشيء مما حوله وجدوا أن الأمر غريب، وكيف يكون رسولاً؟ وهل يختار الله فقيراً؟ فلو اختار الله رجلاً رسولاً لكان يجب أن يختار أحد الأغنياء أمثال (الوليد بن المغيرة) في مكة، أو (عمرو بن عمير الثقفي) في الطائف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]، فمفهوم الدعوة والجهاد، والتضحية، والإخلاص، والعمل الصالح في سبيل الله، كلها مفاهيم لا يعرفونها، وإذا وردت فإنما القصد منها عند الجاهليين الحصول على المادة لا يتعدى الأمر ذلك.

وتفسير اليوم كتفسير الأمس فبُعد المسلم عن قول الفحش وهتك الأعراض، ودعوته إلى غض البصر والعفة والأخلاق الفاضلة الكريمة لا يفسّر عند الجاهليين إلا أنه الكبت وعدم الصلاحية للنساء، أو إظهار النسك في سبيل تحقيق أغراض خاصة له. كما يفسرون عدم تعاطي المسكرات بعدم اكتمال الرجولة، وعدم سريان روح الشباب عند هؤلاء المؤمنين.

واشتد أذى قريش على المسلمين، والشدة يعقبها الفرج، وينبلج الفجر بعد شدة الظلمة. وكان من أثر هذا الأذى أن أسلم (حمزة بن

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.

عبد المطلب) عم رسول الله ﷺ، إذ أدركته الحمية عندما عيرته إحدى الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فتوجه حمزة مباشرة إلى ذلك الشقي، وقد احتمله الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف عند أحد على غير عادته، مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد، نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُد ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وثبت حمزة، رضي الله عنه، على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ، من قوله. فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ، قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. وكان حمزة، رضي الله عنه، أعز فتى في قريش، وأشدها شكيمة.

أراد المشركون أن يغيّروا طريقتهم بتعجيز الرسول بطلب الآيات منه، فطلبوا منه شق القمر، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشق القمر فرقتين كل فرقة فوق جبل، وعندما رأى ذلك المعاندون قالوا: لقد سحركم ابن أبي كبشة[١] فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[٢]. عن عبد الله بن مسعود قال: بينما نحن مع رسول الله بمنى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا»[٣]. وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ، أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين[٤].

---

(١) أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ، فكانت قريشٌ تقول عنه: ابن أبي كبشة، إذا أرادت النيل منه.

(٢) سورة القمر: الآيتان ١ ـ ٢.   (٣) رواه الشيخان وغيرهما.

(٤) رواه الشيخان وغيرهما، وقال ابن كثير: قد كان هذا في زمن رسول الله ﷺ، كما ورد في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون منها إلا التعنت والعناد فقالوا له كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

وبعثت قريش (النضر بن الحارث)، و(عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود يثرب، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب! وسلوه عن رجلٍ طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل (النضر بن الحارث) و(عقبة بن أبي معيط)، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم. فجاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٩٠ ـ ٩٣ .

الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غداً »، ولم يستثن، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ، مكث الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وعلى قوله، عليه الصلاة والسلام، غداً وليس الأمر بيده، وإنما لله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾[1] كما جاءه بخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح. ضعفت قريش عن مقارعة المسلمين بالحجة والبرهان، وعجزت عندما رأت الآيات والحق المبين لذلك عادت إلى الأذى، وزادت فيه على كل من أسلم محاولة صدّهم عن اتباع رسول الله ﷺ، ولم يتركوا طريقة إلا اتبعوها.

الهجرة إلى الحبشة:

لما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنه بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣ - ٢٤.

ولكن المشركين لن يتركوا الدعوة تنطلق بحرية في أرض فيها الحرية، بل اتخذوا جميع الوسائل للكيد لها، وهذا في كل مكان، وفي كل وقت تجد فيه الدعوة مجالاً للعمل، وأرسلت قريش وفداً مؤلفاً من (عمرو بن العاص السهمي) و(عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي)، و(عمارة بن الوليد المخزومي) يؤلب النجاشي على نزلائه، ويوغر صدره على ضيوف بلده، متخذين الكذب والافتراء والدس، وإن لم يمكنهم ذلك لظهور الحق ورجاحة عقل النجاشي ولكننا نلاحظ عدة ملاحظات:

١ ـ إن الدعوة محاطة في كل وقت بالأعداء من كل جهة، ولن يترك لها أعداؤها الفرصة لتنطلق بحرية، فهم يراقبونها في كل مجال، ويتتبعون أفرادها في كل بقعة، فعليها أن تأخذ الحيطة، وتحتاط لكل أمر، وتخطط لأمنها وسلامتها، لا أن تسير معلنة عن مواقفها مبينة خط سيرها، كما يتبادر لذهن بعضهم في أن تكون الدعوة عامة دون حذر، الأمر الذي يجعل الأعداء يفسدون عليها الطريق.

٢ ـ لم تكن الدعوة لتنحصر في بقعةٍ من الأرض، أو في مساحة من العالم، وإنما تنتقل إلى المكان الذي يتوفر فيه العمل، والمناخ الملائم، وتنطلق منه، ولعلّ الهجرة الأولى كانت إلى أرض الحبشة التي لا يسكنها العرب حتى لا يُخيَّل لبعض الناس أن الدعوة يجب أن تنطلق من الأرض التي انطلقت منها أول مرة وهي أرض العرب، وإنما حيثما تتهيأ الظروف وتساعد العوامل يجب أن ينطلق المسلمون، فلربما كانت الانطلاقة الثانية من غير أرض العرب، وإن كان لا يمنع أن تكون منها بل الأحرى أن تكون.

٣ ـ يجب أن تتجمع جهود المسلمين في منطقةٍ واحدةٍ للاندفاع منها فإذا ما تهيأت الأسباب انطلقت نحو هدفها تطبق منهجها، فالرسول ﷺ، لم يسمح للمسلمين أن ينتشروا في أرض الله الواسعة ويتفرقوا كيف يشاؤون، يحاول كل منهم أن يجد المأوى يتخلص فيه من أذى قريش واضطهادها، وإنما سمح لهم أن يهاجروا إلى أرضٍ واحدةٍ يعيشون فيها حياة واحدة

مجتمعين، فيها من معاني الإسلام مما تلقوه من رسول الله ﷺ، في مكة، يساعد كل أخاه على حياة الغربة والتمسك بمبادئ الإسلام والعمل به.

هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة، وكان عددهم عشرة رجال وخمس نسوة:

١ - عثمان بن عفان، ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ.

٢ - أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه زوجه سهلة بنت سهيل بن عمرو.

٣ - الزبير بن العوام(١).

٤ - مصعب بن عمير.

٥ - عثمان بن مظعون.

٦ - أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، ومعه امرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومي(١).

٧ - أبو سبرة بن أبي رهم العامري وزوجه أم كلثوم(١).

٨ - عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

٩ - عبد الرحمن بن عوف.

١٠ - سهيل بن البيضاء.

وكان أميراً عليهم عثمان بن مظعون. فالركب يجب ألا يسير دون أمير، ورسول الله ﷺ، يقول: «إن كنتم ثلاثة فأمّروا عليكم»، فلا يصح للدعوة أن تكون دون أمير.

ثم خرج جعفر بن أبي طالب مهاجراً في الدفعة الثانية وهو ما عرف بالهجرة الثانية إلى الحبشة(٢)، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض

---

(١) انظر ترجمته في سلسلة بناة دولة الإسلام للمؤلف صدرت عن المكتب الإسلامي.

(٢) انظر كتاب «معَ الهجرة إلى الحبشة» للمؤلف نفسه.

الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه، وكان عددهم جميعاً ثلاثة وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا، وهم فيها.

هاجر المسلمون الأوائل - رضوان الله عليهم - إلى الحبشة في سبيل الله، خوفاً على إسلامهم وحفاظاً على عقيدتهم، وكانوا قدوة الدعاة إلى الله، وأسوة المخلصين في سبيل الله، وهنالك في الحبشة ارتد (عبيد الله بن جحش) ابن عمة رسول الله ﷺ، ودخل النصرانية، وبدأ يؤذي المسلمين ويسخر منهم، وبعد أن كان قدوة للمسلمين أصبح بعيداً منهم غريباً عنهم، فالمسلمون لا يرتبطون بالرجال، وإنما يرتبطون بالدعوة، فقد ينحرف الرجل فيزول عندها مركزه من بين الصفوف، أما الدعوة فتستمر. فما أن ارتد (عبيد الله بن جحش) حتى أصبح في عداد الكافرين، وابتعد عنه المهاجرون الذين كانوا بالأمس إخوانه فالقرب والبعد إنما يكون على أساس العقيدة، حتى زوجه (رملة بنت أبي سفيان، أم حبيبة) قد حرّمت عليه، وفارقته، على الرغم من أنها هاجرت معه، وفضّلت صحبته على الحياة في مكة موطنها ومرتع شبابها، ومقر أهلها، وأبوها أبو سفيان صاحب الكلمة المسموعة والأمر المطاع، فضّلت عشرته عندما كان مسلماً وفارقته عندما ارتد. وقد حفظ لها رسول الله ﷺ، هذا الإيمان، وأراد إكرامها، وعدم إضاعتها، فطلب من النجاشي أن يخطبها له، ففعل وأمهرها أربعمائة دينار، ثم انتقلت إلى المدينة، مدينة رسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، وهذا غاية الإكرام. وهنا يجب أن نتوقف على ملاحظتين:

١ - الزواج لا يصح بين صاحبي عقيدتين مختلفتين إلا إذا كانت الزوجة من أهل الكتاب، ولا يصح العكس، وإذا كان الزواج قائماً، وتبدلت عقيدة أحدهما حُرّم أحدهما على الآخر، وتجب المفارقة.

٢ - ترك المسلمون (عبيد الله بن جحش) عندما ارتد، أي عندما بدل عقيدته، ولكن لو تساهل في تطبيق بعض الواجبات وضعف عن أدائها

لوجبت عندها العناية به، والاهتمام بشؤونه، وزيادة الصلة به، وإظهار المحبة الزائدة حتى يعود إلى عقله، ويرجع عن غيّه.

إسلام عمر بن الخطاب:

كان إسلام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى الحبشة في العام السادس من البعثة النبوية، وكان من قبل شديداً على المسلمين، كثير الأذى لهم، قالت ليلى بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة: والله إنَّا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ، وهو على شركه ـ قالت: وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا. حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته، وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لما كان يُرى من غلظته، وقسوته على الإسلام.

وكان ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلم، وأسلمت زوجه فاطمة أخت عمر، كما أسلم نُعيم بن عبد الله النحام من قومه بني عدي، وكانوا جميعاً يخفون إسلامهم عن عمر. وكان خبّاب بن الأرت يختلف على فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج يوماً عمر متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ، ورهطاً من أصحابه، وقد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا، هو بيت الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهم قريب من أربعين مسلماً، ومع رسول الله ﷺ، عمه الحمزة بن عبد المطلب، والمسلمون الذين لم يخرجوا إلى الحبشة، فلقيه قريبه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله، ورأى نعيم

الغضب يحتمل عمر والشرر يتطاير من عينيه فخاف، ورأى أن يثنيه عن عزمه، ولكن أنى له هذا، ففضّل أن يوجهه إلى بيت أخته[1] ولو أدى إلى قتلها هي، وزوجها، وخبّاب، فإن قتلهم يعوّض، أما فقد رسول الله ﷺ، فلن يعوّض، وستموت الدعوة. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما، فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها صدر من سورة (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر، تغيّب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة (الصوت الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكم تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه فاطمة بنت الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشّجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة (طه). فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله

---

(١) ربما كان لقاء هذه المجموعة أيضاً في الوقت نفسه، ونعيم بن عبد الله في طريقه إلى هذا اللقاء.

إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ، حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزلَ الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله ﷺ، تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ، أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ، من مكانهم، وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم. وقال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا لا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وفي رواية لعمر نفسه عن إسلامه يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحِب خمر في الجاهلية، أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بـ (الخرورة) عند دار آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً، فأشرب منها، فخرجت، فجئته فلم أجده قال: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً.

قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ، قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه أستمع لأروعنّه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ، قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ، صلاته ثم انصرف، و... قال عمر رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ، حسّي عرفني، فظن رسول الله ﷺ، أني إنما تبعته لأؤذيه فنهمني[1]، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

رجوع المهاجرين من الحبشة:

لم ترق الحياة للمهاجرين في الحبشة، إذ ابتعدوا عن رسول الله ﷺ، وقد اعتادوا الحياة بقربه يتلقون منه، وهو الذي ارتبطت حياتهم به، وابتعدوا عن بلدهم الذي نشأوا فيه، وعن بعض إخوانهم الذين آمنوا معهم، ووجدوا أنفسهم في محيط غريب عنهم في اللغة، وفي العادات والتقاليد، وعددهم قليل وسط مجتمع واسع لا يستطيعون التأثير فيه، فهم ينتظرون أقل إشارة لعودتهم، وبعد ثلاثة أشهر من إقامتهم في الحبشة وصل إليهم خبر مفاده أن بعض زعماء قريش دخل في الإسلام، ولم يكن بالواقع سوى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقرر بعضهم العودة، فرجع منهم

---

(١) النهم: صوت وتوعد وزجر، يقال: نهم إبله: زجرها.

ثلاثة وثلاثون مسلماً في شهر شوال من السنة السادسة، وكانوا قد غادروا مكة في شهر رجب من العام نفسه. وما إن وصلوا إلى مكة حتى خابت آمالهم، ولم يستطع بعضهم دخولها إلا بعد أن دخل في جوار وجهاء قريش. فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة. ورأى هؤلاء المهاجرون أن قريشاً لا تزال تؤذي المسلمين فيها، بل قد ازدادت عتواً وسفاهة وحقداً وحسداً.

الصَّحِيفَةُ الجَائِرَة :

لما رأت قريش أن بني عبد مناف لا يمكن أن يخذلوا محمداً، وأن عمه أبا طالب ما زال ينصره، وأن قومه قد رفضوا تسليمه مقابل ديةٍ مضاعفةٍ، وأن عمه قد أبى أن يأخذ سيداً من شبابهم بدل ابن أخيه الذي سيسلمه إليهم ليقتلوه.. إذ كان وجهاء قريش قد مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة (أخي خالد بن الوليد)، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله لا يكون أبداً.

لما رأت قريش ذلك ورأت أن أصحاب رسول الله ﷺ، يزيدون يوماً بعد يوم، وأنهم قد وجدوا في الحبشة مكاناً آمناً لهم وقراراً، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل الأخرى، وأنه قد امتنع في قريش إذ أسلم عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب وهما من أشداء قريش ووجهائها، لما رأت كل هذا اجتمع وجهاؤها، وائتمروا فيما بينهم على مقاطعة من ينصر محمداً من قومه مقاطعة اقتصادية، وقرروا كتابة ذلك في صحيفة على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة.

فلما فعلت قريش ذلك انقسمت بنو عبد مناف قوم محمد ﷺ إلى

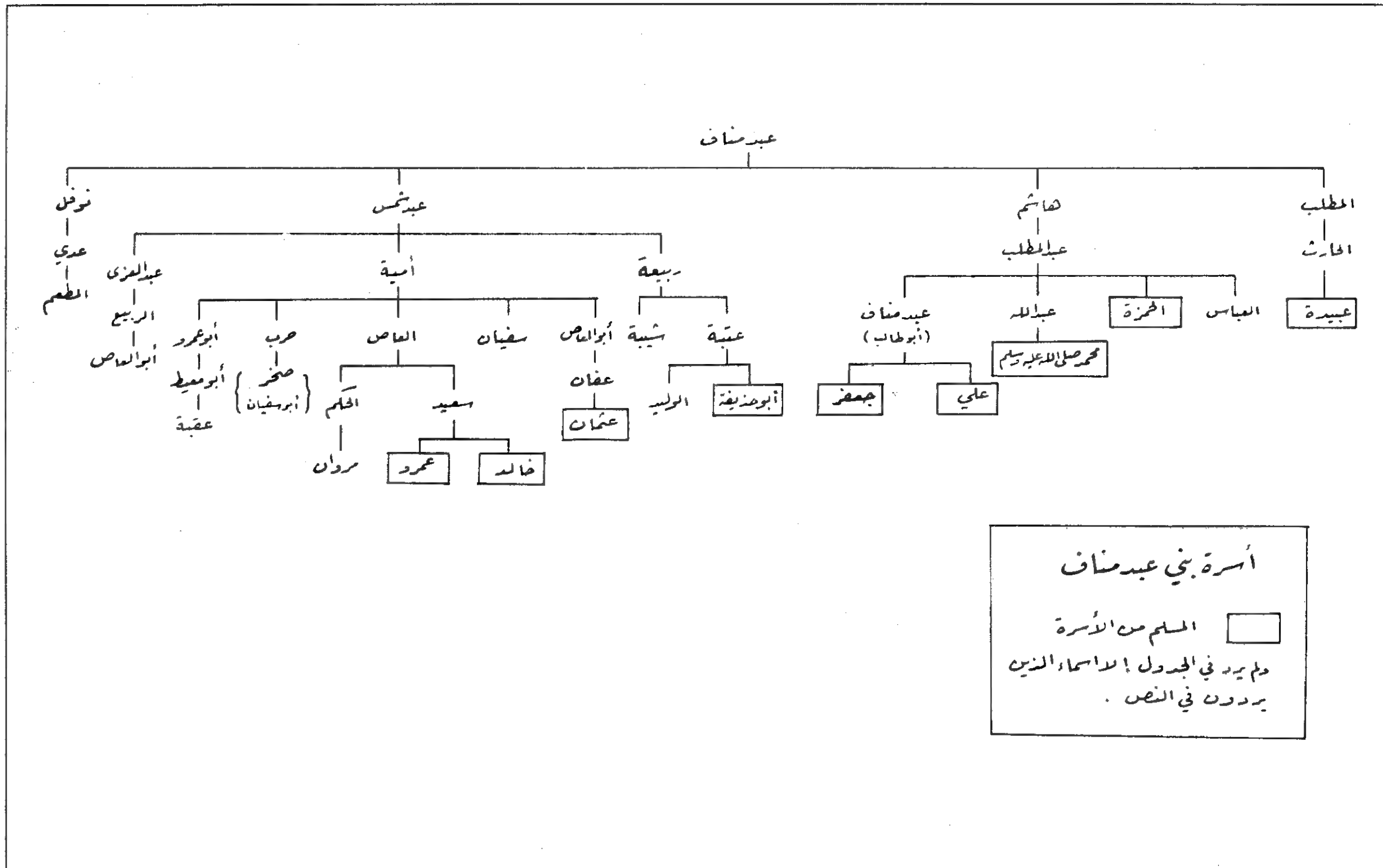
قسمين: بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه، واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب إلى قريش، فظاهرهم، والقسم الثاني وهو: بنو نوفل، وبنو عبد شمس انضموا إلى قريش.

هجرة الحبشة الثانية:

لما دخل بنو هاشم وبنو المطلب شعب أبي طالب مع محمد رسول الله ﷺ، أمر الرسول الكريم المسلمين بأن يهاجروا إلى الحبشة، وينضموا إلى إخوانهم الذين بقوا هناك، حتى يكون عددهم كبيراً، ويساعد بعضهم بعضاً، وكان جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم فهاجر معظم المسلمين من مكة. ويبدو - والله أعلم - أن هذا الخروج من مكة إلى الحبشة هو خروج جعفر بن أبي طالب ومن تبعه من المسلمين مهاجرين، وأن خروج العشرة الأوائل هو الهجرة الأولى، وأنه كان قبل إسلام عمر، وقبل أن يرجع أحد من الحبشة.

ولما رأت قريش ذلك، أرسلت وفداً إلى النجاشي ملك الحبشة يحمل إليه الهدايا ورسالة من قريش تطلب فيها إعادة المهاجرين إليهم، إذ أنهم نابذوا قومهم العداء بعد أن سفهوا أحلامهم وعابوا آلهتهم، وشتموا دين آبائهم، وتألف هذا الوفد من عمرو بن العاص السهمي، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعمارة بن الوليد المخزومي.

وصل الوفد القرشي إلى النجاشي وسلم البطارقة هداياهم، ثم ذهب إلى النجاشي... وكلمه أمام البطارقة، فاقترحت البطارقة تسليم المسلمين إلى الوفد لإعادتهم إلى قومهم، لكن النجاشي رفض ذلك وقال: لا والله، لا أسلمهم إليهم، ولا يقاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هؤلاء في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهم، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.


أسرة بني عبدمناف
المسلم من الأسرة
ولم يرد في الجدول إلا الأسماء الذين يردون في النص .
عبدمناف
المطلب
الحارث
عبيدة
هاشم
عبدالمطلب
العباس
الحمزة
عبدالله
محمد صلى الله عليه وسلم
عبدمناف (أبوطالب)
علي
جعفر
عبدشمس
ربيعة
عتبة
أبوحذيفة
الوليد
شيبة
أمية
أبوالعاص
عفان
عثمان
سفيان
العاص
سعيد
خالد
عمرو
الحكم
مروان
حرب
صخر (أبوسفيان)
أبوعمرو
أبومعيط
عقبة
عبدالعزى
الربيع
أبوالعاص
نوفل
عدي
المطعم

أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته. سألهم فقال لهم: ما هذا الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام و... فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا. فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك... فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم. فلما سمع النجاشي ذلك بكى وبكت معه أساقفته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقوا، فلا والله لا أسلمهم إليكم.

وعاد عمرو بن العاص في اليوم التالي فقال للنجاشي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما

يقولون فيه. ولما وصل الخبر إلى صحابة رسول الله ﷺ، اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، إلا أن البطارقة قد نخروا[1] من حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ووقع الخلاف بين النجاشي والبطارقة، ثم طلب من البطارقة وأتباعه أن يردوا للوفد هداياه، فقال: لا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه. وخرج الوفد من عند النجاشي مقبوحاً وقد ردت إليه الهدايا وما جاء به، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار مع خير جار.

نقض الصحيفة الجائرة: مكث بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب مدة ثلاث سنوات، وقد ضاقوا ذرعاً بتلك المعيشة، إلا أن أفراداً من قريش شعروا بجور هذه الصحيفة، وجور قريش على بطنٍ من بطونها، فتدارسوا الأمر، وبدأ بذلك هشام بن عمرو بن ربيعة العامري، فكلم زهير بن أمية المخزومي، ثم المطعم بن عدي من بني عبد مناف ثم أبا البختري العاص بن هشام الأسدي، ثم زمعة بن الأسود الأسدي، ثم اجتمعوا فتعاقدوا على تمزيق الصحيفة، وغدوا على أندية قريش، فتكلم زهير فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تمزق هذه الصحيفة الظالمة، فأيده

---

(١) النخر: مد الصوت في الخياشيم.

أصحابه، وقالوا: نتبرأ مما جاء فيها، وأنكر أبو جهل وقال: هذا أمر قضي بليل، وتشاورتم فيه بغير هذا المكان. وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم.

وكان رسول الله ﷺ، قد قال لأبي طالب: يا عم، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أربك أخبرك بهذا؟ فقال: نعم. قال: فوالله ما يدخل عليك أحد.

وعندما قام المطعم بن عدي ليمزق الصحيفة كان أبو طالب جالساً في ناحية من المسجد، فقام فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم، فإن كان ما يقول ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فزادهم ذلك شراً[1].

ومزقت الصحيفة وبطل ما فيها، وعاد بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة، وبقي الأذى للمسلمين من قريش التي كانت ترى زيادة عددهم، فتزداد ضغناً ولؤماً، ولننظر إلى هذا المجتمع الإسلامي الصغير في مكة ونظرته إلى الجاهليين الذين حوله، والذين يؤلفون معظم المجتمع، ثم لننظر إلى عوامل الارتباط بين أفراده بعضهم مع بعض.

المجتمع الجاهلي:

جاء الإسلام وقام رسول الله ﷺ، يدعو إلى ترك العادات الاجتماعية السيئة ونبذها والتمسك بمكارم الأخلاق وكريم الخصال التي تنبع من دعوة الإسلام، وقد بيّنها لهم بشكل دقيق، وأوضح لهم الطريق السوي. وآمن المسلمون الأوائل، واتبعوا النبي الأمي، وأسلمت ألسنتهم وقلوبهم وجميع

---

(١) انظر الخبر بإسناده في «عيون الأثر» ١/ ١٢٦.

جوارحهم، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يعيشون ضمن ذلك المجتمع الجاهلي الذي يضغط عليهم، ويضطرون للتعامل معه، فتكاد نفوسهم ترنو إلى بعض مطالبها وأهوائها في بعض الأوقات من الضعف البشري، الذي ينتاب النفوس أحياناً، فتحلو لها الزعامة أو كثرة المال، وخاصة عندما يرون أصحابها يتحكمون في المجتمع ويسيطرون على الناس بما لهم من مال أو بما عندهم من جاه وسيادة، ويتدخل الشيطان ليزين إلى تلك النفوس المؤمنة أثر هذا المال وعظمة السيادة، وأن هذا لو كان للمسلمين لتمكنوا من تبليغ دعوتهم، ولأسلمت لهم النفوس، وخضعت لهم الرجال، ودانت لهم القبائل، ودالت دولة الشرك، وزالت آثار الوثنية، ويوحي بعضهم إلى بعض أنه يمكنهم السير في هذا الطريق ليتم على أيديهم تحقيق هذا كله، وليسيروا وراء هذه المطالب، وتكون هدفاً لهم ومطلباً، وينعطف بهم المسعى، ويتغير الخط، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن ليترك عباده المؤمنين يخضعون لضغط تلك الآثار النفسية وتزيين الشيطان لهم، وفتنته لهم، وصدهم عن سبيل الحق والطريق المستقيم، ووسوسته الدائمة لهم، وقيادتهم إلى الهاوية، وحملهم إلى الضلالة، فكان القرآن الكريم يتنزل على محمد ﷺ، ليقرأه على المسلمين، ويبين لهم أن هذه المظاهر لا تزن شيئاً في ميزان الله، وأن هذه الفترات من الضعف البشري التي تنتاب النفوس إن هي إلا من وسوسة الشيطان الدائمة في الوقت الذي تنقطع فيه الصلة بين العبد وربه، ويسمو القرآن الكريم بنفوس المؤمنين لترتفع فوق مستوى ذلك المجتمع الجاهلي بالارتباط الدائم بالله، ويحذرها من همزات الشياطين، ويطلب منها اليقظة الدائمة والتنبه المستمر، ويوضح لها كيف يوسوس الشيطان؟ وما هي طرقه ومجالاته؟

وقد حافظ الإسلام على أبنائه الذين عاشوا في مكة بين الجاهليين محافظة قوية، واستطاع أن يحميهم من ذلك المجتمع، ومن كيد الشياطين **وذلك** بـ:

١ ـ تذكير المسلمين بشكل مستمر بخط الإسلام ومقاييسه وموازينه.

٢ ـ تنبيه المسلمين إلى الأبواب والمداخل التي ينفذ منها الشيطان.

٣ ـ استمرار اللقاء بين المسلمين والسماع إلى النصائح والتوصيات.

٤ ـ الوعد بالجنة والتخويف من النار والعذاب.

وليس المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أفضل من ذلك المجتمع الجاهلي إن لم نقل إنه أكثر منه تردياً، وإن ضغطه لأقوى وطريقته لأشد وأنكى، وعلى المسلمين الآن أن يتذكروا تلك النقاط على الدوام.

نظرة المسلمين للجاهلية :

رأينا نظرة قريش للمسلمين، وهي نظرة كلها عداء وخصومه وكراهية، ويرون من خلالها ضرورة القضاء على المسلمين والتخلص منهم، وبينما كانت هذه نظرة قريش، كان المسلمون يريدون لهم الخير، ويطلبون لهم الهداية، وينظرون إليهم نظرة ملؤها العطف والشفقة من العذاب، الذي ينتظرهم يوم الحساب، والجهل الذي كان يرين على قلوبهم فيحجبها عن الهدى، ويمنعها من الإيمان، بحجب من المادة والشهوة والجاه الكاذب، ويربطها إلى الأرض بروابط زائلة، ويقيدها بقيود فانية، يدعونهم إلى الهدى فلا يستجيبون، ويرشدونهم فلا يعقلون، وعلى الرغم من هذا فلا يدخل اليأس نفوس المسلمين ولا أفئدتهم، ويأملون أن يأتي يوم يستجيب فيه الجاهليون لداعي الله، وعلى الرغم مما يلاقيه المسلمون من إهانة واضطهاد على أيدي الجاهليين، فهم يرجون هدايتهم. وأبلغ ما في ذلك دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وبينما يرى الجاهليون الدنيا جامدة مقفرة لا حياة فيها إلا بما يحصلون عليه من متاع وشهوات، وبما يحققونه من مصالح وزعامات، يرى المسلمون أن الدنيا كلها حياة تعج بالمعاني والشعور بالراحة عندما يؤدي الإنسان واجبه، ويرضي ربه، وإن كان ما في الدنيا يخضع لله، ويسير حسب مشيئته، وعلى طبيعة فطرته التي فطره الله عليها. قال الله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[2] فالوجود كله ساجد لربه، مسلم لأمره. والحياة كلها مستسلمة لله، فلماذا يكفر هؤلاء الجاهليون؟ ومن هنا يأتي مصدر الإحساس بالإشفاق عليهم والعطف نحوهم على الرغم من شدة بأسهم عليهم.

هذه النظرة الإسلامية للناس لا تختلف بين غنيِّهم وفقيرهم، فالناس كلهم سواء، فليس هناك من فروق في الطبقات أو الأجناس أو العروق أو الألوان أو الغنى، أو الأنوثة والذكورة قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ، في حجة الوداع: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى»[4] وليست نظرة المسلمين لأهل الكتاب إلا من هذا القبيل، فالأصل أن يكون أهل الكتاب أسبق الناس للإسلام لما لديهم من كتب تدعو إلى الإيمان بالله وتبشر برسول الله ﷺ، ولكن أبعدهم عن الإيمان أحبارهم ورهبانهم الذين زينوا لهم السوء وصدوهم عن السبيل حسداً واستكباراً، وغيّروا كلام الله وبدّلوه وحرّفوه بعدما عرفوه.

وإذا كان المسلمون قد حاربوا هؤلاء الجاهليين فليسوا لأنهم أعداء، ولكن لأنهم هم الذين ناصبوهم العداء، وأصلَوْهم وابلاً من الاتهامات، وعرّضوهم لأنواع الأذى، وحارب المسلمون الشر الذي في نفوسهم، والجهل المسيطر عليهم، فالمسلمون ليسوا خصوماً لأحد، فهم دعاة دين سماوي، لا يعد ملكاً لأحد، فيتعصب له، وإنما كل همهم أن يؤمن الناس

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ١١.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٤) رواه أحمد ٥/ ٤٠٠، بإسناد صحيح.

بمثل ما آمنوا به، وأن يؤدوا هذه الأمانة، والناس هم الحقل الذي يعمل فيه المسلمون وليس من الخير أن ينسفوا ذلك الحقل، أو يزرعوا فيه شوكاً، وحروب الثأر غير معروفة في الإسلام، فمهما اعتدى إنسان على المسلمين، ونالوا منه الأذى، ثم اعتنق الإسلام أصبح أخاً لهم في الله، فالإسلام يجبّ ما قبله، ولننظر إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد كان من أشد أعداء الإسلام فإذا به يصبح بين لحظة وأخرى من أولهم قربى، وعرف أبو جهل عمرو بن هشام بعدائه الشديد للإسلام، ولرسول الله، وكان رسول الله ﷺ، يطلب من الله أن يهديه، وأن يؤيد الإسلام به، لما عرف من قوته، فكان، عليه الصلاة والسلام، يقول: «اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين»[1]، ويقصد بهما عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، وكذا ابنه عكرمة الذي أهدر رسول الله ﷺ دمه، ثم جاء معتذراً، فعفا عنه، وأصبح من الأبطال المجاهدين في سبيل الله. وما دخل المسلمون معركة إلا طلبوا من أعدائهم ـ مهما تمادوا في بغيهم وعدائهم قبل بدء القتال ـ إحدى ثلاث: إما الإسلام، وعندها يصبحون إخوة لهم، وإما الجزية، وعندها يدخلون في ذمة الله ورسوله، وإما السيف حتى يحكم الله بينهم والله خير الحاكمين.

ومع مرور الأيام، وتبدل الأحوال لم تتغير نظرة الجاهليين إلى المسلمين في الكراهية والعمل على استئصال شأفتهم، وفي الوقت نفسه لم تتغير نظرة المسلمين أيضاً إلى الجاهليين في حب الخير لهم وطلب الهداية والإيمان لهم، وذلك بدعوتهم المستمرة، وإبانة الطريق، وتأسيس منظمات للتبليغ والإرشاد. ومع هذه النظرة فقد لا يمر عام دون حدوث مذابح للمسلمين على أيدي الجاهليين بتلفيق مختلف التهم والدسائس.

المجتمع الإسلامي:

لننظر إلى ارتباط المسلمين بعضهم مع بعض، وإلى شعورهم تجاه أفرادهم، وهل يمكن أن يؤسسوا دولة تقوم على هذا المجتمع؟.

---

(١) رواه الترمذي بمعناه (٣٦٨٢) من حديث ابن عمر وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

١ ـ **الأخوة**: يشعر المسلم منذ أن يعتنق الإسلام، ويدخل الإيمان إلى قلبه أن المسلمين جميعاً إخوة له ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١] يرتبط بهم أشد الارتباط، ولا رابطة تجمع إلى هؤلاء المؤمنين إلا الإسلام أينما كانت ديارهم، ومهما كانت قومياتهم ولغاتهم، وأنه بدخوله في الإسلام قد اكتسب جنسية جديدة، وانتسب إليها، وأنه قد خلع عند عتبتها كل ما كان يحمله من صفات جاهلية أو رواسب قديمة، وأن جميع أتباعها يبادلونه هذا الشعور، ويحبون له ما يحبون لأنفسهم، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢]، وأن هذه الرابطة أقوى من رابطة الدم والنسب، وأكثر تماسكاً من رابطة الجنس والحسب، وأكثر انسجاماً من رابطة اللغة والمصالح الاقتصادية والعلاقات المتبادلة، وأن المسلمين هم إخوته الحقيقيون، لا أشقاؤه إن كانوا يختلفون عنه في العقيدة.

٢ ـ **الشعور**: يشعر المسلمون جميعاً أنهم يشكلون مجتمعاً خاصاً بهم، ولو كانوا متفرقين بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة، أو مبعثرين في مناطق واسعة لقلتهم، أو يخضعونَ للضغط بسبب الأحكام الجائرة المستبدة بهم، أو موزعين بسبب الفكرة الطبقية الهدامة المتبناة. ويشعر كل فرد منهم أنه يؤدي واجباً معيناً تجاه مجتمعه الإسلامي، وبهذه الواجبات يتكامل البناء الاجتماعي ويسير نحو الأفضل ويقترب تدريجياً من الكمال، يقول رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى»[٣].

وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم بالشعور، وأنه متكامل يؤدي كل عضو فيه دوره المكلف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه ـ وتشبه القلب الذي لا يميز عضواً عن عضو،

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.
(٢) رواه البخاري ١/٥٣ في الإيمان. ومسلم (٤٥) من حديث أنس.
(٣) مسلم (٢٥٨٦) في البر والصلة: باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

فكلهم إخوة متساوون في حاجتهم إلى الدم - هي الفكر المحرك الذي يعطي التوجيه إلى جميع الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومشكلاته ومتطلباته، وتنقي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تنقي الرئة الدم للجسم. ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع إن لم يكن ذلك المجتمع مسلماً، إذ لا ينتمي إليه، وإنما ينتمي إلى مجتمع آخر، وهو المجتمع الإسلامي، ولو كان بعيداً عنه.

فنرى المسلم الذي يعيش خارج العالم الإسلامي، يشعر دائماً بارتباطه بمكة مصدر الإشعاع الرباني أكثر مما يرتبط بمجتمعه الذي يعيش بين جوانحه، لأنه مجتمع غير إسلامي.

٣ - **التعاون**: وليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما في المادة أيضاً وتكافل الحياة، وليس أدل على هذا التكافل المادي من إنفاق خديجة، رضي الله، لمالها الكثير في سبيل الدعوة، وشراء أبي بكر العبيد الذين أسلموا وعتقهم لتخليصهم من الرق والعبودية، وقد لامه أبوه عثمان أبو قحافة، ولم يدر بعد طبيعة هذا الدين فقال له: يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً، يمنعونك، ويقومون دونك؟. قال أبو بكر، رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل. كما أن المسلمين من أصحاب الأموال قد وضعوا أموالهم بين يدي الرسول عند المحنة. وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يقدمون الأموال بين المدة والمدة للدعوة ولكل ما تحتاج إليه، وعندما سأل رسول الله ﷺ، أبا بكر، رضي الله عنه، وقد أتى بمال كثير: «ماذا أبقيت لعيالك؟» أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، أي كان قد قدم ماله كله. ويعتقد المسلم أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ولم يقتصر الأمر على التعاون المادي، وإنما زاد على ذلك، فقد يزهد بعض الرجال بالمادة، ولكنه وصل إلى الأذى البدني الذي لا يقبله حر، ولا يقوى عليه إنسان. فقد صعب على بعض المسلمين أن يروا

إخوانهم من الضعفاء يعذبون، ولم ينلهم هم الأذى لقوة عشيرتهم ومركزهم أو لحمايتهم من قبل بعض الزعماء، وقد كان الجوار هو السائد والمعروف، فمن دخل في جوار أحد حماه؛ وإن أصيب بأذى، وقعت الإهانة على صاحب الجوار، وشعر أن الأذى قد لحق به. فقد روى ابن هشام أن المسلمين الذين عادوا من الحبشة بعد هجرتهم إليها لم يستطع بعضهم الرجوع إلى مكة حتى دخل في جوار بعض قادة قريش، فأبو سلمة قد دخل في جوار خاله أبي طالب، ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى عثمان بن مظعون ما في أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال له: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد رد عليَّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل.

فقال عثمان: صدقت.

وتابع لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل.

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال

رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شري[1] أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عما أصابها لغنية، فقد كانت في ذمة منيعة. قال عثمان: بل والله، إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك، فقال: لا.

أما أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فقد ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ، وأصحابه ما رأى، فاستأذن رسول الله ﷺ، بالهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين، لقيه (مالك بن الدغنة)، أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذٍ سيد الأحابيش، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني، وضيّقوا عليّ، قال؛ ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع فأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له إلا بخير فكفوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن بكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا له: يا ابن الدغنة، إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة ونحو فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فأته فمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء، فمشى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا

---

(١) شري ـ كرضي ـ يقال: شري الشر بينهم، أي: عظم واستطار.

بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، إنهم كرهوا مكانك الذي أنت فيه وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال: أو أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله؟. قال: فاردد علي جواري، قال: رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردّ علي جواري، فشأنكم بصاحبكم. فلقي أبا بكر سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل، فقال أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. فكان أبو بكر يكرر: أي رب ما أحلمك!![1].

٤ ـ الطاعة:

هذا المجتمع كان يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله ﷺ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[2]، ويشعر كل فرد أنه أولى منه بنفسه ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾[3]، وكان المثل الأعلى للمؤمنين: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[4].

كما أن طاعته واجبة بصفته رأس المجتمع وقائده وبه تتمثل الدعوة، فلم يكن مسلم يتصرف دون إذنه، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه، وهذا ما يدعو إليه المسلم. وكذلك فالأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيساً يمثل المجتمع الإسلامي، ويقيم حدود الله بينهم، وهو يمثل رسول الله ﷺ.

٥ ـ التضحية:

وكان المسلمون يضحون بكل شيء في سبيل رسول الله ﷺ، ودعوته

---

(١) ابن هشام ١/٣٧٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

نتيجة تقديرهم العميق له، ونتيجة كونه رمزاً لهذه الدعوة وصاحبها، وتتجلى هذه التضحية عندما نام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في فراش النبي ﷺ، يوم الهجرة، وكان هدفاً للقتل، بل وتتجلى في كل معركة خاضها رسول الله ﷺ، حيث كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يحمونه بأنفسهم، ويتلقون الضربات عنه.

٦ ـ الموقع:

كان الفرد المسلم يعرف موقعه تماماً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به، ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقفاً، ويتعرف على ما يحاك ضده من مؤامرات، وعلى الجهات التي تخطط وتنفذ ذلك، فيراقبها من جهته مراقبة دائمة، يعرف من خلالها تحرك الأعداء، ويبلغ قيادته بشكل دائم ومتصل لتتخذ الموقف المناسب الذي يحبط عمل الخصم، ويحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه، وقد كانت أحوال قريش وتحركاتها اليومية تصل إلى رسول الله ﷺ، ومن خلال هذه المعلومات يعطي الرسول الكريم أوامره، وقد ينقلها إلى بعض المسلمين الذين يرى ضرورة معرفتهم لها.

٧ ـ النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يقدّر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة، بل هو بمقدار قربه من رسول الله ﷺ، قائده وموجهه، وتطبيقه للإسلام وانقياده له ووعيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٨ ـ الحماية:

هذا المجتمع الإسلامي الصغير الذي نشأ في مكة كان لا بد له من حماية من المحيط الذي يعيش فيه، والذي يريد القضاء عليه، ولا تتوفر له الحماية إلا إذا وجد له التنظيم الدقيق والسرية التامة، وهذا لا يضمن إلا إذا توفرت الطاعة

التي تكلمنا عنها. وقد كان رسول الله ﷺ، ينظم العمل، ويقيم سراً لقاءات تتم في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تحدثنا عنها في البداية، فلم يعلم ما يدور فيها إلا الذين يدخلون الدار، ولم يعلم باللقاء إلا الذين يجتمعون فيه، هذا بالنسبة إلى الذين لا تعلم قريش إسلامهم، أما الذين يجهرون بالدعوة، وتعرفهم قريش فكان لا بد من توفير الحماية لهم أيضاً، وكانت تتم إما:

أ ـ بالدخول بجوار بعض زعماء قريش ممن تربطهم بهم الصداقة أو القرابة، وقد تكون أحياناً من باب الشهامة أو حب الشهرة، وذلك في سبيل حمايتهم من الاضطهاد دون أن يمس ذلك شيئاً في عقيدتهم أو سلوكهم الإسلامي أو دفاعهم عن إخوانهم في الدين من المستضعفين.

ب ـ بالهجرة من البلد: والقيادة هي التي تؤمن ذلك لحماية أفرادها من وقوعهم في أيدي الجاهليين، وخوفاً عليهم من الفتنة، فكانت القيادة هي التي تشير إلى بعض المسلمين بالهجرة إلى مكان معين كما حدث في الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ولم يكن مسلم ليخرج إلى أية جهة يريدها كيفما اتفق، أو يخرج دون أن يستأذن القائد أو المسؤول الذي هو رسول الله ﷺ، فالقيادة هي التي تقدر الأمر، وليس الأفراد.

ويتساءل بعضهم: هل يصح الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذ مظلة يتقي بها شر الأعداء؟ ويعمل من خلالها لفكرته، ويستندون في هذا التساؤل إلى دخول رسول الله ﷺ، في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، ودخول أبي بكر، رضي الله عنه، في جوار مالك بن الدغنة، ودخول ابن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول رسول الله ﷺ، مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب، والجواب لا يصح ذلك للأسباب التالية:

أولاً: دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخول فرد في حماية مؤسسة، إذ أن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية ربما تتوطد وتزداد أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه وهذا ما حدث عندما ردّ أبو بكر، رضي الله عنه، جوار ابن الدغنة،

وعندما ردّ عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة مع مؤسسة فما دام الفرد عضواً فيها فيجب أن يخضع لها، ويسير على نهجها، ويتبع أفكارها ولو أنها تباين أفكاره، وخاصة أنه ضعيف.

ثانياً: دخول رسول الله ﷺ، مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب كان دخول فرد مع أسرته وحُماته، ولكنه لم يسمح للمسلمين من غير هذين الحيين بالدخول معهم، وإنما طلب منهم أن يهاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية، وخاصة الضعفاء في قبائلهم أو الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومعنى هذا رفض رسول الله ﷺ، دخول فرد مسلم في حماية جماعة على الرغم من وجوده هو فيها.

ثالثاً: دخول رسول الله ﷺ، في شعب أبي طالب لم يكن دخول فرد، وإنما كان هو المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع، والعنصر المحرك فيه، فكان إذا جن الليل، وأوى رسول الله ﷺ، إلى فراشه ورأى الناس ذلك، طلب منه أن ينتقل إلى فراش غيره من أبناء عمومته، وينتقل صاحب الفراش إلى مكان رسول الله ﷺ، حتى لا يصاب الرسول بأذى إن أراد أحد به مكراً أو اغتيالاً، وإنما يصاب غيره. أما غير رسول الله ﷺ، فإذا انضم إلى مؤسسة ضاع بين أفرادها وخاصة إذا كانت المؤسسة ذات سلطة، وكان هو ضعيفاً، وأراد أن يحتمي بها، وهذا سبب دخوله أصلاً إليها.

رابعاً: كثيراً ما يتخذ الإنسان هذا الدخول لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوغات له، وبعد المناقشة تتبلور المسوغات في ذهنه حتى تصبح حقيقة عنده يدافع عنها.

تنقية الصف:

ولم يكن هذا المجتمع ليخلو من هزات تصيبه بين مدة وأخرى، فتنقيه من الشوائب التي يمكن أن تتسرب إليه، وتصفيه من ضعاف الإيمان عند وجودهم فيه، فإما أن يقوى إيمانهم ويسايروا الركب، ويكونوا أعضاء

عاملين فيه، أو يسقطوا على الطريق، وبهذا يصبح المجتمع أكثر تماسكاً وأشد تجانساً، فإن وجود عناصر مرضى يعيق السير ويبطىء من الحركة، وقد تؤدي إلى ضعف النمو، وبالتالي إلى التخاذل وتوقف الحيوية. وإن حادثة الإسراء والمعراج كانت إحدى هذه الهزات التي أصابت المجتمع الإسلامي الصغير، فعندما حدَّث رسول الله ﷺ، بقصة إسرائه أنكرت قريش عليه، وقال الناس: هذا والله الأمر البيّن، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟! فارتد بعض من كان أسلم.

صحيح أن الهزات كانت تقلل العدد، فيضمر المجتمع، ولكن متى كان للعدد تلك الأهمية؟ إن الأهمية كل الأهمية في القلوب التي في الصدور، القلوب التي يعمرها الإيمان، فتحرّك الرجال، وتدفعهم كي يتجشموا المخاطر، ويتحملوا النوازل، ويتلقوا المصائب، ويستهينوا بقوة العدو أمام قوة الله، هذه القلوب المؤمنة هي التي كانت سبب النصر في كل المعارك التي خاضها المسلمون على الرغم من قلة العدد وقلة العتاد وما انتصر المسلمون في معركة بكثرة العدد، أو ضخامة العتاد، وإنما انتصروا بالإيمان والتأييد من الله، وقد هزموا في حنين في البداية عندما أعجبتهم كثرتهم، وداخلهم شيء من الأمر، وظن بعضهم أن النصر بالكثرة، فخابت آمالهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1] وأضعف المنافقون الصف يوم أحد، ونشروا الفوضى وانسحبوا من الجيش، وهذا شأن ضعاف الإيمان في كل معركة وفي كل ميدان.

لذا يجب ألا نبالي بهذه الهزات، وألا نعدها ظاهرة مرض تضعف الجماعة الإسلامية، إنما هي في الحقيقة ظاهرة صحة تقوي التماسك في

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٦.

الصفوف، وتدبّ فيها الحيوية والحركية، إذ لا يسقط من الصف ويتخلى عن الفئة المؤمنة إلا الذي في قلبه مرض، أو في نفسه هوى وقد طال أمد تحقيقه ورأى الطريق شاقاً، فاستهوته شياطين الإنس، فانحرف بغية تحقيق بعض مصالحه..

وفاة خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها:

بعد أن خرج بنو هاشم وبنو المطلب من شِعب أبي طالب بقليل توفيت زوج رسول الله ﷺ، خديجة بنت خويلد الأسدية، رضي الله عنها، وهي أولى زوجاته، ولم تكن له زوج غيرها عندما كانت على قيد الحياة، وهي التي أنجبت له أولاده الذكور جميعهم عدا إبراهيم إذ ولدته مارية القبطية، وبناته كلهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وحزن رسول الله ﷺ، على خديجة حزناً كبيراً فهي أول من صدّقه، ومن بذل ماله له وللدعوة، وأنجبت له الأولاد، وكانت العطوف عليه وقت الشدة.

أما الذكور فقد توفوا صغاراً وهم: القاسم، وعبد الله الملقب بالطيب، والطاهر، وكذلك إبراهيم، وأما البنات فقد تزوج زينب في الجاهلية ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأنجبت له أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة زوجه فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وهي خالتها.

وتزوج عثمان بن عفان رقية وهاجر بها إلى الحبشة، ولما توفيت في المدينة بعد غزوة بدر تزوج أختها أم كلثوم، ولم تنجب الأختان. وتزوج علي بن أبي طالب فاطمة في المدينة بعد غزوة بدر، وأنجبت الحسن والحسين وزينب.

وهنا نجد أيضاً القدوة برسول الله ﷺ، الذي لم يعش له من الذكور أحد، بل ماتوا صغاراً في حياته، وعاشت البنات، منهن من أنجبت، ومنهن من لم تنجب، وماتوا كلهن في حياته إلا فاطمة فقد عاشت بعده ستة شهور فقط.

زواج رسول الله ﷺ سودة:

بعد أن توفي السكران بن عمرو إثر عودته من الحبشة إذ هاجر مع زوجه سودة مع المجموعة الثانية، بقيت سودة مع المجموعة الثانية، بقيت سودة بلا معيل، فهي من بني عامر من أشراف قريش الذين منهم سهيل بن عمرو أخو زوجها السكران، وهو من أشد الذين وقفوا في وجه الإسلام. فهي شريفة، وأسلمت، وخالفت قبيلتها وأسرتها، وهاجرت مع زوجها، ولم يجد رسول الله ﷺ، بداً من أن يتزوجها، وكانت خديجة قد توفيت منذ شهر تقريباً.

وفاة أبي طالب:

وبعد وفاة خديجة بشهر توفي عمه أبو طالب الذي وقف بجانبه، وحماه من قريش، وكان يطمع رسول الله ﷺ، في إسلامه إذ كان يُصدّقه، ولا يكذبه أبداً فيما يقوله، ولكنه لم ينطق بالشهادة، وكان رسول الله ﷺ، يقول له: قلها ولو في أذني، ولكنه رفض وخشي أن تعيره قريش. وقد نالت قريش من رسول الله ﷺ، بعد وفاة عمه ما لم تنله في حياته.

عقد رسول الله ﷺ على عائشة:

عقد رسول الله ﷺ، على عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، بعد وفاة عمه أبي طالب بشهر تقريباً، وكانت صغيرة فلم يبن بها إلا في المدينة أي بعد خمس سنوات من العقد، إذ دخل عليها في أواخر السنة الثانية للهجرة.

الإسراء والمعراج:

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، إذ نام يوماً بمكة بعد أن صلى العشاء الآخرة وقبيل الفجر أسري به على البراق إلى بيت المقدس فصلّى هناك، ثم عرج به إلى السماء حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما

رأى، وفرضت عليه الصلاة فكانت خمسين صلاة في اليوم، ثم سأل ربه التخفيف فوضعها عنهم إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة فمن أداهن إيماناً بهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة. ثم عاد إلى بيت المقدس ومنها إلى مكة، ولم يخرج النهار، فصلى الصبح، تقول أم هانئ هند بنت أبي طالب ابنة عمه: ما أسري برسول الله ﷺ، إلا وهو في بيتي. نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا[1] رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم قد صليت الغداة معكم الآن كما ترين، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشفت عن بطنه كأنه قبطية[2] مطوية فقلت له: يا نبي الله لا تحدث بهذا الناس، فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدّثنهموه. قالت: فقلت لجارية لي حبشية: ويحك! اتبعي رسول الله ﷺ، حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له.

فلما خرج رسول الله ﷺ، إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط، قال: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فندّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى كنت بـ (ضَجَنان) مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب[3] من البيضاء[4]: ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء. قالت: فابتدر القوم الثنية، فلقيهم أول ما لقيهم من الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء، ثم غطوه، وأنهم هبّوا فوجدوه مغطى

---

(١) أهبنا: أيقظنا.

(٢) القبطية ـ بكسر القاف وضمها ـ ثياب من كتان في مصر، نسبة إلى القبط.

(٣) يصوب: ينزل من عل.

(٤) هي عقبة قرب مكة تهبطك إلى فخ.

كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذكره، وندّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

وحدَّث رسول الله ﷺ، أبا جهل أيضاً بما جرى، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي فأقبل إليه كفار قريش، فأخبرهم الرسول الخبر، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتد ناس ممن كان آمن به ضعفاء القلوب. وسعى رجال إلى أبي بكر، رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ فقال: إني أصدقه على أبعد من ذلك. إني أصدقه بخبر السماء، فسمِّي من ذلك اليوم صدِّيقاً.

ثم أخذ الكفار يمتحنون رسول الله ﷺ، ويسألونه أن يصف لهم بيت المقدس، ومعهم رجال يعرفون ذلك البيت، ولم يكن رسول الله ﷺ، يعرفه قبل حادثة الإسراء، فجلاه الله، فصار يصفه لهم مكاناً مكاناً، فقالوا: أما الوصف فقد أصاب.

وكانت هذه الحادثة اختباراً للمسلمين نقَّت صفوفهم من ضعاف الإيمان، فأصبحت أكثر تماسكاً وأشد ارتباطاً. والله غالب على أمره، وله في كل حادثة حكمة، وفي كل أمر شأن.

الفصل الثالث

البَحثُ عَن مَكانٍ يُتّخذُ قَاعِدَةً للدَّعوَة

رأى رسول الله ﷺ، أن القاعدة الصلبة قد تكونت، وأن عدد المسلمين غدا جيداً، وهم يزدادون يوماً بعد يوم، وأن الدعوة قد زادت حمايتها بدخول حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب في عدادها، وأن القبائل الثانية قد بدأ خبر الإسلام يصل إليها، وأخذ يعتنق الدين الجديد أفراد من تلك القبائل، فقد دخل في الإسلام عبد الله بن مسعود من هذيل، ومسعود بن القاري من القارة، وعامر بن ربيعة من اليمن، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر الغفاري، ووفد نصارى نجران، ويزيد عددهم على العشرين، وقد وصل إليهم خبره عن طريق المهاجرين إلى الحبشة، فوفدوا على رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا جميعاً، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم! فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه، وأبو موسى الأشعري من اليمن، وهاجر قومه فيما بعد إلى الحبشة، إذ ألقى بسفنهم الموج وهم في طريقهم إلى المدينة، في الوقت الذي كان فيه جعفر ومن معه في سفينتين يريدون المدينة أيضاً، وكانوا قد بقوا فيها ما يزيد على عشر سنين.

لما رأى رسول الله ﷺ، ذلك بدأ يفكر بتأسيس الدولة التي تحمي الدعوة وتعمل على حملها ونشرها، وقد بدأ هذا العمل منذ الهجرة إلى الحبشة، إذ كانت الغاية إضافة إلى حماية الذين أسلموا دراسة أوضاع الحبشة، فإذا كانت التربة صالحة، والمناخ ملائماً، انتقل رسول الله ﷺ، بعد المهاجرين إليها، يعمل هناك إلا أن ظروف الحبشة لم تناسب ذلك، إذ

اختلفت البطارقة مع النجاشي ـ كما رأينا ـ ثم نازعه رجل على الملك، ولكن الله نصره عليه، وعاش المسلمون عنده في خير منزل، إلا أن الوضع كان بشكل عام لا يلائم انتقال رسول الله ﷺ، إليها لأن الخلاف مع البطارقة يمكن أن ينفجر معه الوضع في كل وقت ـ وقد حدث ـ.

الهجرة إلى الطائف:

وفكر رسول الله ﷺ، في الطائف، فهي بلد قريب من مكة لا يبعد عنه أكثر من ثمانين كيلاً، وهي مكان مرتفع، وثقيف قبيلة مشهورة بين العرب، وذات منعة، وهوازن كذلك، فإذا وجد هناك المنعة والحماية من قومه الذين اشتد أذاهم له بعد وفاة عمه أبي طالب هاجر إلى هناك، فإذا تم ذلك ربما أمكن اتخاذه مكاناً يكون قاعدة الدعوة. فسار إلى الطائف وحده.

وعمد إلى نفر منهم، هم آل عمير، ويعدون من سادة ثقيف إلا أنهم ردوه بعد أن دعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، فلما يئس منهم، طلب منهم أن يكتموا عنه، إذ خشي أن يعلم قومه بما قام به، فيزداد أذاهم له، ولكنهم لم يفعلوا، وإنما أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة من قريش، فرجع عنه سفهاء ثقيف، وابنا ربيعة ينظران ما فعل بمحمد ﷺ، وعمد إلى ظل شجرة عنب فلما اطمأن هناك توجه بالدعاء! إلى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». وقد رقّ له ابنا ربيعة فأرسلا له قطفاً من عنب مع غلامهما (عداس). وهو من أهل نينوى بالعراق، إلى

الشرق من الموصل، فلما بدأ رسول الله ﷺ، يأكل من العنب قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فاستغرب عداس، فلما كلمه رسول الله ﷺ، وعرف بلده، بلد رسول الله يونس بن متى، أكب عداس على رأس رسول الله ﷺ، يقبله، وعلى يديه وقدميه، وقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر لما رأيا ذلك: أفسد علينا الغلام. فلما رجع إليهما، قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

انصرف رسول الله ﷺ، من الطائف راجعاً إلى مكة إذ يئس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة[1] قام من جوف الليلي يصلي، فمر به نفر من الجن، فاستمعوا إليه، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

وعندما وصل إلى مكة، وكان خبر رحلته إلى الطائف قد وصل إلى قريش، فلم يستطع دخول بلده حتى أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

العرض على القبائل:

ولما يئس رسول الله ﷺ، من إيمان قريش في مكة، وثقيف في الطائف، بدأ يذهب إلى المواسم التي تقام في الأسواق مثل عكاظ وذي مجنة وغيرها، وتحضرها القبائل العربية للتجارة والاستماع إلى ما يلقى فيها من شعر، ويعرض نفسه على هذه القبائل يدعوها إلى الله، وإلى نصرته، ومنعته حتى يؤدي رسالته، وكذلك يعرض نفسه على هذه القبائل في موسم الحج، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله،

(١) نخلة: اسم واديين إلى الشمال الشرقي من مكة على طريق الطائف، يقال لأحدهما نخلة الشامية، وللآخر نخلة اليمانية.

ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به». ولكن قريشاً لم تكن لتتركه وشأنه مع القبائل إذ كانت ترسل إليها أفراداً منها يُحذِّرون تلك القبائل منه، ويرمونه بالسحر والكهانة أو الجنون، حتى إن عمه أبا لهب كان يسير وراءه في كثير من الأحيان ويرد أقواله فيقول: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. ومن هذه القبائل من كان يرد رداً لطيفاً، ومنها من كان يرد رداً قبيحاً، ولعل أقبح رد ما كان من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب. أما بنو عامر بن صعصعة فقد قال كبيرهم فراس بن عبد الله: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتهدف[1] نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا. فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هل لذناباها من مطلب[2]، والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط[3]، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟.

---

(١) تهدف ـ بالبناء للمجهول ـ أي: تصير هدفاً يرمى.

(٢) هذا مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به.

(٣) أي: ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل.

وهكذا يبدو أن رسول الله ﷺ، لم تكن غايته جمع الناس حوله ومقاتلة خصومه، وعند نجاح أمره، يطبق المنهج الذي يريد، وإنما كانت غايته تثبيت العقيدة من البداية والسير على هدى الله من أول الطريق، فليس هناك من مراحل في الدعوة وليس هناك أنصاف حلول. . فالحكم لله يضعه حيث يشاء لا مزاودة فيه ولا عمل من أجله بحد ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق منهج الله في الأرض.

وجاء وفد من يثرب من الأوس إلى مكة، يبغون نصرة قريش لهم على إخوانهم الخزرج، وعليهم أبو الحيسر، أنس بن رافع، فسمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكان معهم غلام حدث هو إياس بن معاذ، فقال: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب البطحاء فضرب وجه إياس، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، وقد أتت على أكثر رؤسائهم إذ لم يبق من زعماء الخزرج سوى عبد الله بن أبي بن سلول، ومن الأوس أبو عامر الراهب. وربما كان ذاك تقدمة لمقدم رسول الله ﷺ، إذ أن الوجهاء عادة يقفون أمام كل مصلح خوفاً على مصالحهم، وهذا ما كان بمكة وكذلك في يثرب إذ نلاحظ أن هذين الوجهين كانا من أشد أعداء رسول الله ﷺ، وإن أسلم أولهما ظاهراً، وكان رأس المنافقين لا يترك مناسبة إلا ويحاول فيها الوقيعة بين المسلمين أو شقّ صفوفهم أو نقداً لرسول الله ﷺ. أما الثاني فقد عادى رسول الله ﷺ، وخرج مغاضباً إلى مكة وسار مع أبنائها لقتاله. ومات كافراً. أما إياس بن معاذ فلم يلبث أن مات، ويعتقد أنه مات مسلماً إذ كانوا يسمعونه يكبر الله ويحمده ويسبحه.

وجاء الموسم، وبينما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، التقى بجماعة من الخزرج عند العقبة. فلما سألهم من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. وكانت الغلبة في يثرب لليهود. وذلك أنه لما كانت حادثة سد مأرب، وتفرق العرب من حوله، وساروا في مختلف الجهات، إذ سار أزد عمان نحو عمان، وانتقل أزد شنوءة إلى بلاد عسير، واتجه المناذرة نحو العراق، وحطت رحال الغساسنة في بلاد الشام، وتوقف حارثة وولداه الأوس والخزرج في يثرب، وقد حارب العرب في البداية يهود، وانتصروا عليهم، وأصبحوا أصحاب النفوذ في يثرب، ثم تفرقت كلمتهم، ووقعت العداوة والبغضاء بين الأوس وبين الخزرج، أثارها يهود ليعود نفوذها إليهم، ولتستفيد من بيع السلاح للفريقين كعادة يهود على مدار التاريخ، وكان بين الحيين أيام وحروب، كان آخرها يوم بعاث التي كانت للأوس على الخزرج، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير من يهود الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس. فلما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكانوا يسمعون من يهود في بلادهم، كلما كان بينهم شيء أن نبياً مبعوث الآن، وقد أظل زمانه، وتقول يهود: إننا نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك. وواعدوا رسول الله ﷺ، العام المقبل في الموسم.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، وعدد هؤلاء النفر ستة. فلما قدموا إلى المدينة ذكروا لقومهم ما كان معهم، وحدثوهم عن رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، فانتشر

بينهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا ويذكر فيها اسم رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى:

استدار العام، وأقبل الناس إلى الحج، وكان بين حجاج يثرب اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وذكوان بن عبد قيس، وعقبة وقطبة ابنا عامر. وهؤلاء من الخزرج. وأبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعدة، وهما من الأوس. وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ﷺ، عند العقبة، وأسلموا، وبايعوا رسول الله ﷺ، ويقول عبادة بن الصامت، رضي الله عنه: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ، على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض القتال، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف ثم قال لنا رسول الله ﷺ: «فإن وفيتم فلكم الجنة. وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر».

وعندما غادره القوم أرسل معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فسار معهم، فلما وصلوا إلى يثرب نزل على أسعد بن زرارة، وكان مصعب يسمّى هناك بالمقرئ. وقد صلى مصعب بالمدينة الجمعة لأول مرة، ولم يزد عددهم على الأربعين.

وذهب يوماً أسعد بن زرارة، ومعه مصعب بن عمير إلى بستان من بساتين بني عبد الأشهل ـ أحد بطون الأوس ـ فجلسا فيه، واجتمع حولهما عدد من الذين أسلموا، فرآهما سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وهما يومئذ سيدا بني عبد الأشهل، ومن سادة الأوس أيضاً، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا

ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فأصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين. قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، فقام، واغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك. فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع،

فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مقبلاً: قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، ورجع أسعد، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم قائداً، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

بيعة العقبة الثانية:

رجع مصعب بن عُمير إلى مكة، وجاء موسم الحج، وخرج من خرج من يثرب مسلمين ومشركين، ولما قدموا مكة واعد المسلمون رسول الله ﷺ، العقبة، من أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثلث الأول منه، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وقد أمرهم ألا ينبّهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً.

فلما فرغ الحُجّاج من حجهم، ونام أهل يثرب في رحالهم مسلمهم

وكافرهم، ومضى ثلث الليل من يوم الموعد، خرج المسلمون من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ، وتسللوا تسلل القطا حتى اجتمعوا في الشِّعب، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلًا، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومع الرجال امرأتان هما: نسيبة بنت كعب المازنية من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة، ووافاهم رسول الله ﷺ، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال على دين قومه ظاهراً، جاء يستوثق لابن أخيه، فقال العباس: يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

قالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أشترط لربي أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم متى قدمت عليكم». فتقدم البراء بن معرور فأخذه بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل السلاح، ورثناها كابراً عن كابر. . . . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها: ـ يعني يهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم[1]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

---

(١) العرب تقولها عند عقد الحلف والجوار، أي: دمي دمك وهدمي هدمك، فما هدمت من الدماء هدمته أنا.

وابتدأت البيعة، فبايع البراء بن معرور أول من بايع، ثم تتابع الجميع، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم: البراء بن معرور، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو، وهؤلاء من الخزرج، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ومالك أبو الهيثم بن التيهان، وهؤلاء من الأوس.

وبعد البيعة قال رسول الله ﷺ: «ارفضّوا[1] إلى رحالكم». فقال له سعد بن عبادة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى مضاجعهم فناموا حتى الصباح.

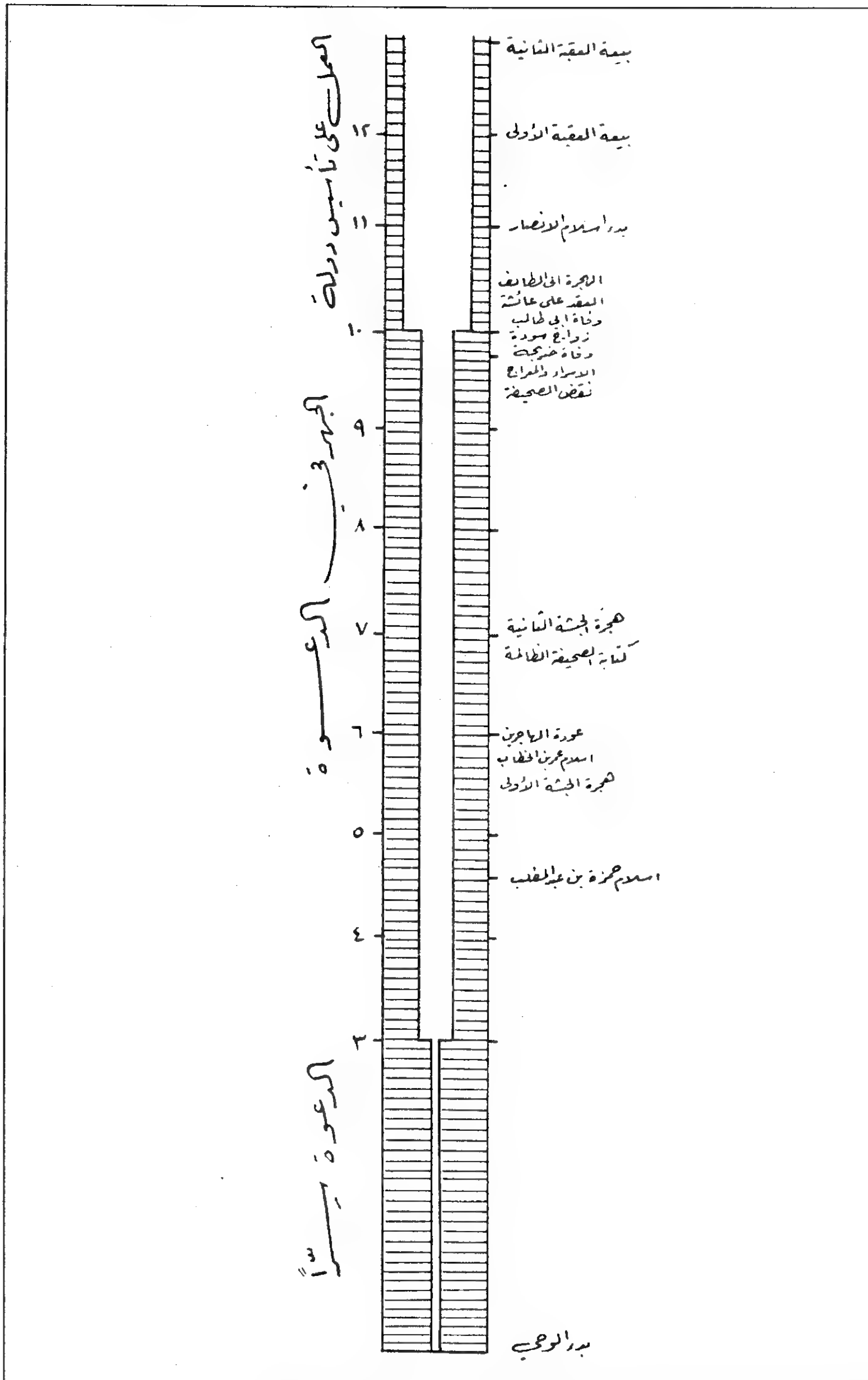
فلما أصبح الصباح جاء وفد من قريش، فقالوا لهم: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، أما المسلمون فقد صمتوا وكان ينظر بعضهم إلى بعض، وأما المشركون فقد اندفعوا يحلفون بالله أنه ما كان من هذا شيء، ولا يعلمون شيئاً من هذا... ثم انصرف وفد قريش، وقد صدقوا ما قيل لهم، وذهبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فسألوه، فقال: والله إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا، وما علمته كان... ثم انصرفوا ولما سافر حجاج يثرب.. انتشر الخبر في مكة كثيراً فوجدت قريش أن الأمر قد تمّ فخرجت في طلب القوم، فأدركت سعد بن عبادة، وكان أحد النقباء، فأخذوه أسيراً إلى مكة، وأفلت منهم المنذر بن عمرو... وقد عذّب سعد بن عبادة في مكة، ثم أجاره جبير بن

(١) ارفضوا: تفرقوا.

المطعم بن عدي، والحارث بن حرب بن أمية إذ كان يجير لهما تجارتهما في يثرب.

فلما رجع مسلمو يثرب إليها، أظهروا الإسلام فيها، وكان عمرو بن الجموح قد اتخذ في بيته صنماً إلا أن من آمن من أهله كان يلقي الصنم في الليل على المزابل فيعيده عمرو بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه، ولما تكررت الحادثة أدرك عمرو ما قيمة الصنم فألقاه وأسلم.

أما مكة فقد اشتد أذى مشركيها على من أسلم بعد أن علموا أن محمداً ﷺ، قد حالف أهل يثرب عليهم. وعندها أمر رسول الله ﷺ أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا، والذين معه من المسلمين بمكة بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، أي أمر أن يتجمع المؤمنون كلهم في مكان واحد حتى تقوى كلمتهم ويمكن إقامة الدولة الإسلامية لتطبيق منهج الله في الأرض.



العمل على تأسيس دولة
الجهر في الدعوة
الدعوة سراً
١٢
١١
١٠
٩
٨
٧
٦
٥
٤
٣
بيعة العقبة الثانية
بيعة العقبة الأولى
بدء إسلام الأنصار
الهجرة الى الطائف
العقد على عائشة
وفاة أبي طالب
زواج سودة
وفاة خديجة
الإسراء والمعراج
نقض الصحيفة
هجرة الحبشة الثانية
كتابة الصحيفة الظالمة
عودة المهاجرين
اسلام عمر بن الخطاب
هجرة الحبشة الأولى
اسلام حمزة بن عبد المطلب
بدء الوحي

الفصل الرابع

الهجرة

بدأ المسلمون ينتقلون حسب أوامر رسول الله ﷺ، إلى يثرب لحاقاً بإخوانهم المسلمين، وفراراً بدينهم، وكان أول من هاجر من مكة إلى يثرب أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ(١)، وقد هاجر إلى يثرب قبل بيعة العقبة الثانية بعام تقريباً، إذ اشتد أذى قريش عليه بعد أن رجع من الحبشة، وعلم بدء انتشار الإسلام في يثرب فانتقل إليها، وكانت معه زوجه أم سلمة، وولده سلمة إلا أن أهلها قد حالوا دون خروجها معه، ثم لحقت به بعد مدة، وتتحدث هي عن هجرتها فتقول: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بنيّ سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة،

(١) انظر ترجمته في سلسلة «بناة دولة الإسلام» للمؤلف، صدر عن المكتب الإسلامي.

فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قلت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنيّ هذا. قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحّى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري، فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع بي ذلك حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

ثم هاجر عامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وعبد الله بن جحش، وأخوه عبد أبو أحمد وأهلهما، ثم تتابع المسلمون حتى لم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر، وعلي، وصهيب، وزيد بن حارثة، وقليل من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالتهم من الهجرة، وعندما أراد أبو بكر الهجرة قال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ، ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك.

ولما أراد صهيب الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك،

والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وأقام رسول الله ﷺ، بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، رضي الله عنهما.

أما قريش فقد علمت وسمعت كل ما حدث فتداعت إلى اجتماع في دار الندوة لتبحث بما هي فاعلة. فتشاوروا في الأمر، فاقترح بعضهم أن يدعوه يخرج لتستريح منه مكة وأبناؤها، فرفض هذا الاقتراح، إذ قالوا: تجتمع هناك حوله رجال القبائل وربما رمانا بها، واقترح بعضهم أن يصفد بالحديد ويترك، حتى يقضى عليه بالموت، فرفض أيضاً هذا الاقتراح، وقالوا: ربما حاول أتباعه أن ينقذوه فتقع الحرب بيننا، ونحن في غنى عنها. ثم تم اتفاق على رأي اقترحه طاغيتهم أبو جهل إذ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

وأعلم الله نبيه ما تم في دار الندوة، وأمره ألا يبيت هذه الليلة على فراشه، وأذن له بالهجرة. فأسرع رسول الله ﷺ، فأخبر أبا بكر بذلك، وأنه صاحبه في الرحلة، فعرض عليه أبو بكر إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدتين لذلك، فجهزاهما أحسن الجهاز، ووضع الطعام في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط وكان مشركاً على دين كفار قريش، فأمناه، ودفعا إليه الراحلتين، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، وكان ابن أريقط دليلاً ماهراً، وخرِّيتا في الطريق. ثم فارق رسول الله ﷺ، أبا بكر، وواعداه الالتقاء بعد منتصف الليل خارج مكة في مكان حدداه بالدقة. وكانت هذه

ليلة التنفيذ لدى قريش لقتل رسول الله ﷺ، ولما كانت عتمة الليل اجتمعوا أمام داره يرقبونه حتى ينام، فإذا فعل انقضوا عليه. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ، أمر ابن عمه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أن ينام على فراشه وأن يتسجّى ببرده، كعادته هو إذا نام. وكانت وظيفة علي، رضي الله عنه، التمويه عن رسول الله ﷺ ليلاً، وتأدية الودائع التي عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها.

وحان موعد الخروج، فخرج رسول الله ﷺ، من داره وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾[1] . . .

فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، وسار رسول الله ﷺ، لموعد الصديق، فالتقيا، وانطلقا إلى غار ثور، فأقاما فيه. أما قريش فبقيت تنتظر، وينظر رجالها من خلال ثقوب الباب فيرون إنساناً نائماً، ولا يعدو عندهم محمداً، وأتاهم طارق لم يكن معهم فسألهم عما ينتظرون، فقالوا: محمداً، قال: قبحكم الله لقد خرج محمد، وانطلق لحاجته، فأسرعوا فنظروا من ثقوب الباب فرأوا النائم مكانه، فلم يصدقوا، وانبلج الصبح، واستيقظ علي، فلما رأوه سألوه عن محمد قال: لا أدري، فانطلقوا مسرعين من كل جهة يفتشون عن رسول الله ﷺ، وقادهم الطلب حتى غار ثور، إلا أن الله أعماهم عنهما، وقد بكى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذ لاحظ أنه لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا».

وأقام رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاث ليال حتى قطع

---

(١) سورة يس: الآيات ١ ـ ٩.

عنهما الطلب. وكان يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر، ويخرج من عندهما في السحر، فيصبح مع قريش بمكة كأنه نائم بها، وفي المساء يأتي إليهما، ومعه أخبار مكة وأهلها جميعاً، كما يغدو ويروح عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، ومعه عدد من الأغنام يرعاها، ويتبع أثر عبد الله بن أبي بكر حتى لا يظهر، ويسقيهما من لبن الغنم. فلما انقطع الطلب خرجا، وقد جاءهما الدليل صبح ثلاث مضت.

أما قريش فقد ذهب بعض أعيانها إلى دار أبي بكر، فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي، فضرب أبو جهل خدها ضربة قاسية.

خرج رسول الله ﷺ، من الغار مع صاحبه أبي بكر، ومعهما عامر بن فهيرة، والدليل عبد الله بن أريقط، وانطلقوا يسلكون طريق الساحل، وكانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي بمحمد أو صاحبه قتلاً أو أسراً، وسار أصحاب الأطماع يفتشون، وبينما كان سراقة بن مالك يجلس في نادي قومه بني مدلج، وهو ممن عرف بالعدْو والصعلكة إذ يدخل رجل فيقول: لقد رأيت ثلاثة ما أظن إلا أنهم محمد وصحبه، فأومأ إليه أن اسكت، وقال: ولكنهم بنو فلان، ثم خرج هو إثرهم ويقول في ذلك: «لما خرج رسول الله ﷺ، من مكة مهاجراً إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ركباً ثلاثة مروا علي آنفاً، إني لأراهم محمداً وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، ثم قلت: إنهم هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله، ثم سكت. قال: ثم مكثت قليلاً، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي، ثم أخرجت قداحي، فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: وكنت أرجو أن أرده على

قريش، فآخذ المائة ناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها، فخرج السهم الذي أكره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك، أنه قد منع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ، لأبي بكر: «قل له: وما تبتغي منا؟» قال: فقال ذلك أبو بكر. قال: قلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك. قال: «اكتب يا أبا بكر». فكتب له. فرجع سراقة، وتابع رسول الله ﷺ، ومن معه حتى وصل إلى قباء قبيل الظهر في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، في السنة الثالثة عشرة للبعثة يوم الاثنين.

أقام رسول الله ﷺ، بقباء في بني عمرو بن عوف مدة خمسة أيام إذ سار يوم الجمعة، وبنى هناك أول مسجد في الإسلام، ووضع رسول الله ﷺ، أول حجر في اتجاه القبلة، ووضع أبو بكر حجراً بجانب حجر رسول الله ﷺ، وأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فصلّاها في بطن وادي (رانوناء)، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة. وسار نحو المدينة وكانت القبائل تعترض سبيله ترجوه أن ينزل عندها، وتتعهد بحمايته وإكرامه، ولكنه ﷺ، كان يقول: «دعوا الناقة فإنها مأمورة»، فبقيت تسير حتى بركت في دار بني مالك بن النجار مكان مسجده ﷺ، اليوم في محل يجفف فيه التمر، وكان يسمى مربداً، وهو لغلامين يتيمين، هما سهل وسهيل ابنا عمرو، فنزل رسول الله ﷺ، عن الناقة ونزل بدار خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري، واشترى المربد من ابني عمرو، وبدأ ببناء المسجد. وعرفت يثرب بعد ذلك باسم مدينة الرسول، ثم المدينة المنورة.

ونلاحظ في هذه الرحلة الثقة التامة من الناس برسول الله ﷺ، والثقة التامة من رسول الله ﷺ، بنصر الله وتأييده، فأهل مكة من المشركين على الرغم من عدائهم لرسول الله يضعون عنده أماناتهم، وعلى الرغم من اتهاماتهم له بشتى التهم من جنون، وسحر، وكهانة، وتفريق بين المرء وزوجه كانوا لا يجدون مكاناً لودائعهم إلا عنده، فأية أمانة وأية ثقة أكبر من هذا، عدو مأمون، ومكروه محبوب، وعلى الرغم من أن المسلمين قد تركوا أموالهم في مكة ودورهم وأملاكهم، وأن المشركين قد منعوا خروج صهيب حتى يترك ما جناه لنفسه عندهم من تعبه وعرق جبينه، فإن رسول الله ﷺ، لم يستحل درهماً واحداً مقابل هذا فأبقى رسول الله ﷺ، علياً حتى يؤدي الأمانات، ويعطي الودائع، وقد تخلّف علي، رضي الله عنه، ثلاثة أيام عن رسول الله ﷺ، فأدى مهمته، ثم لحق برسوله الكريم، ووصل إلى قباء ولم يزل رسول الله ﷺ، فيها.

عندما مضت الأيام الثلاثة، ورسول الله ﷺ، وصاحبه في الغار، جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين، فقدم أبو بكر أفضلهما لرسول الله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا أركب ما ليس لي»، فقال له أبو بكر، رضي الله عنه: يا رسول الله فداك أبي وأمي، الراحلتان لك، فقال له: «لا، ولكن أركبها بالثمن». وقد يستغرب المرء هذا القول، فأبو بكر قد قدم جلّ ماله في سبيل الدعوة، وهو يعطي الكثير الكثير، والآن وفي هذا الموقف الحرج يقول رسول الله ﷺ، ما يقول، ولكن الأمر أعمق من هذا بكثير وأبعد، فرسول الله ﷺ، على الرغم مما هم فيه من موقف حرج وشدة في الطلب لا ينسى أنه المعلم وأنه الأسوة الحسنة للمسلمين على مدى الأيام، فيريد أن يعلم الناس، ويعرّف الدعاة أن المسلم يجب ألا يكون عالة على أحدٍ في حياته كلها مهما اشتدت به الحال، وعليه أن يسعى ويجدّ ليحصل على حاجاته كلها ومتطلباته، وأن رسول الله ﷺ، سيوفي ثمن الناقة عندما يتهيأ لديه المال، وأنه إذا أصابها شيء فهو صاحبها والمسؤول عنها.

انطلق رسول الله ﷺ، من مكة مطارداً، خائفاً يترقب، مهدداً بالقتل،

ومعرضاً للأسر، ولكنه كان واثقاً من نصر الله وتأييده إلى أبعد الحدود، فعندما أدركه سراقة بن مالك يريد ردّه لقريش قال له رسول الله ﷺ: «يا سراقة ما رأيك بسواري كسرى؟» وهو في تلك الحالة يمني ملاحقه بانهيار أكبر إمبراطورية وقتذاك وهي إمبراطورية فارس، وأن يأخذ ذلك البدوي من بني مدلج الطامع في مائة ناقة من قريش مقابل رد رسول الله ﷺ، أن يجلس مكان كسرى وأن يلبس سواريه... ولقد صدق الله وعده ونصر عبده.

ونلاحظ أنه بهجرة رسول الله ﷺ، إلى المدينة التي غدت داراً للإسلام وجب على كل مسلم أن يهاجر إلى دار الإسلام. إذ تجب الهجرة إلى البلاد التي يستطيع المسلم أن يؤدي فيها شعائر دينه إذا كان في موطنه لا يستطيع ذلك. كما تجب الهجرة إذا اقتضت الظروف لتجميع المسلمين والإفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم المادية والمعنوية والعسكرية. أما إذا كان غير ذلك بحيث يستطيع الإنسان تأدية شعائره والدعوة إلى عقيدته فمن الأفضل أن يبقى حيث هو ليقوم بدوره في تبليغ الإسلام، والعمل في سبيل الله.

ودار الحرب يقتضي وجودها وجود دار للإسلام، فقبل هجرة الرسول ﷺ، لم تكن توجد هناك دار إسلام وبمقتضى الحال لا توجد دار للحرب، فلم تكن مكة داراً للحرب، وعندما بدأ الإسلام يطبق في المدينة أصبحت مكة دار حرب، وكانت الهجرة واجبة على المسلمين منها، حتى إذا فتحت أصبحت داراً للإسلام ولم تعد الهجرة واجبة منها لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[1].

ودار الإسلام هي الدار التي يطبق فيها شرع الله، ولو لم يكن أكثر أهلها من المسلمين، ودار الحرب هي البلاد التي لا يطبق فيها شرع الله، ولو كان سكانها جميعهم من المسلمين. وعلى هذا فإن الزمن الذي لا

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

يوجد فيه مكان يطبق فيه الإسلام وشرعه لا توجد دار للحرب وبالتالي لا توجد دار للإسلام، وعلى كل مسلم، وعلى المسلمين جميعاً في أي مصر كانوا، أن يعملوا للإسلام، ويدعوا له، ويجاهدوا في سبيل الله، حتى إذا أمكنهم إقامة دولة إسلامية، أصبحت توجد داران أحدهما للإسلام، وأخرى للحرب وفي أية بقعة لا يتمكن مسلموها من إقامة شعائرهم فعليهم أن يهاجروا، وفي أية بقعة احتاجت منها دار الإسلام أخصائيين أو فنيين أو قادة أو أفراداً بأعينهم عليهم أن يهاجروا لتتقوَّى دار الإسلام، وتعمل على نشر الإسلام والدعوة له في كل مكان حتى يزول الظلم، وتنتهي الطواغيت من سطح الأرض.

الباب الرابع

الدعوة في المدينة المنورة

تأسيس الدولة

وعندما وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة كان فيها مجموعات من السكان متباينة في عقيدتها، مختلفة في أهدافها، متفرقة في اجتماعاتها، كما كانت لديهم خلافات، بعضها قديم موروث، وبعضها حديث موجود، فكان هناك:

١ ـ المسلمون من الأوس والخزرج الذين دانوا بالإسلام، وعاهدوا الله ورسوله على نصرة نبيه، وإقامة شرعه، وهم يتفاوتون من الناحية المادية، وهذا أمر طبيعي في كل مجتمع.

٢ ـ المسلمون المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة بعقيدتهم، وقد تركوا أموالهم وأملاكهم في موطنهم الأول، فهم فقراء، وبحاجة إلى دعم إخوانهم من سكان المدينة.

٣ ـ أناس أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، لكي لا يفقدوا المركز، ويتركوا الدعم القبيلي، وبخاصة بعض الوجهاء أمثال عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه يهيئون له التاج ليسودوه عليهم، فلما جاء الإسلام فقد ذلك المنصب، الأمر الذي جعله يحقد على الإسلام وعلى نبيه، ولكن لا بد له من مسايرة قومه حتى تبقى له بعض الوجاهة تمكنه من العمل ضد ما يحقد عليه، فأظهر الإسلام بعد غزوة بدر، وفي نفسه شيء.

٤ ـ المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد. وكان لكل قبيلة ناد خاص يلتقون فيه.

٥ ـ اليهود وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وكانوا يتحكمون في يثرب سياسياً واقتصادياً قبل قدوم الرسول ﷺ إليها، مستغلين أوضاعهم المالية، يوقدون نار الخلاف بين الفريقين، ويعطون السلاح لكلا الطرفين، فيتاجرون بالسلاح، ويمصون دم الحيين، ويشعرون بالسعادة حين يرون هلاك الآخرين من غير دينهم ، وزيادة في الكيد فقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس، وذلك ليتمكنوا من إثارة الخلاف وإيقاد نار البغضاء. وإضافة إلى هذه القبائل اليهودية، وجد أفراد آخرون من اليهود لا ينتمون إلى القبائل الكبرى.

وكان اليهود حينما يصطدمون مع سكان يثرب ويخسرون الجولة، يستفتحون عليهم، ويقولون لهم: لقد أظل زمان نبي من هذه البلاد، نتبعه، ونحاربكم معه، فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به حقداً ولؤماً فلعنة الله على الكافرين. ومن حقدهم بدأ تكذيبهم للرسول الكريم ﷺ، وإعلانهم للمسلمين أنه ليس هذا هو النبي المنتظر، ثم بدؤوا محاولة الدس والافتراء.

٦ ـ كان هناك خلاف مستحكم بين الأوس والخزرج، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية، وآخرها يوم بعاث، ولا يزال في النفوس شيء منها.

كان على رسول الله ﷺ، أن يحل هذه المشكلات جميعها بأن يزيل آثار الماضي، ويوحد قلوب المسلمين، ويوجد حلاً للمعضلة المالية، ويؤلف بين سكان المدينة من مسلمي الأوس والخزرج والمهاجرين، ويجعلهم كتلة واحدة تقف في وجه اليهود فيما إذا أرادوا الغدر وهو ديدنهم في الحياة، وأن يعاهدهم ما دام لم يظهر منهم شيء.

كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ، أن بنى المسجد العام في الفناء الذي بركت فيه ناقته، وذلك بعد عمارة مسجد قباء، وكان الفناء مربداً للتمر، وفيه قبور وشجرات نخل، وجذوع هرمة، وحفر مهجورة، فنبشت القبور، وقطعت الجذوع، وسويت الحفر، واشترك المسلمون جميعاً في

هذا العمل بما فيهم رسول الله ﷺ، وكانت تنشد الأراجيز، وكان أول عمل تعاوني عام وحد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل.

وكان لكل حي في المدينة مكان يلتقون فيه، يسمرون ويسهرون، يتقايضون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على التفرقة والاختلاف، فعندما بني المسجد كان مركز المسلمين جميعاً، ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل حين، يسألون رسول الله ﷺ، فيأخذون منه، يرشدهم ويوجههم، يبيعون ويشترون، ويستقبلون ويجتمعون، حتى إذا حدثت أصوات تزعج المصلين خصص جانب من المسجد لأعمال الدنيا، وآخر للصلاة والعبادة. بهذا تجمعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، وانتقلت التجزئة إلى انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات بل قائد واحد هو رسول الله ﷺ، يتلقى من ربه، ويعلم أمته.

ولم يكن المسجد مركزاً لحي معين أو أسرة خاصة كدار الأرقم بن أبي الأرقم، رضي الله عنه، في مكة، وإنما أصبح عاماً للمسلمين كافة، يأتيه المسلم في الوقت الذي يراه، ولم تعد ضرورة لوجود جماعة إسلامية معينة ولا للدعوة السرية التي كانت موجودة في مكة، وإنما أصبح المسلمون كلهم صفاً واحداً، ترعاهم الدولة متمثلة بقيادة الجماعة التي كانت ترعى جماعة مكة. وقد خفي هذا الأمر على الكثيرين، فأنكروا قيام جماعة بعد أن اكتمل الإسلام في المدينة، وأنه لا ضرورة لوجود الجماعة بعدها حيث لم تكن في المدينة جماعة، ولكن العصر الذي نحن فيه إنما يتمثل بمكة حيث لا توجد دار إسلام، ولا دار حرب.

إننا نعيش في المجتمع المكي بكل ما في هذا المجتمع من مقومات ومعانٍ، لذا فإننا نستفيد من خطوات رسول الله ﷺ، في مكة، ونسير على نهجه، وهو القدوة الحسنة لنا، ولكننا وإن كنا نعيش في مجتمع مكة إلا أننا لا نطبق ما كان يطبقه المسلمون في مكة، ولكننا نطبق الإسلام الذي اكتمل في المدينة، قبيل وفاة رسول الله ﷺ بقليل، فلا يصح أن ندع شيئاً

أنزل، أو أمر به رسول الله ﷺ، أو فعله إذ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1]. نأخذ طريقة رسول الله ﷺ، التي استطاع بها أن يتغلب على المجتمع الجاهلي في الوقت الذي نطبق على أنفسنا، ونلزمها تعاليم الإسلام كافة.

المؤاخاة: كان من نتائج العمل الأول لرسول الله ـ وهو بناء المسجد ـ أن امتزجت النفوس والعقليات، وتقوت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام، فكان المسجد مركزاً لعملهم وندوة لهم ـ إن صحَّ هذا التعبير ـ ثم جاء عمل رسول الله ﷺ، الثاني تأكيداً للأول وزيادة في مفهوم وحدة النفوس، فكانت المؤاخاة. ولم تكن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[2]، وإنما بين المسلمين، ولم تكن الغاية منها مادية بحتة واقتصادية صرفة، وهو المتعارف عليه والمشهور، وعلى هذا يركز المؤرخون، إذ لو كانت كذلك لكانت فعلاً بين المهاجرين والأنصار فقط ولكننا نجد أن رسول الله ﷺ، آخى بينه ـ وهو سيد البشر ـ وبين ابن عمه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر. وبين عمه حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود وكلاهما مهاجر، وبين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وجعفر غائب، وبين بلال وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت بين أنصاري وآخر فلو كان الجانب اقتصادياً صرفاً لما كانت المؤاخاة بهذا الشكل.. وكذلك لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجر وعدد من الأنصار حتى يمكنهم مساعدته. فالأنصار أكثر من المهاجرين، ويشكلون أكثر من ثلاثة أمثالهم، ثم لو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية فحسب لآخى رسول الله ﷺ، بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين، ولكن هذا لم يحدث

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) ترد في بعض النصوص المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والقصد منها بين المسلمين إذ لم يكن المسلمون يومذاك إلا المهاجرون والأنصار. وهذا ما يفهم من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

أبداً. ولكن إيثار الأنصار، رضوان الله عنهم، وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى هذا الجانب فقط، ويركزون عليه، الأمر الذي جعل المستشرقين يعتمدون على هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين. وقد كتب حمزة بن عبد المطلب وصيته قبل غزوة أحد لأخيه زيد بن حارثة. وعندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين وسأل بلالاً عن حقه، ولم يكن لبلال عقب قال: هو لأخي عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي أبي رويحة. ولننظر إلى سعد بن الربيع يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف: «إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما، فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها، تزوجها»[1] فأجابه عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلني على السوق، فإني رجل تاجر»، هذا الإيثار من الأنصار، والمساعدة التي قدموها بلا منة، والعون الذي لا ترفّع فيه، إنه الحق الذي يدفعه الرجل لأخيه فيريح به نفسه، والأمانة التي يؤديها فيرفعها عن كاهله، وقد قال الله تعالى في هذا الإيثار: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فلقد كان الأنصار يستبقون لاستقبال المهاجرين واستضافتهم حتى أصبحوا يقترعون فيما بينهم لأخذ إخوانهم القادمين، ولا يوجد أجمل من هذه المحبة، وهذه الأخوة، وهذا الإيثار، ولم يعش المهاجرون عالة على الأنصار ـ كما يتصور بعضهم ـ بل انصرفوا يعملون في الزراعة والتجارة،

---

(١) سعد بن الربيع أكثر الأنصار مالاً، وعبد الرحمن بن عوف تاجر له خبرة في التجارة حتى لا يحتاج إلى مساعدة وقد آخى رسول الله ﷺ، بينهما رغم غنى الأخوين.

(٢) سورة الحشر: الآيتان ٨ ـ ٩.

ويجنون منها الكسب الحلال مستعينين بالصبر والنشاط وكرم إخوانهم الأنصار، ولم يقبلوا أن يكونوا عالة على المجتمع، فالمسلم لا يقبل إلا أن يكون بنّاءً ومنتجاً في المحيط الذي يعيش فيه. إنه كرم الأنصار، وعفة المهاجرين، وأخوة الإيمان، وهكذا يجب أن يستقبل المسلمون في كل عصر إخوانهم الذين يأتون إليهم إما لدعم مجتمعهم الناشئ، أو فراراً من حكم غاشم يريد أن يفتنهم عن دينهم، ويسومهم سوء العذاب.

إن هذه المؤاخاة قد جعلت المسلمين من مهاجرين وأنصار من أوس وخزرج أمة واحدة وكتلة واحدة متراصة، يشد بعضها بعضاً، ويمكن أن يقفوا وقفة واحدة أمام يهود إذا ما حدثتهم أنفسهم بالغدر، ولم يبق للأحلاف بين يهود وسكان يثرب من الأوس والخزرج إلا أثر من خيوط واهية أوهى من خيط العنكبوت. ولم تعد هناك خلافات بين الأوس والخزرج أو بين قبيلة وثانية فالإسلام يجبّ ما قبله، وغدا الجميع أسرة إسلامية واحدة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وأصبحت العقيدة هي التي تربط بين النفوس وتسمو على كل رابطة سواها من روابط الدم والنسب والعصبية والقوم والولاء، وغدا المسلمون من سكان المدينة إخواناً متحابين في الله، وكان الرجل منهم مجرد أن يدخل في الإسلام يترك قبل انتسابه إليه كل رواسب الجاهلية من خلاف، وتناحر، وعصبية، وتفاخر، ويدخل إليه نقي القلب طاهر النفس، ليرفد المجتمع الإسلامي، ويزيده عضواً، ويكون لبنة من لبناته يساهم في دعمه وبنائه، يشعر بالراحة حين يرى السعادة تخيم على الآخرين. وما استدار العام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وأسلم أهلها، إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس بقوا على شركهم.

ولم تكن تلك المؤاخاة معاهدة دوّنت على الورق فحسب، ولا كلمات قيلت باللسان فقط، بل كانت مؤاخاة سجلت على صفحات القلب، وارتبطت بشغافه، فكانت أقوى من التدوين الذي يمكن أن يؤول، وأمتن

من الكلمات التي يمكن أن تفسر وتغيّر، كانت أسمى من كل معاهدة سطرها البشر في سجله منذ أن وجد البشر، وأسمى من كل اتفاق يمكن أن يعقده إنسان، إنها كانت عهداً أمام رسول الله ﷺ، كلمات خرجت من القلب، شهد عليها الله ورسوله وكفى بهما شهيدين، إنها مؤاخاة في القول والعمل، في المال والنفس والمتاع والأملاك، في العسر واليسر.

الموادعة: وبعد هذه المرحلة انتقل رسول الله ﷺ، ليوادع يهود لتكون المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدة أمام الأعداء من الخارج، إذ أن قريشاً ربما تفكر في القيام بعمل ضد المدينة، ومن ناحية ثانية حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد. وكتب رسول الله ﷺ، كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرين من قريش على ربعتهم[١] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفيد عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين

(١) الربعة: الحال التي جاء الإسلام، وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[2] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين ينبئ بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بيّنة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ[4] إلا نفسه،

---

(١) المفرح ـ بوزن معدم ـ هو المثقل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيعة: العظيمة. (٣) اعتبطه: قتله بلا جناية منه توجب قتله.

(٤) يوتغ: يهلك.

وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا[1]، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ؛ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحون ويلبسونه، فإنه يصالحونه ويلبسونه وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ»[2].

وبهذا أصبح أهل المدينة جميعاً على اختلاف فئاتهم يداً واحدة ضد

---

(١) على أبر هذا: أي راض كل الرضى عن هذا.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٠١ ـ ٥٠٤.

الأعداء الخارجين على تطبيق النظام، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة:

١ ـ أن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقها أن تؤمّن المطيع وتعاقب المفسد.

٢ ـ الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من طرف ظلم أو إثم.

٣ ـ على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً وعسكرياً وأدبياً، وعليهم أن يردوا متساندين أي اعتداء قد يوجه لمدينتهم.

٤ ـ رسول الله ﷺ، هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة جميعهم.

٥ ـ الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بغض النظر عن الجوار والقرابة، أو الأرض، أو النسب، أو المصلحة، أو اللغة، أو الهوى فكل هذا يداس بالأقدام أمام العقيدة، فالمسلمون يؤلفون أمة واحدة، ويؤلف اليهود أمة واحدة على الرغم من الجوار واللغة والأحلاف السابقة.

هذا بالنسبة إلى العمل داخل المدينة، أو ما يسمى اليوم الجبهة الداخلية، أما الجبهة الخارجية فعلى المسلمين أن يخضعوا القبائل التي تعيش حول المدينة والتي يحالف بعضها سكان يثرب، وكلها تعرف مداخل المدينة وعلى اتصال دائم بمن في داخلها وتفاعل تام معهم.. وذلك حتى لا يكونوا أعواناً للأعداء الخارجين، فإن أثرهم ملموس، وإن كان أقل نسبياً من أثر من يعيش في الداخل، وفي الوقت نفسه فعليهم أن تبرز قوتهم خارجياً حتى لا تطمع بهم القبائل، وتسعى قريش في القضاء عليهم هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن القوة تساعد على انتشار الإسلام ووصول أخباره إلى بقية القبائل وفي كل الاتجاهات إذ أن الضعيف لا يهتم به أحد ولا يسمع به أحد، ويخاف الناس أن يعتنقوا فكرة أصحابها وهم على درجة من الضعف، هذا عموماً، وبالأخص في ذلك الوقت من الجاهلية التي كان فيها يأكل القوي الضعيف، ويسطو عليه، ويغزو أرضه، ويشن الغارات عليه. ولهذا رأى رسول الله ﷺ، أنه لا بدّ من إرسال السرايا إلى أطراف المدينة

لإثبات الوجود بالاصطلاح الحديث، ولجعل قريش تعترف بالوضع الجديد، وهذا يشبه ما يحصل هذه الأيام عندما تتسلم فئة ما الحكم في بلد، فإنه يسعى إلى أن يثبت وجوده حتى تعترف به بقية الدول.

المجتمع: اتجهت الآيات القرآنية إلى التشريع لهذا المجتمع الجديد. وتطبق هذه النظم في جميع مجالات الحياة، وعاشت المدينة الحياة الفاضلة التي يحلم بها بنو البشر، من أخوة صادقة، وصدق في المعاملات والحياة، وتكافل تام بين الأفراد جميعهم، وبقيت هذه المدينة أنموذجاً لكل من يريد السعادة في الدنيا والآخرة. ووضع رسول الله ﷺ، الأسس السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية للمجتمع الجديد، وأصبحت المدينة تعيش في إطار واحد في ظل نظام واحد هو النظام الإسلامي، ومحمد بن عبد الله ﷺ، هو القائد الأعلى له، لذا كان السكان يؤلفون في المدينة مجتمعاً خاصاً هو المجتمع الإسلامي.

والمجتمع هو جماعة من الناس تعيش في مكان واحد، وتخضع لمنهج واحد، وليس من الضروري أن يكون كل من يخضع لنظام معين مؤمناً به، عاملاً له، فليس كل من يعيش في ظل النظام الاشتراكي اشتراكياً يعتقد بصلاحية النظام، وليس كل من يحيا ضمن المجتمع الرأسمالي يُعدّ رأسمالياً، ويعد ذاك في عداد المجتمع الاشتراكي.

في المجتمع الواحد تختلف العقيدة، وتتباين الآراء، والنظام الذي يسود المجتمع، ويطبق عليه، هو الذي يعرف به، وعندما نقول المجتمع الإسلامي في المدينة فإنما يشمل كل من يسكن المدينة آنذاك، ويخضع لنظامها العام على الرغم من وجود عدة فئات مغايرة في الفكرة، متباعدة في الهدف، ففي المدينة المسلمون، وأهل الكتاب من اليهود، والأعراب فيها وما حولها الذين لا يزالون على الوثنية، إضافة إلى المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، وهم ضده، ولكن النظام الإسلامي هو الذي كان يلفّ هؤلاء جميعاً، إذ كان محمد رسول الله ﷺ، هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة كلها ـ كما رأينا ـ فلو وقع خلاف بين مسلم ويهودي لطبق عليهما

حكم الله، ونفذ على كليهما، أما إذا وقع بين يهوديين فلهما أن يتحاكما أمام لجنة يهودية، أو يحكما التوراة، والأعراف بينهما، وفي الوقت نفسه لهما أن يتحاكما إلى الشريعة الإسلامية، ولهذا نقول عن المجتمع إنه إسلامي لأنه يخضع لنظام الإسلام.

وإذا كنا قلنا عن جماعة المسلمين في مكة: إنهم يشكلون مجتمعاً إسلامياً، ولم تكن لهم هيمنة على مكة، بل لم تكن لهم سلطة، فذلك لأنهم كانوا يؤلفون مجتمعاً خاصاً منفصلاً شعورياً تمام الانفصال عن المجتمع المكيّ الوثني، ويعدون لأنفسهم كياناً خاصاً، ويخضعون لنظام خاص يطبقونه على أنفسهم، ولم تكن مفهومات قريش وأحكام الجاهلية لتطبق عليهم، أو لم يكن للجاهلية أي تأثير عليهم، ولهم رئيس أعلى يرجعون إليه في كل أمر، وتنفذ أحكامه بدقة، ولا يجدون حرجاً مما يقضي، ويسلمون التسليم كله.

ظنَّ بعض المسلمون أنهم قد حصلوا على الراحة التامة بعد المؤاخاة التي تمت والموادعة التي حصلت مع يهود، ظنوا ذلك حسب الارتياح النفسي والقناعة الذاتية بأنهم سيعيشون حياة فاضلة بما لحظوه في المحيط الجديد مع إخوانهم الذين يشكلون أعضاء المجتمع، ولكن رسول الله ﷺ، ومن بعده أصحابه الذين عرفوا حقيقة الدعوة وطبيعتها، عرفوا أنهم سيخوضون معركة قاسية طويلة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، ومع المحيط الذي حولهم، ثم مع العالم المعروف آنذاك، والمأهول كله وقتذاك، علموا أنهم سيحاربون على عدة جبهات، بعضها داخلية في المدينة ذاتها، وبعضها خارجية مع قريش وبقية القبائل العربية الجاهلية، ثم مع الدول الكبرى يومئذٍ.

الأعداء في الداخل:

أولاً: اليهود: سيحاربون على الجبهة الداخلية العداوة المتأصلة في طبيعة بعض العناصر الذين يشكلون جانباً من مجتمع المدينة، ويعادون كل

شيء ليس لهم فيه نصيب، أو ليسوا الرأس فيه، حسداً وغيظاً، ألا وهم يهود. حدّثت صفية بنت حيي بن أخطب، أم المؤمنين، رضي الله عنها، فقالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي ياسر، فلم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فقالت: فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحداً منهما، لما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي ياسراً يقول لأبي حيي بن أخطب:

أهو هو؟ يعني النبي ﷺ.

قال: نعم، والله.

قال: أتعرفه وتثبته؟.

قال: نعم.

قال: فما في نفسك منه؟.

قال: عداوته والله ما بقيت.

وحدّث عبد الله بن سلام ـ وكان يهودياً ثم أسلم ـ قال: جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بُهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا بهتوني. وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ، في بعض بيوته، ودخلوا عليه وكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا؛ قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، قال:

فقلت: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟.

هذه إحدى جبهات المعركة الداخلية التي سيخوضها المسلمون. وقد ظنَّ يهود، وهم من أعضاء هذه الجبهة الرئيسية أنّ المدة إن طالت ضاعت عليهم الفرصة، وتمكن الإسلام في المدينة ، لذا لا بد من إثارة الفتنة وإيقاع الخلاف بين هؤلاء الإخوة المتحابين، وإعادة الخلافات العصبية، وإشعال نار الحرب القبلية، وصادف أن مرّ أحد زعماء يهود وهو (شاس بن قيس) على جماعة من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أبعد الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساءه هذا الاتفاق، ودعا أحد شباب يهود الذين يجلسون مع هؤلاء النفر من الأنصار، وأمره أن يذكر أمامهم يوم بعاث وما قبله، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة، ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرة، على حين غفلةٍ من الروح التي غرسها فيهم الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً وقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم» فما أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى انقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية. ولكن يهود لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبات لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي وتقويض أركانه.

ثانياً: **المنافقون**: علم المسلمون أنهم سيحاربون على الجبهة الداخلية رجالاً همهم الزعامة، والمصلحة، والجاه، هؤلاء يظهرون وقت السلم والرخاء، ويتنطحون للقيادة، ويختفون أثناء الشدة، ليعملوا من الخلف، ويتهجموا على قائد المسلمين، وأصحابه وأنصاره، كان على رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول، رأس النفاق، وهو من الخزرج، وقد اتهم رسول الله ﷺ، يوم بدر بالغرور، وقد نصح أصحابه ـ بعد معركة بدر ـ أن

يعلنوا إسلامهم، حين قال مشيراً إلى اشتداد شوكة المسلمين: هذا أمر قد توجه، فلا مطمع في إزالته، ثم أعلن إسلامه، وتبعه على ذلك فئات المنافقين، فتظاهروا بالإسلام، ولكنهم مع هذا ظلّوا في الباطن يتربصون به الدوائر، وقد سبقه جماعة أظهروا الإسلام، والله يشهد إنهم لكاذبون. وقد بلغ بهؤلاء المنافقين الأوائل أن شيدوا مسجداً ضراراً للتفريق بين المسلمين، وهو على طبيعتهم، ظاهره العبادة، وحقيقته التجزئة، وإمكانية الحركة للمنافقين، وتنسيق جهودهم، وأخبر رسول الله ﷺ، بحقيقة أمره، فأمر بهدمه، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1].

وبعد تهديم مسجد الضرار عاد المنافقون يجتمعون في المسجد النبوي بعضهم مع بعض، ويسخرون من المسلمين، ويهزؤون، ويشيعون الأكاذيب، وقد رآهم رسول الله ﷺ، يوماً يتحدثون فيما بينهم، خافضي رؤوسهم، وقد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً، ولكن المنافقين لم ينقطعوا عن الفتنة، ولم يتركوا استغلال المناسبة لإثارتها محاولين تهديم المجتمع الإسلامي، وتقويض أركانه وراء مصالحهم، ولم يفتّ تصرف المسلمين وحكمة رسول الله ﷺ، في عضدهم كثيراً بل استمروا في غيهم.

ثالثاً: أصحاب المصالح: علم رسول الله ﷺ، أن المسلمين سيحاربون على الجبهة الداخلية الأعراب الذين في المدينة وما حولها،

---

(١) سورة التوبة: الآيات ١٠٧ ـ ١١٠.

هؤلاء الأعراب الذين لا يعرفون من الحق إلا ما يتفق مع مصالحهم، ولا يسيرون إلا وراءه، ولا يسعون وراء البينة لذلك يقودهم هواهم، وفوق ذلك فهم جهلة سذج يستطيع أقل الناس أن يغيّر آراءهم، ويعدّل مواقفهم، وقد أفاد يهود والمنافقون من هذه السذاجة، فكانوا يحرضونهم ضد المسلمين لأخذ أموالهم والإغارة على أملاكهم وبيوتهم، فلم يكن للأعراب موقف محدد يسلك المسلمون مقابله سلوكاً معيناً، وهذه خطورة الجهل، لذا كان الإسلام حرباً على الجهل وكل ما يمت إليه بصلة.

وقد استطاع المسلمون بفضل الله، ورعاية رسول الله ﷺ، وإيمانهم، وحسن تطبيقهم، وتصرفهم، وانقيادهم لأوامر رسول الله ﷺ، أن يبقوا على تماسكهم، وأن يحفظوا وحدة صفهم، وبفضل هذا التماسك استطاع المسلمون أن يقفوا في وجه هذه العداوة كلها، وأن يخرجوا من معاركهم ظافرين.

إن المعارك التي خاضها المسلمون في أول عهدهم في المدينة هي نفسها التي يخوضونها اليوم في كل مكان، والأعداء هم الأعداء أنفسهم، والأسلوب هو نفسه، والجبهة هي نفسها، وإن اختلف الزمن، وتبدلت الأسماء، وتغيرت الصور، وتحولت المفاهيم، وتباينت المخططات والدراسات حيث دخلت اليوم المناهج العلمية والبحوث النفسية، فكان وقعها أشد، وأثرها أعظم، واحتمال نجاح العدو أكبر، مع ضعف المسلمين اليوم، وتركهم أوامر نبيهم وتعاليم دينهم.

الأعداء خارج المدينة: أما الجبهة الخارجية فكان القصد منها ـ كما ذكرنا ـ فرض الهيمنة على القبائل والأعراب المجاورين للمدينة، وإثبات الوجود حتى تعترف قريش بوضع المسلمين في المدينة، وإظهار القوة حتى ينتشر الإسلام بين القبائل، ويشعر الفرد المسلم أينما كان، ومن أية قبيلة كان أن هناك قوة تحميه، وينتسب إليها، وكما ذكرنا فإن الضعيف لا ينتشر اسمه، ولا يعرف خبره، ولا ينتمي إليه أحد بعيد عنه، والدعوة بحاجة إلى انتشار خبرها، وحماية أتباعها. وكانت هذه الغاية ـ في هذه المرحلة ـ من

تأسيس الدولة. وكانت تتمثل هذه الجبهة بالدرجة الأولى في قريش التي اضطهدت رسول الله ﷺ، والمسلمين معه اضطهاداً يدل على غطرستها وتكبرها، حتى خرجوا من بلدهم مكة، ثم هناك القبائل العربية التي كانت جزيرة العرب مجال تنقلها، والتي كانت تدين بالوثنية، وتخضع لأحكام جاهلية كقريش، هذا إضافة إلى كل دول العالم المعروفة آنذاك، والتي طغى عليها الكفر، وعرفت بالظلم، وخاصة دولتي فارس والروم اللتين كانتا على تخوم بلاد العرب، واللتين كان لهما نفوذ على بعض قبائل العرب المجاورة لهما، كما لا توجد بقعة في أرض العرب لا ينظر سكانها إلى هاتين الدولتين نظرة الاحترام والتقدير من جهة، ونظرة الخوف والخشية من جهة ثانية، وتنظر هاتان الدولتان إلى العرب نظرة الازدراء والامتهان، وتعدهم متأخرين، يعيشون في بواديهم وقراهم على الشح والقلة لذا فإن بدرت منهم بادرة، أسكتوهم بحفنات قليلة من المال أو الطعام، يعودون بها إلى فيافيهم شاكرين حسن الصنيع، الذي لا يضيع معهم للوفاء، فيكونون أعواناً أوفياء، أو أنصاراً عملاء. وإذا حدث خلاف بين قبائل العرب تقوّى طرف على خصمه بإحدى الدولتين، فالغساسنة أعوان الروم، والمناذرة أنصار الفرس، وامرؤ القيس يلحق بقيصر ليستعيد ملك أبيه المغتصب و...

أولاً: قريش: كان رسول الله ﷺ، مطمئناً إلى أن أول صدام سيكون مع قريش عدو المسلمين الأول، والتي لا تزال تسعى للقضاء على الإسلام، وتظن أن بمقدورها ذلك، فتحبس المستضعفين في مكة، وتحول دون التحاقهم بالركب الإسلامي في المدينة.

كانت قريش تشكل مجتمعاً تجارياً، ينتقل أفرادها إلى الشمال وإلى الجنوب، في رحلتي الصيف والشتاء، وكان ذهابهم شمالاً في الصيف يتم عن طريق المدينة أو المسالك القريبة منها، فكانت هذه البقعة نقطة التماس بين الجانبين، أو ستكون، وفيها يمكن أن تدور رحى المعركة المرتقبة، لذا كان على المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفة جيدة، إذ لا يمكن

لجماعة أن تخوض معركة في أرض لا تعرف معالمها هذا بالإضافة إلى أن سكانها يمكنهم أن يلعبوا دوراً في هذه الحرب، أو تكون لهم يد في التحرش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريش ورواحها منها.

مضى على الهجرة ما يقرب من ستة أشهر، وطد القائد، عليه الصلاة والسلام، خلالها الجبهة الداخلية، ونظم أمورها، وبدأ يستعد بعدها للجبهة الخارجية، والقتال المنتظر، فأخذ يسيّر السرايا، وينطلق مع الغزوات، وإن كانت استطلاعية بالدرجة الأولى غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وفجاج المنطقة التي هي ممر لقوافل قريش، ثم التعرف على القبائل التي تقيم على تلك الأرض لإمكانية كسبها للإسلام، أو لصف المسلمين في البداية، أو لضمان حيادها على الأقل فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وقريش في مواطن تلك القبائل ومنازلها، ثم إن استطاعت هذه السرايا التعرض لقوافل قريش، ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات الكيان الإسلامي، وإجبار قريش على الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوة المسلمين وضعف قريش، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوة في الجزيرة، وإسماع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك - إن استطاعوا - بخبر هذا الدين الجديد، ومبادئه السامية التي تتماشى مع فطرة البشر، وأنه تنزيل من خالق البشر، ومدبر الكون، فيقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة.

الغزوات والسرايا الاستطلاعية:

بلغ عدد تلك الفرق الاستطلاعية أربع غزوات وأربع سرايا، ابتدأت في شهر رمضان من السنة الأولى، وانتهت في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، أعقبتها سرية عبد الله بن جحش في شهر رجب لاستطلاع أخبار العدو في عقر دارهم بين الطائف ومكة في مكان (نخلة) عندما بدأ انتهاء التعرف على ساحة المعركة المنتظرة، وظهر اكتمال استعداد المسلمين نفسياً لخوض أي قتال ينشب بين الخصمين.

١ ـ **سرية الحمزة:** أرسل رسول الله ﷺ، عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً كلهم من المهاجرين ليعترض طريق قافلة لقريش، عائدة من الشام بإمرة أبي جهل مع ثلاثمائة رجل، فوصل حمزة، رضي الله عنه، إلى ساحل البحر من جهة (العيص)، والتقى بالعير، ومع الفارق في عدد الخصمين إلا أن حمزة، رضي الله عنه، أصر على المواجهة مهما كانت النتائج إذ لا بد من تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، واصطف الطرفان للقتال إلا أنه حجز بينهما أحد أفراد قبيلة جهينة وهو (مجدي بن عمرو الجهني)، ورضخ الطرفان للتسوية، وانصرف كل إلى مقره، وقد شكر رسول الله ﷺ، لمجدي صنيعه هذا لقلة عدد المسلمين يومذاك بالنسبة إلى جماعة أبي جهل.

٢ ـ **سرية عبيدة بن الحارث:** وأرسل رسول الله ﷺ، ابن عم أبيه عبيدة بن الحارث بن المطلب في شهر شوال من العام نفسه في ثمانين راكباً كلهم من المهاجرين ليعترض سبيل قافلة لقريش، تتألف من مائتي راكب، فالتقى بها قرب (رابغ) وابتدأ القتال بالرمي بالنبل، إلا أنه لم يستمر، إذ انهزم المشركون على الرغم من كثرتهم، وخافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً إذ لم يتوقعوا أن ينازل ثمانون رجلاً مائتي راكب، ولم يعرفوا بعد الروح المعنوية لدى المسلمين، وكانت عير قريش بإمرة عكرمة بن أبي جهل، وفر رجلان من المسلمين كانا مع المشركين وهما: المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان والتحقا بالمسلمين.

٣ ـ **سرية سعد بن أبي وقاص:** وأرسل رسول الله ﷺ، سعد بن أبي وقاص في ثمانية رجال من المهاجرين إلى (الخرار) من أرض الحجاز، ولكنه لم يلق عدواً فعاد.

٤ ـ **غزوة ودّان:** وخرج رسول الله ﷺ، بنفسه من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة، وسار حتى وصل إلى (ودّان) شمال شرقي (رابغ)، وذلك من أجل أن يعترض عيراً لقريش، ولكنها فاتته، وهناك صالح بني ضمرة، وعقد معهم معاهدة على أن ينصر بعضهم بعضاً هم والمسلمون،

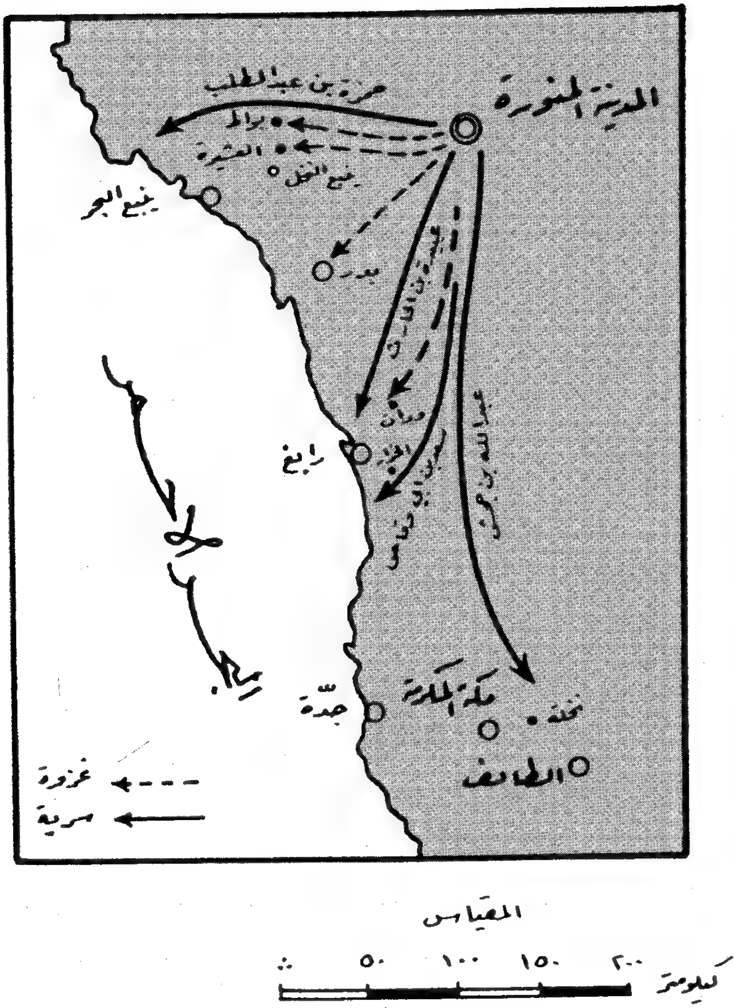
ورجع رسول الله ﷺ، بجماعته بعد غياب دام خمس عشرة ليلة.

٥ ـ **غزوة بواط**: لم يمكث رسول الله ﷺ، في المدينة إلا قليلاً حتى بلغه أن قافلة لقريش آيبة من الشام بإمرة أمية بن خلف ومعه مائة رجل، تضم هذه القافلة ألفاً وخمسمائة بعير، فخرج رسول الله ﷺ، مع مائتين من المهاجرين، باتجاه جبل رضوى، فلما وصل إلى ثنية (بواط) رأى أن القافلة قد فاتته.

٦ ـ **غزوة العشيرة**: ولم يمض غير وقت قصير من وصول رسول الله ﷺ، إلى المدينة حتى علم أن قريشاً قد أرسلت أعظم قافلة لها إلى الشام بإمرة أبي سفيان بن حرب، وليس معه إلا عدد قليل من الرجال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، في مائة وخمسين من المهاجرين وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من هجرته، عليه الصلاة والسلام، واستخلف على المدينة ابن عمته أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، فلما وصل إلى (العشيرة) شمال (ينبع النخل)؛ وجد القافلة قد فاتته، فحالف بني مدلج ورجع إلى المدينة، ولكنه أبقى سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله ليخبراه عن عودة تلك القافلة، ووجههما شمالاً، إذ لاحظ رسول الله ﷺ، أن الخروج والعودة دون قتال لا يمنع قوافل قريش من التحرك نحو الشام، وتعطيل تجارتها لا يجبرها على الاعتراف بوضع المسلمين في المدينة، ولا يرتفع ذكرهم، فلا تتشجع القبائل للدخول في الإسلام، إذن يجب مراقبة القافلة، وكل قافلة أثناء حركتها، وفي أي مكان تكون كل يوم.

٧ ـ **غزوة بدر الأولى**: ولم يلبث رسول الله ﷺ، في المدينة إلا قليلاً حتى أغار على المدينة (كرز بن جابر الفهري)، وهرب، فلحقه رسول الله ﷺ، في جماعة من قومه بعد أن استخلف على المدينة زيد بن حارثة، وتابعه حتى ناحية (سفوان) وهو أحد أودية بدر، ولكنه لم يدركه، وتسمى هذه الغزوة (بدر الأولى).

٨ ـ **سرية عبد الله بن جحش**: وعندما رجع رسول الله ﷺ، إلى المدينة من بدر الأولى بعث في شهر رجب عبد الله بن جحش، ابن عمته، مع ثمانية رجال من المهاجرين، وكتب إليه كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.



فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل (نخلة)، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ، أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، ولم يتخلف عنه منهم أحد.

وفي الطريق أضل سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعاقبان عليه، فتخلفا عن الركب، وسار عبد الله وبقية أصحابه إلى نخلة فنزلوا بها، فمرت بهم قافلة لقريش تحمل زبيباً وجلوداً ، وتجارة من تجارتهم، وعليها عمرو بن الحضرمي.. فلما رأوا ذلك، وكان آخر يوم من أيام رجب، رغبوا في القافلة، وخاصة أن من فيها أقل منهم عدداً، وتشاوروا في الأمر، فقال بعضهم: إن تركتم القافلة اليوم فإنها ستدخل الحرم وستمتنع فيه، وتكون قد أفلتت غنيمة منكم، وقال الآخرون: لئن أخذناها لنكونن قد انتهكنا حرمة الشهر الحرام. وهذا ما أحدث التردد، وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم، وقرروا الهجوم على القافلة، وقتل من يمكن قتله، وأخذ العير غنيمة لهم. فتقدموا نحوها ورموها، وأصاب سهم أميرها عمرو بن الحضرمي فقتل، وأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، والحكم بن كيسان، وفرّ نوفل بن عبد الله بن المغيرة... وسار عبد الله بن جحش بالقافلة والأسيرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فلما وصلوا قال لهم رسول الله ﷺ: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام، ورفض أن يتسلم شيئاً من القافلة، وظن القوم أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون على ما صنعوا، واتخذت قريش ذلك ذريعة فشنت هجوماً إعلامياً على المسلمين بأن محمداً يستحل الشهر الحرام، فقد سفك أصحابه الدم فيه، وأخذوا الأموال فيه، وأسروا الرجال فيه، أما المسلمون المستضعفون في مكة فكانوا يردون على ذلك، بأن الحادثة كانت في أول شعبان.

ولما كثر حديث الناس في هذا الشأن أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1]، وعند

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

ذلك تسلم رسول الله ﷺ، الأسيرين والعير، ولم يقبل بفداء الأسيرين بناءً على طلب قريش حتى رجع سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، إذ خشي رسول الله ﷺ، أن يكونا قد أسرا، وخاف عليهما من قتل قريش، فلما رجعا فدى الأسيرين، فأما الحكم بن كيسان فقد أسلم، وحسن إسلامه واستشهد في بئر معونة، وأما عثمان بن عبد الله فقد مات كافراً، وكانت هذه الغنيمة أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول رجل قتلوه، والحكم وعثمان أول أسيرين أسروهما. وكان عبد الله بن جحش قد وزع على صحبه أربعة أخماس العير، وعزل الخمس الباقي لله ولرسوله، وجاء تقسيم الفيء على هذا النحو فيما بعد، وبذا يكون هذا الصحابي، الجليل، رضي الله عنه، قد وقع على الحقيقة.

وربما كانت سرية عبد الله بن جحش إلى مكة أهم من السرايا السابقة لها رغم قلة عدد رجالها إذ كانت غزواً لقريش بعقر دارها، وذلك أنها وقعت على مقربة من مكة، كما وقع فيها قتال، وحدث أسر، وذهبت قافلة كاملة غنيمة للمسلمين، فبعُد صداها، وشعر العرب بقوة المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وكثرة إمكاناتهم وهذا ما يريده المسلمون، وأخذت قريش صورة مغايرة تماماً.

الشخصية المتميزة: وبينما كانت الغزوات تنطلق إلى مختلف الجهات تجوس في الأرض بين مكة والمدينة، وتدرس الطرق والفجاج، وكانت كلها من المهاجرين لأن الأنصار إنما بايعوا في العقبة على أن يحموا رسول الله ﷺ، لا أن يخرجوا معه في قتال خارج المدينة، أو يتعرضوا للقوافل بعيداً عن منازلهم، ولأن المهاجرين هم الذين لا يعرفون هذه البقاع من الأرض لأنهم غرباء عنها، فيجب أن يتعرّفوا عليها على حين يعرفها الأنصار ولا حاجة لمزيد من المعرفة، وبينما كانت السرايا والغزوات تسير إلى النقط المرسومة لها.. كانت الجماعة الإسلامية تتكامل شخصيتها، ويتنزل التشريع يحدّد المنهج، ويرسم لها الطريقة التي توصلها إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وقد كان المسلمون يجتمعون للصلاة بمواقيتها دون دعوة، ثم فكروا أن يجعلوا بوقاً يأتي المسلمون إلى المسجد حين يسمعونه، ثم كره رسول الله ﷺ ذلك، لأنه تقليد لليهود، ثم فكروا بالناقوس، ولكن كره ذلك وبينما هم كذلك، إذ أتى أحد الأنصار، وهو عبد الله بن زيد، وقال: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال، فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتاً منك». فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد على ذلك. وبهذا كان للمسلمين شخصيتهم المتميزة في الدعوة إلى العبادة.

ثم اتجه المسلمون في صلاتهم إلى البيت الحرام بعد أن كانوا يتجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً في المدينة، وكان رسول الله ﷺ، يحب أن تكون الكعبة قبلته، وكان يقوم في الصلاة، ويدعو ربه بذلك، وبينما كان ذات يوم يصلي إذ جاءه الوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحوّل وتحوّل من وراءه، وقد فُتن بعض المسلمين بهذه الحادثة ممن كانوا ضعفاء الإيمان، وأكثر اليهود الحديث عن هذا الأمر، فكانوا يقولون: هل صلواتكم السابقة غير صحيحة؟ ولماذا هذا التحول؟ و. . . فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[1]. وبهذا كان للمسلمين قبلة، وتوجه في الصلاة متميزين عن غيرهم.

وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله على المسلمين صوم شهر رمضان، ومن قبل كان رسول الله ﷺ، يصوم في الشهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، وهو ذكرى خلاص سيدنا موسى، عليه السلام، من فرعون، وقال ليهود: نحن أولى بموسى منكم، ثم قرر صيام التاسع تمييزاً عن يهود، ولكن الله سبحانه وتعالى أوجب صوم رمضان، وأصبح للمسلمين شخصية متميزة في صومهم. كما أوجب زكاة الفطر عقب صوم رمضان.

كما أن الزكاة قد فرضت في هذا العام، وهذا النظام خاص أيضاً بالمسلمين، وقد بيّن الشارع الوجوه التي تنفق فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[2]. ولا تنفق إلا في هذه الوجوه الثمانية أما الصدقات الأخرى فحيث يرى المنفقون.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥. (٢) سورة التوبة: الآية ٦٠.

وكذلك قامت الحدود، وفرض الحلال والحرام.

وفي هذه المدة جاء رؤساء نجران، وهم من النصارى إلى المدينة، وصلُّوا في مسجد رسول الله ﷺ، وكانت صلاتهم إلى جهة المشرق، وأسلم ملكهم، وحسن إسلامه، وأمّا هم فقد اختلفوا فيما بينهم، ورفضوا الملاعنة، وطلبوا رجلاً يحكم بينهم، فأرسل رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح معهم.

وفي هذه المدة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون، أخو رسول الله ﷺ، من الرضاعة، وقد كان من المسلمين الأوائل، وكان أمير المهاجرين الأوائل إلى الحبشة. وتوفي من الأنصار أسعد بن زرارة، أبو أمامة، أحد نقباء العقبة، وكذلك البراء بن معرور، وهو أحد نقباء العقبة أيضاً، والناطق باسمهم يومذاك، أما من المشركين في مكة فكان قد مات العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو بن العاص، والوليد بن المغيرة المخزومي أبو خالد بن الوليد.

غـزوة بـدر:

شعرت قريش أن طريق قوافلها إلى الشام قد أصبحت معرضةً للخطر، والتجارة عماد حياتها، وأرباحها سبب سيادتها، وأكبر من هذا وذاك فإن المسلمين خصومهم الألداء، وأعداؤهم الأوائل قد أصبحوا على درجة من القوة، حيث يرسلون الدوريات إلى قرب مكة بالذات، وبلغت بهم الجرأة إلى أن يقتلوا من أفرادها، ويأخذوا أسلابهم، ويسوقون ما تحمله القوافل غنائم لهم، الأمر الذي جعل قريشاً تفكر في طريقة للقضاء على خصومها المسلمين الذين أصبحوا يتحكمون في طريق القوافل، وليتخلصوا منهم قبل أن يشتد ساعدهم ويقوى عودهم أكثر مما هم عليه. ومن جهة ثانية فإن المسلمين لا يزالون يُشكّلون جماعةً صغيرةً يرعاها الله بعنايته، ويوجهها في أمورها عن طريق رسول الله ﷺ، فكان لا بدّ من دروس لتستكمل الإيمان، وتستوعب طريق الإسلام.

إن المؤاخاة التي تمت بين المسلمين على يد رسول الله ﷺ، عند وصوله إلى المدينة قد أعطت صورةً صادقةً عن الأخوة الحقة، وعلى الاستعداد الكبير للتضحية بالمال والإيثار في كل شيء. وإذا كان المال يعد معادلاً للنفس في غالب الأوقات، وقد يقدم عليها أحياناً في التضحية، وذلك لما يبذل الإنسان من جهد لتحصيله، ويدفع به عن نفسه غوائل الأيام وأحداث الزمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[1] إلا أن بعض الرجال يجودون بالمال ولكنهم يضنّون بالنفس، ويصعب عليهم الجود بها، وخاصة في الجاهلية التي عرف فيها الكثيرون ممن وصلوا إلى الإفراط في الكرم والإسراف في بذل المال. والإسلام يطالب المسلم أن يبذل في سبيل الله كل شيء: يجود بالمال، ويجود بالنفس معاً، ولا يبخل بجانب من جوانب الحياة، ما دام يصل بهذا البذل إلى حياة أخرى هي النعيم الدائم والاستقرار الخالد والطمأنينة الأبدية. ولقد نجح المسلمون في بذل المال يوم المؤاخاة فلا بدّ من أن يخوضوا تجربة في البذل بالنفس، هذا جانب. ومن جانب آخر فالدعوة لا بدّ ـ كما ذكرنا ـ من أن تعترضها العقبات، ولا بدّ من أن تخوض معارك في كل ميدان.

نصت بيعة العقبة بين رسول الله ﷺ، والأنصار على أن يحموه في مدينتهم، أما خارجها فلم تنص على ذلك. وقد أصبح محتماً على المسلمين من الأنصار والمهاجرين على حدٍ سواء أن يخوضوا معركة مع خصومهم في كل ساحة تفرضها المعركة وتقتضيها الدعوة، لذا يجب أن تتبدل البيعة عملياً لا نظرياً. كانت هاتان الناحيتان مهمتين:

أولاً: أن يمتحن المسلمون في خوض معركة البذل بالنفس.

---

(١) سورة الصف: الآيتان ١٠ ـ ١١.

ثانياً: أن يبدلوا طريقتهم في المعركة، وأن لا يتقيدوا بنصوص بيعة العقبة، وإنما المعركة هي التي تفرض ذاتها، وتحدد أسلوبها.

كانت الجماعة الإسلامية تنمو، وتسير برعاية الله تحت سمعه وبصره، فكان لا بد من أن يعرضها لمعركة قوية تؤمن فيها هاتان الناحيتان، وكانت المعركة المرتقبة يخطط لها من السماء، بينما يظن بعضهم أنها كانت تتم بتخطيط من قبل أهلها.

رأى رسول الله ﷺ، أن المسلمين قد خرجوا من ديارهم مهاجرين، وقد تركوا كل ما كانوا يملكون في سبيل عقيدتهم، وقد أخذت قريش هذه الأموال والأملاك، وآن للمسلمين أن يعوضوا بعض ما فقدوا، وقد أصبح بإمكانهم ذلك ما دامت قوافل قريش تغدو وتروح بالقرب من مدينتهم. وها هي قافلة أبي سفيان تحمل بضائع قريش، وفيها أموال أثريائهم وكبرائهم الذين سطوا على أموال المسلمين، فرأى رسول الله ﷺ، أن يتعرض لها، وقد فاتته في الذهاب، ورأينا كيف ترك طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد يرصدانها حين عودتها. وجاء إلى رسول الله ﷺ، خبر عودتها، وفيها أربعون رجلاً بينهم عمرو بن العاص، فندب المسلمون إليهم، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ، يلقى حرباً، إذ لم يجعل الخروج واجباً، فلم يكن التأهب للقتال، وإنما لأخذ القافلة، والقافلة ليس فيها سوى أربعين رجلاً، هذا ما رآه المسلمون، وهذا ما أرادوه، ولكن الله أراد غير ذلك، لقد أراد القتال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٥ ـ ٧.

كان أبو سفيان عند عودته ولما اقترب من الحجاز، يرسل الطلائع أمامه، ويسأل الركبان، يتحسّس الأخبار، ويتلمّس أحوال الطرق، خوفاً على قافلته، فأصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أهل المدينة للقافلة، فخاف عليها، فاستأجر أحد رجال القبائل، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري، وأرسله إلى مكة يستنفر أهلها إلى أموالهم، ويخبرهم الخبر، وما سيؤول إليه الأمر إن تأخروا في نفيرهم. فخرج ضمضم سريعاً حتى وصل إلى مكة.

وفي هذه الأثناء حدث أن رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها، وذلك قبل قدوم ضمضم بثلاث ليالٍ، وبعثت إلى أخيها العباس عم رسول الله ﷺ، تحدثه بها، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به، فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لَغُدُر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله، مثل (قام) به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا يا لغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس لأخته: اكتمي ذلك ولا تذكريه لأحد.

ذكر العباس هذه الرؤيا لصديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة، واستكتمه على ذلك، وذكرها الوليد لأبيه، ففشا خبرها في مكة، وتحدث بها الناس في الأندية، فقال أبو جهل للعباس: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ فأنكر العباس أن يكون قد سمع شيئاً. ولامت نساء بني عبد المطلب العباس على سكوته عما تحدث أبو جهل، فخرج إليه يريد أن ينال منه، وإذا بالناس يسمعون صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على

بعيره، وحوّل رحله، وشقّ قميصه، وهو يقول: اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. وشغل العباس وصاحبه كل عن الآخر، وتجهز الناس سراعاً حاقدين، وهم يقولون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك. فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه غيره، وخرجت قريش كلها، فلم يتخلّف أحد من أشرافها، إلا أن أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب تخلّف، وأرسل مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة.

ولما تجهزت قريش تذكّرت أن بينها وبين كنانة تارات، فخشيت إن اتجهت شمالاً أن تأتيها كنانة من خلفها، إلا أن الشيطان قد أغراهم بالخروج إلى المدينة، إذ ذكروا أن الإسلام قد حجز بينهما، وأنه العدو المشترك لهما، فساروا نحو الشمال.

وكان رسول الله ﷺ، قد خرج من المدينة، يريد قافلة أبي سفيان، وقد استعمل عليها عبد الله بن أم مكتوم، يصلي بالناس، وخرج معه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً من المسلمين، ومعهم فرّسان وسبعون بعيراً، يعتقبون عليها، أما الفرسان فهما للزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو. وكان خروجه ﷺ، يوم الجمعة لثمان خلون من رمضان، واتجه نحو الجنوب الغربي، حتى إذا قطع ثلاثة وأربعين ميلاً، وكان بالروحاء، أعاد أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر ليكون أمير المدينة. وكان الجيش يضم كتيبتين: أولاهما للمهاجرين، ويحمل لواءها علي بن أبي طالب، وتضم نيفاً وسبعين رجلاً وأخراهما للأنصار، ويحمل لواءها سعد بن معاذ وتضم مائتين وأربعين رجلاً، وقيادة الكتيبتين العليا كانت بيد رسول الله ﷺ، ويحمل لواءها مصعب بن عمير، وكان على ميمنة الجيش الزبير بن العوام، وعلى ميسرته المقداد بن عمرو، وعلى مؤخرته قيس بن أبي صعصعة.

أرسل رسول الله ﷺ، الاستطلاع أمامه، وأمر بقطع الأجراس من أعناق الإبل حذراً، وعندما غادر الروحاء، وصل إليه خبر خروج قريش،

وأنها بعد ليلتين ستكون في بدر. وكان عدد قريش تسعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعير.

أما أبو سفيان فبقي يسير مسرعاً باتجاه مكة، وبطريقه الطبيعي نحو بدر. ولكنه كان حذراً متيقظاً وكاد قبل أن يصل إلى بدر يلتقي بجيش المسلمين، إلا أنه لقي (مجدي بن عمرو) فسأله عن جيش رسول الله ﷺ، فقال له: ما رأيت أحداً أنكره إلا أنني رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا، وانطلقا، فأسرع أبو سفيان إلى مناخ راحلتي الرجلين، وتفحّص بعراتهما، فوجد فيها نوى المدينة، فعلم أنهما من أصحاب رسول الله ﷺ، فعاد إلى قافلته مسرعاً وتوجه نحو الغرب باتجاه الساحل، ونجا بما معه، ولما تأكد من النجاة أرسل لقريش رسالة يقول فيها: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا، وقد وصلت رسالته إلى قريش، وهم في (الجحفة). ولكن أبا جهلٍ رفض هذه النصيحة، وأصر على استمرار السير، وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم بها ثلاثاً، نذبح الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا، وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا. ولكن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، وقائد حملتها، قد عارض أبا جهل، وقال: يا بني زهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلص صاحبكم (مخرمة بن نوفل)، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا. فأطاعه قومه، ورجعوا من (الجحفة)، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل.

أما رسول الله ﷺ، فقد شعر بحراجة الموقف عندما بلغه مسير قريش، فإنه قد خرج بأصحابه يريد العير، ولا يريد القتال، إذ لم يكن المسلمون قد استعدوا لذلك، حتى لم يخرج عدد من سراة القوم من المدينة لعلمهم أن الخروج إنما كان للقافلة وليس للقتال، والقافلة لا تحتاج لجزء ممن خرج، ولو علموا القتال ما تخلفوا. فأراد رسول الله ﷺ، أن يستشير القوم، وإن كان يعلم أن الله لن يضيعه، وقد أفلتت عير أبي سفيان من قبضته.

جمع كبار الصحابة، وقال: «أشيروا عليَّ أيها القوم»، فقام أبو بكر، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن. فأثنى عليهما رسول الله ﷺ، وقال: «أشيروا عليَّ أيها القوم»، فقام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً، ودعا له به. ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس، وذلك أنه كان ﷺ، يريد أن يعرف رأي الأنصار فهم أكثرية الجيش ـ كما رأينا ـ وهم أهل المدينة، وإنهم حينما بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله ﷺ، إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته خارج المدينة، وأنه ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو بعيد عن ذلك. فلما قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وقف سعد بن معاذ، رضي الله عنه، قائد كتيبة الأنصار، وسيد الأوس فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل». قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ، بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) برك الغماد: ناحية باليمن في أقصى الجزيرة.

تابع رسول الله ﷺ، سيره باتجاه بدر، ثم نزل قريباً منها، فركب هو وأبو بكر الصديق، فالتقيا بشيخ من العرب، يقال له: سفيان الضمري، فسأله رسول الله ﷺ، عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال سفيان: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: «أذاك بذاك»؟ قال: «نعم». قال سفيان: «فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ فعلاً، مما يدل على صحة تقدير الرجل ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي كانت فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. قصد رسول الله ﷺ، من الجنس الذي خلق من ماء، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[1]، وظن سفيان أنهم من أهل ماء معين. وانصرف رسول الله ﷺ، وأبو بكر إلى المسلمين. فلما كان المساء أرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص مع نفر من الصحابة يتحسسون أخبار قريش على ماء بدر، فوجدوا رجلين يسقيان لقريش، فأتوا بهما، ورسول الله ﷺ، قائم يصلي، فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم منهما ما قالا، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما حتى أوجعوهما، فقالا: نحن سقاة لأبي سفيان، فتركوهما، فلما انتهى رسول الله ﷺ، من صلاته قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟»

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ، على الناس، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». ثم سار رسول الله ﷺ، بالمسلمين حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً، بعضهم جُنب، وبعضهم محدث، ووسوس لهم الشيطان، بأن المشركين لا ينتظرون أكثر من أن تموتوا ظمأ، فأرسل الله لهم الغيث، فشربوا، وسقوا، واغتسلوا، وتوضؤوا وملؤوا أسقيتهم، وثبتت الأرض تحت أقدامهم، على حين كان هذا المطر بلاء على المشركين، إذ أصبحت أرضهم وحلاً، فلم يستطيعوا الحركة والانتقال، فبقوا في مكانهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[1].

ثم تحرك رسول الله ﷺ، نحو ماء بدر ليسبق عدوه إليها، قبل أن يمنعوه، فلما وصل إلى أول بئر نزل بها، فقال له الحُباب بن المنذر الأنصاري: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

ثم أمر بالقُلُب، فغوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملؤوه ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

بناء عريش رسول الله ﷺ:

وقال سعد بن معاذ، رضي الله عنه، لرسول الله ﷺ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كانَ ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله. وبُني العريش، وجلس فيه رسول الله ﷺ.

وفي صباح يوم المعركة السابع عشر من رمضان تحركت قريش نحو بدر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». ورأى رسول الله ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: إن يكن في أحدٍ من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا.

المعرفة والجحود:

قدّم أحد بني غفار هدايا لقريش مع ولدٍ له، وهي إبل، وطلب منه أن يسألهم إن كانوا يريدون رجالاً أو سلاحاً أمدهم بما يطلبون، فأجابت قريش: وصلتك رحم! قد قضيت الذي عليه، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة.

الخبرة والرأي:

أرسلت قريش أحد رجال استطلاعها، بعد أن استقر بها المقام، وذلك ليتعرف على أحوال المسلمين وجيشهم، فانطلق، وهو عمير بن وهب الجمحي، فدار حول معسكر المسلمين ثم رجع فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى قطع مسافة خلف جيش المسلمين فلم ير أحداً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت، يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وسمع أحد أشراف قريش وهو حكيم بن حزام ما قاله عمير بن وهب فمشى بين الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي[1]، قال: قد فعلت، أنت عليّ بذلك إنما هو حليفي، فعليَّ عقله[2] وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية (يعني أبو جهل)، فإني لا أخشى ألا يخالف غيره.

الحكيم الذي لا يطاع:

ووقف عتبة بن ربيعة فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك

---

(١) عمرو بن الحضرمي: هو الذي قتلته سرية عبد الله بن جحش في نخلة.

(٢) عقله: ديته.

الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرَّضوا منه ما تريدون.

الحماقة والغطرسة:

وسار حكيم بن حزام إلى أبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره[١] حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه[٢]، فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك، يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك[٣]، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي، وبدأ يصرخ واعمراه واعمراه، فحميت الحرب، واجتمع الناس، وظهر الشر، وأفسد الرأي الذي اقترحه عتبة وهو الرجوع بالناس.

الصريع الأول:

بينما كان المسلمون لا يحتاجون إلى الماء، فحوضهم مليء، وبئرهم وافرة المياه، كانت قريش بحاجة ماسة إلى ذلك، فقد ظمأ أفرادها، وخرج منهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي أخو أبي سلمة، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فما خرج من بين قومه حتى خرج له حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة ضربة أطاحت بنصف ساقه، فوقع

(١) انتفخ سحره: ظهر جبنه وخوفه. (٢) ابن عتبة: أبو حذيفة كان بجانب المسلمين.
(٣) اطلب من قريش عهودهم إذا كان حليفاً لهم وجاراً.

على الأرض، ومع هذا فقد بدأ يحبو نحو الحوض، فأتبعه الحمزة بأخرى أودت بحياته.

المبارزة:

ثم خرج عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبة، وابنه الوليد بن عتبة، يدعو إلى المبارزة رداً على أبي جهل الذي اتهمه بالجبن والخوف من المعركة، فخرج لهم فتية من الأنصار هم: عبد الله بن رواحة، وعوف بن الحارث، وأخوه معوذ بن الحارث، فقال عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قال القرشيون: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. ويبدو من هذا أن المشركين يرون أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة ولا قيمة لرابطة الدم أو القوم فمن هم أكفاؤهم الذين يريدون أن يقتلوهم؟ أليسوا من قومهم؟ أليسوا الأهل والأقارب؟ أليسوا الأبناء والآباء؟ فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة بن عبد المطلب، وقم يا علي بن أبي طالب»، فلما قاموا، ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فعرَّف الصحابة أنفسهم، فقال المشركون: نعم أكفاء كرام. فوقف عبيدة، وكان أسن القوم، أمام عتبة، ووقف حمزة أمام شيبة، ووقف علي أمام الوليد. أما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر، فأسرع حمزة وعلي فضربا عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين، وكان جريحاً ينزف الدم من رجله، فأضجعوه إلى جانب رسول الله ﷺ، فأفرشه رسول الله ﷺ، قدمه الشريفة، فوضع خده عليها، وبشّره عليه السلام بالشهادة فقال: وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]

ثم لم يلبث أن فارق الحياة، رضي الله عنه.

---

(١) هذا بيت من قصيدة طويلة لأبي طالب يستعطف فيها قريشاً، وهي في ابن هشام ١/ ٢٧٢.

التقاء الفريقين:

وتقدم كل جيش من الآخر، وأمر رسول الله ﷺ، أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل.

وخرج رسول الله ﷺ، يسوي الصفوف، وفي يده سهم يُعدل به القوم، فمر بسوّاد بن غزية، وهو بارز قليلاً في النسق الأول، فأصابه السهم، وقال رسول الله ﷺ: «استو يا سوّاد»، فقال: يا رسول الله ﷺ، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: «فأقدني». فكشف رسول الله ﷺ، عن بطنه، وقال: «استقد»، فاعتنقه سوّاد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ذلك يا سواد؟» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير. ورجع رسول الله ﷺ، إلى العريش بعد أن سوى الصفوف.

التباين بين الجيشين:

رأينا أن جيش قريش منقسم على نفسه بعضه يريد العودة، وبعضه متغطرس يريد القتال، وهو ممتلئ حقداً، بعضه يتهم الآخرين بالجبن والخور، الحكيم فيهم غير مطاع، والسيد غير مسموع الكلمة، وأبو جهل يفرض نفسه على الجيش وأشراف قريش، أما المسلمون فكتلة واحدة، يأتمرون بأمر رسول الله ﷺ، وهم على الطاعة والسمع كأحسن ما يكون جندي لقائده بل إنسان لنبيه وسيده وحبيبه، يفدونه بأنفسهم وأموالهم، لا يصدر أمر إلا عنه، ولا يتكلم متكلم إلا بأمره، ولا يشير مشير إلا بإذنه، وهو في منتهى التواضع والتقدير.

مناشدة الرسول ﷺ ربه:

عاد رسول الله ﷺ، بعد أن عدَّل الصفوف إلى العريش ومعه أبو بكر، فكان رسول الله ﷺ، يناشد ربه ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». ويقول له أبو بكر: يا نبي الله. بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك. ثم أخذت رسول الله ﷺ، سنة من النوم، ثم صاح فقال: «أبشر يا

أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع».

وخرج رسول الله ﷺ، من العريش إلى الناس يحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمير بن الحُمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخٍ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل حتى قتل. وبهذه الروح المعنوية خاض المسلمون المعركة فانتصروا، وخاضوها في بقية المعارك، فكتب الله لهم النصر، ولكن عندما أضاعوها، وأهملوا الإيمان كانت عاقبتهم الهزيمة. فالجندي المؤمن عندما يدخل المعركة لا يهاب الموت، وإنما يطلبه، ولأن المشتاق إلى الجنة، لا يمكن أن تقف الرجال أمامه، ولا تحد الأسلحة من زحفه، ولكن إذا زج الجندي في الميدان زجاً وليس له هدف، ولا رغبة، فإنه يدافع عن تراب، أو يقاتل من أجل أمور زائلة، وشعارات فارغة فلن يثبت في الساحة، وإنما ينتهز فرصة غياب العيون عنه ليولي الأدبار، لا يسأل عن شيء، لأن الذي يعمل من أجله شيء زائل، يعوض ويستبدل.

ولما التقى الفريقان، قال أبو جهل: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا يُعرف، فأحنه[1] الغداة، فكان هو المستفتح[2].

ثم إن رسول الله ﷺ، أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها. وأمر أصحابه، فقال: «شدّوا»؛ فكانت هزيمة قريش بإذن الله. وقال رسول الله ﷺ، لأصحابه يومئذ: «إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن حارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً»، قال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنّه السيف، فبلغ رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص

---

(١) أحنه: أهلكه.
(٢) المستفتح: الحاكم على نفسه بالدعاء.

أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. يقول عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ، بأبي حفص. ويقول أبو حذيفة: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة[1].

واقتضت حكمة الله تعالى أن يرفع معنويات المسلمين، فقد رأى رسول الله ﷺ، المشركين في المنام قلة، مما شجعه، لأنه لو رآهم كثرة لكثر النقاش في الموضوع المتعلق بالحرب، ولأنهم إنما خرجوا للعير ثم رأى المسلمون المشركين قلة أثناء اللقاء للسبب نفسه، فكان كل فرد منهم مقداماً، وفي الوقت نفسه فقد رأى المشركون المسلمين قلة حتى يندفعوا أيضاً للحرب إذ لو رأوهم كثرة لهابوهم، ولاستمعوا لكلام عتبة بن ربيعة في ترك القتال، كل ذلك لتكون النتيجة التي أرادها الله للفريقين، لتتم بأيدي الطرفين لا بمعجزة. الإسلام يطبق بأيدي أتباعه، لا بالمعجزات، هكذا أراد الله لدينه، ويقول تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[2].

وكذلك فقد أنزل الله سبحانه وتعالى ملائكة ليطمئن المسلمون، ولتثبت أقدامهم، لا ليقاتلوا[3]، إذ لو كان ذلك لكفى ملك واحد ليهلك ما شاء الله له أن يهلك، بل لكفى أن تكون إرادة الله في قتلهم، ليقتلوا جميعاً ولو كان عددهم عدد الحصى. . . ولكن كان إنزال الملائكة بهذه الأعداد ليثبت المسلمون، وتطمئن نفوسهم، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ

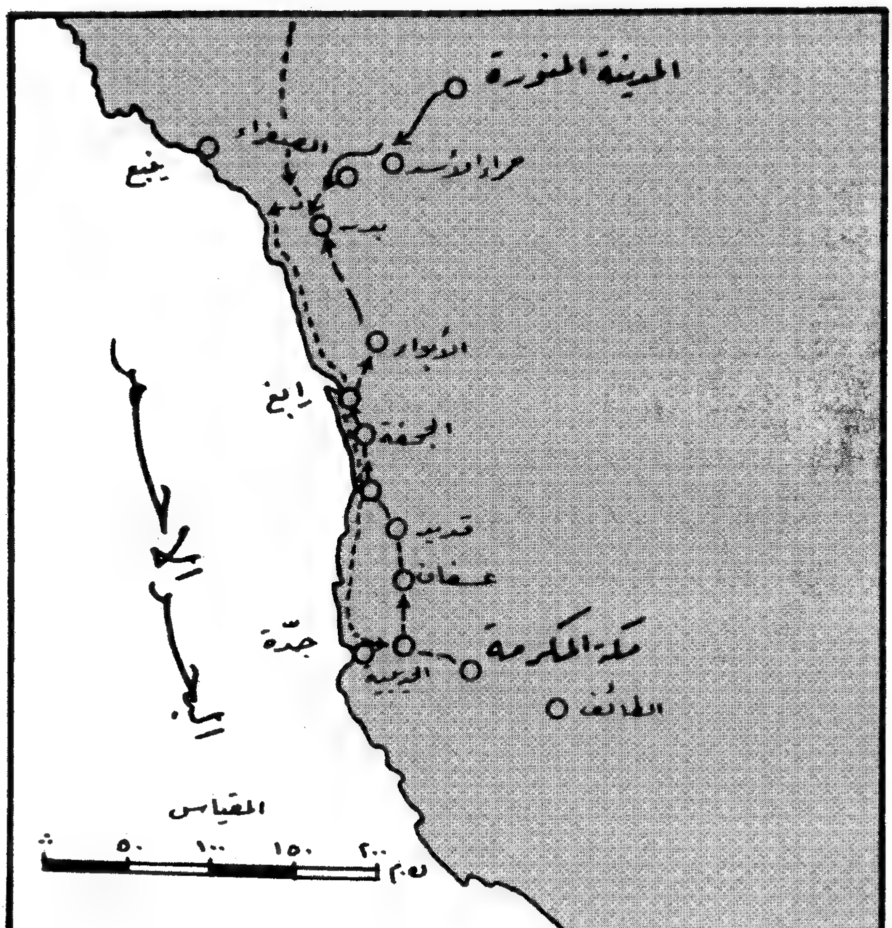
---

(١) استشهد رضي الله عنه في اليمامة أثناء قتال المرتدين.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) اختلفت آراء العلماء حول مباشرة الملائكة للقتال، ويبدو ـ والله أعلم ـ من آيات سورة الأنفال أنهم قاتلوا.

وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].



قافلة أبي سفيان ----→ سير المسلمين إلى بدر ——→

سير قريش إلى بدر — —→

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ـ ١٤.

وكانت المعركة وفاز المسلمون كل الفوز، ونجحوا في البذل في النفس، ونجحوا في تحقيق معاني الأخوة الصحيحة، فكانت فوق القرابة والأرحام، وفوق كل ما يمت بصلة سوى صلة العقيدة، فقد قتل المسلم أباه المخالف له، وقتل أخاه المغاير له في العقيدة، لم يقتله في الحرب فقط، وهو ثائر متحمس، لا يعي، ولا يفكر، ويخشى على نفسه من أن تنتاشه سيوف الأعداء ورماحهم قبل أن ترتفع كلمة الله، وهو يحيا لتعلو، وإنما أيضاً يريد قتله وهو أسير بين يديه بعد نهاية المعركة، وهو ينظر إليه نظرة الإنسان الضعيف، وتنبعث في نفسه ذكرى الأيام الخالية التي قضياها معاً، أو ربّى فيها أحدهما الآخر، وكان العطف يغمر نفسيهما، ولكن هذا كله يداس بالأقدام إذ لا يجتمع الإيمان مع الكفر. لقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه، وقتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام المخزومي، ورغب أبو بكر بمنازلة ابنه عبد الرحمن ولكن الولد كان يفر من وجه أبيه.

كانت معركة بدر تشير إلى أن الفئة المؤمنة إن استقامت على الطريق، وأخذت بأسباب النصر، لا بد من أن يأتيها نصر من الله بغض النظر عن العدد وتكافؤ السلاح، كانت أول معركة في الإسلام، وكانت الإشارة الخالدة لهذه الحقيقة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١).

كانت معركة بدر تتمة لبيعة العقبة التي تقضي بالدفاع عن الإسلام في يثرب، وتشمل مجالاً أرحب يجمع العالم كله، يقاتل فيه المسلمون عامة في كل ميدان تفرضه المعركة، ويدافعون عن العقيدة في كل بقعة تقتضيها الدعوة، ولم تعد المدينة وحدها مجال الدفاع عن رسول الله ﷺ، والمهاجرين.

كانت معركة بدر المعركة التي أثبتت أن الأخوة في الإيمان أقوى من رابطة النسب والجنس بل لا قيمة لأية رابطةٍ سواها أمامها، وقد تجلّت

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

ببذل النفس في سبيل العقيدة، كما تجلت المؤاخاة ببذل المال بين المسلمين في يثرب يوم وصل إليها رسول الله ﷺ، هذه الحقيقة الخالدة قد سُجّلت في أول معركة من معارك المسلمين فكانت فرقاناً بين الحق والباطل.

ولم تتغير الجبهات التي يقاتل المسلمون ضدها اليوم، فالطغاة اليوم في كل أرض وحتى من الذين ينتسبون للإسلام، وأصحاب المصالح والأهواء في كل مكان، والحاقدون من أهل الديانات الأخرى، وتمدُّ كل هذه الفرق أيضاً دول العالم اليوم، فعلى المسلمين اليوم أن يتبعوا الخطة نفسها التي سار عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

على المسلمين أن يدرسوا الأرض التي يتوقّعون أن تدور عليها المعركة الفاصلة بينهم وبين أعدائهم، وهي البقعة التي تصلح لإقامة الحكم الإسلامي، ويجب أن تكون هذه الدراسة كاملة، ويعرفوا أن عليهم أن يخوضوا عليها أولى معاركهم ضد خصومهم، وأن يوجهوا عنايتهم التامة نحو هذه المعركة المنتظرة.

على المسلمين أن يكونوا على وعي تام فلا يجرهم الخصوم إلى معركة قبل أن ينتهوا من استعدادهم، عليهم أن يقرروا زمن المعركة ومكانها هم لا خصومهم، وهي نقطة أساسية وحساسة جداً، إذ أن المسلمين يسعون لاستكمال استعدادهم وقبل أن يتم استعدادهم يجرهم العدو إلى معركة بسبب العناصر الانتهازية أو التي تسعى وراء الشهرة وبذا تتأخر الدعوة وتتراجع الحركة، ويبدأ العمل ثانية من جديد من نقطة الصفر وقبل أن يعدوا العدة اللازمة تُعاد إليهم الضربة بجرهم لمعركة أخرى وهكذا... هذا الأمر الذي يصاب فيه المسلمون اليوم في كل أرض تقوم عليها حركتهم.

على المسلمين أن يرسلوا الدعاة إلى المناطق المجهولة، والقبائل التي لا تزال وثنيةً، والتي تسكن المناطق النائية في الغابات والصحارى، والتي اتّجه نحوها المنصّرون من النصارى، وأهملها المسلمون، فاكتفوا بما وصل

إليه الإسلام في المناطق المعروفة، فقد انطلق المسلمون الأوائل إلى القبائل المشركة يكسبونهم إلى صفهم أو يدخلونهم في الإسلام.

على المسلمين أن يتجردوا من كل رابطة سوى رابطة الفكرة والعقيدة تجرداً تاماً، فليس الأب ولا الأخ ولا الزوج ولا أي نوع من القرابة يجب أن يكون له أهمية إذا تعارضت أفكاره في أي نقطة مع الإسلام.

على المسلمين الاستعداد التام للقتال في كل ميدان، فليست المنطقة القريبة منهم هي الواجب عليهم القتال فيها، وإنما في كل منطقة تقتضيها ظروف الدعوة، وفي كل بقعة تحتم الدعوة القتال فيها، وهذا بالتالي يستدعي التعرف على أوضاع المسلمين وبلادهم في كل أرجاء العالم، والتعرف كذلك على البلاد التي لم يصل إليها الإسلام بعد، وعلى سكانها، وإمكانية نشر الدعوة بينهم.

وانتهت معركة بدر بنصر عظيم للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للمشركين الذين فقدوا في ساحة المعركة أكثر من سبعين قتيلًا، بينهم زعماؤهم والذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا رسول الله ﷺ، ومثلهم من الأسرى وفيهم بقية الزعماء والقادة، فكان من بين القتلى، عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد بن عتبة، وشيبة بن ربيعة أخو عتبة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، وعبيدة بن سعيد بن العاص، والعاص بن سعيد بن العاص، وأبو البختري العاص بن هشام، ونوفل بن خويلد أخو أم المؤمنين خديجة، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأبو جهل عمرو بن هشام، والعاص بن هشام المخزومي، وأبو قيس بن الوليد أخو خالد بن الوليد، وأمية بن خلف، وابنه عليّ بن أمية.

وكان من بين أسرى قريش: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعقيل بن أبي طالب أخو علي بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، وعمرو بن أبي سفيان، وأبو العاص بن الربيع ختن رسول الله ﷺ، زوج ابنته زينب، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، وسهيل بن عمرو.

وأمر رسول الله ﷺ، بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان رسول الله ﷺ، أخبر بها قبل المعركة إلى قليب بدر فدفنوا فيه، ثم قام على ظهر راحلته على شفة قليب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! ويا فلان بن فلان! أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ﷺ، ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال: «فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». وتقول عائشة، رضي الله عنها: إنما قال، إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق.

وروي أنه لما سحب عتبة بن ربيعة إلى القليب نظر رسول الله ﷺ، في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغيّر لونه، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجوه له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ.

ثم أرسل رسول الله ﷺ، عبد الله بن رواحة مبشراً أهل العوالي، وزيد بن حارثة مبشراً أهل السافلة، وقد وصلا إلى المدينة وقت انصراف المسلمين من دفن رقية بنت رسول الله ﷺ، زوج عثمان بن عفان، فسُر المسلمون من سكان المدينة بما حمله المبشران، أما المنافقون والكفار واليهود فقد بدأوا يرجفون برسول الله المسلمين، ويقولون: لقد عاد هذان منهزمين من المعركة.

وساق رسول الله ﷺ، الأسرى أمامه وعاد باتجاه المدينة، وكان قد ترك من المسلمين أربعة عشر شهيداً في معركة بدر. وعندما أمر أن يُجمع ما حواه الناس من الغنائم اختلف المسلمون في ذلك، اختلف الجامعون والمقاتلون، اختلف الذائدون عنها والذائدون عن رسول الله ﷺ..

فجعل الله ذلك كله لله ولرسوله ثم أمر أن توزع بالتساوي على أن تكون أربعة أخماس الغنائم للمقاتلين والخمس الباقي لله ولرسوله، يوزعها رسول الله ﷺ، على الفقراء، وقد جعل رسول الله ﷺ، بين المقاتلين أشخاصاً لم يحضروا بدراً، منهم: سعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، وكانا ينتظران عودة العير من الشام، وقد كلفهما بذلك رسول الله ﷺ، عندما فاتته العير، وهي في طريقها إلى الشام، وأبو لبابة، وقد خلفه رسول الله ﷺ، أميراً على المدينة، والحارث بن حاطب وكلفه رسول الله ﷺ، بمهمة في بني عمرو بن عوف، والحارث بن الصمة، وقد كسر بالروحاء، ولم يتمكن من السير، وعثمان بن عفان وكان رسول الله ﷺ، قد تركه عند زوجه المريضة، رقية بنت رسول الله ﷺ، وعاصم بن عدي وكان أميراً على أهل قباء والعالية من قبل رسول الله ﷺ، ثم شهداء معركة بدر الأربعة عشر ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤١﴾[1].

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطي درساً للمسلمين بأن المعركة كانت فرقاناً، وهي أعظم بكثير من هذه الغنائم والأموال التي مآلها إلى الزوال، بينما المعركة هي فاصل هام في تاريخ البشرية كلها، وقد تمت بتدبير الله وقدرته، في كل حركة وفي كل خطوة حدثت فيها، ليقضي من وراء ذلك أمراً عظيماً أراده هو، فلم يكن هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور دون تدبير، وسواء أكانت تلك الغنائم أم نتائجها الكبيرة فكلها من فعل الله وتدبيره.

وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، وتبعه الأسرى بعد يوم، فاستشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال أبو بكر: يا رسول الله،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة. فقال ﷺ: «إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون (ألين) من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وإن مثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾»[2]. وأخذ رسول الله ﷺ، برأي أبي بكر، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء»، ووصاهم عليه السلام بهم، وكان قد فرقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»، قال أبو عزيز بن عمير ـ وكان أحد الأسارى ـ: مرّ بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، قال: وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ، إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. قال: فأستحيي، فأردها على أحدهم، فيردها علي ما يمسها، وكان أبو عزيز زرارة بن عمير صاحب لواء المشركين بعد النضر بن الحارث، وقد أسره أبو اليسر، وعندما قال مصعب بن عمير لأبي اليسر ما قال، قال له أخوه أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال له مصعب: إنه أخي دونك. وقد فدته أمه بأربعة آلاف درهم، وهذا المبلغ أعلى مبلغ فدي به قرشي في بدر.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.   (٢) سورة نوح: الآية ٢٦.

وصول خبر بدر إلى قريش:

ووصل خبر معركة بدر ونتائجها إلى قريشٍ عن طريق الحيسمان بن عبد الله الخزاعي فإنه أول من قدم مكة بذلك الخبر، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، فلما صار يعدد أشراف قريش لم يكد يصدق من يستمع إليه، وظنوا أنه مجنون حتى إن صفوان بن أمية بن خلف، وكان جالساً في الحجر قال: سلوه عني، لعلّي بين القتلى، فلما سألوه عنه، قال لهم: ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه قتلى.

وعندما تأكدت قريش من الخبر ناحت على قتلاها، ثم قالت: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه، فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، ولكن تأخروا في ذلك، كي لا يشتد محمد في الفداء فيطلب الكثير.

ثم بعثت قريش في فداء أسراها، ولم يبالغ رسول الله ﷺ، في الفداء، إذ لم يكن المال شاغله، ولا شاغل أصحابه، وإنما هداية الناس، وإعلامهم رأيه ليجذبهم إلى الدين، وإبلاغهم دعوة الله. فعندما جاء مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به، فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً». وروي أنه قال: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه».

قال ابن إسحاق: فلما قاولهم مكرز، وانتهى إلى رضاهم، قالوا: هات الذي لنا، قال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكِ بفدائه، فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرز مكانه عندهم، حتى أرسل سهيل الفداء.

ورفض أبو سفيان أن يفدي ابنه عمراً، وكان ابنه الآخر حنظلة قد قتل فصعب عليه أن يفقد الولد ويدفع المال، وبقي ابنه في الأسر حتى احتجز أبو سفيان سعد بن النعمان الذي جاء معتمراً، وكان شيخاً هرماً، فافتداه رسول الله ﷺ، بترك عمرو بن سفيان يرجع إلى مكة.

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله ﷺ، إذ كانت عنده زينب بنت رسول الله ﷺ، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد، وتزوجها قبل البعثة، وعندما أوحي لأبيها محمد ﷺ، أسلمت، وبقي زوجها على شركه، وفرّق بينهما رسول الله ﷺ، ولكنه لم يستطع عزلهما لما كان فيه من الاضطهاد. وبينما طلق عتبة بن أبي لهب زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وترك أخوه عتيبة بن أبي لهب زوجه أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، بناء على رأي وجهاء قريش في سبيل إضعاف رسول الله ﷺ، وزيادة الهم عليه، وتعهدت قريش بتزويجهما فتاتين من قريش يختارانهما، ولكن رفض أبو العاص ذلك وقال: لا أرضى بديلاً بزينب. ولما كانت بدر خرج أبو العاص مع قريش، وكان بين الأسرى، وأرسلت زينب مالاً وقلادة كانت قد أهدتها لها أمها خديجة فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ، رقّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتعيدوا لها مالها فافعلوا»، فقالوا: نعم، وفعلوا ذلك، وقد أخذ رسول الله ﷺ، عهداً على ختنه أن يرسل زينب من مكة لتلحق بأبيها في المدينة حيث لا يجمع بينهما دين، فلما أطلق سراح أبي العاص، ووصل إلى مكة، أرسل زينب إلى أبيها. وكان رسول الله ﷺ، قد أرسل زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ليصحباها في الطريق، وقبل أن تصل إليهما مع أخي زوجها كنانة بن الربيع، روعها هبّار بن الأسود، وكانت حاملاً، فأسقطت، وأصابها النزيف حتى وصلت إلى المدينة، فأصابها المرض، وخاصة أنها اضطرت إلى أن تعود إلى مكة، وتخرج ثانية على حين غفلة من أهلها، إذ خرجت في الأولى علانية وعلى رؤوس الأشهاد الأمر الذي جعل هبّاراً وغيره يتبعانها. أما زوجها أبو العاص فقد بقي على شركه، وفي مكة على حين مكثت هي عند أبيها في المدينة إذ فرق الإسلام بينها وبين بعلها. وخرج أبو العاص في تجارة لقريش إلى الشام، وأثناء عودته وقع في قبضة سرية لرسول الله ﷺ، فأخذت ما معه، وفر هارباً، حتى إذا كان الليل دخل المدينة سراً، ولجأ إلى بيت زينب، واستجار بها فأجارته، فطلب رسول الله ﷺ، من السرية التي أخذت ماله أن ترده عليه إن شاءت،

وإن أبت فهو لها، فرد رجال السرية كل ما كان لديهم، فاحتمله أبو العاص وسار به إلى مكة، فلما وصل إليها أعطى كل ذي حق حقه من أهل مكة ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها، أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ، مسلماً، فرد رسول الله ﷺ، زوجه زينبَ بنكاح ثانٍ.

وكذلك فقد منَّ رسول الله ﷺ على بعض الأسرى الآخرين من غير فداء، فقد أطلق سراح المطلب بن حنطب بن الحارث المخزومي، وكان قد أسره خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري كما أطلق سراح صيفي بن أبي رفاعة المخزومي، وأبو عزة، عمرو بن عبد الله الجمحي، وكان فقيراً، ذا بنات، وقد أخذ عليه عهداً ألا يظاهر على المسلمين. أما العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وهو أحد الأسرى، فقد أمره رسول الله ﷺ، أن يفدي نفسه، وأن يدفع الفداء عن ابني أخيه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، كما أمره أن يدفع عن حليفه عتبة بن عمرو بن جحدم، فاعتذر محتجاً بأنه لا مال له، فقال له رسول الله ﷺ: «أين المال الذي وضعته عند أم الفضل، وقلت لها: إن أصبت فللفضل كذا، ولعبيد الله كذا»، قال: والذي بعثك بالحق، ما علم أحد غيري وغيرها، وإني لأعلم أنك رسول الله، وفدى نفسه وابني أخويه وحليفه، وكان المسلمون قد أخذوا أربعين أوقية من الذهب من العباس بن عبد المطلب أثناء غزوة بدر عند أسره، وعندما جاء وقت إطلاق الأسرى، طلب العباس من رسول الله ﷺ، أن يحسب كمية الذهب التي أخذت منه من الفداء، فرفض رسول الله ﷺ ذلك، وقال: «لا، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل»، أي أصبح غنيمة للمقاتلين المسلمين بعد أخذها منه أثناء القتال.

وقد جاء عتاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في شأن فداء

الأسرى، فقال جل جلاله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[1] ويبدو - والله أعلم - أن هذه الآية قد نزلت أثناء معركة بدر إذ كان بعض المسلمين يحرصون على الأسر أكثر مما يحرصون على القتل، وقد تمعّر وجه سعد بن معاذ لما يفعله بعض هؤلاء، فأنزل الله هذه الآية[2]، ثم عفا الله عنهم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾[3].

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، بعد أن قضى بافتداء الأسرى فإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر قاعدين يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» (شجرة قريبة من رسول الله ﷺ).

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ - ٦٨.
(٢) انظر تفسير هذه الآية عند ابن عطية.
(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٦٩ - ٧٠.

محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى

أقام رسول الله ﷺ، الدولة الإسلامية الأولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة، ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أي عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة، وكان قائدها رسول الله ﷺ، المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه الخير والسعادة وإنقاذه من الجهالة والظلم والظلمات. ولهذا ـ وغيره كثير ـ فإن على دعاة الإسلام اليوم أن يوضّحوا للناس معالم هذه الدولة وأن يدعوا إلى القيام بدولة مثلها، وهي التي لا يستطيع إنسان مهما أوتي من شجاعة وجرأة وعلم ونفاذ بصيرة أن يضع أقل نقدٍ فيها، أو أن تكون له ملاحظات عليها، إلا من طمس الله على قلبه وبصيرته، وهذا لا نعيره اهتماماً، لأننا إنما ندعو المسلمين وإليهم نتوجه في هذا الأمر، وعلى هؤلاء الدعاة أن يأخذوا المفاهيم التي كانت تسود مجتمع المدينة آنذاك، ويدعوا إليها بتدبر وحكمة ويقظة وبصيرة حتى تعم المجتمع الذي نعيش فيه، وتكون مجال بحث ودراسة، حتى إذا تم ذلك الخير، وأضحى الأمل قريباً، وفي أخذ هذه المفاهيم رد على سواها لما فيها من قوة وبيان.

بنى رسول الله ﷺ، المسجد النبوي لتظهر شعائر الإسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطي مظهر المجتمع في عقيدته، كما كان هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمنتدى الذي تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي باعدت بينها النزعات الجاهلية،

وتأخذ المفاهيم الإسلامية الواحدة، وتستقي الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز (تجمع) المسلمين، وكان القائد ﷺ، يلقي المحاضرات المنتظمة في كل أسبوع في خطبة الجمعة، ثم محاضرات إضافية كلما دعت إليها الحاجة خلال الأسبوع يوضح فيها الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء. ومن هذا المنطلق يجب أن تكون اليوم جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف كلما وجد، وتبقى على تنظيمها ولو صار المجتمع إسلامياً، ولو غدا الحكم بيدها، خوفاً من الانحراف، إذ أنها هي صمام الأمان، وقد كان رسول الله ﷺ، يعد رأس التنظيم، وأصحابه رضوان الله عليهم أعضاؤه وحفظة الخط الذي يوجههم إليه قائدهم، وبانتهاء جيل الصحابة بدأت زاوية الانحراف بالانفراج وإن كانت على قدر بسيط إلا أنه بدأ يزداد مع الزمن، فالجماعة هي التي تحافظ على سير الدعوة، وتحول دون الانحراف. وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم إلا أنه موجود من حيث الفكرة وطريقة التطبيق، إذ تلقى الجميع من مدرسة واحدة ومن معلم واحد، تلقياً ليس بالسماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد والاستقاء من منهل واحد لتتوحد الأفكار، وتكون المشارب مشرباً واحداً، فإنه عندما كثرت المدارس وتعددت المناهل زاد الانفراج في زاوية الانحراف ثم بدأ الاختلاف.

أعلن رسول الله في دولته أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، فالأمة جماعة من الناس تعيش بعقيدة واحدة، بغض النظر عن انتماء أبنائها لمجموعات من الأجناس أو الشعوب أو العروق، وبغض النظر عن اللغة التي يتكلمها أفرادها واختلافها، وبغض النظر عن كل شيء سوى العقيدة.

أقام رسول الله ﷺ الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام رأس هذه الحكومة، يطبق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه رضوان الله عليهم مستشارين ووزراء له. كما كان، عليه الصلاة والسلام، قائد الجيش، فإذا سار إلى حرب ولّى مكانه أحد أصحابه على المدينة، وإذا

مكث عيّن أحد صحابته على الجيش، هذه الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ من رئاسة للدولة، وقيادة للجيش، وتعيين مقر عام لتلقي الأفكار والتعاليم لمبدأ الإسلام، وإلقاء المحاضرات لتلك الغاية، وتحديد الروابط التي تجمع بين الناس، هي تعريف خاص للأمة المسلمة من دون الأمم، وتنظيم وإعداد لهذه الأمة إعداداً خاصاً، وإيجاد مفاهيم خاصة بها، والاعتماد على مستشارين يرجع إليهم في الملمات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصلات مع غير المسلمين، كل هذه من الأمور السياسية الأساسية التي يجب أن يقوم بها أولو الأمر، وكان رسول الله ﷺ يجمع إلى جانب هذه الأمور النواحي الدينية، فهو رسول الله إلى الناس كافة، ولما كان أسوة حسنة، وقائداً لكل حاكم، ورائداً لكل صاحب سلطة، فهذه الأمور كلها من اختصاص الحكام، بل لا يحق لحاكم ترك جانب منها، فالدين يشمل جميع جوانب الحياة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية، بل تقع كلها ضمن إطار الدين، وتحت عنوانه، وما دام الحاكم يمارس الإشراف على الحياة لرعاياه فهو يشرف على هذه الجوانب كلها. ولم يكن رسول الله ﷺ ليقصر في ناحية على حساب أخرى، ولا يهمل جانباً لتقوية آخر. وكذا كان اختصاص كل خليفة جاء من بعده، ولم يخطر في خلد أحدهم أن هناك نواحي يجب أن يمارسها وأخرى عليه أن يهملها ليمارسها غيره، كما لم يحاول أحد من المسلمين أن يفصل الأمور السياسية عن الدين، أو أن ينتقد الحكام المسلمين بأنهم يمارسون السياسة والدين، واستمر هذا الأمر بشكل طبيعي حتى سيطر الأجانب على بلاد المسلمين بالقوة، وأرادوا الإبقاء على الأوضاع التي مكنتهم من السيطرة لاستمرارهم فيها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة المسلمين العنيفة التي تنبع من دينهم الذي يمنع أتباعه من قبول الخضوع لغير المسلمين، أو للحكام الذين لا يطبقون منهج الله ولو كانوا من المسلمين فوجد الأجانب أن أفضل طريق لهم هو عزل الدين عن الحياة، كما هي الحال في دينهم الذي لا تشريع فيه، وإنما يمارس رجال الدين فيه الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتسيير الأمور الدنيوية، وتكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدينية

داخل كنائسهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخل قصورهم، وعندما يحدث خلاف لا بد من أن يرضخ أحدهما للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية، واعتزل رجال الدين في كنائسهم، ليقوموا ببعض التراتيل والطقوس التي شعر الناس في النهاية أنها لا فائدة منها، وإنما هي أمور ميتة لا تضر ولا تنفع، لا تزيد إيماناً، ولا تدفع بالعقيدة لتلهب الروح وتنطلق بالحياة وتنعشها بالحضارة، وإنما غايتها أن يُحيي منها رجال الدين بعض ما فقدوه في الصراع، وليظهر أنهم يمارسون سلطة ولو داخل جدران أربعة، ولهذا جهد هؤلاء الأجانب على إيجاد فكرة الفصل بين الدين والحياة (الدولة) في بلاد المسلمين، فزعموا أن في هذا الحضارة، وأن التقدمية تستدعي ذلك، وأشاعوا أن للمسلمين الإشراف على الأمور الدينية، ولا علاقة لهم بالسياسة، بينما هم ـ الأجانب ـ يسيّرون أمور الدولة، ولا يتدخلون في جانب الدين ما داموا من غير المسلمين أيضاً، وفي هذا تقسيم الحياة، وقد وافقهم على فكرتهم هذه المغرضون من أصحاب المصالح والهوى، والذين يقبلون الدنية، والذين يريدون إرضاء الحكام بتأييدهم في كل تصرفاتهم، ليتسنى لهم التقرب منهم، والإفادة من ذلك بحكم قربهم في إرواء شهواتهم، والذين يريدون أن يهيئوا أنفسهم أو يهيئهم الحكام الأجانب ليحلوا محلهم إذا رأوا في ذلك مصلحة، بحيث تؤمن مصالحهم، بل ويحافظ عليها الحكام الجدد، ويمارسون الطريقة نفسها التي كان يمارسها الحكام الأجانب في عزل الدين عن الحياة، ويمارسون الضغط على المسلمين الذين يرغبون في تطبيق منهج الله، ويكيلون لهم التهم وشتى أنواع العذاب، بل ربما كان بعضهم ـ مع الأسف ـ من الذين يحملون جانباً من العلم، أو يلبسون زي أهله، في هذا العصر الذي ابتدع فيه لهم زي خاص، بل وربما يعطون الفتاوى في ذلك، ويتصدون لإصدارها، وفي كل عصر لا يعدم الحكام الوسيلة للوصول إلى غايتهم عن طريق هؤلاء فإن في كل مجتمع طلاب مصلحة وزعامة، ومن لا يردعه دينه فإنه يركب كل مركب للوصول إلى هدفه، وسار بعض المسلمين وراء هؤلاء مخدوعين،

أو على بيّنة، حتى عمي على الكثيرين الأمر عندما رأوا أدعياء العلم أمامهم، وظنوا أن السياسة شيء، والدين شيء آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدين عن واقع الحياة. وعلينا بعد هذا أن نعود لرسول الله ﷺ نقتبس من هديه، ونأخذ منه الأسوة الحسنة، ونقتدي بسلوكه وعمله في المدينة عندما كان الحاكم عليها، ليعود إلينا الأمر، ونرد على كل بدعيٍّ.

بعد النصر:

لقد كانت معركة بدر، وكان للمسلمين فيها النصر، وليس نجاح الحق في معركة معناه أن يجني رجالها الراحة إثرها، وإنما التعب، والدخول في معركة جديدة مزدوجة تضم أولئك الذين كانوا ينتظرون نتيجة القتال، ويتمنون الأماني وعند انتصار الحق يعميهم ظهوره فينطلقون يقاتلونه، ويحرضون عليه، كما تضم أولئك الموتورين الذين يطمعون بالثأر، ويرغبون في إطفاء شعلة الإيمان الذي يقف أمام مصالحهم وأهوائهم.

وعندما وصل نبأ القتال إلى المدينة انطلقت الشائعات ضد المسلمين، وتوقع المغرضون ما لم يحدث، وانبثت الأراجيف في كل مكان على لسان اليهود والمنافقين، وعندما وصل خبر نتيجة المعركة، بدأ السخر والتهكم من حملته، وقالوا: هذا زيد بن حارثة قد رجع على ناقة محمد ﷺ، ووصل رسول الله فخرست بعض الألسن عن هذا، ولكن استمرت ألسن أخرى تتحدث عن هزيمة المسلمين ووصول فلولهم الواحد إثر الآخر، ولكنهم شُدهوا عندما وصل الجيش يسوق سادة قريش أسارى مكبلين، وانقدحت نار الحقد فجأة.

اليهود أدركوا نتيجتهم لما يعلمون ما في نفوسهم من ضغائن وحقد، فأظهروا ما في نفوسهم من كره للمسلمين، وبدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار قدمت بحلي لها لتبيعه في سوق بني قينقاع، ولما جلست إلى صائغ هناك، اجتمع حولها عدد من اليهود يتحرشون بها، ويجرحون شعورها، وأرادوا أن

تكشف وجهها رغبة في إضعاف الإيمان من النفوس بترك جزء بعد جزء تهاوناً في شأنه واستصغاراً له، ولكنها رفضت، فعقد أحد هؤلاء اليهود طرف ثوبها إلى ظهرها على حين غفلة منها، فلما قامت انكشف جزء من عورتها، فبدأ اليهود يضحكون ويسخرون، ويقولون ترفض كشف الوجه ولكنها تكشف العورة، فاستغاثت، فإذا بأحد المسلمين، وكان حاضراً في السوق، يثب على اليهودي ويقتله، فحمل اليهود على المسلم فاغتالوه وهكذا اندلعت شرارة الحرب بين المسلمين ويهود بني قينقاع. وسار رسول الله مع بعض أصحابه إلى سوق بني قينقاع، فجمع تلك الفئة من اليهود، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا من الله عزّ وجلّ مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله إليكم». قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا عِلم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة؛ إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[1] فلما فرغ جبريل عليه السلام من هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف من بني قينقاع». وسار إليهم في شهر شوال من السنة الثانية أي بعد معركة بدر بأقل من شهر، وكانوا قد اعتصموا في حصونهم، فحاصرهم مدة خمس عشرة ليلة، ثم فكّ الحصار عنهم بعد إلحاح رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، وقد كانوا حلفاء الخزرج، ثم أمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن نزلوا على حكمه. بإجلاء الذراري وغنيمة السلاح والعتاد، ولم تكن لهم أراضٍ، وإنما كان عملهم الصياغة. وكانوا أشجع يهود المدينة، ولم يجرؤ بقية اليهود على مساندتهم خوفاً من المسلمين، على الرغم من كرههم الشديد للمسلمين وحقدهم الدفين. وكان الذي قاد حصارهم أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، والذي ساقهم خارج المدينة عبادة بن الصامت، وقد انتقلوا إلى أذرعات (درعا) من بلاد الشام، ولم يستدر عليهم العام حتى

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

هلكوا. وكذلك فإن كعب بن الأشرف أحد زعماء بني النضير حيث كانت أمه منهم، قد آلمه انتصار المسلمين في بدر، فقال: بطن الأرض خير من ظهرها، وكان أحد الأغنياء المعروفين، وعرف أنه من كبار المرابين، ولم يتعظ بما أصاب بني قينقاع، ولم يحسب حساباً للمعاهدة التي بين المسلمين ويهود والتي تنص على عدم مظاهرة قريش أو تأييدها بل نكث بالعهد، وخرج من المدينة يحرض قبائل العرب على رسول الله ﷺ ويدعوهم إلى حربه، حتى وصل إلى مكة، فشجع قريشاً على قتال المسلمين وأثار حقدها، ووعد بدعمها، وأجاب أبا سفيان في مكة بأن قريشاً أكثر هداية من المسلمين فأنزل الله في حقه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[1].

ورجع من رحلته، فأقام بالمدينة يحرض على قتال المسلمين، ويتغزل بنسائهم، ويذكر أسماءهن صراحة، الأمر الذي آذى المسلمين أشد الإيذاء، وبهذا لم تعد له ذمة ولم يبق له عهد، والتف حوله جماعة من اليهود أغراهم بماله ليمالئوه، ويظهروا حقيقة ما في نفوسهم، وأصبح خطراً على المسلمين، يخشى بأسه، ويجب القضاء عليه قبل أن يشتد ساعده، فأرسل له رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري مع جماعة من الأنصار قاموا بقتله خارج حصنه المنيع في ضواحي المدينة بعد أن استدرجوه منه. وبعد هذا القتل لجأ اليهود إلى السكوت، وخافوا من أن يقوموا بأية حادثة، وأظهروا أنهم على عهودهم ومواثيقهم.

أما المنافقون فقد أجمعوا كيدهم، وأعلن رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه، ودعا جنده لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم وهم على علم بما يبطنون من حقد، وبما تخفي نفوسهم

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

من شر، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تتهيأ لهم الفرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً وعملوا بجانب اليهود، فلما نزل يهود بني قينقاع على حكم رسول الله، قام إليه عبد الله بن أبي بن سلول فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر عبد الله بن أبي طلبه، فأعرض عنه رسول الله، فأدخل ابن أبي يده في جيب درع رسول الله، فتغير لون النبي، عليه الصلاة والسلام، وقال له: «أرسلني»، وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم أعاد رسول الله، وهو مغضب: «أرسلني ويحك» فقال ابن أبي: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر فقال رسول الله: «هم لك».

هذا ما كان داخل المدينة من يهود والمنافقين. أما خارجها فالأعراب في المدينة وما حولها ساءهم انتصار المسلمين في بدر، لأن هذا الانتصار معناه سيطرة القانون الإسلامي الذي سيحول بينهم وبين السلب والنهب الذي اعتادوا عليه، أو قانون الغاب الذي يطبقونه على أنفسهم، ولم يكن أثر انتصار المسلمين على هؤلاء الأعراب يحمل وجهة نظر سياسية أو عقيدية، وإنما فقط خوفاً من أن يحرموا ما اعتادوا عليه. وقد بدأت بعض القبائل تتجمع بعضها مع بعض، وتشكل أحلافاً تريد غزو المدينة، وإظهار قوتها، بعد هزيمة قريش سيدة العرب، ولسلب أموال المدينة التي غدت غنية بعد انتصارها، وغدت محط أنظار القبائل التي اعتادت أعمال الإغارة.

غزوة بني سُليم:

بلغ رسول الله ﷺ أن قبائل غطفان وسُليم قد كونت حلفاً فيما بينها تريد غزو المدينة، وقد أخذت في الاستعداد لذلك، فرأى أن يداهمها في عقر دارها قبل أن يشتد ساعدها فسار إليها بمائتي راكب، وباغتها في مكان تحشدها في (قرقرة الكدر) على الطريق التجارية الشرقية بين مكة والشام،

ففر الأعداء بعد أن علموا بالهجوم المفاجئ، وتركوا في الوادي خمسمائة بعير، فغنمها رسول الله فأعطى أربعة أخماسها لجنوده، فكان لكل رجل منهم بعيران، وبقي في أرضهم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة، ولما ينقض شهر شوال من السنة الثانية، وما كان هذا البقاء إلا لإظهار قوة المسلمين.

غزوة ذي أمر:

واحتشدت جموع من بني ثعلبة، وهم فرع من غطفان، وجموع من بني محارب، في (ذي أمر) يريدون الإغارة على المدينة، فسار إليهم رسول الله ﷺ، على رأس حملة قوامها أربعمائة وخمسون مقاتلاً بين راكب وراجل، وخلف على المدينة عثمان بن عفان، ولما علم الأعداء بمسير المسلمين إليهم فروا إلى رؤوس الجبال، ووصل المسلمون إلى مكان تجمعهم في ذي أمر، ولم يجدوا أحداً، فمكثوا مدة ليرهبوا الأعداء، ولتسمع الأعراب بقوتهم فيخافوهم فلا تحدثهم أنفسهم بغزو المدينة. وهطلت الأمطار على تلك الديار، فابتلت ثياب رسول الله، فانزوى جانباً يجففها على شجرة، واضطجع ينتظر جفافها، وكان جنده مشغولين، كل بأعماله الخاصة، ويظهر أن الأعداء كانوا يرقبونهم من بعض التلال، فلما رأى ذلك قائد جيش العدو (دعثور بن الحارث الغطفاني)، تسلل بين صفوف المسلمين، على غفلة منهم، ووصل إلى رسول الله، فرآه مضطجعاً، فوقف على رأسه، شاهراً سيفه يريد الفتك به، والنبي ﷺ أعزل ليس في يده سلاح، فقال دعثور للنبي ﷺ: من يمنعك مني الآن؟ فقال له رسول الله: «الله»، وبينما هما كذلك، إذ وقع دعثور على ظهره، وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، ووقف على رأس دعثور، فقال له: «من يمنعك مني الآن؟» فقال دعثور: لا أحد، ثم أعلن إسلامه، فأعاد له رسول الله سيفه، وتوجه دعثور إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما حدث معه، وأن الذي أوقعه على الأرض رجل طويل دفعه في صدره، ولا شك أنه ملك. . . وعاد المسلمون إلى المدينة يحملون الروح المعنوية العالية.

غزوة بحران:

وبلغ رسول الله ﷺ أن بني سُليم عادوا لحشد قوات لغزو المدينة، فأسرع إليهم بقوة قوامها ثلاثمائة مقاتل، فلما بلغهم ذلك تفرقوا في الجبال، فبقي في ديارهم شهرين تخويفاً لهم، وإرهاباً لبقية الأعراب.

وأما أولئك الموتورون من قريش فقد بدأوا بالاستعداد للأخذ بالثأر، والتخلص من الإسلام ورسوله مباشرة، ورأى بعضهم أن أقرب طريق إلى ذلك إنما هو التخلص من محمد ﷺ وذلك قبل البدء بالمعركة. فقد كان عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين آذوا رسول الله والمسلمين أشد إيذاء. وقد وقع ابنه وهب بن عمير في أسر المسلمين يوم بدر، فجلس يوماً في الحجر يتحدث مع صفوان بن أمية الذي قُتل أبوه وأخوه في بدر، فقال عمير: أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم (أي له في ذهابه إلى المدينة حيلة هي فكاك أسر ابنه) فاغتنم ذلك صفوان، فقال له: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم، فقال عمير: فاكتم شأني، فقال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسمّ، ثم سار حتى أتى المدينة، فرآه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: «فأدخله عليّ»، فأقبل عمر إلى عمير، وأخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل على رسول الله، ومن معه، فلما رآهم رسول الله، قال لعمر: «أرسله يا عمر، ادن يا عمير»، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً.

فقال رسول الله: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام: تحية أهل الجنة».

قال عمير: أما والله يا محمد، إن كنت بها لحديث عهد.

قال رسول الله: «فما جاء بك يا عمير؟»

قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال رسول الله: «فما بال السيف في عنقك؟»

قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟.

قال رسول الله: «اصدقني، ما الذي جئت له؟».

قال عمير: ما جئت إلا لذلك.

قال رسول الله: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي، وعيال عندي، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق. قال رسول الله: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره». ففعلوا.

قال عمير بعد أن عزم على السفر والعودة إلى مكة: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان دين على الله عزّ وجلّ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ. فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألاً يكلمه أبداً، ولا ينفعه أبداً.

غزوة السويق:

لقد تأثر أبو سفيان كثيراً لغزوة بدر، وخاصة أنه لم يحضرها، وقد قتل ابنه حنظلة، وأسر ابنه الثاني عمرو، فأقسم ألا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمداً في المدينة، فخرج في مائتي راكب من قريش، وسار بهم حتى اقترب من المدينة، فانتظر حتى أقبل الليل، فدخلها تحت جنح الظلام خائفاً يترقب، وقد اتجه إلى حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير من اليهود، فرفض استقباله، فسار إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير، فاستقبله وأكرمه، وأخذ منه أخباراً عن المسلمين، ثم عاد في ليلته إلى أصحابه وهم ينتظرونه خارج المدينة، وبعث رجالاً من قريش ليفسدوا في الأرض، فحرقوا بعض النخل فيها، ووجدوا رجلاً من الأنصار فقتلوه، وولوا هاربين، وانطلقوا مع جمعهم نحو مكة لا يولون على شيء، وقد تخففوا من كل شيء حتى من أزوادهم، وكان أكثرها من السويق، وهو من الحنطة المحمصة المطحونة، وبعضها ممزوج بالعسل والسمن، أو مجبولة بالماء، ووصل الخبر إلى رسول الله فتبعهم مسرعاً بمائتي مقاتل، وترك على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر، ولكنهم فاتوه، وغنم المسلمون كميات من الزاد، من السويق، الأمر الذي جعل الغزوة تعرف بذلك، وكانت هذه الغزوة في أوائل ذي الحجة من العام الثاني للهجرة.

سرية زيد بن حارثة:

خافت قريش من إرسال قوافلها إلى الشام عن طريق الغرب بعد الذي كان في بدر، الأمر الذي جعلها تلجأ إلى الطريق الشرقية عن طريق نجد، وأرسلت قافلة كبيرة فيها أبو سفيان بن حرب، ومعه كميات من الفضة، وفيها صفوان بن أمية وغيرهما من وجهاء قريش، وكان دليلها فرات بن حيان، وعلم رسول الله بهذه القافلة فأرسل لها سرية بإمرة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء (القردة) من مياه نجد، وما إن وجدوا سرية الرسول الله ﷺ، حتى هرب رجال القافلة وتركوا عيرهم غنيمة للمسلمين، فأخذها زيد، وسار بها إلى المدينة، فخمسها رسول الله.

غـــزوة أُحُـــد :

بعد معركة بدر والمعارك الأخرى التي سبقتها، والتي تلتها، والتي كان النصر فيها كلها للمسلمين ظن بعضهم أن النصر سيكون حليفهم كيفما فعلوا ما داموا على دين الله، وغيرهم كفاراً، وسواء استعدوا أم لم يستعدوا، وأخذوا بالأسباب أم لم يأخذوا، فإن الله ناصرهم ومؤيدهم بدعم من عنده، وخاصة أنهم رأوا الملائكة في بدر بجانبهم، تثبتهم وتطمئن نفوسهم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يعلمهم درساً من أن النصر لا يكون إلا بأخذ الأسباب والاستعداد للقتال، والله بعدئذ يؤيد بنصره من يشاء، ولم يكن الدرس بآيات قرآنية تتنزل على رسوله يتلوها عليهم، ولم تكن توجيهاً، وإنما كانت درساً عملياً قاسياً، ذاقوا مرارته فقد خلفوا في ساحة المعركة شهداء كراماً منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسد رسوله، وعبد الله بن جحش ابن عمة رسول الله، وسعد بن الربيع أحد وجهاء الأنصار، ومصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وعمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، وخمسة وستون آخرون، كما جرح أكثر من مائة وخمسين، وفوق كل هذا وأصعب من كل هذا فقد جرح رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته الشريفة، ووقع في الحفرة، وكان من نتائج هذا كله هزة في النفوس، وصدمة لم تكن متوقعة بعد النصر العجيب في بدر حتى لقد قال المسلمون حين أصابهم ما أصابهم: «أنى هذا؟» وكيف تجري الأمور معنا هكذا، ونحن المسلمون؟.

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغزاها، تكشف لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة

وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ دون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول[1].

وفي معركة بدر ومن خلال المعارك التي سبقتها والتي تلتها تبين أن أمر المسلمين قد توجه كما قاله كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فمن لم يكن قد آمن أظهر الإيمان، ومن لم يكن قد أسلم أظهر الإسلام، ومنهم عبد الله بن أبي الذي كان يطمع أن يكون ملكاً على المدينة بعد يوم بُعاث ذلك اليوم الذي ذهب فيه أكثر زعماء الحيين من الأوس والخزرج سكان المدينة وبقي ابن أبي، وقد كانوا يعدون له التاج، فلما جاء الإسلام، وهاجر رسول الله ﷺ، لم يعد يلتفت إليه أحد لأنه لم يسلم، فضاع مع من ضاع، أسلم قومه، وتوانى هو، فاعتقد أن رسول الله قد سلبه ملكه، وأضاعه عليه، فحقد عليه، وعلى الإسلام، وعلى قومه الذين أسلموا، وعلى حد زعمه الذين نصروا محمداً فأعطوه هذا المركز، وبوؤوه هذا المنصب، فلما وجد أن أمر الإسلام قد قوي، وانتصر المسلمون في كل ميدان، وفي كل ساحة التقوا فيها مع أعدائهم، لم يعدَّ هذا تأييداً من الله ودعماً، بل عدَّه قوة وشجاعة، فأظهر الإسلام، وطلب من أنصاره أن يظهروا ذلك، وهكذا اختلط أمر المنافقين بين المسلمين، وقد كانوا يظهرون الورع فيسرعون إلى الصلاة في الصف الأول، وإن كانوا لا يتركون فرصة تناسبهم إلا ويعملون فيها ضد المسلمين ونبيهم، عليه الصلاة والسلام، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أطلع رسوله عليهم، وعلى أعمالهم، إلا أن حكمته جلّ شأنه قد اقتضت أن يضع أعمال المنافقين والذين في قلوبهم مرض أمام الملأ جلية مكشوفة في العراء، وأن يكرم المؤمنين والذين لم ترتب قلوبهم بإحدى الحسنيين فإما الثبات وزيادة الإيمان والنصر على أنفسهم وعلى أعدائهم، وإما الشهادة في سبيل الله متخذاً منهم شهداء يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب. الجزء الرابع ص٧٨.

عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[1]. فكانت حكمة الله تقضي بتنقية الصف صف المسلمين من الذين دخلوا معهم من المنافقين، وصاروا جزءاً منهم حسب الظاهر، وتنقية الصف تكون بعزل المنافقين عن الصف الإسلامي لترتفع الجماعة الإسلامية الصافية الخالية من كل شائبة إلى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها.

هذه إرادة الله - والله أعلم - وتتحقق على أيدي خلقه من الفريقين. فلننظر إلى الدوافع ومجريات الأحداث في المعركة التي جعلت كل فريق يقوم بأعمال معينة تؤدي في النتيجة إلى ما أراده الله جلّ شأنه، وتكون الحكمة الربانية في تمييز الشخصية المسلمة وإقامة الحجة على شخصية النفاق، وإنزال العقوبة على شخصية الكفر.

وعندما هزمت قريش في معركة بدر، ولحقها من الخزي والعار ما لحقها قررت الأخذ بالثأر والقضاء على المسلمين، وغزوهم في عقر دارهم وذلك لإعادة هيبتها واستعادة مركزها بين قبائل العرب، وزادها تصميماً على ذلك غنيمة المسلمين للعير التي سلكت الطريق الشرقية بعد أن قطعت الأمل بالطريق الغربية السهلة القريبة من المدينة، وبهذا توقفت تجارة قريش إلى الشام تماماً إذا لم تقم بعمل حاسم، وهذا ينطبق على ما قاله صفوان بن أمية عندما قرروا التحول إلى الطريق الشرقية: «إن محمداً وصحبه عوّروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معه؟ فما ندري أين نسلك؟

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٣٧ - ١٤٣.

وإن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء».
ولكن ذلك لم يفدهم شيئاً إذ وقعت قافلتهم، وهو فيها، وقد فرّ من وجه زيد بن حارثة، وذلك عندما انتقلوا إلى الطريق الشرقية ـ كما ذكرنا ـ.

بدأ النشاط للاستعداد لمعركة مقبلة، وكان أكبر المتحمسين لها بنو مخزوم، وخاصة عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي ربيعة إضافة إلى أبي سفيان وصفوان بن أمية، فقد حرضوا قريشاً ومن جاورها من ثقيف وكنانة. واجتمعت قريش في دار الندوة، وقرر المجتمعون بالإجماع أن يكون تجهيز الجيش المرتقب إرساله إلى المدينة من أموال قافلة أبي سفيان التي نجت من قبضة المسلمين قبيل غزوة بدر، لذا فقد احتجزت تلك الأموال في دار الندوة، ولم يدفع لأصحابها شيء منها. وانطلقت قريش تحرض القبائل الأخرى، خاصة كنانة، وقد نجحت في مسعاها إذ تطوع عدد من أفراد هذه القبيلة للقتال وتكامل الجيش، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل، ألفان وتسعمائة من قريش والأحابيش من بني المصطلق وبني الهون، ومائة من كنانة، ومع الجيش ثلاثة آلاف بعير أي أنهم جميعاً من الركبان، ومع الجيش أيضاً مائتا فرس، لم يمتطوها حتى وصلوا إلى أحد، إضافة إلى ٧٠٠ درع، وقد أخرجوا معهم النساء تشجيعاً لهم، وظناً منهم أن ذلك أدعى للثبات، وكان قائد الجيش أبو سفيان بن حرب، وحامل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري، وقائد سلاح الفرسان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وخرج مع الجيش أبو عزة الجمحي وقد حرضه على ذلك صفوان بن أمية، وكان قد وقع أسيراً في بدر، ومنّ عليه رسول الله ﷺ، يومذاك، كما خرج أبو عامر الراهب الأوسي الذي فارق المدينة كرهاً لرسول الله ﷺ، وخرجت مع قريش القيان يعزفن على الدفوف. وكانت النقمة أكبر ما تكون على حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله لما أبلاه في بدر من البلاء الحسن، لذا دعا جبير بن مطعم بن عدي غلاماً حبشياً يدعى وحشي، وكان يرمي بالحربة، وقلما يخطئ بها، وطلب منه أن يضرب حمزة، وأنه حر إن قتله.

انطلق جيش مكة إلى عسفان ومنها إلى خُليص، الجحفة، رابغ، الأبواء، المدينة... واقترحت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قائد الجيش العام، أن تنبش قريش قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، الموجود في الأبواء حيث دفنت هناك أثناء زيارة لها للمدينة، ومعها رسول الله، وكان في السادسة من عمره، إلا أن هذا الاقتراح قد رفض.

وصل إلى رسول الله ﷺ، خبر مسيرة قريش، إلى المدينة عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج هذه المرة مع قريش معتذراً بما أصابه في بدر، وقد قرأ رسالة العباس لرسول الله أبي بن كعب، وكتم الخبر عن سكان المدينة على الرغم من استعدادها... وبعد التأكد استُنفر المسلمون، وكانوا على حذر، فلم يتركوا سلاحهم حتى أثناء صلواتهم، كما نشطت دوريات المدينة الاستطلاعية، وجاءت بخبر قدوم جيش مكة عن طريق وادي العقيق حتى إذا وصل إلى (ذو الحليفة) تحرك نحو اليسار في غربي الحرة الغربية ثم استقر في السبخة من وادي قناة الواقع شمالي المدينة بالقرب من جبل الرماة.

ورأى رسول الله ﷺ في المنام رؤيا تشير إلى حصول أشياء كثيرة، قال: رأيت بقراً لي تذبح؟ ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولها بقوله: أما البقر فهم أناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم فهو رجل من أهل بيتي يقتل، وأما الدرع فهي المدينة.

مشاورة المسلمين:

استشار رسول الله أصحابه عن المكان الذي سيواجهون فيه قريشاً، وقد كان رأيه أن يبقوا في المدينة، وأن تكون هي وشوارعها ساحة المعركة فقال: «فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها». وكان عبد الله بن أبي رأس المنافقين يحضر هذه المشاورة بصفته أحد زعماء الخزرج، ويرى هذا الرأي

فقال: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط، إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

أما الصحابة الذين فاتتهم بدر، فقد كانوا متحمسين للخروج ولقاء المشركين خارج المدينة، وكذا أغلبية الشباب، وحجتهم في ذلك حتى لا يرموا بالجبن، وكان على رأس الذين يرون الخروج حمزة بن عبد المطلب إذ قال لرسول الله: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة، ومالت الأكثرية إلى هذا الرأي، إذ كانوا يرون أنهم منصورون لا محالة ـ بإذن الله ـ ومن يستشهد في سبيل الله فيا حبذا الجنة، ومن لا يطلبها من المسلمين؟ وهذا الأمر الذي كان يدفعهم لطلب الخروج فهي إحدى الحسنيين: الشهادة لمن يستشهد، والنصر لمن يبقى ليجاهد في المستقبل.

رأى رسول الله ﷺ، أن أكثرية المسلمين ترى الخروج، وعلى خلاف رأيه، فعدل عن رأيه، واستجاب للأغلبية، وأعلن أنه خارج لمقاتلة العدو حيث هو في وادي قناة. وكان يوم جمعة الرابع عشر من شوال، وبعد أن صلى رسول الله ﷺ، الجمعة بالمسلمين، وصلى على جنازة مالك بن عمرو النجاري، دخل بيته، وتسلح فلبس درعاً فوق درع، وخرج على المسلمين، وأذّن فيهم بالخروج إلى العدو. وندم أولئك الذين ألحوا عليه بالخروج حيث شعروا أنهم استكرهوه على ذلك، فأبدوا طاعتهم له، وندمهم على ما ظهر منهم، وأنهم تركوا الأمر لله ولرسوله، وأنهم على استعداد للتنازل عن رأيهم والعودة إلى رأيه، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا».

واجتمع الجيش وتجهز، فقسم رسول الله ﷺ، المقاتلين إلى ثلاثة كتائب:

١ ـ كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها لمصعب بن عمير.

٢ ـ كتيبة الأوس: وتسلم لواءها أسيد بن حضير.

٣ ـ كتيبة الخزرج: وأخذ لواءها الحباب بن المنذر.

وكان عدد الجيش الإسلامي ما يقرب من ألف مقاتل، معهم مائة درع، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرس الزبير بن العوام.

وسأل الأنصار رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ضد هؤلاء الأعداء فقال: «لا نستنصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فالكافر لا يمكن أن يقاتل بإخلاص إذ لا إيمان يدفعه، وهو عدو ظاهر للإسلام، وإنما يقاتل لمصلحة، فإن وجد في قتاله مصلحة في الغنيمة أو في شيء آخر جالد وإلا ترك ساحة المعركة وانصرف، وعندها يكون عامل إضعاف وخذلان، إذ يقع الوهن في صفوف المحاربين الآخرين، بل وربما يتعاون مع أهل الشرك ضد الإسلام، وأثناء احتدام المعركة يقلب ظهر المجن، وينتقل إلى صفوف الأعداء، وعندها تكون الطامة الكبرى كمن يستجير من الرمضاء بالنار، إذن لا يمكن الاستنصار بأهل الكفر أبداً، وخاصة إذا وجد المسلمون في أنفسهم الإمكانية التامة والروح المعنوية العالية والاستعداد لمجابهة الخصوم وهذا ما كان أثناء سير رسول الله ﷺ، لغزوة أحد، أما إذا وجد المسلمون في أنفسهم ضعفاً، وأمنوا أهل الكفر كلياً ـ وهذا لا يمكن ـ، ولم يكونوا في قتال لأهل مكة هؤلاء الكفار بالذات، فيمكن الاستعانة بهم مع بقاء الحذر، والقتال يكون متميزاً كل فريق يقاتل وحده.

استعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم، وانطلق بالجيش نحو العدو، وفي الطريق استعرض الجند فأجاز من أجاز، وأعاد من أعاد إلى المدينة إذ رأى في بعضهم سناً صغيراً لا تؤهلهم لخوض معركة قاسية تحتاج إلى صلابة في العود، ومراس على الصبر، وصبر على الشدة

وتحمل المشاق، إلا أن الروح الإيمانية كانت تدفع هؤلاء الشباب لطلب القتال حباً في الشهادة ورغبة في قتال أهل الباطل، فقال رافع بن خديج أحد هؤلاء الذين طلب منهم رسول الله العودة: يا رسول الله إني ماهر في الرمي، وشهد بذلك من يعرفه، فأجازه... وعندها قال سمرة بن جندب، وهو من الذين استصغرهم رسول الله: يا رسول الله، إني أصرع رافعاً، فطلب رسول الله المصارعة، فصرع سمرة رافعاً، فأجاز رسول الله سمرة أيضاً، وأعاد عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعمرو بن حزم.

وبات رسول الله ﷺ، ليلة مع المسلمين بين المدينة وأحد، وصلى هناك المغرب والعشاء. وقام خمسون من المسلمين بحراسة المعسكر ليلاً بإمرة محمد بن مسلمة، على حين تولى حراسة القيادة الخاصة برسول الله ذكوان بن عبد قيس.

وانطلق رسول الله بالجيش قبل الفجر، واقترب من العدو، وأدركته هناك صلاة الفجر، فصلى بالناس وعليهم السلاح، حيث كانوا على رؤية من العدو إذ يرى كل منهم الآخر. وفي هذه الساعة الحرجة انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس عن المسلمين يريد أن تضعف المعنويات، وينزل الوهن، ويحل الضعف، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس! فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فلحق بهم عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري يطلب منهم العودة والانضمام إلى الجيش قائلاً لهم: أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عندما حضر عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال، وأصروا على الانصراف، وعندها قال لهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه. وهذا شأن المنافقين في كل زمان وفي كل ميدان، يسيرون مع من يرونه قوياً، فإذا أحسوا منه ضعفاً تركوه، ويكونون مع الحاكم ما دام يقبض على السلطة بيد قوية فإذا لاحظوا ضعف القبضة تراخوا في مساندته ودعمه، حتى إذا ضعف

تماماً انقلبوا عليه، وتركوه حتى يسقط، فإذا قام عهد جديد انتظروا حتى إذا لمسوا منه قوة ساروا معه، كما فعلوا مع سابقه. وقد لاحظ عبد الله بن أبي والمنافقون معه أن المشركين أكثر عدداً وأكثر عدة ومتاعاً، وهذا عندهم سبيل النصر، فخافوا أولاً على أنفسهم فانخذلوا، وفي الوقت نفسه ظنوا أنه سيكون لهم أياد بيضاء عند المشركين الذين سيكون النصر بجانبهم على هذا الانسحاب الذي جاء في الوقت المناسب، هذا مع ملاحظة الكراهية والحقد الذي في نفوسهم على المسلمين، وربما يكون خذلانهم سبباً في الانتهاء من المسلمين في المدينة على الأقل، وعودة الزعامة لرئيس المنافقين عبد الله بن أبي الذي كان مرشحاً لأن يكون ملكاً على يثرب، وما منع الأمر أن يتم له إلا انتشار الإسلام وهجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب، حيث أصبح سيدها، وحاز على درجة من المحبة من أهلها الذين أسلموا لا يحلم بها أحد. هذا ما أراده المنافقون وكادوا ينجحون إذ همّ بنو حارثة من الأوس، وهمّ بنو سلمة من الخزرج بالانسحاب والعودة إلى المدينة ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1]. ولكن الله أراد غير هذا، أراد أن يميز الخبيث من الطيب، وأن يصفي صفوف المؤمنين من كل شائبة حتى تبقى صفوفاً نقية سليمة مؤمنة، خارجة لله، تقاتل في سبيله، لا تبغي عرضاً من أعراض الدنيا، ولا تختلف أثناء القتال، ولا تفترق ساعة المعركة. وبعد هذا الانشقاق وقع خلاف بين المسلمين حياله، ففريق يرى أنه يجب تأديب هؤلاء المتمردين الذين لا يختلفون كثيراً عن أعدائهم الذين أمامهم، فما انسحابهم إلا مناصرة لهؤلاء الأعداء ودعماً وتقوية، وفريق آخر يرى إهمالهم وترك أمرهم لله، لأن في قتالهم خوفاً على المسلمين من أن يقعوا بين نارين نار المنافقين من جهة، ونار المشركين من جهة ثانية، وربما كان هذا هو هدف المنافقين في انسحابهم، إذ أن عدد المنافقين ليس قليلاً حيث يقدرون بنصف عدد المسلمين، وما إن يرى المشركون المسلمين قد بدأوا بقتال المنافقين حتى

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٢.

يعملوا فيهم السيف. وإذا لم يحدث هذا مع احتماله الكبير، فإن قتال المسلمين للمنافقين يضعفهم بأن يقلل من عددهم، وينهكهم في القتال، وعندها يصبحون لقمة سهلة الابتلاع عند المشركين، وكان رسول الله ﷺ، يرى هذا الرأي الأخير، وما دام المسلمون قد بقوا كتلة واحدة من الإيمان فلم يمكن أن يصدروا عن غير رأي رسولهم الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾(١).

سار رسول الله ﷺ، بأصحابه نحو جبل أحد، وقد سار في طريق يوصلهم إلى الجبل من غير أن يمروا على معسكر قريش الموجود في وادي قناة منذ وصولهم إلى ذلك المكان قبل خروج المسلمين من المدينة، وكان دليلهم في هذه الطريق أبو خيثمة أحد الأنصار من الخزرج، ورغبة رسول الله بالوصول إلى (أحد) كي يحمي ظهره بالجبل، وقطع المسلمون وادي قناة حتى إذا وصل إلى فم الشعب من جبل أحد عسكر هناك في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره إلى الجبل، وكان قد بقي عدد المسلمين سبعمائة مقاتل يقابلهم ثلاثة آلاف من قريش وأحلافها.

بدأ رسول الله ﷺ، في تعبئة الجيش للقتال، فاختار من عسكره خمسين مقاتلاً، وضعهم على جبل الرماة بإمرة عبد الله بن جبير، وأمرهم بأن ينضحوا المشركين بالنبل، وألا يغادروا أمكنتهم مهما كانت النتائج سواء انتصر المسلمون أم هُزموا، وذلك خشية أن يلتفّ المشركون على المسلمين من وراء الجبل، فإن لدى المشركين قوة من الفرسان بقيادة خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل تسهل عليهم الحركة والالتفاف، فقال مخاطباً عبد الله بن جبير: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك». ثم رتّب باقي الجند صفوفاً وهيأهم للقتال، وقال لهم: «ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٧.

إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده». وجعل في مقدمة صفوف المسلمين: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن جحش، وأبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، ومصعب بن عمير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأبا دجانة، وأنس بن النضر، والزبير بن العوام وهو الفارس الوحيد في صفوف المسلمين، والمقداد بن عمرو[1]. وقد أوكل رسول الله إلى الزبير والمقداد مهمة الصمود أمام خيل قريش التي يقودها خالد وعكرمة.

وأخرج رسول الله ﷺ سيفاً، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال منهم الزبير وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة، فقال: أنا، وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، إذا كانت. فلما أخذ السيف من يد النبي، عليه الصلاة والسلام، أخرج عصابة حمراء، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين.

فقال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

وعندما انتهت تعبئة رسول الله للمسلمين قال لهم: «لا تبدؤوا حتى آمركم».

أما قريش فقد عبأت جيشها على شكل صفوف على غير عادتها وكان على الميمنة خالد بن الوليد، وهو على الخيل، وعلى الميسرة عكرمة بن

---

(١) وفي رواية: أن المقداد بن عمرو، رضي الله عنه، كان فارساً أيضاً.

أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أبو سفيان هو القائد العام للجيش، ويحمل اللواء طلحة بن أبي طلحة العبدري. وقد اتجه أبو سفيان إلى حملة اللواء من بني عبد الدار فحرضهم على القتال قائلاً لهم: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به، وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.

وكانت نسوة قريش خلف الرجال يضربن بالدفوف ويحرضنهم على القتال، ومنهن: هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة، وبرزة بنت مسعود زوج صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد زوج الحارث بن هشام وهي أخت خالد بن الوليد، وريطة بنت منبه بن الحجاج زوج عمرو بن العاص، وخناس بنت مالك أم أبي عزيز بن عمير، وهي أم مصعب بن عمير، وسلافة بنت سعد زوج طلحة بن أبي طلحة، أي أن النسوة كن نساء زعماء قريش.

وكان أبو عامر الفاسق عبد عمرو بن صيفي أحد زعماء الأوس قبل الإسلام، فلما انتشر الإسلام في المدينة شعر هذا الفاسق أن أمره قد ضعف. فذهب مغاضباً إلى قريش مع عدد من أتباعه يحرضهم على قتال المسلمين، ويعدهم أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما كان يوم أحد، ووصلت قريش إلى مكان معسكرها قام هذا الفاسق بحفر بعض الحفر وتغطيتها ليقع فيها أبطال المسلمين. ولما التقى الجمعان كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش، وعبدان أهل مكة، ومن معه من الأوس الذين خرجوا معه مغاضبين قومهم. وعددهم مختلف فيه بين الخمسة عشر والخمسين رجلاً، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية بالراهب، فسماه رسول الله بالفاسق. فلما سمعهم وما قالوا، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ولقد قاتل هذا الفاسق قتالاً شديداً، وكان يرمي المسلمين بالحجارة.

وطلب أبو سفيان قائد جيش قريش من الأنصار التخلي عن محمد فهو دخيل عليهم، وأنه من قريش فهم أولى به، وأن قريشاً لم تأت لتقاتل أهل المدينة، إنما أتت لقتال قومها الذين جاؤوا إلى المدينة دخلاء. إلا أن الأنصار ردوا عليه رداً عنيفاً، وأسمعوه ما أغاظه.

كان جيش مكة بين معسكر المسلمين والمدينة، وفي مكان أدنى من جيش المدينة إذ كان في وسط وادي قناة على حين كان جيش المسلمين على العدوة الشمالية للوادي في السفوح الجنوبية لجبل أحد.

بدأت المعركة بهجوم من قبل ميمنة جيش مكة بقيادة (أبو عامر الفاسق) تساندهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد على ميسرة جيش المسلمين، إلا أن الرماة الذين على الجبل قد نضحوا الخيل بالنبال فتراجعت، وتقهقرت أمام الزبير ومن معه... وتكرر الهجوم مرات ثلاثة على هذا الجانب وما اختلفت النتيجة في المرات الثلاثة، هذا خالد بن الوليد الذي عرف عنه أنه ما تراجع أمام عدو، ولم يتراجع فعلاً أمام باطل ولكنه تقهقر هنا لأنه أمام حق، فالحق أقوى من أن يقف أمامه باطل خالد وغير خالد.

وقام المسلمون بهجوم معاكس، وركزوا هجومهم على حملة اللواء، فاللواء عنوان النصر أو الهزيمة، وطلب حامل لواء قريش طلحة بن أبي طلحة المبارزة فتقدم إليه الزبير بن العوام، وعاجله بطعنة قبل أن ينزل عن جمله، ووثب حتى صار معه على الجمل، ورماه، وبرك فوقه، واحتز رأسه بالسيف. وأخذ لواء المشركين أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة بعد أخيه، فقتله حمزة بن عبد المطلب، فرفع اللواء أخوهما الثالث أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فقتله، فأخذ الراية القرشية مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن الأقلح فقتله، فأخذها أخوه كلاب فقتله الزبير بن العوام، فرفعها الجلاس أخوهما فطعنه طلحة بن عبيد الله فقتله، وتتالى أبناء عبد الدار يرفعون اللواء حتى قتلوا جميعاً وعددهم عشرة أفراد يعدون من أبطال قريش المشهورين، وأخذه بعدهم رجل قاتل أفضل منهم حتى قُتل، وسقط اللواء، وديس بالأقدام، واندفع المسلمون اندفاع رجل واحد، وتسابق حمزة، وأبو دجانة في حصد الأعداء، وهزم

المشركون - بإذن الله - على كثرتهم، إذ كان كل واحد من المسلمين يقابل أكثر من أربعة من المشركين، ومع ذلك فقد ولّت قريش الأدبار، لا تعي على شيء، وبدت المعركة أنها قد انتهت.

وفي هذه الأثناء بينما كان حمزة بن عبد المطلب يحصد في القوم إذ جاءته حربة من وحشي، عبد جبير بن مطعم، وقعت في ثنته(١) وخرجت من بين رجليه، فوقع، ومات، رضي الله عنه. وقد حدث وحشي نفسه بعد إسلامه عن قتل حمزة فقال: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير إن قتلت حمزة عم محمد بعمي، فأنت عتيق، قال فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطئ بها شيئاً، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هداً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له، أريده واستتر منه بشجرة أو حجر، ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إليّ يا ابن مقطعة البظور. قال فضربه ضربة ما أخطأ رأسه. قال: وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته، وأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق(٢).

---

(١) الثنة: ما بين أسفل البطن إلى العانة.

(٢) أعتق وحشي عندما عاد إلى مكة، وأقام بها حتى فتحها رسول الله ﷺ، فهرب إلى الطائف، فمكث بها حتى أسلمت، وتحير إلى أين يذهب، ثم قدم على رسول الله ﷺ بمكة وتشهد أمامه شهادة الحق، وحدثه عن قتله حمزة بناء على طلب رسول الله ﷺ، ثم قال له: «ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك»، فكان يحرص ألا يراه. ولما خرج المسلمون إلى اليمامة لقتال المرتدين، خرج وحشي معهم، وقتل مسيلمة الكذاب بالحربة نفسها التي قتل فيها حمزة، فكان يقول: قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلت شر الناس. وبقي حتى أيام معاوية بن أبي سفيان بحمص، وكان مدمناً على الخمر، وحدّ عليها كثيراً حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي تقول له: ويها أبا دسمة اشف غليلي. وعندما مرت هند على جثة حمزة بقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها. وأعطت وحشياً خذمها وحليها. وعلَت يومذاك على صخرة مشرفة بعد انتهاء المعركة وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة[1] لي من صبر ... ولا أخي[2] وعمه[3] وبكري[4]

شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيت وحشي غليل صدري

فشكر وحشي علي عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري

وقتل من المسلمين في هذه الأثناء مصعب بن عمير، حامل لواء المسلمين، وقد قتله ابن قميئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً، وتسلم لواء المسلمين بعده علي بن أبي طالب.

أما أبو دجانة فقد كان أيضاً يحصد في جيش المشركين، والتقى أثناء عمله هذا ببطل يرتدي لباس الميدان فرفع عليه السيف يريد حصاده، فإذا بها امرأة إذ رفعت صوتها مولولة عندما رأت الموت يدنو منها، فرفع السيف عنها، فإذا بها هند بنت عتبة. يقول أبو دجانة: رأيت يوم أحد إنساناً يحمس الناس حماسة شديدة فصمدت له، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة، وكانت المرأة هند بنت عتبة.

ولما بدت المعركة أنها قد انتهت وولّى المشركون الأدبار، وركب المسلمون ظهورهم يعملون فيهم قتلاً وأسراً وغنيمة، وراية قريش قد ألقيت على الأرض تدوسها الأقدام، عندها رأى بعض أفراد رماة المسلمين الذين

---

(١) عتبة بن ربيعة: أبو هند وقد قتل يوم بدر بالمبارزة، وطعنه عبيدة بن الحارث وعاونه حمزة وعلي بالإجهاز عليه.

(٢) أخوها الوليد بن عتبة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله علي بن أبي طالب.

(٣) عمه: عم أخيها أي شيبة بن ربيعة قتل يوم بدر بالمبارزة، وقتله حمزة بن عبد المطلب.

(٤) بكرها: حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر.

يرابطون في الجبل أن ينزلوا من مكانهم الذي وضعهم فيه رسول الله ﷺ، ليشاركوا إخوانهم في مطاردة أعدائهم، وليجمعوا الغنائم المبعثرة على الأرض، فإن القتال قد انتهى حسبما رأوا، وإن النفس قد بدأت تفكر بالغنيمة. ولكن قائد الرماة عبد الله بن جبير كان يرى غير هذا الرأي، إذ كان يرى أن يبقى في مكانه لا يحيد عنه، وقد وضعه فيه رسول الله، وتعاليم رسول الله يجب أن تنفذ حرفياً، ولهذا أصر على البقاء حتى تأتيه تعاليم رسول الله، وأمام هذا الإصرار تمرد أكثر الرماة على قائدهم، وتركوا مواقعهم، والتحقوا بالجيش يعملون في جمع الغنائم. وبهذا انكشفت مؤخرة المسلمين إذ لم يبق على الجبل سوى عشرة رماة مع قائدهم، واهتبل قائد ميمنة قريش خالد بن الوليد قائد الفرسان هذا النزول، فأسرع بخيله، وارتقى الجبل من الخلف، وقتل من عليه ممن بقي من الرماة بعد أن قاتلوا بضراوة ولكنهم عشرة أمام مائتين من الفرسان فقتلوا كلهم وقائدهم عبد الله بن جبير. وأصبح المسلمون بين نارين، إذ نزل خالد بن الوليد من خلفهم بخيله بعد أن قضى على الرماة، والتفت المشركون ورأوا ما حدث، وقد سمعوا صياح خالد، فانقلبوا وقاموا بهجوم معاكس، وأسرعت إحدى النساء القرشيات من اللواتي كن مع القوم، وهي عمرة الحارثية، فرفعت اللواء، وتنادت قريش، وقد رأت لواءها قد رفع، وعاد المنهزمون، وبدأت المعركة من جديد... وفقد المسلمون تنظيمهم، وعمت بينهم الفوضى، وبدأ بعضهم يقتل بعضاً، وخاصة عندما ارتفع صياح ابن قميئة قتلت محمداً. فرسول الله قائد المعركة وعنوانها، وقتل القائد بداية الهزيمة، وقد قتل اليمان (حسيل بن جابر) والد حذيفة بيد المسلمين، ولم ينتبهوا إلى أنفسهم، حتى قال حذيفة: أبي أبي، فعرفوا أن بعضهم يقتل بعضاً، ولكن اليمان كان قد قتل.

كان المسلمون ساعة التفاف خالد من الخلف على شكل تجمعات. فجماعة صغيرة مع رسول الله ﷺ، لا تفارقه، وتعد هيئة الأركان. وجماعة أخرى صغيرة أيضاً لم تبتعد في مطاردة العدو، والجماعة الثالثة ـ وهي أكثرية الجيش ـ قد استمرت في ملاحقة العدو، واحتلت مقر قيادته،

واستولت على ما فيه، فعندما جاء خالد من الخلف، وقعت هذه الجماعة بين نارين فطوقت، وقتل عدد منها، حتى انهزم بعضها نحو المدينة، وفكر بعضها الآخر في الاستسلام، ولكن شجّع بعضهم بعضاً، ورغبوا في الشهادة، ومن هؤلاء أنس بن النضر إذ قال لهم: مالكم هكذا؟ فقالوا له: قتل رسول الله ﷺ، فقال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. واستقبل المشركين بسيفه، وظل يقاتل، وهو يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (المشركون)، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء (المسلمون)، واستمر في جهاده حتى استشهد، ومنهم ثابت بن الدحداح الذي استشهد مع جماعة من قومه استبسلوا في القتال. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

كان رسول الله ﷺ، يراقب الموقف بشكل جيد، ولما رأى مارأىٰ من هزيمة المسلمين، وانخفاض الروح المعنوية، وجد أنه من الضروري بمكان أن يعلن عن مكان وجوده مع ما في ذلك من مخاطرة على نفسه إذ أنه هو الهدف لا بصفته القائد فحسب وإنما بصفته صاحب الدعوة. فإن هذا الإعلان يؤدي إلى:

١ـ تجمع الناس غير المطوقين حوله، ويستطيع أن يقوم بهم بهجوم معاكس يجعل جماعة خالد محصورة بين نارين.

٢ـ ارتفاع الروح المعنوية عند الناس المطوقين، فيقاتلون بحماسةٍ عندما يعلمون أن نبيهم لا يزال على قيد الحياة، وأن المعركة لا تزال قائمة.

٣ـ اتجاه عدد من المقاتلين المشركين نحو المكان الذي فيه رسول الله ﷺ، حيث هو الهدف الأول من المعركة الأمر الذي يخفف الضغط عن المسلمين المطوقين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

وتترس رسول الله ﷺ، بسفح جبل أحد، وبدأ ينادي بأعلى صوته: «هلموا إلي أنا رسول الله». قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[1] وما أن سمع المسلمون صوت نبيهم حتى اطمأنت نفوسهم، وارتفعت معنويات المقاتلين المطوقين، واستطاعوا شق طريقهم عبر صفوف أعدائهم غير مبالين بما يصيبهم، ووصلوا إلى رسول الله ﷺ، كما تجمع حوله أولئك المبعثرون من المسلمين، والتف الجميع حول قيادتهم من جديد، وكذلك فقد اتجهت جموع المشركين نحو مركز قيادة رسول الله ﷺ، إذ عرفوا مكانه، وأصبح هدفهم القائد والتجمع الجديد. ودارت المعركة مرة أخرى وبشكل أشد عنفاً وأكثر ضراوة، وكان الهدف الرئيسي رسول الله ﷺ، فتترس المسلمون أمامه، وجعلوا حوله سوراً من الأبطال، وقاتلوا دونه، ومن هؤلاء الأبطال سعد بن أبي وقاص الذي دافع بسهامه هو وأبو طلحة زيد بن سهل، وسهل بن حنيف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو دجانة الذي جعل ظهره هدفاً لسهام المشركين من أجل أن يحمي رسول الله ﷺ، وحاطب بن أبي بلتعة الذي انتقم من عتبة بن أبي وقاص عندما ضرب رسول الله ﷺ، بحجر فكسر رباعيته، فقتل حاطب عتبة، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر الصديق، وعبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وقتادة بن النعمان، ونسيبة بنت كعب وغيرهم وقد حمل على رسول الله ﷺ، أحد فرسان المشركين ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير، وقد ضربه بسيفه ضربة قوية ذهبت في درع رسول الله ﷺ، وآذته، وضربه ضربة أخرى فدخلت حلقتان من حلق مغفر رسول الله ﷺ، في وجهه فجرح من أثرها في وجنته الشريفة، وبدأ الدم الشريف يسيل، وشجّه في وجهه عبد الله بن شهاب الزهري، وضربه عتبة بن أبي وقاص بحجر فكسرت رباعيته السفلى، وانشقت شفته، ووقع في حفرة فجرحت ركبتاه، وأغمي عليه، فأخذ بيده علي بن أبي طالب،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

ورفعه طلحة بن عبيد الله. وعندما سال الدم على وجهه الشريف أخذ رسول الله ﷺ يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[١].

لاحظ رسول الله ﷺ قلة جنده، فأراد أن ينقذهم من خطر الإحاطة بهم، فلما اجتمع حوله، انسحب بهم عبر الشعب إلى الجبل الذي ما اختار رسول الله ﷺ، مكان المعركة إلا ليستفيد منه في مثل هذه الساعة، وكان الانسحاب منظماً بحيث تنسحب جماعة جمعهم تحت حماية مجموعة مقاتلة، وهجم أحد المشركين وهو أبي بن خلف الجمحي على رسول الله ﷺ، فوقف له النبي ﷺ، وقذفه بحربة قبل أن يصل إليه فأرداه قتيلاً، وهو الرجل الوحيد الذي قتله رسول الله ﷺ، بيده الكريمة، وارتقى المسلمون هضبة عالية في جبل أحد فتحصنوا بها، وصدوا جميع المحاولات التي قام بها المشركون للقضاء على رسول الله ﷺ، والمسلمين الذين معه، لأنهم كانوا في مكان حصين يستطيعون منه بالنبال صد أي هجوم. وصعد رسول الله ﷺ، على صخرة ليشرف منها على تحرك المشركين، ولكنه لم يستطع الارتقاء إلا على ظهر طلحة بن عبيد الله لما أصابه من إعياء وتعب، وطلب الماء، فأتاه علي بن أبي طالب ببعض الماء فغسل به وجهه لأنه لم يكن صالحاً، ثم جاءه محمد بن مسلمة بماء عذب فشرب منه، وصلى قاعداً للسبب نفسه.

ثم قام المشركون بآخر هجوم بقيادة أبي سفيان وخالد بن الوليد إلا أن رماة المسلمين وخاصة سعد بن أبي وقاص قد ردوهم على أعقابهم خاسرين، وقاد الدفاع عمر بن الخطاب. ولما فشل هذا الهجوم القرشي يئس المشركون من أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وكان التعب قد أضناهم، والإعياء قد أنهكهم، لما وجدوه من ضراوة قتال الصحابة وشدة بأسهم عليهم وبصورة خاصة في بدء المعركة عندما كانت الجولة للمسلمين. ولهذا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٨.

قرر أبو سفيان ـ القائد العام لجيش قريش ـ إنهاء القتال.

أمر أبو سفيان الجند بالتهيؤ للرحيل، ولما تم ذلك، ارتقى على تلةٍ قريبة من المسلمين وقال: أنعمت فعال. ثم خاطب المسلمين قائلاً: الحرب سجال، يوم بيوم، يوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسر. ثم قال: اعلُ هبل. فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب قائلاً: «قم يا عمر فأجبه» فقال: الله أعلى وأجل، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: العزى لنا ولا عزى لكم، فأجابه المسلمون حسب أوامر رسول الله ﷺ: الله مولانا ولا مولى لكم.

ثم قال منادياً المسلمين بأعلى صوته: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. ثم نادى: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوا.

ثم نادى: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة. ولما يجبه أحد، التفت إلى جيش قريش، وقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، أي قتلوا. ولكن عمر بن الخطاب لم يملك نفسه من أن يجيب عندما سمع أبا سفيان وقوله لجنده، فأجابه: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك. فلما سمع أبو سفيان صوت عمر، طلب مقابلته، فقال: هلم إلي يا عمر. فأمر رسول الله ﷺ، عمر أن يستجيب ويلبي... فلما التقيا، قال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر.

ثم وقف أبو سفيان مرة أخرى على التلة وخاطب المسلمين قائلاً: إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت.

ولما انصرفت قريش نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام القابل؛ فقال رسول الله ﷺ، لرجل من أصحابه: «قل لهم: هو بيننا وبينكم موعد».

وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: «اخرج في آثار

القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنهم». ولما خرج علي في أثرهم وجد أنهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل واتجهوا نحو مكة.

وبعد أن انصرفت قريش التفت المسلمون يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقال محمد بن مسلمة: أنا أنظر لك يا رسول الله، ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ، أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ، عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم ﷺ، وفيكم عين تطرف، ولم يلبث أن فارق سعد الحياة، ولم يغادره بعد محمد بن مسلمة.

وقد بلغ عدد خسائر المسلمين في معركة أحد ما يقرب من سبعين شهيداً أي عشر عدد المقاتلين، منهم أربعة فقط من المهاجرين، وهم: حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان المخزومي. أما عدد شهداء الأنصار فكان خمسة وستون شهيداً منهم أربعة وعشرون من الأوس، وواحد وأربعون من الخزرج، ومن أشهر شهداء الأوس، عمرو بن معاذ أخو سعد بن معاذ سيد الأوس، وحنظلة بن أبي عامر الذي كان أبوه أبو عامر الفاسق مع قريش، وقد كان حنظلة، رضي الله عنه، عروساً يوم الاستعداد للخروج إلى أحد فلما سمع صيحة الجهاد ترك عروسه، وحمل سلاحه، وخرج بسرعة، والتحق برسول الله ﷺ، ولم يغتسل من الجنابة، فلما استشهد، قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه؟» فقالت زوجه جميلة بنت أبي بن سلول: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، لذا

شُهر باسم (غسيل الملائكة). وقد التقى حنظلة هذا في ساحة المعركة أثناء احتدامها بأبي سفيان، قائد جيش المشركين، فعقر حنظلة فرس أبي سفيان فوقع أبو سفيان على الأرض فعلاه حنظلة، وبرك على صدره، وأراد أن يذبحه فلاحظ أحد مرافقي أبي سفيان هذا المنظر، وهو شداد بن الأسود المعروف بابن الشعوب، فأسرع لإنقاذ قائده، وضرب حنظلة بالسيف فقتله وهو فوق أبي سفيان، ومنهم عبد الله بن جبير أمير جماعة الرماة، ومن أشهر شهداء الخزرج: سعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وعمرو بن الجموح، وعبد لله بن عمرو بن حرام، أما عدد الجرحى فكان يزيد على المائة والخمسين جريحاً، ولم يقع أسرى من المسلمين بيد المشركين. أما عدد قتلى المشركين فكان اثنين وعشرين قتيلاً. ثم أمر رسول الله ﷺ، بدفن الشهداء بدمائهم في ثياب المعركة، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. وقد دفن أكثر من شهيد في قبر واحد، فقد دفن حمزة بن عبد المطلب، وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، ودفن سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد في قبر واحد. وبلغ رسول الله ﷺ، أن بعض الناس قد نقلوا شهداءهم إلى المدينة، فأمر بأن يعادوا إلى مضاجعهم في مكان المعركة.

وكان بين صفوف المسلمين رجلان قاتلا معهم من غير إيمان، أحدهما يدعى قزمان وهو من أعراب المدينة، قاتل دفاعاً عن أرض المدينة كي لا تطأها قريش، وكان شجاعاً مقداماً، قتل أحد عشر بطلاً من أبطال المشركين، وكانت نتيجته أن انتحر بعد أن اشتد ألمه من كثرة الجراح، وكان من أهل النار، كما حدث رسول الله ﷺ، عندما سأل أحد المسلمين رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ، أيهم في سبيل الله الرجل يقاتل رياءً أم يقاتل حمية أم يقاتل شجاعة؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وكذلك قاتل بجانب المسلمين أحد اليهود، واسمه مخيريق، قاتل على ما قاتل عليه قزمان، وكره أن تصل قريش إلى المدينة، ورأى أن يدافع عن مدينته، وأن يشترك مع المسلمين في هذا الدفاع، تنفيذاً للموادعة التي بين يهود المدينة والمسلمين، ولم يوافق يهود

على اعتذارهم، بأن ذلك اليوم كان يوم السبت، وهو يوم عيدهم، ثم حمل سلاحه وقاتل يوم أحد مع المسلمين، وقتل، ولكنه من أهل النار، فالدفاع عن الأرض، وعن الجنس لا يغني شيئاً. وخرج مع المسلمين يوم أحد رجل من الأوس يدعى (الأصيرم) يقاتل في سبيل الله، وعلى عقيدة الإسلام، ولم يكن قبلها مسلماً، بل يكره ذلك، ويعيب على قومه اتّباع محمد ﷺ، وأصيب يوم أحد، ومات، وكان في عداد الشهداء على حين أنه لم يصل ولم يصم.

ولما انتهى المسلمون من دفن موتاهم تحركوا نحو المدينة، وخرج من فيها لاستقبالهم والسؤال عنهم، وكان من بين من خرج امرأة من بني دينار تسأل عن رسول الله ﷺ، وأهلها، فنعي إليها أبوها وأخوها وابنها وزوجها فلم تكترث، وسألت عن رسول الله ﷺ، فقيل لها: بخير، فقالت: أرونيه، فلما رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل. والتقى رسول الله ﷺ، في طريقه بحمنة بنت جحش فقال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ فقال: «خالك حمزة»، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. فقال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ قال: «أخاك عبد الله بن جحش»، قالت: وإنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. ثم قال لها: «احتسبي»، فقالت: من يا رسول الله؟ فقال لها: «زوجك مصعب بن عمير». فقالت: واحزناه، وصاحت وولولت، ثم قال لها: «لم قلت هذا»؟ قالت: تذكرت يتم بنيه، فراعني. فدعا لها رسول الله ﷺ. ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ، أم سعد بن معاذ سيد الأنصار، وكان يركب فرسه وابنها سعد آخذ بلجامها. فقال سعد: أمي يا رسول الله ﷺ، فقال: «مرحباً بها»، فلما اقتربت منه عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد هانت مصيبتي. فدعا لها رسول الله ﷺ، وقال لها: «أبشري وبشّري أهلهم أن قتلاهم ترافقهم في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً»، بعد أن دعا لأهلهم.

وكانت من عادة العرب أن تنوح النساء على القتلى، وقد ارتجت

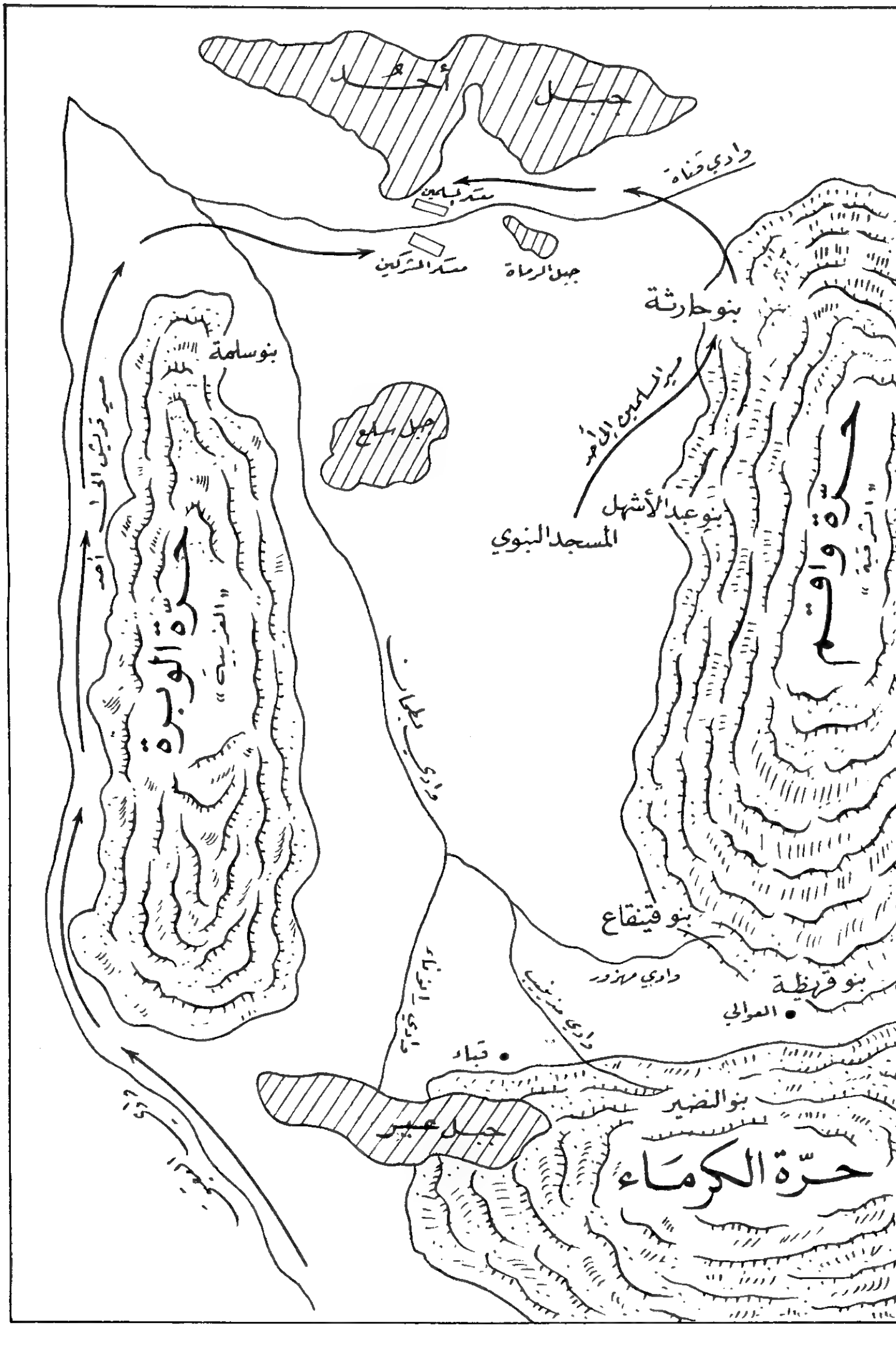
المدينة بأصوات الباكيات النائحات، ومرّ رسول الله ﷺ، على دور بني عبد الأشهل، فسمع نواح النساء، ولكن حمزة لا بواكي له... فأمر سعد بن معاذ أن يبكين على حمزة ففعلن، فقال لهن رسول الله ﷺ: «ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن»، ثم نهى رسول الله ﷺ، عن النياحة أبداً بعدئذ.

لقد كانت معركة أحد نصراً اسمياً لقريش إذ استطاعت أن تقتل سبعين رجلًا من المسلمين، وأن تحصر جماعة منهم، وأن تعمل فيهم السيف، كما أنها حاصرت المسلمين في مكان من الجبل، إلا أن هذا كله لا يعد نصراً في الاعتبارات العسكرية إذ لا تعد الانتصارات بعدد الضحايا من الخصم، وإنما بالنتائج فلو أن جيشاً استطاع أن يهزم عدوه في معركة، ويتقدم حتى يحصره في قلعة يتحصن بها، ثم لا يستطيع أن يقتحمها عليه، ولا يبقى محاصراً، وإنما يضطر إلى مغادرة ميدان المعركة بسرعة، دون أن يحقق شيئاً، هل نعد هذا نصراً؟ وقال قائدها: الحرب سجال يوم بيوم، ثم انسحب مسرعاً لم ينسحب ليدخل عاصمة عدوه المكشوفة الخالية من أي مقاتل، ولكنه انسحب فراراً إذ قطع في اليوم الأول أكثر من ستين كيلو متراً ليبتعد عن المكان الذي يسيطر عليه المسلمون خائفاً منهم، فقد لقي منهم في المعركة شدة لم يعهدها من غيرهم، وكان بينه وبين الموت لحظة إذ عقر حنظلة بن أبي عامر فرسه، وألقاه على الأرض وبرك فوقه يريد ذبحه، حتى أيقن أبو سفيان بالهلاك ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئة إذ ضُرب حنظلة بالسيف فمات ونجا أبو سفيان. وكذلك عدّ المنافقون واليهود والأعراب الذين من حول المدينة أن معركة أحد كانت نصراً اسمياً لقريش شماتة وحقداً. أما المسلمون فقد عدّوها نصراً لهم أيضاً، فقد انتصروا في بداية المعركة وأعملوا السيف في خصومهم، كما فعل أعداؤهم في نهاية المعركة، وصمدوا ثانياً لقريش صموداً قوياً حتى أنها لم تستطع أن تزيلهم عن مواقعهم التي تحصنوا فيها، ولا أن تتقدم إليهم، ثم فرّت قريش من ميدان المعركة فراراً، لا انسحاباً تسير فيه ببطء تتبختر بنصرها، وتفتخر بالظفر الذي حصلت عليه. وهذا يدل على المعنويات الضعيفة بل المنهارة

التي كانت عند جند قريش لا على التعب، فلو كان التعب لفكرت قريش أن تأخذ شيئاً من الراحة قريباً من ساحة المعركة ما دامت لا تبالي بخصم، ولا تهتم بجيش المدينة، ولم تفكر قريش آنذاك بالتوجه نحو المدينة على حين فكر المسلمون بذلك، وتوقعه اليهود والمنافقون، وإنما كانت تفكر بالفرار مباشرة ولكن بعد أن قطعت مسافة، وأخذ أفرادها قسطاً من الراحة، وتنفسوا الهواء بطلاقة خطر على بالهم: أن لو دخلوا المدينة قاعدة المسلمين، وفعلوا فيها ما فعلوا أو ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا. ولاحظ المسلمون أن مدينتهم (بقيت كما هي لم تمس بأذى، ومعنوياتهم بقيت مرتفعة عالية، لم يستطع العدو أن يحطمها حسبما كان يتراءى له، وعندهم من القوة في نهاية المعركة ما يمكنهم من منازلة العدو مرة ثانية أو تجديد المعركة والبدء فيها من جديد، وهذا ما سنلاحظه، إذ عدّوا أنفسهم قد انتصروا، فلم يبالوا باليهود، وأجلوا قبيلة أخرى من يهود غير مبالين بهم ولا بحلفائهم، كما دخلوها من غير اهتمام بالمنافقين الذين انخذلوا عنهم، ولا بالأعراب الذين حول المدينة والذين كانوا من وراء المنافقين أيضاً بل عادوا ليهدّدوهم وليتلوا عليهم القرآن الذي يتوعدهم، وينذرهم والكفار من أهل الكتاب والمشركين من قريش وغيرها من الأعراب بنار جهنم والعذاب في الدنيا والآخرة. وعادوا إلى المدينة ليلاحقوا قريشاً ولينازلوها من جديد، ومع هذا فقد عدّت أحد هزيمة لسببين:

أولاً - لكثرة عدد الضحايا التي فقدت في المعركة، وبينهم عدد من صناديد القتال أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وغيرهم، كما فقد حامل اللواء مصعب بن عمير، مقرئ المدينة، وحامل لواء الدعوة فيها قبل أن يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

ثانياً - لما أصيب به رسول الله ﷺ، من جروح وكسور وتعب وإنهاك، وكان هذا أصعب شيء عليهم في الدنيا، وهذا ما أغمّهم، وأبقى أثراً كبيراً في النفوس، وكلما تذكروا ذلك شعروا أن المعركة لم تكن في


جبل أحد
وادي قناة
جبل الرماة
بنو حارثة
بنو سلمة
جبل سلع
بنو عبد الأشهل
المسجد النبوي
حرة واقم
حرة الوبرة
بنو قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
العوالي
قباء
بنو النضير
جبل عير
حرة الكرماء

صالحهم، وشعروا بالضيق، فلهذا لم يعدّوا غزوة أحد لصالح المسلمين. ويجب ألا ننسى أبداً أن المسلمين لم يبالوا بعدد قريش الكبير ولا بانسحاب المنافقين وانخذالهم عنهم، وبقائهم قلة، ولا بيهود الذين في المدينة مع أن قوات المسلمين خارجها، وكذلك لم يبالوا بعدد قريش وكثرتهم عندما لاحقوهم إلى حمراء الأسد مع أن عدد المسلمين قد قلّ بما فقدوه، ولم يقبل رسول الله ﷺ، أن يخرج في هذه الملاحقة إلا من كان يوم أحد. كل هذه الأشياء من ملاحقة قريش، وإجلاء يهود بني النضير، والتصدي للمنافقين، لا يدل على فعل المنهزم الذليل، وإنما يدل على عمل المنتصر المعتز بعقيدته الذي يشعر أنه هو الأعلى ما دام متمسكاً بإيمانه.

غزوة حمراء الأسد:

أراد رسول الله ﷺ، أن يرد على يهود والمنافقين والأعراب ردّاً عملياً يبين أن المسلمين يتمتعون بروح معنوية عالية، وأن بإمكانهم المحافظة على كيانهم، والحماية للمدينة، والرد على كل من تحدّثه نفسه بإلحاق أذى بالمسلمين، وأراد أن يكون هذا الرد هو الخروج بالمسلمين ومطاردة قريش.

عاد المسلمون من أحد مساء السبت الخامس عشر من شوال في السنة الثالثة للهجرة، وما إن أصبح الصباح وخرج الناس من صلاة الفجر إلا وأذن مؤذن رسول الله ﷺ، بالتهيؤ على جناح السرعة لمطاردة العدو، وألا يخرج مع الناس إلا من شهد أحداً، فاستجاب الناس لنداء رسول الله ﷺ، مع ما بهم من جراحات وتعب، وكان في مقدمتهم رسول الله ﷺ، ولم يسمح لعبد الله بن أبي بالخروج معه، ولا لأحد لم يشهد أحداً إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الذي استشهد أبوه في أحد، وكان قد منعه من الاشتراك في بدر وأحد ليبقى عند أخواته البنات السبع برأي رسول الله ﷺ، وانطلق القوم بسرعة وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، ويحمل اللواء لواء أحد نفسه علي بن أبي طالب، واستعمل رسول الله ﷺ، على المدينة ابن أم مكتوم. ووصل المسلمون بقيادة

رسولهم الكريم إلى حمراء الأسد التي تبعد عن المدينة ثلاثة عشر كيلاً، حيث حطوا الرحال فيها. وقد أدهشت هذه الحركة اليهود والمنافقين لما فيها من جرأة وشجاعة، وعلموا فعلاً أن المسلمين لم يهزموا في أحد، وأن الروح المعنوية عندهم عالية، وإنهم لو هزموا لما عملوا على مطاردة قريش، وأن حالتهم لو كانت ضعيفة لما تحركوا بهذه السرعة، ولما كان تجاوبهم بهذه الحالة، ولو كان عندهم شيء من الخوف لما غادروا المدينة بهذه الصورة.

وفي الوقت نفسه كانت قريش قد حطت الرحال في منطقة الروحاء التي تبعد عن المدينة ثمانية وأربعين كيلاً وفي مكان غير بعيد عن حمراء الأسد التي نزل فيها المسلمون، وفي الروحاء وبعد أن أخذ جند قريش قسطاً من الراحة بدؤوا يتساءلون، إذا كانت هزيمة المسلمين في أحد كبيرة، كما تتبجح قادة قريش، فلماذا لم نتوجه إلى المدينة، ونقضي على من فيها، ونأخذ السبايا منها؟ وما دمنا قد حصلنا على النصر الكبير الأكيد فلماذا لا نرجع الآن إلى المدينة ونقضي على الجيش المدني الذي وصل إليها مثقلاً بالجراح، منهكاً بالتعب فنقضي عليه نهائياً؟ ولكن القادة يعرفون تمام المعرفة أن نصرهم كان اسمياً، وأن الخوف يملأ قلوبهم، وخاصة أبا سفيان القائد العام وصفوان بن أمية قائد المشاة، وبدأت المناقشة حول العودة، وبينما هم كذلك إذ فاجأتهم الأخبار بأن المسلمين بقيادة النبي الكريم يطاردونهم وقد نزلوا حمراء الأسد فأخذ الخوف من قريش كل مأخذ إذ اعتقدت أن محمداً ﷺ، قد جاء بمدد من المدينة وعمل على مطاردتهم، وزاد الأمر عندهم يقيناً عندما جاء معبد الخزاعي، وقال لهم: إن محمداً مصر على منازلتهم، وأن معه قوة لم ير مثلها من قبل، وأنه من الأفضل لقريش أن تتابع الانسحاب إلى مكة.

خاف أبو سفيان أن تذهب سمعة النصر المزيف الذي حققه عندما تسمع القبائل أن المسلمين قد طاردوه لمنازلته ولكنه خشي لقاءهم، ففر من وجههم، لذا فقد بقي قليلاً في (الروحاء) يتظاهر بالثبات، وإن كان قد

رغب ألا يلحقه المسلمون فيظهر للملأ أنهم على خوف من جيش أبي سفيان بسبب هزيمتهم، وينسحبوا إلى المدينة بالتهديد، ويبقى هو في مكانه، وعندها تزداد قوة النصر المزيف.

ووجد الفرصة مناسبة له إذ رأى جماعة من بني عبد القيس يتجهون إلى المدينة فحملهم رسالة إلى محمد ﷺ، مفادها أن قريشاً قد وافقت على النزال بل أصرت عليه، وأنها سائرة إلى حيث يعسكر في حمراء الأسد. وعندما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، رغب في هذا اللقاء، ومكث ينتظر قدوم قريش، ويوقد النار طوال الليل ليؤكد على بقائه، ويعلم عن موقعه ومكث ثلاثة أيام على هذه الحال، إلا أن قريشاً عندما لاحظت إصرار المسلمين على القتال، وعدم خوفهم علمت قوتهم وارتفاع معنوياتهم فخافت مغبة الأمر، وخاصة القادة منها، ففضلوا الانسحاب وعدم اللقاء، وتابعوا المسير نحو مكة، وبعد أن سارت قريش آيبة إلى بلدها رجع رسول الله ﷺ، إلى المدينة وقد حقق ما خرج من أجله في إظهار قوة المسلمين وقدرتهم على القتال على الرغم مما يشيعه اليهود والمنافقون في المدينة من هزيمة المسلمين في أحد، وأنهم قد غدوا جماعة ضعيفة لا تستطيع حماية نفسها والمحافظة على كيانها.

يوم الرجيع:

وظن الأعراب كما ظن اليهود والمنافقون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة إلا بعد مدة من الزمن لذا طمعوا في المدينة ولكن أنى لهم هذا، وقتال المسلمين يرعبهم، ونزالهم يقطع القلوب، لذا لجأ الأعراب إلى الخداع والحيل الرخيصة التي يلجأ إليها الجبان، والتي لا يقدم عليها إلا الوضيع، وجاء رجال قبيلة عضل ورجال قبيلة القارة إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام فبعث رسول الله ﷺ، ستة من أصحابه وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وهو أمير القوم،

وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق. فخرجوا معهم، وساروا باتجاه مكة، حتى إذا صاروا على ماء الرجيع بين عسفان ومكة، غدر بهم رجال القبائل، إذ بينما هم على الماء مطمئنون انسحب رجال القبائل من بينهم، واستصرخوا رجال هذيل ليساعدوهم عليهم، وبينما المسلمون على حالهم إذ بأكثر من مائتي رامٍ يحيطون بهم وقالوا لهم: والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكمَ شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

أما مرثد، وعاصم، وخالد فقد قالوا: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً، فقاتلوا القوم حتى قتلوا، أما الثلاثة الباقون فقد سلموا أيديهم لأعدائهم، فأسروهم، وساقوهم أمامهم. وأرادت هذيل أن تأخذ رأس عاصم لتبيعه لسلافة بنت سعد بن شهيد التي كانت قد نذرت حين قتل ولديها مسافع والجلاس ابني طلحة العبدريين، وقد حملا لواء المشركين يوم أحد، فرماهما عاصم، فكان الواحد منهما يأتي أمه سلافة، فيضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني، من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح. فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم، أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمس مشركاً أبداً، ولا يمسه مشرك. فحمته الدبر عندما أرادت هذيل أخذه، إذ تجمعت الدبر عليه بكثرة، فقالوا: ننتظر حتى يمسي، فما جاء المساء حتى جرى السيل في الوادي، واحتمل رأس عاصم.

وسارت هذيل ورجال القبائل بأسراها الثلاثة حتى إذا كانوا بالظهران عند الحديبية، نزع عبد الله بن طارق يديه من الحبل الذي يشدهما. وأخذ سيفه، فخافه القوم، وابتعدوا عنه، ورموه بالحجارة حتى قتلوه. ثم واصلوا السير بالأسيرين إلى مكة فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا عند قريش. وقد ابتاع صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بأبيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر، وقد بعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ليقتله هناك،

والتنعيم خارج الحرم، في الحل، وخرج عدد من قريش ليحضروا هذا القتل، بينهم أبو سفيان بن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ماأحب محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتل رضي الله عنه.

وأما خبيب بن عدي فقد ابتاعه رجل يقال له حجير ليقتله بأحد أقربائه، فوضعه عند مولاة له يقال لها ماوية، فحدثت بعد أن أسلمت فقالت: كان خبيب عندي، حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يوماً، وإن في يده لقطفاً من عنب، مثل رأس الرجل، يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل، وكذلك حدثت فقالت: قال في حين حضره القتل: ابعثي لي بحديدة أتطهر بها للقتل، قالت: فأعطيت ابني الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت! أصاب والله الرجل ثأره، بقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ، ثم خلّى سبيله. ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل، لا ستكثرت من الصلاة. فكان خبيب أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل، ثم رفعوه على الخشبة، فلما شدّوا وثاقه، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قتلوه، رضي الله عنه. وكان معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض، فرقاً من دعوة خبيب.

بئر معونة:

وحدثت حادثة ثانية من الغدر تشبه الأولى، فقد أقبل على رسول الله ﷺ، في المدينة، في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة أي بعد أربعة أشهر من غزوة أحد أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم، ولم يبعد من الإسلام، إلا أنه قال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم، فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث رسول الله ﷺ، أربعين رجلاً من أصحابه، وجعل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب الشرقي من المدينة بين حرة بني سليم ومنازل بني عامر، فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله ﷺ، إلى عامر بن الطفيل مع رجل منهم فلما سلمه الكتاب، قتله دون أن ينظر فيه، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فلم يطيعوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء في جواره؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عُصية، ورعل، وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا المسلمين، وأحاطوا بهم من كل جهة، فاستل المسلمون سيوفهم، وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً، لم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد، سقط جريحاً بين الموتى، ثم صحا بعد مدة، وسار حتى لحق بالمدينة، وشهد الخندق واستشهد فيها، كما نجا رجلان منهم، كانا يرعيان للقوم هما: عمرو بن أمية الضمري، والمنذر بن محمد، ولم يعرفا مصرع القوم إلا من الطير، فاتجهوا نحو المكان، فإذا إخوانهم صرعى، وأعداؤهم لا يزالون في أماكنهم، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكني ما كنت لأرغب بنفسي من موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل، وأخذ عمرو أسيراً، ثم أطلقه عامر بن الطفيل، فوجد أثناء عودته رجلين من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فعدا عليهما، وقتلهما، ولم يعلم أن معهما عقداً من رسول الله، فلما وصل عمرو إلى رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر، دفع رسول الله ﷺ، ديتهما.

إجلاء بني النضير:

ووقعت حادثة غدر أخرى، ولكنها من سكان المدينة من يهود، الذين يحقدون على الإسلام وعلى رسوله الكريم، وهؤلاء يعلمون قوة المسلمين حق العلم لمجاورتهم إياهم، وكلما ظنوا أن أمرهم قد ضعف، وأنه آن ليهود أن تتحرك، وجدوا أن القوة لدى المسلمين كبيرة، وأنه ليس بإمكانهم فعل شيء، وأن عليهم أن يعودوا إلى جحورهم، يختبئون فيها، وأخيراً رأت فرقة منهم أن يغدروا برسول الله ﷺ، وخرج محمد، عليه الصلاة والسلام، إلى بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة يستعينهم في دفع دية ذينك الرجلين من بني عامر الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فوافق بنو النضير، وقالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه، وكان رسول الله ﷺ، جالساً بجانب جدار لهم، فقال بعضهم لبعض: من يستطيع أن يعلو البيت، ويلقي صخرة على محمد، عليه الصلاة والسلام، فتعهد بذلك أحدهم، وهو: عمرو بن جحاش بن كعب، فصعد إلى السطح، وهمَّ بذلك. ولكن رسول الله قد أخبر بذلك من السماء، فترك مكانه من بين أصحابه الذين كانوا معه، متشاغلاً ببعض حاجته، ورجع إلى المدينة، فلما تأخر عن أصحابه، قاموا يسألون عنه، فالتقوا مع رجل قادم من المدينة، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ، قد دخلها، فلحقوا به، حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما كان من يهود ومحاولة الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ، الناس بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم. ولما استعد الناس سار إليهم، واستعمل ابن أم مكتوم على المدينة، حتى إذا وصل إلى منازلهم تحصنوا بحصونهم، وكان عبد الله بن أبي كبير المنافقين، قد وعدهم بالنصر، وأمرهم بالثبات، وقال لهم: إن قوتلتم لنقاتلن معكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولا نطيع فيكم أحداً وإنا لن نسلمكم أبداً، إذ كان بينهم حلف. وحاصرهم رسول الله ﷺ، ست ليالٍ وهم متحصنون في حصونهم، ثم أمر رسول الله بقطع النخيل وحرقه، فنادوه من وراء الحصون: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن

الفساد، وتعييبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ واليهود أحرص الناس على الحياة وعلى الأموال. وقذف الله الرعب والخوف في نفوس المنافقين، فلم يجرؤوا على نصرتهم، وألقاه في قلوب يهود، فطلبوا من رسول الله ﷺ، أن يجليهم عن المدينة، ويكف عن دمائهم، على أن يكون لهم أخذ ما تحمله الإبل دون السلاح، فوافق رسول الله. فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من رحل إلى الشام. ومن أشرافهم الذين نزلوا بخيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوا فيها قدّمهم أهل خيبر عليهم، ودانوا لهم، وقسّم رسول الله ﷺ، أموالهم على المهاجرين الأولين دون الأنصار الذين لم يعط منهم سوى أبي دجانة، وسهل بن حنيف لفقرهما. وأنزل الله في حق بني النضير سورة الحشر كاملة. وهكذا لم يبق في المدينة من يهود سوى بني قريظة.

غزوة ذات الرقاع:

تأثر رسول الله ﷺ، مما حدث من الأعراب في ماء الرجيع، وبئر معونة، وما حدث من يهود بني النضير إذ كل منهم كان يفكر في أن يغتنم فرصة ما حلّ بالمسلمين في أحد، ويغدر ما يسمح له هواه من الغدر، فأجلى بني النضير، وأراد الالتفات إلى الأعراب، فجاءه خبر تجمع في نجد لغزو المدينة علناً من قبائل محارب، وثعلبة من غطفان، فسار في الناس إليهم بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، حتى إذا وصل إلى ذات الرقاع، وكان الفريقان قريبين بعضهما من بعض، فوجد رسول الله جموعاً غفيرة من غطفان، وخاف كل طرف من الآخر، فصلى رسول الله بالناس صلاة الخوف، ولم يحدث حرب بين الجانبين، ورجع رسول الله بالناس في جمادى الأولى. وفي هذه الغزوة حاول أحد جند بني محارب قتل رسول الله بعد أن طلب من رسول الله سيفه لينظر فيه، ولقد همّ بالفعل ولكنه لم يستطع، وردّ إلى رسول الله السيف. ولم يحدث قتال في هذه الغزوة إلا أنها أرهبت هؤلاء الأعراب، وأعلمتهم أن لدى المسلمين قوة كبيرة وأن لديهم معنوية عالية.

غزوة بني أسد:

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، بأن بني أسد بزعامة طليحة بن خويلد يتجمّعون لغزو المدينة، فأرسل لهم سرية قوامها مائة وخمسون راكباً من المهاجرين والأنصار بإمرة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، فسارت السرية في كتمان شديد، تتحرّك ليلاً وتكمن نهاراً، حتى فاجأت العدو قبل أن يتهيّأ، ففرّ بنو أسد، وغنم المسلمون كثيراً من الإبل والأغنام وتعدّ بنو أسد من القبائل القوية الكبيرة في جزيرة العرب.

تأديب هذيل:

وجاءت الأخبار إلى المدينة أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع، ليقوم بالإغارة على المدينة، ولما كانت ديار هذيل قريبة من مكة، لم يكن من المصلحة إرسال غزو إلى تلك الديار النائية عن المدينة، والتي يمكن أن تجعل قريشاً وبني سليم وغيرها من القبائل تناصر هذيلاً، وبالتالي تكون النتيجة غير سليمة، ولكن لا بدّ من تأديب هذيل، لذا فقد أرسل رسول الله ﷺ، عبد الله بن أنيس ليستطلع الأمر، وإذا وجد الخبر صحيحاً، فعليه أن ينتهي من خالد بن سفيان المحرض على الحشد وصاحب الكلمة المسموعة هناك. وقد وجد عبد الله بن أنيس الجهني أن الخبر كان صحيحاً، وقد عرف حقيقة الأمور عن قرب، ففتك بخالد بن سفيان، وأراح المسلمين من الحركة.

وهكذا كان تأديب القبائل كل واحدة في موطنها الأمر الذي يدلّ على قوة المسلمين، وكان تأديب اليهود بإجلاء بني النضير عن ديارهم، ولم يبق إلا قريش العدو الأول، وكان العام قد استدار على أحد، وجاء الموعد المضروب من أبي سفيان للّقاء في بدر.

غزوة بدر الآخرة:

خرج أبو سفيان من مكة على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل،

وفي نفسه رغبة ألا يحدث هذا اللقاء الذي ينتظر نتيجته كثير من رجال القبائل والأعراب وأهل المدن، إذ قضت المدينة ومكة عاماً في الاستعداد له، وكان في خروج أبي سفيان محاولة لإخافة المسلمين وإرهابهم كي لا يخرجوا، فيكونوا هم الذين نكلوا عن الخروج، وقد بعث للغرض نفسه نعيم بن مسعود ليُخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريش وقوتها، وجعل له عشرين بعيراً إن أدّى هذه المهمة، ولم يخرج محمد، وقال له: إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد، ولا أخرج أنا، فيزداد المسلمون جرأة، فلأن يكون الخُلف من قبلهم أحبّ إلي من أن يكون من قبلي، فالحقْ بالمدينة، وأعلمهم أنا في جمع كثير، ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون، أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو.

وصل نعيم بن مسعود إلى المدينة، وبدأ يبث إشاعاته، وساعده على ذلك المنافقون واليهود، وقالوا: لا يفلت محمد من هذا الجمع... ولعبت هذه الإشاعات دورها، وسار أبو بكر، وعمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، وقالا له: يا رسول الله، إن الله مظهر نبيه، ومعزّ دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحبّ أن نتخلّف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسِرْ لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيراً، فسرَّ النبي، عليه الصلاة والسلام، مما قاله صاحباه، وأعلن أنه في طريقه إلى بدر، وقال: والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد. ونادى في الناس للخروج، فاجتمع حوله ألف وخمسمائة مقاتل، وسار بهم إلى بدر، بعد أن أناب عنه على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي.

وصل رسول الله ﷺ، إلى بدر في جيشه، وعسكر هناك وبقي ثمان ليال ينتظر قريشاً، ولكنها لم تأت، إذ عادت جموعها من عسفان، خوفاً من اللقاء حقيقة، وحجتها في ذلك أن الظروف غير ملائمة للحرب، إذ كانت سنوات قحط وجدب.

وهكذا دان عدو المسلمين الأول، وهو قريش، وهي أقوى قوة في الجزيرة، وجيشها أكثر الجيوش تنظيماً وعتاداً، وكانت هي المتحدية، وهي

الفارّة من اللقاء، وخافت القبائل، وأجلي جزء من يهود، وبدا أن غزوة أحد لم تكن ضربة أليمة يخنع المسلمون بعدها. ودان كذلك رجالات الأعراب فيما حول المدينة والمنطقة كلها، وأثناء وجود رسول الله ﷺ، في بدر جاء مخشي بن عمرو الضمري إليه، وقال له: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء الواقع في أراضي بني ضمرة؟ أي يريد أن يقول تتحدّى بني ضمرة، ولم تحسب لهم حساباً، وكأن البئر وما حولها مشاع لكم ـ وكان بين رسول الله ﷺ، وبني ضمرة معاهدة عدم اعتداء منذ غزوة (ودان) قبل غزوة بدر الكبرى ـ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم يا أخا ضمرة وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك»، فلما رأى الضمري شدة رسول الله ﷺ، وثقته بالله، قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة.

غزوة دومة الجندل:

لم تتأدّب القبائل كلها، بل تأدّبت التي وصل المسلمون إلى ديارها فقط، واغترّ غيرها من الأعراب، وظنّوا أن بإمكانهم غزو المدينة، وأن غيرهم ليس مثلهم، فهم يستطيعون تحقيق ما لا يستطيعه غيرهم، ومن هؤلاء المغرورين الأعراب الذين حول دومة الجندل، والذين بدأوا يتجمعون للإغارة على المدينة، وعندما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، أسرع إليهم بألف مقاتل، ففرّوا من وجهه، وأخذ المسلمون كثيراً من حيوانات القوم، وأثناء العودة عقد رسول الله ﷺ، مع (عيينة بن حصن) معاهدة عدم اعتداء وسمح الرسول لعيينة أن يرعى بأراضي المسلمين التي تقع على بعد ستين كيلاً لأنه اشتكى جدب أراضي فزارة.

غزوة بني المصطلق:

وظن بنو المصطلق بأنفسهم قوة، وغرّتهم كثرة أعدادهم، وموقعهم بين مكة والمدينة حيث كان الناس يجاملونهم أثناء مرورهم بمنازلهم في طريقهم إلى الشام أو آيبين منها، وحسبوا أن خزاعة كلها تناصرهم ما داموا بطناً منهم، فأخذوا يستعدون للإغارة على المدينة، وبلغ رسول الله ﷺ،

خبرهم، فأرسل إليهم بريدة بن الحصيب يستوضح الأمر، فإذا به حق. فأسرع إليهم رسول الله، وخرج معه في هذ المرة المنافقون الذين يطمعون في الغنيمة، كما يطمعون ببذر الخلاف. وكان زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار قد أرسل عيونه يستطلعون له الطريق قبل سيره، ويُنَبِّئونه عن حركات المسلمين وتحركاتهم، فالتقى المسلمون بأحد هؤلاء العيون، فسيق إلى رسول الله فعرض عليه الإسلام فأبى، ولما كان رسول الله يريد مفاجأة القوم لذا فقد أمر بإعدام هذا الجاسوس، فضرب عمر بن الخطاب عنقه، وعلم بنو المصطلق بما حدث فأصابهم ذعر شديد الأمر الذي جعل أعداداً منهم تتفرّق عن ذلك التجمّع وفاجأهم رسول الله وهم على ماء (المريسيع)، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فحمل عليهم المسلمون، وأحاطوا بهم من كل مكان، ولم يفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة أفراد، ثم استسلموا جميعاً، وغنم المسلمون ديارهم وأملاكهم، وسبوا نساءهم. وزادت الغنائم على ألفي رأس من الإبل وخمسة آلاف من الأغنام، وبلغ عدد السبايا سبعمائة فتاة. وقد أطلق سراح بعض الأسرى والسبايا، وافتدي بعضهم، ولم يقتل أحد من الأسرى. وتزوّج رسول الله ﷺ، جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد أن كاتبت ثابت بن قيس بن شماس الذي كانت من نصيبه، ثم جاء أبوها ليفتديها فخطبها رسول الله ﷺ، من أبيها، وتزوجها على مهر قدره أربعمائة درهم، وأسلم أبوها بعد أن رأى معجزة من رسول الله، كما أسلم بنو المصطلق جميعاً، وعندها أطلق الناس ما بأيديهم من الأسرى والسبايا إكراماً لنبيهم الكريم.

وحدثت في هذه الغزوة حادثتان كان لهما وقع شديد في نفوس المسلمين، أما أولاهما: فهي أن رجلاً حليفاً للأنصار من جهينة تخاصم مع رجل من غفار حليف للمهاجرين، فدعوَا بدعوى الجاهلية إذ نادى أحدهما يا لكنانة، وصرخ الثاني يا للأنصار، فأخذت الحمية بعض الصحابة وكادت تقع فتنة لولا أن أسرع رسول الله ﷺ، إلى ذلك المكان مستنكراً ما حدث، وقال: ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها منتنة، من دعا بدعوى الجاهلية كان من جُثا جهنم، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وقد انتهت هذه الفتنة، وتنازل الجهني عن حقه في الضرب.

وغضب عبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين لما تمّ، وغضب على ضرب الرجل الأنصاري، وهو يعد نفسه كبير الأنصار، وغضب على هدوء الفتنة بهذه السرعَة التي تمّ فيها، وهو يريد أن تشتعل فقال ـ وعنده رهط من قومه بينهم شاب حدث اسمه زيد بن أرقم ـ: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم اتجه إلى من كان عنده فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم. ومشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ، وأخبره بما حدث، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ، غضباً شديداً حتى تغيّر وجهه، فقال عمر: مر به عبّاد بن بشر[2] فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يرتحل فيها، فارتحل الناس، وسار بهم رسول الله ﷺ، جاداً بالرحيل مدة تقرب من ثلاثين ساعة، وذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي تحدث به عبد الله بن أبيّ، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وقعوا نياما مجرد أن جلسوا. وجاء أسيد بن حضير إلى رسول الله ﷺ، وهو من سادات الأوس من الأنصار، وقال له أثناء الرحيل: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله، قال: «عبد الله بن أُبيّ»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ»، قال: فأنت يا رسول الله، والله لتخرجنه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم

---

(١) جلابيب قريش: لقب المهاجرين المسلمين، لقبهم بذلك كفار قريش، إذ كانوا يأتزرون بأزرة غليظة.

(٢) عباد بن بشر بن وقش من الأوس من الأنصار، أحد الأشداء من بني عبد الأشهل، وذكر ذلك عمر حتى يكون قاتله من الأنصار من سكان المدينة لا من المهاجرين إليها.

قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

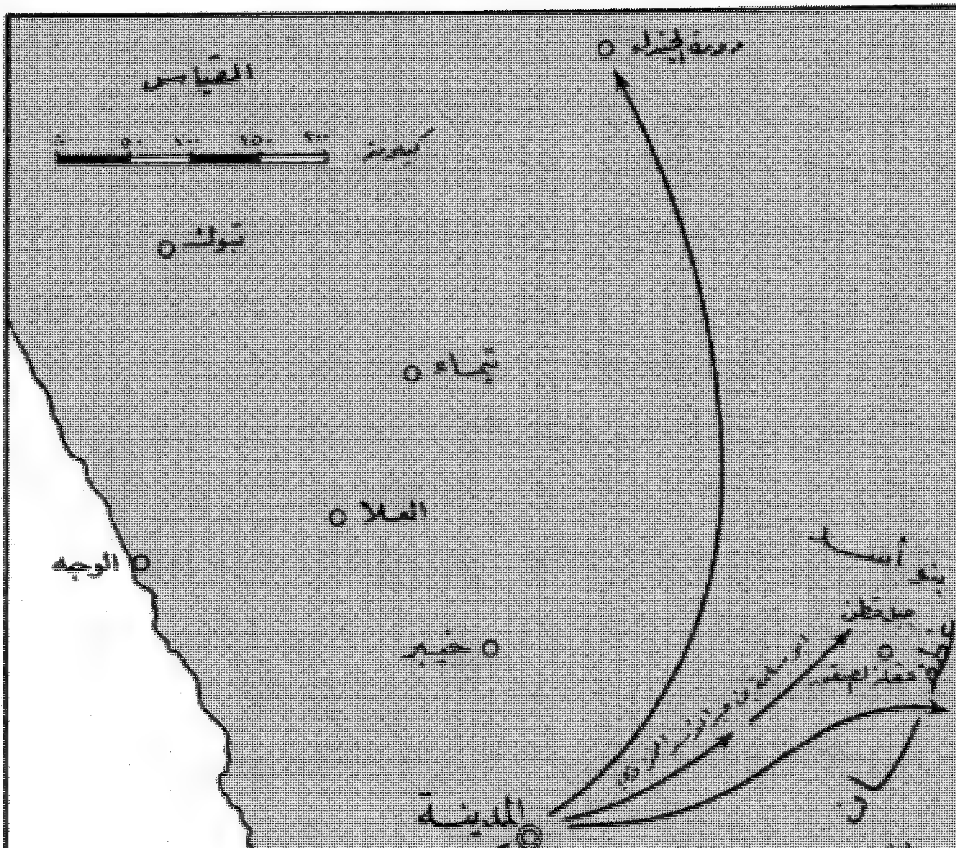
وعاتب ابنَ أُبيّ قومُه، وقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك، فأخبر به النبي، فليستغفر لك ولا تجحده فينزل ما يكذبك، وإن كنت لم تقله فأت رسول الله ﷺ، فاعتذر له. فحلف لقومه بالله العظيم أنه ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ، وأخذ يحلف له بالله أنه لم يقل شيئاً مما نقله إليه زيد بن أرقم.

وأنزل الله سورة (المنافقون) في حق ابن أبيّ، يقول جل شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ . . .[1].

والواقع أن ابن أبي لم يعرف حقيقة الإيمان لذا لم يدرك حبّ أصحاب رسول الله لنبيهم، ومن هذا كان يظنّ أنه سيد في قومه، وقد يطيعونه في أمر صدّ رسول الله ﷺ، ولو عرف الإيمان، وأدرك حب الصحابة لمحمد، عليه الصلاة والسلام، لعرف مركزه، وعلم وزنه، وتكلم على ذلك القدر، ولننظر إلى بعض هذا الحب الذي يبدو من هذه الحادثة

---

(١) سورة المنافقون: الآيات ١ ـ ٨.


دومة الجندل
القياس
كيلومتر
تبوك
تيماء
العلا
الوجه
خيبر
المدينة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة
البحر الأحمر
بنو أسد
غطفان
بنو عامر

فقط... فقد رأينا كلام أسيد بن حضير، رضي الله عنه، وكذلك زيد بن أرقم الذي نقل الحديث لرسول الله ﷺ، فقد لامه بعض المنافقين على هذا النقل فأجابه وهو الغلام الحدث: والله لو تكلم أبي كلمة عن رسول الله ﷺ، لأخبرته. وحتى ابن عبد الله بن أبي بالذات عبد الله جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا». وعندما وصلوا إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أمام بابها فلما جاء أبوه منعه من الدخول، وقال: والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله، وتقول: إنه العزيز، وإنك الذليل. وقال ﷺ، لعمر بن الخطاب: «يا عمر أما والله لو قتلته يوم قلت، لأُرْعِدَتْ له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ، أعظم بركة من أمري.

أما الحادثة الثانية التي وقعت إثر غزوة بني المصطلق فهي حديث الإفك وهو الذي تولى كبره المنافقون وأشاعوه، وأكتفي بذكر ما روته عائشة، رضي الله عنها، عن نفسها قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق[١] لم يهجهن[٢] اللحم فيثقلن، وكنت إذا رحل لي بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج،

---

(١) العلق ـ بضم العين وفتح اللام ـ جمع علقة، وهي ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء.

(٢) التهييج كالورم في الجسد.

فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ، من سفره ذلك، وجّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ظفار(١)، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل، ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على البعير، ولم يشكّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع إليّ. قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته(٢)، فلم يبت مع الناس فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة في ثيابي، قال: ماخلفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير فقال: اركبي، واستأخر عني، قالت: فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتجّ العسكر، ووالله ماأعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني

---

(١) الجزع: الخرز، وظفار: مدينة قرب اليمن.

(٢) كان صفوان على ساقة الجند، ومن مهمته التأخر عنهم قليلاً، ليفتش مكانهم بعد ارتحالهم، فإن وجد شيئاً لهم حمله.

من ذلك شيء. وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ. وإلى أبوي، ولا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ، بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني، قال: كيف تيكم؟، لا يزيد على ذلك. قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي، فمرضتني؟ قال: لا عليك. قالت: فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، قالت: فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح! ومسطح لقب واسمه عوف، قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين، قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أوَقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدّثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً! قالت: أي بنية، خففي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثّرن، وكثّر الناس عليها. قالت: وقد قام رسول الله ﷺ، في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي». قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي

قال مسطح، وحمنة بنت جحش، وذلك أن زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني[1] في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها، فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة بنت جحش، فأشاعات من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ، تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق، تجادل عن المنافقين، قالت: وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. ونزل رسول الله ﷺ، فدخل عليَّ. قالت فدعا علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى عليّ خيراً، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ، بريرة ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضرباً شديداً، ويقول: أصدقي رسول الله ﷺ، قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجينتي، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ، وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله،

---

(١) من المناصاة: وهي المساواة.

وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده»، قالت: فوالله ماهو إلا أن قال لي ذلك، فقلص دمعي، حتى ما أحس منه شيئاً، وانتظرت أبويّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلما، قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآناً يقرأ به في المساجد، ويصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ، في نومه شيئاً يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك. قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قالت: قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، قالت، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعجبا علي، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني منه بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقالت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ، مجلسه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، فقد عرفت أني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي، وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سري عن رسول الله ﷺ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ، فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك. فقالت: قلت: بحمد الله، ثم خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضُربوا حدّهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.

أما المؤمنون فقد قالوا مذ سمعوا الإشاعة إن هذا بهتان وباطل وكذب صريح، وما ظنوا إلا خيراً، وما قالوا إلا كذلك، وكان ظنهم أحسن مما يظنون هم بأنفسم، ويكفي أن نأخذ مثلاً على ذلك أبا أيوب خالد بن زيد الذي قالت زوجه أم أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى. وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. كما نعرف رأي المؤمنين تماماً مما أنزل الله، وأنه ما كانت الشائعات إلا من المنافقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

وقال أبو بكر الصديق: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً. وذلك بعد أن قال عن عائشة ما قاله الناس، وكان من قبل ينفق عليه لقرابته وحاجته. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[2]. فقال أبو بكر بعد ذلك: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

غزوة الخندق:

يحقد اليهود على الناس جميعاً، ويقولون: ليس عليهم في الأميين سبيل، وأكثر حقدهم على المسلمين، وقد حرصوا على ضرب الدعوة الإسلامية في مهدها الأول، ولكن لم يتمكّنوا من ذلك بل رُدّ كيدهم في

(١) سورة النور: الآيات ١١ ـ ١٣. (٢) سورة النور: الآية ٢٢.

نحرهم، وأُجلوا عن المدينة فرقة بعد فرقة، فلما أجلي بنو النضير، زاد حقد قادتهم، وخاصة الذين أقاموا منهم بخيبر، إذ رأوا أن الإسلام تزداد قوته يوماً بعد يوم، وكلما أرادت فئة أن تغير على أبنائه، أصابتها الضربة القاسية، ونزلت المصيبة بديارها، وخرج المسلمون أقوى ممَّا كانوا، لذا فكر الحاقدون أن يُحزّبوا الأحزاب من كل الجهات والقبائل، وأن يقوموا بحملة رجل واحد على المدينة، فيقضوا على الإسلام، ويجتثّوا جذوره، وينالوا ثأرهم، فخرج لهذا الغرض من خيبر حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وغيرهم، واتجهوا إلى مكة قاعدة قريش العدو الأول للمسلمين، ودعوها إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لها: إنا سنكون معكم حتى نستأصله، فسرّت قريش، وأعدّت العدة لتلك الحرب المرتقبة. وسأل القريشيون اليهود، فقالوا لهم: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[(١)] وقد تركوا قريشاً بعد أن تواعدوا، واتجهوا إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم بأنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد اتفقت معهم، فوافقوا على ذلك، ووافقوا على الموعد المضروب بين قريش ويهود.

خرجت قريش حسب الموعد المقرر بإمرة أبي سفيان بن حرب، وخرجت من غطفان فزارة، ومرة، وأشجع بإمرة عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري، ومسعر بن رخيلة الأشجعي. ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ﷺ، جمع أصحابه، واستشارهم فأشاروا عليه بحفر الخندق حول المدينة، وقيل: إن سلمان، رضي الله عنه، هو الذي أشار عليه بحفر

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

الخندق فابتدؤوا بالعمل فيه، وكان رسول الله ﷺ، يعمل معهم ويشجعهم، أما المنافقون فكانوا يختفون عن العمل، ويفرّون منه دون إذن.

وما أن انتهى العمل من الخندق بين الحرتين حتى جاءت قريش، ونزلت عند مجمع الأسيال (التقاء وادي قناة مع وادي العقيق)، وكان عددها مع الأحابيش، ومن وافقها من كنانة وأهل تهامة عشرة آلاف مقاتلٍ، وجاءت غطفان ومن سار معه من أهل نجد ونزلت قرب جبل قريباً من التقاء وادي بطحان ووادي قناة إلى يمين ذلك. وخرج رسول الله ﷺ، مع المسلمين وجعلوا جبل سلع إلى ظهورهم، وكان بين الفريقين الخندق الذي حفر.

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي في ديار بني قريظة فردّه، فبقي يحاوره حتى أجابه، وعاهده أن ينقض ما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، من عهد، وصعب على رسول الله ﷺ، ما كان من بني قريظة من يهود، إذ أن دياره إلى الجنوب من المدينة إلى جهة الشرق، وليس من فاصل بينها وبين سكان المدينة التي خلت تقريباً من المحاربين إذ لم يبق فيها إلا النساء والأطفال، فأرسل إليهم وفداً يستطلع أخبارهم، فوجدهم الوفد على أخبث حال، وتنكروا أن يكون بينهم وبين رسول الله ﷺ، عهد أو ميثاق.

عظم البلاء على المسلمين، واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وداخلهم كل ظن، وظهر المنافقون، وقالوا: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً.

ولما رأى رسول الله ﷺ، المسلمين وما هم عليه، أراد أن يفرق الأحزاب فأرسل وفداً إلى غطفان يدعوهم إلى ترك مواقعهم، والسفر إلى بلادهم، وتكون لهم ثلث ثمار المدينة، فوافقوا، وكتبت بذلك الكتابة، وبقي التوقيع على ذلك، فأرسل رسول الله ﷺ، إلى سيدي الأنصار سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يستشيرهما في ذلك بصفتهما سادة سكان

المدينة، وأهل الزروع فيها، فقالا له: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالَبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال ليجهدوا علينا.

حاول بعض فرسان قريش اقتحام الخندق، ومنهم عمرو بن عبد ودّ العامري، وعكرمة بن أبي جهل المخزومي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وضرار بن الخطاب المحاربي، وقد لبسوا للقتال، وطلبوا من قومهم التهيؤ له، فلما وصلوا إلى الخندق، وقفوا عليه، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. ثم ذهبوا إلى مكان ضيق فضربوا خيلهم، فاقتحمت الخندق، فخرج عليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فوقفوا حيالهم، فقال عمرو بن عبد ودّ: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فقال له يا عمرو: إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال، فقال له: لم يا بن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك. فأخذت عمرواً حينئذ الحمية، فنزل عن فرسه، وعقره، وضرب وجهه، ونزل لعلي، فقتله علي ـ بإذن الله ـ وفرّت خيل المشركين مقتحمة الخندق.

وأصيب سعد بن معاذ بسهم، فقطع منه الأكحل، وشعر بالألم،

فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان رسول الله ﷺ، يشعر بما حلّ بالمسلمين، وما هم عليه من الجوع والتعب، ومن الصبر على ذلك، والثبات على الحق، ولكن لا يملك إلا الدعاء، وهو واثق بنصر الله وتأييده، وجاء نصر الله، وكان من أسبابه أن رجلاً من أشجع، وهو نُعيم بن مسعود قد أسلم ساعتذاك، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة». فخرج نعيم بن مسعود إلى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه؛ فقالوا له: لقد أشرت بالرأي. وكان اليهود قد وعدوا قريشاً وغطفان أن يباشروا بالقتال مجرد أن يصطدموا بالمسلمين فيأتونهم من الخلف، ولكن لم يحدث هذا الصدام، ولم تتحرك بنو قريظة رسمياً، إلا أنها قد أرسلت قافلة للمشركين مؤلفة من عشرين بعيراً تحمل زبيباً، وتمراً وتيناً، ولكنها لم تصل إليهم إذ استولى عليها المسلمون، حيث التقوا بها عرضاً بينما كانوا يدفنون أحد موتاهم، فأخذوها، ووجدوها لقمة سائغة أثناء اشتداد أزمة الجوع عليهم، إذ كانت سنتهم عام قحط وجدب. كما أن

قريشاً وغطفان قد طلبوا من بني قريظة أن يشاغلوا المسلمين ويتحرّشوا بهم حتى يتمكنوا من اقتحام الخندق، وقد حاولوا ذلك، ولكن الخوف جعل الحذر منهم شديداً، ولم يتمكنوا من أن يقوموا بعمل ـ بإذن الله ـ.

ثم خرج نُعيم حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب، ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل؛ قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً. وكانت قريش قد يئست من القتال، فقد طال عليهم الوقت، ولم تدخل معركة حاسمة، وكانت العادة في القتال الكر والفر، فلما لبثوا ما يقرب من عشرين ليلة دون قتال ضاقوا ذرعاً به، وإن استمروا هذه المدة كلها يحاولون اقتحام الخندق، مفتشين عن أضيق نقطة فيه، ليشغلوا المسلمين وليجعلوهم في ذعر شديد، وخوف كبير، وقد حدث هذا، إلا أن الإيمان تغلب، وثبت المسلمون ثباتاً لا يعادله ثبات، وشعرت قريش أن تفوقها العددي إذ أن جيشها يزيد على عشرة آلاف على حين أن جيش المسلمين لا يصل إلى ثلاثة آلاف على أكبر تقدير إذ أن بعضهم يقدره بتسعمائة مقاتل فقط، إن هذا التفوق العددي لا يساوي شيئاً أمام الإيمان، وهذا ما جعل اليأس يقع في صفوف جند قريشٍ بل في نفوس قادتها.

ثم خرج نعيم بن مسعود حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذّرهم ما حذّرهم.

أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل مع نفر من قريش وغطفان إلى

بني قريظة يحثّونهم على مناجزة المسلمين والبدء بالقتال حتى يلتفت إليهم رسول الله ﷺ، ويتمكن الأحزاب من اقتحام الخندق، وكان يوم السبت الخامس من شوال سنة خمس، فقال لهم عكرمة: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغتدوا للقتال حتى نناجز محمداً، ونفرغ منها بيننا وبينه. فقالوا له: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتدّ عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجع عكرمة مع من كان معه إلى الأحزاب، وأخبروهم بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: صدق والله نعيم، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا؛ فقالت بنو قريظة: صدق والله نعيم، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً؛ فأبوا عليهم، ووقع الخلاف بينهم.

وجاء نصر الله، إذا هبّت عليهم ريح عاصف في ليلةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فانقلبت قدورهم، وأزيلت خيامهم، وعمّتهم الفوضى. وعلم رسول الله ﷺ، بما حدث من خلاف بين يهود والأحزاب، فأرسل حذيفة بن اليمان ليدخل في القوم، ولينظر ماذا يصنعون، وأمره ألا يحدث شيئاً حتى يعود، قال حذيفة: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان؛ ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله فامتطاه، وأعطى أوامره للفرسان بحماية الانسحاب، ففعلوا، وغادرت قريش مواقعها، وغادرت غطفان مواقعها، ثم انسحب الفرسان، ولما أصبح الصباح وجد رسول الله ﷺ، أن الأحزاب قد ذهبوا، فانصرف إلى المدينة راجعاً،ووضع المسلمون السلاح. وانتهت غزوة الأحزاب، وانتهت مؤامرة اليهود، وباء الجميع بالفشل، وكانت هذه آخر إغارة على المدينة أو آخر حرب يشنّها المشركون واليهود إذ أصبح المسلمون بعدها هم الأقوياء ويقومون بالجهاد ونشر الدعوة ، وقتال كل من يقف في وجه الإسلام مهما بلغت قوته.

وقد استشهد ثمانية من المسلمين في هذه المعركة، وكلهم من الأنصار، اثنان منهم كانا يقومان بأعمال الدورية لنقل أخبار الأحزاب إلى رسول الله ﷺ، فقبض عليهما المشركون، وقتلوهما. وكان عدد قتلى المشركين أربعة فقط.

الفصل الثالث

تَوَسّع الدّولَـةِ الإسْلاميّة

تجمعت الأحزاب ليقضوا على المسلمين وينتهوا منهم، وهؤلاء الأحزاب هم أعداء الله جميعاً في الجزيرة العربية، اليهود والمنافقون في داخل المدينة، وقريش والأعراب في خارجها. وفشلت الأحزاب بل وخرجت متنافرة لا يثق بعضها ببعض. وانصرف الأحزاب، وكان على المسلمين أن يضربوا عدواً بعد عدو إذ افترقوا بعد اتفاق، وكانت الضربة الأولى يجب أن تتوجه إلى يهود بني قريظة يعيشون مع المسلمين في ضاحية المدينة، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه، عندما وجدوا أن قوة تحيط بالمسلمين، ومعنى هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدر جديد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن التوسع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيء ثم يكون الانطلاق خارجه، ويطهر جزء بعد جزء، والبدء باليهود لذلك أمر طبيعي حيث أن المنافقين يظهرون الإسلام ويحقدون على أتباعه، ولا يعرفهم المسلمون كلهم. وإنما يعرف بعضهم أفراداً منهم من تصرفاتهم، ولما كنا غير مكلفين بالشق على القلب ومعرفة الخفايا فإننا نحكم على الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا على أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجدوا قوة تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبزغ قرن النفاق ويظهر جلياً، أما إذا قوي المسلمون اختفى المنافقون وزاد إظهارهم للنسك والطاعة.

غزوة بني قريظة:

عندما نفض بنو قريظة يدهم من قريش وغطفان في غزوة الأحزاب آخر الأمر، رأوا أن يناوروا ويخاتلوا على المسلمين خوفاً على حياتهم،

فطلبوا من رسول الله ﷺ، أن يعيدوا العهد الذي بينه وبينهم شريطة أن يعود بنو النضير إلى ديارهم إلا أن الرسول ﷺ، قد رفض ذلك لما رأى من غدرهم. فلما انصرف الأحزاب، وعاد المسلمون من الخندق، ووضعوا السلاح، إذا بأمر من السماء يأتي به جبريل، عليه السلام، فيقول له: «أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟» قال: «نعم»، قال: ما وضعت الملائكة السلاح، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزلهم.

أمر رسول الله ﷺ، مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فأسرع المسلمون إلى بني قريظة، ومنهم من صلى بالطريق، وأخذ الأمر على باب السرعة، ومنهم من لم يصل حتى وصل إلى هناك حسب الأمر فصلى متأخراً، وفي غير وقت الصلاة وعندما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، لم يعنف أحد الطرفين، ولما رأى بنو قريظة المسلمين دخلوا حصونهم، واعتصموا بها، ودخل معهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وحاصرهم رسول الله ﷺ، خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحصار، ورأوا أنهم سيموتون جوعاً إن استمر، قال لهم سيدهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم؛ قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم، ونسائكم؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك، نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء؛ قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا

لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة؛ قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً، وألقى باللوم على حيي بن أخطب الذى حملهم على الغدر بالمسلمين ونقض عهد رسول الله ﷺ.

وطلب بنو قريظة من رسول الله ﷺ، أن يسمح لهم بالجلاء عن ديارهم بالشروط التي جلا فيها بنو النضير، بحيث يحملون أموالهم معهم، ويتركون سلاحهم، فلم يقبل رسول الله ﷺ منهم، وإنما طلب منهم أن ينزلوا لحكمه دون شروط، ثم طلبوا منه أن يرسل إليهم أحد حلفائهم من الأوس ليستشيروه، وهو أبو لبابة بشير بن عبد المنذر، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكت النساء والأولاد في وجهه فأشفق عليهم، وسألوه: هل ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زلت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ، بل ذهب إلى المسجد فربط نفسه في أحد أعمدته، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وعاهد الله، ألا يطأ بني قريظة أبداً، حتى لا يرى أبداً في بلد خان فيه الله ورسوله.

استبطأ رسول الله ﷺ، أبا لبابة فسأل عنه، فقيل له: فعل كذا وكذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم تاب الله عليه وأنزل في توبته: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وعندما علم أبو لبابة بما أنزل الله في توبته أراد أن يتصدق بكل ماله تتمة لتوبته، ولكن رسول الله ﷺ، قال له: «يجزئك الثلث أن تتصدق به».

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

انهارت معنويات بني قريظة رغم أنهم داخل حصونهم، وفيها مؤنهم، على حين كان المسلمون في العراء، ويتعرضون للفحات برد الشتاء القارصة، ومع الجزع الشديد الذي أصاب اليهود، إلا أنهم ماطلوا في الاستسلام مع أنهم لم يكونوا ينتظرون نجدة من أية جهة، واشتد على المسلمين الموقف، ورأوا ما أصاب اليهود من انهيار، ، لذا هدد المسلمون بني قريظة باقتحام الحصون عليهم إن لم يسرعوا في التسليم، ولم يكن بدّ عند اليهود من ذلك لما لحقهم من خوف وذعر، وخاصة عندما وجدوا المسلمين قد هموا فعلاً بالانطلاق، فأعلن بنو قريظة استسلامهم، وفتحوا أبواب حصونهم، وألقوا سلاحهم، وخرجوا. فأمر رسول الله ﷺ، أن توضع القيود في أيدي الرجال، ويعزلوا في جانب بإشراف محمد بن مسلمة، ثم نقلوا إلى المدينة حيث سجنوا في دار أسامة بن زيد. أما النساء والأطفال فقد عزلوا في جانب آخر، ونقلوا إلى المدينة أيضاً حيث أُنزلوا في دار إحدى النساء من بني النجار، وكان ينزل فيها الوفود عادة. وكان عدد الرجال تسعمائة مقاتل، والنساء والأطفال يقاربون ذلك أو يزيدون قليلا، وقد يصلون إلى الألف.

وقد ذكرنا أنه كانت في الجاهلية أحلاف بين يهود وسكان المدينة من الأوس والخزرج، وكان الأوس قد حالفوا بني قريظة، على حين حالف الخزرج بني قينقاع، وبني النضير. ولقد شفع الخزرج في حلفائهم بني قينقاع وبني النضير عندما أجلوا عن المدينة، كما مر معنا، وقد لعب آنذاك عبد الله بن أُبيّ دوراً في ذلك حيث يُعدّ من وجهاء الخزرج وأعيانهم. ولما رأى الأوس بني قريظة في سجنهم، وذكروا قبول وساطة الخزرج بحلفائهم عند رسول الله ﷺ، ذهب بعضهم إلى الرسول وقالوا له: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: «فذاك سعد بن معاذ». فطمع الأوس في أن ينجو بنو قريظة من القتل على الرغم من معرفتهم بما ارتكبوه من جريمة شنعاء في حق المسلمين في الغدر بهم،

ونقض عهودهم، وأسرع عدد من الأوس إلى سيدهم سعد بن معاذ يطلبون منه الرأفة بمواليه، وكان سعد جريحاً مما أصابه يوم الخندق، ومقيماً في خيمة في المسجد النبوي، وتشرف عليه رفيدة إحدى الصحابيات الجليلات، فحملوا سعداً إلى رسول الله ﷺ، على حمار، ولما كلموه في الرحمة والرفق بمواليه أجابهم: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، عندها يئس الأوس من الرفق ببني قريظة، وعلموا أن مصيرهم الإعدام لا محالة.

وصل سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ، للأنصار: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه»[1]، فقاموا وأنزلوه، فقال له رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم يا سعد». فقال سعد: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال عليه الصلاة والسلام: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فوقف سعد واتجه إلى الأوس خاصة وإلى من في المعسكر عامة، وقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ قالوا: نعم، ثم اتجه إلى الجهة التي فيها رسول الله ﷺ، وهو مطرق رأسه إجلالاً لرسول الله ﷺ، وإكباراً، وقال: وعلى من هنا وأشار بيده إلى جهة رسول الله ﷺ، فقال نبي الله عليه أفضل الصلاة والسلام: «نعم»، ثم اتجه إلى بني قريظة المسجونين فقال لهم: أترضون بحكمي؟ فقالوا: نعم، ومع خوفهم الشديد، وارتجاف حواسهم كلها، فقد بقي عندهم أمل من الرجاء في العفو. واتجهت الأنظار نحو سعد لا تكاد تتحرك شاخصة كأنها تريد أن تستخرج الكلمة من لسان سعد، فإذا به يقول: أحكم في بني قريظة أن تُقتّل الرجال، وأن تُسبى النساء، وأن تكون أموالهم غنيمة للمحاصرين لهم من المسلمين، وأن تكون ديارهم كلها للمهاجرين دون الأنصار. فقال

---

(١) يستدل بعضهم بهذا الحديث على وجوب القيام للرجل الكبير أو العالم أو. . . ولا دلالة فيه، لأن سعداً رضي الله عنه، كان جريحاً يحتاج إلى المساعدة لينزل عن الدابة كما أن هناك فرقاً بين القيام إلى فلان والقيام له، وكان الصحابة لا يقومون لرسول الله ﷺ لما يعلمون من كراهته لذلك.

رسول الله ﷺ، لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». ثم أمر رسول الله ﷺ، بحفر خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناق بني قريظة، جماعات جماعات، وألقيت جثثهم في الخندق، وكانوا إثر قتل كل جماعة يوارون جثهم بالتراب. وكان بين القتلى امرأة واحدة اسمها (مزنة) قتلت خلاد بن سويد بحجر طاحون من فوق الحصن، وكان خلاد يستظل في ظل الحصن أثناء الحصار، فعدّت بين المقاتلين وقتلت. ووزعت الغنائم بين المحاربين بعد استبقاء خمسها، كما وزعت السبايا وأمر رسول الله ﷺ، ألا يفرق بين الأم وولدها، وعن عبادة بن الصامت، أن النبي ﷺ، قال: «لا يفرق بين والدة وولدها» فقيل: إلى متى؟ قال: «حتى يبلغ الغلام، وتحيض الجارية».

أما سعد بن معاذ لم يلبث أن انفجر عليه جرحه ومات شهيداً، رضي الله عنه، وهكذا فقد تحققت أمنيته، وسُمع دعاؤه بألا يموت حتى تقرّ عينه من بني قريظة، وذلك حين أصيب يوم الخندق إذ قال ـ كما ذكرنا ـ: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة.

وكان تقتيل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، يدل على حكمة بالغة، إذ أن كثيراً من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم بعد المقدرة، والظن بهم خيراً بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يشجعهم على القيام بأعمال ضد المسلمين ثم يرجون العفو...

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا أن سعداً، رضي الله عنه، حين حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملاً، لذا كان معهم حازماً، وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة، وأن للعطف موضعه،

وأن للحزم موضعه أيضاً، وأن الأعداء عندما يتمادون في غيهم لا بد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعاً كما أبيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درساً لمن عاش أيامهم ولمن يعيش من بعدهم. وكان في مقتل بني قريظة الانتهاء من العدو الداخلي، والاتجاه نحو العدو الخارجي.

قتل سلام بن أبي الحقيق:

كان من الذين حزبوا الأحزاب سلام بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير الذين أقاموا في خيبر بعد أن أجلاهم رسول الله ﷺ، عن المدينة. وقد خرج خمسة رجال من المدينة من الأنصار من الخزرج بأمر رسول الله ﷺ، إلى خيبر، وقتلوا هذا الطاغية في بيته ليعلم الطغاة أن أيدي المسلمين بإمكانها أن تصل إليهم، وتنال منهم، ولو كانوا داخل بيوتهم، في منأى من الأرض، حتى لا يعودوا إلى معاداة المسلمين والعمل ضدهم وضد دعوتهم، ويجب أن ينتبه الدعاة إلى أن فعل رسول الله ﷺ، هذا لم يكن إلا بعد أن صار للمسلمين دولة.

زواج رسول الله ﷺ، بزينب بنت جحش:

كانت حياة زينب بنت جحش، رضي الله عنها، ساحة لتطبيق بعض الأحكام، وتغيير بعض المفاهيم. لقد كانت زينب ابنة عمة رسول الله ﷺ، أميمة، وكان لها من طيب الأصل والجمال ما تفتخر به على غيرها. وأراد رسول الله ﷺ، أن يزوجها من مولاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، فأبدت هي وأهلها جفاء وتمنعاً من هذا الزواج إذ وجدوا هذا الزوج غير كفء لابنتهم الجميلة ذات الشرف والجاه، لأنه من الموالي، إلا أن الإسلام لا يعرف هذه الطبقات التي اعتاد الناس أن يصنفوا أنفسهم فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. لذا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

لم يكن رسول الله ﷺ، ليقبل هذا التمنع منهم، وأصر على ذلك، ولم يكن لهم من الأمر شيء ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1]. وتم الزواج.

وأراد الله ـ عز وجل ـ أن يلغي التبنّي، إذ أن هذه الظاهرة كانت شائعة في الجاهلية، واستمرت في الإسلام، حتى أراد الله عزّ شأنه أن يلغي تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسرة، وما يتعلق بذلك من إرث وغيره. وكان رسول الله قد تبنّى زيداً، لذا كانوا يدعونه زيد بن محمد. فأنزل سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾[2]. إلا أن الحياة الزوجية لم تستقم بين زيد وزينب، ولم يطيقاها، واستشار زيد رسول الله ﷺ، في طلاق زينب، وبيّن له بعض الأسباب الداعية إلى ذلك؛ فطلب منه رسول الله ﷺ، أن يتريث، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر رسوله بأنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد، وتنقضي عدتها، إلا أن رسول الله ﷺ، كان يخشى إظهار ذلك لأن الناس سيقولون: إن محمداً قد تزوج زوجة متبناه وكان هذا محرماً في الأعراف التي كانت سائدة آنذاك، إذ يعدون المتبنى كابن المتبني فعلاً، ولم يحرمه الإسلام بعد، ولكن الله سيأمر بذلك، وسيطلق زيد زينب، وسيتزوجها محمد، لأنه الوعد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾[3]. وهكذا ألغي التبني، وتزوج رسول الله ﷺ، بزينب بنت جحش، رضي الله عنها، وفرض الحجاب، كما فرض الحج في هذه الآونة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

أما العدو الثالث فقد كان الأعراب، فأراد رسول الله ﷺ أن يؤدبهم، قبيلة قبيلة، ما داموا متفرقين، حتى لا يفكروا أبداً في الإغارة على المدينة بعد ذلك، ولكيلا يفكروا في التجمع وتأليف الأحزاب في محاولة للهجوم على المدينة والقضاء فيها على الإسلام. وجهز لذلك السرايا وسار في الغزوات، ومنها:

١ ـ سرية محمد بن مسلمة:

أرسله في بداية السنة السادسة للهجرة في ثلاثين راكباً لشنّ غارةٍ على بني بكر بن كلاب الذين كانت منازلهم إلى الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ثمانين ومائتي كيلومتر منها على طريق البصرة، واستطاع أن يفاجئهم في ديارهم فقتل عشرة منهم وفرّ الباقون، ورجع محمد بن مسلمة إلى المدينة ومعه الغنائم من الأنعام والأغنام، وأثناء عودته أسر ثمامة بن أثال أحد وجهاء بني حنيفة في نجد، وبقي ثلاثة أيام في المدينة أسيراً، وقد رفض أن يسلم، ثم أطلقه رسول الله ﷺ، بعد أن أكرمه، ثم عاد فأسلم، وثبت حين ارتدّ قومه.

٢ ـ غزوة بني لحيان:

غزا رسول الله ﷺ، بني لحيان الذين قتلوا عاصم بن ثابت في حادث ماء الرجيع، بعد أن أظهر رسول الله ﷺ، أنه يريد الشام، وقد كان معه مائتا راكب، ووصل إلى ماء الرجيع، فتفرق بنو لحيان في الجبال، وأرسل وراءهم من يطاردهم، فلم يعثروا على أحد، كما أرسل بعض أصحابه إلى عسفان لكي يعلم عن طريقهم أهل مكة فيقع الرعب في نفوسهم، ثم عاد مع أصحابه.

٣ ـ غزوة الغابة:

أغار عيينة بن حصن في أربعين راكباً على الغابة التي تبعد ٤٠ كيلاً عن المدينة إلى جهة الشرق، والتي يوجد فيها عشرون من الإبل

لرسول الله ﷺ، فاستاقها من راعيها، وفرَّ، وخرج رسول الله ﷺ، في أثره بعد أن أرسل له من يشاغله حتى تصل النجدة، ولكنه نجا إلا أن المسلمين قد خلصوا أكثر الإبل التي سرقت.

٤ ـ سرية عكاشة بن محصن:

كان بنو أسد يؤذون من يمر ببلادهم من المسلمين، فأرسل لهم رسول الله ﷺ، عكاشة بن محصن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، فلما علموا، هربوا من وجه عكاشة، وغنم المسلمون في هذه السرية مائة من الإبل.

٥ ـ سرية محمد بن مسلمة الثانية:

أرسل رسول الله ﷺ، محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين للإغارة على الأعراب الذين يقيمون قرب المدينة، وقد بلغه أنهم يريدون الإغارة على إبل المسلمين هناك، فكمن الأعراب لسرية المسلمين، وتمكّنوا من قتلهم، ولم ينج منهم إلا أمير السرية محمد بن مسلمة ظناً منهم أنه قد قتل فعاد إلى المدينة، فأرسل لهم رسول الله ﷺ، أبا عبيدة بن الجراح ليثأر منهم، فلما علموا به فرّوا من وجهه.

٦ ـ سرية زيد بن حارثة:

بعث رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة على رأس سرية لتغير على بني سُليم الذين كانوا مع الأحزاب، فلما وصل إلى ديارهم، تفرّقوا، وفرّوا من أمامه، وعادت السرية بالغنائم من الأنعام والأغنام.

٧ ـ سرية زيد بن حارثة الثانية:

بعث رسول الله ﷺ، زيد بن حارثة على رأس مائة وسبعين راكباً، ليعترض قافلة آيبةً من الشام في طريقها إلى مكة، واستطاع زيد أخذ القافلة، وأسر رجالها، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت

رسول الله ﷺ، ولم يكن قد أسلم بعد فاستجار بزوجه زينب فأجارته، فقال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت» وردّ رسول الله ﷺ، إليه ماله كله، فسار إلى مكة، فأعطى الأمانات، وأدّى لكل رجلٍ ماله، ورجع إلى المدينة مسلماً.

٨ ـ سرية زيد بن حارثة الثالثة:

وانطلق زيد بن حارثة للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة، وكان في خمسة عشر مقاتلاً، فلما رآهم بنو ثعلبة ظنّوا أنهم طليعة جيش المسلمين الكبير، ففرّوا، وتركوا حيواناتهم، فاستاقها المسلمون، وعادوا بها إلى المدينة.

٩ ـ سرية زيد بن حارثة الرابعة:

كان زيد في تجارة في الشام فلما عاد تعرّض له بنو فزارة المقيمون في وادي القرى، فأخذوا تجارته، وكادوا يقتلونه، فلما وصل إلى المدينة، أرسله رسول الله ﷺ، مع رجاله للإغارة على بني فزارة المعتدين، فسار إليهم حتى داهمهم، وأحاط بهم، وقتل منهم عدداً كبيراً.

١٠ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف:

أرسل رسول الله ﷺ، عبد الرحمن بن عوف في سبعمائة رجل إلى بني كليب في دومة الجندل، فلما وصل إليهم دعاهم للإسلام مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيسهم الأصبغ بن عمرو، وكان نصرانياً، ثم أسلم أكثر قومه، ومن بقي منهم قبل بدفع الجزية.

١١ ـ سرية علي بن أبي طالب:

بعث رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب في مائة مقاتل لغزو بني سعد بن بكر بجهات فدك، لأنه وصل إلى رسول الله ﷺ، خبر مفاده أنهم

يجمعون جموعهم لمعاونة اليهود في خيبر لمحاربة المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر من التمر، فسار عليّ، وفي طريقه قبض على جاسوس للأعداء في طريقه إلى خيبر لعقد المعاهدة، فأمّنه، وقد دلّه على قومه، فساروا إليهم، وفي الطريق أخذوا الحيوانات، وقد هرب رعاتها، وخوّفوا قومهم، ففرّوا، وقد استغنوا عن حيواناتهم، وعاد المسلمون بها، وعددها خمسمائة بعير وألف شاة.

١٢ ـ سرية عبد الله بن رواحة:

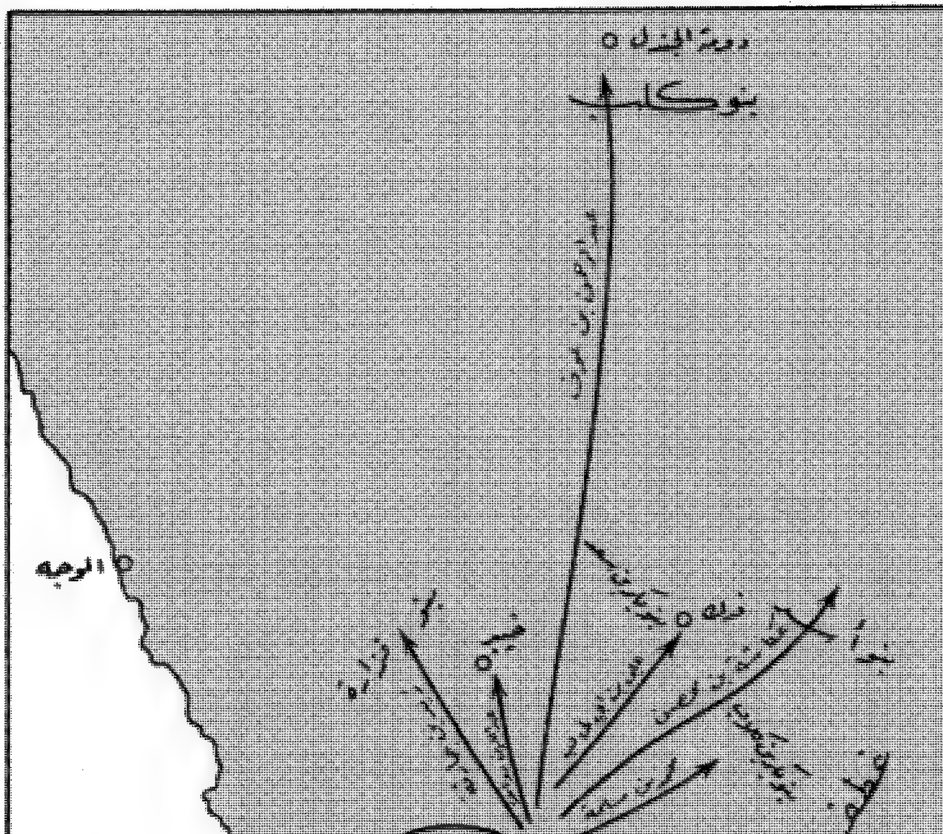
لما قتل سلام بن أبي الحقيق، ولّى يهود خيبر عليهم أسير بن رزام، فأراد أن يتفق مع غطفان كلها لمحاربة رسول الله ﷺ، فوصل الخبر إلى المدينة، فبعث رسول الله ﷺ، عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً من الأنصار، فعرضوا على أسير بن رزام أن يسير إلى المدينة، فيوليه رسول الله ﷺ، على خيبر فيكون عاملاً لرسول الله ﷺ، على اليهود فيها، ويترك ما عزم عليه من الحرب، ويعيش اليهود عندها بسلام، فوافق أسير على ذلك.

كان هدف رسول الله ﷺ، أن ينتهي من الجبهة الشمالية التي قوامها اليهود، ليلتفت إلى الجبهة الجنوبية التي قوامها قريش.

سار أسير بن رزام إلى المدينة مع ثلاثين من اليهود، كل يهودي رديف لمسلم، فلما كانوا في الطريق ندم أسير بن رزام على ما فعل، ورأى أن يقتل المسلمين، فمدّ يده إلى سيف عبد الله بن رواحة يريد انتزاعه منه وقتله به، فقال له عبد الله بن رواحة: أغدراً يا عدو الله! ثم نزل وقتله، وقام المسلمون على من معهم من اليهود، وقتلوهم جميعاً.

١٣ ـ أرسل أبو سفيان رجلاً ليغدر برسول الله ﷺ، في المدينة ولكنه كُشف أمره، وأسلم الرجل، وأرسل رسول الله ﷺ، عمرو بن أمية الضمري ورفيقاً له ليقتلا أبا سفيان جزاءً له، فلما وصلا إلى مكة طافا بالبيت قبل القيام بالمهمة، فعرفهما أهل مكة، فلم يجدا بداً من الهرب.

١٤ ـ جاء إلى رسول الله ﷺ، في المدينة جماعة من قبيلة عكل وعرينة، وأظهروا الإسلام، وبايعوا رسول الله ﷺ، فلم يوافقهم جو المدينة،


دومة الجندل
بنو كلب
الوجه
خيبر
فدك
المدينة
ينبع
رابغ
جدة
مكة المكرمة

فأصابهم المرض، فأرسلهم رسول الله ﷺ، مع راع وإبل إلى خارج المدينة، فعُوفوا ، وكان جزاء الإحسان، أن قتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ، في أثرهم كرز بن جابر الفهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم، وقبضوا عليهم جميعاً، وأعادوهم إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ، أن يُمثّل بهم كما مثّلوا بالراعي، كمعاملة بالمثل حتى لا يطمع المشركون في رحمة المسلمين.

لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلى الأعراب وإلى أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعراب المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوة في المنطقة، وأصبح كل إنسان يريد أن يتعرّف على هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام، فإن هناك من يحميه، وإذا هاجر إلى المدينة فقد وصل إلى مأمنه.

صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ

رأى رسول الله ﷺ، أن العدوّ الداخلي قد انتهى أمره، وأن جو المدينة قد خلص من كل شائبةٍ ظاهرة، وأن الأعراب لا يمكنهم في تلك الظروف القيام بعمل حربي، وأن الخطر إنما يأتي من جبهتين وهما: الجبهة الجنوبية، حيث قريش العدوّ الأول، وبإمكانها القيام بحركةٍ وخاصةً إذا حرّضها ماكر، والجبهة الشمالية، حيث اليهود في خيبر، ولا يمكنهم التحرّك وحدهم، ولكن عندهم إمكانية التحريض، والعمل على تأليف الأحزاب، وهذه طريقتهم المعروفة، ومكرهم الكبير، وعمل المسلمين يجب أن يكون على إحدى هاتين الجبهتين ليتخلص من إحداهما ثم يلتفت إلى الثانية، وما دامت الجبهة الشمالية لا يمكنها التحرك لذا اتجه المسلمون نحو الجنوب، فإن البدء والعمل من الأفضل أن يكون على الجبهة الجنوبية... إذ لو تحرّكوا نحو الشمال ربما هاجمتهم قريش من الجنوب، واستغلّت خلو المدينة من جيشها وانصرافه إلى تأديب اليهود الذين لا يمكنهم الهدوء وترك الناس في راحةٍ، بل لا بدّ من إشعال الحروب ورمي القبائل بعضها مع بعض.

رأى ﷺ، في نومه أنه دخل وأصحابه البيتِ الحرام آمنين مُحلّقين رؤوسهم ومقصّرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، وفي العمرة عبادة وفيها جسّ لنبض قريش ومعرفة لأحوالها، وفيها اعتراف ضمني من قريش بالمسلمين الذين دخلوا عليها مكة، وفيها إظهار لقوة المسلمين الذين جاؤوا إلى قاعدة قريش لا يهابونها، وفيها نصر للمسلمين بين الأعراب، وفيها تعظيم لبيت الله كسائر العرب، البيت الذي بناه أبواهم إسماعيل وإبراهيم،

عليهما السلام، فهم على الحنيفية السمحاء وليسوا بصابئين كما تزعم قريش، إضافة إلى إشعار المستضعفين من المسلمين والموجودين في مكة بقرب الخلاص وبداية الفرج.

واجتمع الأنصار والمهاجرون حول رسول الله ﷺ، للخروج إلى العمرة، وأبطأ عليه الأعراب الذين استنفرهم، وظنّوا ألا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وطلبوا الاستغفار من رسول الله ﷺ لهم. وخرج المسلمون وعددهم ١٥٠٠ رجل، وخرج مع رسول الله ﷺ، أم سلمة، رضي الله عنها، زوجه، وولّى رسول الله ﷺ، ابن أم مكتوم على المدينة، وأرسل العيون أمامه ليأتوه بأخبار قريش، وأحرم من ذي الحليفة، وساق الهدي أمامه، دلالة على أنه لا يريد الحرب، وسار نحو مكة، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان، فقال له: يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل[١]، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة». ثم قال رسول الله ﷺ: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم فيها؟» فسار بهم رجل من أسلم في طريق ذات أحجار، ثم سلك بهم رسول الله ﷺ، طريقاً حتى خرج من ثنية المرار. وهناك بركت ناقة رسول الله ﷺ، فلم تتحرك، فقال الناس خلأت القصواء، فقال ﷺ: «ما خلأت، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة» ثم قال:

---

(١) العوذ المطافيل: يعني خرجوا بأبنائهم ونسائهم، والاصطلاح استعارة من الإبل التي ولدت حديثاً، والإبل التي معها أولادها.

«والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطةً يُعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على حفرة قليلة الماء، فقال للناس: «انزلوا»، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليبٍ من تلك القُلُب فغرزه في جوفه، فجاش بالرَّواء. ولما جلس رسول الله ﷺ، وأصحابه هناك جاءهم بُديل بن ورقاء الخزاعي مع رجال من قومه، فسألوا رسول الله ﷺ: ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لا يريد حرباً، وإنما جاء معتمراً ومُعظّماً لبيت الله، فرجعوا إلى قريشٍ وأخبروهم بما قال محمد ﷺ، فاتهموهم لأن بني خزاعة كانوا نصحة لرسول الله ﷺ، لا يكتمون عنه خبراً من أخبار مكة، وقالت قريش: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تَحدّثُ بذلك عنا العرب. ثم عادت قريش فأرسلت مكرز بن حفص بن الأحنف، فكان أمره كأمر بديل، ثم بعثت الحُليس بن علقمة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رأى الهدي عاد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، إعظاماً لما رأى. وعندما سمع لم تسمع منه قريش غضب وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيُصدّ عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده لتُخلُّنّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأَنْفِرَنَّ الأحابيش نفرة رجلٍ واحدٍ. فبدؤوا يسترضونه. وبعثوا إلى رسول الله ﷺ، عروة بن مسعود الثقفي، فجاءه فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت إلى بيضتك لتفضّها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله، لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. فقال أبو بكر له: امصص بظر اللات، أنحن نكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: «ابن أبي قحافة»، قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك، ولكن هذه بها، وجعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ، وهو يكلمه، فجعل المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ، قبل أن تصل إليك، فيقول له عروة:

ويحك! ما أفظك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ؛ فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»؛ قال: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس، (ذلك أن المغيرة قد قتل قبل الإسلام ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك، فدفع عروة ديتهم عنه، حتى أصلح الأمر بعد هياج الحيين). ثم رجع إلى قريش فقال لهم: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً، فروا رأيكم.

وبعث رسول الله ﷺ، خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش، ليخبر أشرافهم عن سبب مجيء محمد وأصحابه إلى البيت، وأنهم ما جاؤوا إلا معتمرين، فعقروا به الجمل، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله حتى رجع إلى رسول الله ﷺ.

وبعثت قريش خمسين مقاتلاً من رجالها، يجولون حول معسكر المسلمين، علّهم يصيبون أحداً، فقبض المسلمون عليهم وسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، مع أنهم قد رموا العسكر بالحجارة والنبال.

ودعا رسول الله ﷺ، عمر بن الخطاب، ليبعثه إلى قريش، فيخبرها بالذي جاء له رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي لها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجلٍ أعزّ بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ، عثمان بن عفان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش. يخبرهم بالذي جاء له رسول الله ﷺ.

خرج عثمان بن عفان إلى مكة، وفي الطريق التقى بأبان بن سعيد بن العاص، فأجاره، وسار معه حتى دخل مكة، فأتى أبا سفيان وعظماء قريش، وبلّغهم رسالة رسول الله ﷺ، وقالت قريش لعثمان: إن شئت فطف بالبيت، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ. وتأخّر عثمان عن العودة، وشاع خبر بأن قريشاً قتلت عثمان.

وبلغ رسول الله ﷺ، ما أُشيع فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، وبايع الناس جميعاً، ولم يتخلّف إلا الجد بن قيس. ثم ظهر أن تلك الإشاعة كانت باطلة. وأرسلت قريش سهيل بن عمرو ليصالح المسلمين على ألا يدخلوا مكة عامهم هذا، فجاء سهيل رسول الله ﷺ، وتمّ الصلح بعد محادثات، ولم يبق إلا الكتابة. فوثب عندها عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، إلزم أمره، فإني أشهد أنه رسول الله؛ قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله؛ ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني!» فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذٍ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثم دعا رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب فكتب الصلح ونص على ما يلي:

١ ـ أن تضع أوزارها بين الطرفين مدة عشر سنوات، يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢ ـ أن من يأتي محمداً من قريش دون إذن وليه يردّه إليهم.

٣ ـ من جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه.

٤ ـ ألا يكون بين الطرفين عيبة مكفوفة، ولا إسلال ولا إغلال أي لا تظهر عداوة، ولا خيانة، ولا سرقة خفية.

٥ ـ من أحب من القبائل أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. فقالت خزاعة: نحن في عقد محمد وعهده، وقالت بنو بكر: نحن في عقد قريش وعهدهم.

٦ ـ أن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام، ويأتوا في عام قابل ويمكثوا في مكة ثلاثة أيام، وليس معهم إلا سلاح الراكب، السيوف في القُرب.

ولقد كان في هذا الصلح فائدة للمسلمين كبيرة، فالهدنة فسحت المجال للدعوة، وأعطت الفرصة ليتفرغ المسلمون للانتهاء من الجبهة الشمالية والتخلّص من خطر اليهود نهائياً، أما إعادة من جاء مسلماً دون إذن وليه فإن من مصلحة المسلمين أن يكون لهم عيون بين المشركين يخبرونهم بكل خبر، ويرسلون إليهم خبر كل كيد يحاول المشركون أن يكيدوهم به، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يكون لهم من تأثير على معارفهم وأقربائهم، وما يكون من سلوكهم، فانتشار الإسلام لا يكون بطريقة واحدة، وإنما بعدة طرق، منها الدعوة، ومنها التأثير في السلوك، ومنها القوة. . . . وأما عدم إعادة قريش من جاءهم مرتداً، فإنا نكره أن يكون بيننا عيون لأعدائنا، وبالأصل فلا خير فيمن يرتد، بل لو بقي في صفوفنا لوجب قتله ردّةً. وكذلك فإن في هذا الصلح اعترافاً صريحاً من المشركين بالمسلمين بوضعهم وقوتهم، ولقد حرص المسلمون على ذلك مدة ليست بالقصيرة ولربما كان ذلك منذ أن وصل رسول الله ﷺ، مهاجراً إلى المدينة، وأسس دولته فيها، وكان من هذا الاعتراف أن دخلت قبائل في حلف مع المسلمين مثل خزاعة على الرغم من قرب منازلها من ديار قريش. وأما ما كانوا سيستفيدونه من العمرة، فإنه سيتم في العام المقبل. ولكن المسلمين آنذاك لم يدركوا أبعاد هذا الصلح لذا بدا منهم ما بدا من عمر بن الخطاب، ولربما حدثت بعض الأحداث زادت من هذا الشعور أو أوجدته، إذ بينما كان رسول الله ﷺ، يكتب كتاب الصلح هو وسهيل بن عمرو، وقد انتهى من الاتفاق كل شيء، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود إلى رسول الله ﷺ، فقام سهيل إلى ابنه أبي جندل يضربه على وجهه، ويجذبه جذباً شديداً ليرده إلى قريش، ويقول: يا محمد لقد انتهت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال رسول الله ﷺ: «صدقت» وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يامعشر المسلمين، أأُرَدّ

إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل؛ اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم». وأسرع عمر بن الخطاب نحو أبي جندل، ومشى إلى جانبه، وصار يقول له: اصبر، ولكنه يدني منه السيف، فكأنه يقول له: تناوله، واضرب به رأس أبيك سهيل بن عمرو، ثم انج بنفسك إلى جانب المسلمين. وهكذا كانت عهود المسلمين لا تنقضها أمور نفسية أو عواطف أو مصالح دنيوية، وإنما يستمسك بها ما تمسك بها الآخرون.

وتمّ عقد الصلح، وما على المسلمين بعده إلا الحِل والرجوع إلى المدينة، فطلب رسول الله ﷺ، من أصحابه الحل، فتوانوا جزعاً مما حدث، فدخل رسول الله ﷺ، إلى خيمته وفيها زوجه أم سلمة، فقال: «يا أم سلمة، هلك المسلمون»، فقالت: وما صنعوا؟ فقال: «أمرتهم فما أطاعوا، طلبت منهم أن يحلّوا فلم يفعلوا»، فقالت، رضي الله عنها: لو فعلت أمامهم لاتّبعوا، فخرج رسول الله ﷺ، فحلق رأسه، ونحر هديه، فتسابق المسلمون إلى ذلك محلقين رؤوسهم ومقصرين، وكل يسرع إلى هديه ينحره.

وعاد رسول الله ﷺ، وأصحابه إلى المدينة، وما أن وصلوا إليها حتى أتاهم أبو بصير، عتبة بن أسيد بن جارية، وكان ممن حبس في مكة التي كان فيها عدد من أمثاله كالوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وما إن وصل أبو بصير حتى جاء في أثره رجل من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى، وقد قدما إلى رسول الله ﷺ، بكتاب من الأخنس بن شريق، وزهر بن عبد عوف، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك»، قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني! قال:

«يا أبا بصير، انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»، فانطلق معهما، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، أخذ سيف العامري، وقتله به، وهرب المولى راجعاً إلى رسول الله ﷺ، وكذا رجع أبو بصير، وقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني للقوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن، أو يعبث بي، فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه الرجال».

وخرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر بين مكة والمدينة على طريق قريش التي كانوا ينتقلون عليها إلى الشام، وخرج بعض المستضعفين من مكة إلى أبي بصير، فاجتمع عنده سبعون منهم، يقتلون من قريش من وجدوا منها، ويأخذون من العير ما التقوا بها، حتى ضاقت قريش بهم ذرعاً، وكتبت إلى رسول الله ﷺ، ترجوه أن يؤويهم، وتسأله ذلك بأرحامها، فاستدعاهم رسول الله ﷺ، فقدموا المدينة، وأقاموا بها.

وجاءت إلى رسول الله ﷺ بالمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة، حتى قدما المدينة ليرداها وفق صلح الحديبية، فرفض رسول الله ﷺ، ذلك.

غَزوَة خَيْبَر :

رجع رسول الله ﷺ، من الحديبية في أواخر ذي القعدة، وأقام في المدينة ما يقرب من شهر ونصف، ثم أمر بالاستعداد للمسير إلى خيبر، ولم يورّ رسول الله ﷺ، في حركته هذه، وكان أهل خيبر لا يشكّون في أنه سيسير إليهم عندما تتهيأ الفرصة المناسبة، بعد أن فعلوا ما فعلوه من تحريض على غزو المدينة، وجمع الأحزاب في غزوة الخندق.

وأراد الأعراب أن يسيروا معه في هذه الغزوة، وهم الذين تخلّفوا عنه يوم الحديبية، وظنوا أن لن ينقلب هو والمسلمون إلى أهليهم أبداً، وادّعوا يومذاك أنهم قد شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فلما عاد المسلمون من الحديبية ظافرين، وأرادوا التوجّه إلى خيبر، رغب الأعراب في المشاركة في هذا

السير، وما شكّوا أنهم سيحصلون على مغانم كثيرة يأخذونها، إلا أن الرسول ﷺ، رفض أن يصحب معه إلا من سار إلى الحديبية، إذ هؤلاء الأعراب لم تكن غايتهم الجهاد في سبيل الله، ولا صحبة رسول الله ﷺ، ولا قتال أعداء الله، وإنما المغانم فقط.

ولننظر إلى الوضع في المدينة قبل أن يتحرّك الجيش نحو خيبر، لقد استاء المنافقون كثيراً من تحرّك المسلمين نحو خيبر، وعلموا أن وضع اليهود هناك سينتهي، وسينتهي معه كل قاعدة يمكن أن يستندوا عليها، لذا فقد أخبر رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ يهود خيبر بتحرّك المسلمين، وشجّعهم على الثبات والمقاومة. وكان في المدينة أيضاً بعض اليهود على شكل أسر أو مجموعات صغيرة. لم يشاركو في غدر بني قريظة، لذا لم يتعرض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أملاكهم، وأموالهم، وأعراضهم، في ذمة الله وذمة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدة، وأكثر المسلمون يستدين منهم، وما إن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، على الرغم من قلتهم، وحياتهم في أمن وطمأنينة، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي ظل حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنوياتهم بالتحدث عن قوة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي: أن أحد جند المسلمين إلى خيبر قال: فلما تجهزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك ـ إن شاء الله ـ إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الأعراب، فيها ـ والتوراة ـ عشرة

آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ، يحرك شفتيه بشيء لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم هذا قد ظلمني، وحبسني بحقي، وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: أعطه حقه. قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليَّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين، ونفلني الله خيراً، وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال[1].

تحرّك الجيش الإسلامي نحو خيبر، وعدده ألف وخمسمائة مقاتل، ومنهم مائتا فارس، وقد أمن الجبهات الأخرى، فهناك هدنة مع قريش، والأعراب لا يستطيعون القيام بعمل بعد الغزوات والسرايا التي سارت إلى كل جهة منطلقةً من المدينة، ويهود المدينة ليسوا سوى أفراد لذا فلن يوضعوا بالحساب كما سبق أن قلنا: إن الوضع الداخلي في المدينة قد خلا من كل شائبة أي: ذات قوة. ولما كان وضع المنافقين واليهود في المدينة - كما علمنا - ولا بد لهم من إعلام يهود خيبر، وقد فعلوا، لذا أعلن رسول الله ﷺ، أنه قاصد خيبر، ولم يورّ كعادته.

وصلت أخبار المدينة إلى خيبر، وبدأ اليهود بالاستعداد، وفرّوا إلى حصونهم، وأخلوا الحصون الأمامية من النساء والأطفال، فنقلوهم إلى الحصون الخلفية التي ملؤوها بالمؤن والعتاد حساباً لكل طارئ. أما القتال فقد اختلفوا فيه، فبعضهم رأى أن يقاتلوا - كعادتهم - من وراء الحصون. حتى يمل المسلمون من الحصار فينسحبوا فاشلين، ورأى بعضهم الآخر أن يواجهوا المسلمين في العراء حتى إذ دعت الحاجة رجعوا إلى حصونهم،

---

(١) الواقدي: ٢/ ٦٣٤.

ورأى بعضهم أن يسرعوا فيغزوا المدينة قبل أن يتحرّك المسلمون منها، ويستنجدوا باليهود في فدك، وتيماء، ووادي القرى، والأعراب من أهل الشرك حيث إن المسلمين عدو مشترك لهم جميعاً، ولكن فكرة القتال داخل الحصون هي التي غلبت، وإن كانت طلبات النجدة قد حصلت على الموافقة، وبالفعل فقد جاءت نجدات لا تقلّ عن ألف مقاتل من غطفان وبطونها فزارة، وبني أسد، وكانوا بقيادة عيينة بن حصن الفزاري، وطلحة بن خويلد الأسدي، وفي الوقت نفسه فقد وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل تكون سنداً وقت الطلب، ودخلت الفرقة الأولى مع اليهود في حصونهم، فكان عدد الذين داخل الحصون أحد عشر ألفاً من المقاتلين. ولكن بعض الأعراب قد رفضوا نجدة يهود خيبر، ومنهم بنو مرّة الذين شاركوا في غزوة الأحزاب، وهم الآن يرفضون الاشتراك في القتال، بل نصحوا غيرهم بعدم تورطهم في مساندة اليهود الذين سيغلبون حسبما سمعوا من أحبار يهود أنفسهم، إلا أن النصح لم يفد هؤلاء الأعراب، وأصرّوا على البقاء بجانب حلفائهم اليهود، كما أن رسول الله ﷺ، حرص على ألا يشترك الأعراب بمناصرة اليهود خوفاً على جنده من الحصار فيما إذا تحرك الأعراب خلف المسلمين بعد مغادرتهم المدينة، واقترابهم من خيبر، واتصل بزعماء الأعراب بواسطة الرسل، ولكن ذلك لم يفد أيضاً.

سار جيش المسلمين نحو خيبر، تتقدمه جماعة من الاستطلاع بإمرة عباد بن بشر أحد قادة الحرس النبوي خوفاً من كمائن العدو، ولكشف الطريق، والقبض على الجواسيس قبل أن يتعرفوا على الجيش الإسلامي. وأثناء تحرك الجيش نحو الشمال اندفعت وراءه قوة الأعراب المؤلفة من أربعة آلاف مقاتل، ولكنها لم تلبث أن ولّت الأدبار باتجاه ديارها إذ خطر لها أن يكون في بلادها قوات تسوق الذراري والأنعام ورجالها عنها بعيدون.

وربما يتساءل بعض الناس كيف خاطر رسول الله ﷺ، بجيشه الذي لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل بالسير إلى خيبر وفيها أحد عشر ألفاً من المقاتلين، تحميهم حصونهم، وتجمع أبنيتهم الأقوات الكثيرة، وفوق

كل هذا فهناك أربعة آلاف من المقاتلين الأعراب الذين يمكنهم أن يتحركوا خلف الجيش الإسلامي، ويجعلوه محصوراً بين قوتين أقلها أكثر من ضعفه، وأكبرها تزيد على ستة أضعافه، وأن حركة الجيش كله ستكون فوق أرض العدو، وأكثر المسلمون يجهلونها؟ والواقع فإن كل المعارك التي خاضها المسلمون أول عهدهم لم تكن لينطبق عليها التقويم والتقدير العسكري، فهي خاسرة كلها بالحساب العسكري، ولكنها نجحت جميعها، وكانت نتيجتها النصر المؤزر، بل نستطيع أن نقول: إن أكثرها معارك حاسمة، والسبب في ذلك المعنويات القتالية العالية التي كان يتمتع بها المسلمون فثقتهم بنصر الله وتأييده تلعب الدور الرئيسي، وشجاعتهم بل ومخاطرتهم في القتال من أجل كسب النصر أو الحصول على الشهادة كانت السبب الثاني في غلبتهم لأعدائهم، ثم هناك عدم تفكيرهم إلا في الحرب وترك كل ما يجول في أذهانهم من أمور الدنيا، وجعل القتال خالصاً في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وعبقرية القائد العسكرية، والرعب الذي يتملك نفوس أعدائهم، وحرص خصومهم على الدنيا، كل هذه الأشياء لعبت دورها في تلك المعارك، وما كانت غزوة خيبر إلا إحدى هذه المعارك وصورة عنها.

وصل رسول الله ﷺ، مع جيشه إلى ضواحي خيبر فبات هناك، وفي الصباح توجّه إلى خيبر - كعادته في عدم الهجوم ليلاً - وأرسل علياً فدعا أهل خيبر إلى الإسلام، فلم يقبلوا، فبدأ الهجوم الإسلامي، وكانت خيبر قسمين: القسم الأول يمثل خط الدفاع الأول، وفيه خمسة حصون: ثلاثة منها في منطقة تسمى «النطاة»، واثنان في منطقة تسمى «الشق» والقسم الثاني: يمثل خط الدفاع الثاني، وفيه ثلاثة حصون.

بدأ الهجوم الإسلامي من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود باتجاه إخوانهم في تيماء، ووادي القرى، وفدك، ونحو بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة النطاة، وقد لقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات أبواب الحصون، واندفعوا نحو المسلمين يقاتلونهم، حتى إذا

رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أصيب عدد من المسلمين يومذاك بجراح نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم، فوجد المسلمون أن موقعهم كان غير مناسب إذ كانوا عرضة للنبال فالمكان مكشوف، والحصون مرتفعة تطل على معسكر المسلمين بسهولة، إضافة إلى أن المعسكر وجد في منطقة موبوءة بين النخيل، الأمر الذي استدعى إلى تغيير مكان المعسكر في الليل بعد أن أتموا نهارهم الأول في القتال.

قاوم اليهود في النطاة مقاومةً عنيفةً، وخاصة أمام أول الحصون وهو حصن (ناعم) الذي لم يفتح حتى قتل قادة المدافعين عنه وهم: مرحب وأخواه: الحارث أبو زينب، وياسر، وبعد ذلك اقتحمه المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب، ثم انتقل المسلمون لحصار الحصن الثاني في منطقة (النطاة) بقيادة الحباب بن المنذر، وقد تم الاستيلاء عليه بعد قتال عنيف، وخرج اليهود عدة مرات يشنون الهجوم على المسلمين، وقد قتل فيه سلّام بن مشكم، وحصل منه المسلمون على غنائم كثيرة، فرَّجت عنهم ما كانوا فيه من ضائقة، هذا بالإضافة إلى الأسلحة الكثيرة التي حصلوا عليها منه، أما الحصن الثالث فقد قاوم مدة، ثم قطع المسلمون المياه عنه بعد أن عرفوا منابعها من أحد اليهود، فاضطر اليهود للخروج منه والقتال بضراوة ولكنهم هزموا، ودخل المسلمون الحصن، وبذا انتهت منطقة النطاة كلها.

وفتح المسلمون حصون منطقة «الشق» بعد قتال عنيف، وأخذوا منها السبايا، ومنهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت زوج كنانة بن أبي الحقيق، ثم تزوجها رسول الله ﷺ، بعد أن أعتقها.

وزحف المسلمون إلى الشطر الثاني من خيبر ودخلوا الحصن الأول، فانهارت معنويات اليهود، واستسلموا، واتفقوا مع رسول الله ﷺ، على أن يخلي اليهود الحصون كلها، ويسلموا ما فيها إلى المسلمين إضافة إلى أسلحتهم، وأن يجلوا عن خيبر إلى الشام، وأن يأخذوا من الأموال ما

يمكن حمله، وأن يدلوا على كنوزهم، وألا تسبى الذراري على الرغم من أن البلاد تعدّ قد فتحت عنوة إذ انهارت كل مقاومة لليهود، ولكن رسول الله ﷺ، قد تسامح معهم. ثم سمح الرسول لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا أجراء في الأرض مقابل جزء من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفق على أن يكون لهم نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يخرجوا اليهود منها في أي وقت شاؤوا.

وبعد الغزوة أهدت زينب بنت الحارث زوج سلّام بن مشكم شاة مذبوحة مسمومة لرسول الله ﷺ، وما إن تناول منها قليلاً حتى شعر أنها مسمومة، فمنع أصحابه عن متابعة الأكل منها، فمات منهم من مات، وبقي رسول الله ﷺ، يعاني من أثر السم حتى توفي بعد أربع سنوات. وكانت زينب متأثرة لقتل أبيها الحارث، وعميها ياسر، ومرحب، وزوجها سلّام بن مشكم، وقد قُتلت بعد اعترافها وكان قتلها قصاصاً بموت بشر بن البراء الذي مات مسموماً بالشاة، وقد استشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلاً، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً.

وبعد انتهاء المعارك وصل إلى خيبر جعفر بن أبي طالب من مهاجري الحبشة، وقد فرح رسول الله ﷺ، بقدوم جعفر فرحاً شديداً.

الصلح مع أهل فدك:

عندما سار رسول الله ﷺ، إلى خيبر أرسل رسولاً له إلى يهود فدك، يدعوهم إلى الإسلام، فماطلوا في الجواب بانتظار نتيجة الحرب في خيبر، فلما وصل إليهم خبرها، صالحوا رسول الله ﷺ، على نصف الأرض، دون أن يسير إليهم، وقد بقوا في بلدهم حتى أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مع يهود خيبر إلى الشام.

قتال يهود وادي القرى:

كانت جماعات من اليهود تقيم في وادي القرى، ولها حصون ومناعة، وقوة لا بأس بها، فلما انتهى رسول الله ﷺ، من خيبر سار

إليهم، وقبل أن يدعوهم إلى الإسلام حاولوا الهجوم على المسلمين، ومع ذلك فقد وجه إليهم النداء حقناً للدماء، فأسرعوا بالحرب، واستمر القتال يوماً مبارزة، وقد قتل منهم كل من برز للقتال، وفي اليوم الثاني بدأ الهجوم الإسلامي، فاستسلم اليهود، فعقد معهم صلحاً يقضي ببقائهم في أرضهم والعمل فيها مقابل نصف الثمار. ولم يسلب أحد منهم إذ صدر عفو عام عنهم.

وربما فعل رسول الله ﷺ، هذا مع يهود خيبر، وفدك، ووادي القرى حتى يستثمروا الأرض، فلا تبقى دون استثمار فيما إذا أجلوا عنها، إذ لم يكن يرغب أن يشتغل المسلمون بالأرض، ويخلدوا إليها، ويتركوا الدعوة، والفتوحات، والجهاد في سبيل الله.

يهود تيماء:

وعندما وصل خبر اليهود في شمال المدينة إلى يهود تيماء، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ، يطلبون منه قبول الجزية منهم، وعدّهم ذميين في ظل الدولة الإسلامية، فوافق رسول الله ﷺ، على ذلك، وأخذ منهم الجزية. وعندما أجلى سيدنا عمر بن الخطاب اليهود من قراهم إلى الشام لم يجل أهل تيماء، باعتبارهم ذميين، وأبقاهم في بلدهم.

وأراد بنو فزارة قطع الطريق على رسول الله ﷺ، أثناء عودته من خيبر، علّهم يحصلون على بعض المغانم مما غنمه من حركته على اليهود، إلا أن الرسول الكريم أعلن استعداده لملاقاتهم، فانهارت معنوياتهم، وأصابهم الخوف، وولوا هاربين.

بعد خيبر:

أصبحت قوة المسلمين بعد فتح خيبر أكبر قوة في الجزيرة العربية، ولكن القبائل العربية التي اعتادت الإغارة، وتعودت الكر والفر، لم تعترف تماماً بهذه القوة، بل غرّها أبناؤها وكثرة أفرادها، وفكرت في الإغارة على المسلمين، وخاصة القبائل الكبيرة أمثال هوازن، وغطفان وغيرها، لذا فكّر رسول الله ﷺ، بإرسال السرايا إليها لإخضاعها.

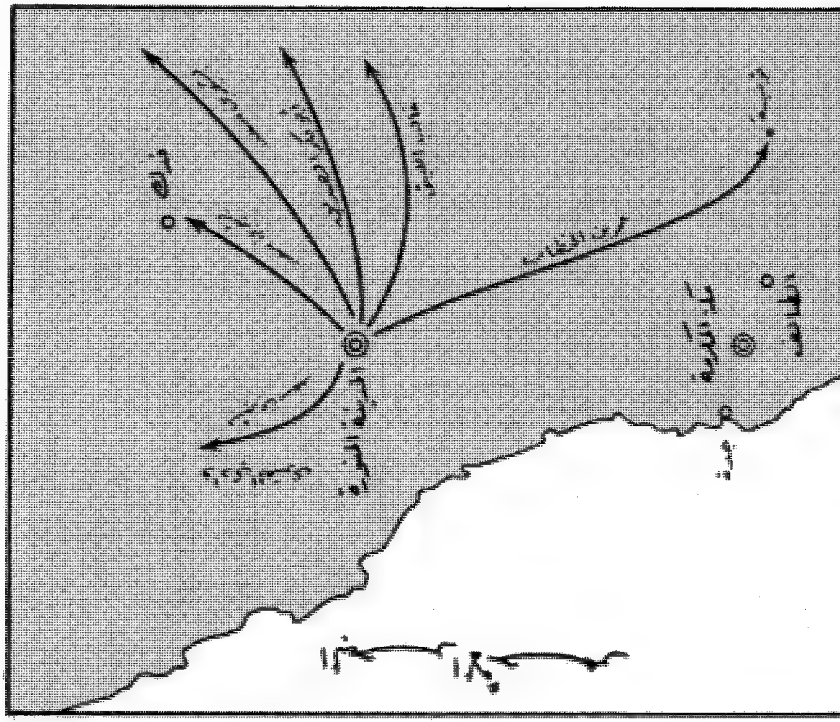
أرسل رسول الله ﷺ، سريةً استطلاعيةً عدد أفرادها ثلاثون رجلاً بإمرة عمر بن الخطاب إلى ديار هوازن في (تُربة) التي تبتعد أكثر من أربعمائة كيلومتر عن المدينة، وعلى هذه السرية أن تسير هذه المسافة ضمن ديار قبائل لا تزال كلها على الوثنية، وتعادي الإسلام، فسار سيدنا عمر بأفراد سريته إلى حيث وُجّه غير وجل ولا خائف، حتى وصل إلى تربة، وعندما سمعت هوازن القبيلة الكبيرة بهذه السرية فرت من وجهها، فعادت السرية إلى المدينة دون أن تجد شيئاً، وكأن هذه الحركة كانت استعراضية، ولكنها إن دلت على شيءٍ، فإنما تدلّ على ما أصبح عليه المسلمون من قوة.

وبعث رسول الله ﷺ، بشير بن سعد إلى بني مرة حول فَدَك في ثلاثين راكباً، فقتلوا جميعاً، ولم ينج منهم سوى جندي واحد، وأمير السرية الذي أثخنته الجراح، فظنوا أنه قد قُتل، ثم استطاع بعد ذلك العودة إلى المدينة.

وسار أبو بكر الصديق على رأس حملة إلى ديار بني كلاب بن بكر في نجد، فغنم، وسبى، وطارد الأعداء ثم عاد.

وتوجه غالب بن عبد الله الليثي على رأس مائة وثلاثين مقاتلاً إلى شرقي المدينة، وقد استطاع قتل الكثير من الأعراب، وأخذ الغنائم من الإبل والأغنام، ولم يقع بيده أحد من الأسرى. وفي هذه السرية التقى أسامة بن زيد برجل كان ضمن معسكر المشركين، فرفع أسامة السيف عليه، فقال ذلك الرجل، وهو مرداس بن نهيك: أشهد أن لا إله إلا الله، إلا أن أسامة اعتقد أن هذا الرجل ما نطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل وأجهز عليه، وقتله وعند عودة السرية، أُخبر رسول الله ﷺ، فأجرى تحقيقاً مع أسامة الذي قال: إن مرداساً لم ينطق بالشهادة إلا خوفاً من القتل، فقال رسول الله ﷺ: «هلا شققت على قلبه؟».

وانطلقت حملة إلى وادي القرى لتأديب القبائل التي عمل عيينة بن حصن على تجميعها للإغارة على المدينة، وكانت هذه الحملة بإمرة بشير بن سعد، فهزم الأعداء، واستاق الأنعام، وأخذ أسيرين، فأسلما..





عُمْرَةُ القَضَاءِ:

كان العام قد استدار على صلح الحديبية، وأهلَّ شهر ذي القعدة من العام السابع لهجرة المصطفى، فسار رسول الله ﷺ، مع ألفي مسلم ليؤدوا العمرة، وقد أخذوا معهم السلاح الكامل، ومائتي فرس بقيادة محمد بن مسلمة احتساباً لكل طارىءٍ، وأحرم رسول الله ﷺ، والمسلمون من باب المسجد حيث ساروا عن طريق الفرع بعيدين عن ذي الحليفة، فلما وصلوا إلى مرّ الظهران، وصلت أخبارهم إلى قريش فأرسلت رسلها، فقالوا له: يا محمد لِمَ جئت بهذه الأسلحة إلى قومك، تريد أن تغدر بهم، وما عرفنا هذا عنك صغيراً ولا كبيراً؟ فقال لهم: «لن أدخل عليهم بها». فعادت الرسل إلى قريش وأخبرتهم بالذي كان. أما قريش فقد شق عليها أن ترى محمداً وصحبه داخل مكة، لذا فقد أخلوها، وصعدوا إلى الجبال المحيطة بها، أما رسول الله ﷺ، فقد ترك السلاح والخيل خارج الحرم، وعندها مائتا مسلم يحمونها، وسار مع البقية نحو البيت، فأدوا مناسك العمرة وصعد بلال على ظهر الكعبة فأذن بذلك النداء السماوي، فتأثرت قريش تأثيراً بليغاً، ثم إن رسول الله ﷺ، أرسل مائتي مسلم إلى مرّ الظهران ليحموا السلاح والخيل ليتمكن حماتها الأوائل من تأدية العمرة، ففعلوا، وبعد ثلاثة أيام من دخول المسلمين مكة، خرجوا منها حسب بنود صلح الحديبية. وقد كان لعمرة القضاء أثر في نفوس بعض الأفراد لما شاهدوه من نظام ومن قوة.

إِسْلامُ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ:

لما كان لبعض الشخصيات أثر في التاريخ من ناحية القدوة أو المعارك التاريخية الحاسمة كان لا بد من بحث الأمور التي غيّرت مجرى حياتهم. وخالد بن الوليد من هذه الشخصيات، وقد غيّر دخوله في الإسلام مجرى حياته، ولما كان له دور في قيادة الجيوش الإسلامية كان لا بد من دراسة دخوله في هذا الدين هو وأمثاله، لقد كان خالد أحد فرسان قريش المعروفين بل قائد فرسانها في المعارك التي يشترك فيها بلا منازع وأبوه

الوليد بن المغيرة أحد أثرياء قريش وزعمائها، ومن الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بكل إمكاناتهم، وقد توفي وهو مشرك في مكة قبل غزوة بدر، وبموته برز ابنه خالد كقائد لفرسان قريش، وقد اشترك مع المشركين في قتال المسلمين يوم أحد، ويوم الأحزاب، وفي الحديبية، ثم اعتنق الإسلام، وقد روى، رضي الله عنه، قصة إسلامه فقال: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام، وحضرني رشدي، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ، إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ، في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه، وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين أذهب إلى النجاشي! فقد اتّبع محمداً وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم في عجم، فأقيم في داري بمن بقي. فبينما أنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، في عمرة القضية، فتغيبت، ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد[1] قد دخل مع النبي ﷺ، في عمرة القضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليَّ كتاباً فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني

---

(١) الوليد بن الوليد: شهد بدراً مع المشركين، وأسر يومذاك، ثم افتداه أخوه هشام، أسلم بعد فكاك أسره، وحبس في مكة، ثم خرج هارباً منها، حيث التحق بأبي بصير قائد جماعة العيص، وبعد أن أعيت الحيلة قريشاً، طلبت من رسول الله ﷺ قبولهم في المدينة، فانتقلوا إليها، وخبث عليه جرح أصابه في الحرة فمات من أثره.

رسول الله ﷺ، عنك وقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: «مثله جهل الإسلام؟» ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين كان خيراً له، ولقدّمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة. قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرني سؤال رسول الله ﷺ عني، وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر، فقال: مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية، فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه، إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم فلو قدمنا على محمد واتّبعناه فإن شرف محمد لنا شرف، فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً. فافترقنا، وقلت: هذا رجل قتل أخوه، وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لي مثل ما قال صفوان بن أمية، قلت: فاكتم عليّ، قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما عليّ وأنا راحل من ساعتي فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر، لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي فأسرع الإجابة، وقلت له: إني غدوت اليوم، قال: وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفخ مناخة، قال: فاتّعدت أنا وهو (يأجج) إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فأدلجنا سحراً، فلم يطلع الفجر حتى التقينا في (يأجج)، فغدونا حتى انتهينا إلى (الهدة) فنجد عمرو بن العاص بها، قال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مسيركم؟ فقلنا: وما أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتّباع محمد ﷺ، قال: وذاك الذي أقدمني، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأخبر بنا

رسول الله ﷺ، فسرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسُرّ بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطلّعت عليه فما زال يبتسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فردّ عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: «تعال» ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، قلت: يا رسول الله، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق، فادعو الله أن يغفر لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبّ ما قبله» قلت: يا رسول الله، على ذلك قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيل الله»، قال خالد: وتقدم عثمان، وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ، قال: وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، قال: والله ما كان رسول الله ﷺ، يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه[1].

إسلام عمرو بن العاص:

وقال عمرو بن العاص عن إسلامه: كنت للإسلام مجانباً معانداً. حضرت بدراً مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحداً فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت، قال: فقلت في نفسي: كم أوضع؟ والله ليظهرنّ محمد على قريش، فلحقت بمالي بالرهط وأقللت من الناس ـ أي من لقائهم ـ فلما حضرت الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ، في الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول: يدخل محمد قابلاً بأصحابه، ما مكة ولا الطائف بمنزل، ولاشيء خير من الخروج، وأنا بعد ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلّها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي، وكانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، ويقدمونني فيما نابهم. فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومدرهنا[2] في يمن

---

(١) البداية والنهاية ٤/٢٣٨ ـ ٢٤٠ لابن كثير.

(٢) المِدرَه: السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

نفسه وبركة أمره، قال: قلت: تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً، وأني قد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا: هذا الرأي. قال: قلت: فاجمعوا ما نهديه له ـ وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ـ فحملنا أدماً كثيراً، ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشي، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ، قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وفي شأن جعفر وأصحابه، ويدعوه فيه إلى الإسلام، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، ولو قد دخلت على النجاشي، فسألته إياه، فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك سُرّت قريش، وكنت قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، فدخلت على النجاشي، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمته، فأعجبه، وفرّق منه شيئاً بين بطارقته، وأمر بسائره، فأدخل في موضع، وأمر أن يكتب، ويحتفظ به، فلما رأيت طيب نفسه، قلت: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول عدوٌ لنا، قد وترنا، وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطنيه، فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراي، فجعلت أتلقى الدم بثيابي، فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض دخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك، قال فاستحيا وقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟ قال عمرو: فغيّر الله قلبي عما كنت عليه، وقلت في نفسي: عرف هذا الحق العرب والعجم، وتخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قال نعم أشهد به عند الله يا عمرو، فأطعني واتّبعه، فوالله إنه لعلى حق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط

يده فبايعني على الإسلام، ثم دعا بطست فغسل عني الدم، وكساني ثياباً - وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها - ثم خرجت على أصحابي، فلما رأوا كسوة النجاشي سرّوا بذلك، وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه من أول مرة، وقلت: أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت. قال: ففارقتهم وكأني أعمد إلى حاجةٍ، فعمدت إلى موضع السفن، فأجد سفينة قد شحنت، تدفع، قال: فركبت معهم، ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعيبة، وخرجت من السفينة ومعي نفقة، فابتعت بعيراً، وخرجت أريد المدينة، حتى مررت على مرّ الظهران، ثم مضيت حتى كنت بالهدّة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير، يريدان منزلاً، وأحدهما داخل في الخيمة، والآخر يمسك الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قال: قلت: أين تريد؟ قال: محمدا، دخل الناس الإسلام، فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: وأنا والله أريد محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة، فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسررنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً، فظننت أنه بشّر رسول الله ﷺ، بقدومنا، فكان كما ظننت. وأنخنا بالحرة، فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه، وإن لوجهه تهللاً، والمسلمون حوله قد سرّوا بإسلامنا، فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه. قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخر، فقال: «إنّ الإسلام يجبّ ما قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها» قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ، وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب(١).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء الرابع.

إسلام خزاعة:

أسلمت قبيلة خزاعة كافة، وكانت قد دخلت في حلف رسول الله ﷺ، في صلح الحديبية، ولكن لم تلبث أن اعتنقت الإسلام، بعد الصلح بقليل.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام:

وجد رسول الله ﷺ، أن الوقت قد أصبح مناسباً لدعوة الحكام، سواء أكانوا داخل الجزيرة أم خارجها، فاليهود قد انتهوا من الساحة، وقريش في هدنة معه، أما الأعراب فلا بد من غزو ديارهم باستمرار، لأنهم اعتادوا على شنّ الغارات، فإن لم يغزهم قطعوا الطرق، أو قاموا بشنّ الغارات على من جاورهم، أو على مناطق المدينة بالذات.

وقد كتب الرسائل إلى الحكام وبعثها مع رسل له، فأرسل:

١ ـ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم.

٢ ـ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.

٣ ـ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر.

٥ ـ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين.

٦ ـ سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي أمير منطقة اليمامة.

٧ ـ شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير الغساسنة في حوران.

٨ ـ المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث الحميري حاكم اليمن.

٩ ـ عمرو بن العاص السهمي إلى ملكي عُمان جيفر بن جلندي، وعبد ابن جلندي.

وقد أسلم ملك البحرين المنذر بن ساوى، وملك الحبشة النجاشي الذي كان عهده بالملك حديثاً، إذ توفي النجاشي الذي سبقه والذي كان قد أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، وملكا عمان ابنا جلندي، وحاكم اليمن الحارث الحميري وأخواه.

وخاف على ملكه كل من هرقل ملك الروم، والمقوقس حاكم مصر.

أما كسرى ملك الفرس فقد مزق كتاب رسول الله ﷺ، فمزق الله دولته، بينما عامله على اليمن باذان فقد اعترف بنبوة محمد، عليه الصلاة والسلام، وأسلم.

وأما الحارث بن أبي شمر الغساني ملك حوران فقد هدد بغزو المدينة، بينما أسلم جبلة بن الأيهم وهو أحد أمراء الغساسنة إذ جاءه كتاب خاص من رسول الله ﷺ.

وأما أمير اليمامة هوذة بن علي الحنفي، فقد اشترط أن يجعل له الأمر من بعده.

سرية غالب بن عبد الله:

أرسل رسول الله ﷺ، سرية بإمرة غالب بن عبد الله إلى بني الملوح وهم فخذ من بني الليث من كنانة، ومنازلهم عل سواحل البحر جنوب منازل بني غفار، وقد أدت هذه السرية غرضها بنجاح على الرغم من أن عددها لا يصل إلى العشرين رجلاً، إذ قتلوا بعض الرجال، وأخذوا الأغنام، ولما جاءت جموع القبيلة، فصل بينهم السيل، ورجعت السرية إلى المدينة آمنة لم يصب أحد منها بأذى.

سرية شجاع بن وهب:

وبعث رسول الله ﷺ، شجاع بن وهب على رأس أربعة وعشرين مقاتلاً إلى قبيلة هوازن شرقي الطائف، ففزع المشركون عندما وصلت إليهم

أخبار هذه السرية، وظنوا أن عددها كبير، ولم يتوقّعوا أن يسير هذا العدد هذه المسافة الطويلة، لذا فقد هرب أفراد قبيلة هوازن، وتركوا بعض النساء سبايا بأيدي أفراد السرية الذين استاقوا الأغنام.

وجاء وفد من هوازن معلنين إسلامهم، وكلموا رسول الله ﷺ، في إطلاق سراح السبايا، فكلّم السرية في ذلك فوافقوا، وأطلق سراح السبايا.

سرية كعب بن عمير:

بعث رسول الله ﷺ، أربعة عشر رجلاً للدعوة إلى الإسلام في جهات بلاد الشام الجنوبية، بإمرة كعب بن عمير، فاعتدى عليهم الغساسنة، وقتلوا أفراد السرية جميعاً بعد معركة حامية بين الطرفين.

غزوة مؤتة

كانت نظرة الروم الذين يسيطرون على بلاد الشام، ومصر، وسواحل إفريقية الشمالية كلها إضافة إلى بلاد الأناضول وغيرها إلى العرب نظرة ازدراء واحتقار يسمعون بغارات بعضهم على بعض في سبيل السلب والنهب وأخذ شيء من الغنائم من العدو في سبيل الرزق، ويعلمون فقر جزيرتهم وجدبها، وإذا جاءتهم سنوات عجاف انطلقوا إلى أطرافها يغيرون، وكثيراً ما كان الروم يكلون إلى عملائهم الغساسنة ردّ تلك الغارات دون الحاجة إلى شغل أنفسهم بها أو التفكير بأمرها، وعندما انطلقت الدعوة الإسلامية لم تتغير نظرتهم بادئ ذي بدءٍ، فلما طرد اليهود من المدينة ووصل بعضهم إلى بلاد الشام، ثم وصلت كتب رسول الله ﷺ، إلى الملوك والأمراء، فآمن من آمن، وخاف على ملكه من خاف ومنهم هرقل ملكهم بالذات، وعاملهم على مصر، ولولا الخوف على الملك والمصالح لغدت دولتهم تتبع المدينة عاصمة المسلمين، فحقد لذلك المتعصبون من أتباع الكنيسة، وكادت قلوبهم تتميز من الغيظ، فأوغروا صدور عملائهم الغساسنة، وأوعزوا إليهم أن يقضوا على أي أثر يصل إلى جهاتهم من قبل المسلمين، ولهذا فقد قتل الغساسنة دعاة المسلمين الأربعة عشر رجلاً مع كعب بن عمير، وقتل شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الملك الغساني الحارث بن أبي شمّر رسول النبي ﷺ، الحارث بن عمير الأزدي عندما التقى به في مؤتة، وسأله عن قصده، فقال: الشام، فقال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ، فأمر به فقيد، ثم قتله صبراً. هذا إضافة إلى تهديد الملك الغساني الحارث بن أبي شمر بغزو الجزيرة، واحتلال

المدينة، لهذا كله أراد رسول الله ﷺ، أن يعطي الروم وعملاءهم الغساسنة معاً صورة حقيقية عن المسلمين بأنهم لم يغزوا للغنائم، ولم يقاتلوا للأسلاب وإنما للدعوة إلى الله، وأن قوتهم إنما هي تختلف عن قوة القبائل البدوية المتنقلة التي في ذهن الروم، وأن قتال العقيدة ليس كقتال الكر والفر، وليس كالقتال من أجل التراب، والديار، والمنازل، والأملاك أو الأعشاب والمياه.

لهذا أرسل رسول الله ﷺ، جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وجعل عليه زيد بن حارثة الذي قاد عدداً من السرايا، وأبدى كثيراً من فنون الشجاعة والحرب، وقال: «فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب» وكان قد جاء من الحبشة. «وإن أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، ثم يختار المسلمون من شاؤوا»، وكان في هذا الجيش خالد بن الوليد، وهذا أول بعث سار فيه خالد إذ لم يكن قد مضى على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر إذ وصل إلى المدينة مسلماً في غرة صفر من السنة الثامنة للهجرة، وكان هذا البعث في جمادى الأولى من السنة نفسها، وانطلق الجيش الإسلامي، ووصلت أخباره إلى عامل الروم على بلاد الشام الجنوبية شرحبيل بن عمرو الغساني، فأخبر الروم، وبدأ بجمع المقاتلين من القبائل العربية التابعة للروم، وأرسل أخاه (سدوس) طليعة له مع خمسين مقاتلاً من أجل استطلاع الأخبار عن الجيش الإسلامي، إلا أن سدوس قد وقع بأيدي المسلمين في وادي القرى وقتل، فخاف شرحبيل بعد مقتل أخيه خوفاً شديداً وطلب النجدة من الروم، كان هرقل ملكهم آنذاك في بيت المقدس. وجاءت نجدة الروم وكان قوامها مائة ألف مقاتل إذ أيقن أن الأمر جدّ، وما اعتادوا أن يطلب عملاؤهم نجدة منهم لرد غارة عربية إذ أنهم يكفونهم ذلك، بل قد لا يحتاجون إلى حشد الجيوش واستنفار القبائل المؤيدة، أما وإنهم قد طلبوا النجدة المستعجلة مع ما كانوا قد جمعوه من قبائلهم وأحلافهم وزاد عددهم على المائة ألف مقاتل، وأنجدهم الروم بقوة مثلها بقيادة تيودور أخي هرقل.

جاءت أخبار قوة الروم وعملائهم إلى الجيش الإسلامي، وكان قد

وصل إلى معان، فوقف للتشاور، فرأى فريق منهم إعلام المدينة، وطلب المدد، وانتظار الجواب، ورأى الفريق الثاني ضرورة ملاقاة العدو، فالجهاد لا يتوقّف على العدد وحساب العسكريين من غير المسلمين، وأنهم إن انتظروا فقد لا يمهلهم عدوهم فإما العودة وهي ليست بالحساب، وإما ملاقاة الأعداء، وكان عبد الله بن رواحة القائد الثالث على رأس الفريق الثاني، وقد قال: «إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فانطلقوا بنا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان». وبعد هذه الكلمة اشتدت حماسة المسلمين للقتال، وأصدر قائدهم زيد بن حارثة أمره بالتحرك لملاقاة الأعداء.

كان جيش الروم وعملاؤه يتألف من مائة ألف من الروم بقيادة تيودور أخي هرقل، ومائة ألف من الغساسنة والعرب المتنصّرة بقيادة مغالك بن رافلة البلوي، ومع هذا الجيش العرمرم عشرات الألوف من الخيل تزيد على خمسين ألفاً. أما الجيش الإسلامي فلم يكن ليزيد على ثلاثة آلاف.

وصل الجيش الإسلامي إلى مؤتة فتحصن بها خوفاً من التطويق، أما الروم فقد توقعوا أن يبيدوا الجيش الإسلامي إبادة تامة خلال ساعة أو ساعات قلائل، أو يضطروه إلى الاستسلام، ولكنهم رأوا غير ما توقعوا فقد وجدوا أناساً يندفعون إلى القتال دون مبالاة، وكأنه لا شيء أمامهم، أو كأنهم يحصدون حقولاً من القمح تمايلت سنابلها، وقد استمرت المعركة سبعة أيام، وجد الروم خلال الأيام الستة الأهوال كلها وعانوا الشدائد، وشُدهوا من الشجاعة البالغة لهؤلاء الذين يقاتلونهم، وكلما حاولوا اقتحام مواقع المسلمين باؤوا بالفشل على الرغم من كثرتهم الكبيرة، ورجعوا إلى أماكنهم مخلفين عدداً كبيراً من القتلى في ساحة المعركة، وظل المسلمون في صمود تام. وفي اليوم السادس استشهد زيد بن حارثة بعد أن دخل

صفوف الأعداء، وقتل منهم الكثير كعادته في كل يوم من أيام المعركة، وفي هذه المرة تناوشته رماح الأعداء فخرَّ صريعاً، ولم يسقط اللواء من يده بل تناوله القائد الثاني جعفر بن أبي طالب والذي كان يقاتل بجانب زيد طيلة أيام المعركة السابقة، فقاتل قتالاً شديداً شُدِهَ له الروم، فكان يدفع جحافل الأعداء أمامه وتسير كتائب المسلمين خلفه، ثم أقحم فرسه وسط جموع الخصوم ولكثرة الزحام وشدة الالتحام عجزت فرسه على قوتها عن الحركة، فألقى نفسه عنها، وعقرها، وقاتل مترجلاً قتالاً لم يكد يسبقه أحد إليه، وأحاط الروم به من كل جهة، وهو يشتت شملهم حيث اتجه حتى أُنهك، وقطعت يده اليمنى التي تحمل الراية فأخذها باليسرى فقطعت، فاحتضنها بعضده خوفاً من أن تقع لأن وقوع الراية دليل هزيمة الجيش، وبوقوعها تنهار معنويات المقاتلين، ثم أثخنته الجراح فوقع شهيداً، وبه أكثر من تسعين ضربة، منها ضربة رمح قد أنفذته، وضربة سيف شطرته، ثم تناول الراية عبد الله بن رواحة فاستبسل في القتال حتى لقي مصرعه كسابقيه، وسقط لواء المسلمين في الأرض، فضعفت المعنويات، وبدأ بعض المسلمين بالتراجع، إلا أن قطبة بن عامر الأنصاري قد رفع اللواء، وأخذه منه ثابت بن أقرم، وبدأ يصيح في الناس، فثابوا إلى رشدهم، وطلب من المسلمين أن يعملوا على اختيار قائد لهم يرفع لهم اللواء، فاختاروه فأبى، ولكنه أخذه فسلمه إلى خالد بن الوليد، فوافق وجوه الجيش، وكان اليوم السادس قد انتهى، وأرخى الظلام سدوله، ومنع الليل بعض الفريقين من بعض، وأثناء الليل نظم خالد الجيش من جديد، وفكر في إنقاذ الموقف، فاختار كتائب من الفرسان، وطلب منها المرابطة خارج مؤتة، فإذا أصبح الصباح والتحم الناس، جاء بعضها إثر بعض مرتفعة أصواتها بالتكبير، وعدو الخيل يثير النقع، ثم تشترك في المعركة، كما أبدل مواقع فرق الجيش، إذ جعل الميمنة مكان الميسرة والساقة بدل المقدمة. . . ومع انبلاج الفجر عاد القتال، وشنّ خالد هجوماً معاكساً زلزل فيه الروم، فوجد المقاتلة الروم أمامهم غير الذين عرفوهم، فظنوا أن مدداً قد جاء للمسلمين فخافوا مغبة الأمر، ثم تتالت كتائب فرسان المسلمين تصل إلى

المعركة وكأنها فرق جديدة وكبيرة حسبما يظهر من الغبار المرتفع والأصوات المتعالية، وزاد خوف الروم، وأيقنوا أن المدد قد وصل، واعتقدوا أنهم لا قبل لهم بقوات إضافية كبيرة، وقد أنهكتهم قوة صغيرة فكيف لهم بجموع كثيرة لم تعرف التعب بعد.

وصبر المسلمون يومهم السابع ببسالة، ولكن بشيء كثير من التعب، وعندما جاء المساء وفصل الظلام بين الجيشين انسحب خالد بالجيش على شكل كتائب يحمي بعضها أثناء التراجع بعضها الآخر خوفاً من ملاحقة الروم ومطاردتهم، وعندهم الإمكانات الضخمة، فعندهم من سلاح المطاردة خمسون ألفاً من الفرسان، إلا أن الروم أيقنوا أن هذا الانسحاب إنما هو مكيدة حربية بعد أن جاءتهم القوات الجديدة، وأنهم ينصبون الكمائن ليوقعوا الروم فيها، فأحجموا عن المطاردة، ونجا الجيش الإسلامي الصغير بهذه الخطة.

وعلم رسول الله ﷺ، بما حدث، وتأثر التأثر البليغ، وأخبر المسلمين، وعندما عاد الجيش ظنّ بعض الناس أن الجنود قد فروا من المعركة، فقذفوهم بوابل من الكلمات حتى برأهم رسول الله ﷺ، مما أُلصق بهم، وأثنى عليهم وعلى قتالهم.

معركة ذات السلاسل:

يبدو أن الروم بعد معركة مؤتة شعروا بقلة المسلمين الذين لم يستطيعوا جمع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل يرسلونهم إلى منطقة يزيد بعدها على الألف كيلومتر، وإلى دولة واسعة مترامية الأطراف تستطيع زجَّ مئات الألوف، ولهذا فقد أوكلوا مرة ثانية إلى عملائهم من العرب المتنصِّرة غزو قاعدة المسلمين وحاضرتهم المدينة المنورة، وخاصة قبيلة قضاعة وبطونها المتعددة الذين اشتركوا في معركة مؤتة، وكانوا قوامها، ودفعوا إليها مائة ألف مقاتل، وقد لقي قائدهم مالك بن رافلة مصرعه في تلك المعركة. وبعد هذه الأوامر من الروم إلى عملائهم من العرب المتنصِّرة فقد بدأت

قبيلة قضاعة تحشد جموعها، وتستنفر بطونها المتعددة، وهي على خوف من القتال مع المسلمين لما لقيت في مؤتة، ولكن لا بد من تنفيذ أوامر ساداتها.

وصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ، بجموع قضاعة، فأراد أن يفاجئها قبل استكمال عدتها، كما أن يبعث إليها بقوة قليلة تدلّ على قيمة قضاعة في نظر المسلمين، وأن الثلاثة آلاف مقاتل الذين كانوا في مؤتة كان هدفهم الروم وليس قضاعة وغيرها من تلك القبائل الضاربة في تلك الجهات.

أرسل رسول الله ﷺ، قوة مؤلفة من ثلاثمائة رجل بإمرة عمرو بن العاص، ومعهم ثلاثون فارساً، وعمرو بن العاص لم يمض على إسلامه أكثر من أربعة أشهر، ويكون قتاله هذا أول قتال إسلامي يشترك فيه، ويكون هذا البعث على قلّته من أفضل البعوث إذ يضم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار السابقين في الإسلام، وفي هذا البعث تربية للمسلمين على الطاعة والسمع للقائد ـ أياً كان ـ ما دام يجيد الفن الذي يعمل فيه، وعمرو بن العاص من المقاتلين من الدرجة الأولى. تحرك الجيش الإسلامي في جمادى الآخرة من المدينة، وسار حتى دخل في أرض العدو، ونزل على ماء يسمى ذات السلاسل، وجاءت المعلومات إلى عمرو بن العاص، أن قوة العدو كبيرة لا يستطيع ملاقاتها بمن معه، لذا طلب المدد من المدينة على جناح السرعة، وخرج من أرض العدو خشية الصدام قبل وصول المدد، كما منع إشعال النار وخاصة في الليل على الرغم من البرد الشديد في تلك الأيام وتلك الجهات زيادة في كتم الأخبار.

وصل المدد بإمرة أبي عبيدة بن الجراح ويضم مائتي مقاتل، وبقي عمرو بن العاص هو القائد الأعلى للجيش على الرغم من طلب بعضهم أن يكون أبو عبيدة هو القائد، ولكن أبا عبيدة رضي الله عنه، لم ير الخلاف على القيادة في الظروف القائمة، ولا بأية حال، ولا بأية ظرفٍ:

التحم الخصمان، ولكن قضاعة عجزت عن مواجهة المسلمين، فلم تصمد إلا قليلاً، ثم ولّت الأدبار على الرغم من كثرتهم ومدّ الروم لهم

بالسلاح والمال، وقد طاردهم المسلمون، ثم منع القائد المطاردة خوفاً من الكمائن.

رجع الجيش الإسلامي إلى المدينة ولم يصب أحد من أفراده بأذى، وكان قد سبقه عوف بن مالك الأشجعي[1] ليخبر رسول الله ﷺ، بما تمّ، فسُرّ رسول الله ﷺ، سروراً كبيراً، وأقر تصرفات القائد وأثنى على أبي عبيدة.

(١) عوف بن مالك الأشجعي، أسلم في السنة السادسة، وشهد فتح مكة مع المسلمين، وكانت معه راية أشجع، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، شهد فتوح الشام، وتوفي عام ٧٣هـ.

فتح مكة المكرمة

دخلت خزاعة إثر صلح الحديبية في حلف رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، ثم لم تلبث خزاعة أن اعتنقت الإسلام، وكان بين الحيين في الجاهلية ثارات، وبعد صلح الحديبية أثيرت حوادث الجاهلية، فهجمت بنو بكر على خزاعة، وهي على ماء لها يدعى الوتير، وقتلوا منها رجلاً، واشتبك الحيان، وأمدت قريش حليفتها بني بكر بالمال والسلاح، وعاونتهم بالرجال أثناء قتال الليل استخفاء، حتى اضطرت خزاعة إلى دخول الحرم، ولكن ذلك لم يمنعها من أعدائها الذين انتهكوا الحرم، فلجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وما كان من خزاعة إلا أن استنجدت بإخوانها المسلمين الذين يشكلون معها أمة واحدة.

خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، بالمدينة، وأخبره بما أصاب خزاعة، فقال له: «نصرت يا عمرو بن سالم».

وخرج أيضاً بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه، وقدموا المدينة، وأخبروا رسول الله ﷺ، بما أصيب منهم، وبمناصرة قريش لبني بكر.

وأرسلت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليؤكد الصلح ويزيد في مدته، والتقى أبو سفيان وهو في طريقه إلى المدينة مع بديل بن ورقاء عائداً منها وذلك في عسفان، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوج رسول الله ﷺ، فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن

هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلمه، فلم يردّ عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها ابنها الحسن بن علي بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحكم يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فأقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أوَ ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق، فلما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبِمَ أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

أخبر رسول الله ﷺ، المسلمين بما عزم عليه من السير إلى مكة، وأمر بالتهيؤ لذلك، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

وخاف حاطب بن أبي بلتعة على أهله في مكة، فأراد أن يصانعهم فأرسل إليهم كتاباً يعلمهم بمسير رسول الله ﷺ، إليهم، بعثه مع امرأة مقابل شيء يؤديه لها، فجعلت الكتاب في شعرها، وضفرت عليه ضفائرها، وانطلقت به، وأخبر رسول الله ﷺ، بذلك من السماء، فبعث في إثر المرأة علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فأدركاها بذي الحليفة، فسألاها فأنكرت، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فهدداها وأعلماها أن رسول الله ﷺ، لم يُكذَّب، فأخرجت الكتاب من ضفائرها، فجاءا به إلى رسول الله ﷺ، الذي سأل حاطباً عن سبب فعله هذا، فقال: يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة. وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

خرج رسول الله ﷺ، من المدينة لعشر خلون من رمضان في السنة الثامنة للهجرة صائماً والمسلمون، حتى إذا كان بالكديد أفطروا. وخرج العباس مع أهله من مكة مهاجراً مسلماً، والتقى برسول الله ﷺ، بالجحفة بالقرب من رابغ، فتابع عيال العباس إلى المدينة، وصحب العباس المسلمين في طريقهم إلى مكة.

والتقى رسول الله ﷺ، في الطريق بين مكة والمدينة بابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابن عمته عاتكة عبد الله بن أمية المخزومي أخي أم المؤمنين أم سلمة، فأسلما أيضاً.

ووصل رسول الله ﷺ، إلى مرّ الظهران (وادي فاطمة) فنزل هناك،

فجاءه أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يستطلعون الأخبار، فالتقى بهم العباس بن عبد المطلب، فأخذ أبا سفيان ليستأمن رسول الله ﷺ له، ورجع صاحباه وكان العباس يرغب ألا يدخل رسول الله ﷺ، مكة عنوة فتهلك قريش إلى آخر الدهر، ولكنه يريد أن يأتوه فيستأمنوه فيدخل مكة دون قتال. واستأمن العباس رسول الله ﷺ، في أبي سفيان فأمّنه، وأسلم أبو سفيان. فقال العباس: أسرع إلى قومك يا أبا سفيان.

رجع أبو سفيان إلى مكة، فلما وصل إليها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس، ودخلوا دورهم والمسجد. وبهذا فقد استأمن قومه، ودخل رسول الله ﷺ، مكة دون قتال، واتجه إلى ذي طوى، واضعاً رأسه تواضعاً لله سبحانه وتعالى على ما أكرمه به من الفتح، حتى إن لحيته لتكاد تمس واسطة الرحل.

وفي ذي طوى قسم رسول الله ﷺ، الجند فسار الزبير بن العوام بقسم من الجيش، وكان على الميسرة، ودخل مكة من كدى، وانطلق سعد بن عبادة بقسم آخر، ودخل مكة من كداء. ثم أخذ الراية منه علي بن أبي طالب، ودخل خالد البلد الحرام من أسفله، وكان على الميمنة، وسار أبو عبيدة بن الجراح بين يدي رسول الله ﷺ، من «أذاخر» حتى نزل أعلى مكة، وضربت له هناك قبته. ولم يلق المسلمون أية مقاومة أثناء دخولهم مكة سوى ما كان من بعض الرجال الذين تعرضوا لخالد بن الوليد في «الخندمة»، وعليهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهم، وكانت بين الطرفين مناوشات فرّ المشركون على أثرها.

وكان رسول الله ﷺ، قد أمر المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا أشخاصاً سمّى لهم منهم: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، والحويرث بن نقيذ، ومقيس بن حبابة،

وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية، وقينتان، وصفوان بن أمية، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهبار بن الأسود، ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

أما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فكان قد أسلم، وكتب لرسول الله ﷺ الوحي، ثم ارتد وافترى الكذب، وفرّ إلى قريش. فعندما دخل رسول الله ﷺ، مكة أمر بقتله، فهرب إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه في الرضاعة، فغيبه قليلاً، ثم استأمن له رسول الله ﷺ، فأمّنه، فأسلم وحسن إسلامه، وولاه عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وكان من الولاة المعروفين والقادة المشهورين في قتال الروم.

وأما عكرمة بن أبي جهل فقد فرّ إلى اليمن عندما دخل رسول الله ﷺ، إلى مكة، وأسلمت زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشام، فاستأمنت له عند رسول الله ﷺ، وخرجت في طلبه إلى اليمن، فجاءت به إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، وحسن إسلامه، وكان من الأبطال في فتح الشام.

وأما عبد الله بن خطل فقد كان مسلماً، فقتل رجلاً مسلماً، وفرّ إلى قريش مرتداً، فعندما دخل المسلمون قتلوه بأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وأما الحويرث بن نقيذ فقد كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، وآذى أهله بعد هجرته إلى المدينة، ولذا كان مصيره القتل عند فتح مكة.

وأما مقيس بن حبابة فقد كان مسلماً فقتل رجلاً أنصارياً، وهرب مرتداً، وقد قتل، وإن حكم المرتد هو القتل.

وأما كعب بن زهير بن أبي سلمى فقد كان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ، ثم إنه عاد معتذراً إليه بعد أن فرّ وجاء إلى المدينة، وأنشده قصيدته الطويلة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول — متيم إثرها لم يفد مكبول[1]

---

(١) بانت: فارقت وبعدت. متبول: أسقمه الحب وأضناه. متيم: ذليل مستعبد. مكبول: مقيد.

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزوميان فقد التجآ إلى أم هانئ بنت أبي طالب، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأمّنتهما، ثم أسلما بعد أن عفا عنهما رسول الله ﷺ، وكان الثاني منهما، وهو زهير ابن عمة رسول الله ﷺ، عاتكة.

وأما القينتان فكانتا لعبد الله بن خطل وكانتا تغنيان له بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه.

وأما صفوان بن أمية فقد هرب إلى جدة يريد أن يركب البحر منها إلى اليمن، فأخذ له الأمان من رسول الله ﷺ، عمير بن وهب، ولحق به إلى جدة فعاد به، وأسلم صفوان، وكانت عنده فاختة بنت الوليد أخت خالد بن الوليد، وقد أخذت له الأمان أيضاً من رسول الله ﷺ، بعد أن أسلمت.

أما هبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ وكان زوج أم هانئ بنت أبي طالب ـ فقد فرّ، وبقي كافراً حتى مات، وقد تأثر من إسلام زوجه أم هانئ.

وأما هبّار بن الأسود فقد جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو في الجعرانة فأسلم، وكذا أسلم وحشي، وهند بنت عتبة يوم الفتح.

وبعد أن هدأت أوضاع الناس في مكة طاف رسول الله ﷺ، حول الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له باب الكعبة فدخل إليها فأزال ما بها من صور، وحطّم ما فيها من أصنام، ثم أعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة وأبقى السدانة معه. ثم وقف رسول الله ﷺ، على باب الكعبة وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها

بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]... ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وجلس رسول الله ﷺ، في المسجد فبايعه الرجال، ولما تمت بيعة الرجال بايعته النساء على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين الرسول في معروف. ثم أمر رسول الله ﷺ، بأن يؤذن على ظهر الكعبة.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولى عليها عتاب بن أسيد، وفي اليوم الخامس من إقامته بمكة أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد على رأس ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى، وهي أكبر صنم لقريش، ومكانها ببطن نخلة.

وأرسل عمرو بن العاص لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، ومكانه على بعد ثلاثة أميال من مكة. كما بعث سعد بن زيد الأشهلي على رأس عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة، ومكانها على جبل يعرف باسم «السلل» على ساحل البحر الأحمر شمالي مدينة جدة بـ١٧٠ كيلاً.

كما أرسل رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى بني جذيمة في تهامة داعياً، ولم يرسله مقاتلاً، ولكنه قتل من القوم، ولما علم رسول الله ﷺ، بعث إليه علي بن أبي طالب ليوقف القتل ففعل.

غزوة حنين:

بعد فتح مكة وإقبال الناس على الإسلام أخذت قبيلة هوازن وقبيلة

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

ثقيف العزة بالإثم، وقالوا: فلنغزهم قبل أن يغزونا، وأجمع أشراف القبيلتين على ذلك، وجعلوا أمرهم لمالك بن عوف النصري، وانضمت إليهم قبائل كثيرة منهم بنو سعد بن بكر قبيلة حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، وانطلقوا وقد أخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم ليعينهم ذلك على الثبات والمقاومة حسب رأيهم.

وعلم رسول الله ﷺ، بما تفعل هوازن وثقيف فرأى أن يسير إليهم قبل أن يداهموه في مكة، ويستبيحوا حرمتها، فإن رجالاً ربما لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، فينقلبوا عليه أو لا يرون القتال حيث يجب. فسار إليهم ومعه اثنا عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون ممن خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وأعجب المسلمون يومئذ بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، إذ أن القوة ليست بالكثرة كما أنها ليست بالسلاح وحده وإنما الروح المعنوية لدى الجند، وبالإيمان بالمبدأ الذي يقاتلون في سبيله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. وأثناء سير المسلمين إلى عدوهم خرج لمقدمتهم كمين كان قد كمن لهم في مضيق الوادي وعلى جنباته ففاجؤوهم قبل أن ينبلج الفجر وقابلوا خيلهم بوابل من النبل فتقهقرت الخيل وولّت الأدبار، فوجئ المسلمون بذلك فأصابهم ذعر شديد، فتفرّقوا من غير نظام، وثبت رسول الله ﷺ، وحوله جماعة من أصحابه وأهل بيته منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، والفضل بن العباس، والمغيرة (أبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث، وجعفر بن المغيرة بن الحارث، ومتعب بن أبي لهب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وعدد من المهاجرين والأنصار. أما

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

حديثو العهد بالإسلام من قريش فقد قالوا: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وأسرّها بعضهم وأعلنها بعضهم الآخر. وصمد رسول الله ﷺ، بمن معه للأعداء وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمه العباس ـ وكان جهوري الصوت ـ أن ينادي بالمسلمين فصار يصرخ بأعلى صوته: يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان، فأقبل الناس نحوه وثابوا إلى رشدهم. وعادوا إلى رسولهم، فاجتمع حوله عدد كبير، وأنزل الله سكينته عليهم وأنزل جنوداً لم يروها شدّت من عزيمتهم، وكرّ المسلمون على أعدائهم ففرّت هوازن وثقيف من أمامهم، ولم يلتفت أفرادهم إلى النساء والذراري الذين أخذوهم معهم لذلك، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وقد جمعوا الأنعام وأخذوا النساء والذراري.

وشعر الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش بتأييد الله ورعايته للمسلمين، وتغيّرت فكرتهم، فدخل الإيمان في قلوبهم، وحسن إسلامهم، على حين ساروا في البداية مع الجيش من أجل الغنائم، وكانوا سبب الهزيمة من قبل إذ لم يكونوا مؤمنين، ونصر المسلمين وهزيمتهم عندهم سواء، فكانوا في الجيش عدداً بلا فائدة بل سبباً في الفرار حيث لا يجدون داعياً للثبات، وعلى هذا ليس من الفائدة بل لا يصحّ أن يدخل في عداد الجيش أفراد لا يؤمنون بالإسلام ولا يدينون به، ولذا فإن أهل الكتاب لا يقاتلون في صفوف المسلمين، ولا يمتهنون الجندية، وإنما يدفعون الجزية مقابل حمايتهم.

وجمع رسول الله ﷺ، الغنائم في الجعرانة، وكانت ما يقرب من أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. وتفرق المشركون فذهب قسم منهم إلى الطائف وفيهم مالك بن عوف النصري سيد القوم، وتجمّع قسم في نخلة، وعسكر قسم في وادٍ يعرف باسم «أوطاس».

أرسل رسول الله ﷺ، أبا عامر الأشعري في سرية لقتال أولئك الذين تجمعوا في «أوطاس» من المشركين فقاتلهم وشتت شملهم، واستشهد أمير السرية أبو عامر أثناء القتال نتيجة سهمٍ أصابه، فتولى أمر السرية بعده ابن أخيه أبو موسى الأشعري.

غـزوة الطّائف:

سار رسول الله ﷺ، بمن معه من المسلمين إلى الطائف فتحصنت فيها ثقيف ومن معها من هوازن، وجمعوا في الحصون ما يكفيهم من الأقوات، ومن داخل الحصون أمطروا المسلمين بوابل من النبال فأصيب عبد الله بن أبي بكر، وفقئت عين أبي سفيان بن حرب، واستشهد سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعبد الله بن أبي أمية ابن عمة رسول الله ﷺ، واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً، وضرب المسلمون الحصون بالمنجنيق، وحاولوا اقتحامها في دبابتين ففشلوا، واضطروا إلى فكّ الحصار، ودعا رسول الله ﷺ، لثقيف فقال: اللهم اهد ثقيفاً، وأت بهم مسلمين.

ورجع رسول الله ﷺ، ومن معه من المسلمين إلى الجعرانة حيث جمعت الغنائم والسبايا، فجاءه وفد من هوازن يطلب منه أن يمنّ عليهم بإعتاق سبايا هوازن ففعل، وأرسل إلى مالك بن عوف النصري، وكان قد بقي مع ثقيف في الطائف بأنه إن جاء منَّ عليه بإعتاق أهله وإعطائه ماله، وفوقها مائة من الإبل فجاء وأسلم. ثم وزع الغنائم بعد أن رفع خمسها فأعطى المؤلفة قلوبهم، والذين يطمع في إسلامهم. فأعطى أبا سفيان بن حرب، وابنيه معاوية ويزيد، وحكيم بن حزام، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام وغيرهم كثير.

وجد بعض الأنصار في أنفسهم شيئاً عندما أعطى رسول الله ﷺ، تلك العطايا لقريش وقبائل العرب ولم يكن للأنصار منها شيء، ثم كلم سعد بن عبادة رسول الله ﷺ، في هذا الأمر، فطلب منه أن يجمعهم له،

ففعل، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بِمَ نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال ﷺ: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

ومن الجعرانة دخل رسول الله ﷺ، مكة معتمراً، ثم رجع إلى المدينة فوصل إليها لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة للهجرة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل، يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن.

وفي المدينة جاء وفد قبيلة «صداء» إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا. وأرسل رسول الله ﷺ، عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب لقتال بني تميم الذين حالوا دون (بشر بن سفيان العدوي) رسول الرسول إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقاتهم، فقاتل عيينة بني تميم، وأسر منهم أحد عشر رجلاً، وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً فجاء في أثرهم إلى المدينة وفد بني تميم المؤلف من عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وأنزلت فيهم سورة الحجرات ثم أسلموا، وبقوا مدة في المدينة ليتفقهوا في الدين.

---

(١) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

كما أرسل رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فجاؤوا لاستقباله فظنّ أنهم جاؤوا مقاتلين فرجع خائفاً، وأخبر رسول الله خبرهم فبعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم على إسلامهم.

وعلم رسول الله ﷺ، أن الأحباش جاؤوا في مراكب لهم للهجوم على جدة فأرسل إليهم علقمة بن مجزر في ثلاثمائة رجل، ففرّ الأحباش وعاد علقمة، وأثناء الطريق أمر بعض القوم أن يسرعوا، وولّى عليهم عبد الله بن حذافة السهمي، وكان رجلاً ذا دعابة، فأوقد لجماعته ناراً وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم. قال: عزمت عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار! وهمّ بعضهم بذلك إطاعة للأمير فمنعهم عبد الله، وقال لهم: ما كنت إلا مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، قال: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق».

وفي ربيع الأول من العام التاسع للهجرة أرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم صنم لطيء يدعى «الفلس»، فسار إلى هناك فهدم الصنم وأحرقه، وحارب الذين يعبدونه، وانتصر عليهم، وأخذ الإبل والأغنام غنيمة للمسلمين، كما أخذ السبايا، وكان بينهن سفّانة بنت حاتم الطائي، ولما عاد علي بن أبي طالب بغنائمه إلى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنَّ عليها، فأجابها، فدعت له، وكان مما قالته له؛ شكرتك يد افتقرت بعد غنىً ولا ملكتك يد استغنت بعد فقرٍ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سُلب كريم نعمة إلا وجعلك سبباً لردها عليه. وكانت معاملة رسول الله ﷺ، هذه لسفانة بنت حاتم سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الذي كان قد اختفى عندما رأى المسلمين يقصدون بلاده، وهرب إلى الشام وعندما أطلق سراحها، جهّزها رسول الله ﷺ، وخرجت إلى الشام، ولحقت بأخيها، فقدمت عليه، فسألها عن رأيها في رسول الله ﷺ، فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن

ملكاً فأنت. ثم جاء عدي إلى المدينة فالتقى برسول الله ﷺ، فسأله عن اسمه، فقال: عدي بن حاتم، فأخذه إلى بيته وأكرمه، فأسلم، وكان نصرانياً من قبل.

غـزوة تبوك :

يبدو أن السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ، إلى الجهات المختلفة، لم يكن لتستوعب المسلمين كلهم، وإن الأمة المسلمة أمة مجاهدة لا يمكن أن تتوقف عن الغزو والجهاد أبداً حتى ينتهي الظلم من سطح الأرض كلها، لذا كان لا بد من الإعداد لغزوة تضم المسلمين جميعاً لكي يبقى كل مسلم على استعداد دائم للحركة والانتقال من ساحة إلى ساحة، ولكيلا تميل النفوس إلى الفتور، وترغب في الاستقرار والرخاء، وكانت غزوة تبوك في وقت كان الناس فيه في عسرة من جدب الأرض، وقلة النتاج، ومُحل في السماء، ونقص في العشب، مما يجعل الاستعداد للجهاد صعباً، كما جاءت في وقت زاد فيه الحر واشتدّ، وأينعت الثمار، ورُغب في الظلال، الأمر الذي يجعل النفوس تميل إلى الراحة وتطلب هناء العيش، وهنا تطلب النفوس المريضة عدم القتال وترغب عنه، وتستعلي النفوس المؤمنة على ما في هذه الدنيا من متاع زائل، وتطلب النعيم المقيم في الآخرة وترغب فيه.

ويبدو أن الروم قد تغيّر عليهم وضع عرب الجزيرة وحروبهم بعد أن دانوا بالإسلام، وبعد أن رأوا قتالهم في مؤتة، وسمعوا عن حروبهم في ذات السلاسل ضد قضاعة وقبائلها، ووجدوا أنه لم يعد يجدي معهم تكليف حلفائهم من العرب المتنصّرة وعملائهم من الغساسنة في تأديب عرب الجزيرة المسلمين إذ لا بد من أن يمدوهم بالجند ويدعموهم بالسلاح، ولهذا بدأوا في حشد الجموع والاستعداد لغزو المدينة.

وعلم رسول الله ﷺ، بخبر الروم وتحشدهم، فأمر المسلمين بالتهيؤ للقتال، وقد مضى عليهم وهم ماكثون أكثر من ثمانية أشهر بعد أن عادوا

من مكة، إذ أقاموا منذ ذي الحجة من السنة الثامنة إلى شهر رجب من السنة التاسعة، كما استنفر أهل مكة والقبائل الأخرى، وأخبرهم أنه يريد الروم، وكان من عادته ﷺ، أنه إذا أراد جهة لم يذكرها وورّى بها إلا ما كان في هذه الغزوة إذ بيّنها للناس، لبُعد الشقة، وقسوة الواقع، وشدة العدو الذي يقصده، وكثرة عدده، ليتأهب الناس لذلك، ويأخذوا عدتهم الكاملة.

وحثّ رسول الله ﷺ، الموسرين على البذل لتجهيز الناس. فدفع عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وقدم ثلاثمائة بعير، وخمسين فرساً، فقال، عليه الصلاة والسلام: «اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه»، وقدم أبو بكر الصديق كل ماله وهو أربعة آلاف درهم، فسأله رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» فأجاب: أبقيت لهم الله ورسوله، وقدم عمر بن الخطاب نصف ماله، وقدم عبد الرحمن بن عوف مائة أوقية، وقدم العباس، وطلحة مالاً كثيراً، وكذلك كل الموسرين أمثال عاصم بن عدي وغيره إذ لم يكن مسلم ليبخل بالمال الذي لا يعده أكثر من وسيلة يستعين بها على مرضاة الله، وخير عمل يعمله في هذه الحياة الدنيا إنما هو الجهاد في سبيل الله، لذا يجود المسلم بكل ماله وعندما يفعل ذلك لا يعتقد أنه قد عمل عملاً كبيراً، بل يعتقد أن هذا واجبه، وأنه من مقتضى إيمانه، وعندما يضم المجتمع المسلم أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكون فيه المحتاج، كما ينعدم الضعف الذي ينتاب الأمة لقلة ما تملك. ولكن عندما تتغير المفاهيم، وتتبدل المقاييس، ويصبح همُّ الإنسان جمع المال وتكديسه للمباهاة والخوف في المستقبل من الأزمات التي قد تعترض الموسرين وأصحاب السلطة الذين ينتظرون أن يرتقي إليها غيرهم، كما جاؤوا إليها هم بدعم خارجي لتأدية مهمة انتهت وانتهى معها دورهم، فيجمعون المال في مصارف بعيدة دون النظر إلى مصدر المال أجاء عن طريق مشروع أم غير مشروع، عندما يكون هذا تتخلف الأمة، وتتتابها الأمراض، وتقل المشروعات، بل يصبح تحقيقها ضرباً من المستحيل،

وتزداد السرقات، وتعم الفوضى، وتسير البلاد عند ذلك إلى الوراء وهذا ما أصاب أمتنا، ويصيبها لأنها تخلت عن نظامها الذي أراده الله لها.

وجاء نفر من فقراء الأنصار يطلبون من رسول الله أن يحملهم، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، فجهز عثمان بن عفان ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين آخرين، وجهز يامين بن عمرو اثنين أيضاً.

سار رسول الله ﷺ، بالمسلمين، ويقرب عددهم من الثلاثين ألفاً، وقد ولّى على المدينة محمد بن مسلمة، وخلف علي بن أبي طالب على أهله. وتخلف المنافقون برئاسة عبد الله بن أبيّ كبيرهم، واعتذر الأعراب، وكلهم يتوقع الهزيمة للمسلمين مع الروم، وهم يرون المسلمين على ما هم عليه من الفقر والضعف والقلة، ولكن إذا كانوا فقراء بما في أيديهم فإنهم أغنياء بقلوبهم، أقوياء بالله، أقوياء بإيمانهم، ولن يهزم جمع هذه صفاتهم وفيه أمثال صحابة رسول الله ﷺ، من الإيمان، والجود، والشجاعة، وحب الشهادة، وإطاعة الله ورسوله. واعتذر الجد بن قيس خوف الفتنة من نساء بني الأصفر، وأرجف هؤلاء جميعهم بالمسلمين. كما تخلّف نفر قليل من المسلمين منهم أبو خيثمة، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ثم لحق أبو خيثمة بالركب قبيل وصوله إلى تبوك.

وكان اللواء بيد أبي بكر الصديق، وراية المهاجرين بيد الزبير بن العوام، وراية الأوس بيد أسيد بن حضير، وراية الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وكان حرس الجيش بإمرة عبّاد بن بشر.

ولما مرّ رسول الله ﷺ، بالحجر (مدائن صالح) غطى ثوبه على وجهه، واستحثّ راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وصل رسول الله ﷺ، إلى تبوك، ولم يجد أثراً لتجمع الروم فيها كما

جاءه الخبر، فأقام فيها بضع عشرة ليلة جاءه أثناءها يوحنا صاحب أيلة[١]، وأهالي جرباء[٢]، وأهل أذرح[٣]، فصالحوه على دفع الجزية، وبعد ذلك رجع إلى المدينة.

وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، فوجد أن المنافقين قد شيدوا مسجداً ضراراً لتفريق جماعة المسلمين، وطلبوا منه ﷺ، أن يصلي فيه، ولما سألهم عن سبب بنائه حلفوا بالله إن أرادوا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر الرسول بهدمه، فهُدم.

وجاء المخلفون يعتذرون لرسول الله عن تخلفهم بأقوال كاذبة فقبل رسول الله علانيتهم، ووكّل ضمائرهم إلى الله، سبحانه وتعالى، واستغفر لهم.

وجاء الثلاثة الذين خُلّفوا عن رسول الله، وهم من المؤمنين: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع مُقرّين بذنوبهم، ولنسمع كعب بن مالك يتحدث عن نفسه في هذا الموضوع، قال: (ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ، في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ورسوله أحداً تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ، إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ، العقبة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها.

قال: كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة،

---

(١) أيلة: مدينة كانت مكان العقبة اليوم.

(٢) جرباء: مدينة مكانها في الأردن اليوم في جنوب شرقي عمان على بعد خمسين متراً منها.

(٣) أذرح: مدينة في جنوبي بلاد الشام إلى الشمال الغربي من معان، وعلى بعد عشرين كيلومتراً منها، وهي في جبال الشراة.

ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ، قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ، في حرٍ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدو كثير، فجلّى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من أتباع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ.

قال كعب: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ، تلك الغزوة حين طابت الثمار، وأُحبت الظلال، فالناس إليها صُعْر، فتجهز رسول الله ﷺ، وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي، أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل، فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ، حتى بلغ تبوك فقال، وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ، قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ، غداً، وأستعين على ذلك كلّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ، قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه

إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه، وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون، فجعلوا يحلفون له، ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ، علانيتهم وإيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟ قال: قلت: إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، لكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني، وليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك». فقمت، وسار معي رجال من بني سلمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ، بما اعتذر به إليه المخلّفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ، فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما ما قيل لك، قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي؛ فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة، فصمت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ، عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكرت لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه، وهو في

مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي، هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكتب كتاباً في سرقة من حرير، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك». قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها. فأقمنا على ذلك، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ، يأمرك أن تعتزل امرأتك، قال: قلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض. قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك؛ قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان، إلى يومه هذا، ولقد تخوفت على بصره. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ، لي في ذلك، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ، المسلمين

عن كلامنا، ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيتٍ من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت عليّ نفسي، وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلْع، فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ، بتوبة الله علينا، حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقّاني الناس يبشرونني بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ، جالس وحوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله، فحياني وهنأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي، ووجهه يبرق من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله»، قال: وكان رسول الله ﷺ، إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي إلى الله عزّ وجلّ أن انخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إن الله قد نجاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدث إلا صدقاً ما حييت، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط بعد أن هداني للإسلام،

كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، يومئذ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

قال: وكنا خُلّفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ، حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[2].

وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه.

ولننظر إلى المجتمع الإسلامي من خلال هذه الغزوة ومن خلال حديث كعب بن مالك هذا، فنرى المجتمع المطيع الذي يعرف كل فرد فيه حدوده، ويعرف مسؤولياته، فلا يحتاج إلى مراقبٍ يراقب أعماله، وإنما هو يراقب نفسه، ويخشى الله في كل عمل يقوم به، فثلاثون ألفاً لهم قائد واحد، يرجعون إليه في أمورهم كلها، يرشدهم فيسمعون، ويأمرهم فيطيعون، ولا يراقب أي عمل يقوم به أي فرد، ولنقارن هذا المجتمع مع مجتمع في هذا العصر ابتعد عن منهج الله لنرى أن ثلاثين ألف جندي يحتاجون إلى خمسة آلاف ضابط صف وألفي ضابط، وكل منهم يراقب الجند، ومع هذا فالوضع لا يستقيم، فسرقات وتصرفات، وأوضاع وأوضاع، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن ثلاثين ألفاً قد انطلقوا إلى الغزو دون إنذار، ساروا من تلقاء أنفسهم بمجرد أن طلب منهم رسول الله ﷺ، الاستعداد والتهيؤ للقتال، أما الآن فلو ترك للناس حرية الذهاب إلى

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) سورة التوبة: الآية ١١٨.

الحرب، لما سار رجل واحد، ولو طلب منهم الرأي، لاعتذروا جميعاً ولو غُزوا في عقر دارهم، وداهمهم العدو في بيوتاتهم. ولننظر الآن إلى هذا المجتمع بعد المعركة، فعندما طلب منهم رسول الله ﷺ، مقاطعة أولئك الثلاثة الذين تخلفوا، قاطعوهم جميعاً في السر والعلانية حتى أقرب الناس إليهم، وأحبهم إلى نفوسهم، حتى ذاق هؤلاء المخلفون عاقبة أمرهم، بل أكثر من ذلك، طلب منهم أن يعتزلوا نساءهم، فوافقوا، وهذا أمر خفيٌّ لا يعلمه أحد إلا الله، ويمكن للإنسان أن يبدي الالتزام، ويمتنع سراً عن التنفيذ، ولكن كان يعلم أن الله مطلع عليه، ولا يخشى أوامر السلطان فيتهرب منها على حين غفلة منه، لأن السلطان لا يستطيع أن يطلع عليه. والمسلم ينفذ ما يؤمر به رغبة لا رهبة، وطمعاً لا خوفاً وقد لاحظنا كيف ضرب كعب بن مالك بمغريات الغساسنة في أشد الساعات حرجاً بالنسبة له، وفي أكثر الأوقات التي يمكن أن يقوم بها بردّ فعل ضد مقاطعة المجتمع له. وأخيراً يمكن أن نلاحظ الدولة التي تطمئن من منهجها وتطبيقه، وتعرف رعاياها وما هم عليه من الطاعة، فتسمح حتى لأعدائها أن يدخلوا كأفراد إلى عاصمتها يتاجرون، أما اليوم فأجهزة الأمن بأعدادها الكبيرة لا تراقب الأعداء فحسب بل المجتمع حتى لا ينفلت أفراد منه ويتصلوا بالخصوم حتى بالخارج فكيف هم إذا وجدوا في الداخل! وما ذلك إلا لما تعلمه من أعمالها و... وحتى غدت مراقبة الرعايا هي السائدة لا مراقبة الأعداء.

وفد الطائف:

ولما رجع رسول الله ﷺ، من تبوك جاءه وفد من الطائف. وكان عروة بن مسعود أحد وجهاء ثقيف قد تبع رسول الله ﷺ، إثر انصرافه من الطائف، وأدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فاعتنق الإسلام، وطلب من رسول الله ﷺ، أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له: «إنهم قاتلوك»، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان محبباً بينهم ومطاعاً، فلما جاءهم بالإسلام رموه بالنبال، وقتلوه، وبعد مدة شعروا

بضعفهم أمام ما حولهم من الأعراب التي دانت بالإسلام، فأرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ. فأسلم الوفد، وولّى عليهم رسول الله عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم سناً، وأحرصهم على الفقه. ولما رجعوا، أرسل رسول الله ﷺ، أبا سفيان، والمغيرة بن شعبة لهدم اللات صنم ثقيف، فهدموه. وأسلمت ثقيف.

حج أبي بكر الصديق:

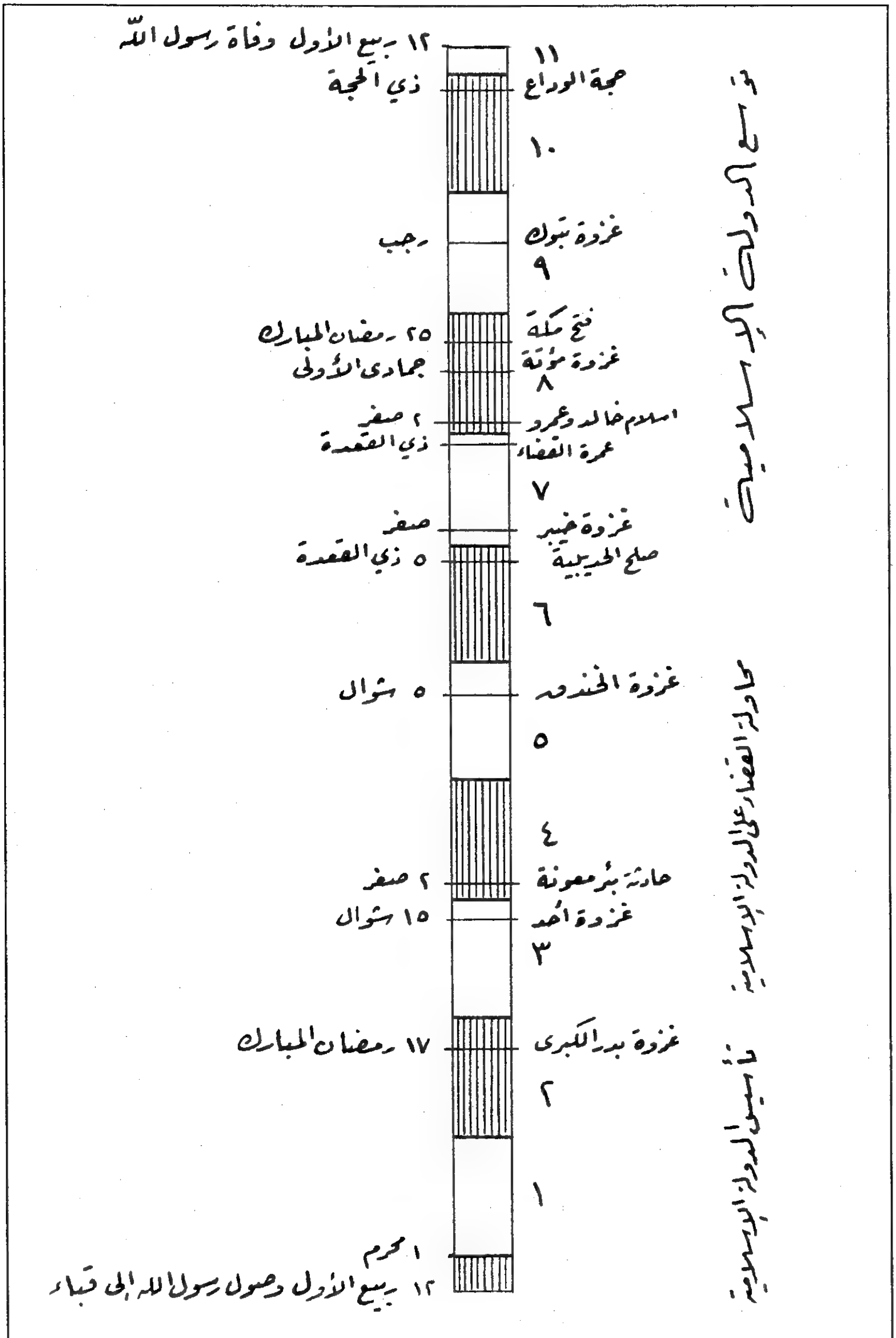
وفي أواخر ذي القعدة من السنة التاسعة، أرسل رسول الله ﷺ، أبا بكر الصديق ليحج بالناس، فسار معه ثلاثمائة من المسلمين، وقد ساقوا الهدي معهم، وما إن خرج حتى نزلت أوائل سورة التوبة (براءة) فأرسل رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالب ليتلوها على المسلمين، فقرأها عليهم في منى يوم النحر، وفيها نبذ عهود المشركين الذين لم يوفوا بها، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم عدم حج مشرك بعد هذا العام، وعدم طواف عريان بالبيت، كما كانت عادات الجاهليين. وكان أبو بكر هو الذي يصلي بالناس، ويقتدي علي به.

وفي ذي القعدة من هذا العام توفي في المدينة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وتخلّص منه المسلمون.

الوفود:

بعد غزوة تبوك بدأت الوفود تصل إلى المدينة من مختلف الجهات ومن أكثر القبائل الضاربة في جزيرة العرب وما حولها.

فقد جاء وفد بني عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وأراد الزعيمان الغدر برسول الله ولكن لم يفلحا، وحال الله بينهما وبين ما يدبران، ثم رجعوا إلى بلادهم، وأثناء الطريق مات عامر بن الطفيل بالطاعون، وأصابت صاعقة أربد بن قيس فأحرقته بعد عودته إلى دار قومه بيومين.



كل ٢ سم يعادل سنة واحدة

وأقبل وفد بني سعد بن بكر بإمرة ضمام بن تعلبة فأسلم، وعندما رجع إلى قومه دعاهم إلى الإسلام، فأسلموا جميعاً ما تخلّف منهم رجل واحد.

وأقبل وفد بني عبد القيس بإمرة الجارود بن عمرو، وكان نصرانياً، فأسلم، وحسن إسلامه، وعندما ارتدّ من قومه بعض من أسلم وقت الردة، بقي هو على إسلامه.

وقدم وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب، فأسلموا، فلما رجعوا إلى بلادهم اليمامة، تنبأ عدوّ الله مسيلمة، وارتدّ معه أكثر قومه.

وقدم وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، فأسلموا وسمى رسول الله ﷺ، سيدهم زيد الخير، ولم يلبث أن توفي.

وجاء فروة بن مسيك المرادي من شمال اليمن فأسلم، واستعمله رسول الله ﷺ، على مراد، وزبيد، ومذحج كلها، وبعث خالد بن سعيد بن العاص معه على الصدقات، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ.

وجاء وفد من زبيد بإمرة عمرو بن معدي كرب، فأسلم وتبع فروة إلا أن عمراً ارتدّ حين ارتدت العرب.

ووفد الأشعث بن قيس على رأس وفد من كندة يضم ثمانين رجلاً، فأسلموا.

ووفد على رسول الله ﷺ، وفد من الأزد من عسير وعليهم صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلموا، وقد جعل رسول الله ﷺ، صرد بن عبد الله على من أسلم من قومه، فرجعوا وقاتلوا قومهم، وحاصروهم في مدينة جُرش، ثم تركوهم، فلحقوا بهم، فقاتلوهم قتالاً شديداً. ثم خرج وفد من جُرش إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا.

وجاء إلى رسول الله ﷺ، وفد يحمل كتب ملوك حمير يخبرونه فيه بإسلامهم، وترك ما كانوا يعبدون من دون الله، وأرسل رسول الله ﷺ، معاذ بن جبل إلى الكورة العليا من اليمن، وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى منها، وأوصاهما. وقد بقي معاذ بن جبل حتى توفي

رسول الله ﷺ، وقدم أبو موسى الأشعري مكة ورسول الله في حجة الوداع.

وجاء وفد من نجران يضم ستين راكباً، وكانوا من النصارى، ورضوا بدفع الجزية، وعادوا إلى بلادهم.

وجاء رسول من فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على العرب في معان وما حولها إلى رسول الله ﷺ، يعلمه بإسلام فروة بن عمرو، ويقدم له هديته، ولما بلغ الروم إسلام فروة أخذوه، وسجنوه، ثم قتلوه.

وقدم وفد من همدان إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم لرسول الله ﷺ.

وقدم وفد ثعلبة، ووفد بني سعد بن هذيم من قضاعة، ووفد بني أسد، وفيهم ضرار بن الأزور، وطليحة بن خويلد الذي ادّعى النبوة فيما بعد، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد بني مرة، ووفد خولان باليمن، ووفد بني محارب، ووفد بني عبس، ووفد غسان و. .

وبعث رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران، فدعاهم فاستجابوا، فرجع إلى المدينة مع وفد منهم بناء على رأي رسول الله ﷺ.

حجة الوداع:

تجهّز رسول الله ﷺ، للحج في أوائل ذي القعدة من السنة العاشرة، وأمر الناس بالتهيؤ لذلك، وولّى على المدينة أبا دجانة، وانطلق منها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وكان معه جمع غفير يقرب من التسعين ألفاً، ولما وصل إلى مكة دخلها من كداء، وفي التاسع من ذي الحجة توجّه إلى عرفة، فأرى الناس مناسكهم، وعلمهم سنن حجهم، وخطب في الناس خطبة بيّن فيها كثيراً من جوانب الدين، وكان مما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا،

في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاتقوا الله بالنساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، اعقلوا قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلّوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمنّ أن كل مسلم أخ للمسلم. وإنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه، فلا تظلمن أنفسكم، ولا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله

أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى، ألا بلغت؟ اللهم فاشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». وفي هذا اليوم أنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وبعد أن أدى رسول الله ﷺ، مناسك الحج، وأقام بمكة عشرة أيام، رجع إلى المدينة.

جيش أسامة بن زيد:

أقام رسول الله ﷺ، بالمدينة بعد حجه ـ وهي الحجة الوحيدة التي حجها رسول الله ـ بقية ذي الحجة وشهر المحرم وفي الرابع من صفر من السنة الحادية عشرة جهز جيشاً بإمرة أسامة بن زيد، وأمره أن يصل إلى تخوم بلاد البلقاء في الأردن، وكان في هذا الجيش كبار الصحابة أمثال: أبي بكر، وعمر، وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، مع أن أسامة لم يكن ليبلغ الثامنة عشرة من عمره، ولم يسر هذا الجيش لمرض رسول الله ﷺ.

مرض رسول الله ﷺ:

مرض رسول الله ﷺ، في أواخر شهر صفر، وبقي في مرضه ثلاثة عشر يوماً، ولما تعذر عليه الخروج للصلاة قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

وتوفي في ضحى الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة، وحفر له في حجرة عائشة، ودفن يوم الأربعاء الرابع عشر من الشهر نفسه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

زَوْجَاتُ رَسُولِ ٱللهِ
صلى الله عليه وسلم

تزوّج رسول الله ﷺ، عدة زوجات لأسباب عدة اقتضت هذا الزواج دون أن يكون لداعي الشهوة والهوى أي أثر إذ تزوجهن كلهن عدا عائشة أرامل وكبيرات في السن، وأهم هذه الأسباب القربى، والإسلام، والإعالة في الوقت الذي انقطعت فيه إعالتهن من غيره، ثم اتصال النسب، وتآلف القبائل، وتربية المسلمين إذ كانت بيوتهن مدارس للمؤمنين والمؤمنات وهؤلاء الزوجات هن:

١ ـ خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها:

وقد تزوجها رسول الله ﷺ، قبل البعثة عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، بينما كان سن زوجته الأربعين، وهي أول من تزوج، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك، ومن قبل كانت عند عُتيّق بن عابد بن عبد الله المخزومي. وقد ولدت لعتيق عبد الله، ولأبي هالة بن أبي هالة هالة وهند بن أبي هالة وزينب بنت أبي هالة. وقد بقيت عنده خمسة وعشرين عاماً: خمسة عشر قبل البعثة وعشرة بعد البعثة، ولم يتزوج في حياتها غيرها. وقدمت الكثير في سبيل الدعوة، رضي الله عنها.

وأنجبت له أولاده الذكور: القاسم، الطيب، الطاهر. والبنات كلهن زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة.

وماتت بمكة قبل الهجرة بثلاثة سنوات، وقد ناهز عمرها الخامسة والستين.

٢ ـ سودة بنت زمعة، رضي الله عنها:

وقد تزوجها بعد وفاة خديجة بحوالي الشهر، وكانت قبله عند السكران بن عمرو أحد بني عامر بطن قريش المعروف، وقد أسلم السكران، رضي الله عنه، على الرغم مما لاقى من أهله، وذويه، وأخيه سهيل بن عمرو، فهاجر إلى الحبشة، وهاجرت معه زوجه، وابنة عمه سودة، وعندما رجع من الهجرة إلى الحبشة توفي، وبقيت زوجه بلا معيل، بل لا تستطيع الحياة بين أقاربها المشركين الذين ربما فتنوها عن دينها، فكان لا بد له من أن يضمها إليه، رضي الله عنها، وهي ابنة الخامسة والخمسين، وعاشت معه خمس سنوات، ثم توفيت بالمدينة المنورة بعد الهجرة بعامين، ولم تنجب له، إذ كانت في سن اليأس.

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها:

وهي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله ﷺ، والغاية من زواجها زيادة أواصر المودة مع صديقه أبي بكر الصديق، وقد خطبها صغيرة في مكة بعد وفاة خديجة بشهرين، وبنى بها في المدينة.

وقد كانت صغيرة مع قاعدة زواج الفتيات المبكر آنذاك، والنضج المبكر في البلاد الحارة، وهو الأصح، وإذا كان ما ذكره ابن هشام في سيرته وبعض أصحاب السير الآخرين في أنها كانت من السابقات للإسلام، فمعنى ذلك أن سنها كانت تزيد على الخامسة عشرة، وكذلك كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدي قبل رسول الله ﷺ، كل ذلك يدل على أنها كانت قد جاوزت السابعة عشر، مع العلم أن خولة بنت حكيم زوج عثمان بن مظعون هي التي عرضت عليه هذا الزواج بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، فهل تعرض فتاة للزواج لكي تقوم مقام سابقتها، أم ليضم إليه طفلة يرعاها؟

وقد عاشت عائشة مدة طويلة بعد وفاة رسول الله ﷺ، إذ توفيت عام ٥٨هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه. ولم تنجب عائشة لرسول الله ﷺ.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، رضي الله عنها:

تزوج رسول الله ﷺ، حفصة لربط النسب بينه وبين صاحبه الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد كانت حفصة قبل رسول الله ﷺ، عند خنيس بن حذافة السهمي القرشي، وقد استشهد في بدر بعد أن أبلى البلاء الحسن، وضحّى كثيراً في سبيل الإسلام، ولم تكن ذات جمال، ولم يرض بها أحد، إذ عرضها أبوها، رضي الله عنه، على عدد من الرجال، ولم يجد رسول الله ﷺ، في مواساتها بزوجها حلًا خيراً من زواجها.

وعاشت بعد رسول الله ﷺ، وتوفيت بالمدينة عام خمسة وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان، ولم تنجب لرسول الله ﷺ.

٥ ـ زينب بنت خزيمة، رضي الله عنها:

تزوجها رسول الله ﷺ، وهي ابنة الستين من العمر، وكانت قبله عند ابن عمه عبيدة بن الحارث بن المطلب شهيد بدر بالمبارزة، وقد تأثرت بعد فقد زوجها، إذ لم يعد لها معيل، ولم يتزوجها أحد لسنها، وزوجها ابن عم رسول الله ﷺ، ولم يجد بداً من أن يضيفها إلى أسرته، وعاشت عنده عامين، ثم توفيت في حياته.

٦ ـ هند بنت أبي أمية، رضي الله عنها:

وهي أخت أبناء عمة رسول الله ﷺ، عاتكة، الذين منهم عبد الله، وزهير ابني أبي أمية، وشقيقة المهاجر بن أبي أمية. وقد كانت عند ابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمة رسول الله ﷺ. وكان زوجها أبو سلمة أول من هاجر إلى المدينة، وحبسها أهلها في مكة، ثم سمحوا لها بالهجرة... وقد أصيب زوجها في أُحُدٍ بسهم، ثم عوفي، وأرسله ﷺ، بعد ذلك لقتال بني أسد، فلما عاد مات إذ انكفأ عليه جرحه، وبقيت معيلة لأبنائها سلمة، وعمر، ورقية، وزينب، أبناء أبي سلمة، وهي مسنة، فتزوجها رسول الله ﷺ، مواساة لها، وقد كانت تدعو فتقول بعد فقد زوجها أبي سلمة: «اللهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها».

٧ ـ زينب بنت جحش: رضي الله عنها:

وهي ابنة عمة رسول الله ﷺ، أميمة بنت عبد المطلب، وقد أسلمت زينب مع إخوتها عبد الله، وعبد، وعبيد الله، وحمنة، وكان اسمها برة، فسماها رسول الله زينب، وكانت معتزة بجمالها ونسبها، وزوّجها رسول الله ﷺ، إلى مولاه زيد بن حارثة، رضي الله عنه، بعد ممانعة منها ومن أهلها لوضع زيد حتى أنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[1].

ولكن زيداً، رضي الله عنه، لم يستطع الحياة معها لتعاليها عليه، وقد شكاها عدة مرات لرسول الله ﷺ، ثم اضطر أن يطلقها، وأمر الله رسوله أن يتزوجها وذلك ليبطل التبنّي، إذ كان يقال لزيد: (زيد بن محمد) ولا يصح أن يتزوج الرجل مطلقة ابنه، وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ فأطلق عليه زيد بن حارثة، إذن كانت زينب الساحة التي ألغيت عليها عادة التبنّي التي كانت منتشرة عند العرب.

فالزواج كان من عند الله، وكذلك فإن زينب هي ابنة عمة رسول الله ﷺ، وهو الذي أجبرها على الزواج من زيد، فهو المسؤول عنها إذن، ويجب ألا يضيّعها، وأن يأخذها من هو أفضل من زيد، وكان هو الذي تزوجها ﷺ.

لم تنجب زينب من رسول الله ﷺ،وعاشت بعده حتى توفيت عام عشرين للهجرة أيام خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

٨ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها:

وهي زوج ابن عمة رسول الله ﷺ، عبيد الله بن جحش، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وهناك ارتدّ زوجها ففارقته، وبقيت في

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

الحبشة، ولما كان أبوها سيد قريش، ولا تستطيع الرجوع إلى أهلها، وهي على إسلامها لعدائهم الشديد للإسلام، فكان لا بد من أن يتزوجها نظيره، ومن هو أفضل من ابن عمته عبيد الله، لهذا طلب رسول الله ﷺ، من النجاشي أن يخطبها له، ففعل، وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة الذي كانت معه أمه، ولما عادت إلى المدينة تزوجها رسول الله ﷺ.

وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ، ولم تنجب منه، وتوفيت في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان عام ٤٤هـ.

٩ ـ جويرية بنت الحارث، رضي الله عنها:

وهي ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق، وكانت تحت مسافع بن صفوان الذي قتل في غزوة بني المصطلق، والتي وقع في تلك الغزوة قومها جميعهم في الأسر، وقد جاء أبوها ليفتديها بما عنده من إبل، وقد ترك جملاً من الفدية استحسنه لنفسه دون أن يعلم أحد ، فعندما أخبره رسول الله ﷺ، بما فعل، أسلم، وزوّج ابنته من رسول الله ﷺ.

وقد أطلق المسلمون أسراهم وسباياهم من بني المصطلق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكأن رسول الله ﷺ، كان يريد أن يفعلوا ذلك اختباراً لإيمانهم وحبهم لرسولهم وبذلهم في سبيل ذلك.

لم تنجب جويرية بنت الحارث من رسول الله ﷺ، وعاشت بعده مدة طويلة، وتوفيت عام ٥٦هـ، في خلافة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه.

١٠ ـ صفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنها:

وهي ابنة سيد بني النضير، وكانت قبل رسول الله ﷺ، تحت كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل في حصار خيبر، ووقعت أسيرة، ورأى الصحابة، رضوان الله عنهم، أن تكون لرسول الله ﷺ، بصفتها ابنة سيد بني النضير، وقد كانت في سهم (دحية)، فأخذها رسول الله ﷺ، لنفسه،

وأعتقها، وخيّرها بين الإسلام وبين العودة إلى أهلها، فاختارت الإسلام، واستحسن رسول الله ﷺ، مقالتها عندما خيّرها، فتزوجها إكراماً لها. وعسى أن يلاحظ اليهود هذا الإحسان إليهم فيرعووا ويسلموا، ولكن أنّى لتلك النفوس المشحونة بالحقد أن تتراجع عن غيها؟

١١ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية، رضي الله عنها:

وهي أخت زوج العباس بن عبد المطلب لبابة، أي خالة عبد الله بن العباس، كما أنها خالة خالد بن الوليد، وقد تزوجها رسول الله ﷺ، في مكة أثناء عمرة القضاء في أواخر السنة السابعة للهجرة، وكانت آخر امرأة تزوجها رسول الله، وكان اسمها (برة) فسماها الرسول ميمونة، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، وقد مات عنها.

وتزوجها رسول الله ﷺ، وهي ابنة سبع وثلاثين سنة في (سرف)، ولم تنجب له، وماتت في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥١هـ في (سرف) في المكان الذي تزوجت فيه نفسه.

أما مارية القبطية فليست زوجة لرسول الله ﷺ، وإنما هي أمة، أهداها المقوقس له عام ٧هـ، هي وأختها سيرين، فقدم رسول الله ﷺ، سيرين إلى حسان بن ثابت.

ولدت مارية لرسول الله ﷺ، ابنه إبراهيم فأعتقها ولدها، وعاشت بعد رسول الله ﷺ، وتوفيت عام ١٦هـ في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

زوجات رسول الله ﷺ اللاتي فارقهن

أولاً: تزوّج رسول الله ﷺ، **فاطمة بنت الضحّاك** بن سفيان الكلابية في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة، فلما دخلت عليه فدنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك».

وتوفيت سنة ستين من الهجرة.

اختلف الرواة في اسم هذه الزوجة، فقال بعضهم: تزوّج رسول الله ﷺ، امرأة واحدة من بني كلاب، لكن اختلف في اسمها، وقال بعضهم الآخر: بل تزوّج عدة زوجات من بني كلاب.

ثانياً: تزوّج رسول الله ﷺ، **أسماء بنت النعمان** بن أبي الجون بن الحارث بن شراحيل بن الجون بن آكل المرار الكندي. وكانت عند ابن عم لها، فمات عنها، فتأيمت، وكانت من أجمل نساء العرب، وقد عرضها أبوها على رسول الله ﷺ، فوافق، وبعث رسول الله ﷺ، أبا أسيد الساعدي مع أبيها ليأتي بها، فأتى بها، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسعٍ من الهجرة.

فلما أُتي بها إلى رسول الله ﷺ، تعوّذت بالله منه، فانحرف عنها، وأعادها إلى أهلها.

ثالثاً: **قتيلة بنت قيس بن معدي كرب** بن معاوية بن جبلة الكندية: أخت الأشعث بن قيس، عرضها أخوها الأشعث على رسول الله ﷺ، فوافق، وذهب الأشعث ليأتي بها، حتى إذا فصل من اليمن بلغه وفاة النبي ﷺ، فردّها إلى حضرموت، وارتدّ، وارتدت معه فيمن ارتد، ففسد

النكاح بالارتداد. وكان تزوجها قيس بن مكشوح المرادي. وقيل تزوجها عكرمة بن أبي جهل.

رابعاً: مليكة بنت كعب الليثي، وتزوجها رسول الله ﷺ، في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة. وقد فارقها قبل أن يبني بها.

خامساً: سنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة السلمية، ماتت قبل أن يصل إليها رسول الله ﷺ.

سادساً: بنت جندب بن ضمرة الجندعي، وذلك رواية أن رسول الله ﷺ تزوجها، وفارقها قبل أن يبني بها[1].

---

(١) طبقات ابن سعد.

نِسَاءٌ خَطَبَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ

أولاً: ليلى بنت الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد بن ظفر بن الحارث الأوسية: قد وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، فقال: «قد قبلتك، ارجعي حتى يأتيك أمري». فأتت قومها، فقالوا: أنت امرأة ليس لك صبر على الضرائر، وقد أحلّ الله لرسوله ﷺ، أن ينكح ما شاء. فرجعت فقالت: إن الله قد أحلّ لك النساء، وأنا امرأة طويلة اللسان، ولا صبر لي على الضرائر. واستقالته. فقال رسول الله ﷺ: «قد أقلتك».

ثانياً: أم هانئ فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف: ابنة عم رسول الله ﷺ.

خطب النبي ﷺ، إلى أبي طالب ابنته أم هانئ في الجاهلية، وخطبها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فتزوجها هبيرة، فقال النبيّ ﷺ، لعمه: «يا عمّ زوّجت هبيرة وتركتني؟» فقال: يا ابن أخي إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم. ثم أسلمت، ففرّق الإسلام بينها وبين هبيرة، وفرّ هبيرة يوم فتح مكة، وبقيت أم هانئ، فخطبها رسول الله ﷺ، إلى نفسها، فقالت: والله إن كنت لأحبك في الجاهلية فكيف في الإسلام؟ ولكني امرأة مصبية وأكره أن يؤذوك. فقال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن المطايا نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده».

وفي روايةٍ أنها قالت لرسول الله ﷺ: كيف بهذا ضجيعاً، وهذا رضيعاً؟ لولدين بين يديها. فاستسقى فأُتي بلبن فشرب، ثم ناولها فشربت سؤره، فقالت: لقد شربت وأنا صائمة. قال: «فما حملك على ذلك؟»،

قالت: من أجل سؤرك، لم أكن أدعه لشيءٍ لم أقدر عليه، فلما قدرت عليه شربته، فقال رسول الله ﷺ: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على زوجٍ في ذات يده، ولو أن مريم بنت عمران ركبت الإبل ما فضّلت عليها أحداً».

وفي روايةٍ أن أم هانئ قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من سمعي وبصري، وحقّ الزوج عظيم فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أُضيّع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أُضيّع حق الزوج، فقال رسول الله ﷺ: «إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعلٍ في ذات يده».

وفي روايةٍ أنها قالت: يا رسول الله، إني موتمة وبني صغار. قيل: فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه، فقال: «أما الآن فلا» لأن الله أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ...﴾[1] ولم تكن أم هانئ من المهاجرات. كانت من الطلقاء.

ثالثاً: ـ **ضباعة بنت عامر العامرية**: وكانت عند هوذة بن علي الحنفي، فهلك عنها فورثت منه مالاً كثيراً، فتزوجها عبد الله بن جدعان التيمي، وكان لا يولد له، فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجها هشام بن المغيرة، فولدت له سلمة، وكان من خيار المسلمين، فتوفي عنها هشام. وكانت من أجمل نساء العرب، وأعظمهن خلقاً، فذُكر جمالها عند النبيّ ﷺ، فخطبها إلى ابنها سلمة بن هشام بن المغيرة، فقال: حتى استأمرها، وقيل للنبي ﷺ: إنها كبرت. فأتاها ابنها فقال لها: إن النبي ﷺ، خطبك إليّ. فقالت: ما قلت له؟ قال: قلت: حتى استأمرها.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

فقالت: وفي النبي ﷺ، يستأمر؟ ارجع فزوّجه. فرجع إلى النبي ﷺ، فسكت عنه.

رابعاً ـ صفية بنت بشامة العنبرية: وكانت قد أصابها سباء، فخيّرها رسول الله ﷺ، فقال: «إن شئت أنا، وإن شئت زوجك». فقالت: بل زوجي. فأرسلها، فلعنتها بنو تميم.

خامساً ـ أم شريك غُزيّة بنت جابر بن حكيم الدوسية من الأزد: كانت عند أبي العكر، فأسلم، وأسلمت معه، وهاجر مع أبي هريرة إلى رسول الله ﷺ، مع دوس حين هاجروا، وبقيت عند أهل زوجها فعذبوها، ثم أسلموا، وهاجروا جميعاً إلى رسول الله ﷺ، وقد عرفوا فضلها، وكان زوجها قد مات، فعرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة قد أسنّت، فقالت: إني أهب نفسي لك، وأتصدّق بها عليك. فقبلها النبي ﷺ. وأنزل الله فيها: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ....﴾[1].

سادساً ـ خولة بنت حكيم السلمية: كانت عند عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ومات عنها، وكانت من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فأرجأها، وكانت تخدم النبي، صلى الله عليه وسلم.

سابعاً ـ أمامة بنت الحمزة بن عبد المطلب: ابنة عم رسول الله ﷺ، وأمها سلمى بنت عميس الخثعمية أخت أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه. عن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ما لك تتوق في قريش، ولا تتزوج إلينا؟ قال: «عندك شيء؟» قال: قلت: نعم، ابنة حمزة، قال: «تلك بنت أخي من الرضاعة».

ثامناً ـ خولة بنت الهذيل التغلبية: وأمها أخت دحية بن خليفة، وقد تزوج رسول الله ﷺ، خولة ولكن هلكت قبل أن تصل إليه.

تاسعاً ـ شَراف بنت خليفة بن فروة، أخت دحية بن خليفة الكلبي بعد

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

أن هلكت خولة بنت الهذيل، تزوج رسول الله ﷺ، شَراف بنت خليفة، ولم يدخل بها.

مهور نساء النبي ﷺ

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان صداق رسول الله ﷺ، اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، فذلك خمسمائة درهم. قالت عائشة: الأوقية أربعون، والنش عشرون.

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لا تغالوا في صدقات النساء فإنه لو كان تقوى الله، أو مكرمة في الدنيا كان نبيّكم ﷺ، أولاكم بذلك، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وهي؛ ثمانون وأربعمائة درهم[١].

---

(١) طبقات ابن سعد.

أولاد رسول الله ﷺ

أنجبت خديجة بنت خويلد لرسول الله ﷺ، أبناءه جميعاً عدا إبراهيم، وبناته كلهن، ولم تنجب له غيرها من نسائه، فقد ولدت له زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، ثم أنجبت له القاسم، وعبد الله.

١ ـ القاسم ابن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة بثلاثة أعوام تقريباً، ولم تنته مدة الرضاعة حتى توفي، وإن كان قد مشى.

٢ ـ عبد الله ابن رسول الله ﷺ:

وقد ولد قبل البعثة، فلما بعث رسول الله ﷺ، سماه أو لقّبه الطيب، والطاهر، ولهذا عدّه بعضهم اثنين، وعده آخرون ثلاثة، وكذلك لم تطل حياته إذ توفي بعد مدة لم تتجاوز العامين أيضاً.

٣ ـ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ:

وأمه مارية القبطية، وهو الوليد الوحيد لرسول الله ﷺ، من غير خديجة، وقد ولد في السنة الثامنة للهجرة، وتوفي في العاشرة إذ لم تطل حياته أيضاً.

أما بنات رسول الله ﷺ، فهن:

١ ـ زينب بنت رسول الله ﷺ:

وهي كبرى بنات رسول الله ﷺ، تزوجت قبل البعثة ابن خالتها أبا العاص بن الربيع، فلما بعث أبوها، أسلمت، ولم يسلم زوجها، وأسر في

غزوة بدر، وافتدته وكانت في مكة، وأطلق سراحه رسول الله ﷺ، على أن يرسل زينب ففعل إذ فرّق بينهما رسول الله ﷺ، ثم أسر ثانية مع قافلة، فأجارته زينب، رضي الله عنها، في المدينة، فأطلق المسلمون سراحه مع القافلة، فلما رجع إلى مكة، وأدى أمانات الناس وأموالهم، أسلم، وعاد مهاجراً إلى المدينة، فأعاد له رسول الله ﷺ، زينب بعقد جديد على ما في العقد السابق.

ولدت زينب لأبي العاص علياً، وأمامة. أما علي فقد توفي صغيراً، وأما أمامة فقد تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء.

عاشت زينب حتى الثامنة للهجرة، وتوفيت في حياة أبيها، عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنها.

٢ ـ رقية بنت رسول الله ﷺ:

ثانية بنات رسول الله ﷺ، ولدت قبل البعثة، وتزوجت كذلك من عتبة بن أبي لهب، فلما بعث رسول الله ﷺ، أسلمت، وغضب أبو لهب فأمر ابنه بمفارقتها ففعل ولم يكن قد دخل بها.

تزوجت بعدئذ سيدنا عثمان بن عفان، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم استقرت في المدينة، وأنجبت من عثمان ولداً أسماه عبد الله، وبلغ سنه سنتين، ومات، وكان عثمان، رضي الله عنه، يكنى به، وتوفيت في حياة أبيها، وهو في غزوة بدر، وكان عثمان قد تخلّف عن تلك الغزوة لتمريضها بأمر رسول الله ﷺ.

٣ ـ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ:

وهي ثالثة بناته، عليه الصلاة والسلام، ولدت، ونشأت، وتزوجت قبل البعثة، وكان زواجها من عتيبة بن أبي لهب، وبعد البعثة طلب أبو لهب من ابنه مفارقتها، كما فعل أخوه عتبة لزيادة عائلة رسول الله ﷺ، ولم يكن عتيبة قد دخل بها، فتزوجها عثمان بكراً.

هاجرت إلى المدينة مع عيال رسول الله ﷺ، ثم تزوجت سيدنا عثمان بعد وفاة رقية، ولكنها لم تلبث أن توفيت في السنة التاسعة في حياة أبيها، ولم تنجب لسيدنا عثمان.

٤ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة، وتزوجها سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في المدينة في السنة الثانية للهجرة، وولدت له الحسن، والحسين، وأم كلثوم، وزينب، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر، إذ توفيت في السنة الحادية عشرة، وهي الولد الوحيد لرسول الله ﷺ، الذي عاش بعده.

كُتّابُ رَسُولِ اللهِ
صلى الله عليه وسلم

على الرغم من قلة المعرفة للقراءة والكتابة في مكة وقت ظهور الإسلام إذ لم يزد عدد الذين يعرفونها على سبعة عشر رجلاً فإن عدداً منهم قد دان بالإسلام منذ أول عهده، وكتب لرسول الله ﷺ، الوحي، وما يحتاج إليه، ومن هؤلاء الكتّاب في.مكة: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وخالد بن سعيد بن العاص، وعامر بن فهيرة، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وجعفر بن أبي طالب، وحاطب بن عمرو، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن أبي بكر، وأضيف إليهم في المدينة:

أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومعاذ بن جبل، ومعيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعبد الله بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وبريدة بن الحصيب، وثابت بن قيس بن شماس، وحذيفة بن اليمان، وحنظلة بن الربيع، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وزاد بعد الحديبية وفتح مكة:

أبو سفيان صخر بن حرب، ويزيد بن أبي سفيان، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وجهم بن سعد، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب، والحصين بن النمير، وحويطب بن عبد العزى، وعبد الله بن الأرقم، والعباس بن عبد المطلب، وأبان بن سعيد بن

العاص، وسعيد بن سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، والعلاء بن الحضرمي[1].

وأضحى في المدينة لكل كاتب اختصاص تقريباً.

فكان علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأُبي بن كعب يكتبون الوحي، ويكاتب الملوك والأمراء زيد بن ثابت، ويكتب المعاهدات علي بن أبي طالب، ويكتب حوائج الناس المغيرة بن شعبة، والمداينات في المجتمع عبد الله بن الأرقم، ويسجل الغنائم معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، كما كان حنظلة بن الربيع يكتب عندما يتغيب أي كاتب لذا عرف بالكاتب.

---

(١) وانظر: «كتاب النبي» للدكتور مصطفى الأعظمي، طبع المكتب الإسلامي.

صحابة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

يزيد عدد صحابة رسول الله ﷺ، على مائة وعشرين ألف صحابي، ولكن لا بد من أن يكون لبعضهم دور بارز في بعض جوانب الحياة أكثر من بعضهم الآخر الذين قد يمتازون في نواحٍ أخرى.

ففي بدء الدعوة برز أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، كداعية ورجل إيمان ومرافق لرسول الله ﷺ، وباذل للمال. كما امتاز سعيد بن زيد، رضي الله عنه، بالدعوة، واتخذت دار الأرقم بن أبي الأرقم كمقر للعمل، وكان عثمان بن مظعون المسؤول عن المهاجرين للحبشة في المجموعة الأولى، وجعفر بن أبي طالب في المجموعة الثانية. وعندما أسلم حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب كانا دعامة المسلمين. وكان كل من علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله في مقتبل الشباب.

ولم يكن القتال قد فرض لذا لم تبرز الأبطال بشكل جلي في هذه المرحلة، وإنما كان المسلمون جميعاً لهم دور واحد تقريباً، كما أن بعضهم كان لا يزال مستضعفاً.

وفي المدينة ظهر دور مصعب بن عمير الداعية الأول هناك، والذي عرف باسم المقرئ، كما برز أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي نزل عنده مصعب بن عمير، وكان دور لأصحاب بيعة العقبة الأولى أمثال عبادة بن الصامت من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان من الأوس، ومن أهل بيعة العقبة الثانية البراء بن معرور، وسعد بن عبادة، وسعد بن الزبير،

وعبد الله بن رواحة إضافة إلى من عرف وارتفع اسمه. وكذلك كان أثر سيدي الأوس سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير.

وعندما هاجر رسول الله ﷺ، ارتفع ذكر خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عنده رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وعندما فرض القتال بدأ رسول الله ﷺ، يرسل السرايا، ويسير مع الغزوات يدرس الأرض، ويعترض عير قريش، ويتفق مع القبائل، وكان اعتماده على المهاجرين من دون الأنصار فبرز دور حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وسعد بن أبي وقاص، وأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، وعبد الله بن جحش، وزيد بن حارثة، أما من الأنصار فكان سعد بن عبادة الذي استخلفه رسول الله ﷺ، على المدينة أثناء غيابه. وفي هذه المدة مات عثمان بن مظعون من المهاجرين، وأسعد بن زرارة، والبراء بن معرور. وعندما حدثت غزوة بدر برز دور علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب.

ونستطيع أن نقول: إن المعارك التي خاضها المسلمون مع رسول الله ﷺ، كانت تتركز على مجموعة من الرجال الأشداء الذين يلتفون حول رسول الله ﷺ، ويعدون أركاناً له أمثال: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص من المهاجرين، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير من الأنصار، وعلى مجموعة ثانية كانت تجول في ساحة المعركة تحصد الأعداء حصداً، وعرفت بشدة البأس، وحسن البلاء لذا فقد ارتفع ذكرها كثيراً أمثال علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، والزبير بن العوام من المهاجرين وأبي دجانة وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، والحباب بن المنذر من الأنصار.

ومن الرجال الذين اشتهروا في حراسة المعسكر النبوي سعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وعباد بن بشر وهؤلاء من الأوس، ويبدو أنه كان يعتمد على هؤلاء الثلاثة كثيراً في هذه المهمة.

وظهر من القادة إضافة إلى المهاجرين المعروفين الحباب بن المنذر، وبشير بن سعد، وعبد الله بن رواحة ثم أضيف إلى هؤلاء القادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص بعد إسلامهما، كذلك جعفر بن أبي طالب بعد أن عاد من الحبشة.

وبعد فتح مكة رفدت المسلمين برجال أقوياء أمثال: العباس بن عبد المطلب وأبنائه، وأبي سفيان صخر بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأصبح أسامة بن زيد من الشباب القادة. أما الولاة والدعاة فقد عرف منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أم مكتوم، وأبو لبابة بن عبد المنذر وغيرهم، ورضي الله عنهم جميعاً.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣

الباب الأول:

الرسالة

الفصل الأول: طبيعة الرسالة	٩

الباب الثاني:

نشأة محمد ﷺ

الفصل الأول: عهد الطفولة	٢٣
الفصل الثاني: مرحلة الشباب	٣٩
أ ـ الحياة العامة	٣٩
١ ـ حروب الفجار	٣٩
٢ ـ حلف الفضول	٣٩
٣ ـ بناء البيت	٤٠
ب ـ الحياة الخاصة	٤١
١ ـ كسب الرزق	٤٢
٢ ـ السمر	٤٢
٣ ـ الزواج	٤٣
٤ ـ الخلوة	٤٤
الفصل الثالث: البعثة	٤٦

الباب الثالث:

الدعوة في مكة المكرمة

الفصل الأول: الدعوة سراً	٥٣

الفصل الثاني: الجهر بالدعوة ٦٠
١ ـ الحرب الدعائية ٧٧
٢ ـ الحرب الاقتصادية ٨٢
٣ ـ الحرب النفسية ٨٤
٤ ـ الأذى البدني ٨٥
٥ ـ الحرب السياسية ٨٧
٦ ـ اختلاف المفاهيم ٨٨
الهجرة إلى الحبشة ٩١
ملاحظات حول الهجرة إلى الحبشة ٩٢
إسلام عمر بن الخطاب ٩٥
رجوع المهاجرين من الحبشة ٩٨
الصحيفة الجائرة ٩٩
هجرة الحبشة الثانية ١٠٠
نقض الصحيفة الجائرة ١٠٣
المجتمع الجاهلي ١٠٤
نظرة المسلمين للجاهلية ١٠٦
المجتمع الإسلامي ١٠٨
١ ـ الأخوة ١٠٩
٢ ـ الشعور ١٠٩
٣ ـ التعاون ١١٠
٤ ـ الطاعة ١١٣
٥ ـ التضحية ١١٣
٦ ـ الموقع ١١٤
٧ ـ النظرة الصحيحة ١١٤
٨ ـ الحماية ١١٤
تنقية الصف ١١٦
وفاة خديجة رضي الله عنها ١١٨
زواج الرسول ﷺ بسودة ١١٩
وفاة أبي طالب ١١٩
عقد الرسول ﷺ على عائشة ١١٩
الإسراء والمعراج ١١٩

الفصل الثالث: البحث عن مكان يتخذ قاعدة للدعوة ١٢٢
الهجرة إلى الطائف ١٢٣
العرض على القبائل ١٢٤
بيعة العقبة الأولى ١٢٨
بيعة العقبة الثانية ١٣٠
الفصل الرابع: الهجرة ١٣٥

الباب الرابع:

الدعوة في المدينة المنورة

الفصل الأول: تأسيس الدولة ١٤٧
المؤاخاة ١٥٠
الموادعة ١٥٣
المجتمع ١٥٧
الأعداء في الداخل ١٥٨
١ ـ اليهود ١٥٨
٢ ـ المنافقون ١٦٠
٣ ـ أصحاب المصالح ١٦١
الأعداء خارج المدينة ١٦٢
الغزوات والسرايا الاستطلاعية ١٦٤
١ ـ سرية الحمزة ١٦٥
٢ ـ سرية عبيدة بن الحارث ١٦٥
٣ ـ سرية سعد بن أبي وقاص ١٦٥
٤ ـ غزوة ودّان ١٦٥
٥ ـ غزو بواط ١٦٦
٦ ـ غزوة العشيرة ١٦٦
٧ ـ غزوة بدر الأولى ١٦٦
٨ ـ سرية عبد الله بن جحش ١٦٦
الشخصية المتميزة ١٦٩
غزوة بدر ١٧٢
بناء عريش رسول الله ﷺ ١٨١
المعرفة والجحود ١٨١
الخبرة والرأي ١٨٢

الحكيم الذي لا يطاع ١٨٢
الحماقة والغطرسة ١٨٣
الصريع الأول ١٨٣
المبارزة ١٨٤
التقاء الفريقين ١٨٥
التباين بين الجيشين ١٨٥
مناشدة الرسول ﷺ ربه ١٨٥
وصول خبر بدر إلى قريش ١٩٥
الفصل الثاني: محاولة القضاء على الدولة الإسلامية الأولى ١٩٩
بعد النصر ٢٠٣
غزوة بني سليم ٢٠٦
غزوة ذي أمر ٢٠٧
غزوة بحران ٢٠٨
غزوة السويق ٢١٠
سرية زيد بن حارثة ٢١٠
غزوة أحد ٢١١
مشاورة المسلمين ٢١٥
غزوة حمراء الأسد ٢٣٧
يوم الرجيع ٢٣٩
بئر معونة ٢٤٢
إجلاء بني النضير ٢٤٣
غزوة ذات الرقاع ٢٤٤
غزوة بني أسد ٢٤٥
تأديب هذيل ٢٤٥
غزوة بدر الآخرة ٢٤٥
غزوة دومة الجندل ٢٤٧
غزوة بني المصطلق ٢٤٧
غزوة الخندق ٢٥٧
الفصل الثالث: توسع الدولة الإسلامية ٢٦٥
غزوة بني قريظة ٢٦٥
قتل سلام بن أبي الحقيق ٢٧١

زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش ٢٧١
١ ـ سرية محمد بن مسلمة ٢٧٣
٢ ـ غزوة بني لحيان ٢٧٣
٣ ـ غزوة الغابة ٢٧٣
٤ ـ سرية عكاشة بن محصن ٢٧٤
٥ ـ سرية محمد بن مسلمة الثانية ٢٧٤
٦ ـ سرية زيد بن حارثة ٢٧٤
٧ ـ سرية زيد بن حارثة الثانية ٢٧٤
٨ ـ سرية زيد بن حارثة الثالثة ٢٧٥
٩ ـ سرية زيد بن حارثة الرابعة ٢٧٥
١٠ ـ سرية عبد الرحمن بن عوف ٢٧٥
١١ ـ سرية علي بن أبي طالب ٢٧٥
١٢ ـ سرية عبد الله بن رواحة ٢٧٦
صلح الحديبية ٢٧٩
غزوة خيبر ٢٨٦
الصلح مع أهل فدك ٢٩٢
قتال يهود وادي القرى ٢٩٢
يهود تيماء ٢٩٣
بعد خيبر ٢٩٣
عمرة القضاء ٢٩٦
إسلام خالد بن الوليد ٢٩٦
إسلام عمرو بن العاص ٢٩٩
إسلام خزاعة ٣٠٢
دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام ٣٠٢
سرية غالب بن عبد الله ٣٠٣
سرية شجاع بن وهب ٣٠٣
سرية كعب بن عمير ٣٠٤
غزوة مؤتة ٣٠٥
معركة ذات السلاسل ٣٠٩
فتح مكة المكرمة ٣١٢
غزوة حنين ٣١٨

غزوة الطائف ٣٢١

غزوة تبوك ٣٢٤

وفد الطائف ٣٣٣

حج أبي بكر ٣٣٤

الوفود ٣٣٤

حجة الوداع ٣٣٧

جيش أسامة بن زيد ٣٣٩

مرض رسول الله ﷺ ٣٣٩

زوجات رسول الله ﷺ ٣٤٠

١ ـ خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها ٣٤٠

٢ ـ سودة بنت زمعة، رضي الله عنها ٣٤١

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها ٣٤١

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، رضي الله عنها ٣٤٢

٥ ـ زينب بنت خزيمة، رضي الله عنها ٣٤٢

٦ ـ هند بنت أبي أمية، رضي الله عنها ٣٤٢

٧ ـ زينب بنت جحش، رضي الله عنها ٣٤٣

٨ ـ أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها ٣٤٣

٩ ـ جويرية بنت الحارث، رضي الله عنها ٣٤٤

١٠ ـ صفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنها ٣٤٤

١١ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية، رضي الله عنها ٣٤٥

زوجات رسول الله ﷺ اللاتي فارقهن ٣٤٦

نساء خطبهن رسول الله ﷺ ٣٤٨

مهور نساء النبي ﷺ ٣٥١

أولاد رسول الله ﷺ ٣٥٢

١ ـ القاسم ابن رسول الله ﷺ ٣٥٢

٢ ـ عبد الله ابن رسول الله ﷺ ٣٥٢

٣ ـ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ٣٥٢

بنات رسول الله ﷺ ٣٥٢

١ ـ زينب بنت رسول الله ﷺ ٣٥٢

٢ ـ رقية بنت رسول الله ﷺ ٣٥٣

٣ ـ أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ٣٥٣

٤ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ٣٥٤
كتّاب رسول الله ﷺ ٣٥٥
أصحاب رسول الله ﷺ ٣٥٧
الفهرس ٣٦٠

التاريخ الإسلامي

— ٣ —

الخلفاء الراشدون

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الثامنة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٣ —

الخلفاء الراشدون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وَبَعْد

فإن المدة القليلة التي لا تزيد على الثلاثين سنة بعد رسول الله ﷺ يطلق عليها الخلافة الراشدة، والتي تعاقب عليها أربعة خلفاء فقط، وذلك لأنهم ساروا على نهج رسول الله ﷺ، حسب الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لعباده، فكانت هذه المدة إذن تتمة لحكم رسول الله ﷺ، وبذا تكون الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة المنورة منذ أن وصل إليها رسول الله ﷺ في بداية الهجرة وإلى مقتل سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، سنة أربعين من الهجرة هي الصورة الصحيحة للحكم الإسلامي كمدة متصلة، ولم تعد بعدها مرة أخرى على وجه الأرض في كل جوانبها ومعطياتها، وإنما أخذت بعض الجوانب الشكل العام لمدة قصيرة كما حدث أيام سيدنا عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أو بعض أجزاء في صور في عصور شتى في حياة بعض المصلحين من الحكام، وهي القدوة لكل حاكم يريد لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة ولشعبه الصلاح والحياة السعيدة، وهي الشكل من الحكم الذي يطالب به المسلمون حكامهم للسير على نهجه، ويدعون إلى تطبيقه فيما إذا آلت إليهم دفة الحكم، وتسيير شؤون الدولة.

وما هذه المطالبة من قبل المسلمين بالسير على منهج الدولة الإسلامية والدعوة إلى ذلك إلا لأن الحضارة في هذه المدة قد بلغت أوجها، والحضارة التي نعنيها هنا هي التي تنبع من عقيدة المسلم، والتي هي تحقق سعادة الإنسان، وليست الحضارة المادية التي تستعبد الإنسان وتذله، وتطلق له عنان شهواته، وتخضعه لبهيميته، فينشأ الصراع، وتكثر المفاسد، وتعم

الجرائم، ويستبد القوي، ويطغى الغني، وتتحكم مجموعة من اللصوص لتحقيق رغباتها وتأمين مصالحها، وهذا الذي يجمعها بعضها إلى بعض، وأصبحت الحضارة عندهم غايةً شخصيةً وليست غاية كل فرد من أفراد المجتمع كما يجب أن تكون.

لقد أعطى الإسلام الإنسان الصورة الصحيحة عن الحياة، فعرّفه أنه ليس أعظم مخلوق في هذا الكون بما منحه الله من ميزات يحق له أن يتغطرس، ويظلم الآخرين من بني البشر، كما أنه ليس هناك من أمة أعلى من أمة يحق لها السيطرة والطغيان على غيرها، وفي الوقت نفسه فالإنسان ليس مخلوقاً وضيعاً لا قيمة له أمام الكائنات الثانية الأمر الذي يجعله خاضعاً لها يسجد لها ويعبدها، كما فعل الوثنيون الذين عبدوا الشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار سواء أكان ذلك في القديم أم في العصر الحديث، وإنما الإنسان مخلوق مكرم مستخلف في هذه الأرض. ولم يكن هذا الاستخلاف ليجعل الإنسان مستقلاً بأمره يفعل ما يشاء بمحض إرادته، وإنما هو مسؤول أمام الله الذي خلقه، واستخلفه، ورسم له المنهج الذي ينظم أمور حياته، مسؤول عن كل ما يفعل، وعن كل ما ينتج عن فعله، فإن أحسن كوفئ أفضل مكافأة، وإن أساء عوقب على قدر الإساءة. فالإنسان المسلم مقر بسيادة مولاه على ما يملك وكل ما تحت يده هو، ومسؤول: أمام ربه عن كل فعل، وفي الوقت نفسه فهو بهذا المنصب من الاستخلاف يعد أعلى ممن سواه من المخلوقات الأخرى.

ومن هذا المنطلق فإن كل فرد مسلم في المجتمع كان يأخذ دوره كاملاً نتيجة وعيه الصحيح ومعرفة الموقع الذي هو فيه، وكان عضواً صالحاً في المجتمع، ويؤلف لبنة من لبنات البناء المتماسك بعضه مع بعض، وبذا تكوّن المجتمع الصالح، وبسبب ذلك وبسبب الوعي الروحي كان الانطلاق للجهاد تلقائياً للحصول على الشهادة فكانت الانتصارات، وكانت الفتوحات الواسعة، وكان المسؤولون وهم الخلفاء أكثر عناصر المجتمع إدراكاً لهذه الموضوعات وتفهماً لمعطياتها. لذا فقد سادت الحضارة الإنسانية، وحصل

الأفراد على السعادة التامة في المساواة، والعدل، والأمن، والطمأنينة، والحاجات الأساسية كلها، وتأمنت الرفاهية. ويمكن أن نعطي أمثلة مقارنة بين الخلفاء الراشدين وحكام هذا العصر، لنرى الفارق البين بين من صبغه الإسلام بصبغته وبين من طغت عليه المادة والمصالح الدنيوية فطبعته بطابعها، ولما كانت حياة الخلفاء الراشدين صورة واحدة تقريباً، لذا سنجتزئ صوراً منها وهي الشائعة بين الناس السائرة على ألسنة المجتمع، لنصل إلى النتيجة التالية: وهي أن الناس يعرفون المعرفة العامة لحياة الراشدين الذين يعدونهم قدوة لهم، ولكن لا يستطيعون مطالبة الحكام بذلك، حيث الطغيان قائم، والظلم شديد، والناس على رغبة شديدة بتطبيق الإسلام، وعندما يرون أول بادرة لذلك فإنهم ينطلقون وراءها، ويعملون لها بكل إخلاص وتضحية، ويمكن أن نلاحظ هذا في إيران التي قطعت شوطاً بعيداً في المفاسد أيام حكم الشاه، حتى نستطيع أن نقول إنها سبقت غيرها من دول العالم الإسلامي كله، وتسلط سيف الشاه أكثر من غيره أيضاً، وكانت قوة المخابرات السرية تفوق كل ما سواها، ووضعت الدول الأجنبية صاحبة المصالح النفطية كل طاقاتها للمحافظة على الوضع ومراقبة كل تحرك يهدف إلى تغيير النظم، إلا أن المجتمع عندما رأى الاتجاه نحو الإسلام في الحركة المعادية للشاه انطلق يدعمها، وفوجئت الدول الأجنبية بهذا التحرك، وهذا التغير الذي حدث سريعاً نحو الإسلام، ولم تكن لتتوقع ذلك، لذا فالمفاجأة كانت بالنسبة لها صدمة كبيرة إذ ضاعت مصالحها وساد الإسلام ـ حسب المفهوم الذي رفع رايته أولئك الذين دعوا إليه وعملوا له، وهو أصعب الأمور بالنسبة لها وأكثرها مرارة ـ وستكون الصور التي سنعطيها عن الخلفاء الراشدين بما يتعلق بالحياة الاجتماعية بالدرجة الأولى، لما لها من علاقة في الحياة العامة.

لقد كان الخلفاء الراشدون على أعلى مثل من التواضع، إذ كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب أغنام الحي الذي يقيم فيه وهو السنح، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منايح

(أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن. وبقي على ذلك ما أقام في السنح، فلما انتقل إلى المدينة بعد ستة أشهر من توليه الخلافة ترك ذلك بالضرورة.

وكان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، إذا سقط خطام ناقته ينزل ليأخذه، فيقال له: لو أمرتنا أن نناولكه، فيقول: أمرنا رسول الله ﷺ ألا نسأل الناس شيئاً.

هذا التواضع قد فُقد بعد تلك الصفوة إلا من رحم ربك، وغدا الرجل إذا تسلم المسؤولية ترفّع عن الناس، وأصبح لا يكلمهم إلا من وراء حجاب، وبأنف شامخ، وبعد اجتياز عدد من السدود والأسوار من الجند والمخابرات العامة منها، والسرية.

ولننظر إلى جانب آخر من المصلحة العامة وهو السهر من قبل المسؤول الأول على حياة رعيته وشؤونهم، فقد كان الخليفة يتجول في النهار في الأسواق، ويسأل عن شؤون الناس، ويتجول في الليل يتفقد أحوال الأمة والمحتاجين، والذين يبيتون حول المدينة من الأعراب والتجار والمنقطعين ومن ألجأتهم الحاجة إلى ذلك، يؤمن لهم حاجاتهم. فبينما كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعس في المدينة ليلاً أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة، فسألها عن شأنها، فذكرت أن لها عيالاً، وأنه ليس لها خادم، وأنها تخرج في الليل فتسقيهم الماء، وتكره أن تخرج بالنهار، فحمل عمر عنها القربة حتى بلغ منزلها، وقال: اغدي على عمر غدوة يخدمك خادماً. قالت: لا أصل إليه، قال: إنك ستجدينه إن شاء الله تعالى. فغدت عليه فإذا هي به، فعرفت أنه الذي حمل قربتها، فذهبت تولي! فأرسل في أثرها، وأمر لها بخادم ونفقة.

أما بعد ذلك العصر فالحاكم لا يجرؤ على مغادرة مقره، بل لا يستطيع زيارة أهله، وصلة رحمه، وإذا خرج كانت المخابرات السرية أرتالاً من أمامه، وأنساقاً من ورائه، وكان رجال الأمن صفوفاً ولمسافات طويلة،

وينتشر بعضهم على جنبات الطريق، والسيارات المتشابهة تسارع الريح، وتنطلق بعضها إثر بعض حتى لا يُعرف الحاكم في أيها يكون.

ولننظر إلى الجانب المالي الذي عليه مدار الحياة حسنه وسيئه. لقد كان أبو بكر، رضي الله عنه، رجلاً تاجراً يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، فلما استخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر، وأبو عبيدة فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالا: انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

وجاء في الرياض النضرة أن رزقه الذي فرضوه له خمسون ومائتا دينار في السنة وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك وعياله، وكان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده في بيت مال المسلمين، فخرج إلى البقيع فتصافق (بايع)، فجاء عمر، رضي الله عنه، فإذا هو بنسوة جلوس، فقال: ما شأنكن؟ قلن: نريد خليفة رسول الله ﷺ، فانطلق يطلبه فوجده في السوق، فأخذه بيده فقال: تعال ها هنا. فقال: لا حاجة لي في إمارتكم، رزقتموني مالا يكفيني وعيالي. قال: فإنا نزيدك. قال أبو بكر: ثلاثمائة دينار والشاة كلها، قال عمر: أما هذا فلا! فجاء علي، رضي الله عنه، وهما على حالهما تلك، قال: أكملها له. قال ترى ذلك؟ قال: نعم، قال: قد فعلنا. قال أبو بكر: أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا؟ وانطلق أبو بكر، رضي الله عنه، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فقال: أيها الناس إن رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ مني بطنها، ورأسها وأكارعها، وإن عمر وعلياً أكملا لي ثلاثمائة دينار والشاة. أفرضيتم؟ قال المهاجرون: اللهم نعم؟ قد رضينا. فقال أعرابي من جانب المسجد: لا والله ما رضينا فأين حق أهل البادية؟ قال أبو بكر: إذا رضي المهاجرون شيئاً فإنما أنتم تبع.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يعمل بالتجارة أيضاً، فلما

ولي الأمر لم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته، لأنه اشتغل عنها بأمور الرعية، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم فقال: إني كنت امرءاً تاجراً، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون أنه يصلح لي من هذا المال؟ فقال عثمان، رضي الله عنه، كل وأطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد، وأكثر القوم، وعلي، رضي الله عنه، ساكت، فقال له: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره. فقال عمر: القول ما قال علي بن أبي طالب.

وكان عثمان، رضي الله عنه، إذا أعطى الأعطيات، وزع من ماله الخاص أيضاً إلى الذين لا تكفيهم أعطياتهم، وهو المعروف بكرمه، وصدقاته، وبذله ماله في الجهاد.

وكان علي، رضي الله عنه، شأنه شأن عمر، رضي الله عنه.

وأين نحن اليوم من أولئك الصحابة رضوان الله عليهم؟ فإن الخزينة أضحت بعدهم بيد الحكام ينفقون كيف يشاءون، ويتصرفون كما يريدون، كما أصبحت لهم نفقات مستورة لا حصر لها، وفوق هذا فقد تكدست لهم الأموال في المصارف خارج البلاد، حتى غدت دول أجنبية تعيش على هذه الأموال لكثرتها، وأكثرها يعود إلى حكام أمراء المسلمين، مع أنه قد ظهر أن هذه الأموال مهما بلغت، والعقارات مهما كثرت، فإنها لا تكفي شيئاً، ولا تغني صاحبها شيئاً؛ فإن الشاه وضخامة ما يملك ومع ذلك فإنه لم يجد أرضاً تقبله ليأوي إليها، هذا في الدنيا، وله في الآخرة عذاب عظيم، وذلك جزاء الظالمين.

ولعل أفضل حكمة تقال عن المال ما قاله عبادة بن الصامت[1]،

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي من الموصوفين بالورع. وشهد العقبة ـ وكان أحد النقباء ـ وبدرا وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، كان طويلاً شديد السمرة، توفي ببيت المقدس عام ٣٤هـ.

رضي الله عنه، للمقوقس حاكم مصر قبل فتحها أثناء حديثه معه «لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه».

ولننظر إلى جانب من جوانب المساواة في عهد الراشدين، أتت علياً، رضي الله عنه، امرأتان تسألانه، عربية ومولاة لها. فأمر لكل واحدة منهما بكُرٍ من طعام، وأربعين درهماً. فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت. وقالت العربية: يا أمير المؤمنين! تعطيني مثل الذي أعطيت هذه وأنا عربية وهي مولاة؟ قال لها علي، رضي الله عنه: إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ.

وجاء جعدة بن هبيرة إلى علي ـ رضي الله عنهما ـ فقال: يا أمير المؤمنين! يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من نفسه وأهله وماله. والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا! فلهزه، علي رضي الله عنه، وقال: إنّ هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء من الله.

لا شك بأن حكاماً هذا عملهم، وهذا دأبهم ستستقيم رعيتهم، وسينظرون إليهم بعين التقدير والإكبار، وسيشعرون أنهم في طمأنينة، وسيعيشون في أمن وسلام، كل آمن على نفسه، وماله، وعرضه، وستكون عندها السعادة. ولا شك بأن في كل مجتمع وفي أي وقت عناصر تحاول الإساءة، وتسعى للفساد، وترغب في مصالحها الخاصة، إلا أن أعين الخلفاء الراشدين لم تكن غافلة عنهم بل كانت لهم بالمرصاد، تجبرهم على الاستقامة والسير على الطريق المستقيم، وذلك بالقوة إن لم تجد معهم النصيحة، إذ لم يكن سلوك أولئك الخلفاء نتيجة ضعف وخوف، وإنما نتيجة التربية الإسلامية السليمة، والخوف من الله سبحانه وتعالى، والسير على منهجه.

ولا شك بأن الإسلام هو الذي تربى عليه هؤلاء الخلفاء فكانوا أئمة، وكذلك نشأت عليه الرعية فخافت الله واتقته، فنصحت لأئمتها ولسائر

المسلمين، وشعرت بأخوتها لكل أبناء مجتمعها فكانت الأمة الفاضلة، وخير أمة أخرجت للناس، وذلك ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. فكان الأفراد ينصحون أمراءهم فيقبلون منهم، ويأمرونهم بالحق فيلبون، فقد وقف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مرة على المنبر وقال: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا (وميل رأسه). فقام إليه رجل فقال: أجل كنا نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع). فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ قال: نعم إياك أعني بقولي. فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا اعوججت قومني. وكانت النساء تطلبنَ من أزواجهن قبل الخروج للعمل: أن يتقوا الله فيهن وبطعامهن، فإنهن يصبرن على الجوع ولكن لا يصبرن على الطعام الحرام.

تاريخ هذه المرحلة

لكل أمة تاريخ يسجله أبناؤها بصورة ما، فإذا كانت هناك أخطاء فيه وضّحوا الظروف التي أدت إلى وقوع الأخطاء حتى ليجد القارئ أن العذر معهم في تصرفاتهم، فيسوّغ بذلك لهم أعمالهم، فيبقيهم في نظر الناس رجالاً مخلصين، وتشعر الأجيال من أمتهم أنهم أمة مجيدة، يفخر فيها الخلف، ويعتز بها الأبناء، ويأخذ الجيل العبر من أخطاء الأجداد، ويحاول عدم الوقوع فيها، وأن بناء أمته إنما كان بشكل سليم، وفي الوقت نفسه فإن الأحفاد يعرضون الجيد من تاريخهم بشكل رائع وبصورة براقة توضح عظمة الأمة وماضيها الحافل بالأمجاد، وفي كلا الحالين يبقى التاريخ مفخرة للأجيال.

أما الأمة المسلمة فقد اعترى ـ مع الأسف ـ تاريخها الشيء الكثير من التشويه بسبب الفرق التي وجدت، حيث يحاول كل منهم أن يضع من شأن الآخرين، ويعدهم معتدين على حقوق غيرهم، وذلك ليعلي مركز من يتبعهم أو يعمل لهم أو يعتقد بصلاحهم دون سواهم، وبذا حدثت ثغرات في تاريخ العظماء، ثم سلطت الأضواء على نقاط الخلاف، وهُوّل من شأن القتال الذي حدث بين الأطراف، حتى غدا تاريخنا كله قتالاً ومعارك بين الفريقين وأعطيت هذه المعارك أكبر من حجمها، وصورت بأكثر من واقعها، وصار لا يذكر غيرها من الصفحات المشرقة في هذه المرحلة، والأفضل أن تسوّغ هذه المعارك بالظروف التي أدت إلى حدوثها.

من الأمة المسلمة من أحب علياً، رضي الله عنه، حبّاً أفسد عليه أمره كله، فنسب إليه ما لا يُقبل من الحوادث والأخبار، ومن خلال هذا الحب

حاول أن يضع من شأن غيره، ويعد الآخرين معتدين على حقه ظالمين له، ولأنفسهم، بل زاد به ذلك الحب حتى عد أحفاد علي، رضي الله عنه، أئمة منصوص عليهم، وأعطاهم العصمة، وسواهم بمنزلة النبوة، ولكن هذه المبالغة لم تحدث في صدر الإسلام، وإنما وجدت فيما بعد، بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، إذ لا نجد هذا الكلام عند الفقهاء الأوائل والمؤرخين، كما لا نجد الكراهية بين وجهاء آل البيت والخلفاء والولاة، بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة، ولكنها غدت مع الزمن فكراً خاصاً وعقيدة خاصة، ونسب إلى الأوائل أقوال لم يقولوها، وأخبار لم يعرفوها، وأفكار لم تخطر على بالهم أبداً.

لقد فسح المجال أمام أدعياء نصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، أن يكتبوا ما شاء لهم هواهم في ذم خصومهم، والذين وقفوا في وجههم، وأن يروّجوا الروايات التي تلائم ما يدعون! حتى كثرت الفرق، وتعددت الفئات التي تريد من ذلك تأمين مصالحهم، وتبغي تحقيق أهوائهم، وظهرت الباطنية، وزادت المغالاة إذ لم يبدأ تدوين التاريخ إلا في العهد العباسي الذي يرغب بل لا يهمه سوى تهديم الحكم الأموي، ليكون ذلك مبرراً لقيام الدولة العباسية، الأمر الذي ساعد على الطعن في الأمويين جملة، ووصل إلى من قامت دولتهم على أساس المطالبة بدمه، وهو الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه. ونسبت أمور لعلي، رضي الله عنه، ووضعت أحاديث لرسول الله ﷺ تحدد الخلافة لعلي، رضي الله عنه، الأمر الذي جعل من سبقه غاصباً لحقه، غير معترف بأفضليته، ووضعت كتب نسبت لسيدنا علي تنطق بهذا، وما هي له، وأعوذ بالله أن يتكلم أحد الصحابة ومن هو بمستواه عن غيره من الصحابة بهذا الكلام أو يتفوه فيه، وقد انتشرت الأخبار، وشاعت الروايات التي تتحدث بهذا، وجاء المؤرخون فوجدوا من الأمانة العلمية أن يدونوا لسلفهم كل ما في المجتمع من أخبار، وينقلوا إلى أحفادهم كل الروايات، ومن هنا جاء التضارب في الروايات حسب الأصول التي وردت منها، إذ لا تعترف

كل فرقة إلا برواة خاصين بها، تعدهم ثقة، على حين تقدح بغيرهم.

ومما زاد الأمر مشقة وبعداً في الشقة أننا ننظر إلى تلك الحوادث التي وقعت آنذاك من خلال واقعنا اليوم من حيث سرعة وصول الخبر ونقله، والرغبة في الوصول إلى الحكم والتكالب على الدنيا، ومن خلال ما ثبت في ذهننا من عداء بين الفريقين بما دون في التاريخ، ومن خلال عدم دراسة الظروف التي أدت إلى ذلك.

كانت المسافة بين المدينة ودمشق تقطع في مدة شهر ذهاباً ومثله إياباً، وخلال هذين الشهرين وحتى تعود الرسل تكون حوادث قد جدت، ومشكلات جديدة قد طرأت تحتاج إلى معالجة وتبيان، وأمور قد انتهت، وقضايا نسيت لا حاجة لإبرازها من جديد وإعادة المزعجات إلى النفوس، كما أن الموضوعات تكون قد نقلت بشكل مخالف لواقعها نتيجة النقل عن فلان عن فلان، فتصل عن طريق غير الطريق التي نقلها الرسول المأمون الثقة، فتكاد النفس لا تصدق، ويحدث الحرج ويقع الارتباك؛ ونتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الهاتف، واللاسلكي، والمذياع والطائرة، والأقمار الصناعية، وانتقال الأخبار بواسطة هذه الأجهزة ولا تتعدى سرعتها الدقائق بل الثواني.

كان الخلفاء الراشدون أبعد الناس في الرغبة بالحكم، بل في إعطاء الرأي، فكان السؤال يأتي إلى الصحابي فيحيله إلى صحابي آخر، وهو بدوره إلى آخر وآخر حتى يعود السؤال إلى الأول، وكل يحاول ألا يفتي في المسألة، ولننظر إلى يوم السقيفة وأبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، كل يدفع الأمر عن نفسه ويلقيها على الآخر، ولنذكر دائماً ما كان يقوله علي، رضي الله عنه: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولاها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».

نتحدث اليوم عن تلك المرحلة وبذهننا الرغبة في الحكم، والتمسك

في السلطة، والقتال من أجلها، وعدم ترك الأمر إلا بالسيف، والانقلاب، والثورة.

وكان الصحابة عامة والخلفاء الراشدون خاصة يحب بعضهم بعضاً، ولا يحب أحد أحداً كما يحب الخليفة صحابة رسول الله، ولن نتحدث عن استشارة أبي بكر، عمر، وعثمان، وعلياً وبقية الصحابة، ولا استشارة عمر عثمان وعلياً، وتولية عمر علياً المدينة إذا خرج منها، ولا استشارة عثمان علياً، واعتماده على رأيه، لأنه ربما يقول أحدنا أنه كان يداري الصحابة ليسكتوا عنه - معاذ الله - ولكن سنقف قليلاً عند محبة الخلفاء لأبناء الصحابة وخاصة أبناء آل البيت، ثم رأي الخليفة فيمن سبقه. وسنزيد على ذلك لنرى موقف الخلفاء الأمويين والعباسيين الأوائل من وجهاء آل البيت وكبارهم خاصة وجلهم عامة لنكون على بينة من الواقع ولنبتعد قليلاً عما رسخ من نفوسنا من العداء التقليدي، والبغض الكبير بين الفريقين.

كسا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصحاب النبي ﷺ فلم يكن فيها ما يصلح للحسن والحسين، فبعث إلى اليمن فأتى بهما بكسوة فقال: الآن طابت نفسي[١].

وأمر عمر بن الخطاب الحسين بن علي أن يأتيه في بعض الحاجة.

قال الحسين: فلقيت عبد الله بن عمر، فقلت له: من أين جئت؟ فقال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي، فرجع الحسين فلقيه عمر فقال: ما منعك يا حسين أن تأتيني؟

قال: قد أتيتك ولكن أخبرني عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت.

فقال عمر: وأنت عندي مثله؟ وأنت عندي مثله؟[٢]. (أي أعز عليه وأكرم من ولده عبد الله).

---

(١) ابن الجوزي: ٩٧.

(٢) ابن الجوزي: ١٦٤.

وأخرج الترمذي عن عمر، رضي الله عنه، قال: أبو بكر سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج البخاري وأحمد، عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي (يعني علي بن أبي طالب، رضي الله عنه) أي الناس خير بعد النبي ﷺ؟ قال: أبو بكر! قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان.

قلت: ثم أنت. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وسئل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فقال للسائل: على الخبير سقطت، كانا والله إمامَيْ هدى، هاديين مهديين، راشدين مرشدين، مصلحين منجحين، خرجا من الدنيا خميصين.

وقال: جعل الله أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً، وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً.

وبينما كان علي ذات يوم يقضي في الكوفة، إذ قال رجل: يا خير الناس انظر في أمري، فوالله ما رأيت أحداً هو خير منك. قال: قدموه، فقدم، فقال له: هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قال: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا، قال: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ﷺ لضربت عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً.

وكان علي، رضي الله عنه، يقول إذا ذكر عنده أبو بكر: السباق، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير، إلا سبقنا إليه أبو بكر.

وجاء رجل إلى علي، رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر، وأنت أسبق منه سابقة؟ فقال علي: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أوتهن، ولم أعتض منهن بشيء، سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم الهجرة، ومصاحبة النبي في الغار، وإتمام الصلاة وأنا يومئذ بالشعب، يظهر الإسلام وأخفيه، وتستحقرني قريش وتستوفيه. والله لو أن أبا بكر زال عن مزّيته، ما بلغ الدين العبرين، ولكان الناس

كرعة ككرعة طالوت، ويلك إن الله ذم الناس، ومدح أبا بكر فقال: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» فرحمة الله على أبي بكر.

وفي العهد الأموي والعباسي الأول كان بنو هاشم موضع الاحترام، والتقدير سواء من كان ينتمي منهم للعباس، رضي الله عنه، أم لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكان هذا الاحترام عاماً على كافة المستويات، سواء أكانت الأوساط الشعبية أم الرسمية، فكان الخلفاء إذا دخل أحد الهاشميين أوسع له الخليفة بجانبه، وأجلسه بالمكان المناسب له، وأوصله بالأعطيات، بل كان موقف المأمون يزيد على غيره في هذا الأمر؛ فقد جعل كبير الطالبيين علي الرضا ولياً لعهده، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على موضع التقدير لهؤلاء الأئمة من الطالبيين، إذ كانوا بالفعل أئمة علم وهدى ومكانة وتقوى، وكانوا يعطَوْن حقهم اللائق بهم. واستمر هذا حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما قامت الادعاءات في النسب الطالبي، وقامت الحركات الباطنية من قرامطة، وزنج، وعبيدية، كلها تدعي الانتماء إلى علي، رضي الله عنه، وما هي كذلك، وابتدأت تعمل على تهديم الحكم وتقويض أركان المجتمع الإسلامي، وفي الوقت نفسه قامت حركات تدعي الزهد والتصوف، وتعمل على إماتة روح الجهاد حتى لا يستطيع المسلمون مقاومة الحركات الهدامة، ويمكن أن نلاحظ الصلة بين هذه الحركات في العصبية، إذ كلها تعود إلى الأصل الفارسي المجوسي، وفي الأفكار، كلها تحمل فكرة التناسخ والحلول، وفي الأهواء كلها تعمل على إرواء الغرائز والشهوات تارة بالإباحية الظاهرة وأخرى بالمستترة. ومنذ ذلك الوقت بدأت تنفرج زاوية الانحراف ويبتعد ضلعاها بعضهما عن بعض، يحمل الأول الفرق التي تدعي التشيع، ويحمل الثاني الإسلام ويعرف بأهل السنة، وبدأت تظهر الأفكار الغريبة عن الإسلام وعن النبع الصافي، أما الذين يرون مناصرة سيدنا علي، رضي الله عنه، ولم تدخل إلى أفكارهم شوائب وآراء غريبة مخالفة، فهم من المسلمين بغض

النظر عمّا يحملون من اسم، وأما الفرق التي قامت على أفكار وعقائد دخيلة فقد ابتعدت عن الإسلام بغض النظر عما تدعيه من انتماء أو تشيع.

أما ما يقال عن المآسي والنكبات التي لحقت بآل البيت خلال العهدين الأموي والعباسي فإن الأمر لا يقتصر على آل البيت فقط، وإنما نالت المصائب جميع الطامحين بالسلطة والثائرين من الناس جميعاً، سواء أكانوا من آل البيت أم من غيرهم؛ فإذا كان الحسين بن علي، رضي الله عنهما، من آل البيت فإن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، من غيرهم، وإذا كان زيد بن علي بن الحسين من آل البيت فإن عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالأشدق من بني أمية بالذات. هذا في عهد الأمويين، أما في عهد العباسيين فإن المنصور قد قاتل محمد ذا النفس الزكية وأخاه إبراهيم ولكنه في الوقت نفسه قد حارب عمه عبد الله بن علي، وقضى عليه، وقتل أبا مسلم الخراساني؛ فالأمر إذن لا يتعلق بآل البيت وحدهم، وإنما بكل ثائر مهما كان نسبهُ، ومهما كانت عصبيته، إنه الحكم الذي غدا غاية تراق من أجله الدماء، ويقاتل في سبيله الأهل والولد. أما الذين لا يثوروا من آل البيت فإن مكانتهم محفوظة، ومركزهم معروف لا يستطيع إنسان مهما علا شأنه أن يضع منه شيئاً؛ فعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، ومن قبلهم الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وأخوه محمد بن الحنفية بن علي لم يتعرض أحدهم لشيء، وإن حدث فأمر موقت يتعلق بالدعاية ضدهم، أو المعلومات التي يحصل عليها الخليفة أو الوالي من قبل بعض المغرضين، ثم لم يلبث أن يعفو عنه، ويعتذر إليه، وتقدم له الأعطيات.

فالمآسي والنكبات التي يعظم من أمرها بالنسبة إلى آل البيت لحصول الفرقة بين صفوف المسلمين، إنما هي تشبه ما أصاب غيرهم، ولم تكن هناك فروق في الأفكار والعقائد أبداً، وإنما أوجدها المغرضون فيما بعد، وقبل ذلك المتأخرون الذين لم يدققوا الأمر بشكل صحيح.

الخلافة والبيعة

الخلافة هي استخلاف أحد المسلمين لحكم الناس حسب منهج الله سبحانه وتعالى وهو ما ارتضاه لعباده المؤمنين، وهو أمر ضروري لاستقامة الحياة «إن مجموعة القوانين لا تكفي لإِصلاح المجتمع، ولكي يكون القانون مادة لإِصلاح وإسعاد البشر فإنه يحتاج إلى السلطة التنفيذية، لذا فإن الله عز وجل قد جعل في الأرض إلى جانب مجموعة القوانين حكومة وجهاز تنفيذ وإدارة. الرسول الأعظم ﷺ كان يترأس جميع أجهزة التنفيذ في إدارة المجتمع الإسلامي. وإضافة إلى مهام التبليغ والبيان وتفصيل الأحكام والأنظمة، كان قد اهتم بتنفيذها، حتى أخرج دولة الإسلام إلى حيز الوجود، في حينه كان الرسول الأعظم ﷺ لا يكتفي بتشريع القانون الجنائي مثلاً بل كان يسعى، إلى تنفيذه، كان يقطع اليد، ويجلد، ويرجم، ومن بعد رسول الله كانت مهام الخليفة لا تَقِل عن مهام الرسول ﷺ. ولم يكن تعيين الخليفة لبيان الأحكام فحسب، وإنما لتنفيذها أيضاً. وهذا الهدف هو الذي أضفى على الخلافة أهمية وشأناً.

ويشعر الخليفة بأنه مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن كل شيء في هذا المجتمع، وما يحدث منه من تقصير محاسب عنه يوم القيامة. لذا كان خوفه شديداً من الله، الأمر الذي جعل الحاكم يعمل ليلاً ونهاراً على خدمة الناس يتفقد أحوالهم في كل ساعة في السوق، وخارج المدينة، وداخل الأزقة.

ولقد كان الخليفة الأول أبو بكر، رضي الله عنه، يسمى خليفة رسول الله ﷺ، على اعتبار أن رسول الله ﷺ كان هو المكلف من الله جل شأنه بتنفيذ أحكام الله، وحاول كل خليفة بعده أن يقال له خليفة خليفة... رسول الله، إلاّ أن كثرة تكرار كلمة خليفة جعلت الأمر يقتصر على كلمة

الخليفة، ومنذ أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أصبح يحمل أيضاً لقب أمير المؤمنين.

وكان الخليفة إما أن يستشير أهل الحل والعقد قبل موته فيمن يخلفه، كما فعل أبو بكر الصديق، أو يعين من أهل الحل والعقد أناساً يختارون بعده من بينهم رجلاً ممن يرضون عنه أو يرتؤون، كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أو أنهم يلتقون بعد وفاة الخليفة ليختاروا خلفاً له، كما حدث بعد مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إذ اختار أهل الحل والعقد سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ولا تكون الخلافة في أسرة واحدة، مهما كان نوعها ومركزها، وسواء أكانت من آل البيت أم من غيرهم، فالحكم الوراثي غير متعارف عليه في الإسلام، والصلاح ليس بالنسب، والأحقية ليست بالقرابة وإنما بالعمل الصالح، والأفضلية بالتقوى، وعندما قيل لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن يختار من بعده ابنه عبد الله، أو قال له المغيرة بن شعبة: أدلك عليه، عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم، وما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد، ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد. ولقد نال بنو أمية ما نالوا من النقد بسبب عهد بعضهم إلى بعض بالخلافة وترك الشورى، إلا أن ذلك لا يعني أن غيرهم من الأسر أولى منهم، كما ادعى بعض من يدّعي أنه من أنصار سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في وجوب الخلافة في آل البيت، وآل الأمر عندهم في النهاية إلى القول بإمامة بعضهم بالنص، وذلك عندما لم يحصلوا على ما يبغونه.

ومع أن الفقهاء قد وضعوا شروطاً للخلافة، إلا أنها تبقى أموراً عامة فيمن يمكن أن يكون خليفة للمسلمين، وقد نصوا على أن تتوفر في الخليفة شروط الإسلام والذكورة، والرشد، والعدالة، واختلفوا في النسب القرشي. وقد اعتبر الإسلام شرطاً لأنه لا يمكنه أن يتولى إنسان أمراً لا يعتقد

بصلاحية نظامه، إذ كيف يتولى أمر المسلمين رجل من غيرهم لا يؤمن بصلاحية النظام الإسلامي، وهو يريد أن يطبقه، ويعاقب من يخالفه، وكذا الأمر ضروري بالنسبة إلى الذكورة، إذ أن المرأة كثيرة العاطفة، ضعيفة البنية غالباً، لا تستطيع القيام ببعض المهمات المترتبة على صاحب هذا المنصب كإمامة الصلاة، وقيادة الجيوش، وإقامة الحدود.

أما بالنسبة إلى العدالة فقد يختلف الناس في بعض الأفراد أيهم أكثر عدالة، إذ لا يوجد مقياس محدود بالنسبة لها، وقد يوجد جماعة من الناس كلهم عدول، وخاصة بين الصحابة الذين نتحدث عنهم، لهذا قد يرى أناس أن فلاناً له أفضلية على فلان، ويرى غيرهم غير ذلك، ومن هنا كانت تصح إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فليس من الضروري أن يكون الخليفة أفضل الناس، فقد يساويه عدد، أو قد يفوقه بعضهم، وقد قال أبو بكر، رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم. . . ومع أنه الأفضل إلا أن ذلك يدل على جواز وجود من هو أفضل منه، ومع وجود الأفضل إلا أن الخلافة صحيحة والطاعة له واجبة. أما الرشد فإنه بالإمكان الموافقة على البيعة لشاب بلغ سن الرشد، وإمامته صحيحة، إلا أن النفس البشرية تنظر بوقارٍ إلى الرجل الكبير السن، المليئة حياته بالتجارب، وعندما ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد قيادة الجيش المكلف بالسير إلى الشمال لملاقاة الروم، وافق المسلمون، ولا يمكنهم إلا أن يوافقوا، فرسولهم الكريم صاحب الأمر بذلك، وهو أولى بهم من أنفسهم، ولكن بعضهم مع الموافقة لم يتمكن من السكوت فأعطى رأيه أن في الجيش من هم أقدر من أسامة، إذ في الجيش أمثال عمر، وأبي عبيدة، رضي الله عنهما، وفعل رسول الله ﷺ تشريع، وفيه دلالة على جواز إمارة الراشد، وفي الجيش من هو أقدر، وأكفأ من القائد. وهذا الأمر هو الذي جعل النفوس تتجه إلى بيعة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي جاوز الستين من العمر، ولم تتجه إلى غيره من كبار الصحابة الذين يشار إليهم بالبنان كعلي، والزبير، وسعد، رضي الله عنهم، إذ لم تكن سنهم تتجاوز الثلاثين كثيراً، بل هم لا يخطر على بالهم الخلافة والبيعة.

والخلافة واجبة شرعاً وعقلاً، فالمسلمون لا بد لهم من حاكم يرعى أمورهم، ويتولى إدارة شؤون دولتهم، والخلافة هي الدولة الإسلامية، فكما لا نتصور مجتمعاً منظماً دون دولة، وكذلك لا نتصور مجتمعاً إسلامياً يؤدي دوره في الحياة دون خلافة، وإذا انعدمت الدولة انقلب المجتمع إلى فوضى، واختل النظام، وساد الفساد، وعمت الجرائم، وأكل بعض الناس بعضاً، وبانعدام الخلافة تصبح ديار المسلمين نهباً، وتسود شريعة الغاب، حتى تسيطر قوانين الكفر عليهم، كما حدث بعد زوال الخلافة.

وتنعقد البيعة في الإسلام للخليفة من قبل أهل الحل والعقد، وهم رجال العدالة، والعلم، والتقوى، ومن الولاة وهم في الأصل من المجموعة الأولى، إذ أن شروط الخلافة تنطبق على شروط الولاية، ومن حول الولاة من رجالات العدالة الذين يستشيرونهم، أو أهل الحل والعقد بالنسبة إلى الولاية، ويأخذ الولاة منهم البيعة للخليفة. وكانت المدينة المنورة في عهد الخلفاء الراشدين مركز تجمع أهل الحل والعقد إذ تضم أكبر عدد من صحابة رسول الله، ﷺ، ويضاف إليهم الولاة الذين كانوا من الصحابة كذلك.

ولم تكن البيعة من قبل الناس جميعاً كما يحدث في العصر الحالي، وإنما الأمر على أهل الحل والعقد فقط. وإن جرت العادة أن يبايع أكثر الناس، ولكن لم يكن ليؤبه لبيعتهم، وإنما ينظر إلى رجالات الإسلام المعروفين، وليس من الشرط أن تتم البيعة حتى يبايع أهل الحل والعقد جميعاً؛ وإنما يكفي أكثرهم، وبهم تنعقد البيعة، ولذا فإن تخلف عدد قليل من الصحابة ليس معنى ذلك أن البيعة لم تتم، وإن اهتم الخلفاء بهذا الأمر فهذا دلالة على حب معرفة وضع الخلفاء لأنفسهم، وسماع رأي الصحابة فيهم، ورجالات الإسلام بوضعهم.

ولما كانت البيعة تتم برأي أهل الحل والعقد، فالإسلام لا يعرف الانتخابات التي شاعت في وقت متأخر، وذلك لأن النتائج تعطي دائماً لجانب ومصلحة الحاكم أو حسب رأيه مهما كان نوعه كما نرى في هذه

الأيام، ومن هنا اتخذ المسؤولون طريقة جديدة اسموها الاستفتاء، وهي نوع من الألاعيب لإضفاء الصفة الشرعية على الوضع. والناس في الاستفتاء يؤيدون المرشح أو يعارضونه، ويصوتون إلى جانب مشروعات الرئيس أو يخالفونها، وما كان الاستفتاء في يوم من الأيام ليقدم نتائج تقل عن ٩٦٪ لمصلحة ما يريده الحاكم، دلالة على أن المجتمع الذي يضم صوراً متعددة من فئات الشعب لا يمكن أن يقف بجانب المصلحة لعدم معرفتها، أو بجانب الحق لجهله به، وإنما يقف بجانب المسؤول الذي يزيّن له آراءه أو يخيفه بسوطه المصلت، وفي غير الاستفتاء من الانتخابات يكون الرعاع ـ وهم أكثر المجتمعات اليوم مع الأسف ـ دائماً بجانب المال أو الأهواء، فتعطى الأصوات لمصلحة الذي يقدم أكثر أو يستطيع الدعاية بصورة أفضل بما يبذل، إذ أن الرعاع تنطلي عليهم حيل الدهاة والمحنّكين الذين يمارسون ألاعيبهم يومياً على الناس، ومن صور هذه الانتخابات حادثة تروى: جاءت فتاة عامية إلى صندوق الاقتراع، فقدم لها أصحاب الدعاية لأحد المرشحين اسم مرشحهم وصورته، فلم تعجبها الصورة، فأعطوها صورة مرشح آخر جميلة، وقالوا لها هذا فلان، فأيّدت الصورة وصوتت إلى جانب الاسم، ونجح أصحاب دعاية المرشح لبساطة المنتخبة ولمعرفة أنواع المكر والدهاء، وهذا الأمر شائع في الانتخابات، وبصورة عامة كلما كان الشعب على درجة من الجهل قدّم أناساً لتمثيله لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً للخدمة، أو ساروا وراء عواطفهم وشهواتهم ومصالحهم. وعندما تكون الدولة ظالمة وتريد أن تستبد بالوضع تحرص أن يكون ممثلو الشعب على مستوى أقل من الوعي والفكر والخوف من الله، أو من أصحاب المصالح والأطماع وذلك حتى تستطيع أن تفعل ما تشاء، وتأخذ التأييد سلفاً ممن سمّوا على الشعب وهم الذين يحرصون على وضعهم ومصالحهم. ومن هذا فالإسلام يكتفي بأخذ البيعة من أهل الحل والعقد الذين يوجدون في كل أنحاء البلاد، يعرفهم الولاة، ويعرفهم المجتمع الذي يشير إليهم، فيكونون من أهل الإشارة وإبداء الرأي، ولديهم من الخوف من الله ما يمنعهم أن يتكلموا غير الحق، ويكونون نصحةً لله ولرسوله وللمؤمنين.

الباب الأوّل

أبو بكر الصّدّيق

رضي الله عنه

حياته في الجاهلية

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، يُلقب بالعتيق، ويُكنّى بأبي بكر، ويُعرف بالصدّيق، يلقب أبوه عثمان بأبي قحافة، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر من بني تيم أيضاً، وهي ابنة عم أبيه. وبنو تيم أحد بطون قريش الأثني عشر، وليست هي من البطون القوية المعروفة كبني عبد مناف، وبني مخزوم.

ولد في السنة الحادية والخمسين قبل الهجرة، وهو بذلك يكون أصغر من رسول الله ﷺ بحدود سنتين وبضعة أشهر.

تزوج أبو بكر، رضي الله عنه، في الجاهلية امرأتين وهما: قتيلة بنت عبد العزى، وأولدها عبد الله، وأسماء، وتزوج أم رومان بنت عامر الكنانية، وأنجبت له عبد الرحمن، وعائشة.

كان من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أن الشرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهط من عشرة أبطن. فالعباس بن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام، وأبو سفيان بن حرب من بني أمية، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحد رأسوه هو وقدموه. والحارث عامر من بني نوفل، وكانت إليه الرفادة، وهي ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع الحاج. وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وكانت إليه السدانة والحجابة. ويزيد بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة فلا تجمع قريش على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافق والاهم عليه، وإلا تخيّر، وكانوا له أعواناً. وأبو بكر

الصديق من بني تيم، وكانت إليه الأشناق وهي الديات والمغارم، فكان إذا حمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه، وامضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه. وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبة والأعنة، أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجتمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب. وعمر بن الخطاب من بني عدي، وكانت إليه السفارة في الجاهلية. وصفوان بن أمية من بني جمح، وكانت إليه الأزلام. والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة وأموال آلهتهم.

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، نسابة قريش، يقول ابن هشام في السيرة النبوية: كان أبو بكر، رضي الله عنه، أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاركاً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته.

وكان تاجراً يرتحل إلى البلاد، ودخل بصرى الشام، وكان مع أبي طالب في قافلته إلى الشام، وكان رأسماله جيداً، كريماً، فكان ينفق من ماله في كرمه، وعلى أصدقائه، إذ كانت قريش تحبه، ويستشيره رجالها.

حرّم على نفسه الخمرة في الجاهلية فلم يشربها قط لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وذلك أنه مرّ وهو في الجاهلية برجل سكران يضع يده في العَذِرة يدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرمها أبو بكر على نفسه. وأخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية[١].

وأخرج ابن عامر بسند صحيح عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: والله ما قال أبو بكر شعراً قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية[٢].

---

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي.
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

ولقد روي له ثلاثة أبيات من الشعر منها:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت　　　لك الجنان وبوئت المها العينا[١]

ولم يسجد أبو بكر كذلك لصنم قط، قال أبو بكر، رضي الله عنه، في مجمعٍ من أصحاب رسول الله ﷺ. ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مُخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشمّ العوالي، وخلاّني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني فلم يجبني، فقلت: إني عار فاكسني فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه[٢].

وكان خدناً للنبي ﷺ وصفياً له قبل البعثة. وكان معه حين ذهب مع عمه إلى الشام، واجتمع ببحيرا الراهب. وكان النبي ﷺ في بدء الوحي إذا برز سمع من يناديه: يا محمد! فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فأسرّ ذلك إلى أبي بكر، وكان نديماً له في الجاهلية.

وعلى الرغم من شهرة أبي بكر في الجاهلية بين أفراد قبيلة قريش وبين غيرها إلا أن تاريخه في تلك المرحلة غير معروف بدقة، وكل ما يعلم أنه كان تاجراً نسابة تألفه قريش، صديقاً لمحمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو بذلك مثل معظم رجالات ذلك الزمن، إلا أن دخوله في الإسلام وسبقه في ذلك قد رفعه عمن سواه، وكان الشخص الثاني بعد رسول الله ﷺ. وإذا كان الإسلام قد رفع كل من اعتنقه إلا أنه قد جعل بعضهم دون بعض حسب سبقه، وإخلاصه، وتقواه، وتضحيته، وكل هذا ما امتاز به أبو بكر، رضي الله عنه.

وقال ﷺ لخديجة، رضي الله عنها: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت، فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ـ

---

(١) شذور الذهب: ابن هشام.　　(٢) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.

ولم يكن رسول الله ﷺ هناك ـ ذكرت له حديثه وقالت: يا عتيق! اذهب مع محمد إلى ورقة.

أما صفاته فقد قالت عائشة، رضي الله عنها: كان أبيض، نحيفاً، خفيف العارضين، أجنأ (منحنياً) لا يستملك إزاره، يسترخي عن حقويه (كشحيه) ـ والكشح عند الخاصرة ـ معروق الوجه، غائر العينين، نائي الجبهة، عاري الأشاجع.

حياتُه في الإسْلام

كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، صديق رسول الله ﷺ فما أن بعث محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، حتى آمن أبو بكر بدعوته. ويبدو أن إسلامه كان بسبب ما عرف من سلوكه وأخلاقه وأنه أهل لحمل الرسالة وذلك أثناء صداقته له ولقائه معه، ثم بسبب ما سمع من الناس الذين كانوا يدّعون أنهم على الحنفية دين أبينا إبراهيم «عليه السلام»، وما ذكره الذين يدّعون أنهم لهم علم بالكتاب بقرب ظهور نبي.

أخرج ابن عساكر عن عيسى بن يزيد، قال: قال أبو بكر الصديق، كنت جالساً بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً، فمرّ به أمية بن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كلّ دين يوم القيامة إلا ... ما قضى الله في الحقيقة بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم، قال: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي، ينتظر، ويبعث، قال: فخرجت إلى ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، إلا أن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسباً ـ ولي علم بالنساب، وقومك أوسط العرب نسباً. قلت: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم، ولا يُظلم، ولا يُظالم، فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته[1].

(١) تاريخ الخلفاء: الحافظ جلال الدين السيوطي.

وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، خرجت أريد اليمن قبل أن يبعث النبي ﷺ، فنزلت على شيخ من الأزد عالم، قد قرأ الكتب، وعلم علماً كثيراً. فلما رآني، قال: أحرميّ أنت؟ قلت: نعم أنا من أهل الحرم. قال: وقريشي؟ قلت: نعم أنا من قريش. قال: وتيميّ؟ قلت: نعم أنا عبد الله بن عثمان من تيم بن مرة (فأخبره أنه سيكون صاحباً لنبي يبعث في الحرم، وذلك في خبر طويل)[١].

وقال ربيعة بن كعب: كان إسلام أبي بكر شبيهاً بالوحي من السماء، وذلك أنه كان تاجراً في الشام فرأى رؤيا، فقصها على بحيرا الراهب[٢]، فقال له: من أين أنت؟ قال: من مكة، قال: من أيها؟ قال: من قريش، قال: فأي شيء أنت؟ قال: تاجر، قال: إن صدق الله رؤياك، فإنه يبعث نبي من قومك، تكون وزيره في حياته، وخليفته بعد موته، فأسرّ ذلك أبو بكر في نفسه[٣].

وبعث رسول الله ﷺ وكان أبو بكر، رضي الله عنه، صديقاً له، فلما بعث انطلق رجال قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر، إن صاحبك.... قال: وما شأنه؟ قالوا: هو ذاك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي! قال أبو بكر، رضي الله عنه: وقال ذاك؟ قالوا: نعم. فأقبل أبو بكر إلى النبي ﷺ، فطرق عليه الباب فاستخرجه، فلما ظهر له قال: يا أبا القاسم! ما الذي بلغني عنك؟ قال: وما بلغك عني يا أبا بكر؟ قال: بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله، قال: يا أبا بكر، إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني في دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً، قال أبو بكر، رضي الله عنه، والله ما جربت عليك كذباً، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مدّ يدك فإني مبايعك.

---

(١) أبو بكر الصديق: علي الطنطاوي.
(٢) الراهب بحيرا: من كبار الذين عرفوا بالعلم في بلاد الشام آنذاك.
(٣) أبو بكر الصديق ـ علي الطنطاوي.

ويروى أنه قال له: يا محمد ما الدليل على ما تدّعي؟ قال: الرؤيا التي رأيت في الشام، فعانقه وقبّل بين عينيه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله[(١)].

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حكمت في الإسلام أحداً إلا أبى عليّ، وأرجعني الكلام، إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه»[(٢)].

وصحب أبو بكر، رضي الله عنه، النبي، عليه الصلاة والسلام، من حين أسلم إلى حين توفي، لم يفارقه سفراً ولا حضراً، إلا فيما أذن له عليه الصلاة والسلام في الخروج فيه من حج وغزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه، وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ﷺ، وهو رفيقه في الغار، قال تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع، وله الآثار الجميلة في المشاهد، وثبت يوم أحد، ويوم حنين، وقد فر الناس[(٣)].

وكان رضي الله عنه من أشجع الناس، يثبت في المعارك كالجبال الرواسي لا يحيد خطوة عن رسول الله ﷺ يدافع عنه، ويذود، ولذا لم تكن له تلك الحركة والصولة بين صفوف الأعداء كما يفعل بعض الصحابة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وأبي دجانة، رضي الله عنهم جميعاً. ومن هنا لم تظهر شهرته أمثالهم إذ يذكر الشجعان بعدد الذين يقتلونهم من الأعداء أو يأسرونهم من الخصوم، ويختلف عنهم أبو بكر، رضي الله عنه، إذ يبقى بجانب رسول الله ﷺ يدافع عنه بكل شجاعة، ويتلقى الضربات عنه.

---

(١) الرياض النضرة.
(٢) تاريخ الخلفاء: السيوطي.
(٣) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

وكان رضي الله عنه كريماً سخياً، وقد أنفق جل ماله في سبيل الله ورسوله، وقد نزلت في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾. وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر، وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟ وقد كان ماله يوم أسلم أربعين ألف دينار أنفقها كلها على رسول الله ﷺ، ولم يبق منها يوم الهجرة إلا خمسة آلاف.

وأخرج أبو داود، والترمذي عن عمر بن الخطاب، قال: أمرنا رسول الله، عليه الصلاة والسلام، أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، قلت: اليوم أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسبقه في شيء أبداً.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا كافأناه إلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر.

ولقد أسلم عدد من كبار الصحابة على يد أبي بكر، رضي الله عنه، ومنهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله وذلك في بدء الدعوة، بل كان هؤلاء من أول من أسلم، ثم تبعهم عثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي.

وابتنى أبو بكر بفناء داره مسجداً، يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه الناس، ويستمعون إلى قراءته وصلاته وبكائه، فكان ذلك سبباً في إسلام كثيرين.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، إذا مرّ على أحد من العبيد يعذب

اشتراه من سادته، وأعتقه ابتغاء وجه ربه الأعلى: اشترى عامر بن فهيرة من سيده الطفيل بن عبد الله بن الحارث، وأعتقه، والطفيل ربيب أبي بكر إذ هو ابن زوجه أم رومان، أي هو أخو عائشة، رضي الله عنها، لأمها، وكان عامر أحد السابقين للإسلام، وقد عذب في سبيل الله، وشهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، بلال بن رباح، وكان من قبل مولى لأمية بن خلف الجمحي الذي أذاقه العذاب المر، وقد اشترى أبو بكر بلالاً بخمس أواق من الذهب، وبعد أن اشتراه، قال أمية بن خلف لأبي بكر: لو أبيت إلا أوقية لبعناك، فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. وكان بلال، رضي الله عنه، صادق الإسلام، مؤذناً لرسول الله، شهد بدراً والمشاهد كلها، ومات بدمشق عام ٢٠هـ رضي الله عنه، أما أمية بن خلف فقد استمر على شركه، وقتل يوم بدر كافراً.

واشترى أبو بكر، رضي الله عنه، زنّيرة، وكانت أمة عمر بن الخطاب قبل أن يسلم، وكان يعذبها ويضربها ـ وكانت قد أسلمت ـ وذهب بصرها من شدة الضرب، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت وهي لا تبصر: والله ما هو كذلك وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، وربي قادر على أن يرد عليّ بصري، فرد الله عليها بصرها تلك الليلة. فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر فأعتقها، وكانت قريش تقول: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زِنّيرة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾.

واشترى جارية كانت أمة في بني عدي، قوم عمر بن الخطاب، وقد أسلمت، فكان عمر بن الخطاب قبل إسلامه يعذبها ويضربها لتترك الإسلام، فاشتراها أبو بكر، رضي الله عنه، وأعتقها.

واشترى أمة في بني عبد شمس، وكانت تدعى أم عبيس وأعتقها.

ولعل أبا بكر، رضي الله عنه، كان أكثر من دافع عن رسول الله ﷺ،

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: لما كان بعد وفاة أبي بثلاثة أيام اجتمعت قريش تريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يعنه يومئذ إلا أبو بكر. ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجادل هذا، ويدفع هذا ويقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم». والله إنه لرسول الله. وتقطعت في ذلك اليوم إحدى ضفيرتي أبي بكر.

وأخرج البخاري عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار: بكرة وعشياً. فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض: وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج، إنك تُكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يخرج، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا رجلاً بكاءً، لا يملك عينه إذ قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك،

ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، قال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني خفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة. واشتد أذى قريش على المسلمين في مكة، وكانت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ وبعض أعيان أهل المدينة من الأنصار وذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة في العام الذي سبق الهجرة، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين: «قد رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» فهاجر من هاجر من المسلمين إلى المدينة، ورجع أكثر من كان منهم بأرض الحبشة إلى المدينة.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلاً لهم: إن الله جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا أرسالاً، وأقام النبي ﷺ ينتظر أن يؤذن له، ولم يتخلف من المسلمين إلا من حُبس أو فُتن، وتخلف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له: فإني أرجو أن يؤذن لي. قال أبو بكر: وترجو ذلك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه لصحبة رسول الله ﷺ، وعلف ناقتين كانتا عنده ورق السمر.

وجاء الإذن لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة مع هلال شهر ربيع الأول، فأتى دار أبي بكر، رضي الله عنه، في الظهيرة على غير عادته، إذ كان يأتي ذلك المنزل إما صباحاً وإما مساءً، وأخبره بمجيء الإذن من السماء بالهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله، قال: نعم، فبكى أبو بكر من شدّة الفرح وقال: بأبي أنت يا رسول الله، فخذ إحدى راحلتي هاتين، وقدم له أفضلهما، وقال: اركب بأبي أنت وأمي. فقال: إني لا أركب راحلة ليست لي. قال: فهي لك يا رسول الله، قال: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها له، قال: ابتعتها بكذا وكذا، قال: قد

أخذتها بذلك. وعلى الرغم من الصلة القوية الصادقة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وعلى الرغم من أن أبا بكر قد وضع ماله تحت تصرف الدعوة. وأنفق الأموال الكثيرة في سبيل ذلك، إلا أن رسول الله ﷺ لم يرغب أن يعيش المسلم على إخوانه وهو قادر على العمل، ولا الأمير على رعيته وهو يستطيع الإنتاج، إن كل عمل يقوم به رسول الله ﷺ إنما هو أسوة للمسلمين.

وسار رسول الله ﷺ وصديقه باتجاه غار ثور، ووعدا دليلهما عبد الله بن أريقط غار ثور بعد ثلاث ومعه راحلتاهما. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يمشي أثناء الطريق تارة أمام رسول الله، وتارة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن يساره، فقال له: ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك! قال: يا رسول الله: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك.

ودخل أبو بكر، رضي الله عنه، الغار قبل رسول الله ﷺ، فسوى أرضه، ووجد فيه ثقوباً، فشق إزاره وسد تلك الثقوب، إلا أنه بقي اثنان منها، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل.

فدخل رسول الله ﷺ، فجلس أبو بكر وقد سد الثقبين برجله، وطلب من رسول الله أن ينام على رجله، فوضع النبي رأسه في حجر أبي بكر ونام. فلدغت حشرة أبا بكر في رجله من الثقب، فلم يتحرك مخافة أن يتأذى رسول الله أو يتنبه، إلا أن الألم قد أبكاه وسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل له رسول الله على مكان اللدغ فذهب عن أبي بكر ما يجد من الألم.

وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي إليهما مساء فيبيت عندهما، ويتركهما قبل الفجر، فيصبح في مكة كأنه نائم فيها، يسمع من قريش، ويرجع إلى الغار بالأخبار مساء، ويأتي عامر بن فهيرة مساء باللبن من أغنام يرعاها، وهكذا ثلاثة أيام وفي صبيحة اليوم الثالث منها جاءهما عبد الله بن أريقط براحلتيهما، وأتت أسماء بنت أبي بكر لهما بالطعام. وسارا مع الدليل،

ومعهما أيضاً عامر بن فهيرة. وامتطى كل بعيراً، وانطلقوا إلى المدينة.

وأصابت حمى المدينة أبا بكر حين نزل فيها، وعندما سألته عائشة، رضي الله عنها، عن صحته قال:

كل امرئ مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعله

وذكرت عائشة، رضي الله عنها، ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة.

وعندما رجع الدليل عبد الله بن أريقط من المدينة إلى مكة أخبر عبد الله بن أبي بكر بمكان وجود أبي بكر، فخرج عبد الله بعيال أبيه إليه، وصحبهم طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

ويوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأجاد، ويوم كانت المعركة، كان رضي الله عنه شاهراً سيفه يذود عن رسول الله ﷺ. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوماً، وهو في جماعة من الناس: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر: لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، وقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد، إلا أبو بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله ﷺ.

وانتهت غزوة بدر بنصر مؤزر للمسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من صناديد قريش، وأسروا مثلهم، واستشار رسول الله ﷺ أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

ورأى عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، قتل الأسرى، وكان رسول الله ﷺ أن يأخذ برأي أبي

بكر، وأخذ الفدية من المشركين. ولما كان الغد جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فوجده قاعداً مع أبي بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني ما يبكيك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (وأشار إلى شجرة قريبة). وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾[1].

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر يوم بدر من المشركين، فقال مرة لأبيه بعد أن أسلم: لقد أهدفت لي يوم بدر، فطفت عنك ولم أقتلك. فقال: لكنك لو أهدفت لي لم أطف عنك. أي لم يكن أبو بكر، رضي الله عنه، لتأخذه عاطفة الأبوة فيعدل عن قتل ابنه، إنه الإسلام، وإن ابنه لفي شركه، ولا يتفق الإسلام مع الشرك، ولن تكون مودة أبداً بين المسلمين والمشركين مهما كانت الصلات المادية في هذه الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ...﴾[2].

وثبت أبو بكر، رضي الله عنه، ثبوت الجبال يوم أحد حول رسول الله ﷺ يدافع عنه، وكانت غزوة بني المصطلق، وكان فيها حديث الإفك الذي افتري فيه على عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، ثم جاءت براءتها. وكان أبو بكر، رضي الله عنه، ينفق على مسطح بن أثاثة[3]، وكان من الذين اشتركوا في حديث الإفك أو خاضوا فيه، فقال أبو بكر: والله لا

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٩. (٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، اسمه عوف، ولقبه مسطح، كان وأمه من المهاجرين الأولين، مات أبوه وهو صغير فكفله أبو بكر لقرابة أمه منه، جلد في حادثة الإفك، وشهد صفين مع سيدنا علي، ومات في ذلك العام ٣٧هـ.

أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفق بنفع بعد الذي قال لعائشة، وأدخل علينا ما أدخل، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1] فقال أبو بكر، رضي الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

وشعر المسلمون ببعض الانقباض من صلح الحديبية، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي يقول: أتيت النبي ﷺ يوم الحديبية فقلت: يا رسول الله! ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: وألست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أو أخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أيها الرجل! إنه رسول الله وليس يعصيه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أفأخبرك أنك تأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنه آتيه ومطوف به. فكانت أجوبته رضي الله عنه تشبه إجابة رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني فزارة سنة سبع للهجرة بقيادة أبي بكر، رضي الله عنه، فوردت الماء، وغنمت، وسبت، وعادت سالمة.

وفي غزوة تبوك، ساعة العسرة، كانت راية المسلمين بيد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه.

---

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

ويوم حنين أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغنهم شيئاً، وولوا مدبرين بعد أن كمن لهم الأعداء في شعاب الوادي، وثبت حول رسول الله أبو بكر، وعمر، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، رضي الله عنهم جميعاً، ثم ثاب المسلمون إلى رشدهم واجتمعوا إلى رسول الله بعد نداء العباس بن عبد المطلب، ونصرهم الله، وهزم المشركين.

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة للهجرة وذلك بعد الرجوع من غزوة تبوك بثلاثة أشهر تقريباً. وانطلق مع أبي بكر، رضي الله عنه، ثلاثمائة حاج، وأرسل رسول الله ﷺ معه عشرين بدنة، وساق أبو بكر نفسه خمس بدنات، وبعد مسير الحاج أنزلت سورة براءة فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في أثره بأربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس يوم التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول. وذلك بعد كلمات كان أبو بكر، رضي الله عنه، يخاطب بها الناس، ويعلمهم مناسكهم.

وحدث خلاف بين بني عمرو بن عوف من الأوس، كانوا يقيمون بالقرب من قباء، فذهب رسول الله ﷺ ليصلح بينهم، وأمر بلالاً قبل ذهابه أن يقدم أبا بكر إذا حانت الصلاة ولم يرجع رسول الله، وكان ذلك، ورجع رسول الله فما دخل المسجد إلا وأبو بكر قد دخل في الصلاة، فنبه المسلمون أبا بكر فأشار رسول الله إلى أبي بكر أن يستمر، إلاّ أن أبا بكر قد تراجع وتقدم رسول الله، وأتم الصلاة، فلما انتهت، قال رسول الله لأبي بكر: يا أبا بكر ما منعك إذا أومأت إليك أن لا تكون مضيت؟ فقال أبو بكر: لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ. فقال للناس: إذا نابكم في صلاتكم شيء فليسبح الرجال، وليصفق النساء.

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس (قالت) فقلت: يا

رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف (سريع الحزن والبكاء)، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر. فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنكن أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس، (قالت) فأمروا أبا بكر يصلي بالناس، فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة، فقام يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض (قالت): فلما دخل المسجد سمع أبو بكر حسه فذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ أقم مكانك، فجاءه رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلي بالناس جالساً وأبو بكر قائماً. يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر.

ولما انصرف الناس من هذه الصلاة، وهم يظنون أن رسول الله قد عوفي من مرضه الذي هو فيه، وكذلك كان ظن أبي بكر، الأمر الذي جعله يقول للنبي ﷺ: يا نبي الله! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم حبيبة بنت خارجة أفآتيها؟ قال: نعم.

ثم دخل رسول الله ﷺ حجرته، وخرج أبو بكر، رضي الله عنه، إلى أهله بالسنح (في العالية).

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي من ليلته تلك، وجاء أبو بكر فنزل بباب المسجد، وقد بلغه الخبر، وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يحدث الناس، ويقول لهم: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات. ولم يلتفت أبو بكر إلى ما في المسجد، ودخل إلى بيت رسول الله في حجرة عائشة، رضي الله عنها، وكان مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن

وجهه، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أخرى. ثم رد الثوب على وجهه. ثم خرج إلى المسجد، وعمر بن الخطاب لا يزال يخطب الناس فقال: على رسلك يا عمر فأنصت... ولكن عمر استمر في كلامه. فقال أبو بكر: أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1] فكان الناس كأنهم سمعوا هذه الآية لأول مرة، وكأنها ما نزلت على محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد انقطع الوحي، ومات رسول الله، ولم يعد الصحابة يرونه، ولم يعد المسلمون يتلقون التوجيه والإرشاد، وهذا ما جعل المسلمين يشعرون بصدمة كبيرة، طاشت معها أحلامهم، وفقدوا صوابهم، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أن رسول الله لم يمت، وهذا ما كان من كلام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وتزوج أبو بكر رضي الله عنه في الإسلام حبيبة بنت خارجة الأنصارية فأولدها أم كلثوم بعد وفاته، وتزوجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

تيم
|
سعد
|
كعب
|
عمرو
|
عامر
|
عثمان [أبو قحافة] أسلم يوم الفتح، وتوفي سنة ١٤ هـ بعد وفاة ابنه بستة أشهر .
|
عبد الله [أبو بكر الصديق] رضي الله عنه .

حبيبة بنت خارجة الأنصارية

- **أم كلثوم**: ولدت بعد وفاة أبيها زوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

أسماء بنت عميس

- **محمد**: ولد سنة ١٠ هـ وقتل سنة ٣٧ نشأ في حجر علي، وهو ربيبه ولي مصر لعثمان ثم لعلي

أم رومان

- **عائشة**: زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت سنة ٥٨
- **عبد الرحمن**: شهد بدراً وأحداً مع المشركين أسلم في هدنة الحديبية، شهد اليمامة، شهد الجمل مع عائشة. توفي سنة ٥٣

قتيلة بنت عبد العزى العامرية

- **أسماء**: ولدت سنة ٢٧ قبل الهجرة، تزوجت الزبير ابن العوام توفيت سنة ٧٣
- **عبد الله**: جرح بالطائف وتوفي سنة ١١ في خلافة أبيه

وتزوج أسماء بنت عميس، وكانت قبله تحت جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، واستشهد عنها في غزوة مؤتة، ولدت لأبي بكر محمداً في السنة العاشرة للهجرة، وبعد وفاته تزوج أسماء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بيعته

توفي رسول الله ﷺ، وشعر الأنصار وهم أهل المدينة المنورة أنهم بحاجةٍ ماسة إلى اختيار خليفة منهم يتولى شؤون المدينة وأمر المسلمين، فمدينتهم مهددة بعد وفاة رسول الله ﷺ من الأعراب ورجال القبائل، إذ يعرفون أن كثيراً من الأعراب وكثيراً من القبائل لم تؤمن، ولم يدخل الإيمان في قلوبها، وإنما أسلمت بلسانها خوفاً من القوة التي بلغتها الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ، وقد ظهرت الردة في بعض المناطق قبيل وفاة رسول الله ﷺ.

شعر الأنصار أنهم هم مهددون قبل غيرهم من قبل الأعراب ورجال القبائل لأنهم كانوا دعامة رسول الله ﷺ، وهم الذين نصروه، وفتحوا بيوتهم للمهاجرين من أهل مكة، واستطاعوا مع المهاجرين أن يكوِّنوا الدولة الإسلامية الأولى أيام النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام، والتي تمكنت من إخضاع الأعراب، والسيطرة على ديار القبائل.

وشعر الأنصار أن المهاجرين ربما تركوا المدينة ورجعوا إلى بلدهم الأول مكة المكرمة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهم ما هاجروا بالأصل إلا من أجله وأجل عقيدتهم، وقد خرجوا من مكة عندما كان سكانها على شركهم، فلما دانوا بالإسلام، ودخلوا في دين الله، فمن المحتمل أن يعود المهاجرون إلى ديارهم وقد تركوا فيها بيوتاتهم، وتركوا أملاكهم، وغادروا أهليهم، بل إن هذا قد خطر في بال الأنصار منذ أن دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً في السنة الثامنة للهجرة، وعندما كانوا هم مع رسول الله ﷺ في ذلك الفتح، وقد كلموا رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، وأجابهم

وذلك بعد توزيع غنائم هوازن وثقيف في الجعرانة بعد غزوة حنين «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم شيئاً، حتى كثرت منهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه!! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال: فأين أنت من ذلك يا سعد! قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ من قومي! قال: فاجمع لي قومك في الحظيرة، قال: فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاءه رجال من المهاجرين، فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد فقال: قد اجتمع إليك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله؛ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم! قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل! فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار! قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم، ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار؛ أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقال: رضينا برسول الله

قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[١].

فيمكن إذن أن يعود المهاجرون بعد وفاة رسول الله ﷺ، لذا فإن الأنصار هم بالدرجة الأولى المسؤولون عن إيجاد خليفة لرسول الله ﷺ بغض النظر عن وجود المهاجرين، هذا الأمر هو الذي جعلهم يلتقون في سقيفة بني ساعدة وحدهم، ولم تعوزهم الشورى، فالخزرج هم أكثر الأنصار، وزعيمهم هو سعد بن عبادة، وهو من كبار الصحابة، ومن الذين توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، لذا فقد اتفقوا على بيعته.

أما المهاجرون فقد كانوا أكثر بعداً عن هذا الموضوع، بعضهم قد شغل بوفاة رسول الله ﷺ ودفنه، وبعضهم لا تزال صدمة وفاة رسول الله ﷺ تملأ نفسه، وبعضهم لم يفكر في اختيار خليفة بعد، إذ أن النبي، عليه الصلاة والسلام، لم يدفن بعد ولم يفكر إلاّ بهذا الموضوع، ولم يبحث بموضوع فيه خلاف حيث أن هذا الأمر هو آخر ما يمكن أن يقع فيه الاختلاف ـ حسب رأيه ـ. وبينما عدد من المهاجرين في بيت رسول الله ﷺ إذا برجل ينادي من وراء الجدار: اخرج إليّ يا ابن الخطاب. فقال عمر: إليك عني فإنا عنك مشاغيل، فقال: إنه قد حدث أمر لا بد منك فيه: إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون بيننا وبينهم فيه حرب. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من هؤلاء الأنصار. وأدركا هنا، رضي الله عنهما، قيمة وجود الخليفة لتسيير الأمور وشؤون الناس احتساباً لكل حادث. وسارا باتجاه سقيفة بني ساعدة فوجدا أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، فأخذاه معهما. ووجدوا في طريقهم رجلين من الأنصار هما: عويم بن ساعدة[٢]، ومعن بن عدي[٣]، فسألوهما، فقالا: لا عليكم

---

(١) تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام.

(٢) عويم بن ساعدة: من الأوس، حضر بيعتي العقبة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

(٣) معن بن عدي: حضر بيعة العقبة، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخى رسول الله بينه وبين زيد بن الخطاب واستشهدا معاً في اليمامة.

ألا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقضوا أمركم بينكم، فإن اتفقتم فيما بينكم لن يكون خلاف بينكم وبين الأنصار. إلا أن المهاجرين قد تابعوا السير حتى وصلوا إلى سقيفة بني ساعدة. ومن هذا يبدو أنه لم يكن خلاف بين مهاجرين وأنصار، وإنما دعت الضرورة إلى لقاء الأنصار ـ كما ذكرنا ـ.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد ﷺ سعد بن عبادة، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسمع القوم كلهم كلامي، ولكنك تلقّ مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله، فيرفع صوته فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام، ليست لقبيلة من العرب: إن محمداً ﷺ لبث بضع عشر سنة في قومه، يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ﷺ، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة، وخصكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقلهم على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً، حتى أغنى الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت له بأسيافكم العرب، وتوفاه الله، وهو عنكم راض، وبكم قرير العين». وهذا ما يدل أيضاً على أن الأنصار كانوا يعتقدون أنهم سيكونون هدف العرب الأمر الذي جعلهم يفكرون بمبايعة خليفة بشكل سريع.

وجاء المهاجرون، والأنصار مجتمعون، وجلس المهاجرون فقام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين حي منّا، وقد دفت إلينا دافة منكم، فإذا أنتم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحضنوا الأمر من دوننا

(وقد كان رسول الله ﷺ إذا استعمل رجلاً منكم، قرن معه رجلاً منا، فأرى أن يلي الأمر رجلان: أحدهما منكم والآخر منا).

يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما قضى الأنصاري مقالته، أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك فكرهت أن أغضبه، ولقد كان أحلم مني وأوقر، فتكلم أبو بكر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني مما كنت قد زورت في نفسي إلا أتى بمثلها أو أفضل منها في بديهته، ولم يدع شيئاً أنزل في الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ إلا ذكره. فقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار، وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله. ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش. هم أوسط العرب داراً وأنساباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم (وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة)، فوالله ما كرهت من مقالته غيره، ولأن أقدم فتضرب عنقي لا يكون في ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر. فلما قضى أبو بكر مقالته قالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا، ولا أرضى عندنا منكم، ولكن نشفق مما بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم، فإذا هلك اخترنا رجلاً من الأنصار فجعلناه مكانه، فإذا هلك اخترنا رجلاً من المهاجرين فجعلناه مكانه كذلك أبداً. وكان ذلك أجدر أن يشفق القرشي إن زاغ أن ينقض عليه الأنصاري، وأن يشفق الأنصاري إن زاغ أن ينقض عليه القرشي.

ويبدو من هذا أن الأنصار لما وجدوا أن المهاجرين باقون في المدينة، رأوا أن الحق لهم، وأن الخلافة يجب أن تكون بينهم، ولكن أصبح في الأمر شيء من الحراجة، فإن بيعة سعد بن عبادة قد تمت، والخليفة أضحى قريباً من القيام بواجبه، إلا أن الحق للمهاجرين الذين هم أولى بالأمر، فالخطأ قد وقع، والتراجع أمر لا بد منه، وإن كان صعباً في

حالة كهذه، إذ فيها استهتار بالخليفة المبايع، وهو زعيم الأنصار، إذ لا بد من أن يكون التراجع بشكل تدريجي، فالنفوس بشرية، ولا بد من معاملتها حسب الطبيعة التي فطرها الله عليها، إذن يجب أن تستمر المناقشة ويتراجع الأنصار بهدوء.

ثم قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن سمع مقالة الأنصار: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف الإِمارة إلا له، والله ما يخالفنا أحد إلا قاتلناه.

ثم وقف الحباب بن المنذر الأنصاري[1] وكرر: منا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر بن الخطاب: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورها منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مُدْلٍ بباطل، أو متجانفٍ لإثم، أو متورطٍ في هلكة.

وأصرَّ الحباب بن المنذر على موقفه، ودعا الأنصار إلى التمسك بهذا الرأي.

فقال أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه[2]: يا معشر الأنصار! إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغير. فقام بشير بن سعد

---

(١) الحباب بن المنذر: شهد بدرا، وأشار على رسول الله ﷺ بالمكان المناسب للمعركة، فوافق رسول الله، وشهد المشاهد كلها، وأشار كذلك على رسول الله في خيبر بتغيير المكان الذي نزل به المسلمون، فوافقه أيضاً، لذا كان يعرف بـ (ذي الرأي) توفي، رضي الله عنه، في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٢) أبو عبيدة بن الجراح: عامر بن عبد الله الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله أمين الأمة، قاد فتوح الشام، وتوفي عام ١٨هـ بطاعون عمواس.

الأنصاري[1] رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك. ألا إن محمداً ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وقام أسيد بن حضير رضي الله عنه[2]: وأظهر ما يدعو إلى ترك الأنصار للأمر، والمبايعة للمهاجرين فأبدى ما يمكن عليه أن يحدث من خلاف بين الأوس والخزرج فيما إذا تسلمت الأنصار الأمر، لذا دعا إلى بيعة المهاجرين.

وروى النسائي والحاكم أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قد قال للأنصار يومذاك: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدّم أبا بكر للصلاة؟.

قالوا: بلى.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله ﷺ؟

قالوا: لا أحد!

ثم قام زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه،[3] فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإِمام إنما يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره، كما كنا أنصار رسول الله.

---

(١) بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولاه رسول الله المدينة أثناء عمرة القضاء، استشهد عام ١٢هـ في عين التمر، وكان في جيش خالد بن الوليد، رضي الله عنه.

(٢) أسيد بن حضير الأنصاري الأوسي: سيد الأوس، أحد نقباء العقبة، لم يحضر بدراً إذ لم يعلم أنه سيكون قتال، توفي عام ٢١هـ في خلافة سيدنا عمر، رضي الله عنه.

(٣) زيد بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه: ولد عام ١١ قبل الهجرة، كتب الوحي، وكتب لأبي بكر وعمر، تعلم السريانية أيام رسول الله ﷺ، وكان عثمان رضي الله عنه يستخلفه على المدينة إذا خرج منها، وهو الذي جمع القرآن أيام أبي بكر، وكان له دوره ورئاسة لجنة الجمع أيام عثمان، توفي عام ٤٥هـ.

فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: جزاكم الله من حي خيراً، وثبت قائلكم، أما والله لو قلتم غير ذلك لما صالحناكم... ثم قال لعمر بن الخطاب: أبسط يدك نبايع لك. فقال عمر: أنت أفضل مني. قال: أنت أقوى مني، فقال عمر: فإن قوتي لك مع فضلك. وقال عمر، وأبو عبيدة: لا ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمّرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقام أسيد بن حضير، وبشير بن سعد، رضي الله عنهما، يستبقان للبيعة، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، فلم يبق أحد لم يبايع في السقيفة سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، وما منعه أن يبايع سوى حراجة وضعه، وصحة جسمه، ولكنه لم يتكلم بشيء.

وهذا يدل تمام الدلالة على أنه لم يكن هناك خلاف على البيعة بين المهاجرين والأنصار، وإنما وقع خطأ في سرعة الأنصار بسبب ما توقعوه. الأمر الذي أدى إلى المناقشة والتراجع البطيء حرصاً على وضع سعد بن عبادة، رضي الله عنه. كما أن اللقاء في سقيفة بني ساعدة لم يكن القصد منه الاستئثار بالخلافة من أجل المهاجرين أو الرغبة في الزعامة والوجاهة أو دعم فلان دون فلان، فلم يكن سعد بن عبادة إلا صحابياً جليلاً، له موضع الاحترام بين جميع الصحابة، ولكن كانت المصلحة العامة للمسلمين والإسلام لا غير، خوفاً على وضع المدينة، وتسيير الأمور، وإدارة الشؤون. وكان ذلك في اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ.

وفي اليوم الثاني من بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة دعي إلى الصلاة، ووقف أبو بكر على المنبر، وقام عمر وتكلم بين يديه، وقبله، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: أيها الناس قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلاّ عن رأيي، وما وجدتها في

كتاب الله عزّ وجلّ، ولا كانت عهداً عهده إليّ رسول الله ﷺ. ولكني كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله قد أبقى معكم كتابه الذي به هدى رسول الله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا.

فبايع الناس بيعة عامة بعد بيعة سقيفة بني ساعدة، ثم تكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرد عليه حقه، إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله تعالى. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

ولم يتخلف عن البيعة إلا الذين كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ، فلما انتهوا من ذلك بايعوا، ولم يتخلف منهم أحد، سوى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، الذي تأخر قليلاً من الوقت، ثم بايع، وخرج مجاهداً، واستشهد في بلاد الشام بعد قليلٍ من خروجه.

أما ما أشيع عن تحريض أبي سفيان لعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهما، فهو أمر غير مقبول، إذ لا يمكن أن يفعل هذا، وهو من الطلقاء ولا يمكن أن يقبلاه منه وهما على تلك الصورة من الإيمان، وعلى تلك الحالة من الوعي، ثم إن هذا الخبر لو صح لكان على أبي بكر وهو بوضعه أن يسأل أبا سفيان عن هذا التصرف الذي عليه أن ينشأ عنه خلاف وتفرّق، ويحدث بنتيجته خصام وقتال. ولما لم يحدث شيء من هذا فهو من عمل الرواة.

وما أشيع عن وصية رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب،

رضي الله عنه، فهو محض اختراع وتلفيق، إذ أن وصية رسول الله للمؤمنين إنما هي من الدين الذي يجب ألا يحيد عنه أحد من المسلمين، فالحيدان عنه إنما هو اتهام للمسلمين كافةً، وطعن في إيمان صحابة رسول الله ﷺ جميعهم. فكيف يقبل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، في ترك هذه الوصية، وهو الذي لم يعرف عنه أنه توقف لحظة عن أمر رسول الله ﷺ؟ ثم كيف يقبل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في السكوت عن هذه الوصية وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم؟ وإذا ذكر بعضهم أنه بايع في الظاهر، فمتى كان علي، رضي الله عنه، والصحابة أجمعين يظهرون غير ما يبطنون؟ ومعنى ذلك اتهامهم بالنفاق، ونعوذ بالله من هذا الكلام.

أما ما أشيع عن تأخر سيدنا علي، رضي الله عنه، في بيعة أبي بكر، رضي الله عنه، حتى وفاة زوجه فاطمة، رضي الله عنها، فهو افتراء أيضاً، فما كان علي ليفارق جماعة المسلمين مدة ستة أشهر، وهو الذي عرف بالإيمان، ودعا إلى وحدة القلوب، وأحسّ بأخوة الإِسلام منذ نعومة أظفاره. إلا أنه قد حدث شيء من جفوة بين الإِمامين الجليلين والصحابيين الكريمين، ولكن ليس بسبب الخلافة وإنما بسبب الإرث، إذ طلبت فاطمة، رضي الله عنها، من أبي بكر حقها بإرث أبيها رسول الله ﷺ من فدك وسهمه في خيبر، فلم يقبل أبو بكر، رضي الله عنه، هذا الطلب، وأجابها بحديث والدها عليه أفضل الصلاة والسلام «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة» ومع التسليم بهذا الحديث وفاطمة وعلي، رضي الله عنهما، على علم بهذا، وهي من أهل العلم إلا أنه حدث شيء من جفوة، ولم تتعدّ ذلك، وكان علي، رضي الله عنه، يومذاك معتزلاً في البيت، لا يتردد كثيراً على أبي بكر، ينصحه، ويستشيره، وإن كان بجانبه في معضلات الأمور مثل الدفاع عن المدينة، وحرب المرتدين كما سنرى، ولعل ذلك كان بسبب مرض زوجهِ فاطمة، رضي الله عنها، إذ شغل بتمريضها حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام. وما يقال عن هجرانها لأبي بكر فهذا كلام من لم يعرف

طبيعة الإسلام، فمتى كانت النساء تتردد على الرجال أو يتردد الرجال على النساء، ثم إنها كانت مريضة لا تستطيع الخروج من بيتها، وأبو بكر كان مشغولاً بأعباء الخلافة، إذ كانت تلك الأيام من أحلك ما مرّ على الدولة الإسلامية[1] ـ كما سنرى ـ.

إذن بايع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والعباس بن عبد المطلب، وبنو هاشم كافة يوم بايع الناس، ولم يخالف أحد على أبي بكر لا من بني هاشم ولا من غيرهم. والقرآن الكريم لم يحدد نظاماً معيناً

---

(١) ملخص الموضوع أن الرواة مزجوا تأخير بيعة علي، رضي الله عنه، في موضوع ما حدث من جفاء، وذلك أن فاطمة بنت محمد ﷺ، ورضي الله عنها قد جاءت مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى أبي بكر يطلبان ميراثها من رسول الله ﷺ في خيبر وفدك فقال لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمد في هذا المال» وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته. فحدثت الجفوة التي ألمحنا عنها، فلما توفيت فاطمة رضي الله عنها اجتمع عدد من بني هاشم عند علي رضي الله عنه وأرسلوا إلى أبي بكر أن يأتيهم، فجاءهم، فقام علي رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضلك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستبددتم به علينا (ويقصد به الميراث)، ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ وحقه، ولم يزل علي يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر.

فلما سكت علي تشهد أبو بكر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فوالله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصلهم من قرابتي، وإني والله ما آلو بكم في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم على الخير، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا نورث ما تركنا صدقة، وإنما يأكل آل محمد في هذا المال) وإني والله لا أذكر شيئاً صنعه فيه إلا صنعته إن شاء الله، ثم قال علي رضي الله عنه: موعدك للبيعة العشية، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به، ثم قام علي فعظم من حق أبي بكر وذكر فضله وسابقته، ثمّ مضى إليه فبايعه، وأقبل الناس إلى علي رضي الله عنه فقالوا: أصبت وأحسنت.

ويبدو من هذا أن تأخر البيعة إن كان قد حدث فهي بسبب موضوع الميراث، ويبدو أن هذه البيعة قد حدثت مرة ثانية بعد البيعة العامة، وكانت بمثابة تأكيد. والاعتذار إنما كان على الجفوة، وعدم التردد على دار أبي بكر، رضي الله عنه، لانشغاله بتمريض زوجه فاطمة، رضي الله عنها.

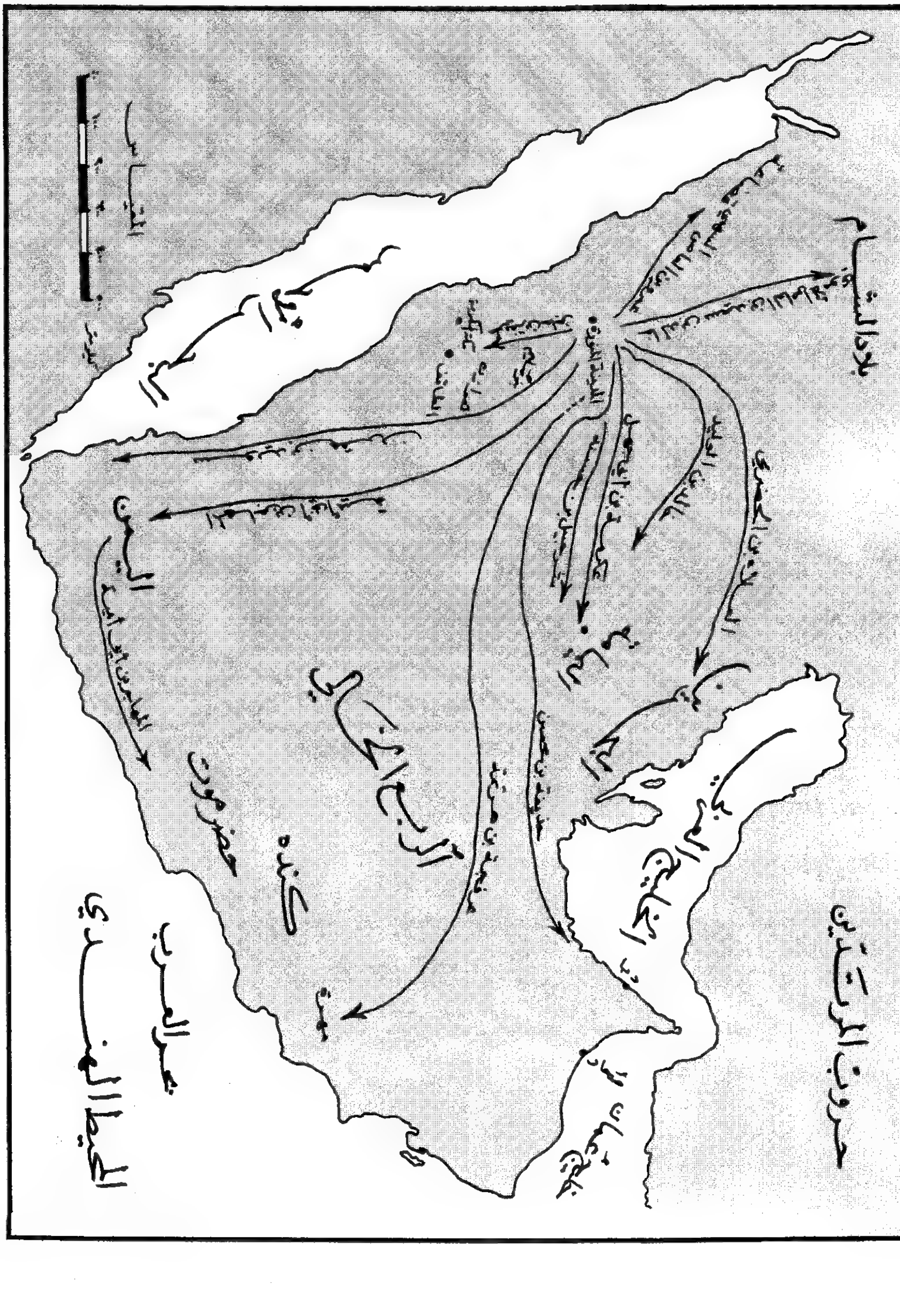
لاختيار الخلفاء، ولم يشر رسول الله ﷺ إلى مثل ذلك، وإنما اعتاد المسلمون أن يبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام،، ولا يجوز لأحد من الطرفين المتبايعين أن ينقض العهد سواء أكان من قبل الخليفة أم من قبل الرعية. والخلافة عهد بين الخليفة والمسلمين، يلزم الخليفة بموجب هذه البيعة نفسه العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والنصح للمسلمين، ويلزم المسلمون أنفسهم بموجب البيعة الطاعة للخليفة وتنفيذ أوامره. فإذا انحرف الخليفة عن سيره الإسلامي بطلت طاعته، وعلى المسلمين مطالبته بالوفاء بما وعد فإن استقام انقضى وإلا اعتزل الخلافة، أو عزل من قبل أهل الحل والعقد (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم).

أعماله وفتوحاته

على الرغم من قصر مدة خلافة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، إذ لم تزد على سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، إلا أنها كانت مليئة بالأعمال الجليلة التي تحتاج إلى السنوات الطوال لإنجازها ولترسيخ معاني الإسلام في قلوب أبنائه إلا أن تطبيقه العلمي وإصراره على ما اعتقد، كل ذلك كان يدل على وعي تام بالإسلام، وعزيمة ثابتة راسخة كالجبال بالإيمان، وهذه الأمور هي التي رسخت دعائم الإسلام، ووطدت أركانه، لذا يعدُّ رضي الله عنه هو الذي أرسى الدعائم، وأثبت المفاهيم، وكان رضي الله عنه بعيد النظر في الأمور كلها، واسع الأفق.

كان كثير من الأعراب قد أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[3]، فالنفاق كان أيام رسول الله ﷺ، والأعراب على رأس المنافقين، وقد أنبأ الله رسوله بهذا، كما هو

(١) سورة الحجرات: ١٤.
(٢) سورة التوبة: ٩٧ ـ ٩٨.
(٣) سورة التوبة: ١٠١.



حروب المرتدين
بلاد الشام
الخليج العربي
البحرين
اليمامة
المدينة المنورة
العلاء بن الحضرمي
خالد بن الوليد
عكرمة بن أبي جهل
شرحبيل بن حسنة
حذيفة بن محصن
عرفجة بن هرثمة
عمرو بن العاص
خالد بن سعيد بن العاص
الطائف
الربع الخالي
كنده
حضرموت
اليمن
المهاجر بن أبي أمية
بحر العرب
المحيط الهندي
خليج عمان
البحر الأحمر
المقياس

واضح في آيات كتاب الله. وهؤلاء سيرتدون عن الإسلام عندما يجدون الفرصة المناسبة لهم، بل إن ظواهر الردة قد ظهرت في أيام رسول الله ﷺ إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة، وطليحة الأسدي في بني أسد في نجد أيضاً، إلا أنهم لم يجرؤوا إعلان ذلك ولو فعلوه لقاتلهم رسول الله ﷺ. فلما انتشر خبر وفاة رسول الله ﷺ أعلن هؤلاء ارتدادهم، وصرّحوا بنبوءتهم، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل إن أكثر قبائل العرب قد أظهرت نفاقها، وأعلنت عودتها إلى الجاهلية، ولم يسلم من ذلك سوى مدن: المدينة المنورة، ومكة المكرمة، والطائف، وما أن قام أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالأمر حتى أرسلوا رسلهم إليه، يطلبون منه أن يعفيهم من الزكاة، وظنوا أنه سيوافق على ذلك، ما دام الأمر لا يشمل إلا جزءاً صغيراً ومادياً، ولم تكن الناحية المادية ليهتم بها المسلمون ذلك الاهتمام الذي يجعلهم يقاتلون بسبب ذلك، ولم يعلم المنافقون من الأعراب أن الزكاة ركن من أركان الإسلام لا يمكن التساهل به أبداً، إذ أن التساهل به نسف للمبدأ كله فالإِسلام نظام متكامل لا يمكن أن يطبق جزء منه ويترك جزء، وقد انطبقت عليهم الآية الكريمة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وأيقنوا أن كثرتهم وقوتهم بجانب قلة وضعف جند المدينة سيضطر أبا بكر للموافقة على مطلبهم، وبذلك يتخلصون من الزكاة التي يعدونها لجهلهم ضريبة ولكن ظنهم قد خاب، فأبو بكر، رضي الله عنه، كان أقوى في إيمانه من أن يحل عقدة من عقد الإسلام، أو يسكت على انتهاك ركن من أركانه، ما دام فيه عرق ينبض. وأعلن أبو بكر، رضي الله عنه، أنه سيقاتلهم، وكان في الوقت نفسه قد أصرّ على إنفاذ جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما، وهنا كانت المعضلة الكبرى، وكانت قوة الصديق في إيمانه هي التي حلت المعضلة، وأنهت المشكلة:

جيش أسامة بن زيد، رضي الله عنهما: وأسامة بن زيد بن حارثة، وأمه أم أيمن بركة حاضنة رسول الله ﷺ، وأسامة حبّ رسول الله ﷺ وابن

حبّه. وكان زيد بن حارثة، رضي الله عنه، قد استشهد في معركة مؤتة أميراً، فأراد رسول الله ﷺ أن يولي ابنه قيادة جيش يغزو تلك الجهات، وقد جهز رسول الله الجيش، وأمره أن تطأ خيله أرض البلقاء في جنوبي الأردن والداروم في جنوبي فلسطين بالقرب من غزة، فتجهز الناس، وتعبأ في جيش أسامة المهاجرون الأولون، ومنهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو آخر جيش جهزه رسول الله ﷺ، وبينما كان الجيش يستعد، ويتجهز إذ مرض رسول الله مرضه الذي توفاه الله فيه، ولم يخرج آخر جندي من المدينة إلا والتحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى فتوقف أسامة بالجيش، فلما بويع أبو بكر، رضي الله عنه، بالخلافة، ومضى ثلاثة أيام على وفاة رسول الله ﷺ أمر أبو بكر الجيش بالحركة والسير إلى الجهة التي أمره رسول الله ﷺ، إذ نادى منادي أبي بكر، من بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ: ليتم بعث أسامة، ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف[1]. وقام بالناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله ﷺ قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها؛ ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني، لا أؤثر في شعاركم وأبشاركم، وأنتم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غيّب عنكم علمه! فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلموا آجالكم إلى انقطاع الأعمال، فإن قوماً نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدّ الجدّ! والوحا الوحا، والنجاء النجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مره سريع. احذروا الموت. واعتبروا بالآباء والأبناء والإِخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات[2].

---

(١) الجرف: مكان في شمال المدينة على بعد ثلاثة أميال منها.

(٢) تاريخ الطبري.

فقال أسامة لعمر بن الخطاب: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وكان المسلمون فعلا قد أحسوا بالخطر من جراء استشراء النفاق في جزيرة العرب، وردة القبائل عن الإسلام. وقال الأنصار: فإن أبى إلا أن يمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة. وما كانوا يعلمون أن أبغض شيء على أبي بكر أن يخالف أمراً من أوامر رسول الله ﷺ مهما كانت الظروف، ومهما كانت النتائج.

خرج عمر بن الخطاب بأمر أسامة وجاء إلى أبي بكر فأخبره بما قالوا عن أسامة، فقال أبو بكر، لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ! قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك، وإنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة؛ فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال امضوا، ثكلتكم أمهاتكم. ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله[1].

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، فأشخصهم وشيعهم، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل ووالله لا أركب! وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعةً، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترتفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل! فأذن له ثم قال: يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تُغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً

---

(١) تاريخ الطبري.

ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب: فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله، أفناكم الله بالطعن والطاعون(١).

ثم قال أبو بكر لأسامة: اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم إيت آبلَ(٢). ولا تقصّرن في شيء من أمر رسول الله ﷺ، ولا تعجبنّ لما خلّفت عن عهده. فمضى أسامة مُغذّاً على ذي المروة والوادي، وانتهى إلى ما أمره به النبي ﷺ من بث الخيول في قبائل قضاعة، والغارة على آبل، فسلم وغنم، وكان فراغه في أربعين يوماً سوى مقامه ومنقلبه راجعاً(٣).

وفي إرسال جيش أسامة ما يدل على قوة إيمان أبي بكر، رضي الله عنه، ومحاولة تنفيذه لما أوصى رسول الله ﷺ مهما كانت النتائج، وهو يعتقد أن النتائج لا تكون إلا خيراً ما دام رسول الله قد أمر بذلك.

وفي إرسال هذا الجيش قوة معنوية كبيرة للمسلمين، وإضعاف واضح لمعنويات المنافقين والمرتدين الذين شعروا أن لدى المسلمين على الأقل قوة معنوية كبيرة جداً، ولو لم يكن ذلك لما تم إرسال هذا الجيش إلى تلك المناطق النائية التي تقع على أطراف الجزيرة العربية وحتى خارج نطاقها أيضاً، ولم يخشوا أبداً ما يتهدد المدينة من الخارجين على حكمها، والذين يحيطون بها من كل جانب.

---

(١) تاريخ الطبري.
(٢) آبل: منطقة في جنوب بلاد الأردن اليوم.
(٣) تاريخ الطبري.

حروب الردة: لما توفي رسول الله ﷺ اتسع نطاق الردة، ونجم النفاق في كل مكان إلا ما كان من المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين، ثم إن المناطق التي تقع إلى الشمال من المدينة، قد خاف أهلها بإرسال جيش أسامة، وقالوا: لو لم يكن للمسلمين من قوة لما أرسلوا مثل هذا الجيش، فلنترك الأمر إلى قتالهم مع الروم، فإن انتصر الروم فقد كفونا القتال، وإن انتصر أسامة فقد ثبت الإسلام، وهذا ما جعل الردة والنفاق لا تظهر في تلك البقاع.

وكان المرتدون فريقين، أولهما قد سار وراء المتنبئين الكاذبين أمثال مسيلمة، وطليحة، والأسود، وآمنوا بما يقول هؤلاء الكذّابون، وثانيهما بقي على إيمانه بالله، وشهادته بنبوة محمد ﷺ وإقام الصلاة، إلا أنه قد رفض تأدية الزكاة، وعدّها ضريبة يدفعها مكرهاً، وقد أرسل هذا الفريق الثاني وفداً إلى المدينة لمفاوضة خليفة رسول الله، وقد نزل على وجهاء الناس في المدينة، عدا العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وقد وافق عدد من كبار المسلمين على قبول ما جاءت به رسل الفريق الثاني، وناقشوا في ذلك الأمر، أبا بكر، ومنهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، إلا أن أبا بكر، رضي الله عنه، قد رفض منهم ذلك، وقال قولته المشهورة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه».

وقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله. فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعهم، وهكذا رأى أبو بكر، رضي الله عنه، أن الإنسان كل لا يتجزأ، وليس هناك من

---

(١) العناق: السخلة، الأنثى الصغيرة من الماعز.

فرق بين فريضة وأخرى، والزكاة وإن كانت من النظام الاقتصادي، إلا أنها ركن من أركان الإسلام، وعبادة بحد ذاتها، ولا يمكن تطبيق جزء من الإسلام وإهمال آخر. ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل إذ زلزلت الأرض بالردة والنفاق.

وقال عمر، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وارفق بهم، فأجابه أبو بكر: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أوَينقص وأنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ إلا بحقها، ومن حقها الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي.

وردّ أبو بكر وفد المنافقين الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، مسفهاً رأيهم، مصراً على رأيه في إجبارهم إلى الخضوع الصحيح للدين فعاد رجال الوفد إلى قبائلهم وأخبروهم بقلة عدد المسلمين ـ وكان جيش أسامة قد انطلق ـ وأطمعوهم بغزو المدينة.

وكان أبو بكر، رضي الله عنه، عندما عاد إلى المدينة بعد أن شيّع جيش أسامة قد جعل كبار الصحابة على منافذ المدينة إلى البادية، ومنهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وطلب من أهل المدينة أن يكونوا في المسجد استعداداً لكل طارئ، وقال لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تؤتون أم نهاراً، وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدّوا.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، يريد أن يؤخر قتال المنافقين والمرتدين حتى يعود جيش أسامة، لذا كان يستقبل الرسل ويبعث بآخرين، إلا أنه في الوقت نفسه قد أحب بعض المنافقين أن يستغلوا الفرصة، ويهاجموا المدينة قبل عودة الجيش الإسلامي من بلاد الروم، وقبل استكمال المسلمين لقوتهم. فلم تمض أيام ثلاثة على عودة أبي بكر إلى المدينة من تشييع

أسامة حتى داهمت المدينة غارة ليلاً، وقد اطمأن المغيرون إلى أن الجيش الإسلامي قد ابتعد عن المدينة، أوغل في البعد.

وصلت الغارة إلى المدينة المنورة وقد خلفت وراءها قوةً ردءاً لها في (ذي حسى)[١]، وعندما طرقت الغارة الأنقاب وجدت عليها المقاتلة، ووراءهم أقوام أشبه بالمراسلين، فأوصلوا الخبر إلى أبي بكر في المسجد، فأرسل أبو بكر إلى المقاتلة على الأنقاب أن اثبتوا، وصار بأهل المسجد إلى الأنقاب، فانهزم المغيرون وولوا الأدبار، ولحقهم المسلمون على إبلهم حتى (ذي حسى)، فوجدوا الردء هناك، وقد نفخوا الأنحاء[٢]، وربطوها بالحبال، ودهدهوها[٣] بأرجلهم في وجه إبل المسلمين، فنفرت الإبل ورجعت بالمسلمين إلى المدينة، فأرسل المنافقون إلى إخوانهم في (ذي القصة)[٤] بالخبر، فأسرعوا إليهم، وحضر أبو بكر ليلته يتهيأ، ثم خرج في آخر الليل ماشياً، وعلى الميمنة النعمان بن مُقَرّن[٥]، وعلى الميسرة عبد الله بن مقرن[٦]، وعلى الساقة سويد بن مقرن[٧]، فلما أصبح الصباح لم يشعر المنافقون إلا والمسلمون يعملون فيهم السيف، فلما كانت ضحوة ذلك النهار ولّى المنافقون الأدبار، ووصل المسلمون إلى (ذي القصة)، فترك أبو بكر هناك النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، ورجع هو بالناس إلى المدينة.

---

(١) ذي الحُسى: موقع قرب المدينة. (٢) الأنحاء: ضروف السمن.

(٣) دهدهوها: دفعوها.

(٤) ذي القصة. مكان يبعد ٣٥ كيلومتراً عن المدينة.

(٥) النعمان بن مقرن بن عائذ المزني: أبو عمرو، صحابي فاتح، من الأمراء القادة الشجعان، كان معه لواء مزينة يوم فتح مكة، استشهد يوم نهاوند عام ٢١هـ. وله عشرة إخوة كلهم من الشجعان.

(٦) عبد الله بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان.

(٧) سويد بن مقرن بن عائذ المزني: أخو النعمان، أبو عائذ، أسلم مع أسرته، شهد فتح العراق، وحضر القادسية والمدائن، قاتل تحت لواء أخيه النعمان بنهاوند، وتحت لواء أخيه نعيم في الري وهمدان، ثم قاد فتح طبرستان وجرجان، سكن الكوفة ومات بها.

ارتفعت معنويات المسلمين في هذا النصر، وثبت مسلمو القبائل على دينهم، وجاء نصر آخر إذ وصلت إلى المسلمين أموال الصدقات من عدة جهات، فقد جاء صفوان بن صفوان[١] بصدقات بني عمرو وذلك في أول الليل من جهة النقب الذي عليه سعد بن أبي وقاص[٢]. وجاء الزبرقان بن بدر[٣] في وسط الليل بصدقات بني عوف من جهة النقب الذي عليه عبد الرحمن بن عوف[٤] وجاء عدي بن حاتم الطائي[٥] في آخر الليل بصدقات قومه من جهة النقب الذي عليه عبد الله بن مسعود[٦]، وكان ذلك بعد مسير جيش أسامة بن زيد بشهرين كاملين، ثم كان النصر الثالث إذ لم تمض عشرة أيام حتى رجع جيش أسامة غانماً ظافراً، فاستخلف أبو بكر أسامة بن زيد على المدينة، وقال له: أريحوا وأريحوا ظهركم، ثم خرج في الذين خرجوا إلى (ذي القصة) والذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله، ألاّ تعرض نفسك، فإنك إن

---

(١) صفوان بن صفوان بن أسيد من بني تميم: كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات بني عمرو الذين هم فرع من بني تميم.

(٢) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الزهري، أبو إسحاق: من المسلمين الأوائل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، فاتح القادسية والمدائن، فارس الإسلام، أحد رجال الشورى، اعتزل الفتنة، وتوفي قرب المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان عام ٥٥هـ.

(٣) الزبرقان بن بدر التميمي: صحابي، أحد وجهاء قومة، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، وبقي عليها حتى أيام عمر، رضي الله عنه، كف بصره في آخر حياته، ومات عام ٤٥هـ في أيام معاوية، رضي الله عنه، وكان شاعراً.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي، أبو محمد: صحابي جليل، من العشرة المبشرين بالجنة، وأحد رجال الشورى، من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان تاجراً مشهوراً، توفي عام ٣٢هـ أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

(٥) عدي بن حاتم الطائي، أبو طريف وأبو وهب: أمير: صحابي، أسلم في السنة التاسعة للهجرة، شهد فتح العراق، وحضر الجمل وصفين والنهروان مع علي، رضي الله عنه، وفقئت عينه يوم صفين، مات بالكوفة عام ٦٨هـ أيام عبد الله بن الزبير.

(٦) عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من السابقين للإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، خدم رسول الله ﷺ، كان قصيراً، توفي في خلافة عثمان، رضي الله عنه، عام ٣٢هـ، قال عنه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: وعاء ملئ علماً.

تصب لم يكن للناس نظام، ومقامكم أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر، وجاء علي بن أبي طالب بزمام راحلته وقال له: أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شمّ[1] سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة. فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي. فخرج إلى (ذي الحسى) و (ذي القصة)، والنعمان بن مقرن وأخواه كما كانوا في التشكيل السابق، ثم نزل أبو بكر بمن معه على الربذة بالأبرق، وقاتل المنافقين وغلبهم، فولّوا الأدبار، ورجع أبو بكر إلى المدينة، وجاءت صدقات كثيرة إلى المسلمين تزيد على حاجاتهم، وكان جند أسامة قد أخذوا الراحة المطلوبة، فعقد أبو بكر أحد عشر لواءً لقتال المرتدين في كل أنحاء الجزيرة العربية وهم:

١ ـ خالد بن الوليد[2]: وأرسله إلى طليحة بن خويلد الأسدي[3]! فإذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة اليربوعي التميمي[4] بالبطاح[5].

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل[6]: وأرسله إلى مسيلمة الكذاب

---

(١) شم: اغمد.

(٢) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أبو سليمان، سيف الله: الصحابي الجليل، من أشراف قريش في الجاهلية، كان يلي أعنة الخيل، أسلم عام ٧هـ، سر به رسول الله وولاه الخيل، اشتهر بحروبه ضد المرتدين، قاد الفتوح في العراق ثم الشام، توفي في المدينة عام ٢١هـ، وقيل بحمص.

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي ارتد: ثم عاد إلى الإسلام، وبايع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قد استخلف، ورجع طليحة إلى دار قومه وبقي فيها حتى خرج مجاهداً إلى العراق، وقد أبلى بلاء حسناً في الفتوحات.

(٤) مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة: فارس شاعر، أسلم، وولاه رسول الله صدقات قومه، وعند وفاة رسول الله اضطرب أمره وفرق ما جمع من صدقات في قومه، وقيل ارتد، قتله ضرار بن الأزور بأمر خالد بن الوليد أثناء حروب المرتدين.

(٥) البطاح: منزل لبني يربوع، وقيل ماء في ديار بني أسد بن خزيمة، وتقع جنوب وادي الرمّة في بعض الأودية المتجهة إليه من الجنوب.

(٦) عكرمة بن أبي جهل المخزوني، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد فتح مكة، وحسن إسلامه، كان على رأس كردوس في اليرموك واستشهد يومذاك عام ١٣هـ.

الحنفي[1] في اليمامة.

٣ ـ شرحبيل بن حَسَنة[2]: وأرسله دعماً إلى عكرمة بن أبي جهل في اليمامة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية[3]: وبعثه لقتال أتباع الأسود العنسي[4] في اليمن، فإذا فرغ سار إلى حضرموت.

٥ ـ عمرو بن العاص[5]: وسيره إلى قبيلة قضاعة في الشمال.

---

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي، أبو تمامة: متنبئ كذاب، ولد ونشأ باليمامة في بلدة الجبيلة القائمة حتى الآن في وادي حنيفة شمال الرياض بأربعين كيلا. عرف في الجاهلية برحمان اليمامة، وعندما ظهر الإسلام في الحجاز جاء مع وفد بني حنيفة قوم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ويقال أنه تخلف عن الوفد، وأسلم الوفد، ولما رجعوا كاتب رسول الله، وأراد أن يشاركه في الأمر، وأن يكون لهم نصف الأرض ولقريش النصف الآخر، وأظهر أن قريشاً قوم يعتدون، وانتقل رسول الله ﷺ ولم يقض على فتنة مسيلمة، وعندما ولي أبو بكر أرسل له الجيوش فقضت عليه عام ١١هـ. واستشهد في قتاله عدد كبير من الصحابة.

(٢) شرحبيل بن حسنة الكندي حليف بن زهرة: صحابي من القادة، أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة، وأوفده رسول الله إلى مصر، قاد جيشاً لفتح الشام، عزله عمر، وولى معاوية مكانه، وتوفي بطاعون عمواس عام ١٨هـ، وحسنة أمه أما أبوه فقاسم بن عبد الله.

(٣) المهاجر بن أبي أمية: صحابي، من القادة المشهورين، شهد بدراً مع المشركين، أسلم المهاجر، وأخته هي أم المؤمنين أم سلمة هند، أرسله رسول الله إلى اليمن، تخلف عن تبوك، ولاه رسول الله على صدقات كندة، وقبل أن يسير توفي رسول الله، أرسله أبو بكر لقتال من بقي من المرتدين في اليمن، وتولى إمرة صنعاء.

(٤) الأسود العنسي: عيهلة بن كعب بن عوف العنسي المذحجي: متنبئ كذاب، أسلم لما أسلمت اليمن، وارتد أول من ارتد في الإسلام وذلك أيام رسول الله ﷺ، وادعى النبوة، اغتيل أيام رسول الله، وقبل انتقال رسول الله بشهر واحد تقريباً.

(٥) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله: أحد قادة فتوح الشام، وفاتح مصر، من أهل الرأي والحزم، أسلم بعد الحديبية، ولاه رسول الله إمرة ذات السلاسل، ثم استعمله على عُمان، وفتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية، تولى أمر فلسطين، ثم مصر، عزله عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عن مصر، ثم عاد إليها عام ٣٨ بأمر من معاوية، رضي الله عنه، وتوفي بالفسطاط عام ٤٣هـ.

٦ ـ خالد بن سعيد بن العاص[١]: ووجهه إلى مشارف الشام.

٧ ـ حذيفة بن محصن: وأمره بالحركة إلى أهل دَبا.

٨ ـ عرفجة بن هرثمة[٢]: وسيّره إلى مهرة، وأمره أن يلتقي مع حذيفة.

٩ ـ طريفة بن حاجز: ووجه إلى بني سُليم، ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ سويد بن مُقَرن: وبعثه إلى تهامة اليمن.

١١ ـ العلاء بن الحضرمي[٣]: وقد اتجه إلى بلاد البحرين.

وبعد أن قاتل أبو بكر الصديق عبس وذبيان (بالأبرق) من أرض (الربذة)[٤] وهزمهم، اتجه قسم منهم إلى (البزاخة)[٥]، وهي ماء لبني أسد، وهناك طليحة بن خويلد الأسدي، فلما عقد أبو بكر الألوية، طلب من خالد أن يسير إلى أرض طيء لتنخذل طيء، وعبس، وذبيان، وأظهر أن أبا بكر سيتجه إلى خيبر ومن هناك سيرفد خالداً في بلاد طيء.

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة المجاهدين، أسلم في بداية الدعوة، لقي العذاب الشديد في سبيل دينه، هاجر إلى الحبشة، شهد فتح مكة وتبوك، أرسله رسول الله إلى اليمن، وتوفي رسول الله، فاستدعاه أبو بكر، فجاءه، وخرج مجاهداً، شهد فتح أجنادين، واستشهد في مرج الصفر قرب دمشق عام ١٣هـ.

(٢) عرفجة بن هرثمة الأزدي، من أهل البحرين، ثم قاتل تحت إمرة العلاء بن الحضرمي فوجهه للعمل في البحر ففتح جزيرة، ثم سار مددا إلى عتبة بن غزوان حين غزا (الأبلة)، ثم صار إلى الموصل، وتوفي في خلافة عمر في عام ٢٠هـ.

(٣) العلاء بن الحضرمي: أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد العلاء فيها، ونشأ في ربوعها، أسلم وهاجر، ولاه رسول الله البحرين، وجعله عاملاً على الصدقات فيها. وأقره أبو بكر وعمر عليها، ويعد أول مسلم ركب البحر للغزو، مات في طريقه إلى البصرة عام ٢١هـ.

(٤) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام منها، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز، إذا رحلت من فيد تريد مكة.

(٥) البزاخة: ماء لطيء بأرض نجد، وقيل ماء لبني أسد.

سار خالد بن الوليد إلى بلاد طيء ولكن عدي بن حاتم طلب من خالد أن يمهله ثلاثة أيام ليكسب إليه قومه ففعل، ومن بلاد طيء، نزل خالد إلى (بُزاخة)، وقتلت طليعته (عكاشة بن محصن)[1] (وثابت بن أقرم)، ولما التقى الجمعان هزم (عيينة بن حصن)[2] مع قومه فزاره، فانفصل عن القوم، وفرّ طليحة بعدها نحو بلاد الشام، وكان طليحة قد ارتد في أيام رسول الله ﷺ فأرسل إليه ضرار بن الأزور[3]، فنزل المرتدون في (سميراء) وبدأ عددهم بالتناقص، وفي هذه الأثناء توفي رسول الله ﷺ، فزاد عدد المرتدين وانضمت غطفان بإمرة عيينة بن حصن إلى بني أسد، وكانوا قد خالفوا طيئاً (عوف وجديلة وغوث)، فلما انضمت غطفان إلى أسد فرّ ضرار بن الأزور ببعض من معه إلى المدينة، وانفضت جموعه. وعندما جاء خالد وهزم أعداءه في البزاخة أسلمت أسد، وعامر، وغطفان. وبعد انتهاء خالد من بني أسد وأحلافهم اتجه بأمر الخليفة إلى بني يربوع من تميم في البطاح وعليهم مالك بن نويرة. وكان الخلاف في بني تميم على أشده وقد جاءتهم سجاح[4] من الجزيرة ببني تغلب فدخلت بلادهم، فوادعها من وادعها، وفرّ من وجهها من فر. وسارت بعد ذلك إلى اليمامة فكان أمر مسيلمة قد قوي، فخافها مسيلمة فاستأمنها، فأمنته، وتزوجها،

---

(١) عكاشة بن محصن: من بني أسد، صحابي من أمراء السرايا، يعد من أهل المدينة إذ أنه حليف الأنصار مع أنه مع المهاجرين، شهد المشاهد مع رسول الله، قتل في حروب الردة، وكان طليعة للمسلمين.

(٢) عيينة بن حصن: سيد فزارة، قاتل المسلمين أميراً لقومه، ثم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم كان مع طليحة الأسدي مرتداً، فأسر وأرسل إلى المدينة موثوقاً.

(٣) ضرار بن الأزور بن أوس، من بني أسد، أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام، صحابي قاتل يوم اليمامة، شهد اليرموك وفتح الشام، وقطعت ساقاه، وتوفي بعدها بأيام.

(٤) سجاح بنت الحارث بن سويد بن غطفان من بني تميم، فرع بني يربوع، أم صادر: متنبئة كذابة، كانت في بني تغلب في الجزيرة، متنصرة، شاعرة، جاءت من الجزيرة فتبعها بنو تميم، وسارت بهم إلى بني حنيفة، فالتقت بمسيلمة وتزوجت به، ثم رجعت إلى الجزيرة، وأسلمت بعد مقتل مسيلمة، وأقامت بالبصرة، وتوفيت في خلافة معاوية، رضي الله عنه، عام ٥٥هـ، وصلى عليها والي البصرة سمرة بن جندب.

وبقيت عنده ثلاثة أيام، ثم رجعت إلى أرض قومها، وكانت قد تنبأت مثل مسيلمة، وسار معها عدد من وجهاء بني تميم، وكانت قد صالحت مسيلمة على نصف غلات اليمامة... وعندما عادت إلى الجزيرة، وجاء المسلمون أسلمت، وحسن إسلامها.

ولما عادت سجاح إلى الجزيرة، تحير بنو تميم الذين وادعوها، وندموا على ما كان منهم، ولم يلبثوا طويلاً حتى وصلت إليهم جيوش خالد بن الوليد، فعندما جيء برؤسائهم إلى خالد، جادلهم، وشهد جماعة على بني يربوع أنهم لم يؤذنوا فقتلهم، وقتل ضرار بن الأزور الذي كان على طليعة خالد مالك بن نويرة... وحدثت خلافات في قتله، فتزوج خالد امرأته أم تميم ابنة المنهال بعد انقضاء عدتها.

وسار عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة، وتبعه شرحبيل بن حسنة، ولكنه لم يدركه، وكان عكرمة قد أسرع فهزمته جموع بني حنيفة، فبقي شرحبيل ينتظر المدد، وجاء أمر أبي بكر لعكرمة بالانتظار أيضاً، وإذا فرغ سار إلى حذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة لقتال المرتدين في عُمان حتى يلتقوا مع المهاجر بن أبي أمية الذي يكون قد فرغ من اليمن وسار إلى حضرموت.

وكان خالد قد عاد إلى المدينة والتقى بأبي بكر وذلك بعد الانتهاء من البطاح، فاعتذر لأبي بكر فرضي عنه، وأرسله إلى مسيلمة الكذاب، فسار إلى البطاح والتقى بجنده هناك وانتظر حتى جاءه المدد، فقام إلى مسيلمة... ولما وصل إليها كان شرحبيل بن حسنة قد سابقه في قتال القوم فهزم، وكان يساعده بعض بني حنيفة بإمرة ثمامة بن أثال[1]،

---

(١) ثمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، من بني حنيفة، أبو أمامة: صحابي، من سادات اليمامة، أسر بيد المسلمين، وهو في طريقه لزيارة البيت، أطلق سراحه بأمر رسول الله، أسلم بعد أن أدى العمرة، ولما ارتد بنو حنيفة ثبت على إسلامه، وقاتل المرتدين بجانب عكرمة، وشرحبيل، ثم سيره أبو بكر إلى البحرين فقاتل المرتدين هناك تحت إمرة العلاء بن الحضرمي، واستشهد هناك.

رضي الله عنه، فلام خالد شرحبيل في تسرعه: وعسكر مسيلمة في بني حنيفة في عقرباء في أعلى وادي حنيفة ـ وتسمى اليوم الجبيلة ـ وسلك خالد ثنية في جبل اليمامة (طويق) وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب[١] أخو عمر، وأبو حذيفة بن عتبة[٢] وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس[٣]، وكان ضرار بن الأزور قد سار في قسم من الجند من ثنية من الشمال، ونزلوا من جهة (ملهم)[٤] إلى عقرباء، وجرت معركة حامية الوطيس تراجع المسلمون في أولها حتى دخل بنو حنيفة على خالد في فسطاطه، ثم حمل المسلمون حملة رجل واحد أزالت المرتدين عن مواقعهم، وأجبرت مسيلمة الالتجاء إلى حديقة عرفت باسم حديقة الموت، وفيها صرع مسيلمة الكذاب وعدد كبير من قومه، واستشهد من المسلمين عدد من القراء ووجهاء الناس، منهم زيد بن الخطاب، وثابت بن قيس وغيرهم كثير.

وفي عُمان ظهر لقيط بن مالك الأزدي، وغلب عليها، واضطر جيفر وعباد الالتجاء إلى الجبال وعلى سواحل البحر، وأرسل جيفر إلى أبي بكر الصديق يستنجده، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن إلى عمان، وعرفجة بن هرثمة إلى مهرة، وأوصاهما إذا التقيا أن يبتدئا بعمان، وإذا اقتربا منها راسلا جيفرا وعباداً، ثم أتبعهما بعكرمة بن أبي جهل الذي كانت وجهته اليمامة، فلما هزم طلب من الخليفة أن يسير بمن معه إلى عمان.

---

(١) زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي: أخو عمر بن الخطاب، وكان أسن من عمر، وأسلم قبله، صحابي، يعد من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام، كانت راية المسلمين بيده يوم اليمامة، وثبت يومذاك حتى استشهد، وقبره هناك.

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن عبد شمس: صحابي، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، شهد بدراً مع المسلمين، وفيها قتل أبوه، وعمه، وأخوه كفاراً، وحضر المشاهد كلها، واستشهد يوم اليمامة.

(٣) ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي الأنصاري: صحابي، خطيب رسول الله ﷺ، شهد المشاهد التي بعد أحد كلها، وكانت راية الأنصار بيده يوم اليمامة، واستشهد يومها.

(٤) ملهم: قرية من قرى اليمامة، ولا تزال معروفة، تقع إلى الشمال من الرياض على بعد ستين كيلاً منها.

اتجه عكرمة في أثر حذيفة وعرفجة فأدركهما قبل الوصول إلى عُمان، وهناك راسلوا جيفرا وعباداً، وعسكر المسلمون في صحار[١]، وتجمعت جموع لقيط في دبا، وجرت معركة بين الطرفين كاد ينجح فيها لقيط لولا النجدات التي وصلت للمسلمين من البحرين وغيرها، فانتصر المؤمنون، وهزم لقيط، واستولى المسلمون على الغنائم، وأرسلوا الخمس مع عرفجة إلى أبي بكر الصديق، وبقي حذيفة يدير شؤون عمان، وسار عكرمة إلى مهرة. وكان القوم فيها قد ارتدوا، إلا أنهم اختلفوا فقسم منهم في السواحل مع (شخريت) وهم أقل عدداً، وبدأ بهم عكرمة، فدعاهم للإسلام، فوافقوا، الأمر الذي أضعف القسم الثاني الذين كانوا في المناطق المرتفعة مع (المصبح)، فهزموا أمام المسلمين الذين حازوا على الغنائم، فأرسل عكرمة الخمس مع (شخريت) إلى المدينة المنورة.

وأما اليمن فقد كان عليها عدد من الولاة كلٌ على جزء، وقد ادعى فيها النبوة الأسود العنسي، وأرسل له رسول الله ﷺ الرسل والكتب، واستمر ذلك حتى مات، وهدأت الأمور باليمن، فلما انتقل رسول الله ﷺ انتقضت اليمن، فالتجأ عمال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام إلى المسلمين إلا عمرو بن حزم،[٢] وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما عادا إلى المدينة، ووصل الخبر إلى أبي بكر فحارب المرتدين بأن أرسل إليهم الرسل والكتب كما كان يفعل رسول الله ﷺ ـ فلما رجع جيش أسامة من غزوه، وعقد أبو بكر، رضي الله عنه، الألوية، بعث (عتابُ بن أسيد)[٣]

---

(١) صحار: قصبة عمان مما يلي الجبل، وهي طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها. ولا تزال قائمة إلى الآن بين مسقط والفجيرة.

(٢) عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، أبو الضحاك: وال، صحابي، شهد الخندق، وما بعدها، استعمله رسول الله على نجران وتوفي عام ٥٣هـ. في أيام معاوية، رضي الله عنه.

(٣) عتاب بن أسيد بن أبي العيض بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الرحمن، وال أموي قرشي مكي، من الصحابة. كان شجاعاً عاقلاً، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله رسول الله عليها عند مخرجه إلى حنين، وكان عمره ٢١ عاماً، وبقي عليها، وأقره أبو بكر، واستمر فيها إلى أن مات.

عامل مكة أخاه خالد بن أسيد[1] إلى المرتدين في تهامة فغلبهم، وبعث عثمان بن أبي العاص على الطائف ابن ربيعة إلى شنوءة فقهرهم.

وتحرك كذلك بتهامة اليمن الأخباث من (عك) و (الأشعريون) فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة، وأخبر بذلك أبا بكر، فانتصر الطاهر قبل أن يصل إليه كتاب وجواب أبي بكر.

وأرسل أبو بكر جرير بن عبد الله البجلي إلى (بجيلة) و (خثعم) فانتصر عليهم، وأقام بنجران حسب أوامر خليفة رسول الله.

وأرسل أبو بكر كتاباً إلى طاهر بن أبي هالة يأمره بأن يسير إلى صنعاء لمساعدة المسلمين، كما كتب إلى عبد الله بن ثور أن يجمع إليه من استجاب له من أهل تهامة، وينتظر التعليمات.

أرسل أبو بكر، رضي الله عنه، المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن، فسار عن طريق مكة، فمشى معه خالد بن أسيد، ومرّ بالطائف، فمشى معه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم انضم إليه جرير بن عبد الله البجلي بالسراة، وعبد الله بن ثور بتهامة، كما انضم إليه من نجران فروة بن مسيك[2]، فأوثق المهاجر عمرو بن معد يكرب[3]، وقيس بن عبد يغوث المكشوح وهما من المرتدين، إلى أبي بكر، رضي الله عنه. ووصل المهاجر إلى صنعاء ودخلها، ولاحق شذاذ القبائل الذين هربوا.

وارتدت حضرموت، وكان عمال رسول الله ﷺ عليها (عكاشة بن

---

(١) خالد بن أسيد: أخو عتاب بن أسيد، وهو من الفرسان المشهورين.

(٢) فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي المرادي، أبو عمر: وال من الصحابة، وهو من اليمن، وفد على النبي وأسلم، فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد، وقاتل المرتدين بعد وفاة رسول الله، توفي بالكوفة عام ٣٠هـ.

(٣) عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فارس اليمن، وفد على رسول الله في عشرة من زبيد فأسلموا جميعاً، ولما توفي رسول الله ارتد عمرو، ثم أسلم، وبعثه أبو بكر إلى الشام مجاهداً فشهد اليرموك وفقد إحدى عينيه. وسار إلى العراق فشهد القادسية، توفي عام ٢١هـ.

محصن) و(زياد بن لبيد البياضي) ثم أرسل إليها المهاجر بن أبي أمية، ولم ينطلق من المدينة بعد حتى توفي رسول الله، ﷺ، فسيَّره أبو بكر إلى اليمن، وهو في طريقه إلى عمله الجديد، فوصل إلى صنعاء ودخلها، وكان عمال أبي بكر ينتظرون والي حضرموت الجديد. وسار المهاجر إلى حضرموت، كما سار إليها عكرمة بن أبي جهل، فالتقيا في مأرب، فاقتحما حضرموت، وأرسل المهاجر خمس الغنائم إلى أبي بكر ومعها الأشعث بن قيس الكندي[1] أسيراً، وبقي في المدينة حتى خرج مجاهداً إلى العراق، واختار المهاجر بن أبي أمية العمل في اليمن فكان هو وفيروز، وبقي في حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعبيدة بن سعد.

وأما البحرين فكان فيها بنو عبد القيس، وبنو بكر، وكان عامل رسول الله ﷺ المنذر بن ساوى[2]، وتوفي في المدة التي مات فيها رسول الله ﷺ، فارتدت البحرين، أما بنو عبد القيس فقد ثبتت على الإسلام بفضل (الجارود)، وأما بكر فثبتت على ردتها. وأما الجارود فكان رجلاً نصرانياً، وقد وفد على رسول الله ﷺ وأسلم، وبقي بالمدينة حتى فقه في الدين، ثم رجع إلى قومه فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رسول الله ﷺ، فارتد قومه وقالت بنو عبد القيس: لو كان محمد نبياً لما مات، وبلغ ذلك الجارود فجمعهم وقال لهم: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عمّا بدا

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي: أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وفد على رسول الله وأسلم، ولما ولي أبو بكر الخلافة امتنع الأشعث وبعض كندة من تأدية الزكاة، ولكنه هزم وسيق موثوقاً إلى أبي بكر في المدينة، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، وحسن إسلامه، وحضر اليرموك وفقد عينه، وحضر فتح العراق مع سعد، وكان مع علي في صفين والنهروان، وتوفي عام ٤١هـ.

(٢) المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي: أمير في الجاهلية والإسلام، كان صاحب البحرين، أرسل له رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي يدعوه فيها إلى الإسلام فأسلم، واستمر في عمله، وتوفي قبل ردة أهل البحرين أي قبل وفاة رسول الله بشهر واحد.

لك، قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوه؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وَأن محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك سيدنا وأفضلنا، وثبتوا على إسلامهم، وحصرت جماعته في مكانين، وقاد المرتدين الحطم بن ضبيعة، وأرسل أبو بكر، رضي الله عنه، العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وكان من قبل أميراً عليها من قبل رسول الله ﷺ، فلما اقترب من البحرين التحق به ثمامة بن أثال، رضي الله عنه، من مسلمة بني حنيفة وذلك بأمر رسول الله ﷺ، فكان الجارود ومن معه من عبد القيس يقاتلون الحطم بن ضبيعة، والعلاء ومن معه يقاتلون المرتدين في جهة هجر، ونصر الله المسلمين، وأيدهم، وخذل الكافرين، وهزمهم.

الفتوحات: لم تكد الدعوة لتقف في أرض معينة، فالأرض كلها ساحتها وميدانها، وإذا توقفت قليلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ فذلك بسبب الردة، فلما انتهت الردة كان لا بد من أن تعاود نشاطها، وتسير بشكل طبيعي، ويقاتل كل من يقف في وجهها وذلك هو الجهاد.

وانتهت حروب الردة، وكان لا بدّ من الجهاد، فالفرس يقفون في وجه الدعوة، ويحاولون دعم أعدائها، ومدّ المرتدين عليها، والروم يحاربون الدعوة، وينصرون خصومها، ويحرضون القبائل المنتصرة ضدها، وكان لا بدّ من قتال الطرفين، والاستعانة بالله عليهما وبالإيمان القوي بأن النصر من الله يؤتيه من يشاء ممن استقام على منهجه، وإذن كان على المسلمين أن يقاتلوا على جبهتين لم تكونا متفقتين، وهذا ما ساعدهم على القتال وحرية الحركة دون الخوف من الطرف الآخر.

أ ـ الجبهة الفارسية: كان الفرس يسيطرون على مناطق واسعة تبدأ من بادية الشام في الغرب، وشمال جزيرة العرب من الجنوب، وتتوسع منطقتهم في الغرب وتتناقص حسب انتصارهم على الروم، أو هزيمتهم أمامهم، فتارة يتوسعون، وقد وصلوا إلى سواحل البوسفور ثم ارتدوا حتى حدود الفرات، وكان عدد من القبائل العربية تقيم في المناطق التي يسيطر

عليها الفرس سواء في منطقة السواد أم على ضفاف الفرات والجزيرة، ومن هذه القبائل تغلب، وبكر، وشيبان، وربيعة، وطيء، وبعضها كانت مُتنصّرة في أغلبها كتغلب، وكانت طيء تعلو ويقيم رئيسها في بلدة الحيرة على مقربة من الفرات، ويعمل للفرس على توطيد سلطانهم في تلك الأنحاء، وكان من بني شيبان فارس مقدام قد دخل في الإسلام هو المثنى بن حارثة الشيباني[١]، وقد طلب من أبي بكر بعد أن انتهى من حروب المرتدين في البحرين أن يؤمره على قومه وممن دان بالإسلام في تلك الجهات ليجاهد الفرس، ويقاتل أعداء الله، فأمّره أبو بكر فصار يناوش الفرس، وينتصر عليهم وقعة بعد وقعة إلا أنه في عدد قليل من المجاهدين، والفرس كثير، ومعهم عدد كبير من العرب المُتنصّرة، والقوة ستتناقص مع الأيام أمام الكثرة فكان لا بدّ من إرسال المدد للمثنى.

وانتهى خالد من حرب اليمامة، فجاءه الأمر من أبي بكر بالتوجه إلى العراق ليدعم المثنى بن حارثة الشيباني وليكن دخوله من الجنوب على حين يدخلها عياض بن غنم[٢] من جهة الشمال، وليكن لقاؤهما في الحيرة[٣] ومن سبق إليها كانت له الإمرة على صاحبه. وكان ذلك في مطلع العام الثاني عشر للهجرة. وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[٤]، وأنجد عياض بن غنم بعبد بن عوف الحميري.

---

(١) المثنى بن حارثة الشيباني: صحابي فاتح، من كبار القادة، أسلم عام ٩هـ، غزا بلاد فارس أيام أبي بكر، أمده أبو بكر بخالد بن الوليد، وأمده عمر بأبي عبيد، وجرح في معركة الجسر، ثم أمده بسعد بن أبي وقاص، ولكنه توفي قبل وصول سعد إليه.

(٢) عياض بن غنم بن زهير الفهري: قائد من شجعان الصحابة، شهد المشاهد مع رسول الله، وفتح الجزيرة الفراتية، وتوفي بالشام عام ٢٠هـ.

(٣) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف (الخورنق) إلى الشرق منها على بعد ميل، والدير إلى الغرب منها في بادية الشام.

(٤) القعقاع بن عمرو التميمي: أحد فرسان العرب المشهورين وأبطالهم في الجاهلية والإسلام، له صحبة، قال فيه أبو بكر: صوت القعقاع في الحرب خير من ألف فارس، شهد اليرموك وفتح دمشق، والقادسية وأكثر وقائع العراق، وسكن الكوفة، وشهد صفين بجانب سيدنا علي، وتوفي عام ٤٠هـ.

سار خالد بن الوليد مباشرة باتجاه الحيرة، والتقى في طريقه ببعض القريات (أُلّيس)[1] وما جاورها فصالح صاحبها (بُصْبُري بن صلوبا)، ثم اتجه نحو الحيرة، وكان عليها من قبل الفرس هانئ بن قبيصة الطائي[2]، فقال له خالد: إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته، وإلى الإسلام، فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر. فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم. وكان المثنى بن حارثة الشيباني يقاتل تارة في جهات كسكر[3] وأخرى في جهات الفرات الأسفل، يقاتل الهرمزان في تلك البقاع، فاستدعى خالد المثنى ونزلوا إلى جهات الأُبلّة[4] لتجميع قوات المسلمين، وكانوا في ثمانية عشر ألفاً، وقد سار المثنى قبل خالد بيومين، وسار عدي بن حاتم، وعاصم بن عمرو التميمي[5] بعد المثنى بيوم، وأعطاهم خالد موعداً في الحفير[6]، وقد التقوا بهرمز في أرض الأُبلّة، وكانت المعركة، وأراد هرمز أن يغدر بخالد إلا أن القعقاع بن عمرو قتل هرمز، والتحم مع حماته الذين أرادوا أن يغدروا بخالد، وركب المسلمون أكتاف أعدائهم حتى غشاهم الليل، وكان الفرس

---

(١) أُلّيس: هي غير موجودة الآن، وهي في أول أرض العراق من ناحية البادية.

(٢) هانئ بن قبيصة الطائي: وهو أخو إياس بن قبيصة الذي تولى أمر الحيرة بأمر كسرى بعد استدعاء النعمان بن المنذر إلى فارس، وجعل ودائعه عند هانئ بن مسعود الشيباني، وجرت معركة ذي قار بين جيوش كسرى بقيادة إياس وبين هانئ بن مسعود الشيباني الذي يقود بني بكر.

(٣) كسكر: كورة واسعة، وقصبتها واسط التي مصرّها الحجاج بن يوسف، ومن قبل كانت قصبتها خسر وسابور، وهي في وسط السواد.

(٤) الأُبلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، لأن البصرة مصرّت أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وكانت الأبلة حينئذ فيها مسالح من قبل كسرى، وقائد، وهي غير موجودة الآن وموقعها شمال موقع البصرة الحالي.

(٥) عاصم بن عمرو التميمي أخو القعقاع، شاعر، له صحبة، أبلى في القادسية البلاء الحسن توفي عام ١٦هـ.

(٦) الحفير: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة.

قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل لذلك سميت هذه المعركة ذات السلاسل. . . وأرسل خالد بن الوليد المثنى بن حارثة في أثر القوم، وبعث معقل بن مُقرّن[١] إلى الأُبلّة ليجمع المال والسبي، وسار المثنى حتى بلغ نهر المرأة، فحاصرها في الحصن الذي كانت فيه وكان على مقدمته أخوه المعنى[٢]، فصالحت المرأة المثنى، وتزوجها المعنّى، أما المثنى فقد استنزل الرجال من الحصون، وقتل مقاتلتهم، وأقر الفلاحين الذين لم ينهضوا للقتال مع الفرس.

كان أردشير قد أمر بجيش كبير بقيادة (قارن بن قريانس) فلما وصل إلى (المذار)[٣] وصل إليه خبر هزيمة هرمز ومقتله، فتجمع هناك، فسار إليه خالد،ونشبت معركة قتل فيها معقل بن الأعشى القائد الفارسي (قارن)، وقتل عاصم بن عمرو وخصمه (الأنوشجان) وقتل عدي بن حاتم عَوه (قُباذ)، وقتل يومذاك من الفرس عدد كبير، وصل إلى ثلاثين ألف مقاتل. وبعدها وزع خالد الغنائم وقسّم الفيء.

وتجمع الفرس ثانية في (الولجة)[٤] مع ما جاءهم من مدد قوامه جيشان الأول بقيادة (الأندرزغر) والثاني بإمرة (بهمن جاذويه) فسار إليهم خالد، وقد خلّف سويد بن مقرن في الحفير، وقد هُزمت الفرس هزيمة منكرة أيضاً في هذه الجولة.

وتأثر نصارى العرب من هذه الانتصارات فكاتبوا الفرس، وتجمّعوا في (أُلّيس)، فأسرع إليهم خالد، وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً، وقتل منهم ما يقرب من سبعين ألفاً، ثم اتجه نحو الحيرة ثانية.

ولما انتهى خالد من الحيرة ولّى عليها القعقاع بن عمرو، وخرج يريد

---

(١) معقل بن مقرن: أحد إخوة النعمان بن مقرن.

(٢) المعنّى بن حارثة: أخو المثنى بن حارثة الشيباني، وكان على مقدمة أخيه.

(٣) المذار: على ضفة نهر دجلة اليسرى تقع شمال القرنة بـ ٣٧ كيلاً، بين البصرة وواسط، وهي قصبة ميسان.

(٤) الولجة: موضع وسط السواد قريبة من كسكر.

دعم عياض بن غنم الذي كلف بشمال العراق، فنزل خالد إلى الفلّوجة، ومنها إلى كربلاء فولى عليها عاصم بن عمرو، وكان على مقدمته الأقرع بن حابس[١]، أما المثنى فكان يناوش الفرس على شواطئ دجلة. وسار خالد إلى الأنبار[٢] ففتحها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر، وقصد عين التمر[٣]، فهزم جموع أهلها الذين هم من العرب المُتنصّرة والعجم، ثم حصرها فنزلوا على حكمه، فقتل من قتل منهم، وأسر وسبى. واستخلف على عين التمر عويم بن الكاهل، وسار باتجاه عياض بن غنم الذي علم أنه لا يزال في دومة الجندل[٤] وقد كتب إليه يستنجده، فكتب إليه خالد: «من خالد إلى عياض إياك أريد».

ولما علم أهل دومة الجندل مسير خالد إليهم استنجدوا بالقبائل المُتنصّرة من العرب من كلب، وغسان وتنوخ، والضجاعم فأمدوهم. ولما اقترب خالد من دومة الجندل اختلف رئيساها وهما: أكيدر بن عبد الملك[٥]، والجودي بن ربيعة، فاعتزل الأكيدر، وهُزم الجودي ومن معه ومن جاءه من الدعم الذين لم يتسع لهم الحصن. وأقام خالد بدومة الجندل. وأرسل الأقرع بن حابس إلى الأنبار، وبعد مدة لحق خالد بالحيرة.

وخرج خالد من الحيرة وولّى عليها عياض بن غنم، وكان على

---

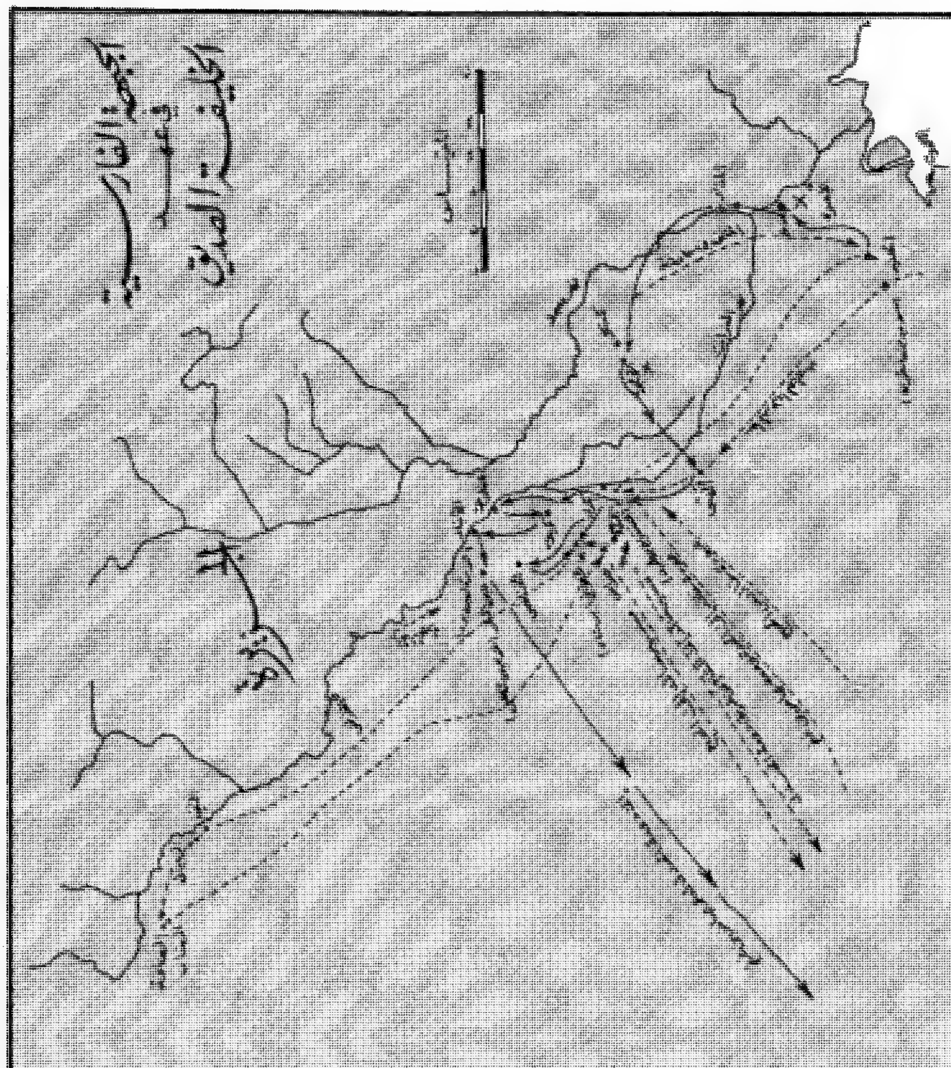
(١) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدارمي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية، وفد على رسول الله مع وفد قومه وأسلم، وشهد فتح مكة، وحنين، والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، استشهد بخراسان بالجوزجان عام ٣١هـ أيام سيدنا عثمان.

(٢) الأنبار: تقع قريباً من ضفة الفرات اليمنى، وقريباً من الفلوجة.

(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار، إلى الغرب منها.

(٤) دومة الجندل: وهي في شمال جزيرة العرب، ومكانها اليوم مدينة الجوف.

(٥) أكيدر بن عبد الملك الكندي: ملك دومة الجندل في الجاهلية، بعث رسول الله خالد بن الوليد إليه، فأسره، وقدم إلى المدينة، فأسلم وأعيد إلى بلاده، فلما توفي رسول الله نقض العهد، ومات عام ١٢هـ.



مقدمة خالد الأقرع بن حابس... ثم بعث وهو بـ (العين) أبا ليلى بن فركي إلى الخنافس[1] والقعقاع إلى حُصيد[2]. فانتصر القعقاع في حُصيد، وفر من بالخنافس إلى المُصَيّخ[3] إذ لم يجد أبو ليلى، بالخنافس كيداً. وسار خالد وأبو ليلى والقعقاع إلى المصيخ وكان قد اجتمع فيه من هرب من الخنافس والحصيد، وهناك انتصر المسلمون انتصاراً مبيناً. ثم ساروا إلى (الثني)[4] و (الزُّمَيْل)[5] فانتصروا على أعدائهم، ثم ساروا إلى (الرضاب)[6]، وبها هلال بن عَقّة، وقد ارفض عنه أصحابه عندما سمعوا بدنو خالد وجيشه، ثم ساروا إلى (الفراض)[7] وهي على تخوم الشام والعراق والجزيرة وذلك في شهر رمضان، وتعاون الفرس والروم ضد المسلمين، والتقت الجموع على نهر الفرات فقتل من الفرس والروم والعرب المُتنصّرة أكثر من مائة ألف...

أقام خالد بن الوليد عشرة أيام بالفراض، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالناس، وأظهر خالد أنه في الساقة، وسار مع عدة من أصحابه إلى مكة يؤدي الحج، ورجع من الحج، فوصل إلى الحيرة ولم تدخل الساقة البلدة بعد، ولم يدر الخليفة أبو بكر، رضي الله عنه، بما فعل خالد إلا بعد مدة، فعتب عليه، وصرفه عن العراق إلى الشام.

وصل كتاب أبي بكر إلى خالد وهو بالحيرة وفيه: أن سر حتى تأتي

---

(١) الخنافس: موقع قرب الأنبار. (٢) حصيد: واد بين الكوفة والشام.

(٣) المصيخ: مصيّخ برشاء، وهو بين حوران والعراق، وهو غير معروف الآن، أما مصيخ بهراء فهو آخر ماء من بلاد الشام، ورده خالد بن الوليد بعد سُوى.

(٤) الثني: مكان بالجزيرة الفراتية يقع إلى الشرق من الرصافة، تجمعت فيه بنو تغلب.

(٥) الزميل: موقع إلى الشرق من الرصافة.

(٦) الرضاب: موقع إلى الشرق من الرصافة، أو مكانها قبل أن يعمرها هشام بن عبد الملك.

(٧) الفراض: موضع بين إلى الشرق من البوكمال على بعد ٤٠ كيلاً منها، قريبة من الحدود بين العراق وسورية اليوم.

جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشْجِ الجموعَ من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعكَ، فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء.

وجاء فيما كتب أبو بكر لخالد: أما بعد فدع العراق وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم، وهم فيه، وامض مختفياً من أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك في الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام.

سار خالد من الحيرة في العراق، وقد استخلف المثنى بن حارثة الشيباني على جند العراق، وسار هو إلى الشام، وكتب إلى أبي عبيدة[١]: أما بعد فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التي كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلي النار والسلام عليك ورحمة الله.

سار خالد من الحيرة إلى دومة الجندل، وخرج منها مع وادي السرحان إلى الشمال.

ب ـ فتوح الشام: بعد أن رجع خالد بن سعيد بن العاص من اليمن

---

(١) أبو عبيدة الجراح: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي فاتح الديار الشامية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين الأمة، وهو من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

أمره أبو بكر أن ينزل بتيماء وأمره ألا يبرحها، وأن يدعوا من حوله بالانضمام إليه، وألا يقبل إلا ممن لم يرتد، ولا يقاتل إلا من قاتله، حتى يأتيه أمره. فأقام فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر، فاستنفروا العرب الذين بالشام على المسلمين، فاستنفرت كلب، وتنوخ، ولخم، وجذام، وغسان، فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أن أقدم ولا تحجم، واستنصر الله، فسار إليهم خالد بن سعيد، فلما دنا منهم تفرقوا، فاتخذ موقعه مكانهم، وكتب إلى أبي بكر بذلك، فكتب إليه أبو بكر: أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. وحدث قتال؛ وطلب خالد بن سعيد من أبي بكر المدد، فأمده بالوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل، وانتصر على (ماهان) قرب القدس، وانتقل ماهان إلى دمشق فلحق به خالد بن سعيد، فلما كان بمرج الصفر جاءت جموع كبيرة من الروم بقيادة (ماهان) الأمر الذي جعل خالد بن سعيد يتراجع إلى ذي المروة على حين وقف عكرمة بن أبي جهل يحمي المتراجعين، ووصل المجاهدون من اليمن، وكانت قد دخلت السنة الثالثة عشرة، فطلب أبو بكر استبدال عمال الصدقات. ومنهم عمرو بن العاص الذي كان قد سيره في السنة الحادية عشرة إلى قضاعة، ثم استدعاه فولاه ما كان رسول الله ﷺ قد ولاه على صدقات عُمان ثانية، وكتب إليه أبو بكر، رضي الله عنه: إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولاكه مرة، وسماه لك أخرى، ومبعثك إلى عُمان إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت ـ أبا عبد الله ـ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه؛ إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك. فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها، وأخشاها، وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي.

وصل خالد بن سعيد بن العاص إلى ذي المروة[1] هرباً من جند

---

(١) ذو المروة: قرية بوادي القرى.

(ماهان)، ووصل الخبر إلى أبي بكر فكتب إليه: أقم مكانك، فلعمري إنك مقدام محجام، نجّاء من الغمرات، لا تخوضها إلا إلى حق، ولا تصبر عليه. ولما كان بعد؛ وأذن له في دخول المدينة ـ كما سنرى ـ.

عبأ أبو بكر الصديق الجيوش إلى الشام في مطلع السنة الثالثة عشرة فسار:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان[1] في سبعة آلاف بعد عزل خالد بن سعيد، وكانت وجهته دمشق، وكان أول الأمراء الذين ساروا إلى الشام، وكان في جنده سهيل بن عمرو. ثم أمد أبو بكر يزيد بن أبي سفيان بأخيه معاوية بجند كثير، ولما مرّ معاوية بذي المروة أخذ من بقي من جند خالد بن سعيد، وسمح بعدها الصديق لخالد بدخول المدينة.

٢ ـ عمرو بن العاص وكانت وجهته فلسطين.

٣ ـ شرحبيل بن حسنة وسار إلى الأردن، وقد استعمل على جند الوليد بن عقبة[2]، وأخذ عندما مر بذي المروة جمهور جند خالد بن سعيد.

٤ ـ أبو عبيدة بن الجراح وكانت وجهته حمص.

وبقي عكرمة في ستة آلاف من الجند ردءاً لجيوش المسلمين.

وعلم الروم بما عبأه المسلمون، فانتقل هرقل إلى حمص، وجمع جموعاً غفيرة من جنده، وأرسل أخاه (تذارق) ليواجه عمرو بن العاص، وبعث (جرجة بن توذرا) نحو يزيد بن أبي سفيان، ووجه (الدُّراقص) نحو

---

(١) يزيد بن أبي سفيان، أبو خالد، أسلم يوم فتح مكة، وبقي على صدقات بني فراس، وكان أحد قادة فتح الشام، ولاه عمر فلسطين، ثم دمشق، توفي في طاعون عمواس عام ١٨هـ.

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أبو وهب: من فتيان قريش وشعرائهم، أخو عثمان بن عفان لأمه، أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، ولاه عمر صدقات بني تغلب، ولاه عثمان الكوفة ثم عزله، توفي عام ٦١هـ.

شرحبيل بن حسنة، وأعطى أوامره لـ (الفيقار بن نسطوس) أن يسير نحو أبي عبيدة بن الجراح، وصل عدد الروم يومذاك إلى ٢٤٠ ألف مقاتل على حين كان المسلمون واحداً وعشرين ألفاً و٦ آلاف مع عكرمة بن أبي جهل في المؤخرة دعماً لجموع المسلمين.

هاب المسلمون الروم لما رأوا كثرتهم فكتب قادتهم إلى عمرو بن العاص يستشيرونه، فاقترح أن يجتمع المسلمون في مكان يلتقون فيه مع الروم، ولن يهزموا من قلة حينذاك، كما كتبوا إلى الخليفة أبي بكر وطلبوا منه المدد، فكان رأيه الاجتماع كما رأى عمرو، وأضاف أن يكون مكان المعركة في موقع يسهل الاتصال فيه مع المدينة قاعدة الحكم، ووافق على اللقاء باليرموك، وكتب إلى خالد بالعراق أن يقدم إلى اليرموك لدعم المسلمين هناك، وأن يكون هو الأمير.

سار خالد بن الوليد من الحيرة إلى (قراقر) حيث شيعه إليها المثنى بن حارثة، ومنها إلى (سوى)، ثم تحرك إلى دومة الجندل، وأغار خالد على (مصيخ بهراء) ثم تحرك نحو الشمال مع وادي السرحان إلى شرقي جبل حوران (الدروز) حتى وصل إلى (أرك)[(١)] ومنها إلى تدمر فالقريتين[(٢)]. ولما علمت غسان بذلك، اجتمعوا له بمرج راهط[(٣)] فسار إليهم، وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتصر عليهم، ثم سار إلى بصرى الشام[(٤)] وكانت أول مدينة افتتحها من بلاد الشام، ثم ذهب إلى اليرموك فوصل إلى المسلمين في تسعة آلاف وغدا جند المسلمين ستة وثلاثين ألفاً. وفرح المسلمون بوصول خالد لأن الروم كانوا قد وصلت إليهم إمدادات

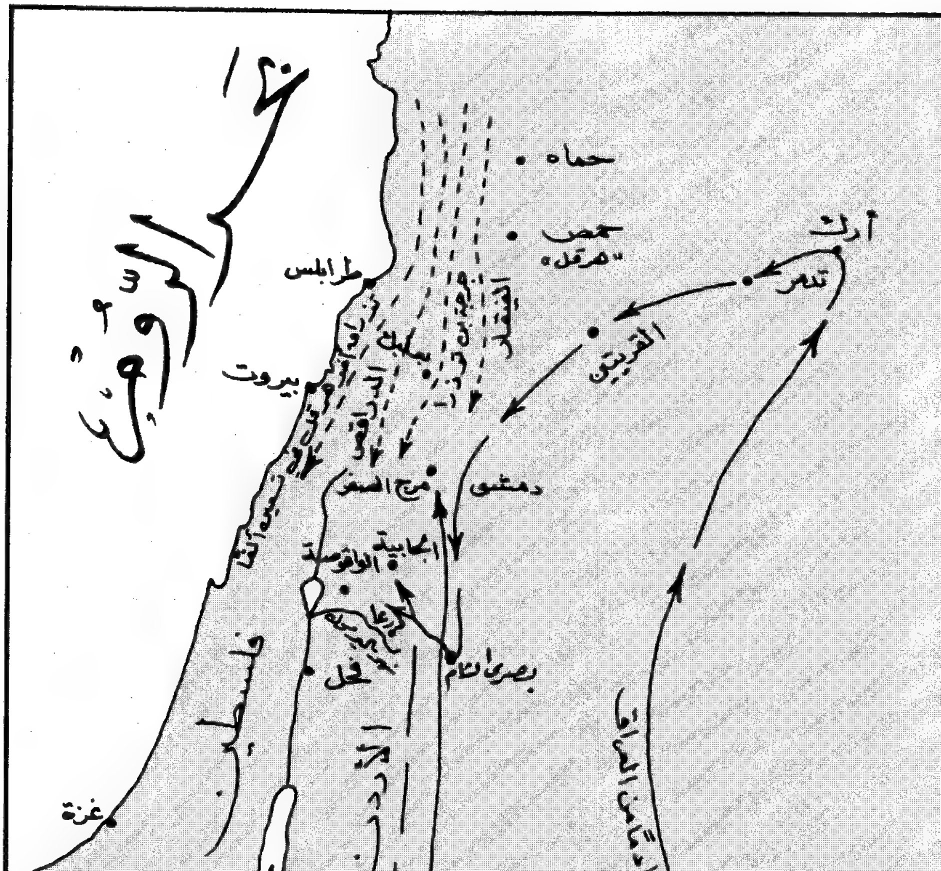
---

(١) أرك: مدينة صغيرة قرب تدمر، وهي ذات نخل وزيتون، وكل أهلها كانوا من النصارى.

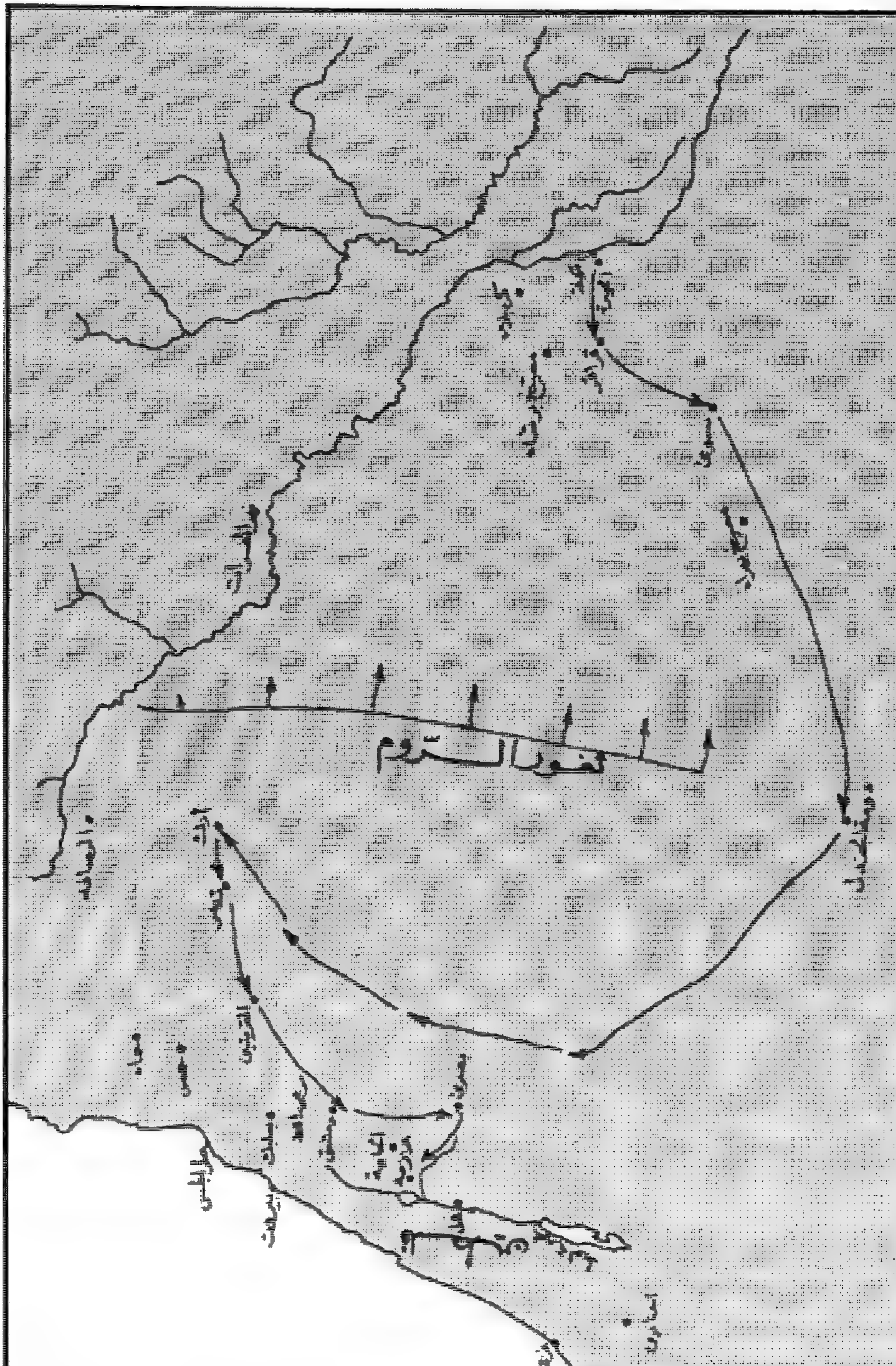
(٢) القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص، وهي التي تدعى حوارين.

(٣) مرج راهط: يقع إلى الشمال من دمشق، والمسافر من دمشق إلى حمص ما كان على يساره فهو مرج راهط، ومن كان على يمناه فهو مرج عذراء حتى الثنايا (ثنية العقاب).

(٤) بصرى الشام: مدينة بحوران، من قواعد الغساسنة، وكانت مدينة رومانية، وفيها سوق دائمة للعرب. ولا تزال فيها آثار رومانية، منها المدرج الروماني الشهير.


بحر الروم
حماه
حمص
"هرقل"
أرك
تدمر
القريتين
طرابلس
بيروت
بعلبك
دمشق
مرج الصفر
الجابية
الواقوصة
بصرى الشام
فحل
فلسطين
الأردن
غزة
اجنادين
خالد بن الوليد قادماً من العراق
عمرو بن العاص
شرحبيل بن حسنة
يزيد بن أبي سفيان
دومة الجندل
عكرمة بن أبي جهل
احتياطي
ستة آلاف مجاهد
تبوك

بإمرة ماهان ومعه القساوسة والمطارنة والرهبان من أجل تشجيع المقاتلين. وربما يتساءل المرء لماذا هذه الطريق الطويلة التي قطعها خالد بن الوليد؟ إنه أراد ألا يصطدم مع الروم قبل الالتقاء بالمسلمين وبخاصة أنه أصبح أمير المقاتلين في الشام فلا بد من الوصول إلى جنده ليقودهم في القتال، وإن خطة المسلمين كانت تقضي أن يكون القتال مجتمعين لا متفرقين ليتمكنوا من قتال الروم الذين يملكون أعداداً كبيرة تفوقهم بعشرة أمثال، وللروم ثغور وسط البادية حيث كانت من قبل مسرحاً للمعارك الدائرة بينهم وبين الفرس، فلو سار من الحيرة مباشرة نحو الغرب لاصطدم بتلك الثغور، ولأضاع على المسلمين تجمعهم في اليرموك وقيادته لهم، ولهذا اضطر أن يسير نحو الجنوب ليتجاوز تلك الثغور عن طريق دومة الجندل ثم اتجه شمالاً، وعندما وصل إلى الشرق من بصرى الشام وجد نفسه أمام جبل حوران (الدروز اليوم) البركاني الصعب الاجتياز، فأراد الالتفاف حوله فوجد نفسه بسرعته المعروفة في منطقة تدمر، لذا عاد فرجع إلى الغرب عن طريق القريتين فثنية العقاب (الثنايا) فشرقي دمشق إلى بصرى ففتحها ومنها سار إلى اليرموك. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن لخالد بن الوليد طريقته الخاصة في القتال وهي التحرك بسرعة في عمق العدو والإغارة على مواقع خصمه المتأخرة، ثم الانسحاب للخوض في معركة حاسمة، وعندها يشعر العدو أن مجموعات من خصمه لا تزال تعمل خلف خطوطه الأمامية، وستداهمه في الوقت المناسب من القتال الأمر الذي تضعف فيه معنوياته، ويبقى جزء من جنوده خارج المعركة لصد أي هجوم مرتقب من الخلف، وهذا ما رأيناه في قتاله في العراق إذ وصل إلى نقاط بعيدة من أرض العدو على حين لم تطهر أرض السواد بعد بل ولا منطقة الحيرة نفسها، ولم يأمن جانب المصالحين بشكل صحيح إذ سنراهم ينقضون العهد بعد ذلك. كما أن حركته كانت خلف ثغور الروم الأمر الذي جعل الروم لا يستطيعون ترك مواقعهم خوفاً من أن يكون هناك اتفاق بين المسلمين والفرس وبخاصة أن خالداً كان في أرض فارس، كل هذا يجعل حركة خالد سهلة ويتنقل بحرية كأنه يقوم بمناورة معروفة الخطة.


ثغور الروم

وصل خالد بن الوليد إلى اليرموك، وصلّى في اليوم الأول بجنده الذين قدموا معه من العراق، ورأى الروم مجتمعين فجمع المسلمين وخطب فيهم قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم؛ فإن هذا يوم له ما بعده؛ ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي. وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته، قالوا: فهات، فما الرأي؟ قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذي كان ويكون، لقد جمعكم، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا فإن هؤلاء تهيئوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني إليكم اليوم.

قسم خالد المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها بين ٣٦ ـ ٤٠ كردوساً ويضم الكردوس الواحد ما يقرب من ألف مقاتل. وكان أبو عبيدة في القلب، وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، ومن أمراء الكراديس يومذاك القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وعياض بن غنم، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص[1]،

---

(١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: صحابي، خطيب من الفرسان، ابن أخي سعد بن أبي وقاص، أقام بالشام بعد فتحها، فقد عينه باليرموك، وذهب مدداً لعمه سعد في القادسية، شهد صفين مع علي، وكان قائد الرجالة فيها، وقتل في آخر أيامها.

وسهيل بن عمرو[1]، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحبيب بن مسلمة[2]، وصفوان بن أمية[3]، وسعيد بن خالد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص[4]، وعبد الله بن قيس[5]، ومعاوية بن حديج[6]، والزبير بن العوام[7]، وضرار بن الأزور.

وكان قاضي الجيش أبو الدرداء[8]، والقاص أبو سفيان بن

---

(١) سهل بن عمرو العامري القرشي: من الذين وقفوا في وجه الإسلام، أسلم يوم فتح مكة، حسن إسلامه، خرج مجاهداً إلى الشام، وهو خطيب قريش، توفي بالطاعون بالشام عام ١٨هـ.

(٢) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري: قائد فاتح، خرج مجاهداً أيام أبي بكر، وشهد اليرموك، وفتح دمشق،، ولاه أبو عبيدة إنطاكية، توغل في أرمينية، تولى أمر الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان توفي عام ٦١هـ.

(٣) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي، أبو وهب: من السادات في الجاهلية والإسلام، وقف ضد الدعوة، أسلم بعد الفتح، شهد اليرموك، توفي عام ٤١هـ، بمكة المكرمة.

(٤) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: صحابي، من الولاة الغزاة، من أوائل الذين أسلموا، ونال العذاب من أبيه (أبو أحيحة)، هاجر إلى الحبشة، غزا مع النبي، حضر فتح مكة، وغزوة تبوك، كتب لرسول الله، وبعثه مع ملأ على اليمن، استدعاه أبو بكر، وخرج مجاهداً، استشهد في مرج الصفر عام ١٤هـ.

(٥) عبد الله بن قيس الحارثي، حليف فزارة: أمير البحر في صدر الإسلام، استشهد عام ٥٣هـ، وهو يطوف متخفياً في أحد الموانئ.

(٦) معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر، أبو نعيم الكندي: الأمير الصحابي، شهد صفين مع معاوية، وتولى له مصر بعد أن أخذها له، وولي غزو المغرب عدة مرات، توفي عام ٥٢هـ.

(٧) الزبير بن العوام الأسدي القرشي، ابن عمة رسول الله، أبو عبد الله: الصحابي الشجاع، أول من سل سيفه في الإسلام، من أوائل الذين أسلموا، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وحضر اليرموك، وهو أحد رجال الشورى، قتل غيلة عام ٣٦هـ. بعد معركة الجمل.

(٨) أبو الدرداء: عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة، اشتهر بالشجاعة والعبادة، وفي الحديث «عويمر حكيم أمتي» و «نعم الفارس عويمر» ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، توفي عام ٣٢هـ.

حرب[1]، وعلى الغنائم عبد الله بن مسعود، وعلى الطلائع قباث بن أشيم، وكان المقرئ المقداد بن عمرو[2]، وقد كان عدد الصحابة في اليرموك أكثر من ألف صحابي بينهم مائة من أهل بدر. وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله! إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك! اللهم أنزل نصرك على عبادك!

ونشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، ولم يلبث الأمر قليلاً حتى جاء البريد، يحمل موت أبي بكر، وتولية عمر، وعزل خالد وتأمير أبي عبيدة، رضي الله عنهم. وكان الرسول محمية بن زنيم، ولكن خالداً عندما سئل عن البريد، قال: السلامة، وقرب وصول الأمداد.

وكانت وفاة أبي بكر، رضي الله عنه، يوم الاثنين ٢٢ جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ، وبذا تكون خلافته، سنتين وثلاثة أشهر، وعشرة أيام.

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الصديق تبدو ضيقة الرقعة إلا أننا يجب أن نضع في خلدنا الملاحظات التالية:

١ ـ قصر مدة خلافة الصديق.

٢ ـ القضاء على حروب الردة التي شملت الجزيرة كلها.

٣ ـ كانت المعارك التي جرت في عهد الصديق بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة ثانية، قد دوخت أعداء الإسلام، وأظهرت قوة المسلمين وإمكاناتهم القتالية.

---

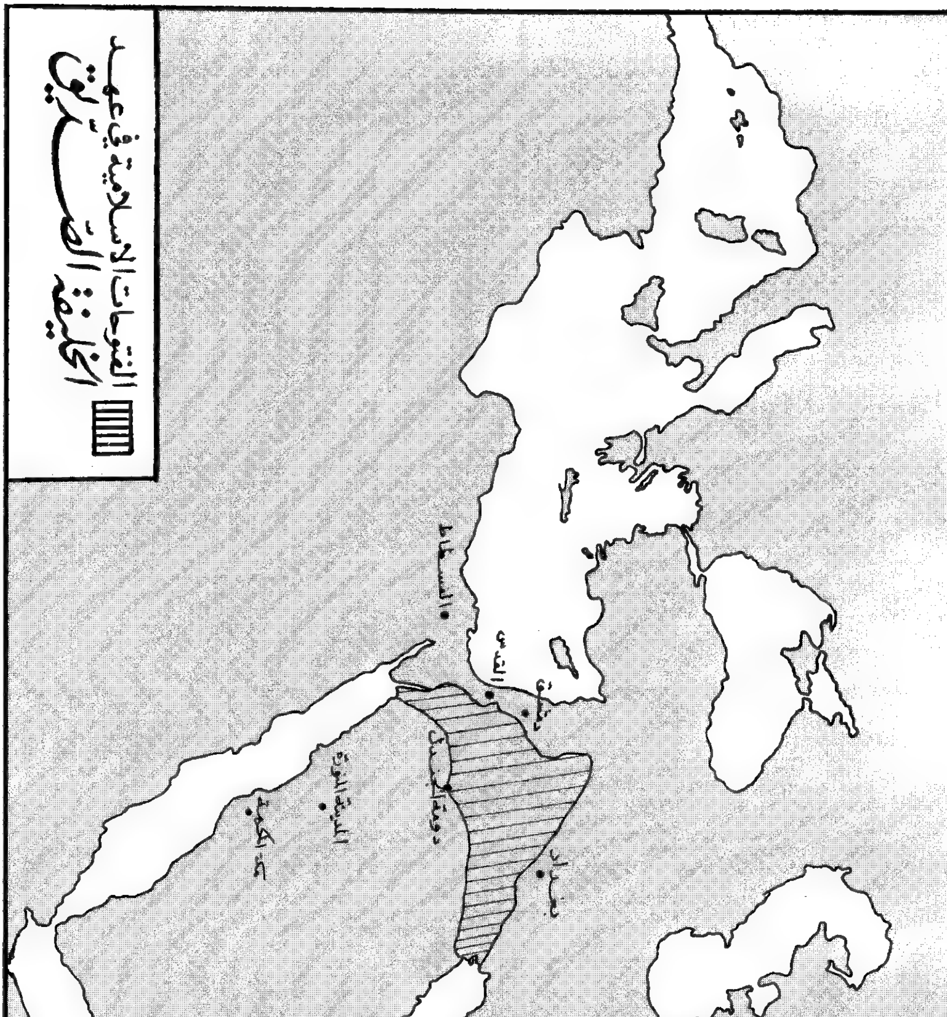
(١) أبو سفيان حرب: صخر بن حرب الأموي القرشي، وقف في وجه الإسلام، وقاد قريش في ذلك، أسلم يوم الفتح وهو وأولاده من الشجعان، قاتل تحت راية ابنه يزيد، فقد عينه الأولى في حنين والثانية في اليرموك، توفي عام ٣١هـ.

(٢) المقداد بن عمرو ويعرف بابن الأسود، أبو عمرو: صحابي، من الأبطال، من أوائل الذين أظهروا الإسلام، كان من سكان حضرموت فر منها إلى مكة، توفي عام ٣٣هـ.

شعر أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بشيء من الراحة النفسية بعد أن قضى على المرتدين، وانطلقت الفتوحات في كل الجهات، وتحطمت كبرياء الدولتين الكبريين اللتين كانتا تقفان في وجه الدعوة، وتدعمان المرتدين، وتستنفران قواتهما ومن والاها من العرب المتنصرة، كل ذلك في سبيل القضاء على الفكرة الجديدة، وفي الوقت نفسه، فقد شعر أن مهمته في الحياة قد انتهت، فقد توطد الأمر. وثبت كيان الإسلام، وسيتابع الأمر الخلفاء من بعده، كما زاد شعوره في هذا الأمر أن سنه قد اقترب من سن حبيبه ورسوله محمد ﷺ عندما فارق الحياة الدنيا، وانتقل إلى الرفيق الأعلى. كما شعر أن استخلاف رجل من بعده وهو على قيد الحياة، يجنب المسلمين الكثير من الصعاب، وقد أشفق عليهم أن يختلفوا، ويزهد في هذا المنصب أهله، ويبتعد عنه من يستحقه، وقد تداعى إلى ذهنه ما حدث عند وفاة رسول الله ﷺ عندما لم يخطر على بال المسلمين وفاة نبيهم، وحين ثقل عليهم مصابهم، والأمر لا بدّ له من خليفة يطبق منهج الله في الأرض. إذن لا بدّ من استخلاف رجل يخلفه، ولا بد من الاستشارة، ولاح في ذهنه أولئك الصحابة الذين كان رسول الله ﷺ يستشيرهم، وكبرت في نفسه شخصية عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومواقفه في الإسلام، وقوته في الحق، وهيبته في النفوس، ونظرة المسلمين إليه، ولكن كان لا بدّ من أخذ رأيهم واستشارتهم، ولو كان الأمر منهم لكان أفضل.

وشعر أبو بكر بالمرض، واشتد عليه، وثقل فجمع عدداً من الصحابة المعروفين الذين كان رسول الله ﷺ يشاورهم في الأمر، وقال لهم: إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم. فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي.

فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه، ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا:


الفتوحات الإسلامية في عهد
الخليفة الصديق
بغداد
دمشق
القدس
الفسطاط
دومة الجندل
المدينة المنورة
مكة المكرمة

رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

دعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب: فقال له: ما تسألني عنه أمراً إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن، فقال عبد الرحمن: هو أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان بن عفان، فقال له مثل ذلك، فقال: علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله، فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يسرّ خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمر إلا رجل خاف من شدته، وقد عاتبه بعضهم باستخلافه فقال أبو بكر: لا والله ولا نعمة عين، هو والله خير لكم، والله لو وليتك لجعلت أنفك في السماء ولرفعت نفسك فوق قدرك حتى يكون الله هو الذي يضعك، تريد أن تردني عن رأيي وتفتني في ديني؟ فوالله لئن بلغني أنك عصيته أو ذكرته بسوء لأفعلن ولأفعلن... ثم دخل على أبي بكر عثمان، وعلي، فقال لهما مباشرة لعلكما تقولان في عمر ما قال فلان آنفاً؟

قالا: وماذا قال يا خليفة رسول الله؟

قال: زعم أن عمر أحدثكم إسلاماً و....

فقال عثمان، رضي الله عنه: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته مع سابقته.

وقال علي رضي الله عنه: بئس ما قال، عمر عند ظنك به، ورأيك

فيه، إن وليته ـ مع أنه كان والياً معك ـ نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن مالاً تظن لم ترد إلا الخير.

ودخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر الصديق يعوده في مرضه الذي مات فيه فوجده مقنعاً، فقال له عبد الرحمن: أصبحت بحمد الله بارئاً، فقال: أبرء ذاك؟ قال: نعم، قال: أما إني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عليّ من وجعي، إني وليت أمركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت. ولما تقبل، وهي مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير، ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان[2]، والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، ثم أنتم غداً أول ضال بالناس يميناً وشمالاً، لا تضيعوهم عن الطريق، يا هادي الطريق جرت، إنما هو الفجر أو البجر[3] فقال له عبد الرحمن: حفظ الله عليك يرحمك الله فإن هذا يهيضك إلى ما بك، إنما الناس في أمرك رجلان: إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل رأى ما لم تر فهو يشير عليك بما يعلم، وصاحبك كما تحب أو كما يحب، ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحاً مصلحاً مع أنك لا تأسى على شيء من الدنيا.

ودخل بعض الصحابة على أبي بكر وقد علموا باستشارته في عمر، فقال أحدهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظ وأغلظ؟ فقال أبو بكر: أجلسوني فلما جلس، قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول:

---

(١) الأذربي: نسبة إلى أذربيجان، وهو صوف شديد النعومة.

(٢) حسك السعدان: نبات كثير الشوك.

(٣) البجر: الدهماء والمعنى في الفجر تبصر الطريق، وفي الظلمة تنزل بالمكروه.

اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني أستخلف عليكم بعدي... وأخذته غشية قبل أن يسمي أحداً. فكتب عثمان، رضي الله عنه: إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب... ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يتمم فأملى عليه: فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم أمره فختم الكتاب وخرج به مختوماً، ومعه عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير. وأشرف أبو بكر على الناس من كوته فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر.

فأقروا بذلك جميعاً، ورضوا به، ثم بايعوا، فرفع أبو بكر: رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أول ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك ونواصيهم بيدك، فأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعيته، ثم دعاه فأوصاه.

وَصيَّـةُ أبي بَكر

رضي الله عنه

قالت عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه، قال: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي، وابرأوا منه، فإني قد كنت أستحله، وأستصلحه جهدي.

وسأل عن يوم هذا فقيل له: الاثنين، قال: فأي يوم قبض رسول الله؟ فقيل الاثنين، وسأل عن كفن رسول الله فقيل له ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة. فقال أبو بكر: انظروا ملاءَتيَّ هاتين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما. فقيل له: قد رزق الله وأحسن نكفنك في جديد، قال: إن الحي هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميت، إنما يصير الميت إلى الصديد، وإلى البلى.

وقال: إن عمر لم يدعني حتى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإن حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها، وهذا المبلغ هو مجموع ما أخذه من بيت المال مدة خلافته كراتب له أو كتعويض عن تركه التجارة، واشتغاله بأمور المسلمين وهي حق له.

إذن كانت وصية أبي بكر، رضي الله عنه، ما يلي:

١ ـ يرد ما عنده من مال إلى بيت مال المسلمين عن طريق الخليفة عمر بن الخطاب.

٢ ـ يرد بستان يملكه إلى بيت مال المسلمين عوضاً عما أخذه من بيت المال مدة خلافته.

٣ ـ أن يتصدق بمقدار خمس ما يملك من أرض العالية[1]، وما يبقى يقسم بين أولاده وهم:

عبد الرحمن.

محمد.

أسماء.

عائشة.

وما تضع حبيبة بنت خارجة، ويتوقع أن تكون أنثى. وقد أوصى بها أولاده خيراً. (وبالفعل فقد وضعت أنثى ـ وهي أم كلثوم ـ).

٤ ـ أن يكفن بثوبيه بعد غسلهما.

٥ ـ أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، وأن يدفن بجانب رسول الله ﷺ.

ولما مات أبو بكر أرسل أهله ما ترك إلى الخليفة، وإذا هي عبد نوبي كان يحمل صبيانه، وناضح يسنى عليه فيسقي بستاناً له، وجرد قطيفة... فلما تسلمها الخليفة عمر سالت دموعه، وقال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، ويردد هذه العبارة...

وأمر الغلام أن يرفع تلك التركة. فقال عبد الرحمن بن عوف: سبحان الله! تسلب عيال أبي بكر عبداً حبشياً، وبعيراً ناضحاً، وجرد قطيفة ما تساوي خمسة دراهم؟ قال: فماذا تأمر؟ قال: تردهن على عياله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق لا يكون هذا في ولايتي أبداً ولم يكن أبو بكر ليخرج منهن عند الموت، وأردهن أنا على عياله، الموت أقرب من ذلك.

---

(١) من أموال بني النضير، كانت من نصيبه بعد إجلاء بني النضير عنها.

أما البستان، فقد قال عمر فيه: يرحم الله أبا بكر، لقد أحب أن لا يدع لأحد بعده مقالة، وأنا ولي الأمر من بعده قد رددتها على عياله، ورفض أن يأخذ البستان.

واستمر مرض أبي بكر مدة خمسة عشر يوماً، ثم توفي يوم الاثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة.

وغسلته زوجه أسماء بنت عميس حسب وصيته، ودفن جانب رسول الله ﷺ، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل في قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن.

وجاء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يوم وفاة أبي بكر فوقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناءً، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خلقاً، وخُلقاً، وهدياً، وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، صدقت رسول الله حين كذب الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله في كتابه صديقاً (والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون) يريد محمداً ويريدك، وكنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك كنت كالجبل الذي لا تحركه المواصف، ولا تزيله القواصف ـ كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين، ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك.

نظرة إلى المجتمع
أيام خليفة رسول الله

إن أول وأهم صفة يتميز بها المجتمع الإسلامي عدم وجود الطبقات فيه، فالناس كلهم متساوون كأسنان المشط الواحد، لا فرق فيه بين الأجناس أو الألوان بل وحتى بين العقائد من حيث الحقوق والواجبات، وهذه المساواة مساواة حقيقية تنبع من العقيدة التي مقرها القلب، وليست مساواة نظرية مدونة تنطلق من النظريات الفلسفية التي يقصد منها المزاودة والمتاجرة لتأمين المصالح والوصول إلى بعض الأغراض. وأعضاء المجتمع الإسلامي يحترم فيه الكبير، ويعطف بينهم على الصغير، ويحرص على تأمين الحاجات لأصحابها. ويعيش الناس كلهم ضمن أسرة واحدةٍ كبيرةٍ متعاونةٍ متكاتفةٍ متكاملةٍ، فالخليفة وهو يمثل رأس السلطة لا يعد أفضلهم أو أكرمهم أو له ميزات تجعله يختلف عمن سواه أو يتميز عن غيره، فهو لا يتميز عن بقية أفراد المجتمع في ركوبه، أو لباسه، أو طعامه، أو في سكنه واحتجابه عن رعاياه، كما ليست له صفة تجعله في طبقة خاصة هو وأسرته يستطيع من خلالها التسلط أو نيل حقوق لا يتمكن غيره من الحصول عليها. بل هو فرد عادي أوصلته إمكاناته، واستعداداته الفطرية، وإخلاصه في عمله، وتضحياته من أجل عقيدته للوصول إلى مركز قيادة الأمة وإدارة شؤونها، فهو يعيش بين أفراد المجتمع، يسير معهم في الشوارع، ويذهب معهم إلى السوق يبيع ويشتري ويساوم، وقد يكون بيته أكثر تواضعاً، وليس له بيت عام يعيش فيه، وأثناء ذهابه هذا، وفي وقت وجوده في السوق يعطي التعليمات لمن يراها ضرورية له، ويلاحظ مقدار انسجام معاملة الناس مع الشريعة الإسلامية، ويراقب إن كان هناك ذوو

حاجة، ويُسأل في الطريق عن بعض الموضوعات، ويلتقي مع الأفراد في الندوات، ويتبادل معهم الآراء، ويناقش في ضرورات الناس وحاجاتهم، وما تقتضيه ظروف الدولة، وأخبار الجهاد، وأنباء المقاتلين.

لقد كان خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب شياه الحي لأصحابها، وفي الليل يتفقد الناس، ويسهر على مصالحهم، وهم نيام، ويحرس طرقات المدينة عندما خلت من القوة بعد تسيير بعث أسامة بن زيد، رضي الله عنهما.

وقد انصرف الناس أيامه إلى قتال المرتدين، وإلى الفتوحات، وبقي في المدينة عدد من الصحابة أمثال: عمر، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وأسيد بن حضير وغيرهم، ولم يكن بقاء هؤلاء تقاعساً عن الجهاد ـ معاذ الله ـ. وإنما استبقاهم الخليفة لاستشارتهم والاستنارة بآرائهم إضافة إلى حماية المدينة فقد كانوا ـ كما رأينا ـ على أنقابها، وعلى صلة مستمرة بالمسلمين الذين كانوا في المسجد مع الخليفة على أهبة الاستعداد لكل طارئ، وعلى اتصال بالخليفة نفسه، ولم يكن هؤلاء مع جلالة قدرهم ليتميزوا عن بقية المسلمين، وإن كانوا يلقون كل احترام وتقدير من كافة المسلمين، وما ذلك إلا بسبب سابقتهم في الإسلام وصحبتهم المستمرة لرسول الله، وجهادهم الطويل في سبيل الله، وتضحيتهم من أجل الدعوة، ومع هذه النظرة التي ملؤها التوقير، واستشارة خليفة رسول الله لهم فلم يكن لهم أية ميزة، بل كان كل فرد من المجتمع يمكن أن يقاضيهم، وأن يقتص منهم فيما إذا أخطؤوا، وأن يرد عليهم، وليس بينهم وبين أي فرد من عامة الناس أي فرق.

أما المجاهدون الذين اندفعوا إلى القتال من تلقاء أنفسهم، إذ لم تكن هناك جندية إجبارية أو إكراه على الخروج، وإنما كان المسلمون يخرجون للجهاد في سبيل الله لنيل الشهادة أو إحراز النصر والدعوة في سبيل الله، يدفعهم إلى ذلك كله طلبهم لإرضاء الله بأداء مهمتهم في الحياة على الصورة المطلوبة.

لقد كان هؤلاء المجاهدون كتلة واحدة وإخوة حقيقيين بمعنى الأخوة الإيمانية، وقد وقعت حوادث كثيرة كان الرجل فيها يسرع ليتلقى الضربة عن أخيه يسبقه فيها إلى الشهادة حرصاً على أخيه، ودفاعاً عنه، وتفضيلاً له، وكان طعامهم واحداً ولباسهم يتشابه في البساطة لا يختلف في ذلك الأمير قائد الجيش والجندي الصغير، بل إذا قُدّم طعام لأمير كان يسأل هل أكل الجند جميعاً من هذا النوع؟ ولم تكن يده لتمتد قبل أن يتأكد أن جنده كافة قد حصلوا على ما ناله هو، وقد يكون قائد الجند اليوم، ويصبح غداً جندياً يقاتل تحت إمرة أحد جنده بالأمس، ولا يختلف الأمر عنده أبداً بين كونه قائداً أو جندياً، لا من حيث القتال فقط، وإنما من حيث احترام الأفراد له، ولكن تختلف طاعة الأفراد له، وتنفيذ الأوامر والسؤال في الخطة وأسلوب القتال.

ولم يكن الجندي في الثغور ليفكر في أهله أو بلده،، إذ أن أهله يعيشون بين أفراد مجتمعهم الذين هم إخوانهم، وهم يكفلونهم إضافة إلى العقيدة الراسخة التي تقضي أن يعتقد المرء أن الله هو وليهم في الدنيا والآخرة، ومن هذا المنطلق لم يفكروا في بلدهم، فإن لها حماتها، وهم المسؤولون عنها، وعمن يعيش فيها، والخليفة هو المسؤول الأول. أما الجند فكان همهم الجهاد ونشر الدعوة.

وتوزع الغنائم بالتساوي بين المشاة، وكذلك بين الفرسان، ومن قتل رجلاً فله سلبه، وما كان القتال والالتقاء حول الرايات حسب القبائل إلا لتمتاز بالشجاعة، ومحاولة عدم الهزيمة حتى لا تعير، وقد كان عباد بن بشر، رضي الله عنه، ينادي الأنصار يوم اليمامة أن يمتازوا عن غيرهم بالإقدام والحمل على الأعداء.

وأفراد المجتمع الذين يعيشون في المدن والقرى والبادية، ولم يخرجوا للقتال لضعفهم، وكلهم من النساء والأطفال والعجزة، ولا يعدّ الإنسان نفسه عاجزاً ما دام يستطيع حمل السلاح. وكم من رجل قد جاوز الثمانين فإذا دعا داعي الجهاد انخرط بين صفوف المقاتلين وراح يقلد

الشباب، وذلك لأن الجهاد غاية يسعى كل مقاتل للحصول عليها. وهؤلاء القعدة متعاونون بعضهم مع بعض الآخر حدود التعاون، وكل إنسان موجود بينهم يعدهم أهله، وهو مسؤول عنهم في كل شيء. وهم يشرون ويشترون بكل صدقٍ وأمانة، لا يوجد غش ولا خداع، ولا يعرف مكر ولا نزاع في أية قضية من القضايا ما دامت الشريعة تمنع هذا وتحاربه. وأعضاء هذا المجتمع متعاونون أشد أنواع التعاون، متكافلون، ولم تحدث هناك حوادث أخلاقية أو جرائم إذ أن تطبيق الحدود يحول دون استشراء الفساد بل على العكس يعمل على الحد منها، وما حدثت من حوادث أيام تطبيق الإسلام كلها سوى حوادث لا تصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة.

والمرأة تؤدي دورها كاملاً، فهي تعرف حاجة الأمة وتلبي ذلك، بتربية الأولاد التربية الصالحة، وشحنهم بالإيمان الشحنة الكافية، والحياة مع الضرائر، إن تعددوا، حياة الأخوة الحقة، ومع الجوار تعيش عيشة الإخلاص والتضحية، تشارك في المواساة والتعزية،فتئن مع أنينهم، وتبكي لبكائهم، وكذا في المسرات فتضحك مع ابتسامة الحياة لهم، وتوحي إليهم بأعمالها أنها تسعد بحياتهم السعيدة.

الباب الثاني

عمر بن الخطّاب

رضي الله عنه

حياتُـه في الجَاهليَّـة

عمر بن الخطاب من بني عدي، وهم بطن صغير من قريش، وقد عُرف أبو الخطاب بجلافة طبعه، وقسوة قلبه، فعرف بعذابه لابن أخيه زيد بن عمرو الذي أنكر على قريش عبادتهم للأصنام مع من أنكر أمثال ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث. إذ اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عليه ويدينون له، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجياً، وهم الذين ذكرناهم، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم! ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية، دين إبراهيم.

لقد همّ زيد بن عمرُو بالخروج من مكة يطلب دين إبراهيم إلا أن زوجه صفية بنت الحضرمي كانت له بالمرصاد، فكلما رأته تهيأ للخروج وأراده أعلمت عمه الخطاب بن نفيل فمنعه من الخروج، وهو الذي كان قد كلف صفية بذلك، وقال لها: إذا رأيتيه قد همّ بأمر فآذنيني به. ولم يدخل زيد في يهودية ولا نصرانية، ولكنه فارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة، والدم، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وكان زيد يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم

أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته. وكان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد، قال: لبيك حقاً حقاً، تعبّداً ورقاً.

وكان الخطاب يعذب زيداً، ويعاتبه، ويلومه على مفارقة دين قومه، ويمنعه من الخروج، وكل هذا بمنتهى الشدة والجلافة، والقسوة وعدم الشفقة. وورث عمر عن أبيه هذه الطباع.

ولد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في السنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، فكان عمره يوم بعث رسول الله ﷺ تسعة وعشرين عاماً، واستمر بعدها على جاهليته مدة ست سنوات إذ معلوم أنه قد أسلم في السنة السادسة للبعثة، ثم دخل في الإسلام، وبذا يكون قد عاش في الجاهلية خمسة وثلاثين عاماً، وعاش ثلاثين عاماً في الإسلام.

عاش عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خمسةً وثلاثين عاماً في الجاهلية لم يكن له فيها مركز ولا شهرة، ولولا الإسلام لما اشتهر، ولما عرفه أحد بعد ذلك. قضى تلك المدة في الجاهلية، وعرف أنه كان سفير قريش بينها وبين القبائل الأخرى فيما إذا وقع بينها خلاف أو حدث قتال. ولم تكن هذه التسمية إلا صورة لأن قريشاً لم تكن قبيلة محاربة، ولم تعرف بالغزو والقتال، وإنما كانت قبيلة متحضرة تجارية يهمها الأمن والاستقرار حرصاً على قوافلها ومصلحة لتجارتها، وهي تعيش في حرمها آمنة مطمئنة. . . هذا إضافة إلى أن مركزها بين القبائل العربية الأخرى كان موضع الاحترام لا موضع الخصام والعناد لأنها تعيش في الحرم الآمن، وتحج القبائل إلى البيت الأول الذي فيه ذكر أبيهم إبراهيم وإسماعيل، وتؤدي المناسك، وقريش تقوم بسدانة البيت وحجابته، كما تقوم برفادة الحجاج وسقايتهم. وما وقع من حروب الفجار، واشتركت فيه قريش ومن معها من كنانة ضد قيس عيلان، وهو آخر ما وقع من حروب، فقد كان عمر، رضي الله عنه، آنذاك صغيراً لم يتجاوز التسع سنوات من العمر، وهذه آخر الحروب التي وقعت بين قريش وغيرها أيام عمر، وبالتالي لم تكن هناك من سفارات، أو أن عمر لم تكن له مهمة في قريش، فهو فرد عادي في المجتمع، وبالأحرى فهو عضو مهمل الذكر ضعيف الشأن،

شأنه في ذلك شأن أسرته القليلة الأهمية بين الأسر المعروفة آنذاك مثل بني عبد مناف، وبني مخزوم، وبني عبد الدار وغيرها، بل كان أقل أهمية من أسرته التي كان عضواً فيها، إذ أن المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش فيه يقوّم الرجال حسب مقاييس معينة واعتبارات محددة، ولعل أهم هذه المقاييس هو المال وعمر لا يملك إلا القليل منه، والقوة أيضاً أحد جوانب هذه المقاييس، والقوة تتعلق بالأسرة وكبرها، وكثرة أفرادها، وبنو عدي عدد قليل كما ذكرنا، وعمر لا يملك إلا أخاً واحداً أسن منه، وهو زيد، إضافة إلى صبية صغار. وليست هذه السفارة إلا أنه يمثل بطناً من بطون قريش.

ومات زيد بن عمرو ومات عمه الخطاب، وبقي عمر وجيه بني عدي، وسفير قريش، وطباعه الجلفة هي التي تميّزه، ويُعرف بها.

وشع نور الإسلام في مكة، وآمنت به جماعات من فئات شتى، وقبائل عدة، وكان من بني عدي أن آمن سعيد بن زيد، ابن عم عمر، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، ونُعيم بن عبد الله، من قوم عمر، وآخرون من بني عدي، أما عمر فلم يسلم، وتمسك بجاهليته تمسك الإِنسان الجلف الذي إذا اقتنع بشيء لا يمكن أن يغيّر أبداً إلا إذا اقتنع بشيء آخر ولن يكون هذا بسهولة. وإذا عمر قد ورث عن أبيه هذه الطباع الصعبة، إلا أنه قد أخذ عن خاله أبي جهل عمرو بن هشام معاداته الصريحة للإِسلام، والوقوف في وجهه، فأم عمر حنتمة بنت هشام، وهي أخت أبي جهل عمرو بن هشام، لذا فقد قسى على ابن عمه سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة قسوة كبيرة، كما قسا القسوة نفسها على شقيقته فاطمة إذ أسلما دون علمه.

كان رسول الله ﷺ يجمع المسلمين الاثنين والثلاثة والأربعة منهم في بيت من البيوت، ويرسل إليهم من يعلمهم مبادئ الإسلام ويقرئهم القرآن، وكان من جملة هذه الأسر، أسرة ضمت سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة بنت الخطاب، ونعيم بن عبد الله النحام رجل من قوم عمر، وكان خبّاب بن الأرت[1] يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام.

---

(١) **خبّاب بن الأرت**: رجل ينتسب إلى تميم، وقع في السبي، فاشترته أم أنمار بنت سباع =

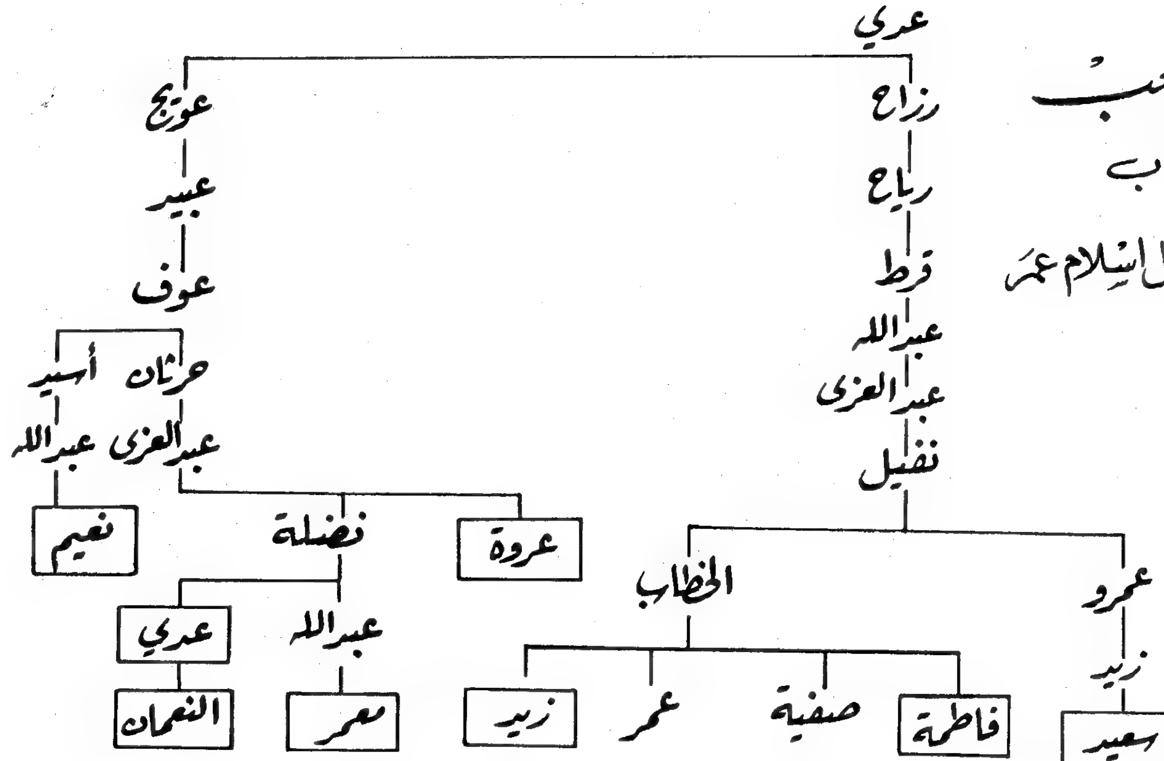
شعر عمر بن الخطاب بالغضب الشديد، والأسى الكبير، عندما لاحظ تفرّق كلمة قريش بين مسلمها وكافرها، بعد أن وقف وجهاء قريش في وجه الدعوة، وحاولوا منعها. وبينما كان مرة في البيت إذ ذكروا له أن محمداً ﷺ يجتمع مع رهط من أصحابه الذين لم يهاجروا إلى الحبشة أمثال حمزة بن عبد المطلب، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وذلك في بيت عند الصفا فاشتد غضبه، فتوشح سيفه نحوهم، يريد إنهاء هذه المشكلة، ويقضي على ما حلّ في قريش من تفرقة، وانطلق يبدو على وجهه الغضب، والتقى بالطريق مع نُعيم بن عبد الله، وهو رجل من قومه، ومن الأسرة المسلمة التي يلتقي فيها سعيد بن زيد ابن عم عمر، وزوجه فاطمة أخت عمر. . . وسأل نعيم عمر، إلى أين يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما، قال نعيم ذلك: خوفاً من انطلاق عمر إلى رسول الله، فلربما حدث ما يكره، ففضل أن ينال سعيد وزوجه فاطمة بعض الأذى وينجو محمد «عليه الصلاة والسلام». . . ولم يقل ذلك كراهية بالإِسلام، إذ كان هو مسلماً، بل ومن الأسرة المسلمة التي تجمعه معهما، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهو يعرف رقة قلب عمر إن لم يكن مغضباً، ولم يثره أحد. وهكذا تغيّرت وجهة سير عمر، وكانت النتيجة أن تغيرت عقيدته ودخل في الإِسلام ـ كما سنرى ـ.

= الخزاعية، وأعتقته، فكان لذلك خزاعياً بالولاء، وكان أبوها حليفاً لبني زهرة، لذا نشأ زهرياً بالحلف، كان من أوائل الذين أسلموا، وتفقه في الدين، وتولى تعليم غيره، حضر المشاهد كلها. توفي بالكوفة سنة سبع وثلاثين من الهجرة بعد أن شهد مع علي صفين، والنهروان.

بنو عدي بن كعب

قوم عمر بن الخطاب

▭ الذين أسلموا قبل إسلام عمر



مع شدة عمر وجلافة طبعه كان رقيقاً طيب القلب، إذا لم توجه إليه كلمات تغضبه أو إذا لم تكن إثارة مباشرة له. فمع ما عرف من عناده للإسلام في جاهليته وشدة إيذائه للمؤمنين فإن قلبه كان يرق عليهم أحياناً، إذ عندما انطلق المهاجرون الأوائل إلى الحبشة، وكان فيهم عامر بن ربيعة، وهو من بني عدي بالحلف، ومعه زوجه ليلى (أم عبد الله) بنت أبي حثمة بن حذافة بن غانم، فمر عليهم عمر بن الخطاب، وهو على شركه، وكان عامر قد مضى لبعض حاجته، فوقف عمر على زوجة عامر، فقال لها: إنه للانطلاق يا أم عبد الله، قالت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قال: صحبكم الله، ورأت له رقة لم تكن تراها، لقد وجدت حزنه على خروجهم، فلما جاء عامر من حاجته قالت له، يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، فقال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، وذلك يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على المسلمين.

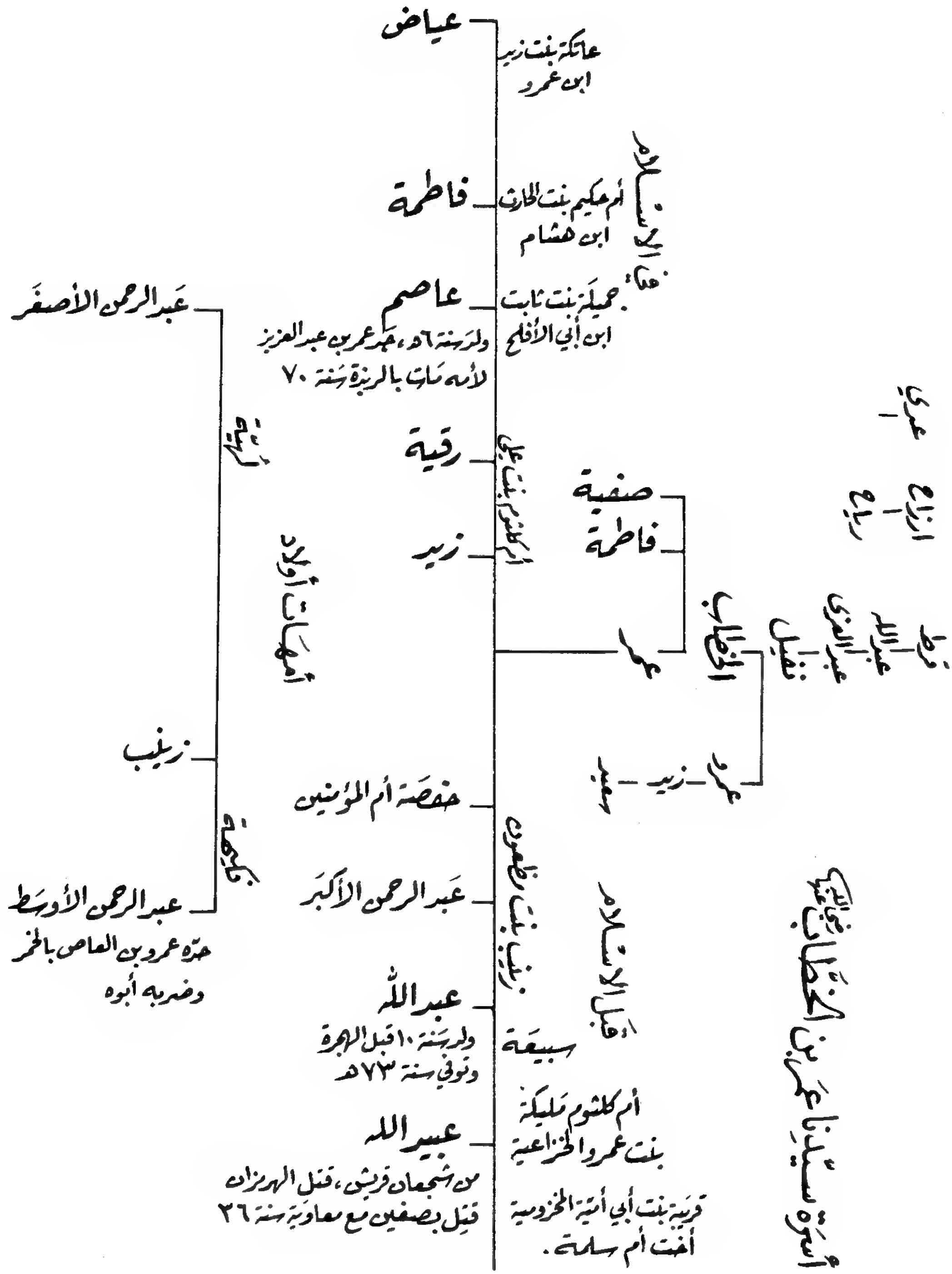
وتزوج عمر قبل الإسلام أربع نساء وهن:

١ ـ زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون: وقد أنجبت له: حفصة أم المؤمنين، التي تزوجت خنيس بن حذافة السهمي، فلما توفي عنها، تزوجها رسول الله ﷺ. كما أنجبت له عبد الرحمن الأكبر. وعبد الله الذي ولد في العاشرة قبل الهجرة.

٢ ـ سبيعة: ولم تنجب له.

٣ ـ أم كلثوم مليكة بنت عمرو الخزاعية: وقد ولدت له عبيد الله الذي يعد من شجعان قريش، وهو الذي قتل الهرمزان الذي اتهم مع أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة بقتل أبيه الخليفة عمر بن الخطاب، وانجبت له أيضاً زيد الأصغر، وحضر عبيد الله صفين مع معاوية، وقتل يومذاك.

٤ ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومية: وهي أخت أم المؤمنين أم سلمة، ولم تنجب له أيضاً.


أسرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه
عياض
عاتكة بنت زيد ابن عمرو
فاطمة
أم حكيم بنت الحارث ابن هشام
عاصم
ولد سنة ٦هـ، جد عمر بن عبد العزيز لأمه مات بالربذة سنة ٧٠
جميلة بنت ثابت ابن أبي الأفلح
زوجاته بعد الإسلام
رقية
زيد
أم كلثوم بنت علي
صفية
فاطمة
عمر
الخطاب
نفيل
عبد العزى
عبد الله
قرط
رياح
عدي
عمرو
زيد
سعيد
عبد الرحمن الأصغر
أم ولد
أمهات أولاد
زينب
فكيهة
حفصة أم المؤمنين
عبد الرحمن الأكبر
زينب بنت مظعون
قبل الإسلام
عبد الرحمن الأوسط
حده عمرو بن العاص بالخمر وضربه أبوه
عبد الله
ولد سنة ١٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ٧٣هـ
سبيعة
عبيد الله
من شجعان قريش، قتل الهرمزان قتل بصفين مع معاوية سنة ٣٦
أم كلثوم مليكة بنت عمرو الخزاعية
قريبة بنت أبي أمية المخزومية أخت أم سلمة.

حياته في الإسلام

اتجه عمر بن الخطاب إلى ابن عمه سعيد بن زيد، وإلى أخته فاطمة يرى شيئاً عن إسلامهما بعد ما ذكر له نُعيم بن عبد الله ما ذكر، وكان عندهما خبّاب بن الأرت، ومعه صحيفة فيها (سورة طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيّب خبّاب في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما، فلما دخل، قال: ما هذه الهمهمة (الصوت الخفيف الذي لا يفهم) التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب، لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم وندم على ما صنع، ورجع، وقال لأخته وقد رقّ قلبه، أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، انظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذ قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، ولا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها سورة طه. فقرأها، فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خبّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم عمرو بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على

محمد ﷺ حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فاذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له؛ فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذه بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لاؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم.

ويروى عن إسلام عمر أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة، عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال: فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني، قال: فقلت حين رأيته، والله لو أني استمعت إلى محمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوت منه استمع منه لأروِّعنّه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ يصلي يقرأ القرآن، حتى

قمت في قبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، قال: فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه حتى يجزع[1] المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهري، ثم دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه ﷺ في دار الرقطاء، التي كانت بيد معاوية بن أبي سفيان. قال عمر، رضي الله عنه: فتبعته، حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأوذيه، ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيته.

ويروى أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لما أسلم قال: أيّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ فما راجعه حتى قام يجرّ رداءه، واتبعه عمر، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر من خلفه كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وأعياه التعب، فقعد وقاموا على رأسه، فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا، وبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش، عليه حُلّة حِبْرة، وقميص

---

(١) يجزع: يقطع.

موشى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال فمه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلوا عن الرجل. قال عبد الله بن عمر: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك؟ جزاه الله خيراً. قال يا بني، ذاك العاص بن وائل، لا جزاه الله خيراً.

ويروى أن عمر كان يقول: لمّا أسلمت تلك الليلة، تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل. قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه. قال: فخرج إليّ أبو جهل، قال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدّقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: وقبّح ما جئت به.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

وكان عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، يقول أيضاً: إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

ويروى أن عمر بن الخطاب لما أسلم قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قا ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق، إن متم إن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن، وكان الرسول على ما يبدو قد رأى أنه قد آن الأوان للإعلان، وأن الدعوة التي كانت كالوليد الضعيف الذي لا بدّ له من الرعاية والحفظ، قد غدت قوية تمشي وتستطيع أن تدفع عن نفسها، فأذن بالإعلان وخرج ﷺ في صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر،

ولهم كدير ككدير الطحين، حتى دخل المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم تصبهم مثلها قط، وسماه رسول الله ﷺ يومئذٍ الفاروق.

إلا أن عمر لم يكن يجرؤ أحد من قريش على إيذائه، بينما يصيب الأذى المسلمين الآخرين، ولعل هذا كان من أكثر ما يزعج عمر، فكان يقول: لا أحب إلا أن يصيبني ما أصاب المسلمين. لذا كان يتعرض لرؤوس الكفر، ويعلن أمامهم إسلامه، بل يذهب إلى بيوتهم، ويطرق أبوابهم ليخبرهم بنبأ إسلامه، علهم يقومون بشيء ضده، فيناله ما ينال إخوانه المسلمين، ويستطيع في الوقت نفسه أن ينتقم من تلك الرؤوس. ولم يرد عمر أبداً أن يكون في نعمة ليست للمسلمين، فيكون هو في عافية وراحة وهم في إيذاء وتعب. وعندما أعلن إسلامه، وبدأت قريش تقاتله وثب على عتبة بن ربيعة، فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل إصبعه في عينه، فجعل عتبة يصيح، الأمر الذي جعل الناس يتنحون عن عمر، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، حتى أحجم الناس عنه.

واشتد أذى قريش على المسلمين، وكان قد انتشر الإسلام في يثرب، فطلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يهاجروا إلى إخوانهم في المدينة، وابتدأت وفود المسلمين تترك مكة متجهة إلى المدينة وكلها متخفية في هجرتها وانتقالها، إلا هجرة عمر، فقد روي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلّد سيفه وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف في البيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذا المعاطس، من أراد أن يثكّل أمه، أو يوتّم ولده، أو يرمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي، رضي الله عنه: فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ثم مضى لوجهه.

وكان لما عزم على الهجرة قد أخبر صديقيه عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص، واتفقوا على الصحبة على أن يجتمعوا في منازل غفار على عشرة أميال من مكة، فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا، فجاء عمر، وعياش، وحُبس هشام في مكة، وفُتن عن دينه، فواصلا حتى وصلا قباء، فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر فلحقهما أبو جهل عمرو بن هشام، وأخوه الحارث بن هشام، وهما أخوال عمر، وأبناء عمّ عياش وأخواه لأمه، أما عمر فلم يخاطباه لما يعلمان من شدته في الحق وصلابته، أما عياش فقد قالا له: إن أمك قد نذرت ألا يظلها سقف، ولا يمسّ رأسها دهن حتى تراك، فاستشار عمر، فأجابه: والله ما أرادا إلا ردك عن دينك، فاحذرهما ولا تذهب، فوالله لو آذى أمك القمل لادهنت وامتشطت، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت: إلا أن عياشاً قد مال إلى الذهاب معهما، فبدأ يوجد المبررات لنفسه، فقال: إن لي بمكة مالاً لعلي آخذه فيكون قوة للمسلمين، وأكون قد بررت قسم أمي.

فقال عمر: إنك لتعلم إني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. فأبى عياش إلا أن يخرج معهما، فلما أبى، قال له: أما إذا قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فلما كان بضجنان[1] قال أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك؟ قال عياش: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض أوثقاه رباطاً، حتى دخلا به مكة، فقالا: كذا يا أهل مكة فافعلوا بسفهائكم. ثم حبسوه.

ولبث عمر عند رفاعة بن عبد المنذر حتى لحق به أهله وقومه: أخوه زيد بن الخطاب، وابن عمه سعيد بن زيد، وخنيس بن حذافة السهمي صهره زوج ابنته حفصة، وواقد بن عبد الله حليف لهم. ثم قدموا المدينة.

ولكن عمر بقي يذكر صديقيه، ويتمنى لهما الخلاص من ظلمة

---

(١) ضجنان: جبل إلى الشمال من مكة على ٤٠ كيلاً منها.

الكفر، ومن ربقة الأسر، حتى أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد ليخلّص عيّاشاً، وقد استعمل الوليد الحيلة والقوة حتى أنقذ عيّاشاً ومعه سلمة بن هشام وعاد بهما إلى المدينة.

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من الصحابة الذين يستشيرهم رسول الله ﷺ فيما يعرض له من مشكلات، ولربما نزل الوحي بما يؤيد رأي عمر. ويعد عمر الصحابي الثاني بين المسلمين بعد أبي بكر، رضي الله عنهما، وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان فيها من الرجال المعدودين بالقوة وشدة البأس، ومن الذين يقفون بجانب رسول الله ﷺ يدافعون عنه، ويحمونه من الأعداء كأبي بكر، ولم يكن من الذين يجولون في الميدان. وكان يتقيد بأوامر رسول الله ﷺ حرفياً، ولم يحاول أن يجتهد، ويفسر الأمر من عنده.

وكان يؤثر رغبة رسول الله ﷺ على هوى نفسه، فقد فرح بإسلام العباس بن عبد المطلب عم رسول الله يوم أسلم أكثر من فرحه بإسلام أبيه الخطاب لو أسلم، وذلك لأن إسلام العباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

سار رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى بدر للتعرض لعير أبي سفيان، إلا أن القافلة قد نجت، ولكن كان لا بدّ من اللقاء مع جيش مكة الذي خرج لإنقاذ القافلة وتأديب المسلمين على حد زعم رؤوس الكفر آنذاك، فأراد رسول الله ﷺ أن يستشير المسلمين وبخاصة الأنصار الذين كانوا يشكلون أكثرية المسلمين، فوقف أبو بكر فتكلم فأحسن، وتكلم عمر فأجاد، وتكلم المقداد بن عمرو فأحسن، وكان رسول الله يقول في كل مرة أشيروا عليّ أيها القوم حتى وقف سعد بن معاذ، رضي الله عنه وقال: كأنك تريدنا يا رسول الله فقال: أجل فتكلم رضي الله عنه فأحسن وأعلن الاستعداد لخوض المعركة.

وكانت إرادة الله في اللقاء، وكانت غزوة بدر الكبرى، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين، ولم يرد العير التي لا يؤدي أخذها إلى

شـــيء ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾[1].

وكانت نتيجة المعركة أن انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً على الرغم من قلة عددهم التي لا تصل إلى ثلث عدد الكفار، هذا بالإضافة إلى قلة الاستعدادات المادية والمعنوية، إذ كانوا قد خرجوا للقاء القافلة وليس للحرب، كما أن سلاحهم قليل، وركابهم أقل، ودروعهم وطعامهم كله غير كاف. وترك المشركون نتيجة المعركة سبعين قتيلاً من صناديد قريش ورؤوس الكفر فيهم، وراح مثلهم أسرى بيد المسلمين من وجهاء القوم.

وكانت هذه أول معركة تدور رحاها بين الإسلام والكفر، وتميزت من أول المطاف أن العقيدة هي الرابطة الوحيدة التي تربط الناس بعضهم إلى بعض، وهي الوشيجة القوية بين المسلمين، وليس هناك من مهادنة مع الكفر مهما كان نوعه. وقد قتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في هذه المعركة خاله العاص بن هشام ضارباً بالقرابة عرض الحائط أمام رابطة العقيدة، بل كان يفخر في ذلك تأكيداً لهذه الفكرة، ومرّ يوماً عمر بسعيد بن العاص، فوجد منه إعراضاً فقال له: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن إني قتلت أباك في بدر، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور فحدت عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله.

وساق المسلمون أمامهم سبعين أسيراً منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، ومنهم عقيل بن أبي طالب ابن عم رسول الله، وقد شاور

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥ ـ ٨.

رسول الله أصحابه فيما يفعل بالأسرى، وكان ممن استشار أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن رواحة، فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم فدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يُعلم أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار، هؤلاء صناديدهم، وقادتهم، وأئمتهم، وأيد عمر كل من علي، وعبد الله بن رواحة. وسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهم. ودخل بيته. ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[3]. ومثلك مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4]، ثم قال رسول الله ﷺ أنتم عالة، فلا يطلقن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: فلما أن كان من الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذ هما يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال النبي ﷺ: الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عُرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة)،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٣) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) سورة يونس: الآية ٨٨.

وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[١]، ثم أنزل الله بعد ذلك آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٢].

وكان من بين الأسرى خطيب قريش سهيل بن عمرو، فقال عمر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنتزع ثنيتي سهيل بن عمرو فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، وإن عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه (وهذا ما حدث فعلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ إذ همّ عدد من أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، حتى خافهم والي مكة عتّاب بن أسيد فتوارى، فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ، وقال: (إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس عن رأيهم).

وكان من بين أسرى قريش يوم بدر وهب بن عمير بن وهب الجمحي، وكان أبوه عمير بن وهب من شياطين قريش، ومن الذين يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، وجلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر، وكان صفوان بن أمية مفجوعاً بأبيه أمية بن خلف وأهله الذين قتلوا يوم بدر مع المشركين، وتحدثا عن قتلى بدر والأسرى، فقال صفوان: والله ما لنا في العيش بعدهم خير، فقال له عمير: صدقت، أما والله لو لا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم. فاستغل صفوان ذلك وقال له: عليّ دينك أنا أقضيه عنك. وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم. قال له عمير: فاكتم شأني وشأنك. قال أفعل.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ـ ٦٨. (٢) سورة محمد: الآية ٤.

وكان عمر بن الخطاب في المدينة في مجلس قرب المسجد يتحدثون عن بدر وما أكرم الله عباده المؤمنين، وبينما هم كذلك إذ نظر عمر فرأى عميراً متوشحاً سيفه، وقد أناخ راحلته أمام المسجد، فقال: هذا الكلب، عدو الله، عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر وهو الذي حرّش بيننا وحَزَرَنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله، عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله عليّ. فأقبل عمر إلى عمير، وقيّده بحمالة سيفه، وطلب من بعض الأنصار أن يكونوا معه، خوفاً على رسول الله من هذا الشيطان فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه رسول الله مقيداً قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير! فدنا عمير وقال أنعموا صباحاً: فقال رسول الله، ﷺ، قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير بالسلام ـ تحية أهل الجنة فقال: أما والله يا محمد وإن كنت بها لحديث عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه. قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلا لذلك! قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله. قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هو هداني للإِسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

واستدر عام من بدر، وكانت غزوة أحد، وأصاب المسلمين ما أصابهم بعد نصر، وثبت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مع من ثبت، وذاد عن رسول الله مع من ذاد، ولما انتهت الغزوة، وأراد قائد المشركين أبو سفيان الانصراف وقف على مرتفع ثم صرخ بأعلى صوته أفيكم محمد؟

فقال ﷺ: (لا تجيبوه) ثم سأل ثانية وثالثة فلم يجيبوه ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، قالها ثلاثاً، ثم قال أفيكم ابن الخطاب قالها ثلاثاً فلم يجيبوه أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يتمالك عمر نفسه أن قال كذبت يا عدو الله. إنا أحياء ولك منا يوم سوء. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، اعل هبل، فقال عمر: اسمع يا رسول الله ما يقول عدو الله! فقال رسول الله ﷺ لعمر: قل، الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان: هلم يا عمر، فقال النبي لعمر: ائته فانظر ما شأنه. فجاءه. فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن. فقال: أنت أصدق من ابن قمئة (الذي زعم أنه قتل محمداً، على حين كان قد قتل مصعب بن عمير، رضي الله عنه).

وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين إلى بني المصطلق الذين تجمعوا يريدون غزو المدينة، فانطلق إليهم رسول الله قبل أن ينهوا استعدادهم، فالتقوا على ماء (المريسيغ)، وانتصر رسول الله على بني المصطلق، وأخذ جلهم أسرى، واستاق شياههم، وأنعامهم، وذراريهم. وبينما كان المسلمون على ذلك الماء إذ ازدحم عليه أجير عمر وهو جهجاه من بني غفار، وسنان الجهني حليف الخزرج، واقتتلا فنادى سنان يا معشر الأنصار، ونادى جهجاه يا معشر المهاجرين! ووصل الخبر إلى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وكان في جماعة من الخزرج بينهم غلام صغير يدعى زيد بن أرقم، فقال عبد الله بن أبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أمرنا وجلابيب قريش هذه، إلا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن منها الأعز الأذل، ثم التفت إلى قومه الذين كانوا معه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. وعندما سمع ذلك الفتى الحدث المؤمن هذا الكلام من عبد الله بن أبي انطلق إلى رسول الله ﷺ، ونقل إليه مقالة ابن أبيّ، وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله، فقال عمر: مُر عبّاد بن

بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا. ولكن أذّن بالرحيل. وصار الخزرج قوم ابن أبيّ هم الذين يعاتبونه ويعنفونه على مقالته تلك. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب بعدما حدث من تعنيف الناس لعبد الله بن أبيّ: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لارعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

وأرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب في سرية تضم ثلاثين مقاتلاً، ووجهها إلى (تربة) في الجنوب الشرقي من مكة، وهي بلدة تقع على وادٍ يحمل اسمها، حيث تجمعت هوازن هناك للنيل من المسلمين، فسار عمر، وكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل يرشده على الطريق، فلما وصل إلى هدفه وجد عدوه قد ابتعدوا بمواشيهم وأموالهم، فرجع إلى المدينة، وأثناء عودته قال له الدليل: هل لك في تجمع آخر من خثعم. فلم يرض عمر وقال: لم يأمرني رسول الله بذلك، وإنما أمرني بقتال هوازن.

وسار رسول الله ﷺ بأصحابه من المدينة إلى مكة يريد زيارة البيت وتعظيمه، إلاّ أن قريشاً قد وقفت في وجهه في الحديبية ومنعته من ذلك، وظنت أنما جاء مقاتلاً، كما خشيت أن تسمع العرب بذلك فتقل هيبتها وتقوى سمعة المسلمين. وأراد رسول الله ﷺ أن يبعث رسولاً له إلى قريش يعلمها أنه إنما جاء زائراً للبيت ومعظماً له، ووقع اختياره على عمر بن الخطاب، فقال عمر: يا رسول الله إن أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فأرسل رسول الله عثمان، وجرت مباحثات ـ كما مرّ معنا في السيرة ـ وأخيراً جرى الصلح بين الطرفين، ولم يبق إلا كتابة ما اتفقوا عليه، فجاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولم يرق له الصلح، أو لم يفهم بُعده، فقال: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال:

بلى، قال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال أبو بكر يا ابن الخطاب! إنه رسول الله، ولم يضيعه الله أبداً. وكان عمر قد ذهب إلى رسول الله، وسأله الأسئلة نفسها، فكانت الأجوبة نفسها تقريباً، ثم أنزل الله سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر. فقال عمر: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: نعم. يقول عمر بعد ذلك. فما زلت أتصدق، وأصلي، وأصوم، وأعتق مخافة كلامي هذا الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً، وبينما كان رسول الله ﷺ يملي على علي بن أبي طالب نصوص الصلح، وسهيل بن عمرو مندوب قريش يراجعه في الصيغة، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالقيود وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه يضربه على وجهه، ويقول: يا محمد قد لجّت القضية بيني وبينك، إذ كان من شروط الصلح أنه إن جاء إلى رسول الله رجلاً من قريش مسلماً دون إذن أهله فعليه أن يرجعه... ولم تكن بنود الصلح قد انتهت كتابتها إلا أنه قد اتفق مشافهة على بنودها، ويقصد سهيل أن أبا جندل قد جاء مسلماً ودون إذن، فعلى المسلمين أن يرجعوه إلى قريش. أما أبو جندل فكان يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ ولقد أثار هذا الصراخ المسلمين ووقعوا في أمر عظيم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل! اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ولا نغدر بهم. أما عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقد وثب يسير مع أبي جندل ويحرضه ضمناً على قتل أبيه، ويقرب منه السيف، ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب... إلا أن أبا جندل لم ينتبه إلى هذه القضية، إذ كان يعيش مع نفسه فيما آل إليه أمره أو أنه لم يقس على أبيه فتطاوعه نفسه بقتله. وكتب الصلح وشهد عمر بن الخطاب على الصلح مع من شهد من المسلمين ومن أعدائهم.

ونقضت قريش صلح الحديبية، وغدرت بالمسلمين، إذا دعمت حلفاءها بني بكر على حلفاء المسلمين بني خزاعة الأمر الذي جعل بُدَيل بن ورقاء الخزاعي ينتقل إلى المدينة، ويلتقي برسول الله ﷺ، يستنصره على قريش، ويشرح له غدر قريش بقومه. وشعرت قريش بالأمر، فأرسلت أبا سفيان ممثلاً عنها يجدد صلح الحديبية، ويؤكد تمسك قريش، ويزيد في مدته إن استطاع. وسار أبو سفيان إلى المدينة، ودخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، ورغب أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ إلا أن أم المؤمنين قد طوته عنه، فقال لها أبوها أبو سفيان: يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر. وخرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ وكلمه فلم يرد عليه بشيء، ثم ذهب إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فكلمه أن يكلم له رسول الله. فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعنده فاطمة، رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ وعندهما ولدهما الحسن، رضي الله عنه، يدبّ بين يديهما، فقال: يا علي إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن لما جئت خائباً فاشفع لي عند رسول الله، فقال علي: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد! هل لك أن تأمري بُنيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس. وما يجير أحد على رسول الله. قال يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعرف لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، ففعل.

وعمد المسلمون بإمرة رسول الله إلى السير إلى مكة لفتحها، وساروا حتى أضحوا على مقربة منها حيث عسكروا هناك، ونظر العباس إلى قوة المسلمين، وكان قد أسلم، ورغب في نفسه أن يأتي أهل مكة يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها عليها عنوةً، وإذ بصوت أبي سفيان فأخذه العباس وأردفه وراءه على بغلة رسول الله، وكان كلما مرّ على نار سأله عن أهلها حتى إذا وصل إلى نار عمر بن الخطاب رآه فأراد أن يقتل أبا سفيان إلا أن العباس قد أسرع بالبغلة فوصل إلى رسول الله ﷺ قبل وصول عمر إليه، فلما وصل عمر إلى رسول الله قال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته. وألح عمر في شأن أبي سفيان، فقال العباس: مهلاً يا عمر، لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، أو لكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم.

وتقدمت قوافل المسلمين نحو مكة، وكانت راية الأنصار بيد سعد بن عبادة، فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، وسمع عمر بن الخطاب ذلك، فأسرع إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة؟ فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها.

ودخل المسلمون مكة، والتقى رسول الله ﷺ بقريش، وعفا عنهم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، والتقى بالرجال فبايعهم، فلما انتهى من مبايعتهم، اجتمعت إليه نساء من قريش، فبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف. وكانت بين النساء هند بنت

عتبة زوجة أبي سفيان، وتناقش رسول الله، وكان عمر حاضراً، ويضحك من مناقشتها، ثم قال رسول الله لعمر: بايعهنّ، واستغفر لهن رسول الله. فبايعهن عمر.

وعندما عرض رسول الله ﷺ الإِسلام على أبي سفيان، فقال: كيف أصنع بالعزى، فسمعه عمر، رضي الله عنه، فقال له: تخرأ عليها.

وانطلق رسول الله ﷺ بعد فتح مكة إلى حنين لمداهمة هوازن وثقيف ومن والاهما، وقد اجتمعوا للهجوم على المسلمين قبل أن يشتد ساعدهم على حدّ زعمهم، إلا أن هوازن وجموعها قد كمنت للمسلمين وفاجأتهم، وكانوا قد أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم من الله شيئاً، ففروا، وولوا مدبرين، وثبت حول رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين منهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه ربيعة بن الحارث.

وجاء في فتح الباري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن يحيى عن عبيد بن حنين أنه سمع ابن عباس، رضي الله عنهما، يحدث أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة، وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به. قال: ثم قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدّ للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسّم لهن ما قسم، قال: فبينما أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولم ها هنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام

عمر فأخذ رداءه، وانطلق حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسول الله ﷺ. يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها ـ يريد عائشة ـ قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه. فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها، وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. فقلت: رغم أنف حفصة، وعائشة، فأخذت ثوبي فخرجت حتى جئت، فإذا رسول الله ﷺ في مَشْرُبَةٍ له يرقى عليها بعجلة، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة، فقلت له: قل: هذا عمر بن الخطاب. فأذن لي. قال عمر: فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قَرَظاً مصبوراً، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟

وتوفي رسول الله ﷺ، وقد مر معنا في بحث أبي بكر، رضي الله عنه، موقف الصديق رضي الله عنه المستشار له، واليد اليمنى له، والمشارك له في تسيير شؤون الدولة، ثم استخلفه من بعده.

وتزوج عمر في الإسلام ابنة عمه عاتكة بنت زيد بن عمرو، وأنجبت له عياضاً. كما تزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومية، وكانت

تحت عكرمة بن أبي جهل، وأولدها عمر فاطمة. كما تزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وهي أخت عاصم، وأنجبت له عاصماً وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، وقد ولد في السنة السادسة، ومات بالربذة عام ٧٠هـ. ثم تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكان له منها زيد، ورقية. وكانت عنده فكيهة، وأنجب منها زينب وعبد الرحمن الأوسط، ولهيّة وولدت عبد الرحمن الأصغر.

ولم يعرف عن عمر أنه بكى في الجاهلية إلا أنه في الإسلام أصبح رقيق القلب شديد العاطفة كثير البكاء، إذ كان يبكي كلما قرأ أو سمع آيات التخويف والوعيد في القرآن الكريم، كما كان يبكي كلما رأى شظف الحياة التي يحياها رسول الله ﷺ، وإذا ذكّر بالله أو قرئ أمامه وكان على درجة من الغضب لا يلبث أن يبكي ويرق قلبه.

وكان صاحب خمر في الجاهلية إلا أنه في الإسلام كان يتمنى دائماً أن تحرم الخمرة ويتنزل الوحي في تحريمها، وكان يصرح بهذا الرأي، ويكثر في رغبته تلك، وعندما أنزلت آية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[1] لم يرض عمر كلياً، وبقي يتمنى تحريماً كلياً، ويسأل الله تعالى أن يبين أمر الخمر بياناً شافياً، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾[2]، وهنا طابت نفس عمر.

وكذلك كان موقفه من الحجاب، فكان يتمنى أن يفرض الحجاب وبخاصةٍ على نساء النبي، وكلم رسول الله ﷺ في ذلك، وطابت نفس عمر كذلك عندما نزلت آيات الحجاب.

وتوفي عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وجاء ابنه يسأل

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

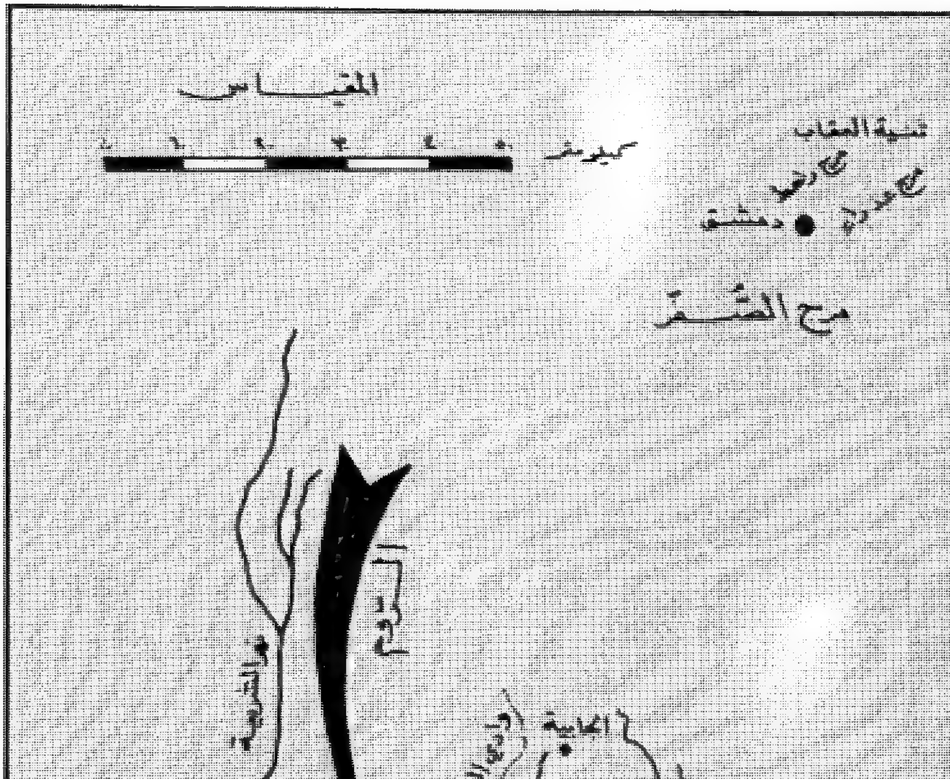
(٢) سورة المائدة: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

النبي ﷺ أن يصلي عليه، فأجابه النبي إلى ما أراد، وذهب رسول الله، وصلى على ابن أبي، إلا أن عمر راجعه وجادله، ثم جاء الوحي مطابقاً لرأي عمر، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

وكما كان مع رسول الله ﷺ في مراجعة له في أمور كثيرة، فقد كان كذلك يراجع أبا بكر، ونراه كيف كان يلح في عزل خالد بن الوليد، وخالد بن سعيد بن العاص عن الإمارة، وعندما تولى الأمر أسرع فعزل خالداً وأعطى الإمرة لأبي عبيدة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٤.


المقياس
كيلومتر
ثنية العقاب
دمشق
مرج الصفر
الجابية
بحيرة طبرية
طبرية
الواقوصة
نهر اليرموك
نهر الأردن
فحل
بيسان

الفصل الثالث

الفتوحات في عهد عمر

يبدو أن القيادة الإسلامية في المدينة المنورة بعد أن انتهت من حروب الردة، وقررت مواجهة الدولتين العظميين آنذاك، كانت الخطة الموضوعة أن تفتح المعركة بكل ثقلها على جبهة، وتقوم بدور الدفاع على الجبهة الثانية، وتعتمد على سرعة الحركة بالانتقال من جبهة إلى أخرى حيث تبقى الدولتان في ذعر شديد، وضعف معنوي كبير يحول دون التفاهم بينهما، إذ تستمر المعركة قائمة على الجبهتين معاً حيث تخاف كل دولة على وجودها فلا تحرص أن تتفق الواحدة مع الأخرى، وإزالة ما كان بينهما من آثار الحرب.

ومع انتهاء حروب الردة كانت الدولة الفارسية هي التي تشكل الخطر الأكبر بالنسبة إلى المسلمين إذ كان الفرس يدعمون المرتدين، ويحاولون إن استطاعوا القضاء على المسلمين، ويمدون كل متنبئٍ كذابٍ، أو مرتدٍ خارجٍ على الحكم بكل ما يمكنهم دعمه، لذا كانت الخطة البدء بالقتال على الجبهة الفارسية، لذا وافقت قيادة المدينة المنورة على طلب المثنى بن حارثة الشيباني بالتحرش بالفرس ومنازلتهم. وعندما انتهى خالد بن الوليد من حروب الردة طلبت منه القيادة التوجه إلى العراق لدعم المثنى بن حارثة، كما طلبت ذلك من عياض بن غنم، وأعطته قوة يتحرك بها نحو شمالي العراق.

استطاع خالد بن الوليد أن ينتصر على الفرس، وأن يجول بأرض العراق، وأن تجوس خيله منطقة السواد وجزءاً من أرض الجزيرة، هذا بالإضافة إلى مناطق غربي الفرات، وهذا ما جعل الفرس يشعرون بقوة

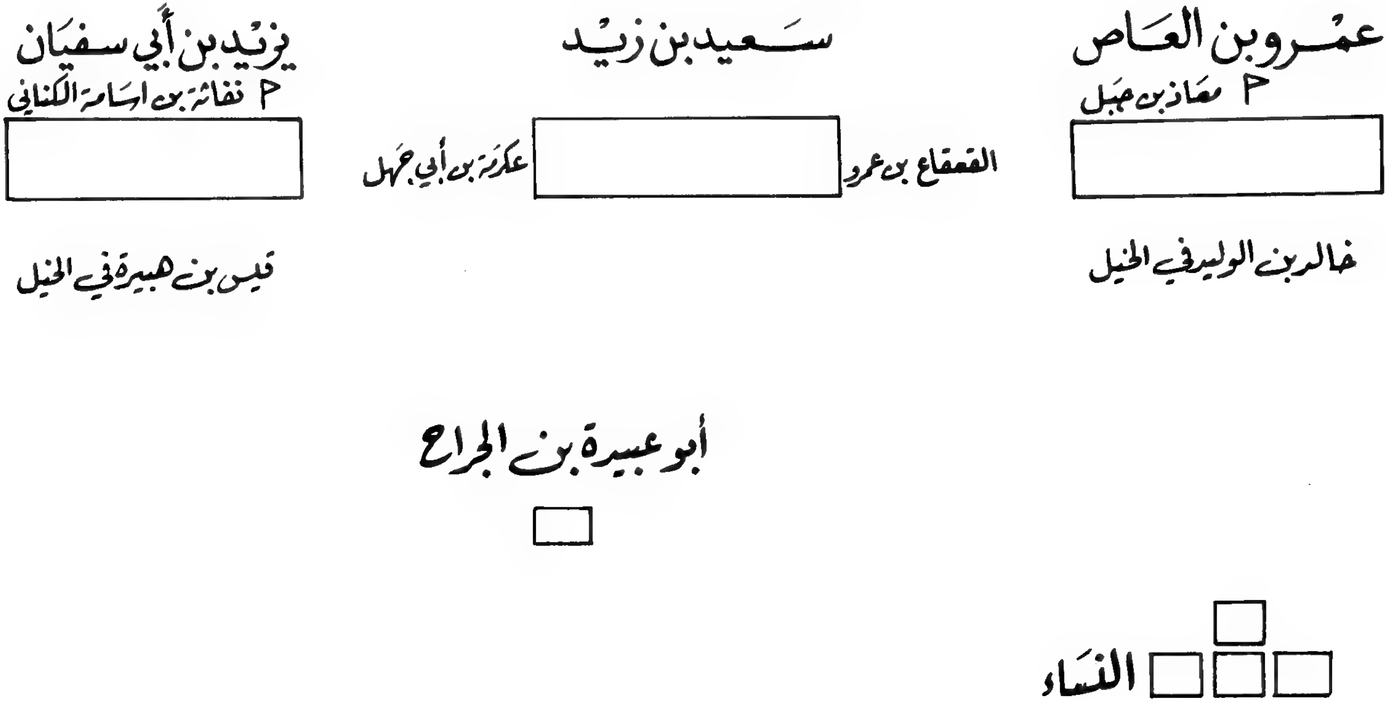
الجيش الإسلامي وإمكاناته القتالية والتعبوية ـ على عكس ما كانوا يظنون ـ الأمر الذي جعلهم يستعدون الاستعداد الكبير للمعركة الحاسمة المقبلة، وحشد الجنود لذلك. وفي هذا الوقت كانت القوة الإسلامية على الجبهة الرومية تقوم بالدفاع فقط حيث كان خالد بن سعيد بن العاص يرابط بقواته قرب مناطق سيطرة الروم والقبائل العربية المتنصّرة المتحالفة مع الروم. ثم جهز الخليفة الصديق الجيوش وأرسلها إلى الشام ـ كما رأينا ـ إلا أن الروم كانوا يستعدون لذلك، ويتوقعون حرباً عامة شاملة، لذا فقد جمعوا أعداداً كبيرة، وبعثوها باتجاه الجيوش الإسلامية الأربعة، كما نقل هرقل مقر قيادته إلى حمص لتكون على مقربة من ساحة المعركة، ولما رأى المسلمون ذلك طلبوا المدد من المدينة والدعم، وكان على القيادة الإسلامية أن تنقل المعركة الرئيسية من العراق إلى الشام إذ كان الفرس في حالة من الضعف بعد الهزيمة التي منوا بها، وهم بحاجةٍ إلى مدة للاستعداد والتفاهم على الحكم بعد الخلاف الواقع بينهم، لذا طلب الخليفة من خالد بن الوليد أن ينتقل بمن معه من الجند الذين كانوا معه في نجد، والذين جاءوه دعماً من المدينة واليمن إلى الشام لدعم المسلمين هناك.

انتقل خالد بن الوليد إلى الشام وجرت معركة اليرموك بين الروم والمسلمين، وكانت معركة حاسمة، ولم تبدأ حتى كانت الخلافة قد آلت إلى عمر بن الخطاب، وبعد انتهاء المعركة كان استعداد الفرس قد تم، واتفاقهم قد حصل بعد اختلاف، وقرروا تصعيد القتال ضد المسلمين، الأمر الذي جعل القيادة الإسلامية في المدينة تطلب من القيادة العسكرية في الشام إعادة قسم من جند العراق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى العراق، هذا بالإضافة إلى إعلان النفير في جزيرة العرب للسير إلى العراق ودعم قوة المسلمين هناك وبدأت الإمدادات تصل، قوة إثر أخرى إلى العراق. أما في الشام فقد تمّ طرد الروم وإنهاء الوجود البيزنطي فيها بعد عددٍ من المعارك، وهذا ما نلاحظه في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وبدأت المعارك في العراق ثم انتقلت إلى فارس حتى قضي على

الدولة الفارسية نهائياً، ولم ينته عهد الفاروق بعد. وبانتهاء المقاومة على الجبهة الشرقية عاد القتال إلى الجبهة الغربية، إذ انتقل القتال إلى مصر، وشمالي إفريقية، وجزر البحر المتوسط، واستمر ذلك في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

معركة اليرموك: تولى عمر بن الخطاب الخلافة في بداية القتال العنيف على الجبهة الغربية، إذ كان المسلمون قد تجمعوا في اليرموك أمام تحشدات الروم الهائلة.

كان تجمع المسلمين في المنطقة الغربية من درعا اليوم، وقد أخطأ كثير من المؤرخين، فجعلوا نهر اليرموك المنطقة الفاصلة بين المسلمين والروم، ومن يجول في تلك البقعة يدرك مباشرة أنه لا يمكن لهذا الوادي السحيق أن يكون ميداناً لمعركة أو تكون جنباته ساحة لها، هذا بالإضافة إلى أن الخليفة الصديق كان قد طلب من القيادة العسكرية في بلاد الشام أن يكون تجمع جندها في مكان يسهل معه الاتصال مع المدينة لإمكانية وصول الإمدادات وسهولة الاتصال، ولو قطع المسلمون الوادي قبل احتدام المعركة وانتقلوا منه إلى الجهة الثانية وبصعوبة كبيرة لما أمكن وصول الإمدادات إليهم، ولما أمكن الاتصال مع المدينة بعد نشوب الحرب، فكيف بالانتقال والحركة السريعة أثناء القتال كما يحلو لبعض المؤرخين أن يخططوا ذلك، لهذا كله فقد جعل المسلمون مؤخرة جندهم إلى الشمال الغربي من درعا، لتكون درعا طريقاً لوصول الدعم إليهم والاتصال مع المدينة، حيث يمكن في هذا المكان قطع الوادي بسهولة. هذا مع العلم أن خالد بن الوليد قد انتقل إلى اليرموك من بصرى فيكون طريقه عن درعا أو إلى الشمال قليلاً منها. وتكون معركة اليرموك قد وقعت على جانبي أحد روافد اليرموك وهي إما (الرقاد) أو (العلق)، ويكون عمرو بن العاص الذي كان على ميمنة المسلمين إلى الشمال، ويزيد بن أبي سفيان الذي كان على الميسرة في الجنوب، على مقربة من نهر اليرموك وأبو عبيدة بينهما.


عمرو بن العاص
م معاذ بن جبل
خالد بن الوليد في الخيل
سعيد بن زيد
القعقاع بن عمرو
عكرمة بن أبي جهل
يزيد بن أبي سفيان
م نفاثة بن اسامة الكناني
قيس بن هبيرة في الخيل
أبو عبيدة بن الجراح
النساء

وخرج المسلمون على راياتهم وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة نفاثة بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعلى الخيالة خالد بن الوليد، وهو المشير في الحرب الذي يصدر الناس كلهم عن رأيه، ولما أقبلت الروم في خيلائها وفخرها قد سدت أقطار تلك البقعة سهلها ووعرها كأنهم غمامة سوداء يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل، ويحثونهم على القتال، وكان خالد في الخيل بين يدي الجيش، فساق بفرسه إلى أبي عبيدة فقال له: إني مشير بأمر، فقال: قل ما أمرك الله أسمع لك وأطيع. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لا بدّ لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشى على الميمنة والميسرة، وقد رأيت أن أفرق الخيل فرقتين وأجعلها وراء الميمنة والميسرة حتى إذا صدّوهم كانوا لهم ردءاً فنأتيهم من ورائهم. فقال له: نعم ما رأيت. فكان خالد في أحد الخيلين من وراء الميمنة، وجعل قيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله حتى إذا رآه المنهزم استحى منه ورجع إلى القتال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة، رضي الله عنهم. وساق خالد إلى النساء أن يكنّ من وراء الجيش ومعهن عدد من السيوف وغيرها، فقال لهن: من رأيتموه مولياً فاقتلنه. ثم رجع إلى موقفه، رضي الله عنه.

ولما تراءى الجمعان وتبارز الفريقان وعظ أبو عبيدة المسلمين فقال: عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، واشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وخرج معاذ بن جبل[1] على الناس فجعل يذكرهم ويقول: يا أهل

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: كان عمره يوم=

القرآن، ومتحفظي الكتاب، وأنصار الهدى والحق، إن رحمة الله لا تنال، وجنته لا تدخل بالأماني، ولا يؤتي الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدق، ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ الآية، فاستحيوا - رحمكم الله - من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم، وأنتم في قبضته وليس لكم ملتحد من دونه ولا عز بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصدق ويثبت عليه، ويمقت الكذب، ويجزي بالإحسان إحساناً - لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً[1] وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل.

وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين أنتم العرب، وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين، وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وأن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد

= هجرة المصطفى عشرين عاماً، أسلم وهو فتى، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبيه جعفر بن أبي طالب، شهد العقبة الثانية، ثم حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، كان عالماً بالحلال والحرام، أرسله رسول الله إلى اليمن مرشداً، خرج مجاهداً إلى الشام، كان مع أبي عبيدة، واستخلفه عندما أصيب، وأقر ذلك عمر، ولكنه توفي في ذلك العام ١٨هـ، ولم ينجب.

(١) الكفر: المزرعة.

فنادى: يا معشر أهل الإِسلام حضر ما ترون، فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه رحمه الله.

وقد وعظ الناس أبو هريرة أيضاً فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين، وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم. ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم[1].

ولما تقارب الناس تقدم أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، ومعهما ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو، ونادوا: إنما نريد أميركم لنجتمع له، فأذن لهم في الدخول عن تذارق، وإذا هو جالس في خيمة من حرير. فقال الصحابة: لا نستحل دخولها، فأمر لهم بفرش بسط من حرير، فقالوا: لا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبوا.. وهكذا كان الصحابة، رضوان الله عليهم، لا يقبلون الاستهانة بشيء من حرمات الله مهما قل، ومع أنه ليس فيه اللباس إلا أنهم رغبوا أن يأخذوا أنفسهم بالشدة، ورفض هذه الأمور وأمثالها، الأمر الذي جعلهم يعظمون في عين أعدائهم فيسايرونهم، ويرتفعون في أنفسهم. وهذا ما وضعهم حيث وضعوا هم أنفسهم، وتميزوا بشخصيتهم فكان لهم ما تمنوا.

وعرض الصحابة على الأعداء: الإسلام، أو الجزية، أو السيف، وكان من تعنت الروم أن كان لا بدّ من القتال.

وطلب ماهان خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال ماهان: إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً، وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها، فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

كنا نحدث به عن العرب، وهكذا كلمة واحدة بعزة النفس تميت معنويات الخصم.

تقدم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو ـ وهما على مجنبتي القلب ـ أن ينشبا القتال، وهكذا بدأت المعركة. وكان ذلك في أوائل شهر رجب من السنة الثالثة عشرة، وحملت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين فمالوا إلى جهة القلب، وكان معاذ بن جبل، رضي الله عنه، يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل السكينة علينا، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء. وانكشفت زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا، وحملوا على الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف، وردت النساء من فرّ، فرجع الناس إلى مواقعهم.

وقال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم؟ ثم نادى من يبايع على الموت؟ فبايعه ضرار بن الأزور، والحارث بن هشام، عم عكرمة، وعدد من المسلمين، ووصل عددهم إلى أربعمائة رجل من أعيان الناس، وقاتلوا أمام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جرحى، وقتل منهم عدد كبير منهم ضرار بن الأزور. ويذكر أنهم استسقوا ماء وهم جرحى فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً، ولم يشربها أحد منهم.

ثم حمل خالد بن الوليد بالخيل على ميسرة الروم التي حملت على ميمنة المسلمين، فأزالهم إلى القلب، وقتل المسلمون في حملتهم هذه ستة آلاف من الروم، ثم حمل بمائة فارس على ما يقرب من مائة ألف من الروم فانهزموا أمامهم بإذن الله، وتبعهم... ولما عاد المسلمون من حملتهم جاء البريد ـ الذي ذكرنا ـ يحمل وفاة الصديق، وبيعة عمر، وتولية أبي عبيدة إمرة القتال.

وخرج من بين الروم أحد أمرائهم الكبار وهو (جرجه) واستدعى

خالد بن الوليد إلى بين الصفوف حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجه: يا خالد أخبرني فاصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به، وبايعناه، فقال لي: أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين. ودعا لي النصر، فسميت سيف الله بذلك فأنا أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجه: يا خالد إلى ما تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإِقرار بما جاء به من عند الله عز وجل: قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بالحرب، ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا. قال جرجه: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنا قبلنا هذا الأمر عنه وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقةٍ ونيةٍ كان أفضل منا، فقال جرجه: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك، وأن الله ولي ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جرجه الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطه فشنّ عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين... فحملت الروم عند ذلك على المسلمين حملة أزالوا بها المسلمين عن مواقعهم إلى المدافعين أمثال عكرمة بن أبي جهل، وعمه الحارث بن هشام.

وحمل خالد، وجرجه بالمسلمين على الروم حتى هزموهم بإذن الله. . . وقتل جرجه، رحمه الله، ولم يصل سوى هاتين الركعتين مع خالد، وصلى المسلمون يومذاك صلاة الظهر والعصر إيماء، وأخّروا صلاة العشاءين. وفرّ الروم ليلاً إلى الواقوصة، وسقط الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل.

وكان ممن شهد اليرموك الزبير بن العوام، رضي الله عنه، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين في كتفه. وقُتل عكرمة بن أبي جهل وعمه الحارث بن هشام، وابنه عمرو بن عكرمة، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وهشام بن العاص، وعمرو بن الطفيل بن عمرو الدوسي. وانهزم يومذاك عمرو بن العاص في أربعة حتى وصلوا إلى النساء فزجرنهم فعادوا. وانكشف شرحبيل بن حسنة وأصحابه فتراجعوا فوعظهم الأمير فرجعوا. وثبت يزيد بن أبي سفيان وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به فقال له: يا بني عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله، فقاتل يومئذ قتالاً شديداً وكان من ناحية القلب، رضي الله عنه.

وقال سعيد بن المسيب عن أبيه قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد.

وروي أن الأشتر قد شهد اليرموك ولم يشهد القادسية، فخرج يومئذٍ رجل من الروم، فقال: من يبارز؟ فخرج إليه الأشتر؛ فاختلفا ضربتين، فقال للرومي: خذها وأنا الغلام الإيادي، فقال الرومي، أكثر الله في قومي مثلك! أما والله لو أنك من قومي لآزرت الروم، فأما الآن فلا أعينهم[١].

وروي أن هرقل قال وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغضب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني[٢].

وروي أن أحد أمراء الروم وهو (القُبُقلار) بعث رجلاً عربياً من قضاعة عيناً له بين المسلمين، وقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة، ثم ائتني بخبرهم. قال: فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يوماً وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم، لإقامة الحق فيهم. فقال له القبقلار: لئن صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم، ولا ينصرهم علي[٣].

وفقد عدد من المسلمين عيونهم يوم اليرموك منهم: أبو سفيان، وكان قد فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية في اليرموك، وعاش بعدها ضريراً، والمغيرة بن شعبة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح وغيرهم.

---

(١) تاريخ الطبري: الجزء الثالث. (٢) البداية والنهاية: الجزء السابع.
(٣) تاريخ الطبري: الجزء الثالث.

وبعد معركة اليرموك التي فر منها الروم، وتابعهم المسلمون فصالحهم أهل دمشق، وأهل حمص، إذ خلت أكثر هذه المناطق من الجنود الروم، كما أن هرقل قد انتقل من مقره في حمص إلى إنطاكية التي اتخذها قاعدة له يسير فيها الجند، وتصدر عنه الأوامر.

وانتقل أبو عبيدة بالجيش من اليرموك إلى مرج الصفر ببقية الجيش الذي لم يلاحق الروم، وفي المرج وصل إليه الخبر بأن الروم قد تجمعوا بفحل بغور الأردن، فتوقف لا يدري بأي الأمرين يبدأ، أبدمشق، ويتركزّ المسلمون فيها أم يعود إلى فحل؟ فكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الموقف، ويستشيره بالأمر، وجاء الأمر من أمير المؤمنين أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم، فانهد لها، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فحل فسر أنت وخالد إلى حمص واترك عمراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

معركة فحل: بعث أبو عبيدة عمارة بن مُخِشّ إلى فحل، فوجد أن الروم يقاربون ثمانين ألفاً، وقد طوفوا المياه في المنطقة إلا أن المسلمين استطاعوا، بإذن الله، إحراز النصر، ودخول (فحل) و (بيسان)، وذلك قبل فتح دمشق.

فتح دمشق: أرسل أبو عبيدة أبا الأعور السلمي إلى طبريا ليفتحها وليكون ردءاً للمسلمين المتجهين إلى دمشق، وحائلا دون وصول إمدادات رومية إلى دمشق التي نقض أهلها الصلح بعد أن رأوا أن الروم لا تزال لهم قوة في المناطق الجنوبية، وكذلك أهل حمص، ويبدو أن المناطق الداخلية من بلاد الشام كان تقدم المسلمين فيها سهلاً وذلك لقلة السكان إذا استثنينا المدن، ولسهولة حركة الجند، ووجود الحياة القبيلية التي يمكن أن يكون لها أثر في الصلح أو الخوف ومغادرة الديار على حين كانت المناطق الساحلية في المنطقة الجنوبية كثيرة السكان لخصوبتها، ومنها مدينة القدس

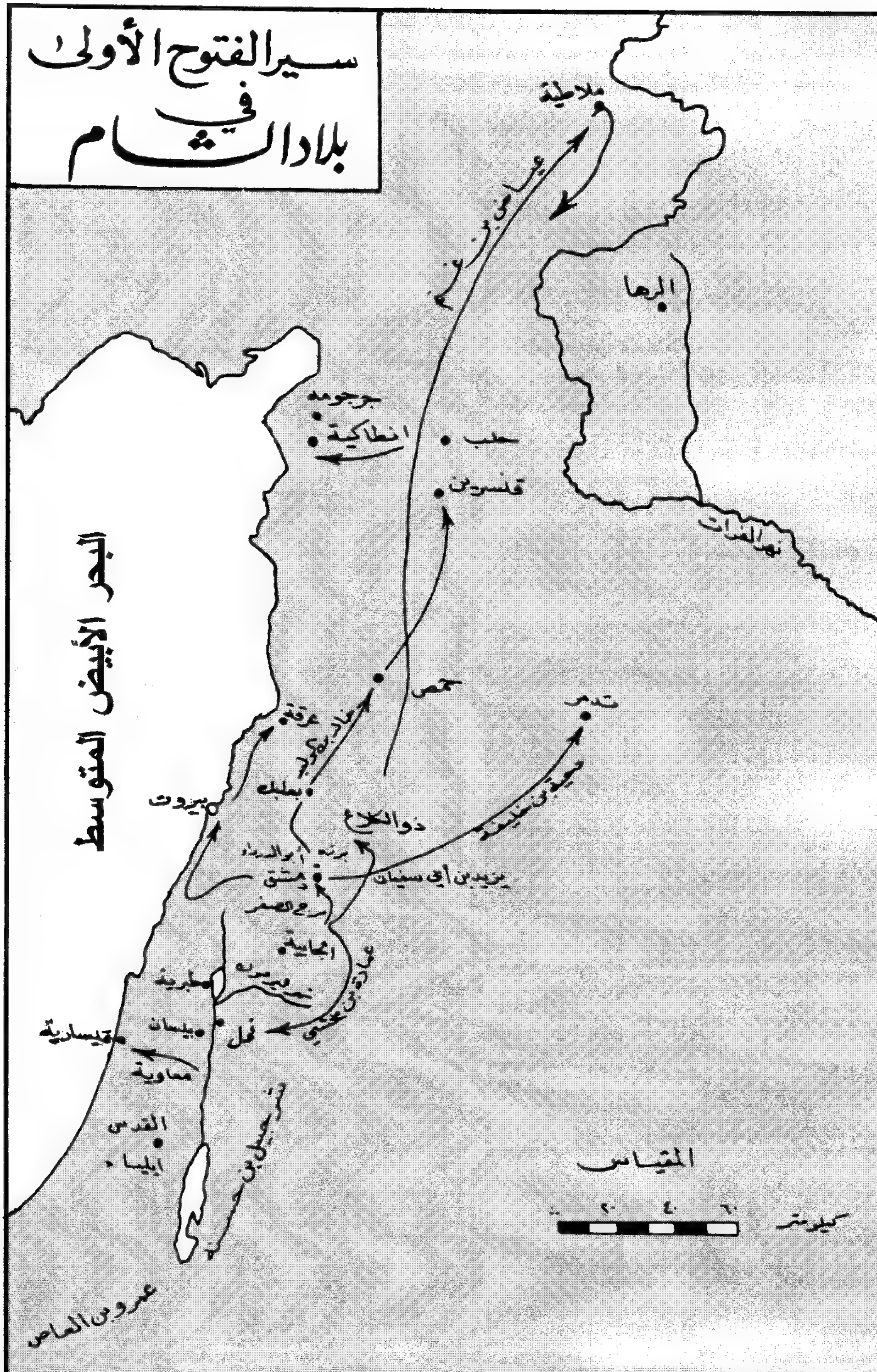
ذات الطابع الديني، والدفاع عنها يكون كبيراً لذلك السبب، والمناطق الشمالية من الجهات الساحلية جبلية وعرة المسالك، إضافة إلى قسوة السكان لطبيعة بلادهم الجبلية، وكان فيها المردة والجراجمة، وهم من قدامى السكان، وبعضهم من بقايا العمالقة، ولهم ارتباطات كبيرة بالروم أيضاً.

سار أبو عبيدة باتجاه دمشق، وقد جعل خالد بن الوليد في القلب، وسار هو في الميسرة، وعمرو بن العاص في الميمنة، وكان عياض بن غنم على الخيل، وشرحبيل بن حسنة على الرجالة. وفي الوقت نفسه بعث ذا الكلاع في فرقة لترابط بين دمشق وحمص لتحول دون وصول الإمدادات إلى دمشق من جهة الشمال، كما جعل أبا الدرداء في فرقة أخرى لتكون في برزة على مقربة من دمشق ردءاً للجيش الإسلامي الذي يحاصر المدينة.

وبعث أبو عبيدة طليعة تتألف من ثلاثة عناصر أحدهم وأميرهم أبو أمامة الباهلي الذي يقول: فسرت فلما كنا ببعض الطريق، أمرت أحد من معي أن يكمن، وبعد مسافة أمرت الآخر فكمن هناك وسرت أنا وحدي حتى باب البلد، وهو مغلق في الليل وليس هناك أحد، فنزلت وغرزت رمحي بالأرض ونزعت لجام فرسي، وعلقت عليه مخلاته ونمت، فلما أصبح الصباح قمت فتوضأت وصليت الفجر، فإذا باب المدينة يقعقع فلما فتح حملت على البواب فطعنته بالرمح فقتلته، ثم رجعت والطلب ورائي، فلما انتهينا إلى الرجل الذي في الطريق من أصحابي ظنوا أنه كمين فرجعوا عني، ثم سرنا حتى أخذنا الآخر، وجئت إلى أبي عبيدة فأخبرته بما رأيت، فأقام أبو عبيدة ينتظر كتاب عمر فيما يعتمده من أمر دمشق، فجاءه الكتاب يأمره بالمسير إليها، فساروا إليها حتى أحاطوا بها، واستخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب في خيل هناك[1].

---

(١) البداية والنهاية ـ الجزء السابع ـ ابن كثير.


سير الفتوح الأولى
في
بلاد الشام
ملطية
الرها
نهر الفرات
جرجومه
انطاكية
حلب
قنسرين
حمص
تدمر
عرقة
بعلبك
بيروت
ذو الكلاع
دمشق
يزيد بن أبي سفيان
مرج الصفر
الجابية
طبرية
بيسان
فحل
قيسارية
معاوية
القدس
ايلياء
عمرو بن العاص
البحر الأبيض المتوسط
المقياس
كيلومتر
٢٠
٤٠
٦٠

ولا شك فإن الإيمان وحده هو الذي كان سبب نصر المسلمين في معاركهم التي خاضوها ضد أعدائهم على الرغم من قلتهم وقلة إمكاناتهم، وبالإيمان نفسه استطاع هذا الصحابي الجليل أبو أمامة أن ينطلق منفرداً إلى باب مدينة دمشق، وأن يبيت ليلة ونفسه مطمئنة، وفكره هادئ فيما سيكون وأن يصبح فيتوضأ ويصلي الفجر، ويقتل البواب وينطلق. . . وهذا ما أرعب الروم، وأخاف السكان، وأضعف المعنويات إذ شعروا أن الغارات قد بدأت تصل إليهم، وأن الفرد من المسلمين وحده يمكن أن يكون غارة، يغير، ويقتل، وينصرف ولا يبالي.

انطلق الجيش الإسلامي نحو دمشق، فدخل الغوطة واحتلها كي لا يأمل أهل دمشق بمساعدات وتموينات منها، ووصل إلى دمشق من ناحية الشرق، فتوزع يحاصرها حسب التشكيل الذي يسير عليه، فتوقف خالد، وهو على قلب الجيش، على الباب الشرقي وحتى باب كيسان، وسارت الميسرة على جنوب دمشق، فنزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير وإلى باب كيسان، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية من جهة الغرب وحتى الباب الصغير. وسارت الميمنة على شمالي دمشق فنزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس، وباب السلام.

استمر حصار دمشق عدة أشهر، وشعر أهل دمشق أن الإمدادات لا يمكن أن تصل إليهم، وجاء وقت البرد، وكان قاسياً، فصعب القتال، وفي إحدى الليالي ولد لبطريق المدينة مولود، فأقام وليمته للجند والناس، فباتوا ليلتهم تلك سكارى، وشعر خالد بن الوليد بذلك نتيجة ضعف قتال الذين فوق الأسوار، وقلة حركة الناس عامة، ونتيجة المعلومات التي وصلت إليه من العيون، وهو على عين يقظة لا ينام إلا قليلاً ولا ينيم، وكانت عنده سلالم مهيأة. فلما أحس بذلك استدعى بعض صناديد القوم أمثال القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي، وأحضر جنده عند الباب، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق السور فارقوا إلينا. ثم إنه قطع الخندق وهو

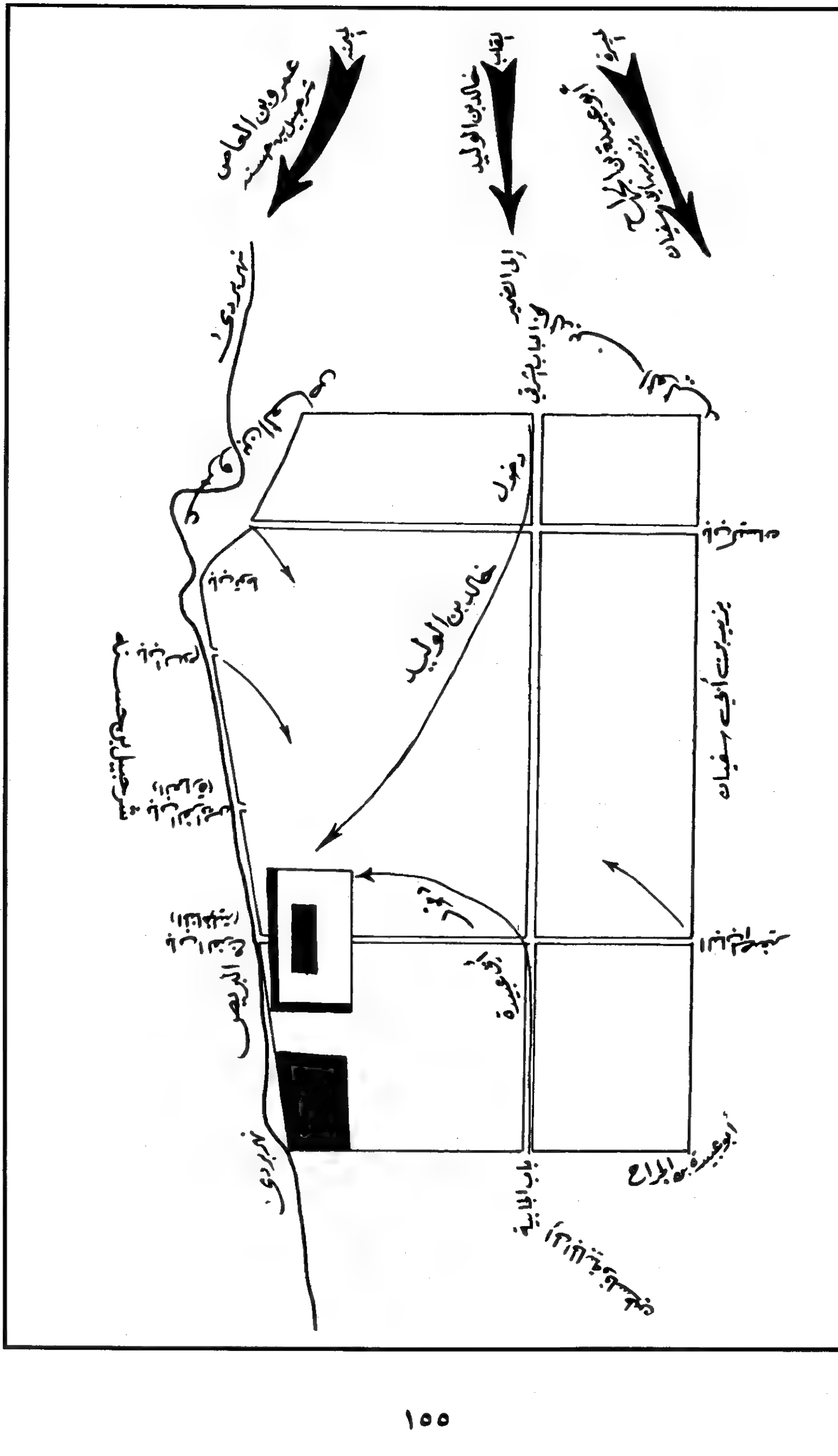
وأصحابه سباحة وقد وضعوا قرباً في أعناقهم تساعدهم على السباحة. إذ كانت الخنادق تحيط بدمشق وهي مليئة بالماء عدا الجهة الشمالية حيث كان نهر بردى هناك يعد بمثابة الخندق، وكان السور على ضفافه يتعرج حسب المجرى على حين كانت الأسوار في الجهات الأخرى تسير بشكل مستقيم، وأثبت خالد وصحبه السلالم على شرفات السور، وصعدوا عليها، فلما صاروا أعلى السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لإرهاب العدو، ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوة، وقد كسروا مغاليقه، واندفع الجند من الباب إلى الداخل.

وانطلق خالد بن الوليد مع جنده داخل المدينة يعمل فيمن وقف في وجهه قتلاً، ويتجه نحو مركزها، وأسرع وجهاؤها نحو بقية الأبواب وخاصة نحو الغرب حيث باب الجابية خوفاً من أن ينالهم القتل، فيعلنون الاستسلام وفتح مدينتهم، وطلب الصلح، ودخل بقية قادة المسلمين وجيوشهم من الأبواب الأخرى صلحاً يتجهون نحو داخل المدينة والتقوا مع مركزها، خالد يعمل السيف، وهم في السلم، فقالوا له: يا أبا سليمان إن القوم قد استسلموا، وطلبوا الصلح، وفتحوا الباب لنا، ودخلنا سلماً، فقال لهم: وإنما دخلت أنا ومن معي المدينة عنوة، ولم يزل يعمل السيف حتى طلب منه أبو عبيدة الكف عن ذلك. والتقى الأمراء عند المقسلاط قرب سوق النحاسين اليوم (المناخلية). وكان فتح دمشق في رجب من السنة الرابعة عشر أي بعد معركة اليرموك بسنة كاملة. وقد استمر حصارها عدة أشهر.

وبعد فتح دمشق طلب أمير المؤمنين من أبي عبيدة أن يسير بعض جند العراق الذين جاءوا منها مع خالد بن الوليد إلى العراق مرة ثانية ليدعموا الفاتحين فيها، فسيرهم بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وولى أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وسيّر شرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، أي سار كل من الأمراء إلى المنطقة التي كانت وجهته الأولى إليها.

بعث يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق دحية بن خليفة إلى تدمر، كما


عمرو بن العاص
شرحبيل بن حسنة
خالد بن الوليد
خالد بن الوليد
يزيد بن أبي سفيان
أبو عبيدة بن الجراح
باب الجابية
الربض
نهر بردى
نهر بردى

بعث أبا الزهراء القشيري إلى حوران فصالح أهلها، إذ كان طريق المسلمين إلى دمشق عن طريق مرج الصّفرّ ومن جهة الغرب من حوران، لذا فقد بقيت حوران دون مصالحة.

في البقاع: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى البقاع، وعندما وصل إلى تلك الجهة جاءت حملة من الروم عن طريق ما يعرف اليوم باسم ظهر البيدر تحت إمرة سنان، واستطاع قتل عدد من المسلمين عند (عين ميسون)، وعرفت تلك العين بعد ذلك باسم عين الشهداء. ثم تابع خالد سيره في البقاع نحو الشمال فصالحه أهل بعلبك.

معركة مرج الروم وفتح حمص: وكان أبو عبيدة قد اتجه إلى الشمال أيضاً فنزل على ذي الكلاع(١) الذي كان في آخر ثنية العقاب، ويشرف على (القطيفة) اليوم، وإذ وصل إليه خبر إرسال هرقل بطريقاً من قبله يدعى (توذرا) إلى مرج الروم (منطقة الصبورة اليوم) لينازل دمشق فسار إليه أبو عبيدة وخرج (إلى توذرا)، وجاء خالد من الخلف، وبدأ القتال فلم ينج من الروم إلا من شرد، وقتل خالد (توذرا)، وكان أبو عبيدة قد التقى ببطريق آخر يدعى (شنس) نزل بجانبه فتنازلاً، وقتل أبو عبيدة شنس أيضاً، وفر أتباعه باتجاه حمص فلاحقهم أبو عبيدة، ولما انتهى خالد من (توذرا) تبع أبا عبيدة نحو حمص فحاصراها معاً، وطال الحصار، وجاء فصل الشتاء، وكان شديد البرد، وصبر الصحابة صبراً عظيماً، ولما انسلخ الفصل البارد اشتد الحصار، وأجبر الأهالي المسؤولين بالاستسلام، وطلبوا الصلح حسب الصلح الذي صالح عليه أهل دمشق على نصف المنازل، وضرب الخراج على الأرض، وأخذ الجزية على الرقاب حسب الغنى والفقر. وبعث أبو عبيدة بالأخماس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود... كما طلب منه الرأي بشأن هرقل... فجاءه الجواب بالبقاء في حمص بالنسبة إلى أبي عبيدة.

---

(١) ذو الكلاع: يزيد بن النعمان.

فتح قنسرين: وأرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فقاتل أهلها بعد حصار واعتذار بعد هزيمة أولى، وإثر ذلك دخل المدينة عنوة، وذلك في السنة الخامسة عشرة من هجرة رسول الله ﷺ. هذا التقدم السريع في المناطق الداخلية كان لا يوازيه تقدم آخر في المناطق الساحلية للأسباب التي سبق أن ذكرناها، الأمر الذي اقتضى أن يقوم عمرو بن العاص الذي ولي أمر فلسطين بحرب عنيفة في مناطقه الجنوبية حتى يستطيع المسلمون أن يتقدموا في الساحل والداخل بصورة متوازية، واقتضى الأمر من القيادة أن توجه حملات من الداخل إلى الساحل لتقطع المناطق الساحلية إلى وحدات، ولتقلل الضغط أمام الفاتحين المسلمين المتقدمين من الجنوب، وليُضعف معنويات المتعنتين من الروم، وليقلل أملهم في إمكانية التشبث بالأرض والبقاء في تلك الجهات، لذا أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب معاوية بن أبي سفيان بالتحرك نحو قيسارية وتولي أمورها وكتب إليه: أما بعد فقد وليتك قيسارية فسر إليها، واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا فنعم المولى ونعم النصير. فسار إليها فحاصرها، وقاتل أهلها عدة مرات وفي النهاية انتصر عليهم، وقتل منهم ما يقرب من ثمانين ألفاً، وبهذا الفتح انقطع رجاء الروم في النصر... ثم كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى إيلياء (بيت المقدس).

فتح أجنادين: سار عمرو بن العاص إلى أجنادين وهي موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب، إذ رابط فيها الأرطبون، كما كانت قوة للروم في الرملة، وأخرى في بيت المقدس، وكانت إذا جاءت قوات داعمة إلى عمرو أرسل بها تارة إلى الرملة، وأخرى إلى بيت المقدس ليشاغلوا الروم في تلك الجهات خوفاً من دعمهم للأرطبون في أجنادين. وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يشف أحدها غليل عمرو، فسار بنفسه باسم رسول، ودخل على الأرطبون، وجرى الحديث بينهما، استنتج الأرطبون على أن هذا الرسول إنما هو

عمرو بالذات أو أنه شخص ذو قيمة وأثر بين المسلمين، وقال في نفسه: ما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله. فدعا حرسياً فسارّه وأمره بالفتك به فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره. وقد أحببت أن آتيك بهم ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت. فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فائتني بهم، ودعا رجلاً فسارّه فقال: اذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو بن العاص فرجع إلى جيشه، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص نفسه فقال: خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب. وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: لله درّ عمرو. وحدث قتال عظيم في أجنادين كقتال اليرموك.. ثم دخل المسلمون أجنادين، وتقدموا نحو بيت المقدس.

فتح بيت المقدس: لقي المسلمون عناداً قوياً من الروم الأمر الذي جعل الجيوش الإسلامية تجتمع مرة أخرى، وولى أبو عبيدة على دمشق سعيد بن زيد، وسارت الجيوش لتحاصر بيت المقدس وتضيق على من فيها حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. أرسل أبو عبيدة إلى عمر يخبره الخبر، واستشار عمر الصحابة فأشار علي بن أبي طالب عليه بالمسير، ورأى عثمان بن عفان غير ذلك، فأخذ عمر برأي علي، وولاّه على المدينة، وسار هو إلى الشام وعلى مقدمته العباس بن عبد المطلب، واستقبله في الجابية أمراء المسلمين أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، ومن الجابية سار عمر إلى بيت المقدس، ثم صالح النصارى، واشترط عليهم إخراج الروم خلال ثلاثة أيام، ثم دخل المسجد من حيث دخل رسول الله ﷺ يوم الإسراء، وصلى فيه مع المسلمين، ثم سار إلى الصخرة، وجعل المسجد في قبلة بيت المقدس. وبعد فتح بيت المقدس رجع كل أمير إلى مكانه.

فتح حمص ثانية: وما أن وصل أبو عبيدة إلى مركزه في حمص حتى

حاصره الروم، وقد استنفروا معهم أهل الجزيرة، وكان أبو عبيدة قد استشار المسلمين في التحصن بالمدينة أو قتال الروم خارجها، فأشاروا عليه بالتحصن إلا خالد بن الوليد الذي كان قد استقدمه من قنسرين لمساعدته ودعمه، فقد رأى قتال الأعداء خارج البناء، إلا أن أبا عبيدة رأى ما رآه بقية المسلمين، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يعلمه الخبر. وكانت بقية بلدان بلاد الشام كل منها مشغول بما فيه، ولو جاءته نجدة من أية مدينة فلربما اختل النظام في بلاد الشام كافة. وبخاصة أن هناك جيوباً رومية كثيرة، ويختلط السكان، لذا فقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص في العراق يطلب منه أن يسيّر مدداً بإمرة القعقاع بن عمرو إلى حمص، وأن يبعث بعثاً بإمرة عياض بن غنم إلى بلاد الجزيرة الذين مالؤوا الروم. خرج من الكوفة جيشان أولاهما اتجه نحو حمص وقوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة القعقاع بن عمرو، والآخر اتجه نحو الجزيرة بقيادة عياض بن غنم، وفي الوقت نفسه خرج عمر بن الخطاب نفسه من المدينة لينصر أبا عبيدة. علم أهل الجزيرة أن الجيش الإسلامي قد طرق بلادهم، فتركوا حمص ورجعوا إلى أرضهم. وأخبر الروم أن أمير المؤمنين قد سار إلى الشام ليدعم حمص فانهارت معنوياتهم، وضعف أمرهم، وأشار خالد على أبي عبيدة بأن يبرز لهم ليقاتلهم فوافق، فنصر الله عباده المؤمنين على أعدائهم، ولم يصل بعد القعقاع إذا وصل إلى حمص بعد انتصار المؤمنين بثلاثة أيام، كما أن عمر بن الخطاب كان قد وصل إلى الجابية وجاءه خبر المعركة وهو فيها، وعدّ المدد بين المقاتلين ونال نصيبه من الغنائم. كما صالح أهل حلب، ومنبج، وإنطاكية.

فتح الجزيرة: أما عياض بن غنم فقد وصل إلى الجزيرة، وصالح أهل (حران)، و(الرها)، و (الرقة)، وبعث أبا موسى الأشعري إلى (نصيبين)، وعمر بن سعد بن أبي وقاص إلى (رأس العين)، وسار هو إلى (دارا)[١]

---

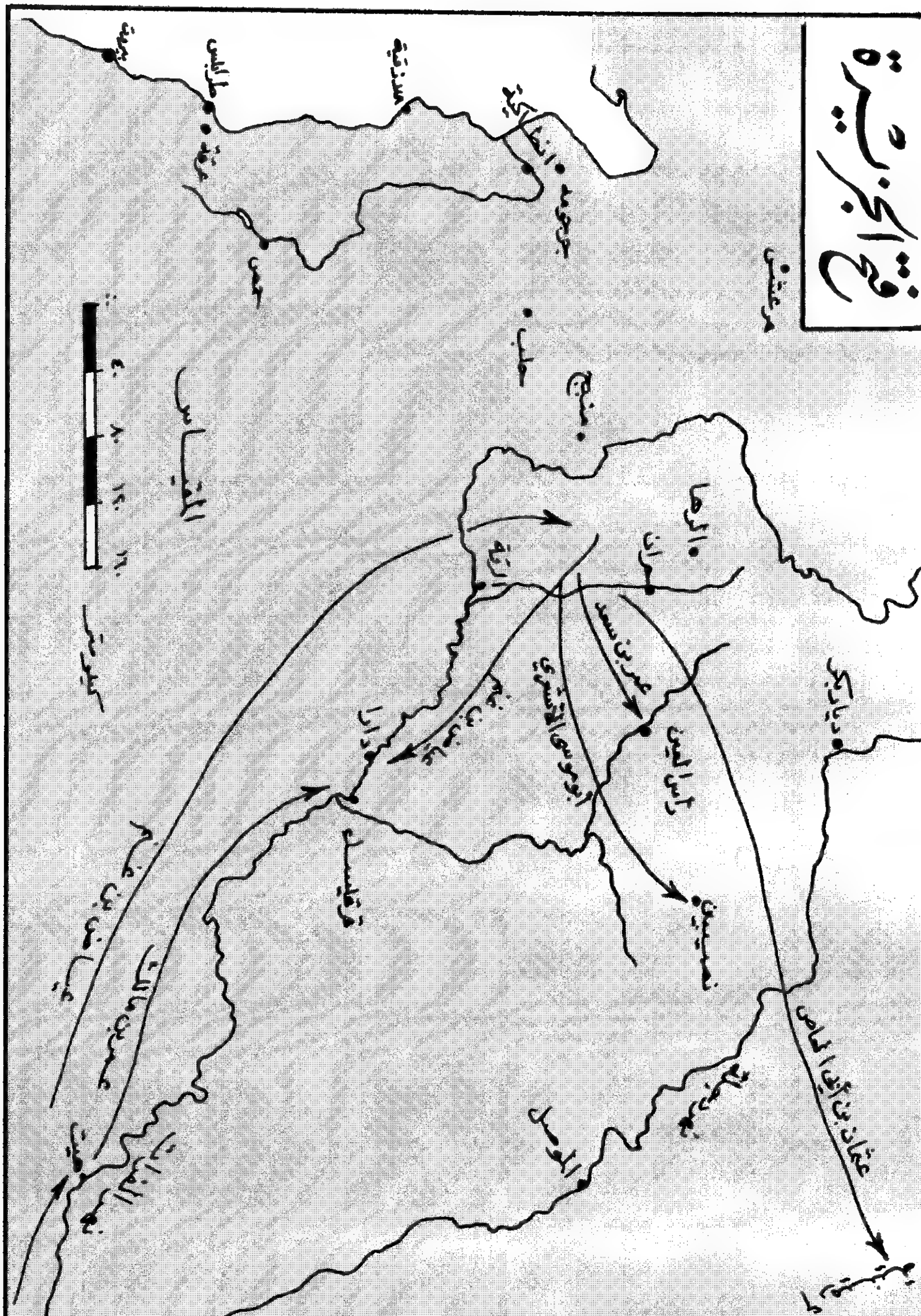
(١) دارا: مكان دير الزور اليوم، وهي قرب قرقيساء التي هي مكان البصيرة عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات.

ففتحت هذه المدن، كما أرسل عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فحدث قتال ثم صالح عثمان أهل البلاد على جزية مقدارها دينار على كل أهل بيت.

فتح سواحل الشام: وفتحت (قرقيساء) على يد عمر بن مالك، وصالح أهل (هيت)، وكان يزيد بن أبي سفيان قد أرسل أخاه معاوية على مقدمته ففتح بناء على أوامر أبي عبيدة المدن الساحلية صور، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعرقة[1]، وطرابلس. وبهذا أصبحت بلاد الشام كلها بيد المسلمين. إلا أن خطأً قد وقع أثناء الفتح، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليمشّطوا البلاد التي يفتحونها تمشيطاً كلياً حيث يخلونها من كل من يمكن أن يتمرد في المستقبل أو يكون عوناً للروم الذين يفكرون في استعادة بلاد الشام، ويعتقدون أنه لا تزال لهم مراكز قوة فيها، إذ أن المسلمين كما رأينا قد بدؤوا بالمناطق الداخلية التي هي مجال حركتهم، وعلى صلة بالمدينة المنورة قاعدة الحكم الإسلامي، بناءً على أوامر القيادة العامة، وحاولوا الابتعاد عن السواحل التي كانت للروم فيها قواعد بحرية، والأسطول الرومي يجوب تلك السواحل على حين لم يكن للمسلمين بعد أية قوة بحرية، فهم بالدرجة الأولى أبناء داخل وصحارى ولربما كان أكثرهم لم ير البحر بعد، ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه. وكذلك فقد تركوا الجزر الجبلية والتفوا حولها ظناً منهم أن أولئك السكان الذين كانوا على درجة من القلة لا تمكنهم من عمل شيء، لذا فإنهم ينزلون على حكم المسلمين راضين أو كارهين إضافة إلى فقر تلك الجهات، هذا، ويزيد ذلك وعورة تلك الأماكن وصعوبة مسالكها، وهذه الخطيئة نفسها تكررت في الأندلس، فكان من تلك الجزر الجبلية البلاء العظيم الذي أطاح بالمسلمين من الأندلس بعد مدةٍ طويلةٍ من الزمن، والذي لا نزال نذوق منه الويلات في بلاد الشام حتى الآن، إذ كان سكان الجبال عوناً للروم ودعماً لهم كلما

(١) عرقة: مدينة كانت تقع إلى القرب من طرابلس، وهي غير موجودة الآن.

ظهر الروم على الشواطئ الشامية، وهذا ما كان يستشعره الروم من أن لهم قوةً تعتصم في المناطق الجبلية كلما دعت الحاجة، كما أن قوةً أخرى كانت لهم، وهي أن الروم عندما أُجبروا على ترك البلاد الشامية جلت معهم بعض القبائل العربية الحليفة لهم، والمتنصّرة من غسان، وتنوخ، وإياد، ولخم، وجذام، وعاملة، وكندة، وقيس، وكنانة ظناً من هذه القبائل أن الروم لا يمكنهم أن يتركوا الفاتحين الجدد في البلاد الشامية، وكان لهذه القبائل مراكزها وأنصارها في المنطقة، كل هذا كان يشجع الروم على التفكير ومحاولة استرجاع البلاد، وقد تمكن الروم فعلاً من استعادة بعض السواحل اللبنانية، ولكنهم لم يلبثوا أن طُردوا منها. ولعل من الأخطاء التي وقعت آنذاك الاستعانة بالجراجمة، وهم سكان منطقة الجرجومة وهي مدينة تقع في جبل الأمانوس (اللكام) شمال إنطاكية، وقد كانت لهم دولة مركزها مرعش، ويعتقد أنهم من بقايا الحثيين. وعندما صالح أبو عبيدة بن الجراح أهل إنطاكية همّ الجراجمة بالانتقال إلى بلاد الروم خوفاً على أنفسهم، إلا أن المسلمين لم يأبهوا بهم آنذاك، ولكن إنطاكية لم تلبث أن نقضت العهد، واضطر المسلمون إلى فتحها ثانية، وعين أبو عبيدة عليها (حبيب بن مسلمة الفهري) الذي استعد لغزو جرجومة، فاضطر أهلها لطلب الصلح، وكانوا يساعدون المسلمين أحياناً عندما يرون فيهم القوة، ولكنهم إن وجدوا في الروم قوة كاتبوهم على أن ينقضّوا على المسلمين، وهذا ما كان يشجع الروم، ويُبقي عندهم الأمل في العودة إلى بلاد الشام، ولربما كان المسلمون بحاجة إلى الجند آنذاك، وقد وجدوا في الجراجمة عنصراً محارباً ودعماً عسكرياً فاستفادوا منهم، إلا أنه لا يؤمن لهم ولا لعهودهم ما داموا لا يدينون دين الحق، ولا ينظرون إلا إلى مصالحهم، وهذا ما كان يجعلهم يقفون بجانب الروم أحياناً وبجانب المسلمين مرة أخرى، ثم توزعوا في المناطق الجبلية الغربية عوناً للروم، وبقي لهم خطر على البلاد ولأحفادهم الذين اعتقدوا عقائد غريبة حتى الآن.


فتح الجزيرة
الشام
الرقة
الرها
حران
رأس العين
نصيبين
قرقيسياء
الموصل
هيت
حلب
منبج
حمص
بيروت
اللاذقية
طرابلس
ديار بكر
عثمان بن أبي العاص
عمير بن سعد
أبو موسى الأشعري

فتح مصر: لما انتهى فتح المسلمين لبلاد الشام، وانتهى عمرو بن العاص من فتح فلسطين، طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السير إلى مصر للفتح، فوافق عمر، وسيّره إليها، ثم أمده بالزبير بن العوام، ومعه بسر بن أرطأة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي، فالتقوا مع أهل مصر عند باب مصر، ولقيهم أبو مريم، ومعه الأسقف أبو مريام وقد بعثه المقوقس من الإسكندرية، فدعاهم عمرو بن العاص إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، وأمهلهم ثلاثة أيام، فطلبوا منه أن يزيد المدة فزادها لهم يوماً واحداً، ثم نشب القتال، فهُزم أهل مصر، وقتل منهم عدد كبير، منهم الأرطبون الذي فرّ من بلاد الشام إلى مصر، والذي أجبر أهل مصر على المقاومة، وحاصر المسلمون عين شمس، وارتقى الزبير بن العوام السور، فلما أحس السكان بذلك انطلقوا باتجاه عمرو على الباب الآخر، إلا أن الزبير كان قد اخترق البلد عنوة، ووصل إلى الباب الذي عليه عمرو، فصالحوا عمراً، وأمضى الزبير الصلح، وقبل أهل مصر كلهم الصلح، إذا كان عمرو بن العاص قد وجه عبد الله بن حذافة إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط.

ثم أرسل عمرو جيشاً إلى الإسكندرية حيث يقيم المقوقس، وحاصر الجيش المدينة، واضطر المقوقس إلى أن يصالح المسلمين على أداء الجزية، واستخلف عمرو بن العاص عليها عبد الله بن حذافة. وأُنشئت مدينة الفسطاط مكان خيمة عمرو حيث بني المسجد الذي ينسب إليه الآن، وأقيمت البيوت حوله.

وأَرسل عمرو قوة إلى الصعيد بإمرة عبد الله سعد بن أبي سرح بناءً على أوامر الخليفة ففتحها، وكان الوالي عليها، كما أرسل خارجة بن حذافة إلى الفيوم وما حولها ففتحها وصالح أهلها، وأرسل عمير بن وهب الجمحي إلى دمياط، وتنيس وما حولهما فصالح أهل تلك الجهات.

ثم سار عمرو بن العاص إلى الغرب ففتح برقة، وصالح أهلها،

وأرسل عقبة بن نافع ففتح (زويلة)، واتجه نحو بلاد النوبة، ثم انطلق عمرو إلى طرابلس ففتحها بعد حصار دام شهراً، كما فتح (صبراته)، و (شروس) ومنعه عمر بن الخطاب أن يتقدم أكثر من ذلك إلى جهة الغرب.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: كان الفرس على خلاف فيمن يحكمهم، كما كان الحكام على خلاف فيما بينهم، فلما غادر خالد بن الوليد العراق إلى الشام شعر الفرس بقلة من بقي من جند المسلمين هناك، فأرادوا النيل منهم، وطردهم من أرض العراق، فأرسل شهريار مالك الفرس جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل إلى المثنى بن حارثة الشيباني قائد جند المسلمين، إلا أن الفرس قد هُزموا هزيمةً منكرةً أيضاً.

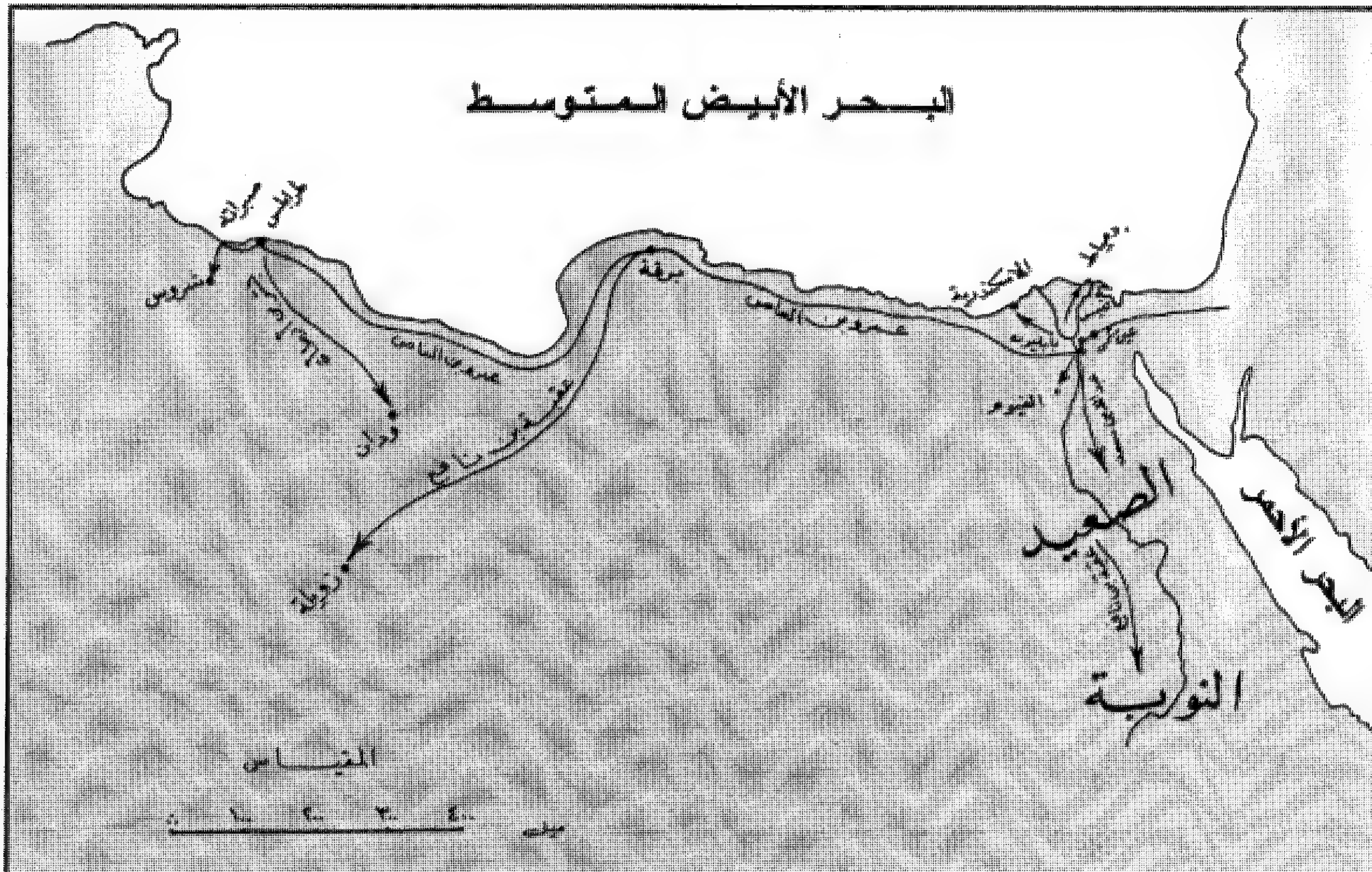
طلب المثنى بن حارثة المدد من المدينة، إلا أن أخبار الصديق قد تأخرت عليه لانشغاله بقتال الشام الأمر الذي جعل المثنى يسير بنفسه إلى المدينة، وقد خلّف وراءه على المسلمين بشير بن الخصاصية، فلما وصل المثنى إلى قاعدة الحكم وجد أبا بكر في آخر عهده، وقد استخلف عمر من بعده. فلما رأى أبو بكر المثنى قال لعمر: إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى، وإذا فتح الله على أمرائنا بالشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه. فلما مات الصديق ندب عمر المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق، وأمر على المجاهدين أبا عبيد بن مسعود الثقفي حيث كان أول من لبى النداء، ولم يكن من الصحابة، مع العلم أن عمر لم يكن ليولي إلا من كان صحابياً، وعندما سئل في هذا الأمر أجاب: إنما أؤمر أول من استجاب، إنكم إنما سبقتم الناس بنصرة هذا الدين، وإن هذا هو الذي استجاب قبلكم، ثم دعاه فوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً. وأمره أن يستشير أصحاب رسول الله ﷺ، وسار المجاهدون إلى العراق.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الوقت نفسه إلى أبي عبيدة في الشام أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد بن الوليد إلى العراق، فسيّرهم أبو عبيدة بعد فتح دمشق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص.

وأرسل عمر أيضاً مدداً آخر بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قوامه أربعة آلاف، فسار باتجاه الكوفة، والتقى بقائد فارس فهزمه شر هزيمة، وسقط أكثر جند الفرس في النهر.

معركة النمارق: بعث رستم جيشاً لقتال أبي عبيد فالتقى الطرفان في النمارق بين الحيرة والقادسية، وكان على خيل المسلمين المثنى بن حارثة، فهُزم الفرس، وولّوا الأدبار، وساروا إلى (كسكر) فلحقهم أبو عبيد، ثم هزمهم ثانيةً بعد أن جاءتهم قوة داعمة لنصرتهم، وفرّ الفرس إلى المدائن.

معركة الجسر: بعد أن هزم الفرس في النمارق وما بعدها اجتمعوا إلى رستم، فأرسل جيشاً كثيفاً ومعهم راية (كسرى)، وراية (أفريدون) التي تسمى (الدرفس)، وسار هذا الجيش نحو المسلمين فالتقوا، وبينهم جسر، فقال الفرس: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم، فقال المسلمون لأبي عبيد: امرهم أن يعبروا إلينا، فقال أبو عبيد: ما هم أجرأ منا على الموت بل نعبر إليهم ثم اقتحم الجسر إليهم، وجرت معركة عنيفة بين الطرفين. وكانت فيلة الفرس تؤذي المسلمين حيث تخافها خيولهم الأمر الذي جعل أبا عبيد يأمر المسلمين بقتل الفيلة فقتلوها وكان بين الفيلة فيل عظيم هجم عليه أبو عبيد، فضرب خرطومه، فاستدمى الفيل، وصرخ، وقتل أبا عبيد، وبرك فوقه، وقتل القادة الذين تولوا أمر المسلمين بعد أبي عبيد، حتى جاء دور المثنى بن حارثة في الإمارة، وكان قد ضعف أمر المسلمين، وأرادوا التراجع، وعبر بعضهم الجسر، ولتزاحمهم عليه تحطم، الأمر الذي جعل ظهور المسلمين للفرس، وبدأ القتل فيهم حتى عظم، فقتل منهم من قتل، وغرق من غرق. فجاء المثنى ووقف عند مدخل الجسر يحمي المسلمين ليقطعوا الطريق ببطء فأصلحوا الجسر وعبروا خلاله، حتى انتهوا، والمثنى وشجعان المسلمين يحمونهم. وقد وقعت هذه المعركة بعد معركة اليرموك بأربعين يوماً أي في شهر شعبان في السنة الثالثة عشرة للهجرة، واختلف الفرس ثانية على الحكم إذ خلعوا رستم، ثم عادوا فولوه، وأضافوا إليه الفيرزان، وسار الفرس إلى المدائن فلحقهم المثنى، وهزم من اعترض


البحر الأبيض المتوسط
البحر الأحمر
الصعيد
النوبة
برقة
الاسكندرية
دمياط
الفيوم
ودان
زويلة
القياس
٤٠٠
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠
٠

سبيله منهم، وأسر عدداً كبيراً ضرب أعناقهم، وطلب النجدة والمدد من أمراء المسلمين، فوافوه، كما كان قد وصل إليه جرير بن عبد الله البجلي ومن معه.

معركة البويب: لما علمت الفرس باجتماع عدد من جيوش المسلمين بعثت جيشاً كثيفاً، والتقى الطرفان في مكان يقال له (البويب) قرب الكوفة، وطلبت الفرس أن يعبر المسلمون إليهم، أو يعبرون هم إلى المسلمين، فأجاب المثنى بأن يعبر الفرس، فعبر الفرس، وجرت معركة عنيفة هُزمت فيها المجوس، وقتل منهم عدد كبير قتلاً وغرقاً في النهر، وكانت هذه المعركة عظيمة إذ اقتص فيها المسلمون من معركة الجسر، ونالوا غنائم عظيمة، وقتل فيها قائد الفرس مهران، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

وبعد معركة البويب التي أقضت مضاجع الفرس اجتمع أمراؤهم على تمليك يزدجرد بن شهريار بن كسرى، واتفقوا على ذلك فيما بينهم، وأرسلوا بالخبر إلى أتباعهم في الأمصار كافة، الأمر الذي جعل المجوس، وأنصارهم الذين صالحوا المسلمين، وأظهروا الطاعة ينقضون العهد. وأخبر المسلمون بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

حث عمر بن الخطاب المسلمين على الجهاد وخرج بنفسه على رأس الجيش من المدينة بعد أن ولّى مكانه علي بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان، وسادات الصحابة حتى وصل إلى ماء يقال له (الصرار) فعقد مجلساً استشارياً في الذهاب، وقد أرسل إلى علي أن يأتي من المدينة، فكلهم وافقه على رأيه إلا عبد الرحمن بن عوف فإنه قال له: إني أخشى إن كسرت أن تضعف أمر المسلمين في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع إلى المدينة، فمال عمر إلى هذا الرأي، ووقع الاختيار على سعد بن أبي وقاص قائداً للجيش، فأوصاه، وكتب إلى المثنى بن حارثة، وجرير بن عبد الله البجلي في إطاعة سعد، كما أصبح جميع أمراء العراق تبعاً له، ولكن المثنى قد توفي قبل وصول سعد إذ انتقض عليه جرحه الذي أصابه يوم الجسر.

اجتمع المسلمون في القادسية حسبما واعدهم سعد بن وقاص بناء على أوامر الخليفة عمر بن الخطاب، كما طالب الخليفة أن يكون على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، والقاص سلمان الفارسي، وكان في الجيش أكثر من ثلاثمائة من الصحابة، بينهم أكثر من سبعين من أهل بدر.

ولما بلغ سعد ماء العذيب اعترضه جيش للفرس، فهزمه، وغنم منه غنائم كثيرة. وبيدو من هذه المعارك أن المسلمين كانوا يتوغلون في أعماق العدو دون تطهير كامل للمناطق الخلفية مما يجعل الفرس يستطيعون تحريك جيوشهم إلى قرب أماكن المعارك الأولى.

معركة القادسية: ثم سار سعد حتى نزل القادسية، فمكث فيها شهراً لم ير فيه أثراً للفرس، وكان يبث سراياه في كل الجهات، فكانت تأتيه بالغنائم الأمر الذي جعل الفرس وحلفاءهم يتضايقون جداً، وأخبروا ملكهم (يزدجرد) بأنه إن لم ينجدهم فإنهم سيضطرون إلى تسليم ما بأيديهم إلى المسلمين أو يصالحونهم، وهذا ما جعل (يزدجرد) يدعو رستم، ويؤمّره على الحرب بجيشٍ كثيفٍ، وقد حاول رستم أن يعفيه الملك من ذلك، وأبدى الأعذار بأن إرسال جيش كثيف واحد إلى المسلمين فيه شيء من الخطأ، وإنما من الصواب أن يرسل جيشاً إثر آخر لإضعاف المسلمين، إلا أن الملك قد أصر على إرساله بهذا الجيش اللجب الذي يبلغ قوامه مائة وعشرين ألفاً، ويكون مثلها مدداً لها.

سار رستم وعسكر بساباط، وكان سعد يكتب في كل يوم إلى الخليفة حسب أوامره إليه، ولما اقترب رستم من المسلمين بعث إليه سعد جماعة من سادات المسلمين يدعونه إلى الله عز وجل وكان بينهم: النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان، وعطارد بن حاجب، وحنظلة بن الربيع، وعمرو بن معد يكرب. فقال لهم رستم: ما أقدمكم؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا، أخذ بلادكم، وسبي نسائكم وأبنائكم، وأخذ أموالكم، ونحن على يقينٍ من ذلك. وقد تأخر رستم في الخروج من المدائن للقاء سعد في القادسية مدة أربعة أشهر عسى

أن يضجر سعد ومن معه من المسلمين، كما أن رستم كان يعتقد أن النصر سيكون حليف المسلمين لما يرى ويسمع عن معاركهم وأخلاقهم. وقد ضعفت معنويات رستم ومن معه بعد أن سمعوا كلام الوفد، وما فيه من ثقةٍ بالله ويقينٍ بالنصر.

ولما اقترب الجيشان طلب رستم من سعد أن يبعث له رجلاً عاقلاً عالماً يجيبه عن بعض أسئلته، فأرسل له سعد المغيرة بن شعبة. فقال له رستم: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إن ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذلّ، ولا يعتصم به إلا عزّ. فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فقال: ما أحسن هذا! وأي شيء أيضاً، قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضاً، وأي شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم، قال: وحسن أيضاً؛ ثم قال رستم: أرأيتم إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضاً: وإن هذا الحديث قد زاد إلى إضعاف معنويات رستم والفرس، وزاد يقينهم في انتصار المسلمين، وزادت قناعتهم بهذا الدين الجديد حتى إن رستم قد ذاكر وجهاء قومه في الدخول في الإسلام، فأنفوا وأبوا فأخزاهم الله.

وحاول رستم والفرس أن يلجؤوا إلى طريق الإغراء فزينوا مجلس رستم بالنمارق المذهبة والحرير، وأظهروا اللآلئ والياقوت والأحجار الكريمة الثمينة، وزينوا الزينات العظيمة، وجلس رستم على سرير واسع من الذهب، وعليه تاج مرصع، ثم طلب رستم ثانية من سعد إرسال رجل

آخر، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فسار إليه بثياب صفيقة، وأسلحة متواضعة، وفرس صغيرة، ولم يزل راكبها حتى داست على الديباج والحرير، ثم نزل عنها وربطها في قطع من الحرير مزقها مما رأى أمامه، وأقبل على رستم وعليه سلاحه الكامل، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فنقلوا ذلك لرستم فقال: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق أكثرها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله؟ قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم! كم أحب إليكم؟ يوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا! ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

وبعث الفرس في اليوم الثاني يطلبون رجلاً آخر يديدون أن يعرفوا نماذج من المسلمين، فهل كلهم على هذا اليقين وهذا الرأي؟ علهم يجدون ثغرة يستطيعون أن ينفذوا منها، فبعث إليهم سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر هو حذيفة بن محصن، فتكلم على النحو الذي تكلم فيه ربعي بن عامر.

وتكرر الطلب في اليوم الثالث فأرسل إليهم سعد ثالثاً هو المغيرة بن شعبة. فقال رستم للمغيرة: إنما مثلكم في دخول أرضنا مثل الذباب رأى العسل. فقال: من يوصلني إليه وله درهمان؟ فلما سقط عليه غرق فيه، فجعل يطلب الخلاص فلم يجده، وجعل يقول: من يخلصني وله أربعة دراهم؟ ومثلكم كمثل ثعلب ضعيف دخل حجراً في كرم، فلما رآه صاحب الكرم ضعيفاً رحمه فتركه، فلما سمن أفسد شيئاً كثيراً فجاء صاحب الكرم بجيشه، واستعان عليه بغلمانه فذهب ليخرجه فلم يستطع لسمنه فضربه حتى قتله، فهكذا تخرجون من بلادنا، ثم ازداد غضباً وحمقاً، وأقسم بالشمس لأقتلنكم غداً.

فقال المغيرة: ستعلم. فقال رستم للمغيرة: قد أمرت لكم بكسوة ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب وتنصرفون عنا.

فقال المغيرة: أبعد أن أوهنا ملككم وضعفنا عزكم، ولنا مدة نحو بلادكم، ونأخذ الجزية منكم عن يد وأنتم صاغرون وستصيرون لنا عبيداً على رغمكم؟

كان سعد بن أبي وقاص مريضاً لا يستطيع الركوب، لذا فقد جلس في القصر متكئاً على صدره فوق وسادة ينظر إلى الجيش يدبر أمره ويصدر تعليماته، وقد أعطى القيادة إلى خالد بن عرفطة، وكان على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح.

بدأت المعركة بعد الظهيرة وبعد أن صلى سعد الظهر بالناس، وخطب فيهم وحثهم على القتال، واستمر القتال حتى الليل، ثم استؤنف في اليوم الثاني ولمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع اشتد أثر الفيلة الفارسية على الجيش إذ كانت الخيول تنفر منها الأمر الذي جعل الصحابة يوجهون اهتمامهم إليها حتى قتلوها مع من عليها، وقد أبلى جرير بن عبد الله البجلي، والقعقاع بن عمرو، وطليحة الأسدي، وعمرو بن معد يكرب، وخالد بن عرفطة، وضرار بن الخطاب بلاء كبيراً، إذ كانوا يقلعون عيون الفيلة فتشرد بمن عليها، ثم تقتل، ويقتل أصحابها، فلما كان الزوال من

ذلك اليوم الذي عرف بالقادسية وهو الاثنين الرابع عشر من شهر محرم من السنة الرابعة عشرة هبت ريح شديدة على الفرس فأزالت خيامهم وما كان منهم إلا الهرب. وقد قتل القعقاع بن عمرو التميمي وهلال بن علقمة التميمي رستم قائد الفرس، وفرّت جماعة منهم، ولحقهم المسلمون حتى دخلوا وراءهم مدينة المدائن مركز الحكم ومقر يزدجرد بن شهريار. وقد قتل من الفرس في اليوم الرابع عشرة آلاف ومثلهم في الأيام السابقة، فكان مجموع القتلى عشرين ألفاً، وهو ما يقرب من ثلثي الجيش الفارسي، واستشهد من المسلمين في الأيام كلها ألفاً وخمسمائة شهيد، وغنم المسلمون غنائم كبيرة جداً، وأرسلت البشارة إلى أمير المؤمنين الذي كان في غاية الاهتمام بالمعركة حتى كان يخرج وحده أحياناً إلى خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصى الأخبار حتى جاءه النبأ. وكانت المناطق التي فيها خالد بن الوليد من قبل قد نقضت العهد، فلما كانت معركة القادسية رجع أهلها إلى عهودهم، وادعوا أن الفرس قد أجبروهم على ذلك النقض.

ثم تقدم المسلمون بإمرة زهرة بن حوية أميراً إثر أمير نحو المدائن فالتقوا بجيش فارسي فهزموه، واتجه المنهزمون نحو بابل، وانطلقت جماعة أخرى نحو نهاوند، فأقام سعد في بابل عدة أيام، ثم سار نحو المدائن، فالتقى بجيشٍ آخر من الفرس فهزمه، وفي ساباط التقى بكتائب أخرى ليزدجرد أصابها كلها ما أصاب سابقتها، وقتل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص أسد يزدجرد الذي وضع في الطريق لإخافة المسلمين، وكان ذلك في نهاية السنة الرابعة عشرة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

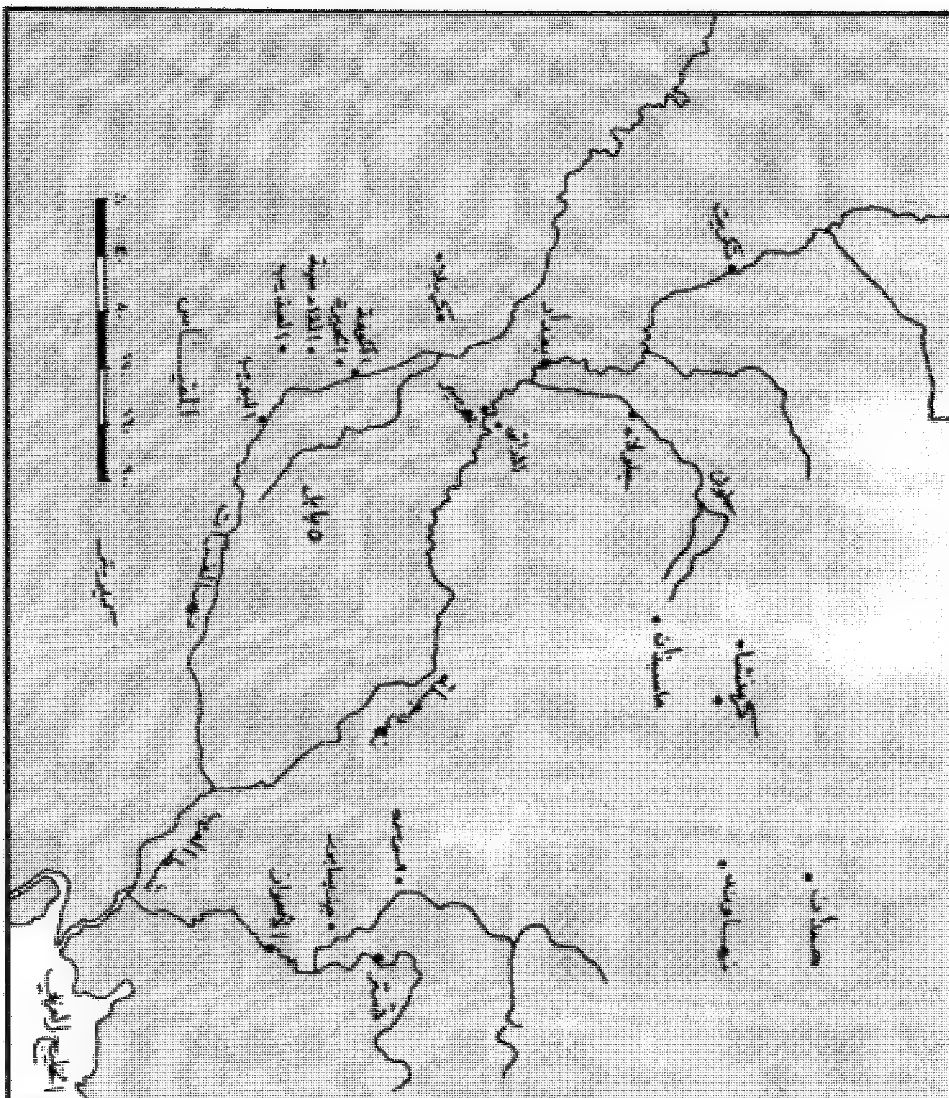
وتحصن الفرس في (بهرسير) وهي قرية من المدائن لا يفصل بينها سوى نهر دجلة بعد أن هزموا أمامها، إلا أن حصارهم لم يهن من عزيمة المسلمين، وكان أن فرّ الفرس إلى المدائن، وسار المسلمون وراءهم، فلما اقتربوا منها لاح لهم القصر الأبيض قصر كسرى. وكان المسلمون قد قطعوا نهر دجلة، وكان في حالة فيضان كبير الأمر الذي جعل الفرس يخافون لقاء المسلمين ويهابونهم.

فتح المدائن: ودخل المسلمون المدائن فلم يجدوا بها أحداً بل فرّ أهلها كلهم مع الملك سوى بضعة من المقاتلة بقوا في القصر الأبيض، فدعاهم سلمان الفارسي، رضي الله عنه، ثلاثة أيام، نزلوا بعدها منه، وسكنه سعد، وجعل الإيوان مصلى وتلا حين دخوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، كما صلى الجمعة في الإيوان وذلك في شهر صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة. وأقامت أسر المسلمين في المدائن حتى فتح الله عليهم جلولاء، وتكريت، والموصل، وبعدها تحولت الأسر إلى الكوفة. وأرسل سعد السرايا تتعقب الفارين فحصلت هذه السرايا على غنائم كثيرة لم يستطع الفارون حملها فتركوها وأكثرها من ثياب كسرى ولباسه. وقد خمّس سعد الغنائم، وبعث بها إلى المدينة مع بشير بن الخصاصية، وفيها بساط كسرى، وتاجه، وسواريه، فلما رآها عمر، رضي الله عنه، قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء، فقال له علي، رضي الله عنه: إنك عففت فعفت رعيتك ولو رتعت لرتعت.

فتح جلولاء: فرّ يزدجرد من المدائن، وسار باتجاه حلوان، والتف حوله أثناء سيره عدد كثير من الفرس، فأمر عليهم مهران، وأقاموا بجلولاء، وقد تحصّنوا بها، وحفروا الخنادق حولها، فبعث سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فأمره أن يقيم هو بالمدائن وأن يرسل إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأن يكون على المقدمة القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى الميمنة سِعْر بن مالك، وعلى الميسرة عمر بن مالك، وعلى المؤخرة عمرو بن مرة الجهني، ففعل، فسار هاشم وحاصرهم، واشتد القتال، وكانت تصل النجدات إلى الطرفين، وأخيراً فتح الله على المسلمين جلولاء، وقد قتلوا من الفرس الكثير حتى

---

(١) سورة الدخان: الآيتان ٢٥ ـ ٢٩.



تجللت بجثثهم الأرض، وبرز من الأبطال في هذه المعركة القعقاع بن عمرو، وعمرو بن معد يكرب، وحجر بن عدي، وقيس بن مكشوح، وطليحة الأسدي.

فتح حلوان: وبعث هاشم في أثر الفرس المنهزمين القعقاع بن عمرو فكانوا يفرون من وجهه، وقد غنم الكثير أثناء تحركاته تلك. وقد كانت غنائم جلولاء لا تقل عن غنائم المدائن. وقد أدرك القعقاع مهران وقتله، ونجا الفيرزان فسار إلى حلوان، وأخبر يزدجرد فترك المدينة بعد أن ترك عليها قائداً، وسار هو إلى الري (طهران اليوم)، وسار القعقاع إلى حلوان فانتصر على حاميتها ودخلها.

فتح تكريت والموصل: في الوقت الذي سار فيه هاشم بن عتبة إلى جلولاء سار أيضاً إلى تكريت عبد الله بن المعتم على رأس جيش بأمر الخليفة أيضاً، فلما وصل إلى تكريت وجد فيها جماعة من الروم، ومن نصارى العرب، من إياد، وتغلب، وعدداً من أهل الموصل فحاصرهم أربعين يوماً نازلهم خلالها أربعاً وعشرين مرة، وانتصر فيها كلها، ثم دخل المدينة عنوة، وقد قتل جميع من فيها سوى من أسلم من الأعراب. وسار ربعي بن الأفكل بعدها إلى الموصل، واضطر أهلها إلى الصلح والتسليم، وفُرضت عليها الجزية.

فتح ماسبذان: بلغ سعداً أن جماعة من الفرس قد تجمعت في ماسبذان الواقعة على يمين حلوان على الطريق إلى همدان، فأخبر بذلك أمير المؤمنين فطلب منه أن يرسل لهم جيشاً بإمرة ضرار بن الخطاب الفهري، ففعل وانتصر عليهم، وهرب أهل ماسبذان إلى رؤوس الجبال، فدعاهم ضرار فاستجابوا له، ومنهم من أسلم، ومنهم من لم يسلم، فوضع عليه الجزية.

فتح الأهواز: تغلب الهرمزان على منطقة الأهواز، وهو من أحد بيوتات فارس المشهور وكان من الذين فروا من القادسية، وأصبح يغير على المناطق التي دانت لحكم المسلمين، فسار إليه جيشان من المسلمين،

انطلق أحدهما من الكوفة من قبل واليها عتبة بن غزوان، وسار الثاني من البصرة من قبل حاكمها أبي موسى الأشعري، وانتصر المسلمون عليه، وهذا ما أجبره على طلب الصلح، فأعطوه ذلك. ثم نقض الهرمزان الصلح بعد أن استعان بجماعة من الكرد، فبرز إليه المسلمون فهزموه فتحصن في تستر (ششتر اليوم)، إلا أن أهل المنطقة قد صالحوا المسلمين عندما رأوا إصلاح بلادهم، ودفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وهذا ما جعل الهرمزان يطلب الصلح ثانية، ويصالح على عدد من المدن منها (تستر) و (جنديسابور)، وكان حرقوص بن زهير قد فتح سوق الأهواز. ثم نقض الهرمزان الصلح ثانيةً بناءً على تحريض يزدجرد، وبلغ الخبر عمر، فأمر أن يسير إليه جيش من الكوفة بإمرة النعمان بن مقرن، وكانت الكوفة مقر سعد بن أبي وقاص، كما أمر أن يسير جيش آخر من البصرة بإمرة سهيل بن عدي، وأن يكون على الجميع أبو سبرة بن أبي رهم، فالتقى النعمان بالهرمزان فهزمه، ففر إلى تستر فسار إليه سهيل بن عدي، كما لحقه النعمان، فحاصروه هناك، وكان أمير الحرب أبو سبرة بن أبي رهم ابن عمة رسول الله ﷺ، وقد وجد أن مع الهرمزان عدداً كبيراً من المقاتلين، فكتبوا بذلك إلى أمير المؤمنين، فطلب من أبي موسى الأشعري أن يذهب إليهم مدداً، فسار نحوهم، وحاصروا الفرس، واضطروهم إلى الاستسلام بعد فتح البلد عنوة، ولجأ الهرمزان إلى القلعة، فحاصروه، وأجبروه على الاستسلام، وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب بالمدينة مع وفد فيه الأحنف بن قيس، وأنس بن مالك.

ثم سار أبو سبرة بن أبي رهم في قسم من الجيش، ومعه أبو موسى الأشعري، والنعمان بن مقرن، واستصحبوا معهم الهرمزان، وساروا حتى نزلوا (السوس) فحاصروها، وكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأجابهم بأن يرجع أبو موسى الأشعري إلى البصرة، وأن يسير زر بن عبد الله بن كليب إلى جنديسابور، فسار، وبعث أبو سبرة بالخمس وبالهرمزان إلى المدينة، ولما وصل الوفد بالهرمزان إلى المدينة اتجه إلى بيت أمير المؤمنين، فقيل

لهم: إنه بالمسجد للقاء وفد الكوفة، فانطلقوا إلى المسجد، فلم يروا فيه أحداً، ولما هموا بالعودة قال لهم غلمان يلعبون أمام المسجد: إنه نائم في زاوية المسجد، فانطلقوا فوجدوه نائماً، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فأشاروا إليه، وقد دهش لعدم وجود الحرس والحجاب كما اعتاد أن يرى في ملوك فارس وأكاسرتها.

وفُتحت السوس عنوة بعد حصار حتى طلب أهلها الصلح، وكذلك فقد فتح زر بن عبد الله جند يسابور.

وتقدم المسلمون في بلاد فارس أيام عمر بن الخطاب من جهة ثانية، فقد كان العلاء بن الحضرمي والي البحرين يسابق سعد بن أبي وقاص في الفتح، فلما كتب الله النصر لسعد في القادسية، وكان له ذلك الصدى الواسع، أحب العلاء أن يكون له النصر على فارس من جهته، فندب الناس إلى الجهاد ضد فارس، فاجتمع الجيش وعبر العلاء بن الحضرمي البحر إلى فارس من جهته وذلك دون إذن أمير المؤمنين، اتجه العلاء نحو اصطخر، إلا أن الفرس قد حالوا بين المسلمين وسفنهم، فوجد المسلمون أنفسهم بين العدو والبحر، فعملوا جهدهم وقاتلوا بقوة فنصرهم الله على عدوهم، ثم خرجوا يريدون البصرة، فلم يجدوا سفنهم، كما رأوا أن الفرس قد قطعوا عنهم الطرق، فاضطروا إلى البقاء محاصرين، ووصل الخبر إلى عمر بن الخطاب، فتأثر جداً، وأمر بعزل العلاء، وطلب منه الالتحاق بسعد بن أبي وقاص، وطلب من عتبة بن غزوان أن ينجد العلاء، فأرسل قوة بإمرة أبي سبرة بن أبي رهم، ومعه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعاصم بن عمرو، والأحنف بن قيس، وحذيفة بن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وكان عدد هذه القوة اثنا عشر ألفاً، وسارت هذه القوة حتى وصلت إلى مكان حصار المسلمين، وكاد القتال أن ينشب بين المحاصرين والفرس، فجاءت القوة في الوقت المناسب، وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً، ثم عاد الجميع إلى عتبة بن غزوان في البصرة.

وتجمع الفرس في مدينة نهاوند، وكان أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون في بلاد فارس الواسعة خوفاً عليهم من ضياعهم فيها، وخوفاً عليهم من الفرس، واستمر ذلك مدة حتى وصل إليه الأحنف بن قيس في الوفد الذي يسوق الهرمزان معه، فسأل عمر الأحنف بن قيس عن الأحوال، وكان عمر يخشى أن يكون المسلمون يحيفون على أهل الذمة الأمر الذي يجعلهم ينقضون العهد، فقال عمر: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم، فأجاب: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة، قال: فكيف هذا؟ فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان يتفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه: وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيل ملكهم عن فارس، ونخرجه عن مملكته وعزّ أمته: فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر: صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه.

وجاءت الأخبار إلى عمر بن الخطاب أن الفرس قد تجمعوا في نهاوند، وهذا ما جعله يأمر بالانسياح في أرض فارس، وقد رغب أن يسير هو بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، إلا أنه عندما استشار الصحابة رأوا غير ذلك، فعدل عن رأيه، وكان الذي أقنعه بذلك علي بن أبي طالب، فكتب إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده، فإذا التقوا فكل على جنده أميراً، وعلى الجميع النعمان بن مقرن فإن قتل فقيس بن مكشوح و. . . حتى سمى عدة أمراء.

وسار المسلمون نحو نهاوند ولا يزيد عددهم على الثلاثين ألفا إلا قليلاً، وكان قد تجمع فيها من الفرس ما يزيد على المائة والخمسين ألفاً، وكانت المعارك سجالا بين الطرفين مدة يومي الأربعاء والخميس، ثم انتصر

المسلمون على أعدائهم الأمر الذي جعل الفرس يدخلون المدينة ويتحصنون فيها، فحاصرهم المسلمون، ولما طال الحصار استشار النعمان رجاله فأشاروا عليه بالتراجع أمامهم حتى إذا ابتعدوا من حصونهم انقضوا عليهم، فوافق النعمان على ذلك، وأمر القعقاع أن يبدأ القتال مع الفرس وأن يتراجع أولهم ففعل فلحقه الفرس. وعندما ابتعدوا من حصونهم بدأ النعمان بالقتال ونشبت معركة حامية قتل فيها من الفرس أكثر من مائة ألف رجل، وتجلل وجه الثرى بالجثث، وسقط النعمان عن فرسه واستشهد، ولم يعلم بذلك سوى أخيه نعم، فأخفى ذلك، وأخذ الراية وسلمها لحذيفة بن اليمان فقاد المعركة إلى النهاية، وبانتهائها أعلم نعيم الجند عن مصرع قائدهم النعمان. أما قائد الفرس الفيرزان فقد فر، ولحقه القعقاع وقتله عند ثنية همدان، ودخل المسلمون نهاوند عنوة، ثم فتحوا أصبهان (جي). وفتح أبو موسى الأشعري (قم)، وقاشان، وفتح سهيل بن عدي مدينة (كرمان). ولما وصلت أخبار نهاوند إلى عمر بن الخطاب بكى بكاء مريراً على شهدائها، وكلما ذكر له شهيد زاد بكاؤه، ولما وصلوا إلى ذكر أسماء لا يعرفها بكى وقال: وما ضرهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر.

ولعل المرء يستطيع هنا أن يقف وقفة على اختيار عمر للأمراء وقادة الجند، وصحيح أنه كان لا يختار إلا الصحابة، إلا أنه في الوقت نفسه كان يعين الجندي أميراً ثم لا يلبث أن يضع أميراً عليه ويعيده جندياً يقاتل تحت راية من كان بالأمس يقاتل تحت رايته، وذلك حتى لا ترتفع بإنسان نفس، وكي يشعر دائماً بالتواضع ويعرف مكانه الحقيقي، وأن قتاله إنما هو لله، وكذلك يشعر كل جندي في الجيش.

ولما فتحت نهاوند أمر عمر بن الخطاب المسلمين بالانسياح في أرض فارس، وأعطيت الأوامر لسبعة أمراء بالتوغل في أعماق فارس بغض النظر عن عدد الجيش المنطلق وبغض النظر عن عتاده وتجهيزاته وبغض النظر عن القوة التي يمكن أن يلاقيها وعددها إذ أن المسلمين لم يكونوا

ليقاتلوا بعدد أو بقوة تجهيزات وإنما بقوة الإيمان الذي يحملونه بين جوانحهم.

١ ـ سار نعيم بن مقرن إلى همدان ففتحها، واستخلف عليها يزيد بن قيس، وسار هو باتجاه الري (موقع طهران اليوم) ففتحها، ثم بعث بأخيه سويد بن مقرن بناء على أوامر الخليفة إلى قومس فأخذها سلماً، وصالح أهلها، وجاء إليه أهل (جرجان) و (طبرستان) وصالحوه. وكان نعيم قد بعث، وهو بهمدان (بكير بن عبد الله) إلى أذربيجان، ثم أمده بسماك بن خرشة ففتح بعض بلاد أذربيجان على حين كان عتبة بن فرقد يفتح البلدان من الجهة الثانية.

٢ ـ سار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب على سواحل بحر الخزر الغربية، وكان على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة فصالح عبد الرحمن ملكها بعد أن أرسله إلى سراقة بن عمرو، ثم بعث سراقة إلى الجبال في تلك المناطق بكير بن عبد الله، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسيد، وسلمان بن ربيعة، ومات هناك سراقة بن عمرو، واستخلف مكانه عبد الرحمن بن ربيعة، وأقر الخليفة ذلك.

٣ ـ سار الأحنف بن قيس على رأس جيش حتى دخل خراسان من الطبسين[١] ففتح هراة عنوة، واستخلف عليها (صحار بن فلان العبدي)، وسار نحو (مرو الشاهجان)[٢] عن طريق نهر هراة، فامتلكها واستخلف عليها (حارثة بن النعمان)، ومنها سار إلى (مرو الروذ) مع وادي (مورغاب) ليلاحق يزدجرد حيث فر إليها، ووصلت الإمدادات من الكوفة إلى

---

(١) الطبسين: قصبة ناحية في ولاية قوهستان، وهي تثنية طبس إذ هما بلدتان كل واحدة يقال لها طبس. إحداهما طبس العناب، والثانية طبس التمر، والفرس لا يتكلمون بها إلا مفردة، والعرب يثنونها، ويقال لها الطبسان إذ أنهما في موضع واحد. وتعد باب خراسان حيث تنخفض الجبال بينها وبين خراسان. وتكون ممراً ينفتح نحو هراة.

(٢) مرو الشاهجان: هي مدينة مرو قصبة خراسان، ونسبت إلى الشاهجان لأنها القصبة إذ أن معنى (جان) بالفارسية السلطان، وتفريقاً لها عن مر والروذ.

الأحنف بن قيس، وسار المدد نحو (بلخ) حيث انتقل يزدجرد إليها، واستطاع أهل الكوفة دخول بلخ، ففر يزدجرد إلى بلاد ما وراء النهر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة في بلخ، وقد نصرهم الله على عدوهم، وأصبح الأحنف سيد خراسان إذ تتابع أهلها الذين كانوا قد شذوا في مكان أو تحصنوا في مكان إلى الصلح. وكان الأحنف وهو في طريقه إلى مرو قد بعث (مطرف بن عبد الله) إلى نيسابور، كما أرسل الحارث بن حسان إلى سرخس.

عاد الأحنف إلى مرو الروذ بعد أن استخلف على (طخارستان) (ربعي بن عامر التميمي)، وكتب الأحنف إلى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح خراسان، فكتب عمر بن الخطاب إلى الأحنف «أما بعد: فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا».

٤ ـ واتجه عثمان بن أبي العاص على رأس جيشٍ إلى اصطخر، وقد اجتاز مياه الخليج العربي من البحرين ففتح جزيرة (بركاوان) ونزل أرض فارس، ففتح جور، واصطخر، وشيراز، وكان قد انضم إليه أبو موسى الأشعري بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وكان الحكم بن أبي العاص عون أخيه في فتوحاته.

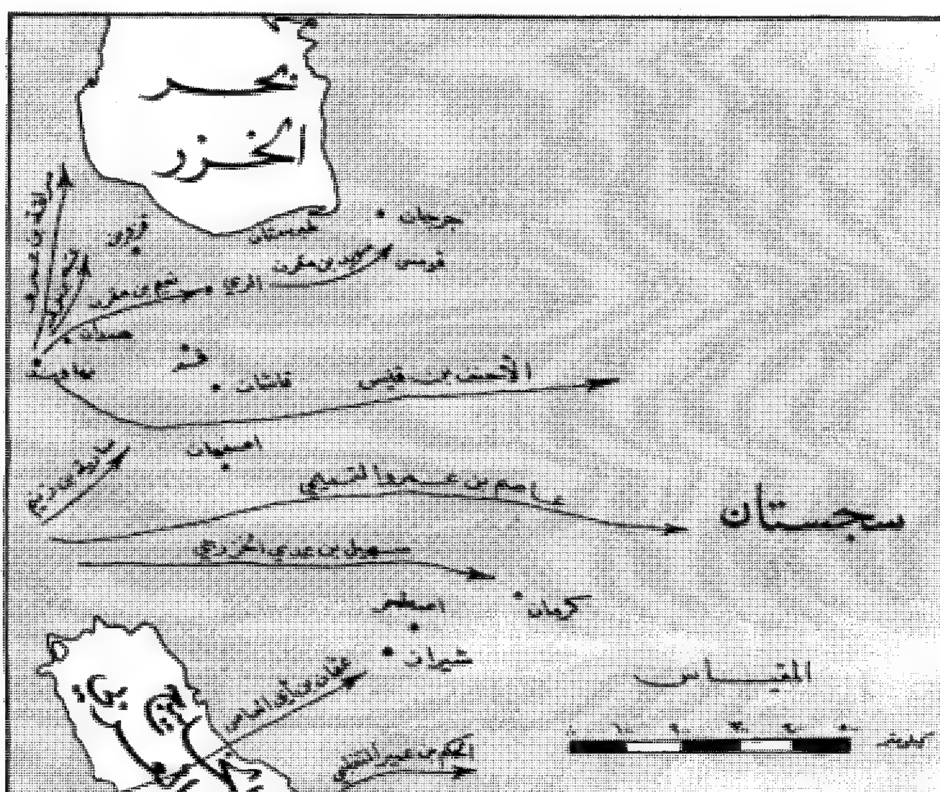
٥ ـ واتجه سارية بن زنيم الكناني نحو تحشد للفرس فحاصرهم فاستنجدوا بالأكراد فأمدوهم، فتكاثر العدو على المسلمين، وأصبحوا في خطر عظيم، عندئذ التجأ سارية إلى سفح جبل واتخذ ذروته درءاً له يحمي مؤخرته، وواجه الفرس من جهة واحدة، واستطاع الانتصار عليهم. وفي هذا التحرك من قبل سارية نحو الجبل يذكر أن عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر يوم الجمعة، فعرض له في خطبته أن قال: «يا سارية الجبل... الجبل... من استرعى الذئب فقد ظلم»، ويذكر أن سارية قد سمع كما سمع المسلمون الذين يسمعون خطبة عمر ذلك الكلام في ذلك اليوم وتلك السرعة، وأن الصوت الذي سمعه يشبه صوت عمر فعدل بالمسلمين إلى الجبل، ففتح الله عليهم.

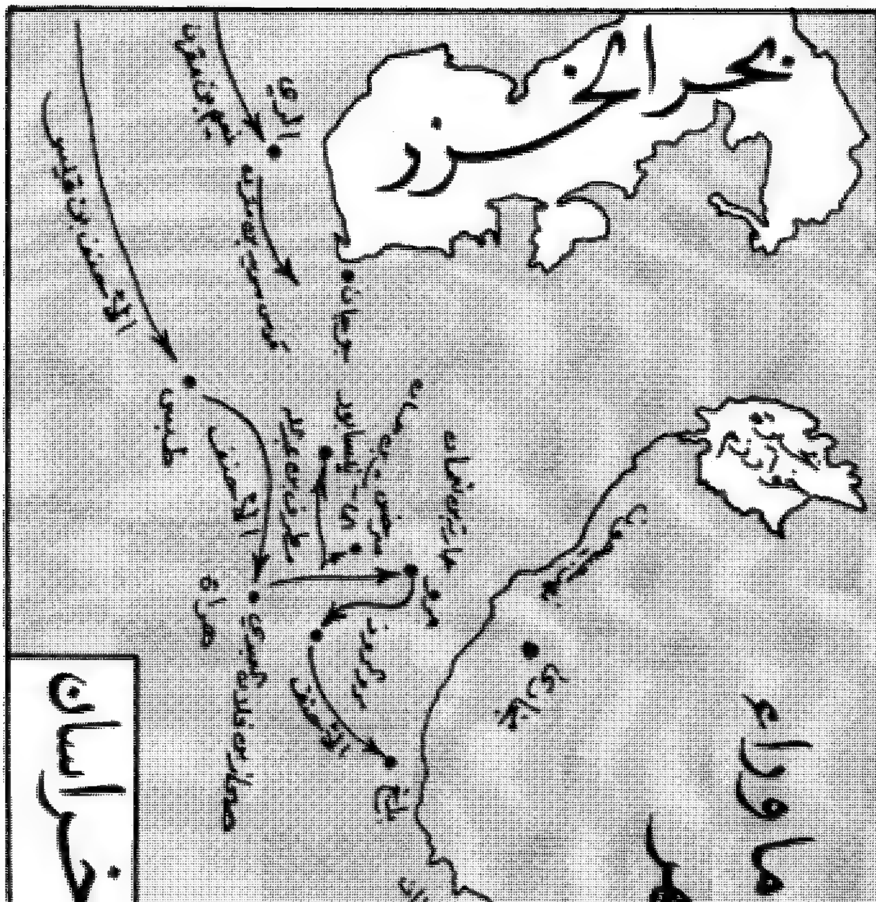
٦ ـ وسار عاصم بن عمرو التميمي على رأس قوة من أهل البصرة إلى إقليم سجستان، ففتح المنطقة، ودخل عاصمتها (زرنج) بعد حصار طويل اضطر أهلها إلى طلب الصلح، وتولى عاصم إدارة المنطقة، وعمل على توطيد الأمن فيها.

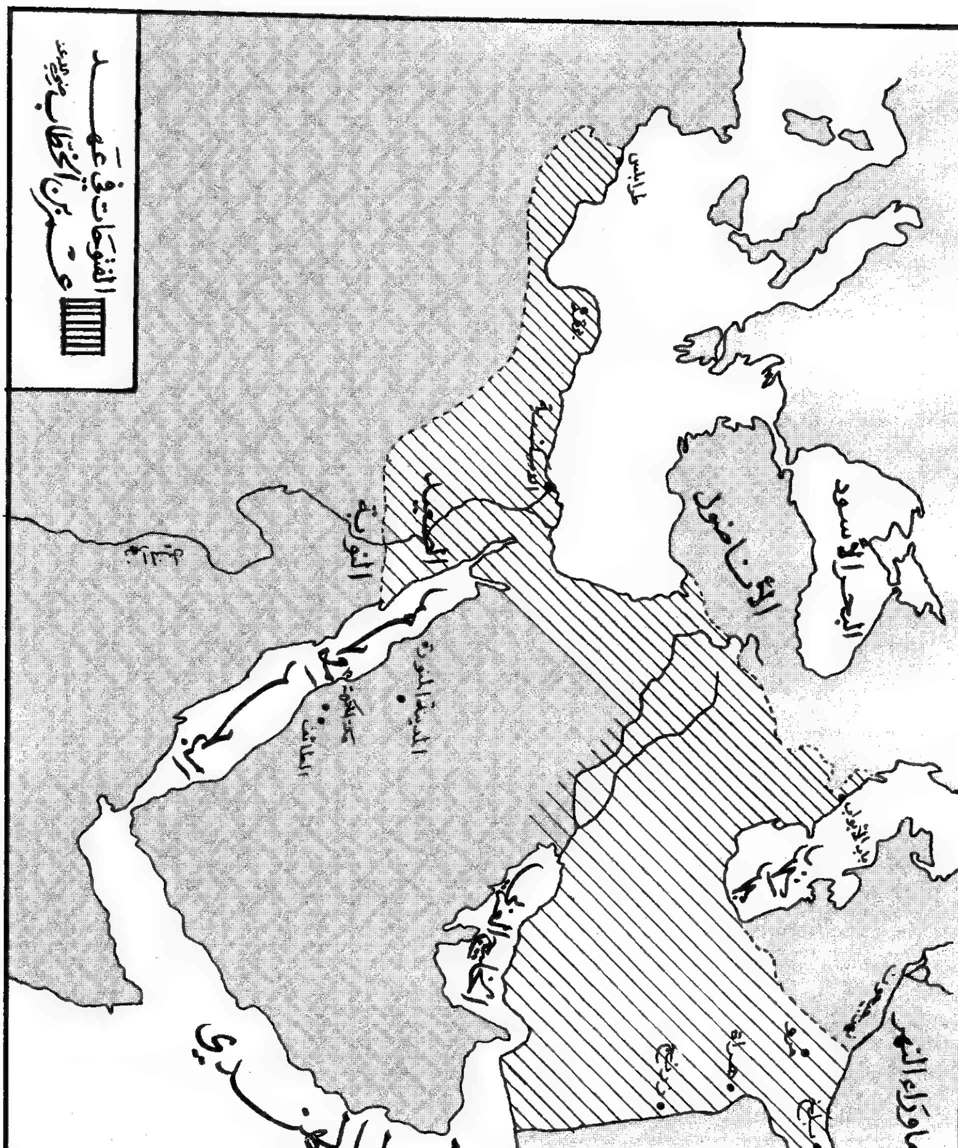
٧ ـ وسار سهيل بن عدي الخزرجي بجيش إلى كرمان ففتحها.

٨ ـ وانطلق الحكم بن عمير التغلبي بقوة إلى (مكران)، وتبعه مدد، والتقى المسلمون بأعدائهم على شاطئ نهر هناك، وعبر الفرس إلى المسلمين، ولكنهم لم يصمدوا طويلاً أمامهم، فدخل المسلمون معسكر الفرس، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفتحوا المنطقة كاملة.

٩ ـ واتجه عتبة بن فرقد إلى جهة شمال غربي بلاد الفرس ففتحها ـ كما مر معنا ـ.




فتح خراسان
بحر الخزر
بلاد ما وراء النهر


الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب
البحر الأسود
المحيط الهندي
بلاد ما وراء النهر

مقتل الخليفة عُمر بن الخطّاب

كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعيد النظر واسع الفكر، يخشى على المجتمع الإسلامي من التلوث، ويخاف عليه من عدم التجانس بوجود عناصر غريبة فيه، تضيع معها الرقابة، وتنتشر آراء متباينة بالاختلاط، وتكثر فيه الإساءة والنيل من مقوماته، يخشى أن يقوم الذي يأتون من خارج المجتمع من المجوس وسبي القتال بأعمال يريدون بها تهديم الكيان الإسلامي، لهذا فإنه منع من احتلم من هؤلاء دخول مدينة الرسول ﷺ، إلا أن عدداً من الفرس الذين دالت دولتهم قد أظهروا الإسلام، ودخلوا المدينة، ولا تزال عندهم من رواسب الماضي صلات مختلفة بعقيدتهم المجوسية القديمة، وارتباطات بحكومتهم السابقة، أو أنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وكانت لهم مخططات رهيبة تنطلق كلها من الحقد على الخليفة الذي زالت دولة الفرس على يديه، والكره للدين الجديد الذي أبدوا أنهم دانوا به، ولم تتهيأ الفرص لبعضهم بعد للتفقه في الدين والاطلاع على حقيقته، ومعرفة الخير، وكان الحاقدون من الفرس الذين لم يعد لهم مقر لدولة يلجؤون إليها، أكثر من الروم الذي بقيت لهم دولة قائمة على الأراضي التي لم يصل إليها الفتح بعد، تمكن أن يعيش عليها من ينطلق إليها، وقد فعل هذا عدد كبير من الروم الذين كانوا يسكنون في البلاد التي فتحت، وعدد غيرْ قليل من العرب المتنصّرة الذين فارقوا أراضيهم التي كانوا عليها، وفروا من المسلمين، والتجؤوا إلى أرض الروم ودولتهم، واستمر هذا قائماً حتى بعد منتصف القرن التاسع الهجري حيث فتحت القسطنطينية، وزالت دولة الروم من الوجود. وفوق كل هذا كانت يهود الذين أظهر بعضهم الإسلام عندما غلب على أمرهم، ووجدوا ألا سبيل

للمقاومة، وأنه من الأفضل لهم التهديم من داخل الصف الإسلامي، وقد أضمر هؤلاء الحقد على الإسلام وبالأساس هم يحقدون على كل من يدين بغير عقيدتهم، وكان حقدهم على الإسلام عظيماً إذ فضح دسائسهم التي كانوا يقومون بها، وبيّن مخططاتهم التي يلجؤون إليها، وأوضح مكرهم الذي يمكرونه، لذا بذلوا جهدهم للقضاء على الإسلام وقادته. والتقى المكر اليهودي مع المخطط المجوسي للعمل على ضرب الإسلام بإثارة الفتن داخل المجتمع الإسلامي، وقتل القادة المسلمين الذي يتمكنون من قتلهم، ويبدو أن النصرانية قد أدلت بدلوها في هذا الميدان، واشتركت في هذا الأمر.

طلب المغيرة بن شعبة أمير الكوفة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يسمح لغلامه (فيروز) الذي يُدعى (أبا لؤلؤة) بدخول المدينة للعمل فيها خدمة للمسلمين حيث هو رجل ماهر يجيد عدداً من الصناعات التي تفيد المجتمع وتخدم الدولة، فهو حداد، ونقاش، ونجار، فأذن له عمر. وكان أبو لؤلؤة خبيثاً ماكراً، يضمر حقداً، وينوي شراً، يحن إلى المجوسية ولا يستطيع إظهارها، وتأخذه العصبية ولا يمكنه إبداءها، فكان إذا نظر إلى السبي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي، ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو لؤلؤة يتحين الفرص، ويراقب عمر وانتقاله وأفعاله، ويبدو أنه قد وجد أن قتل الخليفة وقت الصلاة أكثر الأوقات مناسبة له، إذ يستطيع أن يأخذه على غفلة منه، ويغدر به دون مواجهة، وكان عمر، رضي الله عنه، إذا مر بين صفوف المصلين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيها خللاً تقدّم فكبّر ودخل في الصلاة.

فلما كانت صلاة فجر الثالث والعشرين من ذي الحجة في السنة الثالثة والعشرين من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفعل عمر كعادته، فما هو إلا أن كبر حتى سمُع يقول: قتلني الكلب، وقد طعنه أبو لؤلؤة ست طعنات، وهرب العلج بين الصفوف، وبيده سكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر

رجلاً مات منهم ما يزيد على النصف، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ذلك ألقى عليه برنساً له، وأحس أبو لؤلؤة أنه مأخوذ لا محالة، لذا فقد أقدم على الانتحار بالسكين ذاتها. وجاء عبد الرحمن ليرى ما حلّ بالخليفة فوجده صريعاً، وعليه ملحفة صفراء قد وضعها على جرحه الذي في خاصرته، ويقول: (وكان أمر الله قدراً مقدوراً). وأخذ عمر بيد عبد الرحمن فقدمه للصلاة، وفقد عمر بعد ذلك وعيه، أما عبد الرحمن فقد صلى بالناس صلاة خفيفة. وقد رأى هذا من كان على مقربة من الإمام، أما الذين كانوا في نواحي المسجد فإنهم لم يعرفوا ما الأمر، وإنما افتقدوا صوت عمر، فجعلوا يقولون: سبحان الله... سبحان الله... حتى صلى عبد الرحمن فانقطع صوت التسبيح.

فلما أفاق عمر قال: أصلى الناس؟ وهكذا لم ينقطع تفكيره بالصلاة على الرغم مما حلّ به.

قال عبد الله بن عباس: نعم.

قال عمر: لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم دعا بوضوء فتوضأ وصلى، وإن جرحه لينزف.

ثم احتمل إلى بيته، فقال لابن عباس ـ وكان معه ـ: اخرج، فسل من قتلني، فخرج فقيل له طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ثم طعن رهطاً معه، ثم قتل نفسه. فرجع وأخبر عمر بذلك، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط.

وخشي عمر، رضي الله عنه، أن يكون له ذنب إلى الناس لا يعلمه، وقد طعن من أجله، فدعا ابن عباس وقال له: أحب أن تعلم لي أمر الناس، فخرج إليه ثم رجع فقال يا أمير المؤمنين، ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا يبكون، فكأنما فقدوا اليوم أبناءهم.

وجيء له بطبيب من الأنصار فسقاه لبناً فخرج اللبن من الجرح، فاعتقد الطبيب أنه مُنتهٍ، فقال: يا أمير المؤمنين اعهد. فبكى القوم لما

سمعوا ذلك. فقال عمر: لا تبكوا علينا، من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله عليه.

وكان عمر، رضي الله عنه، يخشى ما هو قادم عليه، فالمؤمن بين الخوف والرجاء، فيخاف عمر أن يكون قد قصر بحق الرعية ومسؤوليته، ويقول لمن كان حاضراً «وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه». وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، يريد أن يطمئنه ويخفف عنه، فيذكره بمكانه عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وأن رسول الله قد بشره بالجنة، فكان عمر يقول: «والله لوددت أني نجوت منها كفافاً لا عليّ ولا لي»، «والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر».

وقال له ابن عباس: لقد كان إسلامك عزّاً، وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً. فقال عمر: أتشهد لي بذلك يا ابن عباس؟ فقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لابن عباس: قل نعم وأنا معك.

وطلب عمر من ابنه عبد الله أن يفي ما عليه من الديون. ثم أرسله إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يستأذنها في أن يدفن بجانب صاحبيه، وقال له: قل لها: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فمضى عبد الله فسلم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلم عليها وقال: يقرأ عليك عمر السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده (المكان) لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

وكان عمر، رضي الله عنه، لا يريد أن يستخلف إلا أن ابنه عبد الله قد أقنعه بذلك. فعن عبد الله بن عمر أنه قال: دخلت على حفصة ونوساتها (ضفائرها) تقطر ماء فقالت: علمت أن أباك غير مستخلف؟ قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل.

فحلفت أن أكلمه في ذلك، فغدوت عليه ولم أكلمه فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، ثم قلت له إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف. أرأيت لو أنك بعثت إلى قيّم أرضك ألم تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض، قال: بلى. قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكس رأسه طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سن لي، إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلف فقد استخلف أبو بكر.

فعلمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله ﷺ وأنه غير مستخلف.

قال عمر: قد رأيت من أصحابي حرصاً شديداً، وإني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، ثم قال: لو أدركني أحد رجلين، فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به. سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح فإن سألني ربي عن أبي عبيدة قلت: سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة، وإن سألني عن سالم قلت: سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله.

قال: المغيرة بن شعبة: أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر.

قال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد.

وجعلها شورى في ستة: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم. وجعل

عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم، وأجّلهم ثلاثاً، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس.

وكان طلحة بن عبيد الله غير موجود آنذاك بالمدينة حيث كان مشغولاً، خارجاً ببعض أعماله. فدعا عمر القوم، وقال لهم: إني قد ظهرت لكم في أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم، فإن كان شقاق فهو منكم، وقال إن قومكم إنما يؤمرون أحدكم أيها الثلاثة (لعثمان، وعلي، وعبد الرحمن) فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين، ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين. وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس. ثم قال قوموا فتشاوروا فأمّروا أحدكم.

فلما خرجوا قال: لو ولوها الأجلح (علي) لسلك بهم الطريق، فقال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدّم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وذكر عمر سعد بن أبي وقاص فقال: إن وليتم سعداً فسبيل ذاك، وإلا فليستشره الوالي فإني لم أعزله عن عجزٍ ولا خيانة.

وقال عمر: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصل لكم صهيب ـ مولى بني جدعان ـ ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه.

وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بقليل فقال له: كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك، فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم. وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد

فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة ورضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم.

وقد لزم أبو طلحة أصحاب الشورى بعد دفن عمر حتى بويع عثمان بن عفان.

وبقي عمر ثلاثة أيام بعد طعنه ثم توفي يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقد غسله وكفنه ابنه عبد الله، وصلى عليه صهيب.

ويبدو أن سيدنا عمر، رضي الله عنه، سار في جعل الأمر بين رجال الشورى على غير الطريق التي كان يتبعها وهي طريقة الحسم في الأمر، إذ أن الاختيار ربما يجعل الرجل يفكر في أمر لم يكن يخطر في باله من قبل، بل ربما حدثت خلافات لم تكن لتحدث لو استخلف رجل معين فالكل يطيعون، والجميع لا يرغبون في هذا الأمر، هكذا الفطرة البشرية ترغب عند الاختيار، وتطلب حين الترشيح.

وربما ظن بعضهم أن هذه خطيئة وقع فيها سيدنا عمر، ويحاولون تخفيف ذلك الخطأ بأنه كان مصاباً ومن أجل ذلك حدث ما وقع، إلا أن التخطيط للانتخاب، ومحاولته معرفه سبب قتله، والنظرة البعيدة إلى المستقبل مع إصابته لتدل على مدى صحة تفكيره وسلامة عقله وعدم إضاعة أي شيء من النظر لمصلحة المسلمين. ولكن الخوف مما هو قادم عليه، جعله يريد أن يرفع المسؤولية عن نفسه، لقد كان يريد أن يستخلف إلا أنه خاف من تحمل التبعات وهو قادم للقاء الله عز وجل، وقد قال: لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق، ويعني علياً، ولما قال ابنه عبد الله: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً.

وكان دائماً يخشى موضوع الإمارة والمسؤولية، وهذا ما جعله يقول: وما أصبحت أخاف على نفسي إلا بإمارتكم هذه. ونراه يقول للمغيرة بن شعبة عندما اقترح عليه استخلاف عبد الله بن عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً ولا وزر ولا أجر إني لسعيد. ونراه لا يدخل ابن عمه سعيد بن زيد في رجال الشورى على الرغم من أنه لم يبق غيره من المبشرين في الجنة خارج رجال الشورى وما ذلك إلا لقرابته منه.

وعمر إذن قد جعل الأمر في رجال الشورى من المسؤولين وتحمل العقبات والسؤال عن ذلك يوم الحساب، وحرصاً على نفسه. ولم يدخل ابن عمه، ولم يقبل ابنه نصيحة لأهله ولنفسه حتى لا يكون ذلك سنة من بعده تتخذ ذريعة في استخلاف الأبناء والأقرباء وينتقل الحكم ملكياً وراثياً، كما حدث بعد وقت حيث قامت الدولة الأموية ومن بعدها العباسية، ومع هذا فإن في ذلك خطأ حصد المسلمون نتائجه، وكان سبباً بعيداً لما وقع فيما بعد.

ويبدو أنه كان في نفسه رغبةً إلى تولية علي بن أبي طالب، ويظهر ذلك من كلامه «لو ولوها الأجلح لسلك بهم الطريق» ويظهر ذلك من فعله، فإنه ما خرج من المدينة إلا وخلف عليها علي حتى يعود، ويلاحظ من بدئه بعلي عندما خاطبه «فاتق الله يا علي، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين» ـ وإن كان التقديم لا يدل على الترتيب ـ إلا أن الخوف هو الذي حمله أن يسلك هذا السلوك ويجعل الأمر شورى بين ستة نفر.

ومع هذا تعد طريقة سيدنا عمر سنة يمكن أن يؤخذ ويستأنس بها عندما يضطر إليها الخليفة، فيلجأ إليها لاختيار خليفة جديدٍ من بعده عندما

يكون الحكم إسلامياً. ويعد عمله هذا اجتهاداً ويؤجر عليه - إن شاء الله -.

وأما الذين قتلوا عمر فيبدو أنهم يمثلون جوانب متعددة تشمل الأطراف المعادية للإسلام والحاقدة عليه من مجوس، ويهود، ونصارى وربما كان لبعض زعماء الأعراب دور في الحادث، ولكن الذي قتلوا بقتله إنما هم الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة، وإن كانت بعض أصابع الاتهام تشير إلى كعب الأحبار، وعيينة بن حصن وغيرهما وهذا بعيد - والله أعلم - وكعب الأحبار صادق في إسلامه، قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين قتل عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة، والهرمزان، وهم نجيّ، فلما باغتُّهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذي وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر، فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه السيف، حتى دعا الهرمزان، فلما خرج إليه قال: انطلق معي حتى ننظر إلى فرس لي، وتأخر عنه حتى إذا مضى بين يديه علاه بالسيف.

قال عبيد الله بن عمر: فلما وجد حر السيف قال: لا إله إلا الله.

وقال عبيد الله: ودعوت جفينة، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة، وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص أقدمه المدينة للملح الذي كان بينه وبينه، وكان يعلم الكتابة والقراءة بالمدينة. قال: فلما علوته بالسيف صلّب بين يديه. ثمّ انطلق عبيد الله فقتل ابنةً لأبي لؤلؤة صغيرة. وأراد عبيد الله ألا يترك سبيّاً يومئذ بالمدينة إلا قتله، إلا أن الصحابة قد نهروه، ثم قُبض عليه، وسُجن حتى يُنظر في أمره الخليفة الجديد.

المجتمع الإسلاميّ أيّام عمر

لم يكن عهد الصديق طويلاً، وكان مليئاً بالأحداث الجسام التي كادت تعصف بالدولة، وقد شغل الارتداد جزءاً منه الأمر الذي جعل المجتمع الإسلامي، لم يتبلور بصورةٍ واضحةٍ إلا في أواخر ذلك العهد حيث قضي على أهل الردة، وزالت الشوائب التي عشعشت في بعض الزوايا مدة من الزمن، وبدا المجتمع جلياً في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، والتي طالت مدته نسبياً فزادت على عشر سنوات.

والسمة العامة للمجتمع الإسلامي عندما يحكمه شرعه ألا فوارق ولا طبقات توجد فيه، وإنما مساواة تامة، لا مساواة شعارات، أو مساواة نسبية حسب مراكز السلطة ومقامات الأفراد، وإنما هي مطلقة. وإذا بحثنا المجتمع على أساس أقسام، فإنما هو لإعطاء الصورة الواضحة له ومعرفة الخطوط العريضة، وليس يعني هذا أن هذه الأقسام هي طبقات متباينة يتميز بعضها عن بعض بالواجبات والمسؤولية، وإنما جميعها ذات حقوق واحدة، وواجبات واحدة، ومسؤولية واحدة، وهي أمام الشرع واحدة، لا يختلف في ذلك رأس السلطة الذي هو الخليفة عن أدنى رجل في المجتمع حتى أهل الكتاب من الذمة.

١ ـ **الخليفة**: وهو فرد من المجتمع لا يتميز عن أي فرد آخر، وقد سلمته الأمة قيادتها، وأعطته السلطة عليها، ليحافظ عليها، ويرعى حقوقها، ويتعهد أبناءها. وكان عمر يشعر بالمسؤولية التامة، ويحسّ بالعبء الثقيل الملقى على عاتقه، لذا كان دائم التفكير بالرعية، يخشى على نفسه من التقصير بواجباته فيكون حسابه عسيراً أمام الله، وهذا ما يخافه ويرهبه، لذا

فقد أجهد نفسه، فكان قليل النوم، ضئيل الطعام، بسيط اللباس، وأضنى جسمه، وأتعب أهله ومن أتى بعده، وأثقل على ولاته.

فكان مع نفسه شديد البكاء من خشية الله، فكان يمر بالآية وهو يقرأ فتخنقه العبرة فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء، ويُسمع نشيجه في الصلاة من آخر الصفوف. وكان أكثر الناس صياماً وصلاة.

وقال علي بن أبي طالب: رأيت عمر على قتب يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عناقاً (عنزة) ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة.

وكان يشعر أن الأموال التي جاءته من الفتوح إنما هي ابتلاء له واختبار، وإلا فلماذا لم تأت لرسول الله ﷺ ولا لأبي بكر، لذا كان يبكي ويقول: والذي نفسي بيده ما حبسه عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر إرادة الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له.

وكان يريد أن يعرّف نفسه قدرها، فخطب الناس مرة فقال: أيها الناس! لقد رأيتني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبض لي القبضة من التمر أو الزبيب. ثم نزل عن المنبر ولم يزد على ذلك. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرّفها قدرها؟

وكان إذا فعل فعلة عاد إلى نفسه فحاسبها على تلك الفعلة فإن راقت له قضي الأمر، وإلا بدأ يعاتب نفسه ويقرّعها ويبكي على ما فعل. فقد قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأعدني على فلان فإنه قد ظلمني. فرفع عمر الدرة

فخفق بها رأس الرجل وقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرّض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني أعدني! فانصرف الرجل وهو يتذمّر، فقال عمر: عليّ بالرجل: فألقى إليه المخفقة وقال: امتثل (اضربني كما ضربتك). فقال الرجل: لا والله ولكن أدعها لله ولك. قال عمر: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لي فأعلم ذلك. قال: أدعها لله. فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه، فصلى ركعتين وجلس فقال: يا ابن الخطاب! كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

وكان خشن الطعام لا يأكل إلا أدماً واحداً، ويترك الطيبات والاستمتاع بها في الحياة الدنيا، ويخاف الآية الكريمة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، ويريد ألا يأكل إلا ما يستطيع أكله فقراء المسلمين.

عن جابر بن عبد الله قال: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر: أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ ما تخاف الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

ودخل على ابنته حفصة أم المؤمنين فقدّمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال: أدمان في إناء واحد؟ لا آكله حتى ألقى الله عز وجل.

وقدم الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة، لقد باينونا بوناً بعيداً.

وكانت ثيابه مرقعة، ونعله مخصوقة، لا يلبس الخز. لذا كانت حياته على نفسه قاسية، وعندما خطب إلى عائشة، أم كلثوم بنت أبي بكر،

رضي الله عنهم، وهي صغيرة، قالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت لها عائشة: ترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إنه خشن العيش شديد على النساء. وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت: يغلق بابه، ويمنع خيره، ويدخل عابساً، ويخرج عابساً.

وكان مع أهله شديداً: فكان إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر.

ويمنع أهله أن يتدخلوا في أمر من أمور المسلمين، كما يمنعهم في الربح في التجارة إذ يظن أن في ذلك ممالأة لهم لمكانهم منه. ويصلي بالليل حتى إذا انتصف أيقظ أهله ويتلو الآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

وكان يعاتب الولاة إذا تساهلوا على أهله ويوبخهم أشد التوبيخ، ويقيم الحد على من خالف من أهله حتى ولده، فقد روي عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال يوماً ـ وقد ذكر عمر فترحم عليه ـ: ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر، رضي الله عنه، أخوف لله من عمر، لا يبالي على من وقع الحق، على ولد أو والد. ثم قال: والله إني لفي منزلي في مصر، إذ أتاني آت: فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. فزبرتهما وطردتهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. قال عمرو: فعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود: ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله

عمر إلى العاصي بن العاصي، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليّ وخلافك عهدي، فما أراني إلا عاز لك. تضرب عبد الرحمن في بيتك، وتحلق رأسه في بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين. وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع. فبعث به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتاباً اعتذر فيه أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر. فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال عمر: يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟ وكلمه عبد الرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد. فلم يلتفت إليه. فجعل عبد الرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي! فضربه ثانية، وحبسه فمرض ثم مات رحمه الله.

وكان مع الولاة يختار القوي الأمين منهم فليس المهم أن يكون الوالي صالحاً فقط فإن صلاحه لنفسه وضعفه يعود على الأمة، وإنما يجب أن يكون قوياً فقوته للأمة كلها وعدم صلاحه لنفسه، ولا يعطي الولاية إلا لصحابة رسول الله ﷺ، ويختار القوي منهم ويقول: إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه. وقد استعمل المغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان وفي الصحابة من هو أفضل منهم أمثال عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وما ذلك إلا لقوة أولئك في العمل وخبرتهم، ولأن عمر يريد أن يُشرف عليهم، ويريد أن يهابوه، كما أنه لا يريد أن يدنس كبار الصحابة بالعمل، وقلما كان يريد أن يستعمل بني هاشم وآل البيت، ويقول لابن عباس: إني رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم.

وكان يشترط على الولاة حين يستعملهم بأن لا يظلموا أحداً في

جسمه ولا في ماله، ولا يستغلّ منصبه في فائدة خاصة أو مصلحة له أو لأهل بيته، ويكتب بذلك كتاباً للوالي ويشهد عليه عدداً من صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار. ويقول للوالي: إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، وإنما أستعملك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل.

وكان يراقب الولاة، ويتدخل في طعامهم، وشرابهم، ولباسهم، ومسكنهم، أي كانت بيده السلطة كلها، وإضافة إلى ذلك يطلب من عماله أن يوافوه في كل موسم حج. كما يسأل الناس عن ولاتهم، وتمسكهم بالشرع، وحكمهم بالعدل، ويستمع إلى شكوى الناس على أمرائهم. وكان محمد بن مسلمة، رضي الله عنه، يعد من كبار المحققين مع الولاة إذا سمع عن أحدهم شيئاً. فقد أرسله للتحقيق مع سعد بن أبي وقاص عامله على العراق، كما سمع شكوى على المغيرة بن شعبة؛ وعمرو بن العاص، وقدامة بن مظعون، وسعيد بن عامر، وعياض بن غنم وغيرهم، ولعل أشهر شكوى وأبلغها ما كان على عمرو بن العاص والي عمر على مصر.

قال أنس: كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك! قال: وما لك؟

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل، فأقبلت فرسي، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو، فقال: فرسي ورب الكعبة. فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة. فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عمراً أباه، وخشي أن آتيك فحبسني في السجن، فانفلت منه، وهذا حين آتيتك. فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس. ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك. فدعا عمرو ابنه، فقال: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟

قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟

فقدم على عمر.

قال أنس: فوالله إنا عند عمر، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه.

فقال: أين المصري؟

قال: ها أنذا.

قال: دونك الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينتزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين.

ثم قال عمر: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني.

قال عمر: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه. أيا عمرو! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

فجعل عمرو يعتذر ويقول: إني لم أشعر بهذا.

ثم التفت عمر إلى المصري وقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب لي.

وكان مع الرعية خير أمير إذ كان يمر على النساء اللواتي ذهب رجالهن إلى الجهاد، ويطلب منهن أن يذكرن حاجاتهن في البيع والشراء، ويسير إلى السوق ووراءه أولادهن وجواريهن، ويؤمن لكل صاحبة بيت طلبها. وإذا جاء البريد من الثغور أوصل الرسائل إلى أصحابها، وطلب من يقرأ هذه الرسائل لمن لا تعرف القراءة أو قرأها بنفسه إن أرادت صاحبة العلاقة، وقبل أن ينصرف يخبرهن بسير البريد، ويحدّد لهن الوقت إن كن يردن الكتابة لأزواجهن.

وإذا كان مع قوم في سفر تأخر عنهم يفتش عما نسوه، ويساعد من أبطأت به دابته، أو من أصابه حادث.

وكان يعسّ بالليل يتفقد من ينزل حول المدينة، ويحرس القوافل، ويسأل أصحاب الحاجات، فيؤمن طلبات ذوي الاستحقاق وما يجد في طريقه، وإذا دعا الأمر عاد إلى بيته فأخذ زوجته لتدخل على النساء اللواتي تستدعي حالتهن مهمةً نسائية.

قال: أسلم (غلام عمر): خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة (واقم)، حتى إذا كان بـ (صرار) إذا نار تُؤرّث (تؤجج) قال: يا أسلم إني أرى ها هنا ركباناً قصّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. (كره أن يقول: يا أصحاب النار). فقالت: وعليكم السلام.

فقال: أأدنو؟ فقالت: ادن بخير أودع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟

قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذا القدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا. والله ما بيننا وبين عمر. فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم.

قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا.

فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا.

فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، وقال: احمله عليّ.

قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أمّ لك!

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذرّي عليّ وأنا أحرّ لك. وجعل ينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم. ثم أنزل القدر، وقال: أبغني شيئاً.

فأتته بصفحةٍ فأفرغ القدر فيها، وجعل يقول ها أطعميهم وأنا أسطح لهم (أبرد لهم).

فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام، وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا أولى من أمير المؤمنين. فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ـ إن شاء الله ـ ثم تنحى ناحيةً عنها، ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟.

فلا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا، وهدؤوا.

فقام يحمد الله ثم أقبل علي فقال: يا أسلم. إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

وكان عمر يطوف بالأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكان يصلي الصلاة ثم يقعد، فيكلمه من يشاء، وليس على داره باب ولا حجاب.

وكان مع الجند نعم القائد فهو القائد العام للقوات الإسلامية، يعين القائد من الصحابة، ويختاره على هذا الأساس، وقد عيّن أبو عبيد الثقفي لكونه أول من لبى نداء الجهاد، وقد يعزل القائد فيصبح جندياً عادياً في الجيش، ويرقي الجندي فيصبح قائداً كبيراً، وما ذلك إلا لتقدير الشجاعة والإقدام، وحتى لا يطمع القائد في منصبه، ولا يضعف الجندي لمركزه، وقد عزل خالد بن الوليد عن القيادة حتى لا ينسب له النصر، فالله هو الفعال لما يريد، وما النصر إلا من عند الله، وكاد أن يفتن بخالد بعضهم.

وكان يبعث بأوامره وتعليماته إلى القادة بصورة مستمرة، ويسأل عنهم، ويعرف كل شيء من أمرهم حتى كأنه يعيش معهم، ويذكّرهم بالله

والخوف منه، والإخلاص له، ويحضّهم على القتال. ويسأل عن نتائج المعارك فإذا أبطأ عليه الخبر، خرج خارج المدينة يسأل الركبان، ويتقصىّ الأخبار، وإذا عصب الأمر يقرر الخروج بنفسه إلى ساحة القتال، ثم يستشير بذلك الصحابة كعادته عند كل قضية، وينزل عند رأيهم إذا اقتنع به. وكان يدير المعارك من مكانه الذي هو فيه على الجبهات كلها، ويرسل البريد السريع بالتعليمات، وتعيين القادة والطلائع والمقدمة والميمنة والميسرة والساقة، ويرتب الأفراد، ويوزع الأمراء على المدن وفي الجهات المقرر التوجه إليه.

وكان يفكّ أسرى المسلمين من بيت المال، ويقول: لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليّ من جزيرة العرب.

وكان مع الذميين نعم الحاكم العادل كان يفرض على الذميين ألا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم، وركوبهم، وما عدا ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في أمور قليلة معروفة، وكان إذا أسلم الذمي سقطت عنه الجزية، وإذا ثبت أن عليه دين يستغرق ماله كله، يعفى من العشر ومن الجزية.

وكتب إلى ولاته يأمرهم أن يمنعوا المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة، وأوصى بأهل الذمة أن يوفى لهم عهدهم، ولا يكلفون فوق طاقتهم.

ومرّ عمر بسائل شيخ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟

قال: أسأل الجزية، والحاجة، والسن.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال. ثم أرسل إلى خازن

بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم.

٢ ـ **الصحابة**: كان كبار الصحابة يعيشون في المدينة، لا يسمح لهم الخليفة بالخروج منها وحتى للجهاد، فقد كفاهم جهادهم مع رسول الله ﷺ، ويريد أن يعرض عليهم الأمور التي تجد، ويستشيرهم في القضايا، ويستفتيهم في المشكلات التي تقع له وللمسلمين، فكثيراً ما كان يسأل عثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة. كما يريد منهم أن يكونوا قدوةً يحتذى بها في الوسط الذي يعيشون به.

وكان الصحابة ينصحون الخليفة، ويعيشون معه قضايا الدولة، ويرون تعبه الشديد من أجل الرعية وحرصه الكبير على مصلحة المسلمين فيقولون له: رحمك الله أتعبت من بعدك. وكانوا مع الرعية صورة مصغرة عن الخليفة فالناس جميعاً يضعونهم موضعهم، وهم يلينون لهم كما يلين عمر. كما يوجهونهم ويفقهونهم في الدين. وكانت أفضلية الصحابة بالسابقة في الإسلام، فصهيب، وسلمان أسبق وأفضل من طلقاء مكة أمثال أبي سفيان، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فيروى أن سهيل بن عمرو والحارث بن هشام كان على باب عمر، فأذن لسلمان وصهيب وأمثالهما فتمعّر وجه الحارث وقال لسهيل: ما فعل بنا الرجل، فأجابه نحن فعلنا بأنفسنا دعوا ودعينا فأجابوا وأبطأنا فهم أسبق منا وأقرب، وفي اليوم التالي جاءا إليه وقالا: عرفنا ما فعلنا بأنفسنا، فهل لنا من عمل حتى نلحق بالركب، فأشار إليهم بالغزو فخرجا مجاهدين وقد استشهدا، رضي الله عنهما[1].

أما بالمسؤولية والعدل فكان الجميع على مستوى واحد، ليس لسابق منزلة فوق منازل الآخرين ولا لغيرهم دون ذلك، والصحابة كلهم إخوة محبتهم بعضهم لبعض فوق مستوى محبة الأشقاء.

---

(١) يبدو أن الحادثة قبل أن يتولى عمر الخلافة، إذ خرجا للجهاد قبل ذلك حيث استشهد الحارث بن هشام يوم اليرموك.

٣ ـ **الرعية**: كان الناس كتلة واحدة متراصة يشعر كل من بقي في مقره أنه المسؤول عن أسر المجاهدين الذين في الغزو، وبخاصة أنه يرى الخليفة بنفسه يقوم بهذه المسؤولية، ويتحمل التبعات، وتشعر الأسر بالترابط والمودة ما دام يجمعها جامع العقيدة ويربطها رابط الموقف الواحد وهو أن الرجال في الجبهات وعلى الثغور يعملون لإعلاء كلمة الله الأبناء والأمهات والمسنون ينتظرون نتائج المعارك وحوادث الجهاد، ويُرعون الرعاية التامة من خليفتهم وأمرائهم فيقلدون، والإيمان يدفعهم إلى ذلك، والإسلام يحثهم على المودة والرحمة «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى» فما من حادثة تحدث في المجتمع إلا ويشارك فيها جميعه، فأخبار النصر سرور للجميع بل وكلهم فيه مشاركون، وعام المجاعة الذي عرف بعام الرمادة وهو عام١٨ هـ قد جاع الناس جميعاً، فاشتركوا بالضراء، وتناولوا ما عند بعضهم جميعاً، وعندما بدأت تصل الأقوات من الأمصار بدأت توزع على الأفراد في المناطق التي أصابها البلاء، وعمها الضر بلا استثناء، فكل بيت يناله ما ينال جواره بغض النظر عن الأسبقية في الإسلام والأفضلية وبغض النظر عن العقيدة التي يدين بها أبناؤه، فالمسلمون والذميون على حد سواء، ينال الجميع الخير كما أصاب الجميع الضر.

٤ ـ **الذميون**: وهم أهل من أهل الكتاب من نصارى ويهود، ويضاف المجوس إليهم، وهم الذين عاهدوا المسلمين، ولم ينقضوا عهدهم، وحافظوا على مواثيقهم، فلم يأووا عدواً، ولم يراسلوا خصماً، وقد عاشوا سعداء شملهم عدل الإسلام، فأقاموا آمنين على أملاكهم وأموالهم وأبنائهم، لا يُعتدى على أحدٍ منهم، وإن حدث شيء أصاب العدل موقعه فأخذلهم حقهم ونال المعتدي جزاءه، وكانت المساواة بين الناس جميعاً وبلا استثناء، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إلا في نواحٍ قليلة، وكانوا يدفعون الجزية، ولا تعدل ما يدفعه المسلم من زكاة، ولا يخرجون للقتال،

وهم آمنون، ولهم الحق بالتقاضي حسب شرائعهم، كما لهم الحق في التقاضي بشرع الله المطبق في المجتمع الإسلامي.

وأخيراً فإن عمر، رضي الله عنه، قد أجلاهم عن الجزيرة لما ظهر منهم، ولقول رسول الله ﷺ: «لا يجتمع في الجزيرة دينان»، أما في بقية أمصار الدولة الإسلامية فقد بقوا على سعادتهم وحريتهم.

وهكذا كان المجتمع سعيداً بكل أفراده، فاضلاً بكل سلوكه، متماسكاً بكل لبناته، تسوده المساواة، وتنطلق فيه الحرية، وتعشعش فيه المودة، وتعيش فيه الرحمة.

الباب الثالث

عثمان بن عفّان

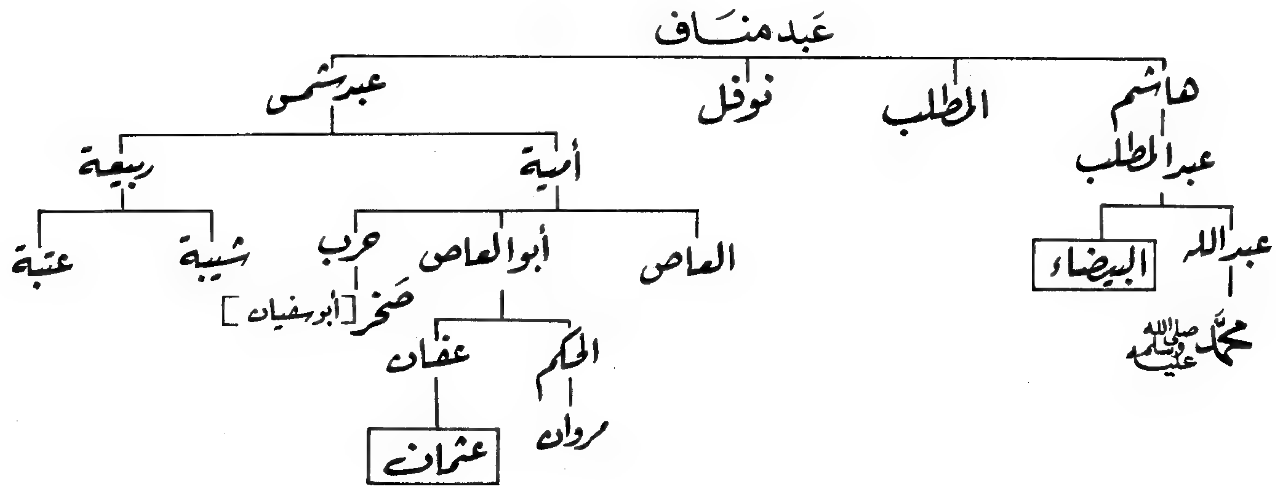
رضي الله عنه

حيـــاته

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وبذا يلتقي برسول الله ﷺ من ناحية أبيه بعبد مناف أو بالجد الرابع، ويلتقي به من ناحية أمه أيضاً، فأم عثمان هي: أروى بنت كريز، وأم أروى هي البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

ولد عثمان، رضي الله عنه، في الطائف سنة ٤٧ قبل الهجرة أي أنه أصغر من رسول الله ﷺ بست سنوات تقريباً. وكان أبوه (عفان) ثرياً صاحب تجارة، وقد مات في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام من أجل التجارة، وتوفي فيها. وخلّف مالاً لابنه عثمان، فأتجر به وربح، وجاد على قومه بما لديه من مال، فأحبه قومه، وقدموه، وكان وجيهاً بينهم، سيداً في قومه بني أمية، وأحد أعيان قريش كلها. وهذا كله ما حفظه لنا التاريخ من حياته في الجاهلية شأنه في ذلك شأن بقية الصحابة. ولكن تاريخهم في الإسلام معروف بكامله إذ أن الإسلام هو الذي صنعهم رجالاً من جديد فسجل التاريخ حياتهم كاملة في أنصع صفحاته.

وبعث محمد ﷺ وعثمان في الرابعة والثلاثين من عمره، ولم يلبث أن أسلم وكان من السابقين، إذ كان إسلامه قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم، بل وكان من العشرة الأوائل. وتروي الأخبار عن طريقة إسلامه، فيقال: إنه كان عائداً من الشام في تجارة له مع طلحة بن عبيد الله فسمع وهو بين النائم واليقظان منادياً يخبر ببعثة محمد ﷺ في مكة، وروى ابن حجر في الإصابة: أن سعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفان ـ وكانت تتكهن في الجاهلية ـ أخبرته بمبعث النبي ﷺ، قال عثمان:


عَبد منَاف
هاشم
المطلب
نوفل
عبد شمس
عبد المطلب
أمية
ربيعة
عبد الله
البيضاء
العاص
أبو العاص
حرب
شيبة
عتبة
محمد صلى الله عليه وسلم
صخر [أبو سفيان]
الحكم
عفان
مروان
عثمان

فوقع كلامها من قلبي، فجعلت أفكر فيه، وكان لي مجلس عند أبي بكر، فأصبته في مجلس ليس عنده أحد، فجلست إليه فرآني مفكراً، فسألني أمري، وكان رجلاً متأنياً، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فقال: ويحك يا عثمان! إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم، لا تسمع ولا تبصر؟... قلت: بلى، إنها كذلك، فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى خلقه، فهل لك أن تأتيه لتسمع منه؟ قلت: لا، فمر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب، فقام إليه أبو بكر، فساره في أذنه بشيء، فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك، وإلى خلقه، فما تمالكت نفسي حين سمعت قوله أن أسلمت.

وتأثرت قريش تأثراً كبيراً بإسلام عثمان إذ كان محبوباً من أفرادها، وله مكان بين أبنائها. وحاول عمه الحكم بن أبي العاص أن يثنيه عن إسلامه فلم يفلح، وعذّبه عذاباً شديداً، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من عزمه، ولما رآه ثابتاً على عقيدته، ماضياً في طريقه تركه وشأنه. وحاولت أمه أروى بنت كريز أيضاً أن تقنعه بالعدول عن رأيه، وتبديل خطه لكنها باءت بالفشل، واستمر هو على النهج الذي رسمه لنفسه.

وامتاز سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بناحيتين مهمتين جداً وهما: الحياء، فما كان يعرف إنسان أشد حياءً منه، حتى كان رسول الله ﷺ يستحي منه وحتى قال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة، وروى ابن عساكر أن النبي ﷺ قال: عثمان حيي تستحي منه الملائكة. أما الناحية الثانية فهي الكرم، فكان جواداً إذا لم يكن في قريش من هو أكثر منه جوداً، بل لا يوجد آنذاك من يعادله في السخاء والبذل.

وتزوج رضي الله عنه رقية بنت رسول الله ﷺ، وأنجب منها ولداً اسمه عبد الله، ولكنه لم يعش طويلاً، وتوفي وعمره ست سنوات.

ولما اشتد أذى قريش على المسلمين، وهاجر بعضهم إلى الحبشة،

استأذن عثمان رسول الله ﷺ في أن يهاجر مع زوجه رقية فأذن له، وهاجر، ثم عاد إلى بلده مكة.

وعندما بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة بعد بيعة العقبة، هاجر عثمان بن عفان إليها مع زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ. وعندما حدثت معركة بدر الكبرى بين المسلمين وقريش لم يشهدها سيدنا عثمان، إذ كانت زوجه مريضة فبقي بجانبها يمرضها بإذن من رسول الله ﷺ، وعدّه رسول الله من البدريين، وأسهم له بينهم. وما رجع المسلمون من تلك الغزوة حتى كانت رقية، رضي الله عنها، قد توفيت، فحزن عليها عثمان أشد الحزن. وكان في الجاهلية يُكنّى بأبي عمرو، فلما أنجبت له رقية ابنه عبد الله أصبح يكنى به، ولكنه توفي صغيراً ـ كما ذكرنا ـ وتزوج بعد رقية أختها أم كلثوم، ولكنها لم تنجب له، وتوفيت أيضاً.

وتزوج فاختة بنت غزوان، وأنجبت له عبد الله الأصغر، وقد هلك. وتزوج أم عمرو بنت جندب فولدت له عمراً، وخالداً، وأبان، وعمر، ومريم. وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له سعيداً، والوليد، وأم سعيد، وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك إلا أنه هلك، وتزوج رملة بنت شيبة بن ربيعة فولدت له عائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ولم تنجب له ذكوراً. وتزوج نائلة بنت الفرافصة فولدت له مريم. وبهذا يكون قد تزوج ثمان زوجات، واستشهد وعنده ثلاث هن: أم البنين بنت عيينة، وفاختة، ونائلة. ووُلد له ٩ أولاد مات ثلاثة منهم صغاراً، وهم عبد الله وعبد الله الأصغر، وعبد الملك، وعاش الباقون وهم: عمرو، وخالد، وأبان، وعمر، والوليد، وسعيد. كما ولد له ست بنات وهن: مريم، وأم سعيد، وعائشة، وأم أبان، وأم عمرو، ومريم الصغرى.

وشهد عثمان، رضي الله عنه، المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي السنة السادسة سار رسول الله مع المسلمين إلى مكة ليزور البيت، ويؤدي مناسك العمرة، إلا أن قريشاً قد اعترضت سبيله، وظنت أنه قد جاء غازياً

على حين أنه قد ذهب زائراً للبيت ومعظماً له، وعلى الرغم من أن عدداً من زعماء قريش قد أقروا بذلك، ومع هذا فقد أصرّت قريش على تعنتها ورفضها، ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل أحد صحابته ليفهم قريشاً ما أتى المسلمون من أجله لتخلي بينهم وبين ما أرادوا. ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به، فقال عمر: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

انطلق عثمان بن عفان إلى مكة، ووصل إلى أشراف قريش، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فأجابهم رضي الله عنه «ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ». وأبلغ عثمان قريشاً ما جاء من أجله، إلا أن قريشاً استمرت على إصرارها بمنع المسلمين من زيارة البيت، واحتبست عثمان بمكة حتى طال لبثه بها على رسول الله والمسلمين، وترامى إليهم أن قريشاً، غدرت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم». وأخذ رسول الله في مبايعة أصحابه، فتمت بيعة الرضوان من أجل عثمان بن عفان، رضي الله عنه. وبايع رسول الله عن عثمان بإحدى يديه الأخرى.

وروى البخاري في صحيحه قال: جاء رجل من أهل مصر، حج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر، إني أسألك عن شيء فحدثني عنه، قال: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم. قال هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبيّن لك.

أسرة سيدنا عثمان بن عفان

الزوجات	الأولاد
نائلة بنت الفرافصة	مريم الصغرى
رملة بنت شيبة بن ربيعة	أم عمرو أم أبان عائشة
أم البنين بنت عيينة بن حصن	عبد الملك
فاطمة بنت الوليد المخزومية	أم سعيد سعيد الوليد
أم عمرو بنت جندب	مريم عمر أبان خالد عمرو
فاختة بنت غزوان	عبد الله الأصغر
أم كلثوم بنت رسول الله	
رقية بنت رسول الله	عبد الله مات صغيرا

أما فراره يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك لأجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى، هذه يد عثمان، فضرب بها على يده اليسرى، فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

ولما أراد رسول الله ﷺ السير إلى تبوك، كان الناس في ضيق، وكان الجيش مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي، فطلب رسول الله التبرع من المسلمين وأعاد الطلب، فجهز عثمان الجيش حتى لم يفقد عقالاً ولا خطاماً. ويقال: إنه قد جهزه بتسعمائة وخمسين بعيراً، وخمسين فرساً، وجاء بألف دينار في ثوبه فصبها في حجر النبي ﷺ، فقال رسول الله: «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم: وتوفي رسول الله وهو عنه راض».

وكان في عهد أبي بكر يعدّ الكاتب الأول للخليفة، ويعدّ ثاني اثنين في تسيير شؤون الدولة بعد عمر بن الخطاب. وكان أصاب الناس في ذلك العهد قحط، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر، فقالوا: يا خليفة رسول الله، إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فماذا تصنع؟ قال: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرّج الله عنكم، فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام، وتصبح في المدينة فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسوقة براً، وزيتاً، وزبيباً، فأناخت بباب عثمان، رضي الله عنه، فلما جعلها في داره جاء التجار، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذي وصل إليك، فإنك تعلم ضرورة الناس، قال: حباً وكرامة كم تربحوني على شرائي؟ قالوا: الدرهم درهمين، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة، قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: خمسة، قال: أعطيت أكثر من هذا، قالوا: يا أبا عمرو، ما بقي في المدينة

تجار غيرنا، وما سبقنا إليك أحد، فمن الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقةً لله على المساكين وفقراء المسلمين.

وكتب عثمان لأبي بكر كتاب استخلاف عمر بيده.

وكان عثمان في عهد عمر الرجل الثاني في الدولة، فإذا أراد الناس أن يسألوا عمر شيئاً لاذوا بعثمان لمكانه منه. فهو الذي أشار على عمر بتسجيل الناس في سجلات خاصة وإنشاء الدواوين، وهو الذي أشار عليه بكتابة التاريخ الهجري بدءاً من شهر المحرم، وكان لين عثمان مع شدة عمر تعادل شدة عمر مع لين أبي بكر، لذا فلم يتغير شيء في شؤون الدولة لين مع حزم وشدة مع عطف.

خلافة عثمان بن عفان

لما دفن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد أن صلى عليه صهيب، جمع المقداد بن عمرو أصحاب الشورى في بيت المسور بن مخرمة، وكانوا خمسة وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، ومعهم عبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله غائب، وكان أبو طلحة الأنصاري يحرسهم، ويحجبهم من أن يدخل الناس إليهم.

تداول القوم الأمر، وتكلم كل منهم بكلمة تبيّن الإشفاق على الأمة والخوف من الفرقة. ثم قال عبد الرحمن بن عوف وقد كان في البداية أول المتكلمين «أيكم يخرج منها نفسه، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أنخلع منها؛ فقال عثمان: أنا أول من رضي، فإني سمعت الله ﷺ يقول: «أمين في الأرض أمين في السماء»، فقال القوم: قد رضينا - وعلي ساكت - فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: اعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى، ولا تخص ذا رحم، ولا تألو الأمة! فقال: اعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدّل وغيّر، وأن ترضوا من اخترت لكم، عليّ ميثاق ألا أخص ذا رحم لرحمه، ولا آلو المسلمين. فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله، فقال لعلّي: إنك تقول: إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك، وسابقتك، وحسن أثرك في الدين ولم تبعد، ولكن أرأيت لو صُرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر؟ قال: عثمان. وخلا بعثمان؛ فقال: تقول: شيخ من بني عبد مناف، وصهر رسول الله ﷺ، وابن عمه، لي سابقة وفضل - لم

تبعد - فلن يصرف هذا الامر عني، ولكن لو لم تحضر فأي هؤلاء الرهط أحق به؟ قال: علي. ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان، فقال: علي. ثم خلا بسعد، فكلمه، فقال: عثمان، وهكذا حصر الأمر بين علي وعثمان، ولم يرد عبد الرحمن بن عوف أن يختار هو فيرجح الكفة، ويُنظر إليه أنه هو الذي اختار أو عيّن، فقد كانوا، رضي الله عنهم، يريدون أن يبتعدوا عن مثل هذه المواقف والمواطن.

ودار عبد الرحمن يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم، فكان أكثرهم يشير إلى عثمان، حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل، وهو ثلاثة أيام، أتى منزل المسور بن مخرمة بعد ابهيرار من الليل، فأيقظه فقال: ألا أراك نائماً ولم أذق هذه الليلة كثير غمض! انطلق فادع الزبير، وسعداً. ويبدو أن عبد الرحمن رغب أن ينهي القضية بين أصحاب الشورى بالذات بالمناقشة، وأن يدع رأي من استشار خارجهم، وعسى أن يوفق في كسب رأي الزبير وسعد إلى جانب أحد صاحبي الأمر عثمان أو علي، وبعد اجتماعه بالزبير ثم بسعد رأى أن رأيهما لا يزال كالسابق، عندها حزم رأيه أن يأخذ البيعة لأحدهما أمام الصحابة حتى تكون أقوى وحتى لا تكون محاباة - معاذ الله - وحتى لا يستطيع أحدهما أن يعترض أو يظن شيئاً. وبعد أن صلى المسلمون الفجر في المسجد، جمع عبد الرحمن أصحاب الشورى، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، وإلى أمراء الأجناد، فاجتمعوا حتى غصّ المسجد بأهله. فقام عبد الرحمن وقال: أيها الناس، إن الناس قد أجمعوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَن أميرهم. فأبدى بعض المسلمين رأيهم فتكلم سعيد بن زيد وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأعطى رأيه لصالح عبد الرحمن إذ قال: إن نراك لها أهلاً، فقال عبد الرحمن: أشيروا عليّ بغير هذا! فقام عمار بن ياسر وأيّد علياً، ووافقه المقداد بن عمرو، ثم قام عبد الله بن سعد بن أبي سرح فأيد عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة. وكادت الأصوات تعلو، وعندها

وقف سعد بن أبي وقاص وقال: يا عبد الرحمن، افرغ قبل أن يفتن الناس، فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً، ودعا علياً، فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايعه، وبايع الناس جميعاً.

وهكذا استطاع عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، ألا يجعل خلافاً ولا فرقة، وألا يدخل رأي غير أصحاب الشورى الذين كانوا بجانب عثمان، وألا يقف بجانب واحدٍ من الرجلين وقد تساوت الآراء وتعادلت الأصوات، لقد استطاع هذا بمعرفة طبيعة الصحابيين الجليلين، رضي الله عنهما.

وفي اليوم الذي بويع فيه عثمان قدم طلحة بن عبيد الله أحد رجال الشورى ـ وقد كان غائباً ـ فقيل له: بايع عثمان، فقال: أكل قريش راضٍ به؟ قال: نعم، قال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم، قال: قد رضيت، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه، وبايعه.

وقد أكثر الرواة في ذكر رجال الشورى وما دار بينهم في هذه الأيام الثلاثة، وظهرت التناقضات بين الرواة، كما بدا الخلاف بين الصحابة حتى إن القارئ ليشعر أولئك النخبة المختارة قد تنافسوا على الإمارة تنافس أهل هذا الزمن إن لم نقل إنهم قد سبقوهم في ذلك، وما هذا بطبيعتهم، كما لا يتفق هذا مع إيمانهم وخوفهم في تحمل التبعة وفتنة الدنيا. والواقع أن بيعة سيدنا عثمان لا تعقيد فيها ولا منافسة، لذا لم يتخلف رجل عن البيعة، ولم يعقبها أية حادثة تدعو إلى الشقاق أو يؤول بها إلى ذلك.

وصعد عثمان بعد بيعته المنبر وهو أكثر أهل الشورى كآبة، وتكلم كلمة قصيرة نصح فيها الناس وذكّرهم بالآخرة، وحذّرهم من فتنة الدنيا.

وكانت بيعته، رضي الله عنه، في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة

إلى غرة المحرم من السنة الرابعة والعشرين من هجرة رسول الله ﷺ: وكان الولاة على الأمصار كما يلي:

والي مكة المكرمة: نافع بن عبد الحارث الخزاعي.

والي الطائف: سفيان بن عبد الله الثقفي.

والي صنعاء: يعلى بن منبه، حليف بني نوفل بن عبد مناف.

والي جَنَد: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

والي الكوفة: المغيرة بن شعبة الثقفي.

والي البصرة: أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري.

والي الشام: معاوية بن أبي سفيان الأموي.

والي حمص: عمير بن سعد.

والي مصر: عمرو بن العاص السهمي.

والي البحرين: عثمان بن أبي العاص الثقفي.

الفتوحات في عهد عثمان

لقد كان عهد عثمان، رضي الله عنه، مليئاً بالفتوحات، وهي تتمة لما كان أيام الخليفة السابق له وهو عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولقد استمرت هذه الفتوحات في البر والبحر مدة عشرة أعوام إلا أن ما حدث في العامين التاليين لها من فتنة، قد جعلها تنسى فطغت الفتنة حتى حسب الناس أن عهد عثمان لم يكن سوى فتنة واختلاف نشأت من بيعته ودامت بقية حياته التي انتهت باستشهاده.

كان أمير الشام معاوية بن أبي سفيان قد قام بغزو الروم ووصل إلى عمورية قريباً من انقرة اليوم، وكان معه من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، وأبو ذر الأنصاري، وشداد بن أوس.

لقد فتح المسلمون مناطق واسعة، وكان عدد جندهم قليلاً بالنسبة إلى تلك الأراضي الشاسعة، وبالنسبة إلى أعداد أعدائهم الكبيرة، وهذا ما جعلهم لا يتركون في المناطق التي يصالحونها إلا الجند القليل، ولا يبقون في البقاع التي يفتحونها إلا العدد الضئيل، وبخاصةٍ أنه كانت هناك جبهات مفتوحة، وثغور يجب حمايتها، ومراكز يجب الدفاع عنها والتجمع فيها للإمدادات في الأوقات اللازمة، كل هذا جعل عدد المسلمين قليلاً في البلاد المفتوحة حديثاً، وجعل أهلها يشحون في دفع الجزية، ويظنون أن بمقدورهم هزيمة المسلمين وقتالهم، وأن ما حدث معهم في المرة الأولى لم يكن سوى أخطاء ارتكبوها وقد عرفوها فيما بعد، ثم يتحسرون على عزهم الزائل وأيام مجدهم الخالية، لذا كانوا يتحينون الفرص للانقضاض

على المسلمين ونقض عهودهم معهم ـ هكذا النفس البشرية ـ ومن هنا كان نقض العهد كثيراً. وقد انتهز الفرس والروم في المناطق التي دخلها المسلمون وفاة خليفتهم عمر بن الخطاب، ونقضوا العهد، وظنوا أن أمر المسلمين قد ضعف، ولكنهم فوجئوا بأن قوة المسلمين على ما هي عليه لم تختلف أيام عمر عن أيام عثمان الخليفة الجديد، وقد أدب المسلمون خصومهم مرة ثانية.

الجبهة الغربية: نقضت الإسكندرية عهدها عام ٢٥هـ، فسار إليها أمير مصر عمرو بن العاص، وقاتل أهلها، وأجبرهم على الخضوع، والعودة إلى عهدهم.

وكان عمر بن الخطاب قد منع عمرو بن العاص من الانسياح في إفريقية بعدما فتح طرابلس، إلا أن عثمان بن عفان قد سمح بذلك، وأرسل عبد الله بن سعد بن أبي سرح على رأس قوة، فاجتاز طرابلس، واستولى على سفن للروم كانت راسية هناك على الشاطيء، ثم واصل سيره في إفريقية، والتقى بجيوشٍ للبيزنطيين عام ٢٧هـ في موقع يقال له (سبيطلة) في جنوب غربي القيروان التي لم تكن قد أسست بعد، وقد قتل عبد الله بن الزبير، وكان مع الغزاة في تلك الموقعة القائد البيزنطي (جرجير)، وكان ذا أثر فعّال في الانتصار الذي أحرزه المسلمون على الروم، إلا أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد اضطر إلى عقد معاهدة للصلح مع البيزنطيين مقابل جزية سنوية يدفعونها على أن يخلي إفريقية، وكان ذلك الاضطرار بسبب سيره إلى مصر لمواجهة النوبة الذين هددوا مصر من ناحية الجنوب.

وفي أيام عمر بن الخطاب ألح أمير الشام معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه؛ فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير؛ إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد

فيه اليقين قلةً، والشك كثرةً، هم فيه كدودٍ على عودٍ، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً). فلما ولي عثمان لم يزل به معاوية؛ حتى عزم على ذلك بأخرة، وقال: لا تنتخب الناس، ولا تُقرع بينهم، خيّرهم؛ فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي[1] حليف بني فزارة.

غزا معاوية قبرص وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك عام ٢٨هـ، وساعد أهل مصر في تلك الغزوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما وصل إلى قبرص، كان معاوية على الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وكانت مع عبادة بن الصامت زوجه أم حرام.

وغزا حبيب بن مسلمة بعض أرض سورية التي كانت لا تزال بيد الروم وذلك عام ٢٨هـ.

وفي عام ٣١هـ جرت معركة بحرية حاسمة بين المسلمين والروم بالقرب من شواطئ كيليكيا، وهي التي تعرف بذات الصواري، وعرفت بذلك لأن صواري السفن ربطت بعضها مع بعض المسلمة والرومية، وذلك بعد أن أمن بعضهم بعضاً واختار الروم قتال البحر، وكان قائد المسلمين

---

(١) غزا عبد الله بن قيس خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده، خرج في قارب طليعة، فانتهى إلى المرقى من أرض الروم، وكان هناك ناس يسألون فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من الذين كانوا يسألون إلى القرية، وقالت: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى، قالوا: ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك،، فعرفت أنه عبد الله بن قيس. فثاروا إليه، فتجمعوا عليه، وقاتلوه حتى أصيب وحده، وأفلت الملاّح حتى رجع إلى أصحابه، فتسلم الإمرة بعده سفيان بن عوف الأزدي.

أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقائد الروم الأمبراطور نفسه قسطنطين الثاني الذي كان يقود أكثر من خمسمائة سفينة، ومع ذلك فقد فرّ من المعركة، وهزم الروم شرّ هزيمة. وكانت صواري السفن من أشجار السرو والصنوبر وهذا ما يدل على أهمية الأشجار والغابات لكلا الطرفين، وجبال تلك الشواطئ كانت مليئة بهذه الأنواع من الأشجار.

وفي عام ٣٣هـ غزا أمير الشام معاوية بن أبي سفيان حصن المرأة من أرض الروم قرب ثغر ملاطية.

ونقضت إفريقية العهد عام ٣٣هـ فسار إليها أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ففتحها ثانية، وأجبر أهلها على الخضوع والعودة إلى دفع الجزية بعدما منعوها.

الجبهة الشرقية: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينيا، وكان أهلهما قد منعوا ما صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب، وكان على مقدمة الوليد سلمان بن ربيعة الباهلي، واضطر سكان المنطقتين إلى المصالحة من جديد.

وأمد أهل الكوفة أهل الشام بثمانية آلاف رجل بإمرة سلمان بن ربيعة الباهلي، وذلك عندما كان حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري يغزو أرمينيا من الغرب، فاجتمع له عدد كبير من جند الروم الأمر الذي أخافه وطلب المدد فأنجده الوليد بن عقبة بسلمان بن ربيعة الباهلي.

وسار أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد غازياً حتى وصل إلى فرغانة وذلك عام ٢٩هـ، كما سار في العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثي فوصل إلى كابل، وانطلق أمير كرمان عبيد الله بن معمر التميمي فوصل إلى نهر السند. وانتفض أهل اصطخر فسار إليهم عبد الله عامر بن كريز أمير البصرة، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص.

وسار أمير الكوفة سعيد بن العاص يريد خراسان ومعه الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر،

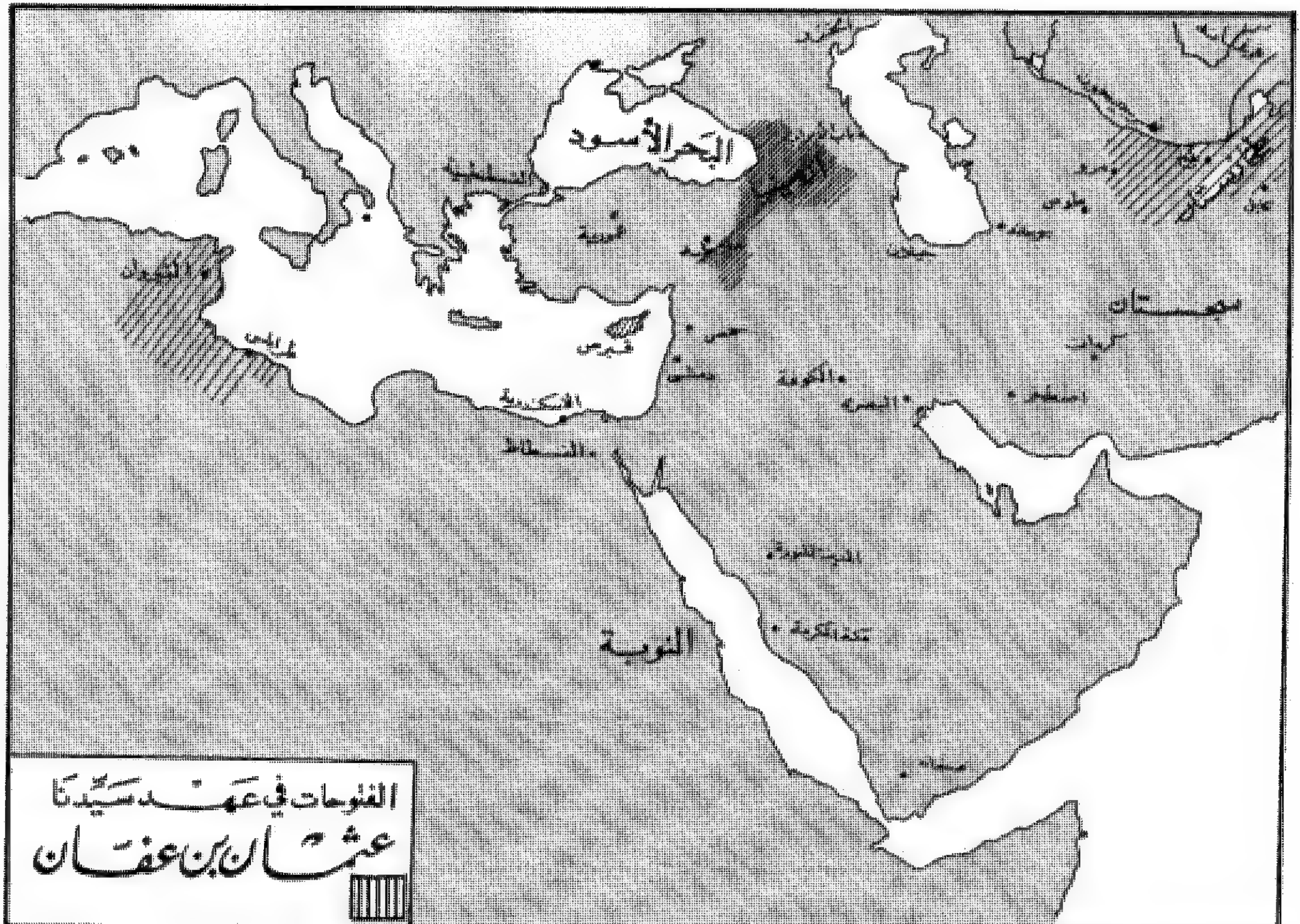
وعبد الله بن الزبير، إلا أن أمير البصرة عبد الله بن عامر قد سبقه نحو خراسان الأمر الذي جعل سعيداً يسير إلى قومس وهي لا تزال على الصلح الذي أعطته لحذيفة بن اليمان بعد معركة نهاوند، ومن قومس سار إلى جرجان فصالحه أهلها على مائتي ألف، وسار نحو الشمال حتى وصل إلى الصحراء، ولكن أهل جرجان لم يلبثوا أن كفروا واستمروا في قطع الطريق حتى تولى أمر خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي.

وسار عبد الله بن عامر إلى فارس بعد أن انتفضت، فافتتحها وهرب يزدجرد إلى كرمان، فأرسل في أثره مجاشع بن مسعود السلمي ففر يزدجرد إلى خراسان، وطلب المال من مرو فمنعه، ثم التجأ إلى رجل على شاطئ نهر مورغاب يعمل في نقر أحجار الرحى فقتله.

ووصل عبد الله بن عامر إلى خراسان، وكانت قد انتفضت، وكان الأحنف بن قيس على مقدمته، ففتح طوس، وأبيورد، ونسا، وبلغ سرخس، وصالح أهل مرو، وأعاد فتح خراسان.

وفي عام ٣٢هـ كتب عثمان إلى أمير الكوفة سعيد بن العاص أن أرسل سلمان بن ربيعة الباهلي للغزو في منطقة الباب، فسار سلمان إليها، وكان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي يخوض معركة ضد خصومه، فاستشهد فيها وتفرق المسلمون هناك، فمنهم من سار إلى جيلان وجرجان ومنهم أبو هريرة، وسلمان الفارسي، ومنهم من سار نحو سلمان بن ربيعة الباهلي فحماه، وكان على الحرب مع سلمان حذيفة بن اليمان، وطلب عثمان من أهل الشام في أرمينيا بإمرة حبيب بن مسلمة أن ينجدوا سلمان بن ربيعة الباهلي في منطقة الباب ففعلوا.

وعادت خراسان فانتفضت من جديد فبعث عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو الروذ فصالح أهلها، واجتمع عليه أهل (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و (طخارستان) فانتصر عليهم بإذن الله، وصالح أهل (بلخ)، وأرسل الأقرع بن حابس إلى (الجوزجان) ففتحها. ثم عاد الأحنف إلى خراسان مرة ثالثة في عام ٣٣هـ.


الفتوحات في عهد سيدنا
عثمان بن عفان
البحر الأسود
قبرص
الإسكندرية
الفسطاط
الكوفة
البصرة
النوبة

وهكذا فقد كانت الفتوحات أيام سيدنا عثمان بن عفان واسعة إذ أضافت بلاداً جديدة في إفريقية وقبرص وأرمينيا، وأجبرت من نقض العهد إلى الصلح من جديد في فارس، وخراسان، وباب الأبواب، وضمت هناك إضافة إلى ذلك فتوحات جديدة في بلاد السند، وكابل، وفرغانة.

المجتمع الإسلامي أيام عثمان

كان المجتمع الإسلامي أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فاضلاً ومتماسكاً، ولم يختلف يوم تولى الأمر عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إن لم نقل أن الرضا كان من عثمان أكثر من عمر للينه، وقد ملّ المجتمع الحزم، ولرفقه وقد تعب الناس من الشدة وإن حاول الكثير إظهار الخلاف الكبير بين العهدين، والرضا بعهد عمر، وإنقاص حق عهد عثمان. ولم يكن للشورى التي أوصلت عثمان إلى الخلافة أي أثر في المجتمع، إذ تمت بشكل طبيعي ودون أن يحاول أحد رجالها أن يسعى للحكم أو يعمل، فعبد الرحمن بن عوف ـ كما نعلم ـ سلخ نفسه منها، والزبير رشح غيره، وكذا سعد، ولم يبق إلا علي وهو رجل زاهد فيها من البداية إلى النهاية، وبايع عثمان كما بايع غيره، ولم يختلف أحد من المسلمين.

إلا أن المشكلة التي كثر البحث فيها هي قتل الهرمزان، وجفينة، وابنة أبي لؤلؤة على يد عبيد الله بن عمر، فالحادثة التي قتل فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جريمة سياسية اشتركت فيها أطراف متعددة من مجوس، ويهود، ونصارى... بعضهم كان يظهر الإسلام، وبعضهم من بلاد ثانية كان لهم دور في التخطيط للقتل... والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحد من جرائم القتل وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بتنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب رأيه وهواه باسم إقامة الحدود... ولما قام بالأمر عبيد الله بن عمر فلا بدّ من حسابه، ولكن الخليفة أيضاً هو الذي يحاسبه وينظر في أمره

وليس سوى ذلك، لذا فقد حُبس عبيد الله بانتظار رأي الخليفة الجديد، فلما تولى عثمان كانت هذه أول مشكلة واجهته، ولا بدّ من إقامة الحد وهو القتل، وهذا ما أشار به علي بن أبي طالب وعدد من الصحابة، وقد صعب على عدد آخر أن يقتل عمر بن الخطاب بالأمس بأيدٍ قذرةٍ واليوم يقتل ابنه، إلا أن المسلم لا يقتل بغير المسلم، وشك الناس في إسلام الهرمزان لذا فقد عرضوا على عثمان أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الدية من بيت المال وتعود، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم، وفكر بعضهم أن يقوم الخليفة بدفع الدية من ماله الخاص، وعلى كلٍ فإن الخليفة لا يمكن أن يقبل بهذا التحايل لتعطيل حدٍ من حدود الله، ولكنه دفع عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بابيه، إذ عدَّ الهرمزان مسلماً، فيقول القماذبان: كانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، فمرّ فيروز بأبي، ومعه خنجر له رأسان، فتناوله منه، وقال: ما تصنع بهذا في هذه البلاد؟ فقال: آنس به، فرآه رجل، فلما أصيب عمر، قال: رأيت هذا مع الهرمزان، دفعه إلى فيروز. فأقبل عبيد الله فقتله، ولما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه، ثم قال: يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منّا، فاذهب فاقتله، فخرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلا أنهم يطلبون إلي فيه. فقلت لهم: ألي قتله؟ قالوا: نعم ـ وسبّوا عبيد الله ـ فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه فتركته لله ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلا على رؤوس الرجال وأكفهم[1]. وبهذا فقد عفا صاحب الحق، وعندها قام عثمان بدفع الدية من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليهم، وقد دفع الدية لهم ثم ردت إلى بيت المال. وهكذا حلت هذه المشكلة بطريقة سليمة، وانقطع الحديث فيها، وعاد للمجتمع تماسكه ورجع فاضلاً كما كان، إلا أنه مع الزمن بدأ يفقد مقوماته تدريجياً، وهذا الأمر يعود لأسباب منها ما تتعلق بالخليفة بالذات، ومنها ما يتعلق بتغير الظروف، ومنها ما يتعلق بالسياسة التي سار عليها.

---

(١) تاريخ الطبري: الجزء الرابع.

كان عمر بن الخطاب حازماً شديداً على أمرائه وهذا ما أخاف الناس وجعل له هيبة بينهم بحيث لا يجرؤ أحد على مخالفته، فقد روى ابن الجوزي: أن عمر قدم مكة، فأقبل أهلها يسعون، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن أبا سفيان ابتنى داراً فحبس مسيل الماء ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً، فقال عمر: ارفع هذا، فرفعه ثم قال: وهذا، وهذا، حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي يجعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه[1].

وروى الطبري: أن عمر، رضي الله عنه، جاءه مال، فجلس يقسمه بين الناس فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرة، وقال: أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك.

أما عثمان فقد كان ليناً للناس الأمر الذي أطمعهم فيه، وطالبوه بأشياء كثيرة منها عزل الولاة، فقد عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى سعد بن أبي وقاص، ثم عزله وولى الوليد بن عقبة، ثم عزله وولى سعيد بن العاص، ثم عزله وولى أبا موسى الأشعري. وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز. وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح. كما كان ليناً على الولاة فتطاول بعضهم عليه. فعثمان، رضي الله عنه، كان بطبعه ليناً، وعمر بطبعه حازماً.

واشتد عمر على أهله، فكان إذا نهى عن شيء جمع أهله فقال لهم: إني نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير

(١) الحادثة غير صحيحة حيث كان أبو سفيان أثناء خلافة عمر أعمى إذ فقد عينه الأولى يوم الطائف، والثانية يوم اليرموك، والأعمى لا يستطيع أن يرفع الحجر ويضعه في مكان محددٍ.

إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، إني والله لا أوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا اضعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر، أما سيدنا عثمان فقد كان ليناً على أهله وأقربائه كما كان لينا للناس جميعاً، بل الأولى والأحرى أن يكون ذا رفق بذي رحمه، ويوم قامت الدولة الإسلامية كان ينفق ما شاء الله أن ينفق على الدولة وتجهيز الجيوش، وإعداد الغزو، فلما قامت الفتوحات، وجاءت الغنائم والفيء، وأصبحت الدولة بحالة غنى وثراء التفت عثمان إلى أقربائه يعطيهم ويتقرب إليهم ويقربهم، وهذا أمر محبب ومطلوب يصل الإنسان رحمه، فهذا اللين لهم قد أطمعهم فيه أيضاً، وولى بعضهم لقدرته على العمل، وكفاءتهم في الإمارة، وقد كان بعضهم صاحب ولاية من قبل عثمان، وقد عرف رضي الله عنه أنه يحب أقرباءه لدرجة كبيرة.

عندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة كانت ماديات الدولة لا تزال ضعيفة وأحوال الناس المالية لا تزال قليلة، لذا كانوا أقرب إلى الحياة البسيطة الهادئة، والرضا بكل ما يأتي، والصبر على الشدائد، وقبول أوامر الولاة والأمراء، إضافة إلى انشغالهم بالجهاد والسير إلى الثغور والانطلاق من وراء الفتوحات في سبيل الدعوة ونشر الإسلام، فلما توسعت الدولة، وجاءتها الغنائم من كل جهة، وزعت الغنائم على المقاتلين، وأعطيت الأموال إلى الناس حتى كثرت بأيديهم، وبطبيعة الحال فإن سيدنا عثمان كان يعطي ويوزع ما في بيت المال لكثرة ما يدخل، ولحاله وكرمه المعروفين، بل كان أحياناً يعطي من ماله الخاص إن لم يكن في بيت المال من فائض، وهذا ما جعل الحال تتغير تدريجياً عن أيام عمر حتى أواخر عهد عثمان حتى زادت زاوية التغير انفراجاً، ووصلت إلى درجة واسعةٍ نسبياً في نهاية أيام عثمان.

وجاءت الفتوحات وحملت العرب والمسلمين إلى الأمصار يجاهدون في سبيل الله، ومنهم من يقيم في الثغور، ومنهم من يستقر في البلاد التي مصّرت ليكون قريباً من ساحات القتال، وهناك يبتني داراً له، ويتخذ لنفسه

أسرة، وليسوا هؤلاء كلهم من صحابة رسول الله ﷺ الذين اهتدوا بهديه فساروا على نهجه وإنما كثير منهم من الأعراب من تميم، وكندة، وقضاعة، وكلب، وباهلة، وعبد القيس، وبكر بن وائل، وكانت لهم في الفتوحات يد فكانوا يشعرون بأن لهم فضلاً ما للسابقين، ولهم قوة يجب أن يحسب لها حساب، ورأي يجب أن يسمع بل ويؤخذ به، وكثرت بأيديهم الأموال ـ كما ذكرنا ـ فعندما يتوقف الغزو سيكون أمرهم صعباً، وأخذهم بالحزم مشكلة. وفي الوقت نفسه قلّ سكان المدن في الجزيرة وبخاصة مدينة الرسول ﷺ إلا أنه قد جاءها نتيجة الفتوح الموالي والأرقاء فتغيرت طبيعتها الأولى التي كانت متشابهة، وأقرب إلى البساطة وأميل إلى البداوة، فأصبحت متنوعة تنوع من جاء إليها ومختلفة باختلاف حضارات الذين دخلوا إليها، وهذا ما جعل تمازجاً بين السكان من بيئات متباينة جعلت في النهاية سياستها صعبة أو على الأقل تختلف عما كانت عليه، وينظر الناس بعضهم إلى بعض نظرات متباينة يكاد ينشأ عنها نوع من الطبقات لا يعرفها الإسلام ولا يقرّ بها، وفي هذه الأثناء تظاهر جماعات بالإسلام، وفي نفوسهم شيء يريدون أن يحققوه ومنهم عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وهو من يهود صنعاء، ومعروف ما يريده اليهود، ومعروف مكرهم، وقد رأى أن تظاهره بالإسلام يرفعه إلى مستوى المسلمين جميعاً، إذ ليس في الإسلام طبقات وفروق اللهم إلا ما كان في الأعطيات لأصحاب السابقة من المهاجرين والأنصار ومن شهد بدراً، والإسلام يجب ما قبله.

كان عمر بن الخطاب قد منع كبار الصحابة من الخروج من المدينة، وأبقاهم بجانبه ليكونوا مستشارين له، وحتى يبقوا أسمى من مغريات الدنيا التي تعترض سبيلهم في البلاد المفتوحة، وخوفاً على المسلمين الذين يدخلون في الإسلام جديداً من أهل الأمصار من أن يفتنوا بهؤلاء الصحابة فيقولون: هؤلاء صحابة سيد الخلق، وصحابة رسول الله و. . . وقال لهم رضي الله عنه: كفاكم ما جاهدتم به مع رسول الله ﷺ، فلما جاء

عثمان بن عفان سمح لهم بالانسياح في أرض الله، والانطلاق أينما شاءوا، وقد زاد حالهم وكثرت أملاكهم، وبنوا الدور في الأمصار، فقد بنى الزبير بن العوام داراً له بالبصرة وغيرها في الكوفة وفي مصر، وبنى طلحة بن عبيد الله داراً له في الكوفة، وكانوا ينتقلون بين أملاكهم وضياعهم، وهذا بالإضافة إلى ما بناه عبد الرحمن بن عوف في المدينة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وارتبط أهل الأمصار بمن كان يتصل بهم ويحتك معهم من صحابة رسول الله ﷺ.

وهكذا تغير المجتمع في عهد عثمان بن عفان، إلا أنه رضي الله عنه لم يغيّر ولم يبدل، ولم يحدث جديداً، ولم يبتعد عن سيرة رسول الله ﷺ، ولا عن نهج الشيخين من قبله، وإنما لينه وحبه لأقربائه وكرمه في العطاء قد أطمع فيه فكثر القول، ووجود الموالي والأرقاء في المدينة والصحابة خارجها قد شجع أصحاب الأهواء البدء في العمل بالخفاء، وكثرة الأموال في أيدي الناس واكتفاؤهم قد جعل الألسنة تتكلم وبدأ الحديث عن الخليفة نقطة انطلاق، والتهديم في المجتمع بدء ارتكاز.

بدأت الفتنة عندما أشعلها عبد الله بن سبأ (ابن السوداء)، وهو من يهود صنعاء، وكانت أمه سوداء، لذا عُرف بذلك، وقد أسلم أيام عثمان ليستطيع التأثير على نفوس أولئك الأعراب والبداة والذين دانوا حديثاً بالإسلام من سكان الأمصار، إذا تنقل في بلدان المسلمين فبدأ بالحجاز، ثم سار إلى البصرة، ومنها إلى الكوفة، ثم إلى الشام، إلا أنه لم يستطع التأثير على أحد من أهل الشام، وبعدها أخرجوه إلى مصر حيث استقر هناك، وكان في كل مكان يحلّ فيه يتصل بالأشخاص ويتحدث إليهم ويبدي تفهمه للإسلام، ويُظهر معرفته، ويقف موقف العالم، فيقول: عجيب من يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، والله سبحانه وتعالى يقول: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد». فمحمد أحق بالعودة والرجوع من عيسى. وهكذا بدأ بالتشكيك في العقيدة، والناس على فطرتهم حديثو العهد بالإسلام في الأمصار لا يعرفون الفلسفات

والمناقشات، والبدو الذين يعيشون معهم أكثر جلافة وإذا اقتنعوا بشيء صعب استخلاصه من نفوسهم بالأمر السهل. ورأى هذا اليهودي أن علي بن أبي طالب على رأس الصحابة الذين بقوا من حيث الاحترام والتقدير، بل يعد الشخص الثاني بعد الخليفة، وله عند الشيخين مركز ووزن يستشار في كل أمر، ويدعى في كل معضلة، ويؤخذ رأيه في كل مشكلة، هذا بالإضافة إلى قرابته من رسول الله ﷺ وعلمه وفهمه، لذا رأى هذا الخبيث أن يركز على هذا الصحابي الجليل، وأن يدعو له لا حباً به وتقديراً، وإنما لبذر الفتنة في المجتمع، وحتى لا يُعرف مخططه فيظهر أنه يدعو للشك والريبة، فدعوته لأحد البارزين من الصحابة تخفي ما يضمر، وتقرّبه من نفوس بعض الرجال الذين يعرفون قدر علي. فكان يقول: إن علياً هو وصي محمد ﷺ، فإن لكل نبي وصياً. ثم انتقل بعد بذر الفتنة وإلقاء جذور البلاء في المجتمع يطعن بالخليفة نفسه وبولاته وأمرائه وأنهم دون الصحابة الأجلاء، وأنهم لم يحتلوا هذه المراكز إلا لكونهم من ذوي رحم الخليفة الذي بلغ من العمر عتياً، وأنهم قد أثروا عليه، وأصبح أداة طيعة في أيديهم، مع العلم أن إمرة المفضول تصح مع وجود الفاضل، وأن إمارة القوي المسلم خير من إمارة المؤمن التقي الورع إذا لم يكن في قوة ذاك، إضافة إلى أن أكثر ولاة سيدنا عثمان كانوا قد تسلموا الإمارة أيام سيدنا عمر. . .

ظهرت بذور الشر أول ما ظهرت في الكوفة إذ بدأ الحديث عن الوالي سعيد بن العاص حتى وصل إلى الخليفة، وذلك على ألسنة العوام وأولئك البداة والذين دانوا بالإسلام، ومن هؤلاء مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وثابت بن قيس النخعي، وكميل بن زياد النخعي، وزياد بن صوحان العبدي، وجندب بن زهير الغامدي، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأمثالهم من أهل الصحراء والقبائل. وكان ذلك في أواخر عهد سيدنا عثمان، وبعد مرور عشر سنوات على تسلمه الخلافة، وفي عام ٣٤هـ، سُيّر هؤلاء المنحرفون من الكوفة إلى

الشام، إلا أنهم ردّوا مرة ثانية إلى الكوفة، فقالوا: إن الكوفة والشام ليستا لنا بدار، فاتجهوا إلى الجزيرة، فشدد عليهم واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وسيّر الأشتر إلى المدينة، فخيّره الخليفة في المكان الذي يرغب سكناه، فاختار منطقة عبد الرحمن بن خالد، وسار إليه. وكان ابن السوداء في مصر يراسل من أثّر عليهم في كل الأمصار، ويزيد في إضرام نار الفتنة.

جمع الخليفة عثمان بن عفان أمراء الأمصار في موسم الحج عام ٣٤هـ وهم: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، واستشارهم في أمر هؤلاء المنحرفين، وما يتكلمون به، فأشير عليه بأن ينقل هؤلاء المنحرفين إلى الثغور فينشغلوا بأنفسهم كما اقترح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا. ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذلك. ولما كثر الكلام عن سعيد بن العاص أمير الكوفة، والمطالبة بأبي موسى الأشعري بدلاً عنه، استجاب الخليفة للطلب فعزل سعيداً وولّى أبا موسى مكانه، وكتب لأهل الكوفة «أما بعد، فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتهم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم علي حجة». وفي الوقت نفسه سار حذيفة بن اليمان غازياً إلى باب الأبواب.

لم تفد المخربين أعمال الخليفة ولينه لهم بل استمروا في تصرفاتهم وكلامهم، فأرسل الخليفة بعض الصحابة إلى الأمصار يستطلعون آراء الناس، ويعرفون أخبار المسلمين وموقفهم، فقد بعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمّار بن ياسر إلى مصر، ورجالاً آخرين سواهم، فرجع الجميع ولم ينكروا شيئاً، إلا عمّار بن ياسر فقد تأخر واستمع إلى ما كان يشاع.

وجاء وفد من مصر في رجب عام ٣٥هـ إلى الحجاز يظهرون أنهم يريدون العمرة، وفي نيتهم مناظرة الخليفة ومناقشته في المدينة لبلبة الآراء وإشعال نار الفتنة، وتمت مقابلة الخليفة، وأبدى رأيه، وأقنع الوفد خارج المدينة بنفسه أو بواسطة بعض الصحابة منهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة، ودخل بعضهم المدينة، وحضر خطبة للخليفة أثنى فيها على الوفد، واستغفر الله، وبكى وأبكى الناس، وانصرف المصريون راجعين إلا بلادهم.

إلا أن أهل مصر عندما رجعوا بدؤوا يحرّضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى والتأفف من العمال والأوضاع العامة لأن المدينة أحرى بالفوضى أن تؤثر فيها، إذ أنها مقر الدولة، ومركز الخليفة، ومكان الصحابة، ومدينة رسول الله ﷺ، ثم اتفقوا على أن يسيروا إلى المدينة في شهر شوال في ذلك العام، وأن يكون مسيرهم مع الحجاج لمغافلة الصحابة، وإمكانية نشر الفساد على نطاق أوسع. وانطلق أهل مصر وعددهم ٦٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل، وفي الوقت نفسه انطلق أهل الكوفة، وأهل البصرة، وقد خرجت كل جماعة على شكل فرق أربع، وعلى كل فرقة أمير، وعلى الجميع أمير، فالأمر يبدو على تخطيط وتنظيم واحد دقيق، وكان على أهل مصر الغافقي بن حرب العكي، ومعهم ابن السوداء، وهم يريدون البيعة لعلي بن أبي طالب، وعلى أهل الكوفة عمرو بن الأصم، ومعهم زيد بن صوحان العبدي، وعلى أهل البصرة حرقوص بن زهير السعدي، ومعهم حكيم بن جبلة العبدي. وبمسيرهم مع الحجاج لم يعلم الأمراء عدد الناقمين، ولم يكونوا ليتصوروا أن هذه الشرذمة قادرة أو تفكر بقتل الخليفة أو تجرؤ على القيام بهذا العمل في دار الهجرة، لذا لم يبذلوا جهداً بإرسال قوة تحول دون خروجهم، أو تسير إلى المدينة لتمنع أمير المؤمنين، ووصل المنحرفون إلى مقربة من المدينة، فنزل المصريون بذي المروة، ونزل أهل الكوفة بالأعوص، واستقر أهل البصرة بذي خُشُب.

وسمع أهل المدينة بما يحدث، وأبوا أن تقتحم عليهم المدينة،

وتكلموا في الأمر، وحدّث الخليفة علياً في أن يركب ويركب معه المسلمون ليمنعوا المنحرفين من دخول المدينة عنوة ففعل وخرج معه طلحة، والزبير، ومحمد بن مسلمة، وكبار الصحابة، ولما رأى المنحرفون استعداد الصحابة للدفاع عن دار الهجرة وقع الخوف في نفوسهم، فعندما كلمهم علي أظهروا الطاعة والخضوع، وأبدوا الرغبة في العودة إلى أمصارهم والهدوء فيها، وبالفعل فقد رجعوا أدراجهم، وظنَّ علي والمسلمون أن الخطر قد زال عن دار الهجرة فعادوا إليها، ولم يستقروا فيها حتى أروعهم التكبير داخل أزقتها، ومحاصرة دار سيدنا عثمان، وعندما سألهم سيدنا علي عن سبب رجوعهم قالوا: إن الخليفة قد أرسل كتاباً لقتلنا، وأظهر أهل مصر كتاباً فيه قتل محمد بن أبي بكر، قال علي: فما بال أهل الكوفة قد عادوا؟ فقالوا: تضامنا مع رفاقنا، وكذا أهل البصرة، لكن من الذي أخبر كل فريق بما حدث مع الآخر؟ وهنا يبدو الاتفاق المسبق والتخطيط لدخول المدينة على حين غفلة من أهلها، وهنا يظهر تلفيق الكتاب الذي أظهره المصريون.

كان حصار دار عثمان يسيراً حيث كان يخرج الخليفة ويصلي بالناس، ويأتي الصحابة إليه، ويأتي إليهم. ثم بعث إلى العمال في الأمصار يأمرهم أن يرسلوا إليه الجند لينصروه، ويخرجوا من المدينة هؤلاء الطارئين، وعندما عرف المنحرفون هذا الخبر، وأن حبيب بن مسلمة قد سار من الشام، ومعاوية بن حديج من مصر، والقعقاع بن عمرو من الكوفة، ومجاشع السلمي من البصرة، وكل على رأس قوة لنصرة الخليفة تغيّر حصار الدار واشتد عمل المنحرفين.

وخرج عثمان كعادته إلى الصلاة، يوم الجمعة، وخطب، وخاطب المخربين، فقام محمد بن مسلمة فشهد على قوله فأسكته حكيم بن جبلة، وتكلم زيد بن ثابت فأسكته محمد بن أبي قتيرة، وثار الناس، وحصب بعضهم بعضاً، وأصيب عثمان، وأغمي عليه، ونقل إلى داره، وثار الصحابة وأبناؤهم ومنهم الحسن بن علي، وسعد بن أبي وقاص، وأبو

هريرة، وزيد بن ثابت وغيرهم، وأرادوا قتال المنحرفين إلا أن الخليفة قد منعهم، وأراد ألا يحدث شيء بسببه، وزار بعد ذلك عثمان كلا من علي، وطلحة، والزبير، ثم عاد فدخل بيته، وشُدّد عليه الحصار فلم يعد يخرج أبداً حتى كان يوم استشهاده رضي الله عنه.

أقام المنحرفون رجلاً منهم يصلي بالناس، وهو زعيم المصريين الغافقي بن حرب العكي، وإذا وجد علي أو طلحة صلى بالناس أحدهما. ومُنع الماء عن الخليفة، فأرسل إلى علي، وطلحة، والزبير، وعائشة، وأمهات المؤمنين فأسعفه علي، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان. وزجر علي الثائرين فلم يرعووا، وكان بين الحين والآخر يطل الخليفة بنفسه على أولئك المنحرفين المحاصرين له فيعظهم، ولكن لا يأبهون لأحد حتى أن أم حبيبة لم تستطع الوصول إليه لإسعافه بالماء، إذا ضربوا وجه بغلتها وكادت تسقط عنها، وهذا ما ألزم الناس بيوتهم لا يخرج منهم أحد إلا ومعه سيفه، إذ اختل نظام الأمن في دار الهجرة، ودخل دار عثمان بعض أبناء الصحابة فيهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن، والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة وغيرهم، وطلب منهم عثمان ألا يقاتلوا، وعزم عليهم في ذلك أشد العزيمة.

سارت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، إلى الحج، وطلب عثمان من ابن عباس أن يحج بالناس هذا العام، وكان على الباب مع أبناء الصحابة، فأراد أن يبقى مجاهداً إلا أن عثمان أصرّ عليه فخرج إلى الحج.

وصلت الأخبار إلى المدينة بأن الأمداد قد دنت من المدينة، وأن من جاء منها من الشام قد وصل إلى وادي القرى فخاف المنحرفون، وأرادوا دخول الدار على عثمان فمنعهم من فيها: الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وغيرهم، فتسوروا الدار من خوخة بينها وبين دار عمر بن حزم، ثم أحرقوا باب الدار، وسيدنا عثمان يقسم على أبناء الصحابة أن يلقوا سيوفهم حتى ألقاها بعضهم، وهجم المنحرفون على الخليفة، فضربه الغافقي بن حرب العكي

بحديدة، ثم ضرب قتيرة بن حمران زوج الخليفة نائلة التي رفعت يدها تدافع عن زوجها فقطع أصابعها، ثم ضرب الخليفة أخوه سودان بن حمران السكوني، وكذلك كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي فقتل رضي الله عنه، وقيل بل قتله عمرو بن الحمق، وقتل غلام لعثمان سودان بن حمران فقتل قتيرة الغلام، ثم قتل غلام آخر لعثمان قتيرة، ونُهبت الدار، كما نُهب بيت المال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً. وكان قتل الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في ١٨ ذي الحجة من عام ٣٥ من هجرة المصطفى ﷺ، وبذا تكون مدة خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وكان عمره إذ ذاك اثنتين وثمانين سنة.

وعاد الحجاج فوجدوا خليفتهم مقتولاً رضي الله عنه، والأمن غير مستتب.

وسيدنا عثمان هو الذي اشترى بئر أرومة وجعلها للمسلمين، وجمع القرآن الكريم، وأول من وسع مسجد رسول الله ﷺ، استجابةً لرغبة رسول الله حين ضاق المسجد بأهله، وله من الفضائل الكثيرة رضي الله عنه.

الباب الرابع

عليّ بن أبي طالب ﷺ

رضي الله عنه

حيـــاته

علـي بـن أبي طـالـب رضـي الله عـنـه أمـيـر الـمـؤمـنـيـن، ابـن عـم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة، رضي الله عنها، أحد الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن أوائل الذين أسلموا.

ولد في سنة ٢٣ قبل الهجرة فهو أصغر من رسول الله بثلاثين عاماً، أبوه عبد مناف بن عبد المطلب بن عبد المطلب بن هاشم ويكنى بأبي طالب وبذلك اشتهر، وهـو عـم رسـول الله وشـقـيـق أبـيـه، يـعـد أحـد شـيـوخ قـريـش، دافـع عـن رسول الله وحماه، ودافع عن المسلمين، ولم يسلم فمات كافراً. وأم علي هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أسلمت وهاجرت. نشأ علي في بيت رسـول الله ﷺ، إذ كـان أبـو طـالـب فـقـيـراً كـثـيـر الـعـيـال، فـكـلـم رسول الله ﷺ أعمامه في أخيهم أبي طالب ومساعدته، فذهبوا إليه، وطلبوا منه تربية بعض ولده، فقال لهم: خذوا من شئتم ودعوا لي عقيلاً، فأخذ رسول الله علياً، وأخذ العباس جعفراً.

بُعث رسول الله ﷺ فأخبر أهل بيته ومنهم علي فأسلم، ولم يبلغ العاشرة بعد، ويعد أول من أسلم من الأولاد، ومن السابقين للإسلام، ولم يعرف وثنية، فهو قد نشأ على الإسلام. ولما هاجر رسول الله ﷺ بات مكانه في فراشه، يسلم الودائع والأمانات التي كانت عند ابن عمه لأصحابها، وكان عمره قريباً من الثالثة والعشرين، ثم هاجر. ولما بدأت المعارك بين المسلمين وأعدائهم كان بطلها وأشد الناس على الخصوم. ففي السنة الثانية من الهجرة جرت معركة بدر الكبرى فكان بين المتبارزين فقتل الوليد بن عتبة، وشارك عمه الحمزة في قتل عتبة بن ربيعة، وبعد المعركة

بنى بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولم يكن في غزوة أحد بأقل من سابقتها، وكان هو وعمه حمزة في كلتيهما وكل منهما أسداً هصوراً يجول في ميدان المعركة، وأينما حمي الوطيس تجده، ثم عندما يزدحم الرجال لا يلبث أن يتفرق جمعهم ويكون هو المبدد لهم قتلاً وتشريداً. وفي غزوة الخندق وقف مع المسلمين مدافعاً وعندما قطع بعض المشركين الخندق ومنهم البطل العربي الجاهلي عمرو بن ود العامر الذي وجلت الأبطال عن منازلته تصدى له علي وقتله فكبر المسلمون، وعرف رسول الله ﷺ أن علياً قد قتل عمراً، وشهد بيعة الرضوان، وحمل لواء المسلمين يوم خيبر، وبقي في المدينة أميراً عليها يوم غزوة تبوك. وأرسله رسول الله ﷺ في السنة التاسعة وراء أبي بكر الذي حج في الناس ذلك العام ليتلو على المسلمين سورة (براءة) التي أنزلت بعد خروج المسلمين حجاجاً. توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، وكان يتوكأ عليه يوم مرضه، وقد شغل بدفنه.

بايع المسلمون أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان علي من أوائل الذين بايعوا، إلا أنه شغل بتمريض زوجه فاطمة بنت رسول الله التي أصابها المرض إثر وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام، فكان يحضر الجماعة، ويعود إلى زوجه حتى توفيت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رسول الله ﷺ، إلا أن أبا بكر كان يدعوه ليستشيره في بعض الأمور، وبعد وفاة زوجه كان مع الصديق في كل أمر وبخاصة عندما كان أمر المرتدين والذين امتنعوا عن الزكاة وهاجموا المدينة، وتوفي الصديق وهو عنه راض.

اختار الصديق للمسلمين عمر بن الخطاب، فكان علي أول المبايعين، بل صرخ لا نقبل إلا أن يكون عمر عندما سأل أبو بكر المسلمين هل ترضون من اخترت لكم؟ وكان علي بجانب عمر وقاضيه، فعمر يقول: أبو الحسن أقضانا، وأمير المدينة إذا خرج عمر منها، والمستشار الذي يؤخذ برأيه، وقد زوج ابنته أم كلثوم لعمر، وعندما طعن عمر كان علي أحد رجال الشورى الذي اختارهم عمر ليكون أحدهم خليفة للمسلمين، وكان

عمر يقول: لو ولوها الأجلح لأخذهم على الجادة، وكان أشبه الناس بعمر في حزمه وحكمته وعدم الخوف في الله من لومة لائم.

وكان عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين بعد عمر بن الخطاب فبايعه علي، وكان بجانبه يدلي برأيه، وعثمان يستشيره، ولما حوصر عثمان بقي بجانبه، وكان أولاد علي من المدافعين عن عثمان أثناء ذلك الحصار، وبعد مقتل عثمان اختاره المسلمون أميراً لهم، فلم يقبل وأحب أن يكون وزيراً من أن يكون أميراً، إلا أن الصحابة قد أصروا عليه للخلاص من المأزق الذي وقعوا فيه، ولم يجد بداً من القبول للسبب نفسه، فقبل وهو زاهد بالإمارة، وتحمل المسؤولية وهو غير راغب بها.

واختلطت الأمور على المسلمين فاعتزل بعض الصحابة، ولم يبايع بعضهم، وكانت الشام بإمرة معاوية بن أبي سفيان، ولم يبايع حتى يستقر الوضع، فكان أن جرت معارك بين الطرفين يأسف المسلمون لها... وأخيراً استشهد عليّ، رضي الله عنه، في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ وهو يصلي الفجر على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم الحميري. وصلى عليه ابنه الحسن.

تزوج علي، رضي الله عنه، فاطمة بنت رسول الله ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ولم يتزوج غيرها أثناء حياتها، فلما توفيت في السنة الحادية عشرة، تزوج أم البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً، وعبد الله، وعثمان، وقد استشهدوا جميعهم مع أخيهم الحسين في معركة كربلاء، ولا عقب لهم سوى العباس. وتزوج ليل بنت مسعود التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر، وقد استشهد مع أخيهما الحسين في كربلاء، ولا عقب لهما. وتزوج أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت تحت أخيه جعفر، فلما استشهد في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق، وأنجبت له محمد بن أبي بكر، فلما توفي أبو بكر تزوجها علي فولدت له يحيى، ومحمد الأصغر، وعوناً، وليس لهم عقب أيضاً. وتزوج أم حبيبة بنت زمعة التغلبية وهي من سبي خالد بن الوليد حين أغار على عين التمر في

العراق، وأنجبت له عمر، وتوفي وعمره خمسة وثلاثون عاماً وله عقب، ورقية. وتزوج أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية فولدت له أم الحسن، ورملة الكبرى. وتزوج أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وهي ابنة أخت فاطمة إذ أن أمها زينب الكبرى من بنات رسول الله ﷺ فولدت له محمد الأوسط. وتزوج خولة بنت جعفر الحنفية وهي من سبي خالد بن الوليد في حروب الردة فولدت له محمد الأكبر وهو المعروف بمحمد بن الحنفية.

ومات رضي الله عنه عن أربع نسوة وتسع عشر سرية، فمن بناته اللواتي لا تعرف أمهاتهن: أم هانئ، وميمونة، زينب الصغرى، رملة الصغرى، أم كلثوم الصغرى، فاطمة، أمامة، خديجة، أم الكرام، أم جعفر، أم سلمة، جمانة.

وجميع ولد علي أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، وأكثرهم قتل مع الحسين في كربلاء، وعقبه محصور في خمسة منهم هم: الحسن، والحسين عن طريق علي زين العابدين، ومحمد بن الحنفية والعباس، وعمر.

وقبره غير معروف فبعضهم يقول: إنه دفن بالكوفة، ثم نقله أبناؤه إلى المدينة، ومنهم من يقول: حمل على بعير فضل البعير، فوجده جماعة ظنوا أنه يحمل مالاً فسرقوه فلما فتحوا الصندوق وجدوا فيه جثة فدفنوها في جبل طيء، وكثرت الروايات في هذا، أما من يؤكد: إن قبره في النجف فلا سند له في ذلك.

وقد وردت أحاديث في فضائل سيدنا علي، رضي الله عنه.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

أسرة علي بن أبي طالب

▨ إشارة إلى أنه لم يعقب

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم
- الحسن توفي عام ٥٠ هـ .
- الحسين استشهد في كربلاء عام ٦١ هـ .
- محسن توفي صغيراً ▨
- زينب الكبرى
- أم كلثوم تزوجها عمر بن الخطاب .

أم البنين بنت حزام الكلابية
- العباس استشهد في كربلاء .
- جعفر استشهد في كربلاء . ▨
- عبد الله استشهد في كربلاء . ▨
- عثمان استشهد في كربلاء . ▨

ليلى بنت مسعود التميمية
- عبيد الله استشهد في كربلاء . ▨
- أبو بكر استشهد في كربلاء . ▨

أم حبيب بنت ربيعة التغلبية
- عمر توفي وعمره ٣٥ سنة .
- رقية

أسماء بنت عميس الخثعمية
- يحيى ▨
- محمد الأصغر ▨
- عون ▨

أمامة بنت أبي العاص بن الربيع
- محمد الأوسط ▨

خولة بنت جعفر الحنفية
- محمد الأكبر [ابن الحنفية]

أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي
- أم الحسن
- رملة الكبرى

بنات لأم أولاد

١ـ أم هانئ .
٢ـ ميمونة .
٣ـ زينب الصغرى .
٤ـ رملة الكبرى .
٥ـ أم كلثوم الصغرى .
٦ـ فاطمة .
٧ـ أمامة .
٨ـ خديجة .
٩ـ أم الكرام .
١٠ـ أم جعفر .
١١ـ أم سلمة .
١٢ـ جمانة .

بيعته

بعد مقتل سيدنا عثمان، رضي الله عنه، بقيت المدينة دون أمير، وكان زعيم المنحرفين المصريين الغافقي بن حرب العكي هو الذي يدير شؤونها، وأتباعه هم الذين يسيطرون على أمورها، وأهلها وجلهم من الصحابة وأبنائهم لا يقدرون على فعل شيء، واستمر ذلك خمسة أيام، إلا أنه لا بد من خليفة ليعود الوضع إلى طبيعته، ويرجع الأعراب إلى بواديهم، ويؤوب المنحرفون إلى أمصارهم، والأمر يرجع في هذا إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لذا لا بد من اختيار أحدهم.

كان المنحرفون متفقين على الانتهاء من الخليفة السابق، وقد تم لهم ذلك، إلا أنهم غير متفقين على الخليفة الجديد، وأهواؤهم شتى، فالمصريون يميلون إلى علي بن أبي طالب، ولكنه لا يوافقهم بل ويبتعد عنهم، والبصريون هواهم مع طلحة بن عبيد الله إلا أنهم يطلبونه فلا يجدونه، والكوفيون يرغبون في الزبير بن العوام ولكنه يختفي عنهم ولا يرغب بهم. وتضايق أهل الكوفة وأهل البصرة إذ غدوا تبعاً لأهل مصر عندما لا يرغب من تميل نفوسهم إليه أن يقابلهم أو يوافقهم، وأمير المصريين هو أمير للمدينة في تلك الظروف الحرجة.

ولما لم يوافق أحد من هؤلاء الثلاثة مع المنحرفين في شيء ويرفضون الخلاف كلهم، رأوا أن يطلبوا من سعد بن أبي وقاص ذلك، وهو ممن بقي من أهل الشورى مع أولئك الثلاثة، إلا أنه ارفضّ منهم عندما عرضوا عليه ذلك، وكان قد اعتزل الأمر، وابتعد عن الجو العام، فاتجهوا إلى عبد الله بن عمر، وكان رفضه أشد من سابقه.

وأشتد الأمر على المنحرفين إذ عجزوا عن إيجاد خليفة وقد قتلوا الأمير السابق، واشتد كذلك الأمر على أهل المدينة، وقد وجدوا مدينتهم بيد المنحرفين يتصرفون فيها، وهم لا يقدرون على شيء، ورأوا أنه لا بد من خليفة يخلصهم مما هم فيه، وينقذهم مما يعانون، ويسير الأمور لتعود الحالة إلى طبيعتها، ورأوا في شخص علي بن أبي طالب الخليفة المطلوب، فهو من أهل الشورى، وابن عم رسول الله ﷺ. وله سابقة وجهاد قلما تكون لرجل آخر، وله من العلم والفقه ما يخوله ذلك، وبصورة عامة فقد كان أفضل من عليها، آنذاك، فذهبوا إليه، وطلبوا منه أن يتولى أمرهم فرفض منهم، وقال لهم: لا حاجة لي في أمركم، أن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، وأنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت.

ولما طال الوضع، وخاف المنحرفون من أن تصل جند الأمصار إلى المدينة، وتتسلم زمام الأمور، وتقبض على الثائرين قتلة عثمان وتعاقبهم وتقيم عليهم الحد، لذا كانت رغبتهم السرعة في مبايعة الناس لخليفة وهذا حق المهاجرين والأنصار، فإذا حدثت البيعة كان الخليفة على أقل تقدير منهم مضطراً لأن يأخذ برأيهم ما داموا في مركز قوتهم، ولا يستطيع أن يعاقبهم ما دامت المدينة في قبضتهم وتحت سيطرتهم، أو أن كثرتهم تحول دون أن يقوم بعمل ضدهم، أما إذا وصلت جنود الأمصار إلى المدينة فإنهم حينذاك لا يستطيعون قتالهم وبخاصة أن أهل المدينة ناقمين على قتلة عثمان الأمر الذي يجعلهم ينضمون لأهل الأمصار ويحاربون قتلة عثمان، وعندئذ تنالهم العقوبة، وينالهم القصاص، وتقام عليهم الحدود، ويختار أهل المدينة من يرغبون لا من يفكر به المنحرفون، ومن هذا المنطلق كانت السرعة في اختيار خليفة أهم نقطة يعمل لها المنحرفون، ولما لم يتم لهم ذلك هددوا أهل المدينة بقتل أهل الشورى وكبار الصحابة ومن يقدرون عليه من دار الهجرة إن لم يجدوا أحداً يوافق على قبول الخلافة، وقالوا لهم: دونكم يا أهل المدينة فقد أجلناكم يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً، والزبير وأناساً كثيرين.

عرض صحابة رسول الله ﷺ الأمر على علي بن أبي طالب وجاءه الناس فقالوا: نبايعك فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به من ذوي القربى، فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله ألا ترى ما نرى! ألا ترى الإسلام! ألا ترى الفتنة! ألا تخاف الله! فقال: قد أجبتكم لما أرى، واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا وتواعدوا في اليوم التالي فجاؤوا ومعهم طلحة، والزبير، وبايعوا علياً، وكان ذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

بايع الناس جميعاً إلا سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد وصهيب من المهاجرين، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، ورافع بن خديج، وسلمة بن وقش، وأبو سعيد الخدري، وقدامة بن مظعون ومسلمة بن مخلد، وعبد الله بن سلام من الأنصار، ومن كان قد غادر المدينة إلى مكة وأكثرهم من بني أمية أمثال سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، ومروان بن الحكم.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أمام موقفين اثنين لا ثالث لهما.

الأوّل منهما: أن يصر على رفض الأمر وعدم الموافقة على البيعة، وعندها سيبقى وضع المدينة كما هو يتسلط عليه المتمردون، ويتصرف في المدينة الأعراب والمنحرفون، بل ربما ازداد الوضع سوءاً وهو المحتمل فيعيث هؤلاء العابثون في الأرض فساداً، ويزداد قتلهم للناس، وقد ارتكبوا أكبر جريمة بقتلهم الإمام ظلماً وعدواناً، ومتى أقدم الإنسان على جريمته الأولى سهلت عليه الجرائم وأسوأ الأعمال بعد ذلك، وبالفعل فقد هددوا أصحاب الشورى وصحابة رسول الله ﷺ. وإذا ما حدث أن جاءت جند من الأمصار أو وُطلب منها إبعاد المتمردين عن المدينة وإقامة الحدود عليهم وإعادة نظام الأمن، فإنه يقع القتال داخل دار الهجرة ويذهب ضحيته

أعداد من الصحابة، هذا بالإضافة إلى انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم، وهذا ما يخافه العقلاء وأهل لإيمان، زد على ذلك أن تدخل الجند في شؤون الرعيّة، وتدخلهم في أعمال الناس، وبحثهم في أمر الخلافة وإن هذا لموضوع يجب الابتعاد عنه تمام الابتعاد، وهذا ما كان ينظر إليه علي، رضي الله عنه، ويحرص ألا يحدث، وهو الأمر الذي جعله يقبل الخلافة.

أما **الموقف الثاني**: فهو قبول الخلافة والرضا بالأمر الواقع وذلك من أجل إنقاذ المسلمين من فتنة عمياء يمكن أن تحدث فيما لو رفض، والخوف من تفرقة الكلمة، والعمل على إعادة الثقة والطمأنينة إلى نفوس سكان دار الهجرة، وإبعاد المتمردين، والأعراب والمنحرفين، عن المدينة، وإقرار الأمن، وإعطاء الهيبة للخلافة، وتطبيق منهج الله في الأرض، ومع هذا فكان رضي الله عنه على علم بأن السير في الموقف الثاني، وهو أخذ البيعة وتسلم أمر الناس حالة صعبة، وفيه مشقة كبيرة وعناء شديد، إذ لا يستطيع الخليفة إقامة الحدود على الجناة والتحقيق معهم إلا بعد مرور مدة ريثما يستتب الوضع، ويتمكن الحكم، وتستعيد الخلافة هيبتها؛ وهذا ما لا تدركه فئة من الناس فأخذوا يطالبون بالقصاص وهو غير قادر عليه، ويسألونه إقامة الحدود على القتلة وهو لا يستطيع، إذ لا تزال المدينة بأيديهم، ولا بد من إخراجهم قبل ذلك وتوزيعهم في الأمصار، أو إرسالهم إلى الثغور، وتفريق كلمتهم، هذا بالإضافة إلى أن عدداً من الرجال سيتخلّفون عن البيعة، ولكن هذا لا يجعله يتوقف، وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يعرف المداهنة في الحق... فأما البيعة فيمكن أن يترك من لم يبايع باستثناء بعض رجال الشورى الذين ينظر إليهم بعض الناس ويميلون إليهم، ولهذا فقد ترك سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ولكنه أصر على بيعة طلحة، والزبير إن كان بعض المتمردين يظهرون الطمع بهما، وأما استمهال إقامة الحدود على قتلة الخليفة السابق ريثما تتاح الفرصة فظن أن الناس يدركون هذا، إذ أن إعادة الأمن والنظام وإقامة الخلافة أمر أهم وواجب شرعي، يسبق تطبيق المنهج ولهذا أقدم عليه وقبل الخلافة بعد إصرار الناس عليه وبعد تمنع منه ورفض، فهو الزاهد فيها وفي الدنيا جميعها.

رأى علي، رضي الله عنه، وقد تسلم الخلافة أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الأمن، ولن يكون هذا إلا بإبعاد المشاغبين عن المدينة، ولن يحدث هذا إلا باعتقادهم أنه قد تم ما يريدون وهو استقرار النظام في الدولة، وهذا ما يخيفهم فيخرجون وهذا ما يصار إليه بزوال الخليفة السابق وقد قتلوه قبحهم الله - ثم بالخلاص من ولاته على الأمصار، هذا بالإِضافة إلى أنه هو رضي الله عنه قد كانت له بعض الملاحظات على بعض الولاة لذا قرر عليّ أن يستبدل الولاة، ولكن نصحه بعض الصحابة وبعض الرجال في أن يؤخر هذا الأمر حتى يستقر الوضع، إلا أنه رفض ذلك حيث رأى أن هيبة الدولة لا تكون إذا لم يستطع الخليفة أن يعزل والياً وأن يعين غيره، وإلا فما معنى أن الوالي يتبع الخليفة، وإذا لم يستطع الإِمام عزل والٍ، فمعنى ذلك أن الوالي بمثابة خليفة، أو أنه يرفض الأوامر، ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه، ويتعدد عندها الخلفاء، وهذا أمر غير جائز، ولا يكون في الإِسلام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن العصاة والمنحرفين يرون أن الوضع غير مستقر، وبذا يبقون في المدينة وعندها لا يستطيع الخليفة أن يفعل شيئاً، ولا أن يقيم حدود الله، وهو لا يخاف في الله لومة لائم، إذن فلا بد من عزل الولاة واستبدالهم.

أرسل علي الولاة إلى الأمصار فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف وهو من أعلام الأنصار، فدخلها وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامر متجهاً إلى مكة. وأبقى على الكوفة أبا موسى الأشعري الذي أرسل بيعته، وبيعة أهل مصره إلى أمير المؤمنين. وبعث سهل بن حنيف إلى الشام، ولكنه رُدّ من حدودها، ردته خيل معاوية بأمر أو باجتهاد منها. وبعث إلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وكان قد قتل من تسلمها، وهو محمد بن أبي حذيفة، فدخل مصر وأخذ البيعة لأمير المؤمنين من أهلها، إلا فريقاً قليلاً منهم اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) لا يشقون عصا الطاعة، ولا يقاتلون أحداً، وبهذا فقد اختار ثلاثة ولاة من الأنصار إلى أهم الأمصار وأكثرها ثغوراً وجهاداً. أما مكة فقد بعث إليها خالد بن العاص بن

هشام بن المغيرة المخزومي، ولكنه وجد فيها كل من اعتزل الفتنة ومن اجتمع فيها من بني أمية، ومن ترك ولايته من الولاة السابقين، لذا فقد رفضت ولايته وبقيت مكة دون وال، ولكل مجموعة رجل يرجعون إليه.

وبعث علي بن أبي طالب إلى اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس عاملاً له عليها، فلما وصل إليها رحل عنها عاملها السابق يعلى بن أمية واتجه إلى مكة، وهكذا خضعت دار الهجرة مركز الدولة والأمصار كلها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب باستثناء الشام التي كان يسير أمورها معاوية بن أبي سفيان إذ لم يرسل البيعة، وبهذا عقدت بيعة علي بن أبي طالب، وقام بالأمر، وأرسل إلى معاوية يطلب منه البيعة لكنه تأخر بالجواب، ينتظر ما تؤول إليه الأمور، ووضع العصاة في المدينة.

المجتمع الإسلامي أيام عليّ

لم يختلف وضع المجتمع الإسلامي أيام علي عما كان عليه سابقاً، فالشرع هو المطبق وأحكام الله هي النافذة والمعمول بها، وإنما الشيء الوحيد الذي اختلف هو متابعة الناس لما يجري في الداخل بعد أن كان الاهتمام متجهاً إلى ما يحدث في الفتوح وأحوال الثغور، هذا بالنسبة إلى عامة الناس، أما فيما يتعلق بالعمال والولاة فكان اهتمامهم أكبر بمناطقهم إذ يتعلق الأمر بهم وبأمصارهم لذا فقد اختلف الوضع بين مصر وآخر، وهناك أمر آخر يجب ألا نغفل عنه وهو أن المسلمين استقبلوا خلافة علي بغير ما استقبلوا خلافة عثمان، فقد جاء عثمان بعد عمر القوي الشديد الذي منع الصحابة من الخروج إلى المدينة، وأخذهم بالحزم والشدة، فأعطاهم عثمان اللين والرفق، وأغدق عليهم في الأعطيات حسب ما اعتاد عليه من البذل والعطاء، فلانوا له وأحبوه وخاصة في أيامه الأولى. وفضله بعضهم على عمر. وجاء علي بعد عثمان فسار بالناس سيرة عمر فلم يوسع لهم في الأعطيات، ولم يعطهم النوافل من المال وخاصّة أن واردات بيت المال قلّت لتوقف الفتح، وحجب مال الشام، واشتد على قريش، وحال بينهم وبين الخروج بأية حال، وهيجه افتراق القوم إذ أن عدداً من بني أمية قد اتجهوا إلى مكة، وتفرق بعض الناس في الأمصار، واستأنف فيهم حزم عمر، وشدته، والنفس البشرية يصعب عليها الشدة بعد اللين على حين ترتاح وتطمئن للين بعد الشدة، لذا كانت نفوسهم يشوبها كثير من الوجوم والقلق بتسلم علي الأمر، هذا بالإضافة إلى تسليط المشاغبين الذين قتلوا عثمان على المدينة ولم تطالهم بعد الحدود، ولننظر إلى حالة كل مصر وحده.

فاليمن سار إليها عبيد الله بن عباس والياً عليها من قبل علي فاستقبلته، وخرج منها يعلى بن أمية، واستقر الأمر فيها، تقام الحدود، ويطبق الشرع بصورة تامة.

وأما مكة المكرمة فقد عاد إليها راجعاً عدد من أهل المدينة الذين وصل إليهم خبر مقتل سيدنا عثمان وهم في طريقهم إلى بلدهم بعد أن شهدوا موسم الحج، ورغبوا اعتزال الفتنة، فمكة حرم آمن لا يغار عليه ولا يذعر من أوى إليه، ومنهم من خرج إليها من المدينة غاضباً أو معتزلاً مثل بني أمية، وعبد الله بن عمر: وردت مكة عامل علي عليها وهو خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي وبقيت دون وال، وبعد مدة استأذن طلحة والزبير علياً بالخروج إلى مكة لأداء العمرة فأذن لهما فخرجا، وبقيا فيها إذ وجدا الجو فيها أكثر مناسبة لهم من جو المدينة المليء بالخارجين على عثمان، رضي الله عنه، وبعد مدة جاء قثم بن العباس والياً على مكة، واستقر فيها، واستتب له الأمر. ورأى الذين اعتزلوا الفتنة واستقروا في مكة أن جوها غير مناسب، وأن طلب الرزق غير متوفر، والتجارة التي اعتادوا عليها قد انقضت أيامها وقطع بينهم وبينها الزمن، ووجدوا أن البصرة أكثر ملاءمة، لهذا فقد قرروا السير إليها، وأقنعوا أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بالخروج معهم، وكادت أم المؤمنين حفصة، رضي الله عنها، تسير لولا أن منعها أخوها عبد الله بن عمر، وسار الموكب باتجاه البصرة، وكان يصلي بهم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد، وقد كان أبوه والي مكة لرسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر. وكان عدد المغادرين مكة/ ٧٠٠/ إنسان جلهم من أهل مكة والمدينة ومنهم طلحة والزّبير، وعبد الله بن عامر، ويعلى بن أمية، وعبد الرحمن بن عتاب، وأم المؤمنين عائشة، ورجع من الطريق سعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وفي الطريق تبعهم الناس من الأعراب حتى كانوا ثلاثة آلاف. وهدأ الوضع في مكة بعد خروجهم. وعندما وصل الركب المكي إلى ماء الحوأب نبحتهم كلابه،

فأناخت عائشة، رضي الله عنها، وقالت: أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً ردوني فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه «ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب» فقالوا لها: ما هو بالحوأب، فسارت.

أما في المدينة فإن أهلها ينظرون إلى علي نظرة احترام وإكبار كما ينظر له كل المسلمين، إذ كان يومذاك أفضل من عليها، وقد ارتحل عن الدنيا من سبقه، وقد أسرعوا إلى بيعته أو الإصرار على مبايعته لتقديرهم له قبل كل شيء، ثم للخلاص مما لحق المدينة من وجود الفئة الخارجة على النظام من قتلة عثمان، وقد استجاب بعد رفض إذ أن الأمر يستوجب وجود الأمير لإِعادة النظام، وما أن استلم الخلافة حتى طلب منه عدد من الصحابة إقامة الحدود على هؤلاء المنحرفين، ولم يكن ذلك ليغيب عنه، وإنما ينتظر استتباب الوضع وقوة الخليفة بأخذ البيعة العامة والقبض على ناصية الأمر، إذ أن الحل السريع لا يستطيع أن يمارسه ما دام المنحرفون هم الذين يسيطرون على المدينة، وبيدهم القوة، والبيعة لم تأت من بعض الجهات ومنها الشام وبعض الصحابة، والمشكلة أنه في ساعة الفوضى لا يرى المرء الحل السليم إلا من خلال ما استقر في ذهنه، واشتد الصحابة في الطلب، وعلي لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلاّ أن تزيد البلبلة. وأرسل علي الولاة إلى الأمصار، وإذ بوالي الشام سهل بن حنيف يعود إليه، وعلي الذي عرف بالشدة لم يقبل باللين، ولم يعرف التساهل بالحق، فقرر السير إلى الشام على الرغم من نصائح بعض الناصحين بإبقاء معاوية على الشام وإعطاء طلحة البصرة، والزبير الكوفة ريثما تهدأ الأحوال، ولم ير عبد الله بن عباس السّير إلى الشام عندما استشاره علي، وحث علي الناس بالنهوض إلى الشام فرأى توانيا، فلم يرغب بإجبار أحد وإنما نهض وسار مع من نهض، ودفع باللواء إلى ابنه محمد الأكبر بن الحنفية، ووجه عبد الله بن عباس إلى الميمنة، وعمر بن أبي سلمة إلى الميسرة، وأبا ليلى بن عمر بن الجراح إلى المقدمة وهو ابن أخي أبي عبيدة بن الجراح، وولى قثم بن العباس على المدينة، وكتب إلى عماله على الأمصار وهم

قيس بن سعد والي مصر، وأبو موسى الأشعري والي الكوفة، وعثمان بن حنيف والي البصرة بالنهوض إلى قتال أهل الفرقة، ويبدو من عمله هذا أنه بعيد كل البعد عن المنحرفين قتلة عثمان إذ لم يول أحداً منهم وفيهم الأشداء وأهل المقدرة. وبينما هو كذلك إذ سمع بخبر سير من سار من مكة إلى البصرة، فخرج علي إلى الربذة يريد أن يحول دون انطلاقهم إلى البصرة، إلا أنهم قد فاتوه، وكان قد ولى على المدينة قبل خروجه منها سهل بن حنيف، وبعث قثم بن العباس إلى مكة، وكانت أم المؤمنين أم سلمة تريد أن تسير معه وقالت له: «لولا أني أعصي الله عز وجل وأنك لا تقبله مني لخرجت معك، وهذا ابني عمر، والله لهو أعز عليّ من نفسي، يخرج معك يشهد مشاهدك، فخرج معه، وكان على الميسرة، ولم يزل معه، واستعمله على البحرين ثم عزله. ونصحه بعض الناصحين بأن لا يخرج من المدينة فإن خرج منها فلن يعود إليها، وطلب منه أن يرسل من نهض ويمكث هو في دار الهجرة، ولكنه أصر إلا أن يكون على رأس الناهضين. وبقي سهل بن حنيف في المدينة يسير أمورها، ويطبق شرع الله فيها، ويحكمها لعلي بن أبي طالب. ووصل علي إلى ذي قار ينتظر وصول جند الأمصار.

وأما مصر فقد سار إليها قيس بن سعد بن عبادة، ودخلها من غير جهد، وكان قد خرج منها الوالي السابق عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وتسلمها محمد بن أبي حذيفة إلا أنه قتل، وأخذ قيس البيعة لعلي من عامة أهلها، إلا فريقاً اعتزلوا الناس وأووا إلى (خربتا) يطلبون بثأر عثمان، ولكن لا يقاتلون أحداً، ولا يشقون عصا الطاعة، فأمهلهم قيس ومنهم: مسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج، وبسر بن أرطأة وغيرهم، إلا أن بعض أصحاب علي كانوا يصرون عليه أن يأمر قيسا بقتالهم أو إعطاء البيعة حتى ينتهوا من مصر من كل معارض، فطلب علي منه ذلك، فرأى قيس أن رأيه هو الأصوب، فترك مصر، واتجه إلى علي مارا بالمدينة، وجاء محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وما زال يلح على من في (خربتا) حتى

جرى القتال بين الطرفين ولم يحرز محمد بن أبي بكر النصر فعزله علي، وولى الأشتر النخعي مكانه، ولكنه مات مسموماً قبل أن يصل إليها، فاضطر علي أن يثبت محمد بن أبي بكر على مصر ريثما يرى رأيه، وانتدب أهل الكوفة لمساعدة إخوانهم في مصر، ولكنهم لم ينتدبوا، وعندما أصر عليهم سار منهم جند قليل، ولكن ما أن وصلوا إلى مصر حتى كان عمرو بن العاص قد دخلها، وقُتل محمد بن أبي بكر، وهكذا أصبحت مصر بعيدة عن خلافة علي وذلك عام ٣٨هـ.

وأما الكوفة فقد كان واليها من قبل أبو موسى الأشعري، وأقره علي على ما تحت يده، رغبة من أهل الكوفة به، وقد بايع عنه وعن أهل الكوفة للخليفة الجديد. وكان أبو موسى محباً للعافية لا يرغب بالقتال وخاصة عندما يكون القتال بين المسلمين بعضهم ضد بعض. ولم يكن أهل الكوفة على رأي واحد، فبعضهم يميل إلى الزبير، وبعضهم يرغب في علي ولكنه لا يحب القتال، وبعضهم متشدد في ذلك و يرى أن القتال أمر لا بدّ منه، وكتب أمير المؤمنين إلى أبي موسى يستنهضه للقتال ولكنه لم يفعل شيئاً، فأرسل له محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، فلم يفد ذلك شيئاً، ثم أرسل له عبد الله بن عباس، والأشتر النخعي فما أجدت المناقشات التي دارت بين الطرفين، ثم أرسل له ابنه الحسن بن علي، وعمار بن ياسر، وتكلم الحسن كلاماً جميلاً. ودعا أهل الكوفة لنجدة خليفتهم وعندما انطلق سار معه عدة آلاف سار بعضهم بالفرات واتخذ بعضهم الآخر طريق البر، وكان مجموعهم تسعة آلاف رجل، وأخرج الأشتر النخعي أبا موسى من قصر الإمارة، فانطلق أبو موسى إلى مكة وأقام بها. وكان الخليفة قد وصل إلى ذي قار فجاءه أهل الكوفة وهو في ذلك الموضع.

وأما البصرة فقد أرسل إليها الخليفة والياً جديداً هو عثمان بن حنيف فسار إليها فدخلها، وخرج منها واليها السابق عبد الله بن عامر الذي سار إلى مكة، وكان في البصرة شيء من الفرقة والخلاف،ولم يلبث أن وصل إليها ركب مكة، فدخلها عبد الله بن عامر على غفلة من أهلها، ووصل

الخبر إلى عثمان بن حنيف فتهيأ إلا أن الناس متخاذلون منهم الخائف، ومنهم القاعد، ومنهم المتخاذل، ومنهم من يطلب بثأر عثمان، ومنهم مع الوالي بجانب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم دخل البصرة ركب مكة كله، والتقى في المربد، فتكلم طلحة، والزبير وردّ عليهم جماعة ابن حنيف، وكاد الناس يقتتلون، ثم تكلمت عائشة، رضي الله عنها، فانقسمت جماعة ابن حنيف، ومال بعضهم إلى جانب عائشة، وكان على خيل البصرة حكيم به جبلة العبدي فأنشب القتال، وهو أحد الغوغائيين الذين تكلموا عن عثمان، رضي الله عنه، وكاد القتال أن يتسع، إلا أن الفريقين قد اتفقا، إذ لم يكن أحد الجانبين لينظر إلى الآخر نظرة العداء أو الحقد بل نظرة الأخوة، والخلاف إنما هو في وجهات النظر، ولكن الغوغاء هي التي كانت تسير بالطرفين إلى التطرف أحياناً، اتفق الجانبان على أن يبعثا رسولاً إلى المدينة لينظر هل بايع طلحة والزبير مكرهين أم لا؟ فإن كان ذلك أخلى عثمان بن حنيف لهما البصرة، وإن كانا قد بايعا عن رضى خرجا من البصرة، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يديه ريثما يعود الرسول، وينزل طلحة، والزبير ومن معهما حيث شاؤوا، وأن يصلي عثمان بن حنيف بالناس، ويبقى بيت المال تحت يده، وله أمر البصرة. وذهب كعب بن ثور إلى المدينة رسولاً، فسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير فلم يجبه أحد، ثم أجابه أسامة بن زيد بأنهما بايعا مكرهين، وكادت تحدث في المدينة حادثة لهذا الجواب، إذ لا يريد الناس إلا إطفاء النار وإخماد جذوتها، ورجع كعب إلى الناس بالخبر فاختلف القوم بالبصرة، وعاتب علي عامله على البصرة، وقال: إنما طلحة، والزبير لم يجبرا على البيعة إلا خوفاً من الفرقة، وقلّ أنصار ابن حنيف حتى غضب عليه الغوغائيون في طرفه لهذا التصرف، وانقضّ أهل السوء عليه فسجنوه، ونتفوا لحيته وحاجبيه، ثم أخرجوه، حيث سار إلى علي بن أبي طالب وهو بذي قار، ولم يقتل عثمان بن حنيف لأنه لم يكن عدواً ولا مجرم حرب، وإنما كان أخاً ضعفت وجهة نظره أمام مناقشيه فقلّ أتباعه، وعدا عليه الرعاع فأخرجوه، ولو كان الخلاف كما يصوّره بعض المغرضين لقتل أو أخذ على الأقل

أسيراً، فهو قائد الخصم، أو رأس الجناح الآخر. وصار يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد. وبخروج عثمان بن حنيف من البصرة أصبحت تحت إمرة الركب المكي فقتلوا من كان فيها من الأشخاص الذين شخصوا إلى المدينة، واشتركوا في حصار عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ولم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير العبدي، وكان ممن قتل حكيم بن جبلة العبدي، ولم يكن هذا القتل ليخفف من المشكلة بل زاد النقمة، إذ أن بعض القبائل غضبت لمقتل أبنائها ممن كان من الغوغائيين، ومنهم بنو عبد القيس الذين ثاروا لمقتل حكيم بن جبلة فخرجوا على علي، أما علي فلم يتكلم في قتل هؤلاء لأنه يرغب فيه ولا علاقة له بأحد منهم، وإن كان يرى أنّ في العجلة الندامة فالقتل السريع دون تروٍ أدى إلى النقمة. وكتب الركب المكي إلى بقية الأمصار أن يفعلوا فعلتهم، وأن يقتلوا من عندهم من قتلة عثمان.

أرسل علي بن أبي طالب القعقاع بن عمرو التميمي إلى البصرة، فكلم عائشة، وطلحة، والزبير وبيّن لهم تفرق القوم عنهم بسبب قتل الغوغائيين، وماذا يكون لو حدث هذا في كل مصر؟ قالوا: فما رأيك؟ قال: إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة، وأمن الناس، واطمأن بعضهم إلى بعض، نظرنا في أمر الذين أحدثوا هذه الفتنة. وإني لأقول هذا وما أراه يتمُّ حتى يأخذ الله من هذه الأمة ما يشاء، فقد انتشر أمرها، وألمت بها الملمات، وتعرضت لبلاء عظيم، فاستحسن القوم رأيه، وقالوا: إن وافق علي على هذا الرأي صالحناه عليه. ورجع القعقاع إلى علي راضيا وأنبأه بما حدث، فسُرّ علي بذلك أشد السرور وأعظمه.

وأقبلت الوفود من البصرة إلى معسكر علي بذي قار، والتقى المضري مع المضري، والربعي مع الربعي، واليمني مع اليمني، وكل يتحدث في الصلح، وظن الناس كل الناس أن الأمر قد استقام، وأن الصلح قد أصبح وشيكاً، ودعا أهل البصرة علياً أن يأتي إليهم، وأراد علي الرحيل وقال:

ألا من أعان على عثمان بن عفان فلا يرتحل معنا. وهنا شعر الغوغائيون من قتلة عثمان أن الصلح سيدور عليهم، وأنه إذا تمّ لا بدّ من أن يكون عليهم، وستطالهم العقوبة، فإذن لماذا نبرمه على أنفسنا؟ وتداولوا الرأي وعبد الله بن سبأ اليهودي لا يعجبه رأي حتى توصلوا إلى إنشاب القتال إذا ما اقترب الطرفان بعضهم من بعض. وأرسل علي عبد الله بن عباس إلى طلحة والزبير اللذين أرسلا بدورهما محمد بن طلحة إلى علي وتحدثوا في الصلح وباتوا في ليلة من العافية.

ورحل علي إلى البصرة وعسكر بجانب معسكر أهل البصرة فأنشب الغوغائيون القتال بأسباب بسيطة وتافهة، إذ تسابّ الصبيان ثم تراموا وتتابع العبيد، حتى إذا توترت الأجواء باشر السفهاء، ولم يدخل الغوغائيون من البداية حتى لا يُعرف الكيد، وينكشف الأمر، وتفسد الخطة، وتصافّ الفريقان، وخرج علي بين الصفين ونادى طلحة، والزبير فكلمهما، وقال مما قال للزبير أتذكر أن رسول الله ﷺ قال لك: «. . . ولكنك ستقاتله وأنت له ظالم» قال: تذكرت ذلك، ولو كنت أذكر ما خرجت، وأراد الاعتزال، وخرج على وجهه وعندما وصل إلى وادي السباع غدر به ابن جرموز وقتله. واستطاعت السبئية أن تنشب القتال، وطلب علي من الناس أن يكفوا إلا أن الأمر قد خرج من يده والتحم الفريقان، وكان جيش البصرة يزيد على الثلاثين ألفاً، وجيش الكوفة يزيد على العشرين ألفاً، وكان اللقاء في منتصف جمادى الآخرة من عام ٣٦هـ.

والتحم الطرفان، واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة، رضي الله عنها، حتى قتل أمامه سبعون رجلاً كل أخذ بخطامه، قتلوا واحداً بعد الآخر، ثم عُقر الجمل فانفرجت المعركة، وهزم أهل البصرة، وأُصيب طلحة وجرح جرحاً بليغاً بدأ ينزف منه الدم، وحملت عائشة بهودجها إلى دار عبد الله بن خلف، وكانت فاجعة أليمة ذهب ضحيتها على رأي المؤرخين عشرة آلاف من جيش البصرة وخمسة آلاف من جيش علي، ومع ما في هذه المعركة من الهول الذي زاد فيه

المؤرخون، علينا أن نتروى قليلاً فننظر هل كانت معركة بين أعداء ألداء كما توصف أم بين أحبة أوقع الشيطان بينهم فطاشت أحلامهم، ثم ثابت؟ ويمكن أن نتعرف على هذا من النتائج، كانت رؤوس جيش البصرة لا شك طلحة، والزبير، وعائشة فلننظر ما الرأي بهم؟ التقى القعقاع بن عمرو التميمي أحد قادة جيش علي وحكمائه أثناء المعركة مع طلحة وهو يقاتل جريحاً فقال له: يا أبا محمد إنك جريح فحبذا لو دخلت أحد البيوتات. فبطل يرى قائد خصومه جريحاً فيطلب منه الخلود إلى الراحة من أجل العافية أم يجهز عليه!

وجاء ابن جرموز بعد المعركة يستأذن علياً وقال: قل له: قاتل الزبير، فقال علي: أئذن له وبشره بالنار. فهل القائد يفرح بقتل قائد خصومه أم يتأثر ثم يقول: إن قاتله لا شك في النار؟

وزار علي عائشة بعد المعركة، وضرب من تكلم عنها، وقال عندما شيعها في غرة رجب مع أخيها محمد بن أبي بكر: إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأعطاها مبلغاً كبيراً من المال، وسير في ركبها عدداً من النساء، وعندما زارها في دار عبد الله بن خلف كان عدد من الجرحى المختبئين في تلك الدار، وهو يعرف مكانهم ومكان غيرهم، وقد تجاهل ذلك وكأن لم يعلم شيئاً، إذ لم يكونوا خصوماً كما يصور ذلك بعضهم فلو كانوا كذلك لنالوا ما نالوا.

كما كان قد طلب من جنده ألا يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا هارباً، ولا يدخلوا داراً، ولا يحوزوا مالاً، ولا يؤذوا امرأة ولا طفلاً ولا غير مقاتل مصر معاند، وهذا كله يدل على الأخوة التامة ولكن أوقع الشيطان بينهم، ولكل وجهة نظره واجتهاده الخاص، وهو عليه مأجور بإذن الله.

وبعد المعركة بثلاثة أيام ولى علي على البصرة عبد الله بن عباس، وكان أهلها قد أعطوا البيعة، وسار هو إلى الكوفة ليتهيأ إلى الشام.

أما الشام فقد كان واليها معاوية بن أبي سفيان منذ أيام عمر، رضي الله عنه، وقد خبر أهلها وخبروه، وأخذهم بأسلوبه الخاص فأحبوه، ولان لهم فأطاعوه، وحزمهم فانقادوا له، ولم يريدوا غيره، فعندما حدثت الفتنة في المدينة، وتسلم الغوغائيون الأمر، وقتلوا الخليفة عثمان بن عفان مظلوماً. وخرج النعمان بن بشير إلى الشام ومعه قميص الخليفة عثمان المملوء بالدماء وعليه أصابع زوجه نائلة مقطعة، وعرضه على الناس فثاروا وبكوا أولاً لقتل الخليفة مظلوماً وهو شيخ طاعن في السن، وكان قتله على يد رعاع الناس، وثانياً لأنه لم يستطع أحد بعد ذلك أن يحرك ساكناً، بل إن هؤلاء الرعاع قد سيطروا على دار الهجرة. ويجب أن نعلم أن الأخبار من المدينة إلى الشام تحتاج إلى شهر ذهاباً ومثلها إياباً وأثناء هذه المدة تجد حوادث، وتحدث مشكلات جديدة، إضافة إلى ما تحمل الأخبار معها من زيادات مع الزمن. ثم جاءت الأخبار بأن البيعة قد تمت لعلي بن أبي طالب، ولكن عدداً من الصحابة لم يعطوا البيعة أمثال: سعد بن أبي وقاص وهو من رجال الشورى، وأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وكعب بن مالك وغيرهم، وفوق كل هذا فإن طلحة، والزبير قد أعطيا البيعة مكرهين وهما من رجال الشورى. وإن رجال الشورى الذين بقوا على قيد الحياة هم: علي بن أبي طالب وهو صاحب البيعة، وطلحة، والزبير لم يبايعا إلا مكرهين، وسعد بن أبي وقاص لم يبايع أبداً، فالأمر بحاجة إلى نظر، ومع هذا فإن علياً لم يستطع أن يقبض على زمام الأمر، ويقيم الحدود على قتلة عثمان الذين لا يزالون يتحكمون في أمر المدينة، هكذا وصلت الأخبار إلى الشام، وهذا ما علمه معاوية والي البلاد، وإن كانت هذه الأمور صحيحة، إلا أن روايتها كانت بأسلوب يجعل معاوية يرى التريث بإرسال البيعة إضافة إلى ما يجد في نفسه، وما يراه في المجتمع من حزن على الخليفة المقتول. وتتوالى الأخبار على الشام بأن عدداً من رجالات الأمة قد اجتمعوا في مكة والتجؤوا إليها يعتزلون الفتنة، أو يعترضون على تصرفات الغوغائيين في المدينة. ويرسل علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الجديد عماله إلى

الأمصار ويرسل فيمن يرسل سهل بن حنيف إلى الشام ليتولى أمرها، ويعزل معاوية، ويُردّ الوالي الجديد من حدود بلاد الشام، ويبقى معاوية في حاضرته ينتظر ما يؤول إليه الأمر، ثم تصل إليه أخبار جديدة بأن عدداً قد خرج من مكة إلى البصرة معارضين للخليفة في المدينة، وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وطلحة، والزبير، إذن يفهم من هذه الأخبار، أن الأمر لم يستقر لعلي بعد ولا بد من الانتظار في البيعة، وانتظر، وانتظر معه مجتمع الشام. وحدثت أحداث البصرة التي ذكرنا وقعت معركة الجمل وتأسف المسلمون لما تم، وكل هذا جعل عامل الشام معاوية بن أبي سفيان ينتظر في إعطاء البيعة للخليفة الجديد، وهذا ما رآه، ورآه معه عدد من الناس، ويُعدّ اجتهاداً.

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيرى غير ذلك، إذ ينظر إلى معاوية على أنه عامل للخليفة، إن طلب منه ترك العمل تخلى، وإن طلب منه الاستمرار تابع، فهو تبع وليس بمجتهد في هذا الأمر، والوالي ليس عليه إلا أن يبايع هو وأهل مصره إذا بايع أهل المدينة وقد بايعوا فلماذا هذا التواني؟ فهل أصبح من أهل الشورى ليؤخذ رأيه في البيعة؟ وقد عزله الخليفة فعليه الامتثال والطاعة، هذه نظرة علي إلى معاوية، وهي صحيحة، أما بالنسبة إلى الأوضاع فيرى أنها غير مستقرة والمنحرفون لا يزالون في المدينة، فيجب الانتهاء من موضوع البيعة، وطمأنينة الناس، فمتى تم هذا يستطيع الخليفة صرف المنحرفين إلى أمصارهم، فيتوزع أمرهم، ويضعف شأنهم، وعندها تقام عليهم الحدود ويقتص منهم بما اقترفت أيديهم، أما الآن فلهم قوتهم، ويتمكنون من المدينة فيصعب القصاص، لأنه ربما إن فعل أمير المؤمنين ذلك اعتدوا هم عليه ومن أهل المدينة، وهو اجتهاد، ويؤجر عليه إن شاء الله تعالى. ولم يقبل سيدنا علي من عامل الشام هذا التصرف الّذي هو عليه، وليس أمامه إلا تنفيذ أوامره، وأمير المؤمنين هو الذي لا يعرف إلا الشدة بالحق، ولا يعمل إلا بالحزم، واللين عنده نوع من الضعف، لذا قرر التعبئة والنهوض إلى الشام، وعبأ الجند، وهو يريد

السير إذ جد له أمر الركب المكي فسار وراءهم نحو العراق، وتغير خط حركته من الشام إلى البصرة، ووقعت معركة الجمل في منتصف جمادي الآخرة، ودخل إثرها البصرة، فأصلح فيها، فعفا عن المسيء، وواسى المنكوب، ووزع الأموال على الغالب والمغلوب، ثم ولّى عليها عبد الله بن عباس، وبعد قضاء مدة فيها تحرك إلى الكوفة ليتابع سيره إلى الشام قصده الرئيسي الذي كان.

وصل إلى الكوفة في نهاية شهر رجب من عام ٣٦هـ، ومكث فيها مدة أربعة أشهر استعد خلالها للقتال، وعبأ الجند، ولم يكن يرفق بنفسه ولا بأصحابه، هكذا اعتاد خلال حياته، يسلك الطريق المستقيم مهما اعترضه من صعاب، ويحث السير فيها مهما وجد من عقبات، ولم يكن أصحابه يرفقون بأنفسهم يسيرون سير أميرهم.

أرسل علي بن أبي طالب جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية يطلب منه أن يبايع، وأن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويبين حجة علي ورأيه فيما يطلب إليه، ولكن معاوية لم يعط جواباً، ورجع جرير دون جواب، ولكن بعض أصحاب علي كانوا يريدون الجواب السريع، لذا عدّوا أن جريراً لم يقم بالمهمة المنوطة به كما يجب، فأسمعه الأشتر كلاماً تأثر منه، فغادر المعسكر، وأقام في قرقيساء عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وبالمقابل فقد أرسل معاوية رسلاً كان منهم أبو مسلم الخولاني، ولكن لم تؤد تلك الرسل إلى نتيجة، وهذا ما جعل أصحاب علي يحثونه للسير، فما دخل شهر ذي الحجة إلا وكانت طلائع علي في بلاد الشام إلا أنه أمرهم ألا يبدؤوا بقتال قبل أن يدركهم. . .

وعلم معاوية بحركة جيش العراق فأسرع بجند الشام، ووصل قبل علي إلى صفين، ونزل مكاناً مناسباً يمكنه وجنده من الشرب من نهر الفرات، وعندما وصل علي إلى ذلك المكان وجد جنده في ظمأ، فطلب من معاوية أن يكون الماء حراً، ولكنه لم يحصل على جواب، الأمر الذي أدى إلى احتكاك، وانتصر جند العراق وأزاحوا جند الشام عن مواقعهم،

ولكن علياً أمر أن يكون الماء حراً يشرب منه الطرفان بكل وقت يريدون.

وأقام الفريقان عدة أيام يلتقون على الماء، ويسعى بعضهم إلى بعض، وربما يسمرون معاً دون قتال، ولكنه جدال ومناقشات تحدث، وربما يقف المرء أمام هذا طويلاً يسترجع ما صوره المؤرخون عن الخصومة العنيفة بين الجانبين، والرغبة الملحة من كليهما لقتل الآخر، وما هي كذلك إن هي إلا خلاف في الرأي، وأخوة غير ظاهرة بسبب ذلك التباين في الاجتهاد.

ثم وقع القتال، ولم يكن على شكل هجوم كاسح بالإمكانات كلها وبالطاقات كافةً، وكل منهما يبغي استئصال الفريق الآخر، وإنما هذا ما كان يخشاه الجانبان فإن القتل من أي طرف إنما هو إضعاف للمسلمين، لأن هؤلاء الحضور من أي جانب كانوا إنما هم جند المسلمين وقوتهم، وعلى عاتقهم حماية الثغور، وإتمام الفتوحات، لذا كانت تتقدم فرقة إلى فرقة لعل الله يصلح الأمور، وتثوب العقول إلى رشدها، واستمر ذلك مدة شهر ذي الحجة، وأهل شهر المحرم فتوقف القتال، وتصافوا لعلهم يتصالحون، وكثرت السفراء بين الفريقين ولكن دون جدوى. ولا بد هنا من وقفة قصيرة هل يترك الحقد لهم مجالاً للتفكير بالتوقف عن القتال لو كان هناك حقد كما يصوّر ذلك المغرضون؟ ألا أن النفوس طيبة، وفي القلوب محبة صادقة تستغل أي شيء لعل الأمر يهدأ، ويتم الصلح. ومع ذلك فقد بقي كل على رأيه، مصر على موقفه، علي واضح، بيّن رأيه، ومعاوية لا يبدي تجاوباً، وكان لا بد من القتال العام.

عادت الفرق من الجانبين يناوش بعضها بعضاً، واستمر ذلك مدة النصف الأول من شهر صفر من عام ٣٧هـ، فلما رأى الطرفان أن التأخير لا يفيد كان لا بد من حملة عامة، وكانت، واستمر القتال ثلاثة أيام قتل من الفريقين العدد الكثير، فقد قتل عمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص من أصحاب علي، وقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب من أصحاب معاوية، وظهرت علائم الهزيمة على جيش الشام، ورفعت المصاحف،

وتوقف القتال، وعلى الرغم مما قيل من أن قسماً من جند العراق لم يكن يرغب في وقف القتال، ومنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نفسه، والأشتر النخعي أحد القادة البارزين والذي استمر في القتال على الرغم من إعطاء الأوامر له بالكف عن متابعة القتال، إلا أن الأمر قد تم، وتوقف القتال، فالمسلمون ينتظرون من كل بارقة أمل أن يكون فيها الصلح، ولو لم يكن ذلك لما توقف القتال، والنصر قد لاح لفريق وهو الطرف الشرعي، ويقاتل بضراوةِ الطرف المعاند حسب رأي أمير المؤمنين على الأقل. ولما سأل الأشتر النخعي معاوية بن أبي سفيان عن رأيه، أجابه بفكرة الحكمين.

توقف القتال، وكتبت صحيفة التحكيم، وشهد عليها رجال من الطرفين، وجند الشام راضون وجند العراق بين راض وساخط وساكت مكرهاً. وبعد يومين من ذلك العقد أذن علي بالرحيل إلى الكوفة بعد أن دفنوا موتاهم، وسار الموكب نحو الكوفة، على حين تحرك معاوية بجيشه نحو دمشق.

لم يدخل جيش علي كله الكوفة كما خرج منها، وإنما انحازت جماعة منه إلى حروراء مخالفين ما في صحيفة التحكيم، وغاضبين عما تم، وقد رتبوا أمورهم، فجعلوا أمر الحرب إلى شبث بن ربعي التميمي، وكان عبد الله بن الكواء يصلي بالقوم، فأرسل علي إليهم الرسل علهم يعودون إلى صوابهم، ويرجعون إلى إخوانهم وربما كانوا يفكرون في ذلك، لذلك كانوا يطالبون علياً بالعودة إلى القتال، وترك التحكيم، وعاد بعضهم، ومنهم أمير حربهم شبث بن ربعي التميمي، ثم أرسل علي إليهم عبد الله بن عباس فناقشهم وأطال معهم الجدال، ثم ذهب إليهم علي بنفسه وحاجهم، وعادوا جميعاً فدخلوا الكوفة، وظن أن الأمر قد انتهى، إلا أنهم بقوا على الدوام يعلنون عن آرائهم، ويصيحون صيحتهم (لا حكم إلا الله) التي يقول عنها أمير المؤمنين: كلمة حق أريد بها باطل، ويناقشون، ويظنون أن علياً سيعود إلى القتال، وإنما ينتظر الناس حتى تستريح، وبعدها ينهض للحرب.

اجتمع الحكمان في دومة الجندل، ولم يتفقا على شيء بل رجعا من غير تفاهم، وإنّ ما يردده المغرضون وينقله العامة ليس بالصحيح، فلم يكن أبو موسى الأشعري ذلك الرجل المغفل البسيط الذي يلعب به، وهو الصحابي الجليل، والوالي لعمر بن الخطاب على الأمصار، وعمر لا يمكن أن يولي عاملاً من النوع الذي ينعت به المؤرخون أبا موسى، كما أن عمرو بن العاص لم يكن ذلك الرجل على تلك الدرجة من الغدر وقلة الدين، وعدم الوفاء والمروءة، وإنما افترقا من غير اتفاق.

أراد علي بعد فشل التحكيم أن يستعد للنهوض إلى الشام، وطلب من واليه على البصرة عبد الله بن عباس أن يستعد بأهل مصره، فأرسل ابن عباس المقاتلين، إلا أن علياً قد لاحظ أولئك الذين خرجوا من عسكره بالأمس ثم عادوا، قد بدؤوا يتسللون رتلاً إثر رتل، ويكتبون إلى إخوانهم في البصرة ليوافوهم في النهروان، فسكت عنهم، وأراد أن يتركهم وما خرجوا له، وقال: إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا جادلناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم، ورغب أن يسير إلى الشام ويتركهم وشأنهم، إلا أن فسادهم قد بدأ، فقد قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرث، وذبحوه ذبح النعاج، وقتلوا نسوة معه، فأرسل إليهم رسولاً فقتلوه، عندها اضطر إلى العودة إليهم، والتخلص منهم بصورة من الصور قبل أن يسير ويتركهم وراءه يعيثون في الأرض الفساد، فسار إليهم، وجادلهم، وطلب منهم تسليم قتلة عبد الله بن خباب بن الأرث فقالوا: كلنا قتلة، وتمادوا في الرد، ثم هجموا على جيشه، وبدؤوا بالقتال، فاضطر إلى حربهم وإبادتهم في مكانهم في النهروان، وكان أكثرهم من أهل الكوفة، وجيشه من أهل الكوفة، فقد قتل زيد بن عدي بن حاتم معهم، وأبوه عدي بن حاتم في جيش علي، وأكثر القتلى كانوا بهذه الصورة أو قريبة منها، فغدا جيشه حزيناً كئيباً على قتلى خصومه أو قتلى أهله فتغيرت النفوس، وتبدلت الطباع، وعلى هذه الصورة كانت تلك المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المسلمين: اختلاف في وجهات النظر وفي الرأي فينحاز كل فرد إلى جانب، ويقاتل فمن قتل فقد انتهى، ومن قتل فقد أصيب بمن فقد.

رأى علي بن أبي طالب أن ينتظر قليلاً ليستريح الناس من تعب القتال، ولينسى الذي أصيب مصيبته، وكان معاوية بن أبي سفيان بالشام قد سمع استعداد علي للسير إلى الشام فأسرع إلى صفين ولكن لم يجد للعراق جيشاً، وانتظر، وجاءت أخبار الخوارج، وما حدث بينهم وبين علي، فعرف الأمر، وقفل راجعاً إلى الشام، وقد أراح واستراح.

رأى علي أن جنده قد استراحوا وحصلوا على ما أحبوا فدعاهم للقتال فلم ينفروا، وحثهم فلم يستجيبوا، وحرضهم فلم يسمعوا، وكان يخطبهم، ويقسو عليهم، فيسمعون ثم يخرجون ولكنهم كأنهم لم يسمعوا كلاماً حتى ضاق بهم علي، رضي الله عنه، ذرعاً وتمنى لو لم يعرفهم، وكانت حياته معهم محنة شاقة، وعيشاً مليئاً بالمشاق والصعاب والمنغصات يأمر فلا يطاع، ويدعو فلا يستجاب له، ولربما حدث هذا مع أهل الكوفة بسبب ما خاضوا من حروب مع إمامهم، إلا أنهم رأوها عندما فكروا أنها بين المسلمين بعضهم مع بعض، وبسبب الحزن الذي أصابهم فقدوا إخوانهم في النهروان، وربما بسبب ما لاحظوه من توقف الفتوحات، وعدم امتداد سلطان الدولة كما كان، بل أخذ في الاضطراب؛ إذ طمع الروم بثغور الشام فأسكتهم معاوية بدفع جزء من المال ريثما تنتهي خلافات المسلمين، واضطربت ثغور المشرق على عمال علي، وكان ذلك يكلفه العناء الكبير حتى يهدأ الوضع وتستقر الحال. وربما كان بسبب أوضاعهم المادية الحسنة إذ كان علي، رضي الله عنه، يقسم لهم المال باستمرار، ويعطيهم أعطياتهم، ويحب بين المدة والمدة أن يكنس بيت المال ويصلي فيه ركعتين، فلربما وجدوا في ذلك راحة مغرية، ودعة مطمعة فأخلدتهم إلى الأرض، ورغبتهم بالاستقرار. وكل هذا يجعل أمر علي صعباً وحياته قاسية وفي الوقت نفسه يبعد التفكير عند معاوية عن البيعة والدخول فيما دخل فيه الناس، حيث يرى أن وضع الخليفة غير مستقر، وكلمته غير مسموعة، وعدداً من الصحابة لم يبايعوا...

وظهر لعليٍّ أنه قد انتهى من الخوارج في النهروان، إلا أنه قد تبين له

بعد حين أنه ما انتهى إلا من عدد قليل منهم أو جزء منهم، وأن في معسكره في الكوفة عدداً منهم، وكانوا يجاهرون برأيهم، ويناقشونهم، وهذا ما زاده إلا غما على غم، ولما رأى ما رأى، ونظر إلى أنه يدعو فلا يستجاب له، لذا كان هادئ الطبع يناقشهم ويستمع إليهم، ولا يمنع عنهم أعطياتهم، وكانوا يعايشونه ويعايشون عامله على البصرة، ويخرجون تحت جنح الظلام ليلتقي بعضهم مع بعض، وقد يعيثون الفساد، ويقتلون إن رأوا مسلماً، فكان علي لذلك يتمنى الموت، ويقول: ما يُؤَخِّر أشقاها؟ أي ما يمنع أشقى الناس أن يقتله، ويريحه مما يجد من أصحابه، وكان يعلم أنه سيموت شهيداً حسبما أخبره رسول الله ﷺ، وأنه سيقتله أشقى الأمة.

وأصبح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة، وواليه عبد الله بن عباس في البصرة يأمران فلا يجابان، الأمر الذي جعل عبد الله بن عباس يفكر في الخلاص مما هو فيه كما يفكر الخليفة بالذات، ويقال إن ابن عباس قد ترك الولاية لزياد بن أبيه، وارتحل إلى مكة، ليعيش فيها بعد أن أعياه أصحابه، والحقيقة أنه لم يترك، بل بقي فيها حتى قتل الخليفة، بل وحتى بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان، ثم سافر بعد ذلك إلى مكة، ولربما لو كان علي وزيراً لفعل ذلك لشدة ما وجد من رعاياه، ولكن الأمير لا يمكن أن يفعل ذلك.

ووجد جند الشام أن الخليفة لا يطاع، ولم يعد له إلا الرمز في السياسة الشامية، ولكنه يقوم بإدارة البلاد بكل حزم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فأمعنوا في المعارضة. فاستطاع عمرو بن العاص أن يدخل مصر، وأن يحكمها بعد مقتل محمد بن أبي بكر والي علي عليها، ولم يستطع الأشتر النخعي أن يصل إليها، إذ مات بالطريق وهو ماضٍ إليها وذلك عام ٣٨هـ، إذ أن الأشتر كان مع علي في صفين فلما عاد منها أعاده إلى عمله بالجزيرة أميراً على مدينة (نصيبين) ثم وجهه إلى مصر فمات مسموماً. أما قيس بن سعد بن عبادة فكان على شرطة علي.

أرسل معاوية بن أبي سفيان إلى البصرة عبد الله بن عامر الحضرمي

حيث يوجد في هذا المصر من يطالب بثأر الخليفة عثمان بن عفّان، ومن نكب في معركة الجمل، فحدثت اضطرابات، ولكن لم يصل إلى نتائج مرضية له.

وفي عام ٣٩هـ، فرق معاوية جيشه على أطراف أملاك علي، فأرسل النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وأرسل سفيان بن عوف في ستة آلاف إلى هيت، فلم يجد بها أحداً، فسار إلى الأنبار فأغار عليها ثم عاد. وأرسل الضحاك بن قيس إلى جهات تدمر، ولكنه هزم أمام حجر بن عدي الكندي قائد علي. وأرسل عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وكانت غارات أهل الشام هذه أن زادت أهل العراق خوفاً، ورغبة في السلم، وعدم النهوض إلى القتال.

وأرسل معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي أميراً على الموسم ليقيم للناس حجهم، فلما دنا من مكة خافه قثم بن العباس عامل علي عليها فاعتزله، وتوسط الناس في الأمر، واختاروا عثمان بن أبي طلحة أميراً للحج في ذلك العام ٣٩هـ، وعرف علي مسير يزيد بن شجرة فندب الناس لرده فتثاقلوا، ثم أرسل معقل بن قيس في جند فوصلوا عندما كان الموسم قد انتهى، ولكنهم أدركوا مؤخرة يزيد، فأسروا نفراً منهم، وعادوا بهم إلى الكوفة.

ولما اختلف الناس على علي، طمع أهل فارس، وأهل كرمان فحجبوا الخراج، وطردوا سهل بن حنيف عامل علي هناك، فبعث إليهم علي زياد بن أبيه فأعاد الأمن وضبط المنطقة.

وفي عام ٤٠هـ أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطأة إلى الحجاز في ثلاثة آلاف رجل، فدخل المدينة، وخرج منها عامل علي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، واتجه إلى الكوفة، وبايع أهل المدينة بسراً ومنهم بعض الصحابة أمثال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن زمعة، وعمر بن أبي سلمة، وذلك برأي أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، إذ خافت عليهم، وخافوا على أنفسهم.

ثم انطلق بسر بن أرطأة إلى مكة المكرمة فخافه أبو موسى الأشعري، إلا أنه عفا عنه، ومن مكة سار بسر إلى اليمن التي عليها عبيد الله بن عباس من قبل علي، وكان قد لقي من أهلها فظاظة فكتب إلى أمير المؤمنين بذلك، فأرسل إليهم يستصلحهم، ولكن لم تصلح معهم الرأفة والرحمة، فهددهم فخافوه، فكتبوا إلى معاوية يستنصرونه فسار إليهم من مكة بسر، وهو يريد الإيقاع بهم، وهمّ بسر أن يقسو على أهل الطائف إلا أن المغيرة بن شعبة نصحه فعدل عن رأيه، ولما وصل إلى اليمن كان عبيد الله بن عباس قد غادرها إلى الكوفة بعد أن استخلف عبد الله بن عبد الله المدان إلا أن بسراً قد دخلها، وأرسل علي إلى جزيرة العرب جارية بن قدامة، ومعه ألفان، ووهب بن مسعود ومعه ألفان، وسار جارية حتى أتى نجران، ففرّ بسر إلى مكة، فتبعه جارية فدخلها، وطلب من أهلها البيعة، فقالوا له: هلك أمير المؤمنين، فقال: بايعونا لمكن بايع له أصحاب علي فبايعوه، ثم سار جارية إلى المدينة فدخلها وكان يصلي بالناس أبو هريرة، رضي الله عنه، ثم بايع أهل المدينة الحسن بن علي.

كان علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، خلال هذه المدة كلها لا تشغله الأمور السياسية، ولا تحرفه عن طريقه تصرفات أصحابه وتخاذلهم، ولا يمنعه ما لقي من بعض الولاة أن يتبع الصراط المستقيم وأن ينطلق من خلال فقهه وعلمه، فقد كان عمر بن الخطاب يقول: علي أقضانا، وقد سار علي بالناس سيرة عمر التي عرفت بالحزم، فقد منع الصحابة من مغادرة المدينة، وكان يحمل الدرة ويؤدب الناس بها، ثم الخيزرانة عندما لم تجد الدرة، ويمر بالأسواق، ينظر بالأسعار ويراقبها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجلس للناس في المسجد يحل مشكلاتهم، ويقضي لهم، ويعظ الناس، ويخطبهم.

مقتل علي: اجتمع عدد من الخوارج فتذاكروا فيما آل إليه أمر المسلمين، وتذكروا قتلاهم يوم النهروان، فثارت بهم الحمية، ورأوا أن علياً، ومعاوية، وعمراً من أسباب بلاء الأمة ـ حسب رأيهم وما توصلوا إليه

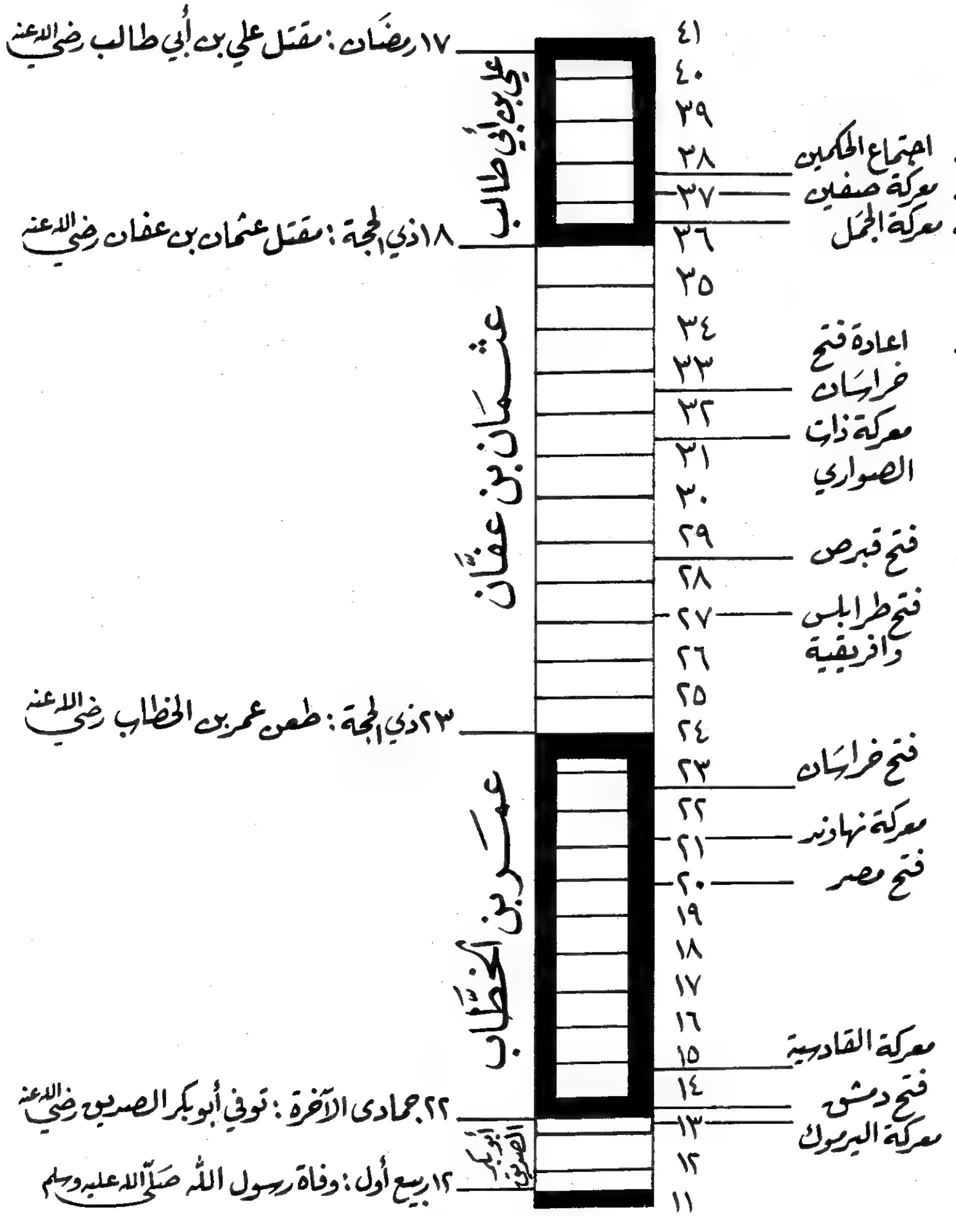
ـ لذا قرروا التخلص منهم. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم المرادي علياً، وأخذ البركُ بن عبد الله على عاتقه قتل معاوية، ووعد عمرو بن بكر التميمي بالتخلص من عمرو بن العاص، وتواعدوا كتم أمرهم، وأن يسير كل حسب جهته الموكل بها، وأن يكون موعدهم لتنفيذ الخطة صلاة الفجر من يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ.

ومرّ عبد الرحمن بن ملجم على تيم الرباب فوجد بينهم فتاة رائعة الجمال تدعى قطام ابنة الشجنة وكانت ممن أصابها وأصاب قومها النكبات يوم النهروان: فخطبها ابن ملجم، فاشترطت عليه مهراً كبيراً مقداره ثلاث آلاف دينار، وعبد، وقينة، ثم رأس علي، فوافقها وأسرّ لها مهمته بعد أن قال لها: هذا طلب من لا تريد العيش مع زوجها، فأجابته: إن نجوت عشنا خير حياة، وإلا فزت بالجنة ـ حسب زعمها ـ وهو في الواقع أشقى من عليها. وجاء اليوم الذي اتفقوا عليه، فضرب ابن ملجم علي بسيفه المسموم فقتله، وأما معاوية فأصابه يومها البرك بن عبد الله في إليته، فنجا بعد مداواة، فاتخذ بعدها المقصورة، وأما عمرو بن العاص فلم يخرج يومها للصلاة لمرض أصابه، وكلّف مكانه صاحب شرطته خارجة بن حذافة فقتل.

ودخل جندب بن عبد الله على علي بعد إصابته فقال له: يا أمير المؤمنين إن فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر. ونهى علي عن المثلة بقاتله وقال: إن مت فاقتلوه بي، وإن عشت رأيت رأيي فيه. ثم لم يلبث أن توفي، وغسله الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وكفن، وكثرت الروايات حول دفنه، الأمر الذي جعل قبره مجهول المكان.

واتجه الناس إلى الحسن فبايعوه وكان أول من بايعه قيس بن سعد، وبقي الحسن في الخلافة ستة أشهر رأى خلالها تخاذل أصحابه، وضرورة اتفاق الأمة، فآثر الصلح، ودعا معاوية إليه فوافق، وتنازل الحسن له في ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ، ودخل معاوية الكوفة، وانتقل الحسن، والحسين إلى المدينة. ويبدو أن الحسين لم يكن برأي أخيه وكذا قيس بن سعد.

وهكذا انتهت مدة الخلافة الراشدة التي سارت على نهج رسول الله ﷺ، وبدأت بعدها زاوية الانحراف تنفرج تدريجياً.



١٧ رمضان: مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٨ ذي الحجة: مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه
٢٣ ذي الحجة: طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٢٢ جمادى الآخرة: توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه
١٢ ربيع أول: وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
علي بن أبي طالب
عثمان بن عفان
عمر بن الخطاب
أبو بكر الصديق
٤١
٤٠
٣٩
٣٨
٣٧
٣٦
٣٥
٣٤
٣٣
٣٢
٣١
٣٠
٢٩
٢٨
٢٧
٢٦
٢٥
٢٤
٢٣
٢٢
٢١
٢٠
١٩
١٨
١٧
١٦
١٥
١٤
١٣
١٢
١١
اجتماع الحكمين
معركة صفين
معركة الجمل
اعادة فتح خراسان
معركة ذات الصواري
فتح قبرص
فتح طرابلس وافريقية
فتح خراسان
معركة نهاوند
فتح مصر
معركة القادسية
فتح دمشق
معركة اليرموك

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٥
تاريخ هذه المرحلة	١٣
الخلافة والبيعة	٢٠
الباب الأول: أبو بكر الصديق رضي الله عنه	٢٥
الفصل الأول: حياته في الجاهلية	٢٧
الفصل الثاني: حياته في الإسلام	٣١
الفصل الثالث: بيعته	٤٧
الفصل الرابع: أعماله وفتوحاته	٥٩
الباب الثاني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١٠٧
الفصل الأول: حياته في الجاهلية	١٠٩
الفصل الثاني: حياته في الإسلام	١١٧
الفصل الثالث: الفتوحات في عهد عمر	١٣٩
الفصل الرابع: مقتل الخليفة عمر بن الخطاب	١٨٥
الفصل الخامس: المجتمع الإسلامي أيام عمر	١٩٥
الباب الثالث: عثمان بن عفان رضي الله عنه	٢٠٩
الفصل الأول: حياته	٢١١
الفصل الثاني: خلافة عثمان بن عفان	٢١٩
الفصل الثالث: الفتوحات في عهد عثمان	٢٢٣
الفصل الرابع: المجتمع الإسلامي أيام عثمان	٢٣١
الباب الرابع: علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٢٤٣
الفصل الأول: حياته	٢٤٥
الفصل الثاني: بيعته	٢٥١
الفصل الثالث: المجتمع الإسلامي أيام علي	٢٥٧

التاريخ الإسلامي

— ٤ —

العهد الأموي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مُقـدِّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربه إلى يوم الدين وبَعْـد:

فإن تاريخ بني أمية قد أصابه الكثير من التشويه، وغدا كأنه قد حدث انفصال مباشر بين العهد الراشدي والعهد الأموي دفعةً واحدةً حتى أصبح الكثير من الناس يظنون أن الإسلام لم يُمكّن له إلا في العهد النبوي والراشدي، وإذا وصل الأمر إلى هذه النقطة زيد فيه وقيل إن الحكم الإسلامي لم يقم إلا في عهد رسول الله ﷺ والخليفتين الراشدين من بعده وبذا فإن ذلك الحكم يؤقت بأقل من ربع قرن، وقد تمكن أنصاره من ذلك بسبب الوضع البدوي السائد والحياة الاجتماعية البسيطة القائمة، أما عندما وصلت الحضارة إلى المدينة المنورة بعد الفتوحات التي حدثت، والاحتكاك بالحضارة الفارسية والرومانية فلم يعد الإسلام يثبت أمام تلك الحضارات، وقامت الخلافات بين صحابة رسول الله ﷺ، ويتمثل هذا فيما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، حيث يمثل الأول التمسك بالإسلام، ويمثل الثاني التأثر بالحضارة الرومانية حيث كان على تماسٍّ مباشر معها في بلاد الشام، وقد يكون تشويه تاريخ بني أمية لا يقصد به إلا ذاتهم إلا أن ذلك يمس الحكم الإسلامي أصلاً.

وقد طُعن بهذا العهد من جهات متعددة، طُعن به من جهة خصومهم السياسيين من بني العباس الذين دُوّن التاريخ في أيامهم، وطُعن به من جهة أعدائهم التقليديين من الشيعة والخوارج، وهم الذين ذاقوا على أيديهم

أعنف الضربات، وطُعن به من جهة أصحاب العواطف من المسلمين الطيبين الذين هالهم ما أصاب انتقال الحكم من شورى أيام الخلفاء الراشدين إلى نظام ملكي أيام الأمويين، وهو أمر على غاية من الأهمية، وصعُب عليهم ما نال آل البيت من نكبات، وما حلّ بالبيت الحرام من أذى، وما لحق آل الزبير من مصائب، وما قسا ولاتهم على المسلمين، وطُعن بالعهد من جهة العوام الذين لا يعرفون من التاريخ إلا ما تناقلته الألسن، وشاع بين الناس، وما تداولته الأيدي من كتب ـ الله أعلم بواضعيها ـ، هؤلاء جميعاً تكلموا عن الأمويين دون تفريق قد يكون بعضهم بقصد وآخرون من غير قصد، وروّجوا الشائعات التي أشيعت عن بني أمية من غير دراسة أو تحليل أو من غير إلقاء نظرةٍ فاحصة عامة، ثم غدت هذه الشائعات روايات حيكت بشكل مقبول، ونسجت خيوط الأخبار بصورة تدين بني أمية، وتصوّرهم بحالة من السوء كبيرة.

وساعد على قبول هذه الروايات محبة المسلمين جميعاً لآل بيت رسول الله ﷺ، وتعاطفهم معهم هذا بالإضافة إلى أن النفس البشرية تعطف دائماً على من تنزل به نكبة أو تحلّ به نازلة، فتتناقل الألسن المصيبة، وتزيد فيها حتى تصبح حزينة تدمى لها القلوب، وتبكي معها العيون، وتسير معها الأفئدة، وإذا كانت بعض هذه المصائب التي حلّت بآل البيت هي هكذا بل قد تكون أقسى وأصعب مما صُوّرت حتى الآن، ولكن كل مصيبة لا بدّ لها من دراسة وتحليل، وما وقع فيها من اجتهاد، وما حدث فيها من مبالغات وأخطاء، والتفريق بين أصول تطبيق منهج الإسلام وبين العواطف السطحية والمحبة الباردة.

وساعد على قبول مثل هذه الروايات لدى الناس تأخر أكثر بني أمية في قبول دعوة الإسلام حتى وقف أكثرهم في الصف المعادي تماماً للدعوة بل قادوا قريشاً لحرب الإسلام، وجيّشوا الجيوش، وحزّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وكان على رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب الذي تنتسب إليه الأسرة الأموية الأولى، وعندما أسلم قبيل فتح مكة يبدو واضحاً أن إسلامه

إنما كان خوفاً من السيف، وسار مع المسلمين إلى «حنين»، و«الطائف» والأزلام لا تزال في كنانته، وأعطي من الغنائم يومذاك الشيء الكثير هو وأولاده على أنهم من المؤلفة قلوبهم، هذه المواقف قد أنست الناس حسن إسلامه بعد هذه الغزوة مباشرة وتولية رسول الله ﷺ له على نجران، ووفاته عليه الصلاة والسلام وهو عنه راض، وإرسال أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، له إلى اليمن ليكون على الصدقات، وحسن صنيعه في الجهاد، إذ سار مع الجيوش المجاهدة إلى الشام وهو شيخ كبير قد قارب السبعين من العمر، وموقفه في معركة اليرموك، وحثه أبناءه على الجهاد والتضحية في سبيل الله، وكان أبو سفيان في جيش ابنه يزيد الذي كانت وجهته دمشق فقال لابنه القائد قبيل المعركة: يا بنيّ عليك بتقوى الله والصبر فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال، فكيف بك وبأشباهك الذين ولّوا أمور المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك. فقال: افعل ـ إن شاء الله[1].

ووقف أبو سفيان يوم اليرموك يحث المسلمين على القتال فقال: يا معشر المسلمين أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل نائين عن أمير المؤمنين وأعداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بازاء عدوٍ كثير عدده، شديد عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة وإن الأرض وراءكم، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحاري وبراري ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معول، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فوصّاهن، ثم عاد فنادى: يا معشر أهل الإسلام حضر ما ترون فهذا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ج٧.

رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم، ثم سار إلى موقعه - رحمه الله[١] . . وجعل أبو سفيان يقف على كل كردوس ويقول: الله الله إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك[٢]. وقال سعيد بن المسيب عن أبيه: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ العسكر يقول: يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات يا معشر المسلمين، قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[٣]. وانتصر المسلمون في اليرموك، وفقد أبو سفيان عينه الثانية، وكان قد فقد الأولى يوم حصار الطائف، وعاش بذلك بعد اليرموك كفيفاً، منقطعاً للعبادة، يخشى ما سبق منه أن صدّ عن سبيل الله. وكأن الناس قد نسوا أمثاله الذين كانوا لهم المواقف نفسها قبل إسلامهم بل منها ما هو أشد، ثم أسلموا، وأبلوا فأحسنوا، وكانوا قدوةً حسنة للمسلمين لم تطالهم الألسن بشيء أمثال خالد بن الوليد، رضي الله عنه، الذي قاتل المسلمين في كل ميدان، ووقف ضد رسول الله في كل موقف، ونال من المسلمين في أحد وربما كان السبب الرئيسي فيما حلّ بهم يومذاك، ثم أسلم، ويقول هو رضي الله عنه عن إسلامه وبيعته لرسول الله ﷺ: وبايعت رسول الله ﷺ، وقلت: استغفر لي كل ما أوضعت فيه من صدٍّ عن سبيل الله، فقال «إن الإسلام يجبّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله على ذلك قال: «اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك»[٤] وهذا ينطبق على خالد بن الوليد كما ينطبق على عمرو بن العاص، وأبي سفيان، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وزهير بن أبي أمية المخزومي، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحي وغيرهم.

وساعد على قبول هذه الروايات أيضاً موقف مروان بن الحكم مؤسس

---

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - ج٧ ص٩.
(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر نفسه.
(٤) طبقات ابن سعد: ج٤ ص٢٥٢ - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨ هـ.

الأسرة الأموية الثانية الذي برز فجأة ولم يعرف من قبل إذ كان عمره ثماني سنوات عندما توفي رسول الله ﷺ ظهر في أواخر أيام سيدنا عثمان بن عفان يشترك في بعض القضايا المهمة والخليفة يثق به ويوليه الكثير من المهام، وذلك على زعم المؤرخين، ودافع عن الخليفة عثمان رضي الله عنه دفاع المستميت، واشترك في معركة الجمل، وقاتل حتى اثخنته الجراح، وأدخل إلى أحد بيوت النساء ليداوى.

وساعد على قبول هذه الروايات الصورة المشرقة لسيدنا علي، رضي الله عنه، منذ نعومة أظفاره وفي بدء الدعوة والمعارك التي خاضها مع رسول الله ﷺ ضد المشركين واليهود في بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وحنين، فتعلقت به النفوس ـ وهو أهل لذلك ـ فقد كان بطل المشاهد ورجل الحروب. ومنذ بداية الخلافة الراشدة ووفاة رسول الله ﷺ بدأ يخبو نجمه ويخفت صوته بعد أن لمع وتألق كثيراً، وهذا اختفاء ظاهري لا حقيقي وذلك لأن الأنظار قد اتجهت نحو الفتوحات التي لم يشارك فيها علي، رضي الله عنه، لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في إبقاء كبار الصحابة في مدينة رسول الله ﷺ يستشيرهم الخليفة، ويدعمونه، وقد كفاهم من جهادهم مع رسول الله ﷺ، وقد تألق قادة الفتح على حين لم يبرز في المدينة سوى الخليفة، والواقع أن مركز سيدنا علي، رضي الله عنه، لم ينزل أيام الراشدين فقد كان ساعد أبي بكر، رضي الله عنه، في أحلك الظروف وقت فتنة الردة، وساعدَ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومستشاره، وواليه على المدينة عندما يخرج منها، وتُحال قضايا الفتوى إليه، وكان ساعدَ عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يستشيره في الملمات ويأخذ رأيه إذا حزب الأمر. وادعى بعضهم أن الخلافة كانت تدفع عن علي دفعاً، ولما كانت النفوس متعلقة به وببطولته لذا فقد رأى بعضها أنه أحق الناس بالخلافة، وبررت رأيها بقرابته من رسول الله ﷺ، وبصفته ختنه، ولكونه أبا للحسن والحسين، رضي الله عنهما، وكأن الخلافة إرثاً يتوارثها الأقرباء بعضهم من بعض، وأن أكبر اعتراض على الأمويين

والعباسيين ومن جاء بعدهم اتخاذ الملكية نظاماً بدلاً من الشورى، ولم ينظر إلى علي، رضي الله عنه، أنه لم يكن يريد الخلافة أبداً وهذا ما يبدو من خطبه التي تنسب إليه «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقارّوا[1] على كظة[2] ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة[3] عنز»، وأن علياً، رضي الله عنه، كان لا يزال في مطلع الشباب فلم يزد عمره على الثلاثين كثيراً عندما توفي رسول الله ﷺ على حين كان أبو بكر، وعمر، وعثمان، رضي الله عنهم، في الستين أو ما يقارب منها، والعرب ترى في السن أثراً في تقدم القوم والرئاسة عليهم، ولم ينظر أيضاً إلى ما لقي رضي الله عنه من عنت أنصاره قبل خصومه، وهم الذين ادعوا حبه ونصحه، وكانوا أبعد ما يكون عن الطاعة أثناء الشدائد حتى تكرر في خطبه قوله «ولكن لا رأي لمن لا يطاع»، وحتى ملّهم، وكره العيش معهم، ورغب في مفارقتهم، فكان يقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني وأبغضتهم وأبغضوني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني»، وما وجد منهم وجد أبناؤه كذلك مع دعوى أنصاره بحبهم أيضاً ورغبتهم في نصرة آل البيت وهؤلاء الأشياع قد ركّزوا على ما لقي من خصومه، ونسوا ما وجد منهم، وعلى كلٍ فإن ما لقي من متاعب، وما حلّ به من نكبات، وما وجد من نقض للعهود من أنصاره وخصومه على حدٍ سواء قد جعل المسلمين يميلون نحوه إضافة إلى حبهم الحقيقي له وميلهم الصحيح له فهو أهل لذلك، وهو سيد عصره بلا منازع، وأفضل من عليها يوم آلت إليه الخلافة.

---

(١) ألا يقارّوا: ألا يوافقوا مقرين.

(٢) الكظة: ما يعتري الآكل من الثقل والكرب عند امتلاء البطن بالطعام والمراد استئثار الظالم بالحقوق.

(٣) عفطة عنز: ما تنثره العنز من أنفها.

وساعد على نشر الشائعات ضد بني أمية ما كان من فتن في أواخر أيام الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بسبب فتنة ابن السوداء، عبد الله بن سبأ، ومؤمرات اليهود، ومظاهرة المجوس لهم، وكيد النصارى أيضاً، ونسب هذا كله إلى حكم الخليفة وسُمّي عجزاً، وإلى رغبة سيدنا عثمان في عدم الضغط على المسلمين وعدم أخذهم بالشدة، وسُمّي ضعفاً، على حين كانت شدة ولاته على أصحاب الفتن من جملة المؤيدات لأعدائه فحملوا عليهم، وعدوهم قساةً ظالمين، ولما كانوا من البيت الأموي فقد نسبوا إلى الخليفة تقريبه لأهل بيته، وممالأتهم، وقد تحمل الخليفة، رضي الله عنه، تبعة ذلك، وسبحان الله فالحليم ضعيفاً والقوي ظالماً! فمن هو المرغوب فيه؟ ونُظر إلى سيدنا عثمان وكأنه ليس بالخليفة الراشدي، ونُسي إصهار رسول الله ﷺ له، ومواقفه في الدفاع عن الإسلام بالمال والنفس، ويوم الحديبية، وساعة العسرة، وفتوحاته في أول عهده، والرخاء الذي أصاب المسلمين جميعاً في بداية أمره، وكيف كان يواسي المسلمين بماله، ويسعفهم من أملاكه، ولم يذكر منه إلا ما كان في أواخر أيامه يوم حدثت الفتن، وعمت الفوضى.

وساعد في إظهار معايب بني أمية الخلاف الذي جرى بين علي ومعاوية، رضي الله عنهما، وقد اجتهد كل منهما لمصلحة المسلمين والسير على الطريق الصحيح وإن كنا نرى أن الخليفة الشرعي هو سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ولا يحق لوالٍ من الولاة أن يعارض الخليفة، ويدعو إلى قضية هي من حق الخليفة وحده، إلا أنه قد اختلط عليه بسبب الفوضى وسيطرة المشاغبين على المدينة المنورة، إلا أن أنصار علي، رضي الله عنه، أو من يدعون ذلك قد أبعدوا عن معاوية، رضي الله عنه، كل مكرمة، ونسوا صحبته، وكتابته للوحي، وفتوحاته، وتقديره لسيدنا علي، رضي الله عنه، في حياته ومماته ـ وهو ما سنتعرض له في الصفحات القادمة ـ إن شاء الله ـ،ونسبوا إليه لعنه وتحقيره وهو أمر لا يقبله مؤمن، ولا يصدقه مسلم.

وساعد في قبول هذه الروايات النكبات التي حلت بآل البيت بل التي توالت عليهم، فحادثة كربلاء التي تعدّ فاجعة كبيرة نزلت بآل البيت وذهب فيها بطلها سيدنا الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وأكثر إخوانه وأبنائه، وهو أفضل من عليها يومذاك، وإذ كان الحسين، رضي الله عنه، مجتهداً في خروجه إلا أن ذلك الخروج ليس له ما يبرره من الناحية الشرعية، كما أنه ليس بالصحيح من الناحية السياسية والعسكرية والاجتماعية، فجماعته لا تزيد كثيراً على المائة أكثرها من النساء والأطفال تخرج إلى مكان تعم فيه الفوضى ليقوم زعيمها هناك بالثورة ضد الحكم الضعيف، ويحمل لواء الجهاد ليعمل على تطبيق المنهج الإسلامي بشكل أكثر سلامةً، وتتوقع هذه الجماعة القتال والصدام بوالي بني أمية الذي يملك الأمر بشكلٍ قويٍ، ويقسو على أنصارها بكل شدة وإذا نظرنا إلى ما فعله جيش بني أمية بل أحد ولاتهم في هذه الحادثة ألا يجب أن ننظر إلى ما فعله أولئك الذين دعوا سيدنا الحسين للخروج إليهم، ثم تخلّوا عنه ساعة الشدة، وسلموا رسوله، ابن عمه، مسلم بن عقيل وقت الضيق، بل انضم أكثرهم إلى الجيش الذي قاتل الحسين، وشاهدوا مصرعه، ولم ينصروه، ألا يعدّ أولئك هم القتلة الحقيقيون له! وهذا ما يدل على أن الذين تولوا كبر هذه الفاجعة إنما هم الذين سجلوها بهذه الصورة فذكروا ما فعلت خصومهم ونسوا ما اقترفت أيديهم هم منها، فلم يسجلوا خيانتهم له، ومشاركتهم في قتله وأنصاره وأهله. وإضافة إلى فاجعة كربلاء كانت ثورة زيد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، في الكوفة عام ١٢٢ أيام خلافة هشام بن عبد الملك، وكما سلّم أهل هذه المدينة الحسين بن علي سلّموا كذلك حفيده زيد، وقد دعوه للخروج، وحثوه على ذلك فلما قام تخلوا عنه ورفضوه، ومنذ ذلك الوقت عرفوا باسم الرافضة، وزيد هو الذي أطلق عليهم هذا الاسم، وبعد كل هذا لم يرعووا ولم يتفكروا بل قاموا يعلنون توبتهم بعد كل حادثة يرتكبونها، فهم الذين أعلنوا عدم الطاعة لسيدنا علي، وأجبروه مرات كثيرة على ما لم يرد حتى ملّهم، ثم توانوا عن نصرة سيدنا الحسن، وتباطؤوا في القتال حتى رأى أنه لا بدّ من مبايعة سيدنا معاوية،

ثم بدؤوا يظهرون اللوم والتأفف وإذا كانت أئمتهم قد بايعت فما عليهم إلا البيعة والقبول بالخليفة الجديد، وإذا نسبوا لأئمتهم العصمة فكيف يرفضون ما عمل هؤلاء الأئمة، وما قاموا به، ولم يقبلوا عليهم طائعين راضين؟ ثم تخلوا عن الحسين، وعن زيد بعد أن دعوهم للخروج، وأظهروا لهم التأييد ومما يلاحظ أثناء دراسة كتب التاريخ التي بين أيدينا أن الخوارج قد حلّت بهم النكبات أكثر مما حلّت بآل البيت، وأن ما فيها من المآسي أكثر مما في تلك، ومع ذلك فقد سُجّلت حروب الخوارج على أنها ضرورة اقتضتها ظروف الدولة، وكان الحق بجانب الحكم، على حين صوّرت ثورات آل البيت بأن الحق مع الخارجين وأن الدولة ظالمة لهم بعيدة عن تطبيق الشرع، فكيف هي عادلة في جانب وظالمة في آخر؟ وتطبق الإسلام مع فئة وتخالفه مع ثانية؟ على حين أن الخوارج يطلبون أن تكون الخلافة في الصالح لها، ويطالبون بتطبيق الإسلام هذا خطهم العام مع ما فيه من مخالفات أخرى معروفة يكفرون فيها المسلمين الذين لا يرون رأيهم، ويعدّون العصاة خالدين في النار، أما الشيعة فيطالبون بالتسليم لآل البيت بالحكم على أن يكون فيهم متوارثاً بينما ينتقدون الحكم الوراثي إذا كان في غير من يدعون لهم، هذه الحقائق تجعل أصابع الاتهام تتجه إلى ناحيةٍ معينةٍ وتشير إلى جهةٍ خاصةٍ كان لها دور كبير في تسجيل أحداث التاريخ المغلوطة التي شاعت بين الناس حتى غدت عند أكثرهم حقيقة.

وساعد على قبول الشائعات ضد بني أمية ما نال أنصار علي، رضي الله عنه، من بعده، فقد قتل عدد منهم بصورٍ مختلفة، ولعل من أبرزهم حجر بن عدي، وقد كان مقتله في مرج عذراء شمال شرقي دمشق على بعد خمسة وعشرين كيلاً منها، واختلفت الروايات في قتله، واتهم سيدنا معاوية في ذلك.

وساعد في قبول هذه الروايات شدة بعض ولاة بني أمية أمثال زياد بن أبيه الذي أخضع الكوفة والبصرة وما حولهما، وابنه عبيد الله الذي سار على خطة أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتد لتوطيد سلطان

بني أمية، وضربت بهما الأمثلة في الظلم، وقتل الرجال، إلا أن نظرة واحدة إلى هؤلاء الولاة تنبئ أن من ضرب به المثل إنما كانوا ولاة على العراق فقط، وذلك لما عمّ ذلك المصر من فوضى واضطرابات، فإذا جاءهم الوالي الرحيم استضعفوه وقاموا بالحركات، وإذا جاءهم القوي استهابوه وخافوا منه، وسمعوا منه وأطاعوه، واستقر الوضع، وهدأت الأمور، فكان لا بدّ للوالي الذي يلي أمورهم من أخذهم بالشدة، ومسكهم بالحزم والقوة حتى يستقر له الوضع، وتستمر له الولاية، وتتم له الهيبة، ويسود الأمن، ومن سار على هذه الطريقة وهي مطلوبة روّجوا الشائعات ضده، وذكروا ظلمه، وشدة بطشه، ونسوا ما لقيت الرعية في هذا الإقليم من جور، وما نالها من ظلم بسبب أهل الفتنة، فلما تولى أمر البلد زياد بن أبيه أخذهم بالشدة فاستتب الأمن، فلقد خاطب أهل البصرة خاصة والعراق عامة في أول خطبة له بعد أن تسلم أمرها خطبته المشهورة بالبتراء وقد جاء في بعض فقراتها «إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ واعلموا أن عندي أمثالها، من بُيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياي ودَلَج الليل، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجّلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليّ، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنبٍ عقوبة، فمن غرّق قوماً غرّقته، ومن حرّق على قوم حرّقناه، ومن نقب بيتاً نقبت قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفّوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي، لا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن، فجعلت ذلك دَبْرَ أذني، وتحت

قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم، فرب مبتئسٍ بقدومنا سيُسَرّ، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس، قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولّينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم. واعلموا أني مهما قصّرت عنه فإني لا أقصّر عن ثلاث، لست محتجباً عن طالب حاجةٍ منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبّانه، ولا مجمّرا[1] لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا. ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم.

أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على إذلاله، وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي[2].

وكان زياد أول من شدّ أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدّم في العقوبة، وجرّد السيف، وأخذ بالظِّنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدر العطاء، وبنى مدينة الرزق[3].

---

(١) تجمير الجند: حبسهم في أرض العدو، ومنعهم من العودة إلى أهليهم.

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص٢١٩ ـ ٢٢١ طبعة دار المعارف بمصر ـ القاهرة.

(٣) المصدر السابق ص٢٢٢.

وقال الحجاج عندما وصل إلى الكوفة والياً عليها، وهو على منبر مسجدها:

«أنا ابن جلا وطلاع الثنايا.

متى أضع العمامة تعرفوني[1]

أما والله إني لأحمل الشر محمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا والقوس فيها وتر عردُ
مثل ذراع البكر أو أشدّ لا بدّ مما ليس منه بدّ
هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفّها الليل بسواق حطم
ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وضم[2]
قد لفّها الليل بعصلبي[3] أروع خرّاج من الدوي[4]
مهاجرٍ ليس بأعرابي
ليس أوان يكره الخلاط جاءت به والقُلص الأعلاط[5]
تهوي هُويّ سابق الغطاط

وإني والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين، ولا يقطع لي بالشنان[6]، ولقد فُررت عن ذكاء، وجريت إلى الغاية القصوى. إن أمير المؤمنين، عبد الملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً، وأصلبها مكسراً، فوجّهني إليكم؛ فإنكم طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم

(١) البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحي.
(٢) الوضم: كل ما يقطع عليه اللحم.
(٣) العصلبي: الشديد القادر على العمل والمشي.
(٤) الأرض الفضاء التي يسمع فيها خف الإبل كالدوي.
(٥) الأعلاط: الإبل التي دون أرسان. (٦) الشنان: القربة البالية اليابسة.

سنن الغي، أما والله لألحوَنّكم لحو العود، ولأعصبنكم[١] عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. إني والله لا أعِد إلا وفيت، ولا أخلق[٢] إلا فريت[٣]. فإياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالا، وما يقول، وفيم أنتم وذاك؟ والله ولتستقيمن على سبل الحق أو لأدعن لكل رجلٍ منكم شغلاً في جسده. من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه، وأنهبت ماله».

واستقر الوضع بالعراق لبني أمية بهذه الشدة التي ساس فيها الحجاج الناس، وبعد أن ضعفت سلطة بني أمية فيها بعض الشيء بعد ولاية زياد بن أبيه، وما كان الوضع في هذا المصر ليستقيم لولا هذه الشدة، بل لانتشرت الفوضى وما كان المسلمون لينصرفوا إلى الفتوحات والجهاد لولا استقرار الأوضاع في أمصارهم وأقاليمهم كافة، أو ما كان الإسلام لينتشر في عهد بني أمية لولا استقرار الأمن والأوضاع بفضل هؤلاء الولاة وأمثالهم فقد عرفت الفتوحات أوجها أيام الحجاج فهو الذي سير محمد بن القاسم الثقفي إلى السند، وقتيبة بن مسلم الباهلي إلى بلاد ما وراء النهر، وانتشر الإسلام أيامه أكثر من أي وقت في العصر كله باستثناء أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وصحيح أن الحجاج قد قتل سعيد بن جبير وهو من أهل العلم وكبار التابعين، وكان سعيد قد اشترك في حركة ابن الأشعث التي كادت أن تُجزّئ الدولة، وتهب عليها رياح الفتن.

وساعد في قبول هذه الروايات ضد بني أمية معركة الحرة التي جرت في أواخر عام ٦٣هـ أيام يزيد بن معاوية، وكان جيشه بقيادة مسلم بن عقبة المري، فقد استباح المدينة ثلاثة أيام وقتل من أهلها ما قتل ثم سار إلى مكة المكرمة لحصار ابن الزبير فيها ولكنه مات في الطريق، وتولى أمر جند الشام بعده الحصين بن نمير فحاصر مكة إلا أن نعي يزيد قد جاءه ففكّ الحصار.

---

(١) أعصبنكم: أقطعكم.
(٢) أخلق: أقدّر.
(٣) فريت: أصلحت.

ولما قوي ملك بني أمية مرة أخرى بالشام، جاء الحجاج بن يوسف الثقفي وحاصر مكة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير، ودخل البيت الحرام، وهذا ما يثير المسلمين لما لابن الزبير من فضلٍ، وما للحرم من حرمةٍ، وما للكعبة من قدسيةٍ، ومع هذا فإن هذه الحادثة تبقى دون فاجعة كربلاء من حيث التسجيل وإثارة المسلمين، إذ سجلت كل منهما بأسلوب الأمر الذي يوضح الأيدي التي سجلت أحداث التاريخ لهذه المدة من الزمن أو ذلك العهد من العصر الإسلامي.

لقد استغل خصوم بني أمية هذه الأحداث التي وقعت في عهدهم، واستفادوا من بعض الحوادث التي سبقت عصرهم فعملوا على تشويه التاريخ بشكل عام.

شنّ هؤلاء هجوماً عنيفاً على بني أمية حتى أخرجوهم من الإسلام، وكان هجومهم على الخلفاء والولاة والأعوان، لم ينج منهم الصحابة، بل لم ينج منهم حتى أولئك الذين كانوا من أنصار سيدنا علي، رضي الله عنه، إذا بدا الضعف في بعض مواقف لهم أمثال أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، وعدّوا الراشدين، رضي الله عنهم، أنهم تآمروا على سيدنا علي فأبعدوا الخلافة عنه، واستبدوا بها، لذا فقد نالهم من سموم المفترين ما نالهم، وقالوا عنهم أقوالاً ما قالها أحد من ألدّ أعدائهم، على حين أن أولئك الذين كانوا سبباً في الفوضى، ومن زعماء الشغب أمثال الأشتر النخعي قد ناله من الثناء ما ناله، لدعمه لسيدنا علي، ولوقوفه بجانبه وقتاله معه.

لقد سلّطوا الأضواء على بني أمية قبل إسلامهم، ولم يسلم منهم الذين أسلموا منذ بدء الدعوة من بني أمية أمثال عثمان بن عفان، وسعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن سعيد بن العاص رضي الله عنهم جميعاً. لقد وجهوا سمومهم ضد أبي سفيان صخر بن حرب على أنه كبير الأمويين، وعدّوه رأس الكفر ـ وقد كان كذلك قبل ذلك ـ وعندما أسلم لم يعترفوا على إسلامه، وإنما عدّوا ذلك

خدعة خوفاً من السيف، واستشهدوا على ذلك بعطاء رسول الله ﷺ له ولأولاده من غنائم هوازن الكثير وبعد حنين كما أعطى المؤلفة قلوبهم - وقد كان كذلك، وعندما حسن إسلامه لم يوافقوا على ذلك على الرغم من تولية رسول الله ﷺ له، وإرسال أبي بكر، رضي الله عنه، إياه على صدقات اليمن، وتوقفوا عن ذكر موقفه يوم اليرموك، وفقده عينه يومذاك، وحياته كفيفاً بعد ذلك، منقطعاً للعبادة أكثر من سبع عشرة سنة حتى توفي عام ٣١هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

اتهموا سيدنا عثمان بوصوله إلى الخلافة بطريقة غير أمينة، وأن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قد تآمر معه على ذلك في سبيل إبعاد سيدنا علي، رضي الله عنه، عنها، واتهموا عثمان كذلك أنه قد قرّب أهل بيته من بني أمية فأعطاهم الولايات، وقلّدهم المناصب، وترك لهم الأمر يتصرفون به كما يشاءون، وأنه كان ضعيفاً يتلاعب به ابن عمه مروان بن الحكم، وهذا ما سبب الفوضى التي نتج عنها البلاء والفتن.

إن كثيراً من الصحابة الأكفاء كانوا يرفضون العمل والولايات، ولا يستطيع السلطان أن يجبرهم على ذلك، وكان سيدنا عثمان مضطراً لاختيار الأكفاء، وقد تقدم بعض أقربائه يرغبون في الأمر، وهم من قريش وقبل ذلك من المسلمين ومن صحابة رسول الله ﷺ، وما كان له أن يمنعهم عنها، ولكن إذا لاحظ عليهم شيئاً عزلهم وأدبهم وكم عزل منهم! ولم يَتّهم حتى إذا ثبت له صلاحهم أعادهم للولاية، وكان دورهم في الفتح والجهاد ونشر الإسلام.

واتهموا سيدنا معاوية، رضي الله عنه، بأنه صاحب أطماع، وأن ما فعله بما يسمى بالمطالبة بدم عثمان لم يكن سوى مناورة سياسية لتحقيق أطماعه، وهذا ما أدى به إلى الخروج على الخليفة مع ما في الخروج من مخالفات شرعية، وأنه عندما وصل إلى الخلافة نسي ما كان يدعو إليه بالأمس من مطالبة بدم الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

واتهموا سيدنا معاوية بكل من قُتل أو مات ممن كان قد وقف ضده،

مع أن الفوضى كانت سائدة والثارات موجودة، وكل قد خاض في دماء الآخرين، فقد قتل سيدنا علي، رضي الله عنه، بيد الخوارج، وطعن معاوية نفسه، وقتل قاضي مصر خارجة، وصاحبه يظن أنه عمرو بن العاص، ولو لم يكن ذلك لاتهم معاوية بعلي، وعمرو أيضاً، وعلى كلٍ فكل من لم يُعرف قاتله اتهم به معاوية، وكل من مات من الرجال اتهم معاوية بسقيه السم.

اتهم سيدنا معاوية بقتل سيدنا الحسن بن علي، رضي الله عنهما، بالسم الذي دسّ له عن طريق زوجه جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي وقد كان معاوية دسّ إليها: إنك إن احتلت في قتل الحسن وجهت إليك بمائة ألف درهم، وزوّجتك من يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه، فلما مات وفّى لها معاوية بالمال، وأرسل إليها: إنا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه[1] ويبدو ضعف الاتهام واضحاً، حتى إن المصدر نفسه يضعفه فيقول على لسان الحسن، رضي الله عنه، «لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه، لقد لفظت طائفة من كبدي فرأيتني أقلبه بعود في يدي، فقال له الحسين: يا أخي من سقاك؟ قال: وما تريد بذلك؟ فإن كان الذي أظنه فالله حسيبه، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي بريء»[2]. ويدل هذا على أن الحسن ظنّ ولم يتهم، ومن ظنّه ليس هو بصاحب السلطان، فإنه يؤخذ منه، والسلطان هو الذي يأخذ ذلك، والخليفة معاوية هو السلطان والإمام الذي يجب أن يقيم الحدود، أما الحسين، رضي الله عنه، فلا يستطيع أن يقيم الحدّ على الإمام.

واتهم سيدنا معاوية بقتل الأشتر النخعي فيروي المسعودي ذلك فيقول «وولى علي الأشتر مصر وأنفذه إليها في جيش، فلما بلغ ذلك معاوية دسّ إلى دهقان كان بالعريش، فأرغبه، وقال: أترك خراجك عشرين سنة،

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٥ طبعة المكتبة التجارية ـ مصر ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٥.

واحتل للأشتر بالسم في طعامه، فلما نزل الأشتر العريش سأل الدهقان: أي الطعام والشراب أحب إليه؟ قيل له: العسل، فأهدى له عسلاً، وقال: إن من أمره وشأنه كذا وكذا، ووصفه للأشتر، وكان الأشتر صائماً، فتناول منه شربة، فما استقرت في جوفه حتى تلف، وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه، وقيل: كان ذلك بالقلزم، والأول أثبت، فبلغ ذلك علياً، فقال: لليدين والفم، وبلغ ذلك معاوية، فقال: إن لله جنداً من عسل»[١].

واتهم سيدنا معاوية بقتل حُجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبراً في الإسلام، حمله زياد بن أبيه من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها «ولما صار إلى مرج عذراء على اثني عشر ميلاً من دمشق تقدم البريد بأخبارهم إلى معاوية، فبعث برجلٍ أعور، فلما أشرف على حجر وأصحابه قال رجل منهم: إن صدق الزجر فإنه سيقتل منا النصف وينجو الباقون، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: أما ترون الرجل المقبل مصاباً بإحدى عينيه، فلما وصل إليهم قال لحجر: إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك يا رأس الضلال ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب وقتل أصحابك، إلا أن تراجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرؤوا منه، فقال حجر وجماعة ممن كانوا معه: إن الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه وعلى وصيه أحب إلينا من دخول النار، وأجاب نصف من كان معه إلى البراءة من علي، فلما قُدّم حجر ليقتل قال: دعوني أصلي ركعتين، فجعل يطول في صلاته، فقيل له: أجزعاً من الموت؟ فقال: لا، ولكني ما تطهرت للصلاة قط إلا صليت، وما صليت قط أخف من هذه، وكيف لا أجزع، وإني لأرى قبراً محفوراً، وسيفاً مشهوراً، وكفناً منشوراً، ثم تقدم فَنُحِر، وألحق به من وافقه على قوله من أصحابه»[٢].

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٢ ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص١٢ ـ ١٣.

واتهم سيدنا معاوية بقتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لما كان له من شأن «أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عظم شأنه بالشام، ومال إليه أهلها، لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية، وخشي على نفسه منه، لميل الناس إليه، فأمر ابن أثال أن يحتال في قتله، وضمن له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجاً ما عاش، وأن يوليه جباية خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن بن خالد حمص منصرفاً من بلاد الروم دسّ إليه ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه، فشربها فمات بحمص، فوفّى له معاوية بما ضمن له، وولاّه خراج حمص، ووضع عنه خراجه»[1].

واتهم سيدنا معاوية بادعاء زياد بن أبيه ونسبه إلى أبيه أبي سفيان، أي شهد على أبيه بالزنا، ولم يكن بعد قد خلق، وذلك بغية كسبه إلى جانبه، ولو كان في ذلك ترك لدينه، قال المسعودي «ولما همّ معاوية بإلحاق زياد بأبي سفيان أبيه ـ وذلك في سنة أربع وأربعين ـ شهد عنده زياد بن أسماء الحرمازي، ومالك بن ربيعة السلولي، والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه، وأن أبا سفيان قال لعلي عليه السلام حين ذكر زياد عند عمر بن الخطاب:

أما والله لولا خوف شخص ... يراني يا علي من الأعادي
لبين أمره صخر بن حرب ... ولم يكن المجمجم عن زياد
ولكني أخاف صروف كفّ ... لها نقم ونفي عن بلادي
فقد طالت محاولتي ثقيفاً ... وتركي فيهم ثمر الفؤاد

ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة أبي مريم السلولي، وكان أخبر الناس ببدء الأمر وذلك لأنه جمع بين أبي سفيان وسميّة أم زياد في الجاهلية على الزنا، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدي الضريبة إلى

---

(١) الطبري: ج٥ ص٢٢٧.

الحارث بن كلدة، وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل فيه البغايا بالطائف خارجاً عن الحضر في محلةٍ يقال لها حارة البغايا.

وكان سبب ادعاء معاوية له فيما ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن علياً كان ولاّه فارس حين أخرج منها سهيل بن حنيف، فضرب زياد ببعضهم بعضاً حتى غلب عليها، وما زال يتنقل في كورها حتى صلح أمر فارس، ثم ولاّه على اصطخر، وكان معاوية يتهدده، ثم أخذ بسر بن أرطأة عبيد الله وسالماً ولديه وكتب إليه يقسم ليقتلنهما إن لم يراجع ويدخل في طاعة معاوية، وكتب معاوية إلى بسر ألا يعرض لابني زياد، وكتب إلى زياد أن يدخل في طاعته ويردّه إلى عمله، فقدم زياد على معاوية، فصالحه على مال وحلي، ودعاه معاوية إلى أن يستخلفه، فأبى زياد ذلك، وكان المغيرة بن شعبة قال لزياد قبل قدومه على معاوية: ارم بالغرض الأقصى، ودع عنك الفضول، فإن هذا الأمر لا يمد إليه أحد يداً إلاّ الحسن بن علي، وقد بايع لمعاوية، فخذ لنفسك قبل التوطين، فقال زياد: فأشر علي، قال: أرى أن تنقل أصلك إلى أصله، وتصل حبلك بحبله، وأن تعير الناس منك أذناً صماء، فقال زياد: يا ابن شعبة أأغرس عوداً في غير منبته ولا مدرة فتحييه ولا عرق فيسقيه؟ ثم إن زياداً عزم على قبول الدعوى وأخذ برأي ابن شعبة، وأرسلت إليه جويرية بنت أبي سفيان عن أمر أخيها معاوية، فأتاها فأذنت له وكشفت عن شعرها بين يديه، وقالت: أنت أخي أخبرني بذلك أبو مريم، ثم أخرجه معاوية إلى المسجد، وجمع الناس فقام أبو مريم السلولي فقال: أشهد أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف وأنا خمّار في الجاهلية، فقال: ابغني بغياً، فأتيته وقلت له: لم أجد إلا جارية الحارث بن كلدة سميّة، فقال: ائتني بها على زفرها وقذرها، فقال له زياد: مهلاً يا أبا مريم، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً، فقال أبو مريم: لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إلي، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت، والله لقد أخذ بكم درعها، وأغلقت الباب عليها وقعدت دهشاناً، فلم ألبث أن خرج عليّ يمسح جبينه، فقلت: مه يا أبا سفيان، فقال: ما أحببت مثلها يا أبا

مريم، لولا استرخاء من ثديها وذفر من فيها، فقام زياد فقال: أيها الناس هذا الشاهد قد سمعتم ذكرها، ولست أدري حق ذلك من باطله، وإنما كان عبيد ربيباً مبروراً أو ولياً مشكوراً، والشهود أعلم بما قالوا، فقام يونس بن عبيد أخو صفية بنت عبيد بن أسد بن علاج الثقفي - وكانت صفية مولاة سمية - فقال: يا معاوية، قضى رسول الله ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضيت أنت أن الولد للعاهر وأن الحجر للفراش، مخالفة لكتاب الله تعالى، وانصرافاً عن سنة رسول الله ﷺ، بشهادة أبي مريم على زنا أبي سفيان، فقال معاوية: والله يا يونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئاً وقوعها»[1]. ويبدو ضعف هذا فكيف قبل زياد هذا الكلام أمامه؟ وكيف قبل معاوية؟ وكيف رضي المسلمون بهذه المخالفة الصريحة من الإمام؟ فهل ضاع الإحساس، وضاع الدين، ولا يزال الصحابة أحياء؟.

واتهم سيدنا معاوية بطعنه بكبار الصحابة ومنهم أبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم جميعاً، ففي رسالةٍ منسوبةٍ إليه موجهةٍ إلى محمد بن أبي بكر والي علي على مصر يقول: «فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده، وأظهر دعوته، وأبلج حجته، وقبضه الله إليه، صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتز حقه، وخالفه على أمره، على ذلك اتّفقا واتّسقا، ثم إنهما دعواه إلى بيتهما فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، ثم إنه بايع لهما وسلم لهما، وأقاما لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضهما الله، ثم قام ثالثهما عثمان فهدى بهديهما وسار بسيرهما، فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل، وأظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مُناكما، فخذ حذرك يا ابن أبي بكر، وقس شبرك بفترك، يقصر على أن توازي أو تساوي من يزن الجبال

---

(١) مروج الذهب - المسعودي - ج٣ ص١٤ - ١٦.

بحلمه، لا يلين عن قسرٍ قناته، ولا يدرك ذو مقال أناته أبوك مهد مهاده، وبنى لملكه وساده، فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب، ولسلمنا إليه، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله، فعب أباك بما بدا لك، أو دع ذلك، والسلام على من أناب»(١).

يبدو في هذا الضعف، وأنه من وضع الخصوم في وقت متأخر ففي البداية يثني على علي، رضي الله عنه، ثناء غلاة الإمامية، ويطعن في الخلفاء الراشدين الآخرين، ثم يجمع معهم معاوية.

ونُسب إليه أنه كتب إلى قيس بن سعد بن عبادة بعد أن عزله علي عن مصر «أما بعد: فإنك يهودي...»(٢) معاذ الله!

واتهم سيدنا معاوية بأنه كان يلعن علياً على المنابر، ويأمر الناس بذلك، وكذلك يفعل ولاته، وبهذا الاتهام يتهم المسلمون جميعاً الذين يقبلون بهذا، ويسكتون عنه، فما من مسلم إلا ويحب علياً، وما من مسلم يمكن أن يرضى بهذا، وهذا فرية ما بعدها افتراء، فقد كان معاوية على ما بينه وبين علي من خلافٍ في وجهات النظر، ومفارقة في الرأي يحترمه ويجلّه، ويعرف قدره، ويعلم منزلته، ويمدح أمامه، ويترحم عليه، ويترضى عنه، وإنما المتأخرون من الغلاة قد أضافوا وحرّفوا واتهموا حتى كانت الهوة بين الفريقين من أنصار علي وشيعته وباقي المسلمين، ولم يكن هذا من قبل، فكانوا يصلون معاً ويجاهدون معاً، وينطلقون إلى الفتوحات معاً، ثم غدوا الآن فريقين، لا تصلي الشيعة وراء إمام المسلمين، ولا تعترف بمصادر علمهم، ولا تقبل إلا ممن كان مقبولاً عندها ولولا كان من ميمون القداح وأمثاله.

ويحمل على معاوية استخلافه ابنه يزيد لا للاستخلاف فقد استخلف من هو أفضل منه، إذ استخلف أبو بكر، رضي الله عنه، عمر، رضي الله

---

(١) المصدر السابق. ج٣ ص٢١ ـ ٢٢. (٢) المصدر نفسه ج٣ ص٢٥.

عنه، من بعده، وإنما استخلافه لابنه تفضيلاً له ومحبة وفي المسلمين من هو خير منه، وبذا يكون قد نقل حكم الشورى إلى ملك عضوض.

وحمل على معاوية أنه قلّد الأكاسرة والقياصرة في الأبهة بالملك منذ توليه إمرة الشام، ولعل الأمر يستوجب ذلك، لما في عادة أهل البلد، ونظرتهم إلى هيبة السلطان، فذكر الطبري ذلك، إذ قال: «خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! وقال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لمكيدة رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك»[1]. ولو وجد عمر في ذلك شيئاً، وهو أكثر الناس زهداً وأبعدهم عن التكلف، وأشدهم على الولاة، لأخذ على يده، ولما أبقاه في الولاية يوماً واحداً. أما اتخاذ المقصورة والخاتم فقد اقتضت الظروف ذلك ولا شيء فيها.

واتهم يزيد بن معاوية، بل يعدّ هو وأبوه أكثر من وجهت إليه التهم، وأشيعت عنهم الشائعات، وكثرت الافتراءات، فأبوه بسبب نزاعه مع سيدنا علي، وهو بسبب حدوث فاجعة كربلاء في أيامه، وإن كانت الافتراءات عامة على بني أمية إلا أنها كانت أكثر ما تكون من الخلفاء على معاوية ويزيد.

ـ ٢ ـ

اتهم يزيد بأنه كان السبب الرئيسي في قتل سيدنا الحسين بن علي، رضي الله عنهما، والواقع أنه ما كان كذلك، حيث كان بينه وبين مكان

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥ ص٣٣١.

المعركة مسيرة شهر، فكيف يصدر الأوامر، ويمنع، ويربط، ويقطع وهو الخليفة الذي لم تكن له تلك القوة، ولم يستقر له الوضع بعد، وشخصية عبيد الله بن زياد هي الظاهرة في العراق؟

واتهم أنه سُرَّ بمقتل الحسين ولم يكن كذلك، ولكنه بكى، ولعن شمّراً وابن زياد وقال: والله لو كنت عوضاً عن ابن زياد لعفوت عنه، ثم أدخل النساء الذين وفدوا إلى دمشق من بقايا كربلاء إلى نسائه، واستمر البكاء والنحيب ثلاثة أيام، وما كان يأكل إلا ومعه علي بن الحسين، ثم سيّر الركب مع حامية إلى المدينة.

وكذا لم تكن له السيطرة التامة على الجيش الذي غزا المدينة المنورة واستباحها ثلاثة أيام، بعدما أعلن أهلها العصيان، وخلع البيعة، وإخراج بني أمية منها.

واتهم أنه كان مدمناً على الشراب، بل زادوا إلى أنه قد نشر ذلك في كل البقاع التي تخضع له، ومن الغريب أن يُقبل رأي كهذا، ولم ينتشر الفساد والخمر في يوم من الأيام وبشكل علني في الدولة الإسلامية، فكيف بذلك وأبناء الصحابة موجودون بل وبعض الصحابة لا يزالون على قيد الحياة؟ يقول المسعودي «وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شَربةً تُروِّي مشاشتي ... ثم على فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي ... ولتسديد مغنمي وجهادي

وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب»[1].

(١) مروج الذهب: المسعودي - ج٣ ص٧٧.

وقالوا في مروان بن الحكم ما قالوا، فقد جاء في حياة الحيوان ما نصه: روى الحاكم في كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، قال؛ كان لا يولد لأحدٍ مولود إلا أتي به لرسول الله ﷺ فيدعو له، فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: «هو الوزع بن الوزع، الملعون بن الملعون» ثم قال: صحيح الإسناد. ثم روى عن عمرو بن مرة الجهني، وكانت له صحبة، أن الحكم بن أبي العاصي استأذن على النبي ﷺ فعرف صوته فقال: «أئذنوا له، عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله إلا المؤمن منهم، وقليل ما هم يترفهون في الدنيا، ويضيعون الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق».

وفي كتاب الإشاعة في أشراط الساعة جميع ما ورد في ذم بني أمية مما هبّ ودبّ فمما قال: وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت في النوم بني الحكم ينزوون عن منبري كما تنزوي القردة». قال: فما رؤي النبي ﷺ بعدها ضاحكاً مستجمعاً حتى توفي، رواه أبو يعلى، والحاكم، والبيهقي. وعن ابن المسيب قال: رأى النبي ﷺ بني أمية على منبره فساءه ذلك فأوحى الله إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه، رواه البيهقي.

وعن الحسن بن علي، عليهما السلام، قال: إن رسول الله ﷺ قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ يملكها بنو أمية، قال القاسم بن اليتيم بن الفضل: فحسبنا مدة ملك بني أمية فإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص. رواه الترمذي، والحاكم، والبيهقي. وعن الزهري وعطاء الخراساني أن النبي ﷺ قال للحكم: «كأني أنظر إلى بنيك يصعدون منبري وينزلون»، رواه الفاكهي. وعن جبير بن مطعم قال: كنا مع

النبي ﷺ فمر الحكم بن أبي العاص، فقال النبي ﷺ: «ويل لأمتي مما في صلب هذا» وغير ذلك كثير.

وإن هذه الأحاديث والأخبار ليغنينا ظاهرها الدال على الكذب عن مناقشة سندها. فكم نهى النبي ﷺ عن اللعن، وكم أنزل أصحابه عن الإبل التي كانوا يلعنونها، وقد قال عليه السلام: «ما بعثت لعّاناً». فمن أين هذه الأحاديث التي كثر اللعن في رواياتها لبني أمية التي لم يرد مثلها في حق أبي جهل، وأبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، وأبيّ بن خلف، والوليد بن المغيرة، وعبد الله بن سلول وغيرهم من رؤساء المشركين مع شدة كفرهم وعنادهم[(١)].

وقد كان مروان بن الحكم خليفة، ويختلف عليه الصحابة ويأمر وينهى بينهم، ويصلي إماماً بهم، وهذا لا شك فيه لأن الخلفاء هم الذين كانوا يتولون الإمامة الصغرى مع الكبرى، بل أمراؤهم أيضاً كانوا يصلون أئمة بالصحابة، حتى كان الحجاج يصلي بهم ومحال أن يسكتوا أو يقتدوا بمن لا يرونه أهلاً للإمامة.

وأما اختلافهم إليه وحكمه فيهم، فقد روى الشيخان واللفظ للبخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا سلمان بن المغيرة قال: حدثنا حميد بن هلال العدوي قال: حدثنا صالح السمان قال: رأيت أبا سعيد الخدري في يوم الجمعة يصلي إلى شيء يستره الناس، فأراد شاب من بني أبي معيط أن يجتاز بين يديه، فدفع أبو سعيد في صدره، فنظر الشاب فلم يجد مساغاً إلا بين يديه فعاد ليجتاز، فدفعه أبو سعيد أشد من الأولى، فنال من أبي سعيد، ثم دخل على مروان فحكى إليه ما لقي من أبي سعيد، ودخل أبو سعيد خلفه على مروان. فقال: ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيد؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صلى أحد إلى شيء يستره من الناس، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان».

---

(١) أغاليط المؤرخين ـ محمد أبو اليسر عابدين ص١٤٦ ـ ١٤٨.

وفي هذا الحديث ما يدل على فضل مروان بسهولة حجابه والدخول عليه وقضائه بما امتثل به أمر رسول الله ﷺ[١].

وكان مروان من رواة الحديث: فقد روى عن عمر بن الخطاب: مَن وهب هبة لصلة رحم فإنه لا يرجع فيها.

وروى أيضاً عن عثمان، وزيد بن ثابت، وبُسرة بنت صفوان، وروى مروان عن سهل بن سعد الساعدي. وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه[٢]. وعده ابن سعد من الطبقة الأولى من التابعين.

ـ ٤ ـ

ويقال: إن الشاعر النصراني الأخطل كان يدخل على الخليفة والصليب في رقبته، والخمر يقطر من لحيته لينشده:

ذهبت قريش بالمكارم والعلى	واللؤم تحت عمائم الأنصار[٣]
فذروا المكارم لستم من أهلها	وخذوا مساحيكم[٤] بني النجار[٥]
إن الفوارس يعرفون ظهوركم[٦]	أولاد كل مُفَسَّحٍ أكّار[٧]
وإذا نسبت ابن الفريعة[٨] خلته	كالجحش بين حمارة وحمار

---

(١) المصدر السابق ص١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) طبقات ابن سعد. ج٥ ص٤٣.

(٣) يعرض بالأنصار إذ أن أكثرهم كان بجانب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) مساحي: جمع مسحاة: وهي أداة زراعية، تقشط بها الأرض ليجمع التراب على شكل حد.

(٥) بنو النجار: قوم من الأنصار، أخوال رسول الله ﷺ حيث أم جده عبد المطلب هي سلمى بنت عمرو من بني النجار، كما أن هذا البيت من الأنصار هم قوم حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ.

(٦) يعرفون ظهوركم: كناية عن فرارهم وقت القتال.

(٧) الأكّار: المزارع، وكانت العرب تحتقر الزراعة والصناعة حيث إنهما مهنة العبيد وتفخر بالرعي والغزو.

(٨) ابن الفريعة. حسان بن ثابت لأن أمة كانت تعرف بـ «الفريعة».

أيعقل هذا من خليفة، صحابي، أو تابعي إذ تروى عن سيدنا معاوية كما تروى عن عبد الملك؟ ومن كان في تلك الآونة يشتم أنصار رسول الله، وشاعر رسول الله، وأخوال رسول الله؟

وأي خليفة مسلم، بل أي ملك في أي وقت يرضى أن يدخل عليه رجل وهو سكران؟..

- ٥ -

ويتهم سليمان بن عبد الملك بأنه كان كثير الطعام، وقد عزل قادة الفتح وقتلهم وهم: محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، لأنهم وافقوا الخليفة الوليد بن عبد الملك على عزل أخيه سليمان، وتولية ابنه مكانه، إلا أن المنية قد عاجلت الوليد فلم يتم ذلك، فانتقم سليمان عندما أصبح خليفة من أولئك الرجال.

لقد كان هؤلاء الرجال على ثغورهم، وبينهم وبين الخليفة آلاف الكيلومترات، ويحتاج البريد إلى أشهر لأخذ الرأي. ثم متى كان الخليفة الأموي ليستشير قادة الجند؟ قد يستشير أهل البيت الحاكم، وإنما مشاورة القادة حدثت في العصر العباسي عندما أصبح أمراء الجند هم أهل الرأي والحل والعقد، والقوة هي التي تحكم، والخلفاء أصبحوا بيد القادة العسكريين، وهذا ما يوضح الوقت الذي ألصقت فيه هذه التهم، وهو وقت حكم خصوم بني أمية.

ثم إن موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة الجديد، قد عين مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، وكان ابنه الآخر وهو عبد الله والياً على إفريقية، وقد استمر عبد العزيز بالفتح ومتابعة خطة أبيه، ولو كان استدعاؤه عزلاً لعيّن الخليفة والياً مكانه، أو أرسل قائداً والياً مكان السابق، بل لم يكن ليقبل بأن يتولى ابن الوالي الأمر. ثم إن سليمان قد صحب موسى معه إلى الحج في موسم ٩٧هـ، وتوفي موسى في المدينة، وكان مستشار الخليفة الحربي لمدة تقرب من السنة منذ وصوله من الأندلس حتى وفاته.

وأما محمد بن القاسم فقد قتل ملك السند «داهر» وأسر ابنته صبيتا، فعندما وصلت إلى دمشق افترت على القائد ثأراً لمقتل أبيها، فكان على الخليفة أن يضعه في السجن حتى يحقق معه، وهذا ما كان وأثناء السجن قتل بدسائس من أتباع «داهر» فاتهم به الخليفة.

وأما قتيبة بن مسلم الباهلي، فقد قتل من قبل جنده إذ خالف الخليفة، ودعا لنفسه بعد أن خشي مغبة فعله فاستغل الجند هذه المخالفة وقتلوه، واتهم به الخليفة، ونسجت خيوط الفرية...

- ٦ -

واتهم الخلفاء الأمويون أنهم كانو يبقون الجزية عمن أسلم حرصاً على دخل بيت المال، فهل كان بيت المال فقيراً، والغنائم تأتي إليه من كل حدب وصوب؟ والفيء والخراج وغير ذلك؟... إن بيت المال آنذاك كان عامراً حتى لم يعرف الخليفة أين يذهب بهذه الأموال الكثيرة التي تدخله.

ثم إن وضع الجزية عمن أسلم أمر شرعي فهل يجرؤ الخليفة على التساهل فيه، وأين دور أهل العلم؟ لم يبق إلا ليقال: إن بني أمية قد رفضوا الإسلام وأحلوا بأهله البوار.

إن كل ما حدث أن الجراح بن عبد الله الحكمي عامل عمر بن عبد العزيز على خراسان قد أخذ الجزية من جماعة ثم أسلموا فلم يُعد لهم ما أخذ منهم فأرسل له الخليفة قولته المشهورة «إن الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً» فأخذ بعضهم من هذا الكلام أن الأمويين يبقون الجزية على من يسلم من أهل البلاد المفتوحة.

- ٧ -

وكثر الافتراء على الوليد بن يزيد، وجاء في حياة الحيوان في ترجمته «وكان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً، وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث، وكان جواداً مفضالاً. ومع ذلك لم يكن في بني أمية أكثر إدماناً

للشراب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر الأمة من الوليد بن يزيد. يقال: إنه واقع جارية له وهو سكران وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فحلف ألا يصلي بالناس إلا هي فلبست ثيابه وتنكرت، وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى[1]. ويقال: إنه اصطنع بركة من خمر وكان إذا طرب ألقى نفسه فيها وشرب حتى يبين النقص في أطرافها. وحكى الماوردي في كتاب أدب الدين والدنيا عنه تفاءل بالمصحف فخرج قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾. فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتــوعــد كــل جــبــار عــنــيــد	فــهــا أنــا ذاك جــبــار عــنــيــد
إذ مــا جــئــت ربــك يــوم حــشــرٍ	فــقــل يــا رب مــزقــنــي الــولــيــد

فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور ببلده.

وقد جاء في الحديث: ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد هو أشر من فرعون، فأوله العلماء الوليد بن يزيد هذا، ولما دخلوا عليه في قصره نهى أصحابه عن القتال وقال: يوم كيوم عثمان. فقيل له: ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق، ثم نصب على قصره ثم على أعلى سور في دمشق في جمادى الأولى سنة ستٍ وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة، وكان من أجمل الناس وأحسنهم وأقواهم وأجودهم شعراً.

وأعدل الأقوال فيه ما قاله سيد المؤرخين ابن خلدون: ولما ولي الوليد لم يقلع عما كان عليه من الهوى والمجون حتى نسبت إليه في ذلك كثير من الشنائع مثل رميه المصحف بالسهام حين استفتح فوقع على قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وينشدون له في ذلك بيتين تركتهما لشناعة مغزاهما، ولقد ساءت المقالة فيه كثيراً، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه، وقالوا إنها من شناعات الأعداء ألصقوها به. قال المدائني:

---

(١) هل يعقل هذا؟ ألم يعرف أحد من المسلمين صوت المرأة؟ وكان الخليفة يعترض له الناس يسألونه، ألم يسلم أحد على الخليفة.

دخل ابن الغمر بن يزيد على الرشيد فسأله: ممن أنت؟ فقال: من قريش. قال: من أيها: فوجم، فقال: قل وأنت آمن ولو أنك مروان. فقال: أنا ابن الغمر بن يزيد: فقال: رحم الله الوليد، ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعاً عليه، ارفع حوائجك فرفعها وقضاها.

وقال شبيب بن شبة: كنا جلوساً عند المهدي فذكر الوليد فقال المهدي: كان زنديقاً. فقام ابن علانة الفقيه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل أعدل من أن يولي خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقاً! لقد أخبرني عنه من كان يشهده في ملاعبه وشربه، ويراه في طهارته وصلاته، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح الثياب التي عليه المصبية المصبغة، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء، ويؤتى بثياب بيض نقية فيلبسها ويشتغل بربه، أترى هذا فعل من لا يؤمن بالله؟ فقال المهدي: بارك الله عليك يا ابن علانة، وإنما كان الرجل محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته وبني عمومته مع لهوٍ كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه، وكان من خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ، قال يوماً لهشام يغريه في مسلمة أخيه: إن عُقبى من بقي لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى، وعلى أثر من سلف يمضي من خلف، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام، وسكت القوم[1].

وتضاف إلى الوليد افتراءات بني عمومته إضافةً إلى افتراءات خصومه، فقد كان بينه وبينهم خلافات كالتي تحدث بين الأقارب عامةً وبين الذين يتولون أمور الأمة ومن يخلفهم.

وتولى بعد الوليد بن يزيد ابن عمه وقاتله يزيد بن الوليد، وقد سمي بالناقص لأنه نقص من أرزاق الجند والناس، وأعادهم إلى ما كانوا عليه أيام عمه هشام بن عبد الملك بعدما زاد الوليد فيها، وكان عادلاً وتقياً،

---

(١) المصدر نفسه ص١٦٠ ـ ١٦٢.

ومن عدله جرى المثل المشهور: الأشج[١] والناقص أعدلا بني مروان[٢].

وعلى كلٍ فقد لقي الوليد مصرعه على يد ابن عمه، وهو الخليفة الوحيد الذي قتل، وما قتل إلا لاستهتاره، وقد نقم عليه أهله وعشيرته لهذا التصرف، فهو إذن لا يمثل بني أمية إذ أن بني أمية قد غضبوا عليه وتبرؤوا منه ثم قتلوه وقضوا عليه.

- ٨ -

واتهموا معاوية، رضي الله عنه، وأهل الشام جميعاً في دينهم وعدم إدراكهم وتعصبهم فلا يفرقون بين الناقة والبعير، ولا يفرقون بين الأربعاء والجمعة، فيصلون الجمعة يوم الأربعاء وليس فيهم من يتكلم فليس منهم رجل رشيد، ولنسمع إلى المسعودي يقول: «وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه (يقصد معاوية) أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير إلى دمشق في حالة منصرفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أخذت مني بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية. وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيّنة يشهدون أنه ناقته، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه، وبرّه، وأحسن إليه، وقال له: أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل، وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمرو بن العاص، أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن

(١) الأشج هو عمر بن عبد العزيز.
(٢) وهكذا تختلف الروايات وتتناقض حتى لا ندري أيها أكثر صحةً الأمر الذي يدل على وضع الكثير منها ولم توثق.

جعلوا لعن علي سُنّة، ينشأ عليها الصغير، ويهلك عليها الكبير[1].

قال المسعودي: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن.

وحكى الجاحظ قال: سمعت رجلاً من العامة، وهو حاج، وقد ذكر له البيت يقول: إذ أتيته من يكلمني منه؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلي على محمد ﷺ: ما تقول في محمد هذا؟ أربنا هو[2]؟

وذكر لي بعض إخواني أن رجلاً من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق، فسأله الوالي عن مذهب الرجل، فقال: إنه مرجئ قدري ناصبي رافضي، فلما قصه عن ذلك قال: إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص، فقال له الوالي: ما أدري على أي شيء أحسدك على علمك بالمقالات، أم على بصرك بالأنساب؟

وأخبرني رجل من إخواننا من أهل العلم، قال: كنا نقعد نتناظر في أبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا، فقال لي ذات يوم بعضهم وكان من أعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان، فقلت له: فما تقول أنت في ذلك؟ قال: من تريد؟ قلت: علي، ما تقول فيه؟ قال: أليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة، قال: امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة علي؟ قال: قتل في غزاة حنين مع النبي ﷺ.

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٤١.

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص٤٢.

وقد كان عبد الله بن علي[1] حين خرج في طلب مروان[2] إلى الشام، وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجّه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة من سائر أجناد الشام فحلفوا لأبي العباس أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ من قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة[3].

وما أرى أن هذه الروايات بحاجةٍ إلى ردٍ عليها لنقضها فهي ترد على نفسها وتنقض ذاتها.

واتُهم المجتمع كله، وعُدّ مجتمعاً فاسداً، ومن هذه التهم وهذه الافتراءات سرت الشائعات بأن الإسلام لم يطبق إلا في مدة محدودة لا تتجاوز عهد الرسول ﷺ وعهد صاحبيه أبي بكرٍ وعمر، رضي الله عنهما، إذ نسب إلى سيدنا عثمان الشيء الكثير بصفته أموياً حتى كادت تضيع المعالم لدى كثير من الناس.

لقد أشاعوا أن المجتمع كان فاسداً ودللوا على ذلك ببعض أقوال الشعراء، وقد اختاروا من عرف منهم بالغزل أو الفحش فنسبوا إليه قصائد أو نحلوا أبياتاً ضمَّنوها قصائده ومن ذلك قصائد عمر بن أبي ربيعة، وصوّروا المجتمع من خلالها، والواقع أن عمر لم يقل كل ما في قصائده أو التي نسبت إليه، وإذا كان قد قالها، فإنما كان أكثرها تخيّلاً، إذ لا يمكن أن يلتقي بسيدات المجتمع اللواتي كنّ في مصر أو الشام أو العراق إلا في الموسم أثناء الحج فيتخيل هذه السيدات وقد جئن مع الموسم وشاهدهن، وتحدث معهن، وأعجب بهن كما أعجبن به، وبحديثه، فكان يرضي نزوته بهذا، وينظم القصائد فيرضي فنّه ويحتفظ بهذه القصائد لنفسه

(١) **عبد الله بن علي**: هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم أبي العباس السفاح، قائد العباسيين الذي أنهى حكم بني أمية.

(٢) مروان: هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية.

(٣) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ج٣ ص٤٢ ـ ٤٣.

أو يقرؤها لأقرانه وأترابه أثناء السمر، وبعده وجدت هذه القصائد فاستغلها المغرضون وصوروا المجتمع من خلالها، هذا إذا صح نسبها له، أما الوضع والنحل فأمران آخران الله أعلم بهما.

ويمكن أن نلحظ هذا واضحاً في قصائده، فيذكر مثلاً أنه كان في طريقه إلى المصلى بالمدينة المنورة وإذ يلتقي ببعض الفتيات يذهبن إلى المصلى، فألقى ما في جعبته إليهن فبادلنه الحديث، ثم ذهب إلى هدفه، وفي البيت قال:

مـــرّ بـــي ســـرب ظـــبـــاء	رائـــحـــات مـــن قـــبـــاء
زمـــراً نـــحـــو الـــمـــصـــلـــى	مـــســـرعـــات فـــي خـــلاء
فـــتـــعـــرضـــت وألـــقـــيـــت	جـــلابـــيـــب الـــحـــيـــاء
وقـــديـــمـــاً كـــان عـــهـــدي	وفـــتـــونـــي بـــالـــنـــســـاء

وتدل الأبيات على خيال، وكانت الفتيات في حشمة وحياء ذاهبات إلى المصلى، وهو كذلك، لكنه تذكر المنظر بعد مدة فنظم هذه الأبيات.

ويقال: إن ابن أبي عتيق قد وصف لعمر بن أبي ربيعة عقل ابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية وأدبها وجمالها فشغف بها وفتن دون أن يراها، ونظم فيها القصائد الطوال، وهذا شأنه مع بقية النساء اللواتي اشتهرن به، واشتهر بهن، سيدات معروفات ذوات سمعة ومكانة لا يمكن أن يطالهن أو يتحدث إليهن، وبذكرهن يعرف ذلك، ومن أشهرهن: سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف، عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، لبابة بنت عبد الله بن عباس، فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، أم محمد بنت مروان بن الحكم، رملة بنت مروان بن الحكم، فاطمة بنت محمد بن الأشعث، سكينة بنت خالد بن مصعب، كلثم بنت سعد المخزومية، الثريا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وهي زوج سهيل بن عبد العزيز بن مروان، نعم الجمحية، رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية، زينب بنت موسى الجمحية.

هذه النساء هن سيدات عصرهن أو في رأس الطبقة الأولى في المجتمع إذا صحّ أن نقسم المجتمع طبقات ولا يعرف الإسلام هذا النظام وهذه التقسيمات، فهل وصلت قلة الحياء عندهن وقلة الأدب عنده أن يكون موسم الحج مجال التهتك والاستهتار إلى هذا الحد وفي الأماكن المقدسة بالذات وأثناء تأدية المناسك ولا يزال بعض الصحابة على قيد الحياة؟ وهل وصلت الحالة بالمجتمع إلى هذا الوضع من قبول المفاسد وانتهاك الحرمات؟ وهذا بالواقع ما يريد أن يصل إليه خصوم العصر، وما يريدون أن يصفوا به عهد بني أمية، لذا فقد نشروا هذه القصائد وأشاعوها بعد أن بالغوا في أسبابها وأضافوا إليها، وصوروها على أنها حقيقة، وأن بعض هذه النساء كن يأتين من أمكنة نائية ليحضرن الموسم من أجل الالتقاء بعمر ليذكرهن فيشتهرن ويذيع صيتهن. يروون أن (نُعم) استقبلت عمر بن أبي ربيعة في المسجد الحرام، وفي يدها خلوق، فمسحت به ثوبه، ومضت وهي تضحك. ويروون أنه قد ذهب مرة إلى المسجد والتقى بزينب في طريقها أيضاً إلى المسجد، فتركا قصدهما وسارا إلى بعض الشعاب. ورأى مرة لبابة بنت عبد الله بن عباس تطوف بالبيت، فكاد عقله يذهب بها إذ رآها يومذاك أحسن خلق الله، فسأل عنها فأخبر بنسبها فذهب ينظم القصائد بها. فمتى كان البيت الحرام مقراً للعب وسوء الخلق؟ وهل كان الحجاج يقصدون البيت من أجل هذا؟ ومتى كان الحجيج يقف أمام ما يحدث من هذا النوع موقف المتفرج؟ كل هذه الأسئلة يرد عليها بأن هذه القصائد كانت من الخيال وبقيت حتى روّجها خصوم بني أمية، أو ضمّنوها أبيات من نظمهم، أو نظموا قصائد ونسبوها إلى عمر، وأوجدوا من عند أنفسهم سبباً لها.

ثم هل وصل الأمر بأهل هذه النساء - وهم سادة ذلك العصر - إلى هذا الحد من الرضا بالتشبب بنسائهم والسماح بهذا الكلام عن فتياتهم والسكوت عنه، بل والسماح لهن بالسفر وحدهن إلى الموسم للالتقاء بعمر، مع العلم أن المرأة لا يصح لها أن تحج دون محرم، بل لا تُعدّ

قادرة على الحج إن لم يكن لديها محرم فيروى أن رملة أخت عبد الملك بن مروان قد جاءت إلى الحج، وبعد أداء الفريضة تعرّض لها عمر بن أبي ربيعة، ورافقها إلى الشام، فرأى عبد الملك أن يزوّجه إياها. كما يروى أن عمر قد رأى عائشة بنت طلحة ترمي الجمار فشغف بها، وبدأ يذكرها بشعره حتى جاء أبناء أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، يلومونه ويعنفونه على ذكرها، وهي تيمية مثلهم، وابنة عمهم، وبنت أختهم فأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فوعدهم ألا يذكرها بعد ذاك، ولكن حبه لم يسمح له بتركها فكان يكني بها بـ (سليمى) أحياناً، و(سكينة) و(أم بشر) أحياناً أخرى.

وعلى كلٍ فإن اتهامات بني أمية قد اتخذت أشكالاً مختلفة منها:

١ ـ سُلّطت الأضواء على الأحداث التاريخية التي تضع من مكانة بني أمية مثل تأخرهم في الإسلام وقيادتهم قريشاً والأحزاب للوقوف في وجه الدعوة، ومن جهة أخرى فقد عمدوا إلى إغفال دور الأمويين الذي قاموا به بعد الإسلام مثل دورهم في الفتوحات وقيادة الجيوش وكل ما يمت إلى رفع مكانتهم.

٢ ـ سُلّطت الأضواء على النكبات التي حدثت في عهد الأمويين مثل فاجعة كربلاء ومقتل الحسين، ووقعة الحرة واستباحة المدينة المنورة، وضرب مكة ومقتل عبد الله بن الزبير، وثورة زيد بن علي بن الحسين ومقتله... واتهم فيها بنو أمية فقط، وأغفلت جوانب الخطأ التي وقعت والخروج على الحاكم، وتفرقة المسلمين.

٣ ـ سُلّطت الأضواء على بعض النقاط التي تقع أثناء ضعف النفس البشرية من بعض الرجال. وتركت كل جوانب الخير، وأعمال المجد، والتضحية للرجال أنفسهم حتى من الصحابة أمثال عثمان بن عفان، وأبي سفيان، وابنه معاوية، رضي الله عنهم. وكذا صُوّر الرجال الذين وقفوا بجانب بني أمية أو دعموا حكمهم خدمة للإسلام بكل صور التعصب والكره لآل البيت والوقوف بجانب غير الحق فيه واضح، ولم ينج من

الرجال الذين وقفوا بجانب سيدنا علي، رضي الله عنه، ولكنهم اجتهدوا في بعض النقاط أمثال أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه. ومن الذين أصابهم أذى التعصب عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر، وكثير غيرهم.

٤ ـ أشيعت شائعات سامة ضد بعض الخلفاء الذين كانت مدة حكمهم قصيرة فلم تتهيأ لهم الفرص للقيام ببعض الأعمال الجليلة أو عرفوا فعلاً بالضعف أمثال يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد وإبراهيم ابني الوليد بن عبد الملك.

٥ ـ اتخذ من اللقاءات الخاصة لأعداء بني أمية مجالاً لنشر الشائعات، وتلفيق الأكاذيب، وإشاعة الافتراءات ووجدت في يوم من الأيام فعدت من الوثائق ومصادر الكتابة والدسّ.

٦ ـ اتخذوا من الشعراء مجالاً لبث السموم ونشر الآراء عن العهد كاملاً للبرهان على فساد الوضع وما آل إليه من سوء واستهتار بالقيم الإسلامية، واتجهوا إلى الشعراء الذين يمكن أن يصدر عنهم أمثال هذا الكلام وقد لاحظنا منهم عمر بن أبي ربيعة والشاعر النصراني الأخطل، ووضعت قصائد نسبت إلى شعراء معينين، أو على الأقل نحلوا أبيات وضمنوها قصائدهم.

٧ ـ نشروا ما كان مخفياً من الفواحش للطعن في بني أمية زاعمين أنهم كانوا يعملون على نشرها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾[١].

إن هذه الافتراءات على بني أمية ليس لها سند صحيح، ومعظمها مجهول المصدر الأمر الذي يدل على كذبها وبذا لا يمكن الاعتماد عليها

---

(١) سورة النور الآية ١٩.

أبداً، وإذا أخذنا بمنهج الحديث في الجرح والتعديل وهو أفضل منهج للوصول إلى صحة الخبر فإننا سنطرح هذه الروايات كلها التي تقوّلت على بني أمية.

إنا لا نقول: إن عهد بني أمية عهد إسلامي سليم كما كان أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين، كما لا نقول عنه: إنه عهد جاهلي كالعهود التي نعرفها قبل الإسلام وبعد عصرهم، والتي تجعل منه الافتراءات عهداً قاتماً في بعض جوانبه أكثر من العصور الجاهلية، ولكننا نقول: إن الوضع الإسلامي قد تدهور قليلاً منذ انتهى العهد الراشدي وبدأت زاوية الانحراف تزداد في انفراجها تدريجياً مع الزمن.

لقد بدأ الانحراف بجعل الحكم ملكياً وراثياً وإن أطلق عليه (خلافة)، ثم زاد بتصرف الحكام والولاة في كثير من الأحيان ببيت المال حسب أهوائهم وآرائهم، وإن كانت لا تخرج عن الجادة إلا في حالات قليلة، أما بقية الجوانب فقد بقيت سليمة بشكل عام.

وإذا كنا ننظر إلى بيوت الخلفاء والأمراء ونرى ما دخل فيها من بعض الانحرافات حسب رواية كتب التاريخ غير الموثوق بصحتها إلا أن أصحاب هذه البيوت كانوا على درجة من الإيمان والخوف من الله بحيث إذا وعظهم واعظ أو ذكرهم منبه اتعظوا وفاضت أعينهم من الدمع وعدلوا من أوضاعهم وأحوالهم، وإن كانوا قريبي العودة إلى ما اعتادوا عليه.

أما المجتمع الإسلامي فقد استمر على ما كان عليه قبل الأمويين إذ بقي سليماً، وعاش حياة الشبه بحياة المجتمع الذي كان أيام الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وإن كانوا قد تأثروا بعض الشيء بسبب ما جاءهم من غنائم وما دخل إلى البيوت من إماء وسبايا وذلك أشبه ما كان عليه الأمر في أواخر عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأوائل عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وعلى الرغم من كثرة الغنائم وزيادة الأموال بين أيديهم وأعداد السبايا التي كانت تصل إليهم وكل هذا يجعل الناس يخلدون فيه إلى الراحة، ويرتبطون بالأرض ومع هذا فقد كان عنصر

الإيمان يملأ نفوسهم فما أن يدعو داعي الجهاد حتى يتركوا الحياة المرفهة التي مارسوها والنعيم الذي اعتادوا عليه وينطلقون مباشرة إلى الجهاد في سبيل الله، وبهذه الروح استطاعوا أن يفتحوا مناطق واسعة من العالم المعمور آنذاك فوصلت فتوحاتهم من الصين شرقاً إلى وسط فرنسا غرباً، وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها، ووصلت إلى حدود لم يسبق لها أن وصلت إليها، كما لم تتجاوز تلك الحدود بعد ذلك كدولةٍ واحدة، وإنما بدأت مرحلة من الانكماش والضمور بعد الأمويين، وإذا كان قد توسع انتشار الإسلام في البحر الأبيض المتوسط أيام الأغالبة، والفاطميين، وانتشر عن طريق التجارة في جنوب شرقي آسيا، واتسع في جنوب شرقي أوربا أيام العثمانيين إلا أنه لم تكن هناك دولة إسلامية واحدة في هذه العصور المختلفة تجمع شمل المسلمين جميعاً، كما كانت أيام الأمويين.

وإذا كنا نعلم أن انتشار الإسلام قد حدث خلال القرون الإسلامية كلها وحتى الآن وأن الفتوحات قد نمت في عدد من العهود إلا أننا عندما نقول الفتوحات الإسلامية فإنما نقصد ما حدث منها خلال العصر الإسلامي الأول أي ما حدث أيام الراشدين والأمويين فقط وتعدّ الثانية تتمة للأولى إذ ما حدث من توقف إنما يعود إلى العوامل الداخلية التي وقعت في الدولة الإسلامية، وعندما كانت تستقر الأوضاع تعود الفتوحات إلى انطلاقتها.

أما ما جرت العادة أن يتحدّث عنه المؤرخون المحدثون من انقسام الناس إلى فئات من شيعة وخوارج وغيرهم من زبيريين وأمويين وموالي فإن هذا لم يكن أبداً، وإنما إذا حدثت ثورة أو قامت حركة أيدها من يرى رأيها ودعمها من كان لها نصيراً، أما في الأحوال العادية فليس هناك من فكر متميز أبداً وإنما جماعة واحدة فإذا ما سارت الجيوش بالفاتحين انخرطوا فيها جميعاً، أما تأييد فلان دون فلان فهذا أمر يحدث ويحدث باستمرار مع عدم الاختلاف بالفكر أو وجود جماعة خاصة لها كيان خاص كما يصور ذلك المؤرخون، والإنسان الذي يعيش في منطقة يتبع أميرها ويغزو معه، وحتى الشعراء الذين يصورهم الأدباء يكون الشاعر منهم زبيرياً

مثلاً، ثم يصبح من أنصار آل البيت، ثم أموياً، وهذا أمر غير صحيح أيضاً إذ من المعروف أن الشاعر مدّاحة هجّاء فمن كان بالحجاز مثلاً وكانت تخضع لابن الزبير مدحه، فإذا انتقل إلى الشام مدح الخليفة ولربما عرّض بابن الزبير إذا كان أمره قد انتهى، وهذا ما كان عليه أكثر الشعراء باستثناء الذين عاشوا في الشام لم يغادروها فقد قصروا مدحهم على خلفاء بني أمية ولعل منهم الأخطل النصراني، وربما نستثني من هذا كله الخوارج الذين يبدو لهم بعض الآراء الخاصة بهم والتي لا تظهر بشكل واضح إلا عندما ينطلقون إلى منطقةٍ ما معلنين عن آرائهم وأفكارهم ومظهرين الخروج على السلطة، أما عندما يعيشون داخل المجتمع فلا تعرف آراؤهم، وإنما يظن عن بعضهم أنهم يرون رأي الخوارج، أما البقية فكلهم كتلة واحدة، واستمر هذا طيلة العهد الأموي عندما تنطلق الجيوش أو تتحرك الصوائف والشواتي فلا يمكن التمييز بين جماعة وثانية أبداً، وهو بالأصل غير موجود، أما إذا حدثت حركة داخل المجتمع فعندها تتوقف الفتوحات، وكل من كان في منطقة تابع أميره وقاتل معه، فإذا انتصرت قوة على أخرى أصبح من رعايا الأمير الجديد إذن لا توجد تلك التجمعات التي حلا لبعض المؤرخين المحدثين أن يسموها أحزاباً.

لذا فلن نتحدث عن هذه الفئات لأنها غير موجودة ولا نريد أن نوجد في المجتمع ما ليس فيه كما يريد بعضهم أن يفعل ليظهر أن الإسلام لم يثبت في الواقع إلا أعواماً محدودة وليصل إلى نتيجة يريدها هي: إننا لا يمكن أن نعمل به الآن إذ لا يمكن تطبيقه، وسنكتفي بذكر الحركات التي قامت في العهد الأموي وننسبها إلى زعمائها لأنه لا توجد فكرة عامة لها، وما وجد من فكرٍ شيعي فإنما وضع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وما بعده فنسب لبعض الرجال أفكار لم تخطر على بالهم أبداً، بل لو سمعوا بها لتبرؤوا منها.

كما أننا لن نتحدث عن الروايات التي أشيعت عن العصر الأموي لأنه لا سند لها يدعمها ويجعلها في مستوى الروايات وإنما كلها محض افتراءات.

لذا فإن بحثنا سيكون خاصاً بما صح من الروايات، وما تعارف عليه الناس، وثبت في الكتب المعتمدة، مبتعدين عن آراء الخصوم التي شوهت التاريخ حتى كادت تعمّ.

وعلى كلٍ فإن التاريخ قد ظلم بني أمية ظلماً كثيراً إذ طمس كل ما لهم من فضائل وإيجابيات! ولم يتعرض لها أبداً ولم يذكرها، وبالمقابل فإنه توسع في ذكر السلبيات أو افترى عليهم الكذب، فنسب لهم ما لم يكن منهم، وأوجد حوادث لم تقع في أيامهم، ويعود ذلك إلى أن كتابة التاريخ إنما كانت في عهد خصومهم السياسيين من بني العباس هذا من جهةٍ ومن جهة ثانية فإن هذه الكتابة كانت بأيدٍ شيعية وجدت في تلك الحقبة وكانت حاقدة تنتقد الحكم، ومن ورائها أهداف وغايات، وتوجّه سهامها بالدرجة الأولى على بني أمية إذ تثير الحماسة ضدهم لما ناله آل البيت على أيديهم، وبهذه الحماسة تكسب الأنصار وتحصل على المؤيدين. ومن أهم ما وجهت إلى بني أمية من انتقادات اغتصابهم للخلافة، وجعلها وراثية، وقسوة الولاة، وشدة طاعة أهل الشام لهم، والمصائب التي حلّت بآل البيت، وانتشار اللهو والفساد في عصرهم، والاتهامات التي ألمحنا إليها.

ومع هذه الانتقادات التي صحّ بعضها، وغالى أعداؤهم في بعضها مغالاة كبيرة، وسبح خيالهم في تدوين جزءٍ منها ومع هذا فإن لهم فضائل كثيرة أغفل المؤرخون ذكرها، ويمكن الإشارة إلى بعضها بشكل سريع.

١ - كان معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، صحابياً جليلاً، والصحابة كلهم عدول، وإن اجتهد في بعض القضايا ولم يوفق في الاجتهاد، ولم يحالفه التوفيق في النتائج إلا أنه صحابياً عدلاً.

وكان مروان بن الحكم من الطبقة الأولى من التابعين، وقد روى الحديث عن عمر بن الخطاب، وعن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وسهل بن سعد الساعدي، وبُسرة بنت صفوان، وكان مروان أثناء ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه.

وكان عبد الملك بن مروان من أهل العلم وقد سمع عثمان، وأبا هريرة، وأبا سعيد، وأم سلمة، ومعاوية، وابن عمر، وأم الدرداء، وبريرة، وحدّث عنه عروة، وخالد بن معدان، ورجاء بن حيوة، وإسماعيل بن عبيد الله، والزهري، وربيعة بن يزيد، ويونس بن ميسرة، وآخرون. وقال جرير بن حازم، عن نافع قال: لقد رأيت أهل المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك.

وقال أبو الزناد: فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب.

وذكر إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي أنه قال: ما جالست أحداً إلا وجدت لي عليه الفضل إلا عبد الملك[1]. وعدّ ابن سعد عبد الملك بن مروان في الطبقة الثانية من التابعين من أهل المدينة.

وكان سليمان بن عبد الملك ديّناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو. قال عنه ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر. وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء.

وكان عمر بن عبد العزيز من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين، رحمة الله عليه، حدّث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وعامر بن سعد، ويوسف بن عبد الله بن سلام. وعدّه ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل المدينة وعندما تولى المدينة أيام الوليد بن عبد الملك كان يستشير أهل العلم وكبار القراء والفقهاء.

٢ ـ كان بنو أمية يقدمون أهل العلم والفضل غالباً فيعطونهم الولايات، ويسلمونهم قيادة الجيوش، وينصبونهم للقضاء، ويستشيرونهم في الأمور والملمات.

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠/ ٢٥٤، وطبقات ابن سعد ٥/ ٢٣٤.

ويكفي أن نذكر من ولاتهم عمرو بن العاص[1] وابنه عبد الله[2] وبسر بن أرطأة[3]، والنعمان بن بشير[4]، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[5]، ومعاوية بن حديج[6]، ومسلمة بن مخلّد[7]، وعبد العزيز بن مروان[8]، ونذكر

---

(١) **عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو عبد الله**: داهية قريش، ولد عام ٥٠ قبل الهجرة، أسلم وهاجر عام ٨ هـ مرافقاً لخالد بن الوليد، سرّ رسول الله بإسلامه، جهّزه لذات السلاسل، روى أحاديث كثيرة، شهد اليرموك وأبلى بلاء حسناً، قاد الجيوش وسار نحو فلسطين وفتح مصر وتولى أمرها، وعزله عثمان، كان بجانب معاوية ودخل مصر وتولى أمرها وبقي فيها حتى مات سنة ٤٣ هـ.

(٢) **عبد الله بن عمرو بن العاص**: ولد عام ٧ قبل الهجرة، صحابي، أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص فغيّره النبي ﷺ بعبد الله، يكنى بأبي محمد، روى عن رسول الله أحاديث كثيرة اتفق مسلم والبخاري على سبعة أحاديث منها، وانفرد البخاري بثمانية أحاديث، وانفرد مسلم بعشرين، هاجر سنة سبع، وشهد بعض المغازي، وكان على ميمنة معاوية يوم صفين، وذكر أنه كان يحمل الراية وما ضرب بسيف ولا رمى بسهم. تولى أمر الكوفة لمعاوية ثم عزل، ومات عام ٦٣ هـ.

(٣) **بسر بن أرطأة**: أبو عبد الرحمن، صحابي، له حديثان، ولد في العام الثاني للهجرة، شهد فتح مصر، وقاتل في بلاد الروم، وكان فارساً شجاعاً، ولي أمر الحجاز واليمن لمعاوية، توفي عام ٧٠ هـ.

(٤) **النعمان بن بشير بن سعد** بن ثعلبة الانصاري، أبو عبد الله: صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، ابن أخت عبد الله بن رواحة، روى ١١٤ حديثاً، ولد في العام الثاني للهجرة، وعد من الصحابة الصبيان باتفاق، تولى لمعاوية الكوفة، مدة كما تولى قضاء دمشق، ثم تولى أمر حمص، دعا إلى عبد الله بن الزبير في حمص: وقتل بعد معركة مرج راهط في إحدى قرى حمص عام ٦٤ هـ.

(٥) **عبد الرحمن بن خالد بن الوليد**: أقام في حمص من بلاد الشام، وكان كثير الغزو في بلاد الروم، واشتهر أمره كثيراً، وأحبه أهل الشام، مات في حمص وقيل أنه مات مسموماً في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(٦) **معاوية بن حديج بن جفنة**: أبو نعيم، وأبو عبد الرحمن السكوني الكندي، له صحبة ورواية قليلة، روى عن عمر، وأبي ذر، ومعاوية، شهد اليرموك، وغزا المغرب، وتوفي سنة ٥٢ هـ.

(٧) **مسلمة بن مخلد بن الصامت**: الأنصاري الخزرجي، أبو معن: ولد عام الهجرة، قيل له صحبة، تولى مصر لمعاوية ويزيد، وكان مع معاوية في صفين، وتوفي في خلافة يزيد عام ٦٢ هـ.

(٨) **عبد العزيز بن مروان**: أبو الاصبغ: ولد في المدينة، ودخل مصر مع أبيه، وتولاها لأخيه عبد الملك مدة عشرين سنة وكان ولي عهده، وتوفي قبله بحلوان بمصر عام=

من قادتهم حبيب بن مسلمة الفهري[١]، وعبد الله بن قيس[٢]، وجنادة بن أبي أمية الدوسي[٣]، ونذكر من قضاتهم بن عبيد[٤]، وأبا بردة بن أبي موسى[٥]، وأبا إدريس الخولاني[٦]، ونذكر من مستشاريهم روح بن زنباع[٧]، ورجاء بن

= ٨٥هـ ونقل إلى الفسطاط. روى الحديث عن أبيه مروان، وعن أبي هريرة، وعقبة بن عامر، وابن الزبير. وثقّه ابن سعد، والنسائي، وله في سنن أبي داود حديث.

(١) **حبيب بن مسلمة الفهري**: أبو عبد الرحمن، وقيل أبو مسلمة: ولد قبيل الهجرة بعام، فقيل له صحبة، ورواية يسيرة جاهد في خلافة أبي بكر، وشهد اليرموك أميراً، وكان على ميسرة معاوية يوم صفين، غزا بلاد الروم كثيراً، وولي أرمينيا لمعاوية، وتوفي عام ٤٢ هـ.

(٢) **عبد الله بن قيس**: حليف بني فزارة، أمير البحر في صدر الإسلام، غزا خمسين غزوة صيفاً وشتاءً، ولم يغرق من جيشه أحد، ولم ينكب، قتله الروم عام ٥٣ هـ وهو يطوف في أحد الموانئ متخفياً دلتهم عليه امرأة كانت تتسول فأعطاها فعرفته فراسة.

(٣) **جنادة بن أبي أمية الدوسي**: من كبار التابعين، حدّث عن معاذ بن جبل، وعمر، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وبسر بن أرطأة. شهد فتح مصر، وتولى غزو البحر لمعاوية، وتوفي سنة ثمانين للهجرة.

(٤) **فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي، أبو محمد**: صحابي، ممن بايع تحت الشجرة، شهد أحداً وما بعدها، وشهد فتح الشام ومصر، وسكن الشام، وولي الغزو والبحر بمصر، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفي فيها عام ٥٣ هـ.

(٥) **أبو بردة بن أبي موسى**: عامر بن عبد الله بن قيس الأشعري: الإمام، الفقيه، الثبت، حدّث عن أبيه، وعلي، وعائشة، وأسماء بنت عميس، وعبد الله بن سلام، وحذيفة، ومحمد بن مسلمة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عمر، والبراء، ومعاوية، وكان ثقة، كثير الحديث. كان قاضي الكوفة للحجاج ثم عزله بأخيه أبي بكر، مات سنة ١٠٣ هـ.

(٦) **أبو إدريس الخولاني**: عائذ الله بن عبد الله: ولد عام الفتح. حدث عن أبي ذر، وأبي الدرداء، وحذيفة، وأبي موسى، وشداد بن أوس، وأبي هريرة، وعبادة بن الصامت، والمغيرة بن شعبة، وابن عباس، ومعاوية وغيرهم كان قاضي دمشق، وعالمها وواعظها، وهو ثقة، وتوفي سنة ثمانين.

(٧) **روح بن زنباع الجذامي**، أبو زرعة: أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها، وخطيبها، وشجاعها قيل: له صحبة، كان وزير عبد الملك ومستشاره، وقال فيه عبد الملك: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز. روى عن أبيه، وعن تميم الداري، وعبادة بن الصامت، وحديثه قليل، وهو صدوق. توفي عام ٨٤ هـ.

حيوة[1]، والزهري[2] وغيرهم كثير: أمثال موسى بن نصير[3]، والمهلب بن أبي صفرة[4]، والسمح بن مالك الخولاني[5].

ولم يتدخل بنو أمية في شؤون القضاء أبداً، وإنما كانوا يعينون القضاة من خيرة أهل العلم ويدعونهم وشأنهم، ويخشون أن تقع منهم حادثة يرجعون فيها إلى القضاء لأن معنى ذلك الحكم عليهم ولا بدّ من تنفيذ ما أمر به القاضي ولو كانوا هم الحكام.

ويكفي أن نقرّ بفضل بني أمية من حديث رسول الله ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه: قرنين أو ثلاثة؟ ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[6].

---

(١) **رجاء بن حيوة** بن جرول الكندي الأزدي: فقيه من جلة التابعين، روى عن معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، كان ثقة، عالماً، فاضلاً، كثير العلم: كان كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك.

(٢) **الزهري**: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، أبو بكر: الإمام، العلم، ولد سنة خمسين للهجرة، وروى عن ابن عمر، وجابر بن عبد الله، وكان مستشار هشام بن عبد الملك، وتوفي عام ١٢٤ هـ.

(٣) **موسى بن نصير اللخمي**: أبو عبد الرحمن، والي المغرب وفاتح الأندلس، ولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبنى هناك حصوناً، وكان مع عبد العزيز بن مروان في مصر، ومع بشر بن مروان في العراق، وتوفي بالمدينة عام ٩٧ هـ وكان بالحج مع سليمان بن عبد الملك. روى الحديث عن تميم الداري.

(٤) **المهلب بن أبي صفرة الأزدي**: ولد عام الفتح، وروى الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وعبد الله بن عمر، والبراء بن عازب. غزا الهند عام ٤٤، وتولى أمر الجزيرة لابن الزبير، ثم خراسان، وحارب الخوارج، وأخذ ولاية خراسان، وتوفي غازياً في مرو الروذ عام ٨٢ هـ.

(٥) **السمح بن مالك الخولاني**: استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس، كان تقياً ورعاً استشهد عام ١٠٢ هـ غازياً في فرنسا، كانت قرطبة حاضرة حكمه، وقد بنى فيها قنطرتها المعروفة.

(٦) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن عمران بن حصين، رضي الله عنه.

وبنو أمية عاشوا في القرن الذي يلي قرن رسول الله ﷺ، وفي ذلك القرن خيار كثير من الناس ولا يمكن أن يكون هؤلاء الناس، ويقال ما ينسب لبني أمية، ويسكتون عنه، أو يقبلون فيه، ومع هذا فإن يوجد بعض الشرار الذين ما خلا منهم عصر، وإن تمكن بعضهم يوماً إلا أنه لا يلبث أن يزال، ويذكر فيه ما يستحق.

ونذكر من فضائل بني أمية الفتوحات الواسعة التي تمت على أيديهم والتي امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين في الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في الغرب ولم تكن الفتوحات هنا لتتم على أيدي قادة، والخلفاء وأبناؤهم يعيشون في القصور بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يرسلون أبناءهم إلى الجهاد، ويشهدون القتال، فقد أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لحصار القسطنطينية، وأرسل عبد الملك ابنه الوليد مرات للغزو في بلاد الروم، وكان ابنه الثاني مسلمة قائد جبهة الروم، وغزواته أكثر من أن تعد، وحصاره لمدينة الروم القسطنطينية معروف ومشهور. وكان أخوه محمد بن مروان أمير الجزيرة يتولى أمر الغزو في أغلب الأحيان. وأولاد الوليد بن عبد الملك وهم: العباس، وعبد العزيز، وعمر، ومروان يقودون الغزو في بلاد الروم، ويساعدون عمهم مسلمة بن عبد الملك في ذلك. كما أن سليمان بن عبد الملك كان ابنه داود على رأس قواته المجاهدة في بلاد الروم.

أما هشام بن عبد الملك فقد كان يفرض الغزو على بني مروان جميعاً، ومن يتأخر عن الغزو يمنع عنه العطاء، وكان أولاده في مقدمة الغزاة ومنهم: معاوية، وسليمان، ومسلمة، وسعيد، وغيرهم.

أما مروان بن محمد فكان نفسه يقود الجيوش ويصبر في القتال صبراً شديداً حتى لقب بالحمار.

وربما تداعى لأذهان الكثير أن أمراء بني أمية كانوا أمثال غيرهم من القادة الذين يتولون أمر القتال فيجلسون في المدينة، ويرسلون نواباً عنهم، إلا أني قد أوضحت ذلك سابقاً، وأعود لأقول إنهم كانوا يمارسون القتال بأنفسهم، ويتعرضون بأنفسهم للقتل، ويكونون أمام المجاهدين.

وربما خطر في بال بعض الناس أن بني أمية كانوا يسلمون القيادة لأمراء منهم خوفاً على أنفسهم من أن يتسلم القيادة غيرهم فيعمل ضدهم، فأقول إن هذا الخاطر إنما يجول في أذهان الذين يعيشون هذه الأيام، ويعرفون الانقلابات العسكرية، وكان يتصرف الجند حيال الحكم المدني، إن أمير الغزو يومذاك لم يكن ذا أثر على جنده إلا في الجهاد وقتال الأعداء أما بعد ذلك فليس له من أثر، وتأثيره أيضاً إنما يكون على ترتيب الجند، وإعطاء الرايات، وأوامر القتال وبعد انتهاء الجهاد يعود المجاهدون إلى ديارهم، فليس هناك من قوة دائمة لحماية العاصمة يقودها أمراء أو غيرهم من أنصار السلطان كما يحدث في هذه العصور، وتشكل خلفية عند أبناء هذه الأجيال.

ولعل من أهم ميزات بني أمية إحياؤهم للأرض، وفتح الأقنية، وشق الأنهار، فقد كان خلفاء بني أمية يخرجون إلى هامش المعمور، ويبنون قصورهم هناك الأمر الذي يؤدي إلى أن تعمر الأرض حيث يأتي الناس الآخرون فيبنون بجانب قصر الخليفة، ويجلبون المياه إليها ويزرعون فتحيا الأرض الموات. على حين كان بإمكانهم لو أرادوا فخامة القصور وجمال المناطق، وكثرة المياه لوجدوا في الأراضي المزروعة والمشجرة ضالتهم بل لكانت أكثر جمالاً وأغزر مياهاً. ونعلم أن يزيد بن معاوية قد توفي في حُوّارين(١) حيث كان يقضي جزءاً من أوقاته.

وأحيى سليمان بن عبد الملك منطقة الرملة، إذ عينه الوليد بن عبد الملك عليها فنزل باللد ثم انتقل إليها ومصّرها، وكان أول ما بنى فيها قصره، وداراً تعرف بدار الصيّاغين، واختلط المسجد وبناه، واحتفر القناة التي تدعى البردة لري أراضي من أقام معه وبالقرب منه.

---

(١) حُوّارين: هي بلدة القريتين المعروفة الآن في بلاد الشام، أو في ضاحية من ضواحيها، وقد مر عليها خالد بن الوليد أثناء انتقاله من العراق إلى الشام. وهي على مرحلتين من تدمر بينها وبين دمشق.

وكان عمر بن عبد العزيز ينزل إلى المرج ويحيي أرضه وقد توفي بدير سمعان[1] في ضواحي دمشق في بداية أرض المرج.

وعمّر هشام بن عبد الملك الرصافة، وكان ينزل بها صيفاً، وفيها توفي، وشق الأقنية إليها، فأحييت أرضها، وزرعت، وكانت جنة ورياضاً.

ولا ننسى حفر الأنهار والمجاري والأقنية في دمشق وغوطتها ولا تزال قائمة إلى الآن[2] وتدل على اهتمام كبير بالأرض، وعناية عظيمة بشؤون السكان ومصالحهم الحيوية.

هذه بعض أعمال بني أمية وخدماتهم التي قدموها للمجتمع وللإسلام، وإذا كانت الصورة التي في أذهاننا عنهم والتي ورثناها مما قرأناه من الذين سجلوا ذلك عنهم من أعداء وخصوم ومن مستشرقين وغير منصفين قد جعلت الصورة عنهم باهتة إلا أننا نرجو أن تتغير بعد معرفة بعض الجوانب الخيرة.

---

(١) دير سمعان: هي دير سلمان، وهي بلدة معروفة الآن عامرة في أول المرج بينه وبين الغوطة.

(٢) أشهر الأنهار نهر يزيد الذي شقّ من نهر بردى من جهته اليسرى، ويمر من طرف دمشق الشمالي موازياً لجبل قاسيون، ويروي أرض القابون، وأرض حرستا الغربية وينتهي في شمالي حرستا عند أقدام سفوح الجبال.

الخلافة الأمويّة

٤١هـ - ١٣٢هـ.

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل سيدنا علي بن أبي طالب يوم ١٧ رمضان عام ٤٠هـ، ويُعدّ بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، في (مسكن) يوم ٢٥ ربيع الأول عام ٤١هـ، واستمرت حتى معركة الزاب التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية حيث هزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وذلك في ١١ جمادى الأولى عام ١٣٢هـ. وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف على إحدى وتسعين سنة. وقد توالت عليها أسرتان، وكان خلفاؤهما اثني عشر خليفة.

١ ـ **الأسرة السفيانية**: وقد حكمت أربعة وعشرين عاماً ٤١ ـ ٦٤هـ، وتوالى عليها خليفتان هما:

١ ـ **معاوية بن أبي سفيان**	٤١ ـ ٦٠هـ
٢ ـ **يزيد بن معاوية**	٦٠ ـ ٦٤هـ

ولا نعد معاوية بن يزيد خليفة ما دامت الأمة لم تجمع عليه، وإنما كانت البيعة لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما. كما أن معاوية الثاني بن يزيد لم يبق في الحكم سوى عدة أشهر تنازل بعدها عن الخلافة، وترك الأمر للمسلمين.

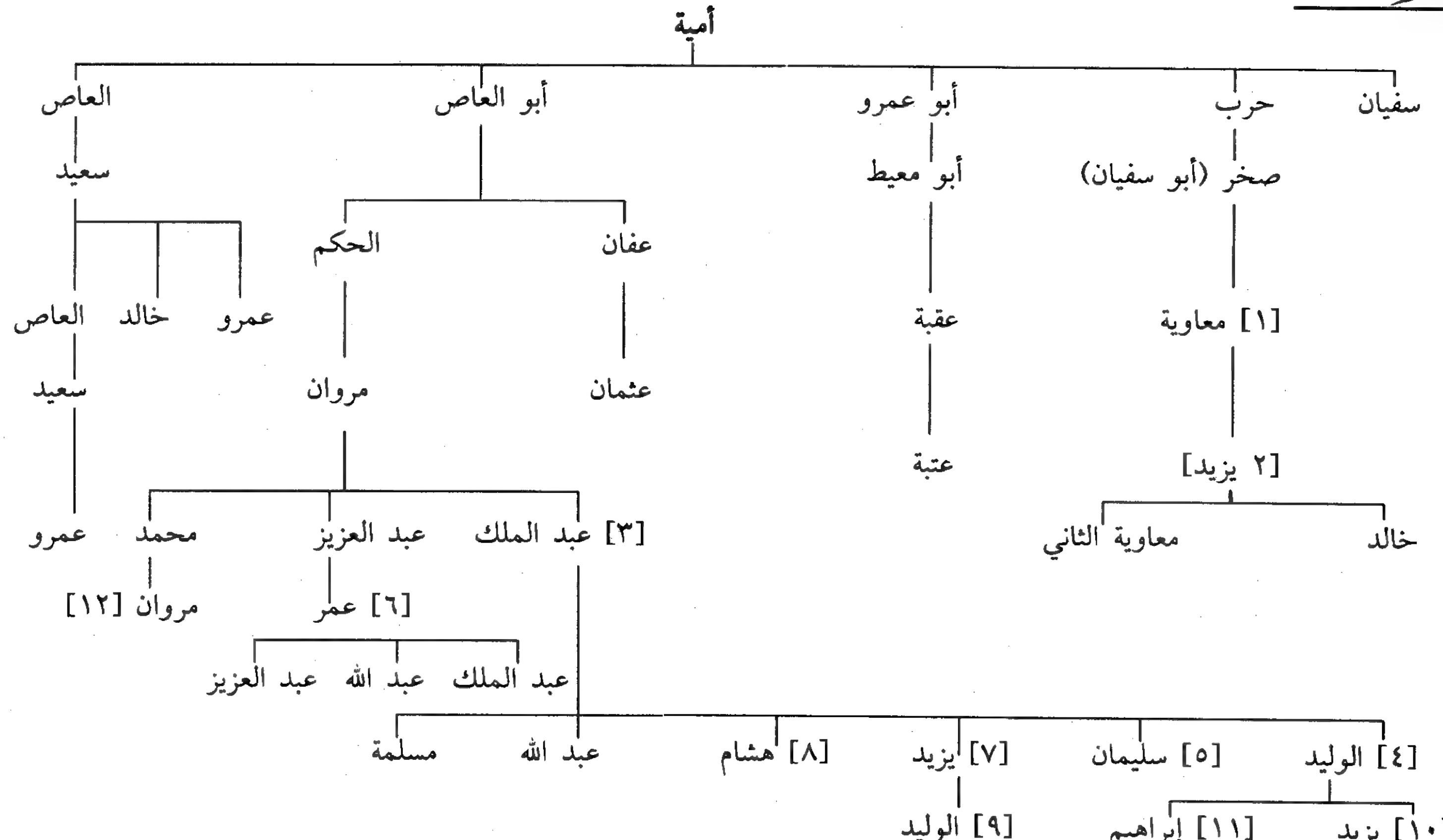
٢ ـ **الأسرة المروانية**: وقد حكمت تسعةً وخمسين عاماً ٧٣ ـ ١٣٢هـ وتوالى عليها عشرة خلفاء هم:

١ ـ **عبد الملك بن مروان**	٧٣ ـ ٨٦هـ
٢ ـ **الوليد بن عبد الملك**	٨٦ ـ ٩٦هـ
٣ ـ **سليمان بن عبد الملك**	٩٦ ـ ٩٩هـ

٤ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان	٩٩ ـ ١٠١هـ
٥ ـ يزيد بن عبد الملك	١٠١ ـ ١٠٥هـ
٦ ـ هشام بن عبد الملك	١٠٥ ـ ١٢٥هـ
٧ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥ ـ ١٢٦هـ
٨ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ ـ ١٢٦هـ
٩ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦ ـ ١٢٧هـ
١٠ ـ مروان بن محمد بن مروان	١٢٧ ـ ١٣٢هـ

ويجب ألا ننسى أن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، قد بقي تسع سنوات خليفة في الحجاز، واليمن، والعراق، وخراسان، ويعد هو الخليفة الشرعي من ٦٤ ـ ٧٣ أي من وفاة يزيد وحتى مقتله وفي هذه الأثناء لا يعد ملك معاوية الثاني ومروان بن الحكم وجزء من حكم عبد الملك خلافة وإنما استئثاراً واغتصاباً في جزء من أرض الإسلام.

بنو أمية



أمية
سفيان
حرب
صخر (أبو سفيان)
[١] معاوية
[٢ يزيد]
خالد
معاوية الثاني
أبو عمرو
أبو معيط
عقبة
عتبة
أبو العاص
عفان
عثمان
الحكم
مروان
[٣] عبد الملك
عبد العزيز
[٦] عمر
عبد الملك
عبد الله
عبد العزيز
محمد
مروان [١٢]
[٤] الوليد
[١٠] يزيد
[١١] إبراهيم
[٥] سليمان
[٧] يزيد
[٩] الوليد
[٨] هشام
عبد الله
مسلمة
العاص
سعيد
عمرو
خالد
العاص
سعيد
عمرو

الأسرة السّفيانيّة

معاويـة بن أبي سفيـان

رضي الله عنهما

٤١ - ٦٠ هـ

نَسَبُهُ

معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، كان أبوه «أبو سفيان» أحد سادات قريش عند بدء الدعوة الإسلامية في مكة، وسيدها بعد غزوة بدر الكبرى التي هلك فيها عدد من السادات. وقف أبو سفيان في وجه الإسلام وصدّ عن سبيل الله، وقاد قريشاً في أُحُد، وحزّب الأحزاب، وقاد الجيوش يوم الخندق. أسلم يوم فتح مكة، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً والطائف، وأعطي يوم تقسيم الغنائم مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكان يومها من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وأرسله رسول الله ﷺ عاملاً على نجران، كما جعله أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، على الصدقات في اليمن، وسار مع الفاتحين تحت راية ابنه يزيد، وخاض معركة اليرموك، وأبلى البلاء الحسن، وفقد عينه الثانية يومذاك، وكان قد فقد الأولى في الطائف، وعاش بعدها كفيفاً منصرفاً للعبادة حتى توفي عام ٣١هـ أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

أما أمه فهي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، فهي عبشمية كأبيه أي يلتقيان في النسب في عبد شمس. كانت قد تزوجت قبل أبي سفيان، ولما افترقت عن زوجها الأول قالت لأبيها: إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوّجني رجلاً حتى تعرضه عليّ. فقال لها: ذلك لك. وعرض عليها يوماً رجلين فاختارت أبا سفيان.

ووقفت مع زوجها وأهلها في وجه الدعوة، ويوم بدر قتل أبوها

عتبة وعمها شيبة، وأخوها الوليد، وابنها حنظلة مما زاد حقدها، وحرّضت يوم أحد على المسلمين، ومنّت وحشي غلام جبير بن مطعم بالأماني إن هو قتل الحمزة[1] عم رسول الله ﷺ، وقد فعل، وقد مثلت به، فبقرت بطنه، وأخذت كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، وكان معها عدد من النساء يمثّلن في القتلى، وقالت يومذاك مخاطبة المسلمين:

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سُعُر
ما كان عن عتبة لي من صبر	ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي، وقضيتُ نذري	شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي على عمري	حتى ترّم أعظمي في قبري

ولما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة ونساء معها، وأتين رسول الله ﷺ وهو بالأبطح فبايعنه، فتكلمت هند فقالت: يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك، يا محمد إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله. ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة. فقال رسول الله: مرحباً بك. فقالت والله ما كان على الأرض أهل خباء أحبّ إليّ من أن يذلّوا من خبائك ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحبّ إلي من أن يعزّوا من خبائك فقال رسول الله: وزيادة. وقرأ عليهن القرآن، وبايعهن، فقالت هند من بينهن: يا رسول الله نماسحك؟ فقال: إني لا أصافح النساء، إن قولي لمائة امرأة مثل قولي لامرأة واحدة[2].

وروي أن نسوة أتين النبي ﷺ، فيهن هند بنت عتبة بن ربيعة وهي أم

---

(١) **الحمزة رضي الله عنه** ابن عبد المطلب، ولد قبل رسول الله ﷺ بأربع سنوات، أسلم في السنة الخامسة لبدء الدعوة، كان أحد أبطال المسلمين، واستشهد يوم أحد، وهو سيد الشهداء، ودفن مع ابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٨ ص٢٣٦.

معاوية يبايعنه، فلما أن قال رسول الله: لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسّيك فهل عليّ حرج أن أصيب من طعامه من غير إذنه؟ قال فرخّص لها رسول الله في الرطب ولم يرخّص لها في اليابس. قال: ولا يزنين. قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا يقتلن أولادهن. قالت: وهل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر؟ قال: ولا يعصينك في معروف[1].

وروى أنه لما أسلمت هند جعلت تضرب صنماً في بيتها بالقدوم حتى فلّذته فلذةً فلذة، وهي تقول: كنا منك في غرور[2].

إذن حسن إسلام أمه، كما حسن إسلام أبيه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه.

إخوتُه

تزوج أبو سفيان صخر بن حرب عدة نساء أنجبن له، فكان لمعاوية عدة إخوة وهم:

١ ـ يزيد بن أبي سفيان: وأمه زينب بنت نوفل الكنانية، وقد أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنيناً، والطائف، وأخذ من الغنائم مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة، وكان أحد قادة الفتح، وكانت جهته دمشق، وتولى أمرها، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

٢ ـ حنظلة بن أبي سفيان: وأمه هند بنت عتبة، وقد قتل يوم بدر كافراً.

٣ ـ عمرو بن أبي سفيان: وأسر يوم بدر، وافتداه أبوه.

٤ ـ عتبة بن أبي سفيان: وأمه هند بنت عتبة، وكان سنداً لأخيه معاوية.

٥ ـ عنبسة بن أبي سفيان: وأمه ابنة أبي أزيهر الدوسي، وكان يحج في الناس في أول خلافة أخيه معاوية.

٦ ـ محمد بن أبي سفيان: وهو شقيق عنبسة، وابنه عثمان ولي أمر المدينة.

أما أخواته البنات فهن:

١ ـ رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ وهاجرت معه إلى الحبشة، فلما تنصّر هناك فارقته، وخطبها النجاشي لرسول الله ﷺ، ودخلت في عداد أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وقدمت إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة بعد غزو خيبر. وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، وتوفيت في عهد أخيها معاوية.

٢ ـ أمينة بنت أبي سفيان: وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، تزوج أمينة حويطب بن عبد العزى العامري، ثم خلف عليها صفوان بن أمية.

٣ ـ جويرية بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، وتزوجها السائب بن أبي حبيش الأسدي، ثم خلف عليها عبد الرحمن بن الحارث.

٤ ـ أم الحكم بنت أبي سفيان: وأمها هند بنت عتبة، وتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله.

٥ ـ هند بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي عمرو بن أمية، وتزوجها الحارث بن نوفل بن الحارث.

٦ ـ صخرة بنت أبي سفيان: وأمها صفية بنت أبي عمرو بن أمية، وتزوجها سعيد بن الأخنس الثقفي.

٧ ـ ميمونة بنت أبي سفيان: وأمها لبابة بنت أبي العاص بن أمية، تزوجها عروة بن مسعود الثقفي، ثم خلف عليها المغيرة بن شعبة الثقفي.

٨ ـ عزة بنت أبي سفيان: وأمها صفيا بنت أبي العاص بن أمية، وهي التي عرضتها أختها أم المؤمنين على رسول الله ﷺ، فأجابها: «إن هذا لا يحلّ لي».

روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أم حبيبة، رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان؟ قال: أو تحبين ذلك؟ فقلت: نعم، لست لك بمُخلِيَه، وأحب من شاركني في خير، أختي، فقال النبي ﷺ: إن هذا لا يحلّ لي، قلت: فإنا نحدّث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة؟ قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم، قال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلّت لي، لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن»[١].

تاسعاً ـ الفارعة بنت أبي سفيان: وتزوجها طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه.

---

(١) جامع الأصول: رقم الحديث ٩٠٣٦.

نساؤه وأولاده

تزوج معاوية بن أبي سفيان خمس نسوة هن:

أولاً ـ ميسون بنت بحدل الكلبية: وقد أنجبت له يزيداً، وأمةً ماتت صغيرة.

ثانياً ـ كتوة بنت قرظة: وكانت معه في غزوة قبرص، وقد ماتت هناك.

ثالثاً ـ فاختة بنت قرظة: وهي أخت كتوة، وقد أنجبت له عبد الرحمن، ومات صغيراً، وعبد الله وكان على شيء من الحمق.

رابعاً ـ نائلة بنت عمارة الكلبية: ولكن لم يلبث أن طلقها فتزوجها حبيب بن مسلمة الفهري، ثم خلف عليها النعمان بن بشير، وقتل وهي عنده.

خامساً ـ قريبة بنت أبي أمية المخزومي: وأمها عاتكة بنت عتبة بن ربيعة، فهي ابنة خالته، وكانت تحت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تزوجها في الجاهلية، ثم طلقها معاوية فتزوجها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وهي أخت أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية.

ولم ينجب له بعد أن ضربه البرك بن عبد الله الخارجي في إليته عام ٤٠هـ إذ بعث بعدها معاوية إلى الساعدي ـ وكان طبيباً ـ فلما نظر إليه قال: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد

وعبد الله ما تقرّ به عيني. فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد بعدها[1].

وكان معاوية رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً مهيباً، وكان عمر ينظر إليه فيقول: هذا كسرى العرب، وعن علي قال: لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها، وكان يضرب بحلمه المثل[2].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

حَيَاته

ولد معاوية في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة، ولم يعرف من أحداث مكة قبل الهجرة إلا القليل، ولم يشهد بدراً على الرغم من بلوغه العشرين إذ حضرها أخواه حنظلة، وعمرو، وقتل الأول منهما، وأسر الثاني. وحضر معاوية مع أبيه مقتل خبيب بن عدي بعد حادثة الرجيع، فلما رفع المشركون خبيباً على خشبة، وأوثقوه، قال: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً. فكان معاوية يقول: حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني على الأرض فرقاً من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه، فاضطجع لجنبه زالت عنه.

وحضر معاوية الخندق مع المشركين، وأصابه ما أصاب القوم من الهلع يوم كانت الريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قدراً، ولا ناراً، ولا بناء. وكان رسول الله ﷺ قد دعا حذيفة بن اليمان فقال: يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا فذهب فدخل في القوم فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت قال: عمرو بن العاص.

أسلم معاوية عام الحديبية، وكان يكتم إسلامه من أبي سفيان، إلا أن أبا سفيان يبدو أنه قد لاحظ عليه ذلك، فكان يقول له: ابني خير منك ـ يقصد يزيد ـ فهو على ديني.

وجاء عام الفتح، ودخل رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت قريش، وأظهر معاوية إسلامه، ولقي رسول الله ﷺ فرحب به.

شهد مع رسول الله ﷺ حنيناً، والطائف، وأعطاه رسول الله ﷺ، من الغنائم مائة بعير، وأربعين أوقية من الفضة وزنها له سيدنا بلال بن رباح، رضي الله عنه، وعُدّ يومذاك من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وكان أحد الكتاب لرسول الله ﷺ.

روى عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستين حديثاً، وروى عنه من الصحابة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو الدرداء، وجرير بن عبد الله البجلي، والنعمان بن بشير، وروى عنه من التابعين: سعيد بن المسيب، وحميد بن عبد الرحمن.

وكان أبو سفيان قد انتقل وأهله إلى المدينة بعد إسلامهم، وآخى رسول الله ﷺ بين معاوية بن أبي سفيان والحُتات بن يزيد المجاشعي(١).

وقال رسول الله ﷺ لمعاوية «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده»(٢).

وروى الترمذي عن أبي إدريس الخولاني، رحمه الله، قال: «لما عزل عمر بن الخطاب عمير بن سعد عن حمص وولى معاوية، قال الناس: عزل عميراً، وولى معاوية، فقال عمير: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «واللهم اهد به»(٣).

وأخرج أحمد في مسنده عن العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»(٤).

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) رواه الترمذي في باب المناقب رقم ٣٨٤١ باب مناقب معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، ورواه أيضاً أحمد في مسنده ٤/ ٢١٦.

(٣) رواه الترمذي في باب المناقب رقم ٣٨٤٢.

(٤) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني في الكبير عن عبد الملك بن عمير قال: قال معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاوية إذا ملكت فأحسن»(١).

وتوفي رسول الله ﷺ وهو عن معاوية راض.

وسيّر الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، أربعة جيوش إلى الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وكان كل جيش منها يضم سبعة آلاف مقاتل تقريباً، واجتمع إلى أبي بكر بعدها أناس فوجههم إلى الشام، وأمّر عليهم معاوية بن أبي سفيان وأمره باللحاق بيزيد، فخرج معاوية حتى لحق بيزيد. وكانت هذه أول مهمة قيادية يتولاها معاوية في الفتوح، وشهد معاوية اليرموك، وفتح دمشق تحت راية أخيه يزيد.

وفي عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أرسل يزيد بن أبي سفيان حملة بإمرة أخيه معاوية إلى سواحل بلاد الشام فافتتحها.

وبقي من بلاد الشام بيت المقدس، وقيسارية، وجاء عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس ففتحها صلحاً، وبعد الصلح انسحب عدد من أهلها إلى قيسارية التي كان يدعم الروم أهلها عن طريق البحر. فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان أن يسيّر أخاه معاوية إلى قيسارية، ووصل معاوية إلى البلدة، وعليها (ابنى) فهُزم الروم أمام معاوية، ودخلوا حصونهم، ولم يزل المسلمون يحاصرونها حتى فتحها الله لهم.

وفي عام ١٨هـ حدث طاعون عمواس، وذهب بكثير من رجالات المسلمين منهم: أبو عبيد بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وكان يزيد قد أقام أخاه معاوية مكانه في دمشق، فلما هلك يزيد أمّر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، معاوية على دمشق ثم أضاف له الأردن، وفلسطين،

---

(١) المصدر نفسه.

وحمص، إذ توفي شرحبيل بن حسنة(١) بطاعون عمواس وهو على الأردن، وسار عمرو بن العاص لفتح مصر، وكان على فلسطين، ومات عمير بن سعد(٢) الذي كان والياً على حمص بعد وفاة عياض بن غنم. وهكذا أصبحت بلاد الشام كلها تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان.

وخرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروح في موكب وتغدو في مثله؛ وبلغني أنك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدو بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزاً، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أصر إليه، قال: ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك.

ولاحظ معاوية وهو ينازل الروم باستمرار أن قوتهم في البحر هي العامل الأساسي في بقائهم، وأن التهديدات البرية للروم لا قيمة لها إذ أن المدن الساحلية في الشام معرضة باستمرار للتهديد لذا فلا بدّ من إقامة قوة إسلامية بحرية توقف سلطان الروم البحري عند حده، وأحب قبل القيام بهذا المشروع استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب له: «يا أمير المؤمنين! إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم،

---

(١) شرحبيل بن حسنة: وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو من كندة حليف بني زهرة. ويكنى أبا عبد الله، أسلم قديماً بمكة، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ وكان أحد الأمراء القادة في عهد أبي بكر، وتوفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ، وحسنة هي أمه، وهي عدوية.

(٢) عمير بن سعد بن جِذْيَم بن سلامان: أسلم قبل خيبر، وهاجر إلى المدينة، وشهد خيبراً مع رسول الله ﷺ وما بعدها من المشاهد، ولي حمص بعد وفاة عياض بن غنم، وكانت تصيبه غشية فذكر ذلك لعمر بن الخطاب فسأله، فقال: كنت فيمن حضر خبيباً ـ رحمه الله ـ حين قتل، وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس إلا غشي عليّ، توفي سنة ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص فإن أذنت بركوب البحر». فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ليصف له البحر، فأجابه «إني رأيت خلقاً عظيماً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، إن مال غرق، وإن نجا برق» فلما قرأ عمر هذا الوصف كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً... وتالله لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء[١] مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك.

وتوفي عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو عن معاوية راض، وأتى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وأقرّ معاوية على إمارته.

غزا معاوية أرض الروم، وكان على رأس صائفة، واستطاع أن يصل إلى عمورية إلى الجنوب من أنقرة قليلاً أنقرة اليوم، ومعه عدد من صحابة رسول الله ﷺ منهم عبادة بن الصامت[٢]، وأبو أيوب الأنصاري[٣]، وأبو ذر الغفاري[٤]، وشداد بن أوس[٥].

وأمر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، واليه على الشام

---

(١) **العلاء الحضرمي**: وكان قد هاجم الفرس بحراً دون إذن الخليفة، وقد تعرضت قواته للهلاك لولا أن وصلتهم قوة كبيرة أنقذتهم من موقفهم الذي هم فيه.

(٢) **عبادة بن الصامت الخزرجي الأنصاري**، ويكنى أبا الوليد، وأمه قرة العين بنت عبادة بن نضلة بن مالك، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، خرج مجاهداً إلى الشام، وبقي حتى توفي فيها، في الرملة علم ٣٤هـ.

(٣) **أبو أيوب الأنصاري**: خالد بن زيد شهد العقبة، نزل رسول الله ﷺ في داره، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان بجانب علي، وتوفي أثناء غزو القسطنطينية عام ٥٢هـ، وعلى الجيش يزيد بن معاوية.

(٤) **أبو ذر الغفاري**، جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قبل الهجرة، وأقام في قومه، ثم هاجر إلى المدينة بعد الخندق، غزا بالشام، وأقام بعدها هناك حتى أرسله معاوية إلى المدينة، مات بالربذة أيام عثمان.

(٥) **شداد بن أوس بن ثابت** النجاري الخزرجي الأنصاري، مات في فلسطين عام ٥٨هـ.

معاوية بن أبي سفيان أن يغزو حبيب بن مسلمة الفهري[1] أرمينيا، وسار حبيب نحو أرمينيا فوجد جيش أعدائه يزيد على ثمانين ألفاً فكتب بذلك إلى معاوية، وكتب معاوية إلى عثمان، وكتب عثمان إلى واليه على الكوفة آنذاك سعيد بن العاص[2] يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة، فأمده بسلمان بن ربيعة في ستة آلاف، وقد تمكنت قوة المسلمين من تدمير جيش أعدائها.

أعاد معاوية طلب بناء قوة بحرية للمسلمين من الخليفة الجديد، ولم يزل به حتى عزم على ذلك بأخرة، ولكن قال له: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه. ففعل واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي[3] حليف بني فزارة. وأصبحت السفن تبنى في عكا، وصور، وطرابلس على سواحل بلاد الشام.

غزا معاوية جزيرة قبرص، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها إلى المسلمين كل سنة وذلك في عام ٢٨ هـ، وساعد أهل مصر في تلك الغزوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح[4]، وكان معاوية على

---

(١) **حبيب بن مسلمة الفهري**: هاجر إلى المدينة صغيراً، وتوفي رسول الله ﷺ وعمره اثنتا عشرة سنة، نزل الشام، وكان مع معاوية، عرف بغزو الروم، ثم تولى أمر أرمينيا، ومات بها سنة اثنتين وأربعين.

(٢) **سعيد بن العاص بن سعيد العاص**: ولد في السنة الثانية للهجرة، وقتل أبوه يوم بدر كافراً. وقال عمر بن الخطاب لسعيد بن العاص ما لي أراك معرضاً كأنك ترى أني قتلت أباك؟ ما أنا قتلته ولكن قتله علي بن أبي طالب ولو قتلته ما اعتذرت من قتل مشرك ولكن قتلت خالي بيدي العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. فقال سعيد بن العاص: يا أمير المؤمنين لو قتلته كنت على حق وكان على باطل. فسرّ ذلك عمر منه. تولى لعثمان أمر الكوفة، وأخرجه أهلها، ورجع عن طلحة والزبير من الطريق يوم أراد البصرة، تولى أمر المدينة مرتين لمعاوية، وصلى على الحسن بن علي رضي الله عنهما عام ٥٩هـ.

(٣) **عبد الله بن قيس الحارثي**: أمير البحر، وبقي على البحر، غزا خمسين غزاة، صيفاً شتاءً، لم يغرق من جيشه أحد، ولم ينكب، قتله الروم عام ٥٣هـ وهو يطوف في أحد المرافئ متخفياً، دلتهم عليه امرأة كانت تتسول فأعطاها فعرفته فراسة.

(٤) **عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري**: من أبطال الصحابة، فارس بني عامر بن لؤي، أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها، وكان من كتاب الوحي، ارتد عن الإسلام، وعند=

الناس جميعاً، وكان بين الغزاة من صحابة رسول الله ﷺ المقداد بن عمرو[1]، وشداد بن أوس، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وكانت معه زوجه أم حرام.

وفي أيام إمارته على الشام وقعت معركة ذات الصواري البحرية عام ٣١ هـ، وكان قائد المشاة بسر بن أرطأة، وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً.

ونقض أهل قبرص عهدهم فأرسل إليهم حملة كبيرة دخلت الجزيرة عنوةً، ثم جهز معاوية حامية مؤلفة من اثني عشر ألفاً ونقلها إلى الجزيرة بمهمة حمايتها، فأقامت المساجد هناك، وبقيت الحامية هناك حتى أيام يزيد بن معاوية.

وغزا معاوية بلاد الروم على رأس صائفة فوصل إلى (حصن المرأة) قرب ثغر ملاطية. وبعدها شغل المسلمون بمشكلاتهم الداخلية، فتوقفت الفتوحات، وطمع فيهم أعداؤهم، وقتل سيدنا عثمان، رضي الله عنه، مظلوماً.

بويع سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالخلافة، فعزل

= فتح مكة شفع له سيدنا عثمان بن عفان فأمنه رسول الله ﷺ بعد أن أهدر دمه، وحسن إسلامه، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر، وتولى أمرها بعد عمرو بن العاص سنة ٢٥هـ، وبقي عليها مدة اثني عشرة سنة، زحف خلالها على إفريقية بجيش فيه الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعقبة بن نافع، ولحق بهم عبد الله بن الزبير غزا الروم بحراً وظفر بهم في معركة ذات الصواري عام ٣٤هـ.
خرج إلى الشام عندما تولى أمر مصر قيس بن سعد بن عبادة من قبل علي بن أبي طالب، واعتزل الحرب يوم صفين، ومات بعسقلان، وهو قائم يصلي. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاع.

(١) المقداد بن عمرو الكندي البهراني الحضرمي، أبو معبد، وقيل أبو عمرو: صحابي، من الأبطال، من المسلمين الأوائل، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله. كان في الجاهلية من سكان حضرموت. واسم أبيه عمرو بن ثعلبة، هرب المقداد إلى مكة بسبب خصام مع غيره وقع له في حضرموت فتبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فصار يقال له: المقداد بن الأسود حتى نزلت الآية ﴿ادعوهم لآبائهم﴾، شهد بدراً وغيرها، وسكن المدينة وتوفي على مقربة منها عام ٣٣هـ.

الولاة جميعاً، وتمّ له ذلك إلا أن معاوية رأى أن بلاد الشام لا يمكن تركها أبداً إذ أن الروم لذلك بالمرصاد، فماطل في بيعته وتأخر حتى عُدّ خارجاً على الخليفة على الرغم من اجتهاده في التأخر متعللاً بعدم بيعة الصحابة كافة، وسيطرة البغاة على المدينة، وعدم إقامة الحدود عليهم. وجرت الحروب بين الخليفة ووالي الشام، وكان ينادى أثناءها لعلي بن أبي طالب بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين، ويدعى معاوية الأمير، وانتهت الحروب بمقتل سيدنا علي على يد أحد الخوارج على حين نجا من ذلك القتل كل من أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، وأمير مصر عمرو بن العاص.

بايع المسلمون الحسن بن علي بعد مقتل أبيه، وبقي معاوية خارجاً على الحكم حتى تنازل الحسن له وأصبح بعدها خليفة بصورة شرعية، وسمّي بذلك عام (٤١ هـ) عام الجماعة حيث عاد المسلمون إلى وحدتهم بعد خلاف استمر خمس سنوات.

خلافة معاوية

تُعدّ خلافة معاوية بدءاً من عام ٤١ هـ حيث تنازل له الحسن بن علي، رضي الله عنهما، حقناً لدماء المسلمين، وتوحيداً لكلمتهم، وتستمر حتى وفاته في رجب عام ٦٠ هـ وهي بذلك تزيد على تسعة عشر عاماً بحدود ثلاثة أشهر. أما ما قبل الخلافة فكان يعرف بالأمير.

وقد كانت هذه الخلافة خيراً للمسلمين، إذ انتهت مدة الفوضى والقتال، وطمع الأعداء باستعادة المراكز التي تخلّوا عنها، إذ وجّه المسلمون قوتهم إلى الخارج حيث عاد الجهاد وحدثت الفتوحات، وقطع الروم بخاصة أملهم في الرجوع إلى الأماكن التي فقدوها.

وسار معاوية بالناس سيرةً حسنةً فقرّب من كان بعيداً، واستمع ممن كان نائياً، وحرص على جمع الكلمة، إذ أعطى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، ما أراد، وأمّن عبد الله بن عباس ووصله، وكذلك فعل بالنسبة إلى قيس بن سعد[1]، رضي الله عنهما، إذ كان على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً أرسله سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لقتال أهل أذربيجان، فلما قتل علي، وتنازل الحسن، أمّر هذا الجيش قيس بن سعد، وتعاهدوا

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة: صحابي، من أهل المكيدة في الحرب، ومن أهل الرأي، كان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ، ويلي أموره، وفي البخاري أنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير. صحب علياً، رضي الله عنه، في خلافته، فاستعمله على مصر ٣٦ ـ ٣٧، وعزل بمحمد بن أبي بكر، وعاد إلى علي في العراق، وكان على مقدمته يوم صفين، ثم كان مع الحسن حتى صالح معاوية، فرجع إلى المدينة وتوفي فيها عام ٥٨، وقيل إنه سكن تفليس وتوفي فيها. وكان من أطول الناس ومن أجملهم.

على قتال معاوية حتى يشترط لهم، وأرسل معاوية إلى قيس بن سعد يذكره الله، ويقول: على طاعة من تقاتل، وقد بايعني الذي أعطيته طاعتك؟ فأبى قيس أن يلين له، حتى أرسل له معاوية بسجل قد ختم عليه في أسفله، فقال: اكتب في هذا السجل ما شئت، فهو لك. فقال عمرو لمعاوية: لا تعطه هذا، وقاتله، فقال معاوية: على رسلك! فإنا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك! وإني والله لا أجد من قتاله بُدّاً. فلما بعث إليه معاوية بذلك السجل اشترط فيه قيس له ولمن معه الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً، وأعطاه معاوية ما سأل، فدخل قيس ومن معه في طاعته. وقرّب إليه زياد بن أبيه، وقد كان من أنصار علي ووالي خرسان له، فلما قتل علي، وتنازل الحسن اعتصم زياد بخراسان فما زال معاوية به حتى أرضاه واستقدمه، ثم ولاّه.

وهكذا لم يبق في أيام معاوية معارض له، بل كل دخل في طاعته، وانخرط في صفوف المقاتلين، فعادت الفتوحات إلى أيامها الأولى، وكان الصحابة، رضوان الله عنهم، في طليعة المجاهدين أمثال عبادة بن الصامت، وأبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وشداد بن أوس وغيرهم، كما تسلم بعض الصحابة الأعمال لمعاوية. وإذا كان قد بقي بعض أصحاب الآراء الخاصة إلا أن عددهم قليل، وهم ليسوا على ذلك المستوى إضافة إلى أنه لا يكاد يخلو منهم مجتمع، فقد بقي عدد من الخوارج يخفون آراءهم في الأحوال العادية ويظهرونها إن سنحت لهم الفرصة فأظهروا الشغب وأعلنوا الخروج على الدولة، ولم يكن أثرهم كبيراً أيام معاوية. وبقي عدد من المشاغبين وأهل الفوضى والأهواء، ومركزهم الرئيسي كان في الكوفة ثم في البصرة وهؤلاء يظهر شغبهم وقت اللين، ويختفون وقت الشدة، لذا فقد اشتهر ولاة هاتين المنطقتين بالشدة التي اضطروا إلى اللجوء إليها اضطراراً حتى غدوا نموذجاً في القسوة، وهذا السلوك هو الذي جعل

الكثيرين يحملون عليهم، وكان أهل العراق قد تقاعسوا عن سيدنا علي حتى قتل، وتقاعسوا عن الحسن حتى تنازل، ثم سلموا مسلم بن عقيل، وقاتلوا الحسين بعد أن طلبوا منه الحضور، وثاروا مع زيد بن علي بن الحسين ثم تخلّوا عنه وهكذا، ولهذا السلوك نفسه قتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، وجُهل قاتله فاتهموا به الخليفة.

وقد كثر الحديث في بعض الموضوعات أيام معاوية، رضي الله عنه، ومنها مقتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، وادعاء زياد بن أبيه، وتصرف الخليفة أحياناً ببعض بيت المال، أو تقديم أعطيات في سبيل المصلحة العامة رآها بعضهم تصرفاً ببيت المال، ثم صار الحديث في النهاية عن أخذ البيعة لولده يزيد، وقد عُدّت الأمور الأولى خاصة بمعاوية بينه وبين ربه يحاسب عليها وعلى اجتهاده فيها، أما البيعة فقد وقف ضدها عدد من الصحابة وأبناء الصحابة لأنها إمامة المسلمين جميعاً. وما عدا ذلك فقد كانت مدة خلافة سيدنا معاوية أنموذجاً لوحدة كلمة المسلمين وانتشار الفتوحات وسيادة الشرع، وسعادة الناس.

الولايـات

كانت الدولة الإسلامية عدة ولايات رئيسية، وربما يضم بعضها عدداً من الإمارات التي دون الولايات، وكان لبعض الولايات أهمية خاصة، وقد تزداد هذه الأهمية في مرحلةٍ من المراحل فيضاف لها عدد من الإمارات وقد تضعف باقتطاع أجزاء منها، وقد تكون الأهمية قد جاءت لما فيها من ثغور أو بما تتولاه من أمر الجهاد والقتال، ومن أشهر الولايات ذات الشأن أيام خلافة معاوية هي:

١ ـ الشام: وقد تولى أمرها يزيد بن أبي سفيان منذ فتحها، فلما هلك بطاعون عمواس عام ١٨ هـ أوكل سيدنا عمر بن الخطاب أمرها إلى معاوية بن أبي سفيان حسبما عهد يزيد أخوه إليه، واستمر أميراً لها حتى آلت الخلافة إليه، وهي مركز ثقله، وأهلها شيعته، قاتل بهم، وأطاعوه في كل أموره. وتشمل الأرض الممتدة من شمال جزيرة العرب حتى ذرا جبال طوروس، وتمتد من البحر الأبيض المتوسط في الغرب حتى أطراف الفرات، كما تضم أجزاء من الجزيرة.

وتعود أهميتها إلى أنها مركز الأمويين جميعاً، وفيها ثغور المسلمين على بلاد الروم، وتتركز فيها الصوائف والشواتي، وعلى موانئها تبنى السفن، وتتحرك الأساطيل لغزو البحر وقتال الروم أيضاً. وفيها عدد من الإمارات منها حمص التي كان من أشهر أمرائها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومنها قنسرين، وانطاكية، وطرابلس، والجزيرة.

ولم يحدث في هذه الولاية ما يُنغّص على الخليفة أي أمر بل كانت سنده في كل موضوع.

٢ ـ **الكوفة**: وتعود أهميتها إلى أنها تتولّى القتال في شمال العراق، والأكراد، وأذربيجان، وبلاد اللان، ومنطقة الجبال. وفي الوقت نفسه هي مركز ثقل بالنسبة للذين يرفضون الحكم الأموي، كما يقيم فيها عدد من الخوارج الذين يعادون أيضاً العهد الأموي واعتاد أهلها الخروج على الحكم ونقده كلما لان لهم الولاة فإذا اشتدوا عليهم خنعوا، ومن هذا التصرف فقد كان ولاة هذا المصر أعنف الولاة وأقساهم، وكان السكان يقبعون إلى بيوتهم ويتركون من تعهدوا نصرته إذا لاحت لهم شدة، وقد قتل حجر بن عدي، رضي الله عنه، أحد الذين سكنوا الكوفة، وكان لمقتله أثر كبير على الحكم.

خرج الحسن والحسين ابنا علي، رضي الله عنهم، من الكوفة، ومعهما عبد الله بن جعفر ابن عمهما باتجاه المدينة، ودخل معاوية الكوفة في جمادى الأولى عام ٤١ هـ، وولى عبد الله بن عمرو بن العاص، ولكنه عاد فعزله قبل أن يصل إليها، وأعطى أمرها للمغيرة بن شعبة الذي بقي أميراً عليها حتى توفي عام ٥٠ هـ، وقد سار في الناس سيرة لين ودهاء.

وغدت الكوفة بعد وفاة المغيرة تتبع زياد بن أبيه الذي كان يقيم فيها ستة أشهر وفي البصرة مثلها، كما ضمت إليه اليمامة وفي أيامه قتل حجر بن عدي. وعندما توفي زياد عام ٥٣ هـ. تولى أمر الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد مدة سنتين، ثم خلفه الضحاك بن قيس الفهري، واستمر عليها حتى عام ٥٨ هـ حيث عزل، وتولى أمرها عبد الرحمن بن أم الحكم ابن أخت معاوية، ثم تلاه النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، وبقي عليها حتى وفاة معاوية.

٣ ـ **البصرة**: وهي من العراق، وعلى مقربة من الكوفة، ولكن فتوحات المشرق تتبعها وهي: فارس، وخراسان، وسجستان ومن هنا تأتي أهميتها إذ تعدّ من أوسع الولايات، وواليها هو الذي يرسل الأمراء منها إلى الإمارات التي تتبعها، وإن كان الخليفة أحياناً يعينهم، أو يأمر بإرسال أشخاص بأعينهم، وأحياناً قليلة يكونون منفصلين عن البصرة.

بعد تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، غلب على البصرة حُمران بن أبان، فوجه إليه معاوية بسر بن أرطأة فأخذ المنطقة، وفي نهاية العام عزل بسر بن أرطأة، وولي أمرها عبد الله بن عامر[1] الذي بقي فيها حتى عام ٤٤ هـ حيث عزل عنها، وتولى زياد بن أبيه أمرها، وبعد وفاة المغيرة بن شعبة ضمت إليه الكوفة وكذلك البحرين، واليمامة، وعُمان، وانتقل إلى الكوفة، وولي على البصرة سمرة بن جندب الفزاري، أما هو فكان يقيم بالكوفة ستة أشهر، وأخرى مثلها بالبصرة.

وبعد موت زياد عام ٥٣ هـ أصبح سمرة بن جندب هو الوالي على البصرة، ثم خلفه بعد ستة أشهر عبد الله بن عمرو بن غيلان، ثم عزله على ٥٥ هـ، وولى عبيد الله بن زياد البصرة وكان قبلها والياً على خراسان، وبقي فيها حتى توفي معاوية.

٤ ـ **خراسان**: وكانت تتبع البصرة أغلب الأحيان، ويُعيّن أمراؤها من قبل ولاة البصرة. وكانت مقراً للجهاد، لما تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية عن الخلافة كان زياد بن أبيه في خراسان فاعتصم فيها في القلعة المعروفة باسم (قلعة زياد)، فلما استرضاه معاوية وقدم زياد إلى الشام كان عبد الله بن عامر والي البصرة فأرسل إلى خراسان قيس بن الهيثم، ثم عبد الله بن خازم، ولما أصبح زياد أمير البصرة أرسل إلى خراسان عام ٤٤ هـ طفيل بن عمرو اليشكري، ثم أرسل الحكم بن عمرو الغفاري، وبقي فيها حتى مات عام ٥٠ هـ فأرسل زياد إلى خراسان الربيّع بن زياد الحارثي، وكان الحكم قد ولّى مكانه أنس بن أبي ناس، وكتب إلى زياد بذلك، فخلع زياد أنساً، وعين مكانه خليد بن عبد الله الحنفي فبقي فيها شهراً، ثم جاء الربيّع بن زياد الحارثي إليها كما توجه إلى خراسان بأمر زياد غالب بن فضالة الليثي ليساعد الحكم بن عمرو الغفاري.

---

(١) **عبد الله بن عامر**: كان والياً على البصرة من قبل أيام عثمان بن عفان، وقد عزله علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندما تولى الخلافة، وأرسل مكانه عثمان بن حنيف.

وتوفي الربيّع عام ٥٣ هـ وخلفه ابنه عبد الله بن الربيّع، ولم يلبث شهراً حتى توفي أيضاً فخلفه خليد بن عبد الله الحنفي.

وفي عام ٥٤ هـ تولى أمر خراسان عبيد الله بن زياد، ولما أخذ ولاية البصرة في العام التالي بعث إلى خراسان أسلم بن زرعة، وفي عام ٥٧ هـ كان سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان، ثم عزل وتولى مكانه عبد الرحمن بن زياد.

ومن الإمارات التي كانت تتبع البصرة: إمارة سجستان، ومن أشهر أمرائها عبّاد بن زياد، وإمارة كرمان، ومن أشهر أمرائها شريك بن الأعور، وكان من قبل عبيد الله بن زياد.

٥ ـ **المدينة المنورة:** وهي أهم الولايات ومركز الثقل بالنسبة إلى الخلافة إذ فيها الصحابة وأبناؤهم من المهاجرين والأنصار ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعه الناس، ويسيرون برأيهم.

تولى أمر المدينة أيام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قثم بن العباس، ولكنه سيّره إلى مكة، وولى أمرها إلى سهل بن حنيف الذي كان قد أرسله إلى الشام إلا أن خيل معاوية قد أرجعته ولما تنازل الحسن لمعاوية، وعاد إلى المدينة بايعت المدينة، وولى معاوية أمرها مروان بن الحكم، واستمر عليها حتى عزل عام ٤٩هـ، حيث تولى عليها سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص[1]، ثم أعيد إليها مروان بن الحكم مرة ثانية عام ٥٤هـ، ولكنه عزل عام ٥٨هـ، وتسلم ولايتها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وبقي فيها حتى توفي معاوية.

أما بقية ولايات الجزيرة فكانت ذات أهمية قليلة لأنها ليست على ثغور، إضافة إلى بعدها، فكانت ولايات شرقي الجزيرة مثل البحرين،

---

(١) كان سعيد بن العاص قد تولى أمر الكوفة لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، ثم عزله بناء على رغبة أهل الشغب.

وعُمان أو وسطها مثل اليمامة فكانت تتبع أحياناً البصرة، وتكون أحياناً ولايات خاصة يتسلمها ولاة لم يشتهر أمرهم كثيراً لعدم شهرة ولاياتهم، وكذا الأمر بالنسبة إلى اليمن.

وكانت هناك مكة المكرمة فقد تولى أمرها خالد بن العاص بن هاشم بن المغيرة المخزومي، وهو الذي كان قد أرسله إليها سيدنا علي بن أبي طالب، ثم أعيد، وأخيراً أرسل إليها علي قثم بن العباس، فلما تم الأمر لمعاوية أعاد خالد بن العاص بن هشام على مكة. وهناك الطائف وقد يجمع وال واحد الطائف ومكة، وقد تكونان تبعاً للمدينة.

٦ ـ مصر: كان عمرو بن العاص أميراً على مصر منذ أن فتحها أيام سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وبقي أميراً عليها حتى عزله سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فلما تولى الخلافة سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أرسل إليها قيس بن سعد بن عبادة فدخلها وخرج منها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وسار قيس بن سعد بن عبادة في مصر سيرة حسنة ورضي أهلها به وإن اعتزل بعضهم منهم: مسلمة بن مخلد، وبسر بن أرطأة، ومعاوية بن حُديج، فتركهم وشأنهم إلا أن بعض أنصاره كانوا يطالبونه بقتالهم ويكتبون إلى الخليفة بذلك، وجاءه الأمر، ولكنه استحسن رأيه فعزل، وولي مكانه محمد بن أبي بكر، وأراد قتال المعتزلين ولكنه هزم، فأرسل الخليفة علي والياً مكانه هو الأشتر النخعي إلا أنه مات في الطريق الأمر الذي اضطر معه أمير المؤمنين على الإبقاء على محمد بن أبي بكر والياً على مصر، وعندما حارب المعتزلين لم يوافقه كثير من أهل مصر فهزم أمام عمرو بن العاص وقتل، ودخل عمرو بن العاص مصر والياً عليها من قبل معاوية، وهكذا خرجت مصر من قبضة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

بقي عمرو والياً على مصر حتى توفي عام ٤٣هـ، فولى أمرها بعده ابنه عبد الله بن عمرو مدةً قصيرةً ثم تولّى عتبة بن أبي سفيان حتى عام

٤٤هـ، ثم تولى أمرها عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني[١] حتى عام ٤٧هـ، وخلفه في أمرها معاوية بن حُديج الذي ولّى أمر المغرب عقبة بن نافع الفهري الذي كان أمير برقة وبناءً على أوامر الخليفة، وفي عام ٥٠هـ عُزل معاوية بن حُديج عن مصر وإفريقية، ووُلّى أمرهما مسلمة بن مخلّد، فعزل عقبة بن نافع عن إفريقية، وأعطى أمرها إلى مولى له يقال له أبو المهاجر، ولم يزل مسلمة بن مخلّد عاملاً على مصر وإفريقية وأبو المهاجر في إفريقية حتى هلك معاوية.

(١) **عقبة بن عامر الجهني**: كان قارئاً، عالماً بالفرائض والفقه صحيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو آخر من جمع القرآن. شهد صفين مع معاوية، ومات عام ٥٨هـ.

الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٤١		المغيرة بن شعبة	حمران بن أبان بسر بن أرطاة	زياد بن أبيه		سهيل بن حنيف مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٢		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	زياد بن أبيه قيس بن الهيثم	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٣		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر	عبد الله بن خازم	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عمرو بن العاص		عقبة بن نافع
٤٤		المغيرة بن شعبة	عبد الله بن عامر زياد بن أبيه	عبد الله بن خازم طفيل بن عمرو اليشكري	عبد الرحمن ابن سمرة	مروان بن الحكم	عتبة بن أبي سفيان		عقبة بن نافع
٤٥		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	عقبة بن عامر		عقبة بن نافع
٤٦		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	عقبة بن عامر		عقبة بن نافع
٤٧		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	

تابع الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٤٨		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		مروان بن الحكم	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	
٤٩		المغيرة بن شعبة	زياد بن أبيه	الحكم بن عمرو الغفاري		سعيد بن العاص	معاوية بن حُديج	عقبة بن نافع	
٥٠		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥١		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٢		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	الربيّع بن زياد الحارثي		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٣		زياد بن أبيه	زياد بن أبيه	عبد الله بن الربيع		سعيد بن العاص	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٤		عبد الله بن خالد ابن أسيد	سمرة بن جندب الفزاري عبد الله ابن عمرو بن غيلان	عبيد الله بن زياد		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	

تابع الولايات في عهد معاوية بن أبي سفيان

سنة	الشام	الكوفة	البصرة			المدينة	مصر	إفريقية	برقة
				خراسان	سجستان				
٥٥		عبد الله بن خالد ابن أسيد	عبد الله بن عمرو ابن غيلان عبيد الله بن زياد	أسلم بن زرعة		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٦		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	أسلم بن زرعة		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٧		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	سعيد بن عثمان ابن عفان		مروان بن الحكم	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٨		الضحاك بن قيس	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٥٩		عبد الرحمن بن أم الحكم	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	
٦٠		النعمان بن بشير	عبيد الله بن زياد	عبد الرحمن ابن زياد	عباد بن زياد	الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان	مسلمة بن مخلّد	أبو المهاجر	

الفتوحات

كان الغزو أيام معاوية، رضي الله عنه، يشمل مناطق واسعة تمتد من المحيط الأطلسي في غربي إفريقية إلى البحر الأبيض المتوسط كله وتساير ذرا جبال طوروس، وبلاد القفقاس، وبلاد ما وراء النهر، وطخارستان، والأفغان، لتصل إلى بلاد السند فسواحل المحيط الهندي على بلاد الهند، وهي مع هذا الامتداد العظيم تشمل جبهتين رئيسيتين:

١ ـ **الجبهة الغربية**: التي تضم مناطق الروم.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: التي تضم مجموعات وثنية تعيش في شمال وشرقي الدولة الإسلامية.

الجبهة الغربية: وتشمل بلاد الروم والمناطق التي يسيطرون عليها سواء أكانت في البر مثل إفريقية ومنطقة الأناضول أم في البحر الذي كان آنذاك البحر الأبيض المتوسط والذي يسيطر عليه الروم، ويعرف وقتذاك ببحر الروم، ثم جاء المسلمون ينازلونهم فيه.

وقد لاحظنا أن الدولتين الكُبريين اللتين كانتا في صراع دائم عند ظهور الإسلام قد وقفتا في وجه الدعوة الجديدة إلا أن دولة الفرس قد انتهت وزالت من الأرض أمام جهاد المسلمين وضرباتهم المتتالية، على حين بقيت دولة الروم لمناعة أرضها، واتساع الأجزاء التي تحتلها، وقوتها البحرية الكبيرة على حين لم يكن للمسلمين في بداية الأمر قوة بحرية، لذا فقد وجه معاوية قوة كبيرة في البر ومثلها في البحر، بعضها إلى قلب بلاد الروم وعاصمتهم ليركز الروم جيوشهم هناك، كي يستطيع المسلمون في الوقت نفسه فتح البلاد الأخرى التي تخضع للروم إذ تضعف قوة الأعداء

وبالتالي مع الزمن يمكن أن يضعف الروم أساساً بزوال أملاكهم فيمكن فتح بلادهم. ومن هنا كانت الجبهة الغربية ثلاث جهات:

أ ـ بلاد الروم: وهي التي تعرف اليوم باسم بلاد الأناضول أو تركيا، وقد وصل المسلمون إلى تلك الجهات وتوقفوا عند أقدام جبال طوروس الممتدة من البحر الأبيض المتوسط عند (مرسين) نحو الشمال الشرقي حتى تصل إلى مناطق قريبة من البحر الأسود في هضبة أرمينيا، وقد أقيمت هناك ثغور وقلاع لكلا الجانبين ومن أشهرها مرسين، المصيصة، ومرعش، وملاطية، والحدث، وزبطرة، وخرشنة، وعين زربة وكانت الغارات على الروم لا تنقطع أبداً، وقد يحدث تقدم في بلاد الروم من قبل المسلمين إثر كثير من الغزوات لكن لا يلبث المجاهدون أن يعودوا إلى ثغورهم وقلاعهم وقد رتّب سيدنا معاوية في هذه الجهات الصوائف التي كانت تقوم بالغزو في فصل الصيف، والشواتي التي تقوم بالقتال في فصل الشتاء حتى تكون حروب دائمة تستنزف قوة العدو وتجعله في النهاية يخضع لحكم المسلمين وفي أثناء قتال مجموعة تكون المجموعة الثانية قد عادت إلى أماكن مرابطتها تجد الراحة وتتمتع بالنشاط مع أهليها حتى يحين موعد جهادها. وقد اشتهر من بين القادة في هذه المنطقة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وبسر بن أرطأة الذي تقدم على رأس شاتية عام ٤٣ هـ حتى اقترب من القسطنطينية، ومالك بن هبيرة، وأبو عبد الرحمن القيني، وعبد الله بن قيس الفزاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري، وسفيان بن عوف الأزدي الذي توفي في أرض الروم، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي، ومحمد بن عبد الله الثقفي، وجنادة بن أبي أمية الأزدي، ومعن بن يزيد السلمي، ومحمد بن مالك، ومالك بن عبد الله الخثعمي، وعبد الله بن كرز البجلي، وعمرو بن مرة الجهني.

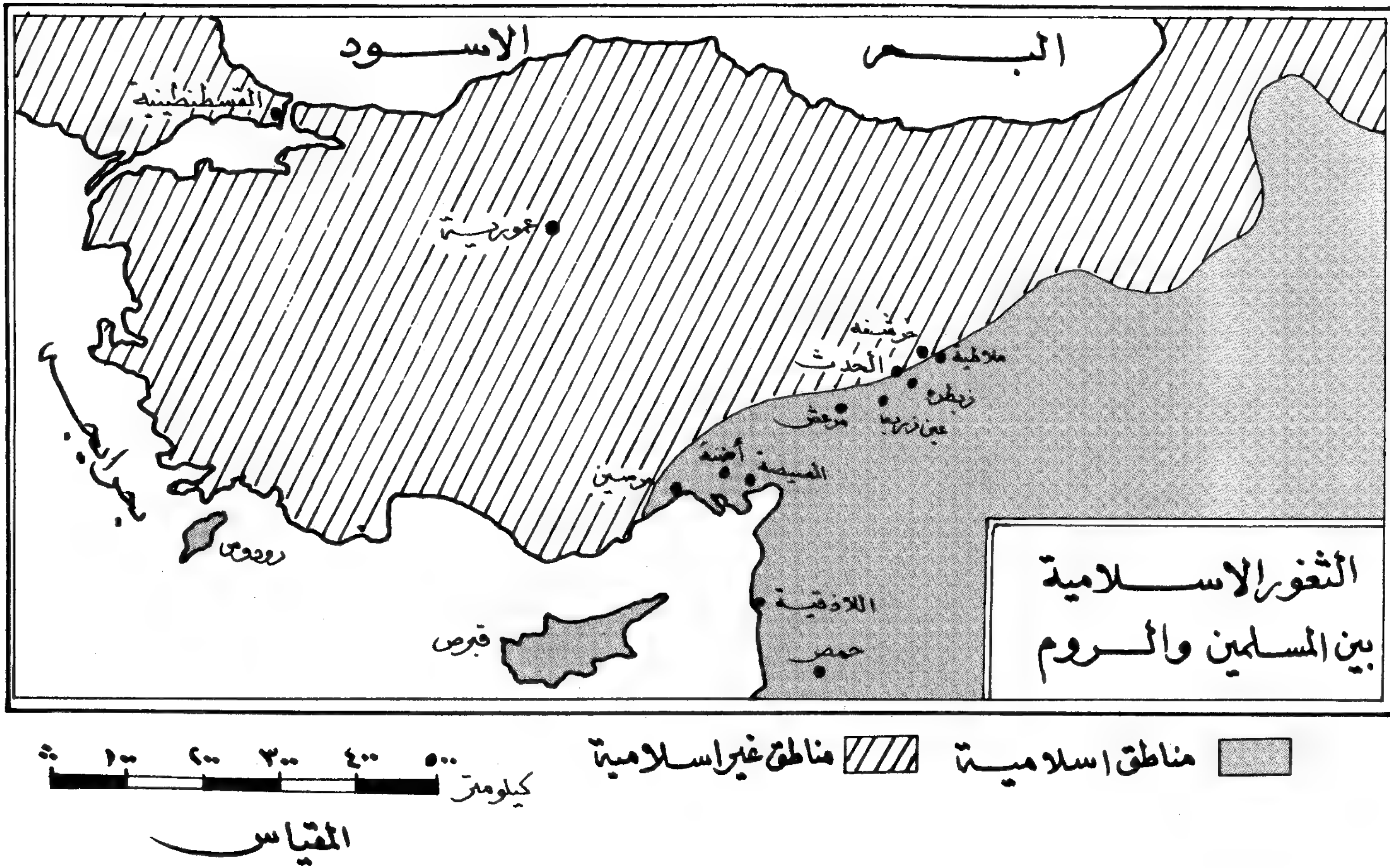
وكان هدف الغزوات جميعها القسطنطينية وبعضهم كان يقترب منها، وبعضهم يصل إلى عمورية في جنوب موقع أنقرة اليوم.

وفي عام ٥٠ هـ جهز معاوية حملة كبيرة من البر والبحر لتغزو

القسطنطينية، وأعطى قيادة جيش البر لسفيان بن عوف الأزدي، وجعل ابنه يزيد في قيادة الحملة إلا أن يزيد لم يخرج مع الحملة، أما الأسطول فقد قاده بسر بن أرطأة، وحوصرت عاصمة الروم، وجرت اشتباكات بين الطرفين خسر فيها المسلمون خسائر كبيرة، فعمل معاوية على إرسال نجدة كبيرة كانت بقيادة ابنه يزيد ومعه أبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وبوصول النجدة ارتفعت معنويات المجاهدين فاشتد الحصار وأصاب المسلمون من الروم وإن لم يستطيعوا فتح القسطنطينية، وقد استشهد في هذا القتال أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد، رضي الله عنه، وعبد العزيز بن زرارة الكلابي، وقد كانا على رأس الذين يثيرون حماسة المقاتلين.

وفي عام ٥٣ هـ أعيد حصار القسطنطينية مرة ثانية، وكان القائد في هذه المرة فضالة بن عبيد الأنصاري، وعلى الأسطول عبد الله بن قيس الحارثي، وجنادة بن أبي أمية، أما أسطول الشام فكان بإمرة يزيد بن شجرة الرهاوي، واستمر الحصار حتى عام ٥٧ هـ، ولم ينقذ القسطنطينية من الفتح إلا هبوب عاصفة هوجاء فرّقت الأسطول الإسلامي، وفي الوقت نفسه وصلت إمدادات إلى الروم من أوربا وخاصة من البلغار.

ب ـ **البحر**: منذ أن تسلم معاوية إمرة بلاد الشام وهو يطمح بمنازلة الروم بحرياً، وما أن سمح له الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بذلك حتى انطلق في ذلك ليحمي المدن الساحلية، ويصدّ عنها غارات الروم وأساطيلهم، ولاحظنا كيف إنه فتح قبرص عام ٢٨ هـ، وأعاده عام ٣٣ هـ، وانتصر على الروم في معركة ذات الصواري، وغزا صقلية غزوة استطلاعية، كما غزا رودوس، وقد نظم التعاون بين الجيوش البرية والأساطيل تنظيماً دقيقاً، واشتهر من قادة البحر بسر بن أرطأة، ومالك بن هبيرة السكوني، والمنذر بن زهير، وخالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وفضالة بن عبيد الأنصاري، ويزيد بن شجرة الرهاوي، وعقبة بن


الثغور الاسلامية
بين المسلمين والروم
البحر الاسود
القسطنطينية
عمورية
خرشنة
ملاطية
الحدث
زبطرة
مرعش
عين زربة
طرسوس
أذنة
المصيصة
اللاذقية
حمص
قبرص
رودوس
بحر ايجه
مناطق اسلامية
مناطق غير اسلامية
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

نافع، وجنادة بن أبي أمية الأزدي، وغيرهم، ومن الملاحظ أن بعضهم كان يتسلم إمرة الجيوش البرية تارة أخرى قيادة الأساطيل فلم يكن هناك من اختصاص وإنما الروح المعنوية العالية تدفع المؤمن لأن يجاهد بأية منطقة كانت. . . كما يجب أن نعرف أن غزو البحر لم يكن محصوراً بأهل الشام من أبناء السواحل ولا بأهل مصر فقط بل أصبح جميع المسلمين مجاهدين في البر والبحر على حدٍ سواء، سواء أكانوا من أهل البادية الذين لم يروا البحر طيلة حياتهم أم من أبناء السواحل الذين اعتادوا على العمل فيه، وكلهم يجيد القتال، ويحسن التصرف، ويضحي بكل شيء ففي عام ٤٨ هـ قاد مالك بن هبيرة السكوني أهل مصر في البحر، وقاد أهل المدينة في البحر المنذر بن زهير وكان على الجميع خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، كما أنه من المعروف أن أكثر هؤلاء القادة كان من جزيرة العرب في الأصل، ومن أهل الداخل والبوادي

أسس معاوية داراً للصناعة البحرية في عكا، وجمع فيها مهرة الصناع الذين استقدمهم من اليمن ومن سواحل الخليج العربي، وأفاد من خشب جبال بلاد الشام، ورمّم ميناء صور، وطرابلس، وكانت تصنع فيهما السفن، كما تصنع في عكا. وأقام معاوية داراً لصناعة السفن البحرية في جزيرة الروضة في مصر عام ٥٤ هـ، وتمتاز السفن الحربية الإسلامية بكبر حجمها، وتنوعها، وإمكانات استيعابها وحملها كميات كبيرة من المواد والعتاد وأعداداً من الجند.

واتخذ معاوية خطة في نقل أعداد من العرب المسلمين إلى الجزر في البحر الأبيض المتوسط لحمايتها ونشر الإسلام على ربوعها.

تمّ نزول المسلمين بصقلية عام ٤٨ هـ، واستطاع فضالة بن عبيد الأنصاري فتح جزيرة (جربا) عام ٤٩ هـ وقد سار إليها على رأس شاتية في ذلك العام.

وفي عام ٥٠ هـ تم حصار القسطنطينية، وقد روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان أن رسول الله ﷺ قال: «أول جيش من أمتي يركبون

البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم[1]».
كما أعيد حصارها لمدة ٤ سنوات من عام ٥٣ ـ ٥٧ هـ.

وفي عام ٥٣ هـ فتح جنادة بن أبي أمية الأزدي جزيرة رودوس، ونقل معاوية جماعة إليها لحمايتها.

وفي عام ٥٥ هـ تمّ فتح جزيرة كريت، وبعد عامين فتحت جزر بحرايجة القريبة من القسطنطينية مقدمة لحصارها من جديد.

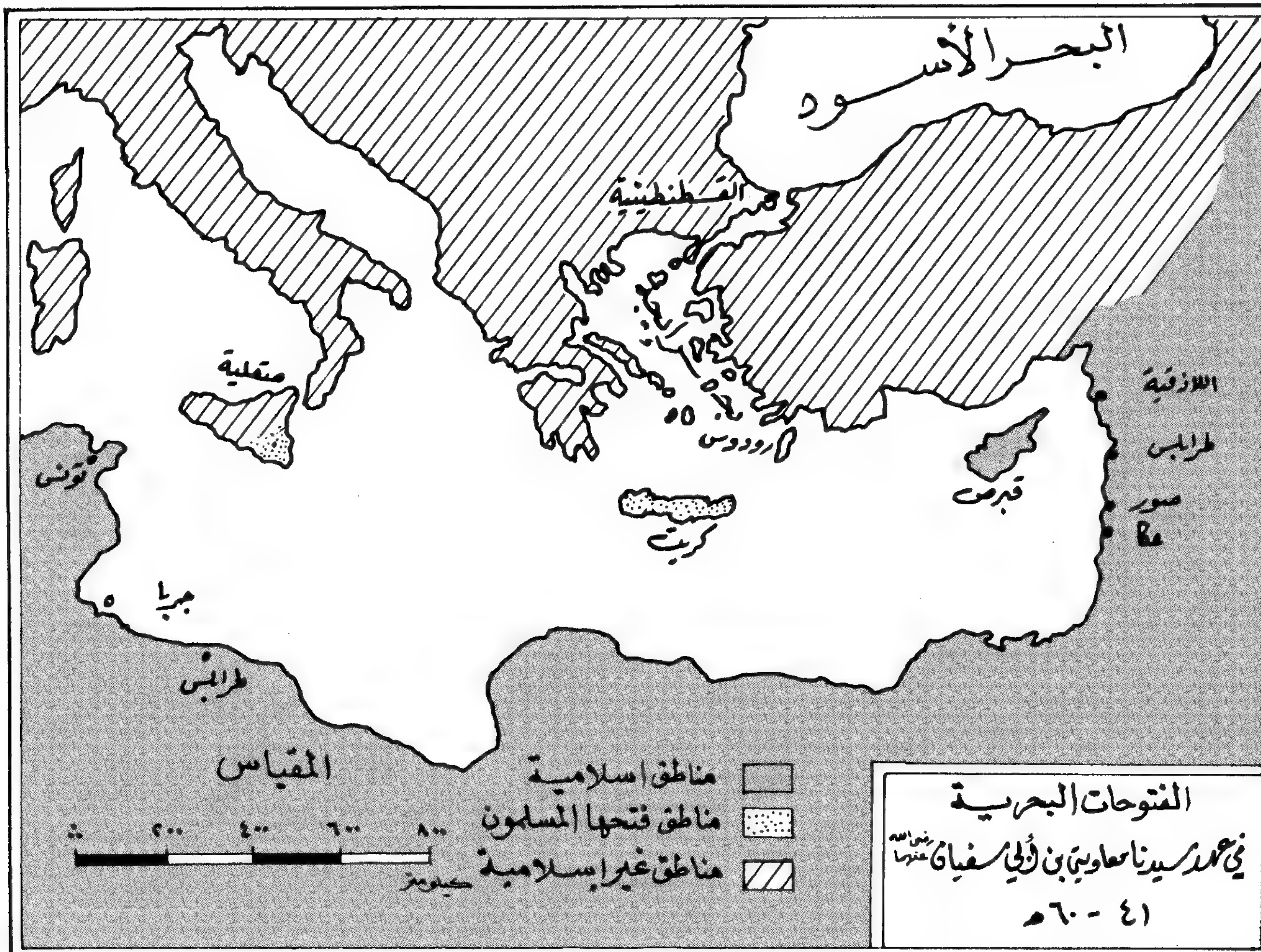
حـ ـ إفريقية: بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠ هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب تقدم نحو الغرب حتى وصل إلى طرابلس إلا أن الخليفة لم يأذن له بالتقدم نحو إفريقية، وكان قد وجّه عبد الله بن الزبير ففتح (مصراته)، وسيّر عقبة بن نافع ففتح (زويلة)، وأرسل بسر بن أرطأة ففتح ودّان، وعيّن عقبة بن نافع أميراً على حامية مرابطةٍ في برقة، وعين عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمر الخليفة أميراً على الصعيد.

وعندما تولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الخلافة أذن بفتح إفريقية، فأمر بإرسال قوة بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي سرح نحوها وأمده بجيش من المدينة فيه الحسن، والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فالتقوا بأمير برقة عقبة بن نافع، ودخلوا طرابلس، وانتصروا على الروم قرب موقع القيروان، وفتحوا (قفصة).

نقضت إفريقية العهد فعاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إليها، وجدد فتحها. وبقي عقبة بن نافع أميراً على برقة، وكثيراً ما كان يحدث نقض العهد من قبل البربر فيقوم المسلمون بإعادة تسيير الجيوش، ويجددون الفتح.

---

(١) فيض القدير: رقم الحديث ٢٨١١.

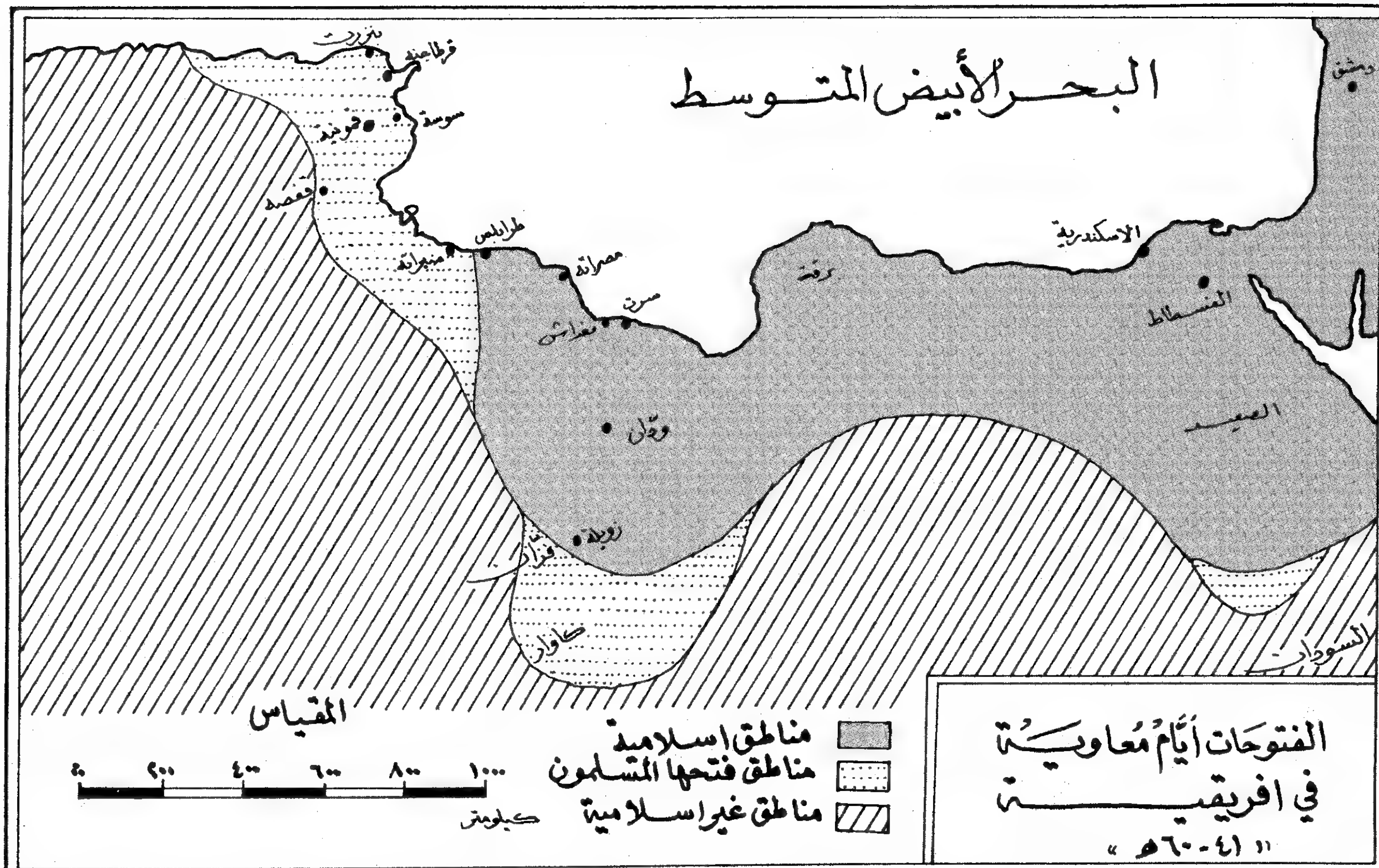

البحر الأسود
القسطنطينية
رودوس
كريت
قبرص
اللاذقية
طرابلس
صور
عكا
صقلية
تونس
جربا
طرابلس
المقياس
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
كيلومتر
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
الفتوحات البحرية
في عهد سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما
٤١ - ٦٠ هـ

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان عاد عمرو بن العاص والياً على مصر، وكان قد دخلها منذ عام ٣٨ هـ، وتولى أمر المغرب معاوية بن حُديج ففتح بنزرت عام ٤١ هـ، كما دخل (قمونية) موضع القيروان عام ٤٥ هـ، وأرسل عبد الله بن الزبير ففتح سوسة في العام نفسه، ورجع معاوية بن حُديج إلى مصر فتولى أمر المغرب رويفع بن ثابت الأنصاري، وبقي عقبة بن نافع على برقة ففتح (سرت) و(مغداس)، وأعاد فتح (ودّان)، ودخل (فزان) ووصل إلى جنوبها إلى (كاوار)، ودخل (غدامس) و(قفصة) وابتنى القيروان كما فتح كوراً من بلاد السودان.

وفي عام ٥٠ هـ تولى أمر مصر مسلمة بن مخلّد فعزل عقبة بن نافع عن أمر المغرب وولى دينار أبو المهاجر فوصل إلى المغرب الأوسط هذا ما كان أيام معاوية في إفريقية، وهكذا جدد المسلمون فتح مناطق عدة مرات.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: ولم تكن ساحةً واحدةً، شأنها في ذلك شأن الجبهة الغربية، فكانت عدة ميادين، لأنها تقع على بلاد عدة أمم، ومعظمها وثنية بعكس الغربية التي يدين غالبية سكانها بالنصرانية، فنرى في الشمال شعوب القفقاس المختلفة التي أشهرها اللان، وفي الشمال الشرقي نجد الاتراك في بلاد ما وراء النهر، وكانوا على الوثنية أيضاً، وفي الشرق نجد طخارستان، وسجستان، وسكانهما من الوثنيين، وفي الجنوب الشرقي بلاد السند.

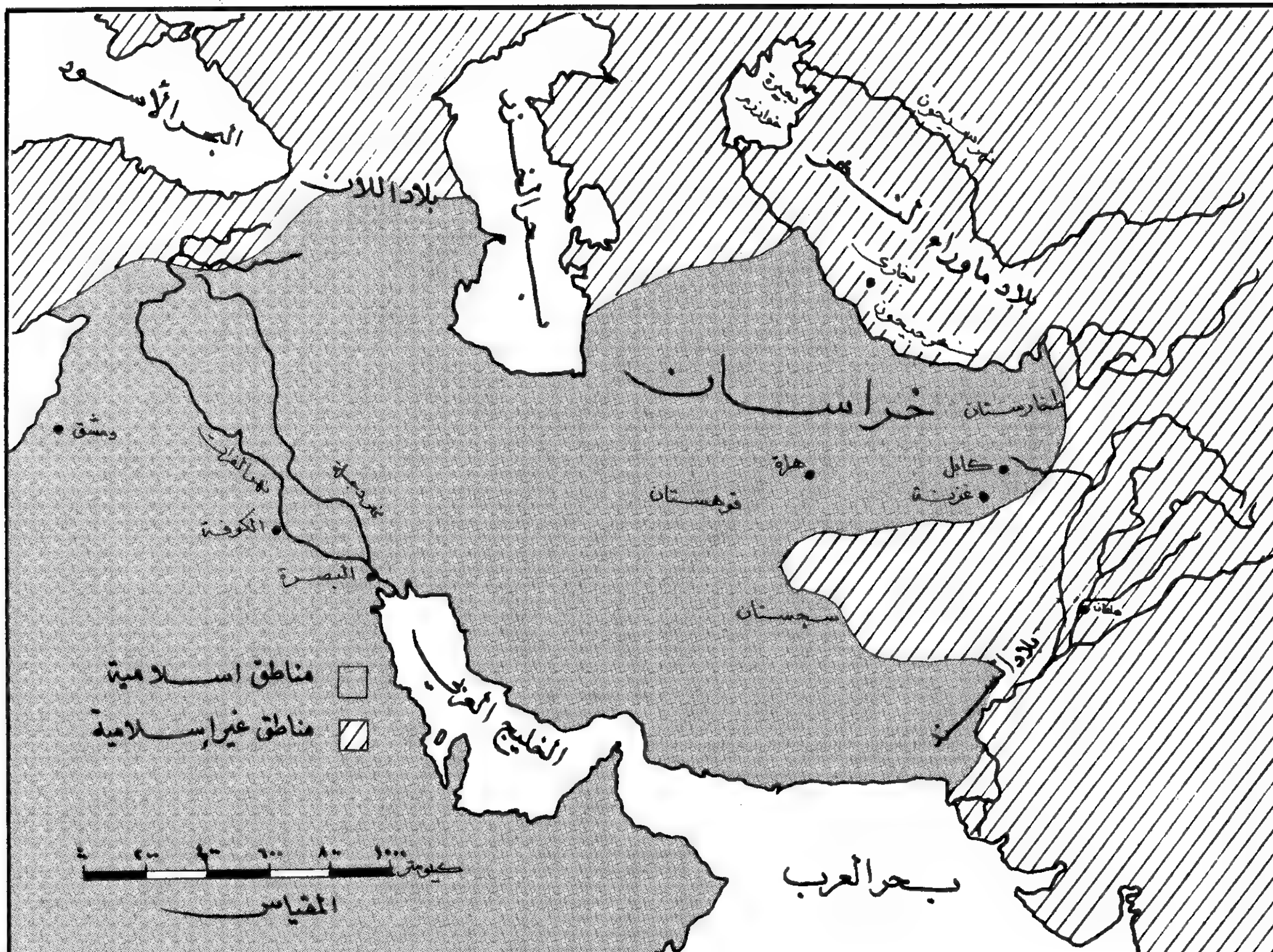
غزا المسلمون بلاد اللان عام ٤١ هـ، وفتحوا الرُّخّج وغيرها من بلاد سجستان عام ٤٣ هـ، ودخل الحكم بن عمرو الغفاري منطقة القيقان في طخارستان، وغنم غنائم كثيرة عام ٤٥ هـ، كما فتح المسلمون قوهستان، وفي عام ٥٥ هـ قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون ووصل إلى تلال بخارى.



الفتوحات أيام معاوية في افريقية
« ٤١-٦٠هـ »
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
الاسكندرية
الفسطاط
الصعيد
برقة
سرت
مصراتة
طرابلس
صبراتة
ودان
زويلة
فزان
كاوار
قفصة
قمونية
سوسة
قرطاجنة
بنزرت
السودان
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
المقياس
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠
١٠٠٠
كيلومتر

وغزا المسلمون عام ٤٤ هـ بلاد السند بإمرة المهلب بن أبي صفرة، كما غزوا جبال الغور عام ٤٧ هـ، وكان المهلب مع الحكم بن عمرو الغفاري.

وكان سكان المناطق الشرقية ينكثون بالعهد مرة بعد أخرى ويعود المسلمون لقتالهم ودخول أراضيهم لذلك نلاحظ أن مناطق تلك الجهات قد فتحت عدة مرات، واستمرت مدة من الزمن على هذه الحال حتى دانت نهائياً أيام الوليد بن عبد الملك.


البحر الأسود
بلاد اللان
بحر الخزر
بحيرة خوارزم
نهر سيحون
بلاد ما وراء النهر
بخارى
نهر جيحون
خراسان
طخارستان
كابل
غزنة
هراة
قوهستان
سجستان
ملتان
دمشق
نهر الفرات
نهر دجلة
الكوفة
البصرة
الخليج العربي
بحر العرب
مناطق اسلامية
مناطق غير إسلامية
كيلومتر
المقياس

الخوارج

وهم الذين أجبروا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على وقف القتال في صفين، ثم رفضوا التحكيم، حتى دبّ الخلاف في جيش علي، رضي الله عنه، ولما عاد الجيش إلى الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً، ولحقوا بقرية من قرى الكوفة تعرف باسم (حروراء) ومن هنا جاءت تسميتهم الحرورية، وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكري من بكر بن وائل، فناظرهم سيدنا علي، وعادوا فدخلوا جميعاً الكوفة، ولكنهم كانوا يرددون (لا حكم إلا الله) وهي الكلمة التي قالها عروة بن أدية أحد هؤلاء الخوارج للأشعث الكندي عندما كان يقرأ صحيفة التحكيم إثر صفين.

ولما حدث التحكيم ورفضه علي وأصحابه، طالب الخوارج علياً بقبوله، وقالوا: دعوت له فلما حكم عليك رفضته، فاجتمع أربعة آلاف منهم واتجهوا نحو المدائن، وقد أمّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، وقتلوا عامل علي عليها، وهو عبد الله بن خباب، فاضطر علي إلى السير إليهم، وترك الحركة نحو الشام التي أزمع الاتجاه نحوها وقتال أهلها. وحاول علي أن يثنيهم عن مقالتهم ويردّهم إلى صفه فكانوا يقتلون رسله، ويتهمونه بالكفر الأمر الذي اضطره إلى قتالهم في (النهروان) فقتل عبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير السعدي وغيرهما من القادة، ولم ينج من الخوارج يومذاك سوى عشرة وأبيد الباقون. ثم كان مقتل علي على يد أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم، وأصيب معاوية بجرح، ونجا عمرو بن العاص إذ لم يحضر صلاة فجر ذلك اليوم لمرض

ألم به، وأناب قاضيه خارجة بن حذافة فكان مصرعه وذلك أن الخوارج قد تعاهد ثلاثة منهم على قتل علي، ومعاوية، وعمرو حيث عدّوهم سبب ما نزل بالأمة.

واعتزل خمسمائة من الخوارج في (شهر زور) أيام علي، فلما قتل علي، وتنازل الحسن لمعاوية خرجوا «قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النُّخيلة، فقالت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بشهر زور مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندي حتى تكفّوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم! ما تبغون منا! أليس معاوية عدونا وعدوكم! دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أُصبنا كنتم قد كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهروان، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. وأخذت (أشجع) صاحبهم فروة بن نوفل - وكان سيد القوم - واستعملوا عليهم عبد الله بن أبي الحر - رجلاً من طيء - فقاتلوهم فقتلوا»[1].

وفي عام ٤٢ هـ خرج حيان بن ظبيان السلمي، وكان أحد قادة الخوارج الذين نجوا في النهروان، وبرئت جراحهم، فخرج بعد شهر من معركة النهروان واتجه إلى الري[2] مع من يرى رأيه، وكان علي، رضي الله عنه، قد عفا عنهم وعددهم أربعمائة رجل، ولم يزالوا هناك حتى بلغهم مقتل علي، رضي الله عنه، فلما كان ذلك دعا حيان بن

---

(١) تاريخ الطبري ٥ ص١٦٥ - ١٦٦.

(٢) الري: موقع طهران اليوم أو على مقربة منها.

ظبيان أصحابه أولئك ـ وكانوا بضعة عشر رجلاً ـ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الإخوان من المسلمين، إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مراد قد قعد لقتل علي بن أبي طالب عند أغباش الصبح مقابل السدة التي في المسجد، مسجد الجماعة، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة، صلاة الصبح، فشدّ عليه، فضرب رأسه بالسيف، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات فقال سالم بن ربيعة العبسي: لا يقطع الله يميناً علت قذاله بالسيف، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله، رضي الله عنه، ولا رضي عنهم ولا رحمهم! ثم قال حيان لأصحابه: إنه والله ما يبقى على الدهر باق، وما تلبث الليالي والأيام والسنون والشهور على ابن آدم حتى تذيقه الموت، فيفارق الإخوان الصالحين، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة، ولم تزل ضارّة لمن كانت له هماً وشجناً، فانصرفوا بنا ـ رحمكم الله ـ إلى مصرنا، فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا في القعود، وولاتنا ظلمة، وسنة الهدى متروكة، وثأرنا من الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم، ويشفي الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن في مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة. فقالوا: كلنا قائل ما ذكرت، وحامد رأيك الذي رأيت، فرِد بنا المصر فإنا معك راضون بهداك وأمرك، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة.

وأقبلوا حتى نزلوا الكوفة، فلم يزالوا بها حتى قدم معاوية، وبعث المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحب العافية، وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى فيقال له: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج. وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون. فأمنه

الناس، وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضاً، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر.

وفزع الخوارج إلى ثلاثة نفر منهم: المستورد بن عُلّفة التيمي من تيم الرباب، وإلى حيان بن ظبيان السلمي، وإلى معاذ بن جوين بن حصين الطائي السنبسي - وهو ابن عم زيد بن حصين، وكان زيد ممن قتله علي، رضي الله عنه، يوم النهروان، وكان معاذ بن جوين هذا في الأربعمائة الذين ارتُثُّوا من قتل الخوارج، فعفا عنهم علي، رضي الله عنه، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان السلمي، فتشاوروا فيمن يولون عليهم. فقال لهم المستورد: يا أيها المسلمون والمؤمنون، أراكم الله ما تحبون، وعزل عنكم ما تكرهون، ولّوا عليكم من أحببتم، فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ما أبالي من كان الوالي عليّ منكم! وما شرف الدنيا يزيد، وما إلى البقاء فيها من سبيل، وما نريد إلا الخلود في دار الخلود. فقال حيان بن ظبيان: أما أنا فلا حاجة لي فيها، وأنابك وبكل امرئ من إخواني راضٍ، فانظروا من شئتم منكم فسمّوه، فأنا أول من يبايعه. فقال لهم معاذ بن جوين بن حصين: إذا قلتما أنتما هذا، وأنما سيدا المسلمين، وذوا أنسابهم في صلاحكما ودينكما وقدركما، فمن يرئس المسلمين، وليس كلكم يصلح لهذا الأمر! وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل أبصرهم بالحرب، وأفقههم في الدين، وأشدهم اضطلاعاً بما حُمّل، وأنتما بحمد الله ممن يرضى بهذا الأمر، فليتوله أحدكما. قالا: فتوله أنت، فقد رضيناك، فأنت والحمد لله الكامل في دينك ورأيك، فقال لهما: أنتما أسن مني، فليتوله أحدكما، فقال حينئذٍ جماعة من حضرهما من الخوارج: قد رضينا بكم أيها الثلاثة، فولوا أيكم أحببتم، فليس في الثلاثة رجل إلا قال لصاحبه: تولّها أنت، فإني بك راضٍ، وإني فيها غير ذي رغبة. فلما كثر ذلك بينهم قال

حيان بن ظبيان: فإن معاذ بن جوين قال: إني لا ألي عليكما، وأنتما أسن مني، وأنا أقول لك مثل ما قال لي ولك، لا ألي عليك، وأنت أسن مني، ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، ثم بايعه معاذ بن جوين، ثم بايعه القوم جميعاً، وذلك في جمادى الآخرة. فاتعد القوم أن يتجهزوا، ويتيسروا، ويستعدّوا، ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ثلاث وأربعين، فكانوا في جهازهم وعدتهم.

وصل أمر الخوارج إلى المغيرة بن شعبة، وأنهم قد اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان استعداداً للخروج، فأرسل إليهم شرطته، فأتوا بهم إليه، فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين؟ فقالوا: ما أردنا من ذلك شيئاً، قال: بلى، قد بلغني ذلك عنكم، ثم قد صدق ذلك عند جماعتكم، قالوا له: أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا القرآن. فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه. فقال: اذهبوا بهم إلى السجن، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة، وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا. وخرج صاحبهم المستورد بن عُلّفة فنزل داراً بالحيرة، وكان أصحابه يتخلفون عليه ويتهجرون، فلما كثر اختلاف أصحابه عليه قال لهم صاحبهم المستورد بن عُلّفة التيمي: تحوّلوا بنا عن هذا المكان، فإني لا آمن أن يُطّلع عليكم.

ووصل الخبر إلى المغيرة بن شعبة فتكلم فيهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد، فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية، وأكفّ عنكم الأذى، وأني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سوء لسفهائكم، فأما الحلماء الأتقياء فلا، وأيم الله لقد خشيت ألا أجد بُدّاً من أن يُعصَب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل، فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم. وقد ذكر لي أن رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن

بعدهم. فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم، فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار.

ثم بعث المغيرة بن شعبة إلى رؤساء الناس فدعاهم ثم قال لهم: إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم، وقد قلت ما قد سمعتم، فليكفني كل امرئٍ من الرؤساء قومه، وإلا فالذي لا إله غيره لأتحوّلن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعما تحبون إلى ما تكرهون، فلا يلم لائم إلا نفسه، وقد أعذر من أنذر. فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلّوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة، أو يفارق جماعة.

ووصل الخبر إلى رأس الخوارج المستورد بن عُلّفة، وكان قد نزل في منزل أحد رجال بني عبد قيس فارتحل عنه، وعلم المغيرة بما تمّ فأرسل إليهم معقل بن قيس الرياحي في ثلاثة آلاف رجل، ولكنهم انطلقوا ليجدوا تعباً في اقتفاء أثرهم وعندها يقاتلهم الخوارج، وعرف معقل بن قيس خطة الخوارج هذه فأرسل طليعة له مؤلفة من ثلاثمائة فارس فلحقت بهم فاقتتلوا، فلم تثبت هذه الطليعة أمام الخوارج مع العلم أن كلا الفئتين يبلغ عددها ثلاثمائة فارس، وذلك في أرض المذار إلى الشمال من البصرة وفي منطقتها، وهذا ما دعا واليها عبد الله بن عامر أن يرسل في أثرهم ثلاثة آلافٍ آخرين. فلما رأى الخوارج كثرة الطلب عليهم ولّوا وجههم شطر الكوفة ليقاتلوا معقل بن قيس ومن معه وحدهم بعيدين عن جند البصرة، فلحقهم أهل الكوفة حتى أدركوهم، وقاتلوهم فلم ينج منهم إلا خمسة أو ستة، وقُتل زعيمهم المستورد بن عُلّفة، كما قُتل معقل بن قيس الرياحي، قتل كل صاحبه في المبارزة، وخفّ بعد ذلك أثر الخوارج.

ولما ولي زياد بن أبيه أمر البصرة خافه الخوارج فخرج أحدهم وهو سهم بن غالب الهجيمي، وثار في الأهواز فأحدث فتنةً، ثم رجع واختفى، وطلب الأمان فلم يؤمنه زياد، وإنما قتله وصلبه وذلك عام ٤٦ هـ، وفي

الوقت نفسه خرج أيضاً الخطيم، وهو يزيد بن مالك الباهلي، فسيره زياد إلى البحرين، ثم أذن له فقدم، وقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو: اضمنه، فأبى وقال: إن بات بعيداً عن بيته أعلمتك. ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة في بيته، فأمر به فقتل، وألقي في باهلة.

وفي سنة ٥٠ خرج اثنان أيضاً من الخوارج في البصرة وهما: زحّافِ الطائي، وقريب الأيادي، ومعهما سبعون رجلًا، ولكنهما قتلا وأصحابهما، وكان زياد شديداً على الخوارج، وكان يولي البصرة سمرة بن جندب، ويأمره بالشدة عليهم أيضاً، حتى قتل منهم عدداً كبيراً.

واشتد عبيد الله بن زياد والي البصرة على الخوارج، فسجن منهم الكثير، وقتل أكثر، وكان ممن قتلهم عروة بن أدية، ومرداس بن أدية أخو عروة، فالأول كان قد زجره وحاول وعظه، أما الثاني وهو مرداس، أبو بلال فقد خرج في الأهواز بعد أن كان سجيناً في سجن ابن زياد بالبصرة، ونجا هو على حين هلك أصحابه، واجتمع بالأهواز حول مرداس هذا أربعون رجلًا، فأرسل لهم ابن زياد جيشاً قوامه ألفا رجل، عليهم ابن حصن التميمي، فانتصر الخوارج عليهم في معركة دارت بآسك فقال قائلهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم	ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك ما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة كما علمتم	على الفئة الكثيرة ينصرونا

كان الخوارج بدواً أجلافاً يُظهرون شدّةً في الإيمان، لا يقتنعون إلا بما في رؤوسهم، ولا يمكن تغيير ذلك بسهولة، ويرون أن المسلمين قد أحدثوا الكثير، فيرمون عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب بالأخطاء بل بالكفر، ويرون أن الناس قسمان: مؤمن، وكافر وليس هناك غير ذلك، لذا عدّوا كل من لا يرى رأيهم من المسلمين كافراً عليه التوبة والتبرؤ مما

أحدثه عثمان، وعلي، رضي الله عنهما. وقد لقي المسلمون منهم الويلات الكثيرة إذ كانوا يستبيحون دم المسلمين، ويقاتلون بضراوة وتضحية، ويعتقدون في ذلك استشهاداً لذلك فقد أبلوا في معاركهم البلاء الكثير. وكانت عبادتهم نموذجاً في الخشوع والإطالة، وتروى الروايات الكثيرة في ذلك، وشعرهم يطفح بالشجاعة والإقدام.

بَيعَـة يَـزيْد

شعر معاوية بالضعف، وأحس بالتعب بعدما عانى في الإمارة والخلافة الشيء الكثير، ورأى الموت يقترب منه، وهو غاية كل حي، ونظر إلى الدولة وقد توحدت أركانها، واتفق ساكنوها، بعد الذي بذله، وخشي أن تعود أشتاتاً بسبب الحكم والعمل على تسلم السلطة.

ورأى أن العهد بالخلافة أفضل من ترك الأمر على غاربه يختار المسلمون الذي يرونه ولربما يكون هذا هو الأفضل عندما يكون الناس كلهم كالصحابة ولكن أنى لهم في هذا الوقت الذي اختلف فيه أكثرهم، وتصادموا وتقاتلوا، ونظر فرأى أن أبا بكر قد عهد لعمر فسارت المياه في مجاريها بشكل طبيعي، ولكن عندما لم يُعهد حدثت فتن أو كادت أيام بيعة عثمان، وعلي، لذا قرر أن يعهد بالخلافة.

ونظر إلى مقر الخلافة فوجد أن الشام أكثر الأماكن صلاحاً فيجب أن يبقى مركز الحكم فيها، إذ أن أهلها كلهم على رأي واحد، وهي أقرب البقاع إلى منطقة الثغور، وفيها بطانته، ومنها قوته فيستطيع أن ينفذ الخليفة الجديد أوامره بكل يسرٍ وسهولة، أما العراق فهي مركز الفوضى، ويُحكم أهلها بالقوة والسلطان، وأما مصر فيمكن أن يسيطر عليها سيطرة تامة أي إنسان يحمل لقب الحاكم أو الأمير، على حين أن أهل الشام لا يحكمهم إلا الدهاء وإظهار الكياسة والتقرب إليهم، أما المدينة فهي مركز الثقل، وفيها بقية الصحابة وأبناؤهم، ومنها تؤخذ البيعة، ومنها يكتسب الخليفة السلطة الشرعية فمن أيدته لقي الدعم، ومن رفضته وجد العناء والتعب والمقاومة إلا أن اختلاف الصحابة وأبنائهم يؤثر على وحدة الأمة واجتماع

كلمتها لذا فالأولى أن تؤخذ البيعة من المدينة، ولا يترك لأهلها الأمر فلربما وقع الخلاف وحدث ما قد سبق أن حدث وهو أمر صعب بين الصحابة أو بين أبنائهم، والأمر أخفّ على المجتمع فيما لو وقع بين غيرهم، لذا قرر أن يكون الخليفة من الشام، وبها.

ونظر إلى أهل الشام فغلبت عليه عاطفة الأبوة وبخاصة أن يزيد وحيد إذ أن أخاه عبد الرحمن قد مات صغيراً، وأن أخاه عبد الله كان أحمق، ولربما زيّن له بعض الناس ذلك من قبل فسار هواه في هذا الاتجاه تحت تأثير عاطفة الأبوة، وهذا ما تشير إليه كتب التاريخ من تزيين المغيرة بن شعبة له بذلك على حين توفي المغيرة في سنة ٤٩ هـ، وعلى كل فقد وافق على ذلك، ويزيد شاب مدلل نشأ في بيت الإمارة والخلافة وحيداً، تنقصه الخبرة الاجتماعية، وإن كانت رغبة والده في أن يزيده منها فسيّره كما رأينا على رأس الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية، ولكن لم يكتسب في ذلك الخبرة الكافية على الرغم من وجود بعض الصحابة في ذلك الجيش، وأبناء الصحابة، ولكن هذا التصميم من قبل الخليفة لا بدَّ للحصول على البيعة من موافقة أهل المدينة وما عداهم فالأمر ميسور يكتفي بموافقة ولاة العراق ومصر، والشام أمرها مضمون.

وفي سنة ستٍّ وخمسين دعا معاوية لبيعة ابنه، فبايعه أهل الشام، وكتب إلى مروان بن الحكم واليه على المدينة ليأخذ البيعة من أهل المدينة فوجد معارضة، فسار معاوية معتمراً، فلما اجتاز المدينة بعد عودته من مكة، ودعا بكتابٍ فقرأه على الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت فيزيد ولي عهده، فاستوسق له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفر هم: الحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، فكلمهم معاوية جميعاً فكل يقول له: إن اجتمعت الأمة على أحد بعدك بايعت إن لم يبق غيري.

وفي عام ٦٠ هـ وفد عبيد الله بن زياد من البصرة إلى الشام ومعه وفد فأخذ معاوية البيعة ليزيد منهم، ولما مرض معاوية دعا ابنه يزيد فقال له: يا

بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي أستتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس.

ولما حضرت معاوية الوفاة في منتصف رجب من سنة ستين ـ وكان يزيد غائباً، دعا بالضحاك بن قيس الفهري ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المري فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتي، انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إليّ من أن تُشْهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا أصبته فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير.

وتوفي معاوية، وصلى عليه الضحاك بن قيس، وكان يزيد بحوارين، فأقبل وقد دفن أبوه، فأتى قبره فصلى عليه، ودعا له، وقد دفن بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير.

توفي معاوية، رضي الله عنه، وكان صحابياً جليلاً يكفي ما ذكرناه من أحاديث في فضله، وإن كنا نرى أنه قد أخطأ في اجتهاده في خروجه على الخليفة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وفي بيعته لابنه يزيد، ومع ذلك يؤجر على اجتهاديه هذين.

ومعاوية أول من خطب الناس قاعداً، وأول من أحدث الخطبة قبل الصلاة في العيد، وأول من أحدث الأذان في العيد، وأول من نقص التكبير، وأول من قيل له السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله، وأول من وضع البريد في الإسلام، وأول من

اتخذ ديوان الخاتم، وأول من اتخذ المقصورة بالجامع، وأول من أذن في تجريد الكعبة، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها شيئاً فوق شيء، وأول من استحلف في البيعة.

ولما مات معاوية خرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر، وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب، وحد العرب، قطع الله عز وجل به الفتنة، وملكه على العباد، وفتح به البلاد، إلا أنه قد مات، فهذه أكفانه، فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومخلّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى.

- ٢ -

يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٤ هـ .

حياته

ولد يزيد سنة ست وعشرين للهجرة في خلافة سيدنا عثمان بن عفان، وكان أبوه أميراً على الشام فنشأ في بيت الإمارة على شيء من الدلال وخاصة أنه كان ـ كما ذكرنا ـ الوحيد بين إخوته إذ توفي أخوه عبد الرحمن صغيراً، أما أخوه الثاني وهو عبد الله فكان على شيء من الحمق. وعندما شب يزيد انصرف إلى اللهو والصيد، واستمر على ذلك، أما ما ينعت به من غير ذلك فهو بعيد الوقوع. ولم يكن على صلة بالحياة الاجتماعية التي تجعله بين القادة والأمراء ورجال الحكم وإنما كان منصرفاً إلى ما هو عليه، ولما صار له من العمر أربع وعشرون سنة أحب أبوه أن يثنيه عما هو عليه فاختاره أميراً للجيش الذي يتجه إلى غزو القسطنطينية فسار مكرها، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرته الأولى حتى كان عام ثلاث وخمسين إذ أراد معاوية أن يبايع له فكتب إلى زياد بن أبيه يستشيره في ذلك، فبعث زياد إلى عبيد بن كعب النمري يأخذ رأيه في الموضوع، وقال له: إن أمير المؤمنين كتب إلي يزعم أنه قد عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجو مطابقتهم، ويستشيرني، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فالق أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: رويدك بالأمر، فأقمن لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت. وقال عبيد له: أفلا غير هذا! قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سراً من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وإنك تخوّف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ما تريد، فتكون نصحت

يزيد، وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغش وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ، قال: تقول بما ترى، ويقضي الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك، وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية، وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[١].

وكان مكانه المفضل بلدة حوارين من قرى حمص، إلى الشمال الشرقي من دمشق، وهي موقع بلدة القريتين اليوم.

---

(١) الطبري الجزء الخامس.

أسْرَتُهُ

تزوج يزيد أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأنجبت له:

١ ـ معاوية بن يزيد: ويكنى أبا عبد الرحمن، كما يعرف باسم أبي ليلى، وقد بويع بعد أبيه.

٢ ـ خالد بن يزيد: ويكنى أبا هاشم وقد انصرف إلى عمل الكيمياء.

٣ ـ أبو سفيان بن يزيد:

وبعد وفاة يزيد تزوج أم هاشم مروان بن الحكم.

وتزوج أيضاً يزيد أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر فأنجبت له عبد الله بن يزيد ويعرف بلقب «الأسوار».

وكان له عدد من الأولاد من أمهات أولاد كثيرة ومن أبنائه هؤلاء: عبد الله الأصغر، وأبو بكر، وعمر، وعتبة، وعبد الرحمن، وحرب، والربيع، ومحمد، ويبدو أن لمحمد هذا الأخير عقب لا يزال موجوداً حتى الآن في شبه جزيرة العرب في المنطقة المعروفة باسم عسير، إذ فرّ أحد أحفاده إلى هذه البقعة عند قيام الدولة العباسية وملاحقة الأمويين، واستطاع بعد مدة تأسيس إمارة بسطت نفوذها على المنطقة، واستمرت في أمرها حتى العصر الحديث، وكان منها آل عائض بن مرعي الذين كان لهم حكم المنطقة قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على أكثر الجزيرة.

خلافته

رشح سيدنا معاوية ابنه يزيد للخلافة، وعهد إليه، وأخذ موافقة الأمصار على ذلك عدا رجالات بالمدينة، ينظر إليهم لذاك المنصب، ويحسب لهم حساباً كبيراً في الدولة الإسلامية كلها، فقد رفضوا هذا الترشيح، وأظهروا أن هذا لم يكن من الإسلام. وولاية العهد هي ترشيح لمنصب، ولا يمكن أن تكون بيعة لاثنين في وقت واحد الخليفة وولي عهده، فإذا مات الخليفة أخذت البيعة من جديد لمن رشحه الخليفة السابق أو رفضت تلك البيعة ورفض الترشيح معها، وعهد لآخر، وأخذت له البيعة، فلا بدّ إذن من بيعة جديدة لأنه الترشيح الأول يكون قد حصل عليه بالإكراه والضغط بصفة المنصب الذي يحتله من أعطى الترشيح وجعله ولياً للعهد، وهذا تقريباً ما تمّ أيام سيدنا معاوية. فلما مات الخليفة بايعت الأمصار من جديد يزيد، عدا النفر الأربعة الذين ذكرنا من أبناء الصحابة، رضوان الله عنهم، وهم: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وتعدّ البيعة ليزيد قد انعقدت ما دامت الأمصار قد وافقت على ذلك وولاتها، وإن بقي عدد من الرجال لم يبايع، فبيعة علي بن أبي طالب صحيحة على الرغم من عدم مبايعته من قبل سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وأسامة بن زيد وعدد آخر. وعلى هذا فقد أصبح يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين.

وكان همّ يزيد، وشغله الشاغل الحصول على البيعة من المدينة وخاصة من هؤلاء لما لهم من مكانة بين المسلمين، ولو تركهم لكان خيراً، فالبيعة صحيحة، وتسير الأمور بشكل طبيعي، ولكن سوّلت له نفسه

متابعتهم وأخذها منهم بأية صورة من الصور، ولربما كان ذلك ليقوّي مركزه بين المسلمين، كما يتصور ذلك، أو خوفاً من منازعة أحدهم له، فكتب إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بعد موت معاوية، وقبل وصول الخبر:

بسم الله الرحمن الرحيم. من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد، فإن معاوية كان عبداً من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه، وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محموداً، ومات براً تقياً والسلام.

وكتب إليه في صحيفة صغيرة ثانية:

أما بعد، فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام.

دعا الوليد الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، فحضر الحسين وعندما جلس أقرأه الوليد كتاب يزيد، ونعى له معاوية، ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين! إنا لله وإنا إليه راجعون! ورحم الله معاوية، وعظّم لك الأجر! أما ما سألتني عن البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سراً، ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن نظهرها على رؤوس الناس علانية؛ قال: أجل، قال: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد: فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس.

أما عبد الله بن الزبير فقال: آتيكم، ثم تأخر فكثرت عليه الرسل، فغادر المدينة إلى مكة، وبعد يوم تبعه الحسين، ولم ينصرم شهر رجب بعد، وكان خروج الحسين مع أكثر أهل بيته: بنيه، وإخوته، عدا محمد بن الحنفية فقد بقي، ونصح أخاه. وإخوته وأبناءهم.

وبايع عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس بعد أن بايعت الأمصار.

ثم عزل يزيد أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وجعل مكانه

والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، فأرسل جيشاً بإمرة عمرو بن الزبير إلى مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير، ولكن الجيش هزم، وقتل منه أنيس بن عمرو الأسلمي، وأخذ عمرو بن الزبير أسيراً فسجن في سجن أخيه، وهكذا فقد تمت خلافة يزيد ولم يخرج عنها سوى الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وكانت إقامتهما في مكة بصفتها حرماً آمناً.

الولايات

كانت ولايات الحجاز والعراق مسرح الأحداث التي وقعت في أيام يزيد بن معاوية، أما باقي الولايات فكانت عادية لم يحدث فيها ما يعكر الصفو، وحدثت فتوحات في إفريقية فقط، أما باقي الجبهات فقد هدأت حركة الجهاد فيها بسبب الأحداث الداخلية التي تمت.

المدينة: كان أهل المدينة غير راضين على بني أمية عامةً وعلى بيعة يزيد خاصةً، وما أعطوها إلا كرهاً وتجنبا للفتن، وينتظرون الساعة التي ينقضّون فيها على الأمويين وقد تولى أمرها منذ أيام معاوية الأخيرة ابن أخيه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ولما لم يستطع أخذ البيعة ليزيد من الحسين وابن الزبير فقد عُزل، وأعطيت لوالي مكة عمرو بن سعيد بن العاص الذي جمع المنطقتين إليه. ثم عاد الوليد بن عتبة عام ٦١ هـ فتولى أمر مكة والمدينة، ثم أخذت منه المدينة، وأعطيت لابن عمه عثمان بن محمد بن أبي سفيان عام ٦٢ هـ، وهو الذي ثار عليه أهل المدينة، وولّوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل حتى جاء مسلم بن عقبة المري، وعندما خرج إلى مكة ولّى عليها روح بن زنباع، وتوفي يزيد وجيش الشام في مكة.

مكة: كان أهل مكة مثل أهل المدينة لا يرغبون في يزيد، وينظرون إلى أحد أبناء الصحابة ليكون على أمر المسلمين، وخاصة الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، ولكنهم قد سكتوا بعد بيعة ابن عمر، وابن عباس، ولكون مدينتهم بلداً حرماً آمناً لا يريدون أن يحدثوا فيه فتنة، ولأنه لم يدعهم إلى البيعة أحد هؤلاء

الأقطاب الذين لهم مكانتهم في أمصار الدولة كافة، وكان على مكة عمرو بن سعيد بن العاص، ثم أعقبه الوليد بن عتبة مدة عهد يزيد بن معاوية. ولما رفض ابن الزبير البيعة ليزيد جاء جند من المدينة بإمرة أخيه عمرو بن الزبير إلا أنهم هزموا، وسجن عمرو بن الزبير في سجن أخيه. ثم جاء جيش الشام بإمرة الحصين بن نمير بعد موت مسلم بن عقبة المري، وحاصر مكة إلا أن وفاة يزيد جعلته يفك الحصار عنها، ويعود إلى الشام.

الكوفة: وكان أهل الكوفة غير راضيين أيضاً على بني أمية، وهواهم مع أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ولكنهم يخضعون بالشدة ويخنعون، ويحبون الفتنة ويسعون لها فإذا جاءتهم تفرقوا، وخذلوا من كانوا يدعون له ويدعونه، وبذا تختلف عن المدينتين السابقتين، كما تختلف عنهما في أنها تضم أشتاتاً من البشر، ومعظمهم من الجند الذين انطلقوا إليها للفتوحات ثم استقروا، وبذا فهي تضم معظم القبائل العربية وخاصة اليمنية، والطائية، والتميمية، وعبد قيس وغيرها.

وكان عليها النعمان بن بشير، رضي الله عنهما، عندما توفي معاوية، واستمر فيها أيام يزيد، فلما نزلها مسلم بن عقيل من قبل الحسين بن علي، وبدأ الناس يبايعونه، ووصل الخبر إلى يزيد عزل النعمان بن بشير عن الكوفة لسكوته عن ذلك، وأسند أمرها إلى عبيد الله بن زياد لقسوته وبطشه، وقد احتاج إليه، وقبل ذلك كان يريد أن يعزله عن البصرة، أما وقد احتاج إلى شدته فقد أضاف إليه الكوفة مع البصرة. وبقي عليهما حتى وفاة يزيد.

البصرة: وتشبه الكوفة إلى حدٍ ما، وإن كانت أقل رغبة في الفتنة، وفي مناطقها للخوارج دور، أما خراسان التي كانت تتبعها في الجهاد فقد كان عليها مسلم بن زياد. وتولى أمر البصرة عبيد الله بن زياد منذ عام ٥٥ هـ أيام معاوية بن أبي سفيان وحتى وفاة يزيد بن معاوية.

مصر: وهي هادئة تخضع لكل أمير، وكان عليها منذ عام ٥٥ هـ

مسلمة بن مخلّد، وقد أعطى أمر إفريقية إلى أبي المهاجر، وعزل عقبة بن نافع[1]، واستمر ذلك حتى توفي مسلمة بن مخلّد عام ٦٢ هـ، فقدم عقبة بن نافع بعشرة آلاف جندي من الشام والياً على إفريقية. أما مصر فقد أعطي أمرها إلى سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي.

إفريقية: سار عقبة بن نافع نحو الغرب ففتح بلاد المغرب كلها، ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، ففتح بلاد السوس الأدنى والمعروفة اليوم باسم سهول نهر سبو، ثم انطلق على سواحل المحيط الأطلسي جنوباً حتى وصل إلى بلاد السوس الأقصى، وقرر العودة عن طريق الأطلس الصحراوي إلى القيروان حيث الطريق أقصر وقد أمن العدو بعد انتصاراته الواسعة، وأثناء عودته وجد كميناً عند (تهوده) كان البربر قد نصبوا له كميناً هناك فاستشهد ومن معه، وقد أراد أن يبني هناك قاعدة تكون مثل القيروان، ويعرف اليوم ذلك المكان باسم سيدي عقبة بالقرب من بسكرة جنوب مدينة قسنطينة.

---

(١) **عقبة بن نافع بن عبد القيس**: الفهري القرشي: ولد في العام الأول للهجرة، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، وقد أرسله عمرو إلى برقة قائداً مستقلاً، فغزا غزوتين في البحر، وفتح مدينة زويلة من أعمال فزان، وكذلك عمل في بلاد النوبة. ثم أصبح والياً على إفريقية عام ٦٢هـ، واستشهد عام ٦٤هـ.

الأحـداث

بدأت الأحداث مع بدء خلافة يزيد الذي حرص على أخذ بيعة الحسين وابن الزبير، ولم يمهلهما، فاضطر ابن الزبير إلى السير إلى مكة ثم تبعه الحسين، وبدأت كتب أهل الكوفة تصل إلى الحسين، ورسلهم تتابع، وكلها تقول: إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي، فأقدم علينا، وكان النعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة. فبعث الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ابن عمه، إلى الكوفة وقال له: سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إليّ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم، فخرج مسلم ماراً على المدينة وقد اصطحب معه دليلين، فمرّا به في البرية، فأصابهم عطش، فمات أحد الدليلين، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين: أن امض إلى الكوفة. فقدمها ونزل على أحد أهلها، وبايعه أكثر من اثني عشر ألفاً، وشاع الخبر، وعُزل النعمان بن بشير عن الكوفة، وأُسند أمرها إلى والي البصرة عبيد الله بن زياد، وتحول مسلم من مكانه إلى دار هانئ بن عروة المرادي، وكتب إلى الحسين يدعوه إلى السير إلى الكوفة.

علم عبيد الله بن زياد بمكان مسلم فأرسل إلى هانئ بن عروة يستقدمه فجاء، فسأله عن مسلم فأنكر، ثم اعترف بعد أن حضر من رآهما معاً في منزله، وقال: أصلح الله الأمير! والله ما دعوته إلى منزلي، ولكنه جاء وطرح نفسه عليّ، قال: ائتني به؛ قال: والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه، فضربه عبيد الله وشجه، وسجنه في جانب القصر، وظنت مذحج أنه قتل هانئ فجاءت، فأخبروا أنه سجين فعادت. ووصل الخبر إلى مسلم فخرج، ونادى بشعاره، فتجمع عليه أربعة آلاف من أهل الكوفة

فعبأهم وقصد عبيد الله، وجمع عبيد الله إليه وجوه أهل الكوفة فكلموا عشائرهم المجتمعة حول مسلم، والمحيطة بالقصر، فبدأ أصحاب مسلم يتفرقون عنه حتى بقي في خمسمائة فلما أرخى الليل سدله ذهب الباقون وبقي وحده، فبدأ يتردد في الطريق حتى دخل منزلاً، ولكن لم يلبث أن اكتشف أمره، فأرسل إليه عبيد الله صاحب شرطته مع سبعين رجلًا، ولما رأى مسلم أنه قد أحيط به خرج إلى طلبه، وقاتلهم بسيفه فأعطي الأمان وساروا به إلى القصر، فأمر به فأصعد إلى القصر فضربت عنقه، وألقيت جثته إلى الناس، كما قتل هانئ بن عروة المرادي، وأرسل رأساهما إلى يزيد.

وكان خروج مسلم في الكوفة يوم ٦ ذي الحجة سنة ستين للهجرة، بعد أن خرج الحسين من مكة إلى الكوفة بيوم واحد.

خرج الحسين من مكة باتجاه الكوفة، وقد نصحه كثير ممن يحبه في عدم الخروج مما يدل على أن ذاك الخروج كان فيه سرعة، ولكن الحسين مجتهد، وأمر الله لا بدّ آت. وهذه السرعة تبدو من عدة جوانب سواءً من حيث أصل الخروج أم من ناحية أخذ الاستعداد اللازم، ثم من ناحية الاطمئنان إلى أهل الكوفة وقد عرفهم مع أخيه ومع أبيه من قبل، ثم من ناحية الخروج على الحاكم، وكل هذا يبدو في كلام الناصحين له، ولنستمع إلى بعض هذه النصائح وقد كانت كثيرة فقد قال له أخوه محمد بن الحنفية يوم خرج من المدينة إلى مكة: «يا أخي أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك، تنح بتبعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك، ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتي جماعة من الناس، فيختلفون بينهم، فمنهم طائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإن خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً

أضيعها دماً وأذلها أهلاً، فقال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي، قال: فانزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك، وإن نبت بك لحقت بالرمال، وشعف الجبال، وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر ما يصير أمر الناس، وتعرف عند ذلك الرأي، فإنك أصوب ما تكون رأياً وأحزمه عملاً حين تستقبل الأمور استقبالاً، ولا تكون عليك الأمور أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً، قال: يا أخي، قد نصحت فأشفقت، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفقاً[(١)].

وعندما همّ الحسين، رضي الله عنه، بالرحيل إلى العراق جاءه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فقال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد، فإني أتيتك يا ابن عم لحاجة، ذكرها لك نصيحة، فإن كنت ترى أنك تستنصحني وإلا كففت عما أريد أن أقول؛ فقال: قل، فوالله ما أظنك بسيء الرأي، ولا هو للقبيح من الأمر والفعل؛ قال: قلت له: إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق، وإني مشفق عليك من مسيرك، إنك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه، ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه؛ فقال الحسين: جزاك الله خيراً يا ابن عم، فقد علمت والله أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومهما يقض من أمر يكن، أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير، وأنصح ناصح»[(٢)].

وجاءه عبد الله بن عباس فقال له: «يا ابن عم، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبيّن لي ما أنت صانع؟ قال: إني قد أجمعت المسير في أحد يوميّ هذين إن شاء الله تعالى، فقال له ابن عباس: فإني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني رحمك الله! أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم، وضبطوا بلادهم، ونفوا عدوهم؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) المصدر نفسه.

كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم، فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغزوك ويكذبوك، ويخالفوك. ويخذلوك، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك؛ فقال له الحسين: وإني أستخير الله وأنظر ما يكون»[1].

فلما كان من العشي أو من الغد، أتى الحسين عبد الله بن العباس فقال: يا ابن عم إني أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال؛ إن أهل العراق قوم غُدر، فلا تقربنّهم، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز؛ فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً، وهي أرض عريضة وطويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل، وتبث دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية؛ فقال له الحسين: يا ابن عم، إني والله لأعلم أنك ناصح مشفق، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير؛ فقال له ابن عباس: فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه[2].

وهؤلاء الناصحون هم من أصحاب الرأي والمعرفة، وقد كانوا صادقين في نصحهم وعلى صواب في رأيهم، قد اجتهد الحسين واجتهدوا، ويبدو فيما بعد أن اجتهادهم قد أصابوا فيه، وقد أخطأ رضي الله عنه في اجتهاده.

وأثناء خروجه من مكة لقي رجلاً من العراق، فقال له: أخبرني عن الناس خلفك؟ قال: القلوب معك، والسيوف مع بني أمية، والقضاء بيد الله.

وكتب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى الحسين مع ابنيه عون

---

(١) المصدر نفسه. (٢) المصدر السابق.

ومحمد (ابني عبد الله) أما بعد: فإني أسألك بالله لمّا انصرفت حتى تنظر في كتابي، فإني مشفق عليك من الوجه الذي توجّه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين، فلا تعجّل بالسير فإني في أثر الكتاب والسلام.

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص فكلمه. وقال: اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان، وتمنيه فيه البر والصلة، وتوثق له في كتابك، وتسأله الرجوع لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع. فقال عمرو بن سعيد: اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب، ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له: اختمه: وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد، فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه، ويعلم أنه الجد منك، ففعل؛ وكان عمرو بن سعيد عامل يزيد بن معاوية على مكة؛ قال: فلحقه يحيى وعبد الله بن جعفر، ثم انصرفا بعد أن أقرأه يحيى الكتاب، فقالا: اقرأناه الكتاب، وجهدنا به، وكان مما اعتذر به إلينا أن قال: رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ، وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له، عليّ كان أو ليّ، فقالا له: فما تلك الرؤيا؟ قال: ما حدثت أحداً بها، وما أنا محدث بها حتى ألقى ربي.

قال: وكان كتاب عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علي، أما بعد فإني أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، بلغني أنك توجهت إلى العراق، وإني أعيذك بالله من الشقاق، فإني أخاف عليك فيه الهلاك، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر، ويحيى بن سعيد، فأقبل إليّ معهما، فإن لك عندي الأمان، والصلة، والبر، وحسن الجوار لك، الله بذلك عليّ شهيد وكفيل، ومراع ووكيل؛ والسلام عليك.

قال: وكتب إليه الحسين: أما بعد: فإنه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عز وجل وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمّن الله يوم القيامة

من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنت نويت بالكتاب صلتي وبري فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة؛ والسلام.

أما عبد الله بن الزبير فقد أتاه، وتحدث معه ثم قال: ما أدري ما تركُنا هؤلاء القوم وكفُّنا عنهم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم! خبّرني ما تريد أن تصنع؟ فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، وقد كتب إليّ شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله، فقال له ابن الزبير: أما لو كان بي بها مثل شيعتك ما عدلت بها، قال: ثم إنه خشي أن يتهمه فقال: أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ها هنا ما خولف عليك إن شاء الله»[1].

هذه أقوال رجال زمانه، ومن يُنظر إليهم، ومن هم ثقة عند الأمة جميعها قد نصحوا له، وبيّنوا مغبة مسيره إلى العراق، ولكنه كان سائراً إلى أمر الله الذي لا بدّ له، فذهابه غلط، لما كان عليه العراق، ولما يحدث من فتنة ولم يتضح الأمر بعد، ولخروجه مع نسائه وأهل بيته وهو يعلم أنه قادم على قتال، ولخروجه على الحاكم. إلا أن حبنا له حيث كان آنذاك أفضل من على الأرض وحبنا لآل البيت جميعاً، ولبشاعة النكبة التي حلّت به وبمن معه جعلنا كل ذلك ننظر إلى النتائج دون النظر إلى الأسباب، هذا بالإضافة إلى ما كتبه قتلته الذين يدعون أنهم شيعة له، وصوروا المأساة وغالوا، فأدموا القلوب، ولم يبق من كتاباتٍ وصورٍ غيرها، وشاعت بين الناس، وأكثر الكتاب من ذكرها، مع أنه قد قتل أبوه وهو مبشر بالجنة وأفضل منه، ولم يذكر عن مقتله مثل هذا، ومن قبل قتل عثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنهما.

سار الحسين، رضي الله عنه، نحو الكوفة حتى إذا كان بينه وبين القادسية ثلاثة أميال، لقيه الحر بن يزيد التميمي، فقال له: أين تريد؟ قال:

---

(١) المصدر نفسه.

أريد هذا المصر، قال له: ارجع فإني لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه، فهمّ أن يرجع، كما نصحه عبد الله بن مطيع عندما التقى به في الطريق على ماء من مياه العرب، فلما رأى عبد الله الحسين قام إليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله! ما أقدمك! واحتمله فأنزله، فقال له الحسين: كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم، فقال له؛ عبد الله بن مطيع: اذكّرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك! أنشدك الله في حرمة رسول الله ﷺ! أنشدك الله في حرمة العرب! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك، وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل، ولا تأت الكوفة، ولا تعرّض لبني أمية، قال: فأبى إلا أن يمضي، وكان معه إخوة مسلم بن عقيل، فقالوا: والله لا نرجع حتى نصيب بأثرنا أو نقتل، فقال: لا خير في الحياة بعدكم! فسار فلقيته أوائل خيل عبيد الله بن زياد، فلما رأى ذلك عدل إلى كربلاء، وكان أصحابه خمسة وأربعين فارساً ومائة راجل، وكان على رأس جند عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص، ولم يمكن التفاهم بين الطرفين إذ أن أصحاب المصالح في جيش ابن زياد والغوغائيين قد نشبوا القتال فقاتل الحسين ومن معه قتالاً مستميتاً وقتال الأبطال الذين يندر أن يكونوا مثله، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة، فقتل الحسين وأصحابه كلهم، وفيهم بضعة عشر رجلاً من أهل بيته، وكان الذي تولى قتل الحسين، رضي الله عنه، شمر بن ذي الجوشن، وحُمل رأس الحسين إلى ابن زياد، وكذلك حرمه ونساؤه. فلما وضع الرأس بين يدي ابن زياد، جعل ينكت بقضيبه، ويقول: إن أبا عبد الله قد كان شمط، وأمر لنساء الحسين بمنزل في مكان منعزل، وأجرى عليهن رزقاً، وأمر لهن بنفقة وكسوة. قال: فانطلق غلامان منهم لعبد الله بن جعفر ـ أو ابن ابن جعفر ـ فأتيا رجلاً من طيء فلجآ إليه، فضرب أعناقهما، وجاء برؤوسهما حتى وضعهما بين يدي ابن زياد، قال: فهمّ بضرب عنقه، وأمر بداره فهدمت[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٩٣.

وكان مقتل الحسين، رضي الله عنه، في عاشوراء (العاشر من محرم) سنة ٦١ هـ. وحمل رأس الحسين، وسرحت نساؤه إلى يزيد بالشام، فلما وضع بين يديه بكى، وقال: لو كان بينه وبينه رحم ما فعل هذا[١]. وقد أكرم أهل الحسين ثم سرحهم إلى المدينة مع رفقة لهم حتى بلغوها.

ولما وصل خبر مقتل الحسين بن علي إلى الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس، وكان ذلك سبباً في عزل عمرو بن سعيد بن العاص عن الحجاز، وتولية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان مكانه، ثم لم يلبث أن عزله، وأمّر عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكثر الحديث في المدينة عن يزيد، فأرسل إليهم النعمان بن بشير يحذرهم الفتنة، ويذكرهم الطاعة، فأبوا عليه، ثم أعلنوا خلع يزيد، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان، والي يزيد، ثم حاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي الألف شخص.

أُخبر يزيد بالخبر فأرسل إليهم جيشاً عليه مسلم بن عقبة المري، وإن حدث عليه حدث فالأمير حصين بن نمير السكوني، وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش، والتقى ببني أمية بوادي القرى وقد أخرجهم أهل المدينة.

وصل مسلم بن عقبة المري إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام فأبوا إلا القتال، وكان عليهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان، وعبد الرحمن بن زهير بن عوف الزهري ابن أخ عبد الرحمن بن عوف. وكان مجيء مسلم عن طريق الحرة الشرقية، ووقعت الوقعة وكانت في أواخر ذي الحجة من سنة ثلاث وستين للهجرة، وقتل أكثر سادة أهل المدينة في هذه الوقعة.

ولما انتهى مسلم بن عقبة المري من المدينة اتجه بجنده نحو مكة يريد عبد الله بن الزبير، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي، ولم

---

(١) تاريخ الطبري ج٥ ص٣٩٣.

يقطع مسلم مسافة حتى نزل به الموت، فتولى أمر الجند بعده الحصين بن نمير السكوني حسب وصية يزيد بن معاوية فسار إلى مكة وقد بايع أهلها والحجاز كله عبد الله بن الزبير، فقاومه ابن الزبير وقُتل من أصحابه المسور ابن محزمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وأخوه المنذر بن الزبير، واستمر القتال بقية المحرم وصفر من سنة أربع وستين، وفي أوائل ربيع الأول قُذف البيت بالمنجنيق، وأحرق بالنار. ثم جاءهم نعي يزيد في مطلع ربيع الثاني، وقد توفي في ١٤ ربيع الأول.

توفي يزيد وأهل الشام يحاصرون أهل مكة وابن الزبير، ووصل الخبر إلى ابن الزبير قبل أن يصل إلى أهل الشام، فناداهم أهل مكة لماذا تقاتلون؟ لقد هلك يزيد، فلم يصدقوا منهم، واستمروا في قتالهم، فلما تأكدوا من النبأ توقفوا عن القتال.

بعث الحصين بن نمير إلى عبد الله بن الزبير، والتقى معه، وقال له: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة. ولكن ابن الزبير خشي من الذهاب إلى الشام، ولم يرغب في مغادرة مكة التي احتمى بها، وكان رأي الحصين أن هناك بالشام من يطالب بالخلافة فماذا يكون موقفه؟ أما إذا ذهب عبد الله بن الزبير فإنه لن يطالب فيها أحد لمكانة ابن الزبير أولاً ولعدم وجود أبناء كبار ليزيد أو أحد من أسرته يفكر في هذا الأمر.

ولما لم يتفق ابن الزبير والحصين بن نمير سار جيش الشام إلى بلدهم تاركين الحجاز مبايعاً لابن الزبير.

الخوارج

بعد أن هزم الخوارج جيش عبيد الله بن زياد بآسك أرسل لهم عباد بن الأخضر التميمي على رأس ثلاثة آلاف مقاتل فاستطاع أن يبيد الخوارج الذين كانوا بإمرة أبي بلال مرداس بن أدية، وذلك عام ٦١ هـ.

وبعد مقتل الحسين ثار أبو طالوت نجدة بن عامر الحنفي، وكان قد سار إلى البصرة مع نافع بن الأزرق، ثم خالفه، ورجع إلى نجد فاستولى عليها، واستقل بها. وأصبح وسط جزيرة العرب وشرقيها مسرح نشاط الخوارج.

عبدالله بن الزبير

رضي الله عنهما

٦٤ - ٧٣ هـ.

حياته

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. كان أبوه الزبير أحد السابقين في الإسلام، أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ، صفية بنت عبد المطلب، هاجر الهجرتين إلى الحبشة، وإلى المدينة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ، ثبت يوم أحد، وبايعه على الموت، وكانت مع الزبير إحدى رايات المهاجرين الثلاث في غزوة الفتح واشترك في الفتوحات، واخترق جيوش الروم يوم اليرموك ثلاث مرات، وذهب على رأس مدد لعمرو بن العاص أثناء فتح مصر، وخرج يوم الجمل مع عائشة، رضي الله عنها، ولحق به ابن جرموز إثر المعركة، وقتله غدراً بوادي السباع.

أما أمه فهي أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، أسلمت قديماً بمكة وبايعت رسول الله ﷺ، وهي ذات النطاقين، أخذت نطاقها فشقته اثنين فجعلت واحداً لسفرة رسول الله ﷺ والآخر عصاماً لقربته ليلة خرج رسول الله وأبو بكر إلى الغار، فسميت ذات النطاقين، وماتت عام ثلاثة وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله بمدة وجيزة، وهي آخر من مات من المهاجرات.

ولد عبد الله بن الزبير في قباء أول مقدمهم المدينة مهاجرين، وقد هاجرت أمه أسماء وهي حامل به فنزلت بقباء فولدته، ثم أتت به إلى رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول ما دخل في جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنّكه ودعا له وتبرك

عليه، وسماه عبد الله، وكناه بأبي بكر، فكان أول مولود ولد في الإسلام. وفرح المسلمون بولادته لأن يهود زعمت أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم في المدينة، فلما ولد ابن الزبير كبّر المسلمون، وأذّن الصديق في أذنه حين ولد، رضي الله عنهما، وطاف به في المدينة ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت يهود. وعندما ترعرع كلم رسول الله ﷺ في غلمة منهم عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعمر بن أبي مسلمة، فقيل يا رسول الله لو بايعتهم فتصيبهم بركتك، ويكون لهم ذكر، فأتي بهم إليه فكأنهم تكعكعوا واقتحم عبد الله بن الزبير فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «إنه ابن أبيه» وبايعه. وهو صحابي جليل، روى عن رسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثين حديثاً، وروى عن أبيه، وعمر، وعثمان.

شهد اليرموك مع أبيه وهو صغير، وحضر خطبة عمر بالجابية. دافع عن سيدنا عثمان يوم الدار، وجرح يومئذٍ بضع عشرة جراحة، وكان على الراجلة يوم الجمل، ومشى إلى الأشتر النخعي يومئذٍ فضربه الأشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً، وضرب عبد الله الأشتر ضربة خفيفة، واعتنق كل واحد منهما صاحبه، وخرّا إلى الأرض يعتركان، فقال: اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي، وجرح يومذاك تسع عشرة جراحة، ووجد بين القتلى وبه رمق، وقد أعطت عائشة، رضي الله عنها، لمن بشّرها بأنه لم يقتل عشرة آلاف درهم، وسجدت لله شكراً، فكانت تحبه حباً شديداً فهو ابن أختها، وكان عزيزاً عليها.

وقاتل البربر مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وقتل القائد البيزنطي (جرجير) في موقعة (سبيطلة) عام ٢٧ هـ. وقدم إلى دمشق لغزو القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما.

كان عارضا عبد الله بن الزبير خفيفين، وما اكتملت لحيته حتى بلغ الستين، وكان نحيفاً ذا أنفة. كثير السجود ولا ينازع في ثلاث: في العبادة، والشجاعة، والفصاحة. قال حماد بن زيد عن ثابت البناني قال: كنت أمر بعبد الله بن الزبير وهو يصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة لا

يتحرك. وقال الأعمش عن يحيى بن وثاب: كان ابن الزبير إذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط. وقال غيره: كان ابن الزبير يقوم ليلة حتى يصبح، ويركع ليلة حتى يصبح، ويسجد ليلة حتى يصبح. وسئل ابن عباس عن ابن الزبير فقال: كان قارئاً لكتاب الله، متبعاً لسنة رسول الله، قانتاً لله، صائماً في الهواجر من مخافة الله، ابن حواري رسول الله، وأمه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، زوجة رسول الله فلا يجهل حقه إلا من أعماه الله[١]. وكان صيتاً إذا خطب تجاوبه الجبلان: أبو قبيس، وزروراء، وكان آدم نحيفاً ليس بالطويل، وكان بين عينيه أثر السجود، كثير العبادة، مجتهداً، شهماً، فصيحاً، صوّاماً، قوّاماً، شديد البأس ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان خفيف اللحية ليس في وجهه من الشعر إلا قليلاً.

بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالبشارة بانتصار المسلمين على البربر، وقتل ملكهم، وأخذ غنائم كثيرة مع ابن الزبير إلى الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقص على عثمان الخبر وكيف جرى، فقال له عثمان: إن استطعت أن تؤدي هذا للناس فوق المنبر، قال: نعم! فصعد ابن الزبير فوق المنبر فخطب الناس وذكر لهم كيفية ما جرى، قال عبد الله: فالتفت فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبيّنت وجهه كاد أن يَرتج عليّ في الكلام من هيبته في قلبي، فرمزني بعينه وأشار إليّ ليحصني، فمضيت في الخطبة كما كنت فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر الصديق حين سمعت خطبتك يا بني.

وكان رضي الله عنه فارس الخلفاء لا يوازيه أحد، وقد روى الطبراني عن إسحاق بن أبي إسحاق قال: أنا حاضر مقتل عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام، يوم قتل جعلت الجيوش تدخل من أبواب المسجد، وكلما دخل قوم من باب حمل عليهم حتى يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال

---

(١) البداية والنهاية ـ الجزء الثامن.

إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه فصرعته، وهو يتمثل بهذه الأبيات:

أسـمـاء أسـمـاء لا تـبـكـيـنـي لـم يـبـق إلا حـسـبـي وديـنـي
وصـارم لانـت بـه يـمـيـنـي

وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل فيحمل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد.

وكانت أبواب الحرم قد قلّ من يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج، وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح، وكان ابن الزبير لا يخرج على أهل باب إلا فرّقهم وبدّد شملهم..

وبويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، وبقي حتى قتل سنة ثلاث وسبعين، وحج بالناس كل هذه المدة، وبنى الكعبة أيام خلافته، وكساها الحرير، وكانت كسوتها قبل ذلك الأنطاع والمسوح.

واتهم بالبخل وعدم معرفته بتدبير الأمور والنظر بعيداً، فرغم أن معظم الأمصار الإسلامية قد بايعته بالخلافة، ولم يبق مع مروان بن الحكم سوى جزء صغير من بلاد الشام، ومع هذا فقد بدأ يتوسع ملك مروان وتنكمش خلافة ابن الزبير حتى قضي عليه لأنه لم يدر كيف يسوس الأمور[1].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ابن حزم، تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة ـ ص١٢٢.

أولاده

كان لعبد الله بن الزبير ثلاثة عشر ولداً، بعضهم كان له عقب، وبعضهم لم يعقب، وله ابنة واحدة معروفة هي: أم الحسن، وأمها نفيسة بنت الحسن بن علي أمير المؤمنين، رضي الله عنهما، أما الأولاد فهم:

١ ـ خبيب: وبه يكنى، وهو أسن من عمه عروة، وليس له عقب.

٢ ـ حمزة: وله عقب.

٣ ـ عبّاد: وله عقب.

٤ ـ ثابت: وله عقب.

٥ ـ عامر: وله عقب.

٦ ـ موسى: وله عقب.

٧ ـ بكر: وأمه عائشة بنت أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وليس له عقب. ويكنى به أيضاً، وبهذه الكنية كناه رسول الله ﷺ.

٨ ـ هاشم: ولا عقب له.

٩ ـ قيس: ولا عقب له.

١٠ ـ عروة: ولا عقب له.

١١ ـ الزبير: ولا عقب له.

١٢ ـ أبو بكر: ولا عقب له.

١٣ ـ عبيد الله: ولا عقب له.

إخوته

يقول الزبير، رضي الله عنه: «بلغني أن طلحة بن عبيد الله التيمي يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبي بعد محمد، وإني أسمّي بني بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا».

تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، رضي الله عنهما، فولدت له:

١ ـ عبد الله: وقد سماه باسم ابن خالته عبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد، وإن كانت ولادته قبل استشهاد ابن جحش بثلاثة أعوام، وأن رسول الله ﷺ هو الذي سماه عبد الله، ويكون الزبير قد عدّ هذا بعد استشهاد ابن جحش.

٢ ـ عروة: وقد سماه باسم عروة بن مسعود، الذي استشهد بالطائف، وكان يدعو قومه فقتلوه.

٣ ـ المنذر: وقد سماه باسم المنذر بن عمرو، الذي استشهد يوم بئر معونة، ويكنى المنذر أبا عثمان، وقد استشهد مع أخيه عبد الله.

٤ ـ عاصم: وقد سماه باسم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، الذي استشهد يوم الرجيع.

٥ ـ المهاجر: وقد سماه باسم المهاجر بن زياد، الذي استشهد يوم تستر. كما أنجبت أسماء رضي الله عنها من البنات.

١ ـ خديجة الكبرى.

٢ ـ أم الحسن.

٣ ـ عائشة.

وتزوج الزبير بن العوام، رضي الله عنه، أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، فأنجبت له:

١ ـ خالد: وقد سماه باسم خالد بن سعيد، الذي استشهد يوم مرج الصُّفّر، وقد تولى خالد اليمن لأخيه عبد الله.

٢ ـ عمرو: وقد سماه باسم عمرو بن سعيد بن العاص الذي استشهد يوم أجنادين، وقتله أخوه عبد الله قوداً حيث كان مع بني أمية ضد أخيه كما أنجبت أمه من الإناث:

١ ـ حبيبة.

٢ ـ سودة.

٣ ـ هند.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، الرباب بنت أنيف فأنجبت له:

١ ـ مصعب: وقد سماه باسم مصعب بن عمير الذي استشهد يوم أحد. ويكنى مصعب أبا عيسى، وتولى لأخيه العراقين.

٢ ـ حمزة: وقد سماه باسم خاله حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، الذي استشهد يوم أحد.

كما أنجبت له الرباب من البنات ابنة واحدة هي:

١ ـ رملة.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، زينب، وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمرو، وأنجبت له:

١ ـ عبيدة: وقد سماه باسم عبيدة بن الحارث الذي استشهد يوم بدر.

٢ ـ جعفر: وقد سماه باسم جعفر بن أبي طالب الذي استشهد يوم مؤتة وتولى لأخيه أمر المدينة.

وتزوج الزبير، رضي الله عنه، أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت تحت عبد الرحمن بن عوف من قبل فولدت للزبير زينب، وتزوج الحلال بنت قيس بن نوفل فولدت له خديجة الصغرى.

وبذا يكون للزبير أحد عشر ولداً هم: عبد الله، عروة، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخالد، وعمرو، ومصعب، وحمزة، وعبيدة، وجعفر، وله تسع بنات هن: خديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة، وحبيبة، وسودة، وهند، ورملة، وزينب، وخديجة الصغرى.

كما تزوج الزبير، رضي الله عنه، عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر، ثم تحت عمر بن الخطاب.

بيعته

بعد مقتل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، أعلن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكة خلع بيعة يزيد، وبدأ بعض الناس يبايعون ابن الزبير سراً، ونحّى ابن الزبير عن الصلاة في مكة الحارث بن خالد[(١)] الوالي من قبل يزيد وقدّم مصعب بن عبد الرحمن[(٢)]، وكان مصعب، والمسور بن مخرمة[(٣)]، وجبير بن شيبة[(٤)]، وعبد الله بن صفوان بن أمية[(٥)] رجال شورى عبد الله بن الزبير. وفي المدينة ثار الناس على والي يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وطردوه، وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة الغسيل[(٦)]، وحاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، ثم طردوهم من

---

(١) **الحارث بن خالد بن هشام بن المغيرة**: أسلم خالد بن هشام يوم الفتح، وولي أمر مكة، وكذا كان ابنه الحارث الذي كان شاعراً.

(٢) **مصعب بن عبد الرحمن بن عوف**: أبو زرارة، تولّى قضاء المدينة والشرطة لمروان بن الحكم عندما كان والياً على المدينة للمرة الثانية. لحق بابن الزبير بمكة. وتوجه على رأس قوة ضد عمرو بن الزبير عندما أرسله بنو أمية من المدينة ضد أخيه عبد الله، وأسَره، وكان من مستشاري ابن الزبير، وتوفي أثناء حصار مكة من قبل الحصين بن نمير عام ٦٤هـ.

(٣) **المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري**: أبو عبد الرحمن: صحابي، ولد في السنة الثانية للهجرة، خاله عبد الرحمن بن عوف، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو الذي حرّض سيدنا عثمان بن عفان أمير المؤمنين على غزوها كان مع ابن الزبير، أصابه حجر أثناء حصار الحصين بن نمير فمات يومذاك سنة ٦٤هـ.

(٤) **جبير بن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة**، أسلم أبوه شيبة يوم هوازن.

(٥) **عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف**: ولد في حياة رسول الله ﷺ، وكان من أنصار ابن الزبير، قتل معه أثناء حصار الحجاج عام ٧٣هـ، وحمل رأسه مع رأس عبد الله بن الزبير إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان.

(٦) **عبد الله بن حنظلة الغسيل بن أبي عامر الراهب**: ولد في السنة الرابعة للهجرة، حملت =

المدينة، ولما وصل الخبر إلى يزيد أرسل إليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري[1] فالتقى مع بني أمية بوادي القرى، ووصل الجيش إلى المدينة وحدثت وقعة الحرة ـ كما ذكرنا ـ وبعد إخضاع المدينة سار الجيش إلى مكة، وتوفي قائده مسلم بن عقبة المري في الطريق فتولى أمره بناءً على أوامر يزيد الحصين بن نمير السكوني الكندي[2]، وأثناء حصار مكة توفي يزيد، فلما علم الحصين بن نمير بالخبر، دعا ابن الزبير والتقى معه بالأبطح، ودعا الحصين ابن الزبير إلى أن يبايعه، وقال له: إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام، فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة[3]. إلا أن ابن الزبير رفض ذلك لأنه لم يكن ليركن إلى الحصين أو إلى أهل الشام، ولم يكن يرغب في مغادرة مكة المكرمة. وسار الحصين بن نمير مع جيشه نحو الشام، وأجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز عليهم، فكان جند الحصين لا يسيرون إلا مجتمعين، ثم ساروا وقد أخذوا معهم بني أمية.

ويبدو أن ابن الزبير ندم على ما كان منه مع الحصين فأرسل إليه: أما

= به أمه جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد، وقد خرج حنظلة للجهاد جنباً فاستشهد فغسلته الملائكة فيقال له الغسيل وقد رأى عبد الله بن حنظلة رسول الله وأبا بكر وعمر، وروى عن عمر، وكان عابداً صادقاً، قاد الناس يوم الحرة واستشهد يومذاك عام ٦٤هـ.

(١) **مسلم بن عقبة المري**، أبو عقبة: قائد من الدهاة القساة في العهد الأموي، أدرك رسول الله ﷺ، وشهد صفين مع معاوية وكان فيها على الرجالة، وقلعت بها عينه، أسرف في القتل لأخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة. مات في طريق إلى مكة يوم ٦٣هـ بمكان يسمى «المشلل». ثم نبش قبره، وصلب في مكان دفنه.

(٢) **الحصين بن نمير بن نائل**، أبو عبد الرحمن: أقام بحمص، وحاصر مكة أيام ابن الزبير، وضربها بالمنجنيق، كان في آخر أمره على ميمنة عبيد الله بن زياد في حربه مع إبراهيم بن الأشتر، وقتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل.

(٣) تاريخ الطبري.

أن أسير إلى الشام فلست فاعلاً، وأكره الخروج من مكة، ولكن بايعوا لي هنالك فإني مؤمنكم وعادل فيكم فقال له الحصين: أرأيت إن لم تقدم بنفسك، ووجدت هنالك أناساً كثيراً من أهل هذا البيت يطلبونها يجيبهم الناس، فما أنا صانع[1].

دعا ابن الزبير بعد موت يزيد لنفسه فبايعه أهل الحجاز، فأرسل إلى المدينة أخاه عبيدة والياً عليها من قبله، وطلب منه إجلاء بني أمية، فأجلاهم فرحلوا إلى الشام، ومنهم مروان بن الحكم، وابنه عبد الملك.

وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه، واستناب عليها عبد الرحمن بن جحدر.

وأطاعت له الجزيرة.

وأما أهل البصرة فقد بايعوا عبيد الله بن زياد، على أن يقوم لهم بأمرهم حتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه لأنفسهم، ثم أرسل عبيد الله رسولاً إلى الكوفة يدعوهم إلى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة، فأبوا عليه، وحصبوا الوالي الذي كان عليهم، وهو عمرو بن حريث[2] وولوا عليهم عامر بن مسعود بن خلف، فمكث ثلاثة أشهر، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الخطمي من قبل ابن الزبير، وكان على الحرب والثغر الأنصاري، وكان إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج، ثم خالف أهل البصرة عبيد الله أيضاً، فهاجت بالبصرة فتنة، فرّ إثرها عبيد الله بن زياد إلى الشام. واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم أميراً منهم يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام، فجعلوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهراً، ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل فصلى بهم

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) **عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان** بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، أبو سعيد: ولد عام الهجرة النبوية أو قبلها بعام، نزل الكوفة، وابتنى بها داراً قرب المسجد، وهي كبيرة مشهورة، وكان زياد بن أبيه إذا انتقل إلى البصرة استخلف على الكوفة عمرو بن حريث، توفي عمرو عام ٨٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان.

شهرين، ثم قدم عليهم عمرو بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير، فمكث شهراً، ثم أرسل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة. وهكذا اجتمع أهل البصرة وأهل الكوفة على ابن الزبير.

وأرسل إلى أهل اليمن فبايعوه.

وبعث إلى خراسان فأعلنوا بيعته.

وأما الشام فقد بايعه فيها الضحاك بن قيس الفهري(١)، وهو على دمشق، والنعمان بن بشير(٢) وهو على حمص، وزفر بن عبد الله الكلابي(٣) وهو على قنسرين(٤)، ودخل ناتل بن قيس(٥) فلسطين، وأخرج منها عاملها روح بن زنباع الجذامي(٦). ولم يبق من الشام إلا بعض جهات الأردن

---

(١) **الضحاك بن قيس بن خالد الفهري**: قبض رسول الله ﷺ ولم يبلغ الضحاك بن قيس الحلم، ويقال أنه أدرك النبي ﷺ، وسمع منه، بايع ابن الزبير، والتقى مع مروان بن الحكم بمرج راهط، وقتل يومذاك عام ٦٤هـ.

(٢) **النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي**، أبو عبد الله: أمير، خطيب، شاعر، صحابي، من الأنصار، روى ١٢٤ حديثاً. ذهب بقميص عثمان إلى الشام فنزل هناك، وشهد صفين مع معاوية، ولي القضاء بدمشق عام ٥٣هـ، وتولى أمر اليمن لمعاوية، ثم الكوفة تسعة أشهر، ثم حمص واستمر فيها حتى مات يزيد بن معاوية فبايع ابن الزبير فتمرد أهل حمص عليه فخرج هارباً فاتبعه خالد بن خليّ الكلاعي فقتله عام ٦٤هـ. وهو أول مولود للأنصار بعد الهجرة.

(٣) **زفر بن الحارث بن عبد عمرو بن معاذ الكلابي**، أبو الهذيل: أمير، من التابعين من أهل الجزيرة، كان كبير قيس في زمانه، شهد صفين مع معاوية أميراً، وشهد مرج راهط مع الضحاك، فلما قتل الضحاك هرب إلى قرقيسا عند مصب نهر الخابور على الفرات، وبقي متحصناً فيها حتى مات عام ٧٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان..

(٤) **قنسرين**: حاضرة جنوب حلب كانت مركزاً للجند.

(٥) **ناتل بن قيس الجذامي**: والٍ، شجاع من التابعين، كان سيد جذام بالشام. شهد صفين مع معاوية. بعد موت يزيد بن معاوية دعا لابن الزبير، وطرد روح بن زنباع والي يزيد السابق، فأمّره ابن الزبير على فلسطين، وبقي فيها حتى خلافة عبد الملك فبعث إليه عمرو بن سعيد فقتله.

(٦) **روح بن زنباع الجذامي**، أبو زرعة: سيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها، تولى شرطة عبد الملك، وكان له فقه.

وبعض رجالات الشام الذين تجمعوا في دمشق منهم الحصين بن نمير، وعبيد الله بن زياد، وبعض بني أمية ورجال من اليمن وخاصة بنو كلب أرحام يزيد بن معاوية وأخوال أولاده. كما أتاه وجوه الخوارج مثل: نافع بن الأزرق[1] وعبد الله بن أباض[2]. وهكذا انعقدت البيعة لعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، ببيعة أكثر الأمصار له، وأهل الحل والعقد فيها، والصحابة، وأبنائهم، وكبار التابعين، وهذا الإجماع يجعل معاوية الثاني، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان في مدته الأولى خارجين على الإمام، وليسوا بخلفاء.

---

(١) **نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي** البكري الوائلي، الحروري، أبو راشد: رأس الأزارقة، وإليه نسبتهم، كان أمير قومه وفقيههم. من أهل البصرة، صحب في أول أمره عبد الله بن عباس، ثار مع أصحابه مع أمير المؤمنين عثمان، ثم والى أمير المؤمنين علي، وخرجوا عليه بعد التحكيم. واشتد عليهم الأمويون، وقتلوا منهم كثيراً، توجهوا إلى ابن الزبير عندما ثار على الأمويين، ثم اختلفوا معه على عثمان فتركوه واتجهوا إلى البصرة، وقاتلهم المهلب، وقد تخلفّ عبد الله بن أباض عنهم، وقتل نافع قرب الأهواز عام ٦٥هـ.

(٢) **عبد الله بن أباض المري التميمي**: رأس الأباضية وإليه نسبتهم، وتوفي سنة ٨٥هـ في خلافة عبد الملك بن مروان.

الولايَات

كانت مدة خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، مدة عدم استقرار وحركات مستمرة، وإن كانت تختلف كل ولاية عن الأخرى، فأوضاع الحجاز كانت مستقرة لابن الزبير، على حين كانت الشام منطقة ساخنة حتى ثبت الأمر فيها لبني أمية، أما العراق فقد تعاقب عليها الولاة المتباينة اتجاهاتهم، وكانت مصر وإفريقية مع ابن الزبير ثم انتقل فيها الأمر للأمويين بهدوء، وبقيت الحالة فيها هادئة وكذا خراسان واليمن.

١ ـ الشام: لما مات يزيداً أوصى من بعده لابنه معاوية الثاني، ولكنه لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى مات، وكان بعد ولايته بمدة قد أمر فنودي بالشام الصلاة جامعة! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإني نظرت في أمركم فضعفت فيه، فابتغيت لكم رجلاً مثل عمر بن الخطاب، رحمة الله عليه، حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر، فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيّب حتى مات، ولم يتجاوز العشرين سنة، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً، وكان في مدة ولايته مريضاً، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس، ويسدّ الأمور. ودفن معاوية بن يزيد بمقابر باب الصغير بدمشق، وكان رحمه الله أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه، كثير شعر الوجه دقيقه، حسن الجسم، ويكنى أبا ليلى، وأمه أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة.

عندما عاد الحصين بن نمير من الحجاز أخذ معه بنو أمية، وقد

أدركوا وفاة معاوية الثاني، واختلف الناس من بعده، فالضحاك بن قيس أمير دمشق، وزفر بن الحارث أمير قنسرين، والنعمان بن بشير أمير حمص، وناتل بن قيس أمير فلسطين يريدون عبد الله بن الزبير، أما أمير الأردن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي فكان يريد خالد بن يزيد بن معاوية حيث كان أبوه يزيد بن أخت حسان وهي ميسون، ولم يكن هذا رأي بني أمية جميعهم حيث فكر مروان بن الحكم بعدما رأى من بيعة ابن الزبير أن يسير إليه ويبايع ما بايع عليه الناس، إلا أن عبيد الله بن زياد كان قد وصل من العراق، ويخشى على نفسه إن آل الأمر إلى غير بني أمية بسبب ما فعله في كربلاء من قتل للحسين، وكان الحصين بن نمير أيضاً يخشى على نفسه لما فعل في حصار مكة من ضرب الكعبة بالمنجنيق، وما اقترفت يداه في معركة الحرة لذا كان يرى أن يبايع أحد بني أمية.

وبينما كان مروان يفكر في البيعة لابن الزبير التقى بعبيد الله بن زياد فقال له: «استحييت لك ما تريد، أنت كبير قريش وسيدها وتصنع ما تصنعه، فدبّ الأمل في نفس مروان وأجاب: ما فات شيء. وكفل عبيد الله خديعة الضحاك في دمشق فنزل عنده، على حين كان بنو أمية ينزلون تدمر، وأبدى عبيد الله مناصحة الضحاك، وزيّن له أن يدعو لنفسه، ثم أشار إليه أن يترك دمشق وينزل في أطرافها ففعل، فخلت دمشق من راعيها والواقع أن الناس في دمشق قد اختلفوا فالقيسية مع الضحاك تدعو لابن الزبير، واليمانية تدعو لبني أمية، ووقعت فتنة في المسجد كادت أن تستفحل لولا أن الضحاك تدارك الأمر، ورأى أن يدرس الموضوع، واتفق مع بني أمية على أن يلتقوا بالجابية مع حسان بن مالك بن بحدل الكلبي. وسار بنو أمية نحو الجابية، وسار الضحاك مع قومه فجاءه ثور بن معن بن يزيد بن الأخنس السلمي فقال له: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك. وأنت تسير إلى هذا الأعرابي من كلب تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نسر وندعو إلى طاعة ابن الزبير، ونقاتل عليها، فمال الضحاك بمن معه من

الناس فعطفهم، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط[١]. وكتب الضحاك إلى أنصاره على المناطق يستمدهم فأمده النعمان بن بشرحبيل بن ذي الكلاع، وسار زفر بأهل قنسرين، وأمده ناتل بأهل فلسطين، فاجتمع الجند بمرج راهط إلى جانب الضحاك.

واجتمع بنو أمية بالجابية من أرض حوران ولا تزال أطلالاً بالقرب من بلدة نوى. وكانت أهواؤهم مختلفة فحسان بن مالك بن بحدل الكلبي يريد خالد بن يزيد، وكذا مالك بن هبيرة السكوني، أما الحصين بن نمير السكوني فكان يرى أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم وقال لهم: لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي، ثم اتفقت كلمة بني أمية ومن والاهم من بني كلب، وجذام، واليمانية عامة على أن تكون الخلافة لمروان بن الحكم، ثم تكون من بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص. وبويع مروان، وسار بالناس من الجابية إلى مرج راهط، وعمرو بن سعيد بن العاص على ميمنته، وعبيد الله بن زياد على ميسرته ومعه السكاسك، وغسان، والسكون، وأهل الأردن.

أما دمشق فقد سار فيها يزيد بن أبي النمس الغساني الذي لم يشهد الجابية فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك منها وبايع لمروان بن الحكم، وغلب على بيت المال وأمد مروان بالرجال والأموال والسلاح.

والتحم الفريقان، واستمرت المعركة عشرين يوماً، وانتصر مروان، وقُتل الضحاك بن قيس، وعاد أهل حمص ففر النعمان بن بشير منها، فلاحقوه وقتلوه، وسار زفر بن الحارث الكلابي إلى قرقيسيا فتحصن بها وثابت إليه القيسية، وفر ناتل بن قيس ولحق بابن الزبير وهكذا أضحى مروان بن الحكم سيد بلاد الشام وذلك في مطلع عام ٦٥هـ.

وبعث عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً ليفتح بلاد الشام فأرسل له

---

(١) مرج راهط: شمال شرقي دمشق بعشرة كيلومترات بين السفوح الجبلية الجنوبية وبلدتي حرستا ودوما.

مروان جيشاً بإمرة عمرو بن سعيد فالتقيا بفلسطين فهرب مصعب وثبت حكم مروان في الشام.

وجهز مروان جيشين أحدهما بإمرة عبيد الله بن زياد ليأخذ العراق من نواب ابن الزبير، والآخر بإمرة حبيش بن دلجة العتيبي، ووجه جيشاً إلى الجزيرة الفراتية بإمرة ابنه محمد ولم تمض مدة حتى توفي مروان بن الحكم، ولم تطل مدة حكمه للشام سوى تسعة أشهر إذ توفي في الثالث من شهر رمضان عام ٦٥هـ، وقد أوصى بالحكم من بعده لولديه عبد الملك، ثم عبد العزيز، وضرب بمقررات مؤتمر الجابية عرض الحائط.

وكان الحكم أبو مروان من أعداء الإسلام، أسلم يوم الفتح، وانتقل إلى المدينة فأرسله رسول الله ﷺ إلى الطائف.

ومروان من كبار التابعين إن لم نقل أنه صحابي، إذ ولد في حياة النبي ﷺ وكان عمره ثمان سنوات عندما قبض رسول الله ﷺ. وقد روى البخاري عنه في صحيحه، وعن المسور بن محزمة عن جماعة من الصحابة حديث صلح الحديبية. وروى هو عن عمر، وعثمان، وعلي، وزيد بن ثابت، وروى عنه ابنه عبد الملك، وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلي بن الحسين زين العابدين ومجاهد وغيرهم. وكان كاتب عثمان، ودافع عنه يوم الدار دفاعاً كبيراً، وشهد الجمل مع عائشة، رضي الله عنها، وكان على الميسرة. ثم بايع علياً، وتقرب منه معاوية حين آل الأمر له فولاه المدينة عدة مرات، حتى حدث ما حدث، وكان له من الأولاد عبد الملك، ومعاوية، وأمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية وقد تزوج معاوية بن مروان رملة بنت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وعبد العزيز وأمه كلبية، وهي: ليلى بنت زبّان، وبشر وأمه كلابية، وهي قطّية بنت بشر بن عامر ملاعب الأسنة، ومحمد، وأمه أم ولد، وعبد الله، وعبيد الله، وأمهما أم ولد، وعثمان، وأيوب، وداود وأمهم أم أبان بنت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وعمر، وأمه بنت عمر بن أبي سلمة.

وبعد وفاة مروان جددت البيعة لابنه عبد الملك في الشام ومصر. وسار بالناس يتابع ما سار عليه أبوه في الحكم، ويحاول أن يوطد له الملك في الأمصار جميعها.

وفي مطلع عام ٦٩هـ ركب عبد الملك في جيش، وقصد قرقيسيا ليقاتل زفر بن الحارث الكلابي الذي كان سيد قيس، والذي تحصّن في قرقيسيا منذ فرّ من معركة مرج راهط، والذي أعان سليمان بن صرد زعيم التوابين حين قاتلهم جيش مروان بعين وردة، وكان ينوي أن يتابع سيره إلى مصعب بن الزبير بعد فراغه من زفر، ولكن لم يكد يغادر دمشق - وقد أناب عليها عبد الرحمن بن أم الحكم - إلا ووثب عليها عمرو بن سعيد وتحصن فيها فرجع عبد الملك إليها وحاصرها، وجرى قتال بين الطرفين مدة ستة عشر يوماً، ثم اتفقا على أن يكون عمرو بن سعيد ولي عهد عبد الملك، وأن يكون لكل واحد منهما من العمال بقدر ما للآخر إلا أن عبد الملك بعد ذلك دعا عمرو بن سعيد إليه وقتله غيلة.

وفي عام ٧٠هـ شعر الروم بضعف المسلمين نتيجة الخلاف الذي وقع بين ابن الزبير وبني مروان فصالحهم عبد الملك على أن يدفع لهم كل جمعة ألف دينار خوفاً منهم على الشام.

وصفا الجو لعبد الملك بالشام تماماً بعد الانتهاء من عمرو بن سعيد، وكان قبل ذلك كل عام يريد أن يخرج إلى العراق، ويريد مصعب أن يخرج إلى الشام، ويحول الشتاء بين لقاء الطرفين حتى كان عام ٧١هـ فخرج عبد الملك إلى مصعب، وكان على ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية، وعلى ميسرته خالد بن يزيد بن معاوية، وعلى مقدمته أخوه محمد بن مروان، ولا شك فإن خروج الخليفة يعطي للجيش شجاعة وحماسةً، ويضعف معنويات العدو. والتقى الطرفان بمسكن فراسل عبد الملك أمراء مصعب، ومنّاهم بالولايات، ووعدهم بالأعطيات، وقد جاء مما جاء من كتبه إلى إبراهيم بن الأشتر وفيه تمنية بولاية العراق، فجاء ابن الأشتر بالكتاب إلى مصعب وقال له: أيها الأمير! أنه لم يبق أحد من

أمرائك إلا وقد جاءه كتاب مثل هذا، فإن أطعتني ضربت أعناقهم (ويعني بكلامه أنه ما دام قد جاء كتاب من عبد الملك إلى ابن الأشتر، فلا يمكن إلا أن يكون قد جاء الجميع ولكن لم يطلعوك على ذلك وهذا دليل عدم طاعتهم لك والأولى قتلهم وإلاّ خذلوك أثناء المعركة). فأجاب مصعب إني لو فعلت ذلك لم تنصحنا عشائرهم بعدهم (أي اقتنع بكلام إبراهيم بن الأشتر)، فقال ابن الأشتر: فابعثهم إلى أبيض كسرى فاسجنهم فيه، فإن كانت لك النصرة ضربت أعناقهم، وإن كانت عليك خرجوا بعد ذلك، فقال له مصعب: يا أبا النعمان، إني لفي شغل عن هذا، ثم قال مصعب: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف بن قيس - أن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

وتقدم ابن الأشتر وكان على المقدمة فأزال مقدمة عبد الملك عن مواضعها فأنجدت ميمنة عبد الملك المقدمة فقتل ابن الأشتر، وتخاذل قادة مصعب، وصعب الموقف، وأعطى عبد الملك الأمان لمصعب فرفضه وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً ونادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب فقال: يا ابن أخي لا تقتل نفسك، لك الأمان، فقال له مصعب: قد أمنك عمك فامض إليه، قال: لا يتحدث نساء قريش أني أسلمتك للقتل، فقال له: يا بني فاركب خيل السبق فالحق بعمك فأخبره بما صنع أهل العراق فإني مقتول ها هنا، فقال له: والله إني لا أخبر عنك أحداً أبداً، ولا أخبر نساء قريش مصرعك، ولا أقتل إلا معك، ولكن إن شئت ركبت خيلك وسرنا إلى البصرة فإنهم على الجماعة، فقال: والله لا تتحدث قريش بأني فررت من القتال.

وتقدم عيسى بن مصعب فقاتل حتى قتل بين يدي أبيه، وأُثخن مصعب بالجراح، وهو يكر على الجموع حتى قتل، ومال الناس إلى عبد الملك، وقُدّم له رأس مصعب. وكان لمصعب سبعة أولاد وابنتان، ومن زوجاته سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة التي أمها أم كلثوم بنت أبي بكر.

ونزل عبد الملك النخيلة فبايعه أهل العراق.

وهكذا توسع ملك عبد الملك فشمل مصر والشام والعراق، ولم يبق مع ابن الزبير سوى الحجاز.

ولما انتهى أمر العراق وأراد عبد الملك الرجوع إلى الشام ندب الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة فلم يجبه أحد إلى ذلك، فقام الحجاج بن يوسف الثقفي وقال: أنا له يا أمير المؤمنين، فابعث بي إليه فإني قاتله، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام. وكتب معه أماناً لأهل مكة إن هم أطاعوه فخرج في جمادى الأولى من عام ٧٢هـ، ولم يعرض إلى المدينة بل سار حتى نزل بالطائف، وصار يرسل السرايا إلى عرفة، ويلتقي الفرسان بعضهم مع بعض فيحدث قتال ثم يعود كل طرفٍ إلى مكانه. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم ليحاصر ابن الزبير فإن جنده قد قلّ، وخذله الناس، كما سأله المدد، فأرسل إليه مدداً بإمرة طارق بن عمرو المكي وهو مولى عثمان بن عفان وأذن له. وجاء موسم الحج فحج بالناس ولم يتمكن من الطواف، كما لم يتمكن ابن الزبير من الحج لأنه محصور، وبقي محصوراً من غرة ذي الحجة عام ٧٢هـ حتى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ حيث قتل، رضي الله عنه، فكان حصاره ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، وقد ضربت مكة بالمنجنيق، ومنعت عنها المواد الغذائية والمياه. وكان ابن الزبير، رضي الله عنه، يشد على أهل الشام فيخرجهم من أي باب دخلوا منه؛ إلا أن الناس قد خذلوه وصاروا يخرجون إلى أهل الشام ومنهم حمزة وخبيب ولدا ابن الزبير، حتى شكا ذلك لأمه فقال لها: خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق معي إلا اليسير من جندي والناس يعطونني ما أردت من الدنيا ما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكّن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم

خلودك في الدنيا،؟ القتل أحسن، فدنا فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عز وجل، اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم به مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي أخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك، فقال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل أو بعد. فقالت: لا أدعه أبداً لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها ـ وكانت قد أضرت في آخر عمرها ـ فوجدته لابساً درعاً من حديد فقالت: يا بني ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة!! فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به، فقالت: لا يا بني ولكن انزعه فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد وهي تقول: شمر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ وترجّيه القدوم عليهما إذا هو قتل شهيداً، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها، رضي الله عنهما، وعن أبيه وأبيها.

وهكذا غدت الأمصار الإسلامية كلها في قبضة عبد الملك بن

مروان، وبايعته جميعها فأصبح بعدئذٍ الخليفة الشرعي وكان قبلها خارجاً على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما.

٢ ـ مصر: أرسل عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدر والياً على مصر من قبله، فاستولى عليها، واعتزل الوالي السابق سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي، ولكن لم يلبث أن سار مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد إلى مصر فخرج إليهما والي ابن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن جحدر فشاغله مروان، وخلص عمرو بن سعيد بقسم من الجيش من وراء عبد الرحمن إلى مصر.

أقام مروان شهراً بمصر، ثم أبقى ابنه عبد العزيز والياً عليها، وأبقى معه أخاه بشر بن مروان، وموسى بن نصير وزيراً له، ورجع هو إلى الشام.

وقد سار عبد العزيز سيرة حسنة، فبنى مقياس النيل، وأقام قنطرة على خليج أمير المؤمنين (الترعة التي تصل بين خليج السويس والنيل شمال الفسطاط)، وعني بمدينة حلوان، وحاول أن ينقل مركزه إليها، وكان كريماً.

٣ ـ إفريقية: عندما سار عقبة بن نافع نحو المغرب خلف على القيروان زهير بن قيس البلوي فلما استشهد عقبة أضحى زهير أمير إفريقية، وقد تابع الجهاد حتى استشهد عام ٦٩هـ، وتبلبل وضع إفريقية حتى أرسل إليها عبد العزيز بن مروان والي مصر آنذاك حسان بن النعمان الغساني فعاد الفتح، واستطاع فتح مدينة قرطاجنة (مكان مدينة تونس اليوم).

٤ ـ العراق: اجتمع جماعة من الشيعة بالكوفة على سليمان بن صرد، وتواعدوا بالنخيلة ليأخذوا بثأر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وكان رؤوس القائمين في ذلك خمسة هم: سليمان بن صرد الصحابي[١]،

---

(١) سليمان بن صرد الخزرجي: صحابي جليل، عابد زاهد. روى أحاديث عن رسول الله ﷺ، وشهد صفين مع علي، وكانت داره مقر اجتماع للذين دعوا الحسين بن=

والمسيب بن نجيبة الفزاري[١]، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي[٢]، وعبد الله بن وال التيمي[٣]، ورفاعة بن شداد البجلي[٤]، واتفقوا على تأمير سليمان بن صرد، وتواعدوا النخيلة[٥]، وقد خطب فيهم المسيب بن نجية فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فقد ابتلينا بطول العمر، وكثرة الفتن، وقد ابتلانا الله فوجدنا كاذبين في نصرة ابن بنت رسول الله ﷺ، بعد أن كتبنا إليه وراسلناه، فأتانا طمعاً في نصرتنا إياه، فخذلناه وأخلفناه، وأتينا به إلى من قتله، وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار، فما نصرناهم بأيدينا، ولا خذلنا عنهم بألسنتنا، ولا قوّيناهم بأموالنا، فالويل لنا جميعاً ويلاً متصلاً أبداً لا يفتر ولا يبيد دون أن نقتل قاتله والممالئين عليه أو نقتل دون ذلك وتذهب أموالنا وتخرب ديارنا، أيها الناس قوموا في ذلك قومة رجل واحد، وتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان وهو أمير على المدائن يدعوه إلى ذلك، فاستجاب له، ودعا إليه سعد من أطاعه من أهل المدائن.

= علي للقدوم إلى الكوفة، وكان بين الداعين له، ثم خذلوه، ثم ندموا على ما فعلوا، واجتمعوا بجيش أطلقوا على أنفسهم اسم التوابين، وقتل عام ٦٥هـ وكان عمره ثلاثاً وتسعين سنة، وحمل رأسه إلى مروان بن الحكم بالشام مع رأس المسيب بن نجية.

(١) **المسيب بن نجية بن ربيعة** بن رباح الفزاري: تابعي، كان رأس قومه، شهد القادسية وفتوح العراق. ثم شهد مع علي أمير المؤمنين، رضي الله عنه، مشاهده كلها، أقام بالكوفة وقتل في عين وردة عام ٦٥هـ، كان متعبداً ناسكاً.

(٢) **عبد الله بن سعيد بن نفيل الأزدي**، من أزدشنوءة: أحد رؤساء الكوفة وشجعانها، حضر مع سيدنا علي مشاهده كلها، وقتل في عين وردة عام ٦٥هـ.

(٣) **عبد الله بن وال التميمي**: أحد رؤوس التوابين،، قتل في عين وردة عام ٦٥هـ.

(٤) **رفاعة بن شداد البجلي**: قارئ من الشجعان المقدمين، من أهل الكوفة، كان من أنصار، ومن رؤوس التوابين، آلت إليه قيادتهم، بعد مقتل أربعة قواد قبله، ثم انحاز بالتوابين، وعاد إلى الكوفة، وسار مع المختار، ثم عمل ضده، ثم عاد إليه وقاتل معه حتى قتل عام ٦٦هـ.

(٥) النخيلة: موقع على مقربة من الكوفة على طريق الشام.

وبعد موت يزيد بن معاوية ظن هؤلاء أن أمر بني أمية قد ضعف فأرادوا السرعة في السير إلى الشام لقتل قتلة الحسين حيث كان هناك عبيد الله بن زياد إلا أن سليمان بن صرد قد منعهم في الإسراع قبل الموعد المحدد الذي ضرب لبقية من وافقهم، ولكنهم زادوا في الإعداد لذلك الموعد وأخرجوا نائب عبيد الله بن زياد وهو عمرو بن حريث من القصر، وقدموا عامر بن مسعود الذي بايع ابن الزبير، وفي ٢٢ رمضان عام ٦٤هـ جاء عبد الله بن يزيد الخطمي من قبل ابن الزبير وهو على الحرب والثغر، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج.

وكان قد وصل إلى الكوفة في منتصف شهر رمضان المختار بن أبي عبيد الثقفي[1]، فلما وجد أمر الكوفة على ما هو عليه أخذ يدعو إلى إمامة المهدي محمد بن علي بن أبي طالب وهو محمد بن الحنفية فسارت وراءه جماعة من أتباع سليمان بن صرد، وفارقت سليمان هذا، ولم يكن ابن الحنفية ليرضى عن هذا الأمر ولا يعلم به أصلاً.

وسار سليمان بن صرد بجماعته نحو الجزيرة، وقد تجمع إليه نحو سبعة عشر ألفاً، ولكن عند المسير لم يبق منهم سوى أربعة آلاف، وكانوا

---

(١) **المختار بن أبي عبيد**: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، انتقل مع أبيه أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى المدينة، استشهد أبوه يوم الجسر. وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، ثم كان مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالعراق، وسكن البصرة بعد علي، وسجنه عبيد الله بن زياد أيام مشكلة مسلم بن عقيل، وضربه على عينه، ثم أخرج من السجن بعد أن طلب عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، من يزيد ذلك، وكانت أخت المختار صفية تحت عبد الله بن عمر، فذهب المختار إلى الحجاز وأقام بالطائف فكان يقول: والله لأقطعن أنامل عبيد الله، فلما قوي أمر عبد الله بن الزبير بايعه المختار وكان من قادته، ودافع عنه يوم حصار الحصين بن نمير، فلما مات يزيد بن معاوية واضطرب أمر العراق استأذن ابن الزبير بالذهاب إلى العراق للدعوة له فانتقل إلى الكوفة. وبدأ يدعو بإمامة المهدي فسجن تاركاً الدعوة لابن الزبير، ولما قوي أمره خرج فأخذ الكوفة من عبد الله بن مطيع والي عبد الله بن الزبير، واستولى على الموصل، وتتبع قتلة الحسين، وقتل أمير جيش عبد الملك بن مروان وهو عبيد الله بن زياد، ثم قتله مصعب بن الزبير عام ٦٧هـ.

كلما ساروا مرحلة تخلف عنهم عدد، ووصلوا إلى قرقيسيا فتحصّن منهم زفر بن الحارث، ثم اتفقوا ونصحهم، فانطلقوا إلى عين وردة[1]، وسار جيش مروان إليهم، والتقى الطرفان في الثاني والعشرين من جمادى الأولى عام ٦٥هـ، وكان على الجيش المرواني عبيد الله بن زياد، ومعه الحصين بن نمير، فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً ثبت فيه التوابون جماعة سليمان بن صرد ثباتاً قوياً، حسبما أطلقوا على أنفسهم، وانتصروا في بداية الأمر على جيش الحصين بن نمير، ثم جاء مدد للمروانيين بإمرة شرحبيل بن ذي الكلاع فدارت الدائرة على التوابين، وقتل قائدهم الأول سليمان بن صرد، ثم المسيب بن نجية، ثم عبد الله بن سعد بن نفيل، ثم عبد الله بن وال، ولما أخذ الراية رفاعة بن شداد انتظر حتى جاء الظلام فانشمر راجعاً إلى بلاده فلما وصلوا إلى (هيت) إذ بسعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن قاصدين نصرتهم فلما أخبروه الخبر عاد كل إلى بلده فلما وصل أهل الكوفة إلى بلدهم كان المختار بن أبي عبيد الثقفي في السجن، فتدخل ختنه عبد الله بن عمر ثانية لدى أمير الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي، وإبراهيم بن محمد بن طلحة فأخرجاه بعد أخذ العهود عليه إلا أن جماعته قد اجتمعت حوله ومن عاد من التوابين وبايعوه سراً، ولما قوي أمرهم وتمكنوا من اجتذاب إبراهيم بن الأشتر النخعي إليهم خرجوا على الوالي عبد الله بن مطيع فجهز لهم جيشاً بإمرة شبث بن ربعي فانتصر جماعة المختار الذين اتخذو من المناداة بثارات الحسين شعاراً لهم حتى التف حولهم الكثير من أهل الكوفة وخرج ابن مطيع من الكوفة إلى البصرة، وتمكن المختار من المصر، وجعل يتتبع قتلة الحسين.

وأرسل المختار جيشاً لملاقاة جيش عبيد الله بن زياد الذي بلغهم أنه سار إلى الجزيرة بعد الانتهاء من جيش التوابين فاتجه جيش المختار نحو

---

(١) عين وردة: موقع بين الرقة وقرقيسيا في الجزيرة الفراتية على الطريق الواصل بين الشام والعراق ومن المعروف أن هذا الطريق كان عن طريق وادي الفرات، ولعلها رأس العين الآن عند منابع نهر الخابور.

الموصل لقتال قيس عيلان أنصار ابن الزبير والذين قاتلوا في معركة مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فانتصر جيش المختار ورجع إلى الكوفة عندما بلغهم أن عبيد الله بن زياد قد جاء بجيش من الشام قوامه ثمانون ألفاً. وجهز المختار جيشاً بإمرة إبراهيم بن الأشتر، ولكن لم يلبث أن سار حتى خرج أهل الكوفة على المختار، وعلموا أنه كذاب فأرسل في طلب ابن الأشتر فعاد فاقتتل الناس وانتصرت جماعة المختار، وفرّ وجهاء الكوفة إلى البصرة حيث كان فيها مصعب بن الزبير. وقتل المختار شمر ذي الجوشن الذي شارك في قتل الحسين، رضي الله عنه، وعمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الجيش الذي قتل الحسين. وأرسل رسلاً تدعو له في البصرة، ولكنهم منعوا وغُلب على أمرهم.

عاد المختار يصانع ابن الزبير ليتقي جيش الشام قبلاً. وأرسل كتاباً إلى ابن الزبير يعلن فيه الطاعة فأرسل ابن الزبير والياً على الكوفة من قبله ليرى صدق المختار من كذبه، وكان الوالي عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي فلقيه على الطريق زائدة بن قدامة من جهة المختار فاعترض سبيله فسار عمر بن عبد الرحمن إلى البصرة واجتمع مع عبد الله بن مطيع.

أرسل عبد الملك بن مروان جيشاً إلى المدينة ليأخذها من ابن الزبير بإمرة ابن عمه عبد الملك بن الحارث بن الحكم. وقد وصل إلى وادي القرى فكتب المختار لابن الزبير إن كنت تريد مدداً، أنجدتك فأجابه إن كنت على طاعتنا فلا بأس من إرسال المدد. فأرسل المختار مدداً قوامه ثلاثة آلاف بإمرة شرحبيل بن ورس الهمداني وقال له: ادخل المدينة فإذا دخلتها فاكتب إليّ حتى يأتيك أمري. وكان يريد أخذ المدينة من ابن الزبير، ثم يركب هو إلى مكة بعد ذلك. إلا أن ابن الزبير كان يعرف خديعة المختار فأرسل لذلك قوة بإمرة الغباس بن سهل بن سعد الساعدي فالتقى بقائد المختار فعرف منه مهمته فقضى على أكثر جنده في ليل.

ثم أرسل المختار إبراهيم بن الأشتر في جيش لملاقاة عبيد الله بن

زياد فالتقى به قريباً من الموصل فجرت معركة عظيمة بين الطرفين في مطلع عام ٦٧هـ، قتل فيها من جند الشام عبيد الله بن زياد، والحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وامتلك ابن الأشتر المنطقة فولى الولاة على نصيبين والموصل، ودارا (دير الزور)، وسنجار. وأرسل إلى المختار رأس ابن زياد.

أرسل ابن الزبير أخاه مصعباً والياً على البصرة ليكون كفئاً للمختار، وكان ابن الأشتر قد استولى على أكثر الجزيرة بعد أن قتل ابن زياد، واستهان بالمختار فطمع مصعب بن الزبير بابن الأشتر وأرسل مصعب بمحمد بن الأشعث بن قيس إلى خراسان واستقدم نائبه هناك المهلب بن أبي صفرة.

سار مصعب بن الزبير من البصرة نحو الكوفة ومعه الأحنف بن قيس، والمهلب بن أبي صفرة، وخرج المختار والتقى الطرفان، وهزم جيش المختار، وتراجع إلى الكوفة وقتل فيها سنة ٦٧هـ في ١٤ رمضان. فكان المختار كذاباً يظهر أنه يعمل لآل البيت ويدعو لمحمد بن الحنفية ويبطن الدعوة لنفسه، ويدعو لابن الزبير أحياناً على رؤوس الأشهاد ويظهر الكهانة في الباطن فكان كذاباً وكانت تحته أم ثابت بنت سمرة بن جندب، وعمرة بنت النعمان بن بشير.

ودعا مصعب إبراهيم بن الأشتر فجاءه وأكرمه، وأرسل المهلب بن أبي صفرة إلى الجزيرة. وكان قد ولي على البصرة حين خرج منها عبيد الله بن عبد الله بن معمر، واستقر هو بالكوفة، ثم إن عبد الله بن الزبير ولى على البصرة ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير مدة، ثم أعادها مع الكوفة إلى أخيه مصعب.

وخرج مصعب لملاقاة عبد الملك القادم من الشام فهزم أمامه، وقُتل مصعب، ودخل عبد الملك العراق، وبايعه أهلها عندما نزل بالنخيلة قرب الكوفة. وولى على الكوفة قطن بن عبد الله الحري مدة أربعين يوماً، ثم عزله وولى على العراق أخاه بشر بن مروان.

وتولى أمر البصرة أبان بن عثمان بن عفان ثم أرسل عبد الملك والياً عليها خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد فأناب عليها عبيد الله بن أبي بكرة.

٥ ـ الحجاز:

أ ـ المدينة: أرسل مروان بن الحكم سنة ٦٥ جيشاً بإمرة حبيش بن دلجة العتيبي إلى المدينة المنورة لينتزعها من ابن الزبير فلما وصل إليها هرب منها واليها جابر بن الأسود بن عوف. فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة جيشاً من البصرة إلى ابن دلجة بالمدينة، فلما سمع بهم حبيش سار إليهم، وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائباً إلى المدينة، وأمره أن يسير في طلب حبيش، فسار في طلبهم حتى لحقهم بالربذة، فقتل حبيش بسهم، وهزم بقية الجيش، وتحصّن خمسمائة منهم في المدينة ثم نزلوا على حكم عباس فقتلهم صبراً.

وأعطى ابن الزبير أخاه عبيدة إمرة المدينة، ثم عزله، وولى مكانه أخاه مصعباً، ثم نقل إلى البصرة، وتولى أمر المدينة عبد الرحمن بن الأشعث سنة ٦٦هـ، جاء جابر بن الأسود بن عوف وبقي فيها من سنة ٦٧هـ حتى عام ٧١هـ حيث تولى له أمرها طلحة بن عبد الله بن عوف، ثم إن المدينة خضعت لحكم عبد الملك فولى عليها طارق بن عمرو الذي أرسله مدداً للحجاج.

ب ـ مكة المكرمة: أكمل عبد الله بن الزبير بناء الكعبة، وكان قد مال جدارها بسبب رمي المنجنيق فهدم الجدار حتى وصل إلى أساس سيدنا إبراهيم وأدخل فيها الحجر (حجر إسماعيل)، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر. وأعاد بناءها على ما كان رسول الله ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل، وذلك كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن عن طريق عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «لولا

حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، فبناها ابن الزبير على ذلك كما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ فجزاه الله خيراً.

واستمر أمر مكة بيد عبد الله بن الزبير حتى وصل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الطائف في أواخر عام ٧٢هـ ثم نزل إلى الحرم وحاصر ابن الزبير مع مطلع هلال ذي الحجة، واستمر الحصار حتى ١٧ جمادى الأولى حيث قتل ابن الزبير، رضي الله عنه، وتولى الحجاج أمر مكة وخطب الناس فقال: أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهى عنها أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله، [وقيل أنه قال: يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله، ولو كانت مكة شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير] ثم ضمت له المدينة وعزل عنها طارق بن عمرو الذي تولي أمرها بعد أن جاء مدداً من قبل عبد الملك إلى الحجاج.

٦ ـ **خراسان**: بايع أهل خراسان بعد موت يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه حتى يبايع المسلمون لهم خليفة، ثم اختلفوا فتركهم، وأبقى عليهم المهلب بن أبي صفرة.

جربت حروب بين عبد الله بن خازم وبين الخرشي بن هلال القزيعي وطالت حروب ابن خازم حتى تم له أمر خراسان، واستمر فيها حتى قتل

سنة ٧٢هـ. وكانت طاعته لابن الزبير. وكان عبد الملك قد كتب له بطاعته على أن تكون له خراسان مدة عشر سنوات فأبى، فراسل عبد الملك نائب ابن خازم على مرو وهو بكير بن وشاح ومناه بولاية خراسان فوافق، وثار على ابن خازم وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها ابن خازم. فأعطى عبد الملك ولاية خراسان لبكير بن وشاح.

الخوارج

اشتد أمر الخوارج في البصرة إلا أن نافع بن الأزرق قد قتل في معركة مع أهل البصرة، . فولى الخوارج عليهم عبيد الله بن ماجور، فسار بهم إلى المدائن فقتلوا من أهلها كثيراً، ثم غلبوا على الأهواز، وجبوا الأموال، وأتتهم الأمداد من اليمامة والبحرين، ثم ساروا إلى أصفهان وعليها عتّاب بن ورقاء الرياحي فهزمهم، وقتل أميرهم عبيد الله بن ماجور، فتولى أمر الخوارج قطري بن الفجاءة الشاعر المشهور.

وجرت معركة بين أهل البصرة والخوارج انتصر فيها الخوارج فخافهم أهل البصرة فعزل ابن الزبير عامله على البصرة عبد الملك بن الحارث، وولى مكانه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وأرسل المهلب بن أبي صفرة الأزدي على عمل خراسان، فلما وصل إلى البصرة طلب أهل البصرة منه قتال الخوارج فقال: إن أمير المؤمنين قد بعثني إلى خراسان، فكتبوا له كتاباً على لسان ابن الزبير للقيام بهذه المهمة فوافق، وأخبر ابن الزبير بذلك، فأمضى لهم ذلك. واشترط المهلب على أهل البصرة أن يكون له ما غلب عليه من أموال الخوارج، وأن يمدوا جيشه من بيت مالهم فوافقوا، فتولى المهلب قتال الخوارج، فانتصروا عليه ثم ثبت لهم، بعد أن جمع إليه المنهزمون وخطب فيهم فقال: أما بعد أيها الناس، فإن الله تعالى ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فينهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، وأنتم فرسان الصبر وأهل النصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزموا معكم الآن (ولو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً) ثم قال: عزمت على كل رجل منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه، ثم أمشوا بنا إلى عسكرهم فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيولهم في طلب

إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع خيولهم إلا وقد استبحتم عسكرهم، وقتلتم أميرهم، ففعل الناس ذلك، فزحف بهم المهلب بن أبي صفرة على معسكر الخوارج فقتل منهم خلقاً كثيراً[(١)]، وهرب الخوارج إلى كرمان وأرض أصبهان، وأقام المهلب بالأهواز.

ولما نقل مصعب المهلب بن أبي صفرة من خراسان إلى الجزيرة قوي أمر الخوارج، وقاموا بحركات في فارس في نواحي اصطخر وأصبهان والأهواز وكان واليها عمر بن عبيد الله بن معمر، فحاربهم مصعب، وابن معمر، وكانوا كلما هزموا في ناحية انتقلوا إلى أخرى، وقتلوا ما شاء لهم هواهم، فكتب مصعب إلى المهلب وهو على الموصل أن يسير لقتال الخوارج فسار إلى الأهواز وقاتلهم مدة، وكان أبصر الناس بقتالهم. وأرسل مكان المهلب على الموصل إبراهيم بن الأشتر.

وعندما آل أمر العراق إلى عبد الملك أمّر المهلب بن أبي صفرة على الأهواز فقتل منهم مقتلة عظيمة وطاردهم في كل مكان، وكان بشر بن مروان يمده بالجند والأموال حسب أوامر عبد الملك.

وخرج أبو فديك الحارثي[(٢)] بالبحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي[(٣)] الذي كان قد ثار باليمامة واستولى عليها منذ مقتل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، عام ٦١هـ. وبعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد والي البصرة من قبل عبد الملك إليه أخاه أمية بن عبد الله في جند كثيف، فهزمه أبو فديك. ثم وجه عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر لقتال أبي فديك، وسار معه من الكوفة عشرة آلاف ومن البصرة مثلها واستطاعوا قتل أبي فديك. وهكذا ضعف أمر الخوارج في اليمامة والبحرين. وبقيت للأزارقة قوة في الأهواز.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

(٢) أبو فديك: عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب، كان من أتباع نافع بن الأزرق ثم فارقه، قتل نجدة بن عامر الحنفي، وسيطر على البحرين واستقل بها حتى قتل عام ٧٣هـ.

(٣) **نجدة بن عامر الحروري الحنفي**: من بني حنيفة، من بكر بن وائل، وكان رأس الفرقة (النجدات)، انفرد عن سائر الخوارج بآراء ففارق نافع بن الأزرق، استقل باليمامة، وأتى البحرين واستقر بها، وانتصر عدة مرات على الجيوش التي كان يبعثها إليه مصعب بن الزبير، وسيطر على اليمامة والبحرين وعمان.

نظـرة عـامّة

وعلى الرغم من هذه الخلافات الكبيرة التي حدثت بين آل الزبير وبني أمية إلا أنها كانت خلافات في الاجتهاد والرأي فكل طرف يشعر أن خدمة المسلمين إنما تكون على الطريقة التي يراها والخط الذي ينهجه، ويعيب على الآخر سلوكه، فابن مروان يرى في بخل ابن الزبير ما ينفر، وابن الزبير يرى في تمسك بني أمية بالسلطة وحبهم للحكم والإرث في ذلك ما يخالف الشرع، وتعصّب كل لرأيه حتى أدى الأمر إلى القتال وسفك الدماء، ولكن لم يطعن أحدهما بدين الآخر، ولم ينكر كل منهما فضل الثاني، ولننظر إلى مروان بن الحكم كيف بكى بعد معركة مرج راهط التي انتصر جيشه فيها، وجي له برأس خصمه الضحاك بن قيس الفهري، وقال: أبعد ما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل بالسيوف على الملك؟ وقول روح بن زنباع الجذامي في خطبته أثناء العمل على مبايعة مروان بن الحكم إذ قال: (. . . وأما ابن الزبير فإنه ابن حواري رسول الله ﷺ، ولا ينكر أحد فضله ولكنه خلع بيعة خليفتين. . .) وحتى الحجاج بن يوسف الثقفي قد خطب أهل مكة بعد قتل ابن الزبير فقال: أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازع أهلها. . . .».

وكان عبد الملك يحب مصعب بن الزبير حباً شديداً، وكان خليلاً له قبل الخلافة ولما قُدّم إليه رأس مصعب بكى وقال: (والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم. ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بدفنه ومواراته هو وابنه، وإبراهيم بن الأشتر في قبور بمسكن قرب الكوفة.

ولم تكن جماعة تطعن في دين الأخرى أو تتهمها، ، وإنما كان الناس يقاتلون مع أمرائهم. ومن غلب على مصر أصبح عليه أميراً وأطاعه أهله. وعلى كل كانت فتنة أضعفت شأن المسلمين فقتلت الأعداد منهم. وأطمعت فيهم أعداءهم وخاصة الروم حتى صالحهم عبد الملك ودفع لهم أتاوة، وتوقفت الفتوحات أو بالأحرى توقف انتشار الإسلام، ولم يتوسع إلا على رقعة صغيرة في إفريقية، إذ ولّى عبد العزيز بن مروان وهو والي مصر على إفريقية حسان بن النعمان ففتح قرطاجنة (موقع مدينة تونس اليوم).

والمجتمع متماسك رغم تباين الآراء وملتزم بحدود الشرع، لا يبيح أحد حرمة أحد، ولا يقاتل إلا بأمر أو حين يرى معصية، اللهم إلا الخوارج الذين كانوا يستبيحون قتال المسلمين، فيمعنون في القتل، ويعتدون على الآمنين، وقد يصل تعديهم إلى قتل النساء، وذلك لأنهم يرون الناس قسمين مسلم أو كافر، فالمسلم من يرى رأيهم، وما عدا ذلك فهم على غير الجادة.

جدول الولايات
في عهد ابن الزبير

السنة	المدينة	الكوفة	البصرة	مصر
٦٤	عبيدة بن الزبير	عامر بن مسعود	عبد الملك بن عبد الله بن عامر عبد الله بن الحارث	عبد الرحمن ابن جحدر
	جابر بن أسود ابن عوف	عبد الله بن يزيد الخطمي	عمرو بن عبيد الله	
٦٥	مصعب بن الزبير	عبد الله بن مطيع	الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة	عبد العزيز ابن مروان
٦٦	عبد الرحمن بن الأشعث	المختار الثقفي	معصب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٦٧	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان.
٦٨	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	حمزة بن عبد الله ابن الزبير مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٦٩	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٧٠	جابر بن الأسود ابن عوف	مصعب بن الزبير	مصعب بن الزبير	عبد العزيز ابن مروان
٧١	طلحة بن عبد الله ابن عوف	قطن بن عبد الله الحري	أبان بن عثمان ابن عفان	عبد العزيز ابن مروان

السنة	المدينة	الكوفة	البصرة	مصر
٧٢	طارق بن عمرو	بشر بن مروان	خالد بن عبد الله	عبد العزيز ابن مروان
٧٣	الحجاج	بشر بن مروان	بشر بن مروان	عبد العزيز ابن مروان

الأُسَرة المَرَوانيَّة

عبد الملك بن مروان

٧٣ - ٨٦ هـ.

حَيَاته

ولد سنة ٢٦ للهجرة في المدينة، وأبوه مروان بن الحكم، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، فهو أموي من جهة الأب والأم. سمع من سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وشهد يوم الدار (حصار عثمان) مع أبيه وعمره عشر سنوات، وكان قبل أن يلي الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن، وقال الأعمش عن أبي الزناد كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذويب، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة.

وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حُديج السكوني سنة إحدى وأربعين، وسار مع المجاهدين مرة أخرى تحت لواء ابن حديج سنة خمس وأربعين، وقد سار على رأس ألف رجل إلى (جلولاء)[1] ففتحها بعد حصار، كما سار على بعث أهل المدينة مع معاوية بن حديج وذلك سنة خمسين للهجرة، وعاد بعدئذ إلى المدينة فأقام بها.

وبقي مروان في المدينة حتى وقعة الحرة حيث أخرج أهل المدينة بني أمية فسار إلى الشام، وملك أبوه الشام، ثم حاز على مصر، ولم يلبث أن توفي، فآل ملك مصر والشام إليه، وكانت بقية الأمصار لأمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، ثم انتزع العراق، وظفر بالحجاز بعد مقتل ابن الزبير، فبايعته بعد ذلك اليمن وخراسان وغدا خليفة للمسلمين منذ عام ٧٣هـ.

---

(١) جلولاء: مدينة كانت عامرة على مقربة من القيروان تبعد عنها ٤٠ كيلومتراً، وهي الآن أطلال يعرف مكانها عين جلولاء.

وكان أخوه عبد العزيز والياً على مصر منذ دخلها مع أبيه مروان سنة ٦٤هـ، وكان ولي عهده فكتب إليه عبد الملك يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد أو يكون ولي العهد من بعده، فإنه أعز الخلق عليه، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد. فكتب إليه عبد الملك يأمره بحمل خراج مصر، وكان من قبل لا يحمل إليه شيئاً من ذلك، فكتب إليه عبد العزيز يقول: إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سناً لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً فإن رأيت ألا تعتب عليّ بقية عمري فافعل، فرق له عبد الملك وكتب إليه: لا أعتب عليك بقية عمرك. ومات عبد العزيز قبل عبد الملك سنة ٨٥هـ، ومات عبد الملك بعده بعام.

ووصى بالخلافة من بعده لابنه الوليد، وبه كان يكنى، ثم لابنه الآخر سليمان بعد أخيه الوليد.

كان عبد الملك رحمه الله ربعة من الرجال أقرب إلى القصر، مفتوح الفم (أفوه)، أبيض، ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف.

تزوج عبد الملك ولاّدة بنت العباس بن جَزء بن الحارث فولدت له:

١ ـ الوليد: الذي تولى الخلافة بعد أبيه.

٢ ـ سليمان: الذي تولى الخلافة بعد أخيه.

٣ ـ مروان الأكبر: مات صغيراً.

٤ ـ عائشة:

وتزوج عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فأنجبت:

٥ ـ يزيد: الذي تولى الخلافة بعد ابن عمه عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ مروان.

٧ ـ معاوية: مات صغيراً.

٨ ـ أم كلثوم.

وتزوج عائشة أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي فولدت له:

٩ ـ هشام: الذي تولى الخلافة بعد أخيه يزيد.

وتزوج عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله فولدت له:

١٠ ـ أبا بكر، واسمه بكار.

وتزوج أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له:

١١ ـ الحكم: مات صغيراً.

وتزوج أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة فأنجبت له:

١٢ ـ فاطمة التي تزوجها عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي. وله من أمهات الأولاد:

١٣ ـ عبد الله.

١٤ ـ مسلمة: القائد الذي حاصر القسطنطينية.

١٥ ـ المنذر.

١٦ ـ عنبسة.

١٧ ـ محمد.

١٨ ـ سعيد الخير.

١٩ ـ الحجاج.

وهكذا كان لعبد الملك من الأولاد ستة عشر، ومن البنات ثلاث.

بويع عبد الملك بعد وفاة أبيه في مصر والشام، وبويع بالعراق بعد

مقتل مصعب بن الزبير، وبالحجاز واليمن وخراسان بعد مقتل عبد الله بن الزبير وغدا أميراً للمؤمنين منذ ذلك الوقت عام ٧٣هـ وقد استقر له الوضع تماماً، الأمر الذي جعله يمكن من أن يعود لمنازلة الروم الذين طمعوا في ضعف المسلمين نتيجة اختلافاتهم، فأعاد فتح المغرب، وردّ الروم في الأناضول وأرمينيا واستعاد بعض الأجزاء، أما الترك في الشرق وبلاد ما وراء النهر فقد حاربهم وانتصر عليهم، إلا أنه لم تحدث فتوحات واسعة هناك بسبب أن المشرق كانت فيه بعض القلاقل إذ عاث الخوارج من الأزارقة في الأهواز وبلاد فارس كثيراً من الفساد، وكذلك الصفرية منهم في الجزيرة وبلاد العراق وأنفق الخليفة عبد الملك وواليه الحجاج على المشرق كثيراً من الوقت لمحاربة هؤلاء الخارجين على الحكم، وكذلك شغلت حركة عبد الرحمن بن الأشعث الدولة وقتاً من الزمن كل هذا جعل بلاد المشرق تبقى على وضعها من حيث التوسع وإن جرى فيها قتال، وكثيراً ما كان لمصلحة المسلمين، وقد برز اسم الملك رتيبل بين أعداء المسلمين من الترك آنذاك.

وبهذا الاستقرار الذي امتاز به عهد عبد الملك عدّ مقدمةً للفتوحات الكبرى التي حدثت في عهد ابنه الوليد من بعده، ومقدمة لأعمال كبيرة حدثت في عهده هو بالذات والعهد الذي تلاه، ولعل منها النقش على الدراهم والدنانير عام ٧٦هـ، وتعريب الدواوين إذ بقي أهم هذه الدواوين وهو ديوان الخراج يستعمل اللغات الأجنبية، هي ذلك الوقت كما كانت حالها فيها قبل الإسلام، فكان يكتب في الشام باليونانية، وفي العراق بالفارسية، وفي مصر بالقبطية واليونانية ويشرف هذا الديوان على الشؤون المالية للدولة، وكان موجوداً في عواصم الأقاليم وله فروع في عدد من المدن. وكان معنى استعمال اللغة الأجنبية لغة لهذا الديوان المحافظة على موظفيه من الأجانب أو من أهل الكتاب الذميين، كما أن لذلك معنى آخر، وهو استمرار وجود هذه اللغات ضمن أقاليم الدولة الإسلامية الأمر الذي يجعل بعض الناس يفكرون في تعلم هذه اللغات، وهذا يتناقض مع

شخصية الدولة الإسلامية المتميزة، هذا إضافة إلى الجانب السياسي إذ أن هؤلاء الغرباء يعرفون أهم شؤون الدولة، ويتعرفون على شيء من أسرارها. وهذا لا يصح أبداً إذ من المحتمل أن تنقل هذه الأسرار إلى الأعداء ما داموا يلتقون مع هؤلاء الغرباء في عقيدة واحدة، لذا أصدر عبد الملك أوامره بتعريب هذه الدواوين. وكان ذلك عام ٨١هـ في الشام، و ٨٢ في العراق، و٨٦هـ في مصر.

وتوفي عبد الملك عام ٨٦هـ بعد أن بايع لولديه من بعده الوليد ثم سليمان.

الولايات

كانت أكثر الولايات هادئة باستثناء العراق التي شغلت بأمر الخوارج، وابن الأشعث.

١ ـ **الشام**: استقر الوضع لبني أمية فيها تماماً.

٢ ـ **الحجاز**: تولى الحجاج بن يوسف الثقفي أمر الحجاز بعد القضاء، على ابن الزبير، كما أضيفت له اليمامة واليمن، ثم نقل الحجاج إلى العراق، وأعطيت المدينة ليحيى بن أبي العاص عام ٧٥هـ ثم عزل عنها، وتولى أمرها أبان بن عثمان بن عفان مدة سبع سنوات، ثم خلفه عليها هشام بن إسماعيل المخزومي بقية أيام عبد الملك.

٣ ـ **العراق**: ولي أمر البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد عام ٧٤هـ، وبعدها نقل الحجاج إليها، وأضيفت له الكوفة أيضاً، وبقية المشرق، فكان هو الذي يرسل النواب عنه إلى خراسان وسجستان أو بأمر من الخليفة، واستمر هذا الوضع مدة أيام عبد الملك وإلى ما بعد ذلك. وقد بنى الحجاج مدينة واسط عام ٨٤هـ، فأضحت قاعدة العراق.

وكان على خراسان بكير بن وشاح، ثم أرسل إليها أمية بن عبد الله، ولكنه قتل عام ٧٦هـ، إذ ثار عليه بكير بن وشاح وقتله، ولكن عبد الملك بن أمية تولى أمر خراسان مكان أبيه. ثم تولى عبد الله بن أبي بكرة أمر خراسان عام ٧٨هـ، وفي هذا العام أضحت سجستان إمارة خاصة أعطيت للمهلب بن أبي صفرة، ولكن لم يلبث الحجاج أن نقل المهلب إلى خراسان وعبد الله بن أبي بكرة إلى سجستان.

وتوفي المهلب بن أبي صفرة عام ٨٢ هـ فتولى ابنه يزيد أمر خراسان

حتى عام ٨٥هـ حيث استبدله الحجاج بأخيه الفضل بن المهلب، وبعد عام تولى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان، وتوفي عبد الملك وهو عليها وال.

أما سجستان فقد استشهد أميرها عبد الله بن أبي بكرة عام ٧٩هـ أثناء قتاله الترك، فجهز الحجاج جيشاً، وأعطى إمرته لعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وولاه سجستان، ثم لم يلبث أن قام بحركته عام ٨١هـ، وقد دامت عامين.

وكانت حركة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ذات جذور نفسية وشخصية واجتماعية. إذ كان عبد الرحمن ذا همةٍ عالية ويتطلع إلى أعلى، ويرغب في السيطرة وكان بينه وبين الحجاج كراهية حتى نظر كل منهما إلى الغدر بالآخر، وقد وجد الحجاج أن من باب السياسة والمصلحة والتمكين لنفسه والتخلص منه إبعاده عن العراق والبيئة التي يعيش فيها، وبقي ينتظر الفرصة المناسبة ليقوم بهذا الأمر، فلما استشهد عبيد الله بن أبي بكرة والي سجستان أثناء قتاله للترك عام ٧٩هـ وجد الحجاج الفرصة مناسبة فاستغلها بأن أرسله عام ٨٠هـ على رأس جيش قوامه أربعون ألفاً من أهل البصرة والكوفة لقتال ملك الترك (رتبيل). وقد وجد ابن الأشعث في هذا ما كان يحلم به، إلا أن عمه إسماعيل بن الأشعث قد نصح الحجاج وقال له: إني أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراة، فقال: ليس هو هنالك، هو لي حبيب، ومتى أرهب أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي. وكان الحجاج يعرف ذلك، وهذا مجال للتنكيل به. هذا إلى جانب أن عبد الرحمن بن الأشعث كان يعرف نقمة الناس وأهل العلم خاصة على الحجاج لقسوته وشدته فيظن أنه إن قام بحركة تبعه الناس عامة وأيده العلماء.

سار عبد الرحمن بن الأشعث بالجيش إلى بلاد الترك، ولما علم رتيبل بسيره حاول أن يعتذر عما وقع منه في العام المنصرم بالنسبة إلى المسلمين وأنهم هم الذين أجبروه على قتالهم، وأنه مستعد لدفع الخراج للمسلمين إلا أن ابن الأشعث لم يأبه بهذا الكلام، ودخل بلاد الترك غازياً،

وتوغل فيها مسافة كبيرة، واقترب الشتاء، ورأى ابن الأشعث أن يتوقف ليصلح المسلمون ما استولوا عليه، فينظمونه ويتمكنون فيه، ويكون الشتاء ببرده القارس في تلك المناطق الجبلية قد انتهى فيعاود الغزو وفي هذا حكمة وسياسة، وأخبر بذلك الحجاج، إلا أن الحجاج لم يوافقه، بل طلب منه التوغل، وألحّ عليه في ذلك، واتهمه بالجبن، وقسا عليه بالكلام، فتضايق ابن الأشعث، وأخبر بذلك جنده، وأعلمهم أنه مصرّ على رأيه وهم الذين يقاسون المشقة في تلك الأصقاع، وأنبأهم بكلام الحجاج الذي فيه غلظة، وأعلمهم أنه قد خلع الحجاج فوافقوه، واتجه نحو الحجاج، وأخبر الحجاج عبد الملك فأمده بالجند، وتقدم نحو ابن الأشعث حتى نزل (تستر) في الأهواز، فهزمت مقدمة الحجاج، وفرّ الحجاج إلى البصرة وتبعهم ابن الأشعث وتمكن من دخول البصرة وخطب الناس فبايعوه على خلع الحجاج وابن مروان، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من فقهاء وقرّاء وشيوخ وشباب لما يقاسون. والتقى الطرفان في معركة الزاوية عام ٨٢هـ فانتصر ابن الأشعث في اليوم الأول ولكنه هزم في اليوم التالي، وانحاز إلى الكوفة فدخلها، وبايعه أهلها على خلع الحجاج وابن مروان.

استشار عبد الملك رجاله بالأمر فأشاروا عليه بخلع الحجاج عن العراق ليرضي أهله فوافق على ذلك وأرسل ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان ومعهما جنود كثيرة، وقال لهما: اذهبا إلى أهل العراق وقولا لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عزلته عنكم، وبعثت لكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان، وقال لهما: فإن لم يجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج هو ما عليه، وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

ولما بلغ الحجاج ما كتبه عبد الملك لأهل العراق شق عليه ذلك، وكتب إلى عبد الملك يقول: يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق

نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان؟ فلما سألهم ما تريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه، وإن الحديد بالحديد يفلح، كان الله لك فيما أرتأيت والسلام عليك. ولكن عبد الملك أبى إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق.

وعندما عرض محمد بن مروان، وعبد الله بن عبد الملك هذه الأمور على أهل العراق ردّوا بأن ننظر في أمرنا غداً، ونرد عليكم الخبر عشية، واجتمع الأمراء مع ابن الأشعث فندبهم بالموافقة حتى أمن عزل خصمه الحجاج، والإمرة لنفسه وهذا ما يعمل له، إلا إن الناس قد نفروا من كل جانب، وقالوا: لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عدداً وعُدداً، وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيبهم إلى ذلك أبداً، ثم جددوا خلع عبد الملك والحجاج واتفقوا على ذلك، فلما وصل الخبر إلى محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك قالا للحجاج شأنك بهم إذن فنحن على طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين.

وبرز كل من الفريقين للقتال في موقع قرب الكوفة يقال له دير الجماجم، وكانت الحرب يومياً، فأهل العراق يأتيهم الطعام والعلف من الأقاليم، وأهل الشام في ضيق، واستمر ذلك حتى انتهى عام ٨٢هـ وكانت الدائرة في معظم الأيام تدور على أهل الشام.

وفي نهاية القتال انتصر الحجاج بعد صبر مرير، وهرب ابن الأشعث، ودخل بلاد الترك فأكرمه (رتبيل)، وتبع ابن الأشعث جيش من أنصاره فأخذوا إقليم سجستان وطلبوا منه العودة إليهم والسير بهم إلى خراسان، فأتاهم وبعد أن قطعوا شوطاً اختلف معهم فعاد إلى (رتبيل)، وسار بقية الجيش بإمرة عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة إلى خراسان وعليها يزيد ابن المهلب فأراد إبعادهم دون قتال فأبوا فقاتلهم، وقتل منهم كثيراً، وأسر كثيراً، وأرسلهم إلى الحجاج فقتل منهم عدداً كبيراً وعفا عن بعض.

أما ابن الأشعث فقد استقر عند رتبيل ثم إن الحجاج قد أرسل تهديداً لملك الترك بإرسال ابن الأشعث إليه فوافق فقتله، وأرسل إليه رأسه مقابل تخفيف ما عليه من الخراج وذلك عام ٨٥هـ.

وقتل الحجاج من العلماء الكثير ومنهم سعيد بن جبير، رحمه الله، وعفا عن الشعبي إذ كان قد سار إلى مسلم بن قتيبة وكان الحجاج يوم ظهر قد نادى في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بمسلم بن قتيبة فهو آمن، فلحق بمسلم عدد كبير ممن كان مع ابن الأشعث.

٤ ـ **الجزيرة**: وقد ولي أمر الجزيرة وأرمينية محمد بن مروان أخو عبد الملك، فكان جهاده هناك.

٥ ـ **مصر**: كان والي مصر عبد العزيز بن مروان واستمر عليها حتى توفي عام ٨٥هـ، فأعقبه عبد الله بن عبد الملك، وكانت إفريقية في بادئ الأمر تتبع مصر، ويسير إليها الأمير من قبل الوالي في مصر وكان في القيروان زهير بن قيس البلوي(١) يوم استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار سنة ٦٣ فعهد إليه أمرها. ثم أضحت ولاية خاصة منذ عام ٧٤هـ، وتولى أمرها حسان بن النعمان الغساني(٢)، ثم

(١) زهير بن قيس البلوي، أبو شداد: شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، وعمره آنذاك عشرون سنة، ثم أصبح في جيش عقبة بن نافع واستخلفه على مغداش قرب سرت في ليبيا قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط سنة ٤٦هـ ثم استخلفه عقبة بن نافع على القيروان حين سار إلى المغرب سنة ٦٢هـ، وبعد استشهاد عقبة انتقل زهير إلى برقة تحت ضغط أعدائه من الروم والبربر، ورجع إلى مصر، وكان ممن بايع ابن الزبير، وسار لرد مروان بن الحكم عن مصر، ولكنه هزم، وعفا عنه عبد العزيز بن مروان وأرسله إلى برقة وفي عام ٦٩هـ كلف بغزو إفريقية واستشهد عام ٧١هـ.

(٢) حسان بن النعمان الغساني: أهله من الغساسنة الذين كانوا ملوك الشام، وقد أسلم عدد منهم بعد الفتح، وبقي آخرون على ديانتهم النصرانية، اختير والياً على إفريقية عام ٧٤هـ فجاهد، واستقر له أمر إفريقية، وبنى تونس، ثم عزل عام ٨٥هـ بعد أن ولى على المغرب من قبله رجلاً من جنده يسمى أبو صالح، ورفض بعدها تولي منصب لبني أمية. وخرج غازياً إلى أرض الروم تحت لواء مسلمة بن عبد الملك فمات هناك سنة ٨٧هـ.

عزل، وتولى أمرها موسى بن نصير[1] عام ٧٨هـ.

---

(١) موسى بن نصير، أبو عبد الرحمن: من لخم، ولد سنة ١٩هـ، وكان أبوه من سبايا عين التمر الذين سباهم خالد بن الوليد سنة ١٢هـ، وأعتق بنو أمية نصيراً، فأقام بالشام، وأصبح من حرس معاوية بن أبي سفيان، ثم عليهم، ثم على جيوشه وكان ابنه موسى من بعده، ، إذ تولى البحر، وغزا قبرص وكان نائب معاوية عليها. وفي عام ٦٤هـ كان موسى مع الضحاك بن قيس في مرج راهط فلما هزم الضحاك لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وسار معه إلى مصر.

وفي عام ٧٢هـ كان موسى وزير بشر بن مروان في العراق، وبعد وفاة بشر بن مروان خشي الحجاج فانتقل إلى عبد العزيز بن مروان في مصر الذي عزل حسان بن النعمان الغساني عن إفريقية عام ٨٥هـ، وولى موسى بن نصير مكانه، فأخضع المغرب، وتقدم في الأندلس ففتحها، ثم سار إلى الشام وولى مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، في أثناء عودته وأبقى ابنه عبد الله على القيروان، ووصل إلى دمشق وذهب للحج مع الخليفة سليمان بن عبد الملك فمات بالمدينة سنة ٩٧هـ.

الفتوحات

استغل الأعداء حروب المسلمين فيما بينهم فقاموا بحركات على كل جبهات القتال، وهدد الروم بلاد الشام، واضطر عبد الملك إلى أن يدفع لهم أتاوة سنوية ريثما ينتهي من تدبير أمره، ووصلوا في عام ٧٩هـ إلى أنطاكية، وتمكنوا في إفريقية من قتل عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار عام ٦٣هـ، ثم قتل زهير بن قيس البلوي عام ٧١هـ، وحتى تراجع المسلمون إلى برقة، وتركوا القيروان قاعدتهم الأولى وراءهم.

ونقض أهل أرمينيا العهد، وكذا الترك على الجبهة الشرقية، وهاجموا المسلمين عدة مرات، فلما اجتمع أمر المسلمين على خليفة واحد، وتوحد أمرهم قاموا برد الضربة، وعاد للجهاد أثره وحدثت فتوحات على الجبهات الإسلامية كلها.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ بلاد الروم: لم يحدث تغيير يذكر على هذه الجبهة، وكانت الثغور تُحصّن باستمرار، وتتوالى عليها الصوائف والشواتي، والغزو لا ينقطع أبداً، وكان محمد بن مروان أمير الجزيرة هو الذي يتولى أمر الغزو في أغلب الأحيان فقد غزا الروم عام ٧٣هـ. وهزمهم في العام نفسه عثمان بن الوليد في جهات أرمينيا، وكان في أربعة آلاف مقاتل والروم في ستين ألفاً. وخرج الروم من جهات مرعش متجهين نحو بلاد الشام عام ٧٥هـ فوقف في وجههم محمد بن مروان وردهم على أعقابهم مدحورين. وتوقف غزو أهل الشام عام ٧٩هـ بسبب مرض الطاعون الذي انتشر بينهم في ذلك العام إلا أن الروم قد وصلوا إلى جهات إنطاكية وظنوا أن هناك

مانعاً سياسياً خطيراً حال دون غزو المسلمين فتقدموا نحوهم يريدون استغلال الفرصة. ودخل عبد الملك بن مروان بنفسه المصيصة عام ٨٤هـ على رأس صائفة قادها بنفسه. ثم غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم عام ٨٦هـ.

ب - **في البحر**: غزا عطاء بن رافع جزيرة صقلية عام ٨٤هـ.

- حـ - **في إفريقية**: بعد أن وصل عقبة بن نافع[(١)] إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقام بفتوحاته هناك عاد إلى قاعدته القيروان، وفي طريق عودته فاجأه الروم وهو في عدد من جنده لا يزيد على ثلاثمائة فارس، وكلموا كسيلة الذي كان في عسكر عقبة فأظهر غدره وجمع أقرباءه وهاجموا عقبة فاستشهد ومعه أبو المهاجر دينار وذلك عام ٦٣هـ. وكان نائبه على القيروان زهير بن قيس البلوي فقصده كسيلة، واضطر زهير إلى العودة إلى برقة، وانتزع كسيلة القيروان من أيدي المسلمين، وقد كثر الروم في إفريقية إذ توقفت هجمات المسلمين عليهم عن طريق بلاد الشام بسبب الأحداث التي وقعت في بلاد المسلمين كما أن البربر قد قويت شوكتهم، وعز أمرهم بمجيء الروم إليهم، وكتب زهير إلى عبد الملك يخبره بذلك فأرسل إليه قوة كبيرة من بلاد الشام سار بهم إلى إفريقية واقترب من القيروان عام ٦٩هـ، ونازل كسيلة في (ممس) إلى الغرب من القيروان فانتصر عليه وقتله، ولاحق المسلمون الروم والبربر حتى المغرب الأقصى، وكانت معركة (ممس) معركة حاسمة ذل بعدها الروم تماماً، وضعفت مقاومة البربر. وجاءت مراكب كثيرة من الروم من القسطنطينية وجزيرة صقلية فأغارت على برقة فسلبت ونهبت كثيراً، وصادف ذلك قدوم زهير فطلب من جنده

---

(١) **عقبة بن نافع الفهري**: ولد قبل الهجرة بسنة، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص الذي وجهه عام ٤٢هـ إلى إفريقية، وفتح كثيراً من المناطق، وبنى القيروان عام ٥٠هـ، عزله مسلمة بن مخلد والي مصر، وأعطى إفريقية لمولاه أبي المهاجر دينار، ثم عاد عقبه والياً عام ٦٢هـ على إفريقية، فوصل إلى المحيط الأطلسي واستشهد في بلاد الزاب عام ٦٣هـ وله ضريح هناك.

الحركة السريعة نحو الساحل لاستنقاذ سبي المسلمين فلما رأوه استغاثوا به وهم يسحبون نحو المراكب فأسرع لنجدتهم وكانت الروم بأعداد كبيرة فجرت معركة استشهد فيها زهير عام ٧١هـ.

وأرسل عبد الملك عام ٧٣هـ حسان بن النعمان الغساني والياً على إفريقية فسار من مصر بأربعين ألفاً، ويقال إنه أول من دخل إفريقية من جند الشام فنزل طرابلس عام ٧٤هـ وسار بعدها إلى القيروان ولم يجد أثناء سيره سوى مقاومة خفيفة ثم سار إلى (قرطاجنة) وأمر بهدمها فهدمت حتى يحرم الروم من الإفادة من مرافئها، ثم أقام إلى الجنوب منها مدينة تونس، ولاحق الروم إلى الساحل فهزمهم في (بنزرت)، و (صطفورة)، ثم عاد إلى القيروان فمكث فيها مدة، ثم انطلق نحو الكاهنة في جبال (أوراس)، وكان البربر يطيعونها، وأمرها عظيم بخشونه الروم، والتقى الطرفان، وهزم المسلمون بعد بلاء عظيم، وأخبر حسان الخليفة عبد الملك بذلك فأمره بالانتظار حتى تصل إليه الأوامر. أما من ناحية الروم فقد سروا بهزيمة المسلمين وحرصوا على استرجاع إفريقية، ووصل أسطولهم عام ٧٨هـ إلى قرطاجنة بإمرة البطريق يوحنا فتمكن من دخولها، وقسا الروم على المسلمين قسوة شديدة تدل على حقدهم ومحاولة الانتقام، وتحصنوا في قرطاجنة والمدن المجاورة لها، وأخبر حسان أمير المؤمنين عبد الملك بما قسا به الروم.

بقي حسان مقيماً في مكان (قصور حسان) بالقرب من سرته مدة خمس سنوات، وهو يستحث عبد الملك لإرسال الجنود إليه إلا أن عبد الملك كان مشغولاً في حوادث المشرق التي شغلته مدة من الزمن وهي حركة الخوارج وحركة ابن الأشعث. وأرسل نجدة إلى حسان عام ٨١هـ وأمره بالسير نحو إفريقية فتحرك حسان نحو الكاهنة، فهزمها وقتلها عام ٨٢هـ، وعمل على الإحسان إلى البربر فحسن إسلامهم، ثم عاد إلى القيروان فاستراح بها مدة ثم اتجه شمالاً نحو قرطاجنة لمنازلة الروم فانتصر عليهم واحتمى البطريق يوحنا بقرطاجنة. وجرت معركة بحرية هزم فيها

الروم، وفتحت قرطاجنة، وانتقل البطريق يوحنا هارباً إلى بيزنطة. وطلب حسان النجدة البحرية من عبد الملك فأرسل له أسطولاً بإمرة عبد الملك بن قطن فاستولى على جزر (كركنة)، ثم أرسل حسان خيلاً إلى المغرب فسيطر على (فاس) وخلصت له المغرب تماماً، وحتى لا يعود الروم إلى قرطاجنة أنشأ حسان مرفأ تونس جنوب قرطاجنة.

قام حسان بتدوين الدواوين وضرب الدنانير والدراهم العربية، ثم عزل عن إفريقية عام ٨٥هـ.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: يعيش على حدود بلاد المسلمين الشرقية قبائل يعود أكثرها إلى أصول تركية، وإن كان يمكن تمييز ثلاث جبهات:

أ ـ **بلاد ما وراء النهر**: وهي التي تقع إلى الشمال الشرقي من بلاد المسلمين، وراء نهر جيحون، وتخضع لإمارات كثيرة، إذ أن أكثر سكانها يعيشون في واحات يديرها أمراء، وتتنقل فيما عداها قبائل رعوية تخضع لأمراء المناطق التي تعيش في جوارها. وقد كان المسلمون يغزون تلك الجهات ثم يعودون إلى خلف النهر. وغزا أمية بن عبد الله، ولكنه حوصر هو وجنوده، وأصابهم الجهد، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك، ثم عادوا إلى مرو وذلك عام ٧٧هـ، وقطع المهلب نهر (بلخ)، ونزل مدينة (كِش)، كما غزا حبيب بن المهلب صاحب مدينة بخارى عام ٨٠هـ، وغزا المهلب بلاد ما وراء النهر وفقئت عينه، ودخل يزيد بن المهلب قلعة (نيزك) بباذ غيس عام ٨٤هـ، كما أن أخاه المفضل قد فتح (شومان) و (باذغيس)، ولكن هذه الغزوات لم تكن للفتح والاستقرار وإنما لإضعاف معنويات الخصم ودراسة أرض المعركة للمستقبل.

ب ـ **شرق سجستان**: وتعيش هناك قبائل تركية، وقد اشتهر فيها أيام عبد الملك بن مروان أمر الملك (رتبيل)، وقد غزاه المسلمون كثيراً، وفي عام ٧٩هـ، هاجم بلاد المسلمين حتى قتل أميرهم عبيد الله بن أبي بكرة، وفي العام التالي غزا بلاده عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وتوغل فيها إلا أنه قام بحركة فيما بعد فتوقف القتال بين الطرفين، كما التجأ إليه ابن

الأشعث بعد هزيمته. وكان رتبيل يدفع مبلغاً من المال للمسلمين مقابل عدم تقدمهم في أرضه.

حـ ـ السند: وهي المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي من بلاد المسلمين، وتزدهر الحياة الزراعية فيها بسبب وجود نهر السند، كما يكثر السكان بسبب الحياة المستقرة وكثرة المياه وخصوبة التربة، واشتهر من حكام المنطقة (داهر) الذي قاتله المسلمون، وسبق أن أغار المسلمون على تلك الجهات منذ أيام الخلفاء الراشدين، وفي أيام معاوية سار إليها المهلب بن أبي صفرة الأزدي عام ٤٤هـ ونال شيئاً من النجاح، وأرسل عبد الملك سعيد بن أسلم بن زرعة عاملاً له على ثغر السند، ولكنه قتل، والتجأ قاتلاه إلى داهر ملك السند. وأرسل الحجاج والي المشرق مجاعة بن سعر التميمي فغلب على الثغر، وفتح بعض المناطق، ووافاه الأجل قبل مرور عام، وفي هذه الأثناء اختطف القراصنة الهنود بعض النساء المسلمات، فطلب الحجاج من ملك السند داهر تسليم هذه النساء فأجاب: إن يده لا تصل إلى القراصنة فأرسل إليه الحجاج بعض المقاتلين كان على رأسهم عبيد الله بن نبهان فقتل، فأرسل بُديل ولكن الأجل وافاه، ثم أرسل بعدئذ محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيش كبير.

الخوارج

تولى المهلب بن أبي صفرة الأزدي قتال الخوارج بأمرٍ من عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أمير العراقين فلاحقهم من مكان إلى آخر، وفي عام ٧٦هـ هاجم صالح بن مسرح[(١)] أمير الصفرية من الخوارج، وشبيب بن يزيد[(٢)] خيلاً لمحمد بن مروان أمير الجزيرة لأخيه عبد الملك، ونفروا بها، وأقاموا بمنطقة دير الزور فأرسل لهم جنداً يقدر عددهم بألف رجل فقتلهم الخوارج، ولم يكن يزيد عددهم على مائة وعشرة أشخاص وكان لقاؤهم بأرض آمد. فأرسل لهم ثلاثة آلاف مقاتل ففر الخوارج بعد أن فقدوا أكثر من نصفهم في المعركة التي جرت بين الطرفين، واتجهوا نحو الموصل فأرسل لهم الحجاج ثلاثة آلاف مقاتل مع الحارث بن عميرة فجرى قتال بين الجانبين كان نتيجته هزيمة الحارث بن عميرة لكن قتل صالح بن مسرح زعيم الخوارج، وكان جيش الحارث أول جيش يهزمه شبيب الذي بايعه الخوارج بعد مقتل صالح بن مسرح.

أرسل الحجاج جيشاً لقتال شبيب فهُزم، ثم تمكّن هذا الجيش من جمع جموعه، ونال من جماعة شبيب الذي سار نحو المدائن فهرب جندها إلى الكوفة، فأرسل له الحجاج أربعة آلاف مقاتل اتجهوا نحوه إلى المدائن فخرج منها شبيب فساروا في طلبه، فكان يظهر أنه يفرّ منهم ويكرّ على

---

(١) **صالح بن مسرح التميمي** زعيم الصفرية، وأول من خرج فيهم، كان كثير العبادة يقيم في أرض دير الزور، والموصل، والجزيرة، وله أصحاب يقرأ لهم القرآن ويعظهم، فدعاهم إلى الخروج وإنكار الظلم وجهاد المخالفين له فأجابوه، وقتل عام ٧٦هـ.

(٢) **شبيب بن يزيد بن نعيم** بن قيس الشيباني، أبو الضحاك: ولد عام ٢٦هـ وهو أحد أبطال العالم، بايعه الخوارج بالخلافة، أرهب ملك بني أمية، مات غرقاً عام ٧٧هـ.

مقدمتهم فيهزمها، ويحوز على ما في المعسكر وهكذا عدة مرات وليس معه سوى ستين ومائة رجل، والحجاج يرسل لجيشه المدد والسرايا سرية إثر سرية.

أراد شبيب حصار الكوفة فاتجه نحوها فأسرع إليه الجيش كاملاً فهزمه، ووصلت فلوله إلى الكوفة، وهرب الحجاج منها، والتجأ إلى البصرة، وأناب عنه فيها عروة بن المغيرة بن شعبة، فلما اقترب شبيب من الكوفة أخبر عروة الحجاج بذلك فأسرع إليها الحجاج فدخلها عصراً قبل وصول شبيب إليها، إذ جاء وقت الغروب، وفي آخر الليل دخل شبيب الكوفة، ومعه زوجه غزالة[1] فدخلت مسجد الكوفة، وجلست على منبره، وبدأت تذم الحجاج وآل مروان.

جنّد الحجاج ستة آلاف رجل لقتال شبيب الذي خرج من الكوفة، إلى مكان قريب منها يصلح للنزال، وخرج الجند وراءه فكان لا يبالي بهم ثم يكر عليهم ويهزمهم، وقد قتل منهم خلقاً كثيراً، وكان من جملة من قتل زائدة بن قدامة الثقفي[2] ابن عم الحجاج.

وجه الحجاج بعد زائدة بن قدامة لقتال شبيب عبد الرحمن بن الأشعث ولكن لم يتقابلا. ثم أرسل عثمان بن قطن الحارثي فالتقى بشبيب فقتل عثمان على يد أخٍ لشبيب يدعى مصاد، فقتل ستمائة من جماعته، واشتد أمر شبيب حتى خافه عبد الملك والحجاج والأمراء جميعاً، فأرسل

---

(١) **غزالة الحرورية**: ولدت في الموصل، وخرجت مع زوجها على عبد الملك، فكانت من أشهر النساء في الشجاعة والفروسية إذ كانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، وقد خشي الحجاج منها يوم دخلت الكوفة فاختبأ وتحصن، وقال في ذلك عمران بن حطان شاعر الخوارج مخاطباً الحجاج:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

قتلها خالد بن عتاب الرياحي في معركة على أبواب الكوفة قبل غرق زوجها.

(٢) **زائدة بن قدامة بن مسعود الثقفي**: قائد من الشجعان، من أهل الكوفة، ابن عم المختار قتل في لقائه مع الخوارج عام ٧٦هـ بأسفل الفرات.

عبد الملك جيشاً من الشام بإمرة سفيان بن الأبرد الكلبي، وأخرج الحجاج مقاتلة الكوفة، وعددهم أربعون ألفاً بقيادة عتّاب بن ورقاء[١] لملاحقة شبيب بن يزيد وقتاله، وخرج إليهم شبيب بألف رجل فقط فانتصر شبيب على خصومه وقتل عتاب بن ورقاء، وفر الجيش إلى الكوفة عام ٧٧هـ، واتجه شبيب نحو الكوفة إلا أن جند الشام قد وصلوا إلى الكوفة فاستنصر بهم الحجاج، ونقل جند الكوفة الذين فروا في معركتهم مع الخوارج إلى الحيرة.

سار الحجاج بنفسه مع جند الشام لملاحقة شبيب وأصحابه وعددهم ستمائة رجل، والتقى الطرفان، وجرت معركة رهيبة ثبت فيها كلا الجانبين لخصمه، ثم ذهبت فرقة من جند الحجاج واتخذت لها طريقاً إلى خلف جماعة شبيب وداهمته فصمد لها، وقُتل أخوه مصاد، وزوجه غزالة، وكثير من جنده، وانطلق شبيب بمن بقي معه، وعاد نحو الكوفة فخرجت له السرايا الواحدة تلو الأخرى فكان يردها وينتصر عليها، ثم عاد شبيب واتجه نحو الأهواز فكلف الحجاج نائبه على البصرة وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل[٢]، ختنه، زوج ابنته فجهز جيشاً قوامه أربعة آلاف انضمت إلى جند الشام والتقوا مع شبيب فهزموه وفر الخوارج من بين أيديهم إلا أنهم اضطروا إلى أن يسيروا نحو جسر هناك على نهر دجيل بالأهواز، وأجبروا على السير عليه، فوقف شبيب مع مائة من رجاله يقاومون جند الحجاج خوفاً من قطع الجسر، وفي الصباح اجتاز شبيب الجسر فكبا به جواده وهو على الجسر فسقط في

---

(١) **عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو**: أبو ورقاء، الرياحي، اليربوعي، التميمي: قائد من الأبطال، ولاه مصعب بن الزبير إمارة أصفهان، وانتدبه لقتال الخارجين عليه في الري، ففتح الري عنوة، ثم أصبح في جيش المهلب بن أبي صفرة، ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب فقتله عامر بن عمير التغلبي من أصحاب شبيب عام ٧٦هـ.

(٢) **الحكم بن أيوب بن الحكم الثقفي**: أمير، ابن عم الحجاج، تولى له أمر البصرة ثم عزله، ثم أعاده، قتله صالح بن عبد الرحمن الكاتب مع جماعة من أهل الحجاج لما اختزنه من أموال وذلك عام ٩٧هـ أيام خلافة سليمان بن عبد الملك.

الماء وغرق لكثرة ما عليه من حديد الدروع، وكان شبيب رجلاً طويلاً جعداً.

كما جرت حروب كثيرة بين جند الحجاج والأزارقة في منطقة الأهواز، وكان أمير جند الحجاج المهلب بن أبي صفرة. فالأزارقة من الخوارج كانوا في الأهواز، والصفرية كانوا في الجزيرة والسواد، والنجدات كانوا في اليمامة والبحرين.

الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦ هـ.

حَيَاته

ولد الوليد بن عبد الملك سنة خمسين لهجرة رسول الله ﷺ، وكان طويلاً أسمر، به أثر جدري خفيف، أفطس الأنف، يتبختر في مشيته. نشأ في الترف فكانت لغته ضعيفة.

تزوج ابنة عمه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان فولدت له عبد العزيز ومحمداً. وتزوج ساهفريد بنت كسرى فولدت له يزيداً الذي تولى الخلافة. وتزوج امرأة فزارية فولدت له أبا عبيدة. ومن أولاده أيضاً العباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومسرور، ومروان، وصدقة، وعنبسة، وعمر، وروح، وبشر، ويحيى، ومنصور، ومبشر، فكان عدد أولاده الذكور تسعة عشر ولداً.

بويع بالخلافة أيام أبيه. ثم جددت له البيعة بعد عودة الناس من دفن أبيه في منتصف شهر شوال من عام ٨٦هـ، وبعد شهر من توليه الخلافة شرع في بناء جامع دمشق، ولم يزل في عمرانه مدة خلافته وهي عشر سنوات، وقد كان موضع هذا الجامع كنيسة يقال لها: كنيسة يوحنا، فلما فتحت دمشق جعلها المسلمون مناصفة حسب فتح دمشق نصفها بالسيف والآخر سلماً، فأخذوا الجانب الشرقي منها وهو الجانب الذي فتح حرباً من دمشق وجعلوه مسجداً، وبقي الجانب الغربي كنيسة على حالها منذ فتح دمشق، فعزم الوليد على أخذه، وعوضهم عنه كنيسة مريم على أنها تقع في الجانب الشرقي الذي أخذ بالسيف، كما بنى صخرة المقدس، ووسع مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأعطى المجذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناس، وبنى لهم مشفى

خاصة في ضواحي دمشق إلى الشمال الشرقي منها بعد عشرين كيلو متراً في بداية مرج عذراء في مكان مناسب للجذام حيث يتوقف انتشاره في الجسم في ذلك المكان ـ بإذن الله ـ. ولا يزال يحمل هذا المشفى اسم مشفى الوليد. وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً. وكان يبرّ حملة القرآن، ويكرمهم، ويقضي عنهم ديونهم.

وحدثت في أيامه فتوحات واسعة في المشرق، والمغرب، والأندلس، وفرنسا، وكان يرسل في كل غزوة إلى بلاد الروم أحد بنيه.

وحج عام ٩١هـ فلما قرب من المدينة المنورة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم، ودخل المدينة النبوية فأخلي له المسجد النبوي، فلم يبق به سوى سعيد بن المسيّب، لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تنحّ عن المسجد أيها الشيخ، فإن أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه، ويصلي ها هنا وها هنا ويدعو الله عز وجل، قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال: من هذا هو سعيد بن المسيب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك. فقال: قد علمت بغضه لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه وإنه، وشرعت أثني عليه، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ـ وإنما قلت ذلك لأعتذر له، فقال: نحن أحق بالسعي إليه. فجاء فوقف عليه فسلم عليه، فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد! بخير والحمد لله وحده، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا فقيه الناس. فقال: أجل يا أمير المؤمنين[1].

وهرب يزيد، والمفضل، وعبد الملك أبناء المهلب بن أبي صفرة،

---

(١) البداية والنهاية.

من السجن ولحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنهم من الحجاج ووافق الوليد على ذلك، وكانت هند بنت المهلب أختهم تحت الحجاج.

وتوفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وبويع بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان عامله على الرملة، وفكر الوليد في أخذ البيعة لولده عبد العزيز وخلع أخيه سليمان، ولكنه توفي قبل أن يقدم على ذلك، ووافقه في هذا الأمر كل من الحجاج، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وامتنع عليه عمر بن عبد العزيز وقال له: لسليمان بيعة في أعناقنا.

الولايات

كانت الأوضاع في عهد الوليد بن عبد الملك هادئة في الولايات كلها، حتى أن أمر الخوارج قد ضعف، ولم تقم حركة تذكر في أيامه سواء أكانت من الخوارج أم من قبل غيرهم.

١ ـ **الشام:** وبقي الوضع فيها مستقراً لبني أمية.

٢ ـ **الحجاز:** كانت المدينة إمارة وحدها وكذا مكة طيلة أيام الوليد بن عبد الملك.

أ ـ **المدينة المنورة:** وقد تولى أمرها عمر بن عبد العزيز حتى عام ٩٤هـ، ولما قدم الوليد المدينة نزل دار جده مروان بن الحكم، ودخل عليه الناس فسلموا عليه، فما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة، : عروة بن الزبير[١]، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة[٢]، وأبا بكر بن

---

(١) **عروة بن الزبير بن العوام:** أبو عبد الله، عالم المدينة، أحد الفقهاء السبعة: حدث عن أبيه، وعن أمه أسماء بنت أبي بكر، وعن خالته أم المؤمنين عائشة، ولازمها، وعن سعيد بن زيد، وعن علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وجابر، ومحمد بن مسلمة، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وأسامة بن زيد، ومعاوية، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وقيس بن سعد بن عبادة. ولد سنة ثلاث وعشرين للهجرة، نشأ في المدينة، وفد على ابن عباس في البصرة، ثم لحق بمصر، وأقام مع أخيه عبد الله بمكة مدة خلافته، فلما قتل أخوه انتقل إلى المدينة، ووفد على عبد الملك بالشام، وتوفي سنة ثلاث وتسعين..

(٢) **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود،** أبو عبد الله الهذلي، المدني، الأعمى، أخو المحدث عون، وجدهما، عتبة هو أخو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، أحد الفقهاء السبعة: ولد عام ثلاثة وعشرين، لازم ابن عباس طويلاً. كان بحراً من بحور العلم كما يقول الزهري، وتوفي عبيد الله عام ثمانية وتسعين.

عبد الرحمن[1]، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة[2]، وسليمان بن يسار،[3] والقاسم بن محمد[4]، وسالم بن عبد الله بن عمر[5]، وعبد الله بن عبد الله بن عمر[6]، وعبد الله بن عامر بن ربيعة[7]، وخارجة بن زيد[8]، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو

---

(١) **أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث** بن هشام المخزومي، أبو عبد الرحمن، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة: كان يسمى راهب قريش لكثرة عبادته وكان كفيفاً. ولد في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، توفي سنة أربع وتسعين أيام الوليد بن عبد الملك.

(٢) **أبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة** بن حذيفة بن غانم، العدوي، أمه أمة الله بنت المسيب بن صيفي المخزومي، سمع من سعد بن أبي وقاص وروى عنه الزهري.

(٣) **سليمان بن يسار**: أبو عبد الرحمن، وقيل أبو أيوب، وأبو عبد الله، المدني، عالم المدينة وفقيهها، مولى أم المؤمنين ميمونة، وأخو عطاء بن يسار؛ ولد عام ٣٤هـ في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وتوفي عام ١٠٧هـ أيام هشام بن عبد الملك، كان أبوه فارسياً. وقد ولي سوق المدينة لأميرها عمر بن عبد العزيز.

(٤) **القاسم بن محمد بن أبي بكر**، أبو محمد: أحد فقهاء المدينة السبعة: ولد في المدينة عام ٣٧هـ، وتوفي بقديد بين مكة والمدينة حاجاً أو معتمراً عام سبعة ومائة، كف بصره في أواخره حياته، وكان من سادات التابعين.

(٥) **سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**، أبو عمر، مفتي المدينة، أمه أم ولد، ولد في خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه. قال سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به. وقال: قال لي ابن عمر: أتدري لم سميت ابني سالماً؟ قلت: لا قال: باسم سالم مولى أبي حذيفة.

كان خشن الثياب، كثير العبادة، توفي سنة ست ومائة.

(٦) **عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب**: أمه صفية بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أخت المختار. فيكون المختار خاله، وقد تزوج ابنة خاله المختار، وهي أم سلمة بنت المختار. وتوفي عبد الله في أول خلافة هشام بن عبد الملك بالمدينة، وكان ثقة قليل الحديث.

(٧) **عبد الله بن عامر بن ربيعة بن مالك**، أبو محمد: ولد عام الحديبية، وكان عمره يوم قبض رسول الله ﷺ خمس سنين أو ست، روى عن أبي بكر، وعمر، وعثمان وعن أبيه، ومات بالمدينة سنة خمس وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان ثقة قليل الحديث.

ولذا يبدو أن في دعوته من قبل عمر بن عبد العزيز نظر إذ توفي ولم يكن الوليد قد تولى بعد، كما لم يكن عمر بن عبد العزيز قد تولى أمر المدينة.

(٨) **خارجة بن زيد بن ثابت**: الإمام بن الإمام، أحد الفقهاء السبعة الأعلام، أبو زيد: وجده لأمه هو سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه، وتوفي سنة مائة من هجرة رسول الله ﷺ.

أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغني فجرجوا يجزونه خيراً[1].

وضرب عمر بن عبد العزيز سنة ثلاث وتسعين خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد في يوم شتاء بارد، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله. وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن، وكان إذا بشّر بشيء من أمر الآخرة يقول: وكيف وخبيب لي بالطريق؟ وفي رواية يقول: هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق، ثم يصيح صياح المرأة الثكلى، وكان إذا أثنى عليه يقول: خبيب إن نجوت منه فأنا بخير. وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيب فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذٍ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء وكانت تلك هفوة منه وزلة[2].

ولما استقال تولى أمر المدينة بعده عثمان بن حيان إلى نهاية أيام الوليد بن عبد الملك.

ب ـ **مكة المكرمة**: وكان عليها منذ عام ٨٩هـ خالد بن عبد الله القسري، وبقي عليها طيلة أيام الوليد بن عبد الملك، وكانت مكة تارة تتبع عمر بن عبد العزيز، وأخرى تبقى ولاية خاصة.

٣ ـ **العراق**: كان الحجاج أمير العراقين، وكانت أكثر إقامته في الكوفة، ويقيم نائباً عنه في البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي[3]، وبقي

---

(١) الطبري. (٢) البداية والنهاية.

(٣) **الجراح بن عبد الله الحكمي**: أبو عقبة: ولي البصرة من جهة الحجاج، ثم ولي خراسان، وسجستان لعمر بن عبد العزيز، وكان بطلاً شجاعاً، مهيباً طوالاً، عابداً قارئاً، كبير القدر استشهد عام ١١٢ غازياً في بلاد الترك.

ذلك حتى بنى مدينة واسط عام ٨٤هـ فأصبحت قاعدته، ومقر إمارته، وكان المشرق كله يتبع العراق، والحجاج هو الذي يرسل نواباً عنه إلى خراسان، وسجستان، والسند، وقد قامت الفتوحات الواسعة في المشرق وخاصة في بلاد ما وراء النهر والسند.

وتوفي الحجاج في ١٧ رمضان من عام ٩٥هـ أي قبل انتهاء مدة الوليد بأقل من سنة، وولى على الصلاة مكانه ابنه عبد الله، ثم إن الوليد ولّى على المصرين يزيد بن أبي كبشة(١) للصلاة والحرب، وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم(٢).

٤ ـ **الجزيرة**: كان والياً على الجزيرة من قبل الوليد عمه محمد بن مروان وبقي ذلك حتى عام ٩١هـ حتى تولى أمرها أخوه مسلمة بن عبد الملك، وكان والي الجزيرة يتولى غزو أرمينيا، وبلاد الروم الشرقية، وأذربيجان.

٥ ـ **مصر**: تولى عبد الله بن عبد الملك أمر مصر بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان، وبقي على مصر حتى عام ٩٠هـ حيث خلفه عليها قرة بن شريك العبسي(٣) وبقي فيها طيلة أيام الوليد حيث توفي عام ٩٦هـ.

٦ ـ **إفريقية**: كان عليها موسى بن نصير، وقامت في عهده الفتوحات الواسعة في بلاد الأندلس بعد أن وطد أوضاع المغرب ودخل البربر في دين الله.

---

(١) **يزيد بن أبي كبشة**: يزيد بن جبريل بن يسار، كان مقدم السكاسك، وصاحب شرطة عبد الملك، ثم ولي العراقين للوليد، وتولى خراج السند أيام سليمان، ومات بالسند عام ٩٩هـ.

(٢) **يزيد بن أبي مسلم الثقفي**: أبو العلاء بن دينار الثقفي: كان مولى الحجاج وكاتبه ومشيره، كان قصيراً دميماً، كبير البطن، مشوهاً، أخذه سليمان بن عبد الملك مغلولاً، أمره يزيد بن عبد الملك على إفريقية، ثار عليه الخوارج هناك، وقتلوه سنة ١٠٢هـ.

(٣) **قرة بن شريك العبسي**: أمير مصر من قبل الوليد، بنى جامع الفيوم، توفي عام ٩٦هـ.

الفتوحات

حدثت فتوحات عظيمة أيام الوليد بن عبد الملك لا يمكن مقارنتها إلا بالفتوحات التي تمت أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، رضي الله عنهما، بل إن الفتوحات الإسلامية نرى لها قمتين أولاهما أيام الراشدين والثانية أيام الوليد، وقد اتسمت هذه الفتوحات بامتدادها على مختلف الجبهات:

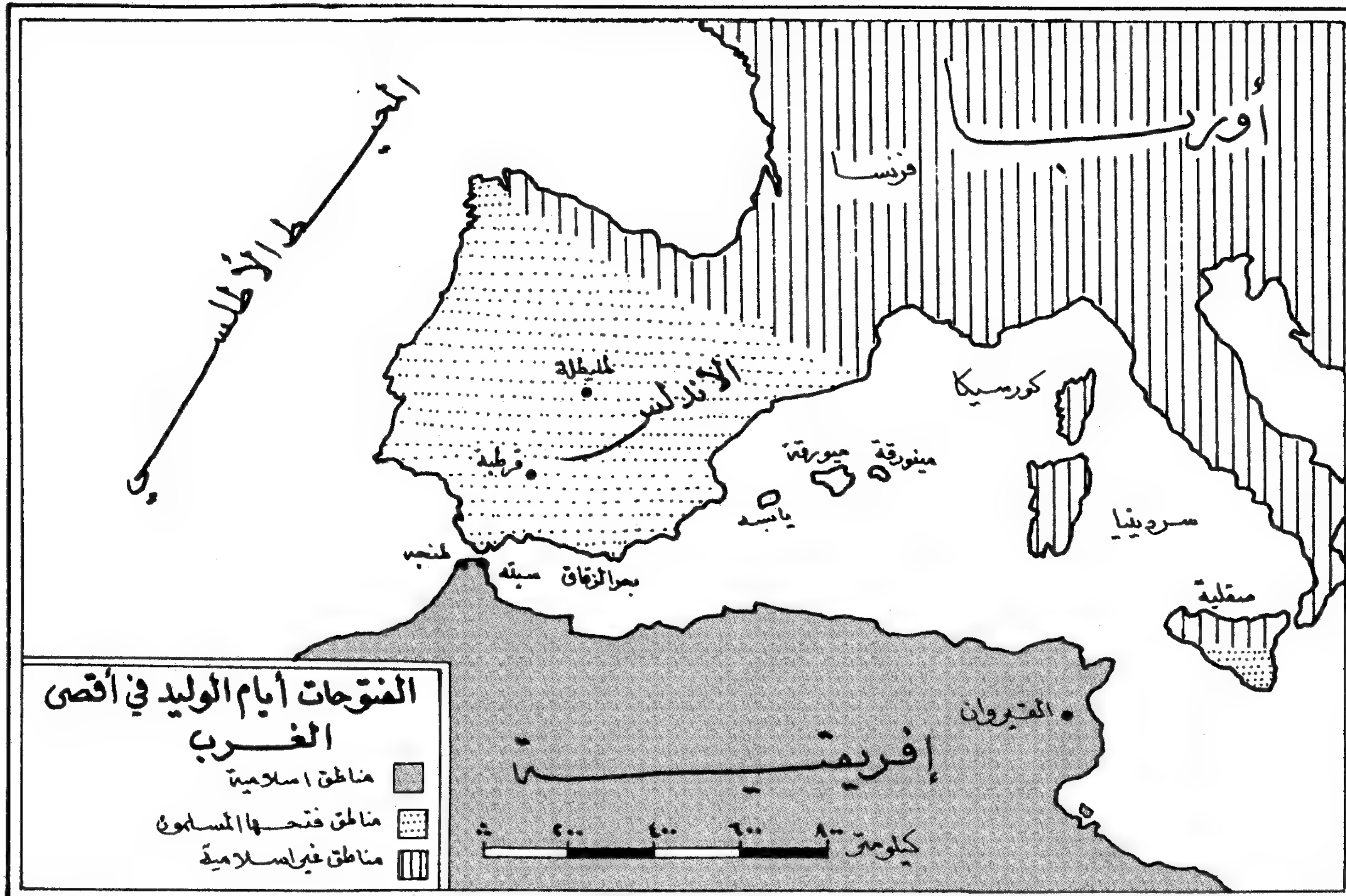
١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: كان أمير الغزو في بلاد الروم مسلمة بن عبد الملك، وكانت الصوائف والشواتي لا تنفك تغزو، ويقودها أحد أبناء الوليد الذين يساعدون عمهم في شؤون القتال، ومنهم العباس، وعبد العزيز(١)، وعمر، ومروان.

وكانت الجيوش الإسلامية تتقدم في أرض الروم، وتفتح بعض الحصون، وتغنم الغنائم، ويكون التقدم أحياناً واسعاً إلى عمق كبير في أرض العدو فقد وصل مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه العباس بن الوليد إلى عمورية موقع أنقرة اليوم ففتحاها، وفتحا هرقلية معها وذلك عام ٨٩هـ،

---

(١) **عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان**، أبو الأصبغ، وهو ابن أخت عمر بن عبد العزيز، ولي نيابة دمشق، أراد أبوه أن يكون خليفة من بعده فامتنع عمر بن عبد العزيز وقال: لسليمان في أعناقنا بيعة، فغضب الوليد، وطيّن عليه، ثم فتح عليه بعد ثلاثة، ومالت عنقه، حج عبد العزيز بالناس، وغزا بلاد الروم، وكان لبيباً عاقلاً، دعا لنفسه بالخلافة بعد عمه سليمان، فلما سمع باستخلاف خاله عمر بن عبد العزيز سكن، ودخل في الطاعة.


الفتوحات أيام الوليد في أقصى المغرب
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية
كيلومتر ٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
المحيط الأطلسي
أوربا
فرنسا
الأندلس
طليطلة
قرطبة
طنجة
سبتة
بحر الزقاق
يابسة
ميورقة
مينورقة
كورسيكا
سردينيا
صقلية
القيروان
إفريقية

وكذلك فقد غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم عام ٩٢هـ ففر الروم إلى أقصى بلادهم، ووصل المسلمون يومذاك إلى خليج القسطنطينية. وكثرت غزوات المسلمين إلى تلك الجهات عام ٩٣هـ وكانت الجيوش الإسلامية تعود إثر كل غزوة إلى الثغور، وأحياناً يتمكن الروم من التسلل إلى الأرض الإسلامية والاستيلاء على بعض المناطق لكن لا يلبث المسلمون أن يسترجعوا ما فقدوا، أما الحدود العامة فيمكن أن نقول: إنها ثابتة والثغور لم تتغير وتتركز في مرتفعات طوروس.

وكان أمير الجزيرة يتولى الجهاد في بلاد الروم الشرقية وأرمينيا وأذربيجان وقد غزا مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه عبد العزيز بن الوليد بلاد الروم من ناحية أذربيجان ووصلا حتى الباب، ولكن وغالباً ما ينقض السكان العهد بعد وقت قصير من الفتح، فيعود المسلمون من جديد للتقدم في أراضيهم وغزوهم الأمر الذي يجبر الأعداء على طلب الصلح مرة أخرى، لذا نرى أن فتوحات المدينة الواحدة أو المنطقة الواحدة يحدث عدة مرات.

ب - **في البحر**: دخل المسلمون جزيرة صقلية وميورقة عام ٨٩هـ.

ح - **في إفريقية**: وطد موسى بن نصير الوضع في إفريقية، وعمل على نشر الإسلام بين البربر، وقد نجح في مهمته، ودان البربر بالإسلام. ونظر موسى بعدها إلى البلدان التي تجاوره والتي يمكن أن يأتي منها خطر على بلاد المسلمين فوجد بلاد الأندلس أمامه على العدوة الثانية من بحر الزقاق، فالروم لهم نفوذ فيها، ويمكن أن يتحركوا من تلك الجهة، ومن جهة ثانية وجد الظلم القائم هناك ومن واجبه إزالة هذا الظلم فالإسلام حرب على الظلم، فأوكل إلى نائبه على طنجة وهو طارق بن زياد أن يدرس أوضاع بلاد الأندلس، وأن يمهد الأمر للقيام بفتحها، فدخل مدينة سبتة وكانت لا تزال بيد الوندال حكام الأندلس ثم جاز بحر الزقاق باثني عشر ألفاً من الجند من سبتة إلى شبه الجزيرة التي عرفت فيما بعد باسم (جبل طارق) وذلك عام ٩٢هـ، ودخل قرطبة وقتل حاكم البلاد (لذريق).

ثم دخل موسى بلاد الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري[١] ولحقا بطارق. ثم إن طارق بن زياد قد فتح مدينة طليطلة إلا أن موسى قد عزله وولى مكانه ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير[٢].

ثم إن الوليد بن عبد الملك أرسل إلى موسى يستقدمه إلى الشام إذ أصبح شيخاً هرماً قد قارب الثمانين فولى موسى مكانه ابنه عبد العزيز على الأندلس، وعاد ولما وصل إلى القيروان ثبت ابنه عبد الله[٣] والياً على إفريقية.

٢ ـ **الجبهة الشرقية**: وكان معظمها على حدود القبائل التركية المنتشرة في تلك الجهات.

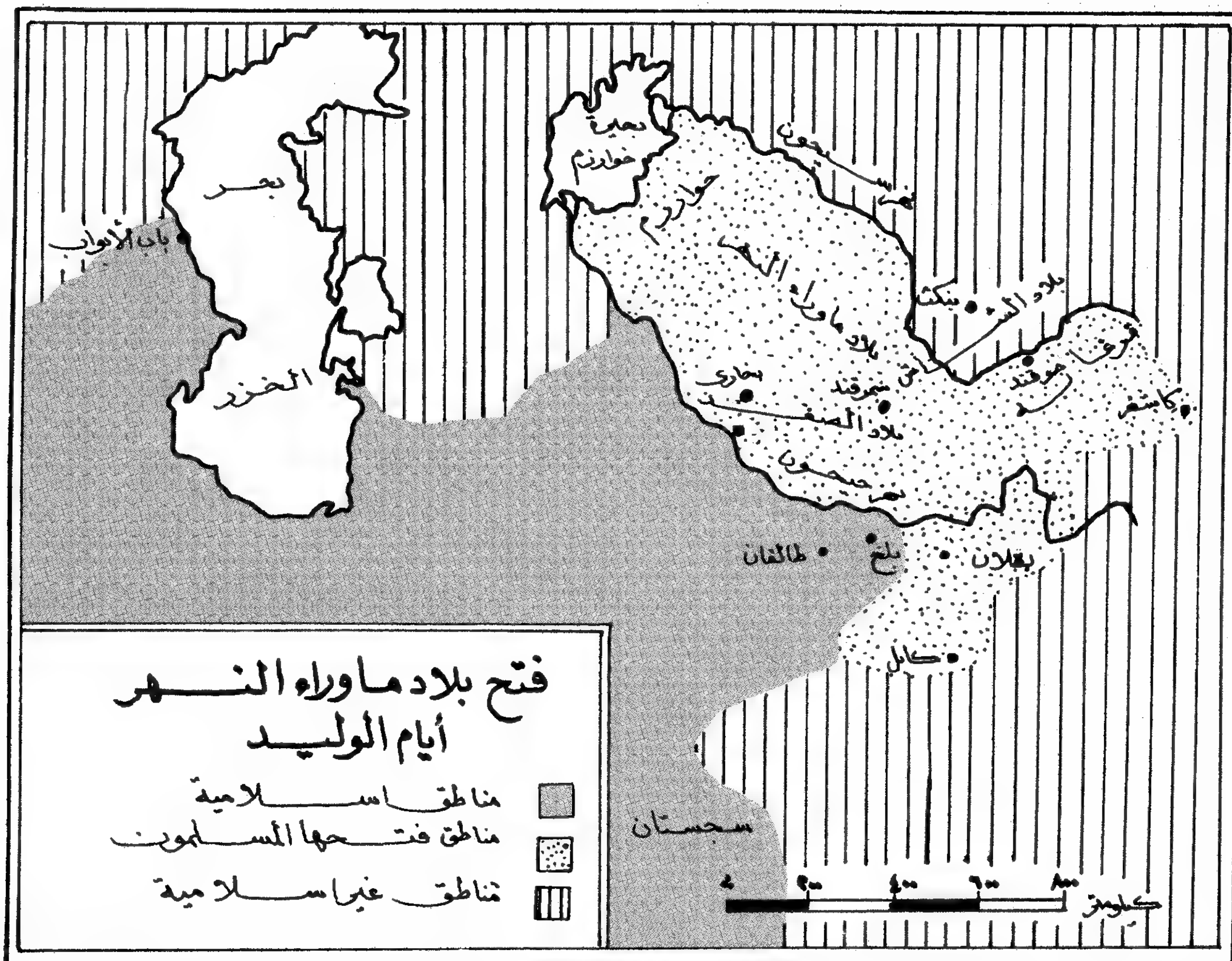
أ ـ **بلاد ما وراء النهر**: غزا قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد الترك، وصالح الملك (نيزك) على مال، وعلى إطلاق ولديه من أسارى المسلمين. إلا أن الترك كثيراً ما كانوا ينقضون العهد حتى يجبروا على توقيعه ثانية ودفع مزيد من المال. وقد غزا قتيبة بن مسلم مدينة (بيكند) عام ٨٧هـ وحاصرها، فطلب أهلها الصلح فوافق. وترك عندهم أميراً من قبله، ومعه حامية، فلما رجع عنهم قتيبة لم يلبث الترك أن نقضوا العهد، وجدعوا

---

(١) **حبيب بن مرة أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، الفهري، القرشي**: ولد ونشأ بمصر، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير، وولي بها عدة ولايات، ثم عاد إلى دمشق مع جماعة يحملون رأس عبد العزيز بن موسى، ثم عاد إلى إفريقية فتولى قيادة الجيش في قتال من عصى من البربر، وقتل في إحدى المعارك.

(٢) **عبد العزيز بن موسى بن نصير**: ضبط أمور الأندلس بعد أبيه عندما غادرها إلى الشام، وكانت فتوحات واسعة على يديه، كان فاضلاً في أخلاقه وسيرته، قتله الجند وهو قائم يصلي صلاة الصبح في المحراب عام ٩٧هـ أيام سليمان بن عبد الملك، وأرسل رأسه إلى دمشق.

(٣) **عبد الله بن موسى بن نصير**: من رجال الفتح في المغرب كان مع أبيه في إفريقية، واستخلفه على القيروان عندما سار موسى إلى الأندلس، وبقي فيها حتى عام ٩٧هـ حيث عزله سليمان بن عبد الملك فسجنه والي القيروان الجديد محمد بن يزيد مولى قريش وعذبه، ثم قتله بتهمة قتله يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وذلك عام ١٠٣ هـ وأرسل رأسه إلى يزيد بن عبد الملك بدمشق.


فتح بلاد ما وراء النهر
أيام الوليد
مناطق إسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير إسلامية
بحر الخزر
باب الأبواب
بحيرة خوارزم
خوارزم
بلاد ما وراء النهر
نهر سيحون
بنكث
فرغانة
خوقند
كاشغر
بخارى
سمرقند
بلاد الصغد
نهر جيحون
بلخ
طالقان
بغلان
كابل
سجستان
كيلومتر

أنوف الحامية، فرجع إليهم قتيبة، وحاصر المدينة حتى فتحها. وفي العام التالي غزا قتيبة بلاد الترك وحمل معه (نيزك) مأسوراً وقد حصل قتيبة على انتصارات كبيرة، وجمع غنائم كثيرة.

وغزا قتيبة عام ٨٩هـ بلاد الصغد، ونسف، وكش وسار نحو بخارى ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد عام (٩٠هـ) وكان لفتحها أثر كبير على معنويات ملك الصغد إذ خشي على نفسه وطلب الصلح من قتيبة. كما غزا في ذلك العام بلاد الترك من ناحية أذربيجان حتى وصل إلى باب الأبواب.

ونقض العهد نيزك خان، وهو ملك الترك الأعظم فسار إليه عبد الرحمن بن مسلم أخو قتيبة فتمكن من أسره، وكان ينزل في (بغلان) فقتله قتيبة، كما تمكن من أخذ (الطالقان) وسار إلى (الفارياب) ودخل (بلخ).

وفتح قتيبة مدينة (نسف) و (كش) و (شومان)، وصالح عبد الرحمن ابن مسلم ملك الصغد (طرخون) وبعدها سار عبد الرحمن إلى بخارى حيث كان أخوه قتيبة، ورجعا معاً إلى مرو حاضرة خراسان. وعاد أهل الصغد لنقض العهد، إذ قالوا لطرخون: إنك قد رضيت بالذل، وأعطيت الجزية، وأنت شيخ كبير فلا حاجة لنا بك. قال: فولوا من أحببتم. فولوا عليهم أخاه (غَوْرَك خان) وحبسوا طرخون الذي انتحر في السجن، ونقضوا هم العهد.

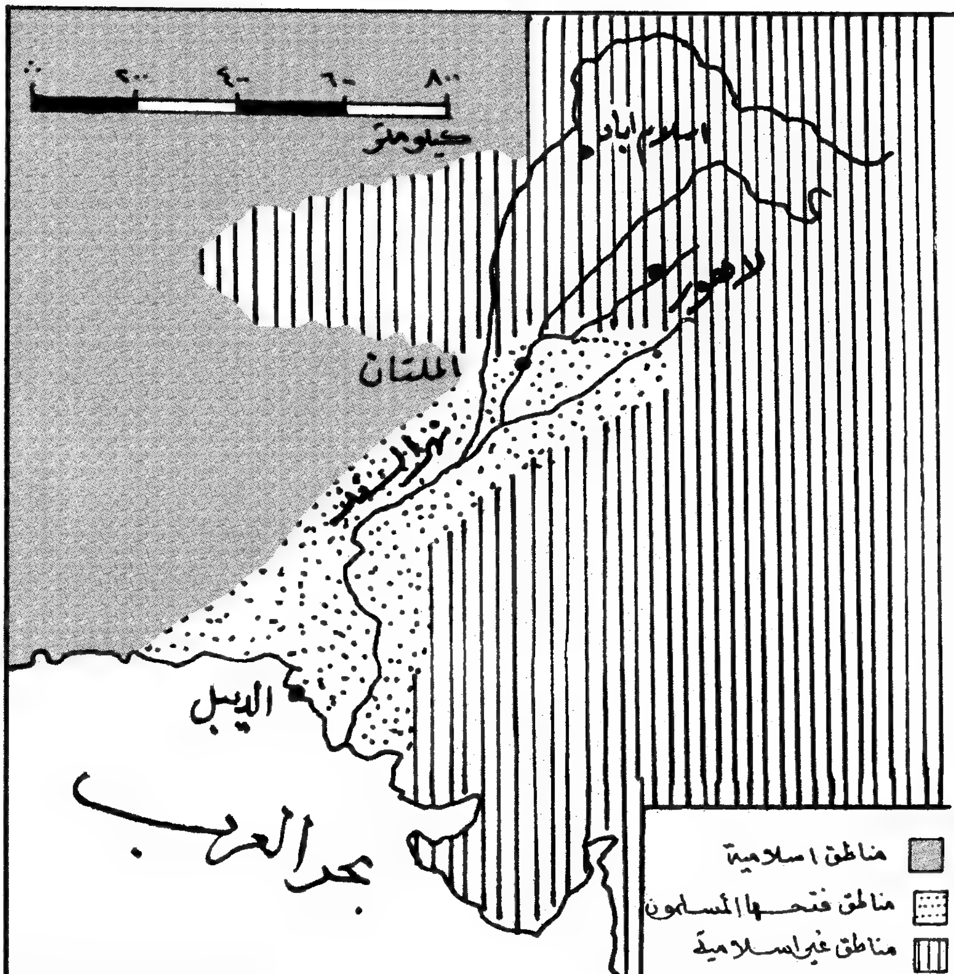
وسار قتيبة إلى سجستان يريد (رتبيل) فقابله. ثم عاد إلى الشمال لقتال بلاد خوارزم فصالحه خوارزم شاه ثم انتقل قتيبة ففتح سمرقند عام ٩٣هـ وكان معه إخوته صالح، وعبد الرحمن، وعبد الله، فولى عبد الله على سمرقند، وعاد إلى قاعدته مرو.

وعاد قتيبة إلى الغزو في العام التالي ٩٤ هـ فغزا بلاد الشاش، وفرغانة، حتى بلغ خوقند، وكاشان وفتح في ذلك العام أيضاً مدينة كابل. وأعاد الغزو في بلاد الشاش عام ٩٥هـ، وفتح في عام ٩٦ هـ مدينة (كاشغر)

في تركستان الشرقية. وطلب منه ملك الصين أن يرسل لهم وفداً يخبره عن المسلمين ويسائله عن دينهم فاختار له قتيبة جماعة وعليهم هبيرة بن الشمرخ الكلابي، وبعد لقاءات مع الوفد دعا فيها الوفد ملك الصين إلى الإسلام أو الجزية أو القتال فقال لهم ملك الصين: ما أحسن ما دبرتم دهركم! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فقال هبيرة له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. ثم دفع ملك الصين الجزية، وتوقف قتيبة في تقدمة نحو الشرق.

وهكذا كانت الجبهة التي يقاتل عليها قتيبة بن مسلم الباهلي واسعة تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر ثم تمتد شمالاً لتتعمق في آسيا الوسطى، في بلاد ما وراء النهر وتصل شرقاً إلى أواسط تركستان الشرقية ثم تتجه غرباً نحو كابل فسجستان، ويبلغ طول هذه الحدود ما يزيد على ٤٠٠٠ كيلومتر. وغدت المنطقة التي يسيطر عليها والتي تتبع خراسان التي قاعدتها (مرو) واسعة جداً وتزيد مساحتها على أربعة ملايين كيلومتر مربع.

د ـ **بلاد السند**: تمكن محمد بن القاسم الثقفي من قتل (داهر) ملك بلاد السند وذلك عام ٩٠هـ، وتقدم في بلاده، وقد فتح (الديبل) مكان كراتشي اليوم ٩٣هـ، ثم توسّع في الداخل وباتجاه الشمال ففتح مدينة(الملتان) عام ٩٤هـ، وغدت هذه الرقعة من الأرض ضمن الدولة الإسلامية.



كيلومتر
اسلام اباد
لاهور
الملتان
نهر السند
الديبل
بحر العرب
مناطق اسلامية
مناطق فتحها المسلمون
مناطق غير اسلامية

سليمان بن عَبْد الملك

٩٦ - ٩٩ هـ

حَيَاتُه

ولد سليمان بن عبد الملك بالمدينة المنورة عام ٥٤هـ، ونشأ بالشام، كان كثير التردد على البادية. وكان أبيض كبير الوجه، مقرون الحاجب جميلاً.

وتزوج عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان فأنجبت له يحيى، وعبيد الله، وتزوج أم يزيد بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية فولدت له يزيد، والقاسم، وتزوج بنت عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية فولدت له عبد الواحد. ومن أولاده أيضاً: أيوب، وداود، والحارث وسعيد، وإبراهيم، وعبد الرحمن، وعمر، ومحمد، وهم من نساء أخر ومن أمهات أولاد.

كان والياً على الرملة عندما توفي أخوه الوليد، وأخذ البيعة من بني أمية، وعلية القوم، ثم من الناس كلهم، وهمّ بالإقامة ببيت المقدس إلا أنه انتقل إلى دمشق بعد ذلك. وعزل ولاة الحجاج، وكان يستعين بابن عمه عمر بن عبد العزيز، وكانت الصلاة تؤخر أيام الخلفاء من بني أمية الذين سبقوه، فأمر بإقامتها بوقتها، واستمر في بناء مسجد بني أمية بدمشق بعد أخيه مدة خلافته، وكان ينهى عن الغناء، وحج عام ٩٧ هـ أيام خلافته. وغزا القسطنطينية براً بأهل الشام، والجزيرة، والموصل، وكان عدد الجيش مائة وعشرين ألفاً، وبحراً بأهل مصر وإفريقية وكان عليهم عمرو بن هبيرة[1]، وعلى المقاتلين جميعاً أخوه مسلمة بن عبد الملك، وابنه داود بن سليمان.

---

(١) **عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين**: أمير العراقين، والد يزيد، غزا القسطنطينية من جهة البحر، تولى أمر العراق عام ١٠٣هـ، وسجنه خلفه على العراق خالد بن عبد الله =

وانتقل إلى مرج[1] دابق للرباط وأقسم ألا يعود حتى تفتح القسطنطينية أو يتوفاه الموت. فوافته منيته، وهو هناك ينتظر الفتح، وقد أصيب بذات الجنب، وقد مات محموماً، وذلك في ٢ صفر عام ٩٩هـ، وقد صلى عليه عمر بن عبد العزيز.

فكر في تولية ابنه أيوب من بعده ولكنه توفي قبل أبيه، وكان عبد الملك بن مروان قد عهد لولديه الوليد، وسليمان من بعده، وأخذ عليهما عهداً بمبايعة ابن عاتكة (يزيد) ومروان ابنه الآخر من بعدهما، فمات مروان قبل أخيه سليمان، وتخطى يزيد، وأراد البيعة لأحد بنيه وهو أيوب، ولكنه لم يلبث أن مات أيضاً. وخطر على باله توليه ابنه داود إلا أن رجاء بن حيوة[2] قد نصحه في توليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز ففعل، قال رجاء: «فلما ثقل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح. فقال سليمان: أنا أستخير الله وانظر فيه. ولم أعزم عليه؛ قال: فمكث يوماً أو يومين، ثم خرّقه، فدعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب عنك في القسطنطينية وأنت لا تدري أحي هو أم ميت! فقال لي: فمن ترى؟ قلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أنظر من يذكر، قال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيّراً فاضلاً مسلماً؛ فقال: هو

= القسري إلا أن غلمانه قد أخرجوه بعد حفر نفق إلى داخل السجن فاستجار بمسلمة بن عبد الملك فأجاره، وتوفي عام ١٠٧هـ.

(١) مرج دابق أرض من ولاية قنسرين في بلاد الشام قبل ممر بيلان الفج الذي يدخل منه بين بلاد الشام وبلاد الأناضول، وكان بنو أمية يقيمون فيه للرباط.

(٢) **رجاء بن حيوة بن جرول**، أبو نصر، الكندي، ولد في بيسان من أرض فلسطين عام ٣٦هـ في أواخر خلافه عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان مستشاراً لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان ثم لعمر بن عبد العزيز فكان ناصحاً لهم، وهو من أعلام التابعين وأهل العلم في ذلك العصر توفي عام ١١٢هـ في خلافة هشام بن عبد الملك.

والله على ذلك، ثم قال: والله لئن وليته ولم أُولِّ أحداً سواه لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم، قال: فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به، قلت: رأيك. قال: فكتب.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم.

وختم الكتاب، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي[١] صاحب شرطته فقال: مر أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل كعب إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي، وأمرهم فليبايعوا من وليت فيه؛ ففعل رجاء، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فدخلوا، فقال لهم سليمان في هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم إليه وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة ـ عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب، فبايعوه رجلًا رجلًا، ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء بن حيوة[٢].

---

(١) **كعب بن حامد العبسي**: قائد، من غزاة البحر، ولاّه عبد الملك شرطته بعد روح بن زنباع، وأقره الوليد وسليمان توفي حوالي عام ١٠٠هـ.

(٢) تاريخ الطبري.

الولايات

لم يكن في الولايات ما يثير الاهتمام إلا ما كان في الجبهات من قتل لبعض الولاة السابقين الذين تمت على أيديهم الفتوح، أو الغزو الذي تمّ وإن كان على نطاق ضيق بالنسبة إلى ما حدث أيام الوليد بن عبد الملك. كما أن الخوارج قد استمر هدوؤهم كما كان أيام الوليد فلم يحركوا ساكناً في كلا العهدين.

١ ـ **الشام**: لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٢ ـ **الحجاز**:

أ ـ **المدينة**: عزل سليمان عن المدينة عثمان بن حيان، وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وبقي أيام سليمان كلها والياً عليها.

ب ـ **مكة المكرمة**: عزل سليمان خالد بن عبد الله القسري، وولى عليها طلحة بن داود الحضرمي، ثم استبدله بعبد العزيز بن خالد بن أسيد بن أبي العصيص بن أمية.

٣ ـ **العراق**: عزل سليمان عن العراق يزيد بن أبي مسلم، وأعطى ولاية المصرين فيها إلى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد بعث يزيد أخاه زياداً إلى عُمان. وبعد تسعة أشهر من ولاية سليمان ضمت إلى يزيد بن المهلب خراسان فانتقل إليها واستخلف على واسط الجراح بن عبد الله الحكمي، واستعمل على البصرة عبد الله بن هلال الكلابي، وجعل أخاه مروان بن المهلب على أموره وأمواله بالبصرة، واستخلف على الكوفة حرملة بن عمير اللخمي أشهراً، ثم عزله وولاها بشير بن حسان النهدي.

٤ ـ **خراسان**: كان أمير خراسان قتيبة بن مسلم الذي فتح الفتوح فلما هلك الوليد وتولى سليمان خاف قتيبة على نفسه لأنه كان قد وافق الوليد على خلع أخيه سليمان وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد، فلما بلغه نبأ تولية سليمان أرسل إليه كتاباً يعزيه بالوليد، ويهنئه بالخلافة التي آلت إليه، ويذكره بالفتوحات التي تمت على يديه، ويذكر آل المهلب بسوء ويذمهم. ويطلب منه أن يبقيه أميراً وله السمع والطاعة فإن لم يفعل فإنه سيخلعه.

ويبدو أن قتيبة قد خاف على نفسه، ففكر في الأمر فغرته نفسه بما كان تحت يده من جندٍ وبما يسيطر عليه من أرض. فلما وصلت كتب قتيبة إلى سليمان رغب في رأب الصدع، ولأم الجرح إن وجد، وعدم حدوث فتنة فأرسل إليه بكتاب يستخلفه فيه على خراسان ولكن الرسول لم يصل حتى كان قتيبة قد سبق إلى الأمر، وأعلن خلع الخليفة وجمع الجند وذكرهم بما قام به من جهد في سبيل الفتح ونشر الإسلام، وما بذلوه هم وأعلن خلع الخليفة ولما لم يجبه الجند تكلم معهم كلاماً نال به من قبائلهم وشتمهم فقاموا عليه وقتله وكيع بن أبي سود. وأرسل رأسه إلى سليمان، وتولى وكيع أمر خراسان تسعة أشهر، ثم أعطيت خراسان إلى يزيد بن المهلب وضمت إليه فأرسل أمامه ابنه مخلّد بن يزيد، فسجن وكيعاً وعذّبه.

وأما بلاد السند فقد كان عليها محمد بن القاسم الثقفي فعندما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك عزله على أنه من أمراء الحجاج وخاصة أنه كان من أقربائه، وعندما حطّت به الأيام ادعت ابنة الملك داهر أنه راودها عن نفسها أو أرادها لنفسه ولم تمكّنه من نفسها فأخذها بالقوة، لذا فقد سجن في واسط وعذب، وفي السجن كتب شعراً لطيفاً يعتب به على بني مروان، فأطلق سراحه، ثم قتل من قبل معاوية بن المهلب بن أبي صفرة، ويقال: إنه مات تحت العذاب، وكانت وفاته عام ٩٨هـ. إلا أن (صيتا) بنت داهر قد اعترفت بعد ذلك بأنها كانت كاذبة في ادعائها. وتولى أمر بلاد السند بعد محمد بن القاسم يزيد بن أبي كبشة.

٦ - **إفريقية**: عاد موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد إلى الشام وقد خلف موسى ابنه عبد الله والياً على القيروان منذ عام ٩٣هـ حينما خرج إلى الأندلس، وأثناء عودته من الأندلس ترك موسى ابنه عبد العزيز عليها فنظم الحكومة، وألف مجلس شورى من العلماء لاستنباط الأحكام الشرعية، ورفع المظالم عن السكان، وخفف الضرائب، وأمّن الأهلين، وشجع المسلمين من العرب والبربر على الاختلاط بالسكان والتزواج معهم، وتزوج أرملة (لذريق)، وحاول إدخال النصارى بالإسلام فبدأ يتقرب منهم بغية تعريفهم على الدين الإسلامي.

ولما أدبرت أيام موسى انحطت مع ابنه عبد العزيز أيضاً فطمع به أعداؤه، ووشوا به إلى سليمان، ثم لم يلبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه وأرسل رأسه إلى سليمان، وكان عنده أبوه موسى فقال: هنيئاً له بالشهادة وقد قتلتموه صوّاماً قوّاماً، وذلك عام ٩٧هـ. وتولى أمر الأندلس بعد عبد العزيز أمير الجند أبو أيوب بن حبيب الفهري وهو ابن أخت موسى بن نصير، وحمل رأس عبد العزيز حبيب بن أبي عبيدة (مرة) بن عقبة بن نافع الفهري، إلا أن ولايته لم تطل إذ خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي في العام نفسه.

أما في القيروان التي هي قاعدة إفريقية والأندلس فقد تولى أمرها نيابة عن موسى بن نصير ابنه عبد الله سنة ٩٣ كما ذكرنا، ولما عاد موسى إلى الشام عام ٩٦هـ بقي عبد الله أميراً على القيروان حتى عزله سليمان عام ٩٧هـ، وولى مكانه محمد بن يزيد مولى قريش فسجن عبد الله بن موسى وعذبه وقتله. وكان محمد بن يزيد قيسياً متعصباً لقومه.

كانت الفتوحات ضعيفة أيام سليمان بن عبد الملك، ولعل ذلك يعود إلى قصر مدة عهده، وإلى استبدال الولاة الذين هم على الثغور، فلا بدّ للأمير من مدة حتى يتعرف على أوضاع المنطقة لذا فإن الأمراء الذين بقوا في مناطقهم قد استمر فيها الغزو والجهاد والفتح مثل مسلمة بن عبد الملك الذي استمر على الجزيرة وأرمينية، أو الأمراء الذين عرفوا المنطقة جيداً

لوجودهم فيها سابقاً مثل يزيد بن المهلب الذي عاد إلى خراسان وكان قد نشأ فيها أيام أبيه المهلب لذا فقد كانت في تلك الجبهة فتوحات، وكذا في المدة التي كان عبد العزيز بن موسى في الأندلس، أما في بلاد السند فقد توقف الجهاد بغياب محمد بن القاسم بن موسى بن نصير. وكذا في الأندلس بعد مقتل عبد العزيز.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: استمر الغزو في بلاد الروم فقد غزاها مسلمة بن عبد الملك عام ٩٦هـ وداود بن سليمان بن عبد الملك عام ٩٧هـ، وعاد إليها مسلمة في العام نفسه، وفي عام ٩٨هـ وجه سليمان أخاه مسلمة إلى القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه، فشتّا بها وصاف، وقد استعد لذلك فأخذه معه من المواد الغذائية الكثير وتركها محفوظة على حين كان الجند يأكلون من الغنائم.

ثم جاء إلى المسلمين (إليون) من أرمينية ووعده الروم بأن يملكوه أمرهم إن صرف عنهم المسلمين، فأظهر النصح للمسلمين، فقال لمسلمة: إن الروم مقتنعين بأن حربكم لهم بغير جد ما دام الطعام عندكم متوفراً، فإن أحرقته وحملت عليهم حملة صادقة قنعوا بعدم إمكانية بقائهم محاصرين. ففعل مسلمة وأحرق المواد الغذائية فقوي العدو وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون وسليمان بن عبد الملك مقيم بمرج دابق ينتظر الفتح، وجاء الشتاء ولم يتمكن من إمدادهم، ومات، وهم للروم محاصرين.

وفتح داود بن سليمان عام ٩٨ حصن المرأة بالقرب من ملاطية.

٢ ـ الجبهة الشرقية: غزا يزيد بن المهلب عام ٩٨ جرجان، وطبرستان، وصالح أهلها إلا أن أهل جرجان لم يلبثوا أن نقضوا العهد، وغدروا بجند يزيد فغزاهم ثانية وفتح جرجان.

عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١هـ

حَيَاتُه

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة عام ٦١هـ، وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وانتقل مع بني أمية إلى الشام عندما رحلوا منها بعد وقعة الحرة، ووفاة يزيد بن معاوية، وكان مع أبيه في مصر عندما تولى إمرتها إلا أنه لم يلبث أن طلب من أبيه ترحيله إلى المدينة ليقعد إلى فقهائها، فوافق والده وسيّره إلى المدينة وجعله عند صالح بن كيسان[١] ليؤدبه، وعندما توفي والده عبد العزيز عام ٨٥هـ بعث إليه عبد الملك، وضمّه إلى أولاده، وقدّمه على كثير منهم، وزوّجه ابنته فاطمة، وولاه إمرة خناصرة[٢]، وبقي فيها حتى مات عبد الملك، ولما بويع الوليد بالخلافة أعطاه إمرة المدينة، وبقي عليها حتى عام ٩٣هـ، وقد قرب إليه العلماء، وجعل منهم رجال مشورته، وانتقل بعد ذلك إلى دمشق فعاش فيها، فلما كانت خلافة سليمان بن عبد الملك استوزره، ثم عهد إليه بالخلافة من بعده.

كان نحيف الجسم، غائر العينين، أبيض رقيق الوجه، بجبهته أثر شجة دابة، شجته عندما كان صغيراً، لذلك يقال له أشج بني أمية. ويكنى بأبي حفص نسبة إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

---

(١) **صالح بن كيسان، الإمام الحافظ الثقة،** أبو محمد، يقال: أبو الحارث المدني، المؤدب، يقال: مولى بني غفار، ويقال: مولى بني عامر، ويقال: مولى آل معيقيب الدوسي كان جامعاً من الحديث، والفقه، والمروءة، ولد حوالي عام ٥٤هـ، وتوفي بعد ١٤٠هـ، وعاش نيفاً وثمانين عاماً ولم يبلغ التسعين.

(٢) خناصرة: وتعرف الآن باسم خناصر، وهي من أعمال حلب إلى الجنوب منها، وعمّرها الشركس حديثاً بعد أن كانت أطلالاً.

كان في شبابه بالمدينة المنورة كثير التطيب، فإذا أدهن بالطيب عصفت في طريقه رائحة طيبة فتُشم من بُعد، فإذا جاوز الطريق بقيت رائحته مستقرة في المكان الذي يمر به، وقد يتطيب بالعنبر فتبتل يده به، وينتظر الناس ثيابه بباب الغسّال فإذا أرسلها تسابق الناس إليه يعطونه دراهم كثيرة حتى يغسل ثيابهم في أثر ثيابه من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب.

وإذا مشى عمر راح متبختراً متكبراً يتصنع له مشية، هي له وحده، يخترعها بين الكبر والتبختر، كأنها مشية الجارية إذا كعبت. وقد أعجبت مشيته تلك جواري المدينة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية، ويسرن على خطتها وموازينها حتى يرشقن إذا سرن وتحمل رشاقتهن في العيون[1].

وارتدى أغلى الأُزر، ولبس أثمن الأردية حتى كان يشتري الإزار الواحد بمائة دينار، ويشتري مطرف الخز بثمانمائة درهم، ويضع يده عليه يجسه فيستخشنه ولا يعجبه، ويلبسه مكرهاً، وصار الثوب لا يكون بالياً في نظره إذا بلي أو مرّ عليه زمن طويل، ولكنه صار بالياً عنده متى لبسه فوقعت عليه لأول لبسة أنظار الناس. وقد غالى عمر في ذلك وتمادى حتى أوشك ألا يعجبه ثوب، وكاد يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع، حتى قال ذات مرة: لقد خفت أن يعجز رزقي عن كسوتي! وما لبست ثوباً قط فرآه الناس عليّ إلا خُيّل إليّ أنه قد بلي[2].

وبدت على عمر مظاهر التكبر والترف الأموي الصارخ، فإذا سار لم يسر إلا في جماعة من غلمانه وعبدانه[3].

وظل عمر هكذا يزيد مظاهراً غلواً وتمادياً حتى رماه بالكبر كثير من الناس. إلا أن هذا قد تبدّل كلياً منذ تولى الخلافة بل منذ أواخر إمرته على المدينة وعندما انتقل إلى دمشق بعدها، فبدأ ينصح الخلفاء ويطلب منهم

---

(١) ابن عبد الحكم ص٢١.
(٢) ابن الحوزي.
(٣) المصدر نفسه.

محاسبة الولاة الظالمين، ويطالبهم بالعدل واعتقد أن ما عند زوجه فاطمة بنت عبد الملك من حلي وجواهر إنما جاء عن طريق بيت المال لذا فقد خيّرها بين ردّه أو اللحاق بأهلها ففضلت الحياة معه وردت كل ما كان عندها.

وضيق على نفسه وعلى زوجه وأولاده في الطعام والملبس فسألته زوجه أن يجري عليها خاصة، فقال لها: ليس في مالي سعة، قالت: فلم كنت أنت تأخذ منهم؟ قال: كانت المهنأة لي والإثم والتبعة عليهم، أما إذا وليت فلا أفعل ذلك فيكون إثمة عليّ.

وكان له من الإخوة! أبو بكر، ومحمد، وعاصم، وهم أشقاء له: والأصبغ، وسهل، وسهيل، والريان، وهم من أم عبد الله بنت عبد الله بن عمرو بن العاص، وأم ولد رومية اسمها مارية، وله أختان هما: أم الحكم، وأم البنين التي تزوجها الوليد بن عبد الملك.

وكان له عدد من الأولاد منهم: عبد العزيز، وعبد الله، وعبد الملك.

وقضى على نفسه ألا يأخذ من بيت المال شيئاً قط، وإنما أبقى لنفقة بيته وأهله عيناً بالسويداء كان استنبط ماءها في أرض خربة براح ليس فيها لأحد ضربة معول، فعملها من صلب عطائه فكانت تجيئه غلتها مائتا دينار وجراب فيه تمر صيحاني، وتمر عجوة، فاكتفى بها ولم يجر على نفسه من الفيء درهماً. فلما قيل له لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: إن ابن الخطاب لم يكن له مال، وأنا مالي يغنيني. ثم جعل نفقته من ماله في اليوم درهمين. وقالوا إنه لم يبق في يده غير (بدا) و (جزين) من أرض بعلبك.

وأباح الهجرة لمن يشاء إلى حيث يشاء وخاصة الأمراء من بني مروان الذين طلبوا منه ذلك عندما شعروا بقلة أعطياتهم أو بوقفها.

وأصلح كثيراً من الأرض الزراعية، وحفر الآبار، وعمر الطرق، وأعدّ

الخانات لأبناء السبيل. وأقام المساجد ولكنه لم يعتن بزخرفتها وهندستها. أما الأرض المغتصبة والتي لا سجل لها فقد أعلن عمر عن عودتها إلى بيت مال المسلمين. وقد تمكن بإصلاحاته التي عمل فيها طول مدة خلافته أن يقضي على الفقر والحاجة، ولم يعد لهما وجود، ولم يبق من يأخذ من أموال الزكاة.

وقد رفع رواتب عماله حتى بلغت ثلاثمائة دينار، ولما سئل عن ذلك أجاب: أردت أن أغنيهم عن الخيانة.

وتوفي عمر في دير سمعان من أعمال دمشق وبالقرب منها يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رجب عام ١٠١هـ، فكانت خلافته بذلك سنتين وخمسة أشهر.

الولايات

كانت الولايات كما كانت هادئة لم يحدث فيها شيء كبير، وكل ما حدث إنما هو عزل الولاة الذين يرى أنهم ظلموا.

١ ـ **الشام**: وقد عمر بن عبد العزيز في وجه الأمراء وأعطياتهم التي كانوا يأخذونها من الخلفاء وطلب منهم أن يؤدوا ما في أيديهم من حقوق. فوقفوا معاً تجاهه، وحرضوا عليه أقرباءه وأصحابه، ولكن لم يُجد ذلك شيئاً ولم يبق بجانبه سوى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك.

٢ ـ الحجاز:

أ ـ **المدينة المنورة**: كان عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وقد كان منذ أيام سليمان، وأبقاه عمر عليها.

ب ـ **مكة المكرمة**: وقد ولى عليها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

٣ ـ **العراق**: عزل عمر عن العراق وخراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وصالح بن عبد الرحمن، وولى على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب. وعلى البصرة عدي بن أرطأة الفزاري. وعلى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي. وقبض على يزيد بن المهلب، وحمل إلى دمشق فسجنه عمر حتى يؤدي ما عليه من أموال أخذها وليس له بها حق. وكان يريد أن ينفيه إلى جزر دهلك إلا أنه نصح بإبقائه في السجن فأبقاه، ثم هرب من السجن لما شعر بمرض عمر بن عبد العزيز

لأنه كان يخشى يزيد بن عبد الملك حيث كانت عند يزيد أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي أي بنت أخي الحجاج، ويزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج.

وعندما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك غلب ابن المهلب على البصرة فسار إليه مسلمة بن عبد الملك فقتله عام ١٠٢هـ.

ونفى عمر آل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى اليمن.

أما على الجزيرة فقد ولى عمر بن هبيرة الفزاري.

٤ ـ **خراسان**: كان على خراسان مخلد بن يزيد بن المهلب من قبل أبيه فعزل بعزل أبيه فجاء إلى دمشق وقابل عمر، ولكن مخلد لم يلبث أن توفي في دمشق، وتولى أمر خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي فلبث سنة وخمسة أشهر، ثم عزله عمر لأنه يبدو أن الجزية لم ترجع إلى من أسلم من أهل جرجان. وطلب عمر من الجراح أن يأتيه إلى دمشق وأن يترك على حرب خراسان عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، وعلى خراجها عبد الرحمن بن عبد الله القشيري ثم عقبة بن زرعة الطائي وبقيا فيها حتى مات عمر بن عبد العزيز.

٥ ـ **مصر**: عزل عن مصر عبد الملك بن رفاعة وولى أيوب بن شرحبيل(١) كما عزل أسامة بن زيد التنوخي عن صدقات مصر.

٦ ـ **إفريقية**: عزل محمد بن يزيد بن مسلم عن صدقات إفريقية، وكان إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر(٢) قد ولي أمر إفريقية، وقد سرّ

---

(١) **أيوب بن شرحبيل بن أبرهة الأصبحي**، من بني الصباح، ولي مصر لعمر بن عبد العزيز فحسنت أحوالها في أيامه وبقي فيها إلى أن توفي عام ١٠١هـ، واستمرت إمرته سنتان ونصف.

(٢) **إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الأنصاري**، الإمام الكبير، أبو عبد الحميد، الدمشقي، مولى بني مخزوم، مفقه أولاد عبد الملك. بقي سنتين في المغرب والياً عليها. وقد أسلم عامة البربر في أيامه. توفي عامن ١٣٢هـ قبل دخول بني العباس دمشق بثلاثة أشهر.

عندما تولى القضاء فيها عبد الله بن المغيرة، وقد أرسل عمر مع إسماعيل عشرة من الفقهاء للدعوة إلى الإسلام، وقد استجاب البربر لذلك. ثم ولي أمر إفريقية يزيد بن أبي مسلم.

وولى السمح بن مالك الخولاني[1] أمر الأندلس لما عرف فيه من ديانة وتقى وذلك عام ١٠١هـ، وقد عزل الحر بن عبد الرحمن الثقفي عن إمارة الأندلس وكان قد تولاها عام ٩٧هـ، كما عزل أخاه الحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن صدقات الأندلس.

---

(١) **السمح بن مالك الخولاني**: تولى أمر الأندلس لعمر بن عبد العزيز، اتخذ قرطبة قاعدة له، وبنى فيها قنطرتها، واستشهد غازياً في أرض فرنسا عام ١٠٢هـ.

الخوارج

لم يحرك الخوارج ساكناً أيام الوليد وسليمان ابني عبد الملك فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز خرجوا في أرض العراق فكتب إلى عامله عليها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أن ادعهم إلى الكتاب والسنة. فلما أعذر في دعائهم بعث عبد الحميد إليهم جيشاً فهزم أمام الخوارج فلما بلغ ذلك عمر أرسل إليهم جيشاً بإمرة مسلمة بن عبد الملك من أهل الشام جهّزه من الرقة، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغني ما فعل جيشك جيش السوء، وقد بعثت مسلمة بن عبد الملك فخلّ بينه وبينهم، فلقيهم مسلمة في أهل الشام فانتصر عليهم.

وكان الذي قاد الخوارج أيام عمر بن عبد العزيز رجل عرف باسم (شوذب) وهو بسطام من بني يشكر، وقد خرج في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً صلباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به. فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة وأمره بما أمره به عمر. وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه، وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك مني، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا فلم يحرك بسطام شيئاً، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. . . . وعندما جاءا دخلا على عمر، فقالا له: أخبرنا

عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيّره غيري؛ قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمنك! فقال: انظراني ثلاثاً، فخرجا من عنده وقد خاف بنو مروان أن يخلع يزيد، فدسوا له سماً فلم يلبث أن توفي.

الفتوحات

منذ أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أرسل إلى الجند الذين يحاصرون القسطنطينية بإمرة مسلمة بن عبد الملك المعونة والطعام والجند، ثم أمر مسلمة بالعودة مع المسلمين وفك الحصار خوفاً على الجند الذين معه من الهلاك.

وأغار الترك على أذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين ونالوا منهم، فوجه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتل الترك، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وجاء على الخليفة وهو بخناصرة بخمسين أسيراً منهم.

وغزا الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي بأهل حمص بلاد الروم على رأس صائفة.

وقد غزا السمح بن مالك الخولاني فرنسا، فاخترق جبال البرانس، وزحف على مقاطعتي سبتمانيا وبروفانس، ثم أغار على أكيتانيا وحاصر طلوشة (طولوز)، فخرج له دوق إكيتانيا بجيش كبير، ونشبت معركة عظيمة بين الطرفين استشهد فيها السمح بن مالك الخولاني عام ١٠٢هـ وتولى إمرة جند المسلمين عبد الرحمن الغافقي فانسحب بفلول الجيش إلى ناربونه (قاعدة سبتماينا).

ولم تطل مدة خلافته إذ توفي ولم يتجاوز الأربعين من العمر ولربما لو طالت لكثرت الفتوحات ولانتشر الإسلام على نطاق واسع إذ لم تكن هناك أحداث داخلية تشغل الناس عن الجهاد، ولم يكن هناك عِوَز يجعلهم بحاجة إلى التفكير في تأمين حاجات أهليهم، والعمل لسد الضرورات في الحياة.

بدء الدعوة العباسية

إن كثيراً من الناس يرغبون في السلطة ويعملون لها، وقد استغل عدد من هذه الشخصيات محبة المسلمين لآل بيت رسول الله ﷺ فدعوا إلى شخص منهم لذا كانت هناك دعوات كثيرة كل منها تدعو لرجل من آل البيت، ولم يكن لهم من هدف سوى ذلك، بل لم يكن من فكر خاص لهؤلاء يدعون له كما يزعم بعض المؤرخين وبخاصة في العصر الحديث إذ أرادوا تطبيق ما حدث من أفكار فيما بعد وما دخل على الفكر الإسلامي من شوائب على ما سبق من التاريخ، كما لم يكن لديهم منهج خاص اجتماعي أو غيره يدعون له، وإنما كانوا يريدون أخذ السلطة من جماعة وتسليمها لجماعة أخرى تقوم بالأسلوب نفسه على طريق الوراثة وذلك ليتسنى لهم الحكم وكسب المنافع وتحقيق المصالح. ولقد ادعى المختار الثقفي كما وجدنا العمل لمحمد بن الحنفية[1] ولم يكن داعية له وإنما كان يعمل لمصلحته، ونشأت على ذلك فرقة عرفت بالكيسانية.. وبعد وفاة محمد بن الحنفية في الطائف عام ٨١هـ، ادعى بعضهم أن الإمامة قد انتقلت منه إلى ابنه عبد الله المعروف باسم (أبو هاشم) وكان أبو هاشم

---

(١) **محمد بن علي بن أبي طالب**: ابن الحنفية، أبو القاسم: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، أمه خولة بنت جعفر الحنفية من سبايا اليمامة، وينسب إليها. كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، كان المختار الثقفي يزعم أنه المهدي ويدعو إلى إمامته، وتزعم فرقة الكيسانة أنه لم يمت وإنما موجود بجبل وضوى شمال غربي المدينة المنورة عنده عسل وماء ولد في المدينة وتوفي عام ٨١هـ بالطائف.

وكان لمحمد عدد من الأولاد هم: جعفر، وعلي، وعون، وإبراهيم، والقاسم وقد أعقبوا جميعاً، وله أيضاً عبد الله، والحسن ولم يعقبا.

ينتقد الأمويين حتى شاع خبره ووصل أمره إلى سليمان بن عبد الملك، وقد زعموا أن سليمان قد أرسل له من سقاه سماً، وعندما أحس بدنو أجله انتقل إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب[1] وكان يقيم بالحميمة قرب معان من أرض الشراة من أعمال الأردن فطلب منه أن يعمل لتقويض الحكم الأموي والدعوة إلى آل البيت وقد وجدت هذه الفكرة عند محمد أذناً صاغية فبدأ يعمل لها منذ عام ١٠٠هـ، فوجه ميسرة إلى العراق، وسيّر أبا محمد الصادق إلى خراسان فاختار له اثني عشر نقيباً، وكان يأخذ من أتباعه خمس الأموال يدفعونها إلى النقباء الذين ينقلونها بدورهم إلى الإمام الذي ينفقها في نشر الدعوة وما يرى فيه مصلحة.

(١) **محمد بن علي بن عبد الله بن عباس**: ولد عام ٦٢هـ، وكان طويلاً، وسيما، عاقلاً، حليماً مات بالشراة عام ١٢٠هـ.

يزيد بن عبد الملك

١٠١ - ١٠٥هـ

حَيَاتُه

ولد يزيد بن عبد الملك عام ٧١هـ في دمشق أيام خلافة عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، واستئثار والده عبد الملك بن مروان بالشام ومصر. لذا فقد نشأ في الرفاهية والدلال، ولم يشعر بقيمة السلطان، إذ أتاه الحكم ولم يتعب بالأمر، ولم يحس بالمعاناة التي قاساها والده وجده من قبل، ومن هنا فقد شغل عن الحكم وأحب جاريتين له هما: حبابة، وسلامة حتى يروى أنه مات كمداً عل أولاهما التي سبقته بأسبوع.

وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وقد ماتت بدمشق، ودفنت في المحلة المعروفة الآن باسم قبر عاتكة نسبة لها.

كان أبيض جسيماً، مدور الوجه، وقد كني بأبي خالد.

تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يتولى الأمر، وأراد أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز إلا أن قرناء السوء لم يتركوه.

تولى الخلافة وعمره تسع وعشرون سنة، فلم يكن لديه من الخبرة الكافية، والناس تحترم عادة الكبار، وتقدر أصحاب الخبرات، وعندما آل الأمر في أواخر الدولة الأموية إلى الشباب، والذين لم يشعروا بقيمة السلطان، ولم يبذلوا شيئاً في سبيله، وإنما عاشوا على الترف والرفاهية كل هذا قد أدى إلى توقف الفتح الإسلامي الذي تم فيما قبل، وبالتالي أدى هذا إلى ضعف الدولة.

وتوفي في ٢٥ شعبان عام ١٠٥هـ، وله من العمر أربع وثلاثون سنة،

وكانت مدة خلافته أربعة أعوام وشهر كاملاً، وعهد بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك، ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد.

وكانت وفاته في إربد من أعمال الأردن، ونقل إلى دمشق فدفن فيها، وله من الأولاد الذكور عشرة وهم: الوليد، والغمر، ويحيى، وسليمان، وداود وقد مات صغيراً، وعبد الجبار، وعبد الله وأمه سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وأبو سفيان، وهاشم، والعوام، ومات صغيراً.

وله من البنات عاتكة وتزوجها محمد بن الوليد بن عبد الملك.

أما الغمر، وعبد الجبار فقد قتلا يوم أبي فطرس بفلسطين عام ١٣٢هـ، أثناء هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وصلب عبد الله بن عبد الجبار بالحيرة.

الولايات

كانت الولايات الإسلامية قد خضعت في عهد يزيد إلى كثير من التغيير في أمرائها واستبدال الذين ولاّهم عمر بن عبد العزيز، كما تحرك الخوارج في العراق بموت عمر.

١ ـ الشام: كانت أكثر إماراتها بيد أبناء البيت المرواني فلم يحدث فيها شيء من التغيير، ولم تقم فيها أية حركات.

٢ ـ الحجاز:

أ ـ المدينة المنورة: نزع عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري الذي كان أميراً على الطائف، وهو الذي ولاه، وعاد بعد سنتين فعزله، وولى عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري، فكان أحب الولاة إلى أهلها، ولا يقوم على أمر حتى يستشير سالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر.

ب ـ مكة المكرمة: كان أميرها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد فعزله، وضم مكة إلى المدينة المنورة عام ١٠٣هـ فأصبح أمير المدينة هو أمير المدينتين.

٣ ـ العراق: كانت العراق مسرح كثير من الأحداث، والتغيير في الولاة.

أ ـ الكوفة: منذ أيام عمر بن عبد العزيز كان أمير الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، إلا أن مسلمة بن

عبد الملك قد عزله عندما جاء إلى العراق، وولى مكانه محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط المعروف بـ (ذا الشامة)، ثم تسلم مسلمة الكوفة، وأبقى عليها محمد بن عمرو الأمير السابق، ثم غدا عمر بن هبيرة على العراق كله والمشرق مكان مسلمة.

ب ـ البصرة: أرسل عمر بن عبد العزيز إلى البصرة عدي بن أرطأة الفزاري، فلما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، وكان يكره آل المهلب، سجن عدي أولاد المهلب وهم: المفضل، وحبيب، وعبد الملك، ومروان، وبقي محمد من أولاد المهلب خارج السجن لكن يزيد بن المهلب قد فر من سجن عمر بن عبد العزيز وتمكن أيام يزيد أن يغلب على البصرة، ويخرج إخوته من السجن، ويسجن الأمير السابق عدي بن أرطأة، ويبعث عماله إلى الأهواز، وكرمان، وفارس، وقد أرسل أخاه مدركاً إلى خراسان، وسار هو إلى واسط وولى على البصرة أخاه مروان.

أرسل يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك لقتال ابن المهلب وأرسل أمامه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك بأربعة آلاف فارس فوصل إلى الحيرة قبل وصول يزيد بن المهلب إليها، وجاء مسلمة بن عبد الملك بأهل الشام وقد سار إلى الجزيرة محاذياً نهر الفرات.

استخلف يزيد بن المهلب ابنه معاوية بن يزيد على واسط، وسار هو لقتال أهل الشام، وقد أرسل أمامه أخاه عبد الملك بن المهلب فالتقى بالعباس بن الوليد فانتصر عبد الملك في أول الأمر ثم هزم وسار نحو أخيه للقاء مسلمة بن عبد الملك قرب الأنبار وكذلك تحرك العباس بن الوليد نحو عمه مسلمة.

جاءت الجموع إلى يزيد بن المهلب فجعل عليها أخاه المفضل، ودارت معركة بين الطرفين قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوته حبيب، ومحمد، وانتصر أهل الشام، وعاد المفضل إلى واسط حيث أن ابن أخيه معاوية بن يزيد بن المهلب الذي قتل الأسرى لديه عندما علم نبأ المعركة ومنهم عدي بن أرطأة وابنه محمداً. وفي الوقت نفسه سار مسلمة بن عبد الملك إلى الحيرة فدخلها.

سار آل المهلب من واسط إلى البصرة ومنها ركبوا السفن وانتقلوا إلى كرمان فأرسل مسلمة بن عبد الملك في إثرهم مدرك بن ضب الكلبي فاقتتلوا فقتل المفضل بن المهلب ومعه النعمان بن إبراهيم بن الأشتر النخعي، ومحمد بن إسحاق بن محمد بن الأشعث كما قتل جريحاً عثمان بن إسحاق بن محمد بن الأشعث، وطلب الأمان مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعي فأعطيه. ثم قتل آل المهلب جميعهم، ولم ينج منهم سوى أبي عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فإنهما لحقا بأرض خاقان ورتبيل.

وقام بأمر البصرة بعد خروج آل المهلب منها شبيب بن الحارث التميمي، فلما ضمت إلى مسلمة بن عبد الملك بعث إليها عبد الرحمن بن سليم الكلبي، ثم عاد فبعث إليه ابن عمه عبد الملك بن بشر بن مروان. ثم عزل مسلمة بن عبد الملك وضمت البصرة تحت إمرة عمر بن هبيرة.

٤ ـ **خراسان**: كان أميرها عبد الرحمن بن نعيم الغامدي، ثم سيطر عليها آل المهلب، وتولى أمرها مدرك بن المهلب، ولما هزم أرسل مسلمة بن عبد الملك إليها ختنه زوج ابنته سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم ابن أبي العاص المعروف باسم (خذينة) إلا أن عمر بن هبيرة قد عزله وولى مكانه سعيد بن عمرو الحرشي عام ١٠٣ هـ، ولم يلبث سوى عام حتى عزل، وتولى مكانه مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرعة الكلابي.

٥ ـ **أرمينيا وأذربيجان**: كان عليها الجراح بن عبد الله الحكمي، وكانت له غزوات فيها.

٦ ـ **مصر**: توفي أيوب بن شرحبيل الذي ولاه عمر بن عبد العزيز، فولّى يزيد على مصر بشر بن صفوان الكلبي عام ١٠١ هـ ثم بعد مدة أرسله إلى إفريقية والياً عين أخاه مكانه حنظلة بن صفوان فبقي أميراً حتى تولى الخلافة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥هـ.

٧ ـ **إفريقية**: سار الجند في إفريقية على أميرها يزيد بن أبي مسلم فقتلوه وولوا مكانه محمد بن يزيد[1] مولى الأنصار وأخبر بذلك يزيد بن عبد الملك فأقر الوالي الجديد على عمله ولكن لم يطل أمره إذ أرسل الخليفة إلى إفريقية بشر بن صفوان الكلبي من مصر، وأرسل والي إفريقية إلى الأندلس وهو عنبسة بن سحيم الكلبي.

---

(١) **محمد بن يزيد**: أرسله سليمان بن عبد الملك من الشام والياً على إفريقية عام ٩٧هـ، وعزله عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩هـ فلما تولى يزيد بن عبد الملك ولّى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فأراد أن يسير بإفريقية سيرة الحجاج بالعراق، فقتله الجند وأعادوا محمد بن يزيد، وكان في غزو صقلية ثم عاد، وكتبوا إلى الخليفة: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامناً ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا علينا محمد بن يزيد، فتكتب إليهم الخليفة إني لم أرض بما صنع ابن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على عمله، فكانت ولايته الثانية ولكنها لم تطل.

الفتوحات

غزا العباس بن الوليد بلاد الروم عام ١٠٣ هـ على رأس صائفة، كما غزاها سعيد بن عبد الملك. وغزا عمر بن هبيرة أرمينيا فهزم أهلها وأسر سبعمائة أسير عام ١٠٢هـ، وأما الجراح بن عبد الله الحكمي أمير أرمينيا فقد غزا بلاد اللان عام ١٠٥هـ.

وسار عنبسة بن سحيم الكلبي أمير الأندلس فدخل فرنسا، واستولى على سبتمانيا، ووصل إلى حوض الرون، واستولى على مدينة ليون، وتوغل في إقليم بورغونيا. وغزا محمد بن يزيد صقلية.

ونقض أهل الصغد العهد فغزاهم المسلمون عام ١٠٢هـ، وهزموهم فارتحلوا إلى ملك فرغانة يطلبون معونته ضد المسلمين، وكرر سعيد بن عمرو الحرشي غزو بلاد الصغد عام ١٠٤هـ، كما غزا مسلمة بن سعيد الترك عام ١٠٥هـ.

الخـوارج

لما مات عمر بن عبد العزيز أرسل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب جيشاً بإمرة محمد بن جرير لمحاربة شوذب زعيم الخوارج. فانتصر الخوارج على أهل العراق وتبعوهم حتى وصلوا إلى أخصاص الكوفة والتجؤوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، وقد جرح الأمير محمد بن جرير، ورجع شوذب إلى مكانه ينتظر عودة رسوليه إلى عمر بن عبد العزيز فلما رجعا أخبراه بما صار إليه أمر عمر، وأن قد مات.

أقر يزيد بن عبد الملك عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على الكوفة، وأرسل إلى الخوارج جيشاً يقوده تميم بن الحباب، ويتكون من ألفي رجل. فقتله الخوارج وهزموا أصحابه، ثم وجه إليهم نجدة بن الحكم الأزدي فقتلوه وهزموا أصحابه. فوجه إليهم الشجاع بن وداع في ألفين فقتلوه وقتلوا نفراً من أصحابه منهم ابن عم شوذب هُدبة اليشكري.

جاء مسلمة بن عبد الملك والياً على العراق فدخل الكوفة، ودعا سعيد بن عمرو الحرشي فعقد له على عشرة آلاف ووجهه إلى شوذب، فهزم عدة مرات، ثم حملوا على الخوارج حملة رجل واحد فطحنوهم حيث كانوا قلة، وقتل شوذب.

هشام بن عبد الملك

١٠٥ - ١٢٥ هـ.

حياته

ولد هشام بن عبد الملك في دمشق عام ٧٢هـ، وأمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. كان جميلاً أبيض يخضب بالسواد، أحول، ذكياً له بصر بالأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة، يعرف بالبخل، ويكره سفك الدماء.

استخلف هشام بعد وفاة أخيه يزيد، وبعهد منه، لأربع بقين من شعبان عام ١٠٥هـ وعمره آنذاك أربعة وثلاثون عاماً.

كان يولي أبناءه أمر الجهاد والغزو في أرض الروم وخاصة معاوية، وسليمان، وأخاه مسلمة بن عبد الملك، وابن عمه مروان بن محمد، ولم يكن هشام ليعطي أحداً من بني مروان عطاءه حتى يغزو، فكان بعضهم يغزو، ويرسل بعضهم بديلاً عنه للقتال.

وأعمر الأرض وبنى الرصافة بالقرب من الرقة، وكان يقضي صيفه فيها.

تزوج هشام بن عبد الملك أم حكيم بنت يحيى بن الحكم فأنجبت له سليمان أبا الغمر الذي قتله أبو العباس السفاح، ومسلمة، ويزيد، وسعيداً، ومحمداً.

وتزوج أم عبده بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فولدت له يحيى، وعبد الله.

وتزوج أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له مروان.

وله من الأولاد من أمهات أولاد: معاوية الذي توفي في حياة أبيه عام ١١٩هـ، وقاد الصوائف إلى بلاد الروم عشر سنوات، وهو والد عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الأموية في الأندلس. وعبد الرحمن، وعثمان، وقريش، وخلف، والوليد، وعبد الملك وله من البنات عدد أشهرهن: أم سلمة، وأم هشام.

وتوفي في الرصافة يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر عام ١٢٥هـ.

الولايات

كانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك بصورة عامة هادئة سوى بعض حركات الخوارج التي قامت في العراق، وثورة زيد بن علي بالكوفة، والدعوة العباسية التي كانت تنتشر بصمت في خراسان فإذا عرف بعض أتباعها قتلوا، كذلك قامت حركة يحيى بن زيد بعد هشام، أما في الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحات إذ لم تكن وصلت إليها الخلافات، وكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم. ثم انسحب المسلمون من وسط فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا في جنوبي فرنسا.

١ ـ **الشام**: لم يحدث في الشام ما يلفت الانتباه، وكانت إماراتها بيد أمراء من بني مروان في أغلبها، وتنطلق الغزوات من إماراتها الشمالية حيث يجتمع الغزاة في الصوائف والشواتي نحو بلاد الروم.

٢ ـ **الحجاز**: كانت إمارات الحجاز كلها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف بيد عبد الواحد بن عبد الله النضري، ثم إن هشام بن عبد الملك قد عزله عن الحجاز، وأعطاها لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي عام ١٠٦هـ. وفي عام ١١٤ هـ عاد فعزل خاله إبراهيم بن هشام عن الحجاز، وأمّر خاله محمد بن هشام بن إسماعيل على مكة المكرمة، بينما أعطى أمر المدينة إلى خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ثم عاد فعزل خالداً عن المدينة وضمها إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي وذلك عام ١١٨هـ.

٣ ـ **العراق**: منذ أن تولى هشام الخلافة عزل عمر بن هبيرة عن

العراق وسائر المشرق، وأعطاها إلى خالد بن عبد الله القسري، ثم بعد أربعة أعوام انتزع خراسان منها وأعطاها إلى أشرس بن عبد الله السلمي.

وفي عام ١٢٠هـ عزل هشام عن العراق خالد بن عبد الله القسري وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي[1] الذي كان عاملاً له على اليمن، ولم يلبث أن خرج فيها زيد بن علي بن أبي طالب، وكان من قبل يقيم بالمدينة وعندما سجن يوسف بن عمر والي العراق سلفه خالد بن عبد الله القسري ذكر أنه قد أودع أموالاً عند زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ولكن زيداً قد أقسم عند والي المدينة بعدم صحة ذلك وسار إلى دمشق، وأقسم أيضاً أمام هشام ثم سار إلى العراق، وبقي فيها عدة أشهر وبيّن للوالي أنه لم يودع عنده أية أموال من قبل خالد بن عبد الله القسري، وكان يوسف بن عمر يدعوه للخروج من العراق فيتعلل ببعض أعماله، وكان يتردد عليه بعض أنصاره يدعونه للخروج على بني أمية حتى خرج عام ١٢١هـ، وقد نصحه بعدم الخروج محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وذكّره بفعل أهل العراق مع علي، والحسن، والحسين إلا أنه خرج بأربعة عشر ألفاً، إلا أن أتباعه قد خذلوه وبدؤوا يسألونه عن رأيه في أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، فذكرهما بخير، فانفضّوا من حوله، فأطلق عليهم اسم «الرافضة» وبقي معه عدة مئات، فقاتل بهم قتالاً لا مثيل له، ثم استشهد بعد قتال عدة أيام وذلك عام ١٢٢هـ، وكان يهزم الجموع أمامه، ثم أصيب عند المساء وافترق الطرفان ظناً بحلول الليل، وفي الصباح لم

---

(١) **يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي**: أبو يعقوب، ولد في البلقاء بشرقي الأردن عام ٦٥هـ حيث كانت منازل أهله، وتولى إمرة اليمن لهشام بن عبد الملك عام ١٠٦هـ، ثم نقل إلى العراق، فاستخلف ابنه الصلت على اليمن، وأضيفت إليه إمرة خراسان، عذب سلفه في إمرة العراق خالد بن عبد الله القسري في السجن، ثم أطلقه فأقام بدمشق حتى عاد الخليفة فأرسله إليه فعذبه حتى مات، وهرب يوسف من العراق عام ١٢٦ بعد موت الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقبض عليه وسجن في دمشق، فأرسل إليه يزيد بن خالد بن عبد الله القسري من قتله بالسجن عام ١٢٧هـ، ثأراً لأبيه. كان يوسف صغير الحجم، قصير القامة، عظيم اللحية، فصيحاً جواداً، عنيفاً، يضرب به المثل في التيه والحمق فيقال: أتيه من أحمق ثقيف.

تقم لجماعة زيد قائمة. وإلى زيد هذا تنتسب الفرقة الزيدية الموجودة في اليمن، وتعد أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة. أما ابنه يحيى فقد استجار بعبد الملك بن بشر بن مروان فأجاره، فلما بلغ ذلك يوسف أخبره بأنه إن لم يأت به ليكتبن ذلك إلى أمير المؤمنين، فأخبره عبد الملك بأنه لم يكن له أن يخفي من يقاوم سلطانهم أبداً، فقبل منه يوسف، وكفّ عن طلبه، فلما سكن الطلب خرج في جماعة له واتجه إلى خراسان.

٤ ـ **خراسان**: منذ أن تولى خالد بن عبد الله القسري أمر المشرق عزل مسلم بن سعيد عن خراسان وولى أمرها أخاه أسد بن عبد الله القسري، فأرسل أسد إلى عبد الرحمن بن نعيم الغامدي أن يقوم بأمر الجند فقال مسلم بن سعيد: سمعاً وطاعة، وأبدى أسد شيئاً من العصبية لليمانية فعزله هشام عام ١٠٩هـ عن خراسان، كما فصلت عن العراق حتى تخرج عن يد خالد بن عبد الله، فاستخلف أسد مكانه على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي، ولكن هشاماً لم يلبث أن أرسل أشرس بن عبد الله السلمي.

ثم عُزل أشرس بن عبد الله السلمي عن خراسان عام ١١١هـ، وولي أمرها إلى الجنيد بن عبد الرحمن المري، فتعصب لمضر، ولكنه توفي عام ١١٦هـ، واستخلف مكانه عمارة بن حريم، حتى تولى أمر خراسان عاصم بن عبد الله.

خرج في خراسان عام ١١٦هـ الحارث بن سريج وطالب بإنصاف المظلومين فقاتله أميرها حتى انتصر عليه، وفي عام ١١٧هـ عاد هشام فعزل عاصم بن عبد الله عن خراسان، وأعاد ضمها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري الذي بعث إليها أخاه أسداً.

وعندما تولى العراق وسائر المشرق يوسف بن عمر الثقفي أرسل إلى خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله وولى مكانه نصر بن سيار.

وقد بقي يحيى بن زيد بن علي مختبئاً بخراسان عند الجريش بن عمرو بن داود ببلخ حتى مات هشام.

٥ ـ **أرمينيا**: ولّى هشام بن عبد الملك على أرمينيا عام ١١١هـ الجراح بن عبد الله الحكمي، وبقي عليها حتى استشهد عام ١١٢هـ، وكان قد استخلف أخاه الحجاج، ثم كان مسلمة بن عبد الملك، وقد خلف على باب الأبواب بعد غزوه الحارث بن عمرو الطائي. وفي عام ١١٤هـ تولّى أمر أرمينية مروان بن محمد بن عبد الملك بن مروان.

٦ ـ **مصر**: تولى أمر مصر في بداية عهد هشام بن عبد الملك أخوه محمد بن عبد الملك بن مروان، ولكنه لم يلبث أن استبدل بالحر بن يوسف الأموي الذي بقي في منصبه عامين (١٠٦ ـ ١٠٨)، ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمي إلا أن عبد الملك بن رفاعة قد عاد مرة ثانية إلى إمرة مصر، ولكنه توفي بعد خمسة عشر يوماً من تسلمه الأمر وذلك في مطلع عام ١٠٩هـ، فاستخلف أخاه مكانه وهو الوليد بن رفاعة فأقره هشام على ذلك، وبقي الوليد في عمله حتى توفي عام ١١٧هـ. فاستعمل هشام بعده عبد الرحمن بن خالد إلا أنه كان ليناً فشكاه أهل مصر إلى الخليفة فعزله، وأعاد إلى الإمرة حنظلة بن صفوان الكلبي للمرة الثانية وذلك عام ١١٩هـ وبقي فيها حتى أرسله هشام إلى إفريقية عام ١٢٤هـ بعد مقتل كلثوم بن عياض القشيري، وولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي واستمر بعد هشام بن عبد الملك أياماً.

٧ ـ **إفريقية**: كان والي إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفي استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في إذلال القيسية ثم إن هشاماً عيّن على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن القيسي فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبآل موسى بن نصير، وفي عام ١١٦ أرسل والي مصر الوليد بن رفاعة إلى إفريقية عبيد الله بن الحبحاب فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادي فأساء معاملة البربر، وولى على بلاد السوس ابنه إسماعيل فأساء معاملة البربر أيضاً، الأمر الذي دعاهم إلى الثورة، واستغلوا غياب جيش المغرب خارج البلاد في غزو صقلية عام ١٢١ بإمرة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع.

تحرك البربر عام ١٢١ بإمرة ميسرة الزناتي، وساروا إلى طنجة وقتلوا عاملها عمر بن عبيد الله المرادي، ثم اتجهوا إلى بلاد السوس وقتلوا العامل هناك أيضاً إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، ثم هزموا وتحصنوا في طنجة. ثم رجعوا وحاولوا السيطرة على القيروان فبدد شملهم عامل طرابلس صفوان بن مالك ثم تم لهم إحراز بعض النصر فأرسل لهم الخليفة جيشاً بإمرة كلثوم بن عياض القشيري وأعطاه ولاية إفريقية واستدعى عبيد الله بن الحبحاب إلى الشام.

جرت معركة كبيرة بين جيش الخليفة والبربر فقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة وذلك عام ١٢٣هـ. وتمكن بلج بن بشر القشيري ابن عم كلثوم أن يلجأ إلى طنجة وأن يعتصم فيها..

وبعد مقتل كلثوم بن عياض سيّر هشام بن عبد الملك إلى إفريقية والي مصر حنظلة بن صفوان، وحاول البربر حصاره في القيروان إلا أنه تمكن من إنزال الهزيمة بهم الأمر الذي أعاد الهيبة للأمويين في بلاد المغرب.

٨ ـ **الأندلس**: بعد أن استشهد عنبسة بن سحيم الكلبي في غزوة داخل فرنسا عام ١٠٧هـ، حدثت خلافات استمرت أربع سنوات، ثم تولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري، ولكن عبيد الله بن الحبحاب الذي وصل إلى إفريقية قد عزل عبد الملك بأمر الخليفة وأرسل إلى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي العبسي فسار إليها عقبة وملكها، ودخل فرنسا، واستقر في سبتمانيا، كما فتح بعض أراضي جيليقية في شمال بلاد الأندلس، وقد أسلم على يديه أكثر من ألف رجل، ثم سار أهل الأندلس عليه عام ١٢٣ فخلعوه، وتوفي بعد قليل بقرطبة. ونادى أهل الأندلس بعبد الملك بن قطن الفهري أميراً عليهم.

تحرك البربر في الأندلس فأذن عبد الملك بن قطن الفهري لبلج بن بشر بدخول الأندلس، وكان في طنجة، فدخل بشر وتمكن من الانتصار على البربر في معركة شذونة، وبعدها طلب أمير الأندلس من بلج الخروج

من الأندلس فرفض وحدث خلاف بين الطرفين قتل نتيجته عبد الملك بن قطن وغدا بلج بن بشر أمير الأندلس.

لم يلبث بلج بن بشر القشيري أن توفي بعد عام تقريباً متأثراً بجراحه التي أصيب بها في معاركه التي خاضها، وخلفه ثعلبة بن سلامة الذي جاء وبلج مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية ولكن حنظلة بن صفوان أمير إفريقية قد بعث إلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي حسب أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك.

الفتوحات

لم تعد هناك فتوحات واسعة كالتي حدثت أيام الوليد، وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون إثرها إلى ثغورهم، أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين الأمر الذي يضطر فيه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم إلى طلب الصلح ثانيةً ودفع الجزية.

١ ـ الجبهة الغربية:

أ ـ في بلاد الروم: استمرت الغزوات في أرض الروم طيلة أيام هشام فكانت تندفع الصوائف والشواتي مجاهدة في البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغييرات في الحدود، وإنما توغل في أرض الروم، ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس.

وكان أشهر قادة تلك الغزوات: مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله البطال، وسعيد بن عبد الملك، وإبراهيم بن هشام، والوليد بن القعقاع العبسي، والنعمان بن يزيد بن عبد الملك، ومسلمة بن هشام بن عبد الملك. وفي عام ١٠٧هـ غزا معاوية بن هشام الصائفة، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر إلى قبرص.

وفتح مسلمة بن عبد الملك عام ١٠٨هـ مدينة قيصرية، ثم رجع عنها إلى الثغور. ووصل سعيد بن هشام عام١١١هـ إلى مدينة قيصرية أثناء توغله

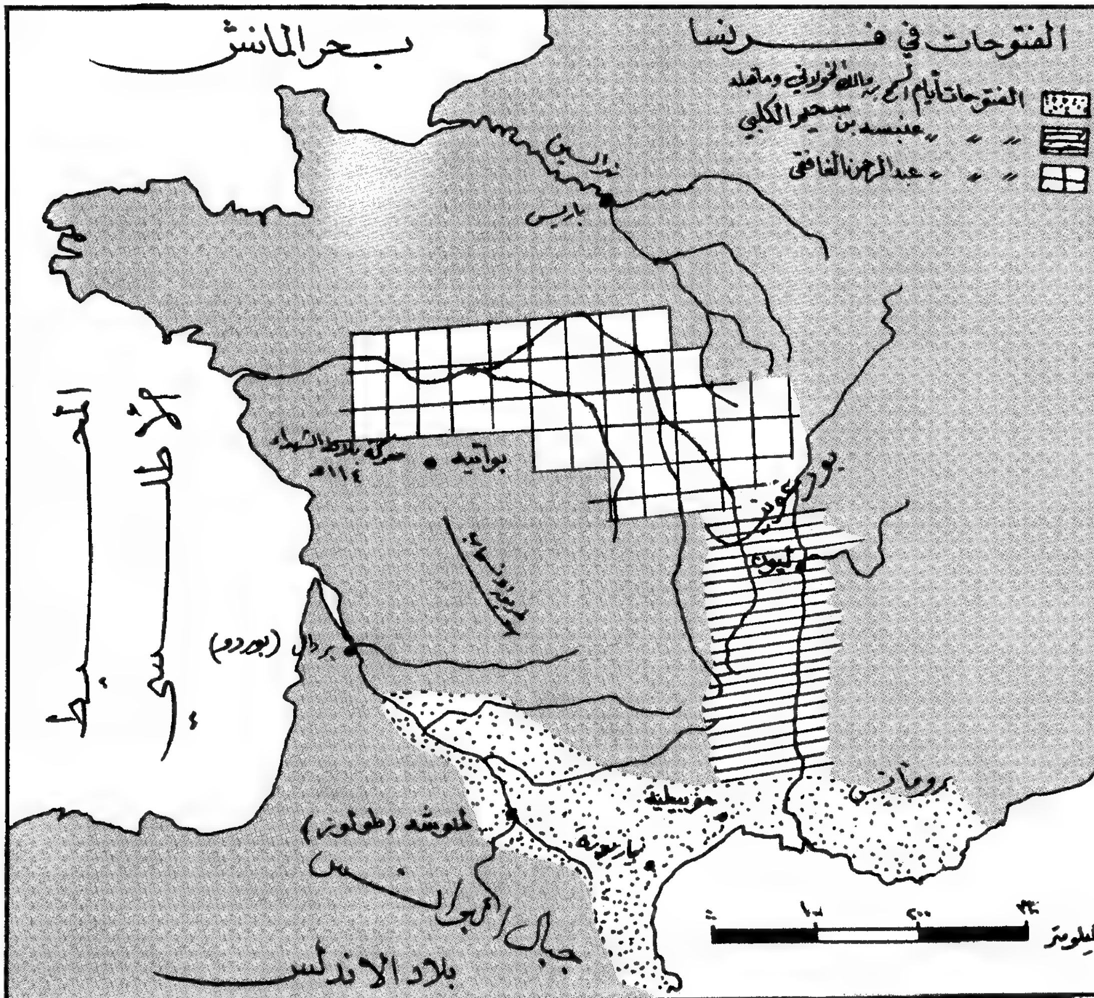
في أرض الروم. وهزم عبد الله البطال قسطنطين وجيشه، وأسره، ووصل سليمان بن هشام إلى مدينة قيصرية ثانية.

ورابط معاوية بن هشام عام ١١٣هـ في ناحية مرعش، وكان قد فتح حصن خرشنة قبل عام.

ب ـ **في البحر**: كذلك فقد حدثت غزوات بحرية للجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر قادة البحر: عبد الله بن عقبة بن نافع، وعبد الله بن أبي مريم، وميمون بن مهران، وغزا أمير إفريقية جزيرة صقلية عام ١٢١هـ، وكان قائد الغزو حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الذي استطاع فتح مدينة سرقوسة، وكذا غزا أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا عام ١١٧هـ بإمرة قثم بن عوانة الذي تمكن من الاستيلاء على قلعة الجزيرة إلا أن المقاتلين قد غرقوا في البحر عند عودتهم. . .

حـ ـ **في الأندلس**: استشهد عنبسة بن سحيم الكلبي بعد تقدمه في فرنسا وفي أثناء عودته إلى قاعدته، فأضعف قتله معنويات المسلمين فاضطروا إلى الانسحاب إلى ناربونة قاعدته في جنوبي فرنسا، وتولى أمر الأندلس عبد الرحمن الغافقي فخرج في ثمانية آلاف مقاتل، واستولى على إكيتانيا، كما ضم إليه وادي الرون ثانية، واستعان دوق إكيتانيا بالفرنجة فجمع شارل مارتل جنداً كثيراً كان أكثرهم عراة، وجرت معركة في بواتييه بعد مناوشات دامت ثمانية أيام، ووقع اضطراب في صفوف المسلمين، وأصيب عبد الرحمن الغافقي، فاختلفت كلمة رؤساء الجند، فانسحبوا ليلاً دون علم الفرنجة وذلك عام ١١٤هـ وعرفت تلك المعركة باسم بلاط الشهداء، ولم يبق للمسلمين في فرنسا سوى مقاطعة سبتمانيا.

ودخل عقبة بن الحجاج سبتمانيا، وقام بفتح بعض المناطق التي بقيت مستعصية على المسلمين في شمالي بلاد الأندلس.



الفتوحات في فرنسا
الفتوحات أيام السمح بن مالك الخولاني وما قبله
" " عنبسة بن سحيم الكلبي
" " عبد الرحمن الغافقي
بحر المانش
نهر السين
باريس
المحيط الأطلسي
بواتيه
معركة بلاط الشهداء
١١٤هـ
بردال (بوردو)
ليون
طلوشة (طولوز)
أربونة
جبال البرتات
بلاد الاندلس
كيلومتر

٢ ـ الجبهة الشرقية:

أ ـ أرمينيا: كثر الغزو في أرمينيا وبلاد اللان أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة، الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمي، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمي، والحارث بن عمرو الطائي، وإسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد.

فقد غزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها على أن يؤدوا الجزية إلا أنهم نقضوا العهد فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام ١١٠هـ، وسار الترك إلى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو عام ١١٢هـ فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان في العام نفسه. ولم يكن جيشه قد اكتمل إعداده بعد فاستشهد هو ومن معه من الجند بأردبيل، وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم حتى تجاوز باب الأبواب فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائي. وعاد إليهم مسلمة، في العام التالي ١١٣هـ ففرق جنده في أرضهم، فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هزم عام ١١٤هـ ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام ١١٧هـ الأمر الذي جعلهم يقرون بالجزية، ولم يلبثوا أن نقضوا العهد فغزاهم عام ١٢٠هـ إسحاق بن مسلم العقيلي، ومروان بن محمد الذي افتتح بلاد السرير فدانت له وأدت الجزية عام ١٢١هـ، وتوفي في ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذي دوخ الروم والترك.

ب ـ بلاد ما وراء النهر: ما انقطع القتال في بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك واشتهر من القادة: أسد بن عبد الله القسري، ومسلم بن سعيد، والجنيد بن عبد الرحمن، وسعيد بن عمرو الحرشي، ونصر بن سيار.

غزا مسلم بن سعيد الترك فأتى فرغانة وفروا من أمامه عام ١٠٦هـ، وفي العام الذي تلاه غزا أسد بن عبد الله القسري الجبال فصالحه الملك نمرون وأسلم على يديه، كما سار إلى جبال هراة، ومنها انطلق إلى الخُتّل فحاربهم حتى أجبرهم على الصلح، ثم نقضوا عهدهم فقاتلهم سعيد بن عمرو الحرشي، وهزمهم في عدة وقائع عام ١١٢هـ، لكنهم لم يلبثوا أن هاجموا سمرقند فاستنجد أميرها بالجنيد بن عبد الرحمن، فانتصرت الترك، وقتلت عدداً كبيراً من المسلمين، ثم ثبت المسلمون فردوا الترك وهزموهم.

وغزا أسد بن عبد الله القسري عام ١١٩هـ بلاد الختل، وقتل ملكهم بدر طرخان، كما سار إلى بلاد الترك فلقي خاقان فقتله، وتوفي أسد بعد ذلك عام ١٢٠هـ. وسار نصر بن سيار إلى بلاد ما وراء النهر مرتين، وفي المرة الثالثة أسر الملك كورصول وقتله عام ١٢١هـ، وصالح أهل الصغد عام ١٢٣هـ، وغزا في العام نفسه فرغانة مرتين.

ثم خرج في العام نفسه وزير السختياني بالحيرة واجتمعت حوله جماعة قليلة وعاثت في الأرض فساداً فأرسل لهم والي العراق قوة انتصرت عليهم، وقتلت معظمهم، وأُخذ وزير السختياني وبعض أصحابه أسرى، وحملوا إلى الوالي، فقتل الخوارج واستبقى أميرهم لما رأى من ذكائه وبيانه، وكان يدعوه أحياناً من السجن ويستمع إليه، ووصل خبر ذلك إلى هشام بن عبد الملك فأنّب الأمير وطلب منه قتل الخارجي فقتله.

وخرج الصحاري بن شبيب عام ١١٩هـ بناحية واسط فأرسل له خالد بن عبد الله القسري جنداً، فجرت معركة عظيمة بين الطرفين أُبيد فيها الخوارج.

الخــوارج

كانت حركات الخوارج أيام هشام بن عبد الملك موضعية فلم تتجاوز أرض العراق، وعلى نطاق ضيق فلم تتجاوز مساحات صغيرة، ولم تتعد عدداً محدوداً من الرجال، ولم تستمر إلا مدة بسيطة إذ لا يلبث مثيرها ومشعل فتنتها أن يقتل وتنتهي بموته الحركة التي قام بها، ثم تقوم حركة ثانية وهكذا.

فقد خرج بهلول بن بشر الملقب كثارة بأربعين رجلاً في قرية من قرى الموصل عام ١١٩هـ فأرسل إليه والي العراق خالد بن عبد الله القسري جماعة من الشام جاءوا في الأصل مارين بالعراق وذاهبين مدداً لعامل الهند فعندما نزلوا الحيرة أرسلهم خالد بن عبد الله للخوارج إلا أنهم هزموا، فلما بلغت هزيمتهم خالداً أرسل إلى الخوارج جماعة أخرى فالتقت بهم بين الموصل والكوفة ولكنها لم تلبث أن هزمت أمام الخوارج وعادت فلولها إلى الذي أرسلها وهو بالكوفة ينتظر نتيجة المعركة. وأراد بهلول أن يسير إلى الشام فخافه عمال المدن، فأرسل إليه خالد جماعة من الشام وأخرى من العراق، وعبأ له عامل الجزيرة جنداً ولم يكن مع بهلول سوى سبعين رجلاً، والتقى الخوارج بجموع أعدائهم قرب الموصل، فقتل بهلول بعد أن استخلف بعده دعامة الشيباني، ومن بعده عمرو اليشكري، وبعد مقتل بهلول وهزيمة الخوارج ترك دعامة جماعته ممن بقي من الخوارج وفرّ وحده.

وخرج بعدئذ وفي العام نفسه عمرو اليشكري إلا أنه لم يلبث أن قتل.

وخرج العنزي صاحب الأشهب في ستين رجلاً فوجه إليه خالد بن عبد الله القسري أربعة آلاف بإمرة السمط بن مسلم البجلي فالتقى الجمعان على الفرات فهزم الخوارج، وقتلت فلولهم عند الكوفة من عامة الناس.

الدّعوَة العبّاسِيّة

كان بكير بن ماهان مع الجنيد بن عبد الرحمن في السند يعمل ترجماناً له فقدم بكير إلى الكوفة عام ١٠٥هـ في بدء خلافة هشام بن عبد الملك فالتقى هناك بدعاة الدعوة العباسية مثل أبي عكرمة، وأبي محمد الصادق فذكروا له الدعوة لبني هاشم فوافقهما على العمل في عدادها، ودخل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فوجد محمد في بكير ضالته فقدّمه، ومات داعية بني العباس ميسرة فكان بكير مكانه، فوجه إلى خراسان أبا عكرمة، وأبا محمد الصادق فانكشف أمرهما بعد أن وُشي بهما إلى والي خراسان أسد بن عبد الله القسري فقتلهما عام ١٠٧هـ وعاد فوجه دعاة آخرين إلى خراسان عام ١٠٨هـ فكان مصيرهم مصير سابقيهم نفسه، إلا أن الدعوة قد توسعت فقتل الجنيد بن عبد الرحمن أحد هؤلاء الدعاة وأعلن أن دم من يقتل من هؤلاء يذهب هدراً وذلك عام ١١٣هـ، فخاف الناس إلا أن الشدة وحدها لا تكفي للوقوف في وجه دعوة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري مرة ثانية إلى ولاية خراسان وذلك عام ١١٧هـ، واتخذ سبيل الشدة في مقاومة أنصار العباسيين.

ووجه بكير بن ماهان إلى خراسان عمّار بن يزيد ليكون أميراً على أنصار الدعوة العباسية فجاء عمار إلى مرو، وغيّر اسمه إلى خداش فأطاعه عدد من الناس، ثم انقلب على العباسيين ودعا إلى الإباحية ورخص لبعض أصحابه في نساء بعض، وادعى أن ذلك عن أمر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فلاحقه أسد بن عبد الله فعثر عليه وقتله عام ١١٨هـ إلا أن محمد بن علي قد أنكر أمر أنصاره في خراسان واتباعهم خداش،

ونفض يده منهم، وانقطع عن مراسلتهم، فأرسلوا إليه سليمان بن كثير ليتعرف على أسباب الجفوة لكن سليمان عاد دون جواب، فأرسل إليهم بكير بن ماهان كتاباً يعلمهم أن خداش سار على خط لا ترضى عنه الدعوة وفيه مخالفة صريحة إلا أن أنصارهم في خراسان قد استخفوا بكتاب بكير ولم يصدقوه فسار بكير إلى محمد بن علي فبعث لهم معه ما يبين له مخالفتهم للدعوة فرجعوا عن غيّهم وتابوا.

ومات محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عام ١٢٤هـ، وقام بعده بشأن الدعوة ابنه إبراهيم بن محمد بن علي.

وظهر في هذه الآونة أبو مسلم الخراساني الذي كان في السجن يخدم أحد عمال خالد بن عبد الله القسري الذي سجنهم والي العراق يوسف بن عمر الثقفي فاشتراه بكير بن ماهان، وأرسله إلى إبراهيم بن محمد بن علي، فأعطاه إلى أبي موسى السراج ليؤدبه فسمع منه وحفظ.

الوَليد بن يزيد

١٢٥ - ١٢٦هـ

حَيَاته

ولد الوليد بن يزيد عام تسعين للهجرة، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي ابنة أخ الحجاج بن يوسف والي العراقين أيام عبد الملك وابنه الوليد، ويكنى أبا العباس.

عهد إليه بالخلافة أبوه يزيد بن عبد الملك بعد عمه هشام بن عبد الملك، كان عمه يكرمه حتى ظهرت عليه علامات الاستهتار والشراب فوقعت بينهما وحشة. فعزم هشام على خلعه وتولية ابنه مسلمة بن هشام، ففر الوليد إلى البرية، ولم يزل بها حتى مات هشام، وكان الزهري يحثّ هشاماً على خلعه، ومات الزهري قبل تولية الوليد، ولو عاش لناله من الوليد أذى كبيراً. وكان هشام يخشى الفتنة فلم يقدم على خلعه.

بويع الوليد بعد وفاة عمه هشام في ٦ ربيع الثاني. وعمر خمسة وثلاثون عاماً، فسار في أول الأمر بالناس سيرة حسنة فأعطى زمنى أهل الشام وعميانهم وكساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وزاد في الأعطيات. وكان كريماً وشاعراً مجيداً.

عقد من بعده لولديه الحكم، وعثمان ولاية العهد، وبعث بالبيعة إلى والي العراقين يوسف بن عمر الثقفي، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر بن سيّار.

ولّى على الحجاز (المدينة ومكة) خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي وعزل خالي عمه هشام، إبراهيم ومحمد ابني هشام بن إسماعيل المخزومي وأمر خاله أن يقيمهما بالمدينة مهانين، ثم يبعث بهما إلى العراق إلى يوسف بن عمر الذي عذبهما حتى ماتا.

وفي أيامه غزا أخوه الغمر بن يزيد بن عبد الملك قبرص، وخيّر أهلها بين نقلهم إلى الشام أو إلى بلاد الروم لما كان يبدو منهم حيناً بعد حين فانتقلت جماعة إلى الشام واختارت جماعة بلاد الروم.

وفي عهده قتل يحيى بن زيد بن علي زين العابدين إذ كان مختفياً بخراسان عندما مات هشام بدار الحريش بن عمرو بن داود بمدينة بلخ، فوصل خبره إلى يوسف بن عمر فكتب بذلك إلى نصر بن سيّار الذي أرسل إلى نائب بلخ يعلمه بخبر يحيى فبعث نائب بلخ إلى الحريش وضربه ستمائة سوط ولم يعلمه بشيء عن أمر يحيى، ثم أخبر عنه ولد الحريش، فأخذ يحيى، وسجن، وكتب نصر بن سيار بذلك إلى يوسف بن عمر فبعث إلى الوليد بما تمّ، فكتب الوليد إلى نصر يأمره بإطلاقه وإرساله إليه مع أصحابه فامتثل نصر وفعل ذلك، فلما كان يحيى ببعض الطريق توسم نصر به غدراً فأرسل إليه جيشاً من عشرة آلاف فقاتلهم يحيى وليس معه سوى سبعين رجلاً، وهزمهم، وقتل أميرهم، وأخذ منهم أموالاً كثيرة، ثم جاءته قوة أخرى فقتلته وجميع أصحابه.

أساء الوليد لولد عمه فضرب سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وغرّبه إلى عمان حيث حبسه هناك وأرسل العباس بن الوليد بن عبد الملك إلى الرصافة ليحصي أموال هشام وولده إلا مسلمة بن هشام، وأن يأخذ عمّاله وخدمه ففعل ذلك، ثم أساء كذلك إلى أولاد عمه الوليد بن عبد الملك.

وأساء إلى اليمانية إذ قتل خالد بن عبد الله القسري حيث سلمه إلى خصمه يوسف بن عمر الثقفي والي العراقين وكان يقيم بدمشق منذ عام ١٢١هـ فعذبه يوسف حتى مات.

وأساء إلى نفسه إذ بايع لولديه ولم يبلغا سن الرشد بعد. وأسرف في شهواته، وانتهك المحرمات، فثقل ذلك على الناس، ونقموا عليه، وبايعوا سراً ابن عمه يزيد بن الوليد، وكان معروفاً بصلاحه، فنادى يزيد بخلع الوليد الذي كان غائباً بـ (الأغدف) من عمان من جهات الأردن، وقد وضع

نائباً عنه بدمشق خاله عبد الملك بن محمد بن يوسف الثقفي الذي فرّ إلى قطنا وتحصّن بها، واستخلف ابنه على دمشق، واستطاع يزيد بن الوليد أن يدخل دمشق وأن يرسل جماعة من أصحابه بإمرة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك إلى الوليد بن يزيد فقتلوه في (البخراء) في القصر الذي كان للنعمان بن بشير.

وكان مقتله في ٢٨ جمادى الآخرة فكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر تقريباً.

وكان للوليد من البنين الحكم، وعثمان، ويزيد، والعباس، والعاص، وسعيد، وموسى، والفتح، وفهد، وقصي، ولؤي، وواسط، وذؤابة، والمؤمن. وله عدة بنات.

ومن زوجاته عاتكة بنت عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان بن حرب. وقد أنجبت له عثمان، وأم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان، وولدت له سعيداً.

يزيد بن الوليد

١٢٦ - ١٢٦هـ

حياته

ولد يزيد بن الوليد بدمشق عام ٩٠هـ، وأمه شاهفريد بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى، وقد سباها قتيبة بن مسلم الباهلي، هي وأختاً لها فبعثهما إلى الحجاج بن يوسف، فأرسل بهذه إلى الوليد، واستبقى أختها عنده، فولدت هذه يزيد بن الوليد، وقد عرف بالناقص وذلك لأنه أنقص ما زاده الوليد على الأعطيات، ويبدو أن الذي أطلق عليه ذلك ابن عمه مروان بن محمد.

كان رجلاً صالحاً نقم على ابن عمه الوليد بن يزيد بسبب ما انتهكه من حرمات، وقتله لذلك، وكان يقال: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، والمراد بالأشج عمر بن عبد العزيز.

بويع للخلافة بعد مقتل ابن عمه الوليد بن يزيد في ٢٨ جمادى الآخرة عام ١٢٦هـ، وتوفي بالطاعون في ٧ ذي الحجة من العام نفسه وبذا تكون خلافته ما يقرب من ستة أشهر، ويكون قد عاش ستاً وثلاثون سنة.

كان يزيد أسمر طويلاً، صغير الرأس، بوجهه خال، وكان جميلاً.

وله من الأولاد: خالد، والوليد وقد قتلهما مروان بن محمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، وأبو بكر، وعلي، وعبد المؤمن، والأصبغ.

وقد اضطربت الأمور على يزيد، وانتشرت الفتن، واختلفت كلمة بني مروان.

وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان من سجن الوليد،

فاستولى على الأموال والأرزاق، ثم جاء بعد هذا كله إلى دمشق، وصار يلعن الوليد فأكرمه يزيد، وردّ إليه أمواله التي أخذها منه الوليد، وتزوج أخته أم هشام.

وثار أهل حمص، وساروا إلى دار العباس بن الوليد بن عبد الملك فهدموها، ففر العباس منهم إلى دمشق، وبدأ أهل حمص يطالبون بدم الوليد بن يزيد، وعدوا خليفتهم ابنه الحكم بن الوليد، فخلعوا أميرهم مروان بن عبد الله بن عبد الملك، وقتلوه وابنه، وأمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين، وكتبوا إلى الأجناد يطلبون الأخذ بثأر الوليد فأتتهم أعداد، ثم ركب أبو محمد السفياني في أهل حمص، وسار إلى دمشق فتلقاهم سليمان بن هشام بجيش كثيف أرسله إليهم يزيد بن الوليد، وجعل جيشاً آخر بإمرة أخيه عبد العزيز بن الوليد يرابط عند ثنية العقاب (الثنايا)، وتركزت جماعة أخرى عند عقبة (السلّيمة)، وجاء أهل حمص فالتقت القوتان في سفوح الجبل، وهُزم أهل حمص وقُتل منهم الكثير، وأخذ السفياني أسيراً، ثم بايعوا يزيداً.

وثار أهل فلسطين وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وبايع أهل الأردن محمد بن عبد الملك بن مروان فأرسل إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام وحمص بإمرة سليمان بن هشام فانتصر عليهم، وبايعوا يزيداً.

وعزل يوسف بن عمر الثقفي عن العراق، وأرسل مكانه منصور بن جمهور، وضم إليه مع العراق السند، وسجستان، وخراسان وفر يوسف إلى أرض البلقاء من نواحي الأردن، فأحضره الخليفة، وحاسبه، وسجنه.

ثم عاد يزيد فعزل منصور بن جمهور عن العراق وولى مكانه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وأقر نصر بن سيار على خراسان.

وكان مروان بن محمد بأرمينيا وأذربيجان يحرض على المطالبة بدم الوليد بن يزيد، وسار نحو دمشق فلما بلغ حرّان أظهر الموافقة وبايع.

ثم إن الخليفة يزيد بن الوليد قد عزل عن الحجاز يوسف بن محمد الثقفي، وولى عليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز.

وبايع يزيد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. ولم يلبث يزيد أن توفي بالطاعون في ٧ ذي الحجة من العام نفسه ١٢٦هـ.

وبدأت الفتنة في هذه الآونة تظهر بين القيسية واليمانية، ولطالما كانت مجالاً للحماسة في الجهاد، وتسهيلاً لأمور العطاء، وجمع المقاتلين فلما ضعف الجهاد انقلبت إلى عصبية نتنة، وبدأت تطول قرونها.

وظهرت الفتنة بشكل خاص في خراسان حيث كانت اليمانية تشكل أكثر جندها، وحيث كان لآل المهلب بن أبي صفرة الأزدي أنصار، وخصوم لمن خضد شوكتهم، ثم جاء أسد بن عبد الله القسري، وأخونه خالد بن عبد الله والي العراقين فعادت إلى اليمانية قوتهم، إلا أن يوسف بن عمر الثقفي قد أذلّ القسريين، وغدا نصر بن سيار الكناني والي خراسان وهو من القيسيين. وكان أول من أثار الفتنة بخراسان رجل عرف باسم الكرماني حيث ولد بكرمان.

إبراهيم بن الوليد

١٢٧ هـ.

حَيَاته

لما وصل خبر وفاة يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، وهو في حرّان بالجزيرة وبيعة إبراهيم بن الوليد سار نحو دمشق وخلف ابنه عبد الملك بن مروان بن محمد في أربعين ألفاً يرابطون في الرقة، فلما كان في قنسرين وعليها بشر بن الوليد اصطدما وطلب مروان أخذ البيعة لنفسه فمال إليه من جند قنسرين يزيد بن عمر بن هبيرة في القيسية، وأسلموا له بشراً وشقيقه مسروراً، فحبسهما، وسار ومن معه من جند الجزيرة وقنسرين نحو حمص وكان أهلها قد رفضوا بعد يزيد بيعة إبراهيم ومن بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

أرسل إبراهيم بن الوليد إلى حمص عبد العزيز بن الحجاج فحاصرها فلما اقترب منها مروان فكّ عبد العزيز عنها حصار واتجه نحو مروان، فخرج أهل حمص وانضموا إلى مروان، وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها مروان الذي كان يدعو إلى بيعة ولدي الوليد بن يزيد وهما: الحكم، وعثمان، وكانا سجينين في دمشق.

ولما وصلت فلول جيش إبراهيم بن الوليد إلى دمشق رأوا قتل من في السجن فقتل الحكم، وعثمان ولدا الوليد، ويوسف بن عمر الثقفي، ودرأ عن نفسه السفياني إذ لم تلبث أن وصلت جيوش مروان إلى دمشق ودخلتها.

وهرب منها إبراهيم بن الوليد، وسليمان بن هشام، وقتل عبد العزيز بن الحجاج.

وخرج في الكوفة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي

طالب فقد شجعه بعض الناس على الدعوة لبني هاشم وقد وقعت الفتنة في بني مروان ففعل بينما هو قادم لزيارة الأمير عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في الكوفة لا للدعوة إلى البيعة إلا أن أصحابه قد خذلوه فهزم ففر إلى المدائن ومنها إلى الجبال فغلب عليها.

وكان إبراهيم بن الوليد يكنى بأبي إسحاق، وأمه أم ولد، وقد بقي في الحكم مدة سبعين يوماً فقط، ثم خلع، وبقي حتى أصيب عام ١٣٢هـ.

وله من الأولاد: إسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، وموسى، وعبيد الله.

مــروان بن محمّد

١٢٧ - ١٣٢هـ.

حَيَاته

ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم عام ٧٢هـ بالجزيرة،.
وكان أبوه محمد بن مروان والياً عليها، ويكنى مروان بأبي عبد الملك،
ويلقب بالحمار لجرأته في الحروب، كما يلقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبه
الجعد بن درهم.

كان مروان أبيض، ضخم الهامة، بليغاً، وكاتبه عبد الحميد الكاتب
المشهور.

غزا أرض الروم عام ١٠٥هـ وفتح مدينة قونية، كما قام بعدد من
الغزوات، وهو أمير أرمينيا وأذربيجان بعد أبيه:

ومن أولاده: عبد الله، وعبيد الله، وعبد الملك، وعبد الرحمن،
وعبد الغفار، وعثمان، وأبو عثمان، ويزيد، وأبان، ومحمد.

بويع بالخلافة بعد دخوله دمشق في الأيام الأواخر من عام ١٢٦هـ،
واستمر خليفة حتى أواخر عام ١٣٢ حيث زال بزوال دولة بني أمية وقيام
دولة بني العباس، فكانت خلافته ما يقرب من ست سنوات، وعاش ما
يقرب من ستين عاماً.

لما دخل دمشق فرّ منها إبراهيم بن الوليد، وأخذ سليمان بن هشام ما
في بيت المال من أموال وهرب أيضاً، وثار والي الوليد بن يزيد السابق
عليها على عبد العزيز بن الحجاج فقتله. وجيء إلى مروان بولدي
الوليد بن يزيد وهما: الحكم، وعثمان مقتولين، وكذا يوسف بن عمر
فدفنهم، وجاء أبو محمد السفياني الذي كان مسجوناً معهم، وقد نجا من
القتل ـ فسلم على مروان بالخلافة، فعندما أجابه مروان: مه، ادعى أن

الغلامين قد جعلاها له من بعدهما، ثم بايعه وبايعه أهل حمص ودمشق، فاختار الأمراء للولايات. ولما استقرت له الأمور بالشام رجع إلى حرّان فأقام بها. ثم إن إبراهيم بن الوليد قد طلب منه الأمان فأعطاه إياه، وكذلك سليمان بن هشام الذي جاءه مع أهل تدمر وبايعه.

ولم يستقر في حرّان سوى ثلاثة أشهر حتى قامت ضده الحركات، فبدأ ينتقل من مكان إلى مكان يقضي على هذه، ويقاتل تلك.

ثار أهل حمص فجاء إليهم بجيش ومعه إبراهيم بن الوليد، وسليمان بن هشام فدخل حمص، وأعلن أهلها الطاعة إلا أنه قتل عدداً منهم.

وثار أهل غوطة دمشق، وأمّروا عليهم يزيد بن خالد بن عبد الله القسري، فبعث إليهم مروان جيشاً انتصر عليهم، وأحرق بلدة المزة، وعدة قرى، وقتل يزيد بن خالد القسري.

وثار ثابت بن نعيم في أهل فلسطين، وسار إلى طبريا فحاصرها، فأرسل إليهم مروان من فك الحصار عن طبريا، وتتبعهم أبو الورد أمير جيش مروان إلى فلسطين.

ورجع مروان إلى الجزيرة عن طريق تدمر، وفي الرصافة استأذنه سليمان للبقاء فيها ريثما يعافى من مرضه فأذن له، واشتغل مروان بقتال الخوارج. وجاءت سرايا من الجند إلى الرصافة، وكان مروان قد أرسلها بمهمات إلى عدة جهات، فكلّم رؤساؤها سليمان في أخذ البيعة لنفسه وخلع مروان ففعل فبايعه الجند، وسار إلى قنسرين، وكاتب أهل الشام ويزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق فأرسل إليهم مروان جيشاً بإمرة عيسى بن مسلم فالتقى الطرفان بأرض قنسرين فاقتتلوا وجاء مروان بنفسه إلى المعركة فانتصرت قواته، وقتل إبراهيم بن سليمان بن هشام أكبر أولاد أبيه، وفرّ سليمان إلى حمص، واحتمى فيها، وساعده أهلها، وجمع حوله فلول جيشه، وجاء مروان إليهم وحاصرهم واستمر الحصار عشرة أشهر،

وانفلت سليمان بن هشام بجماعة من الجند نحو تدمر، ثم إن أهل حمص قد نزلوا على حكم مروان بعد ذلك الحصار الطويل.

ووقعت العصبية في العراق فكانت القيسية مع النضر بن سعيد الحرشي، واليمانية مع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وحدث بين الطرفين صراع إلا أنه توقف بسبب الاتفاق على قتال الخوارج، ثم ولى مروان عام ١٢٩ على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، وعزل ابن عمر بن عبد العزيز عنها.

وقاتل يزيد بن عمر بن هبيرة أنصار عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، وقد استولوا على منطقة الجبال فهزمهم وأسر عدداً منهم، من بينهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان معهم.

ورجع إلى خراسان الحارث بن سريح وكان قد لجأ إلى بلاد الترك فكتب إليه يزيد بن الوليد وأعطاه الأمان فعاد عام ١٢٧هـ، وبعودته كادت أن تقع فتنة بسبب مفارقته للوالي نصر بن سيار، ولكن الحارث قتل بعد مدة، كما وقعت الفتنة بين نصر بن سيّار والكرماني، ثم توسعت بين القيسية التي دعمت الوالي نصر بن سيار وبين أتباع أبي مسلم الخراساني الذي اعتمد على اليمانية.

وقتل نصر بن سيّار خصمه الكرماني فانضم أنصاره إلى جند أبي مسلم فزاد عدد أنصاره، وأتباع الدعوة العباسية.

الخوارج

خرج في العراق سعيد بن بهدل الشيباني أثناء فتنة مقتل الوليد بن يزيد، واجتمع حوله عدد كبير من الخوارج فجاءتهم جيوش الخليفة، وبدأ القتال بين الطرفين، ومات سعيد بن بهدل بالطاعون، واستخلف مكانه الضحاك بن قيس الشيباني الذي قاتل أهل العراق وانتصر عليهم، وقتل عدداً كبيراً من بينهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ثم دخل الضحاك الكوفة بعدما انتصر على أهلها، وجاء أمير العراق إلى الكوفة فجرت بين الطرفين معارك واسعة انتقل بعدها الأمير إلى واسط، وسار وراءه الضحاك فحاصره فيها، فراسله الأمير بأن يفك الحصار، ويسير إلى الخليفة فإن انتصر عليه تبعه، ففعل، وسار الضحاك إلى الموصل فدخلها، وقتل نائبها، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر لحمص فكتب إلى ابنه عبد الله أن يتتبع الضحاك فسار إليه، وهو محاصر نصيبين، وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها الضحاك، وكان قد استخلف مكانه رجل يدعى «الخيبري»، وتبع الخوارج سليمان بن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ومن معه من جيشه، فسار إلى الخوارج مروان بنفسه، وكان في القلب، وعلى ميمنته ابنه عبد الله، وعلى الميسرة إسحاق بن مسلم العقيلي، والتقى الجمعان وشدّ الخوارج على القلب فهزم مروان وهو عليه، وثبتت الميمنة والميسرة فحملوا على الخوارج فأزالوهم عن مواضعهم وقتل الخيبري، وفرّ أصحابه. وتولى أمر الخوارج بعده شيبان بن عبد العزيز اليشكري فاقترح عليه سليمان بن هشام أن يعتصم بالموصل، فتحصن بها، وسار إليه مروان، وجرت هناك معارك بين الجانبين استمرت سنة كاملة.

وكتب مروان إلى والي العراق الجديد يزيد بن عمر بن هبيرة أن يقاتل الخوارج وأن يتتبعهم حيثما ساروا، وقد تمكّن يزيد أن يستعيد الكوفة منهم، وأن يقضي على قسم كبير منهم، ثم أرسل سرية لدعم مروان في حصاره لمدينة الموصل، وعندما جاءت النجدة لمروان ترك الخوارج الموصل وساروا إلى حلوان، ومنها إلى الأهواز، فلحقتهم قوات ابن هبيرة حتى قضت على معظمهم، أما سليمان بن هشام الذي كان معهم فقد سار وأهله إلى السند عن طريق البحر. وعاد مروان بعدها إلى حرّان فأقام بها.

وخرج أبو حمزة الخارجي، وسار إلى الحج عام ١٢٩هـ، وهادن أمير الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وبعد الموسم سار نحو المدينة ودخلها عام ١٣٠هـ واستولى عليها، وبقيت، بيده ثلاثة أشهر، وفرّ منها أميرها عبد الواحد، فأرسل مروان قوة من أهل الشام إلى المدينة فالتقت مع الخوارج بوادي القرى فهزمتهم ودخلت المدينة، ثم تابعت سيرها إلى مكة فاليمن فخرج إمامها عبد الله بن يحيى الذي كان أبو حمزة الخارجي يدعو له ويقاتل باسمه، وقد تمكن أهل الشام من قتل عبد الله بن يحيى هذا. فولى مروان على الحجاز محمد بن عبد الملك بن مروان.

وخرج في خراسان أيضاً شيبان بن سلمة الخارجي عام ١٣٠هـ فأرسل إليه أبو مسلم الخراساني قوة استطاعت قتله والقضاء على أتباعه.

الدّعوة العبّاسيّة

أرسل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بكير بن ماهان إلى خراسان عام ١٢٦هـ، فقويت شوكتهم هناك، واجتمعت جماعة من الدعاة العباسيين بإبراهيم بن محمد عام ١٢٧هـ، وقدموا له خمس أموالهم.

أرسل إبراهيم بن محمد أبا مسلم الخراساني إلى خراسان، وطلب من شيعته الطاعة له عام ١٢٨هـ، فلم يطيعوه فرجع إلى إبراهيم فأعاده، وطلب منه أن يعتمد على اليمانية إذ أن أمير خراسان نصر بن سيار كان يعتمد على القيسية.

وطلب إبراهيم بن محمد من أبي مسلم الخراساني التوجه إليه عام ١٢٩هـ فسار نحوه، وبينما هو في بعض الطريق جاءه كتاب آخر يطلب منه العودة إلى خراسان، وأنه قد بعث له راية النصر، وعليه أن يعلن الدعوة بعد أن كانت سرية.

أظهر أبو مسلم الخراساني الدعوة، وطلب من سليمان بن كثير أن يصلي العيد بالناس فأرسل إليهم نصر بن سيار قوة، ولكن جند أبي مسلم كانوا قد استولوا على هراة، وكشف أمر إبراهيم بن محمد من الرسائل ومعروف أنه يقيم بالحميمة، فبعث مروان إلى واليه على دمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك أن يقبض عليه، ويقيده، ويرسله إليه، فأرسل إلى نائبه على البلقاء فقبض على إبراهيم في الحميمة فأرسله إلى دمشق، ومن هناك سُيّر إلى حران حيث سجن حتى مات في السجن أو قتل في صفر عام ١٣٢هـ، وقد أوصى عند اعتقاله من بعده لأخيه عبد الله بن محمد وأمره أن يسير إلى الكوفة مع أعمامه فأنزلهم أبو سلمة الخلال في

دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم وكتم أمرهم ٤٠ يوماً، وما زال ينتقل بهم حتى تم لهم فتح البلاد، ثم بويع للسفاح، ثم تمكن أبو مسلم من دخول مرو قاعدة خراسان وانتزاعها من يد نصر بن سيار عام ١٣٠هـ، كما أخذ أبو مسلم مدينة بلخ، وهكذا أصبح القسم الشرقي والجنوبي من خراسان بيد أبي مسلم الخراساني الذي أرسل جنداً وراء نصر بن سيار الذي اتجه غرباً يتعقبه، والتقى الطرفان بطوس، وانتصر جند أبي مسلم وقتل قائد قوات نصر، وهو ابنه تميم. وأرسل يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق مدداً إلى نصر بن سيّار ولكن جند بني أمية قد هزموا ثانية. وتوفي نصر بن سيار عام١٣١ هـ قريباً من مدينة همدان.

سار قحطبة بن شبيب قائد جند أبي مسلم قاصداً يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق، وهزم يزيد أمام قحطبة الذي اتجه نحو الكوفة ليدخلها فتبعه يزيد، وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها قحطبة، وقد تولى قتله معن بن زائدة، واستخلف قحطبة مكانه ابنه الحسن الذي سار نحو الكوفة فإذا بمحمد بن خالد بن عبد الله القسري قد خرج فيها ودعا لبني العباس، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة، فاتجه عندئذٍ الحسن بن قحطبة إلى واسط. وقتل ابن هبيرة في المعارك الدائرة بين الطرفين.

أما مروان فقد غادر حران عام ١٣١هـ ونزل على نهر الزاب الكبير بين الموصل وإربيل.

ولما علم أهل الكوفة بمقتل إبراهيم بن محمد أخرج نقباء الدعوة العباسية السفاح عبد الله بن محمد، وبايعوه، وكان أول من بايعه أبو سلمة الخلال الذي قيل عنه إنه أراد نقل البيعة إلى آل علي. وخرج السفاح إلى المسجد فخطب في الناس، ثم أخذ البيعة منهم، ثم خرج وعسكر خارج الكوفة بعد أن استخلف عليها عمه داود، وبقي في معسكره شهراً أرسل خلال ذلك الوقت القادة ردءاً لجنده في كل جهة.

سار عون بن أبي يزيد نحو نهر الزاب الكبير حيث التقى بمروان، كما جاء عبد الله بن علي عم السفاح، وقاد القتال، وانهزم أهل الشام،

وغرق عدد كبير منهم في النهر من بينهم إبراهيم بن الوليد الخليفة المخلوع، وفرّ مروان إلى حران فمكث فيها قليلاً، ثم استخلف عليها ابن أخته أبان بن يزيد، وانطلق منها هارباً، وهو زوج ابنته أم عثمان، فلما وصل عبد الله بن علي إلى حران استقبله أبان وأعطاه الطاعة فأقره على عمله، وتبع مروان.

سار مروان إلى قنسرين ومنها إلى حمص، وحاول أهل حمص قتله، ولكنهم هزموا، ووصل إلى دمشق عن طريق بعلبك، وكان والي دمشق ختنه الوليد بن معاوية بن مروان. وانتقل مروان من دمشق إلى فلسطين في طريقه إلى مصر. ووصل عبد الله بن علي إلى دمشق وقد كثر جنده إذ جاءه أخوه عبد الصمد على رأس أربعة آلاف مقاتل وهو في قنسرين، وجاءه أخوه صالح على رأس عشرة آلاف مقاتل إلى دمشق، فحاصر الجميع دمشق عدة أيام ثم دخلوها وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً، وأبيحت ثلاث ساعات.

وجاء كتاب أبي العباس إلى عمه عبد الله بن علي يطلب فيه إرسال صالح بن علي على رأس قوة لمتابعة مروان، وأن يبقى عبد الله بن علي والياً على الشام ففعل.

دخل مروان مصر، وتتبعه العباسيون حتى قتلوه في كنيسة (أبو صير) في ٦ ذي الحجة عام ١٣٢هـ، وبقتل مروان زالت دولة بني أمية، وقامت دولة بني العباس.

أما أوضاع الجناح الغربي من العالم الإسلامي يومذاك فقد امتدت إليه الفتنة أيضاً كما امتدت إلى المشرق حتى غمرته.

مصر: بعد أن سيّر هشام بن عبد الملك أمير مصر حنظلة بن صفوان إلى المغرب عام ١٢٤هـ أعطى أمر مصر إلى حفص بن الوليد الحضرمي فبقي أميراً عليها حتى عام ١٢٧ حيث عزل، وأعطيت الإمارة إلى حسان بن عتاهية التجيبي ولكنه لم يبق سوى ستة عشر يوماً، وأعيد حفص بن الوليد

الحضرمي فبقي عاماً في عمله ثم عزل وقتل؛ وتولى أمر مصر الحوثرة بن سهيل الباهلي مدة ثلاث سنوات (١٢٨ ـ ١٣١) ثم أرسل لقتال العباسيين فلقي هناك مصرعه، وولى مروان بن محمد على مصر المغيرة بن عبيد الله الفزاري الذي توفي عام ١٣٢ لكنه استخلف ابنه الوليد مكانه فلم يقره مروان، وأرسل إلى مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وهو آخر من تولى أمر مصر لبني أمية.

إفريقية: زادت الفتنة بين العرب والبربر، وقوي أمر الخوارج، وضعف أمر بني أمية فاستغل هذا الضعف عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع فاستولى على المنطقة، وسار نحو القيروان فحاصرها فخرج منها أميرها حنظلة بن صفوان، واتجه نحو الشام عام ١٢٧هـ، ودخلها عبد الرحمن. وتمكّن عبد الرحمن من قمع حركات الصفرية من الخوارج، وبعد مدة توفي عبد الرحمن بن حبيب فتنازع آله على الإمارة، إذ اختلف حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب وعمه عبد الوارث بن حبيب، وناصر عبد الوارث الخوارج ليؤيدوه ضد ابن أخيه، وبهذا الاختلاف، وضعف الدولة الأموية في الشام عادت إلى الخوارج قوتهم، وتمكنوا من السيطرة على أكثر أجزاء المغرب.

الأندلس: وكثرت الفتنة في الأندلس، فكانت بين العرب والبربر، وبين القيسية واليمانية من العرب، وبين الشاميين والحجازيين.

فعندما أرسل هشام بن عبد الملك والي مصر إلى إفريقية أمره أن يرسل أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي إلى الأندلس، فسار إليها من تونس، وأقام بقرطبة، ولما رأى أن الشاميين قد كثروا في الأندلس رغب في تفرقتهم، فأنزل أهل دمشق (البيرة) لشبهها بها، وسماها دمشق؛ وأنزل أهل حمص (إشبيلية)، وسماها حمص، وأنزل أهل الأردن (رية)، وسماها الأردن، وأنزل أهل فلسطين (شذونه)، وسماها فلسطين.

كان أبو الخطار أعرابياً متعصباً لقومه من اليمانية، وهذا ما أسخط القيسية عليه فثاروا عليه بإمرة الصميل بن حاتم، وجرت معارك بين الطرفين

انتصرت فيها القيسية فعزل أبو الخطار، وتولى أمر الأندلس ثوابة بن سلامة إلا أن الأمر كله كان بيد الصُميل بن حاتم.

انتقل أبو الخطار إلى (باجة)، والتفت حوله اليمانية، فعادت الفتنة من جديد بين القيسية واليمانية وجرت الحرب، وقتل أبو الخطار حيث قتله الصُميل بن حاتم عام ١٣٠هـ، وتولى أمر الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وبقي حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل فقتلا.

المراجع والمصادر

- الاستيعاب في أسماء الأصحاب: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المتوفى عام ٤٦٣هـ طبعة دار الفكر ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) المتوفى عام ٨٥٢هـ طبعة دار الفكر ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- الأعلام: خير الدين الزركلي طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت ١٣٩٩هـ.
- أغاليط المؤرخين: محمد أبو اليسر عابدين.
- البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤ ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ.
- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ ـ دار الفكر بيروت ١٣٩٩.
- تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن ـ مكتبة النهضة المصرية طبعة عام ١٣٨٤هـ.
- جمهرة أنساب العرب: ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة.
- الخوارج في المغرب الإسلامي: محمود إسماعيل ـ دار العودة ـ بيروت ١٣٩٦.
- الدولة العربية وسقوطها: يوليوس ولها وزن ترجمة يوسف العش ـ مطبعة الجامعة السورية عام ١٣٧٦هـ.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠١هـ.
- صفوة الصفوة: عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧هـ ـ دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر أباد ـ الهند ١٣٥٥هـ.
- الطبقات الكبرى لابن سعد: محمد بن سعد المتوفى عام ٢٣٠هـ ـ دار بيروت عام ١٣٩٨هـ.
- في تاريخ المغرب والأندلس: أحمد مختار العبادي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت عام ١٣٩٨هـ.

- الفيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي - دار المعرفة بيروت ١٣٩١هـ.
- قادة فتح المغرب: محمود شيت خطاب - دار الفكر - الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
- الكامل في التاريخ: عزالدين ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ دار صادر - دار بيروت طبعة ١٣٨٥هـ.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى عام ٣٤٦هـ - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
- مشاهير أعلام الأمصار: ابن حياب البستي المتوفى ٣٥٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٧٩هـ.
- معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفى ٦٢٦هـ - دار صادر - دار بيروت.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردى المتوفى عام ٨٧٤هـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي - القاهرة ١٣٨٣هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الخلافة الأموية	٥١
جدول السلالة الأموية	٥٥
الأسرة السفيانية	٥٧
معاوية بن أبي سفيان	٥٩
خلافته	٧٥
جدول الولايات في عهد معاوية	٨٤
بيعة يزيد	١٠٦
يزيد بن معاوية	١١١
عبد الله بن الزبير	١٣١
الخوارج	١٦٢
نظرة عامة	١٦٤
الأسرة المروانية	١٦٩
عبد الملك بن مروان	١٧١
الوليد بن عبد الملك	١٩٣
سليمان بن عبد الملك	٢٠٩
عمر بن عبد العزيز	٢١٧
بدء الدعوة العباسية	٢٢٨
يزيد بن عبد الملك	٢٣١
هشام بن عبد الملك	٢٤١
الوليد بن يزيد	٢٥٩
يزيد بن الوليد	٢٦٣

الموضوع	الصفحة

إبراهيم بن الوليد ٢٦٧
مروان بن محمد ٢٧١
المراجع والمصادر ٢٨٣
الفهرس ٢٨٥

التاريخ الإسلامي

— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السادسة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة عن الدولة العباسيّة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمّد بن عبد الله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين **وبعد**

فإنّ الشّيعة قد لعبوا في تشويه تاريخ بني العبّاس الدور نفسه الذي عملوه في تغيير صفحات بني أُميّة بالاشتراك مع العبّاسيين، خصوم بني أُميّة السياسيين، وحُكام العصر الذي دُوِّن فيه التاريخ. ذلك أنّ آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أُميّة، قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجههم، بل ومن جانبهم الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العبّاس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

لقد استغلّ كلّ طامحٍ للسلطة حبّ آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصةً فأظهر التشيّع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك. لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكاً فيه كلّ بُعدٍ عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية)، ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية (الاثنا عشرية) التي بدأت تصيغ أفكاراً لها، وتُبلورها، ثم نسبتها للعصور

التي خلت وللرجال الذين مضوا، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرخين المحدثين، وظنّوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحمّلوها عظماء رجال ذلك العهد، أمثال علي زين العابدين بن الحسين، وابنه زيد، وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك. وما جاء القرن الرابع الهجري إلاّ ومدّعو التشيّع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية، ولم يعملوا على وحدة صفوفهم ذلك لأنهم لم يكونوا فرقةً واحدةً، ولم يحملوا فكراً واحداً، بل ولا هدفاً واحداً، وإنما لكلّ إمارةٍ أو دولةٍ رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدلّ على أنّهم رجال طامعون، وأصحاب مصالحٍ وغاياتٍ اتخذوا من التشيّع وسيلةً لهم للسيطرة على الحكم وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك. فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثمّ أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العبّاسية، ومع ادعائهم جميعاً للشيعة إلا أن دولهم بقيت متفرقةً، بل كثيراً ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العهد الأموي، وانصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقرّ لهم، وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كلّ من كان يخفي في نفسه شيئاً، وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيّع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلّم بعض الفرس سلطاتٍ واسعةً، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على تهديم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ، والمسلمية، والراوندية، والمقنعية، والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي مسلم الخراساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادةً من وضعه،

وطريقة للتخلّص بعد أن قدّم الذي قدّم، وإلى البرامكة وغيرهم، ومن هنا بدأت تبزغ قرون العصبية.

وطال عهد العباسيين (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعُفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبية فقامت دول على أساسها، ولم يكن لها داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد، فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأتها، ثم نما باسم العصبية لدوامها، ودعم الشعب لها.

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافةٍ مستقلةٍ فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدولة الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معاديةً بعضها لبعض، وكل منها علَى صلةٍ بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم أمويي الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفةٍ واحدٍ، والمسلمون جميعاً تضمّهم دولة واحدة، وهذا يدلّ على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل وفي الصدر الأول.

وكانت أرجاء الدولة متسعةً، وعدد السكان كبيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضمّ أشتاتاً من الناس، وهذا يستدعي جنداً كثيراً يوطّد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوحات الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاقٍ واسع كما كان، وإنّما في أوقاتٍ محددةٍ تقتضيه الظروف، ولهذا فإن السكان لا يرون ضرورةً للانخراط في الحياة العسكرية. وكان الخليفة عندها مضطراً لاستقدام جنودٍ من مناطق لا تزال غير مترفةٍ بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقتٍ قصيرٍ، أو يأتي بالأسرى والمماليك، وينشئهم تنشئةً عسكريةً بعد أن

يدخلوا في الإسلام. وقد جيء بجندٍ من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادةً، ثم أصبح الأمر بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعيّنون من أرادوا، فضعُفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة. ومن المعلوم أن الترف انصراف عن المهمة الرئيسية للإنسان واتجاه نحو الملذات وجمع المال، والتفاخر بالملك، وما ذكر أبداً ترف بخير، وكثرة المال ابتلاء من الله، فإما أن يُحسن الإنسان بإنفاقه وصرفه في وجوه الخير، وطاعة الله، وإما في غير ما أمر الله. وقد ذكر الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله، تنصبّ كلها على الكافرين، والمجرمين، والفاسقين. يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5]. ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[6]. ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.

(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.

نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2]. ومآل الترف إلى الفساد، وضياع السلطة، وانهيار الدولة، وزوال الأمة. وقد زال الأمويون عندما أصابهم الترف، ودالت دولة بني العباس عندما حلّ فيها الترف، وسقطت الأندلس بيد النصارى وضاعت نهائياً بعد أن انصرف السكان إلى الترف...

ومن المعلوم أن الجند إذا أعطوا الحكم استأثروا وتفرّدوا به، استبدوا، وطغوا، وظلموا، فالجند إنما وجدوا للقتال، والقائد لا يملك طاعة جنده إلا أيام الجهاد وقتال أعداء الله، أمّا أن يستخدم جمعهم لتحقيق أغراضه، وقتال المسلمين وأمرائهم، وتغيير الأوضاع فهذا أمر لا تستقيم معه الحياة الاجتماعية، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قادةٍ عسكريين على درجةٍ من القوة والصلاح، ولكن لا يلبث الأمر بعدهم أن يعود إلى سابق عهده. فإن الحاكم الطاغية الذي يفرض سلطانه بالقوة قد يعطي الحكم هيبةً أو سمعةً خارجيةً مدةً من الزمن، ولكن ينهار الوضع بعده مباشرةً. لأن النفوس تكون قد ضعُفت، واعتادت على الذلّ الذي ذاقته وقت الطغيان، ومُنعت من حرية الفكر، فإن الأرض لا تحرر من الظلم بجموعٍ لا يملكون الحرية، والفكر لا ينتشر على أيدي أُناسٍ لا يملكون حريةَ الفكر، والطغيان يسلب الناس الحرية فيجعلهم عبيداً، ويسلبهم حرية الفكر ليتمكن من السيطرة عليهم، ولهذا تحرص الدول التي تعادي الإسلام أن تحاربه بحكام طغاةٍ من الجند. وتجعل من الجيش مرتزقةً مهما تقووا بالسلاح والعتادَ إلاّ أنّ خسارة معركةٍ واحدةٍ تجعل الهزائم تتوالى عليه إذ تنخفض المعنويات مباشرةً. هؤلاء الجند الذين

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

(٢) سورة الواقعة: الآيات ٤١ ـ ٤٥.

سيطروا على الدولة العباسية قد أضعفوا أمرها، واستبدوا بحكمها، وكانوا سبباً في متاعبها، رغم أن دعاة العصبية قد عدّوا هذا الضعف نتيجة سيطرة عناصر من غير العرب، ولكن طغيان الجند لا يختلف بين شعبٍ وآخر، فطغيان العرب كطغيان غيرهم والنتائج واحدة. وما من مرةٍ حكم الجند من أيّ عنصرٍ كانوا إلاّ وتأخّرت البلاد، وتلا حكمهم تراجع مُفاجئ.

وإن كثرة الأموال التي تدفقت على المسلمين زمن الفتوحات، وزادت أعطياتهم، وكثرة المستخدمين الذين جُلبوا، والأرقاء الذين أُخذوا في الحروب، والعبيد الذين اشتروا، كلهم قد اشتغلوا لساداتهم، وقدّموا لهم المال الكثير، ووفّروا لهم الراحة، وهو ما جعل السكان في حالةٍ من الرفاهية والرخاء إذ أعطوا أعمالهم كلها للعبيد، وعاشوا هم في راحةٍ فانصرف بعضهم نحو العلم وأنتج الخير الكثير، واتجه بعضهم نحو العمران فشيّدوا الأبنية، ومال بعضهم نحو المفاسد فغبّ منها ما شاء له هواه، وتمرّغ في حمأتها تمرّغ الحيوان في الوحل، وكان هذا بمفهوم الماديين وأنصارهم حضارةً، فقالوا: إن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها في العصر العباسي، إذ فسّروا الحضارة بمفهومهم المادي البحت فنظروا إلى جانب العلم، والعمران، والمفاسد، وركّزوا على جانب من السكان وهم المترفون المرفهون، وتركوا الجانب الآخر وهم الفقراء وما يعانون، وما نجم عن ذلك من حركات، وبالتالي انهارت الدولة وسقطت تحت ضربات المغول، ولم تستطع أن تقاوم لما أصابها من ترفٍ، وذُلٍّ من طغيان الجند، وتفتتٍ من نشوء العصبيات، وخيانةٍ من الشيعة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تاريخ الدولة العباسية قد أعطاه طابعه في التدوين، والحركات التي نشأت، والدول التي قامت، والضعف الذي حدث أربع نقاط هي:

١ ـ الشيعة والحركات الباطنية.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة.

٣ ـ العصبية التي استفحل أمرها.

٤ ـ المظاهر الحضارية المادية.

ويجب بحث هذه النقاط الأربع بالتفصيل ليتبيّن لنا تاريخ الدولة العباسية بشكلٍ أقرب إلى الواقع مما هو عليه من التسجيل الآن.

* * *

١ ـ الشيعة والحركات الباطنيّة

أ ـ الشيعة:

ينظر المسلمون إلى آل بيت رسول الله ﷺ نظرة احترامٍ وتقديرٍ، وكان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامةً، وينحصر آلُ البيت في أبناء أبي طالب عمّ رسول الله، الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل، رضي الله عنهم، وفي آل العباس عمّ رسول الله والذي أسلم مع أخيه الحمزة، رضي الله عنهما، من بين أعمام رسول الله، ولكن الحمزة سيد الشهداء لم يعقب. ولم يشمل آل البيت بقية أبناء أعمام رسول الله من الزبير، والحارث، وأبي لهب، حيث جاء إسلام هؤلاء الأبناء متأخراً، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الله عنه من زوجه فاطمة ابنة رسول الله، ﷺ، حيث انقطع عقب رسول الله إلاّ منها، هذا إضافةً إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الله، وإصهاره لرسول الله، وحتى رأى بعض المسلمين في هذا سبباً في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائه من بعده. رغم ما في هذا القول من مجانبةٍ عن تعاليم الإسلام، لأن الخلافة ليست وراثيةً، وإنّما لها شروط يفرضها الصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلمٍ تتوفر فيه الشروط، وإن اشترط بعضهم القرشية وليس معهم الدليل.

تسلّم عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخلافة بعد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فهو رابع الخلفاء الراشدين، واختلف مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بشأن قتلة سيدنا عثمان، وقد أدى ذلك الخلاف إلى صراع بين الطرفين انتهى بقتل علي، رضي الله عنه، بيدِ

آثمةٍ من الخوارج، وصفا الجو لمعاوية بعد أن تنازل له الحسن بن علي، رضي الله عنهما، عن الخلافة. وكان عام الجماعة عام ٤١هـ.

اتجهت أنظار المسلمين إلى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، إذ كان أفضل أهل زمانه، وتوفي عام ٥٠هـ، وقيل مات مسموماً. وكان أخوه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بعده سيّد عصره، وقد خرج على يزيد بن معاوية فاستشهد في كربلاء عام ٦١هـ، واستشهد معه اثنان وعشرون من أهله، من إخوته[١]، وأبنائه[٢]، وأبناء أخيه الحسن[٣]، وأبناء عمومته أولاد جعفر بن أبي طالب[٤]، وأبناء عقيل بن أبي طالب[٥].

أقام أبناء علي وأحفاده بعد ذلك في المدينة المنورة، وكانوا جميعاً أهل هدايةٍ وخيرٍ، ولكن المدينة لم تلبث أن ثارت على يزيد بعد أن وصلت إليها أخبار فاجعة كربلاء، فداهمها جيش الشام، وجرت معركة رهيبة بين الطرفين، عُرفت بمعركة الحَرّة، واستشهد فيها اثنان من أولاد عبد الله بن جعفر، وهما: أبو بكر، وعون الأصغر. وبعد مدة قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي عبيد الله بن علي بن أبي طالب.

أما آل العباس فقد برز منهم أبناء عبد الله بن العباس، وأشهرهم علي بن عبد الله[٦] وكان يقيم بالحُميمة من البلقاء من أعمال الأردن.

---

(١) استشهد من إخوته يوم كربلاء: عبد الله، وجعفر، وعثمان، والعباس، ومحمد الأصغر، وأبو بكر.

(٢) استشهد من أبنائه: علي الأكبر، وعبد الله.

(٣) استشهد من أبناء أخيه الحسن: أبو بكر، والقاسم، وعبد الله.

(٤) استشهد من أبناء عبد الله بن جعفر: عون الأكبر، ومحمد، وعبيد الله.

(٥) استشهد من أبناء عقيل وأولادهم: مسلم بن عقيل قبل كربلاء، عبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل، وعبد الله الأكبر بن عقيل، ومحمد بن مسلم، وعبد الله بن مسلم، ومحمد بن أبي سعيد الأحول بن عقيل.

(٦) علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: ولد عام ٤٠هـ يوم استشهد علي بن أبي طالب، ويكنى بأبي محمد، وهو جد الخلفاء العباسيين، ومن أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة، فغلب عليه لقب «السجّاد»، وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم=

ويبدو أن عبد الله بن محمد (بن الحنفية) بن علي بن أبي طالب والملقب بأبي هاشم قد عاد من الشام من زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأحسّ بدنو أجله في الطريق، فعرّج على ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[١]، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية للإطاحة بهم (إذ ذُكر لأبي هاشم أنه قد سُمّ من قبل سليمان بن عبد الملك فأثار ذلك نقمةً بالغةً في نفسه على بني أُمية)، ولم يكن أبو هاشم هذا سيّد بني هاشم، كما لم يكن أبوه محمد، ولم يعدّه كذلك إلا الكيسانية أتباع المختار بن أبي عبيد، ولكن سُلِّطت الأضواء على أبي هاشم بعد هذه الحادثة، وعُدّ سيّد آل البيت، وعُدّ موته بسبب ما سُقي من سمّ على أيدي بني أمية لأغراضٍ سياسيةٍ.

أثار كلام عبد الله بن محمد ما في نفس محمد بن علي من طموحٍ فبدأ يعمل لذلك، ولكنه لم يدع لنفسه، وإنما جعل الدعوة إلى الرضا من آل محمد حنكةً منه كي لا يفرّق صفوف آل البيت، وحتى ينتظم أنصارهم جميعاً في الدعوة، وفي الوقت نفسه يُعمّي عن نفسه، وفي الواقع فإن العمل كان له ما دامت الأمور مرتبطةً به، ويحرّك الدعاة والأنصار حسب ما يشاء، وزيادةً في التعمية فقد بقي هو في الحميمة في الأردن، وجعل مقرّ الدعوة مدينة الكوفة حيث يقيم كبير الدعاة، ويكثر فيها أنصار آل البيت، ولا يأتي إليه في الحميمة إلا كبار دعاته، ويمرون عليها على شكل تجارٍ، أو حجّاجاً إلى بيت الله الحرام، فيلتقون به، ويتلقّون التعليمات منه.

= الهيبة، جليل القدر، أهانه الوليد بن عبد الملك وضربه، واعتقله هشام بن عبد الملك، فمات في السجن عام ١١٨هـ في البلقاء.

(١) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: ولد بالحميمة عام ٦٢هـ، بدأ دعوته سنة مائة للهجرة، كانت تجبى له خمس الأموال من أنصاره يدفعونها إلى النقباء، وتحمل إليه، وينفقها فيما يرى فيه المصلحة. كان عاقلاً حليماً، جميلاً وسيماً، وتوفي بالشراة عام ١٢٥هـ، وقد أوصى من بعده لابنه إبراهيم، وهو والد السفاح والمنصور.

وساعد على قيام الدعوة وانتشارها حركة زيد بن علي[1] بالكوفة عام ١٢٢هـ واستشهاده فيها، ثم قيام ابنه يحيى[2] من بعده في مدينة بلخ[3] عام ١٢٥هـ بعد أن فرّ من الكوفة إثر مقتل أبيه، ودعا لنفسه سراً، فقبض عليه، ثم أطلق سراحه بأمر من الخليفة الوليد بن يزيد، وسُيّر إلى الشام، فاعتصم في بعض الطريق، وقاتل أنصار الأمويين حتى قُتل. وكذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[4] بالكوفة أيضاً عام ١٢٧هـ أيام يزيد بن الوليد، ثم انتقل إلى المشرق وقصدته بنو هاشم وفيهم أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور وعمّاهما عبد الله بن علي، وعيسى بن علي، وكذلك بعض بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان، وغلب على المشرق حتى تولى أمر بني أمية مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهُزم عبد الله، وفرّ إلى خراسان، فقبض عليه عامل هراة من قبل أبي مسلم الخراساني، وقتله خنقاً عام ١٣١هـ. وعلى الرغم مما في الخروج على الإمام من مخالفاتٍ شرعيةٍ

---

(١) زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين: ولد عام ٧٩هـ، من خطباء بني هاشم، قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً، وكانت إقامته بالكوفة، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة)، ذهب إلى الشام، فضيّق عليه هشام بن عبد الملك، وسجنه خمسة أشهر، وعاد إلى العراق، ثم إلى المدينة، ولحق به إلى المدينة بعض الكوفيين يحرضونه على الثورة فرجع معهم إلى الكوفة عام ١٢٠هـ فبايعه بعض أهلها، وقاتله والي العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثقفي، ودارت معارك بين الطرفين انتهت بمقتل زيد عام ١٢٢هـ بعد أن خذله أهل الكوفة.

(٢) يحيى بن زيد: ولد عام ٩٨هـ، وكان من الأبطال الأشداء، انتقل إلى بلخ بعد مصرع أبيه، ودعا إلى نفسه سراً، طلبه أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي فقبض عليه نصر بن سيار والي خراسان، وأطلق سراحه بأمر الوليد بن يزيد، وأمر بالسير إلى الشام، فأبطأ بسرخس، ثم انتقل إلى بيهق ثم إلى نيسابور، وامتنع، فقاتله واليها عمرو بن زرارة بعشرة آلاف، ويحيى بسبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل عمراً، ثم انصرف إلى هراة، ثم قاتله نصر بن سيار في الجوزجان فقتل يحيى بسهم أصابه عام ١٢٥هـ.

(٣) بلخ: مدينة في خراسان تقع اليوم في أفغانستان.

(٤) اتهم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بالزندقة، وكان فتّاكاً سيء الحاشية.

إلاّ أن يُظهر كفراً بواحاً، أو يُصاب بجنونٍ فإنّ عامة الناس تنظر نظرة عطفٍ إلى من تحلّ به نكبة، وخاصةً إذا كان من أهل البيت، ويدعو إلى إصلاح ما فسد، وهذه العواطف قد هيأت الجو للدعوة العباسية.

وما ظنّ أبناء علي إلاّ أنّ لهم في الدعوة نصيباً، فلما قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفاً معادياً للعباسيين، وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانبٍ ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانبٍ آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأشاعوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم السياسيين من شيعة أبناء علي، وشدّدوا عليهم، واضطهدوهم، ونكّلوا بزعماء ثوراتهم كي يُلقوا بينهم الرعب، وأحياناً حاولوا استرضاء بعضهم اتقاءً وخوفاً من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم فجعلوا لأنفسهم عقيدةً خاصةً بهم اختلفت عن الإسلام، إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعدّوهم مخصصين من عند الله، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا بصحابة رسول الله، ﷺ، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوّنوا كتباً ونسبوها لسابقين مثل نهج البلاغة الذي نُسب لسيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كما أوجدوا فقهاً خاصاً ونسبوه لجعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وهكذا...

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصةً الأقوياء منهم والصالحين أمثال هارون الرشيد الذي كان يحجّ أو يغزو، والمتوكل الذي أحيا السنة، والمعتضد الذي كان قوياً، ولننظر إلى بعض هذه الإفتراءات التي يبدو فيها الاختراع مباشرة. أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك قال: لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف[1]، فسأله: أعندك في هذا

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، ولد في الكوفة =

شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أوَ كلما ادعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصدَّق، لا تُصدِّقها فإنّها ليست مأمونة، قال ابن المبارك[1]: فلم أدرِ ممن أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن خرمة أبيه، أم من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اهتك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيّره في رقبتي[2]. وذكروا أشياء عن الرشيد وأبي نواس[3] يندى لها الجبين، وأبو نواس لم ير الرشيد، ولم يدخل عليه[4]، وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[5]، فقالوا: إن

= عام ١١٣هـ، وتفقّه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ومات ببغداد في خلافة الرشيد عام ١٨٢هـ وهو على القضاء، وهو أول من دُعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

(١) ابن المبارك: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي، أبو عبد الرحمن: الحافظ، المجاهد، التاجر، أفنى عمره في الرحلات حاجاً، ومجاهداً، وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ولد عام ١١٨هـ، وتوفي بهيت على نهر الفرات عام ١٨١، وهو أول من صنّف في الجهاد.

(٢) تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص٢٩١.

(٣) أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء: كان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، انتقل إلى الأهواز، وتزوج هناك، وأنجب أبا نواس. نشأ أبو نواس بالبصرة: ورحل إلى بغداد، ثم إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وعاد إلى بغداد حيث توفي فيها عام ١٩٨هـ.

(٤) انظر مختار الأغاني لابن منظور ـ الجزء الرابع ص١٦٦ طبعة المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٣٨٦هـ.

(٥) زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أم جعفر: زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، وأم الخليفة الأمين، من فضليات النساء. تزوج بها الرشيد عام ١٦٥هـ، ومات عنها، وقتل بعد ذلك ابنها الأمين، فاضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها فعطف عليها وأكرمها، وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الخدم، وتوفيت عام ٢١٦هـ، وإليها تنسب (عين زبيدة) في مكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة، وأقامت له الأقنية حتى أوصلته إلى مكة. وكانت أكثر نساء عصرها ديناً وجمالاً، وطريق الحج من =

أبا نواس دخل مرةً قصر الخليفة فرأى الرشيد نائماً مُتغطى فاستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونهره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرةً يا أمير المؤمنين فقد ظننتك السيدة زبيدة ـ والله ـ.

ويتهمون الأمين بكثرة شربه الخمر[1]، ثم نراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما انتهى إليه أنه يشربها[2].

ولننظر إلى ما قيل عن المتوكل في لهوه وعشقه لجواريه الكثيرات، وهذه الجواري الأديبات الشاعرات اللواتي ينظمن الشعر، وبأفضل من أي شاعرٍ بل يقُلنه إرتجالاً وبشكلٍ جيدٍ قويٍ، وسبكٍ متينٍ، ومعنىً جزلٍ، بل لهن كرامات، بحيث يظهر وضع مثل هذه الروايات والتعب في إخراجها بهذه الصورة المبالغ فيها.

وأخرج عن علي بن الجهم قال: أُهدي إلى المتوكل جارية يقال لها محبوبة، قد نشأت بالطائف، وتعلّمت الأدب، وروت الأشعار فأغري المتوكل بها، ثمّ إنه غضب عليها، ومنع جواري القصر من كلامها، فدخلتُ عليه يوماً، فقال لي: قد رأيت محبوبة في منامي كأني قد صالحتها وصالحتني، فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: قم بنا لننظر ما هي عليه، فقمنا حتى أتينا حجرتها، فإذا هي تضرب على العود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً	أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأني أتيت معصيةً	ليست لها توبة تخلصني
فهل شفيع لنا إلى ملكٍ	قد زارني في الكرى وصالحني؟
حتى إذا ما الصباح لاح لنا	عاد إلى هجره فصارمني

فصاح المتوكل، فخرجت، فأكبت على رجليه تقبلهما، فقالت: يا

= بغداد إلى مكة يسمى باسمها (درب زبيدة) حيث المصانع والآبار والبرك والمنازل من آثارها.

(١) انظر مختار الأغاني الجزء الرابع ص٧٣.

(٢) المرجع السابق ص٩٠ ـ ٩١.

سيدي رأيتك في ليلتي هذه كأنك قد صالحتني، قال: وأنا والله قد رأيتك، فردّها إلى مرتبتها، فلما قُتل المتوكل فصارت إلى بغا الكبير، فأمر بها يوماً للمنادمة، فجلست منكسة، فقال: غنّي، فاعتلت، فأقسم عليها وأمر بالعود، فوضع في حجرها، فغنّت ارتجالاً:

أيّ عـيـشٍ يـلـذّ لـي	لا أرى فـيـه جـعـفـرا؟
مـلـك قـد رأيـتـه	فـي نـجـيـعٍ مـعـفّـرا
كـلّ مـن كـان ذا هـيـا	مٍ وسـقـمٍ فـقـد بـرا
غـيـر مـحـبـوبـة الـتـي	لـو تـرى الـمـوت يـشـتـرى
لاشـتـرتـه بـمـا حـوتـ	ـه يـداهـا لـتُـقـبـرا
فـإنّ مـوت الـحـزيـن أطـ	ـيـب مـن أن يـعـمـرا

فغضب بُغا، وأمر بها فسُجنت، فكان آخر العهد بها(١).

وأخرج عن أبي العيناء قال: أهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها فضل، فقال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: هكذا زعم من باعني واشتراني، فقال: انشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته:

استـقـبـل الـمـلْـكُ إمـامُ الـهـدى	عـام ثـلاثٍ وثـلاثـيـنـا
خـلافـة أفـضـت إلـى جـعـفـر	وهـو ابـن سـبـع بـعـد عـشـريـنـا
إنـا لـنـرجـو يـا إمـام الـهـدى	أن تـمـلـك الـمـلـك ثـمـانـيـنـا
لا قـدس الله امـرأً لـم يـقـل	عـنـد دعـائـي لـك: آمـيـنـا(٢)

وفي حكايةٍ اخترعت حوالي القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية(٣)، فامتنعت عليه؛ فلما أسرها استولى على

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الأولى ١٣٧١ ص٣٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) جميلة الحمدانية: جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب=

جميع أموالها، وقيل إنه فرض عليها مالاً، وألزمها إما أن تُؤدّيه أو تختلف إلى دار القحاب، لتكتسب ما تُؤدّيه؛ حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها، وغرّقت نفسها في دِجلة[1].

وإذا كان الخلفاء بهذا اللهو المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحياناً، وأحياناً أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته، وأبناء عمومته والذين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم.

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدوّنة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة العظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستوى مما شادته الأمم الأخرى. . . . أهكذا جاءت ودون تعب ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم نسبت لهم.

حقيقةً إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء ولكن التاريخ الذي دُوّن بأيدٍ مغرضةٍ قد حطّ من شأنهم كثيراً.

وإن تواري كثير من الطالبيين واختفاءهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت قد جعل كثيراً من الطامعين في السلطة ينسبون أنفسهم لآل البيت حتى يلتفّ الناس حولهم ثمّ يقومون بحركاتٍ ضد الدولة. ومن هذه الحركات كانت فتنة الزنج، ودعوة العبيديين (الفاطميون)، وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين.

= الموصل: إحدى شهيرات النساء في الكرم والعقل والجمال. لم تتزوج أنفة من أن يتحكم بها الزوج، حجت عام ٣٦٦هـ وأنفقت الكثير. ولما تغلّب عضد الدولة على أخيها أبي تغلب أمير الموصل عام ٣٦٩، فرّ أبو تغلب إلى الرملة، ورحلت معه جميلة في جماعة من حاشيته، فخرج عليه أمير طيء (دغفل بن مفرج) فقتل أبا تغلب وحمل جميلة إلى حلب ثم إلى بغداد، فاعتقلها عضد الدولة في حجرة، ثم أركبها جملاً وشهّر بها، وألقاها في دجلة، فماتت غرقاً عام ٣٧١.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ آدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة دار الكتاب العربي بيروت ـ المجلد الثاني ص١٧٤.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة

لم يكن هناك جند دائمون أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، وإنما يهرع المسلمون للانخراط في صفوف الجيش المنطلق للجهاد كلّما دعا الداعي، ويُعيّن الخليفة لهم أميراً يطيعونه في غير معصية[١]. والأمير بدوره يختار قادة الجناحين، والقلب، والساقة، ويبثّ العيون وهكذا. كما يكون حول الخليفة عدد من الأفراد ينفّذون أوامره في الحدود، وأمور الحسبة. وقد يكون لزعماء القبائل دور في مساعدة الخليفة أو الأمير، وفي تنفيذ ما يُطلب منهم لإلقاء القبض على بعض رجالاتهم إن دعت الحاجة إلى ذلك ـ ولم تدع في تلك الأيام ـ.

وحرص عمر الفاروق، رضي الله عنه، ألا يختلط المجاهدون (الجند) بسكان المدن كي لا يخلدوا إلى الراحة، ويميلوا إلى الدعة، فأمر أن يقيموا في معسكراتٍ خاصةٍ بعيدةٍ عن المدن، ونشأت نتيجة ذلك مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط. ولعلنا نرى اليوم أثر الجند في المدن عندما يختلطون بالأهالي، وما ينتج عنه من تعدي الجند، وغطرسة الضباط، وأثر ذلك أيضاً على الناحية الأمنية.

ولم يختلف الأمر كثيراً في العهد الأموي والعصر العباسي الأول عمّا كان عليه في صدر الإسلام، ما دامت توجد فتوحات أو غزوات على الأقل، وما دام الخلفاء أقوياء، وللحكم هيبة. فلمّا توقّفت الفتوحات، وقلّ الغزو، وضعُف الخلفاء، وذهبت هيبة السلطة اختلف الأمر تماماً، إذ لم

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصيةٍ، فإذا أمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

يعد هناك جند للجهاد، وبدأت حركات التمرّد تحدث، ولم يجد المسلمون دائماً ضرورةً للتطوع في سبيل القضاء عليها حتى يُلزموا إلزاماً، كما أن السكان قد مالوا إلى الرخاء بسبب كثرة الأموال التي وردت عليهم، وقيام الرقيق بشؤونهم وأعمالهم، لذا كان على الخليفة أن يجد له جنداً يساعدونه لتنفيذ أوامره، ويكونون له سيفاً على حركات التمرد، ومن تسوّل له نفسه بالعصيان. ولم يكن هؤلاء من العرب أو من الفرس لأن كليهما قد عاش في حياة الترف الأمر الذي اضطر معه الخليفة إلى إيجاد هؤلاء الجند من الترك الذين كانت بلادهم قد فُتحت أجزاء منها ولا تزال مناطق واسعة منها في أواسط آسيا تعيش على الوثنية، فيأتي منها الرقيق، ويجلب الأسرى حيث تقوم بعض الغزوات، فيأخذ الخليفة أعداداً من هؤلاء الأسرى أو الأرقاء ممن يجد فيهم ملامح النباهة وعناصر الذكاء، ويربيهم تربيةً عسكريةً، ويستعين بهم في الملمات، وكثُر عدد هؤلاء الجند مع الزمن، وقوي نفوذهم لأنهم أصبحوا عصا الحاكم التي يضرب بها خصومه، وأصبح مركز قادتهم عظيماً لأنّهم وحدهم يستطيعون أن يوطّدوا الأمن، ويُخضعوا أية قوةٍ مهما علت، ثم غلبوا على أمر الخليفة نفسه حتى قتلوا الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ. وأصبح الخلفاء بعدئذٍ ألعوبةً بأيديهم يعزلون من شاءوا، ويقتلون من شاءوا، ويمثّلون بمن شاءوا، واستمر ذلك حتى جاء البويهيون فسيطروا على السلطة كعسكريين، وكذلك أتى السلاجقة بعدهم، ولم يختلفوا عنهم من حيث الصفة. هؤلاء الجند أمرهم واحد سواء أكانوا عرباً، أم فُرساً، أم تُركاً، هم عسكريون، فالأمر ليس مقتصراً على جنسٍ أو خاصاً به، فالجندي الذي رُبِّي تربيةً عسكريةً، وعاش مع السيف والرمح، وتعامل معهما، هو غير الذي يسوس الأمور، ويدبّر الشؤون، يلين لشخص، ويقسو على آخر، ويستعمل الحكمة، ويضع كلّ شيءٍ في موضعه. والجندي الذي يعيش في الثكنات، ويكون على أُهبة القتال في كلّ وقت، ويخوض غمار المعارك حسب الأوامر التي تُعطى إليه هو غير الذي يحيا بين أهله، يخطط للمعركة من وجهة نظرٍ سياسيةٍ، ويبحث في النتائج، وما تؤدي إليه. وإن الذي يحيا حياةً قاسيةً قد يحقد

على أولئك الذين يعيشون حياة المترفين فيعمل ضدهم، ويحاول أن يسلبهم ذلك، فإذا تمّ له سار على ما كانوا عليه... وهذا ما يكون من العسكريين في كلّ وقت. وهذا التسلّط العسكري على الحكم العباسي في عصره الثاني هو الذي أضعف الدولة لا لأن هؤلاء العسكريين ينتمون إلى شعبٍ غير الشعب العربي كما يدّعي دعاة العصبية العربية.

وعندما خضعت الدولة للعسكريين، وسيطر الجند على مقدراتها بدأ أمرها يضعف، وشأنها ينحطّ، وهذا الأمر دائم. وقد يكتسب مع سيطرة العسكريين بعض الدعاية الخارجية، والهيبة المصطنعة، ولكنه أمر ظاهري ولا يلبث أن ينهار بعد زوال حكم الطاغية أو مع أول معركةٍ، وإن كانت صغيرةً، لأن الشعب الذي أُذِلّ لا يمكن أن يُقاتل به، والفرد الذي جُوِّع لا يُمكنه أن يتحرك ويُضحّي بأوامر الذين جوّعوه.

ونلاحظ في العصر الحديث أنّه عندما تعجز الدول الكبرى على تحقيق أهدافها في بعض الدول الضعيفة لعزّة شعبها وأنفته فإن تلك الدول الكبرى تعمل على إخضاع تلك الشعوب بحكوماتٍ عسكريةٍ تنفّذ أغراض الدول الكبرى، ولا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهها. ويضع العسكريون الأمور في غير موضعها، ويُذلّون الشعب، ويُفقرونه، كي يخضع لهم، ويسكت عن تصرفاتهم، وتضعف الروح المعنوية، وتعجز الأُمّة عن تحقيق أيّ نصرٍ، والقيام بأيّ أمر، وهذا ما تريده الدول الكبرى التي تستطيع بعدها أن تحقق كلّ ما تشاء دون أيّة مقاومةٍ، مع أن دعاية السلطة قد تكون قويةً ولكنها بالكلام والإعلام.

* * *

٣ـ العصبية التي استفحل أمرها

بعد أن فتح المسلمون بلاد فارس دان أهلها بالإسلام، وأقول أهلها أي غالبية أهلها، ولم يكن هذا الدخول واحداً لدى جميع السكان، إذ كان بعضهم صادقاً بإيمانه، وقد أخلص النية، وعمل لدينه بكل طاقاته وإمكاناته، وكان بعضهم دون ذلك، وقد أسلم عن قناعةٍ ويقين، وهذا شأن الغالبية العظمى، ولكن هذا لا يمنع من وجود أشخاصٍ دخلوا في الإسلام تقيةً عندما رأوا دخول الناس في دين الله، أو خوفاً من السيف، وقد أظهروا الإسلام، وأبطنوا المجوسية، ديانة فارس القديمة، ومنهم من اكتفى بذلك، ومنهم من عمل ضد الإسلام، وحاربه تحت ظلّه، فإنّ الذين كانوا سدنة النار، وأفادوا من مهنتهم، وضاعت عليهم الفائدة بمجيء الإسلام، كرهوا الإسلام، وحقدوا عليه، وكذا من كان مستفيداً من السلطة سواء أكان من رجالها أم من أنصارهم فهؤلاء لم يريدوا أن يفهموا الإسلام، بل لم يرغبوا في بحث الأمر مطلقاً، وإنّما نظروا إليه من زاويتهم الخاصة ومما استقر في أذهانهم سابقاً لذا فهم أعداء الإسلام، وإن أظهروه رسمياً، وبقوا على ذلك. وفي كلّ أُمّةٍ وفي كل شعبٍ يمكن أن توجد عناصر من هذا النوع، ألم تبق عناصر من قريش ضد الإسلام رغم انتصاره؟ ألم تبق أشخاص من المنافقين في المدينة المنورة مقرّ حكم رسول الله ﷺ، وبين أظهر صحابة رسول الله؟ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾[1]. بل رُبمّا نشأت عناصر من هذا النوع أثناء المسيرة، وهذا أمر طبيعي، ألم يكن لنا اعتراضات على المختار بن أبي عبيد الثقفي وأمثاله ممن ادعوا ادعاءاتٍ وادعاءاتٍ ولا نزال في القرن الأول الهجري؟ وفي العصور التي تلت ظهر بين العرب كما ظهر بين غيرهم من ادعى النسب، ومن ادعى النبوة، ومن ادعى غير ذلك.

هؤلاء الذين أظهروا الإسلام من الفرس وبقوا على مجوسيتهم، وإن كانوا قلةً إلاّ أنّهم قد استفادوا من العصبية، ومن صلتهم ببعض أبناء جنسهم، ومعرفتهم لهم، ما داموا لم يصرّحوا بحقيقتهم، وقاموا بأدوارٍ على غايةٍ من السوء. ولكن من طرفٍ آخر نلاحظ العصبية عند العرب ـ ومع الأسف ـ فإن دعاتها بدلاً من أن يتحدّثوا عن هؤلاء المتعصبين من الفرس، وعقيدتهم الفاسدة التي جمعتهم، وحقدهم على الإسلام، والأدوار الخطيرة التي قاموا بها، فإنهم قد قابلوهم بعصبيةٍ أشدّ منها فاتهموا الفرس جميعاً، وجعلوا معاداتهم للعرب والإسلام أساساً لكل عمل، وفسّروا كل تصرفٍ لهم بهذا.

عمّم دعاة العصبية العربية هذا الاتجاه على الفرس جميعاً الأمر الذي جعل العصبية الفارسية تنمو، واستطاع المتعصبون من الفرس أن يدخلوا إلى كثيرٍ من الحركات التي تعادي الإسلام، ذلك أن عدداً من الفرس قد بقيت عندهم خلفية جاهلية، وهي أنّ الحاكم له صفة القدسية، وينتقل الحكم بالوراثة، فأظهروا التشيع لأن الشيعة قالوا بضرورة انتقال الخلافة بعد رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب وأبنائه من فاطمة، رضي الله عنها، من بعده، ويمكن ملاحظة نسل الحسين بن علي بن أبي طالب قد انحصر بولده علي زين العابدين بن الحسين والذي أمه سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد وبذا فقد اتصل نسل ملوك الفرس بأحد أعلام آل البيت، وهكذا فإن أئمة الشيعة التي دوّنت قد حُصرت بنسل علي زين العابدين بن الحسين.

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢.

وكان من هؤلاء الذين أظهروا التشيع الحركات الباطنية، والذين ادعوا النسب إلى رسول الله ﷺ، وحركات بعض المتصوفة الذين ادعوا القيام بأعمالٍ خارجة عن سنن الكون، وكان لهم شطحات وشطحات، كما قال بعضهم بالحلول، ووحدة الوجود، ورفع بعضهم التكاليف عن أتباعه، ومن وراء ذلك كلّه العمل على تهديم الإسلام.

ويمكن أن نضيف في عامل العصبية إعلان إيران أنها خليفة لدولة فارس القديمة، وإعلان قيام دولة الشيعة فيها أيام أولجايتو (محمد خدابنده)[(١)] عام ٧٠٤هـ، ثم أيام الصفويين[(٢)] عام ٩٠٦هـ، وكان للخلاف المذهبي دوره في هذا الشأن.

كما أن لعامل التاريخ أثراً كبيراً في نشأة هذه العصبية، وهو ما نتحدث عنه الآن: تمّ فتح بلاد فارس بعد أن انساح المسلمون فيها إثر معركة نهاوند عام ٢١هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلاّ أنّ بعض المناطق قد عادت فانتفضت فجدّد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتحها، واستقر وضع المسلمين هناك نهائياً. ولما نقل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مركز خلافته إلى الكوفة كان المشرق يتبعه، وكان عامله على خراسان زياد بن أبيه، واستمر ذلك حتى استشهد سيدنا علي، ثم تنازل سيدنا الحسن لمعاوية، رضي الله عنه، فأبى زياد بن أبيه واعتصم بخراسان، ولم يتمكن معاوية من خراسان حتى استرضى زياداً، وقرّبه منه.

---

(١) اولجايتو بن أرغون بن اباقا بن هولاكو: تولّى حكم الدولة الإيلخانية المغولية في بلاد إيران عام ٧٠٤هـ بعد وفاة أخيه غازان الذي شبّ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام، ومع هذا فقد استمر في قتاله للمماليك، وهو الذي فاوضه ابن تيمية. وكذا فإن اولجايتو قد نشأ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم (محمد خدابنده)، وقد نشر المذهب الشيعي في منطقة حكمه، وأصبح الدين الإسلامي هو السائد في دولة إيلخانات الفرس، ولكن تجزأت هذه الدولة من بعده.

(٢) أسس دولة الصفويين إسماعيل الصفوي عام ٩٠٦ وتعرف باسم (القزلباشية)، وكانت شيعية متعصبة.

ولم يكن الأمويون أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ وضد الفرس أو الموالي، مع العلم أن الفرس شيء والموالي شيء آخر كما سيمر معنا - إن شاء الله -، كما تُصوِّر ذلك كتب التاريخ التي بين أيدينا، وليس من أمر تستدلّ به على رأيها سوى حادثةٍ فهمت بشكلٍ غير صحيح، وهي حادثة الجراح الحكمي أيام عمر بن عبد العزيز، وهي أنّه قد أخذ الجزية من بعض الناس من المجوس، ثمّ دانوا بالإسلام بعد مرور مدةٍ من العام فلم يردّ لهم ما أخذ عن عامهم ذلك، واجتهد وعدّ ما أُخذ لا يُردّ، وإنما تسقط الجزية بعد عامهم ذاك، فرفعوا هذا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقضى لهم، وردّ ما أُخِذَ منهم، وأجاب واليه جوابه الشهير «إن الله بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً».

ولم تكن هناك ضرورة لاستقدام عمال وولاة من فارس إلى بلاد الشام أو غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، إذ أن كلّ منطقةٍ تكفي نفسها بعمالها وأمرائها وخاصة أن هناك اختلافاً في اللغة، ومع هذا فقد استعمل الأمويون بعض العناصر الفارسية في المواضع التي هم بحاجةٍ إليها. أما في فارس فقد استفاد الولاة من الفرس في كثيرٍ من المناصب ومراكز الإدارة. وهذا الأمر عام في مختلف الأمصار الإسلامية فلم يستعمل الأمويون البربر في الشام ولا في فارس، وإنما استعملوهم في المغرب والأندلس، كما أن العباسيين لم ينقلوا عمالاً لهم من فارس إلى غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة.

وأما وجود العناصر العربية في بقية الأمصار فإن الفتوحات الإسلامية الأولى قد قامت على سواعد العرب، وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطوناً كاملةً قد استقرت في جهةٍ معينةٍ نتيجة وجود كثيرين من الفاتحين من أبنائها. وأما وجودهم في مركز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وبصفة الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وأما ما يُذكر من عداوة الفرس للعرب في اشتراكهم ضد الأمويين في

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[1]، وحروب ابن الزبير، وحركة ابن الأشعث[2] فإن هذا الكلام يُعدّ في مُنتهى التجنّي على التاريخ، فإذا كانت هذه الحركات قد قامت في هذه المنطقة فهل يُعقل أن يكون أتباعها من البربر، أو الصقالبة؟ أليس سكان المنطقة هم الذين قاموا بالحركة؟. ومن ناحية أخرى فهل كان أتباعها من الفرس أكثر من أتباعها من العرب؟ وهل كان قادتها ومحركوها إلا من العرب؟ الواقع أن معظم جنودها وقادتهم كانوا من العرب، فلماذا إذن قتال العرب للأمويين أصحاب النزعة والعصبية العربية؟ إن العصبية بين القيسية واليمانية العربيتين كانت أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

وعندما قامت الدعوة العباسية اتخذت الكوفة مركزاً لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون، ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولةٍ ويسر. ثمّ إنّ الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على

---

(١) المختار بن أبي عبيد الثقفي: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة زمن عمر بن الخطاب، واستشهد أبوه يوم الجسر، وبقي هو في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم انتقل إلى العراق مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسكن بعده البصرة. وبعد مقتل الحسين أظهر نقمته على عبيد الله بن زياد، فحبسه، ثم نفاه إلى الطائف بعد شفاعة ابن عمر له. وعندما قام عبد الله بن الزبير بالأمر في مكة كان معه، ثم استأذنه بالدعوة له بالعراق، وانتقل إليها، وهناك دعا لمحمد بن الحنفية، وإلى قتل الذين قتلوا الحسين فتبعه الناس، وخرج بهم على والي الكوفة فغلب عليها، واستولى على الموصل، وقتل قتلة الحسين، وهاجم مكة، ثم قتله مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه عبد الله وذلك عام ٦٧هـ.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: سيّره الحجاج لغزو بلاد الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وانتصر، وأخبر الحجاج بذلك، وأنه يرى ترك التوغل في بلادهم حتى يمضي فصل الشتاء البارد، وكي يتعرف على مداخلها، فخالفه الحجاج، واتهمه، ووبخه، وأمره بالمضي قدماً، واستشار عبد الرحمن جنده فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته، ومبايعة عبد الرحمن، ثم خلعوا عبد الملك، واتجهوا إلى العراق، وجرت معارك ضخمة بين الطرفين، هزم في آخرها عبد الرحمن وقتل عام ٨٥ بعد أن دان له المشرق باستثناء خراسان التي عليها المهلب.

الدعوة في خراسان لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنّما لقيام الصراع على أشدّه بين القيسية واليمانية من العرب حيث يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعاً بهذا النزاع، أو كسب اليمانية التي تشكُل أكثرية المجموعة العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيّار الذي يعتمد على القيسية ويتعصّب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون فعلاً أذناً صاغيةً في خراسان، وتمكّنوا من النشاط حتى تمّ لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خراسان ليسوا من الفرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأنّ خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وشمال شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضمّ اليوم سكاناً من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن ضمّت إضافةً إلى ذلك مجموعاتٍ من الفرس من السكان الأصليين، ومجموعاتٍ من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها. إلاّ أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان، وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفرس قد جعلنا نتصور دائماً سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبو مسلم الخراساني، قد نسب إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن هذا إنما هو اسم حركي، فاسمه إبراهيم بن عثمان.

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان سواء أكانوا عرباً أم فُرساً أم تُركاً، وشكل طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عاليةٍ في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس ـ مع أنهم أقلّ من غيرهم ـ ما داموا يشكّلون جزءاً من السكان، وبرز منهم فئة، وظنّ بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير

القادة، وهو أبو مسلم الخراساني. ثمّ لم يلبث أن حصل نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسلطة سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تركياً، وكما تخلّصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلّصوا أيضاً من عبد الله بن علي العباسي الهاشمي عمّ الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركّز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟ فكلاهما صاحب أطماع بغضّ النظر عن فارسية الأول وعربية الثانية.

إن النزاع الذي حصل بين العرب والفرس في العصر العباسي الأول ـ على زعمهم ـ ولم يحدث نزاعاً وليس هو بالمعنى العصبي القومي الذي عرفته البلدان الإسلامية في أيامها الأخيرة نتيجة العدوى التي انتقلت إليها من أوربا. وإذا سلّطنا الأضواء على ذلك الصراع بين العرب والفرس فلماذا نغفل الخلاف بين القيسية واليمانية؟ وعندما نعلم أن اليمانية وقفت مع الفرس تقاوم الأمويين الذين يدعمون القيسية، عرفنا أن النزاع لم يكن قومياً وإنما لتحقيق الأطماع والمصالح. وهو ما حدث تماماً من خلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس.

وإن النزاع الذي حدث بين التجمعات في العصر العباسي الأول، إنما هو تكتلات لتحقيق أغراض قبل أن يكون عصبيةً قوميةً، فقد بقي عدد من الفرس بجانب الخلفاء العباسيين بعد أن ضربوا أبا مسلم الخراساني، والبرامكة وغيرهم، وقام بعضهم بضرب فُرسٍ آخرين، إن القومية العلمانية الحديثة هي التي ركّزت على ذلك التعصب، وزادت فيه، وأعطته تلك الصفة، ووصفت العهد العباسي بنزعةٍ خاصةٍ، إن هذه الصفة وتلك النزعة لم تكن معروفتين يومذاك أبداً.

* * *

٤ - المظاهر المادية الحضارية

الحضارة هي الاستقرار، والأمن، والسعادة النفسية بتأمين أهداف الإنسان وحاجاته المادية الأساسية المتطوِّرة والتي تتفق والمدة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان، والتي تحقق خدمته ورفاهيته، فإذا وُجدت الحضارة نتج عنها ما يُعرف بمظاهر الحضارة، وهي التي يظنّها الناس - غلطاً - هي الحضارة. وتختلف هذه المظاهر باختلاف تطور الوسائل وباختلاف مفهوم الإنسان عن الحياة وهو الذي ينبع من العقيدة. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطور وحدها، ويعدّون طلب الملذّات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه، وحب الشهرة تقع كلّها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أي ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمع كاملٍ أو قتل أفراد أمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدون الوسائل التربوية والمادية هي مجال التطور، ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشرعية هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أما الوسائل غير الشرعية فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدمٍ وتطور للوسائل، وتهدم بالتالي ما شُيّد من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل هو من نتائج تصوّر الإنسان للحياة وبيان مهمته فيها، وهذا ما تقدّمه العقيدة، فالعقائد المادية تبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحق أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادع. وأن الوسائل تتطور في سبيل

الحصول على المنفعة المادية سواء أكان للفرد أم للدولة، ومن وراء المنفعة المادية الشهوة والشهرة وما إلى ذلك، وكل يُسمّي ما يعتقد حضارةً. أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حدّاً يقف عنده بحيث لا تطغى الجماعة على الفرد، ولا ينطلق الفرد بلا حدود، ويبحث الإسلام في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدي دوره في الحياة كاملاً. فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسم لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط، فينشأ التطور، ويحدث التقدم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مهمة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس كانت هناك حضارات مختلفة. فالحضارة المادية ينظر بعض أتباعها إلى سعادة الإنسان في الحياة في حريته الكاملة بغضّ النظر عن مصلحة المجتمع، لذا فهي تُهيء المُناخ المناسب ليمارس الفرد حريته كاملةً، ومن هذه الحرية ينطلق ويُطوِّر الوسائل المادية ليتمكّن من تحقيق كلّ ما تصبو إليه نفسه، على حين ينظر بعض أتباع الحضارة المادية الآخرين إلى مصلحة الجماعة ويجعلون الفرد يذوب ضمنها ويعمل لها، ويطلبون منه أن يعمل ما في وسعه لسعادتها ـ حسب زعمهم ـ.

أما الإسلام فيعدّ الإنسان مستخلفاً في الأرض، وعليه أن يقوم بإعمارها حق القيام، ويؤدي مهمته التي أُنيطت به حق الأداء، ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً، لذا فقد كان على المرء القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما فيها أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية، وما يتبعها في كلّ ما يتعلق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلات، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم، وحماية سيرهم وقوافلهم.

كما يهتم الإسلام بالإنسان ويكّرمه، ويهتم بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتم بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يعلق فيها من شوائب وخُرافات، وحرر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيمٍ، وطيرةٍ، وهامةٍ، ومنع كلّ ما يحول دون انطلاق فكر المسلم، وتحرّره من كل قيدٍ يمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات، والظلم، والاستبداد. ومن الناحية الصحية حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمُوم، ومُسكرات، ومُخدرات، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات، وهي نار جهنم. وكذا اهتم بالمساواة بين الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس المال، أو الأصول والبيئات، أو المسكن والمكان، أو المهنة والعمل كي لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفة أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ. كما أمر بنشر العدالة بين الرعية، والتعاطف والتراحم بين الجوار وأولي الأرحام ثم بين المسلمين جميعاً. واهتم بالعدل، وعدم النظر إلى منصب الأفراد ومركزهم، والخليفة فرد من المجتمع، كما طالب أولي الأمر بالتواضع وعدم الترفع على الرعايا، وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلاّ أنه خصّ أولي الأمر منهم، فهم أحق في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك. ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف ـ كما كان يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعات الدولة إلاّ إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتم المسلمون ببناء القصور المنيفة والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة كي لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغني نظرة الحقد والبغض، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيام الأخيرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه.

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لرعاياها، وعن مسكنهم، وطعامهم، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغضّ النظر في عقيدة الأفراد الذين تصيبهم هذه الحالات.

فالحضارة الإسلامية إنسانية تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً. وهي حضارة قائمة بذاتها تنبع من العقيدة الإسلامية، من نظرة المسلم للحياة، ومهمته فيها، وما يُحقق للنفس من سموٍ، وما يُؤمن للمجتمع من رفاهٍ وسعادةٍ، على حين أن بقية الحضارات المادية تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يحقق فيها لنفسه من ترفٍ، وما يتمتع من ملذّات، وما يُحقق من شهواتٍ وشهرةٍ وبناء عزٍّ. وتنظر إلى ما شاده القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصور، وهياكل ومعابد، وأهراماتٍ ومقابر، وساحاتٍ ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةٍ تنظر إلى هذه كلها نظرة عادية فهي ليست إلاّ فن عمراني لم يُشد لخدمة البشر وسعادتهم، وإنما أُقيمت حسب أهواء حكامٍ، وقامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس وتكليفهم ما لا يطيقون.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة قد بلغت أوجها عندما استقرّ الناس، وساد الأمن، وعمّ بينهم العدل، وانتشرت المساواة، وأُمّنت حاجاتهم الأساسية، وانطلقوا لتحقيق أهدافهم ومهمتهم في الحياة بكل رضىً للحصول على السعادة النفسية وهذا ما تمّ في صدر الإسلام فكانت الحضارة العظيمة ومن ثَمّ أخذت تبدو مظاهرها من هذا المنطلق فيما بعد، وللحضارة مظاهر متعددة فهناك مظاهر أساسية هي: العلم والأخلاق والإنتاج، ومظاهر كمالية هي: البناء والعمران، وهناك مظاهر ترفيهية هي: الزخرفة والموسيقى والفن و... وإذا وصلت الحضارة إلى المظاهر الترفيهية بدأ الترف أو بدأت نهاية الحضارة وهذا ما حدث في الدولة العباسية حيث بدأت الحضارة تنهار، وسقطت الدولة، ولم تصل الحضارة إلى أوجها كما يتصور الماديون.

عاش الإنسان في أكثر جزيرة العرب قبل الإسلام متنقلاً لا يأمن على

نفسه، ولا على عرضه لكثرة الغارات التي تحدث، والأيام بين القبائل التي لا تنتهي، فإذا انتقل الإنسان إلى مدينةٍ واستقر بها، وترك حياة الترحال والانتقال قالوا: إنه تحضّر، فالاستقرار بداية مراحل الحضارة. فلما جاء الإسلام، وتأسست دولته الأولى في المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ ساد الأمن، وزال الخوف، وأمن الناس على أنفسهم وعلى أموالهم، وأعراضهم، ونال كلٌ حقّه حيث العدل والمساواة، وحصل على حاجاته الأساسية. وبدأ المسلمون بعد ذاك ينطلقون للدعوة لأفكارهم وعقيدتهم ويحققون بذلك مهمتهم في الحياة بالعبادة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فدانت لهم الجزيرة العربية وانطلقوا خارجها يُتممون مهمتهم، وبهذه الدعوة وهذه الفتوحات كانوا سعداء جداً، وبذا وصلت الحياة في الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين إلى السعادة التامة بحيث لا يريد الإنسان أكثر مما هو فيه ـ حسب زمنه ـ من حيث الحاجات الأساسية والعمل العقيدي من عبادةٍ وجهادٍ. . . . . ولما كانت تُحقّق لكلّ إنسانٍ كلّ مبتغاه وما يتمناه فهو في سعادة، وهو في أوج الحضارة وعلى قمتها.

وفي العصر الأموي تتابعت الفتوحات، وبقيت أهداف المسلمين تتأمن بالجهاد، وإن ضعُفت أسس الحضارة قليلاً، حيث ظهرت بوادر العصبية الجاهلية، وكادت المساواة تبدو ضعيفةً، وغدا الخليفة يتصرف ببعض بيت المال، وزاد هذا في أواخر عهد الأمويين، واستمر الوضع في العهد العباسي الأول، وتوقّفت الفتوحات، وتناقصت أعمال الجهاد، إلاّ أنّ ما جاء من أموال بسبب الفتوحات السابقة، وما دخل البلاد من رقيق نتيجة الشراء بسبب الثراء ونتيجة الجهاد فإن مظاهر الحضارة قد بدأت تنحو منحى جديداً فالذين تمسكوا بأسس الحضارة الصحيحة قد انصرفوا نحو العلم فأنتجوا، وعاش آخرون في الترف واتجهوا نحو مظاهر الحضارة الكمالية فكان البناء، والعمران، وشقّ الأقنية، والزراعة، والتجارة وإن كان معظم ذلك كان يتم بأيدٍ غير أيدي السكان الأصليين من رقيقٍ وزنجٍ جُلبوا إلى المنطقة. وانصرف آخرون أيضاً نحو مظاهر الحضارة الترفيهية فعاشوا في

الغناء، والموسيقى، والشراب، ونتيجة الترف بدأت الحضارة تتراجع تدريجياً حتى قضى ذلك على الدولة العباسية إذ أن أُسس الحضارة في الأمن، والعدل، والمساواة، واحترام الإنسان قد بدأت تتراجع، ومع زوال الأُسس والأُصول تداعت الأغصان والفروع وتساقطت الثمار وبعضها لا يزال فجّاً لم ينضج، وبعضها قد جفّ ويبس بانقطاع النسغ الذي كان يأتي عن طريق الأسس.

ويمكن أن نقول: إن أسس الحضارة وأصولها قد بلغت أوجها في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، وبدأت آثارها تظهر بعد الفتوحات إلاّ أن الترف قد أعطى آثاراً ترفيهيةً فتهدّمت الحضارة منذ وضوح مظاهرها إذ زالت أُسسها.

وهكذا فالتاريخ العباسي وقع تحت تأثير الشيعة الذين شوّهوا تاريخ الخلفاء وغيّروا وجه العهد، وفي النهاية سقطت بغداد بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين العلقمي الذي ظاهر المغول وأطمعهم بالسير إلى بغداد ثم سلّمهم إياها. وتحت تأثير العصبية التي جزّأت الدولة، وقطّعت أوصالها، وتحت تأثير الحكم العسكري الذي أذلّ الخلفاء والرعية على حدٍّ سواء، وحكم بالحذاء، ثم هناك الترف الذي صرف الناس عن غاياتهم.

فالشيعة، والقومية، والحكم العسكري، والترف مصيبة الدولة العباسية بالأمس، ومصيبتنا اليوم.

* * *

الدعوة العبّاسِية

إنّ حبّ المسلمين لآل البيت، ثم عطفهم عليهم وخاصةً بعد فاجعة كربلاء جعل كلّ طامعٍ يدّعي أنّه يعمل أو يدعو لأحد رجالات آل البيت، ومن بين هؤلاء الطامعين المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في العراق، وسكن البصرة بعده، ثم نفاه عبيد الله بن زياد بعد حادثة كربلاء إلى الطائف بعد أن سجنه مدةً، ثم كان مع ابن الزبير، وتظاهر أنّه من دعاته، وطلب منه السفر إلى العراق ليعمل له، فوافقه، وانتقل المختار إلى العراق، وهناك دعا لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بـ (ابن الحنفية)[1]، ولكنّ محمداً لم يستجب له، وتبرّأ منه، وأعلن كذبه، غير أن المختار ادّعى أنّ هذا الرفض أو عدم الرضا من صفات الإمام. وقد قال محمد بن علي مرةً عندما بلغه أنّ بعض الناس يزعمون أن عند آل البيت كثيراً من أسرار العلم «وإنّا ـ والله ـ ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلاّ ما بين هذين اللوحين، وأشار إلى المصحف. وإنّ من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله فقد كذب». وعلى هذا لم يكن

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم: أُمّه خولة بنت جعفر الحنفية ونُسب لها تمييزاً له عن بقية أولاد علي، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة، كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، ويقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأنا أعلم منهما. ولد عام ١٣هـ، وحمل لواء أبيه يوم صفين، ولم يشهد كربلاء، ورفض بيعة ابن الزبير، وانتقل إلى الطائف هرباً منه، كما رفض بيعة عبد الملك بن مروان، ولما صفا الجو لعبد الملك وبقي خليفةً وحده بايعه، وتوفي محمد بن علي عام ٨١هـ، ولكن الكيسانية من أتباع المختار تدّعي أنه لم يمت، وأنّه مقيم بجبل رضوى قرب المدينة عنده لبن وماء.

محمد بن علي ليطلب لنفسه الأمر، أو يدّعي الإمامة، وكذا كان ابنه عبد الله[1]، وإن ادعت الكيسانية[2] أنّ الإمامة قد انتقلت إليه بعد وفاة أبيه.

كان بنو أمية يُكرمون بني هاشم، ويُقطعونهم القطائع، ويُعطونهم الأُعطيات، ولكن إذا حرّض بعض الناس أحدهم للخروج على الدولة نكّلوا به، وبمن حرّضه. وإذا كنّا لا نقرّ بني أمية في قسوتهم إلاّ أنّنا في الوقت نفسه لا نرى الخروج على الإمام، أو كلما حلا لأناس الدعوة لشخص دعوه إلى الخروج بحجة أنّه الإمام الشرعي ثم قام يدعو لنفسه، ويقاتل الخليفة القائم بالأمر، وإنّ الإمام الشرعي إنّما هو الذي أخذ البيعة من المسلمين دون إكراهٍ، ودون وراثةٍ، وفي الوقت الذي لا نرى فيه وراثة بني أمية السلطة ولكنّنا في الوقت نفسه لا نرى وراثة بني هاشم أو أية قبيلةٍ أو أسرةٍ أخرى، فالخلافة ليست ملكاً عضوضاً، وإن كان من خرج من بني هاشم هو أفضل من حكام بني أمية الذين خرجوا عليهم، لكنه من ناحيةٍ شرعيةٍ تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل. وكان خصوم بني أمية للإشاعة ضدهم كلما مات رجل من آل البيت ادعوا أنّ الأمويين قد دسّوا له السم أو عملوا على قتله، ولكثرة الإشاعات، كاد يصدق كلّ إدعاء.

ومن باب إكرام بني أمية لبني هاشم فقد أقطع الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي «الحميمة» بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء في الأردن لعلي بن عبد الله بن عباس، فأقام بها، واستقر فيها.

ومن هذا الباب أيضاً فقد زار أبو هاشم عبد الله بن محمد بدمشق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقد أكرمه سليمان، وقدّم له

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، أبو هاشم: كان من وجهاء آل البيت، ولم يطلب الأمر أبداً، وتوفي عام ٩٩هـ في الحميمة.

(٢) الكيسانية: فرقة تنسب إلى أبي عمرو كيسان قائد شرطة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وهو من الفرس، وهناك من يقول: إن كيسان لقب للمختار. وهذه الفرقة تدّعي انتقال الإمامة من علي بن أبي طالب إلى ابنه محمد، ثم إلى ولده عبد الله أبي هاشم هذا، وتزعم أن محمداً لا يزال حيّاً، ويقيم بجبل رضوى. . .

الأُعطيات، ثم انصرف أبو هاشم متوجهاً إلى المدينة المنورة، وأثناء الطريق شعر بالمرض، وأحسّ بدنو أجله، وحدّث بذلك لمرافقيه، فقال بعضهم لعلّ سليمان قد دسّ لك السمّ، فتوهّم بذلك، كحالة كلّ مريض، فانتشر الخبر، وأصبح الشكّ المزعوم يقيناً، فتأثر أبو هاشم من بني أمية، وعرّج على «الحميمة»، ونقل ذلك لابن عمّه محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية. ولو كان قد وُضع لأبي هاشم السمّ لقُضي عليه بشكلٍ سريعٍ، وعادة الملوك أن تضع السمّ الزُّعاف، ولكنّ أبا هاشم قد عاش بعد مغادرة سليمان ما يزيد على الشهرين، وذلك عام ٩٩هـ.

ثم إن الرواة وأصحاب الأغراض قد زعموا أن أبا هاشم قد أعطى محمد بن علي العباسي أسرار الدعوة وتنظيماتها، في الوقت الذي لم يكن له أيّ تنظيم، وإنّ أبا هاشم ووالده محمد بن علي بن أبي طالب ليتبرؤون من الكيسانية، إذ أنّها مارقة منذ ذلك التاريخ. فلم تكن لهم أيّة صلةٍ بالكيسانية التي يدّعي الرواة أن بني هاشم قد اتجهوا نحوها.

والواقع أن محمد بن علي العباسي قد وقع في أذنه كلام أبي هاشم موقع الاستجابة إذ أنّه كان رجلاً طموحاً، وكان له أكثر من عشرين أخاً يدعمونه إضافةً إلى أبنائه فيشكلون بذلك قوةً، كما أنّ أباه علي بن عبد الله بن عباس قد شجّعه على المضي في هذه الطريق، واستمر يشجعه حتى توفي عام ١١٧هـ في «الحميمة». وعلى كلٍّ فقد حمل محمد بن علي العباسي على كاهله الفكرة، وبدأ يعمل على تنفيذها.

نظر محمد بن علي ليعيّن المكان الذي يجعله قاعدة انطلاقٍ لدعوته، وقد رأى أن تكون بعيدةً عن «الحميمة» لتبتعد الأنظار عنه، ويبقى الإمام المرشح مجهولاً كي يضمن جمع أكبر أعدادٍ من المعارضين لبني أمية، إذ لو سُمّي الإمام لابتعدت عنه مجموعات، ولاقتصرت دعوته على فئةٍ واحدةٍ، لأنّ كلّ جماعات ترى رجلاً معيناً من بني هاشم، وعلى هذا فقد جعل دعوته هاشميةً وإلى الرضا من آل محمد، فهي تشمل بذلك أبناء

علي، كما تشمل أبناء العباس، وتضمّ أبناء جعفر، وأبناء عقيل، وأبناء عليٍّ. ووقع اختياره على مدينة الكوفة إذ أنّها قاعدة الناقمين على بني أمية حيث فيها كثير من أنصار أبناء علي أولاً، ثم إن هذه المدينة قد قُتل من أبنائها الكثير مع مسلم بن عقيل[1]، ومع المختار الثقفي، ومع مصعب بن الزبير[2]، ومع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ومع الخوارج و. . . . وقد نقم أهل هؤلاء القتلى جميعاً على بني أمية، وعندهم الاستعداد للثورة في كلّ آن تسمح لهم الفرصة فيه، أو تخفّ وطأة الحكم الأموي عنهم.

ورأى أن خراسان تقع في مشرق الدولة، وإذا دعت الظروف يمكن أن يفرّ من يريد إلى بلاد الترك المجاورة، كما فعل من قبل ابن الأشعث وغيره. وفي خراسان يشتدّ الصراع بين العرب، بين القيسية واليمانية، فيمكن الإفادة من هذا الصراع وجلب الجماعات الناقمة على هذا النزاع، والتي تريد أن تقضي عليه، وتتخلص منه، والجماعات التي يؤلمها هذا الصراع الجاهلي الذي يحاربه الإسلام، فهو عصبية فتنة.

ويكثر في خراسان الموالي وهم الذين كانوا أرقاء بغضّ النظر عن أصولهم سواء أكانوا عرباً أم عجماً على خلاف ما يقوله المؤرخون المحدثون من أن الموالي هم المسلمون من غير العرب. فزيد بن حارثة[3]، رضي الله عنه، كان مولى رسول الله ﷺ، وهو عربي.

---

(١) مسلم بن عقيل بن أبي طالب: تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة، كان مقيماً بمكة، انتدبه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، إلى العراق ليتعرف على أحوال أهل الكوفة، فسار إليها، وأخذ بيعة ثمانية عشر ألفاً من أهلها، وشعر أمير الكوفة من قبل الأمويين عبيد الله بن زياد، فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرقوا عنه، فاختفى في بيت امرأة، ثم عُرف مكانه، فقبض عليه ابن زياد، وقتله عام ٦٠.

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله: ولد عام ٢٦هـ، أحد الولاة الأبطال، تولى أمر البصرة لأخيه عبد الله عام ٦٧هـ، قتل المختار الثقفي، وعزل عن البصرة، ثم أُعيد إليها، وضمّت إليه الكوفة، وخرج إليه عبد الملك بنفسه، بعد أن هُزمت جيوش الشام أمام مصعب، وخذلت مصعباً قواده بعد مراسلة عبد الملك لهم، فقتل عام ٧١هـ.

(٣) زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي: صحابي، اختُطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، ووهبته إلى رسول الله ﷺ حين تزوجها فتبنّاه=

والمقداد بن عمرو[1]، رضي الله عنه، كان مولى الأسود بن عبد يغوث الزهري، وهو عربي. وقد يكون المولى بالحلف فعبد الله بن جحش، رضي الله عنه[2]، حليف بني عبد شمس وهكذا فالموالي إذن من كان أصلهم أرقاء ثم أعتقوا، أو ما كانوا قد تُبنّوا من قبل أحد، أو من كانوا أحلافاً لقبيلةٍ ذات مكانةٍ، وذلك بغضّ النظر عن أصولهم وألوانهم وسواء أكانوا من العرب أم من الأعاجم، أم كانوا من سود اللون أم من البيض. وخراسان عندما فُتحت وقعت أعداد كبيرة من أبنائها في الأسر، فكانوا أرقاء إلاّ أن الإسلام قد فتح طرقاً عديدةً للعتق كتكفيرٍ للأيمان، والذنوب، والظهار وغير ذلك إضافةً إلى التقرب إلى الله، ثم هناك المكاتبة لتحرير الرقيق نفسه، ولم تمض مدة إلاّ وأضحى الأرقاء أحراراً، وكانوا موالي، وكذا الأبناء، فالأبناء وهم في مقتبل العمر كانت حالتهم المادية لا تزال ضعيفةً، الأمر الذي يجعلهم يميلون إلى الثورة، بل ويحقدون على الأغنياء، والشباب الصغار هم دائماً وقود الثورات، والقوة المحرّكة لها.

ولم يكن الناس قد اتجهوا إلى الزراعة بعد بشكلٍ جيدٍ، أو عادوا إليها بعد الإنصراف إلى الفتوحات وأعمال الغزو، وبالتالي فإنّ الدولة لم تكن بعد قد أولت الزراعة عنايتها لاتجاهها إلى الفتح وإلى قمع الحركات التي تحدث بين الحين والآخر، وهذا ما جعل الحياة المادية في الريف دونها في المدن فاتجهت أعداد من الشباب نحو الحواضر ليجدوا حياةً

= النبي ـ قبل البعثة ـ وأعتقه، وزوّجه ابنة عمته زينب بنت جحش، رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يحبّه، ويقدّمه، وما بعثه في سريةٍ إلا أمّره، واستشهد في مؤته عام ٨هـ.

(١) المقداد بن عمرو الكندي المهراني: الحضرمي: صحابي، من أهل بدر، ومن السابقين في الإسلام، كان في الجاهلية من سكان حضرموت فوقع بينه وبين ابن شمر بن حجر الكندي خصام فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فتبنّاه الأسود الزهري حتى عُرف به، وتوفي المقداد رضي الله عنه عام ٣٣هـ على مقربة من المدينة المنورة.

(٢) عبد الله بن جحش: ابن عمة رسول الله ﷺ أميمة، من المسلمين الأوائل، ومن الأمراء الأشداء، استشهد يوم أُحد في السنة الثالثة للهجرة، ودفن مع خاله الحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

أفضل، هؤلاء وأولئك يمكن الإفادة منهم في كلّ حركةٍ، وهم أول ما اتجهت إليهم أنظار محمد بن علي العباسي. ولم تتوجه إلى العرب الذين استحكمت بينهم العصبية إذ يمكن نتيجتها أن تُعرف أسرار الدعوة، ويظهر ما يجب إخفاؤه، ثمّ إنّ ترف أكثر العرب هناك يجعلهم لا يفكرون بتنظيماتٍ سريةٍ، وليس لهم طموحات سياسية، وفي الوقت نفسه لا يبحثون عن تغييرٍ لأوضاعٍ اجتماعيةٍ قائمةٍ أو لتحسين أحوالٍ ماديةٍ هم في غنىً عنها، إذن لم يكن انصراف محمد بن علي العباسي عن العرب كراهيةً لهم، كما يزعم المؤرخون المحدثون، ولا حبّاً بالموالي أو الفرس، أو الترك، وإنما انصرف إلى الذين يمكن أن يُؤمّن لدعوته النجاح بواسطتهم، فكان اتجاهه إلى الموالي، على حين كان أغلب النقباء من العرب. فالعرب قادة الدعوة، والشباب من الموالي من جنودها ووقودها.

ورأى أن تكون الكوفة مركز الدعوة، ويُقيم فيها كبير الدعاة، أو كما أسماه داعي الدعاة، وأن خراسان يمكن أن تكون مجال انتشار الدعوة ـ كما ذكرنا ـ وهذا ما يضمن لنفسه زيادةً في السرية ولدعاته كذلك، فأخبار خراسان تأتي إلى الكوفة، ومن الكوفة تنتقل إلى الحميمة، ويكون القدوم لمن يريد من الدعاة على شكل تجارٍ أو حجاجٍ، وتُرسل الأوامر والتعليمات عن طريق الكوفة أيضاً.

وبعد اتصالات قام بها محمد بن علي العباسي أرسل في عام مائة ميسرة العبدي إلى الكوفة ليكون داعي الدعاة فيها، وأرسل إلى خراسان أبا عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)، ومحمد بن خنيس، وحيّان العطار، وأمرهم بالعمل والبدء بالدعوة، فنالوا بعض النجاح، فأرسل دعاة خراسان بكتب من استجاب لهم إلى ميسرة العبدي بالكوفة، وقام هو بدوره فأرسلها إلى الحميمة.

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي العباسي أثني عشر نقيباً، وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من

بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعيُن أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الهروي ـ مولى لبني حنيفة[١]، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ واختار سبعين رجلاً أيضاً[٢]. بحيث يكون لكل داعيةٍ اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيبٍ سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرةً يقتدون بها، ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضّح أنهم من أرومةٍ عربيةٍ، ومن قبائل عربيةٍ معروفةٍ مشهورةٍ، وهذا يردّ ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام إبراهيم بن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربيةً، واعتمدت على العرب، فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف يقتلون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أفذاذ علماء العربية؟ إنّ هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تُركياً، إذ يذكر المؤرخون أن إبراهيم بن محمد حين وجّه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع.

(٢) الطبري: ج٧ ص٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدد منها عن لوط بن يحيى الكوفي المتوفى ١٥٧ والمعروف بتشيعه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به.

تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[1].

وأحب هنا أن أوضح نقطةً أخرى وهي أنّ خراسان لم تكن فارسيةً محضةً كما يتصور المؤرخون وإنّما كان يسكنها تُرك، وفُرس، وعرب، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فُتحت فقطن فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو، وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس، وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ - أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ - إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

٣ - التركمان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأبيورد، وعشق أباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإنما سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا بحرب دائمةٍ مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدةً طويلةً من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في المشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى

---

(١) وكيف يكون هذا، وقد أوصاه بأن يلزم القبائل اليمانية وهي قبائل عربية؟

فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تنطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمةً كبيرةً، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يُعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكّن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ونجا منهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعيةً لبني العباس، إلاّ أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩هـ.

وعُزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يُشكلون نسبةً كبيرةً بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عُوانةَ، ثم أشرس بن عبد الله السلمي، ولم تكن عصبيتهما واضحةً، كما أن أولهما لم تزد مدة حكمه خراسان على عدة أشهر، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاّه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ المرابطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفرح به الأهلون، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١١هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبيةٍ مُضريةٍ، وتمكّن من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد توفي بسبب مرضٍ ألمّ به في بطنه عام ١١٦هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مُدةٍ على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بضمّها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فضمّها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرةً ثانيةً، ولم يستدر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان نائباً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضُمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، وتمكّن من إلقاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن زريق، وخالد بن إبراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنّا أُناس من قومك، وإنما هذه المضرية إنّما رفعوا إليك هذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»[1].

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين ألقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي

---

(١) تاريخ الطبري ـ الجزء التاسع.

فاستجاب له كثيرون، فلما التفوا حوله دعاهم إلى عقيدة الخرّمية الزنادقة، ورفع عن أتباعه التكاليف، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أنّ محمد بن علي يأمرهم بهذا، وكذب عليه، وذلك عام ١١٨هـ، وانتصرت عليه الدولة، فقطعت يده، وسلّ لسانه، ثم صلب.

وحدث انقطاع بين الحميمة وأتباعها في خراسان، هذا الانقطاع بسبب ما أحدثه خداش، وسيّر أنصار الدعوة وراءه، ودون الأخذ على يده، الأمر الذي أبعد الفكرة عن الإسلام، وأظهرها بمظهر الكفر والإلحاد، ثم لشدة أسد بن عبد الله عليهم حتى لا ينكشف الأمر تماماً. وبعد مقتل خداش شعر أتباع العباسيين بخطئهم، وندموا على ما فعلوا من سيرهم وراء هذا الزنديق، وأرسلوا كبيرهم، وهو سليمان بن كثير، ليعتذر لهم عن ذنبهم، ويرفع للإمام توبتهم، وندمهم على ما قاموا به، وعندما عاد سليمان بن كثير من الحميمة كان يحمل كتاباً مغلقاً، ولما فتحوه لم يجدوا فيه سوى «بسم الله الرحمن الرحيم، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرّمي». ثم أرسل إليهم بكير بن ماهان نفسه فلم يصدقوه، وهمّوا به، إذ أصبحوا يشكّون في كلّ داعيةٍ بعد خداش، ولكن بكيراً لم يرد أن يصطدم بهم، وعاد إلى الحميمة فأرسل لهم الإمام معه عصا ملويةً عليها حديد ونحاس فعلموا أن هذه إشارة إلى أنّهم عصاة، وكان ذلك عام ١٢٠هـ.

وفي العام نفسه توفي أسد بن عبد الله، واستناب مكانه جعفر بن حنظلة، ثم عُزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق وخراسان، ووُلّي يوسف بن عمر الثقفي، فولى على خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله، وولّى نصر بن سيّار، وكان نصر ذا عصبيةٍ مضريةٍ، وهذا ما جعل اليمانية تعاني الشيء الكثير، فتوجه أنصار الدعوة العباسية نحو اليمانية، واستمر الوضع حتى عام ١٢٥هـ لا يتقدم إلاّ ببطء. هذا إضافة إلى أن حركة زيد بن علي زين العابدين كانت قد قامت في الكوفة عام ١٢٢هـ، وفشلت، وكان لا بدّ أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية، ولكن حركة ابنه يحيى لم تلبث أن قامت أيضاً.

وفي ١٢٥ توفي محمد بن علي العباسي، وأوصى من بعده لابنه إبراهيم، وأمره أن يقوم بأمور الدعوة. وبعد هذا العام تغيّرت الأحوال بالنسبة إلى الدعوة العباسية إذ:

١ ـ ضعف الحكم الأموي بعد وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ، وانقسم البيت الأموي على نفسه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً، الأمر الذي كره فيه الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه. هذا إضافة إلى الحركات التي قامت ضدهم.

٢ ـ زادت العصبية القبيلية استحكاماً وخاصةً في خراسان، وكان الوالي نصر بن سيّار مضرياً فتعصّب لمضريته، وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه هذا بالإضافة إلى كراهية صاحب السلطة دائماً بسبب المصالح المستجدة. واتجه أنصار الدعوة العباسية إلى اليمانية، وهكذا جاءتهم التوجيهات أيضاً من الإمام. وكره الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه، كره هذا اليمانيون عامةً، وكرهه المضريون أنصار الكرماني، وكرهه أهل الدين لمخالفته للإسلام، وكره ذلك الفرس كما كرهه الترك لأن ذلك يؤثر على بلادهم وعلى أحوالهم المعاشية دون أن يكون لهم أية علاقة، أو دون أن يكون أحد منهم طرفاً فيه.

٣ ـ إن هذه الصراعات قد أثرت على أوضاع المنطقة فتأخرت الزراعة، ونال هذا الأمر الموالي بالدرجة الأولى، إذ أنهم هم عمال الأرض، والمنتجون الرئيسيون في المنطقة بل وفي الدولة عامةً، وحرصت أعداد كبيرة منهم على الانتقال إلى المدينة لتجد حياةً أفضل فغصّت المدن بالناس الذين لا عمل لهم، وكانوا أرضاً طيبةً لانتشار الأفكار المعادية للأوضاع القائمة، وبالتالي أنصاراً للدعوة العباسية بل ولكلّ تغييرٍ يمكن أن يتمّ.

٤ ـ إن الإشاعات الكثيرة التي روّجها خصوم بني أمية ضدهم قد لعبت دورها في كراهيتهم، ومساندة أعدائهم، والانضمام إلى صفوف الحركات التي تقوم ضدهم أو تعمل لذلك.

٥ ـ إن الحركات التي قامت في هذا الوقت كان لها الأثر السيء على الأمويين، فحركات الخوارج، وحركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرها مثل حركة الكرماني[١] وحركة الحارث بن سريج[٢]، كما لم تمض مدة طويلة على حركة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وحركة ابنه يحيى.

٦ ـ إن الترف الذي وجد في خراسان قد قسم المجتمع إلى طبقات، فحقدت الفقيرة على الغنية، وشعر الناس بمخالفة هذا للإسلام، وعدّوا الدولة هي المسؤولة عن وجود مثل هذه الطبقات.

٧ ـ إن انقسام الإقليم بين نصر بن سيّار وجديع بن علي الكرماني، قد أضعف أمر الوالي، وفي الوقت نفسه فقد قوّى أبو مسلم الذي ضمّ إليه أكثر أنصار الكرماني بعد قتله، وكانت اليمانية الذين اعتمدت عليهم الدعوة إلى بني العباس قد التفوا حولها بشكلٍ أقوى.

إن القوة التي حصلت عليها الدعوة في خراسان قد جعل من الضروري وجود شخصٍ قويٍّ يتصل بالحميمة مباشرةً دون الرجوع إلى داعي الدعاة الذي مقره الكوفة، وقد كان التفتيش عن هذا الشخص حتى وجد في شخصية أبي مسلم الخراساني[٣].

---

(١) الكرماني: جديع بن علي الأزدي، ولد بكرمان فنسب إليها، وولي إمارة خراسان ثم عزل، وولي أمر المنطقة نصر بن سيار فسجنه فغضبت الأزد، وفر جديع من السجن، وثار على نصر بن سيار، ثم اتفق مع أبي مسلم الخراساني على قتال نصر بن سيّار، ثم قتله نصر بن سيار عام ١٢٩هـ.

(٢) الحارث بن سريج التميمي: كان من سكان خراسان، ثار على أميرها عام ١١٦، وسيطر على مناطق كثيرة، ثم هزم على أبواب مرو، فالتجأ إلى بلاد الترك، فبقي فيها ١٢ سنة ثم أمنه الخليفة يزيد بن الوليد فعاد عام ١٢٧، وردّ إليه ما أخذ منه، ثم عاد فثار، وعظم أمره، ثم قتل عام ١٢٨هـ.

(٣) أبو مسلم الخراساني: يبدو أن اسمه الحقيقي هو إبراهيم بن عثمان بن يسار من ولد بزرجمهر، وكان يكنى أبا إسحاق، وغيّر الإمام إبراهيم بن محمد عندما أرسله إلى خراسان اسمه وكنيته. =

وفي عام ١٢٧ توفي بكير بن ماهان داعي الدعاة بالكوفة فعهد بأمر الدعوة من بعده لصهره أبي سلمة الخلال. وبعدها التقى الدعاة ومعهم أبو مسلم بإبراهيم بن محمد في موسم الحج، ودفعوا له نفقاتٍ كثيرةً، وزكاة أموالهم، ولاحظ إبراهيم ما صار إليه أمر أبي مسلم، وذكاءه، وإمكاناته، فقرر في نفسه أن يرسله إلى خراسان، فهو كفء لذلك، وأمر خراسان يحتاج أمثاله، والدعوة تنطلق بشكلٍ جيد، ويمكن إظهارها بعد مدة إن استمرت في إنطلاقها هذا.

= كان أبوه من أهل رستاق «فريذين» من قريةٍ تسمّى «سنجرد» وكانت ملكاً له مع غيرها، وكان يتاجر بالمواشي إلى الكوفة. ضمن رستاق «فريذين» فخسر، وغرم، فأرسل إليه والي البلد من يُحضره فهرب بجاريته التي كانت حبلى، فولدت عام ١٠٠ في بلدة «ماه البصرة» من أعمال أصبهان ولداً، هو أبو مسلم الخراساني. وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج فحمله معه إلى الكوفة، وهو ابن سبع سنين. وتعهده عيسى بن معقل بن إدريس العجلي وأخوه عاصم، وكانا من عمال خالد بن عبد الله القسري والي العراق وخراسان، وبقي عندهما حتى شبّ.

وفي ١٢٠ عزل خالد بن عبد الله القسري عن العراق وخراسان، وتولى أمرهما يوسف بن عمر الثقفي، فسجن سلفه وعماله، ومنهم ابنا معقل العجلي، فكان معهما أبو مسلم الخراساني.

واجتمع أنصار العباسيين في دار، فغُمز بهم، فأخذوا، وسجن بكير بن ماهان وأفرج عن الباقيين. والتقى بكير بن ماهان بابني معقل العجلي، فدعاهما إلى رأيه فأجاباه، وقال بكير لعيسى: ما هذا الغلام؟ قال: مملوك، قال: تبيعه؟ قال: هو لك، قال: أحب أن تأخذ ثمنه وأعطاه أربعمائة درهم. ومن ثم خرجوا من السجن.

وفي عام ١٢٥ كان أبو مسلم مع دعاة بني العباس إذ التقوا بمحمد بن علي العباسي ثم بابنه إبراهيم، وأُعطي أبو مسلم لإبراهيم بن محمد، فبعث به إلى عيسى بن موسى السراج بالكوفة فسمع منه، وحفظ.

فأبو مسلم إذن فارسي وليس من خراسان، ولعلّ هذه النسبة هي التي قرنت الفرس بخراسان.

كان قصيراً، أسمر، جميلاً حلواً، نقي البشرة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية وبالفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفاً بالأمور، لم ير ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، وكان لا يقطّب في شيء من أحواله.

تأتيه الفتوح العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يُرى مكتئباً. وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب.

وفي عام ١٢٨ بعث إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان، وكتب معه كتاباً إلى شيعته جاء فيه: «إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان». ولكنهم لم يلتفتوا إليه: فرجع أبو مسلم إلى الإمام إبراهيم أيام الموسم. فقال له: «يا عبد الرحمن إنّك رجل منا أهل البيت، ارجع عليهم، وعليك بهذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»، وقد سبق أن شككنا في هذا الكلام إذ أن كبار الدعاة هم من القبائل العربية المعروفة - كما مرّ معنا - وهم قادة الدعوة والدولة في المستقبل.

سار أبو مسلم إلى خراسان بناءً على طلب الإمام الذي زوّجه ابنة عمران بن إسماعيل أبو النجم أحد النقباء الإثني عشر الأوائل. وبدأ العمل بنشاطٍ وسريةٍ تامةٍ مع كتمانٍ شديدٍ.

وفي عام ١٢٩ طلب الإمام إبراهيم من أبي مسلم أن يحضر إليه مع كبار أعوانه، فسار إليه مع سبعين من النقباء. فلما كانوا ببعض الطريق جاءهم كتاب آخر من الإمام يقول فيه لأبي مسلم: «إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة، وأمر قحطبة بن شبيب الطائي أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه في الموسم».

رجع أبو مسلم إلى خراسان فدخلها في أول يوم من رمضان، ورفع الكتاب إلى سليمان بن كثير الموجه إليه من الإمام وفيه: أن أظهر دعوتك ولا تتربص. فقدّم الدعاة في خراسان أبا مسلم الخراساني عليهم كداعيةٍ لبني العباس، فبعث دعاته إلى بلاد خراسان كلّها، وأمير خراسان نصر بن سيّار مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري. أما هو - أبو

مسلم ـ فقد نزل على سليمان بن كثير الخزاعي بقرية «سفذنيج» من قرى مرو فتحصّن بها، وأظهر نفسه، وجاءته أنصاره من كل مكان. ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس، ونصب له منبراً، ونودي للصلاة الصلاة جامعة، ولم يؤذن، ولم يُقم خلافاً لبني أمية، وبدأ بالصلاة قبل الخُطبة.

أرسل نصر بن سيّار جيشاً بقيادة مولاه زيد، فَأرسل إليهم أبو مسلم قوة بإمرة مالك بن الهيثم الخزاعي أحد النقباء الإثني عشر الأوائل، ثم أمده بقوة أخرى، فانتصر مالك، وأسر عدداً من قوة نصر، وفيهم أميرهم زيد، فقتل أبو مسلم الأسرى إلا زيداً الذي بعثه إلى نصر ليعلمه عن جماعة أبي مسلم وما هم عليه، وكان هذا أول اشتباكٍ وقع بين قوة بني أمية وقوة بني العباس.

وتمكّن خازم بن خزيمة من السيطرة على مرو الروذ وقتل عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو بشر بن جعفر السعدي، وكتب بذلك إلى أبي مسلم. كما أخذ مدينة «هراة» النضر بن نعيم الذي أرسله أبو مسلم إليها، وهرب منها عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو عيسى بن عقيل الليثي.

وحاول نصر بن سيّار استمالة اليمانية إليه، ولكنه أخفق إذ رفض زعيمهم جديع بن علي الكرماني، حيث كان أبو مسلم يكتب إلى الطرفين، ويقول لكلٍ منهما: إن الإمام قد أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك. ووقع كل منهما في حيرةٍ بمن يعاون على الآخر. وتمكن نصّر من إقناع الكرماني في السير إليه للإتفاق، وذهب إليه في مائة فارس، ووجدها نصر فرصةً فقتله، وانضم عدد من أنصار الكرماني وولده إلى أبي مسلم وصاروا عوناً له على نصر.

وكثر أتباع أبي مسلم إذ كان يُرسل الدعاة إلى الكور يدعو لبني العباس، والناس في خلاف فبعث نصر إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب في جملة كتابه:

أرى بين الرماد وميض نارٍ فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكي وإن الحرب مبدؤها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن كانوا لحينهمُ نياماً فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فقال نصر: إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده.

وكتب نصر بن سيّار أيضاً إلى نائب العراق يستمده وهو يزيد بن عمر بن هبيرة، وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تحققت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضاً إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل واحد.

وبعث ابن هبيرة بكتاب نصر بن سيّار إلى مروان بن محمد، واتفق وصول الكتاب إليه إن وجدوا رسولاً من جهة إبراهيم الإمام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتال نصر بن سيّار والكرماني. وعند ذلك بعث مروان، وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك، يأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة، وهي البلدة التي يقيم فيها إبراهيم بن محمد، فيقيده ويرسله إليه، فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان، فأمر به فسُجن. ولكن الأمر جاء متأخراً إذ كان أبو مسلم قد ظهر وسيطر على مناطق واسعة.

وزادت مشكلات بني أمية إذ خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في فارس وغلب عليها وعلى كورها، واستولى أيضاً على «حلوان»، و «قومس»، و «أصبهان»، و «الري»، ولكنه هُزم فيما بعد بـ «اصطخر»، وأُسر كثير من أنصاره، ومنهم عمّ السفاح عبد الله بن علي الذي تكلم بسوء عن عبد الله بن معاوية حتى نجا. كما أن أبا حمزة الخارجي قد دخل مكة المكرمة بعد الموسم.

ودخل أبو مسلم الخراساني مدينة «مرو» حاضرة خراسان بمساعدة علي بن الكرماني، وفرّ نصر بن سيار منها متوجهاً إلى «سرخس» وذلك عام ١٣٠. وكذلك أرسل أبو مسلم إلى شيبان بن سلمة الحروري قوةً بإمرة بسّام بن إبراهيم مولى بني ليث فقتله، وتتبع أصحابه، كما أن أبا مسلم قد قتل ولدي الكرماني وهما: علي، وعثمان وصفا له الجو في المنطقة التي دانت له، ثم وجه خالد بن إبراهيم أبا داود وهو أحد النقباء الإثني عشر الأوائل إلى مدينة «بلخ»، فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري. ثم بعث قحطبة بن شبيب الطائي إلى «نيسابور» لقتال نصر بن سيّار، فالتقى قحطبة في مدينة «طوس» بتميم بن نصر بن سيّار، فانتصر قحطبة الذي أمده أبو مسلم بقوة بإمرة علي بن معقل تمكّنت من قتل تميم بن نصر، كما أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق دعماً لنصر بن سيّار، ولكنهم هزموا، وقتل عامل «جرجان» نباتة بن حنظلة، وأرسل قحطبة بهذا النصر إلى أبي مسلم.

وزاد من أمور بني أمية أن أبا حمزة الخارجي قد دخل المدينة المنورة وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وبقي فيها ثلاثة أشهر إلا أنه قد هزم أمام قوةٍ أرسلها إليه مروان بن محمد من خيرة رجال أهل الشام.

وفي عام ١٣١هـ وجّه قحطبة بن شبيب الطائي ابنه الحسن إلى «قومس» لقتال نصر بن سيّار، ففرّ نصر إلى الري، ومنها سار إلى همدان،

وقبل أن يصل إليها توفي في «ساوة»[1]، وبوفاة نصر بن سيّار دانت خراسان كلها لأبي مسلم، إذ دخل الحسن بن قحطبة الري، وهمدان، ونهاوند.

وفي عام ١٣٢هـ التقى قحطبة بن شبيب مع أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة فانتصر جند قحطبة، وقتل معن بن زائدة قحطبة الذي استخلف ابنه الحسن بعده، والذي اتجه نحو الكوفة وقبل أن يدخلها خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعياً لبني العباس.

أما إبراهيم بن محمد فقد بقي في سجن مروان بن محمد حتى مات عام ١٣٢، وكان قد طلب يوم ألقي القبض عليه أن يكون الخليفة بعده أخوه عبد الله بن محمد (السفاح)، وأن يرتحل بأهله إلى الكوفة، فسار السفاح من يومها إلى الكوفة، ومعه أعمامه: عبد الله، داود، عيسى، صالح، إسماعيل، عبد الصمد، وأخوه عبد الله بن محمد، وابنا أخيه إبراهيم وهما: محمد وعبد الوهاب، ولما وصلوا إلى الكوفة نزلوا على أبي سلمة الخلال فأسكنهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم، ثم بدأ ينقلهم بعد أربعين يوماً من مكان إلى آخر، ولما بلغهم مقتل أو موت إبراهيم بن محمد في صفر، أراد أبو سلمة أن يُحوِّل الخلافة إلى آل علي إلا أن بقية النقباء والأمراء قد عرفوا مكان السفاح فدخلوا عليه، وسلّموا عليه بالخلافة، وكانت قد دانت أجزاء واسعة لأبي مسلم من العراق وخراسان، وذلك في ١٢ ربيع الثاني من عام ١٣٢.

وخرج السفاح فدخل قصر الإمارة، ثم خرج إلى صلاة الجمعة فخطب الناس، وأخذ منهم البيعة بعدها، وعسكر السفاح في ظاهر الكوفة، واستخلف عليها عمه داود، ثم ارتحل إلى المدينة الهاشمية فنزل في قصر الإمارة.

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمدان في وسط، بينها وبين كل واحد من همدان والري ثلاثون فرسخاً. وأهلها من السنة الشافعية يقع بين أهلها وأهل آوه الشيعية القريبة منها خلافات. وقد خربها التتار عام ٦١٧، وحرقوا مكتبتها العظيمة.

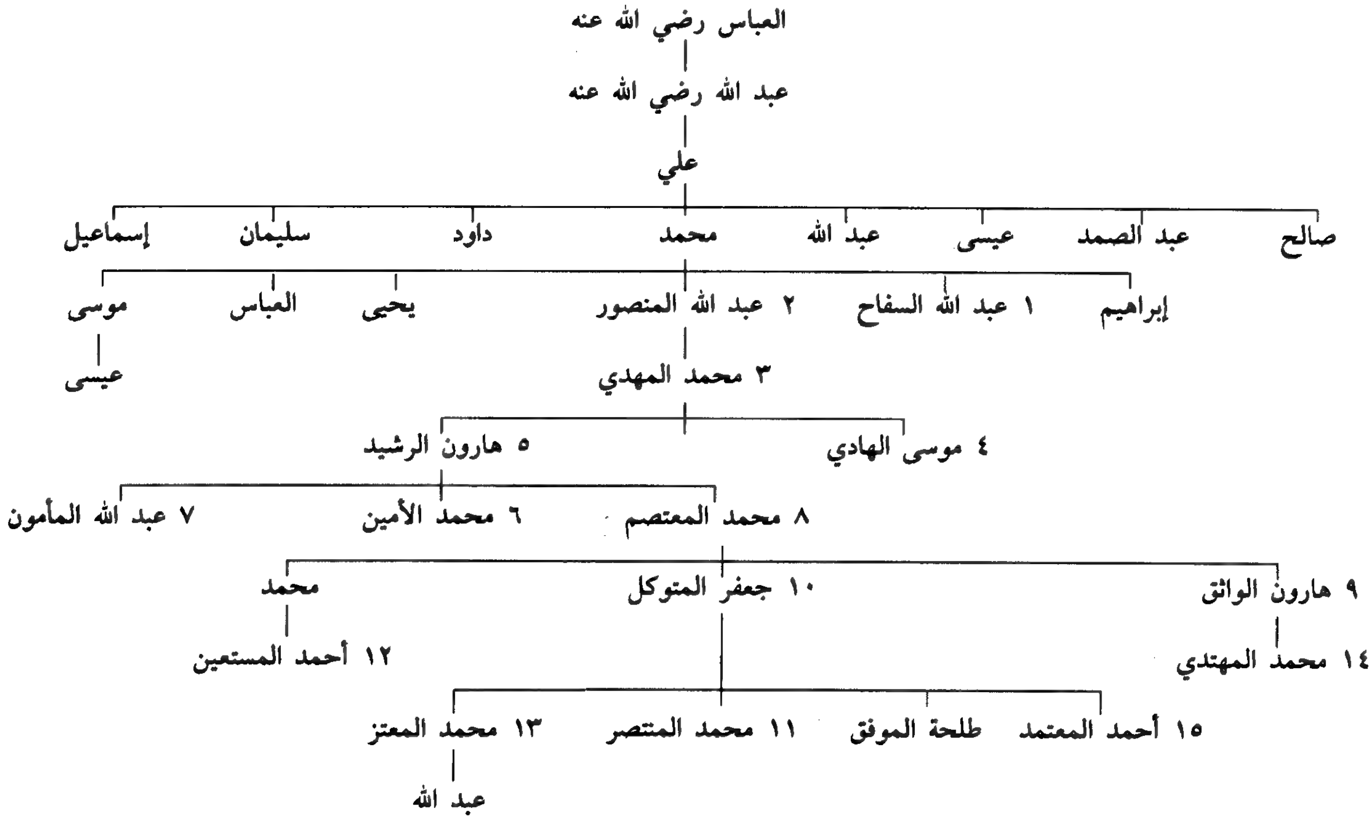
أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين، فبعث أبا عون بن أبي يزيد إلى الزاب الكبير حيث يعسكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في قوةٍ كبيرةٍ، ثم أمده بعمه عبد الله بن علي، وبعث في إثره موسى بن كعب التميمي أحد النقباء الإثني عشر في خراسان الأوائل يأمره بالعمل على قتال مروان، والتقى الفريقان يوم ١١ جمادى الآخرة، وهزم مروان ولحقه عبد الله بن علي إلى حران، فقنسرين، فحمص، فدمشق، وحاصر عبد الله دمشق ومن معه من القادة ثم فتحت، وكان مروان قد هرب فلاحقه ثم جاءه أمر أبي العباس إلى عمه عبد الله بن علي بأن يأمر أخاه صالح بن علي بمتابعة مروان، وأن يبقى هو نائباً على الشام. ودخل مروان مصر، ثم وجد في كنيسة (أبو صير) فقتل. وعاد صالح بن علي إلى الشام، واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد، وتُعدّ دولة بني أمية قد دالت منذ وقعة الزاب الكبير.

وبعث السفاح ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط، ثم أمده بأخيه أبي جعفر حتى دخلوا واسطاً، وقتلوا يزيداً. كما أرسل دعماً إلى بسام بن إبراهيم بالأهواز فدخلوها واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٠٠	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	الجراح بن عبد الله الحكمي	-
١٠١	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	عبد الرحمن بن نعيم الغامدي	-
١٠٢	يزيد بن عبد الملك	محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد العزيز	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٣	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد الله الحرشي	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٤	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	مسلم بن سعيد بن أسلم	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	ميسرة العبدي	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	زياد أبو محمد
١٠٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري ـ الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١١	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١١٢	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٣	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٤	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	عمارة بن حريم ـ عاصم بن عبد الله	عمار بن يزيد (خداش)
١١٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	سليمان بن كثير
١٢٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	جعفر بن حنظلة ـ جديع بن علي الكرماني	سليمان بن كثير
١٢١	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٢	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٣	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٤	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٥	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٢٦	الوليد بن يزيد	يوسف بن عمر الثقفي منصور بن جهور	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٧	يزيد بن الوليد إبراهيم بن الوليد	عبد الله بن عمر بن عبد العزيز النضر بن سعيد الحرشي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٨	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٣٠	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	دخل أبو مسلم الخراساني مرو	أبو مسلم الخراساني
١٣١	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني
١٣٢	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني



خلفاء عصر القوة وأبناؤهم في عهد بني العباس

خلفاء بني العبّاس

- ١ -

السَّفَّاح

عَبدالله بن محمَّد

١٣٢ - ١٣٦هـ

السّفّـاح

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ١٠٥هـ، وأمه رَيْطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي.

توفي والده محمد بن علي عام ١٢٥هـ بالحميمة[١]، وهو الذي بدأ بالدعوة العباسية، وكان السفاح قد ناهز العشرين من العمر، وعرف الكثير من الدعوة وأسرارها. وعهد والده من بعده لابنه إبراهيم (أخو السفاح) الذي عُرف فيما بعد بالإمام. وقد عمل على نجاح الدعوة، فقوي أمره، فأظهر نفسه في الموسم فعُرِف، كما وقع كتاب وجهه إلى أبي مسلم الخراساني في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فأرسل إلى واليه على دمشق فبعث من أخذه إلى حرّان[٢] قاعدة مروان فسُجن هناك. وكان قد أوصى من بعده لأخيه السفاح، وأمره أن يسير بأهله إلى الكوفة، وذلك عام ١٢٩هـ.

سار السفاح من الحميمة باتجاه الكوفة عن طريق دومة الجندل[٣]، ومعه من أهله ثلاثة عشر رجلاً هم: أعمامه: صالح، وإسماعيل، وعبد الله، وعبد الصمد، وعيسى.

---

(١) الحميمة: بلدة تاريخية، في الأردن اليوم، على مقربة من مدينة معان.

(٢) حرّان: بلدة تقع في جنوب تركيا اليوم، على بعد ١٣ كم من الحدود السورية، على نهر بليخ الذي يرفد الفرات عند الرقة.

(٣) دومة الجندل: بلدة تاريخية، شمالي الجزيرة العربية، على مقربة من الجوف اليوم، على الطريق بين الأردن والعراق.

أخواه: عبد الله بن محمد «المنصور»، ويحيى بن محمد.

أبناء أخوته: عبد الوهاب، ومحمد، ابنا إبراهيم «الإمام»، وعيسى بن موسى.

أبناء عمه: موسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر بن تمام بن عباس.

وصل هؤلاء الركب إلى الكوفة في شهر صفر عام ١٣٢هـ، وكان محمد بن خالد بن عبد الله القسري[١] قد خرج بالكوفة قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة[٢]، ودخل قصرها ففرّ منه عامل يزيد بن عمر بن هبيرة[٣] عليها، وهو زياد بن صالح، وبعد ثلاثة أيام جاء الحسن بن قحطبة بجنده فدخل الكوفة، وانطلق إلى مكان أبي سلمة الخلال[٤] فأخرجه من مخبئه، فاتجه أبو سلمة إلى النخيلة[٥] فعسكر فيها يومين، ثم ارتحل إلى (حمام أعْيَن)[٦] على بُعد ثلاثة فراسخ من الكوفة، وعسكر هناك، ووجّه

---

(١) محمد بن خالد بن عبد الله القسري: كان والده خالد بن عبد الله والياً على مكة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، ثم ولي لهشام بن عبد الملك إمرة العراقين من عام ١٠٦ إلى ١٢٦، ثم عزله بيوسف بن عمر الثقفي، وعذب فكان ابنه هذا ناقماً على الأمويين، وعلى القيسية.

(٢) الحسن بن قحطبة: تولى قيادة جيوش العباسيين بعد مقتل أبيه على يد معن بن زائدة في الصراع الدائر بين جيوش الأمويين بإمرة يزيد بن عمر بن هبيرة، وجند أبي مسلم الخراساني.

(٣) يزيد بن عمر بن هبيرة: أمير العراقين لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، كان بطلاً شجاعاً، سائساً جواداً، فصيحاً، خطيباً. وكان من الأكلة، هُزم فتحصّن في واسط، وحاصره المنصور مدة، ثم أمنه، ثم قتله بتحريض من السفاح سنة ١٣٢.

(٤) أبو سلمة الخلال: حفص بن سليمان الهمداني: داعي دعاة بني العباس بالكوفة، وأنفق الكثير من ماله في سبيل ذلك، كان صيرفياً. اتهم بأنه يريد الدعوة لأبناء علي، رضي الله عنه. كتب أبو مسلم الخراساني للسفاح يحسن له قتل الخلال، ولكنه رفض. أرسل له أبو مسلم من قتله ليلاً بالأنبار، بعد قيام السفاح بأربعة أشهر.

(٥) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندما بلغه هجوم أهل الشام على الأنبار.

(٦) حمام أعين: نسب إلى أَعْيَن مولى سعد بن أبي وقاص.

الحسن بن قحطبة لقتال يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، وجعل على الكوفة محمد بن خالد بن عبد الله القسري فكان يقال له الأمير. وفي هذه الأثناء وصل السفاح وركبه إلى الكوفة.

أنزل أبو سلمة القادمين في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم، وأخفاهم عن القادة على حين أن الكوفة قد أصبحت بأيديهم، وخراسان قد تسلّم أمرها أبو مسلم منذ أكثر من عام، وكان يجب أن يظهروا ويقودوا العمل بأنفسهم ما دامت الدعوة لهم، وهم أصحاب الشأن، كما أن الإمام إبراهيم قد مات في هذا الشهر فأصبح خليفته هو صاحب الأمر بالأصالة لا بالنيابة، وهذا ما جعل التهمة توجّه إلى أبي سلمة الخلال داعي الدعاة بأنه يريد حجب الأمر عن العباسيين وتسليمه إلى أبناء عمومتهم من أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وبقي أمر السفاح ومن معه مجهول الوصول والإقامة مدة أربعين يوماً، وكان أبو سلمة كلما سئل عن الإمام أجاب: لم يقدم بعد، وليس هذا وقت خروجه، حتى لقي أحد قادة العباسيين خادم السفاح، وهو يعرفه، فسأله عنهم فقال: إنهم بالكوفة، وإن أبا سلمة يأمرهم أن يختفوا، فأرسل القائد بعض أعوانه مع الخادم حتى عرف منزلهم بالكوفة. وسأل القائد أبا سلمة عن الإمام، فقال: ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد. فتدارس القائد مع البقية الأمر وقرروا أن يلقوا الإمام، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عن القادة في المعسكر، فقيل له: ركبوا إلى الكوفة في حاجةٍ لهم.

ودخل القادة على القوم وسألوهم: أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ لأنهم لم يعرفوه من قبل، فأشار الحضور إلى السفاح فسلموا عليه بالخلافة. وجاء أبو سلمة بعدئذ إلى السفاح وسلّم عليه بالخلافة.

كان السفاح شاباً، مليحاً، مهيباً، أبيض، طويلاً، وقوراً أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية، ذا شعرة جعدة. جواداً حتى كان يضرب المثل بجوده، وقد أعطى عبد الله بن حسن بن الحسن ألفي ألف درهم. وكان عفيفاً عنيفاً متعبداً.

توفي بالجدري عام ١٣٦ لثلاث عشرة خلت من شهر ذي الحجة، وبذا فقد عاش إحدى وثلاثين سنة، ولي الخلافة منها أربع سنوات، وبقي بين بيعته ووجود مروان بن محمد حياً ثمانية أشهر، أي وجود خليفتين في آن واحد.

وتزوج امرأة واحدة هي أم سلمة المخزومية، وذلك قبل أن يلي الخلافة، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فمات، وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات، فتزوجها أبو العباس. ولم يتزوج غيرها بعد أن آلت إليه الخلافة.

* * *

خلافته

خرج أبو العباس السفاح من مخبئه ومعه أهل بيته حتى دخلوا قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني، وكان الناس قد علموا بذلك من قبل فلبسوا سلاحهم، واصطفوا لخروجه. ثم دخل السفاح المسجد من دار الإمارة فصعد المنبر، وقام في أعلاه، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم السفاح فذكر حقهم في الإمامة فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمةً، وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا: حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(١)، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٢)، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾(٣)، وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾(٤)، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٤) سورة الحشر: الآية ٧.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[1]. فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا: وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية[2] الضلّال، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم! ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم؛ فتح الله ذلك منّةً ومنحةً لمحمد ﷺ؛ فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدّلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وأخرجوا خماصاً منها. ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمُنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض؛ وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) السبئية: نسبةٌ إلى عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر. وعمل على تهديم الإسلام من الداخل، وادعى ولاء سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ونسب له أموراً غريبة خارجة عن الإسلام.

وكان موعوكاً فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن علي فقام دونه على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن اقشعت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت الأرض وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها: وبزغ القمر من مبزغه؛ وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى مترعه، رجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً أو عقياناً، ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم؛ واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان! آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام: وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي؛ جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غرّه بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته، ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس؛ إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة؛ أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه من استتمام الكلام بعد أن استحضر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى. ومناهج التقوى.

يا أهل الكوفة؛ إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان، وعز الإسلام، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصراً؛ وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارجٍ منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس ودواد بن علي أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم، حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب، وجنّهم الليل فدخل[1].

ويبدو من خطبة أبي العباس ومن كلمة عمه داود بن علي ثلاث نقاط:

---

(١) تاريخ الطبري.

١ ـ محاولة إظهار أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم على اعتبار أن الخلافة وراثية، ولم تكن الخلافة في الإسلام ملكاً متوارثاً وإنما هكذا أصبح بعد الحكم الراشدي.

٢ ـ الهجوم على بني أمية، وعدّهم ظالمين مستبدين، أخذوا بغير حق وساروا فيه بكل عسف. وهذا شأن كل حاكم جديد بالنسبة لسابقه، يبرر قيامه، ويمكّن لنفسه.

٣ ـ الوعد بحكم ما أنزل الله، واتباع سنة رسول الله، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح، وهذه قناعة الخلفاء، الذين يظنون أن ما سبقهم لم يطبقوا الإسلام بشكل صحيح، والواقع أن الإسلام لم يتبع منهجاً سليماً بعد صحابة رسول الله ﷺ، وإنما حدث فيه تغيير، ولكنه كان تغيير طفيف تزداد زاوية الانحراف وتتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى، ويبقى المظهر العام إسلامياً وذلك كل مدة الخلافة، فالخلفاء متمسكون عامةً بتعاليم الإسلام، ويفخرون بذلك، لذا فهم يأخذون على غيرهم، ويظنون بأنفسهم أنهم بإمكانهم أن يطبقوا بشكلٍ أفضل، ويعملوا بصورةٍ أحسن. والواقع أن العباسيين في أيامهم الأولى بصورةٍ عامةٍ كانوا أكثر تديناً من الأمويين، وأكثر تمسكاً بالإسلام، ولكنهم أقل خدمةً للأمة، وقد ظهر هذا من كلمة داود بن علي من اليوم الأول «ولا نحفر نهراً»، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جملةً مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيتهم، وإنما القضايا نسبية. فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب ألا تقع، أما ما نسب لهم، وما قيل فيهم فهو بمجمله محض افتراء من صنع الدساسين والخصوم.

وأشار داود بن علي إلى أن منبر الكوفة لم يخطب عليه خليفة بعد رسول الله ﷺ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الذي كان قد اتخذ الكوفة مقراً له، وبعده كانت الكوفة مهملةً من قبل الخلفاء حتى قام الخليفة السفاح هذا، وفي هذا الكلام إثارة لأبناء الكوفة ليعضدوا

الحكم الجديد الذي هو حكمهم إذ أن بلدتهم قد أصبحت قاعدة الخلافة الإسلامية كلها.

وفي اليوم الثاني سار السفاح إلى معسكر حمام أَعْيَن، ونزل في حُجرة أبي سلمة الخلال، ووضع بينهما ستراً. واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي. وبعث عمه عبد الله بن علي في قوة دعماً لأبي عون عبد الملك بن يزيد لقتال مروان بن محمد.

وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى[١] دعماً للحسن بن قحطبة الذي يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط.

وأرسل يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس دعماً لحميد بن قحطبة[٢] الذي يدعو لبني العباس في منطقة المدائن ويقاتل فلول الأمويين هناك.

وأرسل أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمّار بن ياسر على رأس قوة عوناً إلى بسّام بن إبراهيم بن بسّام بالأهواز.

وانتصر عبد الله بن علي على مروان بن محمد في معركة الزاب[٣] يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، وفرّ مروان إلى قاعدته «حرّان» فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، ومنها سار إلى قنسرين[٤]، وعبد الله بن علي متتبع له، ومن قنسرين سار مروان إلى حمص، ومنها إلى دمشق فالأردن ففلسطين، ثم سار إلى مصر، واختبأ ببوصير حتى قتل

---

(١) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو موسى: فارس بني العباس، وسيفهم المسلول، انتدب لحرب ولدي عبد الله بن حسن فظفر بهما. جعله السفاح ولياً للعهد بعد المنصور لكن المنصور أخّره، وقدّم عليه ولده، وبذل له، وتوفي عام ١٦٨ بالكوفة.

(٢) حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي: أمير، من القادة الشجعان، ولي إمرة مصر عام ١٤٣، ثم إمرة الجزيرة، ووجه لغزو أرمينيا عام ١٤٨، ولغزو كابل عام ١٥٢، ثم تسلم إمرة خراسان، وبقي فيها حتى مات عام ١٥٩هـ.

(٣) الزاب: نهر يصب في دجلة على مقربة من الموصل، ويأتي من الشرق.

(٤) قنسرين: كورة بالشام منها حلب، وبينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص.

فيها في ٢٧ ذي الحجة من عام ١٣٢هـ. أما ابناه عبد الله، وعبيد الله فقد فرا إلى الحبشة مع جماعة من الأتباع، ثم قتلت الحبشة عبيد الله، وأفلت عبد الله الذي سلم نفسه أيام خلافة محمد المهدي. وبمقتل مروان بن محمد خلت إمارة المؤمنين للسفاح إذ ليس للمؤمنين إلا أمير واحد لهم في دار الإسلام.

وأما واسط فبقيت محاصرةً من قبل أبي جعفر المنصور، والحسن بن قحطبة حتى جاء إلى ابن هبيرة خبر مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حمله إليه إسماعيل بن عبد الله القسري فطلب عندها ابن هبيرة الأمان وكثر الرسل بينه وبين أبي العباس حتى تّم الأمان فاستسلم ابن هبيرة ومن معه، وبقي يتردد على أبي جعفر مع حاشيته، ثمّ استشار أبو العباس في أمره أبا مسلم فرأى قتله فقُتل ابن هبيرة.

وأقام السفاح عدة أشهر بمعسكر حمام أَعْيَن، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة. ولم يستقر الوضع للسفاح بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، إذ اندلعت الثورات ضد السفاح في بلاد الشام، كما قامت حركات في بعض المناطق.

انتقل السفاح عام ١٣٤ من الكوفة إلى الأنبار حيث أصبحت مقر حكمه حتى توفي.

لم تقم حركة قوية ضد السفاح بعد عام ١٣٤، وفي الوقت نفسه لم تكن دولته موطدة الأركان، واعتمد السفاح في خلافته على دعائم ثلاث هي:

١ ـ أسرته:

لقد كانت أسرة السفاح كبيرة فكانت دعماً له، ومن يريد أن يؤسس أسرةً حاكمةً فإن عدد أفراد أسرته يلعب دوراً كبيراً في تسهيل مهمته فنلاحظ أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، أسس أسرةً لكن لم يطل عهدها، ولم يحكم بعده سوى ابنه يزيد، على حين أن أسرة بني مروان قد استمر أمرها ما يقرب من سبعين سنة لكثرة أولاد عبد الملك بن مروان.

لقد كان للسفاح سبعة أعمام تسلّموا له قيادة الجيوش، وإمرة

الولايات، فضبطوا الأمر، فكانت ولاية الشام لعبد الله بن علي، وفلسطين لصالح بن علي، والبصرة لسليمان بن علي، وجزيرة العرب لداود بن علي، والموصل، والأهواز، وفارس لإسماعيل بن علي، وسار عيسى بن علي إلى فارس، وقاد عبد الصمد بن علي الجيوش في الشام دعماً لأخيه عبد الله بن علي.

ولم يكن أبناء عمومته أقل دوراً من أعمامه فموسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر كلهم كان لهم دور في توطيد دعائم الدولة.

واعتمد على أخويه عبد الله بن محمد، ويحيى بن محمد في قيادة الجيوش وتولّي الإمارة، والاستشارة، فكان المنصور عبد الله بن محمد على رأس القوة التي سارت نجدةً للحسن بن قحطبة في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، ثم كان أمير الجزيرة حتى استخلف، وكان يحيى بن محمد أمير الموصل. ثم كان ابن أخيه عيسى بن موسى سيف بني العباس الصارم، كما كان ولي العهد لأبي العباس بعد المنصور.

لقد كان السفاح يحب أن يكون دائماً أحد أهل بيته على الإمارة أو قيادة الجيوش ليضمن الأمر، فعندما أرسل أخاه أبا جعفر دعماً للحسن بن قحطبة كتب إليه: «إن العسكر عسكرك، والقواد قوادك؛ ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً، فاسمع له وأطع، وأحسن مؤازرته».

وأرسل إلى فارس عمه عيسى بن علي رغم أن أبا مسلم الخراساني كان قد بعث بمحمد بن الأشعث إليها ولما ردّ محمد بن الأشعث عيسى بن علي أصرّ السفاح على أن يكون أحد أهل بيته على فارس فأرسل عمه الآخر إسماعيل بن علي.

وبعد أن فرّ مروان بن محمد من الزاب وغادر الموصل عيّن عبد الله بن علي عليها محمد بن صول غير أن السفاح لم يلبث أن بعث إلى الموصل أميراً من أهل بيته من أخوه يحيى بن محمد ثم استبدله بأحد أهل بيته أيضاً، وهو عمه إسماعيل بن علي.

واستعان السفاح كذلك بأخواله فبعد أن توفي عمه داود بن علي أمير جزيرة العرب ولّى على المدينة زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، ثم علي بن الربيع الحارثي.

٢ ـ أبو مسلم الخراساني:

الذي استطاع بحكمته، وحزمه، وقوته، أن ينجح في الدعوة للعباسيين، وأن يقود الجيوش ضد نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان وأن ينتصر عليه رغم حداثة سنه إذ قامت الدولة العباسية ولم يتجاوز الثانية والثلاثين: وقتل ولم يناهز السابعة والثلاثين من عمره، وبقيت خراسان على عهدها ما بقي فيها أبو مسلم، بل كان سيف الدولة المصلت تضرب به من يخرج عن طاعتها.

٣ ـ العصبية القبلية:

بزغ قرن العصبية أيام الدولة الأموية وهذا ما أضعفها، وهدّ كيانها، وكان سبباً في سقوطها وزوالها، وأفاد العباسيون منها، إذ رأوا الفرقة والخلاف بين القيسية واليمانية، فلما كان آخر ولاة بني أمية من القيسيين لذا فقد ضمّ العباسيون اليمانيين إلى صفوفهم، فلما قامت دولتهم بقوا محافظين على هؤلاء اليمانيين لذا نجد أكثر قادتهم منهم.

وذكر أمام أبي العباس ما صنع أبو سلمة، فقال أحدهم: ما يدريكم، لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم، فقال أبو العباس: لئن كان هذا رأي أبي مسلم إنا لبعرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا. فأرسل أبو العباس أبا جعفراً إلى أبي مسلم ليتعرف على الرأي، فلما وصل استقبله أبو مسلم استقبالاً حسناً، وبعد ثلاثة أيام سأله عن سبب قدومه، فأخبره، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، فذهب وقتله، وقالوا: قتله الخوارج.

الولايات[٧]

١ ـ الكوفة:

كانت مركز داعي دعاة العباسيين، ثار فيها محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأعلن الدعوة للعباسيين فيها، ففرّ منها عامل بن هبيرة عليها، وهو زياد بن صالح، ونزل فيها السفاح سراً مع أهله، وأنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم. وجاء الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائي قائد العباسيين فدخلها، وخرج أبو سلمة من مخبئه، وعسكر خارجها، وتولى أمرها محمد بن خالد بن عبد الله القسري. وعندما قام السفاح ولّى عليها عمه داود بن علي، وعسكر هو خارجها، وعاد إليها بعد أشهر. وبعد عام تولى أمرها عيسى بن موسى لأن داود بن علي نقل إلى إمرة جزيرة العرب كلها [المدينة، ومكة، واليمن، واليمامة].

ثم انتقل السفاح من الكوفة إلى الأنبار عام ١٣٤ هـ، لكنها بقيت مركز قوة للعباسيين.

٢ ـ البصرة:

بعد أن قام السفاح في الأمر، أرسل إلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبي عاملاً عليها من قبله، وبعد عام أرسل مكانه عمه سليمان بن علي، وبقي عليها مدة خلافة السفاح، ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٣ ـ الموصل:

بعد هزيمة مروان بن محمد في الزاب وفراره متجهاً نحو حرّان خلّف

وراءه الموصل فولّى عليها عبد الله بن علي أميراً هو محمد بن صول، ثم أرسل إليها السفاح أخاه يحيى بن محمد أميراً عليها، ثم استبدله بعمه إسماعيل بن علي.

٤ ـ الأهواز:

دخلها بسّام بن إبراهيم بن بسّام، وأخرج من فيها من أتباع الأمويين، وتولّى أمرها، ثم خرج منها وتوجه إلى المدائن فأرسل السفاح إليها عمه إسماعيل بن علي. وأرسل إلى بسام في المدائن خازم بن خزيمة، ففر بسام عام ١٣٤هـ.

٥ ـ فارس:

بعث أبو مسلم الخراساني إلى فارس محمد بن الأشعث، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم، لكن السفاح أرسل إليها عمه عيسى بن علي فردّه محمد بن الأشعث وعندها سار إليها إسماعيل بن علي وتولى أمرها.

٦ ـ خراسان:

كان أبو مسلم الخراساني سيد خراسان ولا منازع له، وهو صاحب الكلمة المسموعة فقط دون غيره، وبقيت هادئة. وخرج زياد بن صالح الذي كان عامل ابن هبيرة على الكوفة خرج مخالفاً وراء نهر بلخ فلما هزم فرّ إلى دهقان الترك فسلمه إلى أبي مسلم فضرب عنقه عام ١٣٥هـ. ومن قبله خرج شريك بن شيخ المهدي فقتله أبو مسلم.

٧ ـ السند:

أرسل السفاح إلى السند منصور بن جهور فملكها، ثم ثار فيها فبعث

له موسى بن كعب[١] عام ١٣٤هـ فأخذها منه وفرّ منصور، واتجه إلى الصحراء فمات عطشاً، وبقي موسى بن كعب والياً على السند حتى توفي، وكان نائبه عليها ابنه عيينة.

٨ ـ الجزيرة:

لما مرّ مروان بن محمد على حرّان فاراً من وجه عبد الله بن علي خلّف عليها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، وهو ختن مروان عنده ابنته أم عثمان، فلما قدم عبد الله بن علي لقيه أبان مبايعاً له، ودخل في طاعته فأمنه ومن معه في حرّان والجزيرة، وترك عبد الله بن علي في حران موسى بن كعب، وسار إثر مروان.

ولما علم أهل الجزيرة بما كان من أمر قنسرين، وأبي الورد، أعلنوا خروجهم على العباسيين: وساروا إلى حرّان وعليها موسى بن كعب فحاصروه ومن معه. وجاء إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينيا، وكان قد تركها عندما علم بهزيمة مروان بن محمد، فسوّده أهل الجزيرة عليهم فحاصر موسى بن كعب مدة شهرين. فوجّه السفاح أخاه أبا جعفر ومن معه من الجند إلى حران، وكان بواسط يحاصر ابن هبيرة، وتحرك أبو جعفر نحو الجزيرة، وكان أهل قرقيساء، والرقة قد وافقوا أهل الجزيرة في حركتهم. وتسلّم أمر الرقة بكار ابن مسلم العقيلي أخو إسحاق.

أرسل إسحاق أخاه بكاراً إلى داراً، وماردين وما حولهما ولكنه هزم أمام أبي جعفر، وعندما وصل أبو جعفر إلى حرّان غادرها إسحاق بن مسلم واتجه إلى الرها، فخرج موسى بن كعب وقد فك الحصار عنه.

---

(١) موسى بن كعب بن عيينة التميمي: من كبار قواد الدولة العباسية الذين رفعوا عمادها، جعله محمد بن علي أحد النقباء الاثني عشر، أخضع لهم أبيورد، وقضى على حركة منصور بن جهور في السند، وملكها، وأصبح على شرطة المنصور ووالي الهند، ومصر، وتوفي عام ١٤١.

جعل إسحاق أخاه بكاراً على الرها، وخرج هو إلى سُمَيْساط[1] فلحقه أبو جعفر وكانت بينهما وقائع.

كتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي يأمره بالمسير على رأس قوة إلى سُمْيساط، فسار، وحاصر إسحاق بن مسلم فيها عدة أشهر، وكان إسحاق يتعلل ببيعة مروان في عنقه فلما أخبر بمقتل مروان طلب إسحاق الأمان، فكتبوا إلى أبي العباس فوافقهم على الأمان له، فأُعطيه، وأصبح من جند العباسيين، وعُيّن أبو جعفر أميراً للجزيرة وأرمينيا، وبقي فيهما حتى استخلف، وينيب على أرمينيا يزيد بن أسيد، وعلى أذبيجان محمد بن صول.

٩ ـ الشام:

كان عبد الله بن علي يتتبع مروان بن محمد من حرّان، إلى منبج، فقنسرين، فحمص، فبعلبك فكان كلما وصل عبد الله بن علي إلى مدينة استقبله أهلها، وبايعوه، ودخلوا في طاعته، فلما وصل إلى دمشق حاصرها وقادته، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان، عنده ابنته أم الوليد، ففتحت دمشق أبوابها في العاشر من رمضان ١٣٢، وقتل الوليد بن معاوية، وسار عبد الله بن علي إلى الكسوة فالأردن فبايعه أهلها، ثم اتجه إلى فلسطين فنزل بيسان، ثم مرج الروم، ثم نهر أبي فُطْرُس[2]، وجاء كتاب أبي العباس إلى عبد الله بن علي أن يوجّه أخاه صالح بن علي ليلاحق مروان بن محمد ويلتفت هو إلى أمور الشام. وبقي بعدها صالح بن علي أميراً على فلسطين. أما عبد الله بن علي فقد اتجه إلى محاربة حبيب بن مرة المري في أرض البلقاء، والبَثَنِيّة[3]، وحوران، وهو أحد قادة

---

(١) سميساط: مدينة على نهر الفرات في بلاد تركيا اليوم.

(٢) أبو فطرس: نهر شمال مدينة الرملة بفلسطين على بعد ٢٠ كيلومتراً منها ينتهي في البحر جنوب يافا.

(٣) البثنية: قرية بين دمشق وأذرعات، وهي غير موجودة الآن، وكان النبي أيوب عليه السلام منها.

مروان. وفي هذه الأثناء خرج أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وقد كان من أصحاب مروان وقواده، فلما هزم مروان وجاء عبد الله بن علي لقيه أبو الورد وبايعه ودخل في طاعته.

كان أبو الورد جاراً لولد مسلمة بن عبد الملك. فجاء قائد من قواد عبد الله بن علي على رأس مائة وخمسين فارساً، وحمل أولاد مسلمة بن عبد الملك ونساءهم قهراً من غير ذنب سوى أنهم أمويون، فشكا بعضهم إلى أبي الورد فأخذته الحمية والنخوة، وهجم على القائد وقتله ومن معه، ودعا أهل قنسرين إلى خلع طاعة عبد الله بن علي ففعلوا، وبايعته قيس، فخاف على نفسه، وأعلن الثورة، وهكذا كان تصرف قائد صغير مدعاة لثورة أربكت الدولة.

وعندما بلغ الخبر إلى عبد الله بن علي صالح خصمه حبيب بن مرة واتجه إلى قنسرين ماراً بدمشق، وما أن اجتاز دمشق حتى انتفضت عليه، لما صدر من أفعال من بعض أتباعه، ونهبوا متاعه فيها، ولم يتعرضوا إلى أهله، إذا لم يرغبوا أن يفعلوا ما اشتكوا منه.

كاتب أهل قنسرين أهل حمص وتدمر فوافقوهم وجاءوا بمدد إليهم، وعليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عرف بالسفياني.

وصل عبد الله بن علي إلى مقربة من معسكر السفياني فوجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف فلقيهم أبو الورد وهزمهم في مرج الأخرم[١]، فعادوا إلى عبد الله بن علي أشتاتاً، فسار إليهم بنفسه ومعه أخوه عبد الصمد، وحميد بن قحطبة وعدد من القادة البارزين، فانكشفت جماعة عبد الله بن علي، ولكنه ثبت هو وحميد بن قحطبة، وأعادوا الكرة وثبت لهم أبو الورد في خمسمائة من أهله وقادته، فقتلوا جميعاً، وهرب

---

(١) الأخرم: مرج إلى الشرق من حمص ويُعرف اليوم مخرم.

أبو محمد السفياني ومن معه من الكلبية ولاذوا بتدمر، ثم فرّ وأبناؤه إلى الحجاز.

أمّن عبد الله بن علي أهل قنسرين فبايعوه من جديد، وأعلنوا ولاءهم له، وعاد إلى دمشق التي انتفضت عليه، وهزمت نائبه أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي، فلما اقترب منها هرب الناس منها وتفرقوا، ولم تحدث بينهم وبين عبد الله بن علي وقائع، فأمنهم، فجاءوا إليه وبايعوه، ولم ينتقم من أحدٍ منهم تهدئةً لأحوالهم وألفةً لقلوبهم.

وبقي عبد الله بن علي أميراً على الشام مدة خلافة السفاح.

١٠ ـ مصر:

كان آخر ولاة بني أمية على مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وقد دخل إليها مروان بن محمد فاراً من وجه العباسيين فقتل فيها، وتولى أمرها أبو العون عبد الملك بن يزيد الأزدي وبقي فيها حتى عام ١٣٦ حيث ولي أمرها صالح بن علي.

١١ ـ إفريقية:

سيطر الخوارج على إفريقية في أواخر عهد الدولة الأموية، وسار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقية، وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري يقاتل الخوارج.

١٢ ـ الأندلس:

فقد كان عليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وصاحب الكلمة فيها الصميل بن حاتم، واستمرا حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل ثم خضعا.

١٣ ـ الحجاز:

عيّن أبو العباس بعد مدة من قيامه عمه داود بن علي على مكة والمدينة واليمن واليمامة بعد أن عزله عن الكوفة، إلا أن هذه الولاية كانت اسمية، وخاصةً على اليمامة إذ كان واليها الحقيقي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، غير أن داود بن علي لم يلبث أن توفي واستخلف مكانه ابنه موسى، ولكن السفاح أرسل خاله زياد بن عبد الله الحارثي على المدينة، فضبط أمرها، وأرسل جيشاً إلى اليمامة بإمرة إبراهيم بن حسان السلمي استطاع أن يخضعها ويقتل المثنى بن يزيد.

وأرسل إلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، فلما توفي عام ١٣٤ كتب إلى عامل مكة علي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي أن يتوجه إلى اليمن فسار إليها.

وتولى أمر مكة العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس.

١٤ ـ أما البحرين وعمان:

فكانت تتبع إمارة البصرة التي عليها إسماعيل بن علي.

* * *

الفتوحات

كان أبو العباس مشغولاً بتوطيد أركان الدولة، كما كانت هناك قوة لأنصار الأمويين في الجزيرة، وفي الشام، وفي اليمامة، وقامت حركات فلا بد من خضد شوكتها لذا فقد انصرف عن الفتوحات والغزو. وكل ما حدث أن توجّه خالد بن إبراهيم[1] عام ١٣٣ على رأس قوة إلى بلاد الترك فيما بعد بلخ وحصل على غنائم، كما سار إلى بلاد ما وراء النهر، وتوغل في بلاد الترك ونال منهم، وربما كان ذلك أن خراسان كانت أكثر استقراراً من غيرها.

وعندما استقرت أوضاع بلاد الشام وجه صالح بن علي لغزو الصائفة سعيد بن عبد الله فحصل على بعض الغنائم. كما عقد أبو العباس لعمه عبد الله بن علي عندما زاره في الأنبار على صائفة تضم أهل خراسان، والموصل، والجزيرة، والشام فسار حتى بلغ دلوك[2]، ولم يغادرها حتى جاء نبأ وفاة أبي العباس.

وفي الوقت نفسه فقد استغل قسطنطين ملك الروم انتفاضة الجزيرة على أبي العباس ودخل مدينة ملاطية، وقاليقلا، وانتصر على المسلمين.

---

(١) خالد بن إبراهيم الذهلي، أبو داود: تولى أمر خراسان أيام المنصور، وهو من الغزاة، ثار عليه جنده، فأشرف عليهم يصيح بهم فسقط عن الحائط فمات سنة ١٤٠.

(٢) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم.

الخوارج

ظهر الخوارج الصفرية في جزيرة كاوان، كما ظهرت الأباضية في عُمان بإمرة الجلندي فلما غضب أبو العباس على خازم بن خزيمة سيّره على رأس سبعمائة فارس إلى الخوارج، فهرب الخوارج من وجه خازم من جزيرة كاوان وعلى رأسهم شيبان بن عبد العزيز، ووصلوا إلى عُمان فقاتلهم خوارج عمان لاختلافهم معهم، وقتل شيبان ومن معه. وسار خازم إلى عمان، وانتصر على الجلندي وقتله وقتل معه عشرة آلاف ممن تبعه ورجع بعد أن مكث أشهراً.

كما برزت الصفرية في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وظهرت الأباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعةً لنفوذها، وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة يجرد سيفه من القيروان في محاربة الخوارج عندما قامت الدولة العباسية.

إذ أن البربر قد تضايقوا كثيراً من القتال الذي جرى في إفريقية نتيجة الصراع القبيلي بين القيسية واليمانية، والحروب التي خاضها البربر ضد الرومان في صقلية وسردينيا ومع ذلك فإن القادة ليس منهم، ويجرّون إلى الصراع جرّاً، لذا فقد ذهب وفد منهم إلى دمشق لمقابلة الخليفة، وتوضيح ما يعانون، ولكنهم عادوا دون إمكانية مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، وما أن رجع وفدهم إلى بلادهم حتى بايع الخوارج أحد أعضاء الوفد وهو ميسرة الطغري وذلك عام ١٢١ فثار وزحف بمجموعه إلى طنجة فدخلها، وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي، وعيّن عليها عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، ثم توجّه إلى بلاد السوس فقتل إسماعيل بن عبيد الله بن

الحبحاب وتمت لميسرة الطغري السيطرة على بلاد المغرب الأقصى إذ ساعدته في ذلك القبائل التي تؤيده فقامت على من فيها من الأمراء وأزالتهم، وبايعت ميسرة.

أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشاً لقتال الصفرية بإمرة خالد بن أبي حبيب الفهري، كما استدعى جيش حبيب بن أبي عبيدة الفهري من صقلية، ووجهه أيضاً لقتال الخوارج. فانهزم ميسرة بالمعركة ورجع إلى طنجة، وهذا ما قللّ من هيبته، وقدّمت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتي.

سار خالد بن حميد الزناتي لملاقاة جيش خالد بن أبي حبيب الفهري، وعندما اقترب منه حصره بين قسمي جيشه فأباده في معركة الأشراف.

وأصبحت النقمة على عبيد الله بن الحبحاب كبيرة فاستدعاه الخليفة، وأرسل جيشاً بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ومعه بلج بن بشر خليفةً له، ومن بعدهما ثعلبة بن سلامة العاملي. والتقى هذا الجيش ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري بالخوارج في معركة عام١٢٣ قتل فيها كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وتمكّن بلج بن بشر من الفرار مع عشرة آلاف من جنده إلى طنجة، وعادت فلول الجيش الأموي إلى القيروان. وأصبح المغرب الأقصى والأوسط تحت نفوذ الخوارج من الصفرية. وغدا خالد بن حميد الزناتي سيد المغرب الأقصى، أما المغرب الأوسط ففيه عكاشة بن أيوب النغراوي، وعبد الواحد بن يزيد الهواري. وحين خرج كلثوم بن عياض القشيري إلى المغرب وترك المغرب الأدنى وراءه سار إلى قابس عبد الواحد بن يزيد الهواري فدخلها.

أما القيروان فكان عليها عامل كلثوم بن عياض وهو مسلمة بن سواده وقد سار لقتال عكاشة بن أيوب ولكنه هزم أمامه، واضطر إلى العودة مسرعاً لقاعدته في القيروان، وهذا ما جعل جنده يثورون عليه، ويولّون أمرهم سعيد بن بجرة الغساني الذي اعتصم بالقيروان.

سار سعيد بن بجرة عام ١٢٤ إلى قابس، وما أن خرج من القيروان حتى سار إليها عكاشة بن أيوب لكنه لم يتمكن من دخولها إذ صدّه عنها القيراونيون بإمرة عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وفرّ عكاشة بن أيوب إلى الصحراء، وحاول عكاشة، وعبد الواحد تنظيم الخوارج من الصفرية بالاستعانة بقبيلة زناتة التي كان مقدم الخوارج فيها أبو قرة.

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك والي مصر حنظلة بن صفوان على رأس جيشٍ كبيرٍ، وأعطاه ولاية إفريقية، وما أن وصل إلى القيروان حتى بعث بجيشٍ لمنازلة الخوارج في الزاب، وكان هذا الجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فانتصر على الخوارج، ولكنه قتل في معركةٍ ثانيةٍ. وفي الوقت نفسه قُتل عامل طرابلس معاوية بن صفوان على يد الصفرية أيضاً. ولم يبق من عقبةٍ أمام الصفرية سوى القيروان فسار إليها عكاشة بن أيوب، وعسكر بالقرب منها في منطقة القرن، كما سار عبد الواحد من تلمسان على رأس جيش، ومعه أبو قرة، وعسكر في الأصنام، وانتصر على جيش أرسله له حنظلة بن صفوان.

تحصّن حنظلة بالقيروان، وحفر خندقاً وعندما تيقّن من قوته تقدّم إلى عكاشة وهزمه في القرن عام ١٢٥، وأسره وقتله، كما هزم جيش عبد الواحد في الأصنام بعد انتصارٍ جزئي أحرزه.

سيطر عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على المنطقة، وأجبر حنظلة بن صفوان على مغادرتها، واضطر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على الاعتراف بولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية، وتمكّن من القضاء على حركات الخوارج من الصفرية إذ قضى على حركة عروة بن الوليد الصدفي في تونس، كما قمع كل حركة للخوارج.

ودالت دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس، والخوارج من الصفرية في مرحلة من الضعف، وعبد الرحمن بن حبيب هو صاحب الكلمة في إفريقية.

هذا بالنسبة إلى الصفرية أما بالنسبة إلى الأباضية من الخوارج فقد كان نشاطهم في المغرب الأدنى. وقام زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبي بثورة في منطقة طرابلس عام ١٢٦ غير أن عبد الرحمن بن حبيب قد تمكن من القبض عليه وقتله كما فتك بقبيلة هوارة التي تزعّمها الخارجي.

وقام عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي بحركةٍ عام ١٣٠، وحاصر طرابلس، ودخلاها، وقتلا عاملها، وهزما جيوش عبد الرحمن بن حبيب ثلاث مرات، وعندما قررا السير نحو القيروان اختلفا، وانشغل أحدهما بقتال الآخر، وهذا ما أضعف الأباضية، وفتّ في عضدها تماماً عام ١٣١هـ. ولكن لم يمنع هذا من قيام إسماعيل بن زياد النفوسي بثورةٍ عام ١٣٢ فاستولى على قابس، فأسرع إليه عبد الرحمن بن حبيب، وهزم الأباضية.

وهكذا فإن شأن الأباضية لم يكن بأفضل حالاً من الصفرية عندما قامت الدولة العباسية. ولكن مات عبد الرحمن بن حبيب، وحدث صراع بين أسرته، وشغلت الدولة العباسية بأحداثها فنشط الخوارج تارةً أخرى في أيام المنصور، وإن حدثت بعض الحوادث أيام السفاح، إذ خلف عبد الرحمن بن حبيب ابنه حبيب فنازعه عمه عبد الوارث الذي كان على صلة بالخارجي عاصم بن جميل ولكنه أظهر الولاء للعباسيين أو هكذا ظنّ الناس، ولكن حبيب تمكّن من هزيمة الخوارج هزيمة منكرة عام ١٣٥.

* * *

- ٢ -

المنصُور

عَبدالله بن محمّد

١٣٧ - ١٥٨هـ

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ٩٥هـ، فهو أكبر من أخيه أبي العباس بحوالي عشر سنوات، وأمه سلامة البربرية.

توفي والده محمد بن علي وقد جاوز المنصور الثلاثين، فقد التقى مع والده بكبار الرجال، كما عرف جده علي بن عبد الله الذي توفي عام ١١٨.

كان أسمر طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، معرّق الوجه، رحب الجبهة، أقنى الأنف. وكان فحل بني العباس هيبةً وشجاعةً، ورأياً وحزماً، ودهاءً وجبروتاً، وكان جمّاعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللعب، وحسن المشاركة في الفقه، والأدب والعلم، متديناً كثير الخير.

تولّى إمرة بليدة في فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، ثم عزله وضربه.

خرج على بني أمية مع أخيه السفاح، وعميه عبد الله بن علي، وعيسى بن علي عندما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فلما هزموا، توزعوا واختفوا، وسار المنصور مختفياً في الجزيرة، وتزوج بأم ولد، ثم رجع إلى الحميمة حتى انضم إلى ركب أخيه إلى الكوفة.

انتقل مع أخيه أبي العباس من الحميمة إلى الكوفة، ونزل معه في مخبئه، وخرج منه معه، وكان مستشاره، ومن دعائمه.

وتنكّر أبو العباس لأبي سلمة قبل ارتحاله من عسكره بالنخيلة، ثم

تحوّل عنه إلى المدينة الهاشمية، فنزل قصر الإمارة بها، وهو متنكّر له، وقد عُرف ذلك منه، وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه، وما كان همّ به من الغشّ، وما يتخوّف منه، فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين: إن كان اطلع على ذلك منه فليقتله؛ فقال داود بن علي لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فيحتج عليك بها أبو مسلم وأهل خراسان الذين معك، وحاله فيهم حاله؛ ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وأرسل له أخاه أبا جعفر الذي يقول: فخرجت على وجل؛ فلما انتهيت إلى الريّ، إذا صاحب الريّ قد أتاه كتاب أبي مسلم: إنه بلغني أن عبد الله بن محمد توجّه إليك، فإذا قدم فأشخصه ساعة قدومه عليك. فلما قدمت أتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبي مسلم، وأمرني بالرحيل، فازددت وجلاً، وخرجت من الريّ وأنا حذر خائف فسرت؛ فلما كنت بنيسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبي مسلم: إذا قدم عليك عبد الله بن محمد فأشخصه ولا تدعه يقيم، فإن أرضك أرض خوارج ولا آمن عليه. فطابت نفسي وقلت: أراه يُعنى بأمري. فسرت فلما كنت من مرو على فرسخين، تلقّاني أبو مسلم في الناس، فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ؛ حتى قبّل يدي، فقلت: اركب، فركب فدخل مرو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرّار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته؛ وانته في ذلك إلى رأي الإمام.

وصل مرّار إلى الكوفة، وقدم على أبي العباس في المدينة الهاشمية، وأعلمه سبب قدومه، فأمر أبو العباس منادياً فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة، ودعاه، وكساه. وجاء أبو سلمة بعد ذلك ليلةً إلى أبي العباس، وسهر عنده حتى ذهب عامة الليل، ثم خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده، فعرض له مرّار بن أنس الضبّي ومن كان معه من أعوانه فقتلوه، وأغلقت أبواب المدينة، وقالوا: قتل الخوارج أبا سلمة.

يبدو أن أبا مسلم كان حذراً جداً فخشي أن يلتقي أبو جعفر بالناس أثناء قدومه إليه فيفسد عليه ولايته، لذا رغب ألا يمكث في بلدٍ أبداً، ولاحظ في كتابه الأول إلى صاحب الري بعض عدم الحذر فأراد أن يجليه بالكتاب الآخر الذي بعثه إلى صاحب نيسابور، وعندما وصل أبو جعفر إلى مرو اصطنع أبو مسلم المحبة والاحترام الزائد والتقدير لأبي جعفر، كما رغب أن يبقى سرّه بينه وبين نفسه، لذا لا مانع عنده من أن يتخلّص من كل الدعاة السابقين، ومن لهم شأن سابق ليبقى وحيداً في أمره، وانتهى من أبي سلمة كبير الدعاة فحقق ما يريده العباسيون، وحقق ما تطمح إليه نفسه. أما أبو جعفر فيبدو حذره واضحاً مذ كُلّف بالرحلة إلى مرو حيث كان وجلاً خائفاً منها.

ويزداد الأمر وضوحاً في الرحلة الثانية التي سار بها أبو جعفر إلى خراسان، فبعد أن قُتل أبو سلمة أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مسلم، فلما وصل أبو جعفر إلى مرو مشى معه عبيد الله بن الحسين الأعرج، وسليمان بن كثير، فقال سليمان بن كثير للأعرج: يا هذا، إنا كنا نرجو أن يتمّ أمركم فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ الأعرج أنه دسيس من أبي مسلم، فخاف ذلك. وبلغ أبا مسلم مسايرة سليمان بن كثير إياه، وأتى عبيد الله أبا مسلم، فذكر له ما قال سليمان، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اغتاله - إذ كانوا يخشون أبا مسلم خشيةً كبيرةً - فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير، فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، فقال: إني قد اتهمتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غشّ الإمام؛ فأمر بضرب عنقه. ووصل الخبر إلى أبي جعفر فغضب غضباً شديداً، ولكنه كظم غيظه، فسليمان بن كثير الخزاعي أحد نقباء الدعوة، وشيخهم، وكان كلما جاء داعية إلى خراسان يُطلب منه أن يسمع ويُطيع لسليمان هذا، ومنهم أبو مسلم نفسه. ورجع أبو جعفر إلى الكوفة، فقال لأبي العباس: لست خليفةً ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد، قال أبو

العباس: اسكت فاكتمها. وأصبح أبو جعفر لا يطيق أبا مسلم ويرى أنه الشبح الذي يهدد العباسيين ولا يمكن مخالفة أمره في خراسان للفزع الذي نشره بين الناس، والأسلوب الذي اتبعه في نقل الأخبار إليه، والقتل المباشر لأدنى شك. ثم تقريب عناصر الإجرام إليه، واستخدامهم أداةً لتنفيذ ما يريد. وكان أبو مسلم كلما قتل أحداً اتهمه بغشّه للإمام وذلك من أجل أن يُرضي العباسيين ويظهر تأييده البارد لهم، وأنه يعمل لهم، وفي الواقع أنه كان يُخطط لمصلحة يراها، ويكتم أمرها.

وعندما عاد أبو جعفر إلى الكوفة أرسله أبو العباس إلى واسط لمحاصرة ابن هبيرة فيها وبعد حصار استمر ما يقرب من أحد عشر شهراً، وصل خبر مقتل مروان بن محمد إلى ابن هبيرة فطلب وقتها الأمان والصلح، وجرت الرسل بين الطرفين، وتمّ الأمر، وخرج ابن هبيرة، وكان يسمر عند أبي جعفر، ويرى أبو جعفر المحافظة على العهد والوفاء بالأمان لابن هبيرة، إلا أن أبا العباس قد استشار أبا مسلم، فقال له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد؛ والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة، ولكن أبا جعفر راجعه، وراجعه، وأبو العباس يلحّ حتى قال له أخيراً: والله لتقتلنّه أو لأُرسلن إليه من يخرجه من حجرتك، ثم يتولى قتله، فأزمع قتله، ونفذ ذلك.

كان أبو جعفر يرى أن استرضاء القادة الذين كانوا دعامة بني أمية قوةً للعباسيين، أما أبو مسلم فيرى في وجود قادةٍ بارزين في صفوف العباسيين إضعافاً لمركزه، لذا كان يرى التخلص منهم كي لا يفسدوا عليه الطريق السهلة التي يراها، وعبّر عنها بجوابه لأبي العباس. وهكذا زادت نقمة أبي جعفر على أبي مسلم.

وما انتهى أمر واسط وابن هبيرة حتى أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر أميراً على الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، وبقي أميرها حتى استخلف.

ولما بايع أبو العباس لأخيه أبي جعفر من بعده بعثه إلى أبي مسلم وكان بنيسابور كي يأخذ البيعة منه ومن أهل خراسان، وكأن أبا العباس كان يحب أن تزول الغمة بين أخيه وأبي مسلم بالصلة والزيارة ولكن ذلك ما كان إلا ليزيدها، وما من تصرف إلا ويُؤول، إذ أن النفوس غير صافية بعضها لبعض ووصل أبو جعفر إلى نيسابور فاستقبله أبو مسلم، واستخفّ به، إذ وجد في استخلافه عقبةً كأداء في وجه مشروعاته، وما يخُطط له. وبقي عدة أيام أبو جعفر في نيسابور حتى فرغ من البيعة، ولما عاد أخبر أبا العباس بما كان من استخفاف أبي مسلم به.

وفي عام ١٣٦ استخلف أبو جعفر على عمله في الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان مقاتل بن حكيم العكّي، وقدم على أبي العباس واستأذنه بالحج، فإذن له، واستعمله على الحج. ولم يلبث أن كتب أبو مسلم لأبي العباس يستأذنه في القدوم عليه، فأجابه إلى ذلك، فقدم في جماعةٍ عظيمةٍ من أهل خراسان، فأمر أبو العباس الناس باستقباله فاستقبلوه، وأكرمه أبو العباس، وأنزله قريباً منه، ثم استأذنه بالحج فقال له: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم.

واستغلّ أبو جعفر وجود أبي مسلم بالأنبار فقال لأبي العباس: يا أمير المؤمنين أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة، فقال: يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه، فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنّوراً لقام مقامه. وبلغ ما بلغ في هذه الدولة.... فوافق أبو العباس ثم تراجع عن ذلك.

وسار أبو جعفر إلى الحج كما سار أبو مسلم، وانتهى الموسم. وكان أبو مسلم يعطي الأعطيات، ويمنح الهبات، ويحفر الآبار، ويتقرب إلى الناس، ولم يكن أبو جعفر كذلك فزاد غضب المنصور من تصرف أبي مسلم، وتحببه للناس.

وتوفي أبو العباس فأخذ البيعة للمنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إلى عمه بذلك، وقام بأمر الناس. ووصل الخبر إلى المنصور وهو

في الطريق، فبايعه أبو مسلم ومن معه، وتابع سيره حتى أتى الكوفة، فصلى الجمعة فيها، وخطب أهلها، وأعلمهم أنه راحل إلى الأنبار.

وقيل: إن خبر موت أبي العباس قد وصل إلى أبي مسلم قبل وصوله إلى أبي جعفر فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. عافاك الله وأمتع بك. إنه أتاني خبر أفظعني وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط، لقيني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين - رحمه الله - فنسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه؛ إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرك مني. وبعد يوم أو يومين بعث بالبيعة إليه. ويبدو أنه أراد المداهنة قبل أن ينتقم منه المنصور.

* * *

خلافته

وصل أبو جعفر إلى الأنبار فوجد العراق أمر منتهياً من حيث البيعة، وقد أخذها له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأرسل الرسل لأخذها، وتسلّم له الأمر، فلما وصل إلى مقره سلّمه المقاليد. وبدأت المشكلات للمنصور تتوالى فأخذها بالحكمة والحزم.

كان عيسى بن موسى قد أرسل إلى عبد الله بن علي بخبر وفاة أبي العباس، وطلب منه البيعة لأبي جعفر، وكان عبد الله بن علي في طريقه إلى الروم، فلما جاءه الخبر، نادى الصلاة جامعة فاجتمع إليه القادة والجند فقرأ عليهم كتاب أبي العباس، وقال لهم: إن أبا العباس لما أراد أن يرسل إلى حرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قال: من يسير إليه وهو ولي عهدي. فتقدّمت ولم يرسل غيري، فكنت ولي عهده، وأنا من بعده، والآن قد رحل فأنا الخليفة من بعده، وشهد بعض القادة على ذلك. فبايعه من معه وسار بها إلى حران، ودعا مقاتل بن حكيم العكّي إلى البيعة فلم يجبه فحاصره مدة دخل بعدها حرّان وقتله، ثم تحصّن بها، وأخذ استعداداته.

يرى عبد الله بن علي أنه الخليفة الطبيعي فهو الذي قد دكّ صرح الدولة الأموية، وثبّت دعائم البيت العباسي، وإذا كان أبو العباس قد تولّى الخلافة بالعهد من أخيه إبراهيم إلا أنه هو الآن أحقّ الناس بالأمر، وإذا كان إخوته جميعهم أكبر منه باستثناء عبد الصمد(1) إلا أنهم دونه في

---

(1) إخوة عبد الله بن علي:

١ ـ محمد بن علي: ٦٢ ـ ١٢٥هـ.

٢ ـ داود بن علي: ٨١ ـ ١٣٣هـ.

=

المؤهلات كما لم يقوموا بالدور الذي قام به، كما أن أخاه عبد الصمد هو بجانبه ويرى رأيه. وإذا كان ابن أخيه أبو جعفر أكبر منه سناً إلا أنه لم يقم بأي دورٍ يؤهله باستلام الأمر ـ حسب رأيه ـ.

أما أبو جعفر فرأى أن يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه. وأبو مسلم يرهبه الجند، ويخافونه فقد ذاع صيته، وعرفت مقدرته، ثم يطيعه الخراسانيون، ويستمع له القادة وإن من لم يسمع له، ينتهي بطريقة أو بأخرى.

استخلف أبو مسلم خالد بن إبراهيم على خراسان، وسار إلى الأنبار حيث تلقى التعليمات من الخليفة: ومنها انطلق نحو حرّان، ومعه من القادة، الحسن بن قحطبة، وحمد بن قحطبة وكان قد فارق عبد الله بن علي وفرّ منه بعد أن أراد عبد الله قتله، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وخازم بن خزيمة. وكان الحسن بن قحطبة خليفة أبي جعفر على أرمينيا فكتب إليه أن يلحق أبا مسلم فوافاه في الموصل.

كان عبد الله بن علي يعتمد على قوته وجرأته، وشجاعة أخيه عبد الصمد، وقوة أهل الشام. ويعتمد أبو مسلم على طاعة جنده وتفانيهم، ودهائه، وخططه التي يستعملها في القتال. ولكنه كان يخشى الخليفة فهو ابن أخي عبد الله بن علي، فإن تمكّن من عبد الله بن علي أخذ الخليفة ثأره منه، وإن هُزم قتل فالموت في كلا الحالين. ويبدو أن عبد الله بن علي أخذه الخوف فطاشت حكمته إذ خاف ممن معه من أهل خراسان في الجيش فقتل عدداً منهم الأمر الذي أفقده ثقة جنده، ووصل الخبر إلى أبي

= ٣ ـ عيسى بن علي: ٨٣ ـ ١٦٤هـ.
٤ ـ سليمان بن علي: ٨٢ ـ ١٤١هـ.
٥ ـ إسماعيل بن علي: ٨٥ ـ ١٦٦هـ.
٦ ـ صالح بن علي: ٩٦ ـ ١٥١هـ.
٧ ـ عبد الصمد بن علي: ١٠٤ ـ ١٨٥هـ.
٨ ـ عبد الله بن علي: ١٠٣ ـ ١٤٧هـ.

مسلم فاتخذ حكمته، إذ دبّت الحماسة في جنده من أهل خراسان، واقتنعوا بأنهم إن استسلموا كان القتل مصيرهم، وفي الوقت نفسه أعلن لعبد الله بن علي وأخبر جنده أنه لم يأت لقتال عبد الله بن علي وإنما جاء والياً على الشام، وهذا ما جعل جنود الشام يخافون منه على أهلهم ما داموا جنداً مع عبد الله بن علي لذا رأوا السير إلى الشام، وأجبروا عبد الله بن علي على ذلك، فلما سار حلّ أبو مسلم مكانه، وكان قريباً منه، فلما عاد وجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره، فنزل موضعه، واشتبك الطرفان في معارك زادت على خمسة أشهر، وكان التفوق لأهل الشام إلا أن تدبير المعركة قد جعلت الهزيمة تحلّ بعبد الله بن علي في جمادى الآخرة وفرّ إلى العراق، ومضى إلى البصرة فأمنه أخوه سليمان بن علي، أما عبد الصمد بن علي فقد نزل الكوفة وأمنه ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد. وبعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يحصي ما أصابه أبو مسلم من معسكر عبد الله بن علي فغضب أبو مسلم كثيراً فأمّن الناس ولم يقتل أحداً. ولما وصل إليه أبو الخصيب أراد أن يقتله فتكلم فيه إذ قيل إنه رسول فخلّى سبيله وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال، وشتم المنصور، فرجع أبو الخصيب إلى المنصور فأخبره.

أصبح الخلاف واضحاً بين المنصور وأبي مسلم، وبعد الانتهاء من حركة عبد الله بن علي أصبح أبو مسلم الرجل القوي الوحيد في الدولة، ولكن لا يريد أن تطاله يد المنصور، كما أن المنصور قد أصبح يخافه ولا يريد أن يعود إلى خراسان فإن سار إليها واعتصم فإنه يزعج الدولة، ويمكنه أن يقوم بعمل تتجزأ به الدولة، أو يعصف بها أو بخليفتها، ويريد لذلك أن يتخذ الروية والحكمة في تصرفه معه ليصيده قبل أن يفلت منه لذا كتب إليه «إني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجّه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب»[1]. فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يوليني الشام ومصر، وخراسان

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الرابع.

لي. فكتب الرسول إلى المنصور بذلك، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف، وخرج عن وجهه يريد خراسان، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه ـ كأن المنصور قد تنازل وسار شوطاً نحو أبي مسلم ليسير هو الآخر شوطاً، وقد يكون هذا السير تهديداً بأنه إن لم يأت إليه فإنه عازم على الحيلولة دون توجهه إلى خراسان ـ. فكتب إليه أبو مسلم ـ وهو بالزاب ـ: «إنه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي». وكذلك كتاب أبي مسلم فيه إظهار الطاعة وفي الوقت نفسه فيه التهديد على تنفيذ ما يريد وهو السير إلى خراسان إن صمم المنصور فرض رأيه، بل مستعد لنقض البيعة. ولما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم «قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتك في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمعاً ولا طاعة، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك؟.

ثم زادت قسوة الرسائل والكتب، وأصبحت تظهر ما تخفيه النفوس، فكتب أبو مسلم لأبي جعفر «أما بعد فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل

قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلّى بغرور. وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يحملكم، ثم استنقذني الله بالتوبة فإن يعف عني فقديماً عُرف به ونُسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما ربك بظلامٍ للعبيد».

وكتب أبو جعفر لأبي مسلم: «أما بعد فإنه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصي، فَعِ أيها الطائش، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها النائم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، في برزخ دنيا كانت قد غرّت من كان قبلك، وسم بها سوالف القرون (هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً)، وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلاً مهلاً، احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلّى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفهم، واحذر أن تكون سنةً في الذين قد خلوا من قبلك، ومثلةً لمن يأتي بعدك، فقد قامت الحجة، وأعذرت إليك، وإلى أهل طاعتي فيك. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾».

فأجابه أبو مسلم: «أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً، وعن الحق حائداً، إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها، وكتبت إلي فيه آيات منزلة للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإنني والله ما انسلخت من آيات الله، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما، فكنت لهما شيعةً متديناً أحسبني هادياً مهتدياً، وأخطأت في التأويل، وقديماً أخطأ المتأولون، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

﴿وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٤﴾، وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي، وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة، وأقدم بالشبهة، وأرفع الرحمة، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا بطاعتكم، وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم. ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم، واستنقذني بالتوبة، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً، وإن يعاقبني فبذنوبي، وما ربك بظلام للعبيد».

وكتب أبو جعفر إلى أبي مسلم: «أما بعد، أيها المجرم العاصي فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بيّنة من ربه، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج السديد، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً، ولأغواهما راكباً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال، وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته أن يقيم بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجه للقائك أقرانك، فأجمع كيدك، وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه ونعم الوكيل».

ومع هذه القسوة في المراسلات إلا أن أبا جعفر قد اتخذ بجانبها الحنكة السياسية فيعد الأمراء ويظهر للرسل تقديره لأبي مسلم حتى حسّنوا له القدوم على الخليفة، سوى نيزك، وهو أمير أشار على أبي مسلم أن يقتل أبا جعفر ويستخلف غيره.

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء، وأمره أن يُكلّم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه، وأن يكون في جملة ما يكلمه به أنه يريد رفع قدرك، وعلو منزلتك، والاطلاقات لك، فإن جاء بهذا فذاك، فإن أبى، فقل: هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو

يموت قبل ذلك، ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن. فلما قدم عليه أمراء المنصور بـ (حلوان) دخلوا عليه ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين، وما هو فيه من مخالفته، ورغّبوه في الرجوع إلى الطاعة، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه، وجنوده طوعاً له فإن استقام له الخليفة، وإلا كان في عزٍّ ومنعة من الجند. فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به. فلما سمع ذلك كسره جداً وقال: قوموا عني الساعة.

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهم: إن ولاية خراسان لك ما بقيت، وقد وليتكها وعزلت عنها أبا مسلم. فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة: إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام. فزاده ذلك كسراً أيضاً. فبعث إليهم أبو مسلم: إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به. فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو ردّه. فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتهم معظمين لك عارفين قدرك، فغرّه ذلك، وعزم على الذهاب إلى الخليفة، فاستشار أميراً يقال له نيزك، فنهاه، فصمم على الذهاب، فلما رآه نيزك، عازماً على الذهاب تمثّل بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له: احفظ عني واحدة. قال: وما هي؟ قال: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه. قال أبو أيوب كاتب الرسائل: فدخلت على المنصور وهو جالس في خباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر، وبين يديه كتاب فألقاه إلي فإذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه، ثم

قال الخليفة: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه. قال أبو أيوب؛ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وبتّ تلك الليلة لا يأتيني نوم، أفكر في هذه الواقعة، وقلت: إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شرّ إلى الخليفة، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة. فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له: هل لك أن تتولى مدينة «كسكر» فإنّها مغلّة في هذه السنة؟ فقال: ومن لي بذلك؟ فقلت له فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه. واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له، وقال له: سلّم عليه وقل له: إنا بالأشواق إليه. فسار إليه ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن فلان ـ إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسرّه ذلك وانشرح، وإنما هو غرور ومكر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقّوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤجّل قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم، ثم قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني. فخرج من عنده فجاء الناس يسلمون عليه، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها، قال: فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أقتله. ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرّضهم على قتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى يتبع بعضها بعضاً، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة فيعتذر عن ذلك كله[1]. ثم قال له: فلِمَ قتلت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء العاشر.

سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور، وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني، وصفق بيديه، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولفوه في عباءة[1]. وكان قتله في أواخر شعبان من عام ١٣٧هـ.

ثم إن المنصور شرع في تأليف قلوب أصحاب أبي مسلم بالأعطيات، والترغيب والترهيب، والولايات، ووفّى لأبي داود إبراهيم بن خالد بولاية خراسان إذ أبقاه عليها.

ولم يكن أبو مسلم زنديقاً كما رماه بعضهم، ولكن يظهر أنه كان يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية ـ والله أعلم بأمره ـ. وقد روي أن عبد الله بن المبارك قد سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه. وربما كان اتهامه ادعاء حركات الزندقة بعده بصلتها به استغلالاً لاسمه وجنسه.

كان أبو مسلم يقتل لأقلّ إشارة أو شكٍ في عدم الطاعة، أو تنفيذ الأمر، ولذا كان الناس جميعاً يخشونه، وربما كان أصدقاؤه أكثر الناس خوفاً منه نتيجة صلتهم به فأي تصرفٍ ربما يُفسّره بما يخطر على باله فتكون العاقبة القتل، وقد يكون قواده وخاصة أتباعه أكثر الناس راحةً واطمئناناً بعد قتله، حيث كانوا على خوفٍ دائمٍ، ولذا كانوا يكثرون التملق له، ويزاود في إظهار الطاعة أصدقاؤه وأعداؤه على حدٍ سواء. ومن هنا كان قبضه على ناصية الأمر في خراسان، فالجميع يريدون الخدمة، ويتبارون في إلقاء أنفسهم أمامه لتنفيذ ما يشير إليه. تطال يده القاصي والداني، والصديق والعدو، والقريب والغريب.

---

(١) المصدر السابق.

ويقال: إن المنصور قد استدعى رؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله، فكلهم يشير بقتله، ومنهم من كان إذا تكلّم أسرّ كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا يُنقل إليه، فلما أطلعهم على قتله أفزعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً.

ويقال: إنه لما عزم على قتل أبي مسلم أنشد:

إذا كنت ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يوماً لغدرةٍ وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكتنفتك خلات ثلاث جلبن عليك محتوم الحمام
خلافك وامتناعك من يميني وقودك للجماهير العظام

ومن شعره أيضاً:

المرء يأمل أن يعيـ ـش وطول عمرٍ قد يضرّه
تبلى بشاشته ويبـ ـقى بعد حلو العيش مرّه
وتخونه الأيام حتـ ـى لا يرى شيئاً يسرّه
كم شامتٍ بي إن هلكـ ـت وقائلٍ لله درّه[1]

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٤ استخلف على الحيرة والعساكر القائد خازم بن خزيمة، ولما وصل أبو جعفر إلى المدينة استقبله الناس، ومنهم عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فسأله عن ولديه محمد وإبراهيم فحلف له بأنه لا يعرف مكانهما. وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان من جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً.

وذلك لأن المنصور توهّم منهما أنّهما لا بدّ أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان، والذي توهّم منه المنصور وقع فيه، فذهبا هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند فاختفيا بها، فدُلّ على مكانهما فهربا إلى موضع آخر و.... ولم يستطع المنصور العثور عليهما.

وألحّ المنصور على والدهما في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما، فغضب المنصور، وأمر بسجنه، كما أمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بسجن بني حسن عن آخرهم فحبسهم.

وجدّ المنصور في طلب محمد وإبراهيم جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما أحد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولّي عليها غيره ويحرّضه على إمساكهما والتفتيش عنهما، وبذل الأموال في طلبهما... ولكن دون جدوى.

وقد عزم أتباعهما على الفتك بالمنصور في بعض السنوات بين الصفا والمروة إلا أن عبد الله بن حسن قد نهاهما لشرف البقعة، وقد اطلع المنصور على ذلك من بعض أمرائه وهو أبو العساكر خالد بن حسّان إذ كان من أتباع محمد بن عبد الله بن حسن، ومن الذين كانوا يريدون الفتك بالمنصور، إذ عذّبه المنصور حتى أقرّ بما كانوا قرروه. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك.

وجاء محمد بن عبد الله إلى أمه فقال: يا أمه! إني قد شفقت على أبي وعمومتي، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي، فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا ولا كرامة،

بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر، وفرجنا بيد الله إن شاء فرّج عنا، وإن شاء ضيّق. واتفقوا كلهم على ذلك.

ونقل المنصور آل حسن من سجن المدينة إلى سجن العراق، كما نقل معهم محمد بن عبد الله العثماني[1]، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجةً لإبراهيم بن عبد الله بن حسن. وقد هلك أكثرهم بالسجن، وخرج من بقي منهم بعد وفاة المنصور.

ضاق محمد بن عبد الله ذرعاً بوضعه، وأضرّ به شدة الاختفاء، وإلحاح نائب المدينة في طلبه، وتأنيب أهل المدينة له في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج في آخر يوم من جمادى الآخرة إذ سار مع مائتين وخمسين من أتباعه فمر على السجن فأخرج من فيه، وانطلق إلى دار الإمارة فدخلها، وقبض على أميرها رياح بن عثمان المزني فسجنه، ودانت له المدينة، وولى على الناس عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى القضاء عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى الشرطة عثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

ووصل الخبر إلى المنصور فندب له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة وله الأمان. وسار عيسى بن موسى بعشرة آلاف فارس ومعهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة، وجعفر بن حنظلة.

وأرسل محمد بن عبد الله إلى مكة المكرمة الحسن بن معاوية فدخلها، وهزم السري بن عبد الله صاحب مكة. كما بعث برجال إلى أهل الشام ليأخذوا له البيعة من رجالها، فمنهم من أجاب، ومنهم من امتنع وقد انهكت الحرب البلد، ومنهم من قال: خرج محمد بن عبد الله في المدينة وليس فيها مال يستعين به على استخدام الرجال.

---

(١) محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، أبو عبد الله: أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب.

تحصّن محمد بن عبد الله بالمدينة وحفر خندقاً حولها، ووصل إليها عيسى بن موسى فدعا محمد ثلاثة أيام إلى الطاعة فردّه وخذّل عيسى عن محمد أصحابه بإعطائهم الأمان، وأن هدفه هو أخذ محمد إلى العراق إلى الخليفة وحده، فانفرط عقد أهل المدينة وتفرّق عن محمد كثير من أصحابه وخاصةً بعد أن قال لهم: إن جعلتكم في حلٍّ من بيعتي، فمن أحبّ منكم أن يُقيم عليها فعل، ومن أحبّ أن يتركها فعل، فتسلّل أكثرهم، ولم يبق معه إلا قلة منهم.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس من جيشه نزلوا على طريق مكة كي لا يتمكن محمد بن عبد الله من الهرب إلى مكة، واستمرت الرسل بين الطرفين ثلاثة أيام في بداية العشر الثاني من شهر رمضان من العام نفسه. فلما كان اليوم الثالث تضافّ الطرفان، وكان مع عيسى بن موسى أكثر من أربعة آلاف، ولم يزد أصحاب محمد على الثلاثمائة إلا قليلاً. واقتتل الفريقان، وترجّل محمد إلى الأرض وقاتل قتالاً شديداً فقضى على أكثر من سبعين رجلاً من أصحاب عيسى، وأحاط بأصحابه جيش العراق فقتلوا الكثير، واقتحموا الخندق، ولم تزل الحرب حتى صلى الناس العصر، وبعد الصلاة حميت الحرب، وتغلبت الكثرة، وفرّ عدد من أتباع محمد وبقي في قلةٍ تناقصت تدريجياً حتى بقي وحده، وما تقدّم إليه أحد إلا هلك حتى تكاثر عليه القوم، وضربه رجل بسيف فسقط على ركبتيه يحمي نفسه، ثم تقدم إلى حميد بن قحطبة وقد أثخنته الجراح وعجز عن المقاومة فحزَّ رأسه، وأرسله إلى المنصور، ودفن الجثة بالبقيع. أما عيسى بن موسى فقد اتجه إلى مكة وعليها الحسن بن معاوية من قبل محمد بن عبد الله، وكان قادماً إلى المدينة نجدةً له، فلما بلغه مقتله فرّ إلى البصرة حيث قد خرج فيها إبراهيم بن عبد الله. ودخل عيسى بن موسى مكة، وقد أناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً، ثم بعث المنصور لها عبد الله بن الربيع فعاث جنده في المدينة فساداً فثار عليه السودان ففرّ من وجههم بعد أن قتلوا عدداً من جنده ثم رجع إليهم فهزموه

فانهزم منهم، وخاف أهل المدينة مغبة ذلك فكفّوا مواليهم وفرّقوهم، وعاد عبد الله بن الربيع فنكّل برؤوس السودان.

ووصل إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة متخفياً بعد أن اتفق وأخوه على الخروج في وقتٍ واحد. وكان وصوله إليها عام ١٤٣، واختبأ بها، ثم خرج وبايعه الناس، وقد دعا لأخيه محمد، وكان عامل البصرة للمنصور هو (سفيان بن معاوية)، وكان يؤيد إبراهيم ضمناً، وبدأت أعداد تفد إلى البصرة لمبايعة إبراهيم، والمنصور يرسل من يكمن لهم بالطريق ويقتلهم، وخرج إبراهيم في غرة شهر رمضان، وحاصر الأمير سفيان بن معاوية، فطلب منه الأمان، فأمنه وسجنه مقيداً، وأراد بذلك أن يبرئ ساحته عند الخليفة، كما انتصر على جعفر، ومحمد ابني سليمان بن علي عم المنصور، وأرسل إلى الأهواز الرسل فبايعه أهلها، ودخلوا في طاعته، ثم أخذها من محمد بن الحصين بعد انتصاره عليه، كما أخذ فارس، والمدائن، وواسط، والسواد كافةً، وبلغه قتل أخيه محمد الذي لم يستمر في حركته أكثر من ٧٤ يوماً (١ رجب ـ ١٤ رمضان)، ونعى إلى الناس أخاه في يوم العيد، وهذا ما جعل الناس يزداد حقدهم على المنصور، لكنه في الوقت نفسه داخلهم شيء كبير من الخوف والجبن، إذ أيقنوا بالهزيمة.

كانت جنود الخليفة متفرقةً بعضها في إفريقية مع محمد بن الأشعث، وبعضها الآخر في الحجاز مع عيسى بن موسى، وبعضها في الري أرسلها مع ابنه محمد المهدي، وليس عنده سوى ألفي فارس وأهل الكوفة ينتظرون به الدائرة لينضموا إلى إبراهيم، فبعث إلى ابن أخيه عيسى بن موسى أن أقبل بمن معك، وبعث إلى ابنه أن أرسل خازم بن خزيمة إلى الأهواز ليخلّصها من إبراهيم، وقد تمكّن فعلاً من الانتصار على المغيرة عامل إبراهيم عليها. كما بعث إلى كل مدينةٍ خرجت عن طاعته قوةً تردّها.

عسكر إبراهيم خارج البصرة وجعل عليها نملة بن مرة ومعه ابنه

حسن بن إبراهيم. ثم سار هو باتجاه الكوفة، ونزل في (باخمرى)[1] وجاءه عيسى بن موسى في خمسة عشرة ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وكان جيش إبراهيم عظيماً إلا أن الآراء قد اختلفت فيه فمنهم من يرى الذهاب إلى الكوفة من خلف جيشها بطائفة من أهل البصرة والنيل من الخليفة وتسلم الأمر، ومنهم من يرى حفر خندقٍ، ومنهم يرى مباغتة عيسى بن موسى، ومنهم من يرى الكراريس وآخر الصفوف و.....

وتصافّ العسكران في (باخمرى)، ونشب القتال، وهزمت مقدمة عيسى بن موسى بإمرة حميد بن قحطبة وفلّوا منهزمين، وثبت عيسى بن موسى في مائة من أصحابه، وحجز الفارين نهر فعادوا، وعاد القتال من جديد فهزم جيش إبراهيم وثبت هو في خمسمائة من أتباعه، ثم قتل إبراهيم مع من قتل، وكان ذلك في ٢٥ من شهر ذي الحجة من عام١٤٥ أي أن أمره قد دام مائة وخمسة عشر يوماً (١ رمضان ـ ٢٥ ذي الحجة)، وكانت دعوته في بداية الأمر لأخيه محمد فلما جاءه نبأ مقتله دعا لنفسه.

وعندما علم المنصور بخبر مقتل إبراهيم بكى بكاءً مُرّاً، والواقع أن المنصور قد أخطأ إذ أساء التصرف مع عبد الله بن حسن حتى أحرجه فأخرج ولديه محمداً وإبراهيم، وكان مع آل حسن جباراً قاسياً، ولكنه الملك، ولا بدّ برأيه من المحافظة عليه، واللين فيه يخرجه من يديه، والقسوة تثبته، فقبح الله الدنيا وزخرفها وغرورها.

وبنى مدينة بغداد، وسكنها في صفر من عام ١٤٦ حيث تمّ البناء، وكان سورها دائرياً، وعرضه خمسون ذراعاً في أسفله، وعشرون في أعلاه، وله ثمانية أبواب، وكذا السور الداخلي، إلا أن الأبواب الداخلية والخارجية غير متقابلة: ونقل الأبواب من مدينة واسط، كما حاول نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد. كما بنى سوراً لمدينة الكوفة، وأنشأ مدينة الرافقة، ووسع المسجد الحرام عام ١٣٩.

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٧، استخلف على الكوفة ولي عهده ابن

---

(١) باخمرى: موضع بين واسط والكوفة، وهو إلى الكوفة أقرب، وفيه قبر إبراهيم.

أخيه عيسى بن موسى، وطلب منه قتل عمه عبد الله بن علي، فحُذّر عيسى مغبة ذلك، ونُصح بألاّ يفعل، خوفاً من مطالبة المنصور له بدمه، ففعل وخبأه، ولم يقتله خوفاً من القصاص منه، ولما عاد أبو جعفر طالبه بدمه، وأراد قتله، فأحضره عندئذٍ، فسجن المنصور عمه عبد الله، ثم لم يلبث أن مات في السجن، واختلف في موته أكان قتلاً أم موتاً، أم تهدّم السجن عليه. كما خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولّى مكانه ابنه محمد المهدي، وبعد مدةٍ عاد فرضي عن ابن أخيه وجعله ولياً للعهد بعد ابنه.

وذهب للحج عام ١٥٨، وما أن جاوز الكوفة حتى أحسّ بالمرض، الذي اشتد عليه فتوفي في مكة في ٧ ذي الحجة.

تزوج أبو جعفر أروى بنت منصور فولدت له محمداً (المهدي) وجعفر الأكبر، كما تزوج فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله فولدت له عيسى، ويعقوب، وسليمان، وتزوج امرأةً أمويةً أنجبت له فتاةً اسمها العالية، وله جعفر الأصغر من أمّ ولدٍ كرديةٍ، وصالح المسكين من أمّ ولدٍ روميةٍ، والقاسم من أمّ ولدٍ أيضاً. وتوفي ابنه جعفر الأكبر في حياة أبيه.

وحاول أبو جعفر تولية أبي حنيفة النعمان[1] القضاء فأبى.

كان المنصور في أول النهار يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات، والعزل، والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل المنزل واستراح إلى العصر، فإذا صلاّها جلس لأهل بيته، ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه[2].

---

(١) النعمان بن ثابت: تيمي بالولاء، ولد بالكوفة عام ٨٠هـ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، رفض القضاء أيام عمر بن هبيرة، وكذا رفضه أيام المنصور فسجنه ومات في السجن عام ١٥٠ ببغداد. وهو أحد الأئمة الأربعة في الفقه.

(٢) البداية والنهاية.

الفتوحات

توقفت الفتوحات الواسعة في عهد بني أمية منذ أواخر عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلا أن أعمال الغزو قد بقيت مستمرةً لم تنقطع الصوائف والشواتي عن بلاد الروم الذين بقيت دولتهم قائمة، وإن خرجت من المناطق التي كانت تسيطر عليها في بلاد الشام، وشمالي إفريقية، والأندلس، كما انسحبت من الأجزاء الشرقية من بلاد الأناضول، ودام هذا مدة أيام هشام بن عبد الملك، ثم شُغل الأمويون بأنفسهم، وتضعضعت دولتهم، فتوقفت حتى أعمال الغزو.

وشُغلت الدولة العباسية يوم قامت بتوطيد دعائمها، ويوم رأى أبو العباس أن الأمر قد استقر له أرسل الصوائف إلى بلاد الروم مستأنفاً بذلك الغزو، ومظهراً عودة القوة، وفي الوقت نفسه يريد أن يردع ملك الروم الذي استغل انشغال الدولة وقام بالهجوم على بعض الثغور، وعندما تولّى الأمر المنصور شغل في أول عهده بأحداث عمه عبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، وسنباذ، وهذا ما جعل قسطنطين ملك الروم يدخل ملاطية عنوةً، ويهدم سورها، وإن كان قد عفا عن مقاتليها إلا أنه تقدم في بلاد المسلمين. فلما استقر الوضع للمنصور بعد عام تقريباً من استلامه زمام الأمر، أمر عمه صالح بن علي أن يسير على رأس صائفةٍ فاسترجع ملاطية، وأعاد ما هدّمه قسطنطين، كما سار في الصائفة التالية عن طريق الحدث[1]، وتوغّل في بلاد الروم، كما فادى المنصور عامها بعض أسارى المسلمين.

---

(١) الحدث: ثغر إلى الغرب من ملاطية في جبال طوروس.

وبذا عاد الغزو إلى بلاد الروم بشكلٍ دائم، واشتهر من هذه الغزوات غزوة جعفر بن حنظلة البهراني عام ١٤٦، وغزوة العباس بن محمد أخي المنصور عام ١٤٩ حيث توغّل في بلاد الروم، وكان معه الحسين بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث الذي توفي في الطريق. وغزوة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن أخي المنصور عام ١٥١هـ، وغزوة معيوف بن يحيى الحجوري عام ١٥٣، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة كثيراً، ووقع في أيديهم ستة آلاف أسير، وغزوة زفر بن عاصم الهلالي عام ١٥٤، وغزوة يزيد بن أسيد السلمي عام ١٥٥. وفي الوقت الذي كانت الغزوات تنطلق إلى بلاد الروم كان أبو جعفر يهتم ببناء الثغور كي يرابط فيها المسلمون، وينطلقوا منها مجاهدين فقد بنيت (المصيصة)[1] عام ١٤١ على يد جبرييل بن يحيى الخراساني.

أما على الجبهة الشرقية فقد أمر أبو جعفر ابنه المهدي أن يغزو طبرستان، فقام بالغزو، ودخل المنطقة عام ١٤١، إلا أن صاحب طبرستان قد عاد ونقض العهد في العام التالي، وقتل عدداً من المسلمين، فسار إليه خازم بن خزيمة على رأس قوةٍ، فتحصّن في حصنٍ منيعٍ، صعُب على المسلمين اقتحامه عنوةً، فاحتالوا عليه، وسبيت يومئذٍ أم إبراهيم بن المهدي، وأم منصور بن المهدي، وكانتا من بنات الملوك الحسان اللتين تزوجهما محمد المهدي بن المنصور.

وقتل أهل الديلم عدداً من المسلمين عام ١٤٣ فغزاهم المنصور، كما سار إليهم في العام التالي محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه، إذ لا يمكن أن يصاب المسلمون بأذى في بلاد ويسكت إخوانهم على ذلك إذ يؤدي إلى توقف الدعوة وعدم انتشار الإسلام، ولا بدّ من أن يشعر المسلمون في أية بقعةٍ بالعزّة والقوة، وأن وراءهم أمة قوية، وإن ذلك أدعى لأن يكونوا مهيبين، ويقبل الناس إليهم، ويشعروا بعزّة المؤمنين.

---

(١) المصيصة: في منطقة كيليكيا على نهر جيحان، وهي كثيرة البساتين التي تروى من النهر.

وخرج الترك والخزر بباب الأبواب[1] عام ١٤٥ وقتلوا جماعةً من المسلمين في أرمينيا فسار إليهم المسلمون وأدّبوهم.

وأغار اشترخان خوارزم في جيش من الترك على أرمينيا، ودخل تفليس[2]، وقتل كثيراً من المسلمين ومن أهل الذمة، وأسر كثيرين آخرين فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة حرب بن عبد الله الراوندي فقتل في بعض المعارك وذلك عام ١٤٧. وأسرع حميد بن قحطبة إلى تفليس فوجد الترك قد انسحبوا منها.

كما فتحت كشمير عام ١٥٧ أيام ولاية هشام بن عمرو التغلبي، وكانت قد نقضت العهد.

* * *

(١) باب الأبواب: في بلاد الداغستان على بحر الخزر حيث تضيق السهول الساحلية باقتراب جبال القوقاز من البحر، وتسمى الآن دربنت.

(٢) تفليس: عاصمة جورجيا الآن إحدى جمهوريات الإمبراطورية الروسية.

الولايات

تعرّضت كثير من الولايات لحركات عنيفة، وكاد بعضها يعصف بالحكم قبل أن يتمكّن، وكانت معالجة المنصور لها على درجةٍ من الحكمة والحنكة والحزم والدهاء الأمر الذي قضى عليها قبل أن يستفحل أمرها، ويمتد لهيبها إلى ولايات أخرى.

١ ـ الشام:

قام فيها عبد الله بن علي مذ تولّى ابن أخيه أبو جعفر الخلافة حيث كان يطمع فيها لنفسه، إذ هو الذي وطّد الحكم للعباسيين، وقضى على خصومهم، ومهّد الطريق للحكم، وكان سيفه البتار. وسار معه أهل الشام بل لم يستطيعوا مخالفته إذ أخذهم أخذ الجبابرة، وحزمهم حزم السلمة، ولكن ما أن انتهى أمره حتى هدأت الولاية، وانطلق أهلها للغزو، والمرابطة في الثغور، واستمر ذلك مدة أيام المنصور.

٢ ـ الكوفة:

كان عيسى بن موسى والي هذه الإمارة، وفي عام ١٤١ خرجت فيها جماعة تدعى الراوندية، وأصلهم من خراسان، وقد ادعوا ألوهية المنصور، وقالوا بتناسخ الأرواح، وأن روح آدم، عليه السلام، قد انتقلت إلى عثمان بن نهيك وحلّت به، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل. وقد جاءوا إلى قصر الخليفة، وأخذوا يطوفون حوله. ولكن المنصور أبادهم جميعاً وانتهى أمرهم. كما تولى أمر هذه الولاية محمد بن سليمان، وعزل عنها عام ١٥٥ إذ تولاّها عمر بن زهير.

٣ ـ البصرة:

كان سليمان بن علي أمير البصرة، لكن المنصور قد عزله لما علم أن أخاه عبد الله بن علي مختبئاً عنده، وولّى مكانه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي بعث بعمه عبد الله بن علي إليه فسُجن. ويبدو أن سفيان كان ممالئاً لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن والذي ظهر قبل موت أخيه، وبايعته الأهواز، كما أخذ فارس، وواسط، والمدائن، والسواد كافةً. غير أن خازم بن خزيمة قد سار في أربعة آلاف مقاتل إلى الأهواز فامتلكها، وجاء عيسى بن موسى من الحجاز فالتقى بإبراهيم وهو في طريقه إلى الكوفة، وكان حميد بن قحطبة على مقدمة عيسى ولكنه هزم، وثبت عيسى بن موسى، كما ثبت إبراهيم بن عبد الله، وتخلى عنه عدد من أصحابه فقتل هو مع من قتل من أنصاره، واستتب الوضع للمنصور.

عُزل سفيان عن البصرة وتولّى أمرها مسلم بن قتيبة ثم عزل بعد عام بمجيء محمد بن سليمان بن علي، ولكن أصبح استبدال ولاة البصرة أمراً عادياً كل عام تقريباً إذ تتابع عليها جابر بن زيد الكلابي، ويزيد بن منصور، وعبد الملك بن أيوب بن ظبيان، والهيثم بن معاوية.

٤ ـ الجزيرة:

لم يحدث في الجزيرة من أمر بعد حركة عبد الله بن علي سوى خروج ملبد بن حرملة الشيباني في ألف من الخوارج، ولكن انتهى أمرهم سريعاً، واشتهر من ولاة الجزيرة في تلك الحقبة حميد بن قحطبة، والعباس بن محمد أخو الخليفة المنصور.

٥ ـ الموصل:

لم يحدث في الموصل شيء، وكان أميرها إسماعيل بن علي، ثم موسى بن كعب الذي عزله المنصور وولى عليها خالد بن برمك.

٦ ـ خراسان:

كان أبو داود خالد بن إبراهيم نائب أبي مسلم على خراسان، إلا أن المنصور قد أطمعه في ولاية خراسان إن ردّ أبا مسلم عنها حين همّ بالعودة إليها، وانتهى أمر أبي مسلم، وبقي أبو داود والياً على خراسان لكن لم يلبث أن خرج فيها سنباذ مطالباً بدم أبي مسلم، وكان سنباذ مجوسياً فدانت له خراسان، كما أخذ قومس وأصبهان، فبعث إليه أبو جعفر قوة قوامها عشرة آلاف فارس بإمرة جهور بن مرار العجلي فانتصر على سنباذ وقتله، ولم تزد مدة خروجه على سبعين يوماً. غير أن جهور قد أغرته نفسه بانتصاره هذا فخلع الطاعة عام ١٣٨، فأرسل له المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي فهزمه وقتله.

وثارت جماعة في خراسان على أميرها أبي داود خالد بن إبراهيم وحاصرته في داره فوقع ومات، وخلفه صاحب شرطته عاصم حتى وصل إلى مرو أميرها الجديد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، ولم يكمل عامه حيث عزل، وتولى أمر خراسان بعده محمد المهدي بن الخليفة المنصور فلم يقبل عبد الجبار أمر العزل وإنما خلع الطاعة، فسار إليه المهدي وعلى مقدمته خازم بن خزيمة، ففرّ عبد الجبار ولكن قُبض عليه، وأُرسل إلى المنصور فقتله.

وخرج عام ١٥٠ رجل كافر اسمه استاذسيس فعاث فساداً، واستحوذ على أكثر خراسان، فبعث المنصور لابنه المهدي أن يرسل له خازم بن خزيمة، فبعثه، فقضى عليه. واشتهر من ولاة خراسان حميد بن قحطبة الطائي عام ١٥٢.

٧ ـ السند:

خلع عيينة بن موسى بن كعب الطاعة عام ١٤٢ فأرسل له المنصور قوة بإمرة عمرو بن حفص بن أبي صفرة، فتمكّن عمرو من قهر عيينة، وتسلم ولاية السند والهند، حتى استبدل عام ١٥٧ بهشام بن عمرو التغلبي.

وأعطيت إمرة سجستان لمعن بن زائدة عام ١٥١ غير أن الخوارج قد قتلوه في العام التالي.

٨ ـ الحجاز:

كان والي الحجاز زياد بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد المدان خال السفاح، فعزله المنصور عام ١٤١، وأعطى الولاية لمحمد بن خالد القسري حتى عام ١٤٤ حيث خلفه رياح بن عثمان المزني الذي حدثت في أيامه حركة محمد بن عبد الله بن حسن، وقضى عيسى بن موسى على هذه الحركة وأناب على المدينة كثير بن حصين ولم يبق فيها سوى شهر واحد إذ أرسل المنصور والياً على المدينة عبد الله بن الربيع، وثار السودان عليه ففر من وجههم مرتين، ثم ردّه أهل المدينة بعد أن ردعوا مواليهم خوفاً من النتيجة.

عُزل عبد الله بن الربيع عام ١٤٦، وأعطيت لجعفر بن سليمان بن علي الذي بقي في الإمارة حتى عام ١٥٠ حتى خلفه عليها الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب حتى عام ١٥٥ حيث أعطيت إلى عبد الصمد بن علي، أما بقية إمارات الحجاز فقد كان أمراؤها تختلف مناطقهم بين مدةٍ وأخرى، فقد تسلّم السري بن عبد الله مكة والطائف، ثم خلفه عبد الصمد بن علي، ثم محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي. وتسلّم معن بن زائدة اليمن عام ١٤١، ويزيد بن منصور عام ١٥٣، وتسلّم قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس إمارة البحرين.

٩ ـ مصر:

كانت مصر هادئة كعادتها، وتوالى عليها أمراء عدة أيام المنصور، صالح بن علي، وموسى بن كعب، ومحمد بن الأشعث، ونوفل بن الفرات، وحميد بن قحطبة، ويزيد بن حاتم، ومحمد بن سعيد.

١٠ - إفريقية:

ربما كانت ولاية إفريقية أكثر الإمارات مشكلات وذلك بسبب الخوارج الذين نشطوا في حركاتهم فيها، ولبعدها عن مركز الخلافة، ولانشغال الدولة عنها، وهذا ما مكّن للخوارج فيها، كما مَكّن لعبد الرحمن الداخل في الأندلس.

كانت إفريقية في صراع بين الخوارج الأباضية والصفرية وأصحاب النفوذ من آل عقبة بن نافع.

وقامت دولة للخوارج الصفرية في منطقة تافيللت المحصنة طبيعياً إذ أنها على هامش الصحراء وفيها المياه، فكانت دولة صحراوية اقتصرت على التجارة، وقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول الذي عمل هناك راعياً، واتصل مع الرعاة، وأثر فيهم، فلما وصل عددهم إلى أربعين شخصاً بايعوا عيسى بن يزيد الأسود وذلك عام ١٤٠، ثم دعا أبو القاسم قومه مكناسه إلى مبايعة عيسى وطاعته، وبنيت مدينة سجلماسة[١] وغرست أشجار النخيل والعنب، وزرعت الخضراوات، وكانت مياه نهر زيز أساساً لهذه المشروعات، واتجه الصفرية نحو هذه المدينة فزاد عدد سكانها، وكان قوام

---

(١) سِجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل دَرَن، وهي في وسط رمال، كرمال زَرُود ويتصل بها من شماليها جَدَد من الأرض، يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر، وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديد الحلاوة ما لا يحد، وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر، وغلتهم قليلة، ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر، ويعملون منها غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها. «معجم البلدان».

أهلها من السودان، والأندلس، والبربر، والعرب وفئات مختلفة تتبنى كلها المذهب الصفري من الخوارج.

ونُحّي عيسى بن يزيد عن الإمامة، ونُصْب أبو القاسم سمكو، ثم قتل عيسى عام ١٥٥، وبقي أبو القاسم إماماً حتى عام ١٦٨، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته خلافاً للرأي الخارجي في الإمامة بعدم الوراثة.

سالم أبو القاسم سمكو الولاة العباسيين في القيروان، إذ لم ير جدوى من هذه الحركات التي قامت ما دامت دون المستوى المطلوب حتى عده ابن خلدون تابعاً للدولة العباسية، وقد دعا للمنصور والمهدي، وإن هذه المهادنة قد جعلت الدولة الخارجية تستمر وتستقر.

١١ ـ الأندلس:

لم يعلن عبد الرحمن الداخل نفسه خليفة، إذ يعلم أنه لا يصح أن يكون في بلاد الإسلام إلا خليفة واحد، ومن هذا المنطلق فقد كان يدعو للخليفة من العباسيين بصفته أمير المؤمنين ويقيم للناس أميراً في موسم الحج، واستمر على هذه الحالة مدة حتى حدثت عنده أمور منها:

حاول يوسف بن عبد الرحمن الفهري استرداد نفوذه وذلك برأي الصميل بن حاتم، ففرّ يوسف من قرطبة إلى ماردة عام ١٤٢، وجمع جيشاً حوله، وأعلن العصيان، وأراد غزو قرطبة، فسار إليه عبد الرحمن وتمكّن من هزيمته وقتله، أما الصميل بن حاتم فقد سجن في قرطبة ومات في سجنه مسموماً.

وعمل المنصور على القضاء على عبد الرحمن فشجع العلاء بن مغيث الجذامي في باجة[1] على مناهضة عبد الرحمن، والدعوة للعباسيين هناك، وأرسل له الراية العباسية. ولما تقوّى العلاء قام بالثورة عام ١٤٧، فسار

(١) باجة: مدينة في الجزء الجنوبي من البرتغال اليوم.

إليه عبد الرحمن غير أنه قد هزم أمام العلاء فسار إلى قرمونة[1] شرق اشبيلية فتبعه العلاء وحاصره فيها مدة شهرين، لم يجد عبد الرحمن بعدها بُدّاً من القيام بعمليةٍ فدائيةٍ فخرج على خصمه بجرأة مع سبعمائة من أتباعه على حين كان خصومه لا يحصى عددهم، فتمكّن من فك الحصار المضروب عليه ومداهمة العدو وقتل العلاء وأرسل رأسه محنطاً إلى المنصور أثناء الموسم حيث وضع أمامه، فكفّ المنصور بعدها عن العمل في الأندلس. وسمى عبد الرحمن الداخل باسم صقر قريش.

عند ذلك قطع عبد الرحمن الخطبة للعباسيين ولكن لم يعلن نفسه خليفة إذ بقي متقيداً بالفكرة الإسلامية، ولم يحب أن يبدأ بالمخالفة رغم ما أقدم عليه المنصور وحتى المهدي من بعده.

* * *

(١) قرمونة: بلدة في الأندلس، واسمها الصحيح قرمونية.

الخوارج

نشط الخوارج بصورةٍ عامةٍ أيام المنصور، وإن كانوا قد فشلوا في المشرق إلا أنهم قد نجحوا في بلاد المغرب إلى حدٍّ ما، فثوراتهم كانت محدودةً في المشرق حيث يخرج الزعيم في جماعةٍ معدودةٍ في منطقة ويتمكن من هزيمة جيوش الخليفة لكن لا يلبث أن يهزم إذ تأتي النجدات لجيوش الدولة فيفرّ من منطقةٍ إلى أخرى حتى يقضي عليه، وربما كانت نشاطاتهم في المشرق كأنها إشغال للدولة عن أمور المغرب كي يتمكّنوا فيها هناك.

خرج ملبد بن حرملة الشيباني عام ١٣٧ بالجزيرة في ألف مقاتل من الخوارج، وهزم قوات الخليفة فسار إليه حميد بن قحطبة إلا أنه هُزم وتحصّن، واضطر أن يصالح ملبداً على دفع مائة ألف على أن يقلع عنه ففعل، وسار إليه خازم بن خزيمة عام ١٣٨ فانتصر عليه وقتله.

واستطاع عاصم بن جميل أن يهزم حبيب بن عبد الرحمن الذي فرّ إلى قابس، وهذا ما فسح المجال لعاصم من دخول القيروان عام ١٣٩، فولى عليها عبد الملك بن أبي الجعد، وسار هو خلف حبيب الذي فرّ إلى أوراس حيث ألّف هناك قوةً تمكّنت من هزيمة الصفرية، وقتل عاصم. وسار حبيب نحو القيروان بعد انتصاره هذا غير أنه هزم أمام عبد الملك بن أبي الجعد وقتل في المعركة، وهكذا دانت المغرب كلها للصفرية.

أما الأباضية فقد رجع بعض كبارهم من المشرق عام ١٤٠، وركّزوا جهودهم في المغرب الأدنى، حيث كثُر أتباعهم، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي استطاع أن يستولي على طرابلس، ثم سار إلى قابس فأخذها، واتجه إلى القيروان فالتقى بعبد الملك بن أبي

الجعد خارجها فهزمه، وقتله، واستولى على القيروان عام ١٤١، وولى عليها عبد الرحمن بن رستم.

أرسل المنصور إلى إفريقية محمد بن الأشعث، فبعث طلائعه بقيادة أبي الأحوص بن عمرو بن الأحوص فأسرع إليه أبو الخطاب والتقى قرب سرت فهزمه، وانطلق محمد بن الأشعث بنفسه نحو أبي الخطاب فالتقى به عام ١٤٤ في (تاورغا)[١] فانتصر عليه وقتله، وسار نحو القيروان فأخذها وهكذا وطّد محمد بن الأشعث الخزاعي نفوذ الدولة العباسية في المغرب الأدنى، وأزال الأباضيين عن القيروان.

بعد أن هزمت الصفرية في المغرب الأدنى اتجه أنصارها نحو المغرب الأوسط والأقصى، واستطاع أبو قره من تأسيس دولةٍ في ناحية تلمسان، كما استطاع (أبو القاسم سمكو بن واسول) من إرساء قواعد دولة بني مدرار في سجلماسة.

أرسل محمد بن الأشعث جيشاً لمحاربة أبي قره الصفري في تلمسان في المغرب الأوسط بإمرة الأغلب بن سالم التميمي وذلك عام ١٤٨، غير أن الجند قد ثاروا على ابن الأشعث فما كان من المنصور إلا أن أرسل بولاية الأغلب على إفريقية. وسار الأغلب إلى المغرب الأوسط فالتقى بالزاب بجيش أبي قره فانسحب أبو قره إلى تلمسان فلاحقه الأغلب وفي نيته مواصلة السير إلى المغرب الأقصى فأحسّ الجنود بطول المفازة وبعدت عليهم الشقة فثاروا على الأغلب وقتلوه عام ١٥٠.

وصل عمرو بن حفص المهلبي والياً على القيروان بعد أن عزل عن السند، واسترد في طريقه طرابلس وكان قد دخلها الخارجي أبو حاتم الملزوزي عام ١٥٠، وما استقر عمرو بن حفص في القيروان حتى جدّ السير نحو المغرب الأوسط لمداهمة الصفرية، واستقر في الزاب في (طبنة)، وسار خلفه أبو حاتم وحاصر القيروان عام ١٥٣، غير أنه ترك

---

(١) تاورغا: في ليبيا بين طرابلس وسرت على ساحل البحر.

حصارها وتبع عمرو بن حفص الذي تحصّن في (طبنة)، وكان الخوارج قد جاءوه من كل جهة فقد تبعته الأباضية بقيادة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم، وجاءته الصفرية بقيادة أبي قره، وعبد الملك بن سكرديد، وجرير بن مسعود.

انسحب أبو قره بالصفرية من حصار (طبنة) فاستطاع عمرو بن حفص عندها من هزيمة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم والأباضية معهما، وسارت الأباضية نحو القيروان فسبقها عمرو، ودخل القيروان، فحاصرته الأباضية فيها، وقتل عمرو في الحصار، وتولى بعده قيادة الجند أخوه لأمه جميل بن صخر، فعقد أبو حاتم زعيم الأباضية معه صلحاً دخل إثره القيروان في أواخر عام ١٥٤.

وكان عمرو بن حفص قبل أن يغادر (طبنة) قد أرسل (المهنأ بن المخارق بن غفار الطائي) لملاحقة أبي قره فتبعه وهزمه.

وجاء يزيد بن حاتم[١] والياً على إفريقة عام ١٥٥، وأسرع أبو حاتم زعيم الأباضية من القيروان لملاقاته، وانتصر على طلائع جيشه لكنه هزم أمامه فاعتصم بجبل نفوسة. ودخل يزيد بن حاتم القيروان، وثار الأباضيون تارةً أخرى بإمرة أبي يحيى بن فوناس الذي تزعم قبيلة هوارة لكن قضي على هذه الثورة بسرعة وقتل قائدها وعامة أصحابه وذلك عام ١٥٦.

وكما انتصر يزيد بن حاتم على الأباضية في المغرب الأدنى كذلك انتصر على الصفرية وبطش بها في المغرب الأوسط، وكانت دعامته في ذلك ابنه المهلب، والعلاء بن سعيد. وهكذا استطاع يزيد بن حاتم أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠.

---

(١) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة.

- ٣ -

المهدي

محمد بن عبد الله

١٥٨ - ١٦٩هـ

ولد محمد المهدي بن المنصور عام ١٢٦ ببلدة إيذج[1]، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، وتُكنّى بأم منصور كما تُكنّى بأم موسى، وكان أسمر طويلاً، جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المنصور في ذي الحجة من عام ١٥٨، وعندما بلغه نبأ وفاة والده كتم الخبر يومين، ثم نادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دُعي فأجاب، وأُمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلّدت جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس أسرّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا، نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، وأخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم».

وكان جواداً كريماً محبباً إلى الرعية فمنذ تولّى الأمر أخذ في ردّ المظالم، وأخرج ما جمع أبوه وفرّقه بين الناس، ولم يعط أهله ومواليه.

وأول من عزّاه بأبيه وهنّأه بالخلافة أبو دلامة فقال:

عيناي واحدة ترى مسرورةً … بأميرها جذلى وأخرى تذرف

---

(١) إيذج: كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان، وهي وسط الجبال، تقوم الزراعة فيها على الأمطار، ويشرب أهلها من عين سليمان.

تبكي، وتضحك تارةً ويسوؤها ما أنكرت، ويسرّها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ويسرّها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شعراً أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمدٍ وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافةٍ ولذاك جنّات النعيم تزخرف

أطلق السجناء إلاّ من كان مسجوناً على دم، أو فسادٍ في الأرض، أو عنده حق لأحد.

ومن أخبار جوده أن امرأةً وقفت للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحدٍ غيرها، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم. ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرّقها ابن الخياط وأنشأ يقول:

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فبددت ما عندي

وبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن إبراهيم[1] فحدّثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا في خفّ أو نعل أو حافر». وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأعلم أن غياثاً كذب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح، ولم يذكر غياثاً بعدها.

بنى مسجد الرصافة عام ١٥٩، ووسّع المسجد الحرام عام ١٦٧.

---

(١) غياث بن إبراهيم كذاب: قال عنه أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: سمعت أكثر من واحد يقول: إنه يضع الحديث. وقال البخاري: تركوه.

وولّى القضاء أبا يوسف[1] عام ١٦٦، وتتبع الزنادقة وعمل على إبادتهم.

بايع لولديه موسى الهادي عام ١٦٠ ثم لهارون الرشيد، وذلك بعد أن أكره ابن عمه عيسى بن موسى على خلع نفسه.

وعرف بسماحة الأخلاق، وقد ذهب مرةً إلى البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ ـ يعني المؤذنين ـ فأمرهم بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يُكبّر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء. فكبّر فتعجّب الناس من سماحة أخلاقه.

تزوج عام ١٥٩ ابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، كما تزوج وهو في المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وأعتق جاريته الخيزران وتزوج بها، وهي أم ولديه الهادي والرشيد، وكان مفتتناً بها.

وعزم في أواخر عهده أن يقدّم ابنه الرشيد في الخلافة على الهادي، وكان الهادي بجرجان فدعاه فلم يُلب فسار إليه بنفسه، وبينما هو في ماسبذان إذ أدركته الوفاة في ٢٢ محرم من عام ١٦٩ فكانت خلافته عشر سنوات وشهر ونصف الشهر. واختلف في سبب موته أكان بالسم غلطاً من إحدى جواريه أم بإصابة ظهره بجانب خربةٍ دخل فيها جواده.

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، البغدادي: صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، ولي القضاء أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ولد بالكوفة عام ١١٣، وتوفي ببغداد وهو على القضاء عام ١٨٢.

الغزو والفتح

منذ أن تولّى المهدي الخلافة بعث العباس بن محمد على رأس جيش إلى بلاد الروم، كما أرسل جيشاً آخر إلى بلاد الهند. وكان متجهاً بصورةٍ عامة إلى بلاد الروم حيث ما تنفك الصوائف تنطلق من الثغور فتغير على أرض الروم، وإن كانت لم تحدث فتوح واسعة أو تُضمّ مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام بصورةٍ دائمةٍ إلا أن الانتصارات كانت كبيرةً والغنائم كثيرة، وأعداد الأسرى من الروم وفيرة. وكانت الثغور هي نفسها على ذرا جبال طوروس وتمتد من طرسوس على ساحل البحر المتوسط نحو الشمال الشرقي حتى أرضروم.

وتوغل الحسن بن قحطبة عام ١٦٢ في بلاد الروم، وأحرز انتصاراً واضحاً، ولكن كثرت الفتوح بعد ذلك حيث تولى ابنه الرشيد أمرها إذ سار على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيماً. وأصبح بعد ذلك والياً على الشطر الغربي من الدولة الإسلامية من الأنبار حتى الأندلس.

وسار عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على رأس قوةٍ إلى بلاد الروم عام ١٦٤، وأصاب غنائم كثيرةً، وأسر من الروم الكثير أيضاً. وبعد عام سار الرشيد ووصل إلى سواحل بحر مرمرة، وصالح أغسطة امرأة ليون، وكانت عاهلة الروم. واستمرت الهدنة سنتان ثم نقض الروم العهد عام ١٦٨ فسار إليهم والي الجزيرة وهو يزيد بن بدر بن البطال فغنم وظفر.

الحركات

لقد وطّد المنصور لابنه الأوضاع، وأخضع له الرقاب، لذا لم تقم في أيام المهدي حركات واسعة، ولم ينشط منافسوه سواء من الطالبيين أم من غيرهم، ومع هذا فقد قامت حركات محلية بسيطة منها:

١ - خروج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم، وكان خروجه بخراسان عام ١٦٠ فسار إليه يزيد بن مزيد فتمكّن منه وأسره، وأرسله إلى المهدي مع كبار أنصاره فقُتلوا جميعاً.

٢ - وخروج المقنع في قرية من قرى مرو حاضرة خراسان، واسمه عطاء، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وأن الله قد ظهر في صورة آدم لذا سجدت له الملائكة، ثم ظهر في صورة نوح، ثم في صور الأنبياء الواحد بعد الآخر حتى كان في صورة أبي مسلم وأخيراً صار إليه لذا فقد ادعى الربوبية. وكان أعور قبيح المنظر لذا فقد اتخذ له وجهاً من ذهب. وكان خروجه عام ١٦١ فأرسل له المهدي عدداً من القادة، ثم أفرد له سعيد الحرشي فلجأ المقنع إلى قلعة (كَشّ)[1]، وكان قد جمع فيها الطعام، وحصّنها، فلما اشتد عليه الحصار وشعر بالغلبة احتسى السم هو وأهله فماتوا جميعاً وذلك عام ١٦٣هـ.

٣ - وخروج عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة، وقوي أمره، وأحرز النصر على عددٍ من قادة المهدي وجيوشه، وسار إليه أخيراً

---

(١) كشّ: مدينة في بلاد ما وراء النهر، وهي المقصودة هنا، كما توجد بلدة على جبل بالقرب من جرجان على بعد ثلاثة فراسخ تحمل الاسم نفسه، وثالثة من قرى أصبهان.

شبيب بن واج المروروذي ولكنه هزم أمامه أيضاً، فلما جاء دعم إلى شبيب انتصر وفرّ عبد السلام أمامه إلى قنسرين فتبعه، وتمكّن من قتله فيها عام ١٦٢، وعبد السلام هذا من الخوارج الصفرية.

٤ ـ وخروج دحية بن مصعب بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم عام ١٦٥ وتغلّب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد نفوذ الدولة العباسية ينتهي من الصعيد، وهذا ما جعل الخليفة المهدي يغضب على واليه في مصر إبراهيم بن صالح بن علي العباسي ويعزله ويرسل مكانه موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي عام ١٦٧، ولكنه فشل كذلك في القضاء على ثورة دحية، وقسا على السكان فسلّمه الجند، وتخلوا عنه للثائرين فقتل، وجاء بعده حسام بن عمرو المعافري، وقد فشل كذلك. واستمرت الثورة حتى أيام الهادي.

* * *

الخوارج

بقيت دولة الخوارج في سجلماسة، وتوفي عام ١٦٨ أبو القاسم سمكو وخلفه ابنه إلياس الذي عرف باسم «أبو الوزير». وبقي على سيرة أبيه في موادعة ولاة القيروان.

كما قامت دولة للخوارج من الأباضية في تاهرت(١) إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١، وأصبح عبد الرحمن بن رستم(٢) إماماً لهذه الدولة. وقد هادن ولاة القيروان أيضاً مثل حكام الدولة الصفرية في سجلماسة.

---

(١) تَاهَرْت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة. بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. وهي مدينة مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزّول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتُش، ومنه شرب أهلها وأرضها، وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً.

(٢) عبد الرحمن بن رستم: عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبهرام هو مولى سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه. انتقل عبد الرحمن إلى المغرب في نهاية القرن الأول، واتجه إلى المشرق مع الأباضيين حيث بقوا هناك من ١٣٥ ـ ١٤٠. تولى نيابة القيروان عندما أخذها الأباضيون من الصفرية عام ١٤١، وخرج منها لنصرة إمامه المعافري في قابس حيث قتل هناك عام ١٤٤ على يد محمد بن الأشعث الخزاعي، فرجع عبد الرحمن إلى القيروان، ثم غادرها واتجه إلى المغرب الأوسط حيث تحصن فيها من ابن الأشعث، وسار بعدها إلى موقع تاهرت.

الأندلس

حاول المهدي - كما حاول أبوه المنصور - التخلص من عبد الرحمن غير أنه فشل كسابقه. إذ كان حاكم سرقسطة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي يختلف مع عبد الرحمن الداخل لأمورٍ سياسيةٍ. فاتفق هذا مع شارلمان حاكم الفرنجة لمداهمة عبد الرحمن الداخل، وقد كان المهدي على رضى من هذا الاتفاق، وأرسل هو أيضاً من طرفه عبد الرحمن بن حبيب الفهري لينزل على شواطئ الأندلس الجنوبية، في الوقت الذي يجتاز شارلمان حدود الأندلس من الشمال.

نزل عبد الرحمن الفهري في تدمير[1] (مرسيه) على شاطئ الأندلس الجنوبية، ولكن كان وصوله قبل دخول شارلمان، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وتمكّن من قتله.

ووصل شارلمان إلى سرقسطة غير أن السكان رفضوا تسليم بلدهم لرجل نصراني، وقاموا بثورةٍ قادها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الأنصاري، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه شارلمان وحليفه ابن الأعرابي، وذلك عام ١٦١ فاضطر شارلمان إلى العودة من حيث أتى وأخذ معه سليمان بن يقظان بن الأعرابي كأسير حرب إذ عدّه قد خدعه، وكان من أسباب عودة شارلمان أيضاً أن القبائل الجرمانية - السكسونية قد تركت النصرانية وعادت شارلمان.

وبينما كان شارلمان يجتاز الحدود من جبال البرانس إذ هاجمت قبائل

---

(١) تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جَيّاني، وهي شرقي قرطبة بينهما سبعة أيام.

البشكنس مؤخرة جيشه ومعها أبناء سليمان الذين أعادوا أبيهم، وكان عبد الرحمن الداخل قد شجع هذا الهجوم... ثم قتل سليمان هذا، وحكم الحسين بن يحيى الأنصاري سرقسطة، واستقر وضع الداخل في الأندلس، خاصةً أنه سار عام ١٦٤ إلى سرقسطة ودخلها، وحسّن علاقاته مع شارلمان.

* * *

- ٤ -

الهادي

موسى بن محمّد

١٦٩ - ١٧٠ هـ

ولد موسى الهادي بالسيروان من الري عام ١٤٤ أيام خلافة جده المنصور، وأمه أم ولد بربرية هي الخيزران. ونشأ في بيت الخلافة. كان طويلاً جسيماً جميلاً، أبيض مشرباً بالحمرة، في شفته العليا تقلّص. ومع ذلك كان فصيحاً، أديباً، قادراً على الكلام. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً. من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما له من المهابة والرياسة. وكان يقول: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك. وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤونة الاعتذار. وعزّى رجلاً في ولده فقال له: سرّك وهو عدو وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

بدأ في عصره صخب الجند، وكثر السلاح. ومشت الرجال بين يديه بالسيوف، والقِسِي، وقلّده عماله في ذلك.

بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وكان بجرجان يحارب أهل طبرستان، وتوفي أبوه في ماسبذان في شهر محرم، وهو قادم إليه، ومعه ابنه الرشيد، وحاجبه الربيع بن يونس مولى أبي جعفر المنصور، ويحيى بن خالد البرمكي. فوارى الرشيد أباه في التراب، وعاد إلى بغداد، ورجع موسى الهادي إلى مقر ملكه فوصل إليه في شهر صفر أي بعد وفاة المهدي بشهر تقريباً فأخذ البيعة، وجلس للأمر.

تتبع الزنادقة وأعمل فيهم السيف مثل والده وحسب وصيته إذ قال له: وقد أمر بضرب عنق زنديق: يا بني، إن صار لك هذا الأمر فتجرّد

لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحوُّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور؛ فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين[1].

واستعمل على الحجابة بعد الربيع بن يونس ابنه الفضل واستوزره.

وعمل على خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه جعفر، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، ووافقه عدد من الأمراء والقادة على ذلك، وخالفته أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها الرشيد أكثر من موسى، وألحّ على أخيه في ذلك، وبعث إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد، فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يحيى: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فأطرق ملياً ـ وكان ذلك ليلاً ـ فأمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء إليه يوماً أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً، ثم قال: يا هارون! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: أي والله، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال: ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده، فحلف الهادي ليجلس معه على السرير، فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد،

---

(١) تاريخ الطبري.

وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد[١].

استحوذت الخيزران على ابنها موسى في أول عهده، كما استحوذت على أبيه من قبل، وبدأت الأمراء تقف على بابها، لكن الهادي لم يلبث أن منعها من التصرف في شيء من المملكة، وحلف لئن وصل أمير إلى بابها ليقطع عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام في الشؤون، وحلفت ألا تكلّم ابنها أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

ومات الهادي في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠، واختلف في موته، أكان سُمّاً، أم بسبب قرحةٍ أصابته في جوفه. وقد حكم مدة سنة واحدة وثلاثة أشهر. وخلّف سبعة أولاد من الذكور، أكبرهم جعفر الذي كان يرشحه للخلافة، وابنتين اثنتين إحداهما أم عيسى التي تزوجها المأمون ابن أخيه الرشيد. وكان يكنّى بأبي محمد.

* * *

(١) البداية والنهاية.

الحركات[٧٠]

لم تطل أيام الهادي، ولم تحدث في هذه المدة القصيرة أحداث واسعة سوى خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان سبب خروجه أن الهادي عندما عزل عن المدينة إسحاق بن عيسى ولى عليها عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فطلب الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بتهمةٍ فاختفى، وكان قد كفله الحسين بن علي بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن فدعاهما الوالي وأغلظ إليهما، ثم أعادها ثانيةً فألجأت الحسين إلى الخروج لما نيل منه، وكان أن خرج الوالي إلى بغداد، فلبس الحسين البياض وجلس في المسجد النبوي والتف حوله جماعة فبايعوه للرضا من أهل البيت، واقتتلوا مع أنصار العباسيين عدة مرات، ثم خرج مع جماعته إلى مكة المكرمة فأقاموا بها إلى موسم الحج، فبعث إليهم الهادي جيشاً فاقتتلوا بعد فراغ الناس من الموسم في وادي فخ فقتل الحسين بن علي وجماعة من أنصاره. . . وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واتجه إلى مصر، ومنها انطلق إلى المغرب. وكانت مدة خروج الحسين بن علي تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقضى على ثورة دحية المرواني في صعيد مصر والتي قامت منذ أيام والده إذ أرسل والياً إلى مصر الفضل بن صالح بن علي فهزم دحية، وتمكَّن منه، وقتله، والفضل هذا هو الذي بنى مدينة العسكر قرب الفسطاط، وقد اتسعت واتصلت بالفسطاط.

- ٥ -

الرشيد

هارُون بن محمّد

١٧٠ - ١٩٣هـ

بلغت الدولة العباسية أوجها أيام الرشيد، فآباؤه قد وطدوا له الأمر فعمّ الاستقرار، ووصلت الدولة إلى غاية قوتها فساد الأمن، ولم يحدث الصراع على الحكم إذ كانت الدولة في مرحلة الشباب حيث لا يزال الشعور بالمعاناة قائماً للوصول إلى السلطة وانتزاعها من أيدي الأمويين.

وكان الرشيد شجاعاً قوياً فقد قاد الحملات والصوائف في عهد أبيه ولم يتجاوز العشرين من العمر، وسار على رأس الجيوش إلى بلاد الروم، وهو أمير المؤمنين، فطأطأ الروم رؤوسهم وأحنوا هاماتهم له، ورهبوه، وأخافوا رعاياهم به.

وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً، ويكثر من الحج، فقد ولي أمر المسلمين ثلاثاً وعشرين سنةً حجّ في خلالها تسع مرات وهي مواسم: ١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨١ ـ ١٨٦ ـ ١٨٨، حتى شاع بين الناس أنه يغزو عاماً، ويحجّ عاماً. ويتصدّق من صلب ماله، وقد تتبع الزنادقة وقتل منهم أعداداً.

وكان يستمع إلى الوعّاظ والناصحين، ويبكي من خشية الله. فقد مرّ وهو في طريقه إلى الحج بأحد البهاليل فقال له: قل يا بهلول، فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طرّاً ... ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ... ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله، وواسى في ماله، كتب في

ديوان الله من الأبرار. فظنّ أنّه يريد شيئاً، فقال: إنّا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يُقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنّا أمرنا أن يُجرى عليك رزق تقتات به. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر عليّ رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خُذها. فقال: اردها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال[1]: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[2].

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف بين الجنة والنار، حين يُؤخذ بالكظم، وتزلّ القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُقبل، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة -: يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلّهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق. وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظلّ شاهقة القصور
تسعى إليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرّواح إلى البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصّدور

---

(١) الراوي: وهو الفضل بن الربيع.
(٢) البداية والنهاية الجزء العاشر.

فهناك تعلم موقناً ما كنت إلاّ في غرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى. ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس ولو تمتّعت بالحجّاب والحرس

واعلم بأنّ سهام الموت صائبة لكلِ مُدّرع منها ومُتّرس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فخرّ الرشيد مغشياً عليه[١].

ولد الرشيد بالري أيام خلافة جده أبي جعفر المنصور عام ١٤٦، وبويع بالخلافة عام ١٧٠، ولم يكن عمره ليزد يوم بويع على أربع وعشرين سنة، وكان أبيض طويلاً، سميناً جميلاً، وتوفي بـ (طوس) في ٣ جمادى الآخرة من عام ١٩٣ فتكون ولايته ثلاثاً وعشرين سنة.

وتزوج بنت عمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأنجبت له ولده الأمين في ١٦ شوال من عام ١٧٠، وكان زواجه من زبيدة عام ١٦٥. كما تزوج عام ١٨٧ العباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور، كما تزوج عدة نساءٍ أُخريات، وتوفي عن أربعٍ منهن. وكانت له عدة جوارٍ أنجبن عدة أولادٍ منهم: المأمون، وهو أكبر أولاده، إذ ولد يوم بويع الرشيد بالخلافة أي ١٥ ربيع الأول، وبذا يكون أكبر من الأمين بسبعة أشهر، وتسمى أم المأمون مراجل، والمعتصم، وتدعى أمه ماردة، والقاسم المؤتمن وتسمى أمه قصف.

---

(١) المصدر السابق.

وكان الرشيد يكنى أبا موسى، ثم عرف باسم أبي جعفر.

ولما بويع بالخلافة في ١٥ ربيع الأول أخرج يحيى بن خالد البرمكي من السجن وولاّه الوزارة، إذ كان الهادي قد سجنه لميله للرشيد، وأكمل الخليفة الجديد بناء مدينة طرسوس، وهي الثغر على ساحل البحر المتوسط، وانتهى العمل فيها في العام الأول من خلافة الرشيد.

وتوفيت الخيزران والدة الرشيد عام ١٧٢. وبايع لابنه محمد الأمين ولياً للعهد عام ١٧٥، ولم يتجاوز الأمين الخامس من عمره، وهذا ما ولّد نقداً للرشيد من أهل العلم والعامة على حدٍ سواء، ومع أنّ ابنه عبد الله المأمون أكبر من الأمين بسبعة أشهر إلا أنّ البيعة كانت للأمين إذ أن أمّه زبيدة بنت جعفر ابنة عمّ الرشيد، وذات الحظوة الكبيرة عنده، على حين كانت أم المأمون أم ولد، هي مراجل، لكنه لم يلبث أن بايع بعد سبع سنوات للمأمون بعد أخيه الأمين.

وكان لآل برمك نفوذ كبير في الدولة أيام الرشيد، إذ كان يحيى بن خالد مربياً للرشيد، حتى كان يناديه أبي، وكان أولاد يحيى وهم: الفضل، وجعفر، وموسى، ومحمد أترابه وأقرانه، وكان الهادي يحقد عليهم، وقد سجن والدهم، فلما بويع الرشيد أخرجه من السجن، وقرّبه، وأعطاه الوزارة، وزاد نفوذ هذه الأسرة كثيراً، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه فقد قادوا الجيوش، وأخضعوا الثورات، وأخمدوا الفتن، فقد نُدب الفضل بن يحيى لقتال يحيى بن عبد الله بن الحسن عندما ثار في بلاد الديلم عام ١٧٦، كما سار الفضل نفسه على رأس قوة إلى بلاد الترك فدخل كابُل، وغزا بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي خدم فيه البرامكة الدولة كانوا يخدمون أنفسهم، إذ كانوا أصحاب النَفوذ والسلطان، وأهل المشورة والرأي، والمقدّمين في كل أمر، وجلساء الخليفة وندماءه، يدخلون عليه

في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدله بآخر غير أن مركزهم لم يكن ليتغيّر، فقد عزل جعفراً عن مصر عام ١٧٦، وعزل محمد بن خالد عن الحجابة وأعطاها للفضل بن الربيع عام ١٧٩.

تغيّرت أحوال البرامكة إذ تبدّل لهم الرشيد فجأةً فقتل جعفر بن يحيى، وسجن يحيى وابنه الفضل، وصادر أملاكهم وأموالهم. ولربما كان لما حلّ بالبرامكة أسباب عامة نتيجة زيادة نفوذهم حتى خافهم الرشيد، ومغالاتهم بالتبذير والمصروفات حتى فاقوا الخليفة نفسه وسبقوه، وعدم اهتمامهم بالخليفة حيث أصبحوا يدخلون عليه من غير إذن، وهذا ما جعل العامة والخاصة تحقد عليهم، وتتناولهم بالنقد بل وتتناول الرشيد نفسه الذي فسح لهم المجال، فخاف الرشيد على ملكه من نفوذهم، ومن نقمة العامة عليه، وجاء موضوع جعفر الخاص فاتخذه السبب في قتله وإنزال النكبة بأهله. فقد ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلّم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً: فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالنا يُدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك؛ والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء قد خصّني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري، حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره؛ وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا ـ قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ـ وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره؛ ولكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذكر عن أحمد بن يوسف أن ثمامة بن أشرس قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالةً إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى بن خالد أمور عبادك! أتراك تحتج بحجةٍ يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع[1].

قال: وحدثني محمد بن الفضل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[2].

وأما السبب الذي اتخذه الرشيد ذريعةً للبطش بالبرامكة فهو فيما يتعلق بجعفر بن يحيى الذي قرّبه الرشيد إليه كثيراً حتى أصبح سميره الذي لا يكاد يفارقه بل لا يكاد يستطيع مفارقته وأمين سرّه الذي لا يستطيع أن يكتم عنه سرّاً. فعندما ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن عام ١٧٦ في بلاد الديلم، ووجّه إليه الرشيد الفضل بن يحيى فأمنه، وجاء يحيى إلى بغداد فدفعه الرشيد إلى جعفر بن يحيى البرمكي فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي فسأله عن شيءٍ من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فوجّه

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) المصدر نفسه.

معه من أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقاً، وانكشف عنده؛ فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل؛ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر ـ وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً ـ وهجس في نفسه أنه قد علم بشيءٍ من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان بنفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان[1]. ويبدو أن هذا كان سبباً رئيسياً لقتله والنكبة بالبرامكة، لكن هناك أمر آخر يبدو أنه أكثر أهميةً، وهو أن الرشيد لم يكن يصبر على بعد جعفر بن يحيى إذ كان يحبه جداً، ويحب أن يكون دائماً بجانبه، وفي الوقت نفسه كان يحب أُخته العباسة بنت المهدي حيث كانت على شيء من الأدب والرأي والحكمة فكان لذلك يحب أن يحضرا مجلسه، ولما كان جعفر لا يحق له أن يرى العباسة أخت الرشيد إذ أنه أجنبي عليها لذا قال له الرشيد: أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا حضرت مجلسي على ألا تمسّها، ولا يكون منك شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوّجها منه على ذلك. فكانا يحضران مجلس الرشيد، غير أن هذا الشرط لا يكون، وما كان، فهما شابان وجرت خلوات بينهما، وأيّ منهما قد مكر بالآخر لا ندري، فالأمر واحد، وحملت العباسة من جعفر، وولدت غلاماً فخافت على نفسها من أخيها كما خاف جعفر إن علم الرشيد بذلك لذا فقد وجهت المولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، وبقي الأمر مستوراً عن الرشيد حيناً من الزمن، حتى وقع خلاف بين

---

(١) تاريخ الطبري.

العباسة وبين بعض جواريها، فأعلمت الجارية الرشيد بخبر العباسة ووليدها، فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ تتبع أمر الوليد في مكة فاستيقن الخبر فأخذته النخوة في رأسه مأخذها، وعدّ أن جعفراً قد خانه، وقرّر قتله والانتقام منه ومن أهله، وإن كان هو نفسه السبب في ذلك لما فرّط في أهله. فلما رجع الرشيد من الحج أرسل مسروراً الخادم مع جماعة إلى جعفر فأخرجوه من منزله كرهاً وقيّدوه، وأتوا به إلى منزل الرشيد فأمر بضرب عنقه، وكان ذلك في أواخر أيام شهر محرم من عام ١٨٧. كما أمر الرشيد بسجن يحيى بن خالد، وأولاده الفضل، ومحمد، وموسى وأولادهم، وأعلن أن لا أمان للبرامكة باستثناء محمد بن خالد إذ كان للخليفة ناصحاً، وصادر أموالهم وأملاكهم، ثم أخرج يحيى من السجن لكبر سنه، كما أخرج أبناء أولاده لصغرهم. ومات الفضل بن يحيى في السجن ١٩٢، كما مات أبوه يحيى من قبل عام ١٩٠.

وبايع لابنه القاسم ولياً للعهد بعد الأمين والمأمون، وسمّاه المؤتمن، وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم، أما الأمين فقد كان والي الشام والعراق، وأما المأمون فوليّ أمر المشرق من همدان إلى آخر المشرق.

وقد أشيعت الشائعات حول الرشيد، ورُوّجت التهم بصفته كان أعظم خلفاء بني العباس، وإنما توجّه التهم إلى العظماء فإذا ضعُفوا كان الصغار أقزاماً، فأشاعوا الكثير عن لهوه، وندمائه وكأسه، ووصلوا إلى زوجه زبيدة، وعرضه، وإتلافه في ماله، وإعراضه عن ملكه.

* * *

الحركات[٧٠]

لم تقم حركات واسعة أيام الرشيد، وإنما كانت حركات محلية يقوم بها والٍ أغراه سلطانه، وأطمعه نفوذه فيخرج على الخليفة ثم لم يلبث أن يهزم فيُقتل أو يُعفى عنه.

ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم عام ١٧٦، وكان يحيى نجا من معركة (فخّ) عام ١٦٩، فدعا لنفسه فبايعه أُناس من أهل الحرمين، واليمن، ومصر، وذهب إلى اليمن فأقام مدةً فيها، ودخل مصر، والمغرب وعاد إلى المشرق فدخل العراق مُتنكراً، وقصد الري وخراسان، ووصل إلى بلاد ما وراء النهر، واشتد الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك، ومعه من شيعته وأنصاره نحو مائة وسبعون رجلاً، فأقام سنتين وستة أشهر. وخرج إلى طبرستان فبلاد الديلم، وأعلن هناك نفسه، وكُثر أتباعه، فندب الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألفاً، ومعه كبار القادة. وضعف أمر يحيى إذ خاف أن يغدر به ملك الديلم. لأن الفضل البرمكي قد كاتب يحيى ورفق به واستماله، وناشده، وحذّره، وأشار عليه، وبسط أمله. كما كاتب صاحب الديلم وجعل له مليون درهم إن حمل يحيى على الصلح وطلب الأمان. وفعلاً أجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده يبعث به إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرّه ذلك، وكتب أماناً إلى يحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن علي، والعباس بن محمد، ومحمد بن إبراهيم، وموسى بن عيسى و. . . . كما وجه مع كتاب الأمان هدايا، فلما وصل هذا إلى الفضل البرمكي أرسلها إلى يحيى بن عبد الله. قبل يحيى بن

عبد الله هذا فأقبل إلى الفضل فسار به إلى بغداد، فلقيه الرشيد، ورحّب به، ومنحه مالاً كثيراً، وأجرى عليه أرزاقاً، وأنزله منزلاً طيباً بعد أن أقام عدة أيام في بيت يحيى بن خالد البرمكي، وكان يتولى أمره بنفسه، وأمر الناس أن يسلّموا عليه. لم يلبث الرشيد أن تنكّر ليحيى فسجنه عند جعفر بن يحيي البرمكي، فرقّ عليه جعفر وأطلقه، وأرسل الرشيد من أعاده إلى السجن في سرداب وكبّله، ووكّل به مسروراً الخادم، ولم يزل في سجنه حتى مات عام ١٨٠، وكثرت الروايات عن أسباب موته فمنهم من قال: جوعاً وعطشاً، ومنهم من قال: عذاباً، ومنهم من قال: انتهى أجله.

وثارت فرقة من قيس وقضاعة في مصر، فقاتلها عامل مصر يومذاك وهو إسحاق بن سليمان، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين عامل فلسطين فخمدت الفتنة وذلك عام ١٧٧هـ.

وثار أهل إفريقية عام ١٧٨ بإمرة عبدويه الأنباري، فقتل الفضل بن روح بن حاتم، وأخرج من كان بها من آل المهلب، فوجه إليهم الرشيد هرثمة بن أعين فخمدت الفتنة، بعد أن كاتب يحيى بن خالد البرمكي عبدويه رأس الحركة ودعاه إلى الطاعة وأمّنه وأمّله حتى وافق وطلب الأمان، وعاد إلى الطاعة، وقدم إلى بغداد، فوفّى له يحيى، وأحسن إليه، ووصله، وولاّه.

وثار ببلدة (نسا) من خراسان عام ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، وكثر أتباعه، ولكنه غلب فطلب الأمان من والي خراسان علي بن عيسى فأعطاه إياه عام ١٨٤، ثم عاد فخرج ثانيةً، وغلب على (نسا) و (أبيورد) و (طوس) و (نيسابور)، وزحف إلى (مرو) فهزم هناك، فمضى نحو (سرخس)، وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان فانتصر عليه عام ١٨٦ وانتهى أمره.

وثارت العصبية في الشام فكانت فتنة عمياء بين المضرية والنزارية فأرسل لهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيّار بسمرقند من بلاد ما وراء النهر لسببٍ تافهٍ، وهو الزواج من امرأةٍ بحيلةٍ فلما رفع الأمر إلى الرشيد، أمر واليه علي بن عيسى على خراسان أن يفرّق بينهما، وأن يجلد رافعاً، ويعزّره بالطواف به في أسواق سمرقند ليكون عبرةً لغيره، وسُجن رافع، فهرب من السجن، ولحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه علي إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠، وعظم أمر رافع عام ١٩١، وأطاعه أهل (نسف)، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن علي. وولّى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل علي بن عيسى عنها. وقاتل هرثمة رافعاً، وتمكّن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع وأرسله إلى الرشيد وهو في (طوس) متوجه لقتال رافع فضرب عنق بشير. واستمر أمر رافع إلى ما بعد أيام الرشيد. أما الرشيد فقد توفي وهو في طوس عام ١٩٣.

وفي عام ١٨١ تغلب الزنادقة على جرجان وعاثوا فيها الفساد.

وخرجت الخرّمية في أذربيجان عام ١٩٢ فأرسل إليهم الرشيد عبد الله بن مالك بن هيثم الخزاعي فقتل منهم كثيراً، وأسر، وسبى، فأمره الرشيد بقتل الأسارى، وبيع السبي، ففعل.

وثار رجل من بني عبد القيس فأرسل له الرشيد من قتله وذلك عام ١٩٠.

* * *

الخوارج

نشط الخوارج أيام الرشيد إلا أن حركاتهم كانت موضعيةً وذات أثر ضئيل محدود، مع العلم أن إفريقية كان فيها إمارتان للخوارج إحداهما للصفرية، والأخرى للأباضية.

خرج الفضل بن سعيد الحروري عام ١٧٠ ولكنه لم يلبث أن قُتل.

خرج عام ١٧٨ بالجزيرة الوليد بن طريف الشاري، وقتل كثيراً من أهلها، ومنهم إبراهيم بن خازم بن خزيمة الذي قُتل بناحية نصيبين، ثم توجّه الوليد إلى أرمينيا. ورجع إلى الجزيرة في العام التالي وقويت شوكته، وكثُر أتباعه، فبعث له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فالتقى به بالقرب من هيت فقتله، وقد رثته أخته الفارعة بالقصيدة المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مُورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلاّ من التقى ... ولا المال إلا من قناً وسيوف

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان شكراً لله على نصره على الوليد بن طريف، وانصرف بعد أداء العمرة إلى المدينة حيث بقي فيها إلى موسم الحج، فسار إلى مكة، وحجّ بالناس، وأدّى المناسك كلها ماشياً.

كما خرج في العام نفسه (١٧٩) في خراسان حمزة بن أترك السجستاني، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر حتى قوي أمره عام ١٨٥ فعاث فساداً في (باذغيس) من أرض خراسان، ثم غُلب، وفرّ باتجاه كابُل.

وخرج في الجزيرة أيضاً عام ١٨٠ خراشة الشيباني، فسار إليه مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي فقتله، وتتبع أعوانه من الخوارج.

وفي عام ١٨٤ خرج بالجزيرة أيضاً أبو عمرو الشاري، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى قتل.

وفي عام ١٩١ خرج رجل بسواد العراق يقال ثروان بن سيف، فوجّه إليه الرشيد طوق بن مالك، فتمكّن طوق من الانتصار عليه وقتل عامة أصحابه، وجرح ثروان، فظنه أنه قُتل، وفرّ ثروان جريحاً.

* * *

حروب الرّوم

كان الغزو في بلاد الروم لا ينقطع، وتكاد تكون أيام الصيف كلها حروباً، أما أيام الشتاء فقلما تحدث فيها الحروب لأن البرد شديد في بلاد الروم وخاصةً أن الثغور يقع معظمها في أعالي جبال طوروس حيث تتغطّى بالثلج أغلب فصل الشتاء والربيع.

سار على رأس الصائفة عام ١٧١ سليمان بن عبد الله البكاء. وقادها عام ١٧٢ إسحاق بن سليمان بن علي. واتجه الرشيد بنفسه إلى بلاد الروم عام ١٨١ وافتتح حصناً يقال له: الصفصاف. كما غزا في العام نفسه بلاد الروم عبد الملك بن صالح ووصل إلى أنقرة. وفي العام التالي ١٨٢ سار على رأس الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فوصل إلى بلدة أصحاب الكهف. وفي هذا العام سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وخلعوه، وأقرّوا أمه (ريني) على الحكم، وتلقب (أُغسطه).

وفي عام ١٨٣ خرجت الخزر من ثلمة أرمينيا على الناس فسبوا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وقيل: إن عدد السبي قد زاد على مائة ألف، فأرسل الرشيد إلى تلك الجهات خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد فأصلحوا ما أفسدت الخزر، وطردوهم من تلك الديار.

وفي عام ١٨٧ نقضت الروم العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، والذي عقده الرشيد مع الملكة (ريني)، إذ أن الروم قد خلعوها، وسملوا عينيها، وولوا عليهم (نقفور). ويقال: إنه من سلالة آل جفنة إذ من المعلوم أن جبلة بن الأيهم الغسّاني قد فرّ إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام وبقيت أسرته هناك على النصرانية. وسار القاسم بن الرشيد على

رأس الصائفة فحاصر الجيش الرومي حتى افتدوا أنفسهم بعددٍ كبيرٍ من أسرى المسلمين الذين كانوا بيد الروم يطلقونهم على أن يرجع عنهم. وبعد مدة كتب (نقفور) إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد إليّ ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه، ثم استدعى بدواةٍ وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام. ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور من الموادعة على خراجٍ يؤديه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء.

وفي العام التالي (١٨٨) خرج على رأس الصائفة إبراهيم بن إسرائيل فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج نقفور للقائه، فانهزم نقفور، وجرح ثلاث جراح، وقُتل من جيشه أربعون ألفاً.

وفي عام ١٨٩ رابط القاسم بن الرشيد في مرج دابق. وفادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى لم يبق أسير واحد.

وفي عام ١٩٠ خرج الرشيد لغزو الروم، فخرج إليه نقفور بالطاعة، ودفع الجزية حتى عن نفسه، وعن ابنه، وكان مقدار الجزية خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وطلب نقفور من الرشيد جاريةً أسرها المسلمون، هي

ابنة ملك هرقلة، فاشترط الرشيد عليه ألا يُعمّر هرقلة، وأن يدفع ثلاثمائة ألف دينار سنوياً. ورجع الرشيد، واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى من أهلها كثيراً، وقتل كثيراً.

وفي عام ١٩١ غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه، على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولّى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً. وخرج الرشيد إلى ثغر (الحدث) ليكون قريباً من الغزو. وأمر الرشيد بهدم الكنائس والأديرة، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلدان. ثم سار الرشيد في بلاد الروم فدخل مدينة هرقلة في شوال فخرّبها، وسبى أهلها، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة، والكنيسة السوداء.

وولّى الرشيد على سواحل بلاد الشام ومصر حميد بن معيوف فدخل قبرص، فسبى أهلها، وباعهم.

وفي عام ١٩٢ ولّى الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك فدخل بلاد الروم، وفتح بلدة مطمورة، ثم جرى صلح بين المسلمين والروم.

* * *

الإمارات

بدأت الإمارات المستقلة عن جسم الدولة الإسلامية تظهر، وإن كانت تعود في نشأتها إلى وقتٍ مبكر. أكثر من هذا إذ ظهرت منذ قيام الدولة العباسية وبالتحديد عام ١٤٠ بالنسبة إلى دول الخوارج، وقبل ذلك بالنسبة إلى الأندلس غير أن العباسيين كانوا يحاولون القضاء على هذه الإمارات أو الدول، لذلك كانت تُعدّ حركاتٍ قائمةً في هذه المناطق، ولكن بعد ذاك تركتها الدولة العباسية وشأنها، وأصبحت إماراتٍ منفصلةً بل أعلنت الأندلس الخلافة فيما بعد، وغدت خلافتان في أرض الإسلام، وفي هذا مخالفة شرعية إذ لا يصحّ وجود سوى خليفةٍ واحدٍ. قال عرفجة بن شريح: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ واحدٍ يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه»[١].

١ ـ الدولة الرستمية في تاهرت:

وتوفي مؤسسها عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١ أي في أوائل عهد هارون الرشيد. وخلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن، واستمر حكمه إلى ما بعد أيام الرشيد، وقد هادن والي إفريقية من قبل الرشيد، وهو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة والذي جاء إلى إفريقية بعد وفاة أخيه يزيد في نهاية عام ١٧٠ وتولى أمرها بعد ابن أخيه داود بن يزيد، ولكن روح قد مات عام ١٧٤، ثم جاء ابنه الفضل بن حاتم غير أن ثورة قامت في إفريقية وقضت على الفضل فتولّى أمر القيروان بعد ذلك

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٥٢ باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع.

هرثمة بن أعين، وقد أخرجت الثورة في إفريقية آل المهلب من المنطقة، وهادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ولاة القيروان العباسيين سواء هؤلاء أم الذين جاءوا من بعد وهم الأغالبة الذين تولوا أمر القيروان منذ عام ١٨٤.

ولقي عبد الوهاب بن عبد الرحمن حركات ضده بسبب مخالفته المذهب الأباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد. أما عبد الوهاب فقد تسلّم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علماً لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنُكّار أي الذين ينكرون تصرّف ولي الأمر بالحكم. وجرى قتال بين الطرفين كان في صالح ابن فندين فدعا عبد الوهاب إلى الهدنة لأخذ رأي أهل العلم الذين منهم من أفتى لصالح هذا، ومنهم من أفتى لصالح ذلك، وتجدّد القتال، وانتصر عبد الوهاب وقُتل ابن فندين، ولاذ جماعته بالفرار، منهم من خرج بعيداً عن المنطقة، ومنهم من اعتصم في محلتهم التي عرفت باسم «كدية النُكّار»، واستمر الخلاف طيلة أيام عهد الرشيد، وإن كان من غير المستبعد أن يكون أمراء القيروان يشجعون الحركات ضد الرستميين.

٢ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة:

وتوفي أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة عام ١٦٨، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم «أبو الوزير»، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨، وقد عرف باسم «أبو المنصور»، وقد ثارت الأباضية في أيامه في وادي (درعه) ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الأباضيون ولاة العباسيين في القيروان، وكذلك هادنهم الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجاراً بين الشمال والجنوب عبر الصحراء. وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثياً كالأباضيين.

٣ ـ الأمويون في الأندلس:

حكم عبد الرحمن الداخل الأندلس ١٣٨ ـ ١٧٢ أي أنه عاصر الرشيد

مدة عامين، وعندما توفي تولّى بعده ابنه هشام الرضا، وقد حكم الأندلس مدة ثمانية أعوام ١٧٢ ـ ١٨٠، ووقع خلاف بينه وبين أخيه سليمان الذي هو أكبر منه، وقد أخذ سليمان البيعة لنفسه في طليطلة، ولكنه هزم أمام هشام عام ١٧٤، ونفي إلى المغرب. وبعد أن وطّد هشام حكمه اتجه إلى قتال النصارى في الشمال فأرسل إليهم حملات، كما أرسل جيوشاً إلى سبتمانيا في جنوبي فرنسا.

وخلفه ابنه الحكم الربضي، واستمر حكمه حتى عام ٢٠٦، ونازعه على الحكم عمّاه سليمان وعبد الله، أما سليمان فقد كان في طنجة وعبر إلى الأندلس بقوةٍ من المرتزقة ولكنه هزم وقتل عام ١٨٤، وأما عمه الآخر عبد الله فقد كان عند الخوارج الأباضيين في تاهرت بالمغرب الأوسط فانتقل إلى الأندلس غير أنه هزم، وعفا عنه ابن أخيه الحكم، وأجبره على الإقامة في بلنسية، ويدفع له مرتباً سنوياً ضخماً، كما قامت ضده عدة حركاتٍ أولاهما في طليطلة قضى عليها بالحيلة إذ ولّى عليها عمروس بن يوسف الذي تظاهر بكره الأمير (الحكم) ودعا كبار أهل البلدة إلى وليمة بالقلعة وتخلص منهم عام ١٨١. وكانت الحركة الثانية بالعاصمة قرطبة إذ حاصر قصر الحكم أهل حي الربض لخلافٍ بسيطٍ مع جندي فأرسل سراً من أشعل النار بحي الربض، فاضطر المحاصرون أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق. وعندما انتهت الحركة أمر الأمير (الحكم) أن يهدم حي الربض، وأن يُحرث، ويُزرع مكانه، واضطر عدد من أهله إلى مغادرة الأندلس، فاتجه بعضهم إلى المغرب واستقروا عند الأدارسة هناك، وبين البربر. ووصل بعضهم الآخر عن طريق البحر إلى الإسكندرية ونزلوا فيها.

٤ ـ الأدارسة في المغرب:

فرّ إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز وقد نجا من معركة فخّ عام ١٦٩، واتجه نحو مصر، ومنها إلى المغرب حيث استطاع أن يؤسس بمساعدة السكان دولة الأدارسة عام ١٧٢،

وهي منفصلة عن المشرق، وبنى في المكان المعروف باسم (جراوة) مدينة فاس، واتخذها عاصمةً له، واستمر في حكمه حتى توفي عام ١٧٧ حيث مات مسموماً فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان جنيناً في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشؤون البربر مولى أبيه، وهو راشد، فلما قتل راشد، كفل إدريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨ وبنى مدينة العالية في المكان المعروف بدار القيطون، وهي مقابل مدينة فاس، يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو رافد من روافد نهر (سبو). وقد سكن في هاتين المدينتين الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة الربض عام ١٨١هـ، واستمر في الحكم حتى عام ٢١٣ حيث توفي بفاس.

٥ ـ الأغالبة:

أرسل أبو جعفر المنصور عام ١٤٨ إلى إفريقية الأغلب بن سالم التميمي[١] وعهد إليه بولايتها، فوصل إلى القيروان ودخلها، وتمكّن من دحر الحسن بن حرب الكندي والاستيلاء على القيروان وتخليصها منه، إلا أن الحسن بن حرب قد عاد إلى تونس وجهز حملةً ثانية استطاعت أن تقتل الأغلب. وكان للأغلب ولد عمره عشر سنوات حين قتل هو وهو إبراهيم بن الأغلب الذي سيلعب دوراً كبيراً في إفريقية، والذي يعد المؤسس لدولة الأغالبة.

رحل إبراهيم بعد مقتل أبيه إلى مصر، ودرس الفقه فيها، ثم رحل إلى المغرب، وأقام في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط.

جاء والياً على إفريقية عمرو بن حفص المهلبي عام ١٥١ فاشتدت عليه الثورات حتى قتل، واستطاع خلفه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن

---

(١) كان الأغلب بن سالم من دعاة العباسيين مع أبي مسلم، وشارك أبي جعفر المنصور في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط أثناء الاحتدام بين العباسيين والأمويين، كما شارك أبا مسلم الخراساني في القضاء على حركة عبد الله بن علي عمّ المنصور. ثم أرسله المنصور مع قائده محمد بن الأشعث إلى إفريقية، وقد أصبح والياً عليها بعدها.

المهلب بن أبي صفرة أن يقمع حركات الخوارج حتى عام ١٧٠ حيث توفي، وجاء بعده ابنه داود بن يزيد، ثم أخوه روح بن حاتم، فالفضل بن روح، وفي ١٧٨ ثار عبدويه الأنباري وقتل الفضل بن روح بن حاتم المهلبي، وأخرج آل المهلب من إفريقية.

استطاع العلاء بن سعيد والي الزاب أن يسير إلى القيروان، وأن يستردها، وأن يسلّمها إلى هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد والياً على إفريقية عام ١٧٩، وكان إبراهيم بن الأغلب مع العلاء، وتقرّب إبراهيم بن الأغلب إلى هرثمة فولاه الزاب.

أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة وهو محمد بن مقاتل العكي والياً على إفريقية فثار الشعب والجند ضده، كما ثار عليه واليه على تونس تمام بن تميم التميمي عام ١٨٣، وقد ساعد إبراهيم بن الأغلب العكي في مقاتلة تمام بن تميم، ومكّن له. فعزل الرشيد أخاه محمد بن مقاتل العكي وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب على إفريقية عام ١٨٤، وبدأ إبراهيم منذ توليه الإمارة يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين وخاصةً أن الرشيد كان مشغولاً بحروب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج، وأدارسة، وأمويين. ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب ورأى في ذلك خيراً وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائياً كباقي الإمارات.

ثار على إبراهيم بن الأغلب في المغرب الأدنى حمديس الكندي ولكنه هزم أمام ابن الأغلب. وثار أهل طرابلس عام ١٨٩ على سفيان بن المهاجر عامل إبراهيم على مدينتهم، ولكن ابن الأغلب تمكّن من إخضاعهم، وهكذا قامت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى.

- ٦ -

الأمين
محمّد بن هارُون

١٩٣-١٩٨ هـ

ولد الأمين بالرصافة في شهر شوال من عام ١٧٠ فهو أصغر من أخيه المأمون بحوالي سبعة أشهر، وبويع له بولاية العهد وهو ابن خمس سنين، وقد لقي الرشيد نقداً من هذه البيعة لفتى صغير، ولكن يبدو أن ضغطاً خضع له من زوجه زبيدة صاحبة الحظوة عنده، فهي ابنة عمه، وصاحبة دين وعقل، ومن العباسيين الذين يرون في هذا الغلام صلة لهم فهو عباسي من ناحية الأب والأم. وكانت السرعة في هذه البيعة خوفاً من نزول حادث مفاجئ بالرشيد، ومن منازعة أخيه الأكبر، فإن البيعة وهما صغيران تحلّ المشكلة. غير أن الرشيد لم يلبث عام ١٨٢ من أخذ البيعة لابنه المأمون ولياً لعهد أخيه الأمين، ثم أتبعها ببيعةٍ ثالثةٍ لابنه الآخر القاسم، وقد أطلق عليه لقب المؤتمن. وقد ولّى كلّ واحدٍ من أبنائه الثلاثة جهةً إذ ولّى المأمون المشرق، وأعطى الأمين المغرب الشامي والمصري، وولّى المؤتمن الجزيرة والثغور.

وعندما شبّ الأولاد يبدو أن الرشيد كان أميل لبيعة المأمون منه لبيعة الأمين وذلك لما رأى من جدية المأمون، وحزمه، وعزمه، وحكمته، على حين كان الأمين أميل للهو، وعدم المبالاة، والدعة. غير أن الرشيد يخضع لمؤثراتٍ أخرى سواء في بيته أم في أسرته الذين كانوا أميل للأمين لأسباب أسرية أو بالأحرى عاطفية.

ويبدو أن الرشيد أراد أن يوثّق بين أبنائه، ويؤكّد ما بينهم ولكنه كان في الوقت نفسه يزيد في البعد بينهم. فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ كان معه ولداه محمد الأمين، وعبد الله المأمون، وقواده، وقضاته، ووزراؤه، أما

ابنه الثالث القاسم المؤتمن فقد أرسله إلى منبج ومن ضمّ إليه من القواد والجند. فلما قضى الرشيد مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله من أعمال، وصيّر إليه من الضياع والغلّات والجواهر والأموال، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد، وإشهاده عليه بها الله، وملائكته، ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتّابه وغيرهم.

وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدّم إلى الحجبة في حفظهما، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، فذكر عبد الله بن محمد، ومحمد بن يزيد التميميّ، وإبراهيم الحجبي، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقوّاد والفقهاء، وأُدخلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهد عليهما جماعة من حضر، ثمّ رأى أن يُعلّق الكتاب في الكعبة، فلما رُفع ليُعلق وقع، فقيل: إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أميرالمؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، طائعاً غير مكره. إن أمير المؤمنين ولاّني العهد من بعده، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، برضىً مني وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاّه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها[1] وبريدها، وبيوت أموالها، وصدقاتها وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعده. وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضىً مني وطيب نفسي،

---

(١) الطراز: ما ينسج من ثياب للسلطان.

أنّ لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له؛ وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلّها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعةٍ، أو جعل له من عُقدة[1] أو ضيعة من ضياعه، أو ابتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلى أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دواب، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، موفّراً مسلّماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين بقرماسين[2] وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والريّ والكور التي سمّاها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب، من لدن الريّ إلى أقصى عمل خراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين. ولا يحوّل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاّه إياه هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الريّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها، ولا يشخصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يولّي عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحدٍ من عماله وولاة أموره بُنداراً[3]، ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل

---

(١) العقدة: الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً.

(٢) قرماسين: اسم بلدة في خراسان.

(٣) البندار: كلمة فارسية تعني العامل في الميناء الذي يجبي أعشار السفن.

عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحدٍ من ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتّابه وقوّاده وخدمه ومواليه وجنده؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم، ولا أحد بسبيل منهم، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقوّاده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه؛ فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغرٍ له وقماءٍ حتى ينفذ فيه رأيه وأمره.

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي همذان والكور التي سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين ممن قدم «قرماسين»، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجهٍ من الوجوه، أو بحيلةٍ من الحيل؛ صغُرت أو كبُرت، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين، والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له، والذبّ عنه؛ ما كانت

الحياة في أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا، أو حيث كانوا، أن يخالفه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله، وأنتم في حلّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدّم قبله، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدّم قبله، يحكم في ذلك بما أحب ورأى.

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليه، وأمر به، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين، ووكّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لتفُنّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم، فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً، أو غيّرتم، أو نكثتم، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مالٍ هو

اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجلٍ منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجّة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بذلك؛ وكل مملوك لأحدٍ منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حرّ، وكل امرأةٍ له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، لا مثنوية[1] فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتب عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة.

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، وصدق نيّةٍ فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفةً بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون، وولاّني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيءٍ مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع والعقد والرباع أو ابتعت منه من ذلك، ومما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحدٍ من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة، ولا يتّبع لي في ذلك ولا لأحدٍ منهم أبداً، ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً، في نفس ولا دم ولا شعرٍ ولا بشرٍ ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك، وأقرّ به وكتب له كتاباً، أكّد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله، وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على

(١) لا مثنوية: لا استثناء.

نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشّه، وأوفي بيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النواحي، أو إلى عدوٍ من أعدائه؛ خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولاّنا إياه؛ فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصّر في شيءٍ كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يولّي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي؛ فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله، ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلاّ أن يولّي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمة آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكّدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجلّ ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأةٍ هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبته طلاق الحرج؛ وكل مملوكٍ هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعليّ

المشي إلى بيت الله الحرام، الذي بمكة ثلاثين حجّةً، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً؛ لا يقبل الله منّي إلا الوفاء بذلك، وكل مالٍ لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ستٍ وثمانين ومائة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما، وحضروا كتابهما، أن يُعلموا جميع من حضر الموسم من الحاجّ والعمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك.

كما كتب الرشيد بذلك إلى عماله[1].

كان الأمين سميناً أبيض، أقنى الأنف، صغير العينين، فصيحاً، يقول الشعر. وقد تأدّب على الكسائي، وقرأ القرآن عليه، ولكنه كان يلهو بالصيد، ويكثر من إنفاق الأموال، واقتناء السودان. ويكنى بأبي عبد الله، كما كان يكنى بأبي موسى.

توفي الرشيد في الثاني من جمادى الآخرة في طوس، وهو في طريقه إلى خراسان. وكان الرشيد قد أخذ البيعة ممن معه من الجند إلى المأمون

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثامن.

على أن يكونوا معه. وكان الأمين ببغداد، أما المأمون فكان بمرو حاضرة خراسان. ولما توفي الرشيد صلّى عليه ابنه صالح، وكان أكبر ولده الذين معه، ثم كتب صالح إلى أخيه الأمين يعلمه بما حلّ، ويبايعه، ووصل الخبر إلى الأمين يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة، وكتم الخبر حتى اليوم التالي فنعى الرشيد للناس يوم الجمعة وأخذ منهم البيعة.

أما الجند الذين كانوا مع الرشيد بطوس فقد رجع بهم الفضل بن الربيع إلى بغداد.

وأما المأمون فقد استشار من معه من القادة، فأشار بعضهم بإجبار هؤلاء الجند الذين مع الفضل بن الربيع بالعودة إلى المأمون إذ أخذ الرشيد منهم البيعة له على أن يكونوا بجانبه، وأشار بعضهم الآخر بالاكتفاء بإرسال كتابٍ إليهم يأمرهم بالعودة ويسألهم الوفاء، ويحذّرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين. ومع أن بعض الوجوه قد أوهموا المأمون أن بيعة الجند بطوس للرشيد كانت البيعة للمأمون بالخلافة، غير أن المأمون قد أرسل بالسمع والطاعة لأخيه الأمين. وإن الأمين قد أقرّ لأخويه بما تحت يديهما فالمأمون على خراسان وجميع أعمالها، والمؤتمن على الجزيرة والثغور.

ثم إن الأمين قد عزل عام ١٩٤ أخاه المؤتمن عن الجزيرة والثغور، وولّى عليها مكانه خزيمة بن خازم. كما دعا لولده موسى على المنابر من بعده، ثم للمأمون والقاسم وذلك بوحي الفضل بن الربيع وتخطيطه إذ كان يخشى المأمون. فلما بلغ المأمون ذلك قطع البريد عن الأمين، وأسقط اسمه من الطّرز.

وطلب رافع بن الليث الأمان من المأمون فأمّنه فجاء إليه فأكرمه وقدّمه، وانتهت أحداث سمرقند، فرجع هرثمة بن أعين الذي كان مكلّفاً بحرب رافع فأكرمه المأمون وقرّبه، واجتمعت القادة عند المأمون فكره الأمين ذلك، وأرسل رسلاً للمأمون إلا أنّ أحدهم وهو العباس بن موسى

قد انحاز إلى جانب المأمون فرجع إلى بغداد فكان عين المأمون فيها وخاصة أنه من كبار أهل البيت ووجهاء القوم.

وألحّ الفضل بن الربيع على الأمين في أخذ البيعة لابنه موسى وقد سمّاه الناطق بالحق، فسار الأمين وراء الفضل وخلع أخاه، ومزّق الكتاب الذي أودعه أبوه في جوف الكعبة، وبدأ يدعو لولده.

وفي عام ١٩٥ عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان بالإمرة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم، وأمره بحرب المأمون، وجهّز معه جيشاً كبيراً، وخرج مشيعاً له، وتمكّن هذا الجيش من الوصول إلى الريّ فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد المأمون في أربعة آلاف، فاقتتل الطرفان فقتل علي بن عيسى بن ماهان في المعركة وانهزم أصحابه، ووصل الخبر إلى الأمين في شوال فتأثر أشدّ التأثر، وجهّز جيشاً قوامه عشرين ألفاً بإمرة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، ووجهه إلى همذان ليقاتل طاهر بن الحسين، ولكنه هُزم فلجأ وجنوده إلى همذان حيث اعتصموا فيها فحاصرهم طاهر بن الحسين، فطلبوا منه الأمان فأمّنهم، ووفى لهم، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا بأصحابه إذ داهموهم على حين غرّةٍ وقتلوا منهم عدداً كبيراً، فنهض إليهم طاهر وقاتلهم، فقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في شهر ذي الحجة، وفرّ من نجا من القتل، ووصل الخبر إلى بغداد فخاف الناس وكثرت الأراجيف.

ووجه الأمين عام ١٩٦ أحمد بن يزيد في عشرين ألفاً، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في مثلهم أيضاً لقتال طاهر بن الحسين غير أن طاهر استعمل الحيلة، وأوقع بين الأميرين فعادا من غير قتال. وعندها أمر المأمون طاهر بن الحسين أن يسير إلى الأهواز ويأخذها، ويسلّم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ففعل.

أرسل الأمين إلى الشام عبد الملك بن صالح بن علي فسار إلى أهلها، وتحبب إليهم، وأمله أن يجمع الجند لدعم الأمين، غير أن

عبد الملك لم يلبث أن مات بالرقة فتولى أمر الجند الحسين بن علي بن ماهان فعاد بهم إلى بغداد، فدعاه الأمين ليلاً فرفض الحضور وفي الصباح اجتمع عليه الناس، فأرسل إليه الأمين من يحضره فقاتلهم وهزمهم، وألبّ على الأمين، وأنكر عليه لهوه، ودعا إلى بيعة المأمون، وأصبح الرجل القوي.

ضيّق الحسين بن علي بن ماهان على الأمين، ونقله إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، كما أمر العباس بن موسى بن عيسى زبيدة أم الأمين أن تنتقل قهراً من قصرها. وقد انقسم أهل بغداد إلى قسمين، جماعة معه، وأخرى ضده، وأخيراً تغلّبت جماعة الأمين، وقبضت على الحسين بن علي بن ماهان غير أن الأمين قد عفا عنه واستوزره ولكنه فرّ منه على غفلةٍ منه فأرسل إليه الأمين من أدركه وقتله، وجددت العامة البيعة للأمين. واقترب طاهر بن الحسين من بغداد فعاد الناس إلى الاختلاف إذ خلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعت للمأمون. وحجّ في هذا العام العباس بن موسى بن عيسى من قبل المأمون، ودعا هناك له، فكان أول موسم يُدعى فيه للمأمون.

شدّد طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين الحصار على بغداد، وهرب منها القاسم بن الرشيد وعمه المنصور بن المهدي وسارا إلى المأمون فأكرمهما، وولّى أخاه القاسم جرجان، وضعف أمر الأمين كثيراً وخاصةً بعد أن وضع طاهر بن الحسين يده على الضياع والإنتاج، ودعا الأمراء إلى بيعة المأمون وقد أجابه عدد كبير منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان، وكثُر أنصار المأمون في حين لم يبقَ عند الأمين ما ينفقه على نفسه وجنده.

دخل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد عام ١٩٨ واشتد القتال فيها، وتفرّق عن الأمين أصحابه، فجمع من بقي معه، وشاورهم في الأمر، فمنهم من أشار عليه بالذهاب إلى الجزيرة والشام ومواصلة القتال، ومنهم من أشار عليه بطلب الأمان من طاهر بن الحسين فإن أخاه المأمون

به رحيم، ومنهم من رأى أن يكون طلب الأمان من هرثمة بن أعين، فسار إلى هرثمة وطلب منه الأمان فأمّنه، وركب معه في سفينة، فبلغ الخبر طاهر بن الحسين فغضب فأغرق السفينة، ونجا الأمين سباحةً، والتجأ إلى بيتٍ فسارت إليه جماعة من العجم وقتلته في البيت الذي كان فيه وذلك يوم الأحد الرابع من صفر من عام ثمان وتسعين ومائة.

كان الأمين كثير اللهو، محب الصيد، مكثر من اقتناء السودان والخصيان، تاركاً أمور الدولة، وأما ما أشيع من شربه للخمر فغير ثابت، فقد وجد أبا نواس سجيناً مع الزنادقة في سجن الرشيد وذلك في أول تولّيه الخلافة فأخرجه من السجن، فلما علم بشربه الخمر أعاده إلى السجن ثانيةً.

مَعَ الرُّوم

لـم تـحـدث حـروب واسـعـة مـع الـروم أيـام الأمـيـن، إذ كـان الـروم مشغولين بأحداثهم الداخلية كالمسلمين، فقد مات نقفور عام ١٩٣ في حربه مع البرغان بعد أن ملكَ تسع سنوات، وخلفه ابنه استبراق، وكان جريحاً، فلم يلبث أن مات بعد شهرين من حكمه، فخلفه ختنه، زوج أخته، ميخائيل بن جورجس، ثم ترك ميخائيل الحكم عام ١٩٤ بعد أن أحسّ الغدر من الروم إذ حاولوا قتله، وأصبح بعدها راهباً، وتولّى حكم الروم بعده إليون.

* * *

الحركات (٠٠)

عندما تولى الأمين الخلافة كانت حركة رافع بن الليث لا تزال قائمةً، وقد كُلّف هرثمة بن أعين بالقضاء عليها، وقد تمكّن هرثمة في بداية أيام الأمين من حصار رافع في مدينة سمرقند، ثم دخل حائطها، فلجأ رافع إلى داخل المدينة وراسل الترك فوافوه، وأصبح هرثمة بين الترك ورافع محصوراً، ثم رجع الترك فضعُف أمر رافع.. ثم راسل المأمون وطلب منه الأمان فأمّنه، فجاء رافع إليه فأكرمه المأمون وقدّمه.

وثار أهل حمص على عاملهم إسحاق بن سليمان الذي ولاّه الأمين عليهم، فانتقل إسحاق إلى بلدة السلمية، وأرسل الأمين مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ومعه عافية بن سليمان، فسجن عدداً من وجهاء مدينة حمص، وأحرق بعض أحيائها، فسأله أهل المدينة الأمان فأجابهم، وسكنوا ثم ثاروا، فضرب أعناق بعضهم.

وفي عام ١٩٥ ظهر بالشام السفياني وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودعا إلى نفسه، وقد حاصر والي الأمين على دمشق وهو سليمان بن أبي جعفر، غير أن الوالي قد تمكن من الهرب من دمشق، فأرسل الأمين إلى السفياني الحسين بن علي بن ماهان، فلما وصل إلى الرقة أقام بها، ولم ينفذ إليه.

الإمارات

بقيت الإمارات التي كانت أيام الرشيد هي نفسها أيام ابنه الأمين، فدولة الخوارج الصفرية في سجلماسة، ويحكمها أبو المنصور اليسع بن أبي القاسم.

ودولة الخوارج الأباضيين في تاهرت، ويحكمها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهي الدولة المعروفة بالرستمية، وقد قامت عليه بعض الحركات من الخوارج أنفسهم.

أما الأمويون في الأندلس فقد قوي أمرهم، وكان الحكم هناك للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف باسم الحكم الربضي.

وكانت دولة الأدارسة تحت حكم إدريس الثاني.

وفي القيروان كانت دولة إبراهيم بن الأغلب يقوى أمرها، وقد ثار عليها في تونس عمران بن مخالد التميمي عام ١٩٥، غير أن هذه الحركات لم يُكتب لها النجاح، وتوفي إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وخلفه ابنه عبد الله أبو العباس.

وجاءت أيام المأمون ولم تزل الإمارات المستقلة مقتصرةً على الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، وتتدرج في خلافها للعباسيين من الشرق إلى الغرب، فالأغالبة يعدّون عمالاً للعباسيين والخوارج يهادنون الدولة في بغداد وعمّالها في القيروان، فالأدارسة الذين يختلفون معهم حتى نصل إلى الأندلس الذين هم في عداءٍ مع العباسيين.

-٧-

المأمون

عَبدُالله بن هارُون

١٩٨ - ٢١٨ هـ

ولد المأمون في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠ في اليوم الذي توفي فيه عمه موسى الهادي، وبويع فيه أبوه الرشيد، وأمه أم ولد، وتسمى مراجل.

بويع ولياً للعهد بعد أخيه الأمين عام ١٨٢ مع أنه أكبر منه بسبعة أشهر، وبويع بالخلافة يوم الخميس ٢٥ محرم عام ١٩٨ قبيل مقتل أخيه الأمين بعشرة أيام تقريباً مع أنه قد دُعي له بالخلافة مرةً من قبل عامين، والأمين محصور في بغداد.

كان المأمون أبيض جميلاً، طويل اللحية، ضيق الجبهة، بخده خال أسود.

بعد مقتل الأمين ولّى المأمون الحسن بن سهل الجبال، وفارس، والأهواز، والبصرة، والكوفة، والحجاز، واليمن، وولّى طاهر بن الحسين الموصل، والجزيرة، والشام، والمغرب، وطلب منه أن ينتقل إلى الرقة، وعهد إليه حرب نصر بن شبث. وبقي المأمون في مرو وكأنه رمز لأمير المؤمنين، والولاة الكبار يرسلون العمال عنهم إلى الأمصار، ويتصرفون بشؤون البلاد، وهذا ما أضعف هيبة الحكم، وأطمع فيه، ما دام المسؤولون عنه ليسوا من العباسيين. كما طلب المأمون من هرثمة بن أعين أن يرتحل إلى خراسان.

وجاء الحسن بن سهل إلى بغداد ليتولّى ويرسل عماله منها. وحدثت حركات في بغداد نقمة على الحسن بن سهل الذي كان بالمدائن، ونقمة لما حدث من موت هرثمة بن أعين في السجن بشكلٍ غامضٍ فيه كثير من

الشائعات، وأخرجوا علي بن هشام والي الحسن على بغداد، وكما شارك في هذه الأحداث زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي كان بالسجن وأفلت منه.

وراود أهل بغداد المنصور بن المهدي على الخلافة فأبى عليهم، وطلبوه على الإمارة في بغداد باسم المأمون فوافق على ذلك فأمّروه عليهم.

وبايع المأمون ولياً لعهده علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسمّاه الرضا من آل محمد، وطلب من جنده طرح السواد ولبس الخضرة فأغضب ذلك آل العباس، فبايع أهل بغداد عمّ المأمون إبراهيم بن المهدي وسمّوه المبارك، وبايعوا من بعده ولياً لعهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون، وذلك في أول يوم من عام ٢٠١.

وأخبر المأمون بأسباب ما حدث من ترك أمر الدولة للحسن بن سهل ولأخيه الفضل بن سهل الذي ينقل له الأخبار مشوهةً غير صحيحة، وبُعده من مركز حكمه، فكان أن جاء إلى بغداد عام ٢٠٢، وقُتل الفضل بن سهل بظروفٍ غامضةٍ، وتزوج المأمون بوران ابنة الحسن بن سهل، كما زوّج ابنته أم حبيب لعلي الرضا، وابنته الثانية أم الفضل لمحمد بن علي بن موسى.

ومات علي الرضا فجأةً، وهو مع المأمون، أثناء قدومهم إلى بغداد، وعند مرورهم بطوس، فدفنه جانب أبيه الرشيد، وهو الذي صلّى عليه، وكاتب الحسن بن سهل وأهل بغداد بأن السبب الذي نقموا عليه قد زال بوفاة علي الرضا.

واختلف أهل بغداد ثانيةً، وانتصر خصوم إبراهيم بن المهدي فخلعوه، فاختفى، وبايعوا للمأمون، وكتب المأمون لطاهر بن الحسين أن يوافيه بالنهروان، فترك طاهر الرقة وسار إليه.

أما هرثمة بن أعين فعندما انتهى من أبي السرايا أرسل له المأمون

كتاباً يوليه فيه الشام أو الحجاز، ولكنه أحب المسير إلى المأمون، فسار إليه إلى مرو، وكان الفضل بن سهل قد أوغر عليه صدره فاتهمه بتحريض أبي السرايا الذي لم يكن إلا أحد رجاله، وأنه كان في الواقع بجانبه، فلما وصل هرثمة إلى مرو وبّخه المأمون وبكّته ثم سجنه، وبعد أيام مات بالسجن ـ والله أعلم ما سبب موته ـ.

ودخل المأمون بغداد فولّى أخاه صالح بن الرشيد على البصرة، وولّى عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب على الحرمين. وأعطى طاهر بن الحسين ولاية خراسان من بغداد إلى أقصى مشرق الدولة الإسلامية. وولّى يحيى بن معاذ الجزيرة، وعيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيا وأذربيجان وكلفه بمحاربة بابك الخرّمي، وأما مصر فكانت للسريّ بن الحكم. وولى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله مكانه على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث، وعندما مات يحيى بن معاذ عام ٢٠٥ أصبح عبد الله والياً على الجزيرة.

وتوفي طاهر بن الحسين فجأةً عام ٢٠٧ فتولّى ابنه طلحة المصر مدة سبع سنوات، وقيل باسم أخيه عبد الله، وعندما توفي طلحة، انتقل عبد الله إلى مرو. وكان أحمد بن أبي خالد يساعد طلحة في خراسان ويقوم له بالأمر.

وظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي عام ٢٠٩ متخفياً بلباس امرأةٍ، كما ظفر ببعض الذين بايعوه، وتكلم الحسن بن سهل بإبراهيم فعفا عنه المأمون، ولكنه قتل بعض أنصاره.

وأظهر المأمون عام ٢١٢ القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على سائر الصحابة، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ. وفي عام ٢١٨ حدثت المحنة للعلماء بسبب القول بخلق القرآن،وقد تعرّض عدد منهم للتعذيب ومنهم الإمام أحمد بن حنبل.

وبايع من بعده لأخيه المعتصم أبي إسحاق محمد بن الرشيد. وبينما هو في بلاد الروم إذ أدركته الوفاة في ٢٥ محرم من عام ٢١٨ فدفن في طرسوس.

الحركات

لا شك في أن الخلاف على السلطة يقلّل من هيبة الحكم، ويدع المجال لكلّ طامعٍ في أن يُظهر نفسه، ولكلّ من يُفكّر بالإمرة أن يدعو لنفسه، وأكثر من هذا فيما إذا كان الخلاف بين جماعة الحكم أو أفراد الأسرة الحاكمة إن كان الحكم وراثياً. فلما وقع الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون شجّع عدداً في الظهور وقيادة حركات تناوئ السلطة.

ولا شك أن الحركات التي قامت أيام المأمون بل التي تقوم في كل وقت تختلف في دعوتها، وشعارها، وأهدافها، وزعامتها. ولما كان المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية ينقاد للإسلام وإلى دعوته وشعاره وهدفه لذا فإن الزعماء يتفقون في هذه الأمور ولكنهم يختلفون فيمن يدعون له، فمن يجد في نسبه مجالاً لالتفاف الناس حوله يدعو علناً لنفسه، ومن لم يجد يختفي وراء أسماء موهومة أو غير ظاهرة.

١ ـ ثار الحسن الهِرْش يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد جبى الأموال، وأغار على التجار، ونهب القرى، واستاق المواشي وذلك عام ١٩٨، وعاث في الأرض فساداً تحت شعار هذه الدعوة، وسار إليه أزهر بن زهير بن المسيب فقتله في شهر المحرم من عام ١٩٩، ولم تدم هذه الحركة أكثر من شهرين، ولكن كان لها أثر إذ كانت مجالاً للاختفاء تحت أسماء غامضةٍ والانطلاق من ورائها، كما كانت مجالاً لادعاء نسبٍ كاذبٍ كي ينقاد له الناس وغالباً ما يكون نسباً لآل البيت.

٢ ـ وفي الكوفة نقم على المأمون محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا

نقم عليه لسوء تصرفه، ولتملك الفضل بن سهل وأخيه الحسن من دون بني هاشم، وكان قائده السري بن منصور والمعروف بأبي السرايا. وكان عامل الحسن بن سهل على الكوفة سليمان بن أبي جعفر المنصور، ويقوم مقامه خالد بن محجّل الضبي. وقد أخرج ابن طباطبا عامل العباسيين على الكوفة وسيطر على المنطقة.

أرسل الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف مقاتل فهزموا أمام أبي السرايا الذي استولى على ما كان مع الجيش العباسي من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ، وفي اليوم التالي مات ابن طباطبا فجأةً، ويقال: إن أبا السرايا قد سمّه ليستبد بالأمر ـ والله أعلم ـ. وأقام أبو السرايا فتًى صغيراً مكان ابن طباطبا هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبقي هو يسيّر الأمور. وكان أبو السرايا من قبل من رجال هرثمة بن أعين.

سار عبدوس بن محمد بن أبي خالد في أربعة آلاف مقاتل إلى أبي السرايا فهُزم الجمع وقُتلوا كلهم. ودخل أبو السرايا البصرة وواسط، واتجه نحو المدائن فدخلها، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث هزم فيها وأُخرج منها.

وهاج الطالبيون في الكوفة وانطلق محمد بن محمد بن زيد على رأس الجموع إلى دور بني العباس في الكوفة، فانتهبوها، وأحرقوها، وأخرجوا بني العباس من مدينتهم.

ووجّه أبو السرايا حسين بن الحسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلى مكة ليأخذها ويقيم للناس الحج، فلما وصل إلى ضواحي مكة لم يجرؤ على دخولها فحجّ الناس عامهم بلا إمام إذ خرج من مكة واليها العباسي داود بن عيسى، ولم يرغب في قتال في بيت الله الحرام، واتجه نحو العراق. وبعد الموسم دخل الحسين بن الحسن الأفطس بعد أن شجّعه بعض الطالبيين فاستولى على مكة واستقرّ فيها.

ووجّه أبو السرايا أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فدخلها دون قتال.

وفي عام ٢٠٠ توجه هرثمة بن أعين إلى أبي السرايا فدارت الدائرة على هرثمة، ثم كانت له، وفرّ أبو السرايا من الكوفة، وسار إلى واسط فهُزم أيضاً هرثمة هزيمة نكراء، وفرّ مع من بقي معه يريد بلدة رأس العين، وفي الطريق قُبض عليهم فأخذوا إلى الحسن بن سهل فقُتلوا.

أما البصرة فبقيت بيد زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عُرف باسم زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين في البصرة ولكنه هُزم أيضاً، وأُخذ أسيراً فسُجن في بغداد.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس فقد كرهه أهل مكة لما أساء ولما أقام من ظلم، وحين رأى الطالبيون انصراف الناس عنهم ولّوا عليهم محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على كرهٍ منه إذ كان مخالفاً لتصرّف أهل بيته، محبوباً عند الناس، وهو من أهل العلم والفضل، أخذ العلم عن أبيه جعفر الصادق - رحمه الله - وأطلقوا عليه اسم أمير المؤمنين، ولم يكن له من الأمر شيء، وإنما المتصرف بشؤون البلد هو ابنه علي والحسين بن الحسن الأفطس، والظلم قائم.

وجاء إسحاق بن موسى من اليمن مغادراً لها. ومرّ على مكة فقاتل الطالبيين أياماً ثم كره الحرب، فتركهم وسار نحو العراق فجاءته نجدة فرجع إلى مكة فهزم الطالبيين ودخل مكة وتفرّق الطالبيون في البلاد. ولكن عاد محمد بن جعفر، وأعلن خلع نفسه، وجدّد بيعته للمأمون، واعتذر مما كان قد حدث منه.

٣ - وخرج في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد سار إليها من مكة عندما بلغه خروج أبي السرايا في الكوفة، ولما وصل إليها غادرها واليها إسحاق بن

موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وفعل كما فعل عمه داود بن عيسى في مكة. ولما سيطر على اليمن أرسل أحد أحفاد عقيل بن أبي طالب ليقيم للناس الحج، ولكنه لم يجرؤ على دخول مكة لوجود أبا إسحاق محمد بن الرشيد فيها، ولذا فقد اعترض الحجاج وسلبهم. . . فأرسل إليه أبو إسحاق من قتله وأخذ منه ما سلب فأعاده إلى الحجاج، وعاد بقية جمعه إلى اليمن.

٤ ـ وثب أخو أبو السرايا عام ٢٠٢ بالكوفة فبيّض، ولكنه قتل بأول لقاء، وأرسل رأسه إلى إبراهيم بن المهدي في بغداد.

٥ ـ خرج في بغداد المطوّعة بزعامة خالد الدريوش، وسهل بن سلامة الأنصاري ضد الفساق والشطّار الذين كثر بلاؤهم، وانتشر فسقهم، وعمّ اعتداؤهم.

٦ ـ تحرّك الخوارج بإمرة مهدي بن علوان فسار إليهم أبو إسحاق محمد بن الرشيد فهزمهم.

٧ ـ خرج عام ٢٠٧ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد (عك) باليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وكان خروجه بسبب سوء تصرف العمال في تلك الجهات، فأرسل له المأمون دينار بن عبد الله، وكتب معه كتاب أمان لعبد الرحمن، فحضر دينار الموسم، واتجه إلى اليمن، فلما وصل إلى تلك الجهات أعطى كتاب الأمان لعبد الرحمن، فقبل ذلك منه، وأقبل إليه، وسار معه إلى بغداد.

٨ ـ وفرّ الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى بلاد كرمان، وتحصّن بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فقبض عليه، وأرسله إلى المأمون، فعفا عنه، وذلك عام ٢٠٨.

٩ ـ وثار نصر بن شبث العقيلي، وكان أسلافه من رجالات بني أمية، ونقم على العباسيين، لانصرافهم عن تقديم العرب، حسبما ارتأى، فلما مات هارون الرشيد وحدث الخلاف بين الأمين والمأمون زادت نقمته،

فعندما بويع المأمون رفض بيعته، ثار في (كيسوم)[1] شمالي حلب حيث كان يقيم وتغلّب على ما جاورها من البلدان، وملك (سُمَيْساط)[2]، وانتقل إلى الجانب الشرقي من الفرات، واجتمع عليه كثير من الأعراب، وقوي أمره، وحاصر حران عام ١٩٩، وحاول أن يتقرّب إليه الطالبيون، فلم يقرّهم على رأيهم، كما رفض البيعة لبعض أفراد بني أمية. وكان عبد الله بن طاهر في الرقة مكلّفاً بحربه حتى عام ٢٠٤، ثم أصبح عبد الله والياً على الجزيرة عام ٢٠٥، ومكلّفاً بالمهمة نفسها، وطالت حرب نصر، حتى ضيّق عليه عبد الله وحصره عام ٢٠٩، وأعطاه المأمون أماناً فوافق ضمن شروط، منها ألا يطأ بساط المأمون، فرفض الخليفة شرطه، واشتد عبد الله بن طاهر في حربه، وطال حصاره في كيسوم، وانتهى أمره بالاستسلام عام ٢١٠، فسيّره عبد الله إلى المأمون، وهو ببغداد، فدخلها في صفر عام ٢١٠.

١٠ ـ وخرج في مصر عبيد الله بن السريّ فلما انتهى عبد الله بن طاهر من قتال نصر بن شبث وجهه المأمون إلى مصر، وتمكّن من هزيمة ابن السريّ وحصاره في الفسطاط، وإرغامه على الاستسلام والموافقة على طلب الأمان. وسار عبد الله بعدها إلى الإسكندرية وقد غلب عليها بعض الأندلسيين الذين انتقلوا من الأندلس بعد موقعة الربض، فآذنهم بالحرب إن لم يُعلنوا الطاعة، ثم اتفق معهم على أن يخرجوا إلى إحدى بلاد الروم وليس إلى البلاد الإسلامية، وأن يقيموا فيها وفعلاً فقد خرجوا إلى جزيرة كريت (إقريطش)، واستقروا فيها بعد أن غلبوا عليها، وذلك عام ٢١١.

١١ ـ وخلع أهل (قم) الطاعة مستكثرين ما عليهم من خراج فأرسل إليهم علي بن هشام فأخضعهم وهدم سور (قم).

---

(١) كيسوم: من أعمال سميساط فيها حصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شبث.

(٢) سُمَيْساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن.

١٢ ـ وفي عام ٢١٣ خرج في مصر عبد السلام، وابن جليس، فسار إليهم عام ٢١٤ المعتصم أبو إسحاق بن الرشيد، وقبض عليهما وقتلهما.

١٣ ـ وفي السند خالف بشر بن داود بن يزيد المهلبي عام ٢١٣ فولّى المأمون على السند غسّان بن عبّاد فاستأمنه بشر عام ٢١٦ فأمّنه، وعفى عنه.

١٤ ـ وخرج عام ٢١٤ بلال الضبّابي الشاري فوجه المأمون إليه ابنه العباس ومعه علي بن هشام، وهارون بن محمد بن أبي خالد، واستطاع هارون أن يقتل بلالاً.

هذه الحركات الكثيرة التي قامت أيام المأمون إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف هيبة الحكم الذي نتج عن الخلاف بين الأخوين على السلطة، ثم بقاء المأمون مدة من الزمن بعيداً عن مركز الحكم في مرو الأمر الذي أطمع الكثير من الطامحين بالمخالفة وعدم الطاعة، وإن قوي الحكم نسبياً عندما رجع المأمون إلى بغداد إذ بدأ يتعرف على الأوضاع بنفسه وعلى قرب منها بينما كانت تصل إليه كثير من الأمور مغلوطةً أو تخفى عنه عن طريق الحسن بن سهل.

١٥ ـ وأعظم الحركات التي قامت أيام المأمون هي حركة بابك الخرميّ الذي كان فقيراً وضيعاً إذ مات أبوه وهو صغير، وقد يكون مجهول النسب، وعمل راعياً لمساعدة أمّه. هذه النشأة قد أثرت على نفسية بابك وجعلته يحقد على مجتمعه وعقيدته. وعمل خادماً بعد ذاك عند «جاويذان بن سهرك» فأخذ عنه بعض الأفكار الخرّمية التي تقوم على العقيدة بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء، وقد تكون هذه الأفكار وجدت لها مكاناً في نفسية بابك السيئة، والتي تحمل حقداً على الناس. وعندما مات «جاويذان بن سهرك» ورثه بابك بتدبيرٍ وتخطيطٍ من زوجة «جاويذان» التي تزوجت بعد ذلك بابك.

وجد بابك الخرّمية على شيءٍ من القوة فتحرّك عام ٢٠١، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مرو فعندما جاء إلى بغداد أرسل الولاة وبعث الجيوش لقتال بابك، وحدث قتال بين يحيى بن معاذ والي الجزيرة وبين بابك عام ٢٠٤ ولم يظفر أحدهما بالآخر. ومات يحيى عام ٢٠٥، واستمر قتال بابك من قبل والي أذربيجان وأرمينيا عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملةً إلى الخرمي استمر تجهيزها سنةً كاملةً، ولكنه هُزم.

وولّى المأمون على أذربيجان وأرمينيا زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك وذلك عام ٢٠٩ فتمكّن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولّى المأمون على أذربيجان إبراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، وأرسل المأمون عام ٢١٢ محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك فتمكّن بابك من محمد بن حميد وقتله عام ٢١٤، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً. وقد رثاه أبو تمام في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر	فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر

وفيها يقول:

ألا في سبيل الله من عُطلت له	فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
تُوفِّيت الآمال بعد محمّدٍ	وأصبح في شُغلٍ عن السفر السفر
فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً	تقوم مقام النصر إن فاته النصر
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجى	لها الليل إلاّ وهي من سندسٍ خضر

وقوي أمر بابك، وبعث له المأمون عام ٢١٨ إسحاق بن إبراهيم غير أن المأمون قد توفي، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه إسحاق على الخرّمية، إلا أن أمرهم بقي قوياً فجاء المعتصم ليتابع ما بدأ به المأمون وقد حصل على ما يريد.

الفتوحات

حدثت فتوحات قليلة أيام المأمون، وبالأصل فإن الفتوحات أيام الدولة العباسية تعدّ محدودةً وعلى نطاقٍ ضيقٍ، بل تمّ توقف الفتوحات الواسعة منذ أواخر الدولة الأموية.

فتح والي طبرستان عام ٢٠٢ (اللاز) و (الشيزر) من بلاد الديلم، وأصبحت هاتين المنطقتين ضمن أرض الدولة الإسلامية منذ ذلك اليوم.

وفتح أحمد بن أبي خالد (أشروسنة) في بلاد ما وراء النهر عام ٢٠٧.

أما الروم فقد بقوا يعانون من مشكلاتهم الداخلية. في عام ٢٠٠ قتل الروم ملكهم إليون، وأعادوا ميخائيل بن جورجس حاكماً عليهم مرةً ثانيةً، وبعد أن حكم إليون ست سنوات، وبقي ميخائيل ملكاً حتى توفي عام ٢٠٩، فخلفه ابنه تيوفيل بن ميخائيل، فلما قوي أمره كان بابك الخرمي قد اشتد ساعده في منطقة أذربيجان القريبة من بلاد الروم، وهذا ما أخاف المأمون من أن يحدث تعاون بين العدوين اللدودين للإسلام هذا من جهة ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد كان المأمون قد انتقل إلى بغداد وتعرّف على حالة البلاد بشكل جيد لذا فقد رغب أن يقاتل الروم لتقوى هيبة المسلمين في نظرهم، ويمنعهم من مدّ يد المساعدة لبابك الخرمي، ولينصرف الناس عن المشكلات الداخلية بتوجيههم نحو الخارج.

سار المأمون بنفسه لحرب الروم عام ٢١٥ عن طريق بغداد ـ الموصل ـ منبج ـ دابق ـ إنطاكية ـ المصيصة ـ طرسوس، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، وفتح حصن «قره» عنوةً وهدّمه، ثم دخل حصن «ماجدة» وعفا عن أهله، وخرج من بلاد الروم إلى دمشق.

وعاد عام ٢١٦ إلى غزو بلاد الروم، وربما كان الغزو في هذه المرة بسبب اعتداء الروم على أهل طرسوس والمصيصة، وخرج المأمون من بلاد الروم إلى دمشق ومصر.

وغزا الروم أيضاً عام ٢١٧، كما وجه ابنه العباس لحرب الروم عام ٢١٨، كما انطلق هو بنفسه على رأس جيش، وأدركته المنية في بلاد الروم حيث نُقل إلى طرسوس ودفن فيها.

ويبدو أن المأمون قد شعر ما آل إليه العرب من رفاهيةٍ فركنوا إليها وتركوا القتال بل إن ذلك قد أضعف عندهم روح الجهاد، كما أن الفرقة قد عصفت ريحها عليهم فمزّقتهم، وأطمعت بعضهم بالمراكز فشجّع ذلك المتمردين وقوّى أمرهم، وأمر الفرس كان قريباً من أمر العرب إضافةً إلى أن بعضهم، وإن كانوا قلةً، لا تزال أفكار المجوسية تراودهم، كما تراودهم فكرة الدولة الفارسية القديمة وأمجادها ـ على حدّ زعمهم ـ لذا فقد بثّوا بعض أفكارهم واستغلّوا بعض أبناء جنسهم باسم العصبية أحياناً، وباسم المعرفة والبساطة أحياناً أخرى، لذا فقد طلب المأمون من أخيه المعتصم أن يجلب الجند الأتراك إذ كانوا على درجةٍ من القوة لم تُفسد طباعهم الرفاهية بعد، كما لم تمزّقهم الخلافات إلى ذلك الحين.

ويمكن أن نعدّ من الفتوحات ما تمّ في بلاد النوبة، والبجاة، وكان النوبيون النصارى قد وقفوا في وجه الفتوحات الإسلامية، وعقدوا صلحاً مع المسلمين، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الصلح، فقاتلهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٣١هـ وأجبرهم على عقد صلح جديدٍ. ثم تجمّعوا من جديد عام ١١٨ للوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي هادنهم إذ كان مشغولاً بأحداث إفريقية. ولكن هؤلاء النوبيين والبجاة لم يحفظوا هذا العهد وكثُرت تعدّياتهم على منطقة أسوان، وزاد أذاهم أيام المأمون فقاتلهم، وعقد معهم عهداً جديداً عُدّت بلادهم ضمن أرض الدولة الإسلامية، وأهم شروط هذا العهد:

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين

دهلك[1] وباضع[2] مُلكاً للخليفة، وأن يكون كنّون بن عبد العزيز ملكاً على البجاة.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجاة كل عام الخراج على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل وثلاثمائة دينار.

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوءٍ، ولا يُعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مُقيماً أو مُجتازاً أو حاجّاً، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم.

٦ ـ إذا نزل البجاة صعيد مصر مُجتازين أو تُجّاراً فلا يُظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[3].

كما فتحت جزيرة صقلية في عهد المأمون على يد الأغالبة ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

* * *

---

(١) دهلك: جزر في البحر الأحمر مقابل ميناء مصوع الإريتري.

(٢) باضع: ميناء قديم جنوب مصوع.

(٣) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الثاني.

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في مغرب الدولة الإسلامية، وإنما كانت استمراراً لما حدث في عهد أسلاف المأمون.

١ ـ الدولة الرستمية:

كانت دولة الخوارج الأباضيين في تاهرت تحت حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبقي يحكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٨ أي إلى آخر أيام هذه الدولة.

٢ ـ دولة بني مدرار:

كانت دولة بني مدرار، وهم من الخوارج الصفرية، تحت حكم أبي المنصور اليسع بن أبي القاسم، وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه مدرار بن أبي المنصور، وتزوج ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الأباضية السابقة الذكر، وأنجب منها ولداً أسماه ميموناً، وعرف باسم ميمون ابن الرستمية وذلك لأن مدراراً كان له ولد آخر يحمل الاسم نفسه «ميمون» ومن زوجة ثانية اسمها (بقية) لذا قيل له ميمون بن بقية. وقد حدث الخلاف بين هذين الأخوين فيما بعد.

٣ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان حاكم الأندلس أيام المأمون الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف بالربضي، وتولّى الحكم عام ١٨٠ وبقي في الحكم

حتى عام ٢٠٦، وخرج عليه عمّاه واستوليا على طليطلة وبلنسية، فحاربهم الحكم، واسترد البلاد التي استوليا عليها. واستغل النصارى في الشمال هذا الخلاف وهاجموا أرغونة إلا أن الحكم استطاع أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة واستنجد بشارلمان ملك الفرنج غير أنه فشل في ثورته.

ولما توفي الحكم عام ٢٠٦ خلفه ابنه عبد الرحمن الذي عرف باسم عبد الرحمن الأوسط، وفي عهده استتب الأمن، وساد النظام فانصرف إلى العلم والبناء والاهتمام بشؤون الدولة، كما اعتنق في أيامه الإسلام عدد كبير من النصارى الإسبان. ومع الحرية والأمن التي عاش بهما النصارى إلا أنه قد نشأت عندهم حركات الاستخفاف وهي شتم رسول الله ﷺ، والكلام السيء عن كتاب الله القرآن وذلك بتحريض بعض رجال الدين.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط هاجم أمير ليون وبعض أمراء نصارى في الشمال البلاد الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء.

٤ ـ الأدارسة:

كان همّ إدريس الثاني حرب الصفرية من الخوارج، وقد توفي عام ٢١٣، وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده اختلف الأدارسة إذ نازعه أخوه عيسى بن إدريس وكان والياً على أزمور، فأراد أن يستعين عليه بأخيه القاسم بن إدريس والي طنجة غير أن القاسم قد رفض ذلك، فاستنجد بأخيه عمر والي مكناس فساعده، وهزم أخويه اللذين في أزمور وطنجة.

٥ ـ الأغالبة:

تولى حكم الأغالبة في القيروان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وهو المعروف باسم عبد الله الأول، والمكنى بأبي العباس، وكان

سيء السيرة، وزاد في الضرائب، وملّ الناس حكمه حتى أهله وعشيرته، وتوفي عام ٢٠١، وخلفه أخوه زيادة الله بن إبراهيم أبو محمد الذي قضى ست سنوات آمناً هادئاً، وفي سنة ٢٠٧ ثار عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وحاصر مدينة باجه فسيّر إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة[١].

وفي عام ٢٠٨ ثار على زيادة الله بتونس منصور بن نصير فأرسل له جيشاً بقيادة محمد بن حمزة فهزم، فبعث له جيشاً آخر بقيادة الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهدّد الجيش بالقتل إن هُزم فهُزموا فخافوا من العودة إلى العباسية فالتحقوا بالثائر منصور، واستولوا على عدة مدن.

وسار منصور إلى القيروان وحاصرها ولكنه هُزم، وعاد منصور ثانيةً إلى حصار القيروان عام ٢٠٩، ولم يبقَ تحت يد زيادة الله سوى قابس، والساحل، وطرابلس، وقد ضرب منصور السكة باسمه، ولم تنته ثورة منصور إلا عام ٢١١ حيث اختلف منصور مع قائده عامر بن نافع الأمر الذي مكّن لزيادة الله.

وفي عهد زيادة الله فتحت جزيرة صقلية.

سبق أن غزا المسلمون جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، يوم كان والي مصر وإفريقية معاوية بن حديج، وكان الغزو بقيادة عبد الله بن قيس الفزاري.

ثم غزا المسلمون الجزيرة ثانيةً عام ١٠٣ أيام يزيد بن عبد الملك إذ سار إليها محمد بن إدريس الأنصاري وقد غنم كثيراً.

وغزا المسلمون في إفريقية صقلية عام ١٢٢، واستولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري على مدينة سرقوسة على ساحل الجزيرة الشرقي.

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ـ الجزء الخامس.

وغزاها أيضاً عبد الرحمن بن حبيب عام ١٣٠ ولكن أقدام المسلمين لم تثبت إلا أيام الأغالبة.

ففي سنة ٢١١ عيّن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني على جزيرة صقلية قسطنطين البطريق، فاستعمل قسطنطين هذا على الأسطول رجلاً رومياً اسه فيمي، فأغار فيمي على سواحل إفريقية ونهبها، وبقي مدةً فيها، ولما وصل نبأ هذه الغارة إلى امبراطور الروم كتب إلى عامله على صقلية قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي، ولما بلغ الخبر فيمي أخبر أصحابه وأثارهم فاتجهوا إلى صقلية مُغاضبين ومُخالفين واستولوا على سرقوسة، وسار إليهم قسطنطين فهُزم إلى مدينة قطانيا شمال سرقوسة، فتبعه جيش أخذه وقتله، ونودي بفيمي ملكاً على الجزيرة، ثم ثار عليه أحد عمّاله على بعض نواحي الجزيرة، ووالي «بلرم»، وساروا إليه، واستولوا على سرقوسة ففرّ منهم، واتجه إلى إفريقية وأرسل إلى زيادة الله يستنجده بحكم الجزيرة.

جهز زيادة الله جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات[(١)]، فانتصر المسلمون، ثم جاءت نجدات من الروم إلى نصارى صقلية، كما انقلب عليهم فيمي، وحلّ الوباء بالمسلمين، ومات أميرهم أسد بن الفرات، لذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا داخل الجزيرة.

ولّى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، وجاءتهم نجدة من القيروان، كما وصلت إلى الجزيرة سفن من الأندلس فساعدت المسلمين، فحاصر المسلمون مدينة «بلرم» عام ٢١٥، ورغم عودة الأندلسيين فقد تمكّن المسلمون من فتح مدينة «بلرم» عام ٢١٦، وتوفي المأمون ولا يزال الفتح في جزيرة صقلية.

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله: ولد عام ١٤٢ بحران، وأصله من خراسان. رحل أبوه في جيش ابن الأشعث إلى القيروان فحمله معه وهو طفل، فنشأ بها. ثم بتونس، ورحل عام ١٧٢ إلى المشرق في طلب الحديث، ثم عاد إلى القيروان، وولي قضاءها عام ٢٠٤، وهو من أصحاب مالك وله مصنف «الأسدية» في فقه المالكية.

-٨-

المعتَصِم

محَمّد بن هَارُون الرَشيد

٢١٨ - ٢٢٧هـ

ولد محمد المعتصم بن الرشيد ببغداد في العاشر من شهر شعبان من عام تسعة وسبعين ومائة. وهو أحد ستة أولاد للرشيد كل منهم يدعى محمداً، ويُكنّى المعتصم أبا إسحاق. كان مربوعاً، أبيض مشرّباً بالحمرة، حسن العينين. . . ضعيف الكتابة أقرب إلى الأمية، قوياً، شجاعاً، له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب. أمه تدعى: «ماردة» أم ولد، ومن مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية.

ولي الخلافة في الثاني عشر من شهر رجب عام ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، وكان قد أوصى له بحضور ابنه العباس بن المأمون، وقد سعى بعض الأمراء في ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس وقال: إني قد بايعت عمي المعتصم. ورجع المعتصم إلى بغداد من طرسوس بعد دفن أخيه.

كان على المعتصم أعمال جسام منها قتال بابك والقضاء عليه، وقد تمكّن من ذلك، ومنها حرب الروم وتأديبهم على مناصرتهم أعداء الدولة وخاصةً بابك، وقد استطاع ذلك.

واستخدم المعتصم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد، وتضايق الناس منهم، حتى اضطر أن يُقيم مدينة سامراء في مكان «القاطول» حيث كان يصيف الرشيد أحياناً أو يقضي بعض وقته، وهي إلى الشمال من بغداد على بعد مائة كيلو متر منها، وانتقل إليها عام ٢٢٠. ولعلّ من الأمور التي استدعت المعتصم إلى زيادة الجند الأتراك قضية ابن أخيه العباس بن المأمون إذ ندم على ما يظهر على هذه البيعة بعد أن لامه

عدد من الأمراء والقادة، وحرّضه بعضهم على المخالفة والفتك بعمّه وخاصةً عندما كان معه في طريقهما إلى عمورية، غير أن العباس رفض ذلك كي لا يحرم المسلمين من الغزو، وفي العودة حرّضه بعض الأمراء للفتك بعمّه في بعض الفجاج فأحسّ المعتصم بذلك فقبض على العباس وقيّده وسجنه، وحقق في الموضوع حتى أحاط بكل دقائقه، ثم قتله ومن كان معه في هذه القضية، وربما أكثر المعتصم بعدها من جلب الأتراك إذ أن عدداً من الأمراء بدا عليه الخوف، ولم يعُد يأمنهم.

وغضب المعتصم على قائده الإفشين بما وصل إليه من تشجيعه لمازيار، كما اتُهِم أنه من وراء «منكجور»، وتغيّر فلما شعر الإفشين بهذا التغيّر، فكر بالفتك بالمعتصم وقوّاده بالسمّ، كما فكر بالفرار إلى أرمينيا، ومنها إلى بلاد الخزر، فاستدعاه وحبسه وذلك في عام ٢٢٥، ولم يلبث أن مات الأفشين في السجن عام ٢٢٦. وأما ابنه الحسن بن الأفشين فقد كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر أن يحتال عليه، فكتب عبد الله بن طاهر للحسن بولايته على المشرق مكان نوح بن أسد، وكتب إلى نوح يأمره أن يعتقل الحسن عندما يأتي إليه، وكانت ضغائن بين نوح والحسن. وسار الحسن بن الأفشين إلى المشرق ليتولى أمره من نوح فقبض عليه نوح وسيّره إلى عبد الله بن طاهر الذي وجّهه بدوره إلى المعتصم.

واحتجم المعتصم فأصابته علّة فتوفي من أثرها، وكانت وفاته في السابع عشر من شهر ربيع الأول من عام ٢٢٧، وكان عمره يومذاك ثماني وأربعين سنة.

وتابع المعتصم مقالة المأمون في خلق القرآن، وقد امتحن أحمد بن حنبل، رحمه الله، في هذه القضية وناله ما ناله من العذاب.

الحركات[70]

١ ـ توفي المأمون ولا يزال أمر بابك الخرمي قوياً، واعتنق عدد من سكان الجبال مذهب الخرمية في السنة التي توفي فيها المأمون، فأرسل إليهم المعتصم جيشاً قوياً بإمرة إسحاق بن إبراهيم فانتصر عليهم. ثم سيّر إليهم عام ٢٢٠ جيشاً آخر بإمرة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصراً آخر على هؤلاء الخرمية، وجهز جيشاً أيضاً بإمرة حيدر بن كاوس الأشروسني وهو المعروف باسم الإفشين، والإفشين لقب أمراء أشروسنة قبل الإسلام، وأمدّ الإفشين بقوةٍ كبيرةٍ أيضاً بقيادة بُغا الكبير. تعرّف الإفشين قبل قتاله الخرّمية على مناطقهم وطريقتهم في الحروب التي غالباً ما كانت ليلاً وعلى شكل غاراتٍ سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات. وبقي الإفشين سنتين كاملتين في قتال بابك، وتمكّن من دخول مدينة «البذ» مقر بابك وحصنه المنيع في التاسع من رمضان عام ٢٢٢.

وكان أتباع بابك عندما تحلّ بهم الهزيمة يلجؤون إلى بلاد الروم فيقيمون في المرتفعات، ويضمّهم الروم إلى جنودهم الذين يرسلون لقتال المسلمين. وعندما حوصر بابك في «البذ» أرسل إلى تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم يحثّه على مهاجمة المسلمين، ويشجّعه بأن الخليفة لم يبقَ لديه من الجند ما يكفي لحراسته إذ بعث بكل ما لديه إلى القتال في أذربيجان ضد الخرّمية. وقد دفع هذا تيوفيل إلى الاعتداء على المسلمين. وفرّ بابك من «البذ» غير أن الإفشين قد تمكّن من إلقاء القبض عليه، وحمله إلى سامراء مع بعض أتباعه ووصل إلى سامراء عام ٢٢٣. فقُتل بابك ومن حمل معه من الأسرى. وهكذا انتهت حركة بابك الخرمي بعد أن أقضّت مضاجع المسلمين مدةً تزيد على عشرين سنة.

٢ ـ في عام ٢١٩ خرج في الطالقان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فانتصر عليه عبد الله بن طاهر ففرّ مختفياً، فلمّا كان بـ (نسا) دُلّ عليه فأُخذ إلى عبد الله بن طاهر فسيّره إلى المعتصم، فسجنه فلما كانت ليلة عيد الفطر هرب من السجن، واختفى عن أعين الدولة.

٣ ـ وعاث الزطّ الفساد في منطقة البصرة فأرسل إليهم المعتصم قوةً بإمرة عجيف بن عنبسة فغلبهم، وبقي في ملاحقتهم وتتبع أفرادهم ما يقرب من تسعة أشهر، وقد أرهبهم إذ كان يقتل كل من يستطيع القبض عليه.

٤ ـ أظهر «مازيار بن قارن» خلاف المعتصم في طبرستان، وقد كان مازيار على خلافٍ مع عبد الله بن طاهر، ويبدو أن الأفشين قد شجّع مازيار إذ كان يطمع في ولاية خراسان، فوجه عبد الله بن طاهر جيشاً لقتال «مازيار» عن أمر المعتصم، كما بعث المعتصم جيشاً من بغداد لقتاله فلما أحدقت الجيوش بمازيار طلب الأمان فأُعطيه.

٥ ـ وفي عام ٢٢٤ أظهر الخلاف منكجور الأشروسني، وكان الإفشين قد ولاه أذربيجان بعد الانتهاء من قتال بابك الخرمي، فأصاب على مالٍ عظيمٍ من قرى الخرّمية، فأخذه لنفسه، ولم يُعلم الإفشين، ولا الخليفة، فأخبرَ عنه بعض الشهود، فأنكر منكجور وهمّ بقتل المخبر الشاهد الذي التجأ إلى أردبيل واستغاث بأهلها فمنعوه، ووصل الخبر إلى المعتصم فطلب من الإفشين أن يعزله، فوجّه إليه الإفشين قوةً كبيرةً فلما علم منكجور خلع الطاعة، وجمع حوله الصعاليك، واعتصم بالحصون، ولم يلبث سوى شهر حتى وثب عليه أصحابه، وسلموه لجيش الإفشين فحُمل إلى سامراء.

٦ ـ وخرج في فلسطين عام ٢٢٧ أبو حرب المبرقع اليماني وذلك بسبب قتله جندي اعتدى على داره فهرب عندما طلبه الخليفة، ولجأ إلى بعض جبال الأردن، ووضع على وجهه برقعاً كي لا يعرف، وادعى أنه من بني أمية عندما كثر أتباعه أرسل له المعتصم، وكان عليلاً في علّة المرض الذي مات فيه، رجاء بن أيوب فوجده كثير الرجال فتركه حتى وقت الزرع إذ تركه رجاله وانصرفوا إلى أعمالهم، فنازله وتمكّن من أسره وحمله إلى سامراء.

مَعَ الرُّوم

لما حثّ بابك تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم على قتال المسلمين، وأن جندهم جميعهم في أذربيجان طمع تيوفيل في بلاد المسلمين فسار على رأس مائة ألف، وسارت معه الخرمية الذين التجؤوا إلى بلاده، واتجه إلى حصن «زبطرة» فخرّب البلد، وسبى النساء، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى ومثّل بكل من وقع في يده، ولما انتهى من «زبطرة» سار إلى ملاطية فأغار على أهلها، وعلى حصون المسلمين.. ووصل الخبر إلى المعتصم فأعلن النفير، وسار على رأس الجيش، وعسكر في غربي نهر دجلة. وبعث عجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني نجدةً لأهل زبطرة فوجدا أن الروم قد ارتحلوا عنها بعد أن فعلوا بأهلها ما فعلوا.

ولما انتهى المعتصم من أمر بابك سار إلى بلاد الروم، وسأل عن أقوى الحصن فقيل له عمورية ولم يتعرض لها أحد من القادة المسلمين من قبل، وأنها عين النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية[1]. وأقام هو على نهر سيحان[2]، وأمر الإفشين أن يدخل بلاد الروم عن طريق «الحدث»، كما أمر «أشناس» أن يدخل بلاد الروم عن طريق طرسوس، وحدد لهما يوماً يلتقيان فيه عند أنقرة. ودخل المسلمون أنقرة، وساروا بعدها إلى عمورية، وكان المعتصم على القلب، والإفشين على الميمنة، وأشناس على الميسرة، وأرهبوا السكان فيما بين أنقرة وعمورية والمسافة

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء التاسع.

(٢) سيحان: نهر يصب في البحر المتوسط شرقي طرسوس، ويسميه ابن الأثير «السن» والطبري «اللمس».

بينهما سبعة مراحل (١٤٠ كيلو متر)، ووصل المعتصم إلى عمورية في السادس من رمضان عام ٢٢٣، وحاصر المسلمون المدينة، وتمكّنوا من إحداث ثغرة في سورها، دُلّوا على مكانها، كان السيل قد هدّمها، ورُفعت بشكلٍ سريعٍ على حجرٍ واحدٍ سُمكاً، فدكّها ودخلوا المدينة، وكان لهذا الفتح أثر عظَيم بما قوّى من معنويات المسلمين، وما أضعف من معنويات الروم. وخلّد هذا النصر أبو تمام بقصيدته التي يذكر فيها هذا الفتح ويمدح المعتصم والتي يقول فيها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب[١] ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... مُتونهنّ جلاء الشّكّ والرّيب
والعلم في شُهب الأرماح لامعةً ... بين الخمسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً مُلفقةً ... ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولا غرب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تَفَتّحُ أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفّلاً معسولة الحلب
أبقت جَدّ بني الإسلام في صعدٍ ... والمشركين ودار الشرك في صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
تدبير معتصم بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ في الله مرتغب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
لبيت صوتاً زبطرياً[٢] هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخُرّد العُرُب

---

(١) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.

(٢) كانت امرأةٌ اعتدي عليها في «زبطرة» فصرخت «وامعتصماه» فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

حتى تركت عمود الشرك مُنعفراً ولم تعرّج على الأوتاد والطُّنُب

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسرٍ من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ موصولةٍ أو ذمام غير منقضب

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

الإمارات

لم تتغير أوضاع الإمارات المستقلة عن الدولة العباسية أو المنفصلة عما كانت عليه أيام المأمون.

١ ـ **الدولة الرستمية** كان يحكمها أفلح بن عبد الوهاب.

٢ ـ أما دولة **بني مدرار** فقد خلع مدرار بن أبي المنصور نفسه من الحكم، وولى مكانه ابنه ميمون بن الرستمية، وطرد ابنه الآخر ميمون بن بقية وذلك عام ٢٢١ فنشأ خلاف بين الطرفين استمر ثلاث سنوات، تغلّب إثر ذلك ميمون بن بقية حيث كانت الصفرية تدعمه، وعندما استقر الوضع لميمون بن بقية طرد أخاه ميمون بن الرستمية إلى وادي درعه، ونصّب أباه ثانيةً إماماً، وهكذا عاد مدرار بن أبي المنصور مرةً أخرى حاكماً للدولة غير أنه عاد وطلب ابنه ميمون بن الرستمية فعندها أرغمت الصفرية ميمون بن بقية على قبول الإمامة، وطرد أبيه، فطرد إلى إحدى قرى سجلماسة حيث بقي فيها حتى توفي عام ٢٥٣.

وبقي ميمون بن بقية حاكماً لدولة بني مدرار وإماماً للصفرية حتى عام ٢٦٣.

٣ ـ وكان يحكم **الأندلس** عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقد أرسل إليه تيوفيل بن ميخائيل ملك بيزنطة وفداً وهدايا في محاولةٍ لعقد حلف بينهما ضد العباسيين، وقد كان ذلك عام ٢٢٥ بعد الهزيمة التي مُني بها الروم أمام المعتصم في أنقرة وعمورية. وقد ذكّر تيوفيل عبد الرحمن بمعاداة العباسيين لبني أمية وتخليص الحكم منهم، وما قُتل من الأمويين على أيدي بني العباس، وردّ عبد الرحمن بإرسال وفدٍ إلى القسطنطينية،

ونال من العباسيين، ولكن لم تتعد الوفود الكلام المعسول الذي يلائم كلا الطرفين.

٤ ـ **الأدارسة**: توفي محمد بن إدريس الثاني عام ٢٢١ فخلفه ابنه علي بن محمد، وكان عمره تسع سنوات عندما تولى الحكم، ولُقِّب باسم حيدرة، واستمر في الحكم ثلاث عشرة سنة حيث توفي عام ٢٣٤. ولم يحدث في أيام علي بن محمد ما يستحق الذكر.

٥ ـ **الأغالبة**: توفي زيادة الله بن إبراهيم عام ٢٢٣، ولم يتمكن المسلمون من فتح (قصر يانه) إذ ساروا إليها عام ٢١٩ ولم يستولوا عليها، وكانوا يعودون إليها مرةً بعد أخرى ثم يرتدون عنها فيحاولون دخول غيرها من المدن.

وعندما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عفان الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب فأزال المظالم، ومنع الخمر في القيروان، وأرسل الجند إلى صقلية، وأخذ المسلمون عدة حصون في الجزيرة في أيامه، كما انتصروا على أسطولٍ رومي فعاد إلى القسطنطينية مهزوماً، وسارت سرية إلى (قصر يانة) فحاصرتها، وتوفي أبو عفان عام ٢٢٦ وهو في الثالثة والخمسين من عمره وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

* * *

- ٩ -

الوَاثِق

هَارُون بن محمَّد

٢٢٧-٢٣٢هـ

ولد هارون الواثق في العشرين من شهر شعبان من عام ستةٍ وتسعين ومائة بطريق مكة المكرمة، وكان أبيض مشرباً بالحمرة، جميلاً، ربعة، حسن الجسم، على عينه اليسرى نكتة بياض، شاعراً، وراوية للشعر، حليماً صابراً. وكان عمه المأمون يفضّله على بعض ولده. وأمّه أمّ ولدٍ تُدعى «قراطيس».

بويع بالخلافة في التاسع عشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وعشرين ومائتين بعد وفاة أبيه المعتصم. وكان يقول بخلق القرآن كأبيه وعمّه وذلك في أول أمره، وأرسل إلى أمير البصرة يمتحن الأئمة وأهل العلم بهذا القول. وقتل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي كان ذا منزلةٍ إذ كان جده مالك بن الهيثم أحد دعاة بني العباس الأوائل والمقدّمين، كما كان أحمد من أهل الحديث والعلم، وقد رفض القول بخلق القرآن، وتهجّم وحمل على القائلين تلك المقالة، وبدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأحضره الواثق من بغداد إلى سامراء وقتله، غير أن الواثق قد عدل عن هذه المقالة في آخر أمره.

ولما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق وحاصروا أميرهم فبعث إليهم الواثق قوةً بإمرة رجاء بن أيوب الحضاري وقد عسكروا في مرج راهط فقاتلهم في دوما، وانتصر عليهم، وأصلح أمر دمشق وسار بعدها إلى فلسطين لقتال أبي حرب المبرقع.

وفي عام ٢٢٩ حبس الواثق كتّاب الدواوين، وضرب بعضهم، وفرض على بعضهم مالاً كبيراً، إذ اتهم هؤلاء الكتّاب بالخيانة وعدم الإخلاص بالعمل.

وفي عام ٢٣٠ عاث الأعراب حول المدينة فساداً فأرسل إليهم الواثق جيشاً عليه بغا الكبير فغلبهم، وأدّب القبائل التي أساءت كبني سُليم بين مكة والمدينة، وغطفان في شرق المدينة، وبني نمير من تميم.

أما بالنسبة إلى بلاد الروم، فقد مات تيوفيل بن ميخائيل عام ٢٢٧، وكان ابنه ميخائيل صبياً صغيراً، فحكمت الروم أم ميخائيل «تيودورة». وقد تبادل المسلمون والروم الأسرى عام ٢٣١ وكان عدد أسرى المسلمين ٤٣٦٢ أسيراً، وعدد أسرى الروم أكبر من هذا بكثير. وبعد تبادل الأسرى غزا أحمد بن سعيد بلاد الروم شاتياً.

ومات عبد الله بن طاهر والي خراسان عام ٢٣٠ فولّى الواثق مكانه ابنه طاهراً، فأصبحت ولاية خراسان وراثيةً.

وخرج محمد بن عمرو الخارجي في ديار ربيعة، فأُسر وسيق إلى سامراء حيث قُتل.

وتوفي الواثق في نهاية عام ٢٣٢ (٢٤ ذي الحجة)، وبويع بعده أخوه المتوكل بن المعتصم، ولم يزد حكمه على خمس سنوات، وتسعة أشهر وعدة أيام.

أما بالنسبة إلى الإمارات فلم يتغير وضع دولتي الخوارج الأباضية في تاهرت والصفرية في سجلماسة فالأولى يحكمها أفلح بن عبد الوهاب والثانية يحكمها ميمون بن بقية. وكذلك فإن دولة الأدارسة يحكمها علي بن محمد بن إدريس من قبل عهد الواثق.

وكان حاكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقامت الحرب بينه وبين والي «تطيلة» موسى بن موسى وذلك عام ٢٢٨. وأغار الفرنجة على بلاد المسلمين عن طريق البحر، فأغاروا على شذونة وانتقلوا منها إلى إشبيلية، وهزموا المسلمين عدة مرات، وباتوا على مقربة من إشبيلية يوماً وليلة ثم خرجوا إلى مراكبهم في النهر، وسمع عبد الرحمن بالخبر فأرسل

قوةً لأهل أشبيلية قاتلت الفرنجة الذين تراجعوا وخرجوا إلى «البله» حتى قُهروا.

أما الأغالبة فقد كان والي القيروان أبو العباس محمد بن الأغلب الذي سيّر عام ٢٢٨ الفضل بن جعفر الهمداني على رأس قوةٍ بحريةٍ نزلت في ميناء «ماسينا»، وبقي الفضل هناك يقاتل مدة سنتين، واستطاع المسلمون من دخول مدينة «ماسينا» عام ٢٣٢، وكذلك سار أبو الأغلب العباس بن الفضل الفزاري على رأس سريةٍ عام ٢٢٩ دعماً للمسلمين هناك، وقد تولى قيادة فتح صقلية وإتمامه.

ووقعت الحرب بين محمد بن الأغلب وأخيه أحمد بن الأغلب فانتصر محمد بعد هزيمة، ونفى أخاه أحمد إلى المشرق فمات بالعراق. ولما انتهى محمد من أخيه أحمد فوجئ بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب، وكان محمد قد عزله عن هذه الإمارة فأظهر الخلاف، وسار نحو القيروان، وجرت بين الطرفين معارك كان نتيجتها قتل سالم وانتهاء أمر حركته.

* * *

- ١٠ -

المتوكّل

جَعفَر بن محَمّد المعتَصِم

٢٣٢-٢٤٧هـ

وُلد جعفر المتوكل عام ٢٠٥، وأمّه أمّ ولد تُسمّى «شجاع»، وكان أسمر، حسن العينين، خفيف العارضين، نحيفاً. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق في ذي الحجة من عام ٢٣٢، وكان الجند الأتراك يرغبون في تولية محمد بن الواثق، ولكنهم استصغروه فعدلوا عنه إلى جعفر المتوكل، وكان أول من بايعه أحمد بن أبي دؤاد.

أمر بالقبض على وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيّات حيث كان يكرهه إذ كان ابن الزيّات يرغب بأخذ البيعة لمحمد بن الواثق، ويحرص في زيادة بغض الواثق للمتوكل وقد مات في السجن بعد مدة وجيزة من العذاب. كما غضب على جماعةٍ من كتّاب الدواوين، وولّى ابنه المنتصر على الحجاز واليمن.

وأمر بالقبض على القائد «إيتاخ» وأودعه السجن الذي بقي فيه حتى مات.

وأمر أهل الذمّة أن يتميزوا بلباسهم عن المسلمين. كما أمر بهدم البيع والكنائس المحدثة في الإسلام.

وأمر بهدم قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، في كربلاء، وكذلك المنازل التي حوله.

وغضب بعد ذلك وفي عام ٢٣٧ على أحمد بن أبي دؤاد، وكان قد أصابه الفلج ثم توفي سنة ٢٤٠.

وبايع لأبنائه الثلاثة من بعده بولاية العهد: محمد وسمّاه المنتصر،

والزبير وسمّاه المعتز، وإبراهيم وسمّاه المؤيد. وضمّ لابنه المنتصر إفريقية والمغرب، وجزيرة العرب، والثغور الشامية، وضمّ للمعتز خراسان، وطبرستان، والري، وفارس، وأرمينيا، وأذربيجان. وضم لابنه المؤيد بلاد الشام.

ومنع القول بخلق القرآن، وكتب بذلك المنع إلى الأمصار، وأزال المحنة التي وقعت بسبب ذلك، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل، واستدعاه من بغداد إليه وأكرمه، ولم يكن ليولي أحداً القضاء حتى يستشيره، وكان تعيين يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة مكان ابن أبي دؤاد عن رأيه. وقد أخذ المتوكل بمذهب الإمام الشافعي، ويعدّ أول الخلفاء بهذا الأخذ. وفي سنة ٢٤٠ عزل يحيى بن أكثم من منصب قاضي القضاة.

سار المتوكل إلى دمشق بعد أن أحبها وأراد أن ينتقل إليها ويجعلها مقراً للحكم، ووصل إليها عام ٢٤٤، وأمر ببناء القصور، ونقل الدواوين، ثم لم يطب له جوها فغادرها، وقد عمل على بناء القصور على طريق داريّا أي من جهة الجنوب من دمشق، وبنى له قصراً بداريّا. وكان يقول: إن الخلفاء تتصعب على الرعية لتطيعها، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني.

وعندما رجع من دمشق التي لم يمكث فيها أكثر من شهرين وعدة أيام أمر ببناء مدينة الماحوزة قرب سامراء، وعرفت باسم المتوكلية، كما تعرف باسم الجعفرية، وبنى فيها قصر الخلافة الذي يُدعى قصر اللؤلؤة وسمي بالجعفري نسبةً إليه، وانتقل إلى المدينة الجديدة سنة ٢٤٦.

وفي أواخر حياته أراد تقديم المعتز على أخيه المنتصر، فطلب من المنتصر أن ينزل عن العهد فرفض، فكان بعدها يُحقّره، ويحطّ من منزلته أمام العامة، وهذا ما أوغر صدر الابن على أبيه. وانحرف الترك عن المتوكل لأمور، فاتفقوا مع ابنه المنتصر على قتل أبيه فدخلوا عليه في أواخر أيام عيد الفطر، وقتلوه في جوف الليل مع وزيره الفتح بن خاقان، وبايعوا للمنتصر، وقد رثاه البحتري بقصيدةٍ إذ كان حاضراً مصرعه، ولكن لم ينله أذى إذ اختبأ، ومطلع هذه المرثية:

محل على «القاطول» أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

ويقول فيها:

تغيّر حسن «الجعفري» وأنسه وقوّض بادي «الجعفري» وحاضره
تحمّل عنه ساكنوه فُجاءةً فعادت سواءً دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سِربه وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهُتّكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس، ولم تحسُن لعينٍ مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها، والمُلك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غضّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت بهيبتها أبوابه ومقاصره؟
وأين عميد الناس في كلّ نوبةٍ تنوب، وناهي الدهر فيهم وآمره؟
تخفّى له مُغتاله تحت غِرّةٍ وأولى لمن يغتاله لو يُجاهره
فما قاتلت عنه المنونَ جنودُهُ ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر «المعتز» من كان يُرتجى له، وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرّض ريب الدهر من دون «فتحه» وغيّب عنه في خراسان «طاهره»
ولو «لعبيد الله» عون عليهم لضاقت على ورّاد أمرٍ مصادره
حلوم أضلّتها الأماني، ومدّة تناهت، وحتف أوشكته مقادره
ومغتصَب للقتل لم يُخش رهطه ولم يحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً يجود بها والموت حمر أظافره
أُدافع عنه باليدين، ولم يكن ليثني الأعادي أعزال الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدمٍ يجري على الأرض مائره

وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر ... يد الدهر، والموتور، بالدم واتره؟
أكان وليّ العهد أضمر غدرةً؟ ... فمن عجبٍ أن وُليّ العهد غادره
فلا مُلّي الباقي تراث الذي مضى، ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره
ولا وأل المشكوك فيه، ولا نجا ... من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره
لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفر» ... هرقتم، وجنح الليل سود دياجره
كأنكُمُ لم تعلموا مَنْ وليّه ... وناعيه تحت المرهفات وثائره
وإني لأرجو أن تردّ أموركم ... إلى خلفٍ من شخصه لا يغادره
مُقلّب آراءٍ تُخاف أناته ... إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

* * *

الحركات[70]

١ ـ فرّ محمد بن البعيث من السجن، وكان قد جيء به من أذربيجان أسيراً، واتجه بعد فراره إلى أذربيجان، وقصّر واليها محمد بن حاتم بن هرثمة في طلبه فقوي أمره. فولّى المتوكل على أذربيجان حمدويه بن علي بن الفضل السعدي فسار إلى ابن البعيث الذي اعتصم بمدينة «مرند» وأرسل إليه القوة إثر الأخرى حتى تمكّن بغا الشرابي من محاصرته، ثم أسره، وحمله إلى سامراء فعفا عنه المتوكل بعد أن همّ بقتله.

٢ ـ ادعى محمود بن الفرج النيسابوري النبوة في سامراء وأيّده بعض الناس، فقبض عليهم، وضُرب النيسابوري حتى مات، وألقي أصحابه في السجن.

٣ ـ طلب كبير البطارقة في أرمينيا الإمرة فقبض عليه الوالي يوسف بن محمد وقيّده وبعث به إلى الخليفة، فأسلم وابنه، أما نصارى أرمينيا فقد حاصروا يوسف بن محمد فقاتلهم حتى قُتل فأرسل إليهم المتوكل جيشاً بقيادة بُغا الشرابي فسار إليهم عن طريق الجزيرة فأخذ قتلة يوسف بن محمد فقتل من قتل، وباع من باع، ووطّد الأمن بأرمينيا ثم سار إلى تفليس فحاصرها ودخلها.

٤ ـ وفي ٢٤٠ ثار أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل أحد أشرافهم، وأخرجوه من مدينتهم، فأرسل إليهم المتوكل عاملاً جديداً فقبلوه رغم أنه أغلظ عليهم، وهو محمد بن عبدويه، وسكن الوضع، غير أن نصارى حمص قد حرّكوا الفتنة من جديد فوثب السكان على محمد بن عبدويه، وأرادوا قتله وذلك عام ٢٤١ فكتب إلى

الخليفة المتوكل الذي أمر والي دمشق أن يدعم عامل حمص، وأن يُخرج النصارى من حمص، وأن يهدم كنيستها العظمى.

٥ ـ ظهر في سجستان عام ٢٣٧ يعقوب بن الليث، وكان من قبل مع صالح بن النضر الكناني الذي غلب على المنطقة، ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان استعادها منهم. ثم عاد فغلب عليها درهم بن الحسين، وكان معه يعقوب، ولما كان درهم ضعيفاً لذا فإن المخالفين قدّموا عليهم يعقوب بن الليث.

* * *

مَعَ الرُّوم

أغار الروم على الميناء المصري دمياط عام ٢٣٨، وقد جاءوا في ثلاثمائة مركب، ففر الناس من وجههم فمروا على بحيرة المنزلة فنجا الرجال وغرق عدد من الصبيان والنساء. وقد أحرق الروم ما وصلوا إليه من دورها، ونهبوا ما استطاعوا نهبه، وقتلوا ما أمكنهم قتله من الرجال، وسبوا حوالي ستمائة امرأة، وحرقوا المسجد الجامع، ثم رجعوا دون أن يتعرّض لهم أحد.

وغزا علي بن يحيى الأرمني بلاد الروم على رأس صائفة في عامين متتاليين ٢٣٨ و ٢٣٩.

وفي عام ٢٤١ قتلت ملكة الروم «تيودورة» اثني عشر ألف أسير من المسلمين، وكانوا قد قاربوا العشرين ألفاً، وقد عرضت الملكة على الأسرى النصرانية فمن قبلها منهم عاش بين الروم، ومن رفضها قُتل فرفضها الأسرى فقتلت منهم هذا العدد، وأغار الروم هذا العام على عين زربة قرب المصيصة، وأسروا أعداداً من الزط وذلك بعد طلب الفداء، وتمّ فداء سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومائة وخمس وعشرين امرأة من المسلمين. وغزا بعدها علي بن يحيى الروم.

وفي العام التالي أغار الروم على بلاد الجزيرة من ناحية شِمشاط[١] وذلك بعد خروج علي بن يحيى، ونهبوا عدة قرى، وأسروا ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، وقاربوا مدينة آمد، ثم رجعوا إلى بلادهم فارّين ولحق

---

(١) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات.

بهم المتطوعة من المسلمين وعمر بن عبد الله الأقطع فلم يدركوا أحداً منهم، وكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يدخل بلاد الروم شاتياً.

أزاح ميخائيل بن تيوفيل أمه عن حكم بلاد الروم، واتهمها في أخلاقها و. . . وتسلّم هو الأمر وكان قد كبر.

وفي عام ٢٤٣ وجه المتوكل من دمشق القائد بغا لغزو بلاد الروم فدخلها على رأس صائفة.

وطلب ملك الروم ميخائيل بن تيوفيل المفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٤٥ ولكن لم تتم إلا بعد عام، وأغار الروم في هذه السنة على مدينة «سُميساط» فقتلوا وسبوا ما يقرب من خمسمائة مسلم، وغزا علي بن يحيى الأرمني الروم على رأس صائفة، كما غزا الصائفة أيضاً في العام التالي، وغزا أيضاً عمر بن عبد الله الأقطع في العام نفسه وفي الصيف وكان على رأس قوة، وغزا المسلمون بلاد الروم عن طريق البحر إذ سار الفضل بن قارن في عشرين راكباً إلى إنضاليا وفتحوها، وكان ما أخذ المسلمون من الروم، أسارى في هذا العام أكثر من ثمانية عشر ألفاً. وتمّ فداء ٢٣٦٧ مسلماً، منهم عشرون امرأةً، وعشرة من الصبيان.

وأغار البجاة على جيش في مصر، ونهبوا كثيراً، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين فأرسل لهم المتوكل جيشاً بإمرة محمد بن عبد الله القمي فأقبل إليه ملك البجاة علي بابا في جموع عظيمة، فانتصر المسلمون عليهم - بإذن الله - وأُخذ علي بابا أسيراً فحمل إلى سامراء فعفا هناك عنه المتوكل. وجعله ملكاً على بلاد البجاة باعتبارها جزءاً من أملاك الخليفة حسب المعاهدة السابقة. كما جعل المتوكل الأمير محمد بن عبد الله القمي أميراً على المنطقة المجاورة لبلاد البجاة.

الامارات

لم يتغير شيء في وضع دولتي الخوارج الأباضية والصفرية في بلاد المغرب.

أما في الأندلس فقد توفي عبد الرحمن الأوسط عام ٢٣٨ فخلفه ابنه محمد الأول، وقامت في عهده ثورات في شمالي الأندلس في برشلونة، وطليطلة وغيرها فأرسل إليها حملات أحرزت النصر، ووطدت الأمن في تلك الجهات، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٢٧٣.

وأما الأدارسة فقد ملكهم علي بن محمد حتى توفي عام ٢٣٤ فخلفه أخوه يحيى «الأول» بن محمد فتوسعت في عهده الدولة، وهدأت الأوضاع، ولما مات خلفه ابن أخيه يحيى«الثاني» بن علي بن محمد وكان سيئاً فثار عليه الناس واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على مدينة فاس، فأرسلت زوجة يحيى إلى أبيها والي بلاد الريف علي بن عمر بن إدريس فجاء وأخمد حركة ابن أبي سهل وسيطر على البلاد.

وأما الأغالبة فقد خرج عمرو بن سليم التجيبي بمدينة تونس على محمد بن الأغلب، وانتصر على جيشٍ بعثه ابن الأغلب إليه غير أنه هُزم في المعارك التي تلت ذلك وقُتل. وفتح المسلمون في جزيرة صقلية مدينة «قصريانة» وهي مقر الحكم بعد أن كانت «سرقوسة» إذ نقل إلى الأولى بعد أن دخل المسلمون الثانية وكان فتح «قصريانة» عام ٢٣٧. وتوفي أمير الأغالبة أبو العباس محمد الأول عام ٢٤٢ فخلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وفي عهده ثار البربر في منطقة طرابلس وهزموا عاملها عام ٢٤٥ فأرسل إليهم أحمد أخاه زيادة الله فانتصر عليهم وغلب على أمرهم.

ومع انتهاء حكم المتوكل على الله انتهى العصر العباسي الأول وهو عصر القوة، وبدأ عصر الضعف حيث تسلّط العسكر على الحكم فحكموا من وراء الخلفاء الذين كانوا صورةً بل ألعوبة أحياناً بيد العسكريين، وأذلّوا الشعب وبالتالي بدأت الدولة تتداعى وينهدّ منها ركن بعد ركن حتى تهاوت على أيدي التتار، وقد تراخى أبناؤها وذُلّ أفرادها. [illegible] الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة عن الدولة العباسية	٥
تشويه التاريخ العباسي	٥
أثر الشيعة والحركات الباطنية	١٢
سيطرة الجند على مقررات الدولة	٢١
العصبية	٢٤
المظاهر المادية الحضارية	٣١
الدعوة العباسية	٣٧
خلفاء بني العباس:	٦٣
السفاح	٦٥
المنصور	٩١
المهدي	١٢٧
الهادي	١٣٧
الرشيد	١٤٣
الأمين	١٦٥
المأمون	١٨١
المعتصم	١٩٩
الواثق	٢٠٩
المتوكل	٢١٣

التاريخ الإسلامي

— ٦ —

الدولة العباسية

الجزء الثاني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السادسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مُقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدّين **وَبَعْد**

فإنّ بداية العصر العباسي الثاني لهي بداية عهد الضعف الذي أصاب المسلمين واستمر مدةً زادت على عشرة قرون. ولم يكن هذا العصر عصر ضعفٍ فحسب وإنما يُعدّ زمناً مجهولاً بالنسبة إلى كثيرٍ من الناس، وذلك لأنه مرحلة ضعفٍ أولاً، ولظهور دويلاتٍ ذات شأن، وقد حملت هذه الدويلات على عاتقها مقاومة أعداء الإسلام فبرزت كآل زنكي والأيوبيين في بلاد الشام وقد قاوم كلاهما الصليبيين، والحمدانيين في شمالي بلاد الشام، في الموصل وحلب، وقد قاتلوا الروم، وكانوا على الثغور، والغزنويين في أفغانستان، وقد فتحوا أجزاء من بلاد الهند، وعملوا هناك على نشر الإسلام، فظهرت هذه الدويلات، وطغت في كثيرٍ من الأحيان على مركز الخلافة في بغداد رغم أنها كانت دويلاتٍ تابعةً لها.

وامتاز هذا العصر بنقاطٍ يحسُن بحثها مقدماً كي أتمكّن من إعطاء صورةٍ واضحةٍ عن هذه المرحلة التاريخية، ويُمكن بعدها أن أذكر الجوانب السياسية التي تطغى عادةً على بحوث المؤرخين فتترك الصورة للسياسة بارزةً وتُهمل الميزات العامة الأساسية التي يمكن أن تشمل على أفكارٍ ومعايير مهمةٍ بالنسبة إلى الفكر، ولعلّ أهم ما امتازت به هذه المرحلة التي تمتدّ من ٢٤٧ ـ ٦٥٦ أي على أكثر من أربعمائة سنة بـ:

١ ـ السيطرة العسكرية على مركز الخلافة.

٢ ـ نشوء دويلاتٍ نتيجة بروز قادةٍ استقلّوا في مناطقهم، ولم يكن للخليفة من أمرٍ سوى الاعتراف بالواقع، واعتماد قيام القائد بأمر الولاية.

٣ ـ ظهور نتائج الحضارة الإسلامية السابقة لهذا العصر على شكل علمٍ وعمرانٍ ورفاهيةٍ.

٤ ـ ظهور نتائج الرفاهية، وقيام حركات ردّ فعلٍ بصبغةٍ تحمل اسم الدين بادعاء النسب الهاشمي، وقيام الحركات الباطنية من وراء ذلك كلّه.

٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد المسلمين.

٦ ـ الغزو المغولي، والقضاء على الخلافة العباسية، وسقوط بغداد عام ٦٥٦ كنهاية هذا العصر.

وسأتعرّض لشرح هذه النقاط ـ إن شاء الله ـ كي أعطي الصفة العامة لهذه المرحلة، ثمّ أنتقل لدراسة الخلفاء، وما حدث في عهد كل واحدٍ منهم، وفي هذه الدراسة لن تُدرس الدويلات التي نشأت بشكلٍ تفصيليٍ ومتتابعٍ وإنما على شكلٍ متقطّعٍ، ويمكن جمعها من عهد كل خليفةٍ عاصرتهَ، وكذلك سيكون الغزو الصليبي والغزو المغولي فأرجو من الله أن أوفّق في بحثي هذا، وأن يكون عملي خالصاً لله الذي أستعين به، وأتوكّل عليه، وأطلب منه الهداية، وأبدأ باسمه.

١ـ السَّيطرة العسكرية على مركز الخلافة

قد تختلف فكرة العسكرية في ذلك العصر وما قبله عمّا هي عليه اليوم إذ كان المجاهدون أو المقاتلون يُدعون حين الجهاد أو وقت الحاجة إليهم، وهم ممن يستطيع القتال، منهم من يندفع في سبيل الله إذا كان الغزو في بلاد الكفر، ومنهم من يرغب في الغنائم سواء أكان جهاداً أم قتالاً وذلك عندما ضعُف الإيمان، ومنهم من يُجبر على الخروج إذا فُرض على منطقةٍ معينةٍ عدد من المقاتلين وذلك بعد أن توقّفت الفتوحات وانتهى أمر الجهاد، وغدت الحروب تُشنّ على العُصاة والخارجين على الحكم أو المتمردين وطالبي الزعامة، ومنتقدي الحكم، والخوارج و.... ويُعيّن الأمير أو الخليفة قائداً لهذا الجيش وينطلق، وبعد معركةٍ أو الانتهاء من مهمةٍ يتغيّر القائد، وفي مهمةٍ جديدةٍ قد يصبح قائداً من كان بالأمس جندياً، ويغدو قائد الأمس جندياً، وهكذا تتبدّل القيادة ولا تبقى بيد شخصٍ يُطاع بصورةٍ دائمةٍ. فإذا ما استمر رجل يحمل اللواء لشجاعةٍ فيه، أو لفنٍ في قيادته، وشعر الجند دائماً أنهم تحت إمرته كانت له سيطرة ونفوذ عليهم، واضطر الجند لطاعته، فإذا كان هذا القائد من أصحاب الطموح فإن نفسه تحدّثه في الحصول على السيطرة على الوضع أو الاستقلال عن مركز الخلافة، وتأسيس دولةٍ تحمل اسمه، ولننظر إلى بعض الحوادث التاريخية.

كان خالد بن الوليد في الجاهلية قائد خيلِ قريش ونعرف دوره في غزوة أحد وفي الحديبية، ولما أسلم برز كقائدٍ فذٍّ وبطلٍ مغوارٍ، واشترك بعد أن أسلم مباشرة في غزو مؤتة كجندي ولكن آلت إليه القيادة إذ اختاره المسلمون أميراً عليهم بعد استشهاد القادة الثلاثة، رضي الله عنهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وقد تسلّم الإمرة

فأحسن، واستطاع أن ينسحب بالجيش ويُنقذه من عملية سحقٍ تكاد تكون مؤكّدة، بعد أن بدّل مواقع الفرق وأخّر بعضها وجاء من بعيد مُثيراً سحباً من غبار، والتحم مع العدو بقتال مستميت وأوهم الروم بأن نجدات قد جاءت من المدينة إلى المسلمين. وفي أيام الصدّيق، رضي الله عنه، برز خالد، رضي الله عنه، في حروب الردّة، ثم في فتح العراق، وانتقاله إلى الشام بشجاعةٍ فائقةٍ، وفي معركة اليرموك، ونتيجة هذه المعارك التي خاضها والتي نجح فيها نجاحاً كبيراً، وتجلّت فيها عبقريته الفذّة في القتال أصبح كثير من المسلمين ينظرون إليه نظرةً خاصةً، ويُطيعونه، ويرغبون في قيادته، ويتمنون القتال تحت إمرته، بل إن ذلك ليشجّعهم في الانخراط في صفوف المجاهدين، وحتى ظنّ بعضهم أنه لا يُقهر، ولما خرج أحد قادة الروم الأشدّاء في معركة اليرموك وطلب المبارزة خرج له أبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، وأبو عبيدة فارس مقدام وبطل صنديد قد يفوق خالداً، غير أن بعض المسلمين قد طلبوا منه أن يعود ويتقدّم خالد للنزال فإن المعركة في بدايتها وقتل أحد القادة رفع لمعنوية الصديق كبير، وهزيمة لمعنوية الخصم، وألحّ بعض المسلمين على خالد في ذلك حتى اضطروه أن يطلب ذلك من أبي عبيدة ـ وهو خجل منه ـ غير أن أبا عبيدة رفض وأصرّ على البقاء في موضعه، وتمّ النزال، وقتل أبو عبيدة خصمه، وخالد ممن يحترم أبا عبيدة كثيراً، ويعرف فضله ويُقدّمه لما فيه من صفات ولسابقته، وكذا كل مسلم، وخالد مسلم. ولما تولّى أمر المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خاف بفطرته ما آلت إليه نظرة المسلمين بخالد، فكان أول عملٍ عسكريٍ قام به أن عزل خالداً، رضي الله عنه، عن القيادة، وولّى أبا عبيدة، رضي الله عنه، ولم يُبد ما في نفسه، ولكن تكلّم عن أحقية أبي عبيدة وأهليته وسابقته في الإسلام، وقوته وشجاعته التي لا تقلّ عن شجاعة خالد وقوته، وكان عمر، رضي الله عنه، يختار السابقين في الإسلام للإمرة ويُقدّمهم، غير أنّ كثيراً من المؤرخين رجعوا إلى الماضي يفتّشون عما كان بين عمر وخالد، رضي الله عنهما، ليجدوا فيه سبباً لهذا التصرّف، ولكنهم ابتعدوا عن الحقّ، ولم يوفّقوا في تعليل هذا التصرّف، فالماضي جاهلي

يمقته عمر، رضي الله عنه، والإسلام يجبّ ما كان قبله كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وفي العصر الأموي نلاحظ أن بقاء المهلّب بن أبي صفرة والياً على خراسان مدةً قد جعل له طاعةً في المشرق عامةً، وأن دوره الكبير في محاربة الخوارج قد جعل له مهابةً واسعةً في أرجاء الدولة الإسلامية واستمرت لأبنائه من بعده، فابنه يزيد وولايته على العراق وطاعة الناس له عند حركته وكذا بقية أولاده، ودور أحفاده عمر بن حفص في السند والمغرب، ويزيد بن حاتم وأبنائه المهلب وداود وخالد، وأخيه روح في المغرب. وما كان للمهلّب من أثرٍ في المشرق كان لعقبة بن نافع في المغرب حيث يُعدّ قائد الفتح، ولقي الشهادة هناك، وورثت أسرته هذا المجد من بعده فبرز حفيده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، وابنه عبد الرحمن بن حبيب الذي سيطر على المنطقة بالقوة وفرض نفسه، وغزا صقلية، وقاتل الخوارج وخضد شوكتهم هناك، وأخوه الياس، وابنه حبيب، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري في الأندلس. ونجد في العراق عمر بن هبيرة، وابنه يزيد، ويوسف بن عمر الثقفي، وخالد بن عبد الله القسري. وفي خراسان نصر بن سيّار. وفي قنسرين زفر بن الحارث الكلابي، هؤلاء كلهم بقي لهم أتباع وأنصار بعد ذهابهم بمدة وذلك لأن مدة ولايتهم قد طالت، فقد ثار أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي أيام السفاح ووجد له أعواناً دعموه وحموه، وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيّار في سمرقند ولقي أنصاراً استمروا بجانبه مدةً طويلةً.

وفي العصر العباسي الأول نلاحظ أن عبد الله بن عليّ عمّ السفاح والمنصور قد ارتفع اسمه وعلا ذكره في بلاد الشام وخافه الناس حتى أطاعوه وذلك بعد الانتصار على مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وتتبّعه في بلاد الشام من مدينةٍ إلى أخرى حتى قضى عليه أخيراً في مصر، وما فعله ببني أمية عامة حتى في قبورهم، وهذا الخوف منه والطاعة له قد مكّن له في بلاد الشام حتى طمع بالخلافة أو حدّثته نفسه في ذلك فتحرّك

لها ووافقه الشاميون وساروا معه حتى قُبض عليه. والأمر نفسه بالنسبة إلى أبي مسلم الخراساني الذي اتخذ القتل وسيلةً أرهب به الناس حتى خشيه أنصاره قبل أعدائه، واستمر في خراسان مدةً منذ سار إليها حتى قُضي عليه عام ١٣٧ أي ما يقرب من عشر سنوات، وهذا ما جعل له أتباعاً كثيرين ليس من بني جنسه فحسب كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصفوا ذلك وإنما من الناس الذين يعيشون في تلك الرقعة من الأرض جميعاً بل كان القادة العسكريون العباسيون كلهم يقرّون لهم بالطاعة ويخافونه حتى من كان منهم من بني هاشم بالذات.

ولكل حاكمٍ يصبح أتباع سواء أكانوا من الذين شعروا بعدله وإخلاصه فأحبّوه وساروا معه أم من الذين استفادوا منه أم من الذين يتوقّعون الإفادة منه في المستقبل، فالأمويون قد بقي بعضهم يقوم بحركاتٍ حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويجد له الأتباع والأنصار يدعمونه في حركته، وأكثر حركات الأمويين على العباسيين كانت من قِبَل الأسرة السفيانية وذلك لأن العباسيين عندما قضوا على الأمويين إنما كان همّهم منصرفاً على الأسرة المروانية التي كانت بيدها السلطة والتي كان عدد أفرادها كبيراً بينما لم يهتموا بالأسرة السفيانية كثيراً لأنها تخلّت عن السلطة منذ مدةٍ طويلةٍ ولأن عدد أفرادها كان قليلاً وقد انصرفوا إلى أعمالهم الخاصة وتركوا الحكم وشأنه، وقد فرّ أكثر أبناء الأسرة المروانية أو قتلوا وبقي السفيانيون فقاموا بحركاتٍ ضد العباسيين ووجدوا من يدعو لهم ويؤيدهم لذا عرفت كل حركة لهم باسم «السفيانية». وإذا كان المروانيون الذين نجوا من العباسيين قد انتقلوا إلى الأندلس بعد وصول عبد الرحمن الداخل إليها ونجاحه فيها فإن السفيانيين قد انتقلوا إلى جهات أخرى سواء الذين هربوا من وجه العباسيين أو الذين كانوا يفرّون عندما تفشل حركاتهم فقد كانوا يتجهون إلى جنوبي جزيرة العرب حيث كان لهم شأن بعد ذلك في اليمن وعسير وفي الجهة المقابلة من البحر الأحمر حيث السودان وبلاد النوبة. وإن سابق حكم بني أمية في الشام قد سهّل لعبد الرحمن الداخل في الأندلس لوجود من يساعده في

مهمته، فليس كل إنسانٍ يمكنه أن يذهب إلى منطقةٍ نأت أرضها أم قرُبت ويجد له الأعوان ويتمكّن من إقامة دولةٍ له كما فعل عبد الرحمن هذا، ولو لم يكن للأمويين سابق مجدٍ وعزٍّ لم يستطع أن يدخل الأندلس أبداً بغاية الزعامة وتسلّم الأمر فيها.

ومن هذا المنطلق فقد كان العثمانيون في الزمن الأخير يحرصون على تغيير الولاة باستمرار كي لا يتمكّن الواحد منهم في ولايته كثيراً، ويكسب ودّ أبنائها، ورغم ما في التغيير من أغلاط إلا أنها تبقى أخفّ بعرف الحاكم من الاستقلال بالولاية كالمماليك في مصر والمعنيين والشهابيين في لبنان، والأشراف في الحجاز، ومن هذا المنطلق بالذات يتمّ نقل الضباط القادة وتغيير مواضعهم في هذا الزمن في الدول غير المستقرة والتي تخضع لهزّات، أو التي اعتاد قادتها على التفكير في تغيير الأوضاع واستلام المسؤولية بين الحين والآخر أو كلما سمحت لهم الفرصة حتى أصبح هذا طموحاً أو أملاً عند الكثير منهم.

ويمكن أن نضيف إلى الزعامة العسكرية القيادة الدينية وإن كنّا لا نستطيع أن نفرّق بين هذه وتلك أو نفصل الأمور الدينية عن أية ظاهرةٍ أو حادثةٍ اجتماعيةٍ أو سياسيةٍ أو عسكريةٍ، وإنما لنوضّح هنا بعض هذه الجوانب فآل البيت لهم منزلة خاصة بين المسلمين لذا يمكن لأحدهم أن يتبوأ مركزاً مهماً إذا كان صالحاً، ويصل إلى هدفه بشكلٍ سهلٍ حيث يجد له المؤيدين والمحبين، وهذا ما سهّل لإدريس بن عبد الله بن حسن مهمته في تأسيس دولةٍ له في بلاد المغرب، وهناك منطقتان عرف فيهما التأييد لآل البيت إحداهما المدينة المنورة حيث يقيم عدد منهم وخاصةً من أبناء الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وهم عادةً أهل دينٍ وصلاحٍ، وقامت لهم فيها حركات منها حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وثانيتهما الكوفة وفيها تأييد لآل البيت أو نكاية لخصومهم من الأمويين والعباسيين أو فيها من يحبّ آل البيت حباً بارداً، وكان أهل الكوفة يدعون آل البيت إليهم حتى إذا جاءوهم، وقاموا

يطلبون الأمر تخلّوا عنهم وذلك منذ أيام الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد خذلوه، وأكثر من الكلام عليهم في خطبه، ومن بعده أبناؤه الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ثم زيد بن علي بن الحسين، رحمه الله.

وإذا كان العصر العباسي الأول قوياً فلم تقم فيه سيطرة عسكرية أو زعامة ذات قوةٍ تعتمد عليها في حكمها للمنطقة، وإذا ما تمّ وحدّثت نفس بعض القادة بذلك فقد كان يُقضى عليها بسرعة، وهذا ما حدث لعبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، ولم تقم في ذلك العصر سوى دولةٍ واحدةٍ هي دولة الأغالبة في تونس، إذ كان إبراهيم بن الأغلب أمير المنطقة واعتمد على نفوذه وجنده فأسس دولته، وسكت عنه العباسيون لتقف إمارته هذه في وجه الإمارات الأخرى الخارجة على العباسيين والمخالفة لهم، وهي إمارات الخوارج في «تاهرت» و«سجلماسة»، وإمارة الأدارسة في المغرب الأقصى في فاس، ودولة الأمويين في الأندلس، وبهذا فلم تقم سوى دولةٍ واحدةٍ في عصر القوة العباسي اعتمدت على الجند.

وشعر الخليفة المأمون أن بعض القادة الذين أصبح لهم نفوذ لم يعد بالإمكان وضع حدٍّ لهم بسهولة لذا فقد خاف مغبة الأمر، وفي الوقت نفسه فإنّ الجند لم يعد بالإمكان السيطرة عليهم بيسرٍ لأن الناس قد خلدوا إلى الراحة، وركنوا إلى الأرض، وبقي أمر القوة بيد هؤلاء الجند لذا فقد طلب من أخيه المعتصم الإكثار من جلب الأتراك من بلاد ما وراء النهر على شكل مماليك فحياة المدن لم تُفسد طباعهم بعد، ويمكن تدريبهم تدريباً عسكرياً كي يمكن تأمين الجند المطلوب عند اللزوم منهم، وتربيتهم تربيةً خاصةً كي يكونوا أداةً طيعةً بيد الخليفة يحمي بهم الثغور، ويضرب بهم خصوم الدولة في الداخل، وبدأت أفواج الترك تفد إلى بغداد حتى ضجّ منهم سكانها، وما أن أصبحوا جنوداً لهم نفوذ حتى كثرت تعدياتهم فقد أفسدتهم حياتهم الجديدة، وحدث الخلاف بينهم وبين البغداديين، واضطر المعتصم إلى بناء مدينة «سامراء» والانتقال بهم إلى هناك، ومع الزمن أصبح

منهم قادة اشتهر منهم «الإفشين» و«بغا» و«وصيف» وغيرهم، وزاد نفوذهم في الدولة، وأخيراً تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل عام ٢٤٧ فانتهى العصر العباسي القوي وهو الذي تكلّمنا عنه في الجزء السابق من هذا الكتاب، وجاء عصر الضعف الذي نتحدث عنه في هذا الجزء ـ إن شاء الله ـ حيث سيطر العسكريون على الحكم.

ومع مجيء هؤلاء الجند إلى مركز السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسماً أو صورةً في قصره ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثيرٍ من الأحيان أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة حتى وصف الخليفة أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفصٍ ... بين وصيفٍ وبغا

يقول ما قالا له ... كما تقول الببغا

وأصبح الحكم بالسيف لا بالرأي، والتنفيذ بالسوط لا بالحكمة، والناس مجبرون على الخضوع سواء أكان الأمر حقاً أم باطلاً، وعليهم أن يقولوا عن كل شيء أنه حق وصحيح وجيد ما دام مفروضاً من القادة، ومن قال غير ذلك كان السيف أقرب إليه من إجابته بالرفض، وهذا ككل حكمٍ عسكريٍ. وقال أحد الشعراء:

لله درّ عصابةٍ تركيةٍ ... جعلوا نوائب دهرهم بالسيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمدٍ ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وهكذا فسد الوضع فلم يأمن الناس بعد ذلك على أرواحهم، ولا على أموالهم، ولا على أعراضهم، وهُدرت الكرامة، وفقد الناس حريتهم، وضاعت العزّة، وأصاب الأمة الذلّ ومتى وقع ذلك فقدت الأمة مقوماتها، ولم تعد قادرةً على القتال ولا على المجابهة، وأصبح المجتمع مضطراً للخضوع للقادة المتسلّطين، وقبول كل رأيٍ يقوله العسكريون، وهذا ما يريدونه عادةً، ولم يعرفوا نتائجه، وإنما يعرفون مصالحهم وبسط نفوذهم وسيطرتهم وإشباع رغبات نفوسهم، هذا في الداخل، وهو نفسه ما يريده

أعداء الإسلام في الخارج، ولا يختلف الوضع العسكري في أي زمانٍ ولا أي مكانٍ عن هذا أبداً.

واستمر وضع الجنود الأتراك هؤلاء ما يقرب من مائة سنة ٢٤٧ ـ ٣٣٤ وقوي بعد ذلك نفوذ جنودٍ من الفرس أو تجمّع لآل بويه، وهم من الشيعة، ولم يختلف الأمر كثيراً عن الوضع السابق، فكلا الوضعين عسكري، وأن ما في الوضع العسكري بيّن واضح، بل أستطيع أن أقول: إن الوضع قد زاد سوءاً، إذ عمّت الفوضى بشكل أكبر، وساد الفساد والمنكرات على نطاق أوسع، وكثر الخلاف بين السنة والشيعة، واضطر السنة إلى أن يحتفلوا بأعياد الشيعة، وأن يقوموا ببعض الخرافات والضلالات التي يقوم بها الشيعة في عاشوراء وغيرها. وظهرت إمارات ودول شيعية تطرّفت بشكل أوسع من ذلك مثل: إمارة الحمدانيين في شمالي بلاد الشام، والدولة الفاطمية في مصر وفي المغرب من قبل، وسيطر القرامطة على أغلب الجزيرة العربية، وانتشروا في سواد العراق، ووصلوا إلى أطراف بلاد الشام وحدود مصر. وكثرت الدول في المشرق، فكانت الصفارية، والسامانية، والغزنوية، ولم تكن هذه الدويلات سوى صورةٍ مصغرةٍ عمّا كانت عليه الخلافة في بغداد، فالعسكريون المسيطرون سواء أكانوا تركاً أم فُرساً.

واستمر وضع الجنود الفرس أكثر من مائة سنة أيضاً ٣٣٤ ـ ٤٤٧ حيث قوي نفوذ السلاجقة الأتراك الذين كانوا يقيمون في بلاد ما وراء النهر بعد مدينة بخارى بحوالي مائة كيلومتر، وجاءوا على شكل موجات من الجيوش فسيطروا على البلاد، ودخلوا بغداد، وقضوا على نفوذ البويهيين، وكأن انقلاباً عسكرياً قد وقع على حكم عسكريٍ سابقٍ له، فلم يتغير الوضع كثيراً وإن تحسّن الأمر نسبياً، إذ كان السلاجقة من أهل السنة، فقضوا على ضلالات الشيعة، وتمكّنوا من القضاء على القرامطة في جزيرة العرب وعلى أتباعهم الأخيضريين في اليمامة وسط بلاد العرب، كما قضوا على الدولة الفاطمية، وفي الوقت نفسه فقد انتصروا على الروم البيزنطيين،

ووقفوا في وجه الصليبيين، وظهرت إمارة آل زنكي والدولة الأيوبية فأعطوا للخلافة الإسلامية شيئاً من الهيبة أمام أوربا، وإن كان وضعهم لا يختلف كثيراً عن الوضع العسكري إلاّ بوجود بعض الحكام الصالحين أمثال محمود نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، لكن لم يلبث أن يعود الوضع بعدهم إلى سابق عهده، وانتهى الوضع بالغزو المغولي، وسقطت بغداد عام ٦٥٦ تحت ضربات المغول، وخيانة الشيعة متمثلةً بالوزير ابن العلقمي.

ويكمن الخطر والسوء في الحكم العسكري في العلاقات القائمة بين الناس، فعندما يكون الجند طرفاً ويقع خلاف بين الجانبين يكون فرق بين خصمين يحمل أحدهما السلاح والآخر أعزل، يتكلّم الأول بسلاحه والثاني بعقله فينتصر السلاح، ويسكت العقل مرغماً، فتنعدم الحرية، ويقع الجور، ويتم كبت الفكر، ويحدث للناس الذلّ: فيكرهون المتسلّطين، وتكون المفاصلة بين المسؤولين والرعية، ولكن لا يمكن للسكان أن يظهروا ذلك، وإنما يكون سرّاً، وتتأخر البلاد اجتماعياً، كما تتأخر اقتصادياً إذ يحرص الطغاة على الإفادة من وضعهم فيجمعون ما يمكنهم جمعه، ناهيك عن أعمال السلب والنهب والتعديات التي يقوم بها القادة العسكريون وأتباعهم سواء أكان عن طريقهم مباشرة أم عن طريق جندهم والذين يقلدونهم أيضاً، ويقل الإنتاج لأن السكان يهملون ذلك كي لا يتعرضوا للنهب أو الدفع، أو الطغيان عليهم، وتضعف المعنويات، فلا يمكن للناس أن يقاتلوا، فباسم من يقاتلون؟ ولمن يحاربون؟ ولماذا يسيرون للغزو؟ وكيف يقاتل الذليل؟ وهل تفتح البلدان بقطعانٍ من العبيد؟ لذا تضيع البلاد ويدخلها الأجنبي. وقد كان المغول هم الأعداء الداخلون للدولة العباسية، والمزلزلون لها، والقاضون عليها.

وقد لوحظ هذا الأمر من القديم لذا كان الجند يقيمون بعيداً عن أهل المدن في معسكراتٍ خاصةٍ بهم، نائيةٍ نسبياً عن تجمّعات السكان كي لا يحدث هذا الصدام غير المتكافئ، ويحدث عنه انشقاق، رغم أن الجميع في الماضي جند وغير جند كانوا مسلحين، وسلاحهم واحد، غير أن للجند

مزية مهما يكن هي أنهم ذاهبون للقتال فلا بد من اللين لهم والتساهل معهم بل والدعاء لهم كي يذهبوا بمعنوياتٍ عاليةٍ لعله يُكتب لهم النصر على أعدائهم، كما لا بدّ من تشجيع أمير الجند وإظهار محبته وطاعته، ويُخشى جانبه إذا كان من الذين لا يخافون الله. وحرص الخلفاء في صدر الإسلام على أن يبقى المجاهدون في مدنٍ خاصةٍ بهم كي لا يميلوا إلى الدعة وحب الاستقرار، ومن هنا نشأت مدن الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها لتكون قواعد للجهاد وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثم مُصّرت بعد ذلك، هذا مع علمي أن المسلمين في أول أمرهم كانوا على غير مستوى من المجتمعات الأخرى سواء في ماضيها أم في حاضرها إذ كان خوفهم من الله يجعلهم لا يتصرّفون في أمر ليس فيه رضا لله، أو ليس فيه إخلاص لله ومراقبة له، ومَن أولى بهم أن يُراعي هذا الجانب؟ وتكون المعسكرات أيضاً في العصر الحديث خارج المدن للأغراض نفسها، ويُحذّر على العسكريين أن يدخلوا إلى التجمّعات السكانية بسلاحهم بل وبزيّهم العسكري كي لا يحدث ما تحدّثنا عنه.

ولكن حين يكون الحكم عسكرياً فلا بدّ من أن يحمي نفسه بالجند المسلّحين الذين يكونون بجانبه في المدن، في مقرّ الحكم، وفي الدوائر الرسمية، ودائماً بأسلحتهم، ويغدون ويروحون بها، وهنا يقع الخطر و... بل وبلباسهم العسكري دائماً كي يُعرفوا فلا يُؤذون، بل ويُفضّلون ذلك على طريقة الشباب الذين يحبون التباهي، والجند شباب، وذلك كي يرهبهم الناس، ويتصرفون بما يحلو لهم، ويدعمهم قادتهم في كل شيء كي يضمنوا جانبهم، ويكسبوا طاعتهم، ويُنفّذوا أوامرهم وقت الشدّة وأثناء الملمات، وهنا يقع الفساد، وتعمّ المنكرات، ويحدث الصدام الشعوري والعملي.

كما يكمن الخطر في المسؤول نفسه فهو يملك الجند جميعاً، وعليهم طاعته سواء أكانت طاعة الأمير وأولي الأمر، أم طاعة الجندية التي تفرض ذلك، أم طاعة جبرية في الوقت الحاضر إذ ألزم الجند عليها سواء

أكانت في غير معصية أم في معصية، فالقائد يبقى قائداً باستمرار والجندي يبقى جندياً على الدوام، ومعنى ذلك أن القائد يتصرّف بأمور الجندي، ويكلّفه بما يحلو لنفسه، ولا يمكن ردّ أمرٍ له، أو مخالفته، فإن ذلك يؤدي إلى الموت وخاصةً أثناء الحرب أو الحركة، وتكون أوامر القائد حسب الهوى، ويقلّد القائد الأقل رتبةً من هو أعلى منه وهكذا. . . . والضابط قد تربّى على السيف وعاش معه فلا يُحكّم عقله، وإنما ينطق بالسيف، ويتعامل معه، وينفّذ به رأيه وهواه.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد قادة عسكريون صالحون على مدار التاريخ، فلقد وجد أمثال محمود نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي و. . . كما ذكرنا، ولكن هذه نسبة قليلة، وما أن ينتهي الضابط الصالح حتى يرجع العرف العسكري، بل إن العسكري الصالح قلّما يطول أمره لأنه يقف أمام أهواء الذين دونه، فيشعرون بالضغط والكبت فيعملون على إزاحته بصورةٍ أو بأخرى. ومن هنا كان أصحاب القوة من العسكريين في العصر العباسي الثاني هم سبب الضعف الذي أصاب الأمة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فُرساً، فالسيف واحد بأية يدٍ كان، وذلك رغم تبجح أصحاب العصبيات المنتنة سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم فُرساً فإن ذلك تبجح لا يستند إلى حقيقةٍ وإنما هو فخر جاهلي بأقوامهم فالعرب يعدّون سبب الضعف الذي أصاب الدولة الإسلامية إنما يعود إلى تسلّط الفرس والترك، والفرس والترك يعدّون سبب ذلك الضعف إنما يعود إلى الزعامة العربية التي غدت ليست كفئاً لذلك المركز الذي تتبوؤه.

* * *

٢ - نشوء الدويلات

المسلمون أمة واحدة أينما كانت ديارهم، ولهم خليفة واحد، ولا يصحّ أن يوجد أكثر من خليفةٍ من آنٍ واحدٍ، وإنما توجد ولايات تتبع الخليفة، وليس لها حدود ثابتة، ومصلحة الدولة هي التي تُحددها، وبقيت الدولة الإسلامية على هذه الصورة أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، واستمرت كذلك في العهد الأموي مع وجود خليفتين حقبةً قصيرةً من الزمن، ولكن نعدّ نحن أن أحدهما كان ثائراً على الخليفة الشرعي عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فلما جاء العهد العباسي، ولوحق الأمويون فرّ أكثر من نجا منهم من القتل إلى مناطق نائيةٍ أو حصينةٍ وعاشوا بتكتّم شديدٍ كبقية أفراد المجتمع، وإذا وجد أحدهم الفرصة مواتيةً له ظهر وبرزَ، وكان أن وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، واستطاع أن يصل إلى إمرتها بعد صعوباتٍ تجاوزها، ولم يفكر في الانفصال عن الدولة الإسلامية وإن كان قد اعتصم فيما آلت إمرته عليه، بل بقي يدعو للخليفة العباسي مدة عشرة أشهر، ولو أن العباسيين أمهلوه لكان خيراً، ولما تجزّأت الدولة الإسلامية في وقتٍ مبكرٍ إلا أن محاولة أبي جعفر المنصور في تخليص الأندلس من عبد الرحمن الداخل وقتله وإرسال العلاء بن المغيث الجذامي لهذا الغرض عام ١٤٦ قد جعل الداخل يقطع الخطبة عن العباسيين أولاً ثم ينفصل عنهم، ولكنه لم يعلن نفسه خليفة وإنما احتفظ بلقب أمير، واستمر الأمر كذلك في أبنائه وأحفاده مدة مائة وثمان وسبعين سنة ١٣٨ ـ ٣١٦، وهي مدة طويلة بالنسبة إلى دولتين مختلفتين بل إن إحداهما انتزعت الحكم من الأخرى، وقتلت من أبنائها الكثير، وشرّدت كثيراً، وفي عام ٣١٦ أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه

خليفةً، وذلك بعد أن حكم الأندلس مدة ستة عشر عاماً وهو أمير، كل ذلك في سبيل المحافظة على وحدة المسلمين، وتمشّياً مع العقيدة الإسلامية التي تقضي بعدم وجود خليفتين في وقتٍ واحدٍ. وكذلك قامت دولتان للخوارج في المغرب الأوسط حوالي عام ١٤٠ إحداهما للأباضيين في «تاهرت»، والأخرى للصفرية في «سجلماسة»، ورغم أن الخوارج يختلفون فكرياً مع أهل السنة إذ يُكفّرون من لم ير رأيهم، ومع ذلك فلم تعلن هاتان الإمارتان الخلافة. وقامت دولة الأدارسة عام ١٧٢ في المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله بن حسن ومع أنه كان قد نجا من معركة «فخ» عام ١٦٩ في أحد شعاب مكة، وقد قتل فيها كثير من أهله وذويه، وفرّ ناجياً بنفسه، خائفاً من تعقُّب العباسيين وأنصارهم، وتحمّل الصعوبات، ووجد في طريقه المشقّات، ولما تمكّن من أن يقيم دولةً بما وهبه الله من إمكانات لم يُعلن نفسه خليفةً. وتأسست دولة الأغالبة في المغرب الأدنى عام ١٨٤ ولكنها بقيت تتبع العباسيين، واستمرت إمارةً عباسيةً أو ولايةً تتبع بغداد ولكنها وراثيةً في ولاتها.

إذن مضى العصر العباسي الأول ولا تزال للمسلمين دولة واحدة، وجميعهم يتبعون خليفةً واحداً، وإن وجدت ولايات لا تقرّ بالخليفة القائم بالأمر، أو تختلف معه قليلاً أو كثيراً، ويمكن أن نعدّها إمارات على خلافٍ موقتٍ مع أمير المؤمنين، هذا رغم ما يقال عن العداء بين العباسيين والأمويين، وصلة العباسيين بالفرنجة أعداء الأمويين، وصلة الأمويين بالبيزنطيين أعداء العباسيين، لكنها في الواقع لم تكن أكثر من صلات مجاملة وتبادل هدايا، ووعود لم ينتج منها أي شيء من حروب، أو لقاء مؤمنين مع كافرين ضد مؤمنين آخرين.

وإذن وجدت إمارات في العصر العباسي الأول، وكانت هذه الإمارات محصورةً في مغرب الدولة الإسلامية، وقد أسس بعضها العرب كما هي الحال في دولة بني أمية في الأندلس ودولة الأغالبة في تونس، والأدارسة في فاس في المغرب الأقصى، كما أسس بعضها الآخر البربر كما هي حال

دولتي الخوارج، أو يمكن أن نقول بأسلوب آخر: إن عناصر سكان الدولة الإسلامية في المغرب هم الذين أسسوا هذه الدويلات، وهم من العرب والبربر، أو أن هذه الدول قد نشأت نتيجة طموحات عربية وبربرية.

أما في العصر العباسي الثاني فقد نشأت دويلات في مشرق الدولة الإسلامية إضافةً إلى ما نشأ في مغربها، ولا شك فإن عناصر سكان هذا الجزء هم الذين أقاموا هذه الدويلات، ولما كانت أكثرية هذه العناصر من الفرس والترك لذا يجب أن نتوقّع مسبقاً قيام الفرس والترك بتأسيس هذه الدول، ويجب ألا نستغرب ذلك، ولا نضع اللوم على هؤلاء السكان باسم العصبية الجاهلية منا فهذا أمر طبيعي له مثيله في بلاد المغرب بل كان أسبق منه، وإن هذه الدول لم تقم حتى زاد ضعف الدولة العباسية، وعندما كانت قويةً أو كان الحكم قوياً لم يقم الترك ولا الفرس بمحاولاتٍ لتأسيس مثل هذه الدول وإنما الذي أقام الدول هم العرب والبربر فقط، وربما نعت بعضهم هذا التأخر بالجبن والضعف على حين كان العرب والبربر أكثر شجاعةً في هذا الميدان، ولكن يمكن أن نقول: إنه لا داعي لقيام دولٍ صغيرة عندما يكون الحكم المركزي قوياً، ولكن إذا ضعف فقد يضطر بعض الطامحين للعمل على تأسيس دول تكون قويةً لتقف في وجه العدو أو لتعيد إلى الدعوة شبابها وانتشارها، وإعادة الفتح، ودبّ الروح المعنوية في حياة السكان من جديد كما كان في الدولة الغزنوية التي أعادت الفتح في بلاد الهند تارةً أخرى وعملت على نشر الإسلام هناك، وإذا كان عناصر السكان هم الذين يؤسسون الإمارات المستقلة إلا أنه يمكن أن يأتي غرباء عن المنطقة وينجحون في إقامة مثل هذه الإمارات وذلك إذا كان لهم شهرة سابقة أو حكم مثل عبد الرحمن الداخل في الأندلس، أو مركز ديني مثل إدريس بن عبد الله في المغرب الأقصى، أما الولاة الذين يستقرون في ولايةٍ مدةً من الزمن ثم يستقلون فيها وينفصلون مثل إبراهيم بن الأغلب فنعدهم من عناصر السكان الأصليين حيث أقام بين أظهر السكان مدةً، ثم أفاد من مركزه فشكّل حوله قوةً تحدثنا عن مثلها في الجانب العسكري.

قامت في المشرق الإسلامي الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠) إذ برز يعقوب بن الليث الصفاري بحربه ضد الخوارج، وزهده الذي عُرف به، وإذا كانت هذه الدولة قد قضت على الإمارة الطاهرية عام ٢٥٩ إلا أن الدولة الطاهرية تعدّ إمارةً عباسيةً لأنها بقيت مدة بقائها تعترف بالخليفة العباسي وتدين بالولاء له على حين أن الدولة الصفارية قد قطعت الخطبة للخليفة وحاربته وقصدت بغداد، ولكن جيشها قد هزم عندما رأى الخليفة أن يخرج بنفسه لقتالها. وقامت الدولة السامانية الفارسية (٢٦١ ـ ٣٨٩) ومقرها سمرقند، وقامت الدولة الغزنوية التركية في غزنة (٣٥١ ـ ٥٨٢)، هذا إضافةً إلى دولٍ أخرى أكثر صغراً وأقل أهمية كالدولة الطاهرية التي تحدثنا عنها عرضاً وهي في خراسان، والدولة العلوية في طبرستان و. . . .

وكذلك زادت الدول المستقلة في مغرب الدولة وخاصةً في مصر، أو أن الدول المستقلة بدأت تتقدم نحو الشرق حيث قام المماليك يؤسسون لهم إمارات فالدولة الطولونية (٢٥٦ ـ ٢٩٢) التي أسسها مملوك تركي هو أحمد بن طولون، والدولة الإخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨) التي أسسها محمد بن طغج الإخشيدي، وهو أيضاً من أصلٍ مملوكي من فرغانة إذ كان يُلقب ملوك فرغانة بالإخشيد، ولا نستغرب تأسيس دولٍ لهم في مصر إذ أن سكان هذه المنطقة من طبيعتهم أن يقرّوا لأي إنسانٍ بالطاعة إذا تسلّم الزعامة عليهم أو أظهر قوةً أمامهم، ويدينون بالولاء له، ولم تقم حكومات للمماليك في أي جزءٍ آخر من المنطقة العربية في الدولة الإسلامية، وصحيح أن دولة المماليك توسّعت حتى شملت أجزاءً كبيرةً من بلاد الشام والحجاز، ولكن كانت هذه المناطق ضمن توسّعها ولم تكن مقرًّا لها، كما لم يكن أهلها جندها الذين تُقاتل بهم، وتضرب خصومها بأيديهم.

وظهرت دول أيضاً وسط الدولة الإسلامية إذ قامت دولة بني حمدان في الموصل (٣١٧ ـ ٣٦٩) وفي حلب (٣٣٣ ـ ٣٩٢) وبنو حمدان من قبيلة بني تغلب العربية. كما قام الأيوبيون في الشام (٥٦٧ ـ ٦٤٨) والأيوبيون جزء من سكان هذه المناطق فهم من الأكراد الذين يقيمون في

جهات «إربيل» شمالي العراق، وقد تولّوا مسؤولية الدفاع عن بلاد المسلمين، وقد كانوا أشداء بصفتهم سكان جبال، لم تفسد المدنية طباعهم بعد، بل إن صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ قد نقل أعداداً من سكان الجبال من هؤلاء الأكراد ووضعهم في المناطق المتاخمة للأجزاء التي سيطر عليها الصليبيون كخطٍ للمواجهة، أو لقتال الصليبيين وحماية الأجزاء الأخرى من خطر هؤلاء الدخلاء أو كي لا يتمكّن الصليبيون من التوغل إلى الداخل. وقد أسكن الأكراد في القلاع القائمة أو شيّد لهم قلاعاً خاصةً بهم، ولا تزال بقاياهم قائمةً إلى الآن في مدن هذه المناطق أو التي كانت خط دفاعٍ، وفي قلاع تلك الجهات، والبقاع ذات الأهمية، وقد امتزجوا بالسكان، واستعربوا، ونسوا لغة الأكراد ونجد منهم في شمال اللاذقية، وحماه، ودمشق، ودرعا، وصفد، والكرك ويعرفون بذلك حتى الآن.

وقام القرامطة وهو تعريف لكل أولئك الذين حقدوا على الأغنياء المرفهين خاصةً وعلى المجتمع عامةً لوضعهم الاجتماعي الذي عاشوا فيه، فدعوا سرّاً إلى شيوعية المال والنساء، واستغلّوا حقد زرّاع الأجزاء الجنوبية من العراق حيث كثر الزنج هناك، كما استغلّوا جهل البداة، ومراهقة الشباب ومتطلبات الطرفين، وأسسوا على كواهل هذه المجموعات دولتهم التي شملت أغلب أجزاء جزيرة العرب، ووصلت إلى أطراف الشام وحدود مصر، ولا أستطيع أن أؤكد أصول زعماء هؤلاء، وإنما جمعتهم كلمة قرامطة، وهم أخلاط من أجناسٍ شتّى. وهكذا لم تنج رقعة من رقع الدولة الإسلامية من استقلال إمارةٍ فيها حتى أن مركز الخلافة قد خضع للسيطرة عليه أو لمجموعةٍ حكمت تحت اسم الخليفة وحمل سيّدها لقب أمير الأمراء، أو سلطان، أو ملك أو. . . .

ولا شك فإن قيام الدول المنفصلة عن جسم الخلافة كان على أطرافها أكثر منه في وسطها فنجد في المغرب دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١) ودولة الموحدين (٥٢٤ ـ ٦٦٧)، وفي اليمن دولة بني زياد (٢٠٤ ـ ٤٠٧) في زبيد، ودولة بني نجاح في زبيد أيضاً (٤١٢ ـ ٥٥٤)، ودولة

الصليحيين في صنعاء (٤٢٩ ـ ٥٣٤)، وهم من الإسماعيلية، ودولة بني مهدي في زبيد (٥٥٤ ـ ٥٦٩)، ودولة بني زريع في عدن (٤٧٦ ـ ٥٦٩)، ودولة بني رسّ (٢٨٠ ـ ٧٠٠) وهم الأئمة الزيديون بصعدة وصنعاء، كما قامت دولة بني رسول عام ٦٢٦ واستمرت إلى ما بعد المرحلة التي نحن بصدد دراستها، وفي الهند دولة الغوريين (٥٤٣ ـ ٦١٢)، وفي بلاد ما وراء النهر الدولة الخوارزمية و. . . . هذه الدول كان لبعضها شأن لذا فقد درست منفصلةً عن الخلافة الإسلامية لذا فقد حدث تشتت في تاريخ هذه المرحلة هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانيةٍ أهمل تاريخ مركز الخلافة، وعرف تاريخ هذه الدول المتناثرة فظهر الضعف بصورةٍ أكبر، وكان تاريخ دويلات.

وإن أول مرةٍ فُتقت فيه عرا الإسلام فوجد خليفتان في آنٍ واحد عام ٢٩٧ عندما قامت الدولة العبيدية في المغرب، وادعت النسب الفاطمي كناحيةٍ دينيةٍ، وهي بذلك ككثير من دول القرامطة لا تجد أساساً تستند عليه لتقف على أرجلها إلا ذلك الادعاء، وآل البيت من هذا براء، وفي الوقت نفسه فإن النسب لا يُغني شيئاً، فلو كان رجل صحيح النسب وغير ملتزم بمنهج الله الذي سار عليه رسول الله وأصحابه فلا وزن له في الدنيا ولا في الآخـــرة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1]. ولـم تـجـد هـذه الدولة العبيدية قاعدةً صلبةً لها في بلاد المغرب فاتجهت نحو مصر لا للتوسع فقط وإنما لتأخذ مصر حيث تجد هناك الخضوع التام من أهلها ـ كما عهدنا ذلك ـ، وتمّ لها ما أرادت، وحصل ما توقّعته من وداعة السكان وحبهم للسلم أو للاستسلام، هذا رغم ما كان يلقى العبيديون من مناهضةٍ كلامية على شكل شعرٍ أو قصصٍ ساخرةٍ فيها تبكيت وتجريح بنسبهم، وقد يصل ذلك إلى مسامع الخليفة دون معرفة مصدره. وأصبح في الدولة

(١) سورة هود: الآيتان ٤٥ و٤٦.

الإسلامية خلافتان إحداهما في بغداد والأخرى في المهدية وذلك مدة تسع عشرة سنة (٢٩٧ ـ ٣١٦) ثم انتقلت من المهدية إلى القاهرة، ثم غدا ثلاثة خلفاء إذ أُضيفت خلافة في قرطبة عام ٣١٦، وبقي ذلك مدة سبع وثمانين سنة (٣١٦ ـ ٤٠٣) إذ انتهت خلافة قرطبة، وجاء دور ملوك الطوائف، وبقي خليفتان مدة أربع وستين ومائة سنة (٤٠٣ ـ ٥٦٧)، وعاد الأمر بعد ذلك إلى بقاء خليفةٍ واحدٍ في بغداد حتى سقوط الدولة عام ٦٥٦، وينتهي معها العصر العباسي الثاني الذي هو موضوع بحثنا في هذا الجزء من الكتاب.

ومع هذه الدول المتعددة إلا أنه لم يحدث من إحداها مساعدة كافرٍ ضد أُخراها، بل يمكن أن نقول: إنه كان يوجد تعاون حسب الإمكانات الضعيفة ونذكر على سبيل المثال مراسلة صلاح الدين الأيوبي في المشرق إلى يعقوب بن يوسف الموحدي في المغرب، وهديته له، وطلبه دعمه لمحاربة الصليبيين، وقد فعل ذلك وجهز المنصور يعقوب بن يوسف ثمانين ومائة سفينة، وحال دون وصول الصليبيين لقتال صلاح الدين، وبرهن ابن خلدون بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[1]. كما يجب ألا ننسى أن الخلافة العباسية والعبيدية قد عملت كلاهما لقتال الصليبيين رغم ما بينهما من عداء.

وأخيراً يمكن أن نقول: إن وجود هذه الدويلات إنما يعود إلى الضعف الذي أصاب الدولة العباسية، وإن وجود الدويلات قد زاد في الضعف، أو هو سبب من أسبابه، ومردّ كل ذلك إلى ضعف الإيمان في النفوس، وتراجع الفكر الإسلامي من العقول، وعدم فهم طبيعة الإسلام في الجهاد، وإنصاف الأجراء فإن عدم إنصافهم قد دفعهم إلى السير وراء أصحاب المنكرات والأطماع مجرد ادعائهم الانتساب إلى آل البيت مع وضوح ضلالهم وضلالاتهم، كما دفعهم إلى القيام بحركاتٍ ضد الدولة

---

(١) العبر: ابن خلدون الجزء السادس ص٤٩٥.

استغلّها أهل السوء، وقد نُعيد ذلك إلى الجهل الذي يؤدي إلى ذلك، ولكن الجهل ليس هو إلا من ظاهرات ضعف الإيمان، وكل ذلك أدّى إلى وجود أكثر من خليفةٍ في بلاد المسلمين وتعدد الدول المنفصلة عن جسم الخلافة.

* * *

٣ ـ نتائج الحضارة الإسلامية

رفرف لواء العدل والحق فوق الأراضي التي حكمها المسلمون فعاش الناس في رغدٍ ورخاءٍ وأمنٍ وطمأنينةٍ، وهذا ما فسح لهم المجال كي يركبوا متن الحضارة، وهل الحضارة سوى تحقيق المعاني الإنسانية كي ينعم أفراده بالسعادة!.

وعرف المسلمون من عقيدتهم معنى الحياة ومهمة الإنسان فيها فانطلقوا يؤدون دورهم فعملوا على إنهاء الظلم من وجه الأرض، وفي إخراج سكان هذا الكوكب من عبادة العباد، وعبادة المال، وعبادة الشهوات إلى عبادة الله الواحد القهار الذي لا شريك له ولا معبود سواه، وخرجوا صادقين مخلصين من مركزهم الأول يدكّون عروش الظلم، ويقدّمون للمجتمعات المعاني الإنسانية فكانت الفتوحات الإسلامية الواسعة، وحصل المسلمون فيها على ما يريدون من تحقيق مهمتهم في الحياة فنال الشهادة منهم من نالها، وعاش بنعيم بعد النصر من كتب الله له الحياة، هذا بالإضافة إلى المغانم الدنيوية الأخرى والتي لا تُذكر أمام ما ينتظر الإنسان من جنّات النعيم في الآخرة، ومن هذه المغانم الأموال، والأملاك، والأرض، والخدم، والسبايا، وإذا كانت هذه كلها قد أفاد منها المسلمون في عصر صدر الإسلام إلا أنهم كانوا يُطبّقون فيها شرع الله، فكانت الأموال تُنفق في سبيل الله، والأملاك والأرض يذهب جزء كبير من مواردها في سبيل الله، ويُعامل الخدم المعاملة الإسلامية الطيبة من حيث الحقوق والرفق بهم، وإطعامهم، وكسوتهم، ومبيتهم، وكل جوانب حياتهم حتى لم يعد يشعر هؤلاء الخدم أو الرقيق أنهم من طبقةٍ خاصةٍ، ولم يذكروا بعد ذلك حياتهم الأولى بشيء من الفارق، ولعلنا نذكر كيف رفض زيد بن حارثة، رضي الله

عنه، وهو فتى يافع أن يذهب مع أبيه وعمّه، وفضّل البقاء عند مولاه محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، لما رأى منه ومن معاملته، وعجب أبوه وعمّه من إنسانٍ يؤثر العبودية ـ بمفهومهم ـ على الحرية، وفي الإسلام لا توجد طبقات اجتماعية وإنما يشعر الناس جميعاً في ظلّ الإسلام أنهم متساوون ضمن أسرةٍ واحدةٍ ساداتهم كآبائهم بهم رحماء، ويتزوّجون ويعيشون مع زوجاتهم ككل أسرةٍ في بيئتهم لهم واجبات وعليهم حقوق، وككل أفراد المجتمع لا فرق بينهم ولا تمييز. وبهذا فقد استفاد المسلمون بما منحهم الله بالطريقة السليمة التي لا عوج فيها ولا اختلال والتي يجب أن يتبعها بنو الإنسان.

وتوقفت الفتوحات لأمرٍ يريده الله، ولم يُنه المسلمون مهمتهم كاملةً في الحياة إذ بقيت بعض عناصر الظلم متحكّمةً في مناطق كبيرةٍ، وبقيت بعض الطواغيت متسلّطة في بعض جهاتٍ من العالم، وانصرف المسلمون عندها إلى حياتهم الخاصة، منهم من انصرف إلى تجارته يُنمّيها فكان تاجراً أفاد من دنياه بما جنى من أرباح، وأفاد لأخراه بما عمل وقدّم وبذل في سبيل نشر الإسلام، إذ انتشر الإسلام بالتجارة والدعوة كما انتشر بالجهاد والفتح، ومنهم من انصرف إلى أرضه فأحياها وعمّرها فخدم نفسه بما حصل عليه وخدم الأمّة بما قدّم لها من خيرات الأرض وبركاتها، ومنهم من اتجه إلى العلم فنهل منه ما شاء الله له أن ينهل، ودفع بمركبة العلم شوطاً إلى الأمام، فتُرجمت علوم السابقين وأُضيفت إليها إضافات واسعة، وتفتّقت عبقريات، واستنبطت أحكاماً، ووضّحت أموراً على غايةٍ من الأهمية، وتسابق الحكام إلى تقريب العلماء وتشجيعهم على البحث، وتأسيس المكتبات، وتقديم الدعم والعون لأهل العلم في كثير من الأحيان، وإن كان بعض هؤلاء العلماء يرفضون كل شيء وأحياناً حتى الصلة، فكانت نتاج ذلك العلم ثروةً ويساراً وخيراً مدراراً، وكانت عواصم الدويلات ومركز الخلافة مراكز إشعاعٍ للعلم ومناراً يُنير درب السالكين، ومن الحكام من بنى وشيّد، بنى للعلم دوراً وشيّد قصوراً،

وعمّر مساجد، وأسس خانات[1] على طرق المسافرين لإيوائهم وراحتهم، وتنافس الأمراء في ذلك فكانت حواضرهم مُتعةً.

هذه الثمار كانت نتاج الحضارة التي سبقت هذا العصر وليست هي الحضارة كما يُصوّرها لنا الماديون ويوهموننا بذلك.

وفي الوقت نفسه فقد انصرف بعض الناس إلى ترفهم ولهوهم فغنّوا وطربوا، ولحّنوا وشربوا، وعاشوا في دوامة الحياة يدورون معها أو تدور بهم، وغبّوا من الهوى ما شاء لهم هواهم أن يغبّوا كل هذا على حساب ما جُلب من رقيق كانوا بالأمس أحراراً، فكان هذا الرقيق أداة إنتاجهم وعملهم، وخدم لهوهم ومجونهم، إذ زرع لهم الأرض كما رغبوا، وصنع لهم ما بغوا، وعمل في مختلف مجالات العمل، يدور لهم كالرحى ويأخذون ما ينتج، وعاشوا هم على ما بذل هذا الرقيق فكان يشقى ويسعدون، فنقم الرقيق على أسياده وتصرفاتهم وحقد عليهم، ثم تحرّك وثار فكانت الفتن وكان البلاء.

وبرز هؤلاء اللاهون في المجتمع لنعيمهم أو شقائهم الذي هم فيه حتى أعطوا العصر سمتهم فأُضيفت هذه الرفاهية ـ نتيجة الجهل ـ إلى نتاج ما سبق من حضارة، وظُنّ أنه جزء من نتاجها وثمارها والواقع أنه كان الترف والبطر، وكان الفساد، وكانت النتيجة الضياع والانهيار لا للحضارة التي ظهرت من قبل فحسب وإنما للأمة جميعاً، إذ من أخذ نِعم الله وأدّاها حقّها كانت له خيراً وكانت حضارةً، ومن بَذَلَ ذلك في سبيل هواه كانت النعمة نقمةً، وكانت العاقبة شرّاً ليس عليه فقط وإنما على أفراد الأمة جميعاً الذين لم يأخذوا على يده ولم يردعوه من غيّه، وكان ذلك دماراً وبؤساً وشقاءً.

---

(١) الخان: مكان يبنى في المدن، وعلى طرق المسافرين الرئيسية، ينزل فيه المسافرون لمدة ثلاثة أيام، ويقدم لهم الطعام والشراب، والمأوى، وبالقرب منه مكان ثانٍ للرواحل يقدم إليها العلف كل ذلك على حساب الدولة، وغالباً ما يكون بينه وبين الآخر مرحلة، وهي أربعون كيلومتراً تقريباً.

وجاء أمر الله الذي لا مردّ له فاقتتل من اقتتل، وطغى من طغى حتى تولّى أمرهم جميعهم عدوّهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

٤ـ الحركات الباطنيّة

الحركات الباطنية حركات سياسية بمنشئها هدفها القضاء على الإسلام بأيّة صورةٍ، ويُعدّ مُحرّكها بقايا الجماعات الدينية المتعصبة التي قضى الإسلام على نفوذها أو على دولها، ومن هذه الجماعات اليهود، والنصارى، والمجوس، فقد قضى الإسلام على نفوذ اليهود في المدينة المنورة أولاً ثم في الجزيرة العربية عامةً، وأزال الوجود النصراني من أرض العرب وقاتل سادتهم الروم البيزنطيين وأزاحهم عن مواقعهم في بلاد الشام والشمال الإفريقي، وأنهى دولة المجوس في فارس وفي كل مناطق نفوذها، هؤلاء هم قطب الرحى بالنسبة إلى الحركات الباطنية، وإذا كان المجوس هم محورها فإن اليهود هم المخططون لها، وكان النصارى مؤيدين لها.

بدأت الحركات الباطنية في وقتٍ مبكرٍ، ولكنها كانت ضعيفةً، وكان أثرها محدوداً للقرب من عهد رسول الله ﷺ، وللوعي الإسلامي الذي كان موجوداً. بدأت هذه الحركات تعمل على تهديم الإسلام من الداخل فادّعى عبد الله بن سبأ اليهودي الإسلام، وبدأ يتنقّل في الأمصار يُثير الفتنة، ويُؤلّب على سيدنا عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، الخليفة الراشدي، ولم يجد بُدّاً من أن يتّخذ أحد الصحابة ستاراً يستتر به، ويدعو له، فكان يفضّل ـ على زعمه ـ سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم قال بألوهية عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ ورجعة محمدٍ ﷺ، فأحدث فتنةً ـ قبّحه الله ـ، كما نشأت الكيسانية التي قالت بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) إلاّ أن أثر هاتين الحركتين قد بقي محدوداً وانتهى سريعاً.

فلما مضى وقت على بدء الإسلام، وبدأ الضعف يظهر على بعض أبنائه بدا حقد هؤلاء الأعداء واضحاً، ووجدوا فرصةً لهم في أن أحفاد صحابة رسول الله ﷺ قد كثروا وتفرّقوا في الأمصار فيمكن أن ينتحل بعضهم الانتساب إلى أحدهم، ووجدوا في الانتماء إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، مفيداً لهم ويحقّق أغراضهم لما لسيدنا عليّ من مكانةٍ في نفوس المسلمين، فهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنّة، ومن المقاتلين الأشدّاء الذين بذلوا الكثير في سبيل الإسلام، وله شيعة وأنصار يمكن الإفادة منهم وتسخيرهم لأغراضهم، وكذا كان ابناه الحسن والحسين، رضي الله عنهما، من زوجه فاطمة، رضي الله عنها، فهما حفيدا رسول الله ﷺ وعقبه في ذُرّيتهما، وهما من المبشرين بالجنّة، فبدأ الأعداء ينتحلون نسباً إلى عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وخاصةً عن طريق ابنه الحسين، رضي الله عنه، لأن استشهاده في كربلاء كان له صدى واسع في نفوس المسلمين، فصوّروا المعركة بأساليب كثيرة، واستفادوا من ذلك لذا كان أكثر أتباعهم من أنصار سيدنا علي، رضي الله عنه، أو كانت هذه الحركات تحمل صفة أنصار علي وليست هي كذلك، والتحق بها بالفعل الجهلة من أنصار آل البيت، وهم لا يدرون ماذا يُراد بهم!

ويجب ألا ننسى اتصال أحفاد الحسين، رضي الله عنه، بالنسل الفارسي، إذ أن ابنه علي زين العابدين الذي عقبه منه أمه أم ولد تدعى سلاّمة أو سُلافة، أو غزالة، وهي بنت ملك الفرس يزدجرد.

واتخذت هذه الحركات الباطنية كل وسيلةٍ لتجميع الناس حولها سواء أكانت هذه الوسائل شريفةً أم غير ذلك. كان زعماء الحركات الباطنية يُظهرون الزهد في بداية أمرهم كي يُقبل عليهم الناس، ويدّعون الانتساب إلى أحفاد الحسين بن علي، رضي الله عنهما، إذ أن المجتمع الإسلامي لا يخضع غالباً إلا للذين يُعرفون بتقواهم أو على الأقل يخضع للأتقياء أكثر مما يخضع لغيرهم، حتى إذا ما دان لهم أتباعهم، ووثقوا بهم أخضعوهم

لمرحلةٍ ثانيةٍ فثالثةٍ إلى أن يصلوا بهم إلى مرحلةٍ يرفعون فيها عنهم التكاليف الشرعية، وأخيراً يُحلّون لهم ما حُرّم عليهم من أموال ونساء.

ووجدت الحركات الباطنية في إباحة النساء وسيلةً لها كي يلتفّ حولها الناس، وبهذه الوسيلة تستفيد من الشباب المراهقين الذين يسيرون وراء إرواء غرائزهم، ومن الزرّاع الذين يعملون لغيرهم وهم غرباء عن مناطقهم، ومن الأرقاء، والزنج الذين جلبوا للعمل في جنوبي العراق، وهؤلاء جميعاً يحقدون على الحكام والأثرياء، ويرون أنهم يحصلون على ما لا يحصلون هم، ويعيش أصحاب الأملاك في الظلال الوارفة ويُهيأ لهم كل شيء عن طريق الخدم، بينما يعيش الزنج في لظى الشمس اللافحة، ولا يحصلون على شيء، لذا فقد دعت أكثر الحركات الباطنية وخاصة القرامطة منهم إلى شيوعية النساء، ولكن سرّاً، ولمن تثق بهم إلا بعد أن يمرّوا بعدة مراحل كي لا يثور عليهم المجتمع الذي يعيشون فيه إذ في ذلك انتهاك للحرمة، ولأعراف المجتمع وتقاليده، وخروج على عقيدته وهذه الناحية المهمة.

وكذلك فقد عمل القرامطة على شيوعية المال للإفادة من الفقراء والبداة وجماعاتٍ كثيرةٍ. وإضافةً إلى هذا فقد اعتمدت الحركات الباطنية على الإرهاب كي يخافها الناس ويرهبوها ويسيروا وراءها، كما نظمت نفسها تنظيماً دقيقاً، ليبقى أفرادها مجهولين وسط مجتمعهم الذي لا يؤمن بهذه المبادئ، فكانت التقية بصورةٍ عامةٍ سمةً لها، وأمكن ذلك لأتباعها أن يُظهروا غير ما يخفون أو أصبح بإمكانهم التلوّن بصورٍ شتّى.

واستغلّت الحركات الباطنية حقد الأرقاء على ساداتهم، والحالة الاجتماعية التي وصل إليها المجتمع من الضعف والتفكك والفوضى وسيطرة الجند فأعلنت نفسها وقامت بحركاتها، وكان أكثر أتباعها من الشباب الذين يُغريهم دقة التنظيم والقوة، وإرواء الغرائز، وهم دائماً الوقود الرئيسي للحركات، لذا سخّر الباطنيون الشباب لتحقيق مآربهم.

٥ـ الغـزو الصّليبيّ

بعد أن تقدّم المسلمون في البلاد التي كانت تخضع للروم سواء في بلاد الشام أم في الشمال الإفريقي أم في الأندلس والتي تنتشر فيها النصرانية تحت تأثير حكامها سواء أكانوا من الرومان أم من البيزنطيين، وبعد أن بدأت الفتوحات الإسلامية تتوسّع كلّ يوم وتضمّ أرضاً جديدةً إلى ديار الإسلام، وبعد أن أحسّ النصارى بالهزيمة وخيبة الأمل بصورةٍ لم يكونوا يتوقعونها، وشعروا بقوة المسلمين والروح المعنوية العالية التي يحملونها بشكلٍ ما اعتادوا أن يروه، ولم يكونوا يحلمون به، بعد كل هذه آثرت النصرانية الهدوء ومحاولة الدفاع عن مواقعها التي تراجعت إليها في بلاد آسيا الصغرى، والقيام أحياناً ببعض الغارات لا بقصد الهجوم المعاكس وردّ الفعل لاسترجاع ما فقدته، ودحر المسلمين عمّا أخذوه وإنما بغاية إثبات الوجود كي لا يندفع المسلمون بقوةٍ أكبر لظنّهم من أن إمامهم قد انتهى، أو ليبقوا على تخوّفٍ وحذرٍ من ردّ فعلٍ فلا ينطلقون.

وانتظرت النصرانية مرور موجة الاندفاع الإسلامي كي تهدأ حتى تقوم بردّ الفعل، وفعلاً فقد توقّفت الفتوحات الإسلامية، وبدأت الخلافات تظهر بين المسلمين، وبدأ الضعف يبدو عليهم هنا وهناك فحاولت النصرانية عندها أن تقوم بردّ الفعل. وإذا كانت النصرانية منقسمةً أيضاً بعضها على بعض فالأرثوذكس في بيزنطة ومقرّهم القسطنطينية على خلافٍ مع الكاثوليك الذين يخضعون للبابا ومقرّهم روما، ويُقيم البابا في حاضرته الفاتيكان إلا أن كلا الفريقين يحاول القيام بردّ الفعل من جهته، فالبيزنطيون يحاولون التقدّم في المشرق على حين تحاول روما التقدّم في الأندلس، وكلاهما

يساهم أيضاً بحرب المسلمين في جزر البحر الأبيض المتوسط التي ويمّها تخضع للنفوذ الإسلامي.

لما شعرت بيزنطة أن العباسيين ضعُف أمرهم، وانفصلت الإمارات عنهم، وانبرى بعضها يقاتل بعضاً رأت أن الجوّ أصبح ملائماً لردّ الفعل لكنها أحسّت بهذا الوقت بقوةٍ جديدة تتقدّم من المشرق، وتحمل روحاً قتاليةً كبيرةً، وتندفع باسم الإسلام نحو الغرب تلك هي مجموعة السلاجقة الأتراك، وعندما أرادت بيزنطة أن تتصدّى لهم وتقف في وجههم هُزمت هزيمةً منكرةً في «ملا ذكرت» عام ٤٦٣هـ، وهذا ما جعل أمبراطور بيزنطة ميخائيل السابع يتجه نحو روما لتصفية الجوّ بين الكنيستين المختلفتين، أو يعقد اتفاقاً ودّياً بينهما، ويستغلّ مناسبة انتخاب الكاردينال «هيلد براند» بابا في روما، وهو الذي اتخذ لقب البابا «غريغوري السابع»، فأرسل الأمبراطور عام ٤٦٦ وفداً للتهنئة، وكلّف الوفد بأن يعلن عن رغبة الأمبراطور في توثيق الصلة بين روما وبيزنطة، ووافق البابا الجديد، وأرسل وفداً برئاسة بطريرك البندقية إلى القسطنطينية يحمل شكراً للتهنئة وإشارةً للرغبة نفسها من قبله، وإن كان البابا الجديد ينوي في قرارة نفسه أن يبعث بقواتٍ له إلى آسيا الصغرى لطرد السلاجقة المسلمين الذين كثرت غاراتهم على الحجاج النصارى إلى بيت المقدس، وحالت دون وصولهم إلى هدفهم عن طريق البر - على زعمه - وفي الوقت نفسه تتوطد أقدامه في آسيا الصغرى، ويقوى نفوذه، وينهي الخلاف مع بيزنطة بالقضاء عليها. وأراد أيضاً أن تزداد دعايته في أوربا كلها ليطيعه الناس بالقيام بعمله هذا لذا بدأ يحرّض على قتال المسلمين في الأندلس، ودعا إلى الهجوم عليهم، وتمت الهجمات النصرانية على المسلمين في الأندلس ودعمتها أوربا بكل ثقلها ومن خلفها البابا، ولكن هذا لم يُفِده كثيراً إذ تقدّم المرابطون من المغرب، واجتاز أميرهم يوسف بن تاشفين بنفسه بحر الزقاق، وانتقل إلى العدوة الأندلسية، وسار المسلمون معه لحرب النصارى فانتصروا عليهم انتصاراً كبيراً في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩، وبذا فإن محاولة التفاهم بين روما وبيزنطة لم تفد النصارى شيئاً.

عادت العلاقات فساءت بين الكنيستين وخاصةً بعد وفاة البابا «غريغوري السابع» عام ٤٨٠، ودبّ الخلاف بينهما، وتحالف ملك ألمانيا المعادي للبابا مع أمبراطور بيزنطة ضدّ روما.

وفي عام ٤٨١ اختير إيربان الثاني بابا لروما، وقد زاد نفوذه كثيراً وأصبح السيّد المطاع في أوربا، ومع أن النصارى في الأندلس قد بدأ وضعهم يتحسّن فقد استولوا على وشقة عام ٤٨٩ وعلى مناطق ثانية، وبذل إيربان الثاني كل ما يستطيع من دعم إلا أنه وجد أن يغزو المسلمين في عقر دارهم أو في قلب بلادهم فإن الإصابة في القلب أشدّ وقعاً وأكثر أثراً، وإذا ما نجح فإن الأطراف بطبيعة الحال تتداعى وتتساقط.

دعا البابا إيربان الثاني إلى اجتماعٍ لرجال الدين يعقد في «كليرمونت» بين [١٨ ـ ٢٨ تشرين الثاني] عام ١٠٩٥، ويوافق [١ ـ ١٠ ذي الحجة ٤٨٩]، وعُقد المؤتمر في الموعد المحدد وحضره ثلاثمائة مندوب، ودارت المناقشات حول الأمور الكنسية، وقبل اختتام المؤتمر بيوم واحد يوم الثلاثاء ٩ ذي الحجة ألقى البابا خطبةً بيّن فيها الهدف الأساسي من المؤتمر وهو الحرب الصليبية، ودعا الأمراء في أوربا إلى نبذ الخلاف فيما بينهم وتوجيه ذلك الجهد لحرب المسلمين، والاستيلاء على بلادهم وامتلاكها وتوارثها مُحتجّاً بقصة الحجاج إلى بيت المقدس والحيلولة دون وصولهم إلى مبتغاهم، وقد اتخذت هذه القضية ذريعةً لكل من يريد أن يزيد من نفوذه في أوربا، وشجّع الأساقفة على القيام بدورهم في هذا العمل المقدّس، وخاطب الجمهور بأن من يموت منهم هناك فله المجد إذ سيموت في المكان الذي مات فيه يسوع، وقدّم للحضور صليب الخلاص ليحملوه على كواهلهم أثناء حركتهم، وقال: إن الكنيسة ستحمي أملاك كل غائب، وسيحلل البابا الأمراء، وكل إنسان من العقوبات الدنيوية المترتبة على الذنوب التي ارتكبت إذا ما اشتركوا بإخلاصٍ في هذه الحرب، وأن على كل منطلقٍ أن يحمل إشارة الصليب، وعليهم الاستعداد الذي يجب أن يكون تاماً في عيد العذراء [١٥ آب] من عام ١٠٩٦م الموافق لعام ٤٩٠هـ.

بدأ البابا يتنقّل في مدن أوربا يدعو إلى هذه الحرب الصليبية، وطلب من الأساقفة أن يُبشّروا بذلك، وقام بطرس الناسك بدورٍ كبيرٍ في هذا المجال إذ لبس رداء الزهد، وسار حافياً يدعو إلى الحرب الصليبية، وساعد الجميع في هذه المهمة انتشار الفقر في ذلك العام، واجتياح السيول المدمّرة عدة مناطق من أوربا.

دعا البابا إلى اجتماع الجيوش في مدينة القسطنطينية، وكلّف مندوباً عنه ليقودها وهو «أدهمار» غير أن الجموع الشعبية التي انطلقت بدعوة بطرس الناسك قد سارت مُسرعةً كالسوائم لا يجمعها نظام، ولا يتولّى قيادتها أحد، يدفعها الحقد، ويُسيّرها الطمع في النهب والأسلاب، وكان البابا يأمل من هذه الجموع أن تنتظر ليقودها مندوبه والعسكريون ليدخلوا جميعاً مدينة القسطنطينية.

ولما رأى أمبراطور بيزنطة «الكسيوس» هذه الجموع بهذه الصورة من الوحشية والفوضى وما ألحقته من خرابٍ على طول الطريق التي سلكتها إلى القسطنطينية طلب منها أن تبقى خارج أسوار المدينة ريثما يصل بطرس الناسك، على حين أنه هو الذي قد سبق وطلب هذه القوات بسرعة لتقف في وجه السلاجقة، فلما وصل بطرس الناسك إلى القسطنطينية أكرمه ونصحه بالانتظار ريثما تصل إليهم جيوش الأمراء النظامية غير أن الحقد العارم والطمع والرغبة في النهب والأسلاب قد جعلها تتحرك نحو بلاد المسلمين، ولما لم تنج من اعتداءاتها البلدان الأوربية التي اجتازتها، كما لم تنج منها بلاد البيزنطيين فشكل طبيعي أن يعمّ الدمار والخراب كل أرضٍ تطأها من البلدان الإسلامية وفعلاً كانت في منتهى الوحشية والإجرام، وارتكاب الجرائم، وانتهاك الحرمات، لم يسلم منها دار، ولا حقل، ولا إنسان، ولا حيوان، وتلتها جيوش الأمراء وكانت أقل فوضويةً، ولكن لم تقل عن سابقتها سوءاً، ولم تختلف عنها فتكاً، وتوالت الحملات الصليبية، وأحرزت بعض النصر، وأسست إماراتٍ لها، واستقرّت بعض الوقت، ثم تحرّكت العاطفة عند المسلمين وبعض قادتهم فبدأوا يعملون لقتال

الصليبيين، ولتوحيد جهود الأمة، وأخيراً تمّ النصر، وأُخرج الصليبيون من البلاد، وقد قاوم هؤلاء الدخلاء المسلمون في الأندلس، والفاطميون، والسلاجقة، والأتابكة، والأيوبيون، والمماليك، وقد طردوا الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ومصر، وجاء دور العثمانيين فأنهوا الأثر الصليبي في ليبيا وتونس والجزائر.

ونتيجة الحروب الصليبية فقد سادت الفوضى، وعمّ الخوف، وزاد تفكك المسلمين وضعفهم في بداية الأمر حتى قيّض الله لهم من جمع شملهم وخذل عدوّهم.

* * *

٦- الغَــزو المغـُـولي

في الوقت الذي كان فيه الصليبيون في حالة احتضار نشأت قوة مخيفة في شرق بلاد المسلمين، وسط الصحارى، تلك هي قوة المغول التي تملك إمكاناتٍ قتاليةٍ كبيرةٍ إذ أن أبناءها من أهل البوادي الأشداء الذين يندفعون إلى هدفهم من غير تفكير لا يصدّهم عنه مانع، وهم على غير دين، من الوثنيين، الذين يعبدون عدداً من الآلهة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يقدّمون إليها القرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كان يعتبرونها ذات سلطانٍ عظيمٍ على حياة أعقابهم، وكان المغول يلجؤون إلى القسيسين، وهم الشامان والسحرة، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذٍ خفيٍ وسلطانٍ غريبٍ على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة[١]. وقد كانت حياتهم رعويةً، ونظامهم قبلياً، مع طاعةٍ لرؤسائهم، وحبٍ للحرب والسلب والنهب، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب، يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرّمون شيئاً، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه[٢]. ويدين بعض أفرادٍ من جنسهم بصورةٍ سطحيةٍ بديانات الإسلام أو النصرانية أو البوذية وهم غالباً الذين يعيشون على أطراف ديار المغول.

نظر الصليبيون إلى هذه القوة نظرة خوفٍ من شدّتها، وخشوا أن

---

(١) تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن، الجزء الرابع.

(٢) المصدر نفسه.

تدخل في الإسلام باحتكاكها مع المسلمين كما حدث لغيرها من أبناء جنسها كالسلاجقة وغيرهم، وإذا ما تمّ هذا فإن أمر النصرانية في خطرٍ ليس في الشرق فحسب وإنما قد يتعدّى ذلك إلى الغرب وخاصةً إذا ما اندفعت هذه القوة الجديدة نحو أوربا، لذا حاولوا أن يتداركوا الأمر قبل وقوعه فعملوا على جذب هؤلاء المغول نحو النصرانية هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد حرّضوا المغول ضدّ المسلمين، وبنوا على ذلك آمالاً بأنه إذا ما تمّ هذا فإن المسلمين سيقعون بين نارين، نار النصرانية من الغرب، ونار المغول من الشرق، واتخذوا لذلك عدة أساليب، اتخذوا طريقة النساء ليغروا المغول من ناحية، ولتحرّض هذه النساء أزواجهن من داخل بيوت المغول من ناحيةٍ ثانيةٍ، ولتحاول جذبهم نحو النصرانية من جهةٍ ثالثةٍ، فقد تزوّج «جنكيزخان» فتاةً نصرانيةً من أسرةٍ تتاريةٍ تدين بالنصرانية بطريقةٍ ما، وتزوّج ابنه الثالث وخليفته «أوجتاي» فتاةً نصرانيةً بالطريقة نفسها أو بالأحرى كانت عنده خليلة نصرانية. وكان «جغطاي» الابن الثاني لجنكيزخان من ألدّ أعداء الإسلام، وكذلك ابن أخيه «كيوك بن أوجتاي» وذلك تحت تأثير النصرانية والبوذية. وتزوّج «هولاكو» فتاةً نصرانية كانت الدافع الرئيسي في شرّه الذي حلّه في العراق والشام، وتزوّج ابنه وولي عهده على الأسرة «الإيلخانية» «أباقاخان» ابنة أمبراطور القسطنطينية، ونشأ ابن هولاكو الآخر «تكودار» على النصرانية، وذلك قبل أن يدين بالإسلام، ونتيجة إسلامه قُتل بيد ابن أخيه «أرغون»، وكان أرغون هذا «ابن أباقاخان» من أشدّ أعداء الإسلام وأعنفهم على أهله. كما اعتنق عدد من المغول النصرانية في جورجيا وأرمينيا عن طريق الإغراء.

وفي الوقت نفسه كان البوذيون من جهةٍ أخرى يحرّضون المغول على المسلمين، وكلاهما يصف لهم جنّات بلاد المسلمين وأنهارها، وفاكهتها، وإنتاجها الوفير، وخيرها العميم، والمغول أهل صحارى تتوق نفوسهم لهذا، وتتعطّش لمثله.

وساعد على هذا ما علمه جنكيزخان عن اختلاف المسلمين وقتال

بعضهم بعضاً، وأثاره قتل شاه خُوارزم لرسله فبينما كان مُيمّماً وجهه نحو الشرق يُقاتل خصومه توقّف واتجه نحو الغرب، وسارت وراءه جموعه كالذئاب الجائعة، وبأعداد الجراد، فلم تأت عل شيءٍ إلا تركته كالرميم، فخافها الناس، وفرّت من وجهها القبائل، وذُعرت الأهالي فتركت مدنها وقراها وتحرّكت نحو الغرب، وتخاذلت الجند عن قتال المغول، ورهب القادة نزالهم، وتقدّمهم الرعب مسيرة شهر لما فعلوه من فسادٍ وقتلٍ وتمثيل تقشعرّ له الأبدان، وتعجز عن وصفه الأقلام.

وهذا ما زاد المسلمين ضعفاً على ضعف فمنهم من رغب في مهادنة المغول، ومنهم من فضّل التفاهم معهم، ومنهم من فكر في الخضوع لهم، وهرب بعضهم من وجههم، وحاول بعضهم الوقوف أمامهم وجهادهم، وهذا التفرّق ما ساعد المغول على اقتحام البلاد، ودخول مدينة بغداد بعد خيانة ابن العلقمي الذي تهاون في الدفاع عن المدينة وترك فيها ثغرات، ودلّ الأعداء على هذه الثغرات، وترك جماعته مواقعهم، وشجّع الخليفة على مقابلة هولاكو والسير إليه، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فسقطت الدولة العباسية على أيدي هؤلاء المغول، وانتهى أمرها.

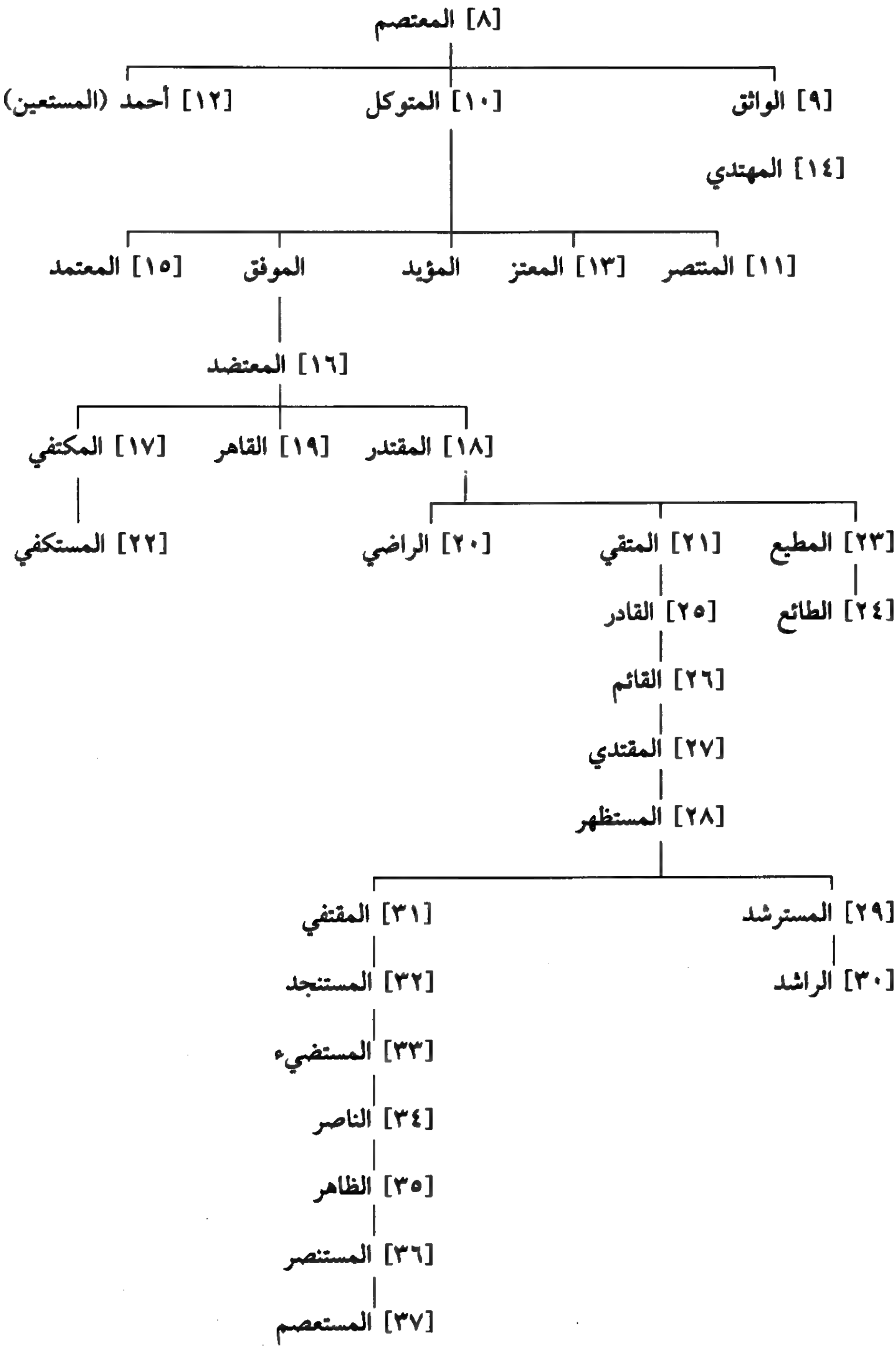
وهكذا فإن ضعف الدولة العباسية إنما يعود إلى:

- تسلّط العسكريين على الحكم.
- نشوء الدويلات.
- الترف.
- الحركات الباطنية.
- الغزو الصليبي.
- الغزو المغولي.

ويمكن أن نُضيف اختلاف العباسيين بعضهم مع بعض، وولاية العهد لأكثر من واحدٍ الأمر الذي يؤدي إلى الخلاف، وتولية الصغار أحياناً، وهذا ما يؤدي إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فينتج تسلّط غيرهم عليهم.

وقد قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول حسب سيطرة القادة العسكريين، فالفصل الأول شمل المدة كانت فيه السيطرة للقادة الأتراك، وكان الفصل الثاني للمرحلة التي سيطر فيه بنو بويه، أما الفصل الثالث فقد شمل مرحلة سيطرة السلاجقة.

* * *



[٨] المعتصم
[٩] الواثق
[١٠] المتوكل
[١٢] أحمد (المستعين)
[١٤] المهتدي
[١١] المنتصر
[١٣] المعتز
المؤيد
الموفق
[١٥] المعتمد
[١٦] المعتضد
[١٨] المقتدر
[١٩] القاهر
[١٧] المكتفي
[٢٢] المستكفي
[٢٣] المطيع
[٢١] المتقي
[٢٠] الراضي
[٢٤] الطائع
[٢٥] القادر
[٢٦] القائم
[٢٧] المقتدي
[٢٨] المستظهر
[٢٩] المسترشد
[٣٠] الراشد
[٣١] المقتفي
[٣٢] المستنجد
[٣٣] المستضيء
[٣٤] الناصر
[٣٥] الظاهر
[٣٦] المستنصر
[٣٧] المستعصم

الخلفاء العباسيون في الدور الثاني:

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
١١	المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨	الأتراك
١٢	المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢	
١٣	المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥	
١٤	المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦	
١٥	المعتمد	٢٥٦ ـ ٢٧٩	
١٦	المعتضد	٢٧٩ ـ ٢٨٩	
١٧	المكتفي	٢٨٩ ـ ٢٩٥	
١٨	المقتدر	٢٩٥ ـ ٣٢٠	
١٩	القاهر	٣٢٠ ـ ٣٢٢	
٢٠	الراضي	٣٢٢ ـ ٣٢٩	
٢١	المتقي	٣٢٩ ـ ٣٣٣	
٢٢	المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤	
٢٣	المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٤	البويهيون
٢٤	الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١	
٢٥	القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢	
٢٦	القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧	

الترتيب	الخليفة	مدة الخلافة	المتنفذون
٢٧	المقتدي	٤٦٧ ـ ٤٨٧	السلاجقة
٢٨	المستظهر	٤٨٧ ـ ٥١٢	
٢٩	المسترشد	٥١٢ ـ ٥٢٩	
٣٠	الراشد	٥٢٩ ـ ٥٣٠	
٣١	المقتفي	٥٣٠ ـ ٥٥٥	
٣٢	المستنجد	٥٥٥ ـ ٥٦٦	
٣٣	المستضيء	٥٦٦ ـ ٥٧٥	
٣٤	الناصر	٥٧٥ ـ ٦٢٢	
٣٥	الظاهر	٦٢٢ ـ ٦٢٣	
٣٦	المستنصر	٦٢٣ ـ ٦٤٠	
٣٧	المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦	

الفصل الأول

عصر سيطرة العسكريين الترك

بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعيُن أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الهروي ـ مولى لبني حنيفة[1]، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ واختار سبعين رجلاً أيضاً[2]. بحيث يكون لكل داعيةٍ اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيبٍ سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرةً يقتدون بها، ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضّح أنهم من أرومةٍ عربيةٍ، ومن قبائل عربيةٍ معروفةٍ مشهورةٍ، وهذا يردّ ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام إبراهيم بن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربيةً، واعتمدت على العرب، فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف يقتلون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أفذاذ علماء العربية؟ إنّ هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تُركياً، إذ يذكر المؤرخون أن إبراهيم بن محمد حين وجّه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع.

(٢) الطبري: ج٧ ص٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدد منها عن لوط بن يحيى الكوفي المتوفى ١٥٧ والمعروف بتشيعه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به.

تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[(١)].

وأحب هنا أن أوضح نقطةً أخرى وهي أنّ خراسان لم تكن فارسيةً محضةً كما يتصور المؤرخون وإنّما كان يسكنها تُرك، وفُرس، وعرب، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فُتحت فقطن فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو، وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس، وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ ـ أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ ـ إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

٣ ـ التركمان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأبيورد، وعشق أباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإنما سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا بحرب دائمةٍ مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدةً طويلةً من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في المشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى

---

(١) وكيف يكون هذا، وقد أوصاه بأن يلزم القبائل اليمانية وهي قبائل عربية؟

فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تنطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمةً كبيرةً، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يُعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكّن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ونجا منهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعيةً لبني العباس، إلاّ أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩هـ.

وعُزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يُشكلون نسبةً كبيرةً بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عُوانةَ، ثم أشرس بن عبد الله السلمي، ولم تكن عصبيتهما واضحةً، كما أن أولهما لم تزد مدة حكمه خراسان على عدة أشهر، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاّه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ المرابطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفرح به الأهلون، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١١هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبيةٍ مُضريةٍ، وتمكّن من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد توفي بسبب مرضٍ ألمّ به في بطنه عام ١١٦هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مُدةٍ على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بضمّها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فضمّها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرةً ثانيةً، ولم يستدر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان نائباً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضُمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، وتمكّن من إلقاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن زريق، وخالد بن إبراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنّا أُناس من قومك، وإنما هذه المضرية إنّما رفعوا إليك هذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»[1].

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين ألقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي

(١) تاريخ الطبري ـ الجزء التاسع.

- ١١ -

المنتصر بالله
محمد بن جعفر المتوكل
٢٤٧ - ٢٤٨

هو محمد المنتصر بن جعفر المتوكل، ولد عام ٢٢٢ بسامراء، وأمّه أمّ ولد رومية، تُدعى حبشية، يُكنّى أبا جعفر، وقيل: أبا عبد الله. وكان مليح الوجه، أسمر، أعين، أقنى، ربعة، جسيماً، بطيناً، مليحاً، وافر العقل، مهيباً، راغباً في الخير، قليل الظلم، محسناً إلى العلويين، وصولاً لهم، أزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة بمنعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسين «فَدَك»[١]. وكان أعين، أقنى، قصيراً، جيد البضعة. وكان ـ فيما ذكر ـ مهيباً[٢].

بويع بالخلافة بعد قتل أبيه في الرابع من شوال من عام ٢٤٧، واتهم الفتح ابن خاقان بقتل أبيه، لذا فقد قتله بأبيه. كان يحب الأتراك قبل توليه الخلافة فلما تولّاها أصبح يسبّهم، ويقول عنهم: قتلة الخلفاء.

وقد حرّضه أحمد بن الخصيب وزيره، والقائدان التركيان وصيف وبغا على عزل أخويه: المعتز، والمؤيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه عبد الوهاب، ولم يزالوا يلحّون عليه حتى فعل، وقد وافق المؤيد خوفاً، ورفض المعتزّ فأُهين ثم أقنعه أخوه المؤيد فوافق. ولم يلبث المؤيد أن وُجد مقتولاً على فراشه بيد خادمه، وفي روايةٍ أنه بقي حتى خُلع وقُيّد وضُرب فمات في خلافة أخيه المعتز.

---

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي.

(٢) تاريخ الطبري.

وأرسل القائد وصيف التركي لغزو بلاد الروم عن طريق ملاطية بمكر أحمد بن الخصيب، وطلب الخليفة من وصيف أن يبقى في الثغور أربع سنوات يغزو كلما حان وقت الغزو.

وخرج محمد بن عمرو الشاري بالجزيرة في ناحية الموصل، فأرسل إليه المنتصر القائد إسحاق بن ثابت الفرغاني فأسره، وأرسله إلى الخليفة حيث قتل مع بعض أنصاره الذين أخذوا أسرى معه.

ومات المنتصر في الخامس من ربيع الثاني أي أن مدة حكمه لم تزد على ستة أشهر سوى يوم واحد، وقد اختلف في سبب موته، فقيل: إنه مات بالذبحة التي أصابته في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وبقي فيها عشرة أيام ثم مات، وقيل: إنه سُمّ بالكمثري، وقيل: إنه فُصد بمبضع مسموم و.... وهو أول خليفةٍ من بني العباس ـ فيما بعد ـ عُرف قبره؛ وذلك أن أمه طلبت إظهار قبره[1].

وبويع بعده ابن عمه المستعين.

أما الإمارات فلم يتغير وضعها بعد عن العصر العباسي الأول وخاصةً أن خلافة المنتصر ليست سوى ستة أشهرٍ، وبقيت الإمارات محصورةً في المغرب، أما في المشرق فلا نعدّ إمارة الطاهريين دولةً أو دويلةً لأنها لم تخرج على العباسيين أبداً، وبقي الوالي يُعيّن من قبل الخليفة، وإن كانت الإمرة محصورة في أبناء طاهر بن الحسين. وأما الإمارة الصفّارية فلم تظهر كدولة بعد إذ لم تخرج على الخليفة، وإن كان مؤسسها يعقوب بن الليث الصفّار قد بدأ يتوسع فانطلق من سجستان نحو هراة وضمّها إلى إمرته.

وفي الأندلس كانت الإمارة لمحمد بن عبد الرحمن الثاني منذ عام ٢٣٨، وقد سار المسلمون في هذه الآونة إلى برشلونة فملكوا ضواحيها،

---

(١) المصدر السابق.

ودخلوا قعلتين من قلاعها، ثم عادوا، ولم يستطيعوا اقتحامها، وكانت قد أصبحت بيد النصارى.

وكانت إمارة الأدارسة في خلافاتٍ شديدة إذ كانت تخضع تارةً لحكم صاحب الريف علي بن عمر بن إدريس وتارةً لحكم أولاد القاسم بن إدريس إضافة إلى ثورة عبد الرزاق الفهري أحد زعماء الخوارج الصفرية الذي أجبر علي بن عمر بن إدريس إلى الفرار إلى أوربا، ولكن أهل فاس استدعوا ابن أخيه، وهو يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس وبايعوه وبقي طيلة وقته يقاتل الخوارج حتى قتله الربيع بن سليمان عام ٢٩٢.

وأمّا إمارة الخوارج الصفرية في سجلماسة فكان إمامها ميمون بن بقية، وقد استمر حكمه لها من ٢٢٤ ـ ٢٦٣، وكانت منصرفةً إلى أمورها الخاصة بها.

وإمارة الخوارج الأباضية في تاهرت كان إمامها أفلح بن عبد الوهاب والذي دام حكمه من ٢٠٨ ـ ٢٥٨ وكذلك فهي إمارة قد اهتمت بقضاياها الداخلية.

وإمارة الأغالبة في القيروان يحكمها أحمد بن محمد الأول أبو العباس (٢٤٢ ـ ٢٤٩)، وكان الفتح الإسلامي يسير في جزيرة صقلية، وقد توفي القائد العباس عام ٢٤٧ فولّى الناس عليهم ابنه عبد الله، وقد تمكّن من فتح عدة قلاع، وبعد خمسة أشهر أرسل الأغالبة أميراً على الجزيرة خفاجة بن سفيان.

وإمارة بني زياد في اليمن وقاعدتها زبيد كان أميرها إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد، وحكم الإمارة (٢٤٢ ـ ٢٨٩).

وإمارة بني يَعْفُر في صنعاء، وقد بدأت في (شبام)، ثم استولت على صنعاء أيام أسعد بن أبي يعفر الحوالي من بني زياد، وأسس هذه الدولة إبراهيم بن يعفر (٢٢٥ ـ ٢٦٠).

-١٢-

المستعين بالله
أحمد بن محمد المعتصم
٢٤٨ - ٢٥٢

بعد وفاة المنتصر خشي القادة الأتراك أن يتولّى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم لقتلهم أباه لذا فقد اختاروا المستعين أحمد بن محمد المعتصم فهو عمّ المنتصر.

وُلد المستعين عام ٢٢١، وأمّه أمّ ولد اسمها مخارق؛ وكان مليحاً أبيض، بوجهه أثر جُدريّ، ألثغ، خيّراً، فاضلاً، بليغاً، أديباً، وهو أوّل من أحدث لبس الأكمام الواسعة.

استوزر المستعين القائد التركي «أتامش»، كما أوكل إليه مهمة تربية ابنه العباس، فبذّر الأموال وتطاول فحسده بقية القادة الأتراك وعملوا على التخلّص منه فقتلوه. وعيّن المستعين القائد وصيفاً على الأهواز، وبغا الصغير على فلسطين. ثم اجتمع رأي المستعين ووصيف، وبغا الصغير على قتل «باغر» التركي، وكان من القواد الكبار الذين باشروا قتل المتوكل فقُتل عام ٢٥١، أما بغا الكبير فقد توفي عام ٢٤٨، وأصبح ابنه موسى قائداً مكانه، كما مات في العام نفسه طاهر بن عبد الله بن طاهر فعقد المستعين لابنه محمد بن طاهر على خراسان، ولمحمد بن عبد الله بن طاهر على العراق.

وتنكر القادة الأتراك للخليفة المستعين فانتقل إلى بغداد، فبعث الأتراك إليه يعتذرون منه، ويسترضونه فلم يقبل، فأظهروا الشغب في سامراء،

ودخلوا السجن، وأخرجوا من فيه ومنهم: المعتز، وأخوه المؤيد، وبايعوا المعتز وقوي أمره، أما بغداد فقد بقيت على بيعتها للمستعين، وأرسل المعتز أخاه أبا أحمد لقتال المستعين، وجرى القتال بين أهل بغداد بإمرة محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وأهل سامراء بإمرة أبي أحمد بن المتوكل، وطالت الحرب حتى أقنع محمد بن عبد الله بن طاهر الخليفة المستعين بأن يخلع نفسه ويشترط فوافق، واستسلم، وكتب شروطه وبايع للمعتز، وبايعت بغداد، وطلب المستعين أن ينتقل إلى مكة فلم يوافقوه ولا إلى البصرة، فانتقل بعدها إلى واسط، فأرسل إليه المعتز من قتله بعد تسعة أشهر (٣ شوال ٢٥٢)، وكان قد خلع نفسه (٤ محرم ٢٥٢).

أما بالنسبة إلى الغزو فقد غزا وصيف بلاد الروم عام ٢٤٨، وسار إليها أيضاً جعفر بن دينار على رأس صائفة عام ٢٤٩، واستأذن عمر بن عبد الله بن الأقطع بالغزو فسار على رأس قوة، والتقى بالروم إلى القرب من «ملاطية»، فاقتتلوا في يوم الجمعة منتصف رجب من عام ٢٤٩، فاستشهد في هذه المعركة أمير المسلمين ابن الأقطع، واستشهد ما يقرب من ألفِ من المسلمين، ووصل الخبر إلى علي بن يحيى الأرمني، وكان عائداً من أرمينيا فانطلق على رأس قوةٍ من المسلمين إلى بلاد الروم فاستشهد ومعه أربعمائة مسلم، وثارت العامة في بغداد لتهاون الخليفة والجيش في شأن الثغور، وانصرافهم إلى مشكلاتهم الخاصة، وجمع أصحاب اليسر من أهل بغداد أموالاً كثيرةً للنهوض إلى ثغور المسلمين بعد الذي حدث.

وكثرت الحركات نتيجة ضعف الخليفة وتسلّط القادة على أمور الدولة واستبدادهم بها وبالخليفة نفسه، فشغب أهل حمص على عاملهم عام ٢٤٨، وتكرر شغبهم فأخرجوا عاملهم عام ٢٤٩، ثم خرجوا على عاملهم الجديد عام ٢٥٠ فسار إليهم موسى بن بغا الكبير فاقتتلوا بأرض الرستن عام ٢٥١، وقد أُسر في هذه المعركة أشراف حمص، وخلدوا بعدها إلى الهدوء.

وظهر بالكوفة أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأخذ ما في بيت مال الكوفة، وكان قليلاً، وأخرج السجناء، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وتبعه أناس كثير، ولكنه هزم في النهاية وقتل عام ٢٥٠.

وظهر بناحية طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك أن الخليفة أقطع محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أرضاً بتلك الجهات، فأراد محمد أن ينتزعها بالقوة من أيديهم فثاروا ودعوا الحسن وبايعوه، فاجتمع حوله جماعة من الديلم، ثم تقدّم فانتصر على سليمان بن عبد الله بن طاهر أمير طبرستان من قبل الخليفة المستعين، ثم دخل الري وأخرج من بها من آل طاهر بن الحسين.

وخرج بناحية قزوين وزنجان الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو المعروف باسم الكوكبي.

وخرج بالريّ يوم عرفة أحمد بن عيسى بن حسين الصغير بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وصلّى بالناس العيد، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وهزم محمد بن علي بن طاهر، ثم عاد إلى الري عبد الله بن عزيز فأسر أحمد بن عيسى، وأرسله إلى نيسابور حيث قتل وذلك في خلافة المعتز.

وخرج بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولكنه لم يلبث أن هزم وقتل.

وخرج بمكة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وظلم الناس، وانتقل إلى المدينة فخرج منها عاملها وفعل فعله بمكة فكرهه الناس جداً، وسار إلى

جدة فنهب أموال التجار، وسلب ما وصلت إليه يده، ومنع الناس من الوقوف بعرفة، فلم يقف عامها إلا إسماعيل بن يوسف هذا وعدد من جماعته، وارتكبوا المنكرات.

أما الإمارات فلم يتغير في وضعها شيء.

* * *

-١٣-

المعتز بالله
محمد بن جعفر المتوكل

٢٥٢ - ٢٥٥

وُلد بسامراء عام ٢٣٢، وأمّه أمّ ولد روميّة تُدعى «قبيحة»، كان أبيض، أسود الشعر كثيفه، حسن العينين والوجه، ضيّق الجبين، أحمر الوجنتين، حسن الجسم طويلاً، أقنى الأنف، مدور الوجه، حسن الضحك، وقد أثنى عليه الإمام أحمد في جودة ذهنه وحسن فهمه وأدبه حين دخل عليه في حياة أبيه المتوكل[١]. وروى الخطيب عن علي بن حرب قال: دخلت على المعتز فما رأيت خليفةً أحسن وجهاً منه. وقال الزبير بن بكار: سرت إلى المعتز وهو أمير فلما سمع بقدومي خرج مُستعجلاً إليّ فعثر فأنشأ يقول:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِجْلِ
فعثرتُهُ مِنْ فيه ترمي برأسه ... وعثرته في الرِجْلِ تبرأ على مَهْلِ[٢]

بُويع المعتز بالخلافة بعد خلع المستعين، وله تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه، وخُطب له على المنابر يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم من مطلع عام ٢٥٢، وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب، وكان الخلفاء قبل يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة[٣].

(١) البداية والنهاية، الجزء ١١، ابن كثير.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) تاريخ الخلفاء، السيوطي.

وكانت خلافته أربع سنوات وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وتوفي وعمره أربع وعشرون سنة.

وأما وضع كبار القادة فقد مات «أشناس» عام ٢٥٢، وهو الذي استخلفه الواثق على السلطنة، وغضب المعتز على وصيف وبغا وهما في بغداد، وكتب إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أن يقتلهما، وخافا، واستعدا، للمواجهة، ثم كلّمه أخوه المؤيد في وصيف، وكانت سعاد أخت وصيف مربية المؤيد، وكلّمه أخوه أبو أحمد في بغا، فرضي عنهما. ثم شغب الجند الأتراك، وقُتل وصيف عام ٢٥٣ فجعل المعتزّ ما كان لوصيف لبغا الشرابي، وألبسه تاجاً ووشاحين، ولكنه قتل عام ٢٥٤. وقُتل بندار الطبري عام ٢٥٣ في قتاله للخوارج. وعقد المعتزّ لبايكباك على مصر فأرسل إليها نائباً عنه أحمد بن طولون عام ٢٥٤. وكان المعتز يخاف من صالح بن وصيف، وجاءته جماعة من قادة الجند الأتراك وقالوا له: أعطنا أرزاقنا ولنقتل صالح بن وصيف، فلم يجد عنده ما يعطيهم، فجاءوا إليه ثانيةً إلى دار الخلافة ومعهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا فأخرجوه وأهانوه، وكان ذلك سبب عزله.

خلع المعتزّ أخاه المؤيد وقيّده حتى مات، كما سجن أخاه أبا أحمد. وتوفي محمد بن عبد الله بن طاهر في بغداد فعقد المعتزّ لأخيه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر على العراق من بعده، كما تولّى أخوه الآخر سليمان بن عبد الله بن طاهر شرطة بغداد والسواد.

خرج عن طاعة المعتز بناحية همذان عبد العزيز بن أبي دلف، فسار إليه موسى بن بغا الكبير فهزم ابن أبي دلف، وقُتل عدد كبير من أصحابه.

أغار أصحاب الديلم ابن جستان على الريّ، ومعه أحمد بن عيسى، والحسين بن أحمد الطالبيين، فقتلوا، وسبوا، وهرب منها أميرها عبد الله بن عزيز، غير أن أهل الريّ صالحوا ابن جستان على ألفي درهم فارتحل عنهم، وعاد ابن عزيز إليها، وتمكّن من أسر أحمد بن عيسى فبعث به إلى محمد بن طاهر بنيسابور فقتله.

وتحرّك الحسن بن زيد الطالبي في طبرستان فسار إليه مفلح وتمكّن من هزيمته فلحق الحسن ببلاد الديلم.

وخرج مساور بن عبد الحميد الخارجي، والتف حوله ما يقرب من سبعمائة رجل فسار إليهم بندار الطبري فقُتل من الخوارج خمسون، وقُتل من أصحاب بندار مائتان بينهم بندار نفسه، وسار مساور بعد ذلك إلى حلوان فقاتله أهل حلوان والحجّاج الخراساني الذين كانوا في طريقهم إلى مكة، فقتل الخارجي منهم ما يزيد على أربعمائة رجل.

واستولى يعقوب بن الليث الصفّار على كرمان عام ٢٥٤، ثم اتجه إلى فارس واستولى عليها.

انطلق موسى بن بغا إلى ناحية قزوين لقتال الحسين بن أحمد الطالبي المعروف بالكوكبي فهزمه، ولحق الكوكبي ببلاد الديلم.

وغزا محمد بن معاذ بلاد الروم في شهر ذي القعدة من عام ٢٥٣ من ناحية ملاطية فهُزم المسلمون وأُسر أميرهم محمد بن معاذ.

ولما أخذ القادة العسكريون المعتزّ وأهانوه، وخلعوه، وألزموه على البيعة لابن عمّه المهتدي بالله محمد بن الواثق. وكان المهتدي قد أبعده المعتز من سامراء إلى بغداد، فأحضروه من بغداد إلى دار الخلافة بسامراء فسلّم المعتز إليه الخلافة وبايعه وذلك في ٢٩ رجب من عام خمسٍ وخمسين ومائتين، ثم أخذ القادة المعتز بعد خمسة أيام من خلعه وعذّبوه حتى مات في أوائل شهر شعبان.

* * *

- ١٤ -
المهتدي بالله
محمد بن هارون الواثق

٢٥٥ - ٢٥٦

هو محمد بن هارون الواثق أي ابن عمّ المعتزّ، أمه أم ولد تسمى «وردة»[١]، ولد بسامراء عام ٢٠٩ أيام خلافة جدّه المعتصم، يُكنّى أبا إسحاق وقيل: أبا عبد الله.

كان أسمر رقيقاً، مليح الوجه، ورعاً، متعبّداً، عادلاً، بطلاً، قويّاً في أمر الله، شجاعاً، لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً. أقام ببغداد إذ أبعده ابن عمه المعتزّ من سامراء، فلما غضب القادة العسكريون على المعتزّ أحضروا المهتدي من بغداد، وأرادوا بيعته فرفض بيعة أحدٍ حتى أُتي بالمعتزّ، فقام له المهتدي وسلّم عليه بالخلافة، وجلس بين يديه فجيء بالشهود فشهدوا على المعتزّ أنه عاجز عن الخلافة، فاعترف بذلك ومدّ يده فبايع المهتدي، فارتفع حينئذٍ المهتدي إلى صدر المجلس، وكان ذلك لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

قال الخطيب: لم يزل صائماً منذ ولي إلى أن قتل، وقال هاشم بن القاسم: كنت بحضرة المهتدي عشيةً من رمضان، فوثبت لأنصرف، فقال لي: اجلس، فجلست، وتقدّم فصلّى بنا، ثم دعا بالطعام، فأحضر طبق خلاف وعليه رغيف من الخبز النقي، وفيه آنية فيها ملح وخلّ وزيت،

---

(١) تسمى «قرُب» عند ابن جرير الطبري.

فدعاني إلى الأكل، فابتدأت آكل ظاناً أنه سيؤتى بطعام، فنظر إليّ وقال: ألم تك صائماً؟ قلت: بلى، قال: أفلست عازماً على الصوم؟ فقلت: كيف لا وهو رمضان؟ فقال: كُل واستوف فليس ها هنا من طعامٍ غير ما ترى، فعجبت، ثم قلت: وَلِمَ يا أمير المؤمنين وقد أسبغ الله نعمتهُ عليك؟ فقال: إن الأمر ما وصفت، ولكنني فكرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز ـ وكان من التقلل والتقشف ما بلغك ـ فغرت على بني هاشم؛ فأخذت نفسي بما رأيت.

وقال جعفر بن عبد الواحد: ذاكرت المهتدي بشي، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يُخالَف ـ أشير إلى من مضى من آبائه ـ فقال: رحم الله أحمد بن حنبل! والله لو جاز لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه، ثم قال لي: تكلّم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبُل في عيني.

وقال نفطويه: حدثني بعض الهاشميين أنه وجد للمهتدي سفطاً فيه جبة صوف، وكساءً كان يلبسه بالليل ويصلي فيه، وكان قد أطرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم، وكان شديد الإشراف على أمر الدواوين. يجلس بنفسه، ويجلس الكتّاب بين يديه، فيعملون الحساب وكان لا يخل بالجلوس الاثنين والخميس، وضرب جماعة من الرؤساء، ونفى جعفر بن محمود إلى بغداد، وكره مكانه؛ لأنه نُسب عنده إلى الرفض[1].

وعندما أخذ المهتدي من بغداد إلى سامراء لمبايعته بالخلافة لم يدر أهل بغداد سبب ذلك إلا أنهم قد عرفوا استبداد القادة العسكريين بالأمر، وضعف المعتزّ فقاموا بأعمال الشغب، وساروا إلى أمير الشرطة سليمان بن عبد الله بن طاهر، وطالبوا ببيعة أحمد بن المتوكل أخي المعتز خليفة، إذ لم يدروا ما حدث في سامراء فلما علموا ببيعة المهتدي سكنوا وسكتوا.

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي.

وظهرت قبيحة أم المعتز في شهر رمضان «وقد كانت قبل ذلك مختفيةً عند صالح بن وصيف عدو ولدها، ثم تزوجت به، وكانت تدعو عليه تقول: اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري، وقتل ولدي، وبدّد شملي، وغربني عن بلدي»(١) وكانت من قبل تملك أموالاً كثيرةً، وتجمع جواهر ثمينةً، فتسلّط عليها صالح بن وصيف وأخفاها عنده، ولما طلب ولدها المعتزّ خمسين ألفاً ليعطيها للعسكريين أظهرت الفقر والحاجة، وقتل صالح بن وصيف ولدها، وسطا على أموالها، ثم التفت إلى الوزير أحمد بن إسرائيل فأخذ أمواله وضربه حتى مات، وإلى عيسى بن إبراهيم كاتب قبيحة فضربه وأهانه حتى دلّه على كل ما تخبئه قبيحة، ثم مات بالعذاب، واستبد صالح بن وصيف كثيراً وطغى، ولم يستطع الخليفة أن يفعل شيئاً معه، ولم تكن أعماله ليرضى عنها.

كان موسى بن بغا في قزوين يقاتل الحسين بن أحمد المعروف بالكوكبي، وقد هزمه، لحق الكوكبي ببلاد الديلم فأراد موسى مطاردته غير أن الخليفة استدعى موسى ليتقوّى به على صالح بن وصيف، وكان موسى قد غضب من صالح لاستئثاره بأموال قبيحة، وقتله المعتز، وزواجه من أم المعتز، وتصرفاته. ولما وصل موسى إلى سامراء طلب الإذن من المهتدي فلم يأذن له لأنه كان جالساً في دارالعدل، فهجم بمن معه عليه، وأقاموه من مجلسه، وحملوه على فرسٍ ضعيفةٍ، وانتهبوا القصر، وأدخلوا المهتدي إلى دار أخرى وهو يقول: يا موسى اتق الله، ويحك! ما تريد؟ فقال موسى: والله ما نريد إلا خيراً فاحلف لنا أنك لا تمالئ صالح بن وصيف، فحلف لهم، فبايعوه حينئذٍ.

وطلب موسى بن بغا بن وصيف ليناظروه فيما قام به من أعمال وما أخذ من أموال فاختفى. وطلبهم المهتدي للصلح عسى أن ينصرفوا للمصلحة العامة بدلاً من الخلاف بينهما والعمل كل لمصلحته، فاتهمه

---

(١) البداية والنهاية.

موسى ومن معه من القادة أنه يعرف مكان صالح، وتكلموا وحاولوا التهديد فخرج إليهم المهتدي من الغد متقلداً بسيفه، وقال لهم: قد بلغني شأنكم، ولست كمن تقدّمني مثل المستعين، والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا مُتحنّط، وقد أوصيت، وهذا سيفي، والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي، أما دين، أما حياء، أما دعة؟ لِمَ يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟ ثم قال: ما أعلم علم صالح، فرضوا، وانفضوا.

وأعلن موسى أن يعطي عشرة آلاف دينار لمن يأتي بصالح، فلم يظفر ثم وُجد وقُتل. وغضب المهتدي من هذه الأفعال التي لا يستطيع أن يقاومها، ولم يأخذ قائد رأيه فيما يقوم به، فليس قتل القائد بالأمر السهل وليست هذه الاعتداءات بالذي يرضى عنه، وفكر الخليفة بأن يتخلّص من كبار العسكريين الذين يستبدون بالناس وبالحكم، وذلك بأن يضرب أحدهم بالآخر.

وسار موسى بن بغا ومعه «بايكباك» ومفلح لقتال الخارجي مساور بن عبد الحميد، فكتب الخليفة المهتدي إلى القائد «بايكباك» أن يقتل موسى بن بغا، ومفلح القائد التركي الآخر، وأن يتولّى هو قيادة الترك جميعهم غير أن «بايكباك» قد أطلع موسى بن بغا على الكتاب، وفهم القادة العسكريون أن الخليفة يريد القضاء عليهم واحداً إثر واحد فساروا إليه فقاومهم بمن معه غير أنه هُزم وقُتل في منتصف رجب من عام ٢٥٦ فكانت خلافته أقلّ من سنةٍ بخمسة عشر يوماً. ولما قام العسكريون على الخليفة ثارت العامة تؤيد المهتدي، وكتبوا رقاعاً وألقوها في المساجد: يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه[١]. وقتل أيضاً بايكباك إذ دخل على الخليفة مظهراً الطاعة فقتله الخليفة وألقى رأسه إلى الأتراك، فأرهبهم واجتمعوا حول أخي بايكباك.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

وبعد قتل المهتدي انطلق العسكريون إلى أحمد بن المتوكل وأخرجوه من السجن وبايعوه خليفةً باسم المعتمد على الله.

مع هذه الفوضى التي عمّت بسبب تسلّط القادة العسكريين واستبدادهم، وعدم إمكانية أحد للوقوف في وجههم ما داموا يملكون القوة من الجند الذين يطيعونهم بسبب ما يقدمون لهم من بعض الأعطيات بعد السلب والنهب الذي يقومون به. وهذا ما حرّك في نفوس الطامعين القيام بحركات أو الثورة على السلطة الشرعية، ولم يجد هؤلاء الطامعون بدّاً من انتحال نسبٍ هاشمي حيث يمكن أن يجتمع حوله أناس كثيرون من ناقمين على السلطة أو حاقدين على الأوضاع القائمة الاجتماعية والاقتصادية أو مستغلّين فرص الفوضى للقيام بالسلب والاعتداء على الحرمات، ولعلّ أخطر حركة قامت في هذه الآونة هي حركة الزنج، وصاحبها هو علي بن محمد بن عبد الرحيم من بني عبد القيس، وهو أجير من الأجراء، وأمّه قره بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قريةٍ من قرى الريّ يقال لها: «ورزنين» وفيها ولد وبها نشأ. ويقول عن نفسه أن جده (لأمّه) محمد بن حكيم من أهل الكوفة وكان أحد الذين خرجوا على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلما قُتل زيد هرب جده محمد بن حكيم فلحق بالري، ولجأ إلى «ورزنين» فأقام بها. وأما جده (لأبيه) عبد الرحيم فهو رجل من بني عبد القيس ولد في «الطالقان» من أعمال خراسان، وانتقل إلى العراق وأقام بها، واشترى جاريةً سنديّةً، فأولدها أباه محمداً، ويُفهم من هذا الكلام أن محمداً أباه قد انتقل إلى «ورزنين» وتزوج قرة بنت علي فولد هو، فهو من بني عبد القيس. وكان أجيراً حاقداً صاحب أطماع، وعنده إمكانات التلوّن.

انتقل علي بن محمد العبدي هذا إلى البحرين فظهر فيها عام ٢٤٩ وادّعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن الحسين بن عبد الله بن عباس بن علي بن أبي طالب، ودعا الناس في «هجر» إلى طاعته فأيّدته جماعة، وخالفته أخرى فحدث قتال بين الطرفين بسببه فتحوّل من تبعه عنه فخرج

من هجر والتجأ إلى حيّ من بني تميم بالإحساء، ومشت معه فئة، وأبغضته ثانية فاقتتلوا من أجله، ووقع عدد كبير من القتلى بينهم فتنكّر له من سار معه في البداية، فسار إلى البادية، وادّعى هناك أنه أبو الحسين يحيى بن عمر الذي خرج بالكوفة وقتل، فنصره أقوام وقاتل بهم خصومهم فقُتل منهم عدد كبير فازورّوا عنه، فاتجه ببصره إلي البصرة فسار نحوها عام ٢٥٤، وزعم هناك أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأراد أن ينضمّ إلى بعض فئاتها فلم يقدر فرحل إلى بغداد، وأقام بها ما يقرب من سنة، ثم عاد إلى البصرة في رمضان من عام ٢٥٥، وأقام بظاهرها، واجتمع إليه الزنج الذين يعملون في الأرض لساداتهم، فيشقون ويعيش الملاك على أتعابهم ولا يعاملونهم المعاملة الطيبة التي أمر بها الإسلام، الأمر الذي نشأ عندهم حقد عليهم استغلّه هذا الدعيّ، فحرّضهم عليهم ومنّاهم الأماني فتركوا أعمالهم، والتفّوا حوله، وبدأ بأعمال النهب والتعدّيات، ويقدّم لهم بما يأتون به من هذه الأعمال اللصوصية. وخرجت جيوش الدولة فبدأ ينتصر عليها إذ كانت في شغلٍ شاغل بين القادة العسكريين والخليفة، وبينهم بعضهم مع بعض، وبين الدولة والحركات المناوئة في طبرستان، وقزوين و.... وما كان يربحه من هذه المعارك يجهّز به جماعته ويقوّيهم، ثم تمكّن من دخول الأُبُلّة وعبادان، فدخل الأولى لخمس بقين من شهر رجب من عام ٢٥٦ فقتل عدداً كبيراً من أهلها وحرقها فخاف أهل عبادان من ذلك ودخل الرعب إلى قلوبهم فاستسلموا للزنج الذين دخلوا مدينتهم. ثم انتقل الزنج إلى الأهواز فدخلوها وفعلوا بأهلها الأفاعيل، ولم ينتصف شهر رمضان من ذلك العام.

* * *

-١٥-

المعتمد على الله

أحمد بن جعفر المتوكل

٢٥٦-٢٧٩

هو أحمد بن جعفر المتوكل، وُلد عام ٢٢٩، وأمه أم ولد تُعرف باسم «فتيان»، بويع بالخلافة لأربع عشرة بقيت من رجب من عام ٢٥٦ فكان عمره يوم ولي الخلافة سبعاً وعشرين سنة. ولّى أخاه أبا أحمد الموفق الكوفة، وطريق مكة، والحرمين، واليمن، ثم أضاف له بغداد والسواد وواسط والبصرة والأهواز وفارس، وفي عام ٢٥٨ ضم إليه أيضاً الجزيرة وقنسرين، وسُمّي الخليفة المعتمد على الله.

جلس المعتمد على الله عام ٢٦١ في دار العامة، وولى ابنه جعفراً العهد من بعده وسمّاه المفوّض إلى الله، وولاّه المغرب، وضمّ إليه موسى بن بغا، وولاّه إفريقية، ومصر، والشام، والجزيرة، والموصل، وأرمينيا، وولّى أخاه أبا أحمد الموفق العهد بعد ابنه جعفر، وولاّه المشرق، وضمّ إليه مسرور البلخي، وأعطاه جزيرة العرب، والأهواز، وفارس، والري، وخراسان، وطبرستان، وقزوين، وسجستان، والسند.

وفي ٢٦٤ ردّ المعتمد على الله إلى الوزارة الحسن بن مخلد، وعزل سليمان بن حرب دون علم أخيه الموفق، فسار إليه أخوه الموفق من بغداد، واقتحم عليه سامراء، ولم يقع بينهما قتال إذ اصطلحا غير أن الحسن بن مخلد قد ترك الوزارة، وهرب من سامراء، وأعيد سليمان بن حرب إلى الوزارة من جديد. ومع هذا الصلح فقد بقي المعتمد على الله

يتخيل أن أخاه الموفق يريد أن يضغط عليه، ويكفّ يده، لذا فقد أراد اللحوق بمصر إلى عند الطولونيين غير أن أخاه الموفق قد أمر نائب الموصل إسحاق بن كنداج أن يردّ المعتمد عن غيّه فردّه. ولم يكن إليه مع أخيه شيء من الأمر حتى أن المعتمد طلب في بعض الأيام ثلاثمائة دينار فلم يصل إليها فقال الشاعر في ذلك:

ومن العجائب في الخلافة أنْ	ترى ما قلّ مُمتنعاً عليه
وتُؤخذ الدنا باسمه جميعاً	وما ذاك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طُرّاً	ويُمنع بعض ما يُجبى إليه

وفي عام ٢٧٨ مات الموفق أخو الخليفة، وهو أصغر منه بستة أشهر، وبويع ابنه أبو العباس أحمد بن الموفق ولياً للعهد باسم المعتضد بالله. وبعد عام خلع المعتمد على الله ابنه جعفراً المفوّض إلى الله من ولاية العهد وأعطاها لابن أخيه حيث كان العسكريون يؤيدونه، وفي العام نفسه توفي الخليفة.

كان المعتمد أول خليفةٍ انتقل من سامراء إلى بغداد، ثم لم يعد إليها أحد من الخلفاء بل جعلوا إقامتهم ببغداد. وكان عمره يوم توفي خمسين سنة، فكانت خلافته بذلك ثلاثاً وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر هذه المدة إلى اللهو، وكان قائماً بأمر الدولة أخوه الموفق الذي تلقّب بناصر دين الله، وصار إليه العقد، والحلّ، والولاية، والعزل، وإليه يُجبى الخراج، وكان يُخطب له على المنابر، فيقال: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفّق بالله، ولي عهد المسلمين، أخا أمير المؤمنين، وكان غزير العقل، حسن التدبير، يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جداً[١]. وهو الذي قاد الجيوش ضد الزنج، وعلى يديه ـ بإذن الله ـ تمت هزيمتهم. وتوفي قبل أخيه الخليفة

---

(١) البداية والنهاية.

بستة أشهر بمرض النقرس فتورّمت رجلاه حتى عظمت جداً، واستمر في مرضه حتى ملّه أهله والقائمون عليه.

وفي أيام المعتمد على الله كثرت الحركات، وزادت غارات الروم، وقامت إمارات جديدة غير التي قامت من قبل، وعمّت تعدّيات القادة العسكريين ولولا أن قبض الموفق على زمام الأمر لانهارت الدولة أو لاستبدل الخليفة.

الحركات:

فقد ظهر بالكوفة علي بن زيد الطالبي، فوجّه الخليفة إليه جيشاً فهُزم جيش الخليفة، وقُتل عدد كبير من أفراده،، ونجا أميره. وتمكّن علي بن زيد من دخول الري.

وخرج محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي بفارس، وغلب عليها، لكنه عاد في عام ٢٥٨ فدخل في طاعة الخليفة، وحمل إليه الخراج، لكنه لم يلبث أن عاد إلى خلافه، وخلع طاعته عام ٢٦١ غير أنه هُزم أمام يعقوب بن الليث الصفّار، ثم فرّ من فارس أمامه عام ٢٦٢.

ودخل محمد وعلي ولدا الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدينة المنورة عام ٢٧١ وعملا بها نهباً.

وثار ابن عيسى ابن الشيخ بالقرب من دمشق غير أنه هُزم أمام القائد «أماجور»، ورضي الخليفة عنه بعد ذلك، وعيّنه نائباً على أرمينيا.

الخوارج:

وأزعج مساور بن عبد الحميد الخارجي البلاد، واستمرت الدولة في قتاله، وهو في تعدّياته حتى توفي عام ٢٦٣. وفي عام ٢٦٧ استولى أحمد بن عبد الله الحجابي على خراسان، وكرمان، وسجستان، وضرب السكة باسمه، وفي نهاية العام قتله أحد جنوده، وأراح المسلمين منه.

وكذلك فقد سيطر الخوارج على مدينة هراة، أو استمرت سيطرتهم على هذه المدينة والتي دامت ثلاثين سنة حتى أنقذها منهم يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ حيث ظفر بأميرهم الذي انتحل الخلافة طيلة هذه المدة.

وسبّبت الإمارات التي قامت مشكلاتٍ للدولة وخاصةً الدولة الصفارية، والطولونية، والطالبية. غير أن أصعب الحركات وأشدّها كانت حركة الزنج.

الزنج:

كُلّف سعيد بن الحاجب بقتال الزنج فسار إليهم في رجب من عام ٢٥٧ وهزمهم في أول معركة غير أنه هُزم أمامهم في المعارك التي تلت، وفقد قسماً كبيراً من جيشه، وقُتل هو، واشتدت شوكتهم، واستطاعوا دخول مدينة البصرة في شوال من العام نفسه، وكان أهلها قد أصابهم الرعب والخوف بسبب بما كانوا يسمعون من أعمال هؤلاء الزنج الحاقدين، فغادرت البصرة أعداد كبيرة من أهلها، واتجهوا إلى عدة جهات، ولما دخل الزنج المدينة هدّموا دورها وأحرقوها، ثم نادى إبراهيم بن المهلبي بالأمان لأهلها فاجتمع منهم عدد كبير فلما رآهم أمر بقتلهم فأُبيدوا.

وفي مستهل ذي القعدة من عام ٢٥٧ أرسل الخليفة جيشاً كثيفاً بقيادة الأمير محمد ـ المعروف بالمولد، وأردفه بجيشٍ آخر في ربيع الأول من عام ٢٥٨ بإمرة أخيه الموفق، ومعه القائد مفلح، فقُتل مفلح، كما أُسر أحد قادة الزنج، وهو يحيى بن محمد البحراني، وحدث بين الطرفين قتال عنيفٍ في شهر رجب، وانتقل الموفق بعد ذلك إلى واسط حيث اتخذها مقراً لقيادته، ورجع بعدها إلى سامراء، وعهد للأمير محمد بتوليّ مهمة القتال.

وتوالت الجيوش إلى حرب الزنج فسار موسى بن بغا نحو البصرة، ومعه إسحاق بن كنداج، وإبراهيم بن سيما، كما سار عبد الرحمن بن مفلح نحو الأهواز وذلك عام ٢٥٩، واستطاع عبد الرحمن بن مفلح أن ينتصر على قائد الزنج في منطقة الأهواز، وهو علي بن أبان المهلبي في

عدة معارك، وأن يأسر من أتباعه عدداً كبيراً، وفرّ نتيجة ذلك المهلبي إلى صاحب الزنج، وملك عبد الرحمن بن مفلح الأهواز.

وفي عام ٢٦٠ دخل الزنج الكوفة، وقتلوا علي بن زيد الطالبي الذي امتلكها، كما أن الزنج قد تمكّنوا في العام التالي من العودة إلى الأهواز فقتلوا، وسبوا، وسلبوا، وانتهبوا ما شاء لهم هواهم، ثم أحرقوا الدور.

وكانت سنوات حالكات على الدولة، فالطولونيون يحاربونها من الغرب، والصفاريون يقاتلونها من الشرق، والروم يغزون أطرافها من الشمال، والذعر ينتشر في جنوبي العراق بسبب أعمال الزنج وأفعالهم الدنيئة، وعندها شمّر الموفق عن ساعد الجدّ فخلّص واسط من الصفاريين عام ٢٦٢ غير أن الزنج قد دخلوها بإمرة سليمان بن جامع، ولكن تمكّن أبو العباس بن الموفق من استرجاعها عام ٢٦٧، ثم سار الموفق بنفسه إلى صاحب الزنج، وهو بالمدينة التي أنشأها، وسمّاها «المنيعة»، فدخلها الموفق عنوةً، فقتل وأسر كثيراً، وغنم من (المنيعة) أموالاً وفيرةً، وأنقذ خمسة آلاف امرأةٍ مسلمةٍ كانت بيد الزنج. ثم سار الموفق إلى بلدة صاحب الزنج الثانية، واسمها «المنصورة» وبها سليمان بن جامع قائد الزنج، وتمكّن الموفق من دخولها بعد أن قاتل الزنج دونها قتالاً عنيفاً، وكان لها خمسة أسوار، وأنقذ منها عشرة آلاف امرأة مسلمة جلّهم من أهل البصرة.

وكان الموفق ـ رحمه الله ـ يدعو الزنج إلى الرجوع إلى الحق، والتوبة عما قاموا به، ويبذل الأمان لمن عاد واستنكر فعل صاحب الزنج الدعيّ، ومن أبى قتله، وفوق كل هذا فقد عمل الموفق على إزالة الأسباب التي دعت إلى حقد هؤلاء الزنوج بإزالة الفوارق التي وجدت، والمعاملة الإسلامية التي يجب أن تسود، وإكرام الخدم كل هذا أدّى إلى عودة الكثيرين، ومن ثم وجّه كتاباً إلى صاحب الزنج يدعوه فيه إلى التوبة والرجوع عما ارتكبه من منكرات ومحارم، ودعوى النبوة، واستحلال ما حرّم الله وبذل له الأمان، فلم يردّ عليه صاحب الزنج، فعدّها الموفق إهانةً واستخفافاً، وسار من فوره على رأس خمسين ألفاً نحو مدينة صاحب الزنج

«المختارة»، وحاصرها، وقدّم ابنه أبا العباس بين يديه فهزم من خرج إليه، وثبت «بهبوذ» كبير أمراء صاحب الزنج. ثم نادى الموفق بالأمان لأصحاب الدعيّ فطلبه كثيرون، وانتقلوا إلى صفّ الموفق، وأصبحوا على صاحب الزنج بعد أن كانوا معه. وبنى الموفق مدينة تجاه مدينة «المختارة» وجلب إليها الأرزاق كافةً. وجرت الحروب بين الطرفين طيلة عام ٢٦٧، وفي العام التالي دخل المسلمون المختارة دون رأي الموفق، ووصلوا إلى وسط المدينة، فخرجت إليهم كمائن الزنج من حيث لا يدرون فاضطروا إلى الفرار. وظفر أبو العباس بجماعةٍ من الأعراب كانوا يجلبون الطعام والمؤن إلى الزنج فقتلهم، كما ظفر ببهبوذ بن عبد الوهاب فقتله، وهو كبير أمراء صاحب الزنج. وتمكّن الموفق بعد أن عوفي من سهم أصابه أن يجدّد القتال، وأن يدخل المختارة عام ٢٦٩، وهرب صاحبُ الزنج إلى مدينة أخرى فتحصّن بها فأرسل الموفق وراءه لؤلؤ مولى أحمد بن طولون الذي جاءه مُفارقاً سيّده، فكان طليعةً لجيش الموفق، وفرّ صاحب الزنج من المدينة التي تحصّن بها، فبعث الموفق السرايا خلفه فأتوا برأسه، وأسروا قائده سليمان بن جامع، وعاد الموفق إلى مدينة الموفقية، ثم جيء له بابن صاحب الزنج «انكلاي»، وعلي بن أبان المهلبي أسيرين، وانتهت بذلك حركة الزنج بعد أن دامت أكثر من أربعة عشر عاماً ٢٥٥ ـ ٢٧٠.

وتحرّك الزنج ثانيةً في مدينة واسط عام ٢٧٢، ونادوا «انكلاي يا منصور» فاستدعى الموفق أسرى الزنج، وكانوا في سجن بغداد، وقتلهم، وفي مقدمتهم انكلاي، وسليمان بن جامع، وعلي بن أبان المهلبي فانقطع أمل الزنج بقادتهم، ثم ضرب المشاغبين ضربةً قاصمةً سكنوا بعدها نهائياً.

القرامطة والإسماعيلية:

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تحتضر ظهرت دعوة الإسماعيلية ودعوة القرامطة، وكلها تنبع من معينٍ واحدٍ وهو إطلاق العنان للشهوات واصطياد الشباب، وهم في سن المراهقة، وهم وقود الحركات عادةً، ثم

تنفيذ الأهداف والمرامي السياسية والدينية من وراء ذلك كله. وفي هذه الآونة ظهر أدعياء كثيرون انتسبوا للبيت الهاشمي وما هم كذلك، ولما كان عدد من أصحاب الوجاهة من الهاشميين قد اختفوا من وجه العباسيين كي لا ينالهم أذىً بسبب ما يفعله آخرون من الهاشميين سواء أكانوا من طالبي السلطة أم من الذين يدخلون المدن ويعيثون فيها فساداً أم من الآمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، ومما سهّل ادعاء كثيرين للبيت الهاشمي اختفاء عدد من الهاشميين فعلاً.

أشيع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أن أسرة محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد انتقلت إلى السلمية في بلاد الشام إلى الشمال الشرقي من حمص، وفي الوقت نفسه فقد انتقلت أسرة ميمون القداح إلى السلمية، وميمون القداح قد عاصر محمد بن إسماعيل السابق الذكر، وكان والد ميمون وهو ديصان يهودياً فأسلم ميمون، أو أظهر الإسلام وله أهداف سياسية ودينية وانتسب إلى الدعوة الإسماعيلية، ولما مات ميمون خلفه ابنه عبد الله المتوفى عام ١٨٠هـ، وأوصى ميمون أن يُسمّى أحفاده بأسماء أحفاد محمد بن إسماعيل كي يختلط الأمر، وفعلاً كان لميمون عبد الله، ولعبد الله أحمد، ولأحمد الحسين، وللحسين عبيد الله وعبيد الله هو المهدي الذي ظهر في المغرب. كما كان لمحمد بن إسماعيل الأسماء نفسها لولده وأحفاده ومما زاد اختلاطاً أن أبناء محمد بن إسماعيل كانوا يحملون ألقاباً وأحياناً أسماءً حركيةً تخفي حقيقتهم، ويبدو أن السلمية أصبحت مركزاً لدعوة هذه الأسرة القداحية أو الميمونية وربما كان صاحب الدعوة يضع شخصاً يلتقي بالدعاة زيادةً في الحيطة على نفسه أو خوفاً على دعوته، وربما يكون قد وجد شخصان أحدهما فعلاً ينتمي إلى أسرة محمد بن إسماعيل وعندها لا يكون انتقال تلك الأسرة إلى السلمية دعايةً وشائعةً ويقوم بالدعوة لنفسه، وآخر يحمل الاسم نفسه وينتمي إلى الأسرة الميمونية ويعمل لنفسه ويترقب نشاط الأول كي يستغله في الوقت المناسب. وبالجملة فقد كان النشاط قائماً

والدعاة ينتشرون في مناطق كثيرة وكان من جملتهم شخص حمل اسم «أبو عبد الله الشيعي» وقد وجد في جنوبي العراق يدعو لأبناء محمد بن إسماعيل، ومن أنصاره «رستم بن الحسين بن حوشب»، وكان في اليمن رجل يُدعى «محمد بن الفضل» كثير المال والعشيرة، ويعد من رؤوس الشيعة هناك، وقد سافر إلى كربلاء ليزور قبر الحسين، فرآه أبو عبد الله الشيعي، ورستم بن الحسين بن حوشب وهو يبكي بكاء مُرّاً بجانب القبر، فأحبا كسبه إلى دعوتهما، أو وجدوا فيه ما يصلح لئن يكون من أتباعهما، ففاتحاه بالموضوع ولقيا عنده استعداداً كبيراً، وسارا معه إلى اليمن، وهناك بدأت الدعوة تنطلق، واتجه إليها عدد من الذين كانوا يعيشون جنوبي العراق فكثر الأتباع، وكان من قادتها «رستم بن الحسين بن حوشب»، وقد زار أبو عبد الله الشيعي السلمية والتقى بالإمام المستور ـ على حدّ تعبيرهم ـ ووصلت الأخبار إلى أن المغرب أرض صالحة لبثّ الدعوة فيها فسار إليها أبو عبد الله الشيعي كما سار إليها قبله رجل اسمه «الحلواني» وآخر يُدعى «أبو سفيان» ولعل هذه الكنية وجدت لإبعاد الشبهة إذ لا يمكن للرافضة وما تفرّع عنها أن تُكنّى بهذه الكنية، وبدأت الدعوة تأخذ طريقها نحو النجاح. أما في اليمن فقد أسس «رستم بن الحسين بن حوشب» إمارةً له، وعرف عندهم باسم منصور اليمن، وكان من قادته الكبار علي بن الفضل.

وكان من الدعاة في جنوبي العراق «مهرويه» وهو أحد الذين يُخفون عقيدتهم المجوسية، وهو من أصلٍ فارسي، وكذلك كان «حسين الأهوازي»، وهو من الفرس أيضاً، وربما كانت نسبته إلى الأهواز لإخفاء شخصيته إذ كان رسولاً متنقلاً لإمام الإسماعيلية المستور، وقد يكون على صلةٍ وثيقةٍ بصاحب الدعوة الأول. وكان عبد الله بن ميمون القداح رأس الدعوة الإسماعيلية الظلّ، وكان يريد أن يُعمّي عن نفسه، فوزّع دعاته في الأمصار، وخاصةً أبناءه حتى لا تتجه الأنظار إلى مكان إقامته، فأرسل ابنه أحمد ليقيم في الطالقان من بلاد خراسان، وطلب من دعاته أن يراسلوه إلى هناك، كما أعلن أحمد عن موت ابنه «حسين»، ولم يمض وقت طويل

حتى خرج من الأهواز حسين هذا، وعُرف باسم «حسين الأهوازي»، وربما كان هو بالذات حسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، كما يقال: إن حسين الأهوازي هو رسول الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، وهنا يبدو تشابه الأسماء بين أسرة حسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأسرة حسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، ومن هنا جاء الاختلاف وادعاء النسب القداحي إلى آل البيت.

عرف حسين الأهوازي كداعيةٍ إسماعيلي في جنوبي العراق بغض النظر عن أصله ونسبه، وقد التقى مرةً بـ «حمدان بن الأشعث» الذي عرف باسم «قرمط»، وهو في طريقه إلى السلمية حسبما تدّعيه الرواية القرمطية، وقد استطاع «حسين» استمالة «حمدان» إلى دعوته، وسار معه إلى قريته حيث بدأ العمل هناك بنشاط إذ أن حمدان كان صاحب علاقاتٍ اجتماعيةٍ كثيرةٍ، وناقماً على المجتمع لوضعه، وكثير الكلام عن الأوضاع، وكان المحيط الذي يعيش فيه حاقداً أيضاً على الحكم العباسي فيستمع إلى كل ناقد، فتوسّعت الدعوة بحيث لم يعد أحد ينكر مركزها، وترقّى حمدان في سلم الدعوة، ووصل إلى مكانٍ مرموقٍ فيها، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يعود إلى الفرس المجوس الذين كانوا يكثرون في ذلك الوسط، ويخططون للعمل ضد الدولة، ويعملون على تهديم الإسلام، وهناك من يقول: إن أصل حمدان يرجع إلى يهود نجران الذين كانوا يشبهون المجوس في الخطة والهدف، وكثيراً ما عمل الفريقان في مخططٍ واحدٍ ضد الإسلام.

في هذا الوقت كانت حركة الزنج قائمةً في جنوبي العراق، وقد سيطرت على مدينة البصرة، والأهواز، وواسط، وامتد نفوذها، واستطاعت الانتصار على الجيوش العباسية في عددٍ من الوقائع، فرغب حسين الأهوازي أن يشارك في هذه الحركة كمرحلةٍ من مراحل عمله، إذ لا يستطيع وحده آنذاك أن يقوم بعملٍ مثمرٍ، والحركات الانتهازية يستغل عادةً

بعضها بعضاً أو يركب بعضها طريق الآخر حتى إذا تمّ له ما يريد انفرد وحده فالغاية عندهم تبرر الواسطة.

التقى حسين الأهوازي بصاحب الزنج عام ٢٦٤، وعرض عليه المساعدة ما دامت الغاية واحدةً والوسيلة واحدةً إلا أن صاحب الزنج قد عرف رغبة حسين الأهوازي في استغلال الحركة أو كما يقال سرقة الثورة فرفض المساعدة حيث كان الزنج في أوج القوة التي وصلت إليها حركتهم فلم يبالوا بالعون.

لم تلبث حركة الزنج أن فشلت وقتل صاحبها عام ٢٧٠ ـ كما رأينا ـ وقضى عليها العباسيون بعد أن عرف الموفق الأسباب التي دعت إليها أو ساعدت على نجاحها فحاول التخلص من تلك الأسباب ودعا إلى تطبيق الإسلام الذي يقضي على دواعيها، فوجد الدواء لها فانفرط عقد الزنج وتخلّص العباسيون من حركتهم. وعندما هدأت الأوضاع استطاع حسين الأهوازي أن يُجدّد نشاطه، وأن يُقنع أتباعه ويُمنّيهم بأنهم سيملكون الأرض، وفرض ديناراً على كل من أجابه لدعوته ليضمن انتظامهم، ووضع عنهم الصوم، والصلاة، والفرائض جميعها، وأحلّ لهم أموال المخالفين لهم ودماءهم وأعراضهم، ونظّمهم تنظيماً دقيقاً إذ جعل منهم اثني عشر نقيباً، وكان من أبرزهم حمدان بن الأشعث (قرمط).

مات حسين الأهوازي فخلفه في رئاسة الدعوة حمدان بن الأشعث (قرمط)، فابتنى لأتباعه داراً للهجرة في سواد الكوفة عام ٢٧٧، وسار على طريقة سلفه، وهكذا أصبح للدعوة القرمطية مركز يؤمّونه، وقاعدة يمكنهم الانطلاق منها. اختار القرمطي دعاته وكان من أشهرهم ابن عمه وصهره (عبدان) وهو الذي نسبت إليه كثير من كتب القرامطة، (زكرويه بن مهرويه) الذي أخذ الدعوة عن أبيه كما ورث عنه ما كان يشغل باله في القضاء على الإسلام وتأسيس أسرةٍ فارسيةٍ يعود إليها الحكم وتعتمد على المجوسية، و (أبو الفوارس) الذي قاد ثورة القرامطة عام ٢٨٩.

فرض القرمطي على أتباعه مبالغ من المال عليهم أن يدفعوها،

وتصرّف في هذه الأموال فجذب إليه الفقراء الذين قدّم إليهم المساعدات، واشترى السلاح فأخاف الناس فالتحقوا بدعوته تخلّصاً من شرّه وطمعاً في الغنائم التي منّاهم بالحصول عليها من أموال المخالفين له، وربما كان هذا القرمطي يعمل لنفسه، أو أنه مقتنع بالعمل لإمامة الإسماعيلية الذين يعملون بدورهم للغاية نفسها أو هكذا كان يُظنّ.

كان القرامطة دعاةً للإسماعيلية، ثم انحرفوا عنهم عندما علموا أن الدعوة في السلمية لم تعد لأولاد محمد بن إسماعيل وإنما لأولاد عبد الله بن ميمون القداح، وأصبح الاختلاف واضحاً بين الفريقين في الوسائل التي اتخذوها وفي العقائد التي غدت للقرامطة وعدّهم الإسماعيليون ملاحدةً، وربما عدّ القرامطة الإسماعيليين مخالفين.

كان أتباع قرمط يتلقّون التعليمات من السلمية، ويسيرون حسبها بشكلٍ دقيقٍ ومنتظمٍ، وذات مرةٍ أرسل قرمط رسوله إلى مقرّ الدعوة في السلمية، والتقى الرسول هناك بصاحب الدعوة الأول وبينما كان الحديث يدور بينهما عن الإمام المنتظر إذ أُجيب الرسول أن هذا الموضوع إنما هو خرافة، والدعوة هي لأولاد عبد الله بن ميمون القداح، إذ ظنّ صاحب الدعوة الأول أن القرامطة قد التزموا بالخط تماماً، وأنهم أصبحوا مرتبطين به بشكلٍ أكيدٍ، وقد آن له أن يفاتحهم بالأمر.

عاد الرسول إلى سواد الكوفة ونقل الخبر إلى قرمط الذي أدرك اللعبة وترك الصلة بالسلمية، وبدأ العمل وحده منفرداً ولنفسه. وعندما حدث هذا التغير في طريقة (قرمط) حضر أحد أبناء أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من (الطالقان) إلى الكوفة، وهو كبير الدعاة، وصلة الوصل بين السلمية ودعاتها فعاتب (عبدان) ابن عم (قرمط)، وهو مفكر القرامطة، عاتبه على السير على نهج خاص والعمل على انفراد، وشقّ عصا الطاعة إلا أن (عبدان) عنّفه، وطرده من منطقة السواد، غير أن (زكرويه بن مهرويه) قد استقبله، وتآمر الاثنان معاً على قتل (عبدان)، فثار أهل السواد لأن أكثرهم من أتباع (عبدان)، فخرج القداحي خائفاً يترقب، واختفى

(زكرويه). وهنا يبدو اتفاق (زكرويه) و (السلمية) كمرحلةٍ من مراحل العمل، ولكن يبدو أن كلاً منهما يريد الاستقلال والعمل لنفسه، ويبغي استغلال الطرف الآخر لمصلحته، إذ أن (زكرويه) يريد أن يكسب السلمية مركز الدعوة إلى جانبه كي يربح الأنصار، ويبقى على رأس العمل، وتريد السلمية ألا تخرج منطقة السواد من قبضتها وإنما تريد أن تحافظ على بعض الدعاة أمثال (زكرويه) الذي يمكنه كسب تأييد المجوس المتسترين ودعم اليهود المادي. ومع هذا الاتفاق المرحلي حرص كل طرفٍ على كسب أنصار له في منطقة نفوذ الآخر، ففي الوقت الذي حرصت فيه السلمية على وجود أعوان لها في جنوبي العراق رأى (زكرويه) أن بلاد الشام منطقةً خصبةً للعمل إذ أن ضعف الطولونيين يساعد على النشاط هناك بينما هو محصور في مخبئه في منطقة السواد خوفاً من أنصار (عبدان).

الروم:

ونستطيع أن نقول: إن الروم في هذه المرحلة قد بدأت كفتهم ترجح على المسلمين وإن لم يكن رجحاناً واضحاً إلا أنهم قد تشجّعوا على دخول بلاد المسلمين، أو أن هيبة المسلمين قد قلّت في أعين الروم بعد أن كانت كبيرةً. وخاصة بعد حركة الزنج واستفحال أمرها، وانشغال الدولة بها، وبقتال الإمارات الأخرى.

وثب بسيل الصقلبي عام ٢٥٧ على ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وقتله وغلب على الملك، وكان ميخائيل قد حكم بلاد الروم مدة أربع وعشرين سنة.

وهاجم الروم سميساط، وغلبوا عليها، وانتقلوا إلى (ملاطية) فحاصروها فنفر عليهم أهلها وأعانهم الله فانتصروا عليهم وردّوهم على أعقابهم خاسرين. غير أن الروم تمكّنوا في عام ٢٦٠ من أخذ (لؤلؤة) من أيدي المسلمين، وهي إحدى قلاع الثغور. ودخل المسلمون بلاد الروم عام ٢٦٤ في أربعة آلاف مقاتل بإمرة عبد الله بن رشيد بن كاوس غير أنهم

هُزموا وأُسر أميرهم. وفي العام التالي (٢٦٥) خرج بطارقة الروم في ثلاثين ألفاً إلى بلاد المسلمين من جهة (أضنة) ووصلوا إلى مصلّى المدينة، وقد أسروا والي الثغور «أرخوز» ومعه أربعمائة مسلم، وقضى البطارقة أربعة أيام بالقرب من (أضنة)، ثم عادوا إلى بلادهم، وكرّر البطارقة هجومهم في العام التالي (٢٦٦) ووصلوا إلى ديار بكر، وأسروا مائتين وخمسين مسلماً، فنفر لهم أهل نصيبين فرجع الروم وقد قُتل بطريق البطارقة.

وغدا بعد ذلك جزء من ثغور بلاد الشام يتبع الطولونيين فسار عام ٢٦٦ ثلاثمائة من أهل طرسوس، ودخلوا بلاد الروم، فخرج عليهم أربعة آلاف من أعدائهم فانتصر المسلمون رغم قلتهم، وقتلوا عدداً كبيراً من الروم.

وجاء مائة ألف من الروم فنزلوا قرب طرسوس عام ٢٧٠، وكانوا بإمرة بطريق البطارقة، فخرج عليهم المسلمون، وهزموهم، وقتلوا الكثير منهم، ومنهم بطريق البطارقة.

وفي عام ٢٧٣ قُتل بسيل الصقلبي ملك الروم بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة، وقد عدا عليه أولاده، فقتلوه، واستلم الأمر بعده أحدهم.

وفي عام ٢٧٤ غزا نائب طرسوس «يازمان» بلاد الروم، وأوغل فيها، وقتل كثيراً، وغنم.

* * *

الإمارات

بقيت الإمارات القديمة كما هي ليست على صلاتٍ كبيرةٍ أو على تماسٍ مع الخلافة، وإن بدأ الوهن والضعف يظهر عليها بشكلٍ أكبرٍ أو أنها أصبحت في مرحلة الهرم، ونشأت إمارات جديدة دخلت في صراعٍ مع الخلافة وإن كانت أحياناً تتحسن العلاقات بينهما، ويُعطى الأميرَ الولاية أو يُضاف إليه مقاطعات أخرى إرضاءً له.

١ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان أمير الأندلس الأموي محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني، وقد حكم منذ عام ٢٣٨، واستمر حتى وفاته عام ٢٧٣ حيث خلفه ابنه المنذر، وفي أيام محمد الأول توطّد الأمن، وأرسل حملاتٍ إلى الإمارات النصرانية، وقد تكلّلت أكثر حملاته بالنصر. ولم تطل أيام المنذر إذ لم يدم حكمه سوى سنتين توفي بعدها عام ٢٧٥ وقد أحبه الناس، وكان عادلاً، وخلفه أخوه عبد الله، وكان قاسياً، انتشرت الفوضى في أيامه، وخرج الولاة عليه، وأعلنوا استقلالهم عنه، واستمر حتى عام ٣٠٠هـ حيث خلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله.

٢ ـ دولة الأدارسة:

كان الخلاف يعمّ منطقة المغرب الأقصى، إذ يتنازع على الحكم أبناء الأسرة الواحدة ويستعين بعضهم بغيرهم على بعض.

٣ ـ دولة الخوارج الأباضية الرستمية:

توفي أفلح بن عبد الوهاب عام ٢٥٨، وخلفه ابنه أبو بكر، وفي أيامه استبد محمد بن عرفة بالأمر، أو كان هو المتنفذ، واستاءت قبيلة نفوسة من هذا باستثناء بطن منها وهو «هوارة»، وتسلّم أخو الإمام أبي بكر بعض المسؤوليات وهو «أبو اليقظان محمد بن أفلح» فأحسن فيها العمل، ولما ارتفعت أسهمه وخاصة عند قبيلة نفوسة، وعند أسرته بالذات بدأ يحرّض أخاه أبا بكر على قتل محمد بن عرفة، وتمّ هذا، واعتزل أبو بكر الإمامة عام ٢٦٠، وتولى أمرها أخوه أبو اليقظان، فحدثت خلافات عصبية اضطر إثرها أبو اليقظان أن يغادر «تاهرت» وتسلّم الجند الأمر بعد أن سيطروا على المدينة، ولكن لم يلبث أن اقتحم بدو «هوارة» المدينة، ونصبوا عليها محمد بن مسالة، وقد اتسم حكمه بالهدوء، ووقع خلاف بين قبيلتي «هوارة» و «لواته» فأُخرجت الأخيرة من المدينة فانضمت إلى أبي اليقظان فاستطاع من العودة إلى حكم تاهرت عام ٢٦٨، واستقر له الأمر حتى عام ٢٨١.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية المدرارية:

كان أمير بني مدرار ميمون بن بقية أو إمام الصفرية في «سجلماسة»، وبقي حتى عام ٢٦٣، وكان قاسياً، وقد اضطر إلى هذا السلوك لمواجهة الخوارج الأباضيين في إمارته، والذين يدعمون أخاه ابن الرستمية، وقد هجر أكثر الأباضيين مدينة «سجلماسة»، واتجهوا نحو وادي «درعه»، وخلفه ابنه محمد بن ميمون، وقد طارد الأباضيين، وبقي حتى توفي عام ٢٧٠، وخلفه اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبي القاسم، ولُقّب بالمنتصر، واستمر حتى مقتله على يد العبيديين عام ٢٩٧.

٥ ـ دولة الأغالبة:

كان يحكم دولة الأغالبة (٢٥٠ ـ ٢٦١) محمد الثاني بن أحمد،

ويُلقّب بأبي الغرانيق، وتابع فتح جزيرة صقلية، كما حاول مدّ الفتح إلى جنوبي إيطاليا، وعندما توفي خلفه ابنه، لكن لم يلبث بالإمرة سوى عدة أيام حتى أخذ عمه الإمارة، وهو إبراهيم الثاني، الذي فتح المسلمون في عهده مدينة «سرقوسة» في صقلية عام ٢٧٤، واستمر حكمه حتى عام ٢٨٩، وقد قاتل العباس بن أحمد بن طولون الذي خرج عن طاعة أبيه، واتجه نحو الغرب، وراسل إبراهيم الثاني هذا، وادّعى أن الخليفة قد قلّده أمر المغرب، وطلب أن يُدعى له على منابرها، وسار العباس حتى وصل إلى مدينة (لبدة) فاستقبله أهلها فاستباحها، وغرّته نفسه فتابع السير نحو الغرب فقاتله إبراهيم الثاني أمير الأغالبة وهزمه واضطره إلى العودة إلى برقة، وكان إبراهيم الثاني حازماً عادلاً في أموره، أمّن البلاد، وقتل أهل البغي والفساد، وكان يجلس للعدل في جامع القيروان يوم الخميس والاثنين، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم، وينصف بينهم.. وكان عاقلاً حسن السيرة محباً للخير والإحسان، تصدّق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها[١].

٦ ـ دولة بني زياد:

وكان يحكمها إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد (٢٤٢ ـ ٢٨٩) أي مدة سبع وأربعين سنة، وكان مقره زبيد، وقد كانت اليمن كلها تحت نفوذهم، ثم استولى بنو يعفر على صنعاء عام ٢٢٥، وبنو الكرندي على جند.

٧ ـ دولة بني يعفر:

وكانت في صنعاء، واستمر حكم مؤسسها إبراهيم بن يعفر ٢٢٥ ـ ٢٦٠، وجاء ابنه عبد الرحيم الذي خلفه ابنه يعفر ودام ملكه ٢٦٠ ـ ٢٨٢.

٨ ـ الدولة الطولونية:

تقلّد القائد «بايكباك» مصر فأرسل إليها من قبله أحمد بن طولون[٢]

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

(٢) ولد أحمد بن طولون عام ٢١٤، وكان أبوه طولون قد أُهدي إلى الخليفة المأمون عام=

فدخلها عام ٢٥٤. وقُتل «بايكباك» عام ٢٥٦، وتولّى أمر مصر «يارجوخ»، وهو صهر أحمد بن طولون فكتب إليه «تسلّم من نفسك لنفسك» وبذلك أقرّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها فقوي مركزه وتغلّب على منافسيه. وفي عام ٢٥٩ مات «يارجوخ» صاحب إقطاع مصر الذي كان ابن طولون يحكمها نيابةً عنه، ويدعو له على منابرها بعد الخليفة، فتوطّدت قدمه في هذه البلاد، وأصبح والياً عليها من قبل الخليفة مباشرةً، وفي عام ٢٦٣ كتب الخليفة المعتمد إلى ابن طولون يستحثه على إرسال الخراج، فردّ عليه «لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري»، فقلّده خراج مصر، وولاّه الثغور الشامية، وبذلك أصبحت جميع أعمال مصر الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية في يده[1].

كان الخليفة المعتمد على الله يميل إلى أحمد بن طولون غير أن أخاه الموفق كان لا يرغب فيه وأمور الدولة بيد الموفق، وهذا ما أجبر الخليفة على عزله عن الثغور الشامية، ولكنه عاد فردّها إليه مستفيداً من انشغال أخيه الموفق بحرب الزنج ومحتجاً باضطراب تلك الثغور بعد إبعاد ابن طولون عنها. وعندما توفي والي الشام «ماجور» سار إليها فدانت له مدنها، ودُعي له على منابرها عام ٢٦٥، ودخل إنطاكية وخافه الروم فأرسلوا له الهدايا، ثم اضطر إلى الانسحاب منها بعد خلع طاعة ابنه العباس إذ رجع إلى مصر، فانسحب ابنه إلى برقة، فأرسل إليه جيشاً أعاده فسجنه والده حتى مات.

ترك مولى ابن طولون «لؤلؤ» سيّده، وكان واليه على الرقة، وحمص، وحلب، وقنسرين وانحاز إلى جانب الموفق فسار ابن طولون إلى بلاد الشام، وأراد الخليفة المعتمد على الله الالتجاء إليه، والتخلّص من أخيه

= ٢٠٠ من قبل صاحب بخارى نوح بن أسد الساماني. وتوفي طولون عام ٢٣٠، وقد نشأ ابنه أحمد نشأةً دينية فكان يعيب على الأتراك ما يرتكبونه من منكرات، وكان من حفظة كتاب الله، ويكرم أهله، كثير الصدقات، كريماً عادلاً في الرعية.

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، الجزء الثالث.

الموفّق الذي شعر بأن كل شيءٍ في الدولة أصبح بيده، غير أن والي الموصل والجزيرة إسحاق بن كنداج قد ردّ الخليفة إلى سامراء، وأعلن الخليفة عن عزل ابن طولون عن مصر، وإعطائها إلى إسحاق بن كنداج، فضعف مركز ابن طولون، وهُزمت جيوشه في طرسوس، كما هُزمت في مكة، غير أن ابن كنداج لم يستطع الوصول إلى مصر فبقيت لابن طولون الذي توفي في العام التالي، فاختار الجند ابنه خمارويه والياً على مصر، ولم يكن للخليفة إلا أن يوافق على ذلك.

تحركت جيوش الخليفة من بغداد وجيوش خمارويه من مصر، وانتصرت جيوش الخليفة ودخلت دمشق بعد معركة الطواحين عام ٢٧١ فسار خمارويه بنفسه على رأس جيش فدخل دمشق عام ٢٧٣، وواصل التقدم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ووافق الخليفة وأخوه الموفق على إعطاء مصر لخمارويه وأولاده لمدة ثلاثين سنة.

واختلف إسحاق بن كنداج صاحب الموصل وابن أبي الساج صاحب قنسرين فدعا ابن أبي الساج إلى خمارويه فدعمه، وحارب إسحاق بن كنداج الذي فرّ إلى قلعة ماردين، وأخذ ابن أبي الساج الموصل والجزيرة، وخطب على منابرها الخمارويه، ثم عاد فاختلف معه عام ٢٧٥، واقتتلا عند ثنية العقاب (الثنايا) شمال شرقي دمشق فهُزم ابن أبي الساج، ولاحقه خمارويه من كل جهة حتى فرّ إلى الخليفة، وعاد إسحاق بن كنداج إلى الجزيرة. ثم زادت سلطة خمارويه بعد موت الموفق وإسحاق بن كنداج عام ٢٧٨ ثم موت الخليفة المعتمد على الله عام ٢٧٩، وبيعة المتعضد بالله إذ أقرّه الخليفة الجديد والياً على الأرض الممتدة من الفرات إلى برقة هو وأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً، كما تزوج من ابنة خمارويه «قطر الندى»، وتوفي خمارويه ٢٨٢.

٩ ـ الدولة الصفارية:

احتل يعقوب بن الليث عام ٢٥٩ نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية على

غير رأي الخليفة مدعياً أن أهل خراسان طلبوه بسبب الضعف الذي آل إليه الطاهريون، كما حارب ملوك الترك الذين يجاورون سجستان حتى أذعنوا له. وكان قد تولّى أمر بلخ، وطخارستان، وكرمان، وسجستان، والسند بكتاب من الموفق أخي الخليفة على أن يعود عن فارس عندما اتجه إليها عام ٢٥٧ فوافق ورجع.

وسار يعقوب إلى طبرستان فدخلها وهزم الحسين بن زيد الطالبي، ثم عاد فانسحب منها فرجع إليها الطالبي وذلك عام ٢٦٠، وفي العام التالي سار إلى الأهواز فدخلها ورغب في الاتجاه إلى بغداد حيث حصل بينه وبين رجال الدولة خلاف ثم أرسل رسله إلى الخليفة وسأله ولاية خراسان، وبلاد فارس، وكل ما كان تحت يد طاهر بن الحسين، وشرطتي بغداد، وسامراء، وولاية كرمان وسجستان، وأن يُقرأ خلاف ما قرئ من قبل من لعنٍ له فوافق الموفق أخو الخليفة، ومع هذا فقد زادت أطماعه فاتجه نحو بغداد ودخل واسطاً قهراً فالتقى بجند الدولة وقد تقدّمهم الخليفة المعتمد على الله فثار الجند على يعقوب وهُزم وذلك عام ٢٦٢، ولكنه في العام نفسه دخل فارس، واستولى على جنديسابور عام ٢٦٣، وأخذ الأهواز من صاحبه الزنج بعد معارك عنيفة. ومات يعقوب بن الليث عام ٢٦٥ بالأهواز، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي كتب إلى الخليفة بالسمع والطاعة فأقرّه الموفّق على خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، والسند، وكرمان والشرطة، ببغداد فأناب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عنه في شرطة بغداد وسامراء.

عاد الخليفة فعزل عمرو بن الليث عن خراسان عام ٢٧١ وأمر بلعنه على المنابر، وولّى محمد بن طاهر على خراسان غير أن هذا قد آثر البقاء في بغداد وأناب عنه رافع بن هرثمة، وانتصرت جيوش الخلافة على جيوش الصفاريين، وخرج الموفّق لحرب عمرو بن الليث عام ٢٧٤ غير أنه لم يستطع دخول كرمان وسجستان واضطر إلى العودة، وبقي الوضع على ما آل إليه طيلة أيام المعتمد على الله الباقية.

١٠ ـ الدولة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى أحد رجالات الفرس المسمى «سامان» والذي كان مجوسياً، واعتنق الإسلام في أواخر عهد الدولة الأموية، وسمّى ابنه أسداً باسم أسد بن عبد الله القسري والي خراسان في ذلك الحين، وظهر أولاد أسد كزعماء في عهد المأمون فولى أحمد بن أسد «فرغانة»، ونوح بن أسد «سمرقند»، ويحيى بن أسد «الشاش» و «أشروسنة»، والياس بن أسد «هراة» وذلك حوالي عام ٢٠٤،ولما آل حكم خراسان والمشرق إلى طاهر بن الحسين أقرّ أولاد أسد بن سامان على ما تحت أيديهم، ولما توفي أحمد بن أسد خلفه ابنه نصر فحكم فرغانة أو أقره الطاهريون عليها، وفي عام ٢٦١ ولاّه الخليفة المعتمد على الله بلاد ما وراء النهر كلها فجعل قاعدة ملكه مدينة «سمرقند»، وولّى أخاه إسماعيل مدينة بخارى، ولكن وقع الخلاف بينهما فسار نصر لحرب أخيه إسماعيل عام ٢٧٢ غير أنهما تصالحا، ثم عادت الحرب بينهما عام ٢٧٥، وانتصر إسماعيل على نصر الذي وقع في الأسر، وحُمل إلى أخيه إسماعيل فلما وصل إليه ترجّل إسماعيل وقبّل يديه، وأعاده إلى سمرقند وعدّه هو الوالي أما هو فعدّ نفسه نائباً لأخيه على بخارى، وبقي الأمر هكذا حتى مات نصر عام ٢٧٩ فآلت زعامة السامانيين إلى إسماعيل.

١١ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

أصاب أهل طبرستان حيف فحدثت فوضى فاستدعى أهلها الحسن بن زيد فجاءهم فبايعوه، واستطاع أن يُخرج منها واليها سليمان بن عبد الله بن طاهر، ثم وجه جيشاً إلى الريّ فدخلها وأخرج منها الطاهريين غير أن أهل الريّ كرهوا واليهم، فوجّه محمد بن طاهر جيشاً أخذ الري التي استمر الطرفان يتنازعانها، وفي العام التالي دخل سليمان بن عبد الله طبرستان، وفرّ منها الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم، وبعد مدةٍ عاد إليها، وفي عام ٢٥٥ دخل مفلح طبرستان والتجأ الحسن بن زيد إلى بلاد الديلم لكن رجع

إليها لأن مفلح تركها وسار نحو بغداد. وأراد الحسن بن زيد إن يتوسّع في بلاد خراسان فحاربه موسى بن بغا، وانتصر عليه، وبقي الحسن هذا شأنه حتى توفي عام ٢٧١ بعد أن حكم طبرستان تسعة عشر عاماً وستة أشهر، وخلفه فيها أخوه محمد بن زيد، وقد هُزم أمام جند الخليفة عام ٢٧٢ وخرج من الري.

* * *

- ١٦ -

المعتضد بالله
أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكّل
٢٧٩ - ٢٨٩

هو أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل، أبو العباس، ولد في ذي القعدة من عام اثنين وأربعين ومائتين، وأمه أم ولد تدعى «صواب»، بويع بالخلافة لعشر بقين من رجب من عام تسعة وسبعين ومائتين بعد عمه المعتمد على الله. كان ملكاً شجاعاً، مهيباً، ظاهر الجبروت، وافر العقل، شديد الوطأة، من أفراد خلفاء بني العباس، وكان يقدم على الأسد وحده لشجاعته، وكان قليل الرحمة إذا غضب على قائد أمر بأن يلقى في حفيرةٍ. ويطمّ عليه، وكان ذا سياسةٍ عظيمةٍ. قال: والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت. وقال لإسماعيل القاضي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط.

وكان المعتضد شهماً، جلداً، موصوفاً بالرجولة، وقد لقي الحروب، وعُرف فضله، فقام بالأمر أحسن قيام، وهابه الناس، ورهبوه أحسن رهبة، وسكنت الفتن في أيامه لفرط هيبته.

وكانت أيامه طيبةً، كثيرة الأمن والرخاء، وقد أسقط المكوس، ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرعية. وكان يُسمّى «السفاح الثاني»؛ لأنه جدّد ملك بني العباس، وكان قد خَلِقَ وضعف، وكاد يزول، وكان في اضطرابٍ من وقت قُتل المتوكل.

وفي أول سنة استخلف فيها منع الورّاقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها، ومنع القصّاص والمنجمين من القعود في الطريق[١]. وكان يمسك عن صرف الأموال في غير وجهها، فلهذا كان بعض الناس يبخلّه، ومن الناس من يعده من الخلفاء الراشدين المذكورين في الحديث، حديث جابر بن سمرة فالله أعلم[٢].

كان أسمر، نحيف الجسم، معتدل القامة، قد وخطه الشيب، في مقدم لحيته طول، وفي رأسه شامة بيضاء. وكان أمر الخلافة قد ضعُف في أيام عمه المعتمد، فلما ولي المعتضد أقام شعارها ورفع منارها، وكان شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأة وإقداماً وعزمة. وكذلك كان أبوه[٣].

وتوفي ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الثاني من سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي سنة ٢٨٢ أمر بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي هو نيروز العجم، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران، وسمّي ذلك النيروز المعتضدي، فأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد بها، وورد كتابه بذلك على يوسف بن يعقوب يعلمه أنه أراد بذلك الترفيه على الناس، والرفق بهم، وأمر أن يُقرأ كتابه على الناس، ففعل[٤].

وسار الخليفة المعتضد إلى هارون الشاري بناحية الموصل عام ٢٨٣، وأرسل إليه الحسين بن حمدان بن حمدون الذي اشترط شروطاً لحمله إليها منها: إطلاق سراح والده حمدان بن حمدون المسجون في سجن الخليفة،

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تاريخ الطبري.

وقد ظفر به، وحُققت شروطه. وسار عام ٢٨٥ إلى آمد فوصل إليها في العام التالي، وحاصر فيها محمد بن أحمد بن عيسى الذي تحصّن فيها، وجرت حروب بين الطرفين أجبر محمد بن أحمد بعدها أن يطلب الأمان، ونزل للخليفة من قلعته.

وفي أيام المعتضد بالله زاد الغزو في بلاد الروم سواء أكان عن طريق الثغور الشامية وخاصةً طرسوس التي غالباً ما كانت بأيدي الطولونيين أم عن طريق ثغور الجزيرة. وكذلك فقد كان غزو بلاد الترك التي بعد ما وراء بلاد النهر حيث كان يقوم السامانيون بالغزو، وقد سار إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني عام ٢٨٠ إلى بلاد الترك، وأسر ملكهم وزوجته «خاتون»، وجرى تبادل الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٣، وكان عدد الأسرى من المسلمين أربعةَ وخمسمائة وألفين.

القرامطة:

نشطت الحركات القرمطية، وتعددت جماعاتها، وإذا كانت قد نُسبت في أول أمرها إلى قرمط وهو حمدان بن الأشعث إلا أنه قد أصبحت كل جماعة تحمل فكرة قرمط تُنسب إليه، وهي تعتمد على إطلاق العنان للشهوات البهيمية لاستغلال الشباب، واستغلال المحرومين من الحياة الزوجية لبعدهم عن مواطنهم وعدم إمكاناتهم من الزواج، والحاقدين في الوقت نفسه على المتزوجين المنعمين، كما تعتمد على شيوعية الأموال واستغلال الفقراء والناقمين على الأثرياء، أو استغلال الأرقاء على ساداتهم، ثم الإفساد بالأرض بكل وجوهه وأساليبه.

ففي جنوبي العراق وجد زكرويه بن مهرويه شدةً عليه فمن ناحية ينقم عليه أتباع قرمط، وابن عمه عبدان، ومن ناحية ثانية فقد اشتد الخليفة المعتضد في ملاحقة أتباع هذه الأفكار الكافرة من جهةٍ والدنيئة من جهة أخرى، فأما الناحية الأولى فقد انتهى منها بالتخلّص من «عبدان» بقتله ويبدو أن يحيى بن زكرويه هو الذي تولّى عملية القتل، ثم تلاه التخلص

من حمدان، أما الناحية الثانية وهو ضغط الخليفة فلم يستطع التخلّص منه بل اشتدت وطأته عليه لذا فقد بقي في مخبئه وظنّ أنه يمكنه أن يضمّ إليه أتباع قرمط في المستقبل بزوال رئيسهم حمدان، ومفكرهم عبدان ما دامت الفكرة واحدةً، ورأى أن بلاد الشام تعمّها الفوضى والحكم الطولوني فيها قد أصبح ضعيفاً لذا يمكن أن تكون مجالاً لنشاطه فأرسل أولاده، بعث يحيى بعد أن بايعه أتباع أبيه زكرويه في سواد الكوفة عام ٢٨٩، ولقبوه بالشيخ، كما كان يعرف بأبي القاسم. ادعى يحيى نسباً إسماعيلياً فزعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وادّعى لجماعته أن ناقته مأمورة، فإن تبعوها ظفروا، وأظهر لهم عضداً ناقصةً وزعم أنها آية، وقد تسمّوا بالفاطميين، وأرسل لهم هارون بن خمارويه جيشاً بقيادة «طغج بن جف» فهزمته القرامطة، وسارت نحو دمشق بعد أن انتهبت، وانتهكت البلاد التي مرّت عليها كلها، وحاصرت دمشق عام ٢٩٠ ولكنها عجزت عن فتحها، وأرسل الطولونيون لها جيشاً بقيادة بدر الكبير غلام أحمد بن طولون، فانتصر على القرامطة، وقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه.

أرسل زكرويه بن مهرويه من مخبئه ابنه الثاني «الحسين» وادعى الآخر نسباً إسماعيلياً فزعم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ووضع شامة على وجهه لذا عرف باسم (صاحب الخال) أو (أبو شامة) وذكر لأصحابه أنها آية له، وسار في إثر أخيه قبل أن يقتل.

لما شعر يحيى بن زكرويه أنه عاجز عن فتح دمشق إذ جاءت لأهلها نجدات من بغداد، ومن مصر، وأحسّ أنه مقتول لا محالة ادّعى أنه سيطلع إلى السماء غداً، وأنه سيبقى فيها أربعين يوماً، ثم يعود، وأن أخاه «الحسين» سيأتي غداً في نجدة ـ وكان قد بلغه ذلك ـ فعليهم بيعته والقتال معه والسير وراءه، وفي اليوم الثاني جرت معركة قرب دمشق قتل فيها يحيى بن زكرويه وكان قد عرف يومذاك بصاحب الجمل حيث كان يمتطي جملاً خاصاً.

وكما اشتدت وطأة المعتضد على القرامطة في جنوبي العراق اشتدت في كل مكان، ففي السلمية في بلاد الشام زاد الطلب على أسرة ميمون القداح التي تزعم أنها تعمل لأبناء محمد بن إسماعيل، وتريد في الواقع أن تعمل لنفسها وتخفي في الباطن ما تدعو له، ولها هدف سياسي واضح من أصلها اليهودي، وبسبب هذا الطلب فقد فرّ عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح من السلمية وهو رأس هذه الأسرة، واتجه نحو الجنوب حيث اختفى بالرملة، وفي هذا الوقت كان الحسين بن زكرويه في طريقه من الكوفة إلى أخيه يحيى بدمشق، فعرّج الحسين إلى الرملة وعرف مكان عبيد الله، والتقى به، وحاول استرضاءه وإظهار الطاعة له عسى أن يستفيد منه، وأظهر عبيد الله رضاءه عنه وموافقته على عمله خوفاً من أن يقتله أو يرشد عليه عامل العباسيين، حيث كان آل زكرويه يريدون التفرد بالسلطة ويرجعون بأصولهم إلى المجوسية، وإن عبيد الله أقوى من يقف في وجههم، وما أن غادر الحسين بن زكرويه الرملة، حتى انصرف منها أيضاً عبيد الله متجهاً نحو مصر.

سار الحسين من الرملة إلى دمشق، فوجد أخاه يحيى قد قتل، فالتف القرامطة حوله، وحاصر بهم دمشق، لكنه عجز عن فتحها، فطلبه أهل حمص فسار إليهم، فأطاعوه، ثم انتقل إلى السلمية فامتنعت عنه، ثم فتحت أبوابها له بعد أن أعطى أهلها الأمان، وما أن دخلها حتى نكّل بقاطنيها، فأحرق دورها، وهدّم القلاع فيها، وقتل الهاشميين فيها دلالةً على الحقد الذي يغلي في صدور هذه الفئة على آل البيت رغم ادعاء زعمائها بالانتساب إلى آل البيت، ودلالةً أيضاً على كراهية الإسلام الذي قضى على المجوسية في فارس، ثم قتل من استطاع قتلهم من آل محمد بن إسماعيل الذين يدّعي العمل لهم، كما قتل آل عبيد الله بن الحسين القداحي حيث كل منهم يعمل لنفسه وكان عبيد الله قد رفض إعطاء آل زكرويه مراكز مهمةً في الدعوة التي يعمل لها. ثم سار الحسين بن زكرويه من السلمية على رأس قرامطته إلى حماه، والمعرة، وبعلبك وعمل القتل في أهل كل بلدٍ

وصل إليها، وأغارت جماعته على حلب، غير أن القرامطة قد هزموا في جهات حلب لذا عادوا فاتجهوا إلى جهات الكوفة وهناك قاتلهم الخليفة (المكتفي) فوقع الحسين بن زكرويه أسيراً فحمل إلى بغداد حيث قتل وصلب فيها عام ٢٩١. وعندما قُتل ولدا زكرويه يحيى والحسين خرج أبوهما من مخبئه الذي اختفى فيه مدةً تقرب من ثلاث سنوات، وعندما خرج سجد له أنصاره المقربون الذين يعرفون أهداف الحركة، وسار بأتباعه نحو بلاد الشام فأمعنوا في القتل، واعترضوا طريق القوافل والحجاج، وارتكبوا من الفواحش ما يصعب وصفه، واتجه نحو مدينة دمشق فحاصرها، ولكنه عجز عن فتحها، وأخيراً هزم وقتل عام ٣٠١ بعد أن عاث في الأرض الفساد، وتشتت أتباعه فمنهم من انتقل إلى البحرين، ومنهم من سار إلى بلاد الكلبية وبهراء في بلاد الشام فاختلط مع أهلها الذين يعيشون في قلاعهم ومعاقلهم في الجبال الشمالية الغربية من بلاد الشام والذين يلتقون معهم ببعض الأفكار، وإن كانوا أقرب إلى الأسرة القداحية حيث الأصل اليهودي، ومنهم من اختفى في البوادي ثم تحالف مع القبائل الضاربة فيها أو سار إلى أماكن نائية حيث ضاع فعله بين السكان الآخرين. وهكذا انتهى القرامطة من جنوبي العراق، واتجهوا إلى بلاد الشام فهزموا وذابوا.

أما عبيد الله بن الحسين القداحي فقد علم ما حلّ بأهله بالسلمية، وما نزل بآل محمد بن إسماعيل فيها أيضاً، فنسب نفسه إلى آل محمد بن إسماعيل، وعلم كذلك أن الدعوة الشيعية قد قويت في بلاد المغرب على يد أبي عبد الله الشيعي الذي سار من اليمن عن طريق رستم بن الحسين بن حوشب الذي يدعو إلى آل البيت عن طريق آل محمد بن إسماعيل فيمم عبيد الله القداحي وجهه نحو المغرب على أنه عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

أما في اليمن فقد كان نجاح رستم بن الحسين بن حوشب واضحاً إذ أسس دولته الإسماعيلية وبدأ يرسل الدعاة إلى عدة جهات ومنها المغرب،

وكان من أكبر أعوانه وقادته علي بن الفضل الذي اختلف معه، وافتتن بالتفاف الناس حوله، فسار شوطاً بعيداً في الفساد فحكم البلاد، ودخل زبيد، وصنعاء، وادعى النبوة، وأباح المحرمات، وكان المؤذن في مجلسه يؤذن «أشهد أن علي ابن الفضل رسول الله»[1]. وأنشد شاعره.

خذي الدفّ يا هذي والعبي	وغنّي هزاريك واطربي
تولّى نبيّ بني هاشم	وهذا نبي بني يعرُب
لكلّ نبيٍّ مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حطّ عنا فروض الصلاة	وحطّ الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلّوا فلا تنهضي	وإن صُوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب[2]

ثم امتد به عتوّه، فجعل يكتب إلى عمّاله: «من باسط الأرض وداحيها ومزلزل الجبال ومرسيها علي بن الفضل إلى عبده فلان». ثم مات مسموماً عام ٣٠٣[3]، ولم تلبث دولة القرامطة في اليمن أن دالت.

أما في البحرين فقد قدم إليها عام ٢٨١ رجل يقال له: يحيى بن المهدي نزل القطيف، ودعا أهلها إلى بيعة المهدي فاستجاب له رجل يقال له: علي بن العلاء بن حمدان الزيادي، وساعده في الدعوة إلى المهدي، وجمع الشيعة الذين كانوا بالقطيف فاستجابوا له، وكان من جملة من استجاب له أبو سعيد الجنابي، واسمه الحسن بن بهرام، ويعود في أصله إلى بلدة (جنّابا) قرب سيراف، وقد نزل إلى البحرين منفياً فعمل سمساراً في الطعام يبيعه، ويحسب للناس الأثمان، ثم بدأ يعمل بالفراء وينتقل بين البحرين وسواد الكوفة، وصحب عبدان أو حمدان وتأثر به، وعندما رجع إلى القطيف برز بين جماعته بدعوته، أما يحيى بن المهدي فقد ادعى

---

(١) الأعلام، الزركلي.
(٢) إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة.
(٣) الأعلام، الزركلي.

النبوة، وانفرد بمجموعةٍ، وتزعّم أبو سعيد الجنابي بقية المجموعة، وأجابه عدد من السوقة، ومن ساءت حالتهم المعاشية، وعدد من الشباب الذين أغراهم بالنساء التي جعلها مباحةً بينهم، كما منّاهم بالمال وامتلاك الأرض، وهيأ لهم طريق الشهرة بالقوة التي أظهرها إذ زاد عددهم، وبدا لهم أنهم أصبحوا جماعة يخشى جانبها فظهروا عام ٢٨٦ فعاثوا في الأرض الفساد إذ قتلوا وسبوا في بلاد هجر كثيراً، ثم ساروا إلى القطيف فقتلوا الكثير من أهلها، وأظهر أبو سعيد الجنابي أنه يريد البصرة فجهز له الخليفة جيشاً قوامه عشرة آلاف بإمرة العباس بن عمرو الغنوي، فانتصر القرامطة، وأسروا الجيش العباسي كله، وقتل أبو سعيد الجنّابي الأسرى جميعهم باستثناء أمير الجيش الغنوي الذي أطلق سراحه. واستمر نشاط القرامطة حتى عام ٣٠١ حيث قُتل الجنّابي على يد خادمه بالحمام، ثم قتل خمسة آخرين من كبارهم وحتى فطن الباقون إلى أمرهم فاجتمعوا على الخادم وقتلوه. ويبدو أن قرامطة البحرين كانوا من أنصار حمدان القرمطي وابن عمه عبدان، لذا لم يدعموا أبناء زكرويه عندما قاموا بحركاتهم، وإنما عملوا منفردين في منطقة البحرين.

* * *

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في عهد الخليفة المعتضد.

١ ـ الأمويون في الأندلس:

كان الأمير عبد الله بن محمد مكروهاً، فكثرت الفوضى في أيامه، وانفصلت مقاطعات عن الدولة، واشتدت وطأة النصارى في الشمال، ولعل أبرز ما في الأندلس حركة عمر بن حفصون الذي ارتد إلى النصرانية، وأثار سكان الجبال في مقاطعة غرناطة، وهزم جيوش الأمير عبد الله أكثر من مرة. وأضحت إشبيلية تنافس قرطبة.

٢ ـ دولة الأدارسة:

وكانت في فوضى واضطراب بسبب القتال بين أبناء إدريس والخوارج من الصفرية وبسبب هذه الحروب فقد ساءت الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

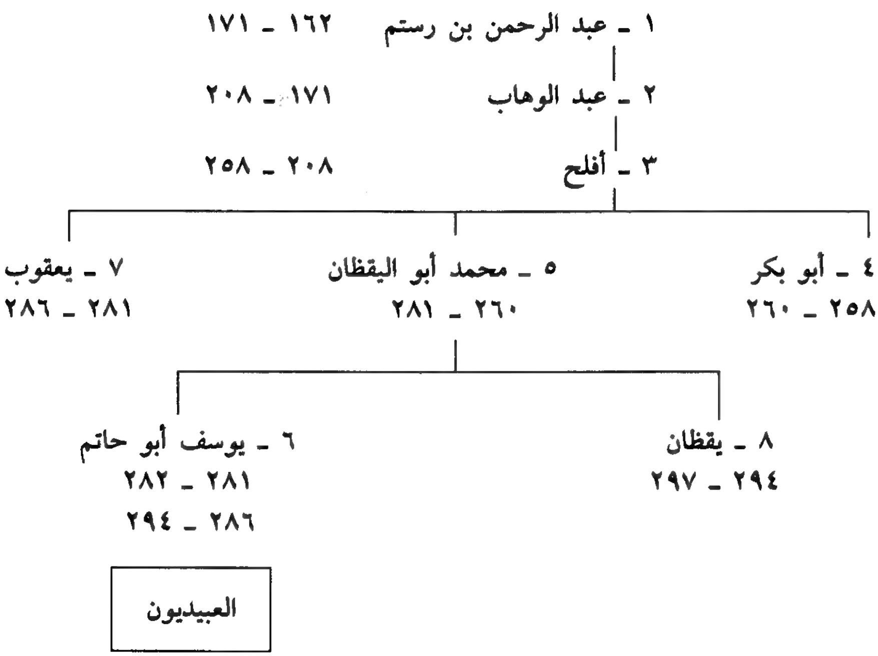
٣ ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

وكان أميرها المنتصر اليسع بن ميمون بن اليسع بن أبي القاسم وقد بدأ يقاتل الأدارسة لأن قبيلة «مطغرة» كانت تحت حكم الأدارسة، وعدد غير قليل من أبناء هذه القبيلة يحمل الفكر الخارجي، وبدأ الأدارسة يضطهدون الخوارج الصفرية فاستنجدوا بالمنتصر اليسع حيث يعد إمام الصفرية، فأخذ على عاتقه حرب الأدارسة.

٤ ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

كان أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان إمام الخوارج الأباضية وقد عمّ الخلاف، وكثرت الفوضى، وطُرد أبو حاتم من المدينة ومعه أسرته وأعوانه من قبيلة نفوسه غير أنه لجأ إلى قبائل صنهاجة ولواتة وجمع منها ومن أنصاره السابقين وهاجم مدينة تاهرت وحاصرها وكادت المدينة تستسلم لولا تعنت أبي حاتم وطلبه بتسليم زعماء المدينة، وعندها رفض أهل المدينة الاستسلام، واستدعوا عمه يعقوب بن أفلح من (زواغة) وبايعوه بالإمامة عام ٢٨٢. وعمل أبو حاتم على استمالة بعض زعماء المدينة عن طريق الأموال فانحازوا إلى جانبه، ولما شعر عمه يعقوب بن أفلح بذلك غادر المدينة بعد أن حكمها مدة أربع سنوات، ودخل أبو حاتم مكانه عام ٢٨٦، وأصدر عفواً عاماً عن الأهالي، وأصبح زعماء العامة يتدخلون في شؤون الدولة، وكذلك فإن يعقوب بن أفلح قد عمل في دعم الطيب بن خلف بن السمح في زواغة في منطقة طرابلس، وحدث احتكاك بين زواغة ونفوسة فهما متجاورتان وأصبحتا تؤيدان زعيمين متنافسين كل واحدةٍ منهما تدعم واحداً منهما. حتى قبض على الطيب وسجن بجبل نفوسة من قبل الياس بن منصور عامل أبي حاتم على الجبل. وأخيراً قُتل أبو حاتم عام ٢٩٤ على يد أبناء أخيه، وآلت الإمامة إلى يقظان بن أبي اليقظان، وعدّه الأباضية مغتصباً، واتسم عهده بالفتن والفوضى التي كانت تثيرها الفرق غير الأباضية أو أبناء أخيه أبي حاتم للأخذ بثأر أبيهم حتى إن دوسر بنت أبي حاتم وأخاها قد توجها إلى أبي عبد الله الشيعي ودعواه إلى تاهرت ودخولها انتقاماً من قتلة أبيهما، كما أن الشيعة، والصفرية تضايقوا من أمرهم ووجدوا في أبي عبد الله منقذاً لهم.

إمارة الخوارج الأباضية
الرستمية
١٦٢ ـ ٢٩٧



٥ ـ دولة الأغالبة:

كان إبراهيم الثاني أمير الأغالبة (٢٦١ ـ ٢٨٩)، وكان عادلاً، وعندما توفي خلفه ابنه عبد الله الثاني، ولم يدم حكمه أكثر من سنة.

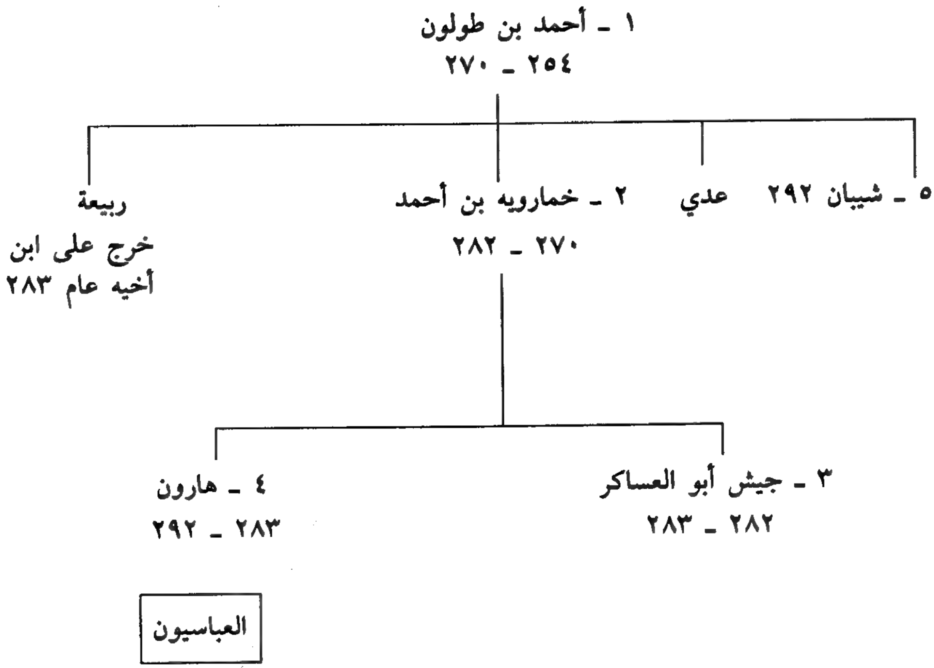
٦ ـ الدولة الطولونية:

حكم خمارويه بن أحمد بن طولون ٢٧٠ ـ ٢٨٢، وكان صلته بالمعتضد جيدةً، إذ تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه، وكانت الثغور الشامية تحت إشراف الطولونيين، ويقوم الغزو إلى بلاد الروم منها، وبإمرة أمراء من قبل الدولة الطولونية. وقُتل خمارويه عام ٢٨٢ بيد أحد خدّامه

وهو نائم، وكان يومذاك بدمشق، وسار ابنه جيش أبو العساكر بجنده إلى مصر، وتولّى الأمر إلا أن الناس قد أخذوا عليه أموراً أثارتهم عليه، كما تنكر له كبار الأمراء العسكريين وخلع طاعته (طغج بن جف)، ووثب عليه الجند وخلعوه، وسجنوه فمات بالسجن بعد أيام ٢٨٣، كما تبرأ العلماء من بيعته، وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه أبا موسى، وكان صغيراً لم تزل سنه دون الخامسة عشرة، غير أن بعض الجند استقدموا عمه ربيعة بن أحمد بن طولون من الإسكندرية، ووعدوه بالنصر فسار ربيعة بجيشٍ إلى الفسطاط فلما اقترب منها خرج إليه جند هارون بن خمارويه وغلبوه، وأسروه، وضربوه حتى مات تحت العذاب وذلك عام ٢٨٤.

الإمارة الطولونية

٢٥٤ ـ ٢٩٢



أرسل هارون جيشاً إلى الشام لقتال القرامطة لكن حلّت به الهزيمة وذلك عام ٢٩٠، وعندها فكرت الدولة العباسية بإنهاء الدولة الطولونية واستعادة السيطرة عليها وأرسلت جيشاً بإمرة محمد بن سليمان فوصل إلى فسلطين ودخلها واتجه نحو مصر، وفي الوقت نفسه سار أسطول عباسي، وخرج الأسطول المصري لملاقاة الأسطول العباسي والتقيا في تينس وهزم الجيش المصري والأسطول على يد محمد بن سليمان ومولاه أحمد بن فضلان بن العباس، وفرّ هارون بن خمارويه إلى العباسة وهو منشغل باللهو فقتله عمّاه شيبان وعدي ولدا أحمد بن طولون، ولم يناهز الثانية والعشرين من عمره. ورجع شيبان ليتولى أمر الفسطاط إلا أن العسكريين قد غضبوا عليه لما فعل وكتبوا إلى محمد بن سليمان يستقدمونه إلى الفسطاط، فسار إلى العباسة وهناك استقبله طغج بن جف بجموع القادة. وانتهت الدولة الطولونية.

٧ ـ دولة بني زياد في زبيد:

كان إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد أمير الدولة إلى نهاية أيام المعتضد بالله عام ٢٨٩ حيث مات، وخلفه ابنه إسحاق بن إبراهيم، وفي أيامه هاجم علي بن الفضل القرمطي مدينة زبيد وانتهبها.

٨ ـ دولة بني يعفر في صنعاء:

كان يعفر بن عبد الرحيم يحكم صنعاء ٢٦٠ ـ ٢٨٢، وخلفه أسعد بن أبي يعفر حيث دام أمره حتى عام ٣٣١، وقد هاجم صنعاء علي بن الفضل القرمطي، وأخرجه منها عدة مرات منها عام ٢٩٣، و ٢٩٨هـ. كما كان في حرب مع الهادي الزيدي الذي أنشأ له إمارة في صعدة عام ٢٨٤.

٩ ـ الدولة الزيدية في صعدة:

كان يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يقيم بالمدينة المنورة

فجاءه وفد من اليمن يدعوه إلى بلادهم ليقوم بأمرهم فسافر إليهم عام ٢٨٠ غير أنه لم يجد ما كان يتوقعه لذا رجع إلى المدينة المنورة، فجاءه ثانيةً وفد آخر ووعدوه بالنصر، واعتذروا إليه عما كان منهم من تقصير فوافق ورجع إلى اليمن عام ٢٨٤ فأقام في صعده والتف حوله أهلها، فأراد التوسع فاصطدم بمقاومة حكام اليمن وكان أشدهم عداءً له بنو يعفر في صنعاء التي أراد غزوها عام ٢٨٥، غير أنه عجز عن دخولها، ولكنه دخلها عام ٢٨٨ بمساعدة أبي العتاهية الطريفي[1] الذي قتل في معركة حدّين قرب صنعاء وهو يقاتل مع الزيود عام ٢٨٨.

١٠ ـ الدولة الصفارية:

عندما تولّى المعتضد بالله أمر الخلافة العباسية عزل رافع بن هرثمة عن خراسان وكان محمد بن طاهر قد أنابه عليها، وأعادها إلى عمرو بن الليث، غير أن رافعاً قد رفض ذلك وشق عصا الطاعة وحارب عمرو بن الليث إلا أنه هُزم، ودخل عمرو بن الليث نيسابور عام ٢٨٠، وخرج عمرو منها فرجع إليها رافع، وخطب لمحمد بن زيد الطالبي فرجع عمرو إلى المدينة وحاصرها وأخيراً قتل رافعاً عام ٢٨٣.

وطلب عمرو بن الليث ولاية ما وراء النهر وكانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني، ولم يجد الخليفة بُدّاً من موافقته غير أن إسماعيل بن أحمد الساماني حاول صدّه عن هذا الطلب، وأن يقنع بما تحت يده فلما لم يقبل جرت الحرب بين الطرفين ووقع عمرو بن الليث أسيراً بيد إسماعيل بن أحمد الساماني الذي سيّره إلى الخليفة، ولم يلبث أن مات، فآل حكم الدولة الصفارية إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث عام ٢٨٨، وكان صغيراً فاستبد بالسلطة (سبك السبكري) غلام عمرو بن الليث ودخلت

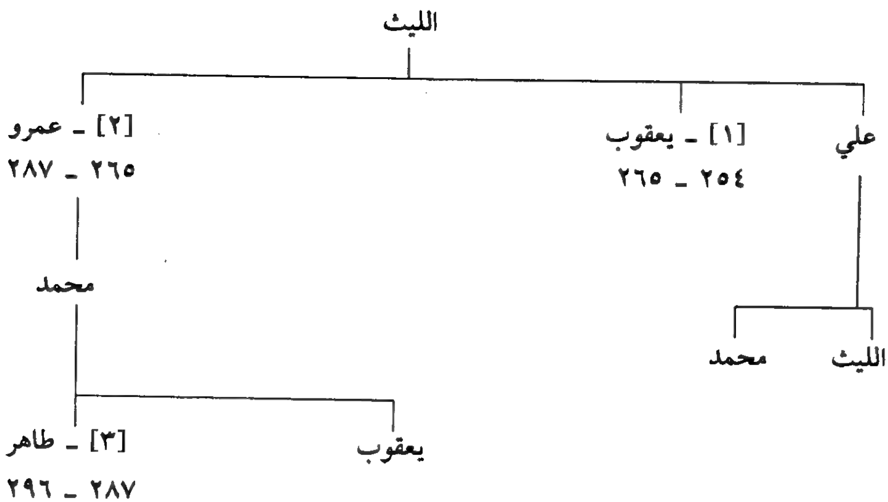
---

(١) أبو العتاهية الطريفي: من آل طريف الذين ثاروا على بني يعفر ودخلوا صنعاء بإمرة أبي العتاهية عام ٢٦٥، غير أن أبا العتاهية هذا قد دخل في طاعة الإمام الزيدي، وقاتل آل يعفر، وآل الضحاك، وقومه آل طريف الذين قاوموا الزيود.

جنوده فارس. ثم إن السبكري قد قبض على طاهر وأخيه يعقوب، وبعث بهما إلى بغداد عام ٢٩٦. ولكن الليث بن علي بن الليث الصفّاري قد طرد السبكري من فارس عام ٢٩٧، فاستنجد السبكري بالخليفة فأمده بجيش فحلت الهزيمة بالليث. واستبد السبكري بما تحت يده، واستعصى على الدولة فأرسلت له الجيش إثر الجيش حتى استطاع أحمد بن إسماعيل الساماني من القبض على السبكري ومحمد بن علي بن الليث الصفاري وإرسالهما إلى بغداد عام ٢٩٨ ودالت الإمارة الصفّارية.

الإمارة الصفّارية

٢٥٤ ـ ٢٩٨



الدولة السامانية

١١ ـ الدولة السامانية:

أصبح إسماعيل بن أحمد الساماني سيد السامانيين بعد وفاة أخيه نصر عام ٢٧٩، وكان خيراً يحب أهل العلم ويكرمهم، كما كان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً. وطمع محمد بن زيد الطالبي صاحب طبرستان بخراسان وسار إليها فأرسل إليه إسماعيل جيشاً بإمرة محمد بن هارون وفي المعارك بين الطرفين أصيب محمد بن زيد، وأسر ابنه زيد، ودخل محمد بن هارون طبرستان وذلك عام ٢٨٧، غير أن محمد بن هارون لم يلبث أن خالف إسماعيل واستبد بما سيطر عليه فسار إليه إسماعيل وجرت معركة بالريّ هرب إثرها محمد بن هارون والتجأ إلى بلاد الديلم ودخل إسماعيل الري، وتوفي إسماعيل عام ٢٩٥.

١٢ ـ الدولة الطالبية في طبرستان:

كان محمد بن زيد الطالبي أمير هذه الدولة في هذه المرحلة وقد هُزم أمام محمد بن هارون قائد إسماعيل بن أحمد الساماني فخرج من طبرستان عام ٢٨٧ ثم عاد إليها بعد مدة خليفته إذ توفي هو بعد إصابته بقتاله مع محمد بن هارون.

ـ١٧ـ
المكتفي بالله
علي بن أحمد المعتضد
٢٨٩ ـ ٢٩٥

هو علي بن أحمد المعتضد، ولد في غرة ربيع الثاني من عام ٢٦٤، وأمه أم ولد تركية اسمها (جيجك) ويضرب بحسنها المثل. كان ربعة جميلًا، رقيق اللون، حسن الشعر، وافر اللحية، يُكنّى أبا محمد.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه المعتضد لثمان بقين من ربيع الثاني من عام ٢٨٩، وكان يومها بالرقة، فأخذت البيعة له، فجاء إلى بغداد فدخلها في السابع من جمادى الأولى، وسار بالرعية سيرةً حسنةً فأحبه الناس ودعوا له. وتوفي في الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام ٢٩٥، فكان عمره اثنتين وثلاثين سنةً.

وفي عهده فتحت إنطاليا عنوةً من بلاد الروم وذلك عام ٢٩١.

وقد انتشرت القرامطة في أيامه كثيراً، وانصرف لقتالهم، وتمكن من أولاد زكرويه، ومن زكرويه نفسه ـ كما مرّ معنا ـ، وكذلك فقد تخلّص من الطولونيين بعد أن ضعف أمرهم، أما الدعوة الشيعية ثم العبيدية في بلاد المغرب فقد انتشرت على نطاقٍ واسعٍ.

ذكرنا أن رستم بن الحسين بن حوشب النجار قد أرسل من اليمن إلى المغرب داعيتين هما: «الحلواني»، و «أبو سفيان» وقد نشطا بالدعوة هناك، وبذرا بذرة التشيّع. ولم يلبثا أن ماتا، فلما أتى خبر وفاتهما إلى ابن

حوشب قال لأحد أصدقائه وهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا من أهل صنعاء، وقد صحبه بعدن، وكان من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك[1].

خرج أبو عبد الله إلى مكة واجتمع إلى حجاج كتامة بعد أن سأل عنهم، ثم صحبهم فوصلوا إلى أرض كتامة في منتصف شهر ربيع الأول من عام ٢٨٠ فاجتمع عليه البربر حتى عظم أمره، وبلغ خبره إلى إبراهيم الثاني بن أحمد بن الأغلب فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمره فصغّره له، فسكت عنه، وتفرّقت كلمة البربر بسببه، ووقعت بينهم حروب ثم اصطلحوا، واشتد خطره فأرسل إليه إبراهيم الثاني الأغلبي ابنه الأحول في اثني عشر ألفاً فهزم أبا عبد الله، فركن أبو عبد الله إلى الهدوء وبنى لنفسه داراً للهجرة وأتاه البربر، ثم توفي إبراهيم الثاني أمير بني الأغلب عام ٢٨٩ ثم ولده عبد الله عام ٢٩٠، وتولّى أمر الأغالبة زيادة الله الثالث وكان منصرفاً إلى اللهو، وهذا ما دعا إلى زيادة قوة أبي عبد الله، وكان قد قاتل الأحول أيام أخيه عبد الله، وانتصر عليه إلا أن الأحول قد بقي قريباً منه ينازله، فلما تولّى أبو مضر زيادة الله استدعى الأحول وقتله، فدعا عندئذٍ أبو عبد الله للمهدي، وانتشرت فكرة المهدي حتى غدا عدد من وزراء الأغالبة من الشيعة، ويرغبون في نجاح أبي عبد الله.

وأمّا المهديّ، فإنّه لما تُوفّي عبد الله بن ميمون القداح ادّعى ولده أنّهم من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون ويُسرّون أمرهم، ويُخفون أشخاصهم، وكان ولده أحمد هو المشار إليه منهم قد توفي، وخلفه ولده محمد، وكان هو الذي يكاتبه الدعاة في البلاد، وتوفي محمد، وخلفه الحسين، فسار الحسين إلى سلمية من أرض حمص وله بها ودائع

---

(١) الكامل في التاريخ.

وأموال من ودائع جدّه عبد الله القداح ووكلاء وغلمان، وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ، وكان الحسين يدّعي أنّه الوصيّ وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجلٍ يهوديٍ حدادٍ مات عنها زوجها ـ وهي في غاية الحسن ـ فتزوّجها، ولها ولد من الحداد يُماثلها في الجمال فأحبّها، وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها وأدّبه وعلّمه فتعلّم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية ـ وهو الحسين ـ مات ولم يكن ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد ـ وهو عبيد الله ـ وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ وأين الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته وأنه الإمام الوصي، وزوّجه ابنة عمه أبي الشلغلغ وهذا قول أبي القاسم الأبيض العلوي وغيره، وجعل لنفسه نسباً وهو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبعض الناس يقولون ـ وهم قليل ـ إن عبيد الله هذا من ولد القداح، وهذه الأقوال فيها ما فيها، فيا ليت شعر ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة حتى يُخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويُسلموه إلى ولدِ يهودي؟ وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يثاب عليه؟[1].

ولما انتشرت دعوة أبي عبد الله الشيعي في المغرب أرسل رجالاً من كتامة إلى الشام ليخبروا المهدي بما فتح الله عليه، إلا أن سلمية كانت مهددة من قبل القرامطة، وكان عبيد الله في الرملة قد فرّ من وجه الخليفة واستطاع أن يلتقي برجال كتامة وأن يوهمهم أنه الإمام فأسرّوا له بما عندهم، فشدّ العزم واتجه نحو مصر ومعه ابنه نزار أبو القاسم، واتخذ عبيد الله صفة التاجر، وشاع الخبر أيام المكتفي فأرسل إلى عامله بمصر

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، الجزء السادس ص١٢٨.

يأمره بطلب عبيد الله، وقد قبض عليه ولكن أوهمه أنه غير ما يطلب وأظهر التدين أمامه فَرَقَّ له وأطلقه، فسار إلى طرابلس، وأرسل بعض من معه إلى القيروان، فوجدوا الخبر قد سبقهم، وقُبض عليهم فأنكروا. وسار عبيد الله إلى قسطيلة ومنها إلى سجلماسة، وكان ما يسير من مكانٍ إلا ويطلبه العامل بعد أن يكون قد خرج. وأهدى عبيد الله إلى صاحب سجلماسة وهو المنتصر اليسع بن ميمون بن مدرار، فقربه المنتصر وأحبه حتى أتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يعرفه أن ضيفه إنما هو الذي يدعو له أبو عبد الله الشيعي عندئذ قبض عليه وحبسه، وبقي في سجنه حتى أخرجه أبو عبد الله.

واشتد ساعد أبي عبد الله، فأرسل له زيادة الله الجيش إثر الجيش فكانت تهزم أمامه فدخل قسنطينة، وتبسة، والقصر، وسار نحو رقادة فهرب منها زيادة الله إلى مصر، وهرب منها أهلها هائمين على وجوههم إلى القصر القديم، وإلى القيروان، وإلى سوسة، ودخل أهل القيروان مدينة رقادة ونهبوا ما فيها، ونُهبت قصور بني الأغلب، وجاء إبراهيم بن أبي الأغلب ابن عم زيادة الله وقائد جيشه فدخل القيروان، وتكلم عن زيادة الله وإفساده ووعدهم بالدفاع عنهم، وطلب منهم الطاعة والمساعدة فرفضوا، فخرج عنهم. وجاء أبو عبد الله ودخل رقادة، ووجد الناس ينهبون فلم يتعرض لهم، ونُقل الخبر إلى القيروان ففرح أهلها وخرج وجهاؤها إلى لقاء أبي عبد الله وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح، وتكلموا عن زيادة الله، فأعطاهم أبو عبد الله الأمان وذلك في مطلع رجب من عام ٢٩٦، ثم ولّى على إفريقية أخاه أبا العباس محمداً، وسار هو نحو سجلماسة بجيشٍ كبير.

* * *

إمارة الأغالبة

١٩٦ ـ ٢٩٦هـ

الأغلب بن سالم

١ ـ إبراهيم ١٨٤ ـ ١٩٦

٢ ـ عبد الله الأول
١٩٦ ـ ٢٠١

٣ ـ زيادة الله الأول
٢٠١ ـ ٢٢٣

٤ ـ الأغلب أبو عفان
٢٢٣ ـ ٢٢٦

٥ ـ محمد الأول أبو العباس
٢٢٦ ـ ٢٤٢

٦ ـ أحمد
٢٤٢ ـ ٢٤٩

٧ ـ زيادة الله الثاني
٢٤٩ ـ ٢٥٠

٨ ـ محمد الثاني
٢٥٠ ـ ٢٦١

٩ ـ إبراهيم الثاني ٢٦١ ـ ٢٨٩

١٠ ـ عبد الله الثاني ٢٨٩ ـ ٢٩٠

١١ ـ زيادة الله الثالث ٢٩٠ ـ ٢٩٦

العبيديون

-١٨-
المقتدر بالله
جعفر بن أحمد المعتضد
٢٩٥ ـ ٣٢٠

هو جعفر بن أحمد المعتضد، ولد في ليلة الجمعة لثمان بقين من رمضان من عام اثنين وثمانين ومائتين، وأمّه أم ولد، اسمها «غريب». ولما مرض أخوه المكتفي سأل عنه وعلم أنه بلغ الحلم فعهد إليه، ولا يزيد عمره على الثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه وبويع يوم الأحد لأربع عشرة مضت من ذي القعدة من عام خمسة وتسعين ومائتين. وقد استصغره الوزير العباس بن الحسن وجماعة من الأعيان فعملوا على خلعه، وتولية عبد الله بن المعتز، فقد وافق ابن المعتز بشرط ألا يراق دم، وبلغ المقتدر ذلك فأرضى الوزير العباس بن الحسن بالمال فرجع عما عزم عليه، وأما الآخرون فقد ركبوا عليه في العشرين من ربيع الأول، وكان جعفر بن أحمد صغيراً يلعب لما جاءوا إليه، فهرب ودخل، وأغلقت الأبواب، وقُتل دونه الوزير وجماعة معه، وأُرسل إلى ابن المعتز فجاء وبايعوه بالخلافة، ولقّبوه «الغالب بالله»، ونفذت الكتب بخلافة ابن المعتز.

أرسل ابن المعتز إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار محمد بن طاهر كي يسير ابن المعتز إلى دار الخلافة فوافق المقتدر، فهو صغير ولم يكن لديه قوة، إذ لم يبق عنده سوى مجموعةٍ صغيرةٍ فشجّعوا أنفسهم وهجموا على جماعة ابن المعتز فخافوا، وفرّوا من أمامهم فلحقوا بهم، وساروا إلى

مكان ابن المعتز فهرب ومعه وزيره وقاضيه، وحدثت فوضى في بغداد، وقبض جماعة المقتدر على الذين بايعوا ابن المعتز وقتلوا أكثرهم، وسُجن ابن المعتز، وأُخرج بعد مدةٍ ميتاً، واستقام الأمر للمقتدر؛ فاستوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات، فسار أحسن سير، وكشف المظالم، وحضّ المقتدر على العدل.

أمر المقتدر ألا يُستخدم اليهود، ولا النصارى. ثم ولي الوزارة عام ٣٠١ علي بن عيسى فسار بعفةٍ وعدلٍ وتقوى، وأبطل الخمور، وأبطل من المكوس ما ارتفاعه في العام خمسمائة ألف دينار.

وخرج مؤنس الخادم الملقّب بالمظفّر على المقتدر لأنه بلغه أنه يريد أن يولّي إمرة الأمراء هارون بن غريب مكانه، وأُخرج المقتدر من دار الخلافة، وحُبس في دار مؤنس، وأُحضر أخوه محمد بن المعتضد وبايعوه ولقّبوه القاهر بالله، ولكن لم يبق سوى يومين إذ طالبه العسكر بالأرزاق فلم يدفع لهم، فهاجوا وتصايحوا وذهبوا إلى دار مؤنس وأخرجوا المقتدر وأعادوه إلى الخلافة، أما القاهر بالله فقد بدأ يبكي فأقبل إليه المقتدر وقبّله وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك.

وفي عام ٣٢٠ ركب مؤنس الخادم على المقتدر وجرت بينهما معركة قتل فيها المقتدر وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

كان المقتدر ربعة من الرجال حسن الوجه والعينين، بعيد ما بين المنكبين، حسن الشعر، مدور الوجه، مشرباً بحمرة، حسن الخلق، قد شاب رأسه وعارضاه، وقد كان معطاءً جواداً، وله عقل جيد، وفهم وافر، وذهن صحيح، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحرمين وأرباب الوظائف، وكان كثير التنفّل بالصلاة والصوم والعبادة، ولكنه كان مؤثراً لشهواته ومبذّراً، كثير العزل والولاية والتلوّن، وقد غلب النساء عليه، وكانت مدة خلافته خمس وعشرين سنة إلا قليلاً، وقد عاش ثمان وثلاثين سنة.

الروم:

تمت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٩٥، وكان عدد أسرى المسلمين ثلاثة آلاف أسير. وعاد الغزو فقاد الصائفة عام ٢٩٧ القاسم بن سيما، وبعدها فادى مؤنس الخادم الأسارى الذين وقعوا بأيدي الروم. ثم غزا حسين بن حمدان الصائفة عام ٣٠١، وأسر مؤنس الخادم مائة وخمسين بطريقاً مع أعداد كبيرة من الروم، وطلبت الروم عقد هدنة بين الطرفين وأرسلت الهدايا، وتمت المفاداة وذلك عام ٣٠٥.

ودخل الدمستق ملك الروم ملاطية وعاث فساداً في سواحل بلاد المسلمين عام ٣١٤، وفي العام التالي دخل الروم سميساط على الفرات كما هاجموا ثغر دمياط في بلاد مصر ودخلوه فوثب المسلمون على الروم فأجلوهم عن المناطق التي دخلوها، كما انتصر المسلمون على الروم عام ٣١٩ في جهات طرسوس، وأسروا ثلاثة آلاف رومي، وفي الوقت نفسه تقدّم الروم نحو سميساط فوقع الذعر بين أهلها واستنجدوا بأمير الموصل سعيد بن حمدان فأنجدهم ففرّ الروم، ومرّوا على ملاطية فنهبوها فلاحقهم سعيد بن حمدان، ودخل بلادهم، وقتل كثيراً منهم.

وفتحت فرغانة عام ٣١٢ علي يد والي خراسان.

القرامطة:

انتهى قرامطة الشام بعد مقتل يحيى بن زكرويه عام ٢٩٠ ثم مقتل أخيه الحسين عام ٢٩١، وتشتّتوا في البلاد وتفرّقوا، كما قُضي على قرامطة العراق بعد خروج زكرويه بن مهرويه ومقتله عام ٣٠١، وكذلك فقد دالت دولة قرامطة اليمن بعد موت علي بن الفضل مسموماً عام ٣٠٣. ولكن زادت شوكة قرامطة البحرين في هذه الآونة وهم أخبث القرامطة وأكثرهم فساداً، فبعد أن قتل أبو سعيد الجنابي عام ٣٠١ على يد خادمه في الحمام قام مقامه ابنه سعيد إلا أن أخاه سليمان أبو طاهر قد تغلب عليه وقاد القرامطة، وقد عاث في المنطقة فساداً وأرهب الناس، وارتكب المنكرات،

وهتك المحارم، وما ترك رذيلةً إلا وفعلها، واستطاع أن يدخل البصرة عام ٣١١، والكوفة عام ٣١٣ وفعل بالأهالي الأفاعيل، وسار في وادي الفرات حتى شمال دير الزور حالياً، كما اتجه إلى الشمال الشرقي فاقترب من الموصل، وفي كل أرض كانت تطأها أقدام قرامطته ينتشر الرعب ويعم الفساد، وتُنتهك الأعراض بأبشع العادات، ومن منطقة الموصل انتقل نحو مكة فضجت الأعراب والبوادي من أفعاله حتى انقطع الحج، وقد انتصر على جيش المقتدر وذلك كله عام ٣١٦، وفي العام التالي دخل مكة المكرمة في أثناء الموسم وقتل الحجاج ورمى جثثهم ببئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر حيث بقي حتى عام ٣٣٩. ثم صار إلى الكوفة فانقطعت قلوب أهل بغداد عام ٣١٩ هلعاً إذ أشيع أنه سائر إليهم.

* * *

الإمارات

حدث في هذه الآونة تغيير كبير في الإمارات فقد زال بعضها كدولة الأغالبة، ودولتي الخوارج، ودولة الأدارسة، ووجدت دول جديدة كدولة العبيديين (الفاطميون)، والدولة الحمدانية، وأعلنت الدولة الأموية الخلافة، وكذا أعلن العبيديون ذلك فأصبح ثلاثة خلفاء في ديار الإسلام.

١ - دولة الأمويين في الأندلس:

توفي عبد الله بن محمد الأول عام ٣٠٠ وخلفه حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، وتمكّن عبد الرحمن أن يقضي على عمر بن حفصون المرتد، وأن يخضع الأندلس كلها لحكمه بعد مضي عشرين سنةً من حكمه، وفي هذا الوقت بلغه مقتل الخليفة العباسي المقتدر على يد مؤنس الخادم، واستبداد القادة العسكريين الترك بالخلفاء فأعلن نفسه خليفةً عند ذلك. وقد قاتل عبد الرحمن الذي حمل لقب الناصر الإمارات النصرانية في الشمال، وانتصر عليها في كثيرٍ من المعارك، كما تعرض للخطر العبيدي من الجنوب من بلاد المغرب، وقد ازدهرت الخلافة الأموية في الأندلس في عهده ازدهاراً كبيراً، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٣٥٠ أي أن حكمه قد دام خمسين سنةً.

٢ - الأدارسة:

بعد أن اغتيل يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس عام ٢٩٢ تولّى أمر الأدارسة يحيى الرابع بن إدريس بن عمر بن إدريس وبايعه أهل فاس، وامتد سلطانه على بلاد المغرب الأقصى كلها، وكان عظيم القدر، عادلاً

في رعيته، كثير الفضل، بطلاً شجاعاً، ذا بيانٍ وفصاحةٍ، حافظاً للحديث، فقيهاً، صاحب دينٍ وورع.

غزا دولة الأدارسة عام ٣٠٠ قائد العبيدين مصالة بن حبوس، والتقى به الأمير يحيى قرب مكناس فهُزم الأدارسة، وحاصر العبيديون فاس، واضطر يحيى إلى الصلح على أن يدفع مبلغاً من المال، وأن يبايع لعبيد الله المهدي فتم ذلك عام ٣٠٣، وأصبح مصالة بن حبوس أمير فاس، وابن عمه موسى بن أبي العافية أمير بلاد المغرب الأقصى، ولما عاد مصالة بن حبوس عام ٣٠٩ إلى فاس أوغر موسى بن أبي العافية صدره على يحيى بن إدريس فقبض عليه، ونفاه إلى بلاد الريف، ثم سجنه موسى بن أبي العافية، ثم أطلق سراحه بعد عشرين سنة فقصد بلدة المهدية عاصمة العبيدين فمات بها عام ٣٣٢.

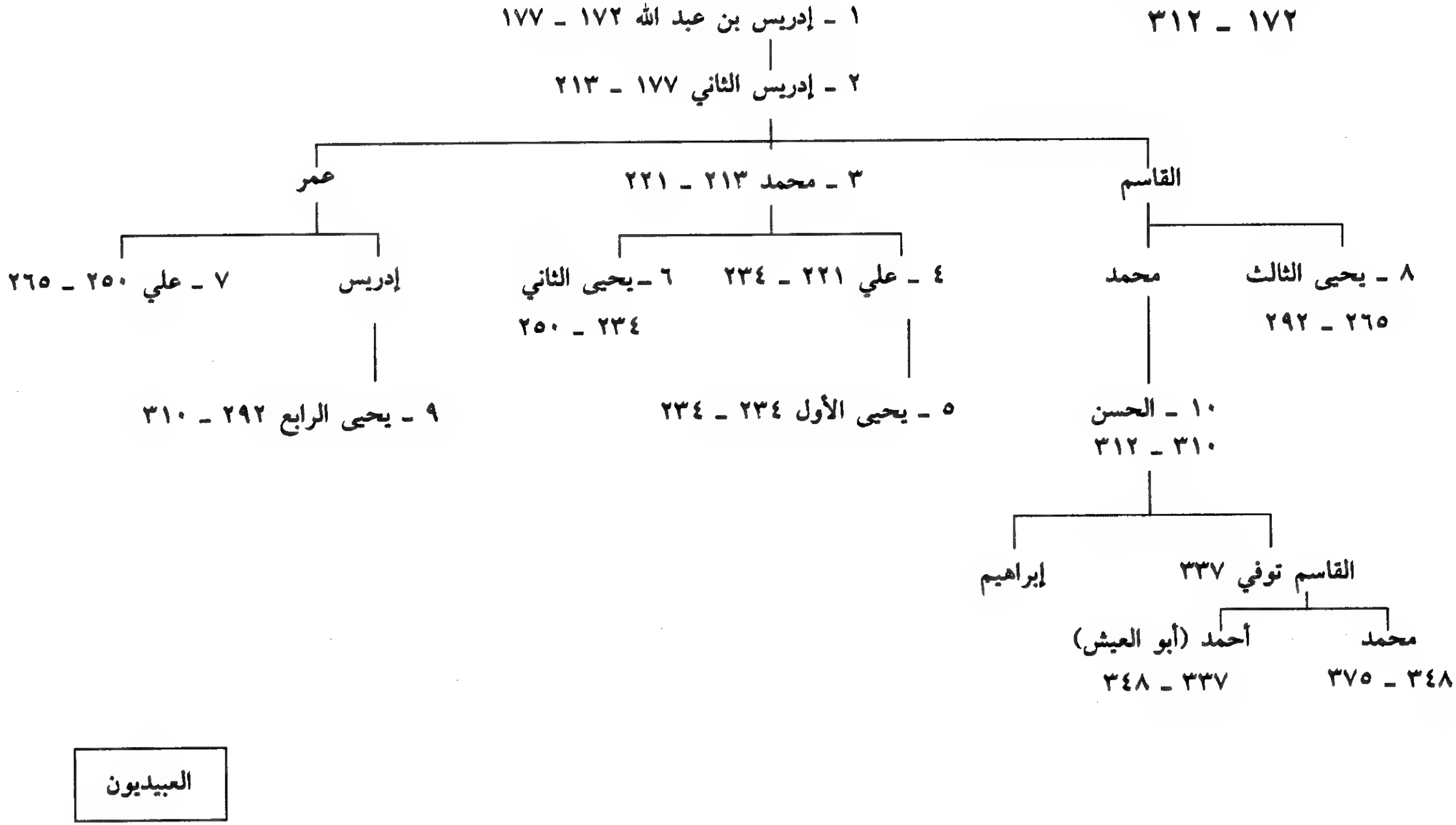
وعندما اعتقل يحيى بن إدريس ولّى مصالة بن حبوس على فاس ريحان الكتامي ولكن لم يلبث أن ثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم عام ٣١٠ واستولى على فاس، وقتل ريحان، وأخذ البيعة من الناس، وبدأ في قتال موسى بن أبي العافية غير أن الحسن قد مات عام ٣١٢،واستولى موسى على دولة الأدارسة الذين لجأ أكثرهم إلى بلاد الريف، وكانوا زعماء فيها، وتعد هذه الدولة قد انتهت.

خلع موسى بن أبي العافية الفاطميين، ودعا للأمويين في الأندلس. فأرسل عبيد الله المهدي جيشاً إليه ففر موسى من وجهه وترك مدينة فاس، إلا أن أمير الفاطميين على فاس قد قُتل، وعاد موسى بن أبي العافية إلى نفوذه ويدعو إلى أمويي الأندلس وذلك بعد وفاة عبيد الله المهدي عام ٣٢٢.

رغم القضاء على دولة الأدارسة فقد قام القاسم بن الحسن المتوفى ٣٣٧ يدعو إلى العبيديين، وبرز، وخلفه ابنه أحمد الملقب بأبي العيش

إمارة الأدارسة في المغرب

١٧٢ ـ ٣١٢



يعمل للعبيديين، ثم لم يلبث إلى أن انتقل إلى الأمويين في الأندلس يدعو لهم، وسيطر على المغرب الأقصى، وتوفي عام ٣٤٨، ثم قام أخوه محمد أبو القاسم وسيطر على بلاده العبيديون في النهاية عام ٣٧٥.

٣ ـ دولة الخوارج الأباضية في تاهرت:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي رقادة قاعدة الأغالبة اتجه إلى سجلماسة قاعدة الخوارج الصفرية، غير أنه في طريقه قد عرج على تاهرت، وكانت الدولة الأباضية قد وصلت إلى مرحلة في منتهى الضعف. والتنازع على السلطة، وقد جاءه بعضهم وهوّنوا عليه دخول تاهرت فبعث إلى يقظان ابن أبي اليقظان وبنيه فجاءوه فقتلهم، وسار إلى عاصمتهم فدخلها، وقتل كل من فيها من الأسرة الرستمية، ولم ينج منهم إلا من فرّ ثم استباح المدينة وأحرقها، وإذا كان أبو عبد الله الشيعي قد نجح في القضاء على الأسرة الرستمية إلا أنه لم يقض على المذهب الأباضي إذ تحصّن بعض الأباضية في (ورغلة) بصفتها واحة في الصحراء، وفي جبل نفوسة، ولم يستطع العبيديون دخول هاتين المنطقتين رغم المحاولات.

٤ ـ دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة:

بعد أن دخل أبو عبد الله الشيعي تاهرت سار إلى سجلماسة، وكان فيها عبيد الله المهدي وابنه نزار أبو القاسم مسجونين فيها، وأرسل أبو عبد الله الرسل إلى اليسع بن مدرار يلاطفه، ويبعد فكرة القتال خوفاً على عبيد الله إلا أن اليسع قد قتل رسل أبي عبد الله، فأعاد الملاطفة وإرسال الرسل فأعاد اليسع قتل الرسل فما كان من أبي عبد الله إلا أن جدّ السير لحصار سجلماسة فخرج إليه اليسع وجرى قتال ضارٍ بين الطرفين لم يفرّق بينهما سوى هجوم الظلام، فلما جنّ الليل فرّ اليسع وصحبه وأبناء أسرته، وعندما كان الصباح خرج أهل المدينة لاستقبال أبي عبد الله، وأعلموه أن

إمارة الخوارج الصفرية

بنو مدرار

١٤٠ ـ ٢٩٧

١ ـ عيسى بن يزيد الأسود ١٤٠ ـ ١٥٥

٢ ـ أبو القاسم سمكو ١٥٥ ـ ١٦٨

٣ ـ الياس ١٦٨ ـ ١٧٤
أبو الوزير

٤ ـ اليسع ١٧٤ ـ ٢٠٨
أبو المنصور

٥ ـ مدرار ٢٠٨ ـ ٢٢٤
المنتصر

٦ ـ ميمون بن بقية ٢٢٤ ـ ٢٦٣

ميمون بن الرستمية

٨ ـ اليسع
٢٧٠ ـ ٢٩٧

٧ ـ محمد
٢٦٣ ـ ٢٧٠

ساور

محمد

المعتز
والياً على
سجلماسة للعبيديين
٣١٠ ـ ٣٢١

محمد (أبو المنتصر)
٣٢١ ـ ٣٣١

سمكو (المنتصر) ٣٣١

الفتح (واسول)
٢٩٧ ـ ٣٠٠
ثار على العبيدين

الفتح

محمد

أحمد
٣٠٠ ـ ٣٠٩
ثار على العبيديين

العبيديون

اليسع قد فرّ بجماعته، فدخل المدينة، وأخرج عبيد الله وابنه، وأرسل في طلب اليسع فقبض عليه فسجن ثم قتل، وهكذا دالت دولة بني مدرار الخارجية من الصفرية.

ترك عبيد الله سجلماسة وسار إلى رقادة في ربيع الآخر عام ٢٩٧ بعد أن بويع بالخلافة، وهكذا أصبح بعد عام ٣١٦ ثلاثة خلفاء في العالم الإسلامي، الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الأموي في قرطبة، والخليفة العبيدي في رقادة.

وهنا نقطة لا بدّ من أن أتعرض لها باختصار وهي أن أبا عبد الله الشيعي عندما دخل سجلماسة والتقى لأول مرةٍ بعبيد الله على أنه الإمام لم ير الرجل الذي سبق له أن التقى به بسلمية في بلاد الشام وإنما رجل آخر فمنهم من يرى أنه التقى بسلمية بأحد أبناء البيت الإسماعيلي الذين يعمل لهم، وهذا أحد أبناء البيت القداحي أو ربيب البيت القداحي، وهو ابن الحداد اليهودي. ومنهم من يقول: إن اليسع بن مدرار قد قتل عبيد الله قبل أن يفرّ وكان في سجنه فعندما دخل أبو عبد الله الشيعي سجلماسة وجد رجلاً يهودياً مكان عبيد الله فاضطر أن يدّعي أنه هو المهدي ريثما تستقر الأوضاع وقد خاف من قبيلة كتامة التي حملها على الدعوة والقتال من أجل المهدي ثم تكون الدعوة والقتال على الهواء. وعلى كلٍ فسواء أكان الرجل يهودياً، أم ربيب القداحيين اليهودي، أم سليل الأسرة القداحية ذات الأصل اليهودي فالأمر واحد وهو أن أبا عبد الله الشيعي لم يعرفه، وأنكره، وإنما اضطر إعطاءه اسم المهدي ريثما يجد له مخرجاً.

وما أن وصل عبيد الله إلى رقادة واستقر بها حتى وقع الخلاف بينه وبين أبي عبد الله الشيعي وحتى قام الخوارج الصفرية في سجلماسة بثورات ضد العبيديين وساعدهم على ذلك بُعد سجلماسة ونأيها على أطراف الصحراء، والخلاف العقيدي بين العبيديين والصفرية، ومحاولة العبيديين فرض فكرتهم بالقوة، والمنكرات التي ارتكبوها، والمحرّمات التي فعلوها، وتهجّمهم الصريح على صحابة رسول الله ﷺ، وعلى أمهات المؤمنين،

وهذا ما يتفق مع فكرتهم وأصولهم، كما ساعدهم على ذلك خلع موسى بن أبي العافية طاعتهم في فاس وبدأ نفوذ الأمويين في المغرب الأقصى ينتشر، إذ دعا لهم موسى بن أبي العافية وأحياناً بقايا الأدارسة، ثم الخلاف الذي نشب بين أبي عبد الله الشيعي وعبيد الله، وثورة كتامة بعد أن استبد عبيد لله بالأمر وتخلص من أبي عبد الله يضاف إلى هذا كره الناس للعبيديين بما اتخذوه من بطش وظلم وما فرضوه من ضرائب، وما فعلوه في سجلماسة.

ترك عبيد الله قائده إبراهيم بن غالب المزاتي عاملاً له على سجلماسة عندما غادرها إلى رقادة، ولم يلبث أن ثار الصفرية في العام نفسه وقتلوا إبراهيم بن غالب المزاتي وجنده الخمسمائة الذين بقوا معه، وولّى الصفرية عليهم الفتح بن ميمون الملقب بـ (واسول)، ولم يستطع عبيد الله إعادة نفوذه إلى سجلماسة لما عنده من شغل في قضية أبي عبد الله وثورة كتامة، وإنما كان الفتح يظهر شيئاً من التقية بعدم الثورة، وبقي الفتح صاحب النفوذ في سجلماسة حتى توفي عام ٣٠٠ فبايع الصفرية عندها أخاه أحمد بن ميمون فبقي كذلك حتى عام ٣٠٩ حيث أرسل عبيد الله القائد مصالة بن حبوس فدخل سجلماسة وقتل أحمد بن ميمون؛ وقد حاول مصالة بن حبوس استرضاء الصفرية فلم يُعيّن لهم والياً، وإنما ولّى المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار ثم بعد مدة جعله عاملاً لعبيد الله، واستمر في أمره حتى توفي عام ٣٢١.

سار المهدي العبيدي عام ٣٠١ يريد مصر ومعه أربعون ألف مقاتل، وحال النيل دون تقدّمه شرقاً، والوصول إلى الفسطاط، فرجع إلى الإسكندرية وقتل فيها من قتل حسب هواه، وعاث الفساد، وتبعه جيش الخليفة المقتدر وجرت بين الطرفين معارك في منطقة برقة هُزم فيها العبيديون واضطروا للعودة إلى المغرب. وسيطر العبيديون على الفيوم، كما عاد القائم خليفة عبيد الله المهدي، وسيطر على الصعيد عام ٣٠٦ غير أن الخليفة المقتدر أرسل له مؤنس الخادم في جيش هزم العبيديين، وأجبرهم بالرجوع إلى المغرب.

٥ ـ الدولة السامانية:

توفي عام ٢٩٥ إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، وكان عاقلاً عادلاً حسن السيرة في رعيته، حليماً كريماً، وخلفه ابنه أحمد بن إسماعيل، وقد قتل على يد غلمانه عام ٣٠١، وخلفه ابنه نصر، وكان صغيراً لم يزد عمره على ثمان سنوات فاستصغرته أسرته فطلب عم أبيه إسحاق بن أحمد ولاية خراسان، وكان قد استمال بلاد ما وراء النهر إليه عدا بخارى، وكذا عم أبيه الآخر المنصور إلا أن الخليفة أقرّ نصراً على البلاد التي كانت لأبيه رغم صغره فأدار له شؤون الدولة محمد بن عبد الله الجيهاني.

وما أن سارت الأمور في بلاد ما وراء النهر وخراسان باسم نصر بن أحمد حتى ثار عليه عم أبيه إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق وسارا نحو بخارى غير أنهما قد هزما أمام جيوش نصر التي استولت على سمرقند. وأسر إسحاق بعد اختفائه، أما إلياس فقد فرّ إلى بلاد فرغانة. وثار ابن إسحاق الثاني، وهو منصور عام ٣٠٢، وانضم إليه بعض قواد نصر، واستولوا على سجستان وحكموها باسم منصور، وكذلك على نيسابور، واستمرت الحرب بين نصر ومنصور حتى عام ٣٠٦ حيث انتصر نصر، وعادت نيسابور وسجستان إليه.

رجع إلياس بن إسحاق يستعدّ لمنازلة نصر، وتمكّن أن يجمع جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وتقدّم به عام ٣١٠ نحو سمرقند غير أن الهزيمة قد حلّت به، واضطر للرجوع إلى فرغانة، واختفى بها غير أن جيوش نصر قد فتحت فرغانة عام ٣١٢، وبدأ إلياس يعمل لإعادة الكرة على نصر، وتعاون مع صاحب الشاش غير أنه هُزم ثانيةً، وأُسر صاحب الشاش الذي مات في السجن.

٦ ـ الدولة الحمدانية:

يعود الحمدانيون في أصولهم إلى قبيلة بني تغلب التي كان بعض

بطونها يعيش قريباً من الموصل، وأمير هذا البطن في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري هو حمدان بن حمدون، وقد بدأ يشترك في الحوادث السياسية التي تجري في منطقته منذ عام ٢٦٠، وتحالف مع الخوارج الذين يقودوهم هارون الشاري عام ٢٧٢، ودخلا الموصل معاً، ثم استولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل، وشنّ الخليفة المعتضد حرباً عليه فاعتصم بقلعة ماردين، فسار إليه عام ٢٨١ فهرب من القلعة وترك ابنه الحسين فيها، ودخل جند الخليفة القلعة، وأظهر الحسين الطاعة، وتتبع الخليفة حمدان حتى ظفر به فسجنه في بغداد، ولم يخرجه من السجن سوى تكليف الخليفة ابنه الحسين بن حمدان بمحاربة هارون الشاري إذ اشترط الحسين إطلاق سراح أبيه مقابل حمل هارون إلى الخليفة، وحدث ذلك.

أصبح الحسين بن حمدان قائداً من قادة الخليفة البارزين وقد شُهر بحروبه التي قادها ضد القرامطة، وبرز إخوته كذلك عبد الله، وسعيد، وداود، وإبراهيم. أما الحسين فقد ناصر عبد الله بن المعتز الذي بويع بالخلافة لمدة يومين عام ٢٩٦ فكرهه المقتدر، وعزله عن مناصبه، ثم عفا عنه، وولاّه قم وقاشان، ثم عاد فاختلف معه، وسجنه ومات في السجن عام ٣٠٦، ثم خلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم عام ٣٠٧ وتوفي عام ٣٠٨، ثم أخوه داود حتى عام ٣٠٩، وبقي مع الخليفة المقتدر، وقاتل بجانبه ضد مؤنس الخادم، وأصابه سهم فقتل عام ٣٢٠.

أما سعيد والمكنى بأبي العلاء فقد تولّى أمر الموصل ونهاوند. وقد كان أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان قد ناصر القاهر ضد أخيه المقتدر، فلما فشلت الجهود، وعاد المقتدر، قُتل أبو الهيجاء وذلك عام ٣١٧، أما أبو السرايا نصر بن حمدان فقد هرب إلى الموصل، وتولى أمرها عام ٣١٨ ثم قتله القاهر عام ٣٢٢، وقد انتهى أمر أولاد حمدان كلهم قبل نهاية عام ٣٢٢، غير أن عبد الله أبا الهيجاء قد أناب عنه في الموصل ابنه الحسن ناصر الدولة فاستطاع أن يحتفظ بها منذ تولّى أمرها عام ٣٠٨ حتى توفي

عام ٣٥٨ باستثناء مدةٍ قصيرة ٣١٧ ـ ٣١٩ بسط عمّاه سعيد ونصر نفوذهما عليها بأمر الخليفة المقتدر.

وكان هؤلاء الملوك رافضة[1].

* * *

(١) البداية والنهاية، سنة ٣٥٦.

- ١٩ -

القاهر بالله

محمد بن أحمد المعتضد

٣٢٠ - ٣٢٢

هو محمد بن أحمد المعتضد، ولد عام ٢٨٧، أمّه أمّ ولد تدعى «فتنة». فبعد مقتل أخيه المقتدر جيء به وبابن أخيه عبد الله بن علي المكتفي، وكان عبد الله زاهداً بالخلافة فلم يجبهم إلى ما يريدون، وقال: عمي أحقّ بها مني، وكان عمره يومذاك سبعاً وثلاثين سنة، وبعد أن بويع القاهر بالخلافة عذّب آل أخيه المقتدر. وكان بطّاشاً سفّاكاً للدماء، سيء السيرة، يكنّى أبا منصور.

شغب عليه الجند عام ٣٢١، واتفق مؤنس الخادم وآخرون على خلعه: منهم محمد بن مقلة أبو علي، وعلي بن بليق، ووصل الخبر إليه فاحتال عليهم، وذبحهم، وتمكّن أبو علي محمد بن مقلة من الاختفاء. واستقام الأمر بعدئذ للقاهر. فأمر بمنع الخمر، وتحريم القيان، وبيع المغنيّات من الجواري، وقبض على المغنين، وكسر آلات اللهو، ونفى المخابيث ومع هذا كله كان مُغرماً بسماع الغناء، وتعاطي الخمرة.

وفي عام ٣٢٢ دخل الديلم أصبهان بإمرة «مرداويح بن زياد الديلمي» الذي كان من قواده علي أبي الحسن بن بويه فالتقى مع قائد الخليفة محمد بن ياقوت وانتصر عليه، وخرجت خراسان وفارس من حكم الخلافة.

حرّض ابن مقلة من مخبئه على القاهر، فدخل عليه الجند فهرب،

فلحقوا به، وقبضوا عليه في ٦ جمادى الآخرة، فامتنع عن خلع نفسه، فكحل بقضيب حديد محمى، ثم حبس حتى عام ٣٣٣ ثم أطلق سراحه، وبقي حتى مات عام ٣٣٩، وأصابته الحاجة حتى سأل الناس في أواخر حياته. وكان عمره عندما توفي اثنتين وخمسين سنة، ومدة خلافته سنة وستة أشهر وأسبوع.

* * *

- ٢٠ -

الرّاضي بالله

محمّد بن جعفر المقتدر

٣٢٢ - ٣٢٩

هو محمد بن جعفر المقتدر، ولد عام ٢٩٧، وأمه أم ولد تُدْعَى «ظلوم» يُكنّى أبا العباس، بويع بالخلافة بعد خلع عمه القاهر وذلك عام ٣٢٢ فكان عمره خمسة وعشرين عاماً، كان سمحاً، كريماً، أديباً، شاعراً، فصيحاً، محباً للعلماء، له شعر مدون، وسمع الحديث من البغوي. ومن شعره:

كل صفوٍ إلى كدر ... كل أمر إلى حذر

ومصير الشباب للـ ... ـموت فيه أو الكدر

درّ درّ المشيب من ... واعظٍ يُنذر البشر

أيها الآمل الذي ... تاه في لجة الغرر

أين من كان قبلنا؟ ... ذهب الشخص والأثر

ربّ اغفر خطيئتي ... أنت يا خير من غفر

مات مقدم الديلم «مرداويح» وغدا علي بن بويه سيد الموقف في فارس وخراسان، وقاطع الخليفة على البلاد التي استولى عليها بمائة مليون درهم، لكنه كان يماطل بالدفع.

وقلّد الراضي ولديه أبا الفضل، وأبا جعفر المشرق والمغرب.

وانقطع الحج من بغداد في أيامه بسبب القرامطة الذين يعيثون الفساد

في البلاد، واستمر انقطاعه حتى عام ٣٢٧ حيث تدخل في الأمر الشريف أبو علي محمد بن يحيى إذ كان القرامطة يحترمونه، ووافق القرامطة على أن يُدفع لهم عن كل جملٍ خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير.

استدعى الخليفة الراضي محمد بن رائق من واسط ليوليه إمرة الأمراء فجاء ومعه الأمير «بجكم»، وأصبح كل شيء بأمر محمد بن رائق، وضعف أمر الخلافة جداً، واستقل الولاة كل بما تحت يده، ولم يبق للخليفة سوى بغداد وما حولها والأمر فيها أيضاً لمحمد بن رائق، والخليفة ألعوبة بيده أو صورة على الأقل.

وجاء الأمير «بجكم» مخالفاً لابن رائق الذي اختفى، فقرّب الخليفة «بجكم» وحلّ محلّ ابن رائق.

وطلب ملك الروم مفاداة بين المسلمين والروم وأرسل الهدايا إلى الخليفة، وتم ذلك في عام ٣٢٦، وكان عدد أسرى المسلمين الذين بيد الروم حوالي ستة آلاف مسلم.

ومات الخليفة الراضي عام ٣٢٩، وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته سبع سنوات تقريباً. وكان أسمر، أعين، خفيف العارضين، أسمر رقيق السمرة، ذري اللون، أسود الشعر، سبطه، قصير القامة، نحيف الجسم، في وجهه طول، وفي مقدم لحيته تمام، وفي شعره رقة، يحب مجالسة الأدباء والفضلاء، وقال في رثاء أبيه المقتدر:

ولو أن حيّاً كان قبراً لميّتٍ لصيّرت أحشائي لأعظمه قبرا

ولو أنّ عمري كان طوع مشيئتي وساعدني المقدور قاسمته العمرا

بنفسي ثرىً ضاجعت في تربة البلى لقد ضمّ منك الغيث والليث والبدرا

* * *

-٢١-
المتّقي لله
إبراهيم بن جعفر المقتدر
٣٢٩ - ٣٣٣

هو إبراهيم بن جعفر المقتدر، ولد عام ٢٩٥، فهو أكبر من أخيه الراضي، أمه أم ولد تدعى «خلوب» بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الراضي، وعمره أربع وثلاثون سنة، لم تغيّر الخلافة من أمره شيئاً، فلم يتسر بغير جاريةٍ كانت له من قبل، ولم يشرب مسكراً لا من قبل ولا من بعد، كان كثير التلاوة للقرآن، كما لم يكن له من أمر الخلافة شيء، إذ كان أمير الأمراء متسلّطاً عليه بل كاتب أمير الأمراء «بجكم».

قتل «بجكم» فولّى مكانه «كورتكين الديلمي» بإمرة الأمراء. وخالف محمد بن رائق الخليفة وقاتل «كورتكين» وهزمه، فاختفى «كورتكين» وأصبح ابن رائق أميراً للأمراء. وخرج أبو الحسين محمد بن علي البريدي من واسط لقتال ابن رائق، وهُزم ابن رائق ومعه الخليفة المتقي لله وهربا باتجاه الموصل فلما وصلا إلى مدينة «تكريت» وجدا سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان وأخاه ناصر الدولة الحسن. وقُتل محمد بن رائق غيلةً فولّى الخليفة الحسن بن عبد الله بن حمدان إمرة الأمراء، ولقّبه ناصر الدولة، ولقّب أخاه علي سيف الدولة، ورجع الخليفة إلى بغداد ومعه ابنا حمدان فهرب البريدي منها، ورجع إلى واسط، ولاحقه سيف الدولة فهرب إلى البصرة.

هاج الأمراء بواسط على سيد الدولة فهرب إلى بغداد، وهرب أخوه الحسن ناصر الدولة إلى الموصل، وسار «توزون» من واسط إلى بغداد فدخلها، وأصبح أمير الأمراء، وفرّ سيف الدولة إلى أخيه ناصر الدولة بالموصل. ثم اختلف الخليفة المتقي مع «توزون» فأرسل توزون جيشاً إلى بغداد بإمرة أبي جعفر بن شيرزاد فدخلها وتحكّم فيها، وكاتب المتقي أمير الموصل ناصر الدولة ابن حمدان فقدم بجيش كبير واختفى ابن شيرزاد، وسار الخليفة بأهله إلى تكريت والتقى ابن شيرزاد وابن حمدان في معركة هُزم فيها ابن حمدان والخليفة، وهربا إلى الموصل، وسار ابن شيرزاد وراءهما وجرت معركة ثانية دارت الدائرة فيها أيضاً على الخليفة وابن حمدان ففرا إلى «نصيبين».

راسل الخليفة الإخشيد صاحب مصر وطلب منه أن يحضر إليه، ثم ظهر له أن ابني حمدان قد ضجرا منه، وأنه قد ملّهما، فرأى أن يراسل «توزون» يعرض عليه الصلح فوافق، ووصل الإخشيد إلى الخليفة وهو بالرقة فتكلم عن العسكريين الأتراك وغدرهم، وطلب منه أن يسير معه إلى مصر، فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر، وسار الخليفة إلى بغداد فاستقبله «توزون»، وترجّل له ومشى بين يديه حتى وصلوا إلى المخيم المعدّ لهم، فكحّله بميلٍ محمى، وأدخله إلى بغداد مسمول العينين، وأحضر عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة كما بايعه الخليفة المتقي المخلوع، ثم سُجن المتقي في جزيرة بالنهر وبقي في سجنه مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي عام ٣٥٧هـ.

وفي أيام المتقي هاجم الروم المسلمين ووصلوا إلى نصيبين فقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا.

* * *

- ٢٢ -

المستكفي بالله
عبد الله بن علي المكتفي
٣٣٣ - ٣٣٤

هو عبد الله بن علي المكتفي، ولد عام ٢٩٢، أمه أم ولد تُدعى «أملح الناس» بويع بالخلافة بعد خلع ابن عمه المتقي، وكان عمره أربعين سنة أو يزيد قليلاً.

مات «توزون» أمير الأمراء فأصبح كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد سيد الموقف، فطمع وبدأ يعمل لنفسه، وقد خشيه الخليفة فقرّبه وقدّمه.

دخل أحمد بن بويه بغداد فاختفى أبو جعفر بن شيرزاد، وقرّبه الخليفة ولقّبه «معز الدولة»، كما لقّب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاه الآخر الحسن «ركن الدولة»، ولقّب المستكفي نفسه «إمام الحق»، ثم إن معز الدولة قوي أمره فحجز على الخليفة، وقدّر له نفقةً يوميةً قدرها خمسة آلاف درهم. وشغل الناس بالسباحة والمصارعة، وانهمك الشباب فيهما بشكلٍ كبيرٍ.

وفي جمادى الآخرة من عام ٣٣٤ تخيّل معز الدولة من المستكفي شيئاً فدخل على الخليفة وانتزعه بعض جنود معز الدولة من سريره وجرّوه، ثم نهب الجند دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء، وسار معز الدولة إلى منزله راكباً، وساقوا المستكفي ماشياً إليه، ثم خلع وسملت عيناه، ثم أحضر الفضل بن المقتدر، وبويع بالخلافة باسم المطيع، وبايعه ابن عمه الخليفة المخلوع المستكفي، وقد شهد على نفسه بالخلع، ثم سجن إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة.

الإمارات

١ ـ دولة الأمويين في الأندلس:

خضعت الأندلس لعبد الرحمن الثالث الناصر، وانقادت الولايات لحكمه، وكان خطر النصارى يتهدده من الشمال، كما كان خطر العبيديين من الجنوب، واستفاد عبد الرحمن من الصقالبة الذين يجلبهم الإغريق والبنادقة فيشتريهم، ويُربيهم تربيةً إسلاميةً، ويُدربهم على الجندية.

خلع محمد بن هاشم التجيبي أمير سرقسطة طاعة عبد الرحمن الناصر فسار إليه وأخضعه، ثم سار إلى إمارة «نافار» النصرانية التي دعمت التجيبي فانتصر عليها.

بنى الناصر أسطولاً مؤلفاً من مائتي سفينة، وتسابقت رسل دول فرنسا، وإلمانيا، وإيطاليا إلى مقرّ حكمه تقدّم له الاحترام.

٢ ـ الدولة العبيدية:

توفي عبيد الله المهدي عام ٣٢٢، وخلفه ابنه نزار أبو القاسم القائم، وتمّ في عهده فتح جنوه عام ٣٢٣ مروراً بجزيرة سردينيا. وفي جزيرة صقلية ثار الناس على عامل العبيديين فأرسل إليهم جيشاً أخضعهم.

وثار الخوارج الأباضيون في طرابلس على العبيديين غير أن حركتهم قد اقتصرت على أباضية «هوارة» لذا كانت ضعيفةً، وأرسل القائم قوةً بحريةً حاصرت أهل طرابلس من البحر، وقطعت عنهم المؤن، فاضطروا إلى الاستسلام مقابل دفع مبلغ من المال وتسليم ثلاثة من رؤسائهم حملوا إلى (رقادة) حيث قتلوا هناك وذلك عام ٣٣٠.

وقامت ثورة أخرى للخوارج الأباضية تُعدّ أهم الثورات التي واجهت العبيديين، وقد قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد، وقد ظهر منذ عام ٣١٦ في جبال أوراس، وقوي أمره عام ٣٢٥ إذ انضمت إليه الأباضية بفرقها كلها كما انضم إليه أهل السنة ضد العبيديين الذين أساءوا إلى الإسلام وانتهكوا حرماته، وأرسل القائم إلى عامله على «قسطيلة» ليحمل إليه أبا يزيد فاعتقله أبو يزيد، فأرسل القائم عندئذٍ جيشاً قوياً حاصر منطقة الأوراس غير أن أبا يزيد قد تمكن من فكّ الحصار، وانضمّت إليه بعض القبائل فأحرز نصراً على جيوش العبيديين وتتبعهم، وبدأت المدن تسقط أمامه حتى دخل (رقادة) ثم (القيروان) عام ٣٣٣، واتجه نحو (المهدية) فخندق القائم حولها، وكاد ينتهي أمر العبيديين لولا استنهاض همة كتامة وصنهاجة وخندقة القائم حول المهدية، وأرسل القائم الجيوش للقاء أبي يزيد لكنها هُزمت وتشتّت شملها، ولم يتابع أبو يزيد فلولها، وقوي بعدئذ أمر القائم. أما أبو يزيد فقد أخبر عبد الرحمن الناصر بالانتصارات التي أحرزها، وفرح المسلمون إذ توقّعوا انتهاء أمر العبيديين.

وكما ثار الأباضيون من الخوارج فقد ثارت الصفرية أيضاً ضد العبيديين إذ استغل محمد بن الفتح بن ميمون فرصة ضعف ابن عمه سمكو بن محمد أبي المنتصر واشتعال ثورة الأباضيين فدعا لنفسه وخلع طاعة العبيديين، وتلقّب بالشاكر لله، وأظهر تأييده للعباسيين لكسب أهل السنة إلى جانبه، وكان حسن السيرة، وهذا ما جعل بعضهم يقول: إنه كان من أهل السنة.

٣ ـ الدولة الإخشيدية:

الإخشيد كلمة يُلقّب بها ملوك فرغانة، وقد جاء «جفّ» جد الإخشيد إلى الخليفة المعتصم فأكرمه، ثم اتصل بالخليفتين الواثق والمتوكل، وتوفي في العام الذي توفي فيه المتوكل ٢٤٧ بل وفي الليلة نفسها التي مات فيها المتوكل، وبرز ابنه طغج في أيام الطولونيين، وقتال الروم، ولما دخل

الجيش العباسي مصر، استقبل طغج بن جف القائد العباسي محمد بن سليمان بالعباسة، ومعه كبار القادة، ثم سار بمن بقي من الطولونيين وقادتهم إلى بغداد، ولما لم يترجّل للوزير العباسي فقد أوغر صدر الخليفة عليه فسجنه وابنيه محمد وعبيد الله وذلك عام ٢٩٢، وتوفي طغج في السجن عام ٢٩٤، وأطلق الخليفة ابنيه فدخلا في خدمة الخلافة، ولما حانت لهما فرصة الثأر من الوزير العباس بن الحسن لم يتركاها وذلك عندما ضربه الحسين بن حمدان بالسيف فوقع عن جواده فأسرعا وأجهزا عليه، وهرب بعدئذٍ محمد بن طغج إلى ديار ربيعة، وفرّ عبيد الله إلى شيراز، ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالخليفة المقتدر وعلا شأنه.

اتصل محمد بن طغج بعامل الشام ابن بسطام، ولما أُعطي ولاية مصر انتقل محمد معه، وتوفي ابن بسطام عام ٢٩٧ فاتصل بابنه أبي القاسم علي بن بسطام، وحارب تحت إمرة (تكين) الذي التقى بالعبيديين بإمرة حباسة بن يوسف الكتامي وقد أبلى يومها بلاءً حسناً، وقد تولّى إمرة الأردن نيابةً عن «تكين» عام ٣٠٦، ثم الإسكندرية عام ٣٠٧ ـ ٣٠٩، وقاتل العبيديين الذين غزوا مصر، وعندما انتصر عليهم عام ٣٢١ ـ ٣٢٤ أمر الخليفة إضافة اسم الإخشيد عليه، وولاّه إمرة مصر والشام، فساد النظام، وصالح العبيديين.

وفي ٣٢٨ غضب الخليفة على الإخشيد، وأرسل محمد بن رائق والياً على مصر، فسار إلى حمص فدخلها، وانطلق إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الإخشيد والياً عليها للإخشيد فأخرجه ابن رائق منها، ودخلها، وسار منها إلى الرملة فأخذها، ثم اتجه إلى عريش مصر، فلقيه الإخشيد محمد بن طغج فهُزم الإخشيد وشُغل أصحاب ابن رائق بالأسلاب فخرج عليهم كمين للإخشيد فهزمهم وتفرّقوا، فأعمل جند الإخشيد فيهم قتلاً ولكن نجا ابن رائق مع سبعين من رجاله، ورجع إلى دمشق، فسيّر إليهم الإخشيد أخاه عبيد الله أبا نصر في جيشٍ كثيفٍ فالتقى مع جيش ابن رائق بـ «اللجون»، وانتصر ابن رائق انتصاراً كبيراً، وقُتل أبو نصر عبيد الله بن طغج

أخو الإخشيد، فأخذه ابن رائق وكفّنه وأرسله إلى أخيه مع ابنه مزاحم بن محمد بن رائق واعتذر إليه، فكانت النتيجة أن اصطلحا على أن تكون الرملة الحدود بين الطرفين.

وقتل ابن رائق عام ٣٣٠ فأصبحت بلاد الشام كلها للإخشيد وقد دخلها دون حرب، كما تبعته الحجاز، كما أن الخليفة المتقي قد طلب منه دعمه فسار إليه والتقى به بالرقة، ورجاه أن يسير معه إلى مصر فلم يوافق الخليفة فرجع الإخشيد إلى مصر.

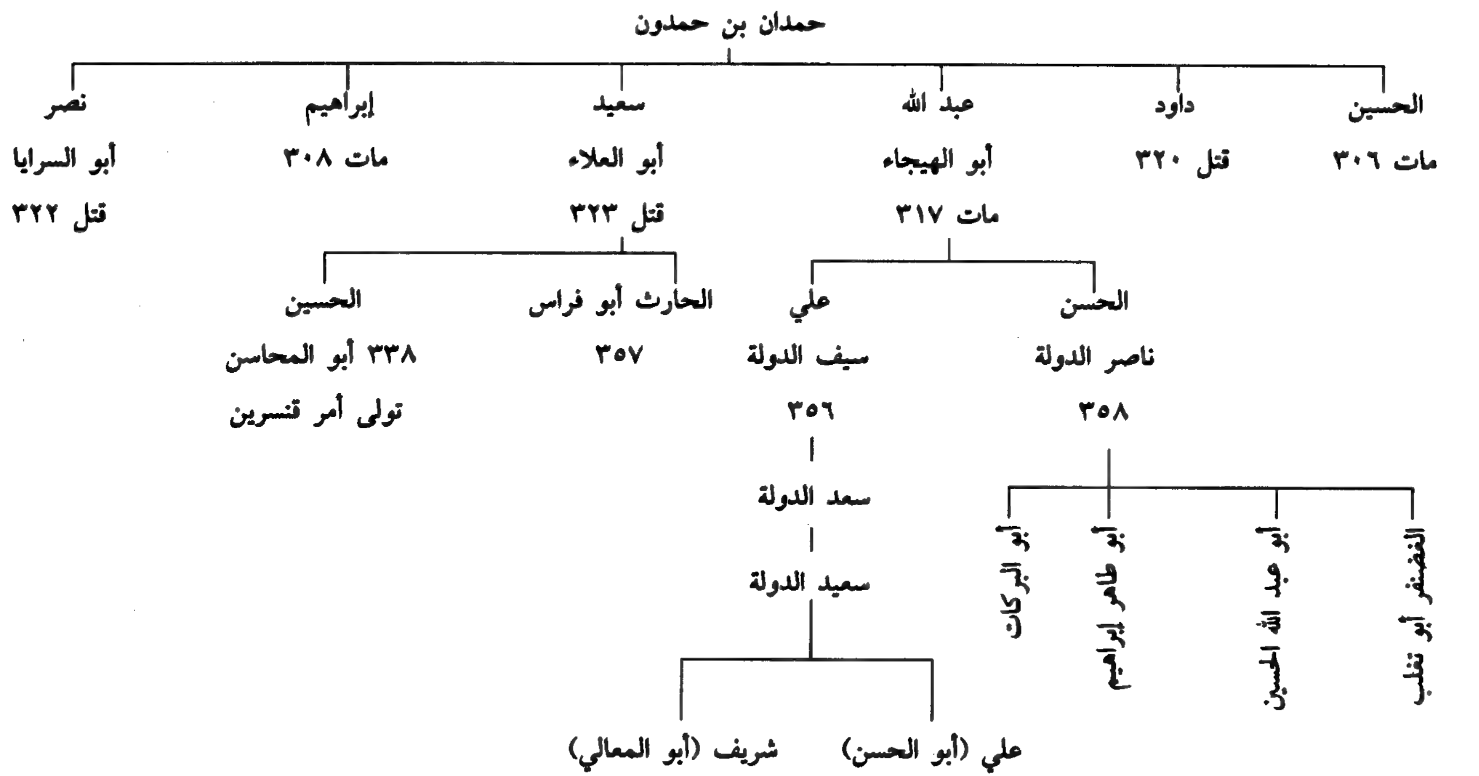
وفي عام ٣٣٢ استولى الحمدانيون على قنسرين فولاّها ناصر الدولة إلى ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (أخي أبي فراس)، كما استولى سيد الدولة على حلب عام ٣٣٣، وقاتل الإخشيديين الذين اضطروا إلى دفع الجزية له.

٤ ـ الدولة الحمدانية:

قتل ناصر الدولة عمه سعيد أبا العلاء والد أبي فراس عندما أراد أن ينتزع منه الموصل عام ٣٢٣، وكان ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة بجانب الخليفة حتى جاء البويهيون فوقعوا في صدامٍ معهم ثم تصالحوا لكن عادوا فاختلفوا. كما حاربوا البريديين الذين كانوا في الأهواز، ودخلوا مدينة واسط، وتغلب توزون على بغداد، وأصبح أمير الأمراء.

استولى ناصر الدولة على قنسرين عام ٣٣٢ من الإخشيد وأعطى إمرتها لابن عمه الحسين بن سعيد الحمداني أخي أبي فراس، كما استولى سيف الدولة على حلب عام ٣٣٣ وتولّى أمرها. ومات توزون عام ٣٣٤، وأصبح ابن شيرزاد أميراً للأمراء، ودخل بنو بويه بغداد، وحاولوا الحد من نفوذ الحمدانيين، واستطاع ابن شيرزاد أن يدخل بغداد وأن يحكمها باسم ناصر الدولة الحمداني، ويأتي ناصر الدولة إليها ويخطب باسم المتقي، غير أن البويهيين يدخلون بغداد بعد أربعة أشهر، ويعود ناصر الدولة الحمداني إلى الموصل، ثم يعقد الصلح بين الطرفين في أوائل عام ٣٣٥ غير أنه لم يستمر طويلاً ويقع الخلاف.

الإمارة الحمدانية



٥ ـ الدولة السامانية:

ثار أبو علي محمد بن إلياس على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فأرسل له نصر جيشاً كبيراً هزم أبا علي محمد بن إلياس ودخل كرمان وحكمها باسم السامانيين عام ٣٣٢.

وتوفي نصر بن أحمد عام ٣٣١ وكان حليماً كريماً، عاقلاً، وقيل: إنه أخذ مبادئ الإسماعيلية، وراسل عبيد الله المهدي فدبّر القواد مؤامرة لاغتياله، وأدرك نصر الخطر فتنازل عن الحكم لابنه نوح غير أن هذا التصرف لم ينجه فقضي عليه عام ٣٣١.

عفا نوح بن نصر عن بعض الأمراء المخالفين له ليؤلّف بين القلوب، ووقع الخلاف بين البويهيين ونوح بن نصر فهُزم نوح، ثم جهز نفسه ثانيةً وتمكّن من استرداد الري ودخول الجبل أيضاً عام ٣٣٣.

القرامطة

استمر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي يعيث الفساد في المناطق التي يصل إليها وخاصةً طرق الحجّاج حتى عام ٣٢٦ حيث اختلف بعض القرامطة مع بعض إلا أن أبا طاهر قد استطاع الاحتفاظ بمركزه، وتخلّص من خصومه، وهذا الخلاف جعلهم يتمسكون في منطقتهم ويحافظون عليها، ويمكثون فيها مدةً، ويتركون الفساد في الأرض وقطع طرق الحجاج والقوافل، وقد لاحظنا أن حجاج بغداد تمكّنوا من الحج عام ٣٢٧ بعد حرمانهم مدةً من الزمن.

وكانت الدولة الأخيضرية في اليمامة شيعيةً وخضعت لسيطرة القرامطة أو أن الأخيضريين بقي نفوذهم قائماً وإن كان باسم القرامطة أو تحت إشرافهم، وذلك منذ أن بدأ طغيان أبي طاهر على المنطقة وحتى زوال القرامطة نهائياً في منتصف القرن الخامس أو حتى زوال الدولة الأخيضرية.

ومات أبو طاهر بن أبي سعيد الجنّابي عام ٣٣٢ فخلفه إخوته الثلاثة سعيد أبو القاسم، وأحمد أبو العباس، ويوسف أبو يعقوب، وكانت كلمتهم في البداية متفقةً، وبقي الحجر الأسود في هجر حتى عام ٣٣٩ حيث أعيد إلى مكانه في ذلك العام.

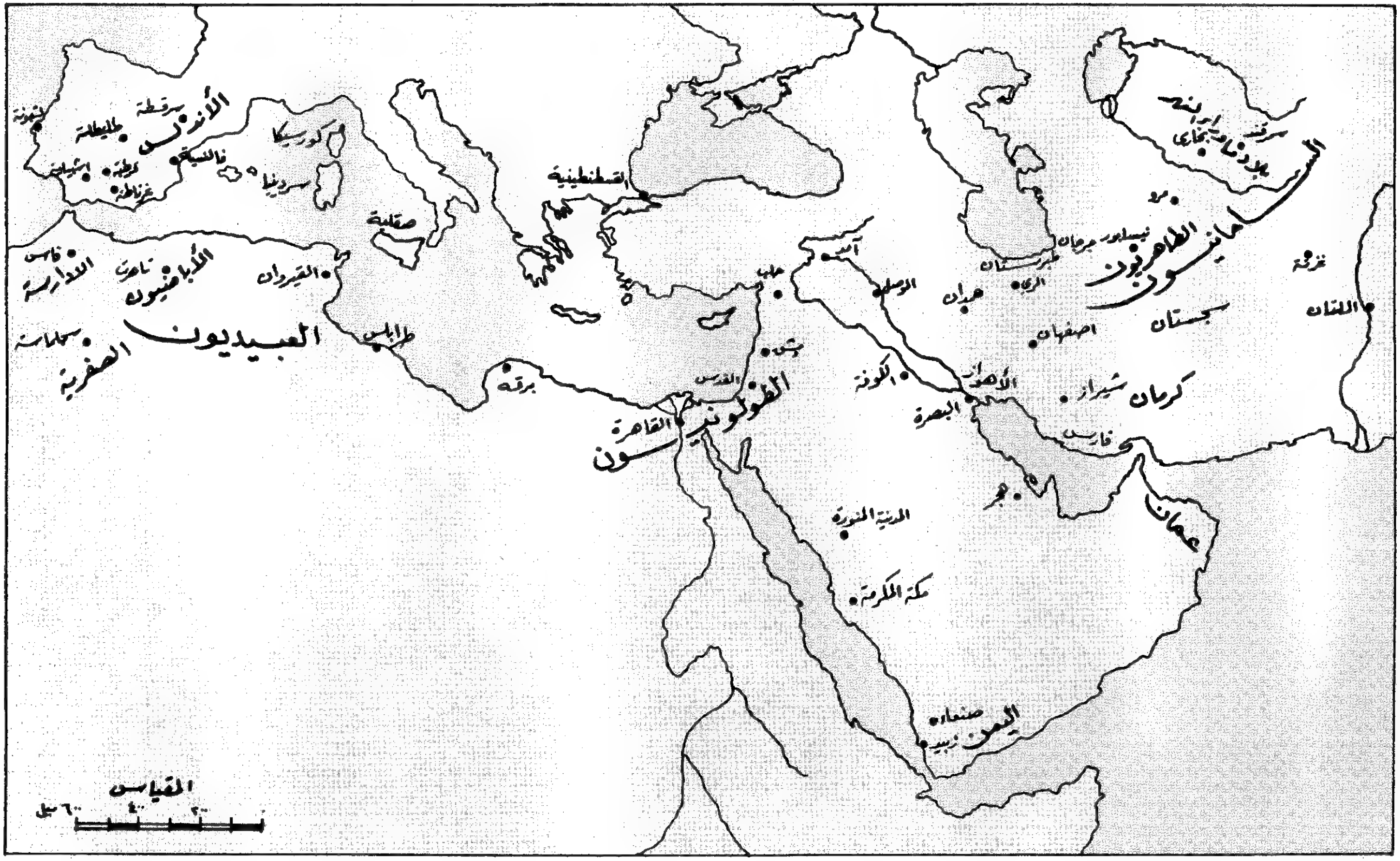
وفيها (٣٣٢) أقبلت طائفة من الروس في البحر إلى نواحي أذربيجان فقصدوا بردعة فحاصروها، فلما ظفروا بأهلها قتلوهم عن آخرهم، وغنموا أموالهم، وسبوا من استحسنوا من نسائهم، ثم مالوا إلى المراغة، فوجدوا بها ثماراً كثيرةً، فأكلوا منها فأصابهم وباء شديد فمات أكثرهم، وكان إذا مات أحدهم دفنوا معه ثيابه وسلاحه، فأخذه المسلمون وأقبل إليهم

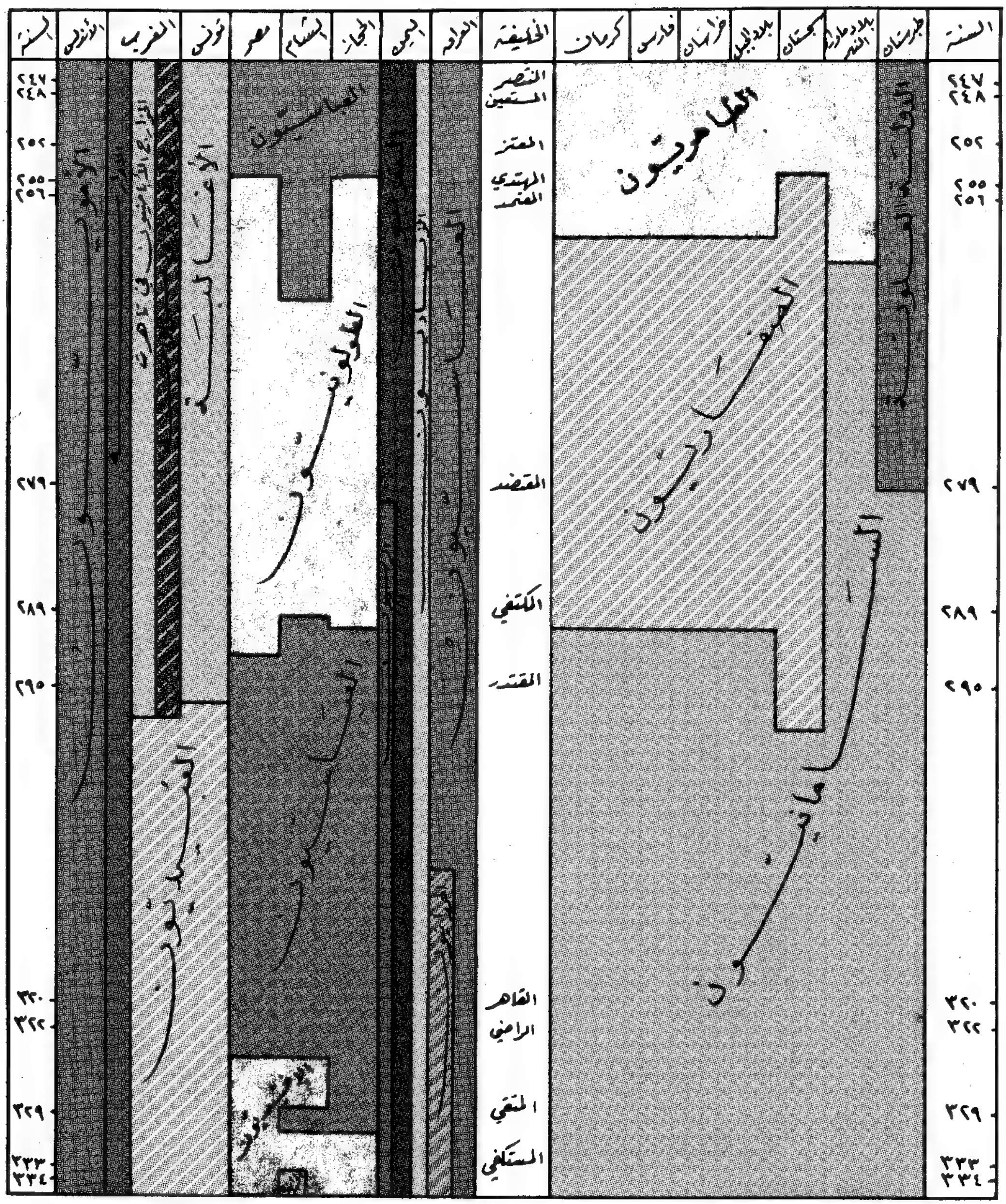
المرزبان بن محمد فقتل كثيراً منهم. وفي ربيع الأول منها جاء الدمستق ملك الروم إلى رأس العين في ثمانين ألفاً فدخلها، ونهب ما فيها، وقتل وسبى منهم نحواً من خمسة عشر ألفاً، فقصدته الأعراب من كل وجهٍ فقاتلوه قتالاً عظيماً حتى انجلى عنها[1].

* * *

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير.


الأندلس
سرقسطة
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
بلنسية
كورسيكا
سردينيا
صقلية
القسطنطينية
فاس
الأدارسة
تاهرت
الأباضيون
القيروان
العبيديون
سجلماسة
الصفرية
طرابلس
برقة
حلب
دمشق
القدس
القاهرة
الطولونيون
آمد
الموصل
الكوفة
البصرة
الأهواز
همذان
الري
طبرستان
نيسابور
جرجان
مرو
بخارى
سمرقند
بلاد ما وراء النهر
السامانيون
الطاهريون
غزنة
الملتان
سجستان
اصفهان
شيراز
كرمان
فارس
هجر
عمان
المدينة المنورة
مكة المكرمة
صنعاء
زبيد
اليمن
المقياس
ميل



مخطط توضيحي للإمارات في عهد سيطرة القادة الأتراك على الدولة العباسية

الفصل الثاني

عصر السيطرة العسكرية البويهية

وتمتد هذه المرحلة من ٣٣٤ ـ ٤٤٧ أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، وتعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء فقط، إذ أن أيامهم قد طالت، فأقلهم حكم ثماني عشرة سنة، وهو الخليفة الطائع أي الثاني في هذه المرحلة، على حين وصلت أيام الخليفة القادر إلى إحدى وأربعين سنة، وهذه مدد طويلة بالنسبة إلى خلفاء يتعاقبون.

امتازت هذه المرحلة بسيطرة آل بويه الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس، وربما كان أحد ملوك فارس القدماء من أجدادهم، وسكنت هذه الأسرة بلاد الديلم فعرفوا كأنهم منهم، وكانوا من الرعية العاديين، وأول ما برز منهم أبو شجاع بويه، وكان من صيادي السمك في بحر الخزر، وكان له ثلاثة أولاد، هم: علي، وحسن، وأحمد، وقد دخلوا كجنود عاديين في جيش (ما كان بن كالي)، وأبدوا شيئاً من الشجاعة فأصبحوا في رتبة الأمراء، غير أن (ما كان بن كالي) لم يلبث أن اختلف مع (مرداويج بن زياد)، وانحاز أولاد بويه إلى مرداويج عندما رأوا أن قوته تميل إلى الرجحان، فأكرمهم (مرداويج) وولّى علي بن بويه بلاد الكرج، ثم غضب عليهم وأمر أخاه بصرفهم فصرف حسن وأحمد أما علي فلم يصرفه لما اشتهر من شجاعة ولما عرف عنه من كرم، إلا أن (مرداويج) قد قرر طرده، وأرسل له جيشاً فترك علي بلاد الكرج واتجه إلى أصفهان، وانتصر على المظفر بن ياقوت، وانضم إليه عدد من الديلم، وأصبح عدد جنوده سبعمائة، ثم سار إلى (اصطخر)، وانتصر على المظفر بن ياقوت، ودخل (شيراز) عام ٣٢٢، ثم حاول أن يتقرب ثانية إلى (مرداويج) الذي قتل عام ٣٢٣، وبقي علي بن بويه في

الميدان فدانت له بلاد فارس. أما أخوه الحسن الذي كان عند (مرداويج) رهينة لأخيه فقد استطاع بعد موت (مرداويج) أن يحتل الري، وأصفهان، وهمذان. وكذلك احتل أحمد بن بويه (كرمان)، ثم دعاه أخوه علي لمعاونته فترك (كرمان)، واحتل الأهواز عام ٣٢٦.

ساءت العلاقة بين الخليفة المتقي وتوزون فدعا الخليفة أحمد بن بويه لدخول بغداد، فاتجه نحوها غير أنه هزم أمام توزون عام ٣٣٢، وهكذا فقد أصبحت سلطة علي بن بويه تمتد من بلاد الكرج حتى الأهواز، ويسيطر أحمد على بلاد فارس الجنوبية، على حين أن شمال بلاد فارس تحت نفوذ أخيهما الحسن.

طلب قواد بغداد من أحمد بن بويه السير إليهم والاستيلاء على مدينتهم، فسار نحوهم واستقبله الخليفة المستكفي، وأكرمه ولقبه معز الدولة، كما لقّب أخاه علياً عماد الدولة، أما الحسن فقد لقّبه ركن الدولة. وهكذا أصبح لكلٍ من هؤلاء الإخوة الثلاثة منطقة يسيطر عليها ويتعاقب أبناؤه وأحفاده على حكمها.

لقد كانت أسرة آل بويه شيعيةً فبدرت منهم أعمال منكرة، ففي عام ٣٤١ ظهر قوم من التناسخية فيهم شاب يزعم أن روح علي انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، وآخر يدعي أنه جبريل، فضربوا، فتعززوا بالانتماء إلى أهل البيت، فأمر معز الدولة بإطلاقهم لميله إلى أهل البيت، فكان هذا من أفعاله الملعونة[١].

وفي سنة إحدى وخمسين كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد لعنة معاوية، ولعنة من غضب فاطمة حقها من فدك، ومن منع أن يدفن مع جده، ولعنة من نفى أبا ذر، ثم إن ذلك محي في الليل، فأراد معز الدولة أن يعيده فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محي «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ» وصرحوا بلعنة معاوية فقط.

---

(١) تاريخ الخلفاء.

وفي سنة اثنتين وخمسين يوم عاشوراء ألزم معز الدولة الناس بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبيخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المآتم على الحسين، وهذا أول يوم نيح فيه عليه ببغداد، واستمرت هذه البدعة سنين.

وفي ثاني عشر ذي الحجة منها عمل عيد غدير خم، وضربت الدبادب[1].

وسيطر الشيعة على مناطق واسعة بل إن دولاً كثيرة قامت باسمهم سواءً أكانت شيعيةً حقيقةً أم ادعاءً، فالدولة العبيدية دانت لها المغرب ثم مصر وأجزاء من الشام في أوقاتٍ متفاوتةٍ، والدولة الحمدانية في الموصل والشام، والقرامطة الذين حكموا البحرين وخضعت لهم الإمارات في اليمامة وأجزاء من جزيرة العرب بل احتلوا دمشق، هذا بالإضافة إلى بني بويه الذي يحكمون العراق، وفارس، والري والجبل، والكرج، والأهواز، ثم هناك الدولة السامانية التي هي أقرب إلى الإسماعيلية هؤلاء جميعاً يدّعون الشيعة غير أن منهم الغلاة كالحمدانيين، ومنهم أقل غلواً مثل بني بويه، ومنهم أصحاب الأصول اليهودية كالعبيديين، ومن ينتمي إلى المجوس كالقرامطة ونتيجة هذه الأصول والأهداف المتباينة والمختلفة والتي تخفي وراءها أهدافاً سياسية ودينية تقصد منها هدم الإسلام من الداخل وتسلّم السلطة لتتمكن من التهديم بصورةٍ أوسع أو بشكلٍ مخططٍ له، فلو كانت صادقةً في دعواها وأهدافها واحدة لتمكنت من تحقيق مقصدها إذ لم يبق من أصحاب السلطة في الدولة الإسلامية الواسعة سوى مناطق ضيقة قليلة هم من أهل السنة، وهذه المناطق: هي الأندلس وإمارات صغيرة وضعيفة في بعض الأجزاء من جزيرة العرب والإمارة الغزنوية عندما قامت في شرق الدولة الإسلامية. ونتيجة التباين في المقاصد فقد وقعت الحروب بين هذه

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الجماعات فقد حاربت القرامطة العبيديين، وقاتل العبيديون الحمدانيين، وكان الحمدانيون وبنو بويه في صراع، ولم يكن السامانيون في منأى عن هذا الصراع. وقد حُفظ هذا الإسلام ـ ولله الحمد ـ بسبب هذا الخلاف بين هذه الفرق الضالة والمدعية كذباً وزوراً الانتساب إلى آل البيت أو العمل لهم أو السير على سنتهم، والله سبحانه وتعالى الذي تعهّد بحفظ هذا الدين وكتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1] فحفظه بايقاع الخلاف بينهم والتناحر بعضهم مع بعض.

كما تمتاز هذه المرحلة بكثرة الفتن التي أثارها الشيعة وهذا ما كان يؤدي بدورها إلى القتال المستمر بين السنة والشيعة وهذا بسبب تشيّع البويهيين وعددٍ من حكام الإمارات الثانية.

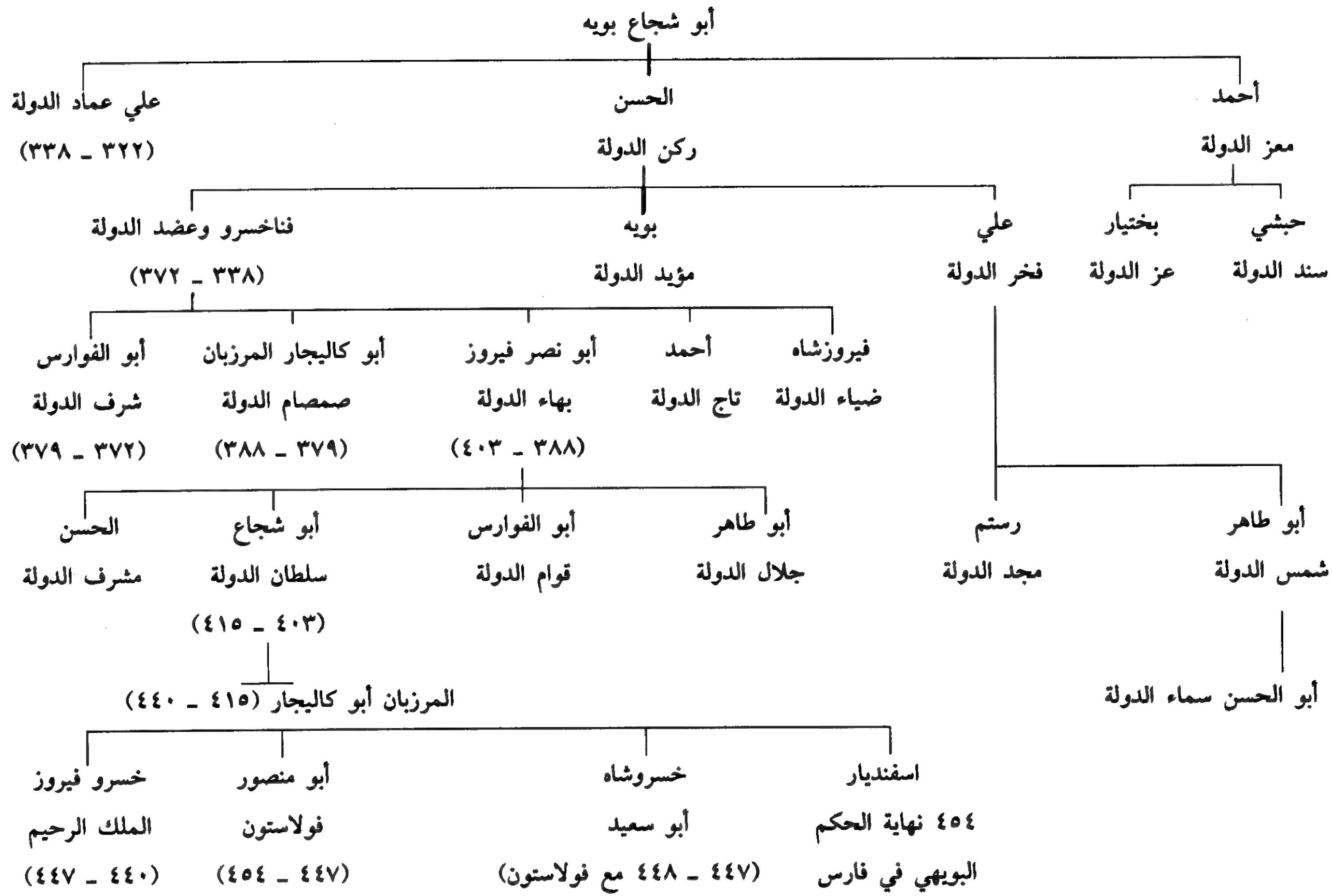
وأصبح في الخلافة سلطان أو ملك واحد أو أمير للأمراء من البويهيين بيده الأمر والنهي على حين كان في المرحلة السابقة أيام سيطرة الجنود الأتراك عدد من الأمراء القادة يتقاتل بعضهم مع بعض ويتباين هؤلاء الأمراء في أصولهم ومراتبهم، وصحيح أنه وقع الخلاف بين البويهيين ولكنهم كانوا من أسرة واحدةٍ اختلف أبناؤها بعضهم مع بعض.

وقد كان الخلفاء على درجة طيبةٍ من الاستقامة والتدين ولكنهم كانوا مغلوب على أمرهم، فالبويهيون بيدهم كل شيء، وقد وصل الناس إلى درجة من كراهية الشيعة بسبب تعصب الشيعة وخاصة البويهيين الذين يسيطرون على الخلفاء أنفسهم.

وأخيراً فإن الإمارات قد قل عددها في المغرب فلم يبق منها سوى الأمويين، والعبيديين الذين سيطروا على منطقةٍ واسعةٍ وحلّوا محل إماراتٍ متعددةٍ، أما في المشرق فقد كثرت الإمارات وزادت الدول وانتشرت على رقعات متباينة.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.


أبو شجاع بويه
علي عماد الدولة
(٣٢٢ ـ ٣٣٨)
الحسن
ركن الدولة
أحمد
معز الدولة
فناخسرو وعضد الدولة
(٣٣٨ ـ ٣٧٢)
بويه
مؤيد الدولة
علي
فخر الدولة
بختيار
عز الدولة
حبشي
سند الدولة
أبو الفوارس
شرف الدولة
(٣٧٢ ـ ٣٧٩)
أبو كاليجار المرزبان
صمصام الدولة
(٣٧٩ ـ ٣٨٨)
أبو نصر فيروز
بهاء الدولة
(٣٨٨ ـ ٤٠٣)
أحمد
تاج الدولة
فيروزشاه
ضياء الدولة
رستم
مجد الدولة
أبو طاهر
شمس الدولة
أبو الحسن سماء الدولة
الحسن
مشرف الدولة
أبو شجاع
سلطان الدولة
(٤٠٣ ـ ٤١٥)
أبو الفوارس
قوام الدولة
أبو طاهر
جلال الدولة
المرزبان أبو كاليجار (٤١٥ ـ ٤٤٠)
خسرو فيروز
الملك الرحيم
(٤٤٠ ـ ٤٤٧)
أبو منصور
فولاستون
(٤٤٧ ـ ٤٥٤)
خسروشاه
أبو سعيد
(٤٤٧ ـ ٤٤٨ مع فولاستون)
اسفنديار
٤٥٤ نهاية الحكم
البويهي في فارس

الخلفاء:

١ ـ المطيع	٣٣٤ ـ ٣٦٣
٢ ـ الطائع	٣٦٣ ـ ٣٨١
٣ ـ القادر	٣٨١ ـ ٤٢٢
٤ ـ القائم	٤٢٢ ـ ٤٦٧

-٢٣-
المطيع لله
الفضل بن جعفر المقتدر
٣٣٤ - ٣٦٣

هو الفضل بن جعفر المقتدر، ولد عام ٣٠١، وأمه أم ولد تدعى «شغلة» يُكنّى أبا القاسم، كان مستخفياً من ابن عمّه المستكفي، وهو يطلبه، بويع بالخلافة بعده يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة من عام ٣٣٤، وأُحضر المستكفي عنده فسلّم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع، وازداد أمر الخلفاء إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيّعون ويُغالون في التشيّع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثّهم على الطاعة، حتى لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعةً من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي[1] أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفةٍ تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة

---

(١) يقصد العبيدي صاحب إفريقية ومصر.

ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك[1]. فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهبهم مع حب الدنيا وطلب التفرّد بها، وتسلّم معز الدولة العراق بأسره ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته[2].

وخرج الخليفة المطيع لله مع معز الدولة لقتال ناصر الدولة الحمداني ووصلا إلى عكبرا، واستطاع ناصر الدولة أن ينتصر عليهما وأن يدخل بغداد فضعف أمر معز الدولة، ثم مكر بناصر الدولة فتغلب عليه، ثم تصالحاً وخرج ناصر الدولة إلى الموصل، وتمكّن معز الدولة في العراق فحجز على الخليفة وقرر له كل يوم مائة دينار نفقةً، غير أنه بعد عام أي سنة ٣٣٥ قد عاد فرفع عنه الحجز، وأعاده إلى دار الخلافة، وسارا معاً عام ٣٣٦ إلى البصرة حيث أخذاها من يد أبي القاسم البريدي.

وخرج في الكوفة عام ٣٥٣ المتبرقع وادعى أنه هاشمي، وكان معز الدولة يومئذٍ مشغولاً بقتال ناصر الدولة الحمداني في الموصل. وخرج ببلاد الديلم رجل اسمه أبو عبد الله محمد بن الحسين، وادعى أنه من نسل الحسين بن علي، رضي الله عنهما، وقد عظم شأنه في بلاد الديلم.

وأصيب المطيع لله بفالج عام ٣٦٣، وثقل لسانه فخلع نفسه، وتسلّم الأمر بعده ولده الطائع لله، ثم توفي المطيع في مطلع عام ٣٦٤ في شهر المحرم.

---

(١) قال صاحب التكملة: وعزم معز الدولة على أن يبايع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي فمنعه الصيمري من ذلك، وقال: إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك.

(٢) الكامل في التاريخ.

الرُّوم

كانت مفاداة بين المسلمين والروم عام ٣٣٥ على يد نصر الثملي أمير الثغور لسيف الدولة الحمداني، وكان عدد أسرى المسلمين٢٤٨٠ أسيراً من ذكر وأنثى على حين كان عدد أسرى الروم ٢٢٥٠ أسيراً فاضطر سيف الدولة أن يدفع مقابل زيادة ما بيد الروم من أسرى وهو مائتان وثلاثون أسيراً.

وازدادت هجمات الروم في النصف الثاني من القرن الرابع، فقد أخذوا جزيرة اقريطش (كريت) من أيدي المسلمين عام ٣٥٠. وجاء ملك الروم، وملك الأرمن إلى جهات (طرسوس)، وحاصرا حاضرتها، ولكنهما عجزا عن اقتحامها، كما هاجم ملك الروم بجيش عظيم ثغر (المصيصة) وأخذها قسراً، ثم سار إلى طرسوس عام ٣٥٤، فطلب أهلها الأمان فأمنهم وأجلاهم عن مدينتهم. وفي العام التالي اتجه الروم إلى (آمد) وحاصروها، ولم يتمكّنوا من دخولها، فساروا إلى نصيبين وكان سيف الدولة فيها. وسار الروم عام ٣٥٧ إلى مدينة إنطاكية وقتلوا وسبوا ورجعوا عنها غانمين، وبعد عامين تمكّنوا من دخول إنطاكية، وساروا إلى جهات حلب وصالحوا (قرعويه) مولى سيف الدولة.

وبدأ الروم بعد ذلك يتوغلون في أعماق بلاد المسلمين فقد تسلّلوا عام ٣٥٨ إلى مدينة حمص وأحرقوها، كما دخلوا مدينة طرابلس.

وهاجمت الروم الجزيرة وديار بكر، وقتلوا كثيراً من أهل (الرها)، ولم ينهض معز الدولة البويهي لقتالهم بل أنفق الأموال التي جمعت لسدّ الثغور على لهوه، فغضبت العامة عليه، وفي العام التالي أرسل معز الدولة

جيشاً لقتال الروم، وتمكّن هذا الجيش من إحراز النصر فسكتت حملة العامة عن معز الدولة.

وسار الروم عام ٣٤٢ إلى (آمد) ومعهم ملكهم، وقد حاصروا المدينة وعليها هزرمرد غلام أبي الهيجاء الحمداني فاستنجد بأبي تغلب بن ناصر الدولة فأرسل له أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، فنصرهم الله على الروم، وأسروا الدمستق ملك الأرمن والذي مات في السجن عام ٣٦٣.

وكانت أكثر الحروب مع الروم تحدث بينهم وبين الحمدانيين الذين كانت مهمة حماية الثغور قد آلت إليهم ووقعت على كاهلهم غير أن ضعفهم وتشيّعهم قد شجّع الروم فدخلوا حلب عدة مراتٍ ولكن قتالهم المستمر للروم أعداء المسلمين قد جعل المسلمين يثنون عليهم ويمدحون سيف الدولة حتى أصبح في نظر الناس بطلاً عظيماً وشجاعاً مغواراً وما هو كذلك، وإن مغالاته في التشيّع قد أغفلت وربما كانت سبباً في إهماله للثغور وهو ما شجّع الروم على المسلمين.

* * *

الإمارات

١ ـ البويهيون:

كان بنو بويه يُمثّلون إماراتٍ محليةٍ وإن كانوا يسيطرون على مقدّرات الخلافة في بغداد، وكانت إماراتهم متعددة إذ كان كبيرهم علي أبو الحسن عماد الدولة يحكم فارس وهو أمير الأمراء، ويحكم أخوه أحمد أبو الحسين معز الدولة باسمه العراق، والأهواز، وكرمان ونيابةً عنه، ويحكم أخوه الآخر أبو علي الحسن ركن الدولة الري، وهمذان، وأصبهان. وكان فيهم تعسف شديد، ومغالاة في التشيّع حتى كان عهدهم عصر صراع بين السنة والشيعة بشكلٍ واسعٍ، وتقوم مناحات الشيعة في عاشوراء بشكلٍ سيىءٍ، وبدعةٍ بشعةٍ.

مات عماد الدولة عام ٣٣٨، وقام ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع خسرو ابن ركن الدولة إذ لم يكن لعماد الدولة ولد مكانه. وتمكّن ركن الدولة من أخذ طبرستان، وجرجان من أمير الديلم (وشمكير) وضمّ هذه المناطق إلى إمارته، وأخذ معز الدولة بعد ذلك أمراً من الخليفة بولاية أخيه ركن الدولة على خراسان.

ومات معز الدولة عام ٣٥٦ وكان في عهده قد قوي شأن الأتراك، وقل شأن الديلم الذين انضموا إلى الذين ثاروا ضد معز الدولة، وقام بعده في بغداد ابنه بختيار وقد تلقب باسم عز الدولة، ويقال أن معز الدولة قد رجع إلى السنة والجماعة قبل موته[١]. وطمع منصور بن نوح الساماني في

---

(١) البداية والنهاية.

أملاك بني بويه لأن عز الدولة بختيار كان منصرفاً إلى اللهو والنساء والصيد غير أن ركن الدولة قد دعم ابن أخيه عز الدولة وردّ منصور بن نوح الذي مات في رحلة صيدٍ له بعد أن وقع عن ظهر جواده وبعد أن تصالح منصور بن نوح الساماني مع ركن الدولة بن بويه وابنه عضد الدولة على أن يحملا له كل عام مائة ألف دينار.

واختلف عز الدولة بختيار مع سُبُكْتُكين، وحاصر سبكتكين دار عز الدولة، وأخذ أهلها، وتغلب الأتراك على بني بويه، وكان عز الدولة في الأهواز ولم يستطع دخول بغداد وذلك عام ٣٦٣ فراسل عمه ركن الدولة فأرسل إليه أبا الفتح بن العميد كما استنجد بابن عمه عضد الدولة وكذلك راسل أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، فسار الأتراك ومعهم الخليفة الطائع لله وأبوه المطيع نحو واسط للقاء عز الدولة ولكن لم يلبث أن توفي المطيع لله المخلوع ثم توفي سبكتكين، فالتف الأتراك حول أمير منهم اسمه «افتكين» والتقوا مع عز الدولة بختيار الذي ضعف أمره وقوي أمر ابن عمه عضد الدولة فملك العراق.

٢ ـ الحمدانيون:

تقاتل ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل مع القائد «تكين» التركي، وقد وقعت عدة اشتباكات بينهما، وأخيراً تمكن ناصر الدولة من «تكين» واستقر له الأمر بالموصل والجزيرة في عام ٣٣٥.

عاد الخلاف بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني عام ٣٣٦ وتقدم معز الدولة نحو الموصل ففر ناصر الدولة إلى «نصيبين»، وعزم معز الدولة على أخذ كل ما يسيطر عليه الحمدانيون، ووقع ظلم من البويهيين على أهل الموصل فضاقوا ذرعاً بمعز الدولة، وساعدتهم الظروف إذ أن ركن الدولة قد استنجد بأخيه معز الدولة لقتال أهل خراسان، فاضطر معز الدولة أن يصالح ناصر الدولة الذي يغادر الموصل مقابل أن يدفع ناصر الدولة كل عام ثمانية آلاف درهم، وأن يدعو على المنابر لآل بويه: عماد الدولة، ومعز الدولة وركن الدولة.

وسار معز الدولة عام ٣٤٥ من بغداد إلى الأهواز للقضاء على بعض الحركات فيها فاستغل ناصر الدولة هذا الخروج ودخل بغداد، فلما انتهى معز الدولة البويهي من مهمته عاد إلى بغداد فرحل عنها الحمدانيون، غير أن ناصر الدولة قد امتنع عن دفع الأموال إلى معز الدولة الأمر الذي حمل معز الدولة إلى متابعة السير إلى الموصل وقتال ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة ووعده بأن يحمل الأموال إلى دار الخلافة في كل عام، ومع هذا التعهد فقد سار إليه معز الدولة في العام التالي ودخل الموصل فهرب ناصر الدولة إلى «نصيبين» فلاحقه معز الدولة، ففر إلى حلب حيث يستقل أخوه سيف الدولة، فراسل سيف الدولة الحمداني معز الدولة وأصلح بينه وبين أخيه وتعهد بأن يحمل ناصر الدولة إلى دار الخلافة في بغداد في كل عام مليونين وتسعمائة ألف درهم، كما تعهد أن يؤدي سيف الدولة ما على أخيه من أموال.

وعقد ناصر الدولة لابنه أبي تغلب ضمان الموصل، وديار ربيعة، والرحبة مقابل مال مقرر وذلك عام ٣٥٣، ثم اختلف ناصر الدولة مع ابنه أبي تغلب فسجن الولد أباه وظل في السجن حتى مات في شهر ربيع الأول من عام ٣٥٨، واختلف أبناء ناصر الدولة مع أخيهم أبي تغلب بعد وفاة أبيهم.

أما الحمدانيون في حلب فقد كان أميرهم سيف الدولة في صراعٍ دائمٍ مع الروم بصفته كان أمير الثغور أو أن الثغور قد آلت إمرتها إليه لا بصفته مجاهداً أو بطلاً مغواراً إذ لم يكن كذلك كما تصفه كتب الأدب من خلال مدح المتنبي له حيث كان يطمع من ورائه الحصول على إمارة، فمديحه قول شاعرٍ طامعٍ صاحب غايةٍ أو أنهما يلتقيان على فكرةٍ واحدةٍ هي فكرة المغالاة في التشيّع حتى لتقترب من فكرة القرامطة. وكان سيف الدولة في المعارك في مؤخرة الجند لا أمامهم فينجو عند الهزيمة ويفخر عند النصر.

دخل سيف الدولة عام ٣٣٧ بجيشٍ كثيفٍ بلاد الروم غير أنه هزم، وأخذ الروم كل ما بأيدي هذا الجيش الحمداني، كما نال أهل طرطوس

أذى كثير من الروم، ولم يستطع سيف الدولة حماية أحد من رعاياه لما اتصف به من خوف وخور. وعاد سيف الدولة عام ٣٣٩ فدخل بلاد الروم بجيش عظيم فانتصر وأخذ عدداً كبيراً من الروم أسارى، غير أن الروم قد قطعوا عليه الطريق أثناء العودة فهزموه وأخذوا ما معه من الأسرى، وقتلوا أكثر من معه، ونجا سيف الدولة بنفرٍ يسيرٍ معه لأنه كان في مؤخرة الركب. وعاد سيف الدولة إلى بلاد الروم عام ٣٤٢ وتمكّن من إحراز النصر في هذه المرة، وفي العام التالي أغار على زبطرة، وملاطية وهي ثغور إسلامية استولى عليها الروم فقتل وأحرق وسبى، والتقى مع قسطنطين بن الدمستق فانتصر عليه، وقتل أعظم رجاله، ثم التقى بجيش الدمستق عند «مرعش» وتغلّب عليه وأسر صهر الدمستق وابن ابنته، وهذا ما شجعه فعاد إلى بلاد الروم عام ٣٤٥ فأحرز انتصاراً كبيراً وعاد إلى حلب غانماً، فثارت ثائرة الروم فجمعوا جموعهم وهاجموا بعض مدن المسلمين قتلوا وأحرقوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، كما ركبوا البحر إلى ميناء طرطوس فقتلوا من أهلها ثمانمائةٍ وألف، وسبوا عدداً آخر، وأحرقوا عدة قرى، وكانت هذه أعظم انتصارات سيف الدولة على الروم.

وفي عام ٣٤٨ دخل الروم «الرها» و «طرطوس» وقتلوا، وسبوا، وأخذوا الأموال، فقابل سيف الدولة بذلك بدخول بلاد الروم عام ٣٤٩ واستطاع من إحراز النصر، وفتح عدة حصون، وقطع الروم عليه طريق الرجعة فقتلوا أكثر جيشه ولم ينج إلا سيف الدولة مع ثلاثمائة فارس. وسار جيش عظيم من إنطاكية باتجاه طرطوس فخرج عليه كمين من الروم فقتلوهم عن بكرة أبيهم ولم يفلت منهم سوى أمير أنطاكية وبه جراحات، ومن جهةٍ ثانيةٍ دخل «نجا» غلام سيف الدولة بلاد الروم ورجع غانماً.

وفي عام ٣٥١ دخل الدمستق حلب، وسيطر على دار سيف الدولة وكانت بظاهر حلب، وأخذ ما فيها من أموال وأمتعة ونساء، وقتل كثيراً من أصحاب سيف الدولة أما الأمير سيف الدولة فقد فرّ من بيته ومن حاضرته بعد أن ترك نساءه لخصمه، وبقي جيش الدمستق في حلب تسعة أيام وقد

فعل الجند فيها كل ما هو سيء، وكان الروم قد دخلوا قبل ذلك عين زربة وهي أحد ثغور المسلمين المهمة، وأُسر أبو فراس الحمداني يومها وكان نائب مدينة منبج لابن عمه سيف الدولة. كما أغار الروم على ضواحي «طرطوس».

أعاد سيف الدولة بناء ثغر «عين زربة»، وأرسل غلامه «نجا» فدخل بلاد الروم، إلا أن «نجا» لم يلبث أن خلع طاعة مولاه، وتحصّن في مدينة «حران» ثم سار إلى أذربيجان، وساعده في التغلّب عليها «أبو الورد» أحد الأعراب في تلك المنطقة، فسار إليه سيف الدولة وتمكن من قتله.

وفي عام ٣٥٤ ثار أحد القرامطة واسمه «مروان» في مدينة حمص وامتلكها من سيف الدولة، فأرسل إليه سيف الدولة مولاه بدراً، فالتقيا في معركة أصيب فيها مروان بسهم مسموم مات نتيجة ذلك بعد عدة أيام، وفي الوقت نفسه فقد أسر بدر في هذه المعركة وقتله أصحاب مروان. وفي العام ٣٥٥ تمت المفاداة بين سيف الدولة والروم وكان من أسرى الحمدانيين أبو فراس الحمداني. ولم يلبث أن توفي سيف الدولة عام ٣٥٦ فخلفه ابنه سعد الدولة أبو المعالي فاصطدم مع خاله أبي فراس فقتله عام ٣٥٧ غير أن «قرعويه» مولى أبيه قد غلبه واستولى على حلب، وهرب أبو المعالي، ولكنه عاد فعبر نهر الفرات وسار إلى حماه فامتلكها، ثم اتجه إلى حمص، وأعاد بناء ما خربه الروم عندما أغاروا عليها عام ٣٥٨، وصانع «قرعويه» الروم عندما اشتد بأسهم، ثم تصالح «قرعويه» و «أبو المعالي» عام ٣٥٩، واستقر وضع أبو المعالي في حلب نسبياً. وامتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين(١).

٣ ـ السامانيون:

تولّى أمر السامانيين عام ٣٣١ نوح بن نصر، واختلف مع ركن الدولة

---

(١) البداية والنهاية.

البويهي على خراسان، وهزم أمامه إذا انضمت بعض فرقه إلى ركن الدولة غير أنه تمكن من استعادة ما فقد عام ٣٣٣، ولم يلبث أن خرج عليه أحد قادته وهو أبو علي بن محتاج وهذا ما أحدث الفوضى في البلاد، ولم يكتف الأمر على ذلك بل إن بعض قادته قد كاتبوا إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الساماني وكان قد انضم إلى ناصر الدولة الحمداني، فجاءهم فبايعوه واستطاع أن يستولي على نيسابور، ومرو، وبخارى عام ٣٣٥ بعد أن دعمه المتمرد أبو علي، فسار إليهما نوح بن نصر، واختلف أبو علي مع إبراهيم، فرأى إبراهيم أن يتفق مع ابن أخيه نوح على أن يتولى قيادة جيوش السامانيين، وأن يخلع نفسه من البيعة التي بايعه بها بعض الجند والأمراء، وتّم هذا غير أنه عاد فدعم ابن أخيه الآخر محمد بن نصر ضد أخيه نوح بن نصر وبايعه، وبسبب هذه الفوضى ضعف أمر السامانيين فاستولى البويهيون على الري وبلاد الجبل.

تصالح نوح بن نصر مع قائده المتمرد أبي علي فقوي أمره واسترد ما فقده في الري وبلاد الجبل، لكن ركن الدولة البويهي قد أثار القائد أبا علي ضد سيده عام ٣٣٩ غير أن هذا الجفاء لم يلبث أن زال وتصالح أبو علي مع أميره وتسلّم قيادة الجند، وأرغم ركن الدولة البويهي على دفع جزية سنوية لنوح بن نصر.

شكّ نوح بن نصر بقائده أبي علي فعزله من القيادة، فراسل ركن الدولة، وسار إليه في الري، وتدخل الخليفة في الأمر، وأقرّ ركن الدولة على الري بمساعدة معز الدولة البويهي أخي ركن الدولة وذلك عام ٣٤٣، وفي هذا العام توفي نوح بن نصر، وخلفه ابنه عبد الملك بن نوح فقلّد إمرة الجيوش إلى بكر بن مالك وأرسله إلى بخارى لإخراج أبي علي منها، وقد تمّ له ذلك إذ انضم بعض فرق أبي علي إلى بكر وهذا ما أجبر أبا علي إلى الفرار والالتجاء إلى ركن الدولة في الري، ومات عبد الملك بن نوح عام ٣٥٠ بعد أن وقع عن ظهر جواده، وخلفه أخوه أبو صالح منصور بن نوح فخرجت عليه «سجستان» ودامت الحرب بينهما مدة سبع سنوات.

وعادت الحرب بين ركن الدولة البويهي ومنصور بن نوح عام ٣٥٦ واستمرت حتى عام ٣٦١ حيث تمّ الصلح بينهما على أن يدفع ركن الدولة مائة ألف دينار ويدفع ابنه عضد الدولة مبلغ خمسين ألف دينار لمنصور بن نوح الساماني، وتزوج نوح بن منصور ابنة عضد الدولة. ومات منصور بن نوح عام ٣٦٦ وخلفه ابنه نوح بن منصور باسم نوح الثاني.

٤ ـ القرامطة:

أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة عام ٣٣٩ بعد أن بقي عندهم في هجر اثنتين وعشرين سنة، وبعد أن طلب الفاطميون منهم ذلك إذ أن الناس قد تحدّثوا كثيراً في هذا الأمر وما آل إليه حكم أكثر أجزاء الدولة الإسلامية من رفض وقرامطة وأنهم جميعاً يرضون عما قام به القرامطة فخاف الفاطميون أن ينقلب هذا إلى ثورةٍ عامةٍ ضد الرافضة في كل مكان.

سار القرامطة عام ٣٥٣ إلى طبريا ليأخذوها من يد الإخشيد، ولما رأوا عجزهم طلبوا النجدة من سيف الدولة بالحديد فأمدهم بذلك، وتمكنوا من دخول دمشق عام ٣٥٧.

وأُجلي القرامطة عن عمان عام ٣٥٥.

ورجع القرامطة إلى دمشق عام ٣٦٠ وكان أمرها قد آل إلى العبيديين فتمكنوا من دخولها وكان نائبها جعفر بن فلاح، وزعيم القرامطة يومذاك الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمده عز الدولة البويهي من بغداد بالسلاح. ثم ساروا إلى الرملة فأخذوها أيضاً، واتجهوا نحو القاهرة غير أنهم هزموا على أبوابها ورجعوا إلى الشام، وذلك أنهم لما ساروا إلى مصر كان معهم أمير العرب ببلاد الشام حسان بن الجراح الطائي، وقد ضعف المعز لدين الله العبيدي عن قتالهم فراسل حسان بن الجراح ووعده بمائة ألف دينار فانهزم عند اللقاء بمن معه وهزمت بذلك القرامطة، وساروا إلى الشام، فلاحقهم العبيديون وأخذوا منهم الشام.

٥ ـ الإخشيديون:

مات الإخشيد محمد بن طغج الفرغاني عام ٣٣٤، وكان شجاعاً مهيباً، وقام مكانه ولده أبو القاسم أنوجور، وكان صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فكان كافور يدبر له الأمر. اضطرب أمر الشام، وأخذ سيف الدولة الحمداني دمشق من أصحاب الإخشيد، فسار إليه كافور فأجلى سيف الدولة عن دمشق وتبعه إلى حلب بعد أن انتصر انتصاراً حاسماً في مرج عذراء قرب دمشق، وأخرجه من حلب أيضاً، ولما رجع كافور إلى مصر رجع سيف الدولة إلى حلب، وعقد صلح بعد ذلك بين الطرفين. وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على توليته الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضم إلى حكم مصر فيما بعد كل بلاد سورية حتى مدينتي حلب وطرطوس. وبذلك عظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن تكون له سلطة شرعية[1]. وكان كافور يقدم لأنوجور سنوياً أربعمائة ألف دينار، ولما كبر أنوجور حدثت وحشة بينه وبين كافور بسبب استبداد الثاني بالأمر رغم أن السلطة باسم الأول.

توفي أنوجور وخلفه أخوه أبو الحسن علي بن الأخشيد، وبقي كافور صاحب السلطة الفعلي بل منع الناس من الاجتماع بأبي الحسن فبقي رهن قصره يأخذ راتبه إلى أن توفي عام ٣٥٥، وخلفه اسماً ابنه أحمد غير أن كافور قد حال دون تعيين هذا الأمير خلفاً لأبيه وبقيت مصر ما يقرب من شهر دون والٍ بصورة رسمية، وتمكن كافور من أن يستصدر كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده إمرة مصر، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفي عام ٣٥٧. وفي هذه المدة التي تزيد على السنتين من ولاية كافور تعرّضت مصر والشام لغارات القرامطة من الشرق، وتعرضت أيضاً لغارات العبيديين من جهة الغرب، كما أغار ملك النوبة على مصر من جهة الجنوب.

---

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن.

وبعد أن توفي كافور اختار امراء الجيش أحمد بن علي أبي الحسن والياً، ولما كان صغيراً فقد عُيّن وصياً عليه والي الشام الحسن بن عبيد الله فاستبد بالأمر، ثم اضطر أن يعود إلى الشام، وجاء العبيديون فدخلوا مصر ثم الشام، وأسر الحسن بن عبيد الله ونقل إلى المغرب وبقي فيها حتى مات عام ٣٧١.

٦ ـ العبيديون:

مات أمير العبيديين أبو القاسم القائم نزار بن عبيد الله المهدي عام ٣٣٤ وتولى الإمر بعده ابنه المنصور أبو طاهر إسماعيل، وكان القائم شرّاً من أبيه، زنديقاً ملعوناً، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي: إلعنوا الغار وما حوى، وقتل خلقاً من العلماء[١]. ومات المنصور إسماعيل العبيدي عام ٣٤١، وولي الأمر بعده ابنه معد وتلقب بالمعز لدين الله، وكان المنصور حسن السيرة بعد أبيه أبطل المظالم فأحبه الناس[٢].

وبعد أن مات كافور الإخشيدي عام ٣٥٧ اختلّ النظام، وقلّت الأموال على الجند فكتب جماعة من مصر إلى المعز يطلبون منه عسكراً ليسلّموا إليه البلد، وكان القرامطة قد قصدوا مصر ليملكوها، فأرسل المعز قائده جوهر الصقلي في مائة ألف فارس فملك مصر، واختط القاهرة وبنى دار الإمارة، وقطع الخطبة لبني العباس، ومنع لباس السواد، وأمر الخطباء أن يلبسوا البياض، وأن يقال في الخطبة: اللهم صليّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، وصلي على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز بالله وذلك في شهر شعبان من عام ٣٥٨. وفي شهر ربيع الثاني من عام ٣٥٩ أمر أن يقال في الأذان بدعة «حي على خير العمل»، وشرع في بناء الجامع الأزهر. ثم دخل دمشق وتولّى أمرها عن المعز جعفر بن فلاح، وأضيف

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) المصدر السابق.

إلى الأذان البدعة المعروفة أيضاً «حي على خير العمل» عام ٣٦٠، وانتقل المعز إلى مصر في شهر رمضان من عام ٣٦٢. وإن ما فعله الفاطميون في دمشق من قتل، وحرائق، وفتن قد جعل خطباءها يلعنون العبيديين على المنابر بل طلب أهلها النجدة من القرامطة وهم على سوئهم أيضاً، ظنوا بأن يكونوا أقل سوءاً من العبيديين وكذا فعلوا بطبريا بعد أن قضوا على أميرها من قبل الإخشيديين وهو فاتك، وكذا بالرملة عندما انتصروا على الوصي، وأمير الرملة الحسن بن عبيد الله بن طغج.

لما أرسل جوهر الصقلي قائد العبيديين خبر انتصاراته إلى سيّده وتوسّل له بالقدوم إلى مصر، غادر المعز حاضرته «المنصورية»[1]، واستخلف على إفريقية شيخ صنهاجة «بلكين بن زيري بن مناد» ومرّ على جزيرة سردينيا التي خضعت هي وصقلية لنفوذه، ومنها سار إلى القاهرة، حيث غدت حاضرةً له فقلّت بذلك سطوته على المغرب فاستقلّ واليه «بلكين بن زيري» في منطقة تونس عام ٣٦٢، وأسس الدولة الزيرية وإن بقي يدعو للمعز. وبوجود الخليفة العبيدي في القاهرة أفل نجم بانيها جوهر الصقلي غير أن اشتداد ضغط القرامطة، وزيادة نفوذ الأتراك قد أجبر الخليفة العبيدي على إعادة جوهر إلى قيادة الجيوش، وتوفي المعز لله عام ٣٦٥، وخلفه ابنه نزار أبو منصور الملقب العزيز بالله، ودعي للعبيديين بالحرمين عام ٣٦٣.

ومن قبل قام الخوارج بثوراتٍ على العبيديين في المغرب، الأباضيون، والصفريون على حدٍ سواء، ولكن لم يكتب لهذه الثورات النجاح، فمذ عجز أبو يزيد مخلد بن كيداد الأباضي عن دخول المهدية

---

(١) المنصورية: مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية، استحدثها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب عام ٣٣٧، وعمّر أسواقها، واستوطنها، ثم صارت منزلاً للملوك الذين لهم والذين زعموا أنهم علويون، وملكوا مصر، ولم تزل منزلاً لملوك إفريقية من بني باديس حتى خربتها العرب لما دخلت إفريقية وخربت بلادها بعيد سنة ٤٤٢ فكانت هي فيما خربت في ذلك الوقت.

انقسمت جيوشه إلى فرقٍ مختلفة الهوى متباينة الرأي، وهذا ما جعل الهزيمة تحلّ به أمام المنصور عام ٣٣٥، ثم وقع أسيراً وهو مثخن بالجراح بعد أن توالت عليه الهزائم، ومات في السجن عام ٣٣٦ متأثراً بجراحه. وحاول الفضل بن أبي يزيد القيام بحركة بعد وفاة أبيه ضد المنصور العبيدي غير أنه هُزم وقُتل، وحاول أخوه أيوب بن أبي يزيد زعامة ثورة إلا أنه هُزم واغتيل على يد أحد رؤساء قبيلة «مغراوة» وأرسل رأسه إلى المنصور العبيدي.

واستغل محمد بن الفتح بن ميمون الملقب باسم الشاكر لله قيام الأباضيين بحركتهم بإمرة أبي يزيد وانشغال العبيديين بالقضاء عليها فقام يقود الصفرية لقتال العبيديين، وعندما آل أمر العبيديين إلى المعز لله عام ٣٤١ أثار قبيلة كتامة للقيام بمهمة قتال الشاكر لله لكنها تثاقلت بحجة بُعد الشقة وصعوبة الطريق، وهذا ما زاد من كثرة المتمردين في المغرب على الحكم العبيدي الأمر الذي جعل المعز لله يُعدّ حملةً كبيرةً تعيد للحكم هيبته في المغرب وقد أوكل إمرتها إلى جوهر الصقلي. سارت الحملة إلى سلجماسة وحاصرتها مدة ثلاثة أشهر، وحاول قائدها جوهر أن يعطي الأمان لسكان المدينة مقابل تسليمهم الشاكر لله فلم يفلح، وتمكن الشاكر لله أن يفرّ من المدينة وأن يلتجئ إلى أحد الحصون القريبة منها، ودخل بعدها جوهر سجلماسة وأصدر عفواً عاماً عن السكان، وبعد مدةٍ تسلّل الشاكر لله إلى المدينة لقتال خصومه داخلها، فقُبض عليه، وأخذ أسيراً إلى القيروان، وبقي في سجنه حتى توفي عام ٣٥٤، وعيّن جوهر والياً من قبله على سجلماسة، وعاد هو إلى المنصورية، وما أن غادر جوهر سجلماسة حتى ثارت الصفرية على الوالي العبيدي، وقتلته، ونصبّت عليها أحد أبناء الشاكر لله أميراً ولقبته المنتصر لله، وحتى لا تعود الحرب كتبت الصفرية إلى المعز لله أنهم على الطاعة، وهو بدوره حرصاً على السلامة وعدم تجدد الثورة فقد وافق على تعيين الوالي الذي تّم اختياره من قبلهم وهو المنتصر لله، ودعاهم لزيارته في المنصورية فساروا إليه فاستقبلهم وعفا

عنهم وأيّد اختيارهم الأمير وقدم لهم الهدايا وعادوا أدراجهم، غير أنه لم يلبث ابن الشاكر لله الآخر وهو أبو محمد أن ثار على أخيه وقتله وخلع طاعة العبيديين وذلك عام ٣٥٢ وتلقب باسم المعتز، وانتهى نفوذ العبيديين نهائياً من سجلماسة منذ ذلك الوقت.

وجاءت أعداد كبيرة من الروم والفرنجة عام ٣٥٣ ويزيد عددهم على مائة ألف يريدون صقلية فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم ففروا بعد أن فقدوا الكثير منهم فلاحقهم المسلمون في المراكب فأغرقوا عدداً من سفنهم وأسروا عدداً آخر ممن فر.

٧ ـ الأمويون:

كان عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي في الأندلس، وقد بنى مدينة «سالم» عام ٣٣٥ وتقع شمال شرقي مدريد بمائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً، كما بنى مدينة «المرية» على ساحل البحر المتوسط لتكون قاعدةً للأسطول الأندلسي عام ٣٤٤. وحدث في هذا العام قتال بين عبد الرحمن الناصر الأموي والمعز لدين الله العبيدي.

وتوفي عبد الرحمن الناصر عام ٣٥٠ بعد أن وطد أركان البلاد وخلفه ابنه الحكم الثاني الذي تلقّب باسم المستنصر بالله، واستمرت أيامه حتى عام ٣٦٦، وكانت أيامه هادئةً، والبلاد مستقرةً على أسسٍ ثابتةٍ، ازدهرت فيها العلوم، ونعمت بالعمران، وقد أعدّ عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم إعداداً جيداً وهيأه لتسلّم أمور الأندلس، وكان الحكم ميّالاً للسلم فاستغل النصارى في الشمال هذه النقطة، وظنّوا فيه ضعفاً، فبدأوا بالهجوم على أطراف البلاد فجّهز جيشاً قوياً قاده بنفسه لتأديب النصارى فردّهم على أعقابهم خاسرين، وأمّن حدود بلاده.

هاجم النورمان في عهده الأندلس، وهم من شمالي أوروبا ولا يزالون على الوثنية وأطلق عليهم اسم المجوس، وأغاروا على عدة مناطق، وقد

استقر بعضهم في شمال غربي فرنسا بعد الغارة على تلك الجهات وأخذت اسمهم (نورماندي)، وتشير المصادر إلى أن أصلهم من جهات الدانمارك، وأقام بعضهم في جنوبي إيطاليا، واستعملتهم الكنيسة للهجوم على المسلمين فدخلوا صقلية فيما بعد.

تعرّضت سواحل بحر الغرب (المحيط الأطلسي) لغارات هؤلاء النورمان المجوس وقد تركّزت غاراتهم على منطقة لشبونة وذلك في عام ٣٥٥ وعام ٣٦١، كما تعرضت السواحل الشرقية سواحل البحر المتوسط لهجمات المغيرين أنفسهم وذلك في عام ٣٥٤ وعام ٣٦٠ وتركّزت غاراتهم على مرفأ (المرية).

ويمكن أن نقول في هذا المجال: إن المسلمين قد أسسوا لهم دولةً في شمال مرسيليا امتدت من ساحل البحر إلى سويسرة وشملت شمالي إيطاليا وجنوب شرقي فرنسا وجزءاً من سويسرا، وعرفت باسم دولة جبل القلال، ودامت أيامها من عام ٢٧٧ إلى عام ٣٦٥، وظن الأوربيون أن هذه ذات صلة بالمسلمين في الأندلس لذا فقد انطلقت سفاراتهم إلى قرطبة لبحث شأن هذه الدولة، ولم يكن لأهل الأندلس علاقة بها.

٨ ـ اليمن:

قامت في اليمن عدة دولٍ منها في هذه المرحلة دولة بني زياد في زبيد، ودولة بني يعفر في صنعاء، ودولة بني الرسّ في صعدة، وهم الأئمة الزيود، وكان الإمام في هذه المدة المنصور يحيى ودام حكمه من عام ٣٢٥ إلى عام ٣٦٦.

-٢٤-

الطائع لله
عبد الكريم بن الفضل المطيع
٣٦٣-٣٨١

هو عبد الكريم بن الفضل المطيع، أبو بكر، ولد عام ٣٢٠[١]، وأمه أم ولد تدعى «هزار»[٢]. تنازل له أبوه المطيع عن الخلافة عام ٣٦٣ فكان عمره ثلاثةً وأربعين عاماً، فركب وعليه البردة ومعه الجيش، وسار بين يديه سبكتكين، وفي اليوم التالي خلع على سبكتكين، وعقد له اللواء، ولقّبه نصر الدولة.

كان شديد الانحراف إلى الطالبيين، سقطت هيبة الخلافة في أيامه جداً حتى هجاه الشعراء، إذ كان يخرج لاستقبال عضد الدولة على غير عادة الخلفاء.

وقبض بهاء الدولة البويهي عام ٣٨١ على الخليفة الطائع لله، وانطلق الناس ينهبون ويسرقون، وكتب بهاء الدولة كتاباً على الخليفة يخلع فيه نفسه، وأشهد عليه، وأعطيت الخلافة من بعده للقادر بالله، وبقي الطائع لله عند الخليفة الجديد حتى توفي عام ٣٩٣ ليلة عيد الفطر، وقد صلّى عليه الخليفة.

كان أبيض مربوعاً، حسن الجسم، وكان أنفه كبيراً. وكان شديد القوة كثير الإقدام.

---

(١) وقيل: إن مولده كان سنة ٣١٧.

(٢) وذكر أن اسم أمه «عتب».

الرّوم

لما مات ملك الروم أرمانوس خلّف ولدين صغيرين ملكا بعده، وكان يوم موته نقفور (الدمستق) يغير على بلاد المسلمين فلما رجع وعلم بموت أرمانوس طمع بالحكم وسوَّل له بعض القادة ذلك إذ لا يصلح الطفلان الصغيران لهذه المهمة الكبير، فتزوج من أمهما وتسلّم أمر السلطة، غير أنه قد حصلت جفوة بينه وبين أم الملكين زوجته فراسلت (ابن الشمشقيق) وحسّنت له أمر قتل نقفور والقيام بالأمر مكانه ففعل وتمّ له الوضع فقبض على أخي نقفور وهو (لاون) وعلى ابنه (ورديس) وسجنهما، ثم قام بالغارة على بلاد المسلمين، وبلغ طرابلس.

تمكّن خال الملكين الصغيرين أن يسقي (ابن الشمشقيق) السمّ ومات، وعظم أمر الملكين الصغيرين، غير أن (ورد بن منير) أحد عظماء البطارقة قد طمع بالحكم وأراد أن يستعين بالحمدانيين في تحقيق أمره فراسل أبا تغلب الحمداني فوعده بالدعم، فجمع (ورد) جموعه وبدأ من قرب الثغور واتجه إلى الروم، فسيّر له الملكان الصغيران جيشاً إثر جيش فكان (ورد) ينتصر في قتاله ويتابع سيره فلما اقترب من القسطنطينية خاف الملكان الصغيران عاقبة الأمر فأخرجا ورديس بن لاون من السجن وقدماه على الجيوش فهزم خصمه، وفرّ (ورد) إلى بلاد المسلمين وراسل عضد الدولة غير أن الملكين قد راسلا أيضاً عضد الدولة الذي رأى أن يأخذ جانب الصغيرين فقبض على (ورد) وسجنه عام ٣٦٩، وبقي ورد في سجن المسلمين حتى عام ٣٧٥ حيث أطلق سراحه صمصام الدولة بشرط أن يطلق عدداً من أسرى المسلمين، وأن يسلم له سبعة حصون من بلاد الروم برساتيقها، وألا يقصد بلاد المسلمين ما دام حياً لا هو ولا أحد من أصحابه، فرجع إلى بلاد الروم، ولم يتمكن من الحكم وإن حصل على جزءٍ سيطر عليه.

الإمارات

١ ـ البويهيون:

وقع خلاف بين عز الدولة بختيار وبين نصر الدولة سبكتكين فدعم الأتراك نصر الدولة ووقعت حروب بين الطرفين، واضطر عز الدولة أن يستنجد بعمه ركن الدولة وبابن عمه عضد الدولة، وكان من قبل لا يستشير عمه إذ ترك الاستشارة، ويناوئ ابن عمه عضد الدولة، ولكن عندما اشتدت الأمور عليه لم يجد بُدّاً من الاستشارة وطلب النجدة، كما طلب دعم أبي تغلب بن حمدان.

وجاء عضد الدولة لدعم ابن عمه عز الدولة عام ٣٦٤ ودخل بغداد وطاب له المقام فيها فملكها واستمال الجند إليه فشغبوا على عز الدولة الذي لم يجد بُدّاً من أن يلزم بيته ويغلق بابه. وكتب عضد الدولة إلى الأمصار على لسان الخليفة باستقرار الوضع لعضد الدولة.

وقعت جفوة بين الخليفة الطائع لله وعضد الدولة الأمر الذي استدعى أن يقطع عضد الدولة الخطبة عن الطائع مدةً تزيد على الشهر والنصف.

ولما اعتزل عز الدولة بختيار الملك كتب ابنه المرزبان من البصرة وكان والياً عليها من قبل أبيه كتب إلى عمّ أبيه ركن الدولة يشكو له ما حلّ بأبيه وأعمامه من عضد الدولة ووزيره أبي الفتح بن العميد، فأجابه بدعم والده وحتى السير إلى العراق إذا اقتضى الأمر وإخراج عضد الدولة منها.

واضطربت أحوال العراق على عضد الدولة إذ خلع طاعته المرزبان بن عز الدولة في البصرة، كما خلع الطاعة كل من محمد بن بقية في واسط،

وسهل بن بشر في الأهواز، وكل يظهر الأسف لما حلّ بعزّ الدولة، ولما سار عضد الدولة لتأديب محمد بن بقية في واسط هزمت جيوشه أمام جند ابن بقية. وحاول عضد الدولة كسب والده ركن الدولة إلى جانبه وعدم دعمه لعز الدولة بإظهار ضعفه والخوف من ذهاب الملك من الأسرة نهائياً نتيجة هذا الضعف غير أن الأب قد بقي بجانب ابن أخيه وأصرّ على ولده بترك بغداد لابن عمه، فاضطر عضد الدولة إلى مغادرة بغداد والانتقال إلى فارس وترك الأمر لابن عمه عز الدولة على أن يكون نائباً له كما ترك معه أخاه أبا إسحاق يعاونه. وأرسل عضد الدولة إلى عُمان المطهر بن عبد الله فاستولى عليها، وخلت كرمان من جند البويهيين فخلع أهلها الطاعة فأمر عضد الدولة أن يسير إليهم المطهر بن عبد الله فسار إليهم وأخضعهم.

وتنازل ركن الدولة عمّا تحت يده لأولاده فأخذ عضد الدولة فارس وكرمان، وأخذ مؤيد الدولة الري وأصبهان، وأخذ فخر الدولة همدان والدينور وبعدها بقليل توفي ركن الدولة[1] عام ٣٦٦.

ولما مات ركن الدولة تجهز ابنه عضد الدولة للسير إلى العراق لما كان يبلغه عن ابن عمه عز الدولة من التحريض عليه، ثم سار عام ٣٦٧، وأرسل إلى عز الدولة يدعوه إلى طاعته، وأن يسير إلى أي جهةٍ يريدها مبتعداً عن العراق فوافق وعزم السير إلى الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة الحمداني، فلما قطعا شوطاً في السير ووصلا إلى (عكبرا) اقترح حمدان على عزّ الدولة المسير إلى الموصل وأخذها فهي أفضل من الشام فوافقه.

---

(١) كان ركن الدولة حليماً كريماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنده، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجد والسعادة، متحرجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها واجباً إلا فيما لا بدّ منه، وكان يحامي عن أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق ويصونهم عن التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة في أشهر الصيام للصلاة وينتصب لرد المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام. (الكامل).

وتبعهما عضد الدولة يريد الموصل وتخليصها من أبي تغلب الحمداني، فراسل أبو تغلب عزّ الدولة بأن يسلمه أخاه حمدان فإن فعل قاتل معه عضد الدولة وأعاده إلى بغداد ليملكها ففعل عز الدولة ذلك، فسجن أبو تغلب أخاه حمدان في قلعة وسار إلى عزّ الدولة فالتقيا في (الحديثة) وعلم بذلك عضد الدولة فسار إليهما فالتقى الجمعان بالقرب من (تكريت) فانتصر عضد الدولة وأخذ ابن عمه عزّ الدولة أسيراً وقتله، واستقر له ملك العراق، وسار إلى الموصل فملكها وهرب أبو تغلب إلى (نصيبين)، واستمر عضد الدولة يلاحق أبا تغلب الذي ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى دمشق ولم يتمكن من دخولها فاتجه نحو طبريا فقتل هناك. وبقي عضد الدولة[1] في ملكه حتى توفي عام ٣٧٢ بعد أن ملك بلاد أخيه فخر الدولة الذي كان مناوئاً له، كما استولى على جرجان، وقام بعده ابنه المرزبان أبو كاليجار وتلقب صمصام الدولة.

وتوفي مؤيد الدولة بن ركن الدولة عام ٣٧٣ فبعث أبو القاسم بن عباد الوزير إلى فخر الدولة فولاه الملك وقد تصالح بعدها فخر الدولة مع صمصام الدولة.

واختلف شرف الدولة بن ركن الدولة مع أخيه صمصام الدولة ووقع القتال بين الطرفين وانتصر شرف الدولة ودخل بغداد وملكها عام ٣٧٦ وسجن أخاه صمصام الدولة في بعض قلاع فارس، واختلف شرف الدولة مع عمه فخر الدولة.

---

(١) عضد الدولة: خسرو أبو شجاع بن ركن الدولة، وهو أول من تسمى شاهنشاه أي ملك الملوك. كان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه، وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا، وكان محباً للعلوم وأهلها مقرباً لهم محسناً إليهم، وكان يجلس معهم ويعارضهم في المسائل فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب. وعمل المصالح في سائر البلاد كالمستشفيات والقناطر غير أنه فرض الضرائب الجائرة في أواخر حياته.

وتوفي شرف الدولة عام ٣٧٩ وتولى الملك بعده أخوه أبو نصر الذي تلقب باسم بهاء الدولة وضياء الملة. ولم يلبث صمصام الدولة أن فرّ من سجنه وانتصر على جيش أخيه بهاء الدولة ثم تصالحا على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس ولبهاء الدولة العراق والأهواز، ثم عاد الخلاف فدبّ بينهما من جديد.

٢ ـ الحمدانيون:

رجع أبو المعالي إلى حلب بعد أن كان قد ملكها مولى أبيه تغلب قرعويه، وكان أبو المعالي بن سيف الدولة بحمص فكاتبه أهل حلب فجاء إليهم وحاصر المدينة أربعة أشهر ثم دخلها عام ٣٦٦، ولكن تحصّن بقلعتها نكجور، وامتنع عن أبي المعالي، ثم تصالح معه على أن يُعطى نكجور الأمان ونيابة حمص فأُعطي ذلك وانتقل بعدها إلى نيابة دمشق للعبيديين ثم اختلف معهم فعاد إلى حمص والياً لأبي المعالي.

ولما تغلب عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة سار فأخذ الموصل من أبي تغلب الحمداني وديار بكر وربيعة وتسلّط على أبي المعالي بن سيف الدولة في حلب. ثم قُتل أبو تغلب الحمداني في طبريا بعد أن حاصر دمشق وعجز عن دخولها، وقد أنهكته كثرة الحروب وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني وزوجته ابنة سيف الدولة أخت أبي المعالي فحمل بنو عقيل ركبه إلى حلب فأخذ أبو المعالي أخته وسيّر جميلة الحمدانية إلى أبي الوفا في الموصل نائب عضد الدولة فسيّرها أبو الوفا بدوره إلى عضد الدولة فسجنها عنده.

وعاد سعد الدولة أبو المعالي فاختلف مع واليه نكجور نائب حمص الذي طلب مساعدة العبيديين فطلب أبو المعالي دعم الروم ووقعت الحرب وانتصر أبو المعالي، وتوفي سعد الدولة عام ٣٨١.

واستعاد أبو طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة وأخوه أبو عبد الله الحسين عام ٣٧٩ نفوذهما في الموصل لمدة سنة واحدة.

٣ ـ السامانيون:

توفي منصور بن نوح عام ٣٦٦ وقام بعده ولده أبو القاسم نوح بن منصور وتلقب بالمنصور، وكان صغيراً إذ لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، فاستغل هذه السن قائد الجيش الساماني في خراسان واستقل بما تحت يده، وقامت الحرب بين نوح بن منصور الساماني وعضد الدولة البويهي الذي استولى على جرجان، وإن هزيمة السامانيين هذه قد جعلت بعض أفراد البيت الساماني يقومون بالثورة. وبالجملة فإن أيام هذا الأمير قد طالت حتى عام ٣٨٧ إلا أنها كانت مليئةً بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سن الأمير، كما كثر تدخل أمه في شؤون الحكم، وكذلك الوزراء الذين لم يقل تدخلهم عن تدخل أمه، وقد طمع بنو بويه في بلاده وكذلك طمع الأتراك، وقامت فوق كل ذلك المنافسة بين أمراء البيت الساماني نفسه.

٤ ـ الغزنويون:

كان أحد الموالي الأتراك المقدمين عند السامانيين يدعى البتكين، وقد عين والياً على مدينة (هراة) ثم عزل عن منصبه فانتقل إلى مدينة (غزنه) التي كان والده والياً عليها من قبل السامانيين أيضاً، فلما توفي حل محله في حكمها وناوأ السامانيين الذين أبعدوه عن حكم هراة ولكنه توفي بعد عام أي ٣٥٣، وقام ابنه إسحاق في غزنه بالدور نفسه غير أنه لم يستطع توسعة رقعة نفوذه، وتوفي عام ٣٥٥، وقام من بعده مواليه ومنهم سبكتكين الذي آل إليه الأمر عام ٣٦٦ إذ قدمه الجند «لما عرفوا من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولّوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة»[١]، وهو زوج ابنة البتكين.

بدأ سبكتكين بتوسعة رقعة أملاكه فاستولى على (قصدار) قرب غزنة

---

(١) الكامل في التاريخ.

وعلى (بست) بين هراة وسجستان، كما ساعد السامانيين فأخذ ولاية خراسان، وكذلك استولى على جزء من الهند فأخذ بعض المواقع الجبلية منها حيث مدينة كابل. وكان سبكتكين يعترف بسلطة السامانيين عليه رغم استقلاله.

٥ ـ القرامطة:

عندما حدثت فتنة الأتراك في بغداد وهزم سبكتكين ثم توفي، فرّ الفتكين في جماعة من أصحابه وسار نحو حمص، واتجه إليه ظالم بن موهوب العقيلي نائب دمشق للعبيديين ليأخذه فلم يتمكن فعاد، وسار الفتكين إلى دمشق فدخلها برأي كبارها، وقد وعدوه بالطاعة ووعدهم بالحماية، وأخرج نائب دمشق للعبيديين ريان الخادم، وقطع الخطبة للمعزّ وخطب للطائع، ثم راسل المعز ليداريه، فشكره وأظهر سروره وطلب منه القدوم إليه على أن يعيده إلى دمشق والياً عليها من قبله، غير أن (الفتكين) لم يثق بالمعز فلم يقبل، فجمع المعزّ جنده، ورغب في السير إلى دمشق لكن المنية أدركته دون تحقيق مأربه فاستغل (الفتكين) موت المعز وأغار على مدن الساحل الشامي التي تتبع العبيديين مثل صيدا التي كان فيها ظالم بن موهوب العقيلي.

سمع العزيز بالله العبيدي بما يفعله (الفتكين) فسيّر جيشاً إليه بإمرة جوهر الصقلي والتقى الطرفان، ودامت الحرب بينهما شهرين فاستنجد (الفتكين) بالحسين بن أحمد القرمطي فجاءه من الإحساء فلما علم جوهر بذلك غادر دمشق، وسار في إثره (الفتكين) والقرمطي، وحاصراه في عسقلان وضاقت عليه الحال، ثم إن جوهراً قد التقى بـ (الفتكين) واتفقا، وسمح (الفتكين) لجوهر بالانسحاب إلى مصر، وجاء العزيز بجيش إلى القرمطي والفتكين وقد رجعا إلى الرملة، والتقى الطرفان، وتمكن العزيز من أسر (الفتكين) ببذل المال لمن يأتي به، فأكرم العزيز الفتكين كثيراً وأخذه معه إلى مصر، وبقي فيها حتى مات مسموماً. وسار القرمطي إلى طبريا

فطلب العزيز منه أن يأتي إليه فيكرمه أكثر من (الفتكين) فلما رفض أرسل له عشرين ألف دينار، وجعلها كل سنة له، فأخذها القرمطي ورجع إلى الإحساء.

وفي عام ٣٦٦ توفي مقدم القرامطة أبو يعقوب يوسف بن أبي سعيد الجنابي، وقام من بعده ستة لم يختلفوا فيما بينهم أبداً، وكانوا يعرفون باسم السادة، كما توفي في العام نفسه الحسين بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي زعيم جيوش القرامطة إلى الشام، وكان يظهر الطاعة للخليفة العباسي.

وفي عام ٣٧٣ سار القرامطة إلى البصرة والكوفة ليأخذوهما وذلك بعد وفاة مؤيد الدولة بن ركن الدولة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٣٧٥ أفسد القرامطة في منطقة الكوفة فأرسل إليهم صمصام الدولة جيشاً طردهم من منطقة الكوفة وقتل مقدمهم وهو أحد سادتهم.

٦ ـ العبيديون:

توفي المعزّ أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل عام ٣٦٥، وقام بعده ابنه نزار الذي لُقّب بالعزيز، وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً شجاعاً جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة ثم أظهره وأمر الدعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حدٍ يذم[١].

اتسعت رقعة الدولة العبيدية أيام العزيز إذ ضم بلاد الشام كلها بعد أن فتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب أبوابها، وأرسل جيشاً إلى مكة ودخلها بعد أن حاصرها وخُطب له فيها عام ٣٦٥، كما خطب له في الموصل عام ٣٨٢.

---

(١) الكامل في التاريخ.

أقرَّ العزيز والي أبيه يوسف بلكين بن زيري بن مناد[1] شيخ صنهاجة على إفريقية بل ضم له أيضاً طرابلس، وسرت، وأجدابيه، فاستبد يوسف بما تحت يده، وإن بقي يظهر الطاعة والمجاملة للعزيز.

وزحف إلى سجلماسة خزرون بن فلفول المغراوي وقتل أبا محمد المعتز إمام الصفرية وبعث برأسه إلى قرطبة عام ٣٦٥ فزالت الصفرية من المغرب نهائياً. وقاتل يوسف بلكين زناتة في المغرب، وأزال عمال الأمويين منها.

وكان أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسين قد فتح عدة حصون، ثم سار إلى صقلية بردويل بجموعٍ كثيرةٍ من الفرنجة، وحاصر مالطة وملكها، فخافه أبو القاسم ففر منه فلحقت به الفرنجة، وأدركته، وجرت معركة بين الطرفين عام ٣٧٢ قُتل فيها أبو القاسم، وقام مكانه ابنه جابر، وعاد إلى منازلة الفرنجة فانتصر عليهم.

ومات يوسف بلكين بن زيري عام ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور الذي سار إلى المغرب ليردّ الزناتيين إلى طاعته فهُزم أمامهم.

وثارت كتامة بتحريضٍ من العزيز الفاطمي فاتجه المنصور نحوها فانتصر عليها عام ٣٧٧، ولكنه خرج أبو الفرج الكتامي مرةً ثانيةً غير أنه هُزم أيضاً أمام المنصور كما هُزم سلفه.

وخالف المنصور عمه أبو البهار غير أنه ندم فعاد وصالح ابن أخيه المنصور.

ووجه العبيديون أيام العزيز اهتمامهم لنشر فكرتهم متظاهرين بالتشيّع

---

(١) كان بدء أمر بلكين أنه من قواد المعز، وأبلى في إخضاع زناتة بالمغرب البلاء الحسن، فلما استولى العبيديون على مصر، وانتقل المعز إليها ولاه إفريقية ما عدا صقلية وطرابلس إذ كان الكلبيون يحكمون الأولى ويحكم الثانية كتامة، وسماه يوسف بدلاً من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة، وفي أيامه ثار أهل المغرب الأقصى وخلعوا الطاعة وخطبوا للأمويين في الأندلس فسار إليهم وأخضعهم.

لذا عملوا على نشر الفكر الشيعي الذي بدأ يُصاغ بشكلٍ يظهر الماضي حسب هذا الفكر.

وكان العزيز فوق هذا كريماً محباً للعفو، واشتهر بتسامحه مع النصارى واليهود كما كان أبوه من قبل، وتزوج بنصرانيةٍ، وتوالى عطفه على الكنيسة القبطية وقلّد عيسى بن نسطوريوس النصراني الوزارة، كما عيّن منشابن إبراهيم اليهودي بلاد الشام[1].

٧ ـ الأمويون:

في عام ٣٦٦ توفي الحكم وهو المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي، وقد كان هذا من خيار الملوك وعلمائهم، وكان عالماً بالفقه، والخلاف، والتواريخ، محباً للعلماء محسناً إليهم، توفي وله من العمر ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر، ومدة خلافته منها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده ولده هشام وله عشر سنين، ولقب بالمؤيد بالله، وقد اختلف عليه في أيامه، واضطربت الرعايا عليه، وحُبس مدة ثم أُخرج وأعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري[2]، وابناه المظفر والناصر، فساسوا الرعايا جيداً وعدلاً فيهم، وغزوا الأعداء، واستمر لهم الحال كذلك نحواً من ست وعشرين سنة[3].

---

(١) تاريخ الإسلام.

(٢) محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، المعروف بالمنصور بن أبي عامر، كان جده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق بن زياد. ولد المنصور في إحدى قرى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء جنوبي بلاد الأندلس، وفد إلى قرطبة في حداثة سنه، ودرس بجامعها حيث كان أبوه يقوم بالتدريس، وامتاز بين أقرانه بالذكاء وعلو الهمة والطموح إلى مدارك الرقي. تقرب من أم الخليفة هشام وهي (صبح) ثم أصبح الحاجب. واشتهر بالأدب والتواضع والكرم والعطف على البائسين، وقد كسب في حياته حب العلماء والشعب والجند، وبقي حتى توفي عام ٣٩٣ وهو في غزوه لبلاد النصارى في الشمال.

(٣) البداية والنهاية.

غزا الحاجب المنصور مملكة ليون النصرانية في الشمال، واستولى عليها، وهدَّم حصونها وقلاعها، وقهر برشلونة. واتخذ جنداً من المرتزقة من المغرب ومن نصارى الشمال ليأمن جانب الجند السابقين من العرب والإسبان والصقالبة.

٨ ـ اليمن:

استمرت دولة بني زياد في زبيد وكان حاكمها في هذه المرحلة إسحاق بن إبراهيم، وكذلك كانت دولة بني يعفر في صنعاء ويحكمها عبد الله بن محمد بن قحطان، وقام آنذاك آل الضحاك. وأما بنو الرس في صعدة فكانت الإمامة للداعي يوسف الذي امتدت إمامته من ٣٦٦ ـ ٤٠٣هـ.

* * *

-٢٥-

القادر بالله

أحمد بن إسحاق بن المقتدر

٣٨١ - ٤٢٢

هو أحمد بن إسحاق بن الخليفة المقتدر، أبو العباس، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائةٍ، أمه أم ولد اسمها «تمني». كان أبيض كثَ اللحية يخضب، ديّناً، عالماً، متعبداً، وقوراً من جِلّة الخلفاء وأمثلهم. عدّه ابن الصلاح[١] في الشافعية. تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي الشافعي.

قال الخطيب: كان من الدين، وإدامة التهجد، وكثرة الصدقات على صفةٍ اشتهرت عنه. وصنّف كتاباً في الأصول، ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال: بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعةٍ في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر[٢].

بويع بالخلافة بعد خلع الطائع عام ٣٨١، وكان غائباً، فقدم في عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوساً عاماً، وهُنّئ.

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن موسى، الكردي، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح: أحد القضاة المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، وهو صاحب المقدمة المشهورة في مصطلح الحديث، توفي بدمشق عام ٦٤٣هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي.

وفي عام ٣٨٣ تزوج القادر بالله سكينة بنت الملك بهاء الدولة. وعقد بولاية العهد لابنه الغالب بالله وذلك عام ٣٩١، وكان عمر ابنه تسع سنوات، وعجّل بذلك، لأن الخطيب الواثق[١] سار إلى خراسان، وافتعل كتاباً من القادر بأنه وليّ عهده، واجتمع ببعض الملوك فاحترموه، وخطب له بعد القادر، ونفّذ رسولاً إلى القادر بما فعل، فأثبت فسق الواثقي، ومات غريباً[٢].

وفي هذا الوقت انبثت دعاة الحاكم في الأطراف، فأمر القادر بعمل محضر يتضمّن القدح في نسب العبيدية، وأنهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر منصور بن نزار الحاكم حكم الله عليه بالبوار، وأن جدهم لما صار إلى الغرب تسمى بالمهدي عبيد الله، وهو وسلفه أرجاس أنجاس خوارج أدعياء، وأن هذا الناجم وسلفه كفار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية[٣].

واستتاب القادر فقهاء المعتزلة، فتبرؤوا من الاعتزال والرفض، وأُخذت خطوطهم بذلك[٤].

وفي سنة ثمان وتسعين وقعت فتنة بين الشيعة والسنة في بغداد، وكان الشيخ أبو حامد الإسفرايني أن يقتل فيها، وصاح الرافضة ببغداد: يا حاكم، يا منصور، فأحفظ القادر من ذلك، وأنفذ الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة فانكسر الروافض[٥].

وفي ذي الحجة من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وعاش سبعاً وثمانين سنة.

---

(١) من ولد الخليفة الواثق بالله، هارون بن محمد المتوفى سنة ٢٣٢، وكان يلي الخلافة.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ البهويهيون:

بدأ وضع البويهيين يسير نحو الضعف بسبب قتال بعضهم بعضاً، وبسبب قوة نفوذ القادة الأتراك، وضعف نفوذ الديلم الذين كانوا جند البويهيين والسيف الذي يضربون به، ويعد بهاء الدولة أول من سعى لزيادة قوة الأتراك. وغدت مناطق العراق، والأهواز، وكرمان، وفارس مسرحاً لصراع أبناء بويه. وهذا الضعف كاد يساعد على امتداد نفوذ العبيديين للعراق حتى أن قرواش بن المقلد أمير بني عقيل قد خطب للعبيديين في الموصل عام ٤٠١، ولكنه اضطر بالقوة أن يعود إلى طاعة بني العباس.

توفي بهاء الدولة عام ٤٠٣ فتولى مكانه ابنه سلطان الدولة وبدأ الصراع مع إخوته، والتجأ أخوه قوام الدولة إلى محمود الغزنوي فأمده بقوة.

وفارق سلطان الدولة بغداد واستخلف عليها أخاه مشرف الدولة، ثم اختلف معه وحاول العودة إليها بإرسال جيش بإمرة ابنه أبي كاليجار ولكنه لم يفلح، وتصالح مع أخيه أخيراً. ومات مشرف الدولة فحكم بغداد أخوه الثالث جلال الدولة وقد جاء من البصرة التي كان يتولى أمرها، واختلف مع ابن أخيه أبي كاليجار، ثم استقر الوضع له في بغداد وزاد نفوذ القادة الأتراك بشكل كبير.

وربما كان هذا الخلاف الكبير بين أبناء بويه هو الذي أبقى هيبة الخلافة على شيء من القوة ولو نسبياً، وبقيت كلمة الخليفة القادر مسموعة إلى حدٍ ما.

٢ ـ الحمدانيون:

توفي أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة عام ٣٨١، وخلفه ابنه سعد أبو الفضائل، وكان سعد الدولة قد أوصى غلامه لؤلؤاً بابنيه أبي الفضائل، وأبي الهيجاء وبابنته ست الناس.

أخذ لؤلؤ البيعة لسعد أبي الفضائل والذي تلقّب باسم سعيد الدولة، وفي عهده وقع القتال بين الحمدانيين والعبيديين، ولم يتمكن منجوتكين قائد العبيديين من دخول حلب واضطر أن يرجع إلى دمشق، وتأثر العزيز العبيدي لهذا التراجع فسار بنفسه لقتال الحمدانيين ولكن الموت أدركه قبل أن يخرج من مصر.

كان لؤلؤ يتصرف بشؤون الدولة من دون سعيد الدولة، وقد عمل على التخلص منه بل ومن ابنته التي كان لؤلؤ قد تزوج منها، وحكم بعدها باسم ولدي سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف.

قبض لؤلؤ على أبي الحسن وأبي المعالي وأرسلهما مع بقية أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة عام ٣٩٤، وبقي هو الحاكم الوحيد في حلب، وجعل ابنه منصوراً ولياً لعهده.

مات لؤلؤ عام ٣٩٩، وخلفه ابنه منصور فاعترف بسلطان العبيديين عليه، وأصبحت حلب بعد ذلك تتبع السلطة العبيدية.

٣ ـ السامانيون

ثار بعض قواد السامانيين عام ٣٨٣ على أميرهم نوح بن منصور، واتصلوا بالأمير التركي شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك، وأطمعوه بالاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، كانت إمارته تقع شرق الدولة السامانية وتمتد حتى حدود الصين، وتقدم فعلاً إلى بلاد ما وراء النهر وهزم السامانيين وتمكن من دخول مدينة بخارى. غير أن موت شهاب الدولة إيلك والمعروف باسم (بغراخان) قد مكن نوح بن منصور من استعادة بخارى.

وفي عام ٣٨٤ استعان نوح بن منصور بصاحب غزنه سبكتكين ضد الأمراء الثائرين فهزمهم وفروا إلى جرجان، واستطاع أيضاً أن يستعيد نيسابور التي أعطى إمرتها إلى محمود بن سبكتكين، ولكن محموداً لم يلبث أن هزم أمام الأمراء الثائرين.

توفي نوح بن منصور عام ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور بن نوح، واستغل هذه الفرصة الأتراك فاستولوا على سمرقند، وساعدهم فائق الخاصة أحد الثائرين فاستولى على بخارى واستدعى منصور بن نوح ليعود إلى حاضرته فهو لم يدخل بخارى إلا لخدمة سيده رعايةً لحق أسلافه فجاء الأمير الساماني إلى قاعدة ملكه، وأوكل أمر الدولة إلى فائق الخاصة، وولى إمرة جيش خراسان إلى (بكتوزون).

بدأ الخلاف بين محمود الغزنوي ومنصور بن نوح حول خراسان إذ طلب محمود الغزنوي إعادته إلى خراسان فلم يجب منصور بن نوح طلبه.

قبض فائق الخاصة وبكتوزون على الأمير منصور بن نوح وسملا عينيه، ووليا مكانه أخاه الصغير عبد الملك بن نوح، واستغل محمود الغزنوي ضعف السلطة السامانية فتقدّم إلى بلادهم واستولى على بخارى ونيسابور، وأزال نفوذ السامانيين وخطب للخليفة العباسي القادر بالله. أما خانات تركستان خلفاء بغراخان فقد استولوا على بلاد ما وراء النهر وقبضوا على الأمراء السامانيين، وبذا فقد زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥.

في عهد السامانيين بدأ الفرس يكتبون بلغتهم المحلية وشجعهم السامانيون على ذلك، ولعل أهم الكتب الأدبية آنذاك كتاب الشاهنامه للفردوسي، أما الفلك والطب فكان يدون كلاهما باللغة العربية مثل كتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي، وكتب ابن سينا وغيرها.

٤ ـ الغزنويون:

توفي سُبُكْتُكين عام ٣٨٧ وخلفه ابنه الأصغر إسماعيل وكان ضعيفاً

فاتصل قادة الجند بأخيه محمود وشجعوه على تسلّم الأمر، وهو الكبير، فتمّ له ذلك عام ٣٨٨.

كان محمود الغزنوي قوياً وهو أول من تلقّب من الغزنويين بلقب سلطان، وكان يعرف من قبل بالأمير، ولقبه الخليفة العباسي القادر بيمين الدولة وأمين الملة.

قضى محمود الغزنوي على سلطان البويهيين في بلاد الجبل والري، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة وابنه أبي دلف.

ودخل بلاد قزوين وصلب عدداً كبيراً من أصحاب الباطنية، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلاسفة، والمعتزلة، والنجوم.

وحارب الأتراك الغز أصحاب أرسلان بن سلجوق، وكانوا يقطنون صحاري بخارى، وقبض على كبيرهم أرسلان ونفاه إلى بلاد الهند. وهرب قسم منهم إلى خراسان فتتبعهم وقد قويت شوكتهم هناك.

وسيطر على خراسان، وأنهى نفوذ السامانيين منها.

واستولى على سجستان من صاحبها خلف بن أحمد عام ٣٩٣هـ.

وقاتل الغور وهم جماعة يقيمون في المناطق الجبلية بين هراة وغزنة، وكانوا لا يدينون بالإسلام، ويقطعون الطريق، ويخيفون الناس فأخضعهم لسلطانه وعمل على نشر الإسلام بينهم، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلّمونهم أصول الدين.

ولعل أكثر ما اشتهر به محمود الغزنوي إنما هي فتوحاته في بلاد الهند إذ أنه ضمّ أجزاء جديدة إلى بلاد الإسلام، وعمل على نشر هذا الدين بينهم لأن حروبه السابقة إنما كانت في بلاد الإسلام بأكثرها، بينما قتاله في بلاد الهند حملت صفة الجهاد، وقد زادت حملاته إلى بلاد الهند على اثنتي عشرة حملة بدأها عام ٣٩٢ إذ انتصر على ملك البنجاب (جيبال) وأسره، كما أسر أكثر من نصف مليون إنسان، ثم أطلق سراح

الملك (جيبال) وكان من عادة الهنود أنه إذ وقع أحد منهم بالأسر وكان رئيساً ألا تعود له الرئاسة فيما بعد إذا تخلّص من الأسر، فلما فدى (جيبال) نفسه عاد، وحلق رأسه، وألقى نفسه بالنار وترك ملكه لابنه أنندبال، وقد قضى السلطان محمود على هذه العادات الجاهلية بنشر الإسلام في تلك الجهات.

وفي عام ٣٩٤ قصد إقليم (ملتان) جنوب البنجاب ودخله وعمل على نشر الإسلام هناك، وولّى على الإقليم أحد المسلمين وعهد إليه بتعليم الإسلام للأهالي.

وفي عام ٣٩٦ سار السلطان محمود إلى مدينة ملتان، وقد سار إليها عن طريق البنجاب ولما لم يسمح له ملك البنجاب أنندبال بن جيبال بالمرور عبر بلاده قاتله وانتصر عليه وتابع طريقه، ومن المعلوم أن الملتان كانت قد فتحت أيام محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٢هـ، وكان يحكمها أبو الفتوح داود ولكن يأخذ بمبدأ القرامطة فلما سمع بمسير السلطان محمود إليه فرّ إلى جزيرة سرنديب (سيلان) فقضى محمود على مقاومة أهلها وفرض عليهم الجزية بصفتهم يدعون مذهباً خاصاً.

وفي عام ٣٩٧ سار إلى ولد أنندبال الذي اعتنق الإسلام على يد السلطان محمود ثم عاد فارتدّ وشق عصا الطاعة فحاربه وانتصر عليه وضم البنجاب إلى مملكته.

وجرّد حملة لقتال إيلك خان الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من السامانيين وبينما كان السلطان محمود مشغولاً في تلك الحملة إذ علم أن ملوك الهند قد شكّلوا حلفاً لقتاله فسار إليهم عام ٣٩٨، وعبر نهر السند، وانتصر عليهم انتصاراً رائعاً إذ غنم غنائم لا تحصى فانتثر عقد هذا الحلف وفقد ملوك الهند هيبتهم.

وعاد داود أبو الفتوح صاحب الملتان إلى بلده الملتان وعاد إلى مبدأ القرامطة فشنّ السلطان محمود عليه حملتان عام ٤٠٠ و ٤٠١ ودخل إثرها

الملتان، وأخذ داود أسيراً حيث نفاه إلى بلاد الغور وبقي في منفاه حتى مات.

وغزا الهند عام ٤٠٤ وهدّم صنم (سومنات) المشهور وغنم غنائم كثيرة.

وشنّ غزواتٍ ثلاثاً على بلاد كشمير في سبيلِ ضمّها إلى سلطانه، ولكنه لم يوفق فيها رغم تعددها، وعلى التوالي في السنوات ٤٠٤ و ٤٠٥، ٤٠٦هـ إذ فقد كثيراً من جنده، وقد ذهب أكثرهم غرقاً في فيضان الأنهار.

واشتغل عام ٤٠٧ بقتال خوارزم إذ كان مأمون شاه خوارزم قد تزوج أخت السلطان محمود، واعترف بسلطانه على بلاده غير أن بعض قواده قد قتلوه وأجلسوا ابنه مكانه فسار السلطان محمود إلى بلاد خوارزم، واستولى عليها، وعاقب الثوار القتلة، وولّى على خوارزم أميراً من قبله.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك نحو كشمير فأخضع حاكمها الذي أسلم على يديه، كما أسلم بعض راجات الهند عندما اقترب السلطان محمود الغزنوي من بلادهم إذ كان يتملكهم الخوف والفزع، وفي كل مكان يدخله كان يحطّم الأصنام التي كان بعضها مصنوعاً من الذهب.

ثم سار محمود الغزنوي نحو قنوج على نهر الغانج فهرب منها صاحبها، فهدّم الأصنام، واستولى على قلاعها.

وبدأ راجات الهند يجمعون أنفسهم، وانضم إليهم من سبق له وخضع لغزنة فسار إليهم السلطان محمود عام ٤٠٩ وفلّ جموعهم، ووطد الأمن في المناطق الجبلية التي كان بعض قطاع الطرق يعيثون الفساد فيها.

وفي عام ٤١٦ سار نحو الهند فقطع صحراء ثار، وتجمع أمراء كوجرات بعد فرارهم. وكانت آخر غزواته لبلاد الهند عام ٤١٨ التي أعد لها أسطولاً إذ غدا لدولته منطقةً ذات ساحل.

وعندما حضرت الوفاة السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ أوصى من بعده لابنه محمد، وهو الأصغر، وكان نائباً له ببلخ، بينما ابنه الأكبر مسعود والذي كان ولياً لعهده من قبل قد أزال عنه العهد، وجاء محمد إلى غزنة، وأخذ البيعة وانشغل باللهو فأساء ذلك بعض القادة فدعوا أخاه مسعوداً وبايعوه بعد أن قبضوا على محمد، وبعد أن وقع خلاف بين الأخوين.

تولى مسعود الأمر عام ٤٢١، واستولى على مكران عام ٤٢٢، وأصبحت الدولة الغزنوية تضمّ أكثر أجزاء المشرق الإسلامي بل سار مسعود إلى خراسان لفتح العراق إلا أن استغلال نائبه في لاهور ذلك فرصةً للوثوب على ما تحت يده قد حال دون ذلك وعاد مسعود إلى مقره في غزنة.

٥ ـ العبيديون:

توفي العزيز العبيدي عام ٣٨٦ وخلفه ابنه أبو علي منصور وتلقب باسم الحاكم بأمر الله، وكان صغير السن لا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة إذ أنه ولد عام ٣٧٥، فكانت أمور الدولة بيد أبي الفتوح برجوان أحد خدام العزيز ومدبّري دولته. وبعد أربعة سنوات من حكمه تسلّم الحاكم شيئاً من أمره فأظهر تعصباً شديداً لفكرة العبيديين.

كان الحاكم شيطاناً مريداً جباراً عنيداً كثير التلوّن، سفّاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدّحاً، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها. أمر بسبّ الصحابة، رضي الله عنهم، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع، وأمر عماله بالسبّ، وبقتل الكلاب[1]. أبطل الفقع، والملوخية، وحرّم السمك الذي لا قشر له، حرّم بيع الرطب. أمر النصارى بتعليق الصلبان

(١) سير أعلام النبلاء.

في رقابهم، وألزم اليهود أن يعلقوا قرمية في رقابهم. هدم كنائس مصر، فأسلم عدد من أهل الكتاب، نهى عن تقبيل الأرض، وعن الدعاء له في الخطب، نفى المنجمين، منع النساء من الخروج من البيوت، ثم عاد فأمر بإعادة بناء الكنائس وبتنصر من أسلم. أظهر التفقه، وطلب فقيهين يدرسان مذهب الإمام مالك ثم عاد فقتلهما صبراً.

وقد حُبّب في الآخر إلى الحاكم العزلة، وبقي يركب وحده في الأسواق على حمار، ويُقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم فاجر، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يولج فيه، والمفعول به يصيح[(١)].

وأمر بحريق مصر، واستباحها، ثم بعث خادمه ليشاهد الحال، فلما رجع، قال: كيف رأيت؟ قال: لو استباطها طاغية الروم ما زاد على ما رأيت، فضرب عنقه.

وولي للحاكم عدة أمراء ما كان يدع النائب يستقر حتى يعزله.

وأبطل الحاكم عمل المنجمين، وأعتق أكثر مماليكه، وجعل ولي عهده ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس.

ووصل إلى مصر عام ٤٠٥ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني[(٢)] ويبدو أنه دخل في خدمة الحاكم الخصوصيين ثم أصبح من دعاة الإسماعيليين الذين انتشروا في مصر بشكلٍ واسع، وجهر بالدعوة إلى ألوهية الحاكم عام ٤٠٨ فثار الناس عليه فاختفى في قصر الحاكم أو خارجه مدة سنةٍ ثم هرب إلى وادي التيم في لبنان حيث تقيم بطون من تنوخ وتدين بالولاء للعبيديين.

ثم ظهر الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف باسم الأخرم عام ٤٠٩ وقال بألوهية الحاكم أيضاً، ولكنه لم يلبث أن قُتل، وكذلك ظهر محمد بن

---

(١) سير أعلام النبلاء عن تاريخ ابن إياس ١/ ٥٣.

(٢) ولد حمزة بن علي في بلدة (زوزن) من أعمال خراسان.

إسماعيل الدرزي (نشتكين) وهو أول من كشف عن فكرة ألوهية الحاكم والدعوة إليها وذلك عام ٤٠٧ وهو العام الذي وصل فيه إلى مصر، ويبدو أن قتل بمجرد أن قال بذلك، ومنهم من يقول: إنه اختفى في القصر حتى هدأ الجند ثم فرَّ إلى بلاد الشام حيث استقر في إحدى قرى بانياس جنوب وادي التيم ونافس حمزة بن علي فكان سبباً في قتله عام ٤١١هـ.

طلب أمير مكة أبو الفتوح الخلافة وتسمّى بالراشد بالله، ولحق بآل جرّاح الطائيين بالشام، ومعه أقاربه، ونحو من ألف عبدٍ، وحكم بالرملة، فانزعج العزيز بمصر وتلطّف بالطائيين، وبذل لهم الأموال، وكتب بإمرة الحرمين لابن عم الراشد، فوهن أمر الراشد، فأجاره أبو حسان الطائي، وتلطّف له حتى عاد إلى إمرة مكة.

وظهر أبو ركوة الأموي[1]، والتف حوله عدد من الأتباع، فحارب الحاكم ولعنه، فجهز الحاكم له جيشاً مؤلفاً من ستة عشر ألفاً تمكّنوا من القبض عليه وقتله في أرض خروجه وهي منطقة برقة.

وقُتل الحاكم بأمر الله عام ٤١١ بالاتفاق بين أخته ست الملك والأمير ابن دوّاس، وذلك بسبب ما أساء إلى أخته إذ اتهمها بالزنى، وإلى الناس بتصرفاته، وكان قتله سراً.

وأما عبد الرحيم بن إلياس العبيدي، فإن الحاكم قد ولاه عهده، ثم بعثه على نيابة دمشق سنة ٤١٠ فانصرف إلى اللهو فاضطرب الجند، فلما مات الحاكم قبض الأمراء عليه وسجنوه ثم قتلوه. لذا فإن ست الملك قد أخرجت ابن أخيها الحاكم وهو علي، أبو الحسن، الظاهر لإعزاز دين الله، وتوّجته، وبقيت تشرف عليه حتى توفيت عام ٤١٥، وكان ابن دوّاس يدبر أمر الدولة.

أما إفريقية فكانت تتبع العبيديين اسمياً، وقد توفي المنصور بن يوسف

---

(١) أبو ركوة: هو الوليد بن هشام العثماني الأندلسي.

بلكين عام ٣٨٦ وكان كريماً شجاعاً حازماً حسن السيرة محباً للعدل والرعية، وخلفه ابنه باديس ويكنّى أبا مناد، وقد عيّن عمه حمّاد بن يوسف بلكين على منطقة (أشير) وأقطعه إياها، وهو جدّ بني حمّاد، ثم أضاف إليه الجزء الغربي من الدولة عندما وجد باديس صعوبة في ضبط أمور الدولة الواسعة، وبذا تأسست الدولة الحمادية في أشير الواقعة على نهر الشليف جنوب مدينة الجزائر الحالية بمائة وعشرة كيلومترات.

اختلف باديس مع عمّه حمّاد، وأدّى هذا الاختلاف إلى قتالٍ بين الطرفين عام ٤٠٦، وأعطى باديس ولاية العهد لابنه منصور، وتوفي باديس وبايع أمراء الجند كرامة بن المنصور الذي سار إلى حماد واقتتل معه وهزمه، وعندما رجع إلى المنصورية وجد أن الناس قد بايعوا المعز بن باديس وهو صغير لا يتجاوز الثامنة من العمر إلا قليلاً فدخل مع الجماعة وبايع، وأرسل الحاكم العبيدي موافقته على تعيين المعز وأعطاه لقب شرف الدولة. وسار المعز لقتال حماد وانتصر عليه ثم تصالحا. وجاء من الأندلس زاوي بن زيري بن مناد وكان قد انتقل إليها مع إخوته لخلاف وقع بينهم وبين أخيهم حماد، وقد جاهدوا هناك النصارى.

وفي عام ٤٠٧ قتلت الشيعة على أيدي الناس لأنهم كانوا يسبون أبا بكر وعمر، رضي الله عنهما، وكان المعز يدافع عن السنة، وهو الذي نشر مذهب الإمام مالك، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة هو السائد من قبل.

٦ ـ الأمويون:

سيّر محمد بن أبي عامر جيشاً إلى بلاد النصارى فنال منهم وغنم المسلمون كثيراً، وأسروا أحد ملوك النصارى. وتوفي محمد بن أبي عامر عام ٣٩٣، فحدث خلاف بين أمراء البيت الأموي فملك سيلمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وأعيد هشام المؤيد إلى الخلافة ثانية عام ٤٠٠، ثم عاد الحكم لسليمان ثانيةً عام ٤٠٣هـ.

كان علي بن حمود الإدريسي الحسيني في مدينة (سبتة) في بلاد المغرب، وكان أخوه القاسم بن حمود يحكم الجزيرة الخضراء في الأندلس، وكانا من أنصار سليمان بن الحكم.

كان خيران العامري من أنصار هشام المؤيد وخالف سليمان وقاتله، واضطر أخيراً أن يفرّ من قرطبة، فسار إلى (المرية)، وكان في (مالقة) عامر بن فتوح وزير هشام المؤيد فراسل علي بن حمود الذي كان يطمع في السلطة فأجابه، وهكذا أصبح جنوبي الأندلس مخاصماً لسليمان إذ أن أمير غرناطة وقف بجانب المعارضين أيضاً، وسار الجميع نحو قرطبة وقاتلوا سليمان وهزموا جنده، وأسروه، ودخل علي بن حمود قرطبة وبايعه الناس خليفةً على أساس أن هشام المؤيد قد قتل وقد جاءوا باسمه، ولُقّب علي بن حمود بالمتوكل على الله، ولم يلبث أن خالفه خيران العامري وخرج من قرطبة.

بايع خيران العامري أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولُقّب بالمرتضى، وخرج علي بن حمود من قرطبة، ودخلها المرتضى لكنه قتل عندما سار إلى الجنوب لحرب زاوي بن زيري بن مناد.

سار علي بن حمود إلى (جيان) غير أنه قتل وتولى مكانه أخوه القاسم بن حمود، وهو أكبر منه، وبقي في قرطبة حتى عام ٤١٢ يحكمها.

خالف القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود، وعندما خرج القاسم من قرطبة متجهاً نحو إشبيلية أسرع يحيى من مالقة، ودخل قرطبة، وأخذ البيعة من أهلها، ولُقّب بالمعتلي وأصبح في الأندلس خليفتان يحيى بن علي بن حمود في قرطبة والقاسم بن حمود في إشبيلية.

خرج يحيى بن علي إلى مالقة فأسرع عمه القاسم ودخل قرطبة وأخذ البيعة من أهلها لنفسه، غير أن أمر ابن أخيه يحيى بن علي قد قوي في الجنوب كما قوي أمر أخيه إدريس فطمع أهل قرطبة بخليفتهم فعمت

الفوضى، وساد النهب، واضطر القاسم أن يغادر قرطبة واتجه نحو إشبيلية فلم يقبله أهلها بل ولوا أمرهم ابن عبّاد.

وقع القاسم بن حمود أسيراً بيد ابن أخيه يحيى الذي سجنه وبقي في سجنه حتى مات عام ٤٣١، وعندما توفي يحيى بن علي خلفه أخوه إدريس بن علي، أما قرطبة فقد تولّى أمرها أحد أفراد البيت الأموي وهو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر وبايعته خليفةً عام ٤١٤ ولقب بالمستظهر بالله، ولكن لم تلبث قرطبة أن ثارت على خليفتها، وقتله أهلها، وبايعوا مكانه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر عام ٤١٤ ولقبوه بالمستكفي، وبعد مدة ثاروا عليه فخرج من مدينتهم واتجه نحو مدينة سالم، ولم يلبث أن مات مسموماً على ما يبدو. وكاتب أهل قرطبة يحيى بن علي بن حمود في مالقة ليتولى أمرهم فأرسل إليهم نائباً عنه فأخذ البيعة له عام ٤١٦ ثم ثار عليه الناس خوفاً من هجوم العامري على مدينتهم. وقتل يحيى بن علي بهجوم على مدينة إشبيلية فبويع في مالقة مكانه أخوه إدريس بن علي ولُقّب بالمتأيد وبقي حتى عام ٤٣١هـ.

اجتمع وجوه قرطبة وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم وبايعوا أبا بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقّبوه المعتد بالله، ثم خلع وبويع أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وخرج أبو بكر هشام من قرطبة ثم قتل غدراً، أما أمية فقد اختفى بعد أن طلب منه القرطبيون مغادرة مدينتهم مع المعتد.

استقل بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وفي إشبيلية ابن عباد، وكان في كل مدينة ملك وسلطان.

٧ ـ اليمن:

انتهت دولة بني زياد في زبيد عام ٤٠٢ بعد موت الحسين بن سلامة

الذي تولى أمر بني زياد وهو أحد مواليهم حيث لم يبق من بني زياد من يصلح للحكم سوى طفل صغير اسمه أبو الجيش بن إسحاق، وكان الحسين بن سلامة حازماً فاضلاً حسن الإدارة، وقد بعث دولة بني زياد من جديد، وخضعت له أكثر اليمن وأجزاء من الحجاز، وعندما مات تمزقت دولته وتغلب بنو نجاح على تهامة، وبنو يعفر على صنعاء، وغيرهم على بقية مدن اليمن وأقاليمها.

وعندما مات الحسن بن سلامة قام بأمر الدولة نجاح مولى بني زياد، وأعلن نفسه سلطاناً على تهامة، وراسل الخليفة العباسي القادر بالله معلناً له الطاعة والولاء، واستمر نجاح في الحكم حتى عام ٤٥٢هـ.

وأما دولة بني يعفر فقد توفي أميرها عبد الله بن محمد بن قحطان عام ٣٨٧، وقام بعده ابنه أسعد وبقي حتى عام ٣٩٣ حيث دخل في طاعة الإمام القاسم بن علي العياني في (عيان).

وخلف الإمام القاسم بن علي العياني الملقب بالمنصور ابنه الحسين بن القاسم والملقب بالمهدي وذلك عام ٣٩٣، وبقي الحسين حتى عام ٤٠٣ حيث قتل في معركة مع آل الضحاك في ريدة. أما صعده فكان فيها الإمام الداعي يوسف، وبقي أيضاً حتى عام ٤٠٣.

* * *

- ٢٦ -

القائم بأمر الله

عبدالله بن أحمد القادر

٤٢٢ - ٤٦٧

هو عبد الله بن أحمد القادر، أبو جعفر، ولد عام ٣٩١ من أم ولد أرمنية اسمها بدر الدجى وقيل: قطر الندى، ولي أمر الخلافة عام٤٢٢، فكان عمره إحدى وثلاثين سنة بعهد من أبيه، وأبوه هو الذي لقبه القائم بأمر الله.

كان جميلاً، مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديّناً، زاهداً، عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصدقة والصبر، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً العدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيءٍ طُلب منه.

كان أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري أحد موالي بني بويه قد طغا حتى خافه الناس جميعاً، وثبت للخليفة أن البساسيري سيئ العقيدة، وأن عنده رغبة في القبض على الخليفة وإلغاء الخلافة العباسية فما كان من الخليفة إلا أن راسل طغرل بك أبا طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق سلطان الأتراك الغز وهو بالري يستنهضه للقدوم إليه، ثم أحرقت دار البساسيري، وقدم طغرل بك إلى بغداد، واستأذن الخليفة بدخولها فأذن له فدخلها عام ٤٤٧، وكانت قد وقعت وحشة بين الخليفة والبساسيري، فترك البساسيري بغداد ولم يدخلها مع الملك الرحيم الذي جاء من واسط وطلب الخليفة منه أن يخضع لطغرل بك، واتجه البساسيري إلى الرحبة، ومنعت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وعقد الخليفة على خديجة بنت داود أخي طغرل بك، وقد تمكن البساسيري من أخذ الموصل.

راسل البساسيري صاحب مصر المستنصر العبيدي، وطلب منه أن يبايعه ويدعو له، وأن يمده هو بالجند والأموال، وأن يأتي إليه ليبايعه، ويدخل بغداد باسمه غير أن المستنصر لم يكن يثق كلياً بالبساسيري لذا فقد اكتفى بمده بالجند من الشام وبالمال ولكنه لم يأت إليه. وفي الوقت نفسه فقد تمكن البساسيري من الإيقاع بين طغرل بك وبين أخيه لأمه (إبراهيم ينال) إذ أطمع إبراهيم بمنصب أخيه، واشتغل طغرل بك بقتال أخيه فاستغل البساسيري هذا القتال واتجه إلى بغداد ودخلها عام ٤٥٠ ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بين الطرفين، وخطب في بغداد للمستنصر العبيدي باستثناء جامع الخليفة.

قبض البساسيري على الخليفة، وأرسله إلى حديثة عانة[١] حيث سجن هناك، وروي أنه كتب قصته وهو بالسجن وأنفذها إلى مكة، فعلقت في الكعبة وفيها: إلى الله العظيم من المسكين عبده، اللهم إنك العالم بالسرائر، المطلع على الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك، واطلاعك على خلقك، عن إعلامي، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها، وألغى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عُتُوّاً وعدواً. اللهم قلّ الناصر، واعتز الظالم، وأنت المطلع العالم، المنصف الحاكم، بك نعتز عليه، واليك نهرب من بين يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك، وقد حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك، ووثقنا في كشفها بكرمك، فاحكم بيننا بالحق، وأنت خير الحاكمين[٢]. كما قتل البساسيري وزير الخليفة وهو ابن مسلمة الذي كان يكره البويهيين لتشيّعهم، وصلتهم بالعبيديين في مصر.

---

(١) عانة: مدينة بالعراق، على نهر الفرات، إلى الشرق من الحدود السورية وعلى بعد ٩٠ كيلومتراً منها، والحديثة مدينة على نهر الفرات أيضاً إلى الجنوب الشرقي من عانة على بعد ٥٠ كيلومتراً منها.

(٢) تاريخ الخلفاء، واستبعد هذا إذ أن مكة كانت تحت حكم العبيديين، ولا يمكن للخليفة القائم بأمر الله أن يتضرع لله سبحانه وتعالى بصيغة الجمع، ويدعوه بصيغة المفرد.

ظفر طغرل بك بأخيه، إبراهيم وقتله، وتفرّغ لأمر البساسيري فعاد إلى بغداد ودخلها عام ٤٥١، ولم ينفرد فيها البساسيري بأكثر من سنة، وظفر بالبساسيري وقتله، ورجع الخليفة إلى داره، ولم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه، ولزم الصيام والقيام، وعفا عن كل من آذاه، ولم يسترد شيئاً مما نهب من قصره إلا بالثمن، وقال: هذه أشياء احتسبناها عند الله، ولم يضع رأسه على مخده[1].

وزوّج الخليفة ابنته لطغرل بك عام ٤٥٤، وزفّت إليه ٤٥٥، وضمن بغداد ورجع إلى الري فمات بها في رمضان عام ٤٥٥ وعمره آنذاك سبعون سنة، كان حليماً، كثير الاحتمال، شديد الكتمان للسر، محافظاً على الصلوات، وعلى صوم الاثنين والخميس، وعلى لبس البياض، ولم يكن له ولد، فبايع من بعده لابن أخيه سليمان بن داود، غير أن ابن أخيه ألب أرسلان قد تغلّب على أخيه سليمان، وتسلّم الحكم ولقب بعضد الدولة وبقي حتى قتل عام ٤٦٥.

توفي الخليفة القائم بأمر الله عام ٤٦٧ وخلفه حفيده.

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ البويهيون:

زاد ضعف البويهيين وزادت خلافاتهم فيما بينهم وهذا ما قوّى السلاجقة وضاعف من قوتهم. اختلف الجند مع جلال الدولة البويهي عام ٤٢٣ فخرج من بغداد ودخلها أبو كاليجار البويهي فولى حماية الجانب الشرقي من بغداد إلى أحد القادة الأتراك وهو أبو الحارث أرسلان البساسيري عام ٤٢٥ غير أن جلال الدولة قد جمع جموعاً كثيرة، واستمال إليه البساسيري، وتمكّن من العودة إلى بغداد، وجرى صلح بين أبي كاليجار وجلال الدولة، وتزوّج أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة جلال الدولة، ولكن لم يلبث الخلاف أن عاد بين الطرفين، واستطاع أبو كاليجار أن يعود إلى بغداد عام ٤٣٦ بعد وفاة جلال الدولة عام ٤٣٥، وعندما عاد أبو كاليجار إلى بغداد أرسل طغرل بك السلجوقي أخاه لأمه (إبراهيم ينال) إلى بلاد الجبل فدخلها، ثم تصالح أبو كاليجار مع طغرل بك، وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار، وتزوج أبو منصور بن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرل بك.

توفي أبو كاليجار عام ٤٤٠، وتولى بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وتسمى الملك الرحيم. ولم تكن الصلة حسنة بين الخليفة والبويهيين في أواخر أيامهم، فمنذ أيام أبي كاليجار بدأ البويهيون يتقرّبون من العبيديين حكام مصر بسبب العقيدة التي تجمع بينهم قبل كل شيء، ثم إنهم قد اتخذوا هذا التقارب وسيلةً أو سلاحاً للضغط على الخلفاء العباسيين. وبدأ أبو كاليجار يقرأ كتب الإسماعيلية، ويحضر دروس هبة الله الشيرازي داعي

العبيديين في فارس، وقد سمح له البويهيون بالنشاط في مناطق نفوذهم بل إنهم قد دعموه، ثم دعوه إلى العراق فقام بنشاطٍ ملحوظٍ، وبلغ من نشاطه أن خطب في شيراز إلى المستنصر العبيدي.

طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله من أبي كاليجار تسليم هبة الله الشيرازي، وهدده بدعوة السلاجقة إلى بغداد غير أن أبا كاليجار لم يُنه هذا الموضوع.

ووقع الخلاف بين الملك الرحيم وإخوته وكان الصراع على الأهواز وفارس، وهذا ما زاد في إضعاف أمرهم وبدلاً من أن يقفوا جبهة واحدة لردّ السلاجقة كانوا متفرقين، وهذا ما شجع خصومهم على الهجوم على أملاكهم وما تحت أيديهم.

وعندما اتجه طغرل بك نحو بغداد عام ٤٤٧، اتجه أيضاً الملك الرحيم إليها، وكان في واسط، وفارقه البساسيري سائراً إلى الرحبة، ولما وصل الملك الرحيم إلى بغداد أظهر له الخليفة خيانة البساسيري، وأن الخليفة له على الملك الرحيم الطاعة والنصح، وطلب منه أن يقبل الخضوع لطغرل بك، وبذا انتهى نفوذ البويهيين وزال سلطانهم.

٢ ـ السلاجقة:

في الوقت الذي كان يضعف فيه أمر البويهيين كانت قوة السلاجقة في ازدياد، فقد استولى محمد طغرل بك على نيسابور، وأرسل أخاه جعفر بك داود إلى خراسان فدخلها، وانتقل طغرل بك إلى جرجان وطبرستان فضمّهما إلى أملاكه. ثم اتجه إلى أصبهان فحاصرها مدة سنة، وتمكن من دخولها عام ٤٤٢، وأسر بعض ملوك الروم فراسله إمبراطور القسطنطينية في مفاداة الملك فشرط عليه عمارة مسجد في القسطنطينية وتم ذلك. وترك طغرل بك الري، وانتقل إلى أصبهان فجعلها قاعدته.

غزا طغرل بك بلاد الروم، وغنم كثيراً، وخُطب له في الموصل والأنبار عام ٤٤٦، ثم دخل بغداد في العام التالي، وقضى على نفوذ بني بويه فيها. وتوطّدت أواصر الصلة بين الخليفة والسلاجقة إذ عقد الخليفة العباسي القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي طغرل بك عام ٤٤٨. ثم اضطر طغرل بك إلى مغادرة بغداد للخلاف الذي حصل بينه وبين أخيه لأمه (إبراهيم ينال)، وبخروجه من بغداد دخلها البساسيري عام ٤٥٠ غير أن طغرل بك تمكن من القضاء على أخيه فرجع إلى بغداد عام ٤٥١، وقتل البساسيري واستقر له الأمر، وعقد على ابنة الخليفة ثم توفي عام ٤٥٥، ولم يكن له أولاد فخلفه ابن أخيه سليمان بمساعدة وزير طغرل بك عميد الملك منصور بن محمد أبي منصور الكندري إلا أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلمش قد ثارا عليه وانتصرا، وتسلم السلطنة ألب أرسلان، وقتل عميد الملك الكندري عام ٤٥٧.

وفي عام ٤٦٢ أقبل ملك الروم أرمانوس بجموع لا حصر لها وعلى رأسهم البطارقة وينوي بهذه الحشود الكبيرة أن يقضي على الإسلام وأهله حتى أنه لفرط أمله قد أقطع البطارقة مناطق العراق، وتلقاه ألب أرسلان عام ٤٦٣ في عشرين ألف مقاتل فقط فدارت معركة بين الطرفين انتصر فيها ألب أرسلان رغم قلة جنده، وأسر ملك الروم أرمانوس نفسه، وعرفت هذه المعركة باسم معركة ملاذكرت، ثم عفا ألب أرسلان عن أرمانوس وأطلق سراحه فعندما رجع إلى بلاده وجد أن الروم قد ملّكوا عليهم غيره، وتوفي ألب أرسلان عام ٤٦٥ قتيلاً، وخلفه ابنه ملكشاه.

٣ ـ الغزنويون:

سار مسعود إلى بلاد الهند وفتح قلعة سرستي الجبلية جنوبي كشمير، وحاول أبوه من قبل فتحها فلم يوفق، وانتصر على واليه الذي خلع الطاعة وأجبره إلى الفرار، ثم عاد إلى غزو الهند بعد عام، وولى ابنه مجدوداً على بلاد البنجاب، ولما أمّن وضع تلك الجهة اتجه ثانيةً إلى خراسان فأجلى

عنها الأتراك الغزّ عام ٤٣١، وقاتل السلاجقة الذين قوي أمرهم وانتصر عليهم، غير أنهم عادوا فانتصروا عليه، واستولوا على معظم خراسان عام ٤٢٩، ومسعود مشغول بالهند، فرجع إلى غزنة ثم انطلق نحو السلاجقة فانتصر عام ٤٣٠ على طغرل بك، وطرده من خراسان غير أن مسعوداً قد هُزم ثانية عام ٤٣١ وكاد أن يقع في الأسر. أتعب مسعود جنده في الانتقال من الجبهة الشمالية الغربية إلى الجبهة الجنوبية الشرقية فملّوه وثار عليه مواليه وقتلوه، ونادوا بأخيه محمد أميراً عليهم وكان مسمول العينين، فعاد محمد إلى غزنة وأرسل ابن أخيه مودود بن مسعود يعزّيه بوالده ويتنصل من جريمة القتل هذه، غير أن مودوداً قد ترك خراسان واتجه إلى غزنة وحارب عمه محمداً وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل عمه وأولاده جميعاً باستثناء عبد الرحيم الذي كان غاضباً لقتل عمه، كما قتل كل من له ضلع في عملية القتل، وتسلّم الأمر عام ٤٣٢.

خلع مجدود والي البنجاب من قبل أبيه طاعة أخيه مودود وسار نحو غزنة غير أنه توفي قبل أن يصل إليها. وتمكّن مودود من الانتصار على ملوك الهند الذين تحالفوا ضده وأعاد للغزنويين هيبتهم في بلاد الهند، وحرص على قتال السلاجقة، ووافته المنية عام ٤٤١، وتولّى مكانه ابنه مسعود الثاني غير أن عمه أبا الحسن علي بن مسعود الأول قد نازعه الحكم واستلم الأمر منه بعد خمسة أيام من توليه الأمر، ولم يلبث أن قام أيضاً عبد الرشيد بن محمود الغزنوي ودعا لنفسه، وسار نحو غزنة ففر منها أبو الحسن علي بن مسعود الأول فدخلها عبد الرشيد، واستقر له الأمر عام ٤٤١، وقد حاول طرد السلاجقة من خراسان غير أن قائده لهذه المهمة قد عاد إلى غزنة وقبض على عبد الرشيد وقتله عام ٤٤٤ غير أن القادة الآخرين قد غضبوا من هذا الفعل وقبضوا على هذا القائد وقتلوه، وولوا عليهم أحدهم وهو (فروخ زاد) الذي حاول قتال السلاجقة ولكنه توفي عام ٤٥١ وخلفه إبراهيم بن مسعود الذي دام حكمه حتى عام ٤٩١، وفتح كثيراً من قلاع الهند، وتصالح مع السلاجقة.

٤ ـ العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي أبو الحسن علي الظاهر[١] عام ٤٢٨، وخلفه ابنه أبو تميم محمد[٢] الذي تلقّب بالمستنصر، وكان صغير السن لم يزد عمره على الثامنة، وامتد نفوذه إلى بلاد الشام، والحجاز، وشمالي إفريقية، إلا أن المعز بن باديس واليه في إفريقية قد قطع الخطبة له وخطب للعباسيين عام ٤٣٥، فما كان من المستنصر إلا أن شجع قبائل بني هلال التي نزلت الصعيد وأضرت فيه أن تتحرك نحو الغرب فوصلت إلى بلاد المعز بن باديس وعاثت فيه الفساد، وانتصرت على جنده، ودخلت مدينة القيروان وخربتها عام ٤٤٣، ولم يبق للمعز سوى المهدية وما حولها، ولكن لم يلبث بعد مدة أن قوي أمره.

تمكّن المستنصر أن يدخل مدينة حلب في بلاد الشام عام ٤٤١ بعد أن أجلى عنها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس. وبعد ذلك بدأت الدولة العبيدية تتقلّص إذ ظهرت دولة المرابطين في المغرب عام ٤٤٨، وبدأت تتوسع، وزال نفوذ العبيديين عن الحجاز عام ٤٦٢، ودعي للعباسيين على المنابر، كما زال أثر العبيديين عن حلب عام ٤٦٣.

كانت علاقة العبيديين حسنة مع الروم أيام المستنصر إذ عقد صلح بين الطرفين أيام الأمبراطور ميخائيل الرابع، كذلك جرى اتفاق عام ٤٤٦ أيام الأمبراطور قسطنطين التاسع الذي تعهد بأن يمدّ مصر بالغلال غير أن قسطنطين هذا قد توفي وخلفته الأمبراطورة تيودورا فلم توافق على الصلح إلا بشروط أهمها أن يتعهد العبيديون بمساعدة الأمبراطورة إذا ما اعتدي عليها فلم يقبل الخليفة العبيدي المستنصر الأمر الذي أدّى إلى حدوث قتال

---

(١) ولد أبو الحسن علي الظاهر عام ٣٩٥ في شهر رمضان، وتولى أمر العبيديين عام ٤١١ بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله، وأشرفت عليه عمته ست الملك حتى توفيت عام ٤١٥، وكان سمحاً عاقلاً، لين العريكة، يعطف كثيراً على أهل الذمة.

(٢) ولد أبو تميم محمد المستنصر عام ٤٢٠.

بين الجانبين انتصر فيه العبيديون في القتال البري بينما هُزموا في القتال البحري وهذا ما دفع المستنصر إلى عقد هدنة تمت عام ٤٤٧.

٥ ـ الأندلس:

تفرّقت كلمة المسلمين في الأندلس، وأصبح في كل مدينة ملك ولعل أهم هؤلاء الملوك هم: بنو جهور في قرطبة بعد بني حمود، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو هود في سرقسطة، وبنو أبي عامر في بلنسية، ومجاهد العامري في دانية.

٦ ـ اليمن:

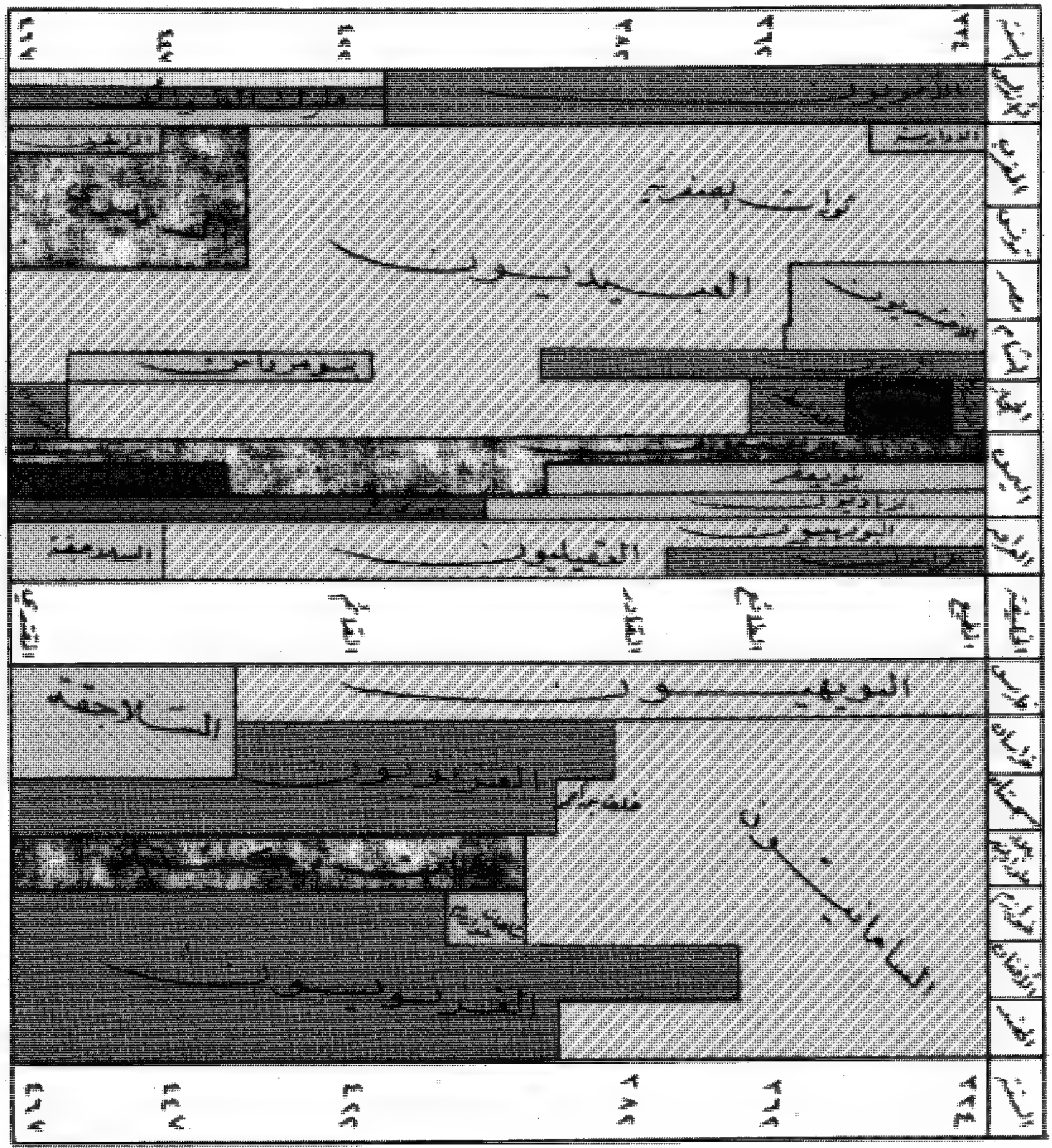
كانت دولة بني نجاح في تهامة، وقد توفي مؤسسها الأمير نجاح عام ٤٥٢ فخلفه ابنه سعيد بن نجاح المعروف بالأحول، وقد استمر حتى عام ٤٨١، وقد أغار وهو في طريقه إلى مكة عام ٤٥٨ على علي بن محمد الصليحي وقتله.

أما الصليحيون فقد قامت دعوتهم الإسماعيلية عام ٤٣٩ إذ أظهرها علي بن محمد الصليحي بعد أن تحصّن بجبل مسار بناحية حراز، وكانت قد انقطعت بعد اختلاف علي بن الفضل وابن حوشب، إذ سيطر الأول على المنطقة، وأعلن كفره الصريح حتى مات مسموماً عام ٣٠٣ على حين اعتزل ابن حوشب في مغارب اليمن، وتبعه ابنه جعفر، ثم ابن أبي الفضل حتى كان سليمان بن عبد الله الزواحي الذي أوصى تلميذه علي الصليحي أن يكون خليفته.

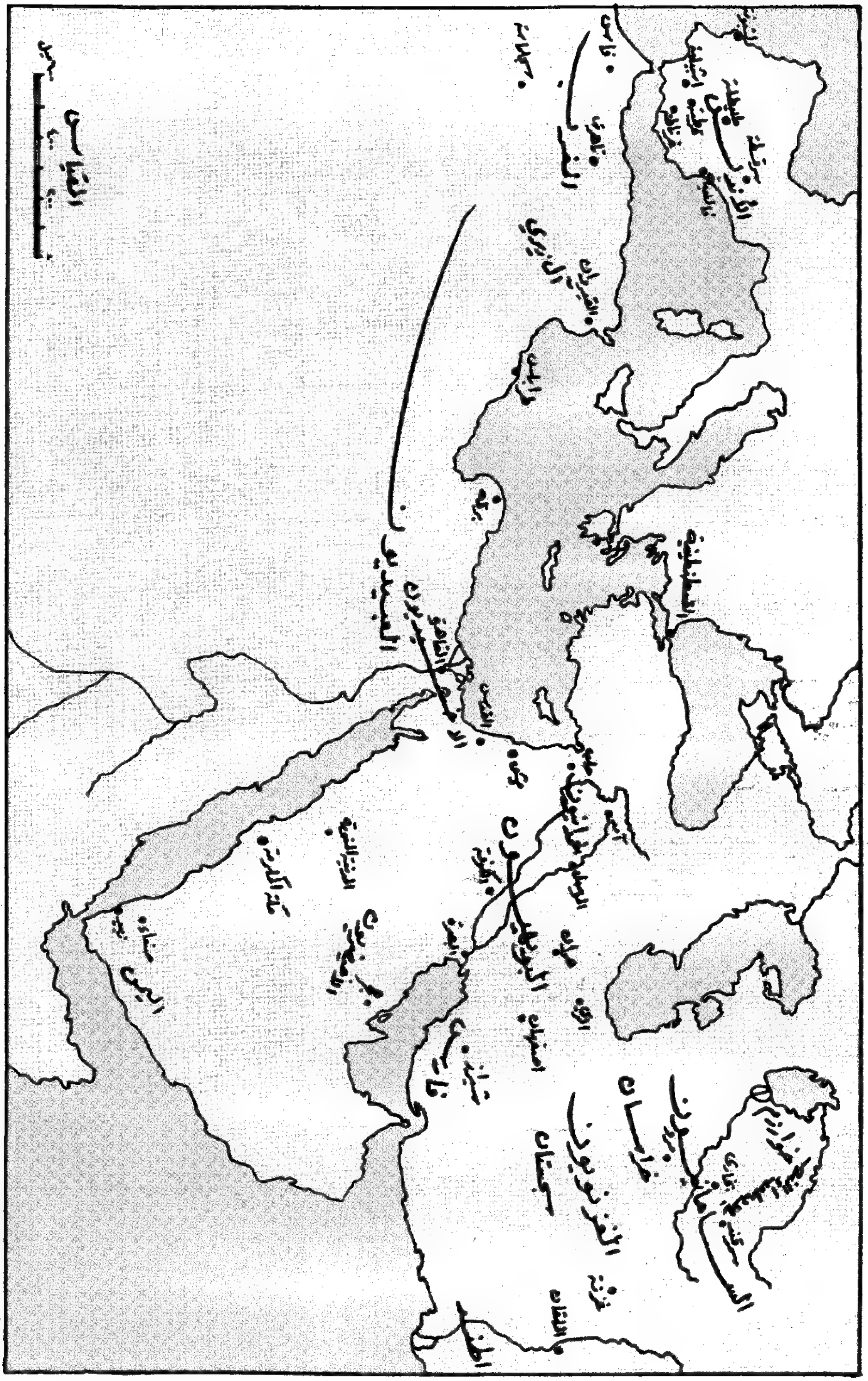
أظهر الصليحي التدين، وعمل على توحيد كلمة اليمنيين فأطاعته القبائل المحيطة بحراز، وشكل قوة انتصر على عددٍ من الزعماء، ودخل صنعاء وأخرج منها بني يعفر، كما احتل زبيد بعد أن سقى الأمير نجاح سماً، ووصل إلى عدن ودانت له سائر بلاد اليمن. ثم ثار عليه من أيده بالأمس وهم رؤساء همدان عام ٤٤٨، ودعا الصليحي للمستنصر العبيدي

فولاه أمر مكة. وفي عام ٤٥٨ اتجه نحو مكة ويريد الموسم، وبعدها زيارة المستنصر في مصر، فسار في موكب، وأناب ولده (المكرم) على البلاد، وكان الصليحي قد تأخر عن الركب، ولم يكن معه غير ابنه الموفق، وزوجته أسماء بنت شهاب، وأخواه عبد الله، وإبراهيم، وجماعة قليلة من آل الصليحي فأغار عليه سعيد بن نجاح في تهامة وقتله في يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة. وقام مقامه ابنه المكرم فاستطاع قتال بني نجاح والانتصار عليهم، وإطلاق سراح من كان أسيراً من الصليحيين وذلك عام ٤٦٠ ومن هؤلاء الأسرى أمه أسماء بنت شهاب على حين نجا سعيد الأحول من المعركة وفر إلى جزر دهلك. واستمر المكرم في حكمه حتى عام ٤٨٢.

وضعف أمر بني رسّ فبعد موت الداعي يوسف ٤٠٣ وموت المهدي الحسين بن القاسم في العام نفسه، وقد كانا إمامين في وقت واحد، انقطعت دولتهم حتى عام ٤٢٦ أي مدة ثلاثٍ وعشرين سنة إذ قام أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن، واستمر أمره حتى عام ٤٣١، ثم انقطعت الدولة ثانية مدة ست سنوات أخرى حيث قام أبو الفتح الديلمي عام ٤٣٧ ثم قتل عام ٤٤٤ في معركة (فيد) في أثناء حروبه مع علي بن محمد الصليحي، وتوقّف أمر الأئمة ما يقرب من مائة سنة بعد ذلك.



مخطط توضحي للإمارات في عهد السيطرة البويهية على الدولة العباسية


الأندلس
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
سرقسطة
طليطلة
المغرب
فاس
تاهرت
سجلماسة
القيروان
آل زيري
طرابلس
برقة
العبيديون
القاهرة
القدس
القسطنطينية
البويهيون
الكوفة
البصرة
أصفهان
همذان
الري
شيراز
فارس
خراسان
مرو
الغزنويون
غزنة
سجستان
السامانيون
بخارى
سمرقند
خوارزم
الملتان
القرامطة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
اليمن
صنعاء
زبيد
المقياس

الفصل الثالث

عصر سيطرة السلاجقة

امتدت هذه المرحلة من عام ٤٤٧ يوم دخل طغرل بك السلجوقي بغداد إلى عام ٦٥٦ يوم سقطت بغداد بيد هولاكو المغولي الذي قضى على الخلافة العباسية، وتمتد هذه المرحلة على تسعٍ ومائتي سنة تعاقب عليها اثنا عشر خليفة تفاوتت مدة خلافتهم بين سبع وأربعين سنةً وهي مدة الخليفة الناصر وبين سنةٍ واحدة وهي خلافة كل من الراشد، والظاهر.

كان خلفاء هذه المرحلة على درجةٍ من العدل والتقوى والإحسان والعطف على الناس، وقد أحبتهم الرعية حباً كبيراً حتى ليعمّ الحزن البلاد عندما يتوفى أحد الخلفاء، ولما قُتل المسترشد ظهر التأثر واضحاً على الرعية وكذا الحال عندم قُتل الراشد، ولم يقتل من هؤلاء الخلفاء جميعهم سوى المسترشد وابنه الراشد.. أما قتل المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد فقد كان على أيدي المغول الأعداء فكأنما هو استشهاد. وقد عاش الخليفة الأول من هذه المرحلة وهو القائم مدة عشرين سنة ٤٤٧ ـ ٤٦٧ وهو الذي استنهض همة طغرل بك السلجوقي لدخول بغداد، وبه بدأت هذه المرحلة وإن كان قد تولى الخلافة في المرحلة السابقة مدة خمسٍ وعشرين سنةً أيضاً.

ولم يكن السلاجقة ـ وهم القوة المسيطرة على الخلافة ـ يتصرّفون مع الخليفة ذلك التصرّف السيء الذي كان يقوم به من سبقهم سواء من القادة الأتراك أم من البويهيين، فالقادة الأتراك كانوا عسكريين جهلةً ومختلفين فيما بينهم فإذا ظنّ أحدهم أن الخليفة مال لآخر سعى إلى قتله بصورةٍ من الصور أو إلى سمل عينيه وإهانته، وكان البويهيون من الشيعة الحاقدين على

الخلفاء أولاً وعلى الفكر الإسلامي الصافي ثانياً، إذ أن التشيّع بدأت توضع له في تلك المرحلة أسسه ومبادئه التي فيها بُعد عن الإسلام، والتي حرص واضعوها على سحبها على الأوقات السابقة فنسبوا لبعض آل البيت ما لم يقولوه، ولم يسمعوا به بل لم يفكروا به، وليس التشيّع هو محبة آل البيت عامةً وعلي وأبنائه رضي الله عنهم، خاصة كما يتصوّر بعض عامة المسلمين بل بعض عامة الشيعة لأنه هذا ما وصل إليهم وما تناقلوه وما روته لهم ساداتهم هذا بالنسبة إلى الشيعة أما بالنسبة إلى المسلمين فهذا ما يظنونه أو يسمعونه حسب ما تناقلته كتب التاريخ التي للشيعة دور في وضعها وتأريخها وإنما أصبح فكر خاص له منهجه وسلوكه، بل عقيدة خاصة تختلف عن صفاء الإسلام، بادعاء العصمة للأئمة ومعرفتهم ما لم يعرف غيرهم، لذا فإن تصرّف البويهيين مع الخلفاء لم يكن تصرف التابع، أو تصرف المبايع للخليفة الحريص على هيبة الحكم والنظام وما يقتضي به الشرع بالنسبة إلى معاملة الخليفة الشرعي. وإن سلوك السلاجقة مع الخلفاء الطيب نسبياً قد أعاد للخليفة هيبته أو مكانته وإن كان بصورةٍ نسبيةٍ أيضاً أي يختلف الأمر عما كانت عليه مكانة الخليفة أيام البويهيين ومن سبقهم من المستأثرين بالسلطة المستبدّين بالأمر لما يتبع لهم من جند وعسكر، وإن كان هذا غير معروف للناس لأن تاريخنا يضرب صفحاً عن الخلفاء الأواخر بسبب الضعف الذي اعترى الدولة العباسية وخلفاءها بل قلّ من يعرف الخلفاء بعد المتوكل على الله، فهذه المدة الطويلة من الضعف والتي زادت على مائتي سنة (٢٤٧ ـ ٤٤٧) قد طغت على ما بعدها، وخاصةً أن هذه المرحلة التي نتكلم عنها والتي جاءت بعدها لم يحدث فيها تغيير جذري كتبديل البيت الحاكم أو انتهاء السيطرة الكاملة عن الخلفاء، ويزيد الأمر من حجب هؤلاء الخلفاء ظهور دولٍ قويةٍ برزت في المنطقة وكان لها دورها في صراع النصارى سواء في الأندلس مثل دولة المرابطين ودولة الموحدين أم في المشرق مثل إمارة آل زنكي ودولة الأيوبيين اللتين انصرفتا إلى قتال الصليبيين بل وحتى العبيديين، وإن كانت بعضها تتبع الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء مثل المرابطين وآل زنكي والأيوبيين فإن بعضها الآخر لا

يعترف بسلطة العباسيين عليها وتعد نفسها دولةً قائمةً بذاتها مثل الموحدين حيث يدعى سلطانهم بأمير المؤمنين أو تعد نفسها خلافةً خاصةً مثل الدولة العبيدية في مصر، وجميعهم كان لهم دور في مقارعة الصليبيين.

كان خلفاء هذه المرحلة على صورةٍ واحدةٍ تقريباً من حيث الاتجاه الإسلامي العام ولم يكن بينهم سوى الخليفة الناصر الذي مال إلى التشيّع، وكان يفضّل علياً على أبي بكر، وليس في هذا التفضيل خروج، وإنما فيه مخالفة، وبُعد عن المعرفة الصحيحة إذ كان رسول الله ﷺ يستشير أبا بكر، وعمر أكثر مما يستشير علياً أو غيره، وصحبته في الهجرة، وإمامته للمسلمين في حياة رسول الله ﷺ بأمر وتوجيه من رسول الله ﷺ الكافية لتفضيله، وليس هذا إنقاص لفضل علي، رضي الله عنه، ومكانته فهو على درجةٍ كبيرةٍ من الفضل يعرفها المسلمون جميعاً بل إن حبهم لعلي، رضي الله عنه، خاصةً ولآل البيت عامةً أكثر من حب الشيعة الذي يصل إلى حد التأليه أحياناً، والعياذ بالله وفيه برود أحياناً أخرى فهم يدّعون حبه وهم الذين خذلوه، ثم خذلوا أبناءه وأحفاده بعد أن دعوهم إليهم وشجعوهم على الخروج فلما خرجوا خذلوهم وابتعدوا عنهم وتركوهم وحدهم أمام خصومهم. كما أن هذا ليس فيه إنقاص لفضل أي من صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم جميعاً، والمسلمون جميعاً يرون فضل أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي على التوالي، رضي الله عنهم، كما أن الصحابة كلهم عدول، وقد سئل ابن الجوزي أمام الخليفة الناصر: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أفضلهم من كانت ابنته تحته، ولم يستطع أن يصرح بتفضيل أبي بكر، وإن كان في هذا الجواب معنيان إذ يمكن أن يفهم تفضيل أبي بكر إذ كانت ابنته عائشة، رضي الله عنها، تحت رسول الله ﷺ كما يفهم منه تفضيل علي إذ كانت تحته فاطمة بنت رسول الله ﷺ تحته، رضي الله عنها وعن زوجها.

وفي هذه المرحلة قلّت الخلافات بين السنة والشيعة وإذ كُسرت شوكة الشيعة بعد أن زالت دولهم المتعددة سواء أكانت شيعيةً مبتعدةً كالبويهيين

والحمدانيين أم كانت منحرفةً ضالةً ولكنها تدّعي التشيّع مثل العبيديين والقرامطة وبعض السامانيين إذ دالت دولة الحمدانيين عام ٣٩٤، وانتهت دولة السامانيين عام ٣٩٦، وزال البويهيون عام ٤٤٧، وبزوال البويهيين ضعف أمر القرامطة، ثم قضي عليهم عام ٤٧٠، إذ خرجت جزيرة أوال (البحرين) عن طاعة القرامطة عام ٤٥٨، وخضعت للعباسيين وكان أول الأمر أن بنى المسلمون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم وخطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة العبيدي فعزل القرامطة واليهم عن الجزيرة وفرضوا على أهلها ضرائب جديدةً الأمر الذي أثار السكان فهبّوا ضد القرامطة، واستطاعوا الانتصار عليهم. وقد هيأ هذا الانتصار أن يتصل المسلمون في البحرين بالخليفة العباسي ويطلبوا منه الدعم إذ اتصل عبد الله بن علي العيوني زعيم قبيلة عبد القيس بالخليفة العباسي القائم بأمر الله وبالسلطان السلجوقي ملكشاه عام ٤٦٢ ووجد عندهما تجاوباً، وأرسلا له جيوشاً دعمته ضد القرامطة فاستطاع أن يهزم القرامطة عام ٤٦٧، وتجمع المسلمون من كل ناحيةٍ في تلك الجهات، وهزموا القرامطة في معركة الخندق عام ٤٧٠ في شمال الأحساء، وقضوا عليهم، وبزوال القرامطة من منطقة هجر زال حكم عمالهم في اليمامة من الأخيضريين. أما العبيديون فقد كان أمرهم يضعف وهم رغم إظهارهم التشيّع إلا أن أصولهم وانتماءهم وسلوكهم يدل على ضلالتهم العقيدية والفكرية ويلقي ضوءاً على أهدافهم السياسية البعيدة وهذا ما أصبح يتضح للرعية عندما بقوا وحدهم في الميادن وزال الشيعة والمتشيّعون الآخرون الذين كانوا يغطّون الساحة فيختفي فيها العبيديون وعندما انكشفوا أصبح الناس يكرهونهم فبدأ أمرهم بالضعف حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمة الله عام ٥٦٧هـ.

وفي هذه المرحلة حدث هجوم صليبي شرس على بلاد المسلمين ابتدأ في الأندلس ومنها انتقل إلى الأناضول فبلاد الشام ومصر وكان يحمل الحقد الأسود على الإسلام ولذا فقد ارتكب جرائم بشعةً جداً وأهلك الزرع والضرع أثناء سيره، وكان يتذرع النافخون فيه أن المسلمين كانوا يسيئون إلى الحجاج النصارى الذين يقصدون بيت المقدس، وقد حدث هذه

الهجوم بعد الهزائم المنكرة التي مُني بها النصارى سواء في المشرق في معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ على يد ألب أرسلان السلجوقي رغم التفاوت الكبير في قوات الطرفين إذ لم تزد قوات ألب أرسلان على ١/١٠ قوات الروم البيزنطيين وسواء في المغرب في بلاد الأندلس في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وقد وحّدت هاتان الهزيمتان بين الكنيستين النصرانيتين الشرقية والغربية موقتاً وحّمست النصارى على الانسياح البربري الوحشي على ديار المسلمين الذي روّع الآمنين وأخاف الناس جميعاً، ولقد حصل هذا الهجوم على بعض النصر واستقر بعض الصليبيين في إمارات لهم ولكن كان لهذا النصر من جهة ثانية أثر آخر إذ أيقظ المسلمين وحرّك في بعضهم الإيمان، وهيّج فيهم روح الجهاد والدعوة إلى الوحدة فقاموا يقاتلون الصليبيين حتى دحروهم في النهاية وأخرجوهم صاغرين.

وإذا كان الصليبيون قد خرجوا من ديار المسلمين مهزومين إلا أن الحقد لا يزال يغلي في قلوبهم وفي نيتهم البقاء والتشفّي من المسلمين ولكن لا يقدرون على فعل شيء، وقد خرجوا وكأنهم ينظرون إلى الخلف، وقد رأوا من بعيد في شرق بلاد المسلمين قوةً طاغيةً تتكوّن من جديد وفيها عناصر القوة كلها، ومظاهر الإجرام كلها، نظروا إليها مفكرين وخشوا أن تحتك بالمسلمين فتدين بدينهم وعندئذٍ يكون الخطر الداهم على النصرانية في أوروبا كلها، لذا فكّروا وهم يسيرون إلى الغرب مهزومين بأن يكسبوا هذه القوة الجديدة إلى صفهم، وفكّروا بإغرائها بالنساء وبتحريضها على المسلمين بوصف بلاد المسلمين لها بأنها الجنان العظيمة التي تنتج العسل وأن أنهارها تجري باللبن، وهذه القوة ينتقل أهلها في الصحارى المقفرة المجدبة ولعابهم يسيل لهذه الأوصاف مجرد سماع هذه الكلمات وخاصةً أن الصينيين كانوا أيضاً يشجعونهم على الانطلاق نحو الغرب إلى ديار المسلمين ليبعدوهم عن ديارهم هم فاتفق الوصف والتشجيع وسارت جموع المغول نحو الغرب بعد أن دفعها قتل شاه خوارزم لرسل جنكيزخان.. انطلقت هذه الحشود المغولية كالقطعان السائمة تحرق

الأخضر واليابس.... فارتاح لذلك الصليبيون فكان يشيرون إليها بأيديهم للتقدم وهم ينسحبون نحو الغرب مهزومين، حتى دكّ المغول المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، ووصلوا إلى بغداد فأعملوا فيها الخراب، وقوّضوا الدولة العباسية وذلك عام ٦٥٦.

وفي هذه المرحلة ظهرت دول كان لها الأثر الكبير في محاربة الصليبيين لذلك علا شأنها وارتفع ذكرها حتى طغى اسمها على الخلافة العباسية بالذات فحجبها، ولم يعد يذكرها الناس على حين كان يذكر دائماً تلك الدولة الثانية التي تتبع الدولة العباسية أو لا تتبعها مباشرة، فكانت في المغرب دولة المرابطين الذين اجتازوا بحر الزقاق، وانتقلوا إلى العدوة الأندلسية، وقاتلوا النصارى الإسبان هناك، وانتصروا عليهم في معركة الزلاقة عام ٤٧٩، وهناك الموحدون الذين خلفوا المرابطين وانتقلوا أيضاً إلى الأندلس دعماً للمسلمين، وانتصروا على النصارى الإسبان في معركة الأرك عام ٥٨٥. وظهرت في الوقت نفسه دولة آل زنكي في المشرق وقد عملت على تقوية صفّ المسلمين ومنازلة الصليبيين، ثم قامت بعدها دولة الأيوبيين وقد تمكّن صلاح الدين الأيوبي أن ينتصر على الصليبيين وأن يدخل بيت المقدس عام ٥٨٣. وإضافةً إلى هذه الدولة التي علا اسمها كانت دولة خوارزم في الشمال الشرقي من العالم الإسلامي وبقيت قائمة حتى قضى عليها المغول عام ٦٢٩، كما قامت دولة الغوريين في الجنوب الشرقي من العالم الإسلامي، وقد عملت على نشر الإسلام في بلاد الهند، إذ تمكنت من فتح دهلي، وبيهار، والبنغال حوالي عام ٥٩٧، وبذا ضمت أجزاء واسعةً من الهند إلى بلاد المسلمين.

وإذا كانت الشيعة قد ضعف نفوذها في هذه المرحلة لزوال دولٍ شيعيةٍ إلا أن بعض الأفكار بقيت تراود أذهان بعض الحكام للإفادة من وضعٍ خاصٍ فقد انتحل خوارزمشاه علاء الدين محمد عقائد الشيعة وظنّ أنه يستفيد من الشيعة عامةً ليقضي على الخلافة العباسية في بغداد وذلك عام ٦١٤هـ.

وفي الوقت الذي بدأت تضعف الدولة العبيدية في مصر بدأ أنصارها في اليمن بالظهور فقامت الدولة الصليحية عام ٤٥٥، وعندما توفي الخليفة المستنصر العبيدي عام ٤٨٧ انقسمت الدعوة إلى فرعين، فرع يؤيد المستعلي وينتشر في اليمن، والآخر يؤيد نزار وينتشر في فارس والشام، والفرع الأخير هو الذي حمل اسم الباطنية أكثر من غيره رغم أن الحركات الباطنية كثيرة، كما أطلق على أصحابه اسم الحشاشين، وقد لعب هذا الفرع دوراً كبيراً في قتل الشخصيات البارزة وكان أولها الوزير نظام الملك الذي قتل عام ٤٨٥، وقد حرصوا على قتل صلاح الدين الأيوبي ولكن أنقذه الله منهم، وكانوا يقيمون في قلاعٍ جبليةٍ حصِينةٍ، وكما انتشرت هذه الجماعة التي أطلق عليها اسم الإسماعيلية أيضاً فقد ظهرت بقية الفرق الباطنية من نصيرية، ودروز، وإن كانت قد اختلف بعضها مع بعض، وكفّر كل فريق الفريق الآخر، إلا أنها جميعها كانت معاديةً للإسلام وأبنائه، وتدّعى عندما تعيش في وسط مجتمع إسلامي أنها تنتمي إلى الإسلام.

وانتشرت في هذه المرحلة الألفاظ الأعجمية فنلاحظ «الأتابكة» ومعناها الوالد الأمير و «شحنكية» ومعناها المقاطعة وغيرها من الألفاظ التي غدت متداولةً في كل الدولة وخاصةً في جناح المشرق.

كانت السيطرة الحقيقية للسلاجقة الذين يعودون في أصولهم إلى الغُزّمن الترك، ويدينون بالإسلام، ويأخذون برأي أهل السنة والجماعة، ويرجع أول أمرهم إلى سلجوق بن تقاق الذي هرب من بلاد الترك خوفاً على نفسه من سلطان الترك الذي أوغرت صدره زوجته لما رأت من محبة الناس لسلجوق وطاعتهم له. ولما دخل سلجوق بلاد المسلمين اعتنق الإسلام مع جماعته بل بدأ يُغير على بلاد الترك الذين كانوا لا يزالون على الكفر، وكانوا إذا ما هاجمهم غازٍ ورأوا أنهم لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد. وكان سلجوق إذا دخل أيضاً ضمّها إلى بلاد الإسلام.

استعان السامانيون بسلجوق في ردّ غارات الترك على بلادهم، فأرسل

إليهم قوةً بإمرة ابنه أرسلان الذي استطاع أن يستردّ من الترك ما أخذوه من بلاد السامانيين. وتوفي سلجوق بعد أن بلغ من العمر سبعاً ومائة سنة. كما قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو في بلاد الكفر من الأتراك، وكان لميكائيل هذا ولدان برزا من بعده هما طغرك بك محمد، وداود جعفر بك، ودانت لهما جماعتهما بالطاعة والولاء، وانتقلا بمن معهم نحو صحارى بخارى حيث أقاموا هناك فخافهما أميرها فساروا إلى بلاد بوغراخان ملك التركستان ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبينهما فسجن الملك (بوغراخان) طغرل بك غير أن داود قد داهم بمن معه بوغراخان وأنقذ أخاه طغرل بك ومن ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك، غير أن الدولة السامانية قد كانت في أواخر عهدها، وكانت تبرز قوة جديدة هي قوة الغزنويين وقد اصطدموا معهم، وانتهى الصدام بأسر أرسلان بن سلجوق عم طغرل بك، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى زعماء السلاجقة إمرة بعض المدن والمناطق، وطلب أبناء الأخ من الغزنويين إطلاق سراح عمهم أرسلان بن سلجوق.

زالت الدولة السامانية عام ٣٩٥، ودخل الغزنويون خراسان على حين دخل إيلك خان بلاد ما وراء النهر، ورجع الخلاف مرةً أخرى بين الغزنويين والسلاجقة فتمكّن طغرل بك أن يستولي على مرو عام ٤٢٩، وذكر اسمه في خطبة الجمعة باسم ملك الملوك، ثم استولى على نيسابور عام ٤٣٢ وعلى جرجان وطبرستان عام ٤٣٣، كما ضم كرمان وبلاد الديلم إليه في العام نفسه، ثم استولى على خوارزم عام ٤٣٤، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين، فدخل طغرل بك أصبهان عام ٤٣٨ ثم تمّ الاتفاق معهم وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار البويهي، كما تزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار ابنة داود أخي طغرل بك عام ٤٣٩.

انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فاتجه إلى دياربكر، وقاتل الروم، وانتصر عليهم، وعقد هدنة معهم واشترط بناء مسجد في القسطنطينية فأقيم، وأقيمت فيه الصلاة، وخطب لطغرل بك فيه.

تقاسم السلاجقة البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم، وانتخب ملكاً عليهم جميعاً طغرل بك ولم يكن له أولاد، واتخذ مدينة الري حاضرةً له، وقد اختير ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ليكون مع عمه طغرل بك مساعداً له، ونتيجة ما قدّم طغرل به من خدمات، ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي الملك الرحيم، ثم استأذن طغرل بك الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد عام ٤٤٧، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي الملك الرحيم أن يتبع ويخضع لطغرل بك، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة.

اضطر طغرل بك أن يقاتل أخاه لأمه (إبراهيم ينال) الذي تمرّد عليه، أو أن البساسيري قد أوقع بينهما، كما اشتغل داود أخو طغرل بك بقتال الغزنويين فاستغل البساسيري هذا الموقف ودخل بغداد عام ٤٥٠ غير أن داود قد عقد صلحاً مع سلطان الغزنويين إبراهيم بن مسعود، وانتصر طغرل بك على أخيه إبراهيم وقتله فصفا الأمر للسلاجقة واتجه طغرل بك إلى بغداد فدخلها عام ٤٥١ وقضى على البساسيري الذي لم ينعم بالتفرد بالسلطة في بغداد، وسجن الخليفة بأكثر من سنة. وكان الخليفة قد تزوج خديجة بنت داود أخي طغرل بك. ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة عام ٤٥٤ وتزوجها بعد تردّد وتمنّع من الخليفة. واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفي عام ٤٥٥ بعد أن وصل إلى الري. وكان وزيره عميد الملك منصور بن محمد أبي نصر الكندري.

كان طغرل بك عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره، وكان يحافظ على الصلاة، ويصوم يومي الاثنين والخميس. وكان يلبس الثياب البيض، وكان كريماً[1].

وكان طغرل بك قد أوصى بمن بعده لابن أخيه سليمان بن داود إذ أن أمه كانت عنده، وقد جلس على كرسي السلطنة بمساعدة الوزير

(١) الكامل في التاريخ.

الكندري، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه وانتصر عليه وتسلّم السلطة وقبض على الوزير الكندري وأرسله إلى مرو حيث سجن فيها ثم قتل عام ٤٥٧. ولعل أهم حدث خلّد ذكر ألب أرسلان انتصاره الحاسم على الروم في ملاذكرت، وكان جيش الروم يزيد على مائتي ألف ويضمّ الروم، الروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها على حين أن جيشه لم يكن ليزيد على عشرين ألف مقاتل، كما أُسر أمبراطور الروم في هذه المعركة التي جرت عام ٤٦٣،وكان هذا الأمبراطور هو (ديوجنيس رومانوس) ففداه السلطان، وأطلق سراحه مع جماعة من أمرائه وقواده بشرط أن يطلق سراح كل أسير مسلم بيد الروم، وأن يرسل إليه عساكر الروم وقت طلبها.

وتمكّن أحد قادة ملكشاه بن ألب أرسلان في هذا العام أن يفتح بيت المقدس والرملة وينقذها من أيدي العبيديين. وفي عام ٤٦٥ سار ألب أرسلان على رأس مائتي ألف مقاتل باتجاه بلاد ما وراء النهر وقصد الصين، ولكن خرج له كمين فقتله، فكان رحمه الله كريماً عادلاً عاقلاً، وكان رحيم القلب مُقراً بأنعم الله عليه، وكان يتصدّق على الفقراء ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار[١]. وكان وزيره نظام الملك أبو الحسن علي بن إسحاق.

واستمر سلطان السلاجقة حتى سيطر على مناطق نفوذهم الخوارزميون عام ٥٩٠، واستمر ذلك حتى جاء المغول، ثم دخل هولاكو بغداد عام ٦٥٦ فزال سلطان الدولة العباسية.

---

(١) الكامل في التاريخ.

قَائِمَة بخلفَاءِ هذهِ المرحَلَة:

١ ـ المقتدي	٤٦٧ ـ ٤٨٧
٢ ـ المستظهر	٤٨٧ ـ ٥١٢
٣ ـ المسترشد	٥١٢ ـ ٥٢٩
٤ ـ الراشد	٥٢٩ ـ ٥٣٠
٥ ـ المقتفي	٥٣٠ ـ ٥٥٥
٦ ـ المستنجد	٥٥٥ ـ ٥٦٦
٧ ـ المستضيء	٥٦٦ ـ ٥٧٥
٨ ـ الناصر	٥٧٥ ـ ٦٢٢
٩ ـ الظاهر	٦٢٢ ـ ٦٢٣
١٠ ـ المستنصر	٦٢٣ ـ ٦٤٠
١١ ـ المستعصم	٦٤٠ ـ ٦٥٦

-٢٧-

المقتدي بأمر الله
عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم
٤٦٧ - ٤٨٧

بعد أن دخل السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ بقي القائم بأمر الله خليفةً مدة عشرين سنة أخرى، بل إن هذا الخليفة هو الذي أذن لطغرك بك زعيم السلاجقة أن يدخل بغداد.

كان للقائم بأمر الله ولد توفي في حياته عام ٤٤٨ واسمه محمد، وكانت أم ولده «أرجوان»[١] حامل فوضعت بعد وفاة زوجها محمد بن الخليفة القائم ولداً، أسماه جده على اسمه عبد الله، ولقبه المقتدي وقد بويع بالخلافة بعد وفاة جده القائم عام ٤٦٧ وعمره تسع عشرة سنة فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله. كان ديّناً، خيّراً، قوي النفس، عالي الهمة، من نجباء بني العباس[٢]. ومن محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي ببغداد[٣]. وكان يكنى أبا القاسم، وقد خطب الخليفة ابنة السلطان ملكشاه عام ٤٧٤ وتزوجها عام ٤٨٠، لكنها لم تلبث أن توفيت عام ٤٨٢.

دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩ ونزل في دار المملكة ومكث مدة ثم

---

(١) كانت تدعى قرة العين.

(٢) تاريخ الخلفاء.

(٣) المصدر نفسه.

رجع إلى أصبهان، وكذلك جاء ثانية في عام ٤٨٤ وبقي مدة ثم عاد إلى قاعدته غير أن قدومه الأخير عام ٤٨٥ كان يضمر فيه الشرّ، فقد أرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يغادر بغداد، ويتركها له، وأن يسير إلى حيث يشاء من البلدان، فغضب الخليفة وطلب من ملكشاه أن يمهله ولو شهراً، فأجابه: إنه لا يمهله ولا ساعة واحدة، فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام غير أن الموت لم يمهل ملكشاه إذ مرض وتوفي في هذه الأثناء، وقيل: إن الخليفة كان يصوم ويدعو على ملكشاه.

وفي أيام المقتدي استردّ المسلمون من الروم إنطاكية على يد سليمان بن قطلمش السلجوقي عام ٤٧٧، وكان الروم قد أخذوها من المسلمين عام ٣٥٨. كما استردّ المسلمون منبج عام ٤٦٨ على يد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس. وانتصر المسلمون في الأندلس في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩ على النصارى الإسبان بعد أن دعم الأندلسيين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب، وكان هذا النصر مؤزراً، وكانت المعركة حاسمةً. كما فتح المسلمون في أيامه أجزاء من الهند، وأخذوا قلاعاً حصينة هناك على أيدي الغزنويين.

وفي أيام المقتدي أعيدت الخطبة للعباسيين في دمشق عام ٤٦٨، وفي مكة عام ٤٧٤ بعد أن انقطعت ثانية عام ٤٦٧هـ.

وتوفي الخليفة المقتدي ـ رحمه الله ـ في مطلع عام ٤٨٧ في ١٤ المحرم، وبذا تكون خلافته قد قاربت العشرين عاماً، وكان فيها خير للمسلمين.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

بعد معركة ملاذكرت ضعفت الدولة البيزنطية ضعفاً ظاهراً بحيث لم تعد تقوى على شيء وخاصةً أن إمبراطورها قد أُسر في تلك الموقعة الشهيرة، فتقدّم السلاجقة في بلاد الأناضول ثم قامت إمارات سلجوقية لعل أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان الأول بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق والتي عُرف السلاجقة فيها باسم سلاجقة الروم وكان مقرها قونية، وكانت هذه أول الإمارات السلجوقية في بلاد الأناضول ثم أعقب ذلك قيام إمارات أخرى.

ولما تأسست إمارات سلجوقية في الأناضول قامت كذلك إمارات أخرى في أرمينيا إلى جانب دويلات أرمينية هذا بالإضافة إلى الأرمن الذين فرّوا نحو الغرب من وجه السلاجقة وأسسوا إمارةً لهم في كيليكيا في شمال غربي بلاد الشام وكانت مستقلةً وبقيت حتى انهارت على أيدي المغول في أواخر القرن السابع الهجري.

وتوسع ملك السلاجقة أيام ملكشاه كثيراً إذ ضمّ إليه دمشق عام ٤٦٨ وانتهت بدعة «حي على خير العمل» في الأذان، وسار صاحب دمشق الملك المعظم الإقسيس وهو اتسز بن أوف الخوارزمي بملاحقة العبيديين إلى مصر عام ٤٦٩، وألقى الحصار عليهم فيها غير أنه لم يتمكّن من دخولها، وعندما عاد إلى دمشق سار إليه الملك المظفر تاج الملوك تتش بن ألب أرسلان أخو ملكشاه، فلم يحسن الإقسيس استقباله لذا فقد قتله عام ٤٧١ وحكم دمشق مكانه.

وضمّ السلاجقة إليهم حمص وحلب، وبعد هذا الضم دخل ملكشاه بغداد عام ٤٧٩، ومعه وزيره نظام الملك، فزارا معالم المدينة ومشاهدها وعادا بعدها إلى أصبهان في شهر صفر من عام ٤٨٠، وفي هذه الأثناء تزوج الخليفة ابنة السلطان ملكشاه.

وضمّ السلاجقة إليهم بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها من أحمد خان عام ٤٨٢، ووصلوا إلى كاشغر في تركستان الشرقية، وحملت جزية الروم إلى السلطان ملكشاه وهو في كاشغر ليرى رسل الإمبراطور البيزنطي سعة أملاك ملكشاه، وبعد ذلك اتجه ملكشاه إلى بغداد عام ٤٨٤، وعاد بعدها إلى أصبهان؛ كما اتسع سلطان ملكشاه إلى اليمن وعدن، وانتصر على الغزنويين بعد أن هُزم عمه عثمان أمامهم وأُسر وحمل إلى غزنة.

اختلف ملكشاه مع أخيه صاحب دمشق تتش، وجرى قتال بين الطرفين، كما أن أخاه الثاني تكش صاحب طخارستان قد استولى على بعض أجزاء من خراسان. وانتصر ملكشاه على عمه تاروت صاحب كرمان وقتله.

ولم يقتصر السلاجقة في أيام ملكشاه على توسعة نفوذهم في البلاد الإسلامية بل تخطّوها فتوسعوا بانتشارهم في بلاد الروم، واستردوا بعض ما كان الروم قد أخذوه من المسلمين، إذ استرد نصر بن محمود بن صالح بن مرداس منبج من الروم ٤٦٨، كما استرد سليمان بن قطلمش صاحب قونية من الروم مدينة إنطاكية عام ٤٧٧ وقد كانت بيد الروم منذ سنة ٣٥٨هـ.

وعاد ملكشاه ثانيةً إلى بغداد، وكان في هذه المرة يضمر الشرّ للخليفة، فما أن دخلها حتى طلب من الخليفة أن يغادرها ويتركها له، ويرتحل إلى أية جهةٍ يشاء، فطلب الخليفة من أن يمهله شهراً فرفض ملكشاه إمهاله ساعةً واحدةً فطلب الخليفة عندئذٍ من الوزير أن يرجو السلطان مهلة عشرة أيام على الأقل، غير أن السلطان قد غادر بغداد في أثناء ذلك، وتوجّه ملكشاه نحو أصبهان ومرض في الطريق، وما أن وصل إلى مقصده حتى أدركته منيته وذلك عام ٤٨٥.

كتمت زوجة السلطان «تركان خاتون» موته، واستدعت الأمراء، وأعلمتهم بالأمر، واستخلفت ابنها محمود وهو صغير السن إذ لا يزال في الخامسة من عمره.

كان ملكشاه أحسن الملوك سيرةً حتى كان يلقب بالسلطان العادل[١]. وكان يجلس للمظالم بنفسه، ويقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أي شخص من أفراد شعبه أن يتصل به في سهولة ويسر لرفع ظلامته أو للتعبير عما لحقه من اضطهاد. وكانت السبل في أيامه آمنة، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام في أمنٍ وطمأنينة[٢]. كما حفر ملكشاه الآبار في طريق مكة، وبنى منارة القرون بالسبيعي في طريق مكة، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر. وأسقط المكوس عن حجاج بيت الله، وقد سارت مهارته في الصيد على كل لسان[٣].

واستوزر السلطان ملكشاه وزير أبيه السلطان ألب أرسلان وهو أبو الحسن علي بن إسحاق المعروف بنظام الملك[٤]، وكان ألب أرسلان قد عهد إليه بتنشئة ابنه ملكشاه، فلما تولى ملكشاه الأمر بعد أبيه ألب أرسلان استبقاه وجعله مدبر ملكه ومستشاره الأمين، وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت، وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، واشتهر ببناء المدارس وخصص لها النفقات العظيمة، وأملى الحديث ببغداد ونيسابور، وكان قد تعلم العربية منذ صغره، وصدف عن الدنيا في أواخر حياته.

قبض نظام الملك وأولاده الاثنا عشر على زمام الدولة بشكل جيد،

---

(١) وفيات الأعيان ـ ابن خلكان.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكامل في التاريخ.

(٤) ولد نظام الملك بمدينة طوس عام ٤٠٨، وكان أبوه من أصحاب محمود بن سبكتكين الغزنوي.

وقتل نظام الملك وهو صائم بالعاشر من رمضان عام ٤٨٥ على يد أحد غلمان الباطنية. وكان السلطان ملكشاه قد لقبه أتابك أي «الوالد الأمير»، ومات السلطان ملكشاه بعده بشهر وخمسة أيام.

توفي ملكشاه في منتصف شوال عام ٤٨٥ وخلف عدداً من الأولاد أكبرهم بركيارق ولد عام ٤٧٢، ومحمد ولد عام ٤٧٣، وسنجر ولد عام ٤٧٧، ومحمود ولد عام ٤٨٠، أما ولده الكبير أحمد فقد توفي عام ٤٧٤ وكان يريد توليته العهد من بعده.

استطاعت زوجة ملكشاه «تركان خاتون» بمساعدة الوزير تاج الملك تولية ابنها محمود الصغير السلطنة بعد أبيه ملكشاه، ووافق الخليفة بعد تردد على تلك التولية، وخطب له بعد الخليفة، وكان الوزير تاج الملك يقوم بالوصاية عليه.

كان محمود بن ملكشاه في بغداد، وكان أخوه بركيارق في أصبهان، وخشيت تركان خاتون من منافسة بركيارق لأخيه الصغير محمود فأرسلت إلى أصبهان من قبض على بركيارق وسجنه، غير أن أحد أبناء نظام الملك قد أخرجه من السجن، وانتقل به إلى الري ونصبه ملكاً، ووقع القتال بين الطرفين، وهزم جيش محمود واعتصم بأصبهان، وحاصره أنصار بركيارق، وتم بعدئذ الصلح بين الطرفين مقابل مبلغ من المال يدفع لبركيارق. وقُتل في هذه الأثناء عام ٤٨٦ الوزير تاج الملك. وعاد الصدام بين الأخوين بعد أن حرّضت أم محمود «تركان خاتون» على بركيارق خاله إسماعيل إلا أن إسماعيل قد هزم. وانتصر بركيارق في النهاية، واتجه إلى بغداد، ونودي به سلطاناً في مطلع عام ٤٨٧ (١٤ المحرم)، على حين بقي محمود بأصبهان، ووافق الخليفة على سلطنة بركيا رق وقلّده، وفي اليوم التالي لهذا التقليد توفي الخليفة نفسه (١٥ المحرم).

٢ ـ شاه خوارزم:

كان أحد سقاة بلاط السلطان ملكشاه رجل يُدعى: «أنوشتكين»

ووظيفة الساقي هي الإشراف على موائد القصر، وقد اشترك «أنوشتكين» في القتال الذي دار بين السلاجقة والغزنويين، وكان له باع في إحراز النصر السلجوقي بعد الهزيمة التي حلت بهم فكافأه السلطان ملكشاه وأعطاه إقطاعية خوارزم (مدينة خيوه) الواقعة جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) بمائتين وثلاثين كيلومتراً، فبدأ أنوشتكين ملكه عام ٤٧٠، واستمر في حكمه مدة عشرين سنة حيث توفي وخلفه ابنه قطب الدين عام ٤٩٠.

٣ ـ الغزنويون:

حكم الدولة الغزنوية إبراهيم بن مسعود من عام ٤٥١ حتى عام ٤٩٢ وكان قوي الشكيمة، انتصر على السلاجقة، وأسر عثمان عمّ السلطان ملكشاه وحمله أسيراً مع خزائنه إلى غزنة غير أنه لم تمض مدة حتى هزم أمام السلاجقة وذلك عام ٤٨٢، وقد عرف باسم ظهير الدين، وبدأت الدولة الغزنوية منذ ذلك الوقت بالأفول.

٤ ـ العبيديون:

بعد أن امتد نفوذ العبيديين كثيراً في أوائل أيام المستنصر بدأ هذا المد بالانحسار تدريجياً إذ انسحب العبيديون من الحجاز ومن بلاد الشام، واضطر المستنصر أن يسحب واليه على عكا بدر الجمالي عام ٤٦٦، هذا من ناحية المشرق، أما من ناحية المغرب فقد زال سلطانهم عنها أيضاً، ولم يبق لهم سوى مصر، وتوفي المستنصر عام ٤٨٧، وآل الحكم من بعده لولده الأصغر أحمد أبو القاسم المستعلي وأبعد ابنه الأكبر نزار.

٥ ـ آل زيري:

بعد وفاة المعز بن باديس عام ٤٥٤ آل أمر الدولة من بعده إلى ولده تميم وكان في أيام أبيه والياً على المهدية، وقد استطاع تميم هذا أن يسترد مدن سوسة وتونس وصفاقس بعد أن كان الهلاليون وغيرهم قد غلبوا أباه

عليها وأخرجوه إلى المهدية، وهاجمت مراكب الإفرنج إفريقية، واستولوا على المهدية عام ٤٨٠، ثم صالحهم على مال أخذوه وانصرفوا.

أما صقلية فقد كان بعض أهلها قد استعانوا بالنورمانديين فجاءوا واحتلوا عدداً من مدنها، وجاء فريق منهم مستنصرين بالمعز بن باديس فأرسل إليهم أسطولاً غرق أكثره، وعندما قام تميم بالأمر أرسل لأهل صقلية أسطولاً مساعدة لهم ضد النورمانديين، فحدث خلاف بين المسلمين في صقلية استغله النورمانديون فهاجموا الجزيرة، واستطاعوا السيطرة عليها تماماً عام ٤٨٤، وبذا زال نفوذ آل زيري نهائياً من صقلية. وكانت صقلية بيد المسلمين منذ سبعين ومائتي سنة.

هاجم الطليان تميم بن المعز في أسطول كبير غير أنه تمكن من هزيمتهم والانتصار عليهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم. واعتلّت أموره في أواخر أيامه فكان ينتقل بين المهدية وقابس وجربا وصفاقس إلى أن توفي في المهدية عام ٥٠١، وكان شجاعاً ذكياً له عناية الأدب، ينظم الشعر، وله ديوان كبير.

وفي إمارة آل حماد توفي الناصر بن علناس بن حماد، وتولى مكانه ابنه المنصور عام ٤٨١.

٦ ـ الإمارة المغراوية:

عندما قامت صنهاجة في بلاد المغرب بدعوة العبيديين ثبتت زناتة على الدعوة للأمويين في الأندلس، وقادها زيري بن عطية من قبيلة مغراوة وهي فرع من زناتة فملك مدينة فاس ثم اتسع سلطانه، وخاض حروباً كثيرة كان آخرها قتاله لجيوش ابن أبي عامر من الأندلس، فأثخن بالجراح ومات عام ٣٩١، وخلفه ابنه المعز بموافقة أبناء عمه وجاءه تقليد المظفر بن أبي عامر بولايته على المغرب كله، ما عدا سجلماسة، فأقام تابعاً لقرطبة إلى أن انقرضت الدولة الأموية بعد انقراض الدولة العامرية، فاستقل بالأمر، واستمر إلى أن توفي بفاس عام ٤٢٢ وكانت أيامه أيام هدوء وأمن. ثم

تولّى الأمر من بعده بعض أبناء عمومته وفي عام ٤٥٧ آل الأمر إلى منعصر بن المعز، وقد كان في أيام أبيه بقرطبة رهينةً لدى المظفر بن أبي عامر فلما شبت الفتنة بالأندلس عاد إلى فاس وبقي حتى أصبح له أمرها، قاوم المرابطين وفقد إحدى عينيه عام ٤٦٠، وقام ابنه تميم مكانه، فهاجمه المرابطون ودافع عن فاس إلى أن قتل عام ٤٦١ ودخل المرابطون فاس وانقضت دولة مغراوة.

٧ ـ المرابطون:

كانت القبائل التي تقيم في صحاري المغرب كثيرة وكلها تنتمي إلى الإسلام، ولكن لم تكن لتعرف إلا القليل من أحكامه، وكان أكثرها حماسةً قبيلة لمتونةَ، ومن القبائل الأخرى جدالة التي هي فرع من صنهاجة أيضاً، وفي عام ٤٤٠ ارتحل رجل من جدالة يدعى يحيى بن إبراهيم إلى المشرق لأداء فريضة الحج وفي أثناء عودته حضر بمدينة تونس حلقة علم لعالم يدعى أبا عمران الفاسي الذي لاحظ ميل يحيى نحو العلم وعندما اختبره وجده لا يعرف شيئاً رغم أنه أمير قومه، وعندما سأله عن موطنه أخبره وأعلمه أن الجهل يسود تلك المواطن، ثم طلب منه أن يرسل معه أحد تلامذته ليفقه الناس، وعندما سأل الشيخ طلابه في الارتحال مع يحيى لم يستجب أحد لبعد الشقة وطول الطريق رغم أنه قد شجعهم كثيراً، ولما وجد هذا أرسله إلى أحد فقهاء المغرب وزوّده بكتاب، ويدعى هذا الفقيه «واجاج بن زللو» اللمطي فاستقبل (واجاج) ضيفه يحيى ورحّب به، وبعث معه عبد الله بن ياسين الجزولي إلى حيث تنتقل لمتونة، ومسوفة، وجدالة الصنهاجية، وأصله من مدينة سجلماسة.

بدأ عبد الله بن ياسين في تعليم رجال القبائل أمور دينهم، ولكنه لم يجد صلاحاً في سلوكهم لذا قرر الرحيل عن ديارهم مغاضباً لما وجد من إعراض، غير أن يحيى بن إبراهيم الجدالي قد تمسك به وانتقل معه إلى جزيرة في نهر السنغال حيث أسسا هناك رباطاً للمحافظة على الدين والبعد

عن العادات المخالفة للإسلام لكن سرعان ما اتجه أناس نحو هذا الرباط، وتتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين وقبلوا نصائحه وقد وصل عددهم إلى ألف شخص، وقد أثار فيهم روح الجهاد لإحياء نظام الإسلام وقتال الظالمين الذين يقفون في وجه الدعوة وأمام تطبيق المنهج الإسلامي بشكل سليم، ولما بلغ عدد المرابطين هذا العدد وهو الألف قادهم شيخهم عبد الله بن ياسين إلى الجهاد.

انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، لذلك زاد تحول قبيلة صنهاجة إلى الإسلام الذي بدأ من عهد عقبة بن نافع، وقام تحالف بين قبائل الملثمين جميعاً بزعامة قبيلة لمتونة، ولم يكن هذا التحالف ليستطيع التوسع نحو الشمال بسبب قوة الأدارسة وحلفائهم من (زناتة ومصمودة) لذا فقد أخذ هذا الحلف ينتقل بأبنائه نحو الجنوب ويتوسع في تلك الجهة، وتمكن هذا الحلف إلى أن يستولي على مدينة (أودغشت) التي اتخذها قاعدة له، وفرض على أهلها المغلوبين الجزية.

تفككت عُرا هذا الحلف عام ٣٠٦ مما جعل إمبراطورية غانة تستعيد مدينة (أودغشت)، وبعد مدة وجدت قبائل الملثمين نفسها بحاجة إلى إعادة الوحدة التي فيها دعائم القوة فعاد الحلف وتمكّن ثانيةً من السيطرة على (أودغشت) عام ٣٥٠ ثم لم يلبثوا أن تركوها مرةً أخرى لغانة بعد أن تصدع الحلف ولم تكن نتائج هذا التصدع ضياع مدينة (أودغشت) فقط وإنما قتل زعيم لمتونة سيدة هذا الحلف. وأمام هذه الهزيمة فقد تخلّت أيضاً قبيلة لمتونة عن زعامة الملثمين، وتولّت أختها (جدالة) هذه الزعامة، ويبدو أن حظها في القتال كان أفضل من سابقتها وربما كان لقرب منازلها من إمبراطورية غانة. وكان سيد جدالة يومذاك يحيى بن إبراهيم الذي التقى مع العالم أبي عمران الفاسي، ثم انطلق مع عبد الله بن ياسين إلى الرباط الأول للملثمين.

انطلق عبد الله بن ياسين برجاله نحو غانة واستطاعوا فتح (أودغشت)

عام ٤٤٦ وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام، وقد استشهد يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فتحت فيها مدينة (أودغشت)، وخلفه في زعامة المرابطين يحيى بن عمر سيد لمتونة.

استنجد أهل سجلماسة، ودرعة بالمرابطين فسار إليهم عبد الله بن ياسين وجماعته من المرابطين، واستطاعوا تخليص هذه المناطق من حكم دولة مغراوة، وفي إحدى المعارك استشهد يحيى بن عمر اللمتوني فأعطى عبد الله بن ياسين قيادة جيش المرابطين إلى أخيه أبي بكر بن عمر اللمتوني، وأمره بغزو بلاد السوس، فعيّن أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين، واستولى المرابطون على بلاد السوس، وفتحوا بلاد جزولة وماسة، ثم اتجهوا إلى بلاد المصامدة ففتحوا مدينة نفيس، ثم ساروا إلى أغمات وعليها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ففر إلى أبناء عمومته بني يفرن، ملوك سلا، وتادلا، واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات عام ٤٤٩ وأن يجعلوها قاعدةً لهم.

اتجه عبد الله بن ياسين بجماعته إلى قتال قبيلة برغواطة التي تقيم على ساحل المحيط الأطلسي بين سلا وآسفي في سهول الشاوية الحالية جنوب مدينة الدار البيضاء، وقد استشهد عبد الله بن ياسين أثناء قتال هذه القبيلة وذلك عام ٤٥١، واستمر أبو بكر بن عمر في قتال برغواطة حتى خضعوا له، ثم انصرف هو إلى الحرب في الصحراء على حين ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين لقتال مغراوة.

سار أبو بكر للقتال في صحارى الجنوب فتقدّم في بلاد السودان وأحرز انتصارات واسعة ورجع إلى أغمات بعد انتهاء مهمته فوجد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد نظم أمره، وقوّى جيشه، ونازل خصومه، وانتصر عليهم، فتنازل أبو بكر ليوسف عن إمارة المرابطين أمام سادات القوم، وعاد إلى الجنوب يجاهد في سبيل الله، وقد تمكن من دخول عاصمة إمبراطورية غانة مدينة كومبي صالح عام ٤٦٩ وذلك بمعاونة قبائل التكرور،

وفرض الإسلام على جميع البلاد التي دخلها. وقبل ملك غانة (تنكامنين) الدخول في الإسلام، والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل كثير من رعاياه في الإسلام. وتوفي أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، وضعف أمر المرابطين فاستقلت قبائل السوننكي، وأعلنت الارتباط بالدولة العباسية، وبدأت تدعو إلى الإسلام، وأصبحت مملكة غانة مسلمة، وغدت اللغة العربية لغتها الرسمية.

أما يوسف بن تاشفين فقد أرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي يعلمه ببيعته، وكان يوسف رجلاً ديناً خيّراً حازماً داهيةً مجرباً. وتمكّن أن يدخل مدينة فاس عام ٤٦١ وأن يقضي على دولة مغزاوة. وابتنى يوسف مدينة مراكش وجعل حاضرة ملكه، وانتقل إلى الأندلس لدعم المسلمين، وقاتل النصارى الإسبان في معركة الزلاّقة.

٨ ـ الأندلس:

كانت بلاد الأندلس مقسمة بين ملوك الطوائف، وكان أشهرهم المعتمد بن عباد حاكم مدينة إشبيلية، واستطاع أن يتغلب على بني جهور في قرطبة، وقد استنجدوا به ضد المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة الذي استولى على مدينتهم فجاء ابن عباد، ودخل قرطبة وغدت تابعة لإشبيلية.

وفي عام ٤٧٨ سقطت طليطلة بيد النصارى الإسبان الذين هددوا أملاك ابن عباد فدفع لهم الأتاوة غير أنهم قد طلبوا تسليم عدة قلاع، فرأى ابن عباد أن يستنجد بيوسف بن تاشفين ضدهم، وفي عام ٤٧٩ عبر ابن عبّاد بحر الزقاق إلى العدوة المغربية، وكان ابن تاشفين في سبته فالتقى به، وطلب ابن عباد من ابن تاشفين نجدة المسلمين في الأندلس والجهاد في سبيل الله فأجابه: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، واستقدم من بقي من جنده في مراكش، ثم عبر البحر في مائة مركب تحمل سبعة آلاف جندي، واتجه إلى الجزيرة الخضراء

فتلقّاه ابن عباد في وجوه دولته. ويمم وجهه شطر العدو مباشرةً، ورفض الاستراحة في إشبيلية أياماً حسب طلب ابن عباد، واتجه عدد من المتطوعين المسلمين إلى جيشه حتى زاد على العشرين ألفاً، وجاء جيش ملك النصارى الفونس السادس وكان جراراً يضم جموع النصارى من أقاصي المملكة مع من يدعمهم، والتقى الطرفان في سهل الزلاّقة بالقرب من مدينة بطليوس، ووقف جيش المعتمد بن عباد في المقدمة، واصطف جيش يوسف به تاشفين خلف أكمةٍ عالية من الجبل. وحاول الفونس السادس الخديعة إذ تبادلت الرسل بين الفريقين لتحديد يوم القتال، واقترح النصارى ألا يكون الجمعة لأنه عيد المسلمين ولا السبت لأنه عيد اليهود وهم وزراء النصارى في الأندلس وكتّابهم ولا الأحد لأنه عيد النصارى. غير أنه ما حان يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة حتى بدأ هجوم النصارى، غير أن المعتمد بن عباد كان يخشى هذه الخديعة لذا فقد بقي في سلاحه وتصدّى لهجوم النصارى، وانتهى المرابطون من صلاتهم وحملوا على النصارى وبدأوا فيهم قتلاً حتى قيل إنهم قد أفنوهم عن آخرهم وذلك في منتصف رجب من عام ٤٧٩، وقيل في أوائل رمضان. واستولى المسلمون على كل ما كان مع النصارى، وقد آثر يوسف بن تاشفين بهذه الغنائم من انضم إليه من ملوك الأندلس لذا فقد أحبوه، كما أحبه الشعب. أما ملك النصارى الفونس السادس فقد نجا من المعركة إذ فرّ منها. وبعد المعركة ثارت عوامل حقد النصارى وملكهم على ابن عباد الذي استدعى ابن تاشفين، لذا فقد ركّز الفونس السادس غاراته على أطراف مملكة ابن عباد.

عاد المعتمد بن عباد إلى المغرب وطلب نجدة يوسف بن تاشفين ثانية فوافقه واتجه يوسف إلى الأندلس ولكن لم يأت إليه من ملوك الأندلس إلا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وابن عبد العزيز صاحب مرسية، وبدأ المسلمون بشن الغارات على بلاد النصارى الذين لم يجرؤوا على مواجهة المسلمين، وكان هناك خلاف بين ابن عباد وابن عبد العزيز،

وألقي القبض على ابن عبد العزيز حسب رأي ابن عباد، وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب وفي نفسه شيء على ملوك الأندلس.

وفي عام ٤٨٣ جاز يوسف بن تاشفين بحر الزقاق إلى العدوة الأندلسية وهي المرة الثالثة، وسار نحو طليطلة وحاصر بها الفونس، وقتل كثيراً، وقطع الثمار، ولم يأت لمساعدته أحد من ملوك الأندلس، ولم يتمكن من دخول طليطلة ففك الحصار عنها، وعاد نحو غرناطة فنازل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس لأنه صالح الفونس وظاهره، وحاصر غرناطة وطال حصاره فطلب صاحبها منه الأمان فأمنه يوسف وحمله معه وأخاه تميم صاحب مالقة إلى مراكش، وولّى على غرناطة ومالقة سيري بن أبي بكر اللمتوني وطالبه بملاحقة ألفونس، وانتقل هو إلى المغرب في شهر رمضان عام ٤٨٣.

قبل انتقال يوسف بن تاشفين إلى المغرب طلب من واليه على غرناطة أن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين، ويلحق أمراءها بالمغرب، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة، وألا يتعرض للمعتمد بن عباد حتى يستولي على سائر الإمارات ويولي عليها أمراء جنده.

استولى سيري بن أبي بكر على جيّان، وقرطبة، وقرمونة، فاستنجد المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بألفونس السادس الذي أمده بعشرين ألفاً، فسار إليه عندئذٍ سيري بن أبي بكر، والتقى به على مقربة من حصن المدور، ثم ضيق عليه حتى فتحت إشبيلية أبوابها له فدخلها، وطلب ابن عباد الأمان، فأُعطي له، وحمله وولده وأهله معه، وحزن الناس على ابن عباد حيث كان موصوفاً بالكرم وحسن السيرة والعشرة والإحسان إلى الرعية والرفق بهم. وأرسلهم إلى أمير المسلمين يوسف به تاشفين فأنزلهم بأغمات قريباً من مراكش، وهذا كله قد حدث بأقل من نصف سنة من عام ٤٨٤، وفي العام التالي دخل المرابطون بإمرة يوسف بن داود بن عائشة مدينة المرسية، ودانية، وشاطبة، والمرية، وبلنسية، وكان صاحب الأخيرة القادر بن ذي النون يخضع للألفونس السادس، ويدفع له أتاوةً سنويةً.

وتوفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ وخلفه ابنه علي، وكان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم، ويسند إليهم مناصب الدولة، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما اتصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب، ويستمع إلى الموعظة في خشوع، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠هـ[١].

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والأندلس مدة خمسين سنة.

٩ ـ اليمن:

استقر حكم الصليحيين في اليمن ودانت لهم المناطق كلها، بل استولى الصليحيون على المدينة المنورة عام ٤٧٧، وكان سعيد الأحول بن نجاح قد فرّ إلى جزر دهلك، ورجع بعد مدةٍ وقاتل المكرم به علي الصليحي غير أنه قد هزم أمامه عام ٤٨١ ثم قُتل، وفرّ أخوه جيّاش بن نجاح إلى الهند.

عاد جيّاش بن نجاح من الهند بعد سنتين، وقاتل المكرم بن علي الصليحي، واستطاع أن ينتصر عليه وأن يعود إليه حكم اليمن. أما المكرم الصليحي فقد توفي عام ٤٨٤ وهو في طريقه إلى صنعاء، وقد أوصى في الملك من بعده لزوجته أروى بنت أحمد الصليحي[٢]، وفي الدعوة إلى ابن

---

(١) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الرابع.

(٢) أروى بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي، توفي أبوها عامل الصليحي على عدن، وكانت طفلة صغيرة، فكفلها الصليحي وربتها زوجته أسماء بنت شهاب، فلما كبرت تزوجها المكرم بن الصليحي، كانت راجحة العقل، حسنة التدبير للملك.

عمه سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي، وقد تزوج سبأ أروى بعد وفاة المكرم بخمسة أشهر بعد أخذ الإذن من الخليفة العبيدي المستنصر حسب اقتراحها، وحكم سبأ الصليحيين حتى عام ٤٩٢، والتقى مع بني نجاح في عدة معارك.

وتبعت عدن الصليحيين بعد أن أخذوها من عمال بني يعفر، وولّى علي بن محمد الصليحي على عدن أحد أبناء أسرته وهو أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي والد أروى، ثم توفي أحمد بن جعفر بسبب انهدام منزله عليه، فتولى أمر عدن للصليحيين علي بن محمد بن معن، ولما توفي خلفه ابنه معن بن علي فخلع طاعة المكرم الصليحي عام ٤٦٧، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً على عدن.

وفي عام ٤٧٠ غزا المكرم الصليحي عدن، وطرد معن بن علي، وولّى عليها العباس، والمسعود ابني المكرم اليامي الهمداني المعروفين بابني الزُّريع واستمر لهما الأمر حتى توفي العباس عام ٤٧٧ فخلفه ابنه زريع بن العباس، وتوفي المسعود عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبو الغارات بن المسعود الذي توفي عام ٤٨٥ فخلفه ابنه محمد حتى عام ٤٨٨. كما توفي الزريع بن العباس عام ٤٨٠ فخلفه ابنه أبوالسعود بن الزريع واستمر في حكمه حتى عام ٤٩٤[1].

* * *

(١) انظر اليمن عبر التاريخ، أحمد حسين شرف الدين.

-٣٨-

المستظهر بالله
أحمد بن عبد الله المقتدي
٤٨٧ - ٥١٢

هو أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدي بالله، ولد في شوال من عام ٤٧٠، كان خيّراً فاضلاً ذكياً بارعاً، كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها أعياد، وكان راغباً في البر والخير، مسارعاً إلى ذلك، لا يردّ سائلاً، وكان جميل العشرة لا يصغي إلى أقوال الوشاة من الناس، ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعلمها، وكان لديه علم كثير، وله شعر حسن[١]. ومن العجب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد مات بعده المستظهر هذا، في سادس عشر ربيع الثاني، وله من العمر إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً[٢].

بويع بالخلافة عند وفاة أبيه وعمره سبع عشرة سنة، وفي أيامه بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي.

وتوفي عام ٥١٢.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

أصبح بركيارق سلطان السلاجقة في بغداد عام ٤٨٧، وكان عمه تُتُش تاج الدولة صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة. وسار بالجيش نحو بغداد، ووجد آق سنقر[١] صاحب حلب نفسه مضطراً إلى الانضمام إليه لعدم إمكانية مقاومته، وكذا صاحب الرها بوزان هذا بالإضافة إلى أن استقرار سلطنة بركيارق قد جاءت متأخرة، وقد استطاعت قوات تُتُش والأمراء المتحالفين معه الاستيلاء على أكثر مدن الجزيرة، وهزموا جيوش بني عقيل في الموصل، ثم اتجهوا إلى أذربيجان لملاقاة بركيارق، وما أن التقى الجيشان حتى استطاع آق سنقر أن يلعب دوراً لمصلحة بركيارق إذ أقنع بعض الأمراء بضرورة الوفاء لسلطانهم، فانسحبوا من جيش تتش، وانضموا إلى جيش بركيارق، وهذا ما أضعف تتش فانسحب بمن معه إلى بلاد الشام.

---

(١) كان آق سنقر مملوكاً تركياً من مماليك ملكشاه، وقد تربى معه منذ الصغر، فلما تولى ملكشاه السلطنة عام ٤٦٥ بلغ آق سنقر عنده منزلةً رفيعةً إذ كان يعتمد عليه في المهمات، وفي عام ٤٧٧ أمره ملكشاه أن يسير مع عميد الدولة بن فخر الدولة للاستيلاء على الموصل من بني عقيل، كما سار عام ٤٧٩ مع ملكشاه للسيطرة على حلب من نواب آل عقيل فلما تمّ لهما ذلك أعطاه ولايتها، ولقبه قسيم الدولة، كما لقبه الحاجب، تسلّم آق سنقر حلب وأعمالها مثل منبج واللاذقية وحماه، ثم فرض طاعته على شيزر عام ٤٨١ ثم ضم إليه حمص عام ٤٨٣، وقلعة أفاميا عام ٤٨٤، وقتل في ٩ جمادى الأولى عام ٤٨٧.

أمر بركيارق قائده الجديد آق سنقر بالتوجه إلى حلب والتضييق على عمه تُتُش، وأمده بقوة كبيرة، وسار تتش نحو آق سنقر والتقيا على مقربة من حلب، وهزم آق سنقر وأسر وقتل. «اتبع آق سنقر مع سكان ولايته سياسةً عادلةً. فأحسن السيرة فيهم، ونشر العدل بينهم، وكان شديد التقوى، عميق الإيمان، أنفق الكثير من الأموال على إعمار مسجد حلب، وأقام الحدود الشرعية في بلاده، وكان ـ كما وصفه ابن واصل ـ «ذا وفاء عظيم، وحسن عهد، ومروءة غزيرة. وإنما كان قتله وفاءً لسلطانه ورب نعمته: ملكشاه، وحفظاً لولده ـ بركيارق ـ من بعده»[1].

وسار تتش بعد ذلك لقتال ابن أخيه بركيارق في الري، غير أنه هزم، وقتل، وابنه دقاق، وكان قتله على يد أحد مماليك آق سنقر. وكان يوسف بن أبق التركماني قد سار إلى بغداد ليدعو إلى تتش فلما وصل إليه خبر مقتل تتش عاد إلى دمشق وامتلكها، وكان عبد الله بن تتش في حلب، ورضوان بن تتش في حماه.

وثار في خراسان أرسلان أرغون بن ألب أرسلان على ابن أخيه بركيارق فحاربه عام ٤٩٠ غير أن أرسلان أرغون قد قتل، وسلّم بركيارق أخاه سنجر بلاد خراسان مكان عمه المقتول.

كان مؤيد الملك بن نظام الملك من أنجب أبناء نظام الملك، وكان وزير بركيارق غير أن بركيارق لم يلبث أن عزله وولّى مكانه أخاه عز الملك وأبا الفتح علي بن الحسين الطغرائي الشاعر المعروف فأصبح مؤيد الملك عدواً لبركيارق، واستطاع أن يؤثر على الخليفة فيقلّد السلطنة إلى محمد أخي بركيارق وقد لقبه «غيات الدنيا والدين»، وقد طالت الحروب التي نشبت بين الفريقين حتى زادت على خمس سنوات، يتصالحان ثم يعودان إلى القتال.

---

(١) عماد الدين زنكي، عماد الدين خليل.

توفي عام ٤٩٨ بركيارق فخلفه ابنه ملكشاه ولقبه الخليفة جلال الدولة غير أنه كان صغيراً لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولم يتم له الأمر سوى شهر حتى عزل وخلا الجو لمحمد بن ملكشاه وبقي في السلطنة حتى عام ٥١١ ولعل أهم الحوادث التي وقعت في أيامه.

١ ـ مناوأة ابن عمه أياز الذي حاول استلام السلطنة.

٢ ـ حرب صدقة بن مزيد صاحب البصرة، والحلة، وواسط، الذي انضم إلى الأمير ابن أياز، وقد استولى على تكريت عام ٤٩٩، وانتصر على السلاجقة ثم هزم، وقتل في عام ٥٠١، كما أسر ابنه دبيس، وهرب ابنه الآخر إلى الحلة. وكان صدقة بن مزيد جواداً حليماً صدوقاً، كثير البر والإحسان، ما برح ملجأ لكل ملهوف، يلقى من يقصده بالبر والتفضيل، ويبسط قاصديه ويزورهم. وكان عادلاً، والرعايا معه في أمن ودعةٍ. وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها، فما ظنك بغير هذا، ولم يصادر أحداً من نوابه، ولا أخذهم بإساءة قديمة، وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزانته، ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد، ولم يسمع برعيةٍ أحبت أميرها كحب رعيته له، وكان متواضعاً محتملاً يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا. وعاد السلطان إلى بغداد، ولم يصل إلى الحلة، وأرسل إلى البطيحة أماناً لزوجة صدقة وأمرها بالظهور، فأصعدت إلى بغداد فأطلق السلطان ابنها دبيساً، وأنفذ معه جماعة من الأمراء إلى لقائها فلما لقيها ابنها بكيا بكاءً شديداً، ولما وصلت إلى بغداد أحضرها السلطان، واعتذر عن قتل زوجها، وقال: وددت أنه حمل إليّ حتى كنت أفعل معه ما يعجب الناس به من الجميل والإحسان لكن الأقدار غلبتني، واستخلف ابنها دبيساً لأنه لا يسعى بفساد[١].

٣ ـ **الحروب مع الباطنية**: كثر أتباع الباطنية في أصبهان عام ٤٩٢، ثم انتشروا إلى العراق بسبب الخلاف على السلطنة بين بركيارق ومحمد،

---

(١) الكامل في التاريخ.

فلما صفا الجو للسلطان محمد جرّد حرباً على الباطنية واستطاع عام ٥٠٠ أن يحتل قلعة أصبهان.

٤ ـ القتال مع الصليبيين: إذ أرسل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه جيشاً كثيفاً، وسار فيه أيضاً أمراء الموصل والجزيرة، واتجهوا إلى بلاد الشام، وحاصروا الرها غير أنهم لم يتمكنوا من دخولها، وتابعوا سيرهم... وسار معهم سلطان بن منقذ أمير شيرز، كما حصل قتال عام ٥٠٧ عند طبريا وانتصر فيه المسلمون، وقد قتل يومئذ مودود صاحب الموصل بدمشق على يد أحد الباطنيين. كما أمر بتسيير الجيوش عام ٥٠٩ لحرب الصليبيين.

وكان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً، وتوفي عام ٥١١، وخلفه ابنه محمود، وكان عمره أربع عشرة سنة.

٢ ـ دولة خوارزم:

لما مات أنوشتكين خلفه ابنه قطب الدين،وكان ذا همةٍ عاليةٍ فعينه السلطان بركيارق حاكماً على بلاد خوارزم، ولقبه شاه أي ملك، وعندما ملك سنجر خراسان أقر قطب الدين على ما تحت يده، وبقي مدة حياته خاضعاً للسلطان إذ توفي عام ٥٢١.

وفي بلاد ما وراء النهر قُتل أحمد خان صاحب سمرقند لأنه أظهر الزندقة فقبض عليه الأمراء وأحضروا الفقهاء فأفتوا بقتله فقُتل.

٣ ـ الغزنويون:

توفي ظهير الدين إبراهيم بن مسعود عام ٤٩٢، وخلفه ابنه مسعود الثالث، وظل حتى عام ٥٠٨ إذ توفي وخلفه أبناؤه الثلاثة:

١ ـ **شيرزاد:** ولقب كمال الدولة وتوفي عام ٥٠٩.

٢ ـ **أرسلان:** ولقب سلطان الدولة وتوفي عام ٥١٢.

٣ ـ **بهرام شاه**: ولقب يمين الدولة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٧.

٤ ـ العبيديون:

توفي بدر الجمالي صاحب جيوش مصر، ومدبر المملكة العبيدية عام ٤٨٧، وكان عاقلاً كريماً محباً للعلماء، وقام مقامه ابنه الأفضل، ثم توفي المستنصر العبيدي في العام نفسه، وكان قد عهد إلى ابنه الأكبر نزار إلا أن الأفضل بن بدر الجمالي قد خلع نزاراً، وولّى مكانه أخاه الأصغر أحمد ولقبه المستعلي، فهرب نزار إلى الإسكندرية وتحصّن بها، وأخذ البيعة فيها لنفسه، فسار إليه الأفضل وتمكن من هزيمته وأسره، وسجنه بين جدارين إلى أن مات، واستقر الأمر للمستعلي.

وفي عام ٤٩٠ خطب للعبيديين لمدة شهر في حلب، وأنطاكية، والمعرة، وشيزر، ثم أعيدت الخطبة للعباسيين.

وتوفي المستعلي عام ٤٩٥ وعمره ثمان وعشرون سنة، وقد حكم منها ما ينوف على السنوات السبع، وخلفه ابنه المنصور أبو علي، وعمره خمس سنوات، ولقب الآمر بأحكام الله، وقام بتدبير الدولة الأفضل بن بدر الجمالي.

ولما خلع نزار لم تعترف جماعة من الإسماعيلية بخلافة المستعلي، وبقيت بجانب نزار، ولما مات بقيت على رأيهم الخلافة أو الإمامة في عقبه، وتعرف هذه المجموعة بالإسماعيلية الشرقية، ومنها الحشاشون جماعة الحسن بن الصباح أو الذين عرفوا بالباطنية كجزءٍ من كل، وهم الذين كان لهم الدور الكبير في الاغتيالات السياسية التي تعرّض لها كثير من زعماء المسلمين وهم على ثغور الجهاد ضد النصارى في الحروب الصليبية أو في أماكنهم.

٥ ـ آل زيري:

توفي تميم بن المعز بن باديس عام ٥٠٢ وكان من خيار الملوك حلماً

وكرماً وإحساناً ملك ستاً وأربعين سنة، وعمر تسعاً وتسعين سنة، وملك بعده ابنه يحيى[١]. وفي هذه السنة في رجب توفي تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية، وكان شهماً شجاعاً ذكياً له معرفة حسنة، وكان حليماً كثير العفو عن الجرائم العظيمة وله شعر حسن[٢].

قام يحيى[٣] بالأمر، وكان من قبل والياً على المهدية منذ عام ٤٩٧ من قبل أبيه، ولما استقل جعل الخطبة للعبيديين، وكانت للعباسيين. كان عاقلاً شجاعاً محباً للفتح بنى أسطولاً ضخماً غزا به جنوه وسردينيا، وضع على أهليهما الجزية، وله اطلاع على الأدب، كان يقول الشعر، وتركه بعد أن تولى. مولده ووفاته في المهدية. كان قد نفى بعض إخوته من بلاده، فاحتال عليه ثلاثة منهم، وأثخنوه بجراح سنة ٥٠٧، ومات بعد ذلك فجأة عام ٥٠٩[٤] يوم عيد الأضحى، وخلفه ابنه علي، وحدثت معارك بينه وبين الأعراب، واشتد ما بينه وبين روجر الثاني صاحب صقلية فأعد عدته ليهاجم صقلية فعاجلته المنية، وكان شجاعاً حازماً توفي عام ٥١٥.

أما بنو حمّاد في بجاية فقد توفي عام ٥٠٠ باديس بن المنصور، وخلفه أخوه العزيز.

٦ ـ المرابطون والأندلس:

عندما توفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ بويع بعده ابنه علي، ولم يكن أكبر إخوته، وكان أبوه قد جعله ولياً للعهد، وأخذ البيعة له في قرطبة عام ٤٩٧، وأوصاه بالإحسان إلى أهل قرطبة وإلى قبيلة مصمودة ومهادنة بني هود ملوك سرقسطة.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) الكامل في التاريخ.

(٣) ولد يحيى بالمهدية عام ٤٥٧.

(٤) الأعلام للزركلي.

نازع علي بن يوسف ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف صاحب فاس، فسار إليه ففر من وجهه. تطلع علي إلى القضاء على مقاومة النصارى، وخاصة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي أصبح يغير على أطراف بلاد المسلمين في الأندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين، فولّى: علي أخاه تميماً على غرناطة وجعله قائد الجيش المرابطي في الأندلس، وقد استطاع تميم أن ينتصر على النصارى انتصاراً كبيراً في معركة «إقليش» التي تعد من أكبر المعارك بعد «الزلاّقة»، وذلك عام ٥٠٢، وقد قتل في «إقليش» ابن ألفونس السادس قائد جيش النصارى ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من جنده، وعندما وصل خبر المعركة إلى علي بن يوسف فرح فرحاً شديداً، وقرر المسير إلى الأندلس والقضاء على شأفة النصارى فيها، فاجتاز بحر الزقاق عام ٥٠٣، وسار إلى قرطبة، ومنها توجه للجهاد، واستطاع أن يفتح ثمانيةً وعشرين حصناً من حصون النصارى من بينها حصن مجريط (وهي اليوم مدينة مدريد)، ثم حاصر طليطلة شهراً كاملاً لكنه لم يتمكن من دخولها. كما سار إلى الجهاد عام ٥٠٤، واستطاع أن يفتح عدة حصون في غرب الأندلس من بينها أشبونه (لشبونة)، كما هزم النصارى هزيمة منكرة عام ٥٠٥، وأسر عدداً كبيراً، وحصل على غنائم لا تحصى، غير أن النصارى قد استطاعوا عام ٥١٣ أن يستولوا على مدينة سرقسطة، وأن يدخلوا قلعة أيوب في شرقي بلاد الأندلس التي تعد من أقوى القلاع وأحصنها، وربما كان لسقوط هذه القلعة بيد النصارى أثر على ضعف المرابطين.

وفي عام ٥١٤ وقعت فتنة بين أهل قرطبة وجند المرابطين أدت إلى فرار الوالي المرابطي ثم قدوم علي بن يوسف من المغرب واستنكاره لما وقع، وتم الصلح.

٧ ـ اليمن:

في عام ٤٨٣ عاد جيّاش بن نجاح من الهند إلى زبيد وملكها،

واستمر في حكمها حتى عام ٤٩٨ حيث خلفه ابنه فاتك بن جياش حتى عام ٥٠٣، حيث تولى بعده ولده منصور بن فاتك حتى عام ٥٢١.

أما الصليحيون فكان أميرهم سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي تزوج أروى بنت أحمد الصليحي، وتوفي سبأ عام ٤٩٢، فبقيت سيدة الموقف أروى وقد خرج عن طاعتها ابن بخيت واليها على جَنَد فوجهت إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً أسره، وجاء به للسيدة أروى مستغفراً طائعاً، وكان الخليفة العبيدي يطلبه فرفضت تسليمه، ثم إن أعداءه قد عظموا للسيدة أروى خلافها للعبيديين فأرسلته، وأرسلت إلى الخليفة العبيدي تستعطفه في الإحسان إليه. وتوفيت أروى عام ٥٣٢ في مدينة (ذي جبلة).

وفي عدن كان بنو زريع يحكمونها، وكان في هذه الآونة أبو السعود بن زريع الذي توفي عام ٤٩٤، ومن جهة ثانية كان محمد بن أبي الغارات الذي توفي عام ٤٨٨ فخلفه ابنه علي، وقد حاربه سبأ بن أبي السعود قرابة عامين، واستطاع سبأ أن ينتصر على خصمه، وأن يحكم المنطقة كاملةً، وقلده الخليفة العبيدي بمصر الدعوة لذا لقب بالداعي، وتمكن أن يقتل أبناء عمه أولاد ابن أبي الغارات جميعاً، واستمر سبأ في حكمه عدن حتى عام ٥٣٢.

* * *

الصَليبيُّونَ

إن الحقد النصراني على الإسلام والمسلمين والذي امتد عدة قرون بسبب الانتصارات الإسلامية على النصرانية وانتزاع أجزاء واسعة من أملاك النصرانية في بلاد الشام وشمالي إفريقية، وقد كان هذا الحقد مع كل انتصار جديد يحققه الإسلام، ولما كانت النصرانية وأبناؤها عاجزةً عن القيام بردّ فعل لذا فقد انتظرت حتى تمرّ موجة الفتوة الإسلامية، ولكن زاد انتظارها، وطالت مدة هذا المدّ الإسلامي فعندما بدأ الضعف يظهر على المسلمين أرادت النصرانية أن تقوم برد الفعل السريع وشجعها على ذلك.

الخوف من عودة القوة إلى المسلمين بعد الانتصارات التي أحرزها السلاجقة عام ٤٦٣ في معركة ملاذكرت بقيادة ألب أرسلان، والانتصار في معركة الزلاّقة في الأندلس عام ٤٧٩ بقيادة يوسف بن تاشفين، والانتصارات التي تلتها، فخافت النصرانية من عودة الروح من جديد لتدب في العالم الإسلامي الذي يتوسع باستمرار، وتدخل الإسلام مجموعات محاربة جديدة مثل السلاجقة والمرابطين، وخاصةً بعد تدفّق السلاجقة في آسيا الصغرى.

وشجعها دخول عناصر بربرية محاربة في النصرانية وهي القبائل التي كانت تنتقل في أوروبا وهذا ما أدى إلى ظهور روح حربية جديدة تدعم النصرانية، ومن هذه المجموعات، المجموعة الجرمانية، والمجرية، وإن دخول المجر في النصرانية قد جعل الشعوب النصرانية على اتصال بعضها مع بعض من الغرب إلى الشرق في آسيا الصغرى.

وشجّعها بعض الانتصارات التي حصلت عليها الإمارات الإيطالية إذ تغلبت على أمراء البحر المسلمين الذين كانوا يعيقون عمل السفن الإيطالية

في البحر الأبيض المتوسط إن لم تستجب لمطالبهم، فكانت هذه الإمارات الإيطالية ترغب في نشر تجارتها في البحر المتوسط، وبانتصارها على البحارة المسلمين زاد في رغبتها بل في محاولة إظهار قوتها ومدّ نفوذها إذ غدت لها قوة في البحر المتوسط تستطيع أن تستفيد منها في نقل جنودها، وتحرك سفنها في هذا البحر، ومن الانتصارات التي شجعتها أيضاً احتلال النورمانديين لجنوب إيطالية وجزيرة صقلية، وطرد المسلمين منها عام ٤٨٤.

وشجعها الضعف الذي حصل على دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه عام ٤٨٥ فأحبت النصرانية أن تهتبل هذه الفرصة قبل العودة إلى القوة ثانيةً، وخاصة أن العبيديين الذين هزموا أمام السلاجقة وتخلوا عن بيت المقدس عام ٤٧١، ورأوا زيادة قوة السلاجقة خصومهم في العقيدة أيضاً لذا قد استنجدوا ببعض أمراء أوروبا لدعمهم ضد السلاجقة.

ولعل أهم الجوانب النصرانية التي دفعت بالموضوع هي النفوذ الذي حصل عليه البابا إيربان الثاني الذي اختير بابا لروما عام ٤٨١ إذ أصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية بل وبين الأمراء وهذا ما يجعله أهلاً لأن يستغل نفوذه لدى النصارى، ويدعوهم للحرب الصليبية فدعا إلى اجتماع لرجال الدين عام ٤٨٩ في كليرمونت بفرنسا، ودعا إلى الحرب الصليبية، ونادى الأمراء بترك الخلافات القائمة بينهم، وقدّم لهم الصليب، وجعل مبرراً لهذه الحرب ما يقوم به السلاجقة من مضايقة للحجاج النصارى الذين يريدون بيت المقدس، وطلب أن يحتل النصارى بيت المقدس، وساهم بهذه الدعوة بطرس الناسك، وسار بجموع المتطوعين وسبق جيوش الأمراء النصارى النظامية، ولما كان هؤلاء المتطوعون يسيرون بلا نظام فقد سببوا الفوضى والدمار لكل المناطق التي مروا عليها حتى النصرانية منها وحتى شكا منهم إمبراطور القسطنطينية وعندما وصلوا إلى بلاد المسلمين صبوا جام غضبهم فأهلكوا الزرع والضرع، وأحرقوا الأخضر واليابس، وعاثوا في الأرض الفساد، وقتلوا ومثّلوا، وانتهكوا من الحرمات

ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا ذلك، وتصدى لهم السلاجقة فالتقوا بهم في نيقية فأفنوهم عن بكرة أبيهم عام ٤٨٩. وكان إمبراطور القسطنطينية قد أراد أن يتقي شرهم فساعدهم إلى السير إلى آسيا الصغرى والتقدّم إلى نيقية.

في هذه الأثناء كانت جيوش الأمراء النظامية تتحرك نحو القسطنطينية وقد أمر البابا أن تجتمع خارج أسوار القسطنطينية،ولم تكن هذه الجيوش أقل حقداً من الأولى ولا أقل فساداً ودماراً، كما لم يكن لها قائد واحد ينظمها ويصدر أوامره لها جميعاً وإن كان لها عدد من القواد أغلبهم من فرنسا، ولم يكن هؤلاء القادة خطة واحدة، ولم يشترك ملوك أوروبا في هذه الحملة لأن ملوك نصارى الأندلس كانوا مشغولين بقتال المسلمين، ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة. بلغ عدد المشتركين النصارى في هذه الحملة التي عرفت باسم الحملة الصليبية الأولى أكثر من مليون غير أن عدد المقاتلين لم يزد فيها على ثلاثمائة ألف، والباقي إنما هم من المرافقين من الرجال والنساء.

وصلت هذه الحملة الصليبية إلى أبواب القسطنطينية وخاف إمبراطورها منهم فاتفق مع بعض القادة على أن يمدهم بالمؤن والذخيرة وعلى أن لا يدخلوا المدينة، وأن يردوا عليه ما يستولون عليه من أملاكه. فاجتازوا البوسفور، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها،ونقل أميرها قليج أرسلان مقره إلى قونية، واتفق مع الإمبراطور أن يدخل جنده نيقية دون القادمين من أوروبا وبهذا غضب الصليبيون لأن الإمبراطور بهذا التصرف لم يسمح لهم بنهب المدينة وبهذا يكون الإمبراطور البيزنطي قد دعم الصليبيين بكل قوته وسار معهم نحو نيقية، وحصل خلاف بين الصليبيين القادمين من أوروبا والبيزنطيين إذ وجد الإمبراطور أنه لا يستطيع التفاهم مع هؤلاء القادمين فانصرف لاسترداد آسيا الصغرى من السلاجقة فاتجه نحو الغرب، ودخل أزمير، وأفسوس، وأخذهما من أمراء السلاجقة فيهما لانقطاعهم عن دولة السلاجقة، ولم يعد يدعم الصليبيين بل حرص أن يضم له ما أخذوه هم. فكان دعمه بقتال المسلمين بجهات ثانية، ثم بعد مدة عاد لتقديم الدعم.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعض فاتجه بعضهم إلى الرها تلبية لدعوة أميرها فدخلها، وأسس بها إمارةً نصرانيةً لاتينيةً، وكان يطمح بتأسيس دولة صليبية في أرمينيا، وقد دعمه في الأمر الأرمن. وسار باقي القادة إلى إنطاكية فألقوا الحصار عليها، ودخلوها عنوةً عام ٤٩١ بعد حصار دام سبعة أشهر، وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف، ومثلوا بالقتلى وبالناس، وفعلوا أبشع الجرائم، وولوا عليها أحدهم، وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحاب، ثم اتجهوا بعدها نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم كربوقا صاحب الموصل، وصاحب دمشق دقاق، وصاحب حمص جناح الدولة غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم، ودخلوا معرة النعمان، ووصلوا إلى بيت المقدس، ودخلوها عام ٤٩٢ فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً، وخاضت خيولهم ببحر من الدماء، وانتخب غودفري ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي قبر المسيح. وكان العبيديون قد استغلوا تقدم الصليبيين من الشمال فتقدموا هم من الجنوب، ودخلوا القدس، وطردوا السلاجقة منها (قبل وصول الصليبيين إليها) وجرت مفاوضات بين الأفضل بن بدر الجمالي الوزير العبيدي وبين الصليبيين على أن يكون شمالي بلاد الشام للصليبيين وجنوبيها للعبيديين، ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

لقد فقدت هذه الحملة أكثر مقاتليها فقد جاءت بثلاثمائة ألف مقاتل، ودخلت إلى القدس بأربعين ألف مقاتل فقط، ومهما بالغنا بعدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها فإن عددهم لا يزيد على أربعين ألفاً، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولى ما يقرب من ثمانين ألفاً، ويكونوا قد فقدوا مائتين وعشرين ألفاً، قتلوا في المعارك، وقتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرف هؤلاء القادمين، يثورون على كرهٍ، ورغم خوفهم الشديد، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرّف الصليبيين كان على درجةٍ من السوء والوقاحة والقباحة ما يثير أية نفسٍ مهما بلغ بها الذلّ والخوف.

وبسيطرة الصليبيين على بيت المقدس ارتفعت معنويات سكان الإمارات، الإيطالية فبدأت سفنهم تجوب أطراف البحر المتوسط، وتقدم المساعدات والدعم للصليبيين فاستطاعوا أن يأخذوا حيفا وقيسارية عام ٤٩٤، وأخذوا عكا عام ٤٩٧، وأخذوا طرابلس عام ٥٠٣ بعد حصار سنتين، كما أخذوا جبلة في العام نفسه، ثم أخذوا صيدا عام ٥٠٤. وطلب المسلمون هدنةً فرفض ذلك الصليبيون ثم وافقوا مقابل مبالغ كبيرة يدفعها لهم المسلمون، وبعد أن استلموا الأموال غدروا بالمسلمين وذلك عام ٥٠٤هـ. وحاصر الصليبيون مدينة صور عام ٥٠٥ وكانت بيد العبيديين، فأمدهم بالمؤن والمساعدات طغتكين صاحب دمشق فامتنعت صور عن الصليبيين.

أما من جهة الداخل فقد جاء الصليبيون من جهة الجنوب فالتقى بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم الذين وصل بعضهم إلى ملاطية، وقد استطاع أن يدخلها، وأن يتملكها وذلك عام ٤٩٣.

وهاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال عام ٤٩٧ ولكنهم هزموا وأسر أمير الرها الصليبي، غير أنهم استطاعوا في العام نفسه أن يدخلوا حصن أفاميا.

لقد دعم العبيديون الصليبيين في أول الأمر، ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين. ضد السلاجقة خصومهم، وقد ذكرنا أنهم اتفقوا معهم على أن يحكم الصليبيون شمالي بلاد الشام ويحكم العبيديون جنوبيها، وقد دخلوا بيت المقدس، غير أن الصليبيين عندما أحسّوا بشيءٍ من النصر تابعوا تقدمهم، واصطدموا بالعبيديين، وبدأت الخلافات بينهما فالعبيديون قد قاتلوا الصليبيين دفاعاً عن مناطقهم وخوفاً على أنفسهم ولم يقاتلوهم دفاعاً عن الإسلام وحمايةً لأبنائه، ولو استمر الصليبيون في اتفاقهم مع العبيديين لكان من الممكن أن يتقاسموا وإياهم ديار الإسلام.

لقد استقبل سكان البلاد من النصارى والأرمن الصليبيين استقبالاً حاراً، ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً، وقد ظهر هذا في أثناء دخولهم إنطاكية

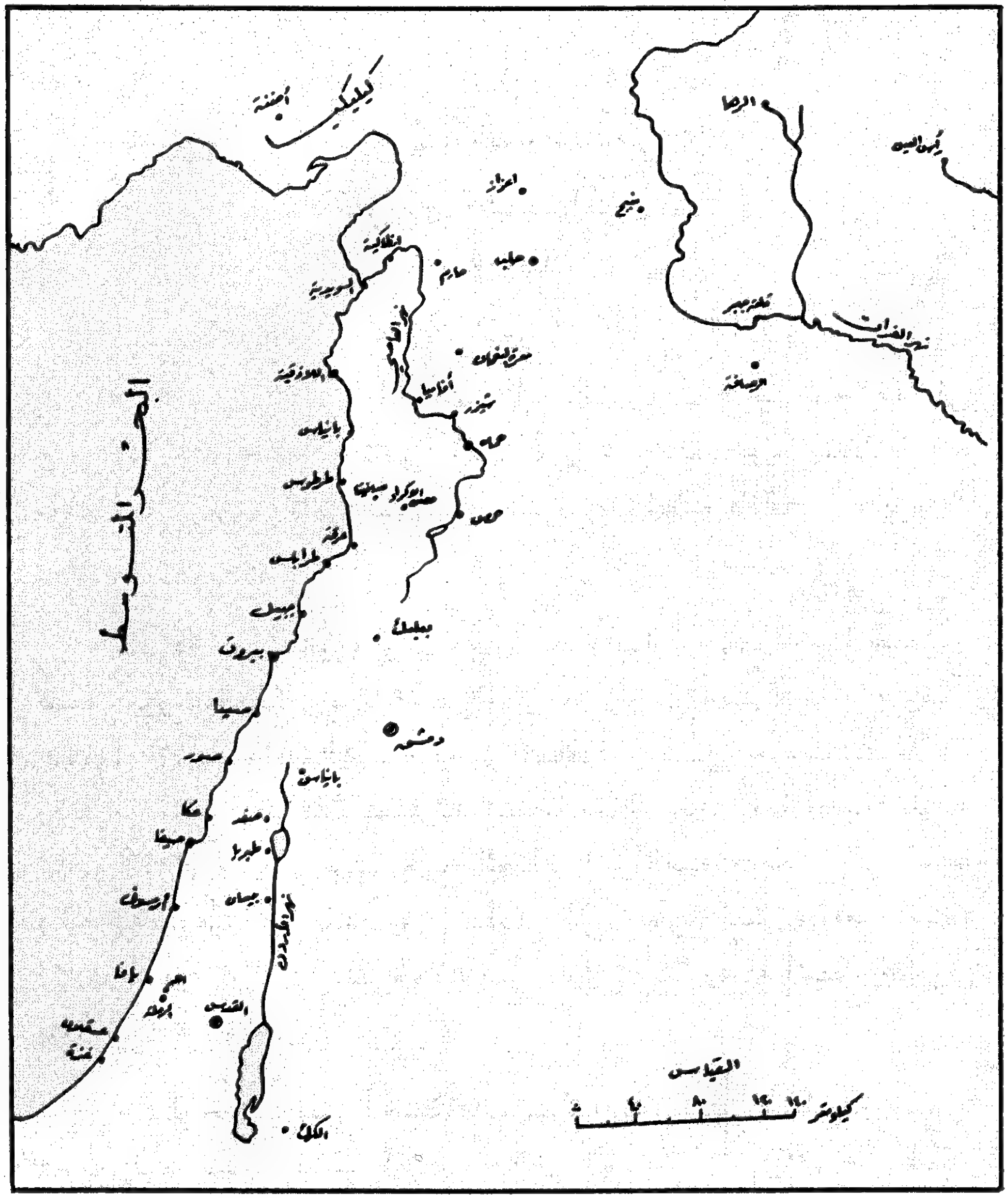
وبيت المقدس، كما قد دعموهم في أثناء وجودهم أيام وجودهم في البلاد، وقدّموا لهم كل المساعدات، وقاتلوا المسلمين، وكانوا عيوناً عليهم للصليبيين.

وتشكّلت أربع إمارات صليبية في بلاد الشام وهي:

إمارة في الرها - إمارة في طرابلس، إمارة بيت المقدس - إمارة إنطاكية.

لم يجد الصليبيون الأمن والاستقرار في بلاد الشام في المناطق التي سيطروا عليها، وشكلوا فيها إمارات رغم انتصارهم، إذ كان السكان المسلمون ينالون منهم كلما سنحت لهم الفرصة، كما يغير عليهم الحكام المسلمون في سبيل إخراجهم من البلاد، ودفاعاً عن عقائدهم ومقدساتهم التي كان الصليبيون ينتهكونها.

* * *


كيليكيا
أضنة
أعزاز
منبج
الرها
رأس العين
أنطاكية
السويدية
حلب
حارم
نهر العاصي
معرة النعمان
أفاميا
شيزر
حماة
قلعة جعبر
نهر الفرات
الرصافة
اللاذقية
بانياس
طرطوس
حصن الأكراد
صافيتا
حمص
عرقة
طرابلس
جبيل
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
بانياس
عكا
صفد
حيفا
طبرية
أرسوف
بيسان
نهر الأردن
يافا
القدس
عسقلان
غزة
الكرك
البحر المتوسط
المقياس
كيلومتر

-٢٩-

المسترشِد بالله

الفضل بن أحمد المستظهر

٥١٢ - ٥٢٩

هو الفضل بن أحمد المستظهر، أبو منصور، المسترشد بالله: ولد في ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة وأمه أم ولد، بويع بالخلافة عند موت أبيه في ربيع الثاني سنة اثنتي عشرة وخمسمائة فكان عمره يومذاك سبعاً وعشرين سنة.

كان ذا همةٍ عاليةٍ، وشهامةٍ زائدة، وإقدامٍ ورأيٍ، وهيبةٍ شديدةٍ، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيى رسم الخلافة، ونشر عظمها، وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه[١]. وقال ابن كثير: وقد كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة فصيحاً بليغاً، عذب الكلام حسن الإيراد، مليح الحظ، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيباً، قتل وعمره خمس وأربعون سنة، وثلاثة أشهر، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً[٢].

حدث خلاف بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود السلجوقي، فسار أحدهما للآخر، والتقى الجمعان، ففر كثير من عسكر

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

الخليفة فانتصر مسعود، وثبت الخليفة فأسر ومعه عدد من خاصته فساقهم مسعود إلى همذان وسجنهم بقلعة قربها، ولما وصل الخبر إلى أهل بغداد حثوا التراب في الأسواق على رؤوسهم، وبكوا وضجوا، وخرجت النساء سافرات يندبن الخليفة، ومنعوا الخطبة.

ووصل الخبر إلى السلطان سنجر السلجوقي عم السلطان مسعود، وعلم ما فعله أهل بغداد بأنفسهم فكتب كتاباً إلى ابن أخيه يقول فيه: ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح، ويتنصل غاية التنصل؛ فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة: من العواصف: والبروق والزلازل، ودام ذلك عشرين يوماً، وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خفت على نفسي من جانب الله، وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع، ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله تتلافى أمرك، وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزّه، وتحمل الغاشية بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، ففعل مسعود جميع ما أمره به، وقبل الأرض بين يدي الخليفة، ووقف يسأل العفو.

ثم أرسل سنجر رسولاً آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى مقرّ عزّه، فجاء في العسكر سبعة عشر من الباطنية، فذكر أن مسعوداً ما علم بهم، وقيل: بل علم بهم، وقيل: بل هو الذي دسّهم، فهجموا على الخليفة في خيمته، ففتكوا به، وقتلوا معه جماعةً من أصحابه، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم، فأخذوهم وقتلوهم إلى لعنة الله. وجلس السلطان للعزاء، وأظهر المساءة بذلك، ووقع النحيب والبكاء، وجاء الخبر إلى بغداد، فاشتد ذلك على الناس، وخرجوا حفاةً محرّقين الثياب، والنساء ناشرات الشعور يلطمن ويقلن المراثي؛ لأن المسترشد كان محبباً فيهم لبره، ولما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم.

وكان قتل المسترشد ـ رحمه الله ـ بمراغة يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين[1]. وكان شاعراً، فقد قال يوم أسر:

ولا عـجـباً لـلأُسـدِ إنْ ظَـفِـرَتْ بـهـا   كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم
فحربةُ وحشيٍ سقتْ حمزةَ الردى   وموتُ عليٍ من حسامِ ابن ملجم

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

توفي السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥١١، وخلفه ابنه محمود، وكان عمره أربع عشرة سنة. وتوفي بعد ذلك الخليفة المستظهر عام ٥١٢، وشق الطاعة طغرل بن محمد ملكشاه على أخيه محمود عام ٥١٣، كما دخل محمود في حربٍ داميةٍ مع عمه سنجر الذي كان شيخ آل سلجوق يومذاك، وصاحب خراسان والمشرق، ويبدو أن محموداً كان الظالم لعمه. وانتصر سنجر عام ٥١٣، وبعد الهزيمة التي مني بها محمود سار إلى أصبهان على حين سار عمه سنجر إلى همدان، وراسل سنجر ابن أخيه محموداً للصلح بينهما، والتقى به، وعفا عنه، وجعله ولي عهده، وقلّده ولاية العراق، وزوجه ابنته.

وفي عام ٥١٤ خرج مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه محمود بعد أن رمى بينهما الواشون الذين حرضوا مسعوداً على أخيه لما رأوا من صغر محمود وهزيمة جنده أمام عمه سنجر، وتفرّق جيشه، غير أن محموداً قد انتصر على مسعود ثم عفا عنه، وقلده ولاية بغداد.

حارب دبيس بن صدقة جند السلطان، كما سار الخليفة إليه بنفسه فحلت الهزيمة بدبيس، ثم عاد فاستولى على البصرة، ثم التحق بالصليبيين وأطمعهم بدخول حلب، ثم عاد فالتحق بالسلطان طغرل بن محمد السلجوقي عام ٥١٩.

بعد أن قاتل الخليفة بنفس دبيس خاف السلطان محمود من قوة الخليفة فرغب بدخول بغداد فنصحه الخليفة بالتريث فظن محمود بالخليفة سوءاً فقرر دخول بغداد، فغادرها الخليفة وأهلها، وبكى الناس لخروجه، وعاد السلطان محمود فاستعطفه بالعودة، ولم يقلل، وحدث الخلاف بين الخليفة والسلطان، وجرى بينهما القتال، وانتصر السلطان على الخليفة، ودخل بغداد عام ٥٢١، ونهبت عساكره دار الخلافة.

عاد القتال إذ دخل الخليفة بغداد من جانبها الشرقي على رأس ثلاثين ألف مقاتل غير أن مغادرة أبي الهيجاء بجزء من جيش الخليفة وانضمامه إلى السلطان، ووصولُ عماد الدين زنكي أمير واسط لدعم السلطان كل هذا قد جعل الخليفة يميل إلى السلم، فعفا الخليفة عن السلطان، واعتذر السلطان للخليفة، وغادر بغداد عام ٥٢١، وتوجه إلى همدان، ثم عاد إلى بغداد عام ٥٢٣ ليقوم بالصلح بين الخليفة ودبيس به صدقة، وقد تم ذلك إلا أن دبيساً لم يلبث أن شق عصا الطاعة على الخليفة والسلطان معاً، فأرسل السلطان له جيشاً أجبره على الفرار والاختفاء مغادراً البصرة.

خالف مسعود أخاه السلطان محموداً وسار كل منهما إلى الآخر غير أنهما تصالحا وتوفي السلطان محمود في شوال ٥٢٥، وخلفه ابنه داود. كان محمود حليماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافّاً أصحابه عن التطرق إلى شيء منها[١]. وكان متوقد الذكاء ملماً بالعربية، حافظاً للأشعار والأمثال، عارفاً بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير[٢]. وكان ميالاً إلى العفو فنلاحظ عفوه عن أخيه طغرل، وعن أخيه مسعود، واستعطافه للخليفة، وعفوه عن أهل بغداد وقد حاربوه، وأشار عليه بعض الناس بحرق مدينتهم. وقام بأمر عظيم وهو محاربة الباطنية، واستطاع أن يدخل قلعة

---

(١) الكامل في التاريخ.

(٢) وفيات الأعيان.

ألموت في فارس، وقلعة بانياس في بلاد الشام، وهاتان القلعتان من أقوى حصون الباطنية، وإن صغر سنه عند توليه الأمر قد أطمع فيه الأمراء فقاتلوه، وانتصر عليهم، ثم عفا عنهم.

نازع مسعود بن محمد ابن أخيه داود بن محمود واحتل تبريز، ثم تصالحا، وسار مسعود إلى بغداد وفي رغبته استلام السلطنة، وطلب من الخليفة ذلك فاستشار الخليفة سنجر شيخ البيت السلجوقي فأشار عليه أن تكون الخطبة للخليفة وحده.

ذهب طغرل بن محمد إلى عمه سنجر في الري وتحدثا في رغبة مسعود في استلام السلطنة فسارا إلى مسعود والتقيا به في نهاوند، فهُزم مسعود، وأُخذ أسيراً مع وزيره وبعض أمرائه في عام ٥٢٦. وحكم طغرل الري باسم عمه سنجر.

اقتتل داود مع عمه طغرل، وقد انتصر طغرل الذي اصطدم مع أخيه مسعود، وانتصر مسعود الذي التقى مع ابن أخيه داود وانتصر عليه، وسار مسعود إلى بغداد، ودخلها مع ابن أخيه داود واتفقا على أن يكون مسعود سلطاناً على السلاجقة وأن يكون ابن أخيه داود ولياً لعهده. ومات طغرل عام ٥٢٨. أما مسعود فقد التقى مع الخليفة وأسره، وطلب سنجر من ابن أخيه إطلاق الخليفة والإحسان عليه ففعل على أن الباطنية قد قتلوا الخليفة عام ٥٢٩.

٢ ـ خوارزم:

تسلّم أمر خوارزم قطب الدين عام ٤٩٠، وقد أطاع السلاجقة وتحبب إلى سنجر الذي ملك خراسان ٥١٢ فأقره على ولايته، وتوفي قطب الدين عام ٥٢١، وخلفه ابنه اتسز، وسار سيرة أبيه لكنه طمع في الاستقلال وقام بثورة على سنجر فعزل عن ولايته غير أنه عاد واستلم ما كان تحت يده من قبل.

٣ ـ الغزنويون:

حكم بهرام شاه غزنة عام ٥١٢ وبقي على حاله.

٤ ـ العبيديون:

تولّى أمر العبيديين عام ٤٩٥ الآمر أبو علي المنصور، وقد تخلص من الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان على ما يبدو مختلفاً عن العبيديين إذ ألغى الاحتفالات التي كانت تقوم بمصر بمناسبة المولد النبوي، ومولد فاطمة، وعلي، رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر، وقد قتل الأفضل عام ٥١٥، وقام مقامه ابنه أحمد أبو علي بن الأفضل والذي تلقّب بالأكمل.

وفي عام ٥٢٤ قتل الآمر على يد الباطنية لأنهم كانوا يرون أن الخلافة العبيدية يجب أن تكون في أولاد نزار، وخلفه ابن عمه الحافظ أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن الخليفة المستنصر، وبخلافة الحافظ قوي أمر الأكمل، وقد قبض على الخليفة وحبسه وأخذ ما في قصر الخلافة. ويبدو أنه كان من الشيعة إذ دعا للإمام الثاني عشر، كما دعا لنفسه، وأسقط عبارة «حي على خير العمل» و «محمد وعلي خير البشر» من الأذان، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة، وهذا ما جعل العبيديين يكرهونه ويريدون التخلص منه فكمنت له جماعة وقتلته، وأخرجت الحافظ من سجنه، وأخذ الحافظ الأموال التي نقلها الأكمل إلى داره، واستوزر أبا الفتح يانس الحافظي، ثم ابنه بعد قتله.

وفي عام ٥٢٩ جاء إلى القاهرة والي الغربية بهرام الأرمني، وحاصر القاهرة، فلم ير الحافظ بداً من تعيينه وزيراً على الرغم من أنه نصراني، وبدأ يتقوى ويستقدم الأرمن من أرمينية.

الخلفاء العبيديون:

[١] المهدي ٢٩٧ ـ ٣٢٢

[٢] القائم ٣٢٢ ـ ٣٣٤

[٣] المنصور ٣٣٤ ـ ٣٤١

[٤] المعز ٣٤١ ـ ٣٦٥

[٥] العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦

[٦] الحاكم ٣٨٦ ـ ٤١١

[٧] الظاهر ٤١١ ـ ٤٢٧

[٨] المستنصر ٤٢٧ ـ ٤٨٧

نزار

[٩] المستعلي ٤٨٧ ـ ٤٩٥

[١٠] الآمر ٤٩٥ ـ ٥٢٤

محمد

[١١] الحافظ ٥٢٤ ـ ٥٤٤

[١٢] الظاهر ٥٤٤ ـ ٥٤٩

[١٣] الفائز ٥٤٩ ـ ٥٥٥

يوسف

[١٤] العاضد ٥٥٥ ـ ٥٦٧

٥ ـ آل زيري:

بعد أن توفي الأمير علي بن يحيى عام ٥١٥ خلفه ابنه الحسن، وكان عمره اثنتي عشرة سنة، وكان الوزراء يقومون بتدبير أمور الدولة، وقد جاء النورماندوين إلى قتال المسلمين، وحاصروا جزيرة قوصرة، واستمر الصراع بين الأمير الحسن والنورمانديين مدة من الزمن.

أما إمارة بني حماد فقد توفي العزيز بن المنصور عام ٥١٥، وخلفه ابنه يحيى الذي بقي حتى قضي على الدولة الحمادية عام ٥٤٧.

٦ ـ المرابطون:

بدأت دعوة الموحدين عام ٥١٤ على يد محمد بن تومرت الذي ينتمي إلى قبيلة «هرغة» إحدى بطون قبيلة مصمودة التي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى، ويقول بالانتساب إلى رسول الله ﷺ، ومنهم من أيد هذا الانتساب ومنهم من أنكره، وكان يرى التأويل، وينكر على أهل المغرب في عدولهم عن التأويل، وقد سار إلى الشرق ودرس العلم، وعاد إلى المغرب والتقى بعبد المؤمن بن علي الذي أصبح خليفته، وأصبح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد أخذ على المرابطين سفور نسائهم على عادة الملثمين، والتقى بعلي بن يوسف بن تاشفين، واجتمع بالعلماء واختلف معهم، إلا أن علي بن يوسف بن تاشفين لم يقبل أن يلحق به أذى لتقواه وورعه، وانتقل ابن تومرت إلى أغمات حيث أهله وقبيلته، وبدأ يعمل بدعوته وينتقد مفاسد المرابطين، وألف جيشاً ضمّ عدة قبائل، كان مقره حصن تينمُل، وبدأ يناوئ المرابطين، وقد التقى الطرفان بمعركة البحيرة التي انتصر فيها المرابطون، وقتل فيها قائد الجيش الموحدي وأعداد كبيرة معه، وكان الجيش المرابطي بقيادة أبي بكر علي بن يوسف بن تاشفين. ومرض بعدها ابن تومرت، وتوفي عام ٥٢٤، وخلفه عبد المؤمن بن علي في قيادة الموحدين، واستطاع أن يعيد للموحدين قوتهم، وأن يستولي على أكثر بلاد السوس.

٧ ـ الأندلس:

مع ظهور قوة الموحدين ومناوأتهم للمرابطين، ضعفت قوة المرابطين في الأندلس، وعاد الخلاف بين ملوك الطوائف، وازداد تفكك المسلمين.

٨ ـ اليمن:

كان يحكم دولة بني نجاح منصور بن فاتك، وقد توفي عام ٥٢١، وخلفه ابنه فاتك بن منصور، واستمر في حكمه حتى عام ٥٤٠.

أما الصليحيون فكانت أروى بنت أحمد الصليحي هي سيدة دولتهم، وكان ارتباطها بالعبيديين بمصر.

وفي عدن كان بنو زريع، وقد خلص للداعي سبأ بن أبي السعود حكم المنطقة، واستمر في حكمه حتى عام ٥٣٣.

وتغلب على صنعاء وما جاورها حاتم بن علي المغلّسي الهمداني، وأطاعته قبائل همدان، وبقيت المنطقة في أيدي بني حاتم حتى استولى عليها الإمام المتوكل أحمد سليمان عام ٥٣٢، وقد تعاقب عليها السلاطين الآتية أسماؤهم:

١ ـ حاتم بن علي الهمداني ٤٩٢ ـ ٥٠٢

٢ ـ عبد الله بن حاتم ٥٠٢ ـ ٥٠٥

٣ ـ معن بن حاتم ٥٠٥ ـ ٥١٠

وقد خلع معناً أحمد بن عمران بن المفضل اليامي بعد أن جمع قبائل همدان وجعل الإمارة في بني قتيب.

٤ ـ هشام بن القتيب ٥١٠ ـ ٥١٨

٥ ـ حماس بن القتيب ٥١٨ ـ ٥٢٧

ثم أقام أهل همدان بعد موت حمّاس بست سنوات حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وبدأ الصراع بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان.

الصليبيّون

لم يصف العيش للصليبيين في ديار الإسلام إذ كانوا يتعرضون للغارات باستمرار، ولهجوم المسلمين بشكلٍ دائم، فبعد أن دخلوا القدس عام ٤٩٢ ونقضوا ما كان بينهم وبين العبيديين من اتفاق في أن يحتل الصليبيون شمالي بلاد الشام ويأخذ العبيديون جنوبيها غير أن الصليبيين قد تجاوزوا هذا وأخذوا بيت المقدس غير مبالين بالعبيديين بعد أن شعروا بالنصر، وساروا نحو هدفهم وهو بيت المقدس غير مهتمين بالنتائج وما تؤول إليه، عندما تصرفوا هذا التصرف كانوا مخطئين سياسياً وغير مقدرين للظروف إذ أصبح الهجوم يأتيهم من قبل العبيديين من الجنوب ومن قبل السلاجقة من الشمال.

وجه الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي حملةً كبيرةً بقيادة سعد الدولة الذي كان حاكم بيروت، وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان، واتجهت عام ٤٩٤ إلى الرملة لتهديد بيت المقدس ويافا غير أنها فشلت ولم تؤد الغرض الذي قامت من أجله.

وعاد الأفضل فوجه عام ٤٩٥ حملةً ثانيةً، وجعل إمرتها لابنه شرف المعالي. واتجهت إلى اللد والرملة كسابقتها ولتهديد بيت المقدس ويافا، فخرج للقائها ملك بيت المقدس الصليبي (بلدوين) فانهزم، وفرّ إلى الرملة ولاحقه المسلمون ففرّ متنكراً، واستعاد المسلمون الرملة. وحاصر المسلمون يافا فجاءتها نجدات من البحر فاستغل (بلدوين) هذه النجدات وهاجم بها المسلمين وانتصر عليهم.

وأرسل الأفضل حملتين إحداهما برية والأخرى بحرية، واستنجد

(بلدوين) بأمير الرها، وأمير إنطاكية فأنجداه، واستطاع بعدها إحراز النصر.

وجهز الأفضل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه سناء الملك، ودعمه بأسطول بحري، وطلب دعم السلاجقة أيضاً فأجابوه، وجرت أول معركة عام ٤٩٨، وظهر فيها التعاون بين السلاجقة والعبيديين، ومع ذلك فلم تكن نتائجها واضحةً.

وبدأت بعد ذلك غارات العبيديين على البلدان التي سيطر عليها الصليبيون فقد أغاروا عام ٤٩٩ على يافا، وفي العام التالي على الخليل، وفي العام الذي بعده وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وكذلك عادوا للإغارة على بيت المقدس عام ٥١٨، وحاصروا مدينة يافا.

أما من جهة الشمال فقد قضى السلاجقة على حملةٍ صليبيةٍ جاءت من غربي أوربا لدعم الوجود الصليبي في بيت المقدس، ولم يصل منها إلى هدفه إلا من فلّ هارباً ونجا من القتل، وذلك عام ٤٩٤.

ونصب الأمير غازي كمشتكين كميناً لأمير إنطاكية الصليبي، وأخذه أسيراً عام ٤٩٤، واستطاع في العام التالي أن يستعيد ملاطية من الصليبيين وأن يأخذ أميرها أسيراً. وفي عام ٤٩٧ سار أتابك الموصل جكرمش، والأمير سقمان بن أرتق صاحب ماردين لقتال الصليبيين في الرها، وتمكنا من إبادة الجيش الصليبي في معركة جرت بين الطرفين قرب «حرّان» ووقع «بلدوين» و «جوسلين» في الأسر.

وفي عام ٤٩٩ أغار أمير دمشق طغتكين على بلاد الجليل شمال فلسطين.

وأغار أمير الموصل مودود عام ٥٠٥ على الصليبيين، وفي العام التالي سار إلى جهات طبريا، وأغار على مدينة طبريا.

ووجه السلطان محمد السلجوقي حملةً كبيرةً لقتال الصليبيين بإمرة برسق فهاجمت أفاميا عام ٥٠٩.

وفي عام ٥١٣ سار إيلغازي بن أرتق بمن معه من التركمان لقتال الصليبيين في إنطاكية والتقى معهم في معركة قرب حلب فدمر الجيش الصليبي، وقتل قائده روجر في المعركة.

وفي عام ٥١٤ هاجم النصارى الكرج، ومن معهم من القفجاق، وهم من الكفار هاجموا ديار المسلمين، وأحرزوا نصراً على المسلمين.

وفي عام ٥١٨ هاجم الصليبيون مدينة صور، وكانت للعبيديين، وسار بلدوين الثاني أمير الصليبيين في بيت المقدس إلى الشمال لفكّ أسر (بلدوين) و (جوسلين) اللذين وقعا في الأسر عام ٤٩٧، فأسرع إليه «بُلك الأرتقي» فهزم جيشه، وأخذه أسيراً أيضاً وضمّه إلى بقية الأمراء الأسرى عنده.

وفي عام ٥٢٣ حاصرالصليبيون دمشق، ولكن فشلوا في اقتحامها. وفي العام التالي استطاع الصليبيون أن يدخلوا قلعة القدموس، لكنهم هزموا عام ٥٢٦ أمام شمس الملوك صاحب دمشق، واضطروا إلى ترك مدينة بانياس وقلعتها.

وفي عام ٥٢٧ جاءت أعداد كبيراً من التركمان من الجزيرة، واتجهوا إلى طرابلس فقاتلوا الصليبيين فيها. وفي العام التالي هاجم سوار أمير حلب الصليبيين في معرة النعمان.

وبدأ عماد الدين زنكي في عام ٥٢٩ يوجه هجماته على مراكز الصليبيين الواقعة شرق نهر العاصي ليكون الفتح تدريجياً فاستولى على معرة النعمان، وأغار على قنسرين وشيزر وحمص.

وهكذا كان الهجوم على الصليبيين من الجنوب ومن الشمال، ثم امتد على إمارة طرابلس في الغرب فكانت هذه الهجمات تقضّ مضاجعهم وتقلقهم باستمرار، ثم بدأت تظهر دولة عماد الدين زنكي، وتتوسع على امتداد الإمارات الصليبية، ويخطط عماد الدين للسير بالفتح بصورةٍ تدريجيةٍ ومركزةٍ.

-٣٠-

الراشد بالله

منصور بن الفضل المسترشِد

٥٢٩ - ٥٣٠

هو منصور بن الفضل المسترشد، أبو جعفر، الراشد بالله. ولد عام اثنين وخمسمائة، خطب له أبوه بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فكان عمره إحدى عشرة سنة، وبويع بالخلافة بعد مقتل أبيه في شهر ذي القعدة من عام تسعةٍ وعشرين وخمسمائة، فكان عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنة.

طالب السلطان مسعود السلجوقي الخليفة الراشد بالله بمبلغ أربعمائة ألف دينار كان المسترشد قد التزم بدفعها حين أسره مسعود، فامتنع الراشد من الدفع ووقع الخلاف بين الخليفة والسلطان، فاستدعى الخليفة عماد الدين زنكي من الموصل فجاءه والتف الأمراء والناس حول الخليفة، وجاء إلى بغداد داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه فخطب له الخليفة وبايعه على الملك، وأصبح الخلاف كبيراً بين السلطان مسعود والخليفة، وبعدت الشقة بينهما، ولم يعد بالإمكان رتق ما انفتق.

خرج الخليفة إلى ظاهر بغداد، وجاء السلطان مسعود بجيوش كبيرة، ودخل بغداد، وأقنع عماد الدين زنكي الخليفة بالسير معه إلى الموصل فوافقه. واستفتى السلطان مسعود الفقهاء بخلع الخليفة فأفتى له بعضهم فخلع في منتصف ذي القعدة من عام ٥٣٠، وبذا لم يكمل الراشد بالله السنة في خلافته. واستقدم السلطان مسعود عم الراشد، وهو محمد بن المستظهر وبايعه بالخلافة.

خرج الراشد بالله من الموصل عندما بلغه خبر خلعه وسار إلى أذربيجان، ثم انتقل إلى همدان مع جماعةٍ من خاصته، ثم سار بهم إلى أصبهان فحاصروها، وأصاب المرض الراشد هناك ودخل عليه جماعته من الأعاجم، وقتلوه في السادس عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وقيل إن الباطنية هم الذين قتلوه.

كان الراشد فصيحاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً، سمحاً، جواداً، حسن السيرة، يؤثر العدل، يكره الشر. قال العماد الكاتب: كان للراشد الحسن اليوسفي، والكرم الحاتمي[١].

وقال ابن كثير: وقد كان حسن اللون، مليح الوجه، شديد القوة، مهيباً، أمه أم ولد[٢].

* * *

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) البداية والنهاية.

-٣١-

المقتفي لأمر الله
محمد بن أحمد المستظهر
٥٣٠ـ٥٥٥

هو المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله؛ ولد في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسعٍ وثمانين وأربعمائة، وأمه حبشية. بويع بالخلافة بعد خلع ابن أخيه الراشد بالله بن المسترشد، وكان عمره إحدى وأربعن سنة، وفي عام ٥٣١ تزوج أخت السلطان مسعود فاطمة بنت محمد بن ملكشاه. وخطب لابنه المستنجد بولاية العهد عام ٥٤٢.

ودخل السلطان مسعود بغداد عام ٥٤١، واختلف مع الخليفة ثم اصطلحا.

وضعف أمر العبيديين كثيراً وخاصةً بعد مقتل الظافر بالله العبيدي عام ٥٤٩ فكتب المقتفي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، وولاه مصر، وأمره بالمسير إليها، وكان مشغولاً بحرب الفرنج، وهو لا يفتر عن الجهاد، وكان تملك دمشق في صفر من هذا العام، وملك عدة قلاع وحصون بالسيف وبالأمان من بلاد الروم، وعظمت ممالكه، وبعُد صيته؛ فبعث إليه المقتفي تقليداً، وأمره بالمسير إلى مصر، ولقبه بـ «الملك العادل»، وعظم سلطان المقتفي، واشتدت شوكته، واستظهر على المخالفين، وأجمع على قصد الجهات المخالفة لأمره، ولم يزل أمره في تزايد وعلو إلى أن مات ليلة

الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة[1]. وبذا يكون قد عاش ستاً وستين سنة.

قال الذهبي: كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالماً، أديباً، شجاعاً، حليماً، دمث الأخلاق، كامل السؤدد، خليقاً للإمامة، قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر ـ وإن صغر ـ إلا بتوقيعه[2].

قال ابن السمعاني: وكان محمود السيرة، مشكور الدولة، يرجع إلى دين وعقل وفضل ورأي وسياسة. جدّد معالم الإمامة، ومهّد رسوم الخلافة، وباشر الأمور بنفسه، وغزا غير مرة، وامتدت أيامه[3].

* * *

---

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) تاريخ الخلفاء.

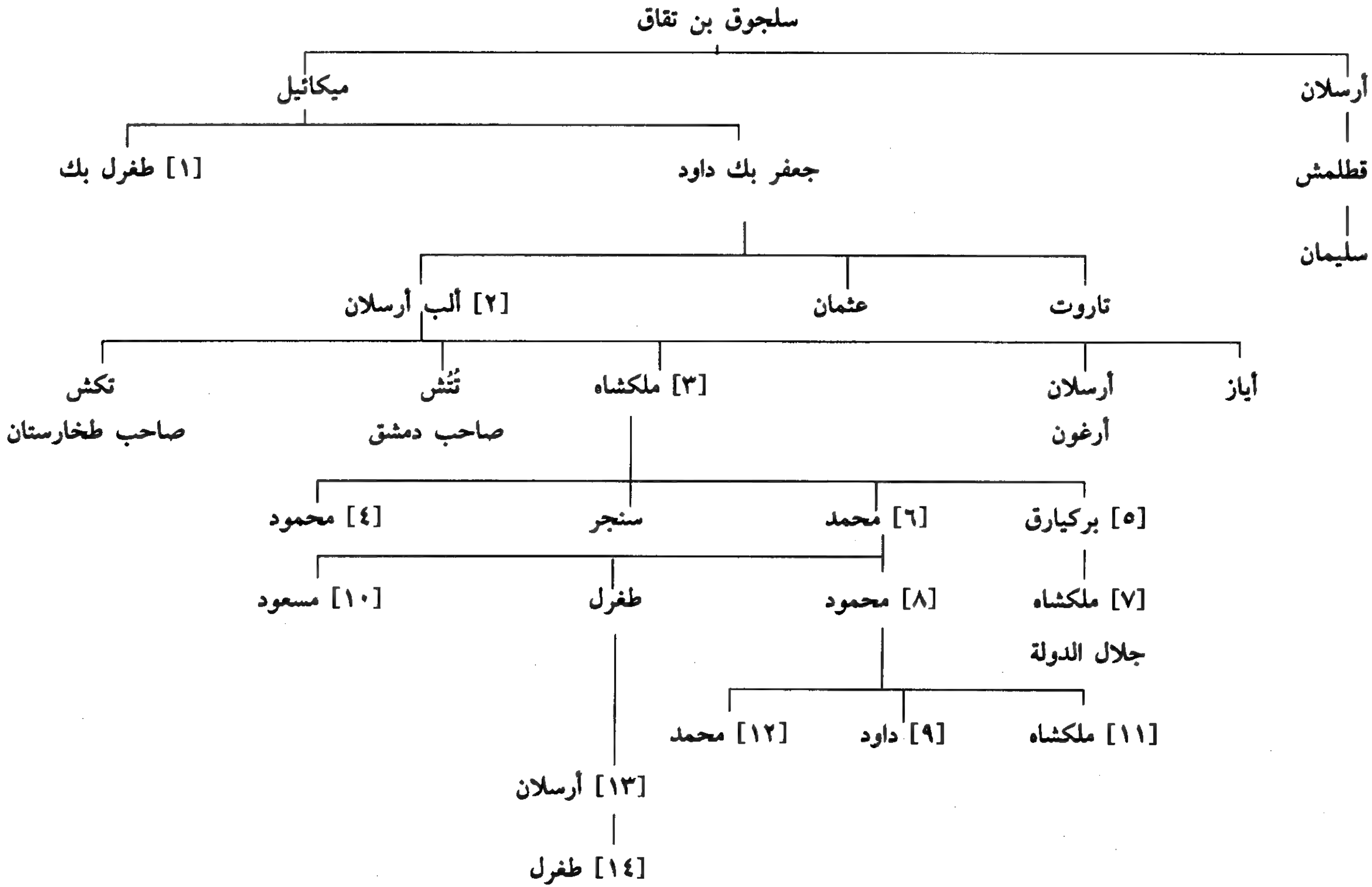
الإمارات

١ ـ السلاجقة:

أهان الخليفة الراشد رسول السلطان مسعود بمقتل أبيه وهذه ما جعل السلطان مسعوداً يقدم إلى بغداد ويحاصرها ويجبر الخليفة إلى الهرب إلى الموصل حيث عماد الدين زنكي، أما مسعود فقد استفتى الفقهاء لخلع الراشد فأفتى له بعضهم، وبايع السلطان الخليفة المقتفي عم الراشد وذلك عام ٥٣٠، وبعد عام تزوج مسعود بسفرى بنت دبيس بن صدقة أمير الحلة وزعيم جنوبي العراق وذلك ليقوى أمره.

أما في خراسان فقد بدأت المعارك بين سنجر ملك خراسان وبين ملك خوارزم (اتسز) عام ٥٣٣ الذي ثار على سنجر، وقد انتصر سنجر، غير أن (اتسز) قد عاد إلى إمرته ورجع لقتال سنجر إلا أنه هُزم وقُتل ابنه في المعركة، واستولى سنجر على خوارزم وأقطعها لابن أخيه غياث الدين سليمان شاه، ولما رجع سنجر إلى مرو، رجع (اتسز)، واستردّ خوارزم، واستعان بالكفار في بلاد الخطا، وهاجم معهم سنجر فهزمه هزيمةً منكرةً في صيف ٥٣٦، وأسروا زوجته، واضطر إلى الفرار إلى ترمذ فبلخ، ودخل اتسز مدينة نيسابور عام ٥٣٧، وفي العام التالي حاول سنجر حصار خوارزم لكنه عجز عن دخولها، وتصالح الطرفان عام ٥٥١.

وسار السلطان مسعود عام ٥٣٨ لأخذ الموصل وبلاد الشام من زنكي، ولكن لم يتم له ذلك وتصالحا.


سلجوق بن تقاق
أرسلان
ميكائيل
قطلمش
سليمان
جعفر بك داود
[١] طغرل بك
تاروت
عثمان
[٢] ألب أرسلان
أياز
أرسلان
أرغون
[٣] ملكشاه
تُتُش
صاحب دمشق
تكش
صاحب طخارستان
[٥] بركيارق
[٦] محمد
سنجر
[٤] محمود
[٧] ملكشاه
جلال الدولة
[٨] محمود
طغرل
[١٠] مسعود
[١١] ملكشاه
[٩] داود
[١٢] محمد
[١٣] أرسلان
[١٤] طغرل

اختلف السلطان مسعود مع أولاد أخيه محمد وملكشاه اللذين سارا إلى بغداد عام ٥٤٣، وحاصراها وما رفعا الحصار عنها حتى دفع لهما الخليفة ثلاثين ألف دينار.

وفي عام ٥٤٧ أصيب مسعود بالحمى وهو بهمذان ومات بها عام ٥٤٧، وقام بعده ابن أخيه ملكشاه بن محمود. وكان مسعود «حسن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع الناس، وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم. وكان من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكةً، سهل الأخلاق لطيفاً. لقد ماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم».

اصطدم سنجر ملك خراسان بملك الغوريين علاء الدين الحسين بن الحسين، وانتصر سنجر، وأسر علاء الدين. ولكن سنجر هزم عام ٥٤٨ أمام الغز الأتراك الذين دخلوا طوس ونيسابور، وأُخذ أسيراً في بعض المعارك، وبقي أسيراً حتى أطلق سراحه عام ٥٥١ عن طريق بعض خواصه، ونقلوه إلى مرو، وأخذ يستعد للقتال غير أن المنية وافته في ١٤ ربيع الأول ٥٥٢.

وانصرف ملكشاه بن محمود إلى اللهو وترك أمور الدولة إلى وزيره خاصبك بن بلنكري الذي استدعى أخاه محمد بن محمود للقيام بأعباء السلطنة فتوفي عام ٥٥٤. وعمل بعض الخلفاء بعدئذ على استرداد سلطتهم. وقام بعد محمد ابن عمه أرسلان بن طغرل.

٢ ـ خوارزم:

بقي اتسز يحكم خوارزم من ٥٢١ حتى توفي عام ٥٥١، وإذا كان قد هزم أمام سنجر في بعض المعارك وغادر مقر حكمه إلا أنه يوم توفي كانت دولته متسعة الأركان وتشمل الجناح الشرقي من ديار الإسلام كله باستثناء ولايتي فارس وخوزستان.

وخلف اتسز ابنه أيل أرسلان.

٣ ـ الغزنويون:

كان بهرام شاه يحكم غزنة، وفي عام ٥٢٩ ارتاب سنجر في ولاء بهرام شاه، فسار سنجر إلى غزنة فاستعطفه بهرام شاه فرجع عنها على أن يأتيه بهرام شاه فخافه ولم يذهب إليه فرجع سنجر إلى غزنة ودخلها فرجع بهرام شاه يعتذر فغادر سنجر غزنة وعاد إليها بهرام. وفي عام ٥٤٣ ثار ملك الثغور سولي بن الحسين واتجه إلى غزنة فدخلها على حين غادرها بهرام شاه الذي سار إلى فرغانة واستنجد بملكها وجاء على رأس جيشٍ كبير استطاع به أن يدخل غزنة وأن يقبض على سولي ويقتله.

وفي عام ٥٤٣ دخل غزنة علاء الدين الحسين الغوري، وغادرها بهرام شاه، فولى علاء الدين أخاه سيف الدين على غزنة ورجع، غير أن أهل غزنة قد ثاروا على سيف الدين، وجاء بهرام شاه ودخل المدينة وقتل سيف الدين.

توفي بهرام شاه وخلفه ابنه خسرو، وجاء علاء الدين الغوري إلى غزنة فهرب منها خسرو بن بهرام، وانتهى أمر الغزنويين من غزنة إلا أن سلطتهم بقيت في لاهور حتى عام ٥٥٩ حيث أسر خسرو على يد شهاب الدين الغوري الذي حاصره في لاهور، وأرسله بعد أن قبض عليه إلى أخيه غياث الدين فقتل عام ٥٨٢، وانتهى الغزنويون.

٤ ـ الغوريون:

الغوريون قوم جبليون يقيمون بين غزنة وهراة، وبلادهم جبلية موحشة، فيها قلعة «فيروز كوه» المشهورة وقد برز من الغوريين قطب الدين محمد الغوري الذي تزوج بنت ظهير الدين إبراهيم الغزنوي وأخت بهرام شاه، وفي عام ٥٤٢ دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري، وقد أثار هذا إخوته، فسار سيف الدين سوزي وأخوه علاء الدين إلى غزنة ففر منها بهرام شاه، واتجه إلى الهند، وتولّى أمر غزنة سيف الدين سوزي نيابة عن أخيه علاء الدين حسين جهان سوز.

وعندما هجم فصل الشتاء البارد، وصعب الانتقال بسبب الثلوج، قبض السكان على سيف الدين، ودعي بهرام شاه للعودة فرجع إلى غزنة، وقتل سيف الدين. فما كان من علاء إلا أن رجع إلى غزنة عام ٥٤٤ وخرّبها، وفر بهرام شاه الذي توفي عام ٥٤٧، كما أن علاء الدين قد هدم غزنة عام ٥٥٠.

قوي أمر علاء الدين، واتسعت مملكته، فعيّن ابني أخيه بهاء الدين سام الذي توفي عام ٥٤٤، وكان حاكم قلعة «فيروز كوه» وهما: غياث الدين محمد، وشهاب الدين محمد، وقد سارا بالبلاد التي يشرفان عليها سيرةً حسنةً، وأحبهما الناس، غير أن الوشاة قد أوقعوا بينهما وبين عمهما علاء الدين، وأخبروه أنهما يريدان قتله والاستيلاء على ملكه، فدعاهما فلم يحضرا إليه فأرسل إليهما جيشاً فلم يصل معهما إلى نتيجة بل هزم أمامهما، فما كان من علاء الدين إلا أن سار إليهما بنفسه غير أنه هزم أيضاً، وأخذ أسيراً، غير أنهما قد أحسنا معاملته، فأجلساه على مجلس الملك ووقفا في خدمته، فتأثر كثيراً، وعرف أن الواشين والمغرضين هم الذين أوقعوا بينهم. لذا فقد أوصى لغياث الدين من بعده وزوّجه بابنته، وتوفي علاء الدين عام ٥٥٦.

٥ ـ آل زنكي:

زنكي هو لقب عماد الدين بن آق سنقر الذي كان والياً على حلب، وقتل عام ٤٨٧، وكان عمر ابنه عماد الدين يومذاك عشر سنوات.

استولى كربوغا على الموصل عام ٤٨٩ فأخذ عماد الدين زنكي لعنده، واعتنى به وأكرمه إكراماً لأبيه آق سنقر، وتوفي كربوغا عام ٤٩٥ فخلفه على الموصل شمس الدولة جكرمش، فقرّب عماد الدين زنكي إليه وأولاه حبه، وظل كذلك حتى توفي عام ٥٠٠، فخلفه على الموصل (جاولي سقاو) فبقيت علاقته مع عماد الدين زنكي جيدة، غير أن جاولي سقاو قد أعلن عصيانه للسلطان محمد السلجوقي، وانتقل إلى بلاد الشام عام ٥٠٢ فانفصل عنه عماد الدين زنكي.

وفي عام ٥٠٢ عين والياً جديداً على الموصل هو مودود بن التونتكي

فانضم إليه عماد الدين زنكي، وبقي بجانبه حتى قتل عام ٥٠٧ في دمشق، ورجع عماد الدين إلى الموصل لينضم إلى الوالي الجديد جيوش بك، ثم انضم عماد الدين إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي سار لقتال الصليبيين، وأبدى عماد الدين شجاعةً فائقةً في قتاله، وعندما انتهت حروبه طلب السلطان محمد السلجوقي من والي الموصل تقديم عماد الدين واستشارته في المهمات.

وقاتل عماد الدين زنكي مع جيوش بك، ومسعود ضد السلطان محمود الذي خلف أباه محمداً، غير أنهم فشلوا في جعل مسعود يتسلم السلطنة، واستقر الأمر لمحمود، وفي عام ٥١٤ حاول جيوش بك أن يجدد المحاولة لمسعود غير أن عماد الدين زنكي لم يوافقه، وعندما فشلت المحاولة الثانية عزل جيوش بك عن الموصل، وعرف السلطان محمود موقف عماد الدين زنكي، لذا فقد أوصى والي الموصل الجديد آق سنقر البرسقي بتقديم زنكي وإكرامه.

عيّن آق سنقر البرسقي على العراق عام ٥١٦، ورافقه عماد الدين زنكي، واشترك معه في حرب دبيس بن صدقة غير أنهما قد هزما، وولّى البرسقي عماد الدين زنكي على واسط، وكلّفه بقتال دبيس فانتصر عليه، وهذا ما جعل البرسقي يضيف إليه البصرة. واشترك الخليفة والبرسقي وزنكي في قتال دبيس، واتبع زنكي خطةً كان لها دور في التغلب على دبيس.

وعندما ترك زنكي البصرة كلّف أميراً لحمايتها تمكن دبيس من العودة إلى البصرة، وقتل أميرها، فرجع زنكي إلى البصرة ففر منها دبيس والتحق ببلاد الشام عام ٥١٧.

أعيد آق سنقر البرسقي والياً للموصل ليعمل على قتال الصليبيين فطلب من زنكي أن يسير معه، غير أن زنكي فضّل غير ذلك فقد ترك البصرة وسار إلى أصبهان ليلتحق بحاشية السلطان محمود.

وفي عام ٥١٨ كلّفه السلطان محمود بأن يسير إلى البصرة إذ غدت

مسرحاً للحوادث بعده، وأقطعه إياها، وكلفه في الوقت نفسه بالإشراف على واسط، وأن يصد عنها جيوش الخليفة إذا ما اتجهت نحوها، وفعلاً فقد صدّ جيوش الخليفة عنها عام ٥١٩.

ووقع الخلاف بين الخليفة المسترشد وبين السلطان محمود، وسار الأخير نحو بغداد، وطلب من زنكي دعمه ضد الخليفة فلبى الدعوة، وسار بمقاتليه نحو بغداد، واضطر الخليفة إلى الصلح. ورشح عماد الدين زنكي لتولية أمر العراق عام ٥٢٠، وصدر الأمر بتوليته وغادر السلطان محمود بغداد بعد أن أمن العراق ما دامت بيد عماد الدين زنكي.

توفي عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي والي الموصل بعد أبيه وذلك عام ٥٢١، وتولى مكانه أخوه الصغير، واستبد بالأمر جاولي الوصي على الأمير الصغير غير أن السلطان عيّن عماد الدين زنكي على الموصل فسار إليها ولم يتول أمر العراق سوى أربعة أشهر. وقد أعطي عماد الدين زنكي ولاية الموصل لقتال الصليبيين الذين استأسدوا بعد وفاة والي الموصل آق سنقر البرسقي عام ٥٢٠، وقيام ابنه عز الدين مسعود مكانه.

تقدم عماد الدين زنكي إلى حلب عام ٥٢٢ ودخلها.

سار دبيس بن صدقة إلى الملك سنجر سلطان السلاجقة في خراسان، وهو عمّ السلطان محمود، وقد تقرب دبيس من سنجر، وفي الوقت نفسه وصل السلطان محمود لتصفية الخلاف بينهما، وقد تمّ ذلك، وعندما أراد السلطان محمود العودة طلب منه عمه سنجر أن يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل، وأن يولي دبيس بن صدقة مكانه فوافق، وأخذه معه.

طلب السلطان محمود من الخليفة تناسي الخلافات والسماح لدبيس بدخول بغداد، ووصل الخبر إلى عماد الدين زنكي فترك الموصل واتجه إلى بغداد، واستغرب كيف يعطي ولاية الموصل من ساعد الصليبيين وحاصر معهم حلب، وإمارة الموصل من مهمتها قتال الصليبيين! ووافقه الخليفة بسبب كراهيته وكراهية أهل بغداد لدبيس، ووافق السلطان محمود

الذي من مصلحته أن يكون عماد الدين زنكي على الموصل ولا يكون دبيس الذي قد يكون عيناً عليه.

توفي السلطان محمود عام ٥٢٥، وتولى مكانه ابنه داود، واختلف السلاجقة بعضهم مع بعض، ووقف زنكي بجانب سنجر، وقاتل الخليفة، وهزم وعاد إلى الموصل. وتمكن مسعود السلجوقي من الانتصار على أقربائه وجلس على كرسي السلطنة.

اختلف الخليفة مع زنكي، وسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها، واضطر أن يرفع الحصار عندما سار السلطان مسعود إلى بغداد، وتصالح الخليفة مع زنكي عام ٥٢٨، وربما كان الصلح للخلاف مع مسعود، بل اشترك زنكي مع الخليفة في صراعه مع السلطان مسعود عام ٥٢٩.

استمرت العلاقات غير طيبة بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكي غير أن المهادنة قد وقعت لانشغال عماد الدين زنكي بقتال الصليبيين ومطالبة رجالات مسعود بإبقاء إمارة الموصل حاجزاً ضد أطماع الصليبيين.

في الوقت الذي كان عماد الدين زنكي فيه يدخل في الصراعات الدائرة في العراق وبين الأسرة السلجوقية بعضهم مع بعض لم يكن ليولي وجهه نحو المشرق فقط بل كان أكثر الأيام متجهاً نحو الغرب يعمل على قتال الصليبيين أولاً ومن هذا الجهد كان يعمل على توحيد البلاد وتجميعها تحت إمرة واحدةٍ ليمكن مقاومة الصليبيين وطردهم من البلاد إذ كانت بلاد الشام يومذاك مجزأة بين أمراء المدن، وكان أشهر هؤلاء الأمراء حكام دمشق أكبر مدن بلاد الشام ومقرها الرئيسي، وكانت بيد أسرة طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي، وقد كان في الأصل مملوكاً لتتش بن ألب أرسلان الذي كان والياً على الشام عند وفاة أخيه ملكشاه وطمع أن يمد نفوذه إلى حلب والجزيرة وأذربيجان، وقد قتل عام ٤٨٨ أثناء صراعه مع ابن أخيه بركيارق، وبعد مقتله خلفه ابنه دُقاق الذي أناب عنه طغتكين في حكم الشام، فاستمر في ذلك حتى عام ٤٩٧، فجاء بعده ابنه تاج الملوك بوري حتى عام ٥٢٢ فشمس الملوك إسماعيل حتى عام ٥٢٩، فشهاب الدين محمود حتى

عام ٥٣٣، فجمال الدين محمد حتى عام ٥٣٤ فمجير الدين أبق حتى استولى على دمشق نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٤٩.

توسع سلطان عماد الدين زنكي فقد ضم إليه بعد أن تولى أمر الموصل جزيرة ابن عمرو عام ٥٢١، وحلب ٥٢٢، وسنجار والخابور وحران عام ٥٢٣، وأربيل عام ٥٢٦، والرقة عام ٥٢٩، وعانة والحديثة عام ٥٣٨، وقد أسدى حكام تكريت لعماد الدين زنكي معروفاً وهما الأخوان نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، فلما أبعدوا عن تكريت انتقلوا إليه فأكرمهم وسلمهم بعلبك حينما استولى عليها عام ٥٣٤، وفي الوقت نفسه فقد ضم ديار بكر، وماردين، ونصيبين إليه وكذلك منطقة الأكراد.

ضم عماد الدين زنكي إليه مدينة حماه عام ٥٢٤ غير أن إسماعيل بن بوري حاكم دمشق قد استردّها منذ عام ٥٢٧، ثم دخلها عماد الدين زنكي ثانية عام ٥٢٩ وألقى الحصار على دمشق في ذلك العام، وفكر كثيراً في حكم دمشق وخاصة أن حاكمها مجير الدين يتسلط عليه (إنر) ويتعاون مع الصليبيين ضد زنكي بل قد سلّمهم مدينة بانياس عندما كان نائبها يعطي الطاعة لزنكي، وفشل عماد الدين زنكي في كل محاولاته لدخول دمشق.

هادن عماد الدين زنكي في أول أمره أمير الرها الصليبي جوسلين وذلك من أجل توسعته منطقة نفوذه وتقوية سلطانه، ثم اتجه إلى حصن الأثارب جنوب غربي حلب حيث كان الصليبيون فيه يقاسمون سكان حلب ضواحي المدينة الغربية، ويقومون بغارات دائمة عليهم. ولما علم الصليبيون في بلاد الشام نية عماد الدين اتجهوا بقوات كبيرة نحوه، فترك حصار الحصن والتقى بهم بعيداً عنه وجرت بين الجانبين معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون، وقتلوا الكثير من الصليبيين، وأسروا الكثير، ثم اتجه عماد الدين إلى الحصن وفتحه عنوةً، ثم تقدم إلى حارم وحاصرها فهادنه أهلها، ودفعوا له نصف دخل بلدهم.

فتح عماد الدين زنكي عام ٥٢٩ معرة النعمان، وكفر طاب. وعندما كان يحاصر حمص عام ٥٣١ حشد له الصليبيون حشداً كبيراً ضم جموعهم

في بيت المقدس بقيادة ملكهم (فولك)، وجموعهم في طرابلس بقيادة أميرهم ريموند، فترك عماد الدين حصار حمص والتقى بهم في معركة قاسية انتصر فيها عليهم، وأسر عدداً كبيراً منهم كان من بينهم ريموند أمير طرابلس الصليبي، أما (فولك) ملك بيت المقدس فقد هرب إلى حصن بعرين، ثم استطاع عماد الدين أن يتسلم حصن بعرين، وأن يستمر في قتاله للصليبيين، حتى أخذ إمارة الرها عام ٥٣٩، واستمر صراعه مع الأعداء حتى قتل عام ٥٤١ وهو يحاصر قلعة جعبر على نهر الفرات.

خلف عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي على الموصل على حين خلفه على حلب ابنه الثاني نور الدين محمود، وقد عمل محمود نور الدين على قتال الصليبيين وفق سياسة أبيه بتوحيد بلاد الشام، وحاول الصليبيون استرداد الرها غير أن نور الدين لم يمكنهم من ذلك، وكانت ذات أهمية كبيرة بنظر الصليبيين حتى قامت أوربا بإرسال الحملة الصليبية الثانية لاسترداد الرها غير أن هذه الحملة قد تركت هدفها الرئيسي واتجهت إلى دمشق حلفهم القوي ضد نور الدين محمود الأمر الذي جعل نور الدين محمود يتمكن من دخول دمشق عام ٥٤٩ لإنقاذ المدينة من أن تقع بأيدي الصليبيين بناءً على رغبة أهلها الذين كانوا يخالفونه من قبل، كما فتح عام ٥٤٥ مدينة أعزاز، وأسر (جوسلين)، وابنه في المعركة التي جرت معهما، واستمر في سياسته حتى توفي عام ٥٦٩.

أما الموصل فقد حكمها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حتى عام ٥٤٤ حيث تولى أمرها بعده أخوه قطب الدين مودود، وبقي حتى عام ٥٦٥.

٦ ـ العبيديون:

بدأ الضعف على الدولة العبيدية يظهر بوضوح إذ بدا الصراع بين الوزراء والخلاف بين الجنود، وكان الخلفاء يتولون الأمر وهم صغار فلم يكن بأيديهم من الأمر شيء.

في عام ٥٣١ هرب الوزير النصراني بهرام فطلبه الخليفة حتى أخذه وسجنه، ثم أطلق سراحه، فاعتزل وصار راهباً. واستوزر الخليفة بعد بهرام رجلًا اسمه رضوان، وكان شجاعاً وشاعراً، ولقبه الملك الأفضل غير أنه لم يلبث أن عزل ففر إلى بلاد الشام وطلب من عماد الدين زنكي مساعدته، فخشي الخليفة الحافظ فأرسل إليه أسامة بن منقذ فأمنه واسترضاه وأعاده إلى الخليفة، فسجنه الخليفة عشر سنوات تمكن بعدها من الفرار من السجن، وجمع حوله جماعة قاتل بها جنود الخليفة غير أنه هُزم وقُتل.

وفي عام ٥٤٤ توفي الخليفة الحافظ بعد يومين من مقتل الوزير رضوان، وخلفه ابنه الظافر إسماعيل وكان صغيراً لا يزيد عمره على السادسة عشرة وقام الخلاف بين الجند، ثم امتد إلى الوزراء إذ عزل هذا الخليفة الجديد الوزير الملك العادل ابن سلار وقلّد الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروهاً من الرعية، فجمع ابن سلار جماعته وسار بهم نحو الجيزة ففر منها نجم الدين بن مصال، ولم يكن قد مضى على وزارته أكثر من خمسين يوماً، وسار ابن مصال نحو الصعيد وجمع قوةً فسار إليه جند ابن سلار، والتقى الطرفان في معركة قتل فيها ابن مصال، واضطر الخليفة أن يقلّد ابن سلار الملك العادل الوزارة، غير أن هذا الاضطرار يعني الكراهية والمنافسة بينهما.

طلب الملك العادل سيف الدين ابن سلار من نور الدين محمود أمير حلب مساعدته لقتال الصليبيين بحيث يغزو نور الدين طبريا في الوقت الذي يسير فيه الملك العادل سيف الدين إلى غزة وعسقلان، وبهذه الطريق يمتنع الصليبيون من غزو مصر. وكان ابن سلار يطمع في دعم نور الدين محمود عسكرياً كما يطمع في مساعدته للقضاء على العبيديين الإسماعيليين إذ كان هو ينتمي إلى الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة وفي الطلب أحس نور الدين محمود أن الدولة العبيدية قد أصبحت ضعيفة غير قادرةٍ على حماية نفسها وربما طمع الصليبيون فيها وهاجموها فيتسع نفوذ الصليبيين في الوقت الذي يريدون تقويض إماراتهم وطردهم من بلاد الشام.

وأحس الخليفة العبيدي الظافر بما يدبر ابن سلار فعمل على الكيد له، وعمل على أن يتولّى نصر بن عباس اغتياله. واغتيل ابن سلار عام ٥٤٨، ثم تلاه قتل الخليفة الظافر، وكان عباس بن نصر قد تولى الوزارة إثر قتل ابنه نصر لابن سلار، كما عمل نصر لقتل الخليفة ولما ثارت الرعية على عباس فر وابنه نصر إلى بلاد الشام، فلاحقته جماعة من الصليبيين أرسلتهم أخت الخليفة الظافر فقُتل عباس، وأُخذ ابنه نصر إلى القاهرة حيث قتل هناك أو صلب حياً.

تولى بعد الظافر ابنه الفائز أبو القاسم عيسى عام ٥٤٩ وكان صغيراً لا يزيد عمره على الخامسة. وجاء الأمير طلائع بن رزيك أحد الولاة إلى القاهرة، وتسلم الوزارة وأعاد الأمن، وتلقب بالملك الصالح، غير أن الصليبيين قد احتلوا مدينة عسقلان من العبيديين، ولكن لم يتمكنوا إلى أن يسيروا إلى أبعد من ذلك بسبب قيام نور الدين محمود الذي دخل دمشق عام ٥٤٩، وقويت دولته وكان يقف في وجه الصليبيين فإذا ما سار الصليبيون نحو مصر اتجه نور الدين محمود نحو بيت المقدس.

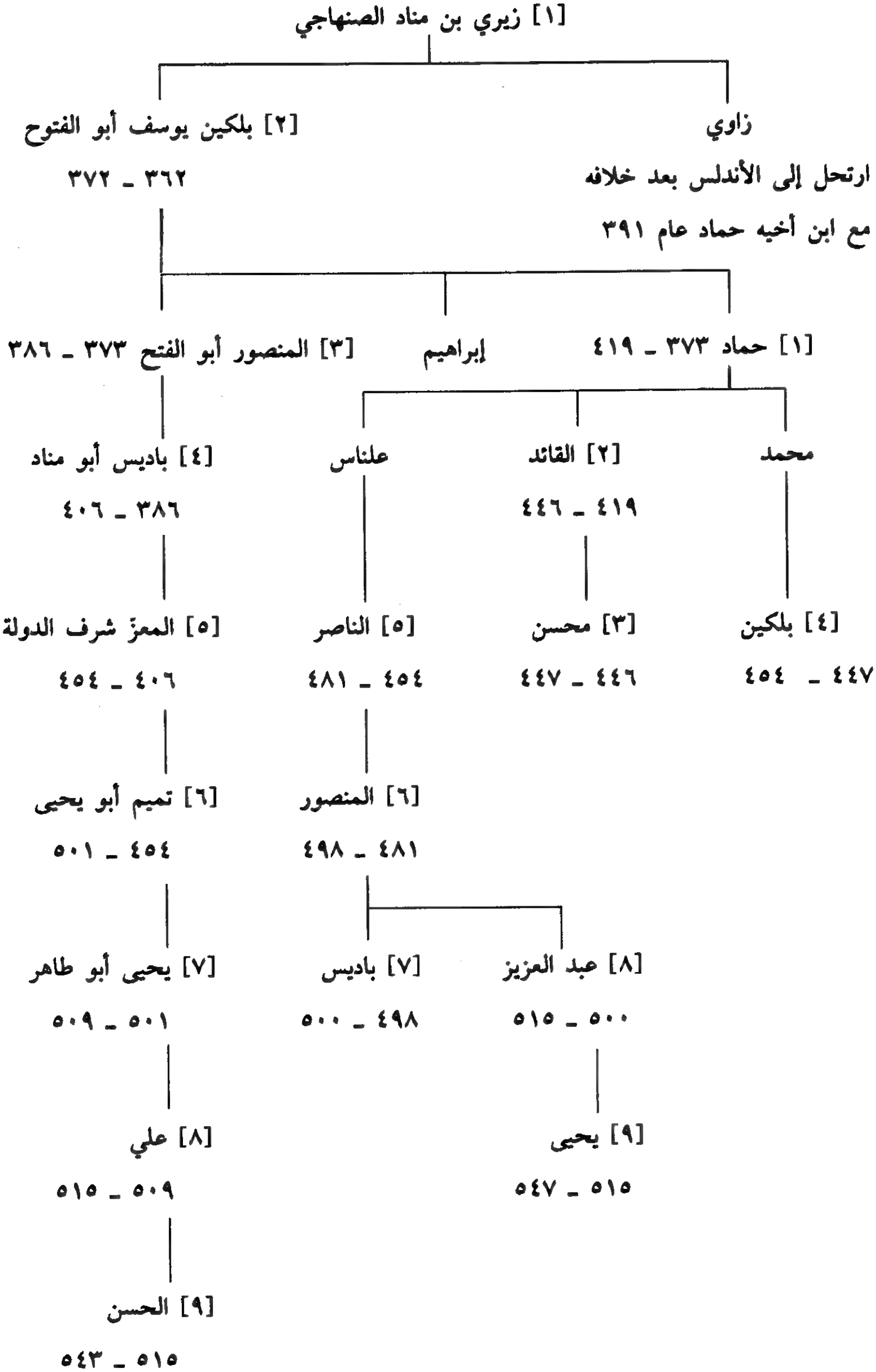
وفي عام ٥٥٥ توفي الخليفة الفائز بنصر الله فاختار الملك الصالح ابن رزيك خليفةً بعده ابن عمه عبد الله بن يوسف بن الحافظ وكنيته أبو محمد، ولقبه العاضد لدين الله، وكان في ذلك الوقت مراهقاً قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوّجه ابنته (ابنة الملك الصالح ابن رزيك).

٧ ـ آل زيري:

كان الحسن بن علي الصنهاجي أمير آل زيري منذ أن تولّى أمر المهدية عام ٥١٥، واستمر الصراع بينه وبين روجر النورماندي حاكم صقلية، ثم جرى بينهما عهد. وفي عام ٥٤٠ خرج أسطول للنصارى الصقليين، واستولى على جزر قرقنة المقابلة للساحل التونسي، فأرسل إليهم الحسن من يذكّرهم بالعهود بينه وبينهم. وفي عام ٥٤١ أرسل روجر أسطولاً استولى على طرابلس الغرب وما استطاع دخولها إلا بعد خلاف بين

أهلها أدّى إلى قتال بعضهم مع بعض إذ وقع قتال بين بني مطروح الذين كانوا يحكمون البلد وبين الملثمين، فأخذ النصارى الرهائن من المسلمين، ثم أعادوهم، وولّوا على طرابلس أحد بني مطروح، وأجبروا أهلها على أن يسمحوا لسفن صقلية بالمرور من بلدهم.

وفي عام ٥٤٢ استبد بمدينة قابس مولى اسمه يوسف فأرسل إليه الحسن بن علي ينذره، فاتصل يوسف بحاكم صقلية روجر وبذل له الطاعة، فأرسل له الحسن جيشاً فما كان من يوسف إلا أن خلع طاعة آل زيري، وزادت صلته بـ (روجر)، أما أبناء المدينة فقد قاوموا يوسف وتصرفاته وسلموا بلدهم لجند الحسن بن علي آل زيري، وأُخذ يوسف أسيراً. وسار أهل يوسف إلى صقلية واستنجدوا بروجر فأرسل روجر أسطولاً بإمرة وزيره جورج وصل إلى جزيرة قوصرة رغم العهد بين الحسن وروجر، ثم انتقل جورج إلى مدينة المهدية فغادرها الحسن بن علي، واتجه إلى بني حماد فحصروه في جزيرة بني مزغنان مقابل مدينة الجزائر اليوم وذلك عام ٥٤٣، وبقي هناك حتى دخل عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين المنطقة فسار معه إلى المهدية عام ٥٥٤ فولاه عليها، وهكذا زالت دولة بني زيري بعد حكم دام تسع ومائتي سنة، وتوالى عليها تسعة حكام من آل زيري: تسعة من أبناء المنصور ومثلهم من أبناء حماد في أشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، كما هو مبين في الجدول التالي:


[١] زيري بن مناد الصنهاجي
زاوي
ارتحل إلى الأندلس بعد خلافه
مع ابن أخيه حماد عام ٣٩١
[٢] بلكين يوسف أبو الفتوح
٣٦٢ ـ ٣٧٢
[١] حماد ٣٧٣ ـ ٤١٩
إبراهيم
[٣] المنصور أبو الفتح ٣٧٣ ـ ٣٨٦
محمد
[٢] القائد
٤١٩ ـ ٤٤٦
علناس
[٤] باديس أبو مناد
٣٨٦ ـ ٤٠٦
[٤] بلكين
٤٤٧ ـ ٤٥٤
[٣] محسن
٤٤٦ ـ ٤٤٧
[٥] الناصر
٤٥٤ ـ ٤٨١
[٥] المعزّ شرف الدولة
٤٠٦ ـ ٤٥٤
[٦] المنصور
٤٨١ ـ ٤٩٨
[٦] تميم أبو يحيى
٤٥٤ ـ ٥٠١
[٨] عبد العزيز
٥٠٠ ـ ٥١٥
[٧] باديس
٤٩٨ ـ ٥٠٠
[٧] يحيى أبو طاهر
٥٠١ ـ ٥٠٩
[٩] يحيى
٥١٥ ـ ٥٤٧
[٨] علي
٥٠٩ ـ ٥١٥
[٩] الحسن
٥١٥ ـ ٥٤٣

٨ ـ المرابطون:

توفي علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧ وخلفه ولده تاشفين، فولّى ابنه إبراهيم على مدينة مراكش، وأخذ بنفسه متابعة أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي، وسار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها، والتقى الطرفان في معركة، انتقل تاشفين إثرها إلى مدينة وهران ليتخذها قاعدةً له، فسار وراءه عبد المؤمن، وحاصره فيها، فحاول تاشفين النجاة فهوى عن صخرة بجواده فقتل عام ٥٣٩.

تولى بعد تاشفين أخوه إسحاق بن علي، فسار إليه عبد المؤمن بن علي وتمكن من دخول مراكش والقضاء على دولة المرابطين عام ٥٤١هـ.

٩ ـ الموحدون:

بعد أن قضى عبد المؤمن بن علي على دولة المرابطين سار إلى بني حماد فملك مدينة بجاية عام ٥٤٧، واستسلم يحيى بن عبد العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد، ثم حارب صنهاجة وانتصر عليها، وسار بعدها إلى قلعة بني حماد جنوب غربي صطيف وتمكّن من احتلالها، وتقع شمال شط الحضنة في جبال الحضنة شمال شرقي بلدة المسيلة وعلى بعد ٢٥كم منها، وإلى الجنوب من بجاية على بعد ١٠٠كم منها.

تحالفت بعض القبائل العربية من بني هلال وبني زعب من سُليم وغيرها عام ٥٤٨ لمحاربة عبد المؤمن بن علي، فانتصر عليهم، وكان روجر حاكم صقلية النصراني قد عرض على هذه القبائل مساعدته ودعمه لها، فرفضت وأبت أن تستعين بكافر على مسلم.

واستطاع عبد المؤمن بن علي أن يفتح مدينة المهدية عام ٥٥٤، وكانت بيد النورمانديين منذ عام ٥٤٣، وبذا دانت المغرب كلها للموحدين أيام عبد المؤمن بن علي الذي بقي حتى عام ٥٥٨.

١٠ ـ الأندلس:

استطاع النصارى أن يدخلوا شنترين، وماجة، وماردة، واشبونة عام ٥٤٠ إذ ضعف أمر المرابطين. وفي عام ٥٤١ بينما كان عبد المؤمن بن علي يحاصر مراكش إذ جاءه وفد من أهل الأندلس يطلب منه مناصرة المسلمين في الأندلس، فسيّر معهم جيشاً وأسطولاً فسار الجيش نحو إشبيلية، ودخل الأسطول النهر إليها فحاصرها ثم أخذها عنوةً من يد المرابطين.

غير أن النصارى كان وضعهم يسير إلى تحسنٍ في الأندلس، وقد ملكوا المرية عام ٥٤٢، ثم أخذوا عام ٥٤٤ كلاً من طرطوشة ولاردة، وفي العام التالي حاصر ملك طليطلة النصراني، وهو الأذفونس الملقب بالسليطين قرطبة فبعث له عبد المؤمن جيشاً أجبره على الرحيل عنها.

وتحسن وضع الموحدين بعد الإنتهاء من حروبهم في إفريقية والقضاء على دولة المرابطين، وبني حماد، وامتلاك كل بلاد المغرب، فانصرفوا نحو الأندلس، وتمكن عبد المؤمن بن علي أن يستعيد مدينة المرية من النصارى عام ٥٥٢ بعد أن حكموها عشر سنوات، ولم يبق للمرابطين سوى جزيرة ميورقة مع حمود بن غانية.

١١ ـ اليمن:

كان بنو نجاح يحكمون تهامة، وكان أميرهم فاتك بن منصور الذي توفي عام ٥٤٠، وفي أيامه ظهر المهديون، فهاجموا بإمرة علي بن مهدي بلاد بني نجاح عام ٥٣٨ غير أنهم هزموا، وانسحب علي بن مهدي إلى الجبال.

وخلف فاتكاً فاتك بن محمد بن فاتك، وبقي حتى عام ٥٥٥، وهو آخر ملوك بني نجاح، وفي عهده أغار علي بن مهدي على زبيد فاستنجد أهلها ببني الرس، وكان إمامهم المتوكل أحمد بن سليمان فأنجدهم، ودفع عنهم غارات علي بن مهدي الذي استطاع أخيراً دخولها عام ٥٥٣.

وفي عدن كان يحكم بني زريع الداعي سبأ بن أبي السعود منذ عام ٤٨٩ حتى عام ٥٣٣ حيث توفي، وخلفه ابنه محمد بن سبأ حتى عام ٥٥٠، فخلفه ابنه عمران بن محمد بن سبأ، ولقب بالمكرم، وبقي حتى عام ٥٦٠.

وفي صنعاء حكم حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وهزم أحمد بن سليمان إمام بني الرس في صعدة ٥٤٦ غير أن أحمد بن سليمان قد عاد واحتل صنعاء عام ٥٥٠، وذهب حاتم إلى حصن جنوب صنعاء وبقي فيه حتى توفي عام ٥٥٦هـ.

وبالنسبة إلى بني الرس فإن أحمد بن سليمان قد برز في صعده، وبقي حتى عام ٥٦٦، ولم يكن وضعه مستقراً.

الصَليبيُّونَ

لقد قلّ عدد الصليبيين في بلاد الشام بسبب ما قُتل منهم، وتوزّعوا في شريطٍ طويلٍ يمتد من الرها إلى أنطاكية فطرابلس فبيت المقدس، وحلّت بهم هزائم كثيرة، فطلبوا معونة أوربا والكنيسة، وكان البابا أربان الثاني قد توفي، ولم يعد تأييد الكنيسة ذا أثر، وبخاصة أنه قام نزاع بين رجال الكنيسة على كرسي البابوية، وزادت ثروة أوربا، وزادت قوة الملكية في بعض الدول مثل فرنسا وألمانيا وصقلية، ولهذا لم تستطع الكنيسة، كما لم تستطع أوربا تلبية نداء الصليبيين، كما حدث في جمع الصليبيين في المرة الأولى.

لقد نشأت قوة جديدة للمسلمين تزعمها عماد الدين زنكي، وبدأ يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولتوسعة رقعة البلاد التي يسيطر عليها في سبيل الوقوف في وجه الصليبيين ومحاولة طردهم من بلاد المسلمين، غير أن وجود هذه القوة الجديدة قد دفع نصارى أوربا للمناداة للدفاع عن البلاد التي احتلوها من بلاد الشام، والتي كلفتهم كثيراً، واستطاع أحدهم أن يجمع أعداداً كبيرة من النصارى الحاقدين على المسلمين تحت شعار الدفاع عن المكتسبات التي حصلوا عليها، ولما كانت الملكية قد قويت في ألمانيا وفرنسا وتريد منافسة الكنيسة لذا فقد انضم إلى هذه الجموع كل من ملك ألمانيا كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، وسارت حملة كبيرة متجهة نحو الشرق.

أما روجر ملك صقلية وجنوبي إيطاليا فقد اتجه نحو شمالي إفريقية، ودخل طرابلس الغرب، كما دخل المهدية: أولاهما عام ٥٤١، والثانية

٥٤٣ غير أن اختلافاً قام بينه وبين أمبراطور القسطنطينية عام ٥٤٤، ثم مات وزيره جورج عام ٥٤٦ الذي قام بحملاته الصليبية في شمالي إفريقية فاستراح منه الناس، كما مات هو عام ٥٤٨ بعد أن هاجم بونه ودخلها.

أما الحملة الصليبية الثانية فقد شجّعها على الإنطلاق فتح عماد الدين زنكي لإمارة الرها الصليبية عام ٥٣٩، وعندما انطلقت هذه الحملة عام ٥٤٢ كان عماد الدين زنكي قد توفي عام ٥٤١، واتجهت الحملة إلى بلاد الشام عن طريق البحر للخلاف الذي كان قائماً بين أمبراطور القسطنطينية وبين الصليبيين. اتجه الفرنسيون نحو أنطاكية على حين سار الألمان نحو عكا.

رغبت قادة هذه الحملة الصليبية أن يحتلوا دمشق حاضرة بلاد الشام ولقطع الصلة بين المسلمين شمال بيت المقدس وجنوبه فارتكبوا بذلك خطأً كبيراً، وهو أن أمير دمشق يومذاك وهو مجير الدين كان يخشى من سيطرة آل زنكي على مدينته ويعتمد على الدعم الصليبي فيما إذا اتجه آل زنكي نحوه. بالإتجاه الصليبي نحو دمشق جعل أميرها مجير الدين يستنجد بنور الدين محمود آل زنكي ضدهم وهذا ما هيأ لنور الدين باحتلال دمشق عام ٥٤٩ وأضاع على الصليبيين مخططاتهم، واضطر ملك ألمانيا كونراد الثالث بعدها العودة إلى بلاده، كما تبعه ملك فرنسا لويس السابع بعد مدةٍ وجيزةٍ. وهكذا فشلت هذه الحملة الصليبية الثانية.

أما نور الدين محمود فقد حمل مهمة والده في قتال الصليبيين، وقد استطاع أن يفتح عدة حصون على الساحل الشامي عام ٥٤٢ كانت للصليبيين.

وفي عام ٥٤٣ حاضر الصليبيون مدينة دمشق بجيشٍ قوامه مائة ألف يقوده كونراد الثالث ملك ألمانيا، فاستنجد أميرها مجير الدين بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، وجاء محمود نور الدين، وانتصر على الصليبيين في بصرى، ولما سمع الصليبيون بقدوم ولدي زنكي إلى دمشق رحلوا عنها.

وفي عام ٥٤٤ دخل نور الدين محمود حصن أفاميا، وسار نحو أنطاكية، وحاصر في طريقه مدينة حارم، وصالحه أهلها على نصف أرزاقهم. غير أنه هزم عام ٥٤٦ عندما سار لقتال جوسلين أمير الرها الصليبي، ثم تمكّن من أسر جوسلين فيما بعد، واستطاع أن يأخذ إعزاز، وعينتاب، ومرعش.

واستنجد مجير الدين بنور الدين محمود ضد الصليبيين فجاءه ودخل دمشق عام ٥٤٩، ثم سار إلى بعلبك ودخلها عام ٥٥٠، كما أخذ شيزر عام ٥٥٢.

وأخفقت الحملة الصليبية الثانية، وظهر ضعف الصليبيين في بلاد الشام، وقوي شأن المسلمين إذ أصبحت أكثر بلاد الشام تحت إمرة نور الدين محمود، وحُصر الصليبيون في المناطق الساحلية وبيت المقدس، وقلّ أملهم في مساعدة، بعض أمراء المسلمين ضد بعض، وقلّ عدد النصارى الذين كانوا يأتون لزيارة بيت المقدس، ولم تعد أوربا تفكر بإرسال حملةٍ جديدة إلى بلاد الشام لدعم الصليبيين هناك.

-٣٢-

المستنجد بالله
يوسف بن محمَّد المقتفي
٥٥٥-٥٦٦

هو يوسف أبو المظفر المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وأمه أم ولد كرجية تدعى «طاووس».

كان المستنجد أسمر طويل اللحية، كان من خيار الخلفاء وأعدلهم، وأرفقهم بالرعايا، ومنع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكساً، وكان شديداً على المفسدين، سجن رجلاً كان يسعى بالناس فساداً مدة، وقد شفع له بعض أصحابه، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلّني على آخر مثله لأحبسه، وأكفّ شرّه عن الناس. كان أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر.

قال ابن الجوزي: وكان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والأسطرلاب وغير ذلك.

ومن شعره:

عيّرتني بالشيب وهو وقار ... ليتها عيّرتني بما هو عار

إن تكن شابت الذوائب مني ... فالليالي تزينها الأقمار[1]

---

(١) الكامل في التاريخ.

بويع بولاية العهد وعمره تسع وعشرون سنة أي عام ٥٤٧، وبويع بالخلافة يوم موت أبيه يوم الأحد الثاني من ربيع الأول من عام ٥٥٥.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين، وكانت الساحة بلاد الشام ومصر، ويقود القتال محمود نور الدين في كلا الساحتين حيث ضعفت الدولة العبيدية لدرجة كبيرة وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولى أمر الدفاع عن مصر.

وفي أيامه هاجمت الكرج عام ٥٥٧ بلاد المسلمين ونهبوا وسبوا وقتلوا كثيراً فاجتمع لهم حكام أذربيجان ومراغة وخلاط وثأروا منهم.

وتوفي في ثمان ربيع الثاني من سنة ست وستين وخمسمائة، وبذا تكون خلافته قد زادت على إحدى عشرة سنة.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

ضعف أمر السلاجقة كثيراً، وقوي أمر الخلفاء نسبياً، وإن كانت السلطة الحقيقية إنما هي بيد أمراء الولايات أو الذين عرفوا باسم الأتابكة، حيث تعني كلمة أتابك الوالد الأمير.

توفي السلطان ملكشاه بن محمود عام ٥٥٥، وحرص على تسلم السلطنة عمه سليمان بن محمد بن ملكشاه غير أنه قتل عام ٥٥٦، وبويع ابن أخيه أرسلان شاه بن طغرل.

٢ ـ خوارزم:

كان إيل إسلان بن اتسز هو شاه خوارزم، وكانت الأمور مستقرةً له، والبلاد التي يسيطر عليها واسعة الأرجاء، وبقي في حكمه حتى توفي عام ٥٦٨.

٣ ـ الغوريون:

توفي علاء الدين حسين عام ٥٥٦ فخلفه ابنه سيف الدين محمد الذي طرد من عرف من الإسماعيلية من بلاده، وسار إلى محاربة الغز الأتراك في بلخ فهزم وقتل عام ٥٥٨، ولم يتجاوز من العمر العشرين عاماً. وتولّى بعده ابن عمه غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام الذي أرسل جيشاً كبيراً بإمرة أخيه شهاب الدين فأنقذ غزنة من الأتراك الغز، وقد حكموها خمس عشرة سنة، كما سار إلى السند، غير أن الترك الغز قد عادوا إلى غزنة

وحكموها. وسار شهاب الدين عام ٥٥٩ مع جيش قوي فاستولى على لاهور بعد حصارٍ لها، وقضى على الدولة الغزنوية إذ أسر فيها خسرو شاه وأرسله إلى أخيه غياث الدين فقتله.

اتسعت دولة غياث الدين، وقوي أمره، وامتدت أيامه.

٤ ـ آل زنكي:

تابع نور الدين محمود مهمته في قتال الصليبيين وقد كان القتال بينهما سجالاً في المرحلة الأولى، ثم حرص على حصرهم بين جبهتين عندما ضعُف العبيديون فنال منهم كثيراً.

لقد هزم نور الدين محمود أمام الصليبيين عام ٥٥٨ عند حصن الأكراد حيث فاجأته قواتهم، واضطر المسلمون إلى الفرار. وسار الصليبيون في العام التالي ٥٥٩ إلى مصر بأعداد كبيرة نجدةً لشاور وفي نيتهم التسلط على مصر، فهاجمهم نور الدين محمود عندها في الشمال وأرسل قائده أسد الدين شيركوه بن شادي إلى مصر. لقد سار نور الدين محمود إلى حصن حارم، وأسر صاحب أنطاكية (بيمند)، وصاحب طرابلس (القومص)، وأمير جيوش القسطنطينية إذ تجمّع كلهم ضده فنصره الله عليهم، واتجه نحو بانياس ففتحها، وكان معه أخوه نصر الدين أمير ميران وفقد يومها إحدى عينيه في المعركة.

وبعد أن ضعفت الدولة العبيدية وجّه نور الدين محمود جهده إلى الجنوب لدعم مصر ضد الصليبيين الذين ركّزوا جيوشهم إلى تلك الجهات ليبسطوا نفوذهم على مصر بإيجاد الفرقة بين المتنازعين في مصر وفي الوقت نفسه لم ينس نور الدين محمود تقديم الجهد للقتال في الشمال للتخلص من الصليبيين في إماراتهم الشمالية وجعل الصليبيين في بيت المقدس بين جبهتين فيضعف أمرهم ويمكن القضاء عليهم وهذا ما تمّ بالواقع عندما أصبحت مصر وأكثر بلاد الشام تحت نفوذ نور الدين محمود.

٥ ـ العبيديون:

توفي الخليفة العبيدي الفائز عام ٥٥٥، وعمره أحد عشر عاماً، وكان يدبر أمر دولته الوزير الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك، وتولّى بعد الفائز ابن عمه العاضد أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، واستمر طلائع بن رزيك في تسيير أمور الدولة غير أنه قتل عام ٥٥٦، وتسلم بعده ابنه رزيك أبو شجاع الملك العادل، وكان يحذر نائبه على الصعيد شاور بناءً على وصية أبيه، وهو الذي قدّمه، وشاور هو أبو شجاع بن مجير الدين السعدي.

استطاع شاور أن يخلع رزيك بن طلائع وأن يحلّ محلّه في الوزارة، وفي عام ٥٥٨ قتل طي بن شاور رزيك بن طلائع، وكان لهذا القتل أثره في نفوس الأهلين، فأجمع أنصار الملك العادل على القيام بثورة ضد شاور، واستغل هذا الحقد أحد المقدمين وهو ضرغام وقام بحركة ضد شاور الذي فرّ إلى بلاد الشام، وتمكن ضرغام من الانتصار وقتل ولدي شاور، وسجن الثالث، وتسلّم ضرغام الوزارة مكان شاور.

طلب شاور بن مجير الدين الغوث من نور الدين محمود، وتعهد له بدفع نفقات الحملة، وتقديم ثلث خراج مصر إلى نور الدين محمود لقتال الصليبيين، فوافقه نور الدين محمود، وفي رغبته حكم مصر ليستطيع تنفيذ مهمته في حصار الصليبيين وخاصة أنه يعلم أن العبيديين على درجة من الضعف لا يستطيعون معه الوقوف أمام الصليبيين. فأرسل مع شاور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه بن شادي.

كان المصريون يدفعون أتاوةً للصليبيين، واختلف ضرغام مع عموري ملك بيت المقدس الصليبي، فسار عموري إلى مصر عام ٥٥٩ ليفرض أتاوةً سنويةً كبيرةً على مصر، وليفرض رأيه، وانتصر على ضرغام في بلبيس وأراد ضرغام أن يتجنب الهزيمة الأكبر ففتح السدود على النيل وكان وقت الفيضان بل في أوسع مدىً له، فأُغرقت الدلتا واضطر عموري أن يعود إلى مقره، وتمّ لضرغام ما أراد.

بعد أن رجع عموري وصل إلى مسامع ضرغام اتفاق شاور مع نور الدين محمود فأسرع إلى عقد حلف مع عموري وزاد من قيمة الأتاوة التي يدفعها للصليبيين. غير أن شاور وصل وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن نجم الدين أيوب قبل أن يصل عموري، والتقى الفريقان في بلبيس، وانتصر أسد الدين شيركوه، واستولى شاور على الفسطاط بينما كان ضرغام في قصر القاهرة وقد قتل وهو يُحرّض الناس إذ تخلّى عنه أنصاره. وتسلّم شاور الوزارة، وتصالح مع الخليفة العبيدي العاضد، وشعر بقوته فرفض أن يدفع لأسد الدين شيركوه نفقات الحملة بل نقض عهده معه، وطلب منه أن يرجع إلى بلاد الشام، فلم يستجب أسد الدين لطلبه، فحالف شاور الصليبيين، وحاصروا أسد الدين شيركوه في بلبيس فاضطر أن يعود إلى بلاد الشام بعد حصار دام ثمانية أشهر، ولم يتمكن من فك الحصار عنه إلا بعد أن قام نور الدين محمود بهجوم على الأجزاء الشمالية التي بيد الصليبيين، وانتصر على جموعهم، وأسر أمراءهم ـ كما ذكرنا ـ وفتح حارم وبانياس، فأُجبر الصليبيون في بلبيس إلى فك الحصار والاتجاه نحو الشمال للوقوف في وجه نور الدين محمود.

أفاد أسد الدين شيركوه من هذه الحملة حيث عرف أوضاع مصر وطبيعة أهلها، واختلاف أبنائها، ورأى من الضرورة بمكان امتلاكها كي يستطيع أن يقضي على الصليبيين فبدأ يعد العدة، واستمر في إعداد حملة قوية مدة عامين.

سار أسد الدين شيركوه بن شادي بجيش كبير إلى مصر، ووصل إلى بلبيس وهزم المصريين، غير أن شاور قد استنجد بالصليبيين فجاءوا إلى مصر بأعدادٍ كبيرةٍ، وحاصروا شيركوه في بلبيس، وأجبروه على العودة إلى الشام. وبعد مدة رجع الصليبيون أيضاً إلى مناطقهم في فلسطين.

وقامت ثورة يحيى بن الخياط الذي طلب الوزارة لنفسه، وهو من أنصار طلائع بن رزيك، وقد قمع هذه الثورة شاور لكن قامت ثورات متعددة لكنها كانت كلها أقل أهمية من ثورة ابن الخياط. وبلغ شاور أن

نور الدين محمود يعد العدة لغزو جديد لمصر، ورأى شاور أن يستنجد ثانيةً بالصليبيين، ووعدهم بموطن دائم في بلده.

سار أسد الدين شيركوه من الشام عام ٥٦٢ وفي الوقت نفسه اتجه الصليبيون نحو مصر أيضاً ومشى الجيشان على شاطئ نهر النيل، والتقيا في معركة جنوب مدينة المنيا، وقد انتصر شيركوه، وانسحب الصليبيون نحو القاهرة حيث كان معسكر أميرهم عموري. ولم يجد أسد الدين شيركوه نفسه قادراً على السير إلى القاهرة لذا فقد وطد أقدامه في الصعيد، وجبى الخراج، ثم سار عن طريق الصحراء إلى الإسكندرية فدخلها من دون مقاومة، فولى عليها ابن أخيه صلاح الدين، وترك معه نصف الجيش، وعاد هو إلى الصعيد. وسارت القوات المصرية والصليبية نحو الإسكندرية وحاصرتها براً وبحراً إذ جاء أسطول صليبي إلى مياهها، واستمر الحصار أربعة أشهر، واستنجد صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه فجاء إليه مسرعاً، وجرى صلح بين الطرفين ينسحب بموجبه أسد الدين شيركوه من مصر مقابل خمسين ألف دينار، ولم يقبل الصليبيون بالصلح إلا لأن قوتهم ضعفت ورأوا من المصلحة السير بقوتهم إلى الشمال حيث سار نور الدين محمود ومعه أخوه قطب الدين مودود إلى البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون في منطقة طرابلس حيث فتحا صافيتا، وأغارا على عرقة وحلبا.

قرر الصليبيون احتلال مصر إذ رأوا أن الوقت مناسب لهم، فزحفوا عليها فما كان من شاور إلا الاستنجاد بنور الدين محمود فأرسل إليه حملة بإمرة أسد الدين شيركوه، ومعه أخواه، وابن أخيه صلاح الدين، وقد وجد نور الدين في التعاون مع شاور الانتصار على الصليبيين ثم يمكن بعدئذ التخلص من شاور وحكم مصر، وعندها تقوى جبهة المسلمين حيث تصبح واحدة ويمكن وقتئذٍ طرد الصليبيين من المناطق التي سيطروا عليها.

سار الصليبيون في صفر عام ٥٦٤ إلى مصر، ودخلوا بلبيس وأساءوا إلى الأهالي، ثم اتجهوا إلى القاهرة فأحرق شاور الفسطاط كي لا يدخلها الصليبيون، فالتجأ أهلها إلى القاهرة، وخاف الناس من وصول الصليبيين

إليهم لما سمعوا من أفعالهم في بلبيس والمناطق التي مروا عليها لذا أخذت الحماسة أهل القاهرة، وقرروا مجابهة الصليبيين بكل إمكاناتهم.

بدأ شاور يفاوض عموري قائد الصليبيين، ووصل شيركوه إلى القاهرة في جمادى الآخرة ولا يزال عموري على أسوارها وقد رأى أنه لا قبل له بقتال شيركوه لذا فضل الإنسحاب والعودة إلى فلسطين دون قتال، ودخل شيركوه القاهرة فاستقبله المصريون بالترحاب كعادتهم مع كل قادم قوي.

رأى شيركوه أن الأمر لا يستقر إلا بالتخلص من شاور وقد قام صلاح الدين بهذه المهمة وتخلص من شاور عام ٥٦٤، وولّى العاضد الوزارة إلى شيركوه الذي توفي عام ٥٦٥ فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ولُقّب بالملك الناصر.

وفي الوقت نفسه استولى نور الدين محمود في بلاد الشام على قلعة جعبر وأخذها من أيدي الصليبيين.

كسب صلاح الدين ثقة أهل مصر، غير أن الخليفة العبيدي العاضد كان يخشى من صلاح الدين للخلاف بينهما في العقيدة لذا بدأ يحيك المؤامرات ضده ومنها محاولة قتل صلاح الدين بيد نجاح، وهذا ما جعل صلاح الدين يقتل نجاحاً، وعندما ثار أتباعه انتصر عليهم غير أن حركتهم بقيت عدة سنوات.

اتفق الصليبيون والبيزنطيون على القيام بحملة مشتركة ضد مصر، وساروا بحملةٍ بحريةٍ نزلت بالقرب من دمياط، فأسرع صلاح الدين إلى دمياط وتحصن فيها، كما أن نور الدين محمود قد أسرع إلى غزو البلدان التي يسيطرون عليها، فحاصر الكرك، وأرسل نجدة إلى صلاح الدين وكانت القوة تتحرك إثر القوة وكان على رأس إحداها أبو صلاح الدين يوسف نجم الدين أيوب وقد نصحه نور الدين محمود عندما أرسله أن يأمر ابنه صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي المستنجد.

استمر حصار الصليبيين لمدينة دمياط خمسين يوماً اضطروا بعدها إلى

رفع الحصار عنها نتيجة الإمدادات التي كانت تصل إليها من نور الدين محمود، وشدة مقاومة صلاح الدين، ودعم الخليفة العبيدي العاضد، واستيلاء نور الدين محمود على أجزاء من مملكة الصليبيين في بيت المقدس.

غادر الصليبيون دمياط، وتفرغ صلاح الدين لتوطيد أقدامه، فجاءت أسرته من بلاد الشام، وعيّن أباه على بيت المال، وأسند مناصب القضاء إلى جماعة من المسلمين بدلاً عن العبيديين، وضعف بهذا أمر الخليفة العبيدي العاضد، وخاصة بعد أن أسند صلاح الدين إلى أنصاره بعض قيادات الجيش، وعزل من يشك في إخلاصهم له.

وأقام صلاح الدين على قصر الخليفة العاضد بهاء الدين قراقوش، وحصر الأسرة العبيدية في جناح خاص من القصر، وعقد مجلساً للأمراء، واستشارهم في الخطبة للخليفة العباسي المستضيء فوافقوه وتم ذلك، وتوفي العاضد في مطلع عام ٥٦٧، ولم يدر ما تم، وبذا انتهت الدولة الفاطمية بموت العاضد، وتسلّم صلاح الدين أمر مصر كلها.

٦ ـ الموحدون:

توفي عبد المؤمن بن علي عام ٥٥٨ وهو يستعد للإبحار إلى الأندلس للجهاد فيها، وخلفه ابنه الأكبر محمد غير أن أمره قد اضطرب، فاتفق الموحدون برأي أخويه يوسف، وعمر على خلعه وتولية يوسف بن عبد المؤمن، غير أن إخوته الآخرين لم يقبلوا بهذا الرأي، ومنهم أبو عبد الله صاحب قرطبة وأبو محمد صاحب بجاية، وبقيا على خلافهما مدة سنة ثم أعلنا الخضوع والطاعة.

وعندما بويع يوسف أبو يعقوب سار على سياسة أبيه في الجهاد. ونازعه «مَزْدغ» الصنهاجي فقضى على ثورته عام ٥٥٩. وأرسل أخاه أبا حفص للجهاد في الأندلس فسار على رأس عشرين ألفاً عام ٥٦٥ فغزا طليطلة، وأحرز النصر، وحصل على غنائم كثيرة وسبي.

كما حدث قتال بين يوسف أبي يعقوب وبين محمد بن سعيد بن مردنيش الذي كان يحكم شرقي الأندلس، وقد امتنع على عبد المؤمن، وعلى ابنه من بعده، وذلك عام ٥٦٥.

٧ ـ اليمن:

لم يتغير شيء في اليمن إذ بقي بنو زريع في عدن، وبنو حاتم في صنعاء، وبنو مهدي في زبيد، وبنو الرسيّ يسيطرون أحياناً على صعده، وبرز منهم يومذاك المتوكل أحمد بن سليمان.

٨ ـ **برزت أسر في** جهات مختلفة من الجزيرة العربية فقد حكمت الحجاز أسرة بني موسى التي تنتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، عام ٣٥٩ بعد زوال القرامطة، وبقيت حتى عام ٤٥٣ وتعد هذه الأسرة من عمال العبيديين، وقامت بعدها أسرة بنو فليتة (بنو هاشم)، وتنتسب أيضاً إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وبقيت حتى عام ٩٥٨، وقد سارت في الناس في بداية أمرها سيرة حسنة، ثم أساءت المعاملة، ونهبت قوافل الحجاج، وخاصة في عهد آخر أمراء هذه الأسرة وهو مكثر.

وفي اليمامة زال حكم الأخيضريين عمال القرامطة عام ٤٦٧، وتجزأت المنطقة إلى عدد من الإمارات.

وفي البحرين حكم العيونيون بعد زوال القرامطة عام ٤٦٧، وكان عبد الله بن علي العيوني أول أمرائهم وينتسب إلى بلدة العيون، وهو من قبيلة بني عبد القيس المعروفة.

* * *

الصليبيّون

ضعف أمر الصليبيين بعد الانتصارات الواسعة التي أحرزها نور الدين محمود، وبعد السيطرة على مصر، وبقيت قواتهم محصورة بين قوات نور الدين محمود من كل جهة، وبقيت المناطق التي يسيطرون عليها عبارة عن شريط يمتد على الساحل الشامي من بدايته عند إسكندرون في الشمال إلى عسقلان في الجنوب وإن كانت بعض الجيوب التي تمتد نحو الداخل عند بيت المقدس، وكانوا يتوقعون الهجوم الإسلامي عليهم في كل وقت، وطردهم وإلقائهم في البحر، لذا كانت أنظارهم تتجه دائماً نحو أوروبا يطلبون منها الدعم محافظةً على أوضاعهم والمكاسب التي حصلوا عليها في خلال هذه الصراعات مع المسلمين، والتي طالت أيامها حتى زادت على السبعين سنة، والتي ضحّوا فيها بالكثير من القتلى.

* * *

- ٣٣ -

المستضيء بأمر الله
الحسن بن يوسف المستنجد
٥٦٦ - ٥٧٥

هو الحسن أبو محمد المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله، ولد عام ستة وثلاثين وخمسمائة، وأمه أم ولد رومية اسمها «غضة».

بويع بالخلافة يوم مات أبوه صبيحة يوم الأحد التاسع من شهر ربيع الثاني عام ٥٦٦، وكان من خيار الخلفاء، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مزيلاً عن الناس المكوسات والضرائب، مبطلاً للبدع والمعائب، وكان حليماً وقوراً كريماً[(١)].

قال ابن الجوزي: فنادى برفع المكوس، وردّ المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا[(٢)]،

وقال ابن الجوزي عنه أيضاً: واحتجب عن أكثر الناس، فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه غيرهم[(٣)].

وقال الذهبي: في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهى، وأمن الناس، ورزق سعادة عظيمة في خلافته[(٤)].

---

(١) تاريخ الخلفاء، البداية والنهاية.

(٢) تاريخ الخلفاء.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق نفسه.

وفي عهده انتهت الدولة العبيدية بمصر، وبذلك عاد الأمر الشرعي فلم يبق سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار الإسلام، وذلك عام ٥٦٧.

وتوفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٦٩ في دمشق فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل وكان صغيراً، فتحرك الصليبيون فصالحهم على مال يؤديه لهم.

وخطب للمستضيء في بلاد اليمن هذا بالإضافة إلى مصر وإفريقية وبلاد الشام.

وتوفي في شوال من عام ٥٧٥ فكانت خلافته تسعة أعوام.

* * *

ـ ٣٤ ـ

الناصر لدين الله
أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله
٥٧٥ ـ ٦٢٢

هو الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن الحسن المستضيء بأمر الله، ولد في العاشر من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من أم ولد تركية تُدعى «زمرد».

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه في مستهل شهر ذي القعدة من عام خمسة وسبعين وخمسمائة. كان فصيح اللسان، بليغ البيان، شجاعاً، شهماً، ذا فكرة صائبة، وعقل رصين، ومكر ودهاء. وكان له من يأتيه بالأخبار من الجهات كافةً، واشتغل برواية الحديث. وكان مع ذلك رديء السيرة في الرعية، مائلاً إلى الظلم، وأخذ الأموال، وكان يفعل أفعالاً متناقضة، ومال إلى التشيّع.

لم يكن في أيامه خليفة سواه، وفي عهده ضعف أمر الصليبيين، وظهر الأيوبيون وعلا سلطانهم، وكان الجميع يخطب له، وفتح صلاح الدين القدس عام ٥٨٣، وعقد صلح الرملة عام ٥٨٨، ثم توفي عام ٥٨٩، فكانت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز، ودمشق لابنه الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

وقوي أمر خوارزمشاه وقضى على سلطان السلاجقة فزالت دولتهم وزال سلطانهم عام ٥٩٠، وسار خوارزمشاه على رأس خمسين ألفاً، وبعث إلى الناصر يطلب السلطنة، وإعادة دارها إلى ما كانت عليه، وأن يجيء هو

إلى بغداد، ويكون الخليفة من تحت يده، كما كانت الملوك السلاجقة، فهدم الخليفة دار السلطنة، وردّ رسول خوارزمشاه بلا جواب، وكان خوارزمشاه قد وصل إلى همدان في طريقه إلى بغداد، فتساقط على المنطقة التي هو فيها ثلج عظيم مدة عشرين يوماً، فأثر على جيشه، كما بلغه أن شعوب الترك قد تألبت عليه، وطمعت في بلاده، فما كان عليه إلا أن يرجع، وكفى الله الخليفة القتال.

وتوفي الناصر لدين الله سنة اثنتين وعشرين وستمائة فكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة.

* * *

- ٣٥ -
الظاهر بأمر الله
محمد بن أحمد الناصر لدين الله
٦٢٢ - ٦٢٣

هو الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن أحمد الناصر لدين الله، ولد سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وبويع بالخلافة عند وفاة أبيه سنة اثنتين وعشرين وستمائة، فكان عمره يومذاك اثنتين وخمسين سنة. وقد أحسن إلى الرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال.

قال ابن الأثير: لما ولي الظاهر أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل: إنه ما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه أعاد من الأموال المغصوبة، والأموال المأخوذة في أيام أبيه وقبلها شيئاً كثيراً[١].

وتوفي - رحمه الله - في الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين، فكانت خلافته تسعة أشهر وعدة أيام، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة.

---

(١) الكامل في التاريخ.

الإمارات

١ ـ السلاجقة:

زاد أمر السلاجقة ضعفاً، وتولى أمرهم بعد أرسلان شاه بن أرطغرل ابنه طغرل الثاني، غير أنه لم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد، وقد غدت منطقة نفوذه ضيقة، على حين كانت تتسع رقعة الدولة الخوارزمية، واستطاع علاء الدين تُكُش أخيراً أن يستولي على البلاد التي كان يسيطر عليها السلاجقة، وأن يقتل طغرل الثاني هذا عام ٥٩٠ وينهي أمر السلاجقة.

٢ ـ خوارزم:

توفي إيل أرسلان بن أتسز عام ٥٦٨ فخلفه ابنه الأصغر سلطان شاه محمد، وكان صغيراً فكانت أمه وصيةً عليه، فخرج عن طاعته أخوه الأكبر علاء الدين تُكُش فاستولى على بلاد خوارزم، وقضى على السلاجقة في العراق عام ٥٩٠ إذ قتل طغرل بن ألب أرسلان، وتوسع في نفوذه في خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكانت الري منطقة نزاع بينه وبين الخليفة الناصر العباسي. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٥٩٦ فخلفه ابنه علاء الدين محمد.

وفي عام ٦٠٤ أسر علاء الدين محمد في حروبه في بلاد الخطا شرق بلاد ما وراء النهر، فأعلن أخوه علي شاه استقلاله في طبرستان وجرجان وكان عاملاً لأخيه عليهما. وأخذ هراة وقاتل الغوريين عام ٦٠٥، وقتل غياث الدين محمود، وهزم أهل الخطا هزيمةً منكرةً.

واستولى على كرمان، ومكران، وبلاد السند عام ٦١١، ثم استولى على غزنة عام ٦١٢، وحاول أن يحلّ محل السلاجقة فرفض الخليفة الناصر، فحاربه وقطع الخطبة له، وأظهر التشيع، ونصّب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، خليفة.

وقتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان، بل قتل رسله وهذا ما جعل جنكيزخان يهاجم بلاد خوارزم، ولم يتمكن علاء الدين من صدّ الهجوم المغولي فانهزم أمامهم، فدخلوا خراسان، واتجه إلى جهة الغرب ومات في إحدى جزر بحر الخزر عام ٦١٧، وخلفه ابنه جلال الدين منكبرتي، فهرب إلى الهند، ثم عاد بعد سنتين إلى بلاده، وقاتل المغول وهزم فعاد هارباً مع جيشه الصغير إلى الهند، فلاحقته جموع المغول فقاتلهم، وغرق أكثر جيشه في نهر السند. وفي الوقت نفسه قاتل أخاه غياث الدين، وحارب الخليفة العباسي، وقاتل الحشاشين، والتركمان، وحاكم كرمان. وعاد فرجع إلى بلاده وفتح جورجيا ودعا أمراء المسلمين للتحالف ضد المغول، وفاجأه المغول فهرب منهم، وقتل في قرية كردية من قبل أحد الفلاحين عام ٦٢٩ وهو لا يعرفه.

٣ ـ الغوريون:

توسع نفوذ غياث الدين محمد الغوري، وقاتل خوارزمشاه علاء الدين محمد، واسترد منه خراسان، ثم اختلف مع أخيه شهاب الدين، وهذا ما جعل خوارزمشاه يسترد خراسان، وتوفي غياث الدين محمد عام ٥٩٩، وخلفه أخوه شهاب الدين فكثر غزوه في بلاد الهند، وقتل عام ٦٠٢، ولم يكن له ولد فمال وزيره والأتراك إلى تولية ابن أخيه، وهو غياث الدين محمود.

واختلف الغوريون على الحكم، كما كثر المتمردون عليهم، وهذا ما مكّن لعلاء الدين محمد خوارزمشاه أن يقضي على الدولة الغورية بعد أن ملكت الهند، ووصلت إلى البنغال.

٤ ـ آل زنكي:

سار نور الدين محمود إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي في آسيا الصغرى حيث يعرفون هناك باسم سلاجقة الروم وذلك عام ٥٦٨ فأصلح ما وجد من خلل، ثم سار ففتح مرعش وغيرها.

وسار أيضاً نور الدين محمود عام ٥٦٩ إلى بلاد الروم، ومعه ملك الأرمن، وصاحب ملاطية فهزم الروم وحاصرهم فصالحوه، وعاد إلى دمشق فتوفي في العام نفسه، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيراً فتحرك الصليبيون فصالحهم على مالٍ يؤديه لهم.

وعزم صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٠ إلى السير إلى الشام لما ظهر من سوء الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ومن ابن عمه سيف الدين غازي أمير الموصل، وكان من قبل لا يجرؤ أن يقوم بأي عمل أيام عمه نور الدين محمود، واستناب مكانه أخاه الملك العادل أبا بكر فدخل دمشق، وانتقل الملك الصالح إسماعيل إلى حلب.

ولى صلاح الدين على دمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين، وسار إلى حلب، وأخذ في طريقه حمص وحماه وقاومت حلب واستنجدت حاشية إسماعيل بالقومص ريموند صاحب طرابلس الصليبي الذي أسرع لاحتلال حمص ومناصرة أمير حلب، وهذا ما أجبر صلاح الدين عن رفع الحصار عن حلب، ورجع إلى حمص فهزم ريموند صاحب طرابلس الصليبي، ورجع إلى حلب فدخلها، واعترف الملك العادل إسماعيل بسلطان صلاح الدين على بلاد الشام كلها.

توفي الملك العادل إسماعيل عام ٥٧٧، ولم يكن له ولد فأوصى الأمير الموصل عز الدين، فأصبحت حلب والموصل له. فطلب ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار أن يأخذ حلب ويسلم عز الدين سنجار فتكون أملاكه متصلة، وقصد عماد الدين محاربة صلاح الدين وهذا ما أجبر

صلاح الدين على العودة إلى حلب ودخولها فتنازل عنها عماد الدين مقابل تسليمه سنجار، وأصبحت حلب ضمن أملاك صلاح الدين وآلت من بعده إلى ابنه الطاهر، وبقيت بأيدي الأيوبيين حتى جاء المغول فملكوها منهم.

أما في الموصل فقد تولى أمرها بعد وفاة عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي الذي توفي عام ٥٤٤، فخلفه أخوه قطب الدين مودود الذي استمر في حكمه لها حتى توفي عام ٥٦٥، وخلفه ابنه سيف الدين غازي الثاني، والذي بقي يسلك مسلكاً معتدلاً مدة حياة عمه نور الدين محمود، فلما توفي عمه عام ٥٦٩ تبدل مسلكه حتى توفي عام ٥٧٦، وخلفه عز الدين مسعود، فنور الدين أرسلان شاه عام ٥٨٩، ثم عز الدين مسعود الثاني عام ٦٠٧، ثم نور الدين أرسلان شاه الثاني عام ٦١٥، ثم نور الدين محمود عام ٦١٦، ثم بدر لؤلؤ عام ٦٣١ فإسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧، ثم جاء المغول عام ٦٦٠.

وفي سنجار تولى عماد الدين زنكي الثاني به قطب الدين مودود الأمر عام ٥٦٦، وخلفه قطب الدين محمد عام ٥٩٤، ثم عماد الدين شاهنشاه عام ٦١٦، وخلفه ابنه محمود عام ٦١٧، ثم دخلها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف، ثم خربها المغول عام ٦٢٨.

وفي الجزيرة تولى آل زنكي حكمها أيضاً، وعندما توفي سيف الدين غازي الثاني عام ٥٧٦ أوصى لابنه سنجر شاه بأمر الجزيرة، وكان سيئاً، وخلفه عليها ابنه الذي قتله معز الدين محمود، ثم خضع معز الدين محمود لصلاح الدين الذي وحد البلاد لقتال الصليبيين.

٥ ـ الأيوبيون:

ذهب صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ لفتح بلدة الكرك في الأردن، واستناب أباه مكانه على مصر، فتوفي أثناء غيابه، وكان أبوه نجم الدين أيوب بن شادي كثير الصلاة والصدقة والصيام، كريم النفس، جواداً.

وفي عام ٥٦٨ أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه إلى بلاد النوبة ففتحها، واستولى على معقلها، وهو حصن يقال له «أبريم»، ولما رأى توران شاه بلاد النوبة قليلة الخيرات لا يكفي خراجها بكلفتها، استخلف على الحصن المذكور رجلاً كردياً اسمه إبراهيم، وأبقى معه جماعة من الأكراد أيضاً فكانوا يشنون الغارات على بلاد النوبة وما جاورها ويحصلون على الغنائم.

وفي عام ٥٦٩ أرسل صلاح الدين فرقة إلى اليمن بإمرة أخيه شمس الدولة توران شاه فاستطاع أن يملكها، وأن ينهي حكم آل مهدي في زبيد، وآل حاتم في صنعاء، وآل زريع في عدن. وبقي في اليمن حتى عام ٥٧٠ فاستخلف عليها، ورجع إلى الشام، ومات عام ٥٧٦ بالإسكندرية، ثم خلفه أخوه السلطان العزيز طغتكين الذي اتخذ صنعاء حاضرة له ثم انتقل إلى تعز، واتسع نفوذه إلى حضرموت، وبقي من عام ٥٧٩ ـ ٥٨٣، وقد أرسله أخوه صلاح الدين من الشام إلى اليمن.

وعندما توفي السلطان العزيز طغتكين سيف الإسلام خلفه ابنه إسماعيل الملقب بالمعز، وتبنّى الإسماعيلية أيام أبيه فطرده، ولكن الوالد لم يلبث أن توفي، فعاد المعز، ودخل زبيد، وظلم فثار عليه الأكراد، وقتلوه عام ٥٩٨. وفي أيامه ظهر المنصور عبد الله بن حمزة الرسي، واشتبك مع المعز في عدة معارك.

وتولى أمر اليمن بعد المعز أخوه أيوب بن طغتكين، وتوفي مسموماً عام ٦١١، ويعرف باسم الناصر. وخلفه يوسف (المسعود، صلاح الدين، أبو المظفر) ابن محمد (الكامل) ابن الملك (العادل) أبي بكر محمد بن أيوب، سيّره جده العادل إلى اليمن عام ٦١٢ فضبط أمورها، وقاتل شريف مكة حسن بن قتادة وهزمه، وسافر إلى مصر فأناب عنه عام ٦٢٠ عمر بن علي بن رسول (وبنو رسول جماعة من التركمان جاءوا إلى اليمن مع الأيوبيين) ثم بلغه خبر قوة بني رسول فخاف من استقلالهم فعاد إلى اليمن عام ٦٢٤ فعاقب بعض بني رسول وسجنهم إلا عمر بن علي نائبه، وسافر

إلى دمشق، واستخلف عمر بن علي، ومات في مكة، وهو في طريقه إلى دمشق عام ٦٢٦، وهو آخر ملوك بني أيوب في اليمن. وقامت بعده دولة بني رسول.

وعند وفاة المسعود الأيوبي استقل عمر بن علي باليمن، ولقب بالمنصور نور الدين، وبقي في الحكم حتى عام ٦٤٧، وقد قاتل الإمام الرسي أحمد بن الحسين (أبو طير)، وعندما توفي خلفه ابنه المظفر يوسف بن عمر.

أما الملك الناصر يوسف صلاح الدين بن أيوب فقد كان في مصر عند وفاة نور الدين محمود، ولما عزم السفر إلى الشام وصل أسطول للصليبيين من صقلية ونزل بالإسكندرية فتصدى له أهلها، وانتصروا على من فيه وذلك عام ٥٧٠. كما أن أحد أنصار العبيديين قد جمع الناس حوله في أسوان فأرسل إليه صلاح الدين أخاه العادل محمد أبو بكر فهزمه وقتله. وامتد نفوذ صلاح الدين نحو الغرب إذ أرسل سريةً عام ٥٦٨ إلى إفريقية فاستطاعت أن تدخل مدينة طرابلس الغرب.

وسار صلاح الدين إلى دمشق فدخلها، وهادن الصليبيين وهو في مرج الصُّفَّر عام ٥٧١، ثم ملك حلب غير أنه أبقاها للملك العادل إسماعيل بن نور الدين محمود الذي اعترف له بسلطانه عليه ثم رجع إلى مصر، وأخذ يستعد لقتال الصليبيين.

وفي أثناء غياب صلاح الدين في مصر حاول الصليبيون عام ٥٧٣ أخذ مدينة حماه فلم يتمكنوا فارتدوا لأخذ حصن حارم فلم يستطيعوا ذلك.

وفي عام ٥٧٥ كان صلاح الدين في تل القاضي قرب بانياس عند منابع نهر الشريعة فجاءه الصليبيون بقوة كبيرة فهزمهم عند مرجعيون هزيمة منكرة. وأرسل سرية مؤلفة من ثمانمائة فارس إلى بلاد الروم، فانتصرت على جيش رومي قوامه عشرون ألفاً.

وتوفي الملك العادل إسماعيل بن نور الدين محمود عام ٥٧٧ فبسط صلاح الدين نفوذه على حلب الموصل، وبذا أصبحت المناطق التي تحت سلطان صلاح الدين متصلة وعلى امتداد أملاك الصليبيين، وتحيط بها من كل جهة، وتحصرها في الساحل.

وبلغه خبر إغارة (رينولد) صاحب حصن الكرك على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج، وأخذه بعض القوافل المسلمين الحجاج، عندها هاجم صلاح الدين المناطق الصليبية، وهزمهم هزيمة منكرة في حطين ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٨٣، ثم استولى على طبريا، وتابع طريقه إلى عكا فاستولى عليها، ثم دخل نابلس، والرملة، وقيسارية، ويافا، وبيروت وما حولها، وعسقلان وبذا أصبحت المناطق الصليبية قسمين إحداها في أنطاكية في الشمال، والثاني في الجنوب، وهو بيت المقدس الذي أصبح داخلياً معزولاً عما حوله ويحيط به صلاح الدين من كل جهة، وأخذ يستعد للهجوم عليه، فسار إلى القدس بجيشٍ عظيم، ورأى الصليبيون أنفسهم عاجزين عن المقاومة لذا فقد طلبوا الصلح على أن يسلموا بيت المقدس، ويخرجوا منه بأموالهم وأولادهم مقابل فديةٍ يدفعها كل منهم، فكان يأخذ من الرجل عشرين ديناراً، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن الطفل دينارين، وضمن لهم الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس، ودخل صلاح الدين القدس في ٢٧ رجب عام ٥٨٣.

وجاءت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥، وأحرز ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا انتصاراً على جيش صلاح الدين في أرسوف، وتابع زحفه نحو عسقلان فوجد نفسه أمام قوة كبيرة فبدأ في إجراء مفاوضات حتى تم صلح الرملة عام ٥٨٨ الذي ينص على وقف الحرب لمدة ثلاث سنوات بين الطرفين، وأن تبقى القدس بيد المسلمين، ويسمح للنصارى بزيارة الأماكن المقدسة عندهم فيها، وأن تكون سواحل بلاد الشام من صور إلى يافا تحت حماية الصليبيين.

وتوفي صلاح الدين ـ رحمه الله ـ عام ٥٨٩ في دمشق، وخلفه ابنه

عثمان العزيز عماد الدين[1] وقد حكم ست سنوات حتى توفي عام ٥٩٥ حيث خلفه ابنه المنصور محمد، ولم يبق سوى سنة وعدة أيام إذ خلع عام ٥٩٧ حيث تسلم السلطة الذي خلعه، وهو وزيره، وعم أبيه أخو صلاح الدين، وهو الملك العادل سيف الدين، وبقي حتى عام ٦١٥، وفي أيامه استولى الصليبيون الجرمان بإمرة جان دي بريين على دمياط، وتوفي العادل في ذلك العام، وأوصى خليفته ابنه محمد الكامل بإخراج الصليبيين منها، وقد عمل الكامل بنصيحة أبيه فطلب النجدات فجاءته من بلاد الشام، فسار إلى الصليبيين فالتقى بهم عند مدينة المنصورة فأغرق الكامل السفن في نهر النيل ففاض فلم يستطع الصليبيون التقدم وحلت بهم الهزائم، واضطروا إلى طلب الصلح فأجابهم إلى ذلك عام ٦١٨، فانسحبوا من مصر بعد أن بقوا في دمياط ثلاث سنوات وأربعة أشهر. وكانت مدة الصلح ثمان سنوات.

اختلف الكامل محمد مع أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، في حين خرج أمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني بحملة إلى فلسطين، وتزوج بابنة الملك جان دي بريين التي ورثت من أبيها بيت المقدس حسب الزعم النصراني. وهذا ما أجبر الملك الكامل محمداً أن يعقد صلحاً مع فريدريك، وأن يتنازل بموجبه عن بيت المقدس بشرط أن يبقى مسجد عمر وما جاوره بيد المسلمين، وأن يطلق الملك الكامل الأسرى الصليبيين جميعهم وذلك عام ٦٢٦. وتوفي الكامل عام ٦٣٥، وكان قد أرسل ابنه الملك المسعود إلى مكة فدخلها عام ٦٢٠، وامتد نفوذه من الجزيرة الفراتية إلى الحجاز ومصر وتوفي بدمشق، فبايع الأمراء بمصر ابنه محمد العادل بن محمد الكامل بن محمد العادل أبا بكر سيف الدين، ونافسه نجم الدين أيوب أبو الفتوح الملك الصالح وهو أخوه الأكبر، ودخل إلى مصر، وقبض على العادل وسجنه عام ٦٣٧، وتولّى هو السلطنة.

---

(١) أبو الفتح: كان نائباً عن أبيه بمصر فلما توفي أبوه بدمشق استقل بمصر، وحاول أخذ دمشق من أخيه الأفضل فلم ينجح مرتين ونجح الثالثة عام ٥٩٢.

سلاطين الدولة الأيوبية

- نجم الدين أيوب بن شادي
  - [١] الناصر صلاح الدين يوسف ٥٦٤ ـ ٥٨٩
    - [٢] العزيز عثمان عماد الدين ٥٨٩ ـ ٥٩٥
      - [٣] المنصور محمد ٥٩٥ ـ ٥٩٧
    - الأفضل نور الدين دمشق
  - [٤] العادل سيف الدين محمد ٥٩٧ ـ ٦١٥
    - [٥] الكامل محمد ٦١٥ ـ ٦٣٥
      - [٦] العادل محمد ٦٣٦ ـ ٦٣٧
    - [٧] الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٨ ـ ٦٤٧
      - [٨] توران شاه ٦٤٧ ـ ٦٤٨

وفي عهد الملك الصالح شن لويس التاسع ملك فرنسا هجوماً على دمياط واستولى عليها، وتقدم نحو المنصورة، وانتصر في بداية الأمر، ثم ردّه المماليك بقيادة الظاهر بيبرس، وفي هذه الأثناء توفي الملك الصالح فكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته ٦٤٧، وبقيت تدير هي الأمر بنفسها باسمه، وأرسلت إلى ابنه توران شاه تستقدمه، وعندما وصل إلى القدس انتقلت إلى القاهرة، واختلفت مع ابن زوجها، وقتله بعض المماليك في (فارسكور) ولم يصل توران شاه إلى القاهرة، وإنما جاء مباشرة إلى ميدان المعركة وقاتل الصليبيين واستردّ دمياط، وكانت وفاته عام ٦٤٨، ومدة سلطنته أربعون يوماً. وبموته انتهى أمر الدولة الأيوبية.

تابعت شجرة الدر حكم الدولة، وكانت توقع باسم «أم خليل» و«المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين» ولم يستقر أمرها سوى ثمانين يوماً، وخرجت الشام عن طاعتها، وجعلت عز الدين أيبك وزيراً لها وكان وزير زوجها، ثم تزوجته، وتنازلت له عن السلطنة، لكنها كانت هي المسيطرة عليه، وتلقب عز الدين أيبك بالملك المعزّ، وعندما أراد أن يتزوج عليها، قتله مماليكها، وعلم ابنه علي فعمل على قتلها عام ٦٥٥.

٦ ـ الموحدون:

سار يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٨٠ بجيشٍ كثيف إلى الأندلس، فاستولى على المدن في طريقه، واتجه إلى أشبونة في غربي الأندلس، وحاصرها، وأشاع النصارى في إحدى الليالي أن يوسف قد ارتحل عائداً إلى المغرب فسرى هذا الخبر في صفوف الجيش الإسلامي فساده الاضطراب، وبدأ الناس بالرحيل أيضاً، وفك النصارى الحصار بذلك، وخرجوا نحو خيمة يوسف فاستقبلهم وقاتلهم، فقتل عدد من حرسه، وأصيب هو بطعنات بليغة، وشعر المسلمون بما تم فعاد التماسك إلى صفوفهم ورجع من غادر، ونشبت معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون،

ورجع الجيش، وتوفي يوسف في طريق العودة، وكان يوسف ـ رحمه الله ـ من أعظم خلفاء الموحدين حباً للعلم وأهله وتقديراً لرجاله، وعاش في أيامه الطبيب ابن زهر، ومن الفلاسفة ابن الطفيل وابن رشد.

تولى بعد يوسف ابنه يعقوب أبو يوسف، وقد اصطدم مع ابن غانية[1]، كما سار إلى الأندلس عام ٥٨٥ وأغار على أشبونة، وحصل على غنائم كثيرة. وطلب الفونس أمير نصارى الأندلس من يعقوب هدنة لمدة خمس سنوات، فأجابه يعقوب إلى طلبه، غير أن الفونس قد شعر بقوته فنقض العهد، وأرسل إليه كتاباً فيه تهديد فلما وصل الكتاب إلى يعقوب أعاده إليه وبعد أن كتب على ظهره ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ـ من سورة النمل ـ وجمع الجنود وسار إلى الأندلس حتى اقترب من حصن الأرك، وقسم جيشه إلى قسمين: الأول: يقوده أبو يحيى بن أبي حفص الهنتاني، وهو في المقدمة، والثاني: يقوده يعقوب بن يوسف، والتقى أبو يحيى مع جيش النصارى فانتصروا عليه واستشهد أبو يحيى، ثم جاء يعقوب بقوته، وطوق جيش النصارى من الخلف، وعمل فيهم قتلاً فلم ينج منهم سوى الفونس وثلاثين فارساً من حرسه الخاص وذلك في ٣ شعبان عام ٥٩١. ودخل يعقوب حصن الأرك.

---

(١) ابن غانية: أرسل علي بن يوسف بن تاشفين والياً على بلنسية رجلاً من قبيلة مسوفة يدعى يحيى بن غانية (نسبة إلى أمه) وكان يحيى هذا بطلاً مغواراً وفقيهاً ورعاً، ثم ولاه قرطبة، وبقي فيها حتى مات، وكان قد استعمل أخاه محمداً على بعض أعماله، فلما ضعف أمر المرابطين وقوي أمر الموحدين خاف محمد بن غانية على نفسه ففر إلى جزيرة ميورقة وملكها، ووسع نفوذه على بقية جزر البالئار، وهي منورقة ويابسة، ودعا هناك لخلفاء بني العباس، ولما مات خلفه ابنه إسحاق ثم حفيده علي بن إسحاق، وقد استغل علي هذا موت يوسف بن عبد المؤمن، وانشغال الموحدين بقتال نصارى الأندلس فاتجه إلى المغرب، واحتل بجاية وقلعة بني حماد، وساعده بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين الأيوبي، فسار إليهم يعقوب بن يوسف وقاتلهم، وانتصر عليهم عام ٥٨٤.

عاد الفونس فجمع حشوده وسار إلى قتال يعقوب الذي كان قد طلب أيضاً نجدةً من المغرب، والتقى الفريقان، وانتصر المسلمون وغنموا كثيراً عام ٥٩٢، وفي العام نفسه أغار يعقوب المنصور على طليطلة وما جاورها، ورجع بعدها إلى إشبيلية، وصالح بعض أمراء النصارى الذين طلبوا تمديد مدة الهدنة معه، ورجع بعدها إلى المغرب.

كان ابن غانية في هذه الأثناء قد قصد المغرب ويعقوب المنصور مشغول بحروبه في الأندلس، وعاث ابن غانية الفساد في شمالي إفريقية، فسار إليه يعقوب المنصور بعد أن هادنه النصارى وانتصر عليه.

في هذا الوقت كانت الحروب الصليبية على أشدها في المشرق وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يُخلّص القدس من أيدي الصليبيين عام ٥٨٣، وجاءت بعدها حملة صليبية كبيرة إلى بلاد الشام فما كان من صلاح الدين الأيوبي الناصر إلا أن أرسل هدية وكتاباً إلى المنصور يعقوب بن يوسف يطلب منه الدعم لردّ الصليبيين عن بلاد المسلمين غير أن المنصور لم يكن بوسعه ذلك إذ لم تقل الحرب الصليبية في الأندلس لهباً عن الحرب الصليبية في المشرق، ومع ذلك فقد أرسل له مائة وثمانين سفينة لتكون عوناً لأسطول المسلمين في المشرق ضد الأسطول الصليبي.

وتوفي يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٩٥ ودفن في تينمال، وخلفه ابنه محمد، ولقب الناصر لدين الله.

سار محمد الناصر إلى حرب ابن غانية، وكان قد استولى على المهدية، وانتصر على الموحدين في تونس، فهزمه وخلّص مدن شمالي إفريقية منه الواحدة تلو الأخرى حتى فرّ ابن غانية، ورجع إلى جزر البالئار وذلك عام ٦٠٢، وولى الناصر على تونس الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني.

أغار الفونس أمير نصارى الأندلس على ثغور المسلمين فيها فسار إليه الناصر وقد جمع جيشاً كبيراً، وانتقل إلى الأندلس عام ٦٠٧، ووصل إلى إشبيلية، وقسم جيشه إلى خمس فرق، وأمر كل فرقة أن تنزل في ناحية من

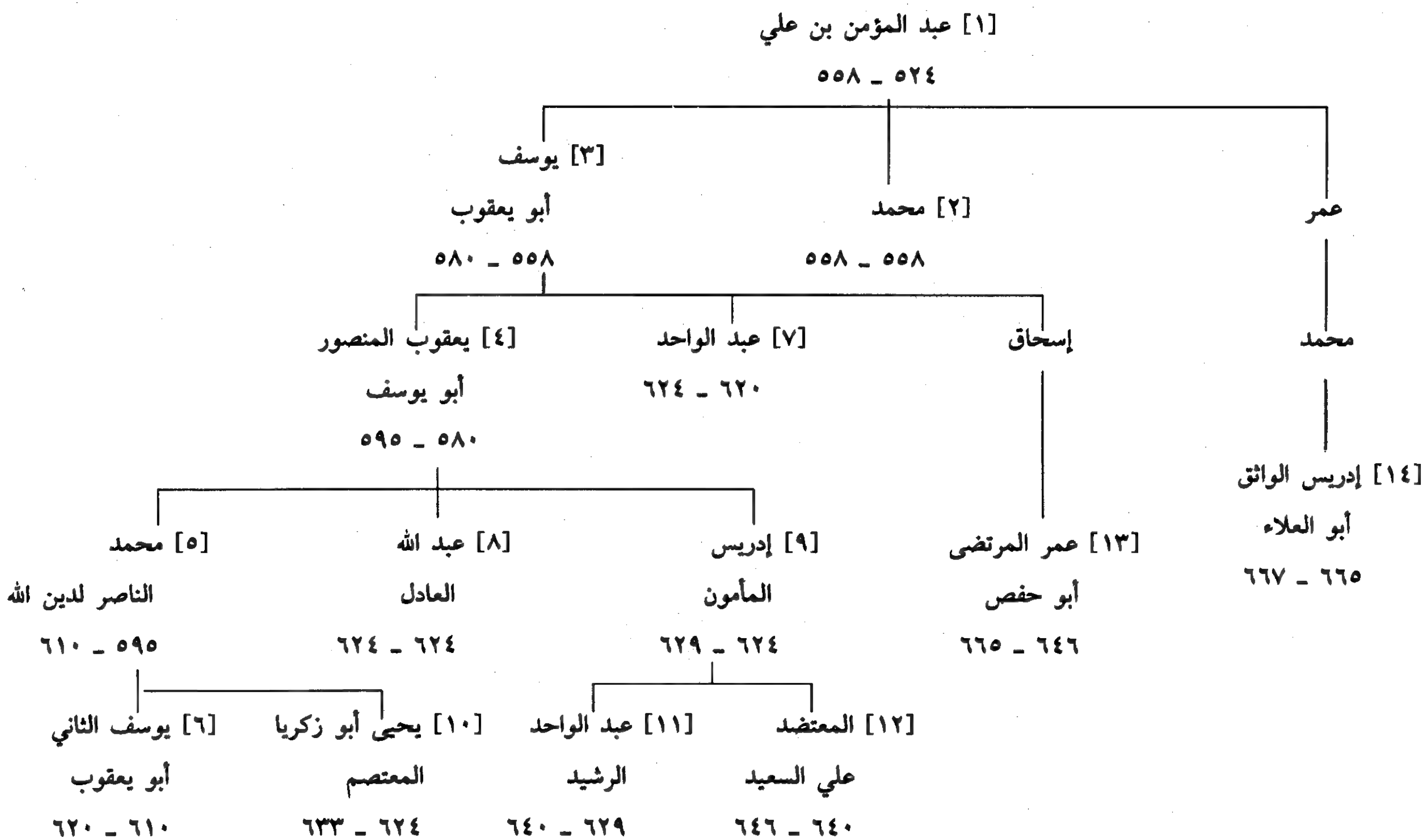
الأندلس لإضعاف معنويات النصارى بإظهار كثرة حشود المسلمين، ووقع الرعب في نفوس النصارى وقد طلب أمير بنبلونة الصلح من الناصر، وسار الناصر إلى حصن «سلبطرة» فحاصره مدة ثمانية أشهر حتى ضعف أمر المسلمين المحاصرين، وشعر الفونس بما حلّ بجنود المسلمين نتيجة حصارهم للحصن فسار إليهم واحتل قلعة «رباح» من الموحدين، فاقتحم الناصر الحصن عندئذ، وسار نحو الفونس، والتقيا في حصن العقاب فانتصر النصارى عليه في تلك المعركة التي جرت في ١٥ صفر عام ٦٠٩، وكانت هذه الهزيمة ضربةً شديدة على المسلمين.

توفي محمد الناصر عام ٦١٠، وتولى مكانه ابنه يوسف أبو يعقوب، وقد عرف باسم يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعض أفراد أسرته في الحكم لصغره، وأصبح المتسلطون من الأمراء وغيرهم من الوزراء يولون الصغار ليبقى لهم نفوذهم. وولي بعد يوسف الثاني عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان رجلاً كبيراً، فلم يلبث أن خلع لأنه لم يقو على القيام بأعباء الحكم، ونُصّب عبد الله بن المنصور ولُقب بالعادل، غير أنه عُزل، وبعد عزله بثلاثة عشر يوماً مات مخنوقاً، ونُصّب أخوه الآخر، وهو إدريس ولُقّب بالمأمون، ثم نكثوا ببيعته ٦٢٤ وبايعوا يحيى أبا زكريا بن محمد الناصر فخرج عليه عمه المأمون عام ٦٢٦، وهُزم يحيى، ودخل المأمون مراكش، وخرج المأمون من مراكش في بعض حروبه فاقتحم يحيى مدينة مراكش، ودخلها ثانية عام ٦٢٩، وهلك المأمون في وادي العبيد، وبويع ابنه عبد الواحد، ولُقّب بالرشيد، وهاجم مراكش، وهزم يحيى عام ٦٣٠، وفر إلى الصحراء ودخل الرشيد مراكش، وبعد مدة عاد يحيى بجيش من البربر وقاتل الرشيد ودخل مراكش عام ٦٣٢، وفرّ الرشيد إلى سجلماسة، فجمع جيشاً، ودخل مراكش عام ٦٣٣، وهرب يحيى منها، ولكنه لم يلبث أن اغتيل. أما الرشيد فبقي حتى توفي عام ٦٤٠ وفي أيامه دخل النصارى قرطبة عام ٦٣٦.

وفي عام ٦٤٠ تولّى أمر الموحدين علي بن إدريس المأمون أبو الحسن السعيد، ولقب بالمعتضد، وذلك بعد وفاة أخيه الرشيد، وحارب بني مرين الذين قوي أمرهم، وقد وصل إلى تلمسان فتصدى له أميرها يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد، وقد قتل المعتضد في المعركة عام ٦٤٦.

وتولى بعد المعتضد عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، أبو حفص، وتلقّب بالمرتضى، وفي أيامه استولى النصارى الإسبان على إشبيلية، كما حاصر بنو مرين مراكش عام ٦٥٥، ثم ثار عليه ابن عمه الواثق بالله إدريس أبو العلاء الذي تحالف مع بني مرين، واحتل مراكش، فاختفى المرتضى، فأرسل إليه الواثق من قتله عام ٦٦٥.

تولى إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن أمر مراكش، قوي أمر الخارجين عليه، وقتله بنو مرين عام ٦٦٧ فانقضى أمر الموحدين بموته بعد أن حكموا ١٥٢ سنة (٥١٥ ـ ٦٦٧).



[١] عبد المؤمن بن علي
٥٢٤ _ ٥٥٨
[٣] يوسف
أبو يعقوب
٥٥٨ _ ٥٨٠
[٢] محمد
٥٥٨ _ ٥٥٨
عمر
[٤] يعقوب المنصور
أبو يوسف
٥٨٠ _ ٥٩٥
[٧] عبد الواحد
٦٢٠ _ ٦٢٤
إسحاق
محمد
[١٤] إدريس الواثق
أبو العلاء
٦٦٥ _ ٦٦٧
[٥] محمد
الناصر لدين الله
٥٩٥ _ ٦١٠
[٨] عبد الله
العادل
٦٢٤ _ ٦٢٤
[٩] إدريس
المأمون
٦٢٤ _ ٦٢٩
[١٣] عمر المرتضى
أبو حفص
٦٤٦ _ ٦٦٥
[٦] يوسف الثاني
أبو يعقوب
٦١٠ _ ٦٢٠
[١٠] يحيى أبو زكريا
المعتصم
٦٢٤ _ ٦٣٣
[١١] عبد الواحد
الرشيد
٦٢٩ _ ٦٤٠
[١٢] المعتضد
علي السعيد
٦٤٠ _ ٦٤٦

الصَّلِيبيُّونَ

بعد الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ على الصليبيين عام ٥٧٥ في مرجعيون، ومهاجمة أسطول المسلمين لمدينة عكا اضطر بالدوين الرابع إلى عقد صلح مع المسلمين، كما قام صلاح الدين بالهجوم على انطرطوس الأمر الذي أرعب ريموند الثالث، واضطر إلى عقد هدنة مع صلاح الدين.

انصرف صلاح الدين بعد هذه الهدنة إلى تعزيز أوضاعه الداخلية، وتقوية جيوشه غير أن أرناط أمير حصن الكرك الصليبي استغل فرصة انشغال صلاح الدين لأمور بلاده فاتجه إلى تيماء راغباً في الوصول إلى المدينة المنورة، واستولى في طريقه على قافلة للحجاج المسلمين، وسلب الأموال، وأسر الرجال، ووصل إلى ساحل البحر الأحمر فأغضب بذلك صلاح الدين فذكّر الصليبيين بالهدنة، وطلب من ملك القدس الصليبي أن يأمر أرناط بالكفّ عن تعدياته فلم يستمع أرناط، ولا حزم بالأمر بالدوين الرابع، وهذا ما حدا بصلاح الدين أن يسير من مصر للهجوم على حصن الكرك في الأردن، وأن يسير نائبه على دمشق ابن أخيه فرخشاه للهجوم على طبريا وعكا، وقد استولى على الشقيف، والتقى الجيشان المسلمان مع الصليبيين في معركة كان النصر فيها حليف المسلمين.

وصل صلاح الدين إلى دمشق، ثم خرج منها عام ٥٧٨، وأرسل ابن أخيه للهجوم على بيسان، وسار هو بعده وهزما الصليبيين هزيمةً منكرةً.

رأى صلاح الدين أن أهم أمر لديه هو أن يفصل الإمارات الصليبية بعضها عن بعض، وحشد جنده من دمشق، ومصر، وحلب، والجزيرة،

وسار عام ٥٧٩ إلى بيسان فاستولى عليها، وحاصر الكرك والشوبك، وانتصر على الصليبيين قرب صفورية، وتجمع الصليبيون هناك فسار هو إلى طبريا واحتلها، ثم عسكر قرب حطين وتقدّم إليه النصارى، وهم متعبون عطشى، فاستقبلهم المسلمون فعملوا فيهم قتلاً وأسراً، فكان ممن أُسر الملك وأخوه، وأرناط، وأمير جبيل، وقتل صلاح الدين أمير الكرك بيده نتيجة ما اقترف، وكانت معركة حطين في ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٨٣، وهي من أعظم الانتصارات، ثم تقدمت الجيوش الإسلامية على الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ويافا، والرملة، وغزة، وبيت جبرين، وعرض على الصليبيين تسليم القدس فدخلها عنوةً في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣، ثم استولى على عسقلان، وعكا، واستسلمت صرفند، وصيدا، وبيروت، وجبيل، ولم يبق للصليبيين بعد هذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين من إمارة بيت المقدس سوى صور فكانت مركزاً لتجمعهم، ومن إمارة طرابلس سوى المدينة نفسها وحصن الأكراد وانطرطوس، ومن إمارة إنطاكية سوى المدينة نفسها والسويدية وحصن المرقب.

وكان لفتح صلاح الدين للقدس وللانتصارات الواسعة التي حققها أثر كبير في أوربا إذ أخذت الصيحات الصليبية تتعالى، والنصارى يتنادون للسير إلى بيت المقدس لدعم إخوانهم ومهاجمة المسلمين، ووجّه البابا غريغوري الثامن كتباً إلى ملوك فرنسا، وألمانيا، وإنكلترا يحثهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء لهذا النداء، وحشدوا جموعهم، وتحركوا نحو ديار الإسلام فكانت الحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٥.

سارت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب أغسطس، وإمبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا. وقد انطلق ملكا انكلترا وفرنسا إلى جزيرة صقلية عن طريق البحر وقضيا فصل الشتاء. وأما أمبراطور ألمانيا فسار وانطلق براً ماراً على القسطنطينية رغم خلافه مع الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني كذلك عبر أراضي سلاجقة الروم في قونية، ولقي ترحيباً من الأرمن في كيليكيا غير أنه غرق وهو يعبر

نهر سيحان في كيليكيا فتفرّق جنده، وأصاب المرض بعضهم، وتابعه ابنه الطريق بعد أن عوفي واتجه نحو عكا فألقى الحصار عليها عام ٥٨٦، ثم وصل إلى عكا ملكا انكلترا وفرنسا مع جندهما وقاومت مدينة عكا، والتقى صلاح الدين مع الصليبيين في عدة معارك غير أنه اضطر أن يغادر المنطقة بسبب الأوبئة التي انتشرت، وضيّق الصليبيون الحصار على عكا فاضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام عامين، وبرز ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا بين الصليبيين لما عرف عنه من قسوة وسوء فقد قتل أسرى عكا جميعاً، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده. وطمع ريتشارد قلب الأسد في دخول القدس فاستولى على حيفا وأرسوف بعد أن انتصر في الثانية منهما على صلاح الدين بعد معركة حامية، ثم اتجه نحو اللد والرملة فوقف صلاح الدين في وجهه وأحكم الدفاع عن القدس حتى يئس ريتشارد قلب الأسد من الوصول إلى هدفه، وانتشرت الأمراض بين الصليبيين، واضطربت الأمور في إنكلترا فاضطر ريتشارد قلب الأسد إلى عقد صلح مع صلاح الدين عام ٥٨٨ عرف باسم صلح الرملة، وبذا تكون الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت ولم تصل إلى هدفها.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ عام ٥٨٩ رأى البابا أن أمر المسلمين سيتفرق لذا فيجب الاستعداد لانطلاق حملة صليبية رابعة تستردّ القدس ثم تأخذ كل ما قد سبق واحتلوه، ودعا البابا أنوسنت الثالث أمراء النصارى إلى هذا عام ٥٩٤، وتولى عدد من الأمراء هذه الدعوة وعلى رأسهم الفرنسيون، ورأوا أن تسير الحملة إلى مصر ومنها تنطلق إلى القدس، كما رأوا أن يستعينوا بالأسطول البندقي لنقل المحاربين بحراً فاشترطت البندقية مساعدة الصليبيين لها لاسترداد مدينة (زارا) من الهنغاريين فاستجاب الصليبيون لذلك من غير موافقة البابا، وتم للبنادقة ما أرادوا، وبينما كان الجميع يستعدون للانطلاق إلى مصر إذ يثور في القسطنطينية الأمير الكسيوس على أبيه الإمبراطور إسحاق الثاني، وتفشل ثورته فيفر إلى الغرب، ويطلب من البابا ومن الصليبيين مساعدته ضد أبيه، ويتعهد في

حالة نجاحه إخضاع الكنيسة البيزنطية للبابوية، كما يتعهد بمساعدة الصليبيين في حملتهم ولقي هذا المطلب هوى في نفس البابا ومن الصليبيين فساروا براً نحو القسطنطينية واحتلوها عام ٦٠٠، وخرّبوها، وتمنى أهلها أن يكون المحتلون المسلمين لا النصارى لأنهم كانوا يجدون الرحمة المعروفة عند المسلمين والمنزوعة من نفوس النصارى. وهكذا فشلت الحملة الصليبية الرابعة ولم تؤد غرضها، وإنما أظهرت للناس جميعاً أن الحملات الصليبية كانت وحشيةً معبأةً بالحقد والضغينة على المسلمين، وكان من نتائجها أن ترك بعض الصليبيين بلاد الشام، واتجهوا إلى قبرص أو اليونان ليعيشوا حياةً رغيدةً بعدما عاشوا حياة مليئة بالأحداث الدامية. كما زادت من الخلاف بين النصارى البيزنطيين والنصارى الغربيين.

وحاول الصليبيون في حصن الأكراد الاستيلاء على حمص عام ٦٠٤ فاستنجد صاحبها أسد الدين شيركوه الثاني بصاحب حلب الملك الظاهر وقاوموا الصليبيين. وهاجم القراصنة الصليبيون في قبرص بعض السفن المصرية، وأخذوا من فيها أسرى فسار الملك العادل الأيوبي نحو عكا، وأجبر الصليبيين أن يردوا الأسرى المسلمين، ثم سار الملك العادل إلى حمص لدعمها، وأغار على حصن الأكراد،وعلى طرابلس، فاضطر صاحب طرابلس الصليبي بوهيمند الرابع إلى عقد صلح مع العادل، كما عقد الملك حنا برين صلحاً مع الملك العادل لمدة ست سنوات، ولكنه في الوقت نفسه كان يراسل البابا، ويطلب منه الدعم والعمل لإرسال حملة صليبية جديدة تصل إلى بلاد الشام مع انتهاء الصلح الذي يمتد من ٦٠٨ ـ ٦١٤.

دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة جيش صليبي جديد يتجه إلى بلاد الشام مباشرةً، وسارت الحملة بقيادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريه الثاني، ثم لحق بهما ملك قبرص بهمايو، ووصلت هذه الحملة الصليبية الخامسة إلى بلاد الشام ٦١٥، واجتمعت جموعها في عكا، وساروا، فاستولوا على بيسان في الغور، ووصلوا إلى بلدة نوى. ولم يتفق ملك هنغاريا مع دوق النمسا لذا قرر العودة إلى بلاده.

وخرج حنا برين للهجوم على دمياط وجاءته جموع صليبية بإمرة مندوب البابا الكاردينال «بلاغيوس» وجموع من قبرص. وتوفي الملك العادل، وخلفه ابنه الكامل الذي جاءه دعم من أخيه المعظم صاحب دمشق، ولكن بدأ في هذا الوقت الهجوم المغولي فعرض الكامل الصلح فلم يقبله الصليبيون الذين استولوا على دمياط، وشعروا بنشوة الظفر، فقرروا الهجوم على القاهرة لكنهم فشلوا بسبب الفيضانات التي حدثت بقطع المسلمين السدود، فطلبوا الصلح، وسلموا رهائن، وهم صاغرون حتى يجلوا عن دمياط، وتم الجلاء عام ٦١٨، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة، ولم تحقق شيئاً.

ضعف أمر الصليبيين، واهتزّ مركزهم، وهذا ما جعل بعضهم يتجه إلى البابا ويطلب منه العمل على إرسال حملة تعيد لهم وضعهم السابق غير أن البابوية كانت في صراع مع الأمراء والمتنورين فلم يكن بإمكانها تلبية الطلب سريعاً. ومن ناحية أخرى ضعف مركز الأيوبيين، وبدأت خلافاتهم بعضهم مع بعض تظهر فقد دب الخلاف بين أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين، وتسلّم الكامل السلطنة، واختلف مع أخويه الأشرف والمعظم، فخاف الكامل على سلطانه، وفي الوقت نفسه فقد هددت العراق والشام من قبل الخوارزميين الذين تجمعوا في أصفهان بعد أن شرّدهم المغول، وهذا ما جعل الملك الكامل يطلب نجدة من إمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني الذي وافق على ذلك إذ عرض عليه الكامل تسليمه القدس، وشجعه البابا هنريوس الثالث، ثم البابا غريغوري الذي جاء بعد الأول، فأبحر فريدريك من جنوبي إيطاليا، ثم رجع عن رأيه، وعاد مظهراً المرض، فأصدر البابا قرار الحرمان ضده عام ٦٢٤، وخاف الإمبراطور من غضب البابا وانطلق نحو المشرق متجهاً نحو عكا، ووصل رجاله إليها عام ٦٢٥ بينما تخلف الإمبراطور في قبرص ثم لحق بهم بعد مدة.

لم يكن لوصول هذه الحملة الصليبية السادسة أية آثار إذ أن الإمبراطور فريدريك لم يرغب في محاربة المسلمين، وإنما يرغب في الحصول على بيت المقدس، والملك المعظم قد مات، ولم يعد الملك

الكامل يخشاه، ولم يرغب في قتال الصليبيين لأن استعداداته قليلة، والصليبيون لم يتقبلوا مجيء الحملة لأن قائدها على خلاف مع البابا. غير أن الكامل قد وافق وسلّم الإمبراطور القدس، فتوّج فريدريك نفسه على غير رضىً من الكنيسة، وعقد هدنة مع الكامل لمدة عشر سنوات، وذلك في يافا عام ٦٢٦، ورجع فريدريك إلى بلاده إلا أن البابا حرّض على التعدي على أملاك فريدريك في إيطاليا، ووصل فريدريك إلى إيطاليا عام ٦٢٦، وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وإن لم تقاتل إلا أنها تسلمت القدس من الكامل الذي أضاع ما بذله عمه صلاح الدين.

ضعف الأيوبيون، وشجع تسليم الكامل بيت المقدس الصليبيين فهاجموا صاحب حماه الملك المظفر، وكان يدفع أتاوة لهم غير أنه انتصر عليهم، ولكنهم بقوا يغيرون على بلاده، وزاد من ضعف الأيوبيين قتالهم لخوارزمشاه، وسلاجقة الروم بقيادة علاء الدين كيقباد، ثم انقسام بعضهم على بعض إذ عمل إخوة الملك الكامل على الإطاحة به غير أنهم فشلوا، وتوفي عام ٦٣٥، وهذا كله أطمع الصليبيين في ديار المسلمين إذ توقعوا أن يحصلوا على نصر مبين، فدعت الكنيسة إلى إعداد حملة صليبية جديدة، وهي الحملة السابعة، فاستعد الفرنسيون وانطلقت بقيادة ثيبوب الرابع فوصلت إلى عكا عام ٦٣٧. ولما كان الناصر داود أمير الأردن قد هاجم القدس وفتحها لأن الصليبيين نقضوا ماعاهدوا عليه من عدم تحصينها، وبذا رجعت منطقة مسلمة، واختلف الصليبيون فيما بينهم على جهة السير فمنهم من يرى القدس، ومنهم من يرى دمشق، ومنهم من يريد عسقلان، وآخر يبغي مصر. ثم اتحدت كلمتهم إلى السير إلى عسقلان، ولكنهم هزموا أمام المسلمين فرجعوا هاربين إلى عكا.

وفي عام ٦٣٧ عزل العادل الثاني، وتسلم الأمر الصالح نجم الدين أيوب، فغضب من ذلك الصالح إسماعيل، وتحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بني أيوب، وسلّم الصليبيين مقابل هذا الاتفاق القدس وعسقلان وطبريا، إلا أن العزّ بن عبد السلام قد انسحب من جيشه ومعه عدد كبير،

وانضم إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب فهزموا الصليبيين هزيمة كبيرة، وبهذا فشلت الحملة الصليبية الفرنسية، واضطرت إلى العودة إلى بلادها بعد أن عقدت صلحاً عام ٦٣٩ مع الصالح نجم الدين أيوب.

وبعد عودة الحملة الفرنسية جاءت حملة إنكليزية بقيادة ريتشارد كورنول أخي ملك إنكلترا هنري الثالث، غير أن الصالح نجم الدين أيوب تحالف مع الخوارزميين ضد أمراء بني أيوب الذين اتفقوا مع الصليبيين فاتجه الخوارزميون نحو بلاد الشام، ودخلوا القدس عام ٦٤٢، وانتصروا على الصليبيين في غزة انتصاراً باهراً، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجانب الخوارزميين، ويقود جيوشه الظاهر بيبرس، وغدا الصالح نجم الدين أيوب صاحب النفوذ في مصر والشام وفلسطين، وأظهر أمراء بني أيوب له الطاعة.

وحاول بطريق القدس أن يستقدم حملة صليبية بإلحاحه المستمر غير أنه لم يوفق، وفي عام ٦٤٦ قاد ملك فرنسا لويس التاسع حملةً صليبية فرنسية بعد أن عوفي من مرضه، ومرت الحملة على قبرص، وراسلت المغول ثم اتجهت إلى مصر فاحتلت دمياط، وجاءت نجدة فرنسية بإمرة الفونس أخي لويس التاسع، وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملكت الأمر زوجته شجرة الدر، واستدعت ابنه توران شاه فجاء مباشرة إلى أرض المعركة فانتصر على الصليبيين وقتل أخا الملك لويس التاسع وهو روبرت، فانسحب الصليبيون إلى دمياط، وفاوض الملك لويس التاسع توران شاه في أن يسلم الأيوبيين دمياط مقابل تسليمهم القدس له فرفض طلبه، ودارت معركة ثانية بين الطرفين انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً، وأسر ملك فرنسا لويس التاسع، ولم يطلق سراحه حتى أمليت الشروط على الصليبيين فوافقوا عليها، وانسحبوا إلى عكا، ثم انسحب لويس التاسع إلى فرنسا عام ٦٥٢ بعد أن فشل في التحالف مع بعض الأمراء الأيوبيين بل ومع المغول الذين كانوا لا يزالون بعيدين عن ساحة المعركة. وبعد أن جاء المماليك قضوا على ما بقي للصليبيين من آثار في بلاد الشام.

الحملات الصليبية
في هذه المرحلة
٤٨٩ ـ ٦٥٦

الحملة الصليبية	عام البداية	القيادة	الأسباب	النهاية
الأولى	٤٨٩	بطرس الناسك ـ وأمراء	الحقد الصليبي	استقرت
الثانية	٥٤١	كونراد الثالث ملك ألمانيا لويس السابع ملك فرنسا	استعادة الرها	٥٤٩
الثالثة	٥٨٥	ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا فيليب أغسطس ملك فرنسا فريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا	استعادة بيت المقدس وما أضاعه الصليبيون بحروبهم مع صلاح الدين الأيوبي	
الرابعة	٥٩٤	أمراء فرنسيون		
الخامسة	٦١٥	ليوبولد دوق النمسا أندريه الثالث ملك هنغاريا بهمايو ملك قبرص	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام.	٦١٨
السادسة	٦٢٥	فريدريك ملك ألمانيا	بناء على طلب الصليبيين في بلاد الشام	٦٢٦
السابعة	٦٣٧	ثيبوب الرابع الفرنسي	دعت الكنيسة إلى هذه الحملة عندما رأت ضعف المسلمين واختلاف بعضهم مع بعض	٦٣٩
	٦٣٩	ريتشارد كورنول الإنكليزي	اتجهت إلى تونس	٦٥٢
	٦٤٩	لويس التاسع ملك فرنسا		

-٣٦-
المستنصر بالله
منصور بن محمد الظاهر بأمر الله
٦٢٣ - ٦٤٠

هو منصور، أبو جعفر بن الظاهر بأمر الله ولد من جاريةٍ تركيةٍ عام ثمانية وثمانين وخمسمائة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في شهر رجب من عام ثلاثةٍ وعشرين وستمائة، فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرّب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والمدارس، والمستشفيات وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وأحبّه الناس، وكان ذا شجاعةٍ وإقدام، وقد هزم جنود التتار في الوقت الذي خافهم البشر. وكان له أخ شجاعٌ أيضاً صاحب همةٍ عاليةٍ يُقال له الخفاجي، فكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيد التتار وأستأصلهم غير أنه لم يتولّ، وإنما الذي تولّى الخلافة بعد المستنصر ابنه عبد الله أبو أحمد المستعصم حيث فيه ضعف مكّن للوزراء الذين عملوا على توليته أن يُسيّروا أمور الدولة من دونه.

توفي المستنصر في العاشر من جمادى الآخرة من عام أربعين وستمائة فكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت خلافته ست عشرة سنة وعشرة أشهر. وكان جميل الصورة، حسن السريرة، جيد السيرة، كثير الصدقات والبر والصلات، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه. وكان يبني الربُط والخانات والقناطر في الطرقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلة من

محال بغداد دار ضيافةٍ للفقراء، لا سيما في شهر رمضان. وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث، وحماماً، ودار طبٍ، ووقف فيها كتباً نفيسة.

وكان المستنصر ـ رحمه الله ـ كريماً حليماً رئيساً، متودّداً إلى الناس، وكان جميل الصورة، حسن الأخلاق، بهي المنظر[١].

* * *

---

(١) انظر البداية والنهاية.

-٣٧-

المستعصم بالله

عبد الله بن منصور المستنصر بالله

٦٤٠ - ٦٥٦

هو عبد الله، المستعصم بالله، أبو أحمد بن منصور المستنصر بالله، آخر خلفاء بني العباس في بغداد، ولد سنة تسع وستمائة من أم ولد اسمها هاجر، بويع بالخلافة عند وفاة أبيه يوم الجمعة في العاشر من جمادى الآخرة عام أربعين وستمائة. خرّج له الشرف الدمياطي أربعين حديثاً. أجيز له بالحديث، وأجاز جماعة بالحديث عنه.

كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده، ولكن لم يكن مثلهما في الحزم والشجاعة وعلو الهمة، وكان فيه لين وضعف، وركن إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي الذي كان يوجّه الخليفة بشكلٍ غير صحيح، ويسير به بطريقٍ غير مستقيمة، وقد أطمع التتار بالسير إلى العراق، وأخذ بغداد، ونصح لهم، وإذا جاء خبر عنهم كتمه عن الخليفة على حين كان يخبرهم بأحوال الخليفة وأوضاع البلاد، وكان يريد أن يقضي على الدولة العباسية ويُقيم خليفةً من آل علي، وكانت الرسل تنتقل بين العلقمي والتتار خفيةً، والناس في غفلةٍ عما يُراد بهم، والخليفة تائه لا يطّلع على الأمور.

كان الخليفة المستنصر والد المستعصم قد استكثر من الجند ليدافع بهم عن دولته، ومع ذلك كان يصانع التتار، ولكن إذا تعدوا قاتلهم وقهرهم، وعندما جاء المستعصم أشار عليه العلقمي بأن يُقلّل من الجند ولا فائدة لهذه الأعداد فوافقه، كما أشار عليه بمصانعة التتار وإكرامهم، وفي

الوقت نفسه كان الوزير يتصل مع التتار، ويشجّعهم على القدوم إلى العراق، وطلب منهم أن يكون نائبهم والمقدم عندهم، فوعدوه بذلك، وساروا إلى بغداد، وكان قد استوزره عام ٦٤٢، وكان من قبل أستاذاً بدار الخلافة فجعل مكانه ابن الجوزي.

قتل المستعصم بالله على يد التتار يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر من سنة ست وخمسين وستمائة. وقد كان حسن الصورة، جيد السريرة، صحيح العقيدة، مقتدياً بأبيه المستنصر في العدل وكثرة الصدقات وإكرام العلماء والعباد. وكان ـ رحمه الله ـ سنياً على طريقة السلف، واعتقاد الجماعة، كما كان أبوه وجده، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ، ومحبة للمال وجمعه.

وبمقتله انتهت دولة بني العباس في العراق، فهو آخر خلفاء هذه الدولة، والسابع والثلاثون منهم.

* * *

التتار

في الوقت الذي بدأ يضعف فيه المد الصليبي في بلاد الشام وينحسر عن مناطق سبق له أن سيطر عليها، وترحل بعض الجماعات من الصليبيين عن جهات كان لها أن سطت عليها لما أصابها من يأسٍ في الاستقرار، ولما حلّ بها من هزائم، وقبل أن يودّع الصليبيون إماراتهم التي أسسوها بعد أن ألقوا بوحشيتهم عليها، وأذاقوا همجيتهم لسكانها قبل الرحيل الأخير بدأت تظهر في شرق ديار الإسلام قوة عظيمة تتمتع بقدرةٍ كبيرةٍ على الحركة وعندها إمكانات قتالية ضخمة، تلكم هم التتار.

لقد خشي الصليبيون أن يُسلم التتار باحتكاكهم مع المسلمين كما حدث لأبناء عمومتهم من الترك: من السلاجقة والغزّ وغيرهم وإذا ما حدث هذا فإن المسلمين يزدادون قوةً إلى قوتهم ويُخشى على أوروبا وليس على الصليبيين في بلاد الشام فحسب، لذا يجب أن يكون عمل الصليبيين بالدرجة الأولى الحيلولة دون حدوث ذلك، ثم العمل لجعل التتار يقاتلون المسلمين الذين يقعون عندئذٍ بين نارين: نار التتار في الشرق، ونار الصليبيين في الغرب، ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل إلى التتار، وحسّنوا لهم ديار الإسلام وغلاتها، ومنتجاتها، وخيراتها، وإمكاناتها، وجمالها، وأهميتها، وإمكانية الإفادة منها، وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها هذا بالإضافة إلى الرسل كانت النساء النصرانيات التي دخلت بيوتات التتار على شكل حليلات أو خليلاتٍ تعمل عمل الرسل بشكلٍ مستمرٍ، وهذا ما أوجد الفكرة عند التتار للانطلاق نحو الغرب والاستيلاء على ديار الإسلام ولم يبق عندهم إلا وجود مبرر للقيام بهذا العمل أو محرّض له دوافعه المباشرة.

والتتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي. «أرض التتار بأطراف بلاد الصين، وهم سكان براري، ومشهورون بالشر والغدر»[1]. حياتهم رعوية، ونظامهم قبلي يطيعون رؤساءهم طاعةً كبيرةً، ويحبون الحرب والسلب، يعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، يأكلون لحوم الحيوانات جميعها حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يُقدّمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة ويُقدّسون أرواح الأجداد.

والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعاً من مغول، وترك، وسلاجقة وغيرهم. وقد يكون سيطرة قبيلة المغول على التتار في مرحلةٍ من مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع. وهناك من يقول: إن التتار والمغول أخوان وقد سيطر المغول مع الفرعين عندما قام جنكيزخان يدك الدول، وعلى كل فإن كلمة تتار اليوم تطلق على القبائل الموجودة في شرق روسيا وسيبيريا وشبه جزيرة القرم. على حين تطلق كلمة المغول على القبائل الموجودة في الصين وأفغانستان. وكان المغول هم المسيطرون أيام جنكيز خان واسمهم يعمّ القبائل جميعها، والتتار هم الذين سيطروا أيام تيمورلنك وشمل اسمهم القبائل كلها.

ولما جمع جنكيزخان قبائل التتار حوله وانطلق نحو الشمال الشرقي في بلاد الصين يضم البلاد إليه بدأ التحريض من قبل الصليبيين على بلاد المسلمين، فاتجه جنكيزخان نحو الغرب. وظهرت جماعة من التتار حوالي عام ٦٠٦ في بلاد فرغانة فخرّب خوارزمشاه محمد تكش فرغانة، والشاش، وكاسان خوفاً من أن يستولي عليها التتار. وبدأ التتار يُتخطّفون في تلك الجهات، واستمرت الحالة حتى عام ٦١٥.

أرسل جنكيزخان رسلاً للمهادنة بينه وبين خوارزمشاه محمد تكش، وليسير التجار بين المملكتين فأجابه خوارزمشاه إلى ذلك، وجاء بعض

---

(١) تاريخ الخلفاء.

التجار التتار إلى بلاد ما وراء النهر ليشتروا ثياباً لجنكيزخان الذي انطلق إلى بعض نواحي تركستان فلما وصلوا إلى بلاد خوارزم شاه أخبره نائبه على تلك البلاد بذلك فأمره بقتل التجار، وأخذ ما معهم، وذلك لأن خوارزمشاه بعد أن ملك بلاد ما وراء النهر من (الخطا) قطع الطريق بينه وبين بلاد تركستان ليحول دون هجوم (الخطا) عليه وليقطع عنهم البضائع والحاجيات فلما استولى التتار على تركستان بدؤوا يُغيرون على بلاد ما وراء النهر للحصول على حاجاتهم ورغبةً في السلب والنهب فلما جاء تجارهم أمر خوارزمشاه بقتلهم، وأرسل عيوناً له إلى تركستان ليعرف خبر التتار وأعدادهم فلما رجعت إليه الأخبار بكثرة التتار وقدرتهم القتالية وصنعهم بأنفسهم للسلاح الذي يقاتلون به ندم على ما بدا منه، وبدأ يستشير أصحابه وبينما هو في المشاورة جاءته رسالة من جنكيزخان مفادها التهديد إذ يقول: تقتلون تجاري وتأخذون أموالهم فإني قادم إليكم بجنود لا قبل لكم بها، فما كان من خوارزمشاه إلا أن قتل رسول جنكيزخان وحلق لحى من معه، وأعادهم إلى جنكيزخان ليُعلموه بما فعل بهم، ويُخبروه أن خوارزمشاه قادم إليهم أيضاً، وسار خوارزمشاه فعلاً فأغار على بلاد التتار، ورجالها عنها غائبون مشغولون بقتال أحد أمرائهم، فقتل من وجد من الأطفال وسبى النساء، وعاد التتار وعلموا وهم على طريقهم بالخبر، فجدّوا السير فأدركوا خوارزمشاه ولم يغادر ديارهم بعد فوقعت بين الجانبين معركة رهيبة كادت تفنيهما لما صبروا، وغادر كل صاحبه يائساً من الحرب لما ناله، ورجع خوارزمشاه إلى بُخارى، وبدأ يستعد للقتال، فحصّن بخارى وسمرقند، وسار يجمع الجند من خوارزم وخراسان.

وجاء التتار وخوارزمشاه غائب للاستعداد فدخلوا مدينة بخارى بعد أن طلب أهلها الأمان، ولكن اعتصم من اعتصم بالقلعة فملكها عنوةً، وعمل الطاغية جنكيزخان بأهلها العجائب والمبيقات، ثم اتجهوا إلى سمرقند فتصدى لهم أهلها، وتراجع التتار وتبعهم أهل سمرقند ظناً بالنصر، وكانت الكمائن فأصيب أهل سمرقند، وفعل بهم الطاغية ما فعل ببخارى، ووجّه

عشرين ألف فارس في أثر خوارزمشاه، فانطلق إلى مازندران، ومنها إلى همدان، ثم رجع إليها، ثم انتقل إلى جزيرة في بحر الخزر مات بها عام ٦٢٠.

وسار الفرسان التتار إلى مازندران فأخذوها، ثم اتجهوا إلى الري، وهمدان، ثم ساروا إلى أذربيجان وأخذوها، وانتصروا على الأكراد والتركمان والكرج، ودخلوا باب الأبواب (دربند)، وانطلقوا إلى بلاد القفقاس فقاتلوا اللان، والجراكسة، وانتصروا عليهم، وانطلقوا عام ٦٢٠ إلى بلاد روسيا فدخولها ونهبوها، وقاتلهم البلغار فانتصروا عليهم، وقتلوا كثيراً من التتار، وعاد الباقي ممن بقي منهم إلى جنكيزخان، وخلت أرض روسيا، والقفقاس منهم.

أما جنكيزخان قد بقي في سمرقند، وأرسل قسماً ممن بقي معه إلى فرغانة، وآخر إلى ترمذ، وكل احتل ما سار إليه، وفعل بالسكان فعل التتار، ورجع إلى جنكيزخان، ولما اجتمعت لديه الجيوش ثانيةً أرسل جيشاً عظيماً بإمرة أحد أولاده إلى خوارزم، ووجه جيشاً آخر إلى خراسان فوصل إلى بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنهم، وعندما وصل إلى الطالقان لم يستطع دخول قلعتها فأخبر جنكيزخان فسار إليها بنفسه، وملكها ورجع إلى سمرقند بينما اتجه الجند إلى مرو فحاصروها، ثم نكثوا بعهدهم عندما دخلوها، ثم ساروا إلى نيسابور، ومنها إلى طوس، فهراة. ثم رجعوا إلى جنكيزخان بعد أن انتهوا من خراسان.

وأما الجيش الذي سار إلى خوارزم فقد دخلها ثم عاد إلى جنكيزخان. وعندما اجتمعت الجيوش لديه، جهز جيشاً قوياً وسيّره إلى غزنة وعليها جلال الدين خوارزمشاه فانتصر المسلمون، وفرّ التتار عائدين إلى الطالقان. والتقى المسلمون ثانيةً مع التتار في كابل، وانتصر المسلمون مرةً أخرى، ثم اختلفوا ففارقهم سيف الدين الخلجي (والخلجيون من الأتراك)، واتجه إلى الهند وملكها، وحاول جلال الدين إعادته بكل وسيلةٍ فلم يتمكن. وشعر جلال الدين بضعف المسلمين فسار نحو السند، وشعر

كذلك جنكيزخان فلاحقه، ولم يتمكن جلال الدين من عبور نهر السند فاضطر إلى قتال التتار، وهُزم المسلمون، واستطاعوا في النهاية اجتياز النهر، ورجع التتار إلى غزنة فملكوها وليس فيها جند فجعلوها أثراً بعد عين بناءً وسكاناً، بعد أن مثّلوا وارتكبوا المنكرات التي لا تذكر من هولها.

ووجه جنكيزخان جماعةً من جنده إلى الري وهمدان وكان العمران قد عاد إليها فقتلوا من فيهما وخربوهما. وكان التتار يخرجون بالأسرى ويطلبون منهم القتال معهم وإلا قتلوهم لذا كانوا يضحّون بأعداد كبيرةٍ، ويُوهمون الأعداء بكثرتهم، ويُخيفونهم بأفعالهم فيفرّون من المعارك، وتتقطع قلوبهم رعباً قبل لقاء التتار.

وصمد غياث الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش في أصفهان، وامتنع عن التتار الذين عجزوا عن دخول مدينته فلما انصرفوا عنها توسّع وملك أجزاء من فارس، وفي عام ٦٢٢ وصل إليه أخوه جلال الدين عائداً من الهند، واتجه من أصفهان إلى خوزستان ليملكها فلم يتمكن فنهبها، وسار إلى العراق فقابله جند الخليفة ومنعوه، ثم سار إلى أذربيجان فملكها، وهُزمت الكرج أمامه فدخل بلادهم، وولّى عليها أخاه غياث الدين، وعاد هو إلى تبريز، ثم عاد إلى تفليس عاصمة الكرج وفرض الإسلام على أهلها، وتصرّف تصرف الفاتح الظالم..

والغريب أن المسلمين كانوا يواجهون التتار وفي الوقت نفسه يقاتل بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم أرض بعض إذا دخلها، والمحنة دائرة عليهم، والشدة نازلة بهم، ويتصوّر كل واحدٍ منهم أنه عمل لجمع المسلمين للوقوف في وجه التتار، وهذه هي المحنة في هذه المرحلة وبداية الضعف الذي جاء في المستقبل.

سار جلال الدين إلى كرمان حيث استبد بها نائبه، وراسل التتار، وبعد دخولها رجع إلى تفليس لنقمة أهلها عليه، ومنها سار إلى بلاد الأبخاز على ساحل البحر الأسود وقاتل الكرج، ثم قاتل الملك الأشرف في خلاط، وحارب التركمان.

ورجع الكرج إلى تفليس، وليس بها جند من المسلمين فدخلوها وأحرقوها.

وسار جلال الدين إلى التتار بالقرب من الري وقد وصل إليه خبر مسيرهم نحو بلاد المسلمين فالتقى بهم وهزمهم.

ومات جنكيزخان عام ٦٢٤ وخلفه ابنه الثالث أوجتاي، وتأثر بذلك الولد الأكبر منه، (جغطاي) وهو الثاني لمخالفة ذلك التعيين لتقاليد المغول التي تقضي بتعيين الولد الأكبر، وقد ذبح أوجتاي أربعين فتاةً جميلةً على روح أبيه وكثيراً من الخيل، وبقي في عاصمة المغول (قره قورم) في منغوليا.

اتجه أوجتاي فقضى على إمبراطورية شمالي الصين «كين» بمساعدة إمبراطورية جنوبي الصين «سونغ» ثم التفت إلى الغرب فأرسل جيشاً قوامه خمسين ومائة ألف مقاتل، وأمره بالتحرك نحو مملكة خوارزم، وكان خوارزمشاه جلال الدين قد اختلف مع أخيه غياث الدين الذي التجأ إلى الإسماعيلية فحموه.

وصل التتار من جديد إلى جهات الري لقتال جلال الدين، وقد آلمهم توسعه الجديد بعد رجوعه من الهند، وسار إليهم جلال الدين، وجرت حروب كثيرة بين الفريقين، كانت الدائرة في أغلبها تدور على خوارزم، وكان النصر في آخرها لجلال الدين، ثم هُزم فرجع إلى أصفهان، وقاتل التتار من جديد، وفارقه قبل المعركة أخوه غياث الدين مع فرقة من الجيش وظن التتار أنها خديعة فانهزموا، وكذلك كان ظنه هو أيضاً فانهزم، وشعر التتار بما كان فرجعوا يحاصرون أصفهان، وجاء إليها جلال الدين، وهزم التتار وتبعهم إلى الري، ثم رجع إلى أرمينيا ونهبها، وجاء جيش آخر من التتار ففر من وجهه، وهام على وجهه وقتله أحد الفلاحين عام ٦٢٩ في إحدى القرى الكردية.

وجاء التتار إلى أذربيجان عام ٦٢٨ فملكوها واتجهوا إلى ديار بكر

والجزيرة، ووصلت جماعة منهم إلى أربيل وحاصروها وأرسل الخليفة نجدةً لأهلها، فانشمر التتار راجعين عنها، وقد أخضعوا الجميع، وارتكبوا أبشع الجرائم، وأفسدوا أعظم الفساد حتى خافهم الناس، وقتلوا الكثير من الأكراد والتركمان، وفرّ من وجههم الخلق. قال الموفق عبد اللطيف في خبر التتار: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغّر كل نازلة، وفادحة تطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض، وهذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند، لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين مكة أربعة أشهر، وهم بالنسبة إلى الترك عراض الوجوه، واسعو الصدر، خفافِ الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة في الجسم والرأي، تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم، لأن الغريب لا يتشبه بهم، وإذا أرادوا جهةً كتموا أمرهم، ونهضوا دفعةً واحدةً، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، ولا عسكر حتى يخالطوه، فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل، وتضيق طرق الهرب، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشاب، وأكلهم أي لحم وُجد، ولا في قتلهم استثناء ولا إبقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العالم، لا قصد الملك والمال[1].

وقال ابن الأثير: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك! فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يُجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمّن الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصّت

---

(١) نقلاً عن تاريخ الخلفاء.

المسلمين، فلو قال قائل أن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً فإن التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينةٍ واحدةٍ ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجّال فإنه يُبقي على من تبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإن لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعمّ ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح[1]. ويقول: ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرةٍ ومددٍ يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحدٍ من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه[2].

وجه أوجتاي بن جنكيزخان عام ٦٣٧ ثلاثة جيوش: أحدها إلى كوريا، والثاني إلى إمبراطورية (سونغ) في جنوبي الصين التي ساعدته بالأمس ضد إمبراطورية شمالي الصين (كين): والثالث إلى شرقي أوروبا،

---

(١) الكامل في التاريخ.

(٢) المصدر نفسه.

وجعل قائد هذا الجيش الثالث ابن أخيه (جوجي) أكبر إخوته، وهو (باتو بن جوجي)، فدخل باتو بلاد البلغار (قازان)[1]، ثم دخل التتار موسكو، واتجهوا إلى كييف أكبر مدن روسيا آنذاك فأبادوها. وانقسم جيش (باتو) بعدها إلى قسمين: قسم بإمرته وسار نحو بلاد المجر، والآخر بأمرة (بيدار) واتجه نحو بولندا، وقد انتصر الأول على المجري وذبح الجيش المجري كاملاً، وأحرق الثاني ما استطاع عليه من مدن بولندا، ومات أوجتاي عام ٦٤٤ فاستدعي ابن أخيه (باتو) للرجوع إلى بلاد المغول. وخلف (أوجتاي) ابنه (كيوك) الذي مات عام ٦٤٦، وخلفه ابن عمه مانجو بن تولوي بعد اضطرابات في قره قورم حول الملك، وقد وجه أخاه كوبيلاي إلى الصين فاتخذ عاصمةً له في بكين، وسيّر أخاه الآخر هولاكو لغزو بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، وتوفي مانجو عام ٦٥٥ فخلفه أخوه (كوبيلاي) فأخضع الصين، وأصبحت بكين عاصمته حاضرة المغول بدلاً من قره قورم.

ووصل التتار إلى أذربيجان، واتجهت فرقة منهم إلى أربيل عام ٦٣٤ وحاصرتها، ثم دخلتها غير أن القلعة قد امتنعت عنها فأرسل الخليفة نجدةً لأهل أربيل فانهزم التتار، وسارت جماعات من خوارزم بعد هزيمتهم أمام التتار، وانطلقت إلى الغرب، ولعبت دوراً في أحداث بلاد الشام، وتحالفت مع بعض ملوك الأيوبيين ضد بعضهم الآخر.

وفي عام ٦٣٨ كتب (أوجتاي) خان التتار الأعظم إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيها إلى الطاعة. ولما تولّى مانجو قيادة التتار جهّز حملة بقيادة أخيه هولاكو للاتجاه نحو الغرب ودخول فارس والعراق والشام. ولما تمّ إعداد الحملة انطلق نحو بلاد ما وراء النهر، فجاءه الأمراء يعلنون طاعتهم، ثم سار إلى فارس وطلب من الأمراء معاونته للقضاء على الإسماعيلية، وجاءه أمراء من خراسان وأذربيجان وجورجيا، وقد تمكن من هزيمة

---

(١) كانت بلاد البلغار في حوض نهر الفولغا الآن حيث تقع قازان اليوم.

الإسماعيلية وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله، واتخذ من مدينة همدان مقراً لقيادته، وكتب إلى الخليفة المستعصم يعاتبه على عدم مساعدته في قتال الإسماعيلية، كما طلب منه أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويتنازل لابنه عن السلطة، ويحضر هو لمقابلته أو يرسل إليه نيابةً عنه الوزير سليمان شاه، ويهدده إن لم يقبل النصح.

أرسل له الخليفة رسالةً حملها إليه شرف الدين بن الجوزي فيها شيء من إظهار القوة والاستعداد، واستشار هولاكو من معه من المسلمين فأشار عليه حسام الدين الفلكي بعدم التعرض للخلافة وبغداد، على حين أن نصير الدين الطوسي قد شجعه على المضي لبغداد. وانطلق إلى بغداد يقود هو قسماً من الجيش لحصارها من المشرق، ويرافقه عدد من المسلمين أمثال أمير الموصل، وأمير شيراز، ونصير الدين الطوسي، وأعطى إمارة القسم الآخر من الجيش إلى «باجو» وعهد إليه بإلقاء الحصار على بغداد من جهة الغرب.

وكانت قد وقعت فتنة في بغداد عام ٦٥٥ بين أهل السنة والرافضة وسببها ممالأة الوزير ابن العلقمي الرافضي للطاغية هولاكو. وكان ابن العلقمي قد اجتمع مع هولاكو، وعندما استشاره الخليفة المستعصم أشار عليه بمصانعة التتار، وقال: أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح، فخرج وتوثّق منهم لنفسه، وورد إلى الخليفة وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويُبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون الطاعة، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد، والرأي أن تخرج إليه، فخرج إليه في جمعٍ من الأعيان، فأُنزل في خيمة.

ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم، وصار كذلك: تخرج طائفة بعد طائفةٍ حتى قتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والكبار. ثم مدّ الجسر،

وبذل السيف في بغداد، واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً فبلغ القتل أكثر من ألف ألف نسمة، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أوقناة، وقتل الخليفة رفساً[1].

كان باجو قد أسرع للهجوم على بغداد من جهة الغرب، واشتبك مع قوات الخليفة في معركةٍ ضاريةٍ يوم عاشوراء، فخلا الجو لهولاكو من ناحية الشرق فتقدّم، وكان جيش التتار يقدرِ بمائتي ألف مقاتل، وتصدّى جيش المسلمين، للتتار، واستمر في المقاومة مدةً حتى التاسع عشر من شهر محرم، ورأى الخليفة أنه لا بد من الاستسلام فأرسل إلى الطاغية هولاكو مرةً ثانيةً شرف الدين بن الجوزي، ويحمل له الهدايا معلناً التسليم والرغبة في وقف القتال، وخدعه المغول بالوعود الكاذبة.

وفي ٤ صفر خرج الخليفة لمقابلة هولاكو ومعه أولاده الثلاثة: أحمد أبو العباس، وعبد الرحمن أبو الفضائل، ومبارك أبو المناقب، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والأمراء وأعيان المدينة، وعندما اقتربوا من هولاكو أُخذ الخليفة لخيمة، وحُجب البقية عنه، وطُلب منه أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح ففعل، وما أن ألقى السكان السلاح حتى أمر هولاكو جنده بالانقضاض على المدينة وبدؤوا بالقتل والسلب وارتكاب المنكرات، وتهديم البيوت، وتخريب القصور، وإتلاف الكتب، واستمر ذلك أربعين يوماً.

وقد سيّر الخليفة إلى بغداد، ومعه نصير الدين الطوسي، وابن العلقمي ليدلّ جند هولاكو على أماكن الذهب والنفائس والمجوهرات، ولما عاد إلى هولاكو قتل في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ست وخمسين وستمائة.

وأصبحت بغداد بعد الأربعين يوماً من التدمير خاويةً على عروشها ثم أعطي الناس الأمان فخرج من خرج من الأقنية والآبار والمقابر كأنهم الموتى خرجوا من قبورهم، ولكن انتشرت الأوبئة والأمراض فأتت على أعدادٍ كبيرةٍ منهم أيضاً.

---

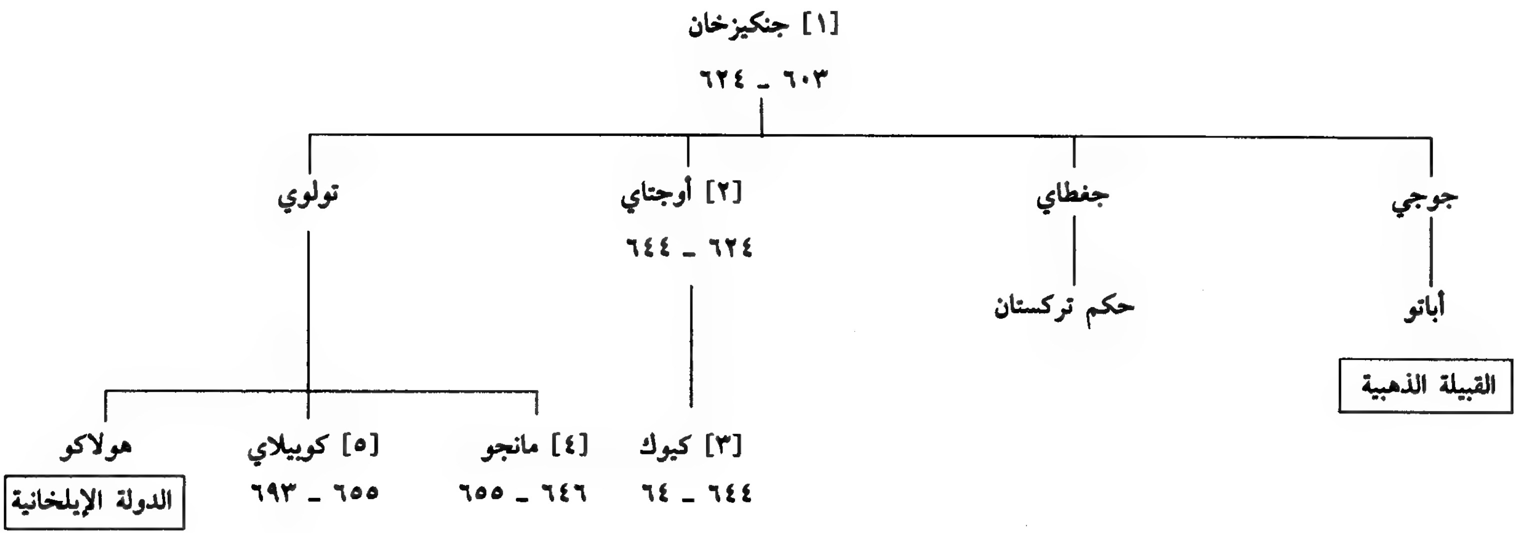
(١) تاريخ الخلفاء.

ورجع هولاكو إلى مقر حكمه في شهر جمادى الأول من العام نفسه، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادور ومعه ابن العلقمي(١).

وهكذا دالت الدولة العباسية بعد أن امتدت أيامها أربعاً وعشرين وخمسمائة سنة.

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن علي: الوزير مؤيد الدين، أبو طالب، ابن العلقمي، وزير المستعصم البغدادي وخادمه في زمن المستنصر، أستاذ دار الخلافة مدةً طويلةً، ثم صار وزير المستعصم، وكان وزير سوء مع أنه ذا شأنٍ كبيرٍ في الأدب والإنشاء، وكان رافضياً خبيثاً، رديء الطوية على الإسلام وأهله. وبعد أن ساعد هولاكو ضد المسلمين ناله من الإهانة والذل الشيء الكثير على أيدي من ناصرهم من التتار، وقد مات وعمره ثلاث وستون سنة كمداً وضيقاً، وتولى بعده ابنه الخبيث الوزارة، ثم مات في العام نفسه، وذلك سنة ٦٥٦هـ.


[١] جنكيزخان
٦٠٣ ـ ٦٢٤
جوجي
أباتو
القبيلة الذهبية
جغطاي
حكم تركستان
[٢] أوجتاي
٦٢٤ ـ ٦٤٤
[٣] كيوك
٦٤٤ ـ ٦٤
تولوي
[٤] مانجو
٦٤٦ ـ ٦٥٥
[٥] كوبيلاي
٦٥٥ ـ ٦٩٣
هولاكو
الدولة الإيلخانية

الخاتمة

من خلال قراءتنا لتاريخ الدولة العباسية، هذه القراءة الموجزة السريعة يتبين لنا أن الخلفية التاريخية المحفوظة عن هذه المرحلة ليست حقيقيةً إذ ليس هناك ضعف شامل يمتد على مدى العصر العباسي الثاني وهو أكثر من أربعة قرون، ويشمل الخلفاء، والقوة الحربية، والتوسع الفكري، والغلبة الحضارية، وقد لعب في هذه الخلفية ما كتبه أعداؤنا، وما درسناه باقتضابٍ، ومقارنتنا هذه المرحلة مع ما يجب أن تكون على ما كان عليه ذلك الجيل المثالي من صحابة رسول الله ﷺ.

لقد رأينا أكثر الخلفاء إن لم نقل جلهم كانوا أصحاب شجاعةٍ، وهمّةٍ عاليةٍ، ودينٍ وتقوى، ومحبةٍ للرعية وعطفٍ عليهم، وتقديرٍ للعلماء، وتؤيدهم شعوبهم وتعطف عليهم غير أن التسلّط العسكري الذي كان في هذه الحقبة من الزمن قد أذلّ الرجال ولوى أعناقهم وتصرّف بالبلاد وبأولي الأمر كما شاء له هواه فنظرنا إلى هذا التسلّط وما نتج عنه، وتركنا ما يضمّ خلفه من صورٍ طيبةٍ. ولعل القصاصين والمغرضين قد لعبوا دوراً كبيراً في تصوير ما كان يحدث داخل القصور فبالغوا فيه لجذب السامع إليهم وتشويق القارئ، والنيل من الحكم لأهدافٍ سياسيةٍ ودينيةٍ فعلقت هذه الصور في أذهاننا رغم بعدها عن الواقع وكذب مضمونها جملةً واحدةً.

وقد حدث في هذه المرحلة انتصارات واسعة بل وحاسمة في جهاتٍ متعددةٍ من ديار الإسلام يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال: معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ بين السلاجقة المسلمين والروم البيزنطيين النصارى، ومعركة الزلاّقة عام ٤٧٩ بين المرابطين المسلمين ونصارى الأندلس ومن

ورائهم أوربا، ومعركة الأرك عام ٥٩١ بين الموحدين المسلمين ونصارى الأندلس الذين يقف نصارى أوربا خلفهم، ومعركة حطين بين المسلمين والصليبيين عام ٥٨٣ و. . .

ولم تكن هذه الانتصارات انتصارات عسكرية كما يتوهّم بعضهم وإنما كانت انتصارات فكرية إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرت وضمّوا إلى ديار الإسلام مساحةً تزيد على ٤٠٠ ألف كلم٢، وعمّ الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن قد دخلها أبداً من قبل. وبعد ست سنوات من هذه المعركة أي في عام ٤٦٩ استطاع المرابطون في المغرب أن يفتحوا عاصمة إمبراطورية غانا (كومبي صالح)، وأن يفرضوا الإسلام على جميع البلاد، وقد وافق ملك غانا (تنكامنين) على الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وقد دخل كثير من الشعب في الإسلام أيضاً، وبذا تكون ديار الإسلام قد امتدت في إفريقية على مساحةٍ جديدةٍ تقرب من نصف مليون كيلومتر مربع، وفي الوقت نفسه فقد اتسعت ديار الإسلام في الجنوب الشرقي إذ نشر الغوريون الإسلام في الهند وفتحوا مساحاتٍ واسعة من شمال تلك البلاد، ووصلوا إلى بلاد البنغال وذلك عام ٥٩٧، وبذا فإن هذه المرحلة كانت مرحلة امتدادٍ وتوسع أيضاً، ولم تكن مرحلة جمودٍ وتوقفٍ كما يتصور كثير من الناس ممن يقرؤون التاريخ الإسلامي على عجالةٍ ويتوقفون عند نهاية العصر العباسي الأول، ويجملون العصر الثاني بكلمات تدل على الضعف والتفكك والتوقف.

ولم يكن أعداء الإسلام يومذاك من نصارى ووثنيين من التتار ينظرون إلى المسلمين على أنهم دونهم أو يساوونهم في المستوى الحضاري فيقاتلونهم لينتهوا من بربريتهم وهمجيتهم، وليقفوا أمامهم خوفاً على حضارتهم، وإنما كانوا يحاربون ليقضوا عليهم، ويتسلموا مكانهم، ويتعلموا ما حصلوا عليه. ففي الوقت الذي كان النصارى في أوربا يُحرّضون نصارى الأندلس لقتال المسلمين ويمدونهم بالرجال والمال ويدعمونهم بكل الإمكانات كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدن الأندلس ليتلقّوا العلم على يد

المسلمين، ويتذوقون حضارتهم ومعارفهم. كما كان الصليبيون في بلاد الشام يتلقّون العلم في منارات العلم القائمة في المناطق التي سطوا عليها، وينهبون الكتب، ويتعرفون على الصناعة وإن كثيراً من الصناعات والكتب قد نقلت إلى أوربا في تلك الأثناء بعضها سرقةً وبعضها بالممارسة والتعلم. وكذلك كان شأن المغول فقد كانت كتبهم إلى ملوك المسلمين تطفح بالاستشهاد بالآيات والأحاديث والحكم مما يدل على شعورهم بمدنية المسلمين وحضارتهم ففي كتب هولاكو إلى الملك الناصر صاحب دمشق توضح ذلك فقد جاء في الكتاب الأول: «يعلم السلطان الملك الناصر ـ طال بقاؤه! ـ أنه لما توجّهنا إلى العراق، وخرج إلينا جنودهم، فقاتلناهم بسيف الله، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدّموها، فكن قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوس تستحق الإهلاك، وأما ما كان من صاحب البلدة فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها، فاستحق الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً و...». وجاء في الكتاب الثاني: «... فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وابد ما في نفسك: إما إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان، أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره، وتنل بره، واسع إليه بأموالك ورجالك، ولا تعوق رسلنا، والسلام».

وجاء في الكتاب الثالث: «أما بعد، فنحن جنود الله، بنا ينتقم ممن عتا وتجبّر، وطغى وتكبّر، وبأمر الله ما ائتمر، إن عوتب تنمّر، وإن روجع استمر، ونحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد...»[1].

لا شك أن كتابة هذه الرسالة كانت من قبل كتّاب مسلمين ممن مالؤوا الطاغية هولاكو وعملوا عنده كتبةً مأجورين، راغبين في هوى، أو مجبرين على ذلك، كانت بلادهم محتلةً وهم على ذلك مقهورين، ولكن لم يكن ليتم هذا إلا برأي الطاغية، وكل كلمة يعرف مصدرها ومراميها.

---

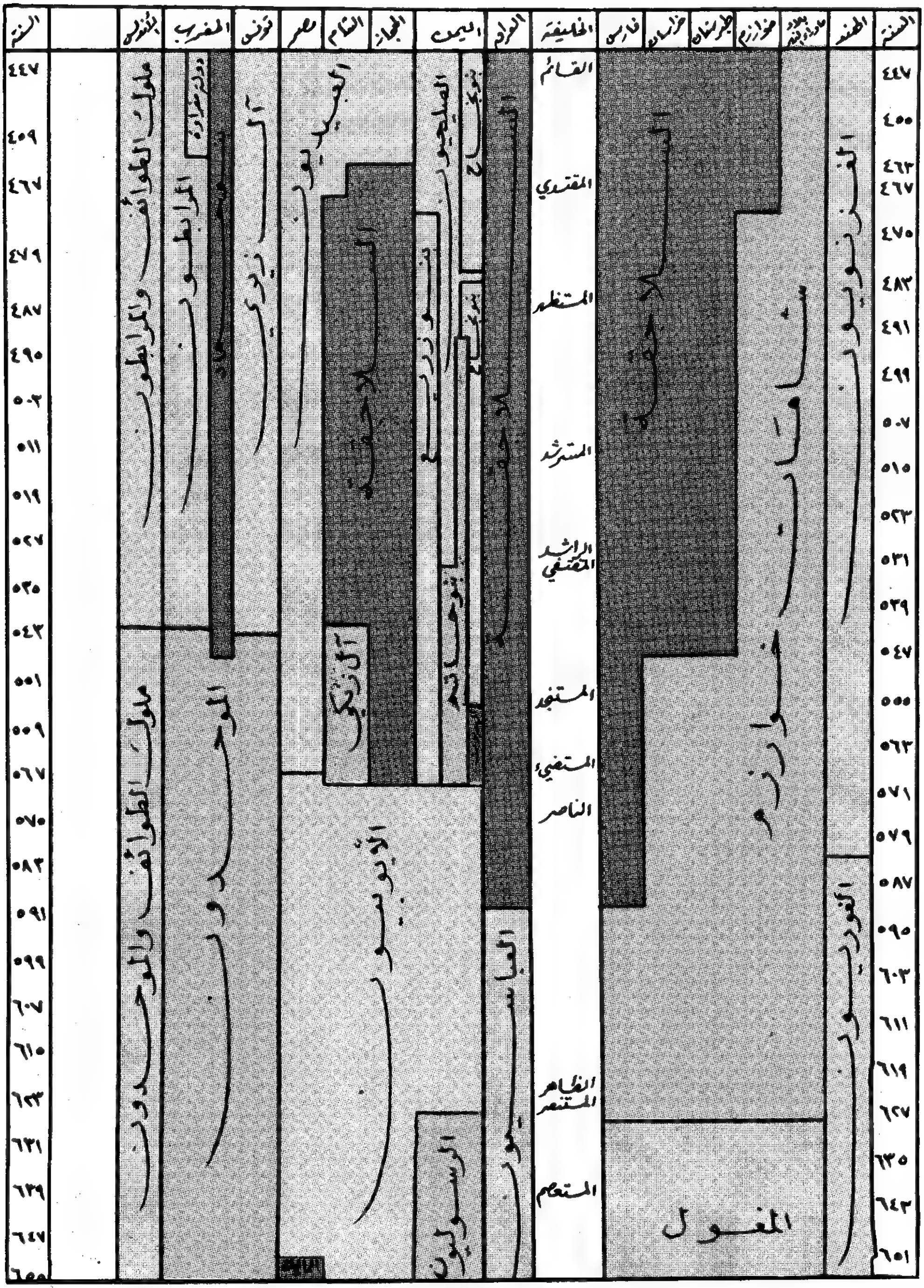
(١) تاريخ الخلفاء.

لقد كان النصارى والمغول يُدركون أنهم دون المسلمين، وأنهم متوحشون، وهذا ما بدا في قتال الأوائل وحروب الأواخر، وما فعلوه في الدور، والمدن، والزروع، وأمكنة الصناعة، والسكان، والتمثيل في القتلى، والأعمال الوحشية، وإبادة كل ما لاقوة في طريقهم وأثناء تحرّكهم، ويعلمون أن المسلمين كانوا فوقهم ولم يكن قتالهم سوى قتال البرابرة الذين يُقبلون ليدكّوا معالم الحضارة لما يحملونه في صدورهم من حقدٍ وضغينةٍ وجهل. فالنصارى كان يدفعهم الحقد الصليبي على الإسلام إضافةً إلى الضغائن التي تولدت في نفوسهم ضد الإسلام وانتصاراته، والجهل الذي يطغى عليهم فيحقدون على العلم الذي ينتشر في ديار الإسلام، وأما المغول فكان يدفعهم حقد البدوي على أهل الواحات، ومن يعيش في الشمس على من يتفيأ الظلال، والظمآن على المرتوي، والبائس على المترف. وقد دكّ كلا الجانبين كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، ونتيجة ضعف مستوى التتار الحضاري فقد ذابوا في المجتمع الإسلامي بعد مدةٍ وجيزةٍ، إذ كانوا يشعرون أن المسلمين أعلى منهم وأكثر مدنية.

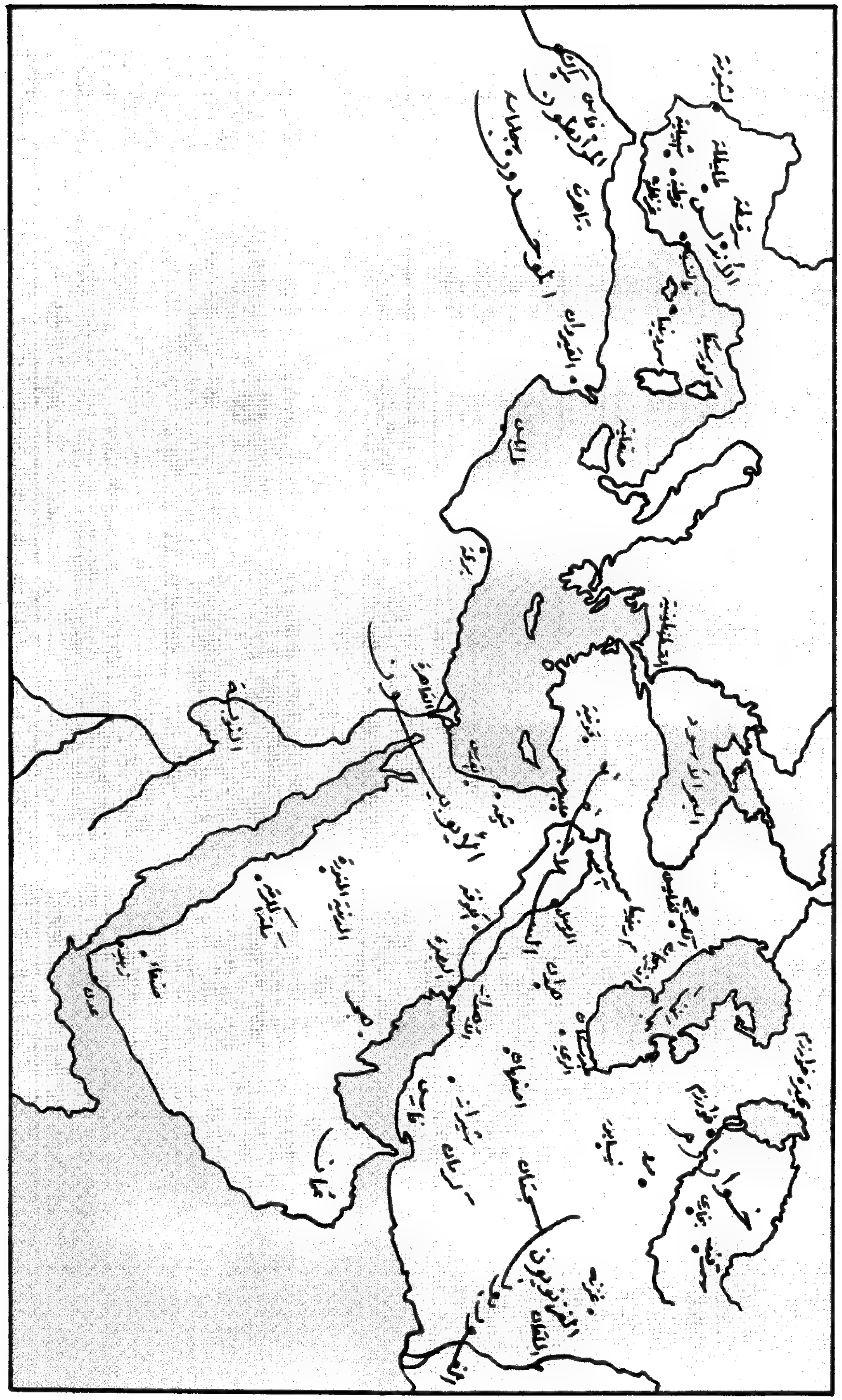
أما بعد سقوط بغداد بيد التتار فقد ضعُف المسلمون كثيراً، وربما كان هذا التاريخ حداً مميزاً أو فاصلاً بين تاريخ الخلافة الإسلامية وبين تاريخ الضعف والانقسام وهذا ما نراه في الجزء السابع - إن شاء الله - وهو الذي يتحدث عن المماليك.

انتهى - بإذن الله - الجزء السادس

ويليه الجزء السابع - إن شاء الله -



السنة
الهند
بلاد ما وراء النهر
خوارزم
طبرستان
خراسان
فارس
الخليفة
العراق
اليمن
الحجاز
الشام
مصر
تونس
المغرب
الأندلس
السنة
٤٤٧
٤٥٥
٤٦٣
٤٦٧
٤٧٥
٤٨٣
٤٩١
٤٩٩
٥٠٧
٥١٥
٥٢٣
٥٣١
٥٣٩
٥٤٧
٥٥٥
٥٦٣
٥٧١
٥٧٩
٥٨٧
٥٩٥
٦٠٣
٦١١
٦١٩
٦٢٧
٦٣٥
٦٤٣
٦٥١
القائم
المقتدي
المستظهر
المسترشد
الراشد
المقتفي
المستنجد
المستضيء
الناصر
الظاهر
المستنصر
المستعصم
الغزنويون
الغوريون
السلاجقة
المغول
العباسيون
الصليحيون
الرسوليون
آل زنكي
الأيوبيون
آل زيري
المرابطون
الموحدون
ملوك الطوائف والمرابطون
ملوك الطوائف والموحدون



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة:	٣
السيطرة العسكرية على مركز الخلافة	٥
نشوء الدويلات	١٦
نتائج الحضارة الإسلامية	٢٤
الحركات الباطنية	٢٨
الغزو الصليبي	٣١
الغزو المغولي	٣٦
الخلفاء العباسيون في الدور الثاني	٤١
الفصل الأول: عصر سيطرة العسكريين الترك	٤٣
المنتصر بالله	٤٩
المستعين بالله	٥٢
المعتز بالله	٥٦
المهتدي بالله	٥٩
المعتمد على الله	٦٥
الزنج	٦٨
القرامطة والإسماعيلية	٧٠
الروم	٧٦
الإمارات	٧٨
المعتضد بالله	٨٦
القرامطة	٨٨
الإمارات	٩٤
المكتفي بالله	١٠٢

الموضوع	الصفحة
المقتدر بالله	١٠٧
الروم	١٠٩
القرامطة	١٠٩
الإمارات	١١١
القاهر بالله	١٢١
الراضي بالله	١٢٣
المتقي لله	١٢٥
المستكفي بالله	١٢٧
الإمارات	١٢٨
القرامطة	١٣٤
الفصل الثاني: عصر السيطرة العسكرية البويهية	١٣٩
المطيع لله	١٤٧
الـروم	١٤٩
الإمارات	١٥١
الطائع لله	١٦٤
الـروم	١٦٥
الإمارات	١٦٦
القادر بالله	١٧٦
الإمارات	١٧٨
القائم بأمر الله	١٩١
الإمارات	١٩٤
الفصل الثالث: عصر سيطرة السلاجقة	٢٠٣
المقتدي بأمر الله	٢١٦
الإمارات	٢١٨
المستظهر بالله	٢٣٢
الإمارات	٢٣٣
الصليبيون	٢٤١
المسترشد بالله	٢٤٨
الإمارات	٢٥١
الصليبيون	٢٥٨

الموضوع	الصفحة
الراشد بالله	٢٦١
المقتفي لأمر الله	٢٦٣
الإمارات	٢٦٥
الصليبيون	٢٨٢
المستنجد بالله	٢٨٥
الإمارات	٢٨٧
الصليبيون	٢٩٥
المستضيء بأمر الله	٢٩٦
الناصر لدين الله	٢٩٨
الظاهر بأمر الله	٣٠٠
الإمارات	٣٠١
الصليبيون	٣١٦
المستنصر بأمر الله	٣٢٤
المستعصم بالله	٣٢٦
التتار	٣٢٨
الخاتمة:	٣٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي

— ٦ —

الدولة العباسية

الجزء الثاني

التاريخ الإسلامي

— ٧ —

العهد المملوكي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الخامسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٧ —

العهد المملوكي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله سيد المرسلين وإمام المتقين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين **وَبَعْد**:

فإننا نطلق على مرحلة التاريخ الإسلامي الممتدة من عام ٦٥٨ إلى ٩٢٣ اسم العهد المملوكي رغم أن دولة المماليك التي وجدت في هذه الآونة لم تكن لتضمّ أكثر أجزاء العالم الإسلامي يومذاك، وإنما كانت تشمل رقعةً صغيرة المساحة نسبياً إذ كانت تحكم مصر والشام والحجاز فقط. ولا بدّ لهذه المرحلة من اسم يُطلق عليها، تحمله، وتُعرف به. ومن الأسماء التي تُطلق على العهود ما يكون اسم دولة، أو صفةً عامةً لذلك العهد كالعهد الراشدي مثلاً. ولما كانت عدة دول قامت في هذه المرحلة وهي ذات أهميةٍ واحدةٍ تقريباً، وإن كانت دولة المماليك تمتاز عليها جميعها.

لقد حملت دولة المماليك صفة مركز الخلافة وسواء أكانت هذه الخلافة صحيحة النسب والشرعية أم لا فإن عدداً من الدول الإسلامية المعاصرة كان ينظر نظرة الصحة إلى هذه الخلافة، ويطلب من الخليفة أو يقلّد هذا الملك أو ذاك السلطان حكمه على بلاده ليكسب الصفة الشرعية وليحصل على التأييد من قبل شعبه.

ولقد عظُمت هيبة دولة المماليك في نظر المسلمين بعد أن انتصروا على المغول الذين اقتحموا أجزاء واسعة من الدنيا وما صدّهم أحد، وما وقف في وجههم جيش فانبرى لهم المماليك وانتصروا عليهم، وردّوهم

على أعقابهم، وتعقّبوهم، وأخرجوهم من بلاد الشام، وكما وقفوا أمام المغول بقيادة هولاكو ومن أتى بعده من أسرته، وقفوا كذلك أمام التتار بإمرة تيمورلنك، وفوق هذا وذلك فقد تمكّنوا من طرد الصليبيين أيضاً من بلاد الشام ومصر، وتابعوهم إلى قبرص فأخضعوا الجزيرة إلى سيطرتهم، ثم تعقّبوهم إلى جزيرة رودوس، ولولا الدعم الأوربي الصليبي الكبير للحقت رودوس جزيرة قبرص في تبعيتها للمماليك.

وخضعت بلاد الحجاز للمماليك وهي مهوى أفئدة المسلمين في كل مكان حيث هناك بيت الله الحرام، ومهبط الوحي، ومنطلق الدعوة، ومدينة الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا ما جعل لهذه الدولة مكانةً خاصةً في سائر بلاد المسلمين إضافةً إلى لفّها خلفاء بني العباس وأبنائهم، وإعادة الخلافة بعد سقوطها، وهذا ما زاد من مركز دولة المماليك وهيبتها.

وإن موقف دولة المماليك المتوسط بين جناحي العالم الإسلامي شرقيّه وغربيّه ما جعل مكانهم مركز الرحى بالنسبة لكل تقارب أو تفاهم يمكن أن يتم بين المسلمين وهو ما يوجبه دينهم عليهم، أو يحول دون صدام ذانيك الجناحين إلا عن طريق المماليك فيما لو حدث نزاع وتمت مخالفة أوامر الله التي تقضي أن يكون المسلمون أمةً واحدةً في ظلّ خلافةٍ واحدةٍ.

وفي نهاية أمر المماليك كانت مهمتهم الدفاع عن بلاد المسلمين ضد الغزو الصليبي الجديد الذي تمثّل في البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوبي بلاد العرب، وقاموا بحرب صليبيةٍ جديدةٍ حملت مجازاً اسم الاستعمار حتى عرفت به أو هكذا أطلق الأوربيون هذا الاسم بمعنى الإعمار حتى صار علماً، هذه المهمة الجديدة رفعت المماليك مرة ثانيةً في نظر المسلمين في كل جهةٍ من جهات العالم، وإن كان المسؤولون عن المماليك يومذاك لم يقدروا الأمور حق قدرها، فلم يسيروا بجانب العثمانيين الذين وضعوا الأمور آنذاك في موضعها، وعرفوا خطر الصفويين

الشيعة الذين تحالفوا مع البرتغاليين ضد المسلمين، وهددوا المماليك والعثمانيين لذا فإن العثمانيين قد تركوا القتال في أوربا، واتجهوا إلى الصفويين، وحاربوهم حتى أنهكوا قوتهم، ودخلوا عاصمتهم. لم ينتبه المسؤولون في مصر يومذاك على هذا الأمر فوقفوا ـ حسب رأيهم ـ على الحياد، والحياد عادةً نصر المعتدي ودعم القوي، ولكن أنصارهم أو أتباعهم في إمارة (ذو القادر) تصدت للعثمانيين، وهم يتحركون باتجاه الصفويين فسُجّل هذا الموقف على المماليك، كما سُجّل عليهم موقف آخر وهو عدم السماح للعثمانيين بالمرور في أرض المماليك لمنازلة البرتغاليين في جنوبي بلاد العرب وللدفاع عن المسلمين وأرضهم ومقدساتهم وقد هدد البرتغاليون المسلمين، فكان هذان الموقفان سبباً في القضاء على دولة المماليك.

وقد رأيت أن أدرس دولة المماليك، وما قام من دولٍ في تلك المرحلة في جزيرة العرب، والهند، ودول المغول والتتار، ودول المغرب والأندلس بحيث يكون كل جزءٍ في بابٍ خاصٍ، وتشكّل كل إمارةٍ أو دولة في أي قسم فصلاً خاصاً بها، وذلك لنتعرف على مختصر تاريخ هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي.

والله نسأل التوفيق، وسداد الخطا، والتأييد والنصر فهو نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

المماليك

يعدّ العهد المملوكي مجهولاً بالنسبة إلى كثيرٍ من المسلمين بل أكثر مراحل التاريخ غموضاً وذلك لأن المسلمين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً عن العهد النبوي، والراشدي اللذين تمثّل فيهما الإسلام بصورةٍ كاملةٍ، وابتعد الناس بعد ذلك عن التطبيق بصورةٍ تدريجيةٍ حتى وصلوا إلى هذا الوقت الذي ضاع فيه كثير من التعاليم الأساسية، ونتيجة هذا الابتعاد فقد أصبحوا على صورةٍ من الاختلاف والصراع واضحة فانقسمت خلافتهم إلى دول شتى، وتجزأت دولهم إلى إماراتٍ متعددةٍ، وبلغت الطموحات الشخصية مداها والأطماع الفردية أقصاها، ومع هذا كله فقد كان كل أمير ينتقد الآخرين من أمثاله على بعدهم عن الإسلام، وعدم تطبيقهم منهجه، ويتصوّر أنه بإمكانه أن يقوم بدور التطبيق الصحيح فيما لو أتاحت له الظروف السيطرة الكاملة، وأطاعه الآخرون، وخضعوا له، ونفّذوا أوامره لذا كان يعمل ما في وسعه من أجل هذه الغاية وفي الواقع أنه كان يعمل لتحقيق ما تصبو إليه نفسه من نفوذٍ وسيطرةٍ وإزالة الخصم الذي لا يقرّه على رأيه، ونلاحظ أنه في كل وقت كان يظهر فيه الصدق بل شيء منه كانت تتوحّد بعض عناصر الأمة وتستطيع أن تؤدي دوراً، بل إن النصر ليقترب بمقدار ما تقترب فيه من الإخلاص للأخذ بتعاليم الإسلام وتطبيق منهجه، ويتأخر النصر بمقدار ما نتفرّق ونختلف ونبتعد عن الإسلام.

ووصل المسلمون في العهد المملوكي إلى مرحلةٍ من الضعف بحيث لم يعد بعضهم يفكر في بعض، ولم يعد بعضهم يعرف أخبار بعض بسبب التشتت الذي أصابهم والضياع الذي عمّ أمراءهم، والبعد عن الإسلام الذي جزّأ أمصارهم وفصل بعضها عن بعض، والضعف الذي انتاب قادتهم،

والغزو الصليبي الذي روّع الآمنين فهجروا المدن وانتقلوا إلى الريف، والهجوم التتاري الذي أخاف السكان فانزووا في بقاعٍ منعزلةٍ فلم يتمكّنوا من معرفة شيءٍ من الأحوال والأخبار، ولم يتصلوا مع أحد ونتيجة هذا الانعزال وذاك الانزواء فقد ضعفت الزراعة إذ هجرها أهلها بعد أن رُوّعوا وغادروا أرضهم، وضعفت الصناعة بعد أن تركها أصحابها والتجؤوا إلى مناطق لا تصلح فيها الصناعة، وضعفت التجارة وقد أصبح طريق البر غير مأمون بسبب هجوم التتار، وطريق البحر غير مأمون أيضاً بسبب نشوء القرصنة النصرانية في البحر المتوسط، ووصول الصليبيين من البرتغاليين إلى بحر العرب، والخليج، وبحر الهند، ومنافذ البحر الأحمر الجنوبية في أواخر العهد المملوكي هذا بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الضرائب على البضائع التي تمر في ذلك البحر، والتي فرضها السلاطين لزيادة الدخل.

ولقد كان أمر أكثر السلاطين الذين تولوا أمر البلاد ضعيفاً، والقليل منهم كان قوياً، وغالباً ما يحاول السلطان أن يؤسس أسرةً تتولى الحكم بعده، وما أن يموت حتى يثب الجند على ولده فيخلعوه ويتولى كبيرهم السلطنة. ولم يستطع الظاهر بيبرس أن يؤسس أسرةً حاكمةً لأن الجند قد وثبوا على أبنائه من بعده، فانتهى أمر ولديه، ولم يمض على وفاته أكثر من ثلاث سنوات، وقد خلع ابنه الأول، وخلع الثاني ولم تنته هذه المدة القصيرة، وقام السلطان المنصور قلاوون بعد ذلك، وتمكّن أن يؤسس أسرةً سلطانيةً استطاعت أن تحكم مصر أكثر من مائة سنة (١٠٥ سنوات) غير أنه لم يظهر فيها سوى سلطان قوي واحد هو ابنه الناصر محمد، وقد خلع في أول الأمر، ثم أعيد، واعتزل ثانيةً، ثم عاد، وقد اشتد عوده، وزادت خبرته فقبض على زمام الأمور بشكل محكم، واستمر أكثر من اثنتين وثلاثين سنة في المرة الثالثة من حكمه، ولكن أبناءه الذين جاءوا من بعده كانوا سلاطين بلا سلطان، ومنفذين بلا قوةٍ حيث كان الواحد منهم يخلع أو يقضى عليه، ويؤتى بابنه كأنه للبقاء على أسرة فقط، أو محافظةً على تراث. وأما المماليك الجراكسة فكان كبار الجند يثبون على السلطان الصغير الذي ورث السلطنة عن أبيه فيخلعونه ويتولّى كبيرهم الأمر، فيحاول تأسيس

أسرة إذ يعهد لابنه من بعده فيخلعه أمراء الجند وهكذا، وإن كان أحياناً أخرى يخلع السلطان بعد أن يتسلم مقاليد الأمر، وينهض بالدولة غيره، وتتكرر هذه العملية مرات ومرات، وهذا ما حدث في أواخر العهد المملوكي أو في نهاية أمر المماليك الجراكسة اللهم إذا استثنينا السلطان الأخير أو قبل الأخير وهو السلطان الأشرف قانصوه الغوري الذي تسلّم السلطنة مدة ستة عشر عاماً.

ولما كان هذا وضع أصحاب السلطة من هؤلاء مملوكياً لم يكن لأحدهم هيبة تطغى على الآخرين اللهم إلا إذا استثنينا عدداً منهم للقوة التي امتازوا بها أو للضغط الذي كانوا يمارسونه حتى يخافهم غيرهم. فالجميع يشعرون أنهم مماليك الأصل، وأعتقوا لما امتازوا به من فروسية وقدرة، فهم أكفاء وليس لأحدهم سوى ذلك من سابقةٍ أو فضلٍ أو جاهٍ سابق أو ملكٍ ماضٍ لذا كان الحسد بينهم كبيراً، وما أن يتسلم أحدهم السلطنة حتى يحسده الآخرون، فإذا كان السلطان القائم ضعيفاً أزاحه غيره خلعاً أو قتلاً، وتسلّم مكانه، وإن كان محنكاً مقتدراً كظم ما في نفسه حتى إذا وافته فرصته بوفاة صاحب السلطة وثب على ابن من مات والذي كان أبوه قد عهد إليه من قبل، وخلعه أو قتله واستلم مكانه. هذه الحياة تقتضي أن يحرص كل أمير منهم على شراء عددٍ من المماليك خاصّين به ليتقوّى بهم، ويكونوا مطية لتنفيذ أغراضه أو درعاً يتقي بهم خصومه، أو يحرص كل سلطان على أن يرضي عدداً من أمرائهم إن لم نقل جميعاً أو يجلبهم إلى صفه ليبقى على وضعه الذي يحرص عليه، وهذا ما يقضي في الوقت نفسه على توفير مبالغ كبيرة من المال لدى السلطان ليتمكّن من شراء المماليك، وكسب من يراه ضرورياً له من أمرائهم إلى جانبه، وهذا يستدعي فرض ضرائب جديدة، كثيراً ما أنّ الشعب من وطأتها، وانكسر ظهره من ثقلها فزاده ذلك انعزالاً وتبرّماً من الحياة وانزواءً.

ولم يكن وضع الخلفاء بأفضل من السلاطين، فقد تركوا الأمر على غاربه، ونفضوا من تفكيرهم أي نفوذ أو تدخل في شؤون الدولة وذلك مذ قدموا إلى هذه البلاد، إذ أخذ الحكم من أبائهم في بغداد، وقُتّلوا، أو

أبعدوا على يد هولاكو طاغية التتار، ففرّ منهم من فرّ خوفاً من السيف، واختفى من اختفى، وشرّد من شرّد، وأتى بهم السلاطين المماليك، ورفعوا عنهم ما أصابهم، وأعادوا إليهم بعض ما فقدوا، وأعزوهم بعد ذلّ، وحضنوهم بعد تشريد، وجمعوا أمرهم بعد اختفاء، فكيف يتدخل هؤلاء الخلفاء في شؤون من آواهم، وأوضاع من نصرهم ورفعهم؟ أو كيف ينافسونهم وينازعونهم؟ وأصبح ذلك أمراً متبعاً وطريقةً سائرةً، فبقوا صورةً في الحكم بل اسماً ليس له دلالة على شيء، وزاد أمر ما صاروا عليه عما كان عليه أسلافهم في بغداد في أسوأ أوضاعهم عندما كان يسيطر عليهم العسكريون من عربٍ أو تُركٍ أو فُرسٍ، وهذا ما جعل الخلفاء لا يُعرفون، ويختفون خلف السلاطين من المماليك الذين بيدهم الحل والعقد كله، وإن لم يتعرضوا للقتل وسمل الأعين، ومما زاد اختفاؤهم أو عدم معرفتهم أن ألقابهم كانت متشابهةً فقد عرف اثنان منهم بلقب الحاكم بأمر الله، وآخران بلقب المستكفي بالله، وآخران الواثق بالله، وآخران المعتضد بالله، وثلاثة بلقب المتوكل على الله، وهذا ما يجعل التفريق بينهم صعباً على المرء الذي لا يعرف تاريخهم بشكل جيد، ولربما لو كان لكل واحدٍ منهم لقب خاص به لكان الأمر أسهل.

وعندما لا يتوفر المال لدى السلطان ويصعب فرض ضرائب جديدة لاستحالة ذلك بسبب الفقر الذي تئن منه البلاد كأن يلجأ بعض السلاطين إلى فرض أتاوة على التجارة التي تمر بموانئ البلاد سواء أكان ذلك في البحر الأحمر أم في البحر المتوسط مما خفض أهمية التجارة، ورفع أسعار البضاعة، وقلل من توفّرها في الأسواق الداخلية فزاد ذلك من النقمة على المماليك وخاصةً من التجار الذين كانوا ينقلون البضائع من الشرق إلى الغرب مثل القرنفل والبهارات وما إلى ذلك. كما كان يلجأ بعض السلاطين إلى إيجاد أنواع من الأعمال غير المشروعة ويضرب عليها الرسوم لتدر عليه المال اللازم له ليحقق به أغراضه، وهذه وإن كانت تختلف عما يوجد من أمثالها في هذه الأيام إلا أنها محرّمة ولا يصح قيامها أو وجودها في مجتمع إسلامي، لم يكن ليقصد من وراء تلك الأعمال هاتيك الأيام إفساد

المجتمع وتنفيذ مخطط مرسوم لإبعاد الناس عن الإسلام سواء أكان المخطط داخلياً أم خارجياً فالأمر واحد، وهو ما يحدث في المجتمعات الحالية، وإنما كان الهدف منه في تلك الأيام تأمين المال، ويلجأ بعض المسؤولين إلى مثل هذا النوع من المنكرات، ومع هذا فقد كان نادراً وقليلاً ما يحدث ومستنكراً، ولا يلبث أن يأتي سلطان آخر ويمنعه ويعلن تحريمه وعدم مشروعيته، ويبدو أنه حدث مرةً واحدةً، وهو وجود البغايا. وإذا لم يتم هذا ولا ذاك فقد كان السلطان يقطع كبار الأمراء الإقطاعات الواسعة ليقفوا بجانبه، لذا أصبحت البلاد التي تحت نفوذ المماليك عبارة عن إقطاعات يتصرف بها أصحاب النفوذ، وكثيراً ما كانوا يهملونها، ويكتفون بما تدر عليهم من أرباح ولو كانت قليلةً إلا أنها تكفيهم لاتساع الأراضي المقطوعة إليهم، وكذلك فإن الفلاحين لا يبذلون الجهد اللازم فيها لأنهم يعملون فيها لغيرهم لذا قلت الموارد، وزادت المعيشة ضنكاً. وإذا كان السلطان يستطيع الحصول على إرضاء أمراء المماليك بما كان تحت يده من مال ومن تصرّف بفرض الضرائب، وإقطاع الأرض إلا أنهم هم أنفسهم كانوا يحرصون على تحصيل مبالغ من المال كبيرة لشراء المماليك لهم، أو ليقوموا بما قام به من سبقهم، ومن هو أعلى منهم رتبةً، وتدور بعد ذلك الدائرة على الشعب، وهذا ما أخّر البلاد وزاد من معاناتها، وتقوقع الناس وانعزلوا في قراهم وأريافهم، لفقرهم وجهلهم وبعدهم عن المشاركة في الحياة العامة والخاصة لما يعانونه.

وكانت الروح الدينية لدى السلاطين والمماليك والشعب عامةً مرتفعةً، ويبدو هذا في كثرة المنشآت الدينية التي ظهرت في تلك المرحلة من مساجد وتكايا ومدارس وأربطة وحلقات العلم، وتقوم على تدريس العلوم الدينية، وتقديم الخدمات لطلبة العلم، هذا بالإضافة إلى الكتب الدينية التي صدرت آنذاك، وربما كان ذلك يعود إلى الحروب الدينية التي خاضها المماليك ضد التتار من جهة، وضد الصليبيين من جهةٍ ثانية، أو إلى الحماسة الدينية التي انتشرت في تلك الآونة إثر الغزو الصليبي ومساندة النصارى المحليين له، وهم الذين عاشوا في حمى المسلمين مدةً طويلةً من

الزمن شعروا فيها بالأمن والطمأنينة والرخاء ولكن عندما لاح لهم وصول أبناء عقيدتهم إلى بلاد المسلمين وأنهم على شيء من القوة إذا بهم يضربون كل ما وجدوه من حماية المسلمين لهم عرض الحائط، ويساندون الصليبيين، وهذا ما أدى إلى إثارة الحماسة الدينية لدى المسلمين الذين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع النصارى سواء الغزاة منهم أم من كان يسكن في البلاد، كما وجد المسلمون أنفسهم أنهم هم وعقيدتهم الهدف من هذا الغزو لا شيء سواه. وربما كان تدوين الكتب الدينية وانصراف الناس نحوها نتيجة العزلة التي عاشوها والتقوقع الذي اعتادوا عليه فانبرى أهل العلم إلى التدوين باستثناء أوقات الجهاد، وربما كانت هذه المرحلة أغنى أوقات التدوين، فظهر من مشاهير العلماء أمثال: النووي(١)، والعز بن عبد السلام(٢)، وابن تيمية(٣)، وابن قيم الجوزية(٤)، والمزي(٥)، وابن حجر

---

(١) النووي: ولد ببلدة (نوى) من قرى حوران ببلاد الشام، وإليها نسبته، هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي، محيي الدين، علامة الفقه والحديث، كانت ولادته عام ٦٣١، وتعلم بدمشق، وأقام بها، وتوفي ببلدته (نوى) عام ٦٧٦.

(٢) العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي: عز الدين الملقب بسلطان العلماء، ولد بدمشق عام ٥٧٧، زار بغداد عام ٥٩٩، ورجع إلى دمشق بعد شهر، تولى الخطابة بجامع دمشق، أنكر على الصالح إسماعيل بن العادل تسليم صفد للصليبيين فلم يدع له، فغضب عليه وسجنه، ثم أطلقه، فسار إلى مصر فتولى فيها القضاء، وتوفي بالقاهرة عام ٦٦٠.

(٣) ابن تيمية: ولد عام ٦٦١ وهو أحمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري الحراني الدمشقي، تقي الدين، أبو العباس، قاتل المغول، وطلب إلى مصر لفتوى أفتاها، فسجن في القاهرة، ثم نقل إلى الإسكندرية، وأطلق سراحه عام ٧١٢ فعاد إلى دمشق، واعتقل بها وأطلق عام ٧٢٠، ومات بسجن قلعة دمشق معتقلاً عام ٧٢٨، وخرجت دمشق بجنازته وقيل: إن مؤلفاته بلغت ثلاثمائة مجلد.

(٤) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، ولد في دمشق عام ٦٩١، تتلمذ على ابن تيمية ونشر علمه، وسُجن معه، وأطلق سراحه بعد موت أستاذه، وتوفي بدمشق عام ٧٥١، وألف تصانيف كثيرة.

(٥) المزي: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي: محدث الديار الشامية في عصره، ولد بظاهر حلب، ونشأ بالمزة (من ضواحي دمشق) وتوفي بدمشق عام ٧٤٢، وصنف كتباً كثيرة.

العسقلاني[١]، والذهبي[٢]، وابن جماعة[٣]، وابن كثير[٤]، والمقريزي[٥]، وابن تغري بردي[٦]، والقلقشندي[٧]، وابن قدامة[٨]، والمزي الفلكي

---

(١) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين: أصله من عسقلان بفلسطين بالقرب من غزة، ولد بالقاهرة عام ٧٧٣، ولع بالشعر والأدب، ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز لسماع الشيوخ، وعلت شهرته فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وتوفي بالقاهرة عام ٨٥٢.

(٢) الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله: ولد في دمشق عام ٦٧٣، وهو من أصل تركماني، حافظ، مؤرخ، علامة محقق، رحل إلى القاهرة، وطاف كثيراً من البلدان، وصنف كثيراً من الكتب، وكفّ بصره عام ٧٤١ وتوفي بدمشق عام ٧٤٨.

(٣) ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، أبو عبد الله: ولد في حماه عام ٦٣٩، ولي الحكم والخطابة بالقدس، ثم القضاء بمصر، كان من خيار القضاة توفي بمصر عام ٧٣٣.

(٤) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد عام ٧٠١ في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل إلى دمشق عام ٧٠٦، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤.

(٥) المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس، الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية أصله من بلدة بعلبك في بلاد الشام، ولد ونشأ بالقاهرة، وكانت ولادته عام ٧٦٦، اتصل بالسلطان الظاهر برقوق، وولي الخطابة والحسبة والإمامة عدة مرات، وعرض عليه قضاء دمشق عندما سافر إليها عام ٨١٠، وتوفي بالقاهرة عام ٨٤٥.

(٦) ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين: مؤرخ بحاثة، ولد بالقاهرة عام ٨١٣، كان أبوه من مماليك السلطان الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، وتعني تغري بردي «عطاء الله» مات أبوه بدمشق عام ٨١٥، فنشأ يوسف في حجر القاضي جلال الدين البلقيني الذي توفي عام ٨٢٤، وتأدب يوسف وقرأ الحديث، وأولع بالتاريخ، وبرع في فنون الفروسية، وصنف الكتب الكثيرة وتوفي بالقاهرة عام ٨٧٤.

(٧) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي: ولد في قلقشنده في قرى القيلوبية بقرب القاهرة، وتوفي بالقاهرة عام ٨٢١، صنف الكتب الكثيرة، ومن أشهرها صبح الأعشى في قوانين الإنشا، ويعد دائرة معارف.

(٨) ابن قدامة: محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أو عبد الله، المقدسي، الدمشقي: ولد عام ٧٠٥، وأخذ عن ابن تيمية والذهبي، وصنف أكثر من مائة مجلد، ويعد من كبار الحنابلة، وتوفي بدمشق عام ٧٤٤.

المتوفى عام ٧٥٠. وأعداد كثيرة من كبار العلماء يصعب حصرهم.

وأما من ناحية الغزو والجهاد فقد كان للمماليك دور بارز وأثر واضح فيه، وهو الذي أعطى تلك السمعة، وأظهر لهم الهيبة لدى المسلمين في كل أرض، ولو أنصفناهم في هذا الميدان لرفعنا من سمعتهم، ولكن دعاة العصبية في هذا العصر يصعب عليهم إعطاء الحق لأهله، ويحاولون أن يمسحوا المجد عن غيرهم، وينسبوا لأنفسهم ما لم يأتوا به.

لقد وقف المماليك أمام التتار الذين لم يستطع أن يقف أمامهم أحد وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت المشهورة، وتابعوا فلولهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام مهزومين بعد أن دخلوها ظافرين، واستمر وقوفهم في وجه المغول الذين حاولوا أخذ بلاد الشام وغزو مصر في أوقات متتابعة، وبقوا في صمودهم حتى ذاب هؤلاء الغزاة في المجتمع، واعتنقوا عقيدته، ثم حاول التتار في أيام تيمورلنك مرة أخرى غزو مصر، وإن كانوا قد تمكنوا من أخذ بلاد الشام، ودخول دمشق، لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى مصر لصمود المماليك، وصحيح أن السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أظهر الخضوع لتيمورلنك، وضربوا السكة باسمه بعد أن انتصر على السلطان العثماني بايزيد، غير أن تيمورلنك لم يلبث أن توفي عام ٨٠٨، وضعفت دولته بعد ذلك، وبقي المماليك، بل كان (شاه رخ) ابن تيمورلنك يرجو المماليك أن يسمحوا له بزيارة القدس وكسوة الكعبة و....

وكما وقف المماليك في وجه التتار وقفوا كذلك في وجه الصليبيين، وتمكنوا من إخراج بقاياهم من بلاد الشام عام ٦٩٠، ومن جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وانتقلت أعداد من الصليبيين إلى جزيرة قبرص، وبدؤوا يشنون الغارات منها على مصر إلا أنهم في النهاية قد خضعوا للمماليك، وأصبحت تعترف بسلطانهم عليها، واستقر فرسان الاسبتاريين من الصليبيين في جزيرة رودوس، واتخذوها قاعدةً لهم، وأخذوا يغيرون على مصر أيضاً، فانبرى المماليك لهؤلاء الصليبيين، وتوجهوا إلى غزو رودوس التي كادت تقع بأيديهم لولا الدعم الصليبي الأوربي الكبير.

وأخضع المماليك النوبيين النصارى الذين تمادوا في تعدياتهم على المسلمين فاعترف النوبيون بسلطان المماليك، ودانوا بعد ذلك بالإسلام.

وفي أواخر العهد المملوكي وقف سلاطين هذا العهد أمام التقدم الصليبي البرتغالي الذي جاء من الجنوب، وأحرزوا النصر في بداية الأمر، ثم هُزموا ولكنهم لم ييأسوا، ولم يتوانوا في الإعداد لصدّ هؤلاء الغزاة الجدد، ولولا التقدّم العثماني من الشمال ودخول بلاد المماليك، والقضاء عليهم، وأخذ مكانهم للدفاع عن بلاد المسلمين ضد البرتغاليين لاستمر المماليك في موقفهم في هذا الميدان وعلى هذه الثغرة. هذه الخدمات الواسعة التي قدّمها المماليك للدفاع عن بلاد المسلمين لم يقدرها دعاة العصبية حق قدرها، بل قلّلوا من أثرها، لأنهم يعدونهم غرباء عن الأمة، وكانت غربتهم سبباً في هذا الضعف الذي حلّ بالأمة حسب زعم هؤلاء القوميين، لكن الإسلام لم يعترف بهذا التقويم الصادر عن العصبية.

الفصل الأول

قيام دولة المماليك

كان الترك الذين يؤسرون في الحروب يشكلون أكبر نسبة للرقيق، وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر إذ كانت تلك الجهات مسرحاً دائماً للقتال، وتمتد بلاد الترك إلى ما بعد تلك المناطق كثيراً حيث تتوغل إلى منغوليا وغيرها من بلدان أواسط آسيا، وتصل إلى بلاد الأفغان اليوم ونواحي واسعة من سيبيريا، وتتجه تلك الأقوام باستمرار نحو الغرب، وتصطدم مع المسلمين، وتكون أعداد من الأسرى كبيرة، وإن كانت جموع أخرى تدخل ديار الإسلام، ثم لا تلبث أن تدين بديانة أهل البلاد، وتعمل بعدئذٍ على نشر الإسلام، ومحاربة أبناء جلدتها أيضاً، ومن هؤلاء السلاجقة، والتركمان الغز، ثم العثمانيون و. . . .

ثم غدا الصقالبة مصدراً آخر للرقيق، وكان يؤتى بهم من شرقي أوربا إلى ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والأندلس حيث يباعون، وعمل اليهود في تجارة الرقيق، وحصلوا على أموال وفيرة من وراء هذه التجارة، وغدت بعض الأسواق في أوربا لهذا الرقيق الذاهب إلى البلدان الإسلامية وبيزنطة. «فإذا قدم بالمملوك تاجره، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه، ويسلّمه إلى المختص برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار. وصار الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك، علّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه

فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلّم كل طائفةٍ معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب، لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة، وينتقل في أطوارها رتبةً بعد رتبةٍ إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه إلا وقد تهذّبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل. وقد كان لهم خدام وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً، أو أخلّ برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبةٍ شديدةٍ بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادةً يدبّرون الممالك، وقادةً يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسةٍ يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدّى»[1].

كان هذا الوضع أيام الأيوبيين، ولم يختلف عند أيام المماليك إذ أخذوا عنهم كثيراً من تقاليدهم ونظمهم ولا غرابة في ذلك فهم ساداتهم.

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب الملك الأيوبي السابع قد استكثر من المماليك الذين نسبوا إليه كالعادة ـ فهم المماليك الصالحية، وذلك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمه إسماعيل، وقد أعطى هذا الملك الصالح الحرية لمماليكه هؤلاء حتى ضجّ منهم الناس فاضطر أن يبعدهم عن السكان فبنى لهم قلعةً خاصةً بجزيرة الروضة عام ٦٣٨، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه، وقد عرف هؤلاء المماليك بالبحرية إضافةً إلى الصالحية، والبحرية نسبةً إلى جزيرة الروضة، وإن كانت هذه النسبة ليست خاصةً بهم إذ أطلقت على كثيرين غيرهم إذ جلبوا مما وراء البحار وخاصةً الصقالبة الذين جيء بهم عن طريق البحر.

---

(١) الخطط للمقريزي الجزء الثاني ص٢١٣ ـ ٢١٤.

توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يقاتل الصليبيين عام ٦٤٧، وكتمت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته حتى وصل إلى مصر ابنه توران شاه الذي استدعته حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين، على حين كانت هي تدير أمور المملكة، وشؤون القتال باسم زوجها المتوفى، ولا يعلم أحد خبر وفاته. ووصل الصليبيون إلى المنصورة، وجيوش المسلمين تتراجع، فجمع الأمير بيبرس البندقداري جماعة من المسلمين، وقادهم وتمكن من إبادة الصليبيين الغزاة. كما قاد الأمير فارس الدين أقطاي المملوكي المماليك، وهاجم الصليبيين، وانتصر عليهم حتى أيقنوا بعدم إمكانية البقاء فانسحبوا إلى دمياط.

كان توران شاه قد وصل من بلاد الشام، وقاد الجيوش بنفسه، واضطر لويس التاسع ملك فرنسا إلى طلب المهادنة والصلح بعد أن وقع أسيراً بأيدي المسلمين، وانتهت الحملة الصليبية السابعة حيث انسحب الملك لويس التاسع إلى عكا، ودفع جزيةً كبيرةً وفداءً له.

اختلف توران شاه مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري عام ٦٤٨، كما كان قد اختلف مع زوجة أبيه شجرة الدرّ التي عادت السلطة إليها بعد مقتل ابن زوجها، فعيّنت عز الدين أيبك، ثم تنازلت له بعد أن تزوجت به. وفي هذه الأثناء انسحب الفرنسيون من دمياط.

غضب الأيوبيون من سيطرة عز الدين أيبك، وسار الملك الناصر يوسف[١] صاحب حلب إلى دمشق فدخلها، وزحف نحو مصر غير أن عز الدين أيبك قد تمكن من ردّه، وتحالف مع الملك لويس التاسع خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

أرسل هولاكو وفداً إلى عز الدين أيبك، وفي الوقت نفسه أرسل إلى الملك الناصر يوسف.

عمل عز الدين أيبك الملك المعزّ على إنهاء معارضة الأيوبيين، بأن

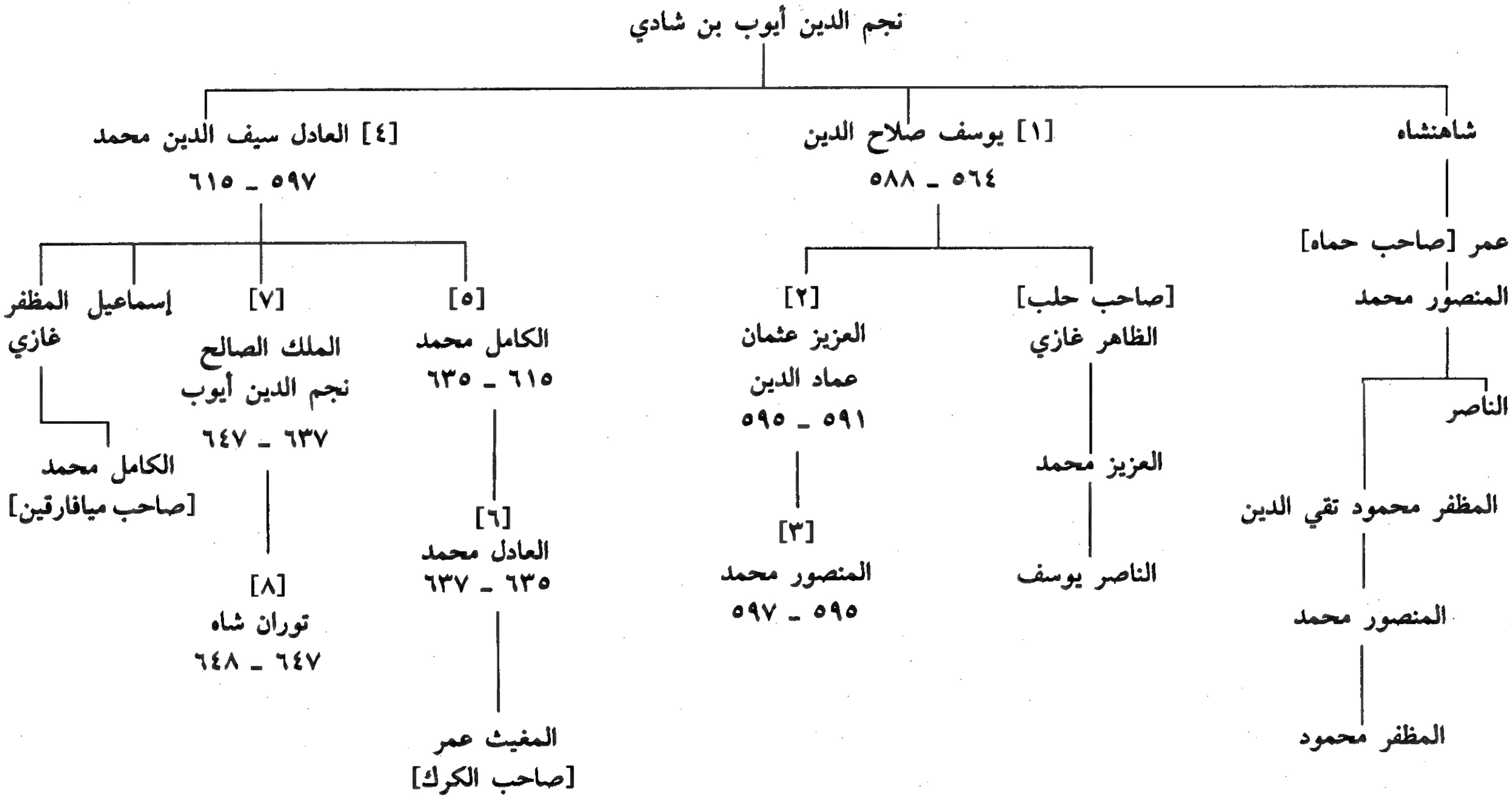
---

(١) الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي.

جعل أميراً أيوبياً بجانبه، وقد اختار لهذه الإمارة طفلاً صغيراً لا يزيد على السادسة من عمره، وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل، وكان جده المسعود صاحب اليمن، وهو المعروف باقسيس، أما أبوه فقد عاش في كنف الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكن هذا الطفل لم يلبث أن توفي، غير أن هذه الطريقة لم تنطل على الأيوبيين فاستمرت المعارضة فأعلن أيبك ارتباط مصر بالخلافة العباسية وأنه يحكمها نيابةً عن الخليفة العباسي المستعصم الذي بدأ يخطب له.

استمر الملك الأيوبي الناصر يوسف في معارضته لعز الدين أيبك، وعرض على ملك فرنسا لويس التاسع المقيم في عكا مساعدته مقابل تسليمه بيت المقدس، غير أن الملك المعز قد هدد لويس التاسع بقتل الأسرى الصليبيين في مصر جميعهم إن اتفق مع الناصر يوسف، وفي الوقت نفسه عرض عليه التحالف معه مقابل أن يتنازل له عن نصف الفدية المقررة عليه، فرأى بعدئذٍ الملك لويس التاسع أن يقف على الحياد بين الطرفين مستفيداً من خصومتهما بعضهما لبعض أو عمل على التحريض بينهما.

زحف الملك الأيوبي الناصر يوسف على مصر، والتقى مع المماليك عند بلدة العباسة، وأحرز النصر في بداية الأمر غير أنه قد هزم في الجولة الثانية إذ انضم جزء من مماليكه إلى المماليك، وفر الأيوبيون من الميدان، ورأى الملك المعز عز الدين أيبك ملاحقتهم، وعرض على ملك فرنسا الصليبي لويس التاسع دعمه مقابل تسليمه بيت المقدس إن أخذها، ورأى لويس التاسع الصليبي رجحان جانب المماليك فانضم إليهم حيث لم يرغب أن تفوته هذه الفرصة، واحتل يافا بينما سار المماليك بإمرة فارس الدين أقطاي إلى غزة وكذا سار الملك الناصر يوسف نحو غزة ولكن لم تحدث لقاءات لأن الخليفة المستعصم قد أصلح بين الطرفين بحيث تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين وذلك عام ٦٥١، وبذا لم يسلّم المماليك بيت المقدس للصليبيين، فلما خاب أمل الملك لويس التاسع عاد إلى فرنسا عام ٦٥٢، وقد اضطر إلى ذلك إذ توفيت والدته التي كانت تحكم له فرنسا وباسمه.



الأسرة الأيوبية

قامت في هذه الأثناء حركة في الصعيد ضد المماليك وقد تزعمها شريف يُدعى حصن الدين إلا أن أيبك قد وجّه لهم قوةً بإمرة فارس الدين أقطاي فاستطاع أن يقمعها.

أصبح الأمير فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء وأكثرهم شهرة، وينافس الملك المعز عز الدين أيبك، ويحمل عليه بعض تصرفاته في تعهده للملك الصليبي بتسليمه بيت المقدس، وتلقب فارس الدين أقطاي باسم الملك الجواد، وتزوج إحدى الأميرات الأيوبيات هي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه، لكن الملك المعز عز الدين أيبك قد استدعى أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه مع مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها إلا أن الباب قد أغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك المعز أيبك بالضرب، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، وقتلوه، وأسرع أنصار أقطاي عندما علموا بالخبر لإنقاذه وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظنّاً منهم أنه لم يقتل بعد، ولكنهم لم يلبثوا أن أخبروا أن أمره قد انتهى، وهكذا انقسم المماليك إلى معزية وهم مماليك الملك المعز عز الدين أيبك، وصالحية أو بحرية، وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

بدأ بعض أمراء المماليك البحرية يفرّون إلى ملوك بني أيوب في بلاد الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأيوبي الأول لعز الدين أيبك والمتصالح معه حالياً، لذا فإن الناصر يوسف قد طلب من الملك المعز أيبك أن يعطي هؤلاء المماليك جنوبي بلاد الشام فيكون قد أبعدهم خوفاً من شرّهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فلا تتفتت قوة المسلمين تجاه أعدائهم إلا أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخافه، واعتقد دعمه للمماليك البحرية، واتفاقه معهم على أمر، لذا فقد استعد، وأقام بالعباسة استعداداً لأي طارئ، وبقي على حالة استعداده أو استنفاره مدة ثلاث سنوات، وعاد بعدها إلى القاهرة بعد أن تمّ حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم رسولاً هو نجم الدين البادراني فأصلح بينهما

على أن يكون للملك المعز عز الدين أيبك مصر وساحل بلاد الشام. ولجأ المماليك البحرية بعد هذا الصلح الذي دارت بنوده بين الملك المعز عز الدين أيبك المملوكي والملك الناصر يوسف الأيوبي لجؤوا إلى الملك الأيوبي المغيث عمر[١] صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً ببلاد مصر.

أراد الملك المعز عز الدين أيبك أن يحصر المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس شجرة الدر زوجة أيبك وعملت على التخلص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تحرّضه على غزو مصر وتتعهد له بدعمه للتخلص من أيبك ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة، فعملت مع المماليك واستطاعت قتله عام ٦٥٥هـ.

اختلفت المماليك بعضهم مع بعض فالصالحية منهم تناصر شجرة الدر، والمعزية تعارضها، وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدم المماليك الصالحية غير أن المماليك المعزية قد قبضوا عليه وسجنوه وتغلبوا على الأمر، وبدأت المماليك الصالحية تفرّ إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصة إلى المغيث عمر صاحب الكرك وتحرّضه على أخذ مصر، وقد حاول مرتين ٦٥٥ و ٦٥٦ غير أنه فشل في كلتا المحاولتين بجهود سيف الدين قطز. أما المماليك المعزية فقد قدموا عليهم نور الدين علي بن عز الدين أيبك الذي غدا سلطاناً لمصر، أما الذي يقوم بالنيابة عنه فهو الأمير سيف الدين قطز، ولكن لم يلبث قطز أن عزل نور الدين علي، وتسلم السلطنة بنفسه بحجة أن الأول كان ضعيفاً وظروف البلاد تقتضي رجلاً قوياً، فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوين شرسين هما التتار والصليبيون.

استولى التتار بقيادة هولاكو على بغداد عام ٦٥٦، وخاف الملك

---

(١) المغيث عمر: ابن الملك العادل محمد ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

الناصر يوسف فراسل هولاكو يجامله، ويطلب منه الدعم لأخذ مصر غير أنه لم يحدث بين الطرفين ما يدعو إلى التفاهم. وزحف التتار إلى بلاد الشام، ووجد الناصر يوسف نفسه ضعيفاً أمام جحافل التتار فاتصل بالمماليك، وطلب منهم المساعدة.

استولى التتار على حلب في صفر عام ٦٥٨، ثم استولوا على ميافارقين بإمرة يشموط بن هولاكو بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً لم يعرفه المغول من قبل، واستشهد صاحبها الملك الأيوبي الكامل محمد[١]، وخضع الملك الأشرف موسى[٢] صاحب تل باشر فأعطاه هولاكو إمارة حمص مكافأةً له، وكان الملك الناصر يوسف قد انتزعها منه منذ عام ٦٤٦، وزحف هولاكو نحو دمشق، ففرّ منها الناصر يوسف، واتجه إلى غزة فاستقبله سيف الدين قطز ومن معه، وبدأ قطز يتقرّب من جيش الناصر يوسف ويضم أمراءه إليه، حتى لم يبق مع الناصر يوسف إلا قليل فذهب بهم إلى جنوب الأردن حيث استقر قرب الجفر ليعيش منزوياً بمن معه منعزلاً عن الأحداث التي تدور في بلاده، وعلم هولاكو بهذا فأرسل مجموعة من الجند إلى الجفر، وأحضرت الناصر يوسف، فاستقبله هولاكو استقبالاً كريماً ورأى فيه ضالته، ومنّاه بالتربع على عرش دولةٍ أيوبية تشمل مصر والشام تحت حمى التتار، وقدّمه على الأشرف موسى إذ وجد في الأول خيراً له لما عنده من إمكانات وطاقات.

حاصر هولاكو دمشق في ربيع الأول عام ٦٥٨، وشدّد الحصار حتى استسلمت في ربيع الثاني أما القلعة فقد صمدت حتى ٢١ جمادى الآخرة من العام نفسه غير أنها سلمت من التهديم لالتماس أعيانها لديه، واتجه هولاكو نحو انطاكية بعدها.

---

(١) الكامل محمد: ابن الملك المظفر غازي بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب.

(٢) الأشرف موسى: ابن المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولم يكن ليسيطر إلا على تل باشر قرب الرها.

وصل إلى هولاكو نبأ وفاة أخيه مانغو خان التتار الأعظم، لذا فقد ترك بلاد الشام بعد أن ولّى عليها مكانه القائد كتبغانوين، واتجه إلى قره قورم حاضرة التتار لحضور اجتماع رؤساء التتار لانتخاب الخان الأعظم لهم، وهو يطمع أن يحصل على هذا المنصب لما قدم من خدمات لهم بمد نفوذهم إلى العراق والشام، فلما وصل إلى تبريز بلغه خبر انتهاء الاجتماع وإتمام عملية الانتخاب، واختيار أخيه قوبلاي خاناً أعظم للتتار، فسكت احتراماً لأخيه.

أما المماليك البحرية الذين فرّوا إلى بلاد الشام خوفاً من المماليك المعزية وأميرهم سيف الدين قطز، واتجهوا إلى الملوك الأيوبيين، وخاصةً إلى الناصر يوسف، والمغيث عمر فقد رجع بعضهم إلى مصر خوفاً من المغول، وترك بعضهم الآخر الناصر يوسف الذي تفاهم مع التتار على كرهٍ منه، أو اعتزل بعد فراره من التتار وانضمام جيشه في غزة إلى سيف الدين قطز هؤلاء قد ساروا إلى المغيث عمر صاحب الكرك ومنهم الظاهر بيبرس البندقداري، وبدؤوا يُغيرون على أملاك الناصر يوسف الجديدة، وهذا ما جعل الناصر يوسف يسير بجيش إلى الكرك، ويحاصرها ووجد المماليك أنفسهم في وضع خطير وخاصةً الذين كانوا بجانب الناصر يوسف وفرّوا من عنده مغاضبين لموقفه حتى ليقال إن الظاهر بيبرس كان قد عرض على الناصر يوسف إعطاءه أربعة آلاف مقاتل للوقوف في وجه التتار عندما أرادوا عبور نهر الفرات لمنعهم من ذلك لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذا الطلب، في هذا الوقت عفا قطز عن المماليك البحرية فبدؤوا يتجهون نحوه من بلاد سلاجقة الروم، ومن الكرك، ومن دمشق، وغدا المماليك مرة أخرى مجموعة واحدة، واستقبل قطز هؤلاء استقبالاً لائقاً وخاصةً بيبرس إذ أنزله بدار الوزارة وذلك عام ٦٥٨.

بعد أن سقطت دمشق بيد التتار أرسل هولاكو وفداً إلى الأمير سيف الدين قطز يحمل رسالةً كلها تهديد ووعيد، فعقد قطز اجتماعاً ضمّ أمراء المماليك فكان الرأي العزم على الحرب، فقبض قطز على رجال وفد

هولاكو وأعدمهم، وعرض أجسادهم للناس، وأخذ قطز يحشد الحشود، ويفرض الضرائب فوجد معارضةً من العلماء على هذه الضرائب، وعلى رأسهم العز بن عبد السلام الذي أعلن أن على الأمير إذا أراد فرض الضرائب أن يأخذ قبل ذلك الحلي التي في بيته وبيت أمثاله من الأمراء وأن يضربها نقوداً فإن لم تف بالحاجة يفرض بعدها الضرائب، فامتثل قطز بذلك، وفعل ما وجّه إليه.

وتمّ الاستعداد، وأرسل قطز حملةً استطلاعيةً بإمرة الظاهر بيبرس البندقداري إلى جهات غزة فانتصر على حملة تتارية متقدمة، وبقي يناور التتار كي لا يعلموا بتحرك الجيش الرئيسي الذي يقوده سيف الدين قطز.

سار سيف الدين قطز بجيشه مع الساحل الشامي باتجاه عكا، وهدد الصليبيين إن بدرت منهم أية بادرة شرّ، وطلب منهم أن يكونوا على الحياد إن لم ينصروا المسلمين، ولم يكن وضعهم يومئذٍ بالذي يساعدهم على التحرك سواء أكان بجانب المسلمين أم بجانب التتار. ووافى الأمير سيف الدين قطز قائده الظاهر بيبرس عند عين جالوت، وتدفق التتار إلى ذلك الميدان، واحتدمت المعركة وهجمت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين، فتقدم أمير الجيش الإسلامي سيف الدين قطز، وألقى بخوذته على الأرض أمام الأمراء وصاح بأعلى صوته «وإسلاماه» واندفع نحو التتار يقاتل والتف حوله جنود المسلمين، وأنقضوا على التتار فأفنوهم، وقُتل قائد التتار «كتبغا» في ميدان المعركة، وأُسر ابنه.

ووصلت أخبار معركة عين جالوت إلى دمشق فابتهج المسلمون، وانطلقوا يهاجمون التتار، ويعملون بهم ذبحاً، وشملت هذه المذبحة النصارى أيضاً الذين وقفوا بجانب التتار وأعانوهم على المسلمين، واستأسدوا على المسلمين أثناء حكم التتار، ولم يستتب الأمن بدمشق إلا بدخول قطز إليها في ٢٧ رمضان عام ٦٥٨ أي بعد استسلام قلعتها بثلاثة أشهر وستة أيام، وهذه المدة التي حكم التتار فيها دمشق. وبدأ التتار يفرون من بلاد الشام خوفاً من انتقام المسلمين منهم، وتمكن قطز من فتح بلاد

الشام بعدة أسابيع، وأعاد بعض الملوك الأيوبيين إلى ممالكهم بعد أن أخذ المواثيق والعهود عليهم بالولاء ودفع الأتاوات السنوية للسلطان في مصر، وكذلك أقطع أمراء المماليك إقطاعاتٍ واسعةً إذ أعطى علم الدين سنجر الحلبي نيابة دمشق يحكمها باسمه، ومنح حلب إلى الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان الظاهر بيبرس يرغب بها، وقد طلبها من قطز لملاحقة التتار فلم يقبل منه فأصبح بنفسه شيء عليه.

عاد المماليك إلى مصر، وقتل الظاهر بيبرس أميره سيف الدين قطز وربما كان للخلاف السابق بين المماليك البحرية الذين منهم بيبرس والمماليك المعزية الذين منهم قطز، وقد اضطر المماليك البحرية للعودة إلى مصر بعد أن فرّوا منها عندما لم يجدوا لهم مقاماً في الشام لهجوم التتار فكان لا بدّ من الاتفاق لحماية ديار الإسلام، فلما أصبحت ديار الإسلام في أمان من هجوم التتار عاد الخلاف، وظهر من جديد، وقتل قائد جناح المماليك البحرية أمير المماليك المعزية، وربما كان سبب هذا القتل ما بقي في نفس بيبرس من قطز عندما رفض إعطاءه ولاية حلب، وهو يريد أن يتابع التتار، ويستعيد للمسلمين أرضهم، وعلى كلٍّ فقد قتل الأمير سيف الدين قطز، واتفق أمراء المماليك على تعيين الظاهر بيبرس سلطاناً على مصر.

إن انتصار المماليك في عين جالوت قد جعل دعايةً واسعةً لهم وخاصةً أن الناس كانوا لا يتصوّرون هزيمةً كهذه الهزيمة تلحق بالتتار بسبب الرعب الذي أصابهم والهلع الذي ملأ قلوبهم.

إن الهجوم الصليبي الشرس من الغرب على ديار الإسلام والغزو التتاري الوحشي من الشرق ودعم النصارى الذين عاشوا في كنف المسلمين منذ فجر الإسلام إلى كلا العدوين الصليبي والتتاري والحقد الواضح الذي بدا منهم، كل هذا جعل المسلمين يعودون قليلاً إلى دينهم، كما كانت دعوة حكامهم بالدرجة الأولى إلى وحدة صفوف المسلمين للوقوف في وجه الأعداء وخاصةً أولئك الذين تعرّضت بلادهم للتخريب الصليبي أو

للتدمير التتاري، لذلك اعترف المماليك بسلطة الخلافة العباسية عليهم، والخلافة هي محطّ أنظار المسلمين في كل مكان، ويمكن أن يلتفّ حولها المسلمون، وتتوحد كلمتهم بها، ولا يوجد في ديار المسلمين سوى خليفةٍ واحدٍ لذا فهو الذي يمكن أن يحمل راية الجهاد ويقاتل المسلمون جميعاً تحت هذه الراية. وهذا الاعتراف بالخلافة العباسية قد أكسبهم الصفة الشرعية التي اعترف العباسيون بحكمهم، وفي الوقت نفسه فقد أكسبهم القوة، وعندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ قام المماليك يحملون عبء الجهاد، وقد وفقوا في ذلك فأنزلوا بالتتار هزيمة عين جالوت عام ٦٥٨.

كان الملك المظفر سيف الدين قطز قد استناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي فلما قتل قُطز نادى سنجر بنفسه سلطاناً، وتلقّب بالملك المجاهد، وأخذ شعار السلطنة بعد مقتل قطز بشهر واحد، وطلب من الملك الأشرف موسّى الأيوبي، والملك المنصور صاحب حماه الأيوبي أيضاً، والأمير حسام الدين لاجين العزيزي صاحب حلب مساعدته فلم يوافقوه، وسيّر الظاهر بيبرس حملةً إلى دمشق حملت سنجر إلى القاهرة مقيداً بالأغلال، ولم يمض على سلطنته المحلية أكثر من شهر.

وقام رجل شيعي بالقاهرة يدعى الكوراني يدعو لنفسه، ويرغب في عودة النفوذ العبيدي مرةً أخرى أو الشيعة كما يسميها، واستطاع الظاهر بيبرس القضاء عليها بسرعة.

ومع استقرار الوضع للظاهر بيبرس وقفت دولة المماليك على أقدامها، كما أن الخلافة قد عادت من جديد.

ولما كان المماليك هم السلاطين، وهم ولاة الأمور إذ لهم الدور الأول في تسيير شؤون الدولة سواء أكان في الداخل أم في الخارج لذا كان لا بد من بحث أمور هؤلاء السلاطين على نطاق أوسع من بحث الخلفاء، فالسلاطين هم الذين نسب إليهم العهد، ولم ينسب إلى العباسيين، وهم الخلفاء أو أمراء المؤمنين بالنسبة إلى المسلمين في جهات الأرض.

ففي مرحلة قيام دولة المماليك تولّى أمر مصر أربعة من السلاطين هم:

١" ـ شجرة الدر	٦٤٨	٨٠ يوماً
٢" ـ المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ ـ ٦٥٥	٧ سنوات
٣" ـ نور الدين علي	٦٥٥ ـ ٦٥٧	٢ سنة
٤" ـ سيف الدين قطز	٦٥٧ ـ ٦٥٨	سنة واحدة

وبعد أن تولى السلطنة الظاهر بيبرس السلطنة بمدة أصبحت الخلافة أو حملت الدولة اسم الخلافة من جديد، واتجهت إليها أنظار المسلمين أكثر من السابق.

وتولى أمر المماليك نوعان من السلاطين يعودون في أصولهم إلى جهتين وهما:

١" ـ المماليك البحرية	٦٤٨ ـ ٧٩٢
٢" ـ المماليك الجراكسة أو البرجية	٧٩٢ ـ ٩٢٣

الفصل الثاني

عصر المماليك البحرية

٦٤٨ ـ ٧٩٢

١ ـ شجرة الدر:	٨٠ يوماً	٦٤٨ ـ ٦٤٨		
٢ ـ عز الدين أيبك:	٧ سنوات	٦٤٨ ـ ٦٥٥		قتل
٣ ـ نور الدين علي:	٢ سنة	٦٥٥ ـ ٦٥٧	ابن أيبك	خلع
٤ ـ سيف الدين قطز:	١ سنة	٦٥٧ ـ ٦٥٨		قتل
٥ ـ الظاهر بيبرس:	١٨ سنة	٦٥٨ ـ ٦٧٦		توفي
٦ ـ السعيد بركة:	٢ سنة	٦٧٦ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٧ ـ العادل بدر الدين:	أقل من سنة	٦٧٨ ـ ٦٧٨	ابن بيبرس	خلع
٨ ـ المنصور قلاوون:	١١ سنة	٦٧٨ ـ ٦٨٩		توفي
٩ ـ الأشرف خليل:	٤ سنوات	٦٨٩ ـ ٦٩٣	ابن قلاوون	قتل
١٠ ـ الناصر محمد:	١ سنة	٦٩٣ ـ ٦٩٤	ابن قلاوون	خلع
١١ ـ العادل كتبغا:	٢ سنة	٦٩٤ ـ ٦٩٦		
١٢ ـ المنصور لاجين:	٢ سنة	٦٩٦ ـ ٦٩٨		قتل
١٣ ـ الناصر محمد: أعيد	١٠ سنوات	٦٩٨ ـ ٧٠٨	ابن قلاوون	اعتزل
١٤ ـ المظفر بيبرس الجاشنكير:	١ سنة	٧٠٨ ـ ٧٠٩		قتل
١٥ ـ الناصر محمد: عاد	٣٢ سنة	٧٠٩ ـ ٧٤١	ابن قلاوون	توفي
١٦ ـ المنصور أبو بكر:	أقل من سنة	٧٤١ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٧ ـ الأشرف كجك:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٢	ابن الناصر محمد	خلع
١٨ ـ الناصر أحمد:	أقل من سنة	٧٤٢ ـ ٧٤٣	ابن الناصر محمد	خلع
١٩ ـ الصالح إسماعيل:	ثلاث سنوات	٧٤٣ ـ ٧٤٦	ابن الناصر محمد	توفي
٢٠ ـ الكامل شعبان:	أقل من سنة	٧٤٦ ـ ٧٤٧	ابن الناصر محمد	قتل
٢١ ـ المظفر أمير حاج:	أقل من سنة	٧٤٧ ـ ٧٤٨	ابن الناصر محمد	قتل

٢٢ ـ الناصر حسن:	٤ سنوات	٧٤٨ ـ ٧٥٢	ابن الناصر محمد	خلع
٢٣ ـ الصالح صالح:	٣ سنوات	٧٥٢ ـ ٧٥٥	ابن الناصر محمد	خلع
٢٤ ـ الناصر حسن: أعيد	٧ سنوات	٧٥٥ ـ ٧٦٢	ابن الناصر محمد	قتل
٢٥ ـ المنصور محمد:	٢ سنة	٧٦٢ ـ ٧٦٤	ابن المظفر أمير حاج	خلع
٢٦ ـ الأشرف شعبان:	١٤ سنة	٧٦٤ ـ ٧٧٨	ابن حسين	قتل
٢٧ ـ المنصور علي:	٥ سنوات	٧٧٨ ـ ٧٨٣	ابن الأشرف شعبان	توفي
٢٨ ـ الصالح حاجي برقوق:	١ سنة	٧٨٣ ـ ٧٨٤	ابن الأشرف شعبان	خلع
٢٩ ـ الصالح حاجي برقوق:	أقل من سنة	٧٩١ ـ ٧٩٢	ابن الأشرف شعبان	خلع

وهم مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب الذين كثر عددهم، وزادت تعدياتهم فضجّ منهم السكان فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة عام ٦٣٨ فعرفوا بالمماليك البحرية، وإن كان هذا الاسم ليس خاصاً بهم إذ كثيراً ما أطلق على غيرهم بسبب حملهم عن طريق البحر، وإن لحق بهم هذا الاسم فيما بعد وأصبح دلالةً عليهم، كما عرفوا أيضاً باسم الصالحيين نسبة إلى لقب سيدهم الصالح نجم الدين أيوب، وأقل من هذا الاسم وذاك أطلق عليهم النجميين لاسم السيد نفسه.

حكم هؤلاء المماليك البحرية مصر مدة أربع وأربعين ومائة سنة ٦٤٨ ـ ٧٩٢، وقد تمثّل هذا الحكم في أسرتين فقط، وهما أسرة الظاهر بيبرس البندقداري، وقد دام حكمها مدة عشرين سنة (٦٥٨ ـ ٦٧٨) وقد حكم هو وولداه، ودام حكمه ثماني عشرة سنة، وحكم ابنه الأول السعيد بركة ما يقرب من سنتين، ثم خلع، وحكم ابنه الثاني العادل بدر الدين سلامش عدة أشهر وخلع بعدها. وكان الظاهر بيبرس قد حرص على بقاء أسرته في الحكم من بعده، وهيأ الأسباب لذلك، وكان خوفه من المماليك أنفسهم، وقد برز منهم يومذاك المنصور قلاوون لذا فقد سعى إلى ضمان قلاوون بل فكر بأن يجعله يقف بجانب أولاده من بعده، وزوّج ابنه وخليفته السعيد بركة من ابنة قلاوون غازية، وظنّ بأن هذه المصاهرة سيقف قلاوون بجانب ابنه السعيد بركة، وعندما حاصر المماليك السعيد بركة اتصل بالمنصور قلاوون وطلب دعمه فنصحه بالتنازل عن السلطنة، وقد فعل ذلك، ووافق قلاوون على استلام العادل بدر الدين سلامش أخي السعيد بركة وابن

الظاهر بيبرس السلطنة وذلك لأنه صغير ويمكن أن يتصرف بالأمر، ولم تمض عدة أشهر، حتى دعا المنصور قلاوون أمراء المماليك وبسط لهم الوضع القائم، وأن الأمر يتطلب رجلاً حكيماً يدبر شؤون الدولة، وأن الصغير يعيق الأمر ولا يصلح للأمر فاتفق الجميع على خلع العادل بدر الدين سلامش وسلطنة المنصور قلاوون.

أما الأسرة الثانية فهي أسرة المنصور قلاوون نفسه، وقد استمر أمرها أربع عشرة ومائة سنة (٦٧٨ ـ ٧٩٢) وحكم هو وأولاده وأحفاده، لم يتخللها سوى خمس سنوات خرج أمر مصر من أيديهم، إذ تسلم العادل كتبغا والمنصور لاجين والمظفر بيبرس الجاشنكير وقد قتل ثلاثتهم، حكم الأوليان منهم مدة أربع سنوات ٦٩٤ ـ ٦٩٨، وحكم الثالث ما يقرب من سنة (٧٠٨ ـ ٧٠٩).

أما أفراد الأسرة فقد حكم المنصور محمد أبو ناصر قلاوون إحدى عشرة سنة توفي بعدها (٦٧٨ ـ ٦٨٩)، ورجع الحكم بعده ضعيفاً إذ حكم ابنه الأشرف صلاح الدين خليل مدة أربع سنوات (٦٨٩ ـ ٦٩٣) وقتل بعدها، وجيء بأخيه الناصر محمد، ولم يطل عهده بأكثر من سنة حتى خلع، وتسلطن العادل كتبغا مدة سنتين ثم علا السلطة المنصور لاجين عندما كان العادل في زيارة لدمشق، لكن المنصور لاجين لم يلبث أن قتل، وأعيد إلى السلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وبقي عشر سنوات ٦٨٩ ـ ٧٠٨ غير أنه اعتزل، فتسلم السلطة المظفر بيبرس الجاشنكير، وشعر الناصر محمد بن قلاوون أنه هضم حقه فاستعاد السلطنة بالاتفاق مع بعض الأمراء، واستمر أمره حتى توفي، وقد أحبه الناس، لذا فقد حكم أبناؤه من بعده رغم ضعفهم وصغر سنهم، إذ تسلم السلطنة ثمانية من أبنائه. كان الأول منهم المنصور سيف الدين أبو بكر، وخلع قبل مرور عام على حكمه، وكان أمر الثاني الأشرف علاء الدين كجك كالأول لم يصل عهده إلى العام، ويشبههما الثالث الناصر أحمد، أما الرابع فهو الصالح إسماعيل، وقد حكم ثلاث سنوات (٧٤٣ ـ ٧٤٦) ومات بعدها، وجاء الخامس

الكامل شعبان وقتل قبل أقل من عام، وكذا السادس المظفر أمير حاج كان مصيره القتل، ولم يصل أمره إلى العام، وحكم السابع الناصر حسن أربعة أعوام (٧٤٨ ـ ٧٥٢) وخلع بعدها، وخلع الثامن الصالح صالح بعد ثلاث سنوات من حكمه (٧٥٢ ـ ٧٥٥) وأعيد الناصر حسن فاستمر سبع سنوات (٧٥٥ ـ ٧٦٢) وقتل بعدها. وتولّى الأمر بعدئذ المنصور محمد بن السلطان المظفر أمير حاج وخلع بعد عامين من حكمه ٧٦٢ ـ ٧٦٤، وجاء بعده ابن عمه الأشرف شعبان فحكم أربعة عشر عاماً ٧٦٤ ـ ٧٧٨ وقتل بعدها، وخلفه ابنه المنصور علي لمدة خمس سنوات توفي بعدها ٧٧٨ ـ ٧٨٣، وخلفه أخوه الصالح حاجي فلم يمض عليه سوى سنة حتى خلع، وتسلطن الأمير برقوق من المماليك الجراكسة غير أنه أعيد الصالح حاجي بعد سبع سنوات (٧٨٤ ـ ٧٩١) وحكم مدة سنة واحدة (٧٩١ ـ ٧٩٢) ثم أخرج السلطان برقوق من سجنه، وأعيد إلى سلطانه، وانتهى أمر المماليك البحرية بشكل دائم، وجاء عهد المماليك الجراكسة أو البرجية.

ونلاحظ أن أسرة المنصور قلاوون قد حكم منها خمسة عشر سلطاناً توفي منهم أربعة وفاة طبيعية أو تركوا الحكم نتيجة الوفاة الطبيعية بينما خلع سبعة منهم خلعاً، وقتل خمسة منهم، وأن بعضهم وهو الناصر محمد قد خلع مرة، واعتزل مرة، وعاد حتى توفي، وأن الناصر حسن قد خلع، وأعيد ثم قتل. . .

وكان أكثرهم يتولى الأمر وهو صغير لذا يكون ألعوبةً بيد كبار الأمراء فيخلعونه أو يقتلونه، وما بقاء هذه الأسرة في الحكم هذه المدة الطويلة إلا بسبب ما تمتع به المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد من حب، وهما من الذين توفوا وفاة طبيعية من بين الأربعة السلاطين الذين توفوا هذه الوفاة، وقد حكم المنصور قلاوون مدة أحد عشر عاماً، وحكم الثاني وهو الناصر محمد ثلاثة وأربعين عاماً، وبذا يكون قد حكم اثنان من هذه الأسرة خمساً وخمسين سنة أي ما يقرب من نصف مدة الأسرة كلها، أما الآخرون وهم ثلاثة عشر سلطاناً فقد حكموا تسعة وخمسين عاماً أي بمعدل أربع سنوات

ونصف لكل سلطان غير أن خمسةً منهم لم يتجاوز أحدهم السنة بل لم يصل إلى سنة ثلاثة خلعوا خلعاً واثنان قتلا، وحكم واحد منهم مدة سنتين وخلع بعد ذلك. وحكم اثنان ثلاث سنوات خلع واحد منهما، ومات الثاني، وحكم واحد مدة أربع سنوات وقتل بعدها، وآخر خمس سنوات وتوفي بعدها، وقتل واحد بعد أربعة عشر عاماً. وهذا كله يدل على مدى ضعف هؤلاء السلاطين باستثناء اثنين منهم، وتلاعب أمراء المماليك بالسلاطين لصغر سنهم، والحسد الذي كان بينهم.

المنصور محمد قلاوون
٦٧٨ ـ ٦٨٩ مات

- الأشرف صلاح الدين خليل — ٦٨٩ ـ ٦٩٣ قتل
- الناصر محمد — ٦٩٣ ـ ٦٩٤ خلع، ٦٩٨ ـ ٧٠٨ اعتزل، ٧٠٩ ـ ٧٤١ مات
  - المنصور سيف الدين أبو بكر — ٧٤١ ـ ٧٤٢ خلع
  - الأشرف علاء الدين كجك — ٧٤٢ ـ ٧٤٢ خلع
  - الناصر أحمد شهاب الدين — ٧٤٢ ـ ٧٤٣ خلع
  - الصالح إسماعيل عماد الدين — ٧٤٣ ـ ٧٤٦ مات
  - الكامل شعبان سيف الدين — ٧٤٦ ـ ٧٤٧ قتل
  - المظفر أمير حاج — ٧٤٧ ـ ٧٤٨ قتل
    - المنصور محمد — ٧٦٢ ـ ٧٦٤ خلع
  - الناصر حسن — ٧٤٨ ـ ٧٥٢ خلع، ٧٥٥ ـ ٧٦٢ قتل
  - الصالح صالح صلاح الدين — ٧٥٢ ـ ٧٥٥ خلع
  - حسين
    - الأشرف شعبان — ٧٦٤ ـ ٧٧٨ قتل
      - الصالح حاجي — ٧٨٣ ـ ٧٨٤ خلع، ٧٩١ ـ ٧٩٢ خلع
      - المنصور علي — ٧٧٨ ـ ٧٨٣ مات
- الصالح علاء الدين علي — توفي ٦٨٧

الخلافة العباسية
في مصر

المستظهر الخليفة العباسي [٤٨٧ ـ ٥١٢]

المسترشد [٥١٢ ـ ٥٢٩]

المقتفي [٥٣٠ ـ ٥٥٥]

علي

الراشد [٥٢٩ ـ ٥٣٠]

المستنجد [٥٥٥ ـ ٥٦٦]

المستضيء [٥٦٦ ـ ٥٧٥]

الناصر [٥٧٥ ـ ٦٢٢]

الظاهر [٦٢٢ ـ ٦٢٣]

المستنصر [٦٢٣ ـ ٦٤٠]

المستعصم [٦٤٠ ـ ٦٥٦]

الحسن

أبو بكر

الحسن

[١] المستنصر

[٢] الحاكم بأمر الله

[٣] المستكفي بالله

محمد

[٦] المعتضد بالله

[٥] الحاكم بأمر الله

[٤] الواثق بالله إبراهيم

[١٠] [٧] المتوكل على الله

[٨] الواثق بالله عمر

[٩] المستعصم

[١٣] المستكفي بالله

[١٢] المعتضد بالله

[١١] المستعين بالله

[١٤] القائم بأمر الله

[١٥] المستنجد بالله

يعقوب

[١٦] المتوكل على الله

[١٧] المستمسك بالله

[١٨] المتوكل على الله

خلفاء بني العباس في القاهرة

الخليفة	السنوات	ملاحظات
١ ـ المستنصر	٦٥٩ ـ ٦٦٠	
٢ ـ الحاكم بأمر الله «الأول»	٦٦١ ـ ٧٠١	
٣ ـ المستكفي بالله «الأول»	٧٠١ ـ ٧٣٦	
٤ ـ الواثق بالله «الأول»	٧٣٦ ـ ٧٤٢	
٥ ـ الحاكم بأمر الله «الثاني»	٧٤٢ ـ ٧٥٣	
٦ ـ المعتضد بالله «الأول»	٧٥٣ ـ ٧٦٣	
٧ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٦٣ ـ ٧٨٥	للمرة الأولى... خلع
٨ ـ الواثق بالله «الثاني»	٧٨٥ ـ ٧٨٨	
٩ ـ المستعصم	٧٨٨ ـ ٧٩١	
١٠ ـ المتوكل على الله «الأول»	٧٩١ ـ ٨٠٨	للمرة الثانية
١١ ـ المستعين بالله	٨٠٨ ـ ٨١٥	خلع
١٢ ـ المعتضد بالله «الثاني»	٨١٥ ـ ٨٤٥	
١٣ ـ المستكفي بالله «الثاني»	٨٤٥ ـ ٨٥٤	
١٤ ـ القائم بأمر الله	٨٥٤ ـ ٨٥٩	خلع
١٥ ـ المستنجد بالله	٨٥٩ ـ ٨٨٤	
١٦ ـ المتوكل على الله «الثاني»	٨٨٤ ـ ٨٩٣	
١٧ ـ المستمسك بالله	٨٩٣ ـ ٩١٤	
١٨ ـ المتوكل على الله «الثالث»	٩١٤ ـ ٩٢٣	تنازل للسلطان العثماني سليم وتوفي عام ٩٥٠

ـ ١ ـ

المستنصر بالله

أحمد بن محمد الظاهر

٦٥٩ ـ ٦٦٠هـ

هو أحمد أبو القاسم ابن الخليفة العباسي الظاهر (٦٢٢ ـ ٦٢٣)، أخو الخليفة العباسي المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠)، عمّ الخليفة المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦)، كان داخل السجن عندما اقتحم التتار بغداد، فلما فتح السجّانون أبواب السجون أطلق أحمد أبو القاسم فهرب، وتمكن من الخروج من بغداد فاتجه إلى عرب العراق فبقي مدةً عندهم، فلما انتصر المماليك في عين جالوت على التتار، ثم طردوهم من الشام، توجه أحمد أبو القاسم إلى القاهرة، وكان الأمر فيها للسلطان بيبرس فوصل إليها في أوائل رجب من عام ٦٥٩، فأثبت نسبه فبايعه بالخلافة السلطان بيبرس، ثم قاضي القضاة تاج الدين، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام وذلك في شهر رجب من العام نفسه، وخطب له، ونقش اسمه على السكة، ولُقّب بالمستنصر على لقب أخيه، وخطب بالناس يوم الجمعة، ودعا للسلطان بيبرس، ثم صلى بالمسلمين.

قرر الخليفة المستنصر التوجه إلى العراق لقتال التتار فخرج، وخرج معه السلطان بيبرس يشيعه حتى دمشق، فجهّزه بجيش، وانضم إليه الملوك في بلاد الشام، وصاحب سنجار، والخليفة الحاكم بأمر الله الذي بويع في حلب الذي تنازل له بسبب أنه أكبر منه سناً، ولصلته بأواخر خلفاء بني العباس في بغداد، وسار معه تحت لوائه، واستطاع الخليفة المستنصر أن

يدخل مدينة الحديثة على نهر الفرات، وسار بعدها إلى هيت فدخلها أيضاً، فالتقى بعدها بجيشٍ من التتار، وحدثت معركة بين الطرفين، قتل فيها الخليفة المستنصر، ونجا منها الخليفة الحاكم بأمر الله مع عدد قليل من أنصاره، وذلك في الثالث من محرم عام ٦٦٠.

وبذا كانت خلافة المستنصر دون ستة أشهر بعشرة أيام.

ـ ٢ ـ

الحاكم بأمر الله

أحمد بن الحسن

٦٦١ ـ ٧٠١

هو الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الضبي ابن الخليفة المسترشد بالله ابن الخليفة المستظهر بالله. كان قد اختفى عندما سقطت بغداد بيد التتار فلما خفّ الطلب، وانخفضت موجة التدمير التتاري هرب مع جماعة من أنصاره، وسار إلى عرب بني خفاجة فأقام عندهم مدةً، ثم سار إلى دمشق، وأقام عند عيسى بن مهنا زمناً فطلبه الملك الناصر صاحب دمشق غير أن هجوم التتار قد كفّ عنه الطلب. فلما جاء الملك المظفّر إلى دمشق أرسل في طلبه الأمير قلج البغدادي فالتقى به وبايعه بالخلافة، ودعاه الظاهر بيبرس للسير إلى القاهرة وقد همّ بذلك غير أن أحمد أبا القاسم ابن الخليفة قد سبقه مما اضطره أن يعدل الرأي في السير إلى القاهرة وأن يتوجه إلى حلب حيث بويع هناك بالخلافة، وقد جهّزه صاحب حلب، وأرسل معه فرقة لقتال التتار، وإنقاذ بغداد منهم، وتلقّب بالحاكم بأمر الله، وسار إلى عانة والحديثة والتقى بالخليفة المستنصر الذي بويع في القاهرة، وتنازل له لأنه أصغر منه سناً، وقاتل تحت رايته والتقيا مع التتار في معركةٍ قتل فيها الخليفة المستنصر أحمد أبو القاسم، ونجا أحمد أبو العباس هذا مع عددٍ قليلٍ فاتجه إلى الرحبة، ومنها إلى عيسى بن مهنا فراسل الظاهر بيبرس فيه فطلبه فسار إلى القاهرة، ومعه ولده، ومجموعة من أتباعه، فأكرمه الظاهر

بيبرس، وأنزله بالبرج الكبير بالقلعة وخطب بمسجدها عدة مرات. وبعد أن أثبت نسبه بايعه السلطان وقاضي القضاة والعلماء وبقية الناس، وذلك في مطلع عام واحد وستين وستمائة (الثامن من محرم)، فبقي المسلمون سنةً دون خلافة من عام (٦٦٠ ـ ٦٦١)، كما مرت عليهم مدة ثلاث سنوات دون خلافة (٦٥٦ ـ ٦٥٩) أي منذ سقوط بغداد بيد التتار إلى قيام خلافة المستنصر بن الظاهر بالقاهرة.

بقي اللقب الذي اختاره الخليفة لنفسه وهو «المتوكل على الله» كما هو، لم يغيره، واستبقى الملك الظاهر بيبرس الخليفة في القاهرة، ولم يعد يفكر بإرساله إلى بغداد لقتال التتار واسترجاع بغداد كحاضرة للعباسيين، وإنما أراد تقوية مركز الخلافة بالقاهرة بوجود الخليفة فيها، وليس هو إلا رمز تقوى به السلطة، ويدعمه السلطان، ويقوى به أهل السنة أيضاً، وتعود إلى المسلمين خلافتهم ويقوى سلطانهم بالتفافهم حول الخليفة الذي هو رمز السلطة الإسلامية، وتكتسب الدولة المملوكية الصفة الشرعية، ويعظم نفوذها، وتزداد أهميتها لدى الدول الإسلامية الأخرى، وبالفعل فقد أصبح المماليك محط أنظار المسلمين وأقوى دولة لهم في تلك الحقبة من التاريخ.

وإلى جانب الخلافة العباسية في القاهرة أعلنت الدولة الحفصية في تونس وتنتسب هذه الدولة إلى أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني شيخ قبيلة هنتانة أحد بطون مصمودة التي قامت دولة الموحدين على جهودها، وكان أبو حفص أحد دعاة المهدي بن تومرت، وقد عين والياً على تونس، وخلفه في الولاية ابنه عبد الواحد عام ٦٠٢ الذي تزوج أخت الأمير الموحدي المنصور، وقام من بعده ابنه أبو زكريا، فلما هزم الموحدون أمام نصارى الأندلس في معركة العقاب عام ٦٠٩، وضعف نفوذهم في المغرب والأندلس أعلن أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي استقلاله بتونس عام ٦٢٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله عام ٦٤٧ فأعلن نفسه خليفةً للمسلمين عندما سقطت بغداد بيد التتار عام ٦٥٦، وبايعه على ذلك شريف مكة إدريس،

وتلقّب الخليفة الحفصي باللقب نفسه الذي تلقّب به الخليفة العباسي بالقاهرة.

إن مركز الخليفة بالقاهرة قد قوّى دولة المماليك، أو أن الملك الظاهر بيبرس قد دعّم دولته بشكلٍ قويٍ ورسّخ أركانها، وفي عام ٦٦٧ حج الظاهر بيبرس، وأزال أنصار الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرّب من العلماء، وبنى المدارس والمكتبات، وتزعم العالم الإسلامي.

وإذا كان صاحب حمص الملك الأشرف موسى الأيوبي، وصاحب حماه الملك المنصور الأيوبي قد أعلنا ولاءهما للظاهر بيبرس إلا أن المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل صاحب الكرك كان يرى نفسه أحق بالسلطنة وبحكم مصر من المماليك، وبقي يعمل لذلك، واستطاع بيبرس دعوته إلى معسكره في بيسان فاستجاب له، وسار إليه فقبض عليه، ودخل الكرك وعيّن عليها والياً من قبله عام ٦٦١، وبذا صفا له الوضع في بلاد الشام.

وإذا كان الصليبيون قد خفّ أثرهم، ولم يعد بإمكانهم إرسال حملات جديدة إلى ديار المسلمين لأنهم يئسوا من إحراز النصر، وانقطع أملهم في تحقيق أي هدف لهم بعد أن وجدوا كلمة المسلمين تميل إلى الوحدة، ولم يكن لدعم النصارى في المشرق، والذين يعيشون في كنف المسلمين منذ مدة ليست قصيرة، كبير فائدة، غير أن الظاهر بيبرس كان يخافهم لوجودهم في بلاد المسلمين، ولم يأمن مكرهم في أي وقتٍ من الأوقات، كما لم يأمن مكر التتار الذين خفّت هجمتهم الشرسة عما كانت عليه أيام جنكيزخان وهولاكو غير أن شرّهم لا يزال قريباً، ومتوقعاً في كل وقت، لذا فقد عمل السلطان الظاهر بيبرس مع الجهات الثانية وإن كانت ذات ضررٍ لكنه أقل من شرّ التتار والصليبيين، لقد تحالف مع امبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن باليولوج، وأرسل له وفداً وهدايا وذلك عام ٦٦٠، كما حالف امبراطور الدولة الرومانية الغربية، وملك صقلية ونابولي منفرد بن

فريدريك الثاني، وهو هنشتافن، وأرسل له وفداً برئاسة جمال الدين بن واصل، وكانت لا تزال في صقلية آنذاك بعض المدن الإسلامية، ويبدو من هذه التحالفات أن القصد منها عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ.

كما تحالف السلطان الظاهر بيبرس مع بركة خان أمير التتار في شمال بلاد القفجاق والسهول الشمالية وهو أول التتار الذين أسلموا من القبيلة الذهبية[١]، وكانت حاضرتها مدينة سراي[٢] على نهر الفولغا مكان ستالينغراد اليوم، وتزوج الظاهر بيبرس ابنة بركة خان، وشجّعه للعمل ضد ابن عمه هولاكو، وكانت خصومات بينهما، ويبدو أن القصد من هذا التحالف إنما هو ضد هولاكو.

أما من الناحية الداخلية فقد شجّع السلطان الظاهر بيبرس الأعراب للإغارة على التتار، وقد وصلت غاراتهم حتى بغداد، وعمل على إحراق المروج التي يعتمد عليها التتار لعلف حيواناتهم عندما يهاجمون بلاد الشام، وبنى الحصون التي تمتد من نهر العاصي إلى نهر الأردن. وعمل المنائر لمراقبة العدو، وتشعل فيها النار إذا داهم العدو البلاد فيعرف أهل المدن فيستعدون، كما تنتقل أخبار هذه الهجومات بسرعةٍ خاطفةٍ فإذا علمنا أن التتار كانوا يعتمدون على المباغتة والهجوم المفاجئ عرفنا أهمية هذه المنائر. وربط البلاد بشبكة من المواصلات المنظمة وخاصةً فيما يتعلق بالبريد، وقوّى الجيش والأسطول، وأكثر من استخدام المماليك من بلاد القفجاق، ويريد أن يعمل ضد الصليبيين والتتار في وقتٍ واحدٍ وليس لديه الخيار في ذلك فالتعاون بين الطرفين واضح تماماً، وقد كان الصليبيون يرشدون التتار على الطرق، ويسمحون لهم بالنزول في إماراتهم النصرانية، ويبنون الحصون فيها، لذا قرر المماليك طرد الصليبيين من الشام، وانتقل

---

(١) أسسها أباتو بن جوجي بن جنكيزخان، وتسلّم أمرها بركة خان ٦٥٤ ـ ٦٦٥.

(٢) سراي: تقع شرق ستالينغراد على الضفة اليسرى لنهر الفولغا.

السلطان الظاهر بيبرس إلى الشام لتفقد جيوشه هناك فأسرعت إليه وفود الإمارات الصليبية يظهرون النفاق، ويريدون أن يعرفوا الأهداف التي يرمي إليها السلطان من خلال تقوية جيشه، وتعزيز حصونه، فقابل هذه الوفود بالجفوة.

سار السلطان بيبرس عام ٦٦٤ إلى بلاد الشام واستولى على قيسارية وأرسوف الواقعة إلى الجنوب منها. وهاجم بعد عام (٦٦٥) قلعة صفد واستولى عليها، ثم أخذ يافا عام ٦٦٦، وهاجم في شهر رمضان من العام نفسه انطاكية من جهة البحر عن طريق السويدية وذلك ليحول دون وصول الإمدادات إليها، وقطع طريق ممر بيلان للغرض نفسه كي لا تصل إليها النجدات من أرمينيا الصغرى في كيليكيا، أما القوة الرئيسية المهاجمة للمدينة فكانت بيده يقودها بنفسه، ودخل المدينة في ١٤ رمضان. وفي عام ٦٦٩ هاجم إمارة طرابلس فاستولى على حصن الأكراد (قلعة الحصن)، وحصون عكار (القليعات ـ حلبا ـ عرقه) غير أن حملةً صليبيةً جاءت بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا فأنقذت طرابلس من الوقوع بيد السلطان بيبرس الذي ترك طرابلس وأسرع إلى مصر خوفاً من أن تسير تلك الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثامنة إلى مصر إذ سبق للويس التاسع ملك فرنسا أن سار إلى مصر، واحتل دمياط، واتجه إلى المنصورة، ولا تزال أحلامه تراوده في دخول مصر وخاصةً أنه كان قد أسر، وفدى نفسه بفداءٍ كبير فله ثأر إذن، ويريد الانتقام، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنه يعتقد أن احتلال مصر إنما هو السبيل لأخذ بيت المقدس، وبقاء الحماية له، غير أن الحملة الصليبية الثامنة قد اتجهت إلى تونس بناء على طلب أخي لويس التاسع الذي كان ملكاً لصقلية إذ كان يريد أن يغزو تونس، ويقاتل حكامها من الحفصيين، ولم يكن لويس التاسع ببعيد عن هذه الرغبة إلا أن الحملة ما كادت تصل إلى تونس حتى أصيب لويس التاسع بمرض الحمى ومات، وانتهت الحملة.

اطمأن بيبرس، وبعد أن كان يستعد لمواجهة الحملة ترك استعداده،

وانطلق ثانيةً إلى طرابلس عام ٦٧٠ غير أن أميرها بوهمند قد طلب المسالمة والصلح فأجابه السلطان الظاهر بيبرس إلى ذلك لأن حملةً صليبيةً جديدةً قد جاءت بقيادة الأمير إدوارد ونزلت في عكا، وكان الصلح بين الظاهر بيبرس وأمير طرابلس الصليبي بوهمند لمدة عشر سنوات.

وغزا السلطان بيبرس قبرص التي كان ملكها هيو الثالث من ألد أعداء الإسلام، وله أطماع صليبية واتخذ الصليبيون من بلاده قاعدةً ينطلقون منها وإليها للوصول إلى بلاد الشام أثناء الإبحار لكن الأسطول الإسلامي قد تحطّم عند شواطئ الجزيرة عام ٦٦٩ بسبب عاصفةٍ بحريةٍ.

وحارب أرمينيا الصغرى وهي بأرض كيليكيا انتقل إليها الأرمن بعد انسياح السلاجقة في آسيا الصغرى إثر معركة ملاذكرت، وأسسوا فيها دولةً كانت دعامةً للصليبيين طيلة أيامها، ووقفت تعادي الظاهر بيبرس وتدعم الصليبيين، وتمنع تصدير الخشب والحديد إلى مصر، واستطاع الانتصار عليها، وأسر عدداً من قادتها منهم ابن أميرها هيثوم الأول، وغدت هذه الدولة ضعيفةً بعد ذلك.

ويلاحظ أن الدول التي تحالف معها لم تدعم الصليبيين فأفاد هذا التحالف فعلاً، إذ رأينا أن الدولة الرومانية الغربية هي عادةً التي تدعم الصليبيين، وتحرّضهم قد وقفت على الحياد تقريباً على حين قاد الحملتين الصليبيتين الثامنة والتاسعة الفرنسيون والإنكليز إذ كانت الأولى منهما بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على حين كانت الثانية بقيادة الأمير الإنكليزي إدوارد.

وتكررت اعتداءات النوبيين وذلك بعد أن فتحها توران شاه أخو السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٨ فأرسل إليهم الظاهر بيبرس قوةً عام ٦٧٤ تمكنت من الانتصار على النوبيين، وأسر ملكهم الذي أرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس، ووضعت الجزية على أهل النوبة ودنقلة.

أما بالنسبة إلى التتار فقد توفي طاغيتهم هولاكو عام ٦٦٣، وتولى مكانه ابنه أبا قاخان، وبدأ يتصل بالصليبيين إذ كان يعطف على النصارى،

وتزوج ابنة امبراطور القسطنطينية. وقد حاول أباقاخان أن يعقد صلحاً مع المماليك مقابل الخضوع له، غير أن الظاهر بيبرس رفض ذلك فأغار المغول على الرحبة[١]. فأرسل بيبرس حملةً انتصرت على التتار عند نهر الفرات.

واتجه الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى آسيا الصغرى منطقة سلاجقة الروم الذين وقفوا بجانب التتار، فالتقى بجيش تتاري فهزمه، وقتل سبعة آلاف رجل منه، ودخل قيصرية حاضرة سلاجقة الروم، ولكنه لم يستطع تقوية حصون آسيا الصغرى التي احتلها للوقوف في وجه التتار حيث شعر بالتعب، وتوفي عام ٦٧٦، وكان ـ رحمه الله ـ طويل القامة، أسمر اللون، أزرق العينين، جهوري الصوت، في عينه أثر بياض، شجاعاً، وكانت وفاته في مطلع العام (٢٧ محرم).

تولى السلطنة بعد الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد محمد بركة خان[٢]، وكان عمره ثماني عشرة سنة، وكان أبوه قد عهد له بالسلطنة منذ عام ٦٦٣ أي عندما كان عمره أربع سنوات. ولم يلبث الملك السعيد في السلطنة سوى سنتين حيث انفض المماليك من حوله للهوه، وأرسل ليكون ملكاً على الكرك والشوبك، وعُيّن مكانه أخوه بدر الدين سلامش، وكان صغيراً لا يزيد عمره على السبع سنوات وعيّن الأمير سيف الدين قلاوون أتابكاً له، ولُقّب بدر الدين بالملك العادل، غير أنه لم يلبث أن خُلع، وبايعوا الأمير سيف الدين قلاوون[٣] ولقبوه بالملك المنصور، وذلك في

---

(١) الرحبة: موقع على مقربة من الضفة اليمنى لنهر الفرات، جنوب قرقيسا، ولعلها الرطبة اليوم.

(٢) الملك السعيد محمد بركة خان تزوج عام ٦٧٥ ابنة الأمير سيف الدين قلاوون الإلفي، ويُكنّى أبو المعالي ناصر الدين.

(٣) المنصور قلاوون: مملوك اشتراه علاء الدين آق سنقر أحد مماليك الملك العادل أبي بكر الأيوبي بألف دينار، وهو مبلغ ضخم، لذا عرف بالألفي، كما عُرف بالعلائي نسبةً إلى سيده علاء الدين، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فعُرف بالصالحي والنجمي أبو الناصر محمد.

العام نفسه في ٢١ رجب، ووصل الخبر إلى دمشق فوافق الأمراء، وبايعوه سوى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فلم يوافق ورفض البيعة.

وتوفي الملك السعيد في الكرك يوم الخميس ١١ ذي القعدة عام ٦٧٦، وتولى مكانه أخوه نجم الدين خضر أمر الكرك. ومرض الأمير نائب دمشق فانتقل إلى مصر، وبعدها أخذ الأمير شمس الدين سنقر الأشقر البيعة لنفسه سلطاناً من الأمراء، وتلقب بالملك الكامل، وأرسل جيشاً إلى غزة لحماية الأطراف.

أخذ الملك المنصور قلاوون الكرك من نجم الدين خضر، ثم بعث جيشاً بقيادة علم الدين سنجر الحلبي إلى غزة فانتصر على جيش الملك العادل، وتابع سيره إلى دمشق فخرج منها الملك الكامل، ودخل علم الدين سنجر المدينة، وتولّى حكمها حسام الدين لاجين ومعه علم الدين سنجر بأمر المنصور قلاوون، وبعد أن انطلق الملك الكامل باتجاه الرحبة عاد نحو الساحل فأخذ بعض الحصون والمدن، فأرسل له الملك المنصور قلاوون جيشاً لقتاله.

عندما علم التتار بتفرّق كلمة المسلمين ساروا نحو بلاد الشام فدخلوا مدينة حلب، وقتلوا وسبوا ما شاء لهم هواهم، وظنوا أن الملك الكامل سنقر الأشقر سيكون بجانبهم ضد السلطان المنصور قلاوون. وانطلق السلطان بجيشه نحو بلاد الشام، وراسل الملك سنقر ليكونا معاً ضد التتار فأجابه إلى ذلك واستعد، ولما سمع التتار بتوحد كلمة المسلمين رجعوا عن بلاد الشام، كما رجع السلطان قلاوون إلى مصر.

وخرج السلطان من مصر عام ٦٨٠، وطلب حشد الجيوش، والمساعدة من الملك الكامل سنقر فأجابه واتجهت الجموع نحو حمص، وجاء التتار من الشمال إلى عنتاب، واتجهوا نحو حمص، كما جاءت جموع منهم من جهة الرحبة من الشرق ونازلوا الأعراب، والتقى المسلمون بالتتار يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب وكان ميدان المعركة يمتد من شمال حمص قرب مسجد خالد بن الوليد حتى بلدة الرستن في منتصف

الطريق بين حمص وحماه، وهزم المسلمون في بداية الأمر، ووصل بعضهم إلى بحيرة حمص (قطينة)، ثم ثبت السلطان، وثبت معه سنقر الأشقر وكبار الأمراء وحملوا حملةً صادقة على التتار فهزموا بإذن الله، وانقسموا إلى فرقتين فرّت إحداهما باتجاه السلمية والبرية، وفرت الثانية باتجاه حلب والفرات وغرق قسم كبير منها في النهر عند محاولة عبوره. ورجع السلطان إلى مصر بعد هذا النصر، ورجع الملك الكامل سنقر الأشقر إلى صهيون وقد ودع السلطان من حمص.

وتوفي طاغية التتار أباقاخان بن هولاكو عام ٦٨٠، وخلفه أخوه أحمد، وكان قد أسلم بعد أن نشأ على النصرانية، وعندما آل إليه أمر الأسرة التتارية الإيلخانية التي أسسها أبوه هولاكو راسل السلطان المنصور قلاوون ليكون بينهما صلح لحقن دماء المسلمين وقد تمّ ذلك.

وفتح السلطان المنصور قلاوون المرقب وما حولها عام ٦٨٤، وخافه أمير طرابلس الصليبي فهدم الحصون تقرباً بناءً على رغبة السلطان. وبعد عامين استسلم الأمير سيف الدين سنقر الأشقر إلى نائب دمشق حسام الدين لاجين، وسار إلى المنصور قلاوون فأحسن استقباله. وفي عام ٦٨٨ سار السلطان إلى دمشق، ومنها إلى طرابلس فحاصرها وفتحها، وكانت قد بقيت بأيدي الصليبيين منذ عام ٥٠٣، وقد مهد السلطان لهذا الفتح بدخول المرقب والانتهاء من سنقر الأشقر، وتوحيد كلمة المسلمين، وتهديم حصون الإمارة.

توفي السلطان المنصور قلاوون عام ٦٨٩، وخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، وهو ولده الثاني وكان ولي عهده ابنه الأول علاء الدين علي قد توفي عام ٦٨٧. وكان قلاوون قد عزم على فتح عكا، فلما تولى ابنه سار إليها من مصر، ودعا الجند من دمشق، وطرابلس، وحماه فجاء المجاهدون وحاصروا عكا، وتم فتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى من عام ٦٩٠، وفر الصليبيون عن طريق البحر ممن لم يقتل، كما تسلم الأشرف صيدا، وصور، ثم أخذ نائبه على دمشق علم الدين سنجر

الشجاعي بيروت كما سُلّمت له جبيل، وطرطوس، ولم يبق للصليبيين في السواحل وبلاد الشام أي أثر. وهاجم بلاد الروم بعدها، وأرسل قوة إلى كسروان في جبيل لبنان لأن النصارى في هذه المنطقة كانوا دعماً للصليبيين.

وفي عام ٦٩٣ قتل الأشرف صلاح الدين خليل بيد أمراء المماليك، وهو في الصيد، واتفقوا على تعيين بيدرا نائبه وهو أول الذين رموه، ولُقّب بيدرا بالملك القاهر، غير أنه قُتل في اليوم الثاني بأمر كتبغا الذي اتفق بعدئذٍ مع علم الدين سنجر الشجاعي على تعيين محمد بن السلطان قلاوون، ولُقّب بالملك الناصر، وكان عمره إذ ذاك ثماني سنوات، ولم يمض إلا أقل من عام حتى خلع السلطان الناصر، وألزم على البقاء في البيت، وتولّى أمر السلطنة الأمير كتبغا، ولقب بالملك العادل.

توفي طاغية الدولة الإيلخانية المغولية أرغون بن أباقاخان بن هولاكو، وتولّى بعده ابنه قازان، وقد أظهر الإسلام على يد الأمير توزون - رحمه الله - ووزع الأموال بمناسبة إسلامه وتسمى باسم محمود، وشهد الجمعة، وهدّم الكنائس، وفرض الجزية على النصارى، وردّ كثيراً من المظالم في بغداد، وأسلم معظم التتار.

وذهب السلطان كتبغا إلى دمشق، ومعه نائبه على مصر حسام الدين لاجين، وأثناء العودة اتفق حسام الدين مع الأمراء وبايعوه بالسلطنة، ورجع كتبغا إلى دمشق، وأصبح حسام الدين لاجين السلطان بمصر، وتلقب بالمنصور، وما كان من كتبغا إلا أن أطاعه وذلك عام ٦٩٦.

وقتل أمراء المماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ونائبه سيف الدين منكوتمر عام ٦٩٨، وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً.

وفي مطلع عام ٦٩٩ وصلت إلى السلطان أخبار بمسير التتار إلى الشام، فاتجه إلى الشام في ٢ محرم، ومرّ على غزة فأقام بها ما يقرب من شهرين، وسار إلى دمشق فوصل إليها في الثامن من شهر ربيع الأول، ولم

يمكث فيها أكثر من أسبوع بسبب تحرّك التتار، وسار مع الجيوش نحو الشمال، ولم يتخلف عنه أحد، ووصل إلى وادي الخزندار عند وادي سلمية، فالتقى هناك مع التتار، فانهزم المسلمون وولوا الأدبار، ومرّ بعضهم على دمشق في طريقه إلى مصر، وهرب السلطان فسار عن طريق بعلبك والبقاع إلى دمشق، وأهل دمشق في خوف وذعر، ثم إن أعيان البلد قد اتفقوا مع شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية على الخروج للقاء التتار وطلب الأمان لأهل المدينة من قازان، وساروا إليه والتقوا به عند النبك في منتصف الطريق بين دمشق وحمص وكلم شيخ الإسلام ابن تيمية ملك التتار كلاماً قوياً كان فيه نفع للمسلمين، ورجعوا من عنده، وقد أخذوا الأمان للسكان، أما القتال فكان لا بدّ منه لأن قازان كان يريد أخذ الشام، ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار كي لا يقع قتال يلحق السكان بسببه أذى، غير أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قد طلب من نائب القلعة عدم تسليمها فأجابه إلى ذلك، ورفض قول كل من طلب التسليم.

وخطب يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الآخر لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة، ودُعي له على السدة بعد الصلاة، وقرئ عليه مرسوم بنيابة قبجق على الشام(١). وفي يوم السبت النصف من ربيع الثاني شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية، ومسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية بها، واحترق جامع التوبة بالعقيبة، وكان هذا من جهة الكرج والأرمن من النصارى الذين هم مع التتار قبحهم الله، وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً وحجاً غفيراً(٢).

وخرج ابن تيمية في جماعة من أصحابه يوم الخميس العشرين من ربيع الثاني إلى ملك التتار وعاد بعد يومين، ولم يستطع الاجتماع به إذ منعه عنه سعد الدين، والرشيد مسير الدولة المسلماني ابن يهودي. وانتشر الخوف في دمشق بشكلٍ رهيب.

---

(١) البداية والنهاية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وفي التاسع عشر من شهر جمادى الأولى يوم الجمعة غادر قازان دمشق بستين ألفاً من المقاتلين، وترك عليها مثلهم، وعاد إلى العراق على أمل أن يرجع في الخريف إليها لينطلق منها إلى مصر. وخلّف بولاي فذهب مع جماعة من التتار إلى جهة الغور فعاثوا الفساد، وعندما عاد سار إليه الشيخ ابن تيمية وكلمه في إطلاق سراح من كان معه من أسرى المسلمين، فأنقذ عدداً كبيراً منهم. ونادى نائب قلعة دمشق بأن الجيوش قادمة من مصر، فغادر التتار دمشق، ولم يتمكنوا من قلعتها، ورفض نائبها المصالحة، وكان مسير التتار عن طريق الغرب من جهة دمر في أوائل شهر رجب.

وفي شوال في العشرين منه سار جمال الدين الأفرم نائب سلطنة دمشق ومعه شيخ الإسلام ابن تيمية بجيش إلى بلاد جبيل وكسروان لما فعلوه من دعم للتتار وإغارة على بلاد المسلمين، ولما هم عليه من ضلالة فخرج أعيان البلاد إلى شيخ الإسلام فأظهروا الطاعة والندامة على ما فعلوا ووعدوا بإعادة ما أخذوا، واستتاب ابن تيمية عدداً منهم.

وفي عام ٧٠٠ شاع الخبر بقدوم التتار إلى الشام، وأنهم قد وصلوا إلى حلب، وأن أميرها قد فرّ إلى حماه، وتأخر قدوم السلطان من مصر، فسار إليه ابن تيمية، وذكره وطلب منه السرعة في الحركة بسبب تقدّم التتار، وإن تأخر فأهل الشام يعينون سلطاناً لهم يذود عنهم، وأن عليهم النصر فيما إذا استنصروا ولو لم تكن الشام تابعة لهم وأهلها من الرعايا له فكيف والأمر كذلك، فأسرع السلطان، ورجع ابن تيمية في ٢٧ جمادى الأولى، ثم جاءت الأخبار بعودة أمير التتار إلى العراق واجتيازه الفرات آيباً إلى الشرق لقلة جيشه. وعندها عاد نائب السلطان من معسكره في المرج إلى دمشق. وجاءت رسل من التتار إلى مصر مارةً بدمشق، ثم عادت بالطريق نفسه عام ٧٠١.

وتوفي الخليفة الحاكم بأمر الله في مطلع جمادى الآخرة عام ٧٠١ وبويع من بعده لابنه سليمان أبي الربيع، ولُقّب بالمستكفي بالله. وكانت مدة خلافة المتوكل على الله أربعين سنة.

ـ ٣ ـ

المستكفي بالله

سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله

٧٠١ ـ ٧٣٦

هو أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولد في الخامس عشر من شهر المحرم عام أربعة وثمانين وستمائة، وبويع بالخلافة بعهد من أبيه في الثامن عشر من جمادى الأولى من عام واحد وسبعمائة، في اليوم الثاني من وفاة أبيه.

وفي عهده فتحت جزيرة أرواد على ساحل بلاد الشام مقابل مدينة انطرطوس (طرطوس اليوم)، وأنقذت من أيدي الصليبيين، وهي آخر مواقعهم في بلاد الشام.

وجاءت الأخبار في شهر رجب بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فاستعد السلطان الناصر محمد بن قلاوون للخروج من مصر والتوجّه إلى الشام لحرب التتار، وفي النصف الثاني من شهر شعبان من العام نفسه (٧٠٢) بدأت الأمراء تصل من مصر، وبدأت أفواج التتار تتدفق نحو بلاد الشام، وفر الجيش من حلب ومن حماه نحو دمشق، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك، والتقى شيخ الإسلام ابن تيمية مع جند حماه الفارين في القطيفة.

وخرجت العساكر الشامية من دمشق في ٢٤ شعبان، وعسكرت بناحية الكسوة، وذلك ليجنبوا مدينة دمشق الخراب والاعتداء على الأطفال والعجزة من الرجال وسبي النساء، ولأن المرج كان كثير المياه يومذاك لا

يصلح للقتال. وجاءت الجيوش من مصر، والتقت مع أهل الشام بناحية الكسوة، وعلى رأس هذه الجيوش الخليفة المستكفي والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي يوم السبت الثاني من شهر رمضان التقت هذه الجيوش مجتمعة في مرج الصُّفَّر، وطُلب من أهل دمشق حماية الأسوار وحفظ الأمن، والتشبُّث بالقلعة.

أما التتار فقد وصلوا إلى قارة ومنها انتقلوا إلى القطيفة، وعندما اقتربوا من دمشق تركوها عن يمينهم، وتحركوا نحو الكسوة حيث الجيش المملوكي بانتظارهم، ولم يتعرضوا للمدينة أبداً، وإنما رغبوا في قتال الجند فقد رأوا أنهم إن أحرزوا النصر فإن المدينة في قبضتهم ويفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون، وإن هزموا فلا حاجة لهم بالمدينة وليس من الضرورة ترك جنودهم يمرحون في المدينة ويفقدون عزيمة القتال، وربما إذا اتجهوا إلى دمشق تبعهم الجند الذين هم في مرج الصُّفّر وجعلوهم بين نارين نار أهل البلد من الداخل ونار الجند من الخلف.

واحتدمت المعركة بعد ظهر السبت، وثبت الخليفة، كما ثبت السلطان، وانتهت بهزيمة التتار الذين فروا إلى أعالي التلال، ثم فروا، ورجع الناس من القتال إلى دمشق يوم الاثنين في الرابع من شهر رمضان، وفي اليوم الثاني (الثلاثاء) دخل السلطان دمشق، وعرفت تلك المعركة باسم معركة «شقحب» حيث دار القتال، وهي في الطرف الشمالي من مرج الصُّفَّر، ولا يزال الاسم معروفاً إلى الآن، وتقوم مزرعة اليوم هناك تحمل هذا الاسم.

وسارت حملة إلى بلاد النوبة عام ٧٠٤، وانتصرت على النوبيين الذين نقضوا العهد مع المسلمين، وبدؤوا في اعتداءاتهم، وكرروا ما قاموا به عام ٦٧٠ عندما أغار الملك داود ملك النوبة على أسوان، وهذا ما أجبر المسلمين إلى حربهم واحتلال جزءٍ من أرضهم أيام الظاهر بيبرس عام (٦٧٤)، وعُقدت معاهدة جديدة بين الطرفين.

وفي عام ٧٠٨ خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون قاصداً الحج

فمرّ على الكرك، ونصب له جسر على وادٍ فانكسر به، ولكنه نجا، فأقام بالكرك، واعتزل السلطة، وكتب إلى القضاة بمصر يعلمهم اعتزاله وكذا قضاة الشام، فبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالسلطنة في الثالث والعشرين من شهر شوال، ولقب بالملك المظفّر، غير أن الناصر محمد رجع يطلب العودة إلى الملك في رجب عام ٧٠٩، ووافقه جماعة من الأمراء فدخل دمشق في شهر شعبان، وسار بعدها إلى مصر فدخلها في شهر رمضان، وفرّ المظفر ركن الدين بيبرس من قلعة الجبل في أواخر شهر رمضان فدخلها الناصر في عيد الفطر، وقُبض على المظفر وقتل، وهكذا عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة للمرة الثالثة.

وأرسل السلطان الناصر حملة إلى آسيا الصغرى بإمرة أمير الشام تنكز عام ٧١٥ فاستطاعت دخول مدينة ملاطية على نهر الفرات.

وأرسل حملة في العام نفسه (٧١٥) إلى بلاد النوبة، انتصرت على النوبيين، وسارت حملة أخرى في العام التالي، وتمكنت من إقامة ملك مسلم على النوبة هو (عبد الله برشنبو) ابن أخ الملك داود ملك النوبة. وهذا ما سهل انتشار الإسلام هناك، ثم دخل السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون دنقلة عام ٧١٨، ودخلت بعدها بلاد النوبة في الإسلام.

وفي عام ٧١٧ خرجت النصيرية عن الطاعة في شمال غربي بلاد الشام، وأطلقوا على رجلٍ منهم محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وعاثوا في البلاد الفساد، ونادوا لا إله إلا علي، فأرسل إليهم السلطان حملة أخضعتهم.

وقبض السلطان على الخليفة عام ٧٣٦ ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في آخر العام (ذي الحجة) إلى بلدة قوص في جنوبي مصر، كما نفى معه أهله، وبقي الخليفة في منفاه حتى توفي عام ٧٤٠.

قال ابن حجر العسقلاني عن الخليفة المستكفي «كان فاضلاً، جواداً، حسن الخط جداً، شجاعاً». وتولى الأمر بعده ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله، ولُقّب بالواثق بالله.

ــ ٤ ــ

الواثق بالله

إبراهيم بن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله

٧٣٦ ــ ٧٤٢

هو إبراهيم بن محمد المستمسك بأمر الله بن الحاكم بأمر الله.

كان الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن قد عهد بالخلافة لابنه محمد، ولقبه بالمستمسك بأمر الله غير أنه قد مات في حياة أبيه، وعطفاً من الجد على ولد ولده فقد عهد إليه بالخلافة ظناً منه أنه يصلح لها، ولكنه لم يلبث أن وجده منهمكاً في اللعب، منصرفاً إلى صداقة الأراذل لذا فقد عدل عنه، وعهد إلى ابنه أبي الربيع سليمان الذي تكلمت عنه، وتولّى الأمر أبو الربيع سليمان وتلقّب باسم المستكفي، غير أن إبراهيم هذا لسوء في طباعه كان يمشي بالنميمة بين عمه المستكفي وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا ما أدى إلى الوقيعة بين الاثنين بعد أن كانا كالأخوين، وقبض السلطان على الخليفة المستكفي، ونفاه وأهله إلى قوص، وقد بقي فيها حتى توفي عام ٧٤٠، وقد عهد قبل وفاته إلى ابنه أحمد.

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فمذ نفى الخليفة بايع إبراهيم هذا باسم الواثق بالله، ولم ينظر إلى عهد المستكفي، ولما حضرت الوفاة السلطان ندم على ما فعل لأن الواثق بالله لم يكن أهلاً للخلافة فأوصى بعزله، ومبايعة أحمد بن سليمان المستكفي، وتم ذلك في غرة شهر المحرم من عام اثنين وأربعين وسبعمائة، ولقّب أحمد هذا باسم جده الحاكم بأمر الله، كما كنّي بكنيته أبي العباس.

وكان العامة يلقبون الواثق بالله إبراهيم المستعطي بالله، ويصفونه بسوء السيرة، وقد ترجم له ابن فضل الله في المسالك فقال: «عهد إليه جده ظناً أن يكون صالحاً، أو يجيب لداعي الخلافة صائحاً، فما نشأ إلا في تهتّك، ولا دان إلا بعد تنسّك، أغري بالقاذورات، وفعل ما لم تدع إليه الضرورات، وعاشر السفلة والأراذل، وهان عليه من عرضه ما هو باذل، وزين له سوء عمله فرآه حسناً، وعمي عليه فلم ير مسيئاً إلا محسناً، وغواه اللعب بالحمام، وشري الكباش للنطاح، والديوك للنقار، والمنافسة في المعز الزرائبية الطوال الآذان، وأشياء من هذا، ومثله مما يُسقط المروءة ويُثلم الوقار، وانضم هذا إلى سوء معاملة، ومشترى سلع لا يوفي أثمانها، واستئجار دور لا يقوم بأجرها، وتحيلاً على درهم يملأ به كفه، وسحت يجمع به فمه، وحرام يطعم منه ويطعم حرمه، حتى كان عُرضةً للهوان، وأكلةً لأهل الأوان.

فلما توفي المستكفي والسلطان عليه في حدة غضبه، وتياره المتحامل عليه في شدة غلبه، طلب هذا الواثق المغتر، والمائق إلا أنه غير المضطر، وكان ممن يمشي إلى السلطان في عمه بالنميمة، ويعقد مكائده على رأسه عقد التميمة، فحضر إليه وأحضر معه عهد جده، فتمسك السلطان في مبايعته بشبهته، وصرف وجه الخلافة إلى جهته، وكان قد تقدّم نقض ذلك العهد، ونسخ ذلك العقد، وقام قاضي القضاة أبو عمر بن جماعة في صرف رأي السلطان عن إقامة الخطبة باسم الواثق فلم يفعل، واتفق الرأيان على ترك الخطبة للاثنين، واكتفي فيها بمجرد اسم السلطان، فرحل بموت المستكفي اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها، وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومَرْوَتَها، فكأنما كان آخر خلفاء بني العباس وشعارها عليه لباس الحداد، وأغمدوا تلك السيوف الحداد، ثم لم يزل الأمر على هذا حتى حضرت السلطان الوفاة، وقرع الموت صفاه، فكان مما أوصى به ردّ الأمر إلى أهله، وإمضاء عهد المستكفي لابنه، وقال: الآن حصحص الحق، وحنا على مخالفيه ورق، وعزل إبراهيم

وهزل، وكان قد رعى البهم، وستر اللؤم بثياب أهل الكرم، وتسمّن وشحمه ورم، وتسمّى بالواثق وأين هو من صاحب هذا الاسم؟ الذي طالما سرى رعبه في القلوب، وأقضّت هيبته مضاجع الجنوب، وهيهات من النسر التماثيل، ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل، وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد، والهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد، وقد عاد الآن يعضّ يديه، ومن يهن يسهل الهوان عليه».

وتوفي الناصر محمد بن قلاوون في ذي الحجة من عام ٧٤١ بعد أن أوصى بخلع الخليفة إبراهيم وبيعة أحمد بن المستكفي.

ـ ٥ ـ

الحاكم بأمر الله
أحمد بن سليمان المستكفي
٧٤٢ ـ ٧٥٣

هو أحمد بن الخليفة المستكفي سليمان، ويُكنّى بأبي العباس، ويُلقّب بالحاكم بأمر الله على كنية ولقب جده. وقد تولّى الخلافة في مطلع شهر المحرم من عام ٧٤٢، إذ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أوصى بذلك، وكان الخليفة المستكفي قد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد هذا إذ لم يعترف بخلعه وبيعة ابن أخيه إبراهيم.

ولما تولى أمر السلطنة المنصور سيف الدين أبو بكر بن السلطان الناصر عقد مجلساً يوم الخميس الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٧٤١، وطلب الخليفة إبراهيم وولي عهد المستكفي أحمد والقضاة، وقال: من يستحق الخلافة شرعاً؟ فقال ابن جماعة: إن الخليفة المستكفي المتوفى بمدينة قوص أوصى من بعده بالخلافة لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص، وثبت ذلك عندي بعد ثبوته عند نائبي بمدينة قوص، فخلع السلطان حينئذٍ إبراهيم، وبايع أحمد، وبايعه القضاة. وكان لقبه «المستنصر» ثم لقب «الحاكم»(١).

وحدث في عهده حدث أن توالى على أمر السلطنة ثمانية من أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعضهم بعد بعض في مدة لا تزيد على عشر سنوات.

---

(١) الدرر: ابن حجر.

خلع السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر لفساده وشربه الخمور، ونفي إلى قوص ثم قتل بها، وتسلّم أمر السلطنة بعده أخوه الأشرف علاء الدين كجك، ثم خلع من عامه، وخلفه أخوه الناصر شهاب الدين أحمد، ولم يلبث أن خلع عام ٧٤٣، وقام بالأمر أخوه الصالح إسماعيل، وبقي حتى مات عام ٧٤٦، فقلّد الخليفة بعده أخاه الكامل شعبان، فقتل بعد أقل من عام، فتسلّم أمر السلطنة أخوه المظفر أمير حاج، وقتل بعد أقل من عام، وخلفه أخوه الناصر حسن وحكم ما يقرب من أربع سنوات، وفي عهد هذا السلطان انتشر الطاعون في البلاد بشكل واسع، وفي عام ٧٥٢ خلع الناصر حسن، وولي مكانه أخوه الملك الصالح صالح، واستمر حتى عام ٧٥٥.

ومات الخليفة الحاكم بأمر الله في منتصف عام ٧٥٣ بمرض الطاعون.

ولم يحدث في أيام هذا الخليفة أحداث خارجية ذات شأن، وإنما كانت الأحداث الداخلية هي شاغل الناس، أو أن هدوء الأوضاع الخارجية جعلت الأمراء ينصرفون إلى قضاياهم فيشتغل بعضهم ببعض ولهذا كثر خلع السلاطين وقتلهم، والانتقام من بعض الأمراء.

ـ ٦ ـ

المعتضد بالله

أبو بكر بن سليمان المستكفي

٧٥٣ ـ ٧٦٣

هو أبو بكر بن الخليفة سليمان المستكفي، يُكنّى بأبي الفتح، ويُلقّب بالمعتضد بالله، بويع بالخلافة بعد موت أخيه الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وبقي في الخلافة مدة عشر سنوات إذ توفي عام ثلاثة وستين وسبعمائة في شهر جمادى الأولى، وكان خيّراً، متواضعاً، محباً لأهل العلم.

وقد خلع السلطان الصالح صلاح الدين صالح عام ٧٥٥، وأعيد الناصر حسن، وبقي في السلطنة مدة سبع سنوات ثم قتل عام ٧٦٢، وأعطي السلطنة ابن أخيه المنصور محمد بن المظفر أمير حاج، ولم تمر عليه سوى سنتين حتى خلع.

وبقيت البلاد في شبه عزلة، وكل الاهتمام منصب على الأوضاع الداخلية.

ـ ٧ ـ

المتوكل على الله

محمد بن أبي بكر المعتضد بالله

٧٦٣ ـ ٧٨٥

هو محمد بن أبي بكر المعتضد بالله، يُكنّى بأبي عبد الله، ولي الخلافة بعهد من أبيه بعد موته في جمادى الأولى من عام ٧٦٣، واستمرت أيامه مدة اثنتين وعشرين سنة خلع بعدها، وتولى الخلافة اثنان من أبناء عمومته، وهما الواثق بالله بن الواثق بالله إبراهيم، وأخوه المستعصم بن الواثق بالله إبراهيم، ثم أعيد المتوكل على الله عام ٧٩١، وتولى أمر الخلافة مدة سبعة عشر عاماً أي كانت السنوات التي تولى فيها الخلافة تسعاً وثلاثين سنة.

وقد حدث في عهده خلع المنصور محمد عام ٧٦٤ وتولية السلطنة إلى ابن عمه الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون. وفي عام ٧٦٧ استولى الفرنجة ومعهم ملك قبرص على الإسكندرية، وذلك أن الحروب الصليبية لم تنته بطرد الصليبيين من عكا عام ٦٩٠ والانتهاء منهم من كل بلاد الشام أيام الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور قلاوون، ثم طردهم من جزيرة ارواد عام ٧٠٢ أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وإنما استمرت الحروب الصليبية لأن كثيراً من الصليبيين قد لجؤوا إلى جزيرة قبرص بعد طردهم من بلاد الشام، واتخذوا هذه الجزيرة مستقراً لهم، وأخذوا يقومون بالإغارة على بلاد المسلمين كلما وجدوا الفرصة سانحةً لهم، وكانت أسرة لوزجنان التي حكمت الجزيرة في تلك الآونة

تقوم بهذه المهمة، وقد تولى أمر هذه الأسرة وحكم الجزيرة عام ٧٦٠ بطرس الأول، وقد زار غربي أوروبا، ودعا البابا وملوك أوروبا لمساعدته للقيام بحربٍ ضد المسلمين، فحصل على بعض التأييد، وسار مع من جاءه من الصليبيين واحتلوا الإسكندرية.

وفي عام ٧٧٨ قتل الأشرف شعبان، وسُلّمت السلطنة إلى ابنه المنصور علي فبقي في أمره حتى توفي عام ٧٨٣، وتسلّم الأمر من بعده أخوه الصالح حاجي لمدة سنة فخلع بعدها، وأخذ الأمر السلطان الظاهر برقوق، وهو أول المماليك الجراكسة.

أما الخليفة المتوكل فقد أُمر بالخروج إلى مدينة قوص من قبل أمير العساكر أيبك البدري الذي جاء بزكريا بن الخليفة الواثق، وأعطاه الخلافة دون بيعة ولا إجماع، فسافر الخليفة إلى قوص، ثم رجع إلى بيته، وبعد خمسة عشر يوماً عاد إلى الخلافة، وأزيح زكريا، ولم يستقر في مركز الخلافة سوى خمسة عشر يوماً وذلك في عشرين من شهر ربيع الأول من عام ٧٧٩.

وفي عام ٧٨٥ قبض السلطان برقوق على الخليفة المتوكل على الله وسجنه في قلعة الجبل، وخلعه من الخلافة، وبايع الخليفة محمد بن الواثق بالله إبراهيم، ولقّبه بلقب أبيه الواثق بالله، وبقي في الخلافة مدة ثلاث سنوات حيث توفي عام ٧٨٨، وطلب الناس من السلطان برقوق إعادة المتوكل على الله فلم يقبل، وإنما طلب زكريا أخا الواثق والذي جلس على كرسي الخلافة مدة خمسة عشر يوماً دون بيعة عام ٧٧٩، وولاه الخلافة وأُطلق عليه اسم المستعصم بالله، وبقي بالخلافة حتى عام ٧٩١ حيث ندم السلطان برقوق على ما فعل، فأخرج المتوكل على الله من السجن، وأعاد إليه الخلافة، وخلع المستعصم بالله الذي لزم بيته حتى مات. واستمر المتوكل على الله في الخلافة حتى عام ٨٠٨.

وفي شهر جمادى الآخرة من العام نفسه (٧٩١) قُبض على السلطان برقوق، وسُجن في الكرك، وأعيد السلطان الصالح حاجي إلى السلطنة فغيّر

لقبه من الصالح إلى المنصور، ولكنه لم يمكث في السلطنة سوى ثمانية أشهر حيث أخرج السلطان الظاهر برقوق من السجن، وأعيد إلى السلطنة، وخلع المنصور حاجي في شهر صفر من عام ٧٩٢، وانتهى عهد الأسرة القلاوونية بل انقضى حكم المماليك البحرية، وجاء عهد المماليك الجراكسة.

الفصل الثالث

المماليك الجراكسة «البرجية»

٧٩٢ ـ ٩٢٣

١ ـ الظاهر برقوق:	٩ سنوات	٧٩٢ ـ ٨٠١	للمرة الثانية		توفي
٢ ـ الناصر فرج:	٧ سنوات	٨٠١ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٣ ـ المنصور عبد العزيز:	ثلاثة أشهر	٨٠٨ ـ ٨٠٨		ابن برقوق	خلع
٤ ـ الناصر فرج	٧ سنوات	٨٠٨ ـ ٨١٥	للمرة الثانية	ابن برقوق	قتل
الخليفة: أعيد	خمسة أشهر	٨١٥ ـ ٨١٥			
٥ ـ المؤيد:	٩ سنوات	٨١٥ ـ ٨٢٤		شيخ الاصطبل	توفي
٦ ـ المظفر أحمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤		ابن المؤيد	خلع
٧ ـ الظاهر ططر:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٤			توفي
٨ ـ الصالح محمد:	عدة أشهر	٨٢٤ ـ ٨٢٥		ابن الظاهر ططر	خلع
٩ ـ الأشرف برسباي:	١٦ سنة	٨٢٥ ـ ٨٤١			توفي
١٠ ـ العزيز يوسف:	عدة أشهر	٨٤١ ـ ٨٤٢		ابن برسباي	خلع
١١ ـ الظاهر جقمق:	١٥ سنة	٨٤٢ ـ ٨٥٧			توفي
١٢ ـ المنصور عثمان:	أقل من شهر ونصف	٨٥٧ ـ ٨٥٧		ابن الظاهر جقمق	خلع
١٣ ـ الأشرف إينال:	٧ سنوات	٨٥٧ ـ ٨٦٥			توفي
١٤ ـ المؤيد أحمد:	أقل من سنة	٨٦٥ ـ ٨٦٥		ابن الأشرف إينال	خلع
١٥ ـ الظاهر خشقدم:	٧ سنوات	٨٦٥ ـ ٨٧٢			توفي
١٦ ـ الظاهر بلباي:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٧ ـ الظاهر تمربغا:	شهرين	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٨ ـ خير بك:	ليلة واحدة	٨٧٢ ـ ٨٧٢			خلع
١٩ ـ الأشرف قايتباي:	٢٩ سنة	٨٧٢ ـ ٩٠١			توفي

٢٠ ـ الناصر محمد:	سنة واحدة	٩٠١ ـ ٩٠٢	ابن الأشرف قايتباي	خلع
٢١ ـ قانصوه:		٩٠٢ ـ ٩٠٣		قتل
٢٢ ـ الناصر محمد: أعيد		٩٠٣ ـ ٩٠٤	للمرة الثانية ابن الأشرف قايتباي	قتل
٢٣ ـ الظاهر قانصوه:		٩٠٤ ـ ٩٠٥		خلع
٢٤ ـ جانبلاط:		٩٠٥ ـ ٩٠٦		قتل
٢٥ ـ العادل طومان باي:	عدة أشهر	٩٠٦ ـ ٩٠٦		قتل
٢٦ ـ الأشرف قانصوه الغوري:	١٧ سنة	٩٠٦ ـ ٩٢٢		قتل
٢٧ ـ طومان باي:	أقل من سنة	٩٢٢ ـ ٩٢٣		قتل

موطن الجراكسة هو الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى هذا اليوم، ويقولون هم عن أرضهم بلاد الأديغة إذ أن الأديغة هو الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم، أو يعرف هكذا بلغتهم الخاصة، وتشكل أرضهم الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس الممتدة بين بحري الأسود والخزر والتي كانت تعرف يومذاك باسم بلاد القفجاق، وغدت تلك الجهات آنذاك مسرحاً للصراع بين مغول فارس أو الدولة الإيلخانية ومغول القفجاق أو الأسرة الذهبية، وهذا الصراع جعل أعداداً من أبناء الجراكسة تدخل سوق النخاسة، وتنتقل إلى مصر فاشترى السلطان المنصور قلاوون أعداداً منهم ليتخلص من صراع المماليك البحرية، وليضمن الحفاظ على السلطنة له ولأبنائه من بعده، وقد أطلق على هؤلاء المماليك الجدد المماليك الجراكسة نسبة إلى أصولهم التي ينتمون إليها، كما أطلق عليهم اسم المماليك البرجية نسبة إلى القلعة التي وضعوا فيها، وقد حرص المنصور قلاوون على تربية مماليكه التربية الدينية والعسكرية في وقت واحد أو أن التربية الدينية لا بدّ من أن يكون من أهدافها التدريب على القتال وحسن استعمال الأسلحة إذ لا يمكن فصل الدين عن أي جانب من جوانب الحياة، ولم يسمح السلطان لهؤلاء المماليك بمغادرة القلعة مطلقاً. فلما توفي المنصور قلاوون وخلفه ابنه الأشرف خليل سمح لهؤلاء المماليك بالنزول من القلعة أثناء النهار والعودة إليها ليلاً. وبعد مدة أصبحت أعداد هؤلاء الجراكسة كثيرة، وغدوا أصحاب

رتبٍ عسكرية ومنهم الأمراء والقادة، واستطاعوا أن يتسلموا السلطنة وأن يحكموا البلاد.

ولما كان هؤلاء كلهم بمستوىً واحدٍ لذا فقد سادهم جو من الحسد، كما ساد من سبقهم من المماليك، فكان القتال بينهم، ومحاولة استلام السلطة فما أن يصل أحدهم إلى السلطنة حتى يحاول أن يؤسس أسرةً حاكمةً غير أن آخر لا يلبث أن يقبض على سابقه وخاصة الصغار منهم فيخلعه، أو يقتله ويقوم مقامه.

لقد حكم المماليك الجراكسة مصر، والشام، والحجاز مدة تزيد على إحدى وثلاثين ومائة سنة (٧٩٢ ـ ٩٢٣)، وتعاقب في هذه المدة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً، لم تزد مدة الحكم على خمسة عشر عاماً، إلا لأربعة منهم وهم: الأشرف قايتباي، وقد حكم ٢٩ سنة (٨٧٢ ـ ٩٠١)، والأشرف قانصوه الغوري وقد حكم ١٧ سنة (٩٠٦ ـ ٩٢٢)، والأشرف برسباي وحكم ١٦ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤١)، والظاهر جقمق وحكم ١٥ سنة (٨٤٢ ـ ٨٥٧)، وهناك ست سلاطين حكموا عدة سنوات أو أكثر من سنة وهم: الظاهر برقوق وحكم تسع سنوات (٧٩٢ ـ ٨٠١)، وهي المرة الثانية بعد خلع المنصور حاجي من المماليك البحرية أما حكمه في المرة الأولى فتعد ضمن حكم المرحلة السابقة، وابنه الناصر فرج وقد حكم مرتين في كل مرة سبع سنوات (٨٠١ ـ ٨٠٨) (٨٠٨ ـ ٨١٥)، والمؤيد وحكم تسع سنوات (٨١٥ ـ ٨٢٤)، والأشرف إينال وحكم سبع سنوات (٨٥٧ ـ ٨٦٥)، والظاهر خشقدم وحكم سبع سنوات أيضاً (٨٦٥ ـ ٨٧٢).

أما السلاطين الخمسة عشرة الباقون فكانت مدة حكم الواحد أقل من سنة بل إن بعضهم لم تزد مدة حكمه على الليلة الواحدة إذ أن خير بك قد تسلّم السلطنة مساءً وخلع صباحاً وذلك عام ٨٧٢، وأن الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد تسلّم السلطنة مرتين لم يدم حكمه في الأولى السنة (٩٠١ ـ ٩٠٢) وفي المرة الثانية (٩٠٣ ـ ٩٠٤) كذلك وقتل بعدها. هذا بالإضافة إلى أن الخليفة قد تسلم السلطنة خمسة أشهر عام (٨١٥).

ويلاحظ أن السلطان كان يتسلّم الأمر ويحكم مدةً، ويعهد لابنه من بعده وغالباً ما يكون صغيراً فيكون عليه وصيّاً أو نائباً عنه أو مُدبّراً لأمور المملكة، وهو من المماليك أيضاً، ثم لا يلبث أن يقوم بالاستبداد بالسلطنة، وخلع السلطان المعهود إليه بالأمر أو قتله، لذا لم تكن هناك أسر تولت أمر السلطنة، ولا يستثنى من هذا سوى الظاهر برقوق الذي حكم ولده المنصور فرج مدة سبع سنوات، ثم خلع، وأعطيت السلطنة لولده الثاني المنصور عبد العزيز مدة ثلاثة أشهر فقط، ثم أعيد المنصور فرج فحكم سبع سنوات أخرى، وبذا يكون قد تولى ولدان من أبناء السلطان برقوق الأمر، وهذا لم يتم لغيره من سلاطين المماليك الجراكسة هذا بالإضافة إلى أن هذه المدة قد قاربت الخمس عشرة سنة وهذا أيضاً لم يتم لغيره. وقد تكررت هذه الظاهرة سبع مرات (يحكم السلطان ويرثه ابنه لمدة قصيرة لا تصل غالباً إلى السنة). فبالإضافة إلى الظاهر برقوق حدثت مع المؤيد، والظاهر ططر، والأشرف برسباي، والظاهر جقمق، والأشرف إينال، والأشرف قايتباي، وإذا كان الناصر محمد بن الأشرف قايتباي قد حكم مرتين إلا أنه في كل مرة لم تطل مدته إلى السنة، إذن كانت تتوالى مدة حكم طويلة لسلطانٍ جديدٍ، وتزيد على خمس سنوات، وتنتهي بالوفاة الطبيعية، ويعقبها مدة قصيرة لولده تقل عادةً عن السنة يعقبها الخلع أو القتل.

ويلاحظ في الخمسة السلاطين الأواخر أن نتيجة القتل هي السائدة فقد خلع الظاهر قانصوه بعد سنة من تسلّمه أمر السلطنة رغم أنه جديد، وقتل جانبلاط قبل مرور سنة من تسلمه الأمر رغم أنه جديد أيضاً، وخنق العادل طومان باي بعد عدة أشهر، رغم أنه جديد، ولما عرض أمر السلطنة على الأشرف قانصوه الغوري رفضه وبكى خوفاً من القتل رغم أن سنه كانت تزيد على الستين، ولم يتسلم الأمر إلا بشرط ألا يقتلوه ولكنه قتل على أيدي العثمانيين بعد أن حكم سبعة عشر عاماً، وكانت عاقبة خلفه طومان باي مثله إذ قتله العثمانيون بعد معركة الريدانية عام ٩٢٣، ودخلوا

القاهرة، وأزالوا المماليك عن السلطنة، وتنازل لهم العباسيون عن الخلافة، وانتقلت بذلك أنظار العالم الإسلامي إلى استانبول التي غدت مركز الخلافة، وتحوّلت عن القاهرة التي أصبحت مدينة عادية كغيرها من حواضر أمصار العالم الإسلامي، ودرجت مع مراكز الخلافة السابقة مثل بغداد، ودمشق.

وإذا كان السلطان الظاهر برقوق قد تسلّم للمرة الأولى مدة ست سنوات (٧٨٥ ـ ٧٩١)، ثم قبض عليه وسجن بالكرك، وأعيد السلطان المنصور حاجي لمدة سبعة أشهر... ثم رجع الظاهر برقوق إلى السلطنة، فإن مدة سلطنة الظاهر برقوق الأولى لم أعدها ضمن تسلّم المماليك الجراكسة الحكم لأن حكمه قد حدث فيه انقطاع وإنما بدأت تدوين أيامهم بعودة الظاهر برقوق للسلطنة في المرة الثانية حيث استمر حكم الجراكسة دون انقطاع حتى انطوتْ أيامهم.

استمر السلطان الظاهر برقوق للمرة الثانية في الحكم حتى توفي عام ٨٠١ في شهر شوال من ذلك العام، وقام من بعده ابنه السلطان فرج، ولُقّب بالناصر، وبقي حتى عام ٨٠٨ حيث خلع في السادس من شهر ربيع الأول، وأُقيم مكانه أخوه عبد العزيز، ولقب بالمنصور، ثم خلع بعد ثلاثة أشهر تقريباً في الرابع من جمادى الآخرة، وأعيد الناصر فرج.

وتوفي الخليفة المتوكل على الله محمد بن المعتضد في الثامن عشر من شهر رجب عام ثمانية وثمانمائة.

وفي عام ٧٩٥ دخل تيمورلنك بغداد وهدد المنطقة، فتشكّل حلف من سلطان المماليك الظاهر برقوق، وأمير سيواس، ومغول القفجاق، والعثمانيين ضد تيمورلنك زعيم التتار، وخرج الظاهر برقوق على رأس حملة عام ٧٩٧ باتجاه بغداد، ومعه أحمد بن أويس صاحب بغداد والذي فرّ منها عند دخول تيمورلنك إليها، والتجأ إلى القاهرة، فسار برقوق لإعادته إلى عاصمة ملكه، إلا أنه لم يحدث قتال لأن تيمورلنك كان قد ترك بغداد وعاد إلى الشرق فما كان من الظاهر إلا أن رجع هو الآخر.

وفي عام ٨٠٣ خرج الناصر فرج بن برقوق على رأس حملةٍ إلى بلاد الشام، لكنه ترك جيشه، وعاد إلى مصر، فدخل تيمورلنك دمشق، وسحق الجيش المملوكي.

واتجه تيمورلنك نحو العثمانيين عام ٨٠٥ وانتصر عليهم، وأسر السلطان بايزيد العثماني، وبعد أن سمع الناصر فرج بأنباء هذه المعارك الطاحنة رضخ لشروط تيمورلنك، وضرب النقود باسم تيمورلنك، وإن كان على ما يبدو قد فرح بنفسه على ما تمّ إذ زال الخوف المتوقع من العثمانيين.

وفي الوقت الذي كانت أنظار المماليك تتجه نحو الشرق بسبب هجوم تيمورلنك أغار ملوك قبرص على الإسكندرية عام ٨٠٦، ثم شنوا غارةً على طرابلس في العام التالي.

ـ ١١ ـ[1]

المستعين بالله

العباس بن محمد المتوكل على الله

٨٠٨ ـ ٨١٥

هو العباس بن محمد المتوكل على الله، أبو الفضل، أمه أم ولد تركية اسمها «باي خاتون» بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وتولّى الأمر بعد توفي أبوه في رجب عام ٨٠٨.

ولما قتل الناصر فرج عام ٨١٥ في أثناء قتاله للمحمودي أضيفت إلى الخليفة السلطنة وذلك في مطلع عام ٨١٥ بعد إصرار الأمراء على ذلك، وفوّض الخليفة إلى شيخ تدبير شؤون المملكة، ولقّبه «نظام الملك» ثم سأل شيخ الخليفة أن يفوّض إليه السلطنة فلم يقبل لأن شيخ رفض شرط الخليفة وهو عدم السكن بالقلعة، فأخذ شيخ السلطنة بالقوة وتلقّب باسم «المؤيد»، وأعلن خلع الخليفة المستعين، وبايع أخاه داود بن المتوكل على الله.

ولما بلغ نائب الشام «نوروز» بخلع الخليفة جمع القضاة والعلماء، وسألهم بما جرى، فأجابوا بأن هذا الخلع لا يصح، وهذا ما جعل النائب يخلع الطاعة، وأجمع على قتال السلطان المؤيد الذي انتزع السلطنة بالقوة،

(١) **ملاحظة:** عددت الواثق بالله عمر بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة الثامن. وعددت المستعصم بالله زكريا بن الواثق بالله إبراهيم الخليفة التاسع. وكان المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله للمرة الثانية هو الخليفة العاشر.

وخلع الخليفة دون ضرورة شرعية. فجمع المؤيد جيشاً وسار إلى الشام لقتاله نائبها، ونقل المستعين إلى الإسكندرية ليسجن هناك، وبقي في السجن حتى عام ٨٢٤ حيث أخرجه السلطان ططر لكنه فضل بقاء إقامته في الإسكندرية، وتوفي عام ٨٣٣.

ــ ١٢ ــ

المعتضد بالله

داود بن محمد المتوكل على الله

٨١٥ ــ ٨٤٥

هو داود بن محمد المتوكل على الله، أبو الفتح، أمه أم ولد تركية تدعى «كزل»، أعطي الخلافة حين خلع المؤيد أخاه المستعين عام ٨١٥.

وفي عهده انطلق السلطان المؤيد إلى الشام لإخضاع نائبها «نوروز» وذلك عام ٨١٧، وتمكّن من الانتصار عليه، وبعد تحقيق هدف الحملة تابع إلى أطراف بلاد الشام الشمالية لإعادة تبعية الإمارات التركمانية إلى الدولة المملوكية، وهذه الإمارات هي: ذو القادر، وقرمان، ورمضان وكانت قد أعلنت انفصالها أو عدم ارتباطها بالقاهرة وذلك في أثناء حركة «نوروز»، واستطاع المؤيد أن يجبرها على العودة إلى التبعية، ولكنها لم تلبث أن نقضت العهد فسار إليها ثانيةً عام ٨٢١، وكانت وجهته «طرسوس» فأسرع أمراء تلك الدويلات وقدموا الطاعة، وعندما رجع عادوا إلى نقض العهد، فسار إليهم عام ٨٢٢ إبراهيم بن المؤيد، واستطاع أن يستولي على قونية وقيصرية، وولى على تلك الإمارات أمراء من قبله، وضمّ طرسوس، وأضنه إلى دولة المماليك.

وتوفي السلطان المؤيد عام ٨٢٤ في شهر المحرم فقلّد السلطنة ابنه أحمد ولُقّب بالمظفر، وأعطي الأمير «ططر» تدبير شؤون المملكة، وبعد مرور سبعة أشهر أي في شهر شعبان قبض «ططر» على السلطان المظفر وخلعه، وتسلّم هو مقاليد السلطة، فقلّده الخليفة السلطنة، وتلقّب باسم

الظاهر، وكان عمله أن أخرج الخليفة السابق «المستعين بالله» من سجن الإسكندرية، وسمح له بالعودة إلى القاهرة، ولكن المستعين فضل الإقامة في الإسكندرية، وبدأ يعمل في التجارة حتى توفي عام ٨٣٣.

ولم تمض سوى أربعة أشهر حتى توفي الظاهر ططر في شهر ذي الحجة من العام نفسه (٨٢٤)، فقلّد الخليفة أمر السلطنة لابن ططر محمد، وقد اختار لنفسه لقب «الصالح»، وجعل شؤون المملكة للأمير «برسباي».

وبعد أربعة أشهر أي في شهر ربيع الثاني من عام ٨٢٥ خلع الأمير برسباي من السلطنة الصالح ابن ططر، وتسلّم شؤونها، وقلّده الخليفة أمرها، فاتخذ لقب الأشرف.

أرسل الأشرف برسباي حملةً استطلاعيةً إلى جزيرة قبرص، وقد اتجهت إلى ميناء «ليماسول» وذلك عام ٨٢٧ كردٍ على الحملات التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الردّ، وفي العام التالي ٨٢٨ أرسل حملةً ثانيةً وكانت جهتها في هذه المرة إلى مدينة «فاما غوستا»، وقد أحرزت النصر، ومكثت أربعة أيام، ثم اتجهت إلى مدينة «ليماسول»، وتمكنت من فتحها بعد جهد، ثم رجعت الحملة إلى مصر.

وبعد عام خرجت حملة جديدة سارت نحو «ليماسول» ففتحتها، ثم اتجهت نحو الداخل فالتقت بجيشٍ كبيرٍ يقوده ملك قبرص «جانوس» بنفسه فجرت معركة طاحنة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، وساروا نحو نيقوسيا. . . ثم رجعوا إلى مصر والملك معهم أسير، وفي القاهرة فدى الملك نفسه ووافق على أن تكون قبرص تابعةً لدولة المماليك، وبقيت بعدها كذلك مدة بقاء الدولة المملوكية وبذا انتهى الأثر الصليبي نهائياً إذ بقي الصليبيون في قبرص بعد طردهم من بلاد الشام.

كان تيمورلنك قد توفي عام ٨٠٨ فتصدّعت امبراطوريته الواسعة التي أسسها، وقام بعده ابنه «شاه رخ»، واستطاع أن يستعيد مدينة سمرقند، ورغب أن يُحسّن علاقته مع دولة المماليك فأرسل إلى برسباي عام ٨٣٢ وفداً يطلب منه السماح له بكسوة الكعبة، وإرسال بعض الكتب إليه ومنها كتب ابن حجر العسقلاني. ولم يعط الأشرف برسباي جواباً، فأعاد «شاه رخ» الطلب في العام نفسه، ولم يحظ بجواب. وفي عام ٨٣٩ طلب «شاه رخ» السماح له بزيارة القدس، وجدد الطلب في العام التالي (٨٤٠)، ولم يتلق في الطلبين أي ردّ فاتجه عندها «شاه رخ» لتأليف حلف ضد المماليك من العثمانيين وأمراء التركمان.

وبالنسبة إلى إمارات التركمان على أطراف بلاد الشام، فقد أرسل الأشرف برسباي حملةً إلى إمارة «الشاة البيضاء» عام ٨٣٣ استطاعت تهديم مدينة الرها، وبدأ بعدها النفوذ العثماني يقوى في تلك الإمارات.

أما بالنسبة إلى جزيرة رودوس القريبة من السواحل التركية فقد غدت عام ٧١٠ قاعدةً لفرسان الاستبارية، فعندما انسحب الصليبيون من بلاد الشام أو طردوا عام ٦٩٠ انتقل هؤلاء الفرسان إلى جزيرة قبرص، وقد لعبوا دوراً مهماً في الحرب الصليبية، ثم انتقلوا إلى جزيرة رودوس واتخذوها قاعدةً لهم، وعندما غزا الأشرف برسباي قبرص، وأخضعها لنفوذ المماليك خشي الاسبتاريون من ذلك، فأسرع فلوفيان أمير الاسبتاريين وأرسل الهدايا للسلطان برسباي الذي كان في نيته غزو رودوس لكن عهده لم يطل إذ توفي في شهر ذي الحجة من عام ٨٤١. فقلد الخليفة السلطنة إلى يوسف بن برسباي الذي لُقّب بالعزيز، وجعل شؤون المملكة إلى الأمير جقمق، وبعد ثلاثة أشهر (ربيع الأول ٨٤٢) خلع جقمق من السلطنة العزيز يوسف بن برسباي، وتسلّم هو أمرها، وتلقّب باسم الظاهر، وقلّده الخليفة. وكان عهد برسباي عهد استقرار، وقوة، وغزو ولكن الحالة الاقتصادية كانت متأخرة.

كان السلطان الظاهر جقمق تقياً ورعاً، منع المعاصي وشرب الخمور.

وجاءت رسل «شاه رخ» ابن تيمورلنك لتهنئة جقمق، فاستقبل الرسل، وأحسن وفادتهم.

وفي عام ٨٤٣ أغارت أربع سفن لقراصنة النصارى على مدينة رشيد على الساحل المصري، فاتجهت الشبهة نحو أمراء الاستباريين في رودوس، فجهز الظاهر جقمق حملةً عام ٨٤٤ وغزا رودوس، وخاصةً أن السلطان العثماني مراد الثاني قد حرّض الظاهر جقمق للقيام بهذا الغزو، وأسرع أمراء الاستباريين إلى أوربا يطلبون النجدات الصليبية منها.

وفي عام ٨٤٥ توفي الخليفة المعتضد بالله داود، وكان من سروات الخلفاء، نبيلاً، ذكياً، فطناً، يجالس العلماء والفضلاء ويستفيد منهم، ويشاركهم فيما هم فيه، جواداً، سمحاً للغاية[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء.

ـ ١٣ ـ

المستكفي بالله

سليمان بن محمد المتوكل على الله

٨٤٥ ـ ٨٥٤

هو سليمان بن محمد المتوكل على الله، أبو الربيع، بويع بالخلافة بعهد من شقيقه المعتضد بالله. وكان الظاهر جقمق يعرف حق المستكفي بالله.

وفي عهده سمح الظاهر جقمق لملك التتار «شاه رخ» بكسوة الكعبة عام ٨٤٧، ثم عاد فنزعها لأن المسلمين وخاصة العوام منهم لم يقبلوا ذلك، وكذلك بعض المماليك لما في تاريخ التتار من سوء وقتال للمسلمين وتهديم لديارهم وهتك أعراضهم، ولم ينس بعد ذلك التاريخ.

وغزا الظاهر جقمق جزيرة رودوس مرتين أيضاً في عهد المستكفي مرةً سنة ٨٤٧، ومرةً في العام الذي تلا (٨٤٨)، هذا بالإضافة إلى الغزوة التي تمت في عهد المعتضد عام ٨٤٤، ولكنه لم يوفق في فتحها وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوربا.

وثار على الظاهر جقمق أتابك مصر قرقماس الشعباني، ونائب الشام، وقام العبيد بفتنة في منطقة الجيزة، غير أنه تمكّن من القضاء عليها جميعها.

وتوفي الخليفة يوم الجمعة الثالث من شهر ذي الحجة عام ٨٥٤، وتولّى بعده أخوه القائم بأمر الله.

ــ ١٤ ــ

القائم بأمر الله

حمزة بن محمد المتوكل على الله

٨٥٤ ــ ٨٥٩

هو حمزة بن محمد المتوكل على الله، أبو البقاء، القائم بأمر الله، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الذي لم يعهد بالخلافة إلى أحد من بعده، وهو شقيق المستعين بن المتوكل على الله.

كان شهماً صارماً، أقام أبهة الخلافة مدة حكمه، وعنده جبروت على خلاف بقية إخوته.

توفي الظاهر جقمق في مطلع عام ٨٥٧، فقلد الخليفة ابنه «عثمان» أمر السلطنة، وحمل لقب المنصور، وكان مدبر شؤون الدولة الأمير «إينال»، وبعد شهر ونصف من تسلّم المنصور السلطنة خلعه الأمير «إينال»، وتسلّم مكانه، فما كان من الخليفة إلا أن قلّد «إينال» أمر السلطنة في شهر ربيع الأول من عام ٨٥٧، وأخذ لقب «الأشرف».

اختلف السلطان «إينال» مع الخليفة «القائم بأمر الله» فقبض السلطان على الخليفة في شهر جمادى الأولى وسجنه في الإسكندرية وبقي فيها حتى مات عام ٨٦٣، ودفن هناك. ثم بايع السلطان أخا الخليفة الآخر، وهو المستنجد بالله.

ــ ١٥ ــ

المستنجد بالله
يوسف بن محمد المتوكل على الله
٨٥٩ ــ ٨٨٤

هو يوسف بن محمد المتوكل على الله، أبو المحاسن، المستنجد بالله، وهو الخليفة الخامس من أبناء المتوكل على الله، ولي أمر الخلافة بعد خلع أخيه القائم بأمر الله.

كان السلطان هو الأشرف إينال إلا أن الاضطرابات قد استمرت عليه طيلة حكمه، وقد توفي عام ٨٦٥، فقلّد الخليفة من بعده ابنه أحمد والذي أخذ لقب «المؤيد»، ولم تمض مدة حتى وثب على المؤيد الأمير خشقدم، وخلعه، واستبد بالأمر، فقلّده الخليفة اسم السلطنة في شهر رمضان من العام نفسه، وأخذ لقب الظاهر سيف الدين خشقدم.

استمر السلطان الظاهر خشقدم في السلطنة مدة سبع سنوات، وتوفي في شهر ربيع الأول من عام ٨٧٢، فقلّد الخليفة الأمير «بلباي» الذي أخذ لقب سلفه الظاهر سيف الدين، ولكن لم يلبث سوى شهرين حتى وثب عليه الجند وخلعوه، فقلد الخليفة الأمير «تمربغا» فحمل لقب «الظاهر» أيضاً، وبعد شهرين من تسلّمه السلطنة وثب عليه الجند أيضاً وخلعوه. وأعطيت السلطنة للأمير خير بك مساءً وفي الصباح خلعه الجند. ثم تقلّد السلطنة الأمير «قايتباي»، فأخذ لقب الأشرف فاستقر له الأمر مدة تسعة وعشرين عاماً، وأخذ الأمور بحزم فدانت له، ونتيجة الاستقرار الذي عمّ أيامه فقد انصرف إلى إنشاء الطرق، والجسور، والمدارس، والمساجد، كما

انصرف إلى الشؤون الخارجية فقد أرسل عدة حملات ضد إمارة (ذو القادر) التركمانية التي تقع على أطراف بلاد الشام بين البلاد التي تدين للعثمانيين والبلاد التي تخضع للمماليك، فقد أرسل حملة عام ٨٧٦ ضد (شاه سوار) زعيم هذه الإمارة، وكان السلطان العثماني محمد الفاتح يدعم أمير التركمان هذا ويؤيده، واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على «عينتاب» و «أضنه» و «طرسوس»، وأن تأسر (شاه سوار) نفسه، وحمل إلى القاهرة، وقد شنق على باب زويله عام ٨٧٧. وكان قائد الحملة الأمير «يشبك»، قد عيّن الأمير «بوداق» أميراً على دولة (ذو القادر) وهو من الذين يعتمد عليه المماليك ويؤيدونه.

وفي عام ٨٧٧ قاد الأمير يشبك أيضاً حملة ضد الدولة التركمانية الثانية (الشاة البيضاء) التي كان أميرها آنذاك حسن الطويل، وكان قد أغار على ضواحي حلب، وقد تمكن الأمير يشبك من إحراز النصر في معركة البيرة على نهر الفرات. وتوفي الأمير حسن الطويل عام ٨٨٣، وخلفه ابنه يعقوب أمير الرها.

وفي عام ٨٨٤ توفي الخليفة المستنجد بالله في الرابع عشر من شهر المحرم، بعد أن أصابه الفالج، وبقي مريضاً بسببه مدة شهرين، وخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن يعقوب.

ـ ١٦ ـ
المتوكل على الله «الثاني»
عبد العزيز بن يعقوب
٨٨٤ ـ ٨٩٣

هو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل، أبو العز، المتوكل على الله. ولد سنة تسع عشرة وثمانمائة، وأمه تدعى «حاج ملك» بنت أحد الجنود. كان محبوباً بين الخاصة والعامة لما امتاز به من أدبٍ وأخلاقٍ وتواضعٍ، وبشاشة لكل واحد.

تولى خمسة من أبناء المتوكل على الله محمد الخلافة، ولم يليها ابنه السادس يعقوب والد هذا الخليفة، ولما مرض عمه بالفالج، وطال مرضه عهد إليه بالخلافة من بعده، فلما توفي المستنجد بويع بها في يوم الاثنين السادس عشر من شهر محرم من عام ٨٨٤.

وفي عام ٨٨٥ قاد الأمير «يشبك» حملة إلى جهات التركمان، فالتقى مع أمير دولة (الشاة البيضاء) فهُزم المماليك، وأُسر «يشبك» وقُتل على شاطئ نهر الفرات، ثم عقد السلطان «قايتباي» صلحاً مع إمارة (الشاة البيضاء).

وتوفي الخليفة عام ٨٩٣، وعهد لابنه المستمسك بالله.

ـ ١٧ ـ

المستمسك بالله

يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله

٨٩٣ ـ ٩١٤

هو يعقوب بن عبد العزيز المتوكل على الله، بويع بالخلافة بعهد من أبيه عام ٨٩٣، وفي عهده توفي الأشرف قايتباي عام ٩٠١، وكان قد تنازل لابنه محمد قبل موته بيوم واحد، فقلّد ابنه محمد السلطنة، فتلقّب باسم الناصر، غير أنه لم يلبث أن عزل بعد عدة أشهر إذ كان صغيراً لم يزد عمره على الأربع سنوات، فقلّد الخليفة الأمير قانصوه، غير أن الجند قد وثبوا عليه، وقتلوه بعد مرور سنة على تسلمه السلطنة، وأعيد الناصر محمد بن قايتباي ثم لم يلبث أن قتل بعد أشهر من إعطائه السلطنة، وقام الظاهر قانصوه خال السلطان قانصوه الذي قتل قبل إعادة الناصر محمد بن قايتباي، لكنه عزل بعد أشهر أيضاً، وقام بأمور الدولة الأمير «جان بلاط» فقلّده الخليفة، وأخذ لقب الأشرف.

أعلن نائب الشام الأمير «قوصروه» العصيان فأرسل له الأشرف «جان بلاط» حملة بقيادة الأمير «طومان باي» ومعه الأمير «قانصوه الغوري»، ولما وصل «طومان باي» إلى الشام اتفق مع الأمير «قوصروه» على الغدر بالأشرف «جان بلاط» والسير إلى مصر معاً، وقتال «جان بلاط»، وتعيين «طومان باي» سلطاناً، وزحفوا فعلاً على مصر، وقبضوا على «جان بلاط»، وخنقوه بالإسكندرية، وأعلنوا تعيين «طومان باي» سلطاناً باسم الملك العادل، كما عينوا الأمير «قوصروه» أتابكاً للجند. لكن العادل «طومان باي»

لم يلبث أن غدر بصديقه «قوصروه» وقتله. وبدأت مرحلة من الظلم، فنفر الجند من العادل، وبدؤوا يتآمرون عليه فهرب واختفى عن الأنظار.

اتجهت الأنظار إلى الأمير «قانصوه الغوري» لتعيينه سلطاناً، فهو كبير السن إذ يقال: إنه من مواليد ٨٥٠، وكان مملوكاً للأشرف قايتباي، ثم أعتقه بعد أن أظهر شجاعةً فائقةً، وجعله من خاصة أتباعه، وعيّنه عام ٨٨٦ حاكماً للوجه القبلي، ونائباً على طرسوس، وحاجب الحجاب في حلب عام ٨٩٤، فلما عرضت عليه الإمارة رفض ذلك وبكى، إذ لاحظ ما آل إليه أمر المماليك، وقتل بعضهم لبعض، غير أنهم أصروا على تعيينه فاشترط دعمه وعدم التآمر عليه فوافقوا على ذلك. وقلّده الخليفة السلطنة في شوال عام ٩٠٦، وكان قد قارب الستين من العمر، وتلقّب باسم الأشرف، وكانت كنيته أبا النصر.

تابع الأشرف قانصوه الغوري السلطان العادل طومان باي حتى قبض عليه حيلةً، وقتله، وعين في الدولة الأمراء الذين يثق بهم، وحصّن الإسكندرية ورشيد، وأصلح القلعة، وحفر الترع، وأكثر من المماليك واعتنى بهم. ووطد الأمن والاستقرار.

وفي عهده أغار الاسبتاريون من رودوس على مصر عام ٩١٤، فردّهم.

ووصل البرتغاليون الصليبيون إلى سواحل بلاد العرب، ودخلوا إلى البحر الأحمر، فجهز السلطان الأشرف قانصوه الغوري حملةً جعل قيادتها لحسين الكردي، وسلّمه نيابة جده، فأبحرت من السويس عام ٩١١، واستطاعت أن تهزم البرتغاليين على الشواطئ الهندية عام ٩١٤، وأن تغنم غنائم كثيرة.

وفي عام ٩١٤ شعر الخليفة بالتعب فتنازل لابنه محمد، وبقي حتى دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣، وقد نقل ابنه إلى حاضرة العثمانيين. أما هو فلم ينقل لكبر سنه، وبقي حتى توفي عام ٩٢٧.

ـــ ١٨ ـــ

المتوكل على الله «الثالث»
محمد بن يعقوب المستمسك بالله
٩١٤ ـــ ٩٢٣

هو محمد بن يعقوب المستمسك بالله، تنازل له أبوه عن الخلافة عام ٩١٤، وبقي حتى تنازل للسلطان العثماني سليم الأول، وبذا يكون آخر خلفاء بني العباس، وانتقل إلى استانبول مع السلطان العثماني بناءً على رأي الخليفة الجديد سليم الأول، وبعد مدة سمح له بالعودة إلى مصر، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٥٠.

وفي عهد الخليفة المتوكل على الله «الثالث»، كان السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري. وقد حدث أن أغار الصليبيون الاسبتاريون على مصر عام ٩١٥، ولكنهم هزموا، وأعادوا الغارة عام ٩١٦، وقتلوا «محمد بيك»، فكان لذلك الأثر الكبير على نفسية الغوري حتى أنه قبض على رهبان كنيسة القيامة في القدس ووبخهم. وفي عام ٩١٧ أغاروا على سواحل البرلس فداهمهم حامد المغربي، وهزمهم، وأسر مائتين منهم وساقهم إلى القاهرة.

أما بالنسبة إلى البرتغاليين فقد هزم الأسطول المملوكي في معركة «ديو» قرب السواحل الهندية بعد الانتصار الذي أحرزه في العام السابق ٩١٤، وعاد حسين الكردي إلى مصر بعد غياب سبع سنوات فوصل إلى السويس عام ٩١٨، واستطاع البرتغاليون الاستيلاء على شبه جزيرة كوجرات في الهند، ودخلوا إلى البحر الأحمر، وحاصروا ميناء سواكن. فأبحرت

حملة من السويس بقيادة حسين الكردي أيضاً عام ٩٢١، وفيها سلمان العثماني معاوناً لحسين الكردي وفي رجب من عام ٩٢٢ اختلف سلمان العثماني وحسين الكردي فقتل الأول الثاني منهما. وفي هذه الأثناء بدأ العثمانيون يتحركون في الشمال.

أما بالنسبة إلى الدولة الصفوية التي قامت في تبريز في أذربيجان فقد كانت علاقتها سيئة مع المماليك إذ قامت على فكر شيعي معاد للإسلام من أهل السنة على الأقل، وقد استطاع إسماعيل شاه الصفوي عام ٩١٦ أن يدخل بغداد، ويخلصها من ملكها مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل التركماني، ففر مراد خان، والتجأ إلى مصر.

وفي العام نفسه (٩١٦) أرسل إسماعيل الصفوي رسلاً من قبله إلى بعض ملوك الفرنجة يحرّضهم على غزو مصر، وقتال الغوري، وخاصة أن صلةً كانت بين الصفويين والبرتغاليين. والمماليك يومذاك ألد أعداء البرتغاليين، وهم الذين وقفوا في وجههم ودخلوا معهم في حروب طاحنةٍ. وأراد البرتغاليون يومذاك الإفادة من الخلاف القائم بين الصفويين لتشيّعهم وبقية المسلمين في المنطقة، وقد وجدوا ضالتهم في الصفويين الذين استجابوا لهذه الرغبة وعملوا على التحرك باتجاه الغرب.

وفي العام نفسه (٩١٦) انتصر الصفويون على التتار، وقتلوا ملكهم «أوزبك خان» وابنه، وفي سبيل تهديد المماليك أرسل الشاه إسماعيل الصفوي رأس «أوزبك خان» ورأس ابنه ضمن علبة إلى السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وبدأ الصفويون يتحركون نحو الغرب، ووصلت طلائع جيوشهم عام ٩١٨ إلى «البيرة» على نهر الفرات، شمال بلاد الشام (ضمن الحدود التركية اليوم)، ومع أن القتال أو الحرب الباردة التي كانت دائرةً يومذاك كانت فكريةً بل دينيةً سواء أكانت من ناحية البرتغاليين أم من ناحية الشيعة أصدقاء أو حلفاء البرتغاليين فإن سادة مصر يومذاك لم يحسنوا التصرف وخاصة السلطان الأشرف قانصوه الغوري سيد الموقف في مصر والشام إذ أراد الوقوف على الحياد فكانت النتيجة أن قضي عليه ودالت دولته، وزالت الخلافة العباسية من مصر، وانتقلت أنظار المسلمين من

القاهرة إلى استانبول التي أصبحت مركز الخلافة وحاضرة المسلمين وبذا فقد ورثت القاهرة.

وأما بالنسبة إلى الدولة العثمانية فقد كانت العلاقة حسنة بينها وبين دولة المماليك في مصر والشام، وقد ازينت القاهرة عام ٨٥٧ بأمر من السلطان إينال بمناسبة فتح العثمانيين للقسطنطينية، وكانت القاهرة ترسل وفداً إلى استانبول بعد كل نصر أو عند تولية سلطان. وتعكرت العلاقات بين الدولتين عام ٨٦٥ عندما وصل السلطان الظاهر سيف الدين خشقدم إلى السلطنة، وفي عام ٨٦٩ مات أميرا دولتي (ذو القادر) و (قرمان) التركمانيتين فعيّن العثمانيون عليهما أميرين من غير أنصار المماليك. ومع هذا الخلاف الذي بدأ يظهر بين العثمانيين والمماليك فقد فرّ إلى القاهرة الأمير «جم» أخو السلطان العثماني بايزيد الثاني، وفي الوقت نفسه فقد آوت استانبول بعض الأمراء الفارين من مصر والشام.

لقد أرسل السلطان قايتباي حملة ضد إمارة (ذو القادر) عام ٨٧٦ استطاعت أن تستولي على هذه الإمارة، وأن تأسر أميرها (شاه سوار)، الذي نقل إلى القاهرة حيث أعدم على باب زويلة، وأن تعيّن الأمير بوداق مكانه وهو من الذين يناصرون المماليك. وفي العام التالي انتصر المماليك على حسن الطويل أمير دولة (الشاة البيضاء) في معركة البيرة على نهر الفرات.

لقد ثار ابن (شاه سوار) على عمه (علي دولات) الذي يؤيده المماليك، ودعم السلطان سليم العثماني ابن (شاه سوار) وهاجم علي دولات وهذا ما وطد الصلة بين المماليك وعلي دولات. وعندما دخل الصفويون بغداد فرّ ملكها من التركمان إلى القاهرة مقر دولة المماليك رغم أن جده حسن الطويل كان قد قاتل المماليك.

لقد أثارت تصرفات الصفويين السلطان سليم الأول العثماني فآثر ترك أوربا والتوجه نحو الصفويين لقتالهم. ويمكن أن أقول: إن أوربا كانت تدعم الإسبان والبرتغاليين منذ مدة حتى استطاعوا طرد المسلمين من الأندلس عام ٤٩٧، وبقيت تدعمهم بعد ذلك، وعندما قام العثمانيون

يقاتلون الأوروبيين، ويتقدمون من جهة الشرق رأت أوربا الوقوف في وجه العثمانيين بقوة وقطع المساعدة عن الإسبان والبرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الأندلس، وعندما وصل البرتغاليون إلى جنوب بلاد العرب ودخلوا الخليج العربي رأوا أن يحركوا الصفويين ضد العثمانيين من الشرق ليخفّ ضغط العثمانيين عن أوربا. فلما اشتد ضغط الصفويين على الشرق العثماني، وتحريض ملوك أوربا ضد المماليك، ومحاولة نشر الشيعة فضّل السلطان العثماني ترك أوربا والتوجه نحو الشرق لتأديب الصفويين. واعتقد أن المماليك سيكونون عوناً له في مهمته هذه لأن العثمانيين يقاتلون الصفويين الشيعة أعداء العثمانيين والمماليك معاً. وأن العثمانيين إنما يقاتلون الأوربيين النصارى الذين يدعمون البرتغاليين الذين يقاتلون المسلمين في الغرب، ويريدون دخول البحر الأحمر، وتهديد المدينة المنورة، ونبش قبر رسول الله ﷺ كي يتسلموا القدس. والمماليك يقاتلون البرتغاليين، ويدافعون عن بلاد المسلمين فالمصلحة الإسلامية العثمانية والمملوكية واحدة، غير أن العثمانيين عندما عرضوا مشروعهم لقتال الصفويين على المماليك، وقف المماليك على الحياد حسب رأيهم إلا أن الحياد ذاك معناه تقوية الخصوم وهم الصفويون بل والبرتغاليون الذين وراءهم وحلفاؤهم وعندما رأى العثمانيون هزيمة المماليك أمام البرتغاليين كان عليهم أن يقوموا بواجبهم فيقفوا أمام البرتغاليين، فأضمر السلطان سليم في نفسه رغبته بالقضاء على المماليك إذا استطاع إحراز النصر على الصفويين.

تحرك السلطان سليم العثماني من أوربا، واتجه نحو الشرق لقتال الصفويين غير أن علي دولات أمير دولة (ذو القادر) قد تصدّى لطلائع الجيش العثماني، ولما كان هذا الأمير من أنصار المماليك لذا اقتنع السلطان العثماني بأن هذا العمل إن هو إلا من تحريض المماليك، فما كان من السلطان العثماني إلا أن داهم التركمان، وقتل علي دولات وولي مكانه ابن (شاه سوار)، وتابع نحو الصفويين فانتصر عليهم، ودخل عاصمتهم مدينة تبريز عام ٩٢٠ بعد معركة (جالديران) المشهورة، وبعد هذا النصر بدأ يستعد لقتال المماليك، ولقد ضم السلطان العثماني إليه الجزيرة وإمارة (ذو

القادر) إلى الدولة العثمانية عام ٩٢١، وبدأ يتصل بنواب المماليك في بلاد الشام.

أحسّ السلطان الغوري بمشروع السلطان سليم فجهّز حملةً وقادها بنفسه وانطلق إلى بلاد الشام، وتوجه شمالاً، وانطلق من حلب إلى مرج دابق في الشمال الغربي من حلب حيث التقى مع السلطان سليم، ورتب السلطان الغوري جيشه فكان هو في القلب، وعلى ميمنته نائب دمشق جان بردي الغزالي، وعلى ميسرته نائب حلب خاير بيك، وتقدّم للقتال، وأحرز النصر في الجولة الأولى، وحمل العثمانيون ثانيةً، وانضم إليهم نائب حلب خاير بيك وبعض الأمراء فنالوا النصر، وقتل الغوري في ميدان المعركة، وتقدم العثمانيون فدخلوا حلب وبقية مدن بلاد الشام دون مقاومة بل أحياناً كثيرة كانوا يستقبلون استقبالاً حاراً حيث ينظر إليهم نظرة احترام على أنهم توغلوا في أوربا، وضربوا الدولة الصفوية الشيعية، ويرغبون في منازلة البرتغاليين الذين يهددون المسلمين بل ومقدسات المسلمين أيضاً، وربما كانت هذه من دعايات العثمانيين التي روّجوها، وأطلقها أنصارهم لأننا لا نستطيع أن نعد الشعب كان يومذاك يعرف هذه الحقائق، ويدركها تماماً وإن كانت صحيحة، وتابع السلطان سليم العثماني تقدمه حتى مصر فوقف في وجه نائب السلطان الغوري الأشرف طومان باي، وجرت معركة بين الطرفين على أبواب القاهرة هي معركة الريدانية التي قتل بها الأشرف طومان باي، ودخل إثرها السلطان سليم القاهرة فبايعه أهلها، وتنازل له آخر خليفة عباسي، وهو المتوكل على الله، كما جاء إليه أشراف الحجاز فبايعوه فتسمى باسم خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين، وعاد بعدها إلى حاضرة ملكه استانبول بعد أن أخذ معه الخليفة العباسي المتوكل على الله، والصناع المهرة، والتجار بينما ترك والد الخليفة في القاهرة نتيجة كبر سنه، وفقد بصره. وبذا زالت دولة المماليك، وانتهت الخلافة العباسية من مصر بعد أن دامت ٢٦٤ سنة (٦٥٩ ـ ٩٢٣)، وكانت قد انقضت أيامها من بغداد قبل ذلك بأربع سنوات. وهكذا انطوت صفحة من تاريخ الخلافة في القاهرة لتفتح صفحة جديدة من تاريخ الخلافة في استانبول.

الباب الثاني

جَزِيرَةُ العَرَب

ضعف مركز الجزيرة العربية في العصر العباسي، ويلفت النظر فيه قيام حركات في الحجاز ضد العباسيين وخاصةً حركة محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهدأت الأوضاع بعد معركة فخ التي حدثت عام ١٦٩ في وادي فخ أحد أودية مكة، ورجعت الجزيرة إلى الظل حتى قامت حركات القرامطة فاتجهت الأنظار نحوها، وهي مشمئزة من أفعال تلك الحركات وتصرفاتها وفساد عقيدتها، وسواء تلك التي قامت في البحرين وزعيمها أبو سعيد الجنّابي وأولاده من بعده، أم تلك التي قامت في اليمن وزعيمها علي بن الفضل، أم تنقلات قرامطة البحرين في أرجاء الجزيرة باستثناء عسير ووصولها إلى بلاد الشام وحتى أطراف مصر، ثم انتهت تلك الحركات، والدول التي أقامتها أو دعمتها، ولم تكن الدول التي قامت في بلاد اليمن بذي شأن.

أما في مرحلة حكم المماليك فقد ارتفع شأن جنوب غربي الجزيرة في بلاد اليمن إذ قامت هناك دولتان ذواتا شأن هما دولة بني رسول، ودولة بني طاهر التي جاءت بعد الأولى، ودامت أيامها طيلة هذه المرحلة (٦٥٦ ـ ٩٢٣). أما في أواخر المرحلة فقد اتجهت أنظار المسلمين عامة إلى أطراف الجزيرة الجنوبية الغربية، والجنوبية، والشرقية أو اليمن، وعُمان، والبحرين وذلك لأن هذه المناطق قد تعرّضت لغزو صليبي رفع شعار التجارة والسيطرة على المراكز التجارية، والحصول على الموارد الإنتاجية، وكانت حقيقته ودوافعه الحقد الصليبي، ذلك هو الغزو البرتغالي الذي جاء منذ مطلع القرن العاشر، واستمر إلى نهايته.

هذا الغزو أعاد للجزيرة بعض أهميتها لما فعله، ولما أعلن عنه من مخططات هدفها القضاء على الإسلام، والسيطرة على الأماكن المقدسة لإجبار المسلمين على تسليم القدس للنصارى، وهذا ما جعل المسلمين يعملون للدفاع عن هذا الجزء لما له من أهمية في نظر المسلمين إذ به مقدساتهم، وكان اندفاع المماليك، ثم اندفاع العثمانيين بعدهم، واتجه المسلمون معهم إلى ميدان المعارك بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين، وعاد السكان يؤدون بعض دورهم المنوط بهم، وكانت البحرين، وكانت عمان، وكانت اليمن ساحات معارك عظيمة في أهميتها.

الفصل الأول

الحِجَاز

ضعف شأن الحجاز منذ العصر العباسي الثاني، وأصبح تابعاً لغيره، ولم تعد تقم فيه تلك الحركات ذات الصدى الواسع. لقد وصل نفوذ الأخيضريين إلى الحجاز عام ٣٣٥، ثم خضع لسيطرة القرامطة عام ٣٥٠، الذين أنهوا حكم الأخيضريين في الحجاز على حين أبقوه في اليمامة. وجاء الفاطميون عام ٣٥٩، واستمروا حتى أنهى نفوذهم السلاجقة عام ٤٦٣، ثم جاء الأيوبيون عام ٥٦٧، وقد ألغى صلاح الدين المكوس عن الحجاج، وعوض عن ذلك لشريف مكة، كما أبطل داود سيف الإسلام طغتكين بن أيوب نداء حي على خير العمل الذي كان معمولاً به منذ عهد الأخيضريين، ثم امتد نفوذ المماليك عام ٦٥٠، واستمر حتى جاء العثمانيون عام ٩٢٣، وإن كان نفوذ بني رسول في اليمن يصل أحياناً إلى مكة، أو يتدخل سلاطين بني رسول في شؤون الأشراف، هذا بالنسبة إلى التبعية العامة أو دعاء الخطباء في الجمع والأعياد والمناسبات، أما بالنسبة إلى السلطة الفعلية فقد كانت بيد أسر، تنتسب أو تدعي الانتساب إلى الحسن أو الحسين أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وتعد نفسها عمالاً لأصحاب السلطة في بغداد أو القاهرة، فقد تسلم بنو موسى السيطرة على الحجاز عام ٣٥٩ مع مجيء النفوذ الفاطمي، وكانوا عمالاً لأصحابه، وجاء بنو هاشم (بنو فليتة) عام ٤٥٣، وفي أواخر أيامهم ساءت سيرتهم إذ أكثروا الفساد، وشاركوا في نهب قوافل الحجاج، واختلفوا فيما بينهم، إذ وقع القتال بين آخرهم وهو مكثر وبين أخيه داود، فتدخل الأيوبيون،

وطلبوا من الخليفة عزله ففعل، غير أن مكثر عاد وفرض نفسه حتى مات عام ٦٠٠. وقدم من ينبع إلى مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى الذي ينتمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما عام ٥٩٨، واستطاع أن ينهي حكم الهواشم، وأن يسيطر على مكة، ويؤسس أسرة استلمت شرافة مكة، وتبعث إلى الأيوبيين، ثم إلى المماليك فالعثمانيين، واستمرت في نفوذها حتى عام ١٣٤٢هـ. وبعد وفاة قتادة وقع الخلاف بين ولديه الحسن وراجح عام ٦١٧، فأرسل الملك المسعود بن الكامل الأيوبي جيشاً هاجم الحسن عام ٦٢٠، ففر الحسن إلى الشام، ومنها إلى العراق، ودخل بغداد، ومات فيها عام ٦٢٢، وأصبح طغتكين الأيوبي نائب الملك العادل على مكة، واستمر ذلك حتى عام ٦٣٠ حيث استطاع الشريف راجح بن قتادة استردادها بمساعدة آل رسول حكام اليمن، وقبل راجح أن يكون تابعاً تحت سيطرة بني رسول إذا ما أخرجوا طغتكين من مكة. وشهد تاريخ مكة والمدينة بعد وفاة الملك العادل عام ٦٣٥ نزاعاً متصلاً بين الأيوبيين وبني رسول حتى توفي راجح بن قتادة عام ٦٤٥. وخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح فدعمه بنو رسول وكذا ابنه الحسن، ثم جاء محمد أبو نمي الأول، وشغل وأولاده من بعده بالرسوليين والمماليك قرناً من الزمن، حيث لم يثبت أحد من الأشراف على الولاء أكثر من عام على الغالب لبعد الشقة بين مكة ومصر من جهة أو بين مكة واليمن من جهة ثانية فما أن يبعث المماليك جيشاً يخضع مكة حتى يسارع الرسوليون إلى إرسال جيشٍ في العام التالي، ولم يكن لكلا الجانبين قوة كبيرة تسمح له بترك حامية معززة في مكة تحول دون تمرد الشرفاء، أو تمنع قدوم قوة الآخرين إلى مكة.

كما كان الخلاف يقع بين الإخوة فيستعين هذا بجانب وذاك بجانب آخر فيتعاقب الإخوة على شرافة مكة وفي الوقت نفسه يتعاقب النفوذ الذي يدعم الشريف على أخيه أو خصمه، ولعل أشد هذه الخلافات ما وقع بين أولاد محمد أبو نمي الأول وهم: حميضة، ورميثة، وعطيفة، وأبو الغوث، وتدخل سلاطين مصر واليمن في هذا النزاع.

وكانت جدة ترتبط بمصر في الآونة الأخيرة، ويعين حاكمها من القاهرة، وقد يصطدم والي جدة مع شريف مكة، ويقع بينهما قتال يؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

أما المدينة فقد كانت بيد أشراف ينتمون إلى الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بينما ينتسب أشراف مكة لآل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وكثيراً ما كانت مكة تشرف على الوضع في المدينة، وتكون المدينة تابعة لمكة، وقد لعب الأشراف دوراً بارزاً في تاريخ الحجاز، لذا كانت لهم الشهرة، وكانت لهم الكلمة إضافة إلى وضع مكة الخاصة بالنسبة إلى المسلمين وموسم الحج.

وقد يمتد نفوذ أشراف مكة إلى الشرق قليلاً أو كثيراً فيشمل أجزاء من نجد واسعة أو صغيرة، وربما يتجاوزها قليلاً إلى الشرق، وتخضع القبائل إلى مكة.

سيطر أبو عزيز قتادة على مكة مدة تسعة عشر عاماً حتى توفي عام ٦١٧، فوقع الخلاف بين ولديه حسن وراجح خاصة، وإن كان قد شمل الخلاف أبناءه الآخرين أيضاً، واستمر هذا الخلاف مدة سنة كاملة، وانتهى بسيطرة الحسن على الوضع لمدة عامين، وضاق الأيوبيون ذرعاً بهذا الخلاف فأرسلوا جيشاً دخل مكة، وفرّ منها الحسن، وأصبح الوضع في مكة تحت إشراف الأيوبيين لمدة عشر سنوات (٦٢٠ ـ ٦٣٠). ثم إن الشريف راجح بن قتادة قد استعاد شرافة مكة بمساعدة الرسوليين، وبقي حتى توفي عام ٦٤٥، فخلفه حفيده علي بن قتادة بن راجح، ثم ابنه الحسن، واستمر دعم الرسوليين لهما. وتولّى شرافة مكة بعدها إدريس بن حسن بن راجح لمدة أربع سنوات، وعمّه غانم لمدة سنتين بعد أن حكم جماز سنة واحدة.

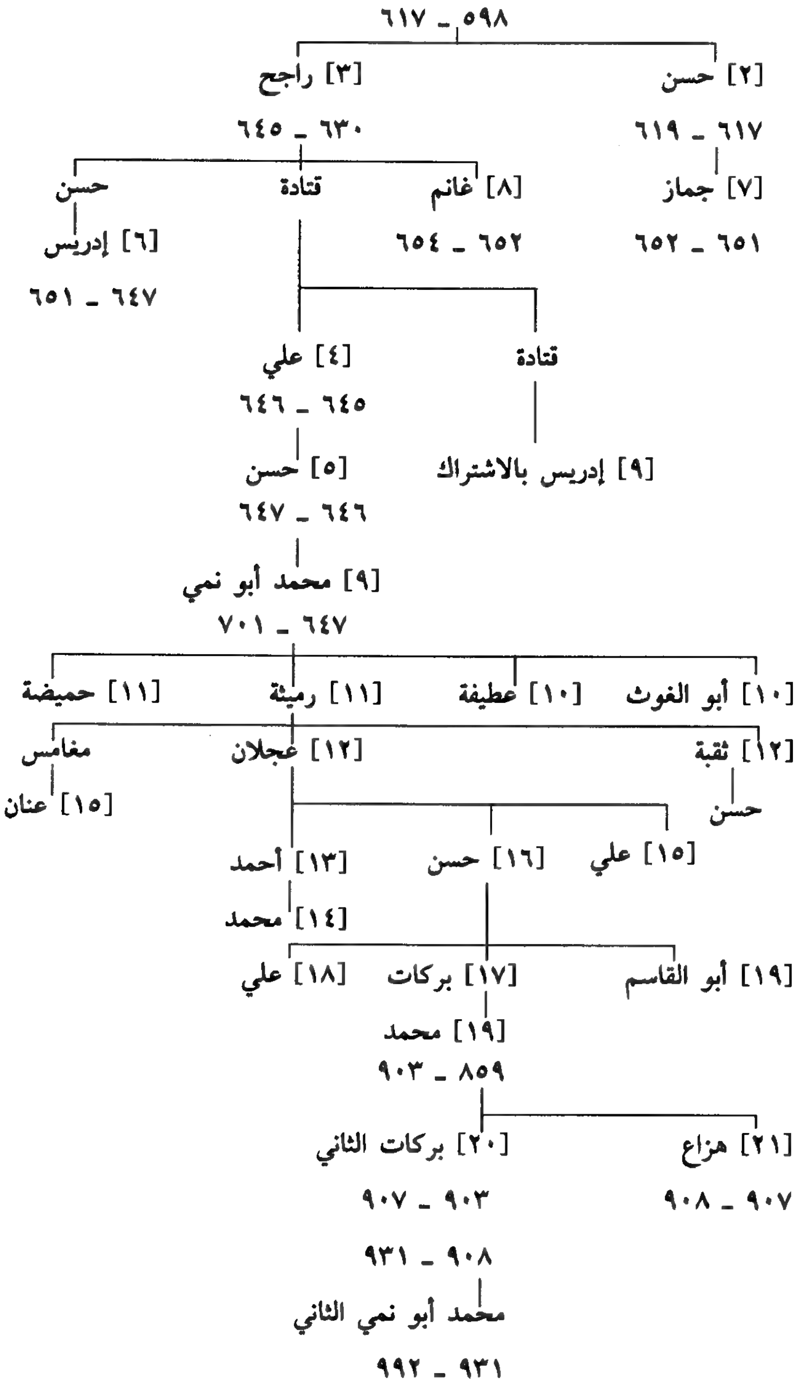
تسلّم شرافة مكة محمد أبو نمي الأول وعمّ أبيه إدريس بن قتادة مدة ثلاثة عشر عاماً (٦٥٤ ـ ٦٦٧) غير أن أبا نمي قد انفرد وحده بالسلطة، وعزل إدريس، واتجه نحو الحفصيين في تونس، فخطب لهم، إلا أن

الظاهر بيبرس سلطان مصر، قد تمكن من إعادة نفوذ الأشراف له، وعودة سيطرة مصر على مكة الحجاز عامة، وإبعاد الحفصيين، ورجع إدريس بن قتادة يشارك مرة أخرى في شرافة مكة أبا نمي وما هو إلا عام حتى انفرد أبو نمي بالشرافة، وقتل إدريس، وبقي سيد مكة حتى توفي عام ٧٠١ أي مدة إحدى وثلاثين سنة، وبذا بقي شريفاً في مكة أوله الكلمة الأولى مع مشاركة إدريس له مدة سبع وأربعين سنة (٦٥٤ ـ ٧٠١)، وخلفه أبناؤه، وزاد الصراع، وتفرّقت الكلمة، ووقع القتال بين الإخوة، وقتل بعضهم بعضاً. إذ تولى أبو الغوث وأخوه عطيفة شرافة مكة لمدة سنتين، ثم نازعهما أخواهما حميضة ورميثة لمدة سنة واحدة، ثم رجع الأوليان لمدة عشر سنوات، وعاد الآخران لمدة سنة واحدة، إذ جاء أبو الغوث بقوةٍ من مصر ودخل بها مكة فهرب منه حميضة ورميثة إلى حلي بن يعقوب في تهامة عسير، واستولى أبو الغيث على مكة، ورجع حميضة عام ٧١٥ وقتل أخاه أبو الغوث، واستولى على مكة، فغضب سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون فجهّز جيشاً بإمرة عطيفة فاستولى على مكة، وغادرها حميضة هارباً نحو الشرق، وذلك بعد أن انفرد رميثة، ثم انفرد حميضة.

ولم يطل أمر عطيفة سوى سنة واحدة حيث اضطر أن يتفق مع رميثة ويخالفان حميضة الذي قتل عام ٧٢٠. وبعد اتفاق دام ثماني عشرة سنة بين عطيفة ورميثة، انفرد رميثة لمدة ست سنوات حيث اعتزل عام ٧٤٤ وسلّم الأمر لولديه عجلان وثقبة، ولم تمض سنتان حتى عاد رميثة إلى الشرافة، وعزل ولديه، ولكنه مات بعد عام ٧٤٦ ورجع عجلان وثقبة، وبعد سنة من اشتراكهما في السلطة وقع الخلاف بينهما لمدة أربع سنوات انتهى بالاتفاق مدة ١٢ عام، إذ انفرد بعد ذلك عجلان لمدة سنة بعد وفاة أخيه ثقبة، حيث لحقه، وقام بأمر الشرافة أحمد بن عجلان، وبعد مرور سبع سنوات بعد الصراع بينه وبين أولاد عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس، واستمر هذا النزاع أربعة أعوام انتهى بموت أحمد بن عجلان فقام من بعده ابنه محمد لمدة مائة يوم فقط مع استمرار الخلاف الذي كانت نتيجته إقصاء محمد بن أحمد بن عجلان، واشتراك عنان بن مغامس وعلي بن عجلان

بالشرافة، ثم انفرد علي لمدة سنتين، وعنان لمدة سنتين، وعاد بعدها علي لمدة ثلاث سنوات توفي إثرها، وخلفه ابن حسن وبقي مدة ٣١ سنة (٧٩٧ ـ ٨٢٩)، وقد عزل وأعيد في خلالها مرتين. وبعده جاء ابنه بركات فحكم ست عشرة سنة، حيث عزل، وتولى مكانه أخوه علي لعدة أشهر حيث عزل، وأعيد بركات لعدة أشهر أيضاً حيث عزل، ونُصّب أخوهما الثالث أبو القاسم خمس سنوات، ثم أعيد بركات للمرة الثالثة فحكم ثمانية أعوام توفي إثرها، وقام بعده ابنه محمد فبقي في منصبه مدة ٤٤سنة (٨٥٩ ـ ٩٠٣)، ويبدو أن وضع الشرافة قد استقر في هذه المرحلة، وخلفه ابنه بركات الثاني، وبعد ٤ سنوات عاد الصراع فخلع بركات الثاني عام ٩٠٧، وأخذ المنصب أخوه هزاع، ولكن لم يبقى سوى سنة واحدة حيث رجع بركات الثاني، واستقر الوضع له (٩٠٨ ـ ٩٣١) وفي أيامه جاء العثمانيون فاستقبلهم، وأرسل ابنه محمد أبو نمي الثاني عام ٩٢٣ إلى مصر حيث بايع السلطان العثماني سليم الأول وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، وفي أيامه انتهت هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها مع مجيء العثمانيين. ويبدو أن الصراع كان شديداً على الشرافة منذ مطلع قرن الثامن مع وفاة محمد أبو نمي الأول وحتى منتصف القرن التاسع أي مدة قرن ونصف، وإن لم تكن الأيام الأخرى لتخلو من النزاع فهو دائم ومستمر ولكن ذكرنا أشده في تلك الحقبة من الزمن.

[١] أبو عزيز (قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى)



الفصل الثاني

اليمن

حكمت اليمن في هذه المرحلة (٦٥٦ ـ ٩٢٣) أسرتان. أسرة بني رسول وحكمت من ٦٢٦ إلى ٨٥٨، وتلاها حكم بني طاهر من ٨٥٨ ـ ٩٣٣، وبلغت قوة اليمن في أثناء ذلك درجة كبيرة بحيث كانت تسيطر أحياناً على الحجاز، ويمتد نفوذها إلى نهاية حضرموت شرقاً هذا بالإضافة إلى الصلات عبر البحار سواء أكان ذلك في إفريقية أم في آسيا.

١ - بنو رسول:

ينتمي بنو رسول إلى الغساسنة ـ على حد قول علي بن الحسن الخزرجي ـ إذ فرّ جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام بعد حادثته مع الأعرابي الذي داس على ثوبه، فضربه جبلة فاشتكى الأعرابي إلى عمر، رضي الله عنه، فخاف جبلة من عمر فارتد، والتحق ببلاد الروم، وعاش أبناؤه من بعده، ثم انتقلوا إلى الشرق، وعاشوا مع التركمان، حتى ظنوا أنهم منهم، واتخذ الخليفة العباسي أحدهم وهو محمد بن هارون رسولاً له إلى الشام وإلى مصر فعُرف باسم رسول ونُسي اسمه.

ولما استقر الوضع لبني أيوب في مصر والشام أرسل الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظم توران شاه إلى اليمن، فسار عام ٥٦٩ ومعه بنو رسول، وكانوا خمسة أفراد هم: شمس الدين علي بن

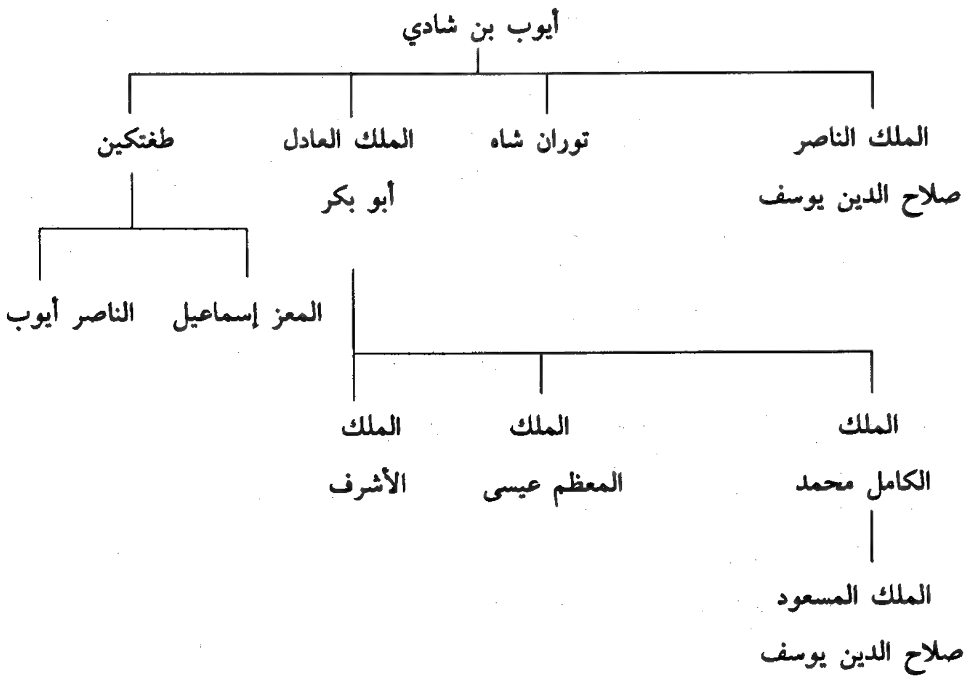
رسول وأبناؤه الأربعة: بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، ونور الدين عمر بن علي بن رسول، وفخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول، وشرف الدين موسى بن علي بن رسول.

رجع الملك المعظم توران شاه إلى مصر بعد أن ترك له نواباً في اليمن وذلك عام ٥٧١، ثم لم يلبث أن توفي عام ٥٧٦ فاختلف نوابه من بعده، فأرسل عندئذ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الآخر الملك العزيز طغتكين سيف الإسلام فدخلها عام ٥٧٩ فأصلح أمرها، وبقي حتى توفي عام ٥٩٣ فخلفه ابنه الملك المعز إسماعيل بن طغتكين فقتل بيد الأكراد عام ٥٩٨، فقام مكانه أخوه الملك الناصر أيوب بن طغتكين الذي توفي عام ٦١١. وكان قد توفي في الشام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩، وتسلّم أمره بعده أخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فلما أحسَّ بقتل ابن أخيه إسماعيل، ووفاة الثاني وهو أيوب وقيل أنه مات مسموماً جهز عندها حملةً إلى اليمن بقيادة حفيده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل، فسار إلى اليمن ودخلها عام ٦١٢، وكان قد سبقه إليها ابن عمه سليمان بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب واستقر بتعز، وكان ضعيفاً فاستولى الإمام المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء. وعندما جاء المسعود أقام بزبيد، وطلب من ابن عمه سليمان الصلح على أن تكون الجبال لسليمان والتهائم للمسعود. وجاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول إلى المسعود، وحثّه بالنهوض إلى تعز، ففعل، وهدّد جند تعز وأمرهم بالقبض على سليمان فامتثلوا، فقبض المسعود على سليمان وأرسله مقيداً إلى مصر. واستولى هو على بقية أطراف اليمن. وأرسل لقتال إمام صنعاء عبد الله بن حمزة أحد القادة وهو جمال الدين فليت، فلم يزل يقاتله حتى توفي الإمام عام ٦١٤، ثم لحقه بعد مدة وجيزة جمال الدين فسار المسعود إلى صنعاء ودخلها.

عاد المسعود إلى تعز وولى على صنعاء بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وولى نور الدين عمر بن علي بن رسول على مكة.

وعندما رجع المسعود إلى مصر ترك نائباً عنه على اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول، وبقي أخوه الآخر بدر الدين على صنعاء. وجرى قتال بين نور الدين والإمام عز الدين محمد بن الإمام عبد الله بن حمزة عام ٦٢٣، وانتصر نور الدين، وعندما بلغ هذا الخبر إلى الملك المسعود رجع إلى اليمن ودخل تعز عام ٦٢٤، وسجن أبناء رسول خوفاً على اليمن بسبب شجاعتهم، ثم أطلق سراح نور الدين وأرسل إخوته بدر الدين، وفخر الدين، وشرف الدين إلى عدن ومنها إلى مصر مقيدين.

رجع المسعود إلى الشام عام ٦٢٦ وذلك لأن عمه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد توفي وهو صاحب دمشق، فطلب منه السير إلى الشام للقيام فيها، وأناب عنه نور الدين عمر بن علي بن رسول غير أن المسعود قد توفي في مكة قبل أن يصل إلى الشام.



وقام نور الدين عمر بن علي بن رسول يحكم اليمن باسم الملك

المنصور، وانتقل من زبيد إلى تعز، وصالح الأشراف في صنعاء، واختلف مع الأيوبيين على إمارة مكة إذ كان يدعم شريف مكة راجح بن قتادة، وحفيده الشريف علي بن قتادة بن راجح، فكان يحكم مكة أحياناً أو يحكمها الشرفاء باسمه وتعود تارة أخرى للأيوبيين. ولم تخل أيامه من خلافات مع الرسيين في صنعاء حيث كانوا يتحركون ضده أحياناً إذ قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي عام ٦٤٦. ولم يلبث أن قتل المنصور عام ٦٤٧ وهو في جند على يد جماعة من مماليكه.

بايعت مماليك المنصور بعد وفاته ابن أخيه فخر الدين أبو بكر بن الحسن غير أن الملك المظفر بن المنصور قد سار إليه في زبيد، وتغلّب عليه، وقبض عليه، ودخل مقره، ثم أطاعته تهامه. وقدم عماه بدر الدين، وفخر الدين من مصر فقبّض عليهما، وأودعهما السجن.

واختلف مع بني رس في الشمال، إذ اتفق أحمد بن الحسين، وشمس الدين أحمد بن عبد الله، ودخلا صنعاء فقاتلهما أسد الدين بن أبي بكر بن علي بن رسول ومعه علم الدين علي بن وهاس أمير عسير، وتمكن السلطان بعدها من دخول صنعاء. وبعد حربه مع أحمد بن الحسين، حارب أيضاً يحيى بن محمد السراجي الذي قام بإمامة بني رس، ومن تلاه من الأئمة، وفي عام ٦٧٤ ظفر بالإمام إبراهيم بن تاج الدين، وسجنه في تعز وبقي في معتقله حتى مات، واستمر في أيامه حتى وفاته عام ٦٩٤.

وتدخل في شؤون أشراف مكة ففي عام ٦٥٢ أخرج الشريف راجح، وأبو نمي، وإدريس شريف مكة يومذاك وهو الشريف حماد بن حسن، وتسلم شرافة مكة راجح لمدة ثلاثة أشهر ثم أخرجه ولده غانم، فأخرجه أبو نمي وإدريس، وأقاما مدة حيث جاءهم جيش المظفر الذي دخل مكة، وتولى أمرها نيابة عن المظفر مبارز الدين الحسين بن علي، وفي عام ٦٥٣ جمع الأشراف جموعهم، وحاربوا نائب السلطان، وحاصروه في مكة، وانتصروا عليه، فشرى نفسه وخرج من مكة إلى اليمن.

وفي شهر جمادى الأولى تنازل الملك المظفر لابنه الملك الأشرف عمر ممهد الدين فاستلم الأمر، ولم يلبث أن توفي الملك المظفر بعدها بأشهر وذلك في شهر رمضان، وقام الملك الأشرف بالأمر.

اشتغل الأشرف بطلب العلم مدة إمارته حتى برع بعددٍ من العلوم، وصنّف عدداً من الكتب. وثار عليه أخوه الملك المؤيد الذي كان والياً على شحر وحضرموت، وسار نحو اليمن فلما اقترب منها وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره من تصرّفه، وعرض عليه أن يسلمه أحد الحصون المهمة التي في حوزته مقابل أن يرتدع عن غيّه فشكر له ذلك إلا أن أحد القضاة شجعه على المضي في سبيله، فسار مجداً وتمكّن من احتلال عدن غير أن الملك الأشرف قد انتصر عليه، وأودعه وولديه السجن في تعز. وتوفي الملك الأشرف عام ٦٩٦، وكان ولده الناصر في القحمة، والعادل في صنعاء، فبايع الجند والناس أخاه المؤيد المسجون بعد أن أطلقوا سراحه.

تسلّم الملك المؤيد الأمر، وأقر له بذلك أبناء أخيه الأشرف، ولم ينازعوه ملك أبيهم، ولكن خالفه أخوه المسعود غير أنه انتصر عليه، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٢١.

تولّى الحكم بعده ابنه المجاهد علي فقام ضده عمه أبو الشكر الملك المنصور أيوب عام ٧٢٢، وقبض على المجاهد، ووضعه في دار الإمارة تحت الإقامة الجبرية، وبعد ثلاثة أشهر تمكّن أتباع المجاهد من القبض على المنصور وسجنه وإخراج المجاهد، غير أن أتباع المنصور قد اتفقوا على البيعة لابن أخي المنصور وهو الملك الناصر محمد جلال الدين ابن السلطان الأشرف. ولكن السلطان المجاهد أعلن سيطرته على الأوضاع فانفض الناس من حول الناصر، واستقر الأمر للمجاهد، فألقى عمه المنصور وابن عمه الناصر في السجن، ثم أطلق سراحهما بعد مدة، وبقي الملك الظاهر بن المنصور في بعض الحصون يناوىء ابن عمه المجاهد.

محمد بن هارون «رسول»

«شمس الدين» علي

«بدر الدين» الحسن — «شرف الدين» موسى — [١] «نور الدين» عمر «المنصور» ٦٢٦ ـ ٦٤٧ — «فخر الدين» أبو بكر

«فخر الدين» أبو بكر (بن الحسن)

[٢] «الملك المظفر» يوسف ٦٤٧ ـ ٦٩٤

«أسد الدين» (بن أبي بكر)

[٤] «الملك المؤيد» داود ٦٩٦ ـ ٧٢١ — [٣] «الملك الأشرف» عمر ممهد الدين ٦٩٤ ـ ٦٩٦ — الملك المنصور أيوب

«الناصر» محمد جلال الدين — «العادل» أبو بكر صلاح الدين

[٥] «المجاهد» علي ٧٢١ ـ ٧٦٤

[٦] «الأفضل» العباس ٧٦٤ ـ ٧٧٨

[٧] «الأشرف الثاني» إسماعيل ٧٧٨ ـ ٨٠٣

[٨] «الناصر» أحمد ٨٠٣ ـ ٨٢٩

[٩] «المنصور» ٨٢٩ ـ ٨٣٠

[١٠] «الأشرف الثالث إسماعيل» ٨٣٠ ـ ٨٤٢

[١١] «الطاهر» يحيى ٨٤٢ ـ ٨٥٠

[١٢] «المسعود» أبو القاسم ٨٥٠ ـ ٨٥٨

وفي عام ٧٢٥ أخذ ابن الدويدار مدينة عدن بمساعدة آل يافع. وسيطر المماليك على زبيد، ثم خرجوا منها، وأعطوا الطاعة للملك الناصر محمد جلال الدين بن السلطان الأشرف، فسار بهم نحو زبيد، غير أنه عجز عن دخولها. وخالف الملك الصالح والملك العادل أباهما المجاهد، وخرجا من تعز. كما ادعى في العام نفسه محمد بن ميكائيل السلطنة في حرض وما حولها، وبقي سنتين. ثم خرج عليه أيضاً ابنه المظفر واتجه نحو عدن، ولم يتمكن من دخولها، وبعث إليه أبوه قوةً انتصرت عليه، وسار المجاهد إلى عدن، وهناك توفي عام ٧٦٤.

اختار الأمراء وكبار الدولة بعد وفاة المجاهد ابنه الأفضل العباس ولم يكن أكبر إخوته سناً، وبايعته العامة والخاصة. وأنهى أمر محمد بن ميكائيل في حرض عام ٧٦٥، وإن بقي له نفوذ في مناطق أخرى، وتوفي الأفضل عام ٧٧٨، وقام بالأمر بعده ابنه الأشرف الثاني إسماعيل، ويبدو أن دولة بني رسول قد بلغت أوجها في عهد هذا السلطان حتى خُطب له في مدينة قاليقوط الهندية، وتوفي في عام ٨٠٣، وخلفه ابنه الناصر أحمد، ودام حكمه ستاً وعشرين سنة (٨٠٣ ـ ٨٢٩)، على حين لم يدم حكم خليفته المنصور، وهو ولده سوى عام واحدٍ (٨٢٩ ـ ٨٣٠)، وبدأت دولة بني رسول تضعف فحكم الأشرف الثالث بن المنصور (٨٣٠ ـ ٨٤٢)، وولده الظاهر يحيى (٨٤٢ ـ ٨٥٠)، وزاد ضعف الدولة في عهد المسعود أبي القاسم (٨٥٠ ـ ٨٥٨) إذ زاد طغيان المماليك على أهل زبيد والتهائم، وسافر المسعود إلى مصر، فجاء ولاة عدن من بني طاهر وحكموا اليمن، وزال عهد بني رسول.

٢" ـ بنو طاهر:

ينتمي آل طاهر إلى بني أمية الذين ساحوا في الأرض بعد سقوط دولتهم، ولعل بني أمية من الأسرة السفيانية قد اتجهوا نحو جنوب غربي جزيرة العرب بعد أن قاموا بعدة حركات ضد الدولة العباسية، على حين

سار أبناء الأسرة المروانية نحو الأندلس حيث قامت لهم دولة هناك. واستقر السفيانيون في اليمن وعسير، كما انطلق بعضهم فيما بعد إلى الطرف الثاني من البحر الأحمر إلى بلاد السودان. وعمل آل طاهر عمالاً لبني رسول على عدن، وبرز منهم علي بن طاهر بن تاج الدين بن معوضة وأخوه عامر بن طاهر كواليين على عدن في أواخر عهد بني رسول، وكانا محبوبين بين السكان بسبب الطريقة التي سارا عليها، واشتهرا في المنطقة كلها. وضعُف بنو رسول في أواخر أيامهم، وتسلّط مواليهم على التهائم، واشتدت وطأتهم على أهل زبيد وخاصةً بعد سفر المسعود أبي القاسم إلى مصر، وهو آخر سلاطين بني رسول. وشكا وجهاء زبيد أمرهم، وما يصيبهم من ظلم موالي بني رسول إلى عامر بن طاهر، فأثّر ذلك في نفسه، وقرر مساعدة الزبيديين، وإنقاذهم مما هم فيه.

سار عامر بن طاهر الملقب بالمجاهد إلى زبيد ودخلها عام ٨٥٩ بمساعدة الأمير جيّاش أحد موالي أهل زبيد، وبقي المجاهد في المدينة عامين، ثم رجع إلى عدن لمنازلة صاحب «الشِحر» الذي جاء لاحتلال عدن عن طريق البحر. وهزمه، وتمكّن من أسره، وأرسل حملةً بقيادة الأمير جيّاش لاحتلال «الشِحر» وتمكن المجاهد من السيطرة على الأجزاء الجنوبية من بلاد اليمن. ثم اتجه شمالاً حيث كان بنو رسّ بإمرة الإمام الناصر يهاجمون أطراف دولته ويغيرون عليها، وأرسل إليهم جيشاً بإمرة أخيه الظافر فانتصر عليهم، وكاد يدخل صنعاء لولا اضطراره إلى مغادرة المنطقة والتوجّه إلى بلاد الشحر لإخضاع أهلها المتمردين. وعاد الظافر من الشحر منتصراً، وأسرع إلى الشمال على رأس جيش عظيم عام ٨٦٦، وتمكّن من إلقاء القبض على الإمام الناصر، أو أن أنصاره قد ألقوا القبض عليه بعد أن تظاهروا له بالإخلاص فبعد أن أمنهم مسكوه، وسلّموه للظافر، وبقي الإمام في السجن حتى توفي عام ٨٦٨. أما محمد بن الناصر فقد راسل الظافر، وقدّم له صنعاء مقابل خمسين ألف دينار، فدخل الظافر صنعاء، وغدت أكثر جهات اليمن تتبع له. غير أن محمد بن الناصر لم يمض عام على

مصالحته حتى بدأ يتحرك في صنعاء، ثم سيطر عليها، فجاء الظافر لحصارها، وقطع عنها كل وسائل الحياة من المياه والأرزاق، ومع ذلك لم يتمكن من فتحها، فكان يترك الحصار مدة ثم يعود إليه، وأخيراً قتل في بعض المعارك داخل صنعاء عام ٨٧٠، وغدت المدينة تحت حكم محمد بن الناصر الذي نادى بنفسه إماماً على صنعاء. أما المجاهد عامر بن طاهر فبقي ينتقل بين تعز، وزبيد، وعدن أي في الأجزاء اليمنية الجنوبية حتى توفي عام ٨٨٣، وكان قد عهد إلى أخيه عبد الوهاب بن عامر بتولّي أمور الدولة من بعده، فقام بالأمر وتلقّب بالمنصور. وقد قام بحركةٍ ضده ابن أخيه يوسف بن عامر، غير أنه هزم، وفرّ، ثم اعتذر من عمه، وطلب منه الأمان، وبايعه وتوفي المنصور عام ٨٩٤، وخلفه ابنه عامر بن عبد الوهاب، وتلقّب بالظافر الثاني، وثار ضده أبناء عمومته فانتصر عليهم بعد حروب وحركات استمرت ما يقرب من عامين. كما تحركت ضده مرتين قبيلة «الزرانيق» في تهامة فقضى على حركتهم في المرتين، واستمر ذلك من عام (٨٩٦ ـ ٨٩٩). وعندما أنهى أمر الجنوب اتجه نحو الشمال، فأرسل قوةً إلى صنعاء التي كانت تحت حكم الأئمة من بني رس، بقيادة محمد بن علي البعداني وذلك عام ٩٠٨، لكنه هزم، فسار الظافر بنفسه وحاصر صنعاء وضيق على أهلها حتى استسلموا، وخرج الإمام بنفسه معلناً الاستسلام وذلك عام ٩١٠، ودخل الظافر صنعاء، وبذا عادت سيطرة الطاهريين على معظم جهات اليمن.

وفي هذه الأثناء، وصل البرتغاليون إلى أطراف الجزيرة العربية وبدؤوا يغيرون عليها، فقد هاجموا عدن وقصفوها بالمدافع، واحتلوا جزر «قمران» في البحر الأحمر، وقتلوا عاملها من قبل الطاهريين، وهو محمد بن عبد العزيز بن سفيان، وهدفهم مكة والمدينة. وبدأ المماليك في مصر يرسلون الجيوش إلى تلك الجهات للوقوف في وجه البرتغاليين، وكان من أشهر قادتهم حسين الكردي الذي اهتم بأمر البرتغاليين. ومن المؤسف أن الأمراء المسلمين في جنوبي الجزيرة العربية لم يتعاونوا ضد البرتغاليين، أو

لم يعملوا سوية لقتال هؤلاء الأجانب المعتدين، فالطاهريون لم يساعدوا المماليك الذين جاءوا للوقوف في وجه البرتغاليين، والأئمة الزيود شجعوا المماليك ليعملوا ضد الطاهريين.

وصل حسين الكردي إلى جزر قمران، وطرد البرتغاليين منها عام ٩٢١، وشجّعه الأئمة الزيود ضد عامر بن عبد الوهاب، وفي الوقت نفسه فقد منع محمد بن نوح أمير الحديدة من قبل الطاهريين وصول المواد الغذائية إلى حسين الكردي في جزر قمران، كما أن سلطان الطاهريين قد رفض التعاون مع المماليك ضد البرتغاليين بل لم يكن الجواب مهذباً، فأثار ذلك حسين الكردي، ووقعت الحرب بين المماليك والطاهريين، وتوغّل المماليك داخل اليمن، وجرت عدة معارك بين الجانبين كان أهمها على أبواب زبيد (معركة الرحب)، فرّ إثرها قادة الطاهريين، ودخل حسين الكردي زبيد وذلك عام ٩٢٢، وجاء السلطان نفسه على رأس جيش كبير، والتقى مع المماليك في معركة هزم أيضاً فيها، فانتقل إلى تعز، ومنها إلى المقرانة فصنعاء، وأخيراً جرت المعركة الأخيرة على أبواب صنعاء هي معركة الصافية التي قُتل فيها أخو السلطان، وهو عبد الملك بن عبد الوهاب، وفرّ السلطان الذي قبض عليه أحد الرجال، وسلمه إلى قائد المماليك الإسكندر بن محمد فقتله عام ٩٢٣ في ٢٣ ربيع الأول.

دخل المماليك صنعاء بعد معركة الصافية ثم اتجهوا شمالاً لحصار الإمام شرف الدين في (ثلا). وكان هذا النصر الذي أحرزه المماليك بسبب ما يملكونه من بنادق نارية، على حين لم يملك اليمنيون سوى السلاح الأبيض. وفي هذا الوقت هزم المماليك في بلاد الشام ومصر حيث دخل العثمانيون تلك الجهات، وهذا ما جعل المماليك في وضع غير ملائم فانسحبوا من صنعاء نحو تعز، ولم يصل الإسكندر بن محمد قائد المماليك إلى تعز إلا بصعوبة كبيرة بسبب قتال اليمنيين له، وهو منسحب بجيشه، وكان قائد تلك العمليات علي بن داود حيث بقيت قواته متمركزة في جنوب اليمن حتى جاء العثمانيون عام ٩٤٥.

طاهر بن تاج الدين

[١] علي الظافر
٨٥٨ ـ ٨٧٠

[٢] عامر المجاهد
٨٧٠ ـ ٨٨٣

يوسف

[٣] عبد الوهاب المنصور
٨٨٣ ـ ٨٩٤

[٤] عامر «الظافر الثاني»
٨٩٤ ـ ٩٢٣

٣" ـ الأئمة الزيديون:

بقي سلطان الزيود محصوراً في الجهة الشمالية من اليمن، وإن تمكن أئمتهم في بعض الظروف من السيطرة على صنعاء وذمار في أيام المتوكل المطهر بن يحيى (٦٧٦ ـ ٦٩٧) وابنه المهدي محمد (٦٩٧ ـ ٧٢٨) وحتى أيام محمد بن الناصر (٨٦٦ ـ ٩٠٨)، وكانت الخلافات شبه دائمة بينهم وبين سلاطين بني رسول وبني طاهر. ولم ينتشر نفوذ الأئمة في المناطق الغربية والجنوبية أبداً وخاصة في هذه المرحلة من التاريخ.

ولم يكن هناك إمام واحد يلتقي حوله الزيديون جميعاً، وإنما كان يوجد أكثر من إمام في بعض الأحيان، وقد يختلف الأئمة بعضهم مع بعض، حيث لكل واحد منهم منطقة نفوذ وأتباع، كما حدث أيام الواثق المطهر بن محمد، والمؤيد يحيى بن حمزة، والمهدي علي بن صلاح، والداعي أحمد بن علي الفتحي، وكلهم في المدة المحصورة بين (٧٣٠ ـ ٧٥٠)، وقد تمر سنوات دون أن يقوم إمام من علماء الزيدية بالأمر وخاصة بعد هزيمة إمام أو إلقاء القبض عليه، أو قتله من قبل خصومه الرسوليين أو الطاهريين.

الإمام	الزمن	ملاحظات
١ ـ المهدي أحمد بن الحسين	٦٤٦ ـ ٦٥٦	حارب المظفر الرسولي
٢ ـ يحيى بن محمد السراجي	٦٥٦ ـ ٦٦٠	حارب المظفر الرسولي
٣ ـ الحسن بن بدر الدين	٦٦١ ـ ٦٧٠	
٤ ـ إبراهيم بن تاج الدين	٦٧٠ ـ ٦٧٤	وقع أسيراً بيد المظفر الرسولي ومات في السجن
٥ ـ المتوكل المطهر بن يحيى	٦٧٦ ـ ٦٩٧	حارب المظفر الرسولي، وولديه المؤيد والأشرف.
٦ ـ المهدي محمد بن المطهر	٦٩٧ ـ ٧٢٨	حارب المجاهد الرسولي واستولى على صنعاء، ولحج، وعدن
٧ ـ المؤيد يحيى بن حمزة	٧٢٩ ـ ٧٤٩	في أيام المطهر
٨ ـ الواثق المطهر بن محمد	٧٣٠ ـ ٧٥٠	وقام في عهده من الأئمة يحيى بن حمزة، وعلي بن صلاح، وأحمد بن علي الفتحي
٩ ـ المهدي علي بن محمد	٧٥٠ ـ ٧٧٣	
١٠ ـ الناصر صلاح الدين المهدي	٧٧٣ ـ ٧٩٣	
١١ ـ المنصور علي بن صلاح الدين	٧٩٣ ـ ٨٤٠	
١٢ ـ المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٧٩٣ ـ ٧٩٣	بويع بعد وفاة الناصر صلاح الدين غير أن المنصور عارضه وقبض عليه
١٣ ـ الهادي علي بن المؤيد	٧٩٦ ـ ٨٣٠	قام معارضاً للمنصور علي بن صلاح الدين
١٤ ـ المتوكل المطهر بن محمد الحمزي	٨٤٠ ـ ٨٧٩	عارضه المهدي صلاح بن علي (٨٤٠ ـ ٨٤٩)، والمنصور الناصر بن محمد (٨٤٠ ـ ٨٦٦)
١٥ ـ المؤيد محمد بن الناصر	٨٦٦ ـ ٩٠٨	حارب الظافر الطاهري، وعارضه الهادي عز الدين بن الحسن (٨٧٩ ـ ٩٠٠) وابنه الناصر الحسن (٩٠٠ ـ ٩٢٩). ومحمد بن علي الوشلي (٨٨٠ ـ ٩١٠)
١٦ ـ المتوكل يحيى شرف الدين بن المهدي أحمد بن يحيى المرتضى	٩١٢ ـ ٩٦٥	اعتزل بعد ذلك وقام ابنه المطهر

ويلاحظ في الجدول فترات انقطاع، كما يلاحظ قيام عدد من الأئمة في وقتٍ واحد.

الفصل الثالث

اليمامة

ضعف شأن اليمامة في العصر العباسي، وإن كانت الأنظار قد اتجهت إلى ما يدور على أرضها من تنقلات القرامطة، وما يعيثون من فساد في بقاعها، وقيام الدولة الأخيضرية، وأستطيع أن أقول: إنها كانت تحت نفوذ القرامطة إلى حدٍ ما، تفسح لهم المجال بالحركة في مناطق نفوذها شاءت بذلك أم كرهت، وكانت دولةً شيعية، ويدّعي القرامطة زوراً أنهم يمتون إلى التشيع بصلة. وما زال أمر القرامطة بالبحرين على يد العيونيين حتى انقرضت أيضاً دولة الأخيضريين في اليمامة.

ومع زوال دولة الأخيضريين فقد انعدمت السلطة التي تجمع أرجاء اليمامة ضمن نفوذ واحدٍ، وتفرّق شمل القبائل، واختلف بعضها مع بعض، وتنازع مشايخها وأمراؤها، فكانت السيطرة للأقوى، والقبيلة التي يقوى أمرها يمكنها أن تسيطر على رقعة واسعة، وقد تتغلب عليها أخرى، فينتهي نفوذ الأولى، وتعمّ سيطرة الأخرى، واستمر هذا حتى انتهى العصر العباسي عام ٦٥٦.

وجاءت المرحلة التي تلتها، والتي كانت الخلافة في القاهرة سواء أكانت صحيحة الانتماء إلى العباسيين أم لا، إلا أنها كانت اسميةً، وكان النفوذ، وكانت القوة للمماليك. وزاد أمر اليمامة ضعفاً، وعاش سكانها على هامش التاريخ، لا نعرف إلا القليل عن تلك المرحلة، إذ لم تسجل جزئيات عن حياة من يسمون أنفسهم الأمراء، والذين لم يكن نفوذهم ليمتد

إلى أبعد من حدود مدينة أو رقعةٍ صغيرة، كما لم تكن هناك أحداث مهمة تلفت نظر البعيد عن المنطقة، أو تهم المؤرخ ليقوم بتدوينها. ومع هذا الضعف فقد غدا عدد من الأمراء يتبع حكام البحرين في الشرق أو أشراف الحجاز في الغرب، فمن يتسع نفوذه وتقوى شوكته يمد سلطانه على عدد من شيوخ قبائل اليمامة، وقد يلتقي النفوذان في منطقة، ويقع الصدام بين الطرفين، أو تطلب قبيلة في الوسط دعماً من الأشراف أو الحكام لتنافس قبيلة أخرى أو لتتغلب عليها وتخضعها لسيطرتها، أو لتتخلص من سلطانها وطغيانها، فتقوم الثانية بطلب النجدة من الجهة الثانية، ويكون القتال.

واستمر هذا الوضع: اختلاف بين القبائل وأمرائها، وصراع بين البلدان، وتداخل من أشراف الحجاز أو حكام البحرين، واستمداد القوة من هذا الجانب أو ذاك الفريق طيلة هذه المرحلة التي ندرسها (٦٥٦ ـ ٩٢٣) بل استمر إلى ما بعدها حتى قويت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، وآزره أمير الدرعية محمد بن سعود فتغيّر الوضع، وتبدلت الحال، وقامت دولة، هي الدولة السعودية.

الفصل الرابع

البحرين

كانت تعني كلمة البحرين المنطقة الشرقية من جزيرة العرب، وتشمل باصطلاحنا اليوم جزءاً من الكويت، والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، والبحرين، وقطر، وقسماً من اتحاد الإمارات العربية، وقد خضعت هذه المنطقة لسيطرة القرامطة منذ نهاية القرن الثالث الهجري، فعاثوا في الأرض الفساد، وأفسدوا العقائد، وأساءوا إلى الحياة الاجتماعية. ولما جاء السلاجقة إلى حكم بغداد، وأنهوا نفوذ البويهيين فيها عام ٤٤٧، طمع عبد الله بن علي العيوني أحد رجالات بني عبد القيس في البحرين بالقضاء على القرامطة فيها، فطلب دعم السلاجقة له، فأرسلوا له أربعة آلاف مقاتل عام ٤٦٧، فاستطاع بذلك الدعم أن يقضي على القرامطة، وأن يؤسس دولته التي عرفت بالعيونية نسبةً إليه، أو نسبةً إلى بلدة العيون التي ينتمي إليها بالإحساء، واستمرت هذه الدولة حتى عام ٦٤٢، حيث خلفتها في الحكم أسرة بني عقيل.

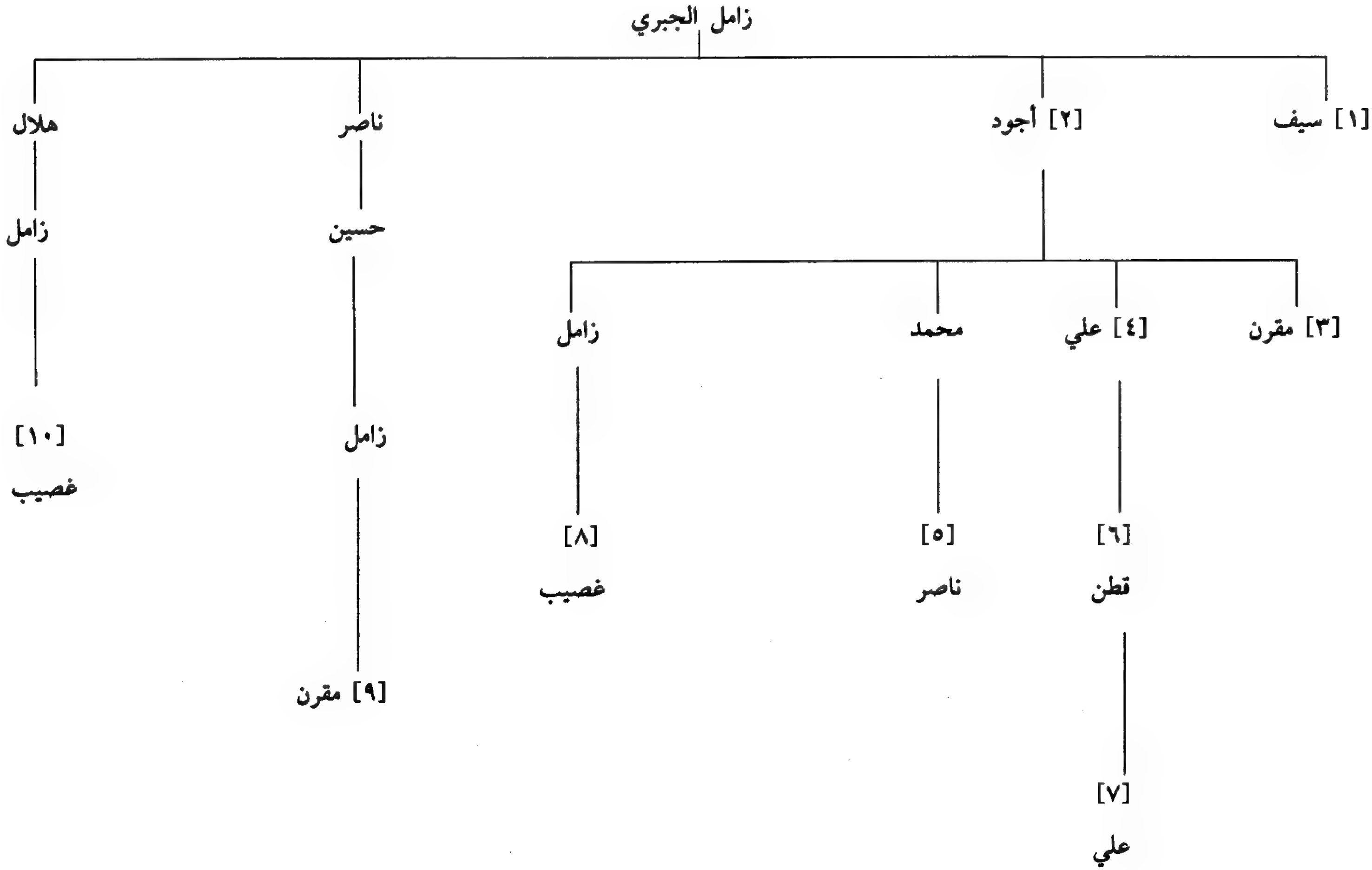
تسلّم آل عصفور أحد بطون بني عقيل أمر منطقة البحرين عام ٦٥١، وبقي الحكم في أيديهم حتى عام ٧٠٥ حيث قام آل جروان، وهم أحد فروع بني مالك بن عامر أحد بطون بني عقيل أيضاً، ودام الوضع لهم في السلطة، حتى عام ٨٢١، إذ جاء بطن آخر، هم آل جبر، وكان أولهم سيف بن زامل الجبري الذي قتل آخر حاكم على البحرين من بني جروان، وهو إبراهيم، وقام مكانه، فسار في البلاد بالعدل، ووطّد الأمن، فخضع له السكان، ولما مات خلفه أخوه أجود بن زامل الذي اتسع سلطانه، وضمّ

إليه بلاد عُمان، ثم خلفه ابنه الأكبر مقرن، وبعد أن حكم مدةً اختلف مع إخوته الأربعة الباقين الأمر الذي ضعف معه شأن الدولة، وتفرّقت كلمتها، وقلّت هيبتها، فتمّ للبرتغاليين السيطرة على المنطقة بعد أن قتلوا الحاكم مقرن بن أجود عام ٩٢١، وسلّموا السلطة من بعده لأخيه علي الذي لم يدم له الأمر سوى شهر واحد، ثم أُقيم بعده ابن أخيه ناصر بن محمد، فحكم ثلاث سنوات، وخلفه ابن عمه قطن بن علي لمدة سنةٍ واحدةٍ، وتبعه ابنه عام ٩٢٥، وتلاه سلطان ابن عم أبيه غصيب بن زامل، فاستمر حتى عام ٩٢٧، ثم جاء مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري، الذي وقع القتال بينه وبين البرتغاليين مرة ثانية، رغم أن آل جبر كانوا يُسيّرون من قبل البرتغاليين، إلا أن البرتغاليين عادوا للقتال، وقصفوا مدينة المنامة، ودمّروا جزءاً منها، وكان الأمير يؤدي فريضة الحج فلما رجع وجد الحرب قائمة، فدخلها، ووقع أسيراً، ورغب أن يفدي نفسه، وعرض أموالاً طائلة غير أن البرتغاليين قد رفضوا ذلك، وقتلوه عام ٩٢٨. وتسلّم إمرة آل جبر مكانه غصيب بن هلال آخر حكام آل جبر.

عندما وقع الخلاف بين آل جبر استنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل لحمايتهم في القطيف، وهو من أسرة من بني عقيل أيضاً، كانت السيطرة لهم على البحرين في مطلع القرن السابع قبل مجيء آل جروان إلى حكم البحرين. فجاء راشد بن مغامس، ودخل القطيف، وولّى عليها أخاه محمداً، غير أنه ظلّ يدفع أتاوةً سنوية للبرتغاليين في هرمز. وفي عام ٩٣٥، استعان راشد بن مغامس بالبرتغاليين ضد أمير الحويزة، فأرسلوا له حملة تدعمه، لكنه عاد فاختلف مع قائد الحملة، فدمّر قائد الحملة بعض قرى البصرة ورجع. وعندما دخل العثمانيون العراق عام ٩٤١، أعلن راشد بن مغامس ولاءه لهم عام ٩٤٥، لكن لم تطل أيام الصفاء بينهما، فأعلن العثمانيون عام ٩٥٣ طرد الشيخ راشد من البصرة، وحكموها مباشرةً، وأعلن أهل القطيف تبعيتهم للعثمانيين ليحموا أنفسهم من البرتغاليين سنة ٩٥٧، واستنجد راشد بن مغامس وحاكم

هرمز بالبرتغاليين ضد العثمانيين، وجاءت قوة برتغالية مؤلفة من تسع عشرة سفينة، ومائتي وألف مقاتل، وتوجهت إلى القطيف، وهُزم العثمانيون، ولكن لم تلبث أن عادت القطيف إلى العثمانيين. وفي عام ٩٦٤ حاول البرتغاليون غزو البصرة، ولكن هبّت عاصفة فرّقت سفنهم، وحالت دون الغزو.

أما البرتغاليون فقد وصلوا إلى منطقة الخليج العربي، واستولوا على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ومنها انطلقوا إلى البحرين فزاروها أول مرة عام ٩٢١، ورأوا تفرّق حكامها من آل جبر، فقرروا غزوها، وسار إليها «بدوردي البوكرك»، وحاصر المنامة بناءً على أوامر عمّه نائب ملك البرتغال بالهند، وأخضعها لملك البرتغال، بعد أن تمكّن من قتل مقرن بن أجود الجبري عام ٩٢١ لأنه وقف في وجهه، وأصبح آل جبر يأخذون برأي البرتغاليين، ويخلع كل حاكم منهم إذا أراد الخروج عن رأيهم، وهكذا كان إخوة مقرن بن أجود. ورجع «بدور دي البوكرك» بعد ذلك إلى هرمز. ثم رجع البرتغاليون ثانيةً إلى البحرين عام ٩٢٨ بقوةٍ مؤلفةٍ من سبع سفن، عليها أربعمائة مقاتل، ومائتي مركب بقيادة «انطونيو دي كوريا» فاستولوا على المنامة بعد أن قصفوها، ودمّروا جزءاً منها، وقتلوا مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر من آل جبر بعد أن أسروه، كما مرّ معنا، وحكم غصيب بن زامل بن هلال البحرين بعد ذلك، وجاء الشيخ راشد بن مغامس فأخذه منه. وهكذا أصبح العثمانيون والبرتغاليون وجهاً لوجه في منطقة الخليج، كما كانوا في مدخل البحر الأحمر، وجنوبي الجزيرة، والمحيط الهندي، وسواحل بلاد الهند، وأصبح الصراع واسعاً.


زامل الجبري
[١] سيف
[٢] أجود
ناصر
هلال
[٣] مقرن
[٤] علي
محمد
زامل
حسين
زامل
[٦]
قطن
[٥]
ناصر
[٨]
غصيب
زامل
[١٠]
غصيب
[٩] مقرن
[٧]
علي

الفصل الخامس

عُمان

قوي أمر الخوارج في عمان في عهد بني أمية، وانتشر بينهم رأي عبد الله بن أباض المتوفى عام ٨٦، وعندما سقطت دولة بني أمية بويع جُلندي بن مسعود إماماً على منطقة عمان عام ١٣٥، غير أن قوات أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس قد تمكنت من قتل جُلندي، وبسط نفوذ العباسيين على تلك الجهات.

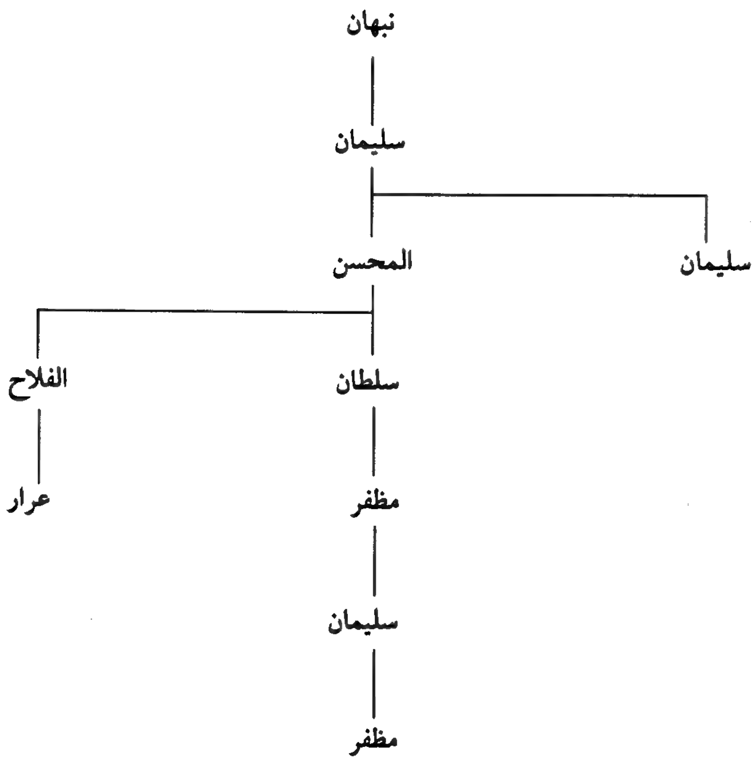
وفي أيام الرشيد بايع العمانيون محمد بن عفان إماماً لهم، وبعد عامين عادوا فانتخبوا وارث بن كعب، وبعث الرشيد قوة لإخضاع عُمان، ولكنها هزمت قرب صحار، ووقع قائدها عيسى بن جعفر في الأسر، ولم يتمكن الرشيد من خضد شوكة أهل عمان.

وحاول القرامطة غزو عُمان مرتين أيام أبي سعيد الجنّابي، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك. ولم يعد للعباسيين نفوذ على عمان منذ نهاية القرن الرابع الهجري، وبدأ العمانيون بالانفصال عن الخلافة الإسلامية، وكانوا يختارون الأئمة من بينهم، غير أن الإمام ربما يُخلع، ويُختار غيره. ثم أصبح وراثياً بعد أن كان انتخاباً وذلك منذ منتصف القرن السادس عندما تسلّمت أسرة آل نبهان حكم عمان وذلك بحدود عام ٥٤٣، وبدأ نفوذ آل نبهان يمتد إلى شرقي إفريقية، وقد توطّد في «باتا» عام ٥٩٧، وبرز من آل نبهان قحطان ابن عمر الذي حكم عام ٦٧٠.

وضعف أمر بني نبهان، وخضع ساحل عمان لمملكة هرمز التي قامت

في مطلع القرن الثامن، بعد أن دمّرت غزوات المغول مدينة هرمز القديمة، فانتقل أهلها إلى جزيرة «جرون» المقابلة لمدينتهم المدمّرة، فعُرفت الجزيرة بعدئذٍ باسم «هرمز»، ونشطت التجارة فيها، وقامت فيها مملكة فرضت سيطرتها على الإمارات المجاورة من البحرين إلى عُمان، وزار الرحالة ابن بطوطة ملكها قطب الدين تمهتُن بن طوران شاه بين عامي ٧٣٠ و٧٣٢، ثم دبّ فيها الضعف، وأصبح ملكها يستنجد بأمير البحرين في وقت الشدة ضد أقربائه الطامعين بالسلطان، وقد استنجد السلطان «سرغل بن نورشاه» ملك هرمز بأمير البحرين ضد أخيه الذي نازعه الملك عام ٨٨٠. واستولى أمير البحرين أجود بن زامل على عمان من أميرها سليمان بن سليمان بن نبهان عام ٨٩٣، وقضى على الأسرة النبهانية التي كانت ضعيفة وتخضع لنفوذ ملك هرمز، وإن كان قد قوي أمرها قليلاً مع الضعف الذي اعترى مملكة هرمز، وولى على عمان أميراً من قبله هو عمر بن الخطاب الأباضي، أما داخل عمان الذي مقره (نزوى) فقد كان الأئمة يختارون، ويختلفون فيما بينهم، ويُخلع إمام، ويُقام مكانه آخر.

وعاد سليمان بن سليمان بن نبهان فخرج على الإمام أبي الحسن بن عبد السلام، واستولى على عُمان، غير أنه خُلع عام ٩٠٦، وانتخب مكانه محمد بن إسماعيل الخروصي الذي بقي إماماً حتى عام ٩٤٢، وفي أيامه غزا البرتغاليون عُمان، وخلفه ابنه عبد الله بن محمد الذي توفي عام ٩٦٩، وعادت القوة للأسرة النبهانية فقام سلطان بن المحسن بن سليمان الذي توفي عام ٩٧٣، وقد استطاع أن يملك نزوى في أيام الإمام بركات بن محمد، وتولى بعده ابنه مظفر، وأخوه الفلاح، ثم آل الأمر إلى سليمان بن مظفر الذي استطاع أن يخضع عُمان إليه، وتوفي عام ١٠١٩، فخلفه ابن عمه عرار بن الفلاح الذي كان ساعده الأيمن، واستمر حتى عام ١٠٢٤ حيث توفي، وقام مكانه مظفر بن سليمان واستمر في الحكم شهرين ثم توفي وقام اليعاربة بعدئذٍ.



أما البرتغاليون فقد جاء «البوكرك» إلى الشرق عام ٩٠٩، وأقام بالهند، ورأى أن سيادة البرتغال على الطريق التجارية بين رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوبي إفريقية والهند تقضي باحتلال الموانئ التجارية كلها والواقعة على طول هذه الطريق، وقد سافر إلى البرتغال، وعرض خطته على ملكها، فوافق على ذلك وسدّ منافذ التجارة الإسلامية على البحر الأحمر والخليج العربي، كما أمر بتعيين «البوكرك» نائباً له على الهند.

عاد «البوكرك» إلى جنوب الجزيرة العربية عام ٩١٢، وبدأ بالاستيلاء على جزيرة سوقطرى عام ٩١٣، ثم هاجم عدن في العام نفسه، ولكنه فشل في احتلالها، فاتجه نحو الخليج، ومعه سبع سفن، وستون وأربعمائة مقاتل ومرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحد، وصور على ساحل عمان، ودمّر السفن الراسية في هذه الموانئ، وارتكب أبشع أنواع الجرائم ليرهب السكان، ثم سار إلى مدينة «قلهات» وطلب من حاكمها الاستسلام دون قيد أو شرط، فوافق الحاكم، وقدّم المساعدات للبوكرك، وعقد معه صلحاً،

ومع ذلك فلم تسلم المدينة من التدمير، وذلك لأن الروح الصليبية كانت تملأ نفوس البرتغاليين بل الأوربيين عامةً فلم يستطيعوا أن يروا مسلمين آمنين تحت سيطرتهم.

ثم سار «البوكرك» إلى مدينة «قرياط»، وكان عند أهلها استعداد للمقاومة، وربما أخذوا العبرة مما رأوا ما حلّ بأهل «قلهات»، فقصف البرتغاليون «قرياط»، فاستبسل السكان في الدفاع عن مدينتهم، ولكن ظهر تفوّق البرتغاليين، وغُلب الآمنون، فذبح البرتغاليون كل من وقع في أيديهم، ثم أحرقوا المدينة، وأخذوا عدداً من الأسرى بعد ذلك، ومثّلوا بهم ليشفوا منهم صدورهم المليئة بالحقد، فقطعوا الآذان، وجدعوا الأنوف، ثم أحرقوا السفن في الميناء، وتحرّكوا مع الساحل نحو الشمال الغربي.

وصل البوكرك مع حملته البرتغالية إلى مسقط، وسمع أهلها، ما أصاب مدينة «قرياط»، فحصّنوا مدينتهم احتياطاً، ولم يكن لديهم رغبة في قتال البرتغاليين، وأرسلوا وفداً إلى البوكرك للمفاوضة، ورجوه ألا يمسّ المدينة بسوء، ووافق السكان على كل طلبات البوكرك سوى الخضوع لملك البرتغال، وفي هذا الوقت وصلت إليهم مساعدات من هرمز فامتلأ البوكرك غيظاً على رفض طلب من مطالبه، وعلى المساعدات التي جاءتهم فأصلى المدينة بوابل نيرانه، وتمكّن من دخولها، وأعمل المهاجمون الجرائم الوحشية والمذابح في أهل المدينة، ثم دمّروا المساجد وأحرقوا المدينة، وانطلقوا بعدها نحو مدينة «صحار» ووافق حاكمها على طلبات البوكرك بعد تمنّع في الخضوع لملك البرتغال.

واتجه البرتغاليون إلى «خورفكان»، ورفض أهل المدينة الاستسلام، واستبسلوا في الدفاع عن مدينتهم، لكنهم هُزموا، فقبض البرتغاليون على من وقعت أيديهم عليهم، ومثّلوا بهم. ثم ساروا نحو قاعدة المملكة «هرمز» حيث كانت المدن السابقة كلها تتبع لها، وكان ملكها شاباً في الثانية عشرة، يُدعى سيف الدين، ويقوم بالوصاية عليه الشيخ خوجة

العطار، فجمع الملك والوصي ما استطاعا جمعه من المسلمين للدفاع عن الجزيرة، ورفضا الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، غير أن التفوّق البرتغالي أجبرهما على الخضوع بعد استبسالٍ كبيرٍ من السكان، ووافقا على دفع ضريبةٍ سنويةٍ مقدارها خمسة عشر ألف دينار أشرفي ذهباً، والخضوع لملك البرتغال، والسماح للبرتغاليين ببناء قلعة على الجزيرة.

ثار قادة «البوكرك» عليه، لما أصابهم من دفاع السكان واستبسالهم، ولما رأوا من الأعمال الوحشية رغم أنهم هم الذين قاموا بها، وقلوبهم ممتلئة حقداً على المسلمين، لكنهم احتجوا بها ليعللوا تمرّدهم، وقالوا: إن النفس البشرية لا تستطيع أن ترى هذه المشاهد، ومع كذبهم لتبرير عملهم فقد قرروا الرحيل إلى الهند، وهربت بالفعل سفينتان من سفن البرتغاليين.

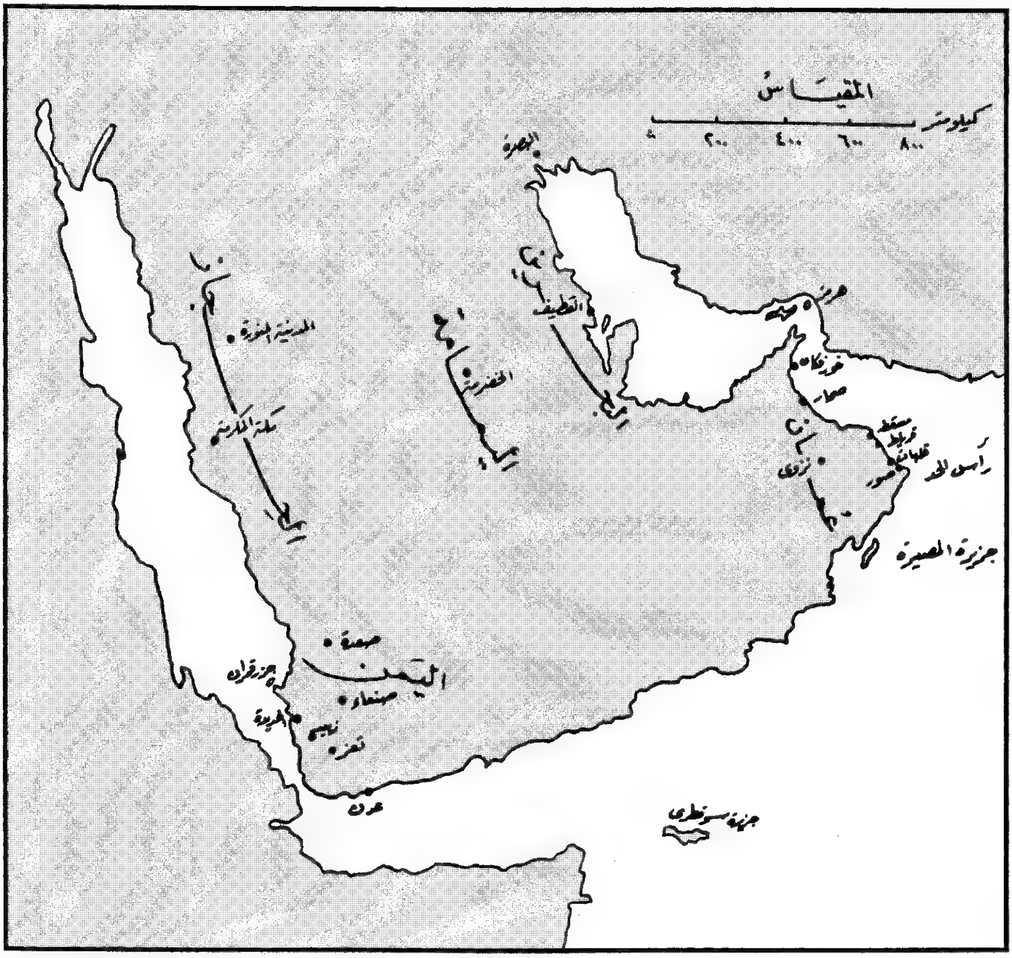
رحل البوكرك إلى جزيرة سوقطرى قاعدته الرئيسية، فقوّى هناك الحامية فيها، وجاءه دعم من البرتغال، وبعد أن أقنع الجنود الذين معه بضرورة الانتقام من المسلمين، وبعد أن شحن النفوس بالحقد الصليبي عاد عام ٩١٤ إلى هرمز، ومرّ في طريقه على «قلهات» فانتقم من أهلها لأنهم ساعدوا هرمز سراً رغم ما حلّ بهم، ونهب المدينة، وحاول الغدر بحاكمها شريف الدين إذ دعاه إلى سفينة برتغالية للغدر به، غير أن شريف الدين أحسّ بما يُبيّته البوكرك له فاعتذر بلطف بحيث لا يدري البوكرك. غير أن الأوامر قد صدرت للبرتغاليين من قائدهم بهدم المسجد الجامع، وإحراق المدينة، وساروا بعدئذٍ إلى هرمز، ولما وصلوا إليها حاول البوكرك التأكد من استمرار الموافقة على الشروط السابقة، فأعلن ملك هرمز على موافقته على الشروط دون بناء القلعة، فحاصر الجزيرة وأراد الانتقام الشديد غير أن الأوامر قد جاءته من نائب ملك البرتغال بالهند برفع الحصار والتوجه إلى الهند فامتثل الأوامر، وعندما وصل إلى الهند عام ٩١٥ تولّى نيابة ملك البرتغال هناك خلفاً (لدي ألميدا).

رجع البوكرك عام ٩١٩ بالهجوم على البحر الأحمر، وهاجم عدن غير أنه فشل ثانيةً في دخولها، فسار إلى الخليج عام ٩٢١، ووصل إلى

هرمز، وألقى الحصار على الجزيرة، وقتل حاكمها بعد دخولها، وعيّن ابن أخيه (بدوردي البوكرك) قائداً لقلعة هرمز، ورجع إلى الهند، ولكنه هلك قبل أن يصل إليها. وتبدو الروح الصليبية في رسالة وجهها إلى ملك البرتغال يقول فيها: «إنه حيثما أمكنه العثور على عربي كان إفلاته من يده من المحال، وإنه كان يملأ المساجد بالمسلمين ثم يضرم النار فيها».

ورغم سفر البوكرك إلى الهند، ورفعه الحصار عن هرمز، ووفاته إلا أن ساحل عمان والخليج قد بقيا يخضعان للبرتغاليين، غير أن السكان والأمراء لم يكونوا راضين بهذا الخضوع، إلا أنهم مهزومون، لذا كانوا ينتظرون الظروف المناسبة للانقضاض على الأعداء، وربما كان ذلك الحقد الصليبي الذي يظهر على الغزاة البرتغاليين، واحتقار السكان، والازدراء، بالعقيدة الإسلامية. وبدأت الحركات ضد البرتغاليين عام ٩٢٨ حسب تعاليم شيخ هرمز بندر شاه، وقد بدأ هو بحرق المراكب البرتغالية في ميناء هرمز، ثم قتل الحامية البرتغالية القائمة في الجزيرة ليلاً، وقامت الحركة نفسها في بقية المراكز التجارية باستثناء حاكم مسقط الذي أعلن خضوعه للبرتغاليين بسبب التنافس أو الخلاف الذي كان بينه وبين حاكم هرمز، وهذا ما دعا إلى طلب البرتغاليين لمساعدات من الهند، فجاءت النجدة الأولى، وتعاونت مع حاكم مسقط الشيخ راشد، ثم جاءت النجدة الثانية عام ٩٢٩، وتمكن البرتغاليون من استعادة مركزهم عام ٩٣٠. وقامت حركة ثانية عام ٩٣٣ في هرمز، ومسقط، وقلهات وجاءت نجدات من الهند قمعت الحركة، واستعمل البرتغاليون أبشع وسائل القمع. وقامت حركة ثالثة عام ٩٣٦ في البحرين. وأخيراً استعان سكان المنطقة بإخوانهم العثمانيين لمقاومة البرتغاليين، وكان لهذا دوره في القضاء على النفوذ البرتغالي في المنطقة.

أما الصفويون في إيران فقد حاولوا التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين، وقد حاول هذا التفاهم أو إقامة حلف إسماعيل الصفوي عام ٩٢٠ ولكنه فشل لموت البوكرك عام ٩٢١، كما حاول ذلك عباس الصفوي فيما بعد.



المقياس
كيلومتر
٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠
البصرة
القطيف
هرمز
خورفكان
صحار
مسقط
قريات
قلهات
صور
رأس الحد
نزوى
جزيرة المصيرة
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الدرعية
صعدة
اليمن
صنعاء
جزر قمران
الحديدة
زبيد
تعز
عدن
جزيرة سوقطرى

الباب الثالث

دولة المغول

ارتبط اسم المغول في أذهاننا بالبربرية والفظاظة، والقسوة والغلظة، وسفك الدماء، وهتك الأعراض، وتخريب المدن والقرى، وإبادة المزروعات، والإتيان على كل شيءٍ حتى يكون كالرميم وذلك نتيجة ما قام به هذا الشعب في أول أمره، وما لحقنا منه من أذى، وما أصاب حضارتنا من دمارٍ على يديه، وما نال مدننا من خراب في أثناء دخول أبنائه عليها حتى رفض ابن الأثير كتابة تلك الأحداث، إذ ظنّ أنها نعي الإسلام وانتهاء أمره على أيدي هؤلاء المخرّبين، غير أن هذا الشعب لم يلبث أن بدأ يدخل في الإسلام ولم ينقض على اجتياحه بلاد الإسلام بأكثر من خمس وثلاثين سنة، كما لم يمض نصف قرن حتى غدا كله مسلماً، وأصبح ينافح عن ديار الإسلام، ويقاتل أعداء المسلمين، فقد وقع القتال بين «بركة» الذي أسلم وبين ابن عمه «هولاكو» الطاغية الذي لا يزال وثنياً، ويعمل على دكّ معالم الحضارة الإسلامية، يخرّب الدور، ويحرق الكتب، ويروّع الآمنين، بل إن «بركة» هذا قد هزم «هولاكو» وتصادق مع ألد خصومه يومذاك، وهو السلطان الظاهر بيبرس زعيم المماليك الذين وقفوا في وجه المغول وهزموهم في «عين جالوت» عام٦٥٨، وقتلوا قائدهم «كتبغا» نائب هولاكو، ولم يصمد قبل المماليك أحد أمام المغول، وكان هذا كله سبباً في توقّف المدّ المغولي وكسر شوكته، وإخماد ذروته وحِدَّتها.

وإذا كان الشعب الغالب عادةً هو الذي يفرض سلطانه وحضارته على المغلوبين إلا أن حضارة المغلوبين هي التي سادت على الغالب هنا، إذ أن الغالبين لم يكونوا على شيءٍ من الحضارة، ويشعر المغلوبون أنهم الأعلون ما داموا من المؤمنين حيث كانت الروح الإيمانية لا تزال على شيءٍ من

العلو، فتأثر الغالب بالمغلوب، وتمثّل حضارته ثم تبناها وأخيراً ذاب في المجتمع الذي يعيش فيه.

واستمر المغول على إسلامهم، وبدؤوا يعملون على نشره، وخاصةً في بلاد الشمال، وبقوا على هذه الحالة حتى يومنا هذا، في الوقت الذي يلاقون فيه الاضطهاد من قبل المسيطرين عليهم من الروس فيعملون مستترين، وفي هذا الوقت الذي تخلّى فيه كثير من أتباع الإسلام عن دينهم، غير أن هذا العمل لم يُلفت إليه ولم تتغير الصورة السابقة عن المغول، تلك الصورة القاتمة التي رسخت في الأذهان قديماً، وبقيت راسخةً لم تتبدل لأنه لم يطرأ عليها شيء، مقترنةً بالوحشية وحشية الوحوش الهائجة المندفعة من الشرق.

لم يطرأ عندنا شيء على صورة المغول السابقة لأنهم ذابوا في المجتمع الذي نعيش فيه أو القريب منا، ذابوا تدريجياً فنُسوا، ولم يحدث منهم ما حدث في بلادٍ أخرى من بطولةٍ ودفاعٍ عن الإسلام ونشرٍ له.

ولم يطرأ عندنا تغيّر على صورة المغول السابقة لأنه قد أصابنا الضعف والوهن بعد اكتساحهم بغداد عام ٦٥٦، فلم نعد نعرف شيئاً خارجاً عن دائرتنا الضيّقة التي نعيش فيها بل بالأحرى لم نعد نعرف ما يحيط بنا، فتقوقعنا وانعزلنا، واقتصرنا على الأشياء الأساسية والضرورية في الحياة من تأمين الطعام والمأوى واللباس، ولا تؤمن هذه الأشياء، أيضاً إلا بكل نفس ذائقة الموت بحيث لا تدع معها وقتاً يفكر فيه المرء بغيرها.

لم يطرأ تغيّر على صورة المغول لأنه لم يكد ينسى الناس ما أصابهم على أيدي المغول، ولم يكد يشعر السكان بأن هؤلاء المغول قد ذابوا في المجتمع ودخلوا في الإسلام حتى فجأهم سيل جارف جديد من أبناء عم المغول أو من أبناء جلدتهم من التتار، سيل جارف لم يختلف عن الأول في شيء، جاء يحرق الأخضر واليابس، ويقتل الحاضر والباد، ويبيد كل ما وجد أمامه، وذلك على يد تيمورلنك، ولم يمض على السيل الأول أكثر من مائة سنة كثيراً، حيث لا تزال أحوال السيل المغولي الأول يذكرها

الناس، وتدور على ألسنة الجميع ينقل بعضهم إلى بعض مرارتها، وأهوالها. ولكن قد يكون هذا السيل في هذه المرة أشد وقعاً وأكثر إيلاماً من الأول، ذلك أنهم في المرة الأولى كانوا على الوثنية، وليس غريباً أن يأتي السوء من هؤلاء الوثنيين المتبربريين، وهم أعداء للإسلام، أما في هذه المرة فقد جاء وقد اعتنقوا الإسلام أو انتموا إليه، أو ادعوه على الأقل حتى لقد قيل: إن تيمورلنك كان يحمل معه مسجداً من الخشب يصلي فيه مع من معه كي لا تفوته صلاة الجماعة في المسجد، وهذا إن صحّ فإنما يدل على جهلٍ تامٍ بالإسلام إذ أن أجر صلاة الجماعة يتم بالجماعة وليس من الضروري أن يكون على صورة من الصور ترمز إلى المسجد. لقد جاء هؤلاء التتار يقاتلون المسلمين ويفعلون أشد ما فعل أسلافهم المغول، لقد كان تيمورلنك يُسرّ عندما تُبنى أهرامات أمامه من جماجم صرعى حروبه، أو كان يشعر بالراحة ـ على حد قولهم ـ عندما كان يُجبر نساء كبار أسراه أن يخدمن ضيوفه وهن عرايا، وبين الحضور أولئك الأسرى من الملوك والأمراء، وهذا ما فعله بالسلطان بايزيد العثماني عندما وقع في أسره حسب بعض الروايات. وما كانت حروب تيمورلنك بأكثرها إلا في بلاد المسلمين وما ذاق من وحشيته آخرون سوى المسلمين لذا فإن الصورة السابقة ترسخت بعد أن كاد يمحى منها شيء.

وربما كان من جملة أسباب الجهل بالمغول وتاريخهم وخاصةً بعد إسلامهم صعوبة أسمائهم ولفظها الغريب والمركب، ومما يزيد الأمر صعوبةً أن بعضها يترجم، وتذكر المصادر هذه الأسماء تارةً بالعربية مترجمةً وأخرى بالمغولية ويظنّ القارئ أن المسمّى لشخصين وهما لرجلٍ واحد. ثم تشابه هذه الأسماء.

ومن الأسباب الأخرى اختلاف الخانات بعضهم مع بعض وقتالهم، وتسلّم الواحد منهم أمر منطقة وهزيمته منها ثم عودته ثانيةً إليها، وهذا ما يجعل القارئ يضيع في خضم الأحداث والأسماء.

وكان من عادة المغول أن ينصّبوا في كل منطقةٍ أميراً ويتبع الخان،

لكن ليس غريباً أن يدّعي عدد منهم أنه الخان، فتكثر الخانات، ويضيع المرء بينهم أيّهم الخان وأيّ منهم الأمير و. . .

استمرت الصورة السابقة تدعمها اللاحقة مع الجهل الذي خيّم علينا والضعف الذي حلّ بنا، وعندما بدأت الصحوة الإسلامية تظهر في مجتمعاتنا صرف الأمر عن هذه الشعوب إلى معرفةٍ تقتصر على أجزاء ضيقة دعوها قوميات تارةً تكبر وأخرى تضمر حسب دعاة هذه العصبيات، وفي كلتا الحالين يبقى المغول خارج أطر هذه القوميات، . في منأى عن المعرفة التي يجب ألا تهمل منطقة دون أخرى من مناطق المسلمين، دون معرفة لسكانها، ومشكلاتها، والدعوة فيها، وما يعاني أهلها، وما يمكن أن يُقدم لهم من مساعدات.

ومما يساعد على عدم معرفة المغول والتتار وأحوالهم الحالية سيطرة الروس على بلادهم وجعلها جزءاً من الإمبراطورية الروسية الواسعة، فكانوا قلةً في خضم كثرة، ورقعة أرض صغيرة ضمن بلادٍ شاسعةٍ فضاعوا، وامحى أثر دولتهم هذه بالإضافة إلى أن الروس قد جزؤوا بلادهم إلى دويلات أطلقوا عليها جمهوريات ذات استقلالٍ ذاتيٍ فتفرّقت كلمتهم فوق فرقتهم، وضاعت وحدتهم مع اضطهادٍ وحربٍ لكل ما هو مسلم أو يحمل معنى الإسلام.

الفصل الأول

دولة مغول الشمال

بعد أن اجتاح جنكيزخان ما اجتاحه من أرض، وشعر بالتعب، وأيقن بقرب الأجل، قسّم ما حصل عليه من البلاد على أولاده الأربعة من الزوجة الأولى على عادة المغول في أن الميراث ينحصر في أبناء أول امرأةٍ يقترن بها الرجل، وهي التي تعد ربة البيت وحدها دون سائر نسائه مهما بلغ عددهن، أو كانت مكانتهن، أو كثرت أموالهن.

أعطى جنكيزخان ابنه الكبير «جوجي» بلاد القفجاق، والداغستان، وخوارزم، وبلغار، وروسيا وما يمكن ضمه من ناحية الغرب إلى نهاية المعمورة.

وأعطى ابنه الثاني «جغطاي» بلاد الاويغور، وتركستان، وما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظةً على تعاليم أبيه المحصورة فيما عرف باسم «اليساق».

وأعطى ابنه الثالث «تولوي» بلاد خراسان، وفارس، وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين، وما يتبع تلك الجهات.

أما ابنه الرابع «أوغطاي» فقد أعطاه بلاد المغول، والصين، والخطا إلى منتهى المعمورة من ناحية الشرق، وجعله خليفته من بعده أي الخان الأعظم بالنسبة إلى المغول جميعاً وإلى أولاده حيث يرجعون إليه في أمورهم كافةً، ويُقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من مغانم وأسلاب.

غير أن هؤلاء الأبناء لم يبقوا على وفاقٍ رغم ارتباطهم بالخان الأعظم إذ أنهم مختلفو الطباع، متباينو الأطماع، وهذا ما جعل دولةً تقوم في بقعةٍ من هذه الأقسام، وإن تأخرت عن هذا التقسيم قليلاً حتى مضى عهد الإخوة الآباء الذين كانوا على شيءٍ من الارتباط بمقر الحكم «قره قورم» حيث يقيم الخان الأعظم إلا أن هذا قد ضعف عندما آل الأمر في كل منطقة إلى الأبناء الذين اتسعت رقعة الخلاف بينهم فوقع الصدام، وظهرت الدول المغولية المختلفة التي من الفائدة ذكر كلٍ منها على انفراد.

وتوفي جنكيزخان عام ٦٢٤ وذهب كل من أبنائه الأربعة بما حصل عليه.

مغول الشمال هم أسرة أبناء جوجي بن جنكيزخان، ولم تنقد هذه الأسرة لحكم الخان الأعظم منذ بداية الأمر أي منذ وفاة جنكيزخان، إذ توفي جوجي قبل أبيه، وتسلّم أمر المنطقة من بعده ابنه (باتو) أو أن جنكيزخان بنفسه سلّمه الأمر، ولم يكن (باتو) راضياً على تعيين عمه (اوغطاي) خاناً أعظم للمغول، كما كان باتو مميزاً بين أبناء عمومته، إذ يجب على المغول أن يرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم. وكان لباتو مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلاف مع الخان الأعظم وينافسه، وعندما توفي (كيوك) بن أوغطاي أي ابن عمه، وهو الخان الأعظم، نقل الخانية إلى أبناء عمه الآخر تولوي فعيّن بالقوة (مانكو) أخا هولاكو رغم عدم موافقة الكثيرين من المغول وخاصةً أبناء كيوك.

تعد هذه الأسر أول المغول في اعتناق الإسلام، إذ كان باتو يعطف على المسلمين، ويكره (كيوك) الخان الأعظم الذي تنصر، وأسلم (بركة) أخو (باتو) حوالي عام ٦٥٠، وعندما تسلّم خانية مغول الشمال عام ٦٥٢ أظهر تضامنه مع المسلمين، وقاتل ابن عمه هولاكو، وانتصر عليه، وراسل السلطان الظاهر بيبرس حاكم الدولة المملوكية في مصر وتحالف معه ضد هولاكو.

واستمرت الاتصالات بين المماليك ومغول الشمال كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسسها هولاكو في فارس والعراق وبلاد الجبل، وحتى أيام تيمورلنك، وإن كانت تضعف أحياناً عندما يتقرّب الإيلخانيون من الإسلام، وعلى كلٍ لم يحدث خلاف أبداً بين المماليك وبين مغول الشمال، ونتيجة هذه الاتصالات فإن معرفتنا عن هذه الأسرة تزيد على معرفتنا على بقية أسر المغول التي قامت في تركستان، وبلاد ما وراء النهر، والصين رغم دخول هذه الأسر بالإسلام أيضاً، وإن كانت في مرحلة متأخرة نسبياً عن دخول مغول الشمال. وليس من أسرةٍ مغوليةٍ أكثر معرفةً عندنا من هذه الأسرة سوى الأسرة الإيلخانية لتوالي حروبها في العراق وبلاد الشام ومحاولة انتزاع بلاد الشام هذا بالإضافة إلى قرب منطقة حكمها من بلادنا.

اشتهر من خانات هذه الأسرة بركة خان الذي حكم (٦٥٢ ـ ٦٦٥) بصفته أول من أسلم، وبسبب مراسلاته مع السلطان الظاهر بيبرس، ومصاهرته له وحروبه للطاغية هولاكو، وانتصاره عليه، أو لانتصاره على ألد أعدائنا، وأكبر خصومنا، وأصعب من نال من حضارتنا. ومحمد أوزبك خان الذي حكم (٧١٢ ـ ٧٤٢)، وهو الذي تحدث عنه الرحالة ابن بطوطة. وتوقتاميش الذي حكم ٧٨٢ ـ ٧٩٨ والذي اشتهر بحروبه ضد تيمورلنك.

كان جوجي أكبر أبناء جنكيزخان، وكانت وظيفته المقررة له من قبل أبيه الصيد، وهي أحسن الوظائف عندهم. وكان نصيبه من ملك أبيه بلاد البلغار، والروس، والشركس، وخوارزم، والقفجاق، وما والاها، وكان بينه وبين أخويه جغطاي وأوغطاي ضغينة وبرودة دائماً. ولما استولى المغول على بلاد خوارزم عام ٦١٧ اتجه جوجي ومن معه نحو صحراء القفجاق، واشتغل بالصيد واللهو والنهب والسلب والإغارة على المناطق المجاورة، وقد تمكّن من دخول بعض البلدان، بعضها صلحاً وبعضها الآخر عنوةً، ثم استدعاه أبوه واهتم به كثيراً، وقد أظهر المحبة الزائدة لإخوته، وقدّم لهم

الهدايا مما حمله معه، ثم أعاده أبوه إلى المملكة التي خصّه بها فسار إليها، وما أن وصل إلى مقره حتى وافته منيته عام ٦٢٤، وذلك قبل وفاة أبيه بستة أشهر تقريباً. كان جوجي على ديانة آبائه وأجداده الوثنية، وكان يعيش على نمط حياة سكان صحراء القفجاق رغم ما بها من بساطة وسذاجة، ويرفق بأهالي تلك الجهات. وخلّف سبعة أولاد هم: أوردا، باتو، شوبان، بركة، جمتاي، بركجار، توقايتمر.

استمرت مملكة جوجي بيد أبنائه وأحفاده أكثر من ستة قرون، وإن تجزّأت، وتفرّق الأحفاد، وكان آخرها مملكة القرم التي زالت عام ١٢٩٨ على يد الروس. كما أن أبناء شوبان قد عُرفوا بالشيبانية، ثم عرفوا بالأوزبكية نسبة إلى أوزبك خان، وتوجد الآن جمهورية أوزبكستان في بلاد ما وراء النهر في تركستان تحمل هذا الاسم، وهي جزء اليوم من الامبراطورية الروسية، حيث تمكن أحفاد جوجي من انتزاع بلاد ما وراء النهر من أيدي أبناء تيمورلنك فيما بعد.

لما توفي جوجي استدعى جنكيزخان ولدي جوجي الكبيرين: أوردا، وباتو، فعزّاهما، ونصّب باتو على خانية صحراء القفجاق لما وجد فيه من ميزات تؤهله لذلك، ووافقه على مشروع أبيه في غزو بلاد الروس، وطلب منهما العودة، وما أن رجعا، وبدأ باتو يستعد للقيام بالغزو حتى جاءه خبر وفاة جدّه جنكيزخان، فاتجه نحو بلاد المغول للتعزية، ولتنصيب عمّه (أوغطاي) أو لبحث شؤون الملك، وكلّف أخاه الأصغر «توقايتمر» بمهمات الملك مكانه.

كان من عادة المغول ألا يجلس الخان على سرير الملك بعد وفاة سلفه مباشرةً وإنما لا بدّ من مرور مدة تتناسب مع شخصية المتوفّى، وقد استمر «أوغطاي» مدة سنتين دون تسلّم السلطة، وبعد انقضاء هذه المدة تجمّع أولاد جنكيزخان وأحفاده وكبار الأسرة لهذا الغرض، وبعد الانتهاء من إجلاس «أوغطاي» على سرير الخانية العظمى والاحتفال بذلك، سارت الأسرة كاملةً لقتال بعض ملوك الصين الذين أعلنوا العصيان بعد موت

جنكيزخان، وقد تمّ لهم النصر، ولما عادوا من حربهم هذا رأى الخان الأعظم «أوغطاي» أن يتمّ ما نواه أخوه جوجي قبل موته من محاربة بلاد الروس والبلغار، فجهز جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً أعطاه لابن أخيه باتو وجعل معه ولدي أخويه الآخرين إضافةً إلى ابنه كيوك وكان ولدا أخويه مانكو بن تولوي وبايدار بن جغطاي، وكانت القيادة العامة لباتو بن جوجي، وسار الجيش إلى مقر ملك باتو حيث وفادة ضيوفه، ثم تجهّز للقتال عام ٦٣٣، واستطاع أن يضم إليه بلاد بلغار بعد أن استسلم أميرها «الهام خان»، ومشى معه لقتال الروس عام ٦٣٥، وكان الروس متفرقين فانتصر المغول، ودخلوا بلاد الروس جميعها تقريباً، ثم عادوا وفي طريق عودتهم دخلوا خاركوف عام ٦٣٧، ثم وجه ابن عمه مانجو بن تولوي إلى كييف فدخلها.

دخل باتو منطقة بسارابيا والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ونكبوها ثم اتجه نحو كرواتيا، وبلاد البوسنة، وألبانيا، ووصل إلى تخوم مملكة النمسا، فذعرت أوربا، وكان إمبراطور ألمانيا فريدريك أشدّ ملوك أوربا خوفاً، وهو الذي صالح الملك الأيوبي الكامل وتسلّم القدس. غير أن هجوم التتار هذا قد جعل السكان ينسون الحقد الصليبي مؤقتاً ليستعدوا للقاء التتار، وحاول الحكام أن يبقى أهل البلدان في مناطقهم فلا يخرجون إلى الصيد الذي اعتادوا أن يذهبوا في كل عام على سواحل إنكلترا، ولا يتجهوا إلى الحروب الصليبية فإن ما هم فيه يُشغلهم عما يهدفون إليه، وأرسل باتو ابن عمه بايدار بن جغطاي لقتال الألمان فالتقى الطرفان في مورافيا، وانتصر الألمان، وهُزم التتار، ومات بايدار غمّاً، وتعبت الجيوش التتارية، ومات أوغطاي خان التتار، وهذا كله جعل باتو يترك الحرب في أوربا.

خلف (أوغطاي) ابنه كيوك عام ٦٤٤، واحتفل بتسلّمه منصب الخانية العظمى للتتار بعد مرور سنةٍ على وفاة أبيه، وحضر الاحتفال ملوك الدنيا حتى جاء المسلمون لحضور هذا الاحتفال فقد حضر من جهة الخليفة العباسي ببغداد قاضي القضاة فخر الدين، وجاء من الشام أمير يمثّل الأيوبيين هو أخو صاحب حلب الملك الناصر، ومن قونية جاء الأمير ركن

الدين مُمثِّلاً للسلاجقة كما جاء من تركستان، ومن بلاد ما وراء النهر، ومن بلاد الخطا هذا إضافة من جاء من النصارى، ومن يمثّل البابا. غير أن باتو لم يحضر هذا الاحتفال متعلّلاً بمرض في رجليه، وأرسل نائباً عنه أخاه بركة، ويبدو أنه كان غير راض على هذا التعيين فهو أكبر منه سناً، وكان تحت إمرته في حروبه ضدّ الروس، ويرى بنفسه الأكثر كفئاً، وأبوه جوجي كان أكبر من أبيه أوغطاي أيضاً، هذا بالإضافة إلى ما كان بين الآباء من جفوة. كان كيوك عند ابن عمه باتو مشغولاً بحرب الروس عندما آل الأمر إليه فسيّرت أعمال الملك مكانه أمه «توراكينا» حتى عاد. وكان لغياب باتو عن هذا الاحتفال أثر واضح في نفس كيوك فظهر ما كان مخفياً، وكان كيوك قد اعتنق النصرانية تحت تأثير أحد أعوانه، أو مربيه النصراني «قداق خان»، وانتشرت أعداد من الرهبان والقساوسة في بلاد المغول، وكانوا جميعاً يحرّضون «كيوك» ضد ابن عمه باتو الذي كان لا يكره المسلمين إن لم يكن يحبهم حيث التجأ عدد منهم إليه، وذلك تحت تأثير «رسالة» ابنة خوارزم شاه، وهي أخت جلال الدين، وقد وقعت في أسر التتار وتزوجها جوجي بن جنكيزخان فكان لها تأثير في بيته حيث تربى باتو، وبركة وغيرهما من أبناء جوجي بن جنكيزخان. وتحت تحريض القسيسين والرهبان النصارى لكيوك ضد باتو لعزله والاستيلاء على بلاده الأمر الذي أوقع الخلاف بين ولدي العمّ، وأرسل كيوك فرقةً إلى أطراف بلاد باتو للاعتداء وحمل عمال باتو إليه، ووصلت هذه الفرقة إلى أذربيجان، وطلبت من عمال باتو السير إلى الخان الأعظم، فلم يكن لهم من رأي سوى طاعة الخان الأعظم، ولكنهم أخبروا باتو، وجاء الجواب بالقبض على هذه الفرقة فقام أنصار العمال فقبضوا على رجال الفرقة، وأطلقوا سراح عمّالهم، وحُمل رجال فرقة كيوك إلى باتو، فقُتل رؤساؤهم، وعندما وصل الخبر إلى كيوك تألّم كثيراً وجهّز جيشاً لقتال باتو، ووجّهه إليه، وقبل أن يلتقي الطرفان في أية معركةٍ مات الخان كيوك، وذلك عام ٦٤٧، فاضطرب أمر جنده، وراسلوا باتو وأخبروه بموت كيوك، وأن مسيرهم إنما كان لقتال الروس وليس هدفهم باتو والنيل منه، وأنه أولى الناس الآن بتسلّم الخانية

العظمى فهو أكبر أحفاد جنكيزخان، وأكثرهم خبرةً، وأرجحهم رأياً، إلا أنه رفض ذلك، ورشّح مانكو بن تولوي، ابن عمه، وتأخّر تنصيبه ما يقرب من سنتين، غير أن باتو قد طلب من أخيه بركة الذي أرسله معه إلى بلاد المغول لتنصيبه، إتمام ذلك الأمر، وإعدام من يخالف، وكان أولاد كيوك قد أظهروا شيئاً من المعاندة، فنصّبه بركة، وعاد إلى أخيه باتو، وهكذا انتقلت الخانية العظمى من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي» عام ٦٤٨.

توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠، وخلفه ابنه صرتق، وكان عند الخان الأعظم مانكو، فنصّبه مانكو، وأعاده إلى مملكته، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى توفي، فخلفه عمه بركة بن جوجي لأن بقية أبناء باتو كانوا صغاراً وبالتالي أبناء صرتق.

تولى خانية المغول في صحراء القفقاس عام ٦٥٣ أبو المعالي ناصر الدين بركة خان، ويُعدّ أول من أسلم من أبناء جنكيزخان، وكان إسلامه عند عودته من بلاده بعد أن أرسله أخوه باتو لإجلاس مانكو بن تولوي على كرسي خانية المغول العظمى، وفي أثناء هذه العودة مرّ على مدينة بخارى فالتقى فيها بأحد العلماء فاعتنق الإسلام، ويمكن أن نقول: إن عند بركة خان خلفية عن الإسلام سابقة على ما يبدو وربما كانت من بيته الذي نشأ فيه حيث كانت تعيش فيه رسالة بنت خوارزمشاه كزوجة لأبيه جوجي، فعاد إلى بلاده إذن مسلماً، وعندما تولى أمر المغول في تلك الجهات كان مسلماً. وعندما صار في الملك أسلم معه عدد كبير من قومه، وعدّ نفسه حامي القرآن الكريم والشريعة الإسلامية والدين، وراسل الخليفة المستعصم في بغداد وبايعه وهاداه. ودعا العلماء من كل جهة ليفقهوا الناس في الدين، وأغدق عليهم من المال الكثير. وأكمل بناء مدينة «سراي» وكان قد بدأ بها أخوه باتو سنة ٦٤٠، وأكملها بركة خان، وقد وصفها المؤرخون وأطنبوا في وصفها وحسنها فقال ابن عرب شاه وكان قد أقام بها عدة سنين، وتزوج فيها وأنجب: «وتخت الدشت سراي وهي مدينة إسلامية البنيان، بديعة الأركان، وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها

واتخذها داراً للملك، واصطفاها، وكانت من أعظم المدن وضعاً وأكثرها للخلق جمعاً، حكي أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق، وسكن في مكان مُنحّى عن الطريق، وفتح له حانوتاً يتسبّب فيه ويُحصّل قوتاً، واستمر ذلك المهين نحواً من عشر سنين لم يُصادفه فيه مولاه، ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك لعظمتها وكثرة أممها، وهي على شط متشعب من نهر اتل الذي أجمع السياحون والمؤرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن في الأنهر الجارية والمياه العذبة النامية أكبر منه». وقال أيضاً: «ولما تشرّف بركة خان بخلعه الإسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنيف الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشائخ من الآفاق والأكناف، ليوقّفوا الناس على معالم دينهم، ويبصّروهم على طريق توحيدهم ويقينهم، وبذل على ذلك الرغباب، وأفاض على الوافدين منهم بحر الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله وشعائر الأنبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند أوزبك خان بعده وجاني بك خان مولانا قطب الدين العلامة الرازي، والشيخ سعد الدين التفتازاني، والشيخ جلال الدين شارح الحاجبية، وغيرهم من الفضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا أحمد الخجندي، رحمهم الله تعالى، فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأدباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلةٍ، وخصلةٍ نبيلةٍ جميلةٍ، في مدةٍ قليةٍ، ما لم يجتمع في سواها، ولا في مصر ولا في قراها»[١].

وقال ابن فضل الله العمري: «وحدثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أن مدينة سراي بناها بركة خان على شط نهر اتل[٢]، وهي أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم،

---

(١) عجائب المقدور في أخبار تيمور ـ أحمد بن محمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى عام ٨٥٤.

(٢) نهر اتل: نهر الفولغا.

على عليائه هلال ذهب زنته قنطاران بالمصري، ويُحيط بالقصر سور وأبراج ومساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهم، قال: وهذا النهر قدر النيل ثلاث مرات وأكبر، ويجري فيها السفن الكبار، يسافر بها إلى الروس والصقلب، قال: وهي يعني السراي مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات، ووجوه بر مقصودة بالأجلاب، في وسطها بركة ماؤها من هذا النهر، ويستعمل ماؤها للاستعمال، وأما شربهم فمن النهر، يستقى لهم في جرار فخار، وتصف على العجلات، وتجر إلى المدينة وتباع[1]».

وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة فكتب عنها: «ومدينة السراي من أحسن المدن، متناهية في الكبر، في بسيط من الأرض، تغصّ بأهلها كثرةً، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع، وركبنا يوماً مع بعض كبرائها، وغرضنا التطوّف عليها، ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرفٍ منها، فركبنا منه غدوةً فما وصلنا إلى آخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر، وأكلنا طعاماً فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يوماً عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين. وفيها ثلاثة عشرة مسجداً لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً، وفيها طوائف من الناس منهم المغول وهم أهل البلاد والسلاطين، وبعضهم مسلمون: ومنهم الاص (اللزكي) وهم مسلمون، ومنهم القفجاق والجركس والروس والروم وهم نصارى، وكل طائفة تسكن محلةً على حدة، فيها أسواقها، والتجار والغرباء من العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار، وقصر السلطان بها يسمى (آلتون طاش)[2]».

وما أن تسلم السلطنة بركة خان حتى وقع الخلاف بينه وبين ابن عمه هولاكو بن تولوي، ويعود السبب إلى أن بركة خان كان مسلماً صديقاً

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي المتوفى عام ٧٤٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة.

للخليفة العباسي المستعصم بالله في بغداد، ويحامي عن المسلمين على حين كان هولاكو وثنياً عدواً للمسلمين. فلما تولّى مانكو أمر المغول بجهود باتو، حسّن هولاكو لأخيه مانكو الاستيلاء على أملاك الخليفة العباسي والسيطرة على بغداد، والقضاء على فرقة الحشاشين الملاحدة من الإسماعيليين بعد أن زادت تعدّياتهم في بلاد قزوين والجبل، وانطلقت وفود من هذه البلاد تطلب من الخان الأعظم قتالهم. واقتنع مانكو خان بفكرة أخيه فجهّز له جيشاً كبيراً وسيّره إلى الغرب لدخول بلاد الخليفة فوصل الخبر إلى بركة خان فصعب عليه ذلك فتوسّل لدى أخيه باتو خان بمنع ذلك الأمر، وقال له: «إننا نحن الذين أقمنا مانكو خان وما جزانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافينا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويخفر ذمتنا، ويتعرّض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبي، وبيني وبينه مكاتبات وعقود ومودة وفي هذا ما لا يخفى من القبح والشناعة، وقبّح فعله ذلك على أخيه باتو» فبعث باتو إلى هولاكو بالنهي عن ذلك وأنه لا يتعدى مكانه فجاءته رسل باتو بذلك وهو فيما وراء نهر جيحون قبل أن ينفصل بالعساكر، فما عبره، وأقام في موضعه ذلك سنتين كاملتين امتثالاً لأمره حتى مات باتو[1]. ولما تولى صرتق خان بعث هولاكو إلى أخيه مانكو خان يستأذنه في السير إلى الغرب وإمضاء ما كان أمره به، فأذن له فسار فأوقع بفرقة الحشّاشين، واستولى على قلاعهم ونكّل بهم، واتجه نحو بغداد.

كان بركة خان قد تسلّم السلطنة وأراد أن يحول دون سير هولاكو نحو بغداد بالقوة، غير أن جنوده يمكن ألا يُطيعوه في قتال هولاكو إذ أن قتالهم له مخالفة لأوامر الخان الأعظم مانكو إذ هو الذي سيّره، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى فإن القتال خلاف لـ (يساق) جنكيزخان الذي لا يزال راسخاً في نفوس الكثيرين منهم، وهم لا يزالون على وثنية المغول ومن

---

(١) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار م.م. الرمزي أورنبورغ ١٣٢٥هـ.

أسلم منهم قليل فلا يمكن لبركة خان أن يطالبهم بالدفاع عن ديار المسلمين والخليفة لذا أحب بركة خان أن يتحرّش بابن عمه هولاكو حتى يكون هو المعتدي فعندئذٍ يمكن لجنود بركة خان أن يقفوا في وجه هولاكو ويقاتلوه.

طالب بركة خان ابن عمه هولاكو بأعمال «تبريز» و «مراغه» إذ أنها ضمن أملاكه، وقد تعدى عليها جنود هولاكو، وعدّه متجنياً على بلاده ومتعدياً على حدوده، ثم طالبه بإرسال جزء من الغنائم التي جرت العادة أن يرسلها المغول إلى باتو خان، إذ كانوا يرسلون جزءاً مما يغنمون إلى الخان الأعظم كما يبعثون بقسم إلى باتوخان بصفته أكبر أفراد أسرة جنكيزخان، وشدّد بركة خان بالمطالبة، وفي هذه الأثناء كان هولاكو قد دخل بغداد وقتل الخليفة، وأحرق عاصمته، وأعمل فيها الخراب والقتل، وزادت نقمة بركة خان على هولاكو عندما قتل رسله، واتجه هولاكو نحو بلاد بركة خان، والتقى الطرفان، وانتصرت جيوش بركة خان، وانهزم جيش هولاكو بعد أن فقد قسماً كبيراً منه ولم يتوقف القتل في أفراده حتى اجتازوا نهر «كورا» بين الطرفين، وكان ذلك عام ٦٦٠، وربما وقعت معارك بين الطرفين قبل سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦، وفي ذي الحجة من عام ٦٦٠ أعاد (تاباي نويان) قائد جيش هولاكو الهجوم على جيش بركة خان بقيادة (نوغاي) فانهزم نوغاي، وأرسل هولاكو نجدة إلى جنده بعد هذا النصر الذي أحرزه، وكان فيه معظم الأمراء ومنهم ابنه أباقا، وهاجموا جند بركة خان في دربنت (باب الأبواب) فأزالوهم عن مواقعهم وذلك في محرم من عام ٦٦١، وفي غرة صفر تابع جيش هولاكو أعداءه فجاءه بركة خان بجيش عظيم بعد أن قطعوا نهر ترك فانهزم جيش هولاكو، وولى الأدبار من بقي منه بإمرة أباقا بن هولاكو.

ولم يكن عمل بركة خان مقتصراً على قتال هولاكو بل أراد عملاً أوسع من هذا بكثير إذ رغب في إنهاء دولة المغول الوثنية التي يقودها مانكو بالتفرقة بين أفراد البيت الحاكم ثم السيطرة عليها ونشر الإسلام فيها. فعندما جهّز هولاكو جيشاً قوامه أربعمائة ألف واتجه نحو بلاد الشام يريد

دخولها وغزو مصر وقد تمكن فعلاً من دخول بلاد الشام، وفي هذه الأثناء، خرج بعض ملوك بلاد الخطا عن طاعة مانكو خان فسار إليه لتأديبه وأخذ معه أخاه قبلاي، واستخلف مكانه أخاه الأصغر أرتق بوكا، وفي أثناء ذلك توفي مانكو خان، واتفق الجند والأمراء على إجلاس أخيه قبلاي مكانه، فاغتنم هذه الفرصة بركة خان وأرسل قيدو بن قاشين بن أوغطاي مع قوةٍ إلى أرتق بوكا، وأفهمه أن حق الخانية له وليس لقبلاي، وقد اختارك مانكوخان لها، واستخلفك مكانه، وحرّضه على المطالبة بحقه، وإمكانية دعمه بقوة إذا طلب ذلك، فبدأ أرتق بوكا يدعو لنفسه، ووافقه من معه من الجند، ووصل الخبر إلى قبلاي فرجع بمن معه والتقى بأرتق بوكا ومن معه وجرى القتال بين الطرفين عام ٦٥٨، واستمر عدة سنوات، وكان هولاكو في بلاد الشام عندما بلغه أخبار ما يحدث في مقر حكم المغول فترك جيشه بإمرة كتبغا الذي هُزم في عين جالوت أمام المماليك وقُتل. وانطلق هولاكو نحو قراقورم حاضرة المغول، ولم يتمكن من عمل شيء غير أنه استطاع أن يعيد أبناء أوغطاي إلى طاعة الخان بالترغيب وإظهار المحبة. وانتهى القتال بين الأخوين، وجلس على كرسي الخانية قبلاي، إلا أن هذا لم يُرض هولاكو إذ كان حاقداً جداً على ابن عمه بركة خان الذي أثار هذا الخلاف، وحرّض أولاد أوغطاي على خلع طاعة الخان، ومما زاد من حقده إخباره بهزيمة جيشه أمام المماليك في عين جالوت، ومقتل قائده كتبغا، لذا قرر العودة ومحاربة بركة خان، والانتقام من المماليك بحرب خاطفة.

عاد هولاكو إلى بلاده، وإذ برسل بركة خان يطالبونه بنصيبهم من الأسلاب وما حصل عليه في حروبه أو بثلث ذلك حسبما فرضه جنكيزخان لهم، وشدّدوا في المطالبة فثارت عنده العصبية، وقتل الرسل، وسار لحرب بركة خان، وجرت الحروب التي ذكرناها بين الطرفين في نهاية عام ٦٦٠ ومطلع العام التالي ٦٦١، وانتهت بهزيمة جيوش هولاكو وفرار ابنه.

وعندما سيّر مانكو أخاه هولاكو إلى الغرب جعل معه أمراء من أبناء

عمومته من أولاد جوجي وجغطاي وأوغطاي، وكانت معه قوات أيضاً من مغول الشمال جنود بركة خان، فلما وقع الخلاف بين بركة خان وهولاكو طلب بركة خان من قواته الالتحاق به ومغادرة جيوش هولاكو، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فطلب منهم ثانيةً التوجه إلى الشام، وكان هولاكو قد دخل بغداد وبلاد الشام، ورجع إلى بلاده من أجل اختيار الخان الأعظم للمغول بعد وفاة أخيه مانكو، فلما عاد، وكانت جيوشه قد هُزمت في بلاد الشام عام ٦٥٨ على يد المماليك، وقُتل قائده كتبغا، ووقع القتال بينه وبين ابن عمه بركة خان، تركت قوات بركة خان التي عند هولاكو جيشه وسارت إلى بلاد الشام، فاستقبلت في دمشق استقبالاً عظيماً في ذي القعدة من عام ٦٦٠، وكذلك في مصر وقد كان السلطان الظاهر بيبرس في استقبالهم، وعددهم حوالي مائتين وهم الذين استطاعوا الفرار من معسكر هولاكو. ولما أكرمهم السلطان إكراماً كثيراً، ووصلت أخبار ذلك الإكرام إلى جند هولاكو صارت جماعات منهم تغادر إلى مصر، ويزيد السلطان في إكرامهم، وقد تكررت عملية الانتقال أو الفرار ثلاث مرات، وقد عرض عليهم السلطان الإسلام فأسلموا وأصبحوا أعداءً للمغول، كل هذا والحروب دائرة بين الملك بركة خان وابن عمه هولاكو.

ولعل مما أوقد نار الخلاف بين بركة خان وابن عمه هولاكو كتب الظاهر بيبرس ورسله إلى بركة خان وإن اختلف بعض المؤرخين فيمن كان الأسبق منهما بالمراسلة، إذ لما علم الظاهر بيبرس بإسلام بركة خان كتب إليه يستحثه على معاداة ابن عمه هولاكو الذي يقاتل المسلمين، ويُنكّل بهم، وأنه لا أثر للقرابة فإن قريشاً قد قاتلت رسول الله ﷺ وهو من أفضل أبنائها، وأن هولاكو قد تعصّب لزوجته النصرانية، وهي التي حرّضته على قتل المسلمين، فزاد من أمر الخلاف، وعندما اجتاز هولاكو نهر كورا وهو الحد الفاصل بين مملكة بركة خان ومملكة هولاكو تصدّت له جيوش بركة وتمّ ما تمّ وكذلك فإن مراغة وتبريز كانت من أعمال بركة خان، وما دخلها هولاكو إلا عندما تقدّم في مملكة بركة خان، ولذا بقي بركة خان يطالب بها.

وبهزيمة هولاكو أمام بركة خان، وبفرار أعدادٍ من جنده إلى بلاد الشام ومصر إلى عند خصمه الآخر الظاهر بيبرس، وبدخول هؤلاء الفارين بالإسلام أصيب هولاكو بمرض الصرع، وتوفي في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣، ويقول بعض المؤرخين إن عداوته للإسلام قد خفت في أواخر حياته، بل قد عهد لبعض المربين المسلمين بتنشئة ابنه تكودار فكان ذلك سبب إسلامه.

ولما توفي هولاكو قام مقامه ابنه الأكبر أباقا بجهود نصير الدين الطوسي الرافضي، وكان همّ أباقا بقتال بركة خان، فسار إلى بلاده فسيّر له بركة خان قائده (نوغاي) الذي تمكن من هزيمة أباقا شر هزيمة ولكن لم يفت ذلك من عضد أباقا، فسار إليه ثانيةً فأصيب نوغاي بسهمٍ أفقده عينه فعاد مهزوماً، ولما وصل الخبر إلى بركة خان بهزيمة قائده نوغاي بن ططر بن مغول بن جنكيزخان، وكان يحبه ويكرمه لإسلامه معه ولشجاعته سار بنفسه فوجد أباقا قد قطع جسور نهر الكر فلم يتمكن من الانتقال إلى جهة أباقا، فسار نحو تفليس ليجتاز النهر من هناك غير أن منيته قد وافته في عام ٦٦٥.

ولما يكن لبركة خان ولد فخلفه مانكوتيمر بن طغان بن باتو بن جوجي بن جنكيزخان، ووقعت الحرب بينه وبين أباقا بن هولاكو، فانتصر أباقا خان انتصاراً كبيراً.

وحدثت خلافات بين مانكوتيمر وصاحب القسطنطينية فسيّر مانكوتيمر جيشاً إلى القسطنطينية عاث في بلادها فساداً، ثم رجع دون قتلى، إذ أن الرسل بين حكام المنطقة قد كثرت فكان صلح بين صاحب القسطنطينية والسلطان بيبرس، ويريد الأول أن يمتد هذا الصلح ليشمل أباقا بن هولاكو بصفته صهره لكن الظاهر بيبرس رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على قتال أباقا.

وتوفي مانكوتيمر عام ٦٧٩ وخلفه أخوه تدان مانكو بن طغان بن باتو، وفي هذه الأثناء وقع صدام بين قيدوخان بن قاشين بن أوغطاي وبين

براق خان حفيد جغطاي وقد انتصر الثاني منهما فزاد ذلك من ظلمه إضافةً إلى ما عرف عنه من ظلم، ثم حدث قتال بين مانكوتيمر وبين براق خان، وقد أرسل مانكوتيمر عمه بركجار فانتصر على براق خان، ثم التقى هؤلاء الخانات الثلاثة مانكوتيمر، وبراق خان، وقيدوخان فشكا براق خان قلة موارده، فأطمعه ابنا عمه في أملاك أباقا خان فجرت حروب بين الطرفين.

وحدثت مراسلات بين المنصور قلاوون وتدان مانكو، وأعلن الثاني منهما اعتناقه الإسلام والعمل على تطبيق الشريعة، ثم انصرف عن شؤون المملكة واتجه نحو العلماء، واضطر لذلك أن يتنازل عن الحكم لابن أخيه (تلابغا) عام ٦٨٦.

وسار (تلابغا) إلى قتال بعض أمم الشمال، وسار معه الأمير (نوغاي)، وداهمهم فصْل الشتاء الشديد البرد الكثير الثلوج، وسار (تلابغا) في طريق فلم ينج سوى جماعة قليلة معه ومات الباقي من شدة البرد، وسار (نوغاي) في طريق لم يهلك معه فيها أحد، فظن (تلابغا) أن (نوغاي) يريد به شرّاً بهذه الطريق التي سلكها وأراد الانتقام منه، وعلم (نوغاي) بما ينوي (تلابغا) فكان أسبق إذ تخلّص منه، وولى مكانه (طقطاي) أخاه وذلك عام ٦٩٠.

في هذه الأثناء انصرف المماليك في مصر إلى قتال الصليبيين وإنهاء أمرهم في بلاد الشام وقد تمَّ لهم ذلك إذ أخرجوا آخر فلول الصليبيين من عكا ٦٩٠ ثم من جزيرة أرواد عام ٧٠٢، وبدؤوا بعد ذلك بملاحقتهم في قبرص ورودوس، هذا الانصراف خفّف من حدة القتال بين المماليك والدولة المغولية الإيلخانية التي أسسها هولاكو بل توقّف القتال بين الطرفين وهذا ما فسح المجال للمغول بأن يدخلوا بالإسلام بعد أن زالت الحروب بينهم وبين أبنائه على حين اشتدت وطأة أبناء عمومتهم المغول عليهم وإن كانوا قد دخلوا في الإسلام إلا أنهم ينظرون إليهم على أنهم مغول قبل أن يكونوا مسلمين.

وقعت جفوة بين (طقطاي) و (نوغاي) وحدث القتال بينهما وقتل

(نوغاي) وصفا الجو لـ(طقطاي)، ثم هدد غازان ملك الدولة الإيلخانية بالقتال إن لم يسلّم له مراغة وإذربيجان، ورفض ذلك غازان فسار (طقطاي) إلى جهة العراق، ولكن غازان كان قد هُزم في بلاد الشام، وقتل قائده في معركة شقحب، ولم يلبث غازان أن مات.

وكذلك فإن طقطاي قد قاتل عام ٧٠٩ سلطان ما وراء النهر (اسنبغا) وهزمه.

وتوفي طقطاي عام ٧١٢، وخلفه ابن أخيه غياث الدين محمد أوزبك بن طغرلجا، وكان طغرلجا من الذين قتلهم طقطاي، وهو أخوه. تقدّم (ييسور) من أسرة جغطاي إلى خراسان فدخلها، وكان يحكم قسماً منها، ووصل إلى مازندران وراسل محمد أوزبك ليتقدم من الطرف الآخر في بلاد الدولة الإيلخانية. أرسل (أبو سعيد) خان الدولة الإيلخانية جيشاً إلى بلاد محمد أوزبك فوصل إلى ضفاف نهر «الكر» فانهزم فسار بنفسه على رأس قوةٍ إلى هناك، وبعث جيشاً آخر إلى قتال (ييسور) بإمرة (جوبان) فتمكّن جوبان من إحراز النصر، وتراجعت قوات ييسور، وطلب أبو سعيد من جوبان أن يسير إليه لدعمه فانطلق نحوه إلا أنهما لم يجدا عسكراً لمحمد أوزبك إذ غادرت عساكره ساحة القتال عندما علمت بهزيمة ييسور، وعاد أبو سعيد وجوبان إلى أصفهان وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا ييسور وأوزبك فنكلوا بهم؛ وإن تمكن بعضهم من الفرار إلى أوزبك حيث حرّضوه على قتال أبي سعيد، واستعد أوزبك وراسل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، واستنجد به لقتال أبي سعيد غير أن الناصر قلاوون قد اعتذر له حيث كانت تدور مراسلات من أجل الصلح بين قلاوون وأبي سعيد، وتم الصلح فعلاً. ولم يحدث قتال بين أوزبك وأبي سعيد رغم استعداد الاثنين وسيرهما للحرب. كما اتفق أوزبك مع كيك ملك ما وراء النهر لقتال أبي سعيد عام ٧٢١، إلا أن أوزبك قد توفي في هذه الآونة.

مات أوزبك عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمد جاني بك، جلال الدين، أبو المظفر، وقد أخذ أذربيجان من الملك الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان،

ونصّب ابنه محمد بردي بك على ذلك الجزء، وتوفي محمود جاني عام ٧٥٨، وخلفه ابنه محمد بردي بك، وكان ظالماً، قتل كثيراً من أقربائه ليخلو له الحكم والتصرف به، وبالغ في وضع الضرائب على الروس، وزاد من الجزية عليهم، ولم تطل أيامه إذ توفي عام ٧٦٢.

عمت الفوضى، وقامت الانقسامات في الدولة بعد وفاة بردي بك إذ كان ابنه (توقتاميش) الذي خلفه صغيراً، فاستقل الحاج شركس بمنطقة الحاج طرخان (استراخان)، واستقل (ماماي) بمنطقة القرم، وحكم منطقة سراي خضر بك، وأما (ماماي) وهو صهر بردي بك فقد نصّب أحد أولاد أوزبك وهو عبد الله خاناً، وسار نحو مدينة سراي فدخلها، وهرب منها (توقتاميش) بن بردي بك واتجه نحو خوارزم، ومنها إلى سمرقند مقر حكم بني جغطاي بن جنكيزخان، وكان المتغلّب عليها أحد أمراء المغول، واسمه (تيمور)، (تيمورلنك) وجلس (توقتاميش) خاناً هناك، وأصبحت مدينة سراي نهباً بين المختلفين فدخلها الحاج شركس ثم خرج منها بعد عدة أشهر، وكثر المتربعون على حكمها. واستغل الروس هذه الفرصة فانتفضوا على التتار، والتقوا مع (ماماي) الذي عاد إلى القرم وانتصروا عليه.

رجع (توقتاميش) إلى مدينة سراي وحكمها بمساعدة تيمرلنك، ودان له التتار، وتمكن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل موسكو. ثم وقع القتال بين (توقتاميش) وتيمورلنك منذ عام ٧٨٨ واستمر حتى عام ٧٩٧، وهزم في النهاية (توقتاميش) وفرّ من آخر المعارك، واختفى فمن قائل أنه التجأ إلى الغابات، ومن قائل أنه سار إلى بلغار، ومن قائل آخر أنه اتجه إلى بلاد الروس، ومنهم من قال: إنه قُتل في المعركة، أو في أثناء اختفائه على يد أحد أمراء التتار على ٧٩٨، ومنهم من قال: إنه بقي حيّاً وعاد إلى ملكه ثم هُزم على يد (تيمرقتلغ)، ثم هرب إلى ليتوانيا، ومعه بعض أنصاره، وإن الذين يعيشون في تلك الجهات اليوم من التتار إنما هم من نسل أولئك الذين ساروا مع (توقتاميش)، ووقعت الحرب بين التتار والليتوانيين، وانتصر التتار فألزموا

الليتوانيين على طرد (توقتاميش)، فعاش شريداً يقاتل شادي بك وينازعه الحكم، حتى قتل في الصحراء، وصفا الجو لشادي بك وذلك عام ٨٠٨.

استولى تيمورلنك على مدينة سراي وبلاد المغول الشمال، وعيّن عليها (قويرجق) أميراً من قبله، وعاد إلى بلاده، ولكن (قويرجق) بن أرص خان ملك بلاد خوارزم قد توفي عام ٨٠١، وكان الأمير المتحكم في الإمارة (أيدكو) صهر (توقتاميش)، زوج ابنته، وكان قد أيد تيمورلنك، فنصّب (أيدكو) خاناً في مدينة سراي (تيمرقتلغ)، وانصرف أيدكو إلى محاربة الجنوبيين في بلاد القرم حيث كانوا يسيطرون على مدينة (كفا)، ولكن (تيمرقتلغ) توفي عام٨٠٢، فنصّب أيدكو مكانه ابنه شادي بك الذي نازعه (توقتاميش) حسب بعض الروايات، وتوفي شادي بك عام ٨١١، وجلس مكانه ابن أخيه (فولادخان)، وفي هذه الأثناء حارب الأمير (أيدكو) الروس وحاول أن يوقع بين الروس والليتوانيين، وبعد سنتين (عام٨١٣) تمكن (تيمرخان) بن (تيمرقتلغ) أن يأخذ السلطة، وأن يحكم البلاد، ورفض أيدكو تسلّم الأمر فاختلف مع ابنه نور الدين فسار أيدكو إلى بلاد خوارزم.

ظهر جلال الدين بن (توقتاميش) عام ٨١٤، وانتزع الملك من يد (تيمرخان)، وحارب إخوته وهزمهم، وأصيب بسهم فمات، وتسلّم مكانه أخوه (عبد الكريم)، واختلت أمور الدولة، وكثر الخانات فيها، حيث قام في كل جهة خان، ومنهم محمد بن توقتاميش، وبراق بن قويرجق و. . .

وعندما جلس عبد الكريم خاناً في سراي جاء شقيقه الأكبر منه عبد الجبار فقدّمه عبد الكريم على نفسه ونصّبه مكانه، غير أن عبد الكريم قد أظهر فتنة على عبد الجبار الأمر الذي أدّى إلى اختلافهما وتحاربا وقتل عبد الجبار، وعاد عبد الكريم إلى منصبه، وتحالف معه بطريق موسكو ضد أمير ليتوانيا، وهذا ما حدا بالأخير إلى استقدام أحد أمراء المغول وهو بيتاصول، وتسميته خاناً، وإمداده بالجند لقتال عبد الكريم خان، وتسلّم الخانية مكانه، غير أن عبد الكريم تمكن من الانتصار على خصمه عام ٨١٨.

ظهر على مسرح الأحداث أيدكو مرةً ثانيةً في بلاد تركستان فنصّب (جكره أوغلان) من نسل شوبان بن جوجي خاناً هناك، وهاجم كبره خان، ثم عاد فعزل (جكره أوغلان) عن تركستان وعيّن مكانه (أحمد أوغلان) وهو من أسرة جغطاي بن جنكيزخان لكنه لم يلبث أن توفي فعيّن مكانه درويش أوغلان من أسرة جغطاي نفسها، وامتد نفوذ أيدكو على أكثر خانات المغول.

كان عبد القادر قد فرّ إلى بلاد قبرطاي عند خلاف إخوته بعضهم مع بعض وجمع قوةً هناك، وهاجم أيدكو وقتله، وقوي أمر عبد القادر فسار إلى بلاد سراي، وولى عليها خاناً هو محمد أوغلان بن إيچكلي حسن بن جغاي بن محمد بردي بك، وبدأ يخضع الأمراء الآخرين الذين يدّعي كل منهم أنه الخان، فقتل من قتل وفرّ الآخرون، وكان من الذين فرّوا براق خان بن قويرجق الذي التجأ إلى الأمير (ميرزا ألغ بك) في سمرقند، وهو نائب أبيه شاه رخ بن تيمورلنك الذي اتخذ مدينة هراة مقراً له، فأنجده ميرزا ألغ بك بقوة تمكن بمساعدتها أخذ بلاد خوارزم ومن هناك هاجم محمد أوغلان فجرت الحروب بينهما. ثم عاد براق خان فاختلف مع ميرزا ألغ بك ووقع القتال، وانتصر براق خان، واضطر شاه رخ أن يحضر بنفسه إلى سمرقند بعد أن عاث براق خان فساداً في بلاد ما وراء النهر، فغادر براق خان تركستان ورجع إلى خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ بعد مدة يتوسع من جديد وإن كان هذا التوسع في هذه المرة من ناحية الغرب حيث سيطر على أجزاء واسعة من بلاد سراي وهاجم بلاد روسيا وليتوانيا، وعاد إلى الصدام مع محمد أوغلان وكانت النتيجة لمصلحة محمد أوغلان الذي تمكّن من قتل براق خان.

وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد فخرج الأول منهما إلى قازان وأسس أسرةً خاصةً هناك حكمت المنطقة وذلك عام ٨٣٩، كما خرج بعض أبنائه إلى شبه جزيرة القرم ومنهم غياث الدين ودولة بردي، واستطاع حاجي كراي أن يحكم القرم، وقد توفي عام ٨٧١،

وخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر فانتقل منكلي كراي إلى أكفا حيث التجأ إلى الجنويين الذين كانوا يحكمون ساحل شبه الجزيرة، وفي هذه الأثناء كان السلطان العثماني محمد الفاتح يقاتل الجنويين وتمكن من دخول أكفا، وأسر منكلي كراي وحمل إلى إستانبول حيث أعاده السلطان محمد الفاتح إلى القرم ليكون خاناً عليها.

أما في سراي فقد حكم كجك محمد حتى عام ٨٥٠، وخلفه ابنه كجي أحمد خان واستطاع أن يتوسع وأن يحتل القرم، وأن يعيّن عليها خاناً من قبله هو جاني بك، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، وبعد مدة خرج من قلعته، وانتصر على جاني بك الذي فرّ إلى بلاد روسيا.

اتفق أحمد خان مع ليتوانيا على حين تصادق منكلي كراي مع روسيا وبدأت الحروب، وكانت النتيجة أن انتصر الروس وقتل أحمد خان عام ٨٨٥، وقام مكانه ابنه مرتضى.

نهضت روسيا في هذا التاريخ ولكن لم تجرؤ على قطع الجزية عن التتار إذ بقيت تدفع إلى خانات القرم، وخانات قازان، وبعض أبناء أحمد خان في سراي، وإلى أسرة نوغاي وأبناء شوبان (الشيبانية) في شمال القرم، وإلى بعض أمراء التتار الذين كانوا يعيشون في موسكو أمثال: نور دولت، وحيدر بك، تدفع ذلك كله لتتقي شرّهم، خوفاً من أن يتفقوا بعضهم مع بعض فيما إذا أصبح لهم عدو مشترك.

كان الخلاف بين مرتضى خان بن أحمد خان وخان القرم منكلي كراي لا ينقطع، وإن كان العثمانيون يسدون لهم النصح باستمرار بضرورة التفاهم والوحدة لإمكانية الوقوف في وجه العدو المشترك وهو النصارى. وقد تحالف مرتضى خان مع ليتوانيا ضد روسيا، واتفق منكلي كراي مع روسيا ضد مرتضى خان وليتوانيا، وكان خانات قازان بجانب خانات القرم.

وقع القتال بين مرتضى خان ومنكلي كراي عام ٨٩٠ ووقع الأول

منهما أسيراً بيد الثاني، وسجن في قلعة أكفا، غير أنه أنقذ في العام التالي إذ قام أخوه بهجوم كاسحٍ وقت انشغال أهالي القرم بالحصاد وتمكن من هزيمة القرم واستنقاذ أخيه ومن معه من أسرى. وفي عام ٨٩٢ هاجم منكلي كراي بدعم من الروس مدينة سراي عاصمة مرتضى خان، واستخلصوا عدداً من أسارى القرم. وفي العام نفسه سار الروس نحو قازان وخلعوا إلهام خان، ووضعوا مكانه أخاه محمد أمين خان، إذ كان الأول قد فكر في تفاهم المغول المسلمين بعضهم مع بعض.

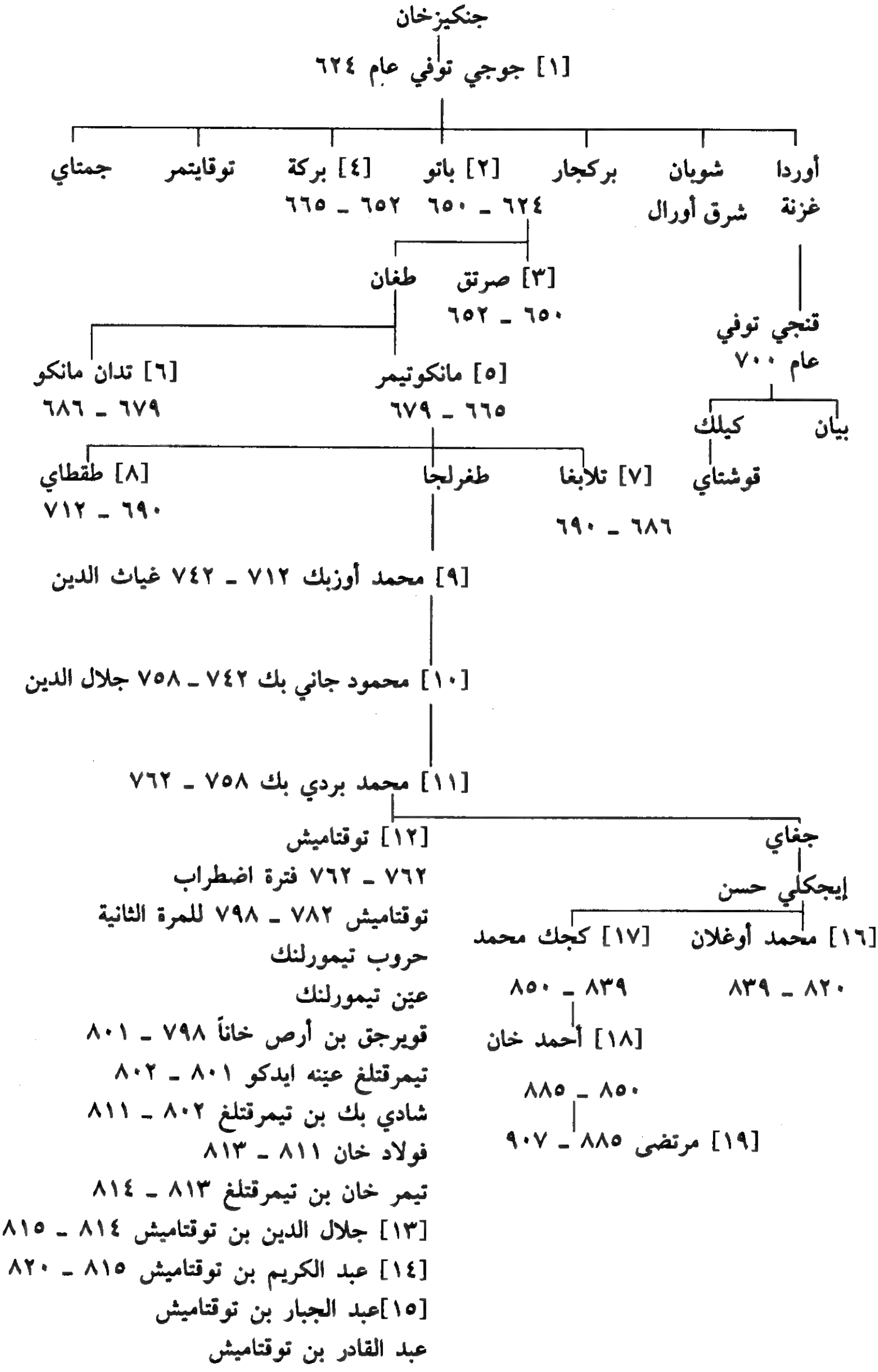
كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان وطلب منه أن يأتي إليه ويقيم عنده في سراي، وقد أخبر عظيم روسيا آنذاك إيفان خوفاً منه على ما يبدو إذ من المحتمل أن يُطلع نور دولت الروس على تلك الرسالة.

استنجدت روسيا بمنكلي كراي لمهاجمة ليتوانيا، فقام بالأمر وكاد أن يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان.

وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم حليفها مرتضى خان، ولما تأكد منكلي كراي من أن تأخر ليتوانيا إنما هو من نوع المماطلة اقتحم مدينة سراي وخرّبها، وأصبحت أثراً بعد عين ولم تعمر بعد ذلك، وبهذا يكون عمرانها مدة ٢٦٧ سنة من سنة ٦٤٠ حيث بُدئ ببنائها إلى هذا العام الذي تهدّمت فيه وهو عام ٩٠٧.

وفي الآونة الأخيرة من عهد دولة سراي أو مغول الشمال انقسمت الدولة إلى عددٍ من الإمارات، وقع الاختلاف بينها ودبّ التناحر، وسقطت الواحدة تلو الأخرى في براثن الظلم الروسي، ولا تزال حتى يومنا الحاضر. ومن هذه الإمارات: قازان، والقرم، واستراخان (الحاج طرخان)، والنوغاي، وسيبريا، وخوارزم و....

هذا ومن المعلوم أن غزنة قد أعطيت لأوردا بن جوجي بن جنكيزخان، وقد خلفه ابنه قنجي الذي توفي عام ٧٠٠، ثم اختلف ولداه بيان وكيلك، وأخيراً انتصر قوشتاي بن كيلك على عمه بيان عام ٧٠٩.



جنكيزخان
[١] جوجي توفي عام ٦٢٤
أوردا
غزنة
شوبان
شرق أورال
بركجار
[٢] باتو
٦٢٤ ـ ٦٥٠
[٤] بركة
٦٥٢ ـ ٦٦٥
توقايتمر
جمتاي
[٣] صرتق
٦٥٠ ـ ٦٥٢
طغان
قنجي توفي
عام ٧٠٠
[٥] مانكوتيمر
٦٦٥ ـ ٦٧٩
[٦] تدان مانكو
٦٧٩ ـ ٦٨٦
بيان
كيلك
قوشتاي
[٧] تلابغا
٦٨٦ ـ ٦٩٠
طغرلجا
[٨] طقطاي
٦٩٠ ـ ٧١٢
[٩] محمد أوزبك ٧١٢ ـ ٧٤٢ غياث الدين
[١٠] محمود جاني بك ٧٤٢ ـ ٧٥٨ جلال الدين
[١١] محمد بردي بك ٧٥٨ ـ ٧٦٢
[١٢] توقتاميش
٧٦٢ ـ ٧٦٢ فترة اضطراب
توقتاميش ٧٨٢ ـ ٧٩٨ للمرة الثانية
حروب تيمورلنك
عين تيمورلنك
قويرجق بن أرص خاناً ٧٩٨ ـ ٨٠١
تيمرقتلغ عينه ايدكو ٨٠١ ـ ٨٠٢
شادي بك بن تيمرقتلغ ٨٠٢ ـ ٨١١
فولاد خان ٨١١ ـ ٨١٣
تيمر خان بن تيمرقتلغ ٨١٣ ـ ٨١٤
[١٣] جلال الدين بن توقتاميش ٨١٤ ـ ٨١٥
[١٤] عبد الكريم بن توقتاميش ٨١٥ ـ ٨٢٠
[١٥]عبد الجبار بن توقتاميش
عبد القادر بن توقتاميش
جغاي
إيجكلي حسن
[١٦] محمد أوغلان
٨٢٠ ـ ٨٣٩
[١٧] كجك محمد
٨٣٩ ـ ٨٥٠
[١٨] أحمد خان
٨٥٠ ـ ٨٨٥
[١٩] مرتضى ٨٨٥ ـ ٩٠٧

إمارة قازان

تقع مدينة قازان على نهر الفولغا قبل التقائه برافده نهر كاما على خط عرض مدينة موسكو (٥٦ شمالاً) إلى الشرق منها وعلى بعد ٧٣٠ كيلومتراً منها. وقد كانت ضمن أرض بلغار على أطراف بلاد المسلمين، وهُدِّمت من قبل الروس عام ٨٠٢، وقلّت سيطرة سلطة خانات سراي عليها بعد تيمورلنك. فعندما وقع الخلاف بين الخان محمد ألوغ وأخيه محمد كچيم عام ٨٤١، وتغلّب الثاني على الأول، التجأ محمد ألوغ إلى مدينة قازان هرباً من أخيه، وطلب من التتار، والبلغار، والجوفاش المقيمين بالقرب من هذه المدينة السكن فيها، فأطاعوه، وبدأت الحياة تدبّ من جديد في هذه المدينة.

فرّ محمد ألوغ في أول أمره إلى بلاد الروس وظنّ أنهم سيحمونه لما له عليهم من أياد بيضاء يوم كان خاناً في مدينة سراي، ولم يكن يدري أنه صنع المعروف مع غير أهله، ولم يكن نفاقهم له وإظهار الطاعة له إلا لأنه حاكم عليهم، فلما حطّ به القدر تنكروا له، وطلبوا منه مغادرة بلادهم وربما خوفاً من أخيه الذي غدا خاناً في مدينة سراي وهم يتبعونه، ولكن ظهر أن ذلك إنما كان حنقاً عليه وكرهاً له ولإسلامه، وقد حاربهم، وانتصر عليهم، ولكنه خشي أن تدور الدائرة عليه لذا فقد اتجه إلى قازان، واتخذها مقراً له، وقاعدةً ينطلق منها لتوسعة ملكه.

ولما استقر محمد ألوغ في قازان هاجم موسكو لتأديب أهلها على نكرانهم الجميل، واكتفى بجمع الغنائم في هذا الهجوم، ولكنه كرّر الغزو، وفي هجومه الثالث عام ٨٥٠ حاصر موسكو، وتمكّن من أسر بطريقها، وفي أثناء حصارها وصل إليه نبأ مفاداه أن أحد أمراء المغول من أبناء شوبان بن جوجي قد فرض سيطرته على قازان الأمر الذي دعاه إلى فكّ الحصار عن موسكو والرجوع سريعاً إلى قازان لإعادتها إلى حكمه وهكذا رجع الجيش التتاري عن موسكو، واستعاد السلطة لمحمد ألوغ في قازان.

وعندما استقر محمد ألوغ في قازان منّ على بطريق موسكو بإطلاق

سراحه الأمر الذي أدّى إلى وقوع خلافٍ بين محمد ألوغ وابنه محمود، وقتل الخان، وسيطر ابنه محمود على الحكم في أواخر عام ٨٥٠، وفرّ إخوة محمود الآخرون إلى موسكو بعد مقتل أبيهم خوفاً من أخيهم الخان الجديد، ومنهم قاسم، ويعقوب، واستمر الخان محمود يحكم قازان حتى توفي عام ٨٧٢، وخلفه ابنه إبراهيم الذي أمه هي زوجة عمه قاسم.

كان الأمير قاسم يهاجم إمارة قازان من موسكو وبدعم من الروس، وفي هجومه الثالث عام ٨٧٣ توفي فطلب أمير موسكو إيفان الثالث من الجيش العودة، كما حاولت زوجة الأمير قاسم التوسط بالصلح بين ابنها إبراهيم والأمير إيفان الثالث، إلا أن العسكر لم يعيروا هذا الطلب اهتماماً، ووصلوا إلى قازان، وأحرقوا أطرافها، وفي صباح اليوم التالي نشبت معركة حامية بين الطرفين، ورجع عسكر موسكو إلى بلادهم.

وتوفي إبراهيم خان عام ٨٨٣ بعد أن هاجم روسيا، وتولى مكانه ابنه إلهام خان، أما ابنه الآخر محمد أمين وهو الأصغر فقد سار إلى بلاد الروس مغاضباً لأخيه إلهام خان، وعندما قوي أمره سار على رأس جيشٍ كثيف عام ٨٩٣ إلى قازان، وقد تمكن من أسر أخيه إلهام خان الذي حمل أسيراً إلى موسكو، وتربّع محمد أمين على خانية قازان. وبقي إلهام خان في أسره حتى توفي.

كره أهل قازان محمد أمين خان، وقد طلبوا ماموق خان الشيباني من برية القفجاق أن ينصبوه عليهم خاناً، وطلب إيواق خان الشيباني أمير نوغاي من إيفان الثالث أمير موسكو إطلاق سراح إلهام خان فرفض، وزادت الاتصالات بين أهل قازان وماموق خان، وعلم محمد أمين خان بما يدور، وبمجيء ماموق خان إلى مدينة قازان، واستنجد محمد أمين خان بالأمير إيفان الثالث فأمده بجند فهرب ماموق خان من قازان عام ٩٠٢، ولكن بعد مدة رجع ماموق خان ودخل قازان، وهرب منها محمد أمين خان وأهله إلى موسكو.

كره أهل قازان ماموق خان أيضاً، وعندما خرج للإغارة على بعض

البلدان، أغلق أهل المدينة أبواب مدينتهم في وجهه عندما عاد، وكتبوا إلى إيفان الثالث يعلمونه بأنهم لا يرغبون محمد أمين خاناً عليهم ولا ماموق خان أيضاً، وإنما يريدون عبد اللطيف خان أخا محمد أمين، ونصّبوه فعلاً عليهم، وسار ماموق خان إلى بلاد النوغاي.

وفي عام ٩٠٨ تمكّن محمد أمين خان من العودة إلى قازان والانتصار على أخيه عبد اللطيف الذي حمل أسيراً إلى موسكو حيث سُجن هناك، لكن منكلي كراي خان إمارة القرم قد طلب من إيفان الثالث أن يُطلق سراح عبد اللطيف ففعل ولكنه أبقاه في موسكو.

حرّضت زوجة محمد أمين خان زوجها على مقاومة الروس وأثارت فيه الحمية، وهي زوجة أخيه إلهام خان الذي مات في السجن، فأخذته الغيرة وسار في جيشٍ كبيرٍ من قازان والنوغاي وهاجم بلاد الروس، واستمر العداء بعدئذٍ بين قازان وموسكو مدة أيام محمد أمين أي حتى عام ٩٢٥.

في موسكو مات إيفان الثالث عام ٩١١ وخلفه ابنه واسيلي الرابع، وكان القتال دائماً بين قازان وموسكو، وقد أطلق سراح عبد اللطيف خان فرجع إلى قازان مقراً لأخيه محمد أمين بالخانية وذلك عام ٩١٤ وبناءً على طلب منكلي كراي خان القرم الذي كان على صلةٍ طيبةٍ مع موسكو، إلا أن هذه الصلة قد توقفت عام ٩١٧ إذ هاجم أولاد منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

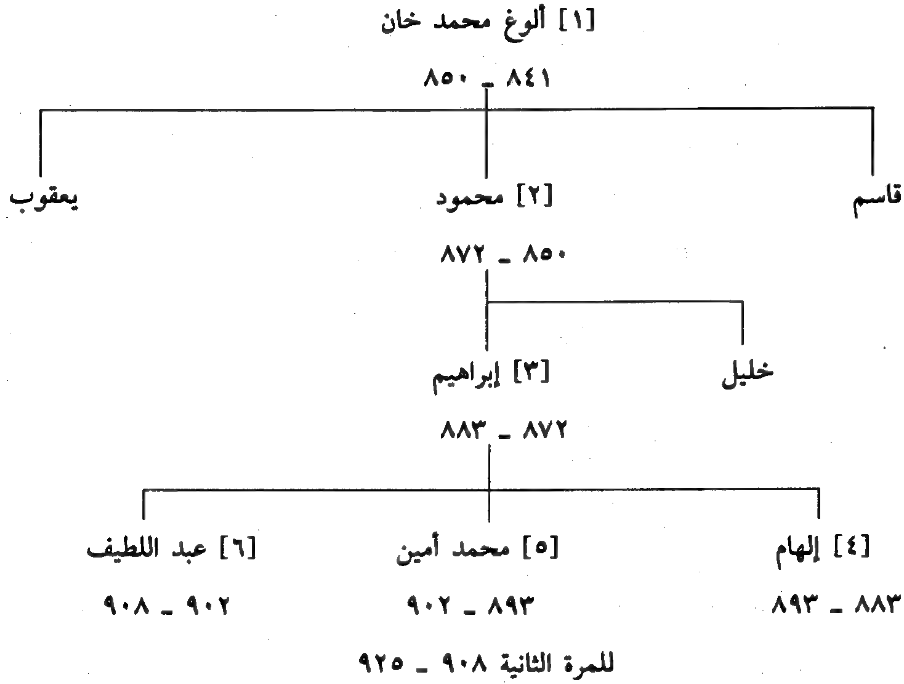
وفي عام ٩٢٢ عيّن محمد أمين أخاه عبد اللطيف ولياً للعهد إذ أحسّ بالتعب وبدأ المرض يعاوده غير أن عبد اللطيف قد توفي قبله في عام ٩٢٤، ولحقه محمد أمين في العام التالي (٩٢٥)، ولم يكن لهما عقب، فعيّن الروس على قازان أحد أمراء التتار وهو شيخ علي خاناً على إمارة قازان، ورفضوا طلب محمد كراي في تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على قازان، وهو أخو محمد أمين خان لأمه، وذلك خوفاً من توحيد كلمة التتار بعد أن تفرّقوا إلى إمارات.

لم ينسجم أهل قازان مع شيخ علي، ولم يحبوه، واتفقوا مع محمد كراي خان القرم على تعيين أخيه صاحب كراي خاناً على مدينتهم في الوقت الذي يصل إليهم فيه، فسار إليهم فنصّبوه وخلعوا شيخ علي الذي التجأ إلى موسكو. وعاد الانسجام بين قازان والقرم إذ يملكهما أخوان، وبدأت الحروب بين هذين الخانين والروس. وأرسل الروس جيشاً كبيراً عام ٩٣٠ بإمرة شيخ علي إلى قازان، فوصل إليها، وارتكب أبشع الجرائم، وكذلك في العام التالي (٩٣١).

عرض صاحب كراي على السلطان العثماني سليمان القانوني التبعية فوافق الخليفة العثماني، وأرسل إلى أمير موسكو واسيلي الرابع يعلمه بذلك، فرفض أمير موسكو هذه التبعية، وأعلن أن قازان تتبع موسكو، وأنه هو الذي عيّن صاحب كراي على قازان خاناً، وأرسل عام ٩٣١ جيشاً لإخضاع قازان ويصحبه شيخ علي، فخاف صاحب كراي، وأناب عنه ابن أخيه محمود، وهو صفا كراي، وأعلن أنه متجه إلى الخليفة العثماني ليأتي من عنده بالقوة لردع الروس وتأديبهم هم وشيخ علي. ولم يحدث القتال في ذلك العام بين الجيش الروسي القادم من موسكو وبين أهل قازان الذين تولّى أمرهم صفا كراي.

أنهكت الحرب قوى أهل قازان فسار بعض الأمراء منها إلى موسكو وعرضوا عليه الصلح وتعيين خانٍ عليهم من قبله، فنصّب عليهم عام ٩٣٩ جان علي، فساروا به إلى مدينتهم وانتقل صفا كراي إلى القرم. وبقي العداء بين موسكو والقرم، فهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وفي هذه الأثناء توفي أمير موسكو واسيلي الرابع وخلفه ابنه إيفان الرهيب.

قام الأمراء في قازان عام ٩٤٢ بخلع جان علي وقتله، وكتبوا إلى صفا خان يدعونه للعودة إلى خانية قازان فسار إليهم واستلم الأمر، وعاد الوئام بين القرم وقازان، وهاجم صفا كراي بلاد الروس عام ٩٤٣، ثم جرى صلح بين الطرفين.



تجدد القتال بين قازان وموسكو عام ٩٤٦، وهاجم الروس قازان عام ٩٥٣ فغادرها صفا كراي، ورجع شيخ علي خاناً عليها، ولكن لم تمض سوى مدةٍ وجيزةٍ حتى ترك شيخ علي قازان، وعاد إليها صفا كراي.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، وطلب أهلها من صاحب كراي خان القرم الذي كان خاناً عليهم أن يُعيّن عليهم ابن صفا كراي، وهو بولك كراي سلطان والمقيم آنذاك بالقرم، وطلبوا في الوقت نفسه الصلح من أمير موسكو إيفان الرهيب، غير أن أمير موسكو قد استغل هذه الفرصة وسار إلى قازان ومعه شيخ علي، ووصل إلى قازان عام ٩٥٧، ولكنه فشل في احتلالها، فما كان من صاحب كراي خان القرم إلا أن هاجم بلاد الروس. وعاد إيفان الرهيب إلى قازان ثانيةً فخرج بولك كراي سلطان من قازان، ونصّب الروس شيخ علي للمرة الثالثة خاناً على قازان.

رفض أمراء قازان خانية شيخ علي، وكانت الحرب بين قازان وموسكو، وخرج شيخ علي من قازان عام ٩٥٨، ورفض إيفان الرهيب عودة بولك كراي سلطان إلى قازان حسب رغبة الأهالي، فعندها طلب أمراء التتار من الخليفة العثماني سليمان القانوني إرسال دولت كراي بن مبارك كراي بن منكلي كراي الذي كان يقيم في استانبول.

انتقل دولت كراي سلطان إلى القرم واختلف هناك مع عمه صاحب كراي فقتله، ولم يدعم أهل قازان. وفي الوقت نفسه كان الروس على وئام مع ليتوانيا والبلدان المجاورة لها من ناحية الغرب، ويناصرها من التتار صاحب الحاج طرخان (يغمروجي خان)، وكانت هناك مصالح تجارية بين خان النوغائية المرزا يوسف، وعندما كتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى المرزا يوسف هذا يدعوه أن يكون الجميع صفاً واحداً تحت راية الإسلام ضد روسيا، وألا يتركوا أهل قازان وحدهم أمام الروس، وأن يعيّنوا من أهل نوغاي خاناً على قازان لم يرضخ المرزا يوسف لهذا الطلب، وبذا لم يكن مع قازان سوى القرم.

تغيّر موقف النوغاي، وأصبحوا بجانب قازان، وسار محمد خان مع خمسمائة فارس من بلاد النوغاي إلى قازان حيث نصّبه أهلها خاناً عليهم. وضعُف أمر الروس لكن شجّعهم إيفان الرهيب وسار بهم نحو قازان ومعه شيخ علي، وكان شيخ علي مسناً، جباناً، بديناً، لكنه خبير بالحرب، وسار الروس أيام الشتاء حسب نصيحة شيخ علي، واستطاعوا بعد حروب مريرة دخول قازان في ٢٤ شوال ٩٥٩ (٢ تشرين أول ١٥٥٢).

وبذا تكون إمارة قازان قد عاشت مستقلة مدة ١١٨ سنة، منذ انفصلت عن سراي عام ٨٤١هـ، حتى سقطت بيد الروس عام ٩٥٩، وقد خضعت لحكم أسرة محمد ألوغ مدة ٨٤ سنة والباقي وهو ٣٤ سنة حكمها خانات من القرم، أو خانات من صنيعة الروس.

خانات قازان بعد أسرة محمد ألوغ:

٩٢٥ ـ ٩٢٧	شيخ علي	للمرة الأولى.
٩٢٧ ـ ٩٣١	صاحب كراي	
٩٣١ ـ ٩٣٩	صفا كراي	للمرة الأولى.
٩٣٩ ـ ٩٤٢	جان علي	
٩٤٢ ـ ٩٥٣	صفا كراي	للمرة الثانية
٩٥٣ ـ ٩٥٤	شيخ علي	للمرة الثانية
٩٥٤ ـ ٩٥٦	صفا كراي	للمرة الثالثة
٩٥٦ ـ ٩٥٧	بولك كراي سلطان	
٩٥٧ ـ ٩٥٨	شيخ علي	للمرة الثالثة
٩٥٩	محمد خان النوغائي	

وبعد سقوط قازان بيد الروس، أعلن بعض الباشغرد الطاعة للروس، وقتل المرزا إسماعيل أخاه المرزا يوسف خان النوغاي، وراسل إيفان الرهيب، وأعلن طاعته له، كما أدخل المرزا إسماعيل الروس إلى الحاج طرخان (استراخان) عام ٩٦١، هذا بالإضافة إلى أن شاه طهماسب الصفوي شاه إيران قد كاتب إيفان الرهيب، وعرض عليه الاتفاق معه عام ٩٧٨ لمحاربة الخليفة العثماني.

إمارة القرم

القرم شبه جزيرة تقع في شمال البحر الأسود، تبلغ مساحتها ٢٦,١٥٠ كيلومتراً مربعاً، كانت تتبع مغول الشمال، وتوجد فيها أملاك لإمارة جنوه الإيطالية على الساحل الجنوبي وعلى ساحل بحر آزوف.

عمت الفوضى حكومة سراي بعد وفاة محمد بردي بك عام ٧٦٢ فاستقل بالقرم صهره (ماماي)، ثم نصّب أحد أولاد محمد أوزبك خاناً، وهو عبد الله وسار به إلى مدينة سراي فدخلها، وهرب منها توقتاميش بن محمد بردي الذي كان صغيراً حيث اتجه إلى سمرقند، وأصبح خاناً هناك.

حارب الروس (ماماي) فاضطر أن ينسحب إلى مقره في القرم، وبقي في السلطة حتى جاء تيمورلنك عام ٧٩٨ فسيطر على المنطقة، ثم انسحب وعين قويرجق خانا على سراي، وتتبعها القرم.

كان أيدكو صهر توقتاميش الرجل القوي في سراي، وكان قد أيّد تيمورلنك، وقد عيّن خاناً على سراي واتجه إلى القرم يحارب الجنويين، وعادت القرم تتبع سراي، وقد غادر إيدكو المنطقة متجهاً نحو خوارزم.

وعندما وقع الخلاف بين محمد أوغلان وأخيه كجك محمد، واتجه محمد أوغلان نحو قازان عام ٨٣٩ خرج بعض أبنائه في الوقت نفسه إلى شبه جزيرة القرم، ومنهم غياث الدين، ودولة بردي، وتمكن حاجي كراي من حكم القرم واستمر الحاكم فيها حتى توفي عام ٨٧١ فخلفه ابنه منكلي كراي الذي خرج عليه أخوه حيدر، فانتقل منكلي كراي إلى أكفا إذ التجأ إلى الجنويين الذين يحكمون تلك المدينة، وعندما انتصر السلطان العثماني محمد الفاتح على الجنويين أسر منكلي عندما دخل أكفا وحمله أسيراً إلى استانبول، ثم أعاده خاناً على القرم.

استطاع أحمد خان في سراي أن ينتصر على منكلي كراي، وأن يحتل القرم حوالي عام ٨٥٢، وقد اختفى منكلي كراي في قلعة قرب باغجه سراي، ثم خرج بعد مدة، وانتصر على جاني بك الذي عيّنه أحمد خان حاكماً على القرم والذي فرّ إلى بلاد روسيا.

استمر الخلاف بين منكلي كراي في القرم وأحمد خان في سراي فتحالف منكلي كراي مع الروس في حين تحالف أحمد خان مع الليتوانيين، ووقعت الحروب بين الفريقين، واستمرت بين منكلي كراي ومرتضى خان الذي تولّى أمر سراي بعد مقتل أبيه أحمد خان عام ٨٨٥، وفي الحرب التي دارت رحاها عام ٨٩٠ بين الطرفين وقع مرتضى خان في الأسر فسجنه منكلي كراي في سجن أكفا، وهاجم أهل سراي عام ٨٩١ القرم فجأة وتمكنوا من إحراز النصر، وفكّ مرتضى خان من ربقة الأسر،

وقام منكلي كراي في العام التالي (٨٩٢) برد فعل وهاجم مدينة سراي بدعم من الروس، وقد استطاع من تحقيق النصر وفك أسارى القرم الذين هم في مدينة سراي.

كان الأمير نور دولت بن حاجي كراي أخو منكلي كراي يقيم في موسكو فراسله مرتضى خان، وطلب منه أن يأتي إليه ليقيم ضيفاً في سراي نكاية بأخيه منكلي كراي.

هاجم منكلي كراي ليتوانيا بناءً على طلب الروس وكاد يقضي عليها لولا تدخل الشيخ أحمد خان أخي مرتضى خان. وفي عام ٩٠٧ هاجم منكلي كراي مدينة سراي، وتأخرت ليتوانيا في دعم مرتضى خان، وتمكن منكلي كراي من اقتحام المدينة وتخريبها، وزالت من الخريطة.

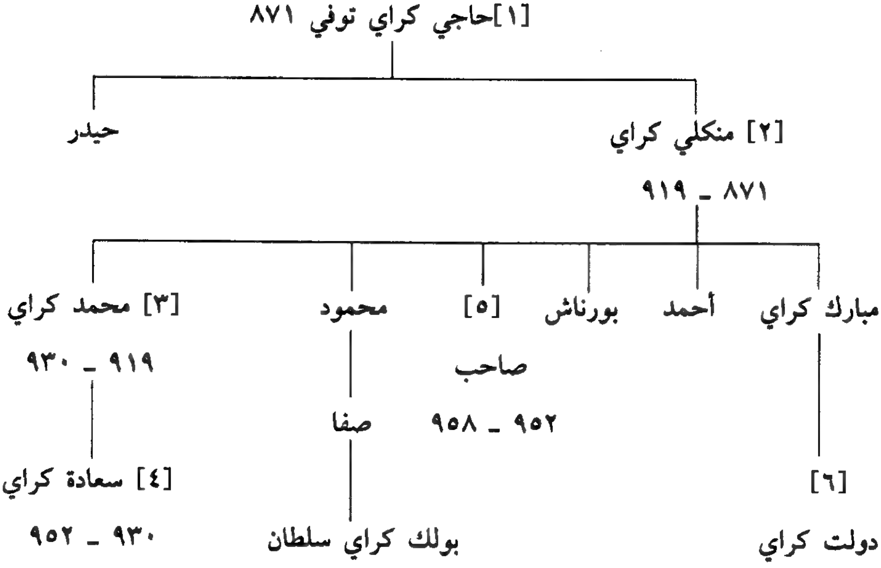
استمرت العلاقة الطيبة بين منكلي كراي والروس حتى عام ٩١٧، ثم ساءت العلاقات إذ هاجم ولدا منكلي كراي أحمد وبورناش بلاد الروس بالاتفاق مع ليتوانيا.

توفي منكلي كراي عام ٩١٩ بعد أن حكم القرم مدة سبع وأربعين سنة (٨٧١ ـ ٩١٩)، وخلفه ابنه محمد كراي، وقد أرسل أخاه صاحب كراي إلى قازان حيث نُصّب خاناً هناك، فتوحّدت قازان والقرم، وكذلك قام محمد كراي بالاستيلاء على استراخان فأصبحت المنطقة كلها واحدةً وهذا ما أخاف الروس فشنّوا هجوماً على قازان فخاف صاحب كراي، وغادر قازان بعد أن أناب عنه ابن أخيه صفا كراي بن محمود بن منكلي كراي.

رجع صفا كراي إلى القرم بعد أن تصالح أهل قازان والروس عام ٩٣٩، وهاجمت القرم بلاد الروس عام ٩٤٠، وبعد عامين خلع أهل قازان جان علي، ورجع صفا كراي من القرم، وتسلّم خانية قازان مرةً أخرى، إلا أنه عاد فغادرها عام ٩٥٣، ثم رجع إليها مرة ثالثة عام ٩٥٤، وبقي حتى توفي عام ٩٥٦.

تولى صاحب كراي خانية القرم بعد ابن أخيه سعادة بن محمد كراي

وقام بالهجوم على بلاد الروس عام ٩٥٧، ولم يمكث طويلاً حتى جاء دولت كراي سلطان من استانبول إلى القرم واختلف مع عمه صاحب كراي وقتله وتسلّم الخانية مكانه عام ٩٥٨.



إمارة سيبيريا

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيز خان أخاه شوبان شرق جبال الأورال، فأسس هناك قلعةً ومدينةً على نهر صغير يسمى سيبركا، وذلك حوالي عام ٦٤٠ أي في الوقت الذي قامت فيه مدينة سراي قاعدة حكم أسرة مغول الشمال، وتوالت أسرة شوبان تحكم سيبر، وعرفت بالأسرة الشيبانية، وكانت تتبع سراي، وقد استملك الحاج محمد خان نواحي نهر أوبي وأرتيش، وأسس خانية خاصة انفصلت عن سراي في ذلك الوقت الذي بدأت تنفصل عنها الإمارات مثل قازان، والقرم و... في منتصف القرن الثامن. وتوالى خانات سيبيريا على الحكم فكان محمود خان بن حاج محمد خان، ثم ولده إبراهيم خان المعروف باسم آباق خان، فتولق خواجه خان، فشماي خان، فأورازخان، فبهادور خان ثم ابن عم جده

مرتضى خان بن إبراهيم خان، ثم ابنه كوتشم خان الذي كان حوالي عام ٩٧٧ الذي لم يف للروس بالاتفاق الذي كان قائماً والذي ينص على اعتبار سيبير تابعةً لهم، والذي حاول تقوية دولته، وتقرّب من النوغاي وزوّج ابنه من ابنة أميرهم، والذي بدأ يُغير على مواقع الروس على نهر كاما، كما حدث عام ٩٨١، والذي شجّع القزاق على نهر الدون بالعصيان على الروس، وظهر عندها يرمق بن تيمافي[١] الذي استطاع أن يستولي على قلعة سيبير وأن يبيعها إلى الروس عام ١٠٠٣، وذهب كوتشم خان إلى بلاد باشغرد وعاش ومات فيها.

حاول التتار النهوض ثانيةً فبايعوا علي بن كوتشم خان أميراً عليهم، ولكنه عجز عن إنقاذ بلاده، وكذلك أخوه إيشم خان عام ١٠١٧، وابنه كراي خان الذي فشل في حركته أيضاً عام ١٠٧٨.

إمارة الحاج طرخان

الحاج طرخان (استراخان) مدينة تقع عند مصب نهر الفولغا في بحر الخزر. كانت هذه المدينة وما حولها تتبع سراي مقر حكم مغول الشمال. فلما عمّت الفوضى مدينة سراي بعد موت محمد بردي بك عام ٧٦٢ استقل باستراخان الحاج شركس وقد وسع ملكه، وتمكّن أن يدخل مدينة ساراي، ثم خرج منها بعد عدة أشهر.

وجاء تيمورلنك إلى المنطقة فتسلّم أمر استراخان قويرجق بن أرص خان حتى توفي عام ٨٠١، ثم خضعت إلى تيمر قتلغ حتى عام ٨٠٢، وجاء براق خان بن قويرجق حتى قتل من قبل محمد أوغلان أمير سراي عام ٨٣٨، وخضعت لحكم سراي.

---

(١) ظهر يرمق حوالي عام ٩٨٥ واجتمع لديه عدد من أشقياء القازان الذين يقيمون على نهر الدون فحارب التتار الذين كانوا قد غادروا سراي عند خرابها عام ٩٠٧ وساروا نحو نهر أورال فأسسوا على ضفته مدينة سرايجق فهدمها يرمق هذا، وسار نحو سيبير فدخلها عام ٩٨٩.

تبعت استراخان جاني بك الذي حكم القرم من قبل أحمد خان حتى فرّ إلى بلاد الروس، فاستقل بها حسين خان، وبقي حتى طرده منها محمد كراي عام ٩٣٠.

استولى على استراخان عبد الكريم بن أحمد خان، وخلفه عليها ابن أخيه آقو بك بن قاسم، وبقي فيها حتى جاء عبد الرحمن خان فحكم فيها مدة أربع سنوات ٩٤١ ـ ٩٤٥ حيث هجمت عليه قوة من النوغائي ففرّ منها فعينوا مكانه درويش علي خان.

سيطر على استراخان حيدر خان بن الشيخ أحمد خان غير أنه خلع عام ٩٤٨، ونصّب آق باك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان مدة ثلاث عشرة سنة (٩٤٨ ـ ٩٦١)، وحدث شبه اتفاق بين خان استراخان آق باك خان، وأمير النوغائي المرزا يوسف، وخان القرم دولت كراي بتشجيع من الدولة العثمانية. وفي النهاية سيطر الروس على استراخان عام ٩٦٥.

إمارة خوارزم

مدينة خوارزم (خيوه) تقع على نهر جيحون جنوب بحيرة خوارزم (بحر آرال) كانت تتبع مدينة سراي حيث هي من أملاك جوجي بن جنكيز خان، وقد ظهر في خوارزم أرص خان عند قدوم تيمورلنك، وقد خلفه ابنه قويرجق خان الذي نصّبه تيمورلنك خاناً على مدينة سراي...

وعندما اختلف إيدكو مع ابنه نور الدين وانتصر الولد، سار إيدكو إلى خوارزم، واستقر بها، وأصبح له نفوذ على أكثر خانات المغول، غير أنه قتل بالحرب التي جرت بينه وبين عبد القادر بن توقتاميش، وسيطر على خوارزم براق خان بن قويرجق خان بن أرص خان أو عاد إلى ملك آبائه، وامتد نفوذه ثم هُزم أمام شاه رخ بن تيمورلنك فعاد إلى مقره الأساسي في خوارزم عام ٨٣٠، وبدأ يتوسع الآن من جهة الغرب على حساب أملاك سراي لكنه قتل من قبل محمد أوغلان.

الفصل الثاني

الدولة الإيلخانية

لعل هذه الأسرة الإيلخانية هي التي تمثّل المغول في أذهاننا تمثّلهم لأنهم كانوا على جوارٍ منا، فمعرفتهم واضحة لنا، وأعمالهم جلية أمام ناظرنا إضافةً إلى أن الصراع قد استمر بيننا وبينهم في هذه المنطقة مدةً ليست يسيرة إذ تزيد على القرن والنصف، وقد كان السكان في خلالها في ذعرٍ وخوفٍ كلما ترامت إليهم الأخبار بأن المغول سيزحفون نحو الغرب، فيأخذهم الرعب والهلع بعد أن ذاقوا منهم ما ذاقوا. وهذه الأسرة تمثّل أوج طغيان المغول ووحشيتهم بعد جنكيز خان. فطاغية هذه الأسرة ومؤسسها هولاكو هو الذي فعل ببغداد ما فعل وفي الجزيرة الفراتية وكل مكان دخله، وتابع ابنه أباقا من بعده الوحشية نفسها.

وإذا كانت بعض الأسر المغولية الأخرى قد وقفت ضد هذا الطغيان وضد هذه الوحشية لخلافها معها على الأقل، وإن بعضها قد اعتنقت الإسلام ووقفت بجانب المسلمين ضد أبناء جنسها، وهي أسرة مغول الشمال، وأيّد بعضها الآخر تأييداً، وحارب هولاكو، وهي أسرة أوغطاي حيث دعم قيدو بن قاشين بن أوغطاي خان تلك الأسرة ابن عمه بركة خان مغول الشمال ضد ابن عمه الآخر هولاكو، إلا أن هذا الدعم للمسلمين، وهذه المحاربة لهولاكو قد نسي كله تحت ركام جرائم المغول التي بقيت ممثلة في هولاكو وأسرته.

وأسلم ابن هولاكو الثاني، وتسمّى باسم أحمد، وحاول مصالحة

المسلمين ولكن الأيدي الملطخة بالدماء قد قتلته متمثلة بابن أخيه أرغون الذي تسلّم مكانه، وتابع السير الوحشي، وأسلم ابنه قازان من بعده وتسمى باسم محمود ومع إسلامه النظري أو انتمائه إلى الإسلام فقد بقي يتابع تعدياته، ويهمّ بين المدة والأخرى بدخول الشام فينشر الرعب والخوف بين الآمنين، وقصد الشام ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، فلم يلبث أن انسحب قازان مهزوماً يجرّ وراءه ذيول الخيبة والفشل بعد معركة شقحب على الأطراف الجنوبية لدمشق في أوائل القرن الثامن الهجري.

وتابع محمد خرابنده الطريق وزاد في الأمر إذ أعلن اعتناقه الرفض وفرضه على مملكته، وكان أمر الأسرة قد ضعف وخلفه ابنه أبو سعيد فزاد الضعف، وتفككت الدولة من بعده.

وإذا كان المغول قد ذابوا في المجتمع الإسلامي ودانوا بعقيدته لكن ما خلّفوه من جرائم قد بقي في الأذهان، لم تزله الأيام مع طولها، ويرتبط بالأسرة الإيلخانية.

أعطى جنكيز خان من البلاد الواسعة التي دخلها لابنه الثالث تولوي خراسان وفارس وما يمكن أن يضمّ إليه من جهة الغرب، غير أن تولوي قد هلك قبل أن يتولى أمر نصيبه من إمبراطورية أبيه. وكان أبناؤه في عاصمة المغول قرة قورم.

تولّى أمر المغول أوغطاي بعد أبيه جنكيزخان، وتابع ما سار عليه أبوه من اقتحام البلدان وسفك الدماء. فقضى على أسرة كين التي تحكم شمالي الصين، ثم أرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الغرب فانتصر على جلال الدين منكبرتي شاه خوارزم الذي فرّ إلى جبال الأكراد فقتله أحد الأكراد الفلاحين هناك، فدخل المغول أذربيجان وأرمينيا وبلاد الكرج، وارتكب المغول أفظع الجرائم.

ووجّه أوغطاي عام ٦٣٣ ثلاثة جيوش أحدها إلى كوريا، والثاني إلى جنوبي الصين حيث قضى على أسرة سونغ، والثالث إلى أوروبا بقيادة ابن

أخيه باتو بن جوجي وأرسل مع هذا الجيش الثالث بعض كبار أمراء المغول ومنهم ابنه كيوك، ومانكو ابن أخيه تولوي، وبايدار ابن أخيه جغطاي، فاقتحم المغول روسيا، وبولندة، والمجر.

هلك أوغطاي عام ٦٣٩، وخلفه ابنه كيوك الذي كان لا يزال في أوروبا تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي فسيرت له أمور الدولة أمة توراكينا حتى رجع. فتولى الأمر وألقى زمام الأمر إلى وزيرين من النصارى فأوغرا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم، وكذلك فعل البوذيون، ولم يطل أمره فقد هلك عام ٦٤٦.

ملك أمر المغول بعد هلاك كيوك ابن عمه مانكو بن تولوي تحت ضغط باتو بن جوجي وهكذا انتقلت الخانية العظمى إلى أسرة تولوي، فولى أخاه قوبيلاي على بلاد الصين، وسار هو إلى التبت فخرّبها، ووجه أخاه الثاني هولاكو إلى الغرب، ولكن باتو بن جوجي قد منع هولاكو من التحرّك نحو الغرب تحت تأثير أخيه بركة الذي اعتنق الإسلام وكان صديق الخليفة العباسي المستعصم، ولم يستطع التقدّم حتى توفي باتو بن جوجي عام ٦٥٠ فتقدّم هولاكو نحو الغرب، رغم أنف ابن عمه بركة وهذا ما أوقع الخلاف بين الاثنين، وسقطت بغداد بيد هولاكو في ١٩ محرم من عام ٦٥٦، وقابل الخليفة المستعصم في ٤ صفر من العام نفسه، وانتهى منه، وتقدّم نحو بلاد الشام فدخل حلب في مطلع عام ٦٥٨، واتجه نحو دمشق فحاصرها في ربيع الأول من العام نفسه، ثم اضطر إلى مغادرة البلاد والتوجّه إلى مقر حكم المغول في قره قورم.

كان مانكو قد سار للقضاء على بعض المتمردين، وأخذ معه أخاه قوبيلاي، وكلف أخاه الأصغر أرتق بوكا بتسيير أمر الحكم مكانه، وفي هذه الأثناء هلك مانكو فاختار الجند مكانه أخاه قوبيلاي، واستغل هذه الفرصة بركة بن جوجي خان مغول الشمال للإيقاع بأبناء عمه تولوي، الذين يعادونه لإسلامه فحرّض أرتق بوكا على استمرار بقائه في الخانية العظمى للمغول فإن أخاه مانكو قد عيّنه مكانه، وأرسل له دعماً كما دعمه أيضاً ابن عمه

الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي فوقع القتال بين الأخوين واضطر هولاكو أن يغادر بلاد الشام ليحلّ هذا الخلاف، وانتهى الأمر ونُصّب قوبيلاي خاناً أعظم للمغول.

ترك هولاكو القائد كتبغا أميراً على جنده في الشام وسافر إلى الشرق، فدخل كتبغا دمشق غير أنه هُزم في عين جالوت أمام المماليك، ولقي مصرعه هناك. ورجع هولاكو ووجد ما حلّ بجيشه في الشام، وحنق على ابن عمه بركة خان الذي أسلم، وراسل المماليك إضافة إلى ما فعله من تحريض أرتق بوكا على أخيه قوبيلاي، فأراد أن ينتقم من ابن عمه بركة خان، وينتقم من المماليك.

وجاء السبب للقتال بين أبناء العم فبدأ بركة خان يطالب هولاكو بمغادرة جنده من مراغة وتبريز حيث هما من أملاك مغول الشمال، كما يطالبه بدفع ثلث ما حصل عليه في حروبه حسب أوامر جنكيزخان، وليست هذه المطالبة إلا مبرراً لبركة خان كي يطيعه جنده، ويقاتلوا معه هولاكو، فيكون قتاله هو في سبيل الإسلام حيث نقم على ابن عمه بعد قتله الخليفة وتدميره بغداد، ويكون قتال جنوده في سبيل المحافظة على أجزاء من دولتهم والحصول على أموال هي حق لهم.

اتجه هولاكو بجنوده نحو بلاد بركة خان واجتاز نهر كورا والتقى الطرفان عام ٦٦٠ وهُزم هولاكو وفقد قسماً من جيشه، ولم يوقف القتل بجنده سوى اجتيازهم نهر كورا فارين نحو الجنوب. وأعاد جيش هولاكو الهجوم وجاءته النجدة وفيها أباقا بن هولاكو فانتصروا على جيش بركة خان عند دربنت (باب الأبواب) في مطلع عام ٦٦١، وتابع سيره فجاء بركة خان على رأس قوةٍ كبيرةٍ تمكنت من إحراز النصر على ضفاف نهر ترك وولى جيش هولاكو الأدبار ولم يفلت من القتل سوى أباقا بن هولاكو بجزءٍ صغير من الجيش.

إن هزيمة هولاكو أمام بركة خان جعلته لا يفكر في محاولة الانتقام من المماليك بل إن أعداداً من جنوده بدؤوا بالفرار والتوجه نحو الشام

ومصر ويدينون بالإسلام بتشجيع من الظاهر بيبرس ولما وجدت الفئة الفارّة الأولى من إكرام. وأصيب هولاكو بمرض الصرع وهلك في ٩ ربيع الأول من عام ٦٦٣.

كان هولاكو عدواً لدوداً للإسلام وقد خضع لتأثير النصرانية، فقد كانت زوجته نصرانية وتحرّضه على الإسلام باستمرار، كما كان الرهبان النصارى يجوبون البلاد التي تخضع لسيطرة المغول بكل حرية، ويُقال: إن عداوته للإسلام قد خفّت في أواخر حياته، وقد عهد إلى أحد المربين المسلمين بتنشئة ابنه الثاني تكودار الذي أسلم فيما بعد.

لما تولى قوبيلاي أخو هولاكو الخانية العظمى للمغول عام ٦٥٥ نقل مقر حكمه من قره قورم إلى بكين، وأسس هناك الأسرة التي حكمت الصين مدة ١٦ سنة (٦٥٥ ـ ٧٧١)، وفي الوقت نفسه فقد استقل خانات المغول بعضهم عن بعض، ولم يعد هناك بينهم رابط سوى الاسم، ولم يعد للخان الأعظم سوى الصورة. وأسس هولاكو الأسرة الإيلخانية التي حكمت العراق، وفارس، وخراسان، وكانت حدودها مع المماليك هو نهر الفرات من جهة الغرب، وحدودها مع دولة مغول الشمال أذربيجان مع خلافٍ على مراغة وتبريز فكل تدعيهما، وإن كانتا تحت سيطرة جند الإيلخانيين، كذلك كان للإيلخانيين الجزيرة الفراتية وديار بكر، إذ ذهب أمراء أرمينيا، وديار بكر، والجزيرة عام ٦٥٠ إلى منكوخان، وظهر اختلافهم أمامه حيث كل يريد التوسع والنفوذ، ويرى لنفسه الأفضلية بل الأحقية على غيره، وقد أقروا لمنكوخان بالطاعة، وأصبحوا تبعاً للتتار. ثم عندما جاء الهجوم التتاري عام ٦٥٨ دخل المهاجر هذه المناطق، ووضعوا نواباً لهم عليها معظمهم من التتار وإن لم يستطيعوا دخول ماردين إذ دافع عنها حكامها من الأراتقة دفاعاً كبيراً، وقد ترك هولاكو هذه المدينة الحصينة، وسار إلى حلب فاستولى عليها، وكذلك اضطر التتار مرةً ثانيةً إلى الرحيل عن ماردين في شهر رجب من عام ٦٥٩، ولكن دخلت تحت حمايتهم لتتخلّص من شرّهم، أو أن أميرها رغب أن يكون صاحب مكانة

فيحافظ على مركزه وحكمه بالموافقة على حماية التتار إذ قدّر أنهم لا بدّ من أن يقتحموا مدينته وإن طال الوقت بعض الشيء فإن دخلوها عنوةً نكّلوا به وبأهله أولاً ثم برعيته عامةً، وبدأ يشترك معهم في منازلة خصومهم عامةً والمماليك بشكلٍ خاص، فقد اشترك عام ٦٦٠ مع صندغون التتاري في حصار الصالح بدر الدين بن لؤلؤ، وتتابع بعد ذلك هذا الاشتراك وأصبحت ديار بكر وراثية للتتار الذين قام الصراع بينهم وبين المماليك في الشام ومصر، وكانت ديار بكر هي قاعدة انطلاق التتار في كثيرٍ من الأحيان. ولم يكن نواب التتار في ديار بكر والجزيرة ليقيموا في مقرٍ واحدٍ بل يتنقلون بين عدة مراكز فتارةً يتخذون الموصل مقراً لهم، وتارة أخرى آمد وهكذا. وكان محور تقدّم التتار دائماً على نهر الفرات من جهة الشمال الشرقي والتقدم نحو حلب فحماه، أو الرحبة (مكان الرطبة اليوم) من جهة الشرق والاندفاع نحو دمشق.

٢ ـ أباقا:

لما هلك هولاكو عام ٦٦٣ قام مكانه ابنه أباقا، وكان همّه الأول قتال بركة خان، فسار إليه إلا أنه هُزم أمام نوغاي قائد بركة خان، ولكنه انتصر في الجولة الثانية وهزم نوغاي فسار إليه بركة خان ولكن مات قبل أن يلتقي معه. وانتصر أباقا خان عى خليفة بركة خان مانكوتيمر انتصاراً عظيماً. وكان أباقا متزوجاً بابنة امبراطور القسطنطينية، وعندما جرت مراسلات للصلح بين السلطان الظاهر بيبرس وإمبراطور القسطنطينية أحب الثاني أن يتوسّع أمر الصلح ليشمل أباقا خان، غير أن الأول قد رفض ذلك وحرّض مانكوتيمر على حرب أباقا.

وجرت حروب بين أباقا خان وبين براق خان حفيد جغطاي وذلك أن مانكوتيمر خان مغول الشمال، وقيدو بن قاشين بن أوغطاي قد حرّضا براق خان على ذلك وأطمعاه في أملاك أباقا خان.

أما من ناحية قتال المماليك، فقد تمكّن حكام الشام ومصر من

الانتصار على جيوش التتار ٦٧٣، ووصلوا إلى ماردين، وبعد عامين تقدّم التتار ومعهم صاحب ماردين المظفّر الأرتقي إلى البيرة على نهر الفرات وحاصروها، ولم يتمكّنوا من اقتحامها إذ دافع عنها نائب المماليك دفاعاً مجيداً، وانتشرت الأمراض بين جند التتار، ووصلت الأنباء بتقدّم الظاهر بيبرس على رأس قوةٍ لحربهم، ففكّوا الحصار، وانسحبوا من ميدان المعركة ولم ينقض الشهر على تقدّمهم، وذلك في ٨ جمادي الآخرة من عام ٦٧٤.

وجاءت أخبار إلى أباقا خان بأن اختلافاً قائم بين الأمراء في مصر، فوجد الفرصة مناسبةً للهجوم على الشام فجهّز قوة عام ٦٧٩ بإمرة أخيه منكوتمر بن هولاكو وانضم إليه صاحب ماردين الأرتقي، وسارت الحملة، ووصلت أخبارها إلى الشام فاستعدت القوات في مصر والشام للقتال فدبّ الرعب في نفوس التتار فخرّبوا المناطق التي وصلوا إليها، وعادوا مسرعين إلى حيث أتوا.

ولما كانت غارات الشاميين لا تنفكّ تقوم على ديار بكر وبلاد سلاجقة الروم لذا قرر أباقاخان القيام بحملةٍ واسعةٍ، فهيّأ جيشاً يزيد عدده على الثمانين ألفاً وطلب منه التحرّك نحو حلب، وقد سار هذا الجيش وبدأ يسيطر على الجهات الشمالية من بلاد الشام، وفي الوقت نفسه فقد سار أباقا خان نفسه ومعه صاحب ماردين بفرقةٍ أخرى نحو بلدة الرحبة لمراقبة الأحداث وتحرّكات جيوش العدو وتسلّل أباقا خان مع ثلاثة آلاف فارس إلى الرحبة وحاصر القلعة فيها يوم ٢٦ جمادى الآخرة من عام ٦٨٠ وبعد سبعة عشر يوماً (١٤ رجب) التقى جيش المنصور قلاوون بالتتار في الشمال وأحرز النصر عليهم، وأعدّ قوة من دمشق للسير إلى الرحبة إلا أن أباقاخان قد انسحب إلى بغداد عندما علم بهزيمة جيشه في الشمال.

وعلى كل فقد كانت أيام أباقا خان حروباً دائمة على مختلف الجبهات فمن الغرب المماليك، ومن الشمال أبناء عمه من مغول الشمال، ومن الشرق أبناء عمه أحفاد جغطاي، واستمر ذلك حتى هلك عام ٦٨٠، وقام مكانه أخوه تكودار.

٣ ـ تكودار:

تولّى الحكم بعد أخيه أباقا خان، واعتنق الإسلام إذ كان أبوه هولاكو قد عهد بتنشئته إلى مربيين من المسلمين، وتسمّى باسم أحمد، وقد حاول الاتصال بسلطانِ المماليك المنصور قلاوون لإنهاء الخلافات والحروب بين الطرفين بعد صلح بينهما، وأرسل وفداً إلى مصر لهذه الغاية عام ٦٨١ فوصل الوفد في شهر رجب وعاد في شهر شوال من العام نفسه. ورجع الوفد ثانية إلى مصر، ولكن أثناء سيره جدّت أشياء إذ قُتل أمير التتار المسلم أحمد، على يد ابن أخيه أرغون بن أباقا خان الذي تسلّم الأمر مكانه. وقد وجد الوفد صعوبةً في وصوله إلى دمشق إذ لم يعلم بخبر مقتل السلطان أحمد، وقد التقى بالمنصور قلاوون بدمشق فأخبر الوفد بما تمّ وأنه لا داعي للمفاوضات، وبقي الوفد بدمشق، وسافر السلطان قلاوون إلى مصر، وتوفي رئيس وفد التتار عبد الرحمن شيرازي بدمشق، وسجن بعض أعضاء الوفد، وأطلق سراح بعضهم الآخر، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم.

٤ ـ أرغون:

ثار على عمه أحمد تكودار إذ نقم عليه لإسلامه ومحاولة الصلح مع أعداء التتار المماليك فقتله وتسلّم مكانه عام ٦٨٣، واضطهد المسلمين، وصرفهم من المناصب التي كانوا يشغلونها، وتحالف مع الأرمن والصليبيين ضد السلطان المنصور قلاوون، وضد خان مغول الشمال تدان مانكو الذي أسلم، وأعلن عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وراسل السلطان قلاوون، ثم هلك أرغون هذا عام ٦٩١، وخلفه أخوه كيخاتو بن أباقاخان.

٥ ـ كيخاتو:

تولّى إمرة الأسرة الإيلخانية بعد أخيه أرغون، وسار على نهجه، ولكنه لم يلبث طويلاً إذ قتل بعد مدة من حكمه (٦٩٣)، وخلفه ابن عمه بيدو بن طرخاي بن هولاكو.

٦ ـ بيدو:

ولم يلبث أن قتل أيضاً عام ٦٩٥ لسوء خلقه.

٧ ـ غازان:

وهو غازان بن أرغون بن أباقا بن هولاكو.

نشأ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام عام ٦٩٤، وتسمّى باسم محمود، وآل إليه أمر الدولة الإيلخانية عام ٦٩٥. وعندما أسلم غازان أسلمت معه أسرة تولوي كلها، وأسلم معه كذلك سبعون ألفاً من التتار، وغدت الدولة الإيلخانية مسلمةً. إلا أن هذا الإسلام لم يحل دون قتال المسلمين والعمل على حربهم.

في عام ٦٩٨ قرر غازان غزو بلاد الشام بعد أن وصل إليه نائب دمشق الأمير قبجق مع عددٍ من كبار الأمراء، وأرسل قائده سلامش على رأس خمسة وعشرين ألفاً لجمع الجنود من آسيا الصغرى ويتقدّم بعدها إلى الشام، وأن يسير هو بمن معه من ديار بكر ويكون اللقاء بينهما على نهر الفرات، غير أن سلامش قد طلب الأمر لنفسه فأرسل له غازان قواتٍ تحاربه، وعاد هو وقبجق إلى تبريز، وقد التقت قوات قازان مع قوات سلامش في ٢٥ رجب، وهُزم سلامش وفرّ إلى دمشق، غير أن نائب حلب سيف الدين بلبان قد وجهه على رأس قوةٍ عسكريةٍ إلى ماردين في شهر رمضان من العام نفسه فنهبوا ضواحيها، وإن كان أمير ماردين المنصور الأرتقي الذي آلت إليه الإمارة عام ٦٩٣ كان يُراسل المماليك من جهة، ويُظهر الطاعة لغازان الذي كان يعدّه من أكبر مخلصيه. وربما كانت غارة سلامش على ماردين سبباً، في غزو غازان لبلاد الشام عام ٦٩٩ لكن دون أن يحرز نصراً. وقد برّر غازان هذا الهجوم بكتاب وجهه إلى الناصر محمد بن قلاوون، وبرّر انسحابه من الشام بإرضاء أهل الشام، وأعلمه بأن قوات من مصر قد اتجهت لقتاله، وهو لا يريد حرب المسلمين، وأرسل الناصر محمد بن قلاوون وفداً للمفاوضة ولكن لم تجد المفاوضات واستمر الصراع بين الطرفين.

وضعف أمر التتار في ديار بكر حتى إن الأهالي هناك قد بدؤوا يتتبعون التتار ويقتلون منهم ما استطاعوا قتله، وقد انشق جنكلي بن البابا حاكم آمد التتري، واتجه إلى مصر مع عددٍ من كبار أمراء التتار سنة ٧٠٣. غير أن غازان قد أرسل إلى نائب دمشق عز الدين أيبك يدعوه إلى الطاعة لزيادة قوة المسلمين إذ أن قوات المماليك تعيث الفساد بغاراتها على ماردين وديار بكر، ويبرر ذلك بالحملة التي قادها إلى بلاد الشام، ولكنها كانت هزيمةً منكرةً في شقحب، وهي التي اشترك فيها الخليفة بنفسه والسلطان، كما اشترك ابن تيمية، وقد اجتمعت هناك جيوش الشام وجيوش مصر وهزمت التتار الذين ولّوا الأدبار، وفقدوا الكثير منهم، بل لم ينج إلا القليل، وذلك في رمضان من عام ٧٠٢.

أما بالنسبة إلى مغول الشمال، فقد هدد الخان طقطاي غازان أن يسلم له مراغة وتبريز، ولكن غازان رفض ذلك، فسار طقطاي إلى جهة العراق غير أن غازان كان قد هزم في بلاد الشام فلم يتجه للقتال ثم لم يلبث أن توفي عام ٧٠٣، وخلفه أخوه أولجايتو.

٨ ـ أولجايتو:

شبّ على النصرانية ثم اعتنق الإسلام، وتولّى الحكم بعد أخيه غازان، وتسمّى محمد خرابنده، وأظهر الرفض عام ٧٠٩، وحاول أن يفرض هذا على رعيته. وتزوج ابنه صاحب ماردين (دنيا خاتون) عام ٧٠٩، غير أن أباها قد خطب للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٠، إذ كان يحاول أن يستفيد من وضعه فيحافظ على توازن القوى، أو يحاول أن يخفّف من غارات نواب المماليك في الجهات الشمالية على بلاده. ولكنه رجع عام ٧١١ يستقبل أمراء المماليك الفارين من مصر والشام، فقد استقبل في هذا العام مع أمراء التتار نائب الشام قره سنقر والأفرم، لكنه في العام التالي ٧١٢ توفي صاحب ماردين الملك المنصور نجم الدين إيلغازي، وخلفه عليها ابنه الملك العادل علاء الدين علي.

شجّع قره سنقر والأفرم السلطان محمد خرابنده على غزو الشام ومصر، ولكنه لم يجرؤ، وسار في العام الثاني ٧١٢ مع صاحب ماردين وحاصروا الرحبة في شهر رمضان طيلة الشهر، وكان سلطان مصر والشام الناصر محمد بن قلاوون قد اتجه نحو عدوه، فانسحب خرابنده.

وفي عام ٧١٣ قام خرابنده بحملة ضد خان مغول الشمال طقطاي ومشى معه صاحب ماردين، والأمير المملوكي قره سنقر، وتمكّن من الانتصار بفضل قوة وشجاعة قره سنقر، فراسل طقطاي سلطان مصر، وشكا له ما حلّ به، وعزا هزيمته إلى شجاعة قره سنقر وقوته، وطلب مده بالأسلحة لإعادة الجولة، وتمّ الاتفاق بين الاثنين للهجوم بوقتٍ واحدٍ على خرابنده إلا أنه لم يتم شيء من هذا إذ توفي طقطاي من عامه ذاك، وخلفه ابن أخيه محمد أوزبك.

وفي عام ٧١٥ أرسل سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون قوةً من حلب قوامها ستمائة فارس بقيادة الأمير شهاب الدين قرطاي للإغارة على ماردين، فأغار، ووجد في طريقه قوة من التتار قوامها ألف فارس جاءت إلى ماردين لأخذ الضرائب، فهاجمهم قرطاي، وقتل منهم ستمائة فارس، وأسر مائتين، وأخذ ما معهم. وفي شهر شعبان من العام نفسه أغارت قوة من حلب قوامها خمسة آلاف فارس على آمد، واستولت على بعض المواقع، وقتلت ونهبت وعادت.

وفي عام ٧١٦ سار حميضة بن أبي نمي من مكة إلى محمد خرابنده لينصره على أهل مكة، فساعده الروافض، وجهزوا معه جيشاً في خراسان، ولكن مات محمد خرابنده فرجع حميضة خائباً، وخلف خرابنده ابنه أبو سعيد.

٩ ـ أبو سعيد بهادور خان:

تولّى حكم الدولة الإيلخانية، وهو صغير، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وفي عهده عادت السنة إلى الدولة بعد أن اتخذ أبوه الرفض مذهباً له. كان جوبان وزير أبيه قد استدعى محمد أوزبك خان مغول الشمال

ليتسلّم البلاد فإن الصغير لا يمكنه أن يضبطها إلا أن محمد أوزبك قد رفض القدوم، فاستأثر جوبان بالأمر فأغضب ذلك الأمراء فكاتبوا محمد أوزبك خان مغول الشمال، وييسورخان قائد جند تركستان وبلاد ما وراء النهر، وهو من أحفاد جغطاي، وكان ييسور يحكم قسماً من خراسان، فتقدّم ودخل القسم الآخر، ووصل إلى مازندران، وطلب من محمد أوزبك أن يتقدّم من الطرف الآخر.

أرسل أبو سعيد جيشاً إلى محمد أوزبك إلا أن هذا الجيش قد هُزم، فسار بنفسه، وأرسل جيشاً آخر إلى ييسور بإمرة جوبان الذي تمكّن من إحراز النصر على ييسور، وإخراجه من خراسان، ثم بعث أبو سعيد إلى جوبان يطلب منه أن يسير بالقوات التي معه إليه ليواجه محمد أوزبك، ولكنه لم يحدث قتال لأن محمد أوزبك قد انسحب من الميدان عندما علم بهزيمة ييسور.

عاد أبو سعيد وجوبان إلى قاعدة الملك في أصفهان، وقبضوا على الأمراء الذين راسلوا محمد أوزبك وييسور، ونكّلوا بهم، وقد استطاع بعضهم الفرار والتوجّه إلى محمد أوزبك، وحرّضوه على قتال أبي سعيد، فاتصل أوزبك بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون لدعمه، إلا أن الناصر قد اعتذر لوجود مفاوضات بينه وبين أبي سعيد من أجل الصلح، وقد تمّ بالفعل هذا الصلح.

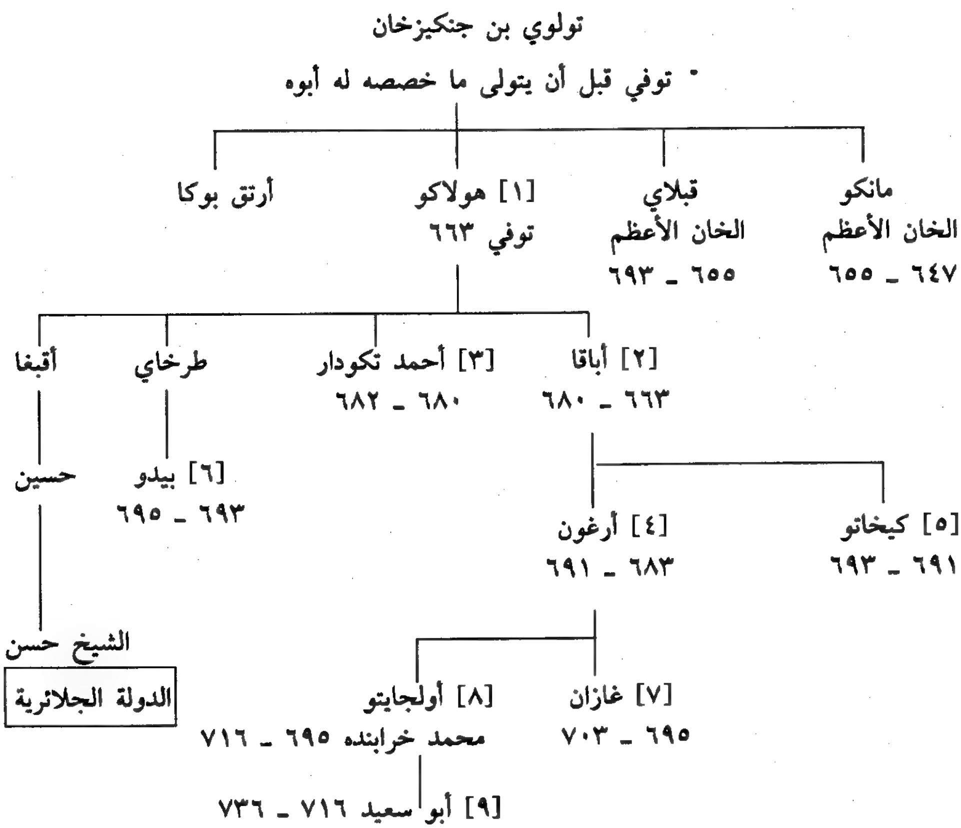
واتفق محمد أوزبك مع كبك ملك بلاد ما وراء النهر الذي تسلّم الأمر بعد مقتل ييسور عام ٧٢٠، ولكن أوزبك قد توفي عام ٧٢٢، وخلفه ابنه محمود جاني بك فاستطاع أن يأخذ أذربيجان من نائبها الأشرف بن تيمرتاش بن جوبان، ونصّب ابنه محمد بردي مكانه.

وبدأ الوضع يتأخر في الدولة فأصبح نواب المناطق في شبه استقلال، وظهرت أطماع من الأمراء التتار في عددٍ من الجهات، وعندما توفي أبو سعيد عام ٧٣٦، ولم يكن لأبي سعيد عقب، فاختلف أهل دولته، وانقرضت الدولة الإيلخانية.

نصّب رجال الدولة عليهم موسى خان، وقام بتدبير الحكم علي باشا أحد أمراء البلاد. وكان الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا بن هولاكو معتقلاً

في بلاد آسيا الصغرى، فأُطلق سراحه، فوصل إلى بغداد فخلع موسى خان، وولّى مكانه محمد بن عنبرجي أحد أفراد الأسرة الإيلخانية، وتمكّن الشيخ حسن من بغداد وتبريز،، وأسس الدولة الجلائرية.

سار من آسيا الصغرى حسن بن دمرداش فغلب على تبريز، وقتل محمد بن عنبرجي، فسار الشيخ حسن إلى بغداد واستقر فيها، بينما استقر حسن بن دمرداش في تبريز ونصّب (صاتبيك) أخت أبي سعيد سلطانةً على تبريز وزوّجها من أحد أسباط هولاكو، ويُدعى سليمان، إلا أن أولاد جوبان قد استولوا على أذربيجان وتبريز.



أما ديار بكر فقد استولى عليها إبراهيم شاه بن بارنباي بن سنوتاي. واستولى أرتنا على آسيا الصغرى. وقطع الأراتقة في ماردين ونواب التتار في تلك الجهات الخطبة عن خانات العراق سواء الإيلخانيين أم الجلائريين.

واستولى على بلاد خراسان طغيمتر من بني جنكيزخان. وهكذا تجزأت الدولة الإيلخانية.

بقي الشيخ حسن الجلائري في بغداد حتى توفي عام ٧٥٨ فخلفه ابنه أويس الذي حكم بغداد مدة ثماني عشرة سنة (٧٥٨ ـ ٧٧٦) واختلف أبناؤه من بعده، إذ قام علي بن أويس في بغداد، وحسين بن أويس في تبريز. ولكن جاء شجاع بن المظفر اليزدي، واحتل تبريز فانتقل حسين بن أويس إلى أخيه علي في بغداد، ثم ثار على أخيه في بغداد وخلّصها منه، كما سار إلى تبريز واسترجعها من شجاع بن المظفر الذي اتجه نحو أصفهان وأسس دولة هناك. وتمكن حسين بن أويس من بغداد وتبريز، ولكن لم يلبث علي بن أويس أن عاد فانتزع بغداد من أخيه حسين. واستقر علي في بغداد، وحسين في تبريز وعنده أخوه أحمد.

غادر أحمد بن أويس تبريز مغاضباً أخاه حسيناً وانتقل إلى أردبيل، ثم رجع إلى تبريز وامتلكها من أخيه حسين الذي اختفى إلا أنه قد قبض عليه وقتله، ثم اتجه إلى بغداد وامتلكها من أخيه الآخر علي، وبقي أحمد في بغداد حتى جاء تيمورلنك فدخل بغداد عام ٧٩٦، وفر أحمد بن أويس إلى مصر ملتجئاً إلى الظاهر برقوق.

الفصل الثالث

أسـرة جغطاي

كان من نصيب جغطاي الابن الثاني لجنكيزخان من إمبراطورية أبيه بلاد الأويغور، وتركستان، وما وراء النهر. وكان هذا الولد أكثر إخوته محافظة على تعاليم أبيه المحصورة فيما يعرف باسم «اليساق». وقد تسلّم جغطاي منطقته بعد وفاة أبيه عام ٦٢٤، وبقي خاناً عليها حتى توفي عام ٦٤٠. وتسلّم أمر هذه الأسرة حفيده قره هولاكو بن موتوكن، ويبدو أن والده كان قد توفي في حياة أبيه، وبعد ست سنوات من قيامه بأمر هذه الأسرة اختلف مع يسومنكو الذي نازعه الزعامة وأخذها منه لمدة أربع سنوات غير أن قره هولاكو تمكّن عام ٦٤٩ أن يرجع إلى السلطة، وأن يوحّد أبناء جغطاي تحت نفوذه، وأطلق عليه اسم خان أسرة جغطاي، وقد حكمت بعد مدة هذه الأسرة (أركنه خاتون) حتى عام ٦٥٩، وخلفها آلغوخان الذي استمرت سلطته خمس سنوات حيث جاء إلى الحكم مبارك شاه عام ٦٦٤، وقد نشأ مبارك شاه على الإسلام إذ ربته على ذلك أمه «أرغنه» زوجة قره هولاكو، وقد طالب بالعرش الذي كان مثار نزاع، وتمكّن من الحصول عليه، ولكن لم يلبث ابن عمه براق خان أن خلعه، وتسلّم مكانه، ولم يكن لإسلام مبارك شاه أثر كبير إذ لا نلاحظ في أسماء أبنائه ما يدل على إسلامهم أو اعتناق دين أبيهم.

خلع براق خان ابن عمه مبارك شاه عن الخانية عام ٦٦٤ وتسلّم أمرها، وقد قاتل ابن عمه قيدو ابن قاشين خان أسرة أوغطاي وانتصر عليه، واستبد بما تحت يده، وقد توفي عام ٦٧٠، ويقال: إنه قبل أن يموت

بعدة أيام اعتنق الإسلام، ولكنه عندما توفي دفن حسب طقوس المغول الوثنية، ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي، كما يقال: إنه قد تلقّب باسم السلطان غياث الدين في أيامه الأخيرة التي اعتنق فيها الإسلام.

خلف براق خان الأمير نيكوباي ولكن لم يطل أمره بأكثر من عام (٦٧٠ ـ ٦٧١)، وقام بعده توقاتيمور، وقد استمر عشر سنوات في حكمه (٦٧١ ـ ٦٨١)، وخلفه (دوداخان) الذي زادت مدته على خمس وعشرين سنة ويعدّ الأول في سني حكمه بين خانات أسرة جغطاي، وعند وفاته قام قونجوق خان لمدة سنتين (٧٠٦ ـ ٧٠٨)، ثم تاليقوخان لمدة سنةٍ واحدةٍ حيث خلعه أخوه كبك خان واستلم الأمر منه، وبعد أقل من سنة خُلع أيضاً كبك خان، وتسلطن أسنبوغا عام ٧٠٩.

وقع القتال بين (طقطاي) خان مغول الشمال وبين (أسنبوغا) خان بلاد ما وراء النهر، وقد انتصر طقطاي على مغول ما وراء النهر، وهذا ما كان له أثر في عودة كبك خان للمرة الثانية إلى الحكم عام ٧١٨ بتأثير مغول الشمال. واتفق كبك خان مع محمد أوزبك خان الشمال على قتال أبي سعيد خان الدولة الإيلخانية على أن يتقدّم كل منهما من جهته في أملاك الدولة الإيلخانية، إلا أن ييسور قد هزم أمام قوات أبي سعيد التي كانت بإمرة جوبان، وتراجعت قوات ييسور قائد جيوش ما وراء النهر، ثم إن ييسور قد قُتل عام ٧٢٠، ولم يحدث قتال مع قوات مغول الشمال إذ انسحب محمد أوزبك من منطقة القتال قبل أن يحدث عندما وجد قوات مغول ما وراء النهر تتراجع، غير أن الاتفاق قد تجدد عام ٧٢١ بين أوزبك وكبك لإعادة الكرة إلا أن كبك قد انتهى أمره في ذلك العام، وتبعه محمد أوزبك في العام الذي تلاه.

ضعفت الدولة في بلاد ما وراء النهر بعد الهزيمة التي حلّت بها أمام الإيلخانية، وتسلّم الأمر إيلغي كداي لعدة أشهر من عام ٧٢١، كما تسلّم السلطة بعد دوداتيمور لعدة أشهر أخرى. ولا شك فإن اتساع أرجاء الدولة بعد السيطرة على منطقة أسرة أوغطاي على الأقل القسم الغربي منها وهو

منطقة تركستان منذ أيام دوداخان كان له أثر كبير في الضعف الذي حلّ بالدولة حيث كان الخانات على درجة من الضعف لا تمكنهم من السيطرة على منطقة واسعةٍ.

تسلّم أمر أسرة جغطاي عام ٧٢٢ طرماشيرين، وقد أسلم وأسلم معه أكثر أفراد أو على الأقل معظم أمراء أسرة جغطاي، ولكن هذا الإسلام لم يتعمق في النفوس بشكل جيد، إذ أنه لا يزال حديثاً، والدخول فيه كان تقليداً ومجاراة أو مسايرة للخان. وقد التقى ابن بطوطة مع هذا السلطان، واستمرت مدته ثلاث عشرة سنة (٧٢٢ ـ ٧٣٥). ويبدو أن طرماشيرين لم تكن له السيطرة على كل أرجاء المملكة وخاصة في أواخر حياته إذ نلاحظ في أعداد الخانات لهذه الأسرة سنجر (٧٣٠ ـ ٧٣٤) وجنكشاي (٧٣٤ ـ ٧٣٥) ويبدو أن نفوذهما كان على بعض جهات المملكة، إذ أن الدولة تفككت بين معتنق للإسلام ومعاد، وقد عُرف الحكام الذين احتفظوا بوثنيتهم باسم مغولستان، وعُرف السكان باسم «الجاثيون» أي اللصوص. وتمكّن «بوزون» عام ٧٣٥ من طرد طرماشيرين من الخانية، واضطهد المسلمين. وحدثت خلافات كثيرة بين الأمراء، فقد جاء إلى السلطة أسن تيمور بعد بوزون عام ٧٣٩ وبقي سنتين.

إلا أن المسلمين قد تمكّنوا من تنصيب علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين أيضاً، وخلفه مسلم آخر من أسرة جغطاي اسمه محمد لمدة سنة واحدة (٧٤٣ ـ ٧٤٤) ثم قازان لمدة ثلاث سنوات (٧٤٤ ـ ٧٤٧)، وبعد وفاة قازان انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة، وتمكّن الأمراء الأتراك من إحراز النصر على المغول في بلاد ما وراء النهر. وإذا كان قد نُصّب دانشمندجة على قسم من بلاد ما وراء النهر، وهو من أسرة أوغطاي لمدة سنتين، وبعده رجع الخان بويان قولي من أسرة جغطاي فحكم لمدة إحدى عشرة سنة غير أن أوضاع بلاد ما وراء النهر كانت مجزأة، وأجزاء واسعة منها تحت سيطرة الأمراء الأتراك، وهذا ما حدا بأحد أمراء المغول أن يستقل في القسم الشرقي من تركستان.

٦٢٤ - ٦٤٠ جغطاي

موتوكن. توفي في حياة أبيه

٦٤٠ - ٦٤٥ قره هولاكو

٦٤٥ - ٦٤٩ يسومنكو

٦٤٩ - ٦٥٠ قره هولاكو «للمرة الثانية»

٦٥٠ - ٦٥٩ أرغنة خاتون زوجة قره هولاكو

٦٥٩ - ٦٦٤ آلغو

٦٦٤ - ٦٦٤ مبارك شاه

٦٦٤ - ٦٧٠ براق خان

٦٧٠ - ٦٧١ نيكوباي

٦٧١ - ٦٨١ توقاتيمور

٦٨١ - ٧٠٦ دوداخان

٧٠٦ - ٧٠٨ قونجوق خان

٧٠٨ - ٧٠٩ تاليقوخان

٧٠٩ - ٧٠٩ كبك خان

٧٠٩ - ٧١٨ أسنبوغا

٧١٨ - ٧٢١ كبك خان «للمرة الثانية»

٧٢١ - ٧٢١ إيلغي كداي

٧٢١ - ٧٢٢ دوداتيمور

٧٢٢ - ٧٣٥ طرماشيرين سنجر ٧٣٠ - ٧٣٤

٧٣٥ - ٧٣٩ بوزون خان جنكشاي ٧٣٤ - ٧٣٥

٧٣٩ - ٧٤١ أسن تيمور

٧٤١ - ٧٤٣ علي من أسرة أوغطاي

٧٤٣ - ٧٤٤ محمد

٧٤٤ - ٧٤٧ قازان

٧٣٠ - ٧٣٤ سنجر

٧٣٤ - ٧٣٥ جنكشاي

٧٤٧ - ٧٤٩ دانشمندجة من أسرة أوغطاي

٧٤٩ - ٧٦٠ قبول خان

٧٤٩ - ٧٦٤ توغلق تيمور

٧٦٤ - ٧٦٨ إلياس خواجه بن توغلق تيمور

٧٦٨ - ٧٧١ قمر الدين

تيمورلنك اسمياً:
- ٧٧١ - ٧٩١ سيورغتمش بن دانشمندجة من أسرة أوغطاي
- ٧٩١ - ٨٠٠ محمود بن سيورغتمش

المغول في تركستان:

استقل توغلق خان من أسرة جغطاي في كاشغر من أعمال تركستان الشرقية عام ٧٤٨، وأعلن أنه حفيد دوداخان، وقد استطاع أن يضمّ إليه بلاد ما وراء النهر، وفي أيامه دخلت أعداد من المغول تزيد على مائة وستين ألفاً في الإسلام، واستمر حكمه مدة ست عشرة سنة (٧٣٨ ـ ٧٦٤) وخلفه ولده إلياس خواجه، وقد أضاع المغول في أيامه بلاد ما وراء النهر، كما اغتصب الحكم منه زعيم يعرف باسم «قمر الدين» حتى عام ٧٩١ حيث رجعت السلطة بعد ذلك إلى خضر خواجه بن توغلق تيمور حتى عام ٨٠١، فابنه شمع جهان، وتوالى الحكام حسب التسلسل الآتي:

٧٤٨ ـ ٧٦٤	توغلق تيمور
٧٦٤ ـ ٧٧٦	إلياس خواجه بن توغلق تيمور
٧٧٦ ـ ٧٩١	قمر الدين
٧٩١ ـ ٨٠١	خضر خواجه بن توغلق تيمور
٨٠١ ـ ٨١٠	شمع جهان بن خضر خواجه
٨١٠ ـ ٨١٨	محمد خان بن خضر خواجه
٨١٨ ـ ٨٢١	نقش جهان بن شمع جهان
٨٢١ ـ ٨٢٤	أويس خان بن شير علي بن خضر خواجه
٨٢٤ ـ ٨٢٨	شبر محمد بن شاه جهان بن خضر خواجه
٨٢٨ ـ ٨٣١	أويس خان للمرة الثانية
٨٣١ ـ ٨٣٨	مرحلة من الاضطراب
٨٣٨ ـ ٨٦٦	أسن بوغا بن أويس خان
٨٦٦ ـ ٨٦٦	يونس خان بن أويس خان
٨٦٦	دوست محمد بن أسن بوغا

حدثت مرحلة من الاضطراب وانقسمت الدولة إلى عدد من الإمارات، قام بعضها في (اقصو)[1] و (طُرفان)[2]. وقد حكم هناك كبك سلطان بن

(١) اقصو: مدينة تقع على أحد روافد نهر تاريم، شمال شرقي كاشغر على بُعد ٤٢٠ كيلومتراً منها.

(٢) طُرفان: واحة واسعة على بعد ٧٨٠ من اقصو إلى الشرق منها مع انعطاف قليل إلى الشمال، وتقع دون مستوى سطح البحر (ـ ١٥٤م).

دوست محمد مدة أربع سنوات (٨٧٣ ـ ٨٧٧)، ثم محمود خان بن يونس، وأحمد خان بن يونس (٨٩٠ ـ ٩٠٨)، ومنصور خان بن أحمد (٩٠٨ ـ ٩٥٠)، وقد حكم أحد الثائرين كاشغر، ويارقند حتى عام ٩٢٠، وتمكّن سيدخان بن أحمد أن يستعيد سلطته على كاشغر (٩٢٠ ـ ٩٣٩) وخلفه ابنه عبد الرشيد خان (٩٣٩ ـ ٩٧٨)، أما طرفان فقد حكمها شاه خان بن منصور بعد وفاة والده (٩٥٠ ـ ٩٧٨) ثم انتهى أمر هذه الأسرة المغولية في هذا العام. وكثيراً ما كانت قراشار[1] تتبع الحكومة في طرفان.

(١) قراشار: مدينة بين اقصو وطرفان، على بحيرة تحمل اسمها، ينتهي فيها المجاري المائية المنحدرة من جبال تيان شان، وهي الجبال التي تفصل حوض زونغارية عن حوض نهر تاريم، وكلاهما من بلاد تركستان الشرقية، ويبلغ ارتفاع هذه البحيرة (١٠٣٠م) عن سطح البحر.

الفصل الرابع

أسـرة أوغطاي

بعد وفاة جنكيزخان عام ٦٢٤ خلفه ابنه أوغطاي كخانٍ أعظم للصين مقره قره قورم، كما كان نصيبه من إمبراطورية والده منغوليا مقر حكمه، وبلاد الخطا التي تشمل الأجزاء الشرقية من تركستان أي زونغاريا وحوض نهر تاريم، والصين *وكل ما يمكن ضمّه من ناحية الشرق إلى نهاية المعمورة. وأُعلنت له الطاعة عام ٦٢٦ من قبل المغول جميعاً في مؤتمرهم الذي عقد في ذلك العام بعد عامين على مرور وفاة جنكيزخان حزناً عليه أو حداداً عليه. وقد اتسعت في عهد أوغطاي منطقة نفوذ المغول سواء من ناحية الشرق في الصين أم من ناحية الغرب على حساب دولة خوارزم، وفي أوروبا أيضاً بقيادة ابن أخيه باتو بن جوجي بن جنكيزخان.

وبيدو أن المغول قد هزموا في جهة الشرق في بعض المعارك على الأقل، فدعا «أوغطاي» المغول لعقد اجتماع لتدارس الأمر في مقر الحكم في قره قورم (أولان باتور) قاعدة منغوليا اليوم، إلا أنه في هذه الأثناء قد توفي خان المغول الأعظم «أوغطاي»، وانتخب ابنه «كيوك» مكانه وكان في المجر يُقاتل تحت إمرة ابن عمه باتو بن جوجي، فتأثر باتو وإخوته من هذا التعيين فرفضوا حضور ذلك الاجتماع، وريثما حضر «كيوك» من أقصى غرب الإمبراطورية سيّرت أمه «توراكينا» له أمور الدولة، وحصل فراغ في السلطة لعدة سنوات (٦٣٩ ـ ٦٤٤).

وصل «كيوك» إلى مقر حكم المغول عام ٦٤٣، واحتفل بتنصيبه عام

٦٤٤، وتنصّر تحت تأثير مربيه من النصارى، وانتشرت في أيامه أعداد من الرهبان في بلاد المغول، واختلف مع ابن عمه باتو وأرسل جيشاً لقتاله، وقبل أن يلتقي الطرفان توفي «كيوك» عام ٦٤٧.

نُصّب مانكو بن تولوي خاناً أعظم للمغول بتأثير باتو بن جوجي، وهكذا انتقلت الخانية العظمى للمغول من أسرة «أوغطاي» إلى أسرة «تولوي»، وحقد أولاد «أوغطاي» على هذا الأمر إلا أنه قد خرج من أيديهم، وكان كبيرهم «قاشين» أخو «كيوك».

نُصّب بعد وفاة مانكو عام ٦٥٥ أخوه «قوبيلاي»، وكان معه في طريقهما إلى قتال بعض ملوك بلاد الخطا الذين خرجوا عن طاعته، وكان قد عيّن أخاه الأصغر أرتق بوكا لإدارة شؤون المملكة مكانه، واستمسك أرتق بوكا بالحكم وكان يدعمه ابن عمه بركة خان مغول الشمال، وابن عمه الآخر قيدو بن قاشين بن أوغطاي، والتقى قوبيلاي مع أخيه أرتق بوكا في قتال اضطر معه أخوهم الرابع هولاكو أن يترك القتال في الغرب عام ٦٥٨، وأن يعود إلى مقر حكم المغول في قره قورم، واستطاع أن يعيد قيدو بن أوغطاي إلى الطاعة هو وإخوته، ونصّب أخاه قوبيلاي خاناً أعظم للمغول، وعاد إلى قاعدته في الغرب.

نقل قوبيلاي حاضرة ملكه من قره قورم في منغوليا إلى بكين عاصمة الصين، وأسس هناك أسرة حكمت المنطقة تلك، أما القاعدة القديمة فقد بقي فيها أبناء أوغطاي، وكانوا على صلة بأبناء عمومتهم أحفاد جغطاي فاختلطت السلطة بعضها مع بعض.

توفي قيدو بن قاشين بن أوغطاي عام ٧٠٤ وخلفه ابنه «شابار»، وكان قيدو قد قاتل براق خان من أسرة جغطاي ولكنه هُزم أمامه، وأصبح براق خان سيد الموقف، كما كان قيدو يوالي المسلمين، ويعضد ابن عمه بركة خان المسلم الذي قاتل ابن عمه هولاكو، وراسل الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكي الذي كان يقف في وجه هولاكو. ومع هزيمة قيدو أمام براق خان فإن خلفاء الجغطائيين، ومنهم (دوداخان) قد وافقوا على

زعامة شابار مكان أبيه قيدو، ثم جرت حروب بين الجغطائيين والأوغطائيين رضخ بعدها الأوغطائيون إلى دوداخان الجغطائيين الذين أصبحوا خانات بلاد ما وراء النهر وتركستان كلها وخضع لها الأوغطائيون، غير أنه قد تولّى أمر هذه المملكة الواسعة علي خان من أسرة أوغطاي لمدة سنتين من عام (٧٤١ ـ ٧٤٣) إذ كان الإسلام قد عم المنطقة منذ أيام طرماشين (٧٢٢ ـ ٧٣٥)، وبعد أربعة أعوام حكمها في خلالها محمد، وقازان من أسرة جغطاي عاد دانشمندجة إلى حكم المنطقة وهو أخو شابار أي من أسرة أوغطاي.

بعد دانشمندجة الذي توفي عام ٧٤٩ عادت السلطة إلى أسرة جغطاي حيث تولّى الأمر قبول خان بجهود الأمير حسين بن الأمير قزغن، وبقيت السلطة بيد قبول خان حتى عام ٧٦٠ حيث قتله تيمورلنك، وولى مكانه «سيورغتمش» بن دانشمندجة.

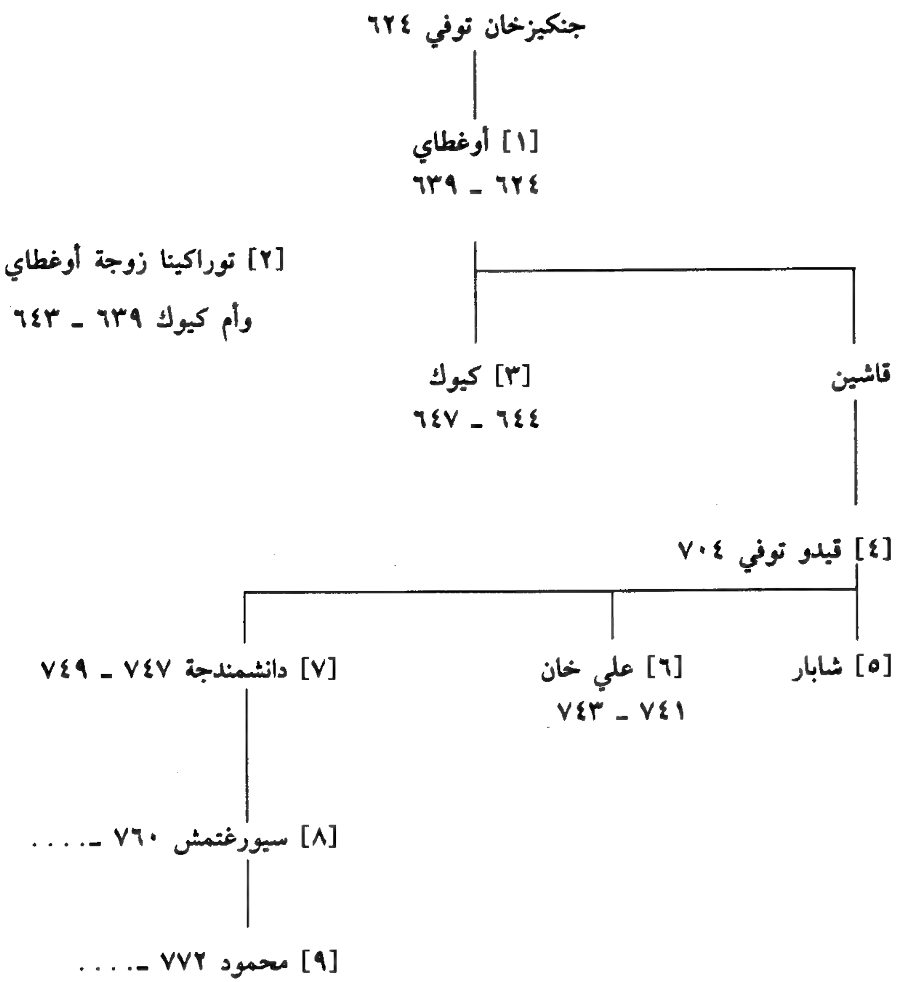
وبعد سيورغتمش خلفه ابنه محمود إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد تيمورلنك.

وهكذا يبدو أن أسرة أوغطاي كانت قليلة الحظ في السلطة بعد أن كانت الخانية العظمى بيدها، إذ عهد جنكيزخان من بعده لابنه أوغطاي الذي تنتمي إليه هذه الأسرة.

المغول في الصين:

أما المغول في الصين فقد دخل قوبيلاي عام ٦٧٩ مملكة سونغ في جنوبي الصين، ووحدها مع البلاد التي خضعت له، واتخذ عاصمةً له (خان باليغ).

التي تعني مقر الخان، وهي التي تسمى اليوم بكين. وأما عاصمتهم الأولى قره قورم فقد غدت مركز ولاية.



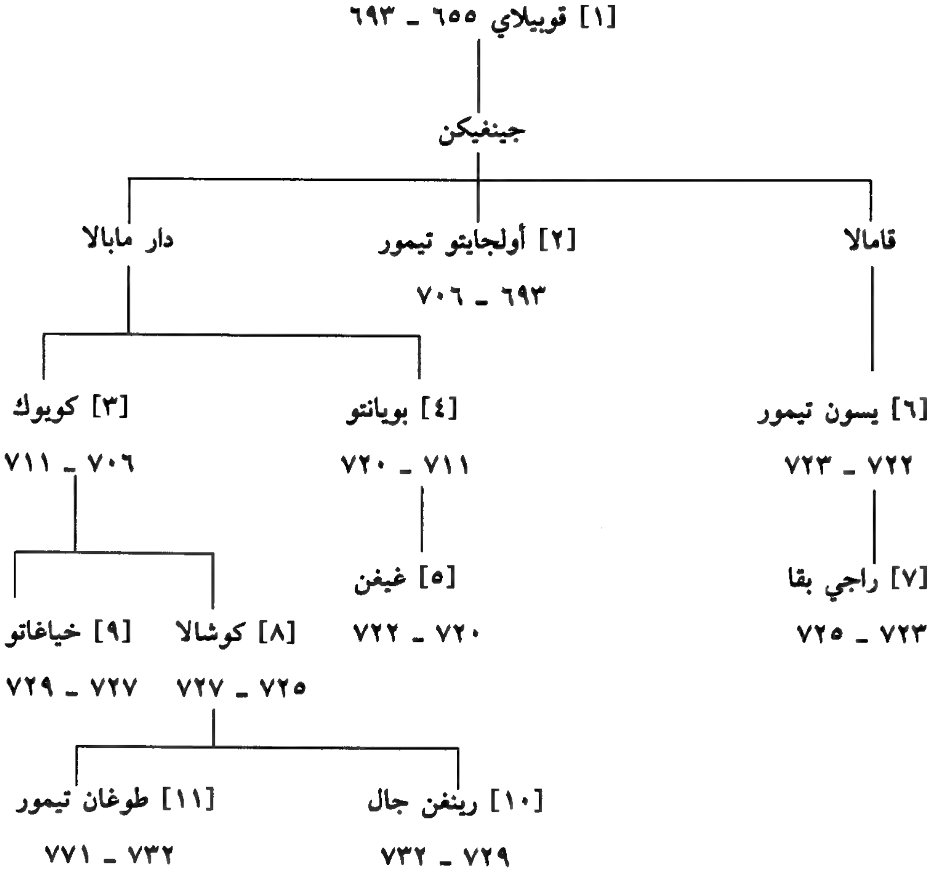
تأسست إمبراطورية مغولية واسعة في الصين، واستمر قوبيلاي في حكمه حتى عام ٦٩٣، وقد عرف حكام هذه الدولة باسم أسرة (يين)، وعندما توفي قوبيلاي خلفه حفيده أولجايتو تيمور، وبقي مدة ثلاث عشرة سنة (٦٩٣ ـ ٧٠٦)، وخلفه ابن أخيه كويوك بن دار مابالا الذي لم يبق في الملك سوى خمس سنوات (٧٠٦ ـ ٧١١) حيث تسلّم بعده أخوه بويانتو لمدة تسع سنوات (٧١١ ـ ٧٢٠)، وقام ابنه غيغن من بعده، وتعاقب عدد من الخانات لمدد قصيرة إذ قام يسون تيمور، وابنه راجي بقا، ثم كوشالا بن كويوك فأخوه جياغاتو، ثم رينغن جال بن كوشالا وهؤلاء الستة

خانات لم تزد مدتهم جميعاً على اثنتي عشرة سنة (٧٢٠ ـ ٧٣٢)، وأخيراً جاء طوغان تيمور فطال أمره إلى عام ٧٧١، وقد عرف حكام هذه الأسرة بالبذخ والترف، وانتشر الإسلام في هذه الإمبراطورية، ويعود بناء أكثر مساجد مدينة بكين إلى هذه المرحلة، كما أن القصور الفخمة الأثرية تعود أيضاً إلى المرحلة نفسها، وقد تمكن أعداء الإمبراطورية من دخول بكين في عهد طوغان تيمور عام ٧٧٠، وفي خلال سنتين أخرج المغول من الصين.

استمرت هذه الممالك في الأجزاء الخارجة عن الصين لذا عرفت باسم الدولة المقصورة أي التي اقتصرت على مساحة بسيطة من الأرض بالنسبة إلى ما كانت عليه، وقد حاولوا التوجه نحو الشمال إلا أن مينغ قد لاحقهم وتمكّن من الانتصار عليهم، وأسر منهم ثمانين ألفاً، وبسط نفوذه عليهم، وإن بقوا يعرفون باسم الخانات إلا أن تعيينهم كخانات كان يأتي من بكين منهم كولاة بالدرجة الأولى. وقد توالى أربعة عشرة خاناً وهم:

١ ـ بيليكتو بن طوغان تيمور	٧٧١ ـ ٧٨٠
٢ ـ أوسوخال بن طوغان تيمور	٧٨٠ ـ ٧٩٠
٣ ـ أتكه سوريكتو بن أوسوخهال	٧٩٠ ـ ٧٩٤
٤ ـ ألبك بن أوسوخال	٧٩٤ ـ ٨٠٢
٥ ـ كون تيمور بن ألبك	٨٠٢ ـ ٨١١
٦ ـ أولغان تيمور بن ألبك	٨١١ ـ ٨١٦
٧ ـ دلبك بن أولغان تيمور	٨١٦ ـ ٨١٧ قتل
٨ ـ آدساي بن خارغو تسوق بن أوسوخال	٨١٧ ـ ٨٣٧
٩ ـ تايسونغ بن آدساي	٨٣٧ ـ ٨٤٣
١٠ ـ أقبارجي بن آدساي	٨٤٣ ـ ٨٥٦
١١ ـ أوككتو بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٥٧
١٢ ـ مولون بن تايسونغ	٨٥٧ ـ ٨٦٧
١٣ ـ ماندا غول بن آدساي	٨٦٧ ـ ٨٧٥
١٤ ـ دايان خان	٨٧٥ ـ ٩٥٠

وقد تمكن دايان من توحيد قبائل المغول في هذه المدة الطويلة التي حكمها وذلك عام ٨٨٨، وكانت قره قورم حاضرة هؤلاء الخانات. وبعد ذلك تفرقت القبائل فكان لكل قبيلة خان مستقل، وإن كان يجمعهم بعض الروابط، وقد استمر ذلك مدة ٩٧ سنة وتعاقب خمسة خانات، وبعدئذ أصبح المغول يتبعون الصين تماماً ويعدون من رعايا دولة الصين وذلك منذ عام ١٠٤٣.



الفصل الخامس

تيمورلنك

تشتت شمل المغول في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري في دولهم كلها، وأصبحت كل دولةٍ أجزاء مبعثرة، فدولة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية تجزأت بين أبنائها، وانقسمت الدولة الإيلخانية إلى عدد من الدويلات إذ استقل كل زعيم بمنطقته وقطع صلته بالإيلخانيين، ومعظم هؤلاء الزعماء ليسوا من المغول وإنما من التركمان، وتوزعت بلاد ما وراء النهر بين أمراء أسرة جغطاي وكذا تركستان، أما أسرة أوغطاي فقد خضعت في تركستان لأسرة جغطاي، وأُخرج من كان منها في الصين حوالي عام ٧٧٣ مع خاناتهم من أحفاد قوبيلاي بن تولوي، وكان الخلاف بين أمراء هذه الأجزاء كثيراً ما يؤدي إلى القتال، في هذه الأثناء ظهر تيمورلنك، وكان الجو مهيئاً له.

استطاع توغلق تيمور خان بلاد التركستان أن يبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر. وأن يضع الولاة على المدن من قبله، وقد تحرّك والي سمرقند نحو مدينة هراة واحتلها، ثم اغتيل أمير سمرقند، واختلف الأهالي على الذي يلي أمرهم، وعمّت الفوضى، وأصبحت المنطقة في شبه ثورة، ووصل الخبر إلى الخان توغلق، فسار بقوة نحو سمرقند، ففرّ من وجهه بعض الأمراء الذين كانوا يظهرون العصيان، وأقبل من كان يبدي الطاعة على الخان وأقسم له يمين الولاء.

جاء الأمير حسين من جهات كابُل يريد إخضاع سمرقند، ولكنه هزم

وفرّ، وهو أخو زوجة تيمورلنك، ومن جهة أخرى فإن عمّ تيمورلنك وزعيم قبيلته «البرلاس» قد أظهر العصيان، واعتصم في بلدته في ضاحية سمرقند، فسار إليه جيش من قبل الخان، فاضطر إلى مغادرتها والفرار منها ولكن قطّاع الطرق قتلوه في أثناء فراره. وخوفاً من تهديم البلدة فقد تقدّم تيمورلنك إلى قائد طليعة جيش المغول وأكرمه، فأمر هذا الضابط جنده ألا يمسّوا هذه البلدة بسوء، كما طلب من تيمورلنك أن يسير معه إلى الخان، ففعل فكافأه الخان بأن جعله والياً على مدينة «كش».

ينتمي تيمورلنك إلى قبيلة «البرلاس» التركية، وقد كان أحد أجداده، وهو «قراجا رنويان» قد دعم جنكيزخان فأحبه، وجعله وصياً على ابنه جغطاي، فبرز بين المغول وعرف. وقد ولد تيمورلنك عام ٧٣٦ في بلدة «كش» التي أصبح والياً عليها فيما بعد، وتزوج من «توركان خاتون» أخت الأمير الفارّ الذي أراد إخضاع سمرقند.

رجع توغلق خان إلى تركستان مقر حكمه بعد أن عيّن ابنه إلياس حاكماً على بلاد ما وراء النهر، كما ألقى بجانبه جيشاً ينفّذ به أحكامه، وأعطى تيمورلنك إمرة مدينة سمرقند. غير أن قائد الجيش المغولي لم يحسن السيرة في معاملة أهل سمرقند فحدث الخلاف في المدينة بين أهلها والجيش المغولي، واشتدّ الوضع على الحاكم فكتب إلى أبيه، فطلب الوالد من أبيه أن يقتل أمير المدينة تيمورلنك، وأحس تيمورلنك بما يدبّر له، ففرّ، والتقى في أثناء هروبه مع أخي زوجته الأمير حسين الهارب أيضاً من المغول، واستطاع تيمورلنك أن يجمع حوله الأنصار، ونازل بهم المغول، وأحرز النصر. وفي هذه الأثناء علم إلياس خان بلاد ما وراء النهر بوفاة والده في تركستان فغادر بلاد ما وراء النهر، واتجه نحو تركستان ليتسلم الخانية العظمى، وبهذه المغادرة أصبحت بلاد ما وراء النهر في قبضة تيمورلنك.

سار الخان إلياس نحو بلاد ما رواء النهر وتمكّن من إحراز النصر

على تيمورلنك، ولكنه لم يستطع دخول سمرقند إذ صمدت في وجهه. ورجع تيمور إلى قاعدة ملكه غير أن الأمير حسيناً أخا زوجة تيمورلنك قد فرض نفسه أميراً على سمرقند، ورضخ تيمورلنك لذلك رغبةً في جمع الكلمة، والوقوف أمام المغول. ولكن هذا الاتفاق لم يدم إذ لم يلبث أن وقع الخلاف، وادعى تيمورلنك أن حسيناً قد أساء معاملته، وحدث القتال، وخرج تيمورلنك منتصراً، وأصبح أمير التتار بعد اجتماع أعيانهم في مدينة بلخ عام ٧٧١. واضطر «قمر الدين» من أسرة جغطاي وهو صاحب الكلمة الاسمية في بلاد ما وراء النهر أن يترك سمرقند، وأن يتجه إلى تركستان، وبذا فقدَ الخان إلياس بلاد ما وراء النهر نهائياً، وأصبح تيمورلنك صاحب الكلمة العليا، فعيّن خاناً اسمياً على البلاد، وهو «سيورغتمش بن دانشمندجة» من أسرة أوغطاي وذلك عام ٧٧١، وبذا أصبحت بلاد ما وراء النهر تحت سلطة أسرة أوغطاي على حين كانت تركستان تحت سلطة أسرة جغطاي وهذا ليضمن عدم اتفاق الطرفين هذا من جهة، ومن جهة ثانية بقي الأمر بيد أحفاد جنكيزخان هم الذين يخضع لهم السكان مغولاً وتتاراً وتركاً.

كان الأمير حسين أخو زوجة تيمورلنك قد بسط نفوذه على خوارزم فسار إليه تيمورلنك وأخذ المدينة من أميرها الذي أدركته المنية في أثناء الحصار. ثم اتجه نحو هراة ودخلها بعد حصار، وحمل معه إلى سمرقند أميرها غياث الدين.

وفي هذه الأثناء هاجم «ماماي» الخان بمنطقة القرم مدينة «سراي» ففرّ منها خانها «توقتاميش»، واتجه نحو سمرقند، والتجأ إلى تيمورلنك فأعانه ورجع إلى بلاده، ودخل مدينة «سراي» منتصراً، وتمكّن أن يعيد الروس إلى الطاعة عام ٧٨٣ إذ انتصر عليهم، ودخل مدينة موسكو.

وفي المدة ٧٨٢ ـ ٧٨٦ استولى تيمورلنك على خراسان[1]،

---

(١) كان السربداريون في نيسابور، وقد أسس هذه الدولة خواجه عبد الرزاق الذي كان يعمل =

وجرجان، ومازندران[١]، وسجستان[٢]، وأفغانستان، وفارس[٣]، وأذربيجان[٤]، وكردستان.

= جابياً للضرائب في كرمان. وقد قاد عصياناً ضد ظلم المغول وسيطر على المنطقة عام ٧٣٨، وخلفه أخوه وجيه الدين فاستولى على نيسابور، وبقي فيها حتى دخل تيمورلنك المنطقة عام ٧٨٣.

وكان في مدينة هراة دولة بني كرت التي أسسها شمس الدين مجمد عام ٦٤٣، وخلفه ولده ركن الدين، وخدموا الدولة الإيلخانية، وقد استولى تيمورلنك على هراة عام ٧٨٤، وأعدم أفراد أسرة بني كرت جميعاً.

(١) سار تيمورلنك إلى مازندران ودخلها عام ٧٨٦، وقضى فصل الشتاء في الري.

(٢) أغار تيمورلنك على سجستان عام ٧٨٥، ثم اتجه إلى الشمال فضم إليه جرجان ومازندران عام ٧٨٦.

(٣) حكم فارس في عهد الإيلخانيين شرف الدين محمود إينجو، واستقل فيها عام ٧٢٥، واعترف له بذلك الأمير شوبان الذي حكم حتى عام ٧٢٧، وخُلع شوبان، وخلفه أرباخان فأعدم شرف الدين محمود إينجو الذي ناوأه السلطة، وخُلع أرباخان عام ٧٣٦ وسُلّم إلى أولاد محمود شاه فقتلوه، وسيطر جلال الدين بن محمود شاه على فارس، وأبو إسحاق على يزد، ولكن آل مظفر سيطروا على المنطقة عام ٧٥٨.

كان غياث الدين حاجي قد هاجر من خراسان واستقر في يزد، وخدم واليها، وقام حفيده مظفر الدين بخدمة الإيلخانيين، فعينوه على مَيْبُد إحدى ضواحي أصفهان، وقد توفي عام ٧١٣، وخلفه ابنه مبارز الدين محمد الذي عينه أبو سعيد بها دور خان على يزد، وقد تمكّن من السيطرة على كرمان عام ٧٤١، ثم ضمّ إليه أصفهان ٧٥٨، وخلعه أولاده عام ٧٦٠، لكنه عاد إلى الحكم عام ٧٦٥ ثم مات في تلك السنة، وحكم بعده ولداه جلال الدين وشجاع ٧٦٩ ـ ٧٨٦ وخلف جلال الدين ولده مجاهد الدين علي زين العابدين وبعد وفاته اختلف آل مظفر، فاستولى تيمورلنك على المنطقة ودخل أصفهان عام ٧٨٨، ففر مجاهد الدين إلى الأمير منصور في شوشتر فقبض عليه وسجنه، ثم فر، وعاد فاستولى على أصفهان، وقد تمكن الأمير منصور من القبض عليه عام ٧٩٢، وكان الشاه يحيى المظفري في يزد، والسلطان أحمد في كرمان، والشاه منصور في أصفهان، وقد عاد تيمور فاستولى على المنطقة عام ٧٩٥.

(٤) بعد وفاة أبي سعيد بها دورخان آخر ملوك الإيلخانيين عام ٧٣٦ سيطر شيخ قبيلة تركية وهو الشيخ حسن بزرك على شمال إيران ثم ضم إليه العراق عام ٧٤١، واتخذ بغداد عاصمة له، وتوفي عام ٧٥٧، وخلفه ابنه الشيخ أويس بهادور خان فسيطر على تبريز عام ٧٥٩، ثم ضم إليه الموصل وديار بكر عام ٧٦٦، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ولده جلال الدين حسين فحارب آل مظفر، وحكام أرمينيا عام ٧٧٩، ثم عاد فاتفق معهم، ومات جلال الدين حسين عام ٧٨٤، وانقسمت الدولة بين ولديه، فكانت أذربيجان =

دبّ الخلاف بين توقتاميش وتيمورلنك عام ٧٨٨، إذ هاجم توقتاميش ضواحي سمرقند. ولم يكن تيمورلنك فيها، فلما عاد تيمورلنك إلى قاعدة حكمه رجع توقتاميش إلى بلاده، ولم تمض مدة حتى كرر توقتاميش الغارة وهذا ما شجع خوارزم على إعلان العصيان على تيمورلنك، وتراجع توقتاميش وفي نيته استدراج تيمورلنك إلى بلاد سيبيريا الواسعة ثم ينقض عليه، فسار تيمورلنك نحو الجرجانية إحدى مدن خوارزم، وفعل بأهلها الأفاعيل ليرهب أعداءه ولتكون درساً لمن تسوّل له نفسه إعلان العصيان على تيمورلنك. ورجع توقتاميش مرةً ثالثة للإغارة على مناطق تيمورلنك، فتحرّك تيمورلنك نحوه، ففرّ أمامه توقتاميش قاصداً استدراجه، ثم التقيا على ضفة نهر أورال. وكانت طليعة جيش تيمورلنك بقيادة ابنه عمر شيخ، والقائد سيف الدين، أما بقية الجيش فكان على ميمنته ابنه الصغير ميران شاه، وانتصر تيمورلنك، وفرّ توقتاميش وكان توقتاميش قد اتفق مع خان كاشغر «قمر الدين» من أسرة جغطاي على محاربة تيمورلنك، كما راسل السلطان الظاهر برقوق في مصر للغاية نفسها. وتابع تيمورلنك سيره فدخل مدينة «سراي» عاصمة مغول الشمال أو القبيلة الذهبية، فعيّن عليها خاناً من قبله وهو «قويرجق بن أرص خان» من أسرة شوبان، أما هو فقد عاد إلى سمرقند، وكان صاحب الكلمة في مدينة «سراي» أيدكو زوج ابنة توقتاميش، إلا أنه قد أيّد تيمورلنك في حربه ضد عمه. ولما مات «قويرجق» عام ٨٠١ عيّن «أيدكو» مكانه خاناً جديداً هو «تيمرقتلغ» إلا أن هذا الخان الجديد لم يلبث أن توفي عام ٨٠٢، فأقام «أيدكو» مكانه ابنه «شادي بك»، ويبدو أن «توقتاميش» كان قد اختفى هذه المدة، ثم ظهر ونازع «شادي بك» السلطة.

لقد هدّم تيمورلنك مدينة «سراي»، ومدينة «استراخان» قبل مغادرته،

= والعراق بيد السلطان أحمد، وكردستان وشمال العراق بيد السلطان بايزيد، ثم إن بايزيد قد سقط في يد أخيه عام ٧٨٥، ثم جاء تيمورلنك واستولى على المنطقة عام ٧٨٦، وبعد ذلك رجع تيمورلنك إلى سمرقند.

ثم سار نحو الغرب، وخاف الروس عندما اجتاز نهر الدون متجهاً نحو الغرب إلا أنه عاد فعدل سيره، ورجع إلى بلاد القوقاز، وتغلّب على بلاد الكرج، ومات ابنه شيخ عمر في بلاد القوقاز، وتابع تيمورلنك سيره من شمال بلاد فارس إلى سمرقند حيث أخذ قسطاً من الراحة.

وفي عام ٧٩٠ توفي الخان سيورغتمش من أسرة أوغطاي والذي نصّبه تيمورلنك، فعيّن مكانه ابنه محمود فبقي حتى عام ٨٠٠، وجعل تيمورلنك نفسه وزيراً له، كما كان الأمير مع والده سيروغتمش.

بعد أن رجع تيمورلنك إلى سمرقند عاد آل مظفر في فارس إلى حكمها واستولى منصور شاه على أصفهان، وقبض على مجاهد الدين علي زين العابدين فسار تيمورلنك عام ٧٩٥ إلى جهة الغرب ومعه ابنه شاه رخ، وقد انتصر تيمورلنك، وأرسل ابنه شاه رخ يتعقب منصور شاه، وقد تمكّن من قتله. وسار تيمورلنك بعدها إلى بغداد واستطاع أن يدخلها في العام نفسه ٧٩٥، وقد فرّ منها صاحبها السلطان أحمد بن أويس، واتجه إلى مصر، فأقام تيمورلنك في بغداد والياً من قبله.

واتجه تيمورلنك إلى الموصل ومنها إلى أذربيجان[1] فدخلها، وكانت تحت إمرة قره يوسف، وبعد انتصاره هذا رجع إلى سمرقند ليأخذ شيئاً من الراحة، وما أن رجع حتى عاد السلطان أحمد بن أويس إلى بغداد وعاد قره يوسف إلى تبريز، واتفقا على أن يعلن كل منهما استقلاله عن الدولة التيمورية. وكان تيمورلنك قد أرسل رسلاً إلى السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق فقتل السلطان الرسل، وسار إلى بغداد فأخرج منها التتار، وأعاد السلطان أحمد بن أويس.

---

(١) كانت تحكم أذربيجان أسرة قرة قيونلي، وهي أسرة تركمانية الأصل، دخل جدهم بيرام خواجه في خدمة الشيخ أويس الجلائري، فلما مات الشيخ أويس عام ٧٧٦ استولى بيرام خواجه على الموصل، وقد توفي عام ٧٨٢ فخلفه ابنه فدخل في خدمة السلطان أحمد بن أويس، وقد قُتل عام ٧٩٢، وقام مكانه ابنه قره يوسف، فجمع الموصل وتبريز إليه حتى غلبه تيمورلنك عام ٧٩٥، فغادر المنطقة، ولما عاد تيمورلنك إلى سمرقند رجع قره يوسف إلى منطقته وبقي فيها حتى رجع تيمورلنك مرة أخرى.

اتجه تيمورلنك إلى شمالي الهند عام ٨٠٠، وسيطر على دهلي وكشمير عام ٨٠١، وكان طريقه عبر ممر خيبر، وقد تصدّى له السلطان محمود فهزمه، ودخل البلاد، فأقام فيها حكاماً من قبله، وعاد عام ٨٠٢ إلى سمرقند فقضى فيها بعض الراحة.

عاد تيمورلنك فاتجه نحو الغرب عام ٨٠٢، فاستولى على أذربيجان ففرّ منها قره يوسف، كما فرّ من بغداد السلطان أحمد بن أويس، واتجها نحو السلطان العثماني بايزيد، وأخذا في طريقهما مدينة أرزنجان من أميرها الموالي لتيمورلنك. ووصل تيمورلنك إلى القوقاز، وأدّب بلاد الكرج الذين كانوا قد ثاروا على عامله عليهم، واتجه نحو السلطان العثماني عن طريق أرضروم، ودخل سيواس عام ٨٠٣، وفر حاكمها، وقاومه أربعة آلاف أرضي فجمعهم في خندق وردم التراب فوقهم، وسار إلى ملاطية فخربها، كما خرب سيواس من قبل، وهكذا دان له القسم الشرقي من الأناضول.

اتجه تيمورلنك إلى حلب ومنها إلى دمشق فدخلها، ثم رجع إلى حلب، ومنها اتجه إلى بغداد فدخلها ثانيةً عام ٨٠٤، وارتحل بعدها إلى تبريز فجعلها قاعدته الحربية. وفي أثناء احتلاله لبلاد الشام عام ٨٠٤ انقاد له سلطان المماليك فرج ناصر الدين بن الظاهر برقوق، فدفع له أتاوةً، وخطب باسمه.

اتجه تيمورلنك نحو الأناضول، ووصل الخبر إلى السلطان العثماني بايزيد ففكّ الحصار عن مدينة القسطنطينية، ووصل تيمورلنك إلى سيواس ومنها انطلق نحو أنقرة، والتقى الطرفان في معركة طاحنة في صيف عام ٨٠٥، وقد أسفرت المعركة عن هزيمة العثمانيين وأسر سلطانهم وأحد أبنائه، وقتل ولدٍ آخر له، واستولى تيمورلنك بعدها على مدينة بروسة قاعدة العثمانيين، وسار بعدها إلى مدينة أزمير، وكانت بيد بقايا الصليبيين من جماعة القديس يوحنا، وكانت قد استعصت من قبل على السلطان العثماني بايزيد لمدة ست سنوات، فدخلها تيمورلنك بعد حصار دام أسبوعين

فأخلاها الصليبيون. أما السلطان أحمد بن أويس الجلائري الذي كان قد التجأ إلى السلطان العثماني فقد فرّ إلى مصر إلا أن السلطان ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق قبض عليه، وزجّه بالسجن لأنه كان قد انقاد إلى تيمورلنك، وأما قره يوسف فقد فرّ إلى جزيرة العرب، وأعاد تيمورلنك إلى أسر الطوائف أملاكها في الأناضول، وعاد بعدها إلى سمرقند.

قرر تيمورلنك غزو الصين فسار إليها على رأس جيش جرار إلا أن المنية قد وافته، وهو في طريقه إليها في مدينة «أوترار» في مطلع عام ۸۰۸، وعهد قبل موته إلى حفيده بير محمد بن غياث الدين جهانكير، كما أوصى بمتابعة السير لغزو الصين.

سار الجيش التيموري إلى الصين بقيادة حفيد تيمورلنك «أولوغ بك» بن «شاه رخ» أما حفيده الآخر بير محمد بن غياث الدين جهانكير وهو ولي عهده فقد كان في الهند، لذا فقد شذ عن تعاليم تيمورلنك حفيده الثالث خليل سلطان بن جلال الدين ميران شاه فسار إلى سمرقند ودخلها، وساعدته أمه خان زاده في ذلك، وعدّ نفسه خليفة تيمورلنك جده.

جاء بير محمد من الهند بجيشٍ نحو سمرقند فتصدّى له سلطان خليل وهزمه. وتدّخل القائد نور الدين فاستولى على سمرقند، وسجن سلطان خليل فيها، وأراد إعادة السلطة إلى بير محمد حسب وصيته تيمورلنك غير أن شاه رخ بن تيمورلنك قد جاء من هراة ودخل سمرقند وسلّم أمرها إلى ابنه أولوغ بك بعد أن عاد من الصين، أما هو فقد استقر في هراة وتبعه خراسان، ومازندران، وسجستان، وأصفهان، وشيراز وبقي حتى توفي عام ۸٥۰. ومنذ أن سيطر على سمرقند عام ۸۱۲ نصّب أولاد تيمورلنك وأحفاده كل في جهة من جهات الإمبراطورية الواسعة، وهذا ما أضعف الدولة فهيأ الجو لقيام دولة الصفويين والشيبانيين.

أما أحمد بن أويس الجلائري فقد رجع إلى بغداد حاكماً عليها من قبل المماليك. كما رجع إلى أذربيجان قره يوسف وانتصر على حفيد تيمورلنك أبي بكر بن جلال الدين ميران شاه عام ۸۱۰، إلا أن الخلاف قد

وقع بين هذين الجارين، أو الصديقين سابقاً، وتمكّن السلطان أحمد من احتلال أذربيجان غير أنه وقع أسيراً بيد قره يوسف عام ٨١٣ فقتله مع ولده علاء الدولة، وسيطر قره يوسف بعدها على بغداد بعد أن هزم الشاه محمود الذي حكم بعد أبيه السلطان أحمد لمدة سنة واحدة ٨١٣ ـ ٨١٤، وتوفي عام ٨٢٣ إلا أن السلطات بقيت في يد أسرته من بعده في تبريز وبغداد حتى عام ٨٧٤ حيث خلفهم الأقيونيون[١] الذين بقوا حتى جاء الصفويون عام ٩١٤.

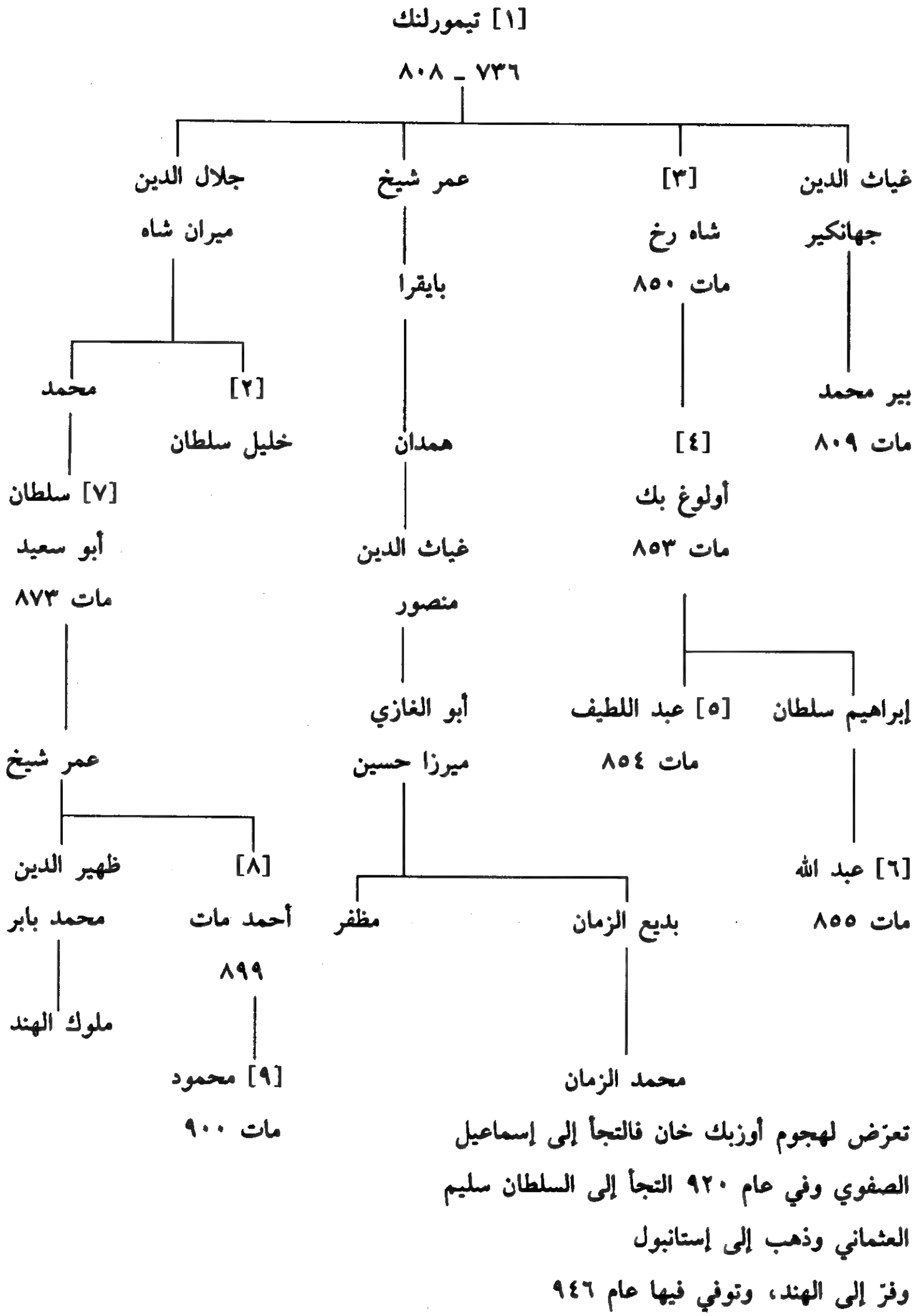
وكذلك فإن العثمانيين قد عادت لهم قوتهم بعد وفاة تيمورلنك.

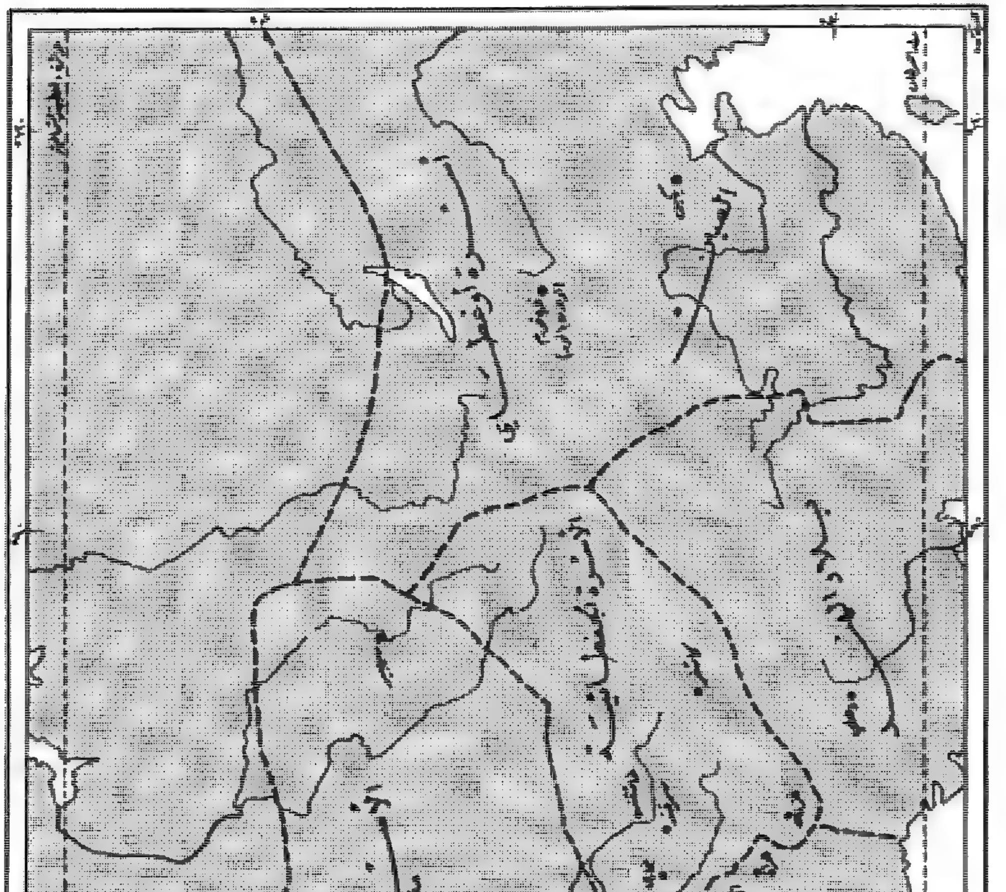
وبقيت الأسرة التيمورية تحكم بلاد ما وراء النهر، وفرغانة، وخراسان، وكابل. . . . حتى كانت آخر أيام السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين الذي توفي عام ٩٠٠ فأصبح أولاده يتصارعون على السلطة في بلاد ما وراء النهر فظهر جيش أوزبك الذي يقوده محمد الشيباني أحد أحفاد شوبان بن جوجي بن جنكيزخان، وقد عرف الفرع الأصلي في سيبيريا باسم «تيومن» إلا أن القسم الأكبر قد هاجر إلى بلاد ما وراء النهر، واشترك في النزاع على السلطة، وصار منه خانات في بخارى وخيوه، وقد حكم من قبل بلاد ما وراء النهر كلها.

وكان فرع من الأسرة التيمورية قد حكم الهند، وهم أحفاد ظهير الدين محمد بابر الذي توفي عام ٩٣٧، وأسس أسرة حكمت الهند قضى عليها الاستعمار الإنكليزي.

---

(١) الأقيونيون: عشيرة تركمانية هاجرت من تركستان إلى أذربيجان، واستقرت بعدئذٍ بجهات ديار بكر، وقد وافق أميرها تيمورلنك فأعطاه ولاية ديار بكر عام ٨٠٦، وبعد وفاة تيمورلنك اصطدم مع قره يوسف أمير أذربيجان ومع سلطان سيواس وانتصر عليهما، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «حسن أوزون» الذي عاصر السلطان العثماني محمد الفاتح، وقد تمكّن حسن هذا من الاستيلاء على تبريز عام ٨٧١، ثم على بغداد عام ٨٧٤، وبقيت بأيدي أسرته حتى جاء الصفويون عام ٩١٤ فدخلوا بغداد.


[١] تيمورلنك
٧٣٦ ـ ٨٠٨
غياث الدين
جهانكير
بير محمد
مات ٨٠٩
[٣]
شاه رخ
مات ٨٥٠
[٤]
أولوغ بك
مات ٨٥٣
إبراهيم سلطان
[٦] عبد الله
مات ٨٥٥
[٥] عبد اللطيف
مات ٨٥٤
عمر شيخ
بايقرا
همدان
غياث الدين
منصور
أبو الغازي
ميرزا حسين
بديع الزمان
محمد الزمان
تعرّض لهجوم أوزبك خان فالتجأ إلى إسماعيل
الصفوي وفي عام ٩٢٠ التجأ إلى السلطان سليم
العثماني وذهب إلى إستانبول
وفرّ إلى الهند، وتوفي فيها عام ٩٤٦
مظفر
جلال الدين
ميران شاه
[٢]
خليل سلطان
محمد
[٧] سلطان
أبو سعيد
مات ٨٧٣
عمر شيخ
[٨]
أحمد مات
٨٩٩
[٩] محمود
مات ٩٠٠
ظهير الدين
محمد بابر
ملوك الهند



الباب الرابع

المُسْلِمُونَ في الهِنْد

٦٥٦ - ٩٢٣ هـ

الفصل الأول

المسلمون في أطراف الهند

الهند بلاد واسعة الأرجاء، كثيرة الشعوب، متباينة اللغات، مختلفة الأقاليم لذا يصعب قيام حكم مركزي فيها يجمع شعوبها المتعددة، وأجناسها المتنافرة، وأصحاب لغاتها المتشعبة إن لم يكن هذا الحكم قوياً، يغذّي هذا التنافر بالروح الإيمانية فيجمع بعضهم إلى بعض، ويضفي عليهم الإسلام عدله وسماحته فيخلد أبناؤه إلى الأمن والاستقرار، ويشعر بالطمأنينة أفراده كافةً.

وكل حكم يكون في أول أمره قوياً ثم يضعف شيئاً فشيئاً مع الدعة والخلود إلى الأرض ونسيان ما بذل في سبيل الوصول إلى السلطة وفي النهاية يزول، ولطالما شبهت حياة الدول بحياة الإنسان يبدأ المرء فتًى غضّاً ثم لا يلبث أن يشتدّ عوده ويقوى ساعده، ثم يعتريه الهرم ويحلّ به الضعف، ثم تكون الشيخوخة وأخيراً يكون الزوال مصيره.

لقد فتح المسلمون أطراف الهند، ثم دخلوا حاضرتها دهلي، واستقروا فيها، وأسسوا حكومةً قويةً فيها تمكنت من التوسع والانتشار ففتحت «بيهار» و «البنغال» من ناحية الشرق، وحكمت كوجرات من جهة الغرب، وامتد سلطانها فسيطرت على «الدكن»، واتجهت نحو «كيرالا» في أقصى الجنوب. ولم يلبث أن حلّ الضعف فيها فتعاقبت أسر على الحكم في دهلي، ومع هذا الضعف استقل الحكام في المقاطعات بسبب ضعف السلطة المركزية أو لأطماعهم، فنشأت دويلات وممالك كثيرة تنافر بعضها

مع بعض وتناحر فوقعت الصدامات فزاد ضعف المسلمين ضعفاً بسبب التشتت والتجزؤ، وتكاثر البلاء عليهم، وكانت حكومات كثيرة وأسماء ملوك متشابهة بحيث يصعب على المرء تمييزها أحياناً.

وربما كان من جملة البلاء الذي نزل بالمسلمين في بلاد الهند بل من أعظم ما نزل بهم إنما كان بسبب مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى فإن ملوكهم هناك رغم دعوتهم للإسلام، ومحاولة التمسّك به، والمحافظة عليه إلا أنهم لم يرعوا تعاليمه وتطبيقها بشكلٍ تامٍ فتركوا منها جانباً مهماً فحلّت بهم المصائب، ولا تزال تنزل بهم إلى اليوم بسبب ذلك، وهو أن المسلمين عندما يفتحون بلداً ويحكمونه ويصبحون الأقوياء فيه وأصحاب السيادة التامة لا يجبرون أهله على اعتناق عقيدةٍ معيّنةٍ بشرط أن تكون العقيدة التي يدين بها السكان الإسلام أو عقيدة أهل الكتاب وما يلحق بهم من المجوس، ولا يصح أن يكون في بلاد المسلمين ما سوى ذلك من مشركين عامة كالهنادك، والبوذيين، والكونفوشيين، والشنتويين، والوثنيين عامةً، وشرط رعاية ذمة المسلمين وعهودهم، وهي معروفة منها ألا يلجئوا إلى بلادهم عدواً للمسلمين، ولا يخفوه، ولا يسكتوا عنه، ولا يساعدوا خصوم المسلمين، ولا يدلّوا على عوراتهم، وأن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويضمن المسلمون لهم مقابل ذلك الأمن والاستقرار وهو أعزّ شيء على النفس البشرية، وحرية ممتلكاتهم ومقدساتهم القائمة، ولا يؤذونهم، غير أن المسلمين في بلاد الهند لم يفعلوا ذلك.

دخل المسلمون إلى بلاد الهند فوجدوا فيها أعداداً كبيرةً من الهنادك وهم لا يدينون بديانة أهل الكتاب ولا بديانة من يلحق بأهل الكتاب من المجوس، ولم تعتنق هذه الجماعات في الوقت نفسه الإسلام إلا بأعداد قليلة، ووقع المسلمون في حيرةٍ إذ استعظموا أعداد الهنادك الفخمة هل يهجّرونهم؟ أم يجبرونهم على الإسلام؟ أم يقتلون من يعصي؟ . . . أسئلة كثيرة سكتوا عن الجواب عليها، وتركوا الحبل على الغارب وفي نفوسهم أن هذه الأعداد ستقبل على الإسلام مع الزمن، وكان تطبيق الإسلام هو الأولى وفيه الخير والمصلحة للطرفين ولكن. . .

اكتفى المسلمون بالسيطرة على البلاد والعباد، ونسوا مهمتهم الأولى في الحياة وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ورحمته و. . . خالفوا الأوامر فنزل بهم ما نزل، وأعتقد أنهم لو عرضوا على الهنادك الرحيل عن بلادهم أو الإسلام أو القتل لدخلوا في الإسلام ما دام المسلمون قاهرين لهم، وبيدهم السلطة، وعندهم الإمكانات كافةً لتنفيذ ما يريدون، ولو دخل الهنادك في الإسلام لما ارتدوا عنه ولتعمّق في نفوسهم مع الزمن وخاصة بعد أن يعرفوا تعاليمه ومنهجه، وموافقته لفطرة البشر، وبعد أن يقارنوا ما كانوا عليه من الأساطير والخرافات من عبادة البقر وتقديسه، وحرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن ظلماً وطغياناً، ثم لنشأ أبناؤهم على الإسلام، وتمسَّكوا به وكنا في راحة، ولما حدث في بلاد الهند ما يحدث اليوم.

لقد ترك المسلمون أهل البلاد من الهنادك على عقيدتهم وهم الأكثرية، وهذا ما كان يُشجّع الكفّار على التمرّد والحركات، وخاصةً عندما ضعف أمر المسلمين هناك. ولكي يأمن بعض حكام المسلمين شرّ هؤلاء الكفّار كان يسمح لهم بعض الأحيان بممارسة باطلهم وكفرهم وجرائمهم مثل حرق النساء اللواتي يتوفّى أزواجهن على عادتهم الجارية، وهو محرم عليهم، ويمنع ذبح البقر إرضاءً لهم وقد أحلّ الله ذلك، كما يسمح بالزواج من المشركات. . . ويصل الحدّ إلى أبعد من ذلك عند بعض الملوك فيسمح للهنادك بالزواج من المسلمات، لهذا كله بقي الهنادك على درجةٍ من القوة يمارسون شعائرهم الزائفة، ويتربّصون بالمسلمين الدوائر، بل ويتقرب منهم الحكام أحياناً ويقدّمونهم.

وإن تاريخ الهند في هذه الحقبة لغامض علينا لكثرة الأسر التي حكمت في مناطق متعددة ومتقاربة، ولتشابه أسماء الملوك وألقابهم من هذه الأسر، ولعدم الصلة بين مناطقنا العربية وبلاد الهند في تلك المرحلة حيث ضعفت الدولة الإسلامية وتشتت أبناؤها، واختلفت أجزاؤها، كما وهت

أواصر العقيدة بضعف الإيمان في نفوس أبناء المسلمين، هذا بالإضافة إلى العصبيات القومية التي بدأت تدخل ميدان الساحات السياسية فيما بعد فتكسبها نتناً فينأى بعضها مع بعض.

الفصل الثاني

ملوك دهلي

مُلخّص عن المُسلمين في الهند قبل عام ٦٥٦هـ

الراشدون والأمويون:

سنة

١٥ ولّى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، على البحرين وعُمان عثمان بن أبي العاص فولّى أخاه الحكم على البحرين، وسار إلى عُمان فوجّه جيشاً إلى الهند، ثم وجّه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى الديبل.

٢٤ ولّى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، عبد الله بن عامر بن كريز على العراق، فأرسل إلى الهند حكيم بن جبلة العبدي،

٣٩ وجّه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الحارث بن مرة العبدي إلى الهند.

٤٤ غزا المهلب بن أبي صفرة أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، وأرسل عبد الله بن عامر بناءً على أوامر معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، عبد الله بن سواد العبدي.

استعمل زياد بن أبيه على ثغر الهند راشد بن عمرو الجديدي الأزدي، فغزا واستشهد، فولّى زياد مكانه سنان بن سلمة، فأقام سنتين.

غزا عباد بن زياد ثغر الهند.

ولّى زياد على الهند المنذر بن الجارود العبدي، فمات هناك، وبعث عبيد الله بن زياد إلى الهند ابن حري الباهلي.

ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي على الهند سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان، وقتلاه، وغلبا على الثغر، فولّى الحجاج مكانه مجاعة بن سعر التميمي، ثم أرسل مكانه محمد بن هارون بن ذراع النمري، ثم بعث الحجاج إلى الديبل غازياً عبيد الله بن نبهان، فقاتل، واستشهد، فأمر الحجاج أن يسير من عُمان بديل بن طهفة البجلي فغزا، واستشهد.

٩٢ أرسل الحجاج محمد بن القاسم ففتح السند.

٩٦ ولّى سليمان بن عبد الملك على السند يزيد بن أبي كبشة السكسكي، فلم يلبث أن توفي فاستعمل سليمان مكانه حبيب بن المهلب.

٩٩ استعمل عمر بن عبد العزيز على السند عمرو بن مسلم الباهلي.

١٠٣ استعمل يزيد بن عبد الملك على الهند هلال بن أحوز التميمي، وهرب بنو المهلب إلى السند فقتل هلال منهم: مُدرك، والمفضل، وعبد الملك، وزياد، ومروان، ومعاوية بني المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب.

١٠٧ ولّى هشام بن عبد الملك على ثغر السند الجند بن عبد الرحمن المري.

١١١ ولّى هشام بعد ذلك تميم بن زيد العتبي، ثم أرسل الحكم بن عوانة الكلبي، فاستشهد.

١٢٢ ولّى عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي فقام عليه مروان بن يزيد بن المهلب فقتله.

١٢٦ عزل يزيد بن الوليد عن الثغر عمرو بن محمد بن القاسم وولى مكانه يزيد بن عرار.

١٣٠ قام منصور بن جمهور الكلبي فقتل يزيد بن عرار، واستقل بأرض السند.

العباسيون:

١٣٢ أرسل أبو مسلم الخراساني إلى الثغر مغلس العبدي، فقاتل منصوراً غير أنه هزم، فأرسل أبو مسلم إلى السند موسى بن كعب التميمي فانتصر على منصور، وأخذ الولاية عام ١٣٤.

استخلف موسى بن كعب مكانه ابنه عيينه بن موسى فخلع الطاعة.

١٤٢ أرسل أبو جعفر المنصور عمرو بن حفص بن أبي صفراء العتكي فحارب عيينه وغلب على إقليم السند، وفي أيامه دخل إلى السند عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الثغر.

١٥١ عزل المنصور عن السند عمرو بن حفص، وولّى مكانه هشام بن عمرو التغلبي، فافتتح الملتان وكشمير، وتوفي ١٥٨.

١٥٧ ولّى المنصور على السند معبد بن خليل التميمي، وتوفي ١٥٩.

١٥٩ بعث المهدي إلى السند روح بن حاتم، ثم استبدله بسطام بن عمرو التغلبي، ثم عزله.

١٦١ أعاد المهدي روح بن حاتم ثانيةً ثم عزله.

ولّى المهدي نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، ثم عبد الملك بن شهاب المسمعي، ثم أعاد نصر بن محمد بن الأشعث، وبقي حتى مات ١٦٤.

١٦٤ ولّى المهدي مصبح بن عمرو التغلبي ثم ليث بن طريف الكوفي.

١٧٠ عزل الرشيد الليث، وولّى مكانه سالم اليونسي مولى إسماعيل بن علي، فبقي أربع سنوات.

١٧٤ بعث الرشيد إسحاق بن سليمان الهاشمي فمات فولّى مكانه ابنه يوسف بن إسحاق، ثم عزله، وولّى طيفور بن عبد الله بن المنصور الحميري، ثم جابر بن الأشعث الطائي، ثم سعيد بن مسلم بن قتيبة، ثم عيسى بن جعفر المنصور العباسي فأناب عنه محمد بن عدي، فعزله الرشيد، وولّى عبد الرحمن، ثم أيوب بن جعفر بن سليمان.

١٨٤ ولّى الرشيد على ثغر السند بعد أن فشل الذين تولّوا هذه المهمة داود بن يزيد بن حاتم المهلبي فاستقام الأمر، وبقي حتى توفي عام ٢٠٥.

٢٠٥ ولّى المأمون بعد وفاة داود ابنه بشير بن داود فخلع الطاعة.

٢١١ أرسل المأمون إلى بشير بن داود قائداً يدعى حاجب بن صالح غير أن بشيراً قد هزمه، فعاد المأمون فأرسل غسان بن عباد الكوفي عام ٢١٣، فطلب بشير الأمان.

وخلف على الثغر بعد غسان أحد أفراد البرامكة وهو موسى بن يحيى بن خالد البرمكي، وكان له أثر حسن، واستخلف بعده ابنه عمران بن موسى، ووافق المعتصم على ذلك. ووقعت الفتنة بين النزارية واليمانية، ومال عمران إلى اليمانية فقتله عمر بن عبد العزيز الهباري.

ولّى المعتصم بعد ذلك عنبسة بن إسحاق الضبي، ثم عُزل في أيام المتوكل الذي أرسل هارون بن خالد المروزي فقتل عام ٢٤٠ بسبب العصبية القبلية.

٢٤٠ وثب على حكم السند عمر بن عبد العزيز الهباري، وأطاعه الناس، فرضي عنه المتوكل وأقرّه، وقام بعده ابنه عبد الله بن عمر، ثم ولده عمر بن عبد الله بن عمر، وقد زاره المسعودي عام ٣٠٣، وأخذ الملتان يومذاك المنبه بن الأسد القرشي.

الغزنويون:

٣٦٦ تولّى سُبُكتُكين أمر غزنة فحارب ملك البنجاب وانتصر عليه.

٣٨٧ تولّى أمر غزنة محمود بن سبكتكين بعد أبيه فاشتغل في بداية الأمر في القتال في خراسان ثم اتجه نحو الهند فدخلها سبع عشرة مرة، فانتصر على ملك البنجاب قرب بيشاور عام ٣٩١، وحارب صاحب ملتان القرمطي عام ٣٩٦ وهو أبو الفتح داود بن نصير بن حميد. ودانت له أجزاء واسعة إذ كان في كل عام يغزو الهند تقريباً. وفتح سومنات على ساحل البحر عام ٤١٦.

٤٢١ توفي محمود بن سبكتكين وخلفه حسب وصيته ابنه محمد، فخرج عليه أخوه مسعود بن محمود وتسلّم الأمر.

٤٣٢ قتل مسعود، وولّي مكانه أخوه محمد، ثم إن مودود بن مسعود قتله وقام مكانه.

٤٣٥ توفي مجدود بن مسعود أمير الهند، فتمرّد ملوك الهند.

٤٤١ توفي مودود، وخلفه عمه عبد الرشيد بن محمود، فولّى على الهند نوشتكين الحاجب الكرخي فأحسن السيرة.

٤٤٤ قتل عبد الرشيد، وآل أمر غزنة إلى فرخ زاد بن مسعود.

٤٥١ تولّى أمر غزنة إبراهيم بن مسعود، وبقي حتى عام ٤٨١ حيث توفي وخلفه ولده.

٤٨١ توفي مسعود بن إبراهيم فولّى على الهند طغاتكين الحاجب، وبقي حتى عام ٥٠٨.

٥٠٨ تولّى أمر الهند أرسلان شاه بن مسعود فأمّر على الهند محمد باهليم الحاجب.

٥١٢ بهرام شاه خرج على أخيه أرسلان شاه الذي فر إلى الهند ثم عاد إلى غزنة وقتل عام ٥١٢.

٥٤٣ ملك سيف الدين الغوري غزنة ففر بهرام شاه إلى الهند، ثم عاد إلى غزنة ودخلها عام ٥٤٤، غير أن علاء الدين الغوري رجع إلى غزنة، وكان قد توفي بهرام شاه وتولى مكانه ابنه خسرو شاه ففر إلى الهند، وبقي فيها حتى توفي بمدينة لاهور عام ٥٥٥ وخلفه ولده خسرو ملك.

٥٧٢ سار شهاب الدين الغوري إلى الهند فأخذ الملتان من القرامطة.

٥٨٢ أخذ شهاب الدين لاهور من الغزنويين الذين انتهت دولتهم.

٥٨٨ انتصر شهاب الدين الغوري على الهنود، واقترب من دهلي، فأقطع ذلك لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة.

٥٨٩ دخل قطب الدين أيبك دهلي، وجعلها مقر حكمه.

٥٩٠ سار شهاب الدين إلى الهند، وانتصر على الهنود عند نهر جمنا.

٥٩٩ أخذ محمد بن بختيار الخلجي بيهار وكان نائب قطب أيبك على ما وراء نهر الغانج، واتخذ مدينة رانغبور قاعدةً له. واستولى على البنغال.

٦٠٢ توفي شهاب الدين الغوري، فأعتق قطب الدين أيبك، فجلس على كرسي المملكة في لاهور.

٦٠٧ مات قطب الدين أيبك، وتولّى مكانه ابنه آرام شاه.

استقل شمس الدين إيلتمش مملوك قطب الدين بملك مدينة دهلي.

٦٢٢ سار إيلتمش إلى البنغال وانتزعها من غياث الدين الخلجي وأمّر عليها ولده ناصر الدين محمود، وثار أهل البنغال عليه، فعاد إليها إيلتمش عام ٦٢٧ وولّى عليها أحد أمرائه وهو علاء الدين.

٦٣٣ مات إيلتمش بدهلي وخلفه ابنه ركن الدين، فقتل أخاه قطب، وثار عليه الناس لظلمه، وقتلوه بعد ٦ أشهر من حكمه.

٦٣٤ بويعت رضية بنت إيلتمش.

٦٣٨ خلعت رضية، وبويع أخوها معز الدين بن إيلتمش، وخرجت عليه أخته رضية وزوجها، فهزمهما بجهود أخيه ناصر الدين محمود.

٦٣٩ ثار الأمراء على معز الدين بن إيلتمش وقتلوه، وولّوا علاء الدين مسعود بن إيلتمش.

٦٤٤ خلع الأمراء علاء الدين مسعود، واختاروا عمه ناصر الدين محمود.

٦٦٤ توفي ناصر الدين محمود بن إيلتمش.

٢ ـ أسرة بلبن
٦٦٤ ـ ٦٨٩

انتهى حكم أسرة إيلتمش في دهلي بعد أن دام مدة سبع وخمسين سنة (٦٠٧ ـ ٦٦٤) وكان آخرها ناصر الدين محمود إيلتمش الذي حكم عشرين سنة (٦٤٤ ـ ٦٦٤)، وبعد وفاته خلفه نائبه على دهلي غياث الدين بلبن الذي أسس أسرةً حاكمةً تولّت أمر دهلي مدة ربع قرن (٦٦٤ ـ ٦٨٩)، وتعاقب ملكان من هذه الأسرة على الحكم.

١ ـ غياث الدين بلبن:

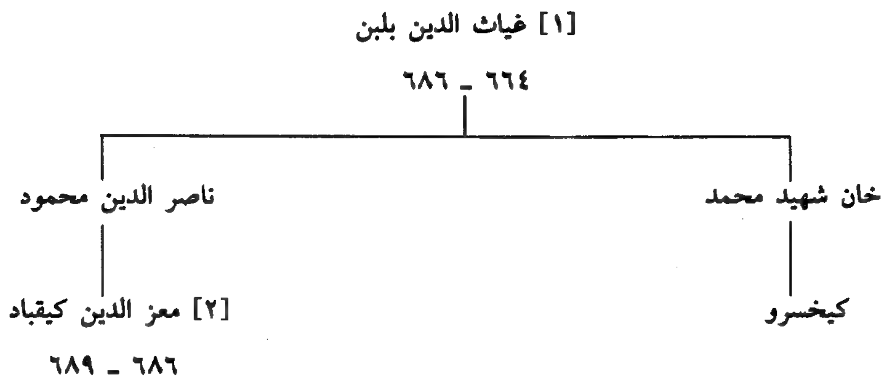
تولّى الحكم بعد وفاة ناصر الدين محمود إيلتمش عام ٦٦٤، وقاتل التتار، وانتصر عليهم في كل لقاء معهم. وخلع طاعته نائبه على البنغال «طغرل» فأرسل له سريةً، ثم سار إليه بنفسه، ففر طغرل إلى التتار، فلاحقه غياث الدين، وأدركه قبل وصوله إلى الحدود وقتله.

كان غياث الدين قد عهد من بعده إلى ولده خان شهيد محمد الذي كان والياً لأبيه على بلاد السند، وكان يُقيم في مدينة «الملتان» غير أنه قتل قبل وفاة أبيه في حروبه مع التتار. فعهد غياث الدين إلى حفيده كيخسرو بعد مقتل أبيه الذي كان له الأمر، غير أن غياث الدين لم يلبث أن عدل عن حفيده إلى ولده الآخر ناصر الدين محمود الذي كان والي البنغال لأبيه.

توفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦ بعد أن حكم اثنتين وعشرين سنة، وكان ولي عهده ولده ناصر الدين محمود في بلاد البنغال فبايع الأمراء ابنه معز الدين كيقباد، فأثر ذلك في نفس ناصر الدين محمود فجمع جموعه وسار بها إلى الهند، واتجه للقائه ابنه كيقباد، وعندما التقى الجمعان عطف الأب لولده، وثارت عاطفة الأبوة عند الولد فتصالحا وسارا معاً إلى دهلي، حيث تنازل الأب لولده، وبايع الجميع معز الدين كيقباد، ورجع ناصر الدين محمود إلى البنغال حيث بقي فيها حتى توفي.

٢ ـ معز الدين كيقباد:

أصابه المرض، وعجز الأطباء عن إيجاد الدواء الشافي له، ويبس أحد شقيه، فخرج عليه نائبه جلال الدين فيروز الخلجي، وأعلن خلع الطاعة في ظاهر المدينة، فأرسل كيقباد إليه الأمراء، فكانوا ينضمون إلى خصمه عندما يصلوا إليه، ثم دخل الخلجي دهلي، وقتل كيقباد بعد أن دام حكمه ثلاث سنوات وبضعة أشهر. وبموته انتهى حكم أسرة بلبن.



٣" ـ الخلجيون

٦٨٩ ـ ٧٢٠

حكمت هذه الأسرة مدة إحدى وثلاثين سنة (٦٨٩ ـ ٧٢٠)، وتوالى عليها أربعة ملوك.

١ ـ جلال الدين فيروز الخلجي:

كان نائب كيقباد آل بلبن على دهلي، خلع طاعته وانتصر عليه، وتسلّم مكانه عام ٦٨٩، اختلف مع ابن أخيه علاء الدين محمد شاه الذي كان نائبه على مدينة «كره» وزوج ابنته، وذلك أن الناس قد أوغروا صدره عليه فاستدعاه فرفض الحضور، فعدّه كولده وسار إليه يريد إكرامه غير أن ابن أخيه قد تجهّز له وعندما التقى به قتله عام ٦٩٦، وأخذ الحكم مكانه.

٢ ـ علاء الدين محمد شاه الخلجي:

وعندما سار علاء الدين نحو دهلي بعد قتل عمه خرج إليه ابن عمه ركن الدين غير أن عسكر ركن الدين قد انحازت إلى علاء الدين الأمر الذي جعل الهزيمة تحلّ بركن الدين ففرّ إلى بلاد السند، وبدأ علاء الدين صراعه مع التتار، فانتصر عليهم في بداية الأمر فقفلوا راجعين إلى خراسان. ثم جاء «قتلق خواجه» كبير التتار وانتصر على جيش علاء الدين عام ٦٩٧، ووصل التتار إلى ضواحي دهلي فخرج عليهم علاء الدين بنفسه مستميتاً فهزمهم، وتراجعوا إلى بلاد ما وراء النهر.

وفي عام ٦٩٧ أيضاً أرسل قوةً إلى كوجرات فدخلوها. وأرسل قوةً عام ٧٠٣ إلى الدكن فدخلت بلاد الدكن، وأحرزت انتصاراً كبيراً.

عاد التتار إلى الهند عام ٧٠٧ لكنهم هُزموا أمام علاء الدين، وكرروا الهجوم ثانيةً في العام نفسه فبعث إليهم أمير السند تغلق فانتصر عليهم.

واتجه نحو جنوبي الهند ففتح بلاد كيرالا (المعبر) وبنى فيها مسجداً.

كان لعلاء الدين عدد من الأولاد منهم: خضر، وشادي، وشهاب الدين، وأبو بكر، ومبارك خان الذي عرف باسم قطب الدين.

وعندما مرض علاء الدين، أرادت أم ولده خضر أن تملّك ابنها فاتفقت مع أخيها «سنجر» على ذلك، فأخبر علاء الدين نائبه بما تمّ، فغضب علاء الدين غضباً شديداً وقتل سنجر، وحرم ابنه خضر من الملك،

وكان خضر بعيداً عن دهلي، وقد أخذ منه الحزن كل مأخذ لما تمّ، وعندما وصل إلى دهلي قيّده أبوه، ثم أخذته عاطفة الأبوة فحزن عليه فأراد توليته، إلا أن أنصار إخوته لم يحلّوا قيده، ولم يبلغوه، وكلما سأل علاء الدين عن ابنه خضر أجابوه بقرب حضوره، ومات علاء الدين ولم ير ابنه خضراً. وكانت وفاته عام ٧١٥.

٣ ـ شهاب الدين بن علاء الدين الخلجي:

لما توفي علاء الدين أجلس نائبه على دهلي ابنه الصغير شهاب الدين، وحكم دونه، وسيطر عليه، وخوفاً من أبناء علاء الدين الآخرين فقد سجن أبا بكر وشادي وسمل أعينهما، كما أمر بسمل عيني خضر، وسجن مبارك غير أنه لم يسمل عينيه. ولا شك فإن أم الأولاد وهي ابنة معز الدين كيقباد قد جزعت جزعاً شديداً، وأغرت مملوكيها «بشير» و «مبشر» اللذين قدمهما لها علاء الدين، أغرتهما بقتل نائب السلطان فقتلاه وأخرجا مبارك خان المعروف باسم قطب الدين من السجن. فجاء إلى أخيه الصغير فجلس عنده كالنائب مدة، ثم خلعه وتسلّم الأمر دونه.

٤ ـ قطب الدين مبارك شاه الخلجي:

بعد أن خلع أخاه عام ٧١٧ جلس على كرسي الحكم، ثم أرسل أخاه المخلوع ليسجن مع إخوته الآخرين. وبعث قواته إلى غربي الدكن عام ٧١٨ فأحرزوا الانتصار، وأسسوا مسجداً في ديوكير، وسمّوها دولة أباد، ثم سارت عساكره إلى كيرالا، فحصلت على غنائم كثيرة، وسار نحو ورنكل من نواحي بومباي. وصالح أهلها على مال يؤدّونه، وعندما خرج في هذه الغزوة اتفق الأمراء على خلعه، وتولية ابن أخيه خضر، وكان هذا لا يزال غلاماً لا يتجاوز العاشرة من عمره. وعلم قطب الدين بالأمر فقتل الولد، كما أرسل من قتل أباه وأعمامه في السجن.

ناصر الدين خسروخان:

وكان من أكبر أمراء قطب الدين، فلما قتل قطب الدين إخوته وابن أخيه، خاف خسروخان على نفسه، فبدأ بقطب الدين قبل أن يبدأ به، وقتله بحيلة، وذلك عام ٧٢٠، وقام بأمر الدولة. وكان يميل إلى الهنادك لذا فإن المسلمين قد كرهوه وتمنّوا الخلاص منه. وعندما جلس على كرسي الحكم بايعه الأمراء إلا تغلق في السند فإنه أعلن خلافه، وسار إليه وقتله، ولم تزد أيام خسروخان على أربعة أشهر.

[١] جلال الدين فيروز الخلجي ٦٨٩ ـ ٦٩٦

[٢] علاء الدين محمد شاه الخلجي

٦٩٦ ـ ٧١٥

[٤] مبارك قطب الدين ٧١٧ ـ ٧٢٠

[٣] شهاب الدين ٧١٥ ـ ٧١٧

خضر

شادي

أبو بكر

٣" ـ آل تغلق

٧٢٠ ـ ٨١٥

حكمت هذه الأسرة مدة خمس وتسعين سنة (٧٢٠ ـ ٨١٥) وتوالى على الحكم ثمانية ملوك من هذه الأسرة.

١ ـ غياث الدين تغلق شاه:

جاء غياث الدين إلى بلاد السند في أيام علاء الدين الخلجي، وكان أمير السند يومذاك أدلوخان الخلجي أخو الملك علاء الدين. فتقرّب منه غياث الدين وخدمه، فقدّمه الأمير وجعله أمير الخيل، وقد أبدى شجاعةً في قتال التتار إذ اشتبك معهم في تسع وعشرين موقعة فأعطاه الأمير لقب

الغازي، وتسلّم إمرة إحدى المدن فجعل ابنه عنده أمير خيله.

ولما قُتل قطب الدين وتولّى خسروخان أبقاه أمير خيل بلاد السند، غير أن غياث الدين تغلق لم يبال بهذا، وأعلن خلاف خسروخان، واستعان بكشلوخان أمير مدينة الملتان، ولما علم خسروخان بخلع تغلق للطاعة أرسل إليه قوةً بقيادة أخيه غير أنها هزمت أمام قوة تغلق وكشلو اللذين سارا إلى دهلي فدخلاها وخرج منها خسروخان، وتسلّم تغلق الملك ولم يختلف مع كشلو بل كل منهما كان يقدّم الآخر.

حارب غياث الدين تغلق شاه ملك البنغال الذي قتل إخوته وتمكّن آخرون منهم أن ينجوا ففروا إلى دهلي، واستنجدوا بملكها فسار إليه فهزمه، وأخذه أسيراً فحمله إلى دهلي.

وفي عام ٧٢٥ سقط عليه قصره الذي بناه له ابنه محمد من الخشب فقضى نحبه.

٢ ـ محمد شاه بن تغلق شاه:

كان اسمه جونه فتسمّى محمداً، وتكنّى بأبي المجاهد حكم سبعاً وعشرين سنة، كان فتّاكاً، متواضعاً، شجاعاً، براً، يشدّد العقوبة على ترك الصلاة، ويقتل تاركها، فتح كيرالا، وأرسل قوةً إلى بلاد الصين فهلك أفرادها في جبال هيمالايا، وتوفي عام ٧٥٢.

٣ ـ فيروزشاه بن رجب، أبو المظفر:

عندما توفي محمد شاه اتفق الأمراء على تولية ابن عمه فيروزشاه الذي كان في بلاد السند، فقدم إلى دهلي، واستقل بالملك، كان من خيار السلاطين، ومن كبار المصلحين، بنى المساجد، والمدارس، والمستشفيات، وأقام الحصون. من المساجد التي عمرها المسجد الكبير في دهلي، ومن مدارسه المدرسة الفيروزشاهية، كما أسس مدينة فيروزأباد، ومدينة كانبور، واستمر حكمه حتى عام ٧٩٠.

٤ ـ تغلق شاه بن فتح خان بن فيروزشاه:

تولّى الحكم عام ٧٩٠ بعد وفاة جدّه وحسب وصيته وقد وافق الأمراء والأعيان، ولقّب نفسه غياث الدين. اختلف مع عمه محمد شاه فهزمه، وخاف منه ابن أخيه أبو بكر بن ظفر بن فتح خان بن فيروز، فاتفق مع الأمراء على قتل عمه تغلق، وقد نفّذ ما صمّم عليه عام ٧٩١.

٥ ـ أبو بكر شاه:

تولّى الحكم بعد مقتل عمّه تغلق شاه، وكان سيئاً فكرهه الناس فطلبوا محمد شاه، فاتجه نحو دهلي فسار إليه أبو بكر، وهزمه مرتين، وخرج أبو بكر إلى ظاهر دهلي على مسافة اثنين وثلاثين كيلومتراً لمنازلة محمد شاه، فدخلها الآخر من طريقٍ ثانية، فأسرع أبو بكر إليها فخرج محمد شاه منها هارباً، إلا أن كره الأمراء لأبي بكر لم يتغير فعادوا إلى طلب محمد شاه فجاء واستطاع أن يدخل دهلي، وأن يجلس على كرسي الحكم، وقاتل أبا بكر، وتمكّن من القبض عليه، وسجنه وبقي سجيناً في القلعة حتى توفي عام ٧٩٣.

٦ ـ محمد شاه:

لم تطل مدته إذ توفي عام ٧٩٦، فيكون قد حكم مدة ثلاث سنوات.

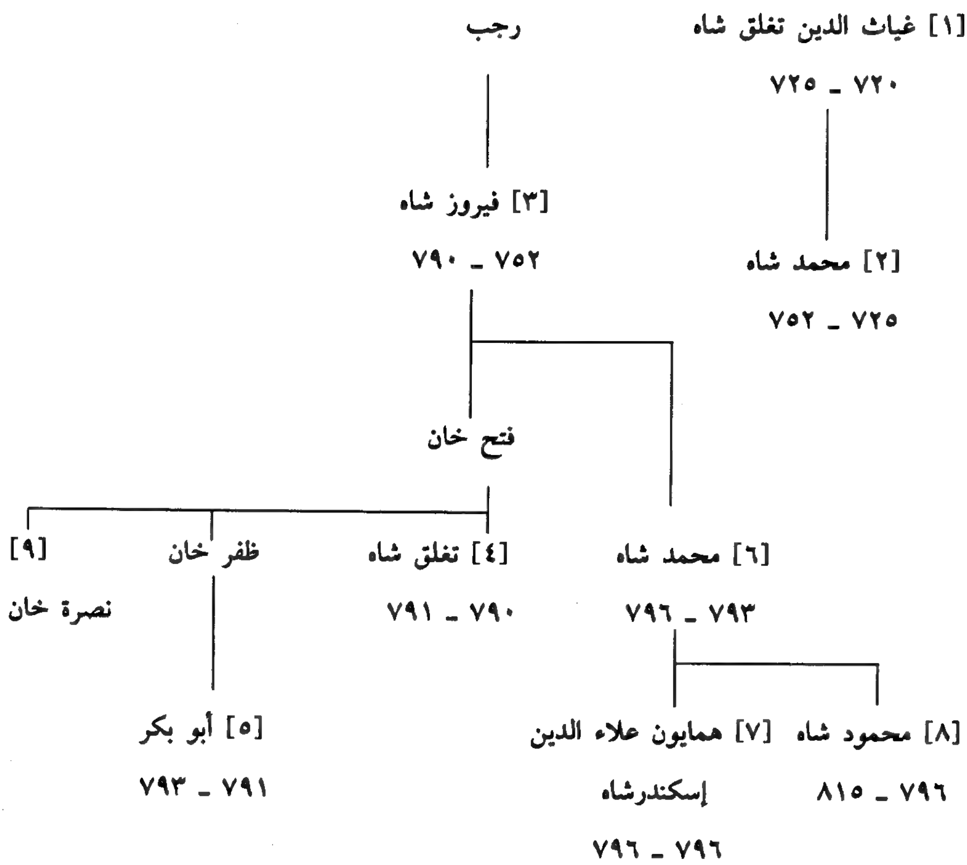
٧ ـ علاء الدين إسكندرشاه:

تولّى بعهد من أبيه، وكان اسمه همايون خان فتلّقب علاء الدين إسكندرشاه، وبقي في الحكم شهراً ونصف الشهر فقط.

٨ ـ محمود شاه:

لما توفي علاء الدين إسكندرشاه اتفق الأمراء على تنصيب أخيه

محمود، ولكنه لم يلبث أن خضع للأمراء وأصبح ألعوبة بأيديهم وأيدي الوزراء، فاستدعى الأمراء نصرة خان بن فتخ خان، ووقع القتال بين الطرفين، ينتصر هذا تارةً ثم يُهزم، ويحلّ الآخر مكانه، وبعد مدةٍ يعود الأول للحكم ويفرّ الثاني وهكذا حتى دخل تيمورلنك الهند في ١٢ محرم من عام ٨٠١، فأخذ السند والبنجاب، وسار نحو دهلي فدخلها في ١٦ جمادى الآخرة، وخرج منها محمود شاه إلى كوجرات. وبقي تيمورلنك في دهلي خمسة عشرة يوماً ثم رجع إلى البنجاب ومنها إلى خراسان، فاستقل الأمراء بالهند، ورجع محمود شاه إلى مقر حكمه، ولم يبق له سوى دهلي والبنجاب. وتوفي عام ٨١٥، وبوفاته انتهى حكم آل تغلق.



٤" ـ آل خضر

٨١٥ ـ ٨٥٥

حكمت هذه الأسرة دهلي مدة أربعين سنة (٨١٥ ـ ٨٥٥)، وقد تعاقب منها أربعة ملوك.

١" ـ خضر خان:

بن شرف الدين بن سليمان: كان جده سليمان مولى لأحد ولاة ملتان وهو «مردان» فلما مات خلفه ابنه «ملك شيخ» فلما مات عهد إلى سليمان، بحكم تلك المدينة، ومنه انتقل إلى حفيده خضر هذا في أيام فيروزشاه. ولما دخل تيمورلنك الهند عام ٨٠١ تقرّب «خضر» منه، فقويت شوكته، وأراد محمود شاه أن يستأصله فلم يقدر عليه، وخاصة أن أمر محمود شاه كان ضعيفاً بعد تيمورلنك، وينازعه نصرة خان. ولما مات محمود شاه عام ٨١٥ دخل خضر خان دهلي، وجلس على كرسي السلطة. وبقي في الحكم حتى توفي عام ٨٢٤.

٢" ـ مبارك شاه:

لما توفي خضر خان اتفق الأعيان على تولية ابنه مبارك شاه، كان من خيار الملوك، عادلاً رحيماً، كريماً. قتل عام ٨٣٧، وقد حكم مدة ثلاث عشرة سنة، قتله بعض الكفرة وهو يستعد للصلاة.

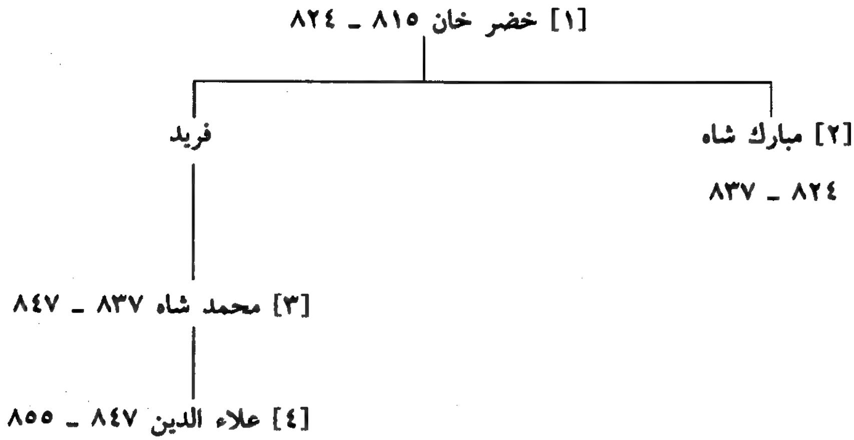
٣" ـ محمد شاه:

لما قتل مبارك شاه، اهتبل ابن أخيه محمد شاه بن فريد، واستلم السلطة، وإن كان عمه قد أوصى له بذلك. وقد حكم أربع عشرة سنةً قضاها كلها في الحروب، وتوفي عام ٨٤٧.

٤" ـ علاء الدين شاه:

أوصى محمد شاه من بعده لولده علاء الدين. خرج عليه أحد كبار

الأمراء، حاكم ديبالبور، فلما خرج علاء الدين إلى بدايون دخل حاكم ديبالبور بهلول اللودي دهلي، وقبض على الخزائن، واستولى على القصور، وبايعه الناس، فأقام نائباً عنه بدهلي، وعاد إلى ديبالبور، وراسل علاء الدين، فقنع علاء الدين بما تحت يده في بدايون، وترك السلطة لبهلول، وبقي علاء الدين في موضعه حتى توفي عام ٨٥٥ فجاء بهلول بعد ذلك إلى دهلي.



٥" ـ اللوديون
٨٥٥ ـ ٩٣٢

حكمت هذه الأسرة مدة سبع وسبعين سنة (٨٥٥ ـ ٩٣٢)، وتعاقب عليها ثلاثة ملوك، وانتهت بدخول ظهير الدين محمد بابر التيموري إلى الهند، وأسس الأسرة التيمورية التي بدأت تحكم الهند.

١" ـ بهلول بن كالا اللودي:

كان منذ أيام محمد شاه آل خضر من كبار الأمراء، وقد ولّاه ديبالبور، غير أنه خرج عليه، ولكنه هزم أمامه، فرجع إلى مقر إمارته في ديبالبور. ولما آل حكم دهلي إلى علاء الدين بن محمد شاه، ورأى الضعف بدأ ينخر بالدولة خلع الطاعة، ورحّب به الناس، قصد دهلي ونزل

بالقصر الملكي، عام ٨٥٥، وذلك بعد وفاة علاء الدين، وبقي في الحكم ثماني وثلاثين سنة (٨٥٥ ـ ٨٩٤)، وكان عادلاً، كريماً، محباً للخير.

٢" ـ نظام خان بن بهلول:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، ولقّب نفسه إسكندر، كان خيّراً كوالده، أسس المدارس وبنى المساجد، ورفع الضرائب، وأجبر الهنود أن يتعلّموا الفارسية، وأمر بترجمة علوم الهند إلى الفارسية. وتوفي عام ٩٢٣.

٣" ـ إبراهيم بن نظام خان:

تولّى الحكم بعد وفاة أبيه، وأجمع الناس عليه، غير أنه بعد أن تسلّم الأمر بدأ يتعدّى على أمراء أبيه، فأظهروا الطاعة له وفي الوقت نفسه اتصلوا ببابر شاه التيموري في كابل، وطلبوا منه القدوم إلى دهلي ليحكمها.

جاء بابر شاه، واستولى على القلاع التي في طريقه، وانتصر على الولاة ثم التقى بإبراهيم خان الذي قابله بمائة ألف على حين لم يكن مع بابر شاه سوى خمسة عشرة ألفاً، ففرّ جنود إبراهيم، وثبت جنود التتار، فقتل إبراهيم في ساحة القتال بعد أن خذله جنده وذلك عام ٩٣٢.

[١] بهلول بن كالا اللودي

٨٥٥ ـ ٨٩٤

|

[٢] نظام خان

٨٩٤ ـ ٩٢٣

|

[٣] إبراهيم خان

٩٢٣ ـ ٩٣٢

الفصل الثالث

ملوك المقاطعات

لم تكن بلاد الهند في هذه المرحلة التاريخية ذات وحدةٍ سياسيةٍ تحكم كلها من دهلي، أو لم يكن المسلمون في الهند جميعاً، يرتبطون بسلطانٍ واحدٍ، وإنما كانوا مُتفرقين، يقوم عدد من الحكام في آنٍ واحد، على كل رقعةٍ محددةٍ يسيطر ملك، فإضافةً إلى الملك في دهلي كان ملوك آخرون في كشمير، وكوجرات، والدكن، والسند، والبنغال.

١" ـ ملوك كشمير

جاء رجل إلى كشمير من خراسان عام ٧١٥، يُدعى شاه مرزا، وخدم ملكها الوثني، ثم أصبح وزير ابنه عندما آل إليه الحكم، وأوكلت إليه مهمات كبيرة في الدولة، وأصبح له ولأبنائه إقطاعات واسعة، ووصل الحكم إلى امرأةٍ بعد هلاك زوجها، فتزوّجت شاه مرزا، وأسلمت، ثم رغبت الغدر به، فأحسّ بما تنوي له، فقبض عليها، وسجنها، واستلم أمر البلاد عام ٧٤٤، فبذل جهده في إعمار البلاد، وتحسين وسائل الزراعة، وألغى الضرائب، وأحسن إلى الناس فأحبوه، وعدل بين الرعية، وتقرّب إلى العلماء. وأسس أسرةً حاكمةً بقيت تحكم كشمير أكثر من قرنين وربع (٧٤٤ ـ ٩٧٠). ولما أحسّ بالتعب اعتزل السلطة، وانصرف إلى العبادة، وأوكل أمور السلطة إلى ابنه جمشيد عام ٧٤٧، وعاش بعدها ما يقرب من عام إذ توفي عام ٧٤٨.

ولما توفي شاه مرزا، خرج على جمشيد بن شاه مرزا أخوه علي شير، وتمكّن من بسط نفوذه فخرج جمشيد من البلاد، وحل مكانه في

السلطة أخوه علي شير فتلقّب باسم علاء الدين، وحكم ما يزيد على اثنتي عشرة سنة (٧٤٨ ـ ٧٦٠) ثم توفي.

وخلف علاء الدين أخوه «سراشامك» الذي كان يضبط أمور الدولة لأخيه علاء الدين، وتسمّى باسم شهاب الدين، وقد حارب ملوك التبت وفرض عليهم الجزية، وحكم كشمير مدة عشرين سنة (٧٦٠ ـ ٧٨٠)، وقد فتح في أثناء حكمه كثيراً من الجهات.

وأتى بعد علاء الدين أخوه قطب الدين، وكان عادلاً كريماً، وزادت مدة حكمه على خمس عشرة سنة (٧٨٠ ـ ٧٩٦). وخلفه ابنه اسكندر الذي كان له وزير براهمي فأسلم، وكسر الأصنام، ومنع البراهمة من حرق النساء اللواتي يتوفى رجالهن، ومنع بيع الخمور، وهدّم الكنائس، وشدّد على البراهمة الأمر الذي ساق عدداً كبيراً منهم إلى الإسلام، وحكم مدة اثنتين وعشرين سنة (٧٩٦ ـ ٨١٩).

وأتى بعد إسكندر ابنه علي شاه الذي اختلف مع أخيه شاهي خان الذي سار إلى البنجاب فجمع الجند، وقادهم لقتال أخيه، فانتصر عليه، وتسلّم السلطة مكانه عام ٨٢٦، فكان حكم علي شاه سبع سنوات (٨١٩ ـ ٨٢٦).

استلم شاهي خان السلطة، وتلقّب باسم زين العابدين، كان كريماً رحيماً عطوفاً على الرعية، لكن إسلامه كان ضعيفاً، فقد أعطى الحريات لسائر أهل الديانات، ومنهم البراهمة، وتقرّب إليهم فمنع ذبح البقرة، وأذن لهم بحرق النساء اللواتي يتوفى أزواجهن، وكانت هذه العادة متبعة في الأسر الشريفة، وكان يعفو عن المجرمين. وقد حرص على تشجيع وسائل الزراعة، وتعمير البلاد، وحماية الحدود، ونقلت في عهده بعض العلوم من العربية والفارسية إلى الهندية، وبقي في السلطة اثنتين وخمسين سنة (٨٢٦ ـ ٨٧٧).

عندما توفي السلطان زين العابدين خلفه ابنه (حاجي خان) الذي لقّب نفسه شاه حيدر، وقد سخط عليه الأمراء لتعاطيه الخمرة، فدبّروا مؤامرةً لخلعه، غير أنه توفي قبل أن تتمّ، ولم تزد مدة حكمه على السنة والشهرين (٨٧٧ ـ ٨٧٨). وجاء بعده ولده حسن، فبذل المال للناس، وقاتل عمه بهرام خان، وانتصر عليه، وقتله، وتوفي عام ٨٨٤.

تولّى إمرة بلاد كشمير بعد حسن شاه ابنه محمد شاه، وكان صغيراً لا

يزيد عمره على عشر سنين كثيراً، لذا كان ألعوبة بيد الأمراء، فخرج عليه ابن عم أبيه فتح خان بن آدم خان بن زين العابدين، وهزمه، فخرج محمد شاه من البلاد بعد أن حكم مدة ١٠ سنوات (٨٨٤ ـ ٨٩٤)، وغاب مدة تسع سنوات حكم في أثنائها كشمير فتح خان، ورجع محمد شاه بعد هذه المدة وقد استعد للقاء فتح خان فالتقى معه، وانتصر عليه فخرج فتح خان إلى بلاد البنجاب، وعاد محمد شاه إلى الحكم مرةً ثانيةً، لكنه لم يلبث أن جمع فتح خان قوة في بنجاب وسار إلى كشمير وأخرج محمد شاه منها، وتسلّم أمرها، ولم يمكث فتح شاه في السلطة في المرة الثانية سوى عامٍ وشهر واحدٍ. ورجع محمد شاه مرةً ثالثة إلى الحكم، وخرج فتح خان إلى البنجاب، وبقي فيها حتى توفي عام ٩٢٢. غير أن أهل كشمير قد اتفقوا على مبايعة إبراهيم شاه بن محمد شاه، وسجن الأب في قلعة هناك، وسار أبدال بن إبراهيم الماكري إلى دهلي، وطلب الدعم من ظهير الدين بابر شاه التيموري فأعانه، ورجع أبدال فقاتل إبراهيم وانتصر عليه، وقُتل إبراهيم في المعركة، وعندها نصّب أبدال مكانه ابنه نازك، وكان هو مطلق اليد في أمور الحكم، ثم تغيّر رأي أبدال فخلع نازك من شؤون السلطة، وأخرج محمد شاه من السجن وسلّمه الحكم للمرة الرابعة، فبقي فيه حتى مات عام ٩٤٦، وعندما مات جاء أبدال بنازك شاه مرةً ثانية، وفي هذه الأثناء توفي أبدال، فاستبد بأمر نازك شاه رجل من الأسرة التيمورية يُعرف باسم مرزا حيدر بن محمد حسين بل أصبح هو الحاكم وذلك مدة عشر سنوات (٩٤٨ ـ ٩٥٨)، فلما قتل مرزا حيدر رجع نازك شاه للحكم مرة ثالثة، ولكن كان ضعيفاً كعادته فكان ألعوبة بيد الأمراء والوزراء، وليس له من الحكم سوى الاسم، فاتفقوا على خلعه، وتولية ابنه إبراهيم شاه، وبعد خمسة أشهر عادوا فخلعوا إبراهيم عام ٩٦٣هـ، وولّوا مكانه أخاه إسماعيل فلبث مدة سنتين (٩٦٣ ـ ٩٦٥) ثم توفي، وخلفه ابنه حبيب شاه الذي حكم خمس سنوات (٩٦٥ ـ ٩٧٠) ثم خرج عليه أحد الأمراء، وتسلّم مكانه وهو غازي شاه الكشميري، وهو من الشيعة، وقد حكم الشيعة مدة خمس وعشرين سنة (٩٧٠ ـ ٩٩٥) وجاء منها ثلاثة حكام، ثم تبعت كشمير إلى التيموريين.

[١] شمس الدين شاه مرزا

٧٤٤ ـ ٧٤٧

[٢] جمشيد

٧٤٧ ـ ٧٤٨

[٣] علي شير

«علاء الدين»

٧٤٨ ـ ٧٦٠

[٤] سراشامك

«شهاب الدين»

٧٦٠ ـ ٧٨٠

[٥] قطب الدين

٧٨٠ ـ ٧٩٦

[٦] إسكندر

٧٩٦ ـ ٨١٩

[٨] شاهي خان «زين العابدين»

٨٢٦ ـ ٨٧٧

[٧] علي شاه

٨١٩ ـ ٨٢٦

[٩] حاجي خان «حيدر»

٨٧٧ ـ ٨٧٨

بهرام خان

آدم خان

[١٢] فتح خان

٨٩٤ ـ ٩٠٣ المرة الأولى

٩٠٤ ـ ٩٠٥ المرة الثانية.

[١٠] حسن شاه

٨٧٨ ـ ٨٨٤

[١١] محمد شاه

٨٨٤ ـ ٨٩٤ المرة الأولى

٩٠٣ ـ ٩٠٤ المرة الثانية.

٩٠٥ ـ ٩١٧ المرة الثالثة.

٩١٩ ـ ٩٤٦ المرة الرابعة.

[١٣] إبراهيم شاه

٩١٧ ـ ٩١٨

[١٤] نازك شاه

٩١٨ ـ ٩١٩ المرة الأولى

٩٤٦ ـ ٩٤٨ المرة الثانية

٩٥٨ ـ ٩٦٣ المرة الثالثة.

[١٥] إبراهيم شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٣

[١٦] إسماعيل شاه ٩٦٣ ـ ٩٦٥

[١٧] حبيب شاه ٩٦٥ ـ ٩٧٠

٢ - ملوك السند

فتح محمد بن القاسم السند عام ٩٣، وبقي الولاة من العرب يعيّنون من مركز الخلافة حتى منتصف القرن الثالث، وبعدها تمكّنت المرازبة من أسرة «سومرة» من حكم المنطقة، واستمر حكمها حوالي مائة سنة أي إلى منتصف القرن الرابع، وقامت بعدها أسرة أخرى تُعرف باسم «سمّه»، فكان حكامها يخضعون لملوك دهلي، وأحياناً أخرى يستقلون بمنطقتهم.

وعندما آل حكم غزنة إلى محمود بن سبُكتُكين وبدأ يجاهد في أرض الهند، واستمر خلفاؤه من بعده فإنما كان دخولهم إلى الهند عن طريق البنجاب الأمر الذي أبقى أسرة «سمّه» في بسط نفوذها على السند، وقد خالف حاكمها عام ٧٦٠ سلطان دهلي فيروز شاه من آل تغلق، فغزاه السلطان عام ٧٦٢ ففرّ أمير أسرة «سمّه» وهو «جام ماني» إلى كوجرات، وأعاد فيروز شاه الغزو في العام التالي (٧٦٣)، وتمكّن من دخول السند، وأسر «جام ماني» وحمله إلى دهلي، وبعد مدة أطلق سراحه، وجعله والياً من قبله على السند، ويبدو أنه قد وعد بالسير في طريق الإسلام، وحكمت هذه الأسرة مدة سبع وأربعين سنة تعاقب عليها ستة ملوك، وهم: جام ماني وحكم ١٥ سنة، وابنه جام تماجي ومدته ١٣ سنة، ثم صلاح الدين ١١ سنة، ثم ولده نظام الدين وقد حكم سنتين، ثم ولده علي شير، وحكم ست سنوات ثم ولده كران، وقد قتل في اليوم الثاني لتوليته، واختار الناس فتح خان بن الإسكندر، وهو من أسرة «ستمكان» التي حكمت السند أكثر من مائة سنة، ثم زالت عام ٩٢٧ على يد شاه بيك القندهاري، وتولّى أبناؤه الحكم، واستمروا من بعده حتى دخلت جنود أكبر شاه بن همايون البلاد عام ٩٩٥.

٣ - ملوك ملتان

كانت البنجاب تتبع سلاطين دهلي، فلما ضعف الحكم في دهلي بعد فيروز شاه، وبدأت حملات التتار على البنجاب، ولّى السكان عليهم

الشيخ يوسف سنة ٨٤٧، ولكن رئيس الجند الأفغانيين (رايصهره) قد احتال عليه، وقبض عليه، وسجنه، وتسلّم هو أمر الملك، ولقّب نفسه قطب الدين لنكاه، وبقي في السلطة حتى توفي عام ٨٧٤، وقد حكم ستة عشرة سنة (٨٥٨ ـ ٨٧٤)، وخلفه ابنه حسين شاه وقد طال حكمه، وتقدّمت به السن فعيّن ابنه فيروز شاه مكانه غير أن فيروز كان سيئاً فقتل مسموماً، فعيّن والده مكانه ابنه محمود بن فيروز الذي اختلف مع وزيره الذي خطب لسلطان دهلي إسكندر بن بهلول اللودي (٨٩٤ ـ ٩٢٣). ولما دخل بابرشاه التيموري دهلي عام ٩٣٢ أمر ملك السند شاه حسين القندهاري أن يضمّ إلى بلاده السند منطقة ملتان فسار إليها وفتحها عام ٩٣٢.

٤ ـ ملوك كوجرات

كوجرات شبه جزيرة تقع في غربي الهند، وأكبر مدنها الآن أحمد أباد نسبةً إلى ملكها الذي أول ما استقل بها، والذي نتكلم عنه الآن. كانت تتبع دهلي حتى عهد محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق. وقد تولى أمرها عام ٧٩٣ ظفر خان بن وجيه الدهلوي، وقد استقل عن دهلي عام ٨١٠ أيام محمود شاه آخر ملوك بني تغلق، وقد كان ظفر خان هذا حسن العقيدة، عمل مجاهداً مدة حكمه، وتوفي عام ٨١٣.

عندما توفي ظفر خان خلفه ابنه أحمد الذي أسس مدينة أحمد أباد كبرى مدن كوجرات اليوم، وطالت أيامه حتى عام ٨٤٥، فيكون عهده اثنتين وثلاثين سنة، وتولى بعده ولده غياث الدين محمد شاه، فكان جواداً، شجاعاً، وقد حكم عشر سنوات (٨٤٥ ـ ٨٥٥) مذ كان صبياً في العاشرة من عمره حتى الثامنة والعشرين، ومات ولا يزال في ريعان الشباب. وخلفه ابنه قطب الدين أحمد شاه، واستمر حكمه سبع سنوات ونصف، وقاتل الكفار، وتوفي عام ٨٦٢، وتولى ابنه داود شاه، وكان صغيراً وغير أهل للحكم، فلم يحكم سوى سبعة أيام.

[١] مظفر شاه ٨١٠ ـ ٨١٣

محمد

[٢] أحمد شاه ٨١٣ ـ ٨٤٥

[٣] غياث الدين محمد شاه ٨٤٥ ـ ٨٥٥

[٤] قطب الدين أحمد شاه ٨٥٥ ـ ٨٦٢

[٦] محمود شاه ٨٦٢ ـ ٩١٧

[٥] داود شاه ٨٦٢ ـ ٨٦٢

[٧] مظفر شاه ٩١٧ ـ ٩٣٢

[٨] إسكندر شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٢

[٩] نصير محمود شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٢

[١٠] بهادور شاه ٩٣٢ ـ ٩٤٣

لطيف خان

[١١] محمود شاه ٩٤٣ ـ ٩٦١

أحمد شاه ٩٦١ ـ ٩٦٩

مظفر شاه ٩٦٩ ـ ٩٨٠

مظفر شاه للمرة الثانية ٩٨١ ـ ٩٩٢

اختار الأمراء بعد عزل داود عمه محمود شاه أبا الفتح، وكان عمره خمس عشرة سنة، فأحسن السياسة، وقاتل الكفار، وفتح الحصون، فاتسعت أملاكه. واستمر حكمه خمسة وخمسين عاماً، وتوفي سنة ٩١٧. وتولّى ابنه مظفر شاه الحليم ويُكنّى أبا النصر، وكان ورعاً، كريماً، وحكم أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفي عام ٩٣٢. وخلفه ابنه إسكندر شاه، ولم يحسن السياسة فخلعه الأمراء بعد ثلاثة أشهر، وعيّنوا مكانه أخاه نصير الذي عُرف باسم محمود شاه، ثم إن عماد الملك قتل إسكندر شاه، وأصبح محمود شاه ألعوبةً بيد عماد الملك، ولم تطل الأيام سوى أربعة أشهر، إذ كان أخو محمود شاه وهو بهادور شاه في دهلي فرجع إلى كوجرات فاجتمع إليه الأمراء ففرّ عماد الملك فتبعه وقتله، وتسلّم الأمر، وأخذ الرعية بسياسةٍ حسنةٍ، وهاجمه همايون بن بابر التيموري فهُزم بهادورشاه، واتجه إلى بلاد السواحل، ثم رجع همايون إلى دهلي فعاد بهادور إلى أحمد أباد، واصطدم مع البرتغاليين وقتل عام ٩٤٣.

تولى الأمر بعد بهادور ابن أخيه محمود شاه بن لطيف خان فحكم ثماني عشرة سنة، وقام ببعض الفتوحات، وقتله أحد غلمانه عام ٩٦١.

حكم بعد محمود شاه أحد أفراد أسرة أحمد شاه واسمه رضي الملك، وحكم ثمان سنوات كان في خلالها ألعوبةً بيد الوزراء، وقد لُقّب أحمد شاه، وقتل عام ٩٦٩. ثم جاء بعده مظفر شاه وكان ضعيفاً، وآلت الدولة عام ٩٨٠ إلى التيموريين، ثم فرّ مظفر شاه من وجههم، وعاد بعد سنة إلى أحمد أباد، وسيطر على بعض المناطق، وهزم التيموريين، ولكن آل أمره إلى الضعف وانتهى بسيطرة التيموريين عام ٩٩٢.

٥ ـ ملوك جونبور

تقع جونبور بين نهر الغانج ورافده نهر غاغارا، جنوب شرقي دهلي وعلى بعد ٦٢٠ كيلومتراً منها، أو شمال غربي بنارس وعلى بعد ٦٠ كيلومتراً منها، كانت تتبع مملكة دهلي إلى زمن الملك محمود شاه آل تغلق، حيث استقل فيها خواجه جهان سرور عام ٧٩٦ أي العام الذي تولّى فيه محمود شاه السلطة.

كان سرور ناظراً عند حرم محمد شاه، ثم رقّاه إلى مرتبة وزير، ولقّبه خواجه جهان، فلما مات محمد شاه، واستلم الملك بعده ولده محمود شاه ولّى خواجه جهان سرور على جونبور، فقام بالأمر بقوة وخضع له ملوك البنغال، وإن كان يدعو لمحمود شاه ملك دهلي إلّا أنه في الواقع مستقل بأمره، وقد حكم جونبور وبيهار مدة ست سنوات وبضعة أشهر حيث توفي عام ٨٠٢هـ.

وخلف خواجه جهان سرور مولاه قرنفل الذي رباه وتعهده وعهد إليه بالسلطة من بعده، فلقّب نفسه مبارك شاه، وقطع الخطبة عن محمود شاه، وخطب لنفسه، ولم تطل أيامه فقد توفي عام ٨٠٤، فكانت مدة حكمه سنة ونصف السنة.

وتولّى أمر جونبور بعد مبارك شاه أخوه إبراهيم شاه، وقد اتجه غرباً وأراد ضمّ قنوج إليه، فصدّه عنها محمود شاه، فتركها وسار نحو دهلي، فدعم صاحب كوجرات مظفر شاه الملك محمود شاه فاضطر إبراهيم شاه أن يعود إلى جونبور. وحاول مرةً ثانيةً السير إلى دهلي أيام مبارك شاه بن خضر، ووقع القتال بينهما، ولم يفلح إبراهيم شاه في مهمته، وحكم مدة أربعين سنة كانت جونبور في عهده مدينة العلم، وهو حسن السيرة صاحب دين وخلق وعقل، وتوفي عام ٨٤٤.

خلف إبراهيم شاه ابنه محمود شاه، وحكم مدة تزيد على عشرين

سنة، وقد اصطدم مع جيرانه، وتوفي عام ٨٦٤، وقام بعده ولده محمد شاه لمدة خمسة أشهر حيث زادت تعدياته على الناس، فخلع، ونُصّب مكانه أخوه حسين شاه فبنى قلعة بنارس عام ٨٦٩، وصالح جيرانه بعد معارك بينه وبينهم، وأخذ المال منهم مقابل الصلح مثل ملك أوريسا. وسار إلى دهلي عام ٨٧٨، وملكها بهلول اللودي فأغراه بأنه يتنازل له، وهو يزيد في طمعه، حتى ألزمه على القتال، فتغلّب بهلول اللودي عليه فاضطر إلى الرجوع إلى جونبور، وحاول ثانيةً دخول دهلي، وثالثةً ورابعة وفي كل مرة يُهزم أمام بهلول، وفي المرة الأخيرة تبعه بهلول إلى جونبور فدخلها، ففرّ حسين إلى جهةٍ نائيةٍ في دولته، فأقام بهلول في جونبور ابنه باربك بن بهلول سلطاناً، وعاد إلى دهلي، وعندما تولّى أمر دهلي إسكندر بن بهلول تعقّب حسين شاه فهرب إلى البنغال، وانقرضت الدولة عام ٨٨١، وقد حكم حسين تسع عشرة سنة، وتوفي في البنغال عام ٨٩٥.

[١] خواجه جهان سرور ٧٩٦ ـ ٨٠٢

[٢] مبارك شاه قرنفل ٨٠٢ ـ ٨٠٤

[٣] إبراهيم شاه
٨٠٤ ـ ٨٤٤

[٤] محمود شاه
٨٤٤ ـ ٨٦٣

[٥] محمد شاه
٨٦٣ ـ ٨٦٣

[٦] حسين شاه
٨٦٣ ـ ٨٨١

٦ ـ ملوك البنغال

فتح البنغال عز الدين محمد بن بختيار الخلجي عام ٥٩٩ بأمر من قطب الدين أيبك، وبعد ثلاث سنوات توفي عز الدين هذا فولّى قطب الدين مكانه محمد شيران الخلجي، غير أن علي مردان أحد الأمراء قد سار إلى دهلي، وتقرّب من قطب الدين أيبك فاستعمله على البنغال فسار علي مردان وقاتل محمد شيران الذي فرّ، وانتهى أمره، وضبط علي مردان المنطقة، ولما مات قطب الدين عام ٦٠٧ استقل علي مردان في بلاد البنغال، وتلقّب باسم علاء الدين، ولكنه لم يلبث أن توفي عام ٦٠٩، واتفق أهل البنغال على عوض بن الحسين الخلجي، ولقّب نفسه غياث الدين، ووقع الصدام بينه وبين ملك دهلي شمس الدين إيلتمش الذي بعث الجيش إثر الجيش إلى البنغال، واتفقا على الصلح عام ٦٢٢ بعد أن سار بنفسه شمس الدين إيلتمش إلى جهة البنغال، وتمكّن من أخذ بيهار، ولم تمض غير مدةٍ قصيرةٍ حتى عاد الاختلاف، فبعث إيلتمش ولده ناصر الدين محمود عام ٦٢٤ فاستطاع أن يهزم غياث الدين، وأن يقتله، وأن يحتل البنغال. وتولّى أمرها لأبيه، وهكذا عادت البنغال تتبع دهلي.

توفي ناصر الدين محمود عام ٦٢٦، فسار شمس الدين إيلتمش إلى البنغال، وأصلح أمورها، وولّى عليها علاء الدين خان الذي عرف باسم عزة الملك، وبقي حتى عام ٦٣٠، ثم جاء سيف الدين الترك حتى عام ٦٣٣، ثم عز الدين طغان خان، وبقي حتى عام ٦٤٦، وكان قد توفي شمس الدين إيلتمش عام ٦٣٣.

جاء التتار إلى البنغال عن طريق التبت عام ٦٤٦، فأرسل ملك دهلي علاء الدين مسعود جيشاً لقتال التتار بإمرة قره تيمور خان فانتصر على التتار، وأخرجهم من البلاد، وتولّى حكم البنغال حتى عام ٦٥٦، وخلفه عليها جلال الدين خان الذي عُزل بعد سنة، وحلّ مكانه أرسلان خان، ثم ابنه تاتار الذي بقي حتى عام ٦٦٤، وتسلّم الولاية بعد ذلك طغرل الذي خلع طاعة ملك دهلي علي غياث الدين بلبن، ولقب نفسه عام ٦٧٨ مغيث الدين وعادت البنغال لتنفصل عن دهلي مرة أخرى.

بعث غياث الدين بلبن جيشاً إلى البنغال بإمرة البتكين غير أنه هُزم، فسار بلبن بنفسه، وتمكّن من دخول البنغال، فولّى عليها ابنه ناصر الدين محمود المعروف باسم بغراخان. وتوفي غياث الدين بلبن عام ٦٨٦، وعهد من بعده لحفيده معز الدين وهو ولد ناصر الدين محمود فتأثر الأب وسار إلى ابنه والتقيا غير أنهما قد تصالحا، وتنازل ناصر الدين محمود لابنه معز الدين، وعاد إلى البنغال، وبقي حاكماً لها حتى عام ٦٩١ حيث توفي، وخلفه ابنه ركن الدين وبقي حتى عام ٧٠٢ فخلفه أخوه شمس الدين واستمر في ولايته حتى عام ٧٢٢، وتولّى مكانه ابنه شهاب الدين، وخرج عليه أخوه غياث الدين، وانتصر عليه، فسار شهاب الدين إلى دهلي، واستنجد بغياث الدين تغلق ملك دهلي فأنجده، وأعاده إلى ولاية البنغال مكان أخيه الذي حُمل أسيراً إلى دهلي. ولما توفي غياث الدين تغلق وقام مكانه ابنه محمد شاه عام ٧٢٥ أطلق سراح غياث الدين فعاد إلى البنغال ونقض عهد محمد شاه فقاتله، وقتل غياث الدين، فولى محمد شاه مكانه على البنغال تاتار الذي قتله الجند، وبدأت ولاية البنغال تتجزأ.

استطاع الحاج إلياس الذي تلقّب باسم شمس الدين أن يسيطر على المنطقة وما انفصل عنها، والتقى مع ملك دهلي فيروز شاه، فانهزم، والتجأ إلى بعض القلاع، فلما عاد فيروز شاه إلى دهلي، رجع شمس الدين إلى مقره وراسل فيروز شاه وبعث له الهدايا، وتوفي شمس الدين عام ٧٥٩ بعد أن حكم ست عشر سنة، وتولّى مكانه ابنه إسكندر شاه فبقي على مودته لفيروز شاه، وبقي في الحكم تسع سنوات، وخلفه ابنه غياث الدين لمدة سبع سنوات، وكان من أفاضل الملوك وتوفي عام ٧٧٥، وخلفه ابنه سيف الدين، ولقب نفسه سلطان السلاطين وتوفي عام ٧٨٥، وخلفه ابنه شمس الدين، وكان ضعيفاً فغلب عليه أحد أمرائه من الوثنيين، ولم يبق سوى سنتين، فاستقل الأمير الوثني بالحكم، وخلفه ابنه الذي أعلن إسلامه وتسمّى باسم جلال الدين وتوفي ٨١٢ بعد أن حكم سبع عشرة سنة، وتولى مكانه ابنه أحمد شاه حتى توفي عام ٨٣٠.

خلف أحمد شاه ناصر الدين شاه وهو من أسرةٍ ثانيةٍ وبقي مدة ٣٢ سنة حيث توفي عام ٨٦٢، وقام مكانه ابنه باربك شاه حتى ٨٧٩، وخلفه ابنه يوسف شاه حتى ٨٨٧، وكان من خيار السلاطين ثم حكم ابنه فتح شاه، وكان صالحاً فقتله الأحباش الذين كانوا متسلطين على الحكم وذلك عام ٨٩٦.

تولّى حكم البنغال بعد فتح شاه قاتله باربك وهو عبد حبشي، ولم يدم له الأمر سوى ثمانية أشهر حيث قتله عبد حبشي آخر اسمه «انديل» ولقّب نفسه فيروز شاه وقد بقي حتى توفي عام ٨٩٩، وخلفه ابنه محمود شاه، وقتله بدر الحبشي وتسلّم السلطة لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة، وتسمّى باسم مظفر شاه، وقتله وزيره حسين بن أشرف الحسيني المكي الذي تسلّم الأمر مكانه وتسمّى باسم علاء الدين، وقد توفي عام ٩٢٧، وخلفه ابنه نصرة الذي توفي عام ٩٤٣. وتولّى مكانه ولده محمود شاه، وخرج عليه شيرشاه السوري فأخرجه من البنغال فسار إلى دهلي واستنصر بهمايون بن بابر التيموري، فسار إليه عام ٩٤٥ وهزمه، فلما عاد همايون، ووصل إلى (أكره) رجع شير شاه السوري، واستعاد سلطته.

فتح البنغال عز الدين الخلجي عام ٥٩٩

عز الدين الخلجي	٥٩٩ ـ ٦٠٢
محمد شيران الخلجي	٦٠٢ ـ ٦٠٥
علي مردان	٦٠٥ ـ ٦٠٩
عوض بن حسين الخلجي	٦٠٩ ـ ٦٢٤
ناصر الدين محمود	٦٢٤ ـ ٦٢٦
علاء الدين خان	٦٢٦ ـ ٦٣٠
سيف الدين الترك	٦٣٠ ـ ٦٣٣
عز الدين طغان خان	٦٣٣ ـ ٦٤٦

جاء التتار عن طريق التبت

قرة تيمور خان	٦٤٦ ـ ٦٥٦
جلال الدين خان	٦٥٦ ـ ٦٥٧
أرسلان خان	٦٥٧ ـ ٦٦٠

تاتار بن أرسلان خان	٦٦٠ ـ ٦٦٤	
طغرل	٦٦٤ ـ ٦٧٩	
ناصر الدين محمود بلبن	٦٧٩ ـ ٦٩١	
ركن الدين بلبن	٦٩١ ـ ٧٠٢	
شمس الدين بلبن	٧٠٢ ـ ٧٢٢	
شهاب الدين بلبن	٧٢٢ ـ ٧٢٣	
غياث الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٣	
شهاب الدين بلبن	٧٢٣ ـ ٧٢٥	
تاتار	٧٢٥ ـ ٧٢٦	
		فوضى
شمس الدين الحاج إلياس	٧٤١ ـ ٧٥٩	
إسكندر شاه	٧٥٩ ـ ٧٦٨	
غياث الدين	٧٦٨ ـ ٧٧٥	
سيف الدين	٧٧٥ ـ ٧٨٥	
شمس الدين	٧٨٥ ـ ٧٨٧	
	٨٧٧ ـ ٨٩٥	أمير وثني
جلال الدين	٧٩٥ ـ ٨١٢	أسلم
أحمد شاه	٨١٢ ـ ٨٣٠	
ناصر الدين شاه	٨٣٠ ـ ٨٦٢	
باربك شاه	٨٦٢ ـ ٨٧٩	
يوسف شاه	٨٧٩ ـ ٨٨٧	
فتح شاه	٨٨٧ ـ ٨٩٦	
باربك الحبشي	٨٩٦ ـ ٨٩٧	
فيروز شاه الحبشي	٨٩٧ ـ ٨٩٩	
محمود شاه الحبشي	٨٩٩ ـ ٩٠٠	
بدر الحبشي	٩٠٠ ـ ٩٠٤	
علاء الدين	٩٠٤ ـ ٩٢٧	
نصرة شاه	٩٢٧ ـ ٩٤٣	
محمود شاه	٩٤٣ ـ ٩٤٥	خرج عليه شير شاه السوري

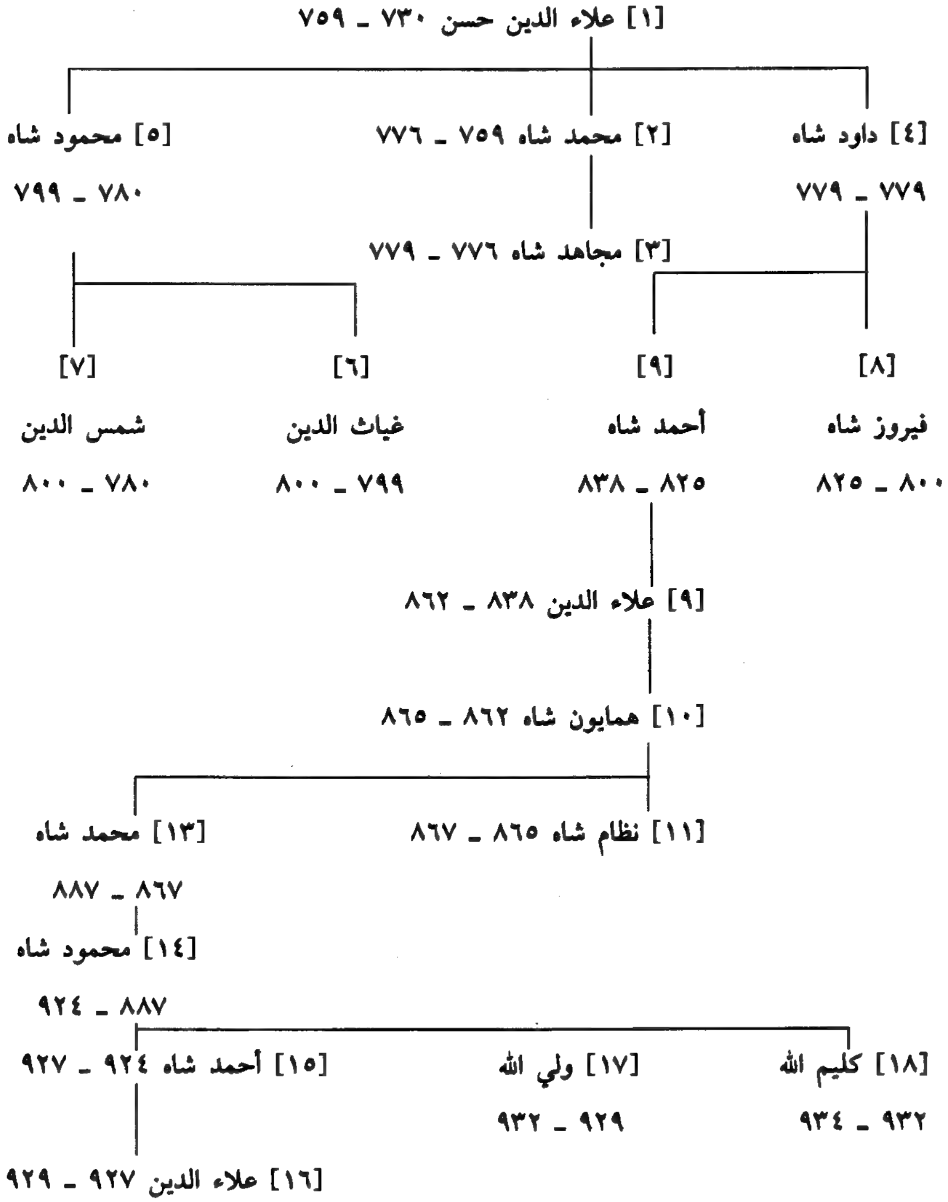
٧" ـ ملوك الدكن

أقطع محمد شاه تغلق بعض قرى في الدكن إلى علاء الدين البهمني، وفرّ عدد من أمراء كوجرات من وجه محمد شاه تغلق خوفاً منه، وساروا نحو الدكن، وولّوا عليهم إسماعيل الفتح الأفغاني، وذلك بالاتفاق مع أمرائها ومنهم علاء الدين البهمني، فسار إليهم محمد شاه تغلق بجنود كثيرة، فقاتلوه وتحصّن علاء الدين بقلعته، ثم تقدّم، واحتل دولة أحمد أباد، وانتصر على جيوش دهلي، فأصبح ملك المنطقة، واعتزل إسماعيل الفتح الأفغاني أو تنازل له.

استطاع علاء الدين أن يستولي على كل ما فتحه المسلمون في الدكن، وقاتل أهل كيرالا، وأخذ منهم الأموال. وهو أول من استعمل الوثنيين والبراهميين في الأمور المالية، وتوفي عام ٧٥٩. وملك بعده ابنه محمد شاه، الذي قاتل جواره من ملوك البراهمة، وانتصر عليهم، وتوفي عام ٧٧٦، وخلفه ابنه مجاهد شاه، قاتل البراهميين، وفي أثناء عودته قتله عمه داود عام ٧٧٩، وجلس مكانه، ولكنه قتل قصاصاً بعد شهر، واختير للملك أخوه محمود شاه، وكان رجلاً صالحاً بقي حتى توفي عام ٧٩٩، فخلفه ابنه غياث الدين، ونقم عليه أحد غلمانه الذي يُدعى «تغلقين» فسجنه، وولّى مكانه أخاه شمس الدين وكان صغيراً، وتصرّف هو بشؤون الدولة، غير أن فيروز شاه بن داود قد خرج، وقتل «تغلقين»، وسجن شمس الدين، وتسلم الأمر، وبقي حتى عام ٨٢٥، وكان عالماً كبيراً ومجاهداً شجاعاً، وفي أواخر حياته خرج عليه أخوه أحمد وتسلّم الأمر دونه، ولكنه توفي بعد استلام أخيه بعشرة أيام. وقاتل أحمد شاه البراهميين وانتصر عليهم، وأسس مدينة أحمد شاه وجعلها مقره، وتوفي عام ٨٣٨، وخلفه ابنه علاء الدين، ففتح الفتوح العظيمة، وبنى مستشفى كبيرة في أحمد أباد وتوفي عام ٨٦٢، وتولّى مكانه ابنه همايون شاه، وتوفي عام ٨٦٥ إذ لم يحكم سوى ثلاث سنوات، وخلفه ولده نظام شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة نهباً بيد الوزراء، وتوفي عام ٨٦٧ وله من العمر عشر

سنوات. وأخذ أخوه الملك من بعده، وكان صغيراً لم يتجاوز العاشرة. فاشتغل بالعلم مدةً، ثم استلم السلطة بيده وأرسل القادة إلى مختلف الجهات فدانت له، وبعد حكم عشرين سنة توفي عام ٨٨٧، ولم يتجاوز الثلاثين.

الأسرة البهمنية



تولى محمود شاه بعد أبيه محمد شاه، وكان صغيراً فكانت الدولة تُصرّف بأيدي الوزراء، وهذا ما أضعف السلطة فاستقل نظام الملك في أحمد نكر عام ٨٩٥، وعماد الملك في برار عام ٨٩٥، وعادل الملك في بيجابور في العام نفسه، واستقل قطب الملك في بلاد تلنك عام ٩١٠، ولم يبق لمحمود شاه سوى السطلة الاسمية في أحمد أباد، وبقي هكذا حتى توفي عام ٩٢٤، وتولّى مكانه ابنه أحمد شاه، وكانت السطلة الحقيقية بيد الوزراء، وتوفي عام ٩٢٧، وخلفه ولده علاء الدين، وكان حازماً فأراد أن يستعيد سلطته، وهذا ما أدى إلى عزله وسجنه، وذلك عام ٩٢٩، وعُيّن عمُّه ولي الله بن محمود شاه فسجن أيضاً بعد ثلاث سنوات، وعُيّن أخوه الآخر كليم الله بن محمود شاه، فكان ألعوبة بيد الوزراء وهو راض على ذلك، ثم غضب فانتقل إلى بيجابور، ثم إلى أحمد نكر عام ٩٣٤، وانقرض ملكه.

أ ـ ملوك خانديس

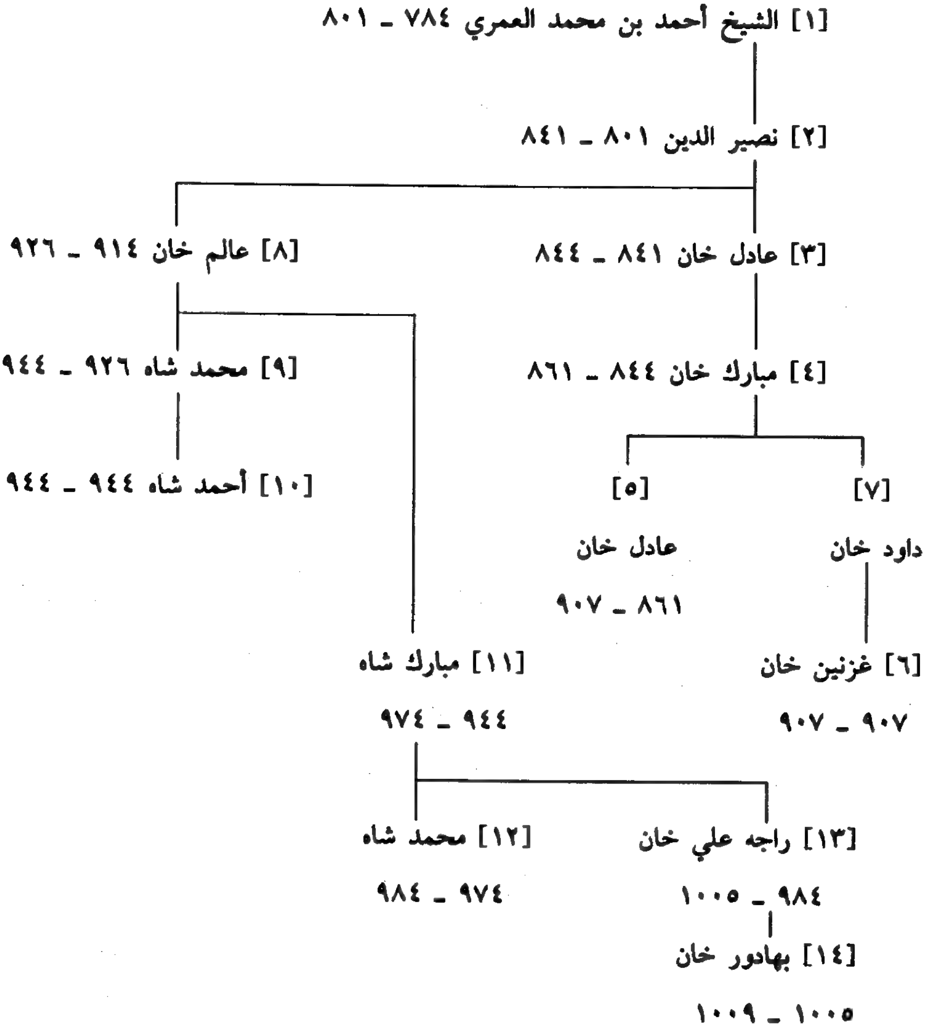
تقع خانديس في شمال الدكن إلى الغرب قليلاً، أقطع فيروز شاه ملك دهلي عام ٧٨٤ بعض تلك الجهات إلى الشيخ أحمد بن محمد العمري، فعمل مستقلاً عن دهلي وضبط الأمور بشكل جيد، وتوفي عام ٨٠١، وخلفه ابنه نصير الدين فأسس مدينة سماها برهان بور على اسم الشيخ برهان الدين الغريب، وجعلها مقر ملكه، واستمر في حكمه حتى عام ٨٤١، وقام مكانه ولده عادل خان، إلى عام ٨٤٤، ثم مبارك خان حتى عام ٨٦١، ثم عادل خان الذي قام بفتوحات واسعة، وبقي حتى عام ٩٠٧، وبوفاته اختل نظام الملك.

اتفق الأمراء بعد وفاة عادل خان على ابن أخيه غزنين خان بن داود خان وبعد أشهرٍ عادوا فخلعوا غزنين خان، ونصّبوا والده داود خان ملكاً على البلاد.

دعم بعض الأمراء عالم خان وكانت أمه ابنة سلطان كوجرات فطلبت المساعدة منه لدعم ابنها فجاء بقوة، ودخل برهان بور ونصَّب ابن ابنته ملكاً ولقبه أعظم همايون عادل خان الفاروقي فقام بالأمر عام ٩١٤ فضبط الأمر وبقي حتى عام ٩٢٦، ثم خلفه ابنه محمد شاه، وهو ابن أخت بهادور شاه سلطان كوجرات، وتوفي عام ٩٤٤ وهو في طريقه إلى أحمد

أباد مقر سلطان كوجرات، فاختار الأمراء ابنه أحمد شاه، وكان طفلاً صغيراً فكفله عمه مبارك خان فاستأثر بالأمر وتسمّى مبارك شاه، وقام بفتوحات وتوفي عام ٩٧٤، وخلفه ابنه محمد شاه، وبقي عشر سنوات، وكان وزيره زين الدين هو المسيطر على شؤون الدولة، ثم تولى أخوه راجه علي خان، وبقي إحدى وعشرين سنة فقد مات عام ١٠٠٥، وولي بعده ابنه بهادور خان وفي أيامه انقرضت الدولة الفاروقية، وغدت تتبع الدولة التيمورية وذلك منذ عام ١٠٠٩هـ.

الأسرة الفاروقية:



ب ـ ملوك مالوه

مالوه إقليم يقع إلى الشرق من كوجرات، كان مقره مدينة «مندو» التي اندثرت، كان هذا الإقليم يخضع لمملكة دهلي حتى أيام محمد شاه بن فيروز شاه من آل تغلق، فأعطى ولاية هذا الإقليم إلى الحسين الغوري ولقّبه دلاور خان فضبط الإقليم، وأحسن السياسة، ولما رأى ضعف مملكة دهلي استقل بما تحت يده عام ٨٠٤، وبقي مستقلاً مدة أربع سنوات، وتوفي عام ٨٠٨.

قام بعد دلاور خان ابنه البخان، وقد لقّب نفسه هو شنغ شاه، بنى قلعة مندو، وانتقل إليها، وجعلها قاعدة حكمه، وأغار عليه مظفر شاه صاحب كوجرات فقبض عليه وسجنه مدة سنة، ثم أطلق سراحه، واستقل بالملك مدة ثلاثين سنة، فتوفي عام ٨٣٨.

وخلف هوشنغ شاه ابنه عزمين خان، وسمّى نفسه محمد شاه الغوري، فجعل الأمر بيد محمود بن المغيث الخلجي، واشتغل باللهو فقتلوه، ولم يدم حكمه أكثر من سنة وبضعة أشهر. وتولّى مكانه محمود شاه الخلجي، وقد ضبط الأمور، وفتح البلاد، وخضع له الجوار، وكان عادلاً، رحيماً، ملك أربعاً وثلاثين سنة وتوفي عام ٨٧٣.

وقام بعد محمود شاه ولده غياث الدين، وقد حكم ثلاثاً وثلاثين سنة، وعندما أحس بالهرم ترك الأمر لولده ناصر الدين، ثم إن الولد تضايق من أبيه ونصائحه وتوجيهاته فعزله، وقام مكانه وتوفي الوالد ٩٠٥، في الأيام الأولى من عزله لذا قيل: إنه مات مسموماً، وبقي ناصر الدين إحدى عشرة سنة، وقد أناب عمه همايون في أجمير فاستقل بها، وتوفي ناصر الدين عام ٩١٦، وخلفه ابنه محمود شاه، فأوكل أمر الوزارة إلى أحد الكفار، فكان يتظاهر بإرضاء محمود شاه، ويعمل على إبعاد المسلمين، وتعيين الكفار حتى تمكّن من الأمر، وشاع الكفر، فاضطر محمود شاه أن يلتجئ إلى مظفر شاه صاحب كوجرات، فساعده وخلّص إقليم «مالوه» من أيدي الكفار الهنادك، وأعاد محمود شاه إلى الحكم، وترك عنده ولده تاج

خان، فلما مات مظفر شاه وتولى أمر كوجرات بعده بهادور شاه استدعى أخاه تاج خان، فأبى محمود شاه فسار إليه بهادور شاه، وقاتله، وانتصر عليه، وملك البلاد، وأصبحت منطقة «مالوه» تتبع كوجرات حتى عام ٩٤١، ثم تبعت دهلي سنة ٩٦٨، ثم انتقلت إلى التيموريين.

[١] حسين الغوري دلاور خان ٨٠٤ ـ ٨٠٨

[٢] البخان هوشنغ خان ٨٠٨ ـ ٨٣٨

[٣] عزمين خان محمد شاه الغوري ٨٣٨ ـ ٨٤٠

---

[١] محمود شاه الخلجي ٨٤٠ ـ ٨٧٣

[٢] غياث الدين الخلجي ٨٧٣ ـ ٩٠٥

[٣] ناصر الدين شاه ٩٠٥ ـ ٩١٦

[٤] محمود شاه ٩١٦ ـ ٩٢١

جـ ـ ملوك بيجابور

بيجابور منطقة من الدكن تقع إلى الغرب منها. وقد استقلت هذه المنطقة عن الدكن عام ٨٩٥، وكان أول المستقلين عادل الملك، لذا عرفت أسرته باسم عادل شاهين، ويقال أنهم من بني عثمان، فقد أرسلت زوجة السلطان مراد العثماني ولدها مع أحد التجار خوفاً عليه، فسار به إلى الهند، وقدّمه لسلطان الدكن يومذاك وهو نظام شاه، وبقي يترقّى في المناصب حتى ولّي بيجابور فاستقل بها، واسمه الحقيقي يوسف، وبقي مدة عشرين سنة في الحكم، روّج في خلالها مذهبه الشيعي، وتوفي عام ٩١٥،

وخلفه ابنه إسماعيل إلى عام ٩٤١، ثم ابنه ملوخان غير أنه خلع بعد عدة أشهر، ثم أخوه إبراهيم الذي ترك الشيعة وغدا مسلماً، وبقي حتى عام ٩٦٥، واستمرت هذه الأسرة إلى عام ١٠٩٧.

د ـ ملوك أحمد نكر

في أثناء قتال ملوك الدكن للبراهميين أسر رجل بارز من بيجانكر في عهد أحمد شاه (٨٢٥ ـ ٨٣٨)، فأسلم هذا البراهمي على يد أحمد شاه، فأطلق عليه اسم حسن البحري، وترك الاسم الجاهلي القديم فنسي، وشعر السلطان بحسن إسلام حسن هذا فأعطاه منصباً وأخلص فزادت منزلته ولقبه محمد شاه(٨٦٧ ـ ٨٨٧) نظام الملك، ثم استوزره، وجعله أمير الأمراء، ثم صار وكيل السلطنة فأقطع ابنه أحمد القطائع، ثم قتل فاستقل ابنه أحمد بما تحت يده، ولقّب نفسه أحمد نظام شاه البحري، وأسس مدينة نكر وجعلها مركز حكمه عام ٩٠٠ وتوفي عام ٩١٤، وخلفه ابنه برهان وكان صغيراً لا يزيد عمره على السابعة فصار ألعوبة بيد الوزراء، فلما بلغ رشده أخذ الأمور بيده، واعتنق الشيعة عام ٩٤٤، ومات ٩٦١، ثم تولّى ابنه الحسين من بعده، واستمرت هذه الدولة حتى عام ١٠٤٢.

هـ ـ ملوك كلكنده وحيدر أباد

جاء في أيام محمد شاه البهمني سلطان دكن رجل يُدعى قلي الهمداني تركي الأصل، ودخل في خدمته فكان أحد غلمانه، وأحسن الخدمة، وترقّى في المناصب حتى ولّاه محمد شاه منطقة تلنكانه، ولقّبه قطب الملك فأحسن السياسة، وقاتل البراهميين، وفتح القلاع، فلما تولّى أمر الدكن محمود شاه استقل قطب الملك بما تحت يده، وجعل كلكنده مقر حكمه عام ٩١٨، واعتنق الشيعة مذهباً له، وتوفي عام ٩٥٠، وخلفه ابنه جمشيد حتى عام ٩٥٧، ثم أخوه إبراهيم، وسّع ملكه، وأحسن إلى رعاياه كثيراً، واستمر حتى عام ٩٨٩، ثم خلفه ابنه محمد قلي، فأسس مدينة حيدر أباد، وكان قد أسماها بهاكنكر باسم عشيقته، ثم لم يلبث أن غيّر اسمها إلى حيدر أباد وجعلها قاعدة ملكه، وبنى فيها القصور، ومدرسة

كبيرة، ومشفى واسعة، وحدائق غناء، وتوفي عام ١٠٢٠، وخلفه ابن أخيه محمد لمدة خمس عشرة سنة، ثم ولده عبد الله وبقي ثمان وأربعين سنة، ثم صهره تاتا شاه، وقد انقرضت الدولة في أيامه عام ١٠٩٦ نتيجة الحروب بينه وبين عالمكير.

[١] قلي الهمداني «قطب الملك».
٨٩٥ ـ ٩٥٠

[٢] جمشيد ٩٥٠ ـ ٩٥٧

[٣] إبراهيم ٩٥٧ ـ ٩٨٩

محمد

[٤] محمد قلي ٩٨٩ ـ ١٠٢٠

[٥] محمد ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥

[٦] عبد الله ١٠٣٥ ـ ١٠٨٣

[٧] تاتا شاه ١٠٨٣ ـ ١٠٩٦

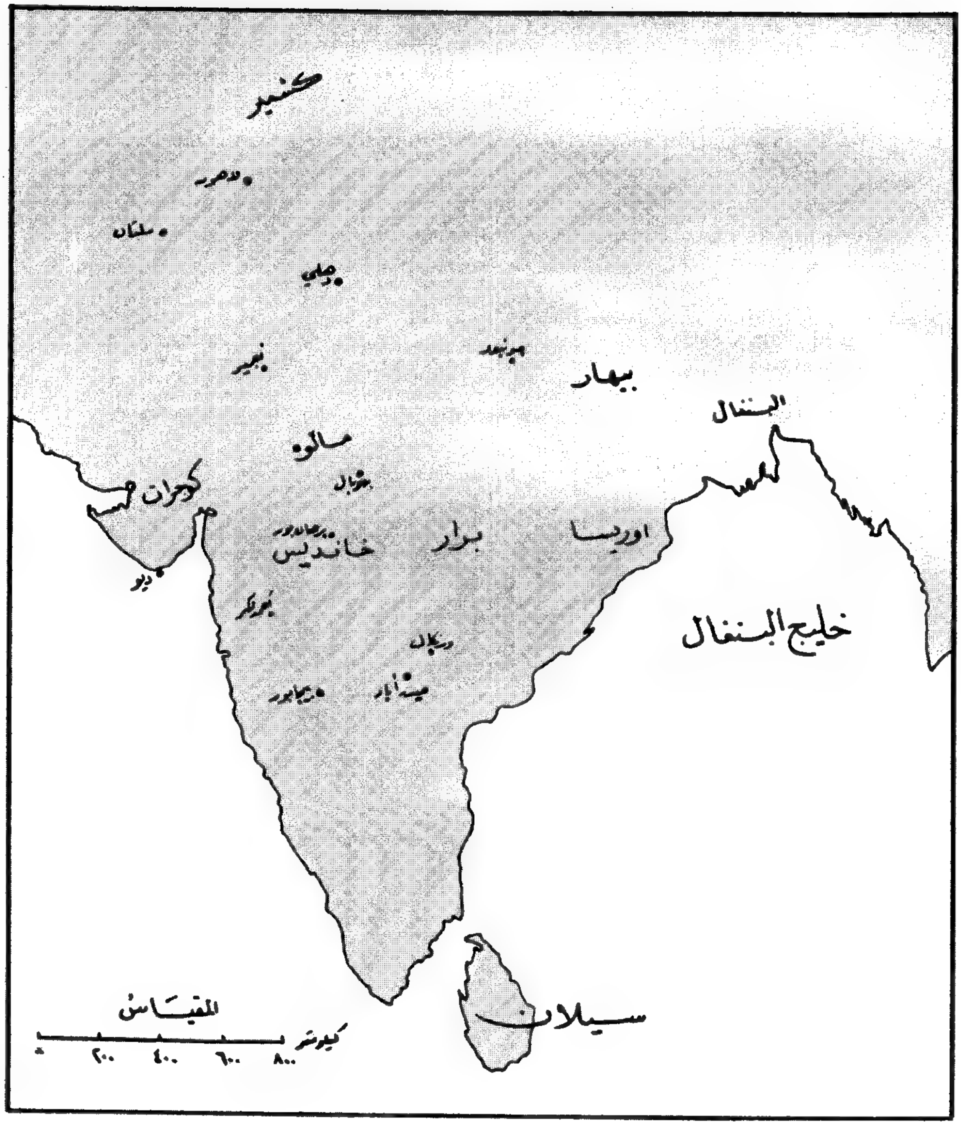
و ـ ملوك برار

برار منطقة في شمالي الدكن، دخل أحد البراهميين الذين أسلموا في خدمة أمير عسكرها، فلما توفي أمير العسكر، دخل في خدمة محمد شاه البهمني سلطان الدكن، فقدّمه وولّاه على برار لمعرفته بها، ولقبه عماد الملك، فلما مات محمد شاه استقل عماد الملك بما تحت يده في برار عام ٨٩٢، وخلفه ابنه علاء الدين وتلقّب باسم عماد شاه، وقد بقي حتى عام ٩٦٧، وتولّى مكانه ابنه دريا عماد شاه، ثم ابنه برهان عماد شاه، وكان صغيراً فغلب عليه تغال خان وسجنه، واستقل بالملك فسار إليه مرتضى نظام شاه فتسلّم الأمر، وأنهى ملك الأسرة السابقة.

ملاحظة:

إن اسم قاعدة الهند اليوم (نيودلهي) هكذا أسماها المستعمرون الإنكليز بعد سيطرتهم على الهند، لكن اسمها الحقيقي (دهلي)، وقد درجت على استعمال الاسم الحقيقي لارتباطه بالتاريخ الإسلامي، وكذا نُسب إليها العلماء الذين خرجوا منها.

وتغيير المستعمرين الإنكليز للاسم إنما هو من باب قطع الحاضر عن الماضي الإسلامي.


كشمير
لاهور
ملتان
دهلي
أجمير
بهار
البنغال
مالوه
كجرات
خانديس
برار
اوريسا
ديو
ورنكال
بيجابور
خليج البنغال
سيلان
المقياس
كيلومتر
٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠

الفصل الرابع

الإسلام في الجزر وجنوب شرقي آسيا

في هذا الوقت الذي توقّفت فيه الفتوحات، وضعُفت الخلافة، وتجزّأت الدولة الإسلامية اتجه أعداد من الناس إلى التجارة، وعن طريق التجار انتشر الإسلام في المناطق التي وصلوا إليها، وتعاملوا مع أبنائها، نتيجة سلوك هؤلاء التجار الذين أكسبهم الإسلام المعاملة الطيبة فكانوا أنموذجاً جيداً لعقيدتهم التي يحملونها هذا بالإضافة إلى الفارق الكبير بين صفاء الإسلام وعلوه، وضلالات عقائد السكان الجاهليين وضعتها، ونتيجة هذا فقد ساد الإسلام جزر المالديف، وشبه جزيرة الملايو، وأندونيسيا، وجزر الفيليبين الجنوبية.

المالديف:

وصل الإسلام إلى جزر المالديف حوالي عام ١٨٩ عن طريق التجار الذين كانوا يفدون إلى تلك الجزر سواء كانوا يأتون من غربي الهند أم من جنوبي جزيرة العرب أم من شرقي إفريقية. وبدأ الدعاة يفدون أيضاً إلى هذه الجهات ومن أشهرهم الشيخ حافظ بن بركات البربري المغربي الذي تمكّن بفضل الله أن يؤثر على ملك البلاد البوذي وأن يدخله في الإسلام وذلك عام ٥٤٨، ومع إسلام الملك بدأ السكان كافة يعتنقون الديانة الإسلامية، ولم تمض إلا مدة بسيطة حتى غدا السكان جميعاً من المسلمين، ولكن لم يتمثّلوا الإسلام بصورةٍ جيدة، وإنما بقيت عادات جاهلية كثيرة متحكّمة في النفوس، واستمرت مدة طويلة حتى زالت، إذ

كانت تزول تدريجياً مع التعلّم على الأحكام الصحيحة.

وفي عام ٧٤٤ زار الرحالة ابن بطوطة تلك الجزر، واستقبله السكان، وفرحوا به، وقد عمل عندهم قاضياً. واستمر وضع البلاد هادئاً آمناً حتى وصل البرتغاليون إليها في حروبهم الصليبية عام ٩١٣.

الملايو:

كانت العلاقة قويةً بين شبه جزيرة الملايو وبلاد الهند وخاصةً مع سواحل الهند الغربية تلك التي انتشر فيها الإسلام في وقت مبكرٍ نتيجة التجارة مع جزيرة العرب، وكان لتجار سواحل الهند الغربية أثر واضح في انتشار الإسلام في شبه جزيرة الملايو ويبدو في انتشار مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ الذي يسود في كلتا المنطقتين على عكس بقية المناطق الأخرى.

وكذلك كانت العلاقة قوية بين شبه جزيرة الملايو وجزيرة سومطره الأندونيسية التي تمتد غرب بلاد الملايو، وقد وصل الإسلام إلى شمالي سومطرة في القرن السابع وعندما وصل الرحالة الإيطالي «ماركو بولو» إلى شمالي سومطرة عام ٦٩٢ وجد التجار المسلمين في ميناء «برلاك» في شمالي سومطرة، ومن هناك انتقل الإسلام إلى منطقة «مالاقا» في بلاد الملايو.

وربما وصل الإسلام إلى مالاقا قبل المدة التي ذكرت، فتذكر بعض الروايات أن سفينةً تجاريةً وصلت إلى مالاقا عام ٦٧٦ بقيادة أحد التجار الذي يُسمّى عبد العزيز، والذي استطاع أن يؤثر على ملك مالاقا فأسلم، وسمّى نفسه محمد شاه، وتبعه إسلام عدد كبير من شعبه، وقامت أول مملكةٍ إسلاميةٍ في مالاقا في تلك المدة، وبدأت تعمل على نشر الإسلام الذي انتشر في «باهانغ» وجنوبي بلاد الملايو.

وتذكر رواية أخرى أن الإسلام قد انتقل إلى مالاقا من شمالي

سومطرة، عندما أسلم حاكم مالاقا ليتزوج أميرةً مسلمةً من «باساي» المرفأ السومطري المعروف وذلك عام ٨٠٣، ثم أسلم بعدئذ شعب مالاقا.

وكانت السفن الإسلامية ترسو في ميناء «سري فيجايا» على ساحل شبه جزيرة الملايو الغربي، ويعدّ أكبر المرافئ يومذاك في تلك الجهات، وقد زادت أهميته عندما أُغلق مرفأ «كانتون» الصيني، بسبب الاضطرابات التي قامت في مملكة «تانك» الصينية في القرن الثالث الهجري. وإن حاكم مالاقا قد أسلم ليحصل على تأييد التجار المسلمين، وكسبهم لقدومهم إلى مرفئه.

وبعد إسلام حاكم مالاقا وانتشار الإسلام بدأت مملكة مالاقا تتعرض لتهديدات حكومة تايلند البوذية، غير أن الأمير المسلم الصيني الحاج خان المعروف باسم «تشنغ» قد زار مالاقا عام ٨٠٨، ووفر لها الحماية من تهديدات تايلند بدعم من حكومة الصين، فعاشت المملكة في أمان وطمأنينة، وتمكّنت من أن تقوم بدورها في نشر الإسلام.

وتذكر بعض الروايات أن ملك مملكة «تيماسيك» في سنغافورة قد فرّ من بلاده عندما احتلتها جيوش مملكة «ماجا باهيت» التي مقرها في جاوه، والتجأ إلى مالاقا مع ألف وخمسمائة رجل من أعوانه عام ٨١٧، وهناك اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم «إسكندر شاه»، واستطاع أن يصل إلى الحكم.

وعلى مختلف الروايات فإن الإسلام قد عمّ في مملكة مالاقا مع مطلع القرن التاسع الهجري، ومنها انتشر إلى باقي جهات شبه جزيرة الملايو. وقد تأسست مملكة في مالاقا تعاقب عليها سبعة ملوك، كان أشهرهم الأمير «منصور باشا» الذي كان حكمه (٨٦١ ـ ٨٨١)، والذي اجتاحت جيوشه شبه جزيرة الملايو كلها، ووصلت إلى حدود بورما من جهة الشمال، وإلى أواسط جزيرة سومطرة من جهة الجنوب والغرب.

وقد استعملت الحروف العربية في عهد هذه المملكة، وساد الأمن،

وقامت إمارات أخرى في «قدح» و «بيرق» و «باهانغ» و «جوهور» وغيرها.

وتعرّضت مالاقا للغزو الصليبي في بداية القرن العاشر، إذ وصل البرتغاليون إليها عام ٩١٧، وألقوا الحصار عليها، فعجزوا عن اقتحامها، ثم أعادوا الحصار، وقد ألقى كبيرهم «البوكرك» خطاباً قبل هجومه الثاني جاء فيه «الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبداً، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة، إذا استطعنا تخليص مالاقا من أيديهم فستنهار القاهرة... وستنهار بعدها مكة»[١].

وتمكّن «البوكرك» من دخول مالاقا فاهتزّت أوربا طرباً، واستدعى ذلك إلى إقامة قداس شكر عام ٩٢١، وقد قال أحد الخطباء في هذا القداس وهو «كاميلو بورتيون» وأمام ليو العاشر: إن هذا سيسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة، واتهم سلطان مالاقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس[٢].

وجاءت النصرانية مع البرتغاليين إلا أن المعاملة السيئة التي لقيها أهل البلاد من أتباع النصرانية، والحقد الصليبي، وارتباط ذلك بالأجانب قد جعل الناس يقومون بردّ فعل ضدهم، ويتجهون نحو الإسلام بشكلٍ أفضل وأوسع.

ومع سقوط مالاقا بأيدي البرتغاليين عاد مقر التجارة والدعوة إلى شمالي سومطرة إذ نشط مركز «آتشيه».

أندونيسيا:

بدأ الإسلام ينتشر في جزر أندونيسيا مع توسع التجارة التي ازدهرت

---

(١) الإسلام في الشرق الأقصى تعريب الدكتور نبيل الطويل.

(٢) المرجع نفسه.

بعد توقّف الفتوحات وربما كان القرن الثالث هو القرن الذي ظهر فيه أثر المسلمين هناك مع كثرة عددهم، وإن كانت تحدد نهاية القرن السابع لحكم المسلمين لبعض جهات شمالي جزيرة سومطرة، مع أن كتب تاريخ الملايو توقّت عام ٦٠٢ لتسلم أول ملك مسلم حكم مملكة «آتشيه» في شمالي جزيرة سومطرة. ويقول الرحالة الإيطالي الذي زار المنطقة عام ٦٩٢ وهو «ماركو بولو»: (إن جميع سكان البلاد عبدة أوثان اللهم إلا في مملكة «برلاك» الصغيرة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر). ولا شك فإن سكان المدن هم الذين يحكمون المنطقة، وليس غريباً أن تكون المملكة مسلمة، ولا يزال في الغابات الكائنة في المرتفعات قبائل وثنية تأكل لحوم البشر.

وعندما وصل ابن بطوطة إلى المنطقة بعد نصف قرن تقريباً من ماركو بولو وجد الملك مسلماً ورعاياه كذلك، وقد وصف الملك ومشيه إلى الصلاة ورعاياه و. . . .

ويبدو أن المسلمين عندما زاد عددهم في النصف الأول من القرن السابع أسسوا بعض الممالك مثل «آتشيه» و «باساي» و «برلاك». ومن سومطرة الشمالية انتقل الإسلام إلى الأجزاء الجنوبية من الجزيرة، وإلى جاوه عن طريق الدعوة ومن أشهر الدعاة في جزيرة جاوه الشيخ إبراهيم الذي يعرف باسم الملك إبراهيم والذي توفي عام ٨٢٢هـ.

ومن الجزيرتين الكبيرتين «سومطرة» و «جاوه» انتقل الإسلام إلى باقي الجزر الأندونيسية فقد أسس شعب «بنغرماسين» مملكة في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة بورنيو، وعندما وصل الإسبان إلى تلك الجزيرة عام ٩٢٧ وجدوا ملك بروني مسلماً. ونستطيع أن نقول: إن الإسلام انتشر في القرن العاشر في باقي الجزر الأندونيسية، وخاصةً بعد أن سيطر البرتغاليون على مالاقا عام ٩١٧ اضطر المسلمون إلى تغيير الطريق من مالاقا إلى غربي سومطرة حيث يمر من مضيق الصوند بين جاوه وسومطره، وبهذا التغيير بدأ الإسلام ينتشر في بقية الجزر.

ومع اتساع رقعة الجزر الأندونيسية، وكثرة عددها، وانفصال بعضها عن بعض لذا فقد قام عدد من الإمارات فيها، منها:

١ ـ مملكة سومطرة التي زارها ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن الهجري.

٢ ـ مملكة بنتام في غربي جاوه: وقد أسسها السلطان حسن الدين عام ٩٧٦.

٣ ـ مملكة ديماك: وقامت في وسط جاوه، وأسسها رمضان فاطمي ٨٣٢.

ونستطيع أن نقول: إن القرن العاشر لم يكد ينتصف حتى كان الإسلام قد عمّ الجزر الأندونيسية، وإن كان الهنود من بقايا إمبراطورية ماجا فاهيت قد تجمعوا في جزيرة «بالي» الصغيرة.

جنوبي الفيليبين:

وصل الإسلام إلى تلك الجزر التي عرفت فيما بعد باسم الفيليبين عن طريق التجارة التي كانت تتم عن طريق الملايو وأندونيسيا، وربما كان وصول أوائل المسلمين إلى تلك الجهات يعود إلى عام ٢٧٠، ولما وجدوا الأرض بكراً وصالحة للدعوة بدأ الدعاة يفدون إليها، ثم انتقلوا إلى الجزر الوسطى من القرن الخامس، وبُني أول مسجد في جزر صولو عام ٦٧٩، وازداد إقبال الناس على الإسلام ورافق ذلك زيادة في قدوم الدعاة، وكان الدعاة والتجار عرباً، وهنوداً، وماليزيين، وأندونيسيين، ولم يأت القرن العاشر حتى كانت الجزر كلها تحت سيطرة إمارات مسلمة أشهرها في الشمال إمارة (رجا سليمان) التي كانت قاعدتها في مانيلا عاصمة البلاد الحالية، وهذا رغم قلة أعداد المسلمين في الشمال، أما في الجنوب فكان الحكام المحليون من المسلمين أيضاً، ويتبعون سلطنة «صولو».

في هذا الوقت وصل ماجلان كطليعة للغزو الصليبي، وقد عرض على السكان الديانة النصرانية فرفضوا منه ذلك فأراد أن يخضعهم بالقوة مستفيداً من أسلحة حديثة يمتلكها فالتقى معهم في معركة كان أول صريع فيها. وهكذا بدأ عهد جديد في البلاد ظاهره استعمار اقتصادي وحقيقته غزو صليبي.

الباب الخامس

المغرب والأندلس وغربي إفريقية

منذ أن فتح المسلمون الأندلس عام ٩٢ وهم وجهاً لوجه مع النصارى الإسبان بل مع نصارى أوروبا الذين يرغبون في استعادة ما فقدوه لا نستثني من ذلك بلاد المغرب وربما نتجاوز ذلك إلى مصر وبلاد الشام والمناطق التي كانت في حوزة الرومان يومذاك وقبله، بل ربما الحقد الصليبي الذي تحمله الكنيسة أو يرفع شعاره البابا كان يؤجج ذلك العداء. وكانت بلاد الأندلس هي أقرب المناطق لذلك الصراع لقربها من أوروبا أو لبعدها عن قلب بلاد الإسلام، ووقوعها على هامش تلك البلاد، وربما للصراع الذي كان يحدث على أرضها بين القبائل حسب أصولها، وبين الجماعات حسب أماكن قدومهم.

وإذا كانت الصليبية قد سكنت في المرحلة الأولى لقوة المسلمين إلا أنها حرصت أن تنهض مجرد أن تلمح ضعفاً منهم، وعندما حاولت أن تضرب ضربتها لما أحسّت أن الضعف بدأ يحلّ والتفرقة قد استشرت غير أنها وجدت دعماً للمسلمين من بلاد المغرب فتراجعت واتجهت نحو نقطةٍ أخرى على سواحل البحر المتوسط في بلاد الشام، ولكنها في الوقت نفسه زادت نقمتها على مسلمي المغرب لدعم إخوانهم الأندلسيين. وفي الوقت الذي احتدم فيه القتال في بلاد الشام ومصر لم يكن أهل المغرب في منأى عنه فقد دعموا إخوانهم في المشرق بالأساطيل، وكانت سفنهم تعترض سبيل الحملات الصليبية، وهذا ما زاد من حقد الصليبيين على مسلمي المغرب.

وفشلت الحملات الصليبية على المشرق أو على بلاد الشام ومصر،

وإن أحرزت نجاحاً جزئياً في أول عهدها، وعادت الكنيسة أو البابا يحرّض ويركّز على الأندلس، وقد زادت تفرقة المسلمين وعمّ اختلافهم، كما ضعف أمرهم في المغرب، ولم تكن حالهم في بقية الجهات أفضل حالاً. وانطلق الحاقدون من بلاد أوروبا المختلفة نحو الأندلس يحملون العداء الديني بل الحقد الصليبي مشحوناً بتبريك الكنيسة وتقديس البابا والرغبة بإزالة جرثومة الكفر - حسب اصطلاحهم - والطمع بالأسلاب والغنائم، والعمل على توحيد الإمارات النصرانية الإسبانية للوقوف صفاً واحداً في وجه المسلمين. وتداعى النصارى الأوروبيون على الأندلس وبلاد المغرب من كل جهةٍ بتركيز على الأندلس والهجمات المتتالية على السواحل المغربية. أما المسلمون فمع ما يرونه من سقوط مدينة بعد أخرى في الأندلس بيد النصارى إلا أنهم لم يعتبروا أبداً ولم يرعووا بل ظلوا في قتال بعضهم بعضاً، ومنهم من يطلب عون الطاغية النصراني ضد أخيه هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا القتال الذي كان يدور بينهم لم يكن في سبيل سيطرة أحدهم للوقوف في وجه العدو بعد أن يقوى أمره، ويشتدّ ساعده، ويوحّد الإمارات المسلمة المتقاتلة، وإنما كان في سبيل حكمه وإرضاء شهوته وأطماع نفسه، وربما لو كان في الأمر شيء من مصلحة الأمة لتعلل بعضهم بهذا على الأقل، ولكن لم يحدث هذا أبداً، وإنما يفكر كل منهم في إحراز النصر على خصمه، وإرغامه على قبول الدنية، والرغبة في الحياة، وكراهية الموت، فقد أصاب المسلمين كراهية الموت، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلةٍ بنا يومئذٍ؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم للموت»[1]. لذا كانت النتيجة أن سقطت الأندلس بيد النصارى، وزال عنها

---

(١) كنز العمال الجزء ١١ ص١٣٢ رقم الحديث ٣٠٩١٦، أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام رقم ٤٢٧٦.

المسلمون نهائياً، كما سيطر الإسبان والبرتغاليون على بعض الموانئ المغربية، وبدؤوا يدعمون حاكماً ضد آخر، ويضعون الشروط لمساعدة من يطلب منهم العون فيقبلها صاغراً.

ورغبت الدولة العثمانية التي وصلت إلى قوة كبيرة يومذاك أن تخفف ضغط النصارى عن المسلمين في الأندلس والمغرب فتقدّمت في أوروبا غير أن أهل الأندلس والمغرب قد وصلوا إلى درجة من الضعف لا يجدي معها تخفيف ضغط، ورأى العثمانيون الوصول إلى المغرب عن طريق البر والبحر لهذا الغرض لكن بعض الأمراء المسلمين هناك بدلاً من أن يمدوا يدهم لإخوانهم المسلمين من العثمانيين كانوا يطلبون دعم النصارى الإسبان لهم للوقوف في وجه العثمانيين ومحاربتهم.

الفصل الأول

بنو مرين في المغرب

يعود بنو مرين إلى بربر المغرب، من قبيلة زنانة، وكانت إقامتهم في بلاد القبلة، من زاب إفريقية إلى سجلماسة، يتنقلون في تلك الصحارى، لا يدخلون تحت حكم سلطان، ولا يؤدون ضريبةً لأحد، شغلهم الصيد والإغارة على أطراف البلاد، وعرف من رؤسائهم المخضب بن عسكر بن محمد، وقد قتل عام ٥٤٠ في بعض الحروب التي دارت بين عبد المؤمن بن علي والمرابطين، فانتقلت رئاسة القبيلة إلى ابن عمه أبي بكر بن حمامة، ومنه إلى ابنه أبي خالد محيو الذي قتل في صحراء الزاب عام ٥٩٢، ومنه إلى ولده عبد الحق الذي ولد في الزاب. ويبدو أن سنواتٍ عجافاً جاءت على مواطن هذه القبيلة فاضطر زعيمها أن ينتقل بها إلى المغرب الأقصى حيث المرعى والماء، واتجه إلى بلاد الريف، وأقام له حصناً عُرف باسم «تازوطا»، وكانت الكلمة هناك للموحدين لكن كانت شمسهم تغرب، فقاتلوا بني مرين حيث وجدوا فيهم قوةً يُرهب جانبهم، غير أنهم قد هزموا أمامهم عام ٦١٣ لحالة الضعف التي كانوا يمرون بها. وتقدّم عبد الحق نحو حصن تازة فتمكّن من دخوله، وقتل عامل الموحدين فيه، لكن هذه القوة لم تكتمل بعد إذ لم تلبث أن انقسمت إذ خرج على عبد الحق بعض رجاله من بني عسكر، وتقوّوا بقبائل بني رياح العربية في تلك الجهات، وقاتلوا عبد الحق غير أنه انتصر عليهم في معركة جرت في وادي (سبو) عام ٦١٤، وقُتل هو في النهاية فدفن قرب مكناس.

تولى زعامة بني مرين بعد مقتل زعيمهم عبد الحق ابنه عثمان الذي

كان معه في المعركة، فنظم أمر جماعته، ودعا القبائل إلى طاعته فبايعته هوّارة: وزكاوة، ومكناسة وغيرها، وفرض الضرائب السنوية على بعض المدن مثل فاس، ومكناس، وتازه، لتضمن شر غاراته، وليحمي أمنها، وقد قتل بيد أحد الذين رباهم صغاراً وذلك عام ٦٣٨، وتولّى أخوه محمد بن عبد الحق مكانه، وقد قاتله الموحدون بجيشٍ كبير في جهات مكناس فانتصر عليهم، وتكررت المعارك بينه وبينهم، وقد كبا جواده في آخرها عام ٦٤٢ فقتله أحد الجنود من الخصوم. وقام بالأمر بعده أخوه الثالث أبو بكر المكنّى بأبي يحيى، فأظهر الدعوة للحفصيين أصحاب تونس ليجد لنفسه سنداً ودعماً، واستطاع أن يدخل مكناس باسمهم عام ٦٤٣، ووصل النبأ إلى سلطان الموحدين المعتضد علي بن إدريس فخرج لقتاله عام ٦٤٥، ولما وجد أبو بكر جيشه قليلاً أمام جيش الموحدين انسحب من مكناس، وتوجّه نحو بلاد الريف حيث تحصّن فيها، وأرسل إلى المعتضد سلطان الموحدين يبايعه، وأرسل خمسمائة من جنوده ليكونوا في عداد جيش الموحدين، فقبل المعتضد منه هذا، ورجع عن قتاله، وبقي أبو بكر يترقب، فلما قتل المعتضد قرب تلمسان عام ٦٤٦، أسرع أبو بكر وقصد تلك الجهات، وانقضّ على بقايا الجيش الموحدي، ودخل مكناس، وافتتح حصون الملوية، وأطاعه أهل فاس وبايعه الناس باسم الحفصيين، ووطد الأمن في البلاد التي دانت له، وخرج لقتال بعض بطون زناتة فنقضت فاس العهد، فرجع ودخلها وقتل رؤوس الفتنة منها، واتخذها عاصمةً له. وجاءه سلطان الموحدين الجديد المرتضى المؤمني بجيش يزيد على الثمانين ألفاً، فصمد في وجهه عام ٦٥٣، وانتصر عليه في جبال بهلولة بجهات فاس، واستولى على معسكر الموحدين، وخضعت له بعدها سجلماسة، ودرعه، وبلاد تادلا، وبقي حتى توفي عام ٦٥٦، وخلفه ابنه عمر إلا أن عمه يعقوب قاتله فتنازل عمر لعمّه في العام نفسه.

كان يعقوب بن عبد الحق أمير تازة وملوية في عهد أخيه أبي بكر، فلما توفي أخوه، وخلفه ولده عمر ثار عليه، فتنازل عمر لعمه، فقام

يعقوب بالأمر، وهاجم بني عبد الواد في تلمسان، وظفر بهم، وأنقذ مدينة (سلا) من أيدي الإسبان، ثم نزل إلى الأندلس وجاهد فيها ضد النصارى عام ٦٦٠، ثم قاتل الموحدين وانتصر عليهم، وعندما انقسم الموحدون جاءه أبو دبوس (إدريس بن محمد) طالباً نصرته ضد المرتضى فساعده بخمسة آلاف من الجند، واستطاع أبو دبوس أن يدخل مراكش، إلا أنه ما لبث أن تنكر للأمير يعقوب، فسار يعقوب نحوه ودخل مدينة مراكش عام ٦٦٨، ثم قضى على دولة الموحدين عام ٦٧٤. كانت دعوة بني مرين للحفصيين ظاهراً، لما تولّى يعقوب قطع الخطبة لهم فأرسل له المستنصر الحفصي هدايا ثمينة لإعادة الخطبة فوافق على ذلك، وإن كانت ظاهرية أو شكلية. واستولى الأمير يعقوب على طنجة وسبتة عام ٦٧٢، وانتزع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد عام ٦٧٣، وسار عام ٦٧٤ لنجدة الأندلس ففتح كثيراً من الحصون، ثم رجع إلى مدينة فاس، وبنى المدينة البيضاء ملاصقةً لها، وانتقل إليها عام ٦٧٦، كما غزا في الأندلس ٦٧٩، ٦٨١، ٦٨٣، وتوفي فيها بالجزيرة الخضراء عام ٦٨٥.

خلف يعقوب ابنه يوسف فتنازل لسلطان بني نصر في الأندلس عن الثغور جميعها، وإن كان قد احتفظ برنده، وطريف، والجزيرة، وجاز بحر الزقاق لدعم بني نصر، ومنازلة طاغية الإسبان، وحصل على النصر، إلا أن سلطان غرناطة قد اتفق مع طاغية النصارى، وشجّعه على احتلال طريف، وفي الوقت نفسه فقد شجّع عمر بن يحيى الوطاسي للثورة في حصن (تازوطا)، فسار يوسف الذي تلقّب بالناصر إلى الحصن، واحتله، واعتذر سلطان غرناطة عما بدر منه فقبل منه الناصر، وعاد الاتفاق بينهما وتنازل له عن رنده، والجزيرة، وعشرين حصناً، وفي عام ٧٠٦ قتله أحد مماليكه، وهو يحاصر تلمسان، كما قتل ابنه أبو سالم يومذاك، واسمه عبد الله.

وبعد وفاة يوسف قام بالأمر حفيده عامر بن عبد الله أبو ثابت، وكان مع جده يوم قتل، فدعا لنفسه فبايعه عليه القوم، وعقد صلحاً مع بني زيان، وعارضه بعض أقاربه فقتلهم ومن ساعدهم، كما خرجت عليه جماعة

في سبتة فنهض لحربهم، وبنى مدينة (تطاوين) لتضييق الحصار على سبتة، وأقام بطنجة فمرض، ومات فيها عام ٧٠٨.

وخلفه أخوه سليمان أبو الربيع فأُخذت له البيعة في طنجة، وانتقل إلى فاس، فأشاد العمران، وخرج عليه وزيره عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي يدعو إلى بيعة عبد الحق بن عثمان، وكان بجهة تازة فخرج لحربه فمرض، ومات هناك عام ٧١٠هـ.

بويع بعد وفاة سليمان عم أبيه عثمان أبو سعيد بن يعقوب، وقد أسس داراً لصناعة السفن في (سلا) لإنشاء الأسطول لقتال الفرنج. وسار إلى ناحية تلمسان لقتال بني عبد الواد فسيطر على عدد من قرى تلمسان، واستقر في تازة، وأرسل ابنه عمر إلى فاس عام ٧١٤، وكان ولي عهده فخلع طاعة أبيه وقاتله، ثم ضعف أمر ابنه عمر فجاء إلى فاس، واستعاد ملكه، ثم مرض وتوفي عام ٧٣١.

تولّى أمر بني مرين بعد عثمان ابنه علي أبو الحسن الملقّب بالمنصور بالله، وكان يعرف عند العامة بالسلطان الأكحل لسمرة لونه إذ أن أمه حبشية. احتل الإفرنج جبل طارق فاستنجد بنو الأحمر به فأنجدهم وفتح الجبل وحصنه. وأبرم صلحاً مع أصحاب تلمسان من بني عبد الواد، فنكثوا العهد، فسار إليهم عام ٧٣٥، واستولى على وجدة، ووهران، ومليانة، والجزائر، وجدد بناء المنصورة قرب تلمسان، وكان عمه يوسف بن يعقوب قد اختطها ثم خرّبها بنو عبد الواد، ثم فتح تلمسان، ورجع إلى فاس فجهّز جيشاً بقيادة ابنه أبي مالك لجهاد الفرنجة في الأندلس، فاستشهد أبو مالك، فسار بنفسه، ونزل سبته، وجمع بها الأساطيل وهزم أسطول الفرنجة، ثم انتقل إلى الأندلس فحاصر طريف، وكانت بيد العدو، وجاءت جموع من الفرنجة كبيرة فهزم، ونجا ببعض جنوده عام ٧٤١ فرجع إلى الجزيرة الخضراء، فجبل طارق، فسبته واستأسد عليه الفرنجة، وأغرقوا أسطوله في البحر، واحتلوا الجزيرة الخضراء. ووصلت أخبار وفاة أبي بكر المتوكل على الله الحفصي عام ٧٤٧، فسار

إلى تونس ودخلها عام ٧٤٨، وانتهت دولة الحفصيين موقتاً، وعيّن عماله على تلك الجهات، ثم انتفضت عليه القبائل فهُزم، وسار إلى القيروان، ومنها تسلل إلى تونس، ثم صالح القبائل، ووصلت الأخبار إلى زناتة فانتفضت عليه بنو عبد الواد، وكان ابنه والياً على تلمسان من قبله، وهو فارس أبو عنان فدعا بالمنصورة فأخذ البيعة لنفسه، وسار إلى فاس فقاومه أخوه منصور بن علي فتغلّب عليه، وقتله، وملك فاس، أما السلطان فقد وصلت أخبار ولديه إليه فركب البحر في ستمائة مركب فجاءها الموج فغرق أكثرها عام ٧٥٠، ونجا هو فنزل على ساحل الجزائر، واتجه نحو تلمسان فقاتله بنو زيان، ونهبوا ما معه، فسار إلى الصحراء، ووصل إلى سجلماسة فأطاعه أهلها، وانتقل إلى مراكش فرحب به سكانها، وسار إلى فاس فتصدّى له ولده فارس أبو عنان، وهزمه وحمته قبيلة هنتانة، ومرض في أثناء ذلك ومات عام ٧٥٢، فحمل إلى ابنه، فأظهر ندمه على ما كان منه، ولكن حين لا ينفع الندم. وكان من جملة من ثار عليه أخوه عمر أبو علي، وكان قد انتفض على أبيه، وجرحه عام ٧١٤، ثم صالحه وولاه سجلماسة فانتفض عليه ثانيةً، ثم عفا عنه، ولما تولي أخوه أبقاه على سجلماسة فوثب على أخيه، وانتزع درعة منه، فقبض عليه وسجنه، ثم قتل في السجن.

بويع فارس أبو عنان بن علي في فاس عام ٧٤٩، ولما مات أبوه استتب له الوضع، حارب بني زيّان، ودخل تلمسان، وثار عليه أبو الفضل أخوه فتمكّن منه فسجنه، ثم قتل في سجنه عام ٧٥٤. وأخذ قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين عام ٧٥٨، وعاد إلى فاس، ومرض وقتله وزيره عام ٧٥٩.

وقبل مقتل أبي عنان بيومين أخذت البيعة لابنه أبي بكر، فتلقّب السعيد بالله، وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره، فحجبه وزير أبيه وقاتله حسن بن عمر الفودويّ، وتفرّد هو بالأمر. واختل حكم بني مرين، إذ بايعت تلمسان يعيش بن علي، وبايع آخرون منصور بن سليمان، وفر

يعيش بن علي إلى الأندلس، وزحف منصور نحو فاس، وظهر الأمير أبو سالم إبراهيم بن علي في بلاد غمارة، وبدت قوته، فأرسل إليه الوزير حسن بن عمر الفودوي بالطاعة، ودعاه إلى فاس، وأعلن عن استعداده لخلع الطفل أبي بكر، فأقبل أبو سالم، ودخل فاس، وخُلع السعيد بالله أبو بكر، وأرسل إلى الأندلس، وأغرق في الطريق عام ٧٦٠.

كان أبو سالم إبراهيم بالأندلس، بعثه إليها أخوه فارس أبو عنان، فاستقر بها إلى أن مات أبو عنان، وبويع لابنه الطفل، فجاء أبو سالم إلى المغرب، وساعده في الوصول إليها ملك قشتالة النصراني لأن رضوان وزير بني الأحمر الذي استبد بسلطان غرناطة قد رفض دعمه. نزل أبو سالم في مدينة سبتة، ومنها انتقل إلى طنجة، ودعا هناك لنفسه فبايعه أهل طنجة، وعندما قوي أمره اتجه نحو فاس غير أنه هُزم أمام منصور بن سليمان، لكن جماعة منصور لم تلبث أن انفضت من حوله وقتل، وهذا ما سهل لأبي سالم من الوصول إلى فاس حيث كان الوزير حسن بن عمر الفودوي من أول المبايعين له، واستقبله، وخلع الطفل أبا بكر ابن أخي وأبي سالم، وتسمّى أبو سالم بالمستعين بالله.

شعر أبو سالم بسوء النية من الوزير فولاه مراكش إبعاداً له عن فاس، فانتقل الوزير إلى بلاد تادلا، وأظهر العصيان. واتجه السلطان أبو سالم إلى تلمسان، واستولى عليها، وتركها صاحبها أبو حمو واتجه نحو الصحراء، ومنها سار إلى جهات فاس فعاث فيها الفساد، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر تلمسان بعد أن ولّى عليها أبا زيان محمد بن عثمان الذي هرب منها عندما رجع إليها صاحبها الأول أبو حمو. ولم يستطع أبو سالم دخول فاس لأنه في غيابه عنها قد بويع أخوه تاشفين، وتفرّق عن أبي سالم رجاله فاختفى، ولكن قبض عليه بعض رجالات الحكم فحمل إلى فاس حيث لقي مصرعه عام ٧٦٢.

بويع تاشفين بن علي المكنّى بأبي عمرو، وهو مختل العقل، إذ كان قد أسر في معركة طريف في أيام أبيه فأصيب بعقله، وبعد ثلاثة أشهر من بيعته ثار عليه كبار بني مرين وخلعوه.

كان أبو حمو صاحب تلمسان يثير على السلطان أبي سالم أبناء عمه عمر أبي علي، وهم: عبد الحليم، وعبد المؤمن، وابن أخيهما عبد الرحمن بن علي بن عمر، وكانوا في الأندلس، فأُطلقوا من الأسر، فساروا إلى تلمسان، فأكرمهم أبو حمو، وفي هذا الوقت قتل السلطان أبو سالم، فرشح أبو حمو لحكم فاس عبد الحليم بن عمر، فسار إلى المغرب، ولكنه هُزم أمام الوزير عمر بن عبد الله الفودوي.

رشح الوزير عمر بن عبد الله إلى ملك فاس أبا الحسن محمد بن أبي عبد الرحمن، وكان معتقلاً عند الطاغية النصراني فأطلق سراحه بناءً على طلب ابن الأحمر، وجاء إلى المغرب عن طريق سبته فطنجة، وسار الوزير للقائه واستقباله في مطلع عام ٧٦٣، وسار به إلى فاس، وكان عبد الحليم بن عمر يومذاك في تازة فأرسل إليهما أخاه عبد المؤمن بن عمر، وابن أخيه عبد الرحمن بن علي المعروف بأبي يفلوس فتصدى لهما الوزير عمر بن عبد الله فهزمهما فعادا إلى تازة، ومنها ساروا مع عبد الحليم إلى سجلماسة، وكانت في طاعتهم فلحق بهم الوزير، وتمكّن أن يحتل سجلماسة، وأن يجلي عنها عبد الحليم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، ورجع عبد الحليم إلى مقرّه في سجلماسة. . . وبعد مدةٍ ترك الأمر لأخيه عبد المؤمن، وسار إلى الحج عن طريق السودان الغربي، وتوفي وهو آيب في الإسكندرية عام ٧٦٦.

تولّى أبو الفضل بن أبي سالم أمر مراكش ومنطقة المصامدة، وبدأ يتصرف فيها كأنه مستقل، وإن كان الذي يسيّره وزيره عامر الذي استقدم عبد المؤمن بن عمر لبيعته. وأحس الوزير عمر بن عبد الله بالخطر فخرج من فاس، ودعا عبد الرحمن بن علي أبا يفلوس للإيقاع بين أولاد عمر أبي علي، واختل وضع بني مرين، وفّر عبد الرحمن بن علي أبو يفلوس إلى الأندلس، وعاد الوزير عمر بن عبد الله إلى بيعة سلطانه الأول محمد بن أبي عبد الرحمن، وحارب الوزير عامر في مراكش الذي عاد فاعتقل عبد المؤمن.

وفي عام ٧٦٨ استدعى الوزير أحد أبناء بني مرين وهو أبو فارس عبد العزيز بن السلطان علي أبي الحسن وبايعه، وقتل السلطان السابق محمد بن أبي عبد الرحمن، واستطاع الجديد أن يتخلّص من وزيره عمر بن عبد الله المستبد بالسلاطين إذ قتله وأسرته.

أما في مراكش فقد أراد أبو الفضل بن أبي سالم أن ينتهي من وزيره عامر غير أن هذا الوزير قد صحا لنفسه، وتظاهر بالمرض، واستأذن الأمير بالسفر إلى أهله حيث اعتصم بالجبال هناك، وتمكّن أبو الفضل من قتل عبد المؤمن، وهذا ما أرعب عامر فاتصل بالسلطان عبد العزيز وبايعه، وأغراه بأبي الفضل وبملك مراكش، ووعده بالنصر، فسار عبد العزيز من فاس إلى مراكش، وتمكّن من السيطرة عليها، والقبض على أبي الفضل، ولكن عامراً لم يلبث أن أظهر الخلاف، ونصّب أميراً اسمه تاشفين، غير أن عبد العزيز قد تمكّن من قتلهما.

واختلف النصارى بعضهم مع بعض في الأندلس فاستغل سلطان غرناطة ابن الأحمر هذا الاختلاف، وهاجم المناطق التي يسيطر عليها النصارى، وأنجده السلطان عبد العزيز في استرجاع الجزيرة الخضراء. كما سار السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واحتلها عام ٧٧٢، وفرّ منها صاحبها أبو حمو ولحق بالصحراء، ورجع السلطان إلى فاس فعاد أبو حمو إلى تلمسان، فسار إليه السلطان ثانيةً عام ٧٧٤، ودخلها وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين، وأصاب المرض السلطان وتوفي في ذلك العام ٧٧٤، وبويع من بعده لابنه السعيد، وعاد أبو حمو إلى تلمسان، وقضى على إبراهيم بن تاشفين. وقد استبد بالسلطان الجديد السعيد وزيره أبو بكر بن غازي.

اعتقل السلطان عبد العزيز ابن عمه عبد الرحمن أبا يفلوس وأرسله إلى ابن الأحمر، فعندما مات السلطان عبد العزيز بايع ابن الأحمر لحكم فاس أبا العباس أحمد بن أبي سالم الذي كان في طنجة، كما أرسل إلى

المغرب عبد الرحمن أبا يفلوس ووفق بينهما، وسار الاثنان نحو فاس فتصدى لهما الوزير أبو بكر بن غازي لكنه هُزم أمامهما، وتمكنا من دخول فاس وتسلم أبو العباس حكمها، وتولى عبد الرحمن إمرة مراكش واتجه نحوها. وتلقّب أبو العباس بالمستنصر، وقبض على السلطان السعيد، وأرسله إلى ابن الأحمر في الأندلس. ولكن عبد الرحمن في مراكش أظهر الخلاف لأبي العباس مرتين وجرى بينهما صلح غير أن علي بن زكريا أكبر أنصار عبد الرحمن قد ثار عليه وفتك به.

تنكر ابن الأحمر الغني بالله لأبي العباس عام ٧٨٦،فجهّز موسى بن أبي عنان وأرسله إلى سبته فاستولى عليها، وسلّمها إلى ابن الأحمر، ثم سار إلى فاس ودخلها وأعطى الأمان لأبي العباس، ثم اعتقله وأرسله إلى ابن الأحمر حيث بقي هناك حتى عام ٧٨٩، ثم نشب خلاف بين السلطان ووزيره فأرسل الوزير إلى ابن الأحمر يرجوه إرسال أبي العباس ودعمه لإعادته إلى الحكم، ثم عاد فرجاه باستبقاء أبي العباس، وإرسال محمد بن أبي الفضل. . . وفي هذه الأثناء توفي السلطان موسى بعد أن حكم ثلاث سنوات، وبويع المنتصر بن أبي العباس. وفي تونس كان الحسن بن الناصر بن أبي علي فاتجه إلى المغرب يطلب الملك وذلك بعد حكم موسى فلما اقترب منها كان السلطان موسى قد توفي وأخذت البيعة للمنتصر فرجع الحسن من حيث أتى.

جاء محمد بن أبي الفضل إلى المغرب، ووصل إلى فاس واستلم حكمها، ونُحي المنتصر عنها، وتلقّب محمد بن أبي الفضل بالواثق بالله، واستقر له الوضع، ثم عاد الخلاف فوقع بين ابن الأحمر والوزير المغربي، فأطلق ابن الأحمر سراح أبي العباس وأرسله إلى المغرب فتمكن من دخول فاس، وخلع الواثق بالله، كما اتجه إلى تلمسان ودخلها، وخرج منها صاحبها أبو حمو فاراً إلى الصحراء. وولى أبو العباس ابنه المنتصر على مراكش فاستقل بها، وتوفي أبو العباس عام ٧٩٦.

تولّى بعد أبي العباس ابنه أبو فارس عبد العزيز الملقب بالمنتصر، وبقي في الملك حتى عام ٧٩٩، حيث خلفه أخوه عبد الله أبو عامر الملقب بالمستنصر، ولم تزد أيامه على السنة كثيراً إذ توفي عام ٨٠٠، وخلفه أخوه الثالث عثمان أبو سعيد، وقد ترك أمر الملك لوزرائه، وفي أيامه استولى البرتغاليون على سبته عام ٨١٨، وأخيراً قتله وزيره عبد العزيز اللبابي عام ٨٢٣.

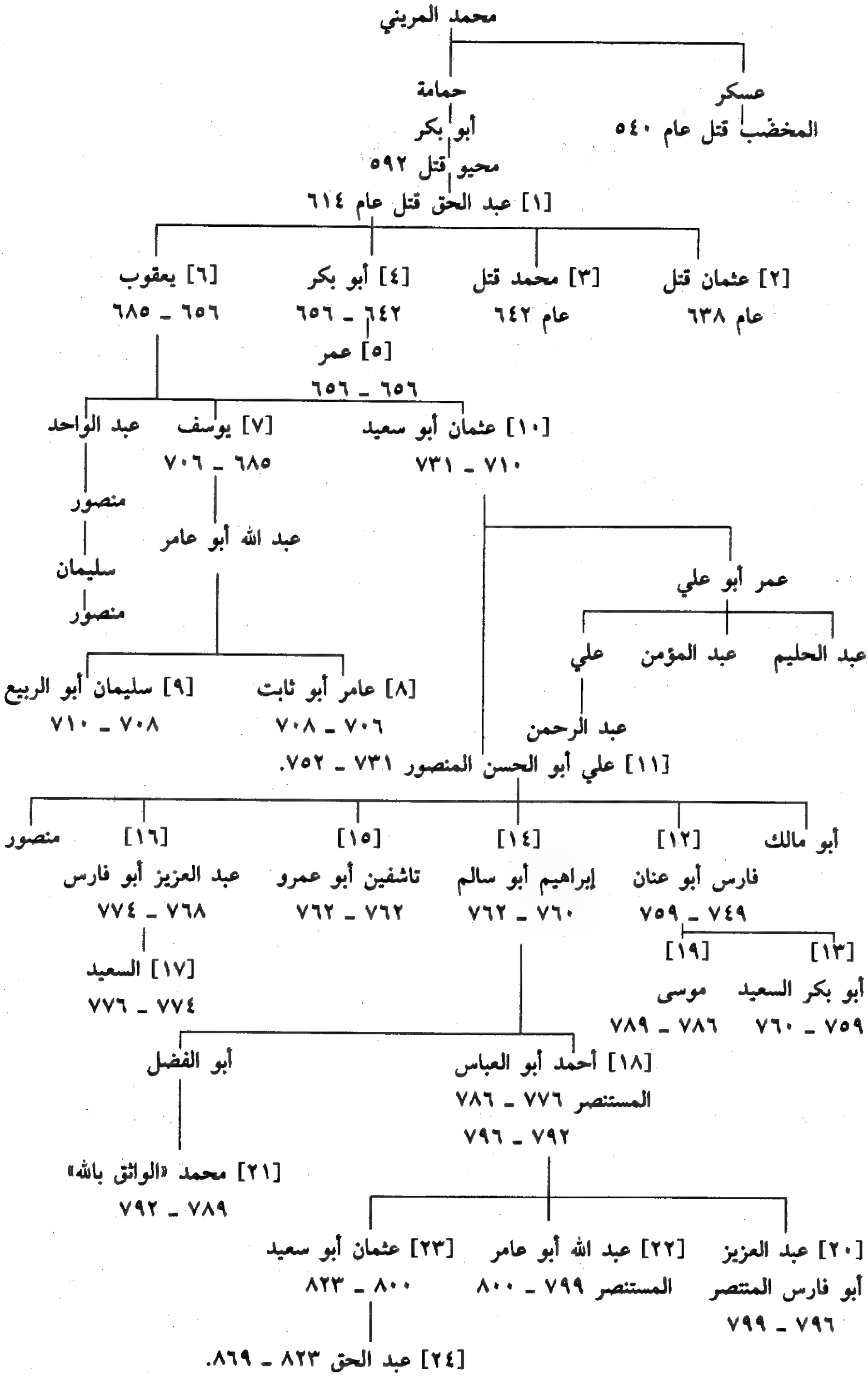
تولى بعد عثمان ابنه عبد الحق، وترك الأمر لوزرائه مثل أبيه، وقد استوزر يحيى بن زيان الوطاسي الذي قتل عام ٨٥٢، وقام مكانه ابن أخيه علي بن يوسف بن زيان الوطاسي الذي توفي عام ٨٦٥، وبموته قامت الفتن في بلاد المغرب حيث خلفه يحيى بن يحيى بن زيان الوطاسي فلما شعر السلطان عبد الحق باستبداد آل وطاس بالأمر دونه قتل وزيره يحيى وجمهور آل وطاس عام ٨٦٦، واستوزر يهوديين فاعتزّ يهود فاس، وضرب أحدهما امرأة فاستغاثت فثار الناس وعملوا قتلاً باليهود، ونادوا بخلع السلطان، وولوا أمرهم الشريف أبا عبد الله الحفيد[1]، وكان السلطان غائباً فلما عاد إلى المدينة قُبض عليه وقُتل وانقرضت دولة بني مرين بمقتله وذلك عام ٨٦٩. وفي عهد عبد الحق هذا استولى البرتغاليون على قصر المجاز.

بعد مقتل عبد الحق بويع الشريف أبو عبد الله إماماً وسلطاناً، وبقي في منصبه حتى هاجمه محمد الشيخ الوطاسي فدافع زمناً، ثم استسلم، وخلع عام ٨٧٥ فأقام قليلاً ثم رحل إلى تونس. وفي أيامه استولى البرتغاليون على مدينة آصيلا.

ثم جاء الوطاسيون الذين يعدّون من المرينيين لذا فإن دولتهم كأنها تتمة لدولة بني مرين.

---

(١) هو محمد بن علي الأدريسي الجوطي العمراني، أصله من قرية الجوطة على نهر السبو. وكان بنو عمران أوضح الأدارسة، نسباً وكان يومئذ نقيب الأشراف.


محمد المريني
عسكر
المخضّب قتل عام ٥٤٠
حمامة
أبو بكر
محيو قتل ٥٩٢
[١] عبد الحق قتل عام ٦١٤
[٢] عثمان قتل عام ٦٣٨
[٣] محمد قتل عام ٦٤٢
[٤] أبو بكر ٦٤٢ ـ ٦٥٦
[٥] عمر ٦٥٦ ـ ٦٥٦
[٦] يعقوب ٦٥٦ ـ ٦٨٥
[١٠] عثمان أبو سعيد ٧١٠ ـ ٧٣١
[٧] يوسف ٦٨٥ ـ ٧٠٦
عبد الواحد
منصور
سليمان
منصور
عبد الله أبو عامر
[٨] عامر أبو ثابت ٧٠٦ ـ ٧٠٨
[٩] سليمان أبو الربيع ٧٠٨ ـ ٧١٠
عمر أبو علي
عبد الحليم
عبد المؤمن
علي
عبد الرحمن
[١١] علي أبو الحسن المنصور ٧٣١ ـ ٧٥٢.
أبو مالك
[١٢] فارس أبو عنان ٧٤٩ ـ ٧٥٩
[١٤] إبراهيم أبو سالم ٧٦٠ ـ ٧٦٢
[١٥] تاشفين أبو عمرو ٧٦٢ ـ ٧٦٢
[١٦] عبد العزيز أبو فارس ٧٦٨ ـ ٧٧٤
منصور
[١٣] أبو بكر السعيد ٧٥٩ ـ ٧٦٠
[١٩] موسى ٧٨٦ ـ ٧٨٩
[١٧] السعيد ٧٧٤ ـ ٧٧٦
[١٨] أحمد أبو العباس
المستنصر ٧٧٦ ـ ٧٨٦
٧٩٢ ـ ٧٩٦
أبو الفضل
[٢١] محمد «الواثق بالله» ٧٨٩ ـ ٧٩٢
[٢٠] عبد العزيز
أبو فارس المنتصر
٧٩٦ ـ ٧٩٩
[٢٢] عبد الله أبو عامر
المستنصر ٧٩٩ ـ ٨٠٠
[٢٣] عثمان أبو سعيد
٨٠٠ ـ ٨٢٣
[٢٤] عبد الحق ٨٢٣ ـ ٨٦٩.

بنو وطاس

بنو وطاس فرع من بني مرين ولكنهم ليسوا من بني عبد الحق سلاطين فاس، وجميعهم من زناتة وكانت بلاد الريف أيام دولة بني مرين لبني وطاس، وفي أيام عبد الحق بن عثمان أصبح بعض رجالات بني وطاس وزراء لهم، وقد استبدوا بالأمر أو أن السلطان عبد الحق قد ترك لهم الأمر، وعندما خشي منهم على سلطانه قتل وزيره وأكثر بني وطاس بحيث لم ينج منهم إلا القليل، غير أنه قتل عام ٨٦٩، وقام بالأمر نقيب الأشراف.

قام أحد بني وطاس وهو محمد بن يحيى بن زيان الوطاسي المكنى بأبي زكريا والمعروف بالشيخ وهو ممن نجا من مذبحة عام ٨٦٦، وهاجم فاس، وكان بدء حركته من بلدة آصيلا فعندما غادرها استغل البرتغاليون غيابه واحتلوها فعاد إليها فلم يتمكن من دخولها فعقد هدنة مع البرتغال ورجع إلى فاس، واستطاع السيطرة عليها فخلع نقيب الأشراف، واستلم الحكم عام ٨٧٥، وأسس دولة بني وطاس، وطالت أيامه، وسقطت الأندلس في أيامه بيد النصارى الإسبان عام ٨٩٧ وانتقل سلطان غرناطة أبو عبد الله بن الأحمر إلى المغرب حيث نزل لاجئاً في فاس عند محمد بن يحيى الوطاسي. واستولى البرتغاليون على ساحل البريجة عند أزمور عام ٩٠٧، كما استولوا على ساحل بلاد السوس، وبنوا حصن «فونتي» بقرب المكان الذي قامت فيه بعد ذلك مدينة «أغادير» وبقي محمد بن يحيى الوطاسي في الحكم حتى توفي عام ٩١٠.

وخلفه ابنه محمد بن محمد فحاول استرداد مدينة آصيلا من البرتغاليين، ولكنه عجز عن ذلك، وإن خربها، وزاد توسع البرتغاليين فاستولوا على «أزمور» و «المعمورة» وشرعوا في تجديد بناء مدينة «آنفي» التي سميت الدار البيضاء. وفي أيامه ظهر السعديون في بلاد السوس، ومراكش، وهاجم مراكش لكنه عجز عن فتحها، وبقي حتى توفي عام ٩٣٢، وقد عُرف بالبرتقالي.

وخلفه أخوه علي بن محمد أبو الحسن (أبو حسون) ويُعرف بالبادسي، وقد ثار عليه ابن أخيه أحمد بن محمد المكنى بأبي العباس، واعتقله، وأشهد عليه بخلع نفسه في آخر عام ٩٣٢ أي لم يستمر حكمه سوى عدة أشهر، وقام مكانه، واتفق مع السعديين على أن تكون تادلا الحد الفاصل بين الدولتين وذلك عام ٩٤٠، غير أن الحرب قد جددت بين الطرفين عام ٩٤٢ وانهزم الوطاسيون فيها، وعقد صلحاً مع البرتغاليين ليتفرّغ لقتال السعديين وذلك عام ٩٤٣ غير أنه انهزم أمامهم، وتمكنوا من دخول فاس عام ٦٥٦ وأسروه حيث حمل إلى مراكش، وظل معتقلاً فيها حتى توفي عام ٩٦٠، وقيل: إنه قتل في درعه التي أرسلها إليها.

أما علي بن محمد المعتقل فقد فرّ من وجه السعديين عندما دخلوا فاس عام ٩٥٦، واتجه إلى ثغر الجزائر حيث اتصل هناك بالعثمانيين، وكانوا قد دخلوا المغرب الأوسط فدعموه لاسترجاع فاس، وجاء معه صالح باشا التركماني، واستولوا على فاس عام ٩٦١، وتولى أمرها الوطاسي، وبقيت معه قوة من العثمانيين، ليقدم لهم ما اتفقوا عليه من مال، وحدثت بعض التعديات فاشتكى الأهلون منها فدفع الوساطي المال للقوة العثمانية وغادرت فاس، فانتهز السعديون هذا وهاجموا فاس ودخلوها، وقتل علي بن محمد الوطاسي، وانتهت هذه الدولة أوزال بنو مرين نهائياً.

الفصل الثاني

بنو زيان "عبد الواد" في المغرب الأوسط

كانت قبيلة بني عبد الواد تقيم بالقرب من مدينة تلمسان، وكان شيخها جابر بن يوسف بن محمد بن زجدان من بني عبد الواد، وقد أساء والي تلمسان الحسن بن حيان الكومي إلى هذه القبيلة إذ اعتقل رؤساءهم، فشفع بهم إبراهيم بن إسماعيل الصنهاجي من لمتونة، غير أن الوالي قد ردّ شفاعته، فأخذت الحمية إبراهيم فجمع قومه، وقتل الوالي، وأطلق بني عبد الواد، وخلع طاعة الموحدين، لكنه لم يلبث أن خاف منهم فأراد الغدر بهم، وربما كان للاعتذار عما قام به، فدعا وجهاءهم إلى وليمة، غير أنهم قد أحسوا بذلك فقبضوا عليه، ودخل جابر بن يوسف من بني عبد الواد مدينة تلمسان عام ٦٢٧، وضبط أمورها، وعاد فدعا للموحدين، وبايعته المنطقة إلّا بلدة «ندروما» فسار إليها، وحاصرها، ورماه يوسف الغفاري التلمساني بسهم في أثناء الحصار فقتله عام ٦٢٩، وتولّى مشيخة القبيلة بعده أخوه عثمان، ولم يلبث أن خلع بعد سنتين عام ٦٣١، فانتقلت المشيخة إلى ابن عمه زيّان بن ثابت، واستمرت في أسرته من بعده لذا عرفوا ببني زيان بعد أن كانوا يعرفون ببني عبد الواد. ولم تطل أيام زيان أكثر من سنتين فقام بعده ابنه زيدان، فثار عليه بنو مطهر، واتفقوا مع بني راشد ضده، وكانت معارك بين الطرفين قتل فيها زيدان عام ٦٣٣ خارج مدينة تلمسان، فقامت بالأمر زوجته عدة أشهر، ثم قام أخوه يغمراسن بن زيان في العام نفسه، وعندما ثار يحيى أبو زكريا الحفصي في تونس ضد الموحدين، وقطع الخطبة عنهم، وأراد امتلاك مراكش سار نحو الغرب عام

٦٣٩، ورغب في ضم تلمسان إليه، فخرج يغمراسن بن زيان منها، واتجه نحو الصحراء، ثم تصالحا، وعاد كل منهما إلى موطنه. وفي عام ٦٤٦ اتجه السلطان السعيد الموحدي لقتال يحيى أبي زكريا الحفصي، فابتعد عنه يغمراسن محبةً في السلم، غير أن السعيد اتجه نحوه فقاتله يغمراسن، وانتصر عليه، وقتله، وربح كل ما في المعسكر الموحدي، وكان ذلك بدء استقلاله، وبقي حتى عام ٦٨١، فكانت مدة سلطته أربعاً وأربعين سنة وخمسة أشهر. وكان ولي عهده ابنه يحيى الذي تولى أمر سجلماسة غير أنه توفي قبله عام ٦٦٠، ويعدّ يغمراسن السلطان الأول من بني زيان.

خلف يغمراسن ابنه الثاني عثمان أبو سعيد، وزادت قوة الدولة في أيامه إذ وصلت حدودها إلى بجاية، وهاجمه السلطان المريني يوسف بن يعقوب عام ٦٨٩، فانتصر عليه أبو سعيد، وكرر يوسف هجماته على أبي سعيد عام ٦٩٥، و ٦٩٦، و ٦٩٧ وفشل المرينيون في هذه الهجمات كلها، وأخيراً تمكنوا من الوصول إلى تلمسان وإلقاء الحصار عليها، فانفضت القبائل عن عثمان أبي سعيد الزياني لشدة الحصار، واشتداد الجوع، وقلة الحاجيات، وتوفي أبو سعيد وعاصمته محاصرة وذلك عام ٧٠٣.

تولى بعد عثمان أبي سعيد ولده محمد أبو زيان الأول، فتسلم الأمر، وهو محاصر من سلطان بني مرين يوسف بن يعقوب. . . وطال الحصار، وضاقت على الناس الحياة فخرج أبو زيّان على أعدائه المحاصرين له عام ٧٠٦ ومعه بعض أعيان تلمسان، ووثب عبد على سلطان بني مرين فطعنه بخنجر أرداه قتيلا، وبرز أبو زيّان فقتل ابن السلطان المريني، وعقد الصلح مع حفيده عامر أبي ثابت بن عبد الله، وفُكّ الحصار عن تلمسان بعد أن دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر، ونهض أبو زيان وأخوه أبو حمو، فأعادا طاعة القبائل. ولم تطل أيام أبي زيان إذ هلك في العام التالي ٧٠٧.

خلف أبا زيان أخوه موسى أبو حمو الأول فتمكّن من صد بني مرين، وتوسع نحو الشرق فأخذ من الحفصيين بجاية وقسنطينة، وفي عام

٧١٨ قتله ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الأول، وحلّ مكانه، وصالح بني مرين إلا أن الخلاف عاد فوقع، فسار السلطان المريني المنصور بالله علي أبو الحسن إلى تلمسان عام ٧٣٥، وفتحها، وقُتل أبو حمو على أبواب القصر عام ٧٣٧، وأصبحت تلمسان تتبع أبا الحسن المريني، وقد ولّى عليها ابنه فارساً أبا عنان. وبعد أن سار أبو الحسن إلى تونس انتفض بنو زيان عليه في تلمسان، وخرج منها ابنه فارس الذي كان نائباً، خرج داعياً لنفسه واتجه نحو فاس.

وبرز من بني زيان عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن إلّا أنه قد هُزم أمام أبي عنان سلطان فاس المريني الذي دخل تلمسان عام ٧٥٣، وبرز كذلك عثمان بن عبد الرحمن، وابن أخيه موسى أبو حمو الثاني[1] الذي أصبحت له السيادة التامة على بني زيان، وهذا ما أزعج ابن عمه محمداً أبا زيان الثاني فناصر سلطان فاس المريني أبا سالم إبراهيم الذي سار إلى تلمسان عام ٧٦١ ودخلها وولّى عليها من قبله أبا زيان بن عثمان، ولكن ما أن رجع أبو سالم إلى فاس حتى رجع أبو حمو إليى قاعدته وخرج منها أبو زيان الذي قويت شوكته بعد مدة فزحف نحو تلمسان عام ٧٦٦ غير أن رجاله قد تفرّقوا عنه فلجأ إلى وادي ملوية وانقطع خبره، واستتب الوضع لأبي حمو إلا أن بني مرين كانوا يقاتلونه، ويدخلون مقر حكمه فيضطر إلى الفرار نحو الصحراء، فقد سار السلطان عبد العزيز المريني نحو تلمسان عام ٧٧٢ ودخلها وخرج أبو حمو منها متجهاً نحو الصحراء، فلما رجع السلطان عبد العزيز إلى فاس عاد أبو حمو إلى مقره، وسار السلطان عبد العزيز مرةً ثانية إلى تلمسان ودخلها عام ٧٧٤، وولّى عليها إبراهيم بن تاشفين وقفل راجعاً إلى فاس، وكان أبو حمو قد تغيّب في الصحراء، فما

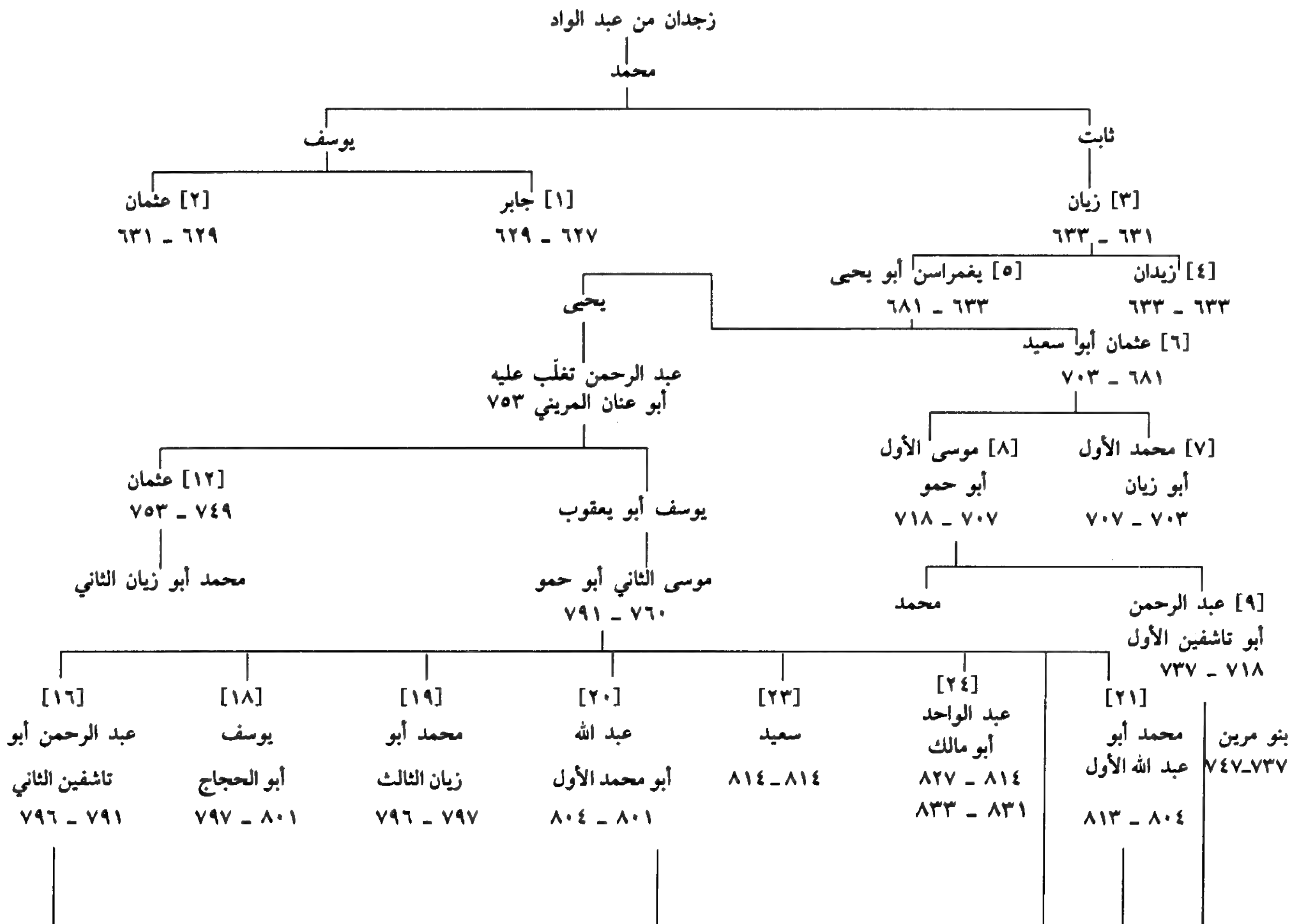
---

(١) موسى أبو حمو الثاني بن يوسف: ولد في غرناطة عام ٧٢٣ حيث كان أبوه منفياً إليها، ورجع أبوه في عام ولادة ابنه، واتجه إلى تونس، وأعانه بنو حفص لاسترداد الملك، فجمع حوله الجموع وهاجم أطراف قسنطينة، وزحف نحو فاس، واستولى رجاله على أغادير، ودخل تلمسان عام ٧٦٠.

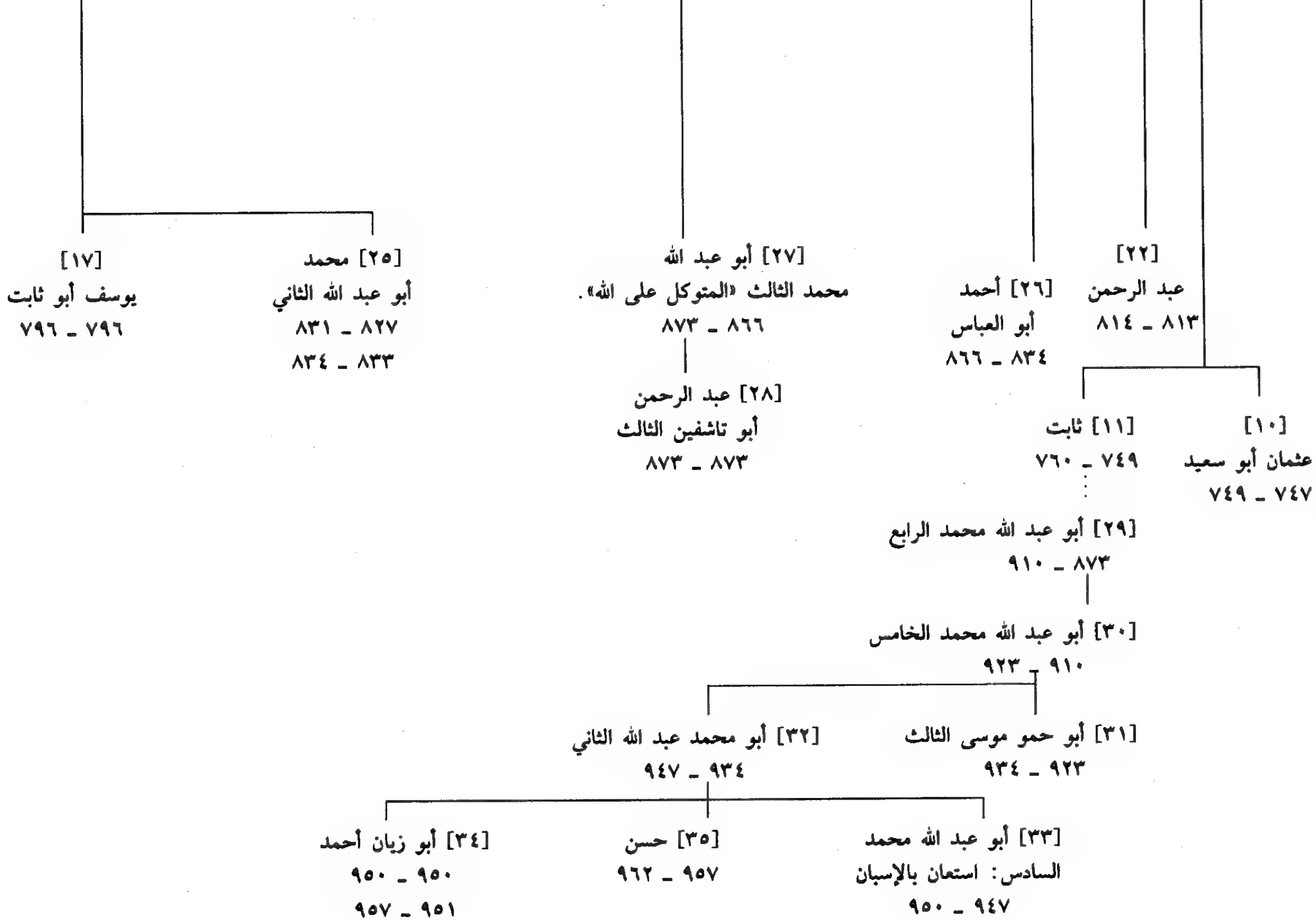
أن رجع جيش بني مرين حتى استردّ أبو حمو تلمسان وقضى على إبراهيم بن تاشفين، وكذلك دخل سلطان فاس محمد أبو الفضل تلمسان في أواخر أيام أبي حمو الذي فرّ إلى الصحراء كعادته ورجع بعد رجوع محمد أبي الفضل، وخرج على أبي حمو ابنه عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني فاضطر إلى قتاله، فاتجه أبو تاشفين إلى بني مرين، وجاء بجيش وقتل أباه أبا حمو عام ٧٩١، وتسلّم حكم تلمسان مكانه.

واستمر حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حتى عام ٨٧٣ أي ما يزيد على ثمانين سنة، وكانت مرحلة ضعف واختلاف فيما بينهم، فقد حكم بعد أبي حمو ابنه وقاتله عبد الرحمن أبو تاشفين الثاني، واستمر حتى عام ٧٩٦، وخلفه ابنه يوسف أبو ثابت، ولم تطل أيامه إذ توفي في السنة نفسها وبويع بعده عمه يوسف أبو الحجاج بن أبي حمو وقتل بعد سنة، وبويع بعده أخوه محمد أبو زيان الثالث، وانتزع منه السلطة أخوه عبد الله أبو محمد الأول عام ٨٠١ بعد أن جاء بجيشٍ من بني مرين، فهُزم أبو زيان، وفرّ جريحاً، ثم قُبض عليه، وقتل، وبقي عبد الله في الحكم حتى عام ٨٠٤ فجاءه أخوه الآخر محمد أبو عبد الله الأول بجيش من بني مرين أيضاً إذ كان من أتباع السلطان عثمان المريني كأخيه، وتمكّن من دخول تلمسان عام ٨٠٤، وقبض على أخيه عبد الله، وأرسله إلى فاس مقر حكم بني مرين، وبقي محمد في السلطة حتى عام ٨١٣ حيث خلفه ابنه عبد الرحمن ولم تطل أيامه إلى السنة، وقام مكانه عمه سعيد بن أبي حمو فكان مثله قليلة أيامه، وتولى بعده أخوه عبد الواحد أبو مالك بن أبي حمو فحكم في المرة الأولى ثلاث عشرة سنة (٨١٤ ـ ٨٢٧) ثم خلع، فخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله الثاني بن أبي تاشفين فحكم أربع سنوات ثم خلع، وأعيد عبد الواحد أبو مالك لمدة سنتين وبعده أعيد ثانية ابن أخيه لمدة سنة واحدة (٨٣٣ ـ ٨٣٤)، ثم جاء عمه أحمد أبو العباس بن أبي حمو فدام حكمه اثنتين وثلاثين سنة (٨٣٤ ـ ٨٦٦)، ثم خلفه ابن أخيه أبو عبد الله محمد الثالث لمدة سبع سنوات (٨٦٦ ـ ٨٧٣)، وخلفه ابنه

عبد الرحمن أبو تاشفين الثالث، وكانت أيامه قصيرة لم تتعد الأشهر، وبه انتهى حكم أولاد أبي حمو وأحفاده حيث انتقلت السلطة إلى أبناء عمومتهم. فتسلم الأمر أبو عبد الله محمد الرابع من أحفاد ثابت بن أبي تاشفين الأول، واستمر مدة (٨٧٣ ـ ٩١٠)، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس (٩١٠ ـ ٩٢٣)، وتلاه ولده موسى أبو حمو الثالث (٩٢٣ ـ ٩٣٤) فأخوه أبو محمد عبد الله الثاني (٩٣٤ ـ ٩٤٧)، وكان قد قوي أمر العثمانيين إذ بسطوا نفوذهم على أجزاء من المغرب الأوسط، وفي الوقت نفسه قوي نفوذ الإسبان وسيطروا على بعض المرافئ الساحلية، وضعف أمر بني زيان كثيراً، وخلف عبد الله أبا محمد الثاني ولده أبو عبد الله محمد السادس، وقد استعان بالإسبان، غير أن الحملة الإسبانية قد هلكت بعد وهران بعدة كيلومترات، وقام بعده أخوه أحمد أبو زيان فحكم ما يقرب من سنة (٩٥٠)، ثم خلع، وأعيد لمدة ست سنوات (٩٥١ ـ ٩٥٧)، وقد خلفه أخوه الحسن الذي انتهى به بنو زيان عام ٩٦٢.



زجدان من عبد الواد
محمد
يوسف
ثابت
[٢] عثمان
٦٢٩ ـ ٦٣١
[١] جابر
٦٢٧ ـ ٦٢٩
[٣] زيان
٦٣١ ـ ٦٣٣
[٤] زيدان
٦٣٣ ـ ٦٣٣
[٥] يغمراسن أبو يحيى
٦٣٣ ـ ٦٨١
يحيى
[٦] عثمان أبو سعيد
٦٨١ ـ ٧٠٣
عبد الرحمن تغلّب عليه
أبو عنان المريني ٧٥٣
[٧] محمد الأول
أبو زيان
٧٠٣ ـ ٧٠٧
[٨] موسى الأول
أبو حمو
٧٠٧ ـ ٧١٨
[١٢] عثمان
٧٤٩ ـ ٧٥٣
يوسف أبو يعقوب
محمد أبو زيان الثاني
موسى الثاني أبو حمو
٧٦٠ ـ ٧٩١
[٩] عبد الرحمن
أبو تاشفين الأول
٧١٨ ـ ٧٣٧
محمد
بنو مرين
٧٣٧ـ٧٤٧
[٢١]
محمد أبو
عبد الله الأول
٨٠٤ ـ ٨١٣
[٢٤]
عبد الواحد
أبو مالك
٨١٤ ـ ٨٢٧
٨٣١ ـ ٨٣٣
[٢٣]
سعيد
٨١٤ـ٨١٤
[٢٠]
عبد الله
أبو محمد الأول
٨٠١ ـ ٨٠٤
[١٩]
محمد أبو
زيان الثالث
٧٩٧ ـ ٧٩٦
[١٨]
يوسف
أبو الحجاج
٨٠١ ـ ٧٩٧
[١٦]
عبد الرحمن أبو
تاشفين الثاني
٧٩١ ـ ٧٩٦


[١٠]
عثمان أبو سعيد
٧٤٧ ـ ٧٤٩
[٢٢]
عبد الرحمن
٨١٣ ـ ٨١٤
[١١] ثابت
٧٤٩ ـ ٧٦٠
[٢٦] أحمد
أبو العباس
٨٣٤ ـ ٨٦٦
[٢٩] أبو عبد الله محمد الرابع
٨٧٣ ـ ٩١٠
[٣٠] أبو عبد الله محمد الخامس
٩١٠ ـ ٩٢٣
[٣١] أبو حمو موسى الثالث
٩٢٣ ـ ٩٣٤
[٣٢] أبو محمد عبد الله الثاني
٩٣٤ ـ ٩٤٧
[٣٣] أبو عبد الله محمد
السادس: استعان بالإسبان
٩٤٧ ـ ٩٥٠
[٣٥] حسن
٩٥٧ ـ ٩٦٢
[٣٤] أبو زيان أحمد
٩٥٠ ـ ٩٥٠
٩٥١ ـ ٩٥٧
[٢٧] أبو عبد الله
محمد الثالث «المتوكل على الله».
٨٦٦ ـ ٨٧٣
[٢٨] عبد الرحمن
أبو تاشفين الثالث
٨٧٣ ـ ٨٧٣
[٢٥] محمد
أبو عبد الله الثاني
٨٢٧ ـ ٨٣١
٨٣٣ ـ ٨٣٤
[١٧]
يوسف أبو ثابت
٧٩٦ ـ ٧٩٦

الفصل الثالث

الحَفصِيّون في تونس

كان أبو حفص عمر بن يحيى من مشايخ هنتانة أشهر بطون قبيلة مصمودة، وقد رافق بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية، وكان من المقربين إليه، بل يعد الرجل الثالث في هذه الدعوة بعد صاحبها وعبد المؤمن بن علي، وكان على مقدمة عبد المؤمن حين بعثه عام ٥٣٧ إلى المغرب الأوسط، ولم يدخل الموحدون إلى مراكش بعد، وتولّى أمر المغرب عندما سار عبد المؤمن عام ٥٥٤ لفتح المهدية، وكان لكل معضلة تقع فيها دولة الموحدين، فقد وطد لبيعة محمد بن عبد المؤمن، وبايع ليوسف بن عبد المؤمن، واستنقذ مدينة (بطليوس) من حصار طاغية الإسبان، وتوفي في مدينة (سلا) عام ٥٧١، وهو عائد من الأندلس. ويرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

كان أبناء أبي حفص هذا يتداولون الإمارة في الأندلس، والمغرب، وتونس مع أبناء عبد المؤمن بن علي، فقد كان عيسى بن أبي حفص أميراً في الأندلس، ثم والياً على بجاية، وعلى بونه، ثم على المهدية، وقد توفي عام ٦٤٦ وهو عليها وال، وهو المعروف بأبي علي. كما ولي على تونس أبو سعيد بن أبي حفص. واستوزر الناصر يوسف بن عبد المؤمن أبا يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص.

ولما سار الناصر يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية لقتال ابن غانية عام ٦٠١، أرسل إلى مدينة (قابس) أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص لضرب جموع ابن غانية التي احتشدت هناك، فتمكن فعلاً من سحق

تلك الجموع، واستنقذ منهم أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كان والي تونس لأبيه. وولّى الناصر بعدها أبا محمد عبد الواحد على إفريقية عام ٦٠٣، وقد حارب ابن غانية في جهات طرابلس وتمكّن من الانتصار عليه عام ٦٠٤. وسار ابن غانية إلى تاهرت وخرّبها عام ٦٠٥ فسار إليه أبو محمد فأخذها منه، وانتصر عليه ثانيةً في جهات طرابلس عام ٦٠٦، وبقي عبد الواحد هذا والياً على تونس (إفريقية) حتى توفي عام ٦١٨.

وخلف عبد الواحد على ولاية تونس ابنه عَبد الله، وبقي حتى عام ٦٢٥ حيث ثار عليه أخوه يحيى أبو زكريا لأنه رفض الاستقلال عن مراكش وقطع الخطبة عن الموحدين، وتسلّم الأمر مكانه، أما هو فقد سار إلى مراكش حيث استقبل فيها، وقُدّم، ثم قُتل بعد مدةٍ لموقف أخيه من الموحدين وقتاله لهم.

منذ أن تسلّم يحيى أبو زكريا الحكم قطع الخطبة عن بني عبد المؤمن من الموحدين، واستقل عام ٦٢٦، وكان يرغب في امتلاك مراكش، وتمكّن من القضاء على ابن غانية عام ٦٣١، وهاجم بعدها تلمسان عام ٦٣٩، ودخلها، وفرّ أميرها يغمراسن بن زيان إلى الصحراء، كما أخذ سجلماسة، وسبته، وطنجة، ومكناس، وهكذا اتسع ملك الحفصيين، وتوفي يحيى أبو زكريا عام ٦٤٧.

تولى أمر تونس بعد يحيى أبي زكريا أخوه عبد الرحمن أبو زيد، لكنه لم يلبث أن عُزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته، إذ قام عليه ابن أخيه محمد بن يحيى أبي زكريا.

حكم محمد أبو عبد الله بن يحيى أبي زكريا باسم المستنصر عام ٦٤٨ بعد أن خلع عمه عبد الرحمن، وقد ذاع صيته، وبايعه أهل مكة عام ٦٥٧ غير أن سلطان مصر الظاهر بيبرس قد أخذ البيعة لنفسه من أهل مكة، وغدت بلاد الحجاز مرتبطة بالدولة المملوكية. وتعرّض المستنصر لغزو ملك فرنسا حيث تمكّن من احتلال تونس وبقي فيها مدة ستة أشهر. وانتفضت الجزائر على السلطان فحارب أهلها عام ٦٦٩، وعام ٦٧١، و٦٧٣، واستطاع أن يدخلها أخيراً عام ٦٧٤، وحانت منيته على ٦٧٥هـ.

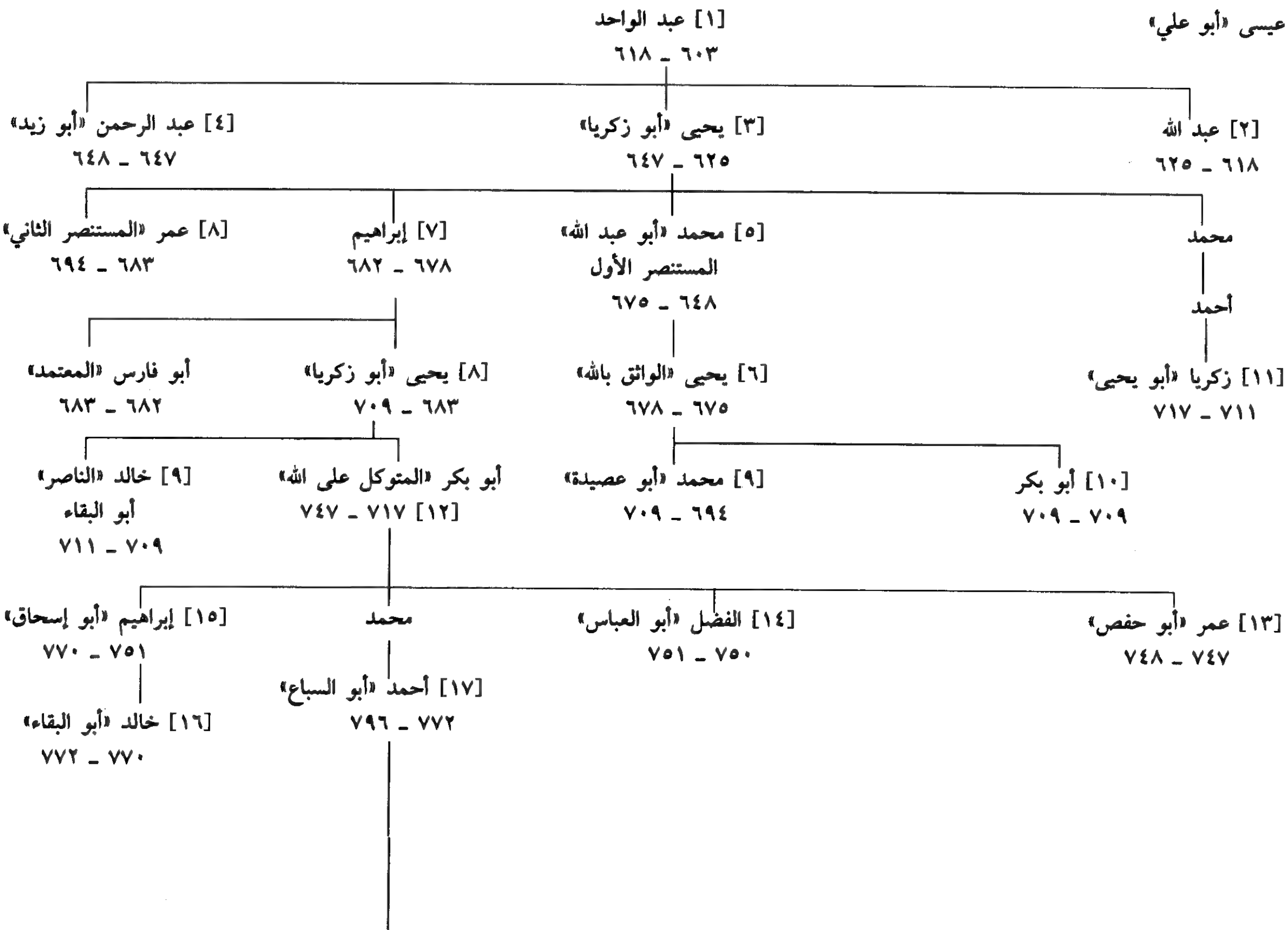
خلف المستنصر ابنه يحيى عام ٦٧٥، وتلقّب باسم الواثق بالله، غير أن أمره لم يطل إذ ثار عليه عمه إبراهيم الذي كان قد رحل إلى تلمسان عند موت أخيه المستنصر، وعندما قوي أمره سار إلى بجاية وملكها، ثم اتجه إلى تونس، فخلع ابن أخيه نفسه فقبض عليه عمه وذبحه عام ٦٧٨، وصفا لإبراهيم الجو.

ثار على إبراهيم رجل يُدعى أحمد بن مرزوق ويُعرف بابن أبي عمارة، وقوي أمر الثائر، فتنازل إبراهيم لابنه أبي فارس أمير مدينة بجاية من قبل أبيه، فلقب نفسه بالمعتمد، وسار إلى قتال ابن أبي عمارة غير أنه هُزم وقُتل عام ٦٨٢، أما أبوه إبراهيم فقد فرّ باتجاه تلمسان فأدركه بعض أتباع ابن أبي عمارة حيث حمل إلى بجاية، وقتل فيها عام ٦٨٣.

نجا من هذه المعارك عمر بن يحيى أخو إبراهيم، ويحيى بن إبراهيم وقد كان مع أبيه يوم تلمسان. أما عمر فقد رحل إلى قلعة سنان قرب تونس، واستطاع أن يتغلب على ابن أبي عمارة، وأن يقتله، ويستعيد تونس عام ٦٨٣، واستلم زمام الأمر، وتلقّب باسم المستنصر الثاني، وبقي في الحكم حتى عام ٦٩٤، وفي عام ٦٨٨ استولى صاحب صقلية على جزيرة جربا الواقعة في خليج قابس. أما يحيى أبو زكريا بن إبراهيم فعندما وجد نجاح عمه في تونس، أعلن ملكه لمدينة بجاية وأطاعه أهلها، ثم أخذ الجزائر وبسكرة، وأعلن استقلاله عن تونس، وهكذا انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين: أولهما في تونس ويحكمه المستنصر الثاني عمر بن يحيى، والثاني في بجاية ويحكمه يحيى بن إبراهيم، وبقي هذا الانقسام حتى توفي يحيى بن إبراهيم هذا عام ٧٠٩.

وعندما توفي المستنصر الثاني عمر بن يحيى عام ٦٩٤ بويع محمد بن يحيى الواثق باسم المستنصر الثالث، ويعرف بلقب أبي عصيدة، واستمر حكمه في تونس حتى عام ٧٠٩.

وبعد وفاة المستنصر الثالث بويع أخوه أبو بكر بن يحيى، غير أن ابن عمه أمير بجاية خالد بن يحيى قد وثب عليه، فاستسلم له بعد حكم سبعة عشرة يوماً، فقتله خالد واستلم الأمر، وتلقّب باسم الناصر، ويُكنّى بأبي


عيسى «أبو علي»
[١] عبد الواحد
٦٠٣ ـ ٦١٨
[٢] عبد الله
٦١٨ ـ ٦٢٥
[٣] يحيى «أبو زكريا»
٦٢٥ ـ ٦٤٧
[٤] عبد الرحمن «أبو زيد»
٦٤٧ ـ ٦٤٨
محمد
أحمد
[١١] زكريا «أبو يحيى»
٧١١ ـ ٧١٧
[٥] محمد «أبو عبد الله»
المستنصر الأول
٦٤٨ ـ ٦٧٥
[٧] إبراهيم
٦٧٨ ـ ٦٨٢
[٨] عمر «المستنصر الثاني»
٦٨٣ ـ ٦٩٤
[٦] يحيى «الواثق بالله»
٦٧٥ ـ ٦٧٨
[٨] يحيى «أبو زكريا»
٦٨٣ ـ ٧٠٩
أبو فارس «المعتمد»
٦٨٢ ـ ٦٨٣
[١٠] أبو بكر
٧٠٩ ـ ٧٠٩
[٩] محمد «أبو عصيدة»
٦٩٤ ـ ٧٠٩
أبو بكر «المتوكل على الله»
[١٢] ٧١٧ ـ ٧٤٧
[٩] خالد «الناصر»
أبو البقاء
٧٠٩ ـ ٧١١
[١٣] عمر «أبو حفص»
٧٤٧ ـ ٧٤٨
[١٤] الفضل «أبو العباس»
٧٥٠ ـ ٧٥١
محمد
[١٥] إبراهيم «أبو إسحاق»
٧٥١ ـ ٧٧٠
[١٧] أحمد «أبو السباع»
٧٧٢ ـ ٧٩٦
[١٦] خالد «أبو البقاء»
٧٧٠ ـ ٧٧٢

- [١٨] عبد العزيز «أبو فارس» عزوز ٧٩٦ ـ ٨٣٧
  - محمد «أبو عبد الله» المنصور
    - [١٩] محمد «المنتصر» ٨٣٧ ـ ٨٣٩
    - [٢٠] عثمان «المتوكل على الله» ٨٣٩ ـ ٨٩٣
      - محمد «المسعود»
        - [٢١] يحيى «أبو زكريا» ٨٩٣ ـ ٨٩٩
        - الحسن
          - [٢٢] محمد «أبو عبد الله» ٨٩٩ ـ ٩٣٢
            - [٢٣] الحسن ٩٣٢ ـ ٩٣٥ وتوفي ٩٥٠
              - أحمد ٩٣٩ ـ ٩٤١ وتوفي ٩٨٠
              - محمد ٩٤٢ ـ ٩٨١ تحت حكم الإسبان وتوفي ٩٩٠ في استانبول

البقاء، ولم يطل حكمه أكثر من سنتين، حيث دخل الميدان شخص ثالث هو الأمير زكريا أبو يحيى بن أحمد بن محمد اللحياني ابن يحيى بن عبد الواحد، فقد بويع عام ٦٨٠ عند حركة ابن أبي عمارة ثم خلع، وقد سافر إلى الحج عام ٧٠٩، وعندما عاد نزل طرابلس والفتنة قائمة بين خالد بن يحيى وابن عمه أبي بكر بن يحيى، فشدّ من عزمه، واتجه إلى تونس فدخلها عام ٧١١، وخرج منها أبو بكر بن يحيى الذي استسلم إلى خالد بن يحيى فقتله ـ كما ذكرنا ـ إلا أن زكريا لم يلبث أن خشي من الفتنة فانسحب من تونس إلى قابس، ومنها إلى طرابلس عام ٧١٧، واكتفى بولايتها، ثم غادرها وسار إلى مصر فاستقبله السلطان محمد بن قلاوون، وبقي زكريا في الإسكندرية حتى توفي عام ٧٢٧.

كان أبو بكر بن يحيى أخو خالد الناصر والياً على قسنطينة لأخيه خالد لكنه ثار عليه، وأعلن موالاته لزكريا بن أحمد اللحياني، وربما كان هذا السبب الذي دعا خالداً لخلع نفسه، غير أن أبا بكر قد تمكّن من الفوز والاستقرار في تونس عام ٧٢٣، ولكن البلاد كانت تمر في محنةٍ كبيرة إذ كانت الحركات في كل مكان، واستطاع أبو بكر من إحراز النصر على معارضيه حتى صفا له الجو عام ٧٣٠ واستمر في حكمه حتى توفي عام ٧٤٧، وبقي الحكم في عقبه، ولقب أبو بكر بالمتوكل على الله.

خلف أبا بكر بن يحيى ابنه عمر أبو حفص، وثار عليه ثلاثة من إخوته وهم أبو العباس، وخالد، وعبد العزيز (عزوز) فقتلهم، ولم يلبث أن لحق بهم إذ قتله أحد الجنود قرب مدينة قابس عام ٧٤٨، ووقعت فتنة في البلاد أو عادت الحركات إلى البلاد، فتغلب في كل ناحية أمير أو ثائر، وفي عام ٧٥٠ انتصر الفضل أبو العباس بن المتوكل على الله، ولم يمض عام حتى قتله بعض المتغلبين. ثم قام أخوه إبراهيم أبو إسحاق عام ٧٥١ وكان صغيراً، فكان حاجب أبيه أبو محمد بن تافراغين يخرج به من تونس ويعود إليها معه حسب القوة التي تؤيده، وبقي كذلك حتى توفي عام ٧٧٠، فنهض بالأمر من بعده ابنه خالد أبو البقاء، وكان صغيراً، وغرق في

الطريق عام ٧٧٢، وثار عليه ابن عمه أحمد أبو السباع بن محمد، وكان والياً على قسنطينة له، فأطمعه صغر السلطان فقام ضده وقوي أمره، وساعده موت السلطان فتولى الأمر بعده عام ٧٧٢، وبقي في الحكم حتى توفي عام ٧٩٦.

وخلف أحمد أبا السباع ابنه عبد العزيز (عزوز) أبو فارس، وقد زاد حكمه على أربعين سنة، وقد ضمّ إليه تلمسان، وفاس، وقام بغزو جزيرة مالطة، وتوفي عام ٨٣٧. وكان ابنه محمد أبو عبد الله والياً على طرابلس من قبله، وولياً للعهد، ويلقب بالمنصور غير أنه توفي عام ٨٣٣ قبل والده بأربع سنوات، فلما مات أبو السباع خلفه حفيده محمد المنتصر، وكان في طرابلس فانتقل إلى تونس، وكان مريضاً، فلم يدم حكمه أكثر من سنة وواحد وسبعين يوماً توفي بعدها عام ٨٣٩، وخلفه أخوه عثمان الملقب بالمتوكل على الله.

اتسعت أرجاء الدولة في عهد المتوكل على الله عثمان فخُطب له بالجزائر وتلمسان، وبايعه أهل فاس ودام عهده أكثر من أربع وخمسين سنة حيث تولى الأمر بعد وفاة أخيه عام ٨٣٩، واستمر حتى توفي عام ٨٩٣، وكان ولي عهده ولده محمد المسعود إلا أنه توفي قبله في عام ٨٧٥، فلما مات هو خلفه حفيده يحيى أبو زكريا بن محمد المسعود، وقد اشتغل بقتال المعارضين له، وتوفي بالطاعون عام ٨٩٩، وخلفه ابن أخيه محمد أبو عبد الله بن الحسن.

بعد أن قام محمد أبو عبد الله بالأمر بدأت الدولة بالانهيار، إذ كان الإسبان قد قوي أمرهم، وتمكنوا من إخراج المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وبدؤوا بالإغارة على موانئ بلاد المغرب، واحتلالها إن أمكنهم ذلك، وقد استطاعوا دخول بجاية، ثم ملك بنو عزاب طرابلس وسلّموها للإسبان عام ٩١٤، واستمر اقتطاع الأجزاء من دولته، والحركات في الجهات المتعددة حتى توفي عام ٩٣٢، وخلفه ولده الحسن. وكان العثمانيون قد اشتد ساعدهم في تلك المناطق بعد انضمام خير الدين

باربروس إليهم وضم الجزائر إلى دولتهم، وبدؤوا في صراع مع الإسبان على تلك السواحل، أو الحروب الصليبية ظهرت بوضوح.

تمكّن خير الدين باربروس من أخذ تونس عام ٩٣٥ وهزيمة سلطان الحفصيين الحسن بن أبي عبد الله محمد الذي فرّ إلى إسبانيا، ورجع بأسطول إسباني يدعمه، واستطاع دخول تونس، غير أن الإسبان قد نقضوا عهدهم معه إذ ثارت في نفوسهم الأحقاد الصليبية فصبّوا جام غضبهم على السكان فقتلوا من أهل تونس أكثر من ستين ألفاً، وبقي الحسن مع هذا كله بجانب الإسبان حرصاً على مصلحته ودون أن يرعى للرعية حرمة، فتأثر أهل البلاد، وقام أهل القيروان بحركةٍ واسعةٍ ضدّه، فسار إليهم وفي أثناء غيابه تقدّم ابنه أمير بونه من قبله، وهو ولده أحمد ودخل تونس، متألماً مما وقع فيه أبوه من خنوع للإسبان وهم أعداء دينه، ورجع الحسن ومعه الإسبان لقتال ابنه غير أنه انتصر عليهم، وقبض على أبيه وسجنه، وقد كفّ بصره، وبقي حتى مات عام ٩٥٠.

وقام أحمد بن الحسن بالأمر، وكنيته أبو العباس، ووجد نفسه بين خصمين: الإسبان في حلق الواد وعلى شاطئ البحر، والعثمانيون في طرابلس والقيروان ثم تمكنوا من دخول تونس، فطلب نجدة الإسبان فاشترطوا عليه مشاركته في الحكم فرفض واعتزل، وترك الأمر للعثمانيين بصفتهم مسلمين، وسار هو إلى صقلية حيث أقام في بلرمو حتى مات عام ٩٨٠.

وكان لأحمد بن الحسن أخ يُدعى محمداً وقد وافق الإسبان على شروطهم بعد اعتزال أخيه وسفره فدعموه بأسطول تمكن من أخذ تونس، وبقي تحت رحمتهم خانعاً خاضعاً حتى عام ٩٨١ حيث جاء أسطول عثماني بقيادة سنان باشا، واستطاع إنقاذ تونس من يد الإسبان، وأخذ محمد بن الحسن أسيراً إلى استانبول حيث بقي فيها حتى مات عام ٩٩٠، وانتهت بذلك دولة بني حفص، وتبعت تونس الدولة العثمانية بعد ذلك، واستمرت حتى رجعت الحروب الصليبية إلى تونس مرة أخرى عام ١٢٩٨.

الفصل الرابع

إفريقية الغربيّة

انتشر الإسلام في الصحراء الإفريقية في صدر الإسلام إذ سار عقبة بن عامر[1] عام ٤١ في أيام عمرو بن العاص في ولايته الثانية لمصر على رأس حملة، وتقدّم حتى وصل إلى غدامس وفتحها كما فتح ودان، ويقول ابن عذارى أنه وصل إلى مدينة غانا القديمة[2] وبنى فيها المساجد.

ووصل عقبة بن نافع[3] إلى أطراف الصحراء وفتح الطريق للإسلام كي ينتقل إلى بلاد السودان الغربي حيث كانت القبائل تنتقل بين بلاد المغرب والسودان، وذلك حوالي عام ٦٠هـ.

---

(١) عقبة بن عامر بن عبس بن مالك الجهني: أمير من الصحابة، كان رديف النبي ﷺ. شهد صفين مع سيدنا معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص، وولي مصر عام ٤٤، وعزل منها عام ٤٧، وولي غزو البحر، وتوفي بمصر عام ٥٨، كان شجاعاً، فقيهاً، شاعراً، قارئاً، من الرماة. وهو أحد من جمع القرآن، له ٥٥ حديثاً، ويقال: إنه فتح ودان عام ٤٦ أيام ولايته، ويقال: إن بسر بن أرطأة قد فتح ودان عام ٢٣ ثم نقض أهلها العهد. كما يقال إن عقبة بن نافع هو الذي افتتحها.

(٢) غانا: مدينة قديمة غير قائمة الآن، يقع مكانها في بلاد مالي قرب حدود موريتانيا بين نهري النيجر والسنغال.

(٣) عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري: ولد في حياة رسول الله ﷺ، ولا صحبة له، شهد فتح مصر مع ابن خالته عمرو بن العاص، ووجهه عمرو إلى إفريقية والياً عام ٤٢، ثم ولاه معاوية عام ٥٠ على إفريقية، فبنى القيروان، ثم عزل عن إفريقية عام ٥٥، ثم أعيد أيام يزيد فخرج حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي واستشهد وهو راجع عام ٦٢.

وعندما آلت القيادة إلى موسى بن نصير[1] عام ٧٩ تمكّن أن يصل إلى وادي درعة[2] في أقصى بلاد السوس، وإلى الأماكن التي كان قد بلغها عقبة بن نافع من قبل، وأخضع القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد مقتل عقبة وقد عمل موسى على تقريب البربر إليه، وولّاهم الأعمال، وشاركهم مع العرب في إدارة البلاد فأقبلوا على الإسلام رغبة فيه. واتصلت قبائل الملثمين التي تنتشر في المغرب الأقصى به فدعاهم للإسلام فأقبلوا عليه ودانوا به، وبنى المساجد في مدينة (أغمات)[3] وتمتد منازل الملثمين هؤلاء في الصحراء الكبرى وحتى حدود السودان الغربي الشمالي.

وتابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة التي سار عليها موسى وهي الدعوة إلى الإسلام بين البربر، إذ عمل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[4] والي إفريقية من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، بالدعوة، ولم يبق أيام ولايته أحد لم يسلم. كما أرسل عمر بن عبد العزيز طائفة من التابعين انتشروا في المنطقة يدعون الناس إلى الإسلام، ويبصّرونهم في أمور دينهم.

ويقال: إن بني أمية قد أرسلوا جيشاً إلى داخل إفريقية بقصد فتح السودان الغربي ونشر الإسلام في ربوعه وذلك عام ١٠٢ أي في عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان.

---

(١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية ولي غزو البحر، وغزا قبرص، ثم كان على خراج البصرة أيام الحجاج، واشترك في غزو إفريقية، وتوفي بالمدينة وكان حاجاً بصحبة الخليفة سليمان بن عبد الملك عام ٩٧.

(٢) وادي درعة: في أقصى بلاد السوس، يصب في المحيط الأطلسي، يشكل مجراه الأعلى الحدود بين الجزائر والمغرب اليوم.

(٣) أغمات: مدينة تقع جنوب شرقي مراكش بينهما ثلاثة فراسخ، تشرف على الممرات الجبلية ومن هنا كانت أهميتها العسكرية.

(٤) إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي بالولاء، كان فقيهاً، فاضلاً، ورعاً، استعمله عمر بن عبد العزيز عام ٩٩، وهو من العشرة من كبار التابعين توفي بالقيروان عام ١٣٢.

وقام بعد ذلك عبد الرحمن بن حبيب الفهري[١] عندما دانت له المنطقة حوالي عام ١٤٠ بحفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقية وبين مدينة (أودغشت)[٢] بصحراء المغرب الأقصى، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء، وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها، كما أصبحت القوافل بسبب هذه الطريق الصحراوية التي أصلحها عبد الرحمن والطريق الساحلية الأخرى القديمة أكثر إمكانية للتحرك نحو غربي إفريقية وتحمل القوافل معها العقيدة الإسلامية والتجارة.

وبعد معركة فخ قرب مكة عام ١٦٩ فرّ بعض الأشراف إلى إفريقية، فوصل إدريس بن عبد الله[٣] إلى المغرب واستطاع أن يؤسس دولة عام ١٧٢، ووجهت هذه الدولة أنظار أهل المغرب إلى الجهاد بقصد العمل عل نشر الإسلام، ووصل نفوذ الأدارسة إلى الصحراء التي تفصل المغرب عن السودان الغربي. وقد انضمت ديار الملثمين تحت لواء الأدارسة، وأصبحت جزءاً من أملاكهم، وزاد تحول صنهاجة إلى الإسلام، ونتج عن ذلك تحالف قوي بين بطون صنهاجة المختلفة بزعامة لمتونة، وبدأ يتوسع نحو

---

(١) عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري: وقد عرف بالصقلبي لطوله، وشقرته، وزرقة عينيه قاوم الخوارج في إفريقية، كما قاوم عبد الرحمن الداخل الأموي، ودعا لبني العباس، وقتله غيلةً عام ١٤٢.

(٢) أودغشت: مدينة قديمة غير موجودة الآن، تقع بين الجبلين، كانت تعد من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في غربي إفريقية، تقع بين خطي عرض ١٨ ـ ١٩ شمالاً أي في بلاد موريتانيا اليوم، كانت محطة تجارية، ثم حاضرة قبيلة لمتونة من صنهاجه.

(٣) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو أخو محمد ذي النفس الزكية الذي خرج على العباسيين في المدينة المنورة، بينما خرج أخوه الثاني إبراهيم في البصرة في العام نفسه (١٤٥). أما إدريس وأخوه الثالث وبعض الأشراف فقد نجوا من معركة فخ، وقد كانوا مع الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في أيام ثورته على موسى الهادي الخليفة العباسي الرابع عام ١٦٩، وفخ وادٍ من أودية مكة المكرمة، وقتل الحسين في هذه المعركة، وفر إدريس إلى مصر ومنها إلى المغرب، أما أخوه يحيى فقد هرب إلى بلاد الديلم، وأسس فيها دولة له.

الجنوب لقوة الأدارسة، وحلفائهم من زناتة، ومصمودة في الشمال، وقد استولى هذا الحلف على مدينة (أودغشت) وجعلها قاعدة له. وتفككت عرا الحلف عام ٣٠٦ فاستعادت غانا مدينة (أودغشت)، وعاد الحلف من جديد فاستولوا ثانية على أودغشت عام ٣٥٠، وهذا الاحتكاك بين الملثمين المسلمين وأهل السودان قد سهّل انتشار الإسلام بين الزنوج.

وفي الوقت الذي وصل فيه إدريس بن عبد الله إلى المغرب وصل أحد الأشراف إلى غانا وهو على ما يبدو ممن نجا من معركة فخ، ولقي الترحيب نفسه الذي لقيه إدريس، ويدعى هذا الشريف بصالح، واستطاع أن يؤسس مدينة كومبي صالح التي غدت حاضرة إمبراطورية غانا.

وقد انتصر موسى بن أبي العافية[1] على جند إمبراطورية غانا وأخذ منها الجزية عام ٣١٩ و٣٢٠، وكان يأخذ هذه الأتاوة من مدينة كومبي صالح، ولكن نفوذه قد زال بعد انقراض دولته، وتغلب الفاطميين عليه.

وأسس الصنهاجيون دولة في (كوكيا) في وسط الصحراء فكان لها أثر في نشر الإسلام. وعندما قام أبو يزيد مخلد بن كيداد[2] الخارجي بثورته ضد الفاطميين ٣٣٢، وانتصر عليهم في بداية الأمر، وامتد نفوذه إلى وسط الصحراء فساعد هذا الامتداد على انتشار الإسلام.

---

(١) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك المكناسي الزناتي: كانت له مكناس وكان من دعاة المهدي، وعقد له ابن عمه مصاله بن حبوس على سائر جهات المغرب عام ٣٠٥، وأقره عبيد الله المهدي على ذلك، وضم إليه فاس عام ٣١٣ وأجلى الأدارسة عنها، نقض دعوة المهدي، وخطب للأمويين في الأندلس، فقاتله المهدي وانتصر عليه.

(٢) مخلد بن كيداد، أبو يزيد: من زناتة ومن الخوارج الأباضية، خرج على الفاطميين عندما مات عبيد الله المهدي عام ٣٣٢، فخرج بناحية أوراس وقاتل القائم بأمر الله بن المهدي، فقد دخل رقادة ودانت له القيروان عام ٣٣٣، واحتل مدينة سوسة، وحاصر القائم في المهدية... ثم بدأت الهزائم تحل به، وانتفضت عليه المدن التي دخلها، ومات القائم وتولى ابنه المنصور فقاتل أبا يزيد وانتصر عليه، وأخذه أسيراً، ثم مات متأثراً بجراحة عام ٣٣٦.

وقد زاد انتشار الإسلام حتى يقال إن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٢٢٣، وحارب الوثنيين الذين يعيشون في مملكته، والذين يجاورونها من الممالك والإمارات الأخرى. ولكن الأمر الثابت أن ملك التكرور قد دخل في الإسلام عام ٤٣٢، وصار للمسلمين في غانا مدينة خاصة بجانب العاصمة أو أن العاصمة كانت نصفين أحدهما للمسلمين، وبنى الملك في مدينته مسجداً ليؤدي الصلاة فيه من يأتيها من المسلمين. وأن عدداً من الوزراء كانوا أيضاً من المسلمين.

وقام المرابطون واستطاعوا أن يأخذوا مدينة (أودغشت) من إمبراطورية غانا عام ٤٤٦. ولما مات يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فتحوا بها مدينة (أودغشت) خلفه في زعامة المرابطين أبو بكر بن عمر شيخ لمتونة، وقد اختلف مع ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي اتجه إلى الشمال ونصر المسلمين في الأندلس على حين اتجه أبو بكر بن عمر نحو الجنوب يعمل على نشر الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية. وكانت هذه المدة حافلةً باعتناق الإسلام وخاصةً في منطقة السنغال حيث تحولت قبيلة (الفولاني) إلى الإسلام عام ٤٦٩.

وفي الوقت نفسه فقد ضعفت إمبراطورية غانا، وتفككت ممالكها، واستقلت بعض أقاليمها، وتمكّن المرابطون بمساعدة قبائل التكرور من دخول كومبي صالح عاصمة غانا، وفرض الإسلام على السكان حتى أن ملك غانا (تنكامنين) قد قبل الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، ودخل معه رعاياه في هذا الدين الجديد وذلك عام ٤٦٩.

وتوفي شيخ المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني عام ٤٨٠، فضعف أمرهم من بعده، فاستقل حكام غانا السابقين، وهم من قبيلة (السوننكي) عن المرابطين، وأعلنوا استقلالهم، وأعلنوا ارتباطهم بالدولة العباسية مباشرة. وتحمّسوا لنشر الإسلام، حتى غدت كلمة (سوننكي) ترادف كلمة داعية، وأجبر الملوك شعوبهم على لبس العمامة، وأخيراً ادعوا الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. وجاءت سنوات عجاف فانتقلت أعداد

من السكان والقبائل نحو الجنوب حيث الأمطار أكثر غزارة، وهذا ما جعل منطقة (أوكار) التي قاعدتها (كومبي صالح) أو مركز مملكة غانا تقل بعدد سكانها، وتضعف تجارتها، وتنقص مواردها، ويعتريها الضعف، وفي الوقت نفسه يقوى أمر قبيلة الصوصو بصفة أن بلادهم تقع إلى الجنوب من بلاد غانا.

هاجرت جماعة من قبائل الفولاني من بلاد التكرور، واتجهت نحو الشرق، واستقرت في منطقة (كانياغا)، وأسسوا أسرة حاكمة فرضت نفوذها وسيطرتها على شعب الصوصو، وقد عرف باسم مملكة الصوصو. فلما ضعف أمر غانا طمع حكام الصوصو بالسيطرة على غانا، وكانوا قد استقلوا عنها منذ أن دخلها المرابطون عام ٤٦٩. وبدأ حكام الصوصو بالهجوم على غانا، وتمكنوا من دخول عاصمتها عام ٦٠٠، وبعد ذلك وجّه حكام الصوصو هجومهم على دولة الماندينغ في منطقة (كانغابا)، وتمكنوا من السيطرة عليها عام ٦٢٨، وقتل ملك الصوصو (سوما نغارو) ملك دولة الماندينغ (ناري فامغان) وأولاده جميعاً باستثناء صغيرهم، فقد أبقاه لصغره ومرضه ويسمى (سندياتا) أو كما عرف فيما بعد باسم (ماري جاطه)، ولم تمض سوى خمس سنوات حتى استطاع هذا الصغير أن يؤسس جيشاً قوياً ويقوده لقتال الصوصو، وربما كانت مذبحة أهله قد ضاعفت الهمة في نفسه، وأحرز النصر على الصوصو عام ٦٣٣ في معركة فاصلة قتل فيها ملك الصوصو، وتمزّقت مملكته من بعده، ودخل (ماري جاطه) عاصمته، ودمر ما بقي منها عام ٦٣٨، وأسس (ماري جاطة) مملكة عرفت باسم مملكة مالي. أما الموحدون حكام المغرب فلم تكن لهم أطماع سياسية في السودان الغربي، كما لم يكن لهم همّ شديد للدعوة إلى الإسلام، ومع هذا فقد انتشر في أيامهم بسبب انتقال جماعات من الشمال إلى الجنوب إذ فرّ أحد الثائرين أيام عبد الواحد الرشيد (٦٣٠ ـ ٦٤٠) إلى بني معقل، وتوغل في السودان الغربي، ومعه عدد من أتباعه. ومن قبل كان نزوح بني معقل، وهم من العرب الذين انتقلوا إلى المغرب مع بني هلال. ومن بني معقل بني حسان الذين استقروا عند نهر السنغال ومنهم إلى اليوم الترارزة.

مملكة مالي:

دولة مالي قديمة، خضعت أخيراً لمملكة غانا، وبدأت تنمو وتتوسع في ظلها، ثم استقلت عنها، وحكمتها عدة أسر منها أسرة (تراوري)، ومنها أسرة (كيتا) التي قضى عليها الصوصو، ثم أعادها سندياتا أو ماري جاطة الذي نجا من القتل الذي لحق بأبيه وإخوته الأحد عشر، وكانت هذه الدولة من أعظم المماليك الإسلامية في السودان الغربي في المدة الواقعة بين (٦٣٩ ـ ٨٩٤)، وقد كانت أراضيها تمتد من بلاد بورنو في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن جبال البربر في الشمال إلى نطاق الغابات في الجنوب، وتشمل أجزاء من الدول الحديثة (موريتانيا ـ السنغال ـ غامبيا ـ غينيا ـ مالي ـ ساحل العاج ـ ليبيريا ـ سيراليون).

كان جد هذه الأسرة التي حكمت المملكة (أسرة كيتا) هو (موسى ديغيو) الذي حكم من ٥٩٧ إلى ٦١٥، واتخذ مدينة (غارب)[١] التي تقع على نهر النيجر إلى الجنوب من (باماكو) عاصمة له، وقضى حياته بالعمل الصالح والتقوى، وربما كان هو المشهور في الكتب العربية باسم (بومندانه) ويقول بعض المؤرخين: هذا الرجل الحاكم كان أول من دخل في الإسلام من ملوك مالي، ولكن ابن خلدون يقول: إنه أول من حج إلى مكة المكرمة وليس أول من أسلم.

خلف (موسى ديغيو) ابنه (ناري فامغان) واستمر حتى عام ٦٢٨، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه بين قومه ولا سيما بين قبائل (البمبارا)، وقاتل صنهاجة، والصوصو، وفي أواخر أيامه هجم الصوصو على دولته، وقضوا عليه وعلى أبنائه الذين لم ينج منهم سوى (ماري جاطه). وانتهت مملكته.

قام مري جاطة، وعدّ نفسه وارثاً لأبيه (ناري فامغان)، ووقف في

---

(١) غارب: مدينة تقع على نهر النيجر الأعلى جنوب مدينة (سيغوري)، وتقع اليوم في دولة غينيا.

وجه الصوصو، وانتصر عليهم عام ٦٣٣، وضم إليه أراضي غانا عام ٦٣٨، وخرّب كومبي صالح، ونقل عاصمته من غارب في (كانجابا) إلى مدينة جديدة أنشأها على نهر النيجر (نهر سانكاراني)[1] إلى الشرق من (غارب)، وقد سميت (نياني)، واشتهرت باسم (مالي)، وأصبحت فيما بعد علماً لدولة الماندينغ، وغدت مركزاً تجارياً مهماً، يفد إليها التجار، ويقيمون فيها، وكان أعظم قاطني هذه الدولة من قبائل السيراكوليه، والأمر والنهي فيها لأهل العلم. وبعد عام ٦٣٨ لم يشترك (ماري جاطه) في الأعمال الحربية، إنما كانت جيوشه تصل إلى إمارات الهاوسا في شمال نيجيريا اليوم، وإلى سواحل المحيط الأطلسي. وتدخل إلى قلب الأدغال في الجنوب، وتتوغل في الصحراء شمالاً، وتوفي (ماري جاطه) عام ٦٥٣.

وقام (منسي علي) بعد أبيه (ماري جاطه)، وكان من أعظم حكام بلاده، محباً للسلامْ. معروفاً بالتقوى والصلاح، وأدى فريضة الحج عام ٦٥٨، وضمّ إليه (بامبوك) و (إنقاراه) وبسط نفوذه على دولة (صنغاي) الناشئة، وأخذ منها عدداً من الرهائن لضمان خضوعها له. وتوفي عام ٦٦٩، وخلفه شقيقه، وسميه (منسي علي)، وفي أيامه خضعت البلاد لمرحلة من الاضطرابات دامت حتى عام ٧٠٧، تولى خلالها عدد من الملوك منهم.

١ ـ شقيقه (منسي علي) (٦٦٩ ـ ٦٧٣).

٢ ـ شقيقه الآخر (خليفة علي) (٦٧٣ ـ ٦٧٤).

٣ ـ أبو بكر سبط من أسباط ماري جاطة (٦٧٤ ـ ٦٨٤).

٤ ـ ساركوه مولى من موالي أبي بكر، اغتصب السلطة حتى عام ٧٠٠، وقد غزا بلاد التكرور التي بقيت موالية للمرابطين أو تعمل باسمهم

---

(١) نهر سانكاراني: من روافد نهر النيجر، ويشكل اليوم جزءاً من الحدود بين غينيا ومالي، ويرفد نهر النيجر عند مدينة كانجابا.

رغم انقضاء دولتهم منذ مدة ليست قصيرة، كما غزا (وانقاره)، وبلاد (مسينا) الوثنية، و (غاو) عاصمة (صنغاي)، كما توسعت التجارة في أيامه، وأدى فريضة الحج عام ٧٠٠، وفي أثناء عودته عن طريق الحبشة والسودان هاجمته جماعة من الدناقل عند ساحل البحر الأحمر وقتلوه.

٥ ـ (منسي قو) وهو ابن (ماري جاطة) (٧٠٠ ـ ٧٠٥).

٦ ـ محمد بن منسي قو (٧٠٥ ـ ٧١٠).

٧ ـ أبو بكر (٧١٠ ـ ٧١٢)، وهو الذي أبحر بالمحيط الأطلسي ليكتشف ما بعده، ولم يرجع وقد وصل إلى أمريكا الجنوبية ـ والله أعلم ـ. ووقعت بعده عدة فتن واضطرابات انتهت بنقل السلطة إلى أولاد أخت (ماري جاطة) وكان أولهم (منسي موسى) بن أبي بكر الملك السابق، ويعد من أعظم ملوك دولة مالي، إذ كان يجيد العربية، صالحاً، ورعاً، أقام علاقات مع مصر والمغرب، وفتح بلاده للفارين من بلاد الأندلس، وبلغت دولته في أيامه ذروة مجدها وقوتها واتساعها. وتوفي عام ٧٣٨، وخلفه ابنه (مغان الأول) أو (منسي مغان)، وحكم حتى عام ٧٤٢، وعادت البلاد إلى الفرقة والاختلاف، فهاجمت قبائل (الموش) المقيمة في إقليم (باتنغا) في بلاد فولتا العليا اليوم، ووصلت إلى (تومبوكتو) فأحرقتها، وأبادت حاميتها من قبائل الماندينغ.

تولى سليمان بن منسي موسى الحكم بعد أخيه (مغان الأول)، وكان معروفاً بالتقوى والصلاح والفقه في الدين، ودام حكمه عشرين سنة (٧٤٢ ـ ٧٦٢)، واستطاع أن يعيد في خلالها معظم البقاع التي خرجت من حكم دولة مالي، وإن كان قد عجز عن استعادة مدينة (غاو) قاعدة (صنغاي)، وبنيت في أيامه المساجد والمنارات، وجاء الفقهاء من خارج البلاد، وأدّى هو فريضة الحج عام ٧٥٢.

تولى حكم مملكة مالي بعد سليمان ابنه (قنبتا)، ولم يمض عليه سوى تسعة أشهر في الحكم حتى توفي، وأخذ الحكم بعده ماري جاطه

الثاني بن مغان الأول (٧٦٢ ـ ٧٧٦)، كان سيء السيرة، مبذراً أتلف ما في خزائن الدولة، غير أن صلته مع سلاطين مصر والمغرب كانت حسنة.

أخذ الحكم بعد ماري جاطه الثاني ابنه موسى الثاني، كان أحسن من أبيه سيرةً، غير أن وزيره قد استبد بالأمر دونه، وحجر عليه، وحارب دولة صنغاي، وتجاوزت جيوشه عاصمتها (غاو) دون أن تدخلها، وكذلك حارب الملثمين في الشمال، وتوفي عام ٧٨٩.

خلف موسى الثاني أخوه (مغان الثاني) غير أنه لم يلبث أن قتل عام ٧٩٠ في فتنةٍ داخلية. وأخذ الحكم (صندكي) زوج أم موسى، واستمر به حتى عام ٧٩٣، وحدثت في أيامه فتن كثيرة، استغلها أحد أبناء أسرة (كيتا) الحاكمة، وتسلم زمام السلطة، وكان اسمه محموداً، وتسمى باسم منسي مغان. وعاشت مملكة مالي بعد ذلك في مرحلة من الضعف بسبب:

١ ـ ضعف الملوك وتناحرهم فيما بينهم.

٢ ـ هجمات الطوارق على الشمال، وقد استولوا على (تومبوكتو) و(ولاته)، وأكثر المناطق في شمال الدولة.

٣ ـ هجمات الفولانيين والتكارنة على إقليم بامبوك الواقع على حدود السنغال اليوم.

٤ ـ انفصال مملكة صنغاي عن مالي واستقلالها في منتصف القرن الثامن الهجري، إثر هرب الرهائن الصنغانيين الذين كانوا في قبضة مالي، ومنهم: (على كولن) و (سليمان نار).

وقد نجحت صنغاي من الاستيلاء فيما بعد على مالي وبسط نفوذها عليها في أواخر القرن الثامن.

٥ ـ الغارات التي تشنّها قبائل الموش الوثنية من الجنوب.

ولما بسطت صنغاي نفوذها على مالي، بقيت دولة مالي كإمارة صغيرة في منطقة كانجابا محتفظةً بكيانها، وكانت تحاول أحياناً الخروج

على صنغاي، واستعانت بقوى خارجية، فقد استنجدت بالعثمانيين عام ٨٨٦ وطلبت حمايتهم، وطلبت مساعدة البرتغاليين الذين بدأوا يثبتون أقدامهم على سواحل إفريقية الغربية. وأرسلت البرتغال سفارةً لهم برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١ ووصل إلى أمير مالي محمود الثاني، وكان نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم، وفي الوقت نفسه فقد شجّع هذا الأمير محمود الثاني على القيام بثورة ضد سلطان صنغاي عام ٩٤٠ للتخلص من سيطرته إلا أنه قد هُزم، وأبادت صنغاي حركته، وهذا ما شجع الفتن. واستمر ذلك حتى احتلت المغرب مملكة صنغاي وقضت عليها، وانشغل أمراء صنغاي بما حلّ بهم فاستقل سلطان مالي محمد الثاني، كما استقل سلطان (ماسينا) الفولاني حمد آمنة.

مملكة الصنغاي:

الصنغاي مجموعة قبائل زنجية كانت تعيش غرب نهر النيجر في المنطقة الواقعة اليوم شمال بنين وغربي نيجيريا، ثم انتقلت مع نهر النيجر إلى الشمال، وانتقلت معها عاصمتها فكانت في البداية (دندي)، ثم (كوكو) وغدت أخيراً في (غاو). وتقيم اليوم في مالي في المكان نفسه حول غاو، وفي دولة النيجر عند مجرى النهر، وحول مدينة (أغاديس).

خضعت الصنغاي لدولة مالي، وقدمت رهائن لضمان خضوعها، واستمرار سيطرة مالي عليها. وكانت هذه الرهائن ولدي ملك صنغاي (زايا سبي) وهما: (علي كولن) و (سليمان نار) وهما طفلان صغيران، وذلك حوالي عام ٦٦٨ في عهد ملك مالي (منسي علي).

استطاع الرهينتان أن يفرا من مالي، وأن يصلا إلى (غاو)، وأن ينقذا مدينتهما من الحامية المالية، وأن يؤسسا مملكةً جديدةً أخذت تتوسع على حساب مملكة مالي التي بدأ يدب فيها الضعف، وتسلم (علي كولن) أول ملكٍ فيها، ولم يطل عهده إذ كان كبير السن، وخلفه أخوه (سليمان نار)، ثم عادت مملكة صنغاي تتبع اسمياً لمملكة مالي. وبدأ الضعف بعدئذ يدبّ

في مملكة مالي وتضعف قبضتها على المناطق الشرقية، وهذا ما قوّى أمر الصنغانيين. وفي عام ٨٢٣ قام ملك صنغاي (محمد دوغو) بحملة ضد مملكة مالي، وأخضع قبائل (البمبارا)، وثبت دعائم حكمه، ثم تمكّن من التخلّص من سيطرة مالي التي وصلت إلى مرحلة من الضعف كبيرة، واقتصرت سيطرتها الفعلية على منطقة (كانجابا).

خلف (محمد دوغو) ابنه (مسنا علي) عام ٨٦٩، ويعدّ مؤسس مملكة صنغاي إذ استطاع أن يحتل مدينة (تومبوكتو) عام ٨٧٣، وطرد منها الطوارق، وحرق أكثر أحيائها، وقتل الكثير من سكانها، وفي عام ٨٧٥ أخضع منطقة النيجر كلها، فاستولى على مدينة (جني)، وبسط نفوذه على منطقة (باتنغا) مقر قبائل الموش، وإن لم يتمكن من إخضاع هذه القبائل تماماً. وحاولت مملكة مالي الاستعانة بالعثمانيين إذ طلبت أن تكون تحت حمايتهم وذلك عام ٨٨٦ فلم تستفد من ذلك.

توفي (مسنا علي) عام ٨٩٨ وخلفه ابنه أبو بكر فثار عليه قواد أبيه، وتمكن القائد محمد بن أبي بكر من أن يهزمه، وتوفي أبو بكر عام ٨٩٩، وانتهى حكم أسرة (زا)، وانتقل إلى أسرة محمد بن أبي بكر الذي عرف باسم (إسكيا محمد) الذي بلغت مملكة صنغاي في عهده أوج قوتها، فقد نظّم الجيش، واهتمّ بالشؤون الإسلامية، وحجّ عام ٩٠١، وعندما رجع من أداء فريضته، أعلن الجهاد، واتجه إلى قبائل (الموش) الوثنية، وطلب من أمرائهم الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، وتقدّم نحو الغرب حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسي إذ ضم بلاد الماندينغ وبلاد الفولاني إليه، ووصل في ناحية الشرق إلى بحيرة تشاد، ومن جهة الشمال وصل إلى الصحراء. وطالت أيامه فضاق منه أولاده أو استعجلوا الحكم فقاموا عليه عام ٩٣٥ وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى، فنفى أباه إلى جزيرة في نهر النيجر، وتسلّم الأمر حتى قتل عام ٩٣٨. وتولّى بعده أخوه (محمد بنكه) حتى عزل عام ٩٤٤، وتولى من بعده أخوه (إسكيا إسماعيل) لمدة عامين، أعاد بعدهما أباه (إسكيا

محمد) وكان قد كف بصره، ثم توفي عام ٩٤٩. واستنجدت إمارة مالي في هذه الأثناء بالبرتغاليين ولكن حركتها قد قمعت بشدة في عهد (محمد نبكه).

تولى حكم صنغاي عام ٩٥٠ (إسكيا إسحاق) فساءت العلاقات بين دولته والمغرب. وخلفه (إسكيا داود) عام ٩٥٦، واستمر حتى عام ٩٩٠، وزادت العلاقات سوءاً مع المغرب. وخلفه ابنه (إسكيا الحاج محمد الثاني)، وفي عام ٩٩٥ خلعه إخوته، وكانت المناوشات مع المغرب قد بدأت. وجاء أخوه إلى الحكم وهو (محمد بن إسكيا داود) لمدة ثلاث سنوات، أتى بعدئذٍ (إسكيا إسحاق الثاني) فتوترت العلاقات مع المغرب وجاءت حملة مغربية احتلت دولة الصنغاي بعد معركة (تندي)، ودخلت العاصمة (غاو).

مملكة التوكلور:

حكم شعب التوكلور منطقة السنغال من عام ٤٦٩ حتى عام ٦٣٨، حيث جاء شعب الفولاني وبسط نفوذه حتى عام ٧٥١ حيث ثار عليه شعب الولوف، وحكم البلاد حتى القرن العاشر إذ رجع التوكلور إلى السيطرة.

وسط إفريقية:

قامت بعض الممالك في وسط إفريقية ومنها:

١" ـ مملكة كانم: ومركزها شمال شرقي تشاد، وقد قامت منذ عام ١٨٣، وكانت تحكمها أسرة سيف، وتدين بالوثنية، وانتشر الإسلام فيها في القرن الخامس، وأول من اعتنق الإسلام من حكامها الملك (أوم) الذي حكم (٤٧٨ ـ ٤٨٩)، ولقب الملوك الذين خلفوه بلقب (ماي)، وشن هؤلاء الملوك حروباً على الشعوب الوثنية المجاورة لهم مثل (التيدا) في الشمال، و (صوص) في الجنوب، وتوسعت هذه المملكة من النيجر غرباً حتى واداي شرقاً.

ثم جرت حروب متكررة بين شعب (البولالا) ومملكة كانم واستمرت ما يقرب من مائة سنة (٧٨٩ ـ ٩٠٠)، وقتل خلال هذه الحروب أربعة ملوك من حكام هذه الدولة، واضطر أولو الأمر فيها أن يتركوا منطقتهم، وأن يفروا إلى غرب بحيرة تشاد حيث أسسوا هناك دولة في بلاد الكانوري الذين يشكلون أكثر سكان تلك المنطقة المعروفة باسم (بورنو)، وفي منتصف القرن التاسع استطاع ملك هذه الدولة الجديدة (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يهاجم قبائل (البولالا)، وأن ينتصر عليها، وأن يعود إلى منطقة كانم ثانيةً، حيث ازدهرت المملكة من جديد في كانم.

وقامت إمارات متعددة في وسط إفريقية ولكن لم يكن الإسلام قد ساد فيها، وإن بدأ ينتشر في هذه المرحلة التي نتحدث عنها.

لم يكن لحكام المغرب من المرينيين الذين ملكوا في هذه المرحلة أطماع في المناطق التي تلي الصحراء بل كانت علاقتهم وثيقة مع حكام مالي، إذ نلاحظ أن أبا علي قد ثار على أخيه أبي الحسن وحاول الاستقلال بسجلماسة، غير أن أخاه أبا الحسن قد قضى عليه عام ٧٣٢ ويبدو أن منسي موسى ملك مالي قد أعانه على أخيه حيث كانت الصلات بين البلاطين قائمة ومتينة. وعندما استطاع سلطان المغرب المريني أبو الحسن فتح تونس أرسل له ملك مالي (منسي سليمان) قوةً. وخفت العلاقات بين المنطقتين قليلاً ثم عادت حسنة حتى نهاية دولة مالي.

نصارى أوروبا:

بعد أن ضعف المسلمون في الأندلس، وقوي أمر النصارى، وبدأت المدن الأندلسية تسقط بأيديهم منذ نهاية القرن السادس الهجري، وبعد أن سقطت قرطبة عام ٦٣٣، وبلنسية ٦٣٦، وإشبيلية عام ٦٤٦ زاد أملهم بإخراج المسلمين من الأندلس تدريجياً، فلما وقفت غرناطة أمامهم وصمدت حتى عام٨٩٧هـ رأوا أن يلتفوا عليها ويطوّقوها، وأن يضربوا قواعد المسلمين التي خلفها كي لا تدعمها أولاً، وليحتلوها بصفتها مراكز

إسلامية، وكان يدفعهم الحقد الصليبي الأسود، فقد ضربوا عدداً من مرافئ البحر المتوسط، واحتلوا بعضها، وفي الوقت نفسه انطلقوا على سواحل المحيط الأطلسي غزاةً أحياناً عندما يرون في أنفسهم القوة، وتجاراً زائرين عندما يبتعدون عن مواطنهم ولا يجدون عندهم القوة الكافية.

وصل بعض البحارة الأوروبيين إلى مصب نهر السنغال عام ٧٤٧، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغين) الصغيرة. واحتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر النصارى في هاتين الجزيرتين حتى أواخر القرن التاسع إذ بدأ الفرنسيون يترددون على شواطئ السنغال، ويقيمون مراكز لهم يستقرون في بعضها، وحتى ذلك الوقت لم يجد الأوروبيون عندهم القدرة الكافية للتوغل في داخل إفريقية خوفاً من قوة المسلمين.

ولما سقطت الأندلس بيد النصارى من إسبان وبرتغال دفعتهم نشوة النصر للانطلاق على السواحل في محاولة لتطويق المسلمين، فكان أن عرفوا سواحل إفريقية الغربية، ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح وخرجوا على المسلمين في شرقي إفريقية وجنوبي آسيا من جهة الجنوب، وبدأ الصراع هناك.

الفصل الخامس

بنو نصر "الأحمر" في الأندلس

لما ضَعُفَ أمر الموحدين في الأندلس، واشتد ضغط النصارى على المسلمين حيث كانت حرباً صليبية شرسة إذ كان المتطوعون النصارى يفدون إلى الإسبان من كثير من جهات أوروبا وخاصةً من إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا، وإنكلترا، وزاد تفرّق المسلمين، وأصابهم الوهن بحبهم الدنيا وكراهيتهم للموت، لذا فكر عدد من الزعماء بجمع مدن الأندلس المتنافرة في دولة واحدة، تستطيع أن تقف في وجه النصارى، وإذا كنا لا نستطيع أن نطرح من هذه الفكرة بالذات حب الزعامة والأنانية إلا أن فكرة الوحدة فيها من الفائدة ما فيها، واستطاع المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي أن يضم عدة مدنٍ كبرى في دولته ومنها قرطبة، ومرسية، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقةَ، والمرية إلا أن ابن هود هذا كان متسرعاً في قراراته لا يُجيد إحكام الخطط رغم شجاعته، وهذا ما جعله يخسر في معاركه، ويُضيّع عدداً من المدن والمواقع لصالح النصارى، فقد سقطت الجزيرة الشرقية ميورقة عام ٦٢٧ أي بعد قيام دولته بأقل من عامين، وبعد عدة سنوات سقطت الجزيرة الثانية يابسة ثم ضاعت قرطبة عام ٦٣٣.

لم يصل أمر ابن هود في غرناطة[١] إذ تغلّب عليه منافسه أبو عبد الله

---

(١) أصبحت غرناطة أول مرةٍ دار ملك عام ٤٠٣ عندما ملكها الحاجب المنصور أبو مثنى زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، عندما استولى الجيش البربري بإمرة سليمان بن=

محمد بن يوسف أحد رجال بني نصر الدين الذين ينتمون إلى سعد بن عبادة، رضي الله عنه، سيد الأنصار من الخزرج، وكان قد ملك جيان ثم دخل غرناطة عام ٦٣٥، وابن هود يستعد لدعم بلنسية التي يحاصرها النصارى الذين يبارك عملهم ويدعمهم البابا غريغوري التاسع وهذا ما يوضح الصفة الصليبية للقتال الذي كان يدور يومذاك على تلك الأرض. وإذا استطاع محمد أبو عبد الله هذا أن يضمّ إليه قرطبة وإشبيلية ولكنها كانت مدة قصيرة فلم تلبثا أن خرجت من يده، وقد حاول عدم الصدام مع النصارى فكانت المدن تسقط بأيديهم الواحدة تلو الأخرى إذ سقطت بلنسية عام ٦٣٦، ودانية ٦٤١، وجيان ٦٤٣، وشاطبة ٦٤٤، وإشبيلية ٦٤٦، ومرسية ٦٦٤. وتلقّب بالشيخ، والغالب بالله. وتظاهر في أول أمره بطاعة ملوك المغرب من أواخر الموحدين، فلما دالت دولتهم، وغلبهم بنو مرين دعا لهم أيضاً، عام ٦٦٥، كذلك افتتح أمره بالدعاء للخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله مثل سابقه وسميّه ابن هود، وبعد مدة ترك ذلك. وصالح ملك قشتالة فرانده بن الفونس عام ٦٤٣. وخشي سلطان بني مرين لذا فقد تحالف مع النصارى الإسبان، وترك لهم حامية في الجزيرة الخضراء. ولما رأى قوة سلاطين المغرب تحالف معهم، وقدّم لهم مالقة.

كانت أعداد من المسلمين من سكان المدن التي سقطت بأيدي النصارى يرون وضع الأندلس الأليم وما سيؤول إليه فيفضلون البقاء حيث هم تحت رحمة أعدائهم الحاقدين من النصارى، ولا شك فإن بعضهم كان يرتد عن دينه تحت الضغط، وبعضهم الآخر يذوب مع الزمن في المجتمع الذي يعيش فيه في سبيل تأمين حاجاته ومتطلباته الدائمة والضرورية، أو نتيجة الحياة في وسط الإغراءات البهيمية والمصلحية وقد عرف هؤلاء باسم

= الحكم على قرطبة. وبقي زاوي في غرناطة مدة سبع سنوات عاد بعدها إلى إفريقية بعد أن ولي على غرناطة ابن أخيه حبوس بن ماكسن الذي توفي عام ٤٢٩، وخلفه عليها ابنه المظفر الحاجب باديس الذي توفي عام ٤٦٥، وتولى أمر غرناطة بعدها حفيده عبد الله بن بلقين الذي خلع عام ٤٨٣ وأصبحت إلى أمراء ملوك لمتونة من المرابطين أيام يوسف بن تاشفين.

المُدَجّنين وكان بعض المسلمين من سكان تلك المدن ينتقلون إلى تلك الجهات التي لا تزال تحت نفوذ إخوانهم المسلمين.

وعندما قوي أمر بني مرين وبدؤوا يدعمون الأندلسيين ضد الإسبان صارت جماعات من المجاهدين ينتقلون إلى العدوة الأندلسية، ويعرفون باسم الغزاة، وتعرف قيادتهم باسم مشيخة الغزاة، وغدا لهم دور في تلك الحروب، وفي رسم السياسة الأندلسية أحياناً.

وتوفي أبو عبد الله محمد الأول عام ٦٧١، وخلفه ولده الذي يحمل اسمه وكنيته أيضاً، ويُعرف باسم المنتصر، وإن كان أحياناً يسمى بالثاني تمييزاً له عن والده أو عن الآخرين الذين جاءوا بعده، وحملوا الاسم والكنية ذاتها. وكانت علاقته مع بني مرين حكام المغرب تتناوب بين الود والوحشة. وكان الإسبان يستغلّون أيام الجفاء فيغيرون على المواقع الإسلامية، وقد هاجم طاغيتهم الجزيرة الخضراء عام ٦٧٨ وكاد يفتحها ثم تحالف مع ملك قشتالة، وكان المنتصر يخشى سلطان بني مرين لذا فقد قدّم لهم مدينة مالقة عام ٦٩٧. أما الإسبان فقد أخذ صاحب برشلونة جزيرة ميورقة عام ٦٥٨.

وتوفي المنتصر عام ٧٠١ وخلفه ابنه الذي يحمل اسمه وكنيته وهو أبو عبد الله محمد الثالث، فبنى المسجد الأعظم بالحمراء، وهاجم مدينة المنظر، واستولى عليها عنوةً، وأسر صاحبها التي قدّمها إلى ملك المغرب، وتملّك مدينة سبتة عام ٧٠٥، وخُلع بعدئذٍ عام ٧٠٨، وقد عُرف بالمخلوع.

تولّى أمر غرناطة نصر أبو الجيوش بن محمد عام ٧٠٨ بعد خلع أخيه، واصطدم مع ابن عمه صاحب مالقة، وقد هُزم نصر أمام ابن عمه، وقامت حركة في غرناطة يقودها العلماء تدعو إلى خلع السلطان، وتشكّك في إسلام وزيره، وقد تمكّن أبو الجيوش من إخماد هذه الحركة، غير أن عدداً من العلماء قد غادروا غرناطة، وتوجّهوا إلى مالقة الذي شعر صاحبها بقوته فأراد السير إلى غرناطة إلا أن والده فرج لم يوافقه حرصاً على وحدة

كلمة الأسرة، وعدم تفرّق الكلمة كي لا يستغل الإسبان ما يحدث من ضعف ويهاجموا المسلمين غير أن أبا الوليد إسماعيل بن فرج قد قبض على أبيه، وسار إلى غرناطة مطالباً بحقه بالملك، وقد استطاع أن يدخل غرناطة عام ٧١٣.

حكم أبو الوليد إسماعيل غرناطة، وهُزم أمام طاغية الإسبان، ثم تمكّن من العودة إلى النصر، وقام بالغزو عام ٧٢٤، وعام ٧٢٥، وقتله أحد أقربائه وهو راجع من غزوته الأخيرة غير أن خصمه قد قُتل أيضاً، وقُتل معه كل من ناصره، وأُخذت البيعة لمحمد ولد إسماعيل، وقد عرف أبو الوليد بابن الأحمر، وأصبحت علماً لحكام غرناطة.

تولى الحكم أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي الوليد، وقد قاتل الإسبان، وأنقذ حصن قبرة[1]، وجبل الفتح، وجاءه طاغية الإسبان فداراه حتى تمكن من الاستبقاء على جبل الفتح، وحدثت فتنة في أيامه، فاستغل الطاغية هذه الفرصة فاستولى على ثغر (وبرة)، وخرج السلطان من غرناطة مغاضباً، وأخذ سلطان المغرب رندة وغيرها، وأخذ الإسبان جبل الفتح، فعبر شيخ الغزاة عثمان بن أبي العُلا البحر بنفسه عام ٧٣٢ مستصرخاً ملك المغرب فأنجده، وأرسل معه ابنه على رأس نجدة فأنقذ جبل الفتح عام ٧٣٣، وقُتل السلطان محمد بيد أحد أعدائه عند جبل الفتح في أواخر العام المذكور.

خلف السلطان محمد الرابع أخوه أبو الحجاج يوسف الأول، واستمر عهده حتى عام ٧٥٥، وفي أيامه حدثت معركة بحرية عام ٧٤٠ بين المسلمين والنصارى الإسبان حيث تجمعت القوى الصليبية كلها بدعم من البابا وهُزم فيها المسلمون، فأخذ المسلمون للاستعداد غير أنهم هزموا ثانية في معركة طريف عام ٧١٤، وعندما توفي خلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس الذي تلقب بـ «الغني بالله» وبعد خمس سنوات قام عليه أخوه

(١) حصن قبرة: في منتصف المسافة بين قرطبة وغرناطة.

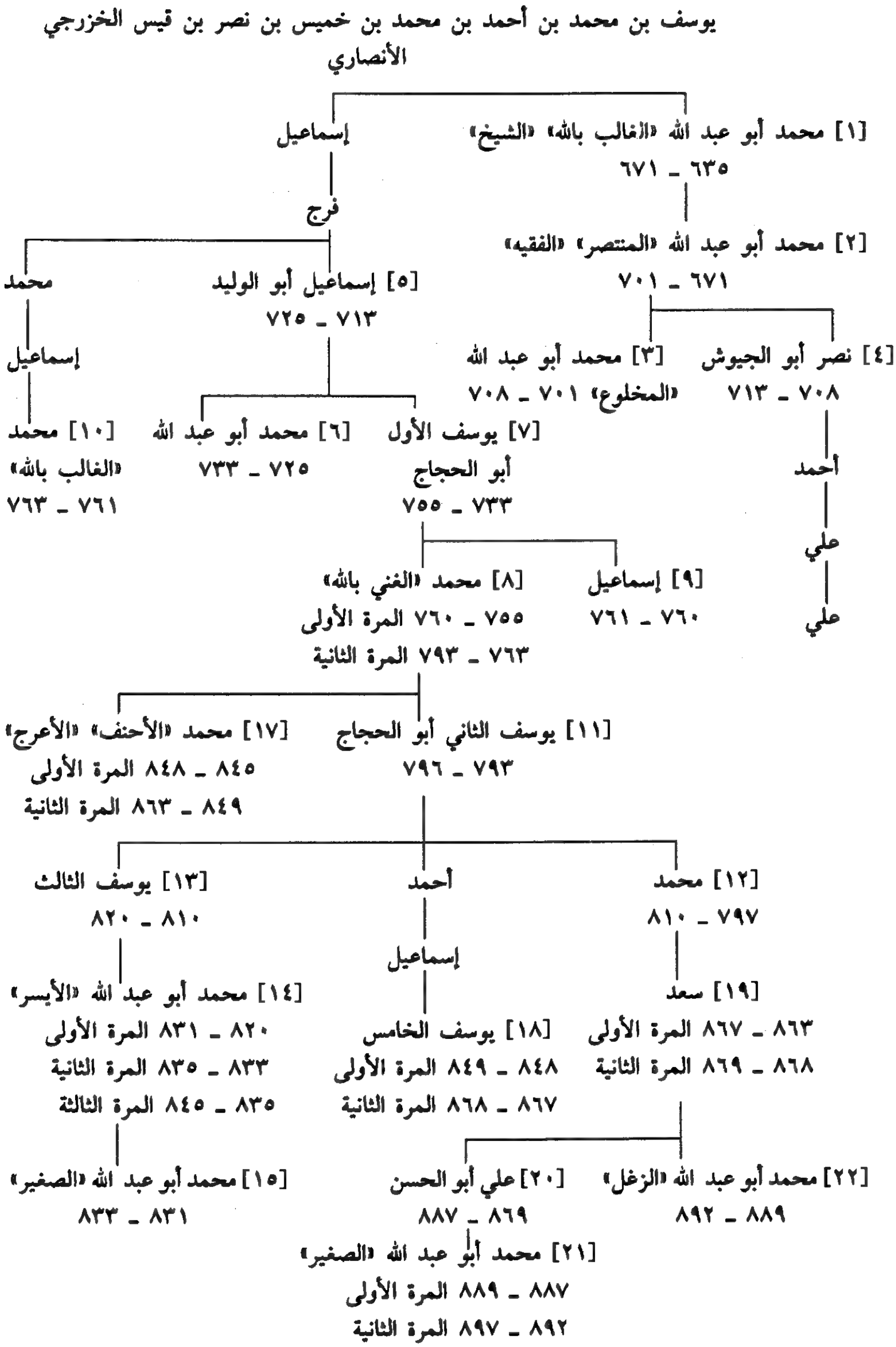
إسماعيل الثاني، وكان قد ألزمه قصراً مع أمه وأخواته، إذ أخذت أم إسماعيل مبلغاً كبيراً من المال من خزائن أبيه عند وفاته، وبدأت تعمل لتولية ابنها الحكم، واستعانت بزوج ابنتها، وهو ابن عم زوجها، فتمكن ابن العم من الفوز وإنجاح عملية الدعوة لإسماعيل، فقام بالأمر، وانتقل السلطان محمد إلى وادي «آش» ثم استدعاه سلطان المغرب فانتقل إليه.

استعان إسماعيل بملك قشتالة، إلا أن ابن عمه أبا عبد الله محمداً لم يلبث أن تنكر له، وقام عليه وقتله عام ٧٦١ أي بعد سنة واحدة فقط من اتفاقهما والقيام بالأمر. وتفرّد ابن العم بالسلطة وهو أبو عبد الله محمد السادس. وعاد السلطان محمد إلى الأندلس فأطاعه أهلها عام ٧٦٣، وهرب ابن عمه من غرناطة، والتجأ إلى ملك قشتالة، ودخل غرناطة محمد واستقر له الوضع ثانيةً، ولم يلبث ملك قشتالة أن قتل خصم السلطان محمد الخامس وأرسل إليه رأسه. وثار على السلطان محمد أحد أبناء عمومته وهو علي بن علي بن أحمد بن نصر، ولكنه ظفر به. وطالت أيامه، واتسعت دولته حتى صارت له السيطرة على المغرب بسبب الاختلافات بين بني مرين، حيث كان يضرب أحدهما بالآخر، كما تصالح مع مملكتي آرغون وقشتالة.

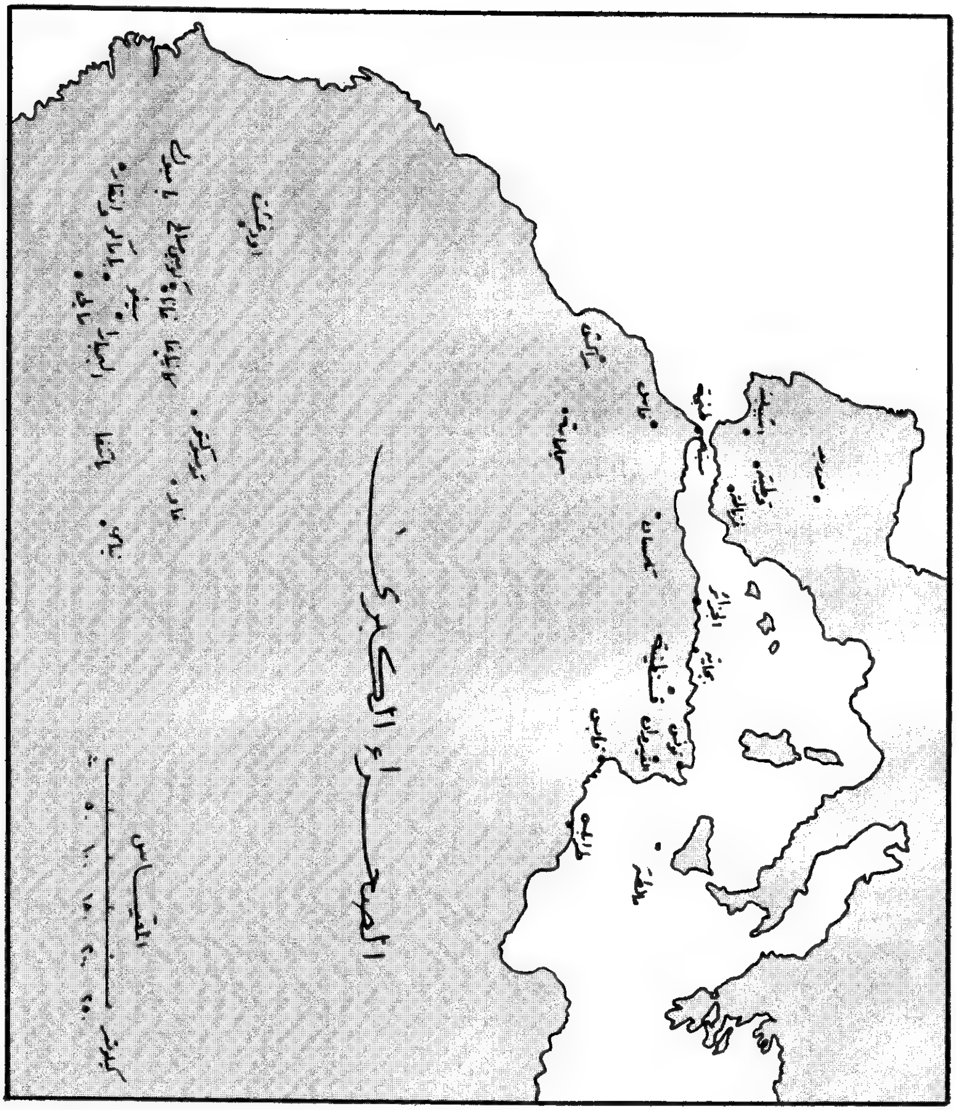
وخلفه ابنه أبو الحجاج يوسف الثاني وأراد البقاء على الهدنة مع ملوك قشتالة، ولكن لم يتم له ذلك، وحدثت بعض الحروب، ثم عقد صلحاً مع الملك النصراني الشاب هنري الثالث، واستمر حتى توفي عام ٧٩٦، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد السابع الذي توفي عام ٨١٠، وكان محمد السابع هذا قد سجن أخاه الأكبر منه يوسف الذي كان ولي عهد أبيه، وبقي سجيناً حتى توفي الأصغر فتسلم الأمر باسمه يوسف الثالث، وعقد هدنة مع ملك قشتالة لمدة عامين تجدد بعدها القتال فهُزم عام ٨١٥، واضطر إلى عقد هدنة جديدة، وخسر فيها الكثير كما خسر في معاركه، وكان شاعراً، وتوفي عام ٨٢٠. وكان على خلاف مع سلطان بني مرين في المغرب عثمان بن أحمد، وكان يخشى أن يحتل سلطان المغرب غرناطة.

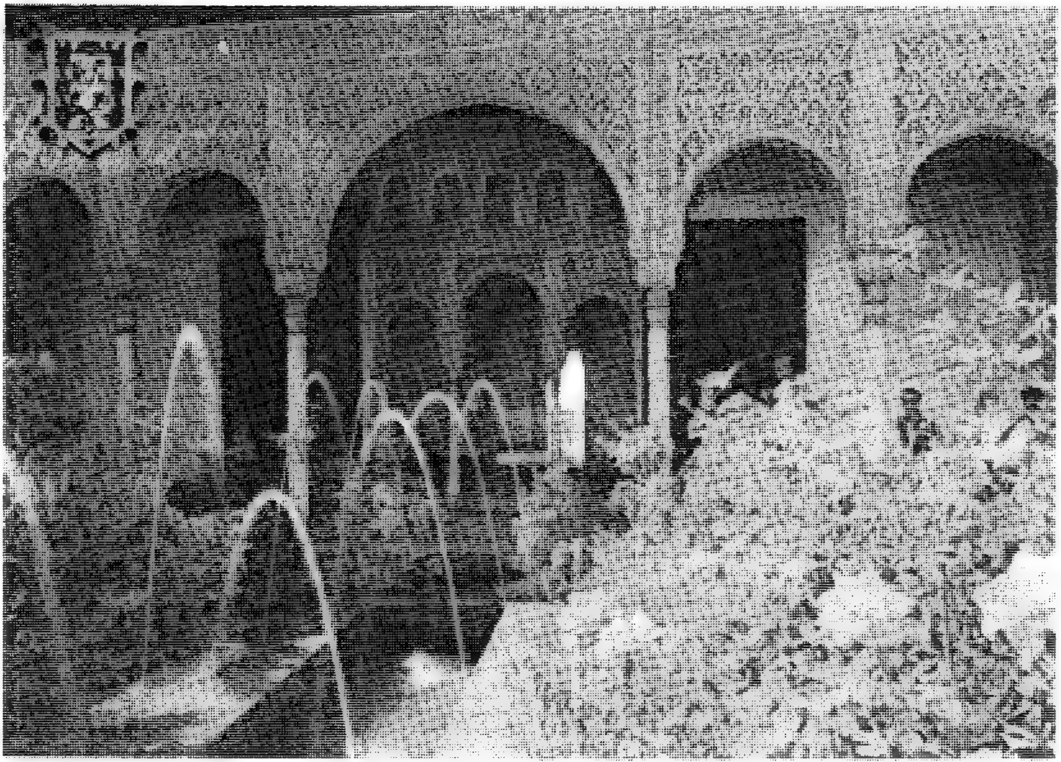
تولى أمر غرناطة أبو عبد الله محمد الثامن وقد عرف باسم الأيسر، وبقي حتى عام ٨٣١ حيث خلع، وولي ابنه أبو عبد الله محمد التاسع الذي اشتهر بالصغير، غير أنه خلع بعد عامين، وأُعيد أبوه الأيسر للمرة الثانية، ثم خُلع مرة أخرى بعد عامين (٨٣٥) وتولى أبو الحجاج يوسف الرابع الذي أمه ابنة محمد الغني بالله وحكم عدة أشهر وتوفي بعدها، فأُعيد الأيسر مرة ثالثة وبقي حتى عام ٨٤٥، حيث خلع أيضاً وخلفه أبو عبد الله محمد العاشر الذي عرف بالأحنف، كما يطلق عليه أحياناً الأعرج، وخلع عام ٨٤٨ أي بعد ثلاثة أعوام من حكمه، وأعطي الحكم ليوسف الخامس بن إسماعيل وخلع بعد حكمه بعدة أشهر، وأُعيد الأحنف فاستمر حتى ٨٦٣ حيث خُلع، وتقلّد مُلكَ غرناطة بعده سعد بن محمد السابع حتى عام ٨٦٧ حيث خُلع، وأُعيد محمد الخامس حتى عام ٨٦٨، ورجع إلى الملك مرة ثانية سعد بن محمد السابع.

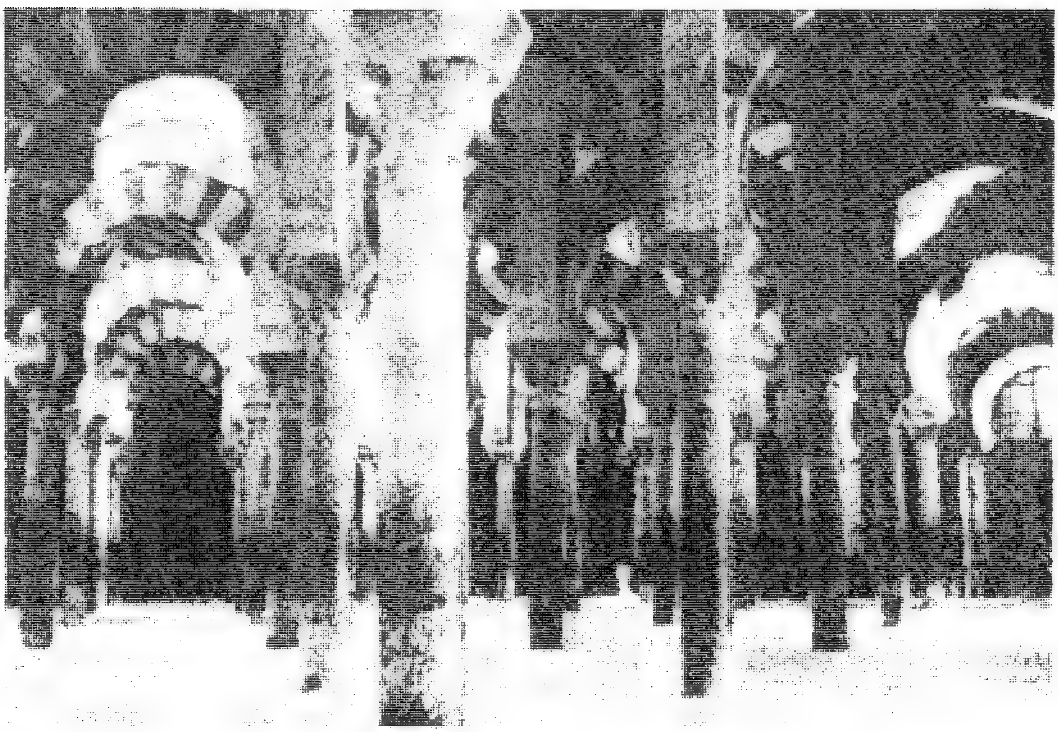
وفي عام ٨٦٩ خلع سعداً ابنه علي أبو الحسن وبقي حتى توفي عام ٨٨٧ فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الحادي عشر، وقد عُرف بالصغير، وقد قاتل النصارى الإسبان فأُسر عام ٨٨٩، فتسلّم عمه محمد الثاني عشر أبو عبد الله وقد عرف بالزغل. ولكن أُطلق سراح أبي عبد الله محمد الصغير عام ٨٩٠ بعد صلح تنازل فيه كثيراً للنصارى، وأُعيد إلى السلطة عام ٨٩٢، فبقي حتى عام ٨٩٧ حيث ضاعت الأندلس نهائياً إذ سقطت بيد النصارى وانتقل أبو عبد الله الصغير إلى العدوة المغربية حيث استُقبل في فاس وبقي حتى وفاته... وضاعت الأندلس من أيدي المسلمين وقامت حروب الإبادة والتنصير والتشريد... حيث كانت غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

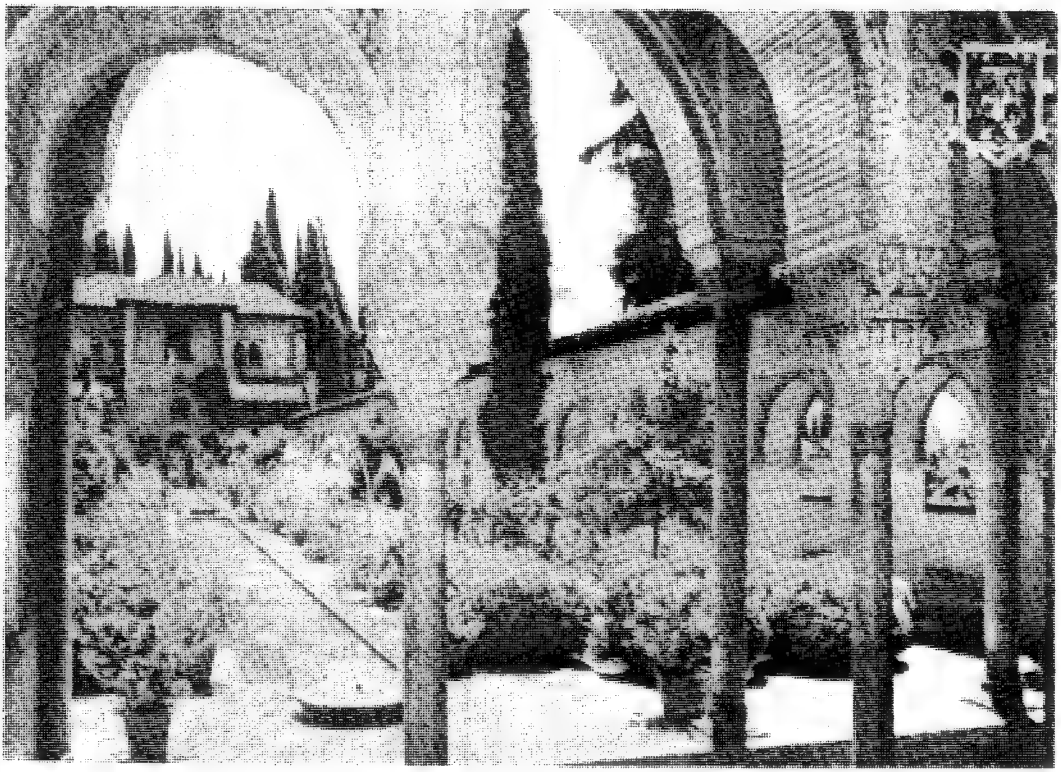


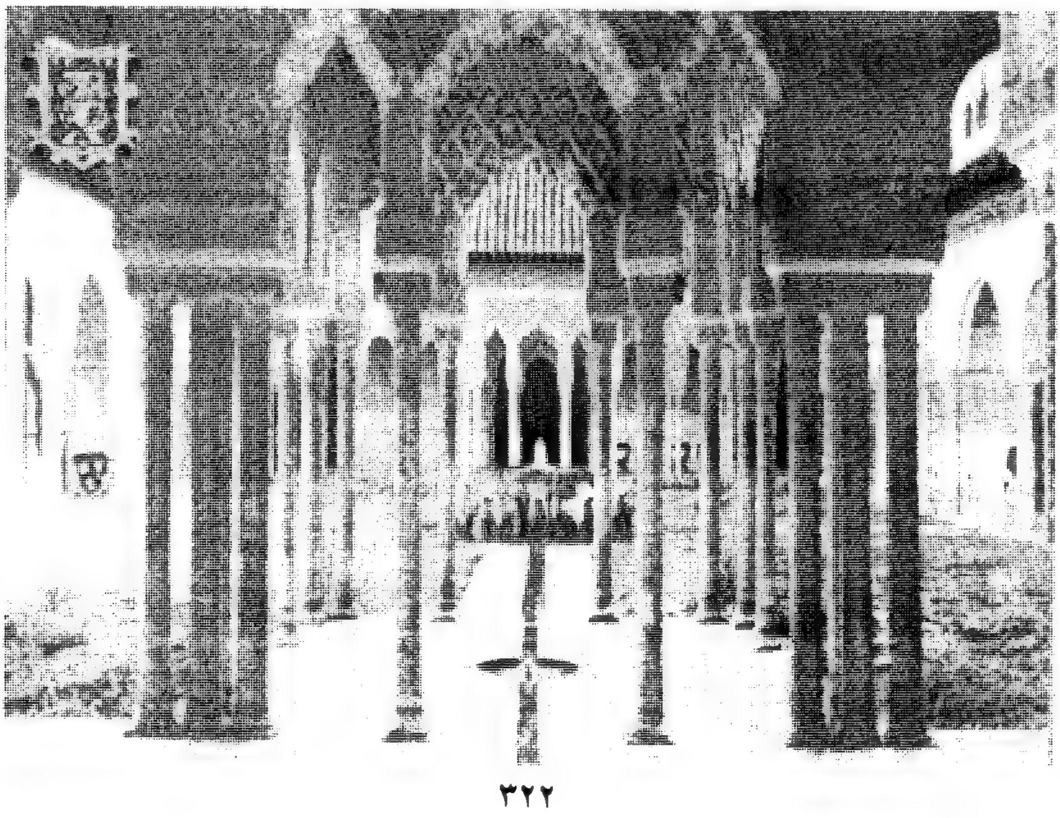
ملاحظة: كان السلطان السادس عشر هو يوسف ابن ابنة محمد الغني بالله وقد حكم عدة أشهر من عام ٨٣٥ ثم توفي وهو يوسف الرابع.











المـراجع

- **الأشرف قانصوه الغوري**: محمد رزق سليم، المؤسسة المصرية العامة، من سلسلة أعلام العرب، ٢٥ ـ.
- **الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- **أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي**: سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ.
- **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، القاهرة ١٣٩٦هـ.
- **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**: محمد الغربي، دار الرشيد للنشر ـ بغداد ـ ١٤٠٢هـ.
- **البداية والنهاية**: إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى ٧٧٤، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مكتبة الفلاح، الرياض.
- **تاريخ ابن خلدون كتاب العبر**: عبد الرحمن بن خلدون المتوفى ٨٠٨، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ.
- **تاريخ الإسلام**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- **تاريخ الخلفاء**: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى ٩١١، المكتبة التجارية ـ القاهرة، ١٣٧١.
- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع**: أبو شامة المتوفى ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان والبلغار وملوك التتار**: م.م الرمزي، المطبعة الكريمية والحسينية، أورنبورغ ١٣٢٥.
- **حياة جنكيزخان**: ب. يا، فلاديمير ستوف، ترجمة سعد بن محمد حذيفة الغامدي.
- **الدعوة إلى الإسلام**: سير توماس. و. أرنولد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١.

- **الدول الإسلامية**: ستانلي لين بول إضافات بارتولد وخليل أدهم، ترجمة محمد صبحي فرزات ـ دمشق ١٣٩٤.
- **الروضتين في أخبار الدولتين الغورية والصلاحية**: أبو شامة المتوفي ٦٦٥، دار الجيل، بيروت.
- **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ.
- **سقوط الدولة العباسية**: سعد بن محمد حذيفة بن مسفر الغامدي، ١٤٠٣هـ.
- **العصر المملوكي في مصر والشام**: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٣٩٦.
- **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**: علي بن الحسن الخزرجي، مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٣٢٩هـ.
- **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت ـ ١٣٨٩.
- **الكشوف الجغرافية حقيقتها ـ دوافعها**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **اللمحة البدرية في الدولة النضرية**: لسان الدين بن الخطيب، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**: أحمد بن عبد الله القلقشندي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٠هـ.
- **معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحمدي الرومي البغدادي المتوفى ٦٢٦، دار بيروت للطباعة، دار صادر.
- **المغول**: السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت.
- **المغول في التاريخ**: فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت ١٣٩٠هـ.
- **المنهل الصافي**: يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية ـ تحقيق أحمد يوسف نجاتي ١٣٧٧.
- **مواطن الشعوب الإسلامية سلسلة كتب**: محمود شاكر، المكتب الإسلامي، بيروت.
- **المواعظ والاعتبار**: أحمد بن علي المقريزي المتوفى ٨٤٥، دار صادر ـ بيروت.
- **الناصر صلاح الدين**: سعيد عبد الفتاح عاشور، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٤١.

- **الناصر محمد بن قلاوون**: محمد عبد العزيز مرزوق، المؤسسة المصرية العامة من سلسلة أعلام العرب ٢٨.
- **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي**: نوال حمزة يوسف الصيرفي، دار الملك عبد العزيز، ٣١ ـ الرياض.
- **الهند في العهد الإسلامي**: عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، الهند ١٣٩٢.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الباب الأول	
المماليك	
الفصل الأول: قيام دولة المماليك	٢١
الفصل الثاني: عصر المماليك البحرية	٣٥
الفصل الثالث: المماليك الجراكسة «البرجية»	٦٩
الباب الثاني	
جزيرة العرب	
الفصل الأول: الحجاز	٩٧
الفصل الثاني: اليمن	١٠٣
الفصل الثالث: اليمامة	١١٥
الفصل الرابع: البحرين	١١٧
الفصل الخامس: عمان	١٢١
الباب الثالث	
دول المغول	
الفصل الأول: دولة مغول الشمال	١٣٥
الفصل الثاني: الدولة الإيلخانية	١٦٩
الفصل الثالث: أسرة جغطاي	١٨٣
الفصل الرابع: أسرة أوغطاي	١٨٩
الفصل الخامس: تيمورلنك	١٩٥
الباب الرابع	
المسلمون في الهند	
الفصل الأول: المسلمون في أطراف الهند	٢٠٩

الفصل الثاني: ملوك دهلي ٢١٣
الفصل الثالث: ملوك المقاطعات ٢٣١
الفصل الرابع: الإسلام في الجزر وجنوب شرقي آسيا ٢٥٥

الباب الخامس
المغرب والأندلس وغربي إفريقية

الفصل الأول: بنو مرين في المغرب ٢٦٧
الفصل الثاني: بنو زيان «عبد الواد» في المغرب الأوسط ٢٨١
الفصل الثالث: الحفصيون في تونس ٢٨٩
الفصل الرابع: إفريقية الغربية ٢٩٧
الفصل الخامس: بنو نصر «الأحمر» في الأندلس ٣١٣
المراجع ٣٢٣

التاريخ الإسلامي

— ٨ —

العهد العثماني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٨ —

العهد العثماني

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد**،

فإن المرحلة التاريخية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧) من التاريخ الإسلامي يُطلق عليها اسم «العهد العثماني»، وإن لم يكن الحكم العثماني قد شمل الأمصار الإسلامية كلّها لكنه ضمّ أكثرها إذ امتد على أوسع رقعةٍ من مساحة تلك الأمصار، وكانت الخلافة العثمانية محطّ أنظار المسلمين ولو كانوا خارج حدودها بصفتها مركز الخلافة، وبصفة حاكمها خليفة المسلمين وليس خليفة العثمانيين، والعثمانيون جزء من المسلمين، كما كانت هذه الدولة أقوى دولةٍ إسلامية يومذاك بل وتعدّ من دول العالم الكبرى إن لم نقل أعظمها، وكانت تحرص على مساعدة المسلمين في كل بقعةٍ، وتعدّ نفسها مسؤولةً عنهم، وحاميتهم، وممثّلةً لهم، لذا فبشكل طبيعي أن تحمل هذه المرحلة اسمها.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد ظهرت منذ عام ٦٩٩ إلا أنها لم تكن خلافة منذ ذلك التاريخ، وإنما كانت الخلافة العباسية قائمةً في مصر بيد المماليك، ولم يُعلن العثمانيون خلافتهم حتى سلّمهم إياها العباسيون، إذ لا يصحّ قيام أكثر من خليفةٍ للأمة الإسلامية في وقت واحدٍ. لذا فإننا نعدّ المرحلة العثمانية منذ تسلّمهم الخلافة عام ٩٢٣هـ.

ولما كانت هذه المرحلة تشمل قيام عددٍ من الدول، لذا فقد قسمّت البحث إلى أبوابٍ بحيث يشمل كل باب دولةً أو منطقةً، وقد كان:

الباب الأول: عن الدولة العثمانية وركّزت على دراستها أكثر من غيرها.

الباب الثاني: عن الجزيرة العربية رغم أنها تبعت الحكم العثماني غير أن ما وقع فيها من أحداث سواء أكان في منطقة الخليج أم في نجد حيث قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذات الأثر الكبير، أم ما حدث في اليمن مما جعل هذا القسم يستحقّ عندي أن أُفرد له باباً خاصاً.

الباب الثالث: فقد خصصته لبلاد التتار في أوروبا وبلاد الترك في آسيا الوسطى حيث امتد الاستعمار الروسي إليهما وهذا ما جعلني أضعهما في بابٍ واحدٍ، وقد أضفت إلى هذه المنطقة إيران وأفغانستان على اعتبارهما تقعان في وسط آسيا.

الباب الرابع: وشمل بلاد الهند، وأفردت فصلاً خاصاً من هذا الباب لجنوب شرقي آسيا ليتكامل البحث عن العالم الإسلامي، وفي هذه البقعة ظهر الاستعمار الصليبي متمثّلاً في الإنكليز، والفرنسيين، والهولنديين، وقام بينهم صراع ومنافسة على استعمار الأرض ونهب الخيرات. ووفاق على الحرب الصليبية.

الباب الخامس: حيث ختمت الدراسة به، وقد شمل بلاد المغرب وغربي إفريقية وشرقيها وإن تبع جزء من بلاد المغرب الخلافة العثمانية.

أسأل اللّه التوفيق وسداد الخطا... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأوّل

الدولة العثمانيّة

مقدمة عن الدولة العثمانية

إن التاريخ الإسلامي قد شوّه في المراحل التي سبقت العثمانيين بأيدٍ مُسلمة أو تدّعي الإسلام في سبيل مصالح لها أو أنّ ذلك نتيجة الخلافات السياسية أو المذهبية التي قد أضلّتها وأعمت بصيرتها فأرادت أن تسيء إلى الخلافة بادعاءاتٍ تدّعيها وحكاياتٍ خيالية تنسجها، لتُظهِر فساد ذلك العهد أو لتبرز عوراته بشكلٍ صارخٍ يخرج عن حدود المعقول، كما أنها تنسب قصصاً للمجتمع غير حقيقيةٍ لتقول: إن فساد المجتمع كان كبيراً بسبب المسؤولين الذين عاثوا في الأرض الفساد وأهملوا كل تبعةٍ عليهم وربما وصلت المبالغة إلى درجةٍ أن أخرجوا عدداً من الصحابة والمسؤولين عن الإسلام. ولا أقول: إن تلك المرحلة، كانت تمثّل الإسلام بشكل صحيح أو أنها كانت تسير بخطٍ مستقيم ليس فيه شيء من الانحراف أو الأخطاء، نعم لقد كانت بعض الأخطاء قائمةً، إذ بدأ الانعطاف بالخط السليم يظهر، ولكن ليس على تلك الصورة التي أعطاها أولئك المغرضون والتي عمّت تقريباً لدى القارئين أو الذين يدرسون التاريخ أو هكذا فهموا منها، وذلك لأن تلك الفئة المغرضة قد أعطت التاريخ همّها كلّه، وبذلت جهدها كلّه لذلك الغرض، ولم يكن لديها من شغلٍ سوى ما تفكر به، واشتُهرت آراؤها، وأخذ المؤرّخون والذين دوّنوا التاريخ الشيء الكثير من الروايات عنها. أما المسلمون الآخرون فكانوا يهتمون كمسؤولين بالحكم وأموره، والجهاد والفتوحات، وحياة المجتمع، وكعلماء في التوجيه والانطلاق مع المجاهدين وتدوين ما هو أهم، وانصرف الشعب في بداية الأمر إلى نشر الإسلام والعمل له، ثم اتجه إلى شؤون دنياه بعد أن خفّت حدة الفتوحات أو قلّ الاتجاه نحو الجهاد لأسبابٍ كثيرة.

لقد بدأت زاوية الانحراف تظهر مع بداية العهد الأموي، ثم أخذت بالانفراج تدريجياً وإن لم تتسع بالشكل الذي يُصوّره أولئك المغرضون، وجاء العصر العباسي، وجاءت معه التأثيرات المادية سواء نتيجة الاحتكاك بالمؤثرات الغريبة عن المجتمع أم نتيجة الثراء من الفتوحات، فشغلت المادة الناس، وأبطرت بعضهم النعمة لكثرة ما دخل البيوت من الجواري والعبيد إثر الفتوحات التي سبقت ذلك العهد فغبوا من شهوات الدنيا ومتاعها ما شاء لهم هواهم أن يغبوا، وغنّى بعضهم ولعب، وشاد وطرب، وابتنى القصور وشرب، وماج وصخب، ولكن هؤلاء كانوا قلةً، غير أن ضجيجهم كان واسعاً الأمر الذي ظنّه الآخرون سائداً، وجاء الماديون بعدئذ فأعطوا تلك الصورة صفة العمومية وعدّوا ذلك العمل حضارةً حتى عمّت هذه الفكرة لدى الناس أو أنصاف العلماء. . . أما الكثرة من المجتمع فكانوا على شيءٍ من المستوى الصحيح لم تُبطرهم النعمة، ولم تفتنهم الدنيا فانصرفوا إلى التجارة أو إلى العلم، فدوّنوا الكتب في الفقه والأدب والنحو والسِّيَر، وساروا بالتجارة فنشروا الإسلام إلى أقاصي المعمورة، وكان الإسلام ينتشر مع طرق التجارة، فحيثما انطلقت سار، والطرق البحرية شاهدة على ذلك في فطاني، وماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين، وسواحل فيتنام في تشامبا، وشواطئ الصين هذا من جهة الشرق، وشواطئ إفريقية الشرقية وجزرها في الغرب وكل هذا ينطق اليوم بذلك.

ومع ما ظهر من انحراف في ذلك العصر إلا أنه لم يصل إلى تلك المرحلة التي يصوّرها المغرضون إذ بقي الإسلام أساساً ثابتاً في النفوس لم يستطع وضعٌ أن يغيّره بصورةٍ سهلةٍ، وثابتاً في المجتمع لا يمكن أن يتجاوزه أو يخرج عليه أحد إذ يلقى عاقبةً وخيمةً لو فعل، وكم من خُرّميين انتهوا أو كم من مفسدين بطش بهم المجتمع قبل المسؤولين!

وما أُبرّئ المسؤولين من ذلك الانحراف الذي كان يقع في القصور، فأمر طبيعي أن يقع ما دام قد أشيد القصر لأداء مهمةٍ معينةٍ، ووُجد في داخل القصر ما وُجد، وانصرف من فيه إلى اللهو أو الشغل بالبناء، وجرّ

المياه إلى الحدائق والمتنزهات والأخذ من نعيم الدنيا جرّهم إليه أو طغا بهم وجود المادة الذي استطاع طغيانه أن يفتن منهم من افتتن.

ومع ذلك فقد بقيت أُسس الإسلام ثابتةً تقريباً حتى في داخل القصور لا يجرؤ خليفة على تجاوزها، وإن تجاوزها ففي السرّ دون الجهر والإخفاء دون العلانية، ولو تجرأ وأظهر خُلع أو انتهى.

فالخلفاء الذين أُلقي نعيم الدنيا أمامهم، وليس لهم من عملٍ سوى استلام المنصب دون أن يكون له تبعة عليهم أبداً، والناس في كفاية أيضاً، وليس من أمرٍ سوى الخلاف الذي ينشأ بينهم نتيجة الأطماع في الطلب لزيادة تحقيق الرغبات، وأصحاب النفوذ سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركاً أم بويهيين. فهم الذين يتصرّفون بالأمور، ويتقاتلون لزيادة النفوذ أو للسيطرة على مناطق أوسع، ألا ينغمس هؤلاء الخلفاء في الترف؟ ومع هذا الانغماس إن صحّ تسميته، أو السكوت عنه فإن الخلفاء كان منهم الصالحون الذين يُكثرون من العبادة والصدقات والتفتيش عن أصحاب الحاجات وإن كنا نجهل هذا عنهم، ونحمل عليهم لضعفهم أو للأمر الذي آلوا إليه وربما ورثوا الأمر وهو على تلك الحال، ألا يُعدّ هؤلاء الخلفاء من العظماء فالجو المحيط بهم كله شهوات وكله مغريات ومع ذلك فقد امتنعوا عن الولوغ فيه والارتماء في وحوله، واعتصموا... أما ضعفهم فأمر آخر ورثوه وليس بإمكانهم إزالته كلياً أو التأثير فيه جذرياً... وقد استطاع بعضهم أن يغيّر قليلاً أو يسير شوطاً أفضل نحو الإصلاح.

واستمر هذا الضعف في المرحلة التي أتت فيما بعد في أيام المماليك بل أصبحت الخلافة اسميةً وغدا المماليك هم المتصرّفون بالأمور كلها، ويختلف بعضهم مع بعض، وبقي المجتمع متماسكاً نسبياً أيضاً، والإسلام مرهوب الجانب لا يجرؤ امرؤ على مخالفته، ونذكر بكل تقديرٍ وإكبارٍ موقف العزّ بن عبد السلام الذي أعلن للمماليك أنهم عبيد لا يحقّ لهم أن يتصرّفوا بأمور الدولة التي هي من اختصاص الأحرار فلم يستطع أن يقف أحد منهم في وجهه بل هو الذي وقف في وجههم، وهم أصحاب

السلطة، وهم أصحاب النفوذ، نقدّر هذا الموقف الذي يستغرب الإنسان وقوعه في تلك الأيام المتأخرة والتي يتصوّر المرء أن الإسلام قد انحسر عن الحياة، ومع هذا نقول: إن زاوية الانحراف بقي انفراجها بازدياد.

ولم يأتنا تشويه التاريخ الإسلامي في خلال هذه المراحل كلها من خارج نطاق المسلمين وذلك لأن الأعداء وخاصةً النصارى منهم كانوا يعيشون في مرحلة من الضعف العلمي والفكري بحيث لا يمكِّنهم من الهجوم فكرياً على المسلمين والكتابة عنهم في ديارهم. ولكن عندما قوي أمرهم، وجاءت النهضة، وصحوا من رقدتهم استفادوا مما شوّهه المغرضون من المسلمين وزادوا هم عليه، واستغلّوا ذلك الهجوم على الإسلام يدفعهم في ذلك الحقد الصليبي، فتشويه التاريخ الإسلامي من قبل الأعداء قد جاء في مرحلةٍ متأخرةٍ.

وكانت أوربا تترنّح لتقف على أقدامها عندما جاء العهد العثماني في الوقت الذي كان فيه المسلمون يقفون مكانهم لا يتقدّمون حيث كان جانب الإهمال لدينهم - الذي هو سبب مجدهم ومجال قوتهم - قد بدأ يظهر، والسعي للأخذ بالأسباب قد بدأ يفتر، ثم جاء الوقت الذي تعادلت فيه الكفتان، وبعدها أخذت ترجح كفة أوربا النصرانية على كفة المسلمين... وإذ بقي شعور لدى المسلمين بأنهم هم الأعلون وأنهم فوق النصارى مهما تقدّمت بهم الأيام ما دام المسلمون مؤمنين فإن هذا الشعور لم يواكبه عمل إيجابي، ولم يحرّكه دافع للتمسّك بالإسلام، والسير حسب منهجه الذي يطالبهم للعمل بالخلافة في الأرض وإعمارها واستخراج كنوزها، والإفادة من خيراتها، والبحث والتجربة لاستنتاجٍ جديدٍ وتطورٍ في جميع المجالات.

ونهضت أوربا وتقدّمت في مختلف الميادين، وثبت المسلمون، بل غدت حالتهم تتأخّر مع الإهمال الذي أصابهم، والكسل الذي حلّ بهم، وإعطاء الميدان لغيرهم، وترك باب الجهاد، وما تركه قوم إلا ذلّوا، واستمروا على هذه الحال حتى أصبحوا مقلّدين لأوربا تقليداً أعمى، متتبعين لآثارها اتباعاً بلا وعي، يأخذ بعض المسلمين منها دون معرفة، وينقل دون

روية، وينهل من نتائجها من غير محاولة للنتاج «والله لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه وراءهم»، وحبذا لو كان الأخذ للمفيد المثمر والاتباع للبحث المنتج، غير أنه كان تقليد ما ساء من سلوكهم، وما خبُث من تصرّفهم، وترك ما حسُن بحجة الصعوبة وعدم القدرة في الوقت الراهن. فأصيب المسلمون بالصغار، وأصابهم الوهن «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها..» قال قائل: يا رسول الله ومن قلةٍ يومئذ؟ قال: «لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، ولتعرفنّ في قلوبكم الوهن» قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

بدأت أوربا تكتب وتدوّن ويأخذ بعضنا كل شيءٍ منها وهم الذين خضعوا لأوربا فكرياً وثقافياً وعلمياً وفُتنوا بحضارتها، وبُهروا بعلومها فتتلمذوا على أيدي رجالاتها والمبشّرين بدينها، يأخذون منها وينقلون إلينا دون فحص، ومن غير تحقيق أو تدقيق. وماذا تدوّن أوربا عن العثمانيين؟ وهم أعداؤها العقيديين قبل كل شيء، فالعثمانيون كانوا يرفعون شعار الإسلام سواء أكان ذلك عن علم ويقين أم عن جهل وتقليد فالمهم كان عاطفةً ويعدّون أنفسهم المدافعينَ عن الإسلام والذّابّين عن دياره، وكانت أوربا ترفع شعار النصرانية، وتعدّ نفسها حامية حماها والذائدة عن ذمارها. ومن آثار العقيدة تظهر العداوة السياسية فالعثمانيون يُقاتلون أوربا ويتقدّمون على أرضها من جهة الشرق بل لقد وصلوا إلى ما يقرب من منتصف أرضها فلقد حاصروا ڤيينا قاعدة إمبراطورية النمسا أكثر من مرة، ويحارب العثمانيون الأوربيين على عدة جهات أخرى، فهم ينازلون الإسبان في بلاد المغرب وفي البحر المتوسط، ويقفون في وجه البرتغاليين في جنوبي الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، والخليج العربي، بل وسواحل الهند، ويضغطون على الروس من جهة الشمال ليُخفّفوا من وطأتهم عن بلاد التتار

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأحمد في «المسند» الجزء الخامس برقم ٢٧٨. وانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٨١٨٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥٦).

في شرقي أوربا وسواحل البحر الأسود الشمالية، وعن بلاد الشركس، وعن المسلمين في أواسط آسيا. فماذا يكتب الأوربيون النصارى الذين يدفعهم الحقد الصليبي عن العثمانيين؟ ومن هنا جاء تشويه التاريخ الإسلامي في أيام العثمانيين.

لقد سجّل النصارى الأوربيون عن العثمانيين كل سلبيةٍ، وجالت بها أقلامهم، وحلّقت بها أفكارهم، وأهملوا كل إيجابيةٍ أو تجاهلوها ونسوها فلم ينظروا إلا بعين البغض فلم تُبد لهم إلا المساوئ. ولكي يُثيروا عليهم بقية المسلمين عدّوا الحكم العثماني استعماراً، دخل إلى البلاد بالقوة وفرض سلطته بالقسوة، ودعوا العرب خاصةً إلى مناهضة العثمانيين فالخلافة - حسب دعواهم - يجب أن تكون محصورةً بالعرب لا اجتهاداً منهم وعلماً ولا دراية وفقهاً، وإنما حسداً وكرهاً للمسلمين كي يتحرّك بعضهم على بعض. ويُقاتل بعضهم بعضاً، ويتمرّد المحكوم على الحاكم باستمرار، ويهنأ لهم بعدئذٍ العيش، وينعمون، ويذلّون المسلمين ويحكمون ديارهم، ويتحكّمون بهم.

لقد عدّوا كلّ حركةٍ على الحكم العثماني نصراً للنصارى ونعتوا تلك الحركة بالإخلاص ولو كانت من قطّاع الطرق والأشقياء كحركة ضاهر العمر، ووصفوا كل ثورةٍ على العثمانيين بالوطنية وخاصةً إن كانت من قبل غير المسلمين مثل الفئات الخارجية عن الإسلام كحركة فخر الدين المعني، وبشير الشهابي وغيرهما وأفضل من ذلك إن كانت من الحركات التي ترتبط بالصليبية الأوروبية، كما ارتبطت حركة فخر الدين المعني بإيطاليا، وتلقت من هناك المساعدات والدعم، وكان فخر الدين المعني كلما هُزم آوى إلى إيطاليا فاحتضنته وشجّعته، وتوسّطت له لدى الباب العالي. أما إذا حملت الحركة ضد العثمانيين الدعوة الإسلامية ودعت إلى الإصلاح نعتتها أوربا بالجمود والتأخر، وحكمت سلفاً عليها بالفشل وإن أعطتها صفة الاستقلالية والوطنية وأثنت عليها لترمي المسلمين بعضهم ببعض، وجاء دورنا فنقلنا هذا كله عن الأوربيين، وعلّمناه لأبنائنا دون بحثٍ وتدقيق، وأصبحت شبه

حقيقةٍ، يدرّسه جيل لجيل، وقد آن لنا أن ننتبه، وأن نكتب وندوّن من خلال ما تمليه علينا العقيدة ويفرض علينا العلم من بحث وتحقيق.

أما النصارى الذين يعيشون في أجزاء الدولة العثمانية فلم يُظهروا العداء للحكومة، ولم يُبدوا معارضةً ما دام العثمانيون أصحاب قوة إذ يخشون أن تحلّ بهم ضربة قاصمة أو ينزل بهم عذاب شديد من تهجيرٍ وإقصاء عن مناطق معينةٍ غير أنهم كانوا يحرّضون السكان سرّاً ضد الدولة كلما وجدوا فرصةً سانحةً للتحريض، أو رأوا وقتاً يُناسب الإساءة أو الاتصال بنصارى أوربا.

وعندما ضعُف أمر العثمانيين، وبدأ الأوربيون يتدخلون في شؤونهم كشّر النصارى في الدولة العثمانية عن أنيابهم فكانوا يعدّون أنفسهم رعايا لدول أوربية، كل طائفةٍ منهم حسب ما تنتسب فالأورثوذكس كانوا يُحسبون على أنهم رعايا لروسيا، والكاثوليك رعايا لفرنسا، والبروتستانت رعايا لإنكلترا، ولم تكن الفئات الخارجة عن الإسلام بعيدةً عن هذا الصراع وخاصةً في الأيام الأخيرة بعد عام ١٢٧٦ عندما حدثت الأحداث في لبنان، فقد دخل الدروز في هذا الميدان، وأصبحت إنكلترا تدعمهم ضد الكاثوليك رعايا فرنسا وحلفائها، والمنافسة بين الدولتين أمر قائم ومعروف.

وبدأ النصارى أيضاً يدعون إلى التنظيمات السريّة باسم القومية التي بدأت تدخل إلى المنطقة، مع الأسف، والنصارى ليس لهم دعوة سواها إذ لو دعوا إلى عقيدتهم كرابطة لكانوا وحيدين في الساحة، ولحلّت بهم النكبات، وُعّدوا محاربين يجب قتالهم حسب الشريعة الإسلامية المعمول بها في الدولة ولو اسمياً.

وإذا كان النصارى لم يجدوا لهم مؤيداً بين المسلمين في أول الأمر إلا أنهم قد وجدوا ذلك بعد مدة إذ كثر الأشخاص الذين فُتنوا بأوربا، وساروا يلهثون وراءها.

لقد ظهرت القومية في أوربا بعد صراعاتٍ بين دولها المتعددة،

وكانت كلها قد طرحت ديانتها من الحساب، ولم تعد العقيدة الرابط الذي يجمع بين دول القارة، وإن لم تتخل واحدة منها عن الروح الصليبية التي بقيت تملأ النفوس، وتشحنها الكنيسة ضدّ المسلمين مع أن الكنيسة سقطت في المعركة التي قامت بينها وبين العلم للتباين بينهما على عكس الدين الإسلامي وهذا ما يجهله الأوربيون ويظنّون أن الأديان كلها تتعارض مع العلم، غير أن الكنيسة بقيت رمزاً لنصرانية تلك الدول ورمزاً للصليبية يستفيد من وضعها رجال الدين، ويستفيد منها الحكام لإثارة الناس للحروب ضد المسلمين أو للعمل الاستعماري الذي يسبقه عمل تبشيري بالنصرانية، ويبقى العملان يواكب أحدهما الآخر، وربما كان الاستعمار هو السبب الرئيسي في بقاء الكنيسة قائمةً أو ذات شأن أحياناً إذ لكنائس أوربا كلها أثر في خارج حدود دولها أكبر بكثير من الأثر القائم في داخلها فالدول تستفيد مما تقدّمه الكنيسة دعماً لأعمالها الاستعمارية وتستفيد الكنيسة مما تقدّمه الدولة من دعم ماديٍّ ومعنويٍّ للإرساليات التنصيرية، ويمكن ملاحظة هذا الدعم المتبادل في العمل التنصيري القائم في أكثر دول العالم وإن كان يبدو بشكلٍ واضحٍ في إفريقية، وأندونيسيا، ولا تكاد تخلو منه بقعة في العالم، ومع زوال العقيدة كرابطةٍ بين النصرانية وجدت الدول الأوربية المتصارعة في اللغة عنصراً أساسياً يجمع بين شعبها وخاصةً أن الجنس الواحد غالباً ما يتكلم لغةً واحدةً ولهذا كان العنصر واللغة أساس القومية الذي عملت تلك الدول له ليكون عاطفةً يربط بين رعاياها لمجابهة الدول المجاورة الأخرى ولتحديد الحدود.

وأوربا تختلف عن البلدان الإسلامية اختلافاً كلياً من هذا الجانب فالرابطة الأساسية بين المسلمين جميعاً إنما هي العقيدة، والمسلمون أمة واحدة من دون الناس لا اختلاف بين الأجناس أو الألوان أو اللغات ضمن هذه الأمة إذ إنهم أعضاء فيها لا يقوم بينهم فاصل أو ميزة، غير أن بعض المسلمين الذين فُتنوا بأوربا وبهرتهم حضارتها الحديثة قد بدؤوا يأخذون من أوربا كل ما يخرج عنها سواء أكان مفيداً أم كان مخالفاً لعقيدتهم مسيئاً إليها وإلى بلادهم وحتى إلى

سلوكهم ومجتمعهم، وكان مما أخذه هؤلاء فكرة القومية.

وتمسّكت أوربا بالفكرة القومية مدةً من الزمن لأنها اتخذتها سلاحاً سياسياً مُهمّاً ربما كان أقوى من أي سلاح فتاك آخر؛ إذ تمكنت بهذا السلاح أن تحطّم أعداءها السياسيين، وكانت أقواهم يومذاك الدولة العثمانية التي تتألف من عدة شعوب، فعندما انتشرت فكرة القومية وغذّتها دول أوربا النصرانية ودعمتها، وحملها المستغربون من المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية، أخذت هذه الشعوب ينفصل بعضها عن بعض وهي التي تشكّل أمةً واحدةً، وإذ بهذه الأمة مجموعة متفككة تهوي أمام أوربا النصرانية التي تركت دينها، وإذا بالنصارى وأتباع الفرق الضالة كلها، والملحدين يعيشون في الدولة العثمانية كلهم قوميون ضد الدولة لإعلان إسلامها وقيامها باسم الإسلام. ورغم تعدد دول أوربا ولكن تجمعها فكرة العمل ضد المسلمين، وعمل كنائسها ضد الإسلام، وهذا ما نلاحظه من اتفاق كنائسها ضد الإسلام في كل ميدان: في إفريقية، في آسيا، في أوربا، في أميركا، في كل بقعة من بقاع العالم رغم اختلاف هذه الكنائس فيما بينها بين أرثوذكسية، وكاثوليكية، وبروتستانتية وربما بين فروعها. ونرى التقاء دول أوربا شرقيها وغربيها ومعهما أمريكا، وكل الدول النصرانية، بل والأفراد والمجموعات النصرانية ضدّ كل دولةٍ إسلاميةٍ أو عمل إسلامي، بل وتحرص الدول الكبرى أن تتقاسم مناطق نفوذها في الأمصار الإسلامية رغم الخلافات بين معسكراتها ومصالحها، هذا كله مع ادعاءات الدول النصرانية أنها علمانية لا تُعير الدين أي اهتمام بل إن دول أوربا الشرقية جميعها تُعلن عداءها للدين وحربها له، إلا أنها في الواقع تُعادي الإسلام وحده، إذ تُطالب المسلمين أن يكونوا نصارى أرثوذكس كي تتم الوحدة الوطنية بين أبناء الدولة الواحدة وتسعى جهدها لذلك، وتتخذ الإجراءات كافةً مهما كانت وحشيةً أو غير إنسانية ليترك المسلمون عقيدتهم، ويأخذوا بالنصرانية حتى على المذهب الأرثوذكسي وإن كانت الدول الشيوعية فعلاً لا تقوم بعمل ديني في داخل المناطق التي تسيطر عليها سوى معاداة الإسلام، ولا

تسمح لرجال الدين النصارى بأي نفوذ، غير أنها كما ذكرنا تتفق ضدّ الإسلام مع كل من يحاربه، وتتقاسم ديار المسلمين مع كل شريك لها، فمع معاداة الأديان كلها ـ حسب زعمها ـ يعد الدين الإسلامي العدو اللدود لها، أو العدو الأول بالنسبة لها.

في الوقت الذي أخذت فيه الفكرة القومية تنتشر بين المسلمين، كان المسلمون فيه على درجةٍ من الضعف بحيث لا يُمكنهم أن يردّوا كيداً، أو يقفوا في وجه فكر، بل لا يعرفون الأفكار، وإنما همّهم هو عملهم اليومي، وقد يُدفعون إلى القتال دفعاً دون أن يُدركوا من يُقاتلون؟ ولِمَ يقاتلون؟ وربما يستغلّهم بعضهم فيشجّعهم ضد آخرين باسم الإسلام، ولم يعرفوا إن كان عدوهم الذي يُحاربونه كافراً أم لا! لهذا كان انتشار الفكرة القومية بين فئةٍ قليلةٍ هي التي بيدها الأمر أو تستطيع أن تتحرّك على الساحة، فكان الأمر بيدها سرّاً دون معرفة الدولة، أمثال مدحت باشا من الترك وقد لعب دوراً مهماً وخاصة في البلدان العربية بصفته تولّى عدة مناصب إدارية فيها في مناطق مختلفة فكان يسكت عن حملة الفكرة القومية مع معاداتها إلى جنسه، أو إلى من يمثّله وهي الدولة العثمانية بل يَدعمها ويُشجّعها، ويأخذ بأيدي من يحملها ويُنادي بها ويرفعها شعاراً له، وأمثال الشريف حسين بن علي شريف مكة بصفته شريفاً، ويتسلّم أمور الأماكن المقدسة، وهي أكثر المناطق أهميةً بنظر المسلمين، وبصفته من العرب ثالثاً، وهم الذين يدّعون أن الخلافة يجب أن تكون حصراً فيه، لذا كانت صِلاته واسعةً، وقد تتحرّك هذه الفئة على الساحة إذ تتلقّى دعماً من بعض دول أوربا التي أصبح لها نفوذ في المنطقة مثل فرنسا وانكلترا، وكانت هذه الفئة إما من النصارى الحاقدين، أو المسلمين المغرّرين.

كانت الدولة العثمانية تتألف من عدة شعوب، لكن أهمها شعبانِ هما الترك والعرب، فالترك الذين منهم الخليفة، وتكاد تشيع لغتهم بصفتها لغة الخليفة والأسرة الحاكمة وكبار الدولة، وكان أغلب الجيش النظامي منهم، وبصفة مدينتهم حاضرة الدولة كلها، ويلتقي فيها مجلس المبعوثان.

والعرب الذين يشكلون جزءاً كبيراً من الدولة العثمانية، وتشغل أراضيهم مساحةً واسعةً ولغتهم رئيسية أيضاً بصفتها لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً، وتلاوته لا تكون إلا بالعربية، كما أن حديث رسول الله ﷺ بتلك اللغة، والقرآن الكريم والحديث الشريف هما أساس التشريع الذي عليه تقوم الدولة ولو بصورةٍ اسمية، هذا بالإضافة إلى عددٍ من الشعوب الأخرى لكنها أقل أهمية لقلة عدد أفرادها، وقلة أهمية لغتها.

وأخذ عدد من الترك بالفكرة القومية وبدؤوا يبثّونها سرّاً في أوساط المجتمع ولعلّ هؤلاء الأفراد كان معظمهم ممن لهم مصالح؛ منها ما يعود إلى تحطيم الدولة العثمانية بالذات التي وقفت أمام مصالح اليهود في فلسطين أو أمام تطلّعاتهم القائمة على إقامة دولةٍ لهم في فلسطين، وكان أكثر أفراد هذه المجموعة من الذين يعودون إلى أصلٍ يهودي إذ أن الدولة العثمانية فتحت أبوابها لليهود الذين خرجوا من الأندلس نتيجة الاضطهادات النصرانية التي لحقتهم، تخطيطاً ومكراً، ورغم احتضان الدولة العثمانية لهم فإنهم لم يحفظوا هذا الإحسان وإنما قابلوه بمنتهى الإساءة وأظهر عدد منهم الإسلام، وبقوا في الواقع على دينهم الأصلي وهو اليهودية، وهم الذين عُرفوا باسم يهود الدونمة ويعودون في الأصل إلى أنهم أتباع ساباتاي زفي[1]. ومن هؤلاء الترك الذين تربّوا في الغرب، وتأثّروا بأفكاره، ومنهم

---

(١) ولد ساباتاي في أزمير عام ١٠٣٥، وادّعى أنه المسيح المنتظر، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وزار مصر عام ١٠٧٣، واستفاد من دعم الصيرفي رافائيل جوزيف (يوسف جلبي)، كما زار فلسطين عام ١٠٧٤، وعاد إلى أزمير عام ١٠٧٦ فجاءته وفود يهودية، وقسم العالم إلى ٣٨ جزءاً، وعيّن لكل جزء ملكاً، وتصوّر أن يكون الجميع يتبعون له وهو يُقيم دولته في القدس.

وادّعى آخر أنه المسيح المنتظر، ويدعى كوهين، ووقع الخلاف، فاشتكى الآخر إلى الدولة مدّعياً أن ساباتاي يعمل لقيام تمرد ضد الدولة، ويدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، فقبضت الدولة على ساباتاي، وتشكّلت له محكمة من كبار العلماء وقضت عليه بالإعدام فخاف من الموت وأعلن إسلامه وصار يدعى محمد البواب لأن السلطان منحه راتب رئيس البوابين، غير أنه في الباطن بقي يهودياً. وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام فأذنت له وبدأ يبث سمومه، ويطلب من أتباعه أن يُظهروا الإسلام ويُبطنوا =

الذين يطمعون بمناصب سياسية عالية أو الذين أهواهم الجنس، ولم يجدوا سبيلاً له إلا بالهجوم على الإسلام ومبادئه، والدعوة إلى ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للحرية الجنسية.

وأخذ عدد من العرب الفكرة القومية لأسبابٍ تكاد تكون نفسها التي من أجلها أخذ بعض أفراد الترك الفكرة فبعض هؤلاء العرب كان يطمع بإقامة خلافةٍ عربيةٍ يكون على رأسها نتيجة شرافته ومركزه، أو يكون عدد من الخلفاء، خلفاء من العرب، وآخرون من الترك، ومن الفرس، ومن الهنود، ومن السودان وغيرهم. ومنهم من كان يطمع بمناصب عالية سواء في الجيش أو الحياة السياسية وكلها حسب الإغراءات التي كانت تقدّمها دول أوروبية ذات صلات في المنطقة، هذا بالإضافة إلى الذين يسيرون وراء شهواتهم، ويرون في الإسلام سدّاً في وجههم، وقد يوجد من يعادي العقيدة أصلاً لسبب من الأسباب. وربما كان بين هؤلاء وأولئك من يسير باندفاع ذاتي فيرى المساوئ التي عمّت دوائر الدولة فيجب إصلاحها وينادي بذلك، وقد يقع بشرك أولئك باسم الإصلاح، وقد لا يقع، وإنما يسير جنباً إلى جنب معهم فيكون بجانبهم يستغلّونه وإن لم يحمل أفكارهم. وقد يكون بين هؤلاء وأولئك من اقتنع بالفكرة نتيجة بعض المرئيات التي حصلت لديه. وقد عُرف بينهم أيضاً من يرى أن الخلافة يجب أن تُحصر

= اليهودية ليهدّموا من الداخل فيصومون أحياناً ويحجّون أحياناً، ويدخلون المساجد وهم من اليهود. والدونمة ثلاثة فرق هي: اليعاقبة، والقراقاشية، والقبانجية واستطاعت الفرقة الأخيرة «القابانجية» من التغلغل في أوساط حزب الاتحاد والترقي، وأصبح لهم دور فيه، وأداروا الجزء الأكبر من الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، ليهود الدونمة لغتان، التركية للتفاهم مع مجتمعهم التركي، والإسبانية للتعامل فيما بينهم ولهم دور كبير في الإعلام، إذ يملكون أهم الصحف «مؤسسة حريت» التي قامت عام ١٣٦٧، وجريدة «كون ابدين» وتعني صباح الخير، وجريدة «مليت» وتتبع هذه الجريدة مجلة «صنعت» وتعني الفن، وجريدة «جمهوريت» وجريدة «ترجمان» وهذه أكبر الصحف التركية.

ويدعو الدونمة للاختلاط والسفور، وإلى الماسونية، وإقامة مسابقات ملكات الجمال، والتعاون مع إسرائيل، ومحاربة العرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الغرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الشرق ليكون لهم في كل مجال ميدان.

بالعرب فهو يسعى لذلك باسم العقيدة أو باسم الإصلاح ولا يريد أن يسير إلى أبعد من ذلك أو يصل إلى الطريق التي وصلت إليها البلاد فيما بعد.

وظهر ذلك أيضاً عند بقية الشعوب التي تتألف منها الخلافة العثمانية، وإن كانت على نطاق أضيق، أو لم تبذل لها تلك الجهود التي بُذلت للشعبين العربي والتركي لأهميتها أو لأن الخلافة قائمة عليهما وبانفصالهما تضيع الخلافة وتتفكّك عراها.

ونتيجة ذلك كله كانت الفكرة القومية السلاح القومي الذي استخدمته أوربا النصرانية ضد أعدائها المسلمين أو ضد الخلافة العثمانية التي كانت تمثّل المسلمين أو كانت الدرع القوي ضد خصومهم أو على الأقل كانت أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك، والمسلمون في كل بقاع الأرض ينظرون إليها على أنها حاميتهم أو تمثّلهم.

ومع انتشار الفكرة القومية تفككت عُرا الخلافة العثمانية وأصبحت أشلاء، أو تجزّأت وأصبحت دولاً، وأضاع المسلمون خلافتهم التي كانت رمزاً لهم، وأصبح كل قسم يعمل منفصلاً، وقد تصطدم مصالحه مع القسم الآخر فينشأ الصراع وتقع الوقيعة، ويكون العداء وربما كان أشد العداء ما وقع بين الشعبين الكبيرين في الخلافة العثمانية الشعب العربي والشعب التركي، وقد يكون هذا إحساسنا لأننا نعيش في منطقةٍ قريبةٍ من التقاء هذين الشعبين أو في منطقة الاحتكاك بينهما، وقد يكون العداء أكبر بين بقية الشعوب غير أننا لا نشعر به لبعدنا عنه.

إن أصحاب الفكرة القومية العربية يحسّون أن الشعب العربي أو هكذا عُلّموا، وكُتب لهم ورُبّوا على ذلك أن الأتراك قد استعمروهم باسم الإسلام مدةً تزيد على أربعة قرون (٩٢٢ ـ ١٣٣٧)، وأنهم كانوا السبب في تخلّفهم إذ حجبوهم عن التيارات الفكرية العالمية، وحاولوا تتريكهم في النهاية، الأمر الذي جعلهم يتحرّكون ضدهم وينتفضون في وجههم حتى يأخذوا استقلالهم أو ينفصلوا عنهم. هكذا وبكل بساطة يبحثون في بعض السلبيات دون ذكر الإيجابيات، وينسون أن الشعب العربي كان حريصاً على قدوم

العثمانيين وأنه قد استقبلهم في حلب ودمشق، وأن أطراف الجزيرة العربية رضيت بقدومهم بل طلبت حمايتهم خوفاً من البرتغاليين الذين كانوا يتهددون السكان وقد سيطروا على عُمان ومناطق الخليج العربي وجزيرة سوقطرى وجزر قمران وهاجموا عدن، ويُهدّدون الأماكن المقدسة، وأن الخلافة ـ أو الحكم ـ يمكن أن يكون لغير العرب، وحديث رسول الله: «أطيعوا ولو تأمّر عليكم عبد حبشي. . .».

ولم يكن الشعب التركي مفضلاً على الشعب العربي في يوم من الأيام لنقول عنه استعمار اللهم إلا إذا استثنينا المرحلة الأخيرة عندما حكم الاتحاديون، وقد حكموا باسم القومية. . فانتهى بذلك دور الإسلام، ونحن في الواقع نسمي الخلافة العثمانية حتى حكم الاتحاديين، فلما سيطر دعاة القومية أصبحنا نسمي تلك الدولة بالدولة التركية، وما غدا الخلاف إلا عندما نادى الاتحاديون بالقومية وحمل العرب فكرة القومية فاصطدمت القوميتان ما دام كل يفتخر بجنسه دون سائر الجنسيات ويتعصّب له.

أما حجبهم عن التيارات الفكرية العالمية فلا شك أن العثمانيين كانوا على جهل، وكان العرب مثلهم والجاهل لا يمكن أن يُقدّم شيئاً، ولم تكن التيارات الفكرية سوى أفكار أجنبية نصرانية، وهل أفادت الأتراك شيئاً عندما حاول السلاطين المتأخرين السير على النهج الأوربي. وهذه الأفكار كلها قد تلقّنها العرب من النصارى وليست نابعةً من ذاتهم.

وإن أصحاب الفكرة القومية التركية يحسّون أن الشعب التركي قد ضحّى كثيراً في سبيل شركائه، وأنه قدّم لهم الكثير، ومنع بلادهم من الوقوع فريسةً في يد الصليبيين، ووحّد جزءاً منها، ووقف في وجه الأوربيين وخاض الحروب الكثيرة وقدّم الكثير من الضحايا ومع هذا فالشعوب الأخرى وخاصةً العرب قد خانت الترك وخذلتهم في ساعة الشدة وطعنتهم من الخلف. وبعد أن تجزّأت الخلافة، وذهب كل فريقٍ إلى جهة، فكر دعاة القومية العربية في الإفادة من وضعهم فإذا بهم يجدون عدة قوميات في بلادهم، العربية، والسورية، والفرعونية، والبربرية و. . .

وعندما بدأ الصراع لبقاء الأصلح أو الأقوى، وتفرّدت العربية بين بقية القوميات التي زال بعضها لضعفه واختفى، وبعضها الآخر بالقوة، وسيطرت العربية ولما حاول دعاة تلك القومية بالظهور إذا بعصر القوميات قد انتهى، وجاء دور الاشتراكية أو جاءتنا صيغة جديدة طُرحت من قبل النصارى أو من قبل أعداء الإسلام كي لا يبقى الشعب الواحد من المسلمين صفاً واحداً وربما يؤدي دوراً حتى ولو كان بأسلوبٍ علماني لكن يمكن أن يُصلح من أمره، ويعود إلى رشده، ويتحرّك في اتجاهٍ صحيحٍ، لذا كان من خطة الأعداء أن يبقى الانقسام قائماً، والصراع يجب أن يستمر، وانقسم الصف، واختلف المسؤولون، وافترقت الكلمة وأصبح الشعب شيَعاً وأحزاباً تارة يقع التباين بين اليمين واليسار، أو بين طبقةٍ وأخرى، أو مصلحةٍ وثانية، أو مسؤول وآخر، أو بين من يريد الاتجاه شرقاً ومن يبغي التحرّك نحو الغرب وكله على حساب المسلمين، فكلما بدت للمسلمين قوة قُضي عليها بوحشيةٍ، واجتمع المختلفون بالشعارات على ضربها، والتقى المتناحرون عليها.

وفكّر دعاة القومية التركية بالالتفات نحو دفاترهم السابقة، والتوجّه نحو أقرباء آبائهم، فاتجهت أنظارهم نحو أواسط آسيا حيث يُقيم إخوانهم الأتراك الآخرون، ولكن لم يجدوا بُدّاً من محادثتهم بالإسلام، أو مناداتهم به، وعندما سار أنور باشا نحوهم فشل لأن الروس كانوا قد أذلّوهم وأماتوا فيهم كل فكرةٍ للجهاد، وبقي انتسابهم للترك دون معنى وانتماؤهم للإسلام دون فكر اللهم إلا من قلةٍ يمكن أن يكون لهم دور، كما يمكن للعاطفة العقيدية أن تحرّكهم ولكن بعد وقت، وعاد دعاة التركية فانحصروا في بوتقةٍ صغيرة.

وهكذا رجع دعاة القومية سواء أكانت العربية أم التركية يجرّون وراءهم ذيول الخيبة والفشل، وقبع كل منهما ضمن دائرةٍ صغيرةٍ يتحرّك بفلك الشرق أو بفلك الغرب، ولا يجدون لهم دعماً من المناطق المحيطة بهم والتي سبق أن قطعوا الصلة بها، وإن بقي المسلمون في كلا المنطقتين

أصحاب فكرٍ، ويمكن أن يتحرّكوا ضمن العالم الإسلامي، ولكنهم محتفظ بهم لوقت الضرورة، موضوعون على الرفّ ينالهم البأس، والجميع يتّفق عليهم.

لم تكن الخلافة العثمانية تلك الدولة الإسلامية التي تسير على المنهج الإسلامي تماماً، وإنما كانت تحرص عليه عاطفةً وتُطبّق بعض الجوانب، وتهمل جوانب أخرى، وتبدو بعض الصور التي فيها مخالفة صريحة للإسلام، وهناك نواح بين هذه الحالات قد يشتبه فيها الأمر ويحتاج إلى التفسير، والنظر في النيات، ومعرفة المسؤولين بها أو إخفاؤها عنهم، وسبق أن ذكرت أن زاوية الانحراف عن الخط الإسلامي قد بدأت تظهر مع العهد الأموي وإن كانت يومذاك صغيرةً، وبدأ انفراجها يزداد مع الزمن حتى إذا ما وصلنا إلى العصر العثماني كانت قد اتسعت إذ زاد انفراجها وبرزت الانحرافات بصورةٍ واضحةٍ، ولكن حتى الآن لا نستطيع أن نقول: إن الانحراف قد عمّ فالخوف من الله قائم، ومحاولة التطبيق موجودة، ولا يمكن أن نقارن ذلك اليوم الذي نشتّد عليه بما آلت إليه الأمور بالزمن الذي نحن فيه، أو لا نستطيع أن ننزع الصفة الإسلامية عن الخلافة العثمانية أو نُزيل عن الخلفاء إسلامهم وحرصهم الأكيد على النظام الإسلامي.

إن العاطفة الإسلامية لدى العثمانيين كانت كبيرة، وإن كانوا لا يعرفون التصرّف لجهلهم بالإسلام الذي عرفوا منه العبادات، ولم تترسّخ في أذهانهم أنه منهج حياة وليس مجرد عباداتٍ أو أنه عبادات مجردة عن الحياة، لذا كان التقيّد بالأوامر والانضباط التام بالأحكام كاملةً غير قائم تماماً، وقد ذكرت أن بعض الأحكام كانت مطبقةً أو معمولاً بها غير أن هذا لا يكفي فتطبيق جانب من الإسلام وإهمال جانب آخر أمر يسيء إلى الإسلام إذ يعطي صورةً مُشوّهةً عنه، فالإسلام نظام متكامل يطبق كاملاً، وعندها تظهر النتائج في صلاح المجتمع وسعادته ورفاهيته ورخائه وتقدمه.

أما تطبيق جانبٍ وترك آخر فقد يُعطي نتائج إيجابية. فإقامة الحدود أمر أساسي في النظام الإسلامي ولكن ليس هو النظام، ووحدها لا تكفي،

ولا يمكن أن نقول: إننا نُطبّق الإسلام إذا اعتمدنا على إقامة الحدود فقط، فعندما نقيم حدّ الزنا ولكن نترك السفور وعدم الحشمة، والاختلاط، والخلوات، والنزهات المشتركة، والمخيمات الجماعية التي تضمّ الجنسين ثم نحرص على إقامة الحد، وندّعي أننا نعمل على تطبيق الإسلام فالأصل أن نمنع الأسباب التي تؤدي إلى الزنا، ثم نقيم الحدود، ومثل ذلك السرقة، فإذا انتشرت البطالة، وعمّ الفقر، وانقطع حبل الأمن، وسادت حاجة الناس، وأصبحوا في جوعٍ وخوفٍ وجئنا نُقيم حدّ السرقة بحجة تطبيق الإسلام، يجب أن نبدأ بتأمين العمل، وتطبيق الأمن، وسدّ حاجة المجتمع، وبعدها نقيم الحدّ، لأن من يتعدّى بعدها على حقوق الناس فإنما يكون همّه الفساد في الأرض، والإخلال بالنظام، ولا بدّ من ردعه بإقامة الحدّ عليه، أما إن أجبرته الحاجة ودعته الضرورة فقد لا يكون من طبعه الفساد، ولا في نفسه ميل إلى العبث بحقوق الآخرين وأمنهم، فمعالجته بسدّ حاجته، لا بضربه. فالمفسد من يتعدى على الآخرين وفي يديه ما يكفيه، بينما الرجل الصالح قد يحدث منه، ولكن دعته إلى ذلك الضرورة الملحّة والحاجة الماسة فشتان بين هذا التعدي وذاك، ويجب معه أن تختلف طريقة المعالجة لكلا الرجلين.

وإن على الذين يسعون لتطبيق الإسلام أن يعملوا على شمولية التطبيق، من صلات خارجية، وتحقيق الأمن ومنع الظلم والتعدي، وتأمين العمل، وإقامة العدل والمساواة، وتحقيق كفاية الناس في المأوى الجيد، والزواج، وبقية الحاجات، ويمكن بعدها إقامة الحدود، وقطع دابر الفساد ويكون المجتمع الفاضل. . . . أما تطبيق جانبٍ وترك جانبٍ فهو إخلال بالنظام وبتر لأسسه. وهذا ما لم يدركه المسؤولون من العثمانيين، كما لم يدركه بعد ذلك كثير من المسؤولين الآخرين في بلاد شتى، إذ يدّعون أنهم يريدون تطبيق الإسلام وأول ما يقومون به إقامة حدّ السرقة والزنا وإن طبقّوا هذا الحدّ على عددٍ من المفسدين وقلّت الجرائم نسبياً فظنّوا أنفسهم أنهم قد عملوا بالإسلام وأقاموا نظامه ورفعوا شعاره مع بقاء ارتباطهم في فلك

معين، أو سيرهم في اتجاهٍ معروف، ومع بقاء الظلم في المعاملات، والتعدّي على الحقوق، وانتشار الفقر والجوع والمرض. . . فما هو هذا الإسلام؟ وما هي نظرة الآخرين إلى هذا الإسلام ونتائج تطبيقه ؟ إن هذا ليس من الإسلام في شيء، وإنه لظلم له، وعدم فهم لنظامه.

وإن الذين ينتقدون الخلافة الإسلامية لا ينتقدونها أصلاً من ناحيةٍ إسلاميةٍ إلا بمقدار ما يريدون في الهجوم على الإسلام بصفتها كانت خلافةً وتقول بالحكم على أساس الإسلام. ولو كان النقد من وجهة نظر إسلامية لقبل الموضوع وبحث من هذا الجانب. وإن أكثر المنتقدين إنما هم من الذين يحملون أفكاراً معادية، أو من الذين يجهلون أحكامه، أو من الذين لا يعرفون التاريخ بشكل جيد. همهم الهجوم على الإسلام، أو على جانب إسلامي كان السوء في تطبيقه واضحاً والمخالفة صريحة وترك الجوانب الثانية التي فيها نوع من الصلاح. وينصبّ النقد عادةً على الجانب السياسي، والخلافة العثمانية من هذه الناحية كبقية الدول لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية فيجب أن نعطي كل جانبٍ حقّه ثم نصدر الحكم. ونلاحظ أن العثمانيين قاموا بـ:

١ ـ توسعة رقعة الأرض الإسلامية، ويكفي أن نذكر فتح القسطنطينية والتقدّم في أوربا. لقد فتح العثمانيون القسطنطينية، وعجز المسلمون من قبلهم عن ذلك منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، عام ٥٠ حتى تمّ الفتح على يد العثمانيين عام ٨٥٧ أي أنه مضى أكثر من ثمانية قرون والمسلمون يعجزون عن هذا الفتح ويكفي أن نذكر حديث رسول الله ﷺ: «لتفتحنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١]. وتقدّموا في أوربا، وساروا فيها شوطاً بعيداً، حتى وقفوا على أبواب ڤيينا وحاصروها أكثر من مرة، وهذه البلاد تطأها أقدام

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) والحاكم في مستدركه عن أبي عبيدة بشر الغنوي الخثعمي.

المسلمين لأول مرة، والمسلمون الموجودون في تلك البقاع إنما هم بأكثريتهم من آثار ذلك التقدّم.

٢ ـ الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات، فقد تقدّموا في شرقي أوربا ليخفّفوا ضغط النصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم أوربا عن المسلمين في الأندلس، وإن لم يكن هذا التقدّم واضح الأثر لبعد الشقة، ولضعف المسلمين في الأندلس الذين هم في اختلاف لم يستفيدوا من الدروس التاريخية التي حلّت بهم وبمن سبقهم في الأندلس على الأندلس، ولضعف العثمانيين الذين لم تقو شوكتهم بعد، ولم ينتهوا من هجمات تيمورلنك، والإمارات الأخرى المجاورة لهم، كما أن أساطيلهم كانت لا تزال في أول عهدها ولا يمكنها أن تخوض معارك بعيدة، وإن كانت قد قدّمت الدولة العثمانية في هذا المجال شيئاً في البحر المتوسط إلا أنه كان تقدماً محدوداً لا نستطيع أن نُبرزه أو أن نعطيه أكثر مما يجب. وعندما زادت قوة الدولة العثمانية في أيام محمد الفاتح، ودخل القسطنطينية عام ٨٥٧ كانت دولة بني نصر في غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد مزّقها الخلاف والاستنصار بطاغية النصارى، وأخيراً سقطت عام ٨٩٨ أي بعد أربعين عاماً من فتح القسطنطينية.

وعندما سقطت غرناطة بأيدي النصارى، وطُرد المسلمون من الأندلس، وسار الإسبان نحو الغرب في سبيل الوصول إلى الشرق لحصار المسلمين. وانطلق البرتغاليون نحو الجنوب للغرض نفسه، والتفوا حول إفريقية ووصلوا إلى جنوبي الجزيرة العربية يحملون معهم الروح الصليبية عندها وفي ذلك الوقت تماماً ترك العثمانيون مواقعهم في أوربا واتجهوا نحو الشرق فقاتلوا الصفويين الذين يدعمون البرتغاليين أو طلبوا منهم تشكيل حلفٍ للوقوف في وجه العثمانيين ثم التفتوا إلى الثغرات التي أوجدها البرتغاليون وأسرعوا نحوها، واجتاحوا البلدان العربية إذ وقف حكامها يومذاك من المماليك وحالوا دون وصول العثمانيين للتصدّي للبرتغاليين أو لم يقبلوا الاتفاق معهم لهذا الغرض، وامتدت ساحة القتال

بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر، وعدن، وحضرموت، وعُمان، والخليج العربي بل إن كل جبهةٍ يفتحها البرتغاليون كان العثمانيون يُسرعون للوقوف في وجههم، ويجب ألا ننسى السكان الذين كانوا يطلبون من العثمانيين حمايتهم أو يدعوهم لتسليمهم بلادهم، ووصل العثمانيون في دفاعهم عن ديار الإسلام إلى الهند حيث طلب المسلمون هناك دعمهم ومساعدتهم ضد الصليبيين من البرتغاليين، وربما كان للعثمانيين دور كبير في إنهاء النفوذ البرتغالي من بلاد المسلمين، وقد يكون قد فاق بقية أدوارهم في مقارعة الصليبيين.

كما أن الإسبان قد امتد نفوذهم في البحر المتوسط بعد سقوط غرناطة، وبدأت هجماتهم على المرافئ الإسلامية والنزول فيها مثل طرابلس، وتونس، والجزائر، ووهران غير أن العثمانيين كانوا أيضاً قد امتد نفوذهم إلى بلاد المغرب براً بعد دخول مصر، وبحراً بعد انضمام خير الدين باربروس إليهم وإعلانه أن الجزائر ولايةً عثمانية، هناك أيضاً وقف العثمانيون وجهاً لوجه أمام الصليبيين الإسبان.

ومن جهة الشمال انطلق العثمانيون إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصليبيين من الروس، واستمروا على تلك الجبهة عدة قرون، كما شملت مساحات واسعة امتدت من شرقي أوربا حتى بلاد الداغستان على شواطئ بحر الخزر الغربية وتجاوزتها أحياناً إلى أواسط آسيا حيث الصراع بين المسلمين والروس أيضاً. وبهذا يكون وقوفهم في وجه الصليبيين المستعمرين من الجهات جميعاً أو أن جبهاتٍ فُتحت عليهم وتصدّوا لها من مختلف الجهات.

وربما سائل يقول: إن العثمانيين لم يوفّقوا في مواقفهم هذه أبداً بل حلّت بهم الهزائم في كل ناحية. فالعثمانيون بذلوا جهدهم كله، وعملوا بإمكاناتهم كلها، وعليهم السعي وليس عليهم إدراك النتائج لأن هذا الأمر ليس بأيديهم وإنما هو خارج عن إرادتهم، والمهم أن النيّة كانت صادقةً والبذل كان قائماً. والهزيمة ليسوا مسؤولين عنها وحدهم وإنما هي مسؤولية

المسلمين جميعاً من حيث التعاون، والالتفاف، والنفير، والإعداد الكامل، فنحن نتحمل جزءاً من هذه المسؤولية ويجب ألا نلقي العبء على غيرنا، ونجرّد أقلامنا وألسنتنا للنقد.

وربما نلاحظ أن العثمانيين قد وُفقوا في بداية الأمر فقد جمّعوا الإمارات المتعددة التي كانت منتشرة في الأناضول والتي كان يزيد عددها على العشرين إمارة فأصبحت قوة في وجه البيزنطيين بعد أن كانت موزعة وفتحوا القسطنطينية، وتقدّموا في أوربا، وانتصروا على الروس، وأجلوا الإسبان عن أكثر المرافئ الإسلامية التي نزلوا فيها على سواحل البحر المتوسط، ومنعوا من تسرّب النفوذ البرتغالي إلى الداخل، وكان لهم الباع الطويل في إنهائه، وهذا كلّه عندما كانوا أصحاب قوة، ولكن تبدّلت هذه المواقف عندما ضعفت قوتهم، فبدأت الانتصارات تنقلب إلى هزائم وتراجع، وربما نكون نحن العرب أحد أسباب الضعف الذي حل بالعثمانيين سواء أكان ذلك بالحركات الداخلية أم بالافتتان بأوربا، أم بعدم دعم الدولة بشكلٍ قوي، ولا أبرّئ ساحة العثمانيين في هذا الميدان فقد فُتن بعضهم بأوربا كما أصابنا الافتتان، وهبّت على بلادهم روح القومية كما هبّت علينا فأذلّتهم مثلنا أو أنها أذلّت المسلمين جميعاً.

٣ ـ عمل العثمانيون على نشر الإسلام، وشجّعوا على الدخول فيه، وقدّموا الكثير في سبيل ذلك، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في كسب أكثر قبائل الشركس إلى الإسلام. إذ كانوا يشجّعون جنودهم على الزواج من الفتيات الشركسيات لكسبهن إلى الإسلام ثم جذب آبائهن إلى ذلك، ورغم ما في ذلك من بعض المخالفات المصلحية على الأقل إلا أن نجاحهم كان كبيراً في تلك الجهات حيث استطاع (فرح علي) الذي عُيّن ضابطاً في مركز (أنابا) عام ١١٩٤ بالقرب من منفذ البحر الأسود للوقوف في وجه التوسع الروسي أن يتزوّج ابنة أحد الشراكسة، وأن يقدّم الكثير لأهلها في سبيل كسبهم إلى الإسلام، وقد نجح في مهمته، ثم شجّع جنوده على ذلك ووعدهم بدفع نفقات الزواج كاملةً، وقد أظهر الشراكسة تفهّماً كبيراً،

وأقبلوا على الإسلام، وتعلّم القرآن الكريم. كما نجحوا في كسب قبائل الشاشان، غير أن نجاحهم كان أقل قليلاً مع قبائل القوشحة (الأوستين)، وكذلك كسبوا مجموعاتٍ من تلك الشعوب المنتشرة بين البحر الأسود وبحر الخزر.

وعملوا على نشر الإسلام في أوربا في البلدان التي وصلوا إليها، وإن كان نجاحهم قليلاً إلا أنهم عملوا على إسكان أعدادٍ من المسلمين في تلك البلدان كي يؤثّروا في المجتمعات التي يعيشون بينها، وقاموا بالأمر نفسه في المناطق الإفريقية التي دخلوها، والتي كانت بعض شعوبها لا تزال على الوثنية مثل بعض شعوب تشاد، والسودان، والصومال.

٤ ـ إن دخول العثمانيين إلى بعض الأمصار الإسلامية قد حماها من بلاء الاستعمار الذي ابتليت به غيرها، وعلى حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسةً للاستعمار باستثناء دولة المغرب التي لم تخضع للعثمانيين ومع ذلك لم يدخلها المستعمرون حتى وقتٍ متأخرٍ قبيل الحرب العالمية الأولى، فالهند، وأندونيسيا، وماليزيا دخلها المستعمرون من إنكليز، وفرنسيين، وهولنديين، كما دخل الروس إلى أواسط آسيا. وكلما كانت الأمصار بعيدةً عن قلب الدولة العثمانية أو قاعدتها في الأناضول كلما كان الاستعمار أسرع إلى تناولها، وكلما كانت أكثر قرباً بقيت في حمايةٍ نسبيةٍ من ذلك البلاء، فالجزائر خضعت للاستعمار قبل تونس، وتونس قبل ليبيا والتي تأخرت عن مصر لموقع مصر الخاص بها فقد جرّ عليها كثيراً من المتاعب وسبب لها الكثير من المشكلات مع المستعمرين، وبقيت بلاد الشام والعراق إلى آخر الأمصار الإسلامية بُعداً عن الاستعمار بسبب قربها من الأناضول، حيث لم يدخلها المستعمرون إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، وخروجها من الساحة أو بالأحرى حتى انتهت وزالت عن الخريطة مع زوال الخلافة بل مع سيطرة دعاة القومية التركية رجال الاتحاد والترقي، وخلع السلطان عبد الحميد.

٥ ـ كانت الدولة العثمانية تمثّل الأمصار الإسلامية، فهي مركز

الخلافة، ولا يوجد سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار المسلمين إذ لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ أو أكثر، لذا كان المسلمون في كل مكانٍ ينظرون إلى الخليفة نظرة احترامٍ وتقديرٍ، ويعدّون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها نظرة كلها المحبة والعطف، وكل حادثةٍ كانت تحلّ في ديار الخلافة نجد صداها في الأمصار الإسلامية كلها، بل وبين الجماعات الإسلامية التي تعيش كأقلياتٍ في دولٍ غير إسلامية، وعندما أُلغيت الخلافة ثارت ثائرة المسلمين في كل بقعةٍ حتى أطلق على كثيرٍ من الحركات والمؤسسات اسم الخلافة، أو العثمانية وخاصةً في جنوب شرقي آسيا، ولا تزال الجامعة العثمانية في حيدر أباد الهند تحمل هذا الاسم «الجامعة العثمانية».

وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقةٍ طلبوا الدعم من مركز الخلافة، بل إذا رغب أحد الحكام من غير المسلمين نشر الإسلام في بلاده أو فتوى عن أمرٍ يتعلّق بأحد رعاياه طلب ذلك من الخليفة المرجع الرئيسي والشرعي، ويتداعى إلى الذهن هنا طلب إمبراطور اليابان من السلطان عبد الحميد إرسال عددٍ من علماء المسلمين إلى اليابان لنشر تعاليم الإسلام.

٦ ـ وكانت الخلافة العثمانية تضمّ أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقية وأجزاء من تشاد، كما تضمّ تركيا وأكثر بلاد القفقاس مع ما شملته من بلاد التتار في شمال البحر الأسود، وقبرص، وما أخذته في أوربا وتكون قد زادت مساحة تلك المناطق على ٢٠ مليون كيلومتر مربع، وما خرج عن دائرتها من الأمصار الإسلامية التي كانت يومذاك سوى جنوب شرقي آسيا والمغرب وأواسط آسيا، وإيران، وبلاد الأفغان.

٧ ـ وكانت أوربا تُقاتل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً، وتقف في وجههم بحقدٍ صليبي، وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس

مدةً من الزمن، وترى فيهم مَدًّا إسلامياً جديداً بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً جدّياً، وتنتظر أوربا قليلاً لتدفنهم، وترى أوربا في العثمانيين قوةً تخترق عليهم بلدانهم من الشرق بعد أن عجز المسلمون سابقاً عن هذا، وقد قضوا على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية، وتقدّموا في بقية أوربا النصرانية التي كادت أن تركع أمامهم، وترى فيهم أنهم الذين وقفوا دون انتشار النصرانية لأنهم وقفوا في وجه أتباعها في كل مكان، وحالوا دون امتداد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعوا وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها وعلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وحالوا دون تقدّم الأحباش واتفاقهم مع أوربا صليبياً، كما منعوا القضاء على المسلمين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة حسب التعبير الأوربي، وترى روسيا خاصةً أن العثمانيين هم إخوان التتار الذين كانوا يُسيطرون على بلادها، إخوانهم في العقيدة، وإخوانهم حتى في العصبية، وهم مسؤولون عما فعله التتار سابقاً سواء أكان ذلك قبل أن يدخلوا في الإسلام أم بعد إسلامهم، وترى فيهم الآن دعماً لأولئك التتار ومساعدةً لهم، بل يحولون دون تقدّم الروس في بلاد التتار. وترى في العثمانيين أعداءَ ألداء قضوا على الدولة البيزنطية مركز المذهب النصراني الأرثوذكسي وقاعدته وحاميته، وهو المذهب الذي تدين به روسيا. وترى فيهم فاتحين للقسطنطينية ومُحوّليها من مدينةٍ نصرانيةٍ إلى مدينةٍ إسلاميةٍ بل صار اسمها استامبول (بلد الإسلام)، وترى فيهم رأياً سياسياً آخر إذ أنهم يحولون دون تقدّم الروس نحو الجنوب نحو المياه الحرة حيث تتجه الأنظار إلى تلك الجهات، وترى فيها الجنان التي ستدرّ عليهم المال والنصر والسياسة، وترى أنهم يملكون في أيديهم مفاتح الطرق البحرية، وهي مضائق البوسفور والدردنيل، وترى فيهم سدّاً منيعاً يحول دون تقدّم الروس نحو الشرق في بلاد التتار في أواسط آسيا في بلاد الأتراك وكلاهما من المسلمين، ويتلقّون دعماً من العثمانيين على أنهم مسلمون، بالإضافة إلى الصفة العصبية التركية التي تجمع بينهم، فالعثمانيون أعداء عقيديين، وأعداء سياسيين في نظر الروس، وإن كانت السياسة تنبع من العقيدة، ولولا العقيدة لربما حُلّ

الجانب السياسي، وعلى هذا فالعداء بين أوربا عامة والروس خاصة عداء ديني قبل كل شيء، ولا يزال الأمر حتى الآن رغم تغيير النظام الروسي جذرياً، وزوال الدولة العثمانية، غير أن الإسلام باقٍ لذلك فالحقد الصليبي قائم.

وكان يحزّ في نفوس الأوربيين أخذ العثمانيين أبناء النصارى الصغار الذين لا أهل لهم بعد المعارك الطاحنة التي كانت تدور بين الطرفين ووضعهم في مدارس خاصة يتلقّون فيها الديانة الإسلامية والتربية العسكرية وهؤلاء الناشئة هم الذين سيكونون عماد الجيش الذي سيُقاتل الأوربيين، ويُحلّ بهم الهزائم يوم أُحسنت التنشئة، ولقيت التربية العناية الكافية، ويوم كان العثمانيون أقوياء، حتى إذا ضعفوا أصبح هذا الجيش سبب بلائهم. كما أن أبناء السلاطين والخلفاء كانوا يربُون التربية نفسها تربيةً إسلاميةً وعسكريةً، فينشأ السلطان صاحب عاطفةٍ إسلاميةٍ، وفي الوقت نفسه عنده الروح العسكرية، ونتيجة كليهما كان يُلاقي أعداءه، ويقف في وجه أطماعهم، ولا يستطيعون أن يجدوا معه حيلةً يشترونه بها، فلم يكن هناك من خلفاء بني عثمان من يرى مُهادنة أوربا النصرانية إلا إذا كان ضعيفاً مجبراً على ذلك، ومع هذا كان يتحين الفرصة للانقضاض عليهم، أما وجود خليفةٍ قويٍّ، ويفكّر في السير بفلك أوربا والتفاهم معها سياسياً فهذا ما لم يحدث.

هذه الجوانب كلها جعلت أوربا تكره العثمانيين، وتصبّ جام غضبها عليهم حرباً، وسياسةً وكتابةً ومن هذه الكتابات الأوروبية التي دُوّنت بيد أعدائنا تُصنّف ضمن المراجع الرئيسية لنا بالنسبة إلى العثمانيين وقد أخذ منها بعضنا وهو المفتون بأوربا أو المستغرب كراهية العثمانيين ونقله إلى الطلاب جميعاً بل وإلى الأساتذة. أما الجوانب السلبية فقد بالغ فيها النصارى، وبالغ فيها أعداء العثمانيين من أصحاب الفكرة القومية سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم غيرهم، كما بالغ فيها أصحاب النيّات الطيبة لما عرفوه من الكتابات الأوربية، مع ما في هذه الجوانب السلبية من سوءٍ

أيضاً، سوءٍ لا ينكر، ولكن ننظر إليه بعينٍ غير العين التي ينظر بها الأعداء وأحياناً طيّبو القلب من أبنائنا.

٨ ـ كانت للعثمانيين بعض الأعمال الطيبة والتي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على صدق عاطفتهم وإخلاصهم، مثل عدم قبول النصارى في عداد جيشهم، وإعفاء طلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية، وتعيين إمام لكل قطعةٍ منفصلةٍ، ولا يزال أكثر هذه الأعمال قائماً إلى الآن في تركيا رغم العلمانية التي سلكتها الدولة التركية الحديثة منذ أيام مصطفى كمال وإلى الآن. ومن ذلك أيضاً إصدار المجلة الشرعية التي تضمّ فتاوى العلماء في القضايا التي تحدث في نواحي الدولة المختلفة كلها.

٩ ـ وكان للعثمانيين دورهم في أوربا إذ قضوا على نظام الإقطاع، وفتحوا السجون التي كانت تضمّ المسجونين أبداً لغضب سادتهم عليهم أو لسبب تافه ليس بأفضل من ذاك، وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها أوربا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبوديته لسيده مالك الأرض التي يعمل بها.

ولعلّ من أهم سلبيات الخلافة العثمانية، والتي كان لها أثر في إضعاف الحكم:

١ ـ إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما المصدر الرئيسي للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة يُسبّب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها الاهتمام البالغ وكان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يُجيدون التركية وهم من أبنائها، وفي هذا جهل لأن العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين أو الخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية، واهتمّوا بالعلم الشرعي إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب وأقلّ مما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلّموا هم العربية ويشجّعوا عليها. ومع عدم تعلم اللغة قلّ الفهم الصحيح، وساد الجهل وخاصةً في الأمصار التي تتكلم العربية، وأثّر هذا على الضعف والتأخّر العلمي.

٢ ـ عدم الوعي الإسلامي الصحيح إذ كان كثير من المسؤولين لا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، لذا كانوا يحرصون عليها وعلى تأديتها، ويُقيمون الاحتفالات ببعض المناسبات وهذه الاحتفالات ليست واردة ولا بذات أصل، ويحرصون على الأذكار، ثم على الذكر والانصراف أحياناً إلى ذلك انصرافاً تاماً، وهذا ما أدّى إلى انتشار الطرق الصوفية، ومع هذا الانتشار حدث التواكل وعدم السعي في الأرض وإضعاف فكرة الجهاد، وعدم الإنتاج، وعدم مناهضة الكفّار ومن هذه الأمور بدأ الضعف ينخر في الدولة. أما فهم الإسلام على أنه منهج حياة فهذا أمر آخر.

٣ ـ كان العثمانيون يحرصون على تغيير الولاة باستمرار وخاصةً في أواخر عهدهم ويعود ذلك على حسب تقديرهم إلى أن الوالي إذ استمر في ولايته مدةً طويلةً، فإنه يصبح على صلاتٍ وثيقةٍ بالناس، وربما استغلّ منصبه هذا في الحصول على بعض المنافع، كما أن نفسه قد تحدّثه بالاستقلال بالولاية، وقد اكتسبوا هذا من التجربة، ومما حدث لهم في السابق مع بداية الضعف الذي أصاب دولتهم، ويدلّ هذا دون شك على عدم الثقة بالوالي، وربما نتج هذا عن انتشار الفقر ورغبة المسؤولين في الحصول على المال. كما يدلّ على ضعف الحكم الذي أدّى إلى تغيير الولاة، ووجود عددٍ من الطامعين لا يُعطي صفة التعميم وخاصةً إذا كان الوضع طبيعياً والحكم قوياً. وإن هذا التغيير يُؤدّي بدوره إلى الضعف حيث أن الوالي الجديد لا يعرف شيئاً عن الولاية التي أتى إليها وربما لأول مرة فلا يستطيع أن يتعرّف على السكان ومشكلاتهم، وأوضاعهم، وما يعانون، وما فيه صلاحهم ليعمل له، وما يتمّ له ذلك حتى يُنقل إلى ولايةٍ ثانيةٍ، ويأتي آخر ليقوم بالدور نفسه، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى عدم الإصلاح وإلى التأخّر وسوء الأوضاع في الإدارة عامةً.

٤ ـ ومن الأمور التي عُرفت لدى بعض السلاطين العثمانيين قتل إخوتهم وذلك أنه عندما يتولّون الأمر يخشون من إخوتهم أن يُنازعوهم إياه، إذ سبق لإخوة بعض السلاطين أن خالفوهم، وقاتلوهم على الحكم،

فأصبح الحكام الجدد يخافون من ذلك فيتصرّفون بهذا التصرّف الشاذ الذي يرفضه الإسلام لأن فيه القتل عمداً ومن غير ذنب، وحدّه قتل القاتل. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[1] كما في هذا العمل اختلاف في الأمة إذ مجرّد أن يؤول الأمر إلى أحد إخوانه يخافونه قبل أن يقبض عليهم فيفرّون وتكون لهم جماعة، أو ينتفضون على الحكم، وهذا ما يُسبب فتناً وارتباكاً في الدولة ويُضعف من شأنها.

٥ ـ إن الزواج من الأجنبيات الكتابيات جائز ولكن ليس فيه مصلحة وخاصة إن بقيت على دينها، فإن هذا الزواج فيه منافسة للمسلمات اللواتي يبقين دون أزواج، وفيه أثر على تربية الأولاد، التربية الإسلامية الصحيحة، وربما كانت هذه النساء مطمعاً لاتصال أبناء عقيدتها فيها وأخذ ما عندها من أسرار وخاصةً إذا كانت الحرب قائمةً بين الطرفين، لذا كان الزواج من الكتابيات مُقيّداً وليس مطلقاً، وأصعب الأمور إذا كان هذا الزواج من علية القوم، وقد كان بعض السلاطين والخلفاء يتزوّجون من الكتابيات لجمالهن، وفي هذا إساءة كبيرة للأمة، فإذا كانت هذه النساء لا تستطعن التأثير على أبنائهن في التربية لأنه يتربّى في مدارس إسلامية وعسكرية كما ذكرنا ويخرج بصورة لا يلتفت معها إلى أمّه، وهو يعلم ماضيها، إلا أن هذا لا يمنع من إمكانية التأثير عليه في بعض الجوانب، والحصول على بعض الأسرار، أو التأثير على بعض رجالات الدولة بصفتها والدة السلطان أو الخليفة، وربما حدثت بعض هذه التأثيرات، ووقعت بعض الأخطاء، ولكن بقيت في ضمن الأسرار لأنها في بيت الخلافة. وبعث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، بعدما ولاّه المدائن. بلغني أنك تزوّجت امرأةً من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها: فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ وما أردت بذلك؟ فكتب إليه:

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم. فقال: الآن، فطلقها[1].

٦ ـ وإن الحكم الوراثي الذي مشى عليه العثمانيون غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية، ولكن سبقهم إلى ذلك الأمويون، والعباسيون، وكلهم مخالف. وإن احتج بعضهم بصعوبة اجتماع أهل الحل والعقد، والمستوى الذي آلوا إليه، وصعوبة اختيار الخليفة، والظروف التي تعيشها الأمة بحيث يصعب تعرّضها لهزّات، وأنه في أثناء التطبيق تبدو الصعوبة، فالخوارج الذين بقوا يُقاتلون الأمويين والعباسيين، وينتقدون الحكم الوراثي ساروا عليه في كل دولهم التي أنشؤوها سواء أكان ذلك في المغرب أم في المشرق، وسواء الإباضية منهم أم الصفوية إذ وجدوا في أثناء التطبيق خلافاً لما يُنادون به نظرياً. ومع هذا فتبقى الحجة واهية، ولا يمكن الاستناد عليها.

٧ ـ إعطاء العسكريين أكثر من حقهم سواء أكانوا من الانكشارية أم من السباهية فقد تسلّطوا واستبدّوا وبدؤوا يتدخلون في الحكم ففسد، وأصبحوا أداةً كأداء في وجه الإصلاح الحقيقي لما لهم من نفوذ وما يملكون من قوة، كما أصبحوا هم سبب الفوضى والمفاسد بسبب تصرفاتهم.

٨ ـ كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج، ويتركون السكان على وضعهم القائم من العقيدة واللغة والعادات، إذ يهملون الدعوة والعمل على نشر الإسلام، وإظهار مزايا الإسلام من المساواة، والعدل، والأمن، وانسجامه مع الفطرة البشرية.

٩ ـ ولا شك فإن الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية وخاصةً في أواخر عهدها يُبرز السلبيات، ويُعدّ من أقواها، فقد تكالبت الدنيا على العثمانيين، وكلها تحاربهم بروحٍ صليبيةٍ، فالروس من الشمال، والنمسا من

---

(١) الطبري: ٦/ ١٤٧.

الغرب، والإمارات الإيطالية، ثم فرنسا، وانكلترا في البحار والمحيطات، وتنزلان جنودهما في الموانئ الإسلامية والبلدان التي تخفّ عنها قبضة العثمانيين أو البعيدة عن مركز الدولة، وقد تختلف الدول النصرانية فيما بينها، وعلى اقتطاع أجزاء من الدولة، ولكنها تتفق كلها ضد الدولة، وتتفق في مؤتمراتٍ عامةٍ لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، وسلخ رقعٍ من الأرض من أملاك العثمانيين وإرسال حملات، وهذه الحملات على المسلمين كانت سبباً في بلاء المسلمين أدّى إلى ضعف الدولة كما أدّى في الوقت نفسه إلى هزيمة المسلمين النفسية في تلك الجهات التي جاءت إليها الحملات، وإلى انتشار المفاسد، مع ما تدّعيه هذه الحملات من أنها جاءت لنشر العلم، ومعاداة الجهل، والأخذ بيد السكان نحو الحضارة والمدنية وإبعادها عن التأخّر والرجعية، وما يتمثّل في الخلافة العثمانية، لا تختلف في ذلك حملة عن أخرى ودولة أوربية عن ثانية، وإن أشدها وضوحاً وأكثرها أثراً على نفسية السكان الحملة الفرنسية على مصر، على حين كانت دعوى الفرنسيين خاصةً والأوربيين عامةً على أن هذه الحملة كانت بداية التطور الحضاري في مصر وترك تلك المظاهر المتخلّفة، وهذا ما سجّلته أقلامهم، ودُوّن في كتبهم، ومن هذه المصادر نقلت كتبنا التي نشأت عليها الأجيال وتربّت على معلوماتها الأبناء.

واستغلّت أوربا النصرانية هذا الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية، واختلاف الكلمة التي أصبحت عليه الأمة فأوقدوا بينهم نار الحرب بدعم هذا أو تأييد ذلك فإذا وجدت حركة إسلامية سليمة وجهت الجهود ضدّها، ووقفت أوربا بين الأطراف المتنافرة فيما بينها والمخاصمة لها. ففي مطلع القرن الثالث عشر، وجدت ثلاث قوى تمثّل ثلاث وجهات نظر. كانت الخلافة العثمانية وتمثّل الاتجاه الإسلامي الاتكالي، والذي ظهر على حملته الضعف، وكانت مصر تحت حكم محمد علي الذي يمثّل الانفتاح نحو أوربا، والسير نحو التحرر من قيود العقيدة، وكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب تمثل الاتجاه الإسلامي

السلفي، فعملت الدول الأوربية على أن يشنّ مركز الخلافة ومحمد علي مجتمعين الحرب على الحركة الإسلامية في الجزيرة العربية، حتى قوّضت عام ١٢٣٣، ثم عادت فعملت على تقوية محمد علي فضمّ السودان إليه ثم بلاد الشام، ثم أوقعت بينه وبين مركز الخلافة الذي بدا ضعيفاً، ثم خشيت أن تعود الحيوية إلى المسلمين فعملت مرةً ثالثةً على إضعاف شأن محمد علي وإعادته إلى رقعته الأولى التي انطلق منها وهي مصر فقط.

وبتدخل أوربا هذا صار لدولها أنصار ومؤيدون اتصلت بهم في أثناء هذا التدّخل وأعطتهم صفة الوطنية لأنهم عملاء لها فإذا انكشف أمرهم، وعُرف وضعهم، ونالوا جزاءهم كانوا شهداء في نظر أتباعها ومن ذلك ما عُرف بـ(شهداء ٦ أيار)، وكالت إليهم الثناء والمدح لخيانتهم لعقيدتهم وبلادهم وسيرهم خلفها. وذلك فيما دوّنه أبناؤها، وعن هذا أخذ كُتّابنا ومُؤرّخونا، حتى ضاعت الحقائق وأصبح ما زُيّف هو الحقيقة.

هذا الضعف الذي حلّ بالخلافة في أواخر عهدها جعل القبائل البدوية تطمع فيما جاورها، وتشنّ الغارات على المناطق الحضارية التي تقع على حدود باديتها، وقوي أمر المتنفّذين وقطّاع الطرق، واستأسد من لم يعرف الرجولة ما دام عدد من الأعوان يلتّف حوله، ولا يفرّقون بين الحلال والحرام. كما أوجد هذا الضعف الفوضى في الإدارة حيث دخلت الرشوة إلى الدوائر، وأصبح للمحسوبيات دور، وللمتنفّذين سلطان، واختلطت المفاهيم حتى ضاع الحق في ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرّق بين النيّة الحسنة والقصد الخبيث، وهذا ما جعل بعض الرجالات الذين يريدون الإصلاح يرغبون في التخلّص من الحكم لما آل إليه، وحلا بنفسهم التغيير إلا أنهم وجدوا موقعهم بين دعاة القومية بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية فتارة يفسّرون العربية بالإسلام، أو لا يفرّقون بينهما، وتارةً أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامي واضحاً، وهم قد عُرفوا بذلك، وشُهد لهم بالصلاح، وقد استغلّ دعاة القومية العلمانيون هذا الجانب العاطفي في أولئك فقدّموهم وأبرزوا منهم ما يريدون، وأخفوا ما

يرغبون فظهروا بالمظهر القومي، وقلّدهم الناس، وانطلق ركب القومية يحرّك طيبي النفوس، ويستغلّهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز في ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامي والقومي، أمثال عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد الزهراوي، و. . . وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحرص على جمع الأمة وتوحيد الكلمة، ويريد الدعوة إلى الإسلام، وطرح فكرة الجامعة الإسلامية، ولكنه لم يشعر إلا والمركب قد تحرّك من تحت أقدامه. وكان الهجوم ينصبّ عليه من كل جهةٍ، هجوم صليبي حاقد تكلّمنا عن بعض جوانبه، وهجوم يهودي شرس يدعم الأول، ويستند عليه، ويُغذّيه وتنطلق شراسته من موقف السلطان عبد الحميد في وجه اليهود الذين يُريدون أن يُؤسسوا لهم مستعمراتٍ في فلسطين، وقد رفض كل المغريات التي عُرضت عليه، ووقف صامداً في وجه المحاولات والجهود التي بُذلت له، بل والتهديدات التي وجهت إليه، فانبرت له أجهزة الإعلام اليهودية، وسُخّرت معها الأجهزة الصليبية بل التقت معها، فأزيح بانقلابٍ عليه، فكان الخليفة المظلوم الثاني الذي سقط نتيجة الإعلام اليهودي والحقد اليهودي، ووقعت الواقعة، وانتصر المستغربون، وتجزّأت الأمة، ودخل الاستعمار إلى البلاد، وفشت بين الزعماء روح الإلحاد.

هذه بعض الجوانب الإيجابية والسلبية في الخلافة العثمانية، وربما نُلاحظ بعض جوانب أخرى في أثناء دراسة هذه الدولة العظيمة، وربما تكون الإيجابية في مرحلة الخلافة الأولى في أيام القوة والتوسّع بل وفي مراحلها الأخيرة، وتكون الجوانب السلبية في مرحلة الخلافة الأخيرة في وقت الضعف والتراجع بل وفي المرحلة الأولى أحياناً.

الفصل الأول

الأناضول قبل العثمانيين

كانت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) قبل الإسلام، وكانت في صراعٍ دائمٍ مع الفرس، والحرب سجال بين الطرفين، فلما جاء الإسلام، وانطلقت الفتوحات الإسلامية في كل جهة، فقضت على دولة الفرس نهائياً وورثتها، وانتزعت من الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام ومصر ثم سائر الشمال الإفريقي، أما بلاد الأناضول فقد تمكّن المسلمون من انتزاع أجزائها الشرقية من أطراف أرمينيا حتى ذرا جبال طوروس، واشتهر حبيب بن مسلمة[1] من قادة فتح تلك الجهات. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ حاصر المسلمون القسطنطينية منذ عام ٥٠هـ في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، غير أنهم قد عجزوا عن فتحها، وتكرر الغزو مرات، ولكنهم لم يُوفَّقوا فيه، وبقيت قاعدةً للإمبراطورية البيزنطية، كما بقيت ذرا جبال طوروس حدّاً فاصلاً بين المسلمين والبيزنطيين مدة أيام الدولة الأموية، وقد أقيمت الثغور على تلك الذرا، وتتعاقب الصوائف والشواتي على تلك الثغور وعلى حركات الغزو والجهاد التي ما انقطعت، واشتهر من القادة مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن عبد الملك الذي أصبح خليفةً فيما بعد، ونقل عاصمته إلى حرّان في شرقي الأناضول، وهو آخر خليفةٍ أموي.

(١) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي: ولد قبل الهجرة بعامين، وشهد اليرموك، وتولّى أمر إنطاكية، فتح أرمينيا وأذربيجان ٢٣ ـ ٣١، وتوفي بأرمينيا عام ٤٢هـ.

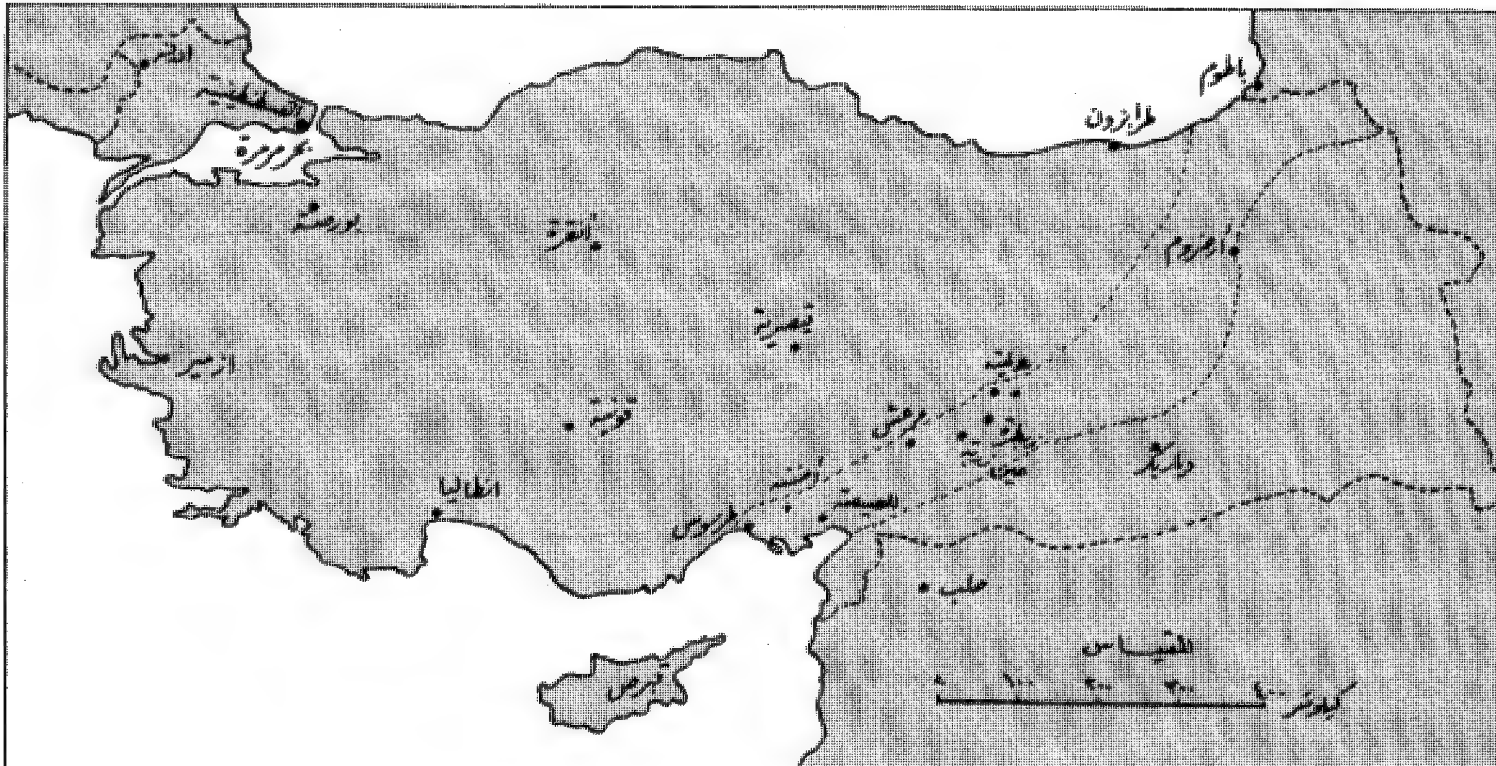
وجاء العباسيون وعملوا على توطين أقسام من جيش خراسان في الأجزاء الأناضولية الخاضعة لهم، وكان الخليفة المهدي(١) يستقدم الأتراك من فرغانة(٢) ، وبلْخ(٣)، ويُسكنهم الثغور مثل طرسوس، وأضنه، ومرعش، وملاطية، والمصيصة، وعين زربة، وزبطرة، وخرشنة، وآمد، وملازكرت، وخلاط، وقالبقاد، وكلها في المنطقة الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم (انظر المصور رقم ١). وقد زاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم. وكانت حركات الجهاد تتجاوز الثغور أحياناً، وتدخل إلى الجهات الغربية، ونعلم أنه في أيام المعتصم أغار الروم على ثغر زبطرة، وانتهكوا الحرمات ووصل الخبر إلى المعتصم فجرّد حملةً انتقامية وتمكّن من الوصول إلى مدينة عمورية التي تُعدّ من أشهر مدنهم يومذاك، وتقع في قلب الأناضول، في الجنوب الغربي من أنقرة، أي بعيداً عن منطقة الثغور بأكثر من خمسمائة كيلومتر، اخترقها المعتصم كلها، وخرّب المدينة، وأحرقها، ولعل هذه الحملة تعدّ من أهم ما خلّد ذكر المعتصم، إذ أكثر الشعراء من مدحه بعدها، وذكر نتائجها. وفي عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة، وغدت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم، وقد استمرت أعمال غزوهم، وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد، أو للحمدانيين في حلب، أو للطولونيين في الفسطاط، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم، وكانت الحروب سجالاً، أو أن التقدّم كان بين مدٍّ وجزر وإن كان قد أُعطي صورةً أكبر من الواقع بكثير في أيام الحمدانيين لأسبابٍ سياسية، ورسخ في

---

(١) المهدي: محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثالث خلفاء بني العباس، تولّى أمر الخلافة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور عام ١٥٨، وتوفي عام ١٦٩هـ.

(٢) فرغانة: مدينة، وكورة واسعة في بلاد ما وراء النهر، يجري فيها نهر سيحون الأعلى، وتقع اليوم في جمهورية قيرغيزيا الاتحادية التي تخضع لسيطرة الروس.

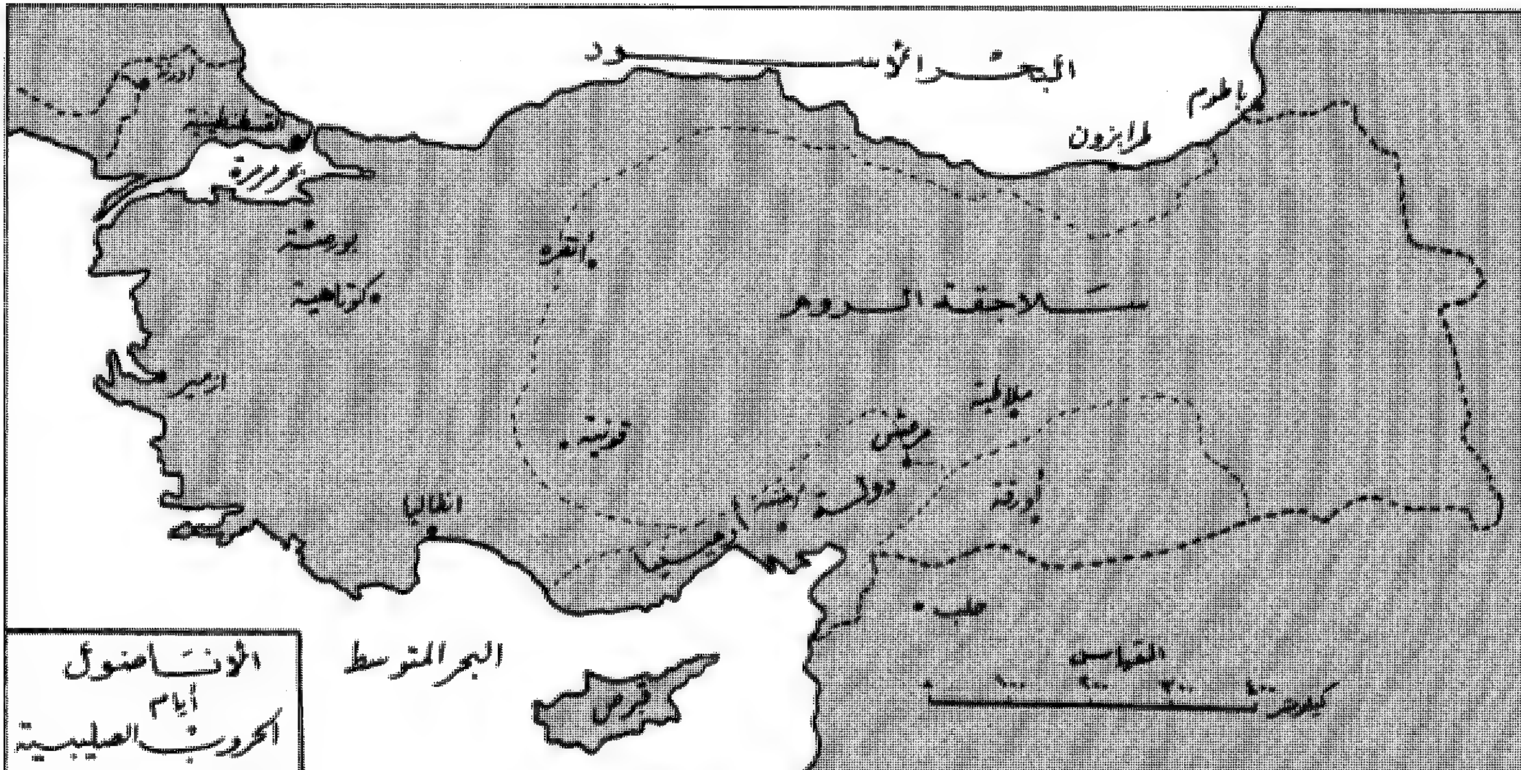
(٣) بلخ، بفتح الأول وتسكين الثاني، مدينة مشهورة في خراسان، تقع اليوم في بلاد الأفغان، وتعرف باسم وزير أباد، على حين أن الإقليم يُعرف باسمها، أو يُنسب إليها.


طرابزون
بورصة
أنقرة
أرضروم
قيصرية
أزمير
قونية
انطاليا
حلب
المقياس
قبرص

مصور رقم [١]

النفس نتيجة تخليد الشعراء لهذه المعارك رغم أن أكثرها لم يكن في صالح الحمدانيين، كما لم تحمل معنى الجهاد وإنما المحافظة على السلطان وأطراف المملكة.

وضعُفت الدولة العباسية نتيجة الانقسام والتجزئة وسيطرة العسكريين على الدولة، وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء على الدولة العباسية، وكان أمله كبيراً في تحقيق حلمه حتى أنه قسم أمصار الدولة الإسلامية بين قادة جنده، وفي هذا الوقت كان السلاجقة قد وصلوا إلى غربي الدولة، ودخل زعيمهم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بغداد، وأصبح السيد المطاع فيها، وبدأ صراعه مع الروم، فاتجه إلى ديار بكر، وقاتل البيزنطيين، وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنةً، واشترط فيها بناء مسجد في القسطنطينية، فأقيم المسجد، وأقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخُطب لطغرل بك فيه. وتوفي طغرل بك عام ٤٥٥، ولم يكن له ولد فخلفه ابن أخيه سليمان بن داود، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه، وتسلّم الأمر، ودخل في الحرب مع الروم، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملازكرت عام ٤٦٣، وكانت جيوشهم تربو على مائتي ألف مقاتل، وتضمّ أخلاطاً من الروم، والروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها، على حين لم يكن جيش ألب أرسلان ليزيد على عشرين ألفاً أي ما يعادل ١/ ١٠ من جيش البيزنطيين ومع ذلك فقد أحرز ذلك الانتصار المؤزّر، وأسر إمبراطور الروم (ديوجينيس رومانوس)، ولكنه أطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه مقابل أن يُطلق الإمبراطور سراح كل مسلم أسير، وأن يرسل إليه عساكر الروم لتُقاتل معه في أي وقتٍ يطلبها. وانساحَ السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتى الجهات الغربية فملؤوها، وأسسوا إمارات فيها، ومن بين هذه الإمارات إمارة أسسها قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، وقد خرج عن طاعة ألب أرسلان فقاتله فقتل، فقام مكانه ابنه سليمان بن قطلُمش. ثم قُتل ألب أرسلان عام ٤٦٥ على يد كمينٍ نُصب له، وهو في طريقه إلى الصين.



تراجع سلاجقة الروم أيام الحروب الصليبية وقيام دولة أرمينيا في كيليكيا وقيام

امارة اورفة الصليبية

وتمكّن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يُقدّموا خدمات للمسلمين في أول أمرهم إذ استردّوها من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين، ومنها أنطاكية إذ استردّوها عام ٤٧٧، وكان الروم قد أخذوها من المسلمين منذ عام ٣٥٨، كما استردّت الدولة المرداسية منبج عام ٤٦٨. وتأسّست إمارت سلجوقية في الأناضول وأرمينيا، ومن أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان بن قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، والتي كان مقرّها قونية، والتي أطلق عليها اسم سلاجقة الروم، ثم أعقبها قيام إماراتٍ أخرى. وفي الوقت نفسه فقد قامت دويلات أرمنية في أرمينيا، وأسّس الأرمن الذين فرّوا من وجه السلاجقة، واتجهوا إلى الغرب دويلةً في كيليكيا مقرها أضنه، وبقيت قائمةً حتى انهارت على يد المغول. وزاد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

وجاء الصليبيون عام ٤٨٩ بدافعٍ صليبي وحقد، وإن كانوا قد احتجّوا بأن السلاجقة يُسيئون معاملة النصارى وهم في طريقهم إلى القدس، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة، وأن يفصلوا بين المناطق الغربية عن المناطق الداخلية، وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارة صليبيةً في الرها، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا، واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر إمارته من نيقية إلى قونية. ثم اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم، واتجه لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فدخل أزمير وأفسوس لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

وقامت الحروب الصليبية في بلاد الشام، ووقف آل زنكي في وجههم، ولما توفي نور الدين محمود عام ٥٦٩ قام صلاح الدين الأيوبي فاستولى على أغلب البلاد التي كانت في يد آل زنكي، وأقطعها لإخوته وأبناء عمومته، وفتح كثيراً من البلدان التي كانت بيد الصليبيين، ودخل القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ وأنقذها من يد النصارى، وتوفي عام ٥٨٩ وبموته انفرط عقد الدولة الأيوبية، وتفرّقت كلمة أمرائها، واستقل

كل من أولاده - وكانوا سبعة عشر أميراً - في جزء منها، فاستقل العزيز عماد الدين عثمان في مصر، والأفضل في دمشق، والظاهر في حلب، وحاول كل منهم الحصول على ما في يد أخيه. وحارب العزيز بمساعدة عمه العادل صاحب الكرك أخاه الأفضل، وأخرجاه من دمشق، وملكها العادل، وتوفي العزيز عام ٥٩٥، وخلفه ابنه المنصور محمد، وكان صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره، فكاتب الأمراء في مصر عمه الأفضل ليتولّى أمر مصر فأسر إليها، فأراد الانتقام من عمه العادل، واستعان بأخيه الظاهر في حلب، وحاصرا دمشق، ثم اختلفا فتركاها، ولحق العادل بالأفضل إلى مصر، وتمكّن من إخراجه منها، وتسلّم مصر ودمشق عام ٥٩٩، وبقي حتى توفي عام ٦١٥، وخلفه ابنه الكامل في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى في حران، وخلاط في شرقي الأناضول، وبصورةٍ عامة لم تكن هناك دولة أيوبية بل دول متعددة، ويُطلق على حكامها اسم ملوك، والخلافات قائمة بينهم، ولم تجد تدخلات الخليفة العباسي للصلح بينهم، فمنهم من لجأ إلى الصليبيين، ومنهم من راسل خوارزم وغير ذلك.

وفي هذه الأثناء بدأ الهجوم المغولي من الشرق، فخاف بعض الحكام فانضموا إليه، وحدث اجتماع لهؤلاء الذين تحالفوا مع المغول عام ٦٤٣ ضم إضافةً إلى المغول الأمير مسعود بيك من بلاد ما وراء النهر، والأمير أرغون من خراسان، وصحبه أكابر من العراق، واللور، وأذربيجان، وشروان، ومن سلاجقة الروم الأمير ركن الدين، ومن الأيوبيين الملك الصالح إسماعيل بن العادل، ومن بغداد قاضي القضاة فخر الدين، وأمراء من الأرمن، والكرج، وتحالف مع المغول أيضاً إمارة أنطاكية الصليبية، وذهب سفراء صليبيون إلى بلاد المغول لعقد حلف معهم ضد المسلمين.

وتقدم المغول نحو الغرب، ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام ٦٤١ تحت سيطرة المغول، واستسلم أمراؤها لهم، وصاروا معهم حرباً على المسلمين، وفتحوا بلادهم لهم. وهادن أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ هولاكو أيضاً، ودخل في طاعته، ويُعدّ الأراتقة في ماردين عمالاً للمغول،

وساهم ملك الأرمن حيتوم في احتلال بغداد، ومشى مع المغول نحو القدس ليملكها. ولم يتعرّض المغول فعلاً للنصارى بل كانت بيوتهم آمنةً، كما أعطى هولاكو لبطريرك النساطرة في بغداد أحد قصور الخليفة ليتخذه كنيسةً وأغدق عليه العطايا، ووجد النصارى في دمشق عوناً من الوالي المغولي الذي كان يُعظّم دينهم، ويزور كنائسهم، وارتكب الأرمن يومها أبشع الجرائم، وانتهكوا الأعراض في دمشق.

ثم هُزم المغول في عين جالوت عام ٦٥٨، وخرجوا بعدها من بلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى بلاد سلاجقة الروم لينتقم منهم، والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش، وانتصر عليهم نصراً مبيناً، ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية، وقد أحسن إلى أهلها، وأعطاهم الأمان، وخُطب له في مساجدها.

ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إمارات في الأناضول منها:

١ ـ أبناء آيدين:

في الغرب، وتضمّ أزمير وما حولها، وكان محمد بيك قائداً في دولة السلاجقة، ويحمل رتبة أمير السواحل، وقد خلفه ابنه آيدين في الزعامة، وكان يكره المغول فأعلن استقلاله وقد ضعف أمرهم وذلك عام ٦٩٩، وبقي حتى عام ٧٣٤، وقام بأمر الدولة من بعده ابنه محمد حتى عام ٧٤١، ثم ولده عمر الذي بنى أسطولاً أحرقه الصليبيون عام ٧٤٥، كما أنشأ قلعةً حصينةً في أزمير أزعجت الصليبيين كثيراً، وتوفي عام ٧٤٩، وخلفه أخوه عيسى، واضطر إلى تسليم إمارته إلى السلطان العثماني بايزيد، فترك له السلطان أزمير، وضمّ بقية أجزاء الإمارة إلى أملاك العثمانيين، وتوفي عيسى عام ٧٩٢، وضُمّت أزمير أخيراً للعثمانيين. واحتل تيمورلنك أزمير عام ٨٠٥، وأعطى حكمها إلى موسى بيك بن عيسى، غير أن موسى لم يلبث أن مات في ذلك العام، وخلفه ابنه عمر الثاني الذي توفي عام ٨٠٦، وخلفه ابنه مصطفى الذي كان عاملاً للعثمانيين على أزمير حتى عام

٨٢٥، وانتهت بعدها إمارة أبناء آيدين، وغدت جزءاً من الدولة العثمانية.

٢ ـ أبناء تكة:

وهم قبيلة تركمانية، كانوا من أمراء الأطراف في أيام دولة السلاجقة، وكان تكة باشا مجاهداً ضد الصليبيين، فلما دالت دولة السلاجقة أعلن استقلاله عام ٧٠٠، واستقل في انطاليا في الجنوب، واستولى السلطان بايزيد على إمارة أبناء تكة عام ٧٩٥، ثم عادت إلى الظهور بعد حروب تيمورلنك، وضُمّت إلى الدولة العثمانية عام ٨٣٠.

٣ ـ أبناء أرتنا:

بعد انقراض دولة سلاجقة الروم حكم بها دورخان أبو سعيد آخر حكام الدولة الإيلخانية القسم الأعظم من شرقي الأناضول، وقد أعطى هذا القسم عام ٧١٧ إلى تيمورتاش من أبناء شوبان من المغول، غير أن تيمورتاش سلّم أحد أركانه وهو أرتنا إدارة البلاد، وانتقل هو إلى مصر، فاعترف أبو سعيد بأرتنا حاكماً رسمياً عام ٧٢٨، ولما مات أبو سعيد عام ٧٣٦ استقل أرتنا بما تحت يده، ثم تبع كوشك بن شوبان في تبريز، ثم تبع المماليك في مصر حيث كان السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون، واتخذ قيصرية، ثم سيواس قاعدةً له، وكانت أنقرة، وتوقات، وأرزنجان، وأماسيا، وسينوب، وصامسون، وقونية تتبع له.

٤ ـ أبناء كرميان:

وكانوا قرب ملاطية، ثم انتقلوا إلى قرب أنقرة، واتخذوا مدينة كوتاهية حاضرةً لهم، وقامت دولتهم عام ٧٠٠ بعد زوال دولة سلاجقة الروم، واستمرت حتى عام ٧٩٢، حيث غضب السلطان العثماني بايزيد على أميرها يعقوب الثاني فقبض عليه وسجنه، غير أنه تمكّن من الفرار فالتجأ إلى تيمورلنك فأعاده إلى إمارته بعد عام ٨٠٥، وبعد وفاة تيمورلنك عادت الصلة الحسنة مع العثمانيين، ولم يكن له أولاد فأوصى بإمارته إلى السلطان مراد الثاني عام ٨٣٢.

٥ ـ أبناء حميد:

وأسس هذه الإمارة حميد بيك التركماني، وكان مقره في أكردير إلى الغرب من قونية، واستقل بإمارته هذه بعد انتهاء دولة سلاجقة الروم، وقد أعطى ابنه الذي خلفه وهو دندار الملقّب فلك الدين اسم عاصمته «فلك أباد»، وهاجم تيمورتاش والي المغول دندار الذي فرّ إلى أنطاليا، ولكن قُبض عليه، وقتل عام ٧٢٤، واستولى تيمورتاش على إمارة أبناء حميد. ولكن لم يلبث تيمورتاش أن فرّ إلى مصر، وظهر خضر بن دندار، واستعاد ملكه عام ٧٢٨، وخلفه ولده إسحاق، ثم إلياس بن إسحاق، ثم ولده كمال الدين حسين بن إسحاق الذي التجأ إلى السلطان مراد عام ٧٧٦ ليتخلّص من تهديدات إمارة قرمان له، وبقي كمال الدين حسين حتى توفي عام ٧٩٣، وضُمّت الإمارة بعد ذلك إلى العثمانيين، وانتهت سلطة أبناء حميد.

٦ ـ أبناء أشرف:

كان سيف الدين سليمان بن أشرف من أمراء غياث الدين مسعود الثاني سلطان السلاجقة، وقد توفي سيف الدين سليمان حوالي عام ٧٠١ فاستقل ابنه محمد في المنطقة، وكانت دولة السلاجقة قد انتهت، وتلقّب باسم مبارز الدين محمد، ثم خلفه ابنه سليمان شاه، وقد استولى والي المغول تيمورتاش على إمارة أبناء أشرف عام ٧٢٨، ولما فرّ إلى مصر، احتل أبناء حميد المنطقة في أيام خضر بن حميد.

٧ ـ أبناء قراسي (قره عيسى):

كان قره عيسى من أمراء السلطان مسعود الثاني، فاستقل عند ضياع دولة السلاجقة عام ٧٠٠ في مقاطعة (ميسيا)، واتخذ مدينة (باليكسر) عاصمةً له، ولما كانت المنطقة ساحلية فقد أسست هذه الإمارة أسطولاً لها، وخلف (قره عيسى) ابنه (عجلان بك)، وكان على صلة حسنةٍ

بعثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، وخلف عجلان ولده (دمورخان)، ودخل أورخان بن عثمان إمارة (قره عيسى) عام ٧٣٧، بعد اختلاف ولدي دمورخان على الحكم. وهي أول إمارة ضمها العثمانيون إليهم، وهي إمارة صغيرة تقع جنوب بحر مرمرة وشرق بحر إيجه.

٨ ـ أبناء صاروخان:

وهم من أسرة تركمانية استقرت في مقاطعة (ليديا)، وكانوا أمراء عند السلاجقة، وقد استقل صاروخان بمنطقته عندما ضعفت دولة السلاجقة عام ٧٠٠، وأسس أسطولاً، واصطدم مع الجنويين الذين كانت لهم مراكز على سواحل آسيا الصغرى، وحاول عقد حلفٍ من الأمراء المستقلين ضد العثمانيين، وتعاون مع إمبراطور بيزنطة ثم نقض العهد معه، وتوفي عام ٧٤٦، وخلفه ولده فخر الدين إلياس حتى عام ٧٧٦ حيث توفي، وتولى مكانه ابنه مظفر الدين إسحاق چلبي فدخل في الحلف الذي شكّلته إمارة قرامان ضد العثمانيين فهزموا، وأخذ السلطان بايزيد بعض إمارته تأديباً، وأبقى له قسماً منها، ومات إسحاق چلبي عام ٧٩٠، وخلفه ابنه خضر شاه حتى عام ٧٩٢، حيث ضم السلطان بايزيد إليه الإمارة، وأعاد تيمورلنك خضر شاه إلى مملكته بعد انتصاره على السلطان بايزيد في معركة أنقرة عام ٨٠٥، وخلف خضر شاه ولده محمد چلبي الذي أعدم من قبل العثمانيين عام ٨١٣ لجريمةٍ أخلاقية، وانتهت يومها إمارة أبناء صاروخان.

٩ ـ أبناء منتشا:

ويعودون إلى أصل كردي، وكان حاجي أمير السواحل في عهد السلاجقة، واستقل ابنه منتشا في منطقة (قاريا) القديمة، واستمر حتى عام ٧٣٠، حيث خلفه ابنه أورخان شجاع الدين، ثم إبراهيم الذي زاره ابن بطوطة، ثم تاج الدين أحمد غازي بن إبراهيم، ثم محمد بن إبراهيم، ثم إلياس بن محمد الذي لم يتمكّن من مقاومة السلطان بايزيد ففرّ إلى سينوب عام ٧٩٢، وبعد هزيمة العثمانيين عام ٨٠٥ أمام تيمورلنك عاد

إلياس إلى منطقته حتى عام ٨٢٤ حيث خلفه بعد وفاته ابنه الليث حتى عام ٨٢٩ حيث دخل السلطان مراد الثاني الإمارة وقبض على أولاد منتشا وسجنهم في توقات، وانتهى أمرهم.

١٠ ـ أبناء جاندار (اسفنديار):

يدّعون أنهم مخزوميون من نسل خالد بن الوليد، وقد فتح مدينة قسطموني حسام الدين شوبان بك، وفي عام ٦٩١ نصّب الإيلخانيون عليها شمس الدين تمرجاندار، ثم خلفه ابنه سليمان، وألحقت بالدولة العثمانية عام ٧٩٥ في أيام السلطان بايزيد، وبعد هزيمة السلطان في معركة أنقرة أمام تيمورلنك عاد اسفنديار أحد أفراد أسرة جاندار إلى الحكم، واستمر حتى عام ٨٤٧ حيث توفي، والعثمانيون ينسبون إلى اسفنديار هذا، وقد تزوج السلطان العثماني مراد الثاني ابنة اسفنديار، وفي عام ٨٦٦ دخل السلطان محمد الفاتح قسطموني، وانتهى وضع هذه الإمارة.

١١ ـ أبناء براونه:

استولى عز الدين كيكاوس سلطان السلاجقة في الأناضول على مدينة سينوب الواقعة على البحر الأسود عام ٦١١، ثم عاد إمبراطور طرابزون إليها، غير أن أحد أمراء السلاجقة وهو براونه معين الدين سليمان تمكّن ثانيةً من استعادتها أيام السلطان قليج أرسلان الرابع الذي منحه حكمها، وخاف براونه أن يعاود فينتزعها منه فعمل على قتله. أناب معين الدين سليمان ابنه معين الدين محمد عليها، وفي عام ٦٧٦ أعدم براونه، فاستقل ابنه في سينوب، وبقي حتى مات عام ٦٩٦، وخلفه ابنه مهذب الدين مسعود فسالم المغول مخالفاً سياسية أبيه، وقد اختطفه الفرنجة من تجار جنوه إذ جاءوا إلى سينوب من (كفا) مستعمرتهم في شبه جزيرة القرم، ثم فدى نفسه بمبلغٍ ضخم، وعاد إلى حكم سينوب، وبقي حتى مات عام ٧٠٠، وانتقلت بعد ذلكَ إلى غازي چلبي بن السلطان غياث الدين مسعود الثاني.

١٢ ـ أبناء صاحب أتا:

كان الصاحب فخر الدين علي بن الحسين بن أبي بكر من الوزراء البارزين عند سلاجقة الأناضول، ويُعرف في قونية باسم «صاحب أتا»، وبسبب الأحداث التي وقعت، وتدخل المغول في شؤون السلاجقة انزوى في قرية «نادر»، وحفظ أمواله في «قره حصار»، ثم توفي عام ٦٨٤، وكان أولاده قد قتلوا في معركة عام ٦٧٦، وحكم بعد ذلك أحفاد (صاحب أتا) قره حصار حتى استولى عليها أبناء كرميان.

١٣ ـ أبناء قرمان:

فتح علاء الدين كيقباد الأول مدينة أرمناك، وأسكن حولها بعض القبائل التركمانية، وعيّن عليهم أحد أمرائهم كريم الدين قرمان، وفي عام ٦٥٤ جعل السلطان قليج أرسلان الرابع كريم الدين قرمان أميراً على أرمناك، وعندما توفي عام ٦٦٠ خلفه ابنه محمد الأول وقد اتفق مع جمري الذي ادعى أنه أحد أولاد عز الدين كيكاوس السلطان السلجوقي، واحتل قونية عام ٦٧٥، وجاء غياث الدين كيخسرو الثالث بجيش من السلاجقة والمغول، وهزمهما وقتلهما عام ٦٧٦.

وتولّى الحكم بعد محمد أخوه محمود. وصاهر علاء الدين أمير القرمان عام ٧٨٣ السلطان مراد الأول، وتزوّج ابنته نفيسة، وأعطاه ابنته، ولم يمنعه هذا من محاربة العثمانيين، غير أنه أسر، فتوسطت له ابنته زوجة السلطان فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً. ثم عاد للحرب فقتل على يد أحد القادة العثمانيين في أيام السلطان بايزيد عام ٧٩٣، وسجن ابنه من نفيسة ابنة السلطان مراد في بورصة، وألحقت أكثر إمارته بالدولة العثمانية. فلما هُزم السلطان بايزيد أمام تيمورلنك عام ٨٠٥ بعد معركة أنقرة، خرج محمد بن علاء الدين من السجن وأعيد إلى ملكه، وضرب نقوداً باسم تيمورلنك، ثم توسع فسيطر عام ٨١٤ على إمارة أبناء كرميان، غير أن السلطان محمد چلبي أخرجه منها عام ٨١٧، وفي

حربٍ أخرى ووقع أسيراً بيد العثمانيين غير أن السلطان العثماني قد عفا عنه، فاتجه إلى المماليك في مصر، ثم عاد فحاربهم ووقع أسيراً فسيق إلى مصر عام ٨٢٢، وفرّ من مصر ورجع إلى ملكه عام ٨٢٤، وحارب العثمانيين ثانيةً وحاصر أنطاليا، وأخيراً توفي عام ٨٢٧، فأعلن أخوه علاء الدين علي استقلاله، وكان موالياً للمماليك، وقام إبراهيم بن محمد وأخوه عيسى ينافسانه، واتجها إلى مراد الثاني السلطان العثماني فزوجهما بأختيه، وولّى عيسى لواء الروملّلي، ثم أخذ إمارة قرمان من علي علاء الدين وزوّجه بأخته الثالثة، وولّاه لواء صوفيا، وأعطى إبراهيم إمارة قرمان.

حاول إبراهيم أن يعطي ابنه الكبير إسحاق الحكم فوقع الخلاف بين الإخوة، وتولى بير أحمد الحكم وهو من ابنة السلطان محمد چلبي، فلجأ إسحاق إلى أوزون حسن ملك آق قيونلي (الخروف الأبيض) في أذربيجان، وتمكّن بمساعدته من احتلال قونيه، غير أن السلطان محمد الفاتح أعاد بير أحمد، وفر إسحاق إلى أوزون حسن، وبعد مدة أعلن بير أحمد الحرب على الدولة العثمانية غير أنه هزم ٨٧١، وغدت قونية تتبع الدولة العثمانية، واشترك بير أحمد وشقيقه قاسم في حكم بقية إمارة قرمان حتى عام ٨٧٤، ثم اختلفا ومات بير أحمد عام ٨٨٠.

انهزم قاسم أيضاً أمام العثمانيين عام ٨٨٠، وفرّ إليه الأمير العثماني (جم) من وجه أخيه بايزيد الثاني، وشاركه في الحكم، ثم غادر (جم) قرمان إلى فرسان رودوس النصارى الصليبيين، وعقد قاسم معاهدة مع السلطان بايزيد، وبقي قاسم حتى توفي عام ٨٨٨، واختار الأمراء من بعده محمود بن طورغوث أحد كبار إمارة قرمان، وفي الوقت نفسه ابن ابنة قاسم، وذلك ليكون حاكماً على الإمارة، وذلك لأن أولاد قاسم قد ماتوا معه، وقد وافق السلطان بايزيد واعترف بذلك، إلا أن محمود بن طورغوث لم يلبث أن أعلن العصيان على الدولة العثمانية، وأظهر الطاعة للمماليك في مصر، فأرسل العثمانيون له قوة عام ٨٩٢ أنهت الإمارة. وقد استعملت

هذه الإمارة اللغة التركية، وعمّت بعد ذلك على حين كان السلاجقة يستعملون اللغة الفارسية.

١٤ ـ أبناء رمضان:

وهم عشيرة تركمانية استقرت حول مدينة أضنه، وقد أسس هذه الإمارة شهاب الدين أحمد بن رمضان (مير أحمد) حوالي عام ٧٧٩، وقد حارب المماليك، وانتصر عليهم، ثم تزوّج السلطان المملوكي فرج بن برقوق ابنة الأمير أحمد هذا، فتحسّنت العلاقات بين الطرفين، ووقفا معاً ضد تيمورلنك، وأخذ طرسوس من إمارة أبناء قرمان عام ٨١٨ بعد حصار دام ستة أشهر، وتوفي أحمد هذا عام ٨١٩، فاختلف أبناؤه من بعده، ثم تسلّم الأمر ابنه إبراهيم، وانتهى الخلاف، وعرض إبراهيم على إخوته وأبناء عمه عام ٨٢٠ الطاعة لسلطان مصر، غير أنه عاد فأظهر الخلاف عام ٨٣٠ فقبض عليه، وسجن في مصر، ثم قتل عام ٨٣١، واختار المماليك مكانه ولده عز الدين حمزة، ولم تطل أيامه، وكان عماه محمد وعلي يملكان مدناً أخرى تتبع أضنه، فحدثت خلافات انتهت باستلام أرسلان داود بن إبراهيم الإمارة، واستمر في وضعه حتى قتل في جهات ديار بكر عام ٨٨٥. وخلف داود ولده غرس الدين خليل، وبقي حتى عام ٩١٦، وبقي أبناء رمضان هذه المدة كلها بجانب مصر، غير أن قوة العثمانيين التي برزت قد جعلت خليلاً يتقرّب منهم. وخلف خليل أخاه محمداً فاتجه إلى إستانبول، واتفق مع السلطان، وسار معه لقتال المماليك، وقتل في معركة الريدانية على أبواب القاهرة عام ٩٢٣. وخلفه أخوه بيري بك، وبقي تحت سلطة العثمانيين ٩٢٦ ـ ٩٤٨ ثم استقال من الإمارة، وأصبحت منطقة أضنه ولايةً عثمانيةً، وجُرّد أبناء رمضان منها، وحدثت خلافات في المنطقة فكُلّف بيري بك بالعودة إليها فعاد واستمر في عمله حتى توفي عام ٩٧٦، وعُيّن إخوته في ولاياتٍ ثانيةٍ. وخلف بيري بك ابنه الأصغر درويش، وكان من قبل أميراً على طرسوس، وبعد ستة أشهر قام مكانه أخوه الأكبر إبراهيم الذي كان أميراً على عينتاب، واستمر حتى عام ٩٩٧ حيث خلفه ابنه محمد حتى انقرضت إمارة أبناء رمضان عام ١٠١٧.

١٥ ـ أبناء ذي القادر:

وقد وصل هؤلاء إلى الأناضول مع هروب التركمان من وجه الهجوم الوحشي المغولي في أيام جنكيزخان، ومع أنهم يدعون أنهم من أصل فارسي، ويعودون إلى الساسانيين، إلا أن الأصل التركماني واضح عليهم، وفي أثناء فرارهم كان أمير إحدى الفرق منهم ذو القادر، وتمكّن ابنه زين الدين من تقوية نفسه في منطقة البستان، ثم أعلن استقلاله عام ٧٤٠، وطال به العمر، وتوفي عام ٧٨٠، وخلفه ابنه خليل الذي ملك ملاطية ومرعش ثم قتله أخوه إبراهيم أمير خربوت الذي أعلن الطاعة للمماليك وذلك عام ٧٨٨. وتسلّم الحكم بعد خليل أخوه الثاني (صولي) الذي وقع بين ناري المماليك وأبناء قرمان الأمر الذي جعله يتجه إلى العثمانيين، وعاد ثانيةً إبراهيم إلى قتل أخيه (صولي) عام ٨٠٠، وكان الأمير العثماني محمد شلبي قد تزوج ابنة (صولي). ورغم فعلة إبراهيم في قتل أخويه إلا أنه لم يتمكّن من استلام السلطة إذ أن أخاه الثالث ناصر الدين محمد قد أخذها وقاتل المماليك، وأبناء قرمان، والعثمانيين، كما قاوم تيمورلنك عام ٨٠٣ غير أنه اضطر للخضوع فيما بعد، ولما رجع تيمورلنك عادت الصلة فتوطّدت بين السلطان محمد چلبي وناصر الدين محمد والتقيا في أنقرة عام ٨١٥. لكنه رجع فاستعان بالمماليك ضد أبناء قرمان، فقدّم له المماليك مدينة قيصرية مكافأةً له، ولكن العثمانيين قد احتلوا هذه المدينة، ثم اختلف ثانيةً مع المماليك والتجأ إلى السلطان العثماني مراد الثاني فأعاد إليه مدينة قيصرية. ورجع إلى المماليك، وزار القاهرة، ولما رجع إلى مقر ملكه لم يلبث أن أدركته المنية عام ٨٤٦.

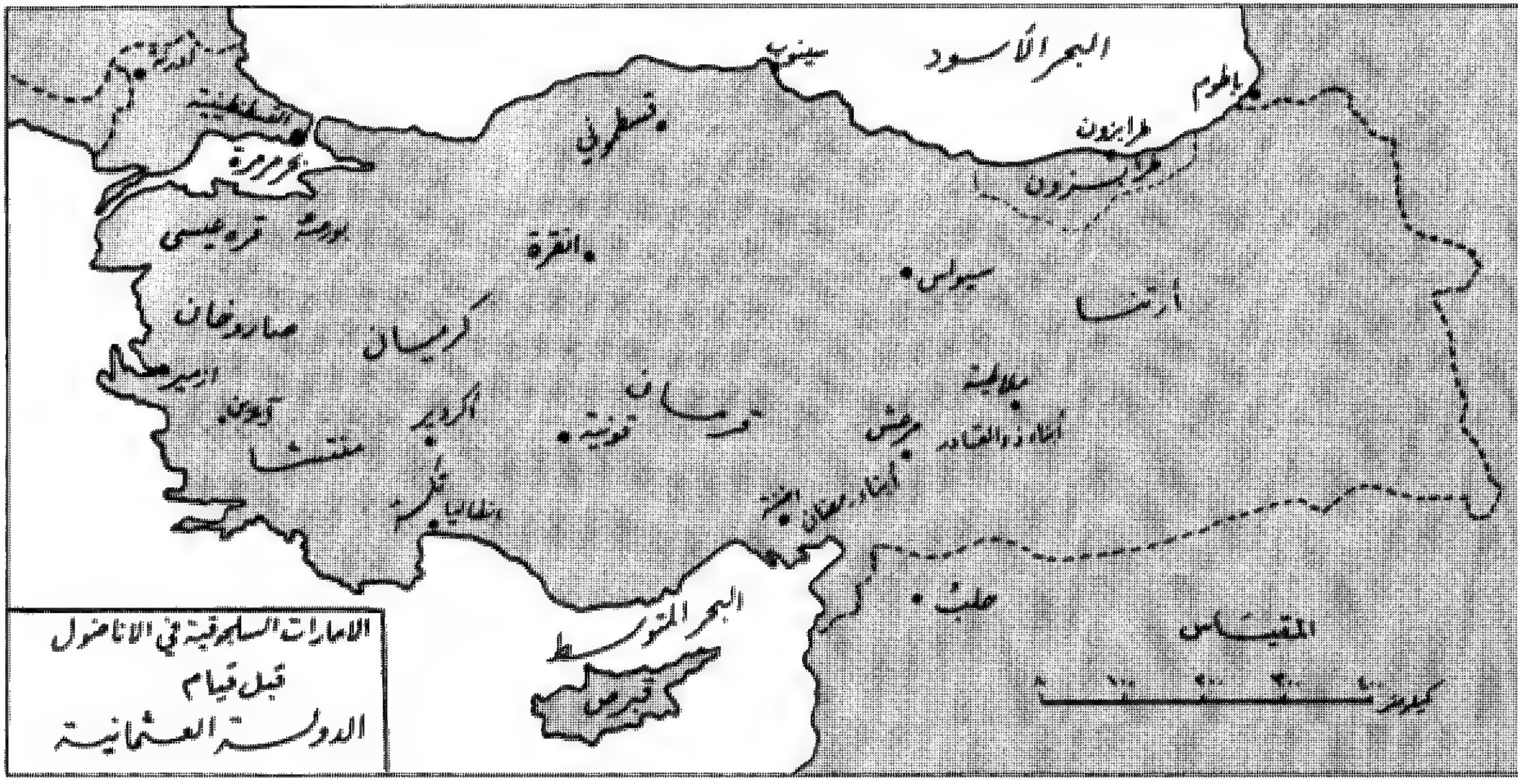
خلف سليمان أمير ملاطية أباه ناصر الدين محمد، وعاد إلى حسن الصلة مع العثمانيين، وزوّج ابنته مكرمة للأمير العثماني محمد (الفاتح)، وتوفي عام ٨٥٨، وتولى مكانه ابنه أرسلان فهاجمه ملك الأسرة القراقيلونية أوزون حسن وأخذ منه (خربوت) فاستنجد بالمماليك، وسار إلى القاهرة فاغتيل في المسجد عام ٨٧٠، وتولّى مكانه أخوه (شاه بودان) مؤيداً من

قبل المماليك على حين نصّب العثمانيون أخاه الآخر (شاه سوار)، واختلف الأخوان، وفرّ (شاه بودان) إلى مصر عام ٨٧١، فعيّن المماليك مكانه عمه رستم بن ناصر الدين محمد والياً على البستان، ولكن شاه سوار قد تغلّب على المماليك، وعلى أبناء رمضان عام ٨٧٢، غير أنه عاد فانهزم أمام المماليك في عينتاب عام ٨٧٦ ووقع أسيراً بأيديهم، فحُمل إلى مصر، وأُعدم هناك عام ٨٧٧، وأعادوا شاه بودان إلى الحكم، ودعم العثمانيون أخاه الآخر بوزقورت علاء الدولة، ففرّ شاه بودان إلى مصر عام ٨٨٤، وخلا الجو لعلاء الدولة، فاتخذ الدهاء وأظهر الميل إلى المماليك، وتمكّن من القبض على أخيه شاه بودان وسلّمه إلى مصر فقُتل عام ٨٩٥، وعندما حقق ما يريد رجع إلى العثمانيين، وزوّج السلطان بايزيد ابنته عائشة وهي والدة السلطان سليم، ولكنه عاد فأعلن مخالفة العثمانيين، فشنوا عليه حرباً بعد أن انتهوا من الصفويين، وقبضوا عليه، وقتل عام ٩٢١، وحُمل رأسه إلى ابن ابنته السلطان سليم الأول.

وعيّن العثمانيون مكانه علي بن شاه سوار، وأصبحت الخطبة للسلطان العثماني، وسار الأمير علي هذا في حملة السلطان سليم التي قضت على حكم المماليك في الشام ومصر، ولكنه أعدم عام ٩٢٨ بأمر السلطان سليمان القانوني، وانتهت الإمارة منذ ذلك اليوم.

ولم تكن هذه الإمارات أو الدويلات التي قامت في الأناضول وحدها بل هناك غيرها كثير دون اتساعها أو أقل منها أهمية مثل أمراء دنزلي الذين انتهت إمارتهم في أيام السلطان العثماني مراد الثاني عام ٨٣٢، وأمراء سيواس، والأقيونيون في ديار بكر الذين انتهت دولتهم في آمد، وماردين حوالي ٩١٢ على يد السلطان سليم الأول و....

وكانت الإمارات المعاصرة بعضها لبعض متنافسة، وتنتقل المدن من يد إمارة إلى أخرى أو المناطق ثم تعود للإمارة الأولى عندما تتقوّى أو تجد لها دعماً، حتى قضت الدولة العثمانية عليها جميعاً في أوقات متفاوتة.


الامارات السلجوقية في الاناضول
قبل قيام
الدولة العثمانية
البحر الأسود
سينوب
قسطموني
أنقرة
سيواس
أرتنا
كرميان
قرمان
قونية
قره عيسى
صاروخان
ملاطية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٣]

الفصل الثاني

تأسيس الدولة وقوتها

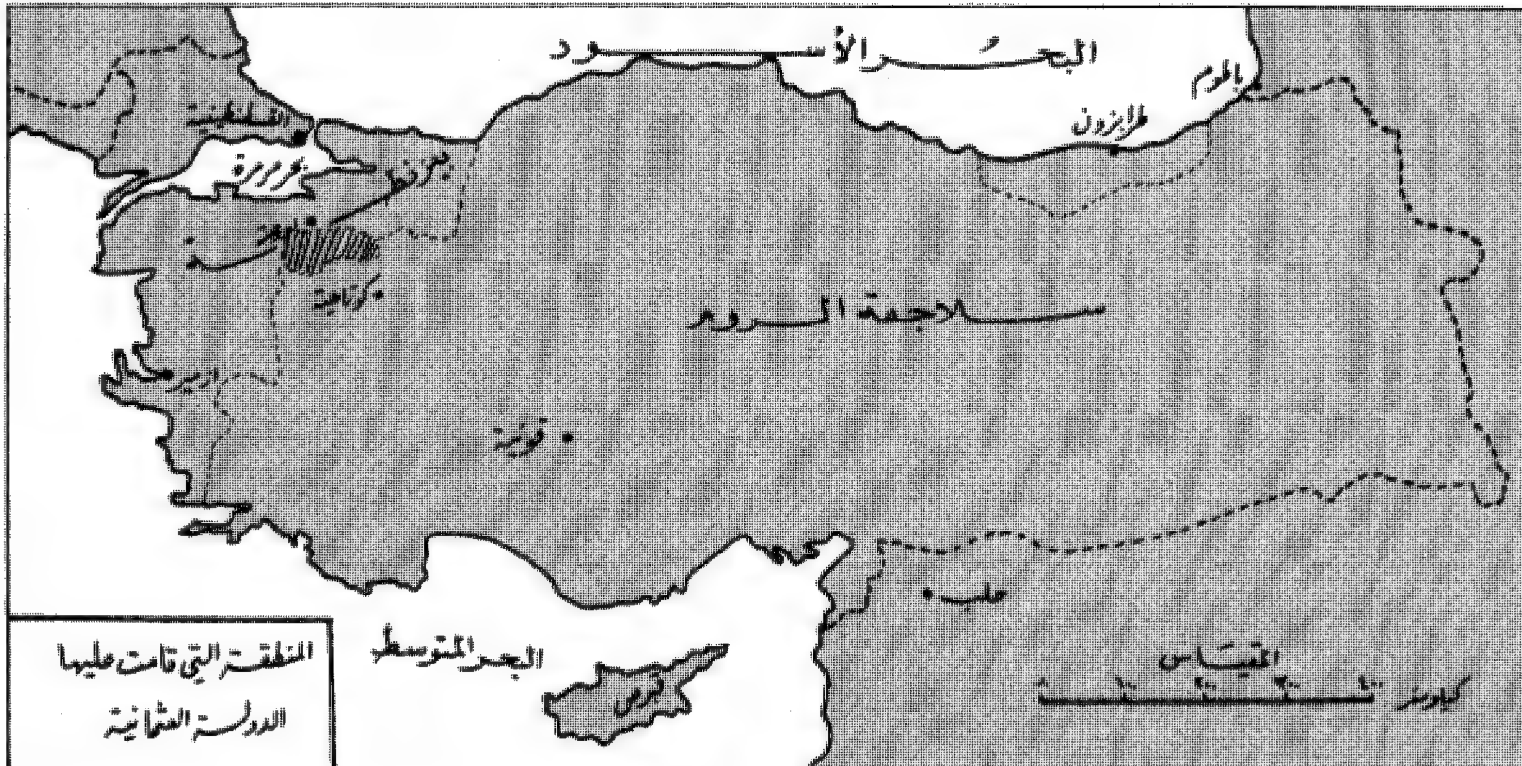
في الوقت الذي بدأ فيه الهجوم المغولي نحو الغرب قاصداً دولة خُوارزم بالدرجة الأولى عام ٦١٧ خافت القبائل من ذلك الهجوم الوحشي، والذي يقتل دون حساب، ويحرق الأخضر واليابس، لا يعرف رحمة، ولم تمرّ على مسامعه كلمة شفقة أو إنسانية كأنما قُدّت قلوب عساكره من صخر، وبدأت القبائل تهجر مواطنها، وتتجه نحو الغرب أمام ذلك الزحف الخطير، وكانت من بين هذه القبائل قبيلة قاتي التركمانية والتي يرأسها سليمان شاه بن قيا ألب، وكان موطن قبيلته بالقرب من مرو قاعدة بلاد التركمان فيمّم وجهه شطر الغرب، فمرّ على طوس، ومن شمال نيسابور فجرجان، ثم اتجه إلى شمال الري، ومرّ على قزوين فتبريز ثم وصل إلى خلاط شمال بحيرة وان، واستقر هناك، وهدأت موجة المدّ المغولي، إذ عاد المغول إلى بلادهم، فرغب في الرجوع إلى موطنه الأول، واتخذ طريقاً ثانيةً، إذ تابع إلى ديار بكر، واتجه نحو الرقة، وأراد عبور نهر الفرات فهوى فيه وغرق، عام ٦٢٨، فدفن هناك قرب قلعة جعبر، واختلف من بعده أبناؤه الأربعة في الطريق التي يجب أن يسلكوها، أما ابنه الكبير (سنقورتكن) فقد حقق رغبة أبيه، ورجع مع أخيه (كون طوغري) إلى موطنهم الأول، وكان (سنقورتكن) هو الذي تولّى إمرة القبيلة وزعامتها بعد موت أبيه. وأما أخواه الآخران، وهما (أرطغرل) و(دندان) فقد عادا أدراجهما، واتجها نحو الشمال حيث وجدا طيباً في العيش، وجودةً في المرعى، وكانت معهما أربعمائة أسرةٍ تركمانيةٍ، ومهما قيل: من هو أول

من اعتنق الإسلام في هذه القبائل؟ فإنها كانت مسلمة بالأصل قبل أن ترحل من مكانها الأول، ولا صحة في أن عثمان مؤسس الدولة هو أول من اعتنق الإسلام، إذ معروف أن هذه القبيلة تركمانية، وكلمة تركمان تُطلق على الترك الذين يعتنقون الإسلام، فالقبيلة مسلمة من بداية ظهورها، واسم زعيمها سليمان دليل على ذلك.

تولّى أرطغرل زعامة أفراد القبيلة الذين بقوا في الأناضول، وأخذ يتجوّل في تلك الربوع ولا يريد أن يصطدم مع حكام تلك الجهات فالظروف غير مواتيةٍ له ليدخل في اشتباكات لذا فقد أرسل ابنه (ساوجي) ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقي أمير إمارة قرمان التي مركزها مدينة قونية، والتي بقيت من بعد ما زالت دولة سلاجقة الروم ليطلب أرضاً تعيش فيها القبيلة كي لا تقع نزاعات، غير أن (ساوجي) لم يعد إلى أبيه إذ توفي في الطريق. وفي هذه الأثناء لاحظ أرطغرل جيشين يقتتلان، فأسرع ودعم الجيش السلجوقي بعاطفة إسلاميةٍ ضد الجيش البيزنطي، إضافةً إلى أنه يعيش في أرضه، وأرسل إليه يطلب منزلاً لمن معه، ويعرف رايته، وهتافات الجيش، ويلتقي معه بالأصل التركماني، أما أنه ساعد الجيش الذي بدت عليه علائم الهزيمة، أو الجيش الضعيف ليكون لمساعدته أثر واضح في النصر فهذا غير مقبول، إذ لا يمكنه أن يقف بجانب البيزنطيين النصارى أبداً، فهم أعداؤه ولا يمكن أن يكافئوه، ويعطوه أرضاً في بلادهم ثم يكون عدواً لهم، وإن فعلوا تقع الحرب بينه وبينهم بعد حين. وأحرز الأمير علاء الدين النصر بدعم صديقه الجديد أرطغرل فكافأه، وأقطعه أرضاً على حدود بلاد الروم ليكون درءاً له يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين، وتوفي أرطغرل عام ٦٨٧، وخلفه ابنه عثمان أكبر أولاده، وبناءً على رأي الأمير علاء الدين أيضاً. وإلى عثمان هذا تُنسب الدولة، فهو مؤسسها، وأول حكامها.

١ ـ عثمان:

بدأ يوسّع إمارته فتمكّن أن يضم إليه عام ٦٨٨ قلعة قره حصار (القلعة السوداء) أو أفيون قره حصار، فسُرّ الملك علاء الدين بهذا كثيراً،


البحر الأسود
طرابزون
القسطنطينية
بحر مرمرة
كوتاهية
سلاجقة الروم
قونية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر
المنطقة التي قامت عليها
الدولة العثمانية

مصور رقم [٤]

فمنحه لقب (بيك)، والأراضي التي يضمها إليه كافة. وسمح له بضرب العملة، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام ٦٩٩ أغارت المغول على إمارة علاء الدين ففرّ من وجههم، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة، وتوفي هناك في العام نفسه، وإن قيل: إن المغول قد تمكّنوا من قتله، وتولية ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففُسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات، فبدأ يتوسّع، وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت)، وأزنيق (نيقية) رغم محاصرتهما، واتخذ مدينة (يني شهر) أي المدينة الجديدة قاعدةً له، ولقّب نفسه باديشاه آل عثمان. واتخذ رايةً له، وهي علم تركيا اليوم ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان قد جهز جيشاً بإمرة ابنه أورخان الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيّره لقتال المغول فشتّت شملهم، ثم عاد واتجه إلى بورصة (بروسة) فاستطاع أن يدخلها عام ٧١٧ وتعدّ من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى، وأمّن أهلها، وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (أفرينوس)، فمنحه عثمان لقب بيك، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين. وتوفي عثمان عام ٧٢٦، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

٢ ـ أورخان:

ولد عام ٦٨٧ في السنة التي تولّى أبوه فيها الحكم، وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السن، لكن يبدو أنه كان أكثرهم نباهةً، وأشجعهم فنال بذلك الملك، ولم يخالفه أخوه الأكبر منه علاء الدين، ولكنه رضي بذلك فقدّره أخوه أورخان، وسلّمه الوزارة، فانصرف علاء الدين إلى الأمور الداخلية، وتوجه أورخان إلى الأعمال الخارجية.

نقل أورخان قاعدته إلى بورصة، وضرب العملة الفضية والذهبية،


البحر الأسود
طرابزون
سلاجقة الروم
أنقرة
قونية
حلب
المقياس
الدولة العثمانية
عام ـ ٧٢٦

مصور رقم [٥]

وأسس الجيش (يني تشري) أي الجيش الجديد من أبناء الأسرى، والصغار الذين يقعون في الأسر، فيُربون في ثكنات عسكرية تربيةً إسلاميةً ويُدرّبون تدريباً عسكرياً، ويتخرّجون لا يعرفون إلا القتال والحياة العسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله، ليس روابط قبلية أو عشائرية إذ لا يعرفون إلا السلطان سيداً لهم، لذا كانوا قوةً كبيرةً ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم، وامتداد الفتوحات العثمانية، وكان يمكن أن تبقى كذلك لو بقي السلاطين أقوياء لا يسمحون لهم بالتدخل في غير ما اختصوا به، ولا يسمحون للأمراء والوزراء بالاتصال بهم، وأخذ الدعم منهم، ولا أن يعطوهم أكثر من قدرهم فتتغيّر طباعهم، فما تدخّل العسكريون في شؤون الحكم إلا أفسدوه، ولا تصرّفوا في أمور البلاد إلا أضاعوها إلا من عصم ربك، وهكذا كان شأنهم في النهاية إذ غدوا طريق الهزيمة وسبب المفاسد حتى قضي عليهم عام ١٢٤٢ في أيام السلطان محمود الثاني:

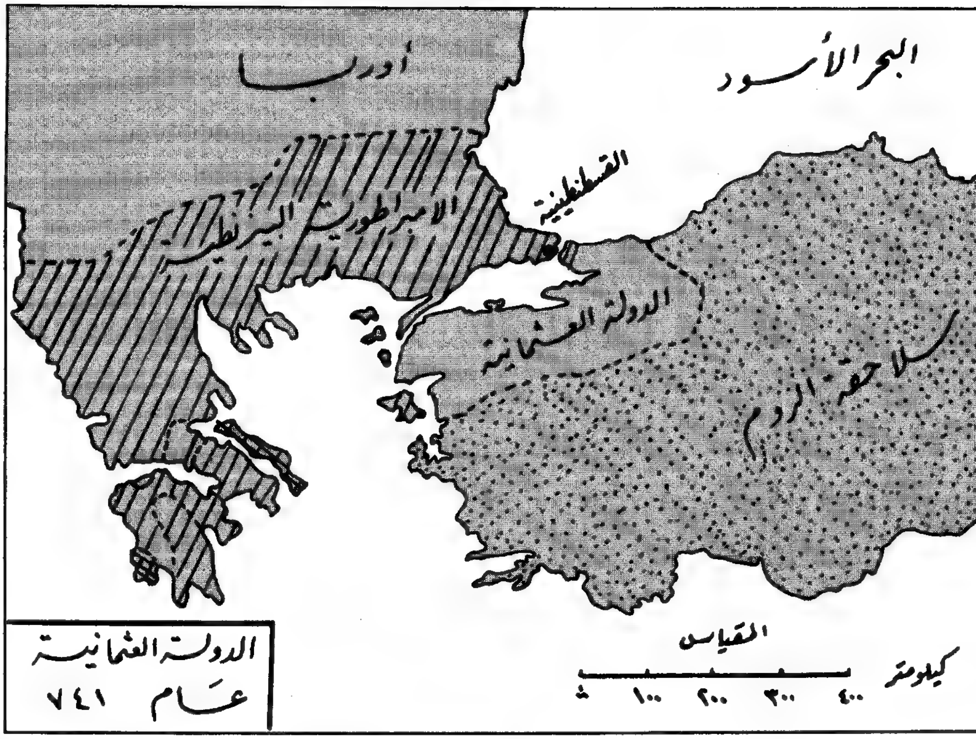
فتح أزميت، ثم حاصر أزنيق وفتحها، وعيّن ابنه الكبير سليمان حاكماً عليها، وأحسن إلى أهلها، فسمح بالهجرة إلى من يريدها، وسمح لمن بقي بإقامة شعائر دينه. وبعد مدة توفي أخوه علاء الدين فعيّن مكانه سليمان بن أورخان.

وفي عام ٧٣٦ توفي حاكم إمارة (قره سي) الواقعة جنوب بحر مرمرة وإلى الشرق من بحر إيجه، واختلف ولداه فيما بينهما على السلطة، فأسرع أورخان وضمها إلى إمارته كي لا تقع فريسةً بيد الروم.

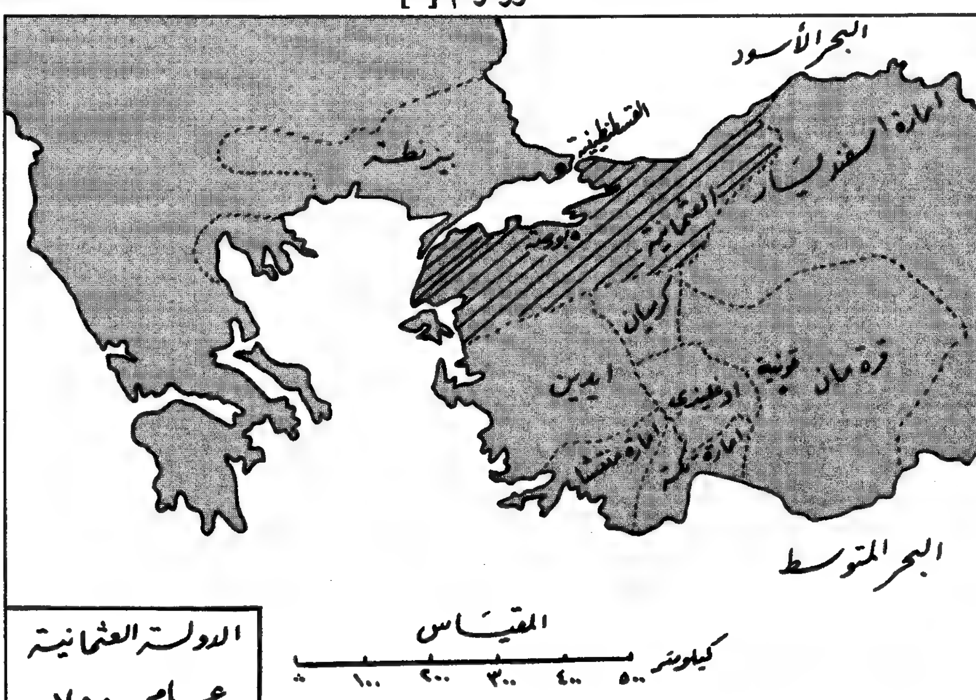
وفي عام ٧٥٦ طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج)[١] من أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب أصطفان دوشان الملقب بالقوي الذي تحالف مع البندقية، والإمارات الصربية للهجوم على القسطنطينية.

---

(١) يوحنا الخامس، توفي والده الإمبراطور أندريونيكوس الثالث عام ٧٤٢، وكان يوحنا صغيراً ابن تسع سنوات، فتسلّم رئيس الوزراء يوحنا كانتاكوزين الوصاية، وكان يحاول أن يزيح الإمبراطور عن العرش، ويتسلم مكانه بحجة صغره، ورغم أنه زوج ابنته. واستمر يوحنا الخامس إمبراطوراً على القسطنطينية حتى عام ٧٩٣ أي حكم إحدى وخمسين عاماً.



مصور رقم [٦]



مصور رقم [٧]

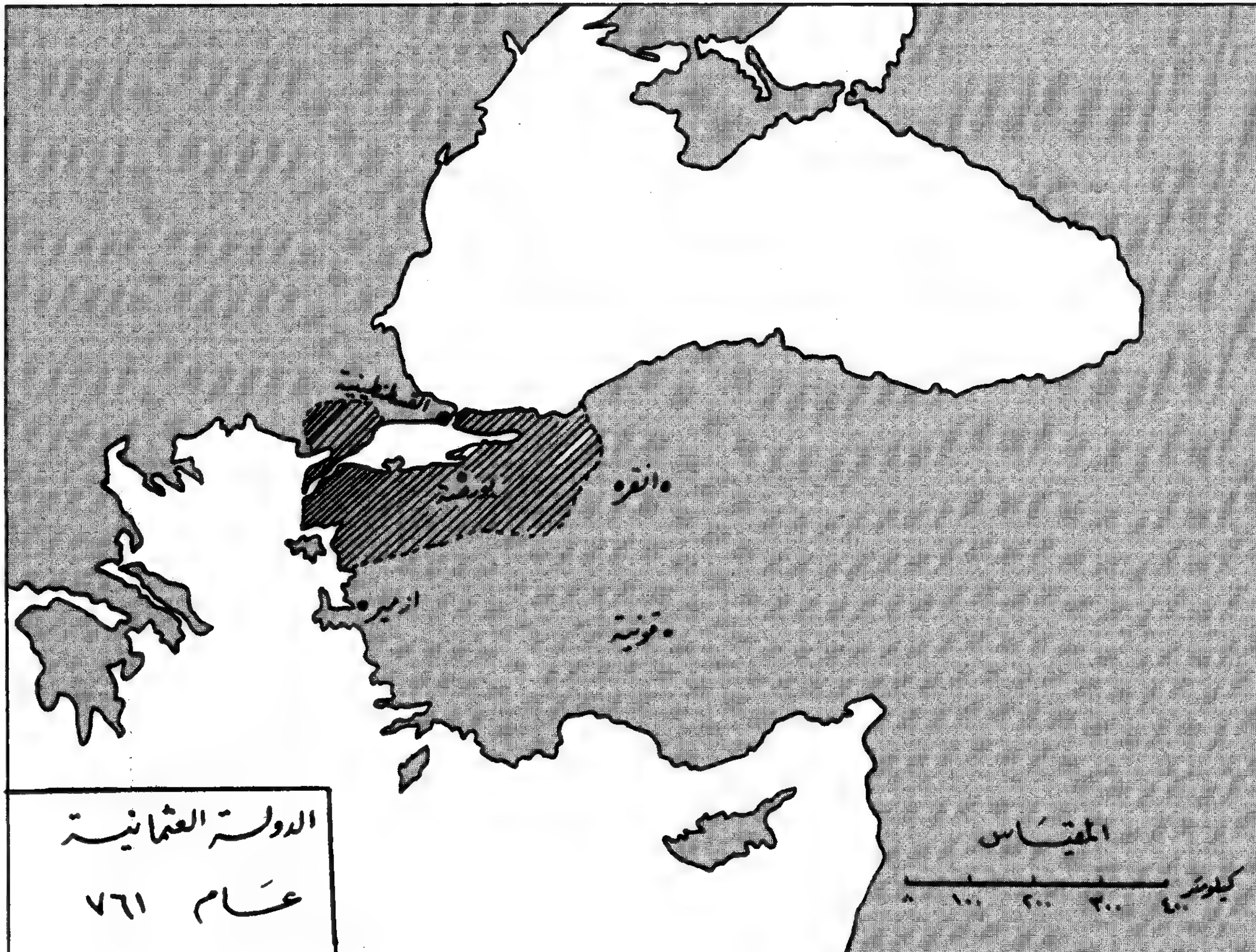
ووعد بأن يزوّجه ابنة الوصي على العرش يوحنا كانتاكوزين التي تزوّج هو أختها الأخرى، أي يصبح عديلاً له، وأرسل له أورخان الجند، غير أن أصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتال، وتزوّج أورخان ابنة الوصي.

وشعر أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب الامبراطور منه المساعدة للوقوف في وجه الصرب، ورأى أن ينتقل إلى الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليتقدّم بعدها في أوربا، ويتمكّن من الإحاطة بالقسطنطينية، والهجوم عليها من الغرب فقد عجز المسلمون من قبل عن فتحها بالهجوم عليها من الشرق، وإن لم يكن هو فمن يأتي بعده، فقرر الجهاد، وأرسل ابنه الكبير سليمان، وولي العهد، ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له، وفي عام ٧٥٨ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من أبطاله، ولما وصلوا إلى الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي، حيث احتلوا قلعة (تزنب)، وغاليبولي التي فيها قلعة (جنا قلعة) المشهورة، وابسالا، ورودستو، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال حتى تصبح ردوستو على بحر مرمرة.

وفي عام ٧٦٠ توفي ولي العهد سليمان، أو هذا القائد الفذّ، نتيجة سقوطه عن جواده وأصبح ولي العهد مراد، وفي العام التالي توفي السلطان أورخان فخلفه ابنه مراد.

٣ ـ مراد الأول:

ولد مراد في عام ٧٢٦، وهو العام الذي تولّى فيه والده الحكم، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً ستاً وثلاثين سنةً. وفي هذه الأثناء أثناء انتقال الحكم من سلطان إلى آخر أخذت الحماسة أمير دولة القرمان في أنقرة فاستنهض همم الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين، وعمل


الدولة العثمانية
عام ٧٦١
القسطنطينية
انقرة
ازمير
قونية
المقياس
كيلومتر
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠

مصور رقم [٨]

على تجميعهم، غير أن هذا الأمير وهو علاء الدين لم ير إلا وجيش مراد الأول يحيط بمدينته أنقرة، ويدخلها فاتحاً، فاضطر إلى عقد الصلح معه الذي يتنازل فيه عن أنقرة، ويعترف السلطان مراد بالأمير علاء الدين أميراً على بقية أملاك دولة القرمان، وتزوّج مراد الأول ابنة علاء الدين.

وفي عام ٧٦٢ فتح العثمانيون مدينة أدرنة، وقد سلّمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل مراد الأول عاصمته إليها ليكون على مقربة من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوة، وبقيت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧. كما فُتحت مدينة (فيلبه) قاعدة الرومللي الشرقي (جنوب بلغاريا اليوم)، وأصبحت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين، وتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعية، وقلبه مليء بالأحقاد.

وخاف الأمراء الأوربيون الذين أصبح العثمانيون على حدودهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين، حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا وركع أمامه وقبل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبى البابا النداء وكتب إلى ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدة حفاظاً على النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد، غير أن ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف أصطفان دوشان لم يتوقع هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا، لذا فقد استنهض همة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربة من الخطر على حد زعمهم، فلبى دعوته أمراء البوسنة (غربي يوغوسلافيا) والأفلاق (جنوب رومانيا)، وأعداد من فرسان المجر المرتزقة، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين، مستغلّين انشغال مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم على نهر مارتيزا[1] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا

---

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا، ويمر من أدرنة، ثم يصب في بحر إيجه.

الأدبار. واضطرت بعد ذلك إمارة نصرانية صغيرة على بحر الأدرياتيك على ساحل يوغوسلافيا اليوم، وهي إمارة (راجوزه) أن ترسل وفداً إلى السلطان، وتعقد معه صلحاً تدفع الإمارة بموجبه للدولة العثمانية ٥٠٠ دوكاً ذهباً كجزية سنوية.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمير البلغار سيسمان الاتفاق على قتال العثمانيين، وقد وجدا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى بعض المعارك الجانبية، فاضطرا إلى دفع جزيةٍ سنوية، وتزوج السلطان ابنة أمير البلغار عام ٧٨٠.

ونُظِّمت فرق الخيالة في عهد السلطان مراد الأول، وهي التي عُرفت بـ(سيباه) أو السباهية ويقصد بها الفرسان، وأصبح لها نظام خاص بحيث يُعطى كل فارسٍ جزءاً من الأرض إقطاعاً له، ويبقى بيد أصحابه سواء أكانوا من المسلمين أم من النصارى يعملون به، ويدفعون خراجاً معيناً لصاحب الإقطاع الذي يسكن وقت السلم في إقطاعه، ويعدون وقت الحرب نفقته، ويجهّز معه جندياً آخر، وهذا النظام وإن قدّم خدمات في بداية الأمر إلا أن هؤلاء السباهية قد أصبحوا في النهاية أصحاب نفوذ يصعب السيطرة عليهم، ويختلفون مع أصحاب الأرض الأصليين وبيدهم القوة فيُنفّذون ما يريدون، ويتضايق أصحاب الأرض فينقمون على السباهية وبالتالي على الحكم، وتكون الفوضى والفجوة بين الحكم والرعية.

ولم ينس السلطان مراد الأول آسيا الصغرى بل بقي دائب التفكير فيها وفي التخلّص من تلك الإمارات الصغيرة التي تشكل رقعاً محدودة المساحة، فهو لا يريد أن يأخذها بالقوة ويُشكّل نقمةً عليه، ولا يريد أن يتركها تتصارع فيما بينها، وتجعل مجالاً للتدخل في شؤونها من قبل الغرباء، وفي الوقت نفسه لا تتفق وتتوحّد لتقوم بغزو القسطنطينية يداً واحدة، وتُجاهد كقوةٍ واحدة، ورأى أن يحلّ مشكلاتها تدريجياً مع الزمن. وقد بدأ بإمارة كرميان أقرب الإمارات إلى أملاكه، فزوّج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان فقدّم الأب لابنته مدينة كوتاهية فضُمّت إلى الدولة العثمانية،

وفي عام ٧٨٢ ألزم أمير دويلة الحميد الواقعة بين إمارات قرمان، وتكه، ومنتشا بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

وتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية ويبدو أنه على اتفاقٍ بينهما في هذا التأخير، فتوجهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم ففتحت بعض الأراضي الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافيا، كما حاصرت عاصمة البلغار صوفيا وفتحتها عام ٧٨٤ بعد حصار استمر ثلاث سنوات. كما فُتحت مدينة سلانيك، المدينة اليونانية المشهورة والواقعة على بحر إيجه.

تمرّد ساوجي بن السلطان على أبيه بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية (اندرونيكوس بن يوحنا باليوج)، وكان يوحنا قد حرم ابنه هذا من ولاية العهد وأعطاها لابنه الآخر (عمانويل)، فأرسل السلطان لابنه جيشاً انتصر عليه وقتله، كما أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي فقتل ابنه أيضاً.

وقام أمير دويلة القرمان علاء الدين، وبعض الأمراء المستقلين بحرب الدولة العثمانية فأرسل السلطان لهم جيشاً انتصر عليهم في سهل قونية، وأخذ الأمير علاء الدين أسيراً غير أن ابنته زوجة السلطان قد توسطت له فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته، ولكنه فرض عليه دفع مبلغ من المال سنوياً وذلك عام ٧٨٧.

واستغل الصرب انشغال الجيوش العثمانية في الأناضول لقتال علاء الدين أمير القرمان ومن معه فهاجموا القوات العثمانية في جنوب الصرب وحصلوا على بعض النجاح عام ٧٨٨، وتأهب أمير البلغار سيسمان للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته، واحتلت بعض أجزاء من بلاده ففر إلى الشمال، واعتصم في مدينة نيكوبلي القريبة من الحدود الرومانية، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسيراً، لكن السلطان أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده، وضم الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا يعاود الهجوم. ولما علم ملك الصرب لازار ما تمّ بأمير البلغار انسحب بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحاربة العثمانيين معهم، غير أن الجيوش العثمانية أدركته قبل وصوله إلى مبتغاه، والتقت معه عام ٧٩١ في معركة وسط سهل (قوص

أوه) أي (إقليم كوسوفو) جنوبي يوغوسلافيا، وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر لازار قد انحاز إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، فانهزم الصربيون، ووقع ملكهم لازار أسيراً بأيدي العثمانيين، وهو جريح فقتلوه لما فعل من أفاعيل خسيسة بأسراه من المسلمين، وإذا كانت الصرب قد فقدت استقلالها غير أن السلطان مراد الأول ذهب في المعركة أيضاً وبينما كان يتفقد نتائج المعركة ويتفحّص الجثث إذ قام إليه جندي صربي من بين الجثث وطعنه بخنجر فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرةً.

٤ ـ بايزيد:

ولد بايزيد عام ٧٦١ أي في العام الذي تولّى فيه أبوه السلطنة، فكان عمره ثلاثين عاماً عندما تسلّم الحكم، وكان دائم الجهاد ينتقل من أوربا إلى الأناضول ثم يعود مسرعاً إلى أوربا يحقق فيها نصراً جديداً أو تنظيماً حديثاً حتى لُقّب باسم (يلدرم) أي الصاعقة نظراً لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ.

عيّن اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب في عام ٧٩٢، وسمح له بالحكم على مقتضى نظمهم وشرائعهم مقابل دفع جزيةٍ سنويةٍ، وتقديم عددٍ من المقاتلين ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب وحينما يطلب السلطان ذلك. كما تزوّج السلطان أخت اصطفان وهي «أوليفير»، وربما فعل ذلك كي لا يبقى مشغولاً في موضوع الصرب وغاراتهم وحركاتهم.

انتقل السلطان بايزيد إلى الأناضول فضمّ عام ٧٩٣ إمارة منتشا، وإمارة (آيدين)، وإمارة (صاروخان) إلى العثمانيين دون قتال، ولكن فرّ أبناء حكامها إلى قسطموني مركز ولاية (أسفنديار)، كما تنازل أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه إلى السلطان كي يبقي له الجزء الباقي، كما فتح مدينة الأشهر بقرب أزمير، وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم في غرب بلاد الأناضول وبذا يكون قد أمّن خلفه، إذ كان حكام هذه الإمارات يمكن أن يتعاونوا مع أية قوةٍ في سبيل المحافظة على إماراتهم.

اتجه إلى الغرب وحاصر القسطنطينية عام ٧٩٤، وضيّق الحصار، ثم تركها محاصرةً وسارَ بجيشٍ إلى الأفلاق[1]، وأجبر حاكمها على توقيع معاهدةٍ يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده، ويدفع جزيةً سنوياً، ثم أبقاه حاكماً على بلاده، يحكم فيها بقوانينهم الخاصة ونظمهم.

اضطر السلطان بايزيد إلى العودة إلى الأناضول مسرعاً، لأن أمير دولة القرمان علاء الدين قد ندم على تنازله عن جزء من أملاكه للعثمانيين، ووجد السلطان مشغولاً بأوربا وحربه لحاكم الأفلاق، فاستغل هذا الظرف، وعبّأ جنده، وأثار خصوم السلطان من بعض الأمراء، وهاجم العثمانيين، وقد تمكّن من إحراز بعض النصر، وأسر أكبر القادة العثمانيين في الأناضول، فأسرع السلطان، وهزمه، ولاحقه حتى أخذه وولديه أسرى، وأنهى دولة القرمان، كما أنهى إمارة سيواس، وتوقات، ثم التفت إلى أسفنديار التي كانت ملجأ لأبناء الأمراء الفارين من وجه العثمانيين فطالب السلطان أمير هذه الدولة بتسليمه أبناء الأمراء الذين يحتمون عنده فلما أبى هاجمه وضمّ بلاده إليه، أما الأمير فقد فرّ والتجأ إلى تيمورلنك.

استمر حصار القسطنطينية، وسار السلطان إلى بلاد البلغار، وقد قُتل أميرها سيسمان، فجعل تلك البلاد ولايةً عثمانيةً، وأسلم ابن الأمير مقتول، فأخذه السلطان وجعل والياً على صامسون.

ولما وصلت أخبار الانتصارات العثمانية هذه إلى ملك المجر استغاث بالبابا وملوك أوربا، وأعلنها البابا حرباً صليبية ودعا إليها الملوك، والأمراء فاستجاب دوق بورغونيا لذلك وإن كانت إمارته صغيرة نسبياً، وتقع في شرقي فرنسا، وليس لأحد سلطان عليها، وأمراء النمسا، وبافاريا التي تقع في جنوبي ألمانيا، ورؤساء فرسان القديس يوحنا الذين خرجوا من عكا في الحروب الصليبية بعد أن أجبروا على ذلك فرحلوا إلى قبرص، ثم إلى رودوس، ثم إلى مالطة، وسار الجميع فاجتازوا نهر الدانوب، وحاصروا مدينة نيكوبلي الواقعة في شمالي بلغاريا ووصل جيش السلطان بايزيد،

---

(١) الأفلاق: الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم.

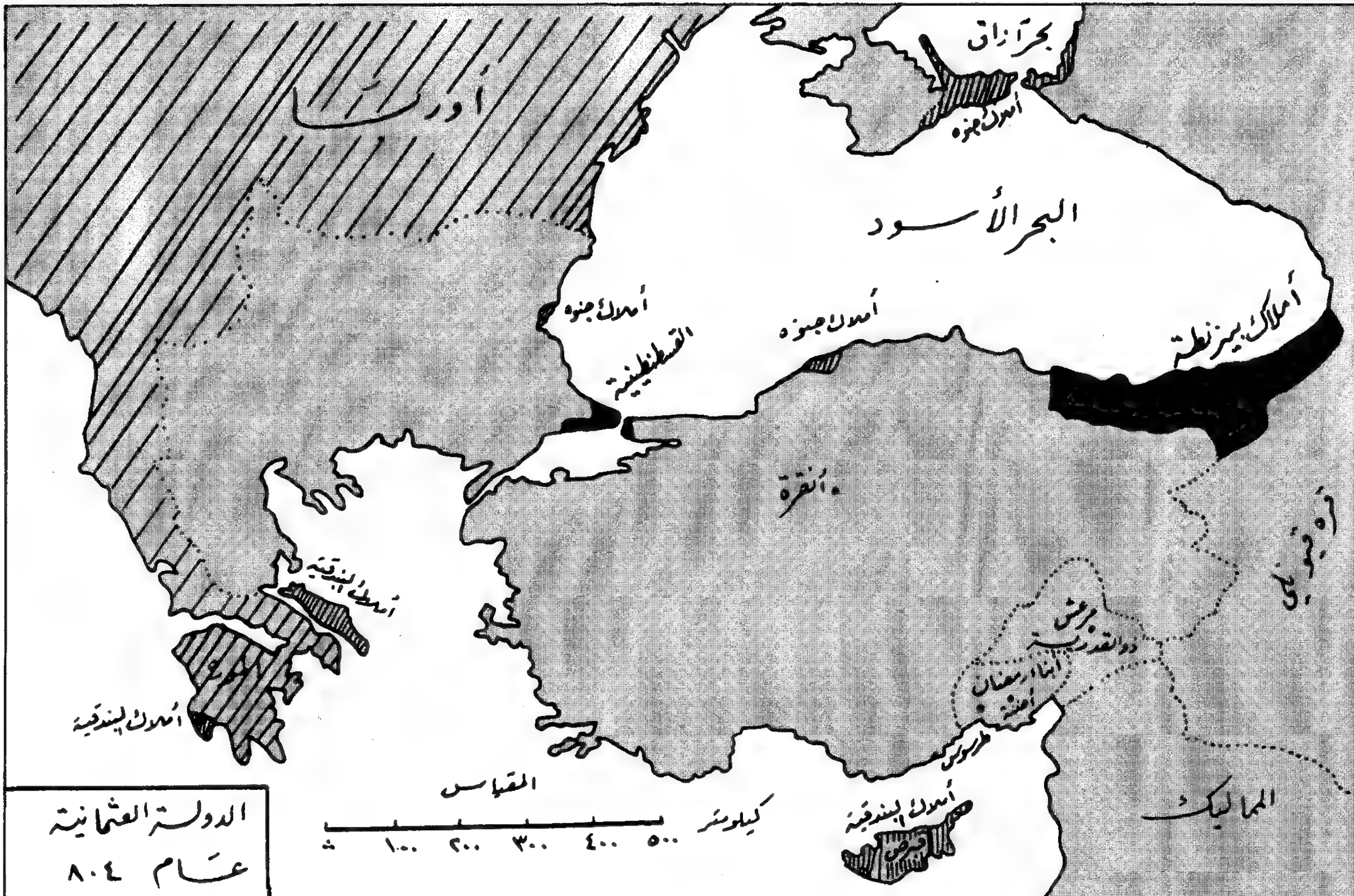
وكان بقيادة أمير الصرب اصطفان بن لازار ومعه كثير من الشعوب النصرانية الخاضعة للحماية العثمانية، إضافة إلى الجند العثمانيين، وكان عدد ذلك الجيش حوالي مائتي ألف مقاتل، وكان اللقاء في يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨ فانتصر العثمانيون، وأسروا دوق بورغونيا وعدداً من الأمراء، وفدى الدوق نفسه بمبلغٍ ضخمٍ من المال.

وبعدَ هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة فك بموجبه الحصار عن القسطنطينية مقابل دفع ما يعادل عشرة آلاف دينار ذهبي، والسماح للمسلمين ببناء مسجد لهم في القسطنطينية.

وقعة تيمورلنك وضعف السلطنة:

وصل تيمورلنك في انسياحه الوحشي نحو الغرب إلى بغداد ففرّ من وجهه أحمد بن أويس الجلائري الذي التجأ إلى السلطان بايزيد، فأرسل تيمورلنك إلى السلطان يطلب منه أن يسلمه أحمد بن أويس فرفض ذلك، فاتجه تيمورلنك إلى آسيا الصغرى، ودخل مدينة سيواس، وقبض على الأمير أرطغرل ابن السلطان بايزيد وقتله، وتابع سيره نحو الغرب، فأسرع السلطان بايزيد إليه وقد حشد له ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل، على حين ضمّ جيش تيمورلنك ما يربو على ثمانمائة ألف مقاتل، ومعه أمير قسطموني وعدد من أبناء أمراء الدويلات التي ضمّها العثمانيون إليهم، وكانت مستقلةً قامت على أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول، والتقى الجيشان في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤، واستمرت المعركة طيلة ذلك اليوم من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، ورغم ما أبداه السلطان من شجاعة إلا أنه هُزم بعد أن فرّت فرق آيدين، ومنتشا، وكرميان، وصاروخان، وانضمت إلى جيش تيمورلنك حيث أبناء أمرائها فيه، وكانت النتيجة أن وقع السلطان بايزيد نفسه وابنه موسى في الأسر، حيث وقفا في وجه الخصم، وصمدا في وسط ميدان المعركة، واختفى ابنه الآخر مصطفى، وفرّ من المعركة أبناؤه سليمان، وعيسى، ومحمد.

ورغم أن تيمورلنك لم يُسيء إلى السلطان إلا أنه شدّد عليه المراقبة


الدولة العثمانية
عام ٨٠٤
البحر الأسود
بحر آزاق
أملاك جنوه
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
أملاك بيزنطة
أنقرة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
طرسوس
أضنة
أبناء رمضان
مرعش
المماليك
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [٩]

حيث حاول الفرار من الأسر ثلاث مرات، وفشل فيها كلها، والإهانة النفسية تعدّ عظيمة إذ كلّف بحراسة موسى بن بايزيد أمير كرميان أي عدوّه، وقد أصاب السلطان ضيق شديد فتوفي في ١٥ شعبان عام ٨٠٤، وعمره لا يزيد على أربعة وأربعين عاماً، وسمح تيمورلنك بنقل جثة السلطان لتُدفن في بورصة.

تابع تيمورلنك نحو الغرب بعد معركة أنقرة فاستولى على أزنيق، وبورصة، ودكّ حصون أزمير، ولما وصل إلى أقصى الغرب في الأناضول وأراد الرجوع أعاد الإمارات التي كانت قائمةً قبل أن يضمّها العثمانيون إليهم وهي: قسطموني، وصاروخان، ومنتشا، وآيدين، وكرميان، وقرمان فعادت التجزئة إلى الأناضول كما كانت من قبل.

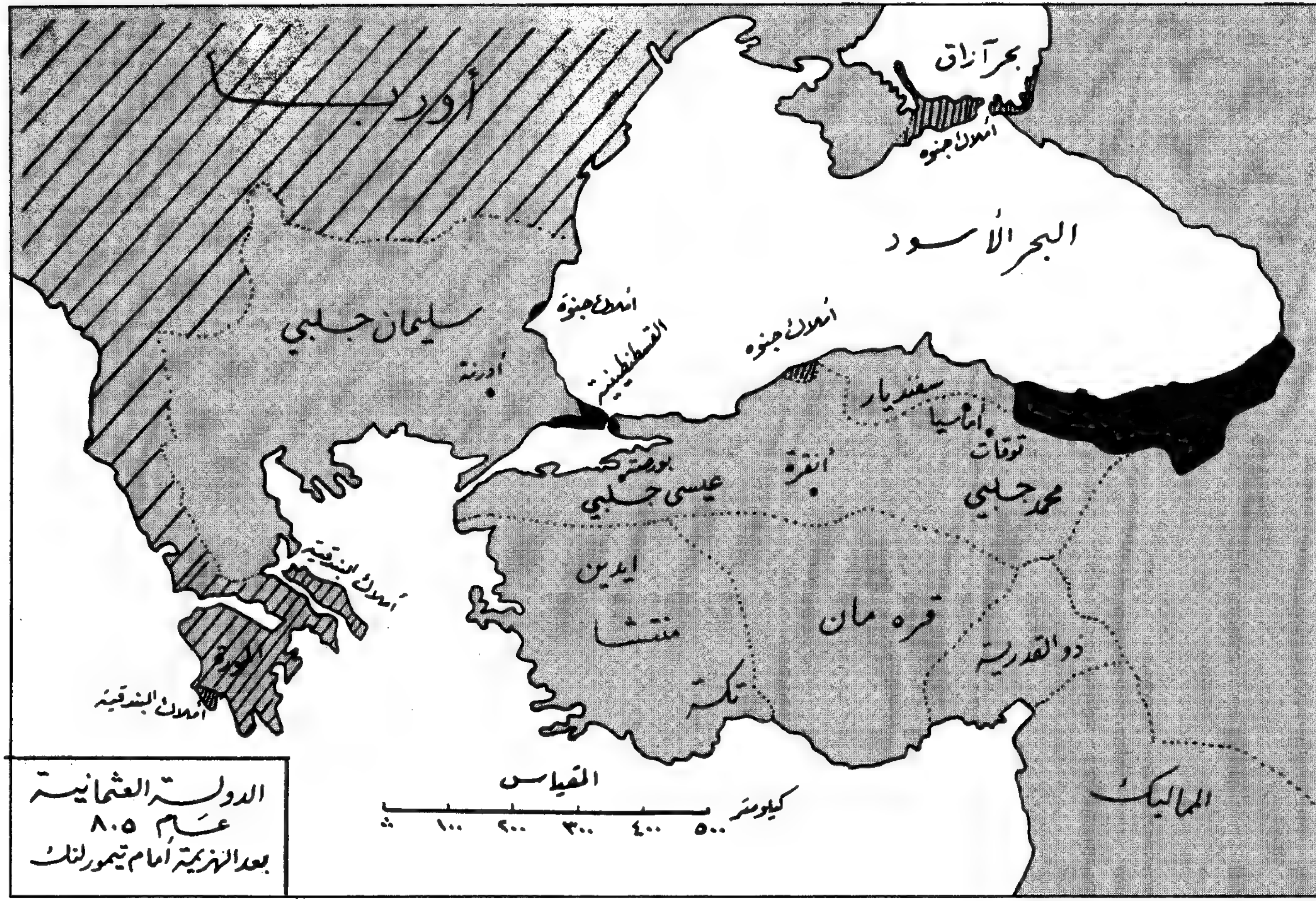
ورأت الإمارات الأوربية التي كانت خاضعةً للعثمانيين ما حلّ بالدولة وسلطانها، فأعلنت استقلالها وهي: البلغار، والصرب، والأفلاق فصغرت رقعة الدولة من جديد.

واختلف أبناء السلطان بايزيد على السلطة بعد عودة تيمورلنك عن الأناضول فزاد الأمر ضعفاً، والدولة تمزّقاً، وشجّعهم تيمورلنك أيضاً على هذا الاختلاف ليبقوا في ضعف، وتبقى له الهيمنة، واستعان بعضهم به ضد بعض، كما طلب بعضهم دعم إمبراطور القسطنطينية ضد بعض، وهذا شأن الدول عندما تكون ضعيفةً والحكام عندما يكونون عجزةً.

استقل سليمان بن بايزيد في أدرنة وجعله جنده سلطاناً عليهم، وعلى المناطق العثمانية في أوربا، وعقد حلفاً مع إمبراطور بيزنطة عمانويل الثاني، وتنازل له عن مدينة (سلانيك)، وعن سواحل البحر الأسود ليساعده على إخوته، وتزوّج من إحدى قريباته.

وأما عيسى فقد كان مختبئاً بجهات بورصة فلما علم بوفاة والده أعلن نفسه سلطاناً، وساعده كبير قادة بني عثمان (ديمور طاش).

وأما محمد فقد كان مخبؤه في أواسط الأناضول فلما وجد الفرصة مناسبةً له، وخفّ ضغط التتار خرج وجمع حوله الجند، وانطلق يقاتل التتار، وتمكّن من أخذ مدينة (توقات) ومدينة (أماسيا) منهم، وقوي أمره، واستطاع أن يخلص أخاه موسى من يد أمير كرميان المكلّف بحراسته من قبل تيمورلنك، وسار لمحاربة إخوته.



الدولة العثمانية
عام ٨٠٥
بعد الهزيمة أمام تيمورلنك
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
سليمان جلبي
أدرنة
سفنديار
أماسيا
توقات
أنقرة
بورصة
عيسى جلبي
محمد جلبي
ايدين
أملاك البندقية
منتشا
قره مان
ذو القدرية
تكة
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
المماليك

مصور رقم [١٠]

الفصل الثالث

عَودَةُ القوّة إلى السَلطنة العُثمانيَّة

اتجه محمد بن بايزيد لقتال أخيه عيسى، وجرت بينهما عدة معارك خرج محمد إثرها منتصراً، وقُتل عيسى، ورجعت الأناضول تحت إمرته. وأرسل بعدها أخاه موسى على رأس جيش لقتال أخيهما سليمان غير أن موسى قد هُزم، وعاد خائباً من أوربا، فأعاد الكرة بعد أن قاد جيشاً آخر للغرض نفسه، وقد تمكن من قتل سليمان على أبواب أدرنة عام ٨١٣. ثم اتجه لمعاقبة الصرب الذين أعلنوا انفصالهم عن الدولة العثمانية في أثناء الأزمة التي وقعت فيها، فأسرع ملك المجر لقتاله دفاعاً عن الصرب فحاربه وانتصر على الصرب.

عاد الخلاف بين الأخوين الباقيين من أبناء السلطان بايزيد، وهما: محمد وموسى إذ اغترّ موسى بقوته وانتصاراته في أوربا، وأراد الانفصال عن أخيه، وتأسيس دولة له في أوربا، وسار لفتح القسطنطينية، وألقى عليها الحصار فاستنجد امبراطورها بالأمير محمد، فأسرع لنجدته، ووقع القتال بين الأخوين، واضطر موسى لرفع الحصار عن المدينة، وتشكل حلف من الأمير محمد، وإمبراطور القسطنطينية، وملك الصرب ضد الأمير موسى، وبدأ الاتصال سرّاً بقادته حتى تركوه، ووقع بين يدي أخيه فأمر بقتله عام ٨١٦، وبقي الأمير محمد وحده من أبناء السلطان بايزيد بعد أن قتل إخوته الثلاثة عيسى، وسليمان، وموسى، وتفرّد بالأمر من أجل الملك، والملك عقيم. وبتفرّد الأمير محمد بدأت السلطة العثمانية تقوى من جديد، وتتابع خمسة سلاطين في الحكم، وهم:

١ ـ محمد چلبي:

ولد السلطان محمد عام ٧٨١، وانفرد بالسلطة عام ٨١٦ إلا أن الفتن الداخلية قد تتابعت رغم الخوف من السلطان بسبب قتله إخوته، فإذا فعل هذا بإخوته فكيف يكون مع الآخرين؟ ويبدو أنه كان مع الآخرين أرحم بكثير مما كان مع إخوته، لأن الملك عقيم، فقد انتصر على أمير القرمان، وأخذه أسيراً، وعفا عنه، وأقسم له بالطاعة، غير أن الأمير قد حنث بيمينه، وعاد إلى قتال السلطان فانتصر السلطان عليه، وأخذه أسيراً مرّةً أخرى، وعفا عنه أيضاً. وانتصر على أمير أزمير (قره جنيد)، وعفا عنه، وعيَّنه حاكماً على مدينة (نيكوبولي)، وقام بالدعوة إلى الاشتراكية بدر الدين الذي كان قاضي الجيش عند الأمير موسى، وكثر أتباعه فقاتله، وانتصر عليه، وقتله.

وظهر الأمير مصطفى بن بايزيد وأخو السلطان محمد، وهو الذي كان قد اختفى بعد معركة أنقرة، وطالب أخاه بالحكم، وانضم إليه (قره جنيد)، ودخل إلى بلاد اليونان، ولكنه هُزم أمام جند أخيه، ففرّ إلى مدينة (سلانيك)، وكانت تتبع الدولة البيزنطية منذ هزيمة العثمانيين في أنقرة، فطلب السلطان تسليمه، فأبى الإمبراطور ولكن وعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية، ما دام السلطان على قيد الحياة، فوافق السلطان على ذلك وخصَّص لأخيه راتباً شهرياً. ويبدو أن السلطان بعد أن قتل إخوته السابقين قد خفَّف من شدة وطأته وقسوته على أقربائه وعلى الآخرين، أو أحسّ بجريمة القتل، وقدوم الموت بعد أن سبقه إخوته إليه على يديه. وكذلك عفا عن (قره جنيد) عام ٨٢٢.

ومات السلطان عام ٨٢٤ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده، وقد كان يوم وفاة أبيه في أماسيا، وكتم وفاة السلطان حتى وصل مراد إلى أدرنة بعد واحد وأربعين يوماً، ودفن محمد چلبي في بورصة.

٢ ـ مراد الثاني:

ولد عام ٨٠٦، وتولّى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤، فكان

عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، رأى أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن أعادها دويلات تيمورلنك عند سيطرته على المنطقة، ولهذه الغاية فقد عقد هدنةً مع ملك المجر لمدة خمس سنوات، كما صالح أمير القرمان، وأما إمبراطور القسطنطينية فقد طلب من السلطان أن يتعهد له بعدم قتاله، وكي يكون هذا العهد مضموناً فيجب على السلطان أن يسلمه اثنين من إخوته رهينةً، وإذا ما فكر السلطان بالحرب فإن الإمبراطور على استعداد لأن يُطلق سراح عم السلطان وهو مصطفى بن بايزيد المحجوز في سلانيك. رفض السلطان هذا التعهد فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى ودعمه بعشرة مراكب كمساعدة له على حصار مدينة غاليبولي على شاطئ مضيق الدردنيل، ولم يتمكن مصطفى من دخول قلعتها رغم دخوله المدينة فترك في المدينة حاميةً لحصار القلعة كي لا يصل إليها المدد، وسار نحو أدرنة، فالتقى بالقائد العثماني بايزيد باشا فانتصر عليه وقتله، وتابع سيره نحو ابن أخيه مراد، غير أن قواد مصطفى لم يطيعوه وتخلّوا عنه مع جنودهم وقت الشدة ففرّ، وسار نحو مدينة (غاليبولي)، فقبض عليه وأعدم. وسار السلطان مراد نحو القسطنطينية انتقاماً من إمبراطورها وألقى عليه الحصار، وهاجمها في مطلع رمضان من عام ٨٢٥ كي تكون الروح المعنوية أقوى، غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلى رفع الحصار عنها لأن أخاه مصطفى قد شقّ عصا الطاعة عليه وساعده أمراء الدويلات في الأناضول، وقد تمكن من هزيمة أخيه مصطفى وقتله. ووجد أن هدفه الأول وهو إعادة الإمارات إلى الدولة يجب أن يعود إليه، وأن يقدمه على غيره، وإن قتال هذه الإمارات فيه كلام لأن كلا الطرفين مسلم، وتركها لا يمكنه معها الجهاد فهي مطمع للأعداء أولاً، ودخول إلى معركة من غير قوة.

وخاف أمير قسطموني على نفسه إذ كان يدعم الأمير مصطفى وقد انتهى أمره، لذا فقد أسرع وتنازل عن نصف إمارته، وزوّجه ابنته عام ٨٢٦.

وقام (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين، وأعلن انفصاله عن الدولة، غير أنه هُزم وقُتل. ثم دخل السلطان إمارات آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقتل أمير القرامان محمد، وعيّن مكانه ابنه إبراهيم الذي تنازل للعثمانيين عن إقليم الحميد. وتوفي عام ٨٣١ أمير دويلة الكرميان ولم يكن له عقب فأوصى أن تلتحق الإمارة بالدولة العثمانية. وانتهى بذلك من كل مشكلة في الأناضول، وأصبح بإمكانه التوجه إلى أوربا لتصفية حسابه مع الحكام الذين أساؤوا للعثمانيين في أثناء المحنة التي حلّت بهم أيام السلطان بايزيد، وبعدها يصفو له الجو لفتح القسطنطينية ومعاقبة إمبراطورها الذي حرّض عليه. وكان السلطان مراد الثاني يرى أن القتال في أوربا أسهل فهو جهاد والروح المعنوية لدى المسلمين تكون عالية ما داموا يقاتلون ضد النصارى، ويعملون مجاهدين لنشر دينهم على حين كانوا يُساقون لقتال أمراء الدويلات في الأناضول دفعاً.

بدأ بقتال ملك المجر وعقد معه معاهدة تنازل فيها للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب الذي سيكون حدّاً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) عجزه فعقد معاهدة مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ قدرها خمسين ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل عن بعض المواقع للعثمانيين، كما تزوج السلطان ابنة (جورج برنكوفتش) مارا.

واستعاد مدينة سلانيك عام ٨٣٣ من البندقية، وكان إمبراطور القسطنطينية قد تنازل عنها لهم، وقد حاصرها السلطان خمسة عشر يوماً.

واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦.

وخضعت له ألبانيا بعد حروب بسيطة، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلم أولاده الأربعة رهينة للسلطان، وعندما توفي هذا الأمير عام ٨٣٤ ضمّ السلطان أملاكه إليه.

ظنّ السلطان أن وضعه في أوربا قد استقر، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول، ولا في أوربا وبإمكانه الآن التوجه إليه وإلزامه على الاستسلام، ودخول القسطنطينية عسى أن يكون مغفوراً له، كما بشّر بذلك رسول الله، ﷺ، وما أن بدأ يستعد لمهمّته حتى عاد حكام أوربا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان.

لقد حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا فأدبهما السلطان، ثم سار إلى ملك المجر فخرّب عدداً من المدن، وعاد بعدد عظيم من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فثار، فهاجمه السلطان، وفتح جزءاً من بلاد الصرب، وحاصر العاصمة بلغراد ستة أشهر، وغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر، ثم غادرها، وأرسل جيشه للهجوم على ترانسلفانيا من أملاك المجر، وتقع شمال الأفلاق وإلى الغرب من البغدان، وتشكّل اليوم الجزء الغربي من دولة رومانيا، غير أن جيشه قد هُزم وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من الجند، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب. فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأسر قائده عام ٨٤٥، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦ بالسلطان مراد الثاني نفسه فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلى توقيع معاهدة تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة، فترك الحكم لابنه الثاني محمد [1] الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية آيدين حيث الهدوء.

---

(١) الابن الأكبر اسمه علاء الدين، وقد توفي عام ٨٤٨ قبيل اعتزال أبيه السلطة، وربما كانت هذه الوفاة سبباً في اعتزال الوالد.

كان البابا يراقب الأحداث، وكم سره هزيمة السلطان وخاصة أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين، وفرنسيين، وألمان، وبنادقة، وجنويين إضافةً إلى الأفلاق، والصرب وغيرهم. وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقعها السلطان مع المجريين وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات لذا فقد أرسل مندوباً من قبله وهو (سيزاريني) إلى ملك المجر، وطلب نقض العهد، وليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، فليس مع الكفار نقض لعهد أو حنث بقسم.

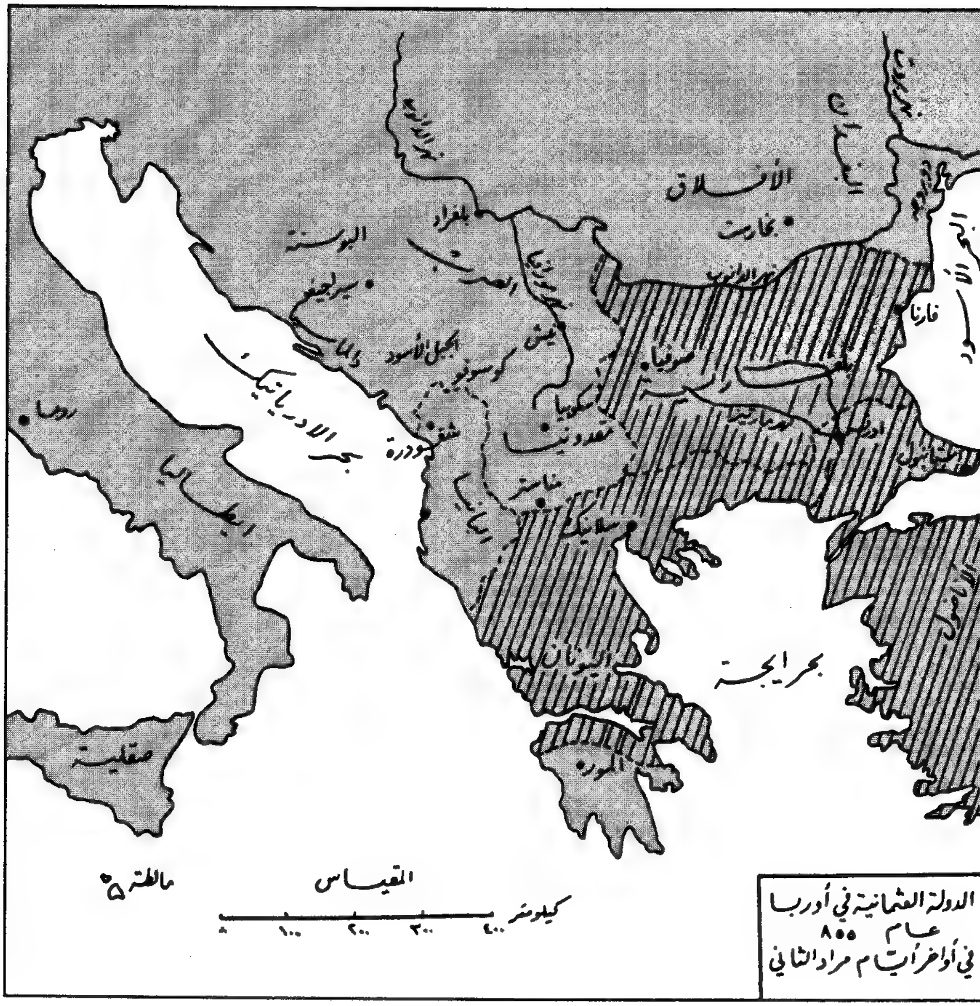
تنادى ملوك النصارى لشن حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا جموعهم، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في مكان عزلته في مقاطعة (آيدين) في مدينة (مغنيسيا)، وأن طفله لم يتمرّس بعد على القتال، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه، واتجه إلى أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، فنازلهم، وقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختل ترابط الجند، فهاجم السلطان معسكر الأعداء، واحتله، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتم النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨. وعاد فترك السلطان الأمر إلى ابنه، ورجع إلى مغنيسيا.

ولم تطل إقامته أكثر من ثلاثة أشهر إذ اضطر للعودة إلى أدرنة قاعدة الدولة حيث استصغر قادة الجيش العثمانيين من الانكشارية السلطان الصغير، إذ عصوا أمره، ونهبوا المدينة، ووصل السلطان فأدب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان، ذلك أن إمبراطور القسطنطينية قد قسم أملاكه بين أولاده إذ أعطى ابنه حنا مدينة القسطنطينية وابنه قسطنطين بلاد المورة أي جنوب اليونان، فسار السلطان لحرب اليونان، واستعمل المدافع لأول مرّة، ولم يتمكن من فتحها بسبب تمرّد إسكندر بك.

كان إسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينة عند السلطان عندما سلّم أبوه البلاد للسلطان فأظهر إسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فرّ إلى ألبانيا، وطرد العثمانيين منها. فسار إليه السلطان


أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك بيزنطة
القسطنطينية
بروسة
أنقرة
ازمير
قونية
مرعش
أضنة
طرسوس
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
الدولة العثمانية
عام ٨٤٨

مصور رقم [١١]


الدولة العثمانية في أوربا
عام ٨٥٥
في أواخر أيام مراد الثاني
الأفلاق
بخارست
البوسنة
بلغراد
سراييفو
الجبل الأسود
بحر الادرياتيك
روما
ايطاليا
صقلية
مالطة
المقياس
كيلومتر
فارنا
صوفيا
مقدونية
مناستر
سلانيك
اليونان
المورة
بحر ايجة

مصور رقم [١٢]

بقوةٍ كبيرةٍ وهزمه، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١، ثم اضطر إلى تركه للتوجّه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر من معركة (فارنا)، والتقى به في وادي كوسوفو، وانتصر عليه انتصاراً مؤزراً عام ٨٥٢، ثم عاد فاتجه إلى إسكندر بك، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولم يتمكن من فتحها لتعب جيوشه، فأراد أن يتفق مع إسكندر بك بحيث يسلمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ، غير أن إسكندر بك لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلى أدرنة ليستعد بصورة أفضل، وبينما هو كذلك إذ وافته المنية في مطلع عام ٨٥٥ (٥ محرم) عن عمرٍ يناهز التاسعة والأربعين، ونقلت جثته إلى بورصة حيث دفن هناك، وتسلم السلطنة ابنه محمد باسم محمد الثاني، وهو الفاتح.

٣ ـ محمد الثاني (الفاتح):

ولد محمد الثاني عام ٨٣٣، وتولّى السلطنة عام ٨٥٥ فكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنة، وأراد أن يتمم ما بدأ به أبوه. وكان أول عمل قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا) إلى أبيها. وقتل أخاً له رضيعاً اسمه أحمد[1]، ثم بنى قلعة على مضيق البوسفور على الشاطئ الأوروبي مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد على الشاطئ الآسيوي كي يتحكم بالمضيق، ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية من مملكة طرابزون الروحية الواقعة على ساحل البحر الأسود شمال شرقي الأناضول. ورأى قسطنطين أن محمد الثاني عازم على دخول مدينته فعرض دفع الجزية التي يريد فرفض السلطان، ورأى أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال على نصرانيتها فرفضت، واعتكفت في بعض الأديرة. وبدأ الامبراطور يستنجد بالدول النصرانية، فأرسل البابا ثلاثين سفينة حربيةٍ لكنها هربت من القرن الذهبي، وطلب النجدة من الروس

(١) هذا القتل لا يصح أبداً، فالطفل رضيع ولا ذنب له، ولا يتحمّل وزر غيره إن كانت هناك أوزار يريد السلطان أن ينتهي منها. فهذا القتل مخالفة شرعية، وحدّها القتل.

لكنهم لم يكونوا أصحاب قوة آنذاك، وتظاهر الجنويون في موقع غلطة[1] أنهم على الحياد، ثم جاءه دعم من جنوده، وهو عبارة عن قوة بحرية كبيرة بقيادة جوستنيان وقد اصطدمت هذه القوة البحرية بالسفن العثمانية التي حاولت منعها، وانتصر الجنويون، وتمكّنوا من دخول القرن الذهبي، حيث رفعت السلاسل التي تسد المداخل لهم، وأغلقت في وجه العثمانيين.

عرض السلطان على الإمبراطور تسليم المدينة كي لا تُصاب بأذى، ولا يحلّ بالأهالي النكبات، ويتعهد السلطان بحماية العقائد وإقامة الشعائر فرفض الإمبراطور.

حاصر السلطان المدينة من البر (الجهة الغربية) بجنود يزيد عددهم على مائتين وخمسين ألف مقاتل، ومن جهة البحر بمائة وثمانين سفينة بحرية، وأقام المدافع حول المواقع، وكان أشهرها المدفع العظيم[2] الذي اخترعه المجري أوربان للسلطان، ثم استطاع نقل سبعين سفينة بحرية إلى القرن الذهبي على ألواح خشبية مسافة تقرب من عشرة كيلومترات بعد أن مهد الطريق ثم وضع على الألواح الزيوت والشحوم كي تنزلق المراكب عليها، وبهذا أحكم الحصار على القسطنطينية. وبدأ الهجوم يوم ١٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧ بعد أن شجع السلطان المهاجمين ومنّاهم بالأعطيات. وانطلق المهاجمون مع الفجر، وتسلقوا الأسوار، وقتلوا من عارضهم، ودخلوا كنيسة أيا صوفيا، ودخل السلطان المدينة ظهراً، فمنع أعمال السلب التي كانت قائمة، ووصل إلى كنيسة أيا صوفيا فأمر أن يؤذن للصلاة وقد تحولت بعدها إلى مسجد. وسمح للنصارى بإقامة شعائرهم

---

(١) موقع غلطة: نقطة التقاء مضيق البوسفور مع القرن الذهبي، وقد قُدّم لأهل جنوة مكافأةً من الروم، كما قدم لهم غيره، مثل أزمير في الأناضول، وكافا في شبه جزيرة القرم، حيث كان للجنويين مواقع متفرقة.

(٢) كان المدفع الذي اخترعه أوربان يقذف كرات من الحجر وزن الكرة ١٢ رطلاً لمسافة ١،٦ كليومتر، وجرّه يحتاج إلى ٧٠٠ شخص.

دون معارضة، وأعطاهم نصف كنائسهم، وحق اختيار بطريرك لهم، وحوّل نصف الكنائس الأخرى إلى مساجد. وبعد أن أقام العدل عاد النصارى الخائفين الذين كانوا يريدون الفرار إلى بلاد نصرانية، وأطلق على القسطنطينية اسم استانبول أي مدينة الإسلام.

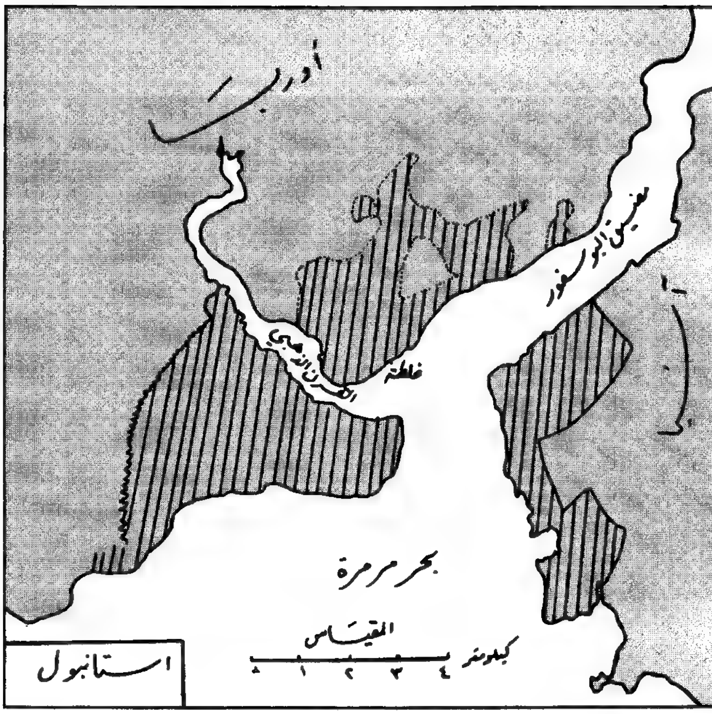
أراد السلطان الفاتح بعدئذ أن يتوجه إلى بلاد المورة لفتحها، فأرسل ملكها وفداً إليه يعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها ١٢ ألف دوك ذهبي.

وصالح أمير الصرب مقابل جزية قدرها ثمانون ألف دوك عام ٨٥٧، وفي السنة الثانية دخل السلطان إلى بلاد الصرب، وحاصر بلغراد، ودافع عنها المجر، ولم يتمكن العثمانيون من فتحها، ثم سار الصدر الأعظم محمود باشا ففتحها بين ٨٦١ ـ ٨٦٣.

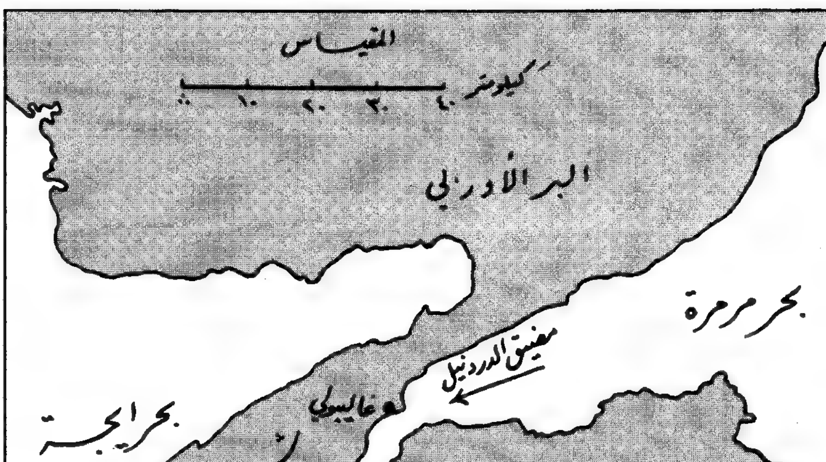
وتمكّن من فتح بلاد المورة عام ٨٦٣، وفرّ ملكها إلى إيطاليا، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل. وعقد صلحاً مع إسكندر بك أمير ألبانيا.

توجه سرّاً إلى الأناضول ففتح ميناء (أماستريس) الذي يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب، واحتل مملكة طرابزون دون مقاومة، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار إلى أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّيه على العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان غير أن هذا الأمير لم يطلب هذا الصلح إلا لتتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضحان الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مُغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، واستاق الأسرى. فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يعيد الأسرى، ويبقى على صلحه، فمثّل بهم شرّ تمثيل، فسار إليه السلطان ففرّ أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فضمّ السلطان الأفلاق إلى العثمانيين، وعيّن أخا أمير الأفلاق والياً عليها من قبله.



مصور رقم [١٣]



مصور رقم [١٤]

وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان، وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أهل البوسنة (البوشناق) لكنه هُزم. وأسلم الكثير من البوشناق بعد ذلك.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة، وجزراً كثيرة في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها، فسار إليهم السلطان ففروا من مواقعهم ودخلها العثمانيون. وبعد هدنة سنة عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه، وبدؤوا يُغيرون على الدولة فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلى حربٍ صليبيةٍ فشجع إسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن إسكندر بك نقض العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين. وتوفي إسكندر بك عام ٨٧٠.

اتجه السلطان إلى الأناضول فضمّ إليه إمارة القرمان نهائياً إذ اختلف أبناء أميرهم إبراهيم الذي أوصى عند وفاته لابنه إسحاق فنازعه إخوته، فأيّد السلطان إخوة إسحاق عليه وهزمه، وعيّن مكانه أحد إخوته، فلما رجع السلطان إلى أوربا، احتل إسحاق قونية وفرض نفسه، فرجع إليه السلطان وهزمه، وضمّ الإمارة إلى الدولة العثمانية.

وهاجم أوزون حسن أحد خلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، واحتل مدينة توقات، فأرسل إليه السلطان جيشاً هزمه عام ٨٧٤، ثم سار إليه السلطان بنفسه على رأس جيش وأجهز على ما بقي معه من جنود.

عرض السلطان عام ٨٧٨ على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروبٍ عنيفة، ولكن لم يستطع فتح هذا الإقليم، فعزم السلطان على دخول القرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن من احتلال أملاك الجنويين


البندقية
المجر
البغدان
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
اوترانت
ذوالقدرية
الدولة العثمانية
عام
٨٨٦

مصور رقم [١٥]

الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً. وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلت، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان الرابع فتبعه السلطان في طريق مجهولة فانقض عليه اصطفان الرابع وانهزم السلطان، وارتفع اسم اصطفان الرابع وذلك عام ٨٨١.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح ترانسلفانيا، ولكنه في البحر فتح الجزر التي بين اليونان وإيطاليا، كما فتح مدينة أوترانت في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا عام ٨٨٥، وحاصر في العام نفسه جزيرة رودوس، ولم يتمكن من فتحها.

وفي أثناء حصار القسطنطينية عُرف ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه، فبنى عنده مسجداً، وأصبح تنصيب السلاطين يتمّ في هذا المسجد.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦ عن عمر ينوف على خمس وخمسين سنة بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة.

٤ ـ بايزيد الثاني:

كان بايزيد أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وكان حاكماً في عهد أبيه لمقاطعة (أماسيا)، وكان الولد الثاني للسلطان محمد الفاتح يُدعى (جم)، ويحكم مقاطعة القرمان، والأمير بايزيد هو الذي سيتولّى السلطنة بعد وفاة أبيه، وكلا الولدين كان بعيداً عن استانبول، وكانت رغبة الصدر الأعظم قرماني محمد باشا في تولية الأمير جم، لذا فقد أرسل إليه من يخبره بوفاة والده كي يأتي وربما استطاع تسلم الأمر، غير أن حاكم الأناضول سنان باشا أدرك اللعبة فقتل رسول الصدر الأعظم إلى الأمير جم قبل أن ينقل له الخبر. وكانت رغبة الإنكشارية وعاطفتهم مع الأمير بايزيد فلما أُخبروا بما فعل الصدر الأعظم قاموا عليه وقتلوه، ونهبوا المدينة، وأقاموا (كركود) نائباً عن أبيه حتى يصل إلى عاصمته.

وصل الأمير بايزيد فاستقبله الإنكشاريون، وطلبوا منه العفو على ما فعلوا كما طلبوا منه طلبات نفّذها لهم كلها، وبويع بايزيد سلطاناً، وتسلّم الأمر، ومع أنه كان محباً للسلم والاشتغال بالعلم إلا أن أحوال البلد اقتضت أن يترك ما عُرف عنه ويتسلم الأمر بشدة.

وعندما وصل خبر وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه جم سار إلى بورصة، واحتلها عنوة، ودعا أخاه السلطان بايزيد لتقسيم البلاد بينهما بحيث يستقل جم بآسيا، ويستقل بايزيد بأوربا، فلم يوافقه السلطان وحاربه، ودخل بورصة ففرّ جم، والتجأ إلى المماليك عام ٨٨٦ حيث بقي عاماً كاملاً عند السلطان قايتباي في القاهرة، وبعدها انتقل إلى حلب، وبدأ يراسل الأمير قاسم حفيد أمراء القرمان، ووعده بإعادة إمارة القرمان إن تمكّن الأمير جم أن يحكم الدولة العثمانية، فسارا معاً للهجوم على قونية لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً.

وحاول الأمير جم المصالحة مع أخيه السلطان على أن يعطيه مقاطعة، فرفض ذلك السلطان حيث فهم منه تقسيم الدولة، وانطلق الأمير جم إلى رهبان جزيرة رودوس فاستقبلوه، غير أن السلطان اتصل بهم، وطلب منهم إبقاء الأمير جم عندهم تحت الإقامة الجبرية مقابل دفع مبلغ من المال من السلطان للرهبان، وعدم التعرّض للجزيرة ما دام حياً فوافق الرهبان على ذلك، ورفضوا تسليمه إلى ملك المجر، ثم رفضوا تسليمه إلى إمبراطور ألمانيا ليتخذه سيفاً يقاتل به الدولة العثمانية، ولكنه سُلِّم بعدئذٍ إلى فرنسا، ومنها إلى البابا والمهم أنه مات عام ٩٠٠ وهو بهذه الصورة، وقد استراح منه السلطان سواء أكان تحت الإقامة الجبرية أم عندما فارق الحياة.

وحصلت خلافات مع مصر التي كان لها نفوذ على بعض الإمارات في جنوب الأناضول، ووقع قتال بين الطرفين غير أن باي تونس قد أصلح بينهما، خوفاً من زيادة القتال بين المسلمين على حين أن النصارى يتربّصون الدوائر بالمسلمين، ويُسَرّون للخلافات التي تحدث بينهم.

وفشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطدّت الصلات مع بولونيا عام ٨٩٥، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية على

البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية، وقاتل معهم البولونيين.

ويدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية، وتطلب عقد الحلف معها للإفادة منها في قتال خصومها، وخاصةً الإمارات الإيطالية، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، وكانت حرباً صليبيةً بين الطرفين.

وظهرت دولة روسيا عام ٨٨٦ حيث استطاع دوق موسكو إيفان الثالث من تخليص موسكو من أيدي التتار، وبدأ بالتوسع، وفي عام ٨٩٧ وصل أول سفير روسي لإستانبول، ويحمل معه الهدايا، وكان وصول السفير الثاني عام ٩٠١، وقد حصل على بعض الامتيازات للتجار الروس.

كان السلطان بايزيد الثاني قد عيّن أولاده الثلاثة الذين بقوا أحياءً على الولايات، فكان كركود والياً على شرقي الأناضول، وأحمد على أماسيا، وسليم على طرابزون كما عيّن حفيده سليمان بن سليم على مدينة (كافا) في شبه جزيرة القرم. وكان سليم محارباً طموحاً فأراد أن يكون والياً على بعض المقاطعات في أوربا ليمارس الجهاد، ويؤيده في ذلك الإنكشارية والعسكريون عامةً، ولكن السلطان قد رفض من ابنه ذلك كما رفض الولد ولاية طرابزون، وانتقل إلى ابنه سليمان في كافا، ثم جمع جيشاً، وسار إلى أوروبا وحاول السلطان تهديد ولده الذي أصرّ على القتال، ونتيجة حبه للسلم تراجع عن قراره وعيّنه على بعض المقاطعات الأوروبية عام ٩١٦، فطمع سليم وسار إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً عليها، فحاربه أبوه وهزمه، وفرّ إلى القرم، ثم تدخلت الإنكشارية فعفا السلطان عنه، وأعاده إلى أوروبا، فسار به الإنكشارية إلى إستانبول، وطلبوا من السلطان التنازل للأمير سليم عن الحكم فوافق واستقال عام ٩١٨، وانتقل السلطان ليعيش بعيداً عن الحكم فتوفي في الطريق. أما الأمير كركود، وهو الولد الكبير للسلطان فقد رأى أخاه سليماً يفرض رأيه لذا اتجه إلى مقاطعة صاروخان، واستلمها دون أمر أبيه، فحاربه أبوه وهزمه قبيل وفاته بقليل.

ملاحظات على السلطنة العثمانية

امتدت سلطنة بني عثمان ما يقرب من مائتين وإحدى وثلاثين سنة، ومرت بمرحلتين تجاوزت كل مرحلة مائة سنة، وبينهما مدة من الخلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول تجاوزت أحد عشر عاماً. وحكم في كل مرحلة أربعة سلاطين، انتهت أولاهما بأيام بايزيد الأول، وانتهت الثانية بعهد بايزيد الثاني، وهاتين المرحلتين هما:

أولاً:

١ ـ عثمان	٦٨٧ ـ ٧٢٦
٢ ـ أورخان	٧٢٦ ـ ٧٦١
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩١
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥

وإن كانت سلطنة عثمان الحقيقية أو التي حملت لقب سلطان قد بدأت عام ٦٩٩ عندما زالت دولة سلاجقة الأناضول، وتفرّد بعدها، وأعلن نفسه سلطاناً، أما قبل ذلك فقد كان أميراً عادياً.

ثانياً:

١ ـ محمد چلبي	٨١٦ ـ ٨٢٤
٢ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥
٣ ـ محمد الثاني «الفاتح»	٨٥٥ ـ ٨٨٦
٤ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨

وبين هاتين المرحلتين كان خلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول الذي قُتل

في معركة أنقرة عام ٨٠٥، والتي دارت بينه وبين تيمورلنك، واستمرت مدة الخلاف أحد عشر عاماً ٨٠٥ ـ ٨١٦ حيث تفرّد السلطان محمد چلبي بالسلطنة.

ويمكن أن نلاحظ في مرحلة السلطنة العثمانية أن همّها الأول كان محصوراً في فتح القسطنطينية، ويبدو تذليل الصعاب في سبيل هذه المهمة هو القضاء على الإمارات التركمانية التي كانت قائمة في الأناضول لتوحيد جهود المسلمين أولاً، وكي لا يبقى سنداً للروم فيما إذا أرادوا الاعتماد على بعض الرجال الذين يفضلون مصالحهم على مصلحة الأمة، واستمرت هذه المهمة مدةً طويلة بل شغلت عهد السلطنة الأول كله، وربما تجاوزت قليلاً حتى قضى السلطان سليم على إمارة أبناء رمضان، وإمارة ذي القادر عام ٩٢٢، وكانت مهمة السلطنة الثانية هي التوسع في أوروبا للغاية نفسها، وإسقاط كل دعمٍ يفكر فيه الروم، واستمر هذا أيضاً في عهد السلطنة الثاني كله.

ونرى أيضاً أن اهتمام السلاطين العثمانيين بالأمة المسلمة كان ضعيفاً رغم فكرة الجهاد التي حملوها ورغم أن أوربا قد وقفت في وجههم باسم الصليبية، وكان البابا المحرك الرئيسي لقتال العثمانيين لحماية النصرانية ـ على حد زعمه ـ فكان يرسل النداءات لملوك أوروبا وأمرائها للوقوف أمام الدولة العثمانية. وإن عدم اهتمام العثمانيين بالأمة المسلمة لأنهم كانوا يشعرون أن سلطنتهم ضعيفة وصغيرة لا تشكّل ثقلاً عظيماً في الأوساط العالمية، أو بين الدول القائمة آنذاك فيرون أن دولة المماليك أقوى منهم، وهي مركز الخلافة وعليها المسؤولية الأولى في هذا المجال، مع أن العثمانيين كانوا يتصوّرون في أن الضغط على أوربا من جهة الشرق يُخفّف عن مسلمي الأندلس مما يعانونه من حرب صليبية. مع أن مسلمي الأندلس قد وصلوا آنذاك إلى مرحلةٍ من الضعف لا يجدي معها دعم، ولا ينفع معها مدّ، فقد كانوا يعيشون في البذخ والترف، ويصرفون وقتهم في الفن وتزيين القصور، وزراعة الحدائق وفي الوقت نفسه يستنجدون بطغاة نصارى الإسبان بعضهم على بعض. وعندما سقطت الأندلس بيد نصارى الإسبان مع مطلع عام ٨٩٨ كان سلطان العثمانيين بايزيد الثاني محباً إلى الدعة والسلم.

كما نلاحظ أن روسيا لم تدخل ميدان الصراع في أثناء السلطنة العثمانية وذلك لأن الروس كانوا تحت حكم التتار المسلمين، وأول مرة استطاع دوق موسكو إيڤان الثالث أن يُخلّص مدينته من حكم التتار هي عام ٨٨٦ أي في العام الذي توفي فيه السلطان محمد الفاتح، أو أن عهد السلطنة كان في آخره، وقد أرسل الروس السفراء إلى إستانبول في تلك المدة.

ونلاحظ أن الصراع لم يحدث بين العثمانيين وبين الدول المسلمة المحيطة بهم من الجنوب والشرق بشكلٍ عنيفٍ وذلك لانصراف العثمانيين إلى مهمتهم التي تكلمنا عنها، أو لانصرافهم إلى شؤونهم الخاصة، وعندما كاد النزاع يقع بينهم وبين المماليك تدخل باي تونس في الأمر، وحال دون وقوع قتال بين المسلمين هذا مع العلم أن العثمانيين كانوا يهتمون بالجانب الإسلامي كثيراً، وكانوا أصحاب عاطفة إسلامية فاهتمامهم كان نحو الجهاد لا إلى قتال المسلمين.

السلاطين العثمانيون:

السلطان	المدة
١ ـ عثمان بن أرطغرل بن سليمان	٦٨٧ ـ ٧٢٦هـ
٢ ـ أورخان	٧٢٦ ـ ٧٦١
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩١هـ
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥هـ
	مرحلة فوضى وضياع
٥ ـ محمد چلبي	٨١٦ ـ ٨٢٤هـ
٦ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ
٧ ـ محمد الثاني «الفاتح»	٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ
٨ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨هـ

الخلفاء

٩١٨ ـ ١٣٤٢هـ

الفصل الرابع

الخلافة العثمانية - عصر القوة

اختلف عهد الخلافة العثمانية عن عهد السلطنة إذ بدأ الاهتمام بالأمة المسلمة، والعمل على توحيدها، ثم الوقوف أمام الصليبية صفاً واحداً، وقد عمل الخلفاء على هذا حتى ضعف أمرهم فأصبح تفكيرهم ينحصر بالمحافظة على ما تحت أيديهم، حتى إذا زاد الضعف بدأت الدول النصرانية تقتطع من الدولة جزءاً بعد آخر حتى أنهت عليها، واصطنعت لنفسها أعواناً بين المسلمين، حتى قضت على الخلافة الإسلامية نهائياً، وتشتّت أمر المسلمين، وانقسموا فرقاً وشيعاً وعصبيةً، لذا فقد توالى على الخلافة العثمانية ثلاثة عصور كان أولها عصر القوة، وتعاقب عليه خليفتان فقط هما: سليم الأول وابنه سليمان الأول.

١ ـ سليم الأول:

بعد أن تنازل بايزيد لابنه سليم عن الحكم بدعم الإنكشارية، أرضى السلطان سليم الإنكشارية وتوجه إلى آسيا للتخلّص من إخوته الذين يُنازعونه السلطة أو لا يرضون به سلطاناً، فتعقّب أخاه أحمد إلى أنقرة، وقبض عليه بعد جهد، وقتله، ثم سار إلى ولاية صاروخان وتتبّع أخاه الآخر كركود ففرّ منه، وبعد البحث عليه تمكّن منه، وقتله، وأخذ خمسةً من أولاد إخوته في بورصة، وأمر بقتلهم، واطمأن بعدها حسب قناعته من المنافسة الأُسرية. وكان قد عيّن ابنه سليمان حاكماً على إستانبول ليتفرّغ لأموره التي في رأسه.

انتقل بعد ذلك إلى أدرنة فوجد سفراء البندقية، والمجر، وموسكو، وسلطنة مصر ينتظرونه، فعقد معهم معاهدات حيث يريد أن يتفرّغ إلى ما يُخطِّط له.

إنّ السلطان سليم ذو شخصية قويةٍ، وهو عسكري بفطرته، لذا كانت نظرته إلى القضايا كلها من وجهة نظرٍ عسكريةٍ، فيرى أن الأمور المستعصية لا تحلّها إلا القوة، وهذا ما جعل العسكريين يُحبّونه، ويعملون على تسلّمه السلطة.

رأى السلطان سليم أن دولته قد أصبحت أقوى الدول الإسلامية آنذاك لذا عليه أن يقوم بالمهمّة الملقاة على عاتقه في توحيد أبناء الأمة المسلمة. ورأى أن الأندلس قد سقطت بيد النصارى الإسبان، ولم تعد هناك فائدة للضغط على أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الغرب.

ورأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا بالمسلمين كافةً لذا يجب أن يخضع المسلمون لدولةٍ واحدةٍ، ولا شك أنه يُفكّر في أن هذا الخضوع يجب أن يكون للعثمانيين بصفة أن دولتهم أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك. ورأى أن دولة المماليك قد ضعُف أمرها، ولم تتمكن من تأدية دورها في مواجهة البرتغاليين الذين قدموا على المسلمين من الجنوب، وأن الخلافة العباسية في مصر ليست سوى خلافةٍ صوريةٍ يتصرّف بها المماليك كيف يشاؤون.

ورأى أن البرتغاليين يُهدّدون العالم الإسلامي من جهة الجنوب، ويُهدّدون باحتلال المدينة المنورة، وأخذ رفات النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، وعدم تسليمها للمسلمين حتى يتخلّوا عن القدس للنصارى، وقد عجز المماليك عن مقاومتهم، وفوق هذا فإن هؤلاء البرتغاليين قد وجدوا لهم أعواناً بين المسلمين أنفسهم، إذ طلب الصفويون من البرتغاليين أن يُشكّلوا حلفاً ضدّ العثمانيين بل ضدّ أهل السنة من المسلمين، ورأى أيضاً أن موقف الصفويين في الخليج ضد البرتغاليين كان موقفاً فيه كثير من الميوعة.

ورأى أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرّشون بالعثمانيين من جهة الشرق، ويُحاولون التوسّع، كما يعملون على نشر المذهب الشيعي، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصمته تبريز القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسّعهم. كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني، ثم ضد أخيه السلطان سليم، فلما تمكّن السلطان من أخيه كان لا بدّ من ضرب من كان يعاونه.

أمام هذه المرئيات وحسب طبيعته العسكرية، وجد أن يحسم الأمور بالعمل العسكري، وقرّر أن يسير نحو الصفويين ليُأدبهم ويُبعدهم عن البرتغاليين، ثم يتحالف مع المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين فإن أبى المماليك التفاهم احتل بلادهم، ووقف أمام البرتغاليين يجاهدهم وخاصةً أنها حرب صليبية واضحة يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس. وفي الوقت نفسه يكون قد قطع مرحلةً في توحيد المسلمين بضمّ أجزاء واسعة إلى دولته، وكلها أقسام من بلاد المسلمين، وربما شجّعه على ذلك ضعف دولة المماليك، وخوف السكان من البرتغاليين، وسمعة العثمانيين التي ارتفعت في نفوس الأهالي، وأمل المسلمين في قدوم السلطان العثماني لمنازلة البرتغاليين.

اتجه السلطان سليم من أدرنة على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين، وكان قد أحصى الشيعة الذين يُقيمون في شرقي الدولة لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين، وأمر بقتلهم جميعاً، ثم تقدّم نحو تبريز عاصمة الصفويين الذين أرادوا خديعته بالتراجع المخطّط حتى إذا أنهك الجيش العثماني انقضّوا عليه، وبقي السلطان في تقدّمه حتى التقى بالجيش الصفوي في جالديران جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول وكانت معركةً عنيفةً بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠، انتصر فيها العثمانيون، وفرّ من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد عشرة أيام دخل السلطان تبريز، واستولى على الخزائن، ونقلها إلى إستانبول، وتتبع الشاه، ولكن لم يتمكّن

من القبض عليه، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشتد الأمر على الجنود العثمانيين، وبدا تذمرهم، فترك السلطان المنطقة، وسار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصل الشتاء، رجع السلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع، ودخل إمارة ذي القادر، وترك الجيوش العثمانية تنفّذ المهمة التي أعطاها لها، وعاد إلى إستانبول، فقتل كبار الضباط من الإنكشارية الذين أبدوا تذمُّراً من التقدّم بسبب البرد كي لا تتكرر الحادثة. وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة، والرقة، وماردين، والموصل.

بعد الحرب التي شنّها السلطان سليم على الصفويين بدأ يستعّد لحرب المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين على العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين، والتي قاعدتها مرعش، وشجّعه على هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين، ولم يجدوا في المماليك القدرة على المقاومة، وبروز العثمانيين كقوةٍ ضخمةٍ اكتسحت أجزاء من أوربا. ولما علم سلطان المماليك قانصوه الغوري الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان سليم لغزو بلاد المماليك أرسل إليه رسولاً يعرض عليه وساطته للصلح بين العثمانيين والصفويين، غير أن السلطان سليم بطبيعته العسكرية طرد الرسول وأهانه، لأنه قرر الحسم العسكري.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، واستعدّ السلطان الأشرف قانصوه الغوري، واتجه نحو الأناضول، والتقى الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومنّاهم، أو التقوا به، وتقرّبوا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب من عام ٩٢٢، انفصل ولاة الشام بمن معهم وانضموا إلى العثمانيين فانتصروا، وهُزم المماليك رغم شجاعة السلطان الأشرف[١] والجهد الذي قدّمه، وثباته في المعركة حتى قُتل.

---

(١) تولّى السلطان أشرف قانصوه الغوري السلطة في مصر عام ٩٠٦، وهو لا يريدها، وكانت سنه فوق الرابعة والستين، وقام بإصلاحات كثيرة، وخاض معركة مرج دابق وعمره ثمانون عاماً.

دخل السلطان سليم حلب، وحماة، وحمص، ودمشق دون مقاومة بل بالترحيب في أغلب الأحيان، وأبقى ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق، واتجه إلى مصر، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم، وأمر بترميم مسجد بني أمية بدمشق، وقد عيّن جانبرد الغزالي على دمشق، وفخر الدين المعني على جبل لبنان، وهو من الدروز، وقد ساعد السلطان سليم، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية، وهو من ألد أعداء العثمانيين وما يحملونه من أفكار إسلامية.

كان المماليك في مصر قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قانصوه الغوري ويُدعى طومان باي، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، غير أن طومان باي رفض ذلك، واستعد للقتال، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك، ودخل العثمانيون غزة، وفي اليوم الأخير من عام ٩٢٢ التقى الطرفان في معركة الريدانية على أبواب القاهرة، وانطلق طومان باي مع كوكبةٍ من فرسانه إلى مقرّ السلطان سليم، وقتلوا من حوله، وأسروا الوزير سنان باشا، وقتله طومان باي بيده ظنًّا منه أنه السلطان سليم، ورغم الشجاعة التي أبداها المماليك، والمقاومة التي أظهرها المقاتلون فإن العثمانيين قد انتصروا عليهم لتفوّقهم بالمدفعية، وفي ٨ محرم ٩٢٣ دخل العثمانيون القاهرة. وانطلق طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل العثمانيين، غير أنه سقط أسيراً بأيديهم، وقُتل في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣.

بقي السلطان سليم في القاهرة ما يقرب من شهر وزّع خلالها الأُعطيات، وحضر الاحتفالات، وقد تنازل له الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفةً للمسلمين، كما جاءه محمد أبو نمي بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة.

وسافر الخليفة العثماني من مصر متجهاً نحو الأناضول عن طريق

الشام، وقد عيّن حاكماً على مصر خير بك، وترك عنده حاميةً من الإنكشارية، واصطحب معه الخليفة العباسي المتنازل أو المخلوع، ومرّ على دمشق، وأقام فيها مدةً، بنى خلالها الجامع على ضريح محيي الدين بن العربي، ومرّ على حلب وأقام بها شهرين، ثم سافر إلى أدرنة. وهناك جاءه سفير إسبانيا من أجل السماح لنصارى الإسبان بزيارة بيت المقدس مقابل مبلغ يُدفع له سنوياً، كما كان الأمر مع المماليك، وبدأ يستعدّ لمحاربة الصفويين غير أنه توفي في ٩ شوال عام ٩٢٦.

٢ ـ سليمان:

ولد سليمان عام ٩٠٠، وتولّى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٩٢٦، وفي عهده بلغت الدولة أوج قوتها واتساعها. وما أن شاع خبر وفاة الخليفة العثماني الأول حتى أعلن جانبرد الغزالي حاكم الشام تمرده، واتصل بخير بك حاكم مصر ليكون نصيره فراوغه ووعده، وفي الوقت نفسه أطلع الخليفة الجديد على مراسلاته له. وسار الغزالي ليأخذ حلب وألقى الحصار عليها، وهو في حصاره لها وصلت إليه الجيوش العثمانية فترك الحصار، وأسرع إلى دمشق ليتحصّن بها، فلحقته الجيوش وحاصرته فيها، فخرج يريد القتال يوم ١٧ صفر ٩٢٧ فانهزم جنده، وفرّ هو متنكراً، ولكن أخذه بعض أعوانه، وسلّمه إلى فرحات باشا قائد الجيوش العثمانية فقتله.

وأرسل الخليفة رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية، فقتل الملك الرسول، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه، وسار على رأسه لقتال المجر، ودخل مدينة بلغراد بعد حصار قصير، وغادرتها الجنود المجرية.

وفتح جزيرة رودوس في ٢ صفر عام ٩٢٩ مستغلاً انشغال أوربا بقضاياها الخاصة، واختلافاتها فيما بينها كي لا تساعد رهبان هذه الجزيرة الذين يُسيطرون عليها، وقد انتقل هؤلاء الرهبان إلى جزيرة مالطة.

وأصبحت شبه جزيرة القرم ولايةً عثمانيةً، وكانت من قبل ولايةً

يحكمها التتار من فرع القبيلة الذهبية، ثم وقع الخلاف بين حكامها فتدخّلت الدولة العثمانية في شؤونها، ولكن بقيت الفوضى قائمةً حتى ضمها إليها عام ٩٣٩.

وفي عام ٩٣١ أرسل جيشاً استولى على عاصمة الأفلاق، وأخذ أميرها إلى إستانبول، وكانت من قبل تعترف بالسيادة العثمانية، وتدفع الجزية. ولكن الأعيان ثاروا على ذلك بمساعدة أمير ترانسلفانيا وعيّنوا أميراً جديداً فوافق السلطان مقابل زيادةٍ في الجزية.

وقد رغب ملك فرنسا في التحالف مع العثمانيين كي يحاربوا المجر التابعة لملك النمسا شارلكان الذي تحيط أملاكه بفرنسا من كل جهة إذ كانت تتبعه إسبانيا، وهولندا، وإمارتا جنوه وفلورنسا، وصقلية، وجزر البالثار، وفي الوقت نفسه يعدّ إمبراطوراً لألمانيا، لذا فقد أرسل ملك فرنسا سفيراً للخليفة العثماني في هذا الشأن، ووعده الخليفة بذلك، وفعلاً فقد سار الخليفة عام ٩٣٢ على رأس مائة ألف مقاتل إضافة إلى ثمانمائة سفينة انطلقت في نهر الدانوب، وقد جعل قاعدته مدينة بلغراد. وأحرز الانتصار، وقتل ملكهم لويس، ودخل بعدها العاصمة «بودا» في ٣ ذي الحجة عام ٩٣٢، وعيّن أمير ترانسلفانيا «جان زابولي» ملكاً على المجر، ورجع بعدها إلى إستانبول غير أنه في العام التالي ٩٣٣ ادعى الأمير فرديناند أخو ملك النمسا شارلكان أحقيته بملك المجر، فسار إليها، ودخل عاصمتها «بودا»، وهزم ملكها «جان زابولي» الذي استنجد بالخليفة، فسار إليه عام ٩٣٥، وحاصر «بودا»، وفرّ منها فرديناند متجهاً نحو «ڤيينا» فتبعه، وألقى الحصار على المدينة، وأمر بالهجوم عليها في ٢٠ صفر ٩٣٧ بعد أن أحدث ثغراتٍ في أسوارها ولكنه لم يقو على اقتحامها إذ نفذت ذخيرة المدفعية، وداهمه فصل الشتاء البارد فقرّر فك الحصار والعودة. وفي العام التالي ٩٣٨ أرسل ملك النمسا جيشاً لدخول «بودا» غير أنه عجز عن ذلك أمام مقاومة الحامية العثمانية. وعاد الخليفة نحو ڤيينا عام ٩٣٩ إلا أنه رجع من الطريق لما علم من استعدادات شارلكان الدفاعية.

وجاءت سفن بحرية تابعة لشارلكان والبابا واحتلت بعض المواقع في شبه جزيرة المورة اليونانية والتابعة للدولة العثمانية. وبعد ذلك وقعت معاهدة بين النمسا والخليفة العثماني.

وفي عام ٩٤١ اتجه العثمانيون نحو تبريز فدخلوها ثانيةً، وجاء إليها الخليفة إثر ذلك، وسار منها نحو بغداد ففتحها في العام نفسه.

العمل العثماني في بلاد المغرب:

كان البحار المشهور خير الدين وأخوه عرّوج نصرانيان من إحدى جزر بحر إيجه، ويعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس، وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً. وقد أرسلا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزل لهما العطاء، فقويت نفسيهما، وعندما جاء السلطان سليم إلى مصر أرسلا له رسولاً يُعلن له خضوعهما للدولة العثمانية.

واستطاع عرّوج أن يستولي على مدينة الجزائر، وأن ينتصر على جيوش شارلكان التي أرسلها لمحاربة عرّوج، كما استولى على مدينة تلمسان غير أنه قُتل في إحدى حروبه مع الإسبان. وأرسل خير الدين بعد ذلك رسولاً إلى الخليفة العثماني سليم الأول وكان لا يزال في مصر يُعلمه أنه قد فتح مدينة الجزائر باسم الخليفة، فأصدر الخليفة أمراً يقضي بتعيين خير الدين والياً على إقليم الجزائر، وأعطاه رتبة (باشا)، وبذا أصبحت الجزائر ولايةً عثمانيةً.

وكان الإسبان قد أخذوا طرابلس الغرب من بني حفص عام ٩١٦، وبنزول الإسبان في طرابلس شعر السكان بالخطر الصليبي يتهددهم، فأرسلوا إلى الخليفة العثماني سليمان الأول وفداً عام ٩٢٦ يستغيثون به، فأنجدهم بقوةٍ صغيرةٍ بإمرة مراد آغا الذي نزل شرق طرابلس، وسار لحصارها، لكنه لم يتمكّن من فتحها، وجاءت قوة من جنوه ونابولي

الإيطاليتين وغزت بعض سواحل بلاد المسلمين، واحتلت بعضها ومنها جزيرة جربا التونسية. عندها أحسّ الخليفة العثماني بالخطر الصليبي على حقيقته هناك، فأرسل الأسطول العثماني بقيادة طورغول الذي هاجم الإسبان في طرابلس، وفتح المدينة، وطرد النصارى الإسبان منها، وتولى الإمارة فيها، كما أخرج الإسبان من بنزرت ووهران، وغزا ميورقة، وكورسيكا.

واستمر خير الدين في عمله البحري فنزل على شواطئ إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وأخذ حصن (بينون) الذي أقامه الإسبان على جزيرة أمام مدينة الجزائر. غير أن السلطان سليمان قد طلب منه أن يكفّ عن مراكب فرنسا بعد المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والعثمانيين، فكفّ عن ذلك، ولكن وجّه اهتمامه ضدّ الإسبان انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس بعد أن سقطت غرناطة بأيديهم عام ٨٩٨.

وفي عام ٩٣٩ دعا الخليفة سليمان إلى إستانبول خير الدين، وكلّفه ببناء السفن والاستعداد لغزو تونس، فقام بالأمر حق قيام، وعندما سافر الخليفة إلى تبريز عام ٩٤٠ سار خير الدين عبر مضيق الدردنيل إلى مالطة كي يُخفي قصده، كما غزا بعض موانئ جنوبي إيطاليا، ثم قصد تونس عام ٩٤١، وتمكّن من احتلالها بسهولةٍ باسم الخليفة العثماني، وقد عزل مولاي حسن آخر الحفصيين، وعيّن مكانه أخاه الرشيد. ونتيجة ذلك الفوز اتفق شارلكان، وأشراف الإسبان في برشلونة، ورهبان مالطة على حرب المسلمين، وقاد الجموع شارلكان بنفسه، وتوجّه نحو تونس وتمكّن من دخولها، وقام جنوده بأحقر وأبشع الأعمال، وأعاد حسن الحفصي إلى الحكم بعد معاهدة معه، سمحت للنصارى بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة شعائرهم بِحرّية، ودفع الحفصي تكاليف الحرب، وتنازل لشارلكان عن بنزرت وعَنّابة. واضطر خير الدين أن ينسحب إلى الجزائر.

والتقى خير الدين عام ٩٤٤ بأسطول شارلكان وانتصر عليه، كما غزا جزيرة كريت، وتوفي عام ٩٥٣هـ.

الحروب في أوربا:

هاج الرأي العام النصراني في أوربا على فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تقاتل النمسا الدولة النصرانية فما كان من ملك فرنسا فرانسوا الأول إلا أن خضع للرأي الصليبي، وهادن ملك النمسا، وأخلف بما وعد به العثمانيين من غزوٍ مشتركٍ لإيطاليا.

وعادت الحرب بين العثمانيين والنمسا عام ٩٤٣، وانهزمت النمسا، وحرّض فرديناند أخو شارلكان أمير البغدان على التمرّد على العثمانيين لكن فتنته قد قُمعت، وعُزل عن الإمارة، وتولّى مكانه أخوه اصطفان عام ٩٤٤، وعزّز العثمانيون حاميتهم هناك.

واتفق جان زابولي ملك المجر، مع الأمير النمساوي فرديناند على اقتسام المجر، وإنهاء التدخل العثماني، وللإيقاع بزابولي فقد أرسل فرديناند نسخةً من الاتفاق إلى الخليفة العثماني ليعرف عدم ولاء زابولي، ويُقصيه عن الملك، وعندها يزداد النفوذ النمساوي في المجر، ويزول من طريقه حليف العثمانيين.

ومات جان زابولي ملك المجر عام ٩٤٦ قبل أن يلقى الجزاء من الخليفة، وهاجمت الجيوش النمساوية المجر بسرعة لإنهاء الحماية العثمانية، وحاصرت مدينة «بودا» وفيها أرملة زابولي وطفلها، واحتلت مدينة «بست» المقابلة لمدينة «بودا»، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧ على رأس جيش ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانيةً، وأما أرملة زابولي وأم الطفل والوصية عليه، فقد قبلت تلك الحماية الموقتة لبلوغ الطفل سن الرشد. وأخيراً عُقدت معاهدة بين الخليفة العثماني والنمسا عام ٩٥٤ لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزيةً سنويةً لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

العمل العثماني في جزيرة العرب:

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني حاكم مصر سليمان باشا أن

يُجهّز أسطولاً، ويتجه به لمحاربة الصليبيين البرتغاليين، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي الصليبيين، فبنى سليمان باشا أسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة، واتجه به على رأس عشرين ألف جندي، وفتح عدن، ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز عام ٩٤٤. وكان قد وصل إلى إستانبول قبل عام سفير من كوجرات بالهند، يستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلى سواحل الهند، وآخر من دهلي يستنجد به ضد همايون بن ظاهر الدين محمد المشهور ببابر، وهو من المغول الذين دخلوا الهند وحكموها.

وانطلق سليمان باشا إلى كوجرات، ودخل بعض القلاع التي أقامها البرتغاليون على سواحل الهند، ولكنه هُزم في معركة (ديو) البحرية أمام البرتغاليين، ورجع إلى بلاده، وكانت اليمن قد أصبحت ولايةً عثمانيةً.

العمل العثماني في أذربيجان:

جاء إلى إستانبول أخو الشاه الصفوي، يشكو إلى الخليفة ظلم أخيه، وهضم حقوقه، وطلب منه مساعدته ضده، فسار الخليفة عام ٩٥٤ ودخل تبريز، وكان هذا الدخول العثماني لهذه المدينة المرة الثالثة، وعاد الخليفة إلى إستانبول عام ٩٥٥.

العودة إلى أوربا:

تنازلت إيزابيلا أرملة زابولي عن ترانسلفانيا إلى فرديناند الأمير النمساوي مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومةٍ، وذلك عام ٩٥٧، كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع عام ٩٥٨.

ومات ملك فرنسا فرانسوا الأول وخلفه ابنه هنري الثاني فجدّد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة عام ٩٧١ مدة أربعة أشهر، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣ نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر، ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أباه فرديناند. وتوفي الخليفة في أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤.

وكان الخليفة قد قتل ابنه مصطفى بدسيسة من زوجته الروسية (روكسلان) ليتولّى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه. وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، كما سعت (روكسلان) لقتل ابن مصطفى الذي لا يزال رضيعاً، وكذلك قتل سليمان القانوني ابنه الآخر بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسةٍ من أحد الوزراء بتعليم من سليم بن سليمان، واضطر بايزيد أن يتمرّد على أبيه خوفاً منه عندما امتنع عن تنفيذ أوامره بالانتقال من حكم ولاية قونية إلى (أماسيا)، غير أنه هُزم، ففرّ مع أبنائه إلى الصفويين، فراسل الشاه طهماسب الخليفة، ثم سلّمهم إلى رسول الخليفة الذي بُعث لاستلامهم فقتلهم مباشرة في مدينة قزوين.

الفصل الخامس

عصر الضعف

لم يطل عصر القوة في الخلافة العثمانية، إذ لم يزد كثيراً عن النصف قرن، ولم يشمل سوى عهد خليفتين هما: سليم الأول (٩٢٣ ـ ٩٢٦) وابنه سليمان الأول «القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤)، وهما الخليفتان الأوليان، وجاء عصر الضعف بعدهما مباشرةً، وبدأ الخط البياني للخلافة العثمانية بالهبوط باستمرار، وإن كان يتوقف عن الهبوط، ويسير مستوياً في بعض المراحل لقوة بعض الخلفاء النسبية أو لهمّة حاشيتهم وخاصة الصدر الأعظم، وكان لهذا الضعف عوامل كثيرة يمكن أن نتلّمس بعضها للعبرة والفائدة التاريخية، ومنها:

١ ـ سيطرة العقلية العسكرية:

هذه العقلية التي تنزع إلى حلّ الأمور بالسيف، وتبتعد عن الدراسة والتخطيط ومناقشة الموضوعات، وكانت سيطرتها عامةً سواء أكان على الخلفاء أم على أبنائهم أم على ضباط الإنكشارية، ثم الولاة، فالسلاطين أو الخلفاء كانوا يربون تربيةً عسكريةً وإسلاميةً، فالتربية العسكرية إن لم يطغ عليها الإيمان ويُشذّبها ويحدّ من طغيانها كانت ـ أعوذ بالله ـ أقرب إلى حياة الجزّار، وفي بداية الأمر كان الإيمان هو الأقوى، وهو المحرّك، لذا كانت الحياة العسكرية تدريباً وفناً ومعرفةً بأصول القتال، فلما مرّت الأيّام وغدا الحرص على السلطان نقطةً جوهريةً، أصبح تطبيق التدريب أساساً على من يقف في وجهه أو يُنازعه، وربما يزيد الأمر إلى أن يتصوّر تصوّراتٍ خياليةٍ

في منازعين له من أهله وأقربائه فيعمل فيهم السيف، فيقتل إخوته، وكل من يتوهّم أنه يخالفه، وتصبح الأسر المنكوبة مُعاديةً، ويفتُر عندها الجهاد، ويضعُف إخلاصها، وتقلّ خدمتها، وأول أسرةٍ أصابها عدم التماسك والتجزئة هي الأسرة الحاكمة، أسرة بني عثمان، بل إن الرابطة بين أفرادها أصبح واهياً، بل بين الأب والأبناء، والأخ وإخوته، والمهمّ عند كل فرد أن يصل إلى السلطة ويعمل على المحافظة عليها.

ولما كان السلطان أو الخليفة يخشى على نفسه أو على سلطانه من إخوته وأقربائه، فإنه يعمل على تولية أبنائه على الولايات ذات الأهمية، وعلى قيادة الجيوش أحياناً، وهنا يشعر كل ولد من أولاد الخليفة أنه ذا مكانةٍ في الدولة، وأن إخوته دونه، وخاصةً أنهم ليسوا أشقاء، وتربّوا تربيةً متباينة، وغالباً ما تكون أعمارهم متقاربة لأنهم من عدة أمهات، فيعمل كل منهم إلى الوصول إلى السلطان. فيدسّ الدسائس لإخوته، وتساعده أمه بل هي التي تحرضه أحياناً، وتتولّى كبر ذلك وخاصةً إن كانت لها مهمة، إذ كانت بعضهنّ على غير ديانة الإسلام، أو أن كل واحدةٍ تحبّ أن تكون أم الخليفة، وتكون المكرّمة المبجّلة، فإذا ما مات الخليفة، والموت غاية كل حي، بدأ النزاع بين الإخوة ونتيجة النزاع يحدث الضعف للدولة.

والإنكشارية وهم عماد الجيش، ونتيجة التربية الإسلامية والعسكرية التي رُبُّوا عليها، كانوا قوةً ضخمةً، ولديهم روح معنوية عالية، لذا فقد أحرزوا انتصاراتٍ عظيمةٍ، وأسدوا للدولة خدمات جلّى، وبعد هذه الانتصارات أُعطيت لهم امتيازات، وقُدّمت لهم إقطاعات، فأخلدوا إلى الأرض، ومالوا عن القتال، وسُمح لهم بالإقامة خارج الثُكنات فزاد ارتباطهم بالحياة المدنية، فبدأت علائم الضعف تظهر على الجيش بعد أن كان مهيباً. وكان السلطان أو الخليفة يخرج على رأس الجيش للقتال فيزيد ذلك من قوة المقاتلين، ويرفع من روحهم المعنوية، فلما قوي أمر الإنكشارية أصبحوا لا يخرجون للقتال إلا إذا خرج السلطان معهم، وهذه بداية التذمُّر، وإظهار شيء من عدم الرضا أو عدم الخضوع الصحيح، فلما

كان حكم الخليفة سليمان القانوني أبطل قاعدة خروج السلطان، وسمح لأكبر ضابطٍ في الإنكشارية في قيادة الجيش، وهنا يصبح الضابط ذا شأن، ويرى نفسه في مركزٍ لا يكاد يعادله أحد، فتصبح له متطلبات واجبة التنفيذ، ويغدو في الدولة أكثر من سلطةٍ فتفسد الأمور، إذ تتضارب المصالح، وتضعف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الحياة العسكرية لذا كانت تفضّل ولداً من أولاد السلطان على ولد وغالباً ما تفضّل القائد القوي، وتسعى جاهدةً لدى السلطان لتقديم هذا على ذاك، وقد لاحظنا كيف رغب الإنكشاريون في تولية السلطان سليم على إخوته، ودعموه بكل إمكاناتهم وطاقاتهم حتى تمّ له الأمر، وساروا معه، ويكون الحسد بين الإخوة نتيجة ذلك، ويقع الخلاف ويحدث الشقاق، وتضعُف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الانتصارات الحربية التي يخوضونها، ولهم دور كبير في تنصيب السلطان كان لا بدّ من أن يكون لهم مُتطلبات على من عيّنوه، وكان على السلطان الجديد أن يُرضي قادة الإنكشارية على الأقل يوم تنصيبه فيعطيهم مبالغ من المال، أو يُقدّم لهم امتيازات جديدة، فيرضى هذا وقد لا يرضى غيره، وتقع الخلافات وتضعف الدولة.

فسيطرة القوة العسكرية بصورةٍ عامةٍ تضعف الدولة لأن العسكري يحبّ بطبعه التسلّط، ويُفكر بسيفه وأحياناً بحذائه لا بعقله، وتولية الأبناء على مقاطعات ذات أهميةٍ تجعلهم يشعرون بشأنهم وإمكاناتهم، ويفكر كل بالسلطة، والملك عقيم، فيقع الخلاف وتحصد نتاجه الدولة، وإعطاء العسكريين امتيازات، ومحاولة إرضائهم باستمرار يجعلهم يُفكرون باستخدام قوتهم إن لم تُحقق رغباتهم، وهذا من البلاء الذي تحصد نتاجه الدولة أيضاً. فالعسكريون يجب أن يبقوا في معسكراتهم، تُقدّم لهم حقوقهم، ويقدّمون واجباتهم في الطاعة وتنفيذ المهمات الموكلة إليهم، لا يتدخلون في شؤون البلاد أبداً، إلا إذا دعت الضرورة أو كُلّفوا بتنفيذ مهمّاتٍ محددةٍ.

٢ ـ الاتفاقيات مع الدول الأجنبية:

لم يكن للأجانب عامةً وللنصارى خاصةً أيّ أثرٍ في سكان الدولة الإسلامية سواء أكانوا من النصارى أم من غيرهم، وإنما يشعر الجميع أنهم غرباء لا علاقة لهم بما يدور في داخل الدولة، فلما كان الخليفة سليمان القانوني أراد أن يحطّم اتفاق الدول الصليبية عليه، ويُفكّك وحدتهم، فأعطى من اتفق معه امتيازات خاصة، وقدّم لهم صلاحيات لم تكن موجودة من قبل، ولم يحلموا بها أبداً. وكذلك أراد أن يُعيد للبحر المتوسط ما فقده من دور في الملاحة والتجارة بعد أن التفّ البرتغاليون حول إفريقية، وعرفوا رأس الرجاء الصالح، وبدؤوا يستولون على بلاد المسلمين في شرقي إفريقية وجنوب شرقي آسيا بل أخذوا يُهاجمون أطراف الجزيرة العربية، ويستقرون في مراكزهم، ويُخضعون موانئها لهم، ومن ثم يُتاجرون مع تلك الجهات، وينقلون البضائع إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعيدين عن البحر المتوسط ففقدت بذلك موانئه قيمتها، وفقد التجار الأرباح التي كانوا يجنونها، وارتفعت أسعار الحاجيات، وانعكس هذا على الدولة، على حين بدأت الأرباح تزداد على التجار الأوربيين، وبدأت تصل إليهم بشكل أرخص وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية إذ بدأ يظهر الرفاه نتيجة ذلك التطور إضافةً إلى الاحتكاك الذي يحدث مع الأمم الأخرى ونقل العادات وبعض الصناعات التي يعرفونها في تلك البلاد سواء أكانت مسلمةً أم لها صلة بالبلاد الإسلامية، فأراد لذلك الخليفة أن يعقد اتفاقات مع بعض الدول تكون من مصلحتها عودة الملاحة والتجارة إلى البحر المتوسط مثل فرنسا، والإمارات الإيطالية.... جنوه.... والبندقية.... وغيرها. ولا بدّ من أن يُقدّم بعض التنازلات ليحصل على مثل هذه الاتفاقات. وظنّ السلطان أن هذه الاتفاقات موقتة وما دامت القوة بيده فإنه يستطيع أن يُلغيها في الوقت الذي يريد بل يُحطّم هذه الدول صاحبة الاتفاقات متى شاء، ويُجبرها على أن تسلك ما يرغب.

عقد الخليفة سليمان القانوني اتفاقية مع دولة البندقية عام ٩٢٨ تنصّ

على: يحق لقنصل البندقية في الدولة العثمانية في النظر في تركات النصارى، كما يحق له أن يرسل ترجمان لحضور المرافعات التي تُقام ضد رعايا البندقية. كما سمحت الاتفاقية للبندقية بالبقاء في جزيرة قبرص مقابل دفع عشرة آلاف دوكا في كل سنة.

وعقد اتفاقيةً مع فرنسا عام ٩٤٢ مؤلفة من ستة عشر بنداً ومما جاء فيها: يحق لرعايا فرنسا المتاجرة مع العثمانيين ونقل البضائع من وإلى الدولة العثمانية براً وبحراً، ويحق لقنصل فرنسا في إستانبول أو أثينا أن يحكم ويقطع بمقتضى قانونه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا دون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضٍ شرعي أو أي موظف آخر. ويحق لقنصل فرنسا الاستعانة بالسلطة العثمانية لتنفيذ ما قضى به. (من البند الثالث).

ولا تسمع الدعاوى المدنية التي يُقيمها السكان العثمانيون أو جباة الخراج ضد التجار الفرنسيين أو رعايا ملك فرنسا عامة. (من البند الرابع).

يُدعى المتهمون الفرنسيون إلى مكان الصدر الأعظم الرسمي، ولا يحقّ دعوتهم إلى المحكمة أو أي مكان آخر. (من البند الخامس).

لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم فيما يختصّ بالمسائل الدينية أمام القاضي، وإنما تكون محاكمتهم أمام الباب العالي. ولهم الحق باتباع شعائرهم. (من البند السادس).

إذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يُطالب بها أحد. ولا يُسأل القنصل الفرنسي عن ذلك، وكذلك لا تُطالب المملكة الفرنسية بذلك. (من البند السابع).

لا يجوز استخدام أملاك الفرنسيين على كرهٍ منهم. (من البند الثامن).

ما يتركه الفرنسيون في الدولة العثمانية بعد وفاتهم تُنقل أو تُوزّع بمعرفة القنصل (من البند التاسع).

واشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا، ولملك إنكلترا أخيه وحليفه الأبدي، وملك إيقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة.

وهكذا أصبح لرعايا فرنسا وحلفائها دولة ضمن دولة، محاكمهم خاصة، وعلى أعلى مستوى، وفي مقر الصدر الأعظم، ولا يحقّ للعثمانيين التدخل في شؤونهم، وإنما يكون ارتباطهم بالقنصل، وفي الوقت نفسه أصبح الفرنسيون يتصلون برعاياهم مباشرة، وأصبحوا تبعاً لهم، ويرتبطون بهم لا بغيرهم.

ونسي الخليفة أن هذه الاتفاقيات أصبحت مُلزمة لمن بعده، وإذا كان هو قادراً على تغييرها وإلغائها فإن غيره قد لا يكون قادراً على ذلك، بل لا يمكنه، وهذا ما حدث، فأصبحت طوقاً في أعناق الخلفاء فيما بعد تقودهم إلى الهاوية.

ونسي الخليفة من جهة ثانية، أن هذه الدول التي كانت توافقه ظاهراً على عودة الملاحة إلى البحر المتوسط، وكانت عواطفها مع البرتغاليين والإسبان إخوتها في العقيدة، ونعرف أنها كانت تدعمهم بكل ثقلها وإمكاناتها لطرد المسلمين في الأندلس، حتى تمّ لهم ذلك.

إذن بدأت الدول الأجنبية تتدخّل في شؤون الدولة العثمانية عن طريق رعاياها من النصارى، كما أصبحت معنويات هؤلاء الرعايا كبيرةً بحيث لا يهتمّون بالدولة أبداً، ويتصرّفون كما يريدون، الأمر الذي سبب إزعاجاً للدولة وضعفاً، إذ كانوا يحرّضون على التمرّد، ويؤسسون الجمعيات.

٣ ـ الترف:

حصلت الدولة نتيجة الفتوحات على كثيرٍ من الغنائم فأثرت، وفسح المجال أمام الخلفاء وكبار الدولة أن ينصرفوا إلى اللهو في قصورهم، وأن يبذّروا الأموال على الشهوات، وبناء القصور، والحدائق، وقد كان السلاطين من قبل يقودون الجيوش بأنفسهم فيبقوا بعيدين عن الترف، وعلى

شيء من الحزم والجد، والاستعداد الدائم، فلما غيّر الخليفة سليمان القانوني في هذه القاعدة، وسمح لضباط الإنكشارية بقيادة الجيوش بقي الخليفة في القصر لا يهتمّ بأمر النصر كما كان من قبل إذ يلقي التبعة على غيره.

وكانت رئاسة مجلس قضايا الدولة المهمة للسلطان نفسه أو الخليفة ليكون على اطلاعٍ دائمٍ بما يدور، وإعطاء الرأي بما سيكون، ومتابعة القضايا بدقة، فلمّا غيّرَ القانوني هذه الطريقة، وأوكل رئاسة هذا المجلس إلى الصدر الأعظم أصبح الخليفة في القصر بعيداً عن مهمات الدولة الأساسية، وأصبح الحاكم الفعلي هو الصدر الأعظم، وفي الوقت نفسه لم يعد للخليفة من عملٍ مهمٍ، لذا يجد عنده الفراغ الكافي فينصرف إلى اللهو وتحقيق الشهوات، ومع قلة المسؤولية للخليفة ضعفت الدولة إذ أصبحت بيد غير أولي الأمر وأصحاب السلطة، ومن الحكم باسمهم، وخاصةً إذا كان الصدر الأعظم من غير المسلمين حقيقةً، وإن كان يدعي الإسلام.

الزواج من الأجنبيات:

يصحّ الزواج من الفتيات النصرانيات واليهوديات، وهذا الجواز مقيّد إذ تقتضي المصلحة السياسية بعدم الزواج منهن إن كان لهن تأثير على أزواجهن وهم من أصحاب السلطة، أو على أبنائهن وهم من أهل الحكم، أو إذا كانت المسلمات يبقين بلا أزواج وغير ذلك.

وكان السلاطين يتزوجون بالفتيات من النصارى أو اليهود إعجاباً بجمالهن، أو لمصلحةٍ سياسيةٍ، كأن يتزوجون بنات الأمراء من الأعداء، ويحبون أن يبقى هؤلاء الأمراء على وئام مع الدولة دون تمرد، أو لتوطيد الصّلات بين الدولتين، أو لتوثيق المعاهدات والاتفاقات وما إلى ذلك، غير أن هذه النسوة قد يبقين على عقيدتهن السابقة فيكون ارتباطهن بأصحاب عقيدتهن أكثر بكثير من ارتباطهن بدولتهن الجديدة، لذلك يعملن لأبناء دينهن وهم من النصارى غالباً، وهم من أعداء العثمانيين والمحاربين لهم،

أو يكُنّ من اليهود، والأمر واحد في مرارته، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذه النسوة يُربين أولادهن على محبة النصارى أو عدم كرههم على الأقل. كذلك تحرص كل واحدة على تولية ابنها الخلافة أو السلطنة ليكون لها نفوذ كبير، فنفوذها غالباً ما يكون لمصلحة أبناء دينها، وخلاف ابنها مع إخوته يكون لمصلحة أعداء العثمانيين، وقد لاحظنا دسائس روكسلان الروسية زوجة الخليفة سليمان القانوني كي يتولّى ابنها سليم الثاني الحكم. كما لاحظنا أن أم محمد الفاتح قد بقيت على عقيدتها، وكذلك زوجة أبيه الأخرى (مارا) ابنة أمير الصرب، وقد أعادها محمد الفاتح إلى أهلها بعد أن تولّى السلطة.

٥ ـ عدم وجود مهمة أساسية:

منذ أن قامت دولة بني عثمان كانت أمامهم مهمات أساسية يجب إنجازها وإلا قُضي عليهم، ومن هذه المهمات الانتهاء من الإمارات القائمة في بلاد الأناضول، والتي دولتهم إحداها، وكل دولةٍ تريد أن تتوسع على حساب الأخرى، وتحاول القضاء عليها لتحكم أرض الثانية، واستمر العثمانيون في صراعٍ مع هذه الإمارات حتى قُضي على آخرها في عهد السلطان سليم، كما كانت من المهمات الأساسية للعثمانيين فتح القسطنطينية لهدف ديني، ثم لاحتلال هذه المدينة وامتلاك أرضها، وقد سعوا لذلك، وعملوا على تطويقها فدعا ذلك إلى تقدّمهم في أوربا، وفي النهاية تمّ فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام ٨٥٧، ثم كان من مهماتهم بعد ذلك إضعاف الدول الأوربية المجاورة لهم خاصةً كي لا تحاول الهجوم على الأملاك العثمانية، وتحاول استردادها، وإثارة أوربا النصرانية، والقيام بحربٍ صليبية جديدة، وقد تمّ لهم ذلك. وكان من مهماتهم تحطيم القوة الصفوية التي عملت على نشر الشيعة في شرقي الدولة العثمانية، والتي اتفقت مع البرتغاليين النصارى ضد المسلمين، ومع المماليك ضد العثمانيين، وقد تمّ للعثمانيين ذلك، كما ضربوا الإسبان وأجلوهم عن بعض الجهات في شمالي إفريقية، وقضوا على دولة المماليك، ونازلوا البرتغاليين، وانتصروا

عليهم، وأجلوهم عن بعض المواقع التي كانوا قد احتلوها. . . فلم يعد يشعر الخلفاء أن هناك مهمةً تُهددهم وتُهدد كيانهم، لذا لم يكونوا دائماً على استعداد، ولم يبذلوا الجهد من أجل مهمةٍ جديدةٍ، بل قصّروا في الأمر، فبدأت تظهر أمامهم المشكلات التي أدّت بالتالي إلى ضعف الدولة.

٦ ـ سعة رقعة الدولة:

اتسعت الدولة العثمانية كثيراً نتيجة الفتوحات فامتدت أراضيها من أواسط أوربا حتى سواحل بحر الخزر، ومن جنوب جزيرة العرب حتى سواحل البحر الأسود الشمالية، إضافة إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وأجزاء من إيران اليوم، وشمالي إفريقية كله، وزادت مساحتها على ستة عشر مليون كيلو متر مربع، أي ضعف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الاتساع يحتاج إلى خليفة قوي الشخصية، ولا يمكن أن يتعاقب بالوراثة خلفاء أقوياء، فلا بد من الشورى واختيار الرجل القوي الأمين، ولا بدّ من أن يكون هذا القائد على أهبة الاستعداد، يُتابع الأمور بنفسه، ويُقيم منهج الله، فإن فعل ذلك أمكنه ضبط الأمور، وإذا لم يكن ذلك بدأ الضعف وهذا ما حدث، وخاصة أنه انتهى عهد الأقوياء الذين بذلوا وبنوا، وجاء دور الذين ورثوا المجد ولم يُقدّموا شيئاً، ولم يُضحّوا بشيء، بل تركوا الأمر لغيرهم فصعُب عليهم القبض على زمام الأمور، وتراخت أيديهم عن أملاكهم فضعفت الدولة، وخاصةً يجب أن نعلم صعوبة المواصلات يومذاك والعقبات الطبيعية التي تحول دون الوصول إلى منطقة ما لقمع حركة فيها، أو لدعم والٍ أو. . . . وهذا ما يُشجّع أصحاب النفوذ، الطامعين في السلطة والمصالح في أن يثيروا الفوضى أو يعبثوا في الأمن وهذا ما يؤدي إلى الضعف.

٧ ـ الصليبية الأوربية:

كانت أوربا عامة وعلى رأسها البابا تُذكي الحماسة الصليبية ضد

العثمانيين كي تقف الدول كافة في وجه التوسع الإسلامي القادم من الجنوب الشرقي، ومع أن هذه الدول الأوربية لها مصالح تتضارب بعضها مع بعض، وينشأ خلافات وحروب إلا أنها تلتقي معاً ضدّ المسلمين، وعندما تحاول بعض هذه الدول أن تستفيد من قوة الدولة العثمانية فتعقد معها اتفاقات أخرى إلا أنها لا تستطيع أن تقوم بالتزاماتها كاملةً تجاه العثمانيين بسبب الروح الصليبية التي تحملها، وبسبب التيار الأوربي الصليبي الذي تخشاه أيضاً بسبب مصالحها ففرنسا عندما اتفقت مع الدولة العثمانية لتعملان معاً ضدّ النمسا، ومع أن مصالح فرنسا أكثر من مصالح الدولة العثمانية في ذلك، إذ أن أملاك النمسا أصبحت تحف بفرنسا من كل جهةٍ غير أن فرانسوا الأول ملك فرنسا أحجم عن القيام بدوره خوفاً من أن يُرمى بالمروق من النصرانية باتحاده مع دولةٍ إسلاميةٍ ضدّ دولةٍ تدين بدينه، وقد هدده البابا بذلك، وربما كانت الامتيازات القنصلية التي قدّمها سليمان القانوني لفرنسا والبندقية إنما كانت الغاية منها تحطيم تجمع الدول الصليبية ضده وفك عقدها، واستغلال خلافها فيما بينها، والواقع أنه قدّم الكثير، والذي كان سبباً رئيسياً في ضعف الخلافة العثمانية والذي أسرع فيها بالسير نحو حتفها إلا أنه لم يستفد كثيراً من هذه الامتيازات التي قدمها لتلك الدول إذ أن النزعة الصليبية هي المحركة لهم، وإن أظهروا مؤقتاً موافقتهم للعثمانيين، أو أن مصالحهم برزت مؤقتاً فوق تعصبهم.

وإذكاء الروح الصليبية لا يُثير الدول الأوربية فقط، وإنما يُثير النصارى الذين يعيشون في رعاية الدولة العثمانية أيضاً، فكانوا يقومون بالحركات ضدّ الخلافة وتدعمهم الدول النصرانية وهذا ما يؤدّي إلى التمرد وإشعال الثورات والحروب، وبالتالي إلى إنهاك الدولة العثمانية وإضعافها.

٨ ـ عدم الانصراف نحو العلم:

انصرف العثمانيون بكل ثقلهم نحو التدريب العسكري والقتال وتعبئة الجيوش وبناء الأساطيل، وربما كانت المهمة الملقاة على عاتقهم اضطرتهم

إلى ذلك، أو أن طبيعتهم الأولى الأقرب إلى البداوة قد حرصوا عليها أو لم تسمح لهم بالتوجه نحو العلم بسبب انصرافهم إلى ميادين القتال والتوجه إلى ما أسند إليهم من مهمات، فبقيت الأساليب العلمية على طريقتها الأولى لم ينلها شيء من التطور وكانت أوربا في البداية أقل منهم حظاً في هذه الناحية، غير أن انطلاقة أوروبا نحو الخارج بعد طرد المسلمين من الأندلس، ومحاولة ملاحقتهم، ومعرفة رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الشرق، وبدء عهد التجارة قد جعل دول أوربا تحصل على شيء من الثراء فبدأت تتطور في حياتها المادية، كما أن احتكاك الأوربيين من قبل في الأندلس، وصقلية، وجنوبي فرنسا، وتلقّي العلم في هذه المراكز على أيدي المسلمين، ومحاولة تلمس طريق العلم، وجاء الثراء ودعم ذلك فبدأ يؤتي ثماره... ففي الوقت الذي بدأت فيه أوربا تتطوّر وتتقدّم في المجال العلمي بقيت الدولة العثمانية محافظة على ما كانت عليه قديماً، ولم تواكب التطور العلمي فنجم عن ذلك التخلّف، ومع الأيّام برز التطوّر الأوربي وأصبح واضحاً وغدا التخلّف العثماني جلياً فظهرت الهزيمة النفسية والفكرية لدى العثمانيين... وكفى هذا ضعفاً بل قتلاً، وبرزت فكرة تقليد أوربا والسير على خطاها إذ كان ينظر إلى أوربا نظرة الأعلى... وهذا هو الضعف، وهو الهزيمة، وهو عقدة الصغار... ولا يمكن أن يتمّ نصر والصورة على هذه الحال.

٩ ـ الحركات والثورات:

لا شك أن ضعف الدولة يجعل أصحاب الأطماع والمصالح يتحرّكون، يريدون تحقيق منافع لهم، أو تأسيس إمارات ودول على أنقاض الدولة الضعيفة، أو اقتطاع أجزاء منها يبنون عليها أمجادهم، وقد ساعدهم في الدولة العثمانية اتساع رقعة الدولة إذ يصعب عليها أن تطالهم لبعد الشقة، أو لوعورة مناطقهم، ولضعف الدولة بصورةٍ أساسية، إلا أن نقطة تبرز هنا هي الامتيازات الأجنبية التي حصلت عليها الدول الأوربية بحيث يمكنها الاتصال مع النصارى الذين يعيشون في الدولة العثمانية، ويحثّونهم

على تحريض الناس للقيام بحركات، وخاصة الأقليات الموجودة والموزعة في أرجاء الدولة العثمانية كالدروز، والأرمن، وغيرهم.

ولم يقم النصارى أنفسهم بحركات وإنما كانوا يكتفون بالتحريض، لا يقومون هم لأنهم يخشون بطش الدولة، ولا تستطيع الدول النصرانية حينذاك حمايتهم، أما التحريض فلا ينالهم بطش الدولة لأنهم ليسوا هم الذين يقفون في الوجه، وإنما يعملون من الخلف، وعندها تحميهم الدول الأوربية التي يرتبطون بها، ولا تستطيع الدولة محاكمتهم أمام القضاء الشرعي.

١٠ ـ الجمعيات السرية والتنظيمات:

عندما زاد ضعف الدولة العثمانية تجرأ النصارى، وبدؤوا يعملون على تأسيس الجمعيات، وإن كانت تحمل الطابع الأدبي، أو تأخذ الصفة العلمية إلا أنها تعمل في الحقيقة ضدّ الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه شجّعوا على تأسيس الجمعيات السرية وتشجعوا أحياناً وانضموا إليها، ولعل أهم هذه الجمعيات ما حمل الدعوة القومية، وليس لهم من دعوة يمكنهم أن يحملوها وتعمل على تهديم الدولة سوى القومية لذا فقد ساهموا فيها ونشطوا، وكانت عاملاً مهمّاً في إضعاف الدولة إذ انقسم أبناؤها إلى قوميات متعددة تعمل كل منها بين أبناء جنسها، وتريد الانفصال بهم عن الدولة، ويكفي في الانفصال والتجزئة ضعفاً للدولة، أو تقطيع أوصالها وقبرها في النهاية وهذا ما حدث.

١١ ـ ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل:

تعدد الجواري والمحظيات لدى أصحاب السلطة، وينشأ عن هذا تفكك الأسرة الحاكمة لتعدد أمهات الأولاد وبالتالي اختلاف الأولاد فيما بينهم، وتدخُّل هذه الجواري والنساء في القصر عامةً في سياسة الدولة والتوسُّل لدى الخليفة لرفع هذا، وتسليم الصدارة العظمى إلى هذا، وبين

هذه النساء يعيش ولي العهد محجوباً لا يعرف شيئاً من أمور الدولة فعندما يؤول إليه الأمر ينظر إلى ما يُعرض عليه نظرة الجاهل فيتلاعب به الوزراء، وكبار المسؤولين أو الصدر الأعظم. وبعدئذٍ أصبح عدد من الخلفاء ألعوبة بيد الإنكشارية فيعزلون، ويقتلون، وينصّبون.

وربما يخون الصدر الأعظم الدولة، إذ وصل إلى هذا المنصب عدد منهم غرباء عن البلاد، أو لم يكونوا مسلمين، فأظهروا الإسلام، وأبدوا الطاعة، وقدّموا الخدمات فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، وعندما حكموا نفّذوا ما خططوا له، وخانوا الدولة، وقد يلاحظ هذا الخليفة فيُنزل فيهم القتل، ولكن يكون قد حدث ما أضر بالأمة وأنهكها.

١٢ ـ الحرص على جمع المال:

إن القتال قائم على مختلف الجبهات، وتجهيز الجيوش يحتاج إلى مال، والمنطلقون إلى الجبهة يتركون أعمالهم من زراعة وصناعة فتقل الواردات، وهذا ما يجعل الدولة توافق على أخذ الجزية، والتعويض من الأعداء بعد انتصارها عليهم لتسد العجز.

١٣ ـ وفوق كل هذا وذاك:

كان من أهم أسباب الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية هو مخالفة منهج الله، فالدولة العثمانية منذ أن قامت كانت العاطفة الإسلامية جيّاشةً، ولكن العاطفة لا تقدّم شيئاً، فلما تبعتها التربية الإسلامية والتدريب السليم للنظام الجديد العسكري الذي أوجد وهو الإنكشارية كانت القوة وكان الفتح، وكان التوسع، فلما ضعُفت التربية الإسلامية، وسرى تعاطي الخمرة، وبدأت أعمال السلب عند الفتح، وفي هذا انحراف واضح لمنهج الله، ثم وجد عدم الطاعة فلما حاول الخليفة العثماني الرابع مراد الثالث منع شرب الخمر فشل لأن الإنكشارية لم تطعه، ولم يتمكن من إجبارها فتراجع عن القرار، واستمر الانحراف... وزادت أعمال السلب

والنهب... وتبعتها أحداث الفوضى، والثورات إن لم تنفذ رغبات الجند... بل وصل الأمر إلى المخالفة، وقتل الولاة، وإظهار العصيان، هذا من جانب الإنكشارية أما من جانب السلاطين فقد انصرفوا عن الاستعداد المادي والمعنوي لجهاد الأعداء من طواغيت وظالمين فعكفوا في قصورهم، وتركوا قيادة الجيوش لكبار ضباط الإنكشارية بعد سليمان القانوني، كما تركوا بحث الأمور التي تعترض الدولة وأوكلوا ذلك إلى الصدر الأعظم، وجلسوا هم في قصورهم يبحثون في شهواتهم وملذاتهم وأمور دنياهم، ولا شك فإن الولاة وكبار الموظفين صورة عن السلاطين والخلفاء، ويتبع ذلك من هو دونهم، فالصغير يُقلّد الكبير حتى تصل إلى أسفل السُلّم، وفي هذا انحراف عن منهج الله. ثم هناك إعطاء الامتيازات حتى للمسيء من الإنكشارية بل ربما تكون الإعطاءات أكثر والإقطاعات أكبر، والامتيازات أوسع لمن يُظهر الفوضى وعدم الطاعة خوفاً منه... وفي هذا انحراف، فمن لم يستطع أن يقف في وجه الظالمين يتخلّى عن الأمر ليحل محلّه من يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، وليس هناك من ناصح، أو ناهٍ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾[1]. ويمكن أن نشير أيضاً إلى انحراف عظيم وهو قتل الإخوة الأبرياء ومن غير ذنب سوى الخوف من المنازعة على السلطان.

ولم يستعدّ العثمانيون معنوياً فقد أهملوا الجانب العلمي ليتقوّوا مادياً، فالدراسة، والبحث، ومتابعة التطور والنتائج تؤدي إلى الابتكار والاختراع الجديد الذي تستفيد منه الدولة لإنشاءات تستطيع أن تصد أعداءها بها بل تتفوّق عليهم، وفي الوقت نفسه لم يُذكوا روح الجهاد، ولم يُلقوا الدروس والخطب الإيمانية لترتفع معنويات الجند، وإنما كانوا يكتفون بالقول بأننا

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨، ٧٩.

نُقاتل كفاراً، ويكتفون بالعاطفة إذا كانت قد بقيت هناك عاطفة، وإن وجدت فعند القليل، أما الباقي فلا يعرفون شيئاً لِمَ يُقاتلون؟ ومن يقاتلون؟. كما لم يستطيعوا نشر الإسلام في المناطق التي فتحوها إذ لم تكن عندهم إمكانات فإن فاقد الشيء لا يعطي شيئاً. وإن حاولوا أحياناً نشر الإسلام بالسيف، وهذا لا يُفيد، وإن أفاد ففي الظاهر ولا يلبث أن يتغيّر إن قُدّم له ما هو أفضل في نظره، أما عن نتيجة الفكر والإقناع، والقدوة الصالحة، والتطبيق السليم للإسلام لتظهر النتائج المشجعة فهذا لم يحدث، وهذا كله عاطفة فقط.

وتولّى في هذه المرحلة خمسة عشر خليفة ويُعد أكثرهم مغموراً، إلا من حدثت في أيّامه أحداث جسام فسلّطت الأضواء عليه وعُرف بسببها، وأولهم وهو سليم الثاني، وتعود معرفته لتوليه الحكم بعد أبيه الذي طارت شهرته، وبصفته أول الخلفاء الضعفاء، وقد توقف الخط البياني عن الارتفاع ثم هبط فجأة وبدأت الدولة تتراجع عن أجزاء من أملاكها تدريجياً حتى لم يبق لها إلا القليل ثم انهارت. وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت إذ زادت على ثلاثة قرون ونصف (٩٧٤ـ ١٣٢٧) فذلك يعود لهيبة الدولة السابقة، واتساع رقعتها، والعاطفة الإسلامية الباقية نسبياً، واختلاف الدول الأوربية فيما بينها على التقسيم، وقيام بعض الخلفاء الأقوياء نسبياً.

١ ـ سليم الثاني:

ولد عام ٩٣٠ في أيام خلافة أبيه، وأمه روكسلان الروسية، وتولّى بعد أبيه عام ٩٧٤، وبعد أن قتل أبوه ابنيه الآخرين بدسائس من زوجته روكسلان، وابنها سليم أيضاً ـ كما مر معنا ـ. وأعطى الجنود العطايا بعد أن تمنّع، فأظهروا العصيان فاضطر إلى العطاء، وهو في بلغراد ينتظر وصول جثة أبيه.

كان السلطان سليم الثاني ضعيفاً إلا أن هيبة الدولة في السابق، وقوة وزيره محمد الصقلي قد أوقف سقوط الدولة أو ظهور الضعف المباشر.

عقدت الدولة صلحاً مع النمسا عام ٩٧٦، اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر، وعلى أن تدفع النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقررة، ومقابل اعترافها أيضاً بتبعية أمراء ترانسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

وجددت هذه المعاهدة مع بولونيا مع اعتراف الدولة العثمانية بالتحالف الذي تمّ بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

وجددت المعاهدة مع فرنسا عام ٩٧٧، وكان ملك فرنسا شارل التاسع الذي تولّى الحكم بعد موت أخيه فرانسوا الأول، وهما ولدا هنري الثاني، وأيّد سليم الثاني الامتيازات القنصلية، ونتيجة ذلك بدأت فرنسا ترسل إرساليات نصرانية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية مثل بلاد الشام، وبذلك بدأ العمل من الداخل ضد العثمانيين، وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا، وأيدت الدولة ترشيح أخي ملك فرنسا ملكاً على بولونيا معاداة للنمسا وروسيا، وأصبحت بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية.

استطاعت الدولة قمع ثورةٍ قامت باليمن بإمرة المطهر بن شرف الدين، فأرسلت جيشاً كبيراً بقيادة عثمان باشا، ودعم سنان باشا والي مصر ذلك، فقضت على الثورة عام ٩٧٦.

وفُتحت قبرص عام ٩٧٨، وكانت تتبع البندقية من قبل، وأصبحت تتبع الدولة العثمانية، حتى جاءت إنكلترا عام ١٢٩٦هـ. كما أخذت من البندقية بعض المواقع على بحر الأدرياتيك، وغزت جزيرة كريت، فأسرعت البندقية وعقدت حلفاً مع البابا وإسبانيا للوقوف في وجه العثمانيين، وانضمّ إلى ذلك رهبان جزيرة مالطة، وحدثت معركة بحرية انتصر فيها التحالف النصراني، فابتهج البابا وأعلن الانتصار الصليبي، واستاء المسلمون في إستانبول، وهمّوا بالقضاء على النصارى في مدينتهم لولا منع الوزير محمد الصقلي قيام تلك التعديات. وأسرع الوزير بإنشاء أسطول جديد للثأر مما حدث، واختلف النصارى فيما بينهم، إذ عرضت البندقية الصلح معترفة بدخول العثمانيين لجزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية خوفاً من تجديد القتال، وقد تم الصلح عام ٩٨٠.

وأما إسبانيا فقد احتل دون جوان تونس عام ٩٨٠، وارتحل عنها العثمانيون دون قتال لقلة عددهم، وأعيد مولاي حسن الحفصي إلى الحكم. لكن العثمانيين عادوا فاسترجعوا تونس بعد ثمانية أشهر بقيادة سنان باشا.

وحدث تمرُّد في إمارة البغدان غير أنه قد قضي عليه عام ٩٨١.

وتوفي الخليفة سليم الثاني في ٢٧ شعبان عام ٩٨٢ بعد أن حكم ثمانية أعوام.

٢ ـ مراد الثالث:

ولد عام ٩٥٣، وتولّى الخلافة عام ٩٨٢ بعد وفاة أبيه. وبعد أن تولّى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، غير أن ثورة الإنكشارية أجبرته على ترك هذا القرار. ثم أمر بقتل إخوته الخمسة خوفاً من نزاعه على الملك.

ترك ملك بولونيا هنري منصبه، وعاد إلى فرنسا، فأوصى الخليفة أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وأصبحت بولونيا فعلاً تحت حماية العثمانيين وذلك عام ٩٨٣. واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام ٩٨٤ ومدتها ثماني سنوات، وأغار التتار على حدود بولونيا عام ٩٨٤ فاستنجدت بالخليفة فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية.

وجدّد للدول الأوروبية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية، وزاد عليها أن أصبح السفير الفرنسي يأتي في مقدمة سفراء الدول الأجنبية الذين كثروا في إستانبول، وكانت كل سفن الدول الأوروبية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي باستثناء البندقية، ثم جاءت بعدئذ انكلترا التي حصلت على امتيازات لتجارها أيضاً.

وفي عام ٩٨٥ حدث في مراكش ثورة، واستعان زعيمها بالبرتغاليين النصارى، واستنجد السلطان بالخليفة فأنجده، وأرسلت قوة من طرابلس

اشتبكت مع البرتغاليين في معركة القصر الكبير جنوب طنجة انتصر فيها العثمانيون وحلفاؤهم على البرتغاليين وأنصارهم، وأُعيد السلطان الشرعي إلى حكمه.

وفي الدولة الصفوية توفي طهماسب عام ٩٨٤، وخلفه ابنه حيدر فقُتل بعد ساعات، ودفن مع أبيه، وتولّى أخوه محمد خدابنده، واختلف الناس عليه، فاستغلّ العثمانيون هذه الفرصة، وأرسلوا جيشاً احتل الكرج، ودخل عاصمتها تفليس عام ٩٨٥، وفي العام التالي بعد انقضاء فصل الشتاء، دخل العثمانيون شروان (أذربيجان الشمالية). وفي عام ٩٩١ استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا على بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد بجنده إلى بلاد القرم عبر جبال القوقاز لتأديب خان القرم الذي رفض إرسال مدد للعثمانيين لمحاربة الصفويين، وقد أنهكه التعب لبعد الشقة، ولغارات الروس عليه، وأخيراً تمكن خان القرم من حصاره، فمنّى عثمان باشا أخا الخان بالحكم، فترك أخاه وانضم إلى العثمانيين بعد أن قتل أخاه بالسمّ، فدخل عثمان باشا (كافا) عاصمة الخان، ورجع إلى إستانبول براً، وعُيّن صدراً أعظم، وكان محمد باشا الصقلي قد قُتل، وكثرت التولية والعزل بعده، وكان عماد الدولة وركنها الأساسي.

وسار عثمان باشا ثانية إلى الصفويين فانتصر على قائدهم حمزة ميرزا، ودخل تبريز عاصمتهم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وتنازل الصفويون للعثمانيين عن بلاد الكرج، وشروان، ولورستان الواقعة جنوب أذربيجان عام ٩٩٣، ثم قلت الحروب العثمانية.

ومع عدم الحرب ثارت الإنكشارية الذين اعتادوا النهب والسرقات، وثاروا في إستانبول، والقاهرة، وتبريز، وبودا، وقتلوا الولاة، فأشار سنان باشا الذي أعيد إلى منصب الصدر الأعظم بإشغالهم بالحرب في المجر، وبدأت الحرب ولكن بجنود عثمانية اختل نظامها، واعتادت على الفوضى، فهزمت أمام النمسا التي دعمت المجر، واحتلت عدة قلاع حتى استعادها سنان باشا عام ١٠٠٣هـ.

وأعلن أمراء الأفلاق، والبغدان، وترانسلفانيا التمرّد، وانضموا إلى النمسا في حربها للعثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣، ودخل بخارست عاصمة الأفلاق. إلا أن أمير الأفلاق قام برد فعل واستطاع أن يحرز النصر فانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب، وخسروا عدة مدن.

وتوفي الخليفة مراد الثالث عام ١٠٠٣هـ.

٣ ـ محمد الثالث:

ولد عام ٩٧٤، وهو ابن جارية بندقية الأصل اسمها (بافو)، استرقها قراصنة البحر، وبيعت في السراي، فاصطفاها السلطان مراد الثالث لنفسه، وأسماها (صفية)، وكان مولعاً بها لذا كان تدخلها وأثرها في السياسة كبيراً. وتولّى محمد الثالث الخلافة بعد موت أبيه عام ١٠٠٣، فأمر مباشرة بخنق إخوته التسعة عشر، ودفنهم مع أبيه.

ترك شؤون الدولة بيد الصدر الأعظم، فكثُرَت المفاسد، وهزمت الجيوش أمام أمير الأفلاق ميخائيل الذي تمكن بمساعدة النمسا أن يضمّ إليه إقليم البغدان، والجزء الأكبر من ترانسلفانيا، لعدم وجود القادة الأكفاء.

ورأى محمد الثالث ما حلّ بجيوشه فقادها بنفسه، وهزم جيوش المجر والنمسا في موقعة (كرزت) عام ١٠٠٥، واستمرت المعارك ما بين الطرفين، وكانت سجالاً.

وحدثت في أيامه ثورة في الأناضول، كان عمادها الجنود الذين فرّوا من معركة (كرزت) حيث نُفوا إلى الأناضول، فقام أحدهم، واسمه (قره يازجي)، وادعى رؤية الرسول ﷺ في المنام، وقد وعده بالنصر على آل عثمان، فأعلن التمرُّد بعد أن تبعه عدد كبير من الجنود المنفيين، ودخل مدينة عينتاب، وحاصرته الجيوش العثمانية، فأعلن الاستسلام على أن يُعطى ولاية أماسيا، فوافق العثمانيون على ذلك، فلما ابتعدت عنه الجيوش أظهر العصيان ثانية، وساعده أخوه (دلي حسن) والي بغداد، وجاء الجيش

العثماني بقيادة صقلي حسن باشا فانتصر على قره يازجي الذي توفي متأثراً بجراحه، وجاء أخوه فانتصر على صقليّ حسن باشا وقتله عام ١٠١٠، ولما قوي أمره أخذته الدولة بالسلم والإرضاء، وأعطته ولاية البوسنة فانصرف لقتال الأوروبيين حتى فني وجنوده.

وقامت ثورة الخيالة (السباه) في إستانبول مطالبين بالتعويض عما لحق إقطاعاتهم من أضرار بسبب الثورة هناك، ولم يكن بإمكان الدولة أن تُعطيهم لعجزها، فاستعانت عليهم بالإنكشارية، وقضت على ثورتهم، بعد أن أفسدوا، ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليه.

وتوفي السلطان عام ١٠١٢.

٤ ـ أحمد الأول:

ولد عام ٩٩٨، وتولّى الحكم عام ١٠١٢ بعد وفاة والده، ولم يتجاوز عمره الرابعة عشرة، ولم يقتل أخاه مصطفى كما جرت العادة، وإنما أبقاه محجوزاً مع الجواري والخدم. وقامت في عهده عدة حركات ضد الدولة منها:

حركة جان بولاد الكردي، وحركة والي أنقرة قلندر أوغلي، وحركة فخر الدين المعني الثاني حفيد فخر الدين المعني الأول الذي انضمّ إلى السلطان سليم الأولى عندما دخل بلاد الشام عام ٩٢٢، وآل المعني أسرة درزية، وقد تمكّن فخر الدين المعني الثاني الذي أخذ السلطة في لبنان عام ٩٩٩ أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز وأمثالهم، وأن يتقرب من الخليفة، ويُظهر الطاعة له حتى أعطاه الإشراف على منطقة جبال لبنان، والسواحل، وفلسطين، وأجزاء من سوريا، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال فبنى القلاع والحصون، وكوّن لنفسه جيشاً زاد عدده على الأربعين ألفاً، ثم أعلن العصيان عام ١٠٢٢، غير أنه هُزم وفرّ إلى إيطاليا، وكان قد تلقّى الدعم من إمارة فلورنسا الإيطالية، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالطة فرسان القديس يوحنا.

واستغل الشاه عباس ملك الصفويين، والذي تولّى الأمر عام ٩٩٣ هذه الثورات فاسترجع شمالي العراق، ومدن تبريز، ووان، وضعُفت جيوش الدولة العثمانية عن المقاومة، ومات الصدر الأعظم مراد باشا الملقب بـ(قويوجي) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في القضاء على الفتن والثورات، والحفاظ على الدولة رغم أن سنّه كانت أكثر من الثمانين عندما استلم منصبه هذا. لذا فقد أبرم الصلح بين العثمانيين والصفويين ١٠٢١ فقدت بموجبه الدولة العثمانية كل ما ضمه سليمان القانوني من أراضٍ في تلك الجهات بما في ذلك بغداد، وكان هذا بداية التراجع.

كما عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ١٠١٥ تخلّصت فيه النمسا مما كانت تدفعه من جزيةٍ سنويةٍ للعثمانيين، على أن تدفع مائتي ألف دوكاً دفعةً واحدةً، وكانت الجزية السنوية ثلاثين ألف دوكاً. وذلك بعد الخلاف على بلاد المجر ومحاولة النمسا إبعاد أمير المجر عن العثمانيين، وإغرائه ليكون ملكاً بمساعدة النمسا، وبقيت المجر بعد هذا الصلح تتبع الدولة العثمانية.

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان مالطة، والإمارات الإيطالية، وغالباً ما كان النصر إلى جانب النصارى، لذا سُحبت السفن العثمانية من البحر الأسود، وتوجّهت إلى البحر المتوسط فاستغل أمراء القازاق هذا التصرّف، وأغاروا على ميناء سينوب ونهبوه، فوقع الخلاف بين الخليفة والصدر الأعظم نصوح باشا الذي قُتل إثر ذلك.

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانكلترا، وحصلت هولندا على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق من التعدي على الدولة العثمانية. وانتشر شرب الدخان بواسطة الهولنديين، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون فاضطر العلماء إلى السكوت عنه.

وتوفي السلطان أحمد الأول عام ١٠٢٦، وعمره ثمان وعشرون سنة، أمضى نصفها في الحكم.

٥ ـ مصطفى الأول:

كان عثمان بن أحمد صغيراً، لذا فقد عهد الخليفة أحمد الأول إلى أخيه مصطفى، وكان محجوزاً بين الجواري والخدم لذا لم يعرف شيئاً من أمور الحكم عندما آلت إليه. وهو من مواليد عام ١٠٠١، ولكن لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى عُزل، ونُصّب ابن أخيه عثمان بن الخليفة أحمد الأول رغم صغره.

٦ ـ عثمان الثاني:

ولّي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة. أطلق قنصل فرنسا، وكاتبه، ومترجمه الذين سجنهم عمه مصطفى لتدخلهم في شؤون الدولة ومساعدة أحد أشراف بولونيا على الهرب من السجن، كما اعتذر لملك فرنسا عما حدث. وقتل أخاه محمداً حسب العادة السيئة المتبعة.

أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان، لكن حدث الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩ بناءً على رغبة بولونيا، وطلب الإنكشارية الذين تعبوا في القتال، فغضب الخليفة عليهم. وعندما أراد استبدالهم بمن درّبهم ثاروا عليه، وقبضوا عليه، ثم قُتل بعد أن عزلوه، وأعادوا مكانه عمه مصطفى الأول عام ١٠٣١.

وكان عثمان الثاني قد عفا عن فخر الدين المعني الثاني وسمح له بالعودة إلى جبل لبنان، فبدأ من جديد بالتحرّك للثورة والعصيان على الدولة.

وعندما وصلت الأخبار بقتل الخليفة، تمرّد كل طامع، فأعلن والي طرابلس الاستقلال، وطرد الإنكشارية من ولايته، كما أعلن العصيان والي أرضروم أباظة باشا ودخل سيواس وأنقرة، وزادت الاضطرابات وعمّ نهب الإنكشارية... ثم عيّنوا (كمانكش علي باشا) صدراً أعظم، فأشار عليهم بعزل الخليفة مصطفى الأول لعجزه، وتنصيب مراد الرابع ابن الخليفة أحمد الأول.

٧ ـ مراد الرابع:

ولد عام ١٠١٨، وتولّى أمر الخلافة بعد عزل عمّه مصطفى عام ١٠٣٢، وهو أخو عثمان الثاني، ولصغر سنه الذي لم يزد على الرابعة عشرة فقد سيطر عليه الإنكشارية في بداية الأمر.

قام قائد الشرطة في بغداد بكير آغا وقتل الوالي، وتسلّم الأمر مكانه، فأرسلت له الدولة قوةً بقيادة حافظ باشا، فحاصره في بغداد، فاتصل بالشاه عباس وعرض عليه تسليم المدينة، فسار نحوها، وفي الوقت نفسه اتصل بالقائد العثماني وعرض عليه تسليم المدينة على أن يتسلّم هو ولايتها، فوافق القائد، ودخلت جنوده المدينة قبل وصول الشاه، فلما وصل الشاه إليها، وألقى الحصار عليها مدة ثلاثة أشهر اتصل بابن بكير آغا، وأغراه بتسليم الولاية فوافق، وخان الدولة، ودخل الشاه بغداد، وقتل بكير آغا، وابنه معاً.

وفي عام ١٠٣٣ قُضي على الثائر أباظة باشا بعد معركة قيصرية. وسار الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا لاسترداد بغداد غير أن الإنكشارية لم يستمرّوا معه في القتال، وعُزل الصدر الأعظم نتيجة ذلك. وعاد أباظة باشا للثورة، وأحرز النصر، وسار إليه خسرو باشا الصدر الأعظم الجديد، وأدخله في الطاعة، وعيّنه والياً على البوسنة عام ١٠٣٧.

وفي عام ١٠٣٨ توفي الشاه عباس، وتولّى مكانه ابنه الصغير شاه ميرزا فاستغلّ الصدر الأعظم الفرصة وسار إلى بلاد الصفويين، ودخل مدينة همدان عام ١٠٣٩، وحاصر بغداد، ولم يتمكّن من فتحها بعد مرتين من الحصار.

وثارت الإنكشارية، فتأثّر الخليفة من ثورتهم وفسادهم، وكان قد كبُرت سنّه فوقف في وجههم، وقتل رؤوس الفتنة منهم، فخافوه، وسكنوا.

وثار فخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان، فنهض إليه والي دمشق، وانتصر عليه، وأسره وولديه، وأرسلهم إلى إستانبول غير أن الخليفة قد عاملهم بإكرام رغم أنهم أكثر الناس خيانةً باتصالهم الدائم مع الصليبيين عامةً، والطليان خاصةً، وأكثر الثائرين فساداً في العقيدة، وهذا ما جعل الكفار يثنون عليه، وهذا الإكرام من قبل الخليفة شجّعهم، شجّع


فيينا
المجر
بودابست
ترانسلفانيا
ياش
البغدان
بلغراد
بخارست
الأفلاق
البوسنة
سيراجيفو
بحر الأدرياتيك
نيش
صوفيا
بلغاريا
فارنا
أدرنة
استانبول
مقدونيا
ألبانيا
روما
إيطاليا
اليونان
المورة
صقلية
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
مالطة

مصور رقم [١٦]

قرقماز حفيد فخر الدين بالتحرك، لذلك فإن الخليفة أعاد النظر، وقتل فخر الدين وابنه الكبير عام ١٠٤٤، وأرسل إلى قرقماز من أخضعه.

وسار الخليفة بنفسه إلى الصفويين، وفتح بعض القلاع، وأمر بقتل أخويه بايزيد، وسليمان، ثم انطلق إلى مدينة تبريز فدخلها عنوةً عام ١٠٤٥، ورجع السلطان إلى إستانبول، فقويت عزيمة الصفويين، وانتصروا على الجيوش العثمانية، واستردّوا بعض القلاع، ووصلت الأخبار إلى إستانبول فرجع الخليفة على رأس جيش فقويت معنويات العثمانيين وتمكّنوا من دخول بغداد ١٠٤٨، وإن فقدوا الصدر الأعظم طيار محمد باشا في ميدان المعركة، وبقيت بغداد بعدها بيد العثمانيين. وتمّ الصلح بين الدولتين عام ١٠٤٩.

وتوفي مراد الرابع عام ١٠٤٩، وعمره إحدى وثلاثون سنة.

٨ ـ إبراهيم الأول:

هو ابن الخليفة أحمد الأول، ولد عام ١٠٢٤، وتولّى الخلافة بعد وفاة أخيه مراد الرابع عام ١٠٤٩ أي أن عمره كان يوم تسلّمه الحكم خمساً وعشرين سنة.

احتل القازاق مدينة آزاق (آزوف)، فأرسل لهم إبراهيم الأول جيشاً استردّها عام ١٠٥٢، وكذلك فقد فتحت في أيامه جزيرة كريت، وكانت من قبل تتبع البندقية، وكان فتحها عام ١٠٥٥، وأراد البنادقة الثأر فأحرقوا عدداً من مرافئ المسلمين في بلاد الموره، وأراد الخليفة الردّ على ذلك بقتل النصارى غير أن المفتي لم يوافقه على ذلك فلم يحدث.

وأراد أن يفتك برؤوس الإنكشارية لمعارضته، وعلموا بذلك فتآمروا على عزله، وتولية ابنه الصغير محمد الرابع الذي لم يزد عمره على السابعة، وتمّ ذلك عام ١٠٥٨، وبعد عشرة أيام رغب الخيالة (السباه) إعادة إبراهيم فخاف من عمل على عزله، لذا فقد أسرعوا وقتلوه في ذلك العام.

٩ ـ محمد الرابع:

ولد عام ١٠٥١، وتولّى الحكم بعد أبيه عام ١٠٥٨، وكان عمره سبع سنوات، ولصغر سنه فقد عمّت الفوضى.


الفتوحات العثمانية
محمد الفاتح
سليم الأول
سليمان القانوني
سليم الثاني
أحمد الأول / عثمان الثاني / مراد الرابع
النمسا
فيينا
بلغراد
البحر الأسود
استانبول

مصور رقم [١٧]

اضطر حسين باشا الذي كان يُحاصر مدينة (كنديا) في كريت أن يرفع الحصار عنها للفوضى التي أثارتها الإنكشارية.

وقامت ثورة في الأناضول بزعامة رجل يعرف (قاطرجي أوغلي) أي ابن سائق البغال، ودعمه (كورجي يني) وقد انتصر على والي الأناضول أحمد باشا، ثم توجّها نحو إستانبول، ولكن اختلفا فسلمت العاصمة منهما لاختلافهما، وانتصر عليهما الخليفة لذلك الخلاف الذي وقع بينهما، فقتل (كورجي يني)، وطلب (قاطرجي أوغلي) العفو، وتسلّم ولاية القرمان، ورغم انتهاء هذه الثورة فلم تتحسّن الأوضاع الداخلية، بل ولا الخارجية.

انتصرت البندقية على أسطولٍ عثماني، واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان فيه، وتحميانه، وهما جزيرتا (تنيدوس) و(لمنوس)، وبذلك فقد تحكّمت البندقية بهذا المضيق، وحالت دون وصول المواد الغذائية إلى إستانبول من هذا المضيق فارتفعت الأسعار.

وتولّى عام ١٠٦٧ الصدارة العظمى محمد كوبريلي، فقتل كثيراً من الإنكشارية حتى خضعوا، وأعدم بطريرك الروم لأنه من الذين أثاروا الفتنة سراً. وحاول استرداد ما أخذته البندقية من جزرٍ عند مدخل مضيق الدردنيل فلم يتمكّن إلا بعد جهدٍ ووقتٍ، وموت قائد البحر البندقي.

ووقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين أن يُعاونوه ضد بولونيا، وتكون تحت حماية الدولة العثمانية، ولكن الصدر الأعظم رفض ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أمراء الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا. فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء، وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصى أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم. فسار إليه الصدر الأعظم كوبريلي وهزمه ففرّ من البلاد، ولم يلبث أن عصى أمير الأفلاق بعد عودة الجيوش العثمانية إلى إستانبول وأعلن التمرّد. فرجع الصدر الأعظم إلى القتال وأخضع الثائرين.

وضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا لأن الثانية دعمت

البندقية سرّاً في جزيرة كريت، فلما اطلعت الدولة على ذلك سجنت ابن السفير الفرنسي الذي لم يقبل حلّ رموز البرقيات، وتوتّرت الحالة بين الطرفين، ودعمت فرنسا البندقية جهاراً في كريت وأنجدتها بقوة.

وتوفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي عام ١٠٧٢، وكان قد أعاد للدولة هيبتها، وخلفه ابنه أحمد كوبريلي فكان كوالده، إذ رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيشٍ لقتال النمسا، وتمكّن عام ١٠٧٤ أن يفتح أعظم قلعةٍ في النمسا، وهي قلعة (نوهزل) شرقي ڤيينا فأرعب أوربا، ثم دخل مورافيا[١] وسيليزيا[٢]. واضطر ملك النمسا ليوبولد أن يرجو البابا العمل على مساعدة فرنسا له ضد المسلمين، وكان قد رفض ذلك في البداية اعتماداً على النفس وإظهاراً للقوة، فتوسّط البابا في ذلك فدعمته فرنسا في ستة آلاف جندي. ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عنيفة أهمها، معركة (سان غوتار)، ولم يحصل أحد الطرفين على نصر، ثم وُقِّعت معاهدة صلحٍ بين الفريقين المختلفين، وقُسّمت فيها المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقّفت الحرب على هذه الجبهة، إلا أن فرنسا قد تابعت القتال في البحر المتوسط، وحدث صدام بين السفن الفرنسية والمغربية، ودخلت فرنسا الجزائر وتونس، وتمّ هذا دون إعلانٍ رسمي للحرب.

وحاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم قد رفض ذلك، ثم حاولت التهديد حيث أرسل ملك فرنسا لويس الرابع عشر السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً، وقال: إن الامتيازات كانت مِنحةً، وليست معاهدة واجبة التنفيذ، وكان ملك فرنسا يريد إعلان الحرب غير أن وزيره نصحه بعدم ذلك الفعل، وسار الوزير بسياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى

---

(١) مورافيا: المنطقة الواقعة بين إقليمي تشيكوسلوفاكيا اليوم. بوهيمية وسلوفاكيا.

(٢) سيليزيا: تقع اليوم في بولونيا، وقد ضمت إليها من ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي من المناطق الغنية بالفحم.

جُددت له المعاهدات القديمة، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس وذلك عام ١٠٨٤، وعادت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى الصفاء السابق.

رغب القوزاق في التبعية إلى الدولة العثمانية فأعلنوا ذلك، وكانوا يُقيمون في أوكرانيا والمناطق التي تقع إلى الشرق منها، وهذا ما أغضب بولونيا فأغارت على أوكرانيا التي طلبت النجدة من العثمانيين، وسار الخليفة بنفسه على رأس جيشٍ انتصر على البولونيين الذين طلبوا الصلح، فعُقد، ولم يمض على الحرب أكثر من شهرٍ واحدٍ، وقد اعترفت بولونيا فيه: بأن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم (بودوليا) في غرب أوكرانيا للدولة العثمانية، وفوق هذا الاعتراف تدفع بولونيا جزيةً قدرها ٢٢٠ ألف بندقي ذهباً، وذلك عام ١٠٨٣، وتضايق الشعب البولوني من هذه المعاهدة التي عُرفت باسم (بوزاكس)، فأعلن رفضه لها، وسار القائد البولوني (سوبيسكي) بجيوشٍ جرارةٍ وقاتل العثمانيين، وانتصر عليهم، واستلم الملك بعد وفاة ملك بولونيا ميشيل عام ١٠٨٤، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين، ثم عادت المفاوضات فعُقد صلح بين الطرفين، تنازل فيه ملك بولونيا إلى العثمانيين عما تنازل له سلفه باستثناء بعض المواقع وذلك عام ١٠٨٧.

توفي أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة العظمى صهره قره مصطفى، ولم يكن صاحب إمكانات وإنما صاحب هوى ومصالح فأثار القوزاق، فثاروا ضد العثمانيين، واستنجدوا بروسيا فوقعت الحرب بين الطرفين عام ١٠٨٨، واستمرت حتى عام ١٠٩٢ حيث عُقدت معاهدة أنهت الحرب، وبقيت الأمور كما كانت قبل الحرب، ولكن أصبح القوزاق أميل إلى أعدائهم الروس منهم إلى العثمانيين إخوانهم في السابق، وتمت هذه المعاهدة المعروفة باسم معاهدة (رادزين) نسبةً إلى المدينة التي وقعت فيها، والتي تقع جنوب غربي فارسوفيا، تمت عام ١٠٩٢.

وسار الصدر الأعظم قره مصطفى عام ١٠٩٢ لمحاربة النمسا إذ طلب

نجدته سكان الأقسام المجرية التي تخضع للنمسا إذ أثارهم استبداد النمسا المذهبي، وانتصر الصدر الأعظم في عدة معارك، ثم سار نحو فيينا، وألقى عليها الحصار مدة شهرين عام ١٠٩٤، وكادت تُفتح أمام قوة العثمانيين لولا نداءات البابا إلى الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية، فوصلت قوات ملك بولونيا، وأمراء ساكسونيا، وبافاريا الألمان إلى العاصمة النمساوية في الوقت المناسب، وهُزم المسلمون، وانسحبوا بعد معارك طاحنة، واتجهوا نحو مدينة بودا، ووجد ملك بولونيا فرصةً لثأره فتبعهم يقتل كل من يستطيع قتله من مؤخرة العثمانيين. ووصل خبر الهزيمة إلى الخليفة فغضب على الصدر الأعظم قره مصطفى، وأمر بقتله، وإعطاء هذا المنصب إلى إبراهيم باشا عام ١٠٩٥.

هذا الانتصار الذي أحرزه النصارى زاد من أوار الصليبية وشجّعها على المضي فعقدت الدول الأوروبية تحالفاً يُسمّى التحالف المقدس لاستمداد قوته من النصرانية، وقد ضمّ البابا، والبندقية، ورهبنة مالطة، والنمسا، وبولونيا، وروسيا. وبدأ هذا التحالف بالعمل ضد الدولة العثمانية.

فالنمسا بدأت تُهاجم بلاد المجر، وتمكّنت من دخول مدينة (بست)، وحاصرت مدينة (بودا)، ثم أخذت عدة مواقع، منها قلعة (نوهزل) التي سبق أن تكلّمنا عنها، وبسبب هذه الهزيمة عُزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونُفي إلى جزيرة رودوس، وعُيّن مكانه سليمان باشا الذي أسرع لنجدة (بودا) غير أن النمساويين قد دخلوها عنوةً، وهُزم العثمانيون عام ١٠٩٧، ثم هزموا ثانية عام ١٠٩٨ في (موهاكز).

وكانت جيوش ملك بولونيا (سوبيسكي) تُغير على ولاية البغدان وتُهدّدها.

وسفن البندقية تُغير باستمرار على سواحل اليونان والمورة، وتسندها سفن البابا، ورهبان مالطة، وتمكّنت من دخول (أثينا) و(كورنتا) وعدداً آخر من المدن عام ١٠٩٧.

وأمام هذه الهزائم، والفوضى التي حدثت بسبب ذلك فقد اتفق العلماء والوزير على عزل السلطان فعُزل عام ١٠٩٩، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني. وبقي محمد الرابع حتى توفي عام ١١٠٤.

١٠ ـ سليمان الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وتولّى الحكم بعد أخيه محمد الرابع عام ١٠٩٩، وكان عمره يزيد على أربع وأربعين سنة، وقد أكثر من عطايا الجند، ولم يُعاقبهم على ما فعلوه بأخيه، وهذا ما أطمعهم فيه فتمرّدوا عليه، وقتلوا قادتهم، وقتلوا الصدر الأعظم سياوس باشا، وسبوا نساءه، وعمّت البلاد الفوضى. فعيّن الخليفة صدراً أعظم جديداً هو مصطفى باشا.

انتهز الأعداء هذه الفوضى، وتقدّموا في أملاك الدولة العثمانية، فأخذت النمسا كثيراً من المواقع والمدن ومنها بلغراد عام ١٠٩٩ و١١٠٠، كما أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك) وبعض المواطن في بلاد اليونان. وتوالت الهزائم، ولم يكن الصدر الأعظم كفئاً فعزله الخليفة، وعيّن مكانه، مصطفى باشا بن محمد كوبريلي المعروف، فسار على نهج أبيه وأخيه. فحمى الأهالي من تصرّفات الجند، وأعطى الجند حقوقهم، وسمح للنصارى في إستانبول ببناء ما تهدّم من كنائسهم، وأحسن إليهم، فأحبّه الناس حتى أن نصارى المورة ثاروا ضد البندقية، وطردوا جيشها من بلادهم، وقد أرادت نشر الكاثوليكية بينهم وهم من الأرثوذكس.

واتجه على رأس جيش نحو النمسا فاستعاد بعض المواقع مما أخذت، ومنها بلغراد عام ١١٠١، كما أخضع خان القرن سليم كراي ثوار الصرب، وفي الوقت نفسه أعاد تيكلي المجري إقليم ترانسلفانيا إلى الدولة العثمانية. وبذا استعاد العثمانيون هيبتهم.

توفي الخليفة سليمان الثاني عام ١١٠٢، ولم يُنجب، فتولى مكانه أخوه محمد الثاني.

١١ ـ أحمد الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وهو أصغر من أخيه سليمان الثاني بأقل من شهرين، وقد تولّى الحكم بعده عام ١١٠٢، وفقدت الدولة في أيامه الصدر الأعظم مصطفى كوبريلي الذي كان أملها، حيث استشهد في ميدان القتال ضد النمسا عام ١١٠٢، والصدر الأعظم الذي تولى بعده، وهو عربجي باشا، وكان ضعيفاً، فاحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجه، ولم تطل أيام الخليفة فقد توفي عام ١١٠٦، وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات، وتولّى الحكم بعده ابن أخيه، وهو مصطفى الثاني ابن محمد الرابع.

١٢ ـ مصطفى الثاني:

ولد عام ١٠٧٤، وآل إليه السلطان بعد وفاة عمّه أحمد الثاني عام ١١٠٦. كان شجاعاً، قاد الجيوش بنفسه، فسار إلى بولونيا، وانتصر عليها في عدة معارك بمساعدة القوزاق. ثم انطلق إلى مدينة آزاق (آزوف) التي يُحاصرها بطرس الأكبر القيصر الروسي فأجبره على ترك الحصار عام ١١٠٧. ثم توجّه إلى بلاد المجر فهزم جيوشها أمامه، غير أنه هُزم أمام القائد النمساوي الجديد (أوجين دي سافوا) على نهر تيس، وقُتل يومذاك الصدر الأعظم محمد باشا، وغرقت أعداد من العثمانيين في النهر، ولاحقهم القائد النمساوي حتى دخل بلاد البوسنة.

استغل بطرس الأكبر انشغال العثمانيين في قتال النمساويين، فسار إلى آزوف ودخلها عام ١١٠٨.

تولّى الصدارة العظمى حسين كوبريلي، فسار نحو النمسا فتقهقرت أمامه جيوشها، ودفعهم إلى ما بعد نهر السافا، وفي الوقت نفسه انتصر الأسطول العثماني على البندقية، واستردّ بعض الجزر في بحر إيجه، ثم عقدت معاهدة بين الدولة والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا بجهود فرنسا، وذلك عام ١١١٠، وعرفت تلك المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس)

فقدت في خلالها الدولة مدينة آزوف لروسيا، وبلاد أوكرانيا، وإقليم بودوليا، وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعُقدت هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة، ولم تَبق أية دولة تدفع أي مبلغ كجزيةٍ للدولة العثمانية. وبذا كانت الدول النصرانية كلها تقف في وجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها على الوقوف في وجه التقدم للدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها، وذلك خوفاً من انتشار الإسلام في أوربا.

واستقال حسين كوبريلي من الصدارة العظمى عام ١١١٤، وثار الإنكشارية على خلفه، واستبدلوه بآخر، فثاروا عليه أيضاً، وطلبوا من الخليفة أن يعزله فرفض، فعزلوا الخليفة عام ١١١٥، وولّوا أخاه أحمد الثالث مكانه.

١٣ ـ أحمد الثالث:

ولد عام ١٠٨٣، وتولّى الخلافة عام ١١١٥، فكان عمره يومذاك اثنتين وثلاثين سنة، سار مع الإنكشارية مدةً فأعطاهم الأُعطيات، ووافقهم على قتل المفتي فيض الله حتى إذا تمكّن اقتصّ من قادتهم، وعزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي اختاروه، وكان قد قادهم في حركتهم، وعيّن صهره حسن باشا، ثم لم يلبث أن عزله، وتوالى على الصدارة العظمى الكثير، وشغل الناس بذلك، وأعداء الدولة يُخططون لقوتهم وحربهم لها، وفي مقدمتهم قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي انتصر على السويد، وقويت دولته، ولم يوافق الصدر الأعظم نعمان كوبريلي دعم السويد ضد روسيا. وجاء الصدر الأعظم الجديد بلطجي محمد باشا فأعلن الحرب على الروس، وقاد الجيوش ضدهم، وتمكّن من حصار القيصر وخليلته كاترينا الأولى التي أغرت الصدر الأعظم ففكّ الحصار، ونجا القيصر، وخليلته، وجيشه من الإبادة، ووُقّعت معاهدة بين الطرفين تعهّد فيها القيصر بعدم التدخل بشؤون القوزاق، والتخلي عن ميناء آزوف، ولكن

عُزل الصدر الأعظم بجهود خان القرم، ودعم ملك السويد، ونفي إلى جزيرة لمنوس في بحر إيجه. وتولّى يوسف باشا منصب الصدر الأعظم فعقد مع روسيا معاهدةً جديدةً تنصّ على هدنةٍ بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنة. غير أن الحرب كادت تتجدد لإخلال القيصر بالشروط، وتدخّلت الدول، وعُقدت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥ من جديد تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته على سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلى خانات القرم.

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، وأخذوا منهم ما بقي بأيديهم في كريت، وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا التي ارتاحت من الحروب بينها وبين فرنسا، فطلب إمبراطور النمسا من الدولة العثمانية إرجاع ما أُخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين، وانتصرت النمسا، وقُتل الصدر الأعظم علي باشا، وسقطت بلغراد ١١٢٩، وانتصرت ثانيةً على الصدر الأعظم الجديد خليل باشا الذي جاء مدداً للعثمانيين ثم جرى الصلح عام ١١٣٠، وعُقدت معاهدة (بساروفتس) أخذت فيها النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، ولكن تُبقي سواحل دالماسيا للبندقية، وتُرجع بلاد المورة للعثمانيين.

ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية دون دفع شيء، فوافق العثمانيون على ذلك.

وضعفت الدولة الصفوية، وتنازل الشاه حسين عن السلطة لمير محمد أمير بلاد أفغانستان فأسرع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، واحتل بلاد أرمينيا، وبلاد الكرج، وأسرع قيصر روسيا بطرس الأكبر واحتل بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش العثمانية والروسية وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، فبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

وانتفض الصفويون، وقاتلوا العثمانيين غير أنهم هُزموا، وفقدوا تبريز، وهمدان، وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام ١١٤٠، ثم مات الشاه أشرف، وبقي الشاه طهماسب فطلب من العثمانيين أن يتخلّوا عما أخذوه فلم يقبلوا فغزاهم، ولم تكن عند الخليفة حرارة القتال، فثار الإنكشارية، وقتلوا الصدر الأعظم وأمير البحر، ثم امتد أذاهم وعصيانهم، وعزلوا الخليفة، ونصّبوا مكانه ابن أخيه، وهو محمود الأول ابن مصطفى الثاني وذلك عام ١١٤٣، وبقي أحمد الثالث معتزلاً حتى توفي عام ١١٤٩.

وقد دخلت المطبعة في عهد أحمد الثالث، وتأسست دار للطباعة في إستانبول بعد موافقة المفتي.

١٤ ـ محمود الأول:

ولد عام ١١٠٨، وتولّى الحكم وعمره خمس وثلاثون سنة، وكانت السلطة الحقيقية بيد زعيم الثورة (بطرونا خليل) الذي عزل الخليفة وفعل ما فعل، ثم نقم عليه الإنكشارية وقتلوه، وهدأت الأحوال، واتجهت الدولة إلى قتال الصفويين فتغلّبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام ١١٤٤، وتخلّى للعثمانيين عن تبريز، وهمدان، وإقليم لورستان، غير أن والي الشاه على خراسان، وهو نادر شاه لم يقبل بهذه المعاهدة فسار إلى أصفهان، وعزل الشاه طهماسب، وولّى مكانه ابنه عباساً الذي لا يزال طفلاً، وأخذ الوصاية عليه، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، وطلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩ في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يردّ العثمانيون إلى الفرس كل ما أخذوه.

اختلفت الدول بشأن بولونيا، وأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا عداوةً بالنمسا وحليفتها روسيا، وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة ڤيينا، واتفقتا من جهةٍ ثانيةٍ لقتال الدولة العثمانية، وفتحت روسيا القتال لحجةٍ

بسيطةٍ واحتلت آزوف، فاتفقت الدولة العثمانية سريعاً مع نادر خان واتجهت لمقاومة الروس، وتمكّنت في خلال مدةٍ قصيرةٍ من وقف تقدُّمهم في إقليم البغدان الذي احتلوا عاصمته (ياسي)، وأوقفت كذلك تقُّدم النمسا في البوسنة، والصرب، والأفلاق وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ في معاهدة بلغراد عام ١١٥٢ تنازل النمسا عن مدينة بلغراد، وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب، وإقليم الأفلاق. وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد ضد روسيا بجهودٍ فرنسيةٍ عام ١١٥٣.

وقامت الحروب بين النمسا التي تولت أمرها ماريا تيريزا عام ١١٥٣ وبين فرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

وأعطت الدولة العثمانية أمر إقليمي الأفلاق والبغدان إلى رومٍ من إستانبول فساموا أهل البلاد سوء المعاملة فاتجه السكان نحو روسيا.

وتوفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

١٥ ـ عثمان الثالث:

ولد عام ١١١٠، وكان عمره عندما آل إليه الأمر يزيد على الثامنة والخمسين عاماً، قتل الصدر الأعظم علي باشا لسوء تصرفه، وعيّن محمد راغب باشا مكانه، فكان عوناً له، وأهلاً للإصلاح، وكان الخليفة يسير مُتنكّراً في الليل، ويطّلع على أحوال الرعية، ويعمل على الإصلاح. وقد توفي عام ١١٧١.

الخلفاء في عصر الضعف

سليم الثاني ٩٧٤ ـ ٩٨٢

مراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٣

محمد الثالث ١٠٠٣ ـ ١٠١٢

مصطفى الأول ١٠٢٦ ـ ١٠٢٧
١٠٣١ ـ ١٠٣٢

احمد الأول ١٠١٢ ـ ١٠٢٦

عثمان الثاني ١٠٢٧ ـ ١٠٣١

إبراهيم الأول ١٠٤٩ ـ ١٠٥٨

مراد الرابع ١٠٣٢ ـ ١٠٤٩

سليمان الثاني ١٠٩٩ ـ ١١٠٢

محمد الرابع ١٠٥٨ ـ ١٠٩٩

احمد الثاني ١١٠٢ ـ ١١٠٦

مصطفى الثاني ١١٠٦ ـ ١١١٥

احمد الثالث ١١١٥ ـ ١١٤٣

محمود الأول ١١٤٣ ـ ١١٦٨

عثمان الثالث ١١٦٨ ـ ١١٧١

الخلفاء في عصر الضعف

السنوات	الخليفة	الأحداث
٩٧٤ – ٩٨٢	سليم الثاني	الصلح مع النمسا. فتح جزيرة قبرص. واقعة ليبانت البحرية.
٩٨٢ – ١٠٠٣	مراد الثالث	تجديد الامتيازات الأجنبية فتح شروان، والكرج، وبلاد داغستان. تاديب القرم ودخول كافا.
١٠٠٣ – ١٠١٢	محمد الثالث	ثورة في الأناضول، وأخرى في إستانبول.
١٠١٢ – ١٠٢٦	أحمد الأول	ثورة فخر الدين المعني الثاني الأولى. الهزيمة أمام الصفويين وعقد صلح معهم. بدء شرب الدخان.
١٠٢٦ – ١٠٢٧	مصطفى الأول	
١٠٢٧ – ١٠٣١	عثمان الثاني	الاضطرابات.
١٠٣١ – ١٠٣٢	مصطفى الأول	
١٠٣٢ – ١٠٤٩	مراد الرابع	ثورة فخر الدين المعني الثاني الثانية وقتله. الحرب مع الصفويين، ودخول العثمانيين بغداد.
١٠٤٩ – ١٠٥٨	إبراهيم الأول	فتح كريت.
١٠٥٨ – ١٠٩٩	محمد الرابع	دخول مورافيا وسيليزيا. تقسيم المجر بين الدولة العثمانية والنمسا. تبعية القوزاق في أوكرانيا للعثمانيين. ميل القوزاق بعد ذلك للروس. حصار الدولة العثمانية لعاصمة النمسا فيينا. الهزيمة أمام النمسا.
١٠٩٩ – ١١٠٢	سليمان الثاني	
١١٠٢ – ١١٠٦	أحمد الثاني	
١١٠٦ – ١١١٥	مصطفى الثاني	معاهدة كارلوفتس وفقد العثمانيين أوكرانيا، وآزوف، والمجر، وترانسلفانيا.
١١١٥ – ١١٤٣	أحمد الثالث	التخلّي عن التدخل بشؤون القوزاق وميناء آزوف. معاهدة أدرنة. معاهدة بساروفتس وتخلي العثمانيين عن الصرب. احتل العثمانيون أرمينيا وبلاد الكرج من الصفويين ثم تبريز وهمدان.
١١٤٣ – ١١٦٨	محمود الأول	تخلّى العثمانيون عن تبريز وهمدان ولورستان، والصلح مع نادر شاه. معاهدة بلغراد.
١١٦٨ – ١١٧١	عثمان الثالث	

الفصل السادس

عصر الانحطاط والتراجع

لقد بدأ عصر الانحطاط والتراجع بعد الضعف الكبير الذي آلت إليه الدولة العثمانية، وبعد النهضة التي تمت في الدول الأوروبية، وبعد اتفاق الدول النصرانية كلها مع خلافها بعضها مع بعض على الدولة العثمانية والتفاهم على حربها وتقسيمها، تحرّكها في ذلك الروح الصليبية، وقد عُرف هذا الاتفاق ضد المسلمين في الكتب الأوربية باسم المسألة الشرقية أي مشكلة الدولة الواقعة في الشرق من أوربا. وامتاز هذا العصر ببعض السمات الرئيسية لعلّ من أهمها:

١ ـ التحالف النصراني الضمني، وإن كان يظهر أحياناً بحقدٍ صليبيٍ واضحٍ، ويختفي أحياناً نتيجة الخلافات القائمة بين الدول الأوربية بسبب مصالِحها الخاصة، والمنافسة فيما بينها على التقسيم، ولو كان التفاهم قائماً تماماً، وليست هناك من مصالح متباينة لانتهت الدولة العثمانية قبل الوقت الذي انتهت فيه ـ والله أعلم ـ.

٢ ـ ظهور عدد من الخلفاء الأقوياء، ولكن لم تُفد قوتهم كثيراً بسبب ضعف دولتهم، واجتماع كلمة أوربا عليهم، وتحريضها في الداخل عليهم، بوساطة رعاياها النصارى، والامتيازات التي حصلت عليها، وأصحاب المصالح والنفوذ والطموحات الذين اتصلت بهم.

٣ ـ اختفاء فكرة قتل الإخوة، وإن كانت قد انتهت منذ عام ١٠٠٣ عندما تولّى الحكم محمد الثالث الذي أمر بقتل إخوته التسعة عشر ودفنهم

مع أبيهم، فكانت أكبر مجزرةٍ وآخرها، وكانت الخاتمة ـ ولله الحمد ـ. ولكن خليفته أحمد الأول الذي تولّى الأمر عام ١٠١٢ قد سار على خطة الحجز، إذ حجز أخاه مصطفى الأول ـ وولي عهده ـ في قصره طيلة أيامه، ثم آلت إليه السلطة عام ١٠٢٦، فكان جاهلاً بأمور الدولة فقد عُزل عن الحكم مرتين، وأصبح عزل الإخوة قائماً بدل القتل.

٤ ـ بقي أثر من سيطرة العقلية العسكرية وهو أن قائد الجيش إذا فشل في المعركة، أو لم يُحرز النصر، ثار عليه من ثار، وطالبوا بقتله وغالباً ما يكون مصيره القتل. بحجة أن يكون عبرةً لمن يأتي بعده، وحتى يعلم القائد الجديد أن مصيره القتل إن تراجع، فالإقدام والثبات حتى الموت أفضل من الهزيمة ويعقبها القتل أيضاً. وفي هذا تعسف وظلم، فإن على القائد أن يسعى، ويبذل الجهد، ويثبت في الميدان، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء. فقد هُزم المسلمون مرات ومرات، ولم يُفكر أحد بما يحدث أيام العثمانيين. كما كان الجنود من الإنكشارية يثورون في وجه الخليفة ويطلبون عزله، ويتمّ لهم، أو يطلبون قتل الصدر الأعظم فيقتل إرضاءً لهم.

٥ ـ تمّ القضاء على الإنكشارية في عهد السلطان محمود الثاني، وبذلك انتهت تعدّياتهم على الأهالي، وقتلهم لرجالات الصدارة العظمى، والقادة، وعزل الخلفاء. وأخذت الجيوش النظامية تحلّ محلّهم.

٦ ـ ظهرت الهزيمة النفسية بوضوح، وأصبح تقليد أوربا والسير على منهجها أمراً محموداً يُسعى إليه، ويُفتخر به، وغدا استقدام الضباط للتدريب، وإرسال البعثات للإفادة أمراً قائماً، وكان مما ظهر الفكرة القومية التي مزّقت الدولة ثم قضت عليها نهائياً.

٧ ـ زاد الأثر اليهودي سواء أكان يهود الدونمة الذين اختفوا وسط المجتمع بأسماء إسلامية أم اليهود الذين على دينهم، وقد بذلوا جهدهم وأموالهم، واستخدموا النصارى للوصول إلى أهدافهم وتحقيق غايتهم، وقد أزاحوا من وقف أمامهم وفي مقدمتهم الخليفة عبد الحميد الثاني، وفي النهاية قضوا على الخلافة.

٨ ـ كانت مدة الخلفاء طويلة نسبياً، وقد توالى من الخلفاء في هذا العصر الممتد من عام (١١٧١ ـ ١٣٢٧) ـ أي أكثر من قرن ونصف ـ تسعة خلفاء هم:

١ ـ مصطفى الثالث:

هو ابن أحمد الثالث، ولد عام ١١٢٩، وتولى بعد ابن عمه عثمان الثالث عام ١١٧١، فكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان الصدر الأعظم محمد راغب باشا عضده إذ كان مثالاً للمصلحين، ولكنه توفي عام ١١٧٦.

أرادت الدولة العثمانية أن تُؤدّب روسيا قبل أن يستفحل أمرها، فقد اعتدى القوزاق الذين يتبعون روسيا على الدولة العثمانية في بعض نقاط الحدود، ورأت الدولة أن تُعلن الحرب على روسيا، وبدأت بإغارة خان القرم كريم كراي على بعض الأراضي الروسية فخرّب عدداً من الضياع، وحمل معه كثيراً من الأسرى الروس، وذلك عام ١١٨٢.

وسار أيضاً الصدر الأعظم لفكّ الحصار عن بعض المواقع التي يُطوّقها الروس، ولكنه فشل، فكان جزاؤه القتل، وانطلق خلَفه من بعده فهُزم أيضاً، وهو يجتاز بجيشه نهر الدينستر إذ جاءت في أثناء ذلك موجة من الفيضان فغرق عدد كبير من الجند والمراكب، ورجع من كان على الضفة اليُمنى، وقُتل من كان على الضفة اليسرى وذلك عام ١١٨٣. واحتل الروس بعدها إقليمي الأفلاق والبغدان.

وبدأ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس الذين يعيشون في الدولة العثمانية فقد أثاروا نصارى شبه جزيرة الموره فقاموا بثورةٍ، ودعموهم بأسطولٍ جاء عن طريق الالتفاف حول أوربا، ولكنه هُزم غير أن بعض المراكب الفارة أغارت على الأسطول العثماني وأحرقته، وفكر القائد الروسي في الهجوم على إستانبول غير أنه لم ينجح، كما أن ثورة الموره قد أُطفئت.

وهاجم الروس مدينة طرابزون ولكنهم لم ينجحوا في دخولها، غير أن روسيا قد نجحت في اقتحام بلاد القرم وفصلها عن الدولة العثمانية، وجعلها تحت حماية روسيا، وتعيين (جاهين كراي) خاناً عليها من قبل الإمبراطورة، وذلك عام ١١٨٥، ثم جرت مفاوضات الصلح بوساطة النمسا غير أن روسيا كانت تطلب استقلال تتار القرم، وحرية الملاحة للأسطول الروسي في البحر الأسود والبحار الأخرى التي تُشرف عليها الدولة العثمانية، وحق حماية روسيا للنصارى الأرثوذكس الذين هم في رعاية الدولة العثمانية ففشلت لذلك المفاوضات وعادت الحرب، وانتصر العثمانيون.

وفي الوقت الذي كان الروس يُثيرون النصارى الروم كانوا يُحرّضون أصحاب المصالح والأطماع من الولاة العثمانيين والمتنفذين، وقد استطاع قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن يتصل بالرسل مع علي بك والي مصر الذي كان يتصرّف فيها تصرّف المستقل وأن يُشجّعه على محاربة العثمانيين لمدّ نفوذه في بلاد الشام، وأن يمدّه بالذخائر، وذلك من أجل إحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وطعنها من الخلف، وإمكانية قهرها في الجبهة الروسية، واستجاب علي بك لهذه الآراء وأصغى إليها، أو حرّكت ما كان يجيش في نفسه فسار بجيشه نحو بلاد الشام واحتل غزة، ونابلس، والقدس، ويافا، ودمشق، وبدأ بالتوجه نحو الشمال ليداهم بلاد الأناضول ويتقدّم عندها الروس من جهة الشمال، غير أن محمداً أبا الذهب نائبه في القاهرة قد ثار ضده فاضطر إلى أن يعود إلى مصر، ويقاتل محمداً أبا الذهب لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى ضاهر العمر الذي كان أحد جباة الأموال وقُطّاع الطرق في الوقت نفسه، وتمكّن أن يجعل حوله قوةً تستفيد من اعتداءاتها، ثم استطاع أن يُسيطر على صفد مكان عمله، وأن ينطلق منها إلى الجهات الثانية فدخل عكا وتسلّم ولايتها، واضطر السلطان أن يعترف بذلك لانشغاله بالحروب مع الروس.

وعندما التجأ علي بك إلى ضاهر العمر اتفقا على محاربة العثمانيين،

وقبلا دعم الروس وخدمتهم، وسارا معاً إلى مدينة صيدا لاحتلالها، والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا على جيوش الدولة، وكان الأسطول الروسي في البحر المتوسط يتحرّك مع سيرهما ويدعمهما، ويضرب القوات العثمانية، والمدن الساحلية فقد ألقى قذائفه على مدينة بيروت وخرّب جزءاً منها.

بعد هذا النجاح الذي حققاه، رجع علي بك إلى مصر ليتخلّص من محمد أبي الذهب، ويحمي ظهره قبل أن ينطلق وحليفه ضاهر العمر باتجاه الأناضول. وسار نحو مصر وتحرّك معه أربعمائة جندي روسي وذلك في مطلع عام ١١٨٧، والتقى الطرفان، وانتصر محمد أبو الذهب، ووقع علي بك ومعه أربعة من كبار ضباط الروس أسرى بيد محمد أبي الذهب، وقُتل كل من كان معهم، وتوفي علي بك متأثراً بجراحه، وأرسل رأسه والضباط الروس إلى الوالي العثماني خليل باشا الذي قام بدوره فأرسلهم إلى إستانبول.

وتوفي الخليفة عام ١١٨٧، وتولى مكانه أخوه عبد الحميد الأول.

٢ ـ عبد الحميد الأول:

ولد عام ١١٣٧، وبقي محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث، وتولى الحكم بعد وفاته عام ١١٨٧، وكانت روسيا تستعدّ للأخذ بالثأر، فأرسلت قوةً كبيرةً باتجاه (فارنا) المدينة البلغارية على البحر الأسود، وقد انتصرت على العثمانيين، وتابعت إلى معسكرهم الذي يقوده الصدر الأعظم في الغرب من (فارنا)، فطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتمّ ذلك في مدينة (قينارجة) في بلغاريا عام ١١٨٧ اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وإقليم بسارابيا[١]، ومنطقة قوبان[٢] على أن

(١) بسارابيا: إقليم في رومانيا اليوم في الجزء الشمالي منها، ويمتد حتى سواحل البحر الأسود شمال مصب نهر الدانوب.

(٢) قوبان: إقليم في شمال غربي القفقاس، نسبة إلى نهر قوبان الذي يجري فيه، وأكثر سكانه من الأديغة (الشركس).

تكون الدولة العثمانية المرجع لسكان تلك المناطق في الشؤون الدينية. وتُعطى للسفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود، والمتوسط، وتدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامةً حربيةً مقدارها خمسة عشر ألف كيس على ثلاثة أقساط في مطلع كل عام نصراني، ويكون لروسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية، وتبني كنيسةً في إستانبول.

وبذا حققت روسيا ما تُريد، ولم يبق أمامها سوى الحرب الدائمة مع العثمانيين، ورغم المعاهدة بقيت روسيا تستعدّ وتحرص لضمّ أجزاء إليها من الدولة العثمانية. فقد أشعلت الفتن في بلاد القرم حتى عزل السكان الخان دولت كراي الذي انتخب بمقتضى اتفاقية (قينارجة) واستبدلوه بجاهين كراي المؤيد من قبل روسيا، وانقسم الناس إلى قسمين، وكادت الفتنة تشتعل فأسرعت روسيا واحتلت بلاد القرم، وهبّ الناس في الدولة العثمانية التي كادت تُعلن الحرب من جديد على روسيا لولا نصائح فرنسا التي أظهرت للعثمانيين استعداد الروس وقوتهم، ففضّلت الدولة العثمانية السكوت والاعتراف بالأمر الواقع، وخاصةً أن فرنسا ذكرت أن روسيا والنمسا قد اتفقتا على حرب الدولة العثمانية، واستيلاء روسيا على الأفلاق والبغدان وبسارابيا وإقامة دولةٍ أرثوذكسية في هذه الأقاليم تكون فاصلاً بين روسيا والعثمانيين، وأن تحتل النمسا الصرب والبوسنة والهرسك وساحل دالماسيا، وتُعوض البندقية بأجزاء في اليونان، والمورة، وكريت، وقبرص. وإذا احتل المتحالفون إستانبول أعادوا دولة بيزنطة القديمة.

وكان همّ روسيا إشعال الحرب من جديد لتحقيق المزيد من الانتصارات لذا كانت تتحرّش بالعثمانيين وتُثيرهم، وقامت بتحصين ميناء سيباستيبول، وأنشأت السفن الكثيرة في البحر الأسود، وأدخلت الكرج في حمايتها، وبدأت جواسيسها تكثر في أقاليم الأفلاق، والبغدان، وبلاد اليونان لتُثير الدولة وتدفعها إلى القيام بالحرب، ثم قامت إمبراطورة روسيا القيصرة كاترينا الثانية بزيارة إلى بلاد القرم فاستُقبلت بالحفاوة، وقد كتُب

لها على أقواس النصر الطريق إلى بيزنطة[1]، فعلمت الدولة العثمانية أن روسيا تريد الحرب لذا أرادت أن تبدأ هي بالحرب قبل أن يستعدّ خصومها، ولإيجاد سبب لذلك فقد طلبت من السفير الروسي إبلاغ حكومته عدة طلبات هي:

١ ـ تسليم حاكم الأفلاق الذي أعلن العصيان على الدولة والتجأ إلى روسيا.

٢ ـ التنازل عن حماية بلاد الكرج لأنها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣ ـ عزل القناصل الذين يُثيرون السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانئ البحر الأسود.

٤ ـ من حق الدولة العثمانية تفتيش المراكب الروسية التجارية خوفاً من نقلها الأسلحة.

وقد رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠، وطلب القائد الروسي من الإمبراطورة الانسحاب من بلاد القرم نتيجة عدم الاستعداد، ولكنها رفضت ذلك، وأمرته بالتقدّم، فامتثل، وتمكّن أن يحتل ميناء (أوزي) عام ١٢٠٣، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة

---

(١) من أهم أحلام روسيا سواء القيصرية أم الشيوعية الاستيلاء على إستانبول وإعادة بيزنطة الدولة الرومانية الشرقية حامية مذهب الأرثوذكس، وإن موسكو وريثة القسطنطينية المؤقتة. وتدعو إلى هذا الحلم بفكرة مستترة هي الوصول إلى المياه الحرة. وأهم أعداء الروس هو الإسلام إذ أن أهله قد احتلوا روسيا، وهم التتار، وفتحوا القسطنطينية وهم العثمانيون، والعثمانيون والتتار شعب واحد، وصاحب عقيدة واحدة هي الإسلام. ويحاربون التتار باسم التوسع نحو الشرق، تحت شعار التوسع في المناطق المخلخلة سكانياً، على حين أن مناطقهم مزدحمة بالسكان، وكل تقدّم لهم في الشرق إنما هو على حساب المسلمين. وقامت الشيوعية في بلادهم على حرب الأديان، وإن كانت تقصد الإسلام فليست اليهودية، والنصرانية، أو غيرهما على قدم المساواة في الحرب، ليس هناك من حرب لليهود فهم أصحاب نفوذ، ولا للنصارى الأرثوذكس إذ هم قاعدة الوحدة الوطنية التي تقضي أن يكون جميع السكان نصارى أرثوذكس كي تحقق الوحدة الوطنية، وإنما الحرب للإسلام.

العثمانية تضامناً مع الروس، وحاول جوزيف الثاني ابن الإمبراطورة ماريا تيريزا احتلال بلغراد لكنه فشل، وهُزم أمام العثمانيين الذين لاحقوه.

أما ما حدث في بلاد الشام أيام الخليفة عبد الحميد الأول، فقد أمر الخليفة والي مصر محمد أبا الذهب ملاحقة ضاهر العمر فحاصره في عكا، ففرّ إلى جبال صفد، ثم قتل عام ١١٨٨، وتخلّصت منه الدولة.

وتوفي عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وخلفه ابن أخيه، وهو سليم الثالث بن مصطفى الثالث.

٣ ـ سليم الثالث:

وهو ابن الخليفة مصطفى الثالث أول خلفاء هذا العهد، عهد الانحطاط والتراجع، ولد سليم الثالث عام ١١٧٥، تولّى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وكانت المعارك الحربية دائرة، فأعطى وقته وجهده للقتال، غير أن الجند قد ضعفوا، واتحدت الجيوش الروسية والنمساوية فتمكّنت روسيا من الاستيلاء على الأفلاق، والبغدان، وبساربيا، واستطاعت النمسا احتلال بلاد الصرب، ودخلت بلغراد.

غير أن اتفاق الروس والنمساويين لم يطل إذ انصرف إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني الذي خلف جوزيف الثاني في هذا الوقت إلى الثورة الفرنسية وما حدث نتيجة ذلك من قتل الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا، وخوف إمبراطور النمسا من امتداد الثورة نحو بلاده، وقد حرص على مصالحة الدولة العثمانية لذلك، ونتيجة الصلح أعيد للدولة بلاد الصرب وبلغراد. وكان هذا لا شك في صالح العثمانيين، وتمّ عام ١٢٠٥.

أما روسيا فقد استمرت بالحرب، واستولت على بعض المدن فارتكبت من الجرائم ما لا يوصف. ثم توسطت إنكلترا، وهولندا، وبروسيا للصلح بين الطرفين خوفاً على مصالحهم فكانت معاهدة (ياسي) عام ١٢٠٦، أخذت روسيا بموجبها بلاد القرم نهائياً، وبسارابيا، وجزءاً من بلاد الشراكسة، والمنطقة الواقعة بين نهري (بوغ) و(دينستر)، وأصبح هذا النهر الأخير فاصلاً بين الدولتين، كما تنازلت الدولة العثمانية عن مدينة (أوزي).


معاهدة ياسي
عام ١٢٠٦
البحر الاسود
الأفلاق
ياسي
بلغراد
صوفيا
استانبول
المقياس
كيلومتر
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠

مصور رقم [١٨]

وبعد هدوء القتال على الجبهات انصرف الخليفة للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجند النظامية للتخلّص من الإنكشارية الذين غدوا سبب كل فتنة، واتجه نحو تقليد أوربا التي تجاوزتهم كثيراً، فأصبح إنشاء السفن على طريقة إنشاء السفن الأوربية وخاصةً فرنسا، وصبّ المدافع على أيدي رجال من السويد، وترجم كتب الرياضيات والفن العسكري.

وفي عام ١٢١٣ دخل نابليون بونابرت مصر، وانتصر على المماليك، فبدأت الدولة العثمانية تستعد لقتال الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وكانت روسيا والنمسا مشغولتين بالثورة الفرنسية وما يمكن أن تجرّه عليهما، وقد عرضت إنكلترا على الدولة العثمانية مساعدتها خوفاً على مصالحها في الهند، فوافقت على المساعدة، وكذلك عرضت روسيا دعمها حربياً فوافقت، وانتقلت السفن الروسية من البحر الأسود إلى البحر المتوسط، وعزم نابليون على ضرب القوات العثمانية قبل أن تستكمل استعداداتها، وقرر أن يحتل بلاد الشام، فسار إليها، وفشل في اقتحام عكا لقوة حصونها، وتشبُّث واليها أحمد الجزار، ودعم الأسطول الإنكليزي من جهة البحر، غير أنه انتصر على القوة العثمانية عند جبل طابور قرب الناصرة. ثم تراجع عن عكا، وعاد إلى مصر، وهرب إلى فرنسا، وقُتل خليفته كليبر عام ١٢١٥ على يد سليمان الحلبي، وقامت الثورات في وجه الفرنسيين، وكانت انطلاقاتها من الجامع الأزهر، ونزل العثمانيون ومعهم قوة إنكليزية إلى أرض مصر، ووصلوا إلى القاهرة، واضطر الفرنسيون أخيراً إلى الانسحاب من مصر بعد اتفاق العريش عام ١٢١٦.

وعاد نابليون بونابرت يفاوض الدولة العثمانية لتحسين العلاقات بين الدولتين، وإعادة التفاهم بينهما وتمّ ذلك عام ١٢١٦ على أساس إخلاء فرنسا لمصر، وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الدولة العثمانية، كما اتفقت فرنسا وإنكلترا بمصالحة أميان عام ١٢١٧ خرجت إنكلترا بموجبها من مصر، وأصبح لفرنسا حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بروسيا، وأُقيمت في اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الدولة العثمانية، وذلك بالاتفاق

مع روسيا، وأُعيد لفرنسا ما صودر لها من أملاك في الدولة العثمانية وعادت لها امتيازاتها.

ويدأ في الدولة العثمانية تنظيم الفرق العسكرية النظامية، وعمل الإنكشارية على إلغائها، وفصل الخليفة المدفعية والبحرية عن الإنكشارية.

وذكرنا أن العلاقات قد تحسّنت بين الدولة العثمانية وفرنسا، وأرسل نابليون بونابرت مندوباً له إلى إستانبول لتأكيد ذلك. وعزل الخليفة أميري الأفلاق والبغدان من منصبيهما، وكانا مؤيدين من قبل روسيا فثارت ثائرة روسيا، وأرسلت جيوشها لاحتلال الإقليمين دون إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وتضامنت إنكلترا مع روسيا، وأرسلت قطعات بحريةٍ إلى مضيق الدردنيل، وطلبت من الخليفة أن يقوم حلف بين إنكلترا والدولة العثمانية، وأن تسلّم الدولة الأسطول وقلاع مضيق الدردنيل إلى إنكلترا، وأن تتنازل عن إقليمي الأفلاق والبغدان لروسيا، وأن تُعلن الحرب على فرنسا، رفضت الدولة العثمانية اقتراحات إنكلترا فاجتازت القطعات الحربية مضيق الدردنيل بسهولة وساد الأهالي الخوف، ورأى الخليفة أن يقبل طلبات إنكلترا غير أن مندوب فرنسا الذي أُبلغ بالخروج من إستانبول قابل الخليفة وعرض عليه دعم فرنسا، واستقدام الأسطول الفرنسي، وعدم التنازل لإنكلترا، وخطر ذلك، ووافق الخليفة وبدأ الاستعداد لتحصين العاصمة ومضيق الدردنيل ودعم الفرنسيون ذلك، واضطرت القطعات البحرية الإنكليزية للخروج من الدردنيل خوفاً من الحصار في بحر مرمرة، غير أن هذه الهزيمة قد جعلت القائد الإنكليزي يريد أن يمحو ما فشل فيه فأرسل حملةً بقيادة فريزر إلى الإسكندرية، واحتلها في مطلع عام ١٢٢٢، وأرسل فرقةً إلى ثغر رشيد لكنها هُزمت، وأعاد الكرة بعد أشهر فكان مصيره كالمرة السابقة، وجاء محمد علي للدفاع عنها، واضطر الإنكليز للرحيل عن مصر بعد دخولهم بستة أشهر.

وجاء محمد علي إلى مصر مع الجنود الذين جاؤوا لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بعد مناورات مع المماليك، والولاة، والعثمانيين، والأهالي

أن يتوصل إلى ولاية مصر في ١٠ ربيع الثاني من عام ١٢٢٠. وعندما حاول الإنكليز لدى الدولة العثمانية عزله أو نقله تمسّك به العلماء والقادة، فصدر أمر بتثبيته عام ١٢٢١، ثم ضرب العلماء بعضهم ببعض، وتخلّص من المماليك في حادثة القلعة عام ١٢٢٦، وصفا له الجو، وتفرّد بالحكم.

وثار الجنود غير النظاميين، وأيدتهم الإنكشارية فقتلوا المؤيدين للنظام العسكري الجديد، واضطر الخليفة أن يصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، ولكن لم يقبل الثائرون بهذا، بل قرروا عزل الخليفة، فنودي بعزله في ٢١ ربيع الثاني عام ١٢٢٢، وبقي معزولاً مدة عام وشهر تقريباً، وتوفي بعدها.

٤ ـ مصطفى الرابع:

هو ابن عبد الحميد الأول، ولد عام ١١٩٣، تولّى بعد عزل ابن عمه سليم الثالث، وأصبح يتحرك بأيدي قادة الثورة، إذ عيّن زعيم الحركة (قباقجي أوغلي) حاكماً لقلاع البوسفور. وانتصر أعداء النظام العسكري الجديد حتى أن الإنكشارية قتلوا الصدر الأعظم القائد للجيوش التي تُقاتل روسيا. وكانت روسيا آنذاك في حربٍ مع نابليون وقد هُزمت جيوشها أمامه. إلا أن الصلح قد تمّ بين فرنسا وروسيا، وتوسّطت فرنسا بين الدولة العثمانية وروسيا في إنهاء الحرب بينهما على أن تتخلّى روسيا عن الأفلاق والبغدان دون أن تدخلهما جيوش الدولة العثمانية، فإن رفضت الدولة العثمانية اتفقت فرنسا وروسيا وأرضتا النمسا بسلخ الولايات العثمانية في أوربا وتقسيمها فيما بينها. ووافق الطرفان على مقترحات نابليون ولكن لم تتخل روسيا عن الأفلاق والبغدان، ومع ذلك توقّفت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا مدة سنتين اثنتين.

أما في الداخل فقد اختلف زعماء الحركة التي أطاحت بالخليفة سليم الثالث، وقُتل (قباقجي أوغلي)، وطلب من تسلّم الحركة أن يُعاد الخليفة سليم الثالث، إلا أنه كان قد توفي يومذاك. غير أن الخليفة مصطفى قد

قتل هذا الزعيم وأعلم جنده أن سليم الثالث قد توفي، فنادوا بعزله وحجزه مكان سليم الثالث، وأُقيم بعده أخوه محمود الثاني عام ١٢٢٣.

٥ ـ محمود الثاني:

ولد عام ١١٩٩، وتسلّم الخلافة وعمره أربع وعشرون سنة، فقلّد مصطفى البيرقدار منصب الصدارة العظمى، وطلب منه إصلاح نظام الإنكشارية فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف، وأرادوا إعادة الخليفة مصطفى الرابع المعزول، فقُتل، وأُلقيت جثته إليهم، وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه وهو في داخله. واصطدم أنصاره بالإنكشارية، وكادوا أن يُحرزوا النصر عليهم ويُبيدوهم بموافقة الخليفة لولا أنهم أضرموا النار في المدينة، فاضطر الخليفة إلى إمهالهم، واستجاب لطلباتهم آنياً.

عقد محمود الثاني صلحاً مع إنكلترا عام ١٢٢٤. وحاول أيضاً مع روسيا ولكن لم يتمّ الاتفاق، واشتعلت نار الحرب، وهُزم العثمانيون بقيادة ضياء يوسف باشا الصدر الأعظم، واستولى الروس على بعض المواقع، وعُزل الصدر الأعظم وتولّى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها، ثم عاودوا الكرة فانتصروا. وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعُقدت بين الطرفين معاهدة بخارست التي نصّت على بقاء الأفلاق، والبغدان، وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية، وبسارابيا لروسيا. وهذا ما فسح المجال لروسيا أن تسحب جيوشها من الجبهة العثمانية وتزجّ بها في مقاومة نابليون بونابرت الذي جاءها غازياً، ولما انتصرت عليه عدّ هذا خيانةً من الدولة العثمانية له.

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفرّ زعماء الحركة إلى النمسا لكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين، وبقي يعمل سرّاً ضدهم حتى إذا تشبّع الناس بما يُثيره فيهم من روح الثورة

أعلن العصيان عام ١٢٣٠، وبعد معارك دامت سنتين بينه وبين العثمانيين وكانت سجالاً بين الطرفين وافق على الخضوع لسلطان الدولة العثمانية دون التدخل في شؤون الصرب الداخلية، وعلى أن تبقى وظيفة الوالي للعثمانيين الذين يسيطرون على القلاع والحصون، وذلك عام ١٢٣٢، وتمكّن من قتل قره جورج الذي كان قد فرّ إلى روسيا، وعاد إلى البلاد مختفياً، وأرسل رأسه إلى إستانبول إشارةً إلى الطاعة في حين أنه كان سيّد البلاد، ويتّصرف دون مشورة الوالي، وكأنه ملك متوج.

القتال في جزيرة العرب:

مع التخلّف الذي آلت إليه الدولة العثمانية، والنهضة التي بدأت تظهر في أوربا، ومع الهزيمة النفسية التي وجدت في أجزاء الدولة العثمانية كلها بل في الأمصار الإسلامية جميعها كان لا بدّ من أن ينشأ اتجاهان في بلاد المسلمين، أحدهما يرى أن النهوض والقوة لا يتمّان إلا بتقليد أوربا والسير على خطاها شبراً بشبر، وقد استطاع أحد أصحاب هذا الرأي من السيطرة على مصر، واستلام ولايتها، والسير في هذا الاتجاه، أو كما يعتقد، إذ بدأ يرسل البعثات إلى أوربا وخاصةً إلى فرنسا، وإن أوربا عامةً تُؤيّد هذا الاتجاه وتُشجّعه حيث ترى فيه امتداداً لأفكارها خارج نطاق دولها، وبُعداً عن عقيدة المسلمين التي هي سبب قوتهم ودوام عزّهم، فإذا أبعدت أهلها عنها فإنما تكون قد حصلت على أكبر غنم، إذ تُضعف المسلمين دون خسارة شيء، ومع حمل المسلمين لأفكار أوربا فإنهم مع الزمن يذوبون في مجتمعها، وينصهرون في بوتقتها، ويتعلّمون لغتها، ويتركون لغتهم فيزيدون بُعداً عن دينهم إذ أن المصدر الرئيسي لهم وهو القرآن الكريم إنما هو باللغة العربية فإذا جهلوه مع تعلّم لغات أوربا زاد ابتعادهم عن دينهم، لذا كانت أوربا عامةً مسرورةً من محمد علي وتُثني عليه في كتبها، وهذا ما أخذناه عنها أو من جملة ما أخذنا.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فيرون أن التخلّف القائم في بلادنا إنما

يعود إلى جهلنا بأمور ديننا الذي يحثّنا على العلم، ويدعونا إلى التفكير، ويُبعدنا عن الخرافات، ويُحرّرنا من الأوهام، ويأمرنا بالاستعداد للعدو بكل إمكاناتنا وطاقاتنا بمختلف الاستعدادات وأنواع القوة، ويُحرّم علينا الظلم، ويرون أن ما هو قائم في بلادنا، وما اعتاد عليه الناس، ويفعلونه أحياناً باسم الدين، وهو بالأصل محرّم في الإسلام، ومرفوض، وقد بدأ بعض أصحاب هذا الاتجاه من أهل العلم ينتقدون ما آل إليه المسلمون، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي نشأ في وسط بلاد العرب، في نجد، حيث شاعت الخرافات كثيراً، ودخل على الدين ما ليس منه، ولم يأت الشيخ محمد بن عبد الوهاب بجديد، وإنما دعا إلى تطبيق الإسلام الصحيح، واتباع العقيدة بشكلٍ سليم، وظنّ بعض الناس الذين اعتادوا على الخرافات والبدع أن ما يقومون به إنما هو من الدين، لذا ظنّوا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أحدث أمراً جديداً، فأنكروا عليه وقاوموه جهلاً وبغياً.

وليست هذه المقاومة من جهةٍ واحدةٍ أو من طرفٍ معينٍ بل من الجهات كلها ومن الأطراف كلها. أتت المقاومة من قبل المشايخ الذين يريدون أن يتمسّكوا بنفوذهم الذي يُعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانّين أنها من الدين. وأتت من الناس الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بجديد يخالف ما اعتادوا عليه، وهؤلاء وأولئك منتشرون بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل في العالم الإسلامي أجمع، ويُشكّلون الأغلبية العظمى. وأتت المقاومة من أصحاب السلطة في الدولة الذين يريدون أن يُحافظوا على سلطانهم وملكهم، وأفتى لهم علماء السوء بسوء ما يدعو إليه الشيخ وفساد عقيدته، وهم على جهل أيضاً، وجاءت بشكل طبيعي من قِبَل الذين يريدون تقليد أوربا والسير على منهجها ويُمثّل هؤلاء محمد علي باشا والي مصر وصاحب السلطان، وصاحب القوة الكبيرة. ولا شك فإن أوربا التي بدأ نفوذها يقوى في الدولة العثمانية، ولها تأثير على محمد علي باشا والي

مصر، تُعادي هذا الاتجاه وترى فيه خطراً كبيراً عليها، حيث ترى فيه إحياء لفكرة الجهاد التي ترفع الروح المعنوية لدى المسلمين فإذا ما قُدّر لهذا الاتجاه الامتداد والتوسع فإن أوربا تضيع مع عودة الحياة إلى الدولة الإسلامية لذ يجب القضاء عليه، وعملت سرّاً كي تقضي الدولة العثمانية عليه، وتساعدها على ذلك بتوقيف القتال على جبهاتها في هذه المرحلة.

وكان ضعف الدولة الذي آلت إليه، وضعف جيوشها التي كانت تُواصل القتال على مختلف الجبهات يحول دون إمكانات إرسال قوةٍ تقضي على هذا الاتجاه في تلك الديار النائية، وسط القفار والمفازات، وكانت قوة محمد علي باشا واليها على مصر لا تزال فتيةً، ومُدرّبة لم تدخل المعارك بعد، لذا فقد أوكلت إليه مهمة القضاء على هذه الحركة عام ١٢٢٢.

وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد سار إلى الدرعية التي يحكمها محمد بن سعود بعد أن خذله قومه في بلده العيينة والمناطق التي انتقل إليها، واتفقا على العمل معاً عام ١١٥٧، وامتد نفوذهما كثيراً حتى شمل أكثر أجزاء الجزيرة، وقامت الدولة، وتولى عليها بعد محمد بن سعود ولده عبد العزيز، ثم سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد، وهو الذي بلغت الدولة في أيامه الأوج إذ وصلت إلى كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت له الجزيرة كاملةً باستثناء اليمن.

قبل والي مصر محمد علي باشا القيام بمهمة قتال الدولة السعودية، ورأى أن الانتقال إلى الجزيرة براً أمر صعب لسيطرة السعوديين على شمال الجزيرة وتركزهم على الطرق الرئيسية، وعمل على الانتقال بحراً، فبنى المراكب اللازمة له في بولاق، ونقلها إلى السويس على الجمال، وعليها نقل جنده إلى ميناء ينبع في غرب المدينة المنورة، وقبل أن يسافر جنده تخلّص من منافسيه المماليك إذ خشي أن ينقضّوا عليه بعد مسير عساكره، فأبادهم في حفلة دعاهم إليها في القلعة بمناسبة سفر ابنه على رأس الجيش المنطلق إلى الجزيرة يوم الجمعة ٥ صفر عام ١٢٢٦.

استطاع طوسون بن محمد علي باشا أن يدخل المدينة، وكتب إلى والده بذلك، ثم حوصر طوسون في الطائف وجاء محمد علي باشا بنفسه إلى مكة، وخلع الشريف غالب، وأقام مكانه يحيى بن سرور. وأحرز بعض الانتصارات وضعف مركز الدولة السعودية، وتوفي سعود الكبير، وخلفه ابنه عبد الله عام ١٢٢٩.

وسار طوسون باتجاه نجد، واحتلّ بلدة الرسّ في القصيم، وأرسل إليه عبد الله بن مسعود من يفاوضه للصلح والخضوع للدولة العثمانية، فوافق بعد سفر والده الذي لم يستطع أن يأخذ رأيه، وتمّ الصلح، وأرسل إلى والده بضرورة سفر عبد الله بن سعود إلى إستانبول، وإن لم يوافق يتابع طوسون سيره إلى الدرعية قاعدة الدولة السعودية.

ووصل خبر إلى طوسون مفاده أن تمرداً قام في القاهرة ضد والده، فترك جيشه في الجزيرة بإمرة أحد قادته، وسافر إلى القاهرة عام ١٢٣٠.

وهدأ الوضع في القاهرة فأرسل محمد علي باشا حملةً جديدةً إلى الجزيرة بقيادة أكبر أولاده وهو إبراهيم ومعه بعض المستشارين الفرنسيين، ووصل إلى الدرعية، وطلب عبد الله بن سعود الصلح في ٧ ذي القعدة عام ١٢٣٣، فتمّ بعد تسليم الدرعية، ووافق عبد الله على السفر إلى إستانبول عن طريق القاهرة، فوصل إلى القاهرة ١٧ محرم ١٢٣٤، وقابل هناك محمد علي، وسافر بعد يومين إلى إستانبول حيث قُتل بعد وصوله إليها بقليل، ولم يف السلطان بوعده. ورجع إبراهيم من الجزيرة في ٢١ صفر عام ١٢٣٥.

ثورة اليونان:

فُتن أهالي البلاد التي دخلها العثمانيون بالتقدّم الذي تمّ في أوربا، فأراد بعضهم السير على منهجها، ومن هؤلاء لا شك النصارى الذين يأتون في مقدمة المفتونين ناهيك عن المسلمين، وبدؤوا يرسلون أبناءهم إلى أوربا للتعلّم، وكان من أخطاء العثمانيين ترك أهالي البلاد التي يدخلونها على ما

هم عليه من العقائد، واللغة، والعادات ويكتفون بأخذ الخراج منهم، ومعنى ذلك أن تبقى الروابط بينهم وبين دول أوربا قوية، فأسس اليونانيون جمعيات سرية لهم في النمسا وروسيا وبدؤوا يعملون للانفصال عن العثمانيين لاختلاف الرابطة الأساسية بين الطرفين ألا وهي العقيدة. وكانت مراكز جمعية الأخوة أهم هذه الجمعيات في ڤيينا عاصمة النمسا، وفي أوديسا في روسيا على البحر الأسود ثم انتقل مركزها إلى كييف قاعدة أوكرانيا الروسية. وكثر أعضاء هذه الجمعية، واستغلّوا انشغال الدولة بقتال علي باشا، وبدؤوا بالحركة، وما أن قضى خورشيد باشا على علي باشا والي (يانية) حتى أعلنوا العصيان بتحريض من الروس بالدرجة الأولى. فكلّف خورشيد باشا بإخضاعهم فسار إليهم فانتصروا عليه، وشتّتوا جنده، وانتحر هو بالسمّ في نهاية عام ١٢٣٧.

كلّف الخليفة محمود الثاني محمد علي باشا والي مصر بإخضاع اليونان، وكان قد انتهى من فتح السودان. وأصدر أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على شبه جزيرة المورة من بلا اليونان، وجزيرة كريت، وهاتان المنطقتان مركز الثورة اليونانية، وهذا إضافةً إلى ما تحت يد محمد علي باشا من أراضٍ.

سارت جيوش محمد علي باشا بحراً من الإسكندرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا ومساعدة مستشاره سليمان الفرنساوي عام ١٢٣٩، إلى رودوس ومنها إلى جزيرة كريت، فاحتلها، وانطلق إلى شبه جزيرة المورة التي كانت الثورة قد ألهبت نارها شبه الجزيرة كلها، وسيطرت عليها سوى مينائين، فأنزل إبراهيم باشا جنوده بصعوبةٍ كبيرةٍ، حيث كانت أوربا كلها من خلف ثورة اليونان تحركها ضد المسلمين العثمانيين بدافعٍ صليبيٍّ، حيث تأسست جمعيات في أوربا باسم جمعيات محبي اليونان، وتُرسل هذه الجمعيات المال والسلاح لليونان لتُقاتل المسلمين، كما تطوّعت أعداد كبيرة من أعضاء هذه الجمعيات للقتال في بلاد اليونان، ومن هؤلاء واشنطون ابن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، والشاعر الإنكليزي اللورد بيرون وأمثالهم كثير. . . ووُضعت القصائد الحماسية.

استطاع إبراهيم باشا أن يُحرز النصر، وأن يفتح مدينة نافارين عام ١٢٤٠، وأن يدخل العثمانيون أثينا عام ١٢٤١ رغم دفاع القائد الإنكليزي البحري اللورد كوشران. ثم تدخلت الدول الأوربية باسم حماية اليونان ظاهراً وبحقدٍ صليبيٍّ واضحٍ، إذ كانت روسيا تدعم الحركة اليونانية علناً، وتأوي اللاجئين إليها، وقد رأت أن الفرصة مناسبة جداً لدخول إستانبول وإعادتها إلى عهدها السابق «القسطنطينية مركز الأرثوذكس». ووقفت إنكلترا بجانب روسيا، وعقد الصلح مع الدولة العثمانية، وهو معاهدة «آق كرمان» في ٢٨ صفر عام ١٢٤٢، وأهم ما جاء فيه: يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود، ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، وتنتخب حكام مقاطعتي الأفلاق والبغدان، ولا يحقّ للدولة العثمانية عزل أحدهما أو كلاهما إلا بموافقة روسيا. وأن تصبح ولاية الصرب مستقلةً، وتحتفظ الدولة العثمانية بثلاث قلاع فيها فقط من بينها بلغراد، ووافقت كل من النمسا، وبروسيا، وفرنسا أيضاً على هذه المعاهدة، ورغم أنها عقدت بسبب الثورة في اليونان إلا أنها لم تذكر شيئاً عنها.

تجدّد القتال:

طلبت إنكلترا من الدولة العثمانية في ٨ رجب عام ١٢٤٢ أن تتوسّط الدول الأوربية النصرانية بين الدولة العثمانية وبين ما يتبعها، فرفضت الدولة العثمانية ذلك لأن هذا تدخّل صريح في شؤونها الداخلية، فكان هذا الرفض حجةً تذرّعت بها لإعلان الحرب مرةً أخرى، بعد أن أضعفت الدولة سياسياً، وخسرت مناطق من أملاكها في معاهدة آق كرمان، والطلب الإنكليزي ما كان إلا مبرراً أو إيجاد مبرر لإعادة القتال، واتفقت روسيا، وفرنسا، وانكلترا في ١١ ذي الحجة على إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، على أن تدفع جزيةً سنويةً يتفق عليها الطرفان، وأُعطي الخليفة مدة شهر لإيقاف الأعمال العدوانية ضد اليونان، وإذا عجز عن ذلك أو رفض فإن الدول النصرانية تتخذ ما تراه مناسباً، ولم يعمل الخليفة أي عمل بهذا الخصوص، وبعد شهر أمرت الدول الثلاث روسيا، وفرنسا،

وإنكلترا أساطيلها بالتوجّه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأنه يتلقّى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقّف عشرين يوماً عن القتال ريثما تصل إليه التعليمات من المسؤولين عنه، واجتمعت أساطيل الدول الأوربية في ميناء نافارين محيطةً القوات الأوربية، فدُمر الأسطول العثماني، وأكثر الأسطول المصري، وقُتل ما يزيد على ثلاثين ألف جندي مصري، واحتجّ الخليفة فلم ينفعه احتجاجه فأعلن أن القتال دينياً لا سياسياً في منشور أصدره للمواطنين ودعاهم فيه للدفاع عن عقيدتهم، وخصّ بذلك روسيا التي تأثّرت من ذلك، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال عام ١٢٤٣.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ذلك أمر ولده بالانسحاب من اليونان بجنده، وترك قوةٍ بسيطةٍ في المدن التي لا تزال بيده حتى يتسلّمها العثمانيون. وكان الفرنسيون يحلّون محل الجنود المصريين المنسحبين. وعقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن، ودُعيت إليه الدولة العثمانية فرفضت الحضور، وقرر المؤتمر إعلان استقلال اليونان، وحكمها من قبل حاكمٍ نصرانيٍّ، تنتخبه هذه الدول، ويكون تحت حمايتها، وتدفع جزيةً سَنويةً للدولة العثمانية مقدارها خمسمائة ألف قرش، ولكن الدولة رفضت هذا المؤتمر وقراراته التي تتعلق بالدولة ورعاياها، ولا يحق لأحدٍ أن يُصدر قرارات بشأنها أو تتعلق فيها. وانصرفت الدولة إلى قتال روسيا التي أعلنت الحرب عليها.

الحرب مع روسيا:

بعد أن أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية اجتازت جيوشها نهر (بروت) الفاصل بين الدولتين والذي يرفد نهر الدانوب قرب مصبه، واحتلت عاصمة إقليم البغدان (ياش) الواقعة على النهر، ثم دخلت (بخارست) عاصمة الأفلاق، وجعلت على الإقليمين حكّاماً من قبلها. ثم

اجتازت نهر الدانوب، واتجهت جيوشها لحصار مدينة (فارنا) الواقعة في بلغاريا على ساحل البحر الأسود، وحاصرتها براً وبحراً، وجاءت إليها الإمدادات براً وبحراً، ولكن سُلّمت في النهاية خيانةً بعدما يئس الروس من دخولها، وكان تسليمها في أول ربيع الثاني عام ١٢٤٤ على يد يوسف باشا أحد القادة العثمانيين والذي التجأ أيضاً إلى بلاد الروس. وكذلك احتلت روسيا مدينة (قارص) في شرق الأناضول، ثم تقدّمت من جهة الغرب، واحتلت مدينة (أدرنة)، وخافت فرنسا وإنكلترا من أن تحتلّ روسيا إستانبول فإن ذلك يُهدد مصالحهما الخاصة فسارعتا للوقوف في وجه روسيا، وبجهود مملكة بروسيا عُقدت معاهدة أدرنة عام ١٢٤٥ في منتصف شهر ربيع الأوّل، ومن أهم ما جاء فيها.

١ ـ إعادة الأفلاق، والبغدان، ودوبروجه، والبلغار، والبلقان، وقارص، وأرضروم إلى الدولة العثمانية.

٢ ـ يُعَد نهر (بروت) الحدّ الفاصل بين الدولتين.

٣ ـ تكون الملاحة في نهر الدانوب عند مصبه من حق الدولتين.

٤ ـ حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود.

٥ ـ لا تُفتش السفن الروسية أثناء عبورها للمضائق العثمانية.

٦ ـ تعوّض الدولة العثمانية لروسيا مبالغ كمصاريف حرب.

٧ ـ يطلق سراح الأسرى الذين عند الدولتين.

٨ ـ تستقل بلاد الصرب، وتُعطى ما بقي من أجزائها تحت حكم الدولة العثمانية.

٩ ـ تُعاد الامتيازات القنصلية الروسية، ورعايا روسيا لهم المعاملة نفسها التي لرعايا الدول الأوربية الأخرى، وكذا الامتيازات.

إلغاء نظام الإنكشارية:

تضايق الخليفة محمود الثاني من الأوضاع التي آلت إليها الإنكشارية

والتصرّفات التي تقوم بها، وأعجب بالأنظمة العسكرية الحديثة، وسُرّ بالجنود المصرية في حرب اليونان لذا فقد قرر إلغاء نظام الإنكشارية، فدعا كبار الدولة، وكبار ضباط الإنكشارية إلى بيت المفتي، وتكلم الصدر الأعظم سليم محمد باشا، وشرح المواقف، فأبدى الجميع تأييدهم، إلا أن الإنكشارية قرروا العصيان، واستعدوا لذلك، واجتمعوا في ساحة (آت ميدان) فأحاطت بهم المدفعية وحصدتهم في يوم ٩ ذي القعدة عام ١٢٤٠، وفي اليوم التالي أصدر الخليفة قراراً بمنع هذا النظام، وبدأ بتنظيم جديدٍ للجنود على الطريقة الأوربية مستفيداً من المدربين الأجانب، وسار بالبلاد مجارياً أوربا، فتزيّا بالزي الغربي، وأدخل ذلك على الجيش والحياة المدنية معاً، واستبدال العمامة ووضع الطربوش.

احتلال فرنسا للجزائر:

كانت فرنسا تطمع باحتلال أجزاء من ساحل بلاد المغرب لتكون قواعد لها، وكانت تدّعي دائماً بتعدّي قراصنة بلاد المغرب على سفنها، وقد قررت الاحتلال فكانت تفتش عن ذريعةٍ لاختلافها مع والي الجزائر الباي حسين. ولحادثةٍ بسيطةٍ قررت الحرب، وأمر الملك الفرنسي بضرورة احتلال إقليم الجزائر وذلك في ١٣ شعبان عام ١٢٤٥، فأرسلت الحكومة الفرنسية جيشاً من ٢٨ ألف مقاتل، وأسطولاً يضم مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل ٢٧ ألف جندي بحري، وأُنزلت بالقرب من مدينة الجزائر. وبعد قتالٍ عنيفٍ دخلوا مدينة الجزائر، وقامت المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائري حتى استسلم في ٢٤ رجب ١٢٦٣، وسيطرت فرنسا على الإقليم، وإن بقيت المقاومة عنيفةً، وتظهر بين الآونة والأخرى.

وكانت إنكلترا قد خشيت من هذا العمل الفرنسي خوفاً من منافستها، وطلبت من الدولة العثمانية أن تأمر واليها بالتساهل مع فرنسا وإرضائها كي يفشل مخططها، فأرسل مندوباً لذلك، لكن قبض عليه، وأخذ أسيراً حيث بقي في السجن، حتى أنهت فرنسا مهمتها.

دخول محمد علي باشا بلاد الشام:

كان محمد علي باشا يطمع في توسعة أملاكه، ويرغب في ضمّ بلاد الشام إليه، ولما فرّت أعداد من مصر إلى الشام، والتجؤوا إلى والي عكا عبد الله باشا الجزّار هرباً من الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم محمد علي باشا في مصر، ورفض الجزار إعادتهم. لذا جهز محمد علي جيشاً برياً وآخر بحرياً بإمرة ابنه إبراهيم باشا وسيره إلى بلاد الشام، وسارت الحملة في ٢٦ جمادى الأولى عام ١٢٤٧ عن طريق البحر، أما البرية فقد سبقتها واحتلت غزة، ويافا، والقدس، ونابلس، والتقتا في حيفا، ثم سار إبراهيم وحاصر عكا براً وبحراً.

كلّف الخليفة عامله على حلب عثمان باشا بقتال إبراهيم باشا فسار إليه فترك إبراهيم حصار عكا لقوةٍ صغيرةٍ، وسار لملاقاة عثمان باشا، فالتقيا قرب حمص فهُزم عثمان باشا، ورجع القهقرى، وعاد إبراهيم باشا فشدّد الحصار على عكا ودخلها، وانطلق بعدها متجهاً نحو الشمال.

سيّر الخليفة لقتال إبراهيم باشا القائد حسين باشا الذي انهزمت مقدمته أمام المصريين الذين دخلوا حلب، وتراجع حسين باشا حتى تحصّن في ممر بيلان الذي يُعدّ الطريق الطبيعي من وإلى الأناضول. فانتصر المصريون، وجهز الخليفة جيشاً آخر بقيادة رشيد باشا الذي التقى مع إبراهيم باشا قرب قونية بعد أن اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس واحتل أضنه، وانتصر إبراهيم باشا، وأخذ القائد العثماني أسيراً، وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحةً أمامه. وخشيت الدول الأوربية من سيطرة محمد علي باشا على الدولة العثمانية وإحيائها من جديد، ودبّ روح الحياة فيها، وكانت أكثر الدول خوفاً هي روسيا التي عرضت على الخليفة دعمه، وأرسلت ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول، فخافت إنكلترا وفرنسا من التدخل الروسي، وطلبت من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي باشا.

معاهدة كوتاهية:

اتفقت الدولة العثمانية ومحمد علي باشا واليها على مصر في عام ١٢٤٨ في كوتاهية على النقاط التالية:

١ - أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.

٢ - يُعطى محمد علي ولاية مصر مدة حياته.

٣ - يُعيّن محمد علي والياً من قبله على ولايات الشام الأربع (عكا، وطرابلس، ودمشق، وحلب) وعلى جزيرة كريت.

٤ - يُعين إبراهيم بن محمد علي والياً على إقليم أضنه، وهو الإقليم المتاخم للأناضول.

ويبدو أن السلطان وافق مرحلياً على هذه النقاط ليستعدّ للحرب ثانيةً، ويُنقذ موقفه من تعديات واليه على مصر. وكذلك كانت موافقة محمد علي مرحليةً خوفاً من تدخل الدول وإجباره على التراجع وهو يريد الانفصال التام. وفي هذه الأثناء أصدر الخليفة بعض التعليمات الإصلاحية وهو ما عرف باسم (خط شريف كولخانة).

معاهدة خونكار إسكله سي مع روسيا:

وأثناء وجود القوات الروسية في الدولة العثمانية للدفاع عن إستانبول عقدت معاهدة جانبية مع الدولة، تعهدت فيها بالدفاع عن الدولة ضد جيوش محمد علي أو أي معتدٍ، وبذلك أصبح بإمكانها التدخل في شؤون الدولة الخاصة. وكذلك فإن موافقة الخليفة على هذه المعاهدة كانت مرحليةً.

تجدد القتال في بلاد الشام:

حدثت ثورات في بلاد الشام ضد حكم إبراهيم باشا فأخضعها بكل شدة، فهدأت وفي النفس أشياء، وفاتح محمد علي وكلاء الدول الأوربية في مصر بأنه يريد ولاية مصر والشام وجزيرة العرب له ولأولاده من بعده، ونُقلت هذه الرغبات إلى الدولة العثمانية التي أرسلت له مندوباً اتفق معه

على أن تكون مصر وجزيرة العرب ملكاً متوارثاً لأسرة محمد علي، وبلاد الشام لمحمد علي مدة حياته، وتعدّ جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام والأناضول، ولم يوافق الخليفة إلا أن تكون له فجاج جبال طوروس وبذا تكون سفوحها من كلا الجانبين للدولة، وأصرّ محمد علي على عكس ذلك، فوقع الخلاف.

وسار حافظ باشا على رأس جيش من أرمينيا وسيواس، وتقدّم إلى بلاد الشام، وفي ١١ ربيع الثاني من عام ١٢٥٥ التقى مع إبراهيم باشا في بلدة (نزيب)[١]، فانهزم العثمانيون، وتركوا عتادهم في ساحة القتال فأخذ المصريون ١٦٦ مدفعاً، و٢٠ ألف بندقية. وكان في الجيش العثماني القائد الألماني المشهور (فون مولتكه).

وتوفي الخليفة العثماني محمود الثاني قبل أن تصل إليه أنباء المعركة وذلك في ١٩ ربيع الثاني عام ١٢٥٥.

٦ ـ عبد المجيد الأول:

ولد عام ١٢٣٧، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه، وعمره دون الثامنة عشرة. وبعد أن توفي محمود الثاني، سار قائد البحرية العثماني أحمد باشا بقطعاته إلى الإسكندرية وسلّمها إلى محمد علي والي مصر، وقد رأى فيه القوة التي يمكن أن تُدافع ضد أوربا حيث كان على جهلٍ بالأمور، كما كان على خلاف مع خسرو باشا الذي عُيّن صدراً أعظم، وقد كان من قبل والياً على مصر، وطُرد منها، وعُيّن مكانه محمد علي بناءً على رغبة العلماء والأهالي، فخافت الدول الأوربية النصرانية إذ لم تعد للدولة العثمانية قوة بحرية تحميها، ولا قوة برية تدافع عنها فإذا ما سار إليها محمد علي تسلّم إستانبول، أو تقدّمت روسيا للدفاع عنها بناءً على

---

(١) نزيب: بلدة تقع في تركيا اليوم، إلى الغرب من نهر الفرات تبعد عن الحدود السورية مسافة ٢٥كم، وإلى الشمال الغربي من جرابلس البلدة السورية الواقعة على نهر الفرات عند اجتيازه الحدود السورية التركية.

المعاهدة الدفاعية المعقودة بين الطرفين سابقاً لذا فقد قدّمت دول أوربا لائحة مشتركة من روسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا، وإنكلترا تطلب من الخليفة الجديد ألا يقرّ موضوعاً في شأن يتعلق بوالي مصر دون الرجوع إليهم، وفي الوقت نفسه فإنهم مستعدون للتوسط بينهما فقبل الخليفة اللائحة، واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم، وتداولوا الرأي، وظهر تباين في وجهات النظر، روسيا تريد أن تحتفظ بالمعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي تُبقيها تحت حمايتها، وإنكلترا وفرنسا تخشيان من ذلك وترغبان أن تكون لهما قطعات بحرية في المضائق بحيث تشاركان، وتمنعانها من أن تنفرد بالتصرف في شؤون الدولة وحدها. ومن ناحية أخرى فإن فرنسا تود دعم محمد علي وأن يحتفظ بما أخضعه، وإنكلترا لا تريد ذلك منافسةً لفرنسا على مركزها في مصر، وخوفاً من منافستها على طريق الهند، والنمسا وبروسيا تريان في قوة محمد علي خطراً على أوربا خشية من أن يُسيطر على الدولة ويُعيد لها الحياة فهما أقرب إلى إنكلترا، وبعد فشل لقاءات، وتهديدات بالانسحاب، ودعوة إلى مؤتمرات نجحوا في عقد اتفاقية عام ١٢٥٦ بين إنكلترا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا بعد انسحاب فرنسا ومحاولة اتفاقها مباشرة مع الدولة العثمانية ومحمد علي وتشجيعه على رفض مطالب إنكلترا، ودعمه إن عارضته إنكلترا. غير أن الاتفاقية قد نصت على:

١ ـ يجب على محمد علي أن يُعيد إلى الدولة العثمانية ما دخله، ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول عكا في هذا الجزء.

٢ ـ يحق لإنكلترا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ الشام ومساعدة كل من أراد من السكان خلع طاعة محمد علي والعودة إلى الدولة العثمانية، ومعنى ذلك التحريض على العصيان.

٣ ـ أن يكون لمراكب روسيا، وإنكلترا، والنمسا حق الدخول إلى إستانبول لحمايتها فيما إذا تعرّضت لهجوم من قبل المصريين. ولا يحق لأحدٍ أن يدخلها ما دامت غير مهددة بهجوم.

٤ ـ يجب أن تصدق هذه الاتفاقية خلال شهرين في لندن، كما يجب تصديقها من الخليفة.

وبدأت إنكلترا تحرّض سكان الجبال من دروز، وموارنة، ونصيرية. وبدأ تحرك الأساطيل الإنكليزية والفرنسية على سواحل بلاد الشام. ثم بُلّغت الاتفاقية لمحمد علي باشا، وجاءته بعد ذلك قناصل الدول الأربع (إنكلترا ـ النمسا ـ بروسيا ـ روسيا) وعرضوا عليه باسم دولهم، أن تكون له ولاية مصر وراثيةً، وولاية عكا مدى حياته، وأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب، وأفهموه أن فرنسا لا يمكن أن تساعده. وبعد مضي عشرة أيام جاءه القناصل ومعهم مندوب عن الدولة العثمانية بأنه بقي له الحق في ولاية مصر فقط فرفض ذلك وطردهم من بلاده، فأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب فإن رفض فالدول تتخذ ما تراه مناسباً، وبعد انقضاء المدة كتبوا إلى سفراء دولهم في إستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم، واتخذوا قراراً بسلخ ولاية مصر من محمد علي. وضعفت الحكومة الفرنسية، وسحبت قواتها البحرية إلى مياه اليونان ثم إلى فرنسا، وتركت سواحل مصر والشام لسفن إنكلترا، وثار الرأي العام الفرسي ضد حكومته التي شجّعت محمد علي على المقاومة ثم لم تستطع مساعدته في الوقت المناسب.

اقتصرت روسيا بعدم الابتعاد عن إستانبول، ولم يكن لبروسيا مراكب يومذاك، واقتصر العمل على إنكلترا مع دعمٍ قليلٍ من النمسا، ووُزّعت المنشورات في بلاد الشام، وأعلن المصريون فيها الأحكام العرفية، وحُصّنت الموانئ الشامية وخاصةً بيروت وعكا. وجاء إبراهيم باشا من مقره قرب بعلبك إلى بيروت بناءً على طلب سليمان باشا الفرنساوي. وأنزلت إنكلترا قواتها شمال بيروت، وبدأت المعارك، وهُدّمت أكثر المدينة وأُحرقت، وكذا بقية الثغور الشامية. وتمكّنت القوات الإنكليزية ومن معها من أخذ الموانئ وإجلاء المصريين، وطلب محمد علي باشا من ابنه إبراهيم الانسحاب حيث لا يستطيع مقاومة الدول كلها، فانسحب، وتعرّض أثناء انسحابه لكثير من الهجمات عليه من العرب حتى فقد ثلاثة أرباع الذين معه.

وعرض قائد القوات البحرية الإنكليزية على محمد علي باشا التوسط لدى الدولة العثمانية لإبقاء مصر وراثيةً له فيما إذا تنازل عن ولاية الشام، وردّ القطعات البحرية التي جاءته مع أحمد باشا إلى الدولة العثمانية فوافق على ذلك. ووافق السلطان على أن يُحدّد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً، ويمكن أن يزيد وقت الضرورة، ولا تصنع مصر سفناً، ولا يحق للوالي تعيين ضباط أعلى من رتبة ملازم، والرتب الأعلى من ذلك ترجع للسلطان، واتفق على أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً.

إلغاء معاهدة خونكار إسكله سي:

بدأت إنكلترا وفرنسا تعملان لإلغاء المعاهدة الدفاعية بين روسيا والدولة العثمانية (خونكار إسكله سي) التي تقضي بمرور السفن الروسية من المضائق العثمانية في الوقت الذي تشاء ودون تفتيش سفنها، وقد استطاعت الدولتان فرنسا وإنكلترا الاتفاق مع الدول الأخرى بما فيها روسيا على أن تبقى المضائق مقفلةً أمام جميع الدول بلا استثناء، ووقعت المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة المضائق في ٢٣ جمادى الأولى عام ١٢٥٧.

مسألة لبنان والحرب الطائفية:

دعمت فرنسا الموارنة في لبنان، على حين دعمت إنكلترا الدروز. واعتدى الدروز على الموارنة عام ١٢٥٧، ودخلوا دير القمر، وارتكبوا أبشع الأعمال. وكرروا الاعتداء عام ١٢٦١، فعزل الخليفة الأمير بشير الشهابي، ووضع والياً عثمانياً مكانه، وحُرم الجبل مما كان له من امتيازات، ولم تقبل الدول الأوربية ذلك، فاضطر أن يُعيد للجبل امتيازاته، وأن يعين قائمقام درزي وآخر ماروني وذلك عام ١٢٥٨، ولكن الأمر لم يستقم لاختلاط الطوائف في القرى، فرأى الخليفة ضمّ شمال الجبل أي منطقة الموارنة إلى ولاية طرابلس، فاحتج الموارنة، فأرسل من يدرس

الموضوع ويُقدّم الحلول، فلم يُفد ذلك شيئاً، وأصرّ الدروز أن يبقى الموارنة تحت سلطانهم، وفضّل بعدئذ الموارنة أن يتبعوا ولايةً أخرى من أن يكونوا تحت سلطان الدروز، فاستحسن الخليفة الرأي، ولكن لم يُعجب الدروز فقاموا باعتداءاتهم الثانية ـ التي ذكرناها ـ في عام ١٢٦١.

أرسلت الدولة بعد ذلك جيوشها واحتلت المنطقة كلها، وأعلنت فيها الأحكام العرفية. ثم اتفقت الدول الأوربية مع الخليفة على تشكيل مجلسٍ يضمّ أعضاء من المجموعتين ومن غيرهم، ولم تنته القضية إلا بمذابح عام ١٢٧٧.

اتفاق بلطه ليمان:

ثار أهالي الأفلاق والبغدان رغبةً في تكوين دولة واحدة تشمل الإقليمين مع ترانسلفانيا، ففرّ أميرا الإقليمين، وتشكّلت حكومة مؤقتة، فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة عمر باشا لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وسارعت روسيا واحتلت البغدان والأفلاق وطردت الحكومة المؤقتة، فاحتجت الدولة العثمانية على هذا الفعل، وكادت تقع الحرب بين الطرفين، ثم جرى اتفاق بلطه ليمان (قرب إستانبول) عام ١٢٦٥ ينصّ على أن يبقى تعيين أمراء الإقليمين من حق الدولة العثمانية، وأن يبقى فيهما جيش عثماني ـ روسي لمدة سبع سنواتٍ حتى يستقر الوضع.

حرب القرم:

كانت فرنسا بحكم الامتيازات القنصلية تملك الإشراف على الكنائس في بيت المقدس، وقد حصلت روسيا على هذا الإشراف لانشغال فرنسا بحروب نابليون، فلما انتهت فرنسا مما تعاني أرادت العودة إلى ما كانت عليه فحصل خلاف بين رجال الكنائس الكاثوليك والأرثوذكس فشكّلت الدولة العثمانية لجنةً من رجال كنائس مختلفي المذاهب، فأقروا بحق فرنسا في ذلك فاحتّجت روسيا وهددت بالحرب، وأرسلت سفيراً فوق العادة إلى

إستانبول هو الأمير منشيكوف لإيجاد الشقاق، وحاول إعادة معاهدة (خونكار إسكله سي) الدفاعية مع الدولة العثمانية، فلم يقبل الخليفة ذلك.

واتصل إمبراطور روسيا نيقولا بسفير إنكلترا معرّضاً له بالاستيلاء على مصر مقابل الاتفاق على تقسيم الدولة العثمانية والقضاء عليها، فلم يجد عنده آذاناً صاغية، واتصل بسفير فرنسا معرّضاً باحتلال تونس والوقوف في وجه إنكلترا فلم ير عنده ما يرتاح له.

ورفض الخليفة أيضاً من السفير الروسي حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية، بل أعاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى، وكان قد عزله إرضاءً لروسيا، فأرسل السفير بلاغاً نهائياً للخليفة مع مهلة ثمانية أيام فلم يردّ عليه الخليفة، فارتحل عندها السفير من إستانبول مُهدّداً باحتلال الأفلاق والبغدان.

أبلغ الخليفة سفراء الدول ما تمّ، فأعطت إنكلترا الأوامر لقطعاتها البحرية المنتظرة في مالطة بالتحرّك إلى مياه اليونان حيث القطعات الفرنسية والاشتراك معها في الأعمال كافةً. وتلقّت القطعات المشتركة الأوامر بالتحرك نحو مضيق الدردنيل لتكون على مقربة من ميدان المعركة المرتقبة.

تقدّمت الجيوش الروسية، واحتلت إقليمي الأفلاق والبغدان حسب تهديدات سفيرها فوق العادة، وسعت النمسا للصلح بين روسيا والدولة العثمانية وعقد مؤتمر في ڤيينا، وكان ظنّ الروس أن النمسا ستقف بجانبهم حيث عملوا بجانبها ضد الثورة التي اندلعت في بلادها، وأخمدوا التهاب نيرانها للملك النمساوي فرانسوا جوزيف وعُقد المؤتمر عام ١٢٦٩ في الشهر الأخير من هذا العام، وسعت النمسا، وبروسيا، وإنكلترا، وفرنسا للتوفيق بين الطرفين وقُدّمت عُروض وافقت عليها روسيا ورفضها الخليفة، وشجّعت إنكلترا وفرنسا الدولة العثمانية في عدم الخضوع لطلبات الروس وانفضّ المؤتمر دون اتفاق.

أرسلت الدولة العثمانية إلى روسيا بضرورة إخلاء ولايتي الأفلاق

والبغدان في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ البلاغ ١/١/ ١٢٧٠، وأمرت في الوقت نفسه قائدها عمر باشا بالتحرك ودخول هاتين الولايتين إثر الموعد المحدد. ودخل عمر باشا فعلاً في أول صفر وانتصر، وأجبر الروس على الانسحاب، كما انتصر العثمانيون في الوقت نفسه على جبهة القفقاس، واحتلوا بعض القلاع. . . وتوقّف القتال بسبب برد الشتاء.

واتصل إمبراطور روسيا بإمبراطور النمسا طالباً منه النجدة فيما إذا تدخلت الدول الغربية في القتال الدائر بين العثمانيين والروس، فلم يُوافق إمبراطور النمسا بل اعتذر عن تلك المساعدة.

دمّرت الأساطيل الروسية في البحر الأسود القطعات البحرية العثمانية في ميناء (سينوب) العثماني، وكانت القطعات البحرية الفرنسية، والإنكليزية قد اقتربت من إستانبول، ثم دخلت إثر ذلك الاعتداء إلى البحر الأسود، ولم تجد محاولات الصلح والرسائل، وكان موقف فرنسا وإنكلترا ضد روسيا خوفاً على مصالحهم لا حباً بالمسلمين، وظهر لإمبراطور روسيا أن النمسا بجانب خصومه وليست بجانبه، ويشكّ في أمر بروسيا.

وجرى اتفاق في إستانبول بين الدولة العثمانية، وفرنسا، وإنكلترا على محاربة روسيا وذلك في ١٢ جمادى الآخرة عام ١٢٧٠، واقتضى ذلك الاتفاق أن تُرسل فرنسا خمسين ألف جندي، وتبعث إنكلترا بخمسة وعشرين ألفاً، وأن تجلو هذه الجنود عن الدولة العثمانية بعد خمسة أسابيع من الصلح مع روسيا. وأعلنت فرنسا الحرب على روسيا بالاتفاق مع إنكلترا، ثم اتفقت الدولتان في لندن في ١٢ رجب من العام نفسه ألا تنفرد إحداهما بالاتصال مع روسيا أو الاتفاق معها، وأن تمنعا روسيا من ضمّ أي جزء من الدولة العثمانية إليها، وجمعت جيوشهما في غاليبولي وإستانبول.

بدأت المعارك البحرية قبل أن تصل الجيوش البرية، إذ أرسل أحد القادة الإنكليز في البحرية أحد مراكبه ليحمل الرعايا الإنكليز من ميناء أوديسا، ويرفع العلم الأبيض، فأطلقت القلاع الروسية المدافع عليه، ورفض الحاكم للمدينة الاعتذار فهدّمت القطع البحرية الإنكليزية والفرنسية

قلاع المدينة، ثم انطلقت إلى الأسطول فأعلن الإمبراطور الروسي نيقولا الحرب على الدول المعادية له في ١٣ رجب عام ١٢٧٠.

اجتازت الجيوش الروسية نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (سلستريا) مدة خمسة وثلاثين يوماً، ولم تستطع اقتحامها، وجاء المدد للعثمانيين فترك الروس الحصار، وانسحبوا، وأراد العثمانيون ملاحقتهم واحتلال الأفلاق والبغدان حيث أخلاهما الروس، إلا أن النمساويين قد احتلوا هذين الإقليمين، ووقفوا في وجه العثمانيين.

نقلت الدول المتحالفة المعركة إلى أرض الروس، وحاصرت ميناء سيباستبول، وهزمت الجيوش الروسية. ثم أقنعت النمسا بالانضمام إليها فوافقت، ورفضت بروسيا ذلك من النمسا. وبعد مدةٍ انضمت أيضاً مملكة البيمونت بإيطاليا إلى الدول المتحالفة التي احتلت ميناء كيرتش وبحر آزوف لمنع وصول الإمدادات إلى سيباستبول التي أخلاها الروس بعدئذٍ وأحرقوها، ودخلتها الدول المتحالفة في ٢٦ ذي الحجة ١٢٧١، وكانت بعض القطع البحرية الفرنسية والإنكليزية قد أطلقت القذائف على موانئ بحر البلطيق الروسية وعطلت التجارة فيها، وحاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي، وكذلك احتلت بعض الموانئ على المحيط الهادي. ثم تقدّمت بعد سيباستبول في أراضي أوكرانيا، وفي جبهة القفقاس استطاع الروس أن يستولوا على مدينة قارص. ثم جاء فصل الشتاء وتوقفت العمليات الحربية. وانضمت السويد إلى الدول المتحالفة. ثم وافقت روسيا على طلبات أعدائها بعد أن كانت قد رفضتها من قبل، بل قبلت ما زادت عليه هذه الدول من شروط أقسى، وعقدت معاهدة باريس، وتنص على ما يأتي:

١ ـ تُخلى المناطق التي احتلت أثناء الحرب من كلا الطرفين، ويُطلق سراح الأسرى، ويصدر عفو عام عن جميع الذين تعاونوا مع خصوم دولهم.

٢ ـ تُطلق حرية الملاحة في البحر الأسود للدول جميعاً، ولا تُنشأ فيه قواعد بحرية حربية سواء أكان من قبل الدولة العثمانية أم من قبل روسيا.

٣ ـ تُطلق حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٤ ـ تبقى الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٥ ـ تبقى الصرب مرتبطةً بالدولة العثمانية، ولها استقلال ذاتي يُضمن من قبل الدول.

وأعقب ذلك بحث بعض الشؤون الأوربية، فاتفقوا على تكوين دولةٍ واحدةٍ من الأفلاق والبغدان شبه مستقلة تُسمّى حكومة الإمارات المتحدة، وتكون تحت حماية جميع الدول، أي إخراجها من تبعية الدولة العثمانية، ووقع ذلك في باريس عام ١٢٧٥. وكان الخليفة قد أصدر بعض التعليمات الإدارية في سبيل الإصلاح وهو ما عرف باسم (الخط الهمايوني) وذلك عام ١٢٧٢.

وأوجدت الدول النصرانية كذلك مشكلات في الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، لتفصلها عن الدول العثمانية، فبدأت تقوم الثورات، وتمنع دول أوربا الدولة العثمانية من قمع هذه الثورات بتهديد الدولة، وقطع العلاقات السياسية معها، بل غالباً ما كانت الدول الأوربية هي التي تدعم هذه الثورات وتثيرها، وأصبح سفراء هذه الدول شركاء في السلطة تقريباً. وأثيرت آنذاك مشكلة جزيرة كريت، وحدث اعتداء على النصارى في جدّة، وأصيب قنصل فرنسا، وهدّأ والي مكة الوضع غير أن الإنكليز قد ضربوا جدة بالمدافع.

الفتنة الطائفية في الشام:

تساهل السلطان عبد المجيد مع الدول الأوربية فاستقرت الأوضاع في الأفلاق والبغدان، والصرب، واشتعلت الفتنة في بلاد الشام إذ اعتدى الموارنة على الدروز عام ١٢٧٦ فقام الدروز يأخذون بالثأر، وامتد اللهيب من جبل لبنان إلى طرابلس، وصيدا، وزحلة، ودير القمر، واللاذقية، ودمشق. . . . وأسرعت الدولة فأرسلت فؤاد باشا، وقضى على الفتنة،

وعاقب المسؤولين عنها، كلاً بما يستحق، واحتجت الدول الأوربية، وهددت بالتدخل، وكانت متفرقة الرأي، ثم أجمعت أو اتفقت على أن ترسل فرنسا ستة آلاف جندي لمساعدة الدولة فيما إذا عجزت عن إطفاء الفتنة ـ حسب زعمها والحجة التي اتخذتها ـ وأنزلت فرنسا قوتها في بيروت في ٢٢ محرم عام ١٢٧٧ بعد اتفاق الدول الأوربية الذي تمّ قبل أسبوع (١٥ محرم)، وهذا الاتفاق تدخّل في شؤون الدولة التي أحسنت القيام بمهمتها لكن كان القصد تقوية النصارى، وإظهارهم بمظهر القوة، وأن أوربا كلها من خلفهم، لتزداد قوتهم، ويخشى خصومهم بأسهم، وجرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يُعوّض النصارى على ما خسروه، ويُمنح أهل الجبل حكومةً مستقلةً تحت سيادة الدولة، وأن يرأس هذه الحكومة رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات، ولا يحق عزله إلا برأي الدول الأوربية، وتقترحه الدولة، وتوافق عليه أوربا، وقد اختير أول حاكم داود الأرمني. . . وهذا التساهل قد ألزم فرنسا بالانسحاب من الشام، إذ أخلت المناطق التي دخلتها في ٢٧ ذي القعدة عام ١٢٧٧، أي بعد عشرة أشهر وخمسة أيام من دخولها.

وتوفي الخليفة العثماني عبد المجيد في ١٧ ذي الحجة عام ١٢٧٧.

٧ ـ عبد العزيز:

ولد عام ١٢٤٥، وتولى بعد أخيه عبد المجيد في أواخر عام ١٢٧٧.

قامت في عهده ثورة في جزيرة كريت، وأخمدت عام ١٢٨٣. وتم فتح قناة السويس عام ١٢٨٥، وصدرت مجلة الأحكام العدلية في العام نفسه، وقانون التجارة البحرية عام ١٢٧٩، كما حُصرت ولاية مصر في أبناء إسماعيل باشا الذي حصل على لقب خديوي أي نائب السلطان.

زار الخليفة عبد العزيز أوربا، وفكر كثيراً في أمر الدولة، ورأى اتفاق الدول الأوربية عليها بصفتها تحمل اسم دولةٍ إسلاميةٍ، وأن سكانها من المسلمين، ولم يستطع الأوربيون أن ينسوا أبداً الحقد الصليبي المغروس في

نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة. ورأى أن الدول الأوربية الغربية أكثر نفوذاً في إستانبول من روسيا، ففكر بالاستفادة من خلاف دول أوربا فيما بينها، وظنّ أنه لو أظهر الميل نحو روسيا لقدمت دول أوربا الغربية بعض التساهلات للعثمانيين حرصاً على مصالحها وخوفاً من روسيا، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي في إستانبول فخافت الدول الأوربية، وبدأت تُشيع عليه الشائعات في التبذير والإسراف و.... وتولّى رئيس مجلس الشورى أحمد مدحت باشا فكرة عزل الخليفة فعُزل عام ١٢٩٣، ثم عمل على قتله وقُتل، وأشاعوا أنه انتحر، وتولى أمر الخلافة بعده ابن أخيه عبد المجيد، وهو مراد الخامس.

٨ ـ مراد الخامس:

ولد في ٢٥ رجب ١٢٥٦، وتولى بعد عزل عمه عبد العزيز وعمره سبع وثلاثون سنة، وقد عُزل بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، بويع في ٧ جمادى الأولى، وعُزل في ١٠ شعبان من العام نفسه (١٢٩٣)، وبويع بعده أخوه عبد الحميد الثاني، وأُشيع أن العزل كان لاختلال عقل مراد الخامس.

٩ ـ عبد الحميد الثاني:

ولد عام ١٢٥٩ من زوجة عبد المجيد الثانية، وتولى الخلافة بعد عزل أخيه مراد الخامس عام ١٢٩٣ فكان عمره يومذاك أربعاً وثلاثين سنة.

بدأ التعصب القومي أو بالأحرى الدعوة إلى العصبية تظهر بوضوح أيام الخليفة عبد الحميد الثاني، وإن برزت قبل أيامه إلا أن بروزها كان ضعيفاً، ومع الدعوة إلى العصبية بدأ تأسيس الجمعيات ذات الأهداف السياسية، وإن كانت تحمل أحياناً صفات أو أسماء أدبية وعلمية، ولعل أهم مراكز هذه الجمعيات كان بيروت وإستانبول، ففي المركز الأول لعبت النصرانية دورها الكبير، وبرز أثر الإرساليات التبشيرية النصرانية، وظهر رجال نصارى كان لهم أثرهم في الجمعيات بل وفي الحياة العلمية، فقد

نشطوا في هذا الجانب كي يستطيعوا جمع الناس حولهم. وتشكلت جمعية العلوم والفنون تحت رعاية الإرساليات التنصيرية الأمريكية، ومن مؤسسيها بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وكان هدفها نشر العلوم الغربية والدعاية لدول أوربا، ولم ينضمّ إلى هذه الجمعية خلال عامين مرا على تأسيسها سوى خمسين عضواً كلهم من نصارى بلاد الشام، وقام اليسوعيون بتأسيس الجمعية الشرقية عام ١٢٦٦، وكان أعضاؤها من النصارى أيضاً، ومن أشهر مؤسسيها مؤسسو الجمعية الأولى أي بطرس البستاني وناصيف اليازجي على حين تدعم الأولى الإرساليات البروتستانتية في حين تساعد الثانية الإرساليات الكاثوليكية لكن ما دام جميعهم من النصارى، والهدف واحد فلا مانع من العمل على أي طريق والضرب على أي وتر، ولم يكن للنصارى من دعوة يقومون بها سوى العصبية أي رابطة الجنس الواحد، أو ما عُرف باسم القومية، ولما لم تؤت هذه الجمعيات ثمارها لاقتصارها على النصارى وابتعاد المسلمين عنهم لمعرفتهم بنوايا النصارى في تجزئة الأمة، ومعرفة الذين خلفهم من الدول الأوربية التي تحركها الصليبية، ولما لم تنجح الخطة لجأ النصارى بتوجيه من الصليبية إلى تأسيس جميعةٍ بحيث تضمّ أعضاءً غير نصارى، ويُفضّل أن يكون فيها مسلمون ودروز وغيرهم... كي يمكن ضرب الإسلام بيد أبنائه، وتأسست الجمعية العلمية العربية عام ١٢٧٣ وضمّت خمسين ومائة عضو من النصارى أمثال البستاني واليازجي، ومنهم نصارى أظهروا الإسلام أمثال الشدياق، ومنهم الدروز، ومنهم المسلمون أيضاً، وإن كانوا من أبناء البلاد إلا أن المحرّك لهم كان من الخارج، وقد تحسّنت الصلات بين بعض الساسة من أوربا وبعض الشخصيات من مختلف الفئات أيضاً. وأما المركز الثاني وهو إستانبول فقد ضمّت الجمعيات مختلف العناصر فيه، وإن كان معظمها من الأتراك إلا أنهم من الذين فُتنوا بأوربا، ويُريدون تغيير الوضع، ويدعون إلى العصبية التركية، أو من أصحاب المصالح الذين يُريدون الحصول على مكاسب لهم، ومن اليهود، وخاصة يهود الدونمة، أو بصورة عامة من الناقمين على الحكم ويُريدون تغييره، ومن الناقمين على الإسلام ويريدون ضربه، ومن

أشهر هذا النوع من الجمعيات، جمعية تركيا الفتاة التي تأسست في باريس، وكان لها فروع في برلين، وسلانيك، وإستانبول إضافةً إلى المركز الرئيسي في باريس، وكانت رئاستها لأحمد رضا بك الذي فُتن بأوربا وأفكار الثورة الفرنسية، وقد حرر جريدة المشورة، فكانت مقالاته تدعو إلى تقليد الغرب، والإدارة اللامركزية بالدولة العثمانية، كما كانت جريدة الأبناء التي يصدرها وتُهرب سراً إلى إستانبول، ورحّبت المحافل الماسونية بهذه الجمعية، وكان فرع برلين معتدلاً، أما التوجيه فمن مركز باريس، غير أن مركز سلانيك كان أكثر المراكز تطرّفاً، وضمّ عدداً من الضباط الذين كوّنوا جناحاً عسكرياً في هذه الجمعية، وعرف باسم الاتحاد والترقي، وكانت اللقاءات تتم في المحافل الماسونية التي اهتمت اهتماماً كبيراً بحركة الجمعية ونشاطها، وتنظيم الاتحاد والترقي فيها.

ومن الذين فُتنوا بأوربا وأفكارها رجال كان لهم دور خطير في الدولة أمثال أحمد مدحت باشا رئيس مجلس الدولة، وصاحب اليد الأولى في خلع الخليفة عبد العزيز وفي قتله، وفي خلع الخليفة مراد الخامس. وهؤلاء المفتونون كانوا بعيدين عن معرفة الإسلام لذا كانوا يتّهمون الخلفاء بالحكم المطلق، ويُطالبون بوضع دستورٍ للدولة إذ يريدون أن تكون على نمط الدول الأوربية النصرانية، وأن يكون دستورها من وضع البشر بالشكل الذي عليه الدساتير الأوربية، ولا يقبلون أن يكون القرآن الكريم «كتاب الله» دستور الأمة، وهو الذي يحدّ من تصرّفات الخليفة وصلاحياته، وما ذلك إلا عداءً للإسلام، وانبهاراً بالحياة الأوربية، وانهزاماً نفسياً، وتحقيقاً للشهوات والأهواء الذاتية.

وزاد النفوذ اليهودي في الدولة مع أطماع اليهود، ومع استلام يهود الدونمة عدداً من المراكز الرئيسية، وقد نسي الناس أصلهم، وحقيقتهم، وطبيعة اليهود، إذ أظهروا الإسلام، وعاشوا مع أبنائه، واختلطوا بهم، ويُؤدّون الصلاة أمامهم بل يُؤدّون الحج...

وزاد اتفاق الدول الأوربية على الإجهاز على حياة الرجل المريض إذ

كانوا يطلقون ذلك على الدولة العثمانية، وإن ظهرت الاختلافات بين تلك الدول، فظهرت روسيا في جهة، والدول الأخرى في جهة ثانية.

في وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تسلّم عبد الحميد الثاني الخلافة فكان عليه أن يسير بالدولة إلى شاطئ النجاة دون أن يُعرّض دولته للخطر. فأكثر من رجاله الذين يأتونه بالأخبار، ويُراقبون تحركات أعداء الدولة من أبناء البلاد وخاصة أصحاب المراكز المهمة، وإذا استطاع أن يبطش بأحدهم دون أن يُحدث هزّة لم يقصّر في ذلك، حتى أُطلق عليه السلطان الأحمر... وأكثروا من التهم عليه، وإطلاق الإشاعات، ومن يستطع أن يجلبه إلى صفه بأي نوعٍ من أنواع العطاء لم يدّخر في ذلك وسعاً، حتى بالتزويج من الأميرات أو الجواري حتى أُشيع عليه أنه يمتلك الكثير من الشركسيات، وقد اضطر أن يُعلن دستوراً وضعياً للبلاد تحت ضغط هؤلاء، وعندما قوي أمره ودبّر شأنه عاد فألغاه.

وحاول جمع كلمة الأمة، ودعم المسلمين له في كل مكان ليستفيد منهم ضد حكامهم من المستعمرين إن رغب أن يحركهم أو يهدد دول أوربا، فدعا إلى الجامعة الإسلامية، ووُفّق في هذا الشأن إلى حدٍ كبيرٍ، وقرّب العلماء، واستمع إلى نصائحهم، وسار مع الصوفية، ونظّم المحاكم القديمة، وتابع العمل في مجلة الأحكام العدلية وفق الشريعة الإسلامية، وقام ببعض الإصلاحات العظيمة مثل القضاء على معظم الإقطاعات الكبيرة المنتشرة في كثير من أجزاء الدولة، والعمل على القضاء على الرشوة وفساد الإدارة.

وكان كلما شعر بأن إحدى الدول الأوربية تريد الضغط على العثمانيين وتسعى للإنهاء على الدولة يلين لها، ويُظهر التقرب لها بتعيين الصدر الأعظم من الذين يوالونها. إذ كان كامل باشا يرى تأييد السياسة الإنكليزية، وسعيد باشا يرغب في التقرب من فرنسا، وخليل باشا يود مسايرة روسيا، وتوفيق باشا يحب زيادة النفوذ الألماني أو يرى فيه أقل أطماعاً من غيره، فكان عبد الحميد الثاني يُعيّن الصدر الأعظم الذي يراه ملائماً للسياسة التي

يُريد أن يتبعها، وربما كان النفوذ الروسي أقوى من غيره لقوة روسيا، وكثرة أطماعها، وقربها من الدولة العثمانية، يلي ذلك النفوذ النمساوي إذ أن النمسا كانت تطمع في بلاد الصرب والبلقان عامةً، وتتنافس مع روسيا في هذا المجال، يلي ذلك، إنكلترا ففرنسا، وإن زاد النفوذ الألماني على غيره في نهاية أيام السلطان عبد الحميد.

وعامل الأقليات والأجناس غير التركية معاملةً خاصةً كي تضعف فكرة العصبية، وكان يضطر أن يسكت عن بعض إساءاتهم، مثل الرعب الذي نشرته عصابات الأرمن من الطاشناق في منطقة الأناضول لتفسح المجال للتدخل الأوربي في شؤون الدولة، كما عمل الأرمن مع اليهود لاغتياله أثناء خروجه للصلاة، واضطر مع كل هذا للسكوت كي لا يترك أي ثغرةٍ يمكن أن تنفذ منها الدول النصرانية. ولم يفده كل هذا... ولم يخفف من الإشاعات الكثيرة ضده من المجموعات كلها وعلى رأسهم اليهود الذين منع هجرتهم إلى فلسطين، والأرمن الذين خدموا الروس، والنصارى عامةً، وأصحاب الدعوات العصبية، والمفتونون بأوربا من كل جنسٍ وفي مقدمتهم الترك والعرب. بل تضامنت الدول على انتهاب أجزاء من دولته خوفاً من عودة القوة إليها.

أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في ٥ شوال عام ١٢٩٣ إرادته بتنظيم مجلس عموم، ويتكوّن من مجلسين أحدهما منتخب، ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر مجلس الأعيان ويتمّ تعيين أعضائه من قبل الدولة.

كبرت سن محمد رشيد باشا الصدر الأعظم، فقدّم استقالته، فعيّن السلطان عبد الحميد مكانه أحمد مدحت[1] باشا. وبعد أيام أربعة أرسل

---

(١) ولد أحمد مدحت باشا في إستانبول عام ١٢٣٧ انضم إلى الصدارة العظمى، زار العواصم الكبرى في أوربا، وأمضى هناك ستة أشهر وفتن بأوربا وأفكارها، أصبح وزيراً عام ١٢٧٧، وعُيّن في مجلس الدولة، ثم حاكماً لبغداد عام ١٢٨٥، ثم والياً على سلانيك، ثم وزيراً للعدل، ثم رئيساً لمجلس الدولة، ثم تولّى وزارة الحرب يوم خلع =

السلطان إلى الصدر الأعظم مدحت باشا القانون الأساسي للدولة لينشره، ويتألف من مائة وتسع عشرة مادة، وقد أعطى لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون، وأباح التعليم وجعله إجبارياً على جميع العثمانيين، وسمح بحرية المطبوعات، وأبطل التعذيب أثناء التحقيق، ومصادرة الأموال، وأعمال السخرة، وعدم جواز عزل القضاة إلا بشكل شرعي.

وفي ٢١ محرم ١٢٩٤ عُزل أحمد مدحت باشا من الصدارة العظمى حيث ظهر أنه يُؤيّد جمعية تركيا الفتاة، ويعمل لنشر أفكارها، ويسعى لعزل عبد الحميد الثاني وإعادة أخيه مراد الخامس بعدما أُشيع أنه قد عوفي، ويقول بفصل الدين عن الدولة، ويرى أن الخليفة العثماني لا يُمثّل المسلمين الذين يعيشون خارج حدود الدولة في الوقت الذي كان المسلمون في كل مكان يعدّون الخليفة مرجعهم الأعلى، وما فصلهم عنه سوى ضعف المسلمين وقوة أعدائهم وخاصةً الصليبيين، وبذا لم تصل مدته في الصدارة العظمى إلى شهرين، وأوكل هذا المنصب إلى محمد أدهم باشا.

وفي ٤ ربيع الأول عام ١٢٩٤ اجتمع المجلس العثماني.

كانت الثورة قد اشتعلت في بلاد الهرسك بتحريض من سكان الجبل الأسود والصرب، غير أن الثورة قد أخمدت ثم إن السلطان رغب في اللين كي لا يكون مجال لتدخل الدول الأوربية فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة والتوحيد في الضرائب بين المسلمين والنصارى. . . ولم يُرضِ ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، ولم يُرق ذلك النمسا التي

= السلطان عبد العزيز، وعُيّن صدراً أعظم في أوائل حكم عبد الحميد الثاني، ثم أزيح وطرد من البلاد بعد أقل من شهرين من تسلّمه منصب الصدارة العظمى، ثم استدعي وعُيّن حاكماً لأزمير، ثم صدر قرار باعتقاله عام ١٢٩٩ لاتصاله بالأجانب، وطلب من الدول الأوروبية التدخل في قضيته بعد أن فرّ إليها، ثم قُبض عليه، وحوكم، وحُكم عليه بالإعدام لقتله السلطان عبد العزيز، وخيانته، وتوسطت له بريطانيا فخُفّف عنه الحكم، وصدر حكم بسجنه مدى الحياة، ثم خُفّف عنه فعاش في الطائف، ومات أو اغتيل عام ١٣٠١.

كانت وراء الثورة وترغب في ضمّ البوسنة والهرسك إليها، فعملت مع روسيا وألمانيا على إرسال لائحة إلى السلطان تعرض عليه الإصلاحات التي يجب القيام بها، ورفعت اللائحة إلى فرنسا وإنكلترا ومنهما إلى الدولة العثمانية فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة والهرسك لم يقبلوا بذلك وطالبوا بأمور أخرى.

وحدثت حادثة شغلت الساسة في الدول، وهي أن فتاةً نصرانيةً في سلانيك اعتنقت الإسلام، وذهبت إلى المحكمة لإشهار إسلامها فاختطفها النصارى في الطريق، فثار المسلمون وطالبوا الحكومة بالبحث عن الفتاة، فوعدهم الوالي بذلك، ولم يتمكّن من الحصول عليها، فاجتمع المسلمون ثانيةً في أحد الجوامع وتكلّموا عن الحكومة، وجاء إلى الجامع قنصلا ألمانيا وفرنسا، وسرت شائعة أنها في بيت القنصل الألماني، فاعتدوا على القنصلية، ووصل الخبر إلى الدول فاضطرب رؤساؤها، وحرروا لائحةً في برلين (وزير روسيا، ووزير النمسا، ووزير ألمانيا) ووقعت عليها كل من فرنسا، وإيطاليا وقد طالبوا الدولة العثمانية بإصلاح حال الرعايا النصارى، والاتفاق مع الثائرين، وتعيين مجلس دولي لمراقبة ذلك وإلا تضطر الدول الأوربية إلى استخدام القوة.

ثورة البلغار:

تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتُحرّضهم على الثورة ضد العثمانيين، وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية في بلاد البلغار، بعد فرارهم من بلادهم إثر احتلال الروس لها، أُشيع في البلغار أن الحكومة تريد إقطاع الشركس أراضي بلغارية، فقاموا بثورةٍ، وكانت تمدهم روسيا، والنمسا حيث يوجد فيها مركز لتلك الجمعيات يموّنها بالأسلحة. ولكن الدولة العثمانية استطاعت أن تقضي على

هذه الحركة فقامت الدول الأوربية تشيع الشائعات عن تصرّف الجنود العثمانيين وارتكابهم الأعمال الوحشية على حين أن ما صدر إنما هو من جانب البلغاريين الذين كانوا يهاجمون المسلمين ويبيدونهم، وبهذه الشائعات أُثير الرأي العام ضدّ الدولة العثمانية، وطالب الحكومات الأوربية باتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ ضدّ العثمانيين فقدمت لائحة تُطالب الدولة بالتحقيق لمصلحة البلغار، والتعويض لهم، وتعيين حاكمٍ نصراني لهم.

ثورة الصرب والجبل الأسود:

شجّعت روسيا، والنمسا، وألمانيا الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، إذ كانت روسيا تريد توسعة حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم، فإن انتصرا جاءت الجيوش وقضت على الدولة العثمانية، وإن انتصرت الدولة عليهما وقفت الجيوش الروسية بجانبهما ونصرتهما على الأعداء. وبدأت الجنود الروسية تتدفق سراً على بلاد الصرب والجبل الأسود، فالحقيقة أن الروس هم الذين يحاربون العثمانيين تحت اسم الصرب والجبل الأسود. وبدأ الأميران يجمعان الجيوش ولما سألهما الصدر الأعظم عن سبب حشد الجيوش أجابا لردّ غارات الأرناؤوط، وللأمن الداخلي. وعندما تهيأت جيوش الصرب والجبل الأسود، طلب أمير الصرب من الدولة العثمانية أن تعهد إليه بإخماد الثورة في البوسنة لأن جيوش العثمانيين فيها يهدد بلاده، كما طالب أمير الجبل الأسود الدولة العثمانية بالتنازل له عن جزء من الهرسك وما ذلك إلا لإيجاد ذريعة للحرب فلم يجابا على طلبهما فعندها دخلت جيوش الصرب والجبل الأسود الأراضي العثمانية.

وكانت الدولة العثمانية قد استعدت للقتال وحشدت الجيوش، وجاءتها قطعات من مصر، وتمكّنت من الانتصار على الصرب[1] في عدة

(١) كانت المعارك في الجبل الأسود بسيطةً لوعورة تلك البلاد، فبقي الثوار في مرتفعاتهم=

مواقع، وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً غير أن الأوامر قد جاءت إلى القائد العثماني بالتوقف بسبب تدخل الدول الأوربية، واشترطت الدولة شروطاً لم تقبلها الدول النصرانية، فتابع القائد العثماني زحفه، فتدخلت الدول، وطلبت من العثمانيين إصدار أوامر بوقف القتال مباشرة وإلا يُغادر سفراء الدول إستانبول إشارة إلى قطع العلاقات وتوقع الحرب.

واجتمع مندوبو الدول في إستانبول خوفاً من تفرّد روسيا والهجوم على الدولة، واحتلال عاصمتها والمضائق، وقدّموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى الأجانب أو التابعين للدولة، وألا تحتل جنود الدولة العثمانية سوى القلاع وبعض المدن الكبرى، وأن تشكل الشرطة البلغارية من النصارى ويكون نصف ضباطهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارى، وأن تُشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تُعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود في الصلح الذي يعقد معهما. ولكن الدولة رفضت هذه القرارات رغم التهديدات. وكان الدستور قد أعلن، ورفض هذه القرارات، كما رفضها أيضاً اليهود والنصارى من رعايا الدولة. وسافر إثر ذلك مندوبو الدول وسفراؤها إيذاناً بقطع العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية.

عقدت الدولة العثمانية في هذه الآونة صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت بنتيجته جيوشها من بلاد الصرب، على ألا تبني الصرب قلاعاً جديدةً، وأن يُرفع العلم العثماني والصربي معاً دليلاً على السيادة العثمانية، ومددت الهدنة مع الجبل الأسود، ولم يُعقد معه صلح إذ طالب بأراضي جديدة لضمّها إليه.

وأرادت روسيا أن تستغلّ الفرصة، وأن تنفرد، بحل مشكلتها وحدها

= لم يتمكنوا أن يخترقوا الجيوش العثمانية المحيطة بهم ومساعدة الصرب، كما لم يتمكّن العثمانيون من إنزال الثائرين من حصونهم وجبالهم وإخضاعهم.

مع الدولة العثمانية، ولكنها حسبت حساباً للدول الأخرى فأرسلت تستشيرها فيما ستفعل، وأرسلت لائحةً إلى إنكلترا تُعرضها عليها، وتوقع عليها إن وافقت، فوافقت عليها إنكلترا واجتمع سفراء الدول الأوربية في لندن، ووضعوا لائحة وقدّموها إلى الدولة العثمانية، وفيها تأكيد الاتفاق بين الدول الأوربية لتحسين أحوال النصارى في الدولة العثمانية، وإجراء الإصلاح في البوسنة والهرسك، والبلغار، وتعيين الحدود مع الجبل الأسود، وحرية السفر، والصلح معه، ومع الصرب. وأن تُراقب سفراء الدول في إستانبول، وعمالها في الولايات تنفيذ اللائحة. غير أن هذه اللائحة التي وقعت عليها كل من روسيا، وإنكلترا، والنمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا لم تعترف عليها الدولة لأن هذه الدول تُريد أن تتدخل في شؤون العثمانيين الخاصة باسم حماية النصارى، وحتى لا تُستشار الدولة فيها أيضاً، ولم تُشارك في مناقشتها، وأعلنت أن ما حدث من فوضى إنما كان نتيجة التدخلات الخارجية، وفي الوقت نفسه فإن الإصلاحات قائمة وتسير فيها الدولة بخطا حثيثة، وإن المساواة قائمة بين الجميع، وكيف تكون تدخلات الدول في شؤون العثمانيين عن طريق السفراء في إستانبول، والعمال في الولايات الأخرى؟

الحرب مع روسيا:

وقّعت روسيا اتفاقاً سرّياً مع رومانيا (الأفلاق والبغدان)، وضعت رومانيا بموجبه جميع إمكاناتها تحت تصرف روسيا، ثم قطعت روسيا العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية، وأعلنت الحرب عليها بناء على رفض الباب العالي للائحة لندن، وأخبر الباب العالي دول أوربا ثانية عما تصرّفت به روسيا فلم يتلق أي موقف إيجابي وذلك عام ١٢٩٤، رغم المعاهدة السابقة وخاصةً التي وقّعتها إثر حرب القرم.

اخترقت روسيا حدود رومانيا فاحتجت الدولة العثمانية لأن رومانيا لم تزل تحت سيادة العثمانيين، واخترقت نهر الدانوب، وانتصرت على

العثمانيين في عدة مواقع، ثم توقفت بعد المقاومة التي اعترضتها، وانقلب وضع الجيوش العثمانية من مدافعة إلى مهاجمة، وبعد تقدّم بسيطٍ عاد النصر إلى جانب الروس، واضطر القائد العثماني عثمانَ باشا إلى الاستسلام، وهو جريح، وتوقف القتال في الجبهة الأوربية.

أما في شرقي الأناضول فقد حاصر الروس عدة مدن وقلاع ومنها قارص، وباطوم إلا أنهم اضطروا إلى فكّ الحصار عنها والتراجع بجهود أحمد مختار باشا، وإسماعيل حقي باشا، وانتصر العثمانيون على الروس في ستة وقائع، وقد طلب الروس إمدادات فجاءتهم جيوش جرارة، ولم يتمكّن العثمانيون من إرسال الإمدادات إلى الجبهة، وجاء الهجوم الروسي الثاني، فتراجعت الجيوش العثمانية حيث انسحب أحمد مختار باشا إلى أرضروم، وسقطت مدينة قارص بيد الأعداء، ثم حاصروا أحمد مختار باشا في أرضروم. وبسقوط قارص في جبهة الأناضول، وسقوط بلافنا بعدها بشهر على الجبهة الأوربية، استأسد الصرب فأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية بعد لقاء بين إمبراطور روسيا وأمير الصرب، كما تابع سكان الجبل الأسود قتالهم للعثمانيين، فأصدر الباب العالي منشوراً يعلن عزل أمير الصرب عن إمارته، ويوضح للسكان هذه الخيانة، فلم يُجده ذلك نفعاً.

وتقدّم الروس فاحتلوا صوفيا عاصمة بلغاريا اليوم، ومنها ساروا إلى أدرنة فدخلوها، وانطلقوا منها نحو إستانبول، ولم يبق بينهم وبينها سوى خمسين كيلو متراً. وعندما اقتربت الجيوش الروسية من أراضي البلغار انقض النصارى على المسلمين يفتكون بهم ذبحاً وقتلاً، وفرت أعداد من المسلمين متجهةً نحو إستانبول حيث ملؤوا الشوارع، وتشكّلت عدة جمعيات لمساعدتهم. وفي ٧ ذي الحجة من ١٢٩٤ اجتمع المجلس النيابي، فاستمع إلى خطابٍ باسم السلطان، ثم صدر أمر بحلّه.

وأرسل الباب العالي وفداً عسكرياً من نامق باشا، وسرور باشا لوقف القتال فقابل الوفد القائد الروسي، وتوقف القتال في مطلع عام ١٢٩٥، وأعلن الباب العالي عن رفع الحصار عن سواحل روسيا على البحر الأسود.

وفي هذه الأثناء وقعت عدة أحداث بعضها في الداخل وبعضها خارجية، ففي الداخل حاولت مجموعة من الثائرين مستغلة النقمة أيضاً والفوضى التي حدثت. أما من جهة الخارج فعندما علمت إنكلترا أن قوات روسيا أصبحت على مقربة من إستانبول أمرت قطعاتها البحرية بدخول مضيق البوسفور، ولو بالقوة وقد تمّ ذلك، وأرادت روسيا مقابل ذلك أن ترسل قوات إلى إستانبول بحجة حماية النصارى، ثم اتفقت الدولتان، وهدأت الأوضاع..

معاهدة سان استيفانوس:

التقى مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدةٍ قرب إستانبول على بحر مرمرة تسمى سان استيفانوس، وذلك بعد محادثات تقدّم فيها الروس قليلاً عن خط وقف إطلاق النار الذي اتُّفق عليه، ونُقل أيضاً مركز المحادثات من أدرنة إلى هذه القرية.

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرةً وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إستانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة على:

١ ـ تعيين حدود جديدة للجبل الأسود لإنهاء النزاع. وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال، وإذا حدثت خلافات جديدة تحلها روسيا والنمسا.

٢ ـ تستقل إمارة الصرب، وتضاف لها أراض جديدة، وتُحدد الحدود حسب الخريطة المرفقة، وبمساعدة الروس.

٣ ـ تأخذ بلغاريا استقلالاً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدّداً إلى الدولة العثمانية، ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتُعين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس، ويُنتخب الأمير من قبل السكان، ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا، ويحق للعثمانيين نقل جنودهم إلى ولايات أخرى ضمن الأراضي البلغارية.

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

٥ ـ يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن النصارى من الأكراد والشركس.

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

٧ ـ تدفع الدولة العثمانية غرامةً حربيةً قدرها (٢٤٥,٢١٧,٣٩١) ليرة ذهبية. ويمكن لروسيا أن تتسلّم أراضي مقابل هذا المبلغ.

٨ ـ تبقى المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحةً للسفن الروسية في زمن السلم وزمن الحرب.

٩ ـ يُمكن للمسلمين الذين يعيشون في الأراضي التي اقتطعت من الدولة العثمانية أن يبيعوا أملاكهم ويهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية.

أما بقية الدول فقد كانت إنكلترا أكثرها اهتماماً وتخشى من احتلال روسيا لإستانبول ووصولها إلى المياه الحرة ومنافستها لبقية الدول في تلك الجهات، وأما النمسا فترغب في اقتسام التركة مع روسيا وسيطرتها على بلاد البوسنة والهرسك والوصول إلى ميناء سلانيك ودخول المياه المتوسطة من تلك الثغرة، وأما ألمانيا فلا تهتم كثيراً، وربما تميل إلى موقف روسيا، وكذلك كانت إيطاليا قليلة المصلحة في هذا الموضوع، وكانت فرنسا تقف على الحياد وخاصة أنها كانت تئن من هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨.

معاهدة برلين:

دعت النمسا الدول إلى حضور مؤتمر في برلين، واختارت برلين لأن ألمانيا ترى من الضرورة أن تحتل النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك. واشترطت إنكلترا أن يُعاد النظر في معاهدة سان استيفانوس، واختلفت مع روسيا وكادت تقع الحرب بينهما، غير أن روسيا أمام إصرار إنكلترا والدول الأخرى التي معها، وأمام الحركات الانتقامية التي قام بها المسلمون


رومانيا
الصرب
صوفيا
بلغاريا
الجبل الأسود
استانبول
رودوس
معاهدة سان استيفانوس
« عام ١٢٩٥ »
المقياس
كيلومتر
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠

مصور رقم [١٩]

البلغار، فاعتصموا بالجبال وانطلقوا يهاجمون القوات الروسية، وينتقمون من النصارى الذين فتكوا بهم سابقاً، ثم هدأت الأمور إلا أن إنكلترا بقيت تخشى من قوة روسيا لذا طلبت من الباب العالي عقد معاهدة دفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا خوفاً من تقدم روسيا نحو إستانبول، والسماح لإنكلترا باحتلال جزيرة قبرص، وإصلاح أوضاع النصارى كي لا يتجهوا نحو روسيا، فوافقت الدولة على ذلك خوفاً من الروس الذين يهددونها، وضحّت بجزيرة قبرص. وإن تعهدت إنكلترا بإخلاء الجزيرة فيما إذا انسحبت روسيا من باطوم وقارص. وبقيت المعاهدة الدفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا سرية حتى أشرفت أعمال معاهدة برلين على الانتهاء.

وكان من أهم ما اتفق عليه المؤتمرون في برلين، وفيه تعديل على معاهدة سان استيفانوس.

١ ـ استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها إذ تراجعت من ناحية الغرب إلى الشرق لمصلحة الصرب، كما تراجعت من ناحية الجنوب إلى الشمال لمصلحة الدولة العثمانية، وأصبحت سواحل بحر إيجه الشمالية للعثمانيين. وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروميللي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً. ويحكمها نصراني، يُعيّن لمدة خمس سنوات باتفاق الدول. وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروميللي الشرقي وتحدد بخمسين ألف جندي.

٢ ـ تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم أن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استيفانوس أي جزء منها.

٣ ـ أعطيت البوسنة والهرسك للنمسا.

٤ ـ أعيدت بسارابيا إلى روسيا، وأُخذت من رومانيا. وتُعطى رومانيا مقاطعة دوبروجيه، وبعض الجزر. وشملت معاهدة برلين ٦٤ مادة.. ووقعت في رجب من عام ١٢٩٥.

وهكذا حصلت روسيا والنمسا، وإنكلترا على أجزاء من الدولة العثمانية، ولم يكن لألمانيا وإيطاليا مطامع مباشرة، أما فرنسا التي كان موقفها على الحياد فرغبت أن تحصل على نصيبها من التركة، وقد عادت لها قوتها بعد هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨، فادعت عام ١٢٩٩ أن اعتداءات على أرض الجزائر وقعت من جهات تونس فأرسلت قوةً مؤلفةً من ثلاثين ألفاً بحجة حماية الأمن، ثم دعمتها بقوة أخرى، واتجه الجيش نحو العاصمة وأجبر الباي على توقيع معاهدةٍ اعترف فيها بالاحتلال الفرنسي، واعترفت الدول النصرانية بهذا الاحتلال، وأرسلت الدولة العثمانية قوةً بحريةً، وأخرى بريةً لتعزيز القوات في طرابلس على حدود تونس... وكادت الحرب تقع، ونصحت ألمانيا السلطان بعدم الذهاب بعيداً فأبدى رغبته بحل المسألة عن طريق المفاوضات.

ويبدو أن إنكلترا لم تقنع بما حصلت عليه في قبرص، وكانت عيونها ترنو نحو مصر، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس، فاستغلت ما حدث في مصر من حركات نتيجة الديون التي تراكمت على الحكومة بعد فتح قناة السويس، وتبذير الخديوي إسماعيل، وخلعه وتولية ابنه توفيق، وتدخلت في شؤون مصر، وانتصرت على قوّات أحمد عرابي، واحتلت البلاد عام ١٢٩٩.

وقامت الثورة المهدية في السودان في هذا الوقت، ثم سيطرت على السودان كله، ووجدت إنكلترا التي أصبحت تحكم مصر وبالتالي تخضع لها السودان بحكم أنها كانت تتبع مصر رأت أن تسحب الجيوش المصرية من السودان وشرقي إفريقية التي أيضاً كانت تتبع مصر بعد أن تنازلت عنها الدولة العثمانية لصالح مصر، ثم تعيد إخضاع السودان من جديد بجنود مصرية وقادة إنكليز، وتمكّنت فعلاً من الانتصار على المهديين، والقضاء على ثورتهم، والسيطرة على البلاد من جديد. أما شرقي إفريقية فقد تقاسمته مع فرنسا، وإيطاليا، والحبشة.

وهكذا حصلت كل دولة أوربيةٍ على ما تريد من الدولة العثمانية في

تلك المرحلة، ثم تركتها تلتهب فيها النار من الداخل، وهي تتفرّج وتؤيد، وفي الوقت نفسه تتقاسم مناطق النفوذ في إفريقية وبقية المناطق، وتأخذ نصيبها أيضاً تلك الدول التي لم تأخذ أجزاء من الدولة العثمانية مثل إيطاليا وألمانيا، كما تتنافس هذه الدول أحياناً فيما بينها، وقد يقع بينها الصدام ولكن صدام محلي.

الحركة الداخلية:

شعر المفتونون بأوربا أنهم قد وصلوا إلى أهدافهم بعد تولية مدحت باشا الصدارة العظمى أيام السلطان عبد الحميد الثاني، ومدحت باشا كبير هؤلاء المفتونين، وأمل الدول النصرانية في فرنجة التفكير العثماني أصبح كبيراً بعد أن وعد السلطان عبد الحميد الصدر الأعظم بأن يعيّن نامق كمال بك، وضياء باشا[1] مستشارين في ديوان القصر السلطاني، وكذا كان قد وعده بأن يُعلن دستوراً للبلاد، وقد أعلن السلطان فعلاً، كما جمع المجلس، غير أن السلطان عبد الحميد لم يلبث أن خلع مدحت باشا[2] من الصدارة العظمى، ولم يمض على تسلمه إياها أكثر من شهرين، ولم يف

---

(١) ضياء كوك ألب: من أصل كردي، وُلد في ديار بكر عام ١٢٩٣، اشتغل في التعليم فتأثر بمدير المعهد الذي يعمل به، وكان من اليهود، وكانت له ميول متطرفة، كما تأثر بالإلحاد، سافر إلى إستانبول عام ١٣١٥، والتحق بكلية الطب البيطري، وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي السرية، وأُقصي عن التعليم، وسجن، ثم أُطلق سراحه، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في ديار بكر، أصدر جريدتين بعد خلع السلطان عبد الحميد، ثم أقام في إستانبول، وعُيِّن عام ١٣٣٤ أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة إستانبول، هرب من البلاد عام ١٣٣٦، وعاد بعد انتصار مصطفى كمال، وانتخب نائباً عن ديار بكر عام ١٣٤١، وتوفي بعدها بعامين (١٣٤٣هـ).

(٢) كان خلع مدحت باشا نتيجة اتصاله بالإنكليز، إذ كان على صلةٍ مع دذرائيلي اليهودي رئيس وزراء إنكلترا، وكان مدحت باشا يلمح بضرورة وصاية إنكلترا على الدولة كي لا تستطيع الدول الأخرى اقتطاع أي جزء من أملاكها، وعمل على اختيار ٤٨ نائباً نصرانياً من مجموع ١١٧ نائباً. كما حوكم على خلع السلطان عبد العزيز وتبيّن أنه وراء عملية قتله. فكانت جريمة القتل والخيانة العظمى في حق أمته، ووضعت إنكلترا كل ثقلها في سبيل إنقاذه.

بوعده بتعيين الرجال الذين وعد بتعيينهم، وعلّق الدستور، وأرجأ اجتماع مجلس النواب في صفر عام ١٢٩٥ إلى أجل غير مسمى، حيث لاحظ أن أكثر أنصار الدستور كانوا على صلة بالساسة الأوربيين، ومن الذين يُعادون القانون الإسلامي، لذا بدأ يبطش بكل من يدعو إلى تبني الفكر الغربي، وفي الوقت نفسه كان يهتمّ بتدريب الجيش، ويقوّي مركز الخلافة، ويدعو إلى الجامعة الإسلامية. فخاب ظن هؤلاء المفتونين بأوربا، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الدستوريين»، وانطلقوا في كل مكان يعملون على نشر أفكارهم، ويؤلفون الجمعيات السرية سواء أكانت بين المدنيين أم بين العسكريين، فتأسست جمعية الاتحاد والترقي[١] في باريس عام ١٣١٦، ووجدت جمعية الحرية في سلانيك عام ١٣٢٣، ثم اندمجتا معاً، وأصبحت الجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس، أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك. وكان أقدم هذه الجمعيات الشبيبة[٢] العثمانية التي تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢ ولكنها كانت علنية. أما التنظيمات العسكرية فكان أولها تنظيم نيازي بك في رسنة، وتنظيم أنور بك[٣]، وتنظيم رائف بك،

---

(١) كانت جمعية الاتحاد والترقي هي الجناح العسكري من جمعية تركيا الفتاة، وعمل هذا الجناح على ترك فكرة القومية التركية مرحلياً كي لا ينفر منها غير الأتراك، فنجحت مبدئياً مما جعلها تظهر على حين يختفي اسم تركيا الفتاة.

(٢) الشبيبة العثمانية تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢، وتهدف إلى تغريب الدولة العثمانية، وكانت سرية، لم يزد عدد أعضائها عام ١٢٨٤ على ستة أعضاء، ثم ازداد إلى ٢٤٥ عضواً مباشرة، وعندما ضغط عليها الوزير عالي باشا انتقل مركزها إلى باريس. وصدر العفو عن أولئك الأعضاء بعد وفاة عالي باشا عام ١٢٩٩ فعادوا إلى إستانبول، وضعف شأنها في باريس، حيث انضم أعضاؤها إلى الاتحاد والترقي.

(٣) أنور بك: ولد عام ١٢٩٩ في إستانبول، كان أبوه أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد الثاني. وتزوج ابنة أخي السلطان، دخل الكلية الحربية في إستانبول وتخرّج منها برتبة رئيس، وعُيّن في الفيلق الثالث بسلانيك، وقاد عام ١٣٢١ العمليات العسركية العثمانية ضد العصابات المقدونية، وفي عام ١٣٢٤ عُيّن في أركان الفيلق الثالث بمناستر، وانضم هناك إلى الاتحاد والترقي، وجذب إليها الجنرال محمود شوكت، وفي عام ١٣٢٧ عُيّن ملحقاً عسكرياً في برلين فتعلّم اللغة الألمانية. ترك برلين، وانضم إلى المقاومة العثمانية في ليبيا، وعُيّن عام ١٣٣١ حاكماً على بنغازي. وعاد إلى إستانبول=

وتنظيم حسن بك، وتنظيم صلاح الدين بك، وبدأت التنظيمات العسكرية تنمو وتتسع دائرتها بسرعة، والحكومة منصرفة إلى تقوية الجيش وإلى الخطر اليهودي الذي بدأ يبرز بشكلٍ واضحٍ سواء عن طريق يهود الدونمة، أم عن طريق الماسونية، أم عن طريق اليهود من خارج الدولة، إذ ساعدوا الجمعيات السرية، وكان اليهود قد دعوا إلى اجتماع لبحث قضيتهم، وعقد المؤتمر الذي دعوا إليه في (بازل) بسويسرة عام ١٣١٤، ورأوا في المؤتمر أن يعملوا على تأسيس وطن لهم يجمعوا فيه أبناء عقيدتهم الذين يُضطهدون في العالم نتيجة تصرّفاتهم وآرائهم وعقائدهم الخاصة بهم سواء أكانت ابتزاز الأموال أم تسخير الجنس لحسابهم، أم قتل الأبرياء للحصول على الدماء لعمل فطيرهم في عيدهم، وأصرّ (هرتزل) يومذاك على أن تكون فلسطين هي الوطن لهم، وأعطى الصلاحيات من أجل تحقيق غايتهم، فنشأت الفكرة الصهيونية. وأصبح هرتزل يتصل بالسلطان عبد الحميد، ويحاول أن يعظّمه لتتوطد الصلة بينهما غير أن عبد الحميد لم يأبه به، فحاول هرتزل تحقيق هدفه عن طريق دولة أوربية واختار لذلك إنكلترا التي هي حريصة على مصر بصفتها تملك الممر لطريق الهند، على أن مصر تجاور فلسطين، لذلك فقد اختار إنكلترا، فعرض على الإنكليز إنشاء دولة يهودية في فلسطين يكون لها استقلال ذاتي، وتُساعد إنكلترا على الوصول إلى الهند إن تعذّر طريق مصر، كما يمكن مدّ خطٍّ حديدي من فلسطين إلى الخليج العربي، وذلك منافسة للألمان الذين كانوا على صراع مع الإنكليز، ولهم نفوذ في الدولة العثمانية في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، وقد حصلوا على امتياز خطٍّ حديدي يصل بين إستانبول والبصرة عبر بغداد... وأن

= وقاد انقلاباً ضد خصومه من أعضاء تجمّع الائتلاف الحر، واستعاد أدرنة من البلغار في حرب البلقان الثانية، وحكم البلاد مع طلعت باشا، وجمال باشا حتى هُزمت الدولة في الحرب العالمية الأولى، واحتل باكو بعد الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وفرّ إلى ألمانيا، وذهب إلى موسكو عام ١٣٣٩، ورجع إلى برلين للذهاب إلى الأناضول، وحاول الروس الاحتفاظ به، ففرّ منهم بحيلة، وانضم إلى الثورة المضادة للشيوعية في بخارى، وطلب من الروس إخلاءها، فقُتل في المعركة عام ١٣٤٢.

اليهود يمكنهم أن يقدموا المال اللازم للدولة العثمانية لتصحيح المالية بصفة أن الدولة هي صاحبة السيادة على فلسطين.

وعرض هرتزل مشروعه على روسيا أيضاً فتجاوبت معه على لسان وزير الداخلية يومذاك الذي عرض عليه أن روسيا يمكنها أن تتخلى عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود الذين يعيشون في بلادها لكنها لم تكن لتتخلّى عنهم جميعاً إذ تود أن تحتفظ بأصحاب الإمكانات الفكرية منهم.

ولم يُفلح هرتزل مع السلطان عبد الحميد لذا حرص أن يستعين عليه ببعض الزعماء من العثمانيين الذين استطاع إغراءهم بالمال أو بأشياء أخرى، واستعان كذلك ببعض أصدقائه من الأجانب الذين كانوا على صلة بالسلطان نفسه أو ببعض أصحاب النفوذ، ومن هؤلاء سفراء ألمانيا والنمسا... ورفض السلطان عبد الحميد من كل من عرض عليه سواء أكان من الأجانب أم من هرتزل نفسه أم من بعض العثمانيين، ثم حاول هرتزل أن يخدم السلطان ببعض الخدمات ضد المتمرّدين من الأرمن واليونان.... ولكن ذلك لم يفد شيئاً وعندما زار إمبراطور ألمانيا إستانبول عام ١٣١٥، ومنها انتقل إلى بلاد الشام لحقه هرتزل وقابله في القدس بوساطة رئيس وزراء ألمانيا، وبوساطة السفارة الألمانية في إستانبول تمكّن ومعه الحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من مقابلة السلطان، وقدموا الإغراءات فطردهم السلطان، وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، وعندها قرّر اليهود العمل على خلعه، وبدأوا يعملون ضده، وحاولوا الإفادة من المنظمات الأرمنية.

وأما الماسونية فهي منظمات عالمية تضمّ مختلف الأديان والأجناس والشعوب وتعمل على خدمة بعضها لبعض، ولكن تعمل بوحي يهودي، وأسرار يهودية، وينتمي إليها معظم الرجالات الذين بحاجة إلى دعم وخاصة زعماء البلاد، ومن يريد لنفسه الزعامة، وقد دعمت هذه الحركة الجمعيات السرية التي تعمل ضد السلطان عبد الحميد، وبذلت قصارى جهدها لمساعدة اليهود في مسعاهم سواء أكانت الهجرة إلى فلسطين في البداية،

وتكليف الرؤساء لهذا، والقضاء على السلطان عبد الحميد في النهاية، وفي الوقت نفسه فقد عملت هذه الحركة في صفوف العثمانيين سرّاً، فهي منظمة سرية بالأصل، وتمكنت أن تضم إليها أعداداً من الأشخاص البارزين، وهي بالأصل توجه اهتمامها إلى البارزين كي تستفيد منهم، وتستطيع أن تُكلفهم بخدمات لغيرهم كي تجلبهم إليها، أو تحقق على أيديهم بعض أغراضها، ومن هؤلاء الذين كسبتهم محمد طلعت باشا[1] الذي انتخب رئيساً لمحفل الشرق العثماني. ومن الذين انضموا إلى الماسونية أحمد جمال باشا، وقد أوقعت هذه الحركة الدولة بكثير من الأزمات السياسية، وخرجت الدولة خاسرةً، ومنها حرب طرابلس، التي أعطت إيطاليا من أجلها المبالغ الطائلة للماسونية كي يقنعوا الدولة في سحب قواتها، كما عملت هذه الحركة لإرسال القطعات العسكرية إلى اليمن، وبصورة عامة أصبحت الدولة تحت نفوذ الماسونية بتأثير طلعت باشا وجمال باشا، ولما علم طلعت باشا بالمؤامرات قتلته الماسونية على أيدي الأرمن في برلين.

وأما يهود الدونمة فمن المفيد الحديث عنهم بعض الشيء. حدث اضطهاد لليهود في الأندلس في نهاية القرن العاشر الهجري فهرب كثير منهم من محاكم التفتيش، وتشرد كثير منهم من الأندلس ومن روسيا، وهاموا على وجوههم إذ يكرههم الناس، والمجتمعات، والدول لتصرفاتهم القذرة، ولم يجدوا لهم إلا التوسط لدى الدولة العثمانية لتسمح لهم بالاستقرار في

(١) ولد محمد طلعت عام ١٢٩٢ في أدرنة، وكان أبوه موظفاً صغيراً لدى الدولة العثمانية، درس القانون في سلانيك، وانضم إلى شركة الهاتف، ودخل في جمعية تركيا الفتاة ورأس أول خلية للاتحاد والترقي في سلانيك مع سبعة من أصاقائه، ثم اعتقل لنشاطه السياسي، وأُطلق سراحه بعد سنتين، وعُيّن رئيساً لأمناء البريد والهاتف في سلانيك، ثم عُيّن نائباً عن أدرنة عام ١٣٢٦، ثم وزيراً للداخلية، فوزيراً للبريد، وتقلّد الأمانة العامة للاتحاد والترقي عام ١٣٣٠، وانحاز في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان تحت تأثير أنور باشا، وعمل على تهجير الأرمن إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام، استقال عند الهزيمة عام ١٣٣٧، وغادر البلاد إلى ألمانيا، وقتل هناك عام ١٣٤٠.

بلادها، ووجدوا ضالتهم في زوجة السلطان سليمان القانوني اليهودية[1]، فتوسطت لهم لدى السلطان وحصلت على إذن منه بالهجرة لهم إلى بلاده، فأقام قسم منهم في إزمير، ومن هذا القسم أسرة سيفي التي وُلد لها ولد عام ١٠٣٥ أسمته سباتاي، وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، إذ ادعى أنه المسيح، وادعى عام ١٠٥٧ النبوة، وحكم عليه بالإعدام من قبل رجال الدين اليهودي، ولكن لم تُنفذ الدولة فيه الإعدام لانشغالها بالحروب، رحل بعدها إلى إستانبول فأثينا ثم رجع إلى إزمير، وعاد مرةً أخرى إلى إستانبول، ولم يطب له المقام فيها فانتقل إلى إزمير، وتزوج من فتاة يهودية اسمها (سارا)، وبعد مدة اعتقل، وأنكر ما سبق أن ادعاه أمام المحققين، وسُجن في سجن شناق قلعة، وزاره حاخام يهودي بولوني في السجن مدّعياً أيضاً أنه المسيح أيضاً فحدث خلاف بينهما، ونُقل سباتاي إثر ذلك إلى أدرنة، وهناك أظهر الإسلام خوفاً من القتل، وادعى أنه سيعمل على نشر الإسلام بين أتباعه، وفعلاً فقد تظاهروا بالإسلام، وبدؤوا يعملون ضده من داخله، وزاد أثرهم عند دخولهم في الاتحاد والترقي التي كثر عدد أعضائها وزاد خطرهم وخاصة في الجيش.

لم يعد تنظيم الاتحاد والترقي خافياً على الدولة بل ولا على الناس إذ كثرت قوتهم بين الضباط، وألّفوا عصابات تقف في وجه الحكومة إن أرادت شرّاً، حيث تسيطر على الفيلق الأول الذي مقره في إستانبول ولا تستطيع أن تحركه حتى لا تبقى العاصمة دون قوةٍ، هذا من جهة، ومن

---

(١) زوجة سليمان القانوني، هي روكسلان (خُرّم)، وكان سكان القرم قد سبوها في بعض غزواتهم في روسيا فقدموها للسلطان سليمان القانوني بصفتها جميلة جداً، فأنجبت منه ابنه سليمان الثاني، وبنتاً ولما كبرت البنت زوجتها من رستم باشا اللقيط الكرواتي، واستطاعت هذه الزوجة أن تغدر بالصدر الأعظم إبراهيم باشا وتقتله، وتُنصّب مكانه صهرها رستم، كما تمكّنت من قتل ولي العهد الأمير مصطفى بن سليمان القانوني من زوجةٍ أخرى، وأن تُنصّب ابنها مكانه بدعم من صهرها ومؤامرة معه. ولما عُزل رستم باشا تحت تأثير الانكشارية وتولّى مكانه أحمد باشا استطاعت ثانية أن تسعى مع زوجها لقتل أحمد باشا وإعادة صهرها رستم باشا ثانيةً، وتوفيت هذه المرأة عام ٩٧٣.

جهة ثانية فإن عدداً لا بأس به من الضباط فيه ينتمون إلى الاتحاد والترقي. وكان الفيلق الثاني والفيلق الثالث يُعسكران في الجهة الأوربية وهما تحت سيطرة الاتحاد والترقي. أما الفيلق الرابع فيُعسكر في أرضروم، وفيه أنصار للدولة كما فيه أنصار للاتحاد والترقي.

أرسلت الدولة الفريق أول شمسي باشا أرناؤوط قائد الفيلق الثالث للقبض على نيازي بك غير أن شمسي باشا قد قتل قبل أن يقوم بالمهمة، وسيطر قائد الجناح نيازي على مركز البريد في (رسنة)، وحدث اضطراب شعبي في العاصمة بسبب اغتيال شمسي باشا. فأرسلت الدولة ثلاثين فرقةً من الاحتياط في أزمير فانضمت هذه الفرق إلى رجال الاتحاد والترقي فقوي أمرهم.

أرسل نيازي بك برقية إلى السلطان يُعلمه فيها بأنه سيُعلن ما أطلق عليه اسم الدستور والحريات مطالباً إياه بالقبول دون قيدٍ أو شرط. فأرسل السلطان برقيةً إلى المفتش العام حسين حلمي باشا يستوضح فيها عن قوة الاتحاديين وإمكانية مقاومتهم، فجاء الجواب بما يدعو إلى إمكانية المقاومة.. فكلّف السلطان حينئذ المشير خيري باشا الذي كان في سلانيك فرفض الأوامر. وتكفَّل بالأمر إبراهيم باشا قائد إحدى القطعات لكنه لم يستطع عمل شيء.

أرسل رجال الاتحاد والترقي البرقيات من كبريات المدن في الجهة الأوربية (سلانيك، ومناستر، وسكوب، وسيرز) إلى الصدر الأعظم يُهدّدون فيها بالزحف على إستانبول إن لم يُعلن الدستور.

فدعا السلطان مجلس الوزراء إلى الانعقاد، وتأخرت الصحف عن الصدور لتأخر جلسة مجلس الوزراء، إلا أن رجال الاتحاد والترقي قد سبقوا وأعلنوا عن الحرية في سلانيك ومناستر بشعارات الماسونية (العدالة، المساواة، الأخوة). واضطر السلطان أن يُصدر أوامره السامية بمنح الدستور.

وجاءت أعداد من رجال الاتحاد والترقي فاستُقبلوا استقبالاً عظيماً، وحدثت إعدامات عاجلة لكبار ضباط الشرطة السرية الذين يُعادون الاتحاد والترقي، ثم أُعلن عن استقالة وزارة فريد باشا، وتعيين سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة، وأُعلن الدستور والحريات، وصدر العفو العام، وفُتحت أبواب السجون، فانتشر المجرمون من كل نوعٍ، ومن كل جنس في البلاد.

واجتمع المجلس، وفاز فيه الاتحاديون بأغلبيةٍ كبيرةٍ، وتسلّم أحمد رضا رئاسة المجلس، وهو مؤسس جمعية تركيا الفتاة في باريس، ولاحظوا أنهم لم يحصلوا إلا على جزء من أهدافهم، أو أن نجاحهم قد غرّهم وأطمعهم في أكثر مما حصلوا عليه، أو أن السلطان عبد الحميد قد قطع عليهم الطريق عندما وافق على طلباتهم وأعلن الدستور، لذا أرادوا متابعة الأهداف وخلع السلطان عبد الحميد، فبدؤوا يُثيرون القلاقل عن طريق أولئك المجرمين الذين خرجوا من السجن، أو تنكُّر أحدهم وهجومه على الدين أو على العادات مثل لبس القبعة، وتارةً المطالبة بعزل الصدر الأعظم، أو أحد رجالاتهم أو عددٍ منهم كي تظهر المطالبة على أنها من رجال السلطان وأعوانه، أو الدعوة إلى إحياء الشريعة أو التظاهرات التي تتحرك نحو مبنى المجلس النيابي أو نحو القصر، وتحدث أثناء هذه التظاهرات الإثارات وأحداث الشغب والقتل أحياناً، و. . . ومن تلك المطالب التي نسبت إلى رجال القصر، وقاموا بها هم:

١ ـ إحياء الشريعة الإسلامية.

٢ ـ عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية.

٣ ـ طرد أحمد رضا، وحسين جاهد بك، وجاويد بك، ورحمي بك، وطلعت بك، وإسماعيل حقي من المجلس.

٤ ـ عزل محمود مختار باشا.

٥ ـ العفو العام.

ومن ينظر في هذه المطالب لا يشك في أنها من أعداء رجالات

الاتحاد حيث تطالب بإبعادهم غير أنها كانت منهم لإثارة القلاقل والفوضى، ورمي غيرهم بها.

وفي الوقت نفسه فقد بدأت الصحف تكيل الثناء للسلطان عبد الحميد بتوجيه من الاتحاديين كي يتأكّد الناس أنه استعاد شيئاً من قوته، وأن المطالب فعلاً إنما هي من أنصاره، وهي أيضاً تزيد الحماسة لدى الذين يدعون إلى الدستور الوضعي وإلى ما أسموه بالحرية، وتزيد من الدعم الخارجي لرجال الاتحاد خوفاً من عودة السلطان عبد الحميد إلى قوته ودعوته إلى الجامعة الإسلامية.

وأنكر السلطان عبد الحميد ما نُسب إليهِ، وخاطب العسكريين بأن الفيلق الثالث أو ما سمي باسم جيش الحركة إنما هم جنود وضباط من المسلمين مثلكم، فلا تتعرّضوا ولا تنظروا إليهم أية نظرةٍ غير لائقةٍ، ولكن عليهم ألا يصدقوا ما يُشاع، وليبقوا في ثكناتهم ولا يستعملوا السلاح كي يُفوّتوا الفرصة على أعداء البلاد. وأمر بعدم مقاومة جيش الحركة ليقطع عليهم الطريق.

أُبعد الاتحاديون قادة الكتائب من العاصمة، ولم يبق منهم سوى إسماعيل حقي الذي أمر الجنود عندما اجتمعوا في الساحة بالهدوء وتنفيذ الأوامر، فلم يبق للاتحاديين أية ثغرة ينفذون منها.

اجتمع المجلس النيابي، ولم يزد عدد الأعضاء الحاضرين على خمسين عضواً ومع ذلك فقد قرّروا إجابة المطالب التي طُرحت، وأبلغوا السلطان ذلك، فتقرّر عزل الصدر الأعظم السابق، وتعيين توفيق باشا مكانه، كما تقرّر تعيين أدهم ناظراً للحربية، وأصدر عفواً عاماً، فحدثت احتفالات بين الجند، وإطلاق الرصاص لإبقاء حالة الفوضى بإسماع دويّ الرصاص في كل وقت. ثم اجتمع المجلس وقرّر قبول استقالة أحمد رضا من رئاسة المجلس.

وادعى رجال الاتحاد أن الدستور معرض للإلغاء، والحرية مهدّدة

بالاستبداد لذا فقد تقدّم الجيش المرابط في سلانيك بإمرة محمود شوكت[١] لحماية الدستور والمجلس النيابي، وكان في هذا الجيش عناصر مشبوهة ارتدت زي الضباط. ووصل الجيش بقيادة محمود شوكت والذي أطلق عليه جيش الحرية إلى العاصمة دون مقاومة فألقى الحصار عليها، ولم يجد ما يمنعه من شيء فوقف أمام الثكنات على أمل الانتظار إلى الصباح غير أنه لم يلبث أن بدأ يصبّ نيرانه عليها فحدثت الاشتباكات الدامية وأمر إسماعيل حقي جنده برفع الأعلام البيضاء إشارة إلى الاستسلام، فتوقّف القتال، وبرز أنور باشا مع بعض رجاله فقتلوا من وجدوا في طريقهم، ثم ساروا إلى مقر إسماعيل حقي فقتلوه أيضاً، وجرّدوا الضباط من سلاحهم، ثم انتقلوا للإغارة على قصر (يلدز) حيث يُقيم الخليفة فقتلوا مرافقه، ونهبوا القصر، وأحدثوا مذبحةً كبيرةً فيه دون سبب، وأُعلنت الأحكام العرفية، ومُنع التجول من بعد المغرب.

شكّل المجلس النيابي مجلساً أطلقوا عليه اسم المجلس الملكي فاجتمع مع مجلس الحركة، وقرروا خلع السلطان عبد الحميد باستصدار فتوى من شيخ الإسلام. واجتمع مجلس المبعوثان مع مجلس النواب وقررا في جلسةٍ مشتركةٍ خلع السلطان بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام بضغط الاتحاديين. واستدعى المجلس الصدر الأعظم توفيق باشا. لتكليفه بإبلاغ القرار إلى الخليفة فرفض، فكلّف المجلس وفداً من الفريق البحري عارف حكمت، وآرام الأرمني، وعمانوئيل قره صو اليهودي[٢]، وأسعد طوبطاني، وذهب

---

(١) محمود شوكت: ولد في بغداد عام ١٢٧٦، دخل المدرسة العسكرية في إستانبول، وتخرج منها عام ١٣٠٠ برتبة نقيب، وذهب في البعثة العسكرية إلى ألمانيا عام ١٣٠٤، ورجع برتبة جنرال (عميد)، قاد عناصر حركة ١٣٢٧، ثم عُيّن وزيراً للحربية، ثم رئيساً للوزارة عام ١٣٣١، واغتيل بعد ستة أشهر.

(٢) عمانوئيل قره صو: عُرف بسلانيك، وكان يحمل جنسية عثمانية وأخرى إيطالية، احتضن محمد طلعت منذ بداية أمره، واعتقلا معاً، واستطاع أن يُنقذ نفسه، وأن ينقذ طلعت معه، قاد العمل ضد السلطان، وقبض أربعمائة ألف ليرة ذهبية من البنك الإيطالي وسلّمها للاتحاديين لهذا الغرض وأصبح نائباً عن سلانيك، وعضو الوفد الذي بلّغ السلطان خلعه.

الوفد إلى الخليفة وقرأ الفتوى، فتقبل السلطان ذلك الأمر، ولكنه خاطبهم قائلاً: ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي (وأشار إلى قره صو) إلى مقام الخلافة؟

ومن ينظر إلى رجال الاتحاد والترقي، وهم من الشباب الذين لم يتجاوز أكبرهم الثلاثين كيف كانوا يلعبون بالأمة وأمورها؟ ويتغيّر رأي الواحد فيهم بين ساعةٍ وأخرى حسب المؤثر عليه، فترى أنور باشا تارةً من أكبر المتطرفين، وأخطر الثائرين، وأبعد الناس عن التفكير في تصرفاته مثل موقفه أمام الثكنة وقتل الجنود ثم قتل إسماعيل حقي... وتراه تارةً أخرى من أكبر أنصار الإسلام والمدافعين عنه مثل موقفه في قتال الطليان في ليبيا وقتاله الروس في بخارى وهكذا... ويبدو أن هؤلاء الشباب كانت طموحاتهم واسعةً فهم يفكرون في مستقبلهم المشرق بالزعامة وكان يُخطط لهم اليهود والمخابرات الإنكليزية سرّاً وهم لا يدرون إلى أين يسيرون! منهم المخلص لبلده ونفسه ومنهم ما هو دون ذلك، ولكن لا يدري ماذا يُفعل به!

ونقل السلطان عبد الحميد إلى سلانيك مع أسرته ومرافقيه وبقي تحت حراسة الاتحاديين حتى حرب البلقان إذ نُقل بعدها إلى قصر بكلربكي في إستانبول، وبقي فيه حتى توفي.

استمر حكم السلطان عبد الحميد أكثر من ثلاثٍ وثلاثين قدّم خلالها عدداً من الخدمات إذ حفظ الدولة من الانهيار بعد الحرب مع روسيا، وقمع تمرّد كريت، وانتصر على اليونان، ودرّب الجيش على أساليب القتال الحديثة على أيدي مدربين من ألمانيا. وفتح المدارس، ودور المعلمين، والجامعة بكلياتها كافةً، ودار العلوم السياسية، والفنون النسوية، والمتاحف، والمكتبات، ومدرسة الطب، ومستشفى الأطفال، ودار العجزة، ومركز البريد، ومدّ أنابيب مياه الشرب، ودار النفوس العامة، والغرف الزراعية والصناعية والتجارية، ومعملاً للخزف، ومدّ الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة، وكان طوله ١٣٢٧كم، واستغرق العمل فيه سبع سنوات (١٣٢٠ ـ ١٣٢٧).

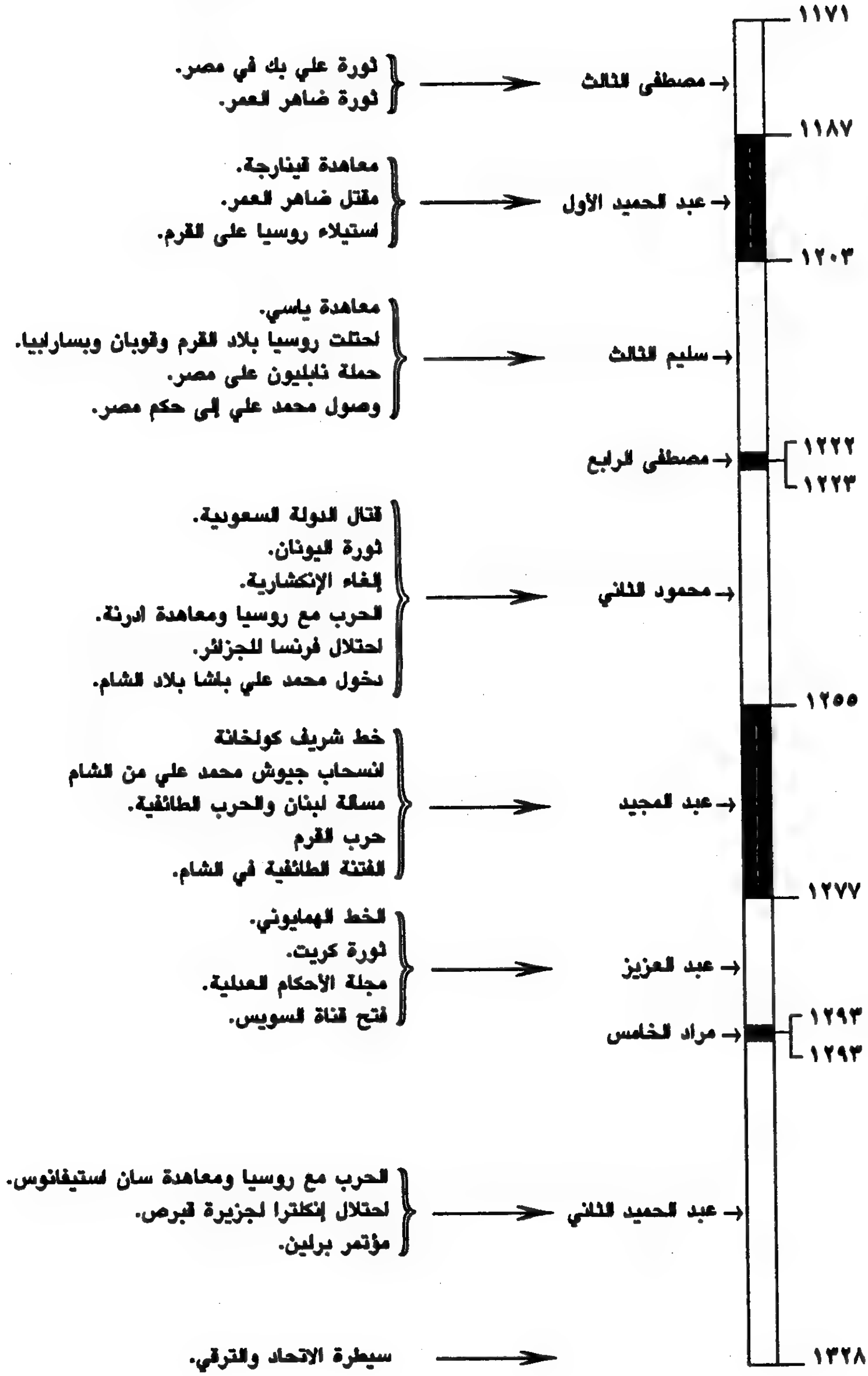
واشتهر بدعوته للجامعة الإسلامية.

وتسلّم الحكم بعده أخوه محمد رشاد. وبقي السلطان عبد الحميد في قصره حتى توفي عام ١٣٣٦.

الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع

- أحمد الثالث
  - مصطفى الثالث ١١٧١ ـ ١١٨٧
    - سليم الثالث ١٢٠٣ ـ ١٢٢٢
  - عبد الحميد الأول ١١٨٧ ـ ١٢٠٣
    - محمود الثاني ١٢٢٣ ـ ١٢٥٥
      - عبد المجيد ١٢٥٥ ـ ١٢٧٧
        - مراد الخامس ١٢٩٣ ـ ١٢٩٣
        - عبد الحميد الثاني ١٢٩٣ ـ ١٣٢٨
        - محمد الخامس «رشاد» ١٣٢٨ ـ ١٣٣٧
        - محمد السادس «وحيد الدين» ١٣٣٧ ـ ١٣٤٠
      - عبد العزيز ١٢٧٧ ـ ١٢٩٣
        - عبد المجيد الثاني ١٣٤٠ ـ ١٣٤٢
    - مصطفى الرابع ١٢٢٢ ـ ١٢٢٣

الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع



الفصل السابع

حكم الاتحاديين

بعد خلع السلطان عبد الحميد أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان صورةً، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء، وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهُزمت وتجزّأت، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزين أو الذين كانت بيدهم الأوامر والنواهي، وجاء إلى الحكم من جديد مصطفى كمال الذي كان منصرفاً إلى شهواته وبناء مجده فألغى الخلافة حسب دورٍ مخططٍ له، وزالت الخلافة العثمانية أو الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعُد للمسلمين خلافة فانقسمت بلادهم، وظهرت النعرات القومية، وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين، وهذا ما سنراه في الأجزاء التالية من الكتاب - إن شاء الله - أما الخلفاء الذين تعاقبوا أيام حكم الاتحاديين فهم:

١ - محمد رشاد (محمد الخامس):

ولد عام ١٢٦٠ وتولى الحكم بعد أخيه عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٨، أي كان عمره ثماني وستين سنة.

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٣٠ وحصل الاتحاديون على فوزٍ ساحقٍ فيها، وانتشرت الدعوى القومية، وبدأت الصحف، والمجلات، والكتب تركّز على هذا الموضوع، وبذا فإن شعارات الاتحاد والترقي في

المساواة قد ذهبت هدراً إذ لم يتساو بذلك الترك مع بقية العناصر التي تؤلّف الدولة العثمانية، وظهرت المهاترات في الصحافة بين القوميات بسبب الحرية التي أُعطيت فسببت الإشكالات، وظهر الاختلاف بين الدعوة المركزية واللامركزية، وتبنّى الاتحاديون فكرة المركزية، وعارضهم حزب الائتلاف الحر إذ دعا إلى اللامركزية، وبصورةٍ عامةٍ فقد بدأت الدولة تتخبط في تياراتٍ فكريةٍ دخيلةٍ أشعل أوارها النصارى واليهود سواء أكانوا من الذين يعيشون كرعايا في الدولة العثمانية أم كانوا من الذين يعيشون خارج الحدود، وتتدخل مخابرات الدول الأوربية في الأمر على أية صورة كان الاختلاف.

الحرب الطرابلسية ـ الإيطالية:

كانت إيطاليا تطمح بالسيطرة على طرابلس، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٢٩٩، وبدأت إيطاليا تعقد الاتفاقات السياسية مع الدول الأوربية الأخرى مثل إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، والنمسا، ثم انصرفت إلى تهيئة الوضع داخل ليبيا فعملت على شراء الأراضي، وإنشاء المشروعات الزراعية، وإرسال البعثات النصرانية الكاثوليكية، وفتح المدارس الإيطالية، وتأسيس شركةٍ للبواخر التي تقوم بالنقل بين ليبيا وأوربا. . . ومسح السواحل عن طريق ضباط يُظهرون العمل بصيد الإسفنج.

وفي ١٢٣٨ قدّمت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية اتهمتها بعرقلة المساعي لتحضير سكان ليبيا، ولا تريد إضاعة الوقت بالمفاوضات، وإنما قرّرت احتلال ذلك الجزء من شمالي إفريقية، واحتج الباب العالي لدى الدول الأوربية وقد كانت على علم مسبق بالموضوع، وأعلنت الدولة العثمانية رفض ذلك الإنذار، غير أن إيطاليا قد حاصرت سواحل طرابلس وبرقة كي لا تصل إليها مساعدات، وكذا حاصرت إنكلترا الحدود البرية من جهة مصر رغم تظاهرها بالحياد. وبدأ الأسطول بقصف السواحل، وإنزال القوات، التي احتلت طرابلس، وبنغاري، والخمس، وعرفت البلاد باسم

ليبيا، وأعلنت روما ضمّ هذا الجزء من شمالي إفريقية إليها. وبدأت المقاومة تشتد حتى ألجأت المستعمرين إلى الساحل، وتقدّم العثمانيون بقيادة عزيز المصري، والمتطوعون بقيادة أنور باشا، وأخوه نوري، وعمه خليل، والسكان، ومنهم السنوسيون، ووصلوا إلى طرابلس، وانتصروا على الطليان في بنغازي.

هدّدت إيطاليا باحتلال إستانبول، إذ أرسلت بارجتين إلى هناك، واحتلت بعض الجزر، وضربت ميناء بيروت، واضطرت الدولة إلى عقد معاهدة مع إيطاليا، وانسحبت من ليبيا وتركت المجاهدين وحدهم في الميدان، واضطر أنور باشا بل أُجبر على الانسحاب فتولى قيادة المجاهدين عزيز المصري...

حدثت معاهدة السلم عام ١٣٢٩، ولم تعترف الدولة العثمانية بالاحتلال الإيطالي وإنما تعهدت بسحب موظفيها وجنودها، وصدر قرار سلطاني بإعطاء ليبيا الاستقلال الذاتي، وتعهدت إيطاليا بإعطاء الحرية الدينية، والعفو العام، وقبول ممثلٍ عثماني، ولم تُنفّذ إيطاليا بنود الاتفاقية.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب الألمان على حين وقف الطليان بجانب الحلفاء الإنكليز، والفرنسيين، والروس، فعادت الدولة وإيطاليا وجهاً إلى وجه، وعادت الدولة تُرسل المؤن والمساعدات إلى المجاهدين حتى انتهت الحرب العالمية وخرجت الدولة مهزومة مفكّكة الأوصال مقسّمة الأجزاء كل قسم يهتم بمصالحه الخاصة.

هذه الهزائم التي مُنيت بها الدولة أو جماعة الاتحاد والترقي في ليبيا جعلت خصومهم يتقوّون عليهم، وجاء التهديد من جانب الجيش فأجبرهم على التخلي عن السلطة عام ١٣٣٠، وتشكل ائتلاف سياسي من خصومهم عُرف باسم الائتلاف الحر أو الاتحاد الحر. وهكذا تخلّى الاتحاديون عن الحكم، وشكّل الوزارة محمد كامل باشا.

حرب البلقان:

رفضت البوسنة والهرسك دعوة مندوبيها لحضور المجلس النيابي في

إستانبول عام ١٣٢٧ مع أنها كانت لا تزال تتبع الدولة العثمانية اسمياً، واتجهت نحو الصرب، وهذا ما أثار النمسا التي ترغب في وضع يدها على البوسنة والهرسك، وتختلف مع الصرب عقيدياً وسياسياً، إذ أنها تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي على حين تعتنق الصرب الأرثوذكسية، فأسرعت النمسا واتفقت مع روسيا سرّاً على أن تضمّ البوسنة والهرسك إليها مقابل أن تكون مضائق البوسفور والدردنيل مفتوحةً دائماً في وجه حركة السفن الروسية، وبالفعل فقد احتلت النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك، ولم تتمكّن روسيا من فعل شيء، إذ لم توافق الدول الأوربية ذلك بل اضطرت روسيا أمام ضغط ألمانيا على الاعتراف بالواقع في ضمّ النمسا للبوسنة والهرسك، وزاد العداء بين النمسا والصرب.

أما إيطاليا فقد تأثرت من فعل النمسا لأن لها أطماعاً في مقاطعة البوسنة والهرسك كذلك، وأسرعت لعقد اتفاق سري مع روسيا أيضاً، ويتضمن الوقوف في وجه النمسا فيما إذا حاولت أن تتقدّم أية خطوةٍ ثانيةٍ في بلاد البلقان.

وأعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية عام ١٣٣٠ ووقف بجانبه أعضاء التحالف البلقاني وهم: صربيا، وبلغاريا، واليونان، وتمكّنوا من إحراز النصر على العثمانيين، واستعملوا الطائرات لأول مرةٍ في هذه الحرب، وقصفوا مدينة أدرنة، وفقدت الدولة معظم أراضيها في أوربا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا، وقُسّمت الأراضي الباقية التي كانت للعثمانيين بين أعضاء التحالف البلقاني. وعرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الأولى.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان الأولى فقد الاتحاد الحر الحاكم في الدولة شعبيته نتيجة تلك الهزيمة، وقامت مجموعة من الضباط الاتحاديين بقيادة أنور باشا بانقلاب، وأجبرت رئيس الوزارة محمد كامل باشا على الاستقالة وتشكّلت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت، ولم يكن من أعضاء الاتحاد والترقي، ولم تتمكّن مجموعة الاتحاد والترقي من تمكين

قبضتها على الحكم حتى اغتيل محمود شوكت بعد ستة أشهر من تسلّمه السلطة، وبرز من هذه المجموعة طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا وإن اختلفت آراؤهم إلا أنهم كانوا هم المجموعة التي تُسيطر على الحكم وتُسيّره، وقد كانت آراء طلعت باشا تميل إلى الفكرة العثمانية والبعد عن الحكم اللامركزي، ويميل أنور باشا إلى الفكرة الإسلامية، على حين كان جمال باشا من أنصار فكرة القومية الطورانية.

ولم يلبث أعضاء التحالف البلقاني أن اختلفوا على تقسيم التركة التي حصلوا عليها، وتنازعوا حول سيادة بلغاريا على مقدونيا، وقد أصرّت بلغاريا على ذلك، فوقفت في وجهها كل من رومانيا، والصرب، واليونان، ووقعت الحرب في عام ١٣٣٢ فانضم العثمانيون في هذه الحرب ضد البلغار، وحصلوا من البلغار على جزء مما خسروه في حرب البلقان الأولى إذ ضمّوا إليهم تراقيا بما فيها مدينة أدرنة نتيجة معاهدة لندن عام ١٣٣٢، وعُرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الثانية.

الدولة والحرب العالمية الأولى:

لقد استطاع أنور باشا أن يجرّ الدولة إلى الحرب بجانب الألمان رغم معارضة طلعت الذي لم يلبث أن وافق على دخول الحرب، وجاويد الذي ظل متمسكاً برأيه فاستقال، وجمال[١] الذي قال بالحياد ثم انضمّ إلى جانب أنور. أما السلطان محمد رشاد فكان ضدّ الحرب ويؤيّده في ذلك ولي العهد يوسف عز الدين[٢]، وأكثر الوزراء، ولعله مما قوّى جانب أنور باشا

---

(١) جمال باشا: ولد في إستانبول عام ١٢٩٠، انضم إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابط ركن، أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة عام ١٣٢٧، ثم حاكماً لإحدى الولايات، ثم قائد قوى الأمن في إستانبول، ثم وزيراً للأشغال العامة، ثم غدا أحد عناصر الحكم بعد حركة ١٣٣١، قاد الهجوم على قناة السويس في الحرب العالمية الأولى وفشل، وعُيّن بعدها حاكماً على سورية فعمل على سحق الأرمن، غادر البلاد بعد الحرب، وعمل عند الأفغان، واغتاله الأرمن في تفليس.

(٢) يوسف عز الدين بن السلطان عبد العزيز كان ولياً لعهد السلطان محمد رشاد بصفته أكبر=

استيلاء الإنكليز على دارعتين للدولة، ولجوء طرادين ألمانيين إلى مياه الدردنيل ورفضت الحكومة تسليمهما رغم إلحاح الحلفاء، واقتراح فرنسا على جمال باشا عندما زارها مندوباً عن الباب العالي لحضور المناورات الفرنسية، ولعقد معاهدة لتقوية الصلات بين الدولتين، وكان هذا الاقتراح إعطاء استقلالٍ ذاتي لسوريا وإطلاق يد فرنسا فيها. كل هذا ساعد على دخول الدولة إلى جانب الألمان في الحرب مع الاستشعار بالخطر الروسي وسيطرته على أجزاء واسعة من بلاد المسلمين في بلاد التتار والشركس وبقية القوفاز وأواسط آسيا، وسيطرة بقية دول الحلفاء من إنكليز، وفرنسيين، وطليان على مساحات واسعة من بلاد المسلمين سواء أكان في إفريقية أم في آسيا. وفي الوقت نفسه لم تكن أطماع ظاهرة بعد لألمانيا في الدولة خاصة وبلاد المسلمين عامة.

وحاول الحلفاء إبقاء الدولة على الحياد بإغرائها بالقروض المالية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت قائمةً والتي كانت سبباً في كثيرٍ من المشكلات الداخلية، والسماح للبحارة الألمان بالعودة إلى ألمانيا غير أن حكومة الاتحاد والترقي قد رفضت هذا كله، وألغت الامتيازات الأجنبية بنفسها، وقدّمت مذكرة للحلفاء تطلب منهم.

١ ـ إلغاء الامتيازات الأجنبية.

٢ ـ خروج إنكلترا من مصر.

٣ ـ إعادة الجزر في بحر إيجه للدولة العثمانية.

٤ ـ منع روسيا من التدّخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وحاول الحلفاء التأخر في ردّ الجواب، وانقطعت العلاقات.

كانت ألمانيا قد تقدّمت في بلاد فرنسا، ولكنها توقّفت عند نهر

= أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة سناً، غير أنه توفي عام ١٣٣٥ قبل وفاة محمد رشاد، قيل: انتحر، وقيل: قتله الاتحاديون لمخالفتهم، وقيل: قتل بالسم.

المارن أحد روافد نهر السين الذي يمر من العاصمة باريس، فرأى الألمان يومذاك أن يضغطوا على الدولة العثمانية كي تشترك في الحرب إلى جانبهم لتُفتح جبهة جديدة في الشرق على روسيا فيخفّ الضغط على الألمان في تلك الجهة ويمكنهم التحرك نحو الغرب والهجوم من جديد، وكسر القوات الحليفة المتمركزة عند نهر المارن. وعرضوا على الاتحاديين قرضاً مالياً بمبلغ خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية مقابل دخولهم إلى جانبهم.

أمر وزير الحربية أنور باشا الأسطول العثماني بالتحرك إلى البحر الأسود وضرب مرافئ روسيا على البحر الأسود، فلم يوافق وزير البحرية جمال باشا، وكاد الخلاف يقع بينهما إلا أن جمال عاد وامتثل لرأي أنور، وخاصة كان القرض الألماني من أهم المغريات له.

ضربت القطعات البحرية العثمانية مرفأ أوديسا وأغرقت طراداً روسياً، وضربت دارعة ألمانية ميناء سيباستيبول وفي أثناء انسحابها أغرقت باخرة نقل روسية، وجرت معارك بحرية في ذلك البحر بين الطرفين، وبذا دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان وإن كان الخليفة والصدر الأعظم لم يعلم بذلك بعد. ولما علم ووافق تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع أعلن الجهاد المقدس ضد الحلفاء، غير أن المسلمين لم يتجاوبوا معه لأنّ ألمانيا دولة نصرانية مثل بقية دول الحلفاء، ولأن رجال الاتحاد والترقي لم تكن عندهم تلك الحماسة الدينية أو العمل للإسلام بشكل واضح هذا بالإضافة إلى ضعف المسلمين وعدم معرفتهم بما يدور حولهم، ومصالح بعضهم، ورغبة بعض زعمائهم ببقاء الدولة على الحياد فربما كان ذلك في مصلحة المسلمين.

أما دول الحلفاء فلم تكن سوى إنكلترا ترغب بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الحلفاء، لأن فرنسا تريد تحقيق مصلحتها في سوريا، وروسيا تريد الاستيلاء على إستانبول والسيطرة على المضائق فإذا دخلت الدولة إلى جانبهم لم تتحقق مصلحة فرنسا ولا مصلحة روسيا، لذا كانتا تريان بقاءها على الحياد والتحكم فيها بعد تحقيق النصر.

اشتعلت نار الحرب بين الدولة والحلفاء على عدة جهات، وقد جمعت الدولة بعد التعبئة العامة نصف مليون جندي تحت السلاح، وربع مليون آخر كان تحت التدريب. احتفظ منها بمائتي ألف حول العاصمة والدردنيل، وخمسين ألفاً في تراقيا احتمالاً لأي طارئ يأتي من هذه الجهة، ومائة ألف وضعوا على الجبهة الشرقية التي كان مقرها أرضروم، وأربعين ألفاً أرسلوا إلى فلسطين، وكان أكثر من مائة ألف على شكل قطعات موزعة في سوريا والقوقاز.

١ ـ الجبهة الشرقية:

هاجم العثمانيون الروس من ناحية القوقاز لتخفيف الضغط عن حلفائهم الألمان، متحدّين برد الشتاء القاسي، وهذا ما لم يتوقعه أحد، وقاد هذه الجبهة أنور باشا بنفسه بمائة ألف جندي، غير أن الهجوم العثماني قد فشل، وأُبيدت قطعات عثمانية بشكل تام، واضطروا إلى التراجع إلى قاعدتهم في أرضروم.

٢ ـ جبهة قناة السويس:

أراد العثمانيون الهجوم على قناة السويس لقطع طريق الهند عن الإنكليز، وإخراجهم بالتالي من مصر، وتوقّعوا أن يقف الشعب المصري بجانبهم في الوقت الذي يصلون فيه إلى ضفاف القناة، وبناءً على هذا التوقع لم يستعدوا كثيراً لهذه الحملة. وساعدهم على التقدّم في سيناء يومذاك هطول أمطار فتماسكت الرمال، وأمكن الحركة بسهولة، غير أن المدافع الثقيلة صعب نقلها إلى خط الجبهة. وإن بُعد هذه الجبهة لم يُمكّن العثمانيين القيام بالهجوم على هذه الجبهة في بداية الحرب، وإنما تأخر قليلاً، ومما زاد في التأخير أن القوة التي تشكلت في دمشق والتي تؤلّف الجيش الثامن، ومعظمها من سكان بلاد الشام، قد فرّت أعداد منها من الجيش، فاضطر المسؤولون إلى إبدالها بقواتٍ من الأناضول حيث تشكّل

الجيش الرابع وأعطيت قيادته إلى جمال باشا على حين نُقل الجيش الثامن إلى بلاد الأناضول.

وتحرّكت قطعات من الجيش الرابع إلى الجبهة المصرية، وبقيت قطعات أخرى مرابطة في بلاد الشام خوفاً من أن ينزل الحلفاء قوات على سواحل بلاد الشام، إضافة إلى الخوف من السكان وخاصةً النصارى الذين كانوا على صلة مع الحلفاء سواء أكانوا من الكاثوليك الذين يعدون أنفسهم رعايا لفرنسا، أم من الأرثوذكس الذين يعدون أنفسهم رعايا للروس، ويكثر الأوائل منهم في لبنان على حين يزيد الآخرون في بقية بلاد الشام.

تحرّكت ثماني فرق عثمانية من بلاد الشام عبر سيناء إلى قناة السويس، في بداية شتاء عام ١٣٣٣، وقد سلكت محورين في تحرّكها أولهما محور رفح ـ القنطرة، وهو الأقصر ويزيد طوله على ٢٢٥ كيلومتراً، وثانيهما، وهو طريق معان ـ السويس وهو طريق للقوافل يوازي خط العرض ٣٠° شمالاً ويزيد طوله على ٣٢٥ كيلومتراً.

ووصلت القوات العثمانية إلى ضفاف قناة السويس بعد خمسة عشر يوماً من الحركة، وكانت القطعات الهندية مكلفةً بحماية القناة من أي هجوم عثماني، وقام العثمانيون بهجومهم قبل الموعد المحدد سابقاً والمتفق عليه مع زعماء مصر المسلمين الذين وعدوا بالحركة ضد الإنكليز، ونفذت ذخيرة العثمانيين واضطروا إلى العودة بعد أسبوعين إلى مراكزهم في غزة ومعان، غير أن البدو بدؤوا يغيرون على مصر من الغرب من جهات ليبيا ومن الشرق من جهات سيناء، ولكن الغارات لا تدخل في حساب الحرب العالمية وإنما مهمتها إرباك الخصم، وشل حركته، وإبقاء قطعات من جيشه على أهبة الاستعداد لردّ تلك الغارات.

وبعد شهرين جرت محاولة ثانية للهجوم على قناة السويس مع مطلع شهر الربيع، وقاد الألمان العمليات، غير أن الفشل كان حليف الهجوم الثاني، وقام هجوم ثالث بعد ثلاثة أشهر أخرى في منتصف فصل الصيف وكان قادة العمليات من الألمان أيضاً، وفشل هذا الهجوم كذلك.

٣ ـ جبهة عدن:

وكانت هذه الجبهة ثانوية إذ حاول العثمانيون الهجوم على عدن لإخراج الإنكليز منها، وعرقلة طريق الهند عليهم، ووقف أهل اليمن بجانب العثمانيين على الرغم من القتال السابق والذي استمر عدة قرون، فكانت أرض اليمن مقابر للجنود العثمانيين، وكان العداء مستحكماً بين الطرفين، وكان موقف اليمن بجانب العثمانيين بمقتضى العقيدة، وفشل الهجوم العثماني ـ اليمني على عدن.

ووقف الإدريسي في تهامة عسير، والذي كان مقره «صبيا» بجانب الإنكليز، وقدّم لهم مساعدات كثيرة، وكان على خلاف مع الأئمة الزيود في صنعاء، وربما كان دعم الإنكليز له، هو الذي ساعد على دخول اليمن إلى جانب العثمانيين إضافةً إلى ما ذكرنا من أثر العقيدة.

٤ ـ جبهة الدردنيل:

يُعدّ مضيق الدردنيل مهماً جداً إذ يحول دون وصول الأعداء إلى العاصمة إستانبول، لذا فقد اهتمّ العثمانيون بتحصين هذه الجبهة سواء من ناحية البر الآسيوي أم من ناحية البر الأوربي، واشتهرت قلعة (تشانقلعة) من جهة البر الآسيوي وهي عند المدخل الجنوبي، وغاليبولي من جهة البر الأوربي قبل الدخول في بحر مرمرة، وكانت قطعات الحلفاء قريبة من مضيق الدردنيل، وقام العثمانيون بهجومٍ عليها غير أنهم فشلوا في هجومهم هذا.

الهجوم الإنكليزي:

جرت اتصالات بين الإنكليز وشريف مكة من الهاشميين انتهت بالاتفاق على العمل معاً ضد العثمانيين، ووقف آل رشيد في حائل على الحياد، وعُزل جمال باشا من قيادة الجيش الرابع المكلف بالحملة على قناة السويس، وغدت القيادة في تلك الجبهة كلها بيد الألمان. وهجم الإنكليز

على سيناء، وتقدّم فيصل بن الحسين من مكة يقود فيالق العرب، وهوجمت القوات العثمانية في جبل الدروز، وبعلبك، وحدثت المجاعة في صفوف القوات العثمانية، كل هذا جعل العثمانيين يتراجعون، وكان لهم ثلاثة جيوش في جنوبي بلاد الشام، وقائدها العام الضابط الألماني (ساندرس).

١ ـ الجيش الرابع في البلقاء في الأردن.

٢ ـ الجيش السابع في الوسط، ويقوده مصطفى كمال.

٣ ـ الجيش الثامن في الغرب، ويحمي السواحل.

تقدّم الإنكليز في فلسطين بقيادة الجنرال «اللنبي»، ودخلوا القدس، وأعلن «اللنبي» صليبيته فقال: الآن تنتهي الحروب الصليبية. وقاموا بهجوم عام ١٣٣٦ في جنوب نابلس، وتقدّموا نحو مقر القيادة في الناصرة، وكاد يقع الجنرال الألماني «ساندرس» في الأسر، وتراجع العثمانيون بقيادة مصطفى كمال، وكان الفيلق العربي بقيادة فيصل بن الحسين ويساعده لورانس الإنكليزي قد دخل معان واتجه شمالاً، وانتظره الإنكليز حيث طلبوا منه أن يدخل دمشق قبلهم تكريماً له أو سياسةً ليرضوا أطماعه فيبقى بجانبهم، أو ليعرفوا كيف يستغلونه، ثم دخلت بلاد الشام كلها في قبضة فيصل والإنكليز.

وعلى جبهة المضائق أصدر القائد الإنكليزي (هاملتون) الأوامر بالنزول في بر المضيق، وأعطى القطعات الإنكليزية مهمة النزول على البر الأوربي في غرب غاليبولي، ومهمة النزول في البر الآسيوي إلى القطعات الفرنسية، فنزل عشرون ألف جندي، وأعطت القيادة المشتركة من الألمان والعثمانيين الأوامر إلى مصطفى كمال بالتحرك إلى ساحة المعركة، والتقى الطرفان، ولم يحدث نصر واضح لأية جهة، إذ دافعت القوات العثمانية دفاعاً قوياً، وأظهرت القطعات الاسترالية حماسةً للتقدم أيضاً.

قامت القيادة المشتركة بهجوم على قوات الحلفاء لكنها أخفقت في

زحزحتهم عن مواقعهم، ثم قام هجوم إنكليزي كانت نتيجته الفشل أيضاً، وبدت الكفتان متوازنة تقريباً. ثم تراجع الحلفاء أمام مصطفى كمال دون معارك، وبدأ يلمع نجم مصطفى كمال.

ومع انسحاب العثمانيين من بلاد الشام، وتراجعهم في العراق، بدت عليهم علائم الضعف، ولم تكن حال حلفائهم الألمان بأفضل حالاً، وإن كان التماسك لا يزال قائماً إلا أنه تماسك مؤقت. والتقى مسؤولون عثمانيون وإنكليز على ظهر الباخرة الإنكليزية (أغامنون) ووضعت شروط للهدنة، وأعلنت الدولة استسلامها.

فكان الاتحاديون في أثناء حكمهم القصير والذي لا يتجاوز عدة سنوات قد أضاعوا كل أجزاء الدولة في أوربا، إذ استقلت بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك، وأخذت اليونان كريت و... كما احتلت إيطاليا ليبيا، وبعض جزر البحر المتوسط... ومع هذا فقد سيطرت فكرة القومية التركية أو الأفكار الطورانية رغم الرغبة الملحة بالمحافظة على الرابطة العثمانية... وفي الوقت نفسه فقد أزال الاتحاديون بعض الزعماء الذين كان لهم نفوذ في الدولة من العرب خاصةً إن لم نقل كلهم أمثال عزت باشا العابد. فنشأ عند العرب ردّ فعلٍ لهذا إن لم نقل أنهم تأثروا أيضاً بالفكر القومي الذي بدأ يظهر، وتُذكيه أوربا النصرانية لتفكيك أوصال الدولة العثمانية، حتى نستطيع أن نقول: إن الاتحاديين بتصرّفاتهم، وهزائمهم، ودعوتهم القومية قد حملوا العرب على قبول الفكر القومي أو شجعوهم على ذلك، فأسسوا حزب اللامركزية في أثناء الحرب البلقانية، ويدعو إلى الإدارة اللامركزية بحيث تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى مرتبطةً بإستانبول خارجياً، وعسكرياً، ومالياً. واتفق هذا الحزب مع فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى على تدريب الفرنسيين لرجاله، وأخذ عشرين ألف بندقية. وفي الوقت نفسه تشكلت جمعيات سرية تتقارب أهدافها مثل الجمعية القحطانية برئاسة عزيز المصري، وعبد الكريم الخليل، ويدعو إلى إقامة دولة عربية واحدة تتحد مع دولةٍ تركيةٍ في ظل الخلافة

العثمانية، والجمعية العربية الفتاة التي أسسها طلاب يدرسون في باريس، وكانوا أكثر تطرّفاً إذ يدعون إلى انفصال العرب كلياً، إذ كانوا متأثرين بالفكر القومي، وآراء الغرب، وأهداف الماسونية، ومع قوة النفوذ الفرنسي تمكنوا من نقل مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق، وبدأ عدد الأعضاء يزداد بسرعة بعد أن كان مقصوراً على سبعة أعضاء يقومون بنشاطاتهم بمساعدات ودعم فرنسي.

وفي عام ١٣٣١ تألفت جماعة في بيروت سمت نفسها لجنة الإصلاح ودعت هذه الجماعة إلى الإدارة المحلية، وجعل اللغة العربية رسمية ومكافئة للغة التركية في المجلس النيابي العثماني، وتأدية الخدمة الإلزامية للعرب ضمن بلادهم، غير أن الاتحاديين قد قاموا بحل هذه الجمعية وإغلاق مراكزها، فقامت هذه الجمعية بالتعاون مع جميعة النهضة اللبنانية في المهجر بالاتصالات المستمرة مع القنصليات الفرنسية، وقدمتا مذكرة إلى فرنسا تطلبا منها احتلال بلاد الشام. أما أصحاب الفكر القومي في العراق فكان اتصالهم مع إنكلترا، وهذا يدلّ على أن التفاهم كان قد تمّ على مناطق النفوذ.

ولما شعر الاتحاديون بالخطر المحدق بالدولة من جراء أصحاب الفكر القومي، وما يجرونه من اتصالات مع النصارى الأوربيين لجؤوا إلى طريق القمع الأمر الذي أدّى إلى عودة الجمعية العربية الفتاة إلى باريس، والدعوة إلى عقد مؤتمر في باريس، وعقد المؤتمر عام ١٣٣٢ وحضره مندوبون عن بلاد الشام والمقاطعات العربية الأخرى، وعن المهجر، وكان عدد الأعضاء النصارى فيه يعادل الأعضاء المسلمين، وقدّمت فرنسا للمؤتمر الخدمات والمساعدات كلها، وحاول الاتحاديون الضغط على فرنسا لإلغاء المؤتمر، ولكنهم لم يفلحوا لأن فرنسا كانت تتصل مع الاتحاديين وتعقد معهم المعاهدات وفي الوقت نفسه تدعم هؤلاء المعارضين للسلطة، وتعدهم أنصاراً لها ليكون لها النفوذ القوي في البلاد، وقد نجحت فرنسا في تحقيق أهدافها إلى حدٍ كبير إذ تمكنت أن تخفف من قيمة الرابطة

الدينية لدى المسلمين، وتنمي الفكر القومي عندهم حتى أن عبد الحميد الزهراوي من الذين وقعوا في هذه الشباك، ويُعدّ من المغرر بهم رغم علمه قد قال في مؤتمر باريس هذا «إن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية».

أرسل الاتحاديون إلى باريس أمين سر جمعية الاتحاد والترقي وهو مدحت شكري فاتصل مع زعماء العرب وحضر المؤتمر، واتفق معهم على أن تكون:

١ ـ اللغة العربية رسميةً في الولايات العربية، وفي المدارس الابتدائية والثانوية.

٢ ـ الخدمة العسكرية في المناطق المحلية.

٣ ـ ثلاثة وزراء من العرب، وخمسة ولاة، وعشرة متصرفين.

٤ ـ نائبان في مجلس الأعيان عن كل ولاية عربية.

ووقع هذه الاتفاقية عن الحكومة الاتحادية وزير الداخلية محمد طلعت باشا وعن المؤتمرين العرب عبد الكريم الخليل. أما المؤتمرون العرب فكانت مقررات مؤتمرهم:

١ ـ ضرورة القيام بالإصلاح الإداري وبشكل سريع.

٢ ـ اشتراك العرب في الإدارة المركزية.

٣ ـ تأدية الخدمة الإلزامية محلياً.

٤ ـ جعل اللغة العربية رسميةً.

٥ ـ تأييد الأرمن في مطالبهم القومية. ويظهر من هذا البند الأخير الأثر النصراني في المؤتمر.

لم يتمّ شيء مما اتفق عليه لاختلاف الاتحاديين فيما بينهم، وتباين آرائهم، ولاندلاع الحرب العالمية الأولى واشتراك الدولة فيها، إذ أن هذا

الاشتراك لم يكن يريده أبداً هؤلاء المتزعمون، وخاصةً أن الاشتراك كان بجانب الألمان، وهم على صلة بالفرنسيين والإنكليز، وكان الاشتراك معناه الأحكام العرفية والقبض على المتعاونين مع الأعداء، وقد ألقي القبض على عزيز المصري وحُكم عليه بالإعدام غير أنه لم ينفذ فيه لتدخل الإنكليز. وقامت جمعية العهد التي تألفت من الضباط العرب وكان أغلبهم من العراق لكثرتهم في الجيش العثماني، وحلّت محلّ الجمعية العربية الفتاة.

وفي هذه الأثناء حصل اتفاق بين الدولة العثمانية والإمام يحيى حميد الدين في اليمن على أن يكون له حكم مرتفعات اليمن، له ولأبنائه من بعده، وعلى أن تبقى تهامة وسواحل البحر الأحمر تحت سيطرة العثمانيين.

وقوي أمر الملك عبد العزيز آل سعود في وسط الجزيرة، وأظهر العصيان، غير أن آل رشيد في حائل قد وقفوا إلى جانب الدولة. وأرسل الاتحاديون الشريف حسين بن علي من إستانبول إلى مكة ليحولوا به دون أطماع سلطان نجد، فكان عليهم، وكانت المراسلات مع مكماهون في القاهرة، وكانت الحركة العربية، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد نصح باستبقائه في إستانبول لمعرفته بنواياه وطموحاته، إذ أرسل الشريف حسين بن علي ابنه عبد الله إلى القاهرة حيث التقى مع كتشنر، ولم تكن نتيجة اللقاء أمراً أكثر من إرساء دعائم اللقاء. وكان الإنكليز يرغبون أن يكون بيدهم رجلاً ذا مكانةٍ بين العرب، يمكن الإفادة منه وقت الضرورة، إذ يُهمّهم بالدرجة الأولى طريق الهند، والردّ على إعلان الجهاد الذي يمكن أن يعلنه الخليفة. لذا فعندما دخلت دولة الخلافة الحرب إلى جانب الألمان، تغيّرت طبيعة العلاقات بين العرب وإنكلترا، إذ أعلنت إنكلترا إنهاء السيادة العثمانية على مصر التي جعلتها محميةً إنكليزية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعينت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه اسم (سلطان) نكايةً بالخليفة العثماني إذ أصبح كلاهما سلطان، فإذا أعلن الخليفة الجهاد نادى به السلطان، وضاع المسلمون فأي جهاد يلبون. وفي الوقت نفسه كثفت

الصلات مع شريف مكة الحسين بن علي إذا دعا لإعلان الجهاد من البيت الحرام، وبهذه الطريقة حاولت إنكلترا تحقيق هدفها. وفي الوقت الذي يتصل فيه الحلفاء مع العرب وخاصةً إنكلترا وفرنسا كانوا يتفقون فيما بينهم لتقسيم البلدان العربية أو التركة العثمانية ـ كما يسمونها ـ وقد كان اتفاق سايكس ـ بيكو المعروف الذي سنتناوله في الجزء القادم ـ إن شاء الله ـ.

ومع دخول دولة الخلافة الحرب كان لا بدّ من إلقاء القبض على الذين يتصلون مع الأجانب وبخاصة أن هؤلاء الأجانب نصارى ضد عقيدة الدولة وضد عقيدة السكان، ومن ناحية أخرى فهم الآن أعداء لأنهم في حرب معهم لذا يمكن القبض على النصارى والمسلمين الذين يتصلون مع فرنسا وإنكلترا وروسيا بوجه خاص، وقام جمال باشا ودخل القنصليات الأجنبية في بيروت، وإن كان هذا الدخول ليس من حقه دولياً غير أن وقت الأزمات لا يعترف عادة بالحقوق، وإنما الحق للقوة، فوجد الوثائق التي يتوقّعها وهي الصلات بين بعض الزعماء والأجانب فألقى القبض عليهم وحاكمهم وحكم عليهم بالإعدام، بعد أخذ رأي عددٍ من العلماء في ذلك. وقد أثارت هذه الإعدامات شيئاً من النقمة على جمال باشا خاصةً، وسُمّي الذين أُعدموا بالشهداء، وكان حجةً لثورة الشريف حسين ضد الدولة إذ أرسل ابنه فيصلاً ليتوسط لدى هؤلاء فأراد جمال باشا أن يلقي القبض عليه فاختبأ وأرسل لوالده فاندلعت الحركة من مكة، وكان قد تمّ التفاهم مع الإنكليز، وهُزم العثمانيون.

ويمكن القول: إن عدداً من الزعماء المسلمين العرب كانوا يريدون إصلاح الجهاز الإداري، وتأدية الخدمة العسكرية محلياً، والمحافظة على اللغة العربية ولا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية وتجزئتها أبداً غير أنهم وقعوا في شباك أصحاب الفكر القومي، والآراء الغربية، والافتتان بأوربا، وبالتالي بالتأثير النصراني، والتوجيه الخارجي، والاتصالات الأجنبية، والجهل لا يُعفي من المسؤولية، والسذاجة لا يرضى بها الإسلام، أما النصارى من رعايا الدولة العثمانية ودعاة القومية فقد كانوا

على صلةٍ بالأجنبي، ويطالبون بالانفصال، ويدعون إلى ذلك، ويعادون الإسلام بكل وقاحة.

وتوفي الخليفة محمد رشاد قبل استسلام الدولة بعدة شهور، وتولى بعده أخوه محمد وحيد الدين.

٢ ـ محمد السادس (وحيد الدين):

استسلمت في عهده الدولة بل بعد أن استلم الخلافة بعدة شهور فقط، وهو من مواليد ١٢٧٧، وعندما آل إليه الأمر كانت قد هُزمت الدولة، واحتل الأعداء أكثر أجزاء الدولة باستثناء بعض المناطق لأن روسيا كانت قد قامت فيها الثورة الشيوعية فانسحبت من الحرب، ولم تستطع أن تفعل شيئاً من تقدّمٍ في المناطق الشرقية أو احتلال أجزاء من الدولة.

لقد سيطر الحلفاء على إستانبول والمضائق، واحتلت اليونان الأقسام الغربية، وإيطاليا أجزاء من الجنوب، وضاعت البلدان العربية، وأراد السلطان محمد وحيد الدين أن ينقذ الدولة مما هي فيه، فوضع ثقته في مصطفى كمال فخاب ظنّه، وكان مصطفى كمال قد لمع نجمه، وأصبح يعمل لنفسه، فلما وجد محمد وحيد ذلك اعتزل السلطة، وتنازل عن الخلافة عام ١٣٤٠...

ونتيجة الهزيمة كان لا بدّ من استقالة الوزارة التي يرأسها طلعت باشا أحد كبار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وتألفت وزارة جديدة برئاسة أحمد عزة باشا الأرناؤوط، وقد بعثت هذه الوزارة وفداً وزارياً برئاسة وزير البحرية رؤوف بك[1]، أرسلته إلى مدينة مودروس في جزيرة لمنوس في بحر إيجه.

---

(١) رؤوف بك: تولّى وزارة البحرية، ثم أصبح رئيساً للوزراء في أول عهد مصطفى كمال، ثم اختلف معه، وفر من البلاد، وحكم عليه بالموت غيابياً، وانتقل إلى الهند عام ١٣٥٠، وعاش في باريس، ثم رضي عنه مصطفى كمال فرجع إلى بلاده عام ١٣٥٥، ثم عُيّن سفيراً لتركيا في لندن.

أما زعماء البلاد من الاتحاد والترقي فقد غادروا البلاد على ظهر سفينة ألمانية إلى شبه جزيرة القرم، ومنها انتقلوا إلى برلين ومنهم: طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا، ووالي بيروت عزمي بك، واغتيل طلعت باشا في برلين، وفرّ أنور باشا من بين أصدقائه خلسةً من القطار، وسار إلى القفقاس حيث أخوه نوري يقاتل الروس، ثم انتقل إلى موسكو، وأراد الإفادة منهم فخدعوه، ففر منهم وسار إلى بخارى يريد قتال الروس، وقتل هناك أثناء الثورة التي أثارها. وذهب جمال باشا إلى أفغانستان بدعوة من أمان الله خان، وبدأ ينظم جيشها، وسافر إلى باريس ماراً بموسكو فاحتجزه الروس، وأعلن أنه سيسافر إلى تركيا فسمحوا له بذلك وقد اغتاله الأرمن في تفليس. كما اغتيل بقية الزعماء في برلين.

وبقي في الدولة رجالات الاتحاد والترقي من الدرجة الثانية وغيرهم من الضباط أمثال مصطفى كمال فقرّبه السلطان وحيد الدين إذ كان يعرفه عندما كان مرافقاً له أثناء سفره إلى برلين عندما كان وحيد الدين لا يزال ولياً للعهد. فعيّنه مفتشاً للجيوش في الأناضول وزوّده بصلاحيات واسعة وبمبلغ ضخم من المال، وعهد إليه القيام بالثورة هناك كي يتمكن السياسيون من المناورة.

أبلغت لجنة الحلفاء العليا المجتمعة في باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان الحكومة التركية قراراً يقضي بنزول الجيوش اليونانية في أزمير، وحذّر القرار الدولة من المقاومة، وأن المقاومة تعني نقض الهدنة وإعادة الحرب. وقد نزل اليونانيون فعلاً في اليوم الثاني في مطلع صيف ١٣٣٨.

ويبدو أن الحلفاء قد أدركوا ما يقصد من إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، فاحتجوا على ذلك، كما احتج ولاة الأناضول من تصرفاته هناك، حيث كان قد عقد مؤتمراً في أرضروم ضمّ زعماء المنطقة، ونواب الأقاليم الشرقية، وقرروا انتخاب مصطفى كمال[١] رئيساً للمؤتمر، واتفقوا

---

(١) مصطفى كمال: ولد في سلانيك عام ١٢٩٨ من سفاح، تسمّى أمه زبيدة، ونسب إلى=

على الولاء للخليفة، والدفاع عن البلاد، ودعوا إلى عقد مؤتمر في مدينة «سيواس».

عقد المؤتمر في سيواس بعد مدةٍ قصيرةٍ، وضمّ أعداداً أكبر من سابقه، وعُدّ أنه يمثل البلاد جميعها إذ أرسلت البرقيات إلى ممثّلي المناطق كلها لحضوره، وتمّ انتخاب مصطفى كمال رئيساً له بعد أخذٍ وردٍّ، وكان

= علي رضا أحد موظفي الدولة في سلانيك، وسافر إلى إستانبول عام ١٣١٨ للالتحاق بالكلية الحربية، وتخرّج منها عام ١٣٢٢ برتبة رائد، وعُيّن في لواء الفرسان الثلاثين التابع للجيش الخامس في الشام، ولم يكن نظامياً فكان يذهب دون إذن من يافا إلى سلانيك، وتحذره أمه مغبة ذلك، لكن لا يبالي. وفي عام ١٣٢٥ انهى مرحلة التدريب فعُيّن في إدارة الجيش الثالث في بلده سلانيك، وحاول تأسيس جمعية الوطن والحرية لتنافس جمعية الاتحاد والترقي التي كان على خلاف مع زعمائها، ونفي إلى طرابلس عام ١٣٢٦ فعاد هارباً بعد شهرين، وكان مع جيش محمود شوكت الذي سار إلى إستانبول لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، كان مع الجيش بصفته ضابطاً في ذلك الجيش لا لأنه كان مع أعضاء الحركة، وفي عام ١٣٢٨ أصبح نائباً لقائد اللواء ٣٨ المرابط في سلانيك، وسافر يومها إلى فرنسا لمشاهدة المناورات الفرنسية. وسار عام ١٣٢٩ إلى ليبيا للقتال مع المقاومة ضد الطليان حباً في الشهرة، وانتقل من مصر إلى إستانبول عن طريق رومانيا، واشترك في حرب البلقان الأولى، وعُيّن إثرها مديراً لدائرة الحركة العسكرية المكلفة بحماية شبه جزيرة غاليبولي، وكُلّف بالقيام بهجوم في حرب البلقان الثانية فقام به قبيل صدور الأوامر إليه فهُزم وفرّ من الميدان، وعُيّن ملحقاً عسكرياً في صوفيا، ورجع بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحاول ملازمة أنور باشا مع وجود الكراهية بين الاثنين، وكان يطلب منه مهمةً في خط النار، فأوكلت إليه قيادة الفرقة ١٩ المكلفة بحماية (تشنا قلعة) ثم انتقل مع فرقته إلى ديار بكر، ورقي إلى رتبة لواء (باشا) عام ١٣٣٤، وعُيّن نائباً لقيادة الجيش الثاني، ثم اقترح أن يكون قائداً لقوة الجوالة التابعة للجيش السابع للدفاع عن المدينة المنورة، غير أن هذه القوة لم تشكل. وبعد إجازة قضاها في الحانات أعيد إلى الجيش السابع أيام السلطان وحيد الدين فانسحب أمام الإنكليز أثناء تقدمهم في الشام، واتصل الإنكليز به يومذاك وحرضوه على القيام بالثورة على الخلافة على أن يدعموه بما يريد فوافق ولكن لم يجد له أعواناً من الضباط يساعدونه في حركته فتركها، وعندما وُقّعت الهدنة طلبت منه وزارة عزة باشا العودة إلى إستانبول فعاد، وحاول الإفادة من حزب الحرية والائتلاف الذي ظهر بعد الحرب وسقوط الاتحاد والترقي. ولكن لم يركنوا إليه.

كان مصطفى كمال منصرفاً إلى الخمرة والنساء، ويأخذ ذلك منه جلّ وقته، وعلى كرهٍ شديد للإسلام، وعلى صلة مع الإنكليز، وهم الذين رفعوه، مستميتاً على الزعامة.

الإنكليز يرحبون بهذه التصرّفات، وقد اتصلوا بمصطفى كمال في الأناضول.

انتقل مصطفى كمال من سيواس إلى أنقرة لمقابلة النواب الذين سيسافرون إلى إستانبول، وانتخب نائباً عن أنقرة غيابياً، وكان يرغب في رئاسة المجلس، ويعمل لذلك، ولكن لم يتمكّن من السفر إلى إستانبول، إذ كان قد استدعي إليها أثناء حركته فلم يُلب، وتكررت الاحتجاجات ضده، وتكرر رفضه، وعدم الاستجابة حتى هدد الحلفاء بالرجوع إلى الحرب، واضطرت وزارة فريد باشا إلى الاستقالة، وكان رئيسها غائباً لحضور مؤتمر الصلح.

قررت الوزارة الجديدة إقالة مصطفى كمال من منصبه، وعرضت القرار على الخليفة لتوقيعه فرفض، وتتالت الاحتجاجات، ولم يقبل الخليفة التوقيع على القرار حتى بلغ السيل الزبى فوقع عندها القرار، ولم يرضخ مصطفى كمال للأمر، وبقي في عناده.

اجتمع المجلس النيابي في إستانبول، ونجح رؤوف بك في رئاسة المجلس، وشكّل علي رضا باشا الوزارة، وعمل مصطفى كمال على إسقاط هذه الوزارة، غير أن النواب قد خذلوه، وأعطوا الثقة للوزارة، فعمل مصطفى كمال على الثورة من جديد، وتحت ضغط الحلفاء استقالت الوزارة، وتشكلت وزارة صالح باشا التي عقدت اتفاقاً مع مصطفى كمال في (أماسيا) انسحب بموجبه الإنكليز والحامية العسكرية من أنقرة.

سيطر الحلفاء على إستانبول، وألقي القبض على رئيس الوزراء السابق سعيد حليم باشا، وعلى عدد من النواب من أنصار مصطفى كمال، وفرضت الرقابة على البريد ووسائل الإعلام كلها. فاستقال صالح باشا، وحلّ المجلس النيابي، وكُلّف فريد باشا بالوزارة من جديد، فأعلنت الحكومة أن مصطفى كمال متمرداً، فلم يُبال وتقدّم إلى الغرب، وحاصر (أسكي شهر)، فانسحب الإنكليز منها دون مقاومة، فدخلها، ودخل مدينة (قونية) كذلك.

أعلن مصطفى كمال عن إجراء انتخابات جديدة بحيث تكون أنقرة مقراً للمجلس الجديد، فنجح أنصار مصطفى كمال، واجتمع المجلس، وبدأ يعمل على تشكيل جيشٍ خاص، فسيّرت الحكومة حملةً من العاصمة إلى الأناضول من ناحية الغرب، وحملةً أخرى من كردستان من ناحية الشرق، فخضعت الولايات بسرعة لحكومة إستانبول وبقيت أنقرة وحدها، وكادت تسقط، فأذاع الحلفاء في هذا الوقت شروط معاهدة سيفر التي وافق عليها الخليفة ورئيس الوزراء الداماد فريد باشا مرغمين، ولما فيها من إجحاف بحق الدولة المهزومة فقد ثار الأهالي، إذ تنص هذه المعاهدة على:

١ ـ إقامة دولة في إستانبول.

٢ ـ سلخ الولايات العربية من الدولة.

٣ ـ إعطاء الاستقلال لأرمينيا.

٤ ـ إعطاء كردستان استقلالاً ذاتياً.

٥ ـ تُعطى تراقيا وجزر بحر إيجه لليونان.

٦ ـ توضع المضائق تحت إشراف دولي.

٧ ـ يوجّه الحلفاء الجيش، ويحدد عدد أفراده.

٨ ـ يحق للحلفاء السيطرة على المالية.

وبدأت ثورة الأهالي على حكومة فريد باشا. وبدأ هجوم مصطفى كمال على حكومة إستانبول حيث يعلن أن حكومة إستانبول عميلة، وإذا كانت عاجزةً عن الدفاع، عن البلاد، فإن الشعب في الأناضول يعرف الدفاع عن بلاده، وإذا كانت العاصمة تحت ربقة الاستعمار فإن الأناضول في حرية ويمكن أن تكون مقر الدفاع. وإضافة إلى هذا فإن مصطفى كمال كان يظهر الجانب الإسلامي ويستغل صلته مع السلطان وإرساله هو إلى الأناضول لإنقاذ البلاد، كما يستغل أحمد السنوسي الذي كان يعيش في الأناضول.

وبدأت كفة أنقرة ترجح، وعندها دعت إنكلترا لعقد مؤتمر في لندن

لإعادة النظر في معاهدة سيفر، ودعت لذلك حكومة إستانبول وحكومة أنقرة، غير أن مصطفى كمال قد اعترض على ذلك، إذ قال: يجب أن يكون صوت واحد في البلاد، واستنكر دعوة رئيس الوزراء الداماد فريد باشا...

عزل السلطان فريد باشا من الوزارة وكلف توفيق باشا بالوزارة الجديدة، وهو من أنصار مصطفى كمال، وبقيت هذه الوزارة في الحكم سنتين خدمت خلالها مصطفى كمال حتى قوي أمره في البلاد. ومن ناحية أخرى فقد اتفق مع الدول الأخرى، إذ اتفق مع اليونان على إعطاء أزمير استقلالاً ذاتياً تحت حكم نصراني. وتنازل لروسيا عن باطوم، وانسحبت فرنسا من كيليكيا، وانسحبت إيطاليا من أنطاليا.

دفعت إنكلترا اليونان فتقدموا من ناحية الغرب، وجرى القتال بين الأتراك واليونانيين، وقد انتصر الأتراك في معرفة سقاريا المشهورة، وبرز مصطفى كمال، واضطرت اليونان أن تنسحب من تركيا عام ١٣٤٠.

دعيت أنقرة وإستانبول إلى مؤتمر لوزان، وجرى انقلاب في إستانبول، وعزلت حكومة السلطان، واعتزل السلطان محمد وحيد الدين لأنه رفض أن يكون ملكاً رمزياً لا علاقة له بالحكم، ولا شأن له بالخلافة، ورُحّل إلى جزيرة مالطة، ونودي بابن عمه عبد المجيد بن عبد العزيز سلطاناً على البلاد.

٣ ـ عبد المجيد الثاني:

هو ابن السلطان عبد العزيز، ولد في إستانبول عام ١٢٨٣، أصبح خليفة بعد إلغاء السلطنة عام ١٣٤٠، وجُرّد الخليفة من السلطات السياسية كافةً، والتفّت حوله الجماعات المناوئة لمصطفى كمال.

وبعد ثلاثة أيام من تولي عبد المجيد الثاني المنصب افتتح مؤتمر لوزان، وحضره وفد أنقرة فقط، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢ ـ طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣ ـ إعلان علمانية الدولة.

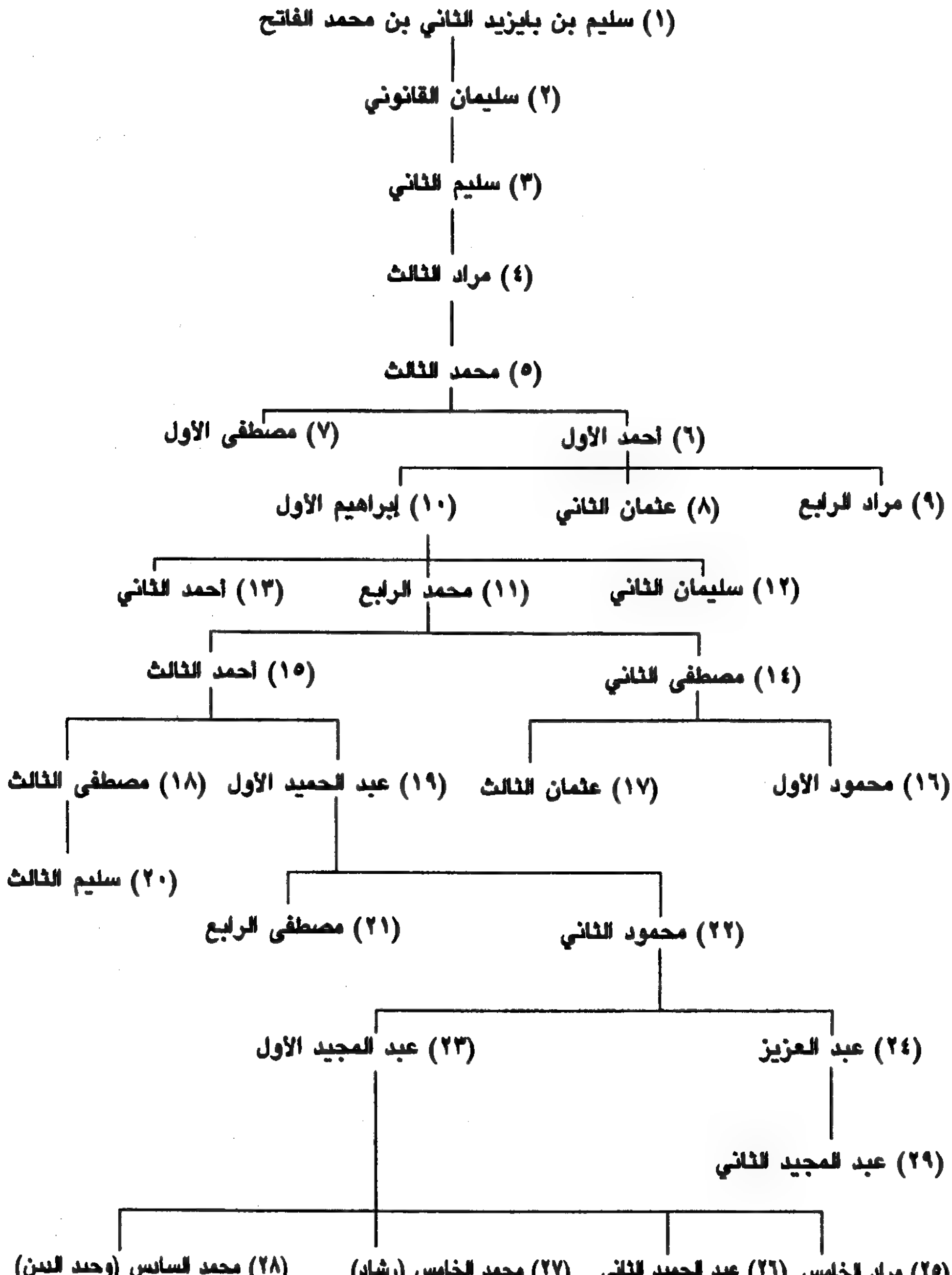
٤ ـ مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ويتوقف نجاح المؤتمر على ذلك، وأخفق المؤتمر، ورجع إلى البلاد الوفد التركي برئاسة عصمت إينونو، واختلف مصطفى كمال وعصمت إينونو مع رئيس الوزارة وبجانبه الجمعية الوطنية، فاستقال رئيس الوزارة.... وبدأت الدسائس، إذ حل مصطفى كمال الجمعية الوطنية... وكانت الجمعية الجديدة ضده، ولكنها عجزت عن تشكيل وزارة بسبب الألاعيب... وكثرت الفوضى.

وقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية وكان الجو مكفهراً والصخب هو المميز، وتفادياً للمشكلات دعي مصطفى كمال لتشكيل الوزارة فوافق على ألا يناقش في تصرفاته وشكل الوزارة، وأعلن الجمهورية، وانتخب رئيساً لها، فعمت الفوضى، وغادر أنقرة عدد من الزعماء، واتجهوا إلى إستانبول حيث التفوا حول الخليفة عبد المجيد، وقامت الاحتجاجات، إلا أن الاغتيالات و... تعددت ودعا المجلس الوطني لعقد جلسة وقدم مرسوماً بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر عبد المجيد بالسفر إلى سويسرا، ثم أصدر مرسوماً بإلغاء الوظائف الدينية، وامتلاك الدولة للأوقاف... وأرسل عصمت إينونو وزير خارجيته إلى لوزان، وأعيد المؤتمر، واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا، وانسحبت من المضائق وإستانبول...

وطويت صفحة الخلافة العثمانية عام ١٣٤٢.

الخلفاء العثمانيون:



الخلفاء العثمانيون:

الخليفة	مدة الحكم
١ ـ سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح	٩١٨ ـ ٩٢٦هـ
٢ ـ سليمان القانوني	٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ
٣ ـ سليم الثاني	٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ
٤ ـ مراد الثالث	٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ
٥ ـ محمد الثالث	١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ
٦ ـ أحمد الأول	١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ
٧ ـ مصطفى الأول (١)	١٠٢٦ ـ ١٠٢٦هـ
(٢)	١٠٣١ ـ ١٠٣٢هـ
٨ ـ عثمان الثاني	١٠٢٦ ـ ١٠٣١هـ
٩ ـ مراد الرابع	١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ
١٠ ـ إبراهيم الأول	١٠٤٩ ـ ١٠٥٨هـ
١١ ـ محمد الرابع	١٠٥٨ ـ ١٠٩٩هـ
١٢ ـ سليمان الثاني	١٠٩٩ ـ ١١٠٢هـ
١٣ ـ أحمد الثاني	١١٠٢ ـ ١١٠٦هـ
١٤ ـ مصطفى الثاني	١١٠٦ ـ ١١١٥هـ
١٥ ـ أحمد الثالث	١١١٥ ـ ١١٤٣هـ
١٦ ـ محمود الأول	١١٤٣ ـ ١١٦٨هـ
١٧ ـ عثمان الثالث	١١٦٨ ـ ١١٧١هـ
١٨ ـ مصطفى الثالث	١١٧١ ـ ١١٧٦هـ
١٩ ـ عبد الحميد الأول	١١٧٦ ـ ١٢٠٣هـ
٢٠ ـ سليم الثالث	١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ
٢١ ـ مصطفى الرابع	١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ
٢٢ ـ محمود الثاني	١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ
٢٣ ـ عبد المجيد الأول	١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ
٢٤ ـ عبد العزيز	١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ
٢٥ ـ مراد الخامس	١٢٩٣ ـ ١٢٩٣هـ.
٢٦ ـ عبد الحميد الثاني	١٢٩٣ ـ ١٣٢٨هـ
٢٧ ـ محمد الخامس (رشاد)	١٣٢٨ ـ ١٣٣٧هـ
٢٨ ـ محمد السادس (وحيد الدين)	١٣٣٧ ـ ١٣٤٠هـ
٢٩ ـ عبد المجيد الثاني	١٣٤٠ ـ ١٣٤٢هـ

ألغيت الخلافة على يد أتاتورك بتاريخ ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ.
الموافق ٣/ ٣/ ١٩٢٤م.

الباب الثاني

جَزيرَة العَرَب

توجّه اهتمام المسلمين نحو جزيرة العرب في بداية هذا العهد بسبب قدوم المستعمرين البرتغاليين، وسيطرتهم على مواقع مهمة سواء أكانت في الخليج العربي أم في جنوبي الجزيرة، ونواياهم الصليبية في المنطقة، واتصالهم مع دولة الحبشة النصرانية: وحرصهم الوصول إلى المدينة المنورة، والضغط على المسلمين كي يسلّموا لهم بيت المقدس. وهذا الاهتمام دفع العثمانيين إلى الوصول إلى الجزيرة ومنازلتهم البرتغاليين من الصليبيين، واستمر هذا الاهتمام حتى زال النفوذ البرتغالي، أو نستطيع أن نقول: إن التفكير كان منصباً بأطراف الجزيرة التي تعرضت للغزو الصليبي أو لتهديداته. . .

وقلّ الاهتمام بعد ذلك، مع أن إنكلترا سيطرت على بعض المواقع، وكانت تحرص على تأمين وسلامة طريق الهند لها، وقلّة الاهتمام لا تعني زواله وإنما خفته بالنسبة إلى ما كان عليه في أول العهد حيث بقيت ملاحقة البرتغاليين في شرقي إفريقية قائمة، والخوف من النفوذ الفارسي في منطقة الخليج العربي، ومتابعة حركة الحج، ومحاولة تأمين الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة سواء أكانت برية أو بحرية، أما داخل الجزيرة فقد بقي مهملاً، هذا بالإضافة إلى الجمود الذي يخيّم على أجزاء الدولة العثمانية عامة، بل على أمصار العالم الإسلامي كافةً نتيجة الضعف الذي أصاب المسلمين، وقوة أعدائهم من الصليبيين الذين خضعت لهم مواطن كثيرة من أرض المسلمين.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري قامت الدولة

السعودية وسط الجزيرة العربية، وقوي أمرها بسرعة، وامتدّ نفوذها، ووقفت في وجه الدولة العثمانية بغية الإصلاح، ووجهت الدولة إليها الجيوش، واستعانت بمحمد علي الذي جاء واحتل الحجاز، وحارب الدولة السعودية، وتمكّن من الانتصار عليها ودخل ابنه إبراهيم عاصمتها الدرعية وخرّبها، وبقي محمد علي يُلاحق مُؤيدي أفكارها في عسير، فعاد اتجاه الأفكار نحو الجزيرة، وإن كان نابليون بونابرت قبل هذه المرحلة بقليل قد سيطر على مصر بعد حملته المشهورة عليها، وبدأ يُفكّر في التحكم بأطراف الجزيرة وممراتها الرئيسية، واستطاع أن يحتلّ جزيرة بريم في مضيق باب المندب.

وبعد هذه المدة كان القتال على أشدّه في اليمن بين الجيوش أو الحملات العثمانية والأئمة الزيود الذين يسيطرون على مرتفعات اليمن، وإذا كان قد استمر هذا في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة إلّا أن وسط الجزيرة قد خفّ الاتجاه نحوه في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكان الإنكليز قد بسطوا نفوذهم في الجزء الشرقي من الجزيرة، وعقدوا المعاهدات مع أمرائه وشيوخه.

ودخل القرن الرابع عشر، وكثرت الإمارات، في الجزيرة العربية، سواء أكانت على أطرافها أم في داخلها، وكان أكثر هذه الإمارات على خلاف مع الدولة وسواء أكان بتوجيه من الإنكليز أم نتيجة الأطماع فإن الارتباط مع إنكلترا كان واضحاً في كلا الحالتين، وربما كان الإدريسي في تهامة عسير على ارتباط مع إيطاليا، ثم ارتبط مع إنكلترا، ولهذا نستطيع أن نقول: إن رصيد الدولة العثمانية في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع عشر كان قليلاً.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ لم يقف بجانب العثمانيين سوى أئمة اليمن الذين اتفقوا معهم على أن تعترف الدولة بسلطانهم على الهضبة، وتبقى تهامة بيد العثمانيين، ونتيجة العاطفة الدينية، وربما كان لخوف الأئمة من الإدريسي المجاور لهم والذي تدعمه إنكلترا قد أثر في هذا الاتجاه، هذا بالإضافة إلى إمارة آل رشيد الصغيرة الحجم

في حائل وربما كان لوجودها بين إماراتٍ مدعومةٍ من إنكلترا وصراعها معهم أثر في هذا الانحياز أيضاً.

وبدأت بعدئذٍ كل دولةٍ تتطوّر منفصلة عن غيرها، وتعمل وحدها بعد أن قُضي على الخلافة الإسلامية، وأهملت الروابط العقيدية، ودخلت الصليبية مستعمرةً لبعض الأطراف من جزيرة العرب وخاصةً الشرقية والجنوبية منها، إضافة إلى صلتها أو توجيهها أو ارتباطها للجهات البقية، وتمثّلت الصليبية في إنكلترا صاحبة النفوذ الأول في تلك المرحلة من التاريخ.

الفصل الأول

الحجاز

كانت أسرة «قتادة» تحكم الحجاز منذ عام ٥٩٨، وتتسلّم شرافة مكة، وتنتمي هذه الأسرة - حسب زعم أبنائها - إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعمل زعماؤها لكل من يخضع الحجاز لسلطانه، إذ عملوا للأيوبيين والمماليك، كما لم يبتعدوا عن بني رسول في اليمن إذ يخضعون لهم عندما يقوى أمرهم، ولكن كانوا في أغلب الأحيان يحكمون باسم الدولة التي تُسيطر على مصر. وإذا كانت هذه الأسرة هي التي تُسيطر على الحجاز كله إلا أنه وجدت أسرة من الأشراف من آل الحسين في المدينة المنورة كان لها دور أيضاً، ولكن كانت المدينة في أكثر أيامها تتبع مكة على أنها جزء من الحجاز.

دالت دولة المماليك في مصر على يد العثمانيين عام ٩٢٣، فأرسل شريف مكة «بركات الثاني» الذي كان يتسلّم شرافة مكة للمرة الثانية ابنه محمد أبو نمي الثاني إلى القاهرة ليقدّم للسلطان سليم العثماني الطاعة، ويسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين إشعاراً بالتبعية، واعترافاً بالخضوع له، كي يحتفظ لنفسه بالشرافة على مكة، ويُؤمّن وضعه بالحجاز، وبهذا امتدّ نفوذ العثمانيين إلى الحجاز منذ أن استلموا مصر، ثم اتسع بعدئذٍ حتى شمل الجزيرة كلها. وهكذا استمرت أسرة بني قتادة في حكم الحجاز، وتوالى رؤساؤها على شرافة مكة، واتصف عهدهم بكثرة الخلافات فيما بينهم، فكان أن تولّى بعضهم الأمر عدة مراتٍ إذ يُعزل عندما يضعف أمره، ثم لا يلبث أن يرجع إلى منصبه إذا عادت إليه قوته، ولم يطل عهد بعضهم أكثر

من يومٍ واحدٍ، على حين زادت أيام شرافة بعضهم على الستين سنةً، وامتاز عهد بعضهم بالقتل وسفك الدماء والإرهاب، واتسم عهد بعضهم الآخر بالصلاح والعدل والخير، وكثيراً ما كان حكام مصر يتدخلون في شؤون الحجاز فيؤيّدون شريفاً ويخلعون آخر، أو يُساعدون واحداً على الثاني.

وكانت مدينة جدة ترتبط بمصر في أكثر أيامها، ويُعيّن واليها من القاهرة، وقد يصطدم حاكم جدة مع شريف مكة ويقع بينهما قتال يُؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

ولما كان أمر العثمانيين قد ضعف بعد خضوع الحجاز لهم بقليل، ولبعد الجزيرة عن مركز الحكم، ولكثرة المشكلات التي كانت تتعرض لها الدولة وخاصةً في أوربا، وللحقد الصليبي الذي كان يتربَّص بالمسلمين الدوائر، لذا فقد تُركت هذه الأسرة وشأنها ما دامت تُظهر الطاعة، وتُبدي الخضوع للدولة العثمانية. فكانت الخلافات تحدث في الجزيرة بين الأمراء المتنفذين بعضهم مع بعض، أو بين الأسر الثانية التي كانت تحكم مناطق أخرى سواء في عسير أم في اليمن أم في نجد أم غيرها، وكانت الدولة تترك حل هذه الخلافات إلى أبناء الجزيرة بالذات دون أن تُعير الموضوع اهتماماً كبيراً، أو تحاول إصلاح الوضع السياسي والإداري فيها.

ويمكن أن نلاحظ أن الأشراف في الحجاز كانت سلطتهم تمتد إلى عسير التي يحكمها أمراء محليون يدّعون الانتساب إلى معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ويسمون باليزيديين نسبة إلى ابنه يزيد، وقد يستعلي هؤلاء الأمراء أحياناً على شرافة مكة، أو يختلف الشرفاء وأئمة اليمن على عسير أو على مناطق تهامة في أوقات أخرى، أو عندما يريد كلٌّ مدّ نفوذه على ما جاوره من أرض، وأحياناً تمتدّ سلطة شرفاء مكة على الجهات الشرقية من الحجاز وتصل إلى نجد. وتدين لهم فيها بعض الإمارات، وتقف في وجههم أخرى، وقد يصلون إلى البحرين عن طريق نجد. وكانت حاصلات نجد تباع في الحجاز ولا سيما في موسم الحج لذا كان لا بد من أن تكون هناك علاقة خاصة بين المنطقتين، ولقوة أشراف

مكة المدعومين من قبل الدولة في مصر أو من قبل العثمانيين مباشرة كان لهم أنصار في نجد يُؤيّدونهم، فإذا أراد أمير أن يشقّ عصا الطاعة ساروا إليه مؤدبين حيث كانت لديهم آنذاك القوة اللازمة، وإمارات نجد كثيرة ومتفرقة. ولكن عندما قامت الدولة السعودية، وأصبح في نجد قوّة يُرهب جانبها، وتريد نشر فكرتها فكان لا بد من أن تصطدم شرافة مكة معها، ويقع القتال بين الطرفين وتنتصر الدولة السعودية بصفتها حاملة مبدأ، وتريد حمايته والدفاع عنه بل ونشره، وتأتي المساعدات إلى شرافة مكة لتساعدها ضد نجد، أو تأتي لتقاتل الدولة السعودية مباشرةً خوفاً على نفسها، ويعود كيان الأشراف بعد أن يسقط، وتسيطر نجد على الحجاز، أما الإمارات المجاورة فقد تلتقي مع الحجاز، وتحارب معها نجداً، أو تختلف وتجتمع مع نجد ضدها. وفي كثير من الأحيان يختلف الأشراف في مكة بعضهم مع بعض على الزعامة والرئاسة، ويقع القتال بينهم، وقد يُغادر بعضهم المنطقة إلى جهة ثانيةٍ، وربما يُخلع، ويسكت على جرحه، فإذا واتته الفرصة عاد فانقضّ على خصمه أو على مركز السلطة، وقد ينجح ويستلم الأمر، وقد يفشل، وربما بالأصل يبقى ساكتاً ويكتفي بما ناله من وقت في السلطة طال فيها أم قصر.

عندما بدأ العهد العثماني عام ٩٢٣ أو عندما بدأ عهد الخلافة العثمانية، أو بالأحرى عندما وصل النفوذ العثماني إلى الحجاز كان شريف مكة يومذاك وصاحب النفوذ فيها بركات الثاني بن محمد، ويحكم للمرة الثانية إذ حكم في المرة الأولى بعد أبيه عام ٩٠٣ ولمدّة أربع سنوات حيث نازعه أخوه هزاع بن محمد فتسلم الشرافة عاماً واحداً، ثم رجع بركات الثاني عام ٩٠٨، واستمر حتى عام ٩٣١، وفي عهده انتصر السلطان سليم العثماني على المماليك في الشام ومصر، وقضى على سلطانهم، وبُويع بالخلافة بعد أن تنازل له الخليفة العباسي المقيم في القاهرة، والذي ليس له من الأمر سوى الاسم وكل شيء بيد السلاطين المماليك، وعندها أرسل بركات الثاني ابنه محمد أبا نمي إلى القاهرة فأعلن للسلطان سليم الطاعة،

وقبل الخضوع له، وسلّم مفاتيح الحرمين الشريفين دلالةً على ذلك الخضوع، فرضي السلطان سليم ذلك منه، وأقر أباه على شرافة مكة أو على ملك الحجاز. وتوفي بركات الثاني عام ٩٣١، فتسلّم مكانه ابنه محمد أبو نمي، وبقي في أمر الشرافة مدة إحدى وستين سنةً حيث توفي عام ٩٩٢هـ، واستمرت أسرته من بعده في شرافة مكة، ولكن لم ينقطع الخلاف بين أبنائها، واستمر ذلك حتى قامت الدولة السعودية، وبدأ يمتد نفوذها، ويتسع سلطانها. فمنع الأشراف دخول ومجيء أهل نجد إلى الحج.

واستلم أحمد بن سعيد شرافة مكة عام ١١٨٣، وكان يكره العثمانيين بسبب واليهم على مصر محمد أبي الذهب الذي عزله وولّى غيره شريفاً على مكة، إلا أن أحمد هذا قد قام ضد خصمه وقتله، وتمسك لنفسه بالشرافة وبهذا فقد التقى مع السعوديين على كراهية العثمانيين، فسمح لذلك لأهل نجد بالحج في موسم عام ١١٨٣، وبعد ثلاثة أعوام ثار الأشراف في مكة على أحمد بن سعيد، وعزلوه، وولّوا مكانه ابن أخيه سرور بن مساعد الذي بقي في إمرته حتى عام ١٢٠٢ أي مدة ستة عشر عاماً، ولم يخاصم سرور السعوديين الأمر الذي جعل الدعوة السلفية تنتشر بين رجال القبائل، أو يُقبل عليها كثير ممن يطمع في أن يكون له دور في المستقبل، أو يُريد أن يحمي نفسه من بطش دعاتها، أو يكون مقرّباً لهم، فإن إشارات كثيرة تدلّ على نجاح الدعوة أو يكون لها دور بارز مع الأيام، والأفكار عادةً لا تُقاوم بالقوة، ولا بوضع الحدود الواهية أمامها، وإنما بأفكار أكثر قبولاً وواقعية.

وتوفي سرور بن مساعد عام ١٢٠٢، وخلفه أخوه عبد المعين بن مساعد غير أنه لم يلبث سوى يومٍ واحدٍ حتى كره الأمر فاعتزله، وتنازل لأخيه غالب بن مساعد الذي خاف على سلطانه وأملاكه من الدولة السعودية، حيث رأى أن الدعوة السلفية التي يحملها السعوديون تنتشر في مناطق نفوذه بسرعة لذا فقد أعلن خلافه للدرعية، وحدثت معارك بين الطرفين دامت أيام شرافته كلها من (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨) أي مدة ست وعشرين

سنة، وكانت هذه المعارك من ناحيتين من ناحية نجد حيث الدولة السعودية، ومن ناحية عسير من الجنوب حيث كانت قد عمّت فيها الدعوة السلفية، وقام أبناؤها يدعون لها، ويحاربون أعداءها. وقد استعان غالب بن مساعد بالعثمانيين ضد السعوديين أو بالأحرى ضد الدعوة السلفية.

وفي هذه الأثناء نزل الفرنسيون عام ١٢١٣ بمصر، وكانوا بقيادة نابليون بونابرت، فتأثر السكان في الحجاز، وأُعلن الجهاد للدفاع عن مصر ضد الفرنسيين، وسار بعض المتطوّعين عن طريق البحر إلى القصير، ثم انتقلوا إلى جرجا، واشتبكوا مع الفرنسيين في بعض المواقع.

وفي عام ١٢١٨ دخل السعوديون مكة المكرمة إثر موسم الحج، وفرّ منها الشريف غالب بن مساعد متجهاً إلى جُدّة، وعيّن السعوديون من قبلهم شريفاً على مكة عبد المعين بن مساعد أخا الشريف غالب، ثم توجّهوا إلى جُدّة، وحاصروها تسعة أيام، وقطعوا عنها الماء، ثم غادروها كما غادروا مكة المكرمة، ورجع الشريف غالب إلى سلطانه.

وفي عام ١٢٢٠ دخلت جيوش الدرعية المدينة المنورة، ولما شعر الشريف غالب بالضعف طلب الصلح من سعود الكبير، وقد تمّ على الشروط التالية[١]:

١ ـ يأذن الشريف غالب للوهابيين في الحج، ثم يتوجهون إلى بلادهم بعد أداء المناسك مباشرةً.

٢ ـ يدخل أهل مكة وكل من هو تحت حكم الشريف في الطاعة.

٣ ـ يكون أمر مكة وأحكامها تحت نظر الشريف. وقد اشترط الشريف غالب أن يُعيدوا إليه (الحسينية) وأثمان ما أخذوه وأتلفوه فيها وحتى ديات القتلى.

وقوي أمر الدولة السعودية، ووصل سلطانها إلى جنوبي العراق، وإلى

---

(١) وستأتي هذه الشروط في الصفحة ٢٥٨ بشكل أوضح.

حوران في بلاد الشام. وخافت الدولة العثمانية من هذا التوسع، ولم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً، فعهدت إلى واليها على مصر محمد علي صاحب الأطماع في أن يتولّى أمر إخضاع الجزيرة، فأرسل محمد علي مندوباً إلى الجزيرة ليدرس الأوضاع الداخلية عن قرب ويتعرف على نوايا الشريف غالب بن مساعد ودوافعه من الصلح مع السعوديين، وقد جاء هذا المندوب باسم العمرة، ورجع إلى مصر، وفي جعبته ما يطمئن محمد علي على نجاح مهمته.

أرسل محمد علي حملةً بقيادة ابنه الثاني أحمد طوسون، وجاءت عن طريق البحر، وتمكّنت من احتلال ينبع، وانحاز الشريف غالب إليها، ووضع إمكاناته تحت تصرفها، واتجهت الحملة نحو المدينة المنورة، فاحتلت بدراً، ولكنها هُزمت عند الصفراء، وجاءها الدعم فعاودت الكرة، وتقدّمت نحو المدينة، واستطاعت أن تحتلها عام ١٢٢٧، ثم توجّهت نحو مكة فدخلتها عام ١٢٢٨، ووقع أمير الطائف عثمان المضايفي[1] أسيراً بيد الحملة، فأُرسل إلى إستانبول حيث لقي حتفه هناك.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة، ومنها توجّه إلى مكة المكرمة، وكلّف الشريف غالب في كل أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها نقل إلى سالونيك حيث بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١. وهكذا خضعت الحجاز إلى الحملة المصرية. وأراد محمد علي أن يتوجه نحو نجد شرقاً، ونحو عسير جنوباً حيث يُسيطر على المنطقتين أنصار الدعوة السلفية، ففي نجد تقوم الدولة السعودية، وفي عسير يحكم طامي بن شعيب من قادة الدعوة السلفية هناك، غير أن الجيوش المصرية قد هُزمت في الحناكية شرقي المدينة المنورة، كما هُزمت مرتين في (تربة) على بعد ١٢٠ كيلومتراً شرق الطائف، كما هُزمت الحملة التي اتجهت إلى عسير عن طريق القنفذة.

---

(١) عثمان المضايفي: ختن الشريف غالب، ومن أكبر أنصاره، وقعت بينهما جفوة فانحاز إلى السعوديين، وأصبح من أكبر قادتهم ضد الشريف غالب.

رأى محمد أن ينتهي من عسير ثم يلتفت إلى نجد. فطوّق عسير من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت على الجبهتين، وفي الوقت نفسه تقدّمت جيوش نجد حتى غدت على مقربة من الطائف، فسار محمد علي حينئذٍ بنفسه نحو الطائف، والتقى بجيوش نجد التي كانت بقيادة فيصل بن سعود، وتمكّن من هزيمتها، واستغلّ هذا النصر الذي حققه، فطارد خصومه، وشنّ حرباً لا هوادة فيها على القرى الأمر الذي جعلها تستسلم مجرد اقترابه منها، وتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأخذ زعيمها طامي بن شعيب أسيراً، فحمله معه مكبلاً بالحديد، حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقُتل هناك.

وتقدّم طوسون بن محمد علي من المدينة باتجاه الشرق، ووصل إلى بلدة الرس، واستقر في الخبرا، وتمّ بينه وبين السعوديين صلح الرس. وأخلى المصريون نجداً بموجب هذا الصلح، وسافر طوسون إلى مصر تاركاً إمرة الجيش لغيره، وأصبح الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم الدولة العثمانية. إلا أن محمد علي قد رفض الصلح وسيّر نجدةً بإمرة ابنه الكبير إبراهيم إلى المدينة المنورة، وتقدّم بالجيوش منها، واحتل القصيم، ثم وصل إلى الدرعية، واضطر أميرها عبد الله بن سعود إلى التسليم عام ١٢٣٣، فأمر إبراهيم باشا بنقله إلى مصر، ومن هناك إلى إستانبول حيث لقي حتفه، كما نُقل إلى مصر أكثر أفراد آل سعود وآل الشيخ، وهُدّمت مدينة الدرعية عاصمة الدول السعودية، ورجع إبراهيم باشا إلى مصر عام ١٢٣٥.

كان قد تولّى شرافة مكة عام ١٢٢٨ يحيى بن سرور تحت إشراف محمد علي الذي عزل عمه غالب بن مساعد، واستمر يحيى في شرافته مدة خمسة عشر عاماً، ولم يكن له من ذكر إذ كان الأمر كله لمحمد علي. ثم ثار عليه عام ١٢٤٣، فتمكّن محمد علي من إخماد ثورته فعزله، وولى مكانه عبد المطلب بن غالب.

وبعد هذه المرحلة وقعت الحجاز في صدامٍ مستمرٍ مع عسير، وبقي

ذلك تقريباً حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت عسير على اتفاق مع نجد.
وقد ذكرنا أن محمد علي قد تمكن من دخول عسير عام ١٢٣١، وقد ركّز قواته في طبب، وعاد هو إلى الحجاز، ولم يكد يصل إلى هدفه حتى ثار أهل عسير على قواته وعملوا فيها قتلاً، ومن نجا فرّ إلى الحجاز، فأرسل محمد علي قوةً لتأديب عسير فجاءت من كل جهة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، واستطاعت هذه القوة من دخول عسير، وتركز محمد بن عبد المعين في أبها، واتفق أهل عسير مع الشريف حمود أمير أبي عريش، وانقضّوا على القوة الحجازية فأزالوها عن مواقعها، وسيطروا على المنطقة، وأرسل محمد علي حملةً كبيرةً عن طريق تهامة فهُزمت، فأرسل جيشين إثر ذلك أحدهما عن طريق تهامة والآخر عن طريق السراة، وأردفهما بقوات أخرى إذ كانت الدرعية قد سقطت بيد ابنه إبراهيم، وتفرّغت القوات للاتجاه نحو عسير، فجاءت هذه القوات عن طريق السراة، ومن الشرق عن طريق بيشة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، وثالثة عن طريق تهامة، واستطاعت هذه القوات دخول عسير وحمل محمد بن أحمد المتحمي أمير عسير إلى مصر مع ولده، وما أن غادر القائد العثماني خليل باشا طبب حتى انقض العسيريون على الحامية المصرية وطردوها، وجاءت حملة جديدة بإمرة والي الحجاز أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين، غير أنها هُزمت، وأعاد أحمد باشا حملةً ثانيةً بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين تمكّنت من دخول عسير التي بايعته على كره، وجرى الصلح بين الطرفين ترك محمد بن عبد المعين إثره حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع بن عبد المعين، وسار لقتال القبائل في وادي الدواسر، فقام العسيريون على الحامية وقتلوا أميرها هزاع بن عبد المعين ومن معه، وعاد محمد بن عبد المعين إليهم إلا أنه هُزم، وقُتل أخوه راجح في المعركة التي دارت بين الطرفين، وجاءت حملة جديدة احتلت عسيراً، وأقام والي الحجاز أحمد باشا مدة في أبها، ثم غادرها في أول عام ١٢٣٩ متجهاً إلى الحجاز وقد ترك حامية في أبها، وما أن عاد حتى خرج سعيد بن مسلّط من مخبئه وحاصر الحامية الحجازية في أبها فاضطرت إلى الاستسلام

وسمح لها بالعودة إلى الحجاز وجاءت حملة جديدة بعد وصول الخبر إلى الحجاز، واستطاعت احتلال عسير، وجرى الصلح بين الطرفين الذي لم يستمر إلّا لنهاية عام ١٢٣٩، وجاءت حملة من الحجاز لكنها هُزمت، وسادت مرحلة من الهدوء حتى جاءت حملة عام ١٢٤٩ غير أنها فشلت أيضاً، وتجدّدت عام ١٢٥٠، ووصلت إلى أبها، لكنها لم تلبث طويلاً حتى أُخرجت.

عقد محمد علي اتفاقاً مع اليمن وشريف أبي عريش ضد عسير، وتمكن جيش محمد علي من دخول عسير، لكنه أُخرج أيضاً، وفي هذه الأثناء اختلف والي الحجاز من قبل محمد علي، وهو أحمد باشا، ومقره جدة مع شريف مكة محمد بن عبد المعين الذي تسلّم الشرافة عام ١٢٤٣ بعد خلع الشريف عبد المطلب بن غالب الذي عُيّن لمدة خمسة أشهر فقط وعُزل بعدها. ونتيجة هذا الخلاف فقد عُزل محمد بن عبد المعين عن زعامة مكة والتي بقيت دون شريف، وتولّى أحمد باشا كل شيء من أمر البلاد.

وقوي أمر عسير في هذه المرحلة وضمّت إليها بلاد غامد وزهران من الحجاز، وبقي التنازع على هذه المنطقة بين الجارين وذلك عام ١٢٥٣.

سارت قوة من الحجاز إلى نجد، واحتلتها، وهرب منها فيصل بن تركي، ودخلها خالد بن سعود.

وفي عام ١٢٥٥ خرج محمد علي من الحجاز بل من الجزيرة العربية بعد هزيمته في الشام، وقبوله بمصر له ولأولاده من بعده، ومع انسحاب الجيوش المصرية غادر والي الحجاز أحمد باشا، وعاد إلى شرافة مكة وإمرتها محمد بن عبد المعين، فاتفق مع أمير عسير عائض بن مرعي وتبادلا الأسرى فيما بينهما وذلك عام ١٢٥٦ ، وفي عام ١٢٦٥ تمّ تعيين الحدود بين الإمارتين.

بقي محمد بن عبد المعين في إمارة مكة حتى عُزل عام ١٢٦٧،

وعاد لهذا المنصب للمرة الثانية عبد المطلب بن غالب، واستمر مدة خمس سنوات أي حتى عام ١٢٧١ حيث استطاع محمد بن عبد المعين أن يعود للمرة الثالثة، وبقي ثلاثة أعوام حيث توفي عام ١٢٧٤، وخلفه ابنه عبد الله، واستمر عشرين عاماً (١٢٧٤ ـ ١٢٩٤)، وفي عهده عاد الخلاف مع عسير، فقد سارت حملة عام ١٢٨٠ للهجوم على عسير، ولكنها هُزمت في بيشة، وتكررت بعد عام إلا أنها لقيت المصير نفسه، وسار شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين مع العثمانيين في حملةٍ كبيرةٍ استطاعت السيطرة على عسير، ومع هذه السيطرة إلا أن الوضع لم يهدأ تماماً إذ بقيت الغارات على الحاميات العثمانية، وكان العثمانيون يستعينون بأشراف مكة بصفتهم عمّالاً لهم على منطقة الحجاز، واستمرت هذه الحالة، ترسل الحملات من الحجاز لدعم العثمانيين في عسير.

وتوفي عبد الله بن محمد بن عبد المعين عام ١٢٩٤، وخلفه في إمرة مكة أخوه حسن، وهكذا بقيت الإمرة في أسرة محمد بن عبد المعين، غير أنه بعد ثلاث سنوات من حكم حسن المعروف بالشهيد استطاع عبد المطلب بن غالب أن يعود لحكم مكة للمرة الثالثة، واستقر له الوضع عامين، ثم تمكّنت الأسرة من استرجاع الإمرة لها، وحكم عون بن محمد والمعروف بالرفيق مدة ٢٤ سنة (١٢٩٩ ـ ١٣٢٣)، وخلفه أخوه عبد الإله بن محمد لمدة ثلاث سنوات، ثم تسلّم الأمر منه ابن أخيه حسين بن علي الذي كان في إستانبول في مجلس المبعوثان، وقد حكم من عام ١٣٢٦، وسار في بداية أمره على رأس حملة إلى عسير لإنقاذ الحامية العثمانية المحاصرة في أبها من قبل آل عائض والإدريسي، واستطاع أن يصل إلى أبها عام ١٣٢٨.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت الدولة العثمانية بجانب ألمانيا، على حين انحازت إيطاليا إلى جانب الحلفاء، وهذا ما جعل الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا قائمةً، وكانت إيطاليا تتوسّع يومذاك في البحر الأحمر، فدعمت الإدريسي الذي يُسيطر على تهامة

عسير، ومقّره مدينة صبيا، وطلبت منه التوسع ومهاجمة الدولة العثمانية في الحجاز، وقد بدأ ذلك، فأرسل شريف مكة الحسين بن علي ابنه فيصلاً على رأس قوة التقت مع قوات الإدريسي قرب ميناء القنفذة، ورغم دعم إيطاليا لقوات الإدريسي وقصف الأسطول الإيطالي جيش الحجاز إلا أن فيصلاً قد تمكّن من النصر على قوات الإدريسي، وهمّ فيصل بدخول عسير لحمايتها من الإدريسي إلا أن رسالةً قد جاءته من والده تدعوه للعودة للعمل ضد العثمانيين في الحجاز، وبوقوف الحسين بجانب الحلفاء توقّف القتال في جبهة عسير إذ كلا الطرفين أصبح بجانب الحلفاء أي الحسين بن علي وإيطاليا ومعها الإدريسي.

كان شريف مكة على خلافٍ مع حكام الدولة العثمانية من رجال الاتحاد والترقي، وهذا ما جعله محط أنظار الإنكليز للتفاهم معه، هذا بالإضافة إلى أطماعه، ومركزه الإسلامي الكبير بصفته شريف مكة. وجرت الاتصالات بين الحسين به علي والإنكليز عن طريق هنري ماكماهون الحاكم الإنكليزي في مصر، وتمّ الاتفاق على قيام الشريف حسين بحركةٍ في الحجاز ضد العثمانيين، وفي حالة النصر سيكون الحسين ملكاً على العرب. وفي الوقت نفسه كان الإنكليز يتقاسمون المنطقة العربية التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية، وهي بلاد العراق وبلاد الشام، ولكنه بشكلٍ سريٍّ لا يعلمه الشريف حسين ولا غيره من المسلمين، ووقف الحسين بجانب العملاء الذين قبض عليهم جمال باشا في الشام، ثم أعدمهم، وأرسل الحسين ابنه فيصلاً ليتوسط لهم، على أنهم أحرار، وكاد فيصل نفسه يقع في قبضة جمال باشا.

أعلن الشريف حسين الثورة ضد الأتراك في صيف عام ١٣٣٥، وألقى الحصار على المدينة المنورة، في الوقت الذي تقدّم ابنه فيصل نحو الشمال على رأس قوةٍ حجازيةٍ كانت تنضمّ إليها قوات من العرب، والذين يفرّون من الجيوش العثمانية، والأسرى العرب الذين وقعوا في قبضة الإنكليز أثناء الصدام مع العثمانيين على الجبهة المصرية وفي فلسطين،

ووصل فيصل إلى معان، واستمر يتقدّم نحو الشمال بشكلٍ موازٍ للجيش الإنكليزي الذي يتقدم في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي.

وخرج العثمانيون من أرض الحجاز، وانسحبت الحامية التي كانت مُحاصرةً في المدينة، وعطّل العربان في جيش فيصل الخط الحديدي الحجازي، وما يزال حتى الآن مُعطّلاً.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، والتفت الشريف حسين يركّز أوضاعه في الجزيرة، وكان قد انسحب المتصرف العثماني في عسير بناءً على أوامر دولته، وتسلّم آل عائض المنطقة والذخيرة والقلاع من المتصرف، وأصبحت المنطقة مطمعاً لأمراء الجزيرة في اليمن، وتهامة، ونجد، والحجاز ووقف الإدريسي بجانب نجد في بداية الأمر، ووقف الشريف حسين بجانب آل عائض، وتمكّن الملك عبد العزيز آل سعود من دخول عسير فأرسل الشريف حسين قوةً التقت مع القوة السعودية في بلاد بالأسمر في موقع مسفرة فانتصر الحجازيون، وقتل قائد الجيش السعودي سليمان بن سعد بن عفيصان وبعض أمرائه، وتابع قائد الجيش الحجازي الأمير راجح سيره إلى أبها وحاصرها، وبقيت الحامية السعودية عشرين يوماً معتصمةً في قلعة (شدا) حتى جاءت النجدة، وانسحب الجيش الحجازي ليدعم قواته في الطائف التي تواجه القوات السعودية هناك.

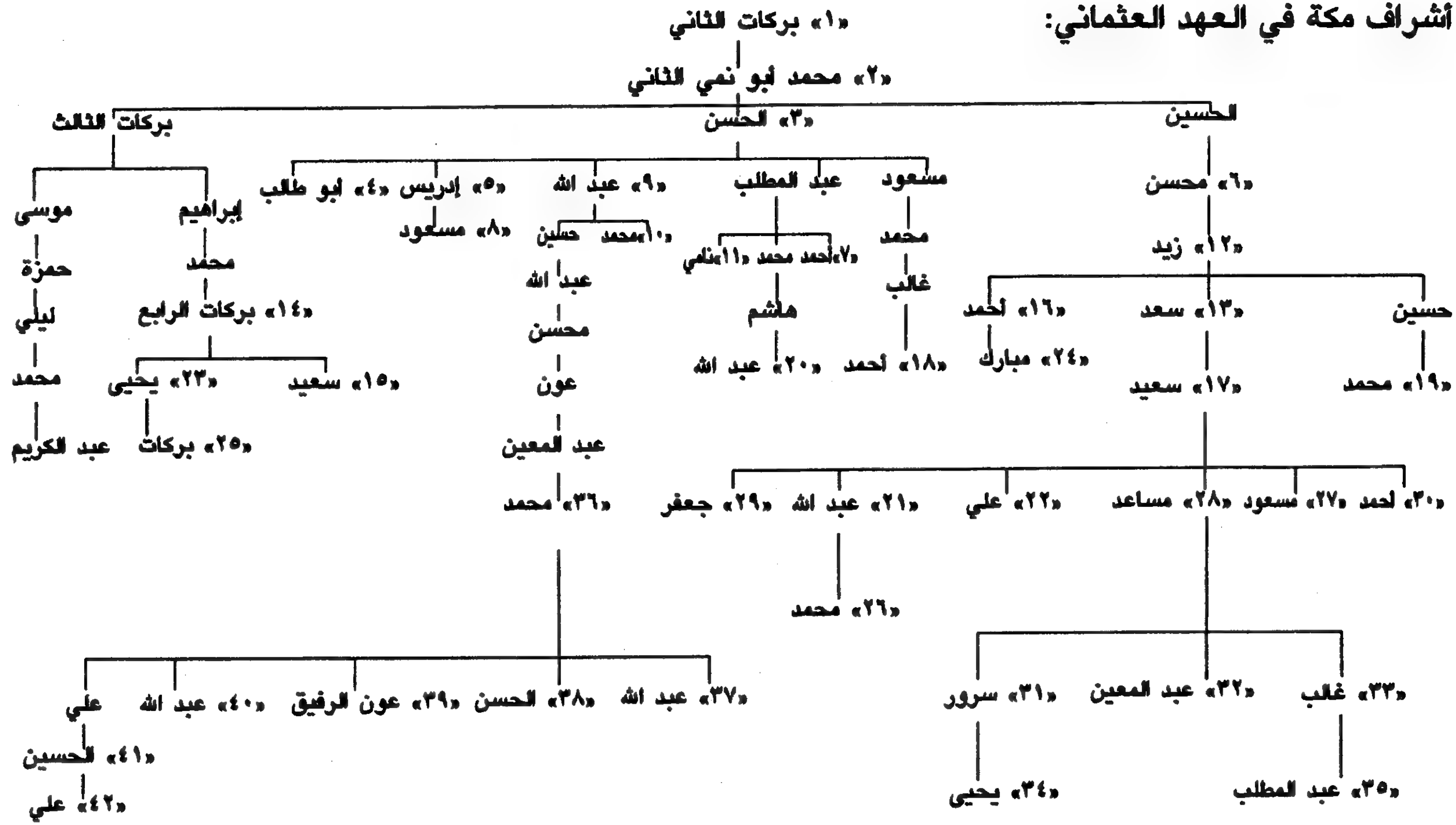
هاجم الشريف حسين عام ١٣٣٧ تربة الموقع الذي يتبع السعوديين غير أنه هُزم هزيمةً منكرةً، وانسحب قائده ابنه عبد الله، ثم هُزم هزيمةً أخرى عام ١٣٤٣، فتنازل لابنه علي الذي انتخب ملكاً على الحجاز، ورحل الحسين من مكة إلى العقبة ومنها إلى قبرص تحت مراقبة الإنكليز، وبعدها انتقل مريضاً إلى عمان حيث وافته منيته عام ١٣٥٠.

دخل السعوديون مكة عام ١٣٤٣ بعد هزيمة الحسين، فانتقل ملك الحجاز علي بن الحسين إلى جُدَّة، وتابعوه إلى جُدّة فحاصروه مدة سنةٍ كاملةٍ، وفي الوقت نفسه كانوا يُحاصرون المدينة فاستسلمت بعد عشرة أشهر، كما استسلمت جُدّة بعد اتفاقٍ انسحب بموجبه علي بن الحسين

منها، واتجه إلى أخيه فيصل بالعراق، وبقي بجانب أخيه حتى توفي، وهكذا تبعت الحجاز الدولة السعودية، وانقضى عهد الأشراف.

وإذا خرج الأشراف من الحجاز إلا أن أطماعهم قد بقيت حيث وجد حزب الأحرار الحجازي الذي كان يدعمه أمير الأردن عبد الله بن الحسين، ويتزعّمه حامد بن سالم بن رفادة، من مشايخ قبيلة بلي مع بعض مشايخ قبيلة الحويطات وعندما قام بحركة عام ١٣٥١ قتل ابن رفادة وقضى على الحزب، وعلى آمال الأشراف الذين أحاطوا بالدولة السعودية من الشمال في العراق والأردن لتهديدها فيما إذا...

أشراف مكة في العهد العثماني:



الفصل الثاني

نجد

كانت نجد تعيش في حالة من الفوضى والانقسام قبل وصول النفوذ العثماني إليها، وكان حكم البحرين يمتدّ إليها في أوقات ويتراخى في أخرى، وهذا ما أدّى إلى وجود إماراتٍ صغيرةٍ لا تشمل أرض بعضها إلا عدة قرى متجاورة، وقد تستمد قوتها من اتصالها بالدويلات الصغيرة التي نشأت في المنطقة، وقد تقع الحرب بينها بسبب اعتداء بعضها على بعض، كما لا تخلو المنطقة من غارات البدو المستمرة والمتنقلين في تلك الأرجاء، أو قطع الطرق من قبل بعض العصاة أو الخارجين على الحكم أو المضطرين بسبب الحالة السيئة التي كانت تتعرّض لها المنطقة بين المدة والمدة.

ووصل النفوذ العثماني إلى الحجاز عام ٩٢٣ هذا من ناحية الغرب، كما وصل إلى البحرين عام ٩٦٣ بقيادة فاتح باشا الذي قضى على إمارة راشد بن مغامس الذي قام عام ٩٣٢، وقضى على حكم بني عامر بن عقيل، وهذا من جهة الشرق، ومع وصول النفوذ العثماني إلى الحجاز والبحرين فإنه من الطبيعي أن يمتد إلى نجد، ولكن عن طريق ولاته في الغرب أو عماله في الشرق. وقد كان نفوذ شرفاء مكة في نجد في بداية الأمر هو القوي بالنسبة إلى نفوذ البحرين، وعندما كان الشرفاء يشعرون في نفوسهم بالقوة أو يرون محاولة لعصيان إمارات نجد عليهم يُجرّدون الحملات لإقرار نفوذهم أو لإخضاع من يفكر في التمرد وإعلان العصيان، وقد كثرت هذه الغزوات.

غزا الشريف حسن بن محمد أبي نمي بلدة معكال[1] عام ٩٨٦، وبقي فيها مدة. كما عاد بعد ثلاث سنوات فغزا الخرج والعارض، واعترض أثناء عودته جماعة من بني خالد إلا أنه هزمهم.

وغزا أبو طالب بن حسن نجداً عام ١٠١١ باسم أخيه إدريس بن حسن الذي غدا شريف مكة مكانه. وغزا محسن بن حسين بن حسن نجداً عام ١٠٣٥، وقاتل أهل بلدة القصب من نواحي الوشم، ثم عاد مرة أخرى في العام التالي، وتمكّن من الوصول إلى البحرين.

وغزا زيد بن محسن عام ١٠٤٢ نجداً، وتكرّرت غزواته، فوصل عام ١٠٥٦ إلى روضة سدير، وعام ١٠٥٧ إلى العُيينة، وإلى الخرج عام ١٠٥٧ أيضاً، ونزل التويم وجلاجل عام ١٠٦٩.

وضعفت الدولة العثمانية سريعاً في منطقة البحرين، ولم يتعاقب سوى أربعة من ولاتها على المنطقة وهم: فاتح باشا الذي دخل المنطقة، وعلي باشا أبو الوند، ومحمد باشا، وعمر باشا، فطمعت القبائل بالولاة، وظهرت قوة قبيلة بني خالد في المنطقة، واستطاع زعيمهم براك بن غرير من السيطرة على البحرين وإخراج الحامية العثمانية منها عام ١٠٨٠، وامتدّ نفوذ دولته حتى وصل إلى الكويت، كما غزا نجداً عام ١٠٨١، وهكذا وجدت قوتان تحيطان بنجد من الغرب أمراء مكة ومن الشرق أمراء البحرين، وهي منطقة صراع بينهما.

وقد غزا الشريف أحمد بن زيد بن محسن نجداً عام ١٠٩٧، ونزل عنيزة، وسار أخوه سعد بن زيد بن محسن عام ١١٠٧ إلى نجد ووصل إلى منطقة سدير. ويظهر أنّ قوّة بني خالد قد طغت بعدئذٍ على نجد، وزادت على قوة الأشراف.

ونلاحظ أن إمارات نجد كانت صغيرةً ومتفرقةً لا يجمعها رابط، وهي

---

(١) معكال: قرية من ضواحي الرياض، وهي حي من أحيائها اليوم، تقع جنوب دخنة حول شارع الفريان، وكانت قريةً خاصةً منفصلةً عما حولها، وتُعَدّ منفوحة أقرب القرى لها.

في صراعٍ دائمٍ فيما بينها، وتنافسٍ مستمرٍ على السلطة، ومرابطة لا تنقطع، وثأر لا ينتهي، يتحيّن أهل كل قريةٍ الفرصة للانقضاض على القرية الأخرى، بل تطوّر الأمر إلى الصراع داخل القرية الواحدة بل وبين أفراد الأسرة الواحدة، والأمير يأخذ ما يحلو له من ثمار، وقد يأتي شريف مكة فيدخل البلاد، كما قد يسير حاكم الإحساء فيخضع الأمراء لسلطانه، وهم يتبعون له، هذا بالإضافة إلى غارات البدو التي لا تنقطع، وتسلّط القبائل وشيوخها على الحضر، وانتشار اللصوص في كل مكان، ووجود الحرابا في الدروب والطرقات، هذا من ناحية الأمن أما من ناحية الدين فتقديس القبور والمظاهر الخاصة، والتعامل بالربا، وارتكاب الفواحش، والإكراه على تزويج البنات، وانتشار الخرافات والتوسل بغير الله من أضرحة الصالحين والصحابة، والاعتقاد ببعض الأحجار والأشجار بأنها تكون سبب الإنجاب أو إيجاد الزوج، وحفظ الولد، إذ قام عندها الملتجئ ببعض التصرفات، كل هذا كان يُثير النفوس، ويُذكي روح التمرّد على هذه الأوضاع، ويحرّق القلوب التي فُطرت على حب الأمن والطمأنينة والسلام، وما يرى عاقل شيئاً من هذا إلا ويُخيفه ما وصل إليه الأمر، ولا شك فإن أول ما يهتم بهذا ويثير كوامن نفسه هو العالم. وكان لا بدّ من مُنادٍ للإصلاح، وداعيةٍ للخير، وشاء الله أن يكون هذا الداعية هو الشيخ محمد بن عبد الوهّاب التميمي[1]، فخافه بعض الأمراء حرصاً على مصالحهم وشهواتهم، فتواصوا

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ولد في بلدة العيينة إلى الشمال في الرياض بحوالي أربعين كيلومتراً عام ١١١٥، وعاش في بيئةٍ صالحةٍ إذ كان أبوه عالماً، وعمل في القضاء في العُيينة وحريملاء، كما كان جده مفتي نجد، وإماماً في الفقه، وكذا كان عمّه، فنشأ في بيت علم ودينٍ، فكان شغوفاً لتحصيله، واهتمّ بكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقام برحلاتٍ في طلب العلم إذ سافر إلى الحجاز، والإحساء، والبصرة فالتقى بالعلماء، ورأى أوضاع المسلمين، فكتب الرسائل، ودوّن الكتب. رحل والده إلى حريملاء عام ١١٥٣ لخلافٍ بينه وبين أمير العُيينة الجديد، فرحل ابنه معه، وأراد أن يعمل بالدعوة فمنعه والده فانصرف إلى التأليف، ولكن لم يلبث والده أن توفي في ذلك العام، فأعلن الشيخ عن رأيه، وبدأ يدعو الناس إلى ترك ما هم عليه من بدع، والتمسّك بالإسلام، ووجد أن جوّ حريملاء لا يُناسب الدعوة فقرّر العودة إلى العُيينة =

به، حيث كتب حاكم الأحساء سليمان بن محمد بن غرير إلى أمير العُيينة عثمان بن معمّر أن يترك نصرة الشيخ، وأن يقتله، وابن معمّر يتبع ابن غرير، ويتقاضى منه راتباً شهرياً، فلم يكن منه إلا أن يطلب من الشيخ أن يُغادر إمارته، فانتقل إلى الدرعية عام ١١٥٧ حيث استقبله أميرها محمد بن سعود[١]، ووعده أن يمنعه، وأصبحت الدرعية مركزاً دينياً، ومقراً للنشاط، فقويت الإمارة، وسارت منها الجيوش في الاتجاهات كافةً تعمل على إزالة المنكرات، وترك الخرافات.

توسّعت إمارة الدرعية إذ ضمت إليها العُيينة، وحريملاء، ووقع الصدام بينها وبين الرياض التي حملت هذا الاسم بعد أن كانت تُعرف باسم (حجر اليمامة)، ومع حاكم نجران، وحاكم الإحساء (عريعر بن دجين)، ثم استطاع محمد بن سعود أن يفرض حكمه على بلاد العارض (عدا الرياض) وأكثر منطقة الخرج وحائر، والوشم، والمحمل، وسدير، وتوفي عام ١١٧٩، وتولّى بعده ابنه عبد العزيز بن محمد الذي تمكّن من دخول الرياض عام ١١٨٧، وتوجّه بعدها إلى القصيم فاستمر في قتاله فيها (١١٨٨ ـ ١٢٠٢)، ثم سار إلى الإحساء فدخلها عام ١٢٠٨، وانتقل بعدها إلى الغرب فدخل الطائف عام ١٢١٧، ومكة المكرمة ١٢١٨ بعد حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد.

وغزا عبد العزيز بن محمد جنوبي العراق، ودخل كربلاء، وهدم قبر حسين بن علي، رضي الله عنهما، وأخذ الكنوز التي في الضريح، وهذا ما أثار نقمة الشيعة عليه، فجاء أحدهم إلى الدرعية مُتَنكّراً، وطعنه وهو يُؤدي

= وساعده عثمان بن معمر أميرها في نشر دعوته، وبدأ في التطبيق إذ قطعت الشجرة التي يتبرك بها الناس، وهدمت القبة التي فوق ضريح زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، ورجمت الزانية. وتوفي الشيخ عام ١٢٠٦.

(١) محمد بن سعود: ورث إمارة بلدة الدرعية عام ١١٣٩، وكانت أسرته قد أعمرتها منذ عام ٥٨٠ في مكان كان يدعى (الليبيد وغصيبة) حيث نزل فيها مانع بن ربيعة المريدي من بني حنيفة قادماً من منطقة القطيف.

صلاة العصر فكان موته عام ١٢١٨، وتولّى مكانه ابنه سعود بن عبد العزيز الذي لقب بالكبير.

غزا سعود الكبير جنوبي العراق في أواخر عام ١٢١٨، وعجز عن دخول البصرة والزبير، وأعاد الغزو ثانية عام ١٢٢٠، وحاصر النجف، والسماوة، والبصرة، والزبير، وكرّر الغزو عام ١٢٢٣، وكذلك أرسل ابنه عبد الله عام ١٢٢٥. أما من جهة الغرب فقد غزا الحجاز عام ١٢١٩، ودخلت جيوشه المدينة المنورة عام ١٢٢٠، وشعر شريف مكة غالب بن مساعد بالضعف فعقد صلحاً مع الدولة السعودية على الشروط التالية:

١ ـ أن يسمح الشريف غالب للوهابيين بالحج، وبعد أداء المناسك مباشرة يعودون إلى بلادهم.

٢ ـ يدخل أهل مكة، وكل من كان تحت حكم الشريف في الطاعة للدولة السعودية.

٣ ـ يكون أمر مكة وحكمها تحت نظر الشريف.

وقد اشترط الشريف غالب أن تُعيد الدولة السعودية إليه (الحسينية)، وأثمان ما أخذوه وما أتلفوه فيها، وحتى ديات القتلى.

واتجهت جيوش سعود الكبير من جهة الشمال إلى بلاد الشام إذ وصلت عام ١٢٢٥ إلى مزيريب وبصرى في حوران في أواسط بلاد الشام جنوبي سوريا اليوم.

ومن ناحية عُمان خاف حاكم مسقط سلطان بن أحمد على نفسه من الدولة السعودية فاتجه إلى البصرة ليتفق مع والي بغداد مُمثّلاً للسلطان العثماني ضد سعود الكبير، وقد تم ذلك عام ١٢٠٦، واعترف سلطان مسقط بسيادة الدولة العثمانية على ممتلكاته في الجزيرة العربية وشرقي إفريقية لقاء حمايته من أعدائه أي من سعود الكبير، وهذا الاتفاق أثار إنكلترا فعملت على قتل سلطان مسقط وهو عائد إلى بلاده، وسار والي بغداد لمحاربة الدولة السعودية، غير أن السعوديين قد سبقوه بالإغارة على

جنوبي العراق، وتولّى أمر عُمان بعد سلطان بن أحمد أخوه بدر بن أحمد فوالى الدرعية، وطلب حمايتها إلا أنه قُتل، فأخذ مكانه ابن أخيه سالم بن سلطان، ثم أخوه سعيد بن سلطان، وحدث قتال بين العُمانيين والسعوديين انتصر فيه السعوديون، فطلبت عُمان إثر ذلك المبايعة على السمع والطاعة، وأصبحت تحت ولاية السعوديين، واستنجد سعيد بن سلطان بالإنكليز فأرسل سعود الكبير حملةً إلى عُمان عام ١٢٢٥ انتصرت على سعيد بن سلطان الذي استنجد ثانية بالإنكليز فلم ينجدوه، فاتجه إلى الفرس، وعاد القتال إلى أرض عُمان بين السلطان والسعوديين انتصر فيه السعوديون الذين أصبح لهم أنصار في البلاد، ووقع الخلاف بين أنصارهم وخصومهم غير أن سعود الكبير لم يستطع إرسال النجدات لهم لأن جيوش والي مصر محمد علي كانت قد نزلت بأرض الحجاز.

أما الإحساء فكانت قد دخلت في طاعة آل سعود عام ١٢٠٨، غير أن أهلها قد قاموا بعدة حركات منها حركة عام ١٢١٠، وأخضعت بسهولة، فاتصل الزعماء الذين فقدوا سلطتهم بالوالي العثماني في العراق وطلبوا دعمه فأمدهم بجيشٍ هُزم عام ١٢١١، فأردفه بثانٍ عام ١٢١٣ غير أنه لم يجر قتال إذ تمّ الصلح، ولكن لم يلبث أن عاد القتال، وغزا السعوديون جنوبي العراق عام ١٢١٦.

ووصلت الدعوة السلفية في جهات عسير إلى تهامة حيث استولى طامي بن شعيب أمير عسير على تهامة، وقاتل سيد أبي عريش الشريف حمود أبو مسمار، ووصل إلى الحديدة.

وهادن إمام صنعاء المنصور وابنه المتوكل إمام الدرعية سعود الكبير، واستجابا إلى شيء من الدعوة السلفية.

وهكذا دان أكثر الجزيرة العربية إلى سعود الكبير، ولم يبق خارج الدعوة السلفية سوى البحرين، وبعض المراكز للنفوذ الإنكليزي في الأطراف.

الحملة المصرية على الجزيرة:

سبق أن قلت في الباب الأول من هذا الكتاب: إنه قد أصبحت ثلاثة اتجاهات في المنطقة التي تتبع الدولة العثمانية أصلاً، أو لها نفوذ فيها، وهذه الاتجاهات هي:

١ ـ الدولة العثمانية التي تُمثّل الضعف والتوقّف في العمل الإسلامي أو جمود المسلمين، وتحكم باسم الإسلام دون أي عملٍ أو منهجٍ صحيح.

٢ ـ ولاية مصر التي يحكمها محمد علي ويرى السير على خطا أوربا ومنهجها، وله أطماعه وتطلعاته.

٣ ـ الدولة السعودية في الجزيرة وتعمل على إحياء فكرة الجهاد والسير على منهج السلف بعقليةٍ خاصةٍ، وتجاوب المسلمون في الجزيرة معها، واقتنعوا بالفكرة، وقاموا يعملون لها ويُجاهدون.

ولقد خشيت الدولة العثمانية من هذا التوسع الذي تمّ أيام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود الكبير، ولم تتمكّن من الوقوف في وجه الدعوة حيث هُزم والي بغداد أمامها، كما هُزم والي الشام. وخشي محمد علي والي مصر على مخططه الذي يعمل له، وعلى أفكاره وأطماعه. وخشيت كذلك الدول النصرانية إذ خافت أن تدبّ الروح في المسلمين ثانية بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، فشجعوا الخليفة للقضاء على هذه الدعوة وشجّعوه بالاستعانة بجيوش محمد علي الفتية، أو رأوا أن التفاهم بين الجمود العثماني والتحرر الباشوي المصري خير من نجاح العمل الجديد للإسلام ووافق الخليفة العثماني بغية ضرب خصميه، الواحد بالآخر، وقبل محمد علي بغية تنفيذ أو تحقيق أطماعه.

أعطى الخليفة ولاية جدة لمحمد علي ليصبح على احتكاكٍ مباشرٍ مع السعوديين، وفي الوقت نفسه أراد الخليفة إشغال الناس بالقتال وأخباره في الجزيرة بعد أن تخلص من الإنكشاريين.

أرسل محمد علي مندوباً له إلى الجزيرة يدرس الأوضاع الداخلية عن

قرب، ويتعرف على نوايا شريف مكة غالب بن مساعد، وقد جاءت النتائج كما يريد محمد علي، فسير الحملة وتخلص من المماليك في الحفل الذي أعدّه لهذا الغرض بمناسبة إرسال ابنه طوسون على رأس الحملة.

سارت الحملة في شهر شعبان من عام ١٢٢٦ وتتألف من ٨٠٠٠ جندي من المشاة انتقلوا بحراً إلى ميناء ينبع، و٢٠٠٠ من الفرسان انتقلوا براً مع القائد العام أحمد طوسون بن محمد علي ولا يزيد عمره على السادسة عشرة والتقوا بينبع وقد سقطت بأيديهم، ومال شريف مكة غالب بن مساعد إلى الحملة التي سارت برأيه نحو المدينة المنورة، واحتلت في طريقها بدر، وعند الصفراء التقت بالجيش السعودي الذي يتألف من خمسة عشر ألف جندي على رأسهم عبد الله بن سعود الكبير، ومعه أمير عسير طامي بن شعيب، وعثمان المضايفي أمير الطائف، وهزمت الحملة المصرية، وأخطأ السعوديون في عدم متابعة المصريين الأمر الذي جعلهم يخلدون إلى الراحة، ويُنظّمون صفوفهم، ويطلبون النجدة.

وجاءت النجدة إلى طوسون فتوسّع وتمكّن من احتلال الصفراء ودخول المدينة المنورة عام ١٢٢٧ بعد حصارها، وسار بعدها إلى مكة بإشراف غالب بن مساعد فدخلها عام ١٢٢٨، وكذلك مدينة جُدّة، وأُسر عثمان المضايفي الذي أُرسل إلى مصر ومنها إلى إستانبول حيث لقي فيها حتفه.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة فمكّة بعد دخولها من قبل جيشه وسخّر الشريف غالب في أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها إلى سالونيك إذ بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١.

أراد طوسون أن يتوسّع نحو نجد من جهة الطائف إلا أنه هُزم مرتين في موقع تربة. وأُرسلت حملة إلى عسير عن طريق القنفذة لكنها هُزمت أيضاً، وتقدّم المصريّون نحو الشرق من جهة المدينة غير أنهم هُزموا في الحناكية أيضاً.

لم يكن الإنكليز ليسرّهم نصر محمد علي الذي كان أقرب إلى السياسة الفرنسية بل كانوا يخشون وجوده في الجزيرة العربية، وكانت صلتهم بالسعوديين ضعيفة غير أنهم راضون لمقاومة توسعات محمد علي.

وتوفي سعود الكبير عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه عبد الله، ولم يكن له إمكانات أبيه، فأطمع هذا محمد علي، وقرّر القضاء على الدعوة، وسار نحو عسير وطوّقها من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت في الجبهتين. وكان عبد الله بن سعود مشغولاً ببعض الحركات الداخلية، فأعطى أخاه فيصلاً قيادة الجيوش فهُزم هزيمةً منكرةً في (بسل) شرق الطائف بعد أن جاءت الإمدادات بقيادة محمد علي بنفسه إلى القوات المصرية، واستغلّ محمد علي هذا النصر الذي أحرزه، وبدأ يشن حرباً لا هوادة فيها على القرى الآمنة حتى أصبحت تستسلم له مجرد اقترابه منها. فتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأسر أميرها طامي بن شعيب، وحمله معه مكبلاً بالحديد، وبقي معه حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقتل هناك.

وانتقل أحمد طوسون بن محمد علي إلى المدينة، وتقدّم منها نحو الشرق حتى وصل إلى بلدة الرسّ، واستقرّ في الخبرا، وجاءت جيوش عبد الله بن سعود ولم يحدث قتال بين الطرفين، حيث عقد صلح عُرف باسم (صلح الرسّ) وينص على:

١ ـ أن يتوقف القتال بين الجانبين.

٢ ـ ينسحب المصريون من نجد، ويستقل آل سعود بحكمها.

٣ ـ يبقى الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم العثمانيين.

٤ ـ لا يعترض سبيل أي حاج من الطرفين.

٥ ـ تأمين النقل بين نجد، والشام، ومصر، والأناضول.

وبموجب هذا الصلح رحل المصريون عن نجد، وسافر طوسون إلى

مصر. ولكن محمد علي رفض هذا الصلح، وسيّر حملةً جديدةً بقيادة ابنه الكبير إبراهيم، والتقى الطرفان في شرق المدينة، وانتصر إبراهيم باشا في المعركة الأولى، ودخل الخبرا، والرسّ، وعنيزة بعد معارك جانبية، وتابع سيره إلى الدرعية، ودافع عنها أهلها دفاع المستميت، واضطر عبد الله بن سعود لتسليم نفسه في ١١ ذي القعدة عام ١٢٣٣ حيث أرسل إلى مصر، ومنها إلى إستانبول حيث أعدم هناك. وأمر إبراهيم باشا أسرتي آل سعود وآل الشيخ بالرحيل إلى مصر إلا من اختفى منهم أو هرب، ثم هدّم الدرعية، وقطع نخيلها، وعاد إلى القاهرة فوصل إليها في صفر عام ١٢٣٥. وهكذا انتهت الدولة السعودية التي عُرفت فيما بعد بالدولة السعودية الأولى.

عادت الإمارات الصغيرة إلى نجد مرة أخرى مثل: الرياض، والخرج، وحريملاء، وبريدة، وعاد إلى الإحساء كيانها، وإلى أشراف مكة استقلالهم. وخاف الإنكليز من قوة محمد علي المخالف لهم فاتجهت أنظارهم نحو منطقة الخليج حيث لم تصل قوة محمد علي بعد، وكذلك نحو الجنوب.

وبعد رحيل إبراهيم باشا عن الدرعية انقضّ عليها قادماً من العُيينة محمد بن مشاري بن معمر، وأخذ البيعة من كثير من البلدان عدا الرياض، وحريملاء، والخرج، وحاربه أمير الإحساء ماجد بن عريعر من بني خالد إلا أن الصلح قد تمّ بينهما، واستمر ابن معمر في الدرعية حتى عام ١٢٣٥ حيث وصل إليها مشاري بن سعود هارباً من قافلة الأسرى المتجهة إلى مصر، وقد اجتمع حوله عدد من أهالي القصيم، والزلفي فتنازل له ابن معمر، وبايعه، وخدعه، ثمّ كاتب العثمانيين، وحاربه، وانتصر عليه، وسلمه إلى العثمانيين فقتلوه، وعاد ابن معمر إلى حكم الدرعية.

كان تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود قد لاذ بالفرار إلى الخرج، واعتصم فيها عندما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا، ثم حكم الرياض أيام تسلّم ابن عمه مشاري حكم الدرعية. فلما عاد ابن معمر إلى الدرعية سار

تركي إليه وقتله عام ١٢٣٦ إلا أن القوات العثمانية قد جاءت إلى الرياض، وأجبرته على مغادرتها عام ١٢٣٧، وتمكّن بعد مدةٍ أن يعود إليها ثانيةً، وأن يهزم القوات العثمانية، وأن يخرجها منها عام ١٢٤٠، وعندها جاءت إليه وفود نجد تُعلن له الطاعة، وجاءه أهل عُمان أيضاً عام ١٢٤٤، وانتصر على بني خالد، فجاء أهل الإحساء، وبايعوه وهكذا عادت الدولة السعودية من جديد، وعرفت باسم الدولة السعودية الثانية، وأصبحت قاعدتها الرياض بدلاً من الدرعية، كما أن الحكم انتقل من أسرة عبد العزيز بن محمد إلى أسرة عبد الله بن محمد. وعندما وصل الخبر إلى أسرى آل سعود في مصر بإعادة الدولة السعودية تشجّع بعضهم على محاولة الفرار من مكان أسرهم، وقد تمكّن أحدهم وهو مشاري بن عبد الرحمن أن يفرّ من السجن عام ١٢٤٢، ولحقه الثاني وهو فيصل بن تركي، بن عبد الله، وقد وصل إلى نجد عام ١٢٤٣، وأصبح ساعد أبيه في توطيد دعائم الدولة، واستطاع أن يقضي على كثيرٍ من الحركات التي قامت في وجه أبيه، وبينما كان يُحاصر القطيف، وصل إليه خبر مقتل أبيه في ٢٩ ذي الحجة عام ١٢٤٩ على يد ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود طمعاً في استلام الحكم.

فيصل بن تركي:

فكّ الحصار عن القطيف، وسار إلى الرياض عندما وصل إليه خبر مقتل أبيه، واستطاع استرجاع السلطة إليه بعد أن قام عبد الله بن رشيد بقتل مشاري بن عبد الرحمن في مطلع عام ١٢٥٠، وكان عبد الله بن رشيد مع فيصل بن تركي في حصار القطيف. وأصبح فيصل إمام نجد.

تغيّرت سياسة محمد علي، إذ أصبح يريد تأسيس دولة واسعة له، إلا أن الحركات قد قامت ضده في الجزيرة، إذ ثار ضده شريف مكة يحيى بن سرور عام ١٢٤٣، فأخمد محمد علي تلك الحركة، وعزل يحيى بن سرور، وولّى مكانه محمد بن عبد المعين بن عون، وتحرّك عائض بن

مرعي في عسير، وهزم قوات محمد علي هناك. وقويت دولة فيصل بن تركي في نجد فأراد محمد علي أن يضربها ببعض آل سعود، أو يقسم الأسرة بعضها على بعض ليستفيد هو، فأرسل خالد بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود مع حملة استطاعت احتلال نجد عام ١٢٥٣، ودخل خالد بن سعود الرياض، وخرج منها فيصل بن تركي متجهاً نحو الخرج ومنها إلى الإحساء.

لم تخضع الخرج والحوطة والحريق إلى خالد بن سعود الذي هُزم أمام قواتها عندما اتجه نحوها، وهذا ما جعل فيصل بن تركي يأتي من الإحساء ويُحاصر الرياض، غير أن نجدةً مصريةً قد جاءت إلى خالد بن سعود كانت في طريقها إلى عسير عن طريق وادي الدواسر، وقد أجبرت فيصلاً على ترك حصار الرياض، والتوجه نحو الخرج، وعندما سارت قوات خالد بن سعود إليه هزمته، فاضطر إلى الصلح، ونتيجة ذلك أُخذ، وسيق إلى مصر.

خالد بن سعود:

كان خالد بن سعود صورةً في الحكم، في الوقت الذي كان فيه القائد المصري خورشيد باشا هو الحاكم الفعلي. لذا كان سكان نجد يكرهون خالداً.

عبد الله بن ثنيان:

ثار عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود على خالد فأيّده أهل نجد، واضطر خالد أن يفرّ إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة حيث بقي هناك حتى مات، وحكم عبد الله بن ثنيان نجداً من الرياض، وكانت الظروف مناسبةً له، لأن محمد علي والي مصر قد هُزم في بلاد الشام، واضطر إلى توقيع معاهدة لندن التي قضت أن ينحصر نفوذه في مصر، وهذا ما أدّى أيضاً إلى سحب جيوشه من جزيرة العرب، ولم

يعد لخالد بن سعود نصير فتمكّن عبد الله بن ثنيان في الحكم، وبقي حتى عام ١٢٥٩.

جاء فيصل بن تركي من سجنه في مصر بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمس سنوات، فاتجه إلى حائل، ونزل عند صديقه الأول عبد الله بن رشيد، ثم سار إلى الرياض فحاصرها ثم دخلها، وقبض على عبد الله بن ثنيان وسجنه، ولكن لم يلبث ابن ثنيان أن مات في السجن في العام نفسه ١٢٥٩، وغدا فيصل بن تركي سيّد نجد ثانيةً.

فيصل بن تركي «للمرة الثانية»:

استطاع فيصل بن تركي أن يُخضع الإحساء والقطيف عام ١٢٦٠، وبذا امتد نفوذه كثيراً، كما أن عبد الله بن رشيد كان يحكم حائل باسمه، هذا بالإضافة إلى أن آل عائض في عسير كانوا على صلةٍ طيبةٍ معه وقد امتدّ نفوذهم كثيراً في جهات اليمن وتهامة وحتى جزر دهلك على سواحل اريتريا.

وفي عام ١٢٦٣ وصل إلى نجد شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، ولما وصل إلى عنيزة صالحه الإمام فيصل بن تركي، وقدّم له هديةً فرجع من حيث أتى.

وكانت عُمان تدفع الزكاة للإمام فيصل رغم النفوذ الإنكليزي فيها، وتتصل بالدولة السعودية، ولم تعترف بتبعيتها للإنكليز.

وحاولت الدولة العثمانية أن تستفيد من فيصل بن تركي للعمل معاً ضد عسير الثائرة على العثمانيين بإمرة آل عائض، ولكن الإمام فيصلاً لم يُقدّم أي مساعداتٍ تُذكر لأنه كان على صلةٍ طيبةٍ مع عسير. وتوفي فيصل عام ١٢٨٢ وترك أربعة أولاد هم: عبد الله، ومحمد، وسعود، وعبد الرحمن.

عبد الله بن فيصل:

تسلّم الولد الأكبر لفيصل وهو عبد الله الحكم بعد أبيه، ولكن ثار

عليه أخوه سعود الذي كان والياً على الخرج غير أنه هُزم، ففرّ إلى عسير، وطلب من محمد بن عائض أمير عسير مساعدته ضد أخيه عبد الله، ولكن لم يحصل إلا على النصح في الصلح مع أخيه، فتركه واتجه إلى نجران ودعمه المكارمة وآل مُرّة، فجمع حشداً واتجه إلى أخيه إلا أنه هُزم وجُرح، فاتجه إلى المنطقة الشرقية، ومنها إلى واحة البريمي فجمع جموعه وسار إلى أخيه، وأحرز النصر، واضطر عبد الله إلى مغادرة الرياض، غير أن سعوداً لم يجرؤ على دخولها لأنه لم يجد في نفسه القوة الكافية بعد لحمايتها، فعاد إليها عبد الله. وحاول سعود أن يستعين بعبد الله بن رشيد أمير حائل، وبوالي بغداد العثماني، ولكنه لم يجد دعماً من هاتين الجهتين، ومع ذلك فقد ظل مُصمّماً على القتال.

سعود بن فيصل:

زحف سعود بن فيصل على قوات أخيه في الرياض عام ١٢٨٨، وتمكّن من دخولها، وخرج منها أخوه عبد الله مُتجهاً إلى قبائل قحطان في الجنوب، وحاول العودة إلى الرياض غير أنه هُزم، وطلب المساعدة من العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا الإحساء، واتجه إليهم.

ثار أهل الرياض على سعود بن فيصل، وعزلوه، وولّوا مكانه عمه عبد الله بن تركي.

عبد الله بن فيصل للمرة الثانية:

جاء عبد الله بن فيصل من المنطقة الشرقية إلى الرياض فتنازل له عمه عبد الله بن تركي بعد أن حكم شهرين، وهرب سعود بن فيصل إلى الخرج وذلك عام ١٢٨٩.

سعود بن فيصل للمرة الثانية:

التفّ حول سعود بن فيصل أنصاره في منطقة الخرج فسار بهم إلى

الرياض، وتمكن من دخولها بعد أن انتصر على أخيه عبد الله الذي فرّ إلى الكويت.

حاول سعود بن فيصل استرجاع الإحساء، وطلب مساعدة الإنكليز فلم يقبلوا التدخل في الأمر، وطلب من العثمانيين الانسحاب من الإحساء، فلم يستجيبوا له بل وقفوا بجانب أخيه عبد الله ضدّه.

اتفق عبد الله وسعود ابنا فيصل، وعملا على مهاجمة العثمانيين في الإحساء غير أنهما فشلا في ذلك. وانسحب العثمانيون من الإحساء أو أن قواتهم قد انسحبت عام ١٢٩٠ بسبب الأمراض التي انتشرت، وغدت منطقة الإحساء تحت حكم أمراء محليين يتبعون الوالي العثماني في البصرة. وثار فيها عبد الرحمن بن فيصل، وهو في طريق عودته من بغداد غير أنه لم ينجح.

عبد الرحمن بن فيصل:

توفي سعود بن فيصل عام ١٢٩١ فاختار أهل الرياض حاكماً عليهم أخاه الصغير عبد الرحمن بن فيصل الذي كان يُؤيّد أخاه سعوداً في أواخر حياته.

اختلف عبد الرحمن بن فيصل مع أبناء أخيه سعود الذين أيّدوه في البداية، ثم اختلفوا معه، وعارضوه، واستطاعوا الاستيلاء على الرياض، بعد أن حكم عمهم الرياض مدة سنتين.

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة:

اتفق أبناء فيصل فيما بينهم، وولّوا عليهم أكبرهم عبد الله، واستطاعوا دخول الرياض، وإخراج أبناء أخيهم سعود، واستمر الأمر حتى عام ١٣٠٢.

محمد بن سعود بن فيصل:

استطاع أبناء سعود العودة إلى الرياض، والقبض على عمهم عبد الله،

وإلقائه في السجن، وتولّى كبيرهم محمد بن سعود حكم الرياض عام ١٣٠٢.

هذا الاختلاف بين أبناء فيصل وأبنائهم أيضاً قد أضعف الأسرة، وأضعف الحكم، وسبّب فوضى، فانعدم الأمن، وتضايق السكان، وأطمع الآخرين في حكم نجد وخاصة آل رشيد في حائل.

حكم آل رشيد:

سار محمد بن عبد الله بن رشيد من حائل إلى الرياض لإعادة الحكم إلى صهره عبد الله بن فيصل القابع في سجن ابن أخيه محمد بن سعود، فاستولى على الرياض، وأخرج صهره من السجن، وأخذه معه إلى حائل مع أخيه عبد الرحمن بن فيصل، وغادر الرياض بعد أن ترك فيها حاميةً برئاسة سالم السبهان، وترك الحكم لمحمد بن سعود على أن يكون تحت إشرافه. وبعد مدة سمح لابني فيصل بالعودة إلى الرياض، فوصلا إليها في ٦ ربيع الثاني عام ١٣٠٧، وبعد يومين من وصولهما توفي عبد الله بن فيصل. واختير عبد الرحمن بن فيصل حاكماً للرياض من قبل سكانها، وسحب محمد بن عبد الله بن رشيد حاميته.

عبد الرحمن بن فيصل للمرة الثانية:

عاد ابن رشيد فأرسل حملةً جديدةً إلى الرياض فلما وصلت إلى القصيم، وانتصرت على أهله اضطر عبد الرحمن بن فيصل أن يُغادر الرياض إلى الإحساء فالقطيف فالكويت، ثم رجع إلى قطر فالبحرين، ثم سمح له أمير الكويت بالإقامة عنده، فارتحل إليه عام ١٣٠٩. ودخلت قوات آل رشيد الرياض التي غدت تتبع لهم.

وهكذا زالت الدولة السعودية الثانية.

آل رشيد في نجد:

استمر حكم آل رشيد لنجد من عام ١٣٠٧ حتى عام ١٣١٩ أي ما

يقرب من اثنتي عشرة سنة، كان خلالها عبد الرحمن بن فيصل في الكويت.

واختلف أمراء الكويت على الحكم حيث ثار على الشيخ مبارك أبناء إخوته، ولما فشلوا في حركتهم لجؤوا إلى العراق يطلبون المساعدة من العثمانيين عن طريق ولاتهم ضدّ عمهم الشيخ مبارك الذي تفاهم مع الإنكليز. فأوكل ولاة العثمانيين أمر دعم أبناء إخوة الشيخ مبارك إلى أمير حائل عبد العزيز بن متعب فاستعد لقتال الشيخ مبارك، كما استعد الشيخ مبارك.

اقترح عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل على الشيخ مبارك أن يسير بقوةٍ إلى الرياض ويأخذها من آل رشيد، فتضعف قوتهم، وينتصر عليهم الشيخ مبارك. فلقي هذا الاقتراح القبول، وسار عبد العزيز على رأس قوةٍ وصلت إلى الرياض، وألقت الحصار عليها عام ١٣١٨، ولكنه اضطر إلى الانسحاب إذ هُزم الشيخ مبارك أمام آل رشيد.

لم يثن الفشل الأول عبد العزيز بن عبد الرحمن فعاد إلى الرياض مرةً ثانيةً عام ١٣١٩، واستطاع دخولها، وقتل عجلان بن محمد أمير الرياض من قبل آل رشيد.

عبد العزيز بن عبد الرحمن:

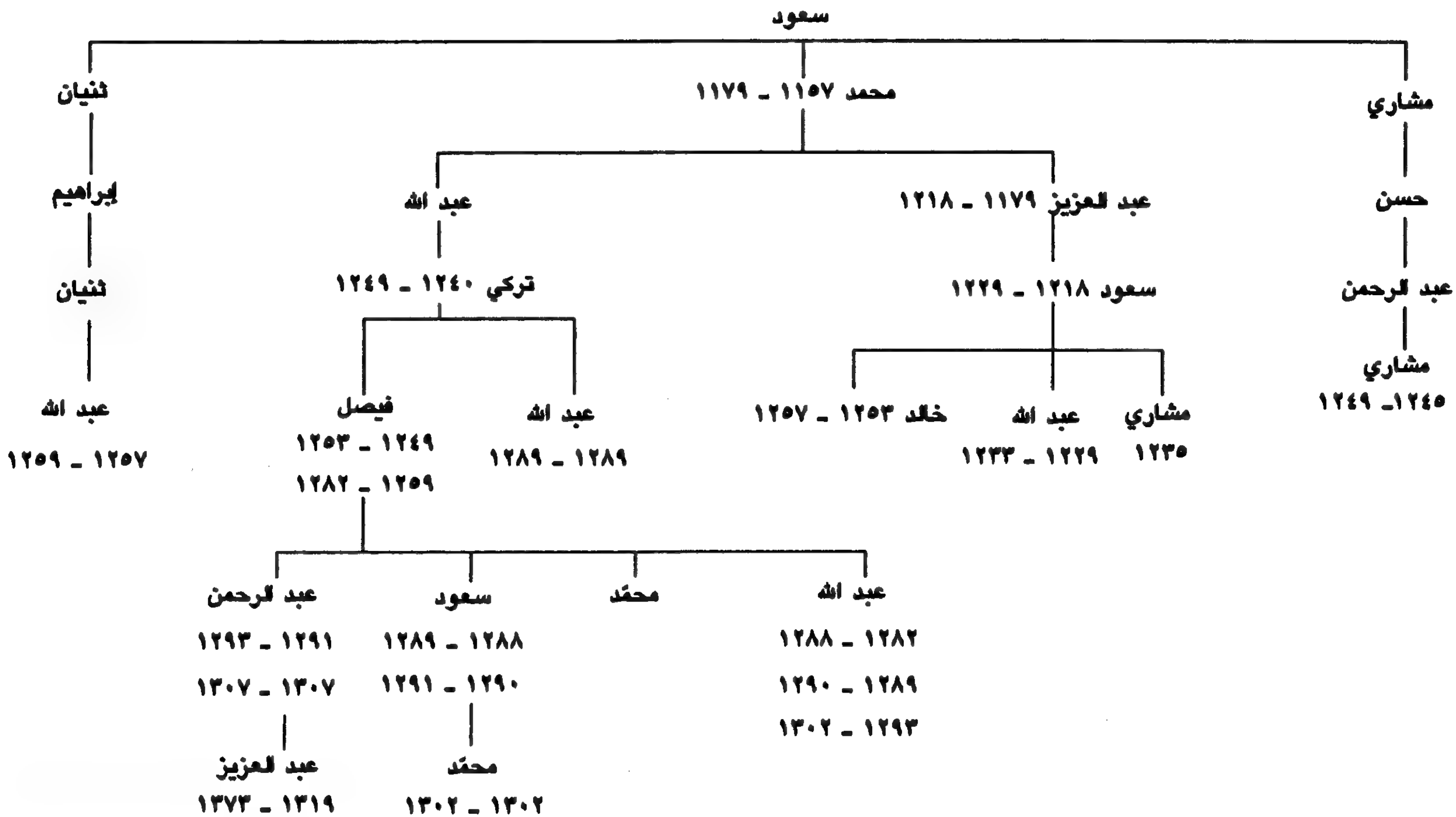
بعد أن استولى عبد العزيز على الرياض بدأ يتوسع فاستولى على الوشم وسدير عام ١٣٢١، وفي العام التالي ضمّ بريدة وعنيزة، وانتهى من ضم القصيم عام ١٣٢٤، بعد مقتل أمير حائل عبد العزيز المتعب، وتنازل ابنه متعب عن القصيم بعد الصلح الذي جرى بينه وبين أمير الرياض عبد العزيز بن عبد الرحمن.

عاد القتال بين أمير حائل الجديد سلطان بن حمود آل عبيد الذي قتل ابن عمه متعب بن عبد العزيز، واستمر القتال بين الرياض وحائل حتى

انتهى بانتصار عبد العزيز بن عبد الرحمن واستسلام آل رشيد وقد فتكت فيهم الخلافات أكثر مما يفتك بهم الخصم، وضُمت حائل إلى إمارة نجد عام ١٣٤٠.

واستولى عبد العزيز بن عبد الرحمن على الإحساء عام ١٣٣١ عندما ضعفت الدولة العثمانية بسبب حروب البلقان وانشغالها بتلك الحروب.

وضمّ إليه عسير عام ١٣٤١، والحجاز عام ١٣٤٤، وتهامة عسير عام ١٣٤٥، وأطلق اسم المملكة العربية السعودية على هذه الأجزاء مجتمعةً، وبذلك قلّل من الإمارات المبعثرة، والمناطق المتنافرة التي لم تهدأ بينها الخلافات إلا قليلاً، وأوجد دولةً مترامية الأطراف متحدةً بين أجزائها.



«المملكة العربية السعودية»

الفصل الثالث

إمـارة آل الرشـيد بحـائل

ينتمي آل الرشيد إلى شمّر التي هي من قبيلة طيء المعروفة. وكانت بطون شمّر تختلف على إمرتها وعلى سيادة المنطقة، وقد آلت السيادة إلى (عبدة) أحد هذه البطون. وعندما قامت الدولة السعودية الأولى أي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري كان سيّد شمّر رجل يُعرف باسم (الجربا)، وقد هُزم في إحدى معاركه، فأُجلي وعشيرته إلى العراق، وتسلّم زعامة شمّر آل علي، وهم بطن آخر من القبيلة، ثم لم يلبث أن وقع الخلاف بين أفراد هذا البطن، فترك عبد الله بن علي بن رشيد ابن عمه سيّد المنطقة، واتجه إلى نجد، وهناك رافق الإمام فيصل بن تركي، وسار معه إلى حصار القطيف، وأثناء الحصار وصل إليهما خبر مقتل تركي بن عبد الله والد فيصل، فترك فيصل الحصار وسار إلى الرياض، ومعه عبد الله بن رشيد الذي كان قتل خصم فيصل على يده.

تسلّم فيصل بن تركي حكم نجد فساعد صديقه عبد الله بن رشيد على خصومه من أبناء عمومته، ومكّنه من زعامة حائل في مطلع عام ١٢٥٠، وبذا تكوّنت إمارة آل الرشيد.

بقي عبد الله بن علي بن رشيد في إمارة حائل يعمل باسم فيصل بن تركي، ويُساعده أخوه عبيد بن علي بن رشيد حتى توفي عبد الله عام ١٢٦٥، وخلّف ثلاثة أولاد هم: طلال، ومتعب، ومحمد.

أخذ الإمارة بعد عبد الله ابنه طلال، وبقي حتى انتحر عام ١٢٨٣،

وخلفه أخوه متعب بن عبد الله غير أن أبناء أخيه طلال قد قاموا عليه، وقتلوه عام ١٢٨٥، وتولّى الإمارة منهم بندر بن طلال، إلا أنه لم يلبث أن قُتل بيد عمه محمد عام ١٢٨٨، وقام محمد بن عبد الله هذا بالأمر، وقتل أبناء أخيه طلال كلهم إلا بدراً الذي فرّ إلى البادية فلحق به العبيد وقتلوه. وصفا الجو لمحمد بن عبد الله فاتفق مع آل أبي الخيل من آل مهنا أمراء بريدة، واتجه نحو نجد ودخل بلدانها الواحدة إثر الأخرى حتى وصل إلى الرياض فدخلها، وأخرج عبد الله بن فيصل من سجن ابن أخيه محمد بن سعود وذلك عام ١٣٠٢. ثم اختلف مع أهل القصيم فانتصر عليهم وعلى عبد الرحمن بن فيصل الذي ساعدهم، الأمر الذي جعل عبد الرحمن بن فيصل يأخذ أهله ويتجه إلى المنطقة الشرقية حتى استقر بالكويت. وتوفي محمد بن عبد الله آل رشيد عام ١٣١٥، ولم يعقب.

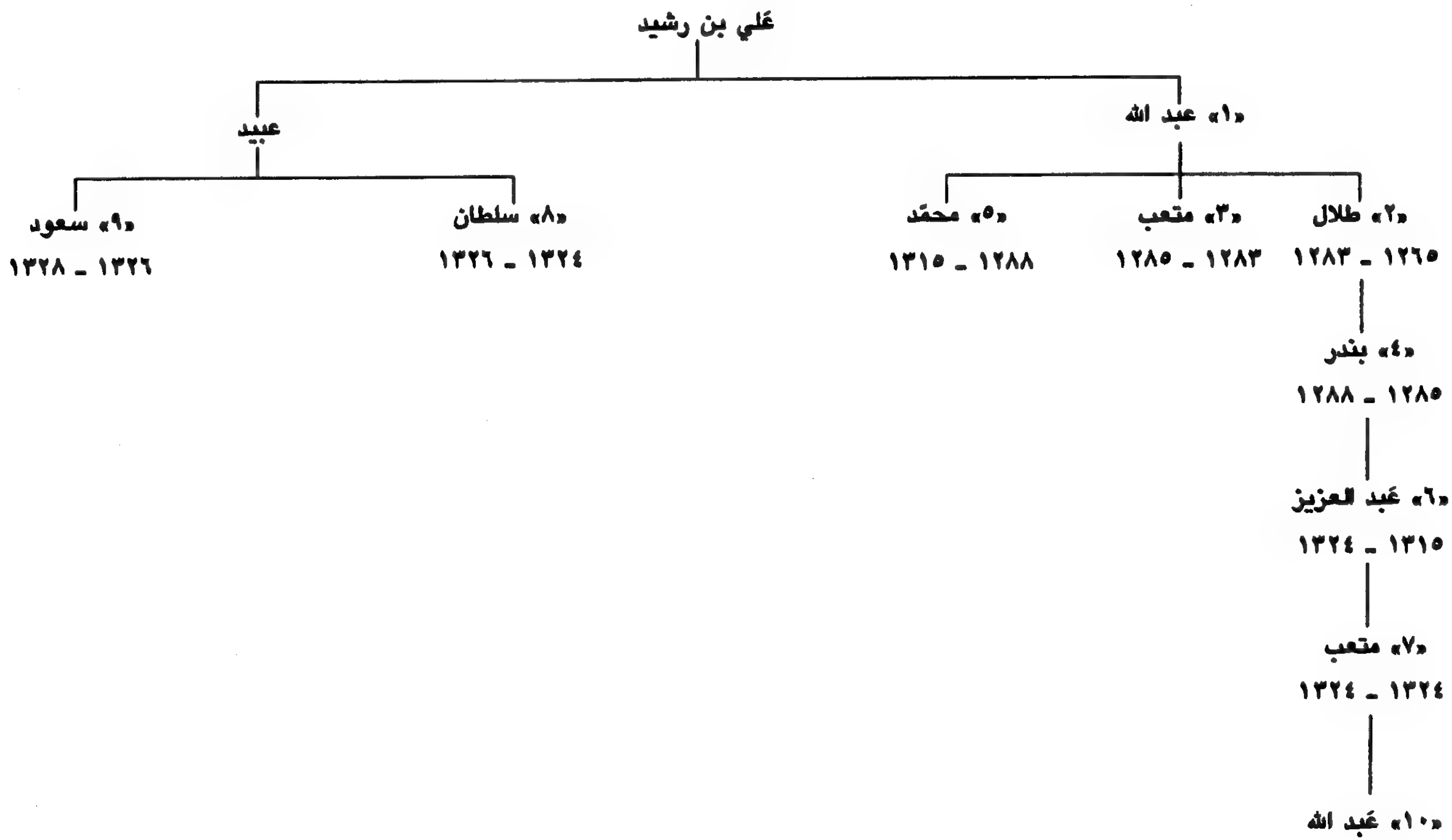
تولّى بعد محمد بن عبد الله ابن أخيه عبد العزيز بن متعب فطمع بالكويت فاصطدم مع الشيخ مبارك الصباح، وهُزم في قتاله مع الشيخ مبارك في بداية الأمر، ثم انتصر في معركة (الصريف) بالقصيم في شهر ذي القعدة من عام ١٣١٨، وعادت نجد لنفوذه، وكان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يُحاصر الرياض فاضطر لفكّ الحصار والرجوع إلى الكويت. وزحف ابن رشيد نحو الكويت، مما حمل صاحبها على الاستنجاد بالحكومة البريطانية وطلب حمايتها، وعندها تراجع أمير شمّر عن هدفه إذ أدرك أنه لا يستطيع دخول الكويت.

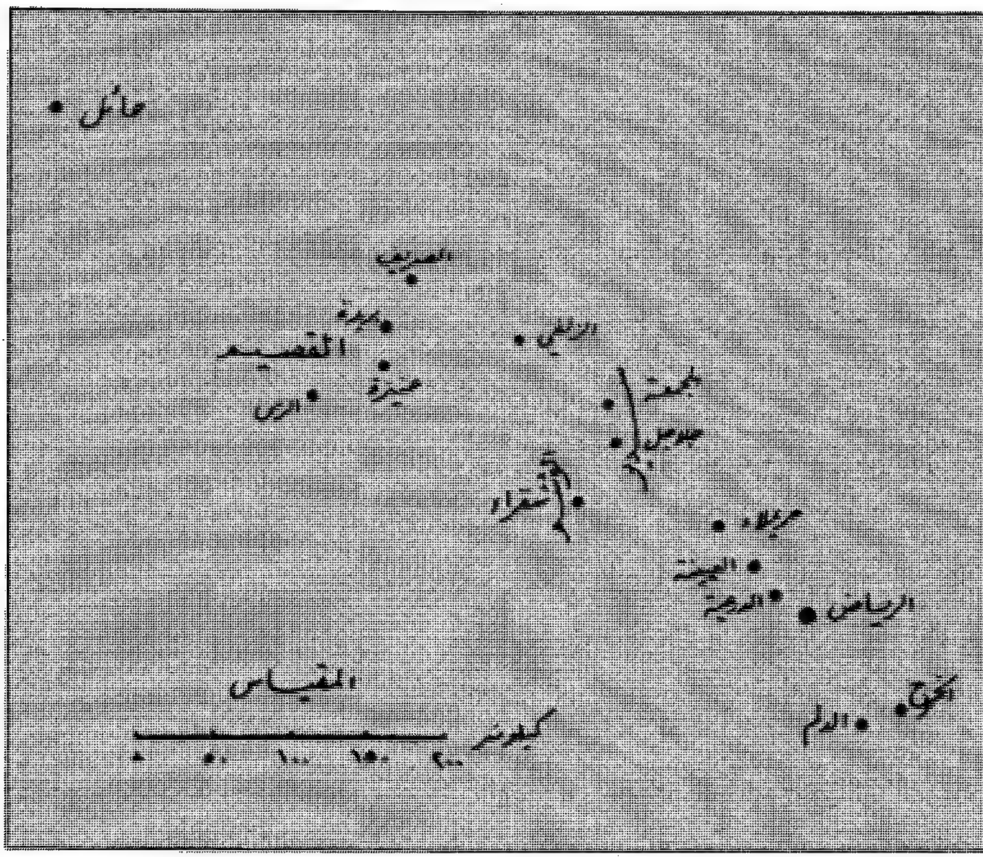
وجاء مرةً ثانيةً عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود إلى الرياض عام ١٣١٩، واستطاع دخولها وإجلاء آل رشيد عنها، وبدأت المعارك بين الطرفين، وانتصر ابن سعود على ابن رشيد، وقُتل الأخير في معركة (روضة مهنا) بالقصيم عام ١٣٢٤هـ. وتولّى بعده ابنه متعب، وكان مُسالماً فصالح عبد العزيز آل سعود، وتخلّى له عن القصيم، واقتصر سلطانه على شمّر وملحقاتها، وقُتل في العام نفسه على يد أبناء عمومته أولاد حمود بن عبيد.

أخذ إمارة حائل سلطان بن حمود بن عبيد، وسار مع قبائل حرب، وشمّر، ومطير للقاء عبد العزيز آل سعود ومعه قبائل عتيبة وقحطان، وجرت بين الطرفين معركة (الطرفية) هُزم فيها ابن رشيد الذي لم يلبث أن قتله أخوه سعود عام ١٣٢٦، وتسلّم الإمرة مكانه إلا أن عبد الله بن طلال قتله غدراً، ثمّ قُتل أيضاً عبد الله بن طلال.

تولّى حكم إمارة آل رشيد عبد الله بن متعب، وكان صغيراً فخاف من ابن عمه محمد بن طلال فترك له الأمر، والتجأ إلى عبد العزيز آل سعود في الرياض.

قام محمد بن طلال بأمور الحكم، واشتغل بالحرب مع السعوديين، وقد هُزم فتحصّن في عاصمته حائل، ولكن الحصار أنهكه فاستسلم بعد أن رأى أنه لا خيار له فيه. ودخل السعوديون حائل وولّوا عليها إبراهيم السبهان الذي ساعدهم في دخول المدينة بعد أن اشتدت وطأتهم عليها عام ١٣٤٠، وبذا زالت إمارة آل رشيد، وقد امتازت هذه الأسرة بالشجاعة والشكيمة إلا أن القتال بين الإخوة والأقرباء قد قضى على عددٍ من وجهائها، كما عُرفت بالعدل والذود عن الحياض. ولم يكن القتال بينهم ليزجّوا به المجتمع وإنما حصروه فيما بينهم.


عَلي بن رشيد
«١» عبد الله
عبيد
«٢» طلال
١٢٦٥ ـ ١٢٨٣
«٣» متعب
١٢٨٣ ـ ١٢٨٥
«٥» محمّد
١٢٨٨ ـ ١٣١٥
«٨» سلطان
١٣٢٤ ـ ١٣٢٦
«٩» سعود
١٣٢٦ ـ ١٣٢٨
«٤» بندر
١٢٨٥ ـ ١٢٨٨
«٦» عَبد العزيز
١٣١٥ ـ ١٣٢٤
«٧» متعب
١٣٢٤ ـ ١٣٢٤
«١٠» عَبد الله



مصور رقم [٢٠]

الفصل الرابع

إمارة عسير

كانت مرتفعات عسير تحكم باسم أشراف مكة من قبل أسرة تدّعي الانتساب إلى الأسرة السفيانية من الأمويين أو بصورة أدق إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتدعى بالأسرة اليزيدية، وقد نشب الخلاف بين أفراد هذه الأسرة بسبب الزعامة والسيادة على المنطقة فانزوى قسم منهم في الشعف، وبقي الفرع الآخر في منطقة أبها يدير شؤون منطقته باسم أشراف الحجاز، وكان بعض هؤلاء الأمراء ينتفض على الأشراف، ويمد نفوذه، أو يبسط سلطانه على بعض جهات تهامة، وربما وصلت سيطرة أهل اليمن إلى مرتفعاتهم فدانوا لهم، واستمر وضع عسير على هذه الحالة حتى كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد.

وفد إلى الدرعية في بداية عام ١٢١٥ بعض أفراد من عسير ليتلقوا العلم، ومنهم محمد بن عامر، وأخوه عبد الوهاب من آل المتحمي من قبيلة ربيعة رفيدة إحدى قبائل سراة عسير ومعهما لفيف من أبناء المنطقة، وعندما عادا أسند إليهما أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود مهمة نشر الدعوة السلفية في عسير وحمايتها، ولما وصلا إلى عسير أصبحا يتصرفان كأمراء، فوقف في وجههما أمير المنطقة يومذاك محمد بن أحمد بن محمد من آل يزيد، فاستنجدا بالدرعية فأرسلت لهما قوة، استطاعا بها قتال أمير المنطقة والانتصار عليه، بل لقد لقي حتفه في ذلك الصراع فاستلم محمد بن عامر المتحمي إمرة المنطقة عام ١٢١٦، واتخذ قرية طبب مركزاً لحكمه، وقد عُرف باسم (أبو نقطة) إذ كان جده يعرف بذلك لنقطة كانت

على عينه فاشتهر بذلك هو وذريته. وقد عمل على إخضاع قبائل رجال ألمع لنفوذه. ورحل إلى الدرعية عام ١٢١٨، وفي أثناء عودته توفي في الطريق بالجدري الذي أصابه، ودُفن في بلدة بيشة.

عبد الوهاب المتحمي:

خلف عبد الوهاب بن عامر في إمرة عسير أخاه محمداً، ودخل في حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد، واشتبك معه في ثلاث عشرة حرباً انتصر فيها جميعها، كما دخل في قتال مع الأشراف في تهامة حيث كان أمير بلدة أبي عريش علي بن حيدر من آل الخيرات، وعامله على صبيا عمه ناصر بن محمد، ثم تنازل ناصر لابنه منصور، وقد كانت هذه المنطقة تخضع لنفوذ اليمن، واستمر خلاف عبد الوهاب بن عامر مع أمراء تهامة حتى خضعوا، وقبلوا العمل للدعوة، غير أن حمود أبا مسمار قد وجد في نفسه شيئاً من تبعيته لعبد الوهاب فأراد الانفصال عنه أو الاستقلال فعاد الخلاف من جديد، فطلبت الدرعية من عبد الوهاب أن يغزو الشريف في أبي عريش، فسار إليه، وجرت بين الطرفين معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب لكن فقد قائده في المعركة وهو عبد الوهاب بن عامر وذلك عام ١٢٢٤.

طامي بن شعيب:

تولّى إمرة عسير بعد عبد الوهاب بن عامر ابن عمه طامي بن شعيب بناءً على أوامر الدرعية، واستمر في صراعه مع الشريف حمود أبي مسمار أمير أبي عريش الذي أصبح يتلقى الدعم من إمام صنعاء أحمد بن المنصور. وفي ١٢٢٥ جاء أمير الطائف عثمان المضايفي بقوة لمساعدة طامي بن شعيب، والتقيا في ميناء الشقيق، وسارا معاً لقتال الشريف حمود، وانتصرا عليه، واستوليا على جيزان واللحية. وفي موسم الحج تصالح الشريف حمود مع عبد العزيز بن محمد بن سعود، على أن يتنازل

الشريف حمود عن صبيا، وبيش، ودرب بني شعبة لطامي بن شعيب يحكمها باسم الإمام عبد العزيز بن محمد، كما يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، وأن يكفّ السعوديون وأنصارهم عن حربه وذلك في مطلع عام ١٢٢٦. لكن الخلاف عاد لأن الشريف حمود بدأ يكاتب المصريين عندما نزلوا في الحجاز ويُحرّضهم على قتال السعوديين، ويعدهم بالنصر.

سارت القوات المصرية إلى تهامة، واحتلت القنفذة عام ١٢٣٠، ولكن بعد شهرين أغار عليهم أمير عسير طامي بن شعيب، وهزمهم هزيمةً منكرةً، وعادوا إلى جُدة، ومنهم من لاذ بالبحر هارباً بالسفن، وغنم العسيريون المدافع وذخيرة القوات المصرية كلها، وكررت القوات المصرية غزوها وعاد إليها طامي بن شعيب، وانتصر عليها، فغيّر محمد علي الخطة إذ رأى أن طريق عسير هو طريق السراة لا تهامة.

أرسل محمد علي حملةً عن طريق السراة، وانطلقت من الطائف فأسرع طامي بن شعيب لملاقاتها، وتقابل الطرفان في وادي تربة، فانتصر العسيريون ورجعت الحملة إلى الطائف، وجاءت حملة من الدرعية لدعم عسير وكانت بقيادة تركي بن سعود غير أنها هُزمت جنوب الطائف عام ١٢٣١.

الاحتلال المصري:

قاد محمد علي حملةً بنفسه، واحتل تربة، ورانية، واتجه إلى بيشة فدخلها، وسار نحو خميس مشيط واستقر بها، ثم تقدّم نحو عسير عبر بلاد بني مالك، واستطاع أن يحتل (طبب) مركز حكم طامي بن شعيب، ونجا طامي من المعركة، وتحصّن في جبل (تهلل)، وحلّت به الهزيمة ثانيةً، فاتجه نحو تهامة، والتقى وهو في طريقه إلى صبيا بسرية للشريف حمود تفتش عنه فأسرته، وسلمته إلى محمد علي، فحمله محمد علي معه مقيداً حتى عاد إلى مصر، ومن هناك بعثه إلى إستانبول حيث أعدم هناك عام ١٢٣٢.

غادر محمد علي عسير بعد أن ترك فيها حاميةً كبيرةً، وخضعت له المنطقة اسمياً، وسار إلى مكة، ومنها اتجه إلى المدينة، ولم يطل المكوث فيها حيث وصل إليه خبر مفاده اندلاع ثورة ضده في القاهرة، ونبأ فرار نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة (إلبا)، فأراد العودة إلى مصر، ولكنه كان يخشى انقضاض أهل البلاد على جنده إثر عودته، ولكن لا بدّ من السفر، فعمل على تمكين الوضع ودعمه، وعاد إلى مكة المكرمة، ومنها رجع إلى عسير، فبلدة محايل عن طريق عقبة شعار، فالقنفذة ومنها إلى مصر، وفي رحلته هذه كلها كان يرافقه أمير عسير السابق طامي بن شعيب مكبلاً بالحديد.

وعندما احتل محمد علي عسيراً اعتصم بعض زعمائها بالجبال، فلما رجع محمد علي من المنطقة انقض هؤلاء الزعماء ومنهم محمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، ومن معهم على الحامية المصرية في (طبب) فقتلوا من استطاعوا عليه، ومن نجا فرّ إلى الحجاز. كما سار محمد بن أحمد المتحمي على رأس قوة لينتقم من أبي عريش غير أنه هُزم عام ١٢٣١، ولم يكد محمد علي ينتهي من أمر عسير حتى وصلت فلول حاميته التي تركها في (طبب) إلى الحجاز فأثار ذلك غضبه، وأمر بإرسال قوةٍ كبيرةٍ عام ١٢٣٢ لتؤدّب قبائل عسير وزعماءها. سارت هذه القوة من الحجاز من عدة اتجاهات وعلى عدة محاور، تحرّك حسني باشا عن طريق بلاد غامد وزهران، وسار الشريف محمد بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وتوجّه جمعة باشا عن طريق الساحل، ووصلت أخبار هذه الحملات إلى العسيريين فاستعدوا لها، وجرت بين الطرفين معارك حامية تراجعت إثرها القوات العسيرية بعد أن أثخنت في جيش حسني باشا قتلاً في موقعتي «مسفرة» و«الحضن». لقد دخل الشريف محمد بن عون أبها وتمركز فيها بعد أن احتل بلاد شهران وبلاد بني مالك، وزحف جمعة باشا إلى بلاد ربيعة رفيدة، وسار حسني باشا إلى السُّقا.

عادت القوات الغازية إلى الحجاز بعد أن تركت حاميةً في (طبب)،

ولكن ما أن غادرت بلاد عسير حتى انقض زعماء عسير على الحامية وفتكوا بها. وتعاونوا مع أمير أبي عريش الشريف حمود أبي مسمار الذي أرسل قوة إلى السراة بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي. ولما وصل الخبر إلى محمد علي وما حلّ بحاميته أمر بإرسال قوة بإمرة جمعة باشا ومعه الأميران منصور بن ناصر آل الخيرات وابن عمه علي بن حيدر المنافسين لعمهما الشريف حمود. وقد تصدّت لقوات جمعة باشا قبائل تهامة ورجال ألمع بقيادة حسن بن خالد الحازمي فهزمتها هزيمة نكراء ورجعت فلولها إلى الحجاز. فأرسل والي الحجاز جيشين جديدين أحدهما عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. تقدّم جمعة باشا إلى (محايل) ومن هناك أرسل حملةً بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش كي يضطر أميرها إلى الانسحاب من وجه جمعة باشا، ويوقعه في مأزقٍ حرج، وقد أرسل علي بن حيدر عيناً أمامه لاستطلاع الأمور في أبي عريش، ومعرفة الأخبار، وأوضاع القوات، ولم يلبث أن عاد إليه يحمل خبر ارتقاء عمه الشريف حمود السراة، وعدم بقاء سوى قوةٍ قليلةٍ في أبي عريش لذا أسرع واحتل المدينة على حين توجه جمعة باشا إلى السراة. ومن جهةٍ ثانيةٍ واصل سنان آغا زحفه حتى احتل بلدة (طبب) على الرغم من المقاومة الشديدة التي لاقتها قواته إلا أن هذا الاحتلال قد جعل ردّ فعلٍ قوي عند قبائل عسير فتحمّست للقتال والتفت حول زعمائها الشريف حمود، ومحمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، وهجمت على طبب، وأحرزت النصر، وحاول سنان آغا النجاة بنفسه فسار ومعه الشريف منصور بن ناصر وعدد قليل من الجند فلاحقتهم قوة من بالأسمر في وادي (تيّه)، وألقت القبض عليهم جميعاً، وقتلتهم، واضطر جمعة باشا من الانسحاب بعدئذٍ من عسير.

بدأ الخلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، وقد أرسل سعيد بن مسلّط بعض رجاله ففتكوا بالشريف حمود سراً يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول ١٢٣٣ في قرية الملاحة إحدى قرى بني مالك من قبائل عسير، وقد دفن

هناك. وكان علي بن حيدر في أبي عريش رغم انسحاب جمعة باشا من عسير، وتولّى أمر قوة أبي عريش أحمد بن الشريف حمود مكان أبيه، وأراد الانسحاب بقواته من السراة إلى تهامة عندما وجد عداوة حلفائه بالأمس إلا أنه فُوجئ بكمينٍ نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فأُلقي القبض عليه، وتفرّق جنده، وحُمل هو إلى أبي عريش حيث شُهّر به، ثم نُفي إلى مصر حيث كان مثواه الأخير، وأما وزيره حسن بن خالد الحازمي فاضطر أن يُداهن زعماء السراة وأن يبقى معهم.

في هذا الوقت كان إبراهيم بن محمد علي قد انتهى من أمر الدولة السعودية ودخل عاصمتها الدرعية في ٨ ذي القعدة من عام ١٢٣٣، وتفرّغت القوات التي معه لدعم الجيوش العاملة في عسير، فسارت قوات كثيفة إلى تلك الجهات. سار خليل باشا عن طريق السراة وتمكّن من الوصول إلى قلعة شعار، واتجه الشريف محمد بن عبد المعين بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وانطلق سليمان سنجق إلى بلاد رجال ألمع عن طريق القنفذة، وكانت القبائل تضطر للسير مع الجيوش الغازية وتظهر الطاعة. وقد دحر خليل باشا قوة محمد بن أحمد المتحمي الذي وقف في وجهه، وألقى القبض عليه وعلى بعض أفراد أسرته، واحتل (طبب) ومنها انتقل إلى (السُقا). واعتصم علي بن مجثلّ في أبها، ثم اضطر إلى الاستسلام بعد أن أُلقي الحصار عليه من قبل قوات خليل باشا وسليمان سنجق، وأما محمد بن عبد المعين فقد هُزم أمام سعيد بن مسلط وحسن بن خالد الحازمي، ثم ضعُفت معنويات العسيريين بعد وصول الأخبار إليهم بدخول الغزاة أبها، وبعد مقتل حسن بن خالد في كمين نُصب له فاندحروا أمام الشريف. وبذا دخلت عسير في طاعة خليل باشا الذي نفى محمد بن أحمد المتحمي إلى مصر، ورحل هو إلى الحجاز، ووزّع قواته بين اليمن والحجاز، وأبقى حاميةً له في طبب وذلك في مطلع عام ١٢٣٥.

بعد شهرين من رحيل خليل باشا خرج سعيد بن مسلط من مخبئه في الأطوار، وهاجم مع من انضم إليه حامية طبب فاستسلمت له، فأخذ ما

معها من الأسلحة، وأمر أفرادها بالمغادرة، ولم يمض عام حتى أصبح سعيد بن مسلط سيد الموقف في عسير كلها.

سارت قوة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين إلى عسير، ولم تكد تصل إلى عسير حتى قابلها سعيد بن مسلط بجيشٍ من عسير، واضطرت القوة الحجازية إلى العودة إلى بلادها مهزومةً.

وعاد أحمد باشا إلى إرسال جيشٍ كثيفٍ بقيادة الشريف محمد ومعه أخواه هزاع وراجح، وتمكّن الشريف من الانتصار على عسير في المعركة التي جرت في بلاد رجال الحجر، ودخل الشريف (طبب) بعد الانتصار على قائد حاميتها علي بن مجثل. واختبأ سعيد بن مسلط وأخوه لأمه علي بن مجثل بالأطوار، وخضعت عسير للشريف، وجرى الصلح بين الطرفين وعفا الشريف عن رجال عسير.

ترك الشريف حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع، واستنفر قبائل عسير للسير معه إلى وادي الدواسر، وتأخر وصول سعيد بن مسلط بجنده إليه فوبّخه الشريف، وعند الحركة، رجع سعيد بن مسلط بجنده إلى طبب، فأباد الحامية فيها، ووصل الخبر إلى الشريف فرجع إلى عسير فالتقى في وادي عِتْوَد بجنود عسير بإمرة سعيد بن مسلط فجرت بين الطرفين معركة طاحنة، انتصر فيها العسيريون، وهُزم الشريف فسار راجعاً إلى الحجاز، غير أن قوة من عسير تبعت فلول الجيش الحجازي فأدركت الشريف راجح فقتلته قرب وادي (الجنفور)، وفي الوقت الذي رجع الشريف محمد بن عبد المعين إلى الحجاز سار دوسري بن عبد الوهاب المتحمي إلى نجد.

سعيد بن مسلّط:

أصبح سعيد بن مسلّط أمير السراة، فأرسل قوةً بإمرة أخيه علي بن مجثلّ إلى بلاد سنحان ووادعة فأدخلها في طاعته، وأرسل قوة أخرى بإمرة ابن خاله يحيى بن مرعي إلى بيشة فأخضعها، وسار هو بجيش إلى بلاد

غامد وزهران فضمها إلى سلطانه. وأصبحت عسير مستقلةً عن الدرعية التي سقطت بيد إبراهيم باشا، ثم قام الخلاف في نجد.

جاءت حملة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٣٩، واستطاعت احتلال عسير بعد هزيمة سعيد بن مسلط عند قلعة شعار، ودخلت القوة أبها، ورجع بعدها أحمد باشا إلى الحجاز بعد أن ترك حاميةً في أبها، وخرج إثرها سعيد بن مسلّط من مخبئه في الأطوار فدحر القوات الحجازية التي اعتصمت بعدها في أبها فحاصرها، واضطرت في النهاية إلى الاستسلام فخلّى سبيلها وسمح لها بالعودة إلى الحجاز، وأثناء رجوعها التقت بحملةٍ قادمةٍ إلى عسير يقودها الشريف محمد بن عبد المعين فعادت معه فزاد جيشه، وانتصر على سعيد بن مسلّط عند شعار فاختبأ سعيد في الأطوار، ودخل الشريف أبها، ثم تم الصلح بين الطرفين في ٢٦ شعبان ١٢٣٩، ولم ينته العام حتى عاد الشريف بقوة إلى عسير غير أنها هُزمت، وتوقفت المعارك بين الحجاز وعسير بعد ذلك. وتوفي سعيد بن مسلط عام ١٢٤٢ وخلفه أخوه لأمه علي بن مجثل.

علي بن مجثلّ:

سمحت الظروف للأمير الجديد بالحركة إذ ثار شريف مكة يحيى بن سرور على محمد علي فعزل بعد هزيمته، وعين محمد بن عون شريفاً على مكة. ثم شُغل محمد علي بحروبه مع الدولة العثمانية، ثم اختلف الوالي المصري أحمد باشا مع شريف مكة، فعُزل شريف مكة وقام مقامه الوالي، كل هذا ساعد عسير على التصرف بشؤونها ومدّ نفوذها.

غزا علي بن مجثلّ وادي بيش عام ١٢٤٢، وأعاد صبيا إلى سلطانه عام ١٢٤٣، وضم قبائل يام إليه، وأخضع قبائل بني مرة في العام نفسه، وأرجع وادعة إلى الطاعة عام ١٢٤٥، وهاجم أبي عريش عام ١٢٤٨، وأصبح أمير أبي عريش يحكم منطقته بالنيابة عن أمير عسير. وضم

الحديدة، ومخا، وزبيد من أرض تهامة، وخضعت له جزر دهلك في البحر الأحمر.

وأرسل محمد علي حملة عام ١٢٤٩ إلى تهامة إلا أنها هزمت.

وتوفي علي بن مجثل في أواخر أيام عام ١٢٤٩، وخلفه عائض بن مرعي.

عائض بن مرعي:

كان أول ما واجه الأمير عائض انتفاض أمير أبي عريش علي بن حيدر، فسار إليه على رأس جيشٍ قوي، ولكنه فشل في دخول أبي عريش رغم وجود حاميةٍ عسيرية في إحدى القلاع فرجع عائض بن مرعي، وانسحبت الحامية العسيرية أيضاً.

وهاجم شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٥٠ بلاد عسير عن طريق بيشة، والتقى مع عائض بن مرعي في معركةٍ حاميةٍ في وادي عِتْوَدَ من بلاد شهران تمكن الشريف إثرها من دخول بلاد عسير، وعسكر جنوده في أبها وطبب. وعقد محمد علي في العام نفسه اتفاقاً مع شريف أبي عريش وإمام اليمن لقتال عائض بن مرعي بعد أن أخرج جنود الحجاز من عسير. واستطاع الحلف أن يدخل عسيراً غير أن الغارات المتكررة من رجال القبائل قد أجبرهم على إخلاء عسير، كما وقع في الوقت نفسه خلاف بين والي الحجاز أحمد باشا وشريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون... فاستدعاهما محمد علي إلى مصر وعزل الشريف وأعطى صلاحياته للوالي وبعد عام ١٢٥١ خفت الحملات فعاد عائض بن مرعي للتوسع.

غزا بيشة ودرب بني شعبة عام ١٢٥٢. وأدخل بلاد غامد وزهران في طاعته عام ١٢٥٣ ثم استرجعها والي الحجاز، ورجع إليها عائض بن مرعي فهُزم هزيمةً منكرةً.

وانسحبت جيوش محمد علي من الجزيرة عام ١٢٥٥ بعد هزيمته في الشام. فغزا عائض بن مرعي تهامة اليمن بالاتفاق مع حسين بن علي بن حيدر، ثم غزيا مخا، وعاد إلى شرافة مكة محمد بن عبد المعين بن عون فعقد هدنةً بينه وبين أمير عسير.

ضم أمير عسير عام ١٢٦٠ إليه بيشة، وبلاد شمران، وبلاد بلقرن، وبلاد غامد. ثم دخل الطائف عام ١٢٦٢.

واختلف الأئمة في صنعاء فاستغل عائض بن مرعي هذه الفرصة وضمّ إليه أكثر أجزاء اليمن عام ١٢٦٤ عندما استنجد به محمد بن يحيى ضدّ عمه المنصور حيث سارت قوات عسير، ودخلت صنعاء، وأخرجت منها المنصور، وعيّنت محمد بن يحيى ليحكم البلاد باسم أمير عسير غير أنه لم يلبث أن غدر بعسير ولاحق قواتها، واصطدم بالشريف حسين بن علي بن حيدر في تهامة، وانتصر عليه، وأسره قرب زبيد، وجاءت نجدة إلى قوات عسير انتصرت على قوات الإمام، وأخرجته من صنعاء، واستنقذت الشريف حسين بن علي بن حيدر، فاستنجد الإمام بالعثمانيين فجاءوا إلى تهامة وانضمّ إليهم ودخلوا صنعاء بقيادة توفيق باشا، ثم قتلوا محمد بن يحيى، وأخرجوا الإمام المنصور من صنعاء. وبقيت قوات عسير في تهامة اليمن، أو في أجزائها الشمالية.

ضمّ عائض بن مرعي إليه عام ١٢٦٦ وادي الدواسر، ثم أخرجه العثمانيون من الوادي وتابعوا سيرهم نحو عسير إلا أنهم هزموا أمام قبائل يام وقحطان.

وضمّ إليه عام ١٢٦٨ بلاد غامد وزهران. وفي العام نفسه جاءت حملة مصرية أيام والي مصر عباس الأول حفيد محمد علي فهُزمت هزيمةً منكرةً. وعادت الهجمات المصرية عام ١٢٦٩ لكنها هُزمت أيضاً.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٧٢ عن طريق القنفذة، ولكنها هزمت. وتوفي عائض بن مرعي عام ١٢٧٣، وتولى مكانه ابنه محمد.

محمد بن عائض:

وتعرّض لغزوات العثمانيين المتتابعة ولكنها لم تتمكن من دخول عسير.

وزاد الخلاف بين الأسرة من الأشراف التي تحكم أبا عريش، وبدأ أميرها الحسن بن محمد يراوغ محمد بن عائض فسار إليه عام ١٢٨٠، فهرب حاكم أبي عريش وضمّ ابن عائض المخلاف السليماني إليه. وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨١ إلى المخلاف إلا أنها رُدّت، وجاءت حملة من الحجاز بإمرة شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين غير أنها فشلت في ضم بلاد غامد وزهران.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨٨ إلى تهامة اليمن التي كانت بيد ابن عائض فسار للقائها، وما أن ابتعد عن مقره حتى جاءت حملة أخرى من الشمال واحتلت بلاد غامد وزهران وبيشة، ونزلت حملة ثالثة في القنفذة بقيادة محمد رديف باشا، وهكذا أحيط بالجيوش من كل جهة، وبدأ يقاتل من موقع إلى آخر حتى حوصر أخيراً في ريدة، واستسلم حيلةً ـ خوفاً من رديف باشا ـ بعقد صلح، وعندما أحيط به قتل وبعض إخوته، ونُفي الآخرون من أسرته ووجهاء المنطقة إلى إستانبول عام ١٢٨٩، وخضعت عسير للعثمانيين.

الحكم العثماني:

أصبحت عسير متصرفيةً خاصةً بعد مقتل ابن عائض إلا أن الوضع لم يستقر بها إذ سادها الاضطراب، وكثرت فيها الانتفاضات، إذ لم يكن أمر المتصرف يمتد لأكثر من المراكز العسكرية، والثكنات، وبعض المدن أحياناً، وما عدا ذلك فكانت السلطة الحقيقية بيد آل عائض ورجال القبائل.

تولّى أحمد مختار باشا أمر عسير، وجعل مدينة أبها مركز المتصرفية، وكلاً من السُّقا وريدة قاعدةً عسكريةً، والقنفذة ميناء للمتصرفية. وتوجه إلى

صنعاء واحتلها. كان ناصر بن عائض مرابطاً في أبها عندما قُتل أخوه محمد في ريدة عام ١٢٨٩، وبقي يقاوم ثمانية أيام ثم انسحب إلى بلاد شهران، غير أنه عاد بعد شهرين فدخل أبها، ثم عاد فانسحب، ودخلها العثمانيون عام ١٢٩٢، واستمر التناوش حتى قُتل ناصر بن عائض عام ١٢٩٥.

وعندما رجع آل عائض ووجهاء المنطقة من إستانبول عام ١٢٩٧ حمل عبد الرحمن بن عائض عبء المقاومة، وتجمّع رجال القبائل حوله، وحاصر أبها عام ١٢٩٩، وكادت تستسلم لولا نجدة جاءتها بقيادة حيدر باشا. وأعقبتها حملة أخرى عام ١٣٠٠، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وأصبح عبد الرحمن بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، وأخوه سعيد قائمقاماً على بلاد غامد وزهران وبيشة، واستمر ذلك حتى توفي عبد الرحمن بن عائض عام ١٣٠٥.

ورفض علي بن محمد بن عائض الصلح الذي جرى بين العثمانيين وعمه عبد الرحمن ونزل إلى حرملة مغاضباً ثم قام بالثورة عام ١٣١٨، وحاصر أبها ولكنه هُزم، وعاد فحاصر أبها عام ١٣٢٢، فجاءت حملة كنجدة إلى حامية أبها العثمانية بقيادة تحسين باشا، فهزم علي بن محمد، وأسر عدد من أفراد أسرته ووجهاء المنطقة فنقلوا إلى صنعاء، حيث بقوا هناك ثمانية أشهر، ثم أعيدوا، وعُيّن عبد الله بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، ومحمد بن عبد الرحمن بن عائض محافظاً لمدينة أبها، أما علي بن محمد فكان قد جرح أثناء الحصار، وتوفي إثرها في الحرملة عام ١٣٢٤.

عاد الخلاف مرة ثانية بين آل عائض ومتصرف عسير سليمان باشا، فقام رجال القبائل العسيرية بإمرة آل عائض، وحاصروا مدينة أبها، ودعمهم في ذلك الإدريسي سيد صبيا، وذلك عام ١٣٢٨ واستمر الحصار من ذي القعدة عام ١٣٢٨ حتى شهر رجب ١٣٢٩، ثم جاءت النجدة للحامية العثمانية وكانت بإمرة شريف مكة الحسين بن علي فاستقبله آل عائض، وانقلبوا على الإدريسي خوفاً منه أو عندما عرفوا أطماعه بالسراة ورغبته في

فرض سيطرته. وعاد الصلح بين المتصرف سليمان شفيق الكمالي وآل عائض بوساطة الشريف الحسين بن علي، وعين الحسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ومتصرف عسير محيي الدين باشا ومعاونه الحسن بن علي آل عائض وكان ما حول عسير ضد العثمانيين، وقبل أن تضع الحرب أوزارها جاءت الأوامر إلى المتصرف بالانسحاب من عسير وتسليم القلاع والذخائر إلى آل عائض وذلك في شهر ربيع الأول عام ١٣٣٧.

نهاية إمارة عسير:

استقلت عسير بعد انسحاب العثمانيين، وبدأ الخلاف بين الإمارات في المنطقة، وحدث القتال بين نجد وعسير، واستطاع جيش نجد دخول أبها، واتفق آل عائض مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في الرياض، ثم عاد الخلاف بينهم وبين أمير آل سعود عام ١٣٣٩، فتحصّن آل عائض في الحرملة، ثم تقدّموا فأخذوا أبها، وتجدد القتال ودخل فيصل بن عبد العزيز أبها، ونقل آل عائض إلى الرياض، وضمت عسير إلى نجد عام ١٣٤١، وأصبحت بعدئذ جزءاً من المملكة العربية السعودية.

الفصل الخامس

إمارة تهامة عسير

خضعت هذه المنطقة لحكم أُسرٍ محليةٍ كانت تُدير شؤون إمارتها باسم الحكومات القوية التي كانت تسيطر على المنطقة سواء التي كانت في مصر أم التي تقوم في بلاد اليمن وأحياناً قليلة كان نفوذ الأشراف في مكة يصل إلى تلك الجهات أو يستنجد أهلها بهم على غيرهم أو بالعكس يستعينون بغيرهم عليهم. ومن هذه الأسر: الحكمي، والسليمانية، والقطبي، والذروات، والخواجيون و. . . ثم انتقل فرع من أشراف مكة إلى المنطقة لما حدث خلاف بينهم على الحكم، واستطاع أحد رجال هذا الفرع الذين عُرفوا بآل الخيرات أن يُؤسس إمارةً له في تهامة عسير التي سميت باسم المخلاف السليماني، ذلك هو محمد بن أحمد الخيراتي، وتولّى أبناؤه الإمارة من بعده غير أنهم وقعوا في خلافٍ كبيرٍ فيما بينهم فكانوا يستعينون بجنودٍ مرتزقةٍ من قبائل يام في نجران، أو يستنجدون بإمام صنعاء حتى عمّت الفوضى في المنطقة، وساد الاضطراب، وأخيراً تسلّم الإمرة حمود بن محمد الذي عُرف بأبي مسمار.

عندما بدأت الدعوة السلفية تنتشر في المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر كان أحد دعاتها أحمد بن حسين الفلقي، وخشي أمير صبيا منصور بن ناصر على نفسه فاستنجد بابن عمه أمير أبي عريش علي بن حيدر الذي سار إليه على رأس قوةٍ إلى منطقة الجعافرة حيث يُقيم أحمد بن حسين الفلقي وانتصر على السلفيين الذين تجمّعوا ووقفوا في وجهه، وهذا ما دعا الدولة السعودية في الدرعية إلى أن ترسل سريةً بقيادة حزام بن عامر

العجماني إلى المنطقة، وعندما وصلت إلى تلك الجهات انضمّ إليها كل من عرار بن شار في بني شعبة، وأحمد بن حسين الفلقي في منطقة الجعافرة، ولكن لم يحدث قتال بين الفريقين وإنما تمّ الصلح على أن يقوم آل الخيرات بالعمل للدعوة السلفية، فعاد حزام بن عامر من حيث أتى، وتنازل علي بن حيدر عن إمارة أبي عريش لعمه حمود بن محمد الذي اشتهر بأبي مسمار، وكان آل الخيرات يرتبطون بإمام صنعاء فوافق على هذا التنازل، ومعنى هذا أن الارتباط قد أصبح بالدرعية، وانقطعت الصلة مع صنعاء.

حدث خلاف بين أحمد بن حسين الفلقي وأتباعه مع أهل المنطقة لجلافة الفلقي وشدته فاستنجد الناس عليه بأمير أبي عريش حمود بن محمد أبي مسمار فأمدهم بسريةٍ رفض أمير صبيا ابن أخيه منصور بن ناصر الاشتراك فيها، وانتصرت السرية على الفلقي غير أن عرار بن شار سار بقوةٍ لدعم الفلقي لكن أمير صبيا منصور بن ناصر توسط بالصلح ولم يقع قتال فعاد عرار بن شار كما عادت سرية الشريف حمود. وجاء عرار إلى صبيا، واتفق مع الأمير منصور بن ناصر الذي كان على خلافٍ مع عمه الشريف حمود للعمل للدعوة السلفية.

زاد غضب الشريف حمود على ابن أخيه منصور بن ناصر، وسار بقوةٍ انتصرت على عرار والفلقي، وسار من طرف آخر حزام بن عامر واتصل بعرار، والفلقي، ومنصور وشكّلوا حلفاً ضد الشريف حمود إلا أنه انتصر عليهم، فاستنجدوا بالدرعية، واتصل الشريف حمود بصنعاء غير أن مساعيه باءت بالفشل.

وجاءت أوامر الدرعية إلى أمير السراة عبد الوهاب بن عامر بالتقدّم إلى أبي عريش على رأس قوة، وأن ينضمّ إليه كل من عرار، والفلقي، وحزام بمن معهم، وسارت الحملة، واستسلم الشريف حمود وتعهد بالعمل للدعوة السلفية، وغدا يغزو اليمن التي رفضت دعمه، وعاد عبد الوهاب، وأصبح له حق الإشراف على المنطقة كاملة.

بدأ الشريف حمود يدعو لانفصاله عن السراة وأميرها عبد الوهاب،

وأرسل إلى الدرعية وفداً يضمّ وزيره حسن بن خالد الحازمي، وابن أخيه أحمد بن حيدر، كما ذهب عن صبيا منصور بن ناصر ابن أخيه الآخر، وفي هذه المرحلة توفي أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود، وتولى مكانه ابنه سعود الكبير فتقرر أن يذهب الوفد لتقديم التعزية، والمبايعة، والتعهد بدفع الخراج، والجهاد في اليمن، والارتباط بالدرعية مباشرةً مع بقاء أمور الجهاد مرتبطة بأمير السراة، وفي الوقت نفسه أخبر الشريف حمود أمير السراة عبد الوهاب بالوفد كي لا تساوره الشكوك، وذهب الوفد، وتمّ للشريف حمود ما يريد. وقد سار لغزو اليمن.

وفي عام ١٢٢٠ صدرت الأوامر من الدرعية إلى منصور بن ناصر أمير صبيا، وعرار بن شار أمير منطقة بني شعبة بالنفير مع عبد الوهاب بن عامر إلى الحجاز لقتال شريف مكة غالب بن مساعد... وانطلق المقاتلون، وتأخّر عرار بن شار، فوقع شيء في نفس عبد الوهاب، فوبّخ قائد حملة بني شعبة عيسى بن شار أخا عرار، وعاقب بني شعبة، فدبّ نتيجة ذلك الخلاف بين عبد الوهاب وعرار.

استنجد عرار بالشريف حمود، واستمال بعض رجالات «رجال ألمع»، وتقدّم نحو بلادهم واحتلّها، وطلب وفداً من الدرعية لفصل النزاع. فتقدم عبد الوهاب إلى بني شعبة واحتلّ بلادهم، ورجع إلى عسير.

وجاء وفد من الدرعية، ونظر في الخلاف، ثم طلب مسير عبد الوهاب، والشريف حمود، ومنصور بن ناصر، وعرار بن شار إلى الدرعية فسار الجميع عدا الشريف حمود فقد تململ ثم أرسل نيابةً عنه ابنه، ووزيره حسن بن خالد الحازمي بحجة الانشغال. وفي الدرعية رجحت كفة عبد الوهاب إذ بيّن أن عراراً يُثير الفتنة، وأن حموداً ومنصوراً يؤيدانه. فأبقى أمير الدرعية سعود الكبير عراراً لديه، وعفى عن الباقين، وطلب أن يكون عمال الخراج في منطقة أبي عريش من قبل الدرعية مباشرةً، وأبقى منصوراً أميراً على صبيا، وأمره أن يكون مرتبطاً بالجهاد بعبد الوهاب، وفي الوقت نفسه يهادن عمه الشريف حمود.

انتصر الشريف حمود في حربه مع إمام صنعاء، فاغتر بقوته، وأظهر جفاءً للسعوديين، وجاء وفد من السراة بإمرة طامي بن شعيب فلم يجد عند الشريف حمود ما يثير الشكوك، لكنه لم يلبث أن أبدى لعمال خراج الدرعية في منطقته بعض النوايا، ووصل ذلك إلى سعود الكبير، فطلب من أمير السراة عبد الوهاب بن عامر غزو الشريف حمود مباشرةً، فسار إليه، والتقى به في وادي بيش وجرت معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب غير أنه فقد قائده عبد الوهاب وذلك عام ١٢٢٤، وتحصّن الشريف حمود في قلعة أبي عريش.

تولّى أمر عسير بعد عبد الوهاب ابن عمه طامي بن شعيب بأمرٍ من الدرعية، فعيّن ابن عمه الثاني محمد بن أحمد المتحمي أميراً على صبيا، وعندما وصل إليها جاءه جيش الشريف حمود وحاصره فيها، وفي مطلع عام ١٢٢٥ جاء طامي بن شعيب بقوةٍ تمكنت من فك الحصار عن المتحمي في صبيا، ونظم أمر الحامية وعاد إلى السراة في الوقت الذي عاد الشريف حمود إلى أبي عريش، واعتصم فيها.

جاءت نجدة من الإمام أحمد بن المنصور إلى الشريف حمود إذ كان على صلةٍ طيبةٍ حيث ساعد الشريف حمود الإمام أحمد على أبيه المنصور فتسلّم الأمر دونه، وربما كان ذلك لأن السعوديين كاتبوا الإمام المنصور وحرضوه على قتال الشريف حمود مقابل ألا يهاجموه، وقد قام المنصور بحرب الشريف وانتصر عليه، لذا عمل الشريف حمود على دعم الإمام أحمد على أبيه.

صدر أمر من الدرعية بنزول عثمان المضايفي من الطائف، وطامي بن شعيب من سراة عسير لقتال الشريف حمود أمير أبي عريش، وقد التقى القائدان في ميناء الشقيق، وهما في طريقهما إلى أبي عريش، وذلك عام ١٢٢٥، فانتصرا عليه، واستوليا على مينائي جيزان، واللحية، وعاد كل إلى مقره، ورجع طامي بن شعيب بعد ثلاثة أشهر، ودخل اللحية مرةً ثانيةً.

ولما ضعف مركز الشريف حمود أرسل أربعةً من بني عمه ببعض

الهدايا إلى أمير الدرعية سعود الكبير، وكان يومذاك حاجاً في مكة المكرمة، فأظهروا له الطاعة، فعفا عنهم، وتمّ الصلح بوساطة أمير صعدة محمد بن علي الحسني، ونتيجة الصلح تنازل الشريف حمود عن صبيا، ودرب بني شعبة، وبيش للإمام سعود الكبير، وعلى أن يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، مقابل أن يكفّ السعوديون عن حربه وذلك عام ١٢٢٦، وبذلك هدأت الأحوال في المنطقة وأصبح الوضع السياسي في تهامة كما يأتي:

١ - من صبيا وإلى الشمال يتبع الإمام سعود الكبير، وينوب عنه أمير السراة طامي بن شعيب.

٢ - من ضمد وإلى الجنوب بما في ذلك جيزان يتبع الشريف حمود.

وقعت الحرب بين إمام نجد سعود بن عبد العزيز وإمام صنعاء أحمد بن المنصور فاستغل الشريف حمود الفرصة واحتل الحديدة وبيت الفقيه وزبيد من أملاك إمام صنعاء، فطلب سعود بن عبد العزيز من الشريف حمود أن يقبل العمال الذين سترسلهم الدرعية لجمع ما يأتي من الموانئ، فبدأت الشكوك تساور نفس حمود بأن سعوداً يريد التدخل في شؤونه، فلما وصلت حملة محمد علي إلى الحجاز بدأ الشريف حمود يكاتبها، ويُحرّضها على حرب الدرعية، ويعدها بالطاعة والنصر، فوصل الخبر إلى الدرعية، فأرسلت إليه تهدده، فضرب الشريف حمود رؤوس الرسل الذين جاءوا إليه، وعزل العلماء السعوديين في بلاده، وصرّح لهم بالعداوة، ولم يزل يحاربهم حتى مات عام ١٢٣٣، ولعل جرأته هذه جاءت من اعتقاده أن الدولة السعودية لن تقوم لها قائمة بعد وصول جيوش محمد علي إلى المنطقة.

وعندما هُزم طامي بن شعيب أمير عسير عام ١٢٣١ أمام جيوش محمد علي، وفرّ طامي بن شعيب نحو تهامة يريد الاتصال بالشريف حمود أسرع وزير الشريف حمود فاحتل صبيا، وطرد الحامية العسيرية منها، وأرسل سرية تفتش عن طامي بن شعيب فالتقت به في طريقه إلى صبيا،

فأسرته، وسلّمه الوزير حسن بن خالد الحازمي إلى محمد علي تقرّباً وزلفى، حُمل إلى مصر مع محمد علي مُقيداً بالحديد، ثم أُرسل إلى إستانبول حيث قُتل هناك عام ١٢٣٢.

سار محمد بن أحمد المتحمي إلى أبي عريش لينتقم لابن عمه طامي بن شعيب فالتقى في درب بني شعبة بقوات الشريف حمود بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي فهزمته في ١٧ رجب عام ١٢٣١ فرجع إلى السراة.

تداول زعماء عسير الرأي في الوسيلة التي يتمكّنون فيها من طرد العثمانيين وإخراجهم من بلادهم فقرروا استنفار القبائل جميعها والاستعانة بالشريف حمود خوفاً من أن ينضم إلى العثمانيين ويكون حرباً على عسير مُستغّلاً الظروف وراكباً طريق المصلحة، خائفاً من أن يصل إليه هجوم العثمانيين بعد أن أصبحوا في السراة، وعلى حدود منطقته، وعندما عُرض الأمر على الشريف حمود وافق، وأرسل وزيره حسن بن خالد الحازمي على رأس قوة.

وجاءت حملة عثمانية على رأسها جمعة باشا ومعه الأميران علي بن حيدر ومنصور بن ناصر ولدا أخويّ الشريف حمود والمنافسين له. غير أن هذه الحملة قد صدّها الوزير حسن بن خالد الحازمي في بلاد رجال ألمع. فجاءت حملة جديدة مؤلفة من جيشين أحدهما جاء عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. غير أن نوايا السراة وتهامة لم تكن طيبة فخاف حسن بن خالد فأرسل إلى الشريف حمود يستحثه بالقدوم على رأس حملة قوية فلبّى وجاء.

تقدم جمعة باشا إلى محايل، ومن هناك أرسل حملة بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش، فاحتلها إذ كان عمه في السراة يقف في وجه سنان آغا إذ انتصر عليه وفرّ سنان آغا ومعه منصور بن ناصر مع بعض الجند فلاحقتهم سرية من بالأسمر وقتلتهم جميعاً. إذ بدا الاختلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، فأرسل سعيد بن مسلط من قتل الشريف حمود في الملاحة عام ١٢٣٣.

تولى إمرة قوات أبي عريش في السراة أحمد بن الشريف حمود الذي انسحب بمن معه نحو تهامة فلما وصل إلى مشارف المنطقة اعترضه كمين نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فألقي القبض عليه، وتفرّق جنده، ورجع أكثرهم إلى عسير، أما هو فقد حُمل إلى أبي عريش، ومنها أرسل إلى مصر حيث توفي هناك. وأما حسن بن خالد فبقي على مضض مع زعماء السراة يُظهر لهم الإخلاص والطاعة حتى قتل عام ١٢٣٤ في معركة ضد العثمانيين. وتفرّد علي بن حيدر بسيادة تهامة، واستطاع عام ١٢٤٣ أن يضم مدينة صبيا إليه، وأن يطرد الحامية العسيرية منها إلا أن علي بن مجثل قد جاء بقوة إليه، واستعاد صبيا، وحاصر مدينة أبي عريش، ثم وقع الصلح بين الطرفين، ثم عاد فتجدد القتال عام ١٢٤٨ إذ قاتل حامية عسير في وادي مور، وقد جاءته مساعدات عثمانية غير أن علي بن مجثل لم يلبث أن حاربه وحاصره، ثم وقع الصلح بين الطرفين، وأصبح بعدها علي بن حيدر يحكم منطقة أبي عريش بالنيابة عن أمير السراة، ورحلت بعد ذلك الحامية العثمانية في أبي عريش إلى الحجاز.

انتفض علي بن حيدر على أمير السراة بعد وفاة علي بن مجثل ومبايعة عائض بن مرعي عام ١٢٤٩، واستطاع أن يصمد أمام حملته إليه، ورحلت الحملة العسيرية من أبي عريش وقد كانت ترابط فيها، ولم تستطع مساعدة عائض بن مرعي في دخول المدينة.

توفي علي بن حيدر وخلفه ابنه حسين فاتفق مع أمير السراة، وغزا معه تهامة اليمن، ووصل إلى المخا. كما غزا معه اليمن، وأُسر على أبواب زبيد، لكن نجدةً جاءت من السراة وخلصته من الأسر عام ١٢٦٤.

توفي الحسين بن علي بن حيدر، وقام بالأمر بعده ابنه الحسن إلا أن الخلافات قد بدأت بين أفراد الأسرة الواحدة أو تجددت، فقام الحسن بن محمد، واستلم الأمر، وفرّ الحسن بن الحسين، ثم اغتيل، ونتيجة هذه الخلافات فقد دخل أمير السراة محمد بن عائض مدينة أبي عريش عام ١٢٨٠، وعزل حسن بن محمد، وضمّ المخلاف السليماني كله إلى أبها.

تبع المخلاف السليماني الدولة العثمانية بعد أن قُتل محمد بن عائض عام ١٢٨٩، وأصبحت عسير متصرفيةً خاصةً ويتبعها المخلاف، واستمر الوضع كذلك حتى جاء الإدريسي عام ١٣٢٢.

الإدريسي:

حل بمدينة صبيا عام ١٢٤٦ رجل من المغرب يدعى أحمد بن إدريس[١]، وعندما توفي خلفه ابنه محمد، وتزوج بامرأةٍ من السودان فولدت له غلاماً سمّاه علياً، وتزوج علي بامرأةٍ هنديةٍ فأنجبت له ولداً أسماه محمداً[٢]، وعندما شبّ جوّب في مكة، والقاهرة، وليبيا، والسودان، ولما رجع بدأ يعظ الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فكثر أنصاره، وأظهر رضاه عن السياسة العثمانية فعينته قائمقاماً على مدينتي صبيا وأبي عريش، وأرادت الدولة العثمانية إظهار قوته ليكون لها عوناً في المستقبل فطلبت من متصرف عسير سليمان شفيق الكمالي أن يزوره ففعل فارتفع شأنه، وزاد أتباعه، وضعفت قوة المتصرف أمام قوته، لذا طلب المتصرف قوةً تكون في جيزان ليرهب الإدريسي إن حدثته نفسه بشيء فجاءت القوة ونزلت في القنفذة، فقال الإدريسي: لا حاجة لها فعادت.

اتفق الإدريسي مع المتصرف على أن تُحلّ خلافات القبائل في صبيا،

---

(١) أحمد بن إدريس: ولد عام ١١٧٢ في ميسور إحدى قرى فاس، ويعود في نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وعندما شب جاء إلى مكة المكرمة، وبقي فيها ثلاثين عاماً، ثم انتقل إلى تهامة عسير، ونزل بصبيا، وطاب له المقام فيها. وتوفي فيها عام ١٢٥٣.

(٢) محمد بن علي الإدريسي، ولد عام ١٢٩٣ في صبيا، ومنها انتقل إلى مكة المكرمة ولم يتجاوز العشرين من العمر. ثم سافر إلى القاهرة، ودرس في الأزهر مدة ست سنوات (١٣١٤ ـ ١٣٢٠)، ثم سافر إلى واحة الكفرة في ليبيا، وهي مركز الدعوة السنوسية، ثم انتقل إلى السودان إلى بلدة «أرجو» إحدى قرى دنقلة، وتزوج من هناك، ورجع بعدها إلى مسقط رأسه في صبيا، وهناك لمع اسمه ولعب دوراً خطيراً فيها.

الإدريسي يريد النفوذ، والمتصرف يريد الأمن. ورأى المتصرف أن تكون الشقيق ميناء أبها لقربها منها بدلاً من القنفذة البعيدة، ورفض ذلك الإدريسي لمصلحته فرُفض اقتراح المتصرف.

بدأ الإدريسي بعد زيادة نفوذه هذه يتصل بإيطاليا التي تسيطر على اريتريا في الطرف الثاني من البحر الأحمر، وكان ذلك الاتصال عن طريق ابن عمه الموجود في القاهرة، كما بدأ بشراء الأسلحة، وتسليح أعوانه.

أعلن خلافه للدولة العثمانية، وأقام له حكومة خاصة في صبيا، وأيدته القبائل لدعوته لتطبيق الشرع، وذلك عام ١٣٢٦، وحاول متصرف عسير إيقافه عند حدّه فأرسل له حملةً ففشلت، بل تعرّضت للإبادة من رجال القبائل. وكتب المتصرف إلى إستانبول يُعلم المسؤولين خطر الإدريسي، وصلته بإيطاليا فدعته إلى إستانبول فرفض الحضور، فطلبت الدولة العثمانية من قائد قواتها في اليمن عزت باشا ومن معاونه عصمت إينونو إرسال حملة بحرية للقبض على الإدريسي، وإرساله إلى إستانبول، ونزلت الحملة في جيزان ولكنها هزمت هزيمة منكرة في أول لقاء، ويزيد عدد أفرادها على أربعة آلاف جندي، وقد دعمت إيطاليا الإدريسي في القتال، وانسحب العثمانيون من جيزان، ودخلها الإدريسي، وبقيت جزر فرسان بيد العثمانيين وقد انتقلت الحملة إلى هذه الجزر فشددت إيطاليا الضغط عليهم، فتركوها متجهين إلى القنفذة، فلاحقتهم إيطاليا وضربت الميناء من جهة البحر على حين كان الإدريسي يحاصر المدينة من البر، ودمرت السفن العثمانية الراسية في الميناء، غير أن الحامية لم تستسلم، وبقيت القنفذة بيد العثمانيين.

اختلف آل عائض في السراة مع المتصرف الجديد سليمان شفيق الكمالي، فاتفقوا مع الإدريسي لقتال المتصرف وإخراج العثمانيين من البلاد، وانطلقت قوات الطرفين نحو مدينة أبها، وألقت الحصار عليها، ولما اشتد الحصار على الحامية العثمانية في أبها، طلبت الدولة من شريف مكة الحسين بن علي السير إلى أبها لإنقاذ الحامية فيها. فسار على رأس

قوة إليها عام ١٣٢٧، وكان آل عائض قد عرفوا أطماع الإدريسي في السراة، لكنهم خشوه، فما أن ظهر الشريف الحسين بن علي حتى انضموا إليه، وانقلبوا ضد الإدريسي، فانسحب الإدريسي من السراة، وعُيّن الحسن بن علي آل عائض نائباً للمتصرف، كما عُيّن محمد بن عبد الرحمن آل عائض محافظاً لأبها، وضعُف مركز الإدريسي وبدأ المتصرف يُغير على مناطق نفوذه.

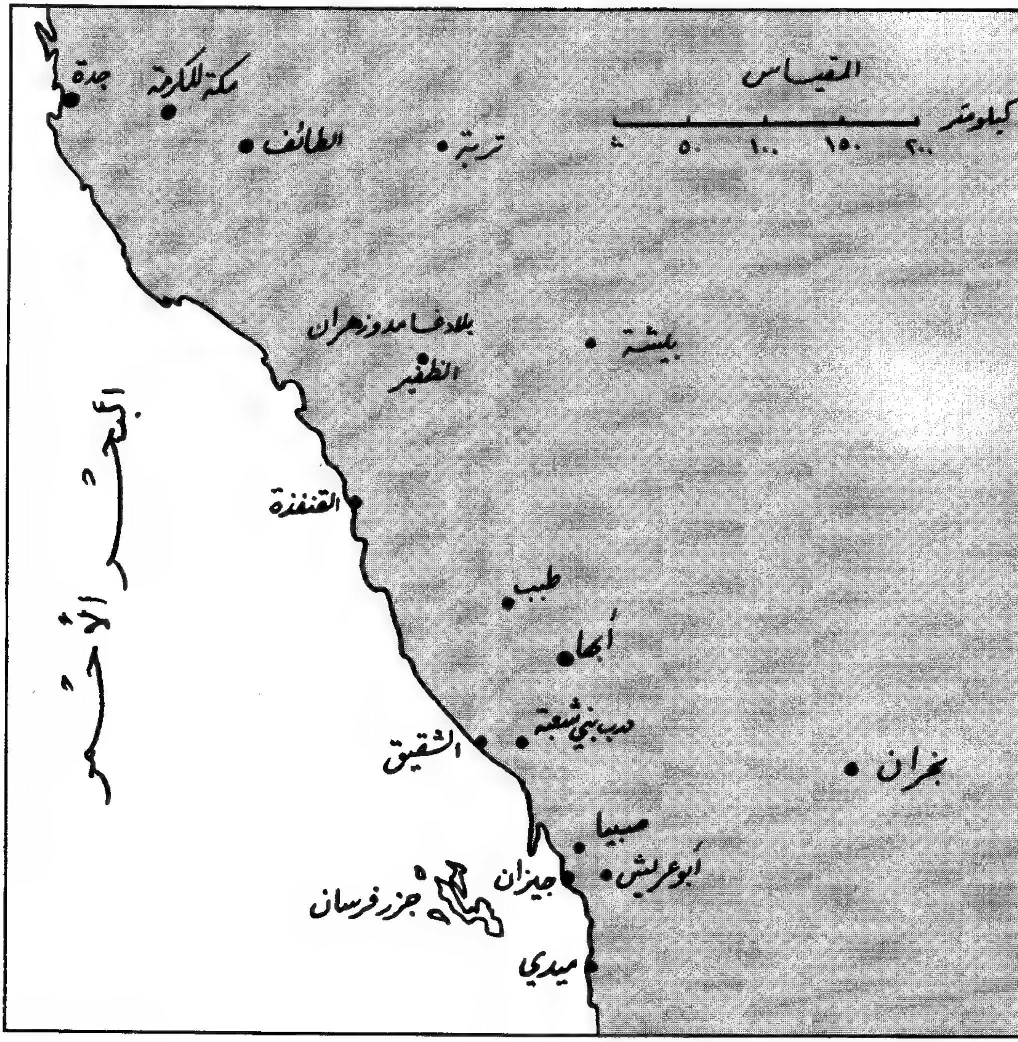
نزلت إيطاليا في ليبيا، ثم أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، وبدأت تُغير على الموانئ العثمانية ومنها الواقعة على البحر الأحمر، فقويت شوكة الإدريسي ثانيةً لدعمه من قبل إيطاليا، وعاد له نفوذه في ميناء القنفذة وشمالي عسير فاصطدم مع شريف مكة الذي يمتدّ نفوذه إلى هذه الجهات، وأرسل شريف مكة ابنه فيصلاً على رأس حملة إلى تلك الجهات التقت مع قوات الإدريسي قرب القنفذة، وانتصرت عليها، رغم قصف الأسطول الإيطالي لجيش الحجاز، ودعم قوات الإدريسي بالأسلحة والمؤن، وهمّ فيصل بالتقدم غير أن رسالةً جاءته من أبيه تدعوه للعودة إلى مكة للعمل ضد العثمانيين، حيث أعلن شريف مكة الثورة عليهم في الحرب العالمية الأولى، فأصبح شريف مكة والطليان في حلفٍ أو مع الحلفاء ضد العثمانيين الذين وقفوا بجانب الألمان، غير أن الخلاف الشخصي بين الحسين بن علي والإدريسي لم يتغيّر وإن كان كلاهما يعمل ضد العثمانيين.

رأى الإدريسي أن نفوذ إنكلترا أصبح هو القوي فعقد معاهدةً معها عام ١٣٣٤، اعترفت له بموجبها بالسيطرة التامة على تهامة من القنفذة شمالاً حتى اللحية جنوباً، ثم جددت المعاهدة ١٣٣٦.

رأى الإدريسي أن كل ما حوله يخالفه، الشريف حسين، آل عائض، إمام صنعاء لذا فقد راسل سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، غير أن الإدريسي لم يلبث أن توفي عام ١٣٤١، فخلفه ابنه علي. فاستولى الإمام يحيى حميد الدين على القسم الجنوبي من تهامة، وضم إليه الحديدة والقسم الجنوبي من تهامة حتى بلدة (ميدي). ثم ثار أهل تهامة

ضد علي بن الإدريسي، وبايعوا عمه الحسن، والتجأ علي إلى الرياض، وأقام فيها.

أعطى حسن الإدريسي لإنكلترا حق التنقيب عن النفط في جزر فرسان. وفاوض إمام اليمن، وآل سعود، وإيطاليا ونجحت المفاوضات مع آل سعود، فأبرم ابن عمه ميرغني معاهدةً في مكة بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود، وضعت بموجبها تهامة تحت الإدارة السعودية وذلك عام ١٣٤٥، وأصبحت جزءاً من المملكة العربية السعودية فيما بعد.


القياس
كيلومتر
٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
جدة
مكة المكرمة
الطائف
تربة
بلاد غامد وزهران
الظفير
بيشة
القنفذة
طبب
أبها
درب بني شعبة
الشقيق
نجران
صبيا
أبو عريش
جيزان
جزر فرسان
ميدي
البحر الأحمر

مصور رقم [٢١]

الفصل السادس

المنطقة الشرقية

كان اسم البحرين يُطلق على الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية والمشرفة على الخليج العربي، إذ لا تقع عُمان من ضمنها، أو ما يشمل اليوم قطر، والبحرين، والكويت والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وكان يحكم المنطقة بنو عقيل منذ عام ٦٤٢، وتوالت ثلاث أسر منهم في حكم المنطقة ثم ضعف أمرهم، وتفرّقت كلمتهم، وجاء البرتغاليون فسيطروا عليهم. استولى البرتغاليون على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ثم بسطوا نفوذهم على البحرين عام ٩٢١، وقتلوا حاكم البحرين مقرن بن أجود بن زامل عام ٩٢٧، وتولّى حكم المنطقة تحت إشرافهم علي بن أجود حوالي الشهر، وناصر بن محمد بن أجود ما يقرب من ثلاث سنوات، وقطن بن علي مدة سنة، وابنه عدة أشهر وتنازل بعدها لـ(غصيب بن زامل)، ووقع الخلاف بين آل جبر، فاستنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس فجاء إلى البحرين واحتلها.

تمكّن العثمانيون من فتح بغداد عام ٩٤١، وحكموا العراق، وعندها تقدم حاكم البصرة راشد بن مغامس إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، وأعلن له الولاء، وأصبحت مناطق نفوذه تحت سيطرة العثمانيين، ثم اختلف راشد بن مغامس مع الولاة العثمانيين، فاحتلوا البصرة، ففر راشد إلى نجد عام ٩٥١، ولانشغال الدولة العثمانية بالحروب البعيدة، وللحرب الصليبية التي تشنها أوروبا عليها، ولبعد منطقة البحرين فقد ضعف الحكم العثماني في البحرين، واستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين

ثانية، واستولوا على القطيف والإحساء، وبدؤوا في تشييد القلاع في جزيرة (أوال) و(تاروت) و(سيهات) وغيرها.

غير أن العثمانيين لم يتركوا الأمر، فقد دخلوا مسقط، وحاصروا هرمز قاعدة البرتغاليين، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها، فتركوها واتجهوا إلى البحرين، فانسحب البرتغاليون من جزيرة أوال، ومن القطيف، ودخلها العثمانيون، ووقف السكان مع إخوانهم العثمانيين فكانوا يخلصون البرتغاليين القلاع، ويسلّمونها للعثمانيين وذلك عام ٩٥٧، وأصبحت منطقة البحرين ضمن الدولة العثمانية، وضُمّت إلى ولاية البصرة، واستمر القتال بين العثمانيين والبرتغاليين فانهزمت فيه البرتغال.

بدأ النفوذ الإنكليزي يظهر في المنطقة حيث استمالت إنكلترا إليها الشاه عباس الصفوي شاه إيران ليقف معها ضد العثمانيين والبرتغاليين، وقد منح الشاه إنكلترا امتيازات واسعة في التجارة، وساعدته هي على مدّ نفوذه في الخليج إذ احتل جزيرة (أوال) عام ١٠١١، وجزيرة هرمز عام ١٠٣٥، وزال في ذلك العام الاستعمار البرتغالي نهائياً من منطقة الخليج العربي. ومن هذه المدة انفصلت جزيرة أوال (البحرين) عن باقي المنطقة، إذ غدت جزيرة البحرين تحت حكم الصفويين على حين كانت المنطقة تحت حكم العثمانيين حتى عام ١٠٨١، ثم تحت سيطرة بني خالد بعد ذلك.

لم يطل حكم العثمانيين على البحرين إذ جاؤوا عام ٩٥٧، وانسحبوا منها عام ١٠٨١ إذ لم يزد حكمهم على مائة وأربعة وعشرين سنة، كما لم يتولّ أمر المنطقة أكثر من أربعة ولاة، إذ دخلها فاتح باشا عام ٩٥٧، وأعقبه علي باشا المعروف بأبي الوند، وتلاه محمد باشا، ثم عمر باشا الذي ثار عليه بنو خالد فانسحب من المنطقة عام ١٠٨١.

ثار برّاك بن غرير رئيس آل حميد من بني خالد، وهجم على الحامية العثمانية في الإحساء فاضطرت إلى الاستسلام، وسلّمت حصونها وقلاعها وخرجت من البلاد عام ١٠٨١، إذ كانت الدولة العثمانية قد ضعفت، وهدّت الحروب الصليبية قواها. وأعلن برّاك نفسه ملكاً على المنطقة،

ووقع الحسد لدى آل مغامس من عرب البادية لهذا النجاح الذي أحرزه برّاك، وهذا ما دفعهم لقتاله غير أنهم هُزموا أمامه، ففر قسم منهم إلى العراق.

أقام برّاك في بلدة المبرز وجعلها قاعدةً له، وبدأ يوسع ملكه، وتوفي عام ١١٠٣، وخلفه ابنه سعدون الذي توفي عام ١١٣٥. واختلف بنو خالد إثر وفاة سعدون، فقسم منهم كان بجانب ابنه (دجين) والقسم الآخر مع أخيه سليمان، وانتصر سليمان على ابن أخيه (دجين)، وتوفي سليمان عام ١١٦٦، وبويع بعده عريعر، وفي عهده بدأت غارات السعوديين على المنطقة، وهجمات بني خالد على القصيم وسدير.

في هذا الوقت انقسمت المنطقة لضعف دولة بني خالد، وغدت الإحساء وحدها، وكذا البحرين، وقطر، والكويت، ويمكن دراسة تاريخ كل قسم وحده.

أ ـ الإحساء:

كانت تحت حكم بني خالد ـ كما مر معنا ـ وتوفي عريعر عام ١١٨٨ فخلفه ابنه (بطين)، ولم يلبث أن اختلف مع إخوته (دجين) الذي استلم الحكم بعده، و(سعدون) الذي تولّى بعد (دجين)، وقد هاجم المجمعة عام ١١٩٣، وأنجد عنيزة عام ١١٩٦. وفي عام ١٢٠٠ خرج (دويحس) على أخيه سعدون الذي فرّ إلى الدرعية قاعدة ملك آل سعود، وقد ساعد (دويحس) خاله عبد المحسن بن سرداح.

هاجم السعوديون الإحساء عام ١٢٠٢ فهرب منها (دويحس) وخاله عبد المحسن، وكان في الجيش السعودي زيد بن عريعر الذي غدا أمير المنطقة، وقد استقدم عبد المحسن بالحيلة من العراق، وقتله غدراً، فثار بنو خالد على هذا الغدر فعزلوا زيداً، وولّوا مكانه برّاك بن عبد المحسن، وتألم السعوديون من تصرف بني خالد فدخلوا المنطقة عام ١٢٠٧، فبايع السكان الإمام سعود الكبير، غير أنهم عادوا فنقضوا العهد فسار إليهم سعود

الكبير وحاصر الإحساء حتى استسلمت عام ١٢٠٨، فنفي أولاد عريعر إلى العراق، وانتهت دولة بني خالد.

أرسل والي العراق العثماني سليمان باشا عام ١٢١١ حملة بحرية وأخرى برية لاحتلال القطيف والإحساء غير أنها فشلت في تحقيق هدفها، وجدّدت حملة ثانية بقيادة علي كيخيا، ولكنها فشلت كسابقتها حيث وصلت الإمدادات إلى أهل الإحساء من نجد، ثم عقد صلح بين الطرفين عام ١٢١٣. ولما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا طلب أولاد عريعر من بني خالد وهم: محمد، وماجد، وسعدون من الجيش المصري متابعة السير إلى الإحساء فتابع، وهرب منها واليها السابق من قبل السعوديين وهو فهد بن سليمان بن عفيصان، وأساء أفراد الجيش الغازي إلى السكان فخاف الذين دعوه وهم أولاد عريعر فهربوا إلى العراق، فلمّا انسحب المصريون رجع أولاد عريعر فأقام محمد وماجد في الإحساء، وأقام سعدون في القطيف، وكان كفيفاً.

وعندما استولى محمد بن مشاري بن معمر على بعض مناطق نجد، كتب بعض السكان إلى ماجد بن عريعر ليقاتل ابن معمر قبل أن يستفحل أمره، فسار ابن عريعر إلى نجد، ولكن ابن معمر أظهر له أنه أمير من أمرائه فعاد ابن عريعر من حيث أتى.

وفي عام ١٢٤٥ سار أبناء عريعر لقتال تركي بن عبد الله في الرياض، غير أن ماجداً قد مات في الطريق إثر مرض نزل به، وهُزم بنو خالد، ورجعوا إلى الإحساء، فتبعهم تركي بن عبد الله حتى وصل إلى الإحساء فبايعه أهلها، فقبض على محمد بن عريعر ونفاه إلى العراق، وجعل عمر بن عفيصان أميراً على الإحساء، وعاد هو إلى الرياض.

وهاجم آل خليفة في البحرين منطقة الإحساء، ودخلوا جزيرة (تاروت)، ووقف في وجههم الحاكم السعودي للقطيف عبد الله الغانم، لكنه هُزم، وسار الأمير فيصل بن تركي من الرياض لنجدة الإحساء واشتبك مع أهل البحرين في معركة عام ١٢٤٩ اضطر إلى تركها لمقتل أبيه في

الرياض. ثم عُيّن على القطيف علي بن عبد الله بن غانم غير أنه اختلف مع مساعده مداوي الذي قتل علي بن عبد الله، ثم قتل أيضاً خليفته علي بن صالح، وأوكل أمر القطيف بعدها إلى مهدي بن نصر، واستمر ذلك حتى عام ١٢٥٣ حيث دخل العثمانيون المنطقة.

بعد أن دخل خالد بن سعود الرياض بدعم من العثمانيين والمصريين عام ١٢٥٢، خرج منها فيصل بن تركي إلى الإحساء، ولما هُزم خصمه أمام أهل الحوطة رجع وحاصر الرياض فجاء خورشيد باشا بنجدة وصلت إلى نجد ودخلت العاصمة فرجع فيصل بن تركي وعسكر في الدلم وجاءه عمر بن عفيصان بدعم من الإحساء غير أنهما هزما، واضطر فيصل إلى الصلح، ونفي إلى مصر، ورجع ابن عفيصان إلى الإحساء غير أن أهل بلده قد أعلنوا الطاعة لخورشيد باشا فسار ابن عفيصان إلى الكويت. وولّى خورشيد باشا على الإحساء أحمد بن محمد السديري حتى عام ١٢٥٥، ثم عزله وأقام مكانه حمد بن مبارك عام ١٢٥٦، ثم موسى الحملي عام ١٢٥٧.

هُزم خالد بن سعود أمام عبد الله بن ثنيان، فغادر خالد الرياض، واتجه إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة المكرمة، وضعف أمر العثمانيين في الإحساء بل لم يمكثوا فيها سوى خمس سنوات (١٢٥٣ - ١٢٥٨) فأرسل عبد الله بن ثنيان أميراً من قبله على الإحساء هو عبد الله بن بتال ثم استبدله بعمر بن عفيصان الذي أخذ البيعة من أهل المنطقة.

ورجع فيصل من مصر، وعاد إلى الحكم عام ١٢٥٩، فولّى على الإحساء عبد الله بن بتال ثم استبدله بأحمد بن محمد السديري عام ١٢٦٠، وبقي حتى ولّى عبد الله بن فيصل عام ١٢٨٤ ناصر بن جبر الخالدي الذي وقف في وجه سعود بن فيصل الثائر على أخيه غير أنه انهزم أمامه عام ١٢٨٧، وأصبحت الإحساء تتبع سعود بن فيصل وتجدد القتال بين الإخوة، فانتصر سعود، وأسر أخاه محمداً قائد جيش أخيه عبد الله، وسجنه في القطيف، وسار إلى الرياض ودخلها، فطلب أخوه عبد الله من والي بغداد العثماني مساعدته.

جاءت القوات العثمانية عن طريق البحر من البصرة إلى القطيف، كما جاءت القوات الكويتية، وفرّ والي سعود بن فيصل منها وهو فرحان بن خير الله، وأصبحت الإحساء ضمن أجزاء الدولة العثمانية من عام ١٢٨٨. وجاء عبد الله بن تركي الذي حكم الرياض بعد سعود بحملةٍ إلى الإحساء ولكنه هُزم، كما فشل في أخذ الإحساء عبد الرحمن بن فيصل وقد جاء من بغداد عام ١٢٩١.

وبقيت الإحساء بيد العثمانيين حتى ساءت الأوضاع، وعمّت الفوضى حيث قتل الوالي محمود باشا في سوق الهفوف عام ١٣٢٧، فكتب السكان إلى الأمير عبد الرحمن بن فيصل بالقدوم إليهم، وخرج العثمانيون من الإحساء عام ١٣٣١، وقد شغلتهم حروب البلقان، وأحداث الطليان في ليبيا، وأصبحت الإحساء جزءاً من المملكة العربية السعودية.

ب ـ البحرين:

خضعت جزيرة أوال للبرتغاليين عام ٩٢٢ غير أنهم خرجوا منها عام ٩٣٢ عندما سيطر على المنطقة راشد بن مغامس، وغدت بعدها جزءاً من الدولة العثمانية عام ٩٤٥ عندما أعلن راشد بن مغامس الولاء للعثمانيين غير أنه لم يلبث أن اختلف معهم فهرب إلى نجد وضعف الحكم فاستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين حوالي عام ٩٥٢، ولكن العثمانيين دخلوها ثانية عام ٩٥٧ وأخرجوا البرتغاليين منها.

احتل شاه إيران عباس الصفوي جزيرة أوال عام ١٠١١ بمساعدة الإنكليز، فانفصلت بعدها عن المنطقة، وغدا تاريخها منفصلاً أيضاً. ورجع العثمانيون إلى الجزيرة عام ١٠٩٢، ثم احتلها الصفويون عام ١١٢٣، وحاول إمام عُمان سلطان بن سيف إنزال قواته فيها عام ١١٣٠ ولكنه هُزم أمام مقاومة أبنائها. ثم أخضعها نادر شاه ملك فارس عام ١١٥٠هـ.

كان يسكن جزيرة أوال آنذاك مجموعة من البطون والقبائل تنتمي إلى قبيلة (الهولة) التي تعود إلى المطاريش ذي الأصل العماني، وقد جاء عرب

من المطاريش أيضاً والذين يقيمون في ميناء أبو شهر فاحتلوا جزيرة أوال عام ١١٦٦.

واختلف آل خليفة مع أبناء عمومتهم آل الصباح في الكويت فغادروها عام ١١٧٩ وأرادوا النزول في جزيرة أوال فلم يسمح لهم حكام الجزيرة من بني مذكور من قبيلة الهولة، فتابعوا سيرهم ونزلوا في الزبارة شمال غربي شبه جزيرة قطر، وكانوا بإمرة شيخهم محمد بن خليفة، وكانت الزبارة يومذاك من ديار بني مسلم. وبدأ آل خليفة، بتحصين مدينة الزبارة. ورفضوا دفع الزكاة لآل مسلم بعد سنتين من نزولهم، وحصلوا على شيء من الاستقلال.

كانت دولة بني خالد قد مالت إلى الضعف واستقل عنها كثير من أتباعها مثل آل مسلم في قطر، وآل الصباح في الكويت، وحذا حذوهم آل خليفة في الزبارة والذين توسعوا حتى سيطروا على جزيرة أوال تماماً عام ١١٩٦، وذلك رداً على غزو إيران لهم في الزبارة إذ كانت جزيرة أوال تخضع لإيران، ثم انتقلوا إلى المنامة أو عدد منهم عام ١١٩٨.

بدأ الصدام بين آل خليفة والسعوديين عام ١٢١٠، وعندما اشتد حصار السعوديين على الزبارة ارتحل عنها أهلها جميعاً، وانتقلوا إلى جزيرة أوال حيث أقاموا في قرية (الجو) الواقعة على أحد المرتفعات جنوبي جزيرة أوال والتي بدأت تُعرف باسم البحرين، ونقل زعماء من آل خليفة في الزبارة رهائن عند إبراهيم بن عفيصان حاكم الإحساء من قبل السعوديين، وفي الوقت نفسه سيطرت الدولة السعودية على البحرين، وعُيّن إبراهيم بن عفيصان عليهم حاكماً من قبله، واستمر ذلك حتى عام ١٢١٤.

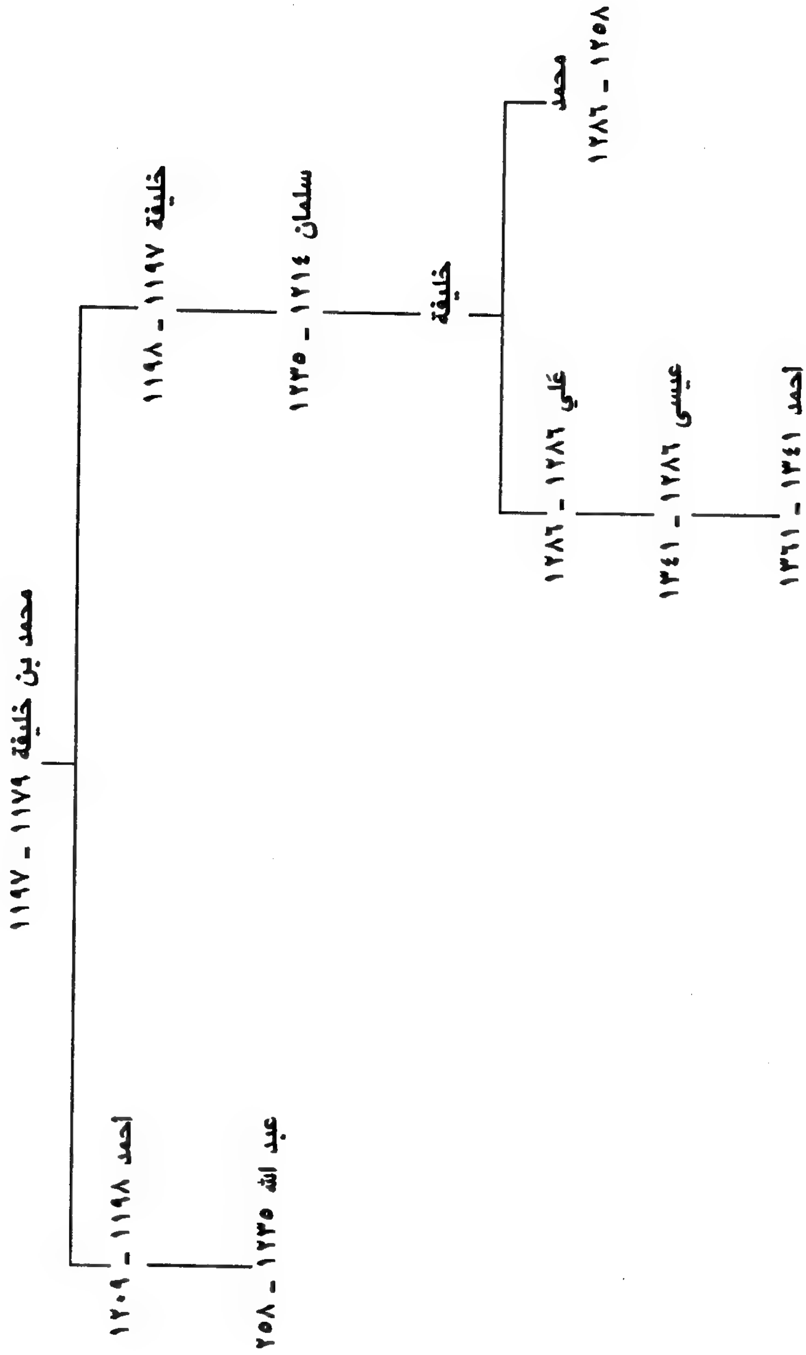
رجع سلمان بن خليفة حاكماً على البحرين عام ١٢١٤، ولكنه لم ينج من الهجمات الثانية حيث تعرض عام ١٢١٥ إلى هجوم من قبل سلطان مسقط بحجة أن سفن البحرين ترفض دفع ضريبة عند مرورها من مضيق هرمز. وفشل سلطان عُمان في دخول المنامة، ولكنه نجح في العام التالي، وأخذ عدداً من الرهائن معه إلى مسقط على حين هرب بعضهم إلى الزبارة، واستطاع أهل البحرين استعادة جزيرتهم عام ١٢١٨ إذ استعانوا

بالسعوديين ضد العُمانيين، وتوطدت العلاقة بين السعوديين وأهل البحرين، وخاصة عندما عاد سلمان بن خليفة إلى حكمه بمساعدة الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد عام ١٢٢٤ بعد أن أجبر على تركه بسبب هجوم سلطان عُمان، واستطاع الجيش السعودي طرد العُمانيين، وأخذ بعض آل خليفة إلى نجد حيث احتجزهم سعود الكبير عنده.

عاد آل خليفة فاستنجدوا بعدوهم السابق سلطان مسقط ضد السعوديين الذين خرجوا من الجزيرة، وقاد أهل البحرين يومذاك عبد الله بن أحمد، ولكن ثار عليه بعد مدةٍ أحد أبناء عمومته وهو محمد بن خليفة بن سلمان ولكنه هُزم في معركة الناصفة فالتجأ إلى عبد الله بن ثنيان من آل سعود الذي كان في الإحساء ورغب في الاستيلاء على البحرين مستغلاً خلافات أسرة آل خليفة، ولكن لم يوفق إذ انتهت أيام حكمه.

ذهب محمد بن خليفة إلى قطر يطلب المساعدة فأيدته قبائل آل علي وشيخها عيسى بن طريف، وقبائل آل النعيم، وقبائل بوكوارة، وقبائل الجلاهمة فتمكّن من الانتصار على ابن عمه عبد الله بن أحمد وتسلّم الحكم عام ١٢٥٨، والتجأ عبد الله إلى إيران وطلب دعمها غير أن إنكلترا حالت دون ذلك على الرغم من وجود معاهدة معه منذ عام ١٣٢٦. وفي الوقت نفسه أخذ فيصل بن تركي الدمام وكانت تتبع البحرين، وأراد بسط نفوذه على البحرين أيضاً، وتوفي عبد الله عام ١٢٦٥. فصفا الجو لمحمد بن خليفة الذي استمر في الحكم حتى توفي عام ١٢٨٦، وكان قد جدّد المعاهدة مع إنكلترا عام ١٢٧٩. وتسلّم الحكم بعده أخوه علي بن خليفة، ولكنه لم يلبث سوى عدة أشهر حيث قتله أخوه الآخر، إلا أن ابنه عيسى بن علي قد قبض على زمام الحكم حتى عام ١٣٤١، وعقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٢٩٨، ثم جُدّدت عام ١٣١٠، وبموجب هذه المعاهدة لا يحقّ لأمير البحرين أن يتنازل عن أي جزء من أراضيه إلى أية جهة سوى إنكلترا، ولا يعقد أية علاقة مع أية دولة دون علم إنكلترا، وأن يُقيم مستشاراً بريطانياً في المنامة بجانب الأمير.

وتوفي عيسى بن علي عام ١٣٤١ فخلفه ابنه أحمد.


محمد بن خليفة ١١٧٩ - ١١٩٧
خليفة ١١٩٧ - ١١٩٨
سلمان ١٢١٤ - ١٢٣٥
خليفة
محمد ١٢٥٨ - ١٢٨٦
علي ١٢٨٦ - ١٢٨٦
عيسى ١٢٨٦ - ١٣٤١
احمد ١٣٤١ - ١٣٦١
احمد ١١٩٨ - ١٢٠٩
عبد الله ١٢٣٥ - ١٢٥٨

جـ ـ قطر:

كانت قطر حتى عام ١١٨٠ جزءاً من المنطقة الشرقية، وتخضع لبني خالد الذين كانت سلطتهم تمتد على شرقي الجزيرة العربية كلها، ويتصل بهم آل مسلم الذين يمتون بصلة النسب إليهم، ويساعدونهم في توطيد حكمهم في قطر، وكان المعاضيد من آل علي يُقيمون في (الفويرط) في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، وهناك بعض السودانيين الذين يُقيمون في الدوحة التي كانت تُعرف باسم (البدع). وفي عام ١١٧٩ نزل آل خليفة وهم من العتوب في الزبارة قادمين من الكويت، وبعد مدة تبعهم أقرباؤهم الجلاهمة، ولم يلبث أن وقع الخلاف بين الطرفين، وانتقل الجلاهمة إلى قرية (الرويس) حيث عملوا في القرصنة، ولكنهم أُبيدوا على يد آل خليفة، ومن بقي منهم انتقل إلى (خورحسان).

احتلت إيران البصرة عام ١١٩٠ فهاجر عدد من تجار البصرة هاربين إلى الزبارة التي توسعت ونمت تجارتها. وحاولت إيران إخضاع الزبارة ولكنها فشلت، وغزت الزبارة البحرين، وكررت إيران غزو الزبارة عام ١١٩٧ غير أنها باءت بالفشل أيضاً، وقام آل خليفة برد فعل عام ١١٩٨ بالهجوم على البحرين التي كانت تخضع لإيران فاضطرت الحامية الإيرانية هناك إلى الاستسلام، وانتقل آل خليفة من الزبارة إلى المنامة وذلك بمساعدة العتوب الذين يقيمون بالكويت، وكان الشيخ أحمد بن خليفة أول شيخ من عرب العتوب يحكم البحرين، واشترك الجلاهمة في غزو البحرين مع إخوانهم العتوب خصومهم بالأمس، وعادوا بعد الغزو إلى خور حسان وقد قوي مركزهم، وتسلّم زعامتهم رحمة بن جابر الذي وطد علاقته مع السعوديين.

توسعت الدولة السعودية في المنطقة الشرقية، وضمت إليها قطر والبحرين وذلك عام ١٢٢٤، ولكنهم خرجوا من قطر عام ١٢٢٦ بمساعدة سلطان مسقط الذي هاجم (الزبارة) و(خورحسان) وأحرقهما ودمرهما، وانقلب جابر بن رحمة ضد السعوديين، ودمرت كذلك شركة الهند الشرقية

مدينة البدع (الدوحة) عام ١٢٣٧، ثم خضعت قطر للبحرين عام ١٢٣٩ أيام عبد الله بن أحمد، ولما دخلت البحرين في معاهدة مع شركة الهند الشرقية عام ١٢٥١ كانت هذه المعاهدة تشمل قطرا أيضاً بصفتها جزءاً من البحرين.

وحدث خلاف في أسرة آل خليفة في البحرين إذ نافس محمد بن خليفة ابن عمه عبد الله بن أحمد لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى السعوديين في الإحساء ثم انتقل إلى قطر يطلب الدعم والمساعدة، فوجد ضالته إذ أيّده عيسى بن طريف من آل علي، وكان قد انتقل من جزيرة قيس إلى الدوحة، كما أيّدته قبائل النعيم، والجلاهمة، والبوكوارة فرجع إلى قطر بعد أن انتصر على ابن عمه، وتسلّم حكم البحرين عام ١٢٥٨.

فرض فيصل بن تركي آل سعود نفوذه على قطر، بينما لم يفرض على البحرين وبذا عادت قطر فانفصلت عن البحرين. ولكن بعد وفاة فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ واختلاف أبنائه من بعده قامت البحرين عام ١٢٨٤ بالاشتراك مع أبي ظبي في غزو قطر، وأزيلت الدوحة والوكرة، ثم قامت قطر برد فعل بهجوم معاكس.

وفي عام ١٢٨٥ اتفقت بريطانية مع الشيخ محمد آل ثاني بالعودة إلى الدوحة، وتعد قبيلته أكثر القبائل رجالاً ونفوذاً، وهي فرع من المعاضيد الذين هم بطن من آل علي، واستمر نفوذه حتى عام ١٢٨٨ حيث خلفه ابنه قاسم الذي تعرّض لهجوم عثماني بقيادة أمير الكويت، واضطر قاسم بن محمد إلى رفع العلم العثماني عام ١٢٨٨، وبعد عام أمر مدحت باشا الوالي العثماني على المنطقة باحتلال الدوحة.

وحدث تمرّد على القوات العثمانية التي هُزمت جنوب الدوحة، واضطر قاسم بن محمد أن يتنازل عن الإمارة إلى شقيقه أحمد بن محمد كمصالحة مع العثمانيين. واغتيل أحمد بن محمد عام ١٣٢٣ بيد أحد خدامه من بني هاجر، وتولى الأمر بعده عبد الله بن قاسم، وفي عهده بدأت المفاوضات بين العثمانيين والإنكليز وذلك عام ١٣٢٩ من أجل حلّ

المشكلات بينهما في الخليج العربي، ومنها قطر، وكان الإنكليز يهدفون إلى طرد العثمانيين من المنطقة، كما لا يُقرّون بسيادة البحرين على قطر. وتمّ توقيع المعاهدة في لندن تخلّت نتيجتها الدولة العثمانية عن حقوقها في قطر، واعترفت بخط يفصل بين نجد وقطر، وتضمّنت الاتفاقية التوقيع عليها في مدة ثلاثة أشهر إلا أن المدة قد جددت عدة مرات حتى نشبت الحرب العالمية الأولى، وانسحبت الدولة العثمانية من قطر نهائياً عام ١٣٣٤.

وقعت معاهدة جديدة بين الشيخ عبد الله بن قاسم وإنكلترا عام ١٣٣٥، وقد كفلت هذه المعاهدة لإنكلترا إدارة الشؤون الخارجية والتشريعات، والشؤون القضائية للأجانب. ثم منح الشيخ عبد الله عام ١٣٥٤ شركة قطر للنفط حق التنقيب في بلاده، وتوفي عام ١٣٦٨، وخلفه ابنه الثاني علي.

د ـ الكويت:

كانت الكويت جزءاً من المنطقة الشرقية، وقد تبعت الدولة العيونية (٤٦٧ ـ ٦٤٢)، ثم خضعت لبني عقيل (٦٤٢ ـ ٩٣٣) الذين حكموا الإحساء.

وصل البرتغاليون إلى الكويت، وكانت تسمى (القرين)، واحتلوا جزيرة (فيلكا)، وأقاموا فيها حصناً وذلك في الوقت الذي دخلوا البحرين، غير أن البرتغاليين خرجوا عام ٩٣٢، ثم استغلوا خلاف راشد بن مغامس مع العثمانيين فرجعوا إليها عام ٩٥٢، وفي النهاية طردوا منها عام ٩٥٧ على يد العثمانيين، وأصبحت الكويت جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، ولكن لم تلبث أن ضعفت الدولة فاستغل بنو خالد هذا الضعف، واستقلوا في الإحساء، ثم سيطروا على المنطقة كلها عام ١٠٨١، وفي أيامهم أخذت الكويت اسمها، وذلك نسبةً إلى حصن صغير كان موجوداً فيها، قيل بناه (برّاك بن غرير) زعيم بني خالد.

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري انتقلت فصيلة من قبيلة عنزة كانت تقيم في منطقة الهدّار بالأفلاج في جنوب نجد إلى قطر نتيجة خلافاتٍ قامت، وسنواتٍ عجاف مرت على المنطقة، أقامت هذه المجموعة في قطر، وقد عُرفت باسم العتوب نسبةً إلى بني عتيبة، ومن هؤلاء العتوب آل الصباح وآل خليفة. وبعد مدةٍ حدث خلاف بين آل مسلم أصحاب النفوذ في قطر وبين العتوب، فارتحل العتوب باتجاه الكويت فلحقهم آل مسلم فنزلوا إلى البر عند رأس تنورة، وجرى هناك قتال بين الطرفين انتصر فيه العتوب، ورجع آل مسلم إلى بلدهم، ومع ذلك فقد تابع العتوب حركتهم نحو الشمال حتى وصلوا إلى أرض شمال الخليج العربي فتنقّلوا هناك ثم استقر بهم المقام في الكويت، وكانت تحت سيطرة بني خالد.

ضعفت سلطة بني خالد، وقوي مركز العتوب فوقفوا في وجه سادتهم، وبايعوا كبيرهم صباح بن جابر أميراً عليهم عام ١١٦٢، ولما توفي عام ١١٧٢ بويع ابنه عبد الله غير أن هذه البيعة قد جعلت آل خليفة ينقمون على آل الصباح نتيجة البيعة التي تمت للأمير الجديد، فغادر آل خليفة الكويت، ورجعوا إلى قطر حوالي عام ١١٧٩، وأقاموا في الزبارة.

وعندما استولى الفرس على البصرة عام ١١٩٠ غادرها عدد من تجارها، واتجهوا إلى الكويت التي بدأت تنمو، وتتحول التجارة إليها، وهذا ما أطمع قبيلة كعب فيها فغزتها فقاتلها الأمير عبد الله وتغلّب عليها.

وحاصر عبد العزيز بن محمد بن سعود الكويت في إحدى غزواته لجنوبي العراق، ولكنه فشل في الحصار. ثم غزاها إبراهيم بن عفيصان أمير الإحساء عام ١٢٠٨، ثم غزاها أبو رجلين عام ١٢١١. وقام أهل الكويت بغزو القبائل التابعة للدولة السعودية كرد فعل على الغزوتين السابقتين، ثم شغل آل سعود بجيوش محمد علي واتجهوا نحو الغرب. وتوفي عبد الله الأول عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه جابر الأول، واستمر حكمه حتى عام ١٢٧٦ حيث خلفه صباح الثاني، وبقي أمر البلاد بيده حتى عام ١٢٨٣ فتسلم الأمر بعده عبد الله الثاني.

وعندما توفي فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ تنازع أبناؤه من بعده، وكانت الإحساء والقطيف بيد عبد الله بن فيصل إلا أن أخاه سعوداً قد احتل المنطقة عنوةً، وهذا ما جعل عبد الله يستنجد بالدولة العثمانية، وقال: إن أخاه سعوداً يستظهر بإنكلترا، فأنجدت الدولة العثمانية عبد الله، ودعمته بـ(عبد الله الثاني آل الصباح)، واستعادت المنطقة عام ١٢٨٨، وبعد عام قبل عبد الله لقب قائمقام بحيث يكون تابعاً لوالي البصرة العثماني.

غزا سعود بن فيصل آل سعود الكويت عام ١٢٩٠، ولكنه عاد دون حرب، كما أن أمير حائل محمد بن عبد الله آل رشيد قد غزاها عام ١٢٩٥.

وفي عام ١٣٠٩ توفي عبد الله الثاني آل الصباح فخلفه ابنه محمد الذي حكم حتى عام ١٣١٣ حيث قام عليه أخوه مبارك، وقتله مع أخيه الثالث الجراح، واستأثر بالحكم، وهذا ما جعل أبناء أخويه يغادرون الكويت إلى البصرة. وفي أيام مبارك بن عبد الله الثاني ضعف حكم جواره السعوديين وسيطر آل رشيد على نجد، على حين كانت الإحساء بيد العثمانيين، ووقعت العداوة بين مبارك آل الصباح وآل رشيد، فكان مبارك يستعين بالدولة العثمانية سواء أكان عن طريق متصرف البصرة أم عن طريق متصرف الإحساء، وذلك كلما حزبه أمر، وعندما اختلف مبارك مع آل ثاني في قطر وقفت الدولة العثمانية بجانبه وهددت آل ثاني فلم يقع الصدام. وكان يوسف آل إبراهيم ينافس الشيخ مبارك، ويستعين عليه بحكام قطر وحكام حائل، وقد سافر إلى حائل والتقى بأميرها محمد بن عبد الله آل رشيد، واتفق معه على حرب الشيخ مبارك ولكن الأمر لم يتم لأن ابن رشيد قد توفي عام ١٣١٥، وهو يستعد للسير إلى الكويت. وكردّ فعل لذلك فقد جهز الشيخ مبارك حملةً للتوجه إلى حائل واستنهض معه قبائل المنتفق العراقية، والظفير، وحصل على بعض الأرباح في هذه الحملة، ثم سار ثانيةً إلى الوجهة نفسها واستنهض معه قبائل مطير، والعجمان، ومُرّة، والعوازم، والمنتفق، وبعض بطون الظفير، وسار معه هذه المرة

عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ومعه ابنه عبد العزيز، وسار الجمع نحو حائل، والتقى الجمعان في (الصريف) قرب القصيم فدارت الدائرة على الشيخ مبارك ومن معه، وانتصر ابن رشيد.

وفي عام ١٣١٧ قبل الشيخ مبارك الحماية البريطانية، وألا يقيم علاقات مع أية دولةٍ دون موافقة بريطانيا، فقام ابن رشيد برد فعل فأغار عام ١٣١٩ على (الصبيحة) ونهب أطراف الكويت. وحاولت الدولة العثمانية مهاجمة الكويت ليكفّ الشيخ مبارك عن غاراته وكرد فعلٍ لانقلابه عليها غير أن إنكلترا وقفت بجانبه فعدّل العثمانيون خطتهم. وفي هذا الوقت استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يدخل الرياض، وأن ينتزع حكمها من ابن رشيد، وهذا ما أضعف إمارة حائل، فخفّ ضغطها عن الكويت.

اتفق الشيخ مبارك مع ابن سعود ضد إمارة حائل فهزماها عام ١٣٢١، ولكنهما هزما أمام الشيخ سعدون شيخ قبائل المنتفق وذلك عام ١٣٢٨، ثم جرى الصلح بين الشيخين مبارك وسعدون، غير أنه في هذه الأثناء قد هجر بعض تجار اللؤلؤ الكويت، واتجهوا إلى البحرين. وعينت إنكلترا مندوباً سياسياً لها في الكويت عام ١٣٢٢.

ورغم موقف الشيخ مبارك من الدولة العثمانية واتجاهه نحو إنكلترا إلا أنه دفع مبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية للعثمانيين دعماً منه لهم في حروبهم مع الطليان الذين نزلوا بليبيا، غير أنه بعد ذلك قد اتجه بكليته نحو إنكلترا، وابتعد عن الدولة العثمانية، ودعم كل من يقف في وجهها، وزار الحاكم الإنكليزي للهند الكويت عام ١٣٣٠. وحدثت نقمة على الشيخ مبارك من قبل رعاياه لعدائه الشديد للعثمانيين وخاصةً بعد أن احتلت إنكلترا البصرة في بداية الحرب العالمية الأولى، وتوفي الشيخ مبارك عام ١٣٣٤.

تولّى حكم الكويت جابر بن مبارك الذي لم يلبث في الحكم سوى عام واحد توفي بعده وخلفه أخوه سالم، وقد زار المنطقة (برسي كوكس) الإنكليزي وجرى التعاون مع ابن سعود والشيخ خزعل في منطقة الأهواز وذلك عام ١٣٣٥.

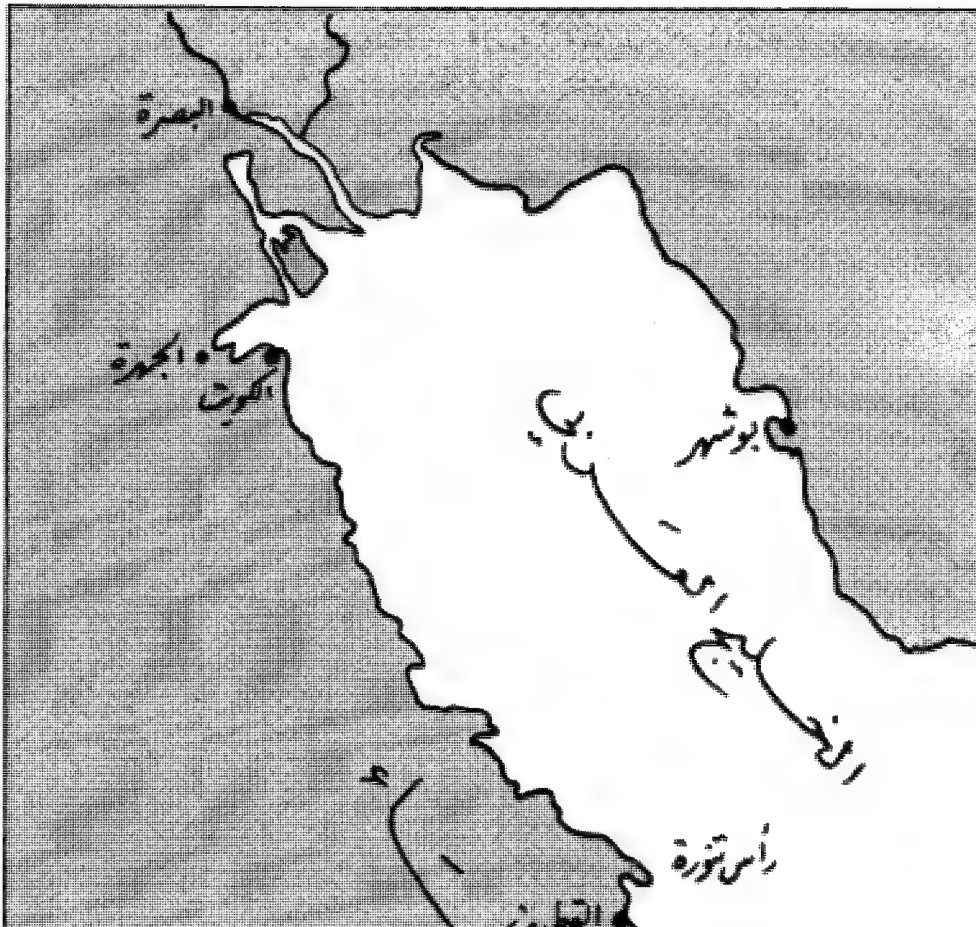
حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ضمّ قبائل (العوازم) إليه، وجمع الزكاة منهم، فاشتكى الشيخ سالم إلى (هملتن) المعتمد البريطاني في الكويت الذي سافر إلى الرياض، وانتهت المشكلة لمصلحة الكويت.

وزار (بل) الكويت عام ١٣٣٦، وطلب من الشيخ سالم أن يكون لإنكلترا موظفون في الكويت لمراقبة البضائع فرفض، ولكنه عاد فوافق بعد تدخل المعتمد البريطاني (برسي كوكس)، وكان الشيخ سالم قد أظهر مساندة العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى مما دفع البريطانيين لمحاصرة الكويت.

عاد الخلاف بين السعوديين والشيخ سالم، وجرت بين الطرفين معركة (حمض) التي انتصر فيها السعوديون، وبنى الشيخ سالم سوراً على مدينته عام ١٣٢٨، ثم وضعت الحدود بين الكويت والسعودية برأي إنكلترا. والتقى عبد العزيز آل سعود مع (برسي كوكس) في ميناء (العقير)، هاجم السعوديون (الجهراء) إثر ذلك اللقاء، ولكن القائد السعودي فيصل بن الدويش لم يوفق، فعاد مرةً ثانيةً وأغار على الكويت.

توفي الشيخ سالم عام ١٣٣٩ وخلفه ابن أخيه أحمد الجابر الذي أمد ابن رشيد عام ١٣٤٠ بالمال والأرز عندما نفدت مؤنه من جراء حصار ابن سعود له، وهذا ما دعا ابن سعود إلى أن يهاجم أطراف الكويت عام ١٣٤٢، وتوفي أحمد الجابر عام ١٣٧٠، وخلفه ابن عمه عبد الله السالم، وفي عهده استقلت الكويت عام ١٣٨١، وتوفي عام ١٣٨٥ فتولّى الأمر مكانه أخوه صباح السالم حتى توفي عام ١٣٩٨ فقام محلّه ابن عمه جابر الأحمد الجابر.


صباح بن جابر ١١٦٢ ـ ١١٧٢
عبد الله «الأول» ١١٧٢ ـ ١٢٢٩
جابر «الأول» ١٢٢٩ ـ ١٢٧٦
صباح «الثاني» ١٢٧٦ ـ ١٢٨٣
عبد الله «الثاني» ١٢٨٣ ـ ١٣٠٩
محمد ١٣٠٩ ـ ١٣١٣
مبارك ١٣١٣ ـ ١٣٣٤
جابر ١٣٣٤ ـ ١٣٣٥
سالم ١٣٣٥ ـ ١٣٣٩
أحمد ١٣٣٩ ـ ١٣٧٠
جابر ١٣٩٨ ـ
عبد الله ١٣٧٠ ـ ١٣٨٥
صباح ١٣٨٥ ـ ١٣٩٨


البصرة
الجهرة
الكويت
بوشهر
رأس تنورة
القطيف
المنامة
الزبارة
الفويرط
المبرز
الهفوف
الدوحة
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٢]

الفصل السابع

اليمن

في مطلع القرن العاشر خضعت اليمن كلها للدولة الطاهرية التي كان سلطانها عامر بن عبد الوهاب الذي كان حكمه من ٨٩٤ إلى ٩٢٣. أما شمالي اليمن فكان تحت سلطان الأئمة الزيود منذ السنوات الأخيرة من القرن الثالث حتى هذه المرحلة، وكان يمتد ويتسع أحياناً حتى يشمل أجزاء واسعةً من اليمن، وأحياناً أخرى يضعف وينكمش حتى لا يتجاوز منطقة صعدة وقد يزول نهائياً. وكان في هذه المرحلة الإمام المتوكل يحيى شرف الدين الذي قام ٩١٢، واستمر حتى ٩٦٥.

المماليك الجراكسة:

وجاء البرتغاليون إلى المنطقة، وبدؤوا يعيثون الفساد على سواحل البحر الأحمر، وتطغى عليهم الروح الصليبية، وقد تمكّنوا من احتلال جزر قمران وقتل عاملها، وهذا ما أثار سلطان المماليك في مصر قانصوه الغوري (٩٠٤ ـ ٩٢٢) فأرسل عدة كتائب من الجند الذي أطلق عليهم مؤرخو اليمن اسم «الغز» وذلك لمطاردة البرتغاليين، وكان حسين الكردي أحد قادة تلك الكتائب الذين اهتموا بقتال البرتغاليين.

وسار حسين الكردي على رأس حملةٍ بحرية لدعم المسلمين في الهند ضد البرتغاليين من الصليبيين، ولكنه هزم في معركة ديو المشهورة عام ٩١٥ مع حلفائه بعض حكام الولايات الهندية. وبعد هذا الفشل لم يرغب

حسين الكردي بالعودة إلى مصر، وإنما سار إلى جُدّة، وبدأ يعمل على تحصينها.

وسار القائد البرتغالي (البوكرك) إلى عدن، ولكنه فشل في اقتحامها عام ٩١٩، وهذا ما شجع سلطان المماليك إلى إرسال حملةٍ جديدة إلى جنوب البحر الأحمر، بعد أن أصابه الخوف الشديد بسبب هزيمة ديو البحرية. فجهّز قوة بإمرة الريس سليمان، وانطلقت إلى جُدّة، فانضمّ إليها حسين الكردي، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى الجنوب فاستولت على مدينة زيلع في الصومال، ثم استقرت في جزر قمران بعد أن جلا عنها البرتغاليون عام ٩٢١.

بدأ حسين الكردي يتوغل في داخل اليمن حيث أن الإمام المتوكل يحيى شريف الدين قد طلب الولوج إلى الداخل، واستصرخه لقتال عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي تغلّب على الإمام، وسيطر على اليمن كلها، وقد وعده بالدعم والمساعدة. وكانت قد جاءت سفن محملة بالمؤن إلى الجنود المصريين في جزر قمران فاحتجزها عامل عامر بن عبد الوهاب على الحديدة، وهو محمد بن نوح، ورفض إطلاقها إلى الجند الجياع، فغضب لذلك حسين الكردي، كما كان قد طلب من السلطان عامر مساعدته لقتال البرتغاليين وإخراجهم من أطراف الجزيرة العربية فلم يستمع إلى ذلك وهذا ما أثار الكردي أيضاً فاتجه لمحاربة الطاهريين، وتوغّل في داخل اليمن فالتقى مع الجيش الطاهري خارج مدينة زبيد فجرت بين الطرفين معركة «الرحب» التي فرّ فيها قائدا السلطان وهما: أخوه عبد الملك وابن أخيه عبد الوهاب بن عامر، ودخل إثرها حسين الكردي زبيد عام ٩٢٢. ولكن الكردي لم يستطع دخول مدينة عدن لمقاومة مرجان عامل السلطان عامر عليها وذلك عام ٩٢٢.

وسار السلطان عامر بنفسه على رأس جيش، والتقى مع قوات المماليك، ولكن هُزم أمامهم فانسحب إلى (تعز) فلاحقته القوات المملوكية فانتقل إلى المقرانة حيث حمل ما عنده إلى صنعاء، وبقيت المطاردة تتابعه

من مكان إلى آخر فتصدّى لها قرب صنعاء، فجرت معركة «الصافية» بين الطرفين على أبواب صنعاء قُتل فيها أخوه عبد الملك، ونجا هو بنفسه، فسار يريد الاعتصام ببعض حصونه فوقع أسيراً بيد أحد الأهالي فسلّمه إلى الأعداء فقتل في ٢٣ ربيع الأول عام ٩٢٣، وسيطر المماليك على اليمن كلها لما يتفوّقون به من أسلحة نارية يملكونها ولم يعرفها بعد أهل اليمن. ورجع حسين الكردي والريس سليمان إلى جدة، وتُركت قواتهم في اليمن تحت إمرة (برسباي) و(الإسكندر بن محمد الجركسي) و(رمضان الجركسي). أما الدولة الطاهرية فقد احتفظت لها ببعض المواقع في الجنوب.

وعندما سقطت دولة المماليك في مصر بيد العثمانيين عام ٩٢٣. انسحب القائد الإسكندر بن محمد بقواته إلى زبيد رغم ما لقيه من مشقة وجهد بسبب الحرب التي شنتها عليه رجال القبائل، والقوات الطاهرية التي بقيت متمركزةً في الجنوب حتى مجيء العثمانيين إلى اليمن عام ٩٤٥.

العثمانيون:

عاد الخليفة العثماني بعد حروبه في أوربا ليتمم المهمة الملقاة على عاتقه والتي من أجلها اتجه والده نحو الشرق، وهي المحافظة على ديار الإسلام وقتال البرتغاليين الذين وصلوا إليها من الجنوب، وخاصةً أن المسلمين في الهند قد استنجدوا به فأمر عامله على مصر سليمان باشا الأرناؤوطي أن يُجهّز حملةً وأن يسير لحرب البرتغاليين ونجدة مسلمي الهند.

انطلقت الحملة عام ٩٤٥، ونزلت باليمن عام ٩٤٥، وطلب حاكم عدن السلطان عامر بن داوود آخر ملوك الطاهريين مساعدته ضد الإمام يحيى شرف الدين الذي تغلّب عليه وسيطر على أكثر أجزاء اليمن فردّ عليه بالموافقة ودعاه لزيارته في السفينة العثمانية، فوافق بعد تردّدٍ وسار إليه، إلا أنه قبض عليه، وأعدمه، واحتل عدن، وتابع مسيره إلى الهند حيث دعم المسلمين هناك.

رجع سليمان باشا من الهند عام ٩٥٤ ونزل بأرض اليمن، وزحف بقواته نحو صنعاء، فاصطدم مع قوات الإمام يحيى شرف الدين، فأحرز النصر، وتمكن من دخول صنعاء، ولكن المطهر ولد الإمام يحيى شرف الدين قد أجبر العثمانيين على الجلاء عن أكثر أرض اليمن بعد هزيمتهم عام ٩٧٥، وبعد الانتصارات المتكررة التي أحرزها عليهم، ودانت أكثر أرض اليمن للمطهر باستثناء زبيد، وكان الإمام يحيى شرف الدين قد توفي عام ٩٦٥ بعد أن كفّ بصره.

عاد العثمانيون بحملةٍ جديدةٍ بقيادة سنان باشا الذي تمكّن من دخول صنعاء عام ٩٧٧، ودحر قوات المطهر إلى الجهة الشمالية، وتحصّن المطهر في (ثلا) يستعد لاستئناف القتال، وقبض سنان باشا على بعض علماء الزيدية وزعمائهم ونفاهم إلى إستانبول، وتوفي المطهر عام ٩٨٠، وقوي مركز العثمانيين، وبسطوا نفوذهم على اليمن، وانحصرت زعامة الأئمة في بعض المواقع من الجهة الشمالية. وقام بعد المطهر الإمام الحسن بن علي بن داوود، واستمر يقاتل العثمانيين مدة سبع سنوات، ثم قبض عليه، ونفي إلى إستانبول حيث مات فيها.

قام الإمام المنصور القاسم بن محمد بن علي عام ١٠٠٦، وبدأ يحشد القبائل لمحاربة العثمانيين، وبدأت المعارك بين الطرفين عام ١٠٢٢ حيث انتصرت قوات الإمام، وانسحب العثمانيون إلى صنعاء، واضطر قائدهم جعفر باشا إلى عقد صلح مع الإمام القاسم استمر عاماً واحداً، ثم تجدّد القتال واستطاع القاسم أن يسيطر على شمالي اليمن، وتوفي عام ١٠٢٩، وخلفه ابنه المؤيد الذي استطاع أن يصل إلى أبواب صنعاء عام ١٠٤٥، ثم دخلها بعد حصار، وبعد معركة (الصافية) التي جرت بين الفريقين عندما أمر القائد العثماني بفتح أبواب المدينة، وبدأ العثمانيون بالتراجع والانسحاب، وكان هذا الانسحاب الثاني لهم، ودخل المؤيد زبيد، وجزر قمران، جزر فرسان.

استمرت أسرة القاسم بن محمد بن علي تحكم اليمن، وتسيطر على

أجزائها حتى عام ١٢٦٩، وبدأ نفوذهم ينتشر في جنوبي اليمن وتهامة منذ أوائل القرن الحادي عشر، ووصل إلى حضرموت في النصف الثاني في هذا القرن في أيام المتوكل (١٠٥٤ ـ ١٠٨٧)، ولكن بعد مدة بدأت المنازعات تقوم بين أسرة آل القاسم، وهذا ما أضعف أمرها فقامت الثورات ضدها، وانفصلت عدن عنها عام ١١٤٥ عندما قام السكان بثورة ضد عامل الإمام المنصور الحسين بن القاسم (١١٣٩ ـ ١١٦١). كما أن الإنكليز كانوا قد احتلوا عدن أيام الناصر عبد الله بن الحسن (١٢٥٢ ـ ١٢٥٤).

وفي عام ١٢٦٥ أمر الخليفة العثماني عبد المجيد عامله على جُدّة توفيق باشا بالتوجه إلى اليمن ومعه شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، وسارت الحملة من جدة إلى الحديدة حيث نزلت بها، وانطلقت منها إلى صنعاء فدخلتها دون مقاومة وذلك لأن الإمام المتوكل محمد بن يحيى بن المنصور قد اتفق مع القائد العثماني، وسار معه إلى صنعاء، غير أن السكان لم يلبثوا أن ثاروا على إمامهم المتوكل، وقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وولوا مكانه غيره عام ١٢٦٥، وأجبروا العثمانيين على الانسحاب إلى تهامة، وبدأت الخلافات تظهر بين الأئمة في صنعاء وفي صعدة وكلٌ يدّعى أحقيته بالإمامة، واستمرت الخلافات ما يقرب من ربع قرن (١٢٦٥ ـ ١٢٨٩)، وانتهز العثمانيون الذين كانوا في عسير، والذين تمكنوا من القضاء على آل عائض، وقتل أميرهم محمد بن عائض، والقبض على عددٍ منهم، وحملهم إلى إستانبول، انتهز العثمانيون فرصة الخلافات بين الأئمة فسار والي عسير أحمد مختار باشا عن طريق الساحل، ووصل إلى صنعاء، ولكنه لم يتمكّن من بسط نفوذه على الجهات الشمالية التي بقيت تحت حكم المتوكل الحسن بن أحمد (١٢٧١ ـ ١٢٩٥) حتى توفي عام ١٢٩٥، وخلفه الهادي شرف الدين بن محمد.

وفي عام ١٢٩٠ عيّن العثمانيون مصطفى باشا خلفاً لأحمد مختار باشا فاستعمل العنف والقسوة مع السكان، وقبض على عدد من العلماء، وأودعهم سجن الحديدة، وتوفي الهادي شرف الدين بن محمد عام ١٣٠٧

فبويع الإمام محمد بن يحيى حميد الدين، وكان قد فرّ من سجن الحديدة، وهو من أسرة القاسم بن محمد بن علي، وبذا تكون الزعامة أو الإمامة قد عادت إلى هذه الأسرة بعد أن زالت عنها عام ١٢٦٩ عندما أخذها المنصور محمد بن عبد الله الوزير الذي استمرت إمامته (١٢٦٩ ـ ١٣٠٧) مع منازعة آخرين له.

بدأ الإمام محمد بن يحيى حميد الدين بمحاربة العثمانيين فاصطدم مع الوالي أحمد فيضي باشا عام ١٣٠٩، ثم بالولاة الذين جاؤوا بعده: حسين حلمي باشا، وعبد الله باشا، واضطر العثمانيون إلى إعادة أحمد فيضي باشا ثانيةً إلى اليمن، وجاء بقواتٍ كبيرةٍ معه فاستطاع دخول صنعاء، وغادرها المنصور محمد بن يحيى حميد الدين إلى حاشد، ولم يفلح أحمد فيضي باشا بالسيطرة على شمالي اليمن، وتوفي المنصور عام ١٣٢٢، وبويع بعده ابنه يحيى ولقب بالمتوكل، وتمكّن من دخول صنعاء عام ١٣٢٣، وانسحب القائد العثماني إلى زبيد، فأرسل العثمانيون مرة ثالثةً أحمد فيضي باشا فنزل في الحديدة، واحتلها، وتقدّم منها إلى صنعاء واستطاع احتلالها، وانطلق منها إلى (شهارة) التي اعتصم بها الإمام يحيى، ولكن رجال القبائل قد طوقت القائد العثماني أحمد فيضي باشا فانسحب بجيشه.

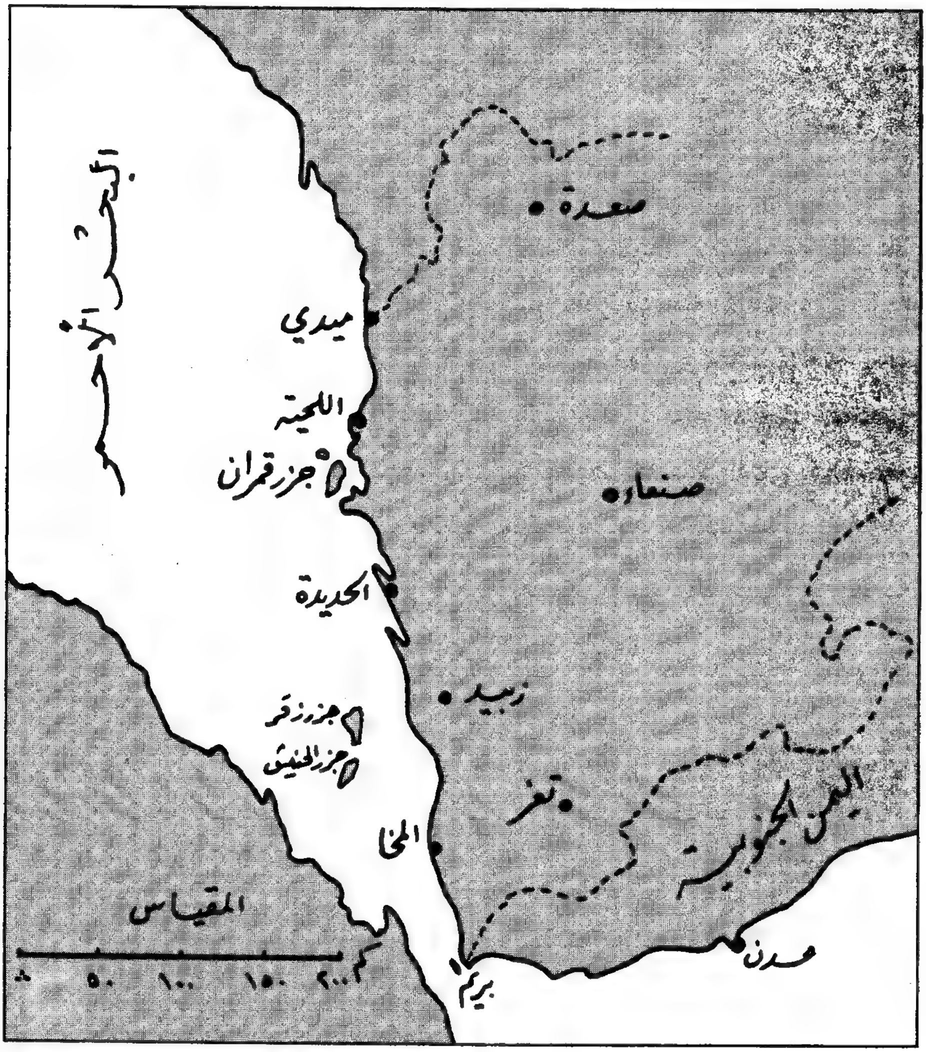
أرسلت حكومة الاتحاديين إثر هزيمة أحمد فيضي باشا مندوبها أحمد عزت باشا الألباني لعقد صلح مع الإمام يحيى، والتقيا بـ (دعان)، وانتهى اللقاء باتفاقية تتضمن قيام الإمام بالإشراف على شؤون القضاء والأوقاف، وتعيين المرشدين، وتشكيل هيئة شرعية في البلاد، وأن تكون الجباية على الطريقة الشرعية.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وحافظ الإمام يحيى على اتفاقه مع الدولة العثمانية فوقف بجانبها، وقد أرسلت الكثير من الأسلحة والذخائر والمؤن إلى اليمن، وأبلغت واليها في صنعاء محمود نديم بالسير لاحتلال عدن وأخذها من الإنكليز، غير أن إنكلترا قد سبقت فاحتلت ميناء الحديدة، وضربت الموانئ اليمنية: المخا، واللحية، والصليف، ومولت

الإدريسي، وأشارت عليه باحتلال تلك الموانئ فسار إليها وتسلمها، وقامت حركة في الحديدة ضد الإنكليز فسلموها، للإدريسي أيضاً.

وكان الإنكليز قد احتلوا عدن منذ عام ١٢٥٣ ـ كما ذكرنا ـ واستغلّوا القتال الدائر بين الأئمة والعثمانيين فوسّعوا نفوذهم وخاصة نحو الشرق، وما جاءت الحرب العالمية الأولى إلا وعدن، والمقاطعات الغربية التي تشمل أجزاء جنوبي اليمن، والمقاطعات الشرقية وتشمل حضرموت والمهرة كلها تحت النفوذ الإنكليزي.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وانهزم العثمانيون وحلفاؤهم الألمان، ووقعت المعاهدة، وانسحب الوالي العثماني في صنعاء محمود نديم مع القوات العثمانية المرابطة في اليمن عن طريق عدن. وتسلّم الإمام يحيى الحكم كاملاً منذ ذلك الوقت ١٣٣٧، إلا أن اليمن قد أصبحت قسمين: الأول تحت حكم الإمام يحيى حميد الدين، وهو القسم الذي كان تحت السيادة العثمانية، والثاني وهو الذي بقي تحت سيطرة الإنكليز.


البحر الأحمر
صعدة
ميدي
اللحية
جزر قمران
صنعاء
الحديدة
زبيد
جزر زقر
جزر الحنيش
تعز
اليمن الجنوبية
المخا
المقياس
بريم
عدن

مصور رقم [٢٣]

الفصل الثامن

عُمانُ

تبدأ هذه المرحلة في عُمان بالغزو البرتغالي. وقد كانت البلاد من قبل تُحكم من قِبَل الأسرة النبهانية التي بدأت بالحكم منذ عام ٥٤٩، وتعرّضت لهجمات الفرس وبسط نفوذهم عليها عام ٦٦٤، كما امتد النفوذ اليمني إليها عام ٦٧٧. ثم غزاها حاكم البحرين أجود بن زامل الجبري، وقضى على حكم الأسرة النبهانية عام ٨٢٩، وولّى عليها عمر بن الخطاب الأباضي، واستمر حكم الأباضية حتى جاء البرتغاليون عام ٩١٣، وكان يحكمها يومذاك محمد بن إسماعيل الخروصي الذي دام حكمه من ٩٠٦ - ٩٤٢، وليس الأباضيون بأسرة، وإنما فرقة من الخوارج، ويختارون إمامهم باجتماع سري، لذا فالحكام قد تباينوا على المنطقة.

كانت عمان مدناً على شكل إمارات تشتهر الساحلية منها مثل: قلهات، ومسقط، وصحار، ومطرح... وتدفع كلها أتاوةً لحاكم جزيرة هرمز، ولم يكن لحاكم عُمان عليها سوى الاسم.

وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند عام ٩٠٤، وزار البوكرك الهند أول مرةٍ عام ٩٠٩، ووضع خطة الاستيلاء على منافذ البحر الأحمر والخليج العربي لاستمرار السيطرة البرتغالية وتأمين التجارة، وعندما رجع إلى البرتغال وعاد إلى الهند حمل معه أمراً، هو: تعيينه نائباً للملك في الهند وذلك عام ٩١٢.

هاجم البوكرك سوقطرى، واستولى عليها عام ٩١٣، وانطلق إلى عدن

ولكنه فشل في دخولها، فاتجه إلى ساحل عُمان فمرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحدّ، وصور، وقد أرهب السكان بأعماله الوحشية وأفعاله التي يندى لها الجبين، ووصل إلى قلهات، وطلب من حاكمها التسليم فوافق خوفاً على مدينته من التدمير، وإلحاق الشرّ بالسكان، وعقد معه صلحاً ومع ذلك فلم تسلم المدينة من الخراب، وانتقل إلى قرياط، ووجد عند أهلها فكرة المقاومة، فلم يُرسل لهم وفداً كما فعل في قلهات، وإنما بدأ بالقصف، فقاوم الأهالي، ثم استسلموا فجدع الأنوف، وقطع الآذان، وارتكب أسوأ أنواع الاعتداءات والمنكرات، وسار بعدها إلى مسقط، وكان أهلها قد حصنوها، فأرسل لهم وفداً للمفاوضة، فأبدوا استعدادهم للسلم على ألاّ تصاب مدينتهم بأذى، وجاءت نجدة إلى المدينة من هرمز، فظهر على حاكم مسقط أنه يتكلم من مركز القوة، ومع ذلك فقد قبل كل شيء من البرتغاليين لكنه أبى الخضوع لملك البرتغال، ولذا فقد بدأ الهجوم البرتغالي، واستمر كعادته حتى كانت له الغلبة، وفعل المهاجمون بأهل مسقط ما تشمئزّ منه الإنسانية، ثم انتقل إلى صحار فوافق أهلها على الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، ومع أنها لم تسلم من شرّ المتوحشين إلا أن طريقة معاملتهم كانت أقل سوءاً وبشاعةً واتجه بعدها إلى خورفكان فلم تستسلم، وقاوم أهلها مقاومةً عنيفةً، وانتقلوا إلى القلعة يُدافعون عن أنفسهم بعد أن أخلوا المدينة التي نُهبت ودُمّرت، ثم سار إلى هرمز وكان ملكها سيف الدين صغيراً فرفض الوصي عليه خوجة العطار الاستسلام فصبّ البرتغاليون جام غضبهم على المدينة، وتمكّنوا من إحراز النصر بسبب تفوّق الأسلحة فنال المدينة ما نال غيرها، وثار عليه قواده في هرمز فاضطر إلى العودة إلى جزيرة سوقطرى.

ورجع البوكرك عام ٩١٤ من سوقطرى إلى قلهات للانتقام منها لأنها قدّمت مساعداتٍ إلى هرمز أثناء حصارها، فنهب المدينة، وأراد الغدر بحاكمها شريف الدين الذي دعاه لزيارته في السفينة البرتغالية فاعتذر له بلباقةٍ أنجته مما خطط له المجرم البوكرك، ثم سار إلى هرمز، وألقى

الحصار عليها ولكن جاءته الأوامر بالقدوم من نائب ملك البرتغال المقيم في الهند، فترك الحصار، واتجه إلى الهند حيث تسلّم هناك نائباً للملك عام ٩١٥.

وفي عام ٩١٥ قُضي على قوة المماليك البحرية بعد معركة (ديو) فخلا الجو للبرتغاليين، وعاد البرتغاليون إلى عدن عام ٩١٩، ولكنهم فشلوا في دخولها نتيجة مقاومة عاملها مرجان العامري، فاتجهوا إلى المخا، والحديدة فوجدوا مقاومةً عنيفةً من قبل السكان فتركوهما، واستقروا في جزيرة قمران، ورجعوا إلى عدن ثانيةً فعجزوا عن اقتحامها للمرة الثالثة، فاتجهوا نحو زيلع وبربرة فدخلوهما، وارتكبوا أبشع الجرائم، ورحلوا بعدها إلى الهند.

ورجع البوكرك إلى الخليج عام ٩٢١ فمرّ على رأس الحدّ، وقرياط، ومسقط، وهرمز فحاصر الأخيرة، وقتل حاكمها فاستسلمت فوضع ابن أخيه حاكماً على قلعة هرمز ونائباً عنه في المنطقة ورجع إلى الهند، فمات في الطريق عام ٩٢٢، أما ابن أخيه فقد سار إلى البحرين واحتلّ مدنها.

هذه الأعمال الوحشية التي قام بها البرتغاليون والروح الصليبية الحاقدة التي كانت تدفعهم لارتكاب أعمالهم، والقرصنة التي لجؤوا إليها في الخليج، وبحر العرب، والمحيط الهندي قد أثارت مشاعر السكان، فكانوا يتحيّنون الفرصة للثورة على هؤلاء الغزاة، فقد ثار بنوظبية بزعامة الشيخ حسين بن سعيد على الوكيل التجاري البرتغالي في البحرين عام ٩٢٧، وبعد عام انتفض أهل الخليج جميعاً من قلهات حتى البحرين، وكانت الحركة بقِيادة شيخ هرمز شاه بندر الذي يخضع للبرتغاليين، وذلك نتيجة أعمال القرصنة التي يقوم بها البرتغاليون، وقد أمر شاه بندر بإحراق المراكب البرتغالية، وقتل الحامية، وعمّت هذه الحركة المراكز كلها عدا مسقط التي كان حاكمها الشيخ راشد على خلاف مع حاكم هرمز. وجاءت نجدة إلى البرتغاليين من الهند، فعزّزت القوات البرتغالية بالمنطقة بالتخطيط مع حاكم مسقط، ثم جاءت نجدة ثانية عام ٩٢٩، واضطر حاكم مسقط راشد أن يهرب من مدينته، وأن يترك الأمر للوالي دلامير شاه، وقد تمكّن

القائد البرتغالي من إخضاع مسقط، ثم توجّه إلى صحار فدمّرها، ومنها انتقل إلى هرمز، ولم يستطع البرتغاليون حمل أسراهم ولا إطعامهم فأمر القائد البرتغالي بجدع الأنوف، وقطع الآذان و.... ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد تشويههم و....

وقامت انتفاضة أخرى عام ٩٣٢، وجاءت نجدة من الهند للبرتغاليين فأخضعت قلهات، ثم مسقط ثم هرمز. وقامت أخرى بعد عام، وتبعتها انتفاضة في البحرين أيضاً عام ٩٣٥، لكن البرتغاليين كانوا يردّون بمنتهى القسوة بل الوحشية، وقد دمّروا صحار عام ٩٥٣، وأقاموا قلعةً جديدةً فيها عام ٩٥٥.

وأما موقف الدول المسلمة المجاورة فلم تكن هناك سوى دولتين إحداهما الدولة الصفوية القريبة من مسرح الأحداث، والدولة العثمانية التي امتد نفوذها في هذه الآونة إلى جزيرة العرب، ثم إلى العراق، أما الأولى وهي الدولة الصفوية فقد حرص إسماعيل الصفوي على عقد حلفٍ مع البرتغاليين ضد العثمانيين الذين انتصروا عليه في معركة جالديران عام ٩٢٠ غير أن موت البوكرك قد حال دون إتمام هذا الحلف. وأما الدولة العثمانية فقد قدّمت جهدها، وإن كان قليلاً لبعد الشقة، ولتكالب أوربا الصليبية على العثمانيين، وقد أرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً بقيادة بيري محيي الدين ريس فاستردت عدن عام ٩٥٨، ثم سارت إلى الشحر، وأخيراً رست سفنها في مسقط، وألقت الحصار عليها، وألزمت القائد البرتغالي على الاستسلام، ثم سارت إلى هرمز، ولم تستطع دخولها، فانطلقت إلى جزيرة قشم فاحتلتها، ومنها انطلقت إلى البصرة، ثم رجعت إلى البحرين عندما علمت بمجيء نجدةٍ من الهند إلى البرتغاليين، ثم عادت إلى السويس حيث استدعي قائدها بيري محيي الدين ريس إلى إستانبول وأعدم لفشل حملته إذ ظهر أنه كان سبباً في ذلك الفشل حيث بدأ يعمل في التجارة، أو كان اهتمامه بشؤون الحملة ضعيفاً. وجاءت حملة من السويس لإنقاذ مسقط فاستطاعت دخولها عام ٩٥٩، ثم غادرتها.

رجع البرتغاليون إلى الخليج عام ٩٦٠ فأرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً أيضاً من البصرة بإمرة مراد بك فالتقى بالأسطول البرتغالي عند رأس مسندم فهُزم مراد بك، وقُتل عدد من قادته، واضطر إلى العودة إلى البصرة.

وعاد السلطان العثماني سليمان القانوني فأرسل حملةً من البصرة أيضاً بإمرة سيد علي ريس حسين عام ٩٦٢، فتقابل مع الأسطول البرتغالي عند خليج (ليمة) قرب رأس مسندم فانتصر المسلمون رغم أن الأسطول البرتغالي كان ثلاثة أضعاف الأسطول العثماني في عدد سفنه، وتتبع قائد الحملة المسلمة الأعداء، ودارت هناك معركة ثانية قرب مسقط انتصر فيها المسلمون أيضاً غير أن عاصفة بحريةً قد هبّت على الأسطول العثماني قذفت به إلى ساحل مكران فتزوّد من هناك، وعاد باتجاه الغرب، ولما وصل إلى ساحل ظفار جاءت عاصفة شديدة أخرى قذفت به إلى ساحل كوجرات في الهند، فأطلق قائد الأسطول سراح جنده وعاد براً إلى إستانبول.

وفي عام ٩٨٨ أرسل والي اليمن سنان باشا أيام الخليفة مراد الثالث حملةً بحريةً انطلقت من اليمن بقيادة الريس أمير علي بك، فحاصر مسقط، وجاءت للبرتغاليين فيها نجدة من هرمز، ومع ذلك فقد انتصر القائد العثماني نصراً مؤزراً ودخل مسقط، ثم سار فهاجم المراكز البرتغالية في شرقي إفريقية مثل ممباسا، ومالندي، فأسره البرتغاليون هناك حيث أرسل إلى لشبونة عام ٩٩٨، ومات بالتعذيب.

بدأ النفوذ البرتغالي يضعف في منطقة الشرق ومنها عُمان، إذ احتلت إسبانيا البرتغال عام ٩٨٨، ومنع الإسبان البرتغاليين من التجارة مع هولندا التي انفصلت عن إسبانيا آنذاك، فبدأت هولندا تزاحم إسبانيا التي آلت إليها أملاك البرتغاليين وتقوّي الإنكليز وحلفاءهم الفرس ضد الإسبان أو البرتغاليين. وقد تفاهم الشاه عباس الأول الصفوي مع الإنكليز عام ٩٩٦، وتأسست شركة الهند الشرقية الهولندية في أمستردام عام ١٠٠٣، وأعقبتها

شركة الهند الشرقية الإنكليزية عام ١٠٠٨، وبدأت التجارة مع الشاه الصفوي عباس عام ١٠٢٤، غير أن البرتغاليين قد هاجموا صحار فتحوّلت إلى رماد وذلك عام ١٠٢٥ بمساعدة عمر بن حميد زعيم إحدى القبائل.

وعاد الفرس إلى صحار عام ١٠٣٣، ثم أخرجهم البرتغاليون منها، واستولى الفرس على هرمز من البرتغاليين بمساعدة الإنكليز عام ١٠٤٠، وأخيراً قوي أمر أهل عُمان بعد حكم اليعاربة، وفتحت مسقط عام ١٠٥٨، وبقي فيها ثمانية عشر نصرانياً أعلنوا إسلامهم بعد عام، ومنذ عام ١٠٦١ بدأ العمانيون يُغيرون على زنجبار ومستوطنات البرتغاليين في شرقي إفريقية.

اليعاربة:

في هذه الأثناء برزت أسرة اليعاربة التي تعود إلى أصل قحطاني كالأزد، وإن كان قدوم أصولها إلى عُمان سابق لمجيء الأزد، وكان ظهور هذه الأسرة جديداً على يد ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي الذي استطاع أن يطرد البرتغاليين من كل أنحاء عُمان باستثناء بعض المناطق المحصّنة مثل مسقط، ومطرح، وصحار.

وتوفي ناصر بن مرشد عام ١٠٥٠، وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، وهو الذي استطاع أن يُنقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما أخذ قائده سعيد بن خليفة قلعة الميزاني المشهورة في مسقط. وتوفي سلطان حوالي عام ١٠٩٠، وقام بالأمر من بعده ابنه بلعرب لكن لم يلبث أن اختلف مع أخيه سيف، وبدأت المنازعات بينهما حتى توفي بلعرب عام ١١٠٤ فصفا لسيف الجو، وقد عُرف بقيد الأرض، واستطاع أن يُنقذ ممباسا من يد البرتغاليين عام ١١١٢، كما نقل مقر الحكم من نزوى التي بقيت حتى هذا العام ١١١٢ قاعدة للسلطان إلى مسقط. وتوفي عام ١١٢٣، وخلفه ابنه سلطان الذي عُرف باسم سلطان الثاني، وتمكّن أن يستولي على البحرين من أيدي الفرس، وتوفي عام ١١٣١، وقام مكانه ابنه سيف الثاني أيضاً، غير أن عدي بن سليمان الذهلي قد بايع

مهنا أخا سيف عام ١١٣٤، وبينما كان مهنا في واحة البريمي إذ بابن عمه يعرب بن بلعرب يستولي على السلطة ولكن لا يستمر أكثر من عام إذ يعود الأمر لسيف الثاني عام ١١٣٥، وبعد أن قضى عامين في السلطة يقوم محمد بن ناصر ويستولي على مسقط، ويحكم ثلاثة أعوام ثم يتوفى فيعود سيف للمرة الثالثة عام ١١٤٠، ويبقى يقاوم الفرس بعد أن استدعاهم لدعمه ضد تمردٍ عليه. إذ دخلوا مسقط ولم تسقط قلاعها بأيديهم، وأرسل القائد الفارسي جزءاً من جنده لحصار صحار، ولكنهم اضطروا لترك الحصار والتخلّي عن مسقط وذلك عام ١١٥٢. إلا أن نادر شاه عاد فأرسل حملة أخرى عام ١١٥٤، استطاعت أن تدخل المدن العمانية كلها عدا صحار. وربما هذا كان سبباً في ظهور أحمد بن سعيد وتأسيس الأسرة البوسعيدية التي حكمت بعد انتهاء حكم اليعاربة عام ١١٥٤.

البوسعيديون:

وتنتمي هذه الأسرة إلى أحمد بن سعيد الذي بدأ حياته بالتجارة، واستطاع بحنكته أن يصبح حاكماً لمدينة صحار، وقد دافع عنها عند حصار الفرس لها، وكان معه في الحصار سلطان بن مرشد ابن عم الإمام سيف بن سلطان، وكان سلطان هذا مرشحاً للإمامة غير أنه قُتل في المعركة التي جرت أثناء الحصار الثاني لصحار عام ١١٥٦، واضطر أحمد بن سعيد أن يتصالح مع الفرس على أن يدفع لهم أتاوةً سنويةً، وعندما رحلوا عنه رفض الدفع، وتمكّن من إجلاء الفرس عن البلاد، وأعلن نفسه إماماً.

استقل في ممباسا محمد بن عثمان المزروعي عندما انتقل الحكم من اليعاربة إلى البوسعيديين فأرسل إليه أحمد بن سعيد خمسةً من أنصاره أظهروا خلاف إمام عُمان فأكرمهم المزروعي، ثم غدروا به، واستلم حكم ممباسا أحدهم، وهو سيف بن خليفة، وهرب علي بن عثمان المزروعي أخو الحاكم السابق من السجن الذي أُودع به، والتجأ إلى سفينةٍ بريطانيةٍ كانت في ميناء (مالندي)، وقوّى نفسه، واستطاع أن يعود إلى ممباسا، وأن

يقتل سيف بن خليفة، وبذا استقلت ممباسا عن عُمان عام ١١٦٠.

وحارب أحمد بن سعيد الفرس، وانتصر عليهم عام ١١٦٩ فمنحه الخليفة العثماني مصطفى الثالث إعانة شكرٍ سنوية على هذا الانتصار.

وانتقلت الإمامة إلى ولده الثاني سعيد عام ١١٩١ لأن ولده الأكبر هلالاً كان كفيفاً، أما أحمد بن سعيد فقد توفي عام ١١٩٥. وفي عام ١١٩٣ بدّل سعيد لقب إمام إلى سيد، ولم تطل أيام سعيد حيث توفي عام ١١٩٤، وخلفه ابنه حمد، وقد نازعه أعمامه. إذ اتجه عمه سيف إلى شرقي إفريقية، وحاصر ممباسا عام ١١٩٥ فطلب حاكمها نجدةً من ابن أخي سيف فجاءته، فاضطر سيف إلى ترك الحصار، واتجه إلى مدينة (لامو) حيث توفي هناك تاركاً ولداً اسمه بدر، وحكم حمد بن سعيد زنجبار في عام ١١٩٩.

أما عمه الصغير سلطان فقد ألزمه ابن أخيه حمد على مغادرة بلاد عُمان عام ١١٩٩ فالتجأ إلى مكران فأعطاه ناصر خان الأول ميناء «جواذر» غرب كراتشي الآن، فاستطاع أن يُقوّي نفسه، وأن يغزو ساحل عُمان عام ١٢٠٧، وأن يُسيطر عليه بمساعدة الغافريين، ويُعلن نفسه سلطاناً. أما ابن أخيه حمد فقد بقي إماماً في نزوى، ولم يقبل النفوذ الإنكليزي، على حين دعم الإنكليز سلطان مسقط (سلطان بن أحمد)، وبذا انقسمت البلاد بين إمام في نزوى، وسلطان في مسقط، وفاوض سلطان الإنكليز عن طريق ميرزا مهدي علي خان الفارسي عام ١٢٠٧، وأبعد نتيجة ذلك الفرنسيين والهولنديين من أراضيه.

وعندما وصل نابليون بونابرت إلى مصر واحتلها عام ١٢١٣ كتب إلى سلطان تيبو سلطان ميسور في الهند رسالة يدعوه فيها إلى التفاهم لتخليصه من الاستعمار الإنكليزي إلا أن هذه الرسالة وقعت في يد صموئيل ويلسون بالمخا في اليمن فكتب بذلك إلى الحاكم الإنكليزي في بوشهر، فكتب إلى بدر بن سيف بن أحمد نائب سلطان بن أحمد الذي كان في حرب مع القواسمة، ويُساعده الفرنسيون في ذلك، ومع ذلك فقد قبل مقيماً بريطانياً في مسقط، ورفض وجود مقيم فرنسي.

وتوفي سلطان بن أحمد عام ١٢١٩، وخلفه ابنه سالم غير أن ابن عمه بدر بن سيف بن أحمد الذي كان وصياً على سالم قد تمكّن من عزله، واستلام الأمر دونه، ولم يكن بدر محبوباً، واستمر في السلطة حتى عام ١٢٢٢ حتى استطاع ابن عمه سعيد انتزاع الأمر منه، ونفيه إلى لامو حيث توفي هناك، وقد شارك سالم أخاه سعيداً في السلطة ولكنه توفي بالفالج عام ١٢٣٦، وبقي سعيد وحده في السلطة حتى عام ١٢٧٣.

اشترك سعيد بن سلطان مع الإنكليز ضد القواسمة، ثم انضمّ إليهم سلطان بن صقر شيخ القواسمة الذي عزله السعوديون وولّوا مكانه ابن عمه حسين بن علي، كما أمكن الاستيلاء على رأس الخيمة حيث كان جابر بن رحمة زعيم القراصنة فيها، ثم قام بالهجوم على البحرين عام ١٢٤٤، ويُعدّ سعيد هو أول من أضاف لقب سلطان إلى لقب سيد.

وعندما أراد سعيد أن يزور زنجبار عام ١٢٤٤ ولّى مكانه ابن أخيه سالم، وفي الوقت نفسه دعا ابن عمه (هلال) لزيارته غير أنه غدر به واعتقله، فقامت ابنة عمه هلال بثورة لاعتقال أخيها، وعندما رجع سعيد من زيارته لزنجبار أطلق سراح ابن عمه.

ونازع سعيد ابن عمه الآخر حمود بن عزان بن قيس، وقد هاجم صحار، واستولى عليها، ثم استولى على كثير من ساحل عُمان، وفي عام ١٢٥٢ تنازل حمود لابنه سيف عن صحار، ولكنه ندم على ذلك ـ على ما يبدو ـ فحرّض خادم ابنه لقتل سيّده، ورجع حمود إلى حكم صحار عام ١٢٦٥.

توفي سعيد بن سلطان عام ١٢٧٣، وترك عدداً من الأولاد أما أكبرهم وهو هلال فقد توفي في حياة أبيه، أما الآخرون فكان الكبار منهم ثويني وماجد، وهما شقيقان، وقد اختلفا على التركة، فحلّ الخلاف بينهما نائب الملك في الهند اللورد كاننغ حيث أخذ ثويني عُمان، وأخذ ماجد أملاك عُمان في شرقي إفريقية.

حكم ثويني عُمان، وقد ثار عليه الإمام عزّان بن قيس الذي أراد أن يُعيد السلطنة إلى الإمامة، وهو إضافةً إلى أنه من أسرة بو سعيد فهو ابن عم السلطان وزوج ابنته أيضاً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطوله للاستيلاء على أملاك أخيه ماجد في شرقي إفريقية لضمها إلى سلطانه، وإعادة توحيد الدولة غير أن حاكم بومباي قد أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحدّ.

أما تركي بن سعيد فقد كان والياً على مدينة صحار، وتصالح مع أخيه ثويني وابنه سالم، واتجه ثويني وابنه سالم إلى زيارة صحار، وبينما كان تركي وأخوه ثويني معاً، توجّه عبد العزيز بن ثويني إلى عمه تركي، وأعلمه أن السلطان قد أصدر أمراً باعتقال تركي وإيداعه في السجن مباشرةً، وقيّده عبد العزيز بالحديد، وحمله إلى السجن، أما سالم الابن الأكبر لثويني فقد انطلق إلى غرفة أبيه وكان قد وصل إليه وقتله، وتسلّم السلطنة مكانه عام ١٢٨٣، واعترفت حكومة الهند بسالم سلطاناً على مسقط، ولم تقبل بتركي بن سعيد.

ولم يكن سالم محبوباً، فتمرّدت عليه القبائل في الداخل، وانتخبت عزّان بن قيس الذي استطاع أن يأخذ الحكم، ويدخل مسقط، ويضطر سالم إلى أن يُغادر البلاد إلى بندر عباس عام ١٢٨٥، وتوحّدت السلطنة والإمامة ولكن لمدة قصيرةٍ.

أما تركي فقد هرب من سجن ابن أخيه سالم بمساعدة حارس السجن، واستولى على مطرح، وهاجم أسوار مسقط، ولكن لم ينجح إذ أن التهديد الإنكليزي بعدم الاعتراف به قد أوقفه عند حدّه، إذ أن الإنكليز كانوا قد اعترفوا بسالم سلطاناً على مسقط خلفاً لأبيه ثويني، ثم تمّ الاتفاق على أن يحصل تركي على راتبٍ سنوي، قدره ٧٢٠٠ دولار من سالم سلطان مسقط، يؤخذ من معونة زنجبار لعُمان على أن يتخلّى عن الحكم، وركب البحر ومعه ابنه فيصل إلى جواذر، وقد عزل الوالي الذي عيّنه

عزّان بن قيس سلطان مسقط الجديد أو إمام عُمان. وبقي هناك حتى عام ١٢٨٩ حيث قوّى نفسه بما حصل عليه من أموال من زنجبار، وبمساعدة بعض رجال القبائل، وفي الوقت نفسه فقد دعمته بريطانيا فانتقل إلى عُمان، وهزم عزّان بن قيس، واستولى على الحكم عام ١٢٨٩، وبعد مقتل عزّان بن قيس لم يُنتخب إماماً حتى عام ١٣٣٢ عندما تمرّدت بعض القبائل في الداخل، واختارت سالم بن راشد الخروصي إماماً، وقد أحرز عدة انتصارات إذ استولى على نزوى، وبعض الجهات الثانية.

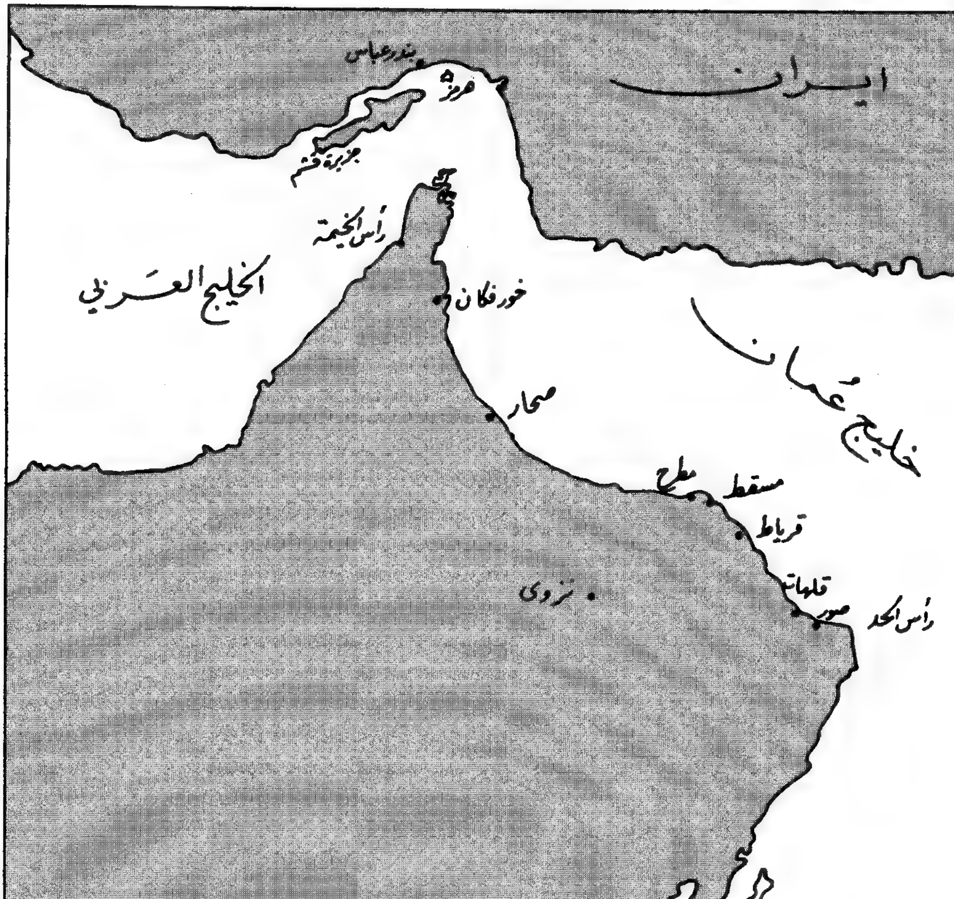
وفي عام ١٢٩٤ وصل إلى ظفار سيد فضل قادماً من مليبار في الهند، وتوصّل إلى بسط نفوذه بمساعدة قبيلة القراء التي دعاه رجالها عندما التقوا به في موسم الحج إلى بلادهم، فانفصلت ظفار عن عُمان، ولكن سيد فضل لم يلبث أن طُرد من البلاد، حيث استطاع سلمان بن سويلم قائد سلطان مسقط أن يُعيد ظفار لعُمان، واتجه سيد فضل إلى استانبول وكان مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ولكن رجع ابنه محمد بن سيد فضل عام ١٣٠٤ على ظهر سفينةٍ بريطانيةٍ مع مائة رجلٍ من أتباعه إلى عدن، وحدثت اضطرابات في ظفار فطلب سليمان بن سويلم الدعم فأنجده السلطان بحملةٍ بقيادة ابنه فيصل، الذي رجع مع ثلاثين رجلاً من الكثيرين، وعندما أصبح فيصل سلطاناً أطلق سراح رهائنه.

وتوفي تركي عام ١٣٠٥ وخلفه نجله الثاني فيصل وأبعد ابنه الأكبر محمداً، بموافقة أهل العلم الذين أعجبتهم سيرة فيصل عندما كان حاكماً على نزوى، وفي أيامه زاد التدخل الأجنبي في البلاد.

وكان سلطان زنجبار برغش عمّ فيصل يسعى لإعادة الوحدة بين عُمان وزنجبار، وكان يمدّ عبد الله بن صالح بن علي بالمال والسلاح، وقامت محاولة لاغتيال فيصل عام ١٣١٣ على يد عبد الله بن صالح، واستطاع فيصل أن ينتقل إلى القلعة «الجلالي» كما وصل أخوه محمد إلى قلعة «الميزاني» وطلب المساعدة الإنكليزية ولكن لم يُلب طلبه، مما جعل العلاقة تفتر بين الطرفين بعد ذلك، ثم جاء أنصار السلطان، وتغلب على خصومه.

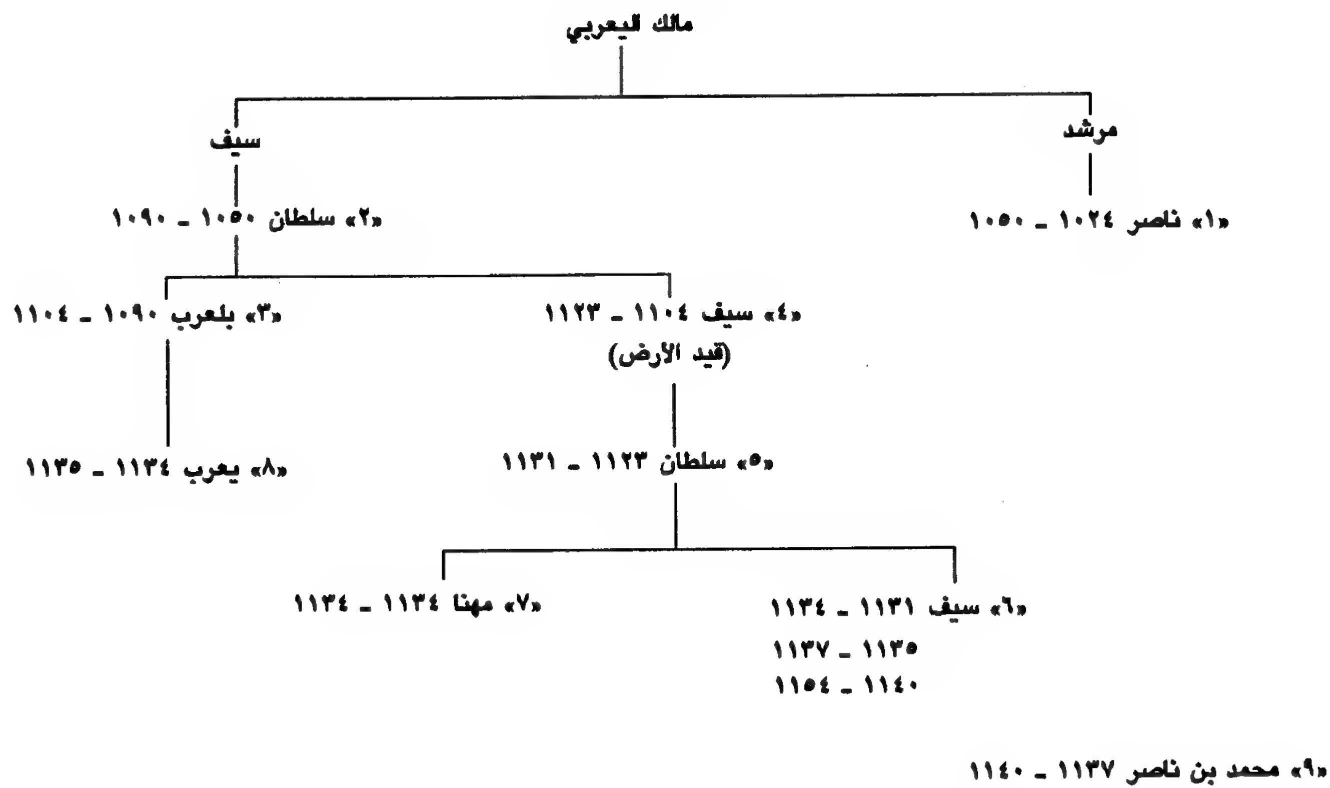
وأما في ظفار فقد ثار الكثيريون وقتلوا مسعداً نائب الوالي وابن أخيه مع أتباعه، فأرسل إليهم فيصل قوةً بحريةً بإمرة أحمد بن ناصر فأخمد نار الفتنة، وعاد سليمان بن سويلم من إجازته، وتوفي عام ١٣٢٥، وخلفه في إمرة ظفار بخيت، ثم عبد الله بن سلمان، ثم سعود بن علي من سلالة الإمام أحمد بن سعيد وذلك عام ١٣٤١هـ.

وتوفي فيصل عام ١٣٣٢ وخلفه ابنه تيمور، وقام الإمام سالم بن راشد الخروصي بشن غاراتٍ ضد تيمور، وكانت قوات الإمام بقيادة حِمْيَر بن ناصر. وجاء الإمام الجديد محمد بن عبد الله الخليلي، ولم يكن محبوباً من قبل السلطان تيمور أيضاً. وتوفي تيمور عام ١٣٥١، وخلفه ابنه سعيد وفي عهده سقطت الإمامة عام ١٣٩٠، ونُفي الإمام غالب بن علي الذي شكّل حكومة في المنفى، ولكن بقيت حتى حين.

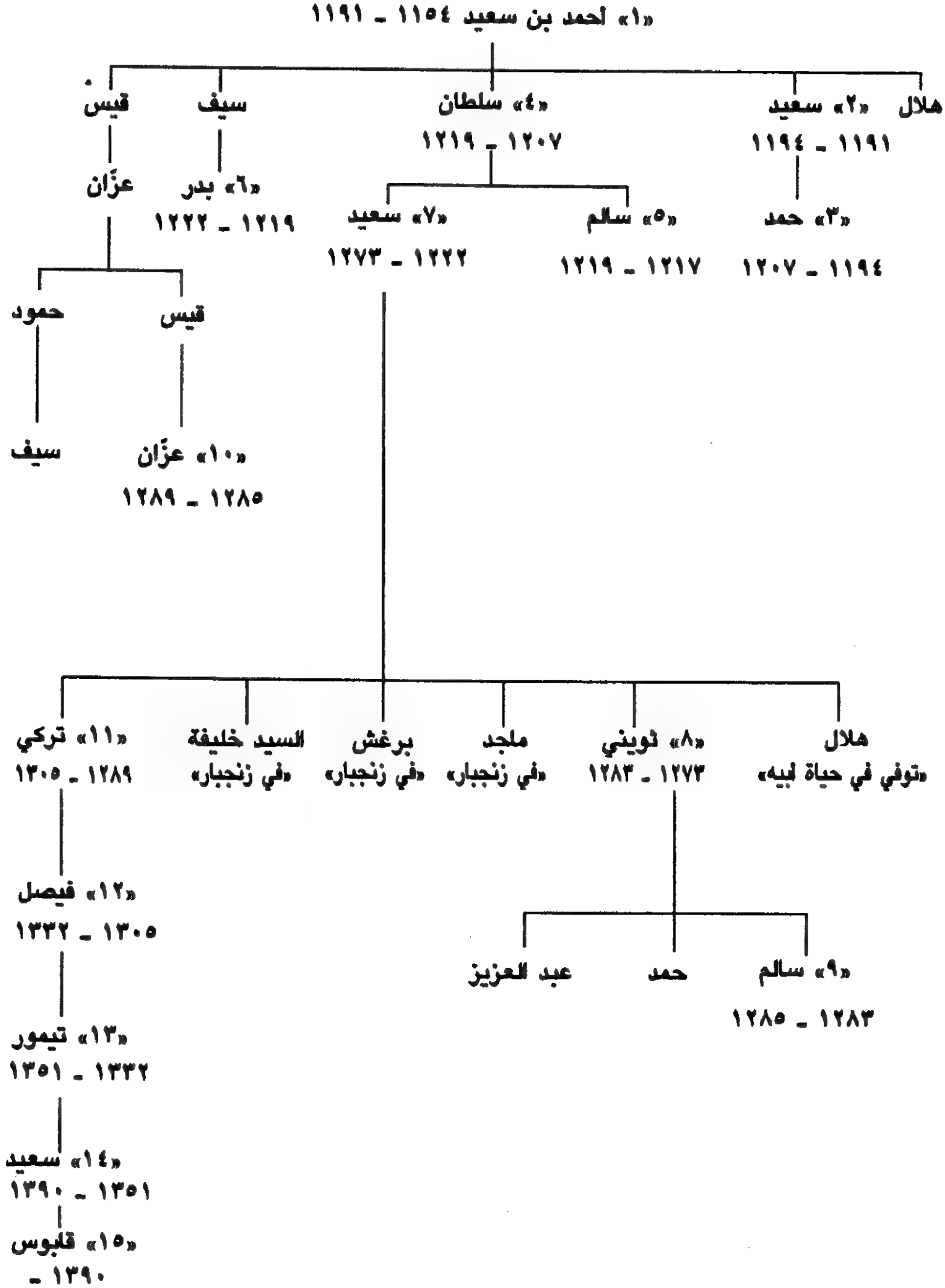

إيران
بندر عباس
هرمز
جزيرة قشم
رأس الخيمة
الخليج العربي
خورفكان
خليج عُمان
صحار
مطرح
مسقط
قرياط
قلهات
صور
رأس الحد
نزوى
جزيرة المصيرة
ظفار
المقياس
كيلومتر ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [٢٤]

اليعَاربة:


مالك اليعربي
مرشد
سيف
«١» ناصر ١٠٢٤ ـ ١٠٥٠
«٢» سلطان ١٠٥٠ ـ ١٠٩٠
«٤» سيف ١١٠٤ ـ ١١٢٣
(قيد الأرض)
«٣» بلعرب ١٠٩٠ ـ ١١٠٤
«٥» سلطان ١١٢٣ ـ ١١٣١
«٨» يعرب ١١٣٤ ـ ١١٣٥
«٦» سيف ١١٣١ ـ ١١٣٤
١١٣٥ ـ ١١٣٧
١١٤٠ ـ ١١٥٤
«٧» مهنا ١١٣٤ ـ ١١٣٤
«٩» محمد بن ناصر ١١٣٧ ـ ١١٤٠

البوسعيديون



الباب الثالث

أواسط آسيا وأنقاض دولة التتار

تمتد هذه المنطقة على مساحاتٍ واسعةٍ تقترب في اتساعها من قارة أوربا، وتقع في قارتي آسيا وأوربا. وكان تيمورلنك قد بسط سلطانه على معظمها، وإذا كانت هناك بقاع أخرى قد سيطر عليها تقع خارج هذه المناطق إلاّ أن هناك جهاتٍ ضمن هذه الأجزاء لم تخضع له، ولكن اتفق مع حكامها أو اعترفوا بحمايته لهم.

إن الدول التي نشأت في هذه المناطق لم تكن في حدودٍ ثابتةٍ معينةٍ وإنما كانت تتبدل باستمرار، فتتوسع الدولة أحياناً على حساب غيرها ثم تعود فتنكمش أو تضمر حتى تكاد تزول غير أنها لا تلبث أن تعود إلى التوسع، وهذا ما يجعل دراستها معقدةً لتداخلها بعضها مع بعض، وكذلك فإن الدول الحديثة التي قامت على أنقاضها لم تقم في رقعة ثابتة المعالم.

لقد قامت في هذه البقاع دولتان حديثتان هما: إيران وأفغانستان، أما بقية المناطق فقد سيطرت عليها روسيا وضمتها إلى امبراطوريتها الواسعة، وأنشأت فيها جمهورياتٍ اتحاديةٍ، وأخرى ذات استقلال ذاتي، وثالثة سمتها مقاطعات ذات استقلال ذاتي، ورابعةً ابتلعتها وعدّتها أجزاء من جمهورية روسيا الاتحادية بالذات، ومع هذه التقسيمات الغريبة القائمة في الامبراطورية الروسية إلا أننا نستطيع أن نرى ثلاثة أجزاء واضحة المعالم أحدها يقع في أوربا في القسم الشرقي منها، وإن نشأت فيه عدة دول، والآخر يقع بين أوربا وآسيا، وهو بلاد القفقاس، والثالث يشمل أواسط آسيا أو ما كان قديماً يُعرف باسم ما وراء النهر، وقامت فيه عدة دول أيضاً. هذا بالإضافة إلى أجزاء في الشرق ضمت إلى الصين الأمر الذي يزيد الموضوع تعقيداً.

وإذا كانت المناطق التي قامت فيها دول حديثة وهي أفغانستان وإيران يغلب عليها العنصر الفارسي، واللغة الفارسية، ولغة البشتو فإن الجهات التي يُسيطر عليها الروس والتي تقع في آسيا وفي أوربا يغلب عليها العنصر التركي أو التتاري أو التركي في آسيا والتتاري في أوربا وإن كان كلاهما يرجع إلى أصل واحد، أما منطقة القفقاس فتتعدد فيها الأجناس واللغات لدرجةٍ كبيرةٍ حتى لا يتجاوز عدد أفراد الجنس الواحد مئات الألوف أحياناً، ويشغل مساحة صغيرةً من الأرض أيضاً، وقد تكون لغته خاصةً به لا يعرفها أحد غيره من العالمين.

واستغلّ الروس هذه الاختلافات البشرية أو اللغوية فقسّموا المنطقة على أساسها، وفرّقوا بين أبنائها، وحالوا دون ارتباطهم بالعقيدة التي تجمعهم. وعملوا على تجزئتهم بكل إمكاناتهم، وأسكنوا الروس بينهم لمراقبتهم، واستثمار أرضهم، وأخذها لإبقائهم فقراء، ونهب خيرات بلادهم، وإضعاف نسبتهم أيضاً، وإفسادهم، ونقل المعلومات عنهم، وفي الوقت نفسه عملوا على التشكيك في الإسلام، وسلخ السكان من تاريخهم وحضارتهم مع المحافظة على كنيسة الروس الأرثوذكسية والارتباط بالتراث والتاريخ الروسي رغم حداثته. ومع التغيّر الاجتماعي جذرياً، والتطورات التي طرأت على المجتمع الروسي بعد تطبيق الشيوعية فإن السياسة واحدة لم تتغيّر ولم تتبدّل. والعمل ضدّ الإسلام لم يتحوّل وإن كان قديماً باسم الخلاف بين الدول فإنه الآن باسم الشيوعية التي تحارب الأديان ولكن يبدو أنها تحارب الإسلام فقط، ولم تصل الحرب إلى اليهودية والنصرانية بالدرجة التي وصلت إلى الإسلام حيث نجد اليهودية ذات نفوذٍ وجذور، والنصرانية يرغب الحكام أن يتحوّل الشعب كله إليها بل إلى المذهب الأرثوذكسي الذي تُعدّ موسكو مركزه الرئيسي، وذلك لتتمّ الوحدة الوطنية ـ حسب زعمهم ـ.

الفصل الأول

شرقي أوربا وسيبيريا الغربية

احتل المغول شرقي أوربا في أيام جنكيزخان، واستقلت أسرة جوجي بن جنكيزخان في حكم هذه المنطقة، وقد عرفت باسم القبيلة الذهبية أو مغول الشمال، ولم يلبث أبناؤها أن اعتنقوا الإسلام، وكانت حاضرتها مدينة سراي على نهر الفولغا، ثم انفصلت عنها القرم، وقازان، واستراخان. وبعد غزو تيمورلنك للمنطقة انفصلت سيبيريا أيضاً.

زالت دولة سراي عام ٩٠٧ على يد خان القرم مكلي كراي، وأصبح يطلق على خانات أطراف الأورال (أوفا، وأورنبرغ) وعلى خانات بلاد ما وراء النهر أيضاً اسم «نوغاي». وأصبح لكل خان من خانات هذه المنطقة إمارة مستقلة، لها تاريخها المستقل، ويعيش كل خان في قصره لمصالحه الخاصة وشهواته التي لا حدود لها، وهذا ـ مع الأسف ـ ما عرفه الأوربيون أو الأجانب عامةً عن حياة المسلمين من حياة سلاطينهم أو خاناتهم هؤلاء فامتلأت نفوسهم كرهاً للإسلام إضافةً إلى حقدهم الصليبي الذي تفوح رائحته في كل تصرّفٍ من تصرفاتهم. ولم يكن من رابطٍ يجمع بين هؤلاء الخانات رغم أنهم من عقيدةٍ واحدةٍ، لأن أهدافهم المصلحية والشهوانية مختلفة، ولا يذكرون رابطة الإسلام إلا عندما تنزل بهم الضائقة، أما عدا ذلك فقد يلتقي بعضهم مع العدو اللدود لهم جميعاً وهم الروس ضد بعضهم الآخر ما دامت المصلحة الذاتية تتطلب ذلك، وكانت إمارة الروس قد بدأت تظهر حوالي عام ٨٨٦، وبدأت تقوى وتضرب بعضهم ببعض، وتسيطر على جزء بعد آخر، وهم يتقرّبون منها ويتنافرون فيما بينهم حتى ابتلعتهم جميعاً، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأقسام معاً.

أ ـ قازان:

كان يحكم قازان في بدء هذه المرحلة عبد اللطيف خان، وكان على وفاقٍ مع الروس، وقد توفي عام ٩٢٤، وخلفه أخوه محمد أمين خان، وطلب حاكم القرم محمد كراي أن يُعيّن أخوه صاحب كراي ولياً لعهد محمد أمين خان بصفته أخوه لأمه، ووافقت روسيا على ذلك بشرط أن يكون حاكم القرم خصماً لبولونيا، وأن تحارب روسيا خانية استراخان، وتمّ تنصيب صاحب كراي ولياً لعهد قازان على حساب مسلمي استراخان الذي ضحّى بهم صاحب القرم لمصلحته. وفي عام ٩٢٥ توفي محمد أمين خان نتيجة مرضٍ أصابه، ولم يعقب، فانقطع حكم أسرة ألوغ محمد خان عن حكم قازان بعد أن استمر أمرها بيدها مدة خمس وثمانين سنة، وبدأت خانية قازان تحتضر إذ لم يعد خاناتها يهتمون بها، واستمرت بعد ذلك أربع وثلاثون سنة ثم قُضي عليها. ولكن نقضت روسيا اتفاقها مع محمد كراي وعيّنت على قازان شيخ علي خان، وأبعد صاحب كراي.

أغارت القرم على بولونيا، وأحرزت النصر، وحصلت على كثيرٍ من الغنائم، وطلبت روسيا من الخليفة العثماني أن يحول دون هجوم محمد كراي أو إغارته عليها، فطلب الخليفة منه الاتجار مع روسيا وعدم التعدي عليها، وبإمكانه أن يُغير على بولونيا وليتوانيا للحصول على الغنائم. فلما توفي السلطان سليم عام ٩٢٦ أغار محمد كراي على روسيا، وجاس خلال أراضيها، ونال من الغنائم الشيء الكثير، فتوسلت روسيا من الخليفة سليمان القانوني الذي خلف أباه عن طريق وفدها الذي سافر إلى إستانبول لتهنئة الخليفة الجديد بالحكم، فطلب الخليفة من محمد كراي أن يمتنع عن الإغارة على روسيا، فردّ محمد كراي بأن روسيا عدوة للإسلام، وأنها تُحوّل المساجد إلى كنائس، وأنها تمدّ العجم بالمال والسلاح فلم يأبه الخليفة لهذا الكلام، وأصرّ على حاكم القرم بأن يُوقف هجماته واعتداءاته على الروس.

وفي عام ٩٢٨ تقدّم صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان بعد اتصالات مع

رجالها، وتسلّم المدينة عنوةً، وقبض على شيخ علي خان، وأودعه السجن، كما قبض على الروس الذين كانوا في قازان، وعلى تُجّارهم، وأخذ أموالهم، ولم يقتل شيخ علي خان، وإنما عفا عنه، وأطلق سراحه، وسمح له بالانتقال إلى المكان الذي يريده بصفته من أسرة توقتاميش، فانتقل شيخ علي خان إلى موسكو وبذا أصبح يحكم القرم وقازان أخوان، وقد سارا لحرب الروس ومعهم جماعات من تتار النوغاي، كما تفاهموا مع بولونيا، وأحرز التتار النصر، ووقع الخوف في نفوس الروس، وفرّوا مذعورين إلى موسكو، فطلبت روسيا الصلح والعودة إلى دفع الجزية فوافق التتار ورجعوا إلى بلادهم.

أرسلت روسيا قوةً لحرب قازان، وجعلت إمرتها لشيخ علي خان، فوصلت إلى أطراف قازان، ولكن لم تتمكن من دخولها وذلك عام ٩٣٠، ولما تأكد صاحب كراي من ضعفه أرسل إلى الخليفة العثماني سليمان القانوني يطلب منه أن تكون خانية قازان تابعةً للدولة العثمانية فوافق الخليفة، ولكن لم يرسل له قوةً تحميه من تعديات الروس، وإنما أخبر روسيا عن طريق سفيره في موسكو بتبعية قازان له بناءً على طلب خانها فأجابت روسيا أن خانية قازان تتبعها منذ مدة ولا يحق لصاحب كراي أن يتصرّف إلا بما تحت يده، وأرسلت قوةً عظيمةً ضمّت ليتوانيين ونمساويين بجانب الروس لتضمّ قازان إليها، وتطرد صاحب كراي منها لتؤكد ما ادعته، ولتسبق العثمانيين إليها، وأحسّ صاحب كراي بذلك فغادر مدينته بحجة الذهاب إلى السلطان العثماني والمجيء بمددٍ من عنده، وولّى مكانه ابن أخيه صفا كراي بن محمود كراي، وهو صغير، فحشد أهل قازان طاقتهم، وجمعوا إمكاناتهم، واستعدّوا للروس الذين وصلوا إلى مقربةٍ من قازان، وأقاموا معسكرهم هناك، فعمل أهل قازان على إحراق المؤن والمواد في أطراف مدينتهم كي لا يستفيد منها الروس، وبعد أشهر رجع الروس إلى بلادهم دون الحصول على نتيجة، ولكن من شدة الخوف الذي أصاب أهل قازان ولم يكن يعلم به الروس فقد أرسلوا وفداً إلى موسكو

لعرض التبعية الاسمية لها وهم لا يعلمون أيضاً ما أصاب الروس من ذعر أثناء إقامتهم قرب قازان، فوافقت موسكو على قبول تبعية قازان لها، وأخذوا رهائن من وفدها.

وفي عام ٩٣٦ أرسلت موسكو وفداً إلى قازان لتجديد عهد الصداقة فتمّ ذلك، ثم أرسلت مندوباً لها ليقيم في قازان بصورةٍ دائمةٍ ليراقب تحركات التتار بها، غير أن هذا المندوب قد أساء التصرف في المهمة التي سار من أجلها لهدفٍ أو قصدٍ يريده إذ أخبر دولته أن خان قازان صفا كراي يكره الروس غير أنه مضطر للسكوت أمام رعاياه الذين يُفضّلون السلامة، ولكنه استطاع في الآونة الأخيرة أن يستميل السكان إلى جهته، وأن يستعّد للقتال، وقد احتقر المندوب عندما وصل إليه، ونال من دولته ، لهذا يرى المندوب نفسه مضطراً للعودة فاستعدت روسيا للقتال بعدما سمعت هذا من مندوبها، ووصل الخبر إلى خانية قازان فاستعدت أيضاً للحرب، وجاءها ثلاثون ألف مقاتل من النوغاي بقيادة مماي خان صهر صفا كراي، وجاء الهجوم الروسي مفاجئاً وتمكّن الغزاة أن يقتلوا ستين ألفاً من القازانيين، واستأسد أهل البلاد للدفاع عن مدينتهم وانتصروا على الروس الذين طلبوا الصلح، ورجعوا إلى بلادهم، ووبّخ الروس قائدهم وعدّوا انسحابه خيانةً، واتهموه بأخذ المال من أهل قازان مقابل انسحابه، وانطلق وفد من قازان إلى موسكو لعقد الصلح الذي تمّ فاتفق مع موسكو على أن يُعاد أسرى الروس وما غنمه أهل قازان منهم، وأن يُعطي أهل قازان العهد، ولكنه اختلف على تسليم موسكو ما أخذه جنودها، وإطلاق سراح ما لديها من أسرى إذ عدّت موسكو أن هذا لم يُبحث في الاتفاق، وإنما الذي تمّ من جانبٍ واحدٍ لذا رفضت الاتفاق وقبضت على أعضاء الوفد القازاني وهم من كبار الأمراء، وعدتهم رهائن لديها، ولما ضغطت عليهم عادت فاتفقت معهم من جديد على إقصاء صفا كراي عن حكم خانية قازان وتسييره إلى المكان الذي يريد، وتسليم جان علي خان أخي شيخ علي خان إمرة خانية قازان، وبناءً على هذا

الاتفاق رجع صفا كراي إلى القرم، وأصبح يُحرّض عمه على حرب روسيا والإغارة عليها.

عاد أهل قازان فخلعوا خانهم جان علي خان وقتلوه، ودعوا صفا كراي ليعود إلى منصبه خاناً عليهم فرجع إليهم وزوّجوه أرملة الخان السابق جان علي خان ابنة الميرزا يوسف أحد زعماء النوغاي وذلك عام ٩٤٢، فأرسل الروس قوة إلى قازان لتؤدّب أهلها على ما فعلوه ـ على زعمهم ـ إلا أن هذه القوة قد هزمت وتعقّبها التتار يقتلون منها ويأسرون، ثم عاد الروس فأرسلوا قوّة أخرى أكبر من سابقتها فتمكّنت من إحراز النصر على التتار، وأسرت الكثير منهم، وحملتهم إلى موسكو حيث قُتلوا هناك.

وسار أهل قازان عام ٩٤٧ من جهتهم وأهل القرم من جهتهم لغزو الروس غير أنهم لقوا مقاومةً عنيفةً فاضطروا إلى العودة. وطلب صفا كراي بعقد الصلح مع الروس فرفضوا ذلك.

وسارت روسيا إلى قازان عام ٩٥٣، ووصلت جيوشها إلى أطراف قازان فأحرقت، ودمّرت بعض الأبنية فيها، وأخذت الأسرى، وعاثت في الأرض فساداً دون أية مقاومة، فرجعت بعدئذ الجيوش الروسية ولم يُصب أحد منهم بكلم، فعدّ صفا كراي هذا خيانةً من أمرائه فقتل بعضهم، ونفى بعضهم الآخر، فمالت النفوس عن الخان، وكاتب الأمراء الروس، وطلبوا منهم الدعم لإخراج صفا كراي وأمرائه من القرم من خانية قازان، فأمرتهم روسيا بالقبض على صفا كراي أو إخراجه أولاً ثم تكون المساعدة، فهمّ الأمراء بالقبض على صفا كراي إلا أنه أحسّ بالمؤامرة فخرج من قازان، وأقام عند النوغاي ليكون على مقربة من مسرح الأحداث. ووقعت أحداث دامية في قازان بين أمراء قازان وأمراء القرم وذهب ضحية ذلك أعداد كبيرة. وطلب بعض أمراء قازان من روسيا تعيين شيخ علي خان أميراً على قازان، فوافقوا وجاء الأمير الجديد غير أنه لم يكن محبوباً من قبل الشعب بل ولا من قبل الأمراء، وإنما طلبوه ليكون صورةً ويكون لهم الأمر من دونه وبالفعل فقد حجروا عليه، وسجنوا أنصاره، وأصبحت الإمارة مهزلةً

فرغب الشعب بإعادة صفا كراي كي يتخلّصوا مما هم فيه، وأحسّ شيخ علي خان بما يُدبّر فهرب إلى موسكو، ورجع صفا كراي إلى قازان خاناً، ولكنه لم يعد يثق بأهل قازان، ووقعت الجفوة بين الحاكم والمحكوم، ومتى تمّ هذا بدأت البلاد تسير نحو الهاوية، إذ لا يمكن إحراز النصر، ولا الإخلاص في العمل، وفرّت أعداد إلى موسكو، وسار الجرامشة إلى روسيا يطلبون صداقتها والعمل معاً على حرب قازان، وسار ايڤان الرهيب أمير موسكو لحرب قازان في أواخر عام ٩٥٣ لكنه رجع خائباً.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، فأقام الأمراء مكانه ابنه الطفل أوده ميش خان، وطلبوا من عمّ أبيه صاحب كراي خان القرم إرسال خان قوي لهم ولعله يكون ابنه بولك كراي، وفي الوقت نفسه طلبوا من ايڤان الرهيب الصلح فلم يستمع إلى طلبهم بل سار إليهم عام ٩٥٧، ولكنه رجع عنهم دون أن يدخل مدينتهم رغم أنه كان بإمكانه ذلك بعدما أحرزه عليهم من انتصارات ولعله شعر بنفسه أنه لا يستطيع البقاء فيها أو أن الحرب في داخلها ستكون عليه وخيمة النتائج.

وكتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى أمراء نوغاي يُشجّعهم على إنقاذ قازان من براثن الروس غير أن عدداً من أمراء التتار كانوا يقيمون في موسكو ويأتمرون بأمر الروس إضافة إلى تنازع أمراء التتار في دويلاتهم المتعددة يجعل عدداً منهم مع الروس. وجاء من النوغاي إلى قازان محمد خان ياذكار فنصبوه خاناً عليهم. وتقدم أهل القرم دعماً لقازان ثم رجعوا.

جرى التفاهم بين أمراء قازان وأمير موسكو ايڤان الرهيب، ويخرج بمقتضى هذا التفاهم الخان الصغير اوده ميش كراي مع أمه ليقيم في موسكو، ويُغادر أمراء القرم قازان، ويرجع شيخ علي خان حاكماً لقازان، وتمّ ذلك ومع مسير أمراء القرم إليها خارجين من قازان تعرّضت لهم القوات الروسية وأخذتهم أسرى إلى موسكو حيث قُتلوا هناك. ورغم هذا الاتفاق الذي نُفّذت بنوده من قبل أمراء قازان فإن ايڤان الرهيب قرر أن ينتهي من مشكلة قازان، وأن يضمّها إلى روسيا نهائياً ويبتلعها، فسار إليها

عام ٩٥٩ ودخلها دون قتال، ولكن عظم ذلك على أهل قازان عندما رأوا تصرّفات الروس فقاموا يُقاتلون الغُزاة وجرت حروب ضارية ولكن لم ينفع ذلك شجاعة، فالخان من أنصار الروس، والروس كلهم من الجند مسلحين ومستعدين وأصبحوا في داخل البلد، على حين أن أكثر سكان المدينة كانوا على غير تفاهم بالنسبة للقتال لأنهم لم يتوقّعوا ذلك، وبعضهم عُزّل، وهم من النساء والأطفال والمسنين، وضمّت بعدها خانية قازان إلى روسيا. . . وبعدها تصرف الروس التصرف القذر، الذي يرى الإنسان محاكم التفتيش في الأندلس أمام هذا التصرف بسيطة فارتكاب المنكرات، وتحويل المساجد إلى كنائس، والاعتداء على الأملاك، وإهانة المقدسات، والعمل على تنصير السكان. . . وصبر مع ذلك التتار وتحمّلوا الكثير، وظلّوا على عقيدتهم.

ب ـ استراخان:

وتسمى حاج طرخان، وعرفت قديماً باسم «آتل»، و«بلنجر»، وقد انفصلت عن مملكة تتار الشمال أو القبيلة الذهبية، وكانت في هذه المرحلة على خلاف مع خانات القرم، كما أنها تعدّ من ألد أعداء الروس. وكان مكلي كراي خان القرم يحرّض الروس عام ٩١٣ لإرسال جيوش إلى استراخان وتدميرها. ومع بدء هذه المرحلة كان خان استراخان حسين خان بن أومير شاه جان بك خان، ولا يرغب أبداً التفاهم مع الروس ولكنه لا يستطيع أن يحمي نفسه من محمد كراي بن مكلي كراي خان القرم.

قام محمد كراي عام ٩٢٨ بالتفاهم مع مماي خان نوغاي بالهجوم على استراخان والاستيلاء عليها، وطرد حسين خان منها، غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت إذ قتل محمد كراي عام ٩٢٩ على يد أبنائه، وتسلّم أحدهما مكانه، وبعد ستة أشهر تسلّم سعادت كراي أخو محمد كراي خانية القرم حيث عينه عليها الخليفة العثماني سليمان القانوني، فكتب سعادت كراي إلى الروس يُهدّدهم بأن التتار يحيطون بهم، وهم على وفاق

فاستراخان عليها حسين خان، وهو صديق له، وصاحب كراي يحكم قازان، وهو أخي و. . .

وقام الشراكسة بالهجوم على استراخان عام ٩٣٨ وقتلوا قاسم خان، ونصّبوا مكانه آقو بك خان، وبقي حتى تسلّم أمر الخانية عبد الرحمن خان عام ٩٤١، وقد وافق على التعاون مع روسيا بناءً على طلبها خوفاً من خانات القرم ونوغاي، ومع هذا فلم يسلم من خصومه إذ هاجم النوغاي استراخان وتمكّنوا من الاستيلاء عليها فهرب منها عبد الرحمٰن خان، فأجلسوا مكانه درويش علي خان، ولكن لم يلبث أن حلّ مكانه حيدر خان ابن الشيخ أحمد خان الذي خلع أيضاً عام ٩٤٨، وعُيّن آق كباك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان الذي لم يلبث سوى عاماً أيضاً حتى قتله يمغورجي خان بن بردي بك بن سلطان بن مرتضى خان.

استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وخرج منها يمغورجي، فتولّى أمرها درويش علي خان للمرة الثانية، وما أن انسحب صاحب كراي من استراخان حتى رجع يمغورجي إليها، وخلع درويش علي خان. واستطاع يمغورجي أن يتفق مع خان القرم الجديد دولت كراي وأمير النوغاي مرزا يوسف، واستغل ايڤان الرهيب هذا الاتفاق للقيام بهجومٍ كاسحٍ على استراخان وقد شجعه على هذا الهجوم أيضاً زعيم النوغايّ الآخرِ مرزا يوسف، فطلب ايڤان أن يخرج من استراخان يمغورجي وأن يعود إليها درويش علي خان الذي خلعه يمغورجي وما هذا الطلب إلا لإيجاد حجة للهجوم على استراخان، ولما رفض هذا الطلب أرسل ايڤان عام ٩٦٢ جنوده نحو استراخان بقيادة مرزا إسماعيل، فاستولى عليها، وفرّ يمغورجي مع عشرين من أتباعه إلى مدينة آزاق (آزوف)، وقُبض على أهله من بعده وحُملوا إلى الخان الجديد درويش علي خان، فأقسموا على طاعة ملك الروس ايڤان.

وقع درويش اتفاقيةً مع الرّوس تنصّ على ألا يقيم الروس خاناً مكانه بعد موته، أي تصبح خانية استراخان تابعةً لروسيا بعد موت درويش خان،

وإذا حدث ونصّبوا خاناً فإنما يكون تابعاً لموسكو، ويحق للروس صيد السمك في نهر الفولغا كالتتار، ولكن لم يبق درويش خان على عهده مع الروس بل اتفق مع دولت كراي خان القرم بأن جعل أحد أبنائه ولياً لعهد استراخان، فأرسلت روسيا جيشاً عام ٩٦٥ استولى على استراخان، وهرب منها درويش خان إلى آزاق، وضمّ الروس استراخان إليها نهائياً، وأسكنوا فيها أعداداً من أبناء جنسهم، وحوّلوا أكثر مساجدها إلى كنائس. وفي منتصف القرن الحادي عشر الهجري طرد الروس من استراخان زعماءها من التتار، فاتجه بعضهم إلى بخارى.

جـ ـ سيبريا:

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيزخان أخاه شيبان شرقي الأورال فتأسست إمارة لشيبان وأبنائه في شرقي الأورال عام ٦٤٠، وكان مقرها قلعة سيبير، وتوالى عليها أبناء شيبان حتى القرن العاشر.

وفي عهد قوتشم خان ٩٧٧ ـ ٩٧٨ استولى على إمارتهم يرمق بن تيما في عام ١٠٠٣، وكان ضعيفاً فباعها إلى روسيا، وأما قوتشم خان فقد انتقل إلى بلاد الباشغرد الذين مقرهم أوفا، وعاش هناك، ومات بين الباشغرد، وقام ابنه علي خان عام ١٠١٧ يعمل على استرجاع بلاده فلم يفلح، وكذلك كان نصيب أخيه ايشم خان من بعده.

وعندما قضى الروس على قازان عام ٩٥٩، وعلى استراخان عام ٩٦٥ بدؤوا يتقدمون نحو الشرق فقضوا على النوغاي المنتشرين في أطراف الأورال وغربي سيبيريا، ومن مراكزهم أورنبرغ وأوفا، كما قضوا على خانات من فرع شيبان في سيبيريا والذين عرفوا باسم قياصرة تيومين. وبذا انتهى الروس من شرقي أوربا وسيبيريا الغربية، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا زحفهم.

د ـ القرم:

منذ أن طرد السلطان محمد الفاتح الجنويين من سواحل القرم عام

٨٨٠ حيث كانت لهم بعض القلاع الحصينة دخل خانات القرم تحت الحماية العثمانية، فكانت القرم تعدّ موقعاً متقدماً للعثمانيين، كما أن خانات القرم كانوا يُقدّمون الجند للمشاركة في الحملات العثمانية.

كان يحكم القرم في مطلع هذا العهد محمد كراي الأول الذي ورث الحكم عام ٩٢١ عن أبيه مكلي كراي، وكان ذا قوةٍ وشكيمةٍ يُغير على روسيا وينقضّ على بولونيا، وفي عام ٩٢٢ دخل بلدة تولا جنوب موسكو وعلى بعد مائةٍ وخمسين كيلومتراً منها، وانتشر التتار في ولاية رزان حول تولا. ونصّب أخوه ولياً لعهد قازان، ولما حالت روسيا بين هذا المنصب وبين أخيه صاحب كراي زادت غاراته على روسيا حتى اضطرت روسيا أن تتوسل إلى الخليفة العثماني بمنع هذه الغارات فمنعه السلطان سليم الأول، فلما توفي السلطان سليم رجع إلى غاراته فعادت روسيا ترجو الخليفة الجديد فحال بينه وبين غاراته على الرغم من تبرير محمد كراي لهذه الغارات بأن روسيا تعمل على حرب الإسلام والمسلمين وتُهدّم المساجد، إضافة إلى مدّها للعجم بالمال والسلاح، وبهذا فقد انقطعت هذه الغارات عن روسيا ولكنها استمرت على بولونيا، ويمكن أن نقول: إن حياة سكان القرم الأولى إنما كانت على الغنائم من هذه الغارات.

وفي ٩٢٨ أرسل أخاه صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان فاحتلها، وبذا أحاط روسيا من الشرق والجنوب، كما أكمل التطويق بضمّ استراخان إليه عام ٩٢٩، كما كان يرغب في ضمّ النوغاي، وسيبيريا بل وخوارزم كي يتمكن من مواجهة الروس بشكل قويٍ غير أنه قُتل في ذلك العام بيد ولديه (غازي) و(بابا)، واستلم غازي أمر الخانية، وكان أخوه بابا وزيراً عنده ومستشاراً له، ولكن السلطان العثماني لم يرض عن هذا الانقلاب الذي حدث، لذا فقد عيّن خاناً من عنده على القرم، وهو سعادت كراي أخو محمد كراي، وقد كان يُقيم في إستانبول، ووصل سعادت كراي إلى القرم، واستلم أمرها، ولما مشت الأمور بشكلٍ طبيعيٍّ، وأمن أولاد محمد كراي عمهم، قبض سعادت كراي على غازي وبابا وقتلهما بعد ستة أشهرٍ من استلامه الأمر.

وفي عام ٩٣٨ أخذ الإمارة عنوةً إسلام بن كراي، وفرّ عمّه من البلاد، وهذا ما أزعج الخليفة العثماني لذا فقد ضمّ القرم إلى الدولة العثمانية مباشرةً، وإن أبقى إسلام كراي فيها كوالٍ عليها. ولكن صاحب كراي بعد مدةٍ قام على ابن أخيه إسلام كراي وقتله، وقام بالأمر مكانه، ويبدو أن هذا كان برأي العثمانيين، وعاد الصراع مع روسيا وخاصةً أن حاكم قازان هو صفا كراي بن محمود كراي بن مكلي كراي أي ابن أخي صاحب كراي بل هو الذي وضعه في ذلك المنصب قبل أن يُغادر هو قازان، كما استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وكل هذه المرحلة كانت الأوضاع مستقرةً في القرم، وحرب روسيا تقع بين المدة والمدة، فقد هاجمت القرم بقيادة صفا كراي وعمه قالغاي إسلام كراي ولاية رزان الروسية عام ٩٤٠، كما قام صاحب كراي على روسيا عام ٩٤٧، ولكنه وجد مقاومةً عنيفة فرجع، وقاد في العام الثاني ١٥٠ ألفاً من التتار والعثمانيين والنوغاي ولكنه هزم، وغنم الروس المدافع العثمانية بعد أن عبر صاحب كراي نهر الدون إلى أعدائه.

وفي ٩٥٨ تولّى أمر القرم دولت كراي فتفاهم مع خان استراخان الذي رجع إليها منذ أن غادرها صاحب كراي ومع أمير النوغاي المرزا يوسف. وكان دولت كراي في إستانبول فأرسله الخليفة العثماني، وطلب منه قتل صاحب كراي الذي شُغل عن قازان باحتلاله استراخان، كما طلب منه العمل لتخليص قازان من روسيا، ولكنه لم يستطع أن يقوم إلا بالمهمة الأولى، وهي قتل صاحب كراي. وبقي دولت كراي بن مبارك كراي في منصبه حتى عام ٩٨٥.

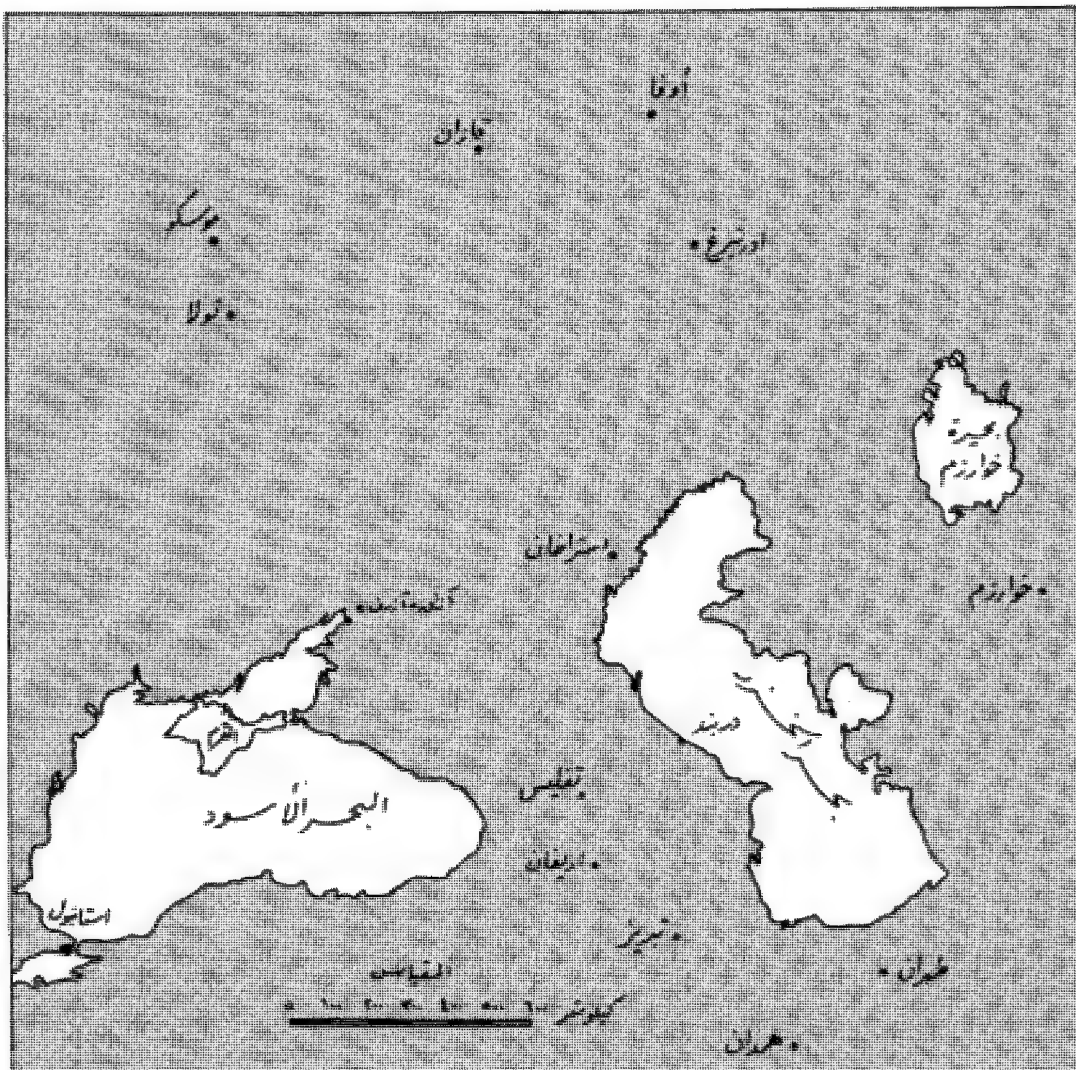
تسلّم خانية القرم عام ٩٨٥ محمد كراي الثاني، وقتله إسلام كراي الثاني عام ٩٩٢ إذ أن عثمان باشا قائد الجيش العثماني قد وعده بحكم الخانية إن ساعده، ففعل، وقتل سلفه، واستلم الأمر، وأصبح خانات القرم بعدئذٍ ولاةً عثمانيين يُولّون من إستانبول ويُعزلون منها. وإن كانوا من أسرةٍ واحدةٍ لا يتعدونها.

وفي عام ١٠٨٢ أعلن القوزاق في أوكرانيا تبعيتهم للدولة العثمانية،

وعندما أغارت عليهم بولونيا أمدّهم السلطان العثماني محمد الرابع، فانتصروا، ووُقّعت معاهدة مع بولونيا اعترفت فيها أن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم بودوليا في غربي أوكرانيا هو للدولة العثمانية وذلك في عام ١٠٨٣. وتوفي الصدر الأعظم أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة صهره قره مصطفى فلم يُحسن التصرّف فأثار القوزاق فثاروا ضد العثمانيين، وبدأت روسيا تمدّهم وتساعدهم، وعندما جرت الحرب بين العثمانيين والروس كان القوزاق أميل للروس منهم إلى العثمانيين وذلك عام ١٠٨٨، وعندما عقدت معاهدة الصلح بين الطرفين مال القوزاق إلى الروس لسوء تصرّف الصدر الأعظم قره مصطفى.

وعندما هُزمت الدولة العثمانية أمام النمسا، وعقدت معاهدة كارلوفتس فقدت فيها الدولة العثمانية آزاق (آزوف) لروسيا، كما تخلت عن أوكرانيا وبودوليا لبولونيا.

وفي عام ١١٢٥ بعد معاهدة أدرنة تخلّت روسيا عما كانت تدفعه من جزيةٍ لخانات القرم، وفي الوقت نفسه تخلّت أيضاً عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود. ولكنها لم تلبث أن عادت واحتلت آزوف، واستطاعت تعيين شاهين كراي خاناً على القرم عام١١٨٦، غير أن دولت كراي الثالث قد تمكّن من العودة إلى الخانية مرةً ثانيةً عام ١١٨٩، وفرّ شاهين كراي إلى روسيا. وأرغم العثمانيون في معاهدة كوجوك قينارجة على استقلال القرم وحيادها. وعاد شاهين كراي إلى حكم الخانية عام ١١٩١، وبقي حتى عام ١١٩٧ حيث أعلنت روسيا ضمّ القرم إليها نهائياً. وعيّنت الدولة العثمانية خانين من العائلة القرمية وهما: شاهبار كراي عام ١٢٠١، وبختكراي عام ١٢٠٣ وقاما بحرب ضد روسيا، ولكن دون فائدة إذ غدت القرم مقاطعةً روسيةً.


أوفا
قازان
موسكو
تولا
أورنبرغ
بحيرة خوارزم
استراخان
خوارزم
البحر الأسود
تفليس
استانبول
تبريز
دربند
طهران

مصور رقم [٢٥]

الفصل الثاني

بلاد القفقاس

هي البلاد المحصورة بين بحر الخزر في الشرق والبحر الأسود في الغرب، وتُعدّ جبال القفقاس أو القوقاز عمودها الفقري، وهي تمتد من الشمال الغربي من المضيق الذي يفصل بحر آزوف عن البحر الأسود، بل تُعد مرتفعات القرم امتداداً لها، إلى الجنوب الشرقي حيث تمتد شبه جزيرة «ابشيرون» في بحر الخزر عند باكو، ويصل ارتفاع هذه الجبال إلى ٥٦٢٩م في الوسط في قمة «البروز»، وتُعد جبال القوقاز الحد الفاصل بين قارتي آسيا وأوربا. وتسمى السهوب التي تقع إلى الشمال منها بـ«دشت القفجاق» وتعني صحراء القفجاق، أما الأجزاء الجنوبية فهي تتمة لهضبة أرمينيا ومرتفعات أذربيجان.

أطلق العرب على هذه المنطقة اسم «القبج» و«القبجاق» والقفجاق، ويعيش في هذه المنطقة شعوب كثيرة أو مجموعات صغيرة مختلفة في أصولها متباينة في لغاتها، وهذا ما يشكل عقبةً في وحدتها، ولما كانت المناطق الوسطى منها والجنوبية وعرة لذلك كان سكانها مقاتلون أشداء وتساعدهم مواطنهم على التحصن بها. ففي الجهات الشرقية نلاحظ من الجنوب إلى الشمال الأكراد في أذربيجان، ثم شروان، والداغستان، والقوموق، وفي المناطق الوسطى الأرمن، فالكرج الذين جاءوا فيما بعد، واللان، واللزكي، وفي السفوح الشمالية الشاشان فالأنغوس، وفي الجهات الغربية الآجار والقبائل الشركسية حيث يُقيم الأوستين والقبرطاي في المرتفعات والأبخاز في الغرب والأديغة بقبائلهم المتعددة من أبزاخ،

وشابسيغ، وبزادوغ حتى بحر آزوف. ثم جاءت مجموعات من التتار واستقرت في المنطقة أثناء غزوهم لها، كما أقامت مجموعات أخرى من الأتراك مثل البلكار الذين يُقيمون شمال بلاد القبرطاي.

فتح المسلمون عام ٢٢هـ أذربيجان أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قائد الفتح سراقة بن عمرو، وعلى مقدمته عبد الرحمٰن بن ربيعة الذي دخل باب الأبواب (دربند)، ودخل بالإسلام أهل أذربيجان، وشروان، والداغستان، والقوموق، وفي أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتح المسلمون بلاد الأرمن، وبلاد اللان، ودخلوا تفليس، وكان سراقة بن عمرو يوجّه الفصائل إلى المواقع في تلك الجهات فتدخلها، ثم توسع الفتح على السواحل الغربية لبحر الخزر، ووصل المسلمون إلى بلنجر، وأصيب عبد الرحمٰن بن ربيعة وجاءت إمدادات بقيادة أخيه سليمان الذي أصبح والياً على المنطقة، وارتد الأرمن فبعث إليهم أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بأمر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، حبيب بن مسلمة فوصل إلى تفليس ودخلها.

ومع توقف الفتح انتفض أمراء الأرمن، وطمع أمراء الخزر فهاجموا المنطقة، فدخل جيش المسلمين بلاد الخزر بإمرة ثبيت النهرواني، فانهزم المسلمون، فعزل يزيد بن عبد الملك ثبيت، وولّى مكانه الجراح الحكمي، وأمده بجيش كثيف، وطلب منه أن يغزو بلاد الخزر، ففعل وتمكّن من دخول باب الأبواب، وصالح الترك، واستمر الصراع مع الخزر مدة الحكم الأموي الذي استقر له الأمر في أرمينيا وأذربيجان.

واستمر الوضع أيام قوة العباسيين فلما ضعف أمرهم، تجزأت المنطقة فقامت حكومة في تفليس، وأخرى في منطقة الأبخاز، ثم غزا الخزر المنطقة عام ٤١٧، ودخلوا مدينة تفليس، ولكن السلاجقة عندما سيطروا على الدولة العباسية دانت لهم بلاد القفقاس عام ٤٦٥، ولكن ليست كل المنطقة التي تسمى اليوم بهذا الاسم وإنما الأجزاء الجنوبية منها، والشرقية، فالشرقية كانت مسلمة والجنوبية خليط من النصارى في بلاد الأرمن مع

المسلمين، وكذا شأن المرتفعات، وجاءت موجة أخرى من الخزر أو من الشمال، وكانت نصرانية، واستطاعت أن تسيطر على تفليس وكانت على النصرانية، وعرفت تلك الجهات منذ ذلك اليوم ببلاد الكرج، ويقصد بها بالفارسية بلاد القوة، وكانت حاضرتهم تفليس، وذلك في الوقت الذي ضعف فيه السلاجقة أو بالأحرى في نهاية القرن الخامس الهجري.

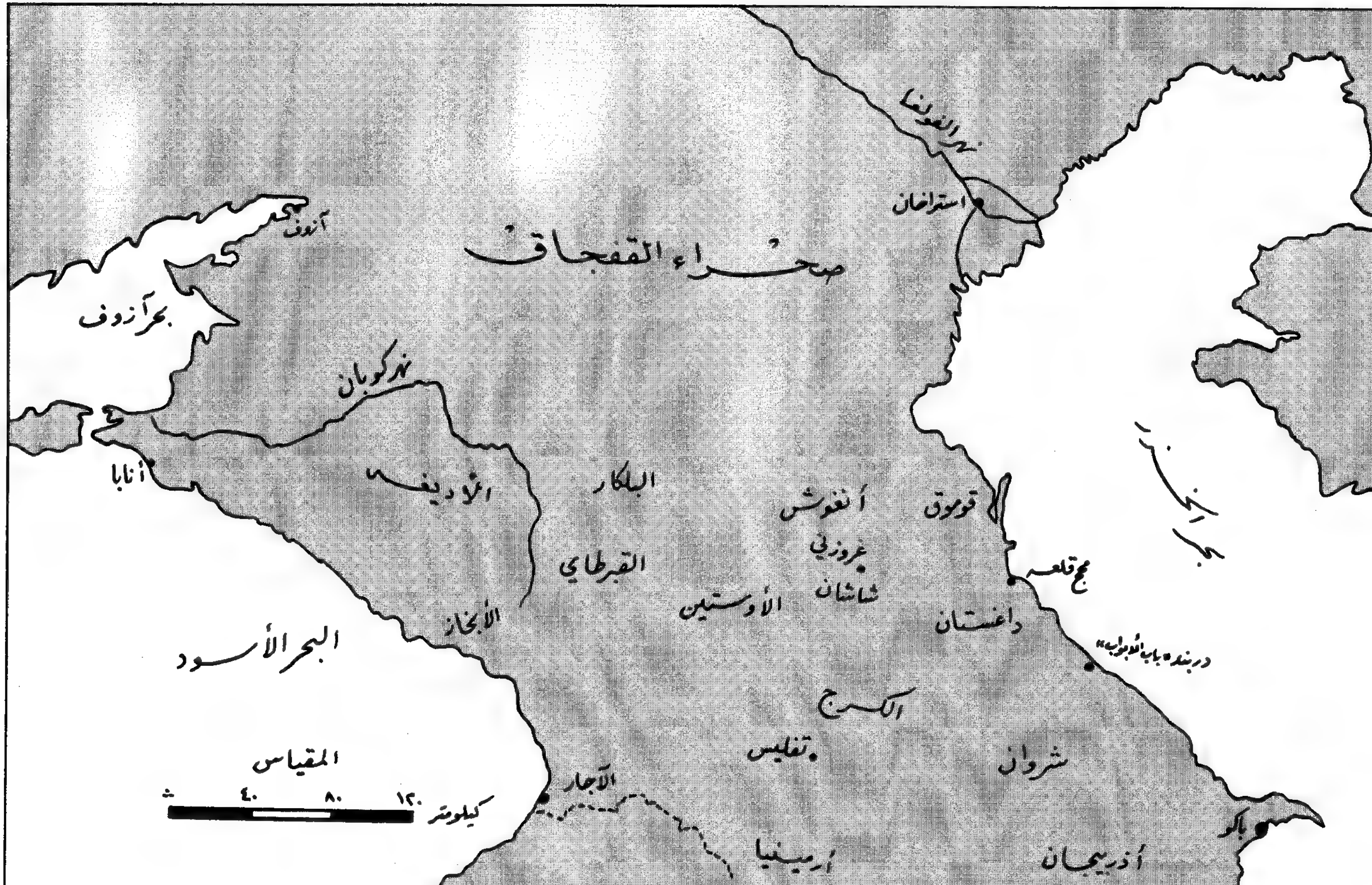
وجاء المغول، ودانت المنطقة لهم، ولما مات جنكيزخان كان دشت القفجاق وبلاد داغستان ضمن أملاك حفيده باتو أو مغول الشمال أو ما عرف باسم القبيلة الذهبية، على حين كانت الأجزاء الجنوبية تتبع أملاك ابنه الآخر تولوي الذي أسس ابنه هولاكو الدولة الإيلخانية، أو أن جبال القفقاس كانت الحد الفاصل بين أملاك الأسرتين المغوليتين، وكان الصراع بينهما، وهذا الصراع كثيراً ما كان على المنطقة الجنوبية التي هي أذربيجان، ومع ضعف المغول قامت إمارات في المنطقة وكانت صغيرة تتناسب والجماعات التي تنتمي إليها، وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تغير على أملاك خانية القرم، أو استراخان، أو مملكة سراي من قبل وكان دشت القفجاق هو ميدان الغزو.

وتمكّنت الدولة العثمانية أن تمد نفوذها إلى هذه المناطق ما دامت المناطق التي تقع إلى الشمال منها تحت سيطرة التتار المسلمين وهي القرم، واستراخان، وقازان و. . . . وهي إما تبعت العثمانيين مثل القرم أو أن الخوف من الروس الذين بدأ أمرهم يقوى بسرعة يهدد هؤلاء المسلمين الأمر الذي جعلهم يتجهون إلى العثمانيين خوفاً من الروس كرؤساء ومحبة للعثمانيين لإسلامهم كشعوب، وكان نفوذ العثمانيين قد شمل المنطقة بدءاً من عام ٩٨٢ أيام الخليفة مراد الثالث حتى عام ١٠٤٩ في أواخر أيام الخليفة مراد الرابع، وشمل بلاد أذربيجان، وداغستان، والقوموق، وأرمينيا، والآجار، والأبخاز، والأديغة، والكرج، والأوستين، والقبرطاي، والبلكار، ثم امتد إلى بلاد الشاشان والأنغوش، ومع وصول العثمانيين إلى تلك الجهات بدأ الإسلام ينتشر في المناطق التي لم يدخلها بعد مثل مناطق

الشراكسة (الأوستين، والقبرطاي، والأديغة، والأبخاز) ثم بلاد الشاشان والأنغوش.

كان خضوع هذه المناطق للعثمانيين اسمياً، وكان انتشار الإسلام عن طريق الدعوة من قبل بعض الرجالات، كما لا ننسى أن السكان وجدوا ضالتهم فيه حيث أنه دين الفطرة. ولما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والفرس فقد دخل الصراع هذه المنطقة ومدّ الفرس نفوذهم أيام قوتهم على الأجزاء الشرقية مثل شروان، وأذربيجان، وداغستان، وبلاد الكرج، وإن كان سكان هذه المناطق أميل إلى العثمانيين بطبيعة أنهم من أهل السنة على حين كان الفرس على مذهب الشيعة الذي لم ينتشر إلا في أذربيجان وبعد خضوعها للفرس. واشتهر من مواقع العثمانيين في هذه الأجزاء ما كان على ساحل البحر الأسود آزاق (آزوف)، وأنابا، وباطوم.

وعظُمت قوة الروس، وبدؤوا يمتدون نحو الشرق، والجنوب الشرقي في بلاد التتار، وبعد أن دخلوا استراخان عام ٩٦٥ امتد نفوذهم حتى وصل إلى أطراف هذه الأجزاء أي ضموا إليهم ما يعرف باسم دشت القفجاق، وصاروا على حدود بلاد القوموق والأنغوش، والبلكار، والأديغة. وعندما جاء إلى حكم الروس بطرس الأكبر وضع نصب عينيه السيطرة على بلاد القفقاس، فلما ضعف الصفويون وتنازل الشاه حسين لمير محمد الأفغاني، أسرع الروس واحتلوا عام ١١٣٥ بلاد داغستان، وسواحل بحر الخزر الغربية، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدم العثمانيون، ودخلوا أيضاً أرمينيا وبلاد الكرج، غير أن حاكم رشت الفارسي قد استنجد ببطرس الأكبر فأسرع لنجدته وتنازل طهماسب الثاني آخر شاهات الصفويين للروس عن الأجزاء القفقاسية داغستان وشروان بل عن أجزاء فارسية في الشمال وهي جيلان، ومازندران. غير أن شروان قد استنجدت بالعثمانيين، فتنازل الفرس للعثمانيين عام ١١٤٤ عن بلاد الأرمن وشروان بل وعن همدان، ولورستان.


صحراء القفجاق
نهر الفولغا
استراخان
أزوف
بحر آزوف
نهر كوبان
أنابا
الأديغه
البلكار
القبرطاي
الأبخاز
البحر الأسود
أنغوش
غروزني
شاشان
الأوستين
قوموق
مجقلعه
داغستان
دربند «باب الأبواب»
بحر الخزر
الكرج
تفليس
شروان
باكو
أذربيجان
أرمينيا
الآجار
المقياس
كيلومتر
١٢٠
٨٠
٤٠
٠

مصور رقم [٢٦]

ونتيجة معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين عام ١١٥٢ استقلت بلاد القبرطاي عن الدولة العثمانية، فبدأ الضعف يتسرب إلى هذه المنطقة بسبب وجود دولة صغيرة، هذا بالإضافة إلى النصارى في بلاد الكرج وبلاد الأرمن الذين تتجه أنظارهم إلى الروس وخاصة أنهم يدينون بمذهب الأرثوذكس الذي تأخذ به روسيا.

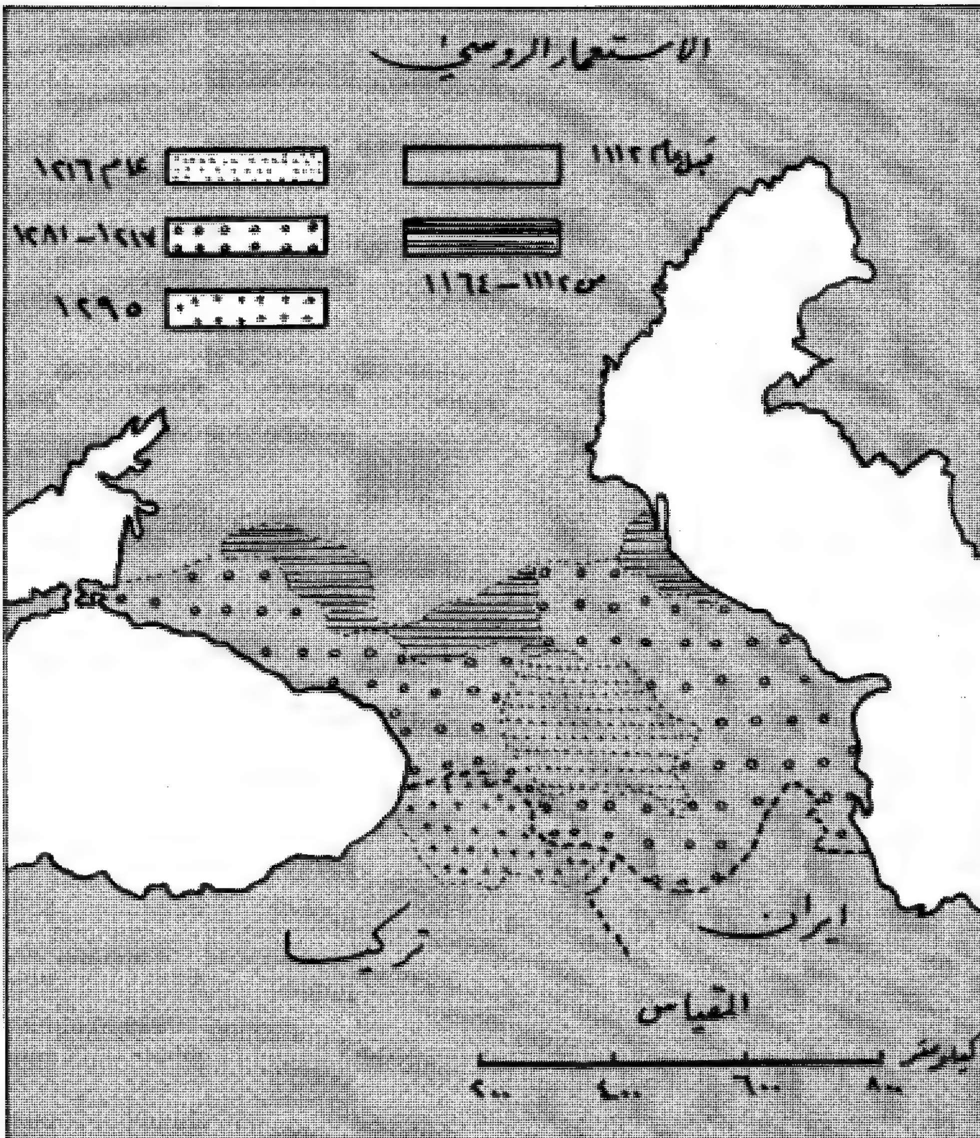
سيطر الروس حتى عام ١١٦٤ على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس، وفي أواخر أيام كاترين الثانية أُخرج الإيرانيون من بلاد الكرج على يد الروس... وفي أيام بول الذي خلف كاترين الثانية خرج الروس من بلاد الكرج إذ رأى هذا القيصر عدم ضرورة مساعدة الكرج لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وهاجم المنطقة وضمها إليه، وهذا ما أجبر القائد الداغستاني عمر خان أن يهاجم الروس في بلاد الكرج عام ١٢١٥ لكنه فشل فابتلع الروس ما احتلوه.

ثم تقدّم الروس في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨ بل كان كل انتصار يحققه الروس على الفرس أو على العثمانيين يضمون إثره جزءاً من بلاد القفقاس، أو عندما تتهيأ لهم الفرصة ويرون الضعف من المسلمين ينقضون على منطقة فيبتلعونها.

ووجد المسلمون أنفسهم في هذه المناطق وحيدين، وأن الروس يتقدمون يوماً بعد يوم، والعثمانيين والفرس يتراجعون شيئاً فشيئاً لذا لابدّ من الاعتماد على النفس، وتقوية الروح المعنوية، فاستلهموا العقيدة فتحركت قوة الإسلام الكامنة ورغبتهم في الجهاد، ودفعتهم للموت في سبيل الله، ومن طلب الموت وهبت له الحياة، واسترخصوا الدنيا، فقوي أمرهم وألفوا حكومة في بلاد الداغستان كان على رأسها العلماء، وذلك عام ١٢٤١، وبرز الشيخ شامل فأرسل الشيخ محمد أمين إلى بلاد الشراكسة، كما أرسل العلماء إلى بقية المناطق لاستنهاض همم المسلمين... وبدأ القتال بين الشيخ شامل والروس، وفي ١٢٥٦ بدأ الشيخ شامل بخطة الهجوم التي استمرت عشرة أعوام ضعفت روسيا خلالها

وخاصةً أنها شغلت في حرب القرم عام ١٢٦٩ فانسحبت من عدد من المناطق، ولكن انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ فحشدت روسيا عندها جيشاً يزيد عدده على ثلاثمائة ألف جندي وبدؤوا بالهجوم على بلاد الشراكسة، وفي النهاية تمكنوا عام ١٢٨١ من أسر الشيخ شامل، وأصبحت أفواج الشراكسة، والشاشان، والداغستان تهجر أراضيها نتيجة الاضطهاد الروسي، وقد نقلت الدولة العثمانية أعداداً منهم إلى أوربا ووضعتهم على الجبهات الروسية والنمساوية... وعاد القتال بين العثمانيين والصليبيين على الجبهة الأوربية، وهُزم العثمانيون، وعقد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، وكان من نتائجه أن أجبر الصليبيون العثمانيين على نقل القفقاسيين من الجبهات القتالية لما أبدوه من شجاعة إلى جهات أخرى فحملوهم إلى بلاد الشام والعراق... فأقاموا في رأس العين في الجزيرة الفراتية، وخناصر في جهات حلب، ومنطقة حمص، والجولان، وجرش في الأردن، وعمروا عمان، وفي الزرقاء، وصويلح، وناعور، والرصيفة، ووادي سير، والأزرق، وبعض جهات شمالي فلسطين. كما توزّعوا في المدن. أما الذين بقوا في موطنهم فكان العذاب يحيق بهم من كل جهة، وكلما حاولوا أن يتذرعوا بالصبر وجدوا أنفسهم إلى الهجرة أحوج، فعندما تسنح الفرصة لفريق منهم يفرّ من وطنه هائماً على وجهه.

وقامت الثورة الشيوعية في مطلع عام ١٣٣٦، وأعلنت إعطاء الحرية الدينية وإنصاف المسلمين الذين تحمّلوا الأذى، فلما قويت جذورها داهمت بلاد القفقاس الذين أعلنوا عن رغبتهم في الاستقلال، وأعملت كل أنواع البطش والدمار، وأظهرت كل أصناف الحقد على المسلمين، وكان النصارى في منأى عن الاضطهاد، وقسمت بلادهم إلى أجزاء صغيرة متذرعة بالأجناس المتعددة واللغات المتباينة، وضمت أكثر هذه الأجزاء الصغيرة إلى موسكو بالذات.


الاستعمار الروسي
قبل عام ١١١٢
من ١١١٢ — ١١٦٤
١٢١٤ م ١٢١٦
١٢١٧ — ١٢٨١
١٢٩٥
تركيا
إيران
القياس
كيلومتر
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠

مصور رقم [٢٧]

الفصل الثالث

وسط آسيا

حكم تيمورلنك مناطق واسعةً امتدت من الهند إلى أوربا، فلما مات عام ٨٠٧ تجزأت دولته إذ حكم أبناؤه وأحفاده بعض هذه الأجزاء، وحكم غيرهم بعضها الآخر.

عاد أحمد بن أويس الجلائري إلى بغداد عام ٨٠٧، وعاد قره يوسف القره قيونلي إلى إمارته في أرمينيا وأذربيجان، كما حكم جلال الدين ميران شاه بن تيمور جزءاً من أذربيجان وتوفي عام ٨١٠، وخلفه ابنه أبو بكر غير أن قره يوسف قد انتزع منه إمارته، وأصبحت أذربيجان كلها تحت حكم قره يوسف، كما قتل عام ٨١٣ أحمد بن أويس، واستولى على دولته، وبذا ضمت العراق كلها وأذربيجان، وكانت الحرب بين شاه رخ بن تيمورلنك وقره يوسف قائمةً حتى مات قره يوسف عام ٨٢٣، وامتدت سلطة التيموريين حتى الخليج العربي إذ حكمها مرزا إبراهيم بن شاه رخ حتى عام ٨٣٩. وانتهت الأسرة القره قيونلية عام ٨٧٣ على يد خصومهم أسرة الآق قيونيلية الذين بقوا في الحكم حتى قضى عليهم الصفويون.

أما شاه رخ بن تيمورلنك فقد أضاع خراسان، ومازندران، وسجستان، وضمّ إليه أصفهان، وشيراز من أبناء أخيه عمر عام ٨١٧، واستمر حتى توفي عام ٨٥٠، وبقي فيها أولاده وأحفاده حتى مطلع القرن العاشر.

أما بلاد ما وراء النهر فقد حكمها حفيد تيمورلنك خليل سلطان بن

جلال الدين ميران شاه حتى عام ٨١٤ حيث توفي، وقام أبناء أخيه محمد يحكمون المنطقة ومنطقة فرغانه، وبلاد الأفغان حتى جاء محمد الشيباني في مطلع القرن العاشر، بل وأسس ظهير الدين بابر شاه دولته في الهند.

الشيبانيون:

ينتمي محمد الشيباني إلى شيبان بن جوجي بن جنكيزخان، فهو أخو باتو، وأصغر إخوته، وكان أخوه باتو قد أعطاه أطراف دولته في غربي سيبيريا، وفي مطلع القرن العاشر رأى محمد الشيباني ما آل إليه وضع دول التتار وإمارتهم من الانقسام والقتال فرأى أن يوحّد ما يستطيع توحيده، فاتجه نحو بلاد ما وراء النهر، وسارت جموع من قبيلته معه، وبقي أصل هذه الشعبة في سيبيريا تحت اسم قياصرة تيومين.

وجد محمد الشيباني في بلاد ما وراء النهر أولاد السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين يتصارعون على الحكم، فقضى عليهم، وأسس دولته عام ٩٠٦، وعندما سار إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية التي تحتضر استنجد خانها بظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، فأسرع إليها، وأنقذها من يد الشيباني الذي لم يقطع الأمل في النصر، فأعاد الهجوم على المدينة، وتمكّن من إحراز النصر على جيوش محمد بابر رغم المقاومة العنيفة التي وجدها، ودخل سمرقند، واتخذها عاصمةً لدولته، ثم دخل هراة، واستولى على خراسان، وساعد إسماعيل الصفوي شاه إيران حليفه محمد بابر ـ بصفة كلاهما عدو للأوزبك ـ في استعادة سمرقند، غير أن الأوزبك أخرجوه منها ثانيةً بالقوة، ثم ترك محمد بابر تحالفه مع الصفويين لما رأى من تعصبهم المذهبي.

ووقع محمد الشيباني قتيلاً في أثناء صراعاته عام ٩١٦، وخلفه عمه كوجكنجي الذي حكم عشرين عاماً، وخلفه ابنه أبو سعيد الذي حكم أربع سنوات (٩٣٦ ـ ٩٤٠) فورثه أحد أبناء عمومته، وهو عبيدِ اللّه فكان صراعه قوياً مع الصفويين ثم رجع إلى الحكم عبد الله أخو أبي سعيد بعد

ست سنوات وقد عرف بعبد الله الأول، ولم يزد حكمه على العام الواحد (٩٤٦ ـ ٩٤٧) رغم أنه قاد جيوش الأوزبك أيام سلفه، وأحرز انتصارات كبيرة، ثم حكم أخوه الآخر عبد اللطيف لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٤٧ ـ ٩٥٩)، وخلفه ابن عمه نوروز أحمد، وتتابع أفراد الأسرة في حكم بلاد ما وراء النهر حتى عام ١٠٠٧، أي أن حكم الأوزبك قد استمر قرناً من الزمن (٩٠٦ ـ ١٠٠٧). وكانت خانية بخارى ذات نفوذ بل يُعدّ أحياناً خان بخارى هو الحاكم الفعلي لدولة الأوزبك (الشيبانية)، وهم بالأصل فرع من الأسرة الشيبانية.

وعندما آل الأمر إلى عبد الله الثاني عام ٩٩١ بعد وفاة اسكندر ثار على عبد الله ابنه عبد المؤمن، كما انضم إلى الشاه عباس الصفوي أمراء خوارزم فهزم عبد الله الثاني أمام الصفويين، وخسر الكثير من أرضه، ومات عام ١٠٠٦، فقام ابنه الذي ثار عليه بالأمر إلا أنه لم يلبث أن قتل عام ١٠٠٧ بيد أحد الطامعين بالسلطة، وتولّى پير محمد الثاني الحكم، ولكن هيبة الشيبانيين قد زالت فتولى الجانيون شأن الدولة بعدهم.

الأسرة الشيبانية

محمد الشيباني	٩٠٦ ـ ٩١٦	نوروز أحمد	٩٥٩ ـ ٩٦٣
كوجنكجي	٩١٦ ـ ٩٣٦	پير محمد الأول	٩٦٣ ـ ٩٦٨
أبو سعيد	٩٣٦ ـ ٩٤٠	اسكندر	٩٦٨ ـ ٩٩١
عبيد الله	٩٤٠ ـ ٩٤٦	عبد الله الثاني	٩٩١ ـ ١٠٠٦
عبد الله الأول	٩٤٦ ـ ٩٤٧	عبد المؤمن	١٠٠٦ ـ ١٠٠٧
عبد اللطيف	٩٤٧ ـ ٩٥٩	پير محمد الثاني	١٠٠٧

الجانيون:

حلّ محل الشيبانيين في حكم البلاد نفسها أنسباؤهم الذين عُرفوا باسم الجانيين أو أسرة استراخان لأن أصلهم من استراخان حيث فرّ بعض الرؤساء المطرودين من مدينة استراخان إلى مدينة بخارى عندما استولى الروس على استراخان في منتصف القرن العاشر، ثم ورثوا الأوزبك، وقد حكموا سمرقند، وبخارى، وفرغانة، وبادخشان، وبلخ، وتشكلت في خوقند عام ١١١٢ خانية خاصة، ثم طُرد الجانيون من هناك عام ١٢٠٠ كما أن بلخ وكل أملاكهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون قد ضمت إلى بلاد الأفغان عام ١١٦٥، ثم انتهت هذه الأسرة عام ١٢٠٠هـ.

خانية بخارى:

ورث الجانيين أسرة تسمى المنغيت وهي من الترك أيضاً وقد تولّى أحد أفراد هذه الأسرة، واسمه عبد الرحيم الوزارة لولاة بخارى، ثم توصل إلى الولاية، وتزوّج أحد أبناء هذه الأسرة، وهو مير معصوم شاه مراد من الجانيين إذ أخذ ابنة أبي الغازي آخر خانات الجانيين، وتسلّم الحكم مكانه، وحارب الأفغانيين ليسترد ما فقده أنسباؤه من أملاك ولكن لم يقو على ذلك، وقد بدأ حكمه من عام ١٢٠٠، وتوالى أبناؤه وأحفاده على الحكم، وبدأت تضعف الدولة مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري، بل انهارت قبل الهجوم الروسي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩. وبدأ الروس يقطعون الجزء بعد الجزء منذ عام ١٣٢٨، وفي ذلك العام تولى أمر دولتهم سيد مير عليم، وعندما قامت الثورة الشيوعية، وانسحبت روسيا من الحرب، وحدثت الفوضى استرد استقلال خانيته، ولكن لم تلبث أن قويت الثورة الشيوعية، ورجعت تنفذ سياسة القياصرة الاستعمارية من قبل فسقطت خانية بخارى في يدها عام ١٣٣٨ وفر سيد مير عليم إلى أفغانستان.

خانية خوارزم:

أما خانية خيوة أو خوارزم فقد كانت تتبع خانات القبيلة الذهبية أو مغول الشمال في سراي حتى أيام تيمورلنك، وبعد انحلال الدولة التيمورية احتل الأوزبك أو الشيبانيون خيوة، وأقاموا بها خانيةً خاصةً عام ٩٢١ تعرف باسم خانية خوارزم أو خيوة، وقد اصطدم خاناتها مع خانات بخارى أبناء عمومتهم فكانت حروب متعددة تارةً تكون لصالح هذه، وتارة لصالح تلك. وفي عام ١١٥٣ استطاع نادر شاه أن يبسط نفوذه على خوارزم لمدة سنةٍ واحدةٍ، وولّى عليها والياً من قبله هو طاهر شاه.

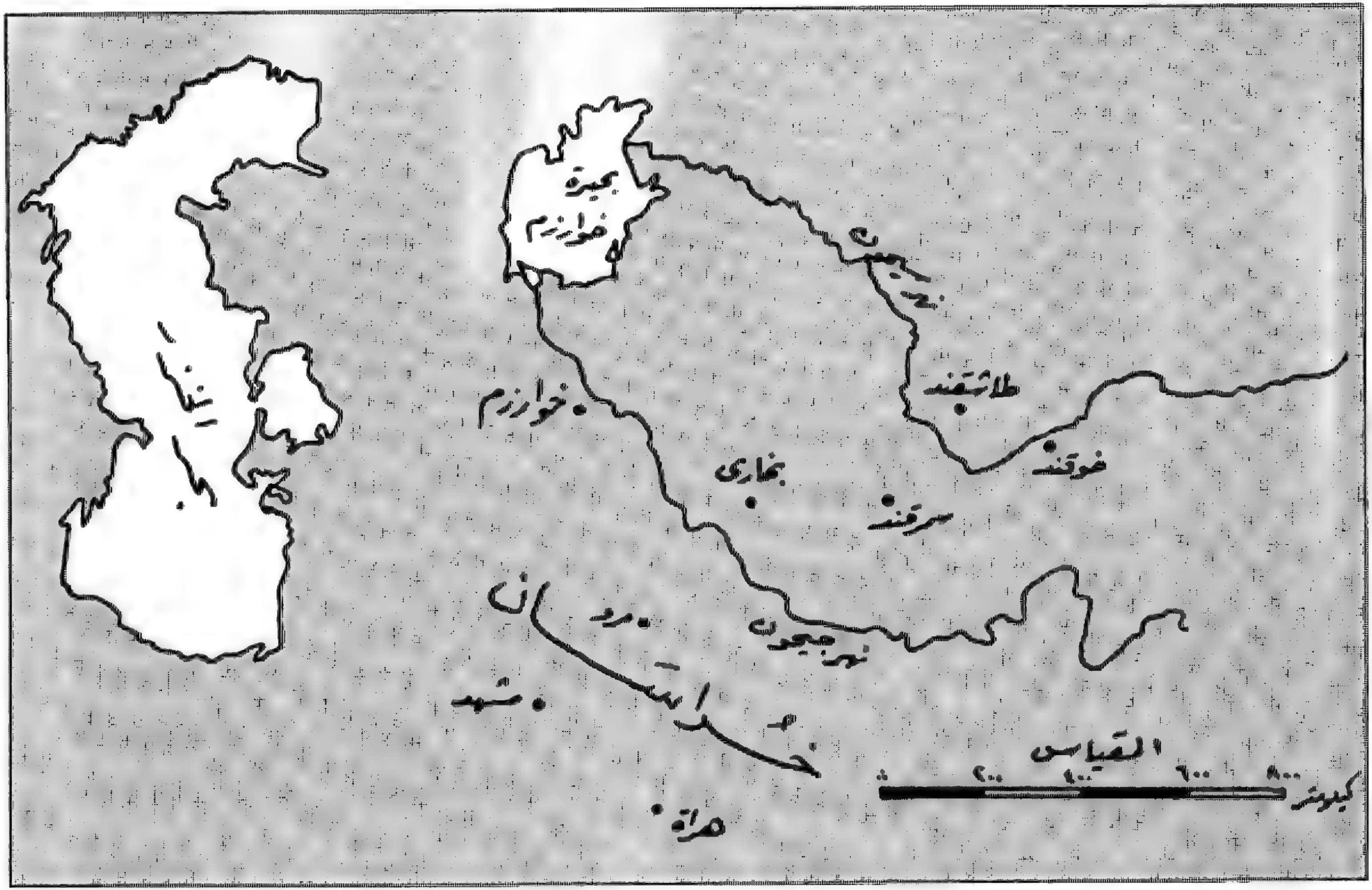
ينتمي حكام خوارزم إلى شيبان من شعبة عربشاه، وقد استمر تعاقبهم على الخانية حتى عام ١٢١٩ باستثناء السنة الواحدة التي حكمها نادر شاه، ولكن في عام ١٢١٩ تسلّم وزراؤهم من القونغرات الحكم مستفيدين من ضعف خانات الأوزبك، حيث كان أبو الغازي الثالث ضعيفاً وقد انتهى حكمه في هذه السنة، واستمر بالحكم حتى عام ١٢٨٩ حيث ألحقت بروسيا إذ دخل محمد سيد رحيم في طاعة الروس عام ١٢٩٠، ومع ذلك بقي حكامها من هذه الأسرة ويعدون أنفسهم مستقلين، وخاصة عندما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وبدأت الفوضى في البلاد، ولكن ما لبث أن رجع الروس إليها في رمضان من عام ١٣٣٧، وسقط حكم آخر خان، وأقاموا فيها دولة باسم جمهورية خراسان السوفيتية.

خانية خوقند أو فرغانة:

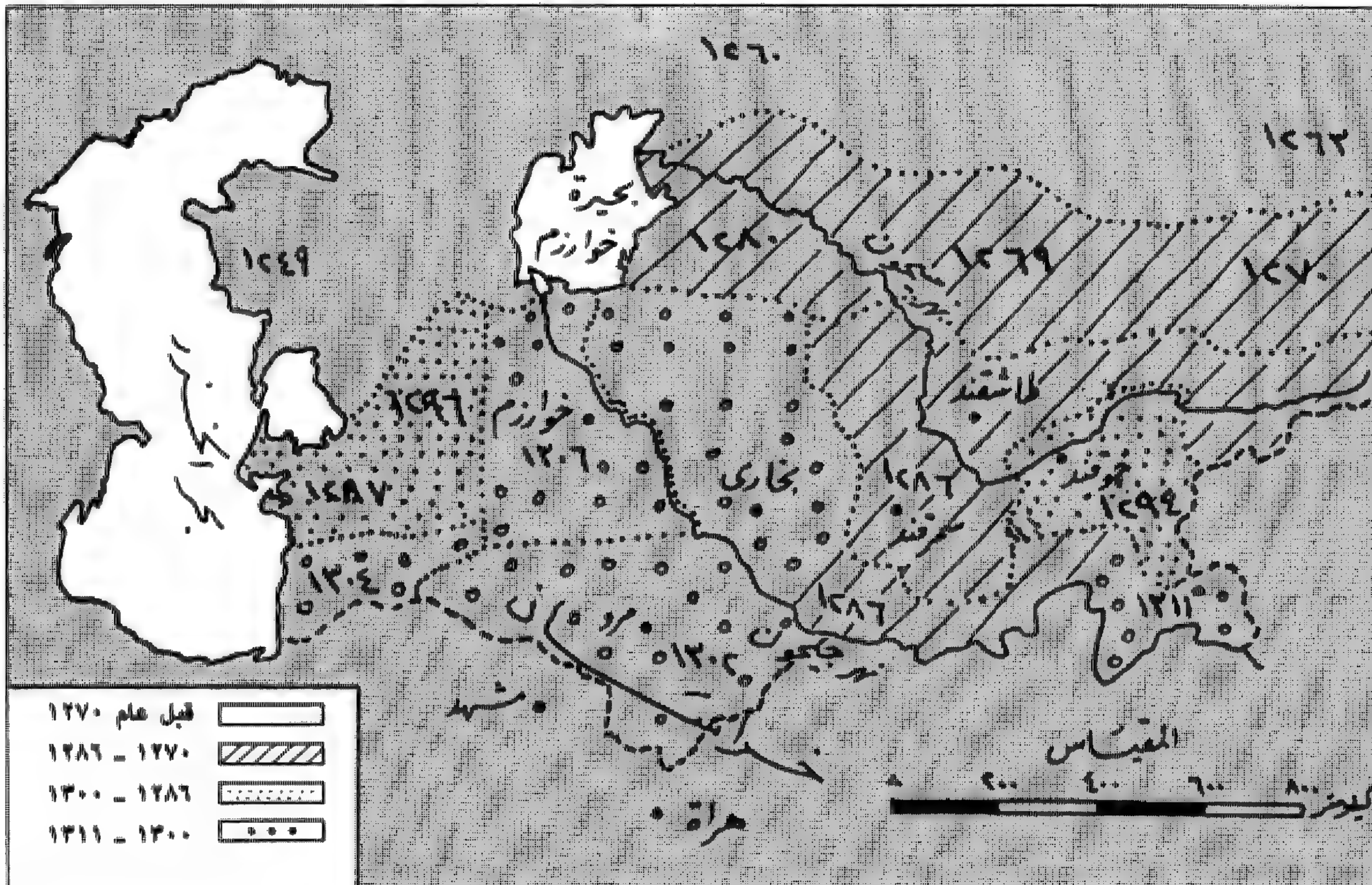
استقلت خوقند عام ١١١٢، وشكلت خانيةً خاصةً بإمرة شاه رخ، وهو من أحفاد محمد بابر ظهير الدين بن شيخ عمر الذي سار إلى الهند، وأسس هناك دولة المغول الكبرى. وقد استطاع عالم خان أن يستولي على طاشقند عام ١٢١٥، وهو أول من تلقب في خوقند باسم خان. ولكن استطاع خان بخارى نصر الله خان أن يهاجم فرغانة عاصمة خانية خوقند عدة مرات بين (١٢٥٥ ـ ١٢٥٦)، واستطاع في المرة الأخيرة أن يستولي

عليها، وأن يقتل محمد علي خان، ولكن لم يلبث خانات خوقند أن يستعيدوا سلطانهم، وأن يبقوا في الحكم حتى عام ١٢٩٣ حيث جاء الروس واحتلوا بلادهم، وكان آخر خاناتهم ناصر الدين حيث حكم عاماً واحداً (١٢٩٢ ـ ١٢٩٣).

كما قامت بعض الإمارات المستقلة في طاشقند.


بحيرة خوارزم
خوارزم
بخارى
سمرقند
طاشقند
خوقند
نهر سيحون
نهر جيحون
مرو
مشهد
هراة
خراسان
القياس
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ كيلومتر

مصور رقم [٢٨]


بحر الخزر
بحيرة خوارزم
خوارزم
بخارى
طاشقند
خوقند
سمرقند
مرو
جيحون
مشهد
هراة
المقياس
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ كيلومتر
قبل عام ١٢٧٠
١٢٧٠ _ ١٢٨٦
١٢٨٦ _ ١٣٠٠
١٣٠٠ _ ١٣١١

مصور رقم [٢٩]

الفصل الرابع

شرقي تركستان

وصل المسلمون إلى كاشغر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٦، وتمّ فتحها، وتوقّفت الفتوحات بعد ذلك، وأصبحت المنطقة مسلمةً، وحاول الصينيون دخولها عام ١٣٤، إذ ظنّوا أن أمر المسلمين قد ضعف أمرهم بزوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، إلّا أن المسلمين تمكّنوا من دفعهم عنها، وأحسّ أهل الصين بقوة المسلمين حتى أن ملك الصين قد استنجد بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني ضدّ ثورةٍ قامت عليه فأنجده وثبّت حكمه.

وفي أيام المغول بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل التي تُقيم في تلك المنطقة، وقد أسلم الأويغور سكان منطقة كانسو التي تقع شرق تركستان، وأسلم معهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاي المغولية التي كان نفوذها يشمل تلك الجهات، وأصبح المغول يعملون لنشر الإسلام، ودانت لهم الصين التي كانت مقسمةً إلى تسعة أجزاء يحكم كل جزءٍ خان نيابة عن ملك المغول.

وفي عام ٧٤٨ انتصر الأمراء الأتراك على بلاد ما وراء النهر، فنصّب أمراء المغول في القسم الشرقي توقلق تيمور خاناً عليهم، وظل المغول يحكمون تلك الأجزاء حتى القرن الحادي عشر، وهم من المسلمين، وإن كانوا قد انقسموا إلى خانات يحكم كل منهم منطقةً خاصة، وأشهرهم خانات كاشغر، وخانات أقصو، وطرفان، أما حكام الصين من المغول فقد

طردوا منها عام ٧٧١ في عهد الخان المغولي الحادي عشر طوغان تيمور، واقتصرت دولتهم على منطقة قراقورم (أولان باتور) منطقة منغوليا اليوم.

وفي عام ١٠٤٣ حكمت أسرة مانغو الصين، وأصبح المغول من أسرة قبلاي رعايا لها في الوقت الذي بدأ يضعف فيه أيضاً خانات تركستان في كاشغر وأقصو، وهم من أسرة جغطاي، ويدينون بالولاء لأسرة مانغو أيضاً. ولكن لم تلبث أن حكمت الأسرة المانشورية الصين عام ١٠٥٤، واستمر حكمها حتى عام ١٣٢٩، وبدأت باضطهاد المسلمين، وإن الاضطهاد لا بدّ من ثورات تعقبه، فالنفوس يمكن أن تتحمل الأذى، ولكن لمدة، ثم ينفذ الصبر.

كانت ثورات المسلمين في المناطق التي يكثر فيها المسلمون وخاصةً في تركستان الشرقية ومنطقة كانسو، ولم تكن الجهود موحدة ـ مع الأسف ـ وإنما تقوم في منطقة حركة في الوقت الذي تكون الثورة قد هدأت في المنطقة الثانية، كما أن المسلمين الموزعين في بقية أرجاء الصين لم يشاركوا أحياناً في هذه الحركات، وإنما اقتصرت الثورات على الأجزاء الغربية التي يكثر فيها المسلمون.

قامت ثورة جنقغ في تركستان عام ١٢٤١، واستمرت عامين إذ أخمدت أو هدأت عام ١٢٤٣.

وقامت ثورة يعقوب بك في تركستان أيضاً عام ١٢٧١، وتمكّنت من السيطرة على المنطقة وأعلنت استقلال تركستان، وقيام يعقوب بك بأمر الحكم، واستمر الاستقلال ثلاث عشرة سنة، وظنّوا أن الوضع قد استقر، إلا أن العقوبة لا بدّ من أن تنزل بهم إذ لم يساعدوا إخوانهم المسلمين في كانسو، وشنسي، وبالواقع فما أن انتهى الصينيون من إخماد ثورة كانسو عام ١٢٨٩ حتى اتجهوا نحو تركستان عام ١٢٩١، فهُزم يعقوب بك وقُتل، وسيطر الصينيون على المنطقة، ووضعوا والياً عليها من قبلهم، ولم تكن هذه الثورات فقط، وإنما هذه أهمها إذ استمرت الثورات أكثر من مائة عام (١١٦٩ ـ ١٢٩١)، وآخر انتفاضة كانت عام ١٣٤٩، واستمرت خمس

سنوات، وتمكّن الصينيون بدعم الروس القضاء عليها. وانسحب الروس من تركستان عام ١٣٦٢، وعندما تسلم الشيوعيون الحكم في الصين عام ١٣٦٩، واستقلت تركستان ذاتياً، وعُيّن سيف الدين رئيساً للدولة عام ١٣٧٣، وعرفت البلاد منذ تلك المدة باسم «سينكيانغ» أي المقاطعة الجديدة.

أما كانسو وهي المقاطعة التي تقع شرق تركستان فقد قامت فيها عدة ثورات أيضاً أهمها:

١ ـ ثورة سوسيان عام ١١٦٩.

٢ ـ ثورة مانسين عام ١١٧٩.

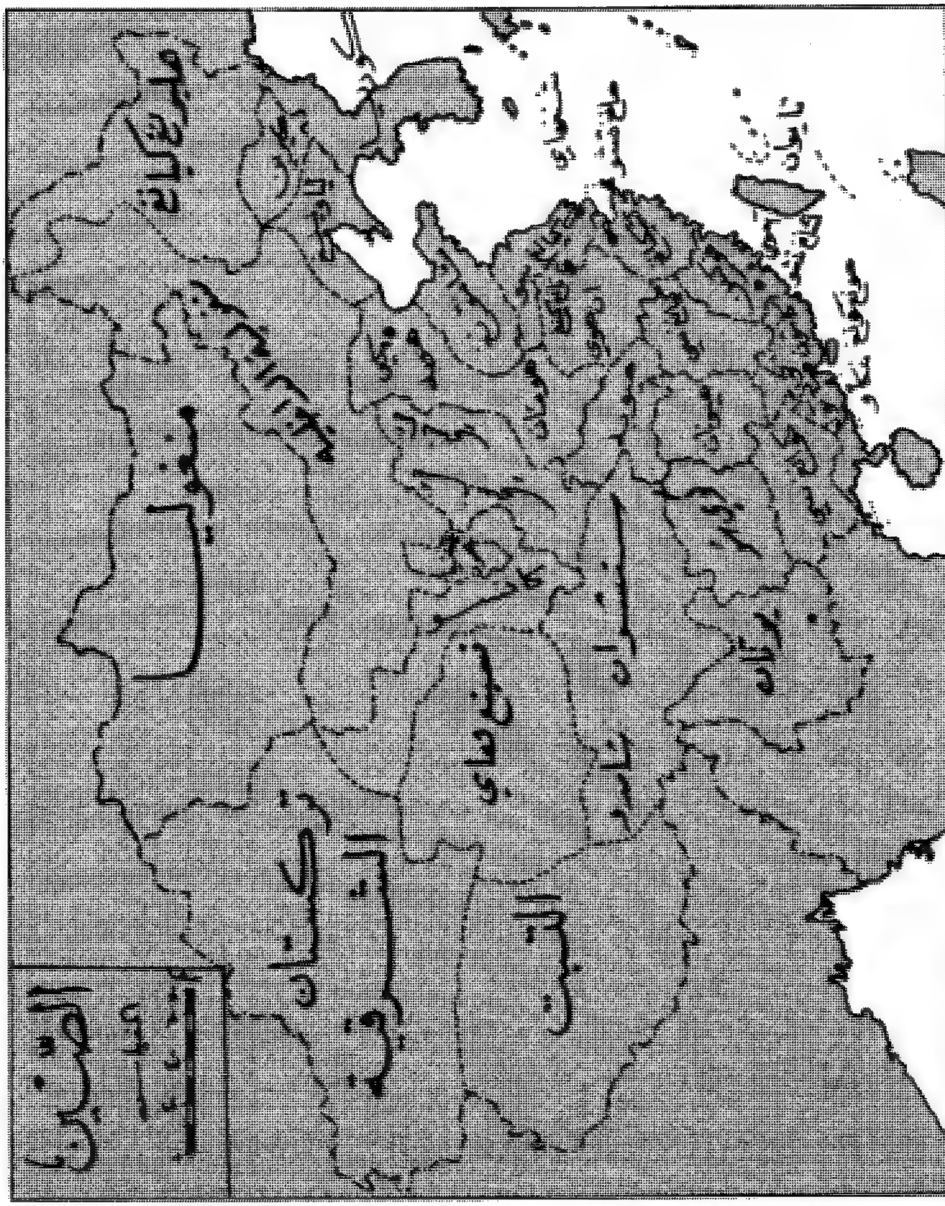
٣ ـ ثورة عام ١٢٨٠ التي هي جزء من ثورة يعقوب بك التي شملت تركستان، وكانسو، وشنسي.

٤ ـ ثورة عام ١٣١٣.

وقد جُزّئت كانسو إلى عدة مقاطعات، وضُمّت أقسام منها إلى مقاطعات أخرى لتفتيت قوة المسلمين فيها.

ومع استلام الشيوعيين للحكم فقد غُيّرت أسماء كثير من المدن لفصلها عن تاريخها، وربطها بالفكر الشيوعي الحديث، وحتى أن الدول الإسلامية تصبح جاهلة هذه الأسماء، وأرى من الضروري ذكر أسماء بعضها.

أورمجي	أصبح	تيهوا
كاشغر	أصبح	شوفو
يارقند	أصبح	سوجي
خوتان	أصبح	هوتين
أقصو	أصبح	ونسوه
حامي	أصبح	كومول



مصور رقم [٣٠]

الفصل الخامس

الصَفويُون وَالدَولة الايرانيَّة

ينتسب الصفويون إلى صفي الدين الأردبيلي المتوفى عام ٧٢٩، وقد طُرد حفيده الجنيد من دياره أيام جهان شاه من أسرة الآق قيونلي فلجأ إلى أوزون حسن (حسن الطويل) من الأسرة نفسها في ديار بكر، فاستفاد منه، وقرّبه إليه، وزوّجه أخته، وقُتل الجنيد في إحدى المعارك ضدّ أمير شروان (شمالي أذربيجان)، وقام حيدر بن الجنيد يسير على خطة أبيه، وبقي مع أوزون حسن، وقد تزوج ابنته، وقوّى بلدته أردبيل حتى أصبحت منيعةً، وجمع حوله أنصاراً من التركمان، ثم قتل عام ٨٩٤ في إحدى المعارك ضد أمير شروان أيضاً، ولكن في هذه المرة كان يعقوب بن أوزون حسن ضده، وقد ساعد أمير شروان، حيث اختلف يعقوب مع حيدر، واستولى يعقوب على بلدة أردبيل، ونقل أولاد حيدر إلى فارس، ولكنهم رجعوا إلى مقرهم في عهد رستم أحد أمراء أسرة الآق قيلوني والذي حكم (٨٩٧ - ٩٠٢)، وكان الابن الثالث لحيدر هو إسماعيل الذي جمع حوله بعض الأعوان، واعتمد على الناحية العشائرية إذ كانت عدة قبائل تركمانية في تلك الجهات، وشن هجوماً على باكو واستطاع أن يدخلها، وأن يستولي على شروان وبذا تكونت عنده الأرض القاعدة التي يمكن أن ينطلق منها، واصطدم بأمراء أسرة الآق قيلوني فانتصر على الأمير ألوند في معركة شرور على نهر أراكس عام ٩٠٧، ثم قضى على بقية أمراء هذه الأسرة في العراق إذ انتصر على مراد بن يعقوب، وفي إمارة البستان على علاء الدولة وبذا انتهت الإمارة الآق قيلونية، وقامت الدولة الصفوية، وانتقل إسماعيل

الصفوي إلى تبريز وجعلها قاعدةً له، وأخضع ولاة التيموريين هناك، واتخذ المذهب الشيعي منطلقاً لفكرته، وأفاد من حماسة الأقلية الشيعية وسط المجتمع السني والدول المجاورة لمنطقته التي انطلق منها، ووصل بسرعة بدولته إلى هراة ونهر جيحون وسواحل الخليج العربي. ولكنه هُزم أمام السلطان سليم في معركة جالديران عام ٩٢٠ فضم العثمانيون إليهم ديار بكر ودخلوا تبريز، وأعلن والي بغداد خضوعه للخليفة العثماني غير أن اتجاه العثمانيين نحو المماليك ودخول بلاد الشام ومصر، والالتفات إلى قتال البرتغاليين الذين يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين قد أعاد للشاه إسماعيل قوته، وعمل على التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين إذ أن حقده كان عظيماً على دولة آل عثمان. وكذلك كان الصراع قوياً على حدود دولة الشاه إسماعيل الصفوي من جهة الشمال الشرقي إذ كان زعيم الأوزبك محمد الشيباني يهدد الشاه إسماعيل ويدعوه إلى العودة إلى الإسلام بصورة صحيحة ويهدده بقتاله داخل معاقله في فارس، وجرت الحروب بين الطرفين، وانتصر إسماعيل الصفوي في بداية الأمر، ثم هزم واستعاد الأوزبك مواقعهم التي فقدوها في المرحلة الأولى. أما بالنسبة إلى الهند فقد كان ظهير الدين محمد بابر على تفاهم مع إسماعيل الصفوي.

وتوفي الشاه إسماعيل الصفوي عام ٩٣٠، وخلفه ابنه طهماسب، وكان صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره، فتولّى زعماء (القزلباش) زعماء الشيعة الاثنى عشرية إدارة الأمور مدة، ثم بدأ طهماسب ينفرد بالسلطة.

سار طهماسب إلى الشرق وانتصر على خان الأوزبك عبيد الله، ولكنه لم يتقدم في بلاد الأوزبك، ثم اتجه غرباً، واستولى على بغداد، وقضى على ذي الفقار الكردي شاه بغداد الذي أعلن خضوعه للعثمانيين، غير أن السلطان سليمان لم يلبث أن طرد جيوش طهماسب من العراق، وأخذ بغداد عام ٩٤١، وفي الوقت الذي اتجه فيه طهماسب نحو الغرب أي عام استيلائه على بغداد عام ٩٣٦ تقدّم الأوزبك من الشرق، وبدؤوا يجوسون خلال ديار طهماسب الشرقية وحتى مدينة مشهد، وبعدئذ عقد طهماسب

صلحاً مع الخليفة العثماني، وساد الهدوء تقريباً على الجبهة بين الدولتين بعد صلح ٩٦١. وتوفي طهماسب عام ٩٨٤ بعد أن حكم ما يزيد على نصف قرن.

تولّى بعده ابنه إسماعيل الذي عرف بإسماعيل الثاني، وقد كان أبوه يكرهه حتى وضعه في السجن ما يزيد على ربع قرن، كان متغطرساً لا يثق بأحد حتى من أقرب المقربين إليه، ووقع الخلاف بين أولاد طهماسب حيدر، وإسماعيل، ومحمد، وعباس. وقد لقي إسماعيل مصرعه بعد عام (٩٨٥)، وحكم محمد باسم محمد خدانبك حتى عام ٩٩٥، ثم تولى عباس باسم الشاه عباس الكبير. وأثناء هذه الصراعات الداخلية احتل العثمانيون تبريز، وتفليس، وبلاد داغستان، ورغم مقاومة القادة الصفويين إلا أنها لم تفدهم، كما أن العثمانيين قد خسروا الكثير ولكنهم احتفظوا بتبريز. ووجد عباس نفسه بين العثمانيين في الغرب والأوزبك وغاراتهم في الشرق، لذا عقد معاهدة مع العثمانيين عام ٩٩٨ تنازل فيها عن تبريز ولورستان، والكرج، وداغستان، وشروان، وعلى أن يبقى حيدر مرزا ابن أخي الشاه رهينةً في إستانبول.

اتجه عباس إلى الشرق وانتصر على الأوزبك انتصاراً أضعف دولتهم، وأجبرها على ترك جزء من أراضيها للشاه الصفوي الذي استعان بحربه ضد الأوزبك بأمراء خوارزم أبناء عمومة الأوزبك، كما ساعده على هذا النصر حركة عبد المؤمن بن عبد الله ضد أبيه خان الأوزبك.

عاد الشاه عباس إلى قتال العثمانيين بعد هدوء على الجبهة دام ما يقرب من خمس عشرة سنة، إذ درب جنده أحد الضباط الإنكليز، واستغلّ فرصة انشغال العثمانيين بالحركات في الأناضول فهاجم عام ١٠١٢ القلاع العثمانية، واسترد تبريز عام ١٠١٢، ثم اريفان عاصمة أرمينيا، وشروان، وقارص.

وحدثت فتنة في بغداد عام ١٠٣١ إذ تمرّد أحد قادة الإنكشارية بكر صوباشي، فأرسل العثمانيون جيشاً لإخضاعه،وشعر بكر بضعفه فأعلن

خضوعه للشاه عباس الذي أسرع وأرسل له جيشاً كبيراً، وشعر مرةً أخرى بكر بما فعل وأنه سيكون ألعوبةً بيد الشاه لذا عاد فتفاهم مع القائد العثماني على أن يكون حاكم بغداد تحت السيطرة العثمانية. ولكن الشاه لم يعترف بذلك وأصر على أن العراق يتبع دولته، وشنّ عدة هجمات على بغداد باءت كلها بالفشل فاتخذ أسلوب الحيلة والخداع فاستمال من استطاع عليه من بعض القادة، وكانت مؤامرة قُتل فيها بكر صوباشي، ودخل جيش الشاه بغداد، واتجه بعدها بأنظاره إلى البصرة غير أنه لم يفلح.

واتفق الشاه عباس مع الإنكليز، وقاتلا معاً البرتغاليين، وأخرجوهم من هرمز عام ١٠٣١، وكانت رغبته التحالف مع أوربا ضد الدولة العثمانية إذ كان حقده شديداً وتعصبه عنيفاً. وكان فظاً قتل ولده الكبير، وسمل عيون اثنين آخرين من أبنائه، وتوفي عام ١٠٣٧ بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة، ونقل العاصمة إلى أصفهان.

خلف عباس حفيده صفي، وقد بدأت منذ أيامه تسير الدولة نحو الضعف، وقد شن الخليفة العثماني مراد الرابع حرباً على الصفويين عام ١٠٤٨ واستردّ منهم العراق، وعقدت معاهدة بين الطرفين حددت الحدود بين العراق ودولة الصفويين عام ١٠٤٩، وانتهى حكمه عام ١٠٥٢.

وخلفه عباس الثاني الذي لم يلتفت إلى مصالح الدولة أبداً، ثم تولّى بعده سليمان أو صفي الثاني عام١٠٧٧ فاستولى الهولنديون على جزيرة قشم، وأغار اليعاربة على بندر عباس، والأوزبك على خراسان ولم يُبد أية حركة، واستمر، في حكمه حتى عام ١١٠٥، ثم تلاه حسين الأول الذي فرّ اثنان من أولاده إلى الدولة العثمانية. وفي عام ١١٣٥ تولى طهماسب الثاني، فعباس الثالث حيث انهارت الدولة الصفوية وقضى عليها الأفغان.

الأفغان:

استطاع محمود بن أويس أن يُعلن التمرد على الصفويين، وأن يستولي على هراة، ومشهد عام ١١٣٥، ثم اتجه إلى أصفهان عاصمة الصفويين،

الصفويون:

- «١» إسماعيل بن حيدر ٩٠٧ ـ ٩٣٠
  - «٢» طهماسب ٩٣٠ ـ ٩٨٤
    - «٣» إسماعيل الثاني ٩٨٤ ـ ٩٨٥
    - «٤» محمد خدابنده ٩٨٥ ـ ٩٩٥
      - «٥» عباس الأول ٩٩٥ ـ ١٠٣٧
        - صفي مرزا
          - «٦» صفي الأول ١٠٣٧ ـ ١٠٥٢
            - «٧» عباس الثاني ١٠٥٢ ـ ١٠٧٧
              - «٨» صفي الثاني (سليمان الأول) ١٠٧٧ ـ ١١٠٥
                - «١٠» طهماسب الثاني ١١٣٥ ـ ١١٤٤
                  - «١١» عباس الثالث ١١٤٤ ـ ١١٤٨
              - «٩» حسين الأول ١١٠٥ ـ ١١٣٥

وألقى الحصار عليها، فاستسلمت له بعد حصار دام سبعة أشهر، وانحصر سلطان الصفويين في الشمال، فاتجه مير محمود إلى تلك الجهات، إلا أن بعض المدن بدأت تثور عليه، ولكنه استطاع أن يجذب الأكراد إليه نتيجة الاتفاق في المذهب، فأخضع ثورات المدن.

كانت رغبة قيصر روسيا بطرس الأكبر التوسع في إيران، لذا لم يعترف بحكم مير محمود، وأبدى تأييده للسلطان حسين، وأرسل إليه وفداً ليتعرف على رأيه واتجاهه. ثم زحف على رأس جيشٍ مؤلفٍ من اثنين وعشرين ألف مقاتل بحجة إنقاذ فارس من طغيان مير محمود، واحتل باب الأبواب (دربند)، واتجه نحو (شماكا) فوجد أن العثمانيين قد احتلوها، وهددوه بأن أي تقدّم على حساب الفرس يعني الحرب مع الدولة العثمانية فتوقّف. ثم إن الأفغانيين كانوا يشددون الضغط على مدينة (رشت) فاستنجد حاكمها بالروس فأنجدوه واحتلوها، وعقد ولي العهد طهماسب الثاني معاهدة مع الروس تنازل لهم بمقتضاها عن (شروان، وجيلان، وداغستان، ومازندران)، فاستنجد أهل شروان بالدولة العثمانية لا بصفتهم من أهل السنة وإنما من طغيان الكفر الروسي، فاتفق الروس والعثمانيون على تقسيم فارس، وكانت المعاهدة بين الطرفين على النحو التالي:

١ ـ تأخذ روسيا سواحل بحر قزوين وجيلان ومازندران إلى شمال المجرى الجنوبي لنهر أراس، أو بالذي تنازل فيه طهماسب للروس.

٢ ـ تأخذ الدولة العثمانية الولايات الغربية.

٣ ـ إذا وافق طهماسب على هذه الاتفاقية اعترف به شاهاً على فارس.

٤ ـ يتحالف العثمانيون والروس ضد أية محاولة يقوم بها طهماسب لاسترداد ما أخذه الطرفان.

احتل الروس ما أعطتهم الاتفاقية، وتقدم العثمانيون أيضاً ووصلوا إلى همدان، واحتلوا تبريز بعد مقاومة. وبدأ مير محمود بالمذابح التي استمرت

أسبوعين أنهى خلالهما على الأسرة الصفوية باستثناء الشاه حسين، ومن لم تطله يده، وشعر الأفغان ما وصل إليه مير محمود لذا استدعوا الأمير أشرف من أفغانستان ونصبوه ولياً للعهد، ثم خلعوا مير محمود وسلّموا الأمر لأشرف عام ١١٣٧.

جاء أشرف ابن عم محمود إلى السلطة، وكانت الأمور حرجة، وولي العهد الفارسي السابق طهماسب الثاني يُقيم في مازندران، ويعدّ نفسه الشاه الشرعي للبلاد، وقاتل أشرف العثمانيين فانتصر على والي بغداد أحمد باشا انتصاراً كبيراً وفرّت فلول الجيش العثماني، ولكنه لم يتعقبه بل ردّ إليه الغنائم فكان هذا مجالاً للتفاهم بين الطرفين إذ اعترف أشرف بأن السلطان العثماني خليفة للمسلمين، وأبقى للعثمانيين الذي كان في أيديهم، واعترف العثمانيون بأشرف شاهاً على فارس. وربما كان سبب هذه الاتفاقية قوة طهماسب الثاني الذي أيّده نادرخان، وكان ذلك كله عام ١١٤٠.

وكان نادر خان طموحاً، ومن قطاع الطرق، ومع الفوضى برز اسمه، وجمع حوله عدداً من الرجال، وعمل باسم طهماسب، وسيطر على هراة ومشهد، واستطاع أن ينتصر على جند أشرف عندما داهموه عام١١٤١، ولاحقهم فاعتصم أشرف بمدينة أصفهان، فألقى نادر خان الحصار عليها، ولم يثبت أشرف أمامه بل فرّ وفلول جيشه نحو شيراز، ولكن قبل أن ينسحب قتل الشاه حسين الذي كان بيده، ودخل طهماسب أصفهان، وتابع نادر خان الأفغانيين حتى أخرجهم، وسقط أشرف قتيلاً عام ١١٤٢، وبهذا خرج الأفغانيون بعد سبع سنوات من دخولهم عام ١١٣٥.

طهماسب الثاني:

انتصر نادر خان على العثمانيين، وهزمهم عند همدان، وسيطر على أذربيجان، وحاصر أريفان عاصمة أرمينيا إلا أنه اضطر أن يترك الحصار وأن يتجه نحو خراسان حيث حدث تمرّد هناك.

أراد طهماسب الثاني أن يُظهر مكانته، وألا يكون في زاويةٍ ميتةٍ أمام

قائده نادر خان فانقضّ على الجيش العثماني عام ١١٤٤ ظناً منه أن هذا الجيش لن يقوى على القتال لهزيمته منذ مدةٍ قصيرةٍ لكن أمله قد خاب، وهُزم أمام العثمانيين هزيمةً منكرةً، واضطر لعقد معاهدة معهم يتنازل فيها، عن جزءٍ من أراضيه، وليجعل العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه فيسكتون عنه، وقد تنازل في هذه المعاهدة عن شروان، وتفليس، وأريفان، وهمدان، ولورستان. ولم تشر هذه المعاهدة إلى الأسرى الفرس.

نادر خان والأفشار:

وجد نادر خان الفرصة ليعلن سيطرته فانتقد هذه المعاهدة، وحذّر الخليفة العثماني، وطلب منه إعادة الولايات إلى أصحابها، وسار إلى أصفهان، وقبض على الشاه طهماسب، ووضع ابنه الطفل عباس الثالث في السلطة، وأعلن نفسه وصياً عليه عام ١١٤٥، ثم حاصر الموصل وبغداد، ولكنه هُزم، ثم ما لبث أن كرر الهجوم فأحرز النصر، وقتل القائد العثماني عثمان باشا، وفشل في التفاهم مع شركة الهند الشرقية البريطانية لدعمه لاحتلال البصرة، وأراد أن يُتابع القتال ضد العثمانيين، ولكن تمرداً قام ضده في فارس جعله يعقد معاهدة مع أحمد باشا والي بغداد العثماني بحيث تعود الولايات التي أخذها العثمانيون عام ١١٤٤ إلى الفرس، أي أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التوسع العثماني، ولكن الخليفة العثماني لم يوافق على هذه المعاهدة، وكان نادر خان قد أنهى وضعه في فارس، فسار إلى الجبهة العثمانية واستدرج الجيش العثماني الذي كان بقيادة عبد الله كوبريللي، فانتصر عليه، ودخل تفليس، وأريفان، واضطر الخليفة العثماني عندها على الموافقة على الاتفاقية التي عقدت بين نادر خان ووالي بغداد أحمد باشا. ثم استردّ نادر خان مازندران، وجيلان بمعاهدة رشت التي عقدها مع الروس ١١٤٥، إذ وافقت الإمبراطورة آن على ذلك، ولم تكن عندها مقدرة سلفها بطرس الأكبر، ثم استرد باكو، ودربند (باب الأبواب) مهدداً بالتحالف مع العثمانيين ضد الروس.

وتوفي الشاه الطفل عباس الثالث عام ١١٤٨، وأصبح نادر خان هو سيد البلاد، واتجه إلى بلاد الأفغان، واحتل قندهار بعد حصارٍ دام عاماً، كما استولى على بلخ، وهزم جيشاً للأوزبك. ثم اتجه إلى الشرق فدخل كابل، وبيشاور، وانتصر على جيش محمد شاه، ودخل دهلي ١١٥١، ولم يعلن نفسه سلطاناً على الهند، وإنما أبقى محمد شاه سلطاناً هناك، وإن أخذ نادر شاه مقاطعات شمالي السند. كما اجتاح عمان عام ١١٥٠.

عاد نادر خان إلى فارس، وسار عام ١١٥٢ فاحتلّ بخارى، وخوارزم، وعندما رجع من الهند وجد أن قبائل اللزكي في جبال القفقاس قد اعتدت على داغستان فأراد أن يُؤدِّبها لكنه هُزم هزيمة منكرة أثّرت على نفسيته، وبدأت الحركات تقوم عليه، فقامت حركة في شروان وأخرى في فارس، وثالثة في استراباد، ثم شن حرباً على العثمانيين، وحاصر الموصل، وقارص، ورغم معاناته الكثيرة من الهجمات العثمانية إلا أنه انتصر في النهاية، وعقد معهم معاهدة عام ١١٥٩.

فشل نادر خان في إنشاء أسطول فارسي، وفشل في إعادة المذهب السني إلى فارس، حيث عمل على جعل مذهب الإمام جعفر الصادق مذهباً خامساً بين المسلمين، ولكن العثمانيين لم يقبلوا هذا ووافق الفرس على كره.

ثار عليه عمه في سيستانْ على حدود أفغانستان اليوم، وأعلن نفسه شاهاً، وثار عليه الأكراد فسار لتأديبهم فقُتل وهو في طريقه إليهم عام ١١٦٠.

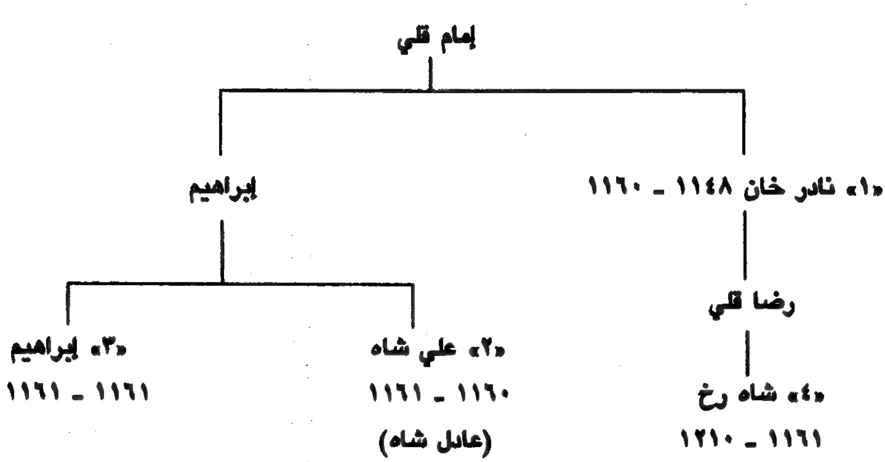
الأفشار بعد نادر خان:

سُرّ قادة نادر خان لمصرعه بسبب كثرة ساحات القتال التي كانوا ينتقلون إليها، ولكن اختلف معهم أحدهم، وهو أحمد خان الدوراني الذي كان يقود الأفغان والأوزبك، واصطدم مع بقية القادة، ودار قتال بين الطرفين، هُزم فيه أحمد خان، فانسحب إلى قندهار فأسس فيها مملكةً، ثم استولى على هراة، ومشهد، وغزا الهند فاستولى على كشمير، والسند، وجزءٍ من البنجاب، وسيطر على دهلي مدةً قصيرةً.

أما سلطان الفرس فقد أسند إلى علي قولي ابن أخي نادر خان الذي عُرف باسم (عادل شاه) فقضى على أسرة عمه كلها سوى حفيده شاه رخ مرزا بن رضا قولي بن نادر خان، ولكن ثار على عادل شاه أخوه إبراهيم وخلعه، ولكن إبراهيم لم يلبث أن قُتل، ثم قُتل أخوه عادل شاه أيضاً

وتولّى الحكم شاه رخ مرزا حفيد نادر خان وكانت أمه بنت الشاه حسين، ولكن نافسه مرزا سيد محمد الذي أعلن للناس أن شاه رخ يسير على سياسة جده في القضاء على المذهب الشيعي، وقاتله، وانتصر عليه، وقبض عليه، وأعلن نفسه شاهاً باسم الشاه سليمان، وقام يوسف علي قائد جيش شاه رخ فقبض على الشاه سليمان وقتله وأولاده، وأعاد شاه رخ إلى الحكم، وأصبح هو وصياً عليه بصفته أعمى وصغير.

ظهر قائدان آخران هما: علم خان الذي يقود قواتٍ عربيةٍ، وجعفر خان الذي يقود قواتٍ كرديةٍ، فقبضا على يوسف علي وقتلاه، وأعيد شاه رخ إلى السجن، ثم اختلف القائدان، واصطدموا، وكانت نتيجة الصدام أن انتصر علم خان الذي هُزم أمام أحمد خان الدوراني شاه قندهار فقتل، وخسر هراة ومشهد عام ١١٦٤ ـ كما ذكرنا ـ. وبقيت خراسان عامة ولاية فارسية تخضع لحكم أحمد خان، وتتبع اسمياً لشاه رخ الذي بقي حتى عام ١٢١٠ في السجن. فانتهى إذن حكم الأفشار، وإن كان لشاه رخ إمرة اسمية على جزءٍ صغيرٍ لا يخضع له.



الزنديون وكريم خان:

ظهر كريم خان الزندي الكردي الذي كان في جيش نادر خان، وقد تحالف مع علي مردان زعيم البختيار، ثم اختلف معه وقتله، وأصبح سيّد الجزء الجنوبي.

اختلف كريم خان مع محمد حسين خان، ومع أسد خان الأفغاني، وانتصر كريم خان على القاجار، وهاجم أسد خان الذي اعتصم في قزوين وأخذ يتقوّى حتى انتصر على كريم خان، وألجأه إلى التراجع إلى بوشهر، ولكن عادت إليه قوته فأحرز النصر على خصمه ورجع إلى شيراز، وانتصر على منافسيه وحكم مدة ثلاثين سنة أو أكثر (١١٦٣ ـ ١١٩٣) فنعمت البلاد في عهده بالرخاء والاستقرار، وعادت التجارة الأوربية. وتعاون مع الإنكليز، واستفاد من أسطولهم لإخضاع مير مهنا المتمركز في(بندر رق). واستطاع أن يدخل البصرة، وأن يعطي أمرها لأخيه صادق خان عام ١١٨٩، وبقوا فيها حتى توفي كريم خان.

الزنديون بعد كريم خان:

انقضّ على الحكم بعد وفاة كريم خان أخوه لأمه زكي خان، ولكن المنافسة قامت ضدّه إذ قام في شيراز أبو الفتح بن كريم خان وأعلن نفسه شاهاً، غير أن زكي خان لجأ إلى الحيلة فأعلن أنه جندي من جنود ابن أخيه، فاستطاع بذلك أن يأمن قادة أبي الفتح وأن يُنسّق الخطة، ولمّا تمكّن أعمل السيف في منافسيه، ودعمه في شيراز ابن أخته مراد خان.

وقام في وجه زكي خان أيضاً صادق خان أخو كريم خان الذي عهد إليه أخوه وهو على فراش الموت بالوصاية على أبنائه. ولكنه هدد زكي خان بإبادة أسرة كل من يتعاون مع صادق خان.

وقام القاجار في وجه زكي خان بقيادة آغا محمد. وبعث زكي خان جيشاً إلى أصفهان بقيادة علي مراد خان الذي لم يلبث أن انقلب ضده، واغتيل زكي خان عام ١١٩٥.

أصبح أبو الفتح بن كريم خان صاحب السلطة فسجن أكبر خان بن زكي خان، كما سجن أخاه محمد علي خان المتزوج من ابنة زكي خان، ولكنه ظهر صادق خان، وفرض نفسه على ابن أخيه، وبعد شهرين أقصاه، وتفرّد بالسلطة. وقام علي مراد خان ينافسه حيث رغب في الزواج من ابنة كريم خان، وحال صادق خان دون ذلك، وتمكّن علي مراد خان أن يستولي عام ١١٩٦ على أصفهان، على حين استولى صادق خان على شيراز، ثم استطاع علي مراد خان من دخول شيراز، واستسلم له صادق خان فقضى على أسرته جميعها باستثناء جعفر خان.

زحف علي مراد خان على مازندران حيث يرابط القاجار، فاستغلّ جعفر خان الفرصة وقام بثورة في زنجان، فعاد علي مراد خان مسرعاً، ولكنه توفي في الطريق، وخلا الجو لآغا محمد قاجار الذي انتصر على جعفر خان، ودخل أصفهان، ولكنه هُزم أمام زعيم البختيار فاستغلّ جعفر خان الفرصة، ودخل أصفهان، لكنه ثار عليه ابن عمه إسماعيل خان في همدان، وحاول جعفر خان أن يفرض سلطته على لورستان، وكرمان ولكنه مات مسموماً عام ١٢٠٣، فلما وصل خبر وفاته إلى ابنه لطف الله خان هرب إلى ميناء بوشهر، ولكنه لم يصمد أمام القاجاريين، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر، ثم تراجع إلى كرمان، وحاول التفاهم مع تيمور شاه الأمير الدوراني في قندهار، ولكنه توفي تيمور شاه. وأخيراً استسلم لطف الله خان إلى آغا محمد قاجار فقتله عام ١٢٠٩، وأباد أسرة الزند، وأصبح سيد البلاد آغا محمد.

القاجاريون:

مؤسس الأسرة القاجارية هو آغا محمد قاجار، ولد عام ١١٥٥، ووقع بيد عادل شاه، وأصبح خصياً عام ١١٦٠، وتزوّج كريم خان الزند أخته فأكرمه، وعندما توفي كريم خان عام ١١٩٣، انسحب آغا محمد إلى الشمال، وأعلن نفسه شاهاً، واتخذ من طهران قاعدةً له ومقراً لحكومته،

وكانت البلاد مقسمة فبدأ في الصراع حتى انتهى من أسرة الزند عام ١٢٠٩، ولكنه لم يلبث أن قتل عام ١٢١١.

تولى بعد آغا محمد أو الشاه محمد ابن أخيه فتح علي شاه، ولكن الجيش قد انقسم على نفسه، وبرزت الزعامات من جديد مجرد أن مات الشاه محمد، فقد ثار صادق خان شكاكي وتمكّن فتح علي شاه أن يهزمه، وقام محمد خان بن زكي خان الزندي واحتل أصفهان، فاستطاع فتح علي شاه أن يُخلّصها منه، وأن يقضي عليه، واختلف فتح علي شاه مع أخيه حسين قولي خان فاستغلّ سليمان خان قاجار هذا الخلاف، وأعلن العصيان، واتفق الأخوان، وفرّ سليمان خان، غير أن فتح علي خان قد عفا عنه، وولاّه أذربيجان، وقام نادر مرزا واستولى على مشهد قادماً من أفغانستان التي فرّ إليها من وجه آغا محمد قاجار، وسار إليه الشاه، فاستسلم له، فعفا عنه، واستمر حكم فتح علي شاه حتى توفي عام ١٢٥٠، أي أن حكمه قد استمر تسعاً وثلاثين سنة، وربما كانت هذه المدة من أخطر المراحل التي مرت فيها البلاد، إذ ما استلم الحكم عام ١٢١١ حتى نزل نابليون بونابرت في مصر عام ١٢١٣، وذعرت إنكلترا لذلك أشد الذعر، ودخلت المنطقة كلها في حلبة الصراع الدولي، أو هكذا عملت إنكلترا لتأمين الخطر الفرنسي الذي صوّرته أكثر من واقعه فنشرت الدعايات، وأخافت الحكام حتى لا يستطيع المرء أن يُصدّق ما نُشر يومذاك، وليس له من ثقة بوثائق تلك المرحلة، ولعلّ من جملة تلك الدعايات أن نابليون يريد أن يؤسس إمبراطورية في الشرق، وخاصة في فارس ويجعل أخاه إمبراطوراً عليها.

كانت إنكلترا تريد أن تتفق مع فارس لتكون سدّاً في وجه الفرنسيين من جهة، وفي وجه الروس الذين يتفقون أحياناً مع الفرنسيين، ورداءاً للهند فيما إذا تعرّضت لغزو أفغاني، وطريقاً للتجارة الإنكليزية في الخليج العربي، وفي سبيل هذه الأهداف كانت البعثات الإنكليزية تتوالى على طهران سواء أكانت من إنكلترا مباشرةً أم عن طريق حكومة الهند، وقد

تتضارب الأهداف فتفتر العلاقات مع إنكلترا، ويزيد الضغط الفرنسي، لكن لا تلبث أن تعود إلى سابق عهدها بسبب السياسة الفرنسية التي قد تتفق مع السياسة الروسية أحياناً. ولم تترك إنكلترا منطقة الأفغان خارج دائرة اللعبة الدولية إذ كانت تحرص أن تكون ضمن دائرة نفوذها لتتجنب غزو الهند من جهتها، ولتأمين أي اتفاقٍ بين الروس والفرس أو الفرنسيين والفرس.

وكان شاه فارس يطمع في ضمّ بلاد الأفغان إليه، أو ضمّ كل جزء خضع للنفوذ الصفوي سابقاً. وكان أخان لزمان شاه حاكم منطقة الأفغان عند فتح علي شاه وهما: فيروز ومحمود يناوئان أخاهما، فأرسلهما شاه فارس على رأس قوةٍ إلى أفغانستان ولكن لم ينجحا، فسار بنفسه وقضى على ثورة اندلعت ضده في خراسان، ثم اتجه إلى أفغانستان، فانسحب نظام شاه من لاهور وبيشاور واتجه للدفاع عن أفغانستان من فتح علي شاه، وسقط نظام شاه عام ١٢١٦.

ووقّعت إنكلترا معاهدةً مع فارس عام ١٢١٦ تنصّ على استمرار مقاومة الإنكليز والفرس لأيّ غزو أفغاني للهند، ولا يتمّ الصلح مع الأفغان حتى ينسحب الأفغانيون تماماً من بلاد الهند، وتمدّ إنكلترا فارس بالسلاح فيما إذا تعرّضت لغزوٍ فرنسي أو أفغاني... ولكن المعاهدة لم توقّع لأن إنكلترا كانت تتهرب من دعم فارس ضد روسيا خوفاً من زيادة العلاقة بين روسيا وفرنسا، وخوفاً من قوة فارس المسلمة ضد روسيا النصرانية، فالعداء للإسلام في نفسية كل نصراني، وقبل كل شيء. وأبدت فرنسا رغبة دعم فارس لذا حدث تقارب فارسي فرنسي ووقعت معاهدة بين الطرفين عام ١٢٢٢، ولكن بعد شهرين وقعت معاهدة تليست بين روسيا وفرنسا، ترك الفرنسيون فيها يد الروس بالتوسع على حساب الدولة الفارسية أو العثمانية، وللتسوية السياسية أرسل نابليون بعثةً إلى طهران، استقبلت بحفاوةٍ، وتنازل الشاه عن جزيرة (خرج) للفرنسيين، ولكن هاجمت روسيا أريفان عاصمة أرمينيا التابعة للفرس عام ١٢٢٣ فانكشفت السياسة الصليبية الفرنسية أمام الفرس.

أرسلت إنكلترا وفداً إلى فارس عام ١٢٢٣، وقد نجح الوفد في مهمته لأن الشاه كان قد نفض يده من الفرنسيين نهائياً، وعقد الوفد معاهدةً مع الشاه موجهةً ضد فرنسا. وفي الوقت الذي سبق بقليل أرسلت إنكلترا وفداً إلى أفغانستان للتفاهم مع شجاع شاه لعقد معاهدة ضد غزو فرنسي فارسي، وتعهدت إنكلترا بمدّ شجاع شاه بالأسلحة.

هُزمت فارس أمام روسيا فأسرعت إنكلترا لعقد معاهدة مع الفرس لتحصل على ما حصل عليه الروس إثر انتصارهم، وكانت معاهدة ١٢٣٠. ثم هُزمت فارس ثانيةً أمام الروس في الحرب التي دارت بين الطرفين (١٢٤٢ ـ ١٢٤٤)، وقد تخلّت إنكلترا عن دعم فارس بحجة أنها هي التي أعلنت الحرب، فالنصارى بعضهم أولياء بعض.

العلاقات مع روسيا:

كان حاكم جورجيا هرقل قدانتهز مصرع نادر شاه عام ١١٦٠، وضمّ إليه بعض الأجزاء التي كانت تخضع لفارس، وبدأت قيصرة روسيا كاترين الثانية تُحرّض جورجيا على تهديد فارس مجرد أن وصل إلى الحكم آغا محمد قاجار عام ١١٩٣، ثم عقدت كاترين الثانية معاهدة مع جورجيا عام ١١٩٨ وتعهدت لها بحمايتها غير أن آغا محمد قاجار قد سار على رأس قوةٍ عام ١٢١٠ واحتل تفليس بعد جهد، ثم احتل أريفان، ولكن أخاه مرتضى قد فرّ إلى روسيا مغاضباً له، ومقابل الحماية الروسية لجورجيا فقد سار جيش روسي عام ١٢١١، واستولى على دربند، وباكو ثم عسكر في وادي موغان، ولكن توفيت القيصرة كاترين الثانية، وخلفها القيصر بول، وكان مسالماً فانسحب من الأراضي الفارسية. وغدا آغا محمد فغزا جورجيا عام ١٢١١، ونجح في غزوته تلك، ولكنه صرع عام ١٢١١،

وفي عام ١٢١٥ فتح حاكم جورجيا غورجين أبواب بلاده أمام الروس الذين تقدّموا في أراضي فارس التي اضطرت إلى عقد معاهدة معهم عام ١٢٢٨ هي معاهدة كلستان تنازل فيها فتح علي شاه عن دربند، وباكو،

وشيروان، وقره باغ، وجزءٍ من تاليش، وعن جورجيا، وداغستان، ووافق على ألا يكون لفارس أسطول في بحر الخزر.

شنّ الفرس حرباً على العثمانيين عام ١٢٣٥ استهدفت العراق، واستمرت الحرب عدة سنوات، واستعاد الفرس بعض ما كانوا فقدوه، ولم يكن بإمكانية الدولة العثمانية دعم واليها في بغداد داود باشا لذا فقد استنجدت بواليها على مصر محمد علي باشا الذي تخلّص من هذه المهمة بالحيلة حيث كان موقفه سلبياً، ولكن الكوليرا أصابت الجيش الفارسي، واضطر قائده محمد علي مرزا إلى عقد معاهدة أرضروم ١٢٣٨. وما أن هدأت الحرب مع العثمانيين، حتى شن الروس الحرب على الفرس عام ١٢٤١ واحتلوا تبريز، ووقع الطرفان بينهما معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ غير أن الشاه توانى في توقيع المعاهدة فهدد الروس بالزحف على طهران وحث وزير بريطانيا لدى الفرس الشاه على توقيع المعاهدة فوقعها. ولم تكن جهود المسلمين موحدة، واستغل الصليبيون هذه الناحية فنلاحظ أن روسيا قد انتصرت على الفرس، وعقدت معهم معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ وأذلتهم، ثم التفتت إلى العثمانيين وانتصرت عليهم، وعقدت معهم معاهدة أدرنة عام ١٢٤٤. وفي الوقت نفسه فإن الصليبيين بصفتهم أعداءً يحرصون الحرص كله كي لا يتفق المسلمون، ولا تكون لديهم أية قوة، فإنكلترا مثلاً بعد أن سيطرت على منطقة الخليج العربي لا تريد أن تكون البصرة والأهواز بيد دولةٍ مسلمةٍ واحدة سواء أكانت الدولة العثمانية أم الفارسية لأن ذلك يشكل خطراً عليها إذ يصبح من الصعب مقاومتها، لذا كانت تقف بجانب الفرس للحصول على الأهواز. وقد انتصر الفرس على عشائر بختيار، واستولوا على عربستان، وفرّ إلى العراق تامر شيخ قبائل كلب، ثم تابع الفرس زحفهم، وفرت قبيلة بني لام من سفوح جبال لورستان الغربية.

محمد شاه:

توفي فتح علي شاه عام ١٢٥٠، وخلفه حفيده محمد شاه بن عباس

مرزا، وفي أيامه كانت أفغانستان مسرحاً للمناورات الروسية والإنكليزية، ونازع محمد شاه عمه الذي كان حاكم فارس. كما ثار عليه بعض الأمراء القاجاريين ولكنه انتصر عليهم، وثار في عهده آغا خان زعيم الإسماعيلية، وكانت ثورته في إقليمي كرمان، ولورستان، ولكنه فشل في ثورته ففرّ إلى الهند، واستمرت غارات الإسماعيليين على البلاد من الهند لإنهاكها، وظهر أن الإنكليز كانوا الدعم الرئيسي لهذه الحركة. وظهرت في أيامه أيضاً حركة البابيين، وبدأت تنمو بتأييدٍ ودعمٍ من الروس.

وتوغل دوست محمد أمير الأفغان في منطقة سيستان فتحرّك الشاه إلى هراة.

واحتل الإنكليز جزيرة خرج عام ١٢٥٨، وبدؤوا يهددون ميناء بوشهر والساحل الإيراني.

ناصر الدين شاه:

توفي محمد شاه عام ١٢٦٤، فتولّى مكانه ناصر الدين شاه، وفي أيامه قام البابيون بثورتهم عام ١٢٦٤، ولكنها فشلت وأعدم الباب ميرزا علي محمد رضا الشيرازي، وقرة العين فاطمة بنت صالح القزويني تلك المرأة العاهرة التي كانت داعية البابيين، ونفي حسين بن علي المازندراني «بهاء الله» الذي أسس البهائية، وارتبط مع الإنكليز وأخوه يحيى «صبح الأزل».

ساعدت إنكلترا عام ١٢٧٢ أمير كابل دوست محمد، وفتحت على فارس جبهة في جهة الأفغان، وفي الوقت نفسه فتحت عليها جبهةً أخرى من الغرب على الساحل الإيراني إذ استولت على ميناء بوشهر ثم على المحمرة عام ١٢٧٣، ثم جرى الصلح، وانسحبت القوات الفارسية من هراة، ومن كل الأراضي التي عُرفت باسم أفغانستان.

وبدأت القروض الروسية تتدفق على إيران الأمر الذي جعل لروسيا حق الإشراف على إيران.

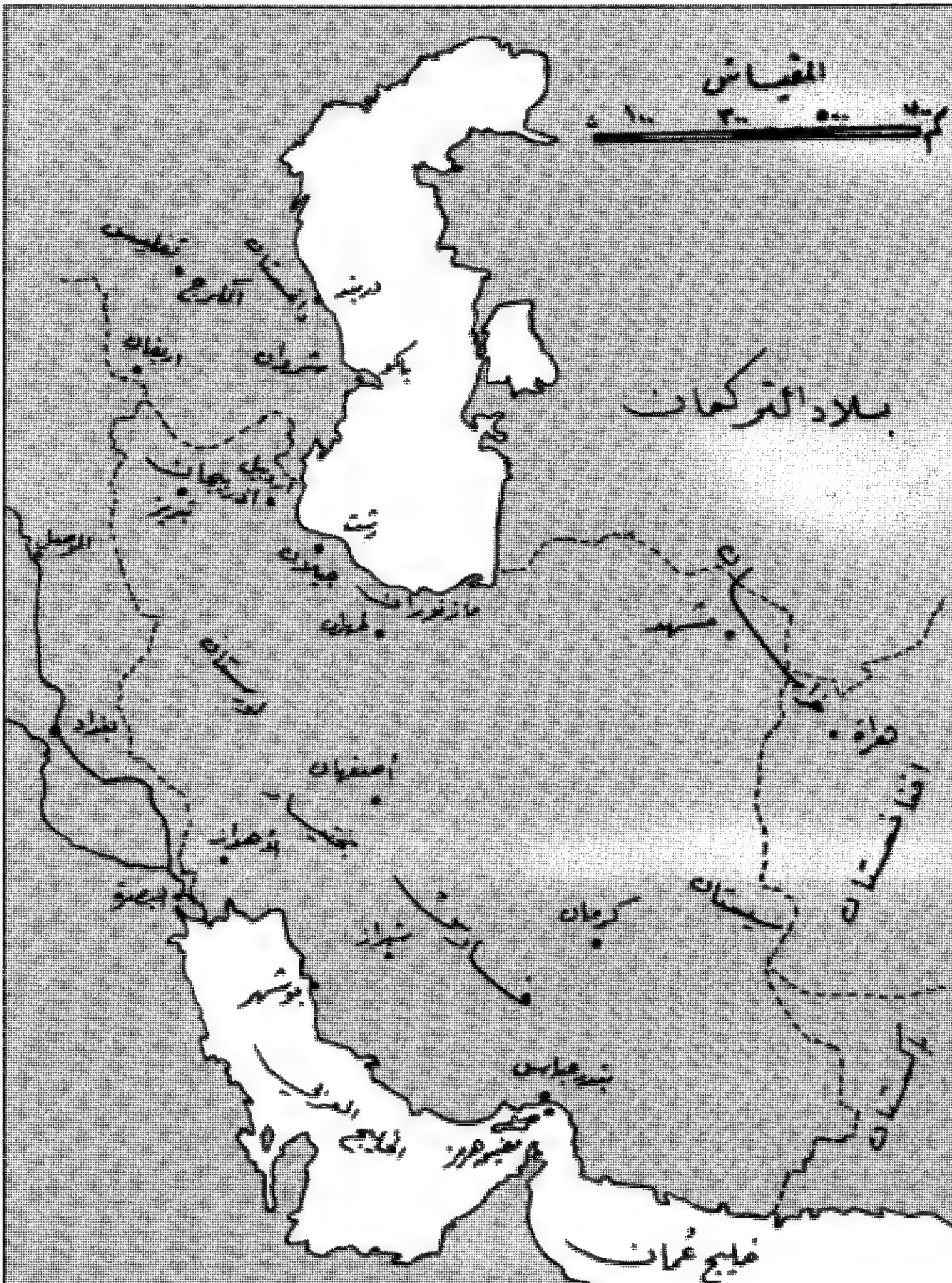
نهاية القاجاريين:

صرع ناصر الدين شاه عام ١٣١٣، وقام بالأمر مكانه مظفر الدين شاه، وفي أيامه زادت المطالبة بالدستور، وبالمجلس النيابي، وفي أواخر حياته وجد المجلس التشريعي وتوفي عام ١٣٢٤.

خلفه محمد علي شاه الذي حكم سنتين (١٣٢٤ ـ ١٣٢٦)، وفي أيامه جرى الاتفاق بين روسيا وإنكلترا على تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ لهما عام ١٣٢٥، وزادت الحركات في وجهه ففرّ إلى قزوين عام ١٣٢٦.

وقام أحمد باشا بن محمد علي شاه، وكان منصرفاً عن أمور الدولة إلى حياته الخاصة، فكانت النقمة عليه كبيرة، وزحف رضا بهلوي قائد فرق القوزاق عام ١٣٣٩ على طهران وسيطر عليها، وأجبر الشاه على تشكيل حكومةٍ برئاسة ضياء الدين طباطبائي، وتولّى رضا بهلوي فيها وزارة الحربية، ولكن تجزّأت البلاد إذ تشكّلت حكومة كردية في أذربيجان، ووجد تمرّد أيضاً في منطقة جيلان، ولكن رضا بهلوي استطاع أن يسيطر على المنطقتين، وتخلّى الإنكليز عن دعم الشيخ خزعل في عربستان، وساعدوا رضا بهلوي على مد نفوذه إليها عام ١٣٤٣.

سافر الشاه إلى أوربا، ولم يعد، إذ لم يوافق الشعب على عودته، وأعلن رضا بهلوي نفسه شاهاً.


القياس
بلاد التركمان
بغداد
أصفهان
كرمان
هراة
بندر عباس
خليج عُمان

مصور رقم [٣١]

الفصل السّادس

بلاد الأفغان

خضعت بلاد الأفغان لحكم التيموريين، ولما ضعفت دولتهم انقسمت إلى إمارات، فكانت هراة تحت حكم خراسان التي يسيطر عليها حسين بيغرا التيموري، بينما تمكّن محمد بابر شاه ظهير الدين أن يُخضع كابل وغزنه بعد تركه بلاد ما وراء النهر لمحمد الشيبان زعيم الأوزبك عام ٩١١، وبقي في كابل ما يقرب من عشرين عاماً، ثم استدعاه أمراء اللوديين إلى الهند لخلافهم مع ملكهم إبراهيم بن إسكندر بن بهلول اللودي فاستطاع أن يدخل الهند عام ٩٣٢ بعد انتصاره على إبراهيم الذي قُتل في معركة (ياني يت) التي دارت بين الطرفين، وقُتل خمسة آلاف من جنوده، وأقام بـ(أغره)، وبقيت كابل وغزنه تتبعه، وتوفي عام ٩٣٧.

خلفه ابنه نصير الدين همايون شاه، فخرج عليه شيرشاه، واستطاع أن يهزمه، وفرّ همايون شاه إلى الصفويين حيث أقام مدةً ضيفاً على طهماسب شاه عام ٩٤٧، ثم عاد فاتحه إلى الهند، ودخل قُنْدُهار، وكابُل عام ٩٥٢، ثم إن الشاه عباس الأول استولى على قندهار، غير أن الصفويين لم يلبثوا أن ضعفوا من بعده، فسيطر الأوزبك على قندهار، ثم استطاع ملك الهند المغولي شاه جهان أن يطرد الأوزبك من قندهار عام ١٠٢١، وأن يُسلمها إلى الشاه عباس الثاني عام ١٠٣٨، ثم حاول أورنكزيب دخول قندهار لكنه عجز مع أن ملكه قد امتد إلى بخارى وخُوارزم، وبعد أورنكزيب فقد تبعت كابل وقندهار وغزنة إيران، أما هراة فكانت أغلب المدة السابقة تتبع إيران، وهكذا فإن بلاد الأفغان المعروفة باسم أفغانستان اليوم كانت تتعاقب عليها

ملوك الهند، وملوك فارس أو أن هراة تتبع فارس في أغلب الأحيان وكابل، وغزنه، وقندهار تتبع الهند وأحياناً يأخذها ملوك فارس.

بعد أن تبعت قندهار إيران بعد وفاة أورنكزيب عين الفرس عليها حاكماً نصرانياً من جورجيا، فتصرّف تصرّف المستبد، وأساء إلى الأهالي، فتمكّنوا بإمرة مير أويس أن يبعدوه وأن يحلّ مير أويس مكانه عام ١١٢٠، وسكت الفرس عن هذا لأن إمكاناتهم كانت ضعيفة، فلما قوي مير أويس بدأ يهاجم الفرس، فعندما أرسلوا إليه قوة انتصر عليها، كما انتصر على جيش أرسل إليه من جورجيا بقيادة خسرو ابن أخي حاكم قندهار السابق، فسقط خسرو صريعاً في المعركة عام ١١٢٣. ثم عاد الفرس فأرسلوا حملةً قويةً لإعادة قندهار إلى نفوذهم فعجزوا، وفرّ قائد الحملة محمد رستم. وتوفي مير أويس عام ١١٢٧، وقد أوصى لابنه محمود بالحكم من بعده إذ أصبحت قندهار إمارة مستقلة، لكن محموداً كان صغيراً لم يتجاوز الثانية عشرة فاستبد عمه عبد الله بالأمر، وعمل على التفاهم مع الفرس ليتمكن من استلام الحكم، وقد كان التفاهم على إلغاء ما كانت تدفعه قندهار إلى فارس، وعدم محاولة الفرس لإخضاع قندهار بالقوة، وتأسيس أسرة تحكم قندهار بالوراثة هي أسرة عبد الله. غير أن السكان قد غضبوا لفعل عبد الله هذا إذ أضاع انتصاراتهم، وقام محمود بن مير أويس، وقتل عمه عبد الله، وتسلّم حكم الإمارة. وهذا ما شجّع قبائل الدورانية (العبدلية) في هراة بقيادة زعيمهم أسد الله على محاربة الفرس، والاتفاق مع الأوزبك، فقد أحرزوا الانتصار، وأسسوا أيضاً إمارةً في هراة كانت على صلات حسنة مع إمارة قندهار ما دامتا معاً ضد الفرس.

وبدأ القتال بين مير محمود والفرس وتمكن زعيم قندهار من إحراز النصر، وتابع تقدمه نحو أصفهان، وجرت معارك جانبية في جهات مختلفة، وسقطت أصفهان عاصمة الصفويين أخيراً بيد مير محمود عام ١١٣٥، ولم يبق للصفويين إلا رقعة صغيرة في الشمال حيث يقيم طهماسب الثاني في إقليم مازندران، وبدأت قوة مير محمود تتراجع بسرعة

والروس تقدّموا من الشمال، وطلب الفرس منهم الدعم، إلا أن العثمانيين قد هددوا الروس فتوقفوا، ثم اتفق العثمانيون والروس على أخذ كل من الجانبين جزءاً من فارس، وضعف مير محمود عقلياً، فاستدعى الأفغان ابن عمه أشرف بن عبد العزيز، ونصبوه حاكماً بدل ابن عمه، فحارب العثمانيين واحتج عليهم باتفاقهم مع الروس النصارى ضد المسلمين، ثم اتفق مع الدولة العثمانية، ولكن قامت الحركات ضده في كثيرٍ من الجهات.

ظهر نادر خان ووقف بجانب طهماسب، وخاض المعارك، فدخل مشهد وهراة اللتين كانتا بيد الأفغان، وتقدم طهماسب نحو أصفهان فغادرها أشرف بعد مقاومةٍ بسيطة، وبعد أن قتل الشاه حسين الذي أبقاه من بين أفراد الأسرة الصفوية، وبذا أصبح طهماسب هو الشاه بعد أن كان ولياً للعهد، وقتل أشرف عام ١١٤٢، وهو يتجه نحو قندهار، وقد تفكّك جيشه، وتشتت جموعه وهي تسير نحو بلادها.

تابع نادر خان زحفه على قندهار وكانت تحت إمرة حسين أخي مير محمود فدخلها، كما أرسل جيشاً دخل بلخ لأن حاكمها وعد مير حسين حاكم قندهار بالدعم، ثم احتل كابل وغزنه وكانتا تحت حكم ملوك الهند المغول، إذ اختلف معهم، ودخل الهند، وهكذا أصبحت بلاد الأفغان ثانيةً تحت سيطرة الفرس، وعندما قُتل نادر خان عام ١١٦٠ في بلاد شروان أسرعت الفرقة الأفغانية التي كانت معه عائدةً إلى بلادها، واستقرت في قندهار، ونادت بقائدها أحمد خان عام ١١٦٣ أميراً على قندهار باسم أحمد شاه الإبدالي، وهو من الأسرة الدورانية، وعرفت إمارته باسم الدولة الأفغانية، وسمّى عاصمته قندهار أحمد شاهي.

بدأ أحمد شاه يوسع دولته فقد ضمّ ولايات كشمير، ولاهور، والملتان، وقاتل السيخ، والهندوك الذين تعاونوا على القضاء على الدولة الإسلامية، واضطر أخيراً أن يعود إلى بلاده بسبب المرض الذي أصاب جيشه، وبسبب الإرهاق الذي أصابه نتيجة الحروب مع السيخ والهنود، وتوفي عام ١١٨٧، وخلفه ابنه تيمور شاه الذي كان مؤهلاً لذلك إذ تسلّم

في حياة أبيه إمرة لاهور والملتان، ويوم توفي والده كان في هراة فنافسه أخوه سليمان في قندهار، غير أنه قد تمكّن من قتل أخيه، ودخول قندهار، ثم نقل العاصمة إلى كابل. استولى السيخ على الملتان عام ١١٩٦، ثم استردها منهم في العام نفسه، وقام أمراء السند بحركات ضده امتدت من (١١٩٧ ـ ١٢٠١)، وقد استقلوا فيها وإن كانوا يتبعونه اسمياً، واعتدى أمير بخارى معصوم على مرو فحاربه تيمور شاه فخضع له اسمياً، وقامت فتنة في كشمير ولكنها أخمدت، وتوفي تيمور شاه عام ١٢٠٧ بعد حكم دام عشرين سنة، وخلفه ابنه زمان شاه فحكم ثمان سنوات، ثم خلفه أخوه محمود شاه عام ١٢١٥.

كان الخلاف قد وقع بين زمان شاه وأخويه محمود شاه وشجاع الملك، وكان حريصاً أن يدافع عن الإسلام والمسلمين، وخاصة في الهند ضد السيخ والهندوك لذا فقد اصطدم معهم إلا أن اصطدامه ذلك كان في الواقع اصطداماً مع الإنكليز الذين بدأ نفوذهم في الهند وخاصة في الشمال إذ سيطروا على تلك الأجزاء فحرّك الإنكليز بوسيلةٍ أو بأخرى الأطراف المتعددة ضده، فهاجم القاجاريون في فارس بلاد الأفغان فاضطر أن يوقف حملاته ضد السيخ، وهدده أمير بخارى مراد، وتوعده أمراء السند، وخان كلات من البالوخ، وفي النتيجة فقد تغلّب أخوه محمود عليه، واعتقله، وسمل عينيه على عادة الفرس التي انتشرت في تلك المرحلة، وفقد الأفغانيون أيام زمان شاه ما كان لهم من ولايات في بلاد الهند.

نهض محمود شاه بالأمر عام ١٢١٥، غير أن أخاه شجاع الملك قد نازعه، وأعلن نفسه ملكاً في بيشاور، واستطاع عام ١٢١٨ أن يستولي على كابل ويخلع أخاه محموداً، ويسجنه، وأخرج شقيقه زمان شاه من السجن، وهو كفيف، بعد أن سمل أخوه محمود عينيه، وبقيت قندهار بيد قمران بن محمود، ويؤيده عمه فتح خان، ثم تصالح محمود خان مع أخيه شجاع الملك، ولكن لم يلبث أن عاد واختلف معه، وأيّد قيصر بن زمان شاه، ثم أيّد محموداً، وكان شجاع الملك يرسل الحملات إلى كشمير وبلاد السند

ويبذل قوته في هذا الجانب، على حين فتح خان يُدبّر الحيل، وتمكّن أن يهزم شجاع الملك في النهاية، وفرّ شجاع الملك إلى بلاد الهند عام ١٢٢٤، وعاد محمود إلى السلطة ثانيةً.

أصبح محمود يعتمد اعتماداً كلياً على أخيه فتح خان الذي أعاده إلى سدة الحكم، وفتح خان يعتمد على أخيه الآخر دوست محمد الذي قوي نفوذه، وحارب أخاه محموداً وهزمه عام ١٢٣٥، ثم إن محموداً قد قتل أخاه فتح خان، وأصبح دوست محمد يريد أن يثأر إلى شقيقه فتح خان، واستولى دوست محمد على كابل، ولقب نفسه أمير كابل، ولكن استولى السيخ على المقاطعات الهندية، واستولى الفرس على هراة من يد قمران بن محمود عام ١٢٥٨.

استنجد شجاع الملك بالإنكليز الذين وطدوا نفوذهم بالهند فلبى الإنكليز الطلب، وأرسلوا جيشاً دخل كابل، ونصّب شجاع الملك حاكماً عليها على حين فرّ دوست محمد إلى بخارى عام ١٢٥٥، وقد حاول أن يهاجم بلاد الأفغان من جهة الشمال، غير أن هجماته قد فشلت، فجاء إلى الأفغان وسلّم نفسه للإنكليز الذين نقلوه إلى كلكتا في البنغال.

انسحب الجيش البريطاني من كابل عام ١٢٥٧، وهاجمه أثناء الانسحاب أكبر خان بن دوست محمد، وكاد أن يبيده ويقضي عليه، وفي أثناء القتال بين الإنكليز وحليفهم شجاع الملك من جهة وأكبر خان من جهة ثانية قُتل شجاع الملك، ومنيت إنكلترا بخسائر كبيرة اضطرت بنتيجتها أن تُعيد دوست محمد إلى بلاد الأفغان، وأن تعترف بحكمه، وعقدت معه معاهدة صداقة، كما صالح روسيا التي بسطت نفوذها بالقوة على وسط آسيا، ثم ضمّتها إليها، وفي الوقت نفسه كان نفوذها قد قوي في بلاد الفرس، وأعاد إخوته وأبناءه إلى الإمارات غير أن الصراع بينهم لم ينته.

لم تقبل إنكلترا بموقف دوست محمد فهو لم يدعمها ضد الثورة الهندية عام ١٢٧٤، لذا فقد أطلقت الشائعات ضده بأنه يعمل لصالح روسيا، ولما كانت المنافسة قائمةً بينها وبين روسيا لذا فقد زحف الجيش

الإنكليزي إلى أفغانستان ولكنه لم يستطع التقدم بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها الأفغانيون، والصمود الذي أصروا عليه، وما كان من إنكلترا إلّا أن اعترفت بالحكم الأفغاني.

توفي دوست محمد عام ١٢٨٠ بعد أن استعاد هراة من الفرس، وخلفه ابنه شير علي، وحاول الإنكليز ثانية التدخل في شؤون بلاد الأفغان لحماية حدود الهند من غارات القبائل الأفغانية، أو للوقوف في وجه روسيا التي كانت قد ابتلعت الولايات الإسلامية في وسط آسيا، وأخذت جزءاً من خراسان عام ١٢٩٠، ولكثرة محاولة التدخل الإنكليزي في شؤون الأفغان فقد اضطر شيرعلي إلى الاستعانة بروسيا، ورحب بالبعثة الروسية، ورفض قبول الوفد الإنكليزي، فخافت إنكلترا على مصالحها، وأسرعت لاحتلال بلاد الأفغان، وقد تمّ ذلك عام ١٢٩٥، وإن كانت إنكلترا قد تكبّدت خسائر فادحة، وتوفي شير علي عام ١٢٩٦، وخلفه ابنه يعقوب.

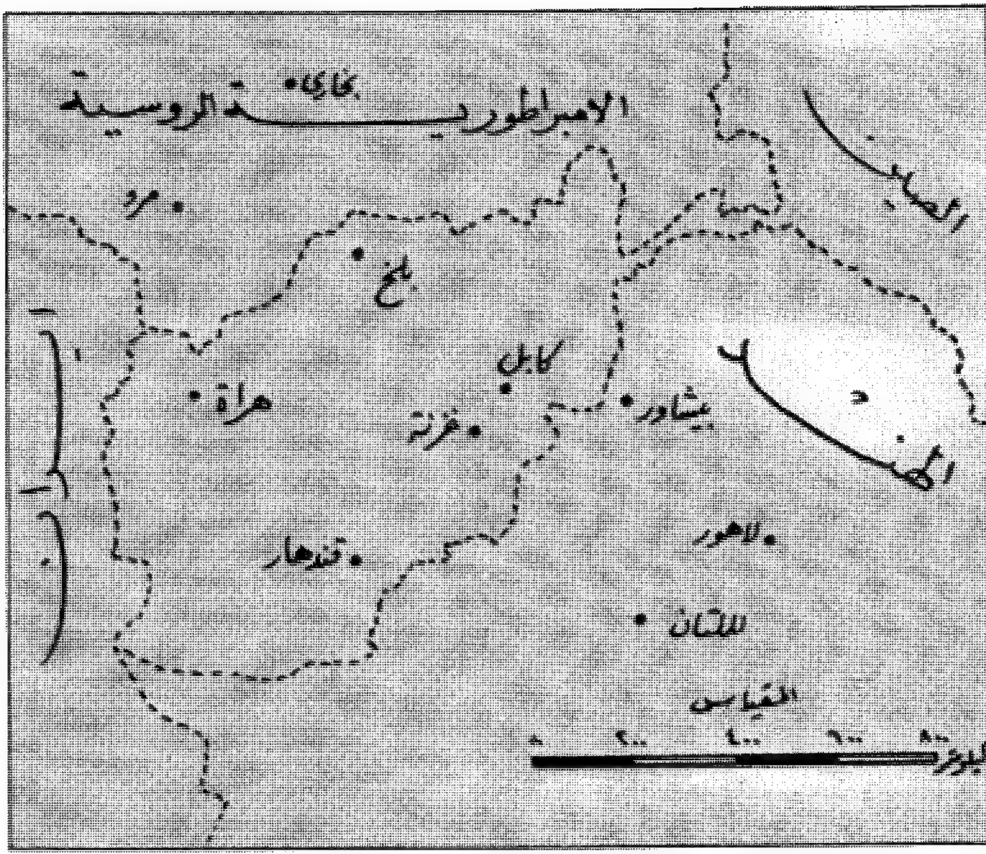
رفض الأفغانيون حكم يعقوب بن شير علي لأن ميوله كانت مع إنكلترا، وبدأت الحركات ضد المحتلين حتى اضطروا إلى الانسحاب، وعقدت معاهدة بين الطرفين اعترفت إنكلترا فيها باستقلال بلاد الأفغان الذاتي، وتبعيتها لإنكلترا في الشؤون الخارجية، وتسلّم الحكم عبد الرحمٰن حفيد دوست محمد، فهو ابن أفضل بن دوست محمد أي ابن عم يعقوب.

هاجمت روسيا هراة عام ١٣٠٢، وأسرعت إنكلترا لحماية هراة خوفاً على مصالحها الخاصة، وعُقدت معاهدة بين إنكلترا وروسيا عام ١٣٠٥ في بطرسبرغ، اكتفى الروس فيها بما أخذوه من خراسان وهو قسم بلاد التركمان التي كانت قاعدتها مرو، لكن روسيا عادت مرةً أخرى إلى التحرش ببلاد الأفغان، وغدت منطقة شمال شرقي أفغانستان، وهي باداخشان مثاراً للنزاع، ولكن عقدت معاهدة أخرى عام ١٣١٣ بين روسيا وإنكلترا أقرّت فيها روسيا بأن باداخشان جزء من بلاد الأفغان، ورسمت الحدود بين المناطق التي سيطر عليها الروس في وسط آسيا وبين أفغانستان، ثم عقدت معاهدة بين روسيا وإنكلترا للمرة الثالثة عام ١٣٢٥ اعترفت كلاهما فيها باستقلال الأفغان.

كان عبد الرحمن بن أفضل قد توفي عام ١٣١٩، وخلفه ابنه الكبير حبيب الله خان، وقد ازداد في عهده النفوذ الإنكليزي، وحاول العثمانيون جرّه لصفهم بجانب الألمان في الحرب العالمية الأولى، وإعلان الجهاد ضد الإنكليز، ولكنه رفض ذلك، وتضايق الأفغانيون من النفوذ الإنكليزي في بلادهم فاغتالوا أميرهم حبيب الله عام ١٣٣٨.

تولى بعد حبيب الله خان ابنه الثالث أمان الله خان، وتسمّى باسم ملك، وحاول التخلّص من النفوذ الإنكليزي في بلاده فساءت العلاقات مع إنكلترا، وكانت الحرب بين الطرفين عام ١٣٣٨، وتمكّن الأفغانيون بقيادة محمد نادر شاه الانتصار على الإنكليز في عددٍ من المعارك المتلاحقة، وقد استرد المناطق الأفغانية التي يسيطر عليها الإنكليز، وأجبر إنكلترا على الاعتراف باستقلال بلاد الأفغان التام، ووطد الملك أمان الله خان صلاته مع روسيا، وإيران، وتركيا.

انصرف أمان الله خان بعدها إلى حياة اللهو والاستهتار، والانتقال الدائم إلى أوربا في وقت كانت فيه تئن خزينة البلاد من العجز، وأبعد القائد محمد نادر شاه عن البلاد. وفي آخر مرة قام أمان الله خان بزيارة عدد من دول العالم عام ١٣٤٧ وأنفق الكثير، وعندما رجع قامت الثورة ضده فانتقل إلى قندهار، واضطر أن يتنازل عن الملك لأخيه عناية الله عام ١٣٤٨، لكن استغل ابن السقا هذه الاضطرابات وسيطر على كابل، وأعلن نفسه ملكاً باسم حبيب الله غازي، ولكن لم يستمر سوى تسعة أشهر حيث عاد محمد نادر شاه إلى البلاد، وقضى على ابن السقا، وأعدمه، واستلم السلطة.


الامبراطورية الروسية
بخاري
مرو
بلخ
كابل
هراة
غزنة
بيشاور
قندهار
لاهور
الملتان
المقياس

مصور رقم [٣٢]

الباب الرابع

الهند وجنوب شرقي آسيا

لا يقصد بالهند دولة الهند القائمة اليوم، وإنما يقصد بها شبه القارة الهندية التي تضمّ عدة دولٍ اليوم منها: الهند، وباكستان، وبنغالديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا، وكانت في هذه المرحلة التي نتكلم عنها تحت حكم المسلمين، وقد انتشر فيها الإسلام بالأجزاء الشمالية منها نتيجة الفتح منذ عهد بني أمية في الشمال الغربي منها، وأيام الغزنويين، ثم أيام الغوريين الذين وصلوا إلى البنغال، ثم ضمّ الخلجيون منطقة الدكن إليهم، فالإسلام قد انتشر في الهند بالفتح وخاصةً في الأجزاء الشمالية منها، وعن طريق التجارة في السواحل، أما المناطق الداخلية فقد انتشر فيها الإسلام بالدعوة وأثناء الحكم الإسلامي.

وتمتاز هذه المرحلة التي ندرسها بأن الهند قد خضعت لحكم المغول من ناحيةٍ وفي الوقت نفسه فقد وصل إليها عن طريق البحر الصليبيون المستعمرون بدءاً بالبرتغاليين ثم بالهولنديين فالإنكليز والفرنسيين من ناحيةٍ ثانيةٍ.

أما جنوب شرقي آسيا وهي ماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق التجارة والدعوة ولم تصل إليها أقدام الفاتحين أبداً، واستمر انتشار الإسلام في تلك الجهات تدريجياً حتى عمّ، وحينذاك بدأت طلائع المستعمرين الصليبيين تظهر وتصل إلى تلك المناطق، وكان المسلمون قد حكموا هاتيك الأرجاء فكان حقد الصليبيين عظيماً الأمر الذي جعلهم يُخضعون السكان، ويرتكبون أبشع المجازر، ويُسيطرون على الأرض، ويأخذون خيراتها.

وفي الهند وجنوب شرقي آسيا على حد سواء نلاحظ بقاء الوثنيات على اختلافها من هندوكية، وبوذية، وكونفوشية وغيرها إلى جانب الإسلام، ولو كان المسلمون هم الأكثرية والذين يحكمون البلاد وذلك لأن الإسلام قد انتشر في الهند في وقت الضعف فسمح ببقاء الوثنيات لكثرتها وانتشارها بين مجموعات كبيرة من البشر بل إن بعض الحكام من المسلمين كانوا يحاولون التقرّب من أصحاب هذه الوثنيات في سبيل الحصول على تأييدها لدوام ملكهم، اللهم باستثناء الأجزاء الشمالية الغربية التي فتحت أيام بني أمية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي أو في الأيام التي كان الإسلام فيها لا يزال ذا قوةٍ ومنعة، وتُطبق شرائعه بشكل جيد نسبياً، أما في جنوب شرقي آسيا فقد نما الإسلام إلى جانب تلك الوثنيات ولم يكن ليستطيع قهرها أو إلزام أتباعها على اعتناق إحدى الديانات السماوية فقط، وما أن تمكّن وتعمّقت جذوره حتى جاء الاستعمار بصليبيته وحقده، بل نستطيع كذلك أن نقول: إن قوة الإسلام في جنوب شرقي آسيا قد تكاملت في وقتٍ ضعُف فيه المسلمون في ديارهم، ولم يعد فيهم ذلك النسغ الذي يروي عروقهم بالشكل الجيد، ولم يُطبقوا الإسلام بالصورة الصحيحة.
والأصل بالإسلام ألا يسمح إلا باعتناق إحدى الديانات السماوية وتلحق بها المجوسية التي كانت منتشرة في فارس قبل الإسلام، فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. (روى ذلك البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد)، وفي رواية: أن عمر ذكر المجوس، فقال: ما أدري، كيف أصنع في أمرهم؟ فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب»[1].

---

(١) المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ لمجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني - المجلد الثاني ص٨٣٦، تحقيق محمد حامد الفقي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ففي دار الإسلام أي المناطق التي يُطبّق فيه شرع الله لا يصح أن يعيش فيها إلا أهل الإسلام وأهل الكتاب والمجوس، ولا يصح أبداً أن يقطنها عبدة الأبقار، والأصنام، وعبدة البشر وأصناف أهل الشرك والإلحاد. وإذ اختلف بعض أهل العلم في ذلك، وقالوا هذا ينطبق فقط على العرب، فإن الإسلام لا يعرف العصبية المنتنة، ثم واقع البلاد التي فتحها المسلمون، وطبّقوا فيها شرع الله يشهد لذلك، فهي لا تزال خاليةً من أبناء الوثنيات حتى الآن رغم أنها كانت قبل الفتح تعجّ بهم، وإن سبي أبي بكر، رضي الله عنه، لبني حنيفة عندما ارتدوا وهم من العرب ليشهد أن الإسلام لا يعرف العصبيات.

والهند وجنوب شرقي آسيا على حدٍ سواء لم تخضع للدولة أو للخلافة الإسلامية في عواصمها التي حكمت منها أكثر أجزاء ديار الإسلام أو كانت تُشكّل الخلافة أو أعظم دولةٍ إسلاميةٍ في تلك المرحلة وهي: المدينة المنورة، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وإستانبول، وباستثناء شمال غربي الهند وهو منطقة السند التي دانت لدمشق، ولكن المسلمين في تلك الجهات كانوا يتفاعلون مع مركز الخلافة ويعدّون الخليفة مرجعهم الرئيسي، ويرتبطون به معنوياً لا سياسياً أو تنظيمياً إذ يفرض عليهم حكامهم الارتباط بهم أو الخضوع لهم.

لقد استغلّ المستعمرون هذه المناطق بعد أن سيطروا عليها استغلوها سكاناً فكانت لكثرة سكانها تُشكّل قوام جيوشهم يضربون بها خصومهم فالقوة الهندية في الجيوش الإنكليزية معروفة بل كانوا يرمون بها إلى التهلكة، ويحاولون المحافظة على أبناء جنسهم، ويتبادر إلى الذهن أثناء الحديث في هذا الموضوع على ما فعله الإنكليز بالقوة الهندية أثناء معركة العلمين المشهورة في المنطقة الواقعة بين مصر وليبيا إذ كان عليهم أن يفجّروا حقل ألغام، ولم يكن لديهم الحيوانات التي يسوقونها عادةً لتفجير مثل تلك الحقول، فدفعوا بالقوة الهندية مضحّين بها، وأبادوا من كان من تلك القوة التي كُلّفت بتلك المهمة، واستغلّوا السكان في استثمار المواد

التي يريدون إنتاجها، واستغلّوها في حقدهم الصليبي ضدّ الإسلام، فعملوا ضدّ الإسلام مما أثار المسلمين أيضاً وكان أن انقسمت الهند إلى عددٍ من الدول على أساس العقائد بعضها مسلمة، وبعضها هندوكية وبعضها بوذية، استغلّوا المسلمين فبعد أن أضعفوهم، ونهبوا خيراتهم، ومنعوهم من الوظائف أخذوهم جنوداً، وحاولوا أن يُنصّروهم، ولكنهم فشلوا في ذلك، استغلّوا الهندوس وحرّضوهم على المسلمين، وقوّوهم عليهم، وشجّعوهم بالمناصب. استغلّوا المنبوذين ودعوهم إلى النصرانية فحصلوا منهم على بعض النتائج. أثاروا الفتن، قسّموا الجماعة الواحدة، أوجدوا القاديانية كعقيدةٍ شاذةٍ ليضربوا بها المسلمين، ويفتّوا من عضدهم، وليلبسوا عليهم دينهم، ولا تزال هذه المجموعة بأيديهم، وتجد العون في البلدان التي كان الإنكليز يستعمرونها، وكذلك كان شأن الإنكليز في الملايو، والهولنديين في أندونيسيا، وإسبانيا، والولايات المتحدة مع مسلمي الفيليبين.

أخذ المستعمرون خيرات البلاد الزراعية والمعدنية، وأسسوا مزارع المطاط، والشاي، والنخيل الزيتي وغيرها، واستثمروا المعادن ومن أهمها القصدير، واستخرجوا النفط من مكامنه... وعاش الناس في حالةٍ من الفقر والبؤس أورثتهم الذلّ...

الفصل الأول

الهند

منذ أن بدأت غزوة تيمورلنك للهند بدأ الضعف يظهر على السلطة، وفي عام ٨١٧ استطاع أحد القادة التيموريين أن يدخل العاصمة دهلي، وأن يتولّى نائبهم خضر خان أمرها، وأن يؤسس أسرة حكمت البلاد حتى عام ٨٥٥ هي أسرة السادات أو الخضرخانية، ثم ورثهم اللودهيون الأفغان، فحكم بهلول اللودي (٨٥٥ ـ ٨٩٤) وورثه ابنه إسكندر الثاني (٨٩٤ ـ ٩٢٣) ثم إبراهيم الثاني بن إسكندر (٩٢٣ ـ ٩٣٢) ونكون في عهد إبراهيم هذا قد دخلنا في هذه المرحلة التي ندرسها.

إلى جانب الحكومة في دهلي كانت توجد عدة إمارات في بلاد الهند بعضها مسلمة، وأشهرها إمارة كوجرات ذات الأهمية التجارية، والتي كانت قد استقلت منذ عام ٨٤٠، ثم ضمّت إليها بعض الإمارات الثانية، ثم إمارة (مالوه) التي ضمتها عام ٩٣٧، وخانديس التي استقلت عن الهند، ثم ضُمّت إلى كوجرات. وبعض تلك الإمارات كان هندوكياً مثل: إمارة (فيايانكر) في أقصى جنوب بلاد الهند، وكانت تُقاتل الإمارات الإسلامية، وقد وجد فيها البرتغاليون حليفاً أسياسياً.

١ ـ محمد بابر شاه:

كانت الأسرة اللودية التي تحكم الهند على خلافٍ بعضها مع بعض، وقد تمكّن إبراهيم الثاني آخر حكامها أن ينتصر على بقية منافسيه من

الأمراء فأظهروا له الطاعة، وأضمروا الشر، فاتصلوا بظهير الدين محمد بابر شاه[١] حاكم غزنة وطلبوا منه المسير إلى الهند. فسار إليها، واستولى على مدينة لاهور عام ٩٣٠، وخاض بعدها معركة عنيفة هي معركة (باني بت) ضد إبراهيم الثاني اللودي الذي قتل، وانتهى بقتله حكم الأسرة اللودية، ودخل ظهير الدين محمد بابر شاه الهند، وجعل مقر حكمه مدينة «أغرة»، وذلك عام ٩٣٢، ووحّد شمالي الهند تحت سلطانه.

وقف في وجه محمد بابر الراجبوت الذين كانوا يُشكلون أكبر قوة في وسط الهند، واستغلّوا أمراء اللوديين الذين كانوا يطمعون بحكم الهند فأثاروهم ضدّ من استنجدوا به، فأعلن أحدهم وهو محمود خان نفسه سلطاناً على البلاد ودعموه، وهو أخو إبراهيم الثاني اللودي، وشكلوا معه حلفاً ضد محمد بابر شاه الذي أثار العاطفة الدينية عند المسلمين، وأعلن الجهاد ضد الراجبوت والكفرة الهندوك ومن يتعاون معهم، وبدأ بنفسه فأعلن التوبة وابتعد عن المعاصي فأطاعه الناس، وقلّده قادته، وخاض أكبر معركة ضد خصومه عام ٩٣٣، وهي معركة (خانوه) التي انتصر فيها انتصاراً حاسماً، ولم يبق أمامه سوى من اعتصم ببعض القلاع سواء أكان من الراجبوت أم من أمراء اللوديين ولكن دون أن تكون أية قوة لأحدهم. وبعد هذا النصر أعلن عن التسامح الديني كي يتمكّن من السيطرة، وتنتهي حزازات النفوس.

---

(١) ولد ظهير الدين محمد بابر شاه عام ٨٨٨، وتوفي أبوه وهو لا يزال صغيراً، وورث عنه حكم فرغانة، ونازعه أعمامه ثم توفّوا، وصفا له الجو، وتمكّن أن يحتل مدينة سمرقند إلا أنه اصطدم مع محمد الشيباني خان الأوزبك، وهُزم أمامه، واضطر أن يترك سمرقند مختفياً في الأرض، ثم جمع حوله القبائل الهاربة من أمام الأوزبك، وشكّل قوةً تمكّن من دخول كابل وغزنه، فثبّت أقدامه فيها وجعلها قاعدة انطلاقٍ له، ثم اتجه إلى الهجوم على الهند إذ عدّها من أملاك أجداده التيموريين، فهو محمد بابر بن عمر شيخ بن أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه بن تيمورلنك. وتمكّن أن يحتل بعض أجزاء في الهند عام ٩٢٥.

٢ ـ همايون:

وتوفي محمد بابر شاه عام ٩٣٧، وخلفه ابنه همايون غير أن أخويه قمران وعسكر قد نازعاه الحكم، كما أن الأمراء اللوديين قد نصّبوا أحد إخوة محمود خان حاكماً على (كالنغر)، مع أن محمود خان كان لا يزال موجوداً إلا أنه ما دام قد هُزم أمام محمد بابر شاه فلا يمكن أن يعود إلى السلطة فقام أخوه ٩٤٠، كما أن محمود خان قد هُزم أيضاً أمام همايون وصالحه بعد أن حاصره في قلعة (كالنغر) لذا فقد ترك الأمر لأخيه.

كما قام فريد شير شاه[1] الأفغاني ضدّه أيضاً، إذ انتصر عليه عام ٩٤٦ ففقد بذلك همايون بيهار والبنغال، وتسلّم السلطة فيهما فريد شير شاه من سادته اللوديين هناك أو النوحانيين كما يسمّون، وهم فرع من اللوديين. ثم فقد البنجاب، وبعدها أفغانستان، وبقي شريداً في إقليم السند، وقد وقع ابنه الطفل جلال الدين محمود أسيراً بيد عمه عسكر، وبذا تمزّقت الدولة المغولية الفتية.

هذا ما كان يجري في الداخل أما ما كان يجري على الساحل فالأمر أشدّ خطورةً إذ كان الصليبيون البرتغاليون قد وصلوا إلى الساحل، وانتصروا على أمراء الهند المسلمين وحلفائهم المماليك الذين أرسلوا لهم أسطولاً من مصر عام ٩١٤، وأقام البرتغاليون بعض المراكز على السواحل، ووجدوا في إمارات الهنادك في جنوبي الهند حلفاء طبيعيين لهم ضد المسلمين. وكان المماليك بعد مدةٍ قد سقطت دولتهم، وقامت الدولة العثمانية مكانهم وبدأت تُنازل البرتغاليين فاستنجد حاكم كوجرات بهادور شاه بالعثمانيين، فأرسل الخليفة العثماني سليمان القانوني عام ٩٣٨ قوةً لدعم المسلمين في

---

(١) فريد شيرشاه: كان يعمل في خدمة حكام بيهار وهم فرع من اللوديين، إذ خدم دولت خان، ثم بهادور خان الذي لقبه شيرخان لشجاعته (يلقبه الأفغان شيرشاه) وتمكن أن يضم البنغال إليه عام ٩٤٢، ولما توفي بهادور خان عام ٩٤٥ وهو الملقب بالسلطان محمد خلفه ابنه جلال خان بهادور، فوجه قائده فريد شيرشاه ضد همايون فانتصر عليه عام ٩٤٦، وتمكن بعد هذا الانتصار أن يتسلم السلطة في بيهار والبنغال.

الهند، وكانت القوة بقيادة مصطفى الرومي الذي انطلق من المخا في اليمن متجهاً إلى (ديو) في كوجرات، فلما وصل إليها استقبله بهادور شاه وأكرم وفادته، ولقّبه رومي خان، وقد تعرّض مصطفى الرومي لكثيرٍ من غارات البرتغاليين، ولكنه انتصر عليهم، وأنزل بهم الهزائم المتكررة، وفي عام ٩٤١ دخل بهادور شاه سلطان كوجرات في حربٍ مع همايون بن بابر شاه سلطان الدولة المغولية فاستنجد بهادور شاه بالبرتغاليين ضد همايون، وعقد مع نائب ملك البرتغال معاهدةً، وسمح له ببناء قلعةٍ في (ديو)، وقد تمّ بناء هذه القلعة عام (٩٤٢ ـ ٩٤٣)، ثم نقض المعاهدة معهم بعد الصلح مع همايون شاه، ودخل في حربٍ جديدةٍ مع البرتغاليين، فهُزم وقُتل، واستولى البرتغاليون على (ديو) عام ٩٤٣، فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني لما علم بذلك واليه على مصر سليمان باشا لمنازلة البرتغاليين في الهند مع ١٢٠ سفينة، فوصل إلى هناك، وحاصر (ديو)، ثم وقع الخلاف بين ملك كوجرات الجديدة محمود شاه الذي ظنّ بسليمان باشا الطمع بالسيطرة على كوجرات وبين سليمان باشا، فقطع ملك كوجرات المؤن عن العثمانيين فاضطر سليمان باشا إلى مغادرة الهند، وعاد إلى اليمن، ومنها إلى السويس.

٣ ـ اكبر شاه:

ولنعد إلى الدولة المغولية فنجد همايون شاه قد استطاع أن يدخل كابل عام ٩٦٢ بعد طول عناء، وليجعل منها قاعدةً ينطلق منها ثانيةً، ولكنه توفي عام ٩٦٣ بعد أن استردّ دهلي، وخلفه ابنه محمود جلال الدين ولا يزال في الرابعة عشرة، وقد ساعده مربيه بيرم التركماني.

تمكّن بيرم التركماني أن ينتصر على الأسرة التي أسسها فريد شير شاه عام٩٦٣ في معركة (باني بت) الثانية، ولم يزد حكمها على ست عشرة سنة توالى خلالها خمسة ملوك، وضمّ بيرم منطقة البنجاب إلى دولة محمود جلال الدين الذي عُرف باسم أكبر شاه، ولم يلبث أكبر شاه أن عزل بيرم

التركماني خوفاً منه، وقبض بنفسه على ناصية الأمر فحرّك هذا التصرف بيرم فقام بحركةٍ غير أنه ألقى السلاح، وغادر البلاد ليقضي بقية حياته في مكة المكرمة.

ثار على أكبر شاه أخوه ميرزا حكيم، ولكنه هُزم أمام أخيه أكبر، فندم على ما فعل، وعفا عنه أخوه، واستطاع أكبر شاه أن يضمّ إليه بيهار عام ٩٨٢، ومنطقة برار في الدكن عام ٩٨٣، والبنغال عام ٩٨٤، وكوجرات عام ٩٨٠ بما فيها (مالوه) و(خانديس) المقاطعتان اللتان سبق لمملكة كوجرات أن ضمتهما إليها، وإن كان ضمّ أكبر لخانديس كان عام ١٠٠٨، كما ضمّ دولة نظام شاه في أحمد نكر في منطقة الدكن عام ١٠٠٨، كما ضم كشمير عام ٩٩٥، وبذلك أصبحت دولة أكبر شاه واسعةً جداً إذ تشمل أيضاً منطقة الأفغان.

وفي عام ٩٨٦ حاول أكبر شاه أن يوجد ديناً ـ على زعمه ـ يوحّد فيه المسلمين مع البراهميين، والجينيين، والبوذيين، والزرادشتيين و. . . ليسهل حكم الهند فمنع ذبح البقرة، واقتصر على النبات، وسمح بالزواج من البراهميات والعكس. . . ورأى أن يكون الدين كاللغة التي انتشرت أيام المغول وهي لغة الأوردو وهي مزيج من التركية لغة المغول والفارسية لغة الأدب إضافة إلى ما دخلها من كلماتٍ عربيةٍ وأجنبيةٍ، وظنّ النصارى البرتغاليون أنهم بإمكانهم تحويله إلى النصرانية وخاصةً أنه قد وضع معلماً نصرانياً برتغالياً لابنه سليم، وعندما خاب ظنّهم أساؤوا في الكتابة عنه، وجعل عاصمته الجديدة فتح بور مركزاً لهذه العقيدة الجديدة.

وفي عام ١٠٠٩ ثار عليه ابنه سليم وتمكّن من الانتصار على قائد أبيه أبي الفضل بالغدر، ثم هُزم أمام أبيه ولكنه بقي على تمرّده، وأرسل له أبوه المراسل حتى أقنعه بالطاعة ما دام سيكون ولي عهده. .

هذا في الداخل حيث كانت القوة لا تزال للقوات البرية الأثر الكبير في القوة، أما على الساحل فقد سيطر البرتغاليون على المحيط تماماً، وأصبحت التجارة بيدهم، ولهم مراكز قوية على الساحل. وقد خشيهم أكبر

شاه وخاصةً عام ٩٨٣ عندما أرادت إحدى الأميرات (جلباذان) وهي عمته أداء فريضة الحج، فطلب منهم عدم التعرّض لها، وقدّم لهم مقابل ذلك موقع دامان الساحلي، وعندما رجعت بسلام عاد إلى خلافهم، وانقضّ جنود الدولة على مراكز البرتغاليين: ديو، وسورت، ودامان فاحتجّ نائب ملك البرتغال فادّعى أكبر شاه أن هذا التصرّف من عمال الدولة ولا علم له بذلك. وتوفي أكبر شاه عام ١٠١٤.

٤ ـ نور الدين جهانكير سليم شاه:

تولّى بعد أكبر شاه ابنه سليم شاه ولقب نفسه نور الدين محمد جهانكير، تزوج عام ١٠٢٠ بنور جهان، كان يحبها غير أنها كانت متزوجةً، فخطبها بعد قتل زوجها فأبت، ثم رضيت، وألقى بيدها زمام السلطة، وكانت ذات عقلٍ وجمالٍ، وكان قد استقلّ بالملك عام ١٠٢٢، واستمر في الحكم حتى عام ١٠٣٧.

٥ ـ شهاب الدين محمد شاه جهان:

عملت نور جهان على تعيين شهريار بن جهانكير في الحكم، وعمل الوزير آصف على حكم خرم بن جهانكير، ووقع الخلاف بين الطرفين، وأعمل الوزير الحيلة لإحراز النصر، إذ دعا لحكم دوار بخش بن خسرو بن جهانكير، فوقع الحرب بين الطرفين فاستغلّ خرم الفرصة، ودخل أكبر أباد، واستلم السلطة، وقتل إخوته، وفرض الإقامة على نور جهان، ولقّب نفسه شهاب الدين محمد شاه جهان، من مآثره أنه منع السجود تحيةً للسلطان، وهو ما ابتدعه جده أكبر شاه، واشتهرت أيامه بالعمران.

كان لشاه جهان أربعة أبناء وهم: دارا شكوه وهو الكبير، وولي العهد وقد أقامه أبوه عنده، ومحمد شجاع وكان في البنغال، وأورنكزيب، ومراد بخش في كوجرات.

مرض شاه جهان عام١٠٥٧ فكتم دارا شكوه عن إخوته خبر مرض

أبيهم، فقام كل في مكانه يريد الحكم، فانتصر ثالثهم وهو أورنكزيب عليهم، ودخل العاصمة فأجلس أباه في قصر الإمارة، وقد بقي عشر سنوات حتى توفي عام ١٠٦٨، وقتل أورنكزيب أخاه دارا شكوه، ولما توفي أبوه تمكّن من أخيه مراد بخش عام ١٠٦٨، ومن أخيه محمد شجاع عام ١٠٧٠.

٦ ـ محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير:

تسلّم السلطة كاملة عام ١٠٦٩، وعمل على تدوين الفقه، وأبطل ما ابتدعه أكبر شاه، ووسع ملكه فقد وصل من جهة الشمال حتى بخارى وخوارزم، وضم بيجابور عام ١٠٩٨، وكانت هذه الإمارة قد ضمّت إليها عام ١٠٩٧ دولة بريد شاه في بيدر. ودام حكمه خمسين سنة إذ توفي على فراشه عام ١١١٨، وله من العمر تسعون عاماً.

٧ ـ قطب الدين محمد معظم بهادور شاه:

عهد أورنكزيب من بعده إلى ابنه محمد معظم الذي لقّب نفسه شاه عالم بهادور شاه فتمرّد عليه إخوته، ووقعت الحرب بينهم فقُتل أخواه محمد أعظم، وكام بخش في المعركة، وتفرّد هو بالسلطة أو صفا له الجو.

اتخذ الشيعة مذهباً له، وضعف أمره، وعظمت قوة السيخ والمهراتا، واضطر بهادور شاه إلى إعطاء المهراتا ربع الخراج في بلاد الدكن... وهذا بدء الانقسام والضعف في دولة المغول في الهند. وتوفي بهادور شاه عام ١١٢٤.

٨ ـ معز الدين جهاندار شاه:

تولى بعد أبيه بهادور شاه، واختلف مع إخوته، عظيم الشأن، ورفيع القدر، وجهان شاه فانتصر عليهم، وقتلهم، ثم خرج عليه ابن أخيه عظيم

الشأن، وهو فرخ سير الذي أعانه الأمراء فانتصر على عمه، وتولى الملك، ولم ينعم معز الدين جهاندار شاه في السلطة بأكثر من شهر.

٩ ـ فرخ سير بن عظيم الشان:

اختلف مع الأمراء الذين أعانوه وخاصةً عبد الله خان، وحسين علي خان فخلعاه عام ١١٣١، وولّوا مكانه ابن عمه رفيع الدرجات بن رفيع القدر الذي أخرجوه من السجن، وكان مُصاباً بمرض السل، فلم يلبث أن توفي بعد أربعة أشهر.

١٠ ـ رفيع الدرجات بن رفيع القدر:

لم يكن بيده من الأمر شيء بل كان مريضاً، والأمر بيد عبد الله خان، وحسين علي خان، وهو ألعوبة بيديهما.

١١ ـ رفيع الدولة بن رفيع القدر:

لما مات رفيع الدرجات نصّب الأمراء أخاه رفيع الدولة، وقد لقّب نفسه شاه جهان الثاني، وكان مريضاً نتيجة السجن، فلم يلبث أن توفي في العام نفسه (١١٣١)

١٢ ـ محمد شاه:

عندما توفي رفيع الدولة اتفق الأمراء على تنصيب ابن عمه محمد شاه بن جهان شاه، غير أنه اختلف مع الأمراء الذين ولّوه، ووقعت الحرب بينه وبينهم فانتصر عليهم، وقُتل كبيراهم في المعركة، واستقل محمد شاه بالأمر، ودام حكمه ما يزيد على تسعٍ وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر أيامه إلى اللهو، وبسبب هذا الضعفَ فقد غزا نادر شاه البلاد عام ١١٥١، وأسرع إليه محمد شاه فالتقى الفريقان في سهل (باني بت)، وترك بعض قادة محمد شاه جيشه وانتقلوا إلى صف نادر شاه فضعف أمر محمد شاه،

ثم جرى الصلح بين الطرفين على أن يدخل نادر شاه دهلي، ويبقى محمد شاه ملك بلاد الهند. غير أن سكان دهلي بدؤوا يتفرّدون بجنود نادر شاه ويقتلونهم فبلغ ذلك أميرهم فأعمل السيف في السكان ثلاثة أيام، ثم ارتحل، وبقي محمد شاه في الملك نائباً عن نادر شاه.

١٣ ـ أحمد شاه:

تولّى الحكم بعد أبيه محمد شاه، وتسلّط عليه الوزراء، وكان يسير برأيهم، وليس له سوى الاسم.

كان أحمد الدوراني يغزو الهند قادماً من بلاد الأفغان، وغلب السيخ على بلاد البنجاب، وأسس مذهبهم رجل يُدعى «كرونانك»، وغلب المهراتا على كوجرات، واستقلّ وزيره نظام الملك في بلاد الدكن، وكانت البنغال قد استقلّ فيها واليها منذ عام ١١١٦، وهو نواب جعفر خان الذي لقبه أورنكزيب مرشد قلي خان، فأنشأ مدينة سمّاها مرشد أباد، وبقي حتى عام ١١٣٨، وخلفه في الولاية ختنه شجاع الدولة حتى عام ١١٥٢، ثم ولده علاء الدولة الذي خلعه وزيره بعد شهرين وتولّى الأمر مكانه، ثم ولي الأمر سبط سراج الدولة عام ١١٦٩، وهو الذي اصطدم مع الإنكليز. كذلك استقلّت «أوده» التي تقع بين بيهار وقنوج وقد استقل فيها منصور علي خان عام ١١٥٠، واستمر حكمه حتى عام ١١٦٧، وخلفه ولده شجاع الدولة الذي حارب الإنكليز وهُزم أمامهم، واستمر حتى عام ١١٨٨، حيث خلفه ابنه الذي انتقل من فيض أباد إلى لكنو، وبذا تجزّأت الدولة فضعفت الحكومة، وخُلع أحمد شاه عام ١١٦٧.

١٤ ـ عزيز الدين عالمكير بن جهاندار شاه:

لما خلع أحمد شاه نُصّب عزيز الدين بن معز الدين جهاندار شاه، فلُقّب باسم عالمكير الثاني، وفي أيامه أصبحت الأمور كلها بيد عماد الملك. وفي أيامه أيضاً غزا الإنكليز والي البنغال وقتلوه، وهو سراج الدولة. وفي ١١٧٢ قتل عماد الملك عزيز الدين.

١٥ ـ محي الدين بن كام بخش:

لما قتل عماد الملك عزيز الدين أخرج محي السنة من السجن، ونصّبه ملكاً ولقبه شاه جهان الثاني، ولم تمض سوى عدة أيام حتى غزا الهند أحمد شاه الدوراني ملك أفغانستان فقاتل المهراتا، وفرّ عماد الملك، فخلع أحمد شاه محيي السنة، وولّى مكانه جوان بخت بن عالي كوهر بن عزيز الدين. وكان أبوه عالي كوهر في مدينة عظيم أباد.

١٦ ـ شاه عالم بن عزيز الدين:

لما سمع عالي كوهر بتولية ابنه جاء إلى دهلي بمساعدة والي (أوده) نواب شجاع الدولة، وعزل ابنه، واستولى على السلطة. وساعد هو ونواب شجاع الدولة حاكم البنغال قاسم علي خان في حربه ضد الإنكليز، فانتصر الإنكليز عليهم عام ١١٧٤. وتلقّب عالي كوهر باسم شاه عالم.

بعد الهزيمة أمام الإنكليز بقي نواب شجاع الدولة في أوده، وشاه عالم في الله أباد ثم انتقل إلى دهلي، ثم قبض عليه الإنكليز، وعيّنوا له راتباً، وبقي في قلعة المعلاة بدهلي، وتوفي عام ١٢٢١هـ.

١٧ ـ أكبر شاه بن شاه عالم:

لما مات شاه عالم ولّى الإنكليز ابنه أكبر شاه، وجعلوا له راتباً، وبقي صورةً حتى توفي عام ١٢٥٤.

١٨ ـ بهادور شاه بن أكبر شاه:

خلف أباه، ويُكنى أبا ظفر، وفي عهده حدثت الثورة عام ١٢٧٣، وانطلق الجند نحو دهلي، وبايعوا أبا ظفر قائداً للثورة، وتمكّن الإنكليز من القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على بهادور شاه، ونفوه إلى رانغون عاصمة بورما حيث بقي فيها حتى توفي عام ١١٧٨، وسيطر الإنكليز على البلاد، وألغوا الدولة المغولية، وسيّروا زمام الأمر بأنفسهم.

نتيجة الضعف الذي أصاب الدولة المغولية بعد أورنكزيب، وعدم الاتجاه نحو البحر حتى في أيام قوة الدولة جعل الدول البحرية الأوربية الصليبية يقوى نفوذها على الساحل، ثم يمتدّ إلى الداخل بسبب تجزؤ الدولة أيضاً إلى دويلاتٍ ضعيفةٍ ومتناحرةٍ تهتمّ بشؤونها الخاصة ومنافسة غيرها بل منازعتها لأسبابٍ منها زيادة السيطرة وامتداد النفوذ.

وصل الصليبيون البرتغاليون إلى الهند بإمرة فاسكو دي غاما عام ٩٠٤، ورأوا في البلاد أكثر مما يوصف لهم ويسمعون فعاد فاسكو دي غاما وأخبر دولته، فبعث ملك البرتغال أسطولاً بحرياً لاحتلال الهند، ودافع السكان عن بلادهم، ولكن تغلّب البرتغاليون على السواحل لما يملكون من أسلحةٍ حديثةٍ لا يعرفها الهنود، وسفنٍ كبيرةٍ لا يضاهيها ما عند السكان، ولكن لم يستطع البرتغاليون التقدّم إلى الداخل لقلة عددهم أمام سكان الهند، وضعفهم برياً أمام قوة المسلمين في الداخل، فاقتصروا على السواحل، وأسسوا مراكز لهم عملت بالتجارة، واحتكرت ذلك واستمروا ما يزيد على القرن من (٩٠٦ حتى ١٠٠٩)، غير أنهم لم يستطيعوا المحافظة على ذلك بسبب حقدهم الصليبي على المسلمين، وسلوكهم الشرس وأعمالهم التي في منتهى الوحشية إضافة إلى أن الدول الأوربية الصليبية الأخرى التي كانت تساعدهم ضد المسلمين في الأندلس، ودعمتهم في ملاحقتهم، وغرمت وقت الشدة، ولكنها لم تغنم وقت الرخاء، ولم تجد حتى التسهيلات في المعاملات أو رخص في أسعار البضائع، وهذا ما حملها على منافسة البرتغاليين، ونتيجة المنافسة فقد حمل الغزو المعنى الاقتصادي أو الاستعمار، وأخفى حقيقته الصليبية. واتخذت المنافسة شكل القوة فرضخت البرتغال، وتنازلت عن الاحتكار، وجاء المنافسون وكان أولهم الهولنديون ثم الفرنسيون والإنكليز.

رفع الهولنديون أسعار التوابل وهذا ما حدا بالإنكليز أن يدخلوا باب المنافسة والعمل على التجارة مع المشرق مباشرةً، إذ التقى التجار الإنكليز في لندن بمحافظ المدينة عام ١٠٠٨، وقرروا تأسيس شركةٍ تجاريةٍ تتعامل

مع الهند مباشرةً، ورفعوا قرارهم إلى ملكتهم، فأوفدت إلى سلطان الهند تستأذن لتلك الشركة في المتاجرة ببلاده، فأذن لها، فأصدرت الملكة أمراً بإنشائها عام ١٠٠٩، وكان اسمها يومئذ «شركة تجار لندن وحاكمهم إلى الهند الشرقية»، ثم تألفت شركات أخرى لمثل هذا الغرض، وقامت المنافسة بين هذه الشركات لمدة أكثر من قرن حتى اتحدت عام ١١٢١هـ في شركةٍ واحدةٍ سُمّيت «شركة تجار الإنكليز المتحدة للتجار في الهند الشرقية»، ثم عُرفت «شركة الهند الشرقية» فأخذ الإنكليز يُتاجرون مع جزائر الهند «أندونيسيا»، ولم يدخلوا الهند لأن البرتغاليين والهولنديين كانوا يمنعونهم بقوة السلاح، وجرت الحروب، وتمكّن الإنكليز من النزول في البر، وكان أول بلدٍ نزلوه مدينة مدراس، ثم أخذوا يتقدّمون من بلد إلى آخر باسم التجارة، ويتغلّبون على الهولنديين. وكان السكان المسلمون ينظرون إلى الإنكليز وغيرهم من الصليبيين نظرة الريبة، ويتجرؤون عليهم الأمر الذي جعل الشركة تشتري أراضي، وتبني الحصون فيها لتتقي شرّ السكان، وأخذت الشركات الصليبية الأخرى تُقلّدها، وقام النزاع بين هذه الشركات ودولها، وكل دولةٍ تعمل للاستثمار بتلك البلاد واستعمارها لنفسها وكانت الغلبة للشركة الإنكليزية.

وعندما سيطر الإنكليز على الهند بقي للهنادك مملكتان مستقلتان في الشمال في سفوح جبال هيمالايا، هما: نيبال، وبوتان.

وبقي ثلاثة مراكز للبرتغاليين على الساحل الغربي هي: داماو شمال بومباي، وتموا، وجزيرة ديو، ومساحتها كلها ١٨٠٠ ميل مربع.

وبقي للفرنسيين أربعة مراكز هي: بونديشيري، وغندرنكر قرب كلكتا، ونياون، وكاريكال قرب الرأس الجنوبي.

أما بقية أجزاء الهند فقد أصبحت تحت سيطرة الإنكليز، وفيها ممالك مسلمة وأخرى براهمية.

تيمورلنك

ميرانشاه

محمد

أبو سعيد

عمر شيخ

«١» محمد بابر ظهير الدين شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٧

«٢» همايون شاه ٩٣٧ ـ ٩٦٣

«٣» اكبر شاه ٩٦٣ ـ ١٠١٤

«٤» جهانكير «سليم شاه» ١٠١٤ ـ ١٠٣٧

شهريار — «٥» شاه جهان «خرم» ١٠٣٧ ـ ١٠٦٩ — خسرو

دوار بخش

دارا شلوه — محمد شجاع — «٦» اورنكزيب ١٠٦٩ ـ ١١١٨ «عالكير» — مراد بخش

محمد أعظم — «٧» بهادور شاه ١١١٨ ـ ١١٢٤ «محمد معظم» — كام بخش

«١٥» محيي السنّة ١١٧٢ ـ ١١٧٢

عظيم الشان — رفيع القدر — «٨» جهاندار شاه — جهان شاه

«٩» فرخ سير ١١٢٤ ـ ١١٣١

«١٠» رفيع الدرجات ١١٣١ ـ ١١٣١

«١١» رفيع الدولة ١١٣١ ـ ١١٣١

«١٢» محمد شاه ١١٣١ ـ ١١٦١

«١٣» أحمد شاه ١١٦١ ـ ١١٦٧

«١٤» عزيز الدين «عالمكير الثاني» ١١٦٧ ـ ١١٧٢

«١٦» شاه عالم

«١٧» محمد اكبر الثاني ١١٧٢ ـ ١٢٢١

«١٨» بهادور شاه ١٢٢١ ـ ١٢٧٨

التسلّط الإنكليزي:

كانت شركة الهند الإنكليزية الشرقية تنقل في بداية أمرها البضائع من الهند إلى أوربا، أما بعد الانقلاب الصناعي فقد أصبحت تنقل المصنوعات من أوربا إلى الهند، وكانت بحاجة إلى نقل الإنتاج الكبير الذي تنتجه المعامل الإنكليزية إلى المناطق المكتظة بالسكان لتصريفه، وتُعدّ الهند من أكبر هذه المناطق، ولذا فإن وكالات الشركة في الهند قد أصبحت بحاجة إلى فتح أسواقٍ جديدةٍ لها في الداخل، ولهذا انتقلت مهمتها من تجارة إلى استعمار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كانت هذه الوكالات على السواحل تحصل على التجارة مقابل أموالٍ معينةٍ تدفعها إلى الحكومات المحلية في الهند، لذا لم تكن دولة المغول تشعر بخطر هذه الوكالات الصغيرة ذات الأفراد المحدودين، والسفن التجارية القليلة التي تمونها، ولكن الآن وقد أصبح وراء كل وكالةٍ شركة بحرية قوية ذات أسطولٍ كبير يُمكنه فرض الحصار على السواحل الهندية في الوقت الذي لا تملك الهند أسطولاً بحرياً، كما أن وراء هذه الوكالات دولاً ذات جيوشٍ مُنظّمةٍ ومدرّبةٍ تملك أسلحةً حديثةً وتعمل بالتخطيط، فقد تغيّرت لذلك الحال، وتغيّرت نظرة حكام الهند المسلمين إلى هذه الوكالات، ولكن متى؟ عندما ضعفت الدولة المغولية وتجزّأت، وغدت غير قادرةٍ على المقاومة الفعالة.

بدأت الوكالات الإنكليزية تتعامل مع الهنود البراهميين الذين أثْروا نتيجة هذه المعاملة فارتبطت مصالحهم مع الإنكليز، إضافةً إلى أنهم كانوا يحقدون على المسلمين دينياً، كما يحقدون عليهم بصفتهم حكاماً، وهذا أيضاً ربط مصالحهم مع الإنكليز وزاد التعامل معهم، وكانوا يدخلون على الحكام المسلمين في مراكز حكمهم باسم التجارة، وجلب البضائع إلى القصور، فيُشيعون الشائعات، ويُثيرون الفتن، ويُلقون البغضّاء بين الحكام المحليين الأمر الذي أضعف السلطة أو زاد في ضعفها، وزاد من الشحناء بين الحكام، وفي الوقت نفسه أصبح للإنكليز عملاء من الهنود البراهميين.

شعر المسلمون بالخطر، وأراد حاكم البنغال سراج الدولة أن يُسيطر

على مراكز الإنكليز على الساحل، وهاجم حصن «فورت وليم» الإنكليزي واستولى عليه، وانتصر على القوات الإنكليزية ـ الهندية المشتركة وذلك في شوال من عام ١١٦٩، وهذا ما أخاف إنكلترا فأعدت العدة للقتال، ودعم الفرنسيون سراج الدولة، وقد كانوا في حربٍ مع الإنكليز حتى امتدت هذه الحرب إلى مراكز الطرفين في الهند، وانتصر الإنكليز، وصغر حجم المراكز الفرنسية، ولجأ الإنكليز إلى الحيلة والخديعة، وتمكّنوا من شراء مير جعفر علي خان أكبر قادة سراج الدولة وأكثر أعوانه إخلاصاً له إضافة إلى أنه ختنه، ووقعت الحرب بين الطرفين في موقعة «بلاسي» عام ١١٧٠، ويبدو أن المعركة كانت تتأرجح بين الجيشين فانفصل مير جعفر علي خان عن أمته، وانضمّ إلى خصمها، وحقق الإنكليز النصر، ووقع سراج الدولة أسيراً في أيديهم فأعدموه، وأخذ مير جعفر حكم البنغال. عاد الإنكليز فخلعوا مير جعفر علي خان بعد مدةٍ يسيرةٍ، وولّوا مكانه قاسم علي خان، ثم رجعوا فعزلوه، وأعادوا مير جعفر علي خان، لأن قاسم علي خان قد عزّ عليه أن يسير طوع الإنكليز ولو أنهم هم الذين أعطوه الولاية، فلما عُزل استنجد بملك الهند المغولي عالم شاه، ووالي منطقة (أوده) شجاع الدولة، وسار جميعهم لحرب الإنكليز الذين جاءتهم النجدات. فهُزم المسلمون هزيمةً منكرةً في «بكسر» وقبضوا على الملك المغولي عالم شاه، وقبل شروطهم للخلاص من الأسر، وخضعت البنغال، وأوريسا، وبيهار للإنكليز الذين تفرّدوا بالسيطرة على هذه المناطق باسم شركة الهند الشرقية الذي أصبح المسؤول عنها الحاكم العسكري في الهند، وبدأ الإنكليز يقبضون على أجزاء الهند جزءاً بعد آخر عنوةً أو صلحاً.

ومن أشهر حروب الإنكليز للمسلمين في الهند حرب مقاطعة ميسور التي كانت المرازبة الهندوك تحت سيطرة المسلمين، فلما ضعفت الدولة المسلمة المركزية استبدّ المرازبة بما تحت أيديهم، وكان حيدر علي خان بن فتح علي خان أحد قادتهم، فخافه وزراؤهم، وأرادوا البطش به، فلما أحسّ بما يُدبّر له تسلّم السلطة بالقوة، ووسّع ملكه إذ استولى على أكثر

بلاد المهراتا وبلاد مدراس فخاف منه الإنكليز، وحاربوه وضمّوا إليهم المهراتا أعداءه الألداء الذين استولى على جزءٍ من أراضيهم، ونظام الملك حيدر أباد الذي يُريد أن يوسّع أملاكه على حساب مقاطعة ميسور، ولكنه صمد أمامهم، وتفوّق عليهم، إلاّ أنه في الوقت نفسه قدّر أن الصمود أمام الإنكليز والانتصار عليهم لا يكون باتباع الطريقة التقليدية في تنظيم الجيوش، واستعمال الأسلحة القديمة، ولا بدّ من استعمال الأساليب الحديثة والأسلحة المتطوّرة، واستخدم الفرنسيين لتحقيق هدفه، وقد كانوا في حرب مع الإنكليز، ولكن الصليبية هي الصليبية فعندما انتهت حرب الاستقلال الأمريكية تخلّت فرنسا عن حيدر فانتصر عليه الإنكليز، ثم توفي عام ١١٩٦، وخلفه ولده فتح علي المعروف باسم «تيبو» الذي تابع القتال، وهُزم أمام الإنكليز وحلفائهم، فأُجبر على توقيع معاهدة (سرنغا باتام) التي خسر فيها الكثير من أملاكه، ودفع غرامةً حربيةً وذلك عام ١٢٠٧.

عاد تيبو إلى إعداد جيوشه، وهو يفكر في وجود الحليف في الإمارات المسلمة في الهند، ولكن أين هي؟ لقد سقط معظمها، وبعضها مشغول في حرب بعض، أو هي ضده من الأساس. وكانت فرنسا تفكر في التعاون مع تيبو، وغيره من أمراء الهند للعمل ضد الإنكليز فأرسلت لهم الرسائل، إلا أن رسالتها إلى تيبو قد وقعت بيد الإنكليز فأثار ذلك حفيظتهم وشدّدوا الضغط عليه والحملات ضده، ولكنه انتصر عليهم، ولم تقدّم فرنسا ونابليون بونابرت شيئاً له. وعند هزيمة الإنكليز أمام تيبو لجؤوا إلى الغدر والحيلة، واستقدموا النجدات، وأطمعوا المهراتا فانتصروا عليه، وحاصروه في قلعته، وأغروا أحد قادته وهو مير صادق الذي لان لهم، لأنه توقّع الهزيمة ففتح أبواب القلعة للإنكليز الذين دخلوا إليها، وتلقّاهم السلطان تيبو بالقتال حتى سقط صريعاً عام ١٢١٤.

وأخذ الإنكليز كرناتك (كروماندل) بالإغراء وذلك عام ١٢٣٤ بالشكل التالي، كانت هذه المنطقة تتبع دهلي، ودخل الإنكليز إلى مدراس تجاراً عام ١٠٤٩، فلما تولّى آصف جاه ولاية بلاد الدكن كان معه أنور الدين بن

أنور بن نعمة الله فولاّه على كرناتك عام ١١٥٧ فاستقلّ بها، وقُتل عام ١١٦٢، فخلفه ولده محمد علي خان الذي اتخذ بعد مدةٍ مدراس قاعدةً لحكمه، واستخدم العساكر الإنكليز كرهاً بالفرنسيين، وقد توفي عام ١٢١٠، وخلفه ولده عمدة الأمراء الذي توفي عام ١٢١٦، فتولّى مكانه تاج الأمراء حسين علي خان وكانت الديون قد كثرت على الإمارة، فطلب الإنكليز من تاج الأمراء أن يُفوّضهم بحكم الإمارة لقاء دفع ما عليه من الديون فرفض، فراجعوا أحد الأمراء وهو عظيم الدولة فوافق وقد أغروه بالمال إذ رتّبوا له ولأقاربه مبلغاً ضخماً كل عام، واستولوا على المنطقة عام ١١٣٤هـ، وأبقوا أميرها صورةً، وتنتقل الإمرة في أسرته.

سيطر الإنكليز على الهند جزءاً بعد آخر بوسيلةٍ من الوسائل، واستولوا على أوقاف المسلمين التي كانت مصدر تمويل الكتاتيب الوحيدة، فتعطّلت الكتاتيب، وزاد الجهل، وفي الوقت نفسه سعوا في تعليم الهندوس ليسدّوا بهم بعض المراكز، وليتقوّوا بهم على المسلمين أو ليضربوا المسلمين بهم، وأخذوا أحسن أراضي المسلمين الذين عاشوا بعد ذلك بذلٍ وفقرٍ وجهلٍ، على حين نشط التعليم بين الهندوس إذ اعتقد الإنكليز أنه من المستحيل تنصير مسلمٍ واحدٍ على حين يمكن تنصير أعدادٍ من الهندوس، ويكون هؤلاء النصارىٰ في المستقبل أنصاراً لهم وأعواناً، أو يحكمون الهند باسمهم أو يكون نفوذهم قوياً بواسطتهم، وانتشرت بذلك الإرساليات التبشيرية النصرانية، والتي سيطرت على التعليم الحكومي، وامتنع المسلمون من التعليم على يد النصارى الصليبيين، وأقبل الهندوس عليه، كل هذا جعل التفاوت كبيراً في ناحية التعليم بين المسلمين والهندوس، ومن ناحية اقتصادية فقد ضعف وضع البلاد بسبب السياسة الإنكليزية التي غمرت أسواق الهند ببضائعها، وكانت التجارة بأيدي المستعمرين، ولم تلقَ الزراعة أي تشجيعٍ، إضافة إلى أوضاع الفوضى التي جعلت الناس يهملون الزراعة..

ونتيجة الفقر الذي وقع في البلاد فقد انخرطت أعداد من السكان في

الجيش، وكان ضباطهم الإنكليز يسخرون منهم، ويستخفّون بهم، ويُحاولون ازدراء دينهم مما أدّى إلى حدوث الكراهية، ومحاولة النقمة كردّ فعلٍ، وحدث أن أدخل الإنكليز البنادق إلى الجيش، وطلب الضباط من الجند أن يمسحوا بنادقهم بالشحم، وسرت شائعة أن هذا الشحم من شحم الخنزير والبقر لإهانة سكان الهند سواء أكانوا مسلمين أو هندوساً فهاج الجند، وغضبوا لذلك أشد الغضب حتى اضطرت حكومة الهند الإنكليزية إلى إصدار منشوراتٍ تُكذّب هذه الشائعات ولكن لم يلتفت أحد إلى هذه المنشورات ولم يُصدقوها، وكتحدٍ من قِبَل الإنكليز فإن سرية الفرسان في بلدة ميرته على بعد ٤٠ ميلاً من دهلي قد وزعت الشحم على الجنود، وطلبت منهم استخدامه فأخذوه مكرهين إلا ٨٥ جندياً فقد رفضوا ذلك، فحُكم عليهم بالسجن عشر سنوات، وقرئ القرار على الجنود الإنكليز والهنود، وكُبّل الرافضون بالقيود، وسيقوا إلى السجن مشاةً مسافة ميلين، فأظهر بعضهم العجز عن المسير بتلك القيود، وتألّم الجند الوطنيون، وصعب عليهم، واتفقوا على إنقاذ إخوانهم هؤلاء رغم أنف الإنكليز الذين حاولوا منعهم، فهجموا على الإنكليز وقتلوا ضابطاً منهم، وعدداً من جنودهم... فصوب الإنكليز المدافع والبنادق على الجنود الهنود الذين فرّوا متجهين إلى دهلي حيث انطلقوا إلى دار الملك المغولي سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه، وكان قد جاوز التسعين من العمر، وعدّوه ملك البلاد بل لا يعرفون غيره... وانتقلت هذه الحركة المحلية إلى ثورةٍ عارمةٍ شملت معظم أجزاء البلاد. وطلب الإنكليز في الهند النجدات فجاءتهم، وكانت إنكلترا قد انتهت من حروبها في القرم ضد الروس، وفي بلاد فارس، والجنود عندها مهيئة للحركة فاتجهت إلى الهند، وسارت إلى دهلي وحاصرتها عدة أشهر، ثم دخلتها، وقبضت على بهادور شاه وأسرته، وحكمت عليه بالنفي، وقتلت أبناءه في موكبهم أمامه، وعملت له وجبات من لحومهم، ونفته إلى عاصمة بورما «رانغون».

وسمعت بقية المدن بدخول دهلي فتأزمت الحالة وقامت الثورات،

وتأتي الجيوش الإنكليزية لتحاصر المدن، وتدخلها بعد مدة، وتنتقم من أهلها.

وبعد انتهاء الثورة عام ١٢٧٤ أعلنت إنكلترا انتهاء حكم شركة الهند الشرقية، وعدّت بلاد الهند من أملاك التاج البريطاني، يتصرف بها كيف يشاء. وعدّ الإنكليز المسلمين سبب الثورة لذا فقد صبّ المستعمرون جام غضبهم على المسلمين فصودرت أملاكم، وهُدّمت مساجدهم أو أصبحت ثكنات للجيوش، وشُرّد الناس، ورحب الهندوس بهذه الأعمال فأعانوا الإنكليز على قتل المسلمين، وادعوا أنه قد آن الأوان لهم للثأر والانتقام، واستلموا الوظائف، وحصلوا على الثروة، واشتروا الأرض حتى لم يبق للمسلمين سوى ٥٪ من الأراضي التي كانوا يملكونها من قبل، وكانت سياسة الإنكليز تقضي بتقريب الهندوس واضطهاد المسلمين، وقد صرح اللورد ألنبرو بهذا إذ قال: «ليس في وسعي أن أغمض عيني بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا، وأن سياستنا الحقة أن نتجه إلى تقريب الهنود».

ومع أن الهند قد أصبحت تحت سلطة الإنكليز إلا أنه قد بقيت بعض الإمارات الصغيرة أو الكبيرة، منها ما هو بيد المسلمين، ومنها ما هو بيد الهندوس، وهذه الإمارات تحت سلطة الإنكليز الخارجية إلا أن الأمير مفوض بإدارة الأمور الداخلية، وقد بقي بعض هذه الإمارات حتى استقلت البلاد وتقسّمت، ومن هذه الإمارات حيدر أباد في الدكن، ومساحتها ٨٣ ألف ميل مربع، وتسمى بالدولة الآصفية نسبة إلى نظام الملك آصف الذي أسسها، والذي توفي عام ١١٦١، وبقيت حتى دخلتها الجيوش الهندية عام ١٣٦٧.

وإمارة بهوبال في الدكن، وقد أسسها ابن دوست محمد الأفغاني، وهو (يار محمد)، إذ ولّاه آصف جاه بهوبال فاستقل بها عام ١١٦٧، وبقيت حتى أُلغيت عام ١٣٦٦، وكانت مساحتها ٦٧٦٤ ميل مربع.

وإمارة جوناكدا في كوجرات، ومساحتها ٣٢٨٣ ميل مربع، تأسست

١١٧١، واستمرت حتى ألغيت عام ١٣٦٦. وغير هذه الإمارات كثير.

قام بعض المسلمين يريدون سدّ الثغرة التي حصلت، وأدّت إلى تأخر المسلمين فدعوا إلى التعليم، وحاول بعضهم تقليد الغرب مثل أحمد خان الذي رغب في التقرب من الإنكليز لينال الحظوة عندهم، فأنشأ كلية عليكرة، وأسس جريدة تهذيب الأخلاق، وبعضهم يرى العمل بمقتضى الإسلام، وقد تأسست ندوة العلماء، ودار العلوم التابعة لها عام ١٣١١ في مدينة لكنو.

وخاف الإنكليز عندما قوي التيار الإسلامي فعملوا على نشر الفكرة القومية ليضيع المسلمون بين الهنود، وتأسس حزب المؤتمر الهندي عام ١٣٠٣، ودخله الهنود، كما دخل فيه المسلمون بل إن بعض الهيئات الإسلامية قد اندمجت فيه مثل جمعية العلماء، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومؤتمر الشيعة، وكان هذا الحزب في البداية يُظهر احترام شعور المسلمين، ولكنه أظهر فيما بعد عكس ذلك فنادى بإخراج الغرباء من الهند، ويَعدّ المسلمين غرباء كالإنكليز، وبدأ التطرف من الهنود أو ظهرت بينهم جماعة من الغلاة الذين نادوا بقتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يحاول مسايرتهم. وكان لا بد أن يظهر تجمع خاص من المسلمين مقابل ذلك فوجدت الرابطة الإسلامية عام ١٣٢٤ بعد اجتماع في دكا في البنغال برئاسة النواب فخار الملك. وبدأ الخلاف واضحاً بين حزب المؤتمر والرابطة. وظهرت دعوة المتطرفين الهنود، ولا شك أن أكثر الهنود في حزب المؤتمر كانوا يؤيدونهم. وهذه الدعوة تتلخص في أربع نقاط:

١ - سانكاثان: أي الوحدة.

٢ - الراجا: أي الإله الهندي «رام راجا» أي وحدة العقيدة، وإجبار السكان جميعهم عليها.

٣ - شوذي: أي إرجاع المسلمين إلى الهندوكية.

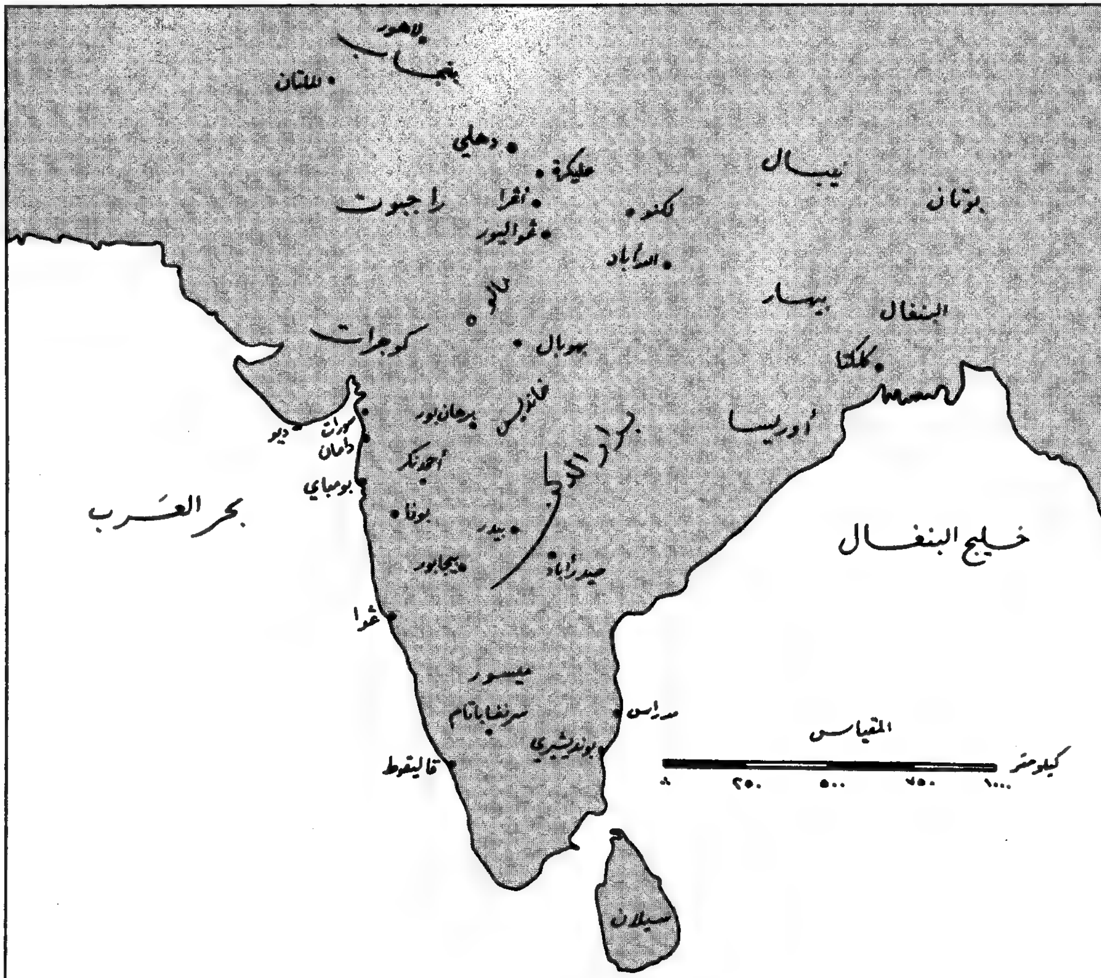
٤ - فتح أفغانستان ومناطق الحدود، وردّ أهلها عن الإسلام.

ويعدون سلامة الجنس الهندي ومستقبله متوقفة على تحقيق هذه النقاط الأربع.

ومعنى هذا لا يمكن اللقاء بين الطرفين إلا أن بعض المسلمين بقوا يرون أن بقاء وحدة الهند مهم جداً، ويرى بعضهم أن هذا مفيد للدعوة الإسلامية بين الهنود.. لذا بقي بعضهم في حزب المؤتمر مدةً، ثم انسحب مثل محمد علي جناح الذي انضم إلى الرابطة عام ١٣٣٣، وعرض عليه الهنود أن يبقى، ويصبح رئيساً لحزب المؤتمر لكنه رفض... ومنهم من بقي أمثال أبو الكلام أزاد الذي أصبح وزيراً للمعارف في الهند بعد استقلالها مباشرةً.

وعندما أُلغيت الخلافة العثمانية بتأثير الإنكليز حدثت ثورة عامة شملت معظم أرجاء الهند، وعرفت باسم حركة الخلافة احتجاجاً على الإنكليز ودورهم في ذلك ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب.

ونتيجة تطرف الهنود وردّ فعل المسلمين والخلاف العقيدي بين الطرفين كان لا بدّ من الانقسام، وهو ما تم في النهاية.


لاهور
بنجاب
الملتان
دهلي
عليكرة
أغرا
راجبوت
غواليور
لكنو
الله آباد
نيبال
بوتان
بهار
البنغال
كلكتا
مالوه
بهوبال
كوجرات
خاندیس
برهانبور
سورات
ديو
دامان
أحمدنكر
بومباي
بونا
بيدر
حيدرآباد
بيجابور
جبال الدكن
أوريسا
بحر العرب
خليج البنغال
غوا
ميسور
سرنغاباتام
مدراس
بونديشيري
قاليقوط
المقياس
كيلومتر
٠
٢٥٠
٥٠٠
٧٥٠
١٠٠٠
سيلان

مصور رقم [٣٣]

الفصل الثاني

المالديف

المالديف مجموعة من الجزر تقع في المحيط الهندي إلى الجنوب الغربي من الهند وسيلان، وعلى مسافة ٤٨٠ كيلومتراً من الطرف الجنوبي لشبه القارة الهندية، وعلى مسافة ٦٧٢ كيلومتراً من جزيرة سيلان. تمتد على شكل مجموعات من الشمال إلى الجنوب مكونةً تسع عشرة مجموعة جزيرية، يزيد عدد جزرها على ألفي جزيرة، إلا أن بعضها يغمره الماء أثناء المد، ويبقى ١٠٨٧ جزيرة ظاهرة بشكل دائم فوق الماء، ولا يوجد غير ٢٢٠ جزيرة مأهولة بالسكان، تبلغ مساحتها ٥١,٧٨٠كم٢ بما في ذلك المستنقعات، أما مساحة اليابس الدائم فهو ٢٩٨ كيلومتراً مربعاً. ولا يزيد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ساكن.

وصل التجار المسلمون إلى جزر المالديف عام ٨٥ في خلافة عبد الملك بن مروان، وبدأ بعض الناس يدينون بالإسلام، ولكن ظهر أثر المسلمين واضحاً عام ٥٤٥ بعد أن وصل الدعاة إلى تلك الجزر، ومنهم أبو البركات البربري فاستطاع ـ بإذن الله ـ أن يأخذ بأيدي السكان نحو الإسلام، وأسلم الناس جميعاً حتى لم يبق في الجزيرة غير مسلم، وأسلم الملك وتسمّى محمد بن عبد الله. وقد زار الرحالة ابن بطوطة الجزر عام ٧٤٤، وأطلق عليها اسم ذيبة المهل، ولم يجد فيها غير مسلمين، وعمل قاضياً فيها مدةً.

وصل البرتغاليون إلى هذه الجزر عام ٩١٣ في محاولتهم لتطويق العالم الإسلامي، وقد تمكّنت القوة البرتغالية من احتلال الجزر، وفرضت سيطرتها على السكان، وحاولت التأثير على عقيدتهم ولكنها فشلت فشلاً

ذريعاً في ذلك مع أنها ارتكبت أبشع الجرائم لإرهاب السكان، وبقي البرتغاليون ما يقرب من القرن في هذه الجزر.

وفي مطلع القرن الحادي عشر كان الهولنديون قد وضعوا أقدامهم في جزيرة سيلان، وكان نجم البرتغاليين يغرب أمام المنافسين لهم من هولنديين، وإنكليز، وفرنسيين، وعقد الهولنديون معاهدة مع سلطان المالديف وضعت الجزر تحت حمايتهم، وحاولوا أيضاً كما حاول أسلافهم من الصليبيين تغيير عقيدة السكان غير أنهم لم يحصلوا على أية نتيجة بل وجدوا مقاومةً صلبةً من السكان، وفيها تحدٍّ واضح. وكانت جزر المالديف آنذاك تدار من قِبَل حكومة سيلان الهولندية.

وجاء الإنكليز إلى جزر المالديف عام ١٢١١ بعد المنافسات الصليبية، والمساومات، والاتفاقات، وتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهم، أي أن الهولنديين بقوا أصحاب النفوذ في جزر المالديف ما يقرب من مائتي سنة. وفي عام ١٣٠٥ حدثت بعض الحركات في البلاد، فعقد الإنكليز مع السلطان معاهدة جديدة أعلن فيها وضع البلاد تحت الحماية الإنكليزية، ولم يبق للسلطان إلا الاسم.

وفي عام ١٣٥٠ تراخت قبضة الإنكليز قليلاً حسب سياستهم الجديدة التي اتبعوها بعد الحرب العالمية الأولى، فأعلن السلطان شمس الدين إسكندر الدستور. ولكن عندما استقلت سيلان عام ١٣٦٧ وضعت جزر المالديف تحت حماية التاج البريطاني مباشرةً، غير أن الاستعمار بشكل عام والإنكليزي بشكل خاص قد بدأ بعد ذلك يغير من أسلوبه، فلم يعد يناسبه الاستعمار العسكري ـ باستثناء الاستعمار الروسي ـ واتخاذ الجند وفرض الهيمنة، وإنما أصبح يُفضّل النفوذ والسيطرة الاقتصادية، أما الحكم فيُسلّمه لأنصاره وأعوانه، ومن هذا المنطلق فقد أعلنت الجمهورية المالديفية عام ١٣٧٣ ، وعُيّن محمد أمين ديدي سلطاناً على البلاد، وهو ابن عم رئيس الجمهورية السابق، وأصبح إبراهيم ناصر رئيساً للوزارة. وعقدت إنكلترا مع المالديف معاهدةً عام ١٣٧٦.

تعهدت إنكلترا عام ١٣٨٠ بدعم جزر المالديف مادياً، وبعد خمسة أعوام (١٣٨٥) اتفقت مع إنكلترا بمعاهدة جديدة تأكيداً لاتفاقية عام ١٣٧٦ ، واحتفظت إنكلترا بموجبها بقاعدةٍ جويةٍ في جزيرة (جان) بمقاطعة (أصول)، ونالت بعدها البلاد الاستقلال، وإن جرى جدل عنيف حول هذه المعاهدة التي وُقعت في مدينة كولومبو عاصمة سيريلانكا، كما قُبلت المالديف عضواً في الأمم المتحدة. وفي عام ١٣٨٨ انتخب إبراهيم ناصر رئيساً للجمهورية.

الفصل الثالث

ماليزيا

تشمل ماليزيا شبه جزيرة الملايو وشمالي جزيرة بورنيو، وتتألف من ثلاث عشرة ولاية، إحدى عشر منها في شبه جزيرة الملايو وهي: كيلانتان، وجوهور، وباهانغ، وسيلانغور، وبيرق، وقدح، ومالاقا، وبينانغ، ونيغري سميلان، وترينغانو، وبيرليز. واثنتين في شمال بورنيو وهي ساراواك، وصباح.

انتشر الإسلام في شبه جزيرة الملايو عن طريق التجارة، وفي عام ٦٧٥ أسلم ملك مالاقا أكبر دول الملايو آنذاك، وتسمّى باسم محمد شاه، وتبعه رعاياه، وخلفه بالحكم ابنه مظفر شاه، ومن مالاقا انتشر الإسلام إلى باقي الجهات.

وصل البرتغاليون إلى المنطقة عام ٩١٧، واستطاعوا بعد جهود كبيرة احتلال مالاقا في ذلك العام، وبعد حصار استمر عدة أشهر، وعندما سقطت بأيديهم قرعت أجراس الكنائس في روما ابتهاجاً بذلك النصر على المسلمين، وعمل البرتغاليون أبشع الأعمال الوحشية في المدينة، ففرت أعداد من المسلمين، وانطلقوا إلى أعالي نهر جوهور حيث أقاموا دولةً أخرى هناك في جنوبي شبه جزيرة الملايو.

وجاء الهولنديون إلى المنطقة عام ١٠١١، واستولوا على مالاقا عام ١٠٤٤، وزالت دولة البرتغاليين، وظنّ بعض سكان مالاقا أن الاضطهاد قد خفّ عنهم بمجيء الهولنديين محل البرتغاليين، لكنهم وجدوا أن الأمر نفسه

فالصليبية واحدة، والحقد على الإسلام واحد، وتابع الهولنديون سياسة البرتغاليين نفسها تجاه المسلمين.

وجاء دور الإنكليز فوصلوا إلى المنطقة، واحتلوا جزيرة بينانغ عام ١٢٠٢ من سلطان قدح بعد أن استأجرتها شركة الهند الشرقية الإنكليزية من سلطان قدح، ثم استولوا على مالاقا عام ١٢٠٧، ومع دخول الاستعمار الإنكليزي إلى المنطقة اتجهت سيول من الصينيين والهنود نحو الملايو للعمل، إذ فتحت لهم إنكلترا الطريق، وسهّلت لهم القدوم على شرط أن يكونوا غير مسلمين وذلك لتخفيف نسبة المسلمين في شبه الجزيرة.

أعاد الإنكليز لهولندا مالاقا عام ١٢٣٣، ثم عقدوا معاهدة مع الهولنديين عام ١٢٣٩، استردوا بتلك المعاهدة مالاقا، واعترف الهولنديون بالنفوذ الإنكليزي في شبه الجزيرة كلها، وكان الإنكليز قد اتجهوا عام ١٢٣٥ نحو سنغافورة، وسيطرت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على سنغافورة عام ١٢٤٠، وحكمت إنكلترا شبه جزيرة الملايو من الهند، ثم من عدن، ولم تتدخل في بداية الأمر في شؤون السلطنات الداخلية، فبقيت شبه الجزيرة كيانات مستقلة تحت الإدارة البريطانية، ولكل كيان دستور محلي خاص.

رأت إنكلترا أن تلغي تلك الكيانات المنفصلة بعضها عن بعض، ففاوضت عام ١٢٩١ سلطان قدح، وعرضت عليه أن يقيم في بلاده بريطاني يُقدّم له النصائح والتوجيهات من غير أن يتدخل بالأمور التي تتصل بالدين الإسلامي أو بالعادات الملايوية فوافق أو أكره على الموافقة، ووافق بعدها سلطان (سيلانغور) بأن يستقبل عنده مقيماً إنكليزياً، وكذلك وافق كل من سلطان (باهانغ) و(نغري سميلان). وتلا ذلك أن دخلت هذه الولايات الأربع في اتحاد يديره كله مقيم بريطاني عام ١٣٠٣، كما قبل في العام نفسه سلطان (جوهور) حماية بريطانية له دون أن يحصل على بعض المنافع.

واتفقت تايلاند التي غزت شمالي شبه جزيرة الملايو مع بريطانيا أن

تكون ولايات (كيلانتان) و(ترينغانو) و(بيرليز) والتي قبلت كل منها أن تستقبل مقيماً بريطانياً عاماً عندها، ولكنها في الوقت نفسه رفضت أن تنضم إلى الاتحاد، أو إلى الممتلكات البريطانية، اتفقت تايلاند وبريطانيا أن تكون هذه الولايات مع ولاية قدح تحت النفوذ البريطاني وتشكل اتحاد الملايو، وقد ظلت السيادة بأيدي سلاطينها.

أما شمالي بورنيو فقد كان يتبع سلطان بروني. وفي عام ١٣٠٠ تأسست الشركة البريطانية لشمالي بورنيو، ولم يلبث أن امتد النفوذ الإنكليزي إلى مقاطعات صباح، وبروني، وساراواك وغدت محميات إنكليزية.

واستمر الوضع حتى نهاية هذه المرحلة (١٣٤٢)، وإن تطورت اقتصاديات البلاد بسبب زراعة المطاط ووجود معدن القصدير وهذا بالتالي ما أدى إلى اندفاع سيولٍ من الصينيين والهنود للعمل بل والاستيطان في المنطقة، وهذا ما أضعف نسبة المسلمين أولاً وسبب لهم مشكلات في المستقبل ثانياً.

فطاني:

فطاني ولاية ملايوية، خضعت كباقي أجزاء شبه الجزيرة إلى الممالك التي قامت في أندونيسيا، ولما حلّ الضعف بتلك الممالك استقلت عدة إمارات في شبه جزيرة الملايو، ومنها إمارة مالاقا، وقد تبعت فطاني هذه الإمارة عام ٨٦٥. وعندما احتلّ البرتغاليون مالاقا عام ٩١٧ تقدّم التايلانديون من الشمال، واحتلوا المقاطعات الفطانية إضافةً إلى إمارة (قدح)، ولكن هذا الاحتلال كان ضعيفاً الأمر الذي مكّن سلطان فطاني من الاحتفاظ باستقلاله الإداري، ووطد علاقاته التجارية مع الدول البحرية سواء المحلية مثل اليابان التي وطدت علاقتها معها عام ١٠٠٩ أم الصليبية المستعمرة القادمة مثل البرتغاليين، والهولنديين، والإنكليز وقد كان لكل هؤلاء مراكز تجارية في مدينة فطاني.

كانت إمارة فطاني تشمل الأراضي الممتدة من برزخ (كرا) في الشمال حتى حدود ماليزيا الحالية، وتحكم من قبل الفطانيين غير أن تايلاند تمكنت عام ١١١٢ في الأجزاء الشمالية من إمارة فطاني، واستمرت هجماتهم على بقية الأجزاء وأهم هذه الهجمات ما كان عام ١٠٤٢ و١٠٤٣ ولكنها فشلت في المرتين، وأخيراً تمكّنت تايلاند من احتلال فطاني عام ١٢٠١، وقسّمتها مباشرة إلى سبع مقاطعات لإضعاف روح المقاومة وتجزئتها، غير أن الفطانيين لم يلقوا السلاح فقد قاموا بثورةٍ عام ١٢٠٢ بقيادة (تنكولميدين)، وأعلن سلطان فطاني الاستقلال عن تايلاند، ولكن فشلت الثورة إذ استشهد تنكولميدين أثناء القتال، وأسر سلطان فطاني فنُقل إلى بانقوك عاصمة تايلاند.

عيّن ملك سيام حاكماً جديداً لفطاني هو (داتوفنكلان) الذي كان وزيراً للبحرية الفطانية سابقاً لكن هذا الحاكم الجديد ثار عام ١٢٢٣ على تايلاند، وأعلن استقلاله، ولكن الحركة فشلت أيضاً فاتخذ التايلانديون سياسة جديدة في زيادة التجزئة ووضع سياميين في الإدارة الفطانية.

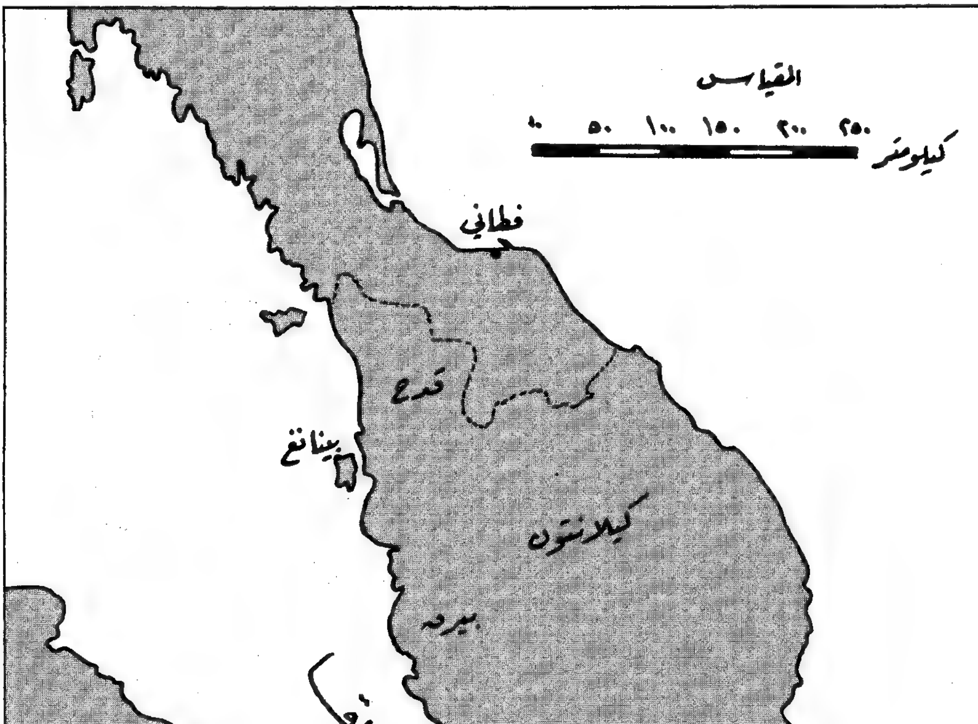
عاد الفطانيون إلى الحركة عام ١٢٤٧ إذ انضموا إلى الأمير (تنكودين) ولي عهد إمارة قدح في ثورته على تايلاند، ولكنهم هُزموا أيضاً، ودخلت جيوش تايلاند الأرض الفطانية وإمارة قدح فنُهبت الأموال وهدّمت الديار، وقتلت الرجال، وهتكت الأعراض، وعاثت جند سيام الفساد، وأخذت معها أربعين ألف أسير إلى بانقوك حيث زجّتهم هناك في السجون، ثم اتخذتهم عبيداً للعمل في أراضي الدولة، وهذا ما أرهب السكان فأجبرهم إلى اتخاذ الهدوء كي يعودوا للاستعداد.

وفي عام ١٣٢٠ اغتصب التايلانديون سلطات الأمراء الفطانيين أو ما تبقى لأولئك الأمراء من سلطنةٍ، وجعلوا مندوباً تايلاندياً يحكم المنطقة ويرتبط مباشرة ببانقوك، وهذا ما حمل الأمير تنكو عبد القادر قمر الدين للقيام بحركة مقاومةٍ مطالباً باستقلال بلاده، ولكنه هُزم وحُمل أسيراً إلى بانقوك، ثم نُفي إلى شبه جزيرة الملايو ليعيش هناك في مقاطعة (كيلانتن)،

وعيّن أميراً على فطاني محيي الدين عبد القادر، وأرسل إلى لندن للدراسة ليعيش بعيداً عن بلاده.

وفي ١٣٢٧ اتفقت تايلاند وإنكلترا على تسوية الحدود بينهما في شبه جزيرة الملايو فأخذت إنكلترا إمارة قدح، وأخذت تايلاند فطاني، وقبل هذا كان الفطانيون يرون في إنكلترا النصرانية أقل سوءاً من تايلاند البوذية، ويطلبون المساعدة منها، ويرغبون في الاتفاق معها، ولكنهم رأوا بعد ذلك في النصارى حقداً صليبياً لا يختلف عن الحقد البوذي بل إن إنكلترا سبب ما يحدث في المنطقة.

وفي عام ١٣٤٢ قام الفطانيون بحركة مقاومةٍ جديدة بدأت برفض دفع الضرائب، ثم عمت للمطالبة بالاستقلال غير أنها أُخمدت، وأُلقي القبض على عددٍ كبيرٍ من قادة الفطانيين ومن الشعب ونقلوا إلى بانقوك، وقتلت أعداد أخرى، ووقع التعذيب على مجموعات كثيرة، وشُرّد آخرون.


المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠ كيلومتر
فطاني
قدح
بينانغ
كيلانتون
بيرق
مضيق ملاقا
كوالالمبور
ملاقا
جوهور
سنغافورة
سومطرة
المحيط الهندي

مصور رقم [٣٤]

الفصل الرابع

أندونيسيا

انتشر الإسلام عن طريق التجارة والدعوة في الجزر الأندونيسية بشكلٍ هادئ، وقامت عدة ممالك إسلاميةٍ في جهات متفرقةٍ من تلك الجزر المتباعدة، إذ كلما زاد عدد المسلمين في بقعة من الأرض عملوا على تأسيس دولة لهم، وانفصلوا عن الحكومة المركزية كي لا يخضعوا بأحكامهم لغير المسلمين، فلما كان القرن العاشر الهجري كانت هناك ممالك إسلامية متعددة، ولكنها ضعيفة لتفرقها، ولوجود أعدادٍ من غير المسلمين بين رعاياها حيث كان انتشار الإسلام تدريجياً ولم يكن عن طريق الفتح والقوة وإخضاع الناس لحكم الإسلام مباشرةً.

في هذا الوقت تمكّن البرتغاليون من احتلال ميناء مالاقا في شبه جزيرة الملايو بعد حصار عدة أشهر وذلك عام ٩١٧، ثم اتخذ البرتغاليون مالاقا قاعدة لشنّ الغارات على الممالك الإسلامية في الجزر الأندونيسية، ونشبت معارك عنيفة بين المسلمين والبرتغاليين اتسمت بالحقد الصليبي، وخاصة أن البرتغاليين كان هدفهم الرئيسي في وصولهم إلى تلك الجهات ضرب اقتصاديات المسلمين والسيطرة على تجارتهم لإضعافهم والسيطرة بعد ذلك على بلادهم وإخضاعهم لحكمهم، وإرغامهم على ترك إسلامهم ولو بعد مدة، لذا فإن مقاومة المسلمين كانت عنيفة.

ولم تنج المناطق الأخرى من غارات البرتغاليين ولو كانت لغير المسلمين وذلك في سبيل السيطرة التجارية عليها والقضاء على التجارة

الإسلامية في تلك المناطق حيث كان التجار المسلمون هم أصحاب النفوذ والحركة في معظم تلك الجهات، لذا فقد تعرّضت سيام، والصين، وجزر المولوك أو البهارات لحملات الغزاة الصليبيين بهدف الاستيلاء على البهارات (التوابل) وبقية المواد واحتكارها لصالحهم وحدهم، وضرب تجارة المسلمين، وهذا الجانب الاقتصادي في الاستعمار هو الذي غطّى على الهدف الرئيسي ألا وهو الجانب الصليبي، إذ سارت الإرساليات التبشيرية النصرانية مع الاستعمار أو مع الحملات الصليبية الجديدة التي اتخذت من التجارة أو السيطرة التجارية أو الجانب الاقتصادي قناعاً تتستر به وتخفي حقيقتها، واستطاعت هذه الإرساليات أن تجذب إليها بعض الأفراد الأندونيسيين وتدخلهم في عداد أبناء عقيدتها، واتخذتهم أو اتخذهم أصحاب السلطة من المستعمرين أتباعاً لهم ومؤيدين لسياستهم الاستعمارية الصليبية.

لقد كثر التجار النصارى المستعمرون، وكثرت أسفارهم إلى الجزر الأندونيسية، والتعامل مع أبناء البلاد مباشرة دون وساطة التجار المسلمين ليحققوا بذلك أكبر ربح لهم، وهذا أمر طبيعي، وليضعفوا خصومهم التجار المسلمين، وهذا أمر طبيعي أيضاً، إلا أن تعدياتهم قد كثرت، وحمتهم قوة السلطة الاستعمارية، ووقفت بجانبهم ودعمتهم بل شجعتهم على المضي في استعلائهم وهذا ما ولّد النقمة لدى السكان وورّث الكراهية عندهم. ومع تفرقة الأندونيسيين، وتعدد ممالكهم، وضعفهم أمام المستعمرين الصليبيين فقد قاموا بعدة ثورات ضد البرتغاليين، وقاموا بعدة حركات ضد الصليبية وخاصة بعد أن قتل أحد ملوك دول أندونيسيا غدراً عام ٩٧٨ وهو هارون سلطان «ترنات» الذي كانت تمتد سلطته حتى جزر الفيلبين.

بقيت البرتغال في سياستها التعسفية الوحشية، واحتكارها للتجارة حتى عام ٩٨٨ إذ استولت إسبانيا على البرتغال، وأصبحت هي صاحبة السيادة على أراضي البرتغال وممتلكاتها، ولم يتغير شيء بالنسبة إلى المسلمين الأندونيسيين إذ ذهبت إدارة صليبية وأتت إدارة صليبية أخرى، غير أن إسبانيا ضعف أمرها سريعاً حيث هُزمت أمام إنكلترا وتحطم أسطولها في

معركة الأرمادا البحرية عام ٩٩٨، وهذا ما جعل الدول الأُخرى تغتنم فرصة هذا الضعف الإسباني وهذه الهزيمة الإسبانية، وضياع جزء كبير من القوة البحرية الإسبانية، وتتقدم نحو الجزر الأندونيسية، وكانت هولندا أكثر هذه الدول سبقاً، خاصةً أنها كانت في حرب مع إسبانيا وتخلّصت إثر هذه الحرب من الحكم الإسباني وحصلت على استقلالها، وقامت تنافس سادتها السابقين أو حسب رأي الهولنديين يومذاك قاموا ليحصلوا على نصيبهم أو حقهم من إرث إسبانيا، ولم يخشوا أسطولها إذ سبق أن تحطم، وأصبحت السفن الهولندية تنتقل في بحار تلك الجهات دون خوف من القوة الإسبانية المنهارة.

وصل الهولنديون إلى جزيرة سومطرة عام ١٠٠٥، وكان همهم التجارة في بداية الأمر غير أن السكان عرفوا التبديل من قبل، وشعروا أن الصليبية واحدة لذا فقد قاوموا الهولنديين مقاومةً عنيفة، غير أن الهولنديين تمكّنوا من خديعة بعض السكان، إذ أظهروا وداعة الحمل، وأخفوا أنياب الذئب، وحاولوا إزالة الصورة البشعة التي تركها الصليبيون البرتغاليون، وكانت العلاقات ودية وأبدوا أنهم جاءوا منقذين من البرتغاليين، لذا فقد تمّ عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٠٩ في جزيرة (أمبوينا) الواقعة بين إيريان الغربية وجزيرة سلبيس، وتقضي هذه المعاهدة بمنح حق للهولنديين في إقامة القلاع للدفاع عن الجزيرة مقابل احتكار تجارة التوابل. . . واتخذت هولندا طريق عقد المعاهدات بين السلاطين والملوك لتمكين نفوذها وبالتالي السيطرة على الجزر كافةً.

وقام عدد من الشركات الهولندية لاستثمار الخيرات في البلاد، وهي كثيرة، والأرض لا تزال بكراً، وإثر كل معاهدة كانت تتشكل شركة جديدة، وبمقتضى الحال فإن هذه الشركات بدأ ينافس بعضها بعضاً، وهذا ما أضرّ بمصلحة هولندا العامة الأمر الذي جعل الحكومة الهولندية توحّد هذه الشركات في شركة واحدة عام ١٠١١، هي شركة الهند الشرقية الهولندية التي اتخذت باتافيا (جاكرتا) مقراً لها. وأصبحت صاحبة النفوذ في البلاد.

بدأت المنافسة بين إنكلترا وهولندا عام ١٠٢٨، ووقف الأهالي على الحياد، وإن كانوا يميلون إلى إنكلترا، إذ لم يعرفوها بعد على حين عرفوا الهولنديين، أو أن حب التغيير وهو الطبيعة في النفس البشرية قد جعلهم يقفون بجانب الإنكليز، وقدموا لهم بعض الدعم والمساعدات والتأييد، وفرّ حاكم شركة الهند الشرقية الهولندية إلى جزر المولوك، ولم يستطع الإنكليز اقتحام حصون باتافيا، ولما شعر الهولنديون أن السكان ليسوا بجانبهم لذا فقد بدؤوا بحرب ضد السلاطين والملوك الواحد بعد الآخر حتى بسطوا نفوذهم على الجزر كافةً، وكانت الحرب قد انتهت بين إنكلترا وهولندا وأُرغمت فيها هولندا عن التخلي عن الاحتكار التجاري في الهند وأندونيسيا، وصحيح أنها تخلت عن الاحتكار، وتوقف القتال، ولكن المنافسة التجارية لم تزل قائمةً بين الدولتين. وكانت إنكلترا أقدر على المنافسة مما جعل أرباحها تزداد على حين تفقد الشركة الهولندية الكثير من أرباحها بل تعرّضت للخسارة وكانت النتيجة تصفية الحكومة الهولندية للشركة عام ١٢١٤، وحلّت محلّها في حكم الجزر الأندونيسية، أو أن الاستعمار الهولندي قد بدأ في هذا العام.

اتخذت هولندا أسلوب الاستعمار غير المباشر إذ كانت تنصّب الزعماء المحليين، وتستعملهم أداة للضغط على السكان واضطهادهم، وهذا ما جعل أبناء البلاد يسخط بعضهم على بعض، ويحقد على هؤلاء الزعماء الذين اصطنعتهم هولندا في الوقت الذي يصطنع هؤلاء الزعماء أعواناً وخواصاً.

استولت فرنسا أيام نابليون بونابرت على هولندا وحاولت أن تسيطر على ممتلكاتها في أندونيسيا عام ١٢٢٦ غير أن إنكلترا سبقتها إلى ذلك فسيطرت على جاوه، وتيمور، وجنوبي سومطرة، وماكاسار في سبيليس، غير أن فرنسا لم تلبث أن هزمت، وعادت هولندا مستقلة فاتفقت مع إنكلترا عام ١٢٢٩ على إعادة المناطق الأندونيسية إليها مقابل تنازلها عن سيلان، والكاب في جنوبي إفريقية، وبعض جزر الهند الشرقية وبعض جزر

الهند الغربية، واستولت إنكلترا على جزيرة سنغافورة، وشبه جزيرة الملايو، فاحتجت هولندا، وعاد الخلاف بين الدولتين، ولكن رجعتا إلى الاتفاق عام ١٢٤٠، وتنازلت إنكلترا لهولندا عن الأراضي التي كانت تبسط نفوذها عليها في غربي جزيرة سومطرة.

بدأت هولندا تفرض الضرائب الكثيرة على سكان أندونيسيا كمشاركة لها ـ حسب زعمها ـ بالخسائر التي تكبدتها في الحروب التي خاضتها في القارة الأوربية فبدأ الشعب بالثورة على المستعمرين، وهذا ما جعل هولندا تحكم أندونيسيا عن طريق وزير المستعمرات.

بدأت الحروب بين هولندا التي تسيطر على أندونيسيا وبين مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وكانت حرباً مقدسة إذ أعلن سكان مملكة آتشيه الجهاد ضد الصليبيين المستعمرين، وما أن انطلقت الحرب العالمية الأولى حتى كانت هولندا قد أخضعت معظم ملوك أندونيسيا لسيطرتها إما عن طريق الحرب، وإما عن طريق الخداع، وإما عن طريق الاقتصاد، وحرصت أن تُبقي أولئك الملوك في مراكزهم وتحكم البلاد عن طريقهم، وتحتفظ لهم بما كانوا عليه من أبهة وسلطان.

وجاءت الحربة العالمية الأولى ومنَّت هولندا الأندونيسيين بالوعود بعد الحرب، وانتهت الحرب، وخابت آمال السكان إذ عادت هولندا إلى سياستها الاستعمارية، ولم تُعر عصبة الأمم ولا مؤتمر الصلح أي اهتمام بشؤون الشعوب الضعيفة، وإنما كانت الدول القوية هي المتحكمة بشؤون الناس المغلوب على أمرهم، وعادت أندونيسيا إلى المقاومة من جديد، ومن المفيد أن نذكر أهم حركات المقاومة ضد هولندا منذ دخولها البلاد حتى نهاية هذه المرحلة التي نتحدث عنها عام (١٣٤٢).

منذ مطلع القرن الحادي عشر قاد السلطان عبد الفتاح سلطان مملكة بنتام حركة المقاومة، وأنشأ قوةً فدائيةً، وبنى أسطولاً، واتصل بالدولة العثمانية، وإنكلترا لمقاومة هولندا، غير أن الدولة العثمانية قد بدأت في الضعف وبعد الشقة بعد الحليفين جعل إمكانية المساعدة قليلة الأثر، أما

إنكلترا فكانت تتفق مع هولندا حسب مصالحها إضافة إلى الروح الصليبية التي تجمع بينهما، فهُزم السلطان عبد الفتاح وانتهت حركته، ودخلت هولندا بلاده.

وقام الأمير سرياتي في جزيرة جاوه بحركة مقاومة استمرت عدة سنوات، وانتهت بقتله ونفي أنصاره وقادته من البلاد.

وفي عام ١٢٤٠ قام الأمير ديبونيجورو أحد علماء جزيرة جاوه بحركة أخذت شكل الحرب بين الجيوش ودامت خمس سنوات، وعجزت هولندا عن إحراز النصر على هذه القوة، فحاولت التفاهم مع قائد الحركة، فخُدع ووافق، فقبضت عليه أثناء المفاوضات، ونفته إلى جزيرة (سيلبيس) حيث بقي في منفاه حتى توفي عام ١٢٧٢.

ومنذ عام ١٢٣٧ قامت جماعة بدري بحرب استمرت خمسة عشر عاماً، ومن أشهر زعمائهم الشيخ مصطفى سحاب، وانتهت هذه الحرب عام ١٢٥٣.

ولما انتهت هولندا من هذه الحروب اتجهت إلى الممالك الأندونيسية تقضي على الواحدة تلو الأخرى، وكان يساعد هولندا في القتال تفوّق سلاحها، وقتالها للأندونيسيين وهم متفرقون فكلما انتهت من مملكة اتجهت إلى أخرى، وكلما قضت على جماعة شنت الحرب على غيرها، واعتمادها على مرتزقة بسبب قلة سكانها بالنسبة إلى أندونيسيا هذا إضافة إلى اتخاذ المكر، والحيلة، والخديعة، وإغراء بعض ضعاف النفوس.

ومن هذه الحروب القتال مع مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وقد دامت من عام ١٢٩٠ ـ ١٣٢٢ أي أكثر من ثلاثين سنة، فأعلن سلطان المملكة إبراهيم منصور شاه الجهاد المقدس، ومن أبرز أبطال تلك الحرب تنكو عمر. . . وإذا كانت هذه الحرب قد انتهت عام ١٣٢٢ إلا أن المقاومة قد استمرت حتى الحرب العالمية الأولى.

ولجأ الأندونيسيون إلى توحيد صفوفهم عن طريق تأسيس الجمعيات والأحزاب السياسية ومن أشهرها:

١ ـ الجمعية الخيرية التي تأسست في جاكرتا عام ١٣١٩.

٢ ـ جمعية مكارم الأخلاق الخيرية في سورابايا في شرقي جزيرة جاوه.

٣ ـ شركة إسلام وقد أسسها في مدينة صولو عام ١٣٢٣ الحاج سمنهودي، والحاج عمر سعيد شكرو، وانقلبت عام ١٣٢٩ إلى حزب سياسي كبير لعب دوراً أساسياً في الحياة السياسية فيما بعد.

٤ ـ الجمعية المحمدية التي أسسها الحاج محمد دحلان عام ١٣٣٠، وتعد أكبر جمعية تعليمية في العالم إذ تشرف على ١٥٠٠ مدرسة و٧٠٠ مستشفى و٣٠٠ دار للأيتام.

٥ ـ جمعية الإرشاد في سورابايا وأسسها أحمد السكرتي عام ١٣٣٠.

٦ ـ جمعية نهضة العلماء، وأسسها هاشم أشعري عام ١٣٤٤، وانقلبت إلى حزب سياسي كان له دوره في الحياة السياسية.

٧ ـ الجمعية العائشية، وهي خاصة بالنساء، وتأسست عام ١٣٣٥، ومركزها مدينة (ميدان) وسط جزيرة سومطرة. واستمر تأسيس الجمعيات بعد انتهاء هذه المرحلة التي نتكلم عنها.

وأما أشهر الأحزاب التي وجدت في هذه المرحلة.

١ ـ **حزب القمصان الخضراء:** وكان يرى التعاون مع السلطات الهولندية للوصول تدريجياً إلى الاستقلال، وكان يدعمه حزب شركة إسلام. واستمعت هولندا إلى مطالبه وهي تأسيس مجلس نيابي يساعد هولندا، ويشاركها في حكم البلاد، وأنشأت بالفعل مجلس الرعية الذي يتألف من ستين عضواً نصفهم من الأندونيسيين وخمسة وعشرون عضواً من الهولنديين وخمسة آخرون يمثلون الأجانب الذين يقيمون في أندونيسيا، وتنتخب السلطات الهولندية رئيس هذا المجلس، وهذا يعني أن أكثرية المجلس إنما تمثل رأي المستعمرين، والمجلس أداة بيد هولندا لذا رفض الشعب هذا التعاون، وانسحب حزب شركة إسلام من تأييد حزب القمصان الخضراء،

كما انسحب أعضاؤه من المجلس النيابي عام ١٣٤٢.

٢ ـ **حزب القمصان الحمراء**: ولا يرى التعاون مع السلطات الهولندية كما لا يرى طريق المفاوضة طريقاً موصلاً إلى الاستقلال، وإنما المقاومة هي الطريق الوحيد للحصول على ما يريده الأندونيسيون. وبدأت الأفكار الشيوعية تتسرب إلى هذا الحزب، لذا ألف مجموعة جديدة من أنصاره وأصحاب الأفكار الشيوعية وعرف هذا الحزب الجديد باسم (شركت رعيت) أي حزب الجماهير.

وفي عام ١٣٣٦ أسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الهولندي بأندونيسيا، وهو فرع من الحزب الاشتراكي بهولندا، وعندما انكشف أمر هذا الحزب عُدّ مستقلاً عام ١٣٣٨، وتحرك باتجاه حزب الجماهير، وتأسس الحزب الشيوعي عام ١٣٣٩، من هذين الحزبين، وارتبط بالمنظمة الشيوعية العالمية، وكان هذا الحزب رغم أفكاره الشيوعية المخالفة لأفكار الهولنديين يلقى كل تأييد من السلطات الاستعمارية ما دام يُضعف الفكر الإسلامي ويبعد المسلمين عن عقيدتهم، وقوي أمر هذا الحزب لهذا السبب: تأييد استعماري وتأييد شيوعي في وقتٍ واحدٍ. واتجه حزب شركة إسلام نحوه أيضاً كي لا ينفرد الشيوعيون بتوجيه أبناء البلاد على زعم أعضاء حزب شركة إسلام يومذاك فزاد الحزب قوةً إلى قوة عام ١٣٤٣.

الفصل الخامس

الفيليبين

بدأ انتشار الإسلام في الفيليبين حوالي عام ٢٧٠ للهجرة عن طريق الدعوة والتجارة، وما أن جاء القرن العاشر إلا وكانت مجموعة من الإمارات الإسلامية في تلك الجزر أكبرها إمارة راجا سليمان التي كان مقرها مكان مدينة مانيلا الحالية، وكان لها نفوذ على أكثر الإمارات والسلطنات الأخرى الموزعة في الجزر. وفي عام ٩٢٧ وصل الصليبي ماجلان قادماً من جهات أميركا، واتفق مع حاكم جزيرة سيبو (هومابون) على أن يدخل حاكم الجزيرة في الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي مقابل أن يكون ملكاً على الجزر كلها تحت التاج الإسباني، ومن جزيرة سيبو انتقل ماجلان ومن معه من الإسبان إلى جزيرة (ماكتان) للتمكين للنصراني الجديد (هومابون)، وكان على جزيرة (ماكتان) حاكم مسلم يدعى (لابو لابو)، ولما علم الإسبان بهذه الحقيقة ثار في نفوسهم الحقد الصليبي الذي حملوه معهم من إسبانيا بل من أوربا كلها، فبدؤوا بارتكاب الأعمال الوحشية إذ طاردوا النساء، وسطوا على طعام السكان فقاومهم الأهالي، فأضرموا النار في أكواخ السكان الآمنين وفرّوا هاربين.

رفض (لابو لابو) الخضوع لماجلان لما رأى فيه من الحقد والتعالي والغطرسة الصليبية، وربما لان له لو رأى فيه شيئاً من الحكمة، وحرّض (لابو لابو) السكان المسلمين في الجزر الأخرى على ماجلان، فاستنفرت النفوس واستعلى الإيمان، إلا أن ماجلان قد غرّته قوته وأسلحته الحديثة، وأراد أن يضرب خصمه ضربةً قويةً يرهب بها بقية الأمراء والسلاطين فذهب

مع فرقة من جنده مزوّدةً بالأسلحة الحديثة لقتال (لابو لابو) وتأديبه ـ على حد زعمه ـ. ولما التقى به طلب منه التسليم قائلاً: «إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد». فأجابه لابو لابو: «إن الدين لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم». ثم هجم على ماجلان وقتله بيده، وشتت شمل فرقته، ورفض تسليم جثته لأتباعه الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا، فوصلوا إلى إسبانيا في شوال عام ٩٢٨.

بعثت إسبانيا أربع حملات متتابعة نزلت على سواحل جزيرة ميندناو الجزيرة الكبرى في الجنوب وحيث يكثر المسلمون فقُتل أفراد هذه الحملات كلهم، وأُطلق على هذه الجزر اسم الفيليبين عام ٩٤٩ باسم أمير النمسا فيليب الذي أصبح فيما بعد ملكاً على إسبانيا. وبعد أن أُبيدت هذه الحملات بدأ الغزو الإسباني الحقيقي للجزر عام ٩٧٣، إذ جاءت حملة كبيرة بقيادة «ميغل لوبيز»، ونزلت في جزيرة سيبو حيث بنت فيها قلعة حصينة، ومن هذه الجزيرة انطلق الإسبان لغزو بقية الجزر، وقد استطاعوا السيطرة على مملكة (راجا سليمان) بعد قتال مرير، وبنوا مدينة مانيلا على أنقاض عاصمة راجا سليمان. كما تمكنوا من إخضاع الجزر الشمالية، وأطلقوا على سكانها المسلمين اسم «المورو»، غير أن الإسبان عجزوا عن إخضاع الجزر الجنوبية، إذ صمد سكانها المسلمون في وجههم صموداً قوياً جعلهم ييأسون من دخول تلك الجزر. وانصرفوا لذلك إلى توطيد سلطانهم في الجزر الشمالية، والتبشير بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي فوافقتهم جماعة وتنصرت، واعتزلت جماعة بعقائدها الوثنية في المناطق النائية، وعاش المسلمون بينهم يخضعون لأربع سلطنات يعمل سكانها في التجارة وصيد البحر.

وحاول الإسبان أن يقوموا بأبشع الجرائم لإرهاب المسلمين، لكن ذلك لم يفت في عضد المسلمين، واستمروا في مقاومتهم، وبقيت

سلطناتهم مستقلةً في الجنوب، وأطلق الإسبان ومن سايرهم على هذه المقاومة اسم قرصنة وقطع الطرق، وفرضت إسبانيا على المناطق التي سيطرت عليها اللغة الإسبانية والديانة النصرانية الكاثوليكية، وهذا ما قوّى الروابط بين المسلمين في الجنوب ودعا إلى الثورة ضد الإسبان في الشمال، وقد اندلعت هذه الثورة عام ١٢٩٠، ثم خبت نيرانها قليلاً إلى أن عادت فتأججت عام ١٣١٤، واضطر الحاكم العام الإسباني إلى أن ينسحب من البلاد إلى هونغ كونغ ريثما يتمكّن من إخماد الثورة، وقد استطاع الإسبان فعلاً إخماد الثورة ولكن بقيت منظمة تعمل في الخفاء وتدير المقاومة وتحركها ضد المستعمرين.

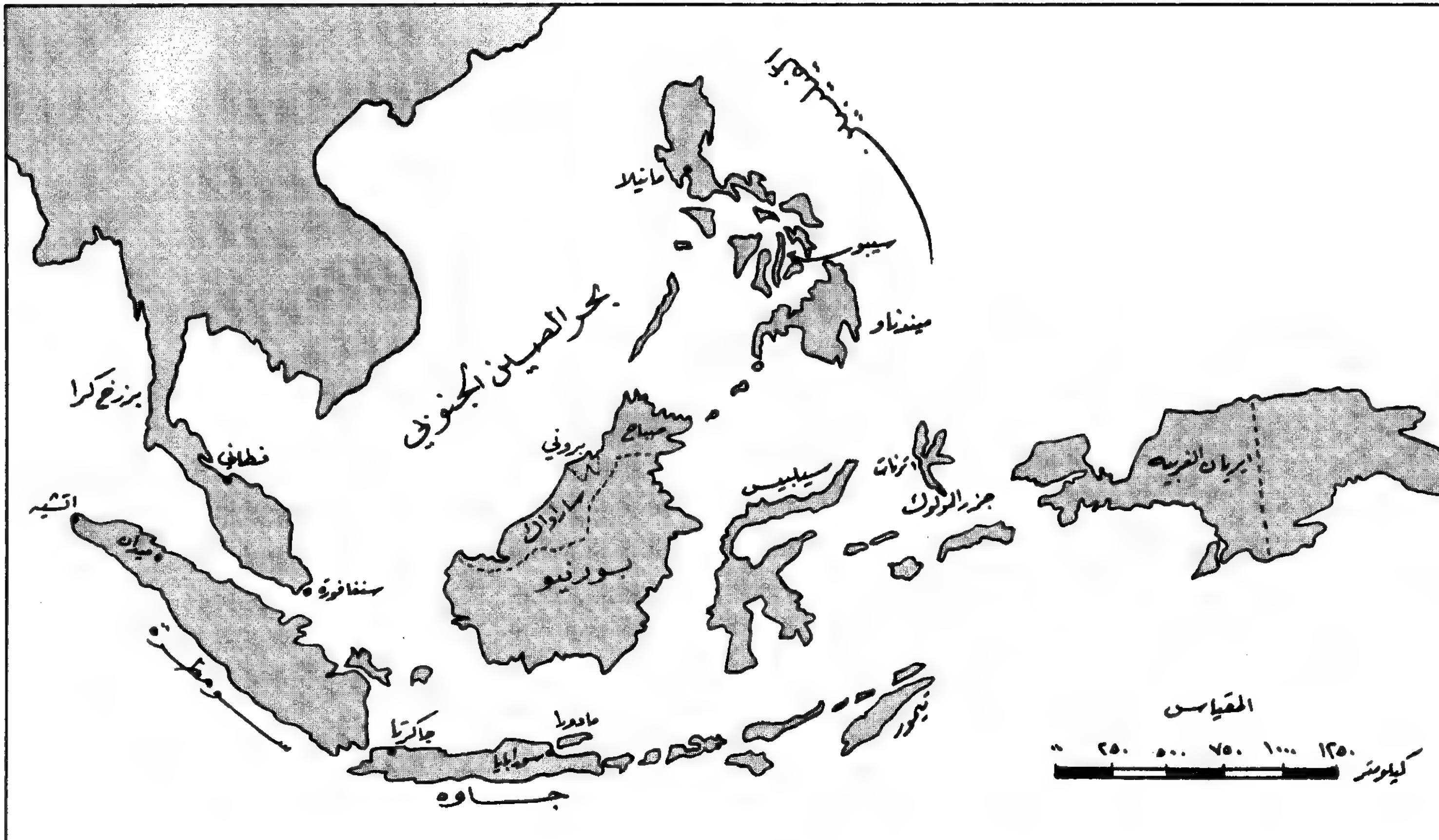
اتصلت الولايات المتحدة مع المنظمة السرية لمساعدتها في طرد الإسبان من البلاد، ولم تكن مساعدة الولايات المتحدة شريفةً وإنما ترغب في أن تحلّ محلّ إسبانيا في استعمارها لتلك الجزر، ولم يدر قادة المنظمة عما يدور في خلد أميركا، وبدأ العمل المشترك عام ١٣١٦، ودُمّر الأسطول الإسباني داخل خليج مانيلا. واتفقت إسبانيا وأميركا سراً على أن تنسحب إسبانيا من الجزر مقابل خمسة ملايين دولار، وانسحبت فعلاً بعد معارك تمثيلية. وعاد الحاكم العام الإسباني من هونغ كونغ وهو الجنرال (غوينالدو) فأعلن استقلال البلاد ورحيل إسبانيا عنها.

كانت أميركا وإسبانيا قد وقعتا معاهدةً في باريس بينهما تخلّت بموجبها إسبانيا عن الفيليبين، وكوبا، وبورتوريكو للولايات المتحدة، وهكذا أصبحت الفيليبين تتبع الولايات المتحدة، وانسحبت إسبانيا من الساحة بعدما تكبّدت خسائر كثيرة.

لم يعترف السكان على معاهدة باريس التي وُقّعت بين إسبانيا والولايات المتحدة، ورفضوا حكم الولايات المتحدة، وقاموا بحركة مقاومةٍ عنيفةٍ ضدها، لكنها تمكنت من القضاء على هذه الحركة عام ١٣١٩، وبسطت نفوذها على الأجزاء الشمالية التي كانت إسبانيا تسيطر عليها، وعدت البلاد إحدى ولاياتها، وإن كانت قد عزلت المناطق الجنوبية عزلاً

تاماً، وأهملتها الأمر الذي أدى إلى زيادة تأخر المسلمين بالنسبة إلى النصارى الذين دعمهم الاستعمار الصليبي سواء أكان في أيام الإسبان أم في عهد الولايات المتحدة. كما أن التعليم كان بإشراف الإرساليات التبشيرية النصرانية، وقد رفضه المسلمون وتبناه النصارى، فتقهقرت الثقافة الإسلامية، وانتشر الجهل بين المسلمين على حين تقدم النصارى.

واستمرت مقاومة المسلمين مدة عشرين سنة (١٣١٩ ـ ١٣٣٩) استسلموا بعدها وقد أصابهم الوهن، وحل بهم الضعف نتيجة الحالة التي حلّت بهم أو وصلوا إليها بسبب الجهل، والفقر، والمرض الذي ينتابهم، وعدم تطور أسلحتهم وإمكاناتهم، وعدم دعمهم من قِبَل المسلمين الذين كانوا في حالةٍ ليست أفضل بكثير من حالة المسلمين في الفيليبين، ونُسي المسلمون في تلك الجزر البعيدة، وانقطعوا عن إخوانهم وخاصةً أن الخلافة قد أُلغيت عام ١٣٤٣، وتفكك المسلمون في أمصارهم، وانصرفوا في كل جهة يئنون تحت وطأة ما حلّ بهم، ويلهثون وراء قضاياهم الخاصة.


جزر الفلبين
مانيلا
سيبو
ميندناو
بحر الصين الجنوبي
برزخ كرا
فطاني
سنغافورة
اتشيه
ميدان
سومطرة
جاكرتا
مادورا
سورابايا
جاوه
بورنيو
صباح
بروني
سراواك
سيليبس
ترناتي
جزر الملوك
إيريان الغربية
تيمور
المقياس
٠ ٢٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠ ١٢٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٥]

الباب الخامس

إفريقـيـة

لم تكن جهات إفريقية المسلمة كلها على درجةٍ واحدةٍ من الأهمية في هذه المرحلة التاريخية. ومن الطبيعي أن تكون المناطق القريبة من مركز العالم الإسلامي أكثر اهتماماً وتتبعاً لأحداثها من قِبَل المسلمين من المناطق الواقعة على الأطراف ما دامت لا توجد ثغور فيها، ولا يقوم أبناؤها بالجهاد ومنازلة أعداء الله.

لقد كانت مصر أكثر بلاد إفريقية أهمية فهي إضافةً إلى كونها قريبة من مركز العالم الإسلامي كانت الطريق الطبيعية إلى باقي جهات إفريقية، وتتجه أنظار المسلمين إليها بصفتها المركز الذي تولّى قتال الصليبيين البرتغاليين سواء أكان أواخر أيام المماليك أم بداية عصر العثمانيين، ولم تقل نظرة الصليبيين إليها لكونها حاملة لواء المواجهة وبصفتها تشرف على الطريق الطبيعية إلى بلاد المشرق حيث ترنو أنظار الأوروبيين لذا حطت على أرضها الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ التي كانت بداية الهزيمة النفسية الكبيرة لدى المسلمين، والشعور بالضعف أمام التقدم الأوربي، إضافةً إلى بقية الآثار السيئة التي خلفتها تلك الحملة. ويجب ألا ننسى دور الأزهر في التعليم، وإقبال الإفريقيين بل والآسيويين نحوه، وما قدّم من جهد لرفع راية الجهاد، وما بذل من تضحيات في سبيل بقاء شعلة الإيمان متوهّجةً في تلك المرحلة التاريخية.

أما بلاد المغرب فقد ضعف شأنها عما كانت عليه سابقاً أيام المرابطين والموحدين، وكلاهما نازل الصليبيين في الأندلس، وكانت في وسط العالم الإسلامي يوم كانت الأندلس على أطرافه، فلما ضاعت

الأندلس، غدت بلاد المغرب متطرفة تشرف على المحيط وليس هناك من ثغور، وإذا كان الصليبيون قد بدؤوا ينازلون موانئ بلاد المغرب على سواحل البحر المتوسط التي أضحت ثغوراً وذلك في سبيل ملاحقة المسلمين بعد طردهم من الأندلس إلا أنها كانت قليلة لاتساع مدى الصوت نتيجة الضعف الذي حلّ بالمسلمين، وانقطاع أخبار بعضهم عن بعض لما لحقهم من هزائم أمام الصليبيين، وإذا كان اتجاه جيوش المغرب نحو وسط إفريقية وغربيها إلا أنها كانت خافتة الصوت لأنها في بقاع مجهولة أو في مجاهل إفريقية، وغدت آذان المسلمين ضعيفة السمع قليلة التأثر بما يقع لإخوانهم.

وإذا كان الإسلام ينتشر في غربي إفريقية في هذه المرحلة إلا أنه بين قبائل كانت مجهولةً من قبل يوم كان الاهتمام أكثر اتساعاً في وسط دائرته فكيف بنا وقد ضاقت تلك الدائرة حتى لم تعد تزد على البقعة التي يعيش فيها الفرد، هذا بالإضافة إلى الناحية الهامشية التي تقع فيها تلك المنطقة بل نستطيع أن نقول: إننا لا نزال نعد تلك المنطقة مجهولة في هذا العصر الذي اتسعت فيه دائرة الإعلام، وتوسّعت فيه المعارف، وزاد نطاق الاهتمام، وظهرت الصحوة الإسلامية نسبياً. ويجب ألا ننسى أن الاستعمار الصليبي كان في هذه المرحلة يتقدّم في غربي إفريقية ويحاول أن يقطع ارتباط غربي إفريقية بإخوانهم المسلمين في بقية الجهات كي لا يتلقّوا أية مساعدات، كما يحرص أن يُبقي سكان المناطق الذين يبسط نفوذه عليهم وعلى بلادهم أن يقبعوا تحت وطأة الفقر، والجهل، والضعف ليركعوا أمامهم... وليستعبدوهم ويستذلّوهم.

وأما شرقي إفريقية فقد تمكّن الصليبيون في بداية هذه المرحلة من قهر المسلمين، والسيطرة على بلادهم، ووضعهم ضمن مناطق نفوذهم، لكن لم يلبث أن عادت للمسلمين بعض القوة، وطردوا الصليبيين البرتغاليين من بعض الجهات، وثبّتوا أقدامهم فيها، فكان لأهل عُمان أجزاء واسعة من شرقي إفريقية بل تقدّموا في داخل القارة، واقتربوا من جهاتها الغربية، غير

أن المسلمين عاد إليهم الضعف، وتجزأت دولة عُمان بين عُمان وشرقي إفريقية واشتد ساعد الصليبيين، واتفقوا فيما بينهم على اقتسام البلدان الإفريقية، وكانت السيطرة الصليبية بصورة عامة.

وفي وسط إفريقية كان التقدم الإسلامي بطيئاً جنوبي الصحراء عن طريق القبائل والإمارات، وما لبث أن اصطدم بالتقدم الصليبي القادم من الجنوب بل ومن الغرب ومن الشرق فحُصر المسلمون، وتوقّف خط مدهم، وسيطر الصليبيون على بلادهم، وعملوا على خنقهم.

وما انتهت هذه المرحلة التاريخية حتى كان المسلمون قد وصلوا إلى حالةٍ من الضعف خطيرةٍ أو استسلموا لأعدائهم الذين تمكّنوا منهم، وبدؤوا يُنفّذون مخططاتهم كما يحلو لهم دون مقاومة، وإذا استطاعت بعض أصوات العلماء أن ترتفع وتُؤيّدها جموع المسلمين إلا أنها لا تلبث أن تُخنق على أيدي الصليبيين أو بأدواتهم التي كانت في كثيرٍ من الأحيان رجالات من المسلمين الذين تبعوا الصليبية فكرياً أو سياسياً أو مصلحة.

الفصل الأول

وادي النيل

كانت منطقة وادي النيل عامةً ومصر خاصةً أهم مناطق العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية لموقعها الجغرافي الذي وُجّهت جهود الصليبيين ضدّه، ولوقوف أبنائها على ثغرة من ثغور الإسلام، ولأطماع بعض الحكام الذين توالوا عليها، ثم ظهور أهمية قناة السويس أو زيادة أثر الموقع بافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٧، الأمر الذي زاد تعلّق الصليبيين بالسيطرة عليها.

١ ـ مصر:

كانت مصر مقر الخلافة العباسية الصورية في العهد السابق ـ العهد المملوكي ـ وكانت من الدول الإسلامية القوية نسبياً آنذاك، إن لم نعدّها أقوى تلك الدول، وقد وقع على عاتقها الوقوف في وجه الصليبيين البرتغاليين الذين جاءوا من الجنوب، وحاولوا اقتحام البحر الأحمر، وبسط النفوذ الصليبي على جنوبي جزيرة العرب وأطرافها مع الخليج العربي، وجاءت طلبات النجدة من المماليك لتلك الجهات، وإلى المسلمين في الهند، وقد أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري حملةً بقيادة حسين الكردي وصلت إلى سواحل الهند، واشتبكت في معارك مع البرتغاليين، وأحرزت النصر في البداية، ثم هُزمت في معركة ديو عام ٩١٥، ورجع حسين الكردي إلى مصر، ثم لم تلبث أطراف الجزيرة العربية أن استغاثت بالمماليك، فسار حسين الكردي ثانيةً إلى المنطقة، وقضى على الدولة

الطاهرية، ودخل اليمن، وترك ولاةً من المماليك عليها ورجع إلى مصر، في هذه الأثناء جاء العثمانيون ودخلوا مصر عام ٩٢٣.

وجدت دولة المماليك نفسها بين عدة دولٍ مسلمةٍ آخذةٍ في النمو والتوسع منها: الدولة العثمانية في الأناضول ودولة الصفويين في فارس ومنطقة الجبال، كما وجد المماليك أنفسهم أمام التحدي الصليبي البرتغالي القادم من الجنوب، لذا رأوا أن عليهم الوقوف في وجه هذا التحدي كواجب إسلامي، وهذا ما يمنعهم في الوقت نفسه من عدم الدخول في نزاعات مع الدول الإسلامية الأخرى، غير أن الظروف قد تفرض عليهم ما لم يرغبوه بل ما لم يتوقعوه.

لقد دخل الصفويون في نزاع مع العثمانيين، ولربما كان للعقيدة أثر في هذا النزاع، وهذا ما ألزم العثمانيين على ترك ساحات القتال في أوروبا في الغرب والتوجه إلى جهات الشرق لمنازلة الصفويين، وقد تمكّنوا من الانتصار عليهم ودخول عاصمتهم تبريز عام ٩٢٠، فاتجه الصفويون يفتشون عن حلفاء لهم ضد العثمانيين، فاتصلوا مع المماليك الذين كانت سياستهم تفرض عليهم عدم الدخول في نزاعات ولذا فلم يُبدوا التأييد لهم وموافقتهم، وفي الوقت نفسه لم يُظهروا الرفض بل الردع وخاصةً أنهم يلتقون مع العثمانيين في أنهم من أهل السنة والجماعة على حين يختلفون مع الصفويين الذين يظهرون التطرّف في التشيّع، وهذا ما أغضب العثمانيين. كما اتجه الصفويون نحو البرتغاليين أعداء الإسلام ليؤلّفوا معهم جبهةً ضد العثمانيين، وهذا ما أقضّ مضاجع العثمانيين، وقرّروا ضرب البرتغاليين قبل أن يشتد ساعدهم ويجدوا الدعم من الصفويين.

أما الدولة العثمانية فقد كانت تحارب في أوربا وتتقدّم في أراضيها وترغب في تخفيف الضغط النصراني عن مسلمي الأندلس ما دامت لا تستطيع مساعدتهم بحراً لعدم إمكاناتها يومذاك أو لضعف إمكاناتها البحرية في تلك المرحلة فلما سقطت الأندلس بيد النصارى الذين أرادوا متابعة المسلمين في المغرب وشمالي إفريقية عامةً بل محاولة تطويقهم من كل

جهة، وهم في سبيل هذا الهدف قد تمكّنوا من الالتفاف حول إفريقية والخروج على المسلمين من جهة الجنوب لذا رأت الدولة العثمانية أن من واجباتها الإسلامية التصدي لهذا الغزو الصليبي وخاصةً أن دولة المماليك لم تتمكن من التصدي لهذا الغزو بل هزمت في معركة ديو عام ٩١٤، فلما طلبت من المماليك السماح لها باجتياز أراضيها للوقوف في وجه البرتغاليين رفض المماليك ذلك، خوفاً من احتلال أراضيهم حيث كان المماليك يرون في الدولة العثمانية رغبةً في التوسع، أو هكذا أوهمهم الصفويون هذا بالإضافة إلى الخلافات التي كانت قائمة بين العثمانيين والمماليك حول إمارة ذي القادر الواقعة بين الدولتين. لذا فما كان من العثمانيين إلا أن دخلوا بلاد المماليك، وانتصروا عليهم في حلب عام ٩٢٢، ثم في مصر عام ٩٢٣، وقضوا على دولتهم في ذلك العام.

قضى العثمانيون على الخلافة العباسية في مصر، وأصبحت عاصمتهم إستانبول مركز الخلافة الجديد، كما أصبح سلطانهم خليفة المسلمين، ولكنهم مع هذا أبقوا ولاية مصر للمماليك، وفي الوقت نفسه أبقوا مصر قاعدة للتصدي ضد الغزو الصليبي البرتغالي، واستمروا في إرسال الحملات من السويس في مصر لقتال البرتغاليين، وقد سار والي مصر سليمان باشا إلى سواحل بلاد الهند، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، ثم اختلف مع حاكم كوجرات فاضطر إلى العودة إلى مصر، وبقيت مصر تقوم بهذا الدور مدة أيام السلطان العثماني سليمان القانوني، واستمرت الدولة العثمانية بعد ذلك تساعد وتساند اليعاربة حكام عُمان الذين حملوا لواء قتال البرتغاليين، وفي أحيان كثيرة تحالف الدول النصرانية المنافسة للبرتغاليين في سبيل القضاء على البرتغاليين أو للتخلّص من المستعمرين الصليبيين الواحد بعد الآخر بمساعدة منافسيه، أو تستفيد من خلافاتهم لتحقق ما تريد، وكان اليعاربة يشتركون أيضاً في هذه الأحلاف ضد البرتغاليين.

ومنذ مطلع القرن الحادي عشر بدأ الإنكليز يصلون إلى الهند للتجارة، وكان وصولهم إلى الهند عن طريق مصر بشكل طبيعي، ولكن لم

يتعد الممر في مصر أمر التجارة أبداً حيث كانت هيبة الدولة العثمانية لا تزال قائمة نسبياً هذا بالإضافة إلى الاتفاقات الجانبية لقتال البرتغاليين وهذا كله كان يُسهّل للإنكليز أمر مرورهم من مصر. وتتمنّى إنكلترا أن تسنح لها الفرصة ببسط نفوذها على مصر، أو تحرص أشد الحرص على ذلك لكن تخشى قوة العثمانيين التي كانت لا تزال قائمة، وإن بدأ خطها البياني بالنزول تدريجياً وهبوطه من مستواه الذي كان عليه أيام قوة الدولة وازدهارها.

أما المماليك الذين كانوا حكام مصر من قبل، ومديرين لمقاطعاتها من قبل ولاة الخلفاء العثمانيين فيما بعد فقد ساسوا البلاد بشكل طبيعي، ولم يطمعوا بأكثر مما أعطوا، وشعب مصر شعب مسالم يخضع لأي حاكم، ويقبل أي سلطان، ويُمجّد كل من يتولّى أمره مهما كانت صفته وعلى أية حالٍ كان وضعه لذا فالأمور هادئة، واستمرت الأحوال على هذه الصورة مدة قوة الدولة العثمانية وفرض هيبتها على البلاد.

حركة علي بك الكبير:

فلما ضعفت الدولة العثمانية زادت سلطة المماليك، وأصبحوا هم الولاة بعد أن كانوا مديرين للمقاطعات، وتولّى ولاية مصر يومذاك علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وقد حدثته نفسه الطماعة بالاستقلال، وقد رأى ضعف الدولة وانشغالها بالحروب ضد الصليبيين الذين يريدون اقتسام أراضيها وإماتة عقيدتها، وقد وجد هذا الوالي التشجيع والدعم من قبل روسيا التي كانت بحربٍ مع الدولة العثمانية فأعلن استقلاله عام ١١٨٢، وتقدّم نحو الشمال ليحارب جنود الدولة فتضطر إلى تخفيف الضغط على الروس، وبسط نفوذه على الحجاز، واتصل بثائرٍ مثله كان والده جابياً للضرائب في ولاية عكا، وعمل هو مع قطاع الطرق، ثم أعلن تمرده ذلك هو ضاهر العمر صاحب عكا، واتفقا معاً على محاربة العثمانيين لإحراجهم في ساعة شدتهم مع الروس، والتقى

جيشا المتمردين وبدؤوا بحرب العثمانيين، غير أن محمد أبي الذهب قائد علي بك الكبير ومملوكه قد شعر بخطر ما يقومون به من ناحية إسلامية فاتصل بسيده ونبّهه على سوء ما يفعلون فجاءته الأوامر بضرورة متابعة القتال، فلما رأى ذلك، وهو مقتنع بإثم ما يفعلون، قرر أن يعود إلى مصر بمن معه من الجند، وأن يقتل سيده، وأن يدير شؤون مصر بنفسه، فقدّر العثمانيون عمله، وأعطوه ولاية مصر عام ١١٨٧، ولم تجد أساطيل روسيا التي وصلت إلى البحر المتوسط بالقضاء على علي بك الكبير ضعف أمر ضاهر العمر، إذ حوصر في عكا، وقضي عليه عام ١١٨٩. وأصبح المماليك ولاة لمصر منذ أيام علي بك الكبير حتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣.

هذه الحركة، حركة علي بك الكبير أظهرت ضعف الدولة العثمانية وأبدت عوراتها الداخلية أكثر مما سبقها من حركات تمرّد، وأطمعت الدول الأجنبية في مصر، وخاصةً إنكلترا وفرنسا المتنافستين على مناطق النفوذ، والمتحاربتين في سبيل السيطرة والاستعمار، وإن كانت تجمع بينهما الروح الصليبية، ولكن ليس هناك من مسلمين يقاومونهما أو يقفون في وجهيهما لذا كان تنافسهما حاداً، ولو وجد من المسلمين من هو عدو لهما لاتفقتا حتى تزيلاه. أما إنكلترا فكانت طريق مصر إلى الهند ميسرة لها، ولا تحتاج أكثر من ذلك، إذ لو فكرت ببسط سيطرتها عليها لوجدت العراقيل وربما سدت هذه الطريق في وجهها نتيجة حدوث بعض المضاعفات لذا فهي راضية بما تجنيه من الهند عن طريق مصر، أما فرنسا فقد رأت أن تقطع طريق الهند عن إنكلترا بالسيطرة على مصر، وإذا تمكّنت من ذلك أجبرت إنكلترا على الرضوخ لمطالب فرنسا، وإعادة بعض ما فقدته فرنسا في حروبها مع إنكلترا، بل وأجزاء أخرى فوقها، هذا إضافةً إلى أن فرنسا قد انتصرت على الدول الأوروبية التي تحالفت ضدها باستثناء إنكلترا وليس هناك من مجال لإجبارها على الصلح إلا بقطع طريق الهند عنها، هذا ويجب ألا ننسى أن حكومة الثورة في فرنسا تريد أن تحصل على بعض

الدعاية لها في داخل البلاد بعد الأحداث الدامية التي مرت بها نتيجة الثورة والفوضى الإدارية التي أعقبتها، وتسلّط الأراذل من الناس باسم الثورة والتحرر، ولا تكون الدعاية إلا ببعض تحقيق النصر الخارجي وتوجيه الناس إلى ذلك النصر، ومتابعة تحركات الجيش، وربما قيل إن حكومة الثورة رغبت في إبعاد نابليون بونابرت عن أحداث البلاد الداخلية بعد أن لمع نجمه بالانتصارات التي حققها على إيطاليا وغيرها، أو قرنت هذه الانتصارات باسمه، فأصبحت تخشاه، كما لم تستطع أن تقف أمام تصرفاته الشاذة وتعدياته أحياناً، فالطريقة المثلى تكليفه بحملة إلى مصر تحقق سياسة البلاد العامة وأهدافها، وسياسة الحكومة في الداخل.

الحملة الفرنسية على مصر:

انطلقت الحملة الفرنسية من طولون عام ١٢١٢ في شهر ذي القعدة، وتتألف من أربعين ألف جندي، وسارت في طريق ملتوية كي لا تصطدم بالأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط والتي لا تستطيع مقاومته، ووصلت بعد شهرين من انطلاقها إلى مدينة الإسكندرية إذ مرت على جزيرة مالطة واحتلتها، ومنها إلى كريت فمصر، فرست سفنها في خليج أبي قير، وتمكّنت من احتلال مدينة الإسكندرية، وتابعت سيرها نحو القاهرة، فاستولت على دمنهور، والرحمانية، ورشيد ثم توجهت إلى القاهرة، وجرت معركة فاصلة بين المماليك بقيادة مراد بك وبين الفرنسيين بالقرب من الأهرام، وعُرفت باسم معركة (أمبابة)، وتقهقر المماليك بعدها نحو الصعيد، ودخل الفرنسيون القاهرة، وغادر الوالي العثماني البلاد، ولم يستطع نابليون إقناعه بالبقاء، ووزع نابليون منشوراً باللغة العربية على السكان، كله تزلف فأظهر أنه جاء بأمر السلطان، لإنقاذ السكان من ظلم المماليك، وأنه مسلم يحترم القرآن الكريم، وكذلك يحترمه الفرنسيون، ولكن ذلك لم يفده شيئاً، وبدأ يلاحق المماليك في الصعيد كلما سمع خبراً باجتماعهم أو استعدادهم للهجوم على القاهرة، أو تحريض السكان على ذلك.

اتخذ نابليون في بداية أمره سياسة التقرب من السكان في محاولة لكسب ودّهم، فشارك في الاحتفالات، وادعى أنه سيعمل لنشر الإسلام بين الفرنسيين، وقرّب إليه العلماء، وكلفهم باختيار أعضاء الديوان الذي سيعمل على مساعدة الحاكم العسكري، والمشاركة في الحكم، وقد تمّ تأليف هذا الديوان بالاتفاق مع العلماء، وشاركوا فيه، لكنهم لم يلبثوا أن اختلفوا معه بشأن الضرائب، وفتح حانات الخمر، والمجاهرة بالمعاصي، وقطع رواتب الأوقاف للفقراء، ومصادرة الدور والمنازل، فالفرنسيون يريدون زيادة الضرائب لإمكانية الاعتماد على موارد مصر إذ أن الأسطول الإنكليزي بقيادة نلسون قد دمّر الأسطول الفرنسي في أبي قير، ثم حاصر السواحل المصرية، فأصبح الفرنسيون محاصرين سياسياً لا يمكنهم الاتصال بفرنسا، ومحاصرين اقتصادياً فيجب الاعتماد على ما تقدّمه مصر من خيرات ومن الضرورة جمع الضرائب لدفع رواتب الجند، فتضايق السكان من شدة وطأة الضرائب، ومما ارتكبه الفرنسيون من مخالفات للإسلام، فكان أن قامت ثورة القاهرة الأولى منطلقةً من الأزهر، ثم عمّت المدينة، وقام السكان على مراكز الفرنسيين، وقتلوا من فيها، ولم يتمكن بونابرت من إخماد الثورة إلا بعد قصفها بالمدفعية، واستعمال أشد أنواع القسوة، وبعد دخول المدينة غيّر نابليون سياسته فاتخذ سياسة العنف، وألغى الديوان الذي أنشأه من العلماء، وألّف ديواناً ضم النصارى، والجاليات النصرانية المقيمة بمصر.

ولم يتمكّن نابليون من إقناع الدولة العثمانية بأن مجيئه إنما كان للتخلّص من المماليك فقط الذين كانوا يتعاونون مع الإنكليز فيسهّلون لهم الطريق إلى الهند، وعندما تحطّم الأسطول الفرنسي، وأيقنت الدولة العثمانية بانقطاع الحملة عن فرنسا تشجّعت للقتال، واتفقت مع إنكلترا، وراسلت المماليك، وأرسلت حملةً بريةً، وأخرى بحرية تنتقل على سفن إنكليزية، ثم انضمّت روسيا إلى هذا الاتفاق ضد فرنسا. وأخذ نابليون يستعدّ لملاقاة الحملة العثمانية.

الحملة الفرنسية على الشام:

رأى نابليون أن يلتقي مع الحملة العثمانية البرية خارج حدود مصر كي لا ينضم الشعب المصري إلى الحملة فيما إذا وصلت إلى مصر، أو يؤيّدها ويقوم بالثورة، كما أنه فيما إذا سار إلى بلاد الشام وضمها إلى نفوذه فإنما يحصل على زيادة في الموارد، وفي الوقت نفسه يمنع السفن الإنكليزية من التزوّد من الموانئ الشامية، ويجب ألا ننسى الحقد الصليبي، وذكريات الحروب الصليبية التي جرت من أجل الحصول على بيت المقدس، وها هي القدس قد أصبحت على مقربة منه فإن احتلها لقي تأييداً ودعماً من القوى الصليبية ومن عامة النصارى لذا فقد انطلق بحملة إلى بلاد الشام، فاحتل العريش، وغزة، ثم تقدّم إلى يافا فحاصرها واضطرت حاميتها إلى الاستسلام فلما أصبحت في قبضته أعدم رجالها الأربعة آلاف بحجة أنه لا يستطيع أن يطعمهم، والواقع أن تلك المجزرة الوحشية لم تكن إلا بدافع صليبي، ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى عكا فحاصرها، وكان واليها أحمد باشا الجزار قد حصّنها، واستمات سكانها في الدفاع عنها، وأمدهم قائد الأسطول الإنكليزي سدني سميث وهو الذي خلف نلسون في قيادة الأسطول. وجاء والي دمشق على رأس حملةٍ مؤلفةٍ من خمسة وعشرين ألف جندي لدعم عكا، وأسرع نابليون للقائه فاصطدم به عند جبل طابور قرب الناصرة فهزمه فعاد والي دمشق القهقهرى، ورجع نابليون يتابع حصار عكا.

كان نابليون بونابرت يتوقع أنه ينضمّ إليه بشير الشهابي حاكم جبل لبنان لأنه يخالف الدولة العثمانية في العقيدة حيث كان درزياً، غير أن الشهابي تلكأ في هذا الانضمام إذ كان يتريث حتى يرى رجحان كفة بونابرت، وعندها ينضم إليه، أما وهو لا يزال يحاصر عكا فلا يمكنه أن يغامر ويقف إلى جانبه، لهذا قرر نابليون الانسحاب من بلاد الشام وفك الحصار عن عكا، وخاصة أن الطاعون قد بدأ يتفشّى في جنده، ولكنه كان يحسب ألف حساب لعودته إلى مصر ذليلاً لم يحقق شيئاً مما كان يرنو إليه ببصره، لذا فقد أصدر تعليماته إلى نائبه في القاهرة لإشاعة الدعايات بأن

بونابرت قد دخل عكا، وهدّم أسوارها، وأن الجزار قد استسلم له لذا فقد تركه والياً من قبله على ما كان عليه. كما طلب منه أن يقيم الاحتفالات وأقواس النصر ابتهاجاً بما حققه الفرنسيون من انتصارات في بلاد الشام، كل ذلك في سبيل إخفاء الهزيمة التي مُنِيَ بها عند أسوار عكا.

وصل نابليون إلى مصر واستقبل بالأفراح والاحتفالات من قبل الفرنسيين الذين بقوا لحماية البلاد، ولكنه في هذه الأثناء قد وصلت إلى الساحل المصري الشمالي الحملة العثمانية البحرية المنقولة على سفن إنكليزية، ونزلت في أبي قير فأسرع نابليون لمباغتتها كعادته، وجرى القتال أسبوعاً كاملاً بين الطرفين انتهى بانتصار الفرنسيين وهزيمة العثمانيين الذين وقع قائدهم مصطفى باشا أسيراً بيد الفرنسيين.

وصلت إلى نابليون أنباء مفادها أن حكومة الثورة الفرنسية في وضعٍ حرجٍ داخلياً ووضعٍ صعبٍ خارجياً إذ تشكل حلف أوربي ضدها، فتحرّكتْ أطماعه، وأصبح يُفسّر كل شيء من خلال تلك الأطماع، حيث رأى أن الحملة لم تعد لها من جدوى ولم تستطع أن تحقق أي شيء من أهدافها، وأن وجوده في مصر ليس بذي فائدة، وأن فرنسا بحاجةٍ إليه في هذه الظروف الراهنة، والواقع أنه كان يحلم بحكم فرنسا، وقد وجد أن الفرصة مناسبة له لذا قرر مغادرة مصر والتوجّه بسرعةٍ إلى فرنسا، فسلّم قيادة الحملة إلى كليبر، وتحرّك إلى فرنسا، تحت نظر الإنكليز، متجاهلين له، وهو يدري أو لا يدري المهم عنده تحقيق أطماعه التي تطغى على كل شيء.

وجد كليبر أنه لا فائدة من بقاء الحملة، فصاحب الرأي فيها والمتحمس لها قد تركها، وحكومته لا تستطيع إرسال نجدات لها، والعثمانيون على أبواب مصر يستعدّون لدخولها، لذا فقد استأذن حكومته للمفاوضة مع الدولة العثمانية فسمحت له بذلك، وأجرى اتفاقاً في مدينة العريش عام ١٢١٥ يقضي بأن يتجمّع الفرنسيون على الساحل، ثم ينسحبون من مصر إلى فرنسا على سفنٍ إنكليزيةٍ، وبدأ كل طرف يعمل من جانبه لتنفيذ اتفاقية العريش، غير أن قائد الأسطول الإنكليزي أخبر كليبر أن إنكلترا لا توافق على اتفاقية

العريش إلا بشرط أن يُعدّ الفرنسيون في مصر أسرى حرب يسلمون سلاحهم، ويتركون معداتهم في مصر للدولة العثمانية وحلفائها، وبذا فقد نُقضت اتفاقية العريش، وجدّدت أعمال القتال فأسرع كليبر لملاقاة جيش الصدر الأعظم الذي كان قد اقترب من القاهرة فهزمه، وطارده إلى ما وراء الحدود.

انتهز سكان القاهرة خروج كليبر من مدينتهم لقتال العثمانيين، وقاموا بثورتهم الثانية، وكان قد دخل العاصمة المصرية ستة آلاف من العثمانيين والمماليك، وتزعم هذه الثورة نقيب الأشراف عمر مكرم، وعاد كليبر من قتاله فقصف القاهرة بالمدفعية، وأجبر أهلها على طلب المفاوضة، فسار إليه بعض العلماء، واتفقوا معه على وقف القصف مقابل إخراج الذين دخلوا القاهرة من العثمانيين والمماليك، ودفع ضريبة باهظة.... وعاد كليبر إلى التفكير بالبقاء على مصر إذ ليس له من طريق أخرى يسلكها فبدأ يُنظّم الأمور، وبينما هو كذلك إذ طعنه سليمان الحلبي طعنة أردته قتيلاً، وتسلّم قيادة الحملة عبد الله مينو بصفته أقدم ضباط الحملة، ولكنه كان يختلف عنهم فهو ضابط إدارة أولاً، ويرغب في البقاء في مصر على حين أن غيره لا يكادون يُصدّقون وقت الرحيل لانقطاعهم عن ذويهم ما يزيد على ثلاثة أعوام، وعلمهم بانقطاع الصلة مع فرنسا فكأنهم قد أصبحوا في سجن، وفوق كل هذا فقد أصبح يخالفهم في العقيدة إذ أسلم وتزوج بامرأةٍ مصريةٍ مسلمةٍ وطاب له الجو في مصر وأحبّ الاستقرار والإقامة فيه، هذا الاختلاف بين القائد وباقي أفراد الحملة زاده اتساعاً اقتراب الجيوش العثمانية من مصر لطرد الحملة، ودعم الإنكليز لهم بل أعدت إنكلترا قوة بحرية لمهاجمة مصر عن طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط...

جلاء الفرنسيين عن مصر:

نزلت القوة البحرية الإنكليزية في أبي قير، واتجهت نحو القاهرة، ونزلت قوة عثمانية بحرية في رشيد، وسلكت طريق نهر النيل، والتقت مع القوة الإنكليزية في بلدة الرحمانية، وبذا أصبح عبد الله مينو الذي ذهب إلى

الإسكندرية للدفاع عنها منقطعاً عن قواعده في القاهرة. واقترب الصدر الأعظم القادم على رأس جيش بري عثماني من القاهرة فاضطر نائب مينو على القاهرة في طلب الصلح، واستسلمت القاهرة بشرط أن ينقل الجنود الفرنسيون فيها إلى فرنسا على سفن إنكليزية. ثم وصلت قوة من الهند كدعم للقوة الإنكليزية في مصر فألقت الحصار عندها على مينو في الإسكندرية وأُجبر على توقيع المعاهدة بالشروط نفسها التي وقعها نائبه في القاهرة وذلك عام ١٢١٦، وجلت الحملة عن مصر، ونقل أفرادها إلى فرنسا.

لقد كان لهذه الحملة الفرنسية أسوأ الأثر على مصر خاصة وعلى البلدان المحيطة بها عامة، ونستطيع أن نعدّ هذه الحملة بدءاً للهزيمة النفسية المسلمة في مصر، وبدءاً لمرحلة معرفة أوربا لضعف الدولة العثمانية وهذا ما شجّع الصليبية على دفع عجلة الهجوم النصراني على العالم الإسلامي. لقد شعر المسلمون في مصر أنهم متخلّفون جداً عن ركب الحضارة المتطور بعد أن لاحظوا التقدم الفرنسي من الناحية العلمية والتنظيمية فهزموا أمامه عسكرياً، وهزموا معه نفسياً.

لقد بدأت المفاسد تستشري في جسم الأمة نتيجة التصرّفات التي قام بها الفرنسيون من مفاسد خلقية واجتماعية ومعاقرة للخمرة جهاراً، وهم أصحاب الحضارة وهذا ما شجّع بعض السابقين في الهزيمة النفسية إلى الدعوة لتقليدهم والسير على خطاهم... وحدث تغيّر في العادات والأفكار.

لقد دخلت الطباعة والآلة إلى مصر، ودرست المنطقة، وقرئت اللغة الهروغليفية على حجر في مدينة رشيد بمقارنتها مع اللغة اليونانية. ونبهت الحملة هذه إنكلترا إلى أهمية مصر بالنسبة لها، ولموقعها بالنسبة إلى العالم كله.

الخلاف على حكم مصر بعد الحملة الفرنسية:

مصر جزء من الدولة العثمانية التي بذلت جهدها في طرد الفرنسيين من أراضيها، وهي صاحبة الحق في تعيين من تراه والياً على هذه الرقعة

من بلادها، وقد عينت رجلاً يُدعى خسرو باشا. غير أن المماليك يرون غير هذا إذ يعتقدون أحقيتهم في تسلّم أمر الولاية، وإن لم ينازعوا الدولة العثمانية على سلطانها، لكن من واجب الدولة تسليمهم منصب الولاة لما بذلوه من جهد في مقاومة الحملة عند قدومها، وعند وجودها على أرض مصر، لذا كانوا غير راضين على تعيين خسرو باشا. ويرى العلماء أن من واجب الدولة أخذ رأيهم في تعيين الوالي، وقد قادوا المظاهرات ضد الفرنسيين، وتزعّموا المقاومة، والتفّ حولهم الشعب، ولذا لم يكونوا راضين أيضاً على تعيين خسرو باشا ما دام قد تمّ دون رأيهم.

أما إنكلترا فكانت تريد البقاء في المنطقة التي دخلتها قرب الإسكندرية لحماية طريقها للهند، وللحفاظ على مصر من تهديدات الدول الأخرى وخاصةً فرنسا المنافسة الأوربية لها، فتهديد مصر ثانيةً إضاعة للهند إلى الأبد، وإذا سلم الطريق في هذه المرة فقد لا يسلم في مرة أخرى، وحاول الإنكليز أن يجدوا لهم سنداً، فتقربوا من المماليك الناقمين على تعيين خسرو باشا، وشجعوهم على المطالبة بحكم الولاية.

تضايق العثمانيون من التقارب الإنكليزي المملوكي إذ أن الإنكليز صليبيون قبل كل شيء وإذا كانوا قد دعموا العثمانيين في طرد الفرنسيين إلا أن ذلك قد كان لمصلحتهم لا لمصلحة العثمانيين، ولا حرصاً على أرض مصر. لذا فقد أعطوا أوامرهم للوالي الجديد خسرو باشا بالضغط على المماليك، ولكنهم لم يدعموه مادياً فتأخر في دفع الرواتب، وثار عليه الجند وخاصةً الفرقة الألبانية التي يقودها طاهر باشا، واضطر خسرو باشا إلى مغادرة مصر عن طريق دمياط. واتفق العلماء على تعيين طاهر باشا والياً مؤقتاً على مصر ريثما تأتي موافقة السلطان العثماني. وفي الوقت نفسه فقد سعى العلماء للمصالحة بين المماليك المتمركزين في الصعيد وبين طاهر باشا حتى تستقر الأوضاع، وتتحسّن الأحوال المعاشية بعودة الناس إلى أعمالها، وبذا أصبح العلماء سادة البلاد فعلاً يرضى بهم الوالي، والمماليك، إضافة إلى الشعب الذي يسير وراءهم.

تضايقت الفرقة الإنكشارية إذ وجدت نفسها ضائعة وسط المجتمع الذي بدا عليه التكاتف، وتأثرت من الألبان الذين ثاروا على الوالي، ولعب الطيش دوره إذ قام بعض الضباط الشباب أصحاب الأطماع، وقتلوا قائد الفرقة الألبانية طاهر باشا الذي يتسلّم الولاية، وعيّنوا مكانه أحمد باشا والي المدينة الذي كان يومذاك عرضاً في القاهرة.

أراد أحمد باشا أن يتقرب من العلماء أصحاب النفوذ في أوساط الشعب غير أن العلماء قد ساءهم تصرّف الإنكشاريين، ورغبوا في تعيين وكيله في الفرقة الألبانية وهو محمد علي باشا الذي دعمه العلماء، واتفق مع المماليك، وطرد الفرقة الإنكشارية، والوالي أحمد باشا من مصر عام ١٢١٨.

محمد علي باشا:

أصبح محمد علي قائد الجند في مصر أو الحامية العثمانية على حين أوكل للمماليك جباية الضرائب وتنظيم أمور البلاد الداخلية، ودعم العلماء هذا التفاهم، غير أن البلاد كانت قد خرجت من ظروف عصيبة جداً، والأوضاع الداخلية والاقتصادية متدهورة وتحتاج إلى أموال، وليس من مكان تأتيه منه الأموال إلا الشعب، ففرض المسؤولون عن الجباية وهم المماليك الضرائب، ولم يكن الشعب يتحمل ذلك للظروف التي مرت به فثار على المماليك، واتجهت المظاهرات إلى الأزهر، ليعمل العلماء على إزالة الضرائب عن كاهله. وهنا انقلب محمد علي على المماليك، وأنزل قواته إلى الشوارع مؤيدةً الشعب ففر المماليك إلى الصعيد، وأصبح محمد علي زعيماً من قبل الشعب إذ أعلن أنه ضد الظلم، وضد الاستبداد الذي يريد أن يفرضه المماليك، وبدأ يخطط لاستلام ولاية مصر.

كان محمد علي ذكياً ذا إمكاناتٍ كبيرة، وقد نجح في كل عمل تسلّمه، عمل في تجارة الدخان فربح، واشتغل بجمع المال من الفلاحين فحمد له عمله، وعُيّن ضابطاً في الحملة العثمانية التي جاءت إلى مصر

لإخراج الفرنسيين منها فأظهر قدرةً حربيةً. وكان ذا أطماع طويلة واسعة يخطط لكل مشروع قبل أن يبدأ به وغالباً ما يحالفه النجاح، يعرف ضرب الفرقاء بعضهم ببعض، والانحياز إلى جانب الفريق الأقوى، واستغلال الأشخاص والرمي بهم بعد تحقيق ما يريد، واتهامهم للتخلص منهم، وقد وجدنا كيف سلّم الجباية للمماليك فأوقعهم في الفخ، واتفق معهم حتى إذا تمّ له ما يريد ورأى نقمة الشعب عليهم انقلب ضدهم و... وهذه طريقته نراها في كل تصرّفاته...

كان محمد علي يرى السير بخطى واسعة لتقليد أوربا والمشي على خطاها ومنهجها في الحياة ضارباً عرض الحائط بالفكر الإسلامي، والأعراف الإسلامية، والمُحرّمات وكل شيء يمت إلى تراثه، لذا كانت أوربا راضيةً عن سلوكه وتصرفاته وصامتةً عن تحركاته وتوسعه بل كانت تشجعه أحياناً لينشر رأيه، وذلك كي يتقبل الناس الحياة الأوربية على ما فيها، ويبتعدون بذلك عن عقيدتهم.

وكان محمد علي من الناحية السياسية يميل إلى السياسة الفرنسية فيعمل بخطٍ موازٍ لها، وتدعمه ما دامت تجد في ذلك مصلحةً لها، فإن رأت مصلحتها تتعرّض لشيء أظهرت الحياد، ووقفت لا تُبدي رأياً، ولا ترى الدول النصرانية عامةً خطراً في سياسة محمد علي ما دام لا يقف عائقاً ضد الصليبية أو يرفع راية المقاومة ضدها، بل تعدّه ممهداً السبيل لها بدعوته السير على النهج الأوربي وعدم التمسك بالفكر الإسلامي فإن ذلك يبعد المسلمين عن عقيدتهم وهذا ما تسعى له الدول النصرانية، ولكن عندما خشيته في أن يدبّ الروح في جسم دولةٍ جديدةٍ تقوم مقام الدولة العثمانية أو تخلفها وقفت ضده، وحدّت من أطماعه، وأعادته إلى حجمه الأول الذي بدأ به.

ولاية محمد علي على مصر:

عيّنت الدولة العثمانية خورشيد باشا حاكم الإسكندرية والياً على مصر، بعد أن رأت شغب الفرقة الألبانية، وتبيّنت أطماع محمد علي،

وعمل خورشيد باشا كامل جهده ليتخلص من محمد علي وجنده، وصدر أمر السلطان بإخراج الفرقة الألبانية من مصر، غير أن الشعب قد احتجّ على ذلك، واضطرت الدولة أن تسكت عن تنفيذ أوامرها إلا أن الشقة قد بعدت بين الوالي ومن معه من الحامية من جهة وبين الشعب ومن يمثّله من العلماء من جهة أخرى، وتكفي حادثة بسيطة لإشعال النار بين الطرفين، ورأى السكان أن مطالبة الوالي لهم بدفع الضرائب المترتبة عليهم أمراً عظيماً فثاروا على تلك المطالبة، وحدثت الفتن، واضطر الوالي خورشيد باشا إلى مغادرة البلاد، ولم يُبدِ محمد علي في هذه الأحداث أي تصرّف خوفاً من السلطان، وكي يصل إلى ما يطمع دون إثارة زوبعة قد تبعده عما يصبو إليه، وبذا بقيت مصر دون والٍ، ورأى العلماء أن الدولة تتجاهلهم في كثير من الأحيان لذا قرروا المبادرة بعد أن رأوا في محمد علي الكفاءة في تسلّم أمر الولاية فساروا إليه وألبسه عمر مكرم نقيب الأشراف وعبد الله الشرقاوي لباس الولاية، وأخذوا عليه عهداً بألا يفعل شيئاً دون الرجوع إليهم. وأصدر السلطان أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر عام ١٢٢٠، وأصبحت ولاية محمد علي قويةً تعتمد على ركائز متينة هي العلماء الذين يلتفّ الشعب حولهم، فكان يستشيرهم حتى تترسخ أقدامه في السلطة.

أما إنكلترا فقد اضطرت إلى الجلاء عن مصر عام ١٢١٧ بعد صلح أميان الذي وقعته مع فرنسا، لكنها كانت تتوقع الخلاف مع محمد علي الذي تسلّم الولاية، لأن لها مصالح في مصر، ومحمد علي صاحب أطماع ولا يمكنه التسليم بهذه المصالح بسهولة لطباعه الخاصة في حب الظهور بقوة لدى الشعب ولدى الدولة، لذا فالمصالح ستتصادم وسيلجأ محمد علي إلى فرنسا المنافسة الرئيسية لإنكلترا وخاصة في مصر للتحكم في طريق الهند على الأقل، وهنا تكمن المشكلة لذا بدأت تتوسط لدى السلطان لعزل محمد علي عن الولاية إلا أن السلطان ملزم بإبقائه لقوة قواعده، ولتأييد العلماء له. . . . وعندها فكرت إنكلترا بإعادة صلتها مع المماليك، واحتلال مصر بالقوة، وخاصة أن السياسة الفرنسية قد رجحت لدى الدولة العثمانية على السياسة الإنكليزية.

أرسلت إنكلترا حملةً بقيادة فريزر عام ١٢٢٢ مؤلفةً من سبعة آلاف جندي نزلت بالإسكندرية، واحتلتها، واتجهت نحو رشيد فقاومها السكان من منازلهم، واضطرت إلى الانسحاب، وجاء محمد علي ليقف في وجه الحملة الإنكليزية، وقد صالح المماليك بعد أن كان في حرب معهم في الصعيد. ولم تحصل إنكلترا على مساعدة المماليك كما توقعت، إذ لا يمكنهم دعم كافرٍ دخيل. كما أن الظروف الدولية لم تكن مناسبةً لإنكلترا إذ تصالحت فرنسا وروسيا وتحالفتا، ورأت إنكلترا أن تقرّبها من الدولة العثمانية أفضل لها لهذا كله اضطرت أن تسحب حملتها من مصر، وظهر محمد علي بصورة المنقذ للبلاد، وأحبه العلماء والسلطان، ومنحه حكم السواحل المصرية بعد أن كانت على عهدة الدولة العثمانية.

سياسة محمد علي:

بدأ محمد علي يزيل القوى التي يمكن أن تقف في وجهه، وقد بدأ بالعلماء إذ رأى فيهم القوة الكبيرة التي تقف أمامه، إذ لهم فضل عليه بتعيينه، ولهم عليه عهد بالرجوع إليهم، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً دونهم ما دام الشعب كله وراءهم لذا يبدأ من الواحد تلو الآخر بأية وسيلة من الوسائل سواء أكانت طريقة شريفة أم غير ذلك بالإغراء، بالقتل، بالفتن، وأخيراً نقل أو نفى نقيب الأشراف عمر مكرم إلى دمياط عام ١٢٢٤، ثم التفت إلى المماليك فقضى عليهم بمذبحة القلعة بعد أن أظهر الرضا منهم، وذلك عام ١٢٢٦ عندما أراد تسيير ابنه طوسون إلى الجزيرة العربية لقتال السعوديين، واقتنع بعدها أن الجو قد صفا له فبدأ يُطبّق سياسته التي يريدها.

سياسة محمد علي الداخلية:

رغب محمد علي في تقوية ولايته كي يتمكّن من الوقوف أمام أطماع الآخرين بها، ورأى أن الطريق لذلك هو تقليد الغرب بكل معاني التقليد، فعمل على تدريب جنده وخاصةً فرقته الأصلية الألبانية، وإن حال دون

التدريب الكامل ما قام به من حروب، واستفاد من أحد ضباط الحملة الفرنسية الذين بقوا في مصر، وهو الجنرال سيف الذي اعتنق الإسلام، وتسمى باسم سليمان الفرنساوي، فقد أنشأ مدرسةً حربيةً في أسوان عام ١٢٣٥، وعهد إليه بالإشراف عليها، وعلى تدريب المماليك الذين اشتراهم محمد علي لنفسه، واعتمد في بداية الأمر في تشكيل جيشه على السودانيين، ثم بدأ يُجنّد الفلاحين المصريين، وأسس عدداً من المدارس الحربية مثل مدرسة المشاة، ومدرسة الفرسان، والمدفعية، وأركان الحرب، وأرسل البعثات من أجل ذلك إلى أوربا وخاصةً فرنسا، وأدخل في جيشه النصارى إلى جانب المسلمين فظهر على الجيش الضعف بعدة مدةٍ عندما وصل بعض النصارى إلى رتبٍ عاليةٍ حيث كانت ميولهم مع إخوانهم النصارى الأوربيين تفوق صلتهم بالمسلمين الذين يشتركون وإياهم في جيش البلد الواحد لأن العقيدة هي الرابط القوي بين النفوس وخاصةً أن الأقباط يشعرون أن المسلمين قد انتزعوا منهم حكم مصر بالقوة.

وأسس أسطولاً كانت نواته الأولى في بولاق على نهر النيل في القاهرة، كما اشترى عدداً من السفن الحربية من أوروبا، وتحطم هذا الأسطول في معركة نافارين عام ١٢٤٢، فأعاد تأسيسه من جديد، فأنشأ داراً لصناعة السفن في الإسكندرية، ومدرسة بحرية، واستخدم بعض الخبراء الإنكليز، ولكنه ضعف بعد عام ١٢٥٦ عندما انسحب وجيشه من بلاد الشام.

واهتم محمد علي بالتعليم، فأنشأ المدارس الابتدائية، والثانوية، والمتخصصة مثل الطب والهندسة، وأسس المدارس العالية أيضاً، واهتم بتعليم اللغات الأجنبية، وعمل على إنشاء المدارس المهنية والفنية، وصدرت في عهده صحيفة الوقائع الرسمية.

أما من ناحية الزراعية فقد مسح الأراضي، ووزع المساحات الزراعية على الفلاحين، ولكنه عدّ الأرض ملكاً له، وكل من يعمل بها زرّاعاً عنده، وحدّد عليهم الضرائب، وشق الترع وأشهرها الترعة المحمودية التي تصل

الإسكندرية بنهر النيل فرع رشيد، وبنى القناطر الخيرية لرفع مستوى مياه نهر النيل، وأدخل زراعات جديدة، أشهرها القطن الذي توسّعت زراعته، والزيتون، والتوت اللذين لم تتوسّع زراعتهما، كما عمل على زيادة تربية الحيوانات.

وكانت الصناعة اليدوية هي المعروفة فقط في مصر، فاستجلب الآلة التي بدأت تعمل في مصانع الغزل والنسيج، والسكر، والحبال، والطرابيش، كما بدأ بصناعة الأسلحة من مدافع وذخيرة.

كما نظّم المواصلات، وأجهز على قطاع الطرق، فنشطت التجارة، وخاصةً بين أوربا والهند، ولكنه إحتكر التجارة الداخلية إذ كان يشتري حاصلات الفلاح بالأسعار التي يراها، ويقوم ببيعها للتجار الأجانب، وتدخل الأرباح إلى الدولة، وهو الدولة.

ونظّم الإدارة حيث أوجد مجلس الشورى الذي يضم العلماء وكبار الموظفين، وعهد إلى ابنه إبراهيم برئاسة المجلس المخصوص، وكان الديوان العالي الذي ينظر في مشروعات الدولة قبل تنفيذها. وكان لكل إدارة ديوان خاص بها، وقد ربط كل شيء به كشأن كل عسكري أو صاحب أطماع واسعة.

حروب محمد علي:

كان محمد علي في بداية الأمر يريد كسب رضا الخليفة العثماني ليسكت عن توسّعه، وليبقى الوالي على مصر، ولذا فقد قبل تكليفه بمهمة القضاء على الدولة السعودية إذ في ذلك رضا السلطان، وإبقاؤه في منصبه، وامتداد أملاكه، والقضاء على الدولة السعودية التي تأخذ في العمل للإسلام بشكل لا يتفق ونهجه كما لا ينسجم مع خط الدولة العثمانية. كما أن الدول النصرانية ترضى على هذا التصرف كي لا تدب الروح الإسلامية من جديد في جسم الأمة المسلمة حيث يمكن للدعوة السلفية أن تنطلق بسرعة في بقية الأمصار الإسلامية، وتعود فكرة الجهاد من جديد، وعندها يكون

الخطر على الصليبية شديداً. ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الدول النصرانية لن تسمح لمحمد علي أن يمدّ نفوذه أكثر من اللازم أو إلى مناطق واسعة فإن ذلك قد يعيد الحياة من جديد إلى الأمة المسلمة وإن كان بصورةٍ أخرى قد تكون أخفّ من الصورة الأولى بكثير ولكن تصبح ذات قوة وربما نتيجة هذه القوة قد تعود فكرة الجهاد بعد موت محمد علي على يد من يخلفه أو من يتولّى أمر الدعوة إلى الجهاد، ولهذا فقد حالت دون وصوله إلى مياه الخليج العربي، فقد اكتفى بتهديم الدرعية، وفعل ما فعله بأهلها، كما منعت إنكلترا اتفاقه مع سلطان مسقط سعيد بن سلطان على حين كانت إنكلترا تستفيد من هذا إذ تحاول التنسيق معه وإبعاد ميوله عن السياسة الفرنسية التي تعاديها إنكلترا، ولكن الصليبية تجمع بينهما قبل التنافس أو الحرص على المصالح الجزئية أو الجانبية. وعلى كل فقد امتدّ نفوذ محمد علي على الحجاز ووسط الجزيرة وعلى عسير بعض الوقت، كما كسب في الوقت نفسه رضا السلطان، وجرّب صلاحية قوته.

في السودان:

واندفع محمد علي نحو السودان إذ أرسل حملةً بقيادة ابنه إسماعيل دخلت بربر، وشندي، وسنّار على النيل الأزرق وذلك عام ١٢٣٥، وكان ذلك في سبيل مدّ نفوذه والحصول على الثروة من زراعية وغابية إضافة إلى العاج وما أشيع عن وجود الذهب والفضة هناك بكميات كبيرة، ولكن كان الأهم من ذلك كله وهو ما يؤكد عليه في مراسلاته لابنه جلب العبيد لتشكيل جيشٍ قويٍ منهم، وقد احتج باختلافه مع المماليك الذين تجمعوا في منطقة شمالي السودان اليوم فأرسل حملته تلك، وبعد دخول السودان تفشى المرض في الجيش المصري فطلب إسماعيل من أبيه النجدة فأرسل له ابنه الآخر إبراهيم، وكان قد رجع من الجزيرة العربية، ولحق المرض بإسماعيل فعاد إلى مصر، ولما وصل إلى بلدة شندي انتقم منه حاكمها نمر بأن أحرقه وحاشيته غدراً، فأرسل محمد علي جيشاً آخر إلى السودان فأحرق بلدة شندي، ونكّل بأهلها، وبنيت الخرطوم عام ١٢٣٨ لتكون قاعدة

لهذا الجزء الجديد في ولاية محمد علي، وهكذا توسّعت ولاية محمد علي كثيراً، وكان الخليفة العثماني راضياً عن هذا التوسع لأنه باسمه ما دامت مصر ولايةً تتبع الدولة العثمانية، أما الدول النصرانية فقد كانت خائفة من هذا التوسع أو أن يكون آخره القضاء على دولة الحبشة النصرانية والتي تعدها قاعدةً لها إذ أنها جزيرة وسط بحر إسلامي، ولم يُخف السفير الإنكليزي في القاهرة والمقرّب من محمد علي وهو (هنري سولت) قلقه، فأجابه محمد علي: بأنه ينسحب من المنطقة إن رغبت إنكلترا في ذلك فإن صداقة إنكلترا أفضل عنده من ضم تلك الأجزاء، ومع أن محمد علي كان يميل إلى السياسة الفرنسية إلا أنه لم يترك صداقة إنكلترا خوفاً من أن تؤدي المنافسة بين الدول النصرانية إلى الإطاحة بمركزه، وبقيت المنافسة بين الدولتين على طرق المواصلات المصرية.

في اليونان:

وما أن انتهى محمد علي من مدّ نفوذه وسلطانه إلى السودان حتى طلب من الخليفة العثماني مساعدته في حربه ضد اليونانيين الذين تمرّدوا على الدولة، وكانوا يلقون تأييداً كبيراً من الشعوب الأوربية النصرانية، بل انطلقت أصوات الشعراء والمفكرين تؤيدهم، وانخرط بعضهم في صفوف الثورة، وكانت روسيا تعطف على الثورة، ولكنها في الوقت نفسه تخشى من انتقال عدواها إلى بلادهم، ومترنيخ رئيس وزراء النمسا ضد هذه الثورة وأية ثورة في أية جهة كانت. وأما إنكلترا فكانت تخشى تأييد روسيا لهذه الثورة ومدّ نفوذها إلى اليونان فيما إذا نجحت الثورة، لذا لا تريد لها النجاح ولا تريد دعم روسيا لها، فنصحت لذلك روسيا، وأقنعتها بترك التأييد خوفاً من اندلاع ثورات تجتاح أوربا، فأحجمت روسيا في بداية الأمر عن تأييدها للتمرد. أما محمد علي فقد كان يتعاطف مع حركة اليونانيين فقد سمح لليونانيين الذين يقيمون في مصر بالسفر إلى اليونان والانضمام إلى الثورة، كما حرر مماليكه الذين من أصلٍ يوناني، وأرسلهم إلى اليونان للغرض نفسه، وكان يحب أن يظهر لدى الأوربيين أنه متعاطف مع

النصارى، لا يبالي بجانب العقيدة، ومن المعلوم أن الأقباط والنصارى في عهده حصلوا على أكبر عطف منه، وقد كان (بوغص بك) أحد كبار مستشاريه بل بمثابة رئيس الوزراء، وهو نصراني أرمني. تغيّر الموقف الأوربي وبالتالي تغيّر موقف محمد علي، لقد عادت روسيا تؤيّد الثورة اليونانية بكل طاقتها فوقفت الدول الأوربية ضد الثورة خوفاً من نجاح وصول روسيا إلى مياه البحر المتوسط، فدعمت الخليفة العثماني، واستجاب الآن محمد علي لطلب الخليفة بمساعدته للقضاء على تلك الثورة، أو أن الدول الأوربية رضيت أن يقضي عليها محمد علي لأنها هي لا تستطيع أن تتدخل خوفاً من شعوبها المؤيدة للثورة بدافع صليبي، وصدر مرسوم من الخليفة بتعيين محمد علي قائداً عاماً للقوات العثمانية في بلاد اليونان.

انطلقت الحملة المصرية من الإسكندرية بقيادة إبراهيم باشا، وتتألف من ٥١ سفينة حربية، و١٤٦ سفينة نقل على ظهرها سبعة عشر ألف جندي، وأربع سرايا مدفعية، وثلاثمائة فارس، ونزلت الحملة في جزيرة كريت واستولت عليها، ثم انطلقت إلى شبه جزيرة الموره في جنوب بلاد اليونان واحتلتها، وجاءتها نجدات فبلغ مجموع جنود الحملة اثنين وأربعين ألفاً، واستطاعت مع القوات العثمانية أن تدخل مدينة نفارين عام ١٢٤١، وكادت أن تقضي على الثورة، ثم عادت فتغيّرت المواقف الأوربية فتغيّرت معها الحرب، وذلك أنه مات في هذه الأثناء قيصر روسيا الإسكندر الأول، وخلفه نيقولا الأول المعروف بنزعته إلى الحرب فخافت الدول الأوربية وخاصةً إنكلترا أن يؤدي تعاطف روسيا مع ثورة اليونان إلى حرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولا تستطيع الدول الأوربية الوقوف أمام روسيا لأن شعوب أوربا كلها تتعاطف مع الثورة اليونانية بدافع صليبي، وعندها تحقق روسيا بعض أطماعها، وتصل إلى مياه المتوسط، وتقتطع من الدولة العثمانية ما فيه مصلحتها دون مصالح بقية الدول الأوربية الأخرى ، فأرسلت إنكلترا مندوباً من قبلها إلى عاصمة روسيا بطرسبرغ هو (الدوق ولنغتون) للمفاوضة مع روسيا بشأن الثورة اليونانية وذلك عام ١٢٤٢،

ونتيجة هذا الاتفاق الذي تمّ، فقد طلبت إنكلترا من الخليفة العثماني أن يتفاهم مع القيصر الروسي، غير أن الخليفة لم يصغ لنصح إنكلترا، فالتقت إنكلترا، وفرنسا، وروسيا في اتفاقية في لندن عام ١٢٤٣ تقضي بفرض هدنة بين العثمانيين واليونانيين بالقوة إن دعت الحاجة. وبدأت إنكلترا تفاوض محمد علي للانسحاب من اليونان إذ أن جيشه هو القوة الرئيسية لدى العثمانيين وكانت المفاوضة عن طريق سفيرها في القاهرة (هنري سولت)، وعن طريق الفرنسيين، ولكن محمد علي كان يرى أنه سيحصل على مكافأة من السلطان إذا قضى على الثورة اليونانية على حين أنه إذا انسحب فإنه لا يحصل على شيء حتى إنكلترا لا يمكنها أن تؤيده في استقلاله بمصر عن الدولة العثمانية، ولكن المندوب الإنكليزي أشار إشارة عابرة بإمكانية ذلك، وعندها وافق على حصار جيشه من قبل أساطيل الدول الثلاث كتهديدٍ له ليبرر انسحابه، في الوقت الذي أشار عليه مندوب مترنيخ رئيس وزراء النمسا بضرورة الإجهاز على الثورة اليونانية في سبيل خدمة بلده مصر، ولكن محمد علي اختار الرأي الإنكليزي، متفقاً معهم ضد الدولة العثمانية.

حاصرت أساطيل الحلفاء (إنكلترا - فرنسا - روسيا) الأسطول المصري، واتخذت أو اصطنعت حادثة بسيطة، وشنت هجوماً على الجيش المصري كادت تبيده إذ فقد في تلك الهجمة أكثر من خمسة وعشرين ألف جندي، ولما لم يكن إبراهيم باشا وحاشيته ساعتذاك مع الجيش فقد عُدّ ذلك اتفاقاً ضد المصريين المسلمين حيث ذُبح أكثرهم بدعوى في سبيل انسحابهم، وتحقيق مصلحة محمد علي لاستقلاله في مصر، واعتراف الدول الأوربية بذلك الاستقلال، وتمّ انسحاب ما بقي من الجيش المصري على سفنٍ إنكليزية. غير أن الخليفة العثماني قد رفض مبدأ تدخل الدول الأوربية في اليونان لأنها مسألة داخلية خاصة بدولته، وطالب الدول المشاركة في الحملة ضد العثمانيين بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بالجيش العثماني والأسطول، وللسبب نفسه فقد رفض تنفيذ الاتفاقية التي

وقعها مع روسيا عام ١٢٤٢، والتي تقضي بمنح مولدافيا والأفلاق والصرب الاستقلال الذاتي، وهذا ما أثار غضب روسيا ولكنها كانت في حربٍ مع إيران، فلما انتهت من تلك الحرب اتجهت إلى الدولة العثمانية عام ١٢٤٥، وسارت الجيوش الروسية نحو إستانبول، ودخلت مدينة أدرنة وبعد شهر توقفت الحرب وعقدت معاهدة أدرنة التي حصلت فيها روسيا على الإمارات البلقانية والقسم الشرقي من الأناضول وحق المرور في المضائق العثمانية. غير أن إنكلترا قد رأت أن روسيا قد حصلت على مكاسب أكثر مما تريده، لذا فقد وقفت أمام هذه المكاسب، وأصبحت وكأنها تظهر بجانب الخليفة العثماني، وكذلك كانت النمسا، أما فرنسا وبروسيا فكانتا بجانب روسيا، ويريد هذا الجانب الحصول على أكبر أجزاء من الدولة العثمانية التي توقعت الدوائر الغربية قرب نهايتها.

كانت سياسة محمد علي تميل إلى السياسة الفرنسية غير أن عقله يعمل بتوجيه إنكليزي، وبعد هزيمته باليونان رغبت فرنسا أن تجرّه نحوها نهائياً، وتحقق مصالحها بمنافسة إنكلترا فعرضت عليه أن يقوم بدخول الجزائر وتونس وليبيا طبعاً على حسابها حيث تؤمن له الحماية البحرية، وتقدم له أربع سفن حربية كبيرة، وتدفع له مبلغاً من المال على أن يقيم حكومة في هذه المناطق تشبه حكومته في مصر ويكون لفرنسا فيها النفوذ الاقتصادي، فوافق على المشروع، ولكنه عرضه على إنكلترا فهددته بإغراق أسطوله قبل أن يتحرّك، وبزوال سلطانه من مصر فعدل عن المشروع خوفاً ومسايرةً لإنكلترا، لا بُعداً عن التبعية لفرنسا أو للدول الأوربية إذ كان مطيةً لها تتسابق فرنسا وإنكلترا لوقوفه بجانبها، إذ تُحرّكه إنكلترا، ويرسل البعثات إلى فرنسا، ويطلب منها الخبراء والمستشارين. واقترحت عليه إنكلترا التوجه نحو الشام.

في الشام:

اتجهت جيوش محمد علي إلى بلاد الشام، وهو يرغب بضمّها إليه منذ مدة، فقد طالب بها عندما حارب في الجزيرة العربية بناءً على أوامر الخليفة ليستعين بأهلها في حروبها غير أن الخليفة رفض ذلك، ولما امتثل

لرغبات الخليفة وسار لقتال اليونان طلبها كذلك ولكن لم يوافق الخليفة أيضاً، فلمّا أشارت إليه إنكلترا بذلك وجد ذريعةً بالتجاء بعض المصريين الهاربين من الجندية أو من الضرائب إلى والي عكا عبد الله باشا، كما ساعد ذلك الوالي تهريب البضائع إلى مصر عن طريق سيناء، ولم يرسل الأخشاب من بلاد الشام لمساعدة محمد علي لإعادة بناء أسطوله الذي تحطّم في اليونان، ولم يسدد عبد الله باشا ما عليه من ديون لخزينة مصر، اتخذ ذلك ذريعة لتحقيق أطماعه، وربما اخترع بعض هذه الأسباب أو تعلل بها، مع العلم أنها لم تكن من قبل، بل كان يتقرّب من ذلك الوالي، ومن بشير الشهابي ليكونا بجانبه فيما إذا أقدم على مشروعه الذي تراوده نفسه عليه منذ مدة، ولا يكاد يترك ذهنه.

أرسل محمد علي قواته البرية والبحرية بقيادة ابنه إبراهيم عام ١٢٤٧ فاستولى على غزة، ويافا، وحاصر عكا، وفتح القدس، وطرابلس، وبيروت، ثم استسلمت عكا له بعد أن استمر حصاره لها مدة ستة أشهر، ودخل دمشق دون مقاومة، وهزم جيشاً عثمانياً عند بحيرة قطينة قرب حمص، واستولى على حمص، وحماه، وحلب، وهزم جيشاً عثمانياً آخر عند ممر بيلان عام ١٢٤٨ ، وكان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر منذ اتجه إلى دمشق لتخفّ هيبته، غير أن بشير الشهابي الدرزي العقيدة قد وقف إلى جانبه لمصلحته الخاصة حيث أصبح الرجل القوي في المنطقة، ولم ينضمّ إليه حتى وصل إلى طرابلس. ولما دخل إبراهيم باشا الأناضول عرض محمد علي على الخليفة إعطاءه ولاية الشام إذ أصبح يتكلّم من مركز القوة لكن السلطان رفض ذلك، فأمر محمد علي ابنه بمتابعة القتال فسار إبراهيم باشا فدخل أضنه، واتجه نحو قونية في قلب الأناضول، وانتصر على جيشٍ عثمانيٍ كبير، فأصبح طريق إستانبول مفتوحاً أمامه.

خشيت الدول الأوربية من تقدم جيوش محمد علي السريع، وظهرت قوة جنده وتنظيماتها، وخافت أن تدبّ الروح من جديد في المنطقة

الإسلامية لذلك أسرعت تنصحه بتوقف القتال عدا فرنسا التي وقفت بجانبه وشجعته فلم يأبه بالنصح الأمر الذي جعل الخليفة يقبل مساعدة الروس بل يطلبها، ويوافق على نزول قوات روسية في إستانبول، وهذا ما أخاف الدول فغيّرت فرنسا موقفها وأجبرت هي وإنكلترا محمد علي على عقد الصلح الذي تمّ بعد مفاوضات في كوتاهية عام ١٢٤٩، وألزم السلطان إعطاء محمد علي ولاية الشام، وتعيين ابنه إبراهيم والياً على أضنه كحامٍ للشام، ولكن السلطان وافق على هذا مؤقتاً على ما يبدو، وحتى تعود إليه قوته، وينظم جيوشه من جديد.

أما روسيا فقد عقدت مع الدولة العثمانية بعد اتفاقية كوتاهية معاهدة (خنكياراسكله سي) تعهدت فيها روسيا بحماية الدولة العثمانية من أي اعتداء، وتعهدت الدولة مقابل ذلك بإغلاق المضائق في وجه أية قوةٍ معادية لروسيا، واتفقت الدولتان أن تكون مدة المعاهدة ثمان سنوات، ولقد أرهبت هذه المعاهدة الدول الأوربية الأخرى المنافسة لروسيا فغيّرت موقفها.

في هذا الوقت قدّم محمد علي مذكرة إلى قناصل إنكلترا، وفرنسا، والنمسا يشعرهم برغبته في الانفصال عن الدولة العثمانية، غير أن الدول لم تكن راضيةً عن هذا الرأي، وحتى روسيا لم تقبل به، ووقفت في وجهه، وإن لم يستشرها، وعرف محمد علي أن يعمل وحده وأن ما حققه سابقاً من انتصارات إنما بسبب موافقة مصلحته لمصالح إنكلترا وفرنسا خاصةً فلما اختلفت المصالح ظهر ضعفه، لذا عاد فلجأ إلى الخليفة وطلب منه أن يعترف له بحكم مصر والشام بصورةٍ وراثيةٍ مقابل تقديم ٦٠٠ ألف كيس لخزينة الدولة العثمانية، غير أن الخليفة قد رفض ذلك، وإذا كانت الدول الأوربية وخاصةً روسيا وإنكلترا ترغبان ببقاء محمد علي بالشام إلا أنهما تريدان بقاءه بشكل موقت لا بشكل دائم إذ أن بقاءه بصورة مؤقتة يستدعي تنفيذ معاهدة (خنكياراسكله سي) بين روسيا والدولة العثمانية أو أن روسيا تبقى حامية الدولة ما دام التهديد لها قائماً من قبل واليها، وتبقى إنكلترا في

الوقت نفسه تهدد به لتحقيق مصالحها، أما بقاؤه بشكل دائم فتخشيان وجود دولة قوية قد ترث الدولة العثمانية، وتحلّ محلّها، وتحيي شيئاً من قوة الماضي.

وبدأ التذمّر في بلاد الشام يظهر ضد محمد علي وجيوشه فقد سام السكان خسفاً، وأنهكهم بأعمال السخرة، وأتعبهم بالرشوة، وكرههم الحياة من الفوضى وعدم الأمن والتنكيل بهم من السلطة، وأصعب من هذا وذاك فقد أظهر عطفه على النصارى خاصةً والطوائف الأخرى عامة، ومنها الدروز الذين يمثلّهم الأمير بشير الشهابي والنصيرية فأدخلهم بالجيش وظنّ بذلك أنه عدل بينهم فساوى بينهم وبين المسلمين، وسُرّوا في أول الأمر، إلاّ أنّهم لم يلبثوا أن كرهوا الجندية لما أصابهم من جرائها ونتائجها فأظهروا تذمّرهم وبدأت الفوضى، وتبعها جمع السلاح والمطالبة بالضرائب بل وزيادتها فبدأت الحركات والثورات، أما بشير الشهابي فلم يكن باستطاعته مفارقته فإن فعل نُكّل به، وإن بقي نقم عليه الدروز، وإن غادر قتله العثمانيون، ففضّل البقاء بجانب الوالي، وإن أعلن عن اعتناقه النصرانية على المذهب الماروني ليكسب رضا النصارى والدروز معاً حسب رأيه وهما الطائفتان المتصارعتان في منطقته. وأما النصيرية فقد حاول إبراهيم باشا أن يُقيم لها المساجد في مناطقهم، وأن يُقرّبهم إلى الإسلام على رأيه، غير أنهم لا يريدون هذا لذا فقد نقموا عليه، وعندما خرج من الشام خرّبوا ما أقام، وهدّموا ما بنى من مساجد بل جعلوها لحيواناتهم حظائر. وأما المسلمون فكانوا أيضاً على درجةٍ من الاستياء من محمد علي إذ نظروا إليه نظرة الغريب حيث أدخل على الإسلام ما ليس فيه إذ بدأ يسوق أبناء الطوائف إلى الجندية معهم، لا رغبةً في الجندية ولا حباً لها من قبلهم، بل كانوا على كره لها، ويتمنون الخلاص منها، وإنما لما أحدثه في الإسلام لذا ظهر التململ في القتال، وبدأ الضعف يظهر في المعارك. وأصبحت الجندية أصعب شيء على السكان حتى الطوائف التي ظنّ محمد علي أنه قد خدمهم بإدخالهم فيها، وساواهم مع المسلمين صارت النقمة

عليهم، وغدت سبب التذمّر منهم ومن المسلمين. ورغم أن السكان كانوا يشكون من الحكم العثماني لكثرة الحروب، والفوضى، وعدم الأمن صاروا يتمنون عودته ويرون في حكم محمد علي ما هو أكثر بكثير من سابقه، ولا شك أن إنكلترا قد عملت أيضاً على زيادة ما حدث ولكن أثرها كان ضئيلاً مهما بولغ فيه لرفع اللوم عن حكم محمد علي وابنه.

وقعت معاهدة تجارية بين الدولة العثمانية وإنكلترا عام ١٢٥٤، وأصبح بموجب هذه المعاهدة لإنكلترا حق التجارة في جميع أنحاء الدولة بما فيها مصر والشام، وحق التملك أيضاً، وحُرّم الاحتكار، وكأن هذه المعاهدة كانت ضد روسيا، التي وجدت نفسها أنها ليست حاميةً للدولة العثمانية كما كانت تتوقع ذلك، وضدّ محمد علي أيضاً الذي كان يحتكر التجارة في ولايته والمناطق التي يسيطر عليها. وتجاهلت إنكلترا محمد علي، وجمّدت الوضع، فأراد محمد علي أن يحرّكه، ويحرّك إنكلترا فتعود لمفاوضته، فأحب أن يرسل قوات إلى الخليج العربي وإلى جنوبي اليمن، فتجاهلته إنكلترا متعمدةً، وطلبت من الخليفة العثماني أن يمنعه ويُحذّره، فوافق وفعل إذ لم تكن الدولة العثمانية تستطيع يومذاك أن تجاهد أو تحالف الدول الأوربية كلها، وإنما تحاول أن تستفيد مما بينها من خلاف، وتساير هذه أو تعاهد تلك، وكانت تقتضي مصلحتها آنذاك تجنب الصدام مع إنكلترا.

لقد كانت دعاية محمد علي واسعةً وكبيرةً لدى الشعوب الأوربية حيث يُعرف أنه يعطف على النصارى في ولايته ومناطق نفوذه ويرعى شؤونهم، ويعمل على عدم تحريك الروح الإسلامية في المناطق التي تخضع له مما حدا بالشعوب النصرانية أن تحبه وهذا ما جعل الحكومات تتجنب إظهار الصدام معه خوفاً من إثارة شعوبها ضدها فلما رأت إنكلترا أن من مصلحتها الخلاف معه إذ انتهى دوره معها، أو استهلكته، لذا بدأت قبل الاختلاف معه تنشر الدعاية ضده في الأوساط الأوربية بأنه يتاجر بالرقيق، وأن جيوشه تقوم بجمع العبيد من وسط إفريقية، وأنه متسلّط يضطهد شعبه ويُذيقه مرّ العذاب و.....

شعر الخليفة العثماني محمود الثاني أن وضع واليه قد أصبح حرجاً، وأن وضع الدولة قد أصبح بصورة أفضل دولياً لذا لا بدّ من استعادة ما فقده فجهّز جيشاً وانطلق نحو الشام إلا أنه هزم في معركة (نزب) هزيمةً منكرةً، كما فقدت الدولة أسطولها وتسلّمه محمد علي من أمير البحر فوزي باشا، وتوفي الخليفة ولم يدر بنتائج المعركة، غير أن محمد علي لم يستفد من هذا النصر الذي حققه إذ طلبت منه فرنسا وإنكلترا الانسحاب مباشرةً من الأناضول.

وتغيّر الموقف الدولي إذ أن روسيا تعاني ضائقةً عسكريةً حيث أنها مشغولة بقتال العلماء في بلاد القفقاس، وتُقاتل الدولة الفارسية، ولا تستطيع دعم الدولة العثمانية فيما إذا طلبت منها ذلك بناءً على معاهدة (خنكياراسكله سي) المعقودة بينهما لذا بدأت روسيا تتقرب من إنكلترا، ورفعت الدول الكبرى الخمس مذكرة إلى الخليفة العثماني تطلب منه عدم المفاوضة مع واليه محمد علي دون علمها وهذه الدول هي: إنكلترا ـ روسيا ـ فرنسا ـ النمسا ـ بروسيا.

انعزل محمد علي سياسياً، وزاد الوضع الداخلي حرجاً إذ زادت الثورات ضده في الشام عامة، وفي لبنان منها خاصة، ولم يجد بداً من أن يعود للدولة العثمانية فيدخل معها في مفاوضات مباشرة فأرسل إلى الخليفة وفداً محملاً بالهدايا ومبلغاً ضخماً من المال، وعرض عليه ما يريده الوالي وهو حكم مصر والشام فقط، وأن يأخذ راتباً، ثم يحدد الخليفة ما يريده من خراج على مصر، ولكن الخليفة لم يقبل، وسوّت الدول الأوربية الأمر فيما بينها إذ وقّعت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا اتفاقية لندن عام ١٢٥٦ ومعهم الدولة العثمانية، وتنصّ على منح محمد علي ولاية مصر بصورةٍ وراثيةٍ، وولاية عكا مدى الحياة فإن قبل كانت له، وإن لم يُعط الجواب خلال عشرة أيام سُلخت منه ولاية عكا، وإن انقضت عشرة أيام أخرى ولم يُبد رأيه أُخذت منه ولاية مصر، أو نُظر في أمره، وانقضى عشرون يوماً ولم يُعط الجواب، ولذا فقد صدرت الأوامر من قبل إنكلترا لأسطولها في البحر المتوسط لضرب الموانئ الشامية، وحصار محمد علي

في بلاد الشام، وأخيراً وافق محمد علي على حكم مصر وراثياً، وانسحب من الشام، ووقّع الاتفاقية على ذلك وزير خارجية محمد علي (بوغص بك) الأرمني النصراني والقائد الإنكليزي (نابير).

حاولت فرنسا الوقوف بجانب محمد علي، وهي التي شجعته على رفض اتفاقية لندن غير أن ملك فرنسا لويس فيليب خشي مغبة ذلك، وعزل فرنسا عن أوربا، وإغضاب الدول الأوربية الأخرى لذا فقد عزل رئيس وزرائه (تيير) المتحمس لدعم محمد علي حتى النهاية واستبدله بـ(غيزو) الذي يرى مسايرة دول أوربا، وهكذا بقي محمد علي وحده. فاضطر إلى الانسحاب، كما ذكرنا.

كان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر عندما لم يُعط الجواب، ولكن إنكلترا لم تكن تريد ذلك، لهذا قدّمت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا مذكرةً إلى الخليفة تطلب منه العدول عن قراره، فصدر مرسوم ثانٍ بإقامة محمد علي حاكماً بصورةٍ وراثيةٍ على مصر، كما وقّعت الدول الأوربية اتفاقيةً فيما بينها تخصّ المضائق، وبذا فقد ذهبت معاهدتا (أدرنة) و(خنكياراسكله سي)، وما حققته روسيا فيهما من نصر. وأصبح محمد علي وخلفاؤه يخضعون للخلفاء العثمانيين، كما أن المعاهدة قد حددت القوات البرية والبحرية لولاية مصر.

قناة السويس:

توفي إبراهيم باشا في حياة والده عام ١٢٦٤، ثم توفي محمد علي عام ١٢٦٥، وخلفه في ولاية مصر حفيده عباس بن طوسون الذي انصرف إلى اللهو، وأهمل الحكم، وكان يتحرك برأي القنصل الإنكليزي، غير أنه لم يلبث أن قُتل في قصره في بنها عام ١٢٧٠، وخلفه عمه محمد سعيد بن محمد علي إذ أن حق حكم ولاية مصر في أكبر أفراد أسرة محمد علي سناً، وما أن تولّى محمد سعيد حتى عرض عليه صديقه المهندس الفرنسي فرديناند دولسبس مشروع قناة السويس فأعطاه امتياز ذلك، ودولسبس ابن قنصل فرنسا في الإسكندرية وصديق محمد سعيد منذ الطفولة، غير أن هذا


استانبول
كوتاهيه
قونية
بيلان
نزيب
حلب
حماه
حمص
رودس
قبرص
كريت
دمشق
عكا
طابور
يافا
القدس
غزة
العريش
الاسكندرية
القاهرة
المقياس
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٦]

المشروع قد لقي معارضةً واسعةً من قبل الدولة العثمانية على اعتبار أن مصر ولاية منها، وشجع على ذلك الرفض الإنكليز الذين يخشون من النفوذ الفرنسي في مصر، على حين تريد فرنسا بحصولها على هذا الامتياز أن يزداد نفوذها وتصبح المشرفة على طريق الهند، لذا فإن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا قد أيّد هذا المشروع بصورةٍ تامةٍ، ومشى وراءه بكل إمكاناته، وحصل في النهاية على موافقة الخليفة.

وتأسست شركة قناة السويس من أربعمائة ألف سهم، أخذت فرنسا نصفها، ومصر ١٧٧,٦٤٢ سهماً، وتحددت مدة امتيازها بتسع وتسعين سنة تبدأ من افتتاح القناة. وقد بدأ العمل فيها عام ١٢٧٥، وقدّمت مصر أرض القناة مجاناً، والأراضي التي حفرت فيها قناة الماء العذب للشرب من نهر النيل، والعمال، ونفقات الدراسة العلمية والهندسية، وتقديم المساعدات بين المدة والأخرى. وتوفي محمد سعيد عام ١٢٧٩، وخلفه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم حيث زاد التبذير والإنفاق في الدعاية له بالصحف الأوربية، وحصوله على لقب خديوي (نائب السلطان)، وحصر حكم مصر في أكبر أولاد أسرته بدلاً من أكبر فرد في أسرة محمد علي، وإقامته حفل افتتاح القناة الذي تمّ عام ١٢٨٥، ودعوته ملوك وملكات أوربا، وإنشاء الحدائق والقصور لاستقبالهم، ومحاولة إظهار مصر بمظهر المتطور، وإنشاء دار التمثيل (الأوبرا) لبيان عدم الالتزام بما تقتضيه المبادئ الدينية، والعمل على دخول وسط إفريقية في مديرية أعالي النيل (أوغندا)، ولهذا كله بدأ بالديون بفوائد ربويةٍ فاحشةٍ زيادةً في الاستهتار بالأمور الدينية، واضطر إلى بيع أسهم مصر من القناة عام ١٢٨٩ فاشترتها إنكلترا وأصبح لها النفوذ القوي في مصر، ولكن لم تُغن شيئاً لكثرة الديون، وبدأت دول أوربا تطالب مصر بديونها وفوائد تلك الديون، واستغلّت فرنسا وإنكلترا عجز الخديوي عن التسديد ففرضتا على الخزينة المصرية لجنة ثنائية لمراقبتها واستيفاء الديون وذلك عام ١٢٩٣، وغدت هذه اللجنة تراقب مالية مصر، ثم ازداد نفوذها، فأصبحت تتدخل في عزل الوزراء وتعيينهم، وفرض

موظفين أجانب برواتب ضخمة، وفصل ضباط الجيش الكبار الذين لا ترتضيهم إذا ظهرت عليهم مسحة من التدين ورغبة في التخلص من هذا الضغط النصراني بحجة الضغط في النفقات وشكل «نوبار» النصراني الأرمني وزارة مختلطة فيها: وزير إنكليزي للمالية، ووزير فرنسي للأشغال العامة، وعندما أحالت ٢٥٠ ضابطاً على التقاعد قاموا في وجهها فاضطر نوبار إلى الاستقالة، وشكّل توفيق بن الخديوي إسماعيل الوزارة وبقي فيها الوزيران الأجنبيان في حقيبتيهما الوزارية، ثم حدثت النقمة عليها فشكل شريف باشا وزارة جديدة ليس فيها أجانب، غير أن هذه التصرّفات جعلت الشعب جميعه والجيش يعمل على مقاومة هذه اللجنة ونفوذها، وأحسّ إسماعيل بما يجري، فبدأ يعمل على الحدّ من سلطة هذه اللجنة، ويقاومها، ويُضيّق من صلاحياتها، ولما أحسّت إنكلترا وفرنسا بموقفه الإيجابي ضغطتا على السلطان لعزل الخديوي فصدر المرسوم بذلك عام ١٢٩٧، وغادر البلاد على ظهر السفينة (المحروسة)، وعُيّن مكانه ابنه توفيق، وهو أكبر أبناء إسماعيل. واستقالت وزارة شريف باشا لكن الخديوي طلب منه إعادة تشكيلها ثانيةً فرفض، وشكّل رياض باشا الوزارة.

علم توفيق أن بقاءه مرهون برضا الأجانب عنه فاستسلم لهم، فقامت في البلاد عدة مؤسسات مالية اقتصادية أوربية، وهذا ما أثار نقمة الجيش إضافةً إلى ما يُعاني من التأخر في دفع المرتبات، وبقاء أفراده من الضباط المسلمين في رتبٍ معينةٍ. فقدّم أحمد عرابي ولفيف من الضباط مذكرةً إلى الخديوي توفيق طلبوا فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقي باشا، وإصلاح نظام الترفيع في ضباط الجيش، وعمد رئيس الوزراء إلى اعتقالهم ومحاكمتهم غير أن الجيش دخل مقر المحكمة وأخرج ضباطه، وساروا جميعاً بمظاهرة إلى قصر عابدين، فأعادوا الطلب من الخديوي بعزل وزير الحربية، فلم يُمكنه إلا تلبية الطلب، فعُزل عثمان رفقي باشا، واختير مكانه محمود سامي البارودي، لكنه لم يلبث أن اختلف مع رئيس الوزراء رياض باشا، فقدّم استقالته.

نظم ضباط الجيش مظاهرةً أيّدها الشعب، وسارت إلى الخديوي توفيق في قصر عابدين، وطالب أحمد عرابي الخديوي بإقالة وزارة رياض باشا، وانتخاب مجلس للنواب، وتقوية الجيش، وإعادة الحياة الدستورية، فردّ الخديوي بقسوة، فقرر المتظاهرون عدم مغادرة المكان حتى تلبى مطالب الشعب، فأذعن الخديوي، وأصدر أمراً بإقالة رياض باشا، وتكليف شريف باشا بتشكيل حكومة جديدة، وقدّم رئيس الوزراء الجديد دستوراً، وأجرى الانتخابات، واجتمع المجلس النيابي في أواخر عام ١٢٩٨، غير أن المجلس قد اختلف مع رئيس الوزراء بشأن مناقشة الميزانية لأن شريف باشا لا يريد في الوقت الراهن الصدام مع لجنة المراقبة، وأصرّ المجلس على هذه المناقشة فاستقال شريف باشا، وشكل محمود سامي البارودي وزارةً جديدةً تسلّم فيها أحمد عرابي وزارة الحربية، واقترحت هذه الوزارة مناقشة المجلس للميزانية باستثناء القسم المخصص بتسديد الديون للحيلولة دون التدخل الأجنبي، فوافق المجلس، واعتمد الخديوي الدستور عام ١٢٩٩.

عارضت إنكلترا وفرنسا ذلك، وعملتا على إثارة الفتن لإمكانية التدخل، وكان أحمد عرابي قد سرح عدداً من الضباط، وأحال بعضهم إلى المحاكمة، فوجدت إنكلترا فرصةً لزرع بذور الشقاق، وحرّضت الخديوي على رفض تصرّف الوزارة فانصاع، وعاد الخلاف بين الخديوي والوزارة، وبدأت المناورات الأجنبية، وجاء الأسطولان الفرنسي والإنكليزي إلى المياه المصرية قرب الإسكندرية، وأرسلت فرنسا وإنكلترا مذكرةً إلى الخديوي تشجّعانه فيها على ضرب المتمردين، وتلوحان بدعمه، فأمر الخديوي بإبعاد أحمد عرابي، ونفي من معه إلى الريف، وانتقل هو إلى الإسكندرية ليكون على مقربة من الحماية الأجنبية، وهنا تحققت لإنكلترا وفرنسا ما تريدان، ولم يعد الاحتلال بعيداً، ويحتاج فقط إلى من يحرّك أحمد عرابي ليتصرّف بغير حكمة أو يبدأ هو بالإثارة، وحرّكت إنكلترا أعوانها من النصارى فحدثت فتنة دينية في الإسكندرية، فقصفت المدفعية الإنكليزية المدينة، ولم تقبل فرنسا الاشتراك معها بالقصف إذ ظهرت أطماع إنكلترا لاحتلال مصر،

وأعلن أحمد عرابي الثورة على الخديوي، وقاوم الشعب المصري مقاومة مجيدة، وأسرع أحمد عرابي نحو الإسكندرية للدفاع عنها، وتمكّن الإنكليز من احتلالها، فانسحب عرابي بجيشه إلى كفر الدوار حيث أقام التحصينات هناك، وفكر بردم قناة السويس كي لا يستعملها الإنكليز، ويهاجموه من الشرق غير أن الإنكليز قد وعدوا بعدم استعمال القناة حرصاً على حيادها، فصدّق ما وعدوا، وانتقل الأسطول الإنكليزي إلى القناة، وأنزل قواته في الإسماعيلية وتقدّم من الشرق، وأسرع أحمد عرابي لملاقاتهم، والتقى الطرفان عند التل الكبير في رمضان عام ١٢٩٩، وهزم أحمد عرابي، واحتل الإنكليز مصر، وحاكموا أحمد عرابي ورفاقه، وحكموا عليهم بالإعدام، ثم استبدلوا ذلك بالنفي المؤبّد، وحلّوا الجيش، وشكّلوا جيشاً صغيراً من جديد قوامه تسعة آلاف جندي، كما حلّوا المجلس النيابي، وجعلوا بجانب كل وزير مستشاراً إنكليزياً إضافةً إلى مفتش عام يُشرف على أمور الوزارة، وعيّنوا رجالاً من الإنكليز في المناصب والوظائف العليا، وعملوا على نشر المفاسد وانحلال الأخلاق في سبيل تدمير العقيدة، غير أنه قد ظهرت عاطفة إسلامية في أوساط الشعب، وكان في هذه المرحلة جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، وتمكّن الإنكليز استمالة بعض العناصر إليهم، وإن أخذت تظهر بالمظهر الوطني أو الإسلامي أحياناً، لذا لم تخضع في هذه المرحلة للضغط الذي مارسه الإنكليز في مصر كلها، وتوفي الخديوي توفيق عام ١٣١٠، وتولى مكانه ابنه عباس حلمي.

كان عباس حلمي يتعاطف مع الاتجاه الوطني، ويخفي كرهه للإنكليز، وأقال عام ١٣١١ وزارة مصطفى فهمي، وكلّف حسين فخري بالوزارة فاختلف لذلك مع الإنكليز، وتمسّك كل من الطرفين برأيه، ثم خضع الخديوي قليلاً ووعد بالعمل بنصائح إنكلترا. لكنه عاد فاختلف معهم لانتقادهم، حتى هدّد كتشنر قائد الجيش العام بالاستقالة وهو إنكليزي، ثم اضطر الخديوي إلى الاستجابة للشروط التي وضعوها، وأصدر بياناً أثنى فيه

على الجيش، والضباط الإنكليز كأنه اعتراف منه بالأخطاء التي كان يوجّهها لهم.

وفي هذه المرحلة أسس مصطفى كامل الحزب الوطني ١٣٢٥ والذي عُرف بنزعته الوطنية واتجاهه الأقرب إلى الإسلام، وقد ألهب مصطفى كامل الحماسة مستفيداً من حادثة دانشوي التي وقعت عام ١٣٢٤، والتي تدل على مدى استهتار المستعمرين بالشعوب المستعمرة، وملخصها أن خمسة من الضباط الإنكليز خرجوا للصيد، فلم يفلحوا في مسعاهم، فأطلقوا النار على حمام البلدة، فأصابوا امرأة، واشتعلت النيران بأكوام القمح في البيدر فأسرع أهل البلدة، وقاتلوا الضباط، فقتل أحد الأهالي مما جعل الأمر يحتدم، وفرّ الضباط فمات أحدهم بضربة شمس، فامتلأ الإنكليز غيظاً، وشكلوا محكمة حكمت على أربعة من أهل البلدة بالإعدام، ونفذ فيهم مباشرة، وبقيت جثثهم معلقة على المشانق مدة، وسُجن آخرون، وجُلد عدد أمام أقاربهم، وظن الإنكليز في هذا ردعاً للسكان فكانت هذه الحادثة إثارة للنفوس. وعمل مصطفى كامل على تقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، ثم توفي عام ١٣٢٦، وخلفه في زعامة الحزب محمد فريد الذي دعا إلى الاستقلال، فاضطهد، وسجن، واضطر أخيراً إلى مغادرة البلاد، وتوفي مشرداً في أوربا عام ١٣٣٨.

وفي هذه الأثناء سلّمت إنكلترا الوزارة بعض الأشخاص الذين استمالتهم إليها، والذين تريد أن تظهرهم، أو تعدّهم للمستقبل فقد تسلّم وزارة العدل (الحقانية) سعد زغلول عام ١٣٢٦، وبعد مدة أضيفت له وزارة المعارف، وهي وزارة مهمة، كما أوكلت إليه مهمة نيابة رئيس المجلس الذي انتخب عام ١٣٣١، وقد كان سعد يتحرك بإشارتها أو إشارة معتمدها كرومر الذي يُعدّ صديقاً وفياً له.

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت فيها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا أي ضد الحلفاء الذين هم إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا، واليابان و. . . . ولما كانت مصر لا تزال اسماً تتبع

الدولة العثمانية، وفيها من يدعو إلى توطيد الصلة مع العثمانيين على أنهم يمثّلون الحكام المسلمين، أو أن العاطفة الإسلامية تقتضي ذلك، والحزب الوطني يحثّ على تلك الصلات لذا فقد أعلنت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر، وأعلنت الحماية البريطانية عليها، وفصلها عن الدولة العثمانية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعيّنت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه لقب سلطان نكايةً بالخليفة العثماني ومضاهاةً له، ومنعت الاجتماعات، وراقبت الصحافة، وسخّرت اقتصاد البلاد لمصلحة الجيش الإنكليزي، وفرضت على أبناء الشعب أعمال السخرة في تعبيد الطرق، وحفر الآبار، ومدّ أنابيب المياه. وتوفي حسين كامل قبل انتهاء الحرب عام ١٣٣٦.

انتهت الحرب العالمية الأولى في مطلع عام ١٣٣٧، وتوقعت إنكلترا أن بدء المطالبة باستقلال مصر سيكون قريباً، لذا أحبت أن يتولى هذه المطالبة، ويظفر بها أحد أنصارها ليبقى نفوذها ولو خرجت من البلاد، وقد رأت ضالتها في سعد زغلول، فتحرّك ودعا إلى اجتماع في ٦ صفر عام ١٣٣٧ تمخض عنه المطالبة بالاستقلال، وتشكيل وفد للسفر إلى باريس لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح، وتشكّل هذا الوفد من سعد زغلول، وعلي شعراوي، وعبد العزيز فهمي، وقابل الوفد المعتمد البريطاني للسماح لهم بالسفر، وأخذ الإذن، إلا أن إنكلترا أرادت أن تلمّعهم بشكل أفضل، ليكونوا زعماء فعلاً، لذا فقد رفضت الحكومة الإنكليزية على لسان معتمدها في مصر بالسماح لهم بالسفر، ومنعتهم من ذلك، فأبرق سعد زغلول إلى الرئيس الأمريكي محتجاً على التصرّف الإنكليزي، ومطالباً بإلغاء الحماية، ولكنه لم يتلق جواباً، وبدأت الاجتماعات، وكُتبت العرائض، وأخذت التوقيعات تحت سمع ونظر الحكومة الإنكليزية، ثم رأت بعد هذه الحركة الشعبية التي أبرزت من تريد، أن تعطيهم صفة العداء للإنكليز كي يحظوا بالتأييد الوطني، فاعتقلت أربعة منهم هم: سعد زغلول، وإسماعيل صدقي، ومحمد محمود، وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة مالطة، وهذا ما أغضب الشعب، وأبرز هؤلاء المنفيين، وانطلقت الثورة عام ١٣٣٨،

وبتخطيطٍ اضطرت إنكلترا إلى الإفراج عن المعتقلين، فعادوا زعماء البلاد وسادته بلا منازع، وسمحت للوفد بالسفر إلى باريس، لكن خاب أملهم، إذ اعترف الجميع بالحماية البريطانية على مصر... ورجع الوفد من باريس، ورجعت معه الثورة، فأرسلت إنكلترا لجنة «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية لدراسة مطالب المصريين غير أن السكان قد قاطعوها، وقامت الاحتجاجات تأكيداً على أنهم لا يقبلون إلا الاستقلال، فقدّم «ملنر» مشروعه الذي يتضمّن الاعتراف بالحماية الإنكليزية على مصر مع تنظيم هذه الحماية، وذهب وفد للمفاوضة برئاسة رئيس الوزراء عدلي يكن، ونتيجة المفاوضات مع اللورد «كرزون» والتي منيت بالفشل انقسم رجال الوفد.، أو الذين أصبحوا يُمثلون الشعب، أو الذين حملوا اسم «الوطنيون»، واستقالت وزارة عدلي يكن.

رجعت إنكلترا إلى سياسة الإظهار للتركيز على بعض العناصر التي يجب أن يكون من بينها نصارى لتضمن سلامة نفوذها فنفت سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وفتح الله بركات، وعاطف بركات، ومكرم عبيد، وسينوت حنا إلى عدن، ثم نقلتهم إلى جزيرة سيشل، وهُيء هؤلاء لاستلام الحكم والمسؤولية على حين بقي الآخرون كجوادٍ للرهان وقت الحاجة، وبعد مدة نقلت إنكلترا سعد زغلول وحده من جزيرة سيشل إلى جبل طارق، واستدعى ذلك استمرار الاضطرابات فأدى ذلك إلى قيام مفاوضات بين عبد الخالق ثروت واللورد اللنبي، وأعلنت إنكلترا إثرها إلغاء الحماية عن مصر، وإعطاء الاستقلال، وتهيئة البلاد للحكم الدستوري وذلك في منتصف عام ١٣٤٠ وعلقت هذا الاستقلال بأربع نقاط:

١" ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية الإنكليزية في مصر.

٢" ـ الدفاع عن مصر ضد أي هجوم أجنبي.

٣" ـ حماية الأقليات والمصالح الأجنبية.

٤" ـ قضية السودان.

احتج الزعماء على هذه التحفظات، وإن كانت الحكومة قد مضت في التنفيذ، وألّف عبد الخالق ثروت الوزارة، وتشكّلت لجنة برئاسة حسين رشدي لوضع الدستور، ونودي بالسلطان فؤاد ملكاً على مصر، وكان قد خلف السلطان حسين كامل، وأعلن الدستور عام ١٣٤١، وعُدّل بعد عام، وجرت الانتخابات، وفاز حزب سعد زغلول فشكلّ الوزارة، وأصبح زعيم البلاد، وهكذا خرجت إنكلترا من مصر، وبقي نفوذها، إذ سلّمت أنصارها السلطة، فحكموا، ودوّنوا التاريخ بالشكل الذي يرتضونه بحيث كانوا يُمثّلون قمة الوطنية والإخلاص، وقبلت الأجيال التالية هذا، رغم بقاء النفوذ الإنكليزي، وغدا من كان ضدّ الإنكليز على ما يظهر متعاوناً معهم.

٢ ـ السودان:

انتشر الإسلام في السودان بشكل هادئ، وتشكّلت على أرضه ممالك وإمارات، وفي هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها كانت توجد في السودان ثلاث ممالك هي:

١" ـ مملكة الفونج: (٩١٠ ـ ١٢٣٦)، وعاصمتها سنّار.

٢" ـ مملكة دارفور: (٨٥٠ ـ ١٢٩٣)، وعاصمتها الفاشر.

٣" ـ مملكة شمالي السودان: (٩١١ ـ ١٢٣٦)، في بربر.

هذا بالإضافة إلى مملكة تقلي في بلاد النوبة.

١" ـ مملكة الفونج:

بدأ الإسلام ينتشر في مملكة «علوة» التي تسيطر على أرض الجزيرة، والتي كانت عاصمتها مدينة «سوبا» واستطاع الفونج، وهم من أحفاد الأمويين ـ على زعمهم ـ أن يصلوا في أوائل القرن العاشر إلى الحبشة وأطراف السودان، وقد أغار كبيرهم، ويُدعى «عمارة دنقس» مع زميله عبد الله جماع من قبيلة القواسمة العربية على مدينة «سوبا»، وكانت مملكة

«علوة» يومذاك تعاني انشقاقاً داخلياً بين رجالها، واستطاعا من دخول المدينة، والاستيلاء عليها، واتخذ عمارة دنقس مدينة سنار الواقعة على النيل الأزرق عاصمةً لمملكته الجديدة التي شملت كل الأراضي الواقعة ما بين النيلين الأبيض والأزرق وإلى أقدام هضبة الحبشة شرقاً، كما ضمّت منطقة البجاة في شمال شرقي السودان، أما عبد الله جماع فكان وكيلاً لعمارة في حكم السودان الشمالي حتى حدود مصر، وأسس كل من هذين الرجلين أسرة بقيت تحكم المنطقة التي تحت سلطتها حتى جاءت جيوش محمد علي من الشمال عام ١٢٣٦.

وعندما دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣ أي بعد قيام دولة الفونج باثنتي عشرة سنة، ووصلت جيوشهم إلى ميناء سواكن، وسمع الفونج بالتقدم العثماني، فظنوا أنه سينالهم، فاجتمع عمارة دنقس ملك الفونج مع وكيله على السودان الشمالي عبد الله جماع، وأرسلا رسالةً إلى الخليفة العثماني سليم الأول هذا نصها «بسم الله الرحمٰن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي، فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله، وإن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم، وتجمع منهم جزية سنوية»، وقد أرسل مع الرسالة كتاباً جمع فيه أنساب قبائل العرب الذين كانوا في المملكة، ولما وصلت الرسالة والكتاب إلى الخليفة العثماني أعجب بهما، وعدل عن فتح السودان، وقد انتشرت الثقافة في عهد الفونج، وكثر المعلمون، ودخلت الطرق الصوفية، فالشاذلية دخلت من قبل على يد محمد أبو دنانة، والقادرية أدخلها تاج الدين البهاري، والختمية أدخلها محمد عثمان الميرغني، والسمانية أدخلها أحمد الطيب بن البشير العباسي، وكان ملوك الفونج بمثابة أمراء للمؤمنين في السودان إذ يتبعهم عدد من المماليك منهم ملوك أسرة عبد الله في بربر، ومنهم ملوك الجعليين في شندي، ومنهم ملوك تقلي في دنقلة و. . . .

أرسل محمد علي والي مصر عام ١٢٣٦ جيشاً إلى السودان بقيادة ابنه إسماعيل فاستولى على «دنقلة» و«بربر» و«شندي» فعزل ملوكهم، وقضى على ممالكهم، وكان آخر ملوك أسرة عبد الله جماع هو ناصر ود عجيب، ووصل إلى «سنّار» فقضى على مملكة الفونج، وأنهى حكم آخر ملوكها وهو بادي السادس، غير أن إسماعيل أصيب بمرض فرجع إلى مصر، وفي طريق عودته أحرقه ملك شندي من الجعليين، وهو أكمل نمر، فأرسل محمد علي فرقةً انتقمت من أهل شندي حيث أحرقت المدينة، وقتلت بعض سكانها، وهاجر قسم آخر منها فانضم إلى جيش أكمل نمر الذي لاذ بالفرار إلى أرض الحبشة. وأنشأ محمد علي مدينة الخرطوم لتكون عاصمة المنطقة بدلاً من سنّار، ولم تستطع جيوش محمد علي فتح مملكة دارفور في غربي السودان فبقيت بيد ملوكها المحليين.

بقيت هذه المناطق تتبع محمد علي وأسرته من بعده، وإن كان إشراف محمد علي قد ضعف بعد عام ١٢٥٦ إثر انسحابه من بلاد الشام، ووصل إلى حكم مصر عام ١٢٧٩ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، وكان يرغب في الشهرة والدعاية لنفسه أكثر من غيره، وكانت تصبو نفسه إلى السياسة التوسعية فسار في طريقها، وكانت الدولة العثمانية آنذاك على درجةٍ من الضعف تحول دول إمكانية فرض هيبتها على المناطق البعيدة عن مركزها والتابعة لها، فتنازلت له عن سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل خليج عدن، ورأى هو أن يضمّ إليه الأراضي الواقعة إلى الجنوب من حدود دولته حيث المجرى الأعلى لنهر النيل، فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي يُدعى «صموئيل بيكر» لتنفيذ أغراضه، وأعطاه رتبة فريق في الجيش المصري، وعهد إليه بمهمة فتح الجنوب بما في ذلك أوغندا أو ما عرفت آنذاك باسم «مديرية خط الاستواء»، وكلّفه بالعمل على تنشيط التجارة المشروعة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق التي كانت تعمل إنكلترا ضدها لا بدافع الإنسانية بل للدعاية لنفسها، ومن أجل المحافظة على سياستها الاقتصادية وخاصةً الصناعة التي كانت تخشى من منافسة البضائع الأمريكية

لها، حيث كان الرقيق ينقل إلى أمريكا ويعمل هناك فتكون المواد الأولية رخيصة والتكاليف قليلة لرخص اليد الزنجية التي تعمل بالمجان بإنتاج المواد الأولية والصناعة معاً، ونسي أن بيكر لا يمكن أن يكون فيه خير لمصلحة الإسلام، حيث أرسل إسماعيل الدعاة مع الجيش بناءً على طلب ملك بوغندة. ولما انتهت مدة عقد بيكر الذي لم يؤدِّ المهمة التي أنيطت به، وإنما أدى المهمة الملقاة على عاتقه من قبل إنكلترا، فاختار إسماعيل ضابطاً بريطانيا آخر هو «غوردن» الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء ليخدم المصالح الإنكليزية كسابقه، وقد منع غوردن وصول السلطات المصرية إلى مياه بحيرة فيكتوريا خوفاً من وصول المسلمين إلى تلك الجهات واحتكاكها بأبناء البلاد والتأثير عليهم بل تركها ميداناً للتوسع الإنكليزي، وأرسل بعثةً إلى ملك بوغندة «موتيسا» تحول دون دخوله في الإسلام إذ كان قد عزم على ذلك، وتدعوه إلى اعتناق النصرانية، وبعد انتهاء مدة عقده كحاكم لمديرية خط الاستواء، عيّنه الخديوي إسماعيل حاكماً عاماً للسودان ـ مكافأةً له ـ بما في ذلك مديرية خط الاستواء، وأريتريا، والصومال ومنطقة هرر، فعمد غوردن إلى بثّ الفوضى، وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة كي يشعر أهل البلاد بفساد الحكم المصري، ويطلبوا الانضواء تحت ظل السيطرة الإنكليزية، وفرّق بين المصريين والسودانيين من جهةٍ، وبين شمالي السودان وجنوبيه من جهة أخرى، فكان يشيع بأن المسلمين هم الذين يتاجرون بالرقيق، وكل ذلك في سبيل إيجاد التوازن بين فرنسا وإنكلترا ـ على زعمه ـ إذ أن فرنسا قد زاد نفوذها بسبب قناة السويس، كما يريد أن تمدّه إنكلترا بالقروض ليسدد ما عليه من ديون، وإنكلترا تخطط لأخذ أسهم قناة السويس، وقد تمكنت من ذلك، وللسيطرة على مصر، واستطاعت فيما بعد.

هذا بالنسبة إلى السودان الأوسط والشرقي أما المنطقة الشمالية الغربية فقد كانت تتبع المملكة الإسلامية التي قامت منذ أوائل القرن السادس الهجري.

أما المنطقة الغربية فقد بدأ الإسلام ينتشر فيها تدريجياً، وتصل إليها

القبائل العربية الهاربة من الأندلس، وبعض القادمة من المشرق، إضافةً إلى هجرات قبائل أخرى كانت تقيم في منطقة أسوان، وقد اختلطت هذه القبائل كلها بالسكان، وتزوجت منهم، وعن طريقها بدأ ينتشر الإسلام، وأقاموا فيها عدة إمارات، ومن أهم هذه الإمارات تلك التي أسّسها أحفاد العباسيين الذين فروا نحو إفريقية بعد سقوط دولتهم في بغداد عام ٦٥٦ على يد المغول، وتروي كتب التاريخ أنه قد وصل إلى تونس شقيقان من أحفاد العباسيين عام ٨٢٤، ويسمى أكبرهما علياً والآخر أحمد، ثم تجولا في تلك الجهات، واستقر المقام بأصغرهما في جبل مرّة من أعالي دارفور الذي يخضع لحكم ملك وثني يدعى (شاو دورشيت)، وقد التقى بأحمد فأعجب بعقله وأدبه، فأكرمه، وطلب منه المساعدة في تسيير شؤون الحكم، فنجح أحمد بكل ما أوكل إليه من مهمة مما زاد حب الملك له فزوجه ابنته الوحيدة فولدت له ولداً أسماه «سليمان» وعرف باسم «سولونغ» أي العربي، فورث الملك عن جده عام ٨٥٠، فأسس أسرة استمرت في حكم دارفور حتى عام ١٢٩٣ حيث قضى الزبير باشا على آخر ملوكها وهو إبراهيم، وضمّ مملكته إليه، ثم أعلن تبعيتها للدولة العثمانية، وبقيت كذلك حتى سلمها حاكمها سلاطين باشا إلى جيوش المهديين عام ١٣٠٢، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين مملكة دارفور ومملكة الفونج على منطقة كردفان الواقعة بين المملكتين، وبعد هزيمة المهديين عام ١٣١٦ انتقل إلى دارفور الأمير علي دينار من أسرة سولونغ السابقة الذكر، وأعلن نفسه سلطاناً على المنطقة، وظل بها مستقلاً استقلالاً ذاتياً لقاء ضريبةٍ معلومة كان يدفعها للحكومة في الخرطوم حتى الحرب العالمية الأولى حيث اتهمه الإنكليز بالتآمر ضدهم مع جيوش ألمانيا فجهّزت له الحكومة السودانية جيشاً دخل دارفور وقتل علي دينار عام ١٣٣٤، وهو آخر ملوك الفور.

أما في الجنوب فكانت الغارات والصدامات دائمة بين السلاطين المحليين والقبائل الوثنية في الجنوب، وفي عام ١٢٧٤ اشتهر أمر أحد التجار الذي يُدعى الزبير، واصطدم مع قبائل نيام نيام، ودخل الزبير أراضي سلطان قولو في بحر الغزال فظن السلطان أن الزبير قد جاء إليه ليثأر لأخيه

منصور الذي قتله سلطان قولو فدخل في حربٍ معه، خرج الزبير إثرها منتصراً فأعلن نفسه ملكاً على بحر الغزال، واتخذ من بلدة (باية) عاصمة قولو مقراً لمملكته، وقد عرفت هذه البلدة فيما بعد باسم (دويم الزبير)، اصطدم الزبير بالتبشير النصراني الذي بدأ يغزو المنطقة، ويدعمه الإنكليز حكام السودان والذين لهم نفوذ كبير في المنطقة. دخل الزبير بلاد الرزيقات، ثم دارفور، وأعلن عن ضمّ المناطق التي تحت نفوذه كلها إلى الحكم المصري الذي يتبع الدولة العثمانية ولو اسماً، فمنحه الخديوي لقب باشا. وتضايق المستعمرون وأتباعهم من أصحاب الإرساليات التنصيرية من الزبير لإسلامه فأوغروا صدور الحكام المصريين عليه فوقع الخلاف بينه وبين إسماعيل أيوب حاكم السودان، فاستدعي الزبير إلى مصر فسيّره الخديوي إلى جبهة القتال الدائر بين العثمانيين والروس وذلك عام ١٢٩٤، وعاد بعد الحرب إلى مصر، وأقام فيها حتى قامت الثورة المهدية فاتهم عام ١٣٠٣ بالتآمر مع المهدي، فاعتقل ونفي إلى جبل طارق، ثم عاد إلى مصر بعد قضاء عامين ونصف في المنفى، ثم رجع إلى السودان ومات فيها عام ١٣٣٣، ودفن بقرية (الجبلي)، وهي مكان ولادته بمحافظة الخرطوم، على الضفة الشرقية لنهر النيل. أما دارفور فقد حكمها بعد أن غادرها الزبير ابنه سليمان الذي تعرّض أيضاً لمكائد النصارى إذ طلب منه الإنكليز الاستسلام بعد إعطائه الأمان ونُصح أبيه له من مصر بذلك، فاستسلم عام ١٢٩٧ للقائد (جس) الإيطالي الذي غدر به، وقتله رمياً بالرصاص مع سبعمائة رجل من أتباعه. وبقي من قادة الدولة الأمير رابح الذي هرب مع ألف فارس من رجاله نحو تشاد حيث أقام فيها إمارة إسلامية بقيت حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون عام ١٣١٨.

فالسودان الشمالي بلد مسلم كان يتبع مصر ويحكمه غوردن الإنكليزي، وجس الإيطالي، ويحقدان على الإسلام، ويعتمدان على الإرساليات التنصيرية، ويريدان إيجاد قواعد للمستعمرين عامة من الذين يدخلون في النصرانية من أبناء البلاد الذين لا يزال بعضهم على الوثنية وخاصةً في منطقة الجنوب، ويتخذان كل الوسائل التي تنفر من الإسلام

ومن المسلمين عامة، بل ومن المصريين، وأمام هذه الأحداث قامت حركة كرد فعلٍ لذلك هي الحركة المهدية، هذا إضافةً إلى ردّ الفعل على الأوضاع التي كانت قائمة في السودان، وعلى الحالة المتردية التي وصل إليها المسلمون من ضعفٍ، وتأخرٍ، وجهلٍ، وخنوعٍ، وتحكّم الأعداء بهم، وكردّ فعلٍ على الأعمال الصليبية التي استفحل أمرها، وأيّد الشعب لذلك الحركة المهدية رغم ما لها وما عليها، وقد أعلن محمد أحمد بن عبد الله[1] عام ١٢٩٩ في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض أنه المهدي المنتظر لبعث هذه الأمة من جديد، وإحياء مجدها، وتطبيق نظامها الإلهي، وأطلق صيحته الأولى «لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد»، فتجاوب معه الكثيرون، وهاجر هو وصاحبه عبد الله التعايشي إلى غربي السودان لجمع الأنصار وتبيان الهدف، فالتفّ حولهما الرجال، وحاولت قوات مصرية القبض عليه فتمكّن من هزيمتها، وجاءت حملة جديدة إليه ففتك بها، وعظم أمره في كردفان، واستسلمت له عاصمتها الأُبيّض، ووقع في يده ستة آلاف جندي أسرى، واستولى بعدها على دارفور بعد أن استسلم له حاكمها سلاطين باشا النمساوي الذي تولى أمرها بعد مقتل سليمان بن الزبير، ومغادرة الأمير رابح المنطقة، وقد أعلن سلاطين باشا إسلامه، ثم دخل المهدي منطقة بلاد النوبا، وأباد حملة هيكس باشا أعظم قواد الإمبراطورية الإنكليزية وذلك في موقعة (شيكان) المشهورة، وبعدها بشهر ونصف أباد حملة (بيكر) عام ١٣٠٢، وتحرك جيش المهدي نحو الخرطوم.

أشارت إنكلترا على مصر بالانسحاب من السودان إلا أن شريف باشا رئيس الوزارة قد رفض ذلك، واستقال، ورفض رياض باشا تشكيل الوزارة، فشكل الوزارة النصراني الأرمني نوبار لينفذ رغبة الإنكليز وكانت مهمة هذه الحكومة الرئيسية الانسحاب من السودان، وعهد نوبار إلى غوردن بمنصب الحاكم العام للسودان ليشرف على الانسحاب، ولكنه فشل

(١) ولد المهدي محمد أحمد بن عبد الله في قرية قرب دنقلة في ٢٧ رجب من عام ١٢٦٠، وكان أبوه يعمل في صناعة القوارب.

في مهمته، وقُتل، ودخل المهدي الخرطوم عام ١٣٠٣، وبموجب هذا الانسحاب أخليت المناطق التي تتبع السودان وهي الصومال، ومنطقة هرر، وأريتريا فأسرعت الدول الأوربية وتقاسمتها، وكان هذا هو الهدف من الانسحاب من السودان. وتوفي المهدي في أواخر عام ١٣٠٣، وخلفه عبد الله التعايشي، وكان أضعف من صاحبه، وقد ساءت الأوضاع الاقتصادية في السودان إذ جاءت سنوات عجاف.

وفي عام ١٣١٤ تشكّل جيش مصري بقيادة إنكليزية لإعادة الدخول إلى السودان، وقد تمكن من دخول أم درمان عاصمة المهديين عام ١٣١٦ بعد معركة «كرري»، وفرّ التعايشي، ولكنه قتل في معركة «أم ديبيكرات» عام ١٣١٧.

كان الفرنسيون يتوسعون من جهة الغرب، ووصلوا إلى «فاشودا» بقيادة الجنرال «مارشان» والتقوا بالقائد الإنكليزي المتجه من الشمال، وكاد الصدام يقع بين المستعمرين لولا انسحاب الفرنسيين. وأخذ السودان حدوده الحالية تقريباً، وطبق عليه الحكم الثنائي (المصري ـ الإنكليزي).

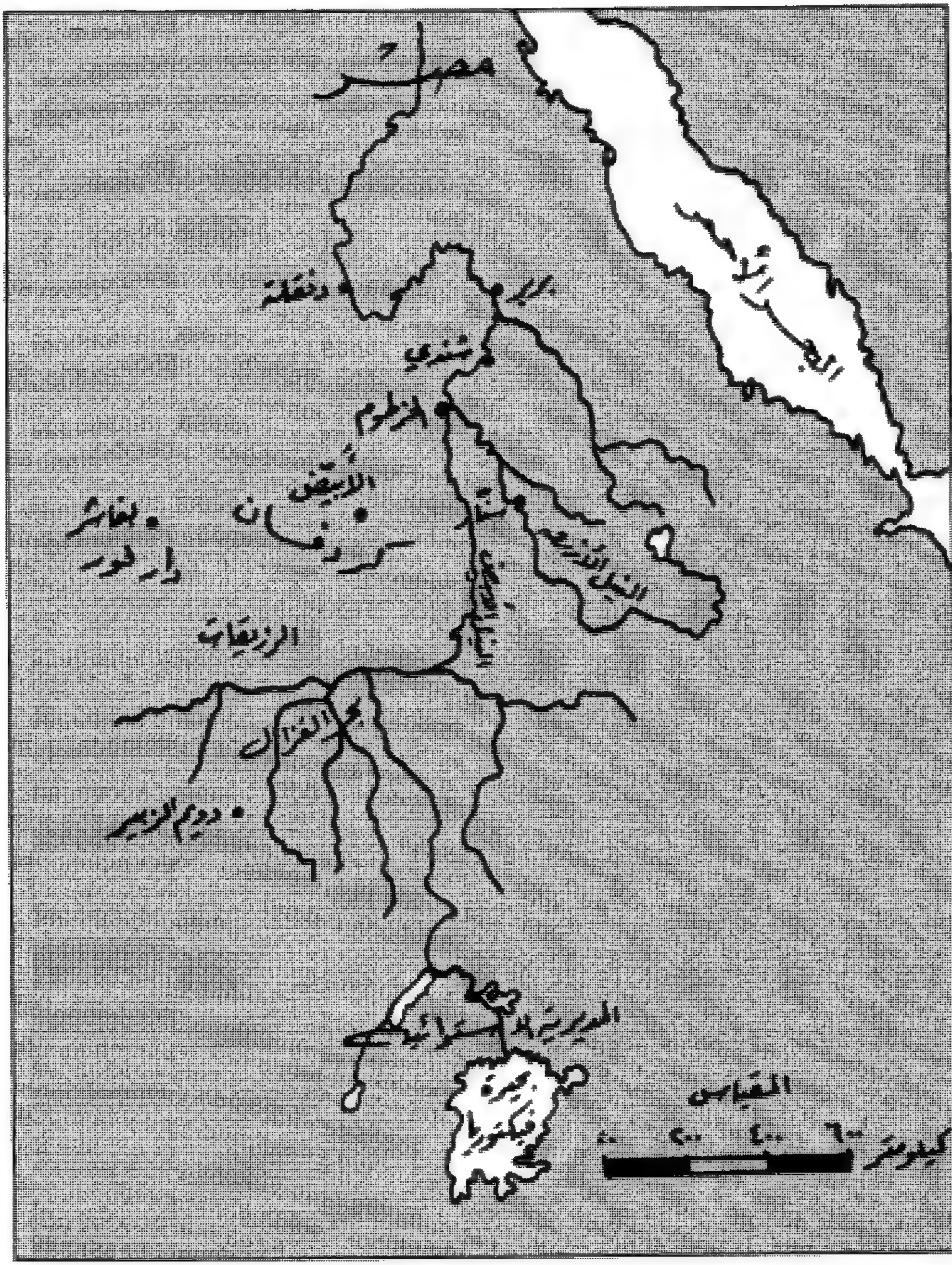
وحاول علي دينار بن زكريا من أسرة سولونغ أن يثور ضد الاحتلال، وكان قد عاد إلى دارفور بعد هزيمة المهديين، ولكنه قتل عام ١٣٣٣.

عملت إنكلترا على فصل جنوبي السودان عن شماليه، وأعطت المنصّرين حرية العمل الكاملة ودعمتهم، بل قسمت مناطق الجنوب إلى مناطق نفوذ للإرساليات التنصيرية المختلفة من كاثوليك وبروتستانت، وحاولت عزل الجنوب عن الشمال، وطردت الشماليين والفلاتة[1] والبندلة[2]. كما عملت على محو اللغة العربية، وحاولت أن تضم جنوبي السودان إلى أوغندا وشرقي إفريقية. وعملت على إهمال المنطقة كلياً، واستمر ذلك حتى الاستقلال عام ١٣٧٦.

---

(١) الفلاتة: اسم يطلق في السودان على كل القادمين إلى السودان من غربي إفريقية، والأصل مشتق من قبيلة الفولاني.

(٢) البندلة: الجماعات الذين يعودون في أصولهم إلى آباء من الشمال وأمهات من الجنوب.


مصر
دنقلة
بربر
شندي
الخرطوم
الأبيض
دارفور
الفاشر
النيل الأزرق
بحر الغزال
ديم الزبير
بحيرة فيكتوريا
المقياس
كيلومتر
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠

مصور رقم [٣٧]

الفصل الثاني

بلاد المغرب

قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة الموحدين عدة دول وهي دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة بني مرين في المغرب وأعقبتها دولة بني وطاس، وأخذت هذه الدول في الضعف التدريجي بسبب الحروب والخلافات فيما بينها وفيما بين أمرائها بعضهم مع بعض، وأهم من هذا وذاك عدم التزامها بأمر عقيدتها الذي كان يجب أن يجمعها بدلاً من أن تتفرّق، ويرفع من معنوياتها بدلاً من أن تتخاذل. وهذا الضعف قد أطمع النصارى في الأندلس فبدؤوا ينزلون على سواحل المغرب سواء أكانت الشمالية أم الغربية فاحتلّوا عدداً من الموانىء، وتمركزوا في بعض المواقع، هذا بالإضافة إلى بقية النصارى الذين اتجهوا إلى سواحل شمالي المغرب مثل فرسان مالطة الذين كانوا قد سيطروا على منطقة ليبيا، ثم جاء العثمانيون فاستطاعوا أن ينقذوا ما أمكنهم إنقاذه حتى إذا ضعف أمرهم أيضاً مع مرور الزمن عاد الصليبيون فاحتلوا بلاد المغرب ثانيةً، وتقاسموا أرضه وخيراته.

١ - ليبيا:

بعد الضعف الذي أصاب دول المغرب احتل فرسان مالطة (فرسان القديس يوحنا الأورشليمي) منطقة برقة، كما احتل الإسبان طرابلس عام ٩١٦، وقد بقوا فيها حتى تمكن (طرغول) القائد البحري العثماني من دخولها عام ٩٥٨، وقد حاولت إسبانيا احتلالها دون جدوى.

ومع الزمن وضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية التي فرضت سيطرتها على منطقة ليبيا، وإن كانت تخضع للدولة العثمانية إلا أنها كانت تتصرف تصرّف المستقل منذ عام ١١٢٣. ولما رأت الدولة العثمانية ضياع الجزائر التي احتلتها فرنسا، وتمرّد محمد علي في مصر واحتلاله بلاد الشام خشيت على منطقة ليبيا فأنهت حكم الأسرة القرمانية عام ١٢٥١، وأصبح الولاة العثمانيون أصحاب الكلمة والحكم، وعملت على ربط السكان بالعثمانيين بإثارة العاطفة الإسلامية، وإعلان الرابطة الدينية، وتبيان الأطماع النصرانية في بلاد المسلمين، وما يعانيه الجزائريون وبقية المسلمين الذين وقعوا في الفخ الصليبي، وعملت أيضاً على تحسين الأوضاع الاقتصادية وتخفيف الضرائب عن السكان، ومع ذلك فلم تسلم المنطقة من محاولات تدخل الدول الأوربية بحجة حماية الأقلية النصرانية التي وجدت في البلاد أثناء سيطرة فرسان مالطة على المنطقة.

ولقلة السكان في ليبيا فقد حاولت الدولة العثمانية نقل بعض الجماعات إليها، إذ حاولت نقل بعض العائلات الكردية بناء على اقتراح الوالي أحمد راسم باشا الذي تسلم الولاية من ١٢٩٩ حتى عام ١٣١٤، وقد أُسكنت هذه العائلات في منطقة سرته، وقُدّمت لها المساعدات لتقوم بالزراعة، ولكنها لم تتعود من قبل على هذه الأعمال ففشل المشروع، كما فشلت فكرة إدخال بعض العناصر منهم في القوات العثمانية المرابطة في المنطقة.

وكذلك فكرت الدولة العثمانية بإسكان بعض العناصر المسلمة التي تعرّضت لأبشع الأعمال الوحشية بل والإبادة من قبل النصارى في جزيرة كريت، وكذلك بعد أن انسحبت الدولة العثمانية من جزيرة كريت عام ١٣١٦، واضطر بعضهم إلى اللجوء إلى برقة وإلى الإسكندرية. وربما أقام في برقة ما يقرب من ألف أسرة من جزيرة كريت، وانصهروا مع السكان بصفتهم من المسلمين.

ووجدت محاولة لإسكان اليهود في ليبيا أيضاً، وكانت الدولة العثمانية

قد تساهلت مع اليهود، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد طردهم من الأندلس، فأساءوا كثيراً، وقد زادت أطماعهم، وظهر جشعهم في السيطرة على بعض المناطق، فلم يسمح لهم السلطان عبد الحميد بالتوسع في فلسطين، وتساهل في شأن ليبيا بناءً على اقتراح من واليها رجب باشا الذي تسلم ولايتها من عام ١٣٢٢ حتى ١٣٢٧، كان اليهود قد ظهر نفوذهم في منطقة ليبيا في القديم أيام حكم البطالسة في مصر، ثم خضعوا لضغط الرومان فقل وزنهم... ولما خرج المسلمون من الأندلس خرج اليهود معهم أيضاً، فانتقلوا إلى الشمال الإفريقي وبقية أرجاء الدولة العثمانية، وأقام منهم في ليبيا أكثر من ثمانمائة أسرة، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة التجارة سواء البحرية أم البرية، وتساهل رجب باشا مع اليهود وكان يرغب بإعطاء الأراضي لهم خوفاً من التوسع الإيطالي، ولهذا حرصت إيطاليا على طلب نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني، وقد عيّنه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد والترقي وزيراً للحربية لكنه توفي يوم تعيينه، وفقد اليهود نصيرهم فهو من جماعة الاتحاد والترقي وإن كان يعمل في السر، وكان لليهود دور في هذه الفئة التي أطاحت بالخليفة العثماني ثم بالخلافة، وربما كانوا المحركين الرئيسيين فيها، وكان مشروع رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر، وقد قامت دراسات كافية في هذا الشأن، ورغم الخلاف بين ما كان يخطط له رجب باشا وبين الطليان فإن اليهود قد دعموا الاحتلال الإيطالي لليبيا، وساعدوا على ارتكاب الأعمال الوحشية الإيطالية هناك.

كانت إيطاليا تعد تونس وليبيا مناطق نفوذ لها بعد احتلال فرنسا للجزائر، فقد هاجر عدد من الطليان إلى هذه المناطق، وأنشؤوا هناك شركات تجارية، وأقرضوا الأموال للسكان، وبنوا المدارس النصرانية لجاليتهم، وفتحوا المستشفيات لهم، وحرصوا على كسب الدعاية لهم لدى السكان، إلا أن فرنسا عملت على احتلال تونس وساعدتها الظروف السياسية على ذلك فبقيت منطقة ليبيا فوجهت إيطاليا اهتمامها إليها وخاصةً

بعد أن هُزمت في الحبشة عام ١٣١٣ في معركة (عدوة) عندما أرادت أن تتوسّع في شرقي إفريقية وتعوّض عما خسرته في تونس. وحرصت إيطاليا أيضاً أن تسلك مسلكاً سياسياً فاعترفت لفرنسا بالحماية على تونس، ووقفت بجانبها في بعض المواقف الدولية وخاصةً في مؤتمر الجزيرة عام ١٣٢٤ فوافقت فرنسا لها بإطلاق يدها في ليبيا مقابل أن تطلق يدها هي في المغرب، وكذلك كانت قد اتفقت مع إنكلترا عام ١٣٠٥ على أن تطلق يدها في ليبيا مقابل الاعتراف الإيطالي باحتلال إنكلترا لمصر، وهكذا أصبحت صاحبة اليد الطولى في منطقة ليبيا إذ لا تخشى معارضةً نصرانيةً، وانتظرت لتجد الفرصة المناسبة للعدوان على ليبيا. وفتحت إيطاليا (بنك دي روما) في ليبيا، وبدأت تقدم المساعدات للمزارعين عن طريق هذا البنك، وعندما يتعذر على الفلاحين دفع ديونهم كان البنك يستولي على أراضيهم، وأرسلت البعثات التنصيرية الكاثوليكية و.... وخافت الدولة العثمانية من هذا النفوذ الذي غدا لإيطاليا في ليبيا، وعرفت ما تضمره إيطاليا، فأرسلت المزيد من القوات والأسلحة إلى ليبيا، فاحتجّت إيطاليا، وأرسلت إنذاراً إلى الدولة العثمانية تطلب فيه أن تتخلّى الدولة العثمانية عن ليبيا لإيطاليا خلال أربع وعشرين ساعة، وقد ساعد إيطاليا على إرسال ذلك الإنذار الضعف الذي حلّ بالدولة العثمانية إثر الانقلاب الذي أطاح بالخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، ومجيء جماعة الاتحاد والترقي إلى الحكم، وقد لمست إيطاليا هذا الضعف تماماً، والمخطط الذي يسير فيه رجالات الاتحاد والترقي سواء الذين كانوا يعرفون ما يخطط لهم أم الذين لا يعرفون وإنما يسيرون كالأعمى رغم أن بعض هؤلاء العميان كانوا على درجةٍ من القوة بحيث يصبح الآخرون في شك مما يثار حول جماعة الاتحاد والترقي.

حاولت الدولة العثمانية أن توسط الدول الأوروبية النصرانية لكنها أظهرت أنها تقف على الحياد أو بالأحرى بجانب القوي، ومع انتهاء مدة الإنذار، وهي أربع وعشرون ساعة، أرسلت إيطاليا أسطولها فضرب مدينة

طرابلس، ثم احتلها، واحتل أيضاً مدينة بنغازي في برقة، كما دخلت مدينة طبرق، وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً ليساعد السكان على المقاومة. غير أن إيطاليا قد وسّعت نطاق الحرب كي تجبر الدولة العثمانية على الاعتراف رسمياً باحتلال إيطاليا لليبيا، وتسحب جيوشها منها، فاحتلت الجُزر القريبة من سواحل الأناضول، ورودوس، وأرسلت أسطولاً ضرب بيروت عام ١٣٣٠، وهددت مضائق البوسفور والدردنيل، وحرّضت سكان البلقان على القيام بحركة ضد العثمانيين، وهذا ما أجبر الدولة العثمانية على عقد معاهدة (أوشي) مع إيطاليا قرب لوزان، تنازلت فيها عن ليبيا لإيطاليا غير أن بعض المجاهدين قد بقوا في ليبيا ومنهم بعض القادة، وتولّى السنوسيون المقاومة برئاسة أحمد شريف السنوسي، ومع أن الإيطاليين لم يتمكّنوا من السيطرة إلا على المناطق الساحلية غير أن نفوذهم بدأ يمتد مع الزمن، وسيطروا في النهاية على البلاد.

٢ ـ تونس:

بقيت الدولة الحفصية حتى بداية هذه المرحلة إلا أن الضعف قد بدأ ينتابها من كل ناحيةٍ، وتولّى أمرها آنذاك الحسن الحفصي الذي كان يميل إلى ملك النمسا شارلكان، الأمر الذي جعل السكان ينقمون عليه، ويستنجدون بالعثمانيين الذين كان نجمهم في تألّقٍ وقوتهم في ازدياد. فاستدعى الخليفة العثماني سليمان القانوني أمير البحر خير الدين باشا بربروس إلى إستانبول عام ٩٤٠ ليتفق معه على اتخاذ ما يجب عمله لصدّ هجمات أمير البحر (أندري دوريا) الجنوي، فسافر إليه مع بعض السفن، وما أن وصل إلى إستانبول حتى كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد اتجه إلى محاربة الصفويين، واستقبل الخليفة سليمان أمير بحره خير الدين وكلّفه بإنشاء السفن الكافية والاستعداد لفتح تونس، فامتثل خير الدين وعمل طيلة فصل الشتاء ببناء السفن اللازمة، وفي صيف عام ٩٤١ سافر الخليفة متجهاً إلى الشرق ناحية تبريز، وسافر خير الدين نحو الجنوب عبر مضيق الدردنيل متجهاً نحو مالطة وجنوبي إيطاليا لمنازلة أساطيل الدول النصرانية المتمركزة

هناك، وفي الواقع ليعمّي عن هدفه في تونس، ثم قصد تونس عام ٩٤٢، وأعلن للسكان أنه قادم لعزل السلطان مولاي الحسن الحفصي لصلته بالدول النصرانية وعلاقته بشارلكان، فاستقبله السكان، ورحبوا به، فاستولى بسهولة على تونس، وتسلّم قلعة حلق الواد باسم الخليفة العثماني سليمان القانوني.

استنجد السلطان مولاي الحسن الحفصي بالنصارى، فاتفق شارلكان مع البابا، وأمراء إيطاليا، ورهبنة القديس حنا الأورشليمي في مالطة، وجهّز شارلكان أسطولاً كبيراً، وانطلق بنفسه من برشلونة مع بعض الأمراء الإسبان، واستطاع أن يستولي على تونس، وأن يُعيد السلطان الحفصي إلى حكمه، فسلّمه الحفصي قلعة حلق الواد، وأصبح خاضعاً له، وعندما دخل شارلكان تونس بعد حصار دام أكثر من شهر سمح لجنده أن يتصرّفوا كما شاءوا فنهبوا، وسلبوا، وفتكوا، وارتكبوا أبشع الأعمال الوحشية والمحرمات ثم منعهم بعد ثمانية أيام من ارتكاب هذه الأعمال التي لم تسلم المساجد والكتب منها، وبعد مدة كتب معاهدةً مع الحفصي كلها خزي، إذ تنازل له فيها عن حلق الواد، وبنزرت وعنابة، وضريبة سنوية، وغرامة حربية، والسماح للنصارى بالإقامة في تونس، وهذا ما جعل السكان يكرهون سلطانهم بصورة أشد من كرههم له في السابق بل إلى حقدهم عليه، وما أن غادر شارلكان تونس حتى عادت الفوضى السياسية إلى ذلك الجزء، ولم يكن ما تركه شارلكان من جند في تونس كافيةً لدعم سلطان الحفصيين إذ ترك ألف جندي إسباني وبعض السفن في حلق الواد.

تمكن الوالي العثماني (طرغول) في طرابلس أن يحتل قفصة عام ٩٦٣، ثم القيروان ٩٦٥، وأرسلت إسبانيا عام ٩٦٨ أسطولاً للحدّ من نشاطه لكنه تحطّم، واستولى العثمانيون على مالطة عام ٩٧٣، واستطاع والي الجزائر علوش باشا دخول تونس، ثم خرج منها، وأخيراً دخل سنان باشا تونس عام ٩٨١، وبقي فيها العثمانيون بعد ذلك.

وعندما غادر سنان باشا تونس ترك فيها والياً ممثلاً للخليفة اشتهر بلقب باي (بيلرباي)، ويساعده ديوان استشاري مؤلف من عسكريين يُمثّلون

الفرق العسكرية هناك، ويلقب كل منهم بـ(الداي) إضافةً إلى موظف الشؤون المالية، غير أن الدايات قد سيطروا على الباي منذ عام ٩٩٩، وتفرّدوا بالسلطة حتى عام ١٠٥٠ مع وجود الباي، وكان الدايات ينتخبون من بينهم الداي الذي يسند إليه الحكم.

وتمكّن الباي بالاستعانة مع رؤساء القطاعات العسكرية على فرض السيطرة على الداي عام ١٠٤٧، وتمكّن إبراهيم عام ١٠٥٠ من الحصول على لقب باي من الخليفة العثماني بعد سيطرة من معه من الدايات عليه، وأسس أسرة حكمت البلاد إذ نقل الحكم إلى ابنه وهو لا يزال على قيد الحياة، وبقيت هذه الأسرة حتى عام ١١١٤ حيث انتزع الحكم منها إبراهيم الشريف بانقلاب عسكري، وحصل من الديوان على لقب (داي) على حين منحه الخليفة لقب (باي) وهكذا حصل على السلطتين العسكرية والمدنية، وتوفي عام ١١١٧، وخلفه حسين بن علي التركي الذي حصل على لقب (باي) من الخليفة، وتنازل عن لقب داي، وأسس أسرةً هي التي عُرفت باسم الأسرة الحسينية التي بقيت تحكم البلاد بشكل شبه مستقل حتى عام ١٣٧٧، وبناء على قرار المجلس المحلي عام ١١٢٢ تنتقل السلطة إلى أكبر الأولاد سناً في أسرة حسين بن علي التركي. واستطاعت هذه الأسرة أن تقضي على تسلّط (الدايات) أو زعماء الإنكشاريين إذ أنهت دورهم، وسلّمت الوظائف الإدارية إلى المماليك الذين هيأتهم لهذا، ومع اختلاف أفراد العائلة بعضهم مع بعض إلا أن حكمهم قد استمر، ووقف في وجه دايات الجزائر الذين أرادوا التدخل في شؤونهم الداخلية.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٥ احتجت الدولة العثمانية على ذلك، وأرادت أن تستعيد ولاية الجزائر بالمفاوضات السياسية غير أنها قد عجزت فلجأت إلى الطريقة العسكرية، فتخلصت من الأسرة القرمانية في ليبيا عام ١٢٥١، وأرادت أن تقضي على الأسرة الحسينية في تونس لتكون على مقربة من الجزائر غير أن فرنسا قد هددت بذلك، وكلما اتجه الأسطول العثماني من ليبيا نحو تونس تحرّك الأسطول الفرنسي من الجزائر

نحو الشرق... وكانت فرنسا تعامل بايات تونس كحكام مستقلين، وكان هذا يثير احتجاج الدولة العثمانية، والواقع أن النفوذ الفرنسي كان واسعاً في تونس منذ دخول العثمانيين إليها، إذ كانت فرنسا يومذاك على صلةٍ حسنةٍ مع العثمانيين وخاصةً في مواجهة شارلكان ملك النمسا، لذا فقد حظي القنصل الفرنسي والنصارى عامة بامتيازات واسعة.

حاول الباي في تونس النهوض بالبلاد، ولكنه اعتمد في ذلك على الديون الأجنبية، إذ كانت فرنسا تمده بالقروض، وهي تعلم أنه سيعجز عن سدها، وهذا ما يفسح لها المجال للتدخل في شؤونه، وبالفعل فلم يستطع السداد فأرسلت لجنةً ماليةً لمراقبة المالية التونسية. وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ اعترفت فرنسا لإنكلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس، كما أن بسمارك الوزير الألماني قد شجع فرنسا على العمل بتونس لتتوجه قواتها خارج القارة الأوروبية، ولا تتمكن من الثأر مما لحقها من هزيمةٍ أمام ألمانيا، وتخليها لها عن الألزاس واللورين.

جرت اعتداءات على الحدود أو ادعت فرنسا أن قبيلة تونسية قد اعتدت على بعض المواقع الفرنسية عام ١٢٩٨ فجهزت حملةً اجتازت الحدود، واتجهت إلى تونس فحاصرتها، ثم استولت عليها، وأجبرت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة باردو عام ١٢٩٨ يعترف فيها لفرنسا باحتلال المواقع المهمة على الحدود والسواحل، وإقامة مستشار فرنسي للباي في تونس، وعدم عقد أية معاهدة دون موافقة فرنسا، غير أن المقاومة قد بدأت، وقامت ثورة في القيروان عام ١٣٠٠ قمعتها فرنسا بالوحشية، وأجبرت الباي على توقيع معاهدة جديدة في باردو أيضاً يعترف فيها بالحماية الفرنسية على تونس، وأبقت فرنسا الباي لتتصرف باسمه كما تشاء فتخفف النقمة ما دام الباي مسلماً، وفي الواقع لم يكن سوى صورة.

تشكل حزب تونس الفتاة عام ١٣٢٦ الذي أخذ يدعو إلى الاستقلال، فقاومته فرنسا فاضطهدت أعضاءه ونفت رئيسه إلى خارج البلاد، ثم أقدمت على حل الحزب نهائياً، ثم تشكل الحزب الحر الدستوري، وذهب وفد

عام ١٣٣٧ إلى باريس برئاسة عبد العزيز الثعالبي للمطالبة بحق تقرير المصير، ولكنه خُذل كغيره، واستمر الحكم الفرنسي يضطهد السكان، والمقاومة تشتعل في النفوس ولم تستطع الظهور وفعل شيء، وإن تجرأت وقامت نكّل بها الفرنسيون أشد تنكيل.

٣ ـ الجزائر:

كانت تعرف بالمغرب الأوسط، وقد حكم هذا الجزء بعد تفكك دولة الموحدين بنو عبد الواد أو بنو زيان، وكان مقرهم في مدينة تلمسان، وقد ضعف أمرهم بعد عام ٧٩٦، فكان يسيطر على منطقتهم بنو حفص في تونس، أو بنو مرين في المغرب الأقصى أو يقوى أمر بني زيان فيحكمون مستقلين لمدة من الزمن، واستمر هذا الأمر حتى عام ٩٤٠، وكان الإسبان في الأندلس قد قوي أمرهم فبدؤوا بالاستيلاء على موانئ البحر المتوسط الإفريقية، وزاد أملهم بحكم شمالي إفريقية وأخذها من يد المسلمين بعد الاستيلاء على غرناطة، وطرد المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وكانوا قد احتلوا موانئ وهران، والجزائر، والمرسى الكبير، وبجاية، وقامت سفن قراصنتهم تلاحق المسلمين الأندلسيين الذين فرّوا إلى شمالي إفريقية، وقد وجد عند مسلمي شمالي إفريقية ومن جاءهم من الأندلس محاولة ردّ الفعل ضد الحقد الصليبي، وبدؤوا يغيرون على سواحل الأندلس فنشأت في ذلك البحر حروب بين المسلمين والنصارى أطلق النصارى على عمليات المسلمين منها اسم القرصنة، وجاء العثمانيون بحراً إلى المنطقة، ورحب المسلمون في شمالي إفريقية بهذا المجيء ترحيباً كبيراً ما دام القتال مستعراً بين المسلمين والنصارى، والعثمانيون مسلمون، وعلى صراع مع نصارى أوروبا عامةً.

وبدأ المغامرون يمتلكون سفناً خاصةً يغيرون بها على خصومهم، ومن هؤلاء الأخوان عروج وخير الدين اللذين كانا من النصارى، ثم اعتنقا الإسلام، وعملا ضد الإسبان خاصةً، وضد النصارى عامةً. وتقرّب عروج

من السلطان الحفصي فدعمه وقدم له موانئه يتخذها قواعد له، وتمكّن عروج أن ينتصر على الإسبان في عددٍ من المعارك البحرية، ودعمه الأهالي، وشجعوه وخاصةً الذين يقيمون في الداخل، واستطاع أن يسترجع ميناء بجاية من الإسبان، وهذا ما رفع من شأنه فنقل مقره من تونس إلى ميناءٍ صغيرٍ يقع إلى الشرق من مدينة الجزائر، وطلب منه حاكم مدينة الجزائر (سالم السالمي) أن يساعده ضد الغزو النصراني الإسباني، فاستجاب لطلبه وصدّ هجوماً نصرانياً على الجزائر عام ٩٢٢، ثم رأى أن تفرّق الأمراء في المغرب الأوسط، وصغر إماراتهم، وخلاف بعضهم مع بعض، الأمر الذي يجعل بعضهم يستنجد بالنصارى ضد بعضهم الآخر لذا قرّر أن يتخلّص من هؤلاء الأمراء المحليين، ويُشكل حكماً واسعاً يمكنه الوقوف أمام النصارى وحقدهم الصليبي الشرس، فبدأ بحاكم مدينة الجزائر فأنهى حكمه وتسلّم مكانه، وأصبحت مدينة الجزائر قاعدته البحرية، ومركز حكمه، وذلك عام ٩٢٣، ثم اتجه نحو الداخل ليستولي على الإمارات القائمة هناك، وكان أكبرها إمارة بني زيان في تلمسان، وأميرها (أبو حمو)، ورعيته يكرهونه لأنه يمدّ يده إلى النصارى الإسبان، وقد أصبحت جماعة من رعيته يجاهرونه العداء فاتصلوا بعروج فسار إليهم ودخل مدينة تلمسان، غير أن (أبو حمو) قد اتصل بالإسبان بعد أن فرّ إليهم فجاءوا بقوة إلى تلمسان وتمكّنوا من دخولها بعد حصار، وفتكوا بالحامية التي فيها، واستطاع عروج أن يفرّ غير أن الإسبان قد لاحقوه وقتلوه.

وكان عروج وأخوه خير الدين قد قدّموا للخليفة العثماني سليم الأول سفينة من التي غنموها إشارة إلى خضوعهم له فقبلها، وعدّهم ولاةً له على المغرب الأوسط ومدّهم بقوةٍ صغيرةٍ من القوات العثمانية، وبعد قتل عروج كان خير الدين في الجزائر فطلب عام ٩٢٤ دعماً من الخليفة فأمده بألفين من الجند، وأصدر أمراً بالسماح للمسلمين بالتطوّع في قوات خير الدين، وشجعهم على ذلك، فانخرطت أعداد معه لقتال الصليبيين، وعدوا ذلك جهاداً، وإن كانت أعداد أخرى من السودانيين قد تطوّعت معه أملاً

بالغنائم، ووقفت في وجه خير الدين الإمارات، وأصحاب النفوذ، ومنهم بنو زيان الذين عاد نفوذهم، والحفصيون الذين استعانوا بالنصارى، والإمارات الصغيرة، وزعماء البربر، وكان عليه أن يحاربهم جميعاً، وكاد أن يقع أسيراً بأيدي الحفصيين، كما كان عليه أن يحارب الدول الصليبية التي خافته، وقد أرهب أساطيلها، كما عليه أن يسترجع الموانئ التي بقيت بأيدي الإسبان وخاصةً وهران التي ظلّت بأيدي الإسبان حتى القرن الثاني عشر الهجري، وفي عام ٩٣٦ أصبحت منطقة المغرب الأوسط نيابةً عثمانيةً بعد أن استطاع خير الدين أن يفتح حصناً للإسبان مقابل مدينة الجزائر، وأصبح اسم الجزائر منذ تلك المرحلة يطلق على المغرب الأوسط، وأصبح خير الدين يعمل لضم تونس إلى الجزائر غير أن الإسبان قد احتلوا تونس بالتعاون مع الحسن الحفصي، وكان الصليبيون يخشون توحيد بلاد المغرب لذا فقد بذلوا جهودهم مجتمعة للحيلولة دون ذلك، وعيّن الخليفة العثماني خير الدين قائداً عاماً للأسطول العثماني مكافأةً لما قام به من جهود في الوقوف ضد الصليبيين وخدمة الدولة العثمانية.

كانت جهود خير الدين مقتصرة على الأجزاء الشمالية من الجزائر إلا أن الذين خلفوه قد توسعوا نحو الجنوب، ووضعوا حاميات عثمانية في المدن الداخلية حتى مدينة بسكرة التي كانت تقيم بها حامية عثمانية، كان حاكم الجزائر يُعرف باسم (بيلر بك) أي رئيس البكوات فهي ليست بمنزلة الولايات الرئيسية لأن هذه يحكمها والٍ برتبة باشا، ولكن عندما انفصلت تونس عام ٩٩٩، وأصبح يحكمها داي مرتبط مباشرةً باستانبول، استبدلت الدولة العثمانية حكمها في الجزائر، وأصبح يحكمها باشا لمدة ثلاث سنوات، واستمر ذلك حتى عام ١٠٧٠، إذ أصبح الوالي ضعيفاً أمام رؤساء الجند (الدايات) حتى تمكّن مجلس الدايات أن يُعيّن أحد أعضائه حاكماً على الولاية، إلا أن هؤلاء الدايات قد تنازعوا على السلطة فلم يستمروا كثيراً إذ غلب عليهم رؤساء البحرية، وهم من غير الانكشارية، وإن حملوا لقب (دايات) أيضاً، وإن كان هو اللقب الرئيسي لزعماء البحرية، ومع

سيطرة الدايات إلا أن الخليفة العثماني استمر في إرسال الولاة (الباشوات) كل ثلاث سنوات، ولكن طرده الداي عام ١١٢٢، وهكذا لم يبق ولاة عثمانيون، وإنما الداي أصبح هو المتصرف الوحيد بالولاية، واستمر ذلك حتى جاء الفرنسيون عام ١٢٤٦، وإن كان الدايات قد حملوا لقب باشا رفعاً لمنزلتهم.

كانت ولاية الجزائر قويةً وخاصة من الناحية البحرية إذ كان أسطولها يفوق أي أسطول في البحر المتوسط، لذا فقد أجبرت الدول النصرانية على دفع جزية للجزائر، وكانت تتسابق للصداقة معها. ثم ثارت الصليبية لهذا الوضع، وعملت على التحالف ضد الجزائر، فتحالفت إنكلترا وهولندا، وعملتا على مهاجمة الأسطول الجزائري عام ١٢٣٠، ثم هاجم الأسطول الإنكليزي وحده الجزائر عام ١٢٤٠، ثم اتفق الأسطولان الإنكليزي والفرنسي، وغدرا بالأسطول الجزائري عام ١٢٤٢، وغدت الجزائر دون أسطول يحمي سواحلها، وهذا ما أطمع الدول النصرانية وخاصةً فرنسا التي فقدت مستعمراتها أثناء حروب نابليون والمنافسة الاستعمارية، فأرادت أن تعوّض عن بعضها باحتلال الجزائر، وتوجيه الشعب نحو الخارج بسبب إخفاق الحكومة في سياستها الداخلية، هذا التوجه الفرنسي نحو الجزائر وجد تشجيعاً من قبل دول أوروبا النصرانية.

كانت فرنسا أثناء أزمتها أيام الثورة الفرنسية وبعدها قد اشترت القمح من الجزائر بديون مؤجلة، ولكن مرت الأيام، ولم تف فرنسا ديونها، ولم تستمع إلى المطالبة، وفي عام ١٢٤٢ جاء القنصل الفرنسي لقصر الداي للتهنئة بمناسبة عيد الفطر، فسأله الداي عن عدم ردّ ملك فرنسا على رسالة الداي فأجابه بأنه ملك، ويجب مخاطبته عن طريق الخليفة، فغضب الداي، وطلب منه الخروج من القصر، فكتب القنصل إلى فرنسا بأنه أُهين في حضرة الداي، فاتخذت فرنسا هذه الحادثة ذريعةً واتجهت بقواتها نحو الجزائر، وحاصرت السواحل، ولم تجد الوسائل السياسية في حل هذه الأزمة لأن فرنسا مصممة على احتلال الجزائر، وأكملت الإعداد اللازم عام

١٢٤٦، فأرسلت ١٠٢ سفينة بحرية، و٤٠٠ سفينة نقل تحمل ٤٠ ألف جندي، ونزلت هذه القوة على البر، واحتلت (سيدي فرج)، وهُزمت القوات الجزائرية رغم المقاومة العنيفة التي أبدتها، واضطر الداي إلى الاستسلام وترك مدينة الجزائر متجهاً إلى الإسكندرية. وبعدئذٍ اتجه الفرنسيون إلى بقية الولايات، فدخلوا وهران بعد أن انتصروا على واليها العثماني حسن بك عام ١٢٤٩، وقسنطينة عام ١٢٥٣ بعد مقاومة واليها أحمد بك حتى هذه المدة كلها، وانتهى الفرنسيون من احتلال الجزائر كافةً عام ١٢٥٥، أي لم يتمكن الفرنسيون من القضاء على المقاومة حتى بعد مرور تسع سنوات كاملات.

حاولت فرنسا إسكان الكثير من الفرنسيين في الجزائر لدعمهم لها، وليكونوا عيوناً لها، وأعطتهم أفضل الأراضي وأكثرها خصوبةً ليشعروا بأهمية ما قُدّم لهم فيكونوا مخلصين لحكومتهم، ولإفقار الجزائريين فيصيبهم الذلّ فيخضعون، ولنشر المفاسد، وقد حاولوا إفساد المرأة المسلمة وخلعها من مجتمعها الإسلامي.

وقفت القبائل في الجزائر بوجه الاستعمار الصليبي الفرنسي، وقادها الشيخ محيي الدين الحسني أحد رجال الأشراف واستمرت قيادته مدة عامين (١٢٤٦ - ١٢٤٨)، ثم تنازل لابنه عبد القادر الذي أعلن الجهاد، إذ بيّن أن هذه الحرب دينية، فدعمه السكان لذا لم تتمكّن فرنسا من الولوج إلى الداخل، وإنما انحصر استعمارها في الساحل.

لجأت فرنسا إلى سياسة المفاوضات فعقدت معاهدة مع الأمير عبد القادر عام ١٢٥٠ أعلنت فيها عن انسحابها من ولاية وهران باستثناء المدينة نفسها، لكنها عادت فنقضت العهد عام ١٢٥١ لخلاف جرى في معسكر عبد القادر لكنها هُزمت، وجددت المعاهدة عام ١٢٥٣، ثم استأنفت القتال بعد وصول النجدات لها، وإحراق الأرض لإرهاب السكان فاضطر عبد القادر إلى الهرب إلى المغرب، فحارب الفرنسيون سلطان المغرب، وهزموه، وأجبروه على طرد الأمير عبد القادر من البلاد، فاضطر

إلى ذلك عام ١٢٦٠، رجع الأمير عبد القادر إلى الجزائر، وانقض على الفرنسيين عام ١٢٦٢، ولكنه اضطر إلى الاستسلام عام ١٢٦٣، فحُمل إلى فرنسا فبقي فيها حتى عام ١٢٧٠، حيث نفي إلى بلاد الشام، وبقي فيها حتى توفي عام ١٣٠١، وتتضارب الأقوال حول وجوده بالشام، هل كان نفياً أم كانت له مهمة يؤديها للفرنسيين بعد أن أثروا عليه وغيّروا فكره في باريس؟ وقد حمى النصارى في الشام عام ١٢٧٦.

أعلنت فرنسا أن الجزائر جزءاً منها، ولكن رفض هذا الجزائريون وبقوا في مقاومتهم، إذ كانت القبائل هي التي تتولّى القتال، ولكن ـ مع الأسف ـ بصورة متفرقة فلم يكن هناك تخطيط، ولا محرك، ثار بنو سناسن عام ١٢٧٦، وأولاد سيدي الشيخ جنوب وهران عام ١٢٨١، ومحمد المقراني عام ١٢٨٨، وأولاد أبي عمامة عام ١٢٩٩، وبنو زيد عام ١٣٣٤ وقادهم الحاج سعيد بن عبد اللطيف، وكانت كل هذه الحركات إسلاميةً، وبعد الحرب العالمية الأولى شكّل خالد بن الهاشمي بن عبد القادر الجزائري وفداً إلى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة بالاستقلال ولكنه خذل كغيره، واضطر لمغادرة البلاد إلى دمشق، وبقي حتى توفي فيها عام ١٣٥٤.

واستمر العمل ضد الفرنسيين إلى نهاية المرحلة ويأخذ أحياناً جانباً سياسياً للمطالبة بتعليم اللغة العربية، والاهتمام بشؤون المسلمين، واستقلال البلاد، وإزالة أعمال العدوان، ومنع الظلم غير أن الاضطهاد كان غالباً ما ينال أولئك الذين ينادون بمثل هذه الأفكار أو يدعون لها.

٤ ـ المغرب:

بعد تجزؤ دولة الموحدين حكم بنو مرين في المغرب الأقصى، وإن كان نفوذهم يمتدّ أحياناً كثيرةً إلى المشرق، ثم خلفهم عام ٨٢٣ بنو وطاس، واستمرّ أمرهم حتى عام ٩١٦، وفي أيامهم احتلّ البرتغاليون شواطئ المغرب، فتضايق المسلمون من هذا التوسّع الصليبي، وخاصةً أن

النصارى من إسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس، ونكّلوا بهم أشدّ تنكيل، وانطلقت جموع من المسلمين شاردةً هائمةً على وجهها نحو المغرب، فتأثّر المسلمون لما حلّ بإخوانهم، وخافوا على أنفسهم أن يُصيبهم ما أصاب الناس في الأندلس، فسقطت أسهم بني وطاس، وبدأ التفكير الدائم فيمن يقود الناس للوقوف أمام هذا المدّ الصليبي الزاحف، واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله الذي كان يُقيم في وادي درعة جنوب بلاد السوس قريباً من حدود المغرب اليوم مع الصحراء المغربية، وقد كان يُفكر في إنقاذ المغرب، ويحلم بذلك، ويُعلن عن حلمه للملأ، ويدّعي أنه يعود في نسبه إلى محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار على العباسيين في المدينة عام ١٤٥، وهُزم، فتفرّقت أسرته ووصل بعضها إلى المغرب، ومنها الأدارسة الذين أسّسوا دولتهم هناك عام ١٧٢[1]، ومع عرضه لنفسه وتفتيش الناس عن مُنقذٍ، اتجهوا إليه وبايعوه عام ٩١٦، فأعلن الجهاد ودعا الناس إلى القتال فالتفّوا حوله، فأنهى حكم بني وطاس، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المراكز التي بقوا في بعضها اثنتين وسبعين سنة، وساعده ولداه أحمد المعروف بالأعرج، ومحمد المهدي المعروف بالشيخ، وبعد وفاة أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله خلفه ابنه أحمد الأعرج.

كان العثمانيون يدعمون السعديين، ويحثّونهم على قتال الصليبيين، ويُقدّمون لهم المساعدات، ويُشجّعونهم على العمل معاً لاستعادة الأندلس، وبتلك المساعدات تمكّن السعديون من دخول فاس عام ٩٥٥، غير أن النصارى عندما علموا بذلك التفكير لدى المسلمين عملوا على الإيقاع بين الطرفين، فنقلوا معلومات عن طريقٍ يظهر أنه لا علاقة لهم به يتحدثون رجماً عن نية العثمانيين في احتلال المغرب، فوقعت الشكوك عند سلطان

---

(١) هناك من ينسب السعديين إلى قوم حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، ومنهم من يجعل نسبهم يتصل بسعد بن عبادة سيد الأنصار، رضي الله عنه - والله أعلم -.

السعديين أحمد، وكان حسن بن خير الدين بربروس قد احتلّ تلمسان عام ٩٥٢، وبدأ يتوسع نحو الجنوب، فأصبح الشك عند السلطان يقيناً، فقرّر انتزاع تلمسان من العثمانيين، وشجّعه النصارى على ذلك، ودعموه بكل إمكاناتهم، فسار إلى (وجدة) واحتلّها، ثم انطلق نحو تلمسان، وأخذها من أيدي العثمانيين عام ٩٥٥ بعد أربعة أشهر فقط من دخولهم فاس بمساعدة العثمانيين، وهذا ما أوغر صدر العثمانيين، إذ رأوا أن السعديين حلفاؤهم، أصبحوا حلفاء للصليبيين الذين فعلوا بالأندلس ما فعلوه، لذا يجب مراجعة الحساب، فبدأ الخليفة العثماني سليمان القانوني يستعدّ للعمل في المغرب من جديد على نهجٍ آخر.

١ ـ عزل والي الجزائر حسن بن خير الدين باشا، وولى مكانه صالح باشا.

٢ ـ بدأت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والمغرب جزء صغير أمام الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء.

٣ ـ عمل على الاتصال بأمراء بني وطاس الذين زال ملكهم ولا بدّ من أن تكون لهم أطماع في استعادة ذلك الملك.

٤ ـ عزّز القوات العثمانية بالجزائر بقواتٍ بريةٍ وأسطولٍ قوي.

وبعد خمس سنوات من الاستعداد تقدّم العثمانيون من الشرق، وأعلنوا ضمّ المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية، ووصلوا إلى فاس، وخُطب للخليفة العثماني على المنابر مرةً واحدة وذلك عام ٩٦١، وكان قد اغتيل السلطان السعدي أحمد وقام مكانه أخوه محمد باسم المتوكل على الله، فوطّد علاقته مع الإسبان والبرتغاليين، ووقّع معاهدةً مع البرتغال تنصّ على إرسال جيشٍ مغربي ـ برتغالي لإخراج العثمانيين من الجزائر، وتعمل البرتغال على تسليح الجيش المغربي، واتهم الصليبيون العثمانيين بأنهم كانوا وراء اغتيال السلطان السعدي، وأسرع العثمانيون فأرسلوا وفداً للمفاوضة غير أن السلطان السعدي الجديد لم يحسن اللقاء للوفد، بل

وهدّد العثمانيين بإخراجهم من إفريقية كلها، وكان العثمانيون قد خرجوا من المغرب أمام مقاومة السكان الذين شُحنوا بكراهية العثمانيين نتيجة الدعاية الصليبية التي بدأت تصل إلى المغرب بصفة البرتغاليين والإسبان على صلة بالحكم السعدي ونتيجة الأراجيف التي بثّها أولئك النصارى.

بدأ العثمانيون يستعدّون لجولةٍ ثانيةٍ حيث خافوا أن تقع المغرب بأيدي الصليبيين بعد أن كانوا يُفكّرون في استعادة الأندلس، فاتصلوا بأمراء بني وطاس، والفرقة التركية التي تعمل في جيش السعديين، ووزّعوا السلاح، وقد التجأ إليهم ولدا السلطان السعدي السابق إذ عدّا عمهما قد اغتصب الملك منهما، وهما عبد الملك، وأحمد المنصور الذهبي، واستمرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كي تخفّف من أراجيف النصارى وشائعاتهم.

أثار العثمانيون الفرقة التركية فأعلنت التمرّد، ونزلوا في جزيرة باديس على شواطئ المغرب الشمالية، وتوغّلوا في داخل المغرب حتى أصبحوا على مقربةٍ من مشارف مدينة فاس، فاتجه السلطان السعدي إلى النصارى، وسلّم الفرنسيين مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبتة وطنجة عام ٩٦٦، وأعلن عن تقديم جزيرة باديس التي نزل فيها العثمانيون للفرنسيين ليقع الصدام بين الطرفين، وتعرّض السلطان المغربي للاغتيال، وعاد العثمانيون للانسحاب.

وعندما هُزم العثمانيون عام ٩٧٨، وتحطّم أسطولهم تماماً أمام أسطول إسبانيا والبندقية لم يعودوا يُفكّرون في دخول المغرب، وإن عدّوها منطقة مواجهةٍ مع الدول النصرانية، وإن تحسب عليهم مرة واحدة لم يكن لهم دخل بها، وهي عندما فكّر الأتراك في المغرب مع المسلمين الفارين من الأندلس قلب الحكم وتأسيس دولةٍ برئاسة الأمير السعدي داود بن عبد المؤمن غير أن السلطان المنصور السعدي قد سحق ذلك التنظيم في وادي درعه.

وعندما التجأ الأميران السعديان عبد الملك (المعتصم) وأحمد

(المنصور) إلى الخليفة العثماني يطلبان مساعدتهما في استعادة الملك من عمهما المتعاون مع الصليبيين أمدّهما بجيشٍ قوامه خمسة آلاف جندي، وتمكّنت هذه القوة من دخول فاس عام ٩٨٢، وتنصيب عبد الملك (المعتصم) سلطاناً على المغرب، وقد انسحبت هذه القوة منذ استقرّ الأمر للسلطان عبد الملك.

وعندما انقطع التفكير العثماني في ضمّ المغرب، واتجه إلى مساعدتها ضد الصليبيين، وتخليصها من نفوذهم، عاد التفكير النصراني إلى أخذ المغرب وطرد المسلمين منها، وتوطيد أمر النصارى فيها، وقد بدؤوا بالعمل لذلك.

التجأ الملك السعدي المعزول إلى ملك البرتغال لإعادته إلى السلطة، وبدأت الجيوش النصرانية تفد لدعم هذا اللاجئ ظاهراً، ولتحقيق نواياها في المغرب فجاءت جيوش من إسبانيا، وفرنسا، وألمانيا، وجاءت فرسان البابا، وانضمّت كلها إلى جيش البرتغال، وقادها ملك البرتغال، ومعه اللاجئ الملك السعدي السابق محمد المتوكل، وبلغ عدد ذلك الجيش مائةً وخمسةً وعشرين ألف جندي، وبالمقابل فقد أمدّت الدولة العثمانية المغرب بقوةٍ تضمّ ستة آلافٍ من الرماة، وثمانمائة فارس، ومعهم اثنا عشر مدفعاً إضافة إلى ألفٍ من المشاة، والتقت القوتان في وادي المخازن شمال العرائش عام ٩٨٦، وانتهت هذه المعركة بهزيمة الصليبيين، ومقتل ملك البرتغال، ومحمد المتوكل السعدي الذي معه، وكذلك استشهد السلطان السعدي عبد الملك حتى سُمّيت هذه المعركة بمعركة الملوك الثلاثة، وبعد هذه المعركة ارتفع شأن المغرب، واعتمد العثمانيون على إمكانية وقوفها في وجه الصليبيين، فصرفوا النظر عن ضمّها إلى دولتهم، وفي الوقت نفسه ضعف شأن البرتغال، وضمّت إسبانيا أرضها إليها بعد سنتين عام ٩٨٨، واستمرت في ضمّها مدة ستين سنة، وقام أحمد المنصور بأمور الملك بعد استشهاد أخيه عبد الملك في تلك المعركة، ووجد حماسةً كبيرةً في جيشه لملاحقة البرتغاليين، واجتياز المضيق واستعادة الأندلس، وهدّأ جنده

بأسلوبٍ حكيم، ولاحق في الوقت نفسه زعماء الأندلس إذ كان هدفهم إقامة دولةٍ أندلسيةٍ ـ عثمانيةٍ.

تقدّمت إسبانيا بمعاهدةٍ مستفيدةً من نقمة المعارضة على السلطان، ووقوفه في وجههم ثم ثورتهم وسحقها إذ لا زالت تراودهم فكرة الانضمام إلى العثمانيين، وتشمل هذه المعاهدة التحالف ضد العثمانيين، وتنازل المغرب عن ميناء العرائش ليكون قاعدةً للأسطول الإسباني، فداء أسرى وادي المخازن، ربط التجارة المغربية والإسبانية، والوقوف في وجه التجار الإنكليز من الوصول إلى موانئ المغرب، وقد وقعت تلك المعاهدة عام ٩٨٩، ولكن لم ينتج عنها شيء.

عمل المنصور على دعم الأمير البرتغالي المطالب بالعرش، ونقله إلى بلاده من إنكلترا التي كان فيها، وكثرت اتصالاته مع إنكلترا، وحشد جنوده في الشمال، فخافت إسبانيا التي كانت على خلافٍ مع إنكلترا، فتنازلت عن ميناء أصيلا الذي كانت تستعمره في أرض المغرب مقابل الحياد بينها وبين إنكلترا، والكفّ عن دعم الأمير البرتغالي، ولكن إسبانيا لم تلبث أن هُزمت أمام إنكلترا وتحطّم أسطولها في معركة الأرمادا عام ٩٩٧، وهذا ما أعطى الفرصة للمنصور لأن يُتابع سياسته في السودان.

أعلن المنصور أنه خليفة المسلمين عامةً، وأنه الجدير بذلك بل المستحق لأنه من قريش، وينتمي إلى رسول الله ﷺ، وفي هذا حرب للعثمانيين ما مثلها من حرب، وقد بايعته مملكة كانم(١) ـ بورنو(٢) عام ٩٩٠، وقام بإرسال حملةٍ إلى مملكة صنغاي عام ٩٩٢، لنشر الإسلام في بلاد السودان، ولأخذ البيعة من ملوك صنغاي، وتوسعة ملكه، وللحصول على الملح والذهب، ولأخذ العبيد للخدمة في جيشه، ولمنازلة المراكز البرتغالية على شواطئ المحيط الأطلسي، إذ كان دائم الحديث وخاصةً في

(١) كانم: شمال شرقي بحيرة تشاد في دولة تشاد اليوم.

(٢) بورنو: جنوب غربي بحيرة تشاد في دولة نيجيريا اليوم.

مراسلاته عن الجهاد، وقتال الصليبيين، وحتى استعادة الأندلس، وقد كان وجود النصارى الإسبان والبرتغال على سواحل المغرب وشطآن المحيط الأطلسي، ووجود الفارين من الأندلس في بلاد المغرب كل ذلك يُخيف المسلمين، ويدفعهم إلى الجهاد والدعوة، والسلطان يتبنّى هذا تحقيقاً لرغبة الشعب، وربما كان ذلك في نيته أيضاً.

كانت وجهة المنصور نحو بلاد السودان، ولم تكن هذه الوجهة حديثةً، فقد اتجه بنو وطاس نحو بلاد السودان، وأرسلوا سفيراً للتحالف مع مملكة مالي ضد البرتغاليين الذين كثرت مراكزهم على سواحل المحيط الأطلسي.

لقد تمكّن المنصور عام ٩٩٠ من ضمّ شمال بلاد النيجر اليوم، وذلك إثر حملةٍ قامت عام ٩٨٩، إلا أن الحملة الثانية عام ٩٩١ قد ابتلعتها رمال الصحراء عام ٩٩٢.

وفي الوقت نفسه كان يحرص على مواجهة البرتغاليين، وطردهم من المراكز الساحلية التي تمكّنوا فيها، فقام بحملةٍ وصلت إلى نهر غامبيا عام ٩٩٠، وبايعه أمراء من الفولاني وغيرهم في بلاد السنغال، غير أن حملته التي أعقبتها عام ٩٩٣ قد فشلت، وحاول مهاجمة جزر كناريا التي كانت مركز المستعمرين للانطلاق نحو السواحل الجنوبية، واستمرت محاولات هجومه هذه طيلة أيام حكمه، وعندما ضعف البرتغاليون وعمل على الهجوم على مستعمرتهم (أرغين) مقابل الرأس الأخضر وجد أن الإسبان قد حلّوا محل البرتغاليين عام ٩٩٧ إذ احتلّوا بلادهم يومذاك، وحموا مستعمراتهم، وحاول الاتفاق مع الإنكليز لمساعدة أسطولهم باحتلال تلك المستعمرة البرتغالية سابقاً والإسبانية حالياً، ولكن لم يُوفّق.

وساعده في التوجه إلى أواسط بلاد السودان مبايعة دولة كانم - بورنو له، واختلاف أبناء ملك صنغاي أسكيا داود الذي توفي عام ٩٩٠، وقد بدأت الصدامات في عهد ابنه الأسكيا الحاج محمد الثاني، ولقد فرّ بعض إخوته إلى السلطان السعدي المنصور، ورغم المخالفة التي لقيها المنصور

في دولته من الهجوم على بلاد المسلمين إلا أنه استطاع إقناع المعارضين أو إسكاتهم، وأرسل حملةً واسعةً في مطلع عام ٩٩٨ بإمرة جؤذر باشا استطاعت دخول عاصمة الصنغاي مدينة (غاو) عام ٩٩٩، والمفاوضة مع ملك الصنغاي إسكيا إسحاق الذي فرّ من الهزيمة حيث اعترف للسلطان السعدي بالسيطرة والنفوذ على منطقة السودان وبايعه، إلا أن الأمير محمد كاغ بن داود رفض ذلك، واستمر في المقاومة، وفي الوقت نفسه لم يعترف المنصور بنتيجة المفاوضات بل أرسل أمراً بعزل جؤذر باشا عن قيادة الجيش، وبعث حملةً ثانيةً بقيادة محمود باشا انتصرت على الصنغاي، وقُتل الأسكيا محمد كاغ، وأصبح ملوك صنغاي تحت إمرة سلطان المغرب، وانتقلت العاصمة الصنغانية من (غاو) إلى تمبوكتو. أما المقاومة فقد تولاّها أسكيا نوح حتى توفي عام ١٠٠٤، أما أسكيا سليمان فكان بإمرة المغرب ويُقاتل تحت قيادة الباشا الوالي من قبل المغرب حتى توفي عام ١٠٠٤ أيضاً، واستمر خلفاؤه من بعده تبعاً لسياسته.

توفي أحمد المنصور عام ١٠١٢، واختلف أبناؤه من بعده، وكان زيدان الكبير هو المرشح للحكم غير أن أخويه أبي الفوارس والمأمون قد اتفقا ضده، فحكم المأمون، وولّى أخاه أبا الفوارس منطقة مراكش ولكن لم يلبث أن تنكّر له، وهذا ما سهّل عملية الانتقام إذ استطاع زيدان أن يجمع حوله أتباعه، وأن يسيطر على منطقة فاس، وضعف أمر المأمون فاتجه إلى خصومه الإسبان فعرض عليهم مساعدته مقابل تسليم ميناء العرائش، وكان الأندلسيون في المغرب يسعون لغزو الأندلس بمساعدة الجزائريين، وفضح المأمون هذا العمل الأمر الذي جعل الإسبان يقضون عام ١٠١٩ على ما بقي من المسلمين في الأندلس، وسقطت هيبة المأمون في نفوس المسلمين، وقتل في تطوان عام ١٠٢٢، وورث هذا الخزي ابنه عبد الله فلم يتمكن من المطالبة بالسلطان، وهذا ما زاد من قوة زيدان غير أنه لم يستطع من بسط نفوذه على كل الأقاليم، وبالتالي ضعف أمر السعديين كثيراً، وأصبح المسلمون يفكرون في قيادةٍ جديدةٍ، وظهر بعض

القادة أمثال محمد العياشي الذي أخذ يُقاتل البرتغاليين في أزمور، والإسبانيين في العرائش والمهدية.

وظهرت قوة الأشراف العلويين الذين أصبح نفوذهم قوياً في سجلماسة ومنطقة تافيللت كلها التي وصلوا إليها في القرن الثامن، ثم امتدّ نفوذهم إلى منطقة السوس ووادي درعة عندما ضعف السعديون، وعندما وجدت قوة شيخ هذه العائلة محمد بن علي بويع للنهوض بالبلاد، وحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام ضد الهجوم الصليبي، فنهض بالأمر عام ١٠٤١، ولكن أخاه الرشيد قد انتزع الحكم منه، وبدأ بمقارعة السعديين حتى تمكّن من دخول فاس عام ١٠٧٧، وقضى على حكم الدولة السعدية، وقُتل عام ١٠٨٣، وترك الحكم من بعده لأخيه إسماعيل الذي استمر حكمه من ١٠٨٣ حتى ١١٤٠ أي أكثر من سبع وخمسين سنة.

اتجهت الأسرة العلوية إلى مقاتلة ولاية الجزائر بدلاً من أن تتخذ سبيلاً لقتال الصليبيين بناءً على البيعة التي أعطاها لهم المسلمون، كما اتجهت إلى التحالف مع فرنسا لتحقيق أغراضها، ولهذا استاء المسلمون من أفراد هذه الأسرة منذ بداية حكمهم، وأصبحت المقارنة بينهم وبين السعديين الذين قاموا على محاربة الصليبيين لذا قامت المحاولات للفتك بإسماعيل، وحدثت الفوضى في كل مكان، في فاس، في الريف، في تازه، وجاء الخضر غيلان من الجزائر إلى تطوان، فالتفّ حوله أهلها، وبايعته أصيلا، والقصر، وكان ينادي بالوحدة الإسلامية للوقوف في وجه النصارى، ولكنه قُتل عندما هاجمه إسماعيل بقواتٍ كثيفة على حين كان معه القليل من الجند، ويضطر إسماعيل بعدها لمقاتلة الصليبيين، وينجح في استرداد مدينة المهدية عام ١٠٩٩، والعرائش عام ١١١١، وأصيلا عام ١١١٣، كما استردّ طنجة من الإنكليز عام ١٠٩٦، وكانوا قد أخذوها من البرتغاليين عام ١٠٧٢ مهراً لملكتهم من ملك البرتغال، وكان قد دخلها البرتغاليون عام ٨١٨.

وتوفي إسماعيل عام ١١٤٠، وحدثت بعده حرب أهلية بين أبنائه

محمد، وعبد الملك، وعبد الله استمرت حتى عام ١١٧٠، استطاع في النهاية عبد الله أن يحصل على الحكم، ولكن لم يستقر الحكم إلا في عهد ابنه محمد الذي استمر عهده مدة عشرين سنة أو إلى عام ١٢٠٧، وتمكّن من استرداد مزاغا ـ من أيدي البرتغاليين، وهاجم سبتة ومليلة المدينتين اللتين في أيدي الإسبان، ولكنه عجز عن اقتحامها، وتحسّنت علاقات محمد مع الدولة العثمانية، على حين كان جده إسماعيل يصرّ على خلافته، ويُقدّم نفسه على العثمانيين بصفته أنه ينتسب إلى رسول الله ﷺ.

أما سليمان الذي خلف محمداً فقد أعلن وقف عمليات الجهاد حتى باع سفنه إلى تونس، بل لم يُطالب بسبتة ومليلة عندما دخل نابليون بونابرت إسبانيا، وكانت الفرصة مناسبةً له تماماً، وحاول ابنه عبد الرحمٰن الذي تولّى عام ١٢٣٧ أن يُعيد بناء الأسطول، ولكن لم يحالفه النجاح كثيراً، واختلف مع فرنسا التي احتلت الجزائر حتى ولاية تلمسان.

توفي عبد الرحمن عام ١١٧٧ وخلفه ابنه محمد الذي عقد معاهدةً مع إسبانيا عام ١٢٧٩، وازداد النفوذ الأجنبي في عهد هذا السلطان كثيراً، وأصبح مجلس صحي لمدينة طنجة من الأجانب تتناوب فرنسا وإسبانيا رئاسته، كما أصبحت محاكم قنصلية للأجانب في المغرب.

وتوفي محمد عام ١٢٩١ فخلفه ابنه الحسن الذي لجأ إلى إنكلترا لتحميه من فرنسا التي احتلت تونس، واشرأبت بعنقها نحو المغرب، كما حاول الاستعانة بألمانيا التي عقدت معه معاهدة عام ١٣٠٨.

وتوفي الحسن عام ١٣١٢ وخلفه ابنه عبد العزيز فاتفقت فرنسا وإسبانيا على اقتسام الأجزاء الجنوبية من المغرب عام ١٣١٨، حيث أخذت فرنسا موريتانيا، وأخذت إسبانيا الصحراء المغربية، كما سبق أن أخذت إسبانيا إفني عام ١٣١٦، واضطر السلطان عام ١٣٢١ على تشكيل مجلس لإدارة مدينة طنجة يتألف من ستةٍ وعشرين عضواً، يُعيّن القناصل الأجانب عشرة منه، وينتخب الأجانب فيها اثني عشر منهم، ويُعيّن حاخام اليهود واحداً، ويُعيّن السلطان واحداً أيضاً، أما الحاكم المحلي فيُعيّن اثنين من

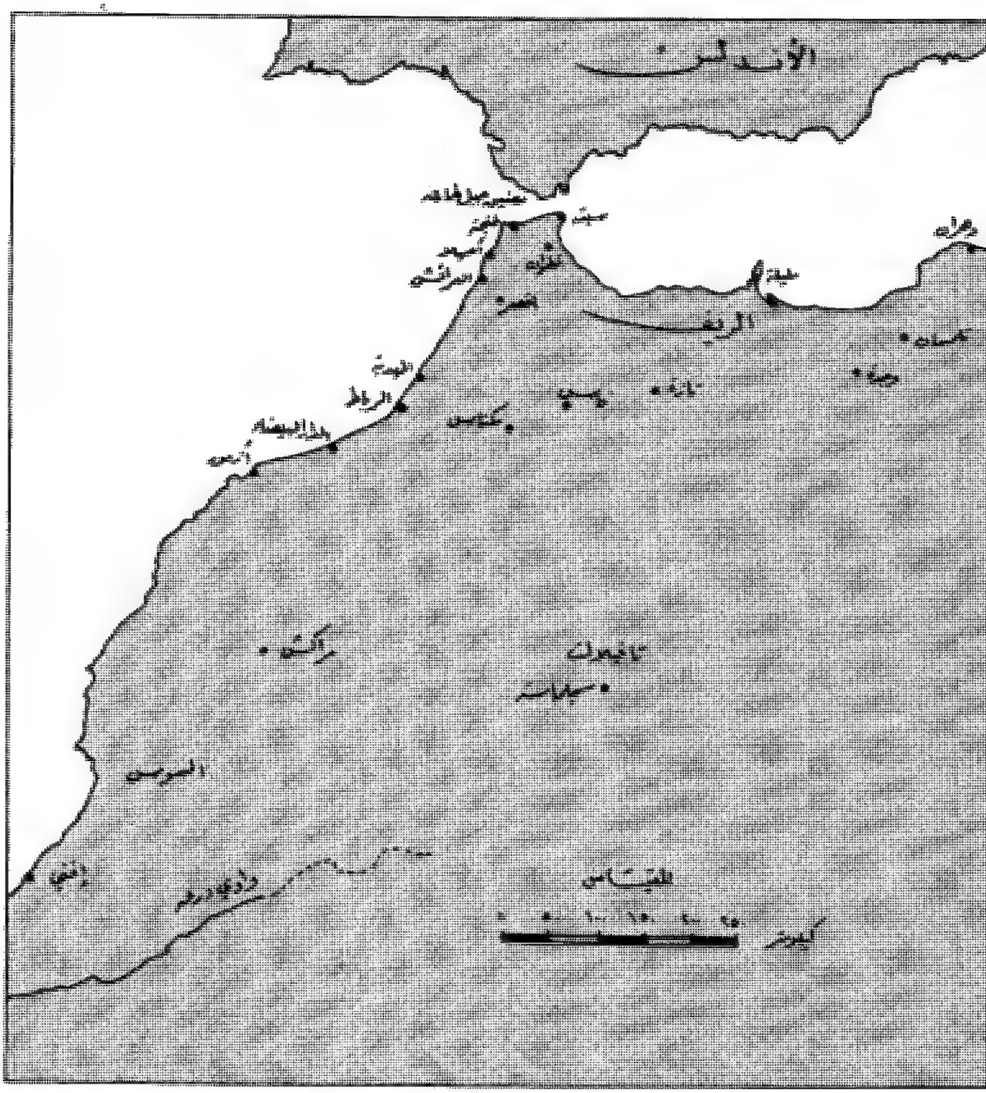
المسلمين، وهذا ما أثار النقمة على السلطان، وقامت ثورة ضده، وأُعطي لقب (عبد الأجانب)، ووجدت فرنسا هذه الثورة فرصةً للتدخل في شؤون المغرب غير أن إنكلترا وألمانيا كانتا تقفان في وجهها، ولكن وقّعت فرنسا وإنكلترا معاهدة الاتفاق الودي بينهما بحيث تركت إنكلترا لفرنسا حرية العمل في المغرب مقابل اعتراف فرنسا بوضعها في مصر، وتركت منطقة الريف لإسبانيا، وجاء الإمبراطور الألماني إلى طنجة ملوحاً بالتهديد، فاعترفت فرنسا بحرية السلطان في أراضيه في مؤتمر الجزيرة، ثم تقدّمت فرنسا واحتلت وجدة والدار البيضاء، واحتلت إسبانيا منطقة الريف، وثار المسلمون على سلطانهم وخلعوه عام ١٣٢٥، ونصّبوا مكانه أخاه عبد الحفيظ الذي استطاع أن يقضي على الثورة التي اندلعت ضدّه، ويقودها (أبو حماده)، ولكن هذا السلطان قد عقد قروضاً لتسديد نفقات حملاته العسكرية، وأرهق الشعب، فنقموا عليه، وحاصروه في مدينة فاس، فجاءت حملة فرنسية لإنجاده عام ١٣٢٩، ودخلت فاس، ومكناس، والرباط، فثارت ثائرة إمبراطور ألمانيا فأرسل قطعةً حربيةً إلى المياه المغربية فأرضته فرنسا بجزءٍ من أراضي الكاميرون، واستمرت نقمة السكان المسلمين على السلطان، وأبادوا الحامية الفرنسية في فاس غير أن فرنسا عادت فدخلت فاس بعد أسبوعين، وندم السلطان على عمله، وتنازل لأخيه يوسف عن الحكم عام ١٣٣١، ولجأ هو إلى طنجة حيث يُقيم أخوه عبد العزيز أيضاً.

وتوسّع الفرنسيون فاحتلوا بقية أجزاء المغرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي الوقت نفسه قامت إسبانيا بضمّ منطقة الريف إليها، وقام أهل الريف أيضاً بثورةٍ ضد المحتلين، وهزموهم عام ١٣٢٧، وظهر أحد الأشراف وهو أحمد بن محمد بن عبد الله الحسني من قبيلة بني عروة، واشتهر بأحمد الرسولي فثار على السلطان، واختطف القنصل الأمريكي وعائلته في طنجة، وجاء الأسطول المغربي، وأخذ غرامةً حربيةً، وتولّى أحمد الرسولي أمر طنجة، لكن السلطان عزله تحت ضغط قناصل الدول الأجنبية، واصطدم الرسولي مع الإسبان في الجبال، ونودي به سلطاناً على

الجبال، ثم عقد معاهدةً مع الإسبان الذين أعادوا للرسولي أملاكه، وخفّفوا الضغط عن القبائل حسب المعاهدة، وثار المسلمون عليه، وقامت حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، واصطدمت مع الرسولي الذي أُسر، وبقي في الأسر حتى توفي عام ١٣٤٣.

وقام الأمير عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف الشرقية بحركةٍ، وقد عرف باسم (زعيم بني ورغال)، ولما توفي عام ١٣٣٨ خلفه ابنه الأكبر القاضي محمد في قيادة الحركة فأعلن الجهاد، وتمكّن عام ١٣٣٩ من القضاء على جيش سلفستر، ولم يبق للإسبان إلا حصن مليلة، وقد اعترفوا بخسارة خمسة عشر ألف جندي، وخمسمائةٍ وسبعين أسيراً إضافة إلى العتاد والذخيرة منها ثلاثين ألف بندقية، وأربعمائة مدفع رشاش ومائة وتسعة وعشرين مدفع ميدان، ولم ينتبه محمد بن عبد الكريم الخطابي على ما أدركه من نصر إذ لو تابع لدخل حصن مليلة، وألقى بالإسبان في البحر، ولكن توقّف فتهيأت الفرصة للإسبان لزجّ ستين ألف جندي في المعركة الجديدة، وقاموا بهجوم معاكس عام ١٣٣٩ فاستعادوا ما فقدوه، وبلغت قوتهم في عام ١٣٤٠ في منطقة الريف أكثر من مائة وخمسين ألف جندي.

حدث انقلاب عسكري في إسبانيا، وتغيّرت الخطة، وانسحب الإسبان من المناطق الداخلية، وتحصّنوا في السواحل، وشكّل الأمير محمد بن عبد الكريم حكومةً في الريف، ثم بدأ الهجوم الإسباني والفرنسي على حكومة الخطابي حتى استسلم الخطابي عام ١٣٤٤، ونفي إلى جزيرة رينونيون.



مصور رقم [٣٨]

الأشراف
من الأسرة العلوية في المغرب

- علي
  - محمد ١٠٤١ ـ ١٠٥٢
  - الرشيد ١٠٥٢ ـ ١٠٨٣
  - إسماعيل ١٠٨٣ ـ ١١٤٠
    - عبد الله ١١٧٠ ـ ١١٨٧
      - محمد ١١٨٧ ـ ١٢٠٧
        - سليمان ١٢٠٧ ـ ١٢٣٧
          - عبد الرحمن ١٢٣٧ ـ ١٢٧٧
            - محمد ١٢٧٧ ـ ١٢٩١
              - الحسن ١٢٩١ ـ ١٣١٢
                - عبد العزيز ١٣١٢ ـ ١٣٢٥
                - عبد الحفيظ ١٣٢٥ ـ ١٣٣١
                - يوسف ١٣٣١ ـ ١٣٤٦
                  - محمد ١٣٤٦ ـ ١٣٨٠
                    - الحسن ١٣٨٠ ـ ١٤٢٠
                      - محمد ١٤٢٠ ـ
    - عبد الملك
    - محمد

الفصل الثالث

غربي إفريقية

هذا الجزء من العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية يختلف فيه الوضع بين منطقتين: منطقة الساحل حيث بدأ ينزل فيه النصارى المستعمرون، ويتقدّمون منه نحو الداخل عندما يقوى أمرهم سواء على الساحل الغربي حيث يكثر المسلمون أم على الساحل الجنوبي حيث لا يزال السكان على وثنيتهم، ويعمل النصارى المستعمرون في هذه المناطق في نشر النصرانية ليُهيّؤوا لهم قواعد بشرية يستندون عليها في توطيد حكمهم، وتسليمها السلطة في المستقبل، ومنطقة الداخل حيث يحكم المسلمون وقد انفرط عقدهم، وأصبحوا على شكل إماراتٍ متنازعةٍ في أغلب الأحيان، أو على الأقل لا يهتمّ بعضهم بقضايا بعضهم الآخر.

الساحل:

في الوقت الذي كان الصراع قائماً بين المسلمين والنصارى في الأندلس، وتأخر اقتحام النصارى للبلاد رغم أن أوربا كانت من ورائهم تدعمهم، ورغم ضعف المسلمين الذي كان واضحاً لذا فكر النصارى من الإسبان والبرتغال في الإبحار على سواحل القارة الغربية لمعرفة قوة المسلمين في تلك القارة إذ كانت الرديف لمسلمي الأندلس تدعمهم وقت الشدة، كما حدث أيام المرابطين والموحدين وبعدهم، وإذا كان بإمكانهم النزول على السواحل، وتأسيس مراكز لهم يُمكنهم تطويق المسلمين قاموا به، قبل أن يقوى أمر المسلمين في بلاد المغرب ويمدّوا إخوانهم في

الأندلس، وإذا لم يكن ذلك امتهنوا التجارة إن استطاعوا مع السكان حتى يقوى أمرهم ويروا رأيهم.

وصل بعض البحارة النصارى عام ٧٤٧ إلى مصب نهر السنغال، وزاروا الرأس الأخضر، ولم يُقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغن) الصغيرة القريبة، كما احتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر ذلك حتى نهاية القرن التاسع الهجري أي وقت سقوط الأندلس بيد النصارى، وبعد أن حصل الإسبان والبرتغاليون على كثير من المغانم، واستأثروا بها دون الذين دعموهم بالأمس قام النصارى الآخرون ينافسونهم، فقد استطاع الفرنسيون تأسيس مستعمرة عند مصب نهر السنغال عام ١٠٣٦، وأسّسوا حصن (سان لويس) عام ١٠٧٠، غير أن البرتغاليين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في الاستعمار حيث وصلوا عام ٨٥٠ إلى شواطئ غينيا، وإلى سواحل سيراليون عام ٨٦٧، وإلى شواطئ نيجيريا عام ٨٩٢، وإلى سواحل الكاميرون مع نهاية القرن التاسع ٨٩٩، كما حاولوا الولوج إلى الداخل إذ تسلّلوا في السنغال بحثاً عن الذهب، ووصلوا إلى نجد (بامبوك).

وإذا قامت المنافسة الأوربية الأخرى لهم (للبرتغاليين والإسبان) وخاصةً من قبل فرنسا، وإنكلترا، وهولندا والمنافسة فيما بينهم أيضاً من أجل الحصول على الموارد الاقتصادية ومنها العبيد أيضاً حيث وصل الإنكليز إلى سواحل نيجيريا عام ٩٧٠، وبدؤوا بأخذ العبيد من هناك، وأطلقوا على ذلك الجزء من الساحل اسم ساحل العبيد، كما أطلقوا اسم ساحل العاج، وساحل الذهب (ساحل غانا)، ونافست إنكلترا فرنسا أيضاً فاحتلت حصن سان لويس الفرنسي عام ١١٧٢، ثم أعادته بعد معاهدة بين الدولتين عام ١١٩٨.

لم يأبه المسلمون بهذه المراكز النصرانية لضعفها أولاً، ولأنها ظهرت بمظهر العمل التجاري الخالص في أول الأمر، ولكنه في الواقع لضعف المسلمين ولعدم إمكاناتهم عمل شيء ضدها بل إن الدول الإسلامية القوية

القائمة في المغرب كانت أحياناً تستعين بأصحاب هذه المراكز ضد خصومها، وربما كانوا من المسلمين كالعثمانيين مثلاً أو لتوطيد سلطانها، أو لنصرتها على خصومها السياسيين الثائرين عليها، أو ضدّ دول «نصرانية» أخرى، وإذا كان السعديون قد تنبّهوا لهذا الأمر إلاّ أن أيامهم كانت قصيرةً، وكثرت فيها الأحداث وعندما استقرّ الأمر للمنصور السعدي، اتجه نحو الداخل وقضى على دولة صنغاي أي كانت حروبه ضد المسلمين بالدرجة الأولى، وربما كان تفكيره لجمع المسلمين أولاً في دولةٍ ثم منازلة الدول النصرانية، وما أن مات حتى حدثت الفتن بين أبنائه، وعندما جاء الأشراف العلويون اختلفوا مع العثمانيين في الجزائر، وعملوا على التفاهم مع فرنسا التي بدأت ترنو بأنظارها نحو المناطق التي في جنوب بلاد المغرب وهي منطقة السنغال.

الداخل:

كانت مملكة الصنغاي في هذه المرحلة التاريخية تحكم غربي إفريقية، وتضمّ عدداً من الممالك التي تخضع لها، منها مملكة مالي، ومملكة الفولانيين في ماسينا و. . . وكان يحكم مملكة الصنغاي منذ عام ٨٩٩ أسكيا محمد الذي استطاع أن يحصل على الحكم عام ٨٩٨، وأسس أسرةً حاكمةً، وقد اتجه إلى قبائل الموش الوثنية الزنجية في منطقة فولتا العليا اليوم، وأعلن الجهاد ضدها، وطلب من حكامها الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، ودخل بلادهم، كما توسّع نحو الغرب فضمّ بلاد الماندينغ والفولاني إليه، ووصلت بذلك دولته إلى سواحل المحيط الأطلسي، كما وصل من ناحية الشمال إلى الصحراء، ثم ضم إليه إمارات الهاوسا في شمالي نيجيريا والنيجر أي أن مملكته ضمّت ما يعرف اليوم: النيجر، وشمالي نيجيريا، وفولتا العليا، والسنغال، وغينيا والأجزاء الغربية من سيراليون، والأجزاء الشمالية من ساحل العاج، والتوغو، وبنين، وفي عام ٩٣٥ قام عليه أبناؤه وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى الذي نفاه إلى جزيرةٍ بعيدةٍ في نهر النيجر، غير أن

موسى قد قتل عام ٩٣٨، وتولّى مكانه أخوه (محمد بنكه) الذي حكم حتى عام ٩٤٤، حيث عزله أخوه إسماعيل، وتسلّم السلطة مكانه، وفي عهد محمد بنكه هذا حاولت مملكة مالي الانفصال عن مملكة صنغاي، وطلب (منسي مالي) المساعدة من البرتغاليين الذين بدؤوا يُثبّتون أقدامهم على السواحل الغربية، فأرسل البرتغاليون سفارةً لمالي برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ - ٩٤١، وكانت نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم الذي يتبع مالي، وهذا ما شجع محمود الثاني (منسي مالي) أن يقوم بثورةٍ ضد مملكة الصنغاي إلا أن ثورته قد قمعت بشدة، وأعاد إسماعيل أباه المنفي إلى الحكم إلا أنه كان قد كبر، وكفّ بصره، ومات عام ٩٤٩.

حكم مملكة الصنغاي عام ٩٥٠ بعد إسماعيل أخوه أسكيا إسحاق، واستمر حتى عام ٩٥٦، وفي هذه المرحلة ساءت العلاقة بين مملكة الصنغاي والسعديين في المغرب، وخلفه أخوه الآخر أسكيا داود، وعادت في أيامه مملكة مالي إلى الثورة ضدّه، فأرسل إليها حملةً قمعت حركتها، وزادت العلاقة سوءاً مع السعديين، واستمر حتى توفي عام ٩٩٠ حيث خلفه ابنه أسكيا محمد الثاني الذي حكم خمس سنوات، وحدثت في عهده المناوشات مع السعديين، ثم خلعه إخوته عام ٩٩٥، وتولّى أحدهم السلطة لمدة ثلاث سنوات، حيث جاء بعده أسكيا إسحاق الثاني عام ٩٩٨، وجاءت الحملة السعدية المغربية بقيادة جؤذر باشا، فهزم أسكيا إسحاق الذي فرّ ثم فاوض قائد الحملة، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدةٍ أنهت الحرب، وبايع أسكيا إسحاق السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي غير أن السلطان رفض المعاهدة، وأرسل حملةً أخرى بقيادة محمود باشا الذي عزل جؤذر باشا، واستولت هذه الحملة على مدينة (غاو) عاصمة الصنغاي، وأصبحت مملكة الصنغاي تتبع السعديين، وأصبح مركز المنطقة تمبوكتو بدلاً من غاو، وحدثت مقاومات من قبل أسكيا نوح واضطر إلى الفرار عام ١٠٠٢ نتيجة الحملات السعدية، وكذلك قاوم الأمير محمد كاغ بن أسكيا داود، ثم هدأت المقاومة بعد عام ١٠٠٤.

خضعت المنطقة لباشوات تمبوكتو الذين يُعينون من المغرب، والذين يُطلق عليهم (الأرما)، وبدأ الضعف يظهر على هؤلاء الباشوات مع ضعف دولة السعديين، وبالتالي تقوى الإمارات والممالك الصغيرة التي كانت تضمّها دولة الصنغاي، فقد ظهرت إمارة البمبارا وهم فرع من الماندينغ في مدينة (سيغو)، وبدأت تتوسع، وتمكنت عام ١٠٧١، أن تتخلص من سيادة تمبوكتو، ثم فرضت عليها الجزية عام ١٠٨١، وكانت قد انتهت الدولة السعدية في المغرب، وحدثت فتن في هذه الإمارة، وانتقل الحكم إلى أسرة ديارا عام ١١٦٤، واستمرت في الحكم حتى قضى عليها الحاج عمر الفولاني عام ١٢٧٨، كما قامت إمارة أخرى للبمبارا أنفسهم في (كاآرتا) شمال نهر باكوي أحد فروع نهر السنغال، وقامت هذه الإمارة على يد أخي أمير سيغو إذ رفض سلطانه، وأسس إمارةً خاصةً به، ووقع بينهما الخلاف، وانتصر أمير سيغو، ولكن أبقى إمارة أخيه، ويُعرف حكام هذه الإمارة باسم (مساسي)، وتوسعت هذه الإمارة في عهد حاكمها أبي بكر عام ١٢١١، ثم انتقل مركز الحكم فيها إلى نيورو، واستمرت حتى قام الحاج عمر يضمّ المنطقة، ويُوحّد أجزاءها عام ١٢٧٧.

وكذلك قام للماندينغ مملكة أخرى في هذه الأثناء حملت اسم مملكة مالي إحياءً لمملكتهم السابقة، وقد أسسها (مامامغان)، وقد حاول أن يتوسّع عام ١٠٨١ على حساب إمارة سيغو، لكنه هُزم، وصغُرت مملكته، وخلفه (مامبي كيتا) الذي حكم مدة خمس عشرة سنة، ثم تفرّق أبناؤه بعده، واقتسموا السلطة فيما بينهم، واستقر آخرهم في مدينا باماكو عاصمة دولة مالي اليوم، وهكذا بقي شعب الماندينغ منقسماً في عدة إمارات حتى ظهر ساموري توري عام ١٢٧٧، وأسّس دولته.

إلى جانب إمارات الماندينغ وجدت إمارات أخرى للقبائل الثانية، حيث إمارة لقبائل الفولاني في منطقة (ماسينا) على نهر النيجر جنوب تمبوكتو، وقد كانت جماعة الفولاني في هذه البقعة تقرّ بالسيادة لملوك مالي، ثمّ لباشوات تمبوكتو، وأخيراً لملوك البامبارا في سيغو، وكانوا على

الوثنية، وبدؤوا يعتنقون الإسلام في بداية القرن الثالث عشر، وقام الذين أسلموا منهم بحركةٍ من الجهاد ضدّ الذين بقوا على الوثنية من أبناء جنسهم، فاستنجد الوثنيون بملوك البامبارا، غير أن المسلمين قد انتصروا عليهم، وأسّسوا مملكةً مسلمةً عام ١٢٢٥ في ماسينا حكمت المنطقة كلها، وأقام التوكلور من الفولاني إمارة في (فوتاجالون) في جنوب الحوض الأعلى لنهر السنغال، وكانت أسرة منهم تحكم المنطقة في القرن التاسع، وعلا أمر هذه الإمارة في مطلع القرن الثالث عشر، وفي منتصف القرن ظهر الحاج عمر الذي وحّد السودان الغربي تحت سلطانه من فوتاجالون حتى تمبوكتو.

أحسّت الدول النصرانية بالضعف الذي أصاب المسلمين في الداخل، وشعرت بقوتها في مراكزها الساحلية فأحبت جسّ النبض فسارت باسم الاكتشاف أو بالأحرى المعرفة، لأن تلك الجهات لم تكن مجهولةً بل معروفة، وقد كتب عنها المسلمون، وإن كان يحلو لبعضهم أن يُسمِّيها اكتشافاً أخذاً من الكتب النصرانية ونقلاً أو جهلاً، لقد قام (منجوبارك) برحلةٍ مع مجرى نهر غامبيا، وتمكّن من الوصول إلى مدينة سيغو على نهر النيجر وذلك عام ١٢١٠، ثم قام برحلةٍ ثانيةٍ عام ١٢٢٠، ثم تتابعت الرحلات وخاصةً الفرنسية منها إلى داخل غربي إفريقية، ولم يكن هؤلاء الرحالة إلا رسل بلادهم لمعرفة البلاد، وطرقها، وقوتها، ودراسة ثرواتها، وإمكانية نهبها، فكانت هذه الرحلات بداية حركة «استعمارية» واسعة النطاق، وإن أعطاها الصليبيون الصفة العلمية والعالمية، وقلّدهم المستغربون في ذلك.

لقد أحسّ بالخطر الصليبي بعض رجالات الفولاني وزعماء الماندينغ فعملوا على توحيد المنطقة، وجمع صفوف المسلمين للوقوف أمام الخطر النصراني الاستعماري المرتقب، غير أن الوقت لم يكن كافياً أمامهم، فداهمهم الخطر أثناء القيام بالحروب لوحدة الصف فصرعهم، وتغلّب على المنطقة، وبسط نفوذه عليها، وطبّق سياسته الاستعمارية النصرانية في أرجائها.

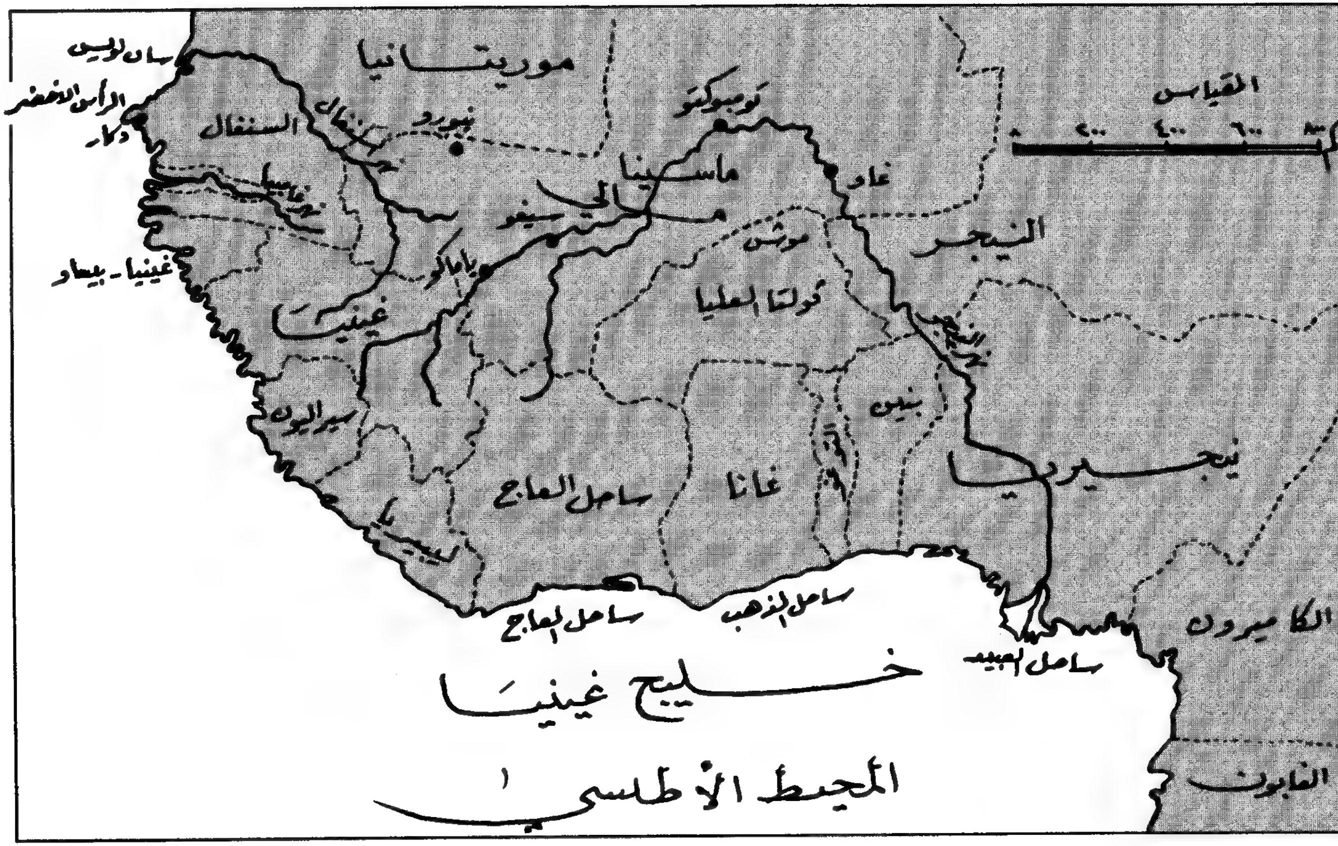
لقد ظهر عام ١٢٥٤ الحاج عمر الفولاني من التوكلور فعمل على غزو بلاد (كاآرتا) عام ١٢٧١، فدانت له، ثم اتجه إلى غزو إمارة سيغو بعد أن اتفق مع ملك ماسينا الفولاني، ولكن الأخير عدل عن فكرته، فاتجه الحاج عمر عندها نحو الغرب باتجاه منطقة السنغال الأوسط غير أن تقدّم الفرنسيين نحو الداخل وبسط نفوذهم على تلك الجهات قد حال دون سيره، فرجع مرةً أخرى نحو الشرق، واحتلّ إمارة سيغو عام ١٢٧٨، وأتبعها بمنطقة ماسينا عام ١٢٧٩، ثم تمبوكتو عام ١٢٨٠ فتوسع بذلك سلطانه، وقام البامبارا في سيغو بالتمرّد عليه، وأعقبهم الفولاني بحركةٍ ضدّه في منطقة ماسينا، فأدّى ذلك إلى مقتله عام ١٢٨١، وتنافس أبناؤه من بعده على السلطة، ودخل بعضهم في حروبٍ ضد بعض مما أدّى إلى زيادة الفوضى، وضعف المسلمين عن مواجهة النصارى المستعمرين فكرههم الناس، وقُتل آخرهم عام ١٣١٦ إثر هزيمة الفرنسيين له أثناء تقدّمهم نحو الشرق.

وأحسّ الفرنسيون بالخطر من حركة الحاج عمر لذا فقد أسرعوا بالتحرك نحو الداخل والتقدم نحو الشرق قبل أن يقوى أمر المسلمين، ويتّحد بعضهم مع بعض، وفعلاً فقد اتجهوا نحو الداخل، وتمكّنوا من القضاء على دولة الحاج عمر.

وشعر بخطر التقدّم الفرنسي (ساموري توري) أحد زعماء الماندينغ، وبدأ يعمل على توحيد صفوف قبائله المتفرقين جنوب دولة الحاج عمر، واستطاع بمدة عشرين سنة أن يوحّد صفوفهم (١٢٨٧ - ١٣٠٧)، وقد اتخذ لقب إمام ١٣٠٠ وتصدّى لمقاومة الفرنسيين إلا أنهم قد انتصروا عليه إذ ضعُف المسلمون بعد أن هُزم الحاج عمر، ومشكلة المسلمين أن حركةً كانت تتبع حركةً في المقاومة والقتال، ولم تتوحّد الجهود وتتجمّع القبائل، واستطاع الفرنسيون أن يحتلّوا عاصمة (ساموري توري) وهي (بيساندوغو) عام ١٣٠٩، ثم احتلوا سيغو وتمبوكتو عام ١٣١٠، وهرب (ساموري توري) إلى أعالي نهر الفولتا، واستمر في مقاومة الفرنسيين حتى قُبض عليه

عام ١٣١٦ في شمالي ساحل العاج، فحمل إلى الغابون وبقي هناك حتى توفي عام ١٣١٨، وهكذا سيطر الفرنسيون على أكثر أجزاء إفريقية الغربية، واتجهوا نحو مراكزهم الساحلية، أو تقدّموا من مراكزهم في الساحل، والتقوا مع جموعهم في الداخل فأصبحت المناطق التالية أو الدول الحالية تحت سيطرتهم: السنغال، مالي، غينيا، فولتا العليا، ساحل العاج، التوغو، وبنين، إضافةً إلى المناطق التي دخلوها في وسط إفريقية وهي، النيجر، وتشاد، وإفريقية الوسطى، والتقت مع الكاميرون، والغابون، والكونغو، مع بلاد المغرب، ولم يبق للمستعمرين النصارى الآخرين إلاّ غامبيا التي بقيت للإنكليز على شكل شريطٍ يقع على طرفي نهر غامبيا وسط بلاد السنغال، وغينيا - بيساو التي أصبحت مستعمرةً برتغاليةً عام ١٢٩٧، وكان البرتغاليون من قبل ينقلون إليها القبائل الوثنية والمجموعات النصرانية لتحلّ محلّ القبائل المسلمة التي تتحرّك ضدّهم، ثم هناك سيراليون التي أسس فيها الإنكليز مستعمرةً عام ١٢٠٦، ونُقلت إلى التاج البريطاني عام ١٢٢٢، ونقل الإنكليز إليها الزنوج الذين كانوا مُساقين إلى البيع، وأخيراً توسّع الإنكليز نحو الشرق عام ١٢٩٠، وضمّوا إليهم أراضي جديدة، إلا أنها كانت لا تزال المستعمرة وحدها، ولا تزيد مساحتها على ٦٦٤كم^2، وباقي الأجزاء وتزيد مساحتها على ٧٢ ألف كيلومتر مربع تعدّ محمية، وفي عام ١٣١٣، حددت الحدود بين المستعمرات الفرنسية والإنكليزية.

وتقدّم الإنكليز من ساحل الذهب نحو الداخل، وتكوّنت مستعمرة ساحل الذهب في الساحل، والمحمية في الداخل، وهما عماد دولة غانا، كما تقدّموا من ساحل العبيد بكل جهةٍ إذ ضمّوا جزيرة لاغوس إلى مستعمراتهم عام ١٢٨٠، وبدأت تدخل تجارتهم إلى الداخل، وأسّسوا محميةً ضمّت بلاد اليوروبا في نيجيريا اليوم، وأغرت أمراء الشمال من الفولانيين بقبول الحماية الإنكليزية حماية لهم من فرنسا، ووعدتهم بإبقائهم في مراكزهم، واحترام الدين الإسلامي، والتقاليد المرعية في الشمال، فوافق بعض الأمراء، وأعلنت عن قيام محمية الشمال عام ١٣١٨


موريتانيا
السنغال
سان لويس
الرأس الأخضر
داكار
تومبوكتو
ماسينا
مالي
غاو
النيجر
القياس
موشي
فولتا العليا
باماكو
غينيا
غينيا - بيساو
سيراليون
ليبيريا
ساحل العاج
غانا
بنين
نيجيريا
الكاميرون
الجابون
ساحل العاج
ساحل الذهب
ساحل العبيد
خليج غينيا
المحيط الأطلسي

مصور رقم [٣٩]

(شمالي نيجيريا) وجردت حملات عسكرية لإخضاع من رفض الحماية من الأمراء، فاحتلت كانو عام ١٣٢١، وسوكوتو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد الأمراء الفولانيين ويساعدهم ضباط من الإنكليز، ثم دمجت مستعمرة لاغوس بالمحمية الجنوبية، وأطلقت عليها اسم مستعمرة - ومحمية نيجيريا الجنوبية، وفي عام ١٣٣٣ ضم الإنكليز محمية الشمال والجنوب وجعلوا منها مستعمرة ومحمية نيجيريا، وأثناء الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٣٣٥ أرسلت بريطانيا حملةً إلى الكاميرون التي كانت تحت سيطرة ألمانيا فاحتلت الجزء الغربي وحكمتها باسم عصبة الأمم ثم ضمّتها إلى نيجيريا بعد أن قسّمتها إلى مقاطعتين شمالية وجنوبية، وهكذا نشأت دولة نيجيريا تحت سيطرة الإنكليز.

الفصل الرابع

وَسَط إفريقيَة

يشمل وسط إفريقية اليوم تشاد، والنيجر، وشمالي نيجيريا، وشمالي الكاميرون إضافةً إلى جمهورية إفريقية الوسطى، وقد انتشر فيها الإسلام تدريجياً، وقامت بعض الممالك التي بسطت نفوذها على الإمارات الصغيرة، كما كانت مملكة صنغاي تتوسّع أحياناً نحو الشرق، وتُخضع أمراء تلك الجهات لها، أو تضمّ بلادهم إليها، وأشهر هذه الممالك:

١ ـ مملكة كانم:

التي قامت في منطقة كانم شمال شرقي بحيرة تشاد، وأسستها أسرة سيف القادمة من الشمال عام ١٨٣. ودخل ملوكها في الإسلام عام ٤٨٠، وتوسّعت حتى شملت أراضي تشاد اليوم، وساعدها حكام تونس من الحفصيين، وهاجمها قوم (البلالا) عام ٧٨٩، واستمرت الحرب بين الطرفين أكثر من عشرين سنة، قُتل خلالها أربعة ملوك من كانم، وأخيراً اضطر الحكام إلى الفرار إلى منطقة بورنو في الجهة الثانية من بحيرة تشاد أو شمال شرقي دولة نيجيريا اليوم، وأسّسوا هناك مملكةً جديدةً بعد أن انتزعوا منطقة بورنو من شعب (الصاو)، واستطاع ملك بورنو (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يُهاجم (البلالا)، وأن ينتصر عليهم، وأن يعود إلى كانم، وأصبحت المنطقتان مملكةً واحدةً تحكمها أسرة سيف، وازدهرت هذه المملكة، وبلغت درجة الأوج، في عهد إدريس الثالث المعروف باسم (إدريس ألونه)، وقد حكم (٩٧٩ ـ ١٠١٣)، وهو الذي

عاصر سلطان المغرب المنصور السعدي وبايعه، وفي عهده توسّعت حدود المملكة، ولكن عمّت الفوضى بعدئذٍ، وتدهور الحكم، واستدعي الشيخ محمد الكانمي ليتولّى أمر الدولة، فأنهى حكم أسرة سيف عام ١٢٢٥، غير أن منطقة بورنو كانت قد خسرتها مملكة كانم لمصلحة الفولانيين أيام عثمان بن فودي، ولم يلبث الحكم أن ضعف بعد الشيخ محمد الأمين الكانمي، وتمكّن الأمير رابح أن يضمّ هذه المملكة إليه، كما ضم بورنو عام ١٣١٠، ثم اصطدم مع الفرنسيين الذين كانوا يُوسّعون نفوذهم شمالاً قادمين من بلاد الكونغو، وكان الأمير رابح قد اتخذ من مدينة (ديكوا) عاصمةً له، وتقع في بلاد بورنو، وهي إلى الغرب من (نجامينا) عاصمة تشاد اليوم بحدود ٢٠٠ كم.

وجّه الفرنسيون ثلاث حملات بقيادة الجنرال (لامي) الذي قُتل على أبواب مدينة (قصيري) التي انتقل إليها الأمير رابح، كما جُرح الأمير رابح في تلك المعركة، ثم توفي متأثراً بجراحه عام ١٣١٨، ودخل الفرنسيون المنطقة.

تابع فضل الله ابن الأمير رابح الجهاد، وأحرز بعض النصر على الفرنسيين، وأخيراً هزم أمامهم، وقُتل عام ١٣٢٧، واستمرت المقاومة بعده عامين، ثم قُضي عليها بعد معركة (عين جالا) عام ١٣٢٩ في شمالي تشاد، وأصبحت منطقة تشاد كلها تحت سيطرة الفرنسيين.

٢ ـ مملكة وادّاي:

تقع وادّاي في شرقي تشاد، وقد جاءت أسرة إليها تُدعى التنجور في القرن الخامس الهجري هاربةً من وجه بني هلال، وسيطرت على المنطقة، وحكمتها حتى القرن العاشر، وامتدّ حكمها إلى الشرق من منطقة وادّاي، واختلطت مع شعب الداجو الذي كان يُقيم هناك، ونشأ من هذا الاختلاط شعب جديد يُدعى الفور، الذي قوي أمره، وطرد التنجور من المنطقة الشرقية التي أصبحت تدعى دارفور، فاتجهت جماعات التنجور إلى الغرب،

واختصّت في منطقة وادّاي، وفي القرن العاشر دخلت في الإسلام، وكان أول الملوك الذين دخلوا في الإسلام عبد الكريم الذي تولّى الحكم عام ١٠٣٠، وخلفه ابنه عروة الذي أقام مدينةً جديدةً لتكون قاعدة حكمه، وأُطلق عليها اسم «وارا»، ثم انتقل مقر الحكم إلى مدينة «أبيشة» وقد خضعت لحكم الدارفور، ثم عادت فاستقلت في أواخر القرن الحادي عشر، ولم يلبث أن عاد إليها الضعف، ولكن استطاع الملك «صابون» أن يُعيد للمملكة قوتها أيام حكمه (١٢٢٠ ـ ١٢٣٠)، وخلفه أخوه محمد شريف صالح، ثم ابنه علي، وقويت الدولة، وحدثت الفرقة بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتدخّل الفرنسيون لنصرة أحد الفرقاء، ثم سيطروا على الوضع غير أن الأمير رابح قد ضمّ المنطقة إليه عام ١٢٩٩ أثناء اتجاهه نحو الغرب، وأصبحت وادّاي جزءاً من دولته.

٣ ـ مملكة باغيرمي:

وتقع في جنوبي تشاد اليوم، ووصل إليها الإسلام في القرن العاشر، وأول من أسلم من حكامها السلطان بريمي (إبراهيم)، وقويت الدولة أيام السلطان الحاج محمود الأمين الذي حكم من (١١٦٥ ـ ١٢٠٠)، وفي عهده عمّ الإسلام المنطقة، ثم خضعت إلى مملكة وادّاي عام ١٢٢١، ثم ضمّها ملك كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي إلى مملكته عام ١٢٢٧، ثم عادت فاستقلت، وقويت عام ١٢٦٥، ثم هاجمها ملك وادّاي علي عام ١٢٨٨، ثم ضمّها الأمير رابح عام ١٣١٠، وبقيت تخضع له حتى دخلها الفرنسيون عام ١٣١٨.

وكلما اتجهنا إلى الشمال كانت الممالك أصغر ولعل أشهرها مملكة (مانغا) شمال بحيرة تشاد، بل تصبح الإمارات صغيرةً إذ تسود الصحراء، وتفصل المساحات الواسعة بين الواحات، فلا تطمع الممالك بمدّ نفوذها إليها، لذلك كانت بعض الإمارات الصغيرة هي المسيطرة.

وقد وصل العثمانيون إلى شمالي تشاد، وأقاموا القلاع لهم هناك ليردّوا غارات البدو عنها، ومن هذه القلاع، (فايا) وغيرها.

بعد مقتل الأمير رابح وسيطرة الفرنسيين على أكثر أجزاء تشاد اليوم بدأت مقاومة السكان المسلمين فلجأ الفرنسيون إلى الإرهاب فجمعوا أربعمائة عالم من مختلف أنحاء البلاد، وساقوهم إلى مدينة أبيشة قاعدة واداي، وقتلوهم بالساطور عام ١٣٣٦، وعُرفت تلك المذبحة باسم مذبحة «كبكب»، ومع هذا الإرهاب لم تستطع فرنسا السيطرة على الأجزاء الشمالية إلا في عام ١٣٤٨ حيث كان السنوسيون يُقاومون السيطرة الفرنسية إذ كان لهم أكثر من مائة رباط منتشرةً في شمالي تشاد اليوم.

أما في إفريقية الوسطى فقد بدأ الإسلام ينتشر في ربوعها في القرن العاشر، ووصل إليها الدعاة السنوسيون، ومبعوثو المهدي في السودان، وكانت أجزاؤها الشمالية تخضع للممالك التي قامت في أرض تشاد، ودخل الفرنسيون إلى المنطقة عام ١٣٠٧، وعُرف الإقليم وقتذاك باسم (أو بانغي - شاري) أي باسم النهرين اللذين يرويانه، وفي عام ١٣٢٤ ضُمّ إلى منطقة تشاد، ثم أصبح في عام ١٣٢٨ جزءاً من إفريقية الاستوائية الفرنسية التي شملت أربع مناطق هي: ١ - تشاد. ٢ - أوبانغي - شاري. ٣ - الكونغو. ٤ - الغابون، واستمر ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أما منطقة النيجر فقد قامت فيها عدة إماراتٍ محلية، وكثيراً ما كانت تخضع الشمالية منها للطوارق والجنوبية منها لإمارات الهاوسا، وفي عام ٩٢١ خضعت الإمارات كلها لمملكة صنغاي، ثم عاد إليها استقلالها مع ضعف مملكة الصنغاي، وفي ٩٩٠ خضع شمالي النيجر إلى دولة السعديين في المغرب، ثم عادت الإمارات المتنافرة إلى وضعها الأول.

وعندما بدأ الفولانيون يفدون إلى المنطقة، ويخضعون إمارات الهاوسا إليهم وخاصةً أيام عثمان دان فودي، دخلت قبيلة غرما إلى الأجزاء الشمالية من النيجر، واتفقت مع القبائل البدوية الأخرى والطوارق للوقوف في وجه الفولانيين، وتمكّنوا بزعامة الطوارق من منع الفولانيين من التقدّم نحو الشمال.

وفي عام ١٣٠٠ وصل إلى المنطقة المُقدّم الإنكليزي (دنهم) والملازم

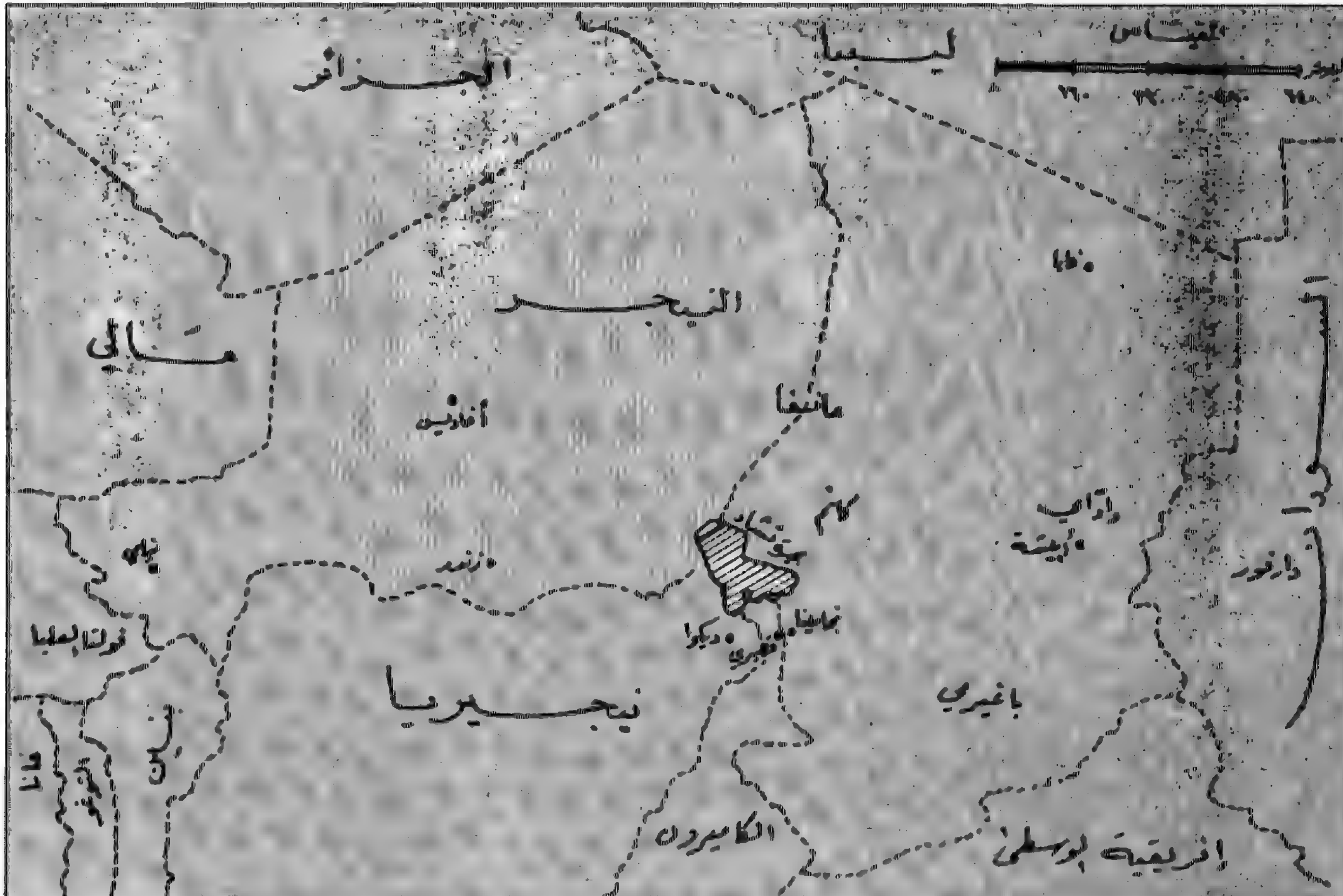
(كلابرتن) الموفدين من قبل الحكومة البريطانية لمعرفة مجرى نهر النيجر، واتفقت بريطانيا مع فرنسا عام ١٣٠٨ لاقتسام مناطق النفوذ، فكانت منطقة النيجر من نصيب فرنسا التي تمكّنت من السيطرة على الأجزاء الجنوبية، أما الأجزاء الشمالية فقد قاومتها قبائل الطوارق، ولكن التعاون بين الدولتين الاستعماريتين قد قضى على المقاومة، واستطاعت فرنسا من السيطرة على منطقة النيجر تماماً عام ١٣٤١هـ.

وأما شمالي نيجيريا فقد انتشرت فيه إمارات الهاوسا، وهي أشبه بممالك صغيرة، وقد بدأت تظهر منذ القرن السابع، وفي هذا الوقت بالذات بدأ الإسلام ينتشر بين رعايا هذه الإمارات، وإن كان يختلف بين إمارة وأخرى، وربما تأخر في دخول بعضها على حين يكون قد عمّ بعضها الآخر، كما أنه قد بقيت الوثنية تنتشر بين أفراد بعض هذه الإمارات حتى قامت دولة الفولاني بينهم، وفي القرن السابع أيضاً بدأت قبائل الفولاني تتجه نحو الشرق وتدخل بين أفراد الهاوسا في هذه المنطقة، ويبدو أن الهاوسا مزيج من الحاميين والعرب والأحباش الذين حلّوا في هذه المنطقة، ونشأت عن حياتهم المشتركة الطويلة مجموعة الهاوسا هذه.

كانت إمارات الهاوسا سبع إمارات رئيسية، تضمّ قبائل الهاوسا، ويُطلق عليها أسماء أبناء ملكهم الذي أسس تلك الإمارات وكلها تقع على حدود نيجيريا والنيجر اليوم عدا (زاريا) التي تمتد إلى الجنوب، وهذه الإمارات هي:

١ ـ غوبير:

وهي أكثر الممالك الهاوسية اقتراباً من الصحراء أو بعداً إلى الشمال إذا تضمّ أجزاء من جنوبي النيجر، ولما كانت أرضها أكثر المناطق جدباً، لذا كان سكانها أقسى من غيرهم، وكانت مملكتهم أقوى من غيرها لذا فقد فرضت نفوذها على ما جاورها من إمارات، كما أنها خضعت لنفوذ بورنو في الشرق، ومالي وصنغاي في الغرب، وكان المسلمون يحيطون بها من



الجزائر
ليبيا
المقياس
النيجر
مالي
أغاديس
زندر
مانغا
كانم
نيامي
فولتا العليا
نيجيريا
بنين
التوغو
غانا
الكاميرون
باغيري
واداي
أبيشة
دارفور
السودان
إفريقية الوسطى

مصور رقم [٤٠]

الغرب والشمال والشرق لذا فقد انتشر فيها الإسلام، سواء أكان عن طريق مملكة مالي أم صنغاي بعدها من الغرب، أم عن طريق القبائل البدوية والطوارق من الشمال، أم عن طريق برنو من الشرق، ومع ذلك فقد بقي عدد غير قليل من سكانها على الوثنية حتى قامت دولة الفولاني فعمّ الإسلام.

وفي عهد الملك باباري الذي حكم من (١١٧٦ ـ ١١٨٧) ضمّ إلى مملكته الإمارات التي كانت تتبع مملكة (كب)، كما استولى على مملكة (زامفارا)، وأسس عاصمةً جديدة اسمها (القاضاوا)، وبعد مدةٍ من حكمه أصبحت مملكة (غوبير) أقوى ممالك الهاوسا، ثم اصطدمت في عهد ملكها (باو) وخلفه (ينف) بدولة الفولانيين، وأخيراً انضوت فيها أيام عثمان بن فودي.

٢ ـ دورا:

وتقع بين كاتسينا وكانو، ولم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ إمارات الهاوسا.

٣ ـ رانو:

وهي مملكة من الدرجة الثانية أيضاً، وإن كانت قد اشتهرت بصناعة الحديد، وقد دخلت ضمن مملكة كانو، إذ لم يكتب لها القوة رغم كثرة الملوك الذين تعاقبوا على الحكم فيها.

٤ ـ زاريا:

وهي أكثر ممالك الهاوسا بُعداً نحو الجنوب، وتضمّ مساحاتٍ واسعةً بالنسبة إلى غيرها، وكانت تعرف باسم مملكة «زكزك»، وتضمّ عدداً من الأقاليم تصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، ولم ينتشر الإسلام فيها إلا بعد قيام دولة الفولانيين، وقد أخضع هذه المملكة سلطان صنغاي (أسكيا

محمد) عام ٩٢١، وبعد ضياع دولة صنغاي في القرن الحادي عشر أصبحت تجارة الرقيق أهم عنصر في هذه المملكة، ويساق إلى ساحل المحيط الأطلسي. وفي مطلع القرن الثالث عشر خضعت لدولة الفولانيين، وبدأ الإسلام ينتشر في أرجائها.

٥ ـ كتسينا:

يبدو أن هذا الاسم هو اسم زوجة مؤسس المدينة (جنزما)، ويتألف سكانها من السودان، والفولاني، والطوارق، والماندينغ، وأصبحوا جميعاً يتكلمون لغة الهاوسا، خضعت لمملكة صنغاي في عام ٩٢١، ثم نشطت فيها التجارة، وخضعت لسلطان مملكة غوبير، ووصل الإسلام إليها في وقتٍ مبكرٍ، ويعود إلى القرن الثامن الهجري، وأن ملكها الساركن محمد كوار قد أسلم على يد علماء من مالي، وأصبحت من مراكز العلم.

٦ ـ كانو:

وحكمتها في القرن التاسع الأسرة الرنفاوية، ويُعدّ أول ملوك هذه الأسرة (محمد رنفا) من أشهرهم، وقد أسّس القصور، والقلاع، والمساجد، وخلفه (محمد كزولي)، وفي عهده خضعت لمملكة صنغاي، واشتهرت بالعلم والتجارة، وفي القرن الثالث عشر خضعت لسلطان بورنو، وأخيراً تبعت سلطان الفولاني.

تنافس مملكة كانو مملكة كتسينا في العلم والسبق في الدخول في الإسلام، إذ بدأ الإسلام ينتشر فيها منذ القرن الثامن على يد علماء جاءوا من مملكة مالي.

كانت الأسرة الغوداوية تحكم مملكة كانو، وفي أيامها انتشر الإسلام، ويقال أن الملك الحادي عشر من هذه الأسرة قد اعتنق الإسلام، وهو (عثمان زمنقاوي)، وقد انتصر المسلمون على الوثنيين، وفي أيام الملك عمر انتهى عهد الأسرة الغوداوية، وجاءت الأسرة الرنفاوية، وأولها محمد رنفا ـ كما ذكرنا ـ.

٧ - بيرام:

وهي من ممالك الدرجة الثاية عند الهاوسا، وتسمى أيضاً (جاران جاباس)، وهو ما تعرف به الآن.

إلى جانب هذه الممالك السبعة توجد ممالك أخرى لا تضمّ الهاوسا فقط، وإنما تشمل مجموعات قد تكون متباينةً ولا يربطها أي رابط، وهي سبع ممالك أيضاً، وتقع إلى الجنوب والغرب من الأولى، فهي أقرب إلى مجرى نهر النيجر، وهي:

أ - كب:

وتقع بين ممالك الهاوسا والصنغاي وتشمل أجزاء من نيجيريا، والنيجر، وشمالي بنين، وفولتا العليا اليوم، وقد بقيت مستقلةً عندما خضعت إمارات الهاوسا لسلطان الصنغاي، كما أن الدولة السعدية لم تستطع دخولها بعد أن قضت على مملكة الصنغاي، ولذا فقد حالت دون وصول السعديين إلى بقية ممالك الهاوسا، وكانت على خلاف مع بقية إمارات الهاوسا، ومع مملكة بورنو أيضاً، ودخلها الإسلام عن طريق الصنغاي.

ب - يورب:

وتقع إلى الغرب من مجرى نهر النيجر الأدنى وحتى ساحل المحيط الأطلسي، ولم يكن لليوروبا نشاط بحري، وإنما جاء الصليبيون وسيطروا على الساحل منذ نهاية القرن التاسع الهجري، وأسس اليوروبا المدن في الداخل وأشهرها إيلورين في الشمال، وإبادان في الجنوب، وكانت العاصمة القديمة لهذه الإمارة مدينة «أويولي».

جـ - نوبي:

وتقع إلى الشرق من مجرى نهر النيجر الأدنى عند التقائه بنهر

(بينوي)، كما شملت جزءاً من جنوب نهر النيجر وسكانها مجموعات مختلفة، ولا يتكلمون لغة الهاوسا، واعتنق أحد ملوكها الإسلام، ويدعى جبريل، لكن غضب عليه السكان فعزلوه، وبقيت الوثنية هي الأكثر شيوعاً حتى دخلت في دولة الفولاني في مطلع القرن الثالث عشر.

د - زامفارا:

قامت عندما ضعفت مملكة (كب) التي تقع إلى الغرب منها، لكنها لم تلبث أن ضعفت، وضمّتها إليها مملكة غوبير، دخل الإسلام زامفارا أيام مملكة الصنغاي، وأخيراً خضعت لسلطان الفولاني، وأصبحت ضمن إقليم سوكوتو.

هـ - ياوري:

تقع على نهر النيجر، وهي أحدث نشأةً من غيرها من ممالك الهاوسا، وتختلف عن الهاوسا بعادات شعبها ولغته، لم تخضع لمملكة صنغاي، وبقيت على الوثنية حتى عام ٩٨٦ حيث أسلم ملكها، وعمل على نشر الإسلام، ثم جاء السلطان (سوت) فحارب الوثنية، ونشر الإسلام.

و - برغ:

تقع على النيجر، وإلى الغرب منه، وتضمّ أجزاء من نيجيريا وبنين اليوم، وقومها من الوثنيين، ويكثر فيهم السحر، وبقوا على ذلك حتى جاءت دولة الفولاني، وكانت قد خضعت لصنغاي، ولكن لم تنجح مع أسكيا محمد وسيلة لحملهم إلى الإسلام.

ز - غرم:

تشبه برغ في شعبها وعقيدته، وبقائها على الوثنية حتى حكم الفولانيون.

دولة الفولاني

تعود إلى مؤسسها عثمان بن فودي، وفودي لقب وتعني الفقيه، واسمه الحقيقي محمد، ودان تعني ابن، لذا يُقال له: عثمان دان فودي، وقد ولد في بلدة (طفل) من أطراف مملكة غوبير عام ١١٦٨، ودرس العربية والعلوم الدينية، وأسّس حركةً عرفت باسم «الجماعة»، وضمّت مجموعاتٍ من عدة ممالك، من غوبير، وكانو، وزامفارا، وكب، وكاتسينا ومن شعوب متعددة منها: الهاوسا، والفولاني، والطوارق، والزنوج، منهم من كان مسلماً بالأصل، ومنهم من دخل بالإسلام حديثاً، وبدأ الدعوة إلى الإسلام عام ١١٨٨ أي عندما كان في العشرين من عمره، ولما ناصبه مجتمعه العداء خرج عام ١٢١٨ مهاجراً إلى مكان يُدعى (قد) في أطراف مملكة غوبير، وسار معه أنصاره، وتضافر ملوك الهاوسا على محاربة (الجماعة)، وهددها ملك غوبير، وشنّ عليها الحملات، فكان لا بدّ من أن تحمي نفسها فبايعت الشيخ عثمان على السمع والطاعة في المكره والمنشط وعُرف منذ ذلك الوقت بأمير المؤمنين وذلك في عام ١٢١٩، وأتاه إلى مهجره ملك (آهير) فبقي ملكه بينما زالت ممالك غيره، وكان أكبرَ أنصاره أخوه عبد الله، وهو خليفته، وابنه محمد، وصديقه عمر الكموي.

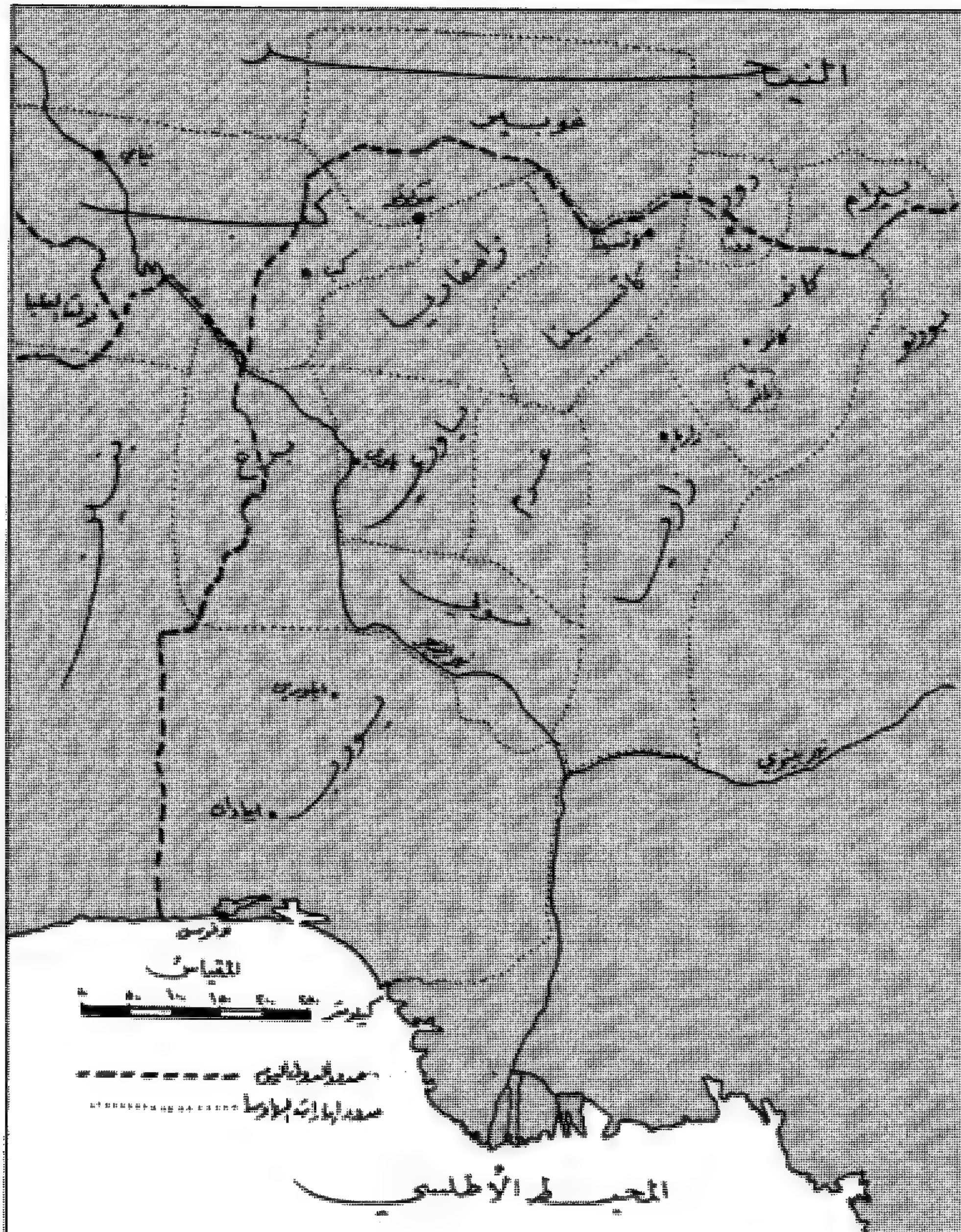
بدأ الجهاد منذ بيعة الشيخ عام ١٢١٩، وقد تمكّن أصحاب الدعوة من دخول (القاضاوا) عاصمة غوبير عام ١٢٢٤ وذلك بعد المعركة الشهيرة التي قادها ملك غوبير (ينف) بنفسه عام ١٢١٩، وساعده بقية ممالك الهاوسا، وشنّوا حرباً على الجماعة وأنصارها في ممالكهم، وعُرفت تلك المعركة باسم معركة (كنو)، أما الجماعة فقد قادها أخو الشيخ عبد الله بن

فودي. ثم فُتحت بقية ممالك الهاوسا، كما فتحت بورنو والأداماوا[1]، واتخذ الشيخ عثمان مدينة سوكوتو قاعدةً له عام ١٢٣٠، وتوفي عام ١٢٣٢، وخلفه ابنه محمد بيلو، الذي كان عالماً ومؤلفاً، واستمرت خلافته حتى عام ١٢٥٣، وفي عهده زار المنطقة الرحالة الإنكليزي (كلابرتون) والتقى به، وتحدّث عن الأمن في البلاد، وعدل السلطان.

وضعفت الدولة بعد محمد بيلو، فكان أمير المؤمنين يُقيم في سوكوتو، وفي بقية المناطق أمراء من الفولاني، وبدأ الإنكليز يُقنعون أمراء الفولاني بقبول الحماية الإنكليزية، فوافق بعضهم فحاربت بهم إنكلترا البقية، وانتصرت عليهم، وفي عام ١٣١٨ أعلنت إنكلترا عن قيام محمية الشمال، ودخلت كانو وسوكوتو عام ١٣٢١، واحتلت بورنو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد أمراء الفولاني، ويساعدهم ضباط إنكليز.

---

(١) الأداماوا: إقليم بين بورنو شمالاً، وباغيرمي شرقاً، وإمارات الهاوسا غرباً، والكاميرون جنوباً، وبعد من الكاميرون.



مصور رقم [٤١]

الفصل الخامس

شرقي إفريقية

يمتد هذا الجزء من شمالي أريتريا حتى جنوب تانزانيا، لقد انتشر الإسلام في هذه الأرجاء في مراحل مختلفة، وقد عمّ الساحل والجُزر، ولم يتعمّق في الداخل إلا قليلاً في الصومال، لقلة السكان في الأجزاء الجنوبية، ولرداءة الأحوال المناخية، وكثافة الغابة، وانتشار الحيوانات.

ولما كانت الأجزاء الشمالية على صلة بالدولة الإسلامية، فقد ارتبطت بها، أما الأقسام الجنوبية التي تقع جنوب الصومال فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق الدعوة، ولم تكن على صلة بالدولة الإسلامية لذا فقد قامت فيها إمارات وممالك مستقلة اختلفت في اتساعها حسب الجُزر التي قامت فيها أو أجزاء الساحل التي امتد سلطانها عليها، وقد لا تشمل أحياناً إلا بعض المدن، إذ لم تكن لتتعمق في الداخل ـ كما ذكرنا ـ ولعل معظمها قام على التجارة أو كانت قواعدها مراكز تجارية مهمة، ولعل أشهرها زنجبار، ومملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع الهجري، وكانت حاضرتها مدينة «كلوه» الواقعة في جنوب تانزانيا اليوم، وقد عملت على نشر الإسلام في موزامبيق، ومالاوي، وزامبيا، وزيمبابوي، والإمارة التي قامت في جزر القمر بل نستطيع أن نقول: إن كل مدينةٍ ساحليةٍ كبيرة كانت مقرَّ إمارةٍ خاصةٍ، ولم تكن هذه الإمارات ـ مع الأسف ـ متحدةً فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفةً لا تثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين الصليبيين في تلك الجهات.

خرج البرتغاليون على هذه الإمارات من الجنوب في مطلع القرن العاشر بعد إخراج المسلمين من الأندلس، وقد استولوا على زنجبار عام ٩٠٩، وعلى كلوة عام ٩١١، وأظهر هؤلاء الصليبيون حقدهم فقتلوا السكان، وخرّبوا المدن، ونهبوا كل ما استطاعوا نهبه، وبعد أن رتعوا سنوات وقف في وجههم العثمانيون الذين جاؤوا لنزالهم، والعُمانيون اليعاربة، كما كانت إنكلترا تدعم القتال ضد البرتغاليين منافسة لها لإنكار البرتغاليين حق بقية الدول الأوربية النصرانية التي ساعدت بكل قواها الإسبان والبرتغاليين ضد المسلمين في الأندلس، كما قام الفرس بدور في هذا القتال غير أن إنكلترا والفرس كان دورهم محصوراً في منطقة الخليج، واستطاع العثمانيون أن يدخلوا الأجزاء الشمالية من شرقي إفريقية وهي أريتريا والصومال، كما تمكّنت أسرة اليعاربة التي تحكم عُمان أن تطرد البرتغاليين من بلادها حيث استطاع سلطان بن سيف الحاكم اليعربي (١٠٥٠ـ ١٠٩٠) أن ينقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما استطاع ابنه سيف (١١٠٤ ـ ١١٢٣) أن يُخلّص ممباسا في شرقي إفريقية من أيدي البرتغاليين، وبدأ نفوذ العُمانيين يتوسع في شرقي إفريقية، ويحلّ محل البرتغاليين في الأجزاء الجنوبية من شرقي إفريقية.

وانتهى حكم أسرة اليعاربة عام ١١٥٤، وجاءت الأسرة البوسعيدية إلى الحكم، فاستقل محمد بن عثمان المزروعي في شرقي إفريقية مستفيداً من انتقال الحكم من أسرةٍ إلى أسرةٍ في عُمان، لكن البوسعيديين استطاعوا ثانيةً من إعادة نفوذهم إلى شرقي إفريقية، وبعدها عاد المزروعي إلى ممباسا بعد أن فرّ من السجن، وتمكّن أن يقتل واليها سيف بن خليفة، ويعود إلى الاستقلال عن عُمان عام ١١٦٠، وتوفي أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية عام ١١٩٥، وإن كان ابنه سعيد قد تسلّم الحكم منذ عام ١١٩١، وتوفي قبل والده عام ١١٩٤، وخلفه ابنه أحمد فنازعه أعمامه، حيث سار أحدهم وهو سيف إلى شرقي إفريقية وحاصر مدينة ممباسا فاستنجد حاكمها بأحمد، فأرسل له قوةً، فاضطر سيف إلى ترك الحصار،

والاتجاه إلى مدينة لامو، وهكذا عاد البوسعيديون إلى شرقي إفريقية، إذ أصبحت ممباسا تتبع أحمد، وحكم أخوه حمد زنجبار، أما عمهما سيف فقد سيطر على (لامو)، وتركها لابنه بدر من بعده. ولكن عمهما الصغير سلطان استطاع أن يصبح سلطان مسقط على حين انحصر وضع حمد بن سعيد في نزوى، وتبع شرقي إفريقية إلى سلطان، وتوفي سلطان عام ١٢١٩. وخلفه ابنه سعيد وحدثت خلافات في عُمان لا علاقة لنا بها، والذي يهمنا أن سعيد توفي عام ١٢٧٣، وشرقي إفريقية يتبعه، وترك عدداً من الأولاد وقد اختلفوا على حكم ما ترك أبوهم، وحكم بينهم نائب الملك في الهند اللورد كاننغ إذ أعطى ثويني عُمان، وأخذ ماجد شرقي أفريقية، وكان هذان كبيرين أما الآخرون فكانوا صغاراً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطولاً للاستيلاء على أملاك ماجد في شرقي إفريقية وتوحيد المملكة ثانيةً، غير أن حاكم بومباي أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحد لأن الإنكليز لا يريدون توحيد المملكة إذ تصبح قويةً، ويُخشى بأسها، غير أن زنجبار كانت تدفع معونةً سنويةً لعُمان.

نقل ماجد بن سعيد حاضرة ملكه من زنجبار إلى دار السلام على الشاطئ الإفريقي رغبةً منه في التوسّع داخل قارة إفريقية إذ رأى أن المسلمين لم يتمكّنوا من مواجهة البرتغاليين، حيث كانت أملاكهم مقتصرةً على شريط من الساحل، وتُشكّل إمارات وممالك متعددة، وأن البرتغاليين لم يستفيدوا من هذا الغلط الذي وقع به المسلمون، بل ساروا على خطتهم إذ لم يتوغلوا في الداخل وللسبب نفسه لم يستطيعوا من مواجهة خصومهم من عُمانيين وعثمانيين وإنكليز، وبدأ ماجد بالتقدم نحو الداخل فوصل المسلمون إلى شواطئ بحيرة تانغانيكا، ومن هناك توسعوا في زائير، وامتدت مراكزهم هناك على مجرى نهر الكونغو، وكان للمسلمين في تلك الجهات والٍ ينفذ أوامر سلطان دار السلام على شواطئ إفريقية الشرقية.

توفي ماجد بن سعيد عام ١٢٨٧، وخلفه أخوه (برغش)، وأراد إعادة

الوحدة بين عُمان وشرقي إفريقية، وعمل على ذلك ولكنه فشل، وضعف حكمه، وازداد النفوذ الصليبي، وتقاسمت دول أوربا المنطقة فأخذت ألمانيا الأجزاء الجنونبية حتى موزامبيق المستعمرة البرتغالية أو ما عُرف باسم تنجانيقا، وأخذت انكلترا جزيرة زنجبار والأجزاء الشمالية من السواحل، أو سواحل كينيا وعُدّت تلك الشطآن محميةً إنكليزيةً، وإن كانت تلك الجهات تحت حكم السلطان (برغش) الحاكم الاسمي للمنطقة، أو كما كان يُعرف باسم سلطان زنجبار.

توفي (برغش) عام ١٣٠٦ وخلفه أخوه الآخر (سيد عبد الله خليفة بن سعيد)، وزاد ضعف دولة زنجبار في أيامه، فتقاسمت الدول سلطنته بشكل رسمي، ولما هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٦، وضعت مستعمراتها ومنها تنجانيقا تحت إشراف عصبة الأمم، ثم تقاسمها الحلفاء المنتصرون فكانت تنجانيقا تحت سيطرة إنكلترا، وبقي سيد عبد الله خليفة السلطان الصوري حتى توفي عام ١٣٨٠، وخلفه ابنه جلمشيد، وهكذا أصبح شرقي إفريقية الجنوبي تحت سيطرة إنكلترا.

أما الأجزاء الشمالية فقد تبعت الدولة العثمانية، ولكنها لم تلبث أن ضعفت الدولة فبدأت سيطرة الأمراء المحليين، وهذا ما جعل فراغاً سياسياً في المنطقة، ويمكن لكل أمير أو حاكم يقوى نفوذه أن يبسط حكمه على ما يستطيع، حتى تمكّن أمراء عسير أن يخضعوا جزر دهلك وزيلع وبربره إلى إمارتهم (١٢٤٩ ـ ١٢٧٣).

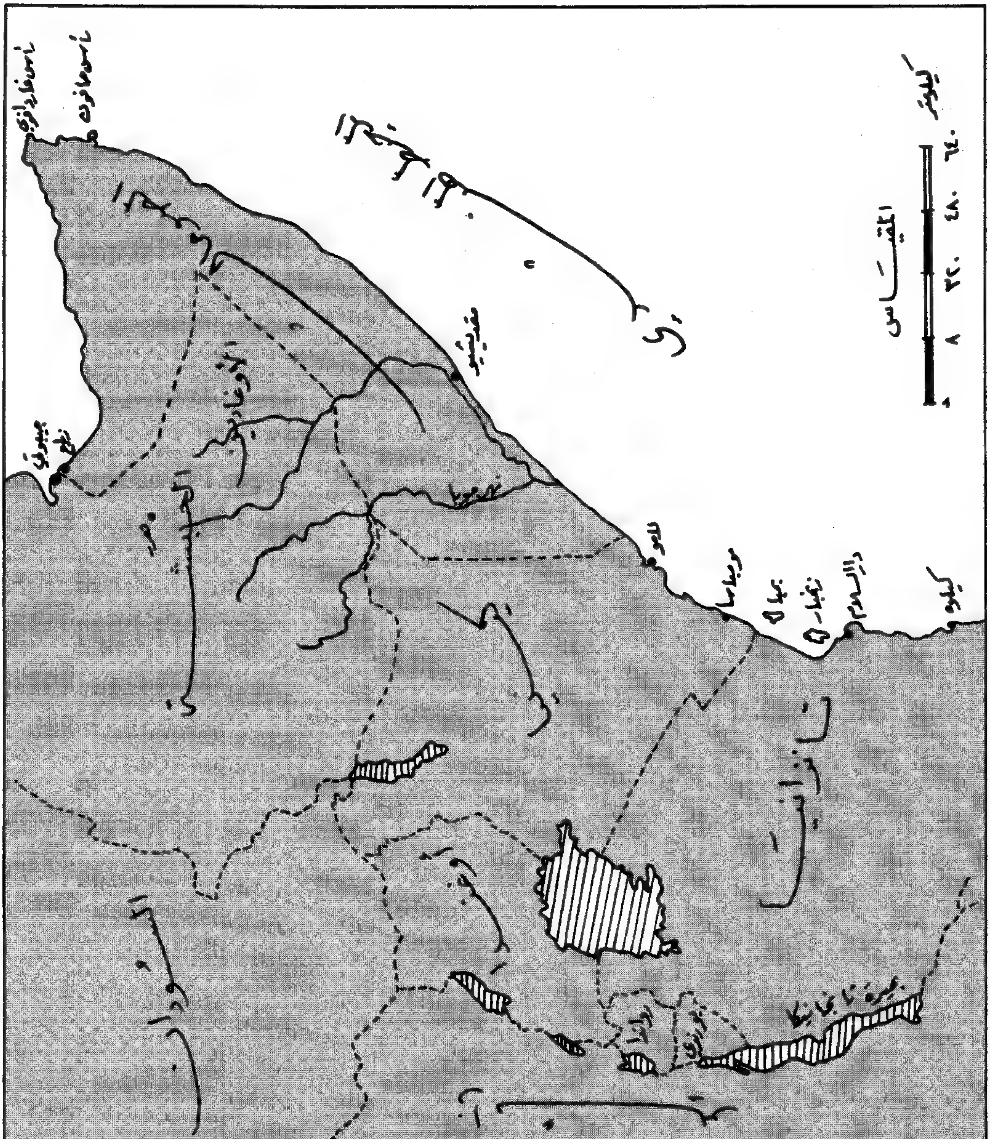
ولما رأت الدولة العثمانية ضعفها وعدم إمكانية سيطرتها على سواحل البحر الأحمر وافق الخليفة العثماني على التنازل عن هذه السواحل من سواكن إلى مضيق باب المندب إلى مصر عام ١٢٧٣، ثم تقدّمت القوات المصرية على السواحل الصومالية حتى وصلت عام ١٢٨٣ إلى رأس غاردافوي، كما توغّلت في الداخل فدخلت هرر، واضطر سلطانها محمد علي بن عبد الشكور إلى التنازل عن إمارته إلى خديوي مصر عام ١٢٩٣، وتابع بعدئذٍ الجيش المصري في تقدّمه على السواحل الصومالية نحو

الجنوب حتى تخطّى نهر جوبا، وأصبح في أملاك سلطان زنجبار الذي احتجّ على هذا التصرّف، واعترفت إنكلترا عام ١٢٩٥ بسيادة مصر على جميع الساحل الإفريقي الشرقي من السويس حتى رأس حافون.

وفي الوقت نفسه كان المصريون يتقدّمون أيضاً في وادي النيل حتى وصلوا إلى أوغندة ١٢٨٧ حيث أطلق عليها يومذاك اسم المديرية الاستوائية.

اشتعلت الحرب بين مصر والحبشة، وهُزمت مصر عام ١٢٩٦ في ثلاث معارك، وتخلّت عن بعض الأجزاء، ولما ظهر ضعف المصريين تقاسمت الدول الكبرى المنطقة فيما بينها، وأعطوا الحبشة جزءاً من تلك القسمة بصفتها دولة نصرانية، وحسب هذا التقسيم أنزلت فرنسا عام ١٢٩٩ قواتها في جيبوتي، وإيطاليا في عصب، وحدث أن احتلت إنكلترا مصر بعد حركة أحمد عرابي، وأصبحت المناطق التي كانت تحت نفوذ مصر بيدها، ودخلت فرنسا تونس وكانت إيطاليا تريد أن تضمها إليها غير أنها سبقت، وهذا ما جعل إيطاليا تتجه نحو شرقي إفريقية لتعوّض ما خسرته في تونس، ونزلت في أريتريا، وحتى تقدمت في الحبشة غير أنها هزمت فاقتصرت على أريتريا، وقامت الحركة المهدية في السودان فأمرت إنكلترا بإخلاء السودان عام ١٣٠٢ حسب مخططٍ مدروسٍ فخلت جهات شرقي إفريقية من القوات المدافعة عنها، وتصرّفت الدول الأوربية حسبما تريد في تلك الجهات، وأخذت كل دولة نصيبها المعطى لها والمتفق عليه فيما بينها، حيث أخذت إنكلترا الصومال الشمالي من رأس حافون حتى حدود جيبوتي، وأخذت فرنسا منطقة جيبوتي، وأخذت إيطاليا أريتريا والصومال الجنوبي من رأس حافون حتى جنوب مصب نهر جوبا، وأُعطيت الحبشة منطقة هرر والأوغادين، وأما ألمانيا فكان نصيبها من الأجزاء الجنوبية التي تحدثنا عنها والتي تقاسمتها مع إنكلترا.

لقد كان لهذا التقسيم أثره السيئ في نفوس مسلمي تلك المنطقة، وقام محمد بن عبد الله حسن المعروف بالملا بالجهاد والتفّ حوله



مصور رقم [٤٢]

المسلمون لطرد الصليبيين من البلاد، وبدأت هذه العملية عام ١٣١٧ يوم أعلن أنه مهدي الصومال، ونادى بالجهاد المقدس، وأُطلق على جماعته أيضاً اسم الدراويش، وقد نجح في السيطرة على الأجزاء الداخلية، وحكمها لمدة تصل إلى عشرين سنة (١٣١٧ ـ ١٣٣٧)، وحصر الإنكليز في شريطٍ ضيقٍ من الساحل، وقد جهّزوا أربع حملات للقبض عليه، ولكنها باءت بالفشل، ولكن بعدئذ عزّزت إنكلترا قواتها، وتقدّمت نحو الداخل فهُزم محمد عبد الله حسن، وجرح في بعض المعارك، واضطر إلى الفرار إلى منطقة الأوغادين لإعادة تنظيم صفوفه، غير أنه مات متأثراً بجراحه عام ١٣٣٨، واستمرت المقاومة بعده عدة أشهر، ثم سيطر الإنكليز على الجزء المخصص لهم من الصومال.

وأما إيطاليا فقد استطاعت من السيطرة على ميناء مصوع عام ١٣٠٣، وكذلك ميناء عصب في أريتريا، وبدأت بعدها تبسط نفوذها في الصومال بصورة تدريجية، وقد عقدت معاهدة حماية مع سلطاني (أوبيا) و(ميجورتين) عام ١٣٠٧، ومع ذلك فلم تتمكّن من دخول الساحل وفرض سيطرتها حتى عام ١٣٤٥ حيث جهّزت حملةً قوية أخضعته بالقوة، وكذلك فإن منطقة هرر استمرت بالثورات ضد الأحباش طيلة هذه المرحلة.

انتهى الجزء الثامن بحمد الله

ويليه الجزء التاسع بإذن الله

المَراجِع

- أرض الأنبياء، عبد الله فيلبي، ترجمة عمر الديراوي، المكتبة الأهلية ـ بيروت.
- بداية الحكم المغربي على السودان الغربي، محمد الغربي، وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ١٩٨٢م.
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة سعيد سليمان، دار المعارف بمصر.
- تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك. تحقيق إحسان حقي ـ دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- تاريخ شرقي الجزيرة العربية، أحمد مصطفى حاكمة، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٨٥هـ.
- تاريخ عُمان، وندل فيليبس، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان ـ ١٤٠١هـ.
- تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٩٨هـ.
- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون، محمد الهادي العامري، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.
- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثالث، جلال يحيى، النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، محمد بن عبد الله آل عبد القادر، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٨٢هـ.
- تقويم البلدان الإسلامية، إصدار مؤتمر العالم الإسلامي ـ كراتشي ـ ١٣٨٤هـ.
- تقويم العالم الإسلامي، إصدار جمعية الدراسات الإسلامية ـ القاهرة ١٣٩٠هـ.
- الحكم العثماني في اليمن، فاروق عثمان أباظة، دار العودة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

- الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية، حسن عيسى عبد الظاهر، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠١هـ.
- دليل الخليج، ج.ج. لوريمر، قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر.
- الدولة السعودية الثانية، عبد الفتاح أبو علية، مؤسسة الأنوار ـ الرياض ١٣٩٦هـ.
- ذكريات يوسف الحكيم، يوسف الحكيم، دار النهار للنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- الرجل الصنم، ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمٰن، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.
- ساحل الذهب الأسود، محمد سعيد المسلم، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٨٢هـ.
- الشعوب الإسلامية، عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣م.
- صحيح الأخبار عما ورد في بلاد العرب من الآثار، محمد بن عبد الله بن بليهد.
- صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، جورج أوغست فاين، ترجمة سمير سليم شبيلي.
- العثمانيون والقاسم محمد بن علي في اليمن، أميرة علي البداح، جدة عام ١٤٠٤هـ.
- العلاقات الحجازية المصرية، علي بن حسين السليمان، جامعة القاهرة ١٣٩٣هـ.
- علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض ١٤٠٢هـ.
- غزوات الجراكسة والأتراك في جنوبي الجزيرة (البرق اليماني في الفتح العثماني)، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي.
- فتح العثمانيون عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٣٩٩هـ.
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، سليمان بن محمد الغنام، الكتاب العربي السعودي ـ ١٤٠٠هـ.
- قسمات العالم الإسلامي، مصطفى مؤمن، دار الفتح ـ بيروت ١٣٩٤هـ.
- قلب جزيرة العرب، فؤاد حمزة، مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض.

- مذكرات سليمان شفيق الكمالي.
- المسألة التونسية، عبد الرحمٰن تشابجي، ترجمة عبد الجليل التميمي، دار الكتب الشرقية - تونس ١٩٧٣م.
- المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، مصطفى عبد الله بعيّو، الدار العربية للكتاب - ليبيا ١٣٩٥ هـ.
- من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، محمد أديب غالب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض.
- من تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، م.م الرمزي، المطبعة الكريمية الحسينية - أورنبورغ ١٣٢٥هـ.
- مواطن الشعوب الإسلامية (سلسلة كتب) محمود شاكر، المكتب الإسلامي - بيروت.
- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال حمزة يوسف الصيرفي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٤٠٣هـ.
- هذه هي اليمن، عبد الله الثور، دار العودة - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- الهند في العهد الإسلامي، عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد - الدكن - الهند ١٣٩٢.
- اليمن عبر التاريخ، أحمد حسين شرف الدين، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

موافقة التقويم الهجري

للتقويم «الميلادي»

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
٩٢٣	١٥١٧/١/٢٤	٩٤٥	١٥٣٨/٥/٣٠	٩٦٧	١٥٥٩/١٠/٣	٩٨٩	١٥٨١/٢/٥
٩٢٤	١٥١٨/١/١٣	٩٤٦	١٥٣٩/٥/١٩	٩٦٨	١٥٦٠/٩/٢٢	٩٩٠	١٥٨٢/١/٢٦
٩٢٥	١٥١٩/١/٣	٩٤٧	١٥٤٠/٥/٨	٩٦٩	١٥٦١/٩/١١	٩٩١	١٥٨٣/١/٢٥
٩٢٦	١٥١٩/١٢/٢٣	٩٤٨	١٥٤١/٤/٢٧	٩٧٠	١٥٦٢/٨/٣١	٩٩٢	١٥٨٤/١/١٤
٩٢٧	١٥٢٠/١٢/١٢	٩٤٩	١٥٤٢/٤/١٧	٩٧١	١٥٦٣/٨/٢١	٩٩٣	١٥٨٥/١/٣
٩٢٨	١٥٢١/١٢/١	٩٥٠	١٥٤٣/٤/٦	٩٧٢	١٥٦٤/٨/٩	٩٩٤	١٥٨٥/١٢/٢٣
٩٢٩	١٥٢٢/١١/٢٠	٩٥١	١٥٤٤/٣/٢٥	٩٧٣	١٥٦٥/٧/٢٩	٩٩٥	١٥٨٦/١٢/١٢
٩٣٠	١٥٢٣/١١/١٠	٩٥٢	١٥٤٥/٣/١٥	٩٧٤	١٥٦٦/٧/١٩	٩٩٦	١٥٨٧/١٢/٢
٩٣١	١٥٢٤/١٠/٢٩	٩٥٣	١٥٤٦/٣/٤	٩٧٥	١٥٦٧/٧/٨	٩٩٧	١٥٨٨/١١/٢٠
٩٣٢	١٥٢٥/١٠/١٨	٩٥٤	١٥٤٧/٢/٢١	٩٧٦	١٥٦٨/٦/٢٦	٩٩٨	١٥٨٩/١١/١٠
٩٣٣	١٥٢٦/١٠/٨	٩٥٥	١٥٤٨/٢/١١	٩٧٧	١٥٦٩/٦/١٦	٩٩٩	١٥٩٠/١٠/٣٠
٩٣٤	١٥٢٧/٩/٢٧	٩٥٦	١٥٤٩/١/٣٠	٩٧٨	١٥٧٠/٦/٥	١٠٠٠	١٥٩١/١٠/١٩
٩٣٥	١٥٢٨/٩/١٥	٩٥٧	١٥٥٠/١/٢٠	٩٧٩	١٥٧١/٥/٢٦	١٠٠١	١٥٩٢/١٠/٨
٩٣٦	١٥٢٩/٩/٥	٩٥٨	١٥٥١/١/٩	٩٨٠	١٥٧٢/٥/١٤	١٠٠٢	١٥٩٣/٩/٢٧
٩٣٧	١٥٣٠/٨/٢٥	٩٥٩	١٥٥١/١٢/٢٩	٩٨١	١٥٧٣/٥/٣	١٠٠٣	١٥٩٤/٩/١٦
٩٣٨	١٥٣١/٨/١٥	٩٦٠	١٥٥٢/١٢/١٨	٩٨٢	١٥٧٤/٤/٢٣	١٠٠٤	١٥٩٥/٩/٦
٩٣٩	١٥٣٢/٨/٣	٩٦١	١٥٥٣/١٢/٧	٩٨٣	١٥٧٥/٤/١٢	١٠٠٥	١٥٩٦/٨/٢٥
٩٤٠	١٥٣٣/٧/٢٣	٩٦٢	١٥٥٤/١١/٢٦	٩٨٤	١٥٧٦/٣/٣١	١٠٠٦	١٥٩٧/٨/١٤
٩٤١	١٥٣٤/٧/١٣	٩٦٣	١٥٥٥/١١/١٦	٩٨٥	١٥٧٧/٣/٢١	١٠٠٧	١٥٩٨/٨/٤
٩٤٢	١٥٣٥/٧/٢	٩٦٤	١٥٥٦/١١/٤	٩٨٦	١٥٧٨/٣/١٠	١٠٠٨	١٥٩٩/٧/٢٤
٩٤٣	١٥٣٦/٦/٢٠	٩٦٥	١٥٥٧/١٠/٢٤	٩٨٧	١٥٧٩/٢/٢٨	١٠٠٩	١٦٠٠/٧/١٣
٩٤٤	١٥٣٧/٦/١٠	٩٦٦	١٥٥٨/١٠/١٤	٩٨٨	١٥٨٠/٢/١٧	١٠١٠	١٦٠١/٧/٢

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٠١١	١٦٠٢/٦/٢١	١٠٤٠	١٦٣٠/٨/١٠	١٠٦٩	١٦٥٨/٩/٢٩	١٠٩٨	١٦٨٦/١١/١٧
١٠١٢	١٦٠٣/٦/١١	١٠٤١	١٦٣١/٧/٣٠	١٠٧٠	١٦٥٩/٩/١٨	١٠٩٩	١٦٨٧/١١/٧
١٠١٣	١٦٠٤/٥/٣٠	١٠٤٢	١٦٣٢/٧/١٩	١٠٧١	١٦٦٠/٩/٦	١١٠٠	١٦٨٨/١٠/٢٦
١٠١٤	١٦٠٥/٥/١٩	١٠٤٣	١٦٣٣/٧/٨	١٠٧٢	١٦٦١/٨/٢٧	١١٠١	١٦٨٩/١٠/١٥
١٠١٥	١٦٠٦/٥/٩	١٠٤٤	١٦٣٤/٧/٢٧	١٠٧٣	١٦٦٢/٨/١٦	١١٠٢	١٦٩٠/١٠/٥
١٠١٦	١٦٠٧/٤/٢٨	١٠٤٥	١٦٣٥/٦/١٧	١٠٧٤	١٦٦٣/٨/٥	١١٠٣	١٦٩١/١٠/٥
١٠١٧	١٦٠٨/٤/١٧	١٠٤٦	١٦٣٦/٦/٥	١٠٧٥	١٦٦٤/٧/٢٥	١١٠٤	١٦٩٢/٩/٢٤
١٠١٨	١٦٠٩/٤/٦	١٠٤٧	١٦٣٧/٥/٢٦	١٠٧٦	١٦٦٥/٧/١٤	١١٠٥	١٦٩٣/٩/٢
١٠١٩	١٦١٠/٣/٢٦	١٠٤٨	١٦٣٨/٥/١٥	١٠٧٧	١٦٦٦/٧/٤	١١٠٦	١٦٩٤/٨/٢٢
١٠٢٠	١٦١١/٣/١٦	١٠٤٩	١٦٣٩/٥/٤	١٠٧٨	١١٦٧/٦/٢٣	١١٠٧	١٦٩٥/٨/١٢
١٠٢١	١٦١٢/٣/٤	١٠٥٠	١٦٤٠/٤/٢٣	١٠٧٩	١٦٦٨/٦/١١	١١٠٨	١٦٩٦/٧/٣١
١٠٢٢	١٦١٣/٢/٢١	١٠٥١	١٦٤١/٤/١٢	١٠٨٠	١٦٦٩/٦/١	١١٠٩	١٦٩٧/٧/٢٠
١٠٢٣	١٦١٤/٢/١١	١٠٥٢	١٦٤٢/٤/١	١٠٨١	١٦٧٠/٥/٢١	١١١٠	١٦٩٨/٧/١٠
١٠٢٤	١٦١٥/١/٣١	١٠٥٣	١٦٤٣/٣/٢٢	١٠٨٢	١٦٧١/٥/١٠	١١١١	١٦٩٩/٦/٢٩
١٠٢٥	١٦١٦/١/٢٠	١٠٥٤	١٦٤٤/٣/١٠	١٠٨٣	١٦٧٢/٤/٢٩	١١١٢	١٧٠٠/٦/١٨
١٠٢٦	١٦١٧/١/٩	١٠٥٥	١٦٤٥/٢/٢٧	١٠٨٤	١٦٧٣/٤/١٨	١١١٣	١٧٠١/٦/٨
١٠٢٧	١٦١٧/١٢/٢٩	١٠٥٦	١٦٤٦/٢/١٧	١٠٨٥	١٦٧٤/٤/٧	١١١٤	١٧٠٢/٥/٢٨
١٠٢٨	١٦١٨/١٢/١٩	١٠٥٧	١٦٤٧/٢/٦	١٠٨٦	١٦٧٥/٣/٢٨	١١١٥	١٧٠٣/٥/١٧
١٠٢٩	١٦١٩/١٢/٨	١٠٥٨	١٦٤٨/١/٢٧	١٠٨٧	١٦٧٦/٣/١٦	١١١٦	١٧٠٤/٥/٦
١٠٣٠	١٦٢٠/١١/٢٦	١٠٥٩	١٦٤٩/١/١٥	١٠٨٨	١٦٧٧/٣/٦	١١١٧	١٧٠٥/٤/٢٥
١٠٣١	١٦٢١/١١/١٦	١٠٦٠	١٦٥٠/١/٤	١٠٨٩	١٦٧٨/٢/٢٣	١١١٨	١٧٠٦/٤/١٥
١٠٣٢	١٦٢٢/١١/٥	١٠٦١	١٦٥٠/١٢/٢٥	١٠٩٠	١٦٧٩/٢/١٢	١١١٩	١٧٠٧/٤/٤
١٠٣٣	١٦٢٣/١٠/٢٥	١٠٦٢	١٦٥١/١٢/١٤	١٠٩١	١٦٨٠/٢/٢	١١٢٠	١٧٠٨/٣/٢٣
١٠٣٤	١٦٢٤/١٠/١٤	١٠٦٣	١٦٥٢/١٢/٢	١٠٩٢	١٦٨١/١/٢١	١١٢١	١٧٠٩/٣/١٣
١٠٣٥	١٦٢٥/١٠/٣	١٠٦٤	١٦٥٣/١١/٢٢	١٠٩٣	١٦٨٢/١/١٠	١١٢٢	١٧١٠/٣/٢
١٠٣٦	١٦٢٦/٩/٢٢	١٠٦٥	١٦٥٤/١١/١١	١٠٩٤	١٦٨٢/١٢/٣١	١١٢٣	١٧١١/٢/١٩
١٠٣٧	١٦٢٧/٩/١٢	١٠٦٦	١٦٥٥/١٠/٣١	١٠٩٥	١٦٨٣/١٢/٢٠	١١٢٤	١٧١٢/٢/٩
١٠٣٨	١٦٢٨/٨/٣١	١٠٦٧	١٦٥٦/١٠/٢٠	١٠٩٦	١٦٨٤/١٢/٨	١١٢٥	١٧١٣/١/٢٨
١٠٣٩	١٦٢٩/٨/٢١	١٠٦٨	١٦٥٧/١٠/٩	١٠٩٧	١٦٨٥/١١/٢٨	١١٢٦	١٧١٤/١/١٧

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١١٢٧	٧/١/١٧١٥	١١٥٦	٢٥/٢/١٧٤٣	١١٨٥	١٦/٤/١٧٧١	١٢١٤	٥/٦/١٧٩٩
١١٢٨	٢٧/١٢/١٧١٥	١١٥٧	١٥/٢/١٧٤٤	١١٨٦	٤/٤/١٧٧٢	١٢١٥	٢٥/٥/١٨٠٠
١١٢٩	١٦/١٢/١٧١٦	١١٥٨	٣/٢/١٧٤٥	١١٨٧	٢٥/٣/١٧٧٣	١٢١٦	١٤/٥/١٨٠١
١١٣٠	٥/١٢/١٧١٧	١١٥٩	٢٤/١/١٧٤٦	١١٨٨	١٤/٣/١٧٧٤	١٢١٧	٤/٥/١٨٠٢
١١٣١	٢٤/١١/١٧١٨	١١٦٠	١٣/١/١٧٤٧	١١٨٩	٤/٣/١٧٧٥	١٢١٨	٢٣/٤/١٨٠٣
١١٣٢	١٤/١١/١٧١٩	١١٦١	٢/١/١٧٤٨	١١٩٠	٢١/٢/١٧٧٦	١٢١٩	١٢/٤/١٨٠٤
١١٣٣	٢/١١/١٧٢٠	١١٦٢	٢٢/١٢/١٧٤٨	١١٩١	٩/٢/١٧٧٧	١٢٢٠	١/٤/١٨٠٥
١١٣٤	٢٢/١٠/١٧٢١	١١٦٣	١١/١٢/١٧٤٩	١١٩٢	٣٠/١/١٧٧٨	١٢٢١	٢١/٣/١٨٠٦
١١٣٥	١٢/١٠/١٧٢٢	١١٦٤	٣٠/١١/١٧٥٠	١١٩٣	١٩/١/١٧٧٩	١٢٢٢	١١/٣/١٨٠٧
١١٣٦	١/١٠/١٧٢٣	١١٦٥	٢٠/١١/١٧٥١	١١٩٤	٨/١/١٧٨٠	١٢٢٣	٢٨/٢/١٨٠٨
١١٣٧	٢٠/٩/١٧٢٤	١١٦٦	٨/١١/١٧٥٢	١١٩٥	٢٨/٢/١٧٨٠	١٢٢٤	١٦/٢/١٨٠٩
١١٣٨	٩/٩/١٧٢٥	١١٦٧	٢٩/١٠/١٧٥٣	١١٩٦	١٧/١٢/١٧٨١	١٢٢٥	٦/٢/١٨١٠
١١٣٩	٢٩/٨/١٧٢٦	١١٦٨	١٨/١٠/١٧٥٤	١١٩٧	٧/١٢/١٧٨٢	١٢٢٦	٢٦/١/١٨١١
١١٤٠	١٩/٨/١٧٢٧	١١٦٩	٧/١٠/١٧٥٥	١١٩٨	٢٦/١١/١٧٨٣	١٢٢٧	١٦/١/١٨١٢
١١٤١	٧/٨/١٧٢٨	١١٧٠	٢٦/٩/١٧٥٦	١١٩٩	١٤/١١/١٧٨٤	١٢٢٨	٤/١/١٨١٣
١١٤٢	٢٧/٧/١٧٢٩	١١٧١	١٥/٩/١٧٥٧	١٢٠٠	٤/١١/١٧٨٥	١٢٢٩	٢٤/١٢/١٨١٣
١١٤٣	١٧/٧/١٧٣٠	١١٧٢	٤/٩/١٧٥٨	١٢٠١	٢٤/١٠/١٧٨٦	١٢٣٠	١٤/١٢/١٨١٤
١١٤٤	٦/٧/١٧٣١	١١٧٣	٢٥/٨/١٧٥٩	١٢٠٢	١٣/١٠/١٧٨٧	١٢٣١	٣/١٢/١٨١٥
١١٤٥	٢٤/٦/١٧٣٢	١١٧٤	١٣/٨/١٧٦٠	١٢٠٣	٢/١٠/١٧٨٨	١٢٣٢	٢١/١١/١٨١٦
١١٤٦	١٤/٦/١٧٣٣	١١٧٥	٢/٨/١٧٦١	١٢٠٤	٢١/٩/١٧٨٩	١٢٣٣	١١/١١/١٨١٧
١١٤٧	٣/٦/١٧٣٤	١١٧٦	٢٣/٧/١٧٦٢	١٢٠٥	١٠/٩/١٧٩٠	١٢٣٤	٣١/١٠/١٨١٨
١١٤٨	٢٤/٥/١٧٣٥	١١٧٧	١٢/٧/١٧٦٣	١٢٠٦	٣١/٨/١٧٩١	١٢٣٥	٢٠/١٠/١٨١٩
١١٤٩	١٢/٥/١٧٣٦	١١٧٨	١/٧/١٧٦٤	١٢٠٧	١٩/٨/١٧٩٢	١٢٣٦	٩/١٠/١٨٢٠
١١٥٠	١/٥/١٧٣٧	١١٧٩	٢٠/٦/١٧٦٥	١٢٠٨	٩/٨/١٧٩٣	١٢٣٧	٢٨/٩/١٨٢١
١١٥١	٢١/٤/١٧٣٨	١١٨٠	٩/٦/١٧٦٦	١٢٠٩	٢٩/٧/١٧٩٤	١٢٣٨	١٨/٩/١٨٢٢
١١٥٢	١٠/٤/١٧٣٩	١١٨١	٣٠/٥/١٧٦٧	١٢١٠	١٨/٧/١٧٩٥	١٢٣٩	٧/٩/١٨٢٣
١١٥٣	٢٩/٣/١٧٤٠	١١٨٢	١٨/٥/١٧٦٨	١٢١١	٧/٧/١٧٩٦	١٢٤٠	٢٦/٨/١٨٢٤
١١٥٤	١٩/٣/١٧٤١	١١٨٣	٧/٥/١٧٦٩	١٢١٢	٢٦/٦/١٧٩٧	١٢٤١	١٦/٨/١٨٢٥
١١٥٥	٨/٣/١٧٤٢	١١٨٤	٢٧/٤/١٧٧٠	١٢١٣	١٥/٦/١٧٩٨	١٢٤٢	٥/٨/١٨٢٦

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٢٤٣	١٨٢٧/٧/٢٥	١٢٦٨	١٨٥١/١٠/٢٧	١٢٩٣	١٨٧٦/١/٢٨	١٣١٨	١٩٠٠/٥/١
١٢٤٤	١٨٢٨/٧/١٤	١٢٦٩	١٨٥٢/١٠/١٥	١٢٩٤	١٨٧٧/١/١٦	١٣١٩	١٩٠١/٤/٢٠
١٢٤٥	١٨٢٩/٧/٣	١٢٧٠	١٨٥٣/١٠/٤	١٢٩٥	١٨٧٨/١/٥	١٣٢٠	١٩٠٢/٤/١٠
١٢٤٦	١٨٣٠/٦/٢٢	١٢٧١	١٨٥٤/٩/٢٤	١٢٩٦	١٨٧٨/١٢/٢٦	١٣٢١	١٩٠٣/٣/٣٠
١٢٤٧	١٨٣١/٦/١٢	١٢٧٢	١٨٥٥/٩/١٣	١٢٩٧	١٨٧٩/١٢/١٥	١٣٢٢	١٩٠٤/٣/١٨
١٢٤٨	١٨٣٢/٥/٣١	١٢٧٣	١٨٥٦/٩/١	١٢٩٨	١٨٨٠/١٢/٤	١٣٢٣	١٩٠٥/٣/٨
١٢٤٩	١٨٣٣/٥/٢١	١٢٧٤	١٨٥٧/٨/٢٢	١٢٩٩	١٨٨١/١١/٢٣	١٣٢٤	١٩٠٦/٢/٢٥
١٢٥٠	١٨٣٤/٥/١٠	١٢٧٥	١٨٥٨/٨/١١	١٣٠٠	١٨٨٢/١١/١٢	١٣٢٥	١٩٠٧/٢/١٤
١٢٥١	١٨٣٥/٤/٢٩	١٢٧٦	١٨٥٩/٧/٣١	١٣٠١	١٨٨٣/١١/٢	١٣٢٦	١٩٠٨/٢/٤
١٢٥٢	١٨٣٦/٤/١٨	١٢٧٧	١٨٦٠/٧/٢٠	١٣٠٢	١٨٨٤/١٠/٢١	١٣٢٧	١٩٠٩/١/٢٣
١٢٥٣	١٨٣٧/٤/٧	١٢٧٨	١٨٦١/٧/٩	١٣٠٣	١٨٨٥/١٠/١٠	١٣٢٨	١٩١٠/١/١٣
١٢٥٤	١٨٣٨/٣/٢٧	١٢٧٩	١٨٦٢/٦/٢٩	١٣٠٤	١٨٨٦/٩/٣٠	١٣٢٩	١٩١١/١/٢
١٢٥٥	١٨٣٩/٣/١٧	١٢٨٠	١٨٦٣/٦/١٨	١٣٠٥	١٨٨٧/٩/١٩	١٣٣٠	١٩١١/١٢/٢٢
١٢٥٦	١٨٤٠/٣/٥	١٢٨١	١٨٦٤/٦/٦	١٣٠٦	١٨٨٨/٩/٧	١٣٣١	١٩١٢/١٢/١١
١٢٥٧	١٨٤١/٢/٢٣	١٢٨٢	١٨٦٥/٥/٢٧	١٣٠٧	١٨٨٩/٨/٢٨	١٣٣٢	١٩١٣/١١/٣٠
١٢٥٨	١٨٤٢/٢/١٢	١٢٨٣	١٨٦٦/٥/١٦	١٣٠٨	١٨٩٠/٨/١٧	١٣٣٣	١٩١٤/١١/١٩
١٢٥٩	١٨٤٣/٢/١	١٢٨٤	١٨٦٧/٥/٥	١٣٠٩	١٨٩١/٨/٧	١٣٣٤	١٩١٥/١١/٩
١٢٦٠	١٨٤٤/١/٢٢	١٢٨٥	١٨٦٨/٤/٢٤	١٣١٠	١٨٩٢/٧/٢٦	١٣٣٥	١٩١٦/١٠/٢٨
١٢٦١	١٨٤٥/١/١٠	١٢٨٦	١٨٦٩/٤/١٣	١٣١١	١٨٩٣/٧/١٥	١٣٣٦	١٩١٧/١٠/١٧
١٢٦٢	١٨٤٥/١٢/٣٠	١٢٨٧	١٨٧٠/٤/٣	١٣١٢	١٨٩٤/٧/٥	١٣٣٧	١٩١٨/١٠/٧
١٢٦٣	١٨٤٦/١٢/٢٠	١٢٨٨	١٨٧١/٣/٢٣	١٣١٣	١٨٩٥/٦/٢٤	١٣٣٨	١٩١٩/٩/٢٦
١٢٦٤	١٨٤٧/١٢/٩	١٢٨٩	١٨٧٢/٣/١١	١٣١٤	١٨٩٦/٦/١٢	١٣٣٩	١٩٢٠/٩/١٥
١٢٦٥	١٨٤٨/١١/٢٧	١٢٩٠	١٨٧٣/٣/١	١٣١٥	١٨٩٧/٦/٢	١٣٤٠	١٩٢١/٩/٤
١٢٦٦	١٨٤٩/١١/١٧	١٢٩١	١٨٧٤/٢/١٨	١٣١٦	١٨٩٨/٥/٢٢	١٣٤١	١٩٢٢/٨/٢٤
١٢٦٧	١٨٥٠/١١/٦	١٢٩٢	١٨٧٥/٢/٧	١٣١٧	١٨٩٩/٥/١٢	١٣٤٢	١٩٢٣/٨/١٤

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول: الدولة العثمانية	٧
مقدمة عن الدولة العثمانية	٩
الفصل الأول: الأناضول قبل العثمانيين	٤١
الفصل الثاني: تأسيس الدولة وقوتها	٥٩
الفصل الثالث: عودة القوة إلى السلطنة العثمانية	٧٧
الفصل الرابع: الخلافة العثمانية ـ عصر القوة	٩٧
الفصل الخامس: الخلافة العثمانية ـ عصر الضعف	١٠٩
الفصل السادس: الخلافة العثمانية ـ عصر الانحطاط والتراجع	١٤٧
الفصل السابع: حكم الاتحاديين	٢١٠
الباب الثاني: جزيرة العرب	٢٣٥
الفصل الأول: الحجاز	٢٤٠
الفصل الثاني: نجد	٢٥٤
الفصل الثالث: إمارة آل الرشيد بحائل	٢٧٣
الفصل الرابع: إمارة عسير	٢٧٨
الفصل الخامس: إمارة تهامة عسير	٢٩١
الفصل السادس: المنطقة الشرقية «البحرين»	٣٠٣
الفصل السابع: اليمن	٣٢١
الفصل الثامن: عُمان	٣٢٩
الباب الثالث: أواسط آسيا وأنقاض دولة التتار	٣٤٥
الفصل الأول: شرقي أوربا وسيبيريا الغربية	٣٤٩
الفصل الثاني: بلاد القفقاس	٣٦٢
الفصل الثالث: وسط آسيا	٣٧٠

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع: شرقي تركستان ٣٧٨
الفصل الخامس: الصفويون والدولة الإيرانية ٣٨٢
الفصل السادس: بلاد الأفغان ٤٠١
الباب الرابع: الهند وجنوب شرقي آسيا ٤٠٩
الفصل الأول: الهند ٤١٥
الفصل الثاني: المالديف ٤٣٧
الفصل الثالث: ماليزيا ٤٤٠
الفصل الرابع: أندونيسيا ٤٤٦
الفصل الخامس: الفيليبين ٤٥٤
الباب الخامس: إفريقية ٤٥٩
الفصل الأول: وادي النيل ٤٦٤
الفصل الثاني: بلاد المغرب ٥١٠
الفصل الثالث: غربي إفريقية ٥٣٧
الفصل الرابع: وسط إفريقية ٥٤٧
الفصل الخامس: شرقي إفريقية ٥٦٠
المرجع ٥٦٧
مقابلة التقويم الهجري للميلادي ٥٧٠
الفهرس ٥٧٤

التاريخ الإسلامي

— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

التاريخ الإسلامي

— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد جاء الإسلام إلى البشرية بمفاهيم جديدة تختلف عما أَلِفته المجتمعات الجاهلية السائدة في ذلك الحين. وربما كانت بعض المفاهيم المعروفة يومذاك خيّرة اتفقت مع ما جاء به الإسلام فاستمرت في المجتمع الإسلامي على أنها من الإسلام لا أن الإسلام قد أقرّها وأبقاها، فالإسلام كامل في هديه تام في منهجه، وإذا ما اتفق مع بعض المناهج في جانبٍ من الجوانب فذلك أن النفس البشرية قد هُديت طريق الخير، وفيها نوازع للشرّ، فإذا ما انطلقت ببعض طريق الخير بحكم فطرتها كانت منسجمة مع الإسلام. وإذا ما سارت في طريق ما تنزع إليه فإنما سلكت غير سبيل الإسلام. فالاتفاق في جانبٍ ليس إقراراً من الإسلام، ولا سلوك الجاهلية لجانبٍ إسلامي. والمفاهيم الجديدة إسلامية سواء اتفقت في بعض النقاط مع غيرها أم اختلفت. فتكريم الوالدين، والحفاظ على حرمة الجار وإكرامه، وإكرام الضيف و... لم يُقرّها الإسلام لأنها كانت سائدةً في المجتمع الذي جاء فيه أو لأنها من مكارم الأخلاق، بل جاء بها، وهي من أصل تعاليمه، وقد اتفق في هذه النقاط مع بعض ما نزعت نفوس الجاهليين إلى الخير والفطرة السليمة. يتفق الإسلام مع النظام الرأسمالي في حرية الملكية وليس معنى ذلك أن الإسلام رأسمالي إذ يختلف النظامان بعد

ذلك في بقية الجوانب ويتنافران، وليس معنى ذلك أيضاً أن النظام الرأسمالي قد أخذ مبدأ الاعتراف بالملكية من الإسلام. ويتفق المنهج الإسلامي مع النظام الشيوعي في تحريم الربا وبعض نقاطٍ من حقّ مراقبة الدولة، ولا يعني هذا أن الإسلام شيوعي إذ يتناقض بعدئذ النظامان تماماً، كما أن هذا لا يعني أن الشيوعية قد أخذت تحريم الربا من الإسلام. وكذلك الوضع بالنسبة إلى الإسلام مع المجتمع الجاهلي ووجود بعض نقاط الالتقاء. وهذه نقطة أعدّها مهمةً جداً.

تمثّل المسلمون الأوائل المفاهيم الإسلامية تمثّلاً كاملاً، وطبّقوها في حياتهم، وكان سلوكهم صورةً واضحةً عنها، واستمرّ هذا طيلة أيّام النّبوة والعهد الراشدي، ثم بدأت تنحسر عن السلوك ببطءٍ تدريجيٍ حتى ضعف المسلمون وزال سلطانهم نهائياً، ولكن هذه المفاهيم بقيت معروفةً نظرياً. أمّا في العصر الحديث فقد انتهى تطبيقها في الحكم تماماً، وبقيت قائمةً عند القليل، وإن استمرت معرفتها نظرياً بين نسبةٍ من أبناء الإسلام، ولكن في الوقت نفسه ظهرت مفاهيم جديدة تُخالف الإسلام، وتبنّاها بعض أبناء الإسلام ـ مع الأسف ـ وبشكل طبيعي أعداؤهم الذين يعيشون بينهم من أبناء الأقليات وهم من غير المسلمين، وأصبح الصراع واقعاً لا محالة بين أبناء الإسلام وأعدائهم أو بالأحرى بين المفاهيم التي يحملها هؤلاء والتي يتبناها أولئك، ولكن ـ مع الأسف ـ لم يتمثّل أبناء الإسلام المفاهيم الإسلامية، ولم يُطبع سلوكهم بها كي تُعطي صورةً صادقةً عنها فيتقبّلها الناس ويُقبلون عليها، ومن ناحيةٍ أخرى، وهي الأدهى والأمرّ، فقد تمكّن الأعداء في الآونة الآخيرة وفي أشد الأوقات حاجةً إلى المنظمات الإسلامية وإلى القيادات الإسلامية الرائدة التي تتمثّل الإسلام وتحمله بصفاء تمكّنوا من احتوائها والسير بها في طريقهم المنحرف، وأعلنوا ذلك كي تسقط القيادات، وتسقط المنظمات وبالتالي تسقط المفاهيم التي يحملونها والتي لا تزال معروفةً نظرياً. لقد احتوي أكثر زعماء أكبر منظمةٍ إسلاميةٍ في المنطقة العربية، بل بقوا في جعجعةٍ دائمةٍ يُظهرون العمل للإسلام زيادةً في التمويه على شباب الإسلام والعاملين له، حتى أن أحدهم قد زعم أن الحكم

الإلحادي في بلدٍ يعمل للإسلام، ويضمّ أبناءه، ويحمي حماه، وذلك بسبب ارتباطه به، وعمل مع عددٍ من الزعماء المنتفعين جبهةً مع ذلك الحكم الملحد، فأُعيد الاعتبار لمن لفظهم الشعب، وأفتى المنتفعون بشرعية العمل مع الملحدين أو ادعوا أن بعض العلماء قد أفتى لهم بذلك زوراً وبهتاناً. وأعلن بعض المغفّلين الذين يبدو عليهم الصلاح عدم صحة مثل هذا العمل، فلما تمّ أصدر نشرةً بصحة ذلك شرعاً مقتبساً بعض النصوص الشرعية، واستشهد فيها بغير مكانها، إيهاماً للشباب ودجلاً، وهذا التصرّف سواء أكان من الأعداء أم من الأدعياء ليستمرّ الخداع، ثم تهوي المنظمات والدعاة معاً، ويصفو الجو للأعداء. وليس الاحتواء غايةً ولكنه وسيلة لأنه ستظهر منظمات جديدة، وقيادات جديدة، وستستمر الفكرة في طريقها ولكن الغاية تهديم الأفكار وفضح حامليها مع استمرارية قيادتهم والمناداة بفكرتهم رغم احتوائهم وانقيادهم لغيرهم.

قلت: إن المفاهيم الإسلامية قد سادت تطبيقاً وسلوكاً في صدر الإسلام، غير أنها قد بدأت تضمر عن ساحة التنفيذ حتى الوقت الحاضر، غير أنها بقيت معروفة نظرياً وربما أضحت كلاماً، إذ نستطيع أن نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ، كانوا يعرفون المفاهيم في التطبيق دون الحديث عنها ومن غير فلسفة في تصوّرها وعرضها، أما المسلمون اليوم فيعرفونها خطابةً وحديثاً وفلسفة أكثر مما عرفها الأوائل ولكنهم لا يُجيدون شيئاً من العمل بها، وهذه المعرفة والخطابة لا تُصرف في سوق التنفيذ، أي كلام بلا عمل. فما يقوله الأوائل نقوله غير أن كلامهم يُحوّل إلى عمل ويبقى كلامنا في الهواء، ونحن وإياهم كورقتي نقد إحداهما أصلية تُمثّل الأوائل من المسلمين والثانية مُزيّفة تمثّل رجال عصرنا، ورغم أن كلتاهما تحمل الرسوم نفسها والأشكال نفسها، يذهب حاملاها إلى سوق العملة فيصرف الأول ما يحمل، ويُقبض على الثاني لحمله ورقةً مُزوّرةً وهذا القبض هو إمكانية الاحتواء فلو كان صادقاً لصعب احتواؤه، ولكن أكثرهم يقول مُتاجراً همّه الربح فيقع في الفخ، أو هو يريد هذا.

إن هذه المفاهيم التي كانت قائمةً لا تزال معروفةً فيمكن تنفيذها

وتطبيقها ولكن نحن بحاجةٍ اليوم إلى الصدق والإخلاص في العمل كما كان هذا قائماً في السابق أو أن هذه المفاهيم يجب أن تُترجم إلى عمل. وقد اخترت عدداً من المفاهيم الإسلامية، وأعطيت فكرةً عنها، وما آلت إليه الآن، وكررت فيها بعض النقاط لا للتأكيد عليها فقط لما لها من أهمية، وإنما لتداخلها بعضها مع بعض. وألمحت إلى بعضها الآخر تلميحاً إشارةً لما فيها من المرونة. وليست هذه المفاهيم هي كل ما يجب طرحه والتأكيد عليه فلربما كانت هناك مفاهيم أخرى أكثر أهميةً، ومن الضروري بمكان توضيحها، ولفت النظر إليها، والبحث فيها، لتتثبت في النفوس أيضاً، ولكن الرغبة في الاختصار، والسرعة في الموضوع جعلني اقتصر على ما عرضت.

إن الهدف من هذا العرض التأكيد على هذه المفاهيم لتصبح بدهيةً عند المسلمين، ويسعون كي تكون يقينيةً، ويدعون إليها بحماسةٍ، ويردّون ما تسرّب إلى المجتمع من مفاهيم مستوردة لإزاحتها من مكانها، وزلزلتها من نفوس حامليها، واستبدالها بهذه المفاهيم الإسلامية.

لقد عرضت بعض هذه المفاهيم في القسم الأول من هذا الكتاب بعد أن وضعت موجزاً عن مراحل التاريخ الإسلامي.

أمّا القسم الثاني فقد عرضت فيه الدستور الذي يمكن أن تعتمد عليه الدولة الإسلامية المرتقبة بناءً على هذه المفاهيم، بناءً على اجتهادٍ مني، إذ من الضروري مناقشة الموضوع وإضافة موادٍ أو حذف بعضها وتعديل أخرى.

ونسأل الله التوفيق وسداد الخطا، والبعد عن الزيغ، وعدم التعصّب للرأي أو لجماعة، والإخلاص في العمل لله وحده، وهو نعم المولى ونعم النصير.

١٢ ربيع الأول ١٤٠٦ — محمود شاكر

موجز عن التاريخ الإسلامي

أسّس رسول الله ﷺ، الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة، إثر وصوله مُهاجراً من مكّة المكرّمة، وقامت هذه الدولة على أسس العدل والمساواة والحبّ والإخاء، وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، يُكمل المنهج، ويُتمّ النظام الذي يجب أن يسير المسلمون على خُطاه. وعاش الناس في هناءٍ وسعادةٍ، وبدأ المسلمون بتحقيق الاستخلاف في الأرض. واستمرّت هذه المرحلة أكثر من عشر سنواتٍ انتقل بعدها رسول الله ﷺ إلى الحياة الآخرة.

العهد الراشدي ١١ ـ ٤٠:

وقامت دولة الراشدين، وسارت على ما رسمه رسول الله ﷺ، وقضت على المرتدّين، وسلكت سبيل الصلاح، وقامت الفتوحات الواسعة، وانتشر الإسلام، وقضي على الظلم والفساد في البلاد التي فتحوها، وجاءت الغنائم، وعاش الناس في بحبوحةٍ من العيش، فاستمرّت سعادتهم ودام عليهم هناؤهم، فلا شيء يحدث في المجتمع مما يُنغّص في العلاقات الإنسانية، واستمرّ هذا ما يزيد على ربع قرن. ثم لعبت السبئية دورها الماكر لتهديم الإسلام، ولم يعرف المسلمون هذا الخبث، فحدثت فتنة بقيت آثارها عدة سنواتٍ، ثم انتهت وانتهى معها العهد الراشدي.

العهد الأموي ٤١ ـ ١٣٢:

وجاء الأُمويّون، وحكم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ما يقرب من عشرين سنة عادت فيها إلى المسلمين الطمأنينة، الأمر الذي أثار

حقد الأعداء فبدأت الفتنة التي خشيها معاوية، رضي الله عنه، بعده فولّى ابنه يزيداً خلفاً له ليقي المسلمين شرّ الفتنة، فقد وجد أن أبا بكرٍ قد عهد لعمر خوفاً من الخلاف، واقتُرح على عمر ابنه عبد الله ليُولّيه للسبب نفسه فرفض، واقتُرح على عليّ أيضاً ابنه الحسن خوفاً من تفرّق المسلمين، فقال: لا آمُركم به ولا أنهاكم. ومع أن يزيداً كان قوياً شجاعاً شاعراً مرهف الحسّ إلا أنّ الفتنة كانت أكبر منه فكوته بالحديث عنه وبالإشاعة ضدّه حتى غدا ذلك هو المعروف عنه فقط، ومات في شبابه، واختار بنو أمية ابنه معاوية الثاني تهدئةً للفتنة حسب اجتهادهم لهدوئه، ولكنه لم يُفلح فلما رأى أن الفتنة مستمرةً دعا الناس إلى المسجد، وأعاد إليهم البيعة، وترك لهم الأمر شورى. ولم يكن ترك الحكم تخفيفاً للفتنة كما ظنّ بعضهم ولا يزال يظن الكثير إلى الآن، لأنّ للفتنة مُحرّكين لهم أهداف وغايات. وبويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكّة المكرّمة، وبايعه المسلمون في ديار الإسلام باستثناء البلقاء (الأردن) حيث خرج عليه مروان بن الحكم فوَسَّع نفوذه، ثم ابنه عبد الملك الذي استطاع انتزاع الخلافة، وقتل ابن الزبير، رضي الله عنه، مُستغلاً درايته بشؤون السلطان وعدم خبرة ابن الزبير. وأصبح الحكم بعدها وراثياً في بني أُميّة ظنّاً منهم أنّ في ذلك نهايةً للفتنة التي تحدث عند كل بيعة. واستقرّ الوضع وهدأت الأحوال، فقامت الفتوحات الواسعة، وتحسّنت أوضاع الناس، وعادت إليهم السعادة والهناء، واستمرّ هذا ما يقرب من خمسين سنة.

وعزّ على أعداء الإسلام أن يتمّ هذا فأشاعوا الشائعات ضدّ الأمويين، وادعوا أن الأمويين أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ ويُخالفون بذلك الإسلام، ولم يكن شيء من هذا، إذ لم يمض وقت طويل على دخول غير العرب بالإسلام حتى يتفقّهوا بالدين الأمر الذي يُخوّلهم القيادة حيث كانت القيادة لأهل العلم من ذوي الشجاعة لأنه الإمام لجنده والقاضي لهم، لذا بقيت في الغالب حتى ذلك الوقت بيد من تمرّس عليها من العرب، ومع ذلك فقد وجدت قيادات من غير العرب ممن نالوا حظًّا من الثقافة الإسلامية،

ولم يحل أحد دون استلامها، وطارق بن زياد شاهد على ذلك. ولم تكن القيادات الإدارية والعسكرية هي التي تحتلّ المركز الأول في المجتمع كما يتوهّم أصحاب الأطماع، وإنما كانت المنزلة العلمية والدينية هي التي يتمتّع أهلها بالمركز والشأن، وكان الكثير منها بيد غير العرب إن لم نقل أكثرها، غير أن بقية المؤهلات لم تتكامل فيها لتسلم المناصب العسكرية والإمرة. وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة من أصحاب رسول الله ﷺ، من كبار أهل العلم، ولكن لم يُؤهّلوا للقيادات التي تسلّمها أبو عبيد الثقفي، وعثمان بن أبي العاص، وعتبة بن فرقد وغيرهم. ولكن الواجهة أمام الناس هي الإمرة والقيادة.

وأما موضوع أخذ الجزية ممن أسلم فقد وقعت حادثة واحدة، وقع فيها خطأ في الاجتهاد فأقام الأعداء عليها الدنيا وأقعدوها، وعمّموها على كل بني أُميّة، وحدثت أيام عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - فردّ عليها بعبارته الخالدة: «إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً»، وإن خلود العبارة قد خلّد الحادثة فغدت حقيقةً عامةً عند العامة وأهل الأهواء.

ولم يكن بنو أُمية أصحاب استهتار كما وصفهم الأعداء وصاغوا حولهم الأباطيل، فإن ما أشاعوه عنهم لم يقبله عقل عن رؤساء العصور المتأخّرة فكيف يقبله مؤمن عن عصر فيه الصحابة وفيه التابعون؟ عن عصرٍ قال فيه رسول الله ﷺ، أنه من خير القرون بعد قرن رسول الله ﷺ.

وأما البطش والقسوة التي ظهرت من بعض الولاة كزياد ابن أبيه وابنه عبيد الله، والحجاج بن يوسف و. . . فإن من اعتاد على الفتنة لا تردعه إلا القوة، وهؤلاء ولاة منطقةٍ واحدةٍ تعوّدت على الفوضى وإثارة الشغب، ولم يظهر البطش في ولاة منطقةٍ ثانيةٍ. وحماية الدولة لا بدّ لها من قوةٍ فلا يُثار الشغب إلا على الضعيف، ولا تضع الفتنة قرنها إلاّ في المكان الذي لا حماية فيه ولا رادع. ولا يُستهتر إلا بالمستكين. كما لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ في ديار الإسلام. وقد أُمر المسلمون بقتل الثاني إن لم يرعوِ، واجتهد أنصار الدولة الأموية أن ابن الزبير، رضي الله عنهما، هو

الخارج على الحكم، الثائر على الخلافة، وهو اجتهاد خاطئ إذ هو الخليفة الشرعي، وقد قاتلوه بناءً على اجتهادهم.

وعلى الرغم من أن أعداء بني أُميّة يطالبون أن يُخصّوا بالخلافة دون غيرهم، في حين أنهم يحملون على بني أمية استئثارهم بالسلطة، ونحن نأخذ هذا على كليهما، ونخصّ بني أمية إعطاءهم ولاية العهد لأكثر من واحدٍ ومن غير استثناء الصغير والضعيف الذي لا يقوى على تحمّل الأعباء وهو مما أضعف دولتهم وفسح المجال لتتحدّث الألسن، وتُسجّل الأقلام ما تشاء، تدفعها الأهواء.

وفي أيام الأُمويين، عُرّبت الدواوين، وشُكل المصحف، ووجد تنقيط الحرف العربي، وأُحييت الأرض الموات، وقامت الفتوحات، وعمّ الرخاء، وعاش الناس بسعادةٍ تامّةٍ وما يُغلّف هذا إلاّ ما أُشيع حول فئةٍ قليلةٍ هي الحاكمة ومع كذب هذه الشائعات فلننظر إلى المجتمع وما يسوده من هناءٍ ورخاءٍ وما أنتجه أبناؤه من فتح، ومن علمٍ عندما كان يتوقّف الفتح وهذه إشارة السعادة ودلالتها، فالحضارة لا تنتج إلا نتيجة الأمن والاستقرار ومع الشعور بالراحة والسعادة.

ولا شك فإن الخطّ البياني للمنهج الإسلامي قد هبط قليلاً عما كان عليه أيام الراشدين، ومع ذلك فإن مخالفة أحكام الإسلام لم تكن واردةً، وإن وجدت فإنما هي على حين غفلةٍ من المسلمين، وبتكتم شديد سواء أكانت من بعض المسؤولين أم من الرعايا. فالإسلام هو الذي كان يحكم أيام الأمويين والسعادة والرخاء كان يتمتّع بهما المجتمع.

العهد العباسي ١٣٢ ـ ٦٥٦:

وقامت الدولة العباسية، واستمر تطبيق المنهج الإسلامي إن لم نقل إن الخط البياني قد ارتفع نسبياً في المرحلة الأولى على الأقل. ولما لم ينل الأعداء ما يبغون بدأ الهجوم على الدولة العباسية بشكلٍ أقوى، بل يبدو عليه التضارب نتيجة الانفعال حيث لم يحقق المخططون أو الخصوم ضالتهم.

لم تقم الدولة العباسية على أيدي الموالي، ولم تكن شعوبية، كما هو عالق في أذهان الناس. كانت الكوفة مهد الدعوة العباسية الأول وهي في المنطقة العربية وليس في المنطقة الفارسية، وكانت (مرو) المركز الثاني لا لأنها حاضرة المشرق فحسب بل للصراع القائم بين القبائل العربية من قيسيةٍ ويمانية فيها فاستُغلّ هذا الصراع، إذ وقفت اليمانية بجانب الدعوة للعباسيين، وتُشكّل أكثرية العرب هناك. وإن معظم الدعاة كانوا من العرب إضافةً إلى أن صاحب الدعوة كان عربياً فكيف قامت الدعوة على أكتاف الفرس؟ وكيف كانت شعوبية؟ والواقع أن أعداء الإسلام لما اتهموا الأمويين بالعصبية كان عليهم أن يسموا خصوم الأمويين، وهم العباسيون بالشعوبية كنقيضٍ للعصبية.

لعلّ الأعداء قد انتبهوا إلى ما في أقوالهم من مجانبةٍ للحقّ والواقع فأرادوا أن يُبرروا أقوالهم بأحداثٍ جديدةٍ دون اعترافهم بالخطإ فادّعوا أن الخلفاء، وهم من العرب عندما وجدوا سيطرة العنصر الفارسي وقفوا في وجهه، وقتلوا رؤوسه، وضربوا أمثلة بقتل أبي مسلم الخراساني، والبرامكة، وهذا اعتراف صريح بأن القوة بيد العرب فالخليفة وحده لا يضرب، ولا يُقدّم، ولا يُؤخّر ولكن الذين بجانبه كانوا هم القوة الرئيسية وهي التي نفّذت القضاء على الفرس فهي ليست منهم وإنّما من العرب، فالفرس لم يكونوا أصحاب القوة، ولم تعتمد الدولة عليهم فقط، ولم تكن شعوبية. ومن ناحيةٍ ثانية ففي الوقت الذي قضى الخلفاء على أبي مسلم الخراساني قد قضوا على عمّهم عبد الله بن علي أحد عظماء قادتهم، ومؤسسي دولتهم، فالحكم لم يعرف قريباً أو بعيداً عربياً أم غريباً بل يعرف المؤيّد والمنافس فيدعم المؤيّد ويضرب المنافس أيّا كانت جنسيته أو انتماؤه.

عاد الأعداء فناقضوا أنفسهم مرة أخرى فقالوا عندما سيطر الترك والأعاجم عامة ضعفت الدولة، وانتهى دور القوة أي أن المرحلة الأولى أو دور القوة كانت السيطرة للعناصر العربية، لا للفرس كما زعم الأعداء،

ومع أننا لا نقرّ العصبيات، ولا نعترف بها إلاّ أننا نقول: إن ما أشاعه الأعداء عن شعوبية الدولة العباسية وعن أثر الفرس غير صحيح، وإنما كان المنهج الإسلامي هو السائد، وهو ما أزعج الأعداء، فأشاعوا الشائعات، وتحدّثوا بما تناقله العامة حتى غدا عندهم يقيناً ووصل إلى أدعياء العلم عن طريق العامة.

لقد عاش المجتمع الإسلامي في سعادة في العصر العباسي الثاني، ومع توقّف الفتوحات انصرف الناس إلى العلم فأنتجوا علماً في مختلف الفنون، وكان المنهج الإسلامي هو السائد، وإن استمر هبوط خط بيانه ولكن كان نزوله ببطءٍ. وأكثر الناس سعادةً من كان بعيداً عن الساحة التي تُسلّط عليها الأضواء من الرجالات فهؤلاء تُسلّط عليهم الأضواء في الخير وفي الشرّ، ولكن في تاريخنا الإسلامي سُلّطت الأضواء على جوانب الشّر لأن الأضواء بيد الأعداء فلم يُدوّنوا إلا ما تهوى أنفسهم، وتطمع إليه أهواؤهم.

وجاء دور الضعف إلى الدولة العباسية وظهر الأعداء هنا بمظهر العصبية والمدافع عن العصبية العربية، فادّعوا أن الضعف قد حلّ في الدولة باختفاء السيادة العربية التي زعموا أنها لم تكن موجودةً في الدور الأول ولا أدري كيف جاءت وبرزت واختفت فجأةً! أو أنها اختفت من غير وجود! وحدث الضعف نتيجة سيطرة عناصر أعجمية من تُرك وبويهيين وسلاجقة ولم يكن للعرب أي دور. الواقع أن الضعف قد حلّ بالدولة ولكن لا لسيطرة عنصر من العناصر وزوال آخر، وإنما لكثرة الزعامات التي وجدت، والتي كانت تتناحر فيما بينها، وكل زعامةٍ تخرج حسب جنسية أبنائها، فالمنطقة العربية يخرج منها زعماء عرب وهو شأن كثيرٍ من البلدان التي استقلت أو انطلقت منها زعامات، والمناطق الشرقية من الدولة خرج منها زعماء من أبنائها سواء أكانوا من الأفغان أم من الفرس أم من الترك، وقد يكون من أصلٍ عربي وقد استقرّ بمنطقةٍ في المشرق عظم شأنه فخرج يريد الإمارة كالحسن بن زيد في طبرستان، ولما كانت العراق في منطقة الحدود بين بلاد العرب وبلاد الأعاجم فمن المحتمل أن يُسيطر عليها هؤلاء أو

أولئك، ولما كانت بغداد مركز الخلافة فهي محطّ الأنظار ومطمع الزعماء، ولما كانت المدنية لم تُغير من طابع أهل المشرق كثيراً، ولم تحط من عزيمتهم لذا فهو أكثر صلاحاً للقتال، وأكثر صبراً في الميدان، وقد استطاعوا من السيطرة على بغداد مجموعة إثر مجموعة فتمكن الترك من حكمها، ثم البويهيون، ثم السلاجقة على حين سيطر العرب الحمدانيون على الموصل، والبريديون على واسط.

كان مع كل صاحب نفوذٍ قوة يُقاتل بها، وهي كالقوة العسكرية إن لم تكن هي، فالحكم أصبح تناحراً بين العسكريين، والخليفة بشكلٍ طبيعي ليس له إلاّ الاسم في أفضل الحالات إذ كان يُلعب به في أغلب الأوقات. وهذا سبب الضعف الحقيقي الذي آلت إليه الدولة.

ومع كثرة أصحاب النفوذ وتناحرهم ومع امتداد سلطة أحدهم على منطقة الآخر زادت الإقطاعيات، وزاد الترف، وزاد التفاخر في الأملاك و.... الأمر الذي زاد معه الفساد، ووقعت مخالفات، فقامت حركات كردّ فعل، وكانت مارقةً من الدين كحركة الزنج والقرامطة، وما أمكن القضاء عليها إلا بالحل الإسلامي. وبقيت المفاسد عند المسلمين خفيّة وقليلة لا يمكن المجاهرة بها لذا بقي الضرر والانحراف مقصوراً على أصحابها، وظلّت بقية عناصر المجتمع بعيدةً تسير على الخطّ الإسلامي، وقد أفاد بعضهم من الناحية المادية فانصرفوا إلى العلم وقلّد ذلك الآخرون حتى ولو كانوا فقراء وقد زخرت هذه المرحلة بشتى أنواع العلوم، ومع بقاء سيطرة المنهج الإسلامي إلا أننا نستطيع أن نقول: إن الخط البياني لسير المنهج الإسلامي قد سقط درجةً أو هوى سقطةً مع بقائه ظاهراً.

إن الضعف الذي أصاب الدولة قد أطمع فيها الأعداء فجاء الصليبيون من الغرب، وأحرزوا بعض النصر، ونزل الخط البياني لسير المنهج الإسلامي درجةً أخرى، ولكن بقيت قوة المسلمين لا تُستهان، وإن كانت كامنةً، وعندما انطلقت من عقالها تحت تأثير الدعوة إلى الجهاد تمكّنت من طرد الصليبيين، لكن الفساد بقي يستشري إذ لم يلبث أن عاد الضعف من جديد.

وجاء المغول من المشرق تحت تأثير النقمة، والسلب، وتشجيع الصليبيين، غير أنهم وجدوا مقاومةً عنيفةً بسبب القوة الكامنة في الإسلام ولولا الخيانة من سكان البلاد من الشيعة لما استطاع هولاكو من دخول بغداد. وسقطت الدولة العباسية غير أن المنهج الإسلامي لا يزال يُطبّق، ولا تزال في الإسلام قوة، وإن بدأ الخط البياني للضعف ينحدر.

واستمرت هذه المرحلة مدة طويلة تقترب من خمسة قرون وربع.

العهد المملوكي ٦٥٨ ـ ٩٢٣:

وحمل المماليك في مصر المسؤولية، فأثاروا حمية الناس، ورفعوا لواء الجهاد، وتمكّنوا من وقف المد المغولي، ثم انتصروا عليهم، ونصّبوا خليفةً في القاهرة من أسرة بني العباس، كان صورةً، وهم يتصرّفون باسمه، ويحملون لقب «سلطان».

وتُعدّ هذه المرحلة من أغنى المراحل بالعلماء، وبناء المساجد، إذ كان هؤلاء المماليك يسمعون من العلماء، ويعطونهم حقّهم، ويكفي أن نعرف أثر العزّ بن عبد السلام، وابن تيمية. وكان التفاخر بينهم في عمران المساجد، وفي هذا بقاء لحفظ الذكر.

استمرّ تطبيق المنهج الإسلامي رغم المخالفات التي كانت تحدث، ولكنها في كتمانٍ شديدٍ خوفاً من أهل العلم وإقامة الحدّ، كما كانت محصورةً في فئةٍ من المماليك عندما يكون كبيرهم ضعيفاً يتحكّمون به، أو بين أُناس في مستوى متدنٍ.

واستمرت هذه المرحلة أكثر من قرنين ونصف.

العهد العثماني ٩٢٣ ـ ١٣٤٢:

وحمل العثمانيون الأمانة، وكان المستوى العلمي عندهم ضعيفاً، فما

عرفوا الخلافة قبلهم إلا وراثيةً فساروا على ذلك، فضمّوا أجزاء من ديار الإسلام تحت رعايتهم، وحموها من الوقوع بأيدي الصليبيين الذين بدؤوا يسيطرون على مناطق واسعة في قارتي إفريقية وآسيا. وهذا ما سبَّبَ حقداً زائداً عليهم من الصليبية العالمية وخاصةً من روسيا لقرابتهم من التتار الذين كانوا يحكمون روسيا، وهم من المسلمين أيضاً، ولفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وحامية المذهب الأرثوذكسي النصراني الذي يدين به الروس، ولتسلمهم المضائق حيث يحولون بين الروس والوصول إلى المياه الدافئة، ولأن وسط آسيا تقطنه قبائل تركية، وهو المجال للتوسع الروسي، كما أن دول غربي أوربا الصليبية اشتدّ حنقها على العثمانيين حيث حالوا بينهم وبين السيطرة على بلاد المسلمين، هذا إضافة إلى الحقد الصليبي على المسلمين عامةً ومنهم العثمانيون.

هذا الحقد الشديد على العثمانيين من قبل الصليبيين قد جعل حرباً مستعرةً دائمةً ضدّ الدولة العثمانية إضافةً إلى الحرب المعنوية التي شنّها الصليبيون سخريةً وهزءاً على العثمانيين وحكمهم، وقد استفادوا من ضعف الدولة العثمانية، والتأخّر العلمي في بلادها، والقوة الأوربية، والنهضة العلمية في أوربا، مع دعم الفئات النصرانية المقيمة في البلاد العثمانية والأقليات الأخرى مع من استغرب من المسلمين وقلّد النصارى، ورغب في السير على منهجهم، وهذا ما أثّر على نفسية السكان، وبدأت الهزيمة النفسية تظهر وتتسع مع الزمن، وتزداد الدولة ضعفاً، والعلم تأخّراً، وتزداد أوربا قوةً والعلم تقدّماً فيها حتى كانت الحرب العالمية الأولى فهزمت أوربا الدولة العثمانية، ودخل الصليبيون أجزاء منها بعد أن تقاسموها حتى وصلت الحالة إلى الحضيض، فساعد هذا في إلغاء الخلافة.

كان المنهج الإسلامي يُطبّق في هذه المرحلة مع جهلٍ في التطبيق، وانحرافاتٍ تزداد مع الزمن وإن كانت مخفيةً إلاّ أن المجتمع يحسّ بوقوعها، وما انتهى الحكم العثماني حتى غدت المجاهرة بها تحدث

أحياناً. ومع انتهاء هذه المرحلة انتشرت المفاهيم غير الإسلامية ودخلت في صراع معها، واستبدّ غير المسلمين بالمسلمين، وأشدّ من هذا الاستبداد استبداد من استغرب من المسلمين، وارتبط مع أعداء المسلمين، وكانت شدته قاسيةً دليلاً على بعده عن الإسلام، وعدم مهادنته لأهله، وتملّقاً لأعداء الإسلام، ومن ناحية ثانيةٍ أوكل الصليبيون غيرهم ليقوم بمهمتهم، ويروي غليلهم، ووقفوا ينتظرون ويُحرّكون الصور على شاشة العرض يُقدّمون من شاءوا، ويُنحّون من رغبوا، ويُوقفون من رأوا في مكان الانتظار كي يأتي دوره، ويدّعون بعدئذ أن الأحداث داخلية تقع بين المسلمين بعضهم مع بعض. ونكون في هذا الوقت قد انتهينا من التاريخ الإسلامي الذي كان يُطبّق فيه المنهج الإسلامي، وتسود المفاهيم الإسلامية، ودخلنا في التاريخ المعاصر حيث أبعد المنهج الإسلامي، وسادت مفاهيم غير إسلامية.

* * *

ومن هذا الموجز السريع نرى أن المنهج الإسلامي قد نُفّذ تماماً في عهد رسول الله ﷺ والعهد الراشدي، ثم بدأ الخط البياني بالهبوط تدريجياً بدءاً من العهد الأموي حتى نهاية العهد العباسي ثم زاد هبوطه أيام المماليك والعثمانيين مع بقاء تطبيقه ووجود مخالفات كانت تتم بالسرّ وفي إطار مجموعةٍ صغيرةٍ وعلى خوفٍ شديد ولا تنجو من العقوبة إن وصلت إلى يد القضاء، وهذا ما يُؤيّد التطبيق، والعمل بالشريعة.

أما أعداء الإسلام فيرون أن الإسلام لم يُطبّق إلا مدة ثلاث وعشرين سنة أيام رسول الله ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. أما ما بقي فكانت الأحكام غير نافذة، وما قصدهم إلا ليقولوا أن أحكام الإسلام غير صالحة. ويوافقهم من استغرب من المسلمين متأثراً بما كتب المستشرقون، وبما أُشيع عن الخلفاء على مدى التاريخ الإسلامي. ويمكن أن أقول: إن مجلة الأحكام الشرعية التي كانت تصدر أيام العثمانيين وحتى نهاية عهدهم، وتدوّن فيها الأحكام الشرعية مستنبطةً من الأصول والقواعد

الإسلامية الأساسية ومعتمدةً على حاشية ابن عابدين الموسوعة الفقهية على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. لدليل على تطبيق المنهج، والرغبة في ذلك، وإن كان بنسبةٍ معينةٍ.

القسم الأول

مفاهيم إسلامية

[١] الأمّة

الأُمّة جماعة من الناس ترتبط برباط العقيدة الواحدة غلى مدار التاريخ، وهو الذي يجمع أبناءها بعضهم مع بعض، بغضّ النظر عن الأصل الذي ينتمون له، واللغات التي يتكلمونها، والمستوى الاجتماعي والمعاشي الذي يعيشون فيه، والمهن التي يمارسونها، وبغضّ النظر عن الزمن الذي عاش فيه أفرادها. وما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة.

فالجماعات التي اتبعت الأنبياء الذين بُعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشت بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تُؤلّف أمةً واحدةً على مدى هذا التاريخ الطويل، إذ هم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحدٍ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربّهم الذي يعبدونه واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مُستسلمون لأمر الله، مُسلّمون بما بعث، ولما قضى، اعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أُنزل إليهم من ربهم، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور... هذه الجماعة هي الأُمّة المسلمة التي تتميّز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها.

وهذا المعنى هو الوارد في القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي يُعدّ المصدر الرئيسي للغة العربية، يقول هذا علماء اللغة جميعاً، ويقرّ بهذا العرب كلهم، سواء أكان الذين يتكلمون العربية ممن يدينون بالإسلام أم ينتمون إليه أم يخضعون لعقائد أخرى. وهذا المعنى هو الذي فهمه العرب قديماً من إسلاميين وجاهليين، وهو الذي قال به أسلافنا وفهموه، وليس هناك من مصدر بمستواه، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن
قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا
عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ
﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا
فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ
﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ
وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ
صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ

عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1]

هؤلاء الذين عاشوا في أزمنةٍ مُتباعدةٍ في التاريخ، وانتموا إلى أصول متعددةٍ، وتكلَّموا لغاتٍ عديدة يُكوِّنون أُمَّةً واحدةً لأنهم اعتقدوا عقيدةً واحدةً. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2] أي وجدنا آباءنا على طريقةٍ وعقيدةٍ وسنسير عليها نحن أيضاً، فاقترنت الأُمَّة بالعقيدة أيضاً.

ولكن ما حدث في أوربا في مطلع العصور الحديثة من تجمّع الإمارات بعضها مع بعض، وإنشاء تكتلٍ واحدٍ يضمّ إماراتٍ متعددةً بدأ الرؤساء يعملون لدمج هذه الإمارات بعضها مع بعض، وربط السكان بعضهم مع بعض ليكونوا مواطنين في دولةٍ واحدةٍ بدؤوا يُقربونهم بالأصل الواحد، واللغة الواحدة، والعادات المتشابهة فأصبحت هذه عندهم مع الزمن ولكثرة ترديدها عناصر تكوين الأمة حسب مفهومهم الخاص وطبيعتهم

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٤٨ ـ ٩٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

الخاصة، وسار على نهجهم المستغربون من المسلمين الذين درسوا في الغرب، واستهوتهم علوم الغرب، وأصبحت أيديهم تخطّ مقومات تكوين الأُمّة على النهج الذي عرفوه الأمر الذي جعل الأمّة الواحدة أمماً عدة فكان منها من اعتمد على اللغة فكانت الفارسية والعربية والتركية، ثم ظهر من اعتمد على العادات والطباع فكانت وحدات أصغر منها كالسورية والفرعونية والمغربية والأفغانية والإيرانية، وهكذا باستمرار، ومنها من اعتمد على الأرض، ومنها من اعتمد الأصل، ومنها من اعتمد على التاريخ، ومنها من بحث في الواقع الاقتصادي.

وكانت هذه المُقوّمات مع الأسف كأنّها من الحقائق المُسلّم بها إلاّ أنّه اختُلف حسب الاتجاه فأهمل أهل العصبية الدين، وقدّمه المُتديّنون كردّ فعلٍ وكل ذلك دون الرجوع إلى القرآن الكريم أساس العقيدة، ومصدر اللغة. ومن هذا المنطلق لم يكن للمسلمين شخصيتهم المُتميّزة، وأفكارهم المنطلقة من العقيدة الصحيحة، وإنّما كانت ردود فعلٍ وإضافة عوامل أو تقديم بعضها على بعض إلا أن العناصر قد اعتُمدت بجملتها، وأُلّفت فيها المُؤلّفات، وسار الناس عليها ولقّنوها أبناءهم.

لا ترتبط الأُمّة ببقعةٍ من الأرض معينةٍ، وإنما ساحة عمل الأُمّة المُسلمة الأرض كلّها، فحيثما تمكّنت من إقامة حكم الله فذلك مقرّها الأول ونقطة انبعاثها، وبعد ذلك تتوسّع دائرتها منه بالدعوة، ونشر الفكرة والجهاد حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت الفكرة لا تعمّ الأرض كلّها، ولا تحكم العالم كافةً بما أنزل الله فمُهمّة الأمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله حتى تتمكّن من تطبيق منهج الله في الأرض قاطبةً.

ولا ترتبط الأُمّة بالأصل، فالخلاف الذي يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين مُتباينتين عنيفاً وشديداً، فلقد حدث الخلاف على أشُدّة بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم من المشركين وأفراد قبيلتهم قريش وحتّى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى

سيفان أحدهما بيد الأب والآخر بيد الابن فرّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر، وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وتنتميان إليه مهما كانت الخلافات واهيةً والأسباب بسيطةً، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلاّ وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة والذين يرتبطون بأصلٍ واحدٍ وقبيلةٍ واحدةٍ وعشيرةٍ واحدةٍ وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأُمّة باللغة إلا بمقدار ما ترتبط اللغة بالعقيدة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحد بينهم فكر خاص، وقد لا يكون ذلك، ولكن اللغة تُؤثّر فيها العقيدة فالمسلمون اليوم من غير العرب يحرصون على تعلّم العربية. ولننظر إلى التاريخ قليلاً فمنذ عصر صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتّفق مع الفرس بالمبدأ لذا حُرص على تعلم لغتهم، واستمر ذلك حتى عُرّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وفي العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في دوائر الدولة في بلاد الشام أيام انتدابها عليها ممن كان يُجيد لغتها، وكانوا ممن يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم معها بالعقيدة فقد تعلموا لغتها، وحرصوا عليها، على حين لم يفعل ذلك ممن لا يتصل بها بفكرةٍ، ولا يلتقي معها بمبدأ وهذا شأن الدول المستعمرة كلّها وفي أيّ مكانٍ حلّوا به. ولننظر اليوم إلى أكثر الخلافات القائمة في العالم فنجد أن أكثرها إنما يقوم بين جماعات تنتمي إلى أصل واحدٍ، وتتكلم لغةً واحدةً، ولكنها تختلف في العقيدة، وما يجري الآن في الفلبيين، وفطاني، وبين الهند وباكستان، وبين ارتيريا والأحباش، وداخل سوريا، وفي بلاد الأفغان، وفي أوربا بين ألمانيا الغربية والشرقية، وما كان بين كوريا الشمالية والجنوبية، وبين فيتنام الشمالية والجنوبية في آسيا إن هو إلا بسبب العقيدة ويكاد ينطبق هذا على كل ما يحدث في العالم من حروبٍ وخلافات.

ولا ترتبط الأُمّة بالتاريخ إلا بمقدار ما يتّفق مع العقيدة إذ ليس هو بأكثر ربطاً للمجتمعات من الأصل واللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأمّة، والأمّة مرتبطة بالعقيدة، فرجال العقيدة الذين ضحّوا من أجلها هم المثل الأعلى لخلفهم، ومن الضرورة بمكان الاقتداء بهم لدى الأجيال، ونرى أن التاريخ الإسلامي يدرّس في بلاد المسلمين جميعها وخاصة السيرة والخلفاء الراشدون ثم تاريخ بني أمية ووصول الإسلام إلى المنطقة الخاصة بالسكان الذين يُخطّطون المناهج الدراسية، وبعدها يصبح التاريخ إسلامياً أما المراحل التي تسبق تاريخ الإسلام فتكون دراسته ثانوية ولا يُهتمّ به أبداً بل لا يَأبه به الناس، فما هو الذي يربط العراقي المسلم بالسومريين والبابليين والآشوريين والكلدان؟ وما يربط السوري المسلم بالفينيقيين والآراميين؟ وما يربط المصري المسلم بتوت عنخ آمون والفراعنة؟ وما يربط ساكن الجزيرة العربية بطسم وجديس؟ ولكن الجميع يرتبطون بأبي عبيدة بن الجراح، وتتحرّك قلوبهم مع تحرّك جيوشه، وتنتظر نتيجة المعركة لتفخر بالنصر بل إن الشاب الذي يقرأ وقائع الغزوات ومعارك الصحابة ليمتلئ فخراً أثناء القراءة، ويتحمّس بالقراءة فيرفع صوته، وكأنّه هو يقود الجيش ويُشجّع المجاهدين.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والأفكار فكلّها تنبع من العقيدة، فهي تتشابه لدى أبناء الأمة الواحدة.

وأمّا ما عُرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي أو المصلحة الاقتصادية فإن ذلك لا يجمع بين المجتمعات أو بين العناصر التي تُكوّن الأمّة، وإنّما هذا أضعف العناصر وأقلّها شأناً إذ يبقى في مستوى المصلحة يتغيّر معها، ويسير تبعاً لها ويتذبذب حسبها، وما أكثر ما تتغيّر وتتبدّل.

أما المسلمون فلا يرون سوى العقيدة جامعةً بين الشعوب، والأُمّة إنّما هي جامعة من الناس تدين بعقيدةٍ واحدةٍ، وهذا المعنى العربي للأُمّة الذي بيّنه القرآن الكريم، كتاب الله لعباده، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[٢] الخلافة

كان القادة والزعماء الكبار وحُكّام الدول الواسعة الأرجاء يرون من القديم أن العالم لا يتسع لأكثر من حاكمٍ واحدٍ، أو زعيمٍ فردٍ يتسلّط على الأرض كلّها ليملأ غروره، ويُشبع أطماعه. فقد كان الإسكندر الكبير المقدوني يحلم بحكم العالم فقد سار شرقاً ليُحقّق ما يجول في خاطره، وانطلق غرباً ليُؤمّن ما تصبو إليه نفسه، ولكنه لم يتمكّن أن يحصل على كل ما يُريد إذ جاءه أجله المحتوم، وإن كان قد ضمّ تحت سلطانه أجزاءً واسعةً من العالم المعروفِ يومذاك، وكذا كانت أحلام قياصرة الروم وأطماع أكاسرة الفرس و. . . .

ويرى المسلمون أيضاً أن تنطلق دعوة الإسلام على كل محورٍ حتى تعمّ الدنيا، وعندها يخضع العالم لخليفةٍ واحد مع وجود حكامٍ في الأقاليم المختلفة، لهم صلاحياتهم في ولاياتهم، ويُمثّلون الخليفة فيها غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين أطماع الجاهليين ومنطلق المسلمين الذين يبنون آراءهم عليه.

إنّ ما يطمع به المتغطرسون في السيطرة على العالم ليس من ورائه إلاّ إرواء غريزة حب السيطرة، وتأمين الشهوة، وتحقيق الشهرة، والاستبداد بالسلطان، واستعباد الناس. أما الخليفة فبعيد كل البعد عن هذا لأنه مُقيّد بكتاب الله وسنة نبيه، الدستور الإلهي، الذي يحول بينه وبين هذه الأطماع، ولا يمكنه أن يدّعي ما ليس فيه أو يعدّ نفسه فوق البشر، حتى رسول الله ﷺ ـ لم يقل هذا، ـ ومعاذ الله أن يقول ـ فقد جاء في كتاب الله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[2]. وعن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيءٍ من حقّ أخيه، فلا يأخذنّه، فإنّما أقطع له قطعةً من النار»[3]. وقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه، يوم وُلي الخلافة: «أما بعد: أيّها الناس فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني...»[4].

والحاكم الجاهلي مُستبدّ لا يُراجع برأي، ولا يُخالف في موضوع، قوله قانون، وإشارته أمر، يتصرّف بما يشاء وكيفما يرغب، كل شيء في سلطانه تحت إرادته، أما الخليفة فمُقيّد بما أنزل الله وبسنة رسول الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[5]. ويقول رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[6]. ويقول أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، يوم مُبايعته: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[7].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير.

(٥) سورة المائدة: الآيتان ٤٩، ٥٠.

(٦) شرح السنة: البغوي ج١٠/ ٤٤.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير.

والحاكم الجاهلي يجعل شعبه يُسيطر على بقية الشعوب التي تتبع له، ويستعبدها، وبذلك يحصل على التأييد من شعبه، ويمكن أن نلاحظ في سيطرة الإغريق على الشعوب التي أخضعوها لهم أيام الإسكندر الكبير المقدوني، واستعباد الرومان للجماعات التي استولوا على أرضها، واستبداد الفرس بالأقوام التي ضمّوها تحت لوائهم. وحتى في العصر الحديث نُلاحظ معاملة المستعمرين للشعوب التي يحكمونها، وكيف يسوق الإنكليز، والفرنسيون، والروس، والهولنديون، والإسبان، والبرتغاليون، والبلجيك، والأمريكيون، والطليان، والألمان وكل المستعمرين سكان الشعوب المغلوب على أمرها إلى ساحات القتال لتنفيذ مُخططاتهم، وضمّ أراضٍ جديدةٍ إليهم، وإخضاع شعوب أُخرى لهم، والحصول على ثروات هم بحاجةٍ إليها على حين يحتفظون بأبنائهم بعيدين عن كل مكروه، وقد يُسلّمونهم قيادة تلك الجموع المغلوب على أمرها، وذلك لحماية شعبهم والسيطرة بأفراده على الآخرين، وقد فجّر الإنكليز حقول الألغام في معركة العلمين بالفرقة الهندية بدلاً من الكلاب التي لم تتوفّر لهم بسرعة. أما الخليفة فالشعوب التي تتبع له كلها متساوية لا فرق بين شعبٍ وآخر أو قوم وثان يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]. ويقول رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «إنّ ربكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى». وفي رواية أُخرى ولا لأبيض على أسود. وعندما اشتكى قبطي في مصر من واليها عمرو بن العاص وولده محمد الذي ضرب القبطي، والقبطي نصراني من شعبٍ فُتح بلده، والشكوى من الفاتح الحاكم، وقد رُفعت الشكوى إلى الخليفة، فاستقدم الخليفة واليه عمرو بن العاص وابنه محمداً. فلما جاءا وحضرا إليه، دعا القبطي المشتكي. وقال للقبطي: دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

فأخذ القبطي الدرّة وضرب محمد بن عمرو بن العاص حتى أثخنه والخليفة يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال له: أَجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال القبطي: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وضربت من ضربني.

ثم قال الخليفة: أيا عمرو! متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر، ويقول: إني لم أشعر بهذا. ثم التفت الخليفة إلى القبطي فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ[(١)]؟

والحاكم الجاهلي يُسخّر رعيته كلها لخدمته وتأمين مصالحه، بل ربما يتسابق الناس جميعاً، والمُقرّبون إليه لخدمته وتحقيق رغباته. أما الخليفة فيُسخّر نفسه لخدمة رعيته ويعدّ نفسه مسؤولاً عن هذه الخدمة. كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بُويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ: الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى لعمري لأحلبنّها لكم؛ وإني لأرجو ألاّ يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه. فكان يحلب لهم، وربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتُحبِّين أن أرغى لك، أو أُصرِّح؟ فربما قالت: ارغ، وربما قالت: صرّح؛ فأيّ ذلك قالته فعل[(٢)]. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: رأيت عمر على قتبٍ يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ، بالنبوة، لو أن عَنَاقاً (عنزاً) ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة[(٣)].

والحاكم الجاهلي يجلب خيرات الأقاليم التي يُسيطر عليها، وتخضع

---

(١) العقد الفريد ص٥٩، وابن الجوزي ص٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٣.

(٣) ابن الجوزي ص١٤٠.

له من غير إقليم شعبه، إلى مركز سلطته، وموطن نشأته ليعيش إقليم على حساب أقاليم، وشعب على جهود شعوب، ولعلنا نذكر كيف كانت حبوب بلاد الشام تُنقل إلى مركز الدولة الرومانية لينعم بها البيزنطيون في الوقت الذي يعيش فيه أهل الشام جياعاً، وهذه قاعدة عامة في الجاهلية، والمستعمرون في العصر الحديث اعتادوا على نقل خيرات مستعمراتهم إلى بلادهم، وترك أهالي المستعمرات يرزحون تحت وطأة الفقر والجوع والمرض. أما الخليفة فيعمل جهده لتعيش الأقاليم كلها بمستوىً معاشيٍ واحدٍ، ولا تُنقل منتجات إقليم إلى جهات أخرى إلاّ عند الضرورة، وحدوث مجاعاتٍ أو كوارث، ولا تعدّ التجارة بمنتجات بلدٍ إلى آخر من هذا النوع وإنما هي للأرباح وحدوث الرخاء بسبب وجود منتجاتٍ في منطقةٍ وحرمان أُخرى منها، مثل زيتون المنطقة المتوسطية الذي يُنقل إلى بقاعٍ ثانيةٍ، وفواكه الشام، وتوابل أندونيسيا، وأرز باكستان و. . . . وإن قيام خلافة يجعل سكان دار الإسلام جميعاً بل العالم كله عندما يسوده الإسلام في مستوى واحدٍ، حيث ينتقل الناس من مكانٍ إلى آخر للعمل حيث لا توجد تلك الحواجز القائمة الآن بين البلدان ولا الحدود التي تفصل الأقاليم بعضها عن بعض، ويبقى بعضها ثرياً مُتخماً والآخر جائعاً، ويتحكّم الأول بالثاني ويستعبده. وعندما تحدث مجاعة في بلد يتشرّد أهله ويموتون جوعاً على حين يكون الآخرون في جنّاتٍ ونعيم، وكذا عندما تحلّ كارثة أو نائبة. وقد تكثر الخيرات في جهةٍ، أو تزخر أراضيها بالثروات الدفينة والمعادن، فيصيب أهلها الترف، ولا تمدّ يد العون لجهات أخرى، أو لا يتمكن الناس في بلدان أخرى من القدوم إليها، وكانت أحوال الدول الاستعمارية هكذا تجمع لديها ثروات الدول الضعيفة بعد أن تنهبها، وتتركها تحت غائلة الحاجة. ولعلّ من ميزات النظام الإسلامي أن تعيش الشعوب التابعة له كلها في مستوىً ماديٍ واحدٍ وهو إحدى جوانب المساواة التي يمتاز بها هذا النظام.

والحاكم الجاهلي غالباً ما يصل إلى المركز الذي يحتلّه عن طريق

القوة وإراقة الدماء، أو عن طريق التعيين، والرعية في كلا الحالتين غير راضيةٍ أو تعيش بعيدةً عن المسرح، ويُفرض الأمر عليها فرضاً، ونذكر كيف قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز، ثم قتل سبعة عشر أخاً له، وملك ثمانية أشهر، وقام ابنه أردشير فقُتل، وملك شهراز فقُتل، وملكت بعده بوران بنت كسرى، وجاء بعدها من جاء، وكل يقتل سلفه سواء أكان أباً له أم سيداً، وهكذا حتى دالت دولتهم، ولم يكن وضع الروم أفضل حالاً وقد قُتل قيصر فوقاس، وتسلم الأمر قائده هرقل و . . . واستمرت هكذا حالتهم حتى زال سلطانهم، والإغريق من قبل كانوا أكثر بغياً، وأكثر خلافاً فيما بينهم، وفي العصور الحديثة تتوالى الانقلابات العكسرية في البلدان الضعيفة. وقد يتعاقب الزعماء على السلطة بالمناورات السياسية وترتيب التكتلات كما يحدث في البلدان الشيوعية. أو يحصل الزعماء على الحكم بالأساليب التي تعرف بالديموقراطية، وهي لا تقلّ فيها اللعب السياسية والتكتلات الحزبية عن غيرها، وحتى طريقة الانتخابات التي تتبعها ليست بالطريقة الحسنة، إذ تلعب فيها الأموال، والمناورات، والزعامات، والسياسات دوراً كبيراً إضافةً إلى تساوي الأصوات بين أكثر الناس غباءً وبين أنضجهم عقلاً وأوسعهم علماً. أما الخليفة فيُختار من بين مجموعةٍ يُعرفون بأهل الحلّ والعقد، أو أهل الشورى، وهم أكثر الناس علماً ودرايةً، ويقصد بالدراية الحنكة السياسية، والقوة (عدم الأخذ بالعاطفة)، ورأي الناس بهم أو ما يُعرف اليوم بالقوة الشعبية أو الرصيد الشعبي، وهم غالباً أهل العلم، والولاة، والقادة. وقد يستخلف الخليفة كما فعل الصديق وذلك بعد مشاوراتٍ، أو يختار رجالاً بأعينهم، يُسمّيهم ليتفقوا على خليفة كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

فالاستخلاف جائز، وقد استخلف أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، عمر بن الخطاب ولكن بعد أن استشار عدداً من الصحابة، وأخذ رأيهم في ابن الخطاب. ولكن الاستخلاف يجب ألا تلعب العاطفة به فيختار الخليفة ابنه أو قريبه مع جواز ذلك، إن رأى مصلحةً، فعندما أُشير على عمر بن

الخطاب أن يستخلف ابنه عبد الله، قال للمشير عليه وهو المغيرة بن شعبة: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ولا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد، ويُسأل عن أمر أمة محمدٍ ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد»[1]. أما عن الاستخلاف فقد قال: إن الله حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنّ لي، إن لم أستخلف فإنّ رسول الله ﷺ، لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر. وذلك عندما طلب منه ابنه عبد الله. وأمّا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد قال عندما سألوه عن تولية ابنه الحسن بعده: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. وربما لأن الصحابة الذين هم بمنزلة الحسن، رضي الله عنه، قليلون - إن وجدوا - فاختلف الأمر عما كان عليه أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من كثرة الصحابة والمُبشّرين بالجنّة. وأمّا مُعاوية بن أبي سفيان فقد استخلف ابنه يزيداً إذ رأى في ذلك مصلحةً، مع وجود عددٍ من الصحابة، ومن هم أفضل من يزيد بكثير، غير أن الخلافات التي دبّت في المجتمع الإسلامي وخوف مُعاوية، رضي الله عنه، من أن تقع هذه الخلافات بين الصحابة أمثال: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، والحسين بن علي، فيزداد الخلاف بين المسلمين، ويقع هؤلاء الصحابة في أوحال الدنيا، لذا رأى الخليفة أن من المصلحة استخلاف ابنه يزيد. وإذا أصبح الاستخلاف بعد ذلك قاعدة بحكم العاطفة والمحافظة على السلطان فالأمر غير صحيح ولكن بعد أخذ البيعة - إن كانت بالرضا - وموافقة المسلمين تُصبح الخلافة صحيحةً، وعلى هذا اعتمد الأمويون، والعباسيون، والعثمانيون.

ولم يُفكّر المسلمون الأوائل بأنّ الخلافة غُنم، ورأينا ذلك في قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، للمغيرة بن شعبة عندما أشار عليه

---

(١) تاريخ الطبري.

باستخلاف ابنه عبد الله بن عمر. كما لم يُفكّر المسلمون في الصدر الأول بالمغالبة على الخلافة، فعندما قال خالد بن سعيد لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن! أَغُلبتم يا بني عبد مناف عن الإمرة؟ قال له علي: أمُغالبة تراها أم خلافة؟.

وخشي المسلمون الأوائل من طموح بعض القادة، وحبّ جندهم لهم أو باصطلاح اليوم خاف المسلمون من السيطرة العسكرية، وتحكمّها، وفرض بعض آرائها على الخلافة، ولعلّ في عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عن قيادة جند الشام أثراً واضحاً في هذا الجانب. ومن هذا المنطلق إذا قام آخر وادعى الخلافة فإنه يُقتل، ويقول رسول الله ﷺ في حديث طويل: «فإن جاء آخر يُنازعه فاضربوا عنق الآخر»[1]. وفي صدر الإسلام بويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فثار في وجهه مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، حتى انتزع عبد الملك الخلافة من عبد الله بن الزبير وبويع بعدها، فأصبح خليفةً بعد عبد الله بن الزبير، أما قبل ذلك فيُعدّ ابن الزبير هو الخليفة الشرعي، ومروان وابنه عبد الملك مُتمرّدين، ولكن الناس اليوم يفهمون عكس ذلك أن الخلافة لمروان وابنه عبد الملك. وأنّ ابن الزبير مُتمّرد عليهما، وتمكّن عبد الملك من القضاء عليه، ويأتي هذا الغلط بسبب أن الحكم كان في أسرة بني أمية، ويُعدّ ابن الزبير شاذاً بين أفرادها. أما تعدد الخلفاء فيما بعد فلا يعتدّ به لضعف الدولة والتخلّي عن بعض أسس المنهج الإسلامي.

وأما شروط الخلافة فهي الإسلام، والعقل، والبلوغ، وسلامة الحواس، والعلم، ولا شكَ أنّ القوّة تدخل ضمن هذه الشروط وإن لم تُذكر، إذ أن هناك عدداً من الرجال يكونون على درجةٍ من الصلاح والتقوى، ولكن لا يصلُحون لقيادة الأمّة لضعفٍ أو سرعةٍ في التصديق، أو عدم معرفة في حيل الناس، والمناورات السياسية، أو يُمكن خداعهم.

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

وعندما سأل أبو ذر رسول الله ﷺ الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك لضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزيّ وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»(١). أما شرط أن يكون من قريش، وقول رسول الله ﷺ: «الأمراء من قريش»(٢)، فإنّ العرب في صدر الإسلام لا تعرف هذا الأمر إلا في قريش التي تسكن بجوار بيت الله وتحميه، وموطنها مقرّ التقاء العرب حيث تحجّ القبائل كلها إلى مكة المكرمة، وقريشٌ أوسط العرب نسباً ورسول الله ﷺ منها، وأنه صاحب هذا الدين، وعليه أُنزل كتاب الله، وقد بلّغه للناس، وأدّى الأمانة، ونصح للأمّة، فيصعُب للعرب أن تقرّ لغير هذا البيت، وهذا ما استشهد به المهاجرون يوم بيعة الصديق، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة. غير أن العرب عامةً، ومنها قريش، قد خرجت من جزيرة العرب للفتح، واستقرّ كثير من القبائل في المواطن التي اتجهت إليها، وبذلك توزّعت العرب وتشتت أمرها، وقطن عدد من أفراد قريش في جهاتٍ متعددة بل في كل البلدان التي فُتحت، فالأمويون استقروا في الشام، ثم انتقل عدد منهم إلى الأندلس بعد سقوط دولتهم في دمشق، كما سار عدد منهم إلى نواحٍ متفرقةٍ من إفريقية. واستوطنت أعداد من آل البيت في العراق عند قيام دولة بني العباس، وتحرّكت مجموعات منهم إلى طبرستان والمغرب وأواسط إفريقية إثر حركة محمد ذي النفس الزكية في المدينة عام ١٤٥، وبعد معركة فخ أيضاً عام ١٦٩، وهكذا توزّعت قريش بل آل البيت في جهاتٍ نائيةٍ متعددةٍ من العالم المعروف يومذاك. ونعلم أن الذين عاشوا في المدن لم يلبثوا بعد مدةٍ أن نسوا نسبهم نتيجة الحياة المدنية وهذا ما نعرفه ونلاحظه اليوم. بل إن جماعاتٍ كثيرة انتسبت إلى العرب، وإلى قريشٍ خاصةً بل وإلى آل البيت من البلدان المفتوحة من الذين دانوا بالإسلام حبّاً برسول الله ﷺ والعرب، ووضعوا شجرات نسبٍ لهم تبيّن هذا الانتساب، وقد كثرت هذه الشجرات في العالم الإسلامي

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري وأحمد.

حتى لم يعد المرء يستطيع أن يعرف الصحيح من غيره من شجرات النسب هذه. من هذا، ومن مبدأ المساواة الذي دعا إليه الإسلام ومن عدم التمييز بين الشعوب، والجماعات، والقبائل، والألوان إلاّ بالتقوى نستطيع أن نعتمد حديث رسول الله ﷺ: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»[1]. وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله»[2]، وهذا ما استند عليه العثمانيون، وهو سند صحيح، ويمكن أن يقوم بالخلافة أيّ إنسانٍ توفّرت فيه شروط الخلافة مهما كان نسبه أو لونه...

أمّا مدّة الخليفة فغير مُحدّدة، ولا ينقض البيعة له إلا الوفاة، أو الجنون، أو الكفر البواح، أو العجز عن القيام بأعباء الخلافة، أو وجود حائل يحول دون ذلك، وإن كان في تحديد العجز مرونة إلاّ أنّ الخليفة الذي أوكلت إليه الأُمّة هذه المهمّة فهو غير حريص على التمسّك بها فما أن يشعر بالعجز حتى يُعلن ذلك. وهذا هو الأمر السليم غير أن الخلفية التي عندنا عن ضعفاء الخلفاء والمتأخرين منهم يجعلنا نتصور التمسّك بالخلافة، أو بالأحرى التمسّك بالحكم. وأمر تحديد مدة الخلافة غير واردٍ للهزّات الاجتماعية والسياسية التي تصيب الدول التي تجري فيها الانتخابات، وهذا ما نراه في عالمنا الحاضر. وعندما نُحدّد مدة الخليفة فإننا نحرم الأُمّة من الخبرة التي اكتسبها أو نحرمها من أيام قوته ونشاطه أو من أوقات نضجه الفكري وحنكته. هذا بالإضافة إلى صعوبة تغير سياسة الدولة بين خليفةٍ وآخر، وصحيح أن سياسة الدولة أو سياسة الأمّة لا تتغير أبداً على مرّ السنوات، ما دامت قائمةً على خطٍ واضحٍ كل الوضوح فليس هناك من لبسٍ في الإسلام، أو خداعٍ ومكرٍ وتضليلٍ ـ كما يحدث في السياسة اليوم ـ غير أن هناك اختلافاتٍ فردية بين شخصٍ وآخر ولا بدّ أن

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري.

يظهر هذا على السياسة مهما حاولنا التقريب، فالخلفاء الراشدون، وهم من أفضل الأمّة بعد رسولهم الكريم، ومن تربية مدرسة النبوة، وعلى منهج واحدٍ، وعلى درجةٍ تكاد تكون واحدةً في التطبيق ومع ذلك نجد بعض الفروق العامة في السياسة، فأبو بكرٍ يستشير ويُقرّر، وعمر يستشير ويُنفّذ. عمر يطلب من الصحابة عدم مغادرة المدينة، ويعدّ جهادهم مع رسول الله ﷺ كافياً لجهادهم، وعثمان يسمح لهم بالمغادرة، وعلي يصحبهم ويُولّيهم. عمر يُقدّم الصحابة في الولاية، وعثمان يختار القوي الأمين بغضّ النظر عن الصحبة، وعلي يُكلّف الأقوياء ويُحاسبهم. أبو بكر يضع آل البيت في موضعهم على سنة رسول الله ﷺ، وعمر يُقدّم آل البيت ويُرتّب الناس بعدهم حسب الصحبة والغزوات أهل بدر ـ المسلمون قبل فتح مكة ـ بعد الفتح و.... وهكذا وُجدت بعض الاختلافات الفردية البسيطة أيام الراشدين، وهم الراشدون، فكيف غيرهم إذا تعاقب الخلفاء بين مدةٍ وجيزةٍ وأخرى؟. وأخيراً فإن الخلفاء الراشدين وهم قُدوة الأُمّة، وتُؤخذ أعمالهم كقواعد يُسار على نهجها، فلم تُحدّد مُدّة خليفةٍ، وإنّما استمرت حتى الوفاة، واستمر الخلفاء بعد ذلك على هذا المنهج مقتدين بذلك، غير أنه لم يُقس على تصرّفات الخلفاء بعد الراشدين، ولكنهم اتبعوا ولم يبتدعوا لم يشذّ عنهم سوى معاوية بن يزيد الذي تنازل عن الخلافة لعجزٍ وجده في نفسه، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يشاءون وهذا منهج سليم، فإذا وصلنا إلى وقت الضعف حيث غدا الخلفاء يُخلعون، ويُمثّل بهم فهذا وقت ـ كما ذكرنا ـ لا يُعتدّ به لخروجه عن المنهج الإسلامي السليم، وذلك بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

[٣] الإنسان الفرد

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، حُسن في تركيبه، وحُسن في تقويمه، وحُسن في تعديله، وفي هذا فضل من الله كبير على هذه العناية، وهذا يُشير إلى أنّ له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود. وتتجلّى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب[١]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[٢].

وتُريد المشيئة العليا أن تُسلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتُطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىً وطاقاتٍ، وكنوزٍ وخاماتٍ، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلّها الله إليه[٣].

ولقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثيرٍ من خلقه. كرّمه بخلقه على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان. وكرّمه بعقله الذي يستعمله في اكتشاف ما خفي عنه، وإعمار الأرض واستثمار خيراتها، والتمييز بين الخير والشرّ، والحق والباطل، فيسلك الطريق المستقيم، ويبتعد عن كل ما فيه من سوءٍ يتوقعه.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) في ظلال القرآن.

وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها في فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يُغيّر فيها ويُبدّل، ويُنتج فيها ويُنشئ، ويُركّب فيها ويُحلّل، ويبلغ بها الكمال المُقدّر للحياة.

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك. وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويُعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان. وكرّمه بإعلان هذا التكريم كلّه في كتابه المُنزّل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض... القرآن....[1] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[3].

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله. وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

هذا الإنسان المكرّم عند الله، والمعتنى به من الله، والمفضّل في الأرض والتي هي مُسخّرة له، ومُهيّئة له للعمل فيها، يجب تكريمه وحفظ حياته فهو اللبنة الأولى في المجتمع العالمي، وكان قتله جريمةً كبرى تُعدّ قتل البشر جميعاً، والعمل على إحيائه وإنقاذه من الموت إن تعرّض له ويُعدّ ذلك إحياءً للناس جميعاً، يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]. وعن سعيد بن العاص عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يُصب دماً حراماً» قال: وقال ابن عمر: «إنّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلّه»[2].

ومن قتل مؤمناً مُتعمّداً فعقوبته القتل، وفي الآخرة جزاؤه جهنم، وأما الذي يقتل خطأً فجريمته خفيفةً نسبياً، ويمكن أن تُفتدى بالمال لأن الأمر قد وقع خطأً، ورُفع الخطأ عن المسلم لقوله ﷺ: «إنّ الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان»[3]. والذي يقتل خطأً يعتق رقبةً مؤمنةً، ويدفع ديةً إلى أهل المقتول ويتوب إلى الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[4].

ولا يحلّ قتل المسلم إلاّ أن يكون قاتلاً، أو مُرتدّاً عن دينه، أو متزوجاً زانياً لقوله ﷺ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[5]، رواه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

(٤) سورة النساء: الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٥) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ولما كان قتل النفس فساداً عظيماً في الأرض، ولذا فلو اشترك عدد في قتل إنسان ظلماً وعدواناً قُتلوا جميعاً، يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم».

ولما كان الناس جميعاً متساوين لا فرق بينهم إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[1]. فلا توجد في المجتمع طبقات، ولا يتفاوت الناس في دمائهم، فليس هناك من فروق في الديّات، كما لا توجد فروق في القصاص بين رجل وآخر، فعن سمرة بن جندب، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه»[2]، وفي رواية زيادة [ومن خصى عبده خصيناه]. وإن كانت خلافات طفيفة بين العلماء في قيد السيد بعبده.

ولما كانت النفس البشرية مُكرّمة، وكان الإنسان ملكاً للأمة وليس ملك نفسه، لذا لا يحقّ له أن يتصرّف في نفسه، فيُنهي حياته بالصورة التي يراها، تهرباً من الواجبات أو تخلّصاً مما قد يُبتلى به، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من تردّى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه، فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم، خالداً مُخلّداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدته في يده، يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً»[3].

هذا الإنسان المكرّم عند الله يجب ألا يُظلم، فالله سبحانه وتعالى لا يحبّ الظالمين، ولن ينالوا عهداً منه، وسيجزون على ظلمهم جهنم. ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. و﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. و﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3]. و﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[4]. وعن أبي ذر عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا...»[5] ومن الظلم إذلال الناس والضغط على حرّياتهم، ومحاولة إقلال الموارد والحاجات الضرورية عليهم، وحصرهم في أماكن لا يمكنهم تجاوزها.

هذا الإنسان المكرّم عند الله لا يُحقّر، ولا يُسخر منه، ولا يُخوّف، ولا يروّع، ولا يمسّ في عرضه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[6]. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[7]. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٧.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٩.

(٤) سورة الشورى: الآية ٤٢.

(٥) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده.

(٦) سورة الحجرات: الآيتان ١١، ١٢.

(٧) متفق عليه.

بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[1].

ولا يقف الإسلام أمام رغبات الفرد، فالرجل يستطيع أن يتزوّج أكثر من امرأةٍ إن كان بإمكانه ذلك مادياً، ونفسياً، وغريزياً. وكذلك بإمكانه الطلاق إن وجد أن الحياة لا يُمكنها أن تستمر بينه وبين من اختارها زوجةً له، إذ يمكن أن تختلف الطباع، أو تتباين الأمزجة والمعايير، وعوضاً من أن تكون الحياة جحيماً يمكن أن يجد كل منهما طريقه الخاص به، وعسى أن يُبدل الله كلاّ منهما خيراً من صاحبه. وذلك على عكس بعض العقائد التي لا تبيح للرجل أن يستبدل زوجاً مكان زوج مهما كان الأمر، ومهما كان الاختلاف بينهما كبيراً، لذا حدثت المفاسد، وانتشرت الخلاعة، حيث يمكن للرجل أن يتخذ أكثر من امرأةٍ ولكن على صفة خليلةٍ، لا على أنها حليلة حيث تحرّم ذلك العقيدة، وجرّ ذلك على المجتمع ما جرّ.

وكذلك فإن للمرأة الحق أن تتزوّج إذا ما توفي عنها زوجها، وقد تتزوج أكثر من مرةٍ، ونذكر في مثل هذا المجال أسماء بنت عُميس، رضي الله عنها، التي كانت زوجاً لجعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلمّا استشهد في مؤتة، تزوّجت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، فلما توفي عنها، تزوجت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأنجبت لثلاثتهم. وكانت تعيش مع كل واحد منهم حياةً ملؤها السعادة والرخاء، ويكتنفها الحب الحقيقي. وقد اختلف أحد أبناء جعفر مع محمد بن أبي بكر (وأمهما أسماء) في أفضلية أبي بكر وجعفر، وعلي يسمع، فقال لهما: اسألا أُمّكما أسماء. فسألاها، فقالت: ما رأيت شاباً أفضل من جعفر، ولا كهلاً أفضل من أبي بكر. فقال علي: وأين أنا منهما يا أسماء؟ فقالت: عرفت ثلاثةً أنت أقلّهم فقال: والله لو قلت غير ذلك لأقليتك.

وأم حكيم بنت الحارث التي كانت زوجاً لعكرمة بن أبي جهل، فلما

---

(١) متفق عليه.

استشهد في أجنادين تزوّجها خالد بن سعيد بن العاص، فلما استشهد في مرج الصُفَّر، تزوجها عمر بن الخطاب.

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي كانت زوجاً لعبد الله بن أبي بكر، فلما توفي بعد أن أصيب بالطائف تزوجها عمر بن الخطاب، فلما توفي عنها تزوجها الزبير بن العوام، فلما استشهد خطبها علي بن أبي طالب فلم تقبل الزواج منه لا رغبةً عنه ولكن رغبةً فيه خوفاً من أن يُصاب، وقد أُصيب ولم يتزوجها.

والمرأة قد يموت زوجها، وتكون بحاجةٍ إلى زوج لا إلى من يُعيلها فقط ـ كما يتصوّر بعضهم ـ فإذا رغبت في الزواج فلها في ذلك الحقّ، ولا يمكن لأحد أن يقف في طريقها كما يفعل أصحاب بعض العقائد إذ يحولون بينها وبين ما ترغب باسم الحفاظ على ذكرى الذي فقدت و. . . .

هذا الإكرام الذي يُعطيه الإسلام للإنسان، وهذه الحرية التي يمنحه إياها تقف عند حدّ، فليس هناك حرية مطلقة، وإنما تقف حيث تبدأ حرية الآخرين، وحيث تسمح العقيدة بذلك. ليس للمرء أن يتكلّم بالألفاظ النابية، ولا بالألقاب، ولا يشتم، ولا يلعن، ولا يغتب، ولا يخوض في أعراض الآخرين، ولا يسيء إلى عقيدة المجتمع، ولا يرفع صوته في بيته ولا أصوات ما عنده من وسائل الإعلام لأن ذلك يؤذي الجوار، ولا يُسيء إلى ما حوله من أفراد لأن أي شيء من هذه التصرفات ينشر الكراهية، ويُعمّ البغض، ويجعل الكلام غير المستحسن يسود في المحيط الذي يعيش فيه.

وليس للمرء أن يتحدث بما يضرّ مصلحة الأمة، أو بما يخدم أعداءها من أسرار للمسلمين أو اطلاعٍ على عوراتهم، وكل ما ينطبق على الكلام ينطبق على الكتابة.

ولا يحقّ للمرء أن يلبس ما يؤذي المجتمع كأن يلبس الرجل لباس المرأة أو العكس، أو يرتدي غير ما تعارف عليه المجتمع، أو يظهر أكثر

جسمه ويتجول في الطرقات، أو تبدي امرأة مفاتنها، وتميس في الشوارع باسم الحرية، فهذا أمر ممنوع وسط المجتمع الإسلامي. عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «لعن رسول الله ﷺ، الرجل الذي يلبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[1].

ولا يحقّ للإنسان أن يبني في الشارع باسم الحرية فيسدّ على الناس طرقاتهم، أو يتطاول في البنيان فيحجب النور والهواء عن الجوار، أو يحفر الدروب، أو يحول دون وصول المياه إلى مستحقيها أو. . .

ولا يحقّ للمرء أن يبيع منتجات الأُمّة إلى أعدائها، ولا يُروّج لبضائع الخصم في محيطه الذي يعيش فيه، ولا يضع أمواله لتستثمر في بلاد الكفر وأُمّته بحاجةٍ إليها، ولا يأتي بأموالهم ليُقيم فيها المشروعات بدار الإسلام فتصبح خيراتها لهم و. . . .

ولا يحقّ للفرد إن كان مسؤولاً أن يُذلّ من كان تحت سلطته، فيكبت الحريات، ويمنع الدعوة، ويحول دون التنقل، ويسعى في إفقار الشعب كي يخضع له ويتمكّن من السيطرة عليه، ولا يؤمن العمل للرعية، ويجعل الأفراد يلهثون وراء تأمين حاجاتهم فتراهم أرتالاً على المخابز، ومواقف السيارات، وأمكنة الحصول على المواد الضرورية، والجوازات، والتأشيرات و. . . وإذا ذلّ الشعب خضع لكل طاغِيةٍ، وعجز عن تحرير الناس من الظلم، والأرض من المعتدين، فإن التحرير لا يمكن أن يتم بالعبيد فلا بدّ من الحرية لإمكانية التحرير و. . . وهناك أشياء كثيرة حدّدها الشرع، وحدّد فيها حرية ذلك الإنسان الفرد الذي كرّمه الله تعالى، وما حُدّدت عليه إلا لمصلحة الآخرين من الأفراد والمجتمع لتعيش الأُمّة بسلام وسعادة.

وعندما ضعُف المسلمون بدأت تتفكّك عرا الإسلام عُرْوة بعد أخرى، وأهمل الناس أمور دينهم، وتغلّب عليهم أعداؤهم، وبدأ الضعيف يُقلّد

---

(١) أخرجه أبو داود.

القوي، فتسلّط على الناس الطغاة، وتحكّم فيهم البغاة فساد في المجتمع ما نراه من ألفاظٍ نابيةٍ، وشتائم، وغيبةٍ، ولعنٍ، وخوضٍ في أعراض الناس: وإيذاء الجوار برفع الأصوات داخل البيوتات ورفع أصوات المذياع والتلفاز دون تقديرٍ لحرمة الآخرين ولا حسابٍ لمشاعرهم، والكلام بسوء عن عقائد المجتمع، والرفع من قيمة الأعداء، والحطّ من شأن المسلمين والكتابة عن أسرارهم، والسير في الشوارع بأزياء غير معروفةٍ بل ومُنكرة، وتقليد الرجال للنساء، والنساء للرجال بصورٍ أقرب ما تكون إلى العري، والنساء كذلك باسم الحرية و.... وغدا التطاول في البنيان والتعدّي على حرمات الشوارع، وبيع ما هو ممنوع ومحرّم، وترويج بضائع الخصم، وتثمير أموال المسلمين في بلاد الكفر، وتمويل مشروعات المسلمين بأموال الكافرين. بل غدت بعض الأمور الشرعية غريبةً ومنكرةً في هذا العصر تأثّراً بأعداء الإسلام وأفكارهم ومفاهيمهم نتيجة حياة الضعف التي يحياها المسلمون، ومنها زواج المرأة بعد وفاة زوجها، ويظنّون أن المرأة تحتاج إلى الإعالة المالية فقط، ولا ترغب بما يرغبه الرجل، فما يمنعها من الزواج إن كانت تودّ بذلك، فالفطرة تقضي بهذا، فلو تزوّجها أخوه من بعده لتقوّلوا الأقاويل، وقد رأينا زواج علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من أسماء بنت عُميس زوج أخيه جعفر، رضي الله عنه. ولو تزوّجها اليوم صديقه لنشروا الشائعات، وقد رأينا زواج الصحابة، رضوان الله عليهم، بزوجات أصدقائهم بعد وفاتهم، وفي هذا الزواج رعاية لمن ترك المتوفّى، وحماية للتي تُوفّي عنها زوجها وتكريم لها، وتحقيق لما تتطلب. ويُفضّل بعضهم أن تبقى دون زواج وفي ذلك إبعاد لها عما ترغب فيه، وعدم تحقيقٍ لما فطر عليه الإنسان، وينتج عن ذلك انتشار للمفاسد التي ينعكس أثرها على المجتمع، وكذا قضية التعدد التي نتحدّث عنها، إن شاء الله، في موضوع المرأة. وكل قضيةٍ إسلاميةٍ يحرص الأعداء الطعن فيها، وترك الأمر من غير أن يُكرّم هذا المخلوق الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى.

إن المفاهيم التي سادت أو كادت تسود في المجتمع الإسلامي نتيجة

الظروف التي طرأت عليه، والتخلّف الذي أصابه، والضعف الذي حلّ به، والتأثّر بمفاهيم الذين تغلبوا عليه، من صليبيين ويهود، وأفكار عرفت على أنها عالمية بسبب سيطرة الحضارة المادية على العالم، كل هذه المفاهيم مرفوضة إن كانت تُخالف العقيدة الإسلامية، ففيها شقاء العالم ودماره إن كانت كذلك. ولا نقبل إلا ما فهمه المسلمون من صحابة رسول الله ﷺ، في الإنسان الذي كرّمه الله، وفي كلّ ما شرع له تكريم له، فعلينا أن ننفذه ليسعد وتعيش البشرية من رخاءٍ وطمأنينةٍ وسلام.

[٤] المجتمع

لما كان الفرد هو اللبنة الأولى التي يتألّف منها المجتمع، فالمجتمع عدد من اللبنات، ولا بدّ من أن يكون هناك تعاون بين الفرد والمجتمع، فإذا زالت لبنة واحدة من البناء ظهرت ثغرة فيه فبان عواره أو تهدّم كيانه، وإذا سُدّ مكانها بشكلٍ غير طبيعي أي بغير لبنةٍ من نوعها بدا المظهر العام مُشوّهاً، لذا لا بدّ من أن يكون هناك توازن بين الفرد والمجتمع أو بين الكيان وأعضائه الذين يتكوّن منهم فلا يطغى الفرد بسلطانه على المجتمع فيُذلّه أو بتصرّفاته فيُمزّقه، ولا يطغى المجتمع على أيٍ من أعضائه فيُذيبه، ويُفقده تكريمه الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى، ويُبعده عن حريته التي منحه إيّاها.

يمنح المجتمع الفرد من أعضائه الحريّة الكاملة ضمن الحدود التي تكلّمنا عنها في موضوع الإنسان الفرد، فإذا منعها عنه أفقده الإبداع في الفكر، وقتل فيه الطموح، وجعله يعيش خنوعاً يقبل ما يُملى عليه، ويخضع لكل طاغٍ أو دخيل.

يُعطي المجتمع الفرد حقّ الملكية التي هي غريزة طبيعية وُجدت مع الإنسان، وفُطر عليها، فالصغير يحتجز ما يُحبّ، ويُخبئ ما يرغب فيه على أنه ملك له، فإذا منعته من ذلك جرحته، وأوجدت في نفسه شيئاً عليك قد يصل إلى الحقد في بعض الأحيان إن لم تكن صلة كبيرة بينك وبينه، وفي البلدان التي تمنع حقّ الملكية لأبنائها فإنما تفعل ذلك ليتكوّن حقد بين رعاياها تستغلّه في إبقاء سيطرتها، وفرض قبضتها على المناطق التي تخضع لها، ويستفيد رجال الدولة من ملكية الدولة لكل شيءٍ فيتصرّفون فيه على

أنه حقّ طبيعي لهم فيعيشون بترفٍ، وينفقون ببذخ، بينما يبقى الأفراد بوضعٍ بئيسٍ، وعيشٍ تعيسٍ. هذا إضافةً إلى أنّ الإنسان الذي يُحرم من بعض حقوقه تضعُف ملكة الإبداع عنده، وتتحطّم معنوياته، فلا يُعطي إلاّ القليل، ولا يُقدّم غير الزهيد من إمكاناته وطاقاته، فيقلّ إنتاجه، وبالتالي يضعُف إنتاج الأمّة وتُصبح بحاجةٍ إلى غيرها، وعندها الشيء الكامن ولكن لا تستغلّه، ولديها الاحتياطي غير أنها لا تبذله، وتملك القدرات ولكنها لا تستفيد منها، وكل ذلك على حساب الأفراد الذين لا يعيشون على المستوى المطلوب. وفي الوقت نفسه لا يحقّ للفرد أن تطغى ملكيته باسم الحرية، فيحتكر قوت المجتمع، ويجمع لديه الثروة عن طريق الرّبا وبيع المحرمات، ثم يُسخّر المجتمع كله لخدمته، ويدوس على الآخرين، وتصبح المقاليد كلّها بيده. قال رسول الله ﷺ: «من احتكر فهو خاطئ»[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[3]. وكذلك يُحرّم بيع كلّ ما هو حرام والمتاجرة به مثل: الخمر، والمخدرات، ولحم الخنزير و.... وهذه أكبر وسائل المال الحرام وأكثرها جمعاً له.

وعلى المجتمع مُمثّلاً في السلطة أن يُؤمّن العمل للنّاس، ويمنع السؤال، والقعود بلا عمل، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «والّذي

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة: باب تحريم الاحتكار في الأقوات.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٥، ٢٧٦.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١.

نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، فيأتي به، فيبيعَه، فيأكلَ منه، ويتصدّقَ منه خير له من أن يأتيَ رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه»[1]. ولما كان الفرد ليس هو ملكاً لنفسه، وإنما ملك الأمة جميعها، لذا فالسّلطة تُلزمه على العمل، وتمنعه من الجلوس من غير عمل بحجة الثراء والاكتفاء بما لديه، وعدم الحاجة، إذ عليه العمل مهما كان مُستغنياً عنه ما دامت الأمة بحاجةٍ وهو ملك لها. وتأمين العمل واجب على السّلطة، عن أنس بن مالك، أنّ رجلاً من الأنصار أتى النّبي ﷺ، يسأله فقال: «أما في بيتك شيء»؟ قال: بلى حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْب نشرب فيه من الماء، قال: «أئتني بهما»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري هذين»؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: «من يزيد على درهم»؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: «أنا آخذهما بدرهمين» فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُوماً فأتني به» فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ، عوداً بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يوماً» فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقع، أو لذي غُرم مُقطع، أو لذي دم مُوجع»[2]. ولسنا بحاجةٍ هنا إلى توضيح شروط العمل، والغاية منه، فإنّ هذا أمر معروف ولكن نشير إلى أنّ من شروطه أن يكون غير محرّم، وليس فيه ضرر للنّاس، أو شغل عن العبادة، والغاية منه، الاستغناء عن النّاس، والنهي عن البطالة، ونفع عباد الله، والإفادة مما أباح الله لعباده من طيبات الرزق.

وإذا عجز المرء عن العمل كان على الدولة أن تُعطيه ما يغنيه، فكما

---

(١) متفق عليه كما رواه الإمام مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه أبو داود في باب الزكاة.

أنّ المجتمع مُمثّلاً في السلطة مسؤول عن عمل الفرد في شبابه كذلك مسؤول عنه في شيبته، وقد مرّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بسائلٍ شيخٍ كبيرٍ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال:

من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟.

قال: أسأل الجزية والحاجة والسنّ.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثُمّ أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم. فأعُطي من بيت المال من غير أموال الزكاة، لأنّه لا يُعطى غير المسلمين من أموال الزكاة.

والسلطة مسؤولة عن تأمين حاجة الفرد من مواصلات، وتعليم، ونور وكل ما يتعلق بوسائل الحياة. فكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: «والله لو أنّ بغلةً عثرت على شاطئ الفرات لأخشى أن يسأل الله عنها عمر لم لا يُسوّي لها الطريق». ووسائل الحياة ليست واحدةً وإنما تختلف باختلاف الأزمنة فإذا كانت في القديم تمهيد الطريق فاليوم تعبيده، وإذا كانت في المرحلة السابقة السّراج والزيت فهي في هذا الوقت الكهرباء وهكذا مع الزمن ولا ندري ما يستجد في المستقبل، وكلّ هذا من واجبات السلطة.

ولم يتسلّم الحاكم أو أفراد السلطة المسؤولية ليمتازوا على الأفراد، ويتعالوا عليهم، ويُذلّوهم، وإنما كُلّفوا بهذا العمل لخدمة الشعب، وليعيشوا كبقية أفراد المجتمع إن لم نقل دونهم، فأبو بكر، رضي الله عنه، يقول: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوّموني و....»، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يأكل من الشيء حتى تشبع منه رعيته، فيروى أن عتبة بن فرقد لما قدم أذربيجان أتى

بالخبيص، فلمّا أكله وجد شيئاً حلواً طيباً، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا. فجعل له سَفْطين عظيمين ثم حملهما على بعيرٍ مع رجلين، فسرّح بهما إلى عمر، فلما قدما عليه فتحهما قال: أي شيءٍ هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه فإذا شيء حلو فقال للرسول: أكُلُّ المسلمين يشبعون من هذا في رحالهم؟

قال: لا.

فقال: أمّا لا، فارددهما.

ثم كتب: أما بعد فإنّه ليس من كدّك ولا كدّ أُمّك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك. وجاءت إلى عمر بُرود من اليمن، ففرّقها بين النّاس بُرداً بُرداً، ثم صعد المنبر يخطب، وعليه حُلّة منها (أي بُردان) فقال: اسمعوا رحمكم الله. فقام إليه سلمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع.

فقال: ولِمَ يا أبا عبد الله؟

فقال: يا عمر! تفضلّت علينا بالدنيا، فرّقت علينا بُرداً بُرداً، وخرجت تخطب في حُلّةٍ منها؟

فقال: أين عبد الله بن عمر؟

فقال: ها أنذا يا أمير المؤمنين!

قال: لمن أحد هذين البُردين اللذين عليّ؟

قال: لي.

فقال لسلمان: عجلت عليّ يا أبا عبد الله، إنّي كنت غسلت ثوبي الخلق، فاستعرت ثوب عبد الله.

قال: أما الآنَ فقل نسمع ونطيع.

وهكذا فرغم أن المجتمع له سلطة على الفرد، ويحدّ من سلطته،

ولكنه لا يُذيب شخصيته فللفرد كرامته المحترمة، وحريته المحددة، وحقه على المجتمع، ومحاسبته، وله أن يُجاب على تساؤلاته. إذن هناك توازن في الإسلام بين الفرد والمجتمع، فلا تطغى حرية الفرد حتى تسيء إلى المجتمع، ولا تتوسع سلطة المجتمع حتى تُذيب شخصية الفرد، وتسحقه في آلة سلطتها. والمسؤول خادم للفرد والمجتمع على حدٍ سواءٍ، لا مُترفعاً عنهما ولا مُتعالياً.

وما يوجد في العالم الإسلامي من مخالفةٍ لهذا فهو لا يُمثّل الإسلام، وإنما يُخالفه، وقد حدث نتيجة الزمن والبعد عن أوامر الله وتعاليم الإسلام تدريجياً، فبعد انتهاء الخلافة الراشدة والمسؤولون يتحللون من تعاليمه شيئاً إثر شيء حتى حدثت هذه الهوة بين ما ندّعي وبين ما نُطبّق على الواقع. إضافةً إلى هذا البعد هناك بعد آخر وهو تولّي أعداء الله الذين أصبح لهم نفوذ واسع في ديار المسلمين يرفعون من يتولاّهم، ويضعون من يُخالف ذلك، لذا لا نجد في العالم الإسلامي الصورة الحقيقية المُمثّلة للإسلام في توازن الفرد والمجتمع، وهو ما نسعى إليه.

[٥] المــرأة

خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، فخلق من نوع الإنسان الذكر والأنثى، وجعل منهما معاً حفظ النسل وبقاء هذا الأصل. وفطر لكلٍ منهما قدراتٍ وإمكاناتٍ مختلفةً عن قدرات وإمكانات الآخر تتناسب مع ما يُوكل إليه من مهمةٍ في الطبيعة والأداء، والسكن، وتكمل مهمة الآخر حيث تتكامل الحياة بالمُهمّتين، وجعل بينهما مودةً ورحمةً فلا يستغني أحدهما عن الآخر فلو استغنى لتوقّف النسل، وانتهى الأصل، وانقطعت الحياة. ولو امتنع أحدهما عن القيام بمُهمّته أو حاول تأدية عمل الآخر لعمّت الفوضى، وتخبّط الأمر، وأصبح الناس في بؤس وشقاء.

خُلق الرجل بجسم قويٍ يتحمّل الصعاب لأن في عمله المشقّة، وهو خارج البيت يكدّ في الليل، في النهار، في البرد القارس، في الحرّ اللافح، يدفع العجلات، يُحرّك المُسنّنات، يعمل بالحراثة، بالمناجم، بالغابات... ولتتكامل حياة هذا المخلوق فُطر بعقلٍ يُحبّ الجسم الضعيف ليودع فيه الرحمة والمحبة، وليجد فيه الهناء، وصفو العيش. ولذا فالرجل لا يميل إلى المرأة المسترجلة، ولا يطلب القوية، ولا يرغب في شريكة حياته الشدّة.

وخلقت المرأة بجسم لطيفٍ فيه اللين والنعومة لا يتحمّل المشاق، ولا يصبر على الشدّة، يُناسبه الهدوء ولطف الأعمال، وهو ما يتوفّر في البيت، وينسجم مع بعض المهن والأشغال، وفي الوقت نفسه يحمل طبيعةً تحبّ القوّة في صاحبها والشدّة في شريكها، فتُقدّم له الحنان، وتُخفّف من قسوته بالعطف، ومن تعبه بالركون إليه فيتوازن الأمر جسم قوي يحمل

عقلاً يحب اللين واللطف مع جسم ضعيف له طبيعة تحب القوة. فتستقيم الحياة على هذا المنوال، ويتكامل الإنسان فيها بنوعيه. والمرأة تحتقر المُخنّث، وتتألّم من الذين يتشبّهون بالنساء.

ومن هذه الطبيعة التي فطر الله الناس عليها كانت المرأة تفخر برجلها القوي، وفارسها الشجاع، وتنظر إلى صاحب القوام الكبير، والعقل السليم الذي يتقي به الشدائد، ويُنقذه من المهالك في عمله الخارجي وأسفاره ورحلاته، ولذا فهو ليس بحاجةٍ إلى التنكّر والاحتجاب، وإنما إلى الظهور والاحتكاك، ويبحث دائماً في إعمار الأرض، واستخراج كنوزها، واستثمار خيراتها، وكان عليه الإنفاق في البيت، وكانت له القوامة فيه، وحمايته، فهو صاحب الإمكانات على تلك الحماية وتلك القوامة.

وكانت قوة المرأة في ضعفها، والرغبة فيها في نعومتها، والطلب عليها بأنوثتها، وحبّ الرجل لها في لطفها، والضعف، والنعومة، واللطف هي فتنة المرأة، وهذا سبب الصراع بين الأقوياء عليها، لذا كان عليها عدم إظهار هذا، فلا تلين بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، ولا تخضع للغريب، ولا تتلطّف للبعيد، وتُخفي نعومتها، ولا تُبدي شيئاً من فتنتها، وهذا أصل الحجاب والاحتشام، وهو ما يضمنه لها عمل البيت، فإذا ما خرجت للعمل أو لحاجةٍ فعليها الهدوء والوقار والحشمة والحجاب. والعمل بما يتناسب وطبيعتها كالعلم والتعليم، والطب والتمريض، والبيع و... على أن يخلو من الاختلاط، وتمتنع فيه الخلوة، كما يجب ألا يتعارض مع عمل البيت من حيث الوقت والغياب عنه.

وكما يتوازن الأمر في الجسم يتوازن في العمل أيضاً، فعمل الرجل خارج البيت فيه عراك مع الحاجات وفيه الضوضاء، وفيه صراع مع الرجال وفيه الفوضى، فيحب أن يجد في بيته الهدوء والسكينة، واليد الحانية التي تمسح عنه ما كابده في عمله، وتزيل من نفسه ما وجده في شُغله. وعمل المرأة داخل البيت في طبيعته الهدوء فتتحمل ما تُقاسي من عناء، وترتاح نفسها إلى مداعبة الصغار وتهيئة مستلزمات حياة هذا البيت.

ومن هذا المنطق، وهذا التوازن في الطبيعة وفي العمل فإن الإسلام قد أعطى المرأة الحقوق نفسها التي أعطاها للرجل، من حيث الشخصيّة الاعتبارية، والملكية، والرأي في الزواج، والتصرّف بالملك، والشهادة، وفي الوقت نفسه فقد كلّفها بما كلّف به الرجل من عباداتٍ وواجباتٍ، وكل منهما يُسأل عما أدّاه من أعمال، وما قام به من واجبات، وما قدَّم من أعمال خير، ولا يتحمّل أحدهما عن الآخر شيئاً، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن للمرأة شخصيتها الخاصة بها، واسمها الخاص بها، ولا يمكن تغييره ونسبها إلى أسرة زوجها مهما كان علو شأنها، فخديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، لم يتغيّر اسمها بعد زواجها من أفضل البشر، محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، بل بقي كما كان خديجة بنت خويلد، وبقيت محتفظة بهذا، وكذا كل امرأةٍ مُسلمةٍ يبقى نسبها ولقبها، وإن ما نراه في بعض المناطق اليوم ليس هو إلا تأثّراً بالنصارى وأوربا عامةً، وفيه مخالفة للإسلام، كما فيه هضم لحقوق المرأة.

وللمرأة في الإسلام أن تمتلك ما يحقّ للرجل أن يمتلكه تماماً من أرض، ودور، ومحلاتٍ، ومالٍ على أن يكون من مصدرٍ حلالٍ، وكذلك لها الحقّ في أن تتصرّف فيه كما تشاء دون منعٍ من أحدٍ، أو إجبارٍ من زوجٍ أو قريب، مع العلم أن هناك دولاً كثيرةً تَدّعي الحضارة لا تسمح للمرأة أن تتصرّف بشيءٍ من مالها أو أملاكها دون رأي زوجها. وكذلك فلها الحقّ في مهرها والتصرّف فيه، ولها نصيب من الميراث، وإن كان هذا النصيب هو نصف نصيب الرجل فذلك لأن الرجل مُكلّف بالإنفاق، وهي غير مُكلّفة، وله القوامة، وعليه الحماية وليس عليها شيء من هذا، وهذا ما يجعل لها نصف نصيب الرجل في الميراث، وليس في هذا التفاوت الظاهري اختلاف، وإنما فيه توازن تام، فإن مجموع ما يرثه رجل وامرأته يُعادل تماماً ما يرث أخو هذه المرأة وزوجته. والرجل يدفع المهر، وهي لا تدفع شيئاً، والرجل يُنفق عليها وعلى الأولاد وهي لا

تُنفق شيئاً، بل من واجبه أن يرضع أولاده عند مُرضعات إن رفضت إرضاعهم.

وتُؤدّي الشهادة كالرجل، ولكن نتيجة العاطفة التي تتمتع بها جعل ميلها أكثر إلى ناحية الضعيف أو الوسيم، ويُؤدّي إلى النسيان لذا كانت شهادة الاثنتين تعد شهادةً واحدةً أو شهادة الرجل ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ . . .﴾[1] فهذا إذن ليس طعناً في شهادة المرأة وإنما خوفاً من النسيان الذي يمكن أن يقع نتيجة الفطرة التي فُطرت عليها المرأة.

وتنقص عبادتها عن عبادة الرجل نتيجة طبيعتها التي خلقها الله عليها، إذ تأتيها الدورة الشهرية، ولا يُصيب هذا الرجل، فتترك الصلاة وقتها، وتُعفى منها، فلا تقضيها لأن وقت تكليف الصلاة مستمر منذ البلوغ حتى الوفاة ما لم ينقطع بإضاعته للعقل، ويقضي من يُغمى عليه، أو نسي، أو أجبر على ذلك، ولكن الصوم له وقته المحدّد، وهو شهر رمضان المبارك، فتدع المرأة صومها أيام دورتها ولكن عليها القضاء إذ انتهى شهر الصيام، هذا النقص في العبادة عن الرجل، وشهادة المرأتين بشهادة الرجل، وهذا معنى ناقصات عقل ودين، وهو تقرير واقع لا حطّاً من شأن، روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، في أضحىً أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدّقن فإني أُريتُكُنَّ أكثر أهل النار، فقُلن: وبم يا رسول الله، قال: تُكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قُلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله، قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قُلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تُصم، قُلن: بلى، قال: فذلك من

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

نقصان دينها»[1]. ومع هذا الذي قد يبدو منه شيء يتعذّر فهمه على البعيدين، فإن رسول الله ﷺ، وصّى بالنساء كثيراً، وانتقل عليه الصلاة والسلام وهو يُوصي بهنّ فقال: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ»[2]. وروت عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»[3] أي إذا مات الرجل فاتركوا ذكر مساوئه، وهذا على سبيل المثال، فإن وصايا رسول الله ﷺ كثيرة.

وللمرأة الحقّ في اختيار زوجها، فهو الذي ستعيش معه العمر كله، وتُعطيه قلبها، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها، قال: «أن تسكت»[4]. وإذا زوّج رجل ابنته وهي كارهة فالزواج مردود، وروى الجماعة إلا مسلماً عن خنساء بنت خذام الأنصارية «أن أباها زوّجها ـ وهي ثيب ـ فكرهت ذلك، فأتت رسول الله، فردّ نكاحها» أي أبطله.

وروى أبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس، رضي الله عنهما: «أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوّجها، وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ».

إن الإسلام أعطى المرأة البالغة العاقلة بكراً كانت أم ثيباً كامل الحرية في رفض من لا ترضاه لها زوجاً، ولا حقّ لأبيها أو وليّها أن يُجبرها على من لا تُريده. وحتى لا تقع المرأة في خطإٍ فادحٍ كهذا في اختيارها لنفسها

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، واللفظ للبخاري في باب الحيض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) رواه البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن الأربعة (الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه).

بسبب عاطفتها فقد جمع الإسلام بين جعل الزواج لولي المرأة وحقّها في الموافقة على من ترغب فيه، ورفض من لا تُوافق عليه، فمنع بذلك من استبداد الأولياء ببناتهم وفي الوقت نفسه لهم الحقّ في ردّ من لا يرونه كفئاً لهن.

وما دام للمرأة الحقّ في الموافقة أو الرفض فيمن يتقدّم للزواج منها فلها الحقّ في رؤيته والنظر إليه كما له الحقّ في ذلك، فروى ابن ماجه في باب النكاح أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يخبره أنه خطب فلانة فقال له: هل نظرت إليها؟ فأجاب: لا، فأمره أن يذهب وينظر إليها.

ولما كانت المرأة هي مستقرّ الأجنة فلا يُمكن أن يتناوب عليها عدد يُلقون بالنُّطف في رحمها أو تستقبل عدة رجال فإن ذلك يُؤدي إلى اختلاط الأنساب، وضياع الحقوق، والزواج من المحارم. وكذلك فإن المرأة لا يُمكنها أن تحمل أكثر من مرةٍ في العام، ولذا فلا فائدة من تعدد الأزواج على حين يستطيع الرجل أن يلقّح عدداً من النساء في يومٍ واحدٍ، وبذا تكون الفائدة في تعدد الزوجات فيما إذا رغبنا في زيادة النسلِ، أو التعويض عما نفقده، أو لظروفٍ تُحيط بالأمّة.

وشُرع تعدد الزوجات لأننا بحاجةٍ ماسةٍ إليه، يتزوّج عادةً الشباب فتياتٍ أصغر سناً منهم، وهذا ما ينشأ عنه بعد مدةٍ فتيات ليس لهن أزواج، فلو فرضنا أن الشباب يتزوّجون في السن الخامسة والعشرين فتيات في سنّ العشرين، وهذا ينتج عنه جيل من الفتيات لا أزواج لهنّ بعد مرور أربعة أجيالٍ، أو حسب هذا التقدير بعد ثمانين سنةً، هذا الجيل من الفتيات العوانس لا حلّ لهن إلاّ التعدد، وإلا عمّ الفساد، وانتشر الفحش، وعاش بعضهن في عُقدٍ نفسيةٍ، وانعكس ذلك على المجتمع، وهذا لم يقل أحد به، ولكن يحدث فعلاً، وهو سبب انتشار الفساد، وزيادة الفتيات العوانس صاحبات العُقد النفسية، وهذا يتناسب طرداً مع البلدان التي لا يوجد فيها تعدد، وإن كان يختفي هذا أحياناً تحت ركام المفاسد، واتخاذ الخليلات، وهو ما لا يقبله مسلم. هذا إضافةً إلى الحروب التي يكون وقودها الرجال

عادةً. كما يتعرّض الرجال إلى الحوادث التي تذهب ضحيتها الأعداد بسبب عمل الرجال في خارج البيوت، وفي الأعمال الشاقة التي تحدث فيها النكبات، والحرائق، والدمار، مثل: العمل في الغابات، وفي المناجم، وعلى ظهر السفن، والسكك الحديدية، وفتح الأنفاق، وبناء السدود، ومقالع الأحجار و. . . ومع هذا النقص في الرجال يرتفع معه عدد الفتيات اللواتي لا أزواج لهن، وتزيد المشكلة ولا يحلّها سوى التعدد.

ومن منطلق ضرورة التعدد وموافقة المرأة على الزوج تُحلّ المشكلة الجنسية، بل لا وجود لها بالأساس في المجتمع الإسلامي الذي يقوم على المنهج الإسلامي واقعاً لا ادعاء، وحقيقةً لا كلاماً، وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً على ذلك يجب علينا ألا نفتش في عالمنا اليوم وإنما علينا أن نرجع إلى المجتمع الإسلامي الأول.

إن كثيراً من النساء يرغبن أن يكنّ زوجاتٍ لرجال لهم زوجات، ويرين في ذلك خيراً لهنّ من أن يعشن حياتهنّ كلّها بلا أزواج، ولا يعرفن ما فطر الله فيهنّ من غريزة الجنس، ويُفضّلن أن يعشن في بيتٍ فيه أنس من أن يحيين وحيداتٍ في بيوتٍ ليس فيها إلا الوحشة والقفر، وليس هناك من مساعد في الوقت الذي يكن فيه بحاجةٍ إلى المساعدة وإلى العطف وإلى تأدية بعض الأعمال لهن.

إن كثيراً من النساء يرين أنه من الخير لهنّ أن يعشن مع ضرائر من أن يُحرمن من عاطفة الأمومة. وإذا كان هناك بعض من يخدعن أنفسهنّ فيرفضن هذا الكلام تحت تأثير الفكر النصراني الأوربي فإنهن يُخالفن الطبيعة التي فُطرت عليها إذ يعترفن بالغريزة الجنسية وعاطفة الأمومة وأنهما من طبيعة النفس البشرية التي خلقها الله، وأودع فيها هذا.

والمرأة لا تحتاج إلى المال والمساعدة فقط، وإذا كانت هذه الحاجات مادية أساسية لها للبقاء فإنها بحاجةٍ إلى أشياء معنويةٍ أخرى وهي جوانب نفسية ملحّة لا تستقرّ من دونها النفس ولا تجد الراحة والطمأنينة، وهي الرجل، والعاطفة التي قد يكون الإنسان بحاجةٍ إليها وهو في سنٍّ

كبيرةٍ أكثر من حاجته إليها في مرحلة الشباب، فالحنان والعطف والشعور بالتقدير والحبّ أمر مهم جداً بالنسبة إلى الإنسان في مرحلة الشيخوخة. وما يؤدّيه الزوجان بعضهما لبعض لا يمكن تأديته من آخرين، فالمرأة بحاجةٍ إلى الزوج الذي يواسيها ويحنو عليها في كبرها، وإن تجالدت وصبرت على فقده في سن الصبا مُكرهةً.

وفي المجتمع الإسلامي لم يكن المسلمون يتركون امرأةً تُحرم مما تطلبه فما أن تفقد واحدة زوجها، وتنقضي عدتها حتى يطلبوها، فإن وافقت فذلك ما تبغي، وإن رفضت فحسب هواها، وربما لا ترغب شخصاً بعينه فتقول دون حرجٍ، فيتقدّم آخر... والأمر لها. وبذلك فقد حفظ المسلمون مجتمعهم من الفَساد، ومن انتشار العُقد النفسية، وفي الوقت نفسه كان في ذلك مدد لهم من الشباب استطاعوا به أن يفتحوا مناطق واسعةً، وأن ينشروا فيها عقيدتهم، وأن يرفعوا منها الظلم، ويبنوا حضارتهم، ولولا ذلك لما استطاعوا لقلةٍ في عددهم، وما أكلته الحروب منهم. وتمتّعت المرأة في ذلك المجتمع بكل ما تُريد.

ويمكن أن أضرب بعض النماذج من نساء ذلك المجتمع. توفي أبو سَلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ، في بداية السنة الرابعة بعد أن جُرح في غزوة أحد، واندمل جرحه، وعوفي، ثم انتقض عليه، ومات منه. ونظر رسول الله ﷺ، إلى هذه الأسرة التي خلّفها صاحبه وابن عمته، ولم يكن لها من معيلٍ غير الله، وهي زوجة لم تتجاوز الثامنة والعشرين عاماً، وغلامان هما: سَلمة، وعمر، وابنة واحدة هي زينب، وفي روايةٍ أن هناك ابنةً أُخرى تُدْعى رُقيَّة. ورأى أن يتعهّدها من بعده، ويرعاها بعد موته، وليس أفضل من أن يضمّها إلى أُسرته، فليس أكرم من أن تصبح أُسرته، ولا أكثر احتراماً من مساواتها بمن يُعيل ويُكرم. وكان زواج رسول الله ﷺ، بأمّ سَلمة ورفعها إلى منزلة أمّ المؤمنين، ولنستمع إليها، رضي الله عنها، تتحدّث عن هذا قالت: لما انقضت عدّتي، استأذن عليّ رسول الله ﷺ، وأنا أدبغ إهاباً فسللت يدي منه، وأذنت

لرسول الله، ووضعت له وسادةً من أدم، حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ قلت: يا رسول الله إني امرأة فيّ غيرة شديدة، وأخاف أن ترى مني شيئاً تكرهه يُعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ، ذات عيالٍ، قال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السنّ فقد أصابني مثل ما أصابك، وأما عيالك فهم عيالي. قالت: فقلت: قد سلّمت أمري إلى رسول الله، فتزوّجني[1]. ويكفي أن أُعطي مثلاً آخر، والمجتمع الإسلامي كان على تلك الصورة.

كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، ابنة عمّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد تزوّجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وكانت بينهما مودة شديدة، فلما أُصيب بالطائف، اتفق مع زوجه عاتكة ألاّ تتزوّج بعده لما كان بينهما من حبّ، وقدّم لها المال الوفير تستعين به في حياتها، وتعيل أُسرتها، ولم يكن رأيه بسديد، فلما مات، وانقضت عدّتها، خطبها ابن عمّها عمر، رضي الله عنه، لنفسه، فأخبرته بما اتفقت عليه مع زوجها الأول عبد الله، فأعلمها أن هذا اتفاق غير صحيح، فاقتنعت، ووافقت عليه، وتزوّجها. وطُعن عمر ومات بعد ثلاثة أيّام، وانقضت عدة نسائه، ومن لعيال أمير المؤمنين سوى إخوانه وأصحابه. وطلب الزبير بن العوام، رضي الله عنه، عاتكة فوافقت، وتزوّجها، وهي تعلم أن عنده ثلاث زوجات غيرها، وعاشت معه حياة هنيئةً، وبعد مُدةٍ قُتل الزبير بعد أن قضى معها ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، وبعد انقضاء عدّتها طلبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فامتنعت خوفاً عليه، وقالت: لا رغبةً عنه ولكن خوفاً عليه إذ ظنّت أن مصيره سيكون القتل بعد أن قُتل عنها الرجال الثلاثة الذين تزوّجتهم من قبل، وهو ظنّ خاطئ، ولا يصحّ، وقد قُتل، رضي الله عنه، أيضاً، ولم

---

(١) السمط الثمين.

يتزوّجها. هكذا عاش الرجال في المجتمع الإسلامي الأول يُحقّقون رغباتهم، ويُعيلون أُسر إخوانهم الذين سبقوهم إلى رحمة الله، وعاشت النساء يُحقّقن رغباتهن برضاهن دون تعقيد، ومن غير صعوبةٍ في إعالة أولادهن، وكان المجتمع سليماً ليس فيه شيء من المشكلات التي تعيشها المجتمعات الحالية في كل مكان.

ومع بحث التعدد لا بدّ من أن أُعطي كلمة مختصرةً عن الطلاق. بنى رجل بامرأةٍ ثم تعثّرت استمرارية الحياة بينهما إذ غدت جحيماً لا يُطاق لسوء تصرّفٍ من أحدهما أو كليهما، فما هو الحل؟ لدينا طريقان لا ثالث لهما إما الطلاق وهو ما اختاره الإسلام، وإما المحافظة على الزواج الاسمي بينهما بحيث لا يُشارك أحدهما الآخر عاطفياً أو وجدانياً أو وديّاً بل ولا مُجاملة أبداً، بل يتجه كلاهما نحو هواه بالحرام فيُحقّق رغباته فيعيش الرجل مع خليلته وتغضّ المرأة النظر عما يحدث، وكأنها لا تدري، وتعيش هي في أحضان أصحابها، ويتعامى الرجل حتى كأنه لا يرى شيئاً، ثم يجمعهما البيت في آخر الليل وقد انهك جسميهما سهر الليل مع من أحب، وهو ما اختارته المجتمعات الحديثة، متأثرةً بالنصرانية واليهودية المُزيفتين واللتين لا تُقرّا الطلاق، وما اعتقد امرأةً أو رجلاً يُوافق على الحياة مع مخلوقٍ آخر مكرهاً لا يُحبّه، ولا يستطيع النظر إليه، وكيف يمكن أن يُشاركه وجدانه وغرائزه. ولذا اضطرت بعض الدول النصرانية إلى إباحة الطلاق مخالفةً عقائدها شاهدةً على زيفها وعدم صلاحيتها للحياة.

كانت المرأة في الجاهلية سلعةً تُتخذ وسيلةً لإرواء الغرائز وتحقيق الشهوة البهيمية، وجاء الإسلام فأعطاها حقّها، حتى إذا ضعف أبناؤه، وتحكّم أعداؤه، رغبوا في إعادة المرأة إلى الحضيض، فاتخذوها مُتعةً، وخدعوها برفع مكانتها وإعطائها حريتها باسم الاختلاط، والسفور، والتبرج، ففقدت حريتها، وحُرمت من حاجاتها الفطرية باسم مصالحها والحرص عليها وعدم التعدد، ومحاربة الطلاق، والدعوة إلى المساواة، فرجعت تئنّ من العمل، والإهمال، واعتبارها من سقط المتاع تُلقى إذا

انتهت الحاجة منها، ونال كل رغبته. وإذا زالت نضارة شبابها بدأت تبحث عن عمل مهما كان وضيعاً لتؤمّن لقمتها.

وأخيراً لابدّ مِنْ أنْ أُعطي لمحةً مختصرةً عن طريقة التوسع في استخدام العاملات في البيوت ومن غير حاجة إذ سأعود إليها، إن شاء الله، في موضوع الترف. إن استعمال الخدم في البيوت قد أفقد الأُسرة والعائلة كيانها، وأضاع نشاط الأمة وحيويتها، وجزّأ المجتمع إلى طبقاتٍ. وقد دخل هذا الأُسلوب باسم الرفاهية والترف، أو التباهي والتفاخر بذلك، أو باسم خدمة المرأة وراحتها لكنه في الواقع سبّب لها المتاعب والمشكلات، وأفسد المجتمع، ونغّص الحياة، وهدّم البيوت. إن وجود الخدم في المنزل سواء أكانوا رجالاً أم نساءً يُسبّب خطراً كبيراً على الفتيان والفتيات داخل البيت وأقلّ من ذلك على المرأة والرجل إن كانا على مستوىً معينٍ وإلاّ فالخطر عليهما أكبر، وتكفي الإشارة إلى ذلك، إضافةً إلى ما يحمل هؤلاء الخدم في نفوسهم من لهب الثورة الشهوانية، وخاصةً إن كانوا في سنٍ معينةٍ وهو الغالب، ويتولّد الحقد، وهذا ما يُؤدّي - إن زاد أعداد الخدم - إلى حركاتٍ تعصف ريحها بالأُمة كثورة الزنج التي لم تكن إلاّ من هذا القبيل، وحركة القرامطة التي دعت إلى شيوعية المال والنساء لهذه الأسباب، وتبدأ عادةً بتعدّياتٍ فرديةٍ على أصحاب البيوت وخاصةً على النساء وسرقة الأموال وهي دليل إنذارٍ بالخطر الذي لا يلبث أن تشتعل ناره إن لم يُتدارك أمره.

ومن جانبٍ آخر فإننا نفقد عمل جزءٍ من المجتمع، وهو النساء اللواتي لا عمل لهن، فإذا أوكلت المرأة مهمتها من تربيةٍ وأعمال المنزل للخادمة فماذا تصنع هي؟ وبذا ندع جزءاً من المجتمع عاطلاً عن العمل. ولكن إذا قامت بعملها فإنما تكون قد أدّت نصف الأعمال المنوطة بالإنسان، عمل داخل البيت تقوم به المرأة، وعمل خارجه يقوم به الرجل، لا كما يدّعي أعداء المجتمع أن العمل داخل البيت عطالة، والتربية بطالة.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنا نطمح أن يكون للنساء كلهنّ أزواج، وأن يكنّ

صاحبات بيوت، وذوات عيال، ولهن كرامتهن، ولا توجد طبقات في المجتمع، أما خصوم الإنسانية فيرغبون أن يكون نصف النساء خادمات ممتهنات، وتعيش الباقيات على عملهن، وهم يستمتعون بهذا النصف.

وإذا دخلت الأمة بمرحلة الترف فقد آذنت بالانصرام، وسيطرت غيرها عليها، وآلت حضارتها بالزوال وقيام غيرها مكانها.

[٦] الأخُــوّة

فهم صحابة رسول الله ﷺ الأخوة بمعناها الصحيح وهي أنها أخوة العقيدة، وقد طبّقوها فعاشوا حياةً سعيدة ملئها الحبّ والطمأنينة، ويُظلّلها الأمن والرخاء، ويشعّ منها الوئام والهدوء النفسي.

وليس الأخ بمعنى الشقيق أي أخاً في الدم والنسب، إذ كثيراً ما يختلف الشقيق عن شقيقه في طباعه، وسلوكه، وتقويمه للأمور، ونظرته للحياة فيعيش كل في طريقه الذي يراه أو دربه الذي يرتضيه بعيداً عن شقيقه، وربما قاتل أحدهما الآخر أو كان كل منهما في صف جماعة محاربة للأخرى. أمّا الأخوة الصحيحة فهي الاتفاق شبه التام في السلوك، والطباع، والنظرة إلى الحياة و.... ولهذا قالت العرب قديماً: «ربّ أخ لك لم تلده أمّك»، ويقصدون بالأخ هنا الذي يُحبّك محبّةً تامةً ويتفق معكَ في كثيرٍ من جوانب الحياة وطريقتها.

ولما كانت العقيدة تُهذّب طباع المرء، وتحكم سلوكه، وتُوضّح له مهمته في الحياة، وتُبّين له المجال الذي يجب أن يسير فيه، والخط الذي ينهجه لذا كان أبناء العقيدة الواحدة إخوةً بحقٍّ، فهم أكثر تفاهماً بعضهم مع بعض من أشقائهم وأقربائهم، وأكثر صدقاً، وأكثر محبةً، وأكثر رعايةً وحَدباً بعضهم على بعض، ولِم لا وهم بسلوكٍ واحدٍ، ونظرةٍ واحدةٍ، ويرون المُهمّة المُلقاة على عاتقهم واحدةً، فهم أبناء عقيدةٍ واحدةٍ، والعقيدة منهج حياة.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[١]. وجاء قول رسول الله ﷺ: «لا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[١]. فالمسلم الصادق لا يريد لنفسه شيئاً إلاّ ويُحبّه لأخيه، ومن ذلك نشأ المجتمع المسلم المتراصّ بعضه إلى بعض، إن خرج أبناؤه إلى الجهاد لم يحدث فيه خلل، وإن حلّت به مجاعة أو أصابته نائبة لم يتأثّر داخله لما فيه من تعاونٍ بين أفراده ولبناته، ولما يتمّ من مساعدةٍ بين أسره وعائلاته، بل وبين المسؤولين والرعية، وذلك على غير ما يحدث في المجتمعات غير الإسلامية اليوم التي تتفشّى فيها الفاحشة بسبب الحاجة إن حلّ جدب، ويكثُر فيها السوء نتيجة المجاعة إن ساد قحط، ويستبدّ الغني بالفقير، ويستعبد القوي الضعيف إن نزلت نازلة، بل يعيش المسؤول في رفاهٍ ونعيم، وتُبطره النعمة على حين تكون الرعية في حالةٍ بئيسةٍ، وحتى تتحلل أواصر الصلات التي تقوم عليها هذه المجتمعات من نسبٍ، أو طبقةٍ، أو مصلحةٍ، أو حزبيةٍ أو أيّة رابطةٍ من هذه الروابط المعروفة اليوم، والتي تُتخذ عنواناً للتفاهم أو الاتحاد، ويعيش كل امرئٍ لنفسه يُصارع ما يعاني.

وتزيد رابطة النسب في الإسلام رابطة أخوة العقيدة متانةً وحبكاً: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾[٢]. ولا شيء سوى رابطة النسب تزيد في أخوة العقيدة. أمّا إذا اتفقت صلة الرحم واختلفت العقيدة فلا وزن للقرابة أبداً، وإنّما يعيش الذين لا يدينون بالإسلام خارج نطاق دائرة العقيدة بعيدين عن أقربائهم المسلمين، إمّا خارج حدود دار الإسلام نهائياً إن كانوا على الشرك أو في داخلها إن كانوا من أهل الكتاب، ولكن في دائرة تمسّ دائرة العقيدة من غير أن تتداخل فيها.

ولننظر إلى بعض أحداث التاريخ حيث يأتي التطبيق العملي للأخوة التي جاء بها الإسلام، وكما فهمها أصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، إلى المدينة آخى بين المسلمين، المسلمين جميعاً ليكونوا كتلةً واحدةً، ولم يُؤاخ بين المهاجرين والأنصار في سبيل المساعدة المادية كما يتصوّر بعضهم، وإنما كانت المساعدة المادية نتيجة المؤاخاة. لقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين ابن عمّه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر، وآخى بين عمه الحمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وآخى بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود الهذلي وكلاهما مهاجر، وآخى بين بلال بن رباح وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وآخى بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وجعفر غائب في الحبشة هذا إضافة إلى رواية المؤاخاة بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت مؤاخاة بين أنصاري وآخر، فلو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجرٍ وبين عددٍ من الأنصار كي يمكنهم مساعدة المهاجر بشكلٍ أفضل، وخاصةً أن الأنصار أكثر عدداً، ويُشكّلون ثلاثة أمثال المهاجرين، أو لآخى بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين حيث يوجد بين الأنصار فقراء، كما يوجد بين المهاجرين أغنياء أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان و.... غير أن إيثار الأنصار، رضوان الله عليهم، وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى الجانب الاقتصادي فقط، ويُركّزون عليه، وهذا ما جعل المستشرقين يعتمدون على هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين، وقد نردد نحن هذا دون علم ومن غير دراسة.

وعلى كلٍّ فإنّ المؤاخاة التي شملت المهاجرين والأنصار قد قوّت من أخوة العقيدة وأضعفت ما بقي من رواسب رابطة القرابة والجنس، فالمهاجرون الذين بعضهم أقرباء بعض قد غدا إخوانهم من الأنصار، والأنصار أصبح إخوانهم من المهاجرين، وبذا أضحت أخوة العقيدة هي الوحيدة، ويمكن ملاحظة وصية حمزة بن عبد المطلب التي كتبها قبل غزوة أحد لأخيه في العقيدة زيد بن حارثة. وتسجيل بلال بن رباح لحقه في الغنائم لأخيه في العقيدة عبد الله بن عبد الرحمٰن الخثعمي، إذ لم يكن

لبلال عقب، وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين.

ومن إيثار الأنصار ونتائج الأخوة في العقيدة قال عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه: «آخى رسول الله ﷺ، بيني وبين سعد بن الربيع، فقال لي سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقاسمك مالي شطرين، ولي امرأتين، فانظر أيتهما شئت، حتى أنزل لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها[١]، فقلت: لا حاجة لي في ذلك، دلّوني على السوق، فدلّوني على سوق بني قينقاع، فما رحت حتى استفضلت إقطاً وسمناً»[٢].

هذه الأخوة بدأت نظريةً ثم غدت عمليةً طُبّقت فيما ذكرنا على الجانب المادي، ولكن النفس البشرية قد تكون أغلى بكثير من المادة عند بعضهم، فلننظر التطبيق عندما يبدأ القتال، وكيف يجود الإنسان المسلم بنفسه لينقذ أخاه في العقيدة، وكيف يُضحّي بأبيه وأخيه وأقربائه جميعاً ليحمي عقيدته، ويُدافع عنها، وكيف يقف بجانب إخوانه في العقيدة ضدّ أهله وعشيرته ما داموا يُخالفونه في العقيدة.

وكانت معركة بدرٍ الكبرى أولى هذه المعارك التي دارت بين المسلمين من مهاجرين وأنصار وبين قريش التي يضمّ جيشها أقرباء المهاجرين من آباء، وأبناء، وأبناء عمٍّ، وعشيرة، وما إلى ذلك من أواصر الدم، والنسب، والقربى، وعصبية الجنس، والمولد، والمصلحة، والسكن، وكل ما في الدنيا من روابط باستثناء رابطة العقيدة.

دعا عتبة بن ربيعة من المشركين يوم بدر إلى المبارزة فقام إليه من بين المسلمين ابنه أبو حذيفة، رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: اجلس. فلما قُتل عتبة بن ربيعة كان أبو حذيفة بن عتبة قد أعان على أبيه

---

(١) قال سعد هذا لعبد الرحمن، رضي الله عنهما، بعد حديثه مع زوجتيه وموافقتهما على ذلك، وأن نساء الأنصار كانت كرجالهن أهل إيثار، ويحبون من هاجر إليهن، ويؤثرونهن على أنفسهن ولو كان بهن خصاصة.

(٢) أخرجه البخاري.

بضربة. فقالت أخته هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب:

الأحول الأثعل المشؤوم طائره أبو حذيفة شرّ الناس في الدين
أما شكرت أباً رباك من صغرٍ حتى شببت شباباً غير محجون؟

وقد قُتل في أول مبارزة عتبة بن ربيعة (والد أبي حذيفة)، وشيبة بن ربيعة (عمّه)، والوليد بن عتبة (أخوه). فلما أُلقي عتبة والد أبي حذيفة في القليب تغيّر وجه أبي حذيفة، فقال له رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء». فقال أبو حذيفة: لا والله، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ، بخير، وقال له خيراً.

ونادى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ابنه عبد الرحمن، وهو يومئذٍ مع المشركين، فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق غير شكّةٍ[1] ويعبوب[2] وصارم يقتل ضلّال الشّيب

ودعا عبد الرحمٰن أباه إلى المبارزة، فقام إليه أبو بكر ليُبارزه، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما علمت أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري».

وقصد والد أبي عبيدة ابنه أبا عبيدة ليقتله فولّى عنه أبو عبيدة لينكفّ عنه فلم ينكفّ عنه، فرجع عليه وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

---

(١) الشكة: السلاح.

(٢) اليعبوب: الفرس الكثير الجري.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

هذه رابطة الأبوة، والبنوة، والعمومة وهي أعظم روابط الدم والنسب، وقد انهارت وتحطّمت أمام أخوة العقيدة التي لا توازيها وشيجة أخرى في الدنيا مهما كانت صفتها. وذلك لأنها ناتجة عن معتقدٍ في القلب بينما تقوم الوشائج الأخرى على العاطفة أو المصلحة أو الهوى أو العصبية أو....

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لسعيد بن العاص، رضي الله عنه، وقد مرّ به: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظنّ أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه[1] فحدث عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله. فقال له سعيد: «لو قتلته لكان على الباطل وأنت على الحقّ.

وكان بين أسرى قريش يوم بدر أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير، رضي الله عنه، لأمه وأبيه، وكان الذي أسر أبا عزيز رجل من الأنصار يدعى أبا اليسر، وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدرٍ بعد النضر بن الحارث، ومرّ مصعب بن عمير بأخيه الأسير فقال للذي يأسره: شدّ يديك به فإن أمّه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لشقيقه مصعب: يا أخي، هذه وصايتك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر فمنهم من أشار بالفداء كأبي بكر، رضي الله عنه، إذ قال: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. ومنهم من أشار بالقتل مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، فمما قاله عمر، رضي الله عنه: والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكني أرى أن تُمكّني من فلان ـ قريب

---

(١) الروق: القرن.

لعمر - فأضرب عنقه، وتُمكّن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتُمكّن الحمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

ونلاحظ في هذه الوقائع إصراراً على ترك العواطف، وتخلّياً واضحاً عن العصبيات، وتحدّياً سافراً لكل مُقوّمات المجتمع الجاهلي التي تقوم على التعصّب للقبيلة، والدفاع عنها بكل الإمكانات، والفخر بالانتساب إليها، ثم الذود عن الأسرة سواء أكان بالحقّ أم بالباطل، والموت في سبيل رفعتها وسمعة العشيرة. ثم نلاحظ التأكيد على الأخوة في العقيدة، والعمل على حماية الإسلام، والجهاد في سبيل الله لنشر الدين وكل هذه أفكار جديدة طرحها الإسلام، وأصبحت مبادئ لأبنائه الذين تركوا المبادئ الجاهلية وتخلّوا عنها، واعتقدوا أن مبادئهم الجديدة ستبقى سبب نجاحهم وانتصاراتهم، فإذا تراخت نفوسهم عن حملها ضعف كيانهم، وانحطّ مجدهم، وبدأت تزول دولتهم وفي الوقت نفسه تعود الأفكار الجاهلية للظهور والانتشار. وبمقدار ما تتوسّع أفكار أحد الجانبين تضمر أفكار الجانب الآخر.

وفي سنة ست كانت غزوة بني المصطلق على ماءٍ لهم يُسمّى: «المريسيع» فبينما رسول الله ﷺ، على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أجير له من بني غفار يُدعى: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، منهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال عبد الله بن أُبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدُّنا وجلابيب[1] قريش إلاّ كما قال الأذلّ: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن

(١) الجلابيب: اسم كان يلقب المنافقون به المهاجرين.

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع زيد بن أرقم ما قاله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول وشعر بأخوة الإسلام، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، وأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال عمر لرسول الله ﷺ، مر به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذّن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يترحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به. وكان ابن أُبيّ في قومه شريفاً عظيماً. فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار لقيه أُسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فحيّاه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟». قال أسيد: وأي صاحب يا رسول الله؟. قال رسول الله ﷺ: «عبد الله بن أُبيّ». قال أُسيد: وما قال؟. قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ؟». فقال أُسيد: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنّه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وبلغ الخبر عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان شاباً مؤمناً، عرف حقيقة الإسلام، وفهم الأخوة الحقّة في هؤلاء القوم الذين يسير معهم، ويخالفهم في ذلك والده عبد الله بن أُبيّ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا

رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده منّي، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

ولما قفل الناس راجعين إلى المدينة أسرع عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ووقف على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاءه أبوه عبد الله بن أُبيّ قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال الابن: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان يسير ساقة (في مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة). فشكا إليه عبد الله بن أُبيّ ابنه. فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ. فقال الابن: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ، فجز الآن. وهكذا فقد استعلى عبد الله بإيمانه على كل آصرةٍ عرفتها البشرية فكانت أقربها إليه تحت قدميه وهي آصرة الأبوة التي تُعدّ أهم رابطة عند كل بني البشر.

وللنساء دور لا يختلف عن دور الرجال في هذا المجال، فقد خرج أبو سفيان من مكّة قاصداً المدينة ليُؤكّد صلح الحديبية أو ليزيد في مدته، خوفاً من أن يقوم المسلمون بردّ فعلٍ بعد أن اعتدت بنو بكر حليفة قريش وبدعم منها وتشجيع على خزاعة حليفة المسلمين، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه؛ فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنّي؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ.

وتمرّ النفس البشرية بمراحل من الضعف فيختلف المسلم مع أخيه، وتصطدم الجماعة المؤمنة مع الثانية، ولكن لا يلبث المؤمن أن يثوب إلى رشده عندما يُذكّر، وترجع الطائفة عن غيّها إذا ما نبّهت، وتقاتل إذا ما تمادت حتى تعود ولا يمكن أن ننزع صفة الإيمان عن هذا أو تلك.

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال عليه الصلاة والسلام: «تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

قال أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه: إني ساببت رجلًا فعيّرته بأمر فقال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم»(٢).

وأراد اليهود أن يحطّموا المؤاخاة التي تمّت بين المسلمين بإثارة العصبية وإيقاع الفتنة فمرّ أحدهم وهو شاس بن قيس على جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أزال الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساء هذا الودّ اليهود، فدعا شاس بن قيس أحد شباب اليهود وطلب منه أن يجلس مع هؤلاء النفر من الأنصار، ويذكر أمامهم يوم «بُعاث» وما قبله من أيام اختلف فيها الأوس والخزرج، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرّة، على حين غفلةٍ من أخوة العقيدة التي غرسها الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً، وقال: «يا معشر الأنصار، الله... الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

(٢) رواه البخاري.

به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم». فما أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى ثابوا إلى رشدهم، وانقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية.

وقد يتطوّر الخلاف ويستحكم، وتثور الفتنة، ويقع القتال، وعندها يقع أمر تحسمه أخوة العقيدة. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾[1]، إذ يُستباح قتال البغاة من المسلمين ليُردّوا إلى صفّ إخوان العقيدة، ولكن لا يُجهز على جريح، ولا يُقتل أسير، ولا يُتعقَّب مدبر ترك المعركة وألقى السلاح، كما لا تُؤخذ أموال البغاة غنيمة، ولا تُسبى الذراري لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما ردّهم إلى الصف، وضمّهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

هذا ما فهمه المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله ﷺ، والتابعين، والسلف الصالح جميعهم من معنى الأخوة في العقيدة فطبّقوها، وتمكّنوا بعد ذلك من تكوين المجتمع المتراص البنيان الذي يستطيع أن يؤدّي مُهمّته في الحياة، وقد قدّموا ـ رضوان الله عليهم ـ الدور العظيم في إعمار الأرض، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

[٧] أهل الذمّة

يضمّ المجتمع الإسلامي أهل الذمّة ومن يلحق بهم إضافةً إلى المسلمين، ولا يوجد فيه أصحاب ديانات غير ذلك. إذ لا يسمح بإقامة عبدة الأوثان، والمشركين وما سواهم من عبدة البشر كالذين يؤلهون علي بن أبي طالب، أو عدي بن مسافر، أو الحاكم بأمر الله أو آغا خان أو. . . . بين أظهر المسلمين، وما عليهم إلا اختيار إحدى الطرق الآتية وهي: الرحيل، أو اختيار إحدى ديانات أهل الكتاب وما يتبعهم من المجوس، أو الإسلام، أو السيف. وعلى هذا فالمجتمع الإسلامي خالٍ من تعدد أصحاب العقائد والديانات المتباينة.

ولا يُشكّل أهل الذمّة في المجتمع الإسلامي طبقةً خاصةً ـ كما يحلو لبعضهم أن يكتبوا ـ لأنه لا يوجد في الإسلام طبقات، كما أنهم ليسوا فئةً أو مجموعةً خاصةً، بل هم جزء من المجتمع، وقد وصّى بهم رسول الله ﷺ، قال جويرية بن قدامة التميمي: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قلنا: أوصنا يا أمير المؤمنين، قال: «أوصيكم بذمّة الله فإنه ذمّة نبيكم ورزق عيالكم»[1]. وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنّة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[2]. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه الخطيب.

إن أهل الكتاب مُجرّد أن وافقوا على دفع الجزية وأدّوها أصبحوا في حماية المسلمين، وإن عجز المسلمون عن الدفاع عنهم أعادوا إليهم الجزية، كما ردّها أبو عبيدة، رضي الله عنه، لأهل حمص عندما لم يستطع حماية أهلها، وهم من أهل الكتاب، غير أن أهل حمص رأوا في هذا عدلاً لم يروا مثله، ولم يسمعوا به إلا من المسلمين، لذلك أبوا أخذ ما أُعيد لهم، وقالوا لعدلكم أحبّ إلينا من هرقل وجيشه وإن كنّا على دينهم، وإنّا لندفع عن المدينة جند هرقل مع ما تتركوه لنا من قوةٍ وأميرٍ. فالجزية التي تُؤخذ من أهل الكتاب من أجل حمايتهم[1] - والله أعلم -.

إن أهل الكتاب مُجرَّد أن وافقوا على الجزية أصبح بينهم وبين المسلمين عهد، والعهد هو الذمّة، ويقضي أن يحمي المسلمون أهل الكتاب مقابل الاعتراف بالخضوع لقوة المسلمين وسلطانهم، وعدم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وعدم خيانة المسلمين بالاتصال مع أعدائهم، أو إخفائهم، أو إرشادهم على عورات المسلمين، أو القتال مع أعداء المسلمين. وعدم إيذاء المسلمين ببيع المحرّمات أو نقلها كالخنزير، والخمر و. . . وعدم شتم النبي أو سبّه، وفي الوقت نفسه لا يبنون كنائس جديدة، ولا يرفعون صلبانهم، ولا يُشاغبون على المسلمين برفع أصواتهم عليهم من الكنائس أو غيرها، وما عدا ذلك فهم جزء من المجتمع من حيث المعاملة لا ينالهم أذى، ولا يقع عليهم ضرر، ولا تصيبهم إهانة، ولا يمنعون من عمل باستثناء الولاية العامة. وليس في هذا الذي ذكرنا عن ضرورة القيام به أيّ هضم لحقٍّ من حقوق أهل الكتاب.

إنهم يدفعون الجزية لقاء حمايتهم، ويُؤدّي المسلمون مقابل ذلك الجهاد، ويُعرّضون أنفسهم للقتل، على حين لا يقوم أهل الكتاب بشيءٍ من هذا بل ليسوا مسؤولين عن الدفاع والحماية ما داموا يعيشون في منعة

---

(١) هناك خلاف بين الفقهاء، هل الجزية ضريبة عادية، أو ضريبة قهرٍ وإذلالٍ، أم للحماية والدفاع عنهم، أم لعدم مشاركتهم في القتال، أو أجرة سكن. . . وقد نزلت آية الجزية في العام التاسع لذلك لا نستطيع أن نستشهد بالأحداث التي سبقت ذلك العام.

المسلمين، والمسلمون أهل البلاد، وهم المسؤولون عن الذود عن ديارهم، وإذا كان للمسلمين أجر في الشهادة التي يحصلون عليها إن قُتلوا، وثواب عظيم في قتالهم ضد أعدائهم، غير أن أهل الكتاب لا يُؤمنون بهذا، وحتى لو أدّوا ذلك لما حصلوا على الأجر لأن الثواب على الإيمان لا على القتال المجرّد. وكم من رجالٍ قاتلوا حميةً أو شجاعةً، أو دفاعاً، أو سمعةً فما كان لهم شيء من الأجر، بل كانوا من أصحاب النار.

إنهم يدفعون الجزية مقابل عدم قتالهم، وإن أكثر الناس في هذه الأيّام الذي ضعف فيها الإيمان، وبطل الجهاد، وأصبح قتالاً لمصالح الحكّام وتنفيذ آرائهم ليتمنون دفع مبالغ من المال في سبيل أن يُعفوا من الجندية في البلدان التي تُطبّق نظام الجندية الإلزامي، فما دام الأجر مفقوداً فشأن القتال عند المسلمين وأهل الكتاب واحد، فالبدل المالي أولى وأحبّ إلى النفس، وهو يتم أصلاً عند أهل الكتاب، فهو كما يرغبون وكما تتطلبه مصالحهم.

إنهم يدفعون الجزية، ويدفع المسلمون الزكاة، ويدفعون الصدقات، وليس على أهل الكتاب شيء من هذا الدفع، لأن الزكاة والصدقة ترتبط بالإسلام، ولا يعتنق أهل الكتاب الإسلام كي يدفعوا هذا، فلو أسلموا لوجبت عليهم، وليس من المعقول أبداً أن يدفع المسلمون الزكاة، والصدقة، ويقاتلون الأعداء وجزء من المجتمع الذين يعيشون فيه لا يُؤدي شيئاً، ومن هنا فرضت عليهم الجزية أيضاً.

إن أهل الكتاب الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي من الأصل لا يحبّون إن كانوا صادقين في ولائهم للمجتمع الذي يحيون داخله أن يقاتلوا الأعداء مع المسلمين، لأن الأعداء الذين يُقاتلون إنما هم غالباً من النصارى أو اليهود، والنصارى واليهود بعضهم أولياء بعض، واليهود والنصارى وإخوانهم الذين يسكنون في وسطٍ إسلاميٍّ أبناء عقيدة واحدةٍ، فاحتراماً للعقيدة التي تربط بعضهم مع بعض لا يريدون قتالهم بل يصعب عليهم حربهم، وإخلاصاً للمسلمين الذين يحمونهم، ويسكنون معهم فلا يخونونهم، ولا يُقاتلون بجانب خصومهم.

هذا بالنسبة إلى دفع أهل الكتاب للجزية وعدم قتالهم مع المسلمين،

ويبدو لي أنه طبيعي جداً، وليس فيه أية إهانةٍ لهم بل من متطلباتهم ومصلحتهم. ولكن عندما يُحرم المرء شيئاً يبدأ بالمطالبة ولو كان فيه ضرر له، ويتكلّم الأعداء في هذا الموضوع ويُثيرون حوله الشكوك. ولو طلب منهم القتال لطالبوا بإعفائهم واتخذوا الأعذار، وذكروا عدم إمكاناتهم في قتال أبناء عقيدتهم. وإذا فُرض على الإنسان شيء لاحتجّ على ذلك ورأى فيه الإهانة، ولو رُفع عنه، وسُوّي مع الآخرين لطالب ببقائه. ولذا كانت الجزية ضريبةً على قهرهم وإذلالاً لهم ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١]، حتى لا تكون مطالبات واحتجاجات ولكن هذا لا يمكن أيضاً أن يُبعد الأعداء عن النقد، فلا بدّ لألسنتهم من أن تفتري الكذب، ولا بدّ لأقلامهم من أن تُشوّه الحقائق ـ إن استطاعت ـ، وتُحاول خديعة الناس.

أما عدم وقوفهم في وجه الدعوة الإسلامية فأمر طبيعي ما دام المسلمون هم الحكّام، ونظامهم هو النافذ، وفي الوقت نفسه فهم المسؤولون عن الأمن. والدعوة الإسلامية لا تضرّ بأهل الكتاب، ولا تمسّ عقائدهم لأن المسلمين يُؤمنون أن موسى وعيسى أنبياء من عند الله، أرسلهما الله لقومهما بني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، ومن يؤمن بنبيٍّ فلا يمكن أن يتكلم عنه بسوء، وإن فعل خالف عقيدته، وعليه إثم عظيم، ولا يُمكنه أن يتهجّم على كتابٍ يعتقد أنه من عند الله، وإن فعل ذلك، فعليه إثم، ويُشكّ في عقيدته. مع الاعتراف بأن بني إسرائيل قد حرّفوا ما أُنزل عليهم في التوراة والإنجيل.

وأما عدم خيانة المسلمين فهم والمسلمون سواء، فمن خان الدولة التي يعيش في ظل نظامها، أو اتصل بأعدائها، أو أخفى أحدهم، أو دلّ الخصوم على عورات المسلمين، أو قاتل مع الأعداء، فإنه خائن سواء أكان

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

مسلماً أم نصرانياً أم يهودياً أم مجوسياً ويُحاكم ويُقام عليه الحدّ على درجةٍ واحدةٍ، إذن لا توجد أية ميزةٍ لصاحب عقيدةٍ معينةٍ على ذي دينٍ معينٍ.

وأما عدم إيذاء المسلمين فهو من باب عدم إيذاء الجار، وعدم إدخال عليه ما يكره فكيف إذا كان شيئاً يمسّ العقيدة كالخنزير، والخمر! فإنه أمر صعب، وحتى لا يظلم المسلمون أهل الكتاب فيحرّمون عليهم ما هم بمُحرّميه يُفضّل أن يسكن أهل الكتاب في أحياء خاصة، ويُمكنهم عند ذلك في أحيائهم أن يتعاطوا الخمرة أو لحم الخنزير من دون أن ينقلوه إلى الأحياء الإسلامية وأن يبيعوه فيها، أو يجاهرون بذلك.

وأما عدم شتم رسول الله ﷺ، فمن باب عدم إيذاء الجار، واحترام العقيدة، والمعاملة بالمثل، ولما كان المسلم لا يُمكنه بصورةٍ من الصور أن يسبّ موسى أو عيسى، عليهما السلام، ما دام يعتقد أنهما نبيان من عند الله، والإسلام لا يفرّق بين أحدٍ من رسل الله، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾[1]، وكذا فعلى أهل الكتاب ألا يفعلوا شيئاً فيه إهانة أو تحقير لرسول الله ﷺ.

أما الكنائس، والبيع، والصوامع... فتبقى كما هي قبل أن يُصالح أهلها، ويخضعوا لحكم المسلمين، ويقبلوا دفع الجزية. فإن دخل المسلمون البلد عنوةً تصرّفوا بأماكن عبادة أهل الكتاب حسبما يرى الإمام، وإن دخلوا سلماً فتبقى على ما هي عليه، ولا يُضاف لها جديد لأنه بدأ تطبيق النظام الإسلامي، وما دامت السيادة للمسلمين فلا يحقّ لأهل الكتاب بالتعالي عليهم برفع الصلبان مثلاً على الكنائس وهو يدل على النظام القائم، وكذلك رفع أصوات النواقيس فهي إضافة إلى دلالتها على النظام ففيها أيضاً شيء من التحدي والإساءة للمسلمين، وهذا لا يقبله نظام، ويأباه حسن الجوار، وتمنعه السيادة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وما استقام أهل الكتاب على عهدهم عاشوا في أمنٍ وطمأنينة وراحةٍ وهدوءٍ واستقام المسلمون على حمايتهم، وإذا نقض أهل الكتاب عهدهم بإخلال أي شرطٍ من شروطه عُدّوا محاربين، ويمكن للمسلمين طردهم أو قتلهم، وربما عفا المسلمون عنهم، ولا شك فإن نقض العهد الفردي يُؤدّي إلى عقوبةٍ فرديةٍ خاصةٍ بالمخالف الذي ينقض العهد، والمخالفة الجماعية تُؤدّي إلى عقوبة الجميع دون استثناء، وهذا أمر طبيعي، وحكم عادل.

والجزية التي تُفرض على أهل الكتاب تُفرض على القادرين على القتال إذ لا تُضرب على الأولاد قبل البلوغ، ولا على النساء، ولا على الرهبان المُتفرّغين للعبادة، ويرى بعض الفقهاء أن يُعفى منها الفلاحون المرتبطون بأرضهم والذين لا يشاركون في القتال.

وليست الجزية متساويةً على الرؤوس، وإنما تختلف بين الفقير والغني والمتوسط الحال. وإذا ما عجز رجل من أهل الكتاب عن الدفع لشيخوخةٍ أو مرضٍ أو. . . فإنه يُعفى منها بل على الدولة أن تُعينه مادياً. ومعروف أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رأى سائلاً من يهود، فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ فقال: الجزية، والحاجة، والسن، فأعطاه، ثم ذهب به إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شيبته، ثم خذلناه عند الكبر.

وخوفاً من أن يؤخذ أحد أهل الكتاب مباشرةً ظنًّا من المسؤولين أو الناس أنه مسلم، ويُعاقب لارتكابه بعض الأعمال المخالفة للإسلام لذا من الأفضل أن يكون لباس أهل الكتاب خاص بهم، ويجب ألاّ يتشبهوا بالمسلمين.

ويُثير الأعداء أهل الكتاب لرفض النظام الإسلامي ما دام هو نظام مجموعةٍ أخرى يعيشون معها، تختلف معهم في العقيدة، وتُحاول تطبيق نظامها، وهو ينبع من عقيدتها التي لا يُؤمن بها أهل الكتاب سواء أكانوا نصارى أم يهوداً. وإذا كان أهل الكتاب لا يُؤمنون بالإسلام، ولا يأخذون منهجه عقيدةً، ولكن ماذا يُضيرهم لو اتخذوه نظاماً دون الإيمان به عقيدةً ما

دام يُحقّق لهم كل ما يرغبون، وقد عاشوا في ظلّه دهراً طويلاً شعروا بالراحة والطمأنينة، وأحسّوا بالأمن والاستقرار، وما شعروا هذا الشعور في ظلّ أيّ نظام آخر. إن إخوانهم يُقيمون في بقاعٍ كثيرةٍ من الأرض وفي ظلّ أنظمةٍ وضعيّةٍ ينتقدونها باستمرار ويأخذون عليها في أنها لا تُقدّم لهم ما يطلبون، وتتبدّل على الدوام وإذا حقّق لهم قانون ناحيةً أفقدهم عدداً آخر يرغبون فيه. أمّا النظام الإسلامي فيُؤمّن لهم الذي يُريدون ودون انتقادٍ، وثابت لا يتبدّل، فما يمنعهم من قبوله نظاماً ولو كان المسلمون يعدّونه عقيدةً، ويحرصون على تطبيقه من هذا الجانب؟.

والمشكلة التاريخية هي المهمة في هذا الميدان، أهل الكتاب نعموا في ظلّ الحكم الإسلامي بكل ما يتمنّون وكان المسلمون أقوياء، وعندما ينقض أهل الكتاب العهد يجدون العفو، وعوضاً من أن يُقلعوا عن عادة النقض بعد حسن المعاملة والمقابلة بالعفو كانوا يزدادون إصراراً على النقض، ويعدّون ذلك قوةً واحتراماً لدينهم، وكلما وجدوا في المسلمين ضعفاً ظاهروا عليهم أعداءهم، وأبدوا تمرّداً، فقد كان لهم دور مع الصليبيين في الحروب الصليبية، ومثله مع المغول، واستمرت صلتهم مع الدول النصرانية مع ضعف المسلمين حتى كانت الحروب الصليبية الاقتصادية (الاستعمار) فكانوا أعواناً للأعداء، وعيوناً لهم، ولا يزالون كذلك.

ولما كان هذا كله نقض للعهد، فقد أصبحوا محاربين، ولم يعد بيننا وبينهم عهد ولا ذمّة، ويُمكن للمسلمين إخراجهم أو قتلهم، غير أن ضعف المسلمين جعلهم لا يستطيعون هذا، كما أن المسلمين قد ساروا في طريق غير إسلامية، فاتخذوا العصبية (القومية) مبدأ لهم، أو الاشتراكية، أو الرأسمالية، وغدوا مع الأسف في منأىً عن دينهم. ولو طبّقنا الإسلام، واستمرّ اليهود والنصارى على فعلهم هذا فما عليهم إلا الرحيل أو السيف.

كما كان المجتمع الإسلامي الأول يضمّ الأرقاء والسبايا، ولكن هذا لا يوجد اليوم، لذا لا أرى ما يدعو لبحثه.

[٨] اللغة

لا بدّ لكلّ أُمَّةٍ من لُغةٍ يتفاهم بها أفرادها بعضهم مع بعض، ويُؤدّون شعائر عبادتهم بها، وينقل سلفهم إلى خلفهم ما خطّوه من فكرٍ، وما صاغوه من بيانٍ، وما حقّقوا من نصرٍ. وإذا كانت الأُمّة كبيرةً فقد يتكلّم أبناؤها أكثر من لُغةٍ وذلك حسب الشعوب التي تتألّف منها، فالأُمّة ـ كما مرّ ـ مجموعة من الناس تعتقد عقيدةً واحدةً على مدى التاريخ ـ فقد تعتقد مجموعة من الشعوب عقيدةً معينةً، لانسجامها مع الفطرة كالإسلام، أو نتيجة توسّعٍ بالغزو والقتال، أو بالتجارة كالبراهمية، أو تحت تأثير السيطرة كالنصرانية، وقد تنحصر في شعبٍ واحدٍ.

والأُمّة المسلمة يمتدّ أبناؤها على رقعةٍ واسعةٍ من الأرض. وتنضوي فيها عدة شعوب لكلٍ منها لغته التي يتخاطب أفراده بها. ولما كانت الأُمّة بعقيدةٍ واحدةٍ فإنها تُؤدّي الشعائر بلغةٍ واحدةٍ، وتقرأ كتاب الله بلغةٍ واحدةٍ، وحديث رسول الله باللغة نفسها، وهي العربية، لذا فإنَّ اللغة العربية يجب أن تكون معروفةً لدى الأُمّة كلّها. ولما كان لكلّ شعبٍ لغته الخاصة، لذا فإنَّ كلّ شعبٍ يتكلّم لغته، ويتعلمها وفي الوقت نفسه يدرس اللغة العربية كلغةٍ للعقيدة حيث يُؤدّي عبادته بها، ويدرس حديث رسول الله بها، حيث هو المصدر الثاني للتشريع، ويتعلّم الفقه، حيث دوّنت المذاهب الفقهية بالعربية أيضاً، ولا تُغني الترجمة. وبذا يكون لكلّ شعبٍ لغتان، لغة المخاطبة، والتعليم، والإدارة وهي لغة الشعب، ولغة العبادة أو لغة الدين وهي العربية وتعدّ اللغة الثانية للشعب، ولكن عليه تقويتها حتى تصبح الأولى في سبيل فهم العقيدة بشكل صحيح، أما الشعب العربي فله لغة واحدة، وما دامت العقيدة قويةً فلا يُخشى على لغة الدين أو العربية من

الضياع، بل تتوسّع باستمرار، وقد تصبح اللغة الوحيدة للشعب، إذ تضعف لغة الشعب تدريجياً، وهذا ما حدث للغات بعض الشعوب عندما كانت الدولة الإسلامية في أوج ازدهارها، إذ ضعفت الفارسية، والأفغانية، والتركية وغدت اللغة العربية الرسمية، وهي الأولى، وتعدّ لغات بقية الشعوب هي الثانية.

وهناك شعوب لا لغات لها إذ تتحدث بلغةٍ أجنبيةٍ هي لغة الاستعمار حيث فرضها عندما كانت له الهيمنة والسيطرة، كالشعوب التي تستعمل اللغة الفرنسية في غربي إفريقية ووسطها مثل: السنغال، ومالي، وتشاد، والنيجر، وساحل العاج، وإفريقية الوسطى، والداهومي، وغينيا و. . . والشعوب التي تستعمل اللغة الإنكليزية مثل غامبيا، وسيراليون، ونيجيريا، وتانزانيا، إضافةً إلى الشعوب التي تتكلّم لغاتٍ أخرى مثل غينيا ـ بيساو التي تتحدث بالبرتغالية. إنّ هذه الشعوب لا تلبث أن تصبح لغتها العربية هي الرسمية، لأنها تضمّ عدة قبائل لكلّ قبيلةٍ لغتها الخاصة، وهي على مستوىً صغيرٍ، فتعمّ فيها العربية مع بقاء عدة لغاتٍ محليةٍ كالهاوسا والفولاني والماندينغ و. . . . ومن الأفضل لها أن تصبح عربيةً لمستوى اللغة العربية وعالميتها ولأنها لغة العبادة ومن الضروري معرفتها أصلاً.

إنّ بعض الشعوب لها لغات ولكن ليس لها حرف تكتب به لغتها، وذلك بسبب ضعف مستوى اللغة، ومن الأفضل اتخاذ الحرف العربي لكتابة لغتها إن رغبت في المحافظة عليها فإن هذا يُسهّل عليها تعلّم اللغتين العربية والمحلية ما دامتا بحرفٍ واحدٍ. وقد دوّنت بعض الشعوب لغاتها بالحرف العربي في أيام ازدهار الدولة الإسلامية سواء أكانت لغات ذات حضارةٍ كالفارسية أم لغات عادية كالتركية والأندونيسية وبعض لغات الشعوب في جنوب شرقي آسيا مثل مناطق جنوب الفيليبين، وفطاني وغيرها. وبقيت هذه اللغات بالحرف العربي إلى هذا اليوم كالفارسية، والأردو، وفطاني و. . . . وبدّل المستعمر بعضها الآخر إلى الحرف اللاتيني بعد أن أقدم مصطفى كمال، وغيّر اللغة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني،

فتشجّعت هولندا في أندونيسيا وروسيا في وسط آسيا وقامتا بالفعل نفسه.

إن كتاب الله، وحديث رسول الله عندما يُترجم من اللغة العربية إلى لغةٍ أُخرى لا يُعدّان قرآناً وحديثاً وإنما تفسيراً، والتفسير لا يعبد به لذا لا بدّ من قراءة القرآن بالعربية سواء أكان ذلك في الصلاة، أم في التلاوة للعبادة. أما الحديث، وإن كان وحياً، فلا يُتعبّد بقراءته ولكن يُقرأ كما حدّث به رسول الله ﷺ، أمّا الترجمة فهي معنى للحديث لا الحديث نفسه.

فاللغة العربية للمسلمين مرتبطة بالعقيدة، وكل محاولة لإحلال لغة أخرى محلها، أو إنزال اللغة العربية عن مكانها بإدخال غيرها تعليماً أو كلاماً أو حرفاً فإنه هو تهديم وحرب للإسلام، وإن تظاهر المسؤول بغير ذلك.

[٩] المُسْلِم ومحيطُه

نشأ رسول الله ﷺ، في مُحيطٍ جاهلي، وبدأ دعوته وحده فآمنت به مجموعة صغيرة بالنسبة إلى أهل مكّة، فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى للأمة المُسلمة، وكانت حياتها في ذلك الوسط الأُنموذج الذي يجب أن يسلكه كلّ مُسلم يعيش وسط مُجتمع يختلف معه في العقيدة، ويتميّز عنه في السلوك، فدراسة حياة تلك الفئة في تعاملها مع مُجتمعها تُعطينا الصورة التي يجب أن تسير عليها الأقليات المُسلمة مع مُجتمعاتها، والدُّعاة في بيئاتهم، والمُضطهدون في مُحيطهم، والمجموعة التي تُحكم من قِبَل قومها المُخالف لها في المنهج.

لم تكن المجموعة الإسلامية الأُولى تشعر أن مجتمع مكّة هو المجتمع الجاهلي فقط، وإنّما كان مجتمع الجزيرة يلفّه بجاهليةٍ أخرى ومن ثم فالعالم كلّه يعيش في تلك الجاهلية ويُطوّق الجزيرة أيضاً، وإن كانت الجاهلية تختلف بين منطقةٍ وأُخرى إلاّ أن لها سماتٍ واحدةً، وهي طُغيان السلطة، أو المال، أو الشهوة، أو النفوذ والقوّة، أو الجاه والمنصب، أو تحكّم دينٍ ما أنزله الله فاستبدّ الكاهن باسم الآهلة، وطغى وتسلّط، وفعل رجاله ما يفعله غيرهم من الطغاة، وقد تجتمع عدّة أمورٍ معاً، وبشكلٍ عامٍ فقد شرّع الطغاة ما لم يأمر به الله، شرّعوا حسب أهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم، فأذلّوا الضعفاء والفقراء، وهتكوا الأعراض بل استبدّوا بالمجتمع كلّه فكانوا يستعبدون من الرجال من شاءوا، ويصطفون من الفتيات من اختاروا، ويأخذون من الأموال ما أرادوا، ويُسلّطون من رغبوا على من رغبوا، ويعدّون هذا حقًّا لهم من عند الآلهة أو بما امتازوا به، فكان المجتمع لذلك قطيعاً من السوائم تتحكّم فيه مجموعة مُتعاونة من الذئاب.

هذا المنهج الذي كان يسير عليه الناس أو المُتعارف عليه بينهم، أو الأعراف التي يبنون عليها أحكامهم، أو التي يدّعون أن الآلهة منحتهم إيّاها، أو كلّفتهم بتنفيذها هو الجاهلية، أو أن الأحكام التي تُشرّع حسب الأهواء، والشهوات، والمصالح هي الجاهلية، أو أن الأحكام التي ليست من عند الله هي الجاهلية، إذن: إن كلّ القوانين الوضيعة التي تصوغها الأيدي البشرية إنّما هي أسلوب جاهلي، ومن يحتكم إليها فهو جاهلي، فالجاهلية هي التي تحكم بغير ما أنزل الله، وليست هي الجهل الذي يُقابل العلم، فالمجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله جاهلية ولو كانت على درجاتٍ واسعةٍ من العلم والتقدّم العلمي.

لقد رفضت المجتمعات القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح وأنِفت على ما يطلق عليها جاهلية، وظنّت نفسها أعلى من ذلك، إذ لديها معارف، وعندها عُلوم، فكيف يُطلق عليها جاهلية؟ ولم تنظر إلى واقع مجتمعها الذي يعيش في الحضيض، ويئنّ من الظلم يُحطّمه، والقابع فوقه بسبب أعرافٍ ونظمٍ شرّعها المتنفّذون حسب أهوائهم وشهواتهم. وكما رفضت المجتمعاتُ القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح فقد رفضته المجتمعات الحديثة وبشكلٍ أقوى وأعنف إذ كيف تكون جاهليةً وقد حقّقت تقدّماً رائعاً في العلم، وقطعت أشواطاً واسعةً في المعرفة، ووصلت إلى مرحلةٍ لم تصل إليها البشرية من قبل، وخاصةً في الآونة الأخيرة إذ كان تطوّرها سريعاً جداً، وعلى قفزاتٍ واسعةٍ، وتُنجز في القفزة الواحدة التي لا تزيد مدتها على العام إن لم نقل أكثر من ذلك على ما أنجزته البشرية في تاريخها الطويل بمراتٍ ومراتٍ؟ فأخذت المفهوم بالمعنى المقابل للعلم لذا فقد سخرت منه. ولننظر إلى المجتمعات الحديثة، إن عظام الفقراء تُسحق بآلات المُترفين المُتخمين الذين يسمعون صرير السحق فيرقصون على أنين صرعاهم ويطربون لصُراخهم. وإن الطائرات تنقل متتابعةً أفواجاً من الفتيات الشقراوات من أوربا إلى المشرق ليُتاجر الأثرياء بأجسادهن، وتؤوب حاملةً أفواجاً من الفتيات الصفراوات ليخدمن في بيوت الأغنياء، وإن رحى

الحروب تدور على جماجم الملايين لتدور مصانع السلاح، وتمتلئ خزائن تُجّاره، وتزداد دول الصناعة تُخمةً، وللسبب نفسه تنطلق الثورات، وتتصارع الطبقات. وإن الملايين من البشر تعيش سُكارى أو مُخدّرةً لينعم أفراد قلائل بأموال الناس، أو على مائدةٍ فيها فتاة باسم حرية المرأة وحرية التجارة. وإن مئات الآلاف من المسلمين وفي بلاد المسلمين لا يرون النور ولا يعرفون ما حولهم، يقبعون في السجون، وما كان ذنبهم إلاّ أن قالوا ربنا الله، وجاهروا بذلك فاستحقّوا ما هم فيه. إنّ كلّ هذا الذي يحدث ليس إلا جاهليةً، مهما ارتقى العلم، والجاهلية اصطلاح إسلامي يدلّ على تطبيق غير منهج الله فيُؤدّي إلى الظلم، ويجرّ الناس نحو الهاوية التي يتخبّطون فيها بلا وعي، ويعيشون في مياهها الآسنة القذرة التي تزكم الأنوف من روائحها الكريهة، وهذه قوانين من يحكم بغير ما أنزل الله فيشرّع حسب أهوائه وشهواته، وهذه النتائج، وهذه الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[1].

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تشعر أنّها فئة واحدة من دون الناس، وليس معنى هذا أنها من غير طينة الناس، أو أعلى منهم، فليست هي شعب الله المختار كما تعتقد يهود. والأفضلية عند الله، أما في الحياة الدنيا، فالناس سواء، وكلهم لآدم، وآدم من تراب، كما قال ﷺ، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾[2] فالتفضيل بالإيمان، والتقوى عند الله، والمساواة في الدنيا هي الأساس، ونظرة هذه المجموعة إلى أنها فئة واحدة من دون الناس في عقيدتها، وتصوّراتها، وأفكارها، وسلوكها، وعباداتها، ومعاملاتها و.... فهي بذلك مجموعة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وكانت تنظر نظرة الإشفاق على أهله، الإشفاق على أولئك الطغاة المتغطرسين الذين لا يكادون يصحون من سكرهم، لا يعرفون من حياتهم إلاّ الظلم أو الشهوة، لا يعدّون من أيام عمرهم إلا التي يُعربدون فيها أو يظلمون، قلوبهم قاسية كالصخر لا تعرف الرحمة، ونفوسهم لئيمة تُسرّ لهتك الأعراض والأستار، وتنظر المجموعة المسلمة نظرة الإشفاق على أولئك الضعفاء المقهورين الذين استذلّهم الطغاة، واستعبدهم العُتاة، فسخّروهم لخدمتهم وإرواء غرائزهم، وقد تمزّقت أجسادهم بالضرب، وماتت نفوسهم من كثرة ما أصابها من ذلٍّ وهوانٍ، وتحطّمت معنوياتهم لشدّة الاحتقار، ولم يكن لهم من أملٍ يُرتجى. كانت المجموعة المسلمة تنظر نظرة الإشفاق على هذا المجتمع، فتُريد له التغيير، وتدعوه إلى الإسلام فتستجيب بعض النفوس الطيبة، وأصحاب القلوب اللينة فكان يزداد عدد المجموعة المسلمة باستمرار. أما أصحاب القلوب القاسية التي لا تلين فكانت ترفض الدعوة، ولا ترضخ أصحاب النفوس اللئيمة بل تسخر من الدعوة، وتهزأ من أهلها، ومع هذا التعنت والعناد، وذاك اللؤم والسخرية فلم يزد المسلمين إلا إشفاقاً على مجتمعهم ورغبةً في هدايته، ويقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». ويحاول المسلمون إثارة عاطفة الجاهليين ومُخاطبة عقولهم، ولكن لم يزدهم هذا إلا استكباراً في الأرض وعتواً، فكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، ولم تكن تنظر إليه نظرة الازدراء والاحتقار رغم ما يبدو من رؤوسه من سوءٍ ولؤمٍ يصل أحياناً إلى الإساءة إلى رسولها الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أصعب شيءٍ على نفوس المؤمنين، ورغم ما يبدو من رؤوس الكفر من تعذيب إخوانها بأشد أنواع العذاب المعروف يومذاك، حتّى لقي بعضهم مصرعه فاستشهدت سُميّة زوج ياسر، وحتّى اضطر المسلمون إلى مغادرة ديارهم والهجرة إلى الحبشة مرتين فعاشوا هناك حياة

الغربة والتشريد، والغريب معذب أبداً إن حلّ لم يشعر بالراحة وإن ارتحل لم ينعم في رحلته، وحتّى قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب وحصرتهم في شعب أبي طالب، واضطروا أن يأكلوا ورق الأشجار والأعشاب، ومع هذا كله فقد بقي المسلمون يُظهرون الاحترام لأولئك الكفار، فيُنادون عمرو بن هشام «أبا الحكم» ولا يُنادونه بلقبه «أبا جهل». وإذا دُعي أحدهم أجاب، فقد أجاب رسول الله ﷺ، دعوة جاره عُقبة بن أبي معيط أحد رؤوس الكفر إلى طعام، طمعاً في هدايته. إن الاحتقار قد يُؤدّي إلى ردّ فعلٍ من قِبَل أولئك المتنفذين الطغاة، ويكون لهذا أثره على الدعوة، إذ يمكنُ أن يُقضي عليها ولم يشتدّ عودها، لذلك كان ما يُبديه المسلمون من حسن نيّة، وحسن معاملة، هو الحكمة، وهو الطريقة المثلى. وكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة واحدة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تكظم غيظها، وتصبر على الأذى، ولا تقوم بردّ فعل على تصرّفات الجاهليين. فقد كانت تكفي إشارة من رسول الله ﷺ، إلى أصحابه كي يقضوا على أي رأسٍ من رؤوس الكفر، بل ربما إشارة من كبار الصحابة إلى إخوانهم تفعل الفعل نفسه الذي تفعله إشارة رسول الله ﷺ، ولكن لم يُفكّر أحد بمثل هذا التصرّف لأنه قد تنهي حادثة واحدة الدعوة وأصحابها، وهذا ليس في مصلحة الإسلام، لذا كان الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، وتحمّل الشدائد، ومُغالبة النفس على المكاره إحدى سمات هذه المرحلة من تاريخ الإسلام، ولهذا كانت الجماعة الإسلامية الأولى تشعر أنها فئة واحدة دون سائر الناس.

عاشت الجماعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تتعامل معه بإسلامها، بأخلاقها، بسلوكها لا بأعماله وتصرّفاته، وكان رسول الله ﷺ، القدوة الحسنة لأصحابه، وكان رسول الله ﷺ، هو الصادق عند الجميع فيقول عنه الجاهليون: ما جرّبنا عليه كذباً، وهو الأمين

عند الجميع، فكان بيته مكان الأمانات لأعدائه وأصحابه على حدٍ سواء، إذ لم يعرف أعداؤه أكثر منه أمانةً يضعون عنده أماناتهم، ويقولون عنه: ما عرفنا عليه خيانة، وكان يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحقّ وكان أصحابه، رضوان الله عنهم، يقتدون به، وهذا ما رفعهم في أعين خصومهم رغم كراهيتهم لهم، وهو في الوقت نفسه ما جعل الإقبال على هذا الدين يزداد، إذ لا يرى الكفار في المسلمين إلاّ خيراً، ولا يسمعون منهم إلا خيراً، ولا يجدون في سلوكهم إلا فضلاً، وهذا يُشجعّهم على اعتناق الإسلام، وبذا كانت تشعر الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة واحدة من دون قومها.

إن الشعور من الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة وحدها من دون الناس قد زاد نتيجة تصرّف المشركين من قريش، وكانت مفاصلة شعورية بينها وبين قومها، مفاصلة شعورية لا واقعية إذ لو فكّرت بالمفاصلة التامة، واعتزلت المجتمع لما حقّقت ما أُمرت به، ولخالفت تعاليم رسول الله ﷺ، حيث يقول: «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يُخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(١). ولو اعتزل رسول الله ﷺ، قريشاً يكون قد خان الأمانة، ولم يُؤدّ الرسالة، ولم ينصح للأمة، ويستحيل عندها أن يكون رسول هذه الأمة وخاتم النبيين. وكيف تكون الدعوة مع العزلة؟. أما الهجرة فلا تكون إلا إلى بلدٍ يُطبق فيه شرع الله، إذ أصبحت هجرة المسلمين إلى المدينة واجبةً عندما أُقيمت فيها دولة الإسلام، أما بعد أن دخلت مكة في دين الله فليس السفر منها والانتقال بهجرة، وليس له أجر الهجرة «لا هجرة بعد الفتح». وتكون الهجرة واجبةً عندما يكون القصد منها إقامة دولة الإسلام في مكانٍ، كهجرة رسول الله ﷺ، وأصحابه الأوائل إلى المدينة بقصد تنفيذ أوامر الله، وإقامة دولة الإسلام هناك. وتكون الهجرة فراراً بالدين عندما لا يستطيع المسلم أن يحتمل الأذى ويصبر عليه

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد.

لشدته، كهجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة عندما اشتدّ عليهم أذى قومهم، ولم يكن رسول الله ﷺ، قادراً على حمايتهم. وما عدا ذلك فليس هناك من هجرة وإنّما دعوة، وجهاد، وصبر على المكاره. عن ابن عباسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[١]. إذن لا فرار وعزلة ونُسمّيها هجرة، ولا انتقال من مجتمع إلى آخر مثله إلا إذا اضطررنا، خوفاً من الفتنة في ديننا أو أُلزمنا إلى ذَلك. ويجب البقاء ما دام المرء يستطيع أن يُؤدّي شعائره، ويدعو إلى الله. والمجتمع الصغير كالمجتمع الكبير، وما ينطبق على المجتمع القريب ينطبق على البعيد وبغضّ النظر عن اللغة التي يتكلّمها أبناء المجتمع، والجنس الذي ينتسبون إليه.

إن المجتمع الذي يدين أكثر أهله بالإسلام، ويُؤدّي أكثرهم أو بعضهم عبادته، وتُقام فيه الشعائر، ولكن لا يُطبّق منهج الله، ولا يُحكم بما أنزل الله، هل نعدّ هذا المجتمع كافراً؟ إننا لا نستطيع أن نعدّ هذا المجتمع كافراً، ولكننا في الوقت نفسه لا نعدّه مسلماً، لأن المجتمع المسلم هو الذي يُطبّق شرع الله، وهذا لا يُطبّقه، ولكن نُطلق عليه مُجتمعاً جاهلياً، وهذا هو الاصطلاح الإسلامي، ولو رفض أبناء هذا المجتمع هذه التسمية، كما سبق أن ذكرنا بأن الظنّ يتجه إلى الجهل الذي يُقابل العلم، إذن ليست المجتمعات التي نعيش فيها كافرةً، ولا تصحّ الهجرة منها إلا بالاضطرار ـ كما ذكرنا ـ. وليس معنى ذلك أن يقبل المسلم بالدنيّة وإنما عليه الصبر، والدعوة، والقوة حتى يأتي نصر الله.

لقد صبرت الفئة المسلمة الأولى على المكاره، وتحمّلت الأذى، وواصلت الدعوة حتى زاد عددها، وكثُر أتباعها، وقوي أمرها، واستعدّت، وأعدّت ما استطاعت من قوةٍ حتى جاء أمر الله، وطلب من رسوله الهجرة إلى المدينة حيث كثُر أنصاره، وهناك أُقيمت دولة الإسلام، واشتدّ

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد.

ساعدها، وجاء نصر الله، فانتصرت على أعدائها، وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً، وتمّت كلمة الله الحسنى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وهذا أسلوب المسلم مع محيطه وطريقته في التعامل معه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

[١٠] المدينة

كان تصوّر المسلمين للمدينة تصوّراً بسيطاً سليماً لا تعقيد فيه، تصوّر ينسجم مع عقيدتهم، ويتفق مع نظرتهم إلى الحياة، وتُؤدّي المدينة دورها المخطط لها، ويجد فيها ساكنها الراحة والطمأنينة.

المدينة كانت صورةً متطوّرةً عن الحياة البدوية التي تُعرف بالخيمة القائمة وسط البادية، ترتفع أطرافها فيدخل إليها الهواء نسيماً عليلاً، فيُخفّف ما بها من حرارةٍ، وينتقل بطلاقةٍ، ويحمل ما يُمكن أن يكون هناك من روائح تحدث فيما إذا كانت أطراف الخيمة مُثبّتةً بالأرض فيُحبس الهواء، وتعلق به الروائح. أما إعداد الطعام فيكون بعيداً عن الخيمة في مكانٍ فسيحٍ لا يترك أثراً لرائحة، ولا يُسبّب إزعاجاً لساكن. وما يحتاجه البدوي من قهوةٍ فيكون على مقربةٍ من الخيمة وأمامها صاحبها حيث يتناول ما بدا له من قهوةٍ، ويُقدّمها لضيوفه وزوّاره. وتكون الخيمة أفضل المنازل سكناً من الناحية الصحية.

تتألّف المدينة غالباً من بيوتٍ ذات دورٍ واحدٍ، ثم أصبحت ذات دورين فقط لتُخفّف من حرارة أشعة الشمس عند الظهيرة بفضل فصل الدور الأول عن تلك الأشعة بالثاني منها، وفي الوقت نفسه يخضع الدور الثاني عند المساء لنسمات الهواء. ويُحاط المنزل بساحةٍ كي ينفصل عن الأبنية المجاورة فيبدو كأنه خيمة وسط البيداء، إضافةً إلى ساحةٍ داخليةٍ تُحيط بها الحجرات فتكون محجوبةً بها عن الجوار، تأخذ المرأة فيها حريتها، وتجد فيها سعادتها، وتنفتح نوافذ الحجرات كلّها نحو الساحة الداخلية كي تخفي ساكنيها، ولا تُظهر ما فيها، على حين تُحرم الحجرات من نوافذ تُطلّ على

الساحة الخارجية للسبب نفسه، وبشكلٍ طبيعيٍ فالجدار الخارجي محروم منها كذلك. والشوارع عامةً واسعة، كما تفصل بين المنازل أزقة أقل اتساعاً من الشوارع. وإن وجود المناطق الكثيرة الخالية من البناء، الشوارع، الأزقّة، ساحات المنازل الداخلية والخارجية، وعدم ارتفاع الأبنية يجعل حركة الهواء طبيعيةً، وهذا قريب من الخيام في البادية، فيُقلّل من الأمراض، على عكس ما يتمّ في المدن الحديثة حيث يكون الهواء محبوساً بسبب ارتفاع البناء، وضيق الشوارع بالنسبة إلى علو المنازل. وفي الساحة الخارجية تكون أدوات الطهي وما يُعدّ لذلك. وقد يبقى الباب الخارجي مفتوحاً دلالةً على الكرم، ويجلس صاحب الدار عند الباب الداخلي على شرفةٍ، وأمامه النقرة، وأدوات القهوة يستقبل ضيوفه، ويُرحّب بزوّاره وجيرانه عند الأصيل غالباً.

وفي وسط المدينة المسجد الجامع حيث يلتقي أهل المدينة كلّهم أسبوعياً فيه، هذا إضافةً إلى المساجد داخل الأحياء تتناسب واتساع الحيّ، أو تتقارب بحيث لا يصعب على الشيخ الكبير الوصول إليها، ولا يشعر المريض بالضيق ليُؤدّي العبادة فيها. وغالباً ما تُعرف الأحياء باسم القبائل التي تَشغلها أو العشائر الكبيرة التي تُقيم فيها. أمّا في الأعياد فيخرج المسلمون إلى المُصلّى، وغالباً ما يكون خارج المدينة.

تُؤثّر إقامة كل قبيلةٍ في حيٍّ خاصٍ تأثيراً كبيراً على الحياة العسكرية والاجتماعية إذ يسهل جمع المجاهدين الذين ينطلقون في مجموعةٍ واحدةٍ، ويُقاتلون معاً، وتظهر شجاعتهم، إذ يخشون أن يُقال أوتينا من قبلكم، هذا في القديم أمّا اليوم فيبدو أثر الحياة الاجتماعية، عندما يكون أهل الحي أقرباء يكون على المرء ثلاثة واجبات: واجب الأخوة في الإسلام، وواجب الجوار، وواجب صلة الرحم والقرابة، وعندما يدخل غريب إلى الحيّ يُعرف مُباشرةً، إذ الجميع يعرف بعضهم بعضاً، فلا يستطيع أن يتعدّى أو يتجاوز حدوده، أو يقوم بعملٍ مشين، وكذلك فإنّ قاطن الحيّ لا يُمكنه أن يتصرّف تصرّفاً غير لائقٍ لأنّ الجميع أقرباؤه، ومعروف من قِبَل السكان

كلّهم، وكذا الفتاة و. . . . وعندما يتخلّف المرء عن مسجد حيّه يُفتقد فإن كان مريضاً عِيد، وإن كانت السُّنّة عيادة كل مريض، إلاّ أنها أكثر وجوباً لصلة الرحم، وإن كان مُتهاوناً نُصح وذُكّر، وإن كان لضرورة نُظر في أمره وقُدّم له ما يحتاج. ولمّا أصبحت هناك هُوّة بين الرعية والحكم، ولم تعد الدولة تستند على قاعدةٍ من رعاياها غدت تخشى تجمّع الأقرباء في حيٍّ أو المعارف في منطقةٍ لأن هذا يُشكّل خطراً عليها فبدأت تحرص على توزّعهم وتفرّقهم، كما أن في هذا التشتيت زيادة في انتشار المفاسد إذ لم يعد أحد يعرف أحداً يهابه، ولا يخشى امرؤ من قريبه، ولا بعيد من كبير أسرته، وهذا ما نلاحظه في المدينة الحديثة حيث لا يعرف الجار جاره، ولا صاحب الدار فيمن يقطن بالقرب منه. كما تخاف مثل هذه الحكومات سكان الأحياء القديمة حيث تضمّ مثل هذا النوع من التجمّعات فتعمل على التخلّص منها باسم التنظيم والتخطيط، وفتح الشوارع، وإقامة المشروعات والمرافق العامة و. . . .

وإلى جانب المسجد الجامع يكون مقرّ الإمارة، والسوق. وربما تكون الشوارع المُؤدّية إلى خارج المدينة محدودةً، ولا تزيد على الأربعة غالباً بحيث يكون منفذ من كل جهةٍ وذلك لأسبابٍ أمنيةٍ. ونلاحظ هذه التقسيمات عندما مصّر المسلمون المدن، إذ يختطّ الأمير المسجد الجامع في الوسط، ويبتني دار الإمارة، ثمّ يُعطي كل قبيلةٍ جانباً معيّناً لتُقيم مساكنها عليه، مثل البصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان و. . .

إن المدينة كانت تتسع أفقياً عندما كانت صغيرة، والأرض قليلة القيمة لاتساعها وقلة السكان، أما اليوم فقد كثُر السكان، وضاقت بهم الأرض، وارتفع ثمنها لضيق رقعتها فلا بدّ من التوسّع شاقولياً وزيادة عدد الأدوار. يبدو هذا الكلام صحيحاً نظرياً غير أن أقل دراسةٍ تُظهر لنا سوء التخطيط وعدم المعرفة في التدبير، إذ نُلاحظ عدداً من المدن تتوسع بسرعةٍ، وترتفع فيها الأبنية بسرعةٍ، وتزداد أسعار الأرض، ويشكو الناس من ضيقها، ونلاحظ أن ذلك كله يقوم على أرضٍ زراعيةٍ وهي التي تئنّ الدولة من

ضيقها، وتشكو من عدم وجودها، ثم نرى بعد ذلك أن الأرض الزراعية التي يُبنى عليها، والتي نحن بأشد الحاجة إليها لا تبعد عن الأرض الصحراوية، أو الجبلية والتي لا فائدة منها سوى عدة كيلومترات، ثم نترك الأرض غير الصالحة ضائعةً في حين يُمكن البناء عليها وإقامة المشروعات فيها، نتركها ونبني فوق الأرض الزراعية الصالحة للاستثمار ونستهلك أجزاءً واسعةً منها بإقامة مشروعات عليها. . . . لننظر إلى هذا واضحاً في دمشق والقاهرة وكثيرٍ من مدن العالم الإسلامي.

تدبّ الحياة في المدينة الإسلامية من الصباح الباكر بعد أن يُؤدّي الناس صلاة الفجر ينطلقون إلى أعمالهم، وتتوقف عجلة الحركة قليلاً بعد صلاة الظهر إذ يخلُد بعضهم إلى الراحة والقيلولة حتى صلاة العصر حيث يُعاود الناس نشاطهم حتى الغروب حيث يتوقّف العمل تقريباً باستثناء المؤسسات التي يتناوب عليها العمال على نوباتٍ متتابعةٍ. وإذا ما أُديت صلاة المغرب يكون وقت تناول طعام العشاء، وبعد صلاة العشاء الأخير يخلد الناس إلى الراحة، ويأوي كل إلى بيته، وتتوقّف الحياة في المدينة تقريباً فلا ترى إلا العسس، ومن كانت له حاجة ماسة كعيادة مريضٍ اقتضت ظروفه تأخيرها وما يُشبه ذلك. وتتوقّف وسائل الإعلام عن البثّ بوقتٍ مبكرٍ كي يتوفّر الهدوء، وتُعطي الفرصة للناس كي ينصرفوا إلى الراحة أو إنجاز واجباتهم وما هم في صدده من أمورٍ عائليةٍ و. . . . وكي يتمكّنوا من استعادة نشاطهم لليوم التالي بنومٍ مريحٍ.

ويُتفقّد المريض والمنقطع عن الصلاة، ويُعاد المريض، ويوصل الرحم، ويُساعد صاحب الحاجة والمعوزين، ويُسأل عن الجار، ويصحّ أن نقول: إن المدينة كتلة واحدة بسكانها، وكل حيٍّ من أحيائها أسرة واحدة، وهكذا المجتمع الإسلامي في مودته بعضه لبعض أو كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى».

ولا توجد في المدينة الإسلامية الملاهي والمقاهي التي تستقبل روّادها

ليلاً ونهاراً، وإنما لها وقت محدد يتفق مع ساعات الراحة وقبلها وبعدها قليلاً. كما تخلو هذه المدينة من كل أنواع المحرّمات، وما يُؤثّر على راحة السكان من ضوضاء أو فوضى أو إثارة مشاعر.

والبناء في المدينة الإسلامية هو الصورة الصحيحة للبناء، والطريقة الصحيحة لاحترام الأسرة ووقارها، والسمة المثالية للتعاون.

[١١] الأرض

أوجد الله الأرض، وجعل فيها شروطاً مُعيّنةً مُناسبةً للمخلوق الذي سيوجده، ثم فطر هذا المخلوق، ومنحه مُؤهلات وقُدرات يستخدمها لاستخراج ما يصلح له من هذه الأرض، ويُبدّل فيها ويُغيّر ضمن قوانين ثابتة لا تتحوّل، وفي الوقت نفسه سخّر له الأرض وذلّلها، فلا تتعثّر ولا يتعثّر فيها نظام، وكل ما فيها مُوافق لحياة هذا المخلوق نعمةً من الله وفضلاً، وإن كان الإنسان ينسى هذه النعم لأنها تغمره باستمرار. ومن هذه النعم أيضاً ما أودعه الله من أرزاقٍ وخيراتٍ في الأرض، وفي جوفها، وفي الفضاء الذي تسبح فيه، ويستطيع الإنسان أن يحصل على هذه الخيرات بما منحه الله من عقلٍ يستعمله، ويستفيد من تجاربه وخبراته التي يكتسبها هو وغيره على مدى الدهر فالقوانين ثابتة، وسنّة الله لا تتغيّر.

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان العقل، والإنسان جنس الإنسان بغضّ النظر عن لونه، أو عرقه، أو عقيدته، فالناس متساوون بهذه الهبة الربانية، غير أن بعضهم قد هداهم عقلهم للإيمان فآمنوا ولهم أجرهم عند ربهم، وجحد بعضهم نعمة الله وأنكرها، وأنكر وجوده فله جزاؤه أيضاً عند ربه يوم القيامة. أما في الحياة الدنيا فالجميع يعملون وكل مسؤول عن عمله أيضاً، والأرض مُذلّلة للمُسلم والكافر على حدٍ سواء، وكل يستعمل عقله، ويتّخذ الأسباب، وكلما جدّ حصّل النتائج وتوصّل إلى مُعطيات أفضل، وكلما توانى وتكاسل لم يظفر بحاجته وعاش عالةً على الآخرين، هذه سنّة الله في الكون، وسنّة الله لا تتبدّل.

والإسلام حثّ على السعي وحضّ على البذل لاستخراج ما في

الأرض من خيراتٍ وكنوزٍ، والأرض مُذلّلة للجميع لا تمتنع عن أحد، ولا توصد أبوابها في وجه أحد. والقوانين مبذولة للجميع، وثابتة للكل لا تتحوّل عن صياغتها. والعقول ممنوحة للناس سواء، وما على المرء إلا أن يُعمل عقله، ويتعرّف على ما أودع الله من خصائص وأسرار في قوانين هذا الكون، ويمكنه الإفادة ممّا توصّل إليه الآخرون، ويُضيف، ويستنبط، ويستخرج الخيرات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا...﴾[1]. فمن اتخذ الأسباب، وسلك السبيل الصحيح تمّ له ما يُريد ـ إن أراد الله له ذلك ـ.

ولقد قام المسلمون الأوائل بما فرضه عليهم دينهم من السعي والبذل فدانت لهم الأرض وألقت بكنوزها لهم حسب القوانين التي كانت معروفة في ذلك الوقت وحسبما أضافوه إليها من تجاربهم وخبراتهم التي حصلوا عليها، وتوصّلوا إلى أشياء كانت آنذاك ابتكارات رائعةً، ثم نام منهم من نام، وتواكل من تواكل وظنّ أن الرزق يأتي دون سعي، وأن بركات الأرض تخرج دون تعب، وما ذلك إلا للجهل الذي انتشر، وعدم المعرفة الذي ساد، حتّى فسّروا كتاب الله تفسيراً ما سبقهم إليه أحد، ولا قاله قبلهم أهل علـم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2]. الإيمان وحده لا يكفي فالسماء لا تُمطر ذهباً على المؤمنين، ولا تُخرج لهم فضةً، ولكن لا بدّ من العمل واتخاذ الأسباب. والعمل بلا إيمان لا يكفي أبداً فالإيمان قوة دافعة نحو الحقّ والخير، مانعة من الشطط والانحراف والظلم والتعسف. ويحصل أعداء الله على نعم الله بلاءً ومدًّا لهم، دون إيمانٍ منهم أو اعترافٍ بفضل الله عليهم.

وعندما كان المسلمون اليوم يميلون إلى الضعف، والكسل،

---

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

والتواكل، والجهل، والقعود عن العمل كان غيرهم يتجه إلى النهوض، والجدّ، والعلم، والقيام للعمل فتقدّموا وحصلوا على منجزاتٍ علميةٍ، ونظروا إلى المسلمين نظرة ازدراءٍ، ونظرة تعالٍ، ورجع المسلمون إلى أنفسهم فرأوا التأخر، فاتجهوا إلى أعدائهم يلهثون وراءهم، وأعطوهم فوق ما يستحقّون، ونظروا إلى أنفسهم نظرة صغارٍ وضعةٍ، وغدت عندهم عقدة نقص، وبدا كل شيءٍ من الغرب حسناً، ومن ديار المسلمين قبيحاً وبدأ تقليد الغرب.

إن الله يُعطي الذين يُريدون الآخرة ويسعون لها، ويُعطي من يُريد من الذين يرغبون في الحياة الدنيا، إنه يُعطي الجميع على جدهم ومن هنا يكون التفاوت حسب الجهد والوسائل والأسباب، ويُحاسب الجميع على عملهم وإيمانهم ومن هنا تمتلئ الجنة وتمتلئ النار. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾(1). فعطاء الله لا يُحظر على مؤمنٍ، كما لا يُحظر على كافرٍ، وإنما يتفاوت هذا العطاء بين البشر حسبما يبذلون من جهدٍ، وحسب الوسائل العلمية التي يستخدمونها والأسباب التي يتخذونها. ومن هذا المنطلق فإن الدول الغنيّة والمُتطوّرة هي التي تُطبّق العلم على العمل، وتسلك سبيل التنظيم والتخطيط، وتقوم بالمشروعات الإنمائية، وتُوفّر كل ما يحتاج إليه بناء الدولة والتطوّر الاقتصادي من وسائل علمية وعملية. وأما الدول المُتخلّفة فلا تُطبّق العلم لعدم توفّره ولانتشار الجهل، ولا تقوم بالمشروعات لإهمال الدولة واهتمامها بشؤون المُتنفّذين، وهذا ما يُفقد أعمال التنظيم والتخطيط، وفوق كل هذا فاقتصاد الأمة نهب بين رجالاتها الذين إن طالت مدتهم تسلّطوا على الخيرات، واستبدّوا، وإن قصرت أيامهم كلما جاء جديد غرف بكلتا

---

(1) سورة الإسراء: الآيات ١٨ ـ ٢٠.

يديه كل ما في وسعه، ونقل ما غرفه إلى خارج البلاد حتى غدت الدول الغنية تعيش، وينمو اقتصادها على ما ينهبه المتسلّطون في بلادهم.

ولو أعطى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فقط ـ كما يتوهّم بعضهم ـ لآمن الناس جميعاً، وكانوا مُكرهين على هذا الإيمان للحصول على الرزق، وكانت عبادتهم للمال لا لله خالقهم، ولم يكن هناك من شكرٍ على ما أنعم الله عليهم، ولا من اعترافٍ بفضل الله و. . . إذن فعطاء الله للجميع هو الحكمة، وهو الحقّ، وهو الخير ليؤمن من آمن على بيّنةٍ ويكفر من يكفر على بيّنةٍ.

ووعد الله للمؤمنين بالعطاء وعد حقّ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والإيمان ليس قضية تعبّدية بحتةً لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، وإنما هو عمل في واقع الحياة، يدفع صاحبه للعمل ليُحقّق مشيئة الله في خلافة الأرض وعمارتها، ويدفع صاحبه ليحصل على بركاتٍ من السماء والأرض، ويدفع صاحبه لأنه مأمور بذلك، وهذا العمل يُؤدّي إلى الإنتاج، ويُؤدّي إلى ترقية الحياة وتطوّرها، ونموها باستمرار.

[١٢] الدعـــوة

عندما يستبدّ البشر بعضهم ببعضٍ، وتتحكّم القوّة، وتسود القوانين الوضعيّة على اختلاف أنواع الحكم ومسمّياته من شعبيّ (ديمقراطيّ)، أو عسكريّ، أو نظام حرّ أو موجّهٍ، أو جاهليّ قبليّ فوضويّ، فإنّ الأوضاع في هذه الأنظمة كلّها تسير على غير ما أنزل الله، ولا بدّ للمسلمين من أن يدعوا إلى تطبيق منهج الله في الحكم لتحقيق العدل، والكفّ عن الظلم، وعدم استبداد النّاس من أصحاب القوّة بغيرهم من الضعفاء، ولا شكّ فإنّ دعوتهم لن تُسمع بل ستُحارب لأنّها تتعارض مع مصلحة المُستبدّين، وتتناقض مع تسلّط الطغاة، وليت الأمر يُكتفى بعدم سماع الدعوة بل يتجاوز ذلك إلى التخلّص من هؤلاء الدعاة والقضاء على أفكارهم قبل أن تعظُم ويشتدّ خطرها ـ على زعم أصحاب السلطة ـ، وهنا لا بدّ من اتخاذ الحكمة والسّير بالطريق المستقيم التي تُجنّب الدعوة وأصحابها من التعثّر أو التعرّض للإبادة. ولننظر إلى بدء دعوة رسول الله ﷺ في مكّة حيث كان المجتمع الجاهليّ لا يختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة اليوم في أكثر بقاع الأرض، باستثناء الإيمان النظري الذي يُعلن به، ويُقال بالأفواه، وتُخالفه الأعمال كلّها، سواء في البلدان الإسلامية أم التي تُعادي الإسلام وتُحارب أهله، وسواء أكان بشكلٍ صريحٍ واضحٍ أم بطريقةٍ مُبطَنةٍ مُستترةٍ. ولننظر إلى طريقة رسول الله ﷺ التي اتبعها في الدعوة، ولنسر على هديه فهو قُدوتنا وقائدنا.

لقد سار رسول الله ﷺ في طريقٍ ذات ثلاث شعبٍ هي: التربية، وعدم الصدام المباشر مع أصحاب السّلطة، والعمل على إيجاد مكانٍ يحمي الدعوة وتستطيع أن تنمو فيه وتنطلق منه. وكانت هذه الشعب الثلاث يسير

بعضها مع بعضٍ بشكلٍ مُتوازٍ، ويجب ألاّ يحول بعضها دون السير في الأخرى.

لقد كان رسول الله ﷺ يلتقي بالمسلمين لقاءً تنظيمياً سرّياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، ودار سعيد بن زيد بن عمرو وغيرهما يُربّي أتباعه، ويُعلّمهم كتاب الله، ويتلو عليهم ما أنزل الله، ويُوجّههم إلى الطريق الصحيح، وكان عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم بالإقبال على الدعوة التي تنسجم مع الفطرة البشرية السليمة التي فطر الله النّاس عليها، ولأنّ الفرد من أتباعها كان يُمثّل المسلم الصحيح والقدوة الحسنة في المعاملة والصدق والتقيّد بأوامر رسول الله ﷺ، والصبر على الأذى، وتحمّل الشدائد في سبيل الدعوة، وعدم القيام بردّ الفعل ضدّ ما يُصيبه لأنّه يُدرك أن هذا يُؤدّي إلى جرّ الدعوة إلى حربٍ غير متكافئةٍ تقضي على الدعوة وأتباعها، وهذا ما يحدث على مرّ العصور. هذا التصرّف، وهذه الحكمة تدعو الآخرين إلى الدخول في الإسلام وزيادة الأتباع.

لقد حرص رسول الله ﷺ أن يُجنّب دعوته العثرات فحال دون الصّدام مع السّلطة من زعماء مكّة وأثريائها، وطلب من إخوانه ألاّ يقوموا بأيّ ردّ فعلٍ مهما أصابهم، أو إخوانهم، أو أصابه هو نفسه من أذى، وفعلاً لقد تعرّض ﷺ للأذى والإهانة والسّخرية، ونال أصحابه العذاب الشديد دون أن يفعل أحدهم شيئاً، ودون أن يقوم عليه الصلاة والسلام بأيّ شيءٍ، وإنما كان يدعوهم إلى الصبر، وتحمّل الشدائد، ويذكّرهم بما تحمّله أصحاب الدعوات السابقين فعن خبّاب بن الأرّت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّد بردةً له في ظلّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض حفرةً فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك على دينه؛ والله ليُتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف

إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١). وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يُعذّبونهم برمضاء مكّة، وقد قتلوا أمّه سميّة ولم يملك رسول الله ﷺ إلاّ قوله: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنّة» ولم يملك المسلمون إلاّ عبرةً يذرفونها، وحسرةً تُذيب الأفئدة. ولو أراد رسول الله ﷺ أن يقوم بعملٍ مُعادٍ باسم حماية الدعوة ـ كما يتصوّر بعضهم ـ أو كي لا يتجرّأ عليها أحد، أو حتّى لا يعود طاغٍ لتعذيب المسلمين لكان بإمكانه بكلّ يُسرٍ، فلو أمر أحد أصحابه أن يقتلَ أبا جهلٍ عمرو بن هشام لما يناله المسلمون على يديه، أو أميّة بن خلف لما يفعل بالمستضعفين من المسلمين، أو أيّ واحدٍ من أولئك الطُّغاة المُتغطرسين لما تردّد ذلك الصحابيّ أبداً، بل لأسرع في التنفيذ وعدّ ذلك تقرّباً إلى الله بطاعة رسول الله وتنفيذ أمره، وحنقاً على أولئك القُساة الظالمين وانتقاماً منهم لما يفعلون، لكنّ رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك خوفاً على الدعوة من أن يتكالب عليها الظالمون، وينقضّ على أتباعها البُغاة. وعلى المسلمين في كلّ وقتٍ إذن، تحمّل الأذى مهما اشتدّ، والصبر على المكاره مهما تعاظمت لا استسلاماً ولا جبناً وإنما خوفاً على الدعوة، وليُفوّتوا على خصومهم الفرصة في تنفيذ ما يُخططون له. فكم من مُتهوّرٍ اليوم جرّ على حركته النكبة وهو يظنّ بنفسه الشجاعة؟ وكم من مُغفّلٍ ألحق بجماعته الويل وهو يحسب أنّه يُحسن صنعاً؟ وكم من قائد اكتسب الزعامة على جماجم إخوانه؟ إنّ هذا كلّه لم يفعله رسول الله ﷺ، وعلينا أن نترك ما ترك رسول الله ﷺ. ولم يُؤذن للمسلمين بالقتال حتّى أصبحت لهم دولة في المدينة، وعندها كان الصراع وجهاً لوجه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

---

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[١]. ويجب ألا ننسى أننا لا نزال نعيش في المرحلة المكّيّة وسط مجتمعٍ جاهليٍّ مؤمنٍ نظرياً، ولكننا مُكلّفون بتطبيق كلّ ما نزل.

وفي الوقت نفسه كان رسول الله ﷺ يُحاول أن يجد مكاناً للدعوة تحمي نفسها فيه لتنطلق منه، وينصرها أهله، لِما رأى ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من ربّه، ثمّ من منعة عمّه أبي طالب له، وأنّه ﷺ لا يقدر أن يمنع أصحابه ممّا هم فيه من العذاب والبلاء، فاتجه نظره ﷺ إلى الحبشة، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، وهاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ولكن لم يطب لهم المُقام فيها حيث كانوا قلّةً لم يزد عددهم على الثمانين كثيراً، والقلّة تشعر بالغُربة، وتحسّ بالعُزلة وخاصةً إن كانت تختلف عن المجتمع الذي تعيش عقيدةً ولغةً، كما هي حال المسلمين في الحبشة، هذا بالإضافة إلى مُقاومة البطارقة لهم، ومع رعاية النجاشي لهم إلاّ أنّه لم يكد يصل إلى أسماعهم خبر إسلام أهل مكّة وانفراج الكُربة عن المسلمين فيها حتى عاد بعضهم مُسرعين إلى بلدهم، غير أنّهم ما أن وصلوا إلى مكّة حتى عرفوا أن الخبر غير صحيح، ولم يستطع أحد منهم أن يدخل بيته إلاّ بعد أن أجاره أحد سادات مكّة، أو دخل مُستخفياً.

وعادت الحياة في المجتمع المكّيّ إلى حالتها الأولى، وارتحل رسول الله ﷺ إلى الطائف علّه يجد النصرة من ثقيف، ولكنّه لم يرَ إلاّ الصّدود والمطاردة فرجع إلى بلده حزيناً كئيباً.

ويعرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل في كلّ موسم عسى أن تُقبل بعض القبائل على نُصرته لكنّ قريشاً كانت له بالمرصاد فتحول بينه

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.

وبين القبائل بافتراء الكذب عليه، واختلاق الشائعات ضدّه وضدّ دعوته، غير أنّه تمكّن في موسمٍ أن يلتقي ببعض حجّاج يثرب بعيداً عن أعين قريشٍ فعرض عليهم دعوتهَ فآمنوا، وتواعدوا على اللقاء معه في الموسم التالي في العقبة، وتمّ اللقاء، وحضر معه عمّه العبّاس، ولم يكن قد أعلن إسلامه بعد، فاستوثق لابن أخيه ﷺ، وبايع اليثربيون رسول الله، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، ومنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إن قدم إليهم. . . فأشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى يثرب، فبدؤوا يُهاجرون إليها جماعاتٍ وأفراداً سِرًّا خوفاً من قريشٍ وفي بعض الأحيان جهاراً عندما يكون المُهاجر صاحب منعةٍ أو ذا شكيمةٍ. ثمّ هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، وفي المدينة آخى، عليه الصّلاة والسّلام، بين المسلمين، وأصبح الجميع كتلةً واحدةً مُتراصةً، وتكوّنت النواة الأولى للدولة الإسلامية، ولم يعد الآن بحاجةٍ إلى تنظيمٍ لأنّ الأكثريّة أصبحت إخوةً مؤمنين، وكذا الحال عندما يُطبّق الإسلام في مصرٍ من الأمصار إذ تصبح الدولة الإسلاميّة هي القائمة والراعية لشؤون المسلمين جميعاً.

أمّا التدريب على القتال فقد كانت الأسلحة عاديةً أيام رسول الله ﷺ ويُجيد الرجال فنّ استعمالها بطبيعة حملهم لها منذ سنٍّ مُبكّرةٍ، أما اليوم فالأسباب ميسّرة أيضاً لكن يجب ألا نُخلّ بالنواحي السالفة الذكر من حيث التربية، والتعمية، وعدم الصدام.

أمّا مدّة التربية فكثيراً ما يحبّ أصحابها السرعة فيها فتتشوّه الأمور، ويتخرّج أبناؤها بطرقٍ معوجّةٍ، ويقع كثير منهم في شرك غيرهم إذ لم يتحصّنوا بالقدر الكافي. لقد بقي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو في مكّة، ويتعهّد أصحابه، ولم يتمكّن من إقامة الدولة رغم التربية القويمة وتهيئة العناصر الرشيدة المُؤهّلة لكل الصعاب والأدوار، ولو لم تكن الهجرة، ونُصرة الأنصار، وسيادة الإسلام في المدينة، لطالت مدّة الدعوة في مكّة لوقتٍ، الله أعلم به، ولم يُحدّد رسول الله ﷺ مدةً معينةً لهذه المرحلة إذ ليس بيده هذا وإنما عليه الدعوة والعمل، والله يتولّى الأمر

وينصر من ينصره، وكان ﷺ يقول لأصحابه عندما يطلبون الدعاء بالنصرة «ولكنكم تستعجلون» ونحن مُكلّفون بالدعوة والعمل لله والإخلاص في ذلك، والنتائج وزمن تكامل التربية بيد الله سبحانه وتعالى، ونحن نُؤجر على قدر عملنا وإخلاصنا، والإسراع يُجهض العمل إذا لم يتكامل بشكلٍ طبيعي، وقد يقتله إذا لم يكن قد وقف على قدميه بعد.

وقد يقول قائل: كان المسلمون أيام رسول الله ﷺ يجتمعون في مدينةٍ واحدةٍ، مرجعهم واحد، ومنبع ثقافتهم واحد، وحتّى عندما توسّعت الدولة بقيت المدينة المركز الرئيسي للإشعاع والتوجيه، وكذلك عندما انتقل مركز الدولة إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول بقيت وحدة جامعة سواء أكان في شخص الخليفة أم في مصدر الثقافة، أمّا اليوم فقد تغيّر الوضع إذ فصلت الحدود بين الأمصار، واختلفت المشارب، وتباينت الأهداف، بل سار العمل في كلّ مصرٍ باتجاه.

هذا الكلام صحيح ولكن يجب أن ننظر نظرةً شاملةً فالعمل الإسلامي قائم في كثير من الأمصار ـ ولله الحمد ـ إضافةً إلى المؤسسات الكبيرة التي تعمل إلى حدٍّ ما للصلة والارتباط بين الحركات الإسلامية، والتعريف بها، وإنشاء المراكز الإسلامية لتوثيق العُرا بين المسلمين، والمفروض أن ننطلق من منطلقٍ إسلاميٍ صحيحٍ، ونبتعد عن العصبية والحزبية كلّ البعد، يجب أن نتصوّر:

١" ـ أنّ كل حركةٍ إسلاميةٍ إنما هي جزء من العمل الإسلامي العام الذي يقوم به المسلمون جميعاً أينما كانوا بغضّ النظر عن جنسياتهم أو لغاتهم، فالعمل واحد في الأمصار كلّها وضمن خطٍ واحدٍ.

٢" ـ أنّ كلّ جماعةٍ إنّما هي جزء من المسلمين، وليست هي جماعة المسلمين، تعمل وحدها بالإسلام، ويشذّ غيرها، لذا تعدّهم خارجين عن نطاقه، وبذا تتعدد الجماعات الإسلامية، والإسلام واحد، ويُفقد التعاون، وتكون العصبيات، والحزبيات، والخلافات، وما أكثر ما وقع العاملون في الحقل الإسلامي بهذا الخطأ، وأصرّ بعضهم عليه، مع العلم أنّ أيّة جماعةٍ لا تُمثّل واحداً بالمائة من المسلمين مهما بلغ شأنها، لذا تبقى جزءاً من

المسلمين، ولا يمكن أن تكون هي مجموعة المسلمين.

٣" ـ أن يكون العمل ضمن إطار الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فيُساعد الجميع بعضهم بعضاً، وأيّ مُسلم بمعنى الإسلام هو أخ للآخر فيجب أن يُعاونه ويدعمه كأخيه الذي يعمل معه في مصره، ومدينته، وحيّه. أمّا أولئك الذين يرفضون أن يُعاونوا إلاّ الذين يلتزمون معهم فإنّما هم مُخطئون يفهمون الأُخوّة الإسلامية بالمعنى الحزبي الضيّق، المعنى الحزبي البغيض، المعنى الحزبي بمفهوم القومي، والاشتراكي، وصاحب المصلحة. إنّ الأُخوّة بالإسلام لا بالحزبية، ولا بالتنظيم، ولا بالعصبية للمدينة، أو للمصر، أو للجنس، أو لأيّ مفهومٍ من العصبيات.

٤" ـ أن يكون العمل بالإسلام وحده دون التعلاّت والتأويلات التي تخدم المصالح الشخصية والمنافع الذاتية أو الحزبية كأولئك الذين يرتمون في أحضان المتسلّطين يتزلّفون لهم، ثم يُبررون مواقفهم المُخزية بأنّها لخدمة الإسلام كي لا يتعرّض أتباعهم لخطر المستبدّين، أو لتستفيد جماعتهم التي تخدم الإسلام ـ على زعمهم ـ أو لتحمي نفسها من الشرّ وما إلى ذلك من مُبرّرات ينفثها الشيطان في آذان أصحاب النفوس المريضة.

٥" ـ أن يكون التجمّع والعمل حول الفكر الإسلامي لا حول أشخاص يدّعون أنهم يُمثّلون الإسلام دون أن يتمثّل بهم. الرجال يذهبون والعمل يبقى، الرجال يُخطئون ويُصيبون والإسلام سليم خالٍ من أيّة شُبهة. ونُقدّر الرجال بمواقفهم الموافقة للإسلام، ونقف أمام الذين يُخالفون. وكلّ عملٍ برجاله ومواقفهم وسلوكهم وأفكارهم.

٦" ـ التعاون مع أهل العلم في كل مكان والتناصح وتبادل المناهج والمعلومات عن مخططات وأهداف الأعداء.

إذا أخذ كل عمل بهذا الخط كان سليماً، ومُخلصاً لله، ونرجو أن يُتقبّل، وعندها يحقّ لنا طلب النّصر، ولا بدّ من أن نُعطاه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٣] الانتخاب

يتراءى لبعض الناس أنّ الانتخاب هو الطريقة المثلى لتمثيل الشعب، ويُبالغ بعضهم فيعدّها أقرب الطرق للنظام الإسلامي «نظام الشُّورى»، ويُفتي آخرون بغير علم فيدّعون أنّها هي نظام الإسلام ذاته، معاذ الله أن يكون في الإسلام طَريقة غير صحيحة، ويقولون: إن الانتخاب يُعطي رأي الأكثرية، والأكثرية هي التي يجب أن تحكم، ويجب على الأقلية أن تخضع لرأي الأكثرية وترضخ، وهو ما يُسمّى حكم الشعب بنفسه، أو ما يُعرف بـ «الديمقراطية»، إذ فُتن كثير من الناس بالغرب نتيجة التطوّر المادي والعلمي الذي قام، وأصابهم شيء من النقص نتيجة التخلّف والضعف الذي حلّ بنا، فساروا في طريق التبعية والتقليد، وفُتنوا بالنظم القائمة هناك فأحبّوا أتباعها، ومن أحبّ شيئاً رفعه، وأعطاه صفاتٍ ليست فيه، وهذا ما جعل عدداً ممن يدّعي العلم يدعو إلى تطبيق نظم الغرب، ويصفها بأنها أقرب طرق الحكم إلى الإسلام، وهو الجهل ذاته، فإذا كان الأمر كذلك من أقليةٍ وأكثريةٍ، فأين دور الأنبياء والرسل؟ وأين مُهمّة القادة والمصلحين؟ أيتركون ما أُرسلوا به وما أخذوه على أنفسهم؟ أم ماذا يصنعون؟ أيسيرون وفق أهواء الكثرة الجاهليين والعامة أم ماذا يفعلون؟

إنّ الإسلام لا يُوجد فيه أقلية وأكثرية، ولكن يُوجد فيه حقّ وباطل، فالحقّ يجب أن يُتبّع ولو أنّ صاحبه فرد واحد، والباطل يجب أن يُترك ولو أنّ الجماعة كلّها تقول به وتحمله، والأنبياء والرسل يبدؤون بالدعوة مُنفردين يحملون الحق ويدعون له، وتُقاومهم أقوامهم كلها تبعاً لمصالحها وأهوائها تحمل الباطل وتتمسك به. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ

﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

بُعث رسول الله ﷺ، وكُلّف أن يُبلّغ الرسالة، فصدع بما أُمر به، غير أن قريشاً وقفت في وجهه خوفاً على زعامتها وشهواتها، فأغرت سفهاءها برسول الله ﷺ، وسخرت من جعل الآلهة إلهاً واحداً، وهزئت من ترك ما عبده الآباء والأجداد، وأعلنت أن هذا مجرد افتراءٍ واختلاق، وما سمع أحد بهذا من قبل ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾[2]. ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]. فماذا يفعل رسول الله ﷺ، أمام موقف قريش؟ أيترك الدعوة ويسير برأي الأكثرية يعبد الأصنام أم يسير بالقلّة التي آمنت معه لا يُبالي بالكثرة التي وقفت في وجهه، وأعلنت الحرب عليه؟ لا بدّ من متابعة الطريق والسير مع الحقّ مهما قلّ أنصاره والإعراض عن الباطل ومُحاربته مهما كثر أتباعه وزاد مؤيّدوه.

بدأت مع الزمن تدخل إلى عقول الناس بدع وخرافات تكثر مع انتشار الجهل، وظنّها بعضهم من الدين، وغدا الظنّ يقيناً عندهم، والوهم حقيقةً، وقام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يُبيّن لهم الحقيقة، ويوضّح لهم الأمر، وبُعد ما هم عليه من الدِّين، وأنّ هؤلاء من الصالحين قد ماتوا وانتهى أمرهم، فلا يُجيبون داعياً، ولا يمكن لهم أن يُلبّوا مُغيثاً، وإنما السؤال يجب أن يكون من الله وحده ودون سواه، فهو الذي يُجيب

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

(٢) سورة ص: الآيات ١ ـ ٧.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢٢، ٢٣.

دعوة المضطر إذا دعاه، ويصرف عنه ما به، لذا يجب إزالة هذه القباب من فوق هذه القبور، وتسويتها، فاستغرب الناس، وعدّوا ذلك تجنيًا على الدين وبُعداً عنه، فهؤلاء صالحون... أولياء... لهم كرامات فكيف؟ و... ووقف الناس في وجه الشيخ، واضطر إلى الانتقال من مكان إلى آخر، حتّى هيأ الله له من شدّ من أزره، وأخذ بفكرته فانتشرت... وحاربه أعداؤه خارج منطقته على السماع، بأنّه أدخل على الدين جديداً، وجاء بجديد... والواقع أنه لم يأت بجديد، وإنما وضح الحقيقة، وأبان سبيل الحق. فلو سكت المصلح أمام رأي الأكثرية الجاهلة، وأطاع العامة فيما تعارفوا عليه لدخل إلى الدين ما ليس منه، ولتبدّل صفاؤه إلى أساطير. فالدين لا يعرف أكثريةً ولا أقليةً فالأُمة جميعها تلوي أعناقها أمام نصٍ واحدٍ.

عاشت أوروبا في جهلٍ، ثم بدأت تستنير بعض العقول، ويظهر بعض العلماء الذين يُجرون التجارب، ويتوصّلون إلى نتائج علميةٍ معينةٍ، غير أن رجال الكنيسة الذين تسلّطوا على العقول قد هالهم ما توصّل إليه هؤلاء العلماء فأنكروا عليهم، وعدّوا عملهم مُروقاً من الدين، وأغروا العامة بهم، وتكلّموا للحُكّام عنهم حتى قُتل من قُتل خروجاً عن الدين، ثم بدأ الصراع بين رجال الكنيسة والعلماء حتى شدّ أزر العلماء بعض الأمراء فقوي أمرهم، وحدث الانفصام بين الكنيسة والعلم، وهُزمت الكنيسة في النهاية، وساد العلم، وبدأت التجارب، وانطلق التطبيق، ونهضت أوروبا بعد غفلةٍ، واستيقظت من جهالتها. إنّ الحقائق العلمية لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً إنه العالم كلّه ليخضع للعلم التجريبي والبراهين العلمية حتى يظهر ما ينقضها.

تسلّل اليهود إلى فلسطين، وتمكّنوا فيها بدعم من الصليبيين، وشرّدوا أهلها، واغتصبوا أرضها، وبدؤوا بالاعتداءات على البلدان المجاورة ليُحقّقوا سياستهم التوسعية، وفرضت بعض البلدان المجاورة الجندية الإلزامية على شبابها لردّ العُدوان والوقوف في وجه الطامعين، ورحّب السكان بهذا الإجراء، ولما بدأ التنفيذ ظهر التهرّب من الجندية الإجبارية، وكلّ يسعى

في دفع البدل النقدي حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه، والإلزام بالخدمة، وبعد مدةٍ بدأ النقد من أكثرية السكان لأن كلاً ينظر من خلال مصلحته، ويُفكّر في قضيته، ويُهمل قضية البلاد العامة ومصلحة الأُمّة. فهل نُلغي الخدمة الإلزامية حسب رأي الأكثرية، ونُعرّض الأُمّة للخطر أم نُبقي ما قُرر حسب رأي الأقلية؟. إن مصلحة الأُمّة لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً وإن الأُمّة كلّها لترضخ لما تقتضيه المصلحة.

قد يرى بعض الناس شيئاً في موضوع الجندية، ويرفضون تهرّب الأكثرية، غير أنه يُقنعهم رؤية الحُزن الذي يعمّ الأسرة عندما يذهب أحد أبنائها للجيش، والإقبال على دفع البدل فيما إذا أُعلن، وفرح الشباب وإسراعهم فيما إذا تمّ. وهناك نقطة أخرى يجب أن نعرفها، وهي أن رأي الفرد بينه وبين نفسه يختلف عن الرأي الذي يتحدّث فيه مع أقرانه ويتباين كلّياً مع الرأي الذي يُعلنه على ملإٍ من قومه أو حشدٍ من الجموع، فالرأي الإعلامي أو الجماهيري كلّ النّاس يُؤيّدون الخدمة، ويُحبون التطوّع للقتال، ويُضحّون في سبيل الواجب وما إلى ذلك من الكلمات الإعلامية وإذا كان كذلك فلماذا الرغبة في دفع البدل؟ ولماذا السعي في عدم الذهاب إلى الجبهة والبقاء في المكاتب داخل المدن عند تأدية الخدمة؟ ولماذا السفر إلى الخارج وقضاء خمس سنوات من أجل دفع البدل؟ ولماذا الانزعاج في الأسرة كلها عند التحاق أحد أفراد الأسرة بالجيش؟ و. . . وربما يقول بعضهم: يحدث هذا فعلاً ولكن بسبب ضعف الإيمان، وعدم وجود الجهاد، والأوضاع السائدة، وموضوع الاحتفاظ، وقضية الاحتياط و. . . تعلّات وتعلّات والرأي الشخصي وما يجول في النفس غير هذا كله ينطلق من المصلحة الفردية. إنَّ مصلحة الأُمّة تقضي وجود الخدمة الإلزامية وإنا لنطالب بالإصلاح وتحقيق أمر الجهاد.

فإذا كانت أُمور الدين، والعلم، ومصلحة الأمة لا تنظر إلى موضوع الأكثرية والأقلية فماذا بقي كي نُعطيها أهميةً، ونبحث فيها، ونتحدّث عنها، ونعدّها أمراً مُهمًّا؟ وقد يسأل بعضهم: لماذا فصلت العلم ومصلحة الأمة

عن الدين وهما منه؟ فأنا لم أفصل ولكن للتوضيح وتسهيل المناقشة.

ونعود إلى موضوع الانتخاب لنرى قيمة الأكثرية لنحكم على الانتخاب ووزنه الحقيقي سواء أكان في الحكم أم في السياسة أم في التنظيم. إنّ الشعب ليس كلّه في مستوىً واحدٍ وإنّ الأكثرية فيه دون المستوى المطلوب، وعندما ندعو إلى الانتخاب نُساوي بين الأصوات، صوت العالم المُفكّر الذي يُقلّب الأمور، ويُوزنها بالعقل وبين صوت الجاهل الذي لا يعرف شيئاً ولا يُقدّر النتائج ولا ضير عنده أن يُعطي صوته لمن يدفع، أو وراء مصلحةٍ ينتظرها. أيّ عقلٍ يقبل هذه المساواة؟ وأيّ منطقٍ يتوقّع الحصول على نتائج سليمةٍ؟

ما دامت الأكثرية دون المستوى المطلوب فيمكن توجيه هذه الأكثرية بالقرابة، بالصداقة، بالعاطفة، بالمال، بالسياسة، بالضغط، بالخوف... ونحن نعلم الأموال الكثيرة التي يبذلها المرشحون لكسب الأصوات، أصوات العامة، فتكون النتائج إذن نجاح ممثلي المال لا ممثل الشعب، ونحن نعلم في الولايات المتحدة كيف تفعل أموال الأثرياء دورها! وينجح ممثلوها حفاظاً على الرأسمالية ونظامها ـ على حدّ زعمهم ـ. ونعلم كيف تفعل أصوات اليهود، وأثرها على نجاح مُؤيّديها لبقاء السياسة الأمريكية موافقةً لإسرائيل ودعمها بالمال، ومدّها بالسلاح، وتنفيذ سياستها، وتحقيق مطالبها، فأين رأي الشعب؟ ومن يحكم الشعب؟ هل الشعب أم المال والسياسة العامة المتفق عليها مسبقاً، والمساومات؟

وفي الإمبراطورية الروسية يحكم الحزب الشيوعي الذي لا تزيد نسبة أعضائه على ٥٪ من سكان الإمبراطورية، ومع ذلك فهو يتسلّط على السكان كلّهم. أفراد الحزب الشيوعي وحدهم الذين يحقّ لهم الترشيح، ومنهم وحدهم يتألّف المجلس، والأعضاء الكبار منهم هم الذين يرسمون السياسة الروسية، ويُبذّرون المال، ويبزّون بذلك أكبر الرأسماليين. هؤلاء وأولئك يدّعون أنهم يُمارسون الحُكم الديمقراطي أو حُكم الشعب بأوسع معانيه، فإن كانوا صادقين فتعساً له من حُكم، وإن كانوا كاذبين فتبًّا لنظامٍ

يقوم على الكذب. والشعب يُسحق في الإمبراطورية الروسية باسم الديمقراطية، ويُمنع من الحصول على أولى الحقوق وأدنى الحريات، فيُمنع من حقّ الملكية، ويُحرم من ممارسة الشعائر الدينية، بل وتُداس مُقدّساته، ويُهان، ويُذلّ حتى ولو أظهر الشيوعية إن لم يكن من النصارى الأرثوذكس الروس. وفي الولايات المتحدة تُصاب فئة الرأسماليين بالتُخمة، وتلعب دورها في السياسة، وتُقاسي فئة الفقراء شظف العيش وحياة الذلّ والشقاء. وفي الإمبراطورية الروسية يُعدّ الروس مواطنين من الدرجة الأولى بشرط أن يكونوا نصارى ومن الأرثوذكس، وما عداهم فهم من الدرجة الثالثة أو الرابعة، ولا يعرف ترتيب درجة المسلمين، وعلى كلٍ تأتي في مؤخرة الترقيم. وفي الولايات المتحدة يُعدّ البيض من النصارى من مواطني الدرجة الأولى وغيرهم من درجات أخرى إضافةً إلى التمييز العنصري بين البيض والسود.

ليس الحزب الشيوعي في الإمبراطورية الروسية هو الذي يتسلّط على الحكم في بلاده بل ويُشاركه كلّ الأحزاب الشيوعية في البلدان التي تُسيطر فيها الشيوعية، إضافةً إلى البلدان التي يحكمها حزب واحد سواء أكان ذلك في البلدان المتطوّرة - حسب تصنيفهم - أم في البلدان المتخلّفة وهو الغالب. فأفراد الحزب هم المُتسلّطون، والدولة نهب بين المتنفّذين فيهم، وبعد ذلك يدّعون الديمقراطية إذ يجمعون أعضاء حزبهم الذين يختارونهم باسم «انتخاب» في مكان يُسمّونه «مجلس نيابي»، ويتلقون التعليمات فيوافقون عليها بالإجماع، أو يأخذون عليها التواقيع باسم «جلسات نيابية». وهذا ما نراه مُطبّقاً، ولا يقبله عقل سليم، وإن كان كلّ يتغنّى باسم نظامه، ويدّعي أنه المثالي.

ويجب ألا ننسى توجيه الدولة، والخوف من الضغط، لذا تقوم أحياناً حكومات حيادية مؤقتة للإشراف على الانتخابات، ومع ذلك لا تنجو من التوجيه، وفي الغالب يكون ما تراه الدولة.

إذا كانت الأقلية والأكثرية لا وزن لها، وأن ما يُدّعى أنّه ديمقراطي

«حكم الشعب» لا قيمة له، وأن نظام الانتخاب المعمول به لا يصلح، ولا يصحّ اتباعه، وأن ما يُطبّق قائم على فساد. فأي نظامٍ يصلح؟ وما هي طريقة تنفيذه؟. إن النظام الإسلامي هو النظام الذي يصلح للبشر، فالله الذي خلق الإنسان أنزل له ما يصلح له، وهذا المنهج يصلح للبشرية في كل مراحل نموها وارتقائها. ومع فارق التشبيه فإن الذي يصنع آلته، يكون أدرى بها من غيره، وهو الذي يضع طريقة إدارتها ونظام صيانتها وما يمكن أن ينشأ فيما بعد تشغيلها مدةً كذا، وبعد كذا و. . .

إن نظام الحكم في الإسلام يعتمد على مبدأ الشورى. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]. و﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2] ليست الشورى أن يُسأل كل فردٍ، وإنما يُستشار أهل العلم والرأي والحكمة، كما يُسمع من كل من يُبدي رأياً أو يَعرض فكرةً، والمستشارون هم أهل الحلّ والعقد، وهم الذين يستشيرهم الخليفة، ويُقلّب وجهات نظرهم، ثم يُعطي رأيه، ويأمر بتنفيذه. واختيار أهل الحلّ والعقد، هو الأساس في النظام الإسلامي لا الانتخاب، وهم أساس التوجيه واستنباط الأحكام في النظام الإسلامي لا المجلس النيابي القائم في أعراف اليوم.

يُختار أهل الشورى أو الحلّ والعقد من أهل العلم في أرجاء الدولة الإسلامية كلها. اختيار يتعلّق بالإيمان لا بالرغبة، ولا الترشيح، ولا دفع المال، ولا كثرة الأنصار، وأعداد القبيلة وكلّ ما يرتبط بالمادة والمصلحة وحبّ الزعامة. وقد لا يرغب أكثرهم في اختيارهم بمجلس الشورى والانتقال إلى مقرّ الحكم ولكن المصلحة العامة تقتضي ذلك، فيضطرون إلى الموافقة إن لم يُجبروا عليها، ويُعطون آراءهم بما يرونه أو يستنبطونه

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

من القواعد الأساسية للإسلام، لا بما تقتضيه مصالحهم، أو شهواتهم، أو مصالح ناخبيهم، أو أهواء قبيلتهم، أو سياسة دولتهم أو... وقد يقع الخلاف في الاجتهاد والتباين في الاستنباط، وهذا ما يُعرض على أمير المؤمنين أو الخليفة أو الأمير أو ما نراه من أسماء فيرجّح رأياً على آخر، ويحكم به، وهو لا يأخذ برأي أكثريةٍ أو أقليةٍ وإنما ما يتراءى له على أنه أقرب إلى الصواب، أو أنه يُحقّق فائدةً للمجتمع أكبر. ويحكم هذا كله نقطتان رئيسيتان أولاهما النظام المعتمد على كتاب الله وسنة رسوله الكريم إذ لا يصحّ أن يخرج عنهما أيّ حكم مهما كان، إذ يُعدّ خارجاً على الدستور، وأُخراهما الإيمان، فإذا ما اَختلفت الآراء نتيجة الاجتهاد كان الإيمان هو الضابط لها، والموجه الرئيسي لها. ولا يمكن أن تتشعّب الآراء كثيراً ما دامت مُستنبطةً من مصدرٍ والدافع لها واحد، والأمير نفسه من أهل العلم وغالباً ما تتفق الآراء وتكون منسجمة.

ويقضي نظام الشورى على الانتخابات ومساوئها، من بذل الأموال وشراء الأصوات، والضغوط التي تُمارس، وإرباك الدولة، وإقامة حكومةٍ محايدةٍ تُشرف على الانتخابات كي لا تُوجّه، وتأخير بعض الموضوعات لانتظار نتائج الانتخابات، وتغيير السياسة فيما إذا نجحت فئة جديدة إضافةً إلى تغيير الموظفين تبعاً لأهواء المتسلّمين السلطة الجدد. وتأثُّر السوق التجارية بنجاح فئةٍ لها سياسة معينة، والصراعات داخل المجلس، وتحكّم الأهواء، واتخاذ وسائل غير شريفة في سبيل الكسب السياسي والوصول إلى السلطة وما إلى ذلك من الأمور السيئة التي تنتج عن الانتخابات، وقضية الأكثرية والأقلية، وما يُطلقون عليه «حكم الشعب».

[١٤] الحُكم

لكلّ أُمةٍ نظام تسير على هداه يُحدّد صلاحية المسؤول، ويُبيّن واجباته، ويُوضّح طريقة الإدارة، ويُعيّن أسلوب الحكم وقواعد السلطة. كما أنّ لكلّ أُمّةٍ منهجاً اجتماعياً يسود بين أفرادها، وغالباً ما ينبع من عقيدتها، كما لها منهاجاً اقتصادياً تختاره لنفسها سواء أكان من وضع أبنائها أم مستورداً من غيرها أم مجموعاً من هذا المنهج ومن ذاك فهو مزيج. وغالباً ما يختلف المنهج عن النظام وليس هناك من رابطٍ يجمع بينهما سواء أكان من حيث الأصل أم في طريقة الوضع، وغالباً أيضاً ما يكون كلاهما من وضع البشر لذا فالنظام والمنهج على حدٍّ سواء يتغيران باستمرار لأنهما وضعَا وفق مصالح المُشرّعين وحسب أهوائهم فإذا ما تغيّر المشرّعون أو تبدّل الموجّهون كان لزاماً تغيير القوانين والأنظمة والمناهج، ومن هنا فالقوانين الوضعية مُتبدّلة باستمرار.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن قوانين الحكم الوضعية لا توجد فيها أيّة اتصالات بينها وبين عقيدة الشعب، فقد تُحرّم العقيدة الزنا لكن ليس هناك ما يمنع أصحاب السلطة من ممارسة ما حرّمته العقيدة من زنا أو كذب أو غشٍّ أو قتلٍ أو.... ويتّخذون الجملة الرائجة الباطلة قاعدةً لهم «دع ما لقيصر لقيصر ومالله لله» ويقصدون بقيصر الحياة الاجتماعية، ويقصدون بـ (الله) العبادة أو الكنيسة، ففي الكنيسة أو المعبد يتعبّد المرء ما يشاء، وخارج الكنيسة يفعل الإنسان ما يُريد. أو يقولون: الدِّين لله والوطن للجميع، وهي جملة باطلة ورائجة أيضاً، ويكاد يكون معناها معنى الجملة السابقة نفسه، تتعبّد الله كما تشاء، أما الوطن فلا علاقة له بعبادتك وتشترك ومن يعيش فيه لخدمته - على زعمهم - ويمكن للناس فيه أن يعبدوا صنماً أو عجلاً،

أو عبداً، أو يُفسدوا عقائد غيرهم بالإغراء، والمال والشهوة، أو يتكلموا بالكفر أو يكتبوا كفراً، ولا يمكنك أن تفعل شيئاً باسم الحرية، وباسم الدين لله والوطن للجميع.

أمّا الأُمّة المسلمة فتختلف عن غيرها من الأُمم في دستورها أو نظام حكمها ومنهجها الذي تسير عليه فهو أولاً مُنبثق من عقيدتها التي نظّمت حياة الفرد والجماعة تنظيماً دقيقاً، وبحثت كل نقطةٍ فيها منذ أن يُولد الفرد حتى ينتقل في الدنيا، ومن خلوته بنفسه أو مع أهله حتى أكثر القضايا تعقيداً من ا لحياة، ودرست أمور الجماعة من التقاء الفرد مع أخيه حتى أصعب جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وثانياً هو من عند الله، ومعنى ذلك هو:

١" - بعيد عن الأهواء والشهوات ومحاباة فردٍ، أو جماعةٍ، أو فئةٍ، أو تنظيمٍ، أو شعبٍ، أو لونٍ، أو عنصرٍ، أو أبناء قارة أو....

٢" - ثابت لا يتغيّر بتبدّل الزمن أو البيئة.

٣" - واحد لا اختلاف ولا تناقض فيه.

٤" - صالح للبشر لأن الذي خلق الخلق وفطرهم بطبيعتهم التي هم عليها، هو الذي أنزل لهم ما يصلحُ لهم، فهو الخبير بشؤونهم، العليم بفطرتهم، الحكيم بطبعهم الرحيم بهم. بل لا يصلُح للبشر غير ما أنزل الله، لأنه يكون من وضع المخلوقين المختلفين بطباعهم، المتفاوتين بمصالحهم، المتباينين برغباتهم وشهواتهم، فينشأ كلّ نظام يختلف عن الآخر ويُناقضه، ويتفق مع الذي صاغه أو مع الذي وجّهه لصياغته، فقط.

٥" - متكامل يُتمّم كلّ جانبٍ بقية الجوانب، ولو أعرضنا عن حانب لظهر شيء من الخلل كالبناء القائم على أركان فلو رفعنا ركناً لاختلّ البناء بل لو رفعنا لبنةً من جدار لظهر شيء من العور، وبالمقابل لو ظهر السفور في المجتمع المسلم لبدا الفساد وانعكس ذلك على المجتمع، ولأثّر على الاقتصاد، ومع الزمن يصل الأمر إلى العقيدة، وهو أساساً منها.

٦" ـ مترابط لا يمكن الفصل بين جانب وآخر. إذ لا يمكن أن نقول: هذا للدين وهذا للدنيا، فالدنيا تُقابلها الآخرة لا يُقابلها الدين، إذ الدين للدنيا والآخرة. ولا نقول: هذا أمر تعبّدي وذاك أمر اجتماعي أو اقتصادي فكلّ خُطوةٍ يخطوها المؤمن نوع من العبادة إذ في الطعام عبادة ما دام المرء يقصد به التقوّي على طاعة الله ومرضاته، واللقمة يضعها في فم زوجه له فيها صدقة ما دام يقصد بها العفّة... وإحياء الأرض عبادة، والسعي على العيال عبادة، والجهاد في سبيل الله عبادة، وصلة الرحم عبادة وكل أمرٍ سواء أكان اجتماعياً أم اقصادياً أم إدارياً عبادة ما دام يقصد فيه الإخلاص والطاعة.

٧" ـ إيماني: ما دام المسلم مُؤمناً بالله، ويعتقد أن القرآن من عند الله وأن ما فيه من آياتٍ وأحكامٍ يجب تطبيقها فهي لم تنزل عبثاً ولا لهواً، ولا للتعبد في تلاوتها فقط، وإنّما للعمل بموجبها والتقيّد بأحكامها، كما يؤمن أن محمداً رسول الله، وأنّ ما يقوله وما يأمر به ليس من عنده ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[1]، فعمله وقوله وأمره واجب التطبيق والتنفيذ. هذا إيمان يقيني عند المسلم، ومن هذا الإيمان أن تركه أو الإعراض عنه كفر، وأن أخذ جزءٍ وترك جزءٍ كفر. وأن العبادة وإقامة الشعائر دون الأخذ بالمنهج كفر تُسأل عنه الجماعة، وعلى الفرد المطالبة بذلك والدعوة إلى ذلك، لأنه غير مسؤولٍ عن التنفيذ ما دامِ لا يملك سلطة، وصاحب السلطة هو المسؤول الأول، كما لا ينجو من السؤال من لم يعمل ويدعو.

ويُؤمن المسلم أنّ العبادة ركن أساسي من الإسلام، وليست وحدها هي الإسلام. وأن إقامة الحدود جزء من الحكم الإسلامي وليست وحدها هي الحكم الإسلامي. إن الحكم الإسلامي هو تطبيق منهج الإسلام في الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والصلات مع المسلمين خارج ديارهم،

(١) سورة النجم: الآيات ٣ ـ ٥.

ومع الأعداء وما يترتب على ذلك من نظم ومواثيق ومعاهداتٍ وجهادٍ، وإقامة الحدود، وتنفيذ أسلوب الحكم. وإن إقامة أيّ جانبٍ مهما كان مُهمًّا لا يعني تطبيق الإسلام. وإنّ إهمال أيّ جانبٍ مهما كان صغيراً يعني الإخلال بالنظام والمسّ به وهذا يعني عدم تطبيق منهج الإسلام. فالتطبيق يجب أن يكون كاملاً.

[١٥] التشريع والاستنباط

إن للأُمّة المسلمة تشريع لا يصحّ اتخاذ غيره لأنه من عند الله، والله الذي فطر البشر هو أدرى بما يصلُح لهم، فأنزل لهم بما يُوافق حياتهم. وهذا التشريع أو النظام ثابت لا يتغيّر مع الزمن، ولا يتبدّل حسب المكان، حيث فيه من الاستنباط ما ينسجم مع كلّ عصرٍ، وفي كلّ بقعةٍ. ولما كان من عند الله فهو لم يوضع تبعاً لمصالح أو أهواء، ولم يُشرّع حسب أمزجة بني البشر وما يعتريها من نزوات، كما لم يختلف حسب البيئات والأماكن، وهذا الفرق الرئيسي بينه وبين القوانين الوضعية التي صاغتها البشرية على اختلاف عصورها ودولها، إذ كانت ترتبط برغبات واضعيها، وأغراضهم لذا لم يلبث أن يظهر فيها العور، ويبدو الفساد فيُسرع الآخرون بنقدها ويعملون على إلغائها، ووضع قوانين غيرها، ويدّعون أن فيها الصلاح، ولكن لم تلبث أن تتغيّر بزوالهم، لأنها كانت تتفق ومصالحهم فقط، فإذا ما انتهوا انتهت صلاحيتها معهم، وهكذا عبر الزمن.

إن كلّ تجاوزٍ للتشريع الإسلامي فيه خروج على الدين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[1]. وكل حُكم بغير ما أنزل الله كفر وبغي وفسق وظُلم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٨.

ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[١].

لقد بعث الله لكل قوم رسولاً له وشرع له شرعة يحكم بها بين قومه، ثم أرسل محمد بن عبدَ الله عليه أفضل الصلاة والسلام للناس كافةً، فكانت رسالته خاتمة الرسالات وشاملةً لها، وفي الوقت نفسه ناسخة لها. وكان رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، ولما كانت خاتمة الرسالات فيجب أن تصلُح للبشر إلى نهايتهم وتُماشي نموّ حياتهم وتطوّرها وارتقاءها، وهذا ما هو كائن ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[٢].

وكان قوم كل رسولٍ مُلزمون عقيدياً بما أنزل إليهم من شرعةٍ وكلّ تجاوزٍ يُعدّ كُفراً ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٣]. ولما كانت رسالة

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

الإسلام ناسخةً لما قبلها فقد انتهى الحكم بما قبلها، وإن كانت شاملةً له، ويُلزم الناس بالنظام الإسلامي والحكم بما أنزل الله في القرآن وما أوحى الله به إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولما كانت رسالة الإسلام تُماشي نموّ الحياة وتطوّرها وارتقاءها فكان لا بدّ من أن يكون فيها من المرونة ما يُستنبط منها ما يُناسب كل ما يستجدّ في حياة البشر من اقتصادٍ واجتماعٍ وإدارةٍ، وهذا ما يستنبطه ويجتهد فيه أهل العلم، وهو أمر مع تطور الحَياة، إذ كثيراً ما تستجدّ أمور لم تكن موجودةً من قبل فمنِ الضرورة أن يُعطي أهل العلم رأيهم فيه، كالمصارف التي تعمل كشركاتٍ مضاربة، والتأمين على وسائل النقل، وطرق انتقال المسلمين من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين وقضية جوازات السفر و... ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

وما دام نظام الإسلام من عند الله فهو واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض. إنه نظام متكامل لذا من الضروري تطبيقه كاملاً، ولكن لو أخذنا جزءًا وتركنا آخر لأصبح هناك اختلال، ولظهر فيه بعض العور ما دام يُكمل بعضه بعضاً ولظنّ بعض الجهلة أو الأعداء أن هناك اختلافاً فيه، أو لا يظلح في كل جوانبه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2]. إذن لا بدّ من تطبيق المنهج الإسلامي كاملاً كي تسعد البشرية وتشعر بارتفاع قيمتها، أما الأخذ بجانب العبادة وترك أمور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية أو الفصل فهو مخالف لأمر الله، وفيه كفر صريح. وهذا ما يظنّه كثير من الناس صحيحاً بل وحتى بعض المسؤولين يقولون: إننا نُؤدّي العبادة، ونُؤدّي الشعائر، وندعو لها، ونُقيم الحدود وبذا نطبق النظام الإسلامي. أعود لأقول إن النظام الإسلامي متكامل لا يمكن أخذ الجانب التعبدي وترك شؤون الحياة فالإسلام عبادة

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

ونظام لا يمكن الفصل بينهما، كما لا يمكن إقامة الحدود فقط ـ مع أهميتها ـ والإدعاء بتطبيق الإسلام، لا بدّ من تطبيقه متكاملاً، كيف نُقيم حدّ الزنا والاختلاط موجود، والسفور والتبرج مُنتشر؟ كيف نُقيم حدّ السرقة والفقر والجوع يعمّ البلد؟ كيف نُقيم حدّ السرقة على الفقير لأخذه القليل والمتسلّط يرتع بأموال الناس؟ كيف نُقيم حدّ الخيانة والنظام مرتبط مع الشرق أو الغرب؟ وهذه أمثلة على جوانب اجتماعية واقتصادية وإدارية.

إذن في النظام الإسلامي شرع الله هو المهيمن، ويستنبط أهل العلم أحكام ما يجدّ في حياة البشر، وتتكوّن لجنة من أهل العلم تُتابع الاجتهاد ودراسة القضايا المستجدة.

[١٦] الترف

تبرز الأُمّة عندما تجعل لها هدفاً تنطلق نحوه وتسعى جادّةً لتصل إليه وتسير بعدئذٍ إلى غايتها لتُحقّقها، وقد تكون الأهداف ماديةً دون غايةٍ كالمغول الذين انطلقوا من فيافيهم يسلبون وينهبون، ويحصلون على المغانم الكثيرة، ويقتلون ليصلوا إلى المزيد ممّا يطلبون، يُبيدون الأخضر واليابس، ويُهلكون الزرع والضرع، ويدمّرون المدن، ويُزيلون المعالم كي يقطعوا على خصومهم كل وسيلةٍ للتموين أو المقاومة، وهذا ما يُجبر العدو على الفرار أو الاستسلام، وبرز المغول، وأنشؤوا دولةً غير أنهم لم يتمكّنوا من الاستمرار لتأخرهم الحضاري ووجودهم وسط أمّةٍ ذات حضارةٍ فاعتنقوا عقيدتها، وذابوا فيها، وأصبحوا جزءًا منها.

وقد تكون الأهداف قتاليةً سواء أكانت هجوميةً أم دفاعيةً أم استنقاذية أو ردود فعلٍ لما تتعرّض إليه كما هي الحال في دول أوربا التي كانت كل دولةٍ تُحاول أن تقف في وجه تعدّيات الثانية، وتُحاول الانتصار عليها كي تُذلّها أو تسيطر على أرضها، أو كما هي حال الدول الضعيفة التي تكون أرضها محتلةً من قبل غيرها وتُريد التخلّص من ربقة الاحتلال فتبذل ما في وسعها للحصول على الاستقلال.

أما الأمة المسلمة فقد برزت بعقيدتها، وانطلقت تدعو إلى الله، وتنشر الإسلام، وتفتح البلدان للقضاء على الظلم وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وكانت لها غاية، ولم تقتصر على أهدافٍ ماديةٍ تتوقّف عند تحقيقها.

وتُوفّر الأمّة عند انطلاقها نحو أهدافها وغايتها كل شيءٍ لتُحقّق ما تُريد وتُقدّم كل شيءٍ لتحصل على ما تبغي، وإذا ضحّت بإخلاصٍ، وتقدّمت بصدقٍ بدأت تُحرز النصر، وتحصل على الفوز، وتكون في مرحلة نموٍ واتساعٍ، وبناء وتشييدٍ، وتستمر في ذلك ما دامت تسير على طريقتها الأولى عندَ انطلاقها، فإذا شعرت أنها قد انتهت من مُهمّتها، ووصلت إلى غايتها، ركنت إلى الأرض، وخلدت إلى الراحة، وبدأت تنسى ما قدّمت، وتغفل عمّا ضحّت، أو يكون الجيل الذي بنى وتعب، وشاد وبذل قد انتهى، ولم يشعر الجيل الذي جاء بما فعل السلف إذ عاش في الهناء والرخاء، ووجد نفسه في الخير يقطف ثمار ما زرعه السابقون. وغاية الأمة المسلمة لا تنتهي إلا بتطبيق منهج الله في الأرض كلها، واقتلاع الظلم وجذوره من الأرض كلها، لذا فعملها دائم مستمر ويجب ألا تعرف إلاّ الجدّ ، ولا تفكر بالترف.

يبدأ الجيل الجديد عهداً جديداً، فسادته حكام، والغنائم تأتيه من كل صوبٍ، والشعوب التي تخضع له في خدمته، والأموال التي تأتيه يستغلّها في جلب الناس لأمور دنياه من زراعةٍ، وصناعةٍ، وتعليم، وبناءٍ، بل وللخدمة في بيته والتصرّف بها كيف يشاء، وتكون الأمة قد وصلت إلى مرحلة الترف، وهي بداية الانهيار، والانتهاء من مرحلة البناء، وقد بدأت حياتها بالتراجع والتقهقر الذي يُؤذن بالضعف ثم الرحيل، وتغلّب الأعداء عليها. إذ لم يعد أبناؤها قادرين على مقاومة غيرهم إذ اعتادوا على حياة الترف، واسترخت نفوسهم لاعتمادهم على الخدم وعدم قيامهم بأيّ عمل، ولم يعد بإمكانهم الرجوع إلى حياتهم الأولى والتي كان يحياها آباؤهم. ومن هذا المنطلق يُحارب الإسلام الترف، ويُطالب العادة على حياة الخشونة، وإمكانية العيش في كل الظروف، وبمختلف الأسباب.

لقد ورد الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله وكلها في موضع الذمّ، وهذه هي آيات الله:

١" ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

٢" ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2].

٣" ـ قال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3].

٤" ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4].

٥" ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5].

٦" ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[6].

٧" ـ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[7].

٨" ـ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[8].

والمُترفون عادةً أكثر الناس استغراقاً في المتاع، وأقربهم إلى الانحراف بل في طليعة المنحرفين، وعدم التفكير في المصير، لأن كثرة

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.
(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٢٣.
(٨) سورة الواقعة: الآية ٤٥.

المال تدعو إلى السيادة، والخلود إلى المتعة والراحة، وتُيسّر عمل الفسق، فترتع فيه النفس وتستهتر بالقيم فلا تبالي فيها، وتتعاظم بمالها، كما تستهتر بأعراض الآخرين، وتُحاول أن تُعوض لهم عنها بالمال، إذ يصبح المال كل شيءٍ في مفهوم المُترفين. وبذا تفسد الفطرة، وتستجيب النفس لكل مفسدةٍ.

قد يكون الإنسان بالأصل طيباً صاحب خلقٍ ودينٍ إلاّ أن كثرة المال تُعميه عن الكثير مما حوله فلا يرى إلاّ ما يُفكّر فيه إذ يُريد في البداية أن يُقلّد المُترفين من أصحاب النفوذ، من المُجرمين الذين يحصلون على المال عن طريق الربا، والاحتكار، والزعامة، وعن طريق القمار، والزنا، والمُحرّمات كلها و. . . يريد أن يُقلّدهم بما يملك مُباهاةً وتفاخراً فيأتي بالخدم ويملأ بيته بهم نساءً ورجالاً، ويُعميه المال، وتُعميه المباهاة فلا يعرف ماذا يتمّ بين هؤلاء الخدم! ولا يعلم ماذا يتمّ بين شبابهم ونسائه! ولا بين نسائهم وشبابه! فهذه غرائز أودعها الله في النفس البشرية. ومن ثَمّ يُصيب البيت العفن ولا يدري، وينخر فيه السوس ولا يدري، ويسبح فيه الدود ولا يدري، ويصبح بُؤرةً للفساد وهو يظنّ أنه يُحسن صُنعاً، يُقدّم لأهله الراحة ويخدمهم. وإذا أراد أن يترك ما هو فيه ويرجع إلى ما كان عليه عجز لأن أجسام أهله قد ترهّلت فلم تعد تقوى على العمل، ونفوس أبنائه لم تقبل العمل لأنها لم تتعوّد عليه و. . . وتكون الطامّة، فمن أين نأتي بالمجاهدين والعاملين الذين يقومون ببناء الأُمّة وتقدّمها وتطوّرها؟ وقد فقدناهم بما أترفناهم فيه.

يُحارب الإسلام الترف ويُقيم نظامه على أساسٍ لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة. لقد كان الخدم مُتوفّراً في المرحلة التي فيها الإسلام، ويُشكّل الرقيق جزءاً كبيراً، وتُعد الحروب أكبر مصدرٍ للرقيق. غير أن الإسلام قد عمل على الحدّ من استعمال الخدم، وفي الوقت نفسه عمل على إلغاء الرقيق فجعل عتق الرقاب تكفيراً للذنوب، وتقرّباً إلى الله و. . غير أن القتال كان يمدّ المجتمع بأعدادٍ كبيرةٍ منه، ومع العتق الدائم

الكثير إلا أن أعداداً منه تبقى في المجتمع. ولكن الإسلام فرض على أتباعه العمل، والإحسان للخدم، وجعل الإيمان ضابطاً للتصرف.

قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه،: إن رسول الله ﷺ، لما زوّجه فاطمة بعث معها بخملةٍ، ووسادة أدمٍ حشوها ليف، ورحائين، وسقاءٍ، وجرّتين. فقال عليّ لفاطمة ذات يومٍ: والله لقد سنوت[1] حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبيٍ فاذهَبي فاستخدميه[2]. فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت[3] يداي. فأتت النبي ﷺ، فقال: ما جاء بك يا بُنية؟ فقالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال عليّ: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتياه جميعاً فقال عليّ: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد أتى الله بسبيٍ وسعةٍ فأخدمنا. قال رسول الله ﷺ: والله لا أُعطيكما وأدع أهل الصُفّة تطوى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكني أبيعهم، وأُنفق عليهم أثمانهم. فرجعا، فأتاهم النبيّ ﷺ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطّيا رؤوسهما تكشّفت أقدامهما وإذا غطّيا أقدامهما تكشّفت رؤوسهما فثارا، فقال: مكانكما، ألا أُخبركما بخيرٍ مما سألتماني؟ فقالا: بلى. فقال: كلمات علّمنيهنّ جبريل، تُسبّحان في دبر كل صلاةٍ عشراً، وتحمدان عشراً، وتُكبّران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحاً ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين. قال: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ رسول الله. فقال له ابن الكوّاء: ولا ليلة صفّين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفّين[4]. فسيّد البشر لا يرضى أن يُعطي أحبّ الناس إليه، ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وهي سيدة هذه الأمة خادماً.

---

(١) سنوت: استقيت.

(٢) استخدميه: اطلبي منه خادماً.

(٣) مجلت: تقطعت.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الثامن. فاطمة.

يُطالب الإسلام الفرد المسلم أن يعمل بنفسه، ويُشجّعه على ذلك، فعن المقدام، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود، عليه السلام، كان لا يأكل إلا من عمل يده»(١). وعن عروة بن الزبير قال: «قالت عائشة، رضي الله عنها،: كان أصحاب رسول الله ﷺ، عمّال أنفسهم، وكان لهم أرواح فقيل لهم: لو اغتسلتم»(٢). وإن كان لا بدّ من الخدم لسببٍ من الأسباب فقد طالب الإسلام بمساعدتهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون وليطعموا مما يأكل السيد، وليلبسوا مما يلبس، عن المعرور، رضي الله عنه، قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حُلَّة وعلى غلامه حُلّة فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلاً فعيّرته بأُمّه، فقال ليَ النبي ﷺ: يا أبا ذرٍ أعيرته بأُمّه إنّك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٣).

وقد جعل الإسلام الإيمان قيّماً على هذا وشاهداً فأصحاب الثراء من المسلمين يُنفقون أموالهم في سبيل الله، فلا تتكدّس عندهم الثروات، ولا يُخامر الفساد نفوسهم، فقد كان عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما، من كبار الصحابة، ومن الأثرياء ولكنهما كانا دائمي الإنفاق، ويتصدّقون، وكذلك أبو بكر، رضي الله عنه، وكل أصحاب المال من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين على مدار التاريخ.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، معروفاً بالتجارة، وبُعث النبيّ ﷺ، وعنده أربعون ألف درهم فكان يُعتق منها، ويُقوّي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة(٤). وكان

---

(١) أخرجه البخاري في باب البيوع، والأنبياء.

(٢) أخرجه البخاري في باب البيوع.

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٤) طبقات ابن سعد.

يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله، واشترى عاماً قطائف أتى بها من البادية ففرّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء[1].

قال عبد الرحمن بن خباب، رضي الله عنه، : «شهدت رسول الله ﷺ، وهو يحثّ على تجهيز جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفّان فقال: يا رسول الله، عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسها[2] وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان، فقال: يا رسول الله، عليّ مائتا بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثُمّ حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: عليّ ثلاثمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ، ينزل عن المنبر، وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[3]. وروى الأحنف بن قيس قال: «خرجنا حُجّاجاً، فقدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فبينا نحن في منازلنا نضع رحالنا إذ أتانا آتٍ، فقال: إنّ الناس قد اجتمعوا في المسجد وفزعوا، فانطلقنا، فإذا الناس مجتمعون على بئرٍ في المسجد، فإذا عليّ، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقّاص؛ فإنّا لكذلك إذ جاء عثمان وعليه مُلاءة صفراء، قد قنّع بها رأسه، فقال: أهاهنا عليّ؟ أهاهنا طلحة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا سعد؟ قالوا: نعم، قال: فإني أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع مربد بني فلان غفر الله له؟ فابتعته بعشرين ألفاً - أو بخمسة وعشرين ألفاً - فأتيت النبيّ ﷺ، فأخبرته، فقال: اجعله في مسجدنا وأجره لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع بئر أرومة غفر الله له؟ فابتعتها بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: قد ابتعتها بكذا وكذا، قال: اجعلها سقايةً للمسلمين وأجرها لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، نظر في

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأحلاس: الأكسية التي تكون على ظهور الإبل تحت الرجال والأقتاب.

(٣) أخرجه الترمذي في باب مناقب عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

وجوه القوم، فقال: من يُجهِّز هؤلاء غفر الله له؟ يعني جيش العُسرة - فجهّزتهم، حتى لم يفقدوا عقالاً، ولا خِطاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»[١].

وعن الزهري قال: «تصدّق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ، بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألف دينارٍ، وحمل على خمسمائة فرسٍ في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلةٍ في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة»[٢]. وعن الزهري أيضاً: «أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسّمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأُمّهات المؤمنين و. . .»[٣].

واستمر هذا السخاء يقوم به المؤمنون الصادقون لأنهم يخشون الترف ويعرفون مغبة ذلك، وسواء أوجد رجال بعد ذلك أم لا فإن أُسوتنا في صحابة رسول الله ﷺ، فهم الذين فهموا الإسلام وطبّقوه عملاً وسلوكاً.

تدفّقت الأموال على الدولة الإسلامية أيام الفتوحات الأُولى في عهد عمر وعثمان، رضي الله عنهما، وكان الإيمان قوياً في النفوس، فلم تؤثّر كثرة الأموال في نفوس المسلمين، فبُذلت في طرق الخير، وصُرفت في الوجوه المشروعة، وتوقّفت الفتوحات في أواخر عهد عثمان، رضي الله عنه، وتوقّف معها تدفّق الأموال، ولم يتغيّر شيء في طبيعة المسلمين. وعادت الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك بعد أن استقرّت الأوضاع الداخلية، وعاد معها تدفّق الأموال والسبايا، وبشكلٍ أوسع من المرحلة الأُولى، وأثّرت هذه الأموال تأثيراً طفيفاً يتناسب مع التساهل الخفيف الذي حدث في هذه المرحلة بالنسبة إلى العقيدة، ومع ذلك فلم يبدو هذا الأثر على الحياة العامة.

---

(١) أخرجه النسائي في باب الجهاد.

(٢) أخرجه الطبراني في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، وهو في الإصابة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده.

وجاءت الدولة العباسية، لم يظهر أثر الترف في أول عهد الدولة بسبب الجهد الذي بذله أوائل الخلفاء لاستلام السلطة، وبعدئذٍ توقّفت الفتوحات نهائياً، وانصرف الناس إلى حياتهم الخاصة، وظهرت الدويلات نتيجة تجزؤ الخلافة، وركن السكان إلى الأرض، وأخلدوا إلى الراحة، وبدأت تظهر بوادر الترف، فانتشرت الموسيقى، وكثر الغناء، وغدت الجواري في القصور، وشيدت الأبنية الفخمة، وأُطلق على هذا اسم الحضارة، وأخذت الأُمّة تُؤذِن بالأفول.

وجُلب الزنج من الصومال إلى جنوبي العراق للعمل في المزارع والبساتين، وكثرت أعداد الذين جُلبوا، فكانوا يعيشون حياةً ملئها التعب والشقاء، وسادتهم على الأرائك مع نسائهم والجواري، يكدّ العامل في لظى الشمس المُحرقة، وسيده في الظلال الوارفة، فنشأ نوع من الحقد، العامل يستثمر ولا يأخذ، ويشقى لغيره فيثور في نفسه الحسد، وتثور كذلك الغريزة لما يرى، ولا يملك من الأمر شيئاً فلا أهل له، وهو في فورة الشباب، وثورة الطيش، وطفرة الجنس، واستغلّ هذا الشياطين من أصحاب الأغراض والذين يعملون في الخفاء، فحدثت ثورة الزنج، وفعلت ما فعلت بالمنطقة، وأعقبتها حركة القرامطة، ولا تختلف عنها في استغلالها للجنس والمال، فدعت إلى الشيوعية فيهما فأقبل نحوها الجهلة المحرومون الذين داسوا القيم بسبب ما يُعانون، فالضغط لا يُولّد إلاّ الانفجار و. . . .

وداعب النوم عيون الأمة فتهدّلت أجفانها وكادت تستسلم للنوم فما أيقظها إلا جنود الصليبيين يترنّمون بانتصاراتهم فتحرّكت حركةً خفيفةً تمكّنت من طردهم، وما كادت تعود إلى سُباتها حتى حرّكتها جحافل المغول تجوس ديارها فاهتزّت قليلاً، وذابوا فيها، ثم عادت تغطّ في نومها حتى سيطر عليها الصليبيون تارةً أخرى باسم الاستعمار فاحتلّوا الأرض، وبسطوا نفوذهم على السكان، وبدؤوا يُخطّطون لإزالة ما بقي في الأُمّة من عقيدةٍ خوفاً من أن تُحرّكها فتنتفض.

وضع الصليبيون المستعمرون المخططات، ومنها ما نحن في صدده

الترف، إذ أغرقوا من اصطفوا بالترف بعد أن سلّموهم المقاليد. ووضعوا نصب أعينهم أن يفيدوا مما يأتي:

١" ـ إغراق هؤلاء بالمفاسد كي تعمى أبصارهم عن كل شيء. ولو نظرنا إلى الترف الموجود عندنا لما وجدنا له في العالم مثيلاً، فلا يُوجد في أكثر بلاد الدنيا غنىً وفساداً ما يوجد ما يعمر بيوتنا وقصورنا من جموع الخدم، والعمال، والأتباع، وما يُنفق فيها من الأطعمة، ويُبذل من العطايا والهباب.

٢" ـ إغراق أكبر عددٍ من الشعب بهذه المفاسد عن طريق التقليد إذ يعمل الناس على تقليد كبرائهم وأصحاب النفوذ فيهم.

٣" ـ نعت ذلك كله بالإسلام إذ أن هذه العناصر تنتمي إلى الإسلام، إن لم تُصرّح بالعمل له، والواقع أن هناك براءة من كل طرفٍ للآخر.

٤" ـ ويجب ألا ننسى المظالم التي تُرتكب خلف هذا كله، ووصم الإسلام بذلك أيضاً، ونشر الدعايات في بلاد الأعداء.

٥" ـ تحقيق أهداف الأعداء من يهودٍ وصليبيين من السيطرة، والدعاية ضد الإسلام، وإيجاد الأتباع، وأخذ الخيرات، وإبقاء أصحاب النفوذ في غفلةٍ يعمهون، واستمرار هذا الوضع.

ولما كان المترفون قد استمتعوا بالدنيا غير حاسبين فيها للآخرة حساباً، ولا شاكرين لله نعمته، وغير وجلين من جزاء، ولا مُتورّعين عن ظُلم أو فُحشٍ أو حرام، واشتروا شهوات الدنيا بما أعدّ الله للمُتّقين، فقال الله في أمثال هؤلاء المترفين: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٠.

[١٧] الحضـارة

الحضارة هي تطوّر الوسائل المختلفة التي تُحقّق خدمة الإنسان ورفاهيته، وتختلف الحضارة باختلاف تطوّر هذه الوسائل وباختلاف مفهوم خدمة الإنسان. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطوّر وحدها، ويعدّون طلب الملذات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه وحب الشهرة تقع كلها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون بها عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أيّ ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمعٍ كاملٍ أو قتل أفراد أُمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدّون الوسائل التربويةَ والمادية هي المجال للتطور ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشريفة للحصول على الرغبات هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أمّا الوسائل غير الشريفة فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدّمٍ وتطوّرٍ للوسائل، وتهدم بالتالي ما بُني من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل لهو من نتائج تصوّر الناس للحياة وبيان مُهمّتهم فيها. وهذا ما تقدّمه العقيدة. فالعقائد المادية تُبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحقّ أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادعٍ، وكل يُسمّي ما يعتقده حضارة، أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حَدًّا يقف عنده، وبحث في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدّي دوره في الحياة كاملاً، فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسمها لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم

فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط فينشأ التطوّر، ويحدث التقدّم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مُهمّة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس الحقّة كانت هناك حضارات مختلفة.

ولما كان الإسلام يعدّ الإنسان مُستخلفاً في الأرض كان عليه أن يقوم بإعمارها حقّ القيام، ويُؤدّي مُهمّته التي أُنيطت به حقّ الأداء. ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لذا فقد كان على الإنسان القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما في الأرض أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية وما يتبعها في كلّ ما يتعلّق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلاتٍ، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم وحماية سيرهم وقوافلهم، ولعلّ هذا آخر ما بقي من آثار الحضارة الإسلامية، وإذ كانت الدولة تبني مسافة كلّ ٤٠ كيلومتراً تقريباً بناءً يأوي إليه المسافر، ويحصل فيه على الطعام، والشراب، والنوم، وكلّ وسائل الراحة بلا مُقابل، بل ويُقدّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاورٍ للبناء الأول، ويخصّص للرواحل... وكانت المسافة هذه تسمى بالمرحلة أي مسافة ما يقطعه المسافر برحلته يوماً واحداً، وعرفت هذه الأبنية فيما بعد باسم «الخانات» نسبة إلى الأمير.. الذي يُطلق عليه اسم (الخان) وذلك في عهد التتار والأتراك... ولا يزال الكثير منها حتى هذا اليوم مثل «خان يونس» و«خان أرنبة» و«خان الشيح» و«خان ذا النون» و«خان ميسلون» و«خان شيخون» و«خان البطيخ» وغيرها كثير... هذا على الطرق الرئيسية التي تصل بين المدن، أمّا في داخل المدن فتوجد مثلها تُؤمّن الراحة للمسافرين والغرباء، وتُبنى من طابقين الأعلى منها للمسافرين، والأسفل

للرواحل، ولكن لا يحقّ أن يبقى المسافر في هذه أو تلك أكثر من ثلاثة أيام... وآثار ما كان منها في المدن لا يزال أيضاً، ويعرف بالاسم الأول نفسه «الخانات» وما من مدينة إلا وفيها عدد منها... مثل «خان الخليلي» في القاهرة، و«خان الباشا» في دمشق وغيرها... بل وصلت العناية بالمسافرين والتُّجار إلى أكثر من ذلك إذ كان في بعض المدن «دور للثياب» تؤمّن لهؤلاء ثياباً بدل ثيابهم فيما إذا مزّقت أو أصابها أذى، ولا يُقابل ذلك سوى الثياب القديمة...

ولمّا كان الإسلام يهتمّ بالإنسان بالدرجة الأولى ويُكرّمه ويهتمّ بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتمّ بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يتعلق فيها من شوائب وخرافات، وحرّر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيم، وطيرة، وهامة، ومنع كل ما يحول دون انطلاق فكر المسلم وتحرّره من كل قيد يُمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات والظلم والاستبداد. فالإسلام حرب على الظلم أينما وُجد، وحرب على الظلمات من أيّ مصدرٍ جاءت.

أما من الناحية الصحية فقد حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمومٍ ومُسكراتٍ ومُخدراتٍ، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات وهي نار جهنم. واعتنى بصحة الأفراد، وقد أُقيمت في الدولة الإسلامية المشافي التي تقبل كلّ مريضٍ، وتُقدّم له العلاج اللازم والدواء والعناية به حتى إذا عوفي كانت مسؤولةً عن وصوله إلى سكنه.

ومع صحة الإنسان فقد اهتمّ الإسلام بالحيوان، ورفق به رحمةً به وحرصاً عليه وعلى صحة البشر الذين قد يتضرّرون، ويُؤذون من جراء ذلك، ولقد وجدت أماكن رعويةٍ للحيوانات التي يُصيبها العجز فيضطر أصحابها إلى تركها، فخوفاً على الناس من أن تموت تلك الحيوانات ويتضرّرون من روائح الجيف وما يكون من تفسّخها من أمراضٍ وأذى، لذا فقد أنشأوا لها تلك الأماكن التي فيها أعشاب للحيوانات والتي يمكن أن

ترعى فيها سائمةً، وحظائر لتلك التي تعجز عن الحركة فإذا بلغت دابة أحد الناس تلك المرحلة من العجز أخبر أولئك المُشرفين على ذلك المكان فجاءوا إليه، ونقلوا دابته، فإذا ما ماتت نُقِلت إلى مكانٍ بعيدٍ في البادية لتأكلها وحوش الفلاة وطيور البر، أو وُريت بالتراب... وهذا كله رحمة بالحيوان وحرصاً على صحة الإنسان، ولعلّ آخر ما بقي من تلك الأماكن «مرجة الحشيش» المعروفة بدمشق، والتي أُقيم مكانها معرض دمشق الدولي.

ولقد اهتمّ الإسلام بمساواة الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس الغنى والفقر أو الأصول والبيئات أو المسكن والمكان أو المهنة والعمل حتى لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفتهم أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ: «يا أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[١].

واهتمّ الإسلام بنشر العدالة بين الرعية ففرض تأدية الزكاة للدولة، والدولة بدورها تُؤدّي المال للفقراء حتى لا تكون مِنّة من غني على فقير، كما أمر بالصدقة والتعاطف والتراحم بين الجوار والأرحام ثم بين المسلمين جميعاً، فقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لأفرادها، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغض النظر عن عقيدة الأفراد الذين تُصيبهم هذه الحالات.

---

(١) من خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

واهتمّ الإسلام بالعدل وعدم النظر إلى منصب الأفراد، فالخليفة فرد من المجتمع يقف أمام القاضي، فيُقضى له أو يُقضى عليه، وما هو بأفضل فردٍ في المجتمع، فيقول أبو بكر رضي الله عنه عندما وُلي الخلافة: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. . .».

ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف كما يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعاتٍ للدولة إلا إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلّف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتمّ المسلمون ببناء القصور المنيفة، والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة حتى لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغنيّ نظرة الحقد، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيّام المُتأخّرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه. . .

وطالب الإسلام أُولي الأمر بالتواضع وعدم الترفّع عن الرعايا وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلا أنه خصّ أُولي الأمر منهم فهم أحقّ بغيرهم في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك.

ولو أردنا أن نتحدّث في كل الجوانب التي اهتمّ فيها الإسلام بالإنسان لطال الموضوع ولاحتاج الأمر إلى مجلدات، وليس هذا بحثنا الآن، وإنّما لإعطاء فكرةٍ عامةٍ، وهي تقودنا إلى:

١ " ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً، ولا تعدّها حضاراتٍ وإنما علوم وفنون.

٢ " ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة قائمة بذاتها نبعت من العقيدة الإسلامية لذا فهي تختلف تمام الاختلاف عمّا سبقها من بناءٍ وعلومٍ وفنونٍ، ولم تستفد مما حدث قبلها إلا بأمورٍ جزئيةٍ لا وزن لها، على عكس ما يُردّده الأوربيون وتلامذتهم من المستغربين والمستشرقين من أن الحضارة

الإسلامية قد أخذت ممّا كان عند الإغريق والرومان وسكان الشرق الأقدمين من علومٍ، وترجمت كتابتهم، وأضافت إليها بعض البحوث، ثم أوصلت ذلك إلىَ الأوربيين الذين قد أخذوا تلك الحضارة عن المسلمين، فهم قد ساروا على نهج أسلافهم القدامى، ولم يكن للمسلمين من فضلٍ سوى أنّهم قد أوصلوا للأوربيين حضارة أسلافهم ونقلوها إليهم، وحتى أصبح يرى بعض الأوربيين أنه من الأفضل العودة إلى حضارات الإغريق والرومان القديمة دون النظر إلى ما قدّمة المسلمون وذلك في سبيل دعم رأيه، والبرهان على صحة قوله.

إن الحضارة الإسلامية تنبع من نظرة الإنسان للحياة، ومُهمّته فيها، وما يُحقّق للنفس من سموٍّ، وما يُؤمّن للمجتمع من سعادةٍ ورفاه على حين أن بقية الحضارات مادية بعامة تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يُحقق فيها لنفسه من ترفٍ وما يتمتّع فيها من ملذاتٍ وما يُحقّق من شهواتٍ وشهوةٍ وبناء عزٍ.

٣" ـ أن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها أيّام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، رضي الله عنهم، أي من عام ١ ـ ٤١هـ حيث عاش الناس في هذه الأيّام في سعادةٍ تامّةٍ ورخاء، وكانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى، على الرغم من عدم وجود الآثار عن تلك المدة، وعدم وجود التآليف والدراسات والبحوث والترجمة التي يُوليها الماديون المكانة الأولى، لأن المسلمين الذين عاشوا في تلك المدة كانوا يهتمّون في جوانب أسمى وأعلى بكثير من هذا كلّه حيث كانوا يُولون التربية كل اهتمامهم إذ هي البناء الأول الذي تقوم عليه الحضارة وأنه لا سعادة للمرء إن لم تكن له حرية، ولم يشعر بالرخاء إن لم يكن على صلةٍ حسنةٍ بأفراد مجتمعه الذين يعيشون معه، وإن الدراسات والبحوث إنما هي ثمرة ذلك الصرح المجيد الذي شاده المسلمون الأوائل، ولو لم يبنوا صرحه من قبل لما حدث ذلك العلم والتطوّر فيما بعد، فالعلوم والفنون إنما هي ثمرة الحضارة وليست هي

الحضارة بالذات، فالبناء له غاية يجب أن يؤدّيها سواء أكان خيمةً في بادية أم بيتاً في قريةٍ أم قصراً مُنيفاً في مدينةٍ، أما ما يُفرش فيه من أثاثٍ وما يُعرض فيه من زينةٍ فهذا أمر آخر وليس الأثاث والزينة هما البناء أو يُؤدّيان مُهمّته، وكذا العلم والفن وغيره...، ولذا الحضارة لها غاية إنسانية ترتبط بسعادة الإنسان، أما الجوانب الفنية فأمور أخرى، فالقنبلة الذرية كانت نتيجة علم عظيم، ولكن لا تدلّ على حضارة إلاّ إذا استُخدمت لخدمة البشر، أمّا إذا استخدَمت لهلاك الإنسانية فهي عنصر هدّام... ولو قلنا لسكان مدينة (هيروشيما) في اليابان ـ وهي المدينة التي أُلقيت عليها القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية... لو قلنا لهم: إن القنبلة الذرية كانت نتيجة الحضارة لأنكروا ذلك علينا لأنهم ذاقوا منها الويلات.

ويحرص الغربيون والماديون عامّةً أن يقولوا: إن الحضارة الإسلامية كانت في أوجها في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي للتأكيد على الجانب المادي والفني إذ وُجد الغناء والموسيقى، والغزل بالمؤنث والمذكر على حدٍ سواء، وتسلّط الجند على الشعب، وعادت العصبية تذر قرنها من جديدٍ، وفي الوقت نفسه قامت الأبنية، وشيدت القصور، وظهرت الدراسات، وعلوم الحديث والفقه، والتاريخ والجغرافيا، وحدثت الترجمات... وكلّ هذا التأكيد على هذه المدة إنما هو في سبيل إعطاء الحضارة الإسلامية الصفة المادية وترك الجانب الروحي الذي حرض عليه الإسلام وعدم الاهتمام بالنفس البشرية التي أولاها الإسلام الجانب الأول، ومن ناحية أخرى إنما هو إعطاء الحضارة الإسلامية الجوانب التي لا يقرّها الإسلام من غزلٍ وموسيقى وغناءٍ وجورٍ واستبدادٍ، ومحاولة إلصاق هذه الأمور بالإسلام عن مكرٍ وتخطيط.

٤" ـ أن الصروح التي شادها القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصورٍ، وهياكل وأهراماتٍ، ومعابد ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةً لا ينظر إليها المسلمون على أنها حضارات لأنها لم تُشد لخدمةِ البشر وسعادتهم، وإنما قامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس، وتكليفهم ما

لا يطيقون، فكم من فردٍ لقي مصرعه من أجل بناءٍ لسيّدٍ، أو أصابته ضربة وقت عمله وهيكلاً أو تمثالاً فبقي مرمياً في كوخه حتى جاءته المنية دون أن يلتفت إليه أحد، وإنما يعدّون هذا فنًّا من الفنون القائمة، فالحضارة مهما كانت ثمارها لا تُعدّ حضارةً إلا إذا كانت تكرّم الإنسان، وتُنزله المنزلة اللائقة به والتي أرادها الله له، وكانت تخدم الإنسانية، أما إذا استبدّت بالإنسان، واستعبدته وأذلّته فهي من آثار الظلم والطغيان، وإنّ الظلم لهو الكفر، والثمار إن لم تكن لذيذةً لا يأكلها الإنسان مهما حلا شكلها، وكبر حجمها، وبدا جمالها، ولا تعدّ حينئذاك بين الفواكه، ولا تخدم الإنسان.

[١٨] الجهاد

الجهاد فريضة من فرائض الإسلام، قائمة إلى يوم الدين، وعلى المسلمين أن يقوموا بها كي يُؤدّوا دورهم الذي أنيط بهم منذ أن استخلف الله الإنسان في الأرض، ولا يتوقّف الجهاد إلا أن يعمّ الإسلام الأرض، ويسود السلام والأمن والطمأنينة، أو تنتهي الحياة، وهو أعلى مراتب الأعمال حيث يقول ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ويقول: «من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار»، ويقول: «عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»، ويقول: «حرس ليلةٍ في سبيل الله أفضل من ألف ليلةٍ يُقام ليلها ويُصام نهارها». وأحاديث أخرى كثيرة تدلّ على مرتبة الجهاد، وغاية الجهاد:

١ ـ أن يُعبد الله في الأرض، ولا يُشرك به شيئاً، ومن هنا كان قتال الكافرين أمراً واجباً ما داموا لم يعبدوا الله وحده، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾[١] وبهذا فالجهاد قائم حتى يزول الشرك من على وجه الأرض. أمّا أهل الكتاب إذا كانوا على عقيدة كتابهم قبل أن يحرّفوها، والمجوس يعبدون الله ولا يشركون به فإنه يمنع قتالهم على شرط أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأن يقوموا بالشروط التي يطلبها منهم المسلمون، منها ألاّ يدلّوا على عورات المسلمين، وألاّ يُساعدوا الأعداء،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥.

وألاّ يدخل أحد من خصوم المسلمين إلى بيوتهم إلا بعلم المسلمين، وألاّ يُجاهروا بتعاطي ما هو محرّم على المسلمين كالخمر وغيرها وشروط حدّدها الفقهاء، فهؤلاء لا يُكرهوا على ترك دينهم، وهم في ذمّة المسلمين وحمايتهم يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، وهنا يكون عدم الإكراه في الدين ما دام الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي يؤمنون بالله، ولا يُشركون به، أمّا إن وجد مشركون فيكرهوا حتى يختاروا الإسلام أو ديانة أهل الكتاب أو الجلاء.

٢ ـ أن يُمنع الظلم من الأرض بكل صوره وأشكاله، وعلى المسلمين أن يُقاتلوا الظالمين ويُجاهدوهم أينما كانوا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[2].

٣ ـ أن يُمنع الوقوف في وجه الدعوة فالذين يحرصون على عدم انتشار الإسلام، ويحولون بينه وبين وصوله إلى رعاياهم يُقاتلون ويُجاهَدون. . فإذا سمح لها، وعرفها الناس، وقارنوا بينها وبين ما هم عليه، يسمح لهم عندها باختيار العقيدة التي يُريدون ولا إكراه في الدين بشرط أن يكونوا من أهل الكِتاب ومن يلحق بهم كالمجوس ـ كما ذكرنا ـ أو يُسلموا.

٤ ـ أن يُحافظ على المسلمين من أن يعبث بعضهم بالدين فيمتنعون عن تأدية الزكاة مثلاً أو بعض شرائعه، وقد قاتل أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، فعندما قيل له: كيف نُقاتل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٧٥، ٧٦.

الناس. . . .؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني، دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله»، فقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه: «إن الزكاة من حقهّا، والله لو منعوني عناقاً[(١)] كانوا يُؤدّونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها».

٥ ـ أن يُحافظ على المسلمين بمجاهدة أهل الكتاب والمجوس حتى يُسلموا أو يدفعوا الجزية، وعندها لا يمكنهم مساعدة المشركين والإرشاد إلى عورات المسلمين.

وفي كل هذه الحالات يكون الجهاد فرض كفاية، إذا قام به بعضهم واستطاعوا تحقيق النصر والظهور على الأعداء، فقد أدّوا المُهمّة، وقاموا بالمسؤولية، وفي ذلك كفاية، أمّا إذا لم يستطع الانتصار من نفر للجهاد، أو تغلّب الأعداء عليهم، أو اعتُدي على ديار المسلمين أصبح الجهاد عندها فرض عينٍ وعلى كلّ مُستطيع أن ينفر في سبيل الله حتى يتحقّق للمسلمين النصر.

هذه غاية الجهاد التي يجب على المسلمين أن يعملوا لها في كلّ وقتٍ أينما وجدوا، ولن يتوقّف الجهاد أبداً ما دام أحد هذه الجوانب التي ذكرناها قائماً، وحتى يكون في سبيل الله يجب ألا تكون هناك غاية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصاً له، فليس هناك من جهادٍ من أجل ترابٍ أو عصبية أو مُباهاة، وعندما سئل رسول الله ﷺ أيهم في سبيل الله، الرجل يُقاتل شجاعةً أم يقاتل حميةً أم يقاتل رياءً قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وإلى جانب شرط العمل لإعلاء كلمة الله فهناك شرط آخر، وهو أن الجهاد لا يكون إلاّ من المسلمين المؤمنين يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى

---

(١) العناق: الأنثى من ولد الماعز ما لم يتمّ له سنة.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]. فالخطاب للمؤمنين، الذين يُؤمنون بهذا القرآن، ويُؤمنون بالله وحده ولا يُشركون به.

وبهذا فلا يُقبل الجهاد إلاّ من مسلم، فإذا اضطر المسلمون للاستعانة بغيرهم لظرفٍ من الظروف أو سببٍ من الأسباب، فإن قتالهم لا يُعدّ جهاداً ما داموا لا يُؤمنون بذلك، وما قاتلوا في سبيل الله، وإنما كان قتالهم لما بينهم وبين المسلمين من مصالح، كما أن قتلاهم لا نقول عنهم أنهم شهداء، إذ أنّ الشهادة خاصة بالمسلمين المؤمنين، وما داموا بالأصل لا يُؤمنون، ولا يعتقدون بهذا، فهم ليسوا شهداء. وأما ما ورد من أحاديث في هذا الشأن «من مات دون عرضه فهو شيهد» و«من مات دون ماله فهو شهيد» و«من مات دون أرضه فهو شهيد» فالشرط أن يكون مُؤمناً صادقاً، وليس أيّ إنسانٍ قاتل، ومات عُدّ شهيداً، فلو أن وثنياً قاتل معتدين فهل نستطيع أن نعدّه شهيداً وهو لا يؤمن بالله ولا يعتقد بالشهادة ولا بما يمتّ إليها من صلة؟

هذا هو الجهاد في الإسلام: غاياته، وشروطه، ونتائجه ولقد قام المسلمون بالجهاد ففُتحت أمامهم الدنيا، وتذوقت الشعوب طعم الحياة، وتفيّأت في ظلال السلام، وعرفت الرخاء والطمأنينة. ثم أهمل المسلمون الجهاد، وتقاعسوا، فغزتهم الأمم، واحتلّت ديارهم، وأذلّتهم، ونشأت عندهم الروح الانهزامية.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة الصف: الآيات ١٠ ـ ١٣.

لقد هُزم المسلمون في بداية الأمر، واحتلت أراضيهم، ولكن استمروا يشعرون بالاستعلاء على عدوّهم، وأنّهم هم الأعلون ما داموا مسلمين، وتوثّبت هذه الروح وظهرت المقاومة، وارتفعت راية الجهاد، فكُتب لهم النصر بإذن الله، وطردوا الصليبيين من ديارهم، واستعادوا قُدسهم وديارهم.

وهُزم المسلمون ثانيةً أمام المغول إلا أنّ شعورهم ما زال أنهم هم الأعلون ولا بُدّ أنهم منتصرون، فكانت النتيجة أن أسلم المغول، وأصبحوا دعاةً للإسلام، وذابوا في المجتمع الذي يعيشون فيه، ولكنهم في المكان الذي كانوا فيه أكثريةً ملؤوا الأرض التي كانت قليلة السكان، فقد عاشوا هم الدعاة حتى في هذا اليوم الذي سيطرت فيه الشيوعية على أراضيهم، ومن قبلها القيصرية.

أما الهزيمة الثالثة فقد كانت غير ما سبقها، لقد شعر المسلمون بالضعف أمام أعدائهم وأحسّوا أنهم دونهم، وهذه هي الهزيمة. قد يُهزم الجيش في معركةٍ ولكن تبقى عنده إمكانية القِتال، ويخسر في جولة ولكن عنده الإمكانية للاستعداد والدخول في جولةٍ ثانيةٍ، أما إذا انهارت معنوياته، وشعر بالضعف والذلّ فقد حكم على نفسه بالسقوط، وحكم على أمته بالرزوح تحت نير الخصم، هذا ما حدث بالنسبة إلى أمتنا في هذه المعركة الأخيرة، ومن أول الخسران إضاعة الجهاد، ثم قبول النصارى واليهود والمرتدين في عداد قواتهم، ثم ظهور آراءٍ انهزاميةٍ في هذه الموضوعات طبعت المعركة بطابعها، وصبغت النفوس بصبغتها، وتكفي كلمة انهزامية لتعطي صورة واقعنا.

لقد شعر المسلمون في الآونة الأخيرة بالضعف أمام الأجانب، وأنهم دونهم بالقوة، ودونهم في العلم، ودونهم في الحضارة، وأنّهم بحاجةٍ إلى السير على خُطاهم ليلحقوا بهم، وليتقدّموا في مضمار العلم، وليطوّروا بلادهم - حسب زعمهم - هذه الانهزامية هي التي جرّت علينا الويل والنكبات، نعم قد نكون في العلم دونهم ولكن ليست هذه السبيل للتطوّر، وإنّما الأخذ من مناهل العلم دون أن نقلّدهم في حياتهم الاجتماعية التي

تختلف تمام الاختلاف عن حياتنا الاجتماعية المنبثقة من عقيدتنا، ودون شعورنا بالنقص أمامهم.

لقد بدأت حياتنا بتقليد أعدائنا في الزيّ واللباس، والسير على طريقتهم في السهرات والاختلاط والحفلات، مع تبريرنا بأن هذه من الجزئيات لا تتعارض مع الإسلام، ومع الأسف أن هذه الأحكام تصدر دائماً عن الجهلة وأصحاب المصالح من أهل السوء وأحياناً من جماعات يقولون باسم السياسة أو التقية، المهم إظهاراً للضعف واعترافاً به، والمشكلة أنه أحياناً يكون هذا من خلف أجهزة الإعلام التي لا يطالها غيرهم.

وأشاع الأعداء أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنّه لولا القوة والإكراه لما انتشر الإسلام بهذه الصورة الواسعة. وحاول الانهزاميون الردّ بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأنه لا إكراه في الدين، وما استعملت القوة إلاّ كردّ فعلٍ، وللمحافظة على الاستقلال، والهجوم على أنّه أحسن وسائل الدفاع للبقاء على الهيبة.

ونقول: إن الدعوة الإسلامية لا بدّ لها من قوةٍ تحميها، وتحول دون منع انتشارها وتعرّف الناس عليها، وهذه القوة هي الجهاد في سبيل الله، وإن كلّ حقٍّ لا بدّ له من قوةٍ تحميه وإلا طغى الباطل واستشرى.

وحاول الانهزاميون إرضاء ساداتهم بقبول أبناء عقيدة السادة من النصارى بالجيش والقوات المسلحة، ولم يكن يُقبل منهم الانخراط في صفوف الجيش على أنه يحمل لواء الجهاد، وحاول الانهزاميون تبرير مواقفهم بأن الجزية كانت تُؤخذ من أهل الذمّة لقاء الدفاع عنهم، فإذا وافقوا على الدفاع عن أنفسهم ومساعدتنا في الدفاع عن الأرض، فإن هذا مقبول منهم، وليس عليهم من جزية.

ونقول: إن هذا الأمر غير صحيح، وإن الجزية شيء والبدل العسكري شيء آخر، ولا يصحّ قبول اليهود والنصارى والمرتدّين في

القوات المسلحة للبلدان الإسلامية ونحن نُواجه أبناء عقيدتهم ونُجاهدهم ويُقاتلوننا بكلّ الأساليب.

ونختم القول أو نلخصه بما يلي:

١" ـ إن الجهاد في سبيل الله قائم إلى يوم الدين، وعندما يستعيد المسلمون مركزهم ـ إن شاء الله ـ لا بُدّ لهم من رفع لواء الجهاد للمحافظة على الدعوة، وانتشارها في الخارج، وحمايتها في الداخل أيضاً من المُنحرفين.

٢" ـ إنّ الجهاد في سبيل الله خاص بالمؤمنين. ولا يُستعان بالكفّار ضدّ الكفّار إلاّ بشرطٍ، ومن هنا لا يقبل المسلمون قتال أهل الكتاب والمرتدّين والمنحرفين من المسلمين معهم، ولا بدّ من تطبيق الأحكام عليهم.

٣" ـ إنّ الذين يُقتلون في الحروب الدائرة اليوم لا يُعدّ منهم شهيداً إلا من كان مُؤمناً، وكانت غايته إعلاء كلمة الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1].

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠، ٤١.

[١٩] النصر

لا بُدّ للحق من قوةٍ تدعمه كي ينطلق وإلاّ حاول أهل الباطل كبته حتّى لا يظهر، ولا بُدّ للدعوة من قوةٍ تحميها وتأخذ طريقها إلى الناس، والصراع بين الحقّ والباطل قديم، ويجتمع أهل الباطل ويتعاونون ضدّ الحقّ وأهله، ويبدو الحق بمقدار ما لحامله من قوةٍ، والخلاف بين الدعاة إلى الله وخصومهم قديم أيضاً، ويلتقي أصحاب المصالح، والأهواء، والشهوات، والنفوذ في وجه الدعوة، لأنّ في نجاحها ضياعاً لمصالحهم ولما يسعى وراءه كلّ أهل الفساد.

بُعث رسول الله ﷺ، فدعا قومه، فآمن من لم تكن له مصالح ومطامع، ومن لم تكن له شهوات ورغبات جامحة، ووقفت في وجهه أكثرية قريشٍ من أصحاب النفوذ الذين يملكون الإماء والعبيد، ويخشون على سلطانهم من الزوال، لأنّ الإسلام يحول دون تسلّط العباد على العباد، ووقف في وجه الدعوة أصحاب الثراء الذين يظلمون الناس لأنّ الدعوة إلى الله تحول دون الظلم، وتمنع استغلال بعضهم لبعض، ووقف في وجه الإسلام أصحاب الشهوات الذين يهتكون أعراض الناس بما يملكون من جاهٍ أو ثراء أو قوة، وقد فهموا منذ أن وصلت إليهم دعوة الإسلام أنها لا تسمح أن يتمرّغ الناس في أعراض بعضهم بعضاً. ولم تكتف أكثرية قريشٍ وقادتها بأن وقفت ضدّ الدعوة وإنما عدت على رجالها تُعذّب من استطاعت، وتسخر وتستهزئ، وتُقاطِع، لتفتن المؤمنين عن دينهم، ولم يكن للمسلمين إلاّ التذرّع بالصبر على الأذى الجسمي، والحرب الاقتصادية، والنفسية، والمعنوية، حتى يتكامل الاستعداد الإسلامي ويأتي أمر الله.

لم يكن باستطاعة الدعوة في مكّة القتال أو المقاومة لأنها لو فعلت ذلك لخسرت المعركة إذ لم يكن أبناؤها بعد قد تربوا التربية الكاملة، فكيف يخوضون معركةً ولم يُهيئوا نفسياً ومعنوياً تهيئةً تامّةً تمكّنهم من النصر!

وربما أدّت المقاومة إلى القضاء على الدعوة نهائياً، وعمل رسول الله ﷺ، ليجد مكاناً أميناً للدعوة يحمي رجالها من أذى قريش، ويُقيم منهج الله في الأرض، ويستعدّ لنشر الدعوة بحيث يكون ذلك المكان مركز الإشعاع أو نقطة الانطلاق، ويمكن وقتئذ الاستعداد لمقاومة كُلّ من يقف في طريق الإسلام. انتقل إلى الطائف فرُدّ، وعرض نفسه على القبائل فَصُدّ تحت تأثير قريشٍ. وأخيراً هيّأ الله له المدينة فوجّه أصحابه نحوها ثم اتجّه إليها مُهاجراً، وهناك أسس الدولة الإسلامية الأولى، وبدأ يُثبّت دعائمها، ويُقيم أركانها، ولابُدّ من أن تصطدم مع قريشٍ عندما تُريد أن تنطلق، لذا يجب الاستعداد لتأمين النصر عند اللقاء بين مكّة والمدينة وهو لا بدّ واقع، ثم عند اللقاء بين المسلمين وقواعد الشرك والظلم القائمة في كلّ مكانٍ على وجه الأرض والتي ستقف أيضاً أمام انطلاق الإسلام وانتشاره للحدّ من توسعه، ومحاولة كبته في مهده، وهو لا بدّ واقع أيضاً.

إن النصر يتوقّف على نقاطٍ رئيسيَّةٍ أربع: الاستعداد، والإخلاص، العمل والتقوى، وطلب النصر من الله، وإغفال جانب من هذه الجوانب قد يُفقد النصر، ويذهب بالأجر. وأُولى هذه النقاط الاستعداد التام مادياً، ومعنوياً، مادياً بكل السلاح المعروف بيد البشر يوم المعركة، وبكل أنواع الأساليب المبتكرة يوم المعركة وبكل الإمكانات والطاقات المتوفرة بشرياً من حيث أعداد الجند، وتموينياً من حيث الغذاء، ومعنوياً من حيث معرفة الهدف من القتال ونتائجه وإلقاء الحماسة في نفوس المقاتلين وليس هناك من جندٍ على وجه الأرض أكثر معنويةً من المسلمين الذين يعتقدون أن القتل شهادة في سبيل الله جزاؤها جنّة عرضها السماوات والأرض خالدين فيها، وأن البقاء نصر على الأعداء وتحقيق لمنهج الله في الأرض، وهذه

المعنوية المرتفعة لدى المسلمين يُقابلها ضعف في معنوية الأعداء، ورهبة في نفوسهم مما يُؤدّي إلى هزيمتهم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

إنّ النصر للمسلمين لا يتمّ لأنهم مسلمون، فالإسلام دين لا ينتصر بالمعجزات، وإن وقعت، ولا بالتأييد فقط، وإن كان يحدث، وإنما على أيدي البشر وبالاستعداد كما يستعدّ كلّ بني البشر. يقول تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[2]، فنصر الله قد تمّ بعد الاستعداد الكامل، وبعد التهيئة التامة، وبعد الاتكال على الله. لقد قاتلت الملائكة يوم بدر مع المسلمين، وأعطتهم المعنويات الكاملة للمعارك القادمة، وقيل: إنها قاتلت في حُنين، وأُحد أيضاً، ولكنها لم تُقاتل بعد ذلك، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون في أكثر معاركهم الأولى لأنهم استعدوا بما أُمروا به، وقاتلوا حسبما أُمروا، وتوكّلوا على الله فجاءهم نصر الله. إن الله قادر على أن يُرسل ملكاً واحداً يُزلزل الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام، ويخسفها بهم إن أُمر، أو يُطبقها عليهم إن طُلب منه، ومع هذا فقد أنزل آلاف الملائكة تُقاتل مع المسلمين. يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[3]. وزيادة عدد الملائكة للبشرى لا لزيادة القوة فإن القوة حاصلة من ملكٍ واحدٍ بل من أمرٍ من الله أو إشارةٍ. وليعلم المؤمنون أن النصر لم يتمّ بالمعجزة، لأنّه لو

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٢.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

كان ملك واحد لظهرت المعجزة، وقد باشر الملائكة القتال بالفعل. ومع وجود الملائكة فإن النصر لا يكون إلاّ من الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[١]. فالنصر من عند الله وما الاستعداد إلاّ من باب اتخاذ الأسباب، وتقديم المسلمين كافة إمكاناتهم وطاقاتهم، وأنّ تأييد الله يكون بعد استعداد المسلمين واتّخاذ الأسباب لا مباشرةً وتأييد الله هو النصر. والتأييد للمؤمنين. يقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾[٢]. ونستطيع أن نقول: إنّ نصر المسلمين لم يكن في يوم من الأيام بالعدد وكثرة الرجال، ولا بالعتاد ونوع السلاح، وإنما بالإيمان والإخلاص وتأييد الله، وهذا ما كان يقوله صحابة رسول الله ﷺ، في كثيرٍ من المناسبات، ولنستمع إلى عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، يُشجّع المسلمين قبل غزوة مؤتة بعد أن بلغهم أنّ الروم قد نزلوا بقيادة هرقل منطقة مؤاب، من أرض البلقاء، في مائة ألفٍ من الروم، وانضمّ إليهم من العرب المتنصرة من لخم، وجذام، وبهراء، وبليّ، والقين مائة ألفٍ، فأصبح عدد الأعداء مائتي ألف على حين أن المسلمين لم يزد عددهم على ثلاثة آلاف، وقف عبد الله بن رواحة يُخاطب المسلمين قائلاً: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، ولا نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإما شهادة». فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ـ ١٤.

والنصر من عند الله، وهذه حقيقة اعتقادية، حتّى لا يتعلق قلب المسلم بأيّ سبب من الأسباب، عليه أن يستعدّ، وعليه أن يعمل ولكن لا يمكنه تحقيق النصر لأنه هو أصلاً من عند الله، لا بيد البشر الذين ليس عليهم إلاّ اتخاذ الأسباب.

أما النقطة الثانية فهي الإخلاص لله سبحانه وتعالى: فالقتال يجب أن يكون لجعل كلمة الله هي العليا. لا لسبب آخر من أسباب الدنيا، وذلك كي يحصل على النصر أو يكون له أجر الشهادة، فقد روى أبو موسى، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[١]. فلا يُقاتل المسلم لتثبيت أركان حكم زعيم، أو سلطان، أو حزبٍ، أو طبقة، أو جنسٍ، أو دولةٍ، أو إحلال فردٍ مكان فردٍ، أو زعيم بدل زعيم، أو لسيطرة حزبٍ دون آخر. أو إزالة نظامٍ جاهلي واستبداله بنظام جاهلي آخر، ولكنه يُقاتل لإزالة الظلم من كل مكانٍ من سطح الأرض، وتقويض حكم الطواغيت من كل مكانٍ، وإنهاء كل نظامٍ جاهليٍ أينما وجد، والأرض كلها ميدان عمل المسلم.

لا يُقاتل المسلم ليُسيطر على أرض فيستغلّ أرضها، ويستخرج ثرواتها، وينهب خيراتها، ويُسخِّر أبناءها لخدمته، ويجعلها سوقاً لبضائعه ومكاناً لبيع صناعاته، وإنهما يُقاتل ليُحرّر الإنسان من عبودية العبيد، وعبودية المال، وعبودية الشهوة، وعبودية حب الاستغلال.

لا يُقاتل المسلم لفرض مذهبٍ من المذاهب البشرية الوضعية سواء أكان رأسمالياً أم شيوعياً، اقتصادياً، واجتماعياً، ولكن يُقاتل لتطبيق منهج الله في الأرض ولتقرير ألوهية الله وحده، وإن المسلم الذي تكون هذه نيته، وتكون هذه

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد، ومسلم في الإمارة، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، وأحمد.

فكرته يستحقّ الحصول على النصر من الله والتأييد، وإذا قُتل نال أجر الشهيد.

أما النقطة الثالثة فهي العمل والتقوى حيث لا يكفي المسلم الاستعداد، لأنّ هذا يفعله المؤمن والكافر، وكلّ مقاتل، كما لا تكفي النيّة والفكر لكن لا بدّ من العمل فالإيمان مجرد من العمل لا فائدة فيه، وإن كان يختلف عن الكفر، ولكنّه لا يُعدّ إيماناً راسخاً، فلو كان سليماً لآمنت الجوارح، وصدّق العمل ما آمن به القلب، فأدّى كلّ ما أمر الله به، وهجر كل ما نهى عنه، وخشي الله في السرّ والعلن. عند هذا يكون المسلم مُؤمناً حقّاً، وإذا كان المسلمون كذلك استحقّوا نصر الله، لأنهم نصروا الله بأدائهم ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ⑦﴾[1]، فإن نصر الله مشروط بنصر المؤمنين الله في نفوسهم، وإذا جاء النصر، واستمر أهله على إيمانهم بعد تحقيق النصر يحميهم الله أيضاً من الزيغ والانحراف والترف، ويُمكّن لهم في الأرض.

إذا استعدّ المسلمون، وأخلصلوا النيّة والعمل لله، وأدّوا ما عليهم يُمكنهم بعدها طلب النصر من الله، ومن سنة الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل أن يأتيهم النصر، ورسول الله ﷺ، عندما خرج إلى بدر، وبعد أن سوّى الصفوف رجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصدّيق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يُناشد ربّه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد»، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله: بعض مُناشدتك ربّك، فإنّ الله منجز لك ما وعدك[2]. وجاء نصر الله، وكان يوماً فاصلاً بين الحقّ والباطل. وبهذا انتصر المسلمون في كلّ معاركهم التي خاضوها في أيامهم الأولى. فلمّا توانوا عما أُمروا به انقلبت الموازين، وأصبحت الهزائم سمةً ملاصقة لهم، حتى كاد العامة يفقدون ثقتهم بدينهم، والعياذ بالله...

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

(٢) سيرة ابن هشام.

[٢٠] مهمّة المُسلِم

بيّن الإسلام لأبنائه مُهمّتهم في الحياة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[١]. ولا يفهم من العبادة إقامة الشعائر فقط، فليست مُهمّة المُسلم قضاء أيامه كلّها في أداء الشعائر، وإنما تعني العبادة معنًى أوسع من هذا ويمكن أن نحصره في خمسة جوانب:

١ - إقامة الشعائر: عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[٢]. بشرط صدق النية والإخلاص لله تعالى، لا لدنيا، ولا لخوفٍ، ولا لأيّ سببٍ من الأسباب، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣]. وبشرط عدم ارتكاب الكبائر كقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والزنا، والشرك، وشهادة الزور، والقتل بغير حقّ، والسحر، وأكل الربا، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، وأكل مال اليتيم، والتوليّ يوم الزحف و... مما تحدّث عنه رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ - ٥٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

٢" ـ الإيمان الكامل بما أنزل الله وبما صحّ عن رسول الله ﷺ، إذ لا يُقبل قول ولا عمل من غير إيمان. والتسليم التّام بما جاء من دون تأويلٍ بغير ضرورةٍ، والاعتقاد بما جاء تماماً فليس هناك شيء مخفي، وليس من ظاهر وباطن فكل أمرٍ على حقيقته، وكل آيةٍ كما نزلت، وكل حديثٍ كما تكلّم به رسول الله ﷺ، وقد استغلّ أعداء الإسلام مثل هذا الكلام فادّعوا التأويل، وأن هناك ظاهر وباطن، وحقيقة وشريعة وهذا كلّه كفر صريح، وقد قامت الفرق الباطنية على هذا تحت تأثير أعداء الإسلام وما بثّوه بين المسلمين من هذا الكلام، كما استغلّ ذلك الدجّالون والمشعوذون لتحقيق أغراضهم، وكان لهذا خطره على الإسلام سواء أكان على عقيدة أبنائه المغفّلين أم في الهجوم على الدين نفسه.

٣" ـ إعمار الأرض لتحقيق الخلافة فيها، ويقضي ذلك القيام بنشاطٍ واسع لاستثمار الخيرات، واستخراج ما تحويه الأرض، والارتقاء بالحياة علماً، ونشاطاً، وابتكاراً، والسعي لتحصيل ذلك، وعندما يتمّ علم، أو يحدث ابتكار خارج حدود ديار الإسلام فمن واجب المسلمين العمل على تحصيله بالقدر الذي يكفيهم، ويسدّ حاجاتهم لنشره، وتحقيقه بينهم، ويُعدّ ذلك فرض عين عليهم، وإن لم يفعلوا يقع الإثم على جميع من يقدر على ذلك أو من بيده الأمر.

وإن التكاسل في الإعمار والسعي لذلك، والزهد فيه أمر خطير لأنه مخالف لأمر الله في إعمار الأرض، واستخلاف البشر له، كما فيه إضعاف لقوة المسلمين وإنتاجهم، وقد شجّع أعداء الإسلام الزهد، وأشاعوا صحة ذلك أسوة بأولئك الذين اعتزلوا الفتن أيّام وقوعها، ومن وراء الزهد انتشرت الصوفية التي اختلط بعضها بأفكار الباطنية فتلاحمت معها، وكانت بين زاهدٍ متكاسلٍ، وجاهلٍ متقاعس لا يدري أحدهما أين يسير؟ ولا يعلم كيف يُوجّه؟ وبين عدو ماكر يخطّط لهدم الإسلام وبين عبدٍ للشهوة يصرعه الجنس فيجري وراءه، أو عبدٍ للمادة يستعبده المال فيسير خلفه، ومن هنا دخلت الإباحية إلى بعض الصوفية، وجمّلت فكرة الخدمة باسم التعاون، ومن هذا انطلقت الصوفية.

وإن أعداء الإسلام قد خطّطوا لتفجير الإسلام من الداخل بالفرق الباطنية، والتي فرزت الصوفية بطريقة من الطرق، أو دخلت فيها ووجهّت إليها، وإن ما في أقوال بعض زعماء الصوفيين ما يُشير إلى الأصل، وفي بعض تصرفاتهم ما يدلّ على الربط بين الفئتين.

٤" ـ تطبيق منهج الله في الأرض بإقامة الحكم على أسسٍ إسلامية، وإقامة الحدود، واستنباط السبل الاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية من المنهج الإسلامي والقواعد الأساسية له.

٥" ـ الجهاد في سبيل الله لمنع الظلم واستعباد الناس، والانغماس في المفاسد والشهوات، ولتطبيق منهج الله.

فمن قام بهذه المُهمّة وأدّاها فقد حقّق غاية وجوده، ومن قصّر بها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وغدت حياته فارغةً من القصد، وخالية من المعنى الذي تستمدّ منه قيمتها الأولى وبالتالي فقدت القيمة، وأصبحت أقرب إلى الحياة البهيمية، غايتها الطعام، والشراب، والتناسل، وتحقيق الرغبات ولو كان فيها الفساد في الأرض.

ومن واجب المسلم إبداء الرأي، والنصيحة، والسمع والطاعة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة: لله، ولكتابه، ولنبيّه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]. وعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت، وهو مريض قال: دعانا النبيّ ﷺ، فبايعنا، فقال ـ فيما أخذ علينا ـ أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا، وكرهنا، وعُسرنا، ويُسرنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا نُنازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كُفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[٢]

(١) أخرجه مسلم في الإيمان.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة.

[٢١] القيادة

القيادة مركز التوجيه، وموضع التنظيم، وأساس ترتيب الأُمور بعضها إلى بعض، ومحطّ العدل بين الجميع بحيث لا تطغى جماعة على أُخرى، ولا يتسلّط فرد على جماعة، ولا تصهر الجماعة الفرد في بوتقتها فتُذيب شخصيته، وتسحقه بين مسنناتها فتضيع معالمه وآثاره بين أجزائها. والقيادة هي المنظّم الدقيق الذي لا يفسح المجال لأمرٍ أن يزيد على حدّه في وقته المحدّد له فيضيع العاملون في رحابة المكان، ولا تسمح له أن ينكمش عن حجمه الذي خُطّط له فتفشل الخطّة في تحقيق هدفها المرسومة له.

لما كان للجسم البشري الواحد مركز قيادةٍ واحد هو الدماغ الذي يُصدر الأوامر والتعليمات إلى أجزاء الجسم كافةً بإشاراتٍ عن طريق الأعصاب، أو القلب الذي يُوزّع الدم النقيّ إلى أنحاء الجسد كلّها، ويتلقّى ما فسد منه ليُصفّيه، فإن الجماعة البشرية وهي كالكائن الحي لا بُدّ لها من قائدٍ واحدٍ يضبط مسيرتها، ويُوجّه حركتها، ولو تعدّدت القادة لاختل التوازن، وفسد الأمر حتى يُسيطر أحدهما على الآخر أو يطغى، ولما كانت السيطرة غير مقبولةٍ، والطغيان مرفوض فلا بُدّ من اختيار قائدٍ واحدٍ من البداية كي لا يهتزّ الكيان بالطغيان ولا يتعرّض للسيطرة. قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ثلاثة في سفرٍ فليؤمّروا أحدهم»[١]. هذا إن كان العدد ثلاثة، وهو أدنى عدد الجماعة، وهو أولى إن كانت الجماعة أكثر. والقيادة الجماعية لا تصلح على هذا القياس إلاّ إن كان لها قائد واحد، وعندها لا تكون قيادة جماعية حسب الأعراف القائمة أو ما اصطلحت عليه بعض النظم عندما لا يمكن الاتفاق على قائدٍ واحدٍ.

---

(١) رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود في باب الجهاد.

ادعت جماعة في مصرٍ من الأمصار تُعلن العمل للإسلام أنها اختارت قيادةً جماعيةً لأنها لم تجد من بينها من يحلّ محلّ أميرها الذي تُوفي - رحمه الله - وكان الردّ عليها: عندما انتقل رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى لم يكن بين المسلمين من يسدّ مسدّه، ولم يُفكّر المسلمون يومذاك باختيار قيادةٍ جماعيةٍ، بل عندما اقترح بشير بن سعد، رضي الله عنه، يوم سقيفة بني ساعدة منا أمير ومنكم أمير، رُفض هذا الاقتراح ورُدّ، ولم يُنظر فيه لما له من عواقب، وبايع المسلمون أبا بكرٍ الصدّيق، رضي الله عنه، ولما تُوفي أبو بكرٍ، رضي الله عنه، لم يكن بين المسلمين من يحلّ محلّه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ، بل اختار لهم قبل وفاته عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خليفةً لهم. ولما طُعن عمر، رضي الله عنه، لم يكن من يقوم مقامه، فاختار للمسلمين ستةً من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين تُوفي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راضٍ، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم خليفةً للمسلمين في مدة ثلاثة أيام لا يتعدّونها، وقال: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصلّ لكم صهيب ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورةٍ من المسلمين فاضربوا عنقه. وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري[١] قبل أن يموت بساعة فقال: كُن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يُؤمّروا أحدهم وقم على رؤوسهم، فإن

(١) أبو طلحة الأنصاري: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو من بني النجار من الخزرج. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وقال ﷺ: صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل. تترّس به رسول الله ﷺ، يوم أُحُد، وكان يرمي بين يدي رسول الله يومذاك. وكان رِدْفَ رسول الله يوم خيبر، وقتل يوم حُنين عشرين رجلاً من الأعداء. توفي عام أربع وثلاثين للهجرة في خلافة عثمان بن عفان في البحر غازياً، وهو ابن سبعين سنة. وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، ربيبه إذ تزوّج أم سليم بنت ملحان بعد وفاة مالك، على مهرٍ اشترطته أم سليم هو إسلام أبي طلحة.

اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد، فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاث رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم. وهذا يدلّ على مدى أهمية القائد الواحد، فإن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو الحريص على كل فردٍ من الرعية يمكنه أن يُضحّي بستةٍ ممن يراهم أفضل الخلق يؤمذاك، وأولى الناس بالقيادة، وكلهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المُبشّرين بالجنّة في سبيل اختيار قائدٍ واحدٍ، ولم يُفكّر في جعل قيادةٍ جماعيةٍ منهم. وتُوفي عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما بين المسلمين من يسدّ مكانه، فبايعوا عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ. وطُعن علي ولم يكن في جنده من يستطيع القيام بالعبء الذي كان يتحمّله فبايعوا مع ذلك ابنه الحسن، رضي الله عنه، ولم يخطر على بالهم في ظرفهم العصيب أن يُولّوا قيادةً جماعية. ثم تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ولم يخطر على بال المسلمين أن تكون قيادة من الحسن ومعاوية، رضي الله عنهما. وتُوفي معاوية، وانتهى عهد الخلفاء من الصحابة ولم يقل المسلمون لمعاوية عندما اقترح عليهم بيعة ابنه يزيد: إنه ليس من الصحابة، وحبذا لو شكّلت قيادة جماعية من يزيد وبعض صحابة رسول الله ﷺ، أو أبناء الصحابة أمثال: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، مثلاً إنما وافقوا، وإن وافق بعضعهم على كرهٍ أو مضض.

ولم يضعُف أمر الخلافة وقيادة الأُمّة إلاّ عندما أصبح الخليفة يرى بجانبه من يخلفه، وربّما اثنين، ولا شك أنه يُريد أن يُثبت كفاءته أو يملأ مركزه بتدخّله في شؤون السلطة، ومن ناحيةٍ أخرى يُريد أن تُسرع به الأيّام

لاستلام السلطة، وصاحبها يعمل ليحول بينه وبينها إذ يراها لابنه، ولو لم يكن لها أهلاً، بحكم عاطفة الأبوة، فتختلف الأهواء، وينعكس ذلك على القيادة فيفسُد الأمر. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] ولم نعرف في عهد الخلفاء الراشدين وهم القدوة لنا بعد رسول الله ﷺ، نائباً أو وكيلاً أو وليًا للخليفة. إذن لا بُدّ من قائدٍ واحدٍ لكل أمرٍ، قوله الحكم، وهو المرجع لكل شأنٍ من الشؤون.

والقيادة عامة بين الناس، والأُمم والشعوب والتجمّعات البشرية كلها صغُرت أم زاد عدد أتباعها لا بُدّ لها من قياداتٍ تُمارس الصلاحيات المُناطة بها، وإذا كانت هناك مفاهيم عن القيادة لدى الأمم والشعوب جميعها، غير أن هذه المفاهيم والصلاحيات المُعطاة للقيادة وما تقوم به من واجباتٍ إداريةٍ تختلف بين الأمم حسب القيم السائدة والعقيدة التي تنبع منها هذه القيم.

إن مفهوم القيادة لدى الناس كافةً في أنها تُنظّم العمل، وتُحدّد الأهداف، وتُبيّن الوسائل، وتُتابع التنفيذ، ويُرجع إليها في المُلمّات، وتتجمّع عندها المعلومات، وتستعين بالكفاءات المتخصّصة، وتُصدر التعليمات اللازمة وبعد ذلك هناك اختلافات بيّنة، إذ نجد لدى الأُمم الجاهلية، وكل الأمم ما عدا الإسلام جاهلية، صفات للقيادة لا نجدها عند القيادة الإسلامية، حيث نجد في قيادتها الترفّع، والصلاحيات الواسعة، والامتيازات الكثيرة التي يتمتّع بها أعضاؤها، ويُقابلها في القيادة الإسلامية التواضع، والخدمات العامة، والشعور بالمسؤولية أمام الله. فلنستمع إلى أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، يقول بعد أن بُويع بالخلافة في خُطبته يومذاك:

أمّا بعد أيّها الناس قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسنّ النبيّ ﷺ، السنن فعلّمنا فعلِمنا، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى وأن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

أحمق الحُمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأن أضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحقّ، أيّها الناس إنما أنا مُتّبع ولست بُمبتدعٍ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوّموني[١].

ولنستمع إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد نادى يوماً: الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم فكنت أستعذب لهنّ الماء فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين، فقال: ويحك يا ابن عوف: خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أُعرّفها قدرها[٢]. ولنستمع إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول على منبر رسول الله ﷺ، بعد أن بُويع بالخلافة: أيّها الناس إن أول مركبٍ صعب، وإن بعد اليوم أيّاماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنّا خطباء وسيُعلّمنا الله[٣]. ولننظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يكنس بيت المال، ثم يُصلي فيه[٤].

وأما الجاهلية سواء أكانت في الماضي أم في الحاضر فإن القائد يتألّه، ويستعبد شعبه، ويُسخّر طاقات بلاده وسكانها جميعهم لمصالحه وفي سبيل تحقيق رغباته، ولعلّنا نذكر قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٥]، وتسخيرهم بالقسر والإكراه لبناء الأهرامات حتى تمت على جُثث الآلاف، وأطلقوا بمفهومهم المادي عليها حضارةً وهي لم تتعدّ الفنّ المعماري، وقول لويس الرابع عشر ملك فرنسا: أنا فرنسا، وأنا الشعب، وتسخير طاقات فرنسا لأهوائه، وهذا شأن الجاهليين كلهم، يقتلون من غير خوفٍ

---

(١) الطبقات ٣/ ١٨٣.
(٢) سيرة عمر بن الخطاب ـ ابن الجوزي.
(٣) الطبقات ٣/ ٦٢.
(٤) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي.
(٥) سورة النازعات: الآية ٢٤.

من أحدٍ، ويُعذّبون من شاءوا بلا حساب، ويُنفقون من دون رقيب.

وتواضع القيادة الإسلامية إنما يكون للمؤمنين المتقين أما على الذين يظلمون الناس بغير حق سواء أكانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام أم من الطغاة فإنها قيادة قوية حازمة تأخذ بالشدّة من يستحق ذلك وتُؤدّبه حتى يثوب إلى رُشده إن كان من المسلمين، أو يزول من طريق عباد الله إن كان من الذين ختم الله على قلبه وعلى سمعه وعلى بصره، وسيلقى عذابه الأوفى يوم القيامة ـ إن شاء الله ـ.

إن تصرّفات القيادات الجاهلية وعدم خوفها من أحدٍ، يُقابلها خوف دائم من الله لدى القيادات الإسلامية لأن المسلم على يقينٍ أنه مُحاسب على كل عملٍ سواء أكان صغيراً أم كبيراً، وأن الله مطّلع على السرّ وما تُخفي الصدور، وعلى ما يتمّ جهاراً فلا يمكن للعبد أن يُخفي شيئاً عن الله، ولنستمع إلى قول عمر بن الخطاب كأنموذجٍ على هذا: «فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عَنَاقاً ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة»[1]. قال هذا وقد رآه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يعدو على قَتَب، فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب. فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقال له علي: لقد أتعبت من بعدك.

وإذا كانت القيادات الجاهلية تتألّه على رعيتها فإن القيادات الإسلامية تخدم رعيتها خدمة الخادم لا خدمة السيد ولننظر هذا المشهد. قالت جارية من حيّ أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، لما بُويع بالخلافة: الآن لا تُحلب منائح دارنا ـ وقد كان يحلبها لهم قبل خلافته ـ فسمعها أبو بكرٍ فقال: بل لعمري لأحلبنّها لكم وإني لأرجو أن لا يُغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه[2]. فكان يحلب لهم واستمرّ على ذلك ستة أشهر، إذ نزل بعدها من الحيّ (إلخ) إلى المدينة.

---

(١) ابن الجوزي.

(٢) الطبقات ٣/١٨٦.

والقيادة لا تتمثّل في الخلافة فقط أو في رأس السلطة، وإنما تتمثّل في كل مسؤولٍ مهما كان عدد المسؤول عنهم «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ لهم، وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولدها، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]. ومن القيادات: القيادة العسكرية. بل إنّ لفظ القيادة أول ما يُوحي اليوم إلى القيادة العسكرية. ولا أقصد بالعسكرية فقط الذين يلبسون اللباس الخاص بالجندية اليوم وإنما كل تجمّعٍ وُجد للقتال بأيّ لباسٍ كان، وبأيّ سلاحٍ كان يُسمّى عسكرياً ويخضع لقيادةٍ تُدير شؤونه، وتسهر على تنظيمه والتخطيط له، وتُصدر له الأوامر، وتُطالب بالتنفيذ. ولذا فإن التجمّعات البشرية قبليةً كانت أم غير ذلك عندما تتحرّك للقتال تُسمّى عسكريةً. وقد كان لهذه التجمّعات آثار في السيطرة على الدولة العباسية في عهدها الثاني كانت السبب في ضعفها وتأخُّرها لذا ذكرت أن السيطرة العسكرية كانت سبب ضعف الدولة العباسية وانحطاطها لا سيطرة مجموعاتٍ ليست عربيةً حسب العرف العصبي القائم.

إن القيادات العسكرية في الماضي تختلف عنها في العصر الحديث، وهي في الإسلام تختلف عما هي عليه عند الجاهليين. لقد كانت القيادة في الماضي مؤقتةً على الغالب يُكلّف رجل بقيادة جيش لحرب مُعينةٍ، وقد لا يُكلّف في أخرى. وبذا تبقى السيطرة على المحاربين مؤقتةً، كما أن واجب الطاعة مؤقت، وتزول الهيمنة بزوال الإمرة، وإن كانت القيادة تُعطى إلى الذين عُرفوا بالقدرة على استعمال السلاح، والمناورة في القتال، والفتك بالأعداء، والرغبة في سفك الدماء، وحسن السيطرة على الجند. والذين تتوافر فيهم هذه الصفات قلّة، لذلك استمرت فيهم الإمرة وقيادة

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر.

الجيوش، وأمكنهم استلام السلطة في كثيرٍ من الأحيان، وطرد من كانت بيدهم من ملوكٍ وأمراء وأكاسرةٍ وقياصرةٍ، ومتى استبدّ العسكريون بالسلطة فقد أزف وقت رحيل الأُمّة ودنا أجلها في أغلب الأوقات.

العسكرية الإسلامية:

كانت قوات المجاهدين تنطلق بإمرة أحدهم، ومن كان في غزوةٍ أميراً قد يكون في أخرى جندياً، وأخلاق المسلمين يومذاك، والمفاهيم الخاصة بهم، والتي تنبع من عقيدتهم، لم تدعهم يهتمّوا بمثل هذه الأمور، فلما برزت عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، وغدا مُوفّقاً في أكثر حروبه، وطغى الإيمان على سلوكه وتصرّفاته وتمثلّت به أعماله، وظهرت على جوارحه، أصبح كثير من المجاهدين يرغبون في القتال تحت إمرة خالد، وأحسّ عمر بن الخطاب بهذا، ورغم قناعته بإيمان خالدٍ العميق وعدم الخوف منه إلا أنه حرصاً على المستقبل والأجيال القادمة فقد كلّم عمر في شأنه أبا بكرٍ، وطلب منه أن يعزله عن قيادة جند الشام، ويُعطيها لأبي عبيدة بن الجراح لسابقته في الإسلام غير أن أبا بكرٍ رفض وأحبّ الإفادة من هذه العبقرية والشجاعة في بناء الدولة الناشئة، وتوسعة الفتوح مع اعترافه بفضل أبي عبيدة وشجاعته التي تفوق شجاعة خالد إضافةً إلى ما عنده من آراء مُوفّقة في القتال وخوض المعارك.

والأصل ألاّ تكون القيادة العسكرية منحصرةً في فردٍ كي لا تكون له هيمنة دائمة على جنده والمقاتلين، وقد يخشون بأسه فيُطيعونه في كل أمرٍ، فربما راودته نفسه أمراً لا يتفق مع مصلحة الأُمّة، لقد أرسل رسول الله ﷺ، ستاً وأربعين سرية أو بعثاً، وكان عدد القادة الذين تولّوا أمر هذه السرايا ثلاثة وثلاثين قائداً، وليس شرطاً أن يكون القادة جميعاً على درجةٍ واحدةٍ من الإيمان والإخلاص، وعندها تكون نكبة على المسلمين إن كان القائد ضعيف الإيمان أو قليل الإخلاص. وخاصة في الآونة الأخيرة عندما ضعف المسلمون، وابتعدوا عن عقيدتهم تحت تأثيراتٍ شتّى فضاع ما بنوه.

العسكرية اليوم:

وفي العصر الحاضر أصبحت الجندية مهنةً، وأصبحت فروعاً ذات اختصاصاتٍ، وكان لا بدّ للضباط من أن يُمارسوا مهنتهم واختصاصهم باستمرار، ويبقى الجند تحت أيديهم على الدوام يُنفّذون أوامرهم، ويتلقّون التعليمات منهم، وهذا ما أوجد قوةً جديدةً يُخشى بأسها لا من قبل الأعداء، وإنما من قبل الأُمة، فالسلطة تخشاها على نفسها، والشعب يخشاها من أن يستهوي كبارها السيطرة فينقضّوا عليها وهذا كثيراً ما يحدث في أرجاء العالم، وإن اختصت به الدول النامية أو كما يسمونها دول العالم الثالث فيبسط العسكريون نفوذهم، ويسفكون دماء الشعب، ويستحلّون محارمه، ويُخضعون كل شيءٍ لسلطانهم وتئنّ الدول منهم، ومن ظلمهم، وكابوسهم الذي يفرضونه.

أما أمصار العالم الإسلامي فقد كان حظّها بتسلّط العسكريين، وتتابع التغيّرات أكثر من غيرها. وفي كل مرّةٍ وأثناء التغيّر تُدفع هذه الأمصار دفعةً جديدةً نحو التحلّل والبُعد عن العقيدة، وتُذلّ السكان، ويُضغط عليهم أكثر من المرّة التي تسبق ليسهل إخضاعهم، ولتنفيذ مرحلةٍ جديدةٍ من مُخطّط الأعداء، وإضافةً إلى أن القيادة قد أصبح يشغلها من ليس منهم من أبناء الأقليات والفرق الضالّة، وذلك منذ أن سُمح لهم بدخول الجيش عندما ابتعدنا عن العقيدة التي تحول دون التحاقهم به، ما دام الجهاد أساس وجوده، ولا يُؤمنون بالإسلام، ولا يعرفون الجهاد، فكيف يكون الأمر عندما يصبح القائد حاقداً على جنده، ودولته، وبلاده حيث لا يدين بدينهم، ولا يُؤمن بفكرتهم؟.

ولنعد إلى القيادة بصورةٍ عامةٍ ولنرى الفرق بين القيادة الإسلامية وغيرها من القيادات الجاهلية، في بعض الجوانب التي تأخذ بها القيادة الإسلامية، ولا تأخذ بها غيرها ما دامت المفاهيم تنبع من العقيدة.

يمكن للأفراد أن يُقدّموا التضحية للقيادة الإسلامية، وهذا من واجباتهم ما داموا مسلمين، حديث رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة لله

ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]، وقول جرير بن عبد الله: (بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[2]. بينما الأفراد في بقية القيادات لا يمكنهم أن ينبثوا ببنت شفة أمام قادتهم وخاصةً القادة العسكريين.

لا يصحّ للأفراد المسلمين أن يُطيعوا قادتهم في أمر فيه معصية الله سبحانه وتعالى أي فيه أية مخالفة للإسلام لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[3]. وقوله: «لا طاعة لمن لم يطع الله»[4]. ونعلم أن أبا بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، قد قال في خطبته يوم بُويع بالخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم». أما القيادات الجاهلية فطاعتها عند أفرادها واجبة في كلّ الأمور. بل يُنفّذ الفرد ما أُمر به، ثم يعترض إن أراد، ولا يصحّ أن يكون الاعتراض في أمورٍ تتعلق بالغيبيات - حسب زعمهم -.

وفي القيادة الإسلامية لا توجد قيادة جماعية - كما سبق أن ذكرنا - ولا يوجد نائب للقائد، ولكن عندما يضطر للغياب لسببٍ من الأسباب يُعيّن مكانه من يقوم مقامه. وقد رأينا أن رسول الله ﷺ، عندما يخرج إلى غزوةٍ، ويُغادر المدينة يُعيّن أميراً من قبله عليها، وفي كل مرّةٍ يضع أحد أصحابه، وغالباً ما يكون غير الذي وضع في المرة السابقة لقد غاب رسول الله ﷺ، سبعاً وعشرين مرة عن المدينة، وخلفه في هذه المرات ثلاثة عشر نائباً، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدين من بعده حيث يُنيب الخليفة مكانه أحد الذين يختارهم لتصريف شؤون الدولة أثناء غيابه. كما لا يوجد خليفتان في دار الإسلام مهما اتسعت حتى لو شملت العالم كله - وهو ميدان عملها - ولو قام أحدهم يُنازع الخليفة أو يدّعي خلافته على

---

(١) أخرجه البخاري في باب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري في باب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٦٦.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٢١٣.

جزءٍ من ديار الإسلام والخليفة الشرعي على جزء آخر فإن الدعيّ يُقتل إن لم يثُب إلى رشده بعد النصح والتذكير بأوامر الإسلام، يقول ﷺ: «من أتاكم وأمرُكم جميع على رجلٍ واحدٍ يُريد أن يشقّ عصاكم أو يُفرّق جماعتكم فاقتلوه»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[٢]. أمّا في القيادات غير الإسلامية فيوجد لكل قائدٍ نائب له، وكثيراً ما يحدث النزاع إن كان النائب على شيء من القوة.

وفي الإسلام لا يُعطي القيادة من يسألها أو يحرص عليها، قال رسول الله ﷺ: «إنا والله لا نُولّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه»[٣] قال ذلك عندما سأله أحد ابني عمّ أبي موسى الأشعري الإمرة، وقد دخلوا عليه، أما عند غير المسلمين فالجميع يطلبون الإمارة، ويسعون إليها، ويحرصون عليها، ويعملون كل وسيلةٍ في سبيل الوصول إليها.

وفي الإسلام يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأول الصفات المناسبة الدين وحسن الخلق، والرجل القويّ الأمين، وأمّا بالنسبة إلى إمرة الجيش فيُختار الكفء صاحب الإمكانات. وقد قال أبو ذرّ مرةً لرسول الله: يا رسول الله ألا تستعملني فقال له: «يا أبا ذرّ إنك ضعيف وإنّها أمانة وإنّها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[٤]. أما عند غير المسلمين ولو كانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام بل هم أول ما أخصهم فإن أول ميزات القيادة البعد عن الدين والخلق، وللشهادة دورها الرئيسي، وللمعرفة شأنها، وللعصبية حزبيةً كانت أم قبليةً مكانتها.

وفي الإسلام لا يوجد صلاحيات مطلقة أو واسعة تُعطى للقائد

---

(١) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٢) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٣) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٤) أخرجه مسلم في باب الإمارة.

يُمارسها فوق حقّه الطبيعي، وفوق ما تُعطيه تلك الدساتير الوضعية التي يصوغونها حسب مصالحهم وأهوائهم، فيتصرّف بعدها تصرّف الفراعنة والمتألّهين. أما القائد المسلم فلا يستطيع أن يسير خارج دائرة الإسلام قيد أُنملة، ويشعر أن الله رقيب عليه في كلّ حركةٍ من حركاته لا تخفى عليه خافية فلا يمكنه التهرّب، فلو كان الخوف من سلطانٍ أو قانونٍ لأمكنه التلاعب أو التستّر، ولما كان عمله واضحاً بيّناً مكشوفاً أمام خالقه الذي سيُحاسبه لذا فإنه يبقى حذراً خائفاً لا يحيد عن الإسلام، ولا يزيغ عما تسمح به الشريعة سواء أُعطي أم لم يُعط، فكّر أم لم يُفكّر.

وإذا كان غير المسلمين سواء أكانوا ينتمون إلى الإسلام أم إلى غيره يعدّون القيادة جاهاً يستظلّون فيه، ومركزاً يمشون فيه بين الناس، وغنماً يُحقّقون منه أرباحاً، وسلطة يُنفّذون من ورائها أهواءهم وشهواتهم أو يشفون صدورهم ويروون غلّهم من خصومهم، و. . . . فإن المسلمين يرون القيادة مسؤوليةً، تجعل حسابهم أكبر عند الله إن لم يأخذوها بحقّها ويؤدّوا واجبهم فيها، وبذا عليهم أن يُضاعفوا الجهد، ويبذلوا إمكاناتهم وطاقاتهم كافةً.

أما بالنسبة إلى القيادة العسكرية فإن بعضهم ربما يقول: إن النظام العسكري القائم والاختصاص الذي أصبح أساساً لا بُدّ من أن يفرض قيادةً دائمةً، وبهذا يبقى المحظور الذي تتكلّم عنه قائماً، وأحبّ أن أُركّز على هذا الموضوع لذا عُدت إليه بعد أن قطعته ليثبت في الذهن. قلت: إنّ كلّ موضوعٍ يرتكز على أساس العقيدة، ولما كنّا أبناء الإسلام نختلف عن غيرنا في عقيدتنا فإننا نختلف عنهم في كثيرٍ من تصوّراتنا للحياة ومنهجها. إن مُهمّتنا في الحياة تقوم على الجهاد الذي لا ينتهي أبداً حتى ينتهي الطغاة والظلم من العالم وحتى ينتهي الشرك من العالم أيضاً. فساحة عملنا العالم كلّه، لذا يجب أن نستعدّ دائماً أو أننا في مرحلة جهادٍ دائم، وهذا يقتضي ألا يكون الجيش النظامي في مصر من الأمصار هو المقاتل فقط، وإنما كل عناصر الشعب القادرة على حمل السلاح يجب أن تتدرّب في الدوائر،

والمدارس، والمعامل، وفي ساحات القرى، وحدائق المدن، بغضّ النظر عن السنّ، ويصل الأمر أحياناً إلى تدريب النساء الذي نحتاج إليه كما هو معلوم في أمور الفقه حيث يكون الجهاد فرض عين عندما يُداهم العدو دار الإسلام أو يقتحم المدن والقرى. ويكون التدريب على كافة أنواع الأسحلة. ومن هذا المنطلق فإن الجيش النظامي لا يُشكّل إلا جزءاً قليلاً، من المقاتلين، ووظيفته في الحالات العادية دعم قوات الأمن الداخلي عند الضرورة، وحفظ نقاط الحدود، ويكون الطليعة للقتال. وبذا فإن القيادة في الأمور المادية تكون لغير المحترفين من الجيش، وفي حالات القتال يمكن أن تكون القيادات العليا لضباط الجيش، وهي حالات موقتة. والقيادات الأخرى لغيرهم، بل من الممكن أن يتولى غيرهم القيادة ما دام التدريب مُستمرًّا، والإمكانات موجودة. وفي هذه الحالة لا يخشى من المحظور المرتقب من التسلّط العسكري.

هذا إضافةً إلى أن الحكم عندما يكون قائماً على أساس الإسلام، فإن كل شيءٍ يكون مُنبثقاً عنه سواء أكانت التربية أم التعليم أم التدريب العسكري وجوانب الحياة الاجتماعية كلها، وعندها لا توجد نفسيات كالتي عهدنا عند العسكريين الذين يتسلّطون على الأوضاع في بعض الأمصار التي اعتادت أن ترى هذه النماذج أو عند أولئك الذين يُفسّرون الأمور وتصرّفات غيرهم بمقتضى هواهم وحسب نفسياتهم المُعقّدة التي تتناسب مع المجتمع الجاهلي الذي يعيشون فيه.

والخلاصة:

١" ـ لا بدّ من قيام قيادة يتولّى أمرها مسؤول واحد. وليس للخليفة أو الأمير نائب دائم.

٢" ـ لا توجد لدى المسلمين قيادة جماعية. ولم تُعرف هذه القيادة لدى أسلافنا.

٣" ـ لا توجد قيادة دائمة سوى الخلافة.

٤" ـ لا تُعطى القيادة لمن يسألها أو يحرص عليها.

٥" ـ ليس للقيادة صلاحيات مطلقة.

٦" ـ على القيادة أن تتقبل النصح والرأي من أي فرد من الأُمّة.

٧" ـ لا تُطاع القيادة في معصية.

٨" ـ تُسأل القيادة أمام النظام في الدنيا، وهي مسؤولة أمام الله في الآخرة.

٩" ـ وظيفة القيادة خدمة الأمة ورعايتها.

١٠" ـ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب له.

١١" ـ من شروط القيادة: التواضع، والتقوى، والخوف من الله، والحزم، والقوة.

[٢٢] الإدارة

هي إدارة التعاون البشري أو المجتمع، أو استخدام القوى البشرية والتفاعل معها للوصول إلى الأهداف العامة التي ترسمها القيادة، أو تدعو إليها العقيدة ضمن مبادئ مُحدّدة. وتُمثّل بشكلٍ عامٍ العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين، أو طريقة تطبيق القوانين أو السياسة العامّة. ورُبّما عدّ بعضهم الإدارة هي تصرّف القائد باستخدامه المبادئ العامة وتطبيقها إذ لا يكفي وجود المبادئ، ولكن كيفية استخدامها وتطبيقها، وتعامل القائد معها، وتصرّفه في استعمالها، وطريقته في الإفادة من مرونتها.

ولما كان الإسلام عقيدة، والعقيدة لا بدّ من أن يكون لها منهج حياة، فلا بدّ من أن يكون منهج في الإدارة والنظام. ويُلزمنا الإسلام باتخاذ منهجه وإلا نكون خارجين عنه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[1]. والمنهج هو ما سار عليه رسول الله ﷺ، لأنّه من عند الله سبحانه وتعالى، فهو أدرى بخلقه، وقد أنزل لهم ما يصلُح لهم، ويُصلح لهم شأنهم، ويتّفق مع المهمّة التي خلقهم من أجلها، وهي العبادة، والمهمة التي كلّفهم بها وهي عمارة الأرض. ورسول الله ﷺ، هو القدوة لنا في كل شيء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2]. ومن ثمّ فإن طريقته قد حقّقت نجاحاً باهراً إذ استطاع وحده ـ بإذن الله ـ أن يُغيّر مجتمعاً كاملاً موغلاً في الجاهلية، ويرفعه من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

الحضيض إلى القمّة، وأن يقيم له دولةً في مدةٍ لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً، ولا غرابة في ذلك فهو رسول الله. مُوجّه من الله، مرعي من الله، مُسدّد الخطا، والمنهج منهج الله، والعباد خلق الله، وقد أنزل إليهم هذا المنهج.

وليست الإدارة في الإسلام ضغط، ورقابة، وتوجيه، وتسلّط كما هي في بعض الأنظمة بحيث لا يستطيع المرؤوس أن يرفع رأسه من العمل، أو يأخذ شيئاً من الراحة، كما لا يستطيع أن يُفكّر وإنما يعمل كالآلة مدة الوقت المحددة كلّها، وإذا أمكن يُضاف له جزء آخر بحيث تستغلّ طاقة العمل اليومية كلها فلا يذهب إلاّ وهو منهوك القوى خائر الجسم. وإذا كانت الأنظمة الحديثة قد حدّدت ساعات العمل، وأعطت العامل بعض الحقوق مثل الإجازة المرضية، والعطلة الأسبوعية، وهي يوم يجد العامل فيه راحة، ويستعيد نشاطه والعطلة السنوية وهي ما يقرب من أسبوعين غير أن العامل قد بقي محطّما نفسياً، ويعدّ نفسه دون بقية أفراد المجتمع مستوى. وأصبح العمال طبقةً خاصةً تُكافح ضد طبقةٍ أخرى من المجتمع هي طبقة أصحاب المعامل وغدا الصراع في المجتمع حتى تهدّم في بعض الشعوب والأمم.

أما الإدارة في المجتمع الإسلامي فتمتاز ببعض الميزات الخاصة بها، وقد لا تلتقي إلاّ في جوانب قليلةٍ مع الإدارات في المجتمعات الثانية، وأهم هذه الصفات:

١ ـ لا توجد طبقات في المجتمع الإسلامي، وبالتالي لا يوجد صراع فيه، وإنما كل فرد في المجتمع يُشكّل جُزءاً منه له دوره الذي يُؤديّه، ولا تختلف منزلة فردٍ عن فردٍ بالمهنة أو الوظيفة، أو المال، أو الأملاك، أو النسب، أو العصبية، أو الانتماء، فالناس في المجتمع الإسلامي سواسية كأسنان المشط يتمايزون بالإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ، في خُطبة حجّة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد. وإن

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى»[١].

٢ - يكون رأس الإدارة قدوةً طيبةً لمرؤوسيه، فهو أولاً يقتدي برسول الله ﷺ، والجميع يقتدون، ولكن هو أكثرهم. وما وصل إلى رئاسة العمل إلا بأخلاقه، وتقواه واقتدائه برسول الله ﷺ، ولم يصل إليها بشهادته، وإن كان لها دور بالاختصاص، والمعرفة، والعلم، ولم يصل بنسبه، أو معارفه، أو حزبيته، أو عصبيته أو أيّة رابطة من روابط الدنيا سوى رابطة الإسلام. وكلما زاد المسلم منزلةً أو رتبةً ازداد تواضعاً إلى الله، وزادت صلته بإخوانه حسناً، وبجيرانه قربى، وبمرؤوسيه إحساناً، وبالناس جميعاً خُلقاً ومودةً، وبأهله برًّا وارتباطاً. وقد كان رسول الله ﷺ، خير الناس جميعاً في هذا كله، لذا كان القدوة للمسلمين على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، يقول رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٢].

٣ - يأخذ الإسلام بمبدأ معرفة الإمكانات لكل فرد، وإعطاء كلّ إنسان ما يُحسنه، ولننظر إلى رسول الله ﷺ، وكان يختار قادته العسكريين من أصحاب القوة والشجاعة أمثال: الحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن مسلمة، وبشير بن سعد، وعكاشة بن محصن، وعبد الله بن جحش، وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد... وبغضّ النظر عن السابقة، وهي ذات قيمة في الإسلام، وبغضّ النظر عن التقوى وعليها المعوّل في التفضيل. وإذا كان أكثرهم من السابقة ومن المهاجرين إلاّ أننا نلاحظ أنه قد أرسل عمرو بن العاص إلى جموع بلي وقضاعة في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار منهم صهيب بن سنان، وسعد بن أبي وقّاص، وأسيد بن الحضير، وعبّاد بن

---

(١) حياة الرسول المصطفى، عبد الرزاق محمد أسود، ٣/٧٠٦.
(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح، ٥٠، والدارمي في باب النكاح أيضاً ٥٥.

بشر، وسعد بن عبادة و. . . وكلهم أفضل منه لسابقتهم، وهي السرية المعروفة بذات السلاسل، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح بسريةٍ فيها أبو بكرٍ وعمر. وقدّم خالد بن الوليد على الفرسان يوم فتح مكة وبينهم من هو خير منه. كما بعث أسامة بن زيد بن حارثة بجيش إلى تخوم بلاد الشام ولم يتجاوز أسامة الثامنة عشرة، وفي البعث كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. كما أن رسول الله ﷺ، كان يختار الولاة من الأقوياء الأمناء بغضّ النظر عن سابقتهم وفضلهم، فقد ولّى على مكة بعد فتحها وخروجه منها عتّاب بن أُسيد، وكان فتى حدثاً، وولّى أبا سفيان على نجران و. . . وعندما طلب أبو ذر من رسول الله ﷺ، الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[1].

٤ ـ وتكون القدوة الطيبة في القتال أيضاً، فقد كان رسول الله ﷺ، أشجع الناس، كان فزعٌ في المدينة فخرج الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم رسول الله ﷺ، قد سبقهم فاستنبأ الفزع على فرسٍ عُرى لأبي طلحة ما عليه سرج، في عنقه السيف، فقال: لا تراعوا.

عن البراء، رضي الله عنه، أنه سأله رجل من قيس فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ، يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ، لم يفرّ. كانت هوازن قوماً رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ، على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وعن البراء، رضي الله عنه، قال: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، يعني النبي ﷺ، وإن الشجاعة منا الذي يُحاذي به.

وعن علي، رضي الله عنه، لقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي ﷺ،

---

(١) صحيح مسلم باب الإمارة.

وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ.

وعنه أيضاً قال: كنّا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما كان أحد أقرب إلى العدو منه[1]. ولا ننسى موقفه يوم أُحُد، وقد انهزم عنه الناس، ويوم حنين قد فرّت أمامه الجموع.

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ، كان يقود المعركة بنفسه، ويُشرف على سيرها، ويكون في أول المقاتلين، وإذا كان في طريقه إلى العدو كان على رأس المقدمة ليكون أول من يصطدم بالعدو، ويحمي من خلفه، وإذا كان في طريق العودة من الغزو يكون مع الساقة ليحمي مؤخرة الجيش من غارات الأعداء فيما إذا وقعت، إذا كان الأعداء يباغتون خصومهم عند انسحابهم أو في طريق قفولهم.

٥ ـ مبدأ تقسيم العمل: بحيث يُعطى كل فردٍ جزءاً من العمل، ويأخذ المدير جزءاً، إذ لا يترك لنفسه الإشراف، أو يُفضّل الجلوس بصفته المسؤول، وإنما يختار كالبقية جزءاً وقد يكون أشقّها، أو فيه من التعب كغيره أو يزيد، كما ليس فيه راحة أو يدل على منزلة و. . . (وأمر رسول الله ﷺ، في بعض الأسفار بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك فقال: قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، ثم قام وجمع الحطب)[2].

٦ ـ مبدأ المكافآت والرتب: لقد كان رسول الله ﷺ، يُعطي الألقاب، وهي تعادل الرتب اليوم بل تزيد عليها حيث تدلّ على فضلٍ كبيرٍ وجزاءٍ عظيمٍ فالصديق، والفاروق، وذو النورين، وأسد الله، وسيف الله، وحواري رسول الله، وحبّ رسول الله، وحبّ رسول الله وابن حبّه، وأمين الأُمّة، وارم بأبي أنت وأمي، وشاعر رسول الله، وخطيب رسول الله، وقائد حرس رسول الله، وخادم رسول الله، والمؤاخاة مع علي، وجار رسول الله و. . .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ـ ابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد، ٢/ ٤٤٣.

(٢) العامري: بهجة المحافل وبغية الأماثل: ٢/ ٢٨٤.

وقد يُعطي رسول الله ﷺ مكافآت مادية من الغنائم، فقد أعطى المهاجرين الغنائم من بني النضير دون الأنصار سوى سهل بن حُنيف، وأبي دجانة (سمّاك بن خرشة) لفقرهما، وذلك لقاء الهجرة وما تركوا من أموالٍ وبيوتٍ في مكّة، ولم يجد الأنصار خضاضة في ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[1]. وأعطى رسول الله ﷺ، من غنائم حنين المُؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألّفهم، ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مائة بعير، وأعطى عُيينة بن حصن بن بدر مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النضري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وأعطى رجالاً آخرين دون ذلك فقد أعطى مخرمة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري، كما أعطى رجالاً آخرين خمسين من الإبل منهم سعيد بن يربوع، وعدي بن قيس وغيرهم. وأعطى عباس بن مرداس حتى رضي. وأعطى الكثيرين ولا أجد حاجةً لذكر أسمائهم جميعاً. غير أن الأنصار لم يأخذوا أبداً ووجدوا في أنفسهم شيئاً، وحدّثوا رسول الله ﷺ، فأجابهم: «وكّلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

وهذا يدلّ على أن هذا العطاء كان مكافأةً لهم لقتالهم الذي قاموا به، ولم يُسلموا بعد إسلاماً أكيداً، كما أن هذا كان تشجيعاً لهم كي يُسلموا ويدخل الإيمان إلى قلوبهم، أما المؤمنون حقّاً من المهاجرين والأنصار فلم يظفروا بشيء وأوكلهم إلى إسلامهم إذ يحصلون على الأجر من الله. والحديث ورد عن الأنصار لأن الذين أخذوا من المؤلّفة قلوبهم من بطون قريش نفسها التي منها المهاجرون، فلم يتكلّموا بشيءٍ إضافةً إلى أن أكثرهم كانوا من النواة التي تألّفت حولها الدعوة، والذين تربّوا في مرحلة الدعوة السرية.

٧ ـ حسن الصلة بالأفراد: كان رسول الله ﷺ، يُخالط الناس، ومن صفاته التي ذكرها هند بن أبي هالة عندما سأله الحسن بن علي عنها: قال: كان يَخْزِن لسانه إلاّ فيما يعنيه، ويُؤلّفهم ولا يُنفّرهم، ويُكرم كريم كلّ قوم ويُولّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترز منهم، من غير أن يطوي على أحدٍ بشرهُ ولا خُلُقَهُ، ويتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عمّا في الناس، ويُحسّن الحسن ويُقوّيه، ويُقبّح القبيح ويُوهنه، معتدل الأمر غير مختلفٍ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حالٍ عنده عتاد لا يُقصّر عن الحقّ ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مُواساةً ومؤازرةً، وكان لا يقوم ولا يجلس إلاّ على ذكر، وإذا انتهى إلى قومٍ جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجةٍ صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجةً لا يردّه إلاّ بها أو بميسورٍ من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا في الحقّ عنده سواء، مجلسه مجلس علم وحياءٍ وصبرٍ وأمانةٍ، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تُؤْبَن فيه الحُرَم، يتعاطفونَ فيه بالتقوى، متواضعين يُوقّرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويُؤثرون ذا الحاجة ويحفظون فيه الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بعيّاب ولا مدّاح،

يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُيئس منه ولا يُخيّب مُؤمّله[1].

٨ ـ الرفق بالمسيء إذا أنكر فعله أو اعتذر ولم يكن من شأنٍ، يستطيع أن يفعل ما من شأنه تهديم المجتمع. لقد أظهر عدد من الناس إسلامهم بعد أن قويت الدولة الإسلامية، وعظُمت شوكتها بعد معركة بدرٍ الكبرى، وأصبح هؤلاء ضمن الصفّ ينفثون سمومهم فيه، هؤلاء هم المنافقون وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي يحاول أن يبثّ الفرقة بين المسلمين كلما سنحت له الفرصة، وفي غزوة بني المصطلق في شهر شعبان من السنة السادسة لاحت له بارقة أملٍ في إثارة فتنةٍ بعد النصر على بني المصطلق والعودة نحو المدينة، وعلى مياه القبيلة ازدحم الناس واختلف أجير لعمر بن الخطاب هو جهجاه بن مسعود مع سنان بن وبر الجهني حليف الخزرج واقتتلا، فنادى سنان يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. ووصل الخبر إلى رأس المنافقين فأبدى غضبه أمام رهطٍ من قومه بينهم فتىً حدث يُدعى زيد بن أرقم. فقال كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدّنا وجلابيب قريشٍ إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع بذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عبّاد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ٢/٤٦٩ ـ ٤٧٠.

أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به - وكان في قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً على ابن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعةٍ مُنكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أُبيّ؛ قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله ﷺ، تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. وأنزل الله سورة المنافقين وفيها: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدّ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث عبد الله بن أبيّ الحدث كان قومه هم الذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويُعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ، لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأُرْعِدت له أُنُف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؛ قال

عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ، أعظم بركةً من أمري[١].

ولما انتهى رسول الله ﷺ، إلى وادي العقيق، تقدّم عبد الله، رضي الله عنه، ابن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وجعل يتصفّح الركاب حتى مرّ أبوه، فأناخ به، ثم وطئ على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لكع، فقال: والله لا تدخل حتى تُقرّ أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز، وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيضاً الأعزّ من الأذلّ، أنت أو رسول الله ﷺ، فصار يقول: لأنا أذلّ من الصبيان، لأنا أذلّ من النساء، حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال له: خلّ عن أبيك، فخلّى عنه[٢].

وصبر رسول الله ﷺ، على أذى المنافقين، وتوفي عبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين في العام التاسع فجاء ابنه عبد الله، رضي الله عنه، إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أُكفّنه فيه، وصلّ عليه، واستغفر له. فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذنّي أُصلّي عليه، فآذنه، فلما أراد أن يُصلّي عليه جذبه عمر، رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تُصلّي على المنافقين، فقال: أنا بين خِيَرَتَين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣] فصلّى عليه فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٤].

وهكذا نجد رفق رسول الله ﷺ، بمن معه سواء أكانوا من الصادقين أم من المنافقين ما داموا لا يستطيعون تأثيراً على المجتمع الإسلامي، وإن هذا الرفق قد جعل أعوان المنافقين يُعنّفونهم على تصرّفاتهم حتى بطُل تأثيرهم نهائياً، وربما كانت الشدّة مجالاً لعطف بعض الناس عليهم ما داموا يُظهرون الإسلام، ويسيرون مع رسول الله ﷺ، في غزواته. غير أن رسول الله ﷺ، عندما يجد أن التأثير ربما يقع فهناك لا بدّ من استعمال

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.
(٢) انظر السيرة الحلبية.
(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.
(٤) البخاري باب الجنائز.

الحزم بل اتخاذ الشدّة إن دعت الضرورة إليها. ونلاحظ هذا عندما كان أهل الكتاب من اليهود لا يزالون يعيشون في مجتمع المدينة، وأرادوا إثارة الفتنة فقد أخرج بني قينقاع من المدينة إثر معركة بدرٍ، كما أخرج بني النضير إثر غزوة أُحدٍ بعد حصارهم، وفتك بني قريظة بعد خيانتهم المسلمين وخيانة عهودهم إثر غزوة الأحزاب، هذا بصورةٍ جماعيةٍ، وكذلك فهناك بعض التصرفات الفردية مثل كعب بن الأشرف الذي قال عندما بلغه خبر غزوة بدرٍ ونتائجها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقّن عدوّ الله الخبر خرج حتى قدم مكّة، وجعل يُحرّض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدرٍ. ثم رجع إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فكان لهذا أثره بحيث لا يمكن السكوت عنه لأن النتائج قد تتضاعف فكعب بن الأشرف له حصنه المنيع، وأهل الكتاب لا يزال أكثرهم في ضواحي المدينة، والنفاق قد نجم، لذا فقد قرّر رسول الله ﷺ، التخلّص من هذا المجرم، فقال لبعض أصحابه: من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله؛ قال: فافعل إن قدرت على ذلك. فذهب إليه مع أربعة من الأنصار وقتلوه. ويجب أن ننتبه إلى أن هذا الحادث قد وقع في المرحلة المدنية أي بعد أن قامت دولة المسلمين، إذ لا يصحّ هذا قبل ذلك.

٩ ـ وحدة الاتجاه: إن من الأهمية بمكان أن يُوجّه أصحاب الإدارة المسؤولين عنهم نحو هدفٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ بحيث يعمل الجميع للوصول إليها، ويبذلون جهدهم كله في سبيل ذلك، ولا يضيعون الوقت لتحقيق أهدافٍ خاصة ومصالح ذاتيةٍ، وقد تتضارب بعضها مع بعض تبعاً لمصالح الأفراد وأهواء الأشخاص التي لا بُدّ لها من أن تتباين وتختلف، فيضيع الوقت في المنافسات والصراع، وتذهب الأهداف تحت وطأة المصالح التافهة والأهواء الفانية.

ولا شكّ أن الإسلام يُوجّه أتباعه جميعاً أفراداً وإداراتٍ نحو غايةٍ

ساميةٍ هي إرضاء الله سبحانه وتعالى فيعمل كل إنسانٍ في سبيل ذلك ويتنافس كلّ فردٍ لتحقيق الدرجة العليا والغاية التي يتطلّع إليها. وبذا لا نجد أطماعاً شخصية، ولا تهافت على أمور الدنيا الزائلة، ولا صلات مع أعداء الله مما نجده هذه الأيام. ومما لا شكّ فيه أن هناك شذوذات نراها في المجتمع الإسلامي، وهي لها حلول وعلاج، حيث يُقضى عليها في مدةٍ بسيطةٍ، والتي تبقى في غيّها فإن هناك روادع تصل إلى حدّ البتر في بعض الأحيان.

ولما كانت الإدارات تُقوّم الأمور بالتقوى والكفاءات، فإن مجال النفاق والتزلّف لا وجود له في المجتمع الإسلامي، والأشخاص الذين يعيشون بالنفاق ومحاولة التقرب من أصحاب السلطة من غير إنتاج ولا مردود لا مكان لهم أيضاً، وبذا فالمجتمع الإسلامي نظيف من أهل الأهواء والفساد، بعيد عن النفاق والتزلّف، خالٍ من الخيانة التي تقضّ مضاجع الأمم، متعاون الأعضاء، ويوجد تفاهم تام بين الإدارات والذين يتبعونها.

وهذا يؤدي بدوره إلى تحقيق الاستقرار النفسي الذي يزيد من فاعلية الفرد، وتفاعله مع مجتمعه الذي يعيش فيه.

١٠ ـ تنمية الخبرات: وتعمل الإدارة الإسلامية على تنمية الخبرات بشكلٍ مستمرٍ، وتُشجّع على الابتكار، وهي مسؤولة عن إيجاد ما يكفي المسلمين من أيّة حاجةٍ، ومعرفة كلّ ما يحتاجون إليه لشؤونهم العلمية والعملية، وتُعدّ آثمةً إن لم تعمل على تحقيق ذلك.

١١ ـ الشورى: لا بُدّ للإدارة قبل اتخاذ أيّ قرار من استشارة العناصر من أهل الرأي والخبرة، والذين يمارسون العمل. وقد رأينا رسول الله ﷺ، بعد غزوة بدرٍ يستشير أصحابه في شأن الأسرى. فقد استشار أبا بكر، وعمر، وعلياً، وعبد الله بن جحش، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم، وكان رأي أبي بكر الفداء، ورأي عمر القتل وبأيدي أقرب الناس إليهم، ورأي عليٍّ وابن جحش القتل ورأي ابن رواحة الحرق.

وبعد أن استمع رسول الله ﷺ، إلى رأي أصحابه وجد أن يأخذ

الفداء لعلّ الله يهدي هؤلاء الأسرى فيكونون من أنصار الإسلام، ويقفون مواقف حميدة، وذلك رحمةً بهم وطمعاً في هدايتهم.

١٢ ـ اتخاذ القرار: ويكون بعد مُشاورة أهل الرأي، وأصحاب الخبرة والذين يُؤدّون العمل بأنفسهم. ومن المعلوم أنه لا توجد أكثرية أصوات وأقلية، وإنما اتخاذ القرار بعد تداول الرأي مع أصحاب الحلّ والعقد، إن الآراء كلها ليست سوى اجتهاداتٍ مبينةٍ على أُسسٍ إسلاميةٍ، وأهل الشورى أهل علمٍ ومعرفةٍ، واتخاذ القرار ليس سوى ترجيح اجتهادٍ على اجتهادٍ حسبما يُوّفقه الله إلى ذلك.

الخلاصة: لا تقوم الإدارة في الإسلام على الإكراه، والضغط، والإرهاب، بقطع جزءٍ من الأجر، واستنفاد الطاقة، واستغلال الوقت كلّه دون راحةٍ. وإنما تقوم على:

١ ـ عدم التمييز.

٢ ـ القدوة الطيبة.

٣ ـ معرفة إمكانات كلّ فردٍ.

٤ ـ تقسيم العمل.

٥ ـ المكافآت.

٦ ـ حسن الصلة بالأفراد.

٧ ـ الرفق بالمسيء.

٨ ـ وحدة الاتجاه.

٩ ـ الاستقرار النفسي.

١٠ ـ تنمية الخبرات.

١١ ـ الشورى.

١٢ ـ اتخاذ القرار.

[٢٣] التخطيط

إن المستقبل مجهول لا يدري المرء ما سيحدث فيه، الأمر الذي يجعله يخشاه فيُخطّط ليدرأ ما قد يأتي من أحداث أو ليُقلّل من خطرها فيما إذا تمّ، أو يُحاول أن يتدخّل في مجريات الأحداث. فقد تتوقّع الجماعة مداهمة عدوٍّ خارجي فلا تعرف القوة التي يداهمها فيها، ولا الطريق التي يسلكها فتُخطّط الجماعة لردّ ذلك العدوّ والانتصار عليه بتهيئة قوةٍ تفوق قوة الخصم، وشدّه كي يسلك طريقاً تكون في مصلحتها، وجرّه إلى ميدانٍ تُحقّق فيه السيطرة عليه، وتأمين النصر.

والمدن تنمو وتتطوّر ولا بُدّ من السيطرة على اتجاه نموها كي نُحافظ على الأرض الزراعية مثلاً، ونُوجّه اتساعها في الجهات غير الصالحة، إلاّ للبناء، ولإمكانية تأمين صرف مياه السيول المرتقبة أو مجاري المياه المستعملة، وحتى تستطيع السلطة المشرفة أن توصل المياه إلى السكان في المناطق المرتفعة. وتضبط الأبنية لفتح الشوارع وجعلها بعرضٍ معيّن تتفق مع المهمّة التي تُؤدّيها، ومع ارتفاع العمران كي يبقى الهواء في جريانه، ولا يُحبس فيسبب الخمول والكسل، وينشأ المرض والوباء. ولا بُدّ للمصانع من أن تكون في جهةٍ مُعيّنةٍ تنسجم واتجاه الريح بحيث لا يحمل دخانها والغازات المنطلقة منها إلى المدينة كي لا يضرّ بالسكان، وبحيث تكون مع ميل الأرض حتى يسهل تصريف مُخلّفاتها. كل هذا يجعل التفكير بالمستقبل والتخطيط له.

والتنمية الاقتصادية تحتاج إلى نظرةٍ مستقبليةٍ لإقامة السدود وضبط مياه الأنهار والسيول خوفاً من فيضاناتها المُدمّرة، وإفادةً من مياهها في الريّ،

وعملاً للملاحة فيها. وبناء المصانع الضرورية في أماكن توافر المادة الخام، وتكاثر اليد العاملة، وسهولة المواصلات، والقرب من الأسواق، وإمكانية النقل إلى الموانئ لتصدير الفائض، واستيراد ما نحتاج إليه. وعقد المعاهدات التجارية لتبادل السلع خوفاً من الكساد، وسدّ النقص من المواد وهذا كله يحتاج إلى التخطيط.

والتنمية الاجتماعية، وتطوير اليد العاملة، وإكسابها الخبرة الفنية، وتأمين حاجاتها الأساسية، ومعرفة عدد السكان، وتطوّرهم لتهيئة المدارس، وتأمين المشافي، وتسيير وسائل النقل و. . . .

ووضع السياسات العامة، وتحديد الأهداف، واتباع الوسائل المُحقّقة للأهداف، والعمل على تطوير الدولة، والسعي وراء الغاية المنشودة، والمحاولة للوصول إلى الخطة المرسومة وهذا ما يُجبر المسؤولين من النظر إلى المستقبل لتحقيق غدٍ أفضل ينعم فيه الناس بالرخاء والطمأنينة والاستقرار وهذا هو التخطيط.

فالتخطيط عملية واعية لتحديد خطر سير العمل في المستقبل، واختيار أفضل طريقٍ أو مسارٍ للتصرّف لحلّ المشكلات المُقبلة، وتحقيق الهدف المُحدّد الذي يُعيّنه العاملون بوضوحٍ. ويُحدّد التخطيط مراحل العمل، والخُطوات التي تُتّبع، والطريق التي يسلكها المُنفّذون، والتناسق بين الأهداف كي لا يتعارض بعضها مع بعض بل لتتكامل وتنسجم في سبيل الوصول إلى الغاية النهائية التي تنشدها الجماعة. وبذا يُحقّق التخطيط الأمن النفسي.

والإسلام يدعو إلى النظر في المستقبل والتفكير والتهيئة والإعداد والاستعداد، ولم تقم دولة الإسلام إلاّ بالتخطيط والإعداد اللازم لذلك، وإذا كان علماء التخطيط اليوم يقسمون مراحل العمل إلى:

١ ـ مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ ـ مرحلة تحديد الأهداف.

٣ ـ مرحلة إقرار الخطة.

٤ ـ مرحلة التنفيذ.

٥ ـ مرحلة متابعة التنفيذ.

٦ ـ مرحلة تعديل الخطة إن دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد قام رسول الله ﷺ، بالدعوة، ورسم خطةً، وبدأ بالتنفيذ ومتابعتها فالأهداف مُحدّدة، وإقرار الخطة قائم، ولا تحتاج إلى تعديل.

لقد بدأ رسول الله ﷺ، في مرحلة الإعداد التحضيري فبقي ثلاث سنوات يلتقي بأصحابه الأوائل سرًّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بالصفا، يُعلّمهم الإسلام، ويُرسّخ الإيمان في قلوبهم والعقيدة في نفوسهم حتى غدت كالجبال الرواسخ، وأصبحوا قاعدةً صلبةً يمكن الاعتماد عليها ومواجهة قريشٍ بها، فانطلق بعدها إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التنفيذ.

خرج رسول الله ﷺ، من مرحلة الدعوة السرية فدعا قومه قريشاً، وعرض عليهم فكرته، وحذّرهم وأنذرهم بصورةٍ جماعيةٍ، فسمعوا أمراً لم يألفوه، فأنكروه، ووقفوا ضدّه إذ خافوا على مركزهم، وصعُب عليهم ترك ما هم عليه من الغواية، وما هم فيه من الضلالة. فصار يلتقي بهم أفراداً وجماعاتٍ يُبّين الشرك الذي عليه قريش والناس أجمعين إلا من رحم الله، ويشرح الطريق المستقيم وما فيه من الهداية والخير لمن يسلكه، والعاقبة التي تنتظر المتقين وينتظرها المشركون.

لقد زاد عدد أصحابه لدرجةٍ قلّت بعدها الزيادة إذ وجد قلوباً غُلفاً صُمًّا كالحجارة أو أشدّ قسوةً، وقاومت قريش بكل وسائلها خوفاً على مصالحها فعدت على من أسلم منها، وأذاقتهم مُرّ العذاب الجسدي والنفسي، فلما اشتدّ أذى قريش وزاد طغيانها كان لا بُدّ لرسول الله ﷺ، من أن يجد حمايةً لأصحابه، مع متابعة العمل في تنفيذ خطته، فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لإيجاد مكان أمينٍ يأوي إليه من لم يتحمّل ضغط قريش، ومن لم يجرؤ على الإسلام خوفاً من العذاب فيكون سبيلاً

لإسلامه والفرار بدينه، ولعلّ الحبشة تكون ملجأً للمسلمين جميعاً فيما إذا عتا الطغيان على حدّه، أو مهداً جديداً للدعوة، فليست الدعوة مقصورةً على العرب، وليس من الضروري انطلاقها من أرض العرب فحيثما توافر المكان الملائم، والمُناخ المناسب انطلقت الدعوة وتفتّحت.

هاجر عدد من المسلمين من مكّة إلى الحبشة، ولا يزيد عددهم على العشرة، ثم تبعهم آخرون حتى وصل عددهم إلى ثلاثةٍ وثمانين مسلماً منهم مَن معه أهله، ومنهم من سافر وحده بلا أهل. فكانت حياتهم صعبة شاقة هناك لقلّة عددهم، ولوجودهم داخل مجتمع لم يألفوه، وفي وسط لا يعرفون لغته، ولتميُّزهم بعقيدتهم، ولحقد البطارقة والقُسس عليهم، ولتحريض النصارى على هؤلاء الغرباء بدافع الكره والصليبية هذا رغم ترحيب النجاشي بهم، ودعمه واحتضانه لهم ولولا ذلك لعاد المهاجرون من الأيّام الأولى، وقد سبّب ذلك للنجاشي متاعب من خصومه، وحركاتٍ، وقد نصره الله عليهم، فمكّن للمسلمين مُوقّتاً هناك رغم أن الغربة قد تغلّبت فعاد أربعة وثلاثون، منهم أصحاب الهجرة الأولى العشرة جميعهم.

كان قد بقي عدد من المسلمين في مكّة ليُتابعوا الطريق مع رسول الله ﷺ، إذ لم يُهاجر كل المسلمين إلى الحبشة، فكان رسول الله ﷺ، يعمل على تربية أصحابه وتوجيههم وفي الوقت نفسه يسعى لتنفيذ الخطة في سبيل الوصول إلى هدفه لإقامة الدولة الإسلامية.

لقد كان يعرض ﷺ، نفسه على القبائل في كل موسم عسى أن يُؤمن بعضها، ويقبل الدعوة فتكون وديارها قاعدةً للدولة الإسلامية التي يسعى لها، أو تقبله، وتتعهّد بحمايته فتكون قاعدة انطلاقةٍ جديدةٍ وإسلام أفرادٍ جددٍ يرفدون المجتمع الإسلامي الذي لا يزال صغيراً ضعيفاً مُشتّتاً عسى أن يكبر وتقوى شوكته ويتجمّع أعضاؤه، وقد أبقى ﷺ، الحبشة مقرًّا احتياطياً فيها بعض أصحابه. غير أن قريشاً قد حالت بينه وبين القبائل إذ كانت تُحذّرها منه وتُلازمه كالظلّ في الموسم لتُكذّبه في كل ما يقوله وتتّهمه بالجنون والسحر لتُنفّر منه القبائل.

وهاجر إلى مدينة الطائف سرًا بعيداً عن أعين قريش ليأمن مكرها عسى أن يجد في قبيلة ثقيف ما يرمي إليه، غير أنه قد عاد خائباً كئيباً إذ أغرت ثقيف سفهاءها وصبيانها به فقذفوه بالحجارة فأُدميت قدماه الشريفتان وحتى رقّت له قلوب غُلف، وتأثرت لما حلّ به نفوس ما اعتادت أن تتأثّر وترحم.

ورجع رسول الله ﷺ، وهو أكثر تصميماً لمتابعة طريقه وتحقيق هدفه، وشاء الله أن يلتقي سرًا في الموسم مع بعض حجاج يثرب فعرض عليهم دعوته فقبلوها، وتعاهدوا على اللقاء معه في الموسم القادم في المكان نفسه والزمان نفسه، وقد عرضوا دعوته على قومهم في مدينتهم، واستدار العام، وتمّ اللقاء، وحصلت البيعة، وقام العهد بين الطرفين، وبدأت الهجرة، وانتقل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام، وتحقّق الهدف الأول، وتمّت المرحلة الثانية، ولكنه بقي ﷺ، ينظر إلى المستقبل ويخشى أن تعصف الريح بدولته الناشئة لذا فقد عمل على إبقاء أصحابه في الحبشة لتبقى هناك المقرّ الاحتياطي، ويبقى أصحابه القاعدة الاحتياطية فيها.

وتبرز المرحلة الثالثة وهي تقوية هذه الدولة الناشئة فعمل على المؤاخاة بين المسلمين بعضهم مع بعض ليكونوا كتلةً واحدةً في مُواجهة أيّ عُدوان سواء أكان داخلياً أم خارجياً، ثم وادع يهود لتكون المدينة صفاً واحداً لصدّ أيّ غزوٍ خارجي، ثم انطلق يدرس الأرض التي يتوقّع أن تكون ساحة القتال بين المسلمين وبين المشركين من قريش، وكانت هذه الدراسة بالغزوات والسرايا التي انطلقت قبل معركة بدر، ويُلاحظ أنها كلها كانت إلى جهةٍ واحدةٍ هي المنطقة الساحلية حيث طريق قوافل قريش من مكّة إلى الشام وبالعكس، كما كان لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة أُخرى وهي التعرّف على القبائل التي تنزل في تلك الجهات ومُحاولة شدّها إلى صفّ المسلمين، أو على الأقل وقوفها على الحياد فيما إذا تمّ اللقاء بين المسلمين وقريشٍ، ولم تكن لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة قتالية كما يتصوّر

بعضهم إلا إذا جعلنا فكرة الاستعداد ورفع الروح المعنوية والتشجيع في المواجهة المرتقبة في باب القتال، وقد تمّت الدراسة، وتمّ التعرّف على بعض القبائل، وغدا التهيؤ جاهزاً.

وجرت معركة بدر، وترسّخت أقدام المسلمين، وثبتت دعائم الدولة، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ، لا يزال يشعر بالخطر يُحدق بدولته، لذا فقد أبقى أصحابه في الحبشة. وجرت معركة أحد، وهبت ريح على المسلمين ثبتوا أمام هبوبها بعزم فتجاوزتهم بعد مرورها على الرجيع وبئر معونة، ثم عادت للمسلمين قوتهم بعد إجلاء يهود بني النضير، وغزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وصلح الحديبية، وزال الخطر تقريباً عن الدولة الإسلامية، وعندها استدعى رسول الله ﷺ، أصحابه من الحبشة، إذ أرسل عمرو بن أُميّة الضمري إلى النجاشي ليحمل إليه أصحابه فقدم بهم في سفينتين. ولم يعد الأمر بحاجة إلى قواعد احتياطية أو مقرّ ثانٍ. وبدأت الدولة بعدئذٍ تتوسّع وتنتشر نحو تحقيق غايتها السامية.

وهكذا قامت الدولة نتيجة التخطيط الذي تمّ على مراحل، وأرى أننا مطالبون بالسير على المراحل التي سار عليها رسول الله ﷺ، وهي:

١ ـ مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ ـ مرحلة الدعوة وطرح الأفكار.

٣ ـ مرحلة التنسيق وتقوية الصفوف.

٤ ـ مرحلة إقامة الدولة والعمل على تثبيت قواعدها.

[٢٤] الوسائل والغايات

لما كانت العقائد مختلفةً على هذه الأرض، ولكل عقيدةٍ منهج حياةٍ خاص بها، ونظرة خاصة إلى هذه المعمورة وما فيها من مخلوقاتٍ، ومُهمّة الإنسان في هذه الدنيا، لذا فإن غاياتها التي تسعى إليها تتباين كما أن الوسائل التي تتخذها للوصول إلى تلك الغايات مختلفة باختلاف عقائد أصحابها.

وإذا كانت الجاهليات كلّها تتفق بالوسائل التي تستعملها كي تصل إلى غاياتها باختلافاتٍ يسيرةٍ، ولكن مُعظمها وسائل لا تتفق مع الإسلام أو كما تسمّى اليوم «وسائل غير شريفة»، وبالتالي فالغايات لا تختلف كثيراً عن الوسائل التي اتبعت للوصول إليها مع فارقٍ طفيفٍ بين الجاهليات. فاليهود مثلاً غايتهم السيطرة على العالم، ويسعون إلى ذلك بالوسائل كلها، ويعملون بالطرق كي يُحققوا هدفاً من أهدافهم، ومن وسائلهم المرأة، والمال، والقتل، والعمالة، وتسخير الرجال، وشراء الأشخاص، وركوب التيارات العالمية، والأمواج الحزبية و.... وليس هناك من وسيلةٍ مهما كانت دنيئةً من حرجٍ في اتباعها.

أما بقية الجاهليات فتتنوّع عندهم الغايات فهناك غايات عسكرية وأخرى سياسية، أو اقتصادية، أو فكرية، وإذا كان أصحاب هذه الجاهليات من النصارى فكل غايةٍ عندهم مطبوعة بالطابع الصليبي سواء أكان ظاهراً أم مخفياً، وربما كان مُقنّعاً أو مُغطّىً لا يظهر للناس الذين لا يُفكّرون بالعقائد ولا يهتمّون بها، أو يظنّون أن العالم يسير على هذه الصورة التي يمشون عليها، أو استطاع الأعداء أن يُوهموهم بذلك حتى غطت الغشاوة على أعينهم كاملةً. وتُتخذ لهذه الغايات كلها وسائل غير شريفةٍ مهما كان نوعها، والمهمّ الوصول إليها.

وإذا كانت الغايات متنوعةً إلاّ أنها تلتقي في خطٍّ واحدٍ هو حبّ السيطرة لإذلال الأمم والشعوب الأخرى بدافعٍ صليبيٍ ولتعيش شعوبها على جثث الآخرين ودمائهم وثرواتهم وتُحقّق رغَباتها وشَهواتها البهيمية. إذن فغايات دول الأمم الجاهلية هي السيطرة، وغايات أفرادها اللذة البهيمية من طعامٍ، وشرابٍ، وجنسٍ، ومتاعٍ، وأثاثٍ لا غير، أو ليس لهم غايات إلا بما يَحصلون عليه، ووسائلهم كلّ ما يمكنهم فعله.

أمّا الأُمّة المسلمة فغايتها رضاء الله سبحانه وتعالى، وما تقوم به في سبيل هذه الغاية فيه رضاء لله سواء أوصلت إلى هدفٍ من أهدافها أم لم تصل فهي تسعى إلى ذلك وتحصل على الأجر مقابل هذا السعي. والسعي لا ينتهي ما دامت توجد أهداف أمام الأُمّة من واجبها تحقيقها، وهذه الأهداف لا تنتهي لأن ساحة العمل الإسلامي هي الدنيا كلّها، وإزالة الظلم والطغيان من سطح المعمورة، وإحياء الأرض كلها وتحقيق الاستخلاف فيها، وهذه أهداف لا تنتهي على ما يبدو حتى تنتهي حياة الإنسان في هذه الدنيا. فعمل الأُمّة دائب وباستمرار.

وأفراد الأُمّة المسلمة غايتهم رضاء الله أيضاً، وكل ما يعملون من عمل مهما كان نوعه، ومهما كان حجمه يُعدّ عبادةً ولهم فيه أجر إذا كانت نيتهم فيه طاعة أو التقوية لطاعة الله، أو العفّة، أو الصبر على البلاء، أو الشكر لله على السرّاء. عن صهيب بن سنان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحدٍ إلاّ للمُؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1]. وليس على المسلم تحقيق الهدف وإنما السعي لذلك، ويحصل على الأجر أثناء سعيه، فالسعي وسيلة وغاية وهدف في الوقت نفسه، ولا يكون هذا إلا للمسلم.

وما دام الإنسان يسعى على الدوام فالمسلم يُحقّق أهدافه باستمرار

---

(١) أخرجه مسلم في باب الزهد، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٣.

وهذا ما يدفعه إلى الحركة والعمل بجهدٍ وتضحيةٍ والانطلاق بإخلاصٍ واندفاعٍ بصورةٍ دائبةٍ وبذل لا ينقطع، وبذا كان المسلم أقدر على إحياء الأرض من غيره، وإنتاجه أكثر من غيره، ومردوده أكبر من غيره، وروحه المعنوية مُرتفعة إلى درجةٍ لا تُحدّ، وهذا تفسير انتصاراته الواسعة في المعارك التي خاضها في بداية الأمر عندما كان مستمسكاً بإسلامه وفي كل مرحلةٍ من مراحل التاريخ التي عاد فيها إلى دينه مستلهماً منه القوة وإلى ربه طالباً منه النصر مُخلصاً له النية والعمل. وإن الجهاد هو أقرب الطرق وأقصرها لتحقيق غاية المسلم المثلى وأفضلها للوصول إلى الدرجات العليا في الجنّة ولنرى بعض الأمثلة السريعة لهذا.

في غزوة مؤتة، وصل المسلمون إلى معان من أرض الشام، ونزلوا فيها، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مُؤاب من أرض البلقاء، في مائة ألفٍ من الروم، وانضمّ إليهم من لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وبلي مائة ألف منهم، عليهم رجل من بلي ثم أحد أراشة، يقال له: مالك بن زافلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يُفكّرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنُخبره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يُمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. [إذ كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف، أي يُعادلون جُزءًا من سبعين من الروم ومن معهم من العرب المتنصرة أو أن كلّ مسلمٍ يُقابل سبعين من الأعداء، فلا يوجد مقياس من مقاييس الأرض كلها يجعل هذا العدد مُتكافئاً فما بالك بالنصر، ولكنه مقياس الإيمان الذي لا تفهمه الجاهليات]. فشجّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقابلهم إلا بهذا الذين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة[1].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

في اليرموك، كان عدد الروم مائتين وأربعين ألفاً، وعدد المسلمين أربعين ألفاً، أيّ أنّ كلّ مُسلم يُقابل ستين من الروم، ومع ذلك فقد كان انتصار المسلمين حاسماً، وتُعدُّ معركة اليرموك معركةً فاصلةً. وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا. فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانيةً ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذٍ جرحين في كتفه[1].

ولم يفهم أعداء الإسلام الروح المعنوية العالية التي حملها المسلمون الأوائل تحت جوانحهم، ولم يُدركوا أن الغايات التي يسعون وراءها هي سبب تلك الروح، لذلك فقد علّلوها بأسبابٍ ماديةٍ طعناً في الإسلام، وإساءَةً لأبنائه، وإبعاداً للأجيال عن عقيدتهم، ثم كان ذلك التعليل حسب مفهومهم المادي.

لقد تكلّموا عن الانتصارات الواسعة التي حقّقها المسلمون في بداية عهدهم، والفتوحات الشاسعة التي قامت بها جيوشهم، والقوة التي امتاز بها أبطالهم بل جنودهم عامةً فقالوا: إن سبب ذلك إنما يعود إلى حاجتهم المادية، وفقرهم المدقع، فانطلقوا وراء السلب والنهب والقتل للحصول على الغنائم، فكذبهم الواقع الذي يقول: إن المسلمين قد تجلّت الإنسانية الكاملة عليهم أثناء فتوحاتهم بل وفي كل وقتٍ فقد كانوا أرحم من عرف التاريخ، أيديهم نظيفة لا تمتدّ إلى شيءٍ لا يملكون رغم فقرهم، نفوسهم عفيفة لا تتطلع إلى ما حرّم الله، بطونهم مليئة رغم خوائها. لا يعرفون الحقد، ولا يسعون لذلّ الأعداء، لكنهم يعملون لإخراج خصومهم من الظلمات إلى النور، وتخليصهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الحياة، ومن نظرة التشاؤم إلى الأمل برحمة الله، والتمتّع بزينة الحياة والطيبات من الرزق وما أحلّ الله. إن أجسامهم الهزيلة تحمل النفوس الأبيّة، وإن فقرهم الظاهر يملؤه الغنى النفسي ويحلّ محلّه. وإن الأرض لتنفتح أمام ناظريهم فيُمعنون فيها بدقةٍ، ويخُططون فيها لأنهم يعلمون أن الله قد استخلفهم فيها جميعها.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد انطلقوا من صحرائهم الفقيرة إلى السهول الغنية ليأخذوا منها ما يسدّ نهمهم الذي أخرجهم، فتردّ عليهم الأرض: إن المسلمين قد انطلقوا إلى السهول الخضراء، والبوادي القفراء، والجبال الجرداء لا تهمّهم الأرض وما فيها، ولكن يهمّهم ساكنوها ومن فيها. يريدون إنقاذهم ومساواتهم بهم لا ما تحتويه بلادهم، فكم من أرضٍ تركوها بيد أهلها بعد أن أسلم أصحابها؟ وكم من سهولٍ خلّفوها لزُرّاعها مُكتفين بخراجها، وكم من بلادٍ اكتفوا من سكانها بالجزية عندما قبل أهلها دفع ذلك، والجزية شيء زهيد؟ وكم من مدنٍ أعاد المسلمون إليها الجزية عندما لم يستطيعوا حمايتها؟ لقد كان هدفهم السكان لا الأرض التي يُقيم عليها السكان، ورفع الناس لا إذلالهم، وإنقاذهم من ما هم فيه لا الضغط عليهم وكبتهم، وإسعادهم لا إفقارهم.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد حرصوا للوصول إلى مناطق منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتكون حدًّا فاصلاً بينهم وبين خصومهم، فإذا بالواقع يصدمُهم إذ أن البحار التي وصلوا إلى سواحلها ما كانت أمامهم إلا برًّا يابساً وهم الذين لم يعتادوا ركوب البحر، ولا كانت لهم سفن تمخر عبابه فتجاوزوا بسرعةٍ هاتين النقطتين فملكوا السفن وصنعوها وكانوا أمراء البحر. ووصلوا إلى أعلى جبال العالم في آسيا فما كانت أمامهم عقبة إذ تسلّقوها وكأنّهم ما اجتازوا إلا سهولاً.

إن الإيمان وحده هو الذي كان يدفعهم، والنظر إلى الجنّة من خلال القتال، وهي غايتهم، وهذا الذي دفعهم إلى ركوب هذا المركب. إنّ الحواجز المنيعة والحدود الطبيعية لم تحلْ دون تقدُّمهم، ولم تقف أمام

هدفهم ومقصدهم ما داموا لا ينظرون إلى الأرض، ولا يُفكّرون إلا في الجنّة، ولا ينتظرون النصر إلاّ من الله، فلو كانت غايتهم السلب والنهب أو الفتح والقتل أو الاحتلال والاستعمار لثقُلت بهم الخيل، وحطّت بهم الهمّة وفترت فيهم العزيمة. ولو كانت غايتهم الوصول إلى أماكن منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتدفع عنهم خطر الأعداء لكانت تلك الجبال التي وصلوا إليها وسواحل البحر التي وقفوا عندها أفضل ما يوجد من حدودٍ على سطح هذه الأرض، ولكانت الفتوحات قد توقّفت عند أقدام الجبال وعلى شواطئ البحار، لقد اجتاز المسلمون هذه الموانع في المشرق كما اجتازوها في المغرب بل وفي كل مكان وجدت فيه ووصلوا إليه، إنه الإيمان الذي دفعهم إلى أن يتجشّموا المخاطر، ويركبوا المخاوف غير مُبالين. ولو كانت غايتهم المال والمغانم لما وصلوا بالأصل إلى تلك الأمصار النائية والأقاليم البعيدة، ولاقتصر زحفهم على المناطق الخصبة والأرجاء الغنية ولابتعدوا عن الصحاري المجدبة والأجزاء الماحلة والقفار الواسعة والتي كانت في الواقع تشهد أكثر معاركهم، وتقدّم جيوشهم وتحرّكاتها، وهي لا تُنتج إلا الشوك ولا تُنبت إلاّ القتاد. ولو كانت غايتهم السيطرة لاكتفوا باحتلال المراكز المهمّة والمواقع ذات الأهمية الخاصة فإن جندهم قليل وعددهم ضئيل. لقد كانت غايتهم إعلاء كلمة الله ونشر العقيدة الإسلامية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان كلما آمن فوج انخرط أبناؤه في صفوف إخوانه المجاهدين يحملون راية القرآن حتى انتشر الإسلام.

لم يلو المسلمون أثناء تقدّمهم على شيءٍ، ولم يُفكّروا فيما وراءهم. لم يُفكّروا بأرضهم ولم يرتبطوا بترابهم، ولم يخافوا على أهليهم من بعدهم حيث وليُّهم الله، فلو فكّروا لأضاعوا النصر وخسروا المعركة، وعادوا إلى الموطن الذي ارتبطوا به ينتظرون الغزاة لتستذلّهم، وتطأ ديارهم، وتجوس خيول أعدائهم أرضهم. لقد طلب المسلمون الشهادة فوُهبت لهم الحياة، وسادوا الدنيا عندما طلبوا النصر من الله، وعندما ارتبطوا بأرضهم وأخلدوا إليها أضاعوا أرضهم وفقدوا النصر من ربهم.

الخلاصة:

إن الشعوب غير المسلمة ليس لها من غايةٍ أو مُهمّةٍ في الحياة سوى تأمين حاجاتها البهيمية من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ على أوسع نطاقٍ وأحسن مستوىً وتتّخذ كلّ الوسائل الممكّنة لتحقيق ذلك سواء أكانت الوسائل شريفةً أم غير شريفةٍ، وغالباً ما تكون الثانية لأن الغاية غير النبيلة لا يوصل إليها إلاّ بمثلها.

وإن دول هذه الشعوب غير المسلمة غايتها السيطرة والاستعلاء لتحقيق الحاجات البهيمية لها ولشعوبها، وقد تضغط على شعوبها للاستئثار بالحاجات لنفسها على حساب الرعية ومن الرعية، وتتخذ من الرعية وسيلةً لتأمين طموحاتها وسيطرتها كالدول الشيوعية.

وإن الشعوب المسلمة ليس لها من غايةٍ سوى إرضاء الله بعبادتها وتحقيق استخلافها في الأرض وإظهار عبوديتها الكاملة لله سبحانه وتعالى، لذلك لا تسلك إلاّ السُّبُل التي تُرضي الله سبحانه وتعالى، فالغاية الكريمة ليس لها سوى الوسيلة الكريمة.

وإن الدولة الإسلامية لمن واجبها أن تقود شعوبها لتحقيق غايتها بفتح المجال أمامها لرفع الظلم، وإزالة الطغيان، وتحقيق العدل، وإعلان الجهاد للوصول إلى الشهادة، أو لتأمين النصر والتمكين في الأرض.

فالدول إذن تسعى لتحقيق غايات شعوبها، وحسب ما تكون الغايات تحرص الدول على تنفيذها.

[٢٥] الشورى

لقد أثّرت المفاهيم الجاهلية الحديثة في نفوسنا تأثيراً بليغاً، وتغلغلت في أفكارنا لدرجةٍ يصعُب التخلّص منها، وعندما نريد أن نبحث في بعض المفاهيم الإسلامية ونستخلصها من أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين تمثُل أمامنا المفاهيم الجاهلية، ويتعذّر علينا إبعادها، ونُسقط الماضي على الحاضر، والعكس هو الأصل، فنقع في ارتباكاتٍ لا نجد فيها لنا مخرجاً، ونتعثّر حتى يصعُب علينا القيام لنُقدّم أفكاراً صحيحةً وآراءً سديدةً، وغدونا نُفسّر الأحداث التاريخية من صدر الإسلام حسب الصورة التي تراءت لنا أثناء تعثُّرنا، ولا نستطيع أن نزيل ما عَلِق في أذهاننا من آثار الجاهلية فحين نتحدّث عن الشورى مثلاً لا نرى في سيرة رسول الله ﷺ، وخلفائه الراشدين من بعده إلا استشارةً لتطييب قلوب الصحابة، رضي الله عنهم، على حدّ رأي بعضهم، ومعرفة الرأي وتقليب وجهات النظر قليلاً، ثم يُعطي رسول الله ﷺ، أو الخليفة رأيه، وبذا لم يفهموا من هذه الحوادث التي سنتكلم عنها بعد قليل، إن شاء الله، إلا أنها استطلاع عام أو أن الشورى بمفهومنا الحديث ليست إلاّ مُعلمة. وصعُب على آخرين أن يروا مجلس الشورى يلتقي، وتتفق الآراء في جهةٍ ويُخالفها الأمير، ويُصدر أمره حسب رأيه الفردي، فلم يروا في هذه إلا طغياناً واستبداداً أو ديكتاتوريةً حسب المفهوم السائد اليوم، وذلك لأنهم تصوّروا الشورى مجلس يُعقد ويُتداول فيه الرأي، ويصوّت على هذا الاقتراح أو ذاك، لذا يُصرّون على أن تكون الشورى أكثريةً كي نتحاشى الاستبداد مُتأثّرين بشدّة الطغيان الذي يطحنهم، وقسوة الظلم الذي يُمزّقهم، وهم يُفسّرون الأحداث التاريخية نفسها أنها مُلزمة، والتي فسّرها أولئك أنها مُجرّد استطلاع رأي، ولم يسر

رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده إلا حسب رأي مجلس شوراه، وإذا كان رسول الله ﷺ، لم يتقيّد ببعض الشورى فذلك لأنّه يتلقّى الوحي من السماء، لذا فلم تكن هناك مُعارضة.

ليس الأمر هذا ولا ذاك، وليس موضوع أقليةٍ وأكثريةٍ، وليس موضوع حاكم ومعارضةٍ له، إن الأمر هو موضوع الشورى وهو موضوع الإسلام، ليس تسلّط (ديكتاتورية) ولا تسيّب (ديمقراطية). إن هناك أناساً بعصرنا قد فُتنوا بتوجيه النظام والضغط على السلطة التنفيذية لما رأوا من تميُّعٍ في الإدارة، وإهمالٍ في جهاز الحكم، وفوضى في المؤسسات، وتجاوزاتٍ في الدوائر، وفُتن آخرون بترك الحبل على الغارب (النظام الحرّ)، وقد غرّهم الانتخاب، والمجالس النيابية، والمعارضة، وحريات الأفراد التي ليس لها حدّ، وكرهوا ظلم المُستبدّين، وحكم الفرد، وتسلّط الطغاة فوجدوا نظاماً يُعطي الحرية ـ على حدّ زعم أصحابه ـ فأغراهم وفتنتهم بعض نظمه فساروا وراءها ولما كانوا يملكون شيئاً من عاطفةٍ إسلاميةٍ ظنّوا أن هذا النظام هو أقرب النظم إلى الإسلام فردّدوا ذلك، وانطلقوا يُبشّرون به، وهم لا يدرون أنهم يُخالفون الإسلام، ويُهدّمون بعض أُسّسه، ويظنّون أنهم يُحسنون صنيعاً.

لا يصحّ أن يستبدّ الهوى بالنفس، ولا الحاكم بالشعب، فالخليفة تَحُدُّ الشريعة من عمله ولا تسمح له أن يشطط، وأعطته الرعية البيعة على أن يحكُم بما أنزل الله وحسب سنة رسول الله، وأن يسير على نهج الخلفاء الراشدين فإن فعل فالبيعة قائمة، وإن خالف سقطت البيعة لأنه نكص بما عاهد عليه، ومن هنا لا يخشى المسلمون أن يستبدّ خليفة أو أن يطغى. وأما النظام الحرّ فلا يتماشى مع الإسلام أيضاً لأن للحرية حدود لا بدّ من أن تقف عندها حيث تبدأ حرية الآخرين وحيث تُحترم مشاعرهم. ولا فائدة من الأكثرية لأن معظمها من الرعاع والإمعات الذين يُحسنون إن أحسن الناس ويُسيئون إن أساؤوا، وغالباً ما يخضع هؤلاء الرعاع لضغوطٍ في الانتخابات فتكون المجالس النيابية ذات أكثريةٍ وصلوا إليها بطرقٍ غير

صحيحةٍ فكان أعضاؤها: منهم صاحب الدور البارز، ومنهم قوى سكوت وهو الغالبية فلا فائدة من رأيهم، بل ليس لهم رأي يُقدمونه، ويجب ألا ننسى ما تقع فيه البلاد من أزماتٍ وفوضى أثناء عمليات الانتخاب، ولا شكّ فإن بعض بلدان العالم قد راق لها هذا النظام، ووجدت فيه شيئاً من الراحة والطمأنينة، أما نحن المسلمين فإن لدينا البديل، وما هو الأفضل، وما فيه الخير كل الخير لأنه من لدن حكيمٍ خبيرٍ، خالق الإنسان، والعالم وما يصلح لهما.

فالشورى تداول في الرأي في محاولة الوصول إلى الرأي الصحيح إن لم يكن هناك نصّ صريح، أو هي تقليب وجهات النظر للخروج باجتهادٍ سليمٍ، فهي تعاون بين المسؤول والرعية لتحقيق الخير، وتطبيق ما ينفع الناس، والمسؤول ملزم بتحقيق مبدأ الشورى إذ عليه أن يستشير الذين عُرفوا بالعلم، واشتهروا بالاستقامة وقول الحقّ، وهو ينصح للأُمّة بالاستشارة واختيار الرجال الذين يستشيرهم، والأمة تنصح للمسؤول بإبداء الرأي فلا تضنّ به أبداً، كما تنصحه بالسمع والطاعة عندما يصدر الرأي النهائي. ومن هذا يتبيّن أنه لا يوجد مجلس للشورى مُحدّد بأفرادٍ مُعينين، وإنما يستشير المسؤول عدداً من أهل الحلّ والعقد، ويختلف عددهم بين مرّةٍ وأخرى، وقد يختلف أشخاصهم أيضاً، وهذا ما كان يتّم أيام رسول الله ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، ولما كان لا يوجد مجلس مُحدّد وبالتالي لا توجد أكثرية وأقلية، وفي الوقت نفسه لسنا مضطرين لأن نقول: الأكثرية مُلزمة أم مُعلمة، وإنما ساد النقاش حول هذا الموضوع لأننا نتصوّر مجلساً مُحدّداً، وعملية تصويت، كما يحدث اليوم فنريد أن نسقط الماضي الناصع على الحاضر الأسود، إذ نضع الأكثرية مكان الشورى، والشورى ملزمة ولا مجال لأكثرية أو أقلية.

ويتبيّن أيضاً أنه لا يوجد حاكم ومعارضة له كما هو شائع في النظام الديمقراطي، لأن الرجل من أهل الشورى يُبدي رأيه وليس له أن يتعلّق أو يتمسك فيه أو يُشهره للناس فمتى أصدر المسؤول اجتهاده سمع الجميع

وأطاعوا، وهذا واجب عليهم، ومن كان له رأي مُخالف يُحافظ عليه إذ لسنا مُلزمين بإجباره على اتباع غير ما يراه، ولكن لا يُعلن رأيه، وعليه السمع والطاعة.

ويشعر الجميع: الخليفة ومن يستشيرهم أنهم مسؤولون أمام الله في تطبيق الشورى، وإبداء الرأي، والنصح والسمع والطاعة، وأن ما يُؤدّونه نوع من العبادة فنحن أمام رجال مسلمين عُرفوا بالعلم، وصدق الإيمان، والنية الصادقة، والتزام الحدود، وممارسة المسؤولية ولسنا أمام رجال يُسيّرهم الهوى، وتحرّكهم المصلحة، لا يُقيمون للحدود وزناً ولا يخشون الله، ومن معرفتنا بالرجال اليوم يصبح عندنا غبش في مفهوم الشورى فنريد أن نضغط المفهوم ونحصره حتى يتفلّت وينقلب إلى ما يُقرّبه من النظام الديمقراطي.

فالشورى قاعدة اجتهادية فيها بحث عن الحقّ، وتنسيق للجهد، وعبادة، وسمع وطاعة، كما فيها إعداد وتدريب، ومعرفة لمواهب الرجال، وسدّ لباب الإساءة، وهي واجبة على المسؤول، وعلى أهل الرأي بل وعلى جميع الرعية وكلّ يتحرّى الحقّ، ويلتزم النصح ويشعر بالمسؤولية أمام الله.

ولنُعطي أمثلةً من حوادث السيرة وعهد الخلفاء الراشدين ولنحرص أن تكون هي الأمثلة التي ذكرها أهل الإلزام والإعلام واستقرأ كل طرف منها ما يُؤيّد وجهة نظره، ولنصل إلى النتيجة نفسها التي عرضناها في بداية الموضوع.

١" ـ في بدر:

أ ـ في القتال:

لما سمع رسول الله ﷺ، أن القافلة مُقبلة من الشام، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها. فانتدب الناس، فخفّ بعضهم، وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ، يلقى حرباً. ووصل الخبر إلى أبي سفيان فأرسل

من يستنفر قريشاً، فتجهّزت قريش وخرجت باتجاه المدينة، وخرج رسول الله ﷺ، غير أن العير قد نجت، وأتى الخبر رسول الله ﷺ، عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مُقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يُريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإن وصلت إلينا، فأنت في ذمّتنا، نمنعك مما نمنع منه أباءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ، يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تُريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعلّ الله يُريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ، بقول سعد؛ ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) برك الغماد: موضع باليمن.

ويبدو أن هذه لم تكن استشارة بالصورة التي تحدّث عنها الكتّاب حتى وصفها بعضهم أنها استشارة مصيرية. رسول الله ﷺ، يعلم أن المعركة لقائمة، فقد خرجت قريش تُريد القتال ومصمّمة على ذلك رغم نجاة العير، والمسلمون لا يُمكنهم الانسحاب فرجوعهم إلى المدينة يُسبّب هياجاً عليهم، وإضعافاً كبيراً لمعنوياتهم فالمنافقون كثر في المدينة يتربّصون الدوائر بالمسلمين، واليهود لا تزال لهم قوّتهم، إضافةً إلى أعدادٍ ليست قليلةً من الذين لم يُعلنوا إسلامهم بعد، وكلهم يُعادون المسلمين، ويجب ألا ننسى الأعراب من حول المدينة، وهم ينتظرون ما يُمكن أن تؤول إليه أوضاع المسلمين، وهذا لا شكّ يُؤدّي إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المؤمنين، ثم ما هو الضمان لعدم ملاحقة قريش المسلمين إلى المدينة فيما إذا انسحبوا، وعندها تنشب الحرب أيضاً، وتكون ذات نتائج وخيمةٍ لأن أعوان المشركين يكونون قد كثروا، وعلى كلٍ فالحرب قائمة والأفضل أن تكون في البداية. وفوق كل هذا فقد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن القتال سيقع وسيكون النصر بجانب المسلمين، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[1]. وقال لهم رسول الله ﷺ، مُخبراً المسلمين بذلك ومُشجّعاً ومُحرّضاً: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»، وكذلك فإن المسلمين مؤمنون إيماناً لا تُزعزعه الجبال بأن رسول الله ﷺ، لا يسير إلا بأمر الله وأن الله معه، وأنه ناصرهم (امضى لما أراك الله). لذا فإن رسول الله ﷺ، يُريد أن يتكلّم المسلمون وخاصةً الأنصار لتتولّد القناعة بالقتال، وإذا تمّت القناعة كانت الحماسة، وكان النصر بإذن الله. وإلاّ فالحرب قائمة لا محالة، ومفروضة على المسلمين، ولا مجال للانسحاب، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقع القتال ليُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون. والاستشارة ليست في

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨.

موضع الإعلام ولا للإلزام، وإنما لإقامة القناعة وزيادة الحماسة.

ب ـ النزول على الماء:

ونزل رسول الله ﷺ، أدنى ماءٍ من بدر. فجاء الحُباب بن المنذر بن الجموح، فقال له: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نُقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فنهض رسول الله ﷺ، ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم ونزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوّرت، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

لم تكن هذه الحادثة بالشورى، وإنما نزل رسول الله ﷺ، منزلاً لم ير الحُباب بن المنذر أنه منزل مُناسب للنزول، وما دام الأمر ليس من عند الله، فعليه واجب تقديم النصح، ففعل، وتمّت قناعة رسول الله ﷺ، بهذا الرأي، ولم يعترض أحد من المسلمين أيضاً، إذ اقتنعوا برأي الحُباب فنهض رسول الله ﷺ، إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب، ونهض معه المسلمون إذ سمعوا وأطاعوا.

ج ـ أسرى بدر:

وهنا نقطة مُهمّة يجب أن ننتبه إليها وهي أن النبي ﷺ، قال لأصحابه يومئذٍ (قبل بدء القتال): إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرْهاً فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مُستكرهاً. فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا. ونترك العباس! والله لئن لقيته لأُلحِمَنّه السيف، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن

الخطاب: «يا أبا حفص أيُضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف»؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول: ما آمن من تلك الكلمة التي قُلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تُكفّرها عني الشهادة. فاستُشهد يوم اليمامة.

لقد سمع المسلمون في بدرٍ جميعاً نداء رسول الله ﷺ: «من لقي العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله».

وانتهت المعركة، وانتصر المسلمون نصراً مُبيناً، وقتلوا سبعين من قريش، وساقوا أمامهم مثلهم سبعين من الأسرى، كان بينهم العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر، فأعطى من أعطى رأيه فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تُمكّنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخيه العبّاس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن جحش. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. فسكت رسول الله ﷺ، فلم يردّ شيئاً. ثم قام فدخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج رسول الله ﷺ، فقال: إن الله ليُليّن قلوب رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليُشدّد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]، أنتم عالة، فلا يُفكّن أحد منهم إلاّ بفداء، أو ضربة عُنق. قال ابن مسعود قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يومٍ أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قالَ رسول الله ﷺ، إلا سهيل بن بيضاء.

لقد طلب رسول الله ﷺ، من أصحابه الرأي في الأسرى مع أنهم يعرفون ما قاله: «من لقي العبّاس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله» والعبّاس بين الأسرى أفيقتله وقد نهى عن قتله، وفي هذا تدريب ليُعبّر المرء عن رأيه بكل صراحةٍ، ويقول ما يعتقد بكل وضوحٍ، ثم يتنازل عندما يصدر رأي الأمير ويسمع ويُطيع ولو كان مُخالفاً لرأيه، مُبايناً لما يظنّ أنه الصحيح.

أبدى عدد من الصحابة آراءهم، وكانت متقاربةً أو متشابهةً تقريباً وهي القتل وإن كان بطرقٍ مختلفةٍ سوى أبي بكر، رضي الله عنه، الذي أعلن عن رأيه بالعفو، مُدلّلاً على رأيه بقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. عسى أن يكون من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله». فيقول رضي الله عنه: وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. فكانت حجة أبي بكر، رضي الله عنه، قويةً على حين تتسم أقوال الصحابة الآخرين، رضي الله عنهم، بالعاطفة والحماسة، وإلقاء كل أواصر القرابة والمعرفة تحت الأقدام والاعتراف بوشيجةٍ واحدةٍ هي رابطة العقيدة، أخوة الإسلام ولا شيء سواها، ولهذا أيضاً أثره الكبير.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

وثمة نقطة أخرى يجب أن ننتبه إليها وهي أن رسول الله ﷺ، لا يمكنه أن يقتل العباس لأنه كان مسلماً وعيناً له على قريش، فإن أظهر رسول الله ﷺ، ذلك، انتهت مهمة العباس، رضي الله عنه، وعليه أن يُهاجر إلى المدينة، ونلاحظ أن أبا بكر وحده هو الذي كان يعرف مهمة العباس، ويعرف معنى قول رسول الله ﷺ: من لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله. ومن هذا المنطلق كان رأي أبي بكر في موضوع الأسرى لأنه يعلم والجميع يعلمون أن رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يمايز بين الأسرى، ويرغب أن يبقى العباس في مهمته لأنه يُؤدّي دوراً مهماً لمصلحة المسلمين، وبقيت مهمته حتى سار رسول الله ﷺ، إلى مكة فاتحاً، فأشهر العباس، رضي الله عنه، إسلامه ولقي رسول الله ﷺ، في الطريق، فرجع معه على حين تابعت أسرته المسلمة أيضاً طريقها في الهجرة إلى المدينة. ونلاحظ أن بعض كتاب السيرة، ومنهم ابن هشام لا يذكر العباس بين أسرى بدر لأنه كان يعدّه مسلماً.

وعلى كل لم يكن رسول الله ﷺ، مُخالفاً لرأي أصحابه ممن أبدى رأيه في الأسرى لأسباب:

أ ـ إن الذين أبدوا رأيهم في موضوع الأسرى لا يزيد عددهم على الستة، خمسة منهم في رأي واحدٍ وهم: عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، سعد بن معاذ، عبد الله بن جحش، عبد الله بن رواحة، ولأبي بكر رأي آخر. فلا يمثّل هذا العدد سوى نسبةٍ صغيرةٍ بين المسلمين، ولا يعدّ هؤلاء الصحابة مُمثّلين لآراء بقية المسلمين الذين سكتوا ما دام فيه رأي مخالف. فسكوت بقية الصحابة سكوت استماع لا سكوت تأييد بسبب وجود آراء مُتباينة.

ب ـ هناك مصلحة عليا للأمة لا يمكن لرسول الله ﷺ، أن يتكلّم عنها، وهي مهمة العباس، رضي الله عنه، في مكة بين قريش، وهذا ما يمكن أن يتصرّف به الخليفة.

جـ ـ ما كان لرسول الله ﷺ، أن ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، فالمسلمون يسمعون ويطيعون وقد لا يعرفون الحكمة.

إذن لا يمكن أن يستنتج من حادثة أسرى بدر أن الشورى مُعلمة.

وثمة أمر آخر يجب أن ننتبه إليه وهو أن العتاب قد جاء على عدم الإثخان في القتل أثناء المعركة لا في الأسرى إذ اهتم كثير من المسلمين أثناء القتال بأسر الرجال لأخذ الفداء منهم أكثر من اهتمامهم بالقتل فقد أسروا سبعين رجلاً وهو عدد كبير وفي الوقت نفسه لم يقتلوا سوى سبعين قتيلاً وهو عدد قليل إذ قارناه مع الأسرى. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشدّ على الأعداء، ويُثخن فيهم القتل، ولم يُبال بالأسر، وهنا جاءت الموافقة القرآنية لتصرّفه وإثخانه، كما أن سعد بن معاذ قال: «الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال» وذلك عندما رأى الأسر وهو مع رسول الله ﷺ، في العريش. ويقول ابن عطية، رحمه الله، في تفسيره لهذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[1]. والذي أقول في هذا: إن العتب لأصحاب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله عظيم إنما هو على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبةً في أخذ المال منهم، وجميع العتب إذا نظر فإنما هو للناس، وهناك كان عمر، رضي الله عنه، يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاء، وحينئذٍ قال سعد بن معاذ: الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال، ولذلك جعلهما رسول الله ﷺ، ناجيين من عذاب لو نزل، ومما يدلّ على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ، بقتل عقبة بن أبي مُعيط: «أسيري يا رسول الله» وقول مصعب بن عُمير للذي يأسر أخاه: «شدّ يدك عليه فإن له أمًّا موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم. فلما تحصّل الأسرى وسيقوا إلى المدينة، وأنفذ رسول الله ﷺ، القتل في النضر وعُقبة، والمنّ في أبي عزّة وغيره، وجعل يرتئي في سائرهم نزل التخيير من الله تعالى، فاستشار

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

رسول الله ﷺ، حينئذٍ، فمرّ عمر، رضي الله عنه، على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر، رضي الله عنه، المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ، إلى رأي أبي بكر، رضي الله عنه، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأمة، ولا أقول ذلك، لأن حكم الله في تحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدّم قبل بدر، وذلك في السرية التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاء الرجال لأجل المال، والذي منّ الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدّم تحليلها[1].

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يُبعث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامةً.

والإمام مُخيّر عند جمهور العلماء إن شاء قتل كما فعل رسول الله ﷺ، في قتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط لشدّة إيذائهما، وإن شاء فادى، كما فعل في بقية الأسارى، وإن شاء استرقّ. وغالباً ما يُستبقى الأسرى إن لم تكن لهم جرائم كبيرة تقتضي معها مصلحة الأمة والإنسانية عدم الاستبقاء عليهم، لأنه ربما يهديهم الله ويتوبون إليه وهذا ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ.

٢" ـ في أحد:

وخرجت قريش لقتال المسلمين والثأر مما وقع في بدر، ونزلت

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي «تفسير ابن عطية» ج٦، ص٣٨٠ ـ ٣٨١ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ الدوحة ـ قطر.

بالقرب من جبل أحد مقابل المدينة، ولما سمع بهم رسول الله ﷺ، والمسلمون، قال رسول الله ﷺ، للمسلمين إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درعٍ حصينةٍ فأوّلتها المدينة. ويروى أنه قد أوّل البقر التي تذبح بقتل أناسٍ من أصحابه كما أوّل الثلم برجل من أهل بيته. فقال للمسلمين بعد ذلك: إن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان ﷺ، يكره الخروج، واتفق رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول كبير المنافقين مع رأي رسول الله ﷺ، إذ قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٌ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. غير أن رجالاً، ومنهم من فاتته معركة بدر قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا، ولم يزالوا به حتى دخل إلى بيته ولبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد استعدّ للقتال ندم الناس الذين ألحّوا عليه بالخروج وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، فقالوا له: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل».

ليس هناك ما يدلّ على رأي كبار الصحابة في هذا الموضوع، وإنما كانوا ينتظرون أوامر رسول الله ﷺ، ولم يكن من رأي يصرّ على البقاء في المدينة سوى رأي عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ولا يعتدّ به لأنه كان كبير المنافقين، ولم يستمع، ولم يطع، وبقي مُعارضاً، ثم انخزل بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا، ورجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والشكّ. وقد جاء في إمتاع الأسماع للمقريزي ما

يُعطي آراء بعض صحابة رسول الله ﷺ، إذ جاء: وقال أشيروا عليّ. ورأى رسول الله ﷺ، ألا يخرج من المدينة فوافقه عبد الله بن أبي، والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم، وقال عليه السلام: امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دُخل علينا قاتلناهم في الأزقّة فنحن أعلم بها منهم، ورُموا من فوق الصياصي والآطام، وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحيةٍ فهي كالحصن. فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا الشهادة وأحبّوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدوّنا. وقال حمزة، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة في طائفةٍ من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأةً منهم علينا، وقد كنت يوم بدرٍ في ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنا نتمنّى هذا اليوم، وندعو الله به، فساقه إلينا في ساحتنا، ورسول الله ﷺ، لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح. وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفي خارج المدينة. وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً. وتكلّم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وإياس بن أوس بن عتيك في معنى الخروج للقتال، فلما أبوا إلا ذلك، صلّى رسول الله ﷺ، الجمعة بالناس، وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم، وكره المخرج كثير. ثم صلّى العصر بالناس وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ورفعوا الناس في الآطام. ودخل رسول الله ﷺ، بيته ومعه أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فعمّماه ولبّساه، وقد صُفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره. فجاء سعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير فقالا للناس: قلتم لرسول الله ﷺ، ما قلتم واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل من السماء، فردّوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له هوى أو رأي فأطيعوه، فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ، قد لبس لأمته، ولبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف، واعتمّ، وتقلّد السيف. فقال الذين يُلحّون: يا

رسول الله، ما كان لنا أن نُخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه. امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[1].

مع أن في النفس شيء من هذه الرواية إذ تتنافى مع ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، من نبيّهم الكريم، إذ لا يمكن للحمزة، رضي الله عنه، أن يُحاول فرض رأيه حتى على رسول الله ﷺ، ومع هذا أقول: لم تكن هناك شورى، وإنما أبدى بعض المسلمين رأيهم، ودفعتهم الحماسة للخروج من المدينة لملاقاة أعدائهم خوفاً من اتهامهم بالجبن، وخوفاً من رفع معنويات الأعداء. ورأى رسول الله ﷺ، هذه الرغبة، ورأى هذه الحماسة فوافقهم، ولبس لأمته، حتى إذا رأوا أنهم استكرهوا رسول الله ﷺ، على الخروج فندموا على ذلك، وأرادوا أن يرجعوا عما فعلوه، وأحبّوا أن يرجع رسول الله ﷺ، فيبقى في المدينة، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون، لأن رسول الله ﷺ، قد عزم على الخروج، وتوكّل على الله، وليس هو بالمُتردّد لذا فقد قال لهم: «لا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه....».

عزم رسول الله ﷺ، على الخروج لملاقاة الأعداء، وانطلق، وسمع المسلمون وأطاعوا وخرجوا، ولكن المنافقين بقوا على رأيهم في عدم الخروج فلم يسمعوا ولم يُطيعوا بل انخذل كبيرهم عبد الله بن أبيّ بن سلول بثلث الناس.

لم تكن هناك شورى لأن الذين تكلّموا في موضوع الخروج أو عدمه ليسوا جميعهم من أهل الشورى وإنما أهل الشورى بينهم قلّة، وسواد الناس لا يُؤخذ تصرّفهم لأن العاطفة تُحرّكهم، وهذا ما كان فقد تكلّم من تكلّم في الخروج حماسةً، ومن تكلّم في عدم الخروج تحدّث خوفاً من أن يكون

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي الجزء الأول ص١١٦ ـ ١١٨، طبعة الشؤون الدينية بدولة قطر.

رسول الله ﷺ، قد خرج مُستكرهاً، ولا قيمة لرأي عبد الله بن سلول لنفاقه، وأيّد ذلك عدم سماعه، وانخذاله بمن معه من قومه من المنافقين.

وما دامت لا توجد شورى في هذه الحادثة فلا يمكن أن نستنتج منها أن الشورى مُلزمة أو مُعلمة، وفوق هذا كله لم يكن هناك إحصاء لأصحاب هذا الرأي أو ذاك، وليست القضية قضية قلّة أو كثرة وإنما يتعلّق بأهل الشورى وآرائهم ولا يرتبط أبداً بالحديث حماسةً وعاطفةً.

٣" ـ في الخندق:

أ ـ حفر الخندق:

أشار سلمان، رضي الله عنه، على رسول الله ﷺ، حفر الخندق، فاقتنع رسول الله ﷺ، بهذا العمل، ولم يجد آراء مُباينةً له إذا سكت الجميع فأنفذ الأمر، وتمّت عملية حفر الخندق.

ب ـ مصالحة قادة غطفان:

لما اشتدّ على الناس البلاء يوم الخندق بعث رسول الله ﷺ، إلى عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، وإنما المفاوضة، ويريد رسول الله ﷺ، أن يُضعف الأحزاب، وأن يُفرّق كلمتهم، فتضعُف معنوياتهم، ويخشى بعضهم أن تدور عليه الدائرة فينسحب بمن معه. ولما أراد أن يُوثّق ما أقدم عليه بعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وهما سيدا الأنصار فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، ولا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء

القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلاّ قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نُعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلاّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

لقد وافق رسول الله ﷺ، سيدي الأنصار على رأيهما ما داما واحداً، وما دامت عزيمة القتال والصبر قائمة، فلو كان رأي سيدي الأنصار مختلفاً لكانت هناك مناقشة وتقليب وجهات النصر والاضطرار إلى مشاركة آخرين في الرأي، غير أنه كان واحداً، ولو كانت العزيمة على القتال ضعيفة أو هناك تردّد لكان من الضروري البحث عن بدائل ثانية، لكن العزيمة كانت قويةً، والصبر على الشدائد فيه صدق وجدية.

٤" ـ في الحديبية:

اتجه رسول الله ﷺ، والمسلمون إلى مكة على نية زيارة البيت وتعظيمه، وهذا أمر معروف بين العرب منذ أيام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ولا يحقّ لسكان البيت أن يحولوا دون زيارة أحدٍ له مهما كان على خلافٍ معه، وأصبحت قريش هي المسؤولة عن حماية البيت والحجّاج إليه، والمسؤولة عن تقديم ما يجب للحاج. غير أن قريشاً تعدّت حدودها، وطغت ووقفت في وجه رسول الله ﷺ، والمسلمين، وعملت على منعهم من زيارة البيت، فاتجه رسول الله ﷺ، إلى أصحابه قائلاً: أشيروا عليّ أيها الناس. فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تُريد قتال أحدٍ ولا حرباً، فتوجّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه، ولم يعترض أحد من الصحابة على قول أبي بكر، فعُدّوا مُوافقين. فأقرّ ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «فامضوا على اسم الله».

وجاء الأمر من السماء على غير ذلك، إذ خلأت القصواء، وقال

الناس ما قالوا. فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». أي لم يأذن الله بالسير، وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطةً يُعظّمون حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

وتمّ الصلح، ولم يُعد الأمر بحاجةٍ إلى شورى ما دام الأمر من الله، ولم يستطع كثير من الصحابة أن يُدركوا كنه هذا الصلح وما فيه من فتحٍ عظيمٍ، فاعترض بعضهم، ومنهم عمر بن الخطاب فقال له رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، ولست اعصيه، وهو ناصري». وانتهى الصلح فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا» فما قام رجل منهم، فكرّرها مراتٍ ثلاث فما نهض أحد منهم، فانطلق ﷺ، إلى خيمته مغتّماً، فلما رأته زوجه أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أُمية المخزومية قالت له: ما بك يا رسول الله؟ قال: «هلك الناس»، وأخبرها بما جرى فأشارت عليه بأن يبدأ بنفسه فينحر هديه ويحلق فوافق رأيها ففعل فأسرع الصحابة يتسابقون إلى تقليد رسول الله ﷺ. قد بدأ بنفسه فالأمر لم يبق بحاجةٍ إلى تعليلٍ أو تأويل، وهذا يكفي، يقوم رسول الله ﷺ، بعمل فيُبادر كل مؤمنٍ إلى القيام بما قام به الرسول الكريم، وإن كانت من قبل لديه ملاحظات أو اعتراضات وأدها في مكانها، واتجه في مسرىً جديدٍ.

٥" ـ في خيبر:

بدأ الهجوم الإسلامي على خيبر من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود إلى إخوانهم في «تيماء» و«وادي القرى» و«فدك» وإلى بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة «النطاة»، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات الحصون، وانطلقوا نحو المسلمين يقاتلونهم دلالةً على مقاومتهم وارتفاع معنوياتهم يومذاك، وعلى غير العادة، حتى إذا رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أُصيب عدد من المسلمين يومذاك نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم.

أشار الحُباب بن المنذر على رسول الله ﷺ، أن المكان الذي ينزل فيه المسلمون غير مناسب، فإن كان وحياً فلا مناص لتغييره، وإن كان رغبة رسول الله ﷺ، فالسكوت عنه واجب، أما إن كان مكيدةً وخطةً حربيةً فيمكننا التحوّل عنه إذ أنه مكشوف، والحصون مرتفعة تُطلّ على معسكر المسلمين، وتضعهم على مرمى النبال، إضافةً إلى أن المنطقة موبوءة بسبب النخيل، وقد مرض عدد من المسلمين: فأجاب رسول الله ﷺ: بل إنها المكيدة، فأشار الحُباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان آخر، فتمّ التغيير في الليل بعد أن أتمّ المسلمون نهارهم الأول في القتال.

لقد كان رسول الله ﷺ، يستشير في أكثر أموره، ويروي الترمذي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ، لأصحابه.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ، قد استشار عدداً من الصحابة في عائشة، رضي الله عنها، بعد حادثة الإفك على الرغم من أن الموضوع خاص جداً، ويرتبط في حرمة أهله فقد استشار علياً، وأُسامة، واستشار زوجه زينب بنت جحش، كما سأل بريرة جارية عائشة. حتى نزل الوحي ببراءة أم المؤمنين، رضي الله عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

الشورى أيام الصديق:

كان رسول الله ﷺ، قد أمر أُسامة بن زيد أن يسير بالناس، ويُغير على الروم، فامتثل أُسامة وعسكر بالجرف شمال المدينة حتى يتعبأ الناس، غير أن المنية قد عاجلت رسول الله ﷺ، ولا يزال الناس بالجرف مُعسكرين.

١" ـ بعث أُسامة:

وبُويع أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالخلافة، وارتدّت العرب

عندما وصل إليها نبأ وفاة رسول الله ﷺ. وأمر الصديق، رضي الله عنه، أُسامة أن يمضي إلى الوجهة التي وجّهه إليها رسول الله ﷺ، فأخذ الناس بالخروج إلى الجرف حيث كانوا يُعسكرون غير أن بعض الصحابة قد شقّ عليهم خروج الجيش من المدينة، حتى كادت تفرُغ من رجالها على حين أنها مُهدّدة من الأعراب المرتدّين، فدخل عمر، وعثمان، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم، على الخليفة، وقالوا له: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد انتفضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدّةً لأهل الردّة ترمي بهم في نحورهم، وأُخرى: لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها، وفيها الذراري والنساء، ولو تأخّرت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بِجِرَانِه، ويعود أهل الردّة إلى ما خرجوا منه، أو يُفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة، حينئذٍ فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا.

وعى أبو بكر، رضي الله عنه، كلام الذين دخلوا عليه فقال لهم: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا. قد سمعت مقالتنا. فقال لهم: (والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدّ أن يؤوب منه. كيف ورسول الله ﷺ، ينزل عليه الوحي من السماء يقول: «أنفذوا بعث أسامة». ولكن خصلةً أُكلّم بها أسامة. أكلّمه في عمر يُقيم عندنا، فإنه لا غنى بنا عنه. والله ما أدري يفعل أسامة أم لا، والله إن أبى لأُكرهه)[1].

اقتنع صحابة رسول الله ﷺ، بما قال الصديق، اقتنعوا عندما تذكّروا قول رسول الله ﷺ، وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة» ولا ينطق رسول الله ﷺ، عن الهوى، ورأوا عزيمة الصديق. وبقناعتهم لم تعد هناك مُشكلة خلافٍ أو مُعارضة في رأي، وإنما أصبح الجميع أصحاب رأيٍ واحدٍ. فهذا غير ما يتوهّم بعضهم أن الصديق استبدّ برأيه وأطاعوه، فليس

---

(١) حياة الصحابة الجزء الأول ـ باب الجهاد.

في الإسلام استبداد برأيٍ بل شورى، ومناقشة للموضوع للوصول إلى الحلّ السليم والطريق الصحيحة.

وفي رواية أن أسامة قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ، فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وثَقَل رسول الله وَثَقَل المسلمين أن يتخطّفهم المشركون. وقالت الأنصار فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يُولّي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره، بما قال أسامة، فقال: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد ارتدّت على أعقابها كُفّاراً كما قد علمت، وأنت تُريد أن تُنفذ جيش أسامة؟ وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس فلو حبسته عندك لتقوّيت به على من ارتدّ من هؤلاء العرب.

فقال أبو بكر: والله لو علمت أن السباع تجرّ برجلي إن لم أردّه ما رددته، ولا حلت لواءً عقده رسول الله ﷺ، فقال عمر: إن الأنصار أمروني أن أُبلّغك، وهم يطلبون أن تُولّي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة. فوثب أبو بكر، وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر، فقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟[١].

اقتنع عمر، رضي الله عنه، من كلام أبي بكر، رضي الله عنه، إذ رآه يسير على نهج رسول الله ﷺ، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلمون جميعاً، وانطلق إلى جيش أسامة قانعاً بل سار يحمل رأي أبي بكر. فلما وصل إلى الجيش قال له الناس: ماذا صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

رأى أبو بكر أن يخرج إلى الجيش بنفسه يُشيّع الجيش، ويُوضّح رأيه للناس، ويطلب من أسامة إبقاء عمر بن الخطاب في المدينة. فنادى مُنادي

---

(١) تاريخ الطبري.

أبي بكر بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ، ليتمّ بعث أسامة ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف. وقام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إني وُلّيتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لوددت لو أن بعضكم كفانيه، وإنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستُكلّفوني ما كان رسول الله ﷺ، يطيق. إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا مُتّبع، ولست بمبتدع، ولست بخيرٍ من أحدكم، فراعوني، فإن رأيتموني استقمت فتابعوني، وإن رأيتموني زغت فقوّموني، وإن رسول الله ﷺ، قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم.

اقتنع المسلمون جميعاً بعد ما سمعوا أن الخليفة لم يأت بجديد، وإنما يسير على هدي رسول الله ﷺ، فالرسول قال وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة». وأن رسول الله ﷺ، هو الذي أمّر أسامة، والمسلمون قانعون بحكم الله ورسوله بل إن هذا من الإيمان، وتُرفع صفة الإيمان عمن لا يقبل بحكم الله ورسوله. إذن لم تكن هناك شورى معلمة، واستبدّ الخليفة برأيه، بل إن المسلمين جميعاً أصبحوا برأيٍ واحدٍ، ويسمعون ويطيعون، ولم تكن هناك أبداً آراء مُخالفة سواء أكانت فرديةً أم جماعيةً مُعلنةً أم مخفيةً في سبيل وحدة الجماعة، ومن أجل السمع والطاعة. وأيّدت الأحداث صحة رأي الخليفة الذي استند على هدي الرسول الكريم، وصدق النبوة من قبل في إمرة أسامة الذي أبدى عبقريةً في القيادة، وضروباً في فنّ الإمرة، وبطولةً فذّةً، وشجاعةً نادرةً. ثم كان في إنفاذ جيش أسامة قوة إذ هابت الأعراب المدينة، وقالوا: لو لم يكن فيها قوة كافية لما أُنفذ الجيش، ولقتال الروم بالذات، وللروم سيطرة معنوية في نفوس الأعراب والجاهليين عامةً.

٢" ـ قتال المرتدين:

وما قفل أسامة حتى كفرت الأرض وتصرّمت، وارتدّ من كل قبيلة

عامةً أو خاصةً إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مُسيلمة، وطُليحة، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدّت غطفان، وارتدّت خواص من بني سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان[١].

قال قتادة[٢]، رحمه الله تعالى، لما تُوفي رسول الله ﷺ، ارتدّت العرب كلها إلا ثلاثة مساجد: مكة، والمدينة، والبحرين، فقالوا: أما الصلاة فإننا سنُصلّي، وأما الزكاة فوالله لا تُغصب أموالنا منا[٣].

وقالت عائشة، رضي الله عنها: لما تُوفّي رسول الله ﷺ، اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدّت العرب قاطبةً، وانحازت الأنصار وصار المسلمون كالغنم السائبة في الليلة الماطرة، حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها[٤].

كان المرتدون فريقين: فريق بذلوا الصلاة ومنعوا الزكاة، وفريق كفروا بالدين كله، وآمنوا برسالة الشيطان إلى مُسيلمة، وطليحة، والأسود، فأما الأولون فقالوا: نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله، ولكن لا نُعطيكم أموالنا، وبعثوا إلى المدينة وفداً فنزلوا على وجوه الناس. فأنزلوهم ما خلا عباساً فتحمّلوا بهم على أبي بكر على أن يُقيموا الصلاة وعلى أن لا يُؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق فقال: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه، وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصدقة، وردّ الوفد فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بقلّة أهل المدينة وأطمعوهم فيها[٥].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي أخو أبي سعيد الخدري لأمه كان من فضلاء الصحابة، شهد العقبة، وبدراً، وأحداً، والمشاهد كلها، وأُصيبت عينه في إحدى الغزوات فردّها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه، توفي سنة ٢٣، وهو ابن ٦٥ سنة، رضي الله عنه.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

(٤) هاضها: كسرها.

(٥) تاريخ الطبري.

فقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تُقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقّه، وحسابه على الله». فقال أبو بكر: والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً[1] لقاتلتهم على منعها[2].

وجادله في ذلك كثير من الصحابة منهم عمر، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، ورأى الصحابة أن اللين أولى، وأن الأرض قد زُلزلت بالردّة فما يُطاق تثبيتها، وأبو بكر ماضٍ في الذي شرح الله له صدره من الحق، لا يضعُف ولا يني، ولقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وأرفق بهم، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام، إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أو ينقُص وأنا حيّ؟ أليس قد قال: (أي النبيّ ﷺ، الذي احتجّ به عمر). إلا بحقّها، ومن حقّها الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو خذلني الناس كلهم لجالدتهم بنفسي. قال عمر، رضي الله عنه: فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحقّ.

واقتنع الصحابة بقول أبي بكر فأيّدوا رأيه، ودعموه في موقفه، وثبتوا أمام الذين أرادوا الإغارة على المدينة، وانتصروا على المرتدّين، بإذن الله، وجاءت الصدقات إلى المدينة فقويت معنويات المسلمين، ورجع بعث أسامة، وقد أحرز نصراً، فخاف المرتدّون، وهابوا المسلمين، وضعُفت شوكتهم، ثم كانت حروب الردّة التي قضت على أصحابها.

٣" ـ في غزو الروم:

أخرج ابن عساكر عن الزهري عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي،

---

(١) العناق: السخلة (الأنثى من ولد الماعز).

(٢) الصحيحان.

رضي الله عنه، أنه قال: لما أراد أبو بكر، رضي الله عنه، غزو الروم دعا علياً، وعمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه ـ قال عبد الله بن أبي أوفى: وأنا فيهم ـ. فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل لا تُحصى نعماؤه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد، قد جمع الله كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تُشركوا به، ولا تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب، وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليُؤيّد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مُدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيته، فليُشر امرؤ عليّ برأيه.

فقام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي يخصّ بالخير من شاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه؛ وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. قد ـ والله ـ أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت فما قُضي أن يكون حتى ذكرته، فقد أصبت ـ أصاب الله بك سبيل الرشاد ـ سرِّب إليهم الخيل إثر الخيل، وابعث الرجال إثر الرجال والجنود تتبعها الجنود؛ فإن الله ناصر دينه ومعزّ الإسلام وأهله.

ثم إن عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، قام فقال: يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر! حدّ حديد وركن شديد، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم، ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضرّوا بهم، وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوّهم؛ ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك. ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم، ثم سكت وسكت الناس.

ثم قال لهم أبو بكر: ما ترون؟ فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظَنين. فقال طلحة، والزبير، وسعد، وأبو عبيدة، وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم: صدق عثمان، ما رأيت من رأيٍ فأمضه فإنا لا نُخالفك ولا نتهمك، وذكروا هذا وأشباهه؛ وعليّ، رضي الله عنه، في القوم لم يتكلّم.

فقال أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال: أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله. فقال: بشّرك الله بخير! ومن أين علمت ذلك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون». فقال: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرّك الله.

ثم إن أبا بكر، رضي الله عنه، قام في الناس فذكر الله بما هو أهله، وصلّى على نبيّه ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضّلكم بهذا الدين على كل دين، فتجّهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مُؤمّر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تُخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فقام خالد بن سعيد، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، الذي بعث محمداً ﷺ، بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون فالحمد لله منجز وعده، ومظهر وعده، ومهلك عدوّه، ونحن غير مُخالفين ولا مُختلفين، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونُطيعك إذا أمرتنا.

٤" ـ استخلاف عمر:

قال الحسن البصري: لما ثقُل أبو بكر، رضي الله عنه، واستبان له

من نفسه، جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنّني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي. فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، فرجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك. قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده[1].

ثم إنه دعا بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال له: ما تسأله عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان. فقال له مثل ذلك: فقال: علمي أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله فقال له أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم شاور سعيد بن زيد، وأُسيد بن الحُضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أُسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يُسرّ خير من الذي يُعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وسمع بعض الصحابة بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به، فدخلوا على أبي بكر، فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظّ وأغلظ.

قال أبو بكر، رضي الله عنه، أجلسوني. فلما جلس. قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل: أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب: ابن الجوزي.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب. بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يُؤمن الكافر، ويُوقن الفاجر، ويُصدّق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي.

وأخذته غشية فذُهب به قبل أن يُسمّي أحداً. فكتب عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب.

ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب:

فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنّي به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئٍ ما اكتسب، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

ثم أمره فختم الكتاب، وأشرب أبو بكر على الناس من كوته فقال: يا أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر[٢].

فأقرّوا بذلك جميعاً. ورضوا به ثم بايعوا، فرفع أبو بكر، رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم. وخفت عليهم الفتنة فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فولّيت عليهم خيرهم، وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أُرشدهم. وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم،

---

(١) الطبقات لابن سعد، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتهذيب ابن عساكر.

(٢) مختصر الموافقة للزمخشري.

واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعية. ثم دعاه فأوصاه[1].

وهكذا فالشورى ليست للرعية كلها وإنما لأولي الرأي، ولا يمنع هذا أن يُبدي كل امرئ رأيه سواء أكان من أهل الرأي أم من غيرهم، وإذا اعترض أحدهم على رأيٍ عرض الخليفة هذا الاعتراض على أهل الحلّ والعقد لدراسته والنظر فيه، ونوقش الموضوع حتى تتمّ القناعة، ويُعطى المعترض الرأي الذي تمّ الوصول إليه. فعندما اعترض أحدهم على استخلاف عمر وقال ما قال عن غلظته، فاستدعى أبو بكر، رضي الله عنه، عثمان وعلياً، رضي الله عنهما، وسألهما عن قولة المعترض، فقال عثمان: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته وسابقته. وقال علي: بئس ما قال، عمر عند ظنّك به، ورأيك فيه، إن وليته، مع أنه كان والياً معك، نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظنّ لم تُرد إلا الخير.

الشورى أيام الفاروق:

تولّى عمر بن الخطاب أمر الأُمّة، وقد امتدّ الإسلام على رقعةٍ أرحب، ودخلت فيه شعوب جديدة، وشمل بيئاتٍ مختفلةً، فاستجدّ نتيجة ذلك أمور، وهذا ما يستدعي زيادة الشورى ومناقشة أهل الرأي والاستماع إلى الناس، وإلى من يعايش القضايا المستجدة.

١" ـ بساط كسرى:

جاء بساط كسرى إلى عمر بين الغنائم، وهو قطعة فنية لا يُماثلها في عصرها قطعة أخرى، طولها ستين ذراعاً، وعرضها مثل ذلك، الناظر إليها

---

(١) تاريخ الخلفاء.

كالناظر إلى جنّة حقيقيةٍ، قيمته تُعادل نصيب أعدادٍ من المقاتلين، فماذا يفعل الخليفة؟.

جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره. فأشار كلهم عليه بأخذه، إلا علياً، رضي الله عنه، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية. إنك إن تقبله ـ على هذا ـ اليوم لم تعدم فيه غدٍ من يستحق به ما ليس له. قال: صدقتني ونصحتني، فقسّمه بينهم.

اقتنع أمير المؤمنين، ولم يكن هناك معترض، إذ لم يضع حقّ أحد. ولم يقل أحد حرام تمزيق هذه القطعة الفنية، فالحقّ والعدل أولى من إبقاء شيء جميل، وفي نفوس بعض الناس غصّة.

٢" ـ سواد العراق:

أفاء الله على المسلمين سواد العراق، ورأى عامة الصحابة، وعلى رأسهم عبد الرحمٰن بن عوف، وبلال بن رباح أن تُقسم الأرض، ومزارعوها بين المقاتلين، ورأى عمر غير ذلك إذ قال: والله لا تفتح بعدي بلد يكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلًّا على المسلمين. فإذا قسّمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسدّ الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟. فأكثروا على عمر، وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يشهدوا ولم يحضروا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي. قالوا: فاستشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا. فأما عبد الرحمٰن بن عوف فكان رأيه أن تُقسّم لهم حقوقهم. ورأي عثمان، وعلي، وطلحة، وابن عمر رأي عمر. فعرفهم، وأرسل إلى عشرة من الأنصار، خمسةٍ من الأوس وخمسةٍ من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم. فلما اجتمعوا عرض رأيه وحجته. وقال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم،

وأنتم اليوم تُقرّون بالحقّ، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أُريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحقّ، فوالله لئن كنت نطقت بأمرٍ أُريده ما أُريد به إلا الحقّ. قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً لهو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت. لكن رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسّمت ما غنموا من أموالٍ بين أهله، وأخرجت الخمس فوجّهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفوق رقابهم الجزية، يُؤدّونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور؟ لا بدّ من رجالٍ يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بدّ من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسّمت الأرض والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك، فنعم ما قلت ورأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به رحل أهل الكفر إلى مدنهم، فقال: قد بان لي الأمر. فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف، وقالوا: تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربةً. فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد.

٣" ـ الديوان:

لما كثرت الأموال بعد أن فتح الله على المسلمين أمصاراً، جمع عمر أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: ما ترون؟ فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنةٍ، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة فقال علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تُمسك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشية أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا

ديواناً وجنّدوا جنوداً، فدوّن ديواناً وجنّد جنوداً فأخذ بقوله: فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مُطعم، وكانوا نسّاب قريش وكُتّابه. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم. فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر، رضي الله عنه، قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

٤" ـ خليج أمير المؤمنين:

دعا عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر. ثم قال لهم: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم، حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوةً لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نُريد من حمل الطعام إلى مكة والمدينة. فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نُريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم. وتمّ الرأي، وفُتح الخليج.

وهنا نوع جديد من الشورى، استشارة أهل الاختصاص والمعرفة في البلد لأن الموضوع يتعلّق بالخبرة ومعرفة الأرض، ولا علاقة له بالصحابة، وليس أمراً فقهياً يعرفه أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر من غيرهم.

٥" ـ التقويم:

كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ فلا ندري على أيها نعمل.

وقال ميمون بن مهران: رُفع إلى أمير المؤمنين صك محلّه شعبان فقال: أي الشعبانين هو؟ الذي مضى أم الذي نحن فيه أم الآتي؟

وقال قرة بن خالد: كان عند عمر عامل جاء من اليمن فقال لعمر:

أما تُؤرّخون؟ إني رأيت باليمن شيئاً يُسمّونه التاريخ، يكتبون من عام كذا شهر كذا. فقال عمر: إن هذا لحسن: فأرّخوا.

جمع عمر وجوه الصحابة فقال: إن الأموال قد كثرت، وما قسمنا منها غير موقت، فكيف التوصّل إلى ما يُضبط به ذلك؟

فقال قائل: اكتبوا على تاريخ الروم.

فقيل: إنه يطول، وإنهم يكتبون من عند ذي القرنين.

فقالوا: يجب أن يُعرف ذلك من رسوم الفرس. فعندما استحضر عمر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا حساباً نُسميّه: ماه روز (معناه حساب الشهور والأيام) وبيّنه لهم. فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ثم قالوا: من عند وفاته.

ثم قالوا: من مولده، وقال علي: منذ خرج النبي ﷺ، من أرض الشرك يعني يوم هاجر فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة. وكانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة في ربيع الأول فقال: بأي شهر نبدأ فنُصيّره أول السنة؟

فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يُعظّمونه.

وقال آخرون: شهر رمضان.

وقال آخرون: ذو الحجة فيه الحجّ.

وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة.

وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرّخوا من المحرّم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور في العدّة، وهو منصرف الناس عن الحج.

فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقرى ثمانيةً وستين يوماً وجعلوا التاريخ من أول محرّم هذه السنة[1].

٦ً - اختيار القادة:

أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يكون على رأس المجاهدين الذين يتجهون إلى العراق، فاستخلف علياً على المدينة، وخرج حتى أتى صراراً[2] في طريق العراق، وقد جعل طلحة بن عبيد الله على مقدمته، وعبد الرحمن بن عوف على الميمنة، والزبير بن العوام على الميسرة، وقد استشار الناس في (صرار) فاجتمع عليه الصحابة، ومنعوه من الخروج، وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين اجعل عجزها بي، وأقم، وابعث جنداً، وإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنف الأمر (أوله) خشيت أن لا يُكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، فنزل عند رأي الصحابة، وقال لهم: إني إنما كنت كرجلٍ منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أُقيم وأبعثَ رجلاً.

واستشار الناس في اختيار القائد. فقال عبد الرحمن بن عوف: وجدته. قال: ومن هو؟ قال: الأسد عادياً سعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص). فوافق الجميع. وانطلق سعد بالجيش.

واجتمع أهل فارس من السند، وخراسان، وحلوان إلى يزدجرد فأمّر عليهم (ذا الحاجب)، وأخرجوا رايتهم (درفش كابيان)، وهي العلم الأكبر لا يُخرجونه إلا في الأمور العظام، وقالوا: إن عمر قد أخرب بيت مملكتنا، واقتحم بلادنا وقاتلنا في عقر دارنا، وما نراه مُنتهياً، وهو آتينا إن لم نأته، وتعاقدوا على الحرب، وهم مائة وخمسون ألفاً، وأراد عمر

---

(١) أخبار عمر. الطنطاويان.

(٢) صرار: ماء على طريق العراق على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

الخروج بنفسه، واستشار أصحابه فمنعوه، فقال: أشيروا عليّ برجلٍ أُوَلِّه ذلك الثغر غداً. قالوا: أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرةً. قال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقياً. قالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وهم جندك، وقد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأُولّيَن أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأسنّة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.

٧" ـ الطاعون:

ولما خرج عمر إلى الشام في إحدى قدماته لقيه في سرغ (قرب تبوك) أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الطاعون وقع في الشام، فقال لابن عباس: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم واستشارهم فأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام فاختلفوا. فقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

وقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه. فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفّر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان مُتغيّباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا

تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». فحمد الله عمر ثم انصرف.

وما أكثر الشورى في أيام عمر بل في أيام الراشدين عامة وإنما نستعرض بعضها، ولا نعرض كلها، ويكفي أن نأخذ منها الخطوط العريضة لهذا المبدأ العظيم كي نتعلّم طريقه لنسير على نهجه.

الشورى أيام ذي النورين:

بقيت الشورى على حالها أيام الخليفة الراشدي الثالث وأعطت نتائجها الإيجابية الطيبة، ولكن في آخر أيامه حدثت الفتنة ومع أن الشورى بقيت ربما زادت غير أن آثارها لم تظهر، وربما نقول لم يستفد منها لأن الفتنة عمّت المجتمع فلا مُجيب لمنادٍ، ولا مُستمع لناصح. ولعلّنا ننظر في بعض قضايا الشورى التي تمّت أيام ذي النورين، رضي الله عنه.

١ - **قتل قتلة الخليفة السابق**: إن الحادثة التي قُتل فيها الخليفة السابق عمر بن الخطاب جريمة سياسية، واعتداء على النفس، واشتركت في هذه الجريمة أطراف مُتعددة من مجوسٍ، ويهودٍ، ونصارى، بعضهم كان يُظهر الإسلام، وبعضهم من بلادٍ ثانيةٍ كان لهم دور في التخطيط، والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحدّ من جرائم القتل، وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍّ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بدعوى تنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب هواه ورأيه باسم إقامة الحدود...

لا يوجد خليفة، الخليفة السابق مقتول، ولم يُبايع بعد خليفة جديد ينظر في الأمر، غير أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قام بقتل القتلة (الهرمزان، جفينة، ابنة أبي لؤلؤة) وليس له من حقّ في ذلك، فالخليفة الجديد هو الذي سينظر في هذه القضية وريثما يُبايع الخليفة الجديد، وُضع عبيد الله في السجن. فلما تولّى عثمان، رضي الله عنه، كانت هذه أول مشكلةٍ واجهته.

استشار عثمان أولي الرأي فكان رأي علي بن أبي طالب وبعض الصحابة أنه لا بدّ من إقامة الحدّ، وقتل عبيد الله. ولا يصحّ التساهل أبداً في إقامة حدود الله، مهما كان وضع القاتل، ومهما كانت المبرّرات.

ورأى عدد آخر من الصحابة أنه يصعُب على المسلمين قتل خليفتهم بالأمس بأيدٍ قذرةٍ، ويقتل اليوم ابنه، وقد شكّوا في إسلام الهرمزان، ومن هنا فلا يقتل عبيد الله، إذ لا يقتل مسلم بكافر. وقد عرضوا على الخليفة أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الديّة من بيت المال، وتعود إليه ثانيةً، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم.

واقترح بعضهمْ أن يقوم الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص. غير أن الخليفة لم يقبل بهذا التحايل على حدٍّ من حدود الله. ورأى أنه لا بدّ من إقامة الحدّ على عبيد الله بن عمر، إذ عدّ الهرمزان مسلماً.

دفع الخليفة عثمان بن عفان القاتل عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه، فخرج به، يقول القماذبان: خرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلاّ أنهم يطلبون إليّ فيه. فقلت لهم: إلي قتله؟ قالوا: نعم - وسبّوا عبيد الله - فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه. فتركته لله، ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلاّ على رؤوس الرجال وأكفّهم.

عفا صاحب الحقّ. وعندها قام الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليّهم، وقد دفع الديّة لهم أيضاً، ثم رُدّت إلى بيت المال.

٢" - **أصحاب الفتنة**: جمع الخليفة أمراء الأمصار، واستشارهم في أمر المنحرفين، وما يتكلّمون به، فأُشير عليه بنقلهم إلى الثغور كي يُشغَلوا بأنفسهم، كما اقتُرح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا، ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذاك وإنما رأى أن يأخذهم بالحلم، وقال لأهل الكوفة: أما بعد، فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم

بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم عليّ حجة.

واجتمع إلى وفد مصر وناقشهم، واستمع إلى آرائهم، كما استمع إليهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة غير أن صاحب الفتنة لا يسمع إلا ما في نفسه، ولا تصلح مع اللئيم إلا الشدّة، وعاملهم الخليفة باللين فأشعلوا الفتنة.

قامت الفتنة وتداخلت أمواج الآراء فلم يعد موضوع للشورى. وعصفت الفتنة بالخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقتل.

الشورى أيام علي بن أبي طالب:

كان عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخليفة الراشدي الرابع يستشير أهل الشورى من صحابة رسول الله ﷺ. ثم دعته الظروف إلى الانتقال إلى الكوفة، ومغادرة المدينة موطن الصحابة، ومقرّ رجال الشورى. ومع أن عدداً كان معه منهم إلاّ أن الشورى لم تعُد لها نتائجها الإيجابية إذ كان أكثر رجال عليّ، رضي الله عنه، من الجيل الجديد الذين أتوا بعد صحابة رسول الله ﷺ، فكانوا دونهم، إضافةً إلى وجود عددٍ بينهم من أهل الأهواء ومُثيري الفتنة، منهم الأعراب، ومنهم الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، إذ كان ينصحهم فلا يقبلون، ويُشير عليهم فلا يهتمّون، ويدعوهم فلا يستجيبون، ويأمرهم فلا يُطيعون حتى ملّهم وتمنّى الخلاص منهم. إذا دعاهم إلى القتال في الصيف طلبوا منه التريث حتى ينجلي عنهم الحرّ، وإن طلب منهم التهيّؤ للنزال في الشتاء رغبوا إليه إمهالهم حتى ينقضي البرد.

طلب منهم متابعة القتال في صفّين بعد أن رفع إخوانهم أهل الشام المصاحف يبغون التحكيم فأصرّوا إلاّ على وقف القتال والإجابة لما دُعوا

له، فأعلمهم أنها خدعة فلم يرعوا لندائه واضطر إلى الوقوف بل أجبر الأشتر النخعي إلى عدم متابعة الإثخان في الخصم.

رشَّح مُمثّله للتحكيم عبد الله بن عباس فرفضوا، ورشح الأشتر النخعي فأبوا، حتى سار إلى الحكومة أبو موسى الأشعري. ولم يكن التحكيم في صالحهم فلم يعترفوا به، وعدّوا قبوله كُفراً، وهم الذين طلبوه، وطلبوا من خليفتهم أن يتوب مما وقع فيه من الكفر، فجادلهم لم يُظعنوا للحقّ بل خرجوا عليه، وكانت فرقة الخوارج التي اشتدّ بأسها على المسلمين حتى اضطر أن يُقاتلهم في «النهروان».

لم يتعظ من بقي مع الخليفة ولم يثُب إلى رشده بل استمرّ في عناده ورفضه حتى استُشهد الخليفة، رضي الله عنه، على يد أحد أشقياء الخوارج عبد الرحمن بن مُلجم - قبّحه الله - وهكذا كانت أيام هذا الخليفة الراشدي، رضي الله عنه وأرضاه.

واستمرّت الشورى بعد الراشدين غير أن صفاءها بدأ يقلّ تدريجياً وإيجابياتها تضعُف مع الزمن وربما كان ذلك لأن بعض من يستشيرهم الخليفة بدؤوا يُزينون له رأيه، يبغون التزلّف، ولا ينصحون له، حتى أصبحت بطانة أولي الأمر في النهاية تحجبهم عن الرعية فلا يسمعون إلا من البطانة التي لها مصالح وله أطماع، وقلّ الخوف من الله، وكلٌ ينظر إلى الساعة التي هو فيها، ويحرص على تثبيت وضعه، والإغداق على رجاله كي يأمن جانبهم، وهم أعداد كبيرة من مختلف الاختصاصات وبيدهم القوة يحمونه ويُقدّم لهم ما يطلبون مُقابل تلك الحماية، ولم يعُد للشورى مفهومها الذي وجدت له، ولم يعُد لرجالها تلك المكانة التي خوّلتهم أن يكونوا فيها.

ومن كل ما سبق نستنتج ما يأتي:

١ - الشورى واجبة على الخليفة وفيها نُصح للأُمّة، وعلى الرعيّة وأصحاب الرأيّ، وأهل الحلّ والعقد أن يُبدوا رأيهم بوضوح ولو كان يُخالف رأي الخليفة.

٢ ـ لا يُجبر الخليفة أو الأمير إنساناً على رأيٍ ما.

٣ ـ لا يصحّ أن يستمرّ الإنسان يُدافع عن رأيه ويُعارض بقية الآراء بعد صدور أوامر الخليفة حيث لا توجد معارضة في الإسلام، وإنما عليه أن يسمع ويُطيع وأن يحتفظ برأيه لنفسه.

٤ ـ لا يستشير الخليفة مع وجود نصٍ من القرآن الكريم أو السنة الشريفة، فالشورى قاعدة اجتهادية، ولا اجتهاد مع وجود نص.

٥ ـ إذا اتجهت أكثر آراء أهل الشورى نحو رأيٍ معيّنٍ وتمّت القناعة لديهم بذلك الرأي فإن الخليفة أو الأمير مُلزم به، وإن لم يلتزم فإنما يكون قد عطّل الشورى، وترك النُصحِ للأُمة، وكلا الأمرين واجب عليه.

٦ ـ إذا تمّت قناعة الخليفة بأمرٍ بعد سماع آراء ولو كانت قليلة، ولم يسمع آراءً مخالفةً التزم به، وأنفذه.

٧ ـ يمكن للخليفة أن يُنفذ أمراً ولو خالف آراء أكثرية أهل الشورى إن كانت هناك مصلحة للأُمة، ولا يستطيع أن يبوح فيها أمام الجميع، كإخفاء رسول الله ﷺ، مُهمّة عمّه العبّاس، إذ لم يكن يعلمها سوى الصدّيق.

٨ ـ ليست هناك أقلية وأكثرية وإنما يتكلّم من له رأي، ويعرض رأيه بصراحةٍ ووضوحٍ، وتُناقش الآراء المطروحة، وتُقلّب وجهات النظر حتى تتمّ القناعة بوجهةِ نظرٍ معينةٍ، فيعمل الأمير على إنفاذها.

٩ ـ إذا لم تتمّ قناعة الجميع بوجهة نظر، وبقي اختلاف في وجهات النظر فإنه يمكن للأمير أن يعمل بإنفاذ وجهة النظر التي يراها دون البحث في موضوع أقليةٍ أو أكثريةٍ، وعلى الناس أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم.

١٠ ـ الشورى ليست للرعية كلها وإنما لأصحابها من أولي الرأي، ولكن هذا لا يمنع من أن يُبدي أيّ فردٍ رأيه، وله حق الاعتراض حتى يصل إليه الجواب، فإن وصل إليه رأي المسؤول المستند على أصحاب الحلّ والعقد سمع وأطاع وترك ما كان يراه.

١١ ـ يُناقش المسؤول وأهل الرأي أي اعتراضٍ مهما كان، ومن أيٍّ كان، ويرسلوا لصاحبه الجواب الصحيح.

١٢ ـ يمكن للأمير أن يوسّع دائرة الشورى إذا لم تتم القناعة بالشورى من دائرةٍ مُعينةٍ.

وفي النهاية لا بد من أن نقول: إن الشورى تحتاج إلى رجال مُؤمنين، ومجتمعٍ سليمٍ يعرف معنى النُصح، ولا يُفسّره بالمصلحة ولا يُعلّله ولا يُؤوله، فإنَ سوءَ الظنّ من مرض النفس وشغلها بهواها. ولذا علينا الاهتمام الكبير بالتربية، والعناية الكبيرة بالأخلاق، والرعاية الشاملة لتهذيب النفوس وإعطاء القيمة الحقيقية للمعاني والأثر الكبير للنتائج حتى نستطيع أن نوجد ذلك المجتمع ثم نقيم دعائم الشورى والحكم الإسلامي.

القسم الثاني

الدستور

هذه المفاهيم كانت سائدةً على مدى التاريخ الإسلامي وإن كانت تنحسر عن التطبيق تدريجياً بعد العهد الراشدي غير أنها بقيت معروفةً ولا منازع لها، ومع مرحلة زوال الخلافة بدأت ترافقها مفاهيم جديدة جاءت إلينا من الغرب مع الهزيمة النفسية التي حلّت فينا، وقد أخذت هذه المفاهيم الجديدة الفئة المستغربة من مجتمعنا، والتي أطلقت على نفسها المستنيرة أو التقدّمية إذ عدت التوجّه نحو الغرب والتقدّم إليه، وتقليده، ونزع كامل الشخصية الإسلامية تنوّراً. وبدأت المفاهيم الجديدة تدخل صراعاً مع المفاهيم الإسلامية. وتميّزاً للشخصية لا بدّ من تبنيّ تلك المفاهيم التي تنبع من شخصيتنا، وصياغة دستورٍ يقوم على أساسها تعتمد عليه الدولة الإسلامية التي ندعو لها، والتي نعتقد أنّ في قيامها سعادة للمسلمين جميعاً، ثم للبشر كافةً.

ربما انطلقت دولة على المنهج الإسلامي، أو وافق مسؤول على تبني الإسلام أو توصّل الدعاة نتيجة التربية والدعوة إلى العودة إلى الإسلام، أو الاستعداد إلى الحكم فإنه من الضرورة اتّخاذ الدستور القائم على المفاهيم الإسلامية، وربما كان في طرحه زيادة في التجاوب والانخراط في صفوف أصحاب الفكرة الإسلامية. وانطلاقاً من هذا فإني سأطرح هذا المشروع القابل للمناقشة والحذف والإضافة.

تعدّ الدولة التي انطلقت منها الفكرة بدءاً القاعدة الأساسية، ثم تنضمّ إليها بقية الأقاليم تبعاً لقبول الفكرة، فتنشأ الدولة الإسلامية على النظام اللامركزي مع شيءٍ من التحوير. ولا بدّ من أن يكون في الدستور شيئاً من المرونة يسهل معه الاستنباط، لذا عندما لم أجد نصاً مُلزماً استعمل عبارة [يُفضّل].

الفصل الأول

الأمّة والدولة

المادة الأولى: تشمل الأمة كل فردٍ يعتنق الإسلام، ويُؤمن بتطبيق منهجه بغضّ النظر عن موطنه، وجنسيته، ولونه.

المادة الثانية: تضمّ الدولة الأقاليم التي تُطبّق المنهج الإسلامي.

المادة الثالثة: يضمّ كلّ إقليم شعباً من الشعوب التي تتألّف منها الدولة الإسلامية.

المادة الرابعة: يُمكن أن يشمل الشعب الكبير كالشعب العربي والشعب التركي وغيرهما أكثر من إقليم.

المادة الخامسة: الشعب هو الجماعة التي تتكلّم لغةً واحدةً، وتُقيم متجاورةً.

المادة السادسة: يؤلّف الشعب الصغير جزءاً من إقليم، ويعود تقويم ذلك إلى المجلس التوجيهي الذي يُناط به تحديد ذلك.

المادة السابعة: تُعدّ اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة عند الشعب العربي، واللغة الثانية عند بقية الشعوب. وتُدرّس بها العلوم الدينية، كما تُقام مدارس عربية لإعداد الأساتذة لهذه المادة، ولتعريب الشعب.

المادة الثامنة: تُعدّ لغة كلّ شعبٍ هي اللغة الرسمية في الإقليم الذي يسكنه أفراده موقتاً ريثما تسود العربية فيه.

المادة التاسعة: يعود تحديد الأقاليم إلى المجلس التوجيهي.

المادة العاشرة: يُمكن نزع جُزءٍ من إقليم، وضمّه إلى آخر بناءً على المصلحة، أو طلبٍ من أهل الجزء المنزوع.

المادة الحادية عشرة: لا يتمّ النزع إلاّ بموافقة المجلس التوجيهي.

المادة الثانية عشرة: تُعدّ راية الدولة «علم البلاد» واحدةً في الأقاليم كلّها.

المادة الثالثة عشرة: راية الدولة ذات لونٍ أخضر، ويكون طولها ضعف عرضها.

المادة الرابعة عشرة: يحقّ لكُلّ مُسلمٍ أن يدخل أرض الدولة الإسلامية بعد التأكد من نُبل هدفه.

المادة الخامسة عشرة: يحقّ لأهل الكتاب ومن يلحق بهم الدخول إلى أرض الدولة الإسلامية. تُجّاراً وزُوّاراً وسائحين أفراداً وجماعات لا يزيد أفرادها على السبعة أشخاص.

المادة السادسة عشرة: لا يحقّ لغير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التجارة بالمحرمات أو حمل شيء منها.

المادة السابعة عشرة: على غير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التقيّد بالأنظمة المرعية فيها مثل لباس الحشمة، وعدم ارتكاب المنكرات، وحمل المعلومات، والتجسس، ونشر الشائعات و...

المادة الثامنة عشرة: على السلطة الإسلامية مراقبة الغرباء بأناةٍ وأمانةٍ.

المادة التاسعة عشرة: في كُلّ إقليم رئيس تُختار تسميته في الإقليم. ويُعدّ والياً على منطقته.

المادة العشرون: يُشترط في الوالي شروط عضو المجلس التوجيهي نفسها.

المادة الحادية والعشرون: يُختار الوالي من قبل أهل العلم وباستشارة الخليفة.

المادة الثانية والعشرون: لا يحقّ للوالي مخالفة الخليفة، بل يُعدّ تابعاً، ويتلقّى التعليمات منه.

المادة الثالثة والعشرون: يرأس الوالي الوزارة المحلية.

الفصل الثاني

المجلس التوجيهي[1]

المادة الرابعة والعشرون: مهمة المجلس التوجيهي:

أ ـ اختيار الخليفة.

ب ـ نصيحة الخليفة.

ج ـ توجيه الدولة.

د ـ استنباط القوانين من الشريعة الإسلامية.

المادة الخامسة والعشرون: يتألف المجلس التوجيهي من مائة عضو.

المادة السادسة والعشرون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي من العلماء من الأقاليم كافةً.

المادة السابعة والعشرون: لا تتساوى الأقاليم في عدد مُمثليها. ولا يُراعى عدد السكان، ولا اللغة.

المادة الثامنة والعشرون: يُفضّل تمثيل الأقاليم كلها في المجلس التوجيهي، ولا يُشترط، فحيثما وجد أهل لذلك اختيروا.

المادة التاسعة والعشرون: يشترط في عضو المجلس التوجيهي:

أ ـ أن يكون مسلماً.

---

(١) يدعو صاحب السلطة العلماء أول مرة لاختيار المجلس التوجيهي.

ب ـ من أهل العلم.

ج ـ ممن يشهد له بالصلاح.

د ـ كامل العدالة الاجتماعية.

هـ ـ لم يُسبق له أن أُقيم عليه حدّ، أو أُدين.

و ـ قد جاوزت سنّه الأربعين سنةً هجريةً.

ز ـ ترشيح أهل العلم له.

ح ـ لا يطلب ترشيح نفسه ولا يسعى وراء ذلك.

المادة الثلاثون: مدة عضوية المجلس التوجيهي خمس سنوات.

المادة الحادية والثلاثون: يمكن إعادة اختيار العضو حتى تصل سنّه إلى السبعين عاماً هجرية.

المادة الثانية والثلاثون: تنتهي عضوية المجلس التوجيهي في الحالات الآتية:

أ ـ الوفاة.

ب ـ ارتكاب أمرٍ يُدان فيه.

ج ـ الطعن فيه من جماعة.

د ـ مخالفة شرط من شروط العضوية.

الفصل الثالث

السلطة التنفيذية

المادة الثالثة والثلاثون: الخليفة هو رأس السلطة التنفيذية.

المادة الرابعة والثلاثون: يتألّف في كُلّ إقليم سلطة تنفيذية محلية باستثناء الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة الخامسة والثلاثون: يختصّ الإقليم المركزي بمكان إقامة الخليفة، والمجلس التوجيهي، والسلطة التنفيذية المركزية التي تشمل الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة السادسة والثلاثون: يمكن لكلّ إقليم أن يكون هو المركزي، بناءً على رأي الخليفة وموافقة المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والثلاثون: يُفضّل أن يكون مقرّ الخليفة بعيداً عن مكّة المكرّمة، والمدينة المُنوّرة كي لا تتعرّضان للخطر الذي تتعرّض له العواصم عادةً أثناء الحروب.

المادة الثامنة والثلاثون: يمكن أن يُقيم الخليفة في عاصمة الإقليم المركزي، ويُقيم أعضاء المجلس التوجيهي في مكّة المُكرّمة أو المدينة المُنوّرة، والاتّصالات الحديثة تُؤمّن سهولة الاتّصال.

المادة التاسعة والثلاثون: تشمل السلطة التنفيذية عدداً من الوزارات لكلٍ منها اختصاصها.

الفصل الرابع

الخليفة

المادة الأربعون: الخليفة هو المرجع الأعلى للدولة.

المادة الحادية والأربعون: الخليفة بيده إعلان الجهاد، ووقف القتال، وتوقيع المعاهدات، وهو إمام المسلمين، وباسمه تُقام الحدود بعد موافقته عليها.

المادة الثانية والأربعون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي بعد الاستشارة.

المادة الثالثة والأربعون: يختار الوزراء، بعد استشارة أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الرابعة والثلاثون: يستشير أعضاء المجلس التوجيهي في قضايا الدولة، والأمور الفقهية، ويعطي الحكم بعد الاستنارة برأي من استشار. والاستشارة ليست ملزمة له إلاّ أن يكون إجماعاً على رأي من قبل أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الخامسة والأربعون: يتقيّد الخليفة بمصادر التشريع الإسلامي، ولا يصحّ أن يُخالف أيّة نقطة.

المادة السادسة والأربعون: يُشترط في الخليفة شروط أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والأربعون: يُختار من قبل أعضاء المجلس التوجيهي من بين الأعضاء أو من غيرهم.

المادة الثامنة والأربعون: يُفضّل أن يكون قد تجاوز السنة الخمسين من عمره.

المادة التاسعة والأربعون: ليس هناك مدة محددة للخليفة، ولا ينهي خلافته سوى:

أ ـ الوفاة.

ب ـ الكفر البواح.

جـ ـ اختلال العقل.

المادة الخمسون: يُفضّل أن يتنازل مع بلوغ السنة السبعين من عمره.

المادة الحادية والخمسون: إذا غاب الخليفة لسفرٍ أو مرضٍ ناب عنه آخر يُعيّنه هو مدة غيابه فقط.

المادة الثانية والخمسون: إذا حلّت الوفاة بالخليفة حلّ مكانه أحد أعضاء المجلس التوجيهي ريثما يختارون خليفة مكانه.

المادة الثالثة والخمسون: يُفضّل ألاّ يكون الخليفة الجديد ابناً للأول أو من قرابته مع جواز ذلك، خشية الاستئثار بالسلطة أو نقل الخلافة إلى وراثة.

المادة الرابعة والخمسون: يُشترط فيمن ينوب عن الخليفة ما يُشترط في الخليفة.

المادة الخامسة والخمسون: تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

المادة السادسة والخمسون: لا يصحّ وجود أكثر من خليفة في دار الإسلام فإن قام أحد يُنازعه وقف العلماء ورجال الأمن، والناس بجانب الخليفة، وحاولوا ثني المُخالف عن غيّه فإذا استجاب انتهى الأمر، وإلاّ قاتلوه حتى يثوب إلى رُشده أو يُقتَل.

المادة السابعة والخمسون: لا يصحّ موافقة الخليفة على انفصال إقليمٍ من بلاد المسلمين عنها بل عليه إعادته ولو بالقوة. ويقف أهل العلم في ذلك الإقليم إلى جانبه.

المادة الثامنة والخمسون: يصحّ أن يكون الخليفة من أيّة جنسية، ومن أيّ إقليم.

الفصل الخامس

الوزارات

المادة التاسعة والخمسون: يُحدّد عدد الوزارات حسب المصلحة.

المادة الستون: وزارات الجهاد، والخارجية، والداخلية، والمالية، والتعليم، والعدل، والتعليم العالي، وأهل الذمة، والدعوة وزارات أساسية.

المادة الحادية والستون: يُشترط الإسلام فيمن يتسلّم الوزارات الأساسية.

المادة الثانية والستون: لا يشترك أهل الذمة في الجهاد.

المادة الثالثة والستون: لا يُعفى أهل الذمة من الجزية إذا اضطروا للقتال.

المادة الرابعة والستون: يستفيد مقاتلو أهل الذمّة من الغنائم.

المادة الخامسة والستون: ينطلق الجهاد مما حدّدته الشريعة الإسلامية.

المادة السادسة والستون: السفراء والقناصل والممثلون في الخارج يُشترط فيهم الإسلام.

المادة السابعة والستون: تنطلق العلاقات الدولية مما حددته الشريعة الإسلامية.

المادة الثامنة والستون: يشترط الإسلام في قوات الأمن الداخلي.

المادة التاسعة والستون: يرتبط الأمن الداخلي بوزارة الداخلية، ويُعدّ العسس جزءاً منه.

المادة السبعون: تتبع دائرة الزكاة وزارة المالية، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الحادية والسبعون: ينطلق التعليم من الروح الإيمانية. وتُوجّه المواد كلها توجيهاً إسلامياً.

المادة الثانية والسبعون: تتبع دائرة الترجمة وزارة التعليم العالي، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الثالثة والسبعون: تُوجّه وسائل الإعلام كلها للدعوة.

المادة الرابعة والسبعون: تحظر وسائل الإعلام الأجنبية في البلاد.

المادة الخامسة والسبعون: يمكن لأهل الذمة تسلم مناصب وزارية في الوزارات الأخرى، ويكون عندها الوكيل أو الأمين العام مسلماً.

الفصل السادس

السلطة القضائية

المادة السادسة والسبعون: السلطة القضائية منفصلة.

المادة السابعة والسبعون: لا حكم للسلطة التنفيذية على القضاء.

المادة الثامنة والسبعون: لا يتدّخل وزير العدل في عزل القضاة وتنقلاتهم.

المادة التاسعة والسبعون: وزير العدل له صفة إدارية ورسمية.

المادة الثمانون: قاضي القضاة هو الذي يتدخل في أمر القضاة من نقل، وعزل، وترفيع.

المادة الحادية والثمانون: لا يتسلّم أهل الذمة القضاء.

المادة الثانية والثمانون: يتحاكم أهل الذمة إلى محاكم خاصة بهم، يتولّون أمرها بأنفسهم وذلك فيما يتعلّق بشؤونهم الدينية، وعلاقاتهم فيما بينهم.

المادة الثالثة والثمانون: يُصادق وزير العدل على قرارات محاكم أهل الذمة.

المادة الرابعة والثمانون: يمكن أن يتقاضى أهل الذمة إلى محاكم إسلامية، ولا يحق لهم بعدها نقض الحكم وإعادته إلى محاكمهم الخاصة.

الفصل السابع

مباحث مستقلّة

المادة الخامسة والثمانون: الدولة مسؤولة عن تأمين العمل للمواطن.

المادة السادسة والثمانون: لا تسمح الدولة للفرد أن يبقى عاطلاً.

المادة السابعة والثمانون: تدفع الدولة راتباً معيناً للفرد في حال العجز والشيخوخة.

المادة الثامنة والثمانون: الناس جميعاً متساوون أمام القانون في الإطار الذي حددته الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة والثمانون: تحدّد أعمال خاصة تمارسها المرأة كالتعليم والطب، والتمريض، والصيدلة.

المادة التسعون: تعمل الدوائر على تكليف المرأة بنصف العمل الذي يُكلّف به الرجل لأن عملها للضرورة، ولاستيعاب عددٍ أكبر من النساء ولبقاء المرأة بعيدةً عن منزلها أقل وقت ممكن. ويدفع نصف الراتب كاملاً.

المادة الحادية والتسعون: تمنع التجارة بالمحرمات، وتُخلى الأسواق منها.

المادة الثانية والتسعون: ما يُحرّم على المسلمين، ويحلّه أهل الذمّة يبقى في أحيائهم، ولا يصحّ نقله إلى أحياء المسلمين، ولا المجاهرة به.

المادة الثالثة والتسعون: تحول الدولة دون الاختلاط في الدوائر كلها، وتُراعي تطبيق الشريعة الإسلامية.

المادة الرابعة والتسعون: تعمل الدولة على تدريب الشعب كله بمعدل ساعتين أسبوعياً على الأسلحة، وتُطبّق في المدارس كنصاب، وفي المعامل، وتفتح المدارس لذلك، وتُعدّ ذلك إلزامياً.

المادة الخامسة والتسعون: تصدر كل وزارة ودائرة لائحة تفصيلية لها تُقرّها الوزارة المسؤولة ويُصادق عليها المجلس التوجيهي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
موجز عن التاريخ الإسلامي	٩
القسم الأول: مفاهيم إسلامية	٢١
١ ـ الأمة	٢٣
٢ ـ الخلافة	٢٩
٣ ـ الإنسان الفرد	٤٠
٤ ـ المجتمع	٥٠
٥ ـ المرأة	٥٦
٦ ـ الأخوة	٦٨
٧ ـ أهل الذمة	٧٩
٨ ـ اللغة	٨٦
٩ ـ المسلم ومحيطه	٨٩
١٠ ـ المدينة	٩٧
١١ ـ الأرض	١٠٢
١٢ ـ الدعوة	١٠٦
١٣ ـ الانتخاب	١١٣
١٤ ـ الحكم	١٢١
١٥ ـ التشريع والاستنباط	١٢٥
١٦ ـ الترف	١٢٩
١٧ ـ الحضارة	١٣٩
١٨ ـ الجهاد	١٤٧
١٩ ـ النصر	١٥٤
٢٠ ـ مهمة المسلم	١٦٠

الموضوع	الصفحة

٢١ ـ القيادة ١٦٣
٢٢ ـ الإدارة ١٧٧
٢٣ ـ التخطيط ١٩٠
٢٤ ـ الوسائل والغايات ١٩٦
٢٥ ـ الشورى ٢٠٣
١° ـ في بدر ٢٠٦
٢° ـ في أحد ٢١٤
٣° ـ في الخندق ٢١٨
٤° ـ في الحديبية ٢١٩
٥° ـ في خيبر ٢٢٠
الشورى أيام الصديق ٢٢١
١° ـ بعث أسامة ٢٢١
٢° ـ قتال المرتدين ٢٢٤
٣° ـ في غزو الروم ٢٢٦
٤° ـ استخلاف عمر ٢٢٨
الشورى أيام الفاروق ٢٣١
١° ـ بساط كسرى ٢٣١
٢° ـ سواد العراق ٢٣٢
٣° ـ الديوان ٢٣٣
٤° ـ خليج أمير المؤمنين ٢٣٤
٥° ـ التقويم ٢٣٤
٦° ـ اختيار القادة ٢٣٦
٧° ـ الطاعون ٢٣٧
الشورى أيام ذي النورين ٢٣٨
١° ـ قتل قتلة الخليفة السابق ٢٣٨
٢° ـ أصحاب الفتنة ٢٣٩
الشورى أيام علي بن أبي طالب ٢٤٠
القسم الثاني: الدستور ٢٤٥
الفصل الأول: الأمة والدولة ٢٤٨
الفصل الثاني: المجلس التوجيهي ٢٥١

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث: السلطة التنفيذية	٢٥٣
الفصل الرابع: الخليفة	٢٥٤
الفصل الخامس: الوزارات	٢٥٦
الفصل السادس: السلطة القضائية	٢٥٨
الفصل السابع: مباحث مستقلة	٢٥٩
فهرس الموضوعات	٢٦١

التاريخ الإسلامي

ـ ١١ ـ

التاريخ المعاصر

بلاد العراق

١٣٤٢ ـ ١٤١١هـ

١٩٢٤ ـ ١٩٩١م

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقيا : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

التاريخ الإسلامي

-١١-

التاريخ المعاصر

بلاد العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله ، خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن العراق أحد الأمصار الإسلامية ذات الأهمية الخاصة إذ أن أرضه مقرونة بالفتوحات الإسلامية الأولى ، وما دار عليها من معارك حاسمةٍ في تاريخنا ، والتي هي من مفاخرنا ، ونتاج العقيدة ، وعلى تلك الأرض جال أعداد من الصحابة الكرام ، وقد رُويت بدماء بعضهم ، فطوتهم شهداء ، ومنهم من أقام واستقرّ ، ومنهم من عاد منها ورحل عنها بعد أن خلّد اسمه في ميادينها . وعلى تلك الأرض قامت الدولة العباسية إحدى الدول الإسلامية العظمى التي كانت حاضرتها بغداد محطّ أنظار العالم يومذاك ، ومهوى قلوبهم لما قدّم أبناؤها من حضارةٍ ، وما شادوا من مجدٍ ، وكل ذلك لا يزال مطبوعاً في نفوس المسلمين على مرّ الدهور وتعاقب السنين .

والعراق أحد الأقطار العربية ذات المركز المهمّ ، فهو يُؤلّف قسماً أساسياً من الجناح الشرقي ، وتحجزه الجبال عن بقية البلدان الآسيوية ، فهو يسند ظهره على تلك الجبال ويتّجه بنظره نحو الغرب والجنوب الغربي حيث يعيش الشعب العربي في أقاليمه المتعددة . فإذا ألّمت بالعرب نازلة اتجهوا نحو العراق ، وإذا حلّت بالمسلمين مصيبة نظروا إلى العراق فشمخ بتاريخه وأعلنه أنه لها ، وخاصةً أن أهله أصحاب شكيمةٍ وبأسٍ ومروءةٍ ونفوسٍ أبيّةٍ .

تبلغ مساحة العراق اليوم ٤٤٨,٧٤٢ كليومتراً مربعاً ، وتضمّ أرضه معظم ما كان يُعرف باسم « سواد العراق » ، وهو السهـل الفسيح المنفتـح جنوب بغداد ، وقد بقي قسم من هذا السواد في دولة إيران ، عندما قسّم المستعمر الأمة المسلمة إلى أجزاء حين سيطر عليهـا بعد أن ضعُف أمـرها لتخلّيها عن عقيدتها وتركها تعاليم دينها ، وقد ترك بقاعاً بين هـذه الأجزاء لتكون مواضع نزاعٍ بين الجوار ، يُثيرها كلما أراد يُهيج الناس بعضهم على بعضٍ فيُنفّذ مُخطّطاته ، ويُحقّق أغراضه . وقد بقيت منطقة الأهواز أو ما يُعرف اليوم باسم عربستان من السواد داخل إيران .

ويشمل العراق أيضاً بادية السماوة وجزءاً من بادية الشام، ويقع الجزءان غرب السواد ، وتنتقل فيهما قبائل عربيةٌ ليست سوى بطونٍ للقبائل التي تعيش وتنتقل في أرض العرب والشام .

ويضمّ العراق أيضاً قسماً واسعاً من الجزيرة الفراتية ، وهو الجزء الذي يقع شمال بغداد بين دجلة والفرات ، ويُؤلّف القسم الأكبر من ديار ربيعة التي تمتدّ إلى غرب الفرات أيضاً ، أما ديار بكر فلا يشمل العراق إلا جزءاً صغيراً منها ، وهو ما يحدّ ديار ربيعة من جهة الشمال .

ويمتدّ العراق نحو الشمال الشرقي ليأخذ قسماً مما كان يعرف باسم إقليم الجبال حيث تعيش قبائل شديدة المراس ، كثيرة العناد .

ولما كان الإسلام عقيدة سكان هذه الأجزاء كلها ، ولما كان الإسلام منهج جميع جوانب الحياة ، ومصدر كل عادات المجتمع وتطلعاتـه لذا فـإن السكان قد صُبغوا بصبغةٍ واحدةٍ حتى ليصعُب تفريق بعضهم عن بعضٍ ، ولكن عندما يعتريهم شيء من الغفلة يتسلّل إليهم الأعداء ، ويُثيرون بينهم الشحناء والبغضاء ، وهذا ما نراه في التاريخ وخاصةً المعاصر منه والذي نحن الآن بصدد دراسته حيث نجد أن المستعمر قد نثر بذور العصبية العرقية عندما كانت له السيطرة ، وما أن رحل حتى نمت نباتات القومية ، واستوت على

سوقها ، فاشتدّت العصبية إليها ، واستغلّ ذلك الأعداء ، وأخذوا يضربون بها يميناً وشمالاً كلما احتاجوا إلى الضرب ، وإلى فرقتنا ، حتى يثب بعضنا على بعضٍ ، ونُثخن بالجراح ، فنُعطى مرحلةً لتضميد تلك الجراح ، وعمران ما تهدّم ، وإشادة ما زال ، فيُعيد لنا الكرة حتى تبقى الحزازات لا تزول أبداً ، وحتى تُهدر أموالنا ، وتقلّ أعدادنا . وسيبقى هذا وضعنا حتى نثوب إلى رشدنا فنترك العصبية البغيضة، ونلتفت إلى أعدائنا بكل قوانا فنريهم الحقّ والعدل الذي كنا عليه يوم تمسّكنا بعقيدتنا .

نرجو من الله أن نُوفّق بتحليل أحداث هذه المرحلة المعاصرة بما عرفناه من معايشتنا لها ، وبما علمنا من أهداف الأعداء ورغبات أعوانهم الذين يعيشون بين أظهرنا ، وما لهم من كلمةٍ مسموعةٍ ، ووزنٍ سياسيٍّ لما يملكون من نفوذٍ أو سلطةٍ . كما نرجو من الله أن يُسدّد خطانا ، وأن يُلهمنا الرشاد والصبر ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

غرة ذي القعدة من عام ١٤١٠ من الهجرة .

لمحة عن تاريخ العراق قبل إلغاء الخلافة

الدولة الإيلخانية (٦٥٦ ـ ٧٣٧هـ) : سقطت بغداد بيد هولاكو قائد المغول عام ٦٥٦هـ ، وزالت الدولة العباسية ، وأسّس الطاغية هولاكو الدولة الإيلخانية التي حكمت خراسان ، وفارس ، والعراق ، وتوالى عليها من أحفاد الطاغية :

أبا قاخان (٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ) : ابن هولاكو .

تكودار (٦٨٠ ـ ٦٨٣هـ) : الابن الثاني لهولاكو ، وقد اعتنق الإسلام ، وأعطى نفسه اسم (أحمد) ، وقتله ابن أخيه ، وتسلّم السلطة مكانه .

أرغون (٦٨٣ ـ ٦٩٣هـ) : ابن أبا قاخان ، ثار على عمه لإسلامه ، وقتله .

كيغاتو (٦٩٣ ـ ٦٩٣هـ) : الابن الثاني لأبا قاخان .

بيدو (٦٩٣ ـ ٦٩٥هـ) : ابن طرخاي بن هولاكو .

غازان (٦٩٥ ـ ٧٠٣هـ) : ابن أرغون ، اعتنق الإسلام ، وتسمّى (محمود) .

أولجايتو (٧٠٣ ـ ٧١٦هـ) : الابن الثاني لأرغون ، اعتنق الإسلام ،

وتسمّى (محمد) ، ويُعرف بلقب (خدابنده) ، أو كما يسمّونه (خرابنده) ، واعتنق مبدأ الرفق عام ٧٠٩هـ ، وحاول أن يفرضه على الرعية .

بهادور خان (٧١٦ ـ ٧٣٦هـ) : ابن محمد خرابنده ، ويُكنّى أبا سعيد ، وبه اشتهر .

وهكذا توالى على الدولة الإيلخانية تسعة خانات ، ثم تجزأت ، وانقرضت ، ولم يكن لآخر هؤلاء الخانات (بهادور) عقب ، فخلفه (أرباخان) فلم يستقم له الأمر أكثر من ستة أشهر ، إذ قُتل في غرة شوال ٧٣٧هـ ،وصار الأمراء والوزراء يتناوبون الحكم بشكلٍ فوضويٍ تحكمه القوة .

الدولة الجلائرية (٧٣٧ ـ ٧٩٨هـ): نصّب رجال الدولة الإيلخانية عليهم (موسى خان) غير أن الشيخ حسن التركماني والي آسيا الصغرى من قبل (بهادور خان) قد جاء إلى بغداد ، وخلع (موسى خان) وولّى مكانه (محمد بن عنبرجي) أحد أفراد الأسرة الإيلخانية ، وعاد إلى مقرّ ولايته ، لكنه لم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واستقرّ فيها ، وتسلّم السلطة بعد خلافاتٍ وقعت ، وأسّس الأسرة الجلائرية التي تعاقب أفرادها على الحكم .

حسن الجلائري (٧٣٧ ـ ٧٥٧هـ) : من قبيلةٍ تركمانيةٍ .

أُويس بن الشيخ حسن (٧٥٧ ـ ٧٧٦هـ) : وقد اختلف أبناؤه الحسين ،الحسن ، علي ،إسماعيل ، أحمد . ثم اتفق القادة على تولية الحسين.

الحسين بن أُويس (٧٧٦ ـ ٧٨٤هـ) : أخذ يوسّع ملكه ، واتّجه إلى تبريز على رأس جيشٍ ، فأعلن أخوه (علي) الاستقلال في بغداد ، فأرسل الحسين أخاه (أحمد) على رأس قوةٍ ، يؤدّب به أخاهما (علي) ، فاستطاع (أحمد) أن يدخل بغداد ، فكافأه أخوه (الحسين) حيث عيّنه نائباً عنه على بغداد ، لكنه شمخ بأنفه ، وأعلن استقلاله عن أخيه ، وسار إليه بجيشٍ ، وقتله .

أحمد بن أويس (٧٨٤ ـ ٧٩٥هـ) : وفي عهده دخل تيمورلنك بغداد في ٢٠ شوال عام ٧٩٥هـ ، ففرّ منها أحمد خائفاً يترقب ، والتجأ إلى الناصر برقوق حاكم مصر من المماليك ، فأرسل تيمورلنك رسلاً إلى الظاهر برقوق يطلب منه إعادة أحمد بن أويس إليه مباشرةً .

تيمورلنك (٧٩٥ ـ ٨٠٧هـ) : سار تيمورلنك بعد دخوله بغداد إلى آمد (ديار بكر) ، ولكن رجع منها ، ودخل بغداد ثانيةً عام ٨٠٣هـ ، ذلك أن رسله إلى الظاهر برقوق لاسترجاع أحمد بن أويس قد قُتلت ، وجهّز حاكم مصر جيشاً ، وسلّمه لأحمد بن أويس ، فسار به إلى بغداد ، ودخلها ، وتسلّم حكمها ، ولما عاد إليها تيمورلنك يوم عيد الأضحى عام ٨٠٣هـ فرّ منها أحمد إبن أويس ثانيةً ، واتّجه إلى آسيا الصغرى ، ومعه قره يوسف ، وهناك بلغه خروج تيمورلنك إلى آسيا الصغرى ، فاستغلّ أحمد بن أويس ذلك ، واتجه إلى بغداد واسترجع ملكه ، فاضطر تيمورلنك إلى العودة إليها فدخلها في ٨ رجب عام ٨٠٤هـ . ففرّ أحمد إلى حلب فاعتقل هناك ، وأدخل السجن ، فهرب من سجنه ورجع إلى بغداد ، وملكها ، ولكنه اختلف مع صديقه قره يوسف الذي تمكّن فيها ، فخرج أحمد منها في ٥ محرم عام ٨٠٦هـ واتّجه إلى مصر ، واستقرّ قره يوسف في بغداد ، فرجع إليها تيمورلنك ، فخرج منها قره يوسف ، ولحق بأحمد بن أويس في مصر ، فقبض عليهما السلطان المملوكي ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق الذي كان قد تفاهم مع الطاغية تيمورلنك ، وكتب بهما إلى تيمورلنك ليرى رأيه فيهما ، فأمر أن يُقيّد أحمد بن أويس ، وأن يبعث به إليه ، وأن يقتل قره يوسف ويبعث برأسه إليه . غير أن تيمورلنك قد هلك في ١٧ شعبان ٨٠٧هـ قبل أن يصل كتابه إلى السلطان المملوكي ، فعفا عنهما السلطان ، ورجعا إلى العراق. وكان تيمورلنك رافضياً أيضاً ، نشأ على هذا هو وأبوه ، وكانت جرائمه التي ارتكبها في العراق والشام خاصة ضدّ المسلمين عامةً حسب دعواه ثأراً لحادثة كربلاء .

إذا كان المغول قد نشروا الرعب والفزع في نفوس أبناء المناطق التي

دخلوها بل التي اقتربوا منها لما كانوا يرتكبونه من جرائم ، وما يُقيمونه من مجازر فإن اعتناقهم مذهب الرفض كان أشدّ جرماً وخطراً حيث أصبح الذين يحكمون على أساس هذا المذهب ويتعصّبون له يقفون وأعداء الإسلام في خندقٍ واحدٍ ، وهذا ما نُلاحظه في استمرارية حروبهم للمسلمين قبل رُفضهم أولاً ثم بعد أخذهم بمبدأ الرفض ، وهذا ما قام به تيمورلنك الذي نشأ على هذا المذهب، وكذلك ما فعله الصفويون الذين تعصّبوا لمذهبهم حيث وقفوا إلى جانب الصليبيين البرتغاليين المستعمرين ضدّ بني عثمان الذين قاموا يردّون كيد الصليبيين ، ويذودون عن أمصار العالم الإسلامي ، واستمرّ هذا على مدى التاريخ ، فما اختلف عهد رفضهم عن أيام وثنيتهم . أما المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، ولم يأخذوا بمبدأ الرفض كالقبيلة الذهبية (مغول الشمال) فقد خدموا الإسلام ، وعملوا على نشره ، ولم يقفوا إلا بجانب أهله .

عودة الدولة الجلائرية (٨٠٧ ـ ٨١٣هـ) : عاد أحمد بن أُويس إلى بغداد بعد هلاك تيمورلنك عام ٨٠٧هـ ، وبعد أن أفرج عنه وعن صديقه قره يوسف السلطان المملوكي ناصر الدين فرج بن الظاهر برقوق ، وحكم العراق باسم المماليك ، ثم سار إلى تبريز فملكها على أنها عاصمة آبائه ، وتضايق يوسف من سير أحمد إلى تبريز التي يعدّها ملكه ، فأخذ يوسف يعكر صفو الأمن ، ويقطع الطريق ، وشكّل حوله مجموعةً يستخدمها في الإغارة على المدن والأملاك ، ونمت هذه المجموعة ، وقوي أمرها ، فقاتل بها أحمد بن أُويس ، وانتصر عليه ، ثم مسكه فأخذه أسيراً ، فعرضه على السيف وأجبره على كتابة صكٍ بولاية بغداد إلى ولده (شاه محمد) ابن قره يوسف ، وصكٍ آخر بولاية أذربيجان إلى ولده الثاني (بيربوداق) ، وما أن وقّع أحمد بن أُويس الصكّين حتى قتله ، وابنه علاء الدين .

دولة قره قوينلو (الخاروف الأسود) (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ) : بعد قتل أحمد بن أُويس وابنه علاء الدين سار شاه محمد بن قره يوسف إلى بغداد ، وملكها عام ٨١٣هـ ، ويعود لأسرةٍ تركمانيةٍ حكمت أذربيجان ، وبرز منها

والده قره يوسف الذي غادر مقرّ حكمه فاراً من وجه تيمورلنك مع صديقه أحمد بن أُويس ، ودخلا مدينة سيواس ، وخلّصاها من حاكمها الذي يتبع تيمورلنك ، فلما سار تيمورلنك إلى آسيا الصغرى تركاها وعادا إلى بغداد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ .

وصل شاه محمد إلى بغداد في شهر محرم من عام ٨١٤هـ ، وملكها ، ولما توفّي أبو قره يوسف عام ٨٢٣هـ، ضمّ إليه الأجزاء التي كان يحكمها والده ، فاتسعت رقعة ملكه ، وكانت دولته تُعرف بـ (قره قوينلو) أي الخاروف الأسود ، لأن شاه محمد كان ينقش على علمه صورة خاروف أسود .

وفي ٨٣٦هـ ثار على شاه محمد أخوه (إسبان) الذي دخل بغداد على حين خرج منها أخوه (شاه محمد) إلى الموصل حيث قُتل عام ٨٣٧هـ .

وتوفي (إسبان) عام ٨٤٨هـ ، فتولّى أمر بغداد بعده أخوه الثاني (جهان شاه) واصطدم مع حسن الطويل (أوزون حسن) عام ٨٧٢هـ ، وقُتل (جهان شاه) ، وأخذ حسن الطويل جزءاً من أملاكه ، أما بغداد فقد تولّى أمرها حسن علي بن جهان شاه ، فسار إليه حسن الطويل ، وحاصره في مقرّ حكمه في شهر رجب عام ٨٧٢هـ ، واستطاع حسن علي أن يفرّ من بغداد ، وأن يلتجىء إلى جبل (ألوند) ، وقُتل هناك أو انتحر عام ٨٧٣هـ .

دولة آق قوينلو (الخاروف الأبيض) (٨٧٣ ـ ٩١٤هـ) : وهي أسرة تركمانية أيضاً ، استقرت بجهات ديار بكر ، خضع أميرها لتيمورلنك ، فأقطعه إمارة ديار بكر عام ٨٠٦هـ ، وبعد موت تيمورلنك اصطدم أمير هذه الأسرة مع قره يوسف أمير أذربيجان ، ومع أمير سيواس ، وانتصر عليهما . وبرز من هذه الأسرة حسن الطويل (أوزون حسن) الذي استطاع دخول بغداد عام ٨٧٣هـ ، واستلم السلطة فيها .

عُرفت هذه الدولة باسم (آق قوينلو) أي الخاروف الأبيض لأنّ حسن الطويل كان ينقش على علمه صورة خاروف أبيض .

تُوفّي حسن الطويل عام ٨٨٢هـ ، فخلفه ابنه حسين أكبر أنجاله ، ونازعه إخوته والأمراء حتى عام ٩٠٥هـ حيث استقرّ الأمر بعدها لمراد بن يعقوب بن حسن الطويل ، وكان آخر حكام هذه الأسرة ، حيث جاء الصفويون عام ٩١٤هـ ، واستولوا على العراق .

الأسرة الصفوية (٩١٤ - ٩٤١هـ) : تنتسب هذه الأسرة إلى صفي الدين الأردبيلي المتوفّى عام ٧٢٩هـ ،وقد طردت أسرة (الأق قيوينلو) حفيده الجنيد من أردبيل ، فالتجأ إلى أحد أمرائهم في ديار بكر وهو أوزون حسن الذي قرّبه وزوّجه أخته ، وقتل الجنيد في بعض معاركه ، وخلفه ابنه حيدر الذي تزوّج ابنة أوزون حسن ، وأخذ يجمع حوله التركمان ، ثم لم يلبث أن اختلف مع يعقوب بن أوزون حسن ، وقتل حيدر في المعركة عام ٨٩٤هـ ، وقام يعقوب بنقل أولاد حيدر من أردبيل إلى فارس ، ولكنهم رجعوا إلى موطنهم الأول في عهد الأمير رستم أحد أمراء أسرة (الأق قونيلي) والذي حكم من (٨٩٧ - ٩٠٢هـ) .

استطاع إسماعيل الابن الثالث لحيدر أن يجمع حوله الأعوان ، والتف حوله سبع قبائل تركمانية هي : اوستاغلو ، وشاملو ، ونكالو ، وبهارلو ، ذو القدر ، والقاجار ، والأفشار ، وعندما شعر بنفسه القوة أخذ ينازل أمراء (الأق قونيلي) ، فدخل مدينة باكو ، واستولى على إقليم شروان ، وانتصر على الأمير (ألوند) في معركة (شرور) على نهر (أراكس) عام ٩٠٧هـ ، ثم دخل العراق ، وتغلّب على الأمير مراد بن يعقوب ، ودخل بغداد في ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩١٤هـ ، ولما استسلم إليه مراد أعدمه ، وقضى على أسرته .

أخذ إسماعيل بمذهب الرفض ، وعمل على نشره ، وقد نجح نسبياً في جنوبي العراق لاستقرار سكان السواد ، ورغبتهم بالبقاء في مناطقهم ، ومُلانية السلطة كطبيعةٍ في سكان السهول على حين فشل في المناطق الجبلية ، وبين

القبائل ، هذا إضافةً إلى وجود بعض الأماكن التي اتخذها الرافضة في الجنوب مزاراتٍ لهم ، وأثاروا العاطفة والحماسة الدينية لدى العامة البسطاء .

توسّع إسماعيل غير أنه هُزم أمام السلطان العثماني سليم الأول عام ٩٢٠هـ في معركة (جالديران) ، ودخل العثمانيون عاصمته تبريز ، وأعلن ذو الفقار الكردي حاكم بغداد خضوعه للسلطان العثماني ، وانفصاله عن الدولة الصفوية ، وأرسل البعثات إلى استانبول ، وخطب للسلطان العثماني على المنابر ، وضرب السكة باسمه .

توفي الشاه إسماعيل عام ٩٣٠هـ ، وخلفه ابنه (طهماسب) الصغير الذي لا يتجاوز العاشرة من العمر ، فتولّى الوصاية عليه زعماء (القزلباش) رؤساء السادة الرافضة ، وما بلغ السادسة عشرة حتى أخذ ينفرد بالسلطة ، ويستعدّ لاستعادة العراق ، فجهّز جيشاً عام ٩٣٦هـ ، واتجه نحو بغداد ، وسبقه إليها إخوة حاكمها ذي الفقار الكردي محمد ، وأحمد اللذين تآمرا على أخيهما طلباً للمنصب في ظلّ الحكم الصفوي ، فقتلاه ، ووصل (طهماسب) فاجتاح أرض العراق سريعاً ، وكافأ المتآمرين ، ووزّع حكم بغداد وبقية المدن على شخصياتٍ رافضيةٍ ، وعاد إلى مقرّ حكمه في أصفهان عام ٩٣٧م .

الدولة العثمانية (٩٤١ - ١٣٣٥هـ) : أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني جيشاً بقيادة إبراهيم باشا ، ففرّ من بغداد حاكمها من قبل الصفويين (محمد التكدلي) ، واتجه إلى البصرة حيث انضمّ إلى الجيش الصفوي هناك والذي أخذ ينسحب من جنوبي العراق ، وأعلن حاكم البصرة راشد بن مغامس خضوعه للعثمانيين . وتمّ الاتفاق بين المتنازعين على وقف القتال لينصرف كل فريقٍ إلى مشكلاته الثانية التي تنتظره أو إلى الجبهة الأخرى التي يُقاتل فيها أعداء آخرين .

أرسلت الدولة **العثمانية** حملةً بقيادة إياس باشا عام ٩٥٣هـ باتجاه البصرة ، بعد أن شكّت بنوايا راشد بن مغامس ، واستطاعت هذه الحملة

الانتصار عليه ، وأصبحت البصرة قاعدةً عثمانيةً ، وجرى الصلح بين العثمانيين في مدينة (أماسيا) عام ٩٦١هـ ، وساد الهدوء على الجبهة بين الدولتين .

وعندما فر (بايزيد) بن السلطان العثماني سليمان القانوني إلى الشاه (طهماسب) عام ٩٦٧هـ ، أعاده إليه بعد مفاوضاتٍ جرت بين الطرفين ، فدقّت عُنق بايزيد ، وأخذ طهماسب كميةً من الذهب مقابل ذلك .

ومات شاه الصفويين (طهماسب) عام ٩٨٤هـ ، وتولّى ابنه إسماعيل السلطة من بعده ، وقد عُرف باسم (إسماعيل الثاني) ، وحدثت فتنة بين أولاد (طهماسب) الأربعة إسماعيل مرزا ، وحيدر مرزا ، ومحمد مرزا ، وعباس ، وقتل إسماعيل الثاني ٩٨٦هـ ، واستفاد العثمانيون من هذا الضعف الذي أصاب الصفويين ، فأخذوا بلاد داغستان ، وتفليس ، وتبريز. وخلف إسماعيل الثاني أخوه باسم (محمد خدابنده) حتى عام ٩٩٥هـ ، ثم قام أخوه عباس باسم (عباس الكبير) ، وتنازل للعثمانيين عن تبريز ، وشروان ، وجورجيا ، ولورستان ، وأن يبقى (حيدر مرزا) رهينةً في استانبول ، حتى لا ينقض الشاه عهوده . ثم استردّ عباس الثاني تبريز في ٦ جمادى الأولى ١٠١٢هـ ، واتبعها باسترداد (اريفان) قاعدة أرمينيا ، وشروان ، وقارص .

ضعفت الدولة العثمانية ، وضعف معها حكمها في العراق فنشأت زعامات حاولت التفرّد بالسلطة في إقليمٍ أو مدينةٍ في إطار التبعية الإسمية للدولة العثمانية . فقد اشترى (آفراسياب) أحد كتاب الجند عام ١٠٠٥هـ حكم البصرة من واليها العثماني ، وأسّس فيها أسرة حكمتها حتى عام ١٠٧٤هـ ، كما انفرد أحد رؤساء الكتائب بحكم بغداد سنةً كاملةً عام ١٠١٣هـ ، وكذلك فقد تفرّد بالسلطة في بغداد بعد ذلك (بكرصوباشي) أحد ضباط الانكشارية عام ١٠٣١هـ ، فأرسلت إليه الدولة العثمانية جيشاً كبيراً لإخضاعه ، فلما رأى (بكرصوباشي) أنه لا قبل له بالجيش المتجه

نحوه ، وأن مصيره الهلاك ، بعث إلى الشاه عباس معلناً الخضوع له ، فوجد الشاه الفرصة مناسبةً له لضمّ العراق إليه فأرسل جيشاً كبيراً وأمره بالتوجّه إلى بغداد .

أدرك (بكرصوباشي) أن الخطر سيأتيه من الصفويين كما يأتيه من العثمانيين إن لم يكن بصورةٍ أكبر وأبشع ، ولا يمكن أن يتركوه حاكماً على بغداد ، لذا يجب أن يتفاهم مع العثمانيين ، واقتنع بذلك ، فراسل القائد العثماني القادم لتأديبه ، فأبدى القائد موافقته على بقاء (بكرصوباشي) حاكماً لبغداد مقابل أن يعترف بالخضوع التام والتبعية للسلطان العثماني ، واتفق الطرفان على الشروط ، ولم يحدث قتال . ولكن الشاه لم يعترف على هذا كله ، وإنما عدّ بغداد تابعةً له منذ أن أعلن (بكرصوباشي) هذا سابقاً ، وسواء عدل حاكم بغداد عن رأيه أم لم يعدل ، ووافق العثمانيون أم لم يوافقوا فبغداد تابعة للصفويين ، وشنّ الشاه عدة حملاتٍ على بغداد ردّت كلها ، وفشلت في مهمتها فدبّر مؤامرةً قضت على (بكرصوباشي) ، وفتحت المدينة أبوابها للصفويين ، وذلك بعد أن أغرى بعض القادة واستمالهم إليه .

بعد أن دخل الشاه عباس الكبير بغداد اتجهت أنظاره إلى البصرة التي كان يحكمها (أفراسياب) فأرسل إليه هدايا ذات قيمةٍ ، ومنحه ألقاباً عظيمةً ، ووعده بإبقائه حاكماً على البصرة ، وأن يبقى حكمها وراثياً في أولاده وأحفاده من بعده ، وأن يعفيه من الضرائب ، وأن يتصرّف بأمور المدينة كما يشاء ، وهذا مقابل الإعتراف بالتبعية الإسمية للصفويين ، وأن يصك العملة باسمه ، وأن يعقد أهل البصرة عمائمهم على طريقة الرافضة . غير أن (أفراسياب) قد طرد مبعوث الشاه قبل أن يلقاه ، ورفض مقابلته ، وصده صدوداً عظيماً . إذ كان (أفراسياب) يعرف أن مصيره العزل ، ونهايته القتل فإن عند الشاه تعقّب بغيض لمبدأ الرفض ، لذا فقد أخذ حاكم البصرة الاحتياط بعد ردّه ، فاتصل بالبرتغاليين أعداء الشاه ، فلبّوا النداء ، وأرسلوا

أسطولهم لدعم حاكم البصرة من خصومه الصفويين[1] . ولم يحدث قتال بين الطرفين ، إذا انسحب الصفويون وغادروا مواقعهم راجعين إلى بغداد ، حتى تخلّوا عن الكثير من أمتعتهم .

وتوفي الشاه عباس الكبير عام ١٠٣٨هـ ، وخلفه حفيده صفي الأول ، وأخذت دولة الصفويين تسير نحو الضعف ، فشنّ الخليفة العثماني حرباً على الصفويين عام ١٠٤٧هـ ، واستعاد بغداد عام ١٠٤٨هـ ، ثم جرى الصلح بين الطرفين عام ١٤٠٩هـ ، وحُدّدت الحدود بين الدولتين تبعاً للاتفاقية التي وُقّعت ، والتي كانت أساساً لحدود العراق مع إيران فيما بعد .

واستمرّ الوضع في العراق على هذه الحالة حتى عام ١١٤٤هـ حيث رجع العثمانيون إلى قتال الصفويين ، وتغلّبوا على الشاه طهماسب الثاني (١١٣٥ - ١١٤٤هـ) والذي طلب الصلح ، وتخلّى للعثمانيين عن همدان ، وتبريز ، وإقليم لورستان ، غير أن نادرخان ، والي الشاه على خراسان لم يقبل بهذه المعاهدة ، وحذّر الخليفة العثماني ، وطلب منه ردّ ما أخذه من الولايات ، وسار إلى أصفهان ، وقبض على الشاه طهماسب الثاني ، ووضع ابنه الطفل عباس الثالث شاهاً عام ١١٤٥هـ ، ونصّب نفسه وصياً عليه ، واتّجه لحصار الموصل وبغداد ، فلم يُفلح في دخولها ، وهُزم ، فانسحب ، ثم كرّر الهجوم ، فانتصر ، وقتل القائد العثماني عثمان باشا .

وأراد التفاهم مع شركه الهند الشرقية البريطانية لدعمه في احتلال البصرة ، ولكنه فشل ، وأراد متابعة القتال ضدّ العثمانيين ، ولكن تمرّداً قام ضدّه في فارس ، فاضطر إلى الانسحاب بعد أن اتفق مع والي بغداد العثماني

---

(١) كان الصفويون في بداية الأمر على صلة بالبرتغاليين الذين وصلوا إلى المنطقة كطلائع للصليبيين المستعمرين ، وما دام هؤلاء الصليبيون ضد المسلمين فالصفويون في خندقٍ واحد معهم ، فلما وصل الإنكليز إلى المنطقة يقومون بالدور نفسه الذي يقوم به البرتغاليون إلاّ أنهم يُنافسونهم للاستعمار والسيطرة على مراكز النفوذ ، عندها ترك الصفويون البرتغاليين ، وأعلنوا لهم العداوة ، واتجهوا إلى الإنكليز ما داموا هم الأقوى .

على أن تعود الولايات التي أخذها العثمانيون عام ١١٤٤هـ إلى الصفويين ، أي أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التوسع العثماني عام ١١٤٤هـ ، ولكن الخليفة رفض الاتفاقية التي تمّت بين الصفويين ووالي بغداد العثماني أحمد باشا . فأنهى نادر خان وضعه في فارس ، ورجع إلى الجبهة مع العثمانيين ، فقاتلهم وانتصر علي الجيش الذي يقوده عبد الله كوبريللي ، ودخل تفليس حاضرة بلاد الكرج ، واريفان حاضرة بلاد الأرمن . وعندها وافق الخليفة العثماني على الاتفاقية التي تمّت بين نادر خان وبين الوالي العثماني أحمد باشا . وانتصر نادر خان على الروس ، وهدّدهم بالاتفاق مع العثمانيين ، وشنّ حرباً على الدولة العثمانية ، وحاصر الموصل ، وقارص ، وانتصر على العثمانيين ، وعقد معهم معاهدةً في عام ١١٥٩هـ . وبعد نادر خان الذي قتل عام ١١٦٠هـ استطاع كريم خان أن يدخل البصرة عام ١١٨٩هـ بمساعدة الأسطول الإنكليزي ، وأن يخضع (مير مهنا) ، وقد تولّى أمر البصرة أخو كريم خان ، صادق خان ، ولكن الفرس لم يلبثوا أن انسحبوا منها بعد وفاة كريم خان .

وشنّ الفرس حرباً على العثمانيين ، وكانت العراق هدفهم وذلك عام ١٢٣٥هـ ، وأحرز الفرس بعض النجاح ، ولم تستطع الدولة العثمانية دعم واليها على بغداد داود باشا ، فاستنجدت بوالي مصر محمد علي باشا الذي تخلّص من هذه المهمة بحيلةٍ ، وانتشر مرض الكوليرا بين أفراد الجيش الفارسي ، واضطر قائده محمد علي مرزا أن يعقد معاهدةً مع العثمانيين عام ١٢٣٨هـ في مدينة أرضروم .

كان أمر انكلترا قد قوي في الشرق ، فسيطرت على منطقة الخليج العربي ، وأرادت أن تبسط نفوذها على منطقة البصرة والأهواز إذ لا تريد أن تكون هذه المنطقة بيد دولةٍ مسلمةٍ وخاصةً إن كانت على خلافٍ معها كالدولة العثمانية لأن ذلك يهدّد مصالحها حسب رأيها ، ويعيق تنفيذ مخططاتها الصليبية .

ساد الهدوء النسبي الجبهة العثمانية ـ الفارسية بعد معاهدة (أرخروم) عام ١٢٣٨هـ وذلك لضعف الدولتين العثمانية في الغرب والصفوية ومن جاء بعدها في الشرق إضافةً إلى أن الدولة العثمانية كانت قد اضطرت أن تولي ظهرها للجبهة الشرقية بعد أن فُتحت الجبهة الغربية على نطاقٍ واسعٍ حيث شنّت الدول الأوربية عليها حرباً صليبيةً مسعورةً ، فهي لم تُقاتلها كدولةٍ دخلت أوربا من جهة الجنوب الشرقي ، وفتحت بعض الأجزاء ، ولفّتها ضمن أراضيها ، ولم تُقاتلها كدولةٍ مسلمةٍ قويةٍ ، ودول أوربا دول نصرانية ، والحقد الصليبي يملأ نفوس الأوربيين ، ويشحنها باستمرارٍ رجال الكنيسة ، ليس ذلك فحسب ، وإنما تعلن الصليبية حربها ، ويستحث المستعمرون رجال الكنيسة دائماً على إثارة الحقد الدفين وشحن النفوس به لقتال الدولة العثمانية على أنها مركز الخلافة حيث تجمع المسلمين أو تعمل على ذلك ، وتتجه أنظار المسلمين نحوها ، وإن تهديمها سيفرط عقد المسلمين ، ويُشتّت شملهم ، وعندها يمكن السيطرة على أمصارهم ، والتحكّم في شؤونها ، وتنفيذ المخططات الاستعمارية الصليبية .

كان من مصلحة الدول النصرانية أن نقف إلى جانب كل من يُعادي العثمانيين ودعمه ، لإضعافهم ، والإسراع في كسر شوكتهم لتهديم الخلافة ، وكانت الدولة الصفوية هي التي تُمثّل العداء في شرق دولة الخلافة لذا يجب دعمها ومدّ يد عون لها ، إضافةً إلى أنها تحمل اسم الإسلام فمساعدتها ومحالفتها ليس كدولةٍ معاديةٍ للعثمانيين فحسب وإنما في ذلك تفرقة للأمة المسلمة وتشتيت لشملها أيضاً ، لهذا كله وقفت الدول النصرانية بجانب الفرس ، وإن كان القتال يقع بين بعضهم وبين الفرس كجوار ، كالروس الذين يريدون التوسّع باستمرار ، وضمّ أجزاء إليهم ، وسيكون هذا على حساب الصفويين ومن جاء بعدهم إضافةً إلى أنه كانت من أهداف الحروب الروسية ضدّ الشيعة إبعادهم عن التفاهم مع العثمانيين ، وقد رأينا كيف أن الصفويين أو من حكم فارس بعدهم عندما يُفكّرون في أمر النزاع بروحٍ دينية

كانـوا يُهدّدون الروس بالتفاهم مـع العثمانيـين فيضطر الـروس إلى الخنوع مُباشرةً ، وتحقيق كل ما يُريده حكام الشيعة خوفاً من التحام المسلمين بعضهم مـع بعضٍ . ونتيجة لهذا فقد انتصر الفـرس بدعم الإنكليـز على عشـائر بختيار ، واستولوا على عربستان ، وفرّ تامر شيخ قبائل كلب من المنـطقة ، وتابع الفرس زحفهم نحو الغرب ، حتى فرّت قبيلة بني لام من سفوح جبال لورستان الغربية .

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الصفويون ومن قام بعدهم يحمل مبدأ الرفض كانوا بحاجةٍ إلى دعمٍ ضدّ العثمانيين وخاصةً إن كان من ناحية الغرب لإيقاعهم بين نارين ، ولم يكن خلافهم مع دولة الخلافة صراعاً سياسياً فحسب كما يحدث بين الدول أو الأمصار المتجاورة ، وإنما كان يحمل أيضاً الصراع العقيدي ، وهذا ما جعله عنيفاً ، وقد سبق أن قلنا أنه منذ أن فُرض مبدأ الرفض في أيام الدولة الإيلخانية أصبح أتباعه يقفون دائماً في الخندق المواجه للإسلام والذي يحتلّه أعداء المسلمين ، ولطالما أثاروا العامّة بشعارات (يالثارات الحسين) ، وإذا كان الإسـم يحمل الإسلام إلّا أنه مجرد بعض المناسك والشعـائر أمـا العقيدة فأمر آخر ، ولهذا وجدت الدول التي حملت مبدأ الرفض في الأوربيين خير نصير لهم رغم عداوتهم لها ما دامت تحمل اسم الإسلام مهما كانت سمة هذا الاسم وحقيقته . إن الدول الأوربية النصرانية تقع إلى الغرب من الدولة العثمانية ، وهذا ما يُناسب الرافضة ، ثم وصل الأوربيون إلى الشرق ، عن طريق رأس الرجاء الصالح بالالتفـاف حول إفـريقية ، وتمـركزوا في شرقي إفريقية وفي جنوبي الجزيرة العربية ، في عدن ، ثم دخلوا مياه الخليج العربي فصاروا على مقربةٍ من ساحة الأحداث ، وعلى مقربةٍ من الدولة الشيعية لذا وجدت هذه الدولة أن التعاون والدعم قد جاءا إليها ، ولم يبق إلّا مدّ اليد .

لقد تعاون الصفويون في بداية الأمر مع البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين الصليبيين أو لم يكن غيرهم من الأوربيين في الساحة ، وهم في

صراع مريرٍ وعداوةٍ بيّنةٍ للعثمانيين ، فلما وُجد غيرهم ، وأقوى منهم ، وهم الإنكليز تركوا أصدقاء الأمس ، بل وأعلنوا عداوتهم لهم ، وحربهم لهم ، ووضعوا أيديهم بأيدي الإنكليز ما دامت المصلحة تتحقّق بصورةٍ أفضل ، فالإنكليز أكبر قوةً وأكثر عدداً من البرتغاليين ، واستمرّ التعاون .

ومع ضعف الدولة العثمانية أخذ ولاتها في العراق يستقلّون عن استانبول ، وكان سليمان باشا الكبير أول من استقل في ولاية بغداد ١١٦٣هـ ، واستمرّ استقلال الولاة إلى أيام داود بك الذي سيّرت إليه الدولة العثمانية (علي باشا اللاز) مع جيشٍ كبيرٍ دخل بغداد ، وقبض على داود بك ، وأرسله إلى استانبول عام ١٢٤٧هـ ، وجمع المماليك في القلعة وقتلهم جميعاً . وحكم علي باشا بغداد باسم الدولة العثمانية حتى عام ١٢٥٨هـ ، وتتابع الولاة من استانبول على بغداد ، وكان منهم مدحت باشا الذي جاء إلى بغداد عام ١٢٨٥هـ وبقي فيها ثلاث سنواتٍ .

أطماع انكلترا بجنوبي العراق

كانت انكلترا تطمع ليس بجنوبي العراق فحسب بل في أي نقطةٍ من نقاط العالم ، ولم يكن طمعها بجنوبي العراق من أجل تأمين طرق الهند كما يدّعي بعضهم ، ويُعدّد هذه الطرق ، وإنما رغبةً في تنفيذ سياستها الاستعمارية الصليبية ، وما انطلاقها إلى الهند وسيطرتها عليها إلا من باب تحقيق هذه السياسة التي ترتكز على حبّ السيطرة ، واستغلال الشعوب ، واستثمار الأرض ، وإذلال المسلمين والتحكّم بهم تشفّياً وحقداً ، وهذه السياسة باختصار يُطلق عليها استعمارية صليبية مشت عليها الدول الأوربية النصرانية .

عقدت انكلترا عام ١٠٣٢هـ اتفاقاً مع الشاه عباس الصفوي تعهّدت فيه بحماية التجارة في الخليج العربي ، ثم أسّست مركزاً تجارياً في البصرة عام ١٠٥٣هـ ، وجعلت وكيل هذا المركز قنصلاً لها عام ١١٧٧هـ ، وبذا أصبحت له صفة سياسية، كما تمّ تعيين ممثلٍ آخر لها في بغداد، وغدا هذان

الممثّلان يحرضان الولاة على الاستقلال ، ويُقدّمان لهم السلاح في سبيل هذه الغاية . فإذا ما استقل هؤلاء الولاة كانوا ضعافاً ويضطرون إلى طلب المساعدة ، فتسرع انكلترا ، وتمدّهم ، وتستطيع عندها أن تتصرّف بالبلاد كما تشاء، بل يُمكنها أن تعزل من تُريد ، وتعيّن من ترغب ، وربما تضرب الواحد منهم بالآخر كي تبقى سيدة الموقف ، وتُنفّذ سياستها ومخططاتها كما يحلو لها . وفي الوقت نفسه يكون استقلال هؤلاء سبباً في ضعف دولة الخلافة التي تسعى لإزالتها ، وتشنّ الحرب عليها باستمرارٍ لتحقيق هذه الغاية ، وربما عمدت انكلترا إلى تحريض هؤلاء الولاة للثورة ضدّ دولة الخلافة في سبيل إضعافها أيضاً ، وإضعافهم ، ويمكنها القيام بهذا التحريض ما دامت تُقدّم للولاة بعض ما يرغبون به ، كما يمكنها ابتلاعهم .

لقد غدت المراكز التجارية الإنكليزية في جنوبي العراق ، والقنصليات ذات سلطانٍ وقوةٍ حتى أصبح لهم حرس خاص من أبناء البلاد ومن الهنود .

ولم يكن الاهتمام بالتجارة و بالاستعمار والسياسية هدف المخططات الإنكليزية فحسب بل كان ما هو أكبر من ذلك ، لقد اشتغلت البعثات الإنكليزية التي أُرسلت إلى العراق بالتنقيب في (بابل) و (أور) لاكتشاف الآثار ، والحديث عن حضاراتٍ قديمةٍ ، وربط السكان بهذه الحضارات والتفاخر بها ، فتتعمّق جذور الانفصال في العالم الإسلامي بربط سكان كل إقليمٍ بحضارته السابقة ، فتترسّخ الإقليمية ، وتنشأ الوطنية ، والقومية ، وتزول الروابط الإسلامية ، وتتمزّق دولة الخلافة بل الأمة الإسلامية .

وجاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى مركز الخلافة في استانبول ، واتّبع سياسة (الجامعة الإسلامية) ، ورأى أن دور انكلترا قد أصبح خطيراً في كثيرٍ من المواقع ، ومنها جنوبي العراق ، ودولة الخلافة عاجزة إذ تكالبت دول الأرض عليها ، وعضّت عليها أوربا بأنيابها ، فأراد الاستفادة من المنافسات الاستعمارية القائمة بين الدول الصليبية ، غير أن كبريات هذه الدول قد تفاهم بعضها مع بعض حيث اتفقت انكلترا وفرنسا ، وحلّت مشكلاتها فيما بينها ،

وأثمر التفاهم عن اتفاقيةٍ بينهما عام ١٣٢٢هـ . وكذلك تفاهمت انكلترا وروسيا ، وعقدتا بينهما اتفاقيةً في ٢٣ رجب ١٣٢٥هـ (٣١ آب ١٩٠٧م) سوّيتا فيها خلافاتهما الاستعمارية في إيران ، وبلاد الأفغان والتبت .

وإذا كانت أوربا قد رمت الدولة العثمانية عن قوسٍ واحدةٍ من الناحية الصليبية إلا أن هناك بعض المنافسات التي تُشكّل بعض الخلل في اتفاق أوربا ، وخاصةً ألمانيا التي نهضت حديثاً والدول الأوروبية كانت قد تقاسمت المناطق الاستعمارية فيما بينها ، وسارت ألمانيا في أول أمرها في سياسة عدم المنافسة الاستعمارية ، والاهتمام بالقضايا الأوربية فقط غير أن هذا لم يدم طويلاً ، إذ عدلت عن سياستها الأولى ، ووقفت تُطالب بمكانها اللائق بها تحت الشمس حسب اصطلاح قادتها ،فأراد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أن يستفيد من هذا فتقرّب من برلين ومنحها حقّ مدّ سكة حديد البصرة ، والتي تبدأ من قونية في آسيا الصغرى ، وكان توجّه ألمانيا نحو الشرق واسعاً إذ قوى أسطولها ، وزادت بضائعها التجارية التي أصبحت تُنافس البضائع الإنكليزية ، وهذا ما أغاظ انكلترا فحقدت على السلطان ، فنشرت الشائعات ضدّه ، وحملت على ألمانيا فأخذت تقف في وجهها .

آثار النفوذ الإنكليزي في جنوبي العراق :

استطاعت انكلترا عن طريق مراكزها التجارية ، وقنصلياتها أن تتصل ببعض الرجال ، وتُثير فهم حبّ الزعامة ، ونخوة العصبية الجاهلية ، فنشأت دعوة الانفصال عن دولة الخلافة ، وأغرت هؤلاء الرجال بشهوة المنصب فأبرزتهم ، وبشهوة الغريزة فأفسدتهم ، فانطلقوا يدعون إلى العصبية الجاهلية لتتجزّأ الأمة المسلمة ، وهذا ما تسعى إليه ليس انكلترا فحسب وإنما الصليبية عامةً ، ويعملون على تقليد أوربا لتُصاب الأمة بالهزيمة النفسية ، ويحلّ فيها الفساد ، فلا يرى المنادون إلا رغباتهم ، وينظرون بأعينهم فقط وقد عميت قلوبهم ، وأمّدت هؤلاء بالدعم المادي ليزدادوا عمىً على عمىً ، وهذا ما يعمل

له أعداء الإسلام .

إن ضعف الدولة العثمانية ، وتأخّرها في الناحية العلمية ، وتراجعها في الحروب ، وقيام الحركات الداخلية التي تُثيرها الدول الأوربية ، والفوضى والظلم الذي يسود الولايات نتيجة طمع الولاة وجشعهم ، وعدم إمكانية الأخذ على يدهم ، وإن قوة الدول الأوربية ، وتقدّمها العلمي ، وتطوّرها الصناعي ، وانتصارها في المعارك ، وانتشار الدعايات المعادية ضدّ الدولة العثمانية ، وإن الجهل ، وعدم النظر في الأمور من كل الجوانب ، كل هذا قد جعل غشاوةً على عيون أكثر الناس ، فانطلقوا يعملون على تهديم دولة الخلافة ، وتقطيع أوصالها ، وهذا لن يفيد إلا أعداء الإسلام الذين لا يعملون إلا له ، ولكن عمى القلوب التي في الصدور قد جعل التيار يسير في هذا الاتجاه ، ولم يكن هناك من يستطيع الوقوف في وجهه لطغيانه مع سيادة الجهل وعدم المعرفة ، وكان يجب العمل للإصلاح فهو خير من الهدم .

الأحزاب السرية :

التقت جماعات بعضها مع بعضٍ تتحدّث عن العصبية الجاهلية وخاصةً بعد أن سيطرت جمعية الاتحاد والترقي على مُقدّرات الدولة العثمانية عام ١٣٢٦هـ ، وكانت على صلة باليهود ، كما تضمّ أعداداً من رجالات يهود الدونمة ، ولا شكّ أن اليهود يُريدون تهديم الخلافة ، وتجزئتها ، وتقطيع أوصالها ، وخاصةً عندما رفض السلطان عبد الحميد التنازل لهم عن أي شيءٍ في فلسطين حتى ولو على شبرٍ رغم الإغراءات الكثيرة التي قدّموها له ولدولته في الوقت الذي كانت فيه الدولة بأشد الحاجة إلى الدعم . وليس أفضل من الدعوة إلى العصبيات الجاهلية ، فهذا ينادي ، بالعروبة ، وذاك بالطورانية (التركية)، وثالث بالفارسية، ورابع بالبربرية، وهكذا تصبح الأمة الإسلامية أمماً، وتتصارع بعضها مع بعض فليس كالعصبية القومية مجزئاً للأمة، وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد تأسّست في باريس عام ١٣١٦هـ، وأخذت تدعو إلى القومية الطورانية تحت تأثير الجهل واليهود معاً ، وكان ردّ الفعل

بالدعوة إلى القوميات الأخرى ، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون ، يجعلون من عصبيتهم صنماً يعبدونه من دون الله، ويخرقون له مفاخر وأمجاداً يظلّون عاكفين عليها ومُردّدين لها ، ويُجردّون بقية العصبيات من كل فخرٍ ، بل ينسبون لها كل خزيٍ ، وهكذا يقع الصدام . ولم يكن ردّ الفعل إلا عن جهلٍ أو تحت تأثيرٍ خارجيٍ من أعداء الإسلام حتى لنلاحظ أن أكثر الجمعيات التي تأسّست إنما نشأت في خارج ديار الإسلام ، ومعظمها قام في أوروبا وخاصةً في باريس ، الأمر الذي يضع اليد على المصدر .

وكان لمدحت باشا دور بارز في العراق ، إذ تولّى أمرها (١٢٨٥ - ١٢٨٨هـ) ، فبذر أفكاراً غريبةً تحت عنوان المطالبة بالدستور ، ومقاومة الاستبداد ، وذلك في ظل نشر الشائعات ضدّ الخلفاء ، وساعده على هذا ما كان يقع من ظلم ، وما كان ينتشر من فوضى ، ومن هزيمةٍ نفسيةٍ وُجدت من تراجع الدولة باستمرار ، وتقدّم أعدائها ، وتفشي الجهل بين أفراد الأمة المسلمة وتطوّر العلم عند الخصوم . وكان مدحت باشا على صلةٍ بالإنكليز واليهود إذ كانت علاقته المستمرة مع دزرائيلي رئيس وزراء انكلترا اليهودي ، وكان مدحت باشا كثيراً ما يُلمّح إلى ضرورة وصاية انكلترا على الدولة العثمانية ، ويدّعي بأنه لو حدث هذا فلن تستطيع دولة على اقتطاع أي جزءٍ من الخلافة العثمانية .

ونمت البذور التي ألقاها مدحت باشا ، وكان ورقها الشائعات التي بثّها النصارى واليهود ، ومن ورائهم دول أوربا عامةً ، وتشكّلت جمعيات وأحزاب كان قوامها النصارى وخاصةً في الشام ، والمُغفّلون ، وطلاب الزعامة والمناصب ، وكلها تتحرّك من خارج البلاد ، وبعض رجالها لا يدرون ، وهناك عصابة في باريس تمسك بخيوط الحركة ، وتُنظّم المؤتمرات ، وتُوزّع الأدوار ، ويتحرّك على الساحة المُغفّلون ، ومن أعماهم التطلّع إلى المركز والصدارة ، وبعض الذين يُنفّذون المخططات ، وهم على علم فيها وفيما يصنعون ، وهم النصارى .

حملت هذه الجمعيات تارةً صفة الأدب لتتستر بها ، وأحياناً الدعوة إلى المؤاخاة بين العرب والترك ، وثالثة إلى إحياء اللغة العربية . وكان أبرز هذه الجمعيات في المناطق العربية كلها جمعية العلوم والفنون وقد ظهرت في بيروت ١٢٦٤هـ ، وأسّسها بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي من نصارى الشام . والجمعية الشرقية التي أسّسها النصارى اليسوعيون عام ١٢٦٧هـ ، والجمعية العلمية السورية التي ضمّت بعض المسلمين السذج ، وبعض النصارى الذين ادّعو الإسلام ليُغرّروا بالمسلمين ، وكان من هؤلاء النصارى الذين أظهروا الإسلام أحمد فارس الشدياق ، كما ضمّت نصارى الجمعيتين السابقتين اللتين تدّعيان المنافسة فيما بينهما ، والجمعية السرية التي تأسّست في بيروت عام ١٢٩٨هـ ، ورابطة الوطن العربي التي أسّسها في باريس عام ١٣٢٢هـ النصراني نجيب عزوري ، وجمعية الإخاء العربي ـ العثماني ، والمنتدى الأدبي ، والجمعية القحطانية ، والجمعية العربية الفتاة ، وحزب اللامركزية، وجمعية العهد التي كانت تضمّ الضباط فقط . وجمعية العلم الأخضر وجميع الذين أسّسوها من العراق ، وحزب الحرية والائتلاف في البصرة ، ونادي الحرية والائتلاف في بغداد ، والجمعية الاصلاحية في البصرة . والاتحاد العثماني الذي أسسه اليهود ، والنادي البغدادي الذي أنشأه الشباب اليهودي ، والمحفل الكاثوليكي ، واتحاد الشبيبة الذي أسسه النصارى الأرثوذكس .

وكان رجال هذه المجموعات يضربون على وتر الاستبداد الذي لا بدّ من اتخاذه عند انتشار الفوضى ، وحالة الحرب التي لم تكن لتنقطع في أواخر عهد الدولة العثمانية إذ ما تكاد تنتهي من حربٍ مع دولةٍ أوربيةٍ حتى تشعلها دول أوربية أخرى بغية استنزاف قوة وطاقة بني عثمان ، ومن المعلوم أن الأحكام العرفية تُعلن في هذه الأيام في حالة نشوب حربٍ ، فكيف تكون الحالة عندما تتكالب دول كثيرة على دولةٍ ، وكلها تُكشّر عن أنيابها تريد التمزيق . وإضافةً إلى هذه الحروب فإن هناك حركات أخرى داخلية تقوم بها الأقليات تُثيرها وتحرّكها دول من الخارج، ألا يحق للحاكم في مثل هذه الظروف أن يُعلن

الأحكام العرفية ، وأن يُراقب كل تحرّك ، ويضغط على المشبوهين ، ومع هذا كله نرى هؤلاء المشبوهين كانوا يُهاجمون السلطة ، ويتحدّثون عن الاستبداد بكل حريةٍ مع أن أصابع الإتهام كثيراً ما تُشير إليهم ؟ وأرى أن الحرية كانت معطاةً أكثر من اللازم ، ولولا الشائعات التي تبثّها القوى النصرانية واليهودية لاتُّهم الحكم بإعطائه الحرية في وقتٍ لا تصحّ فيه الحريـة أي لانقلب الأمر تماماً .

هذه المجموعات أو هؤلاء الرجال كانوا موزّعـين ، ولم تكن صعوبـة المواصلات لتقرّب بينهم ، ولا الأهداف البسيطة لتجمع بينهم ، وإنما زادهم حبّ الزعامة فرقةً ، وهذا أمر طبيعي ، ففي كل وقتٍ تنتشر فيه الفوضى يزداد فيه التفكير بالظهـور ، ويزدحم عـلى القمة من لم يكن ليفكـر فيها أبـداً في الأحـوال العاديـة . وبصورةٍ عـامةٍ هم بحـاجةٍ إلى من يُـوحّد صفـوفهم ، ويقودهم ، ولن يستطيع ذلك إلاّ من كان ذا مكانةٍ مرموقةٍ أو منصب يسمو على تفكيرهم ، وسيكونون عامل إضعافٍ للدولة العثمانية إذا عصب الأمر أو عامل تمزيقٍ فعلاً ، وهذا ما حدث بعد أن اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، واشـتركت فيها الـدولة العثـمانية ، إذ انضمّـوا جميعاً إلى ثـورة شريـف مكة حسين بن علي التي كان لها دور كبير في تقدّم الإنكليز ، وتراجع العثمانيين . وكان الشريف يظن أنه سيُحقّق لشعبه العربي انتصارات بعد أن ضاق ذرعاً بالإصلاح أيام العثمانيين حتى كانت بينه وبينهم ضغائن دفينة . ولكن الإنكليز كانوا على مكرٍ شديدٍ ، فأخذوا ما يريدون ، وحالوا دون حصول العرب على أي شيءٍ سوى النكبات تتوالى عليهم ، ولم يدرك الشريف حسين هذا المكر إلاّ بعد أن انطلت عليه الحيلة ، ورأى الخداع والمكر ، وربما لم يكن يظنّ أن هناك بين البشر خداعاً بهذه الصورة لطيب نفسه وكرم أرومته .

ولمكانة الشريف الدينية ، وقوته الشخصية ، وكرم أصله انصاعوا له وأطاعوا ونفّذوا دورهم ، وهم لا يعرفون أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم لمصلحة أعدائهم ، ويُحطّمون أمتهم لترتفع أمم النصرانية عليها .

الحرب العالمية الأولى :

تفاقمت المنافسة بين الدول الأوربية حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى في ٦ رمضان ١٣٣٢هـ (٢٨ تموز ١٩١٤م) ، وانقسمت الدول الأوربية إلى قسمين : انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وإيطاليا ، ورومانيا ؛ ، واليونان و . . . في جهةٍ ، وألمانيا ومعها النمسا وبلغاريا في جهةٍ ثانيةٍ ، وأي فريقٍ انتصر فإن موقفه لن يختلف عن الفريق الثاني بالنسبة إلى الدولة العثمانية أو بالأحرى دولة الخلافة . ومن هذا المنطلق فإن الخليفة محمد رشاد كان يرى الوقوف على الحياد حيث يُدرك ما تضمره الدول النصرانية تجاه دولته ، ويجب ألا يُعطيها المبرر للتدخّل في شؤونه ، أو تجزئة دولته من قبل المنتصر فيها إذا كانت دولته بجانب الطرف المنهزم . ولكن الخليفة لم يكن وقتها سوى صورةٍ ، أما المتسلّط فهم الاتحاديون ، وكانوا يرون غير ما يرى الخليفة إذ يعملون للوقوف بجانب المانيا لحسن الصلة بين الطرفين حيث كانت الدولة العثمانية قد اتجهت في أواخر أيامها إلى ألمانيا . هذا إضافةً إلى أن انكلترا، وفرنسا، وإيطاليا ، وروسيا يستعمرون أجزاء واسعةً من بلاد المسلمين ؛ ، والكراهية تملأ نفوس الأمة ضدّ هؤلاء المستعمرين لما ارتكبوه من جرائم ، وما أظهروه من حقدٍ صليبيٍ ، فإن الوقوف بجانبهم سيثير المسلمين على الدولة العثمانية ، وستنهار مباشرةً ، على حين أن الوقوف إلى جانب الألمان سيجعل المسلمين يشدّون أزر دولتهم ، ويندفعون مخلصين في القتال ، ولم تكن ألمانيا قد برزت على حقيقها بعد ، ولم تصطدم مع المسلمين ، ولم تستعمر أرضاً لهم سوى ما حصلت عليه في تانزانيا والكاميرون من باب الترضية ، غير أن المسلمين يومذاك لم يسمعوا بهذا للبعد والجهل .

وهنا يجب ألا ننسى الأثر اليهودي في الاتحاديين ، وإن بعض كبارهم هم من يهود الدونمة واليهود وقفوا إلى جانب انكلترا ، واتفقوا مبدئياً على أن تُعطيهم فلسطين إن أحرزت النصر ، وكانوا يأملون بالنصر ، فإذا انضمّت الدولة العثمانية إلى انكلترا وحلفائها ، وحقّقوا النصر فلن يكون الحصول على

الحلم بالأمر السهل ، لذا فإنه من الأفضل لهم أن تقف الدولة العثمانية ضدّ انكلترا وحلفائها وستُهزم ، وتُجزّأ ، وسيحصل اليهود على حلمهم بسهولةٍ ، لذا فقد أوحوا إلى أعوانهم الاتحاديين بالضغط على الخليفة للوقوف ، إلى جانب ألمانيا ، ونتيجة هذا ، ونتيجة الصلة مع الألمان ، ونتيجة استعمار الحلفاء لكثيرٍ من الأمصار الإسلامية فقد قرّر الاتحاديون الوقوف إلى جانب الألمان ، وحملوا الخليفة على ذلك ، ومع هذا فقد تأخّر هذا الوقوف ، وهذا ما ضايق اليهود ، وحتى الصليبيون تضايقوا إذ يريدون الانقضاض على أمصارها المتباعدة ، وهذا يناقض ما كان يُظهره الحلفاء من الرغبة في انضمام العثمانيين لهم ، فهي رغبة غير صادقةٍ ، وإن صدّقها الكثير وانطلقوا من خلالها ، ولكن الأحداث تكذبها ، وتبرز الأمور على حقيقتها وإن كان عليها غطاء شفاف من الخداع .

لما تأخّر دخول الدولة العثمانية الحرب ادّعت روسيا في ٨ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م) أن القوات العثمانية قد ضربت بارجتها (برسيلاو) في البحر الأسود ، ولكن السلطات التركية لم تُبال بذاك الاتّهام ، ثم كرّرت الاتهام يوم عيد الأضحى أي بعد يومين ١٠ ذي الحج ١٣٣٢هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩١٤م) بضرب القوات العثمانية لبارجتها (غوين) في البحر الأسود أيضاً ، ولما لم ينتج عن ذلك شيء أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢ تشرين الثاني ١٩١٤م) ، وبعد ثلاثة أيامٍ أعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على الدولة العثمانية إذ كانت الاستعدادات قد تمّت لدخول الأراضي العثمانية .

الاحتلال الإنكليزي :

وصلت الحملة الإنكليزية من الهند بقيادة الجنرال (ديلامين) إلى مياه شطّ العرب يوم ١٥ ذي الحجة أي بعد إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية بيومٍ واحدٍ ، وفي اليوم الثاني من إعلان انكلترا الحرب على دولة الخلافة تمكّنت هذه الحملة من احتلال مدينة (الفاو) ثم احتلت البصرة في

٥ محرم ١٣٣٣هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤م). واستمرّت النجدات تصل إلى الحملة الإنكليزية . ثم احتلّت العمارة في ٢١ رجب ١٣٣٣هـ (٣ حزيران ١٩١٥م) والناصرية في ١٤ رمضان ١٣٣٣هـ (٢٥ تموز ١٩١٥م) ، كما سيطرت على القرنة والشعيبة . وبقيت حكومة الهند بل والحكومة الإنكليزية لا ترغب في التقدم نحو بغداد بل الاكتفاء بولاية البصرة . غير أن فشل جمال باشا بالهجوم على قناة السويس ، ونجاح المراسلات بين هنري مكماهون وشريف مكة الحسين بن علي قد شجّع الإنكليز على التقدّم فاحتلّوا الكوت في ٢٢ ذي القعدة ١٣٣٣هـ (٣٠ أيلول ١٩١٥م) غير أنهم توقّفوا جنوب بغداد بثلاثين كيلومتراً ، ثم تراجعوا إلى الكوت أمام العثمانيين الذين حاصروهم مدة ستة أشهرٍ كاملةٍ اضطروا بعدها إلى الاستسلام ، وتسلّم العثمانيون (١٣٣٠٩) أسيراً بين ضابطٍ وجنديٍ .

لم يُتابع العثمانيون تقدّمهم ومقاتلة الإنكليز الذين أخذوا بالاستعداد ، وعادوا إلى الهجوم في ١٦ ربيع أول ١٣٣٥هـ (٩ كانون الثاني ١٩١٧م) فوصلوا إلى بغداد ودخلوها في ١٨ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ (١١ آذار ١٩١٧م) فاستقبلتهم اليهود والنصارى في بغداد استقبالاً رائعاً مرحبين ، ويضعون أنفسهم تحت تصرّفهم ، وتابعوا تقدّمهم نحو الشمال غير أن العثمانيين قد تصدّوا لهم ، واستمرّت الحرب بين الطرفين بين مدٍّ وجزرٍ حتى أُعلنت هدنة مودروس في ٢٦ محرم عام ١٣٣٧هـ (٣١تشرين أول ١٩١٨م) حيث توقّف القتال .

أعلنت الهدنة والعثمانيون لا يزالون في الموصل فطلب القائد الإنكليزي من القائد العثماني علي إحسان الانسحاب من الموصل بناءً على بنود اتفاقية وقف القتال لكنه رفض ، بل وازداد تمسكاً حتى حاءته التعليمات من حكومته ، فاضطر إلى الانسحاب من الموصل التي دخلتها القوات الإنكليزية .

وكان الإنكليز قد خدعوا شريف مكة بالمراسلة التي تمّت بينه وبين هنري مكماهون في القاهرة ، وأعلن شريف مكة الثورة على العثمانيين في ٩ شعبان

١٣٣٤هـ (١٠ حزيران ١٩١٦م) ، وتقدّمت قواته نحو الشمال ، ودخلت مع القوات الإنكليزية بلاد الشام في الوقت الذي نزلت قوات فرنسية على الساحل ، وكان لهذه الثورة أثرها الكبير إذ أنها قدّمت مساعداتٍ فعالةً للحلفاء في التقدّم وإحراز النصر ، وأثارت رجالات العرب على العثمانيين فأوهنوا شأنهم ، وحالت دون نجاح دعوة الخليفة إلى المسلمين بالثورة على حُكّامهم من المستعمرين ، حيث كان الإنكليز والفرنسيون يُسيطرون على كثيرٍ من أمصار المسلمين وأقاليمهم ، إذ أن شريف مكة نشر دعوة للمسلمين بالثورة على الترك ومساندة الحلفاء ، ولمكانة شريف مكة ، وأهمية البلد التي يحكمها فقد لقيت دعوته استجابةً لدى المسلمين ، وأبطلت أثر دعوة الخليفة .

وما أن أحسّ الحلفاء بإمكانية النصر ، وشعرت فرنسا بنجاح محادثات الحسين ـ مكماهون حتى اضطربت؛ ، فتداعى الإنكليز والفرنسيون إلى عقد اتفاقية سايكس ـ بيكو حيث تقاسموا فيما بينهم بلاد الشام والعراق وذلك في ١٣ ـ ١٥ رجب ١٣٣٤هـ (١٥ ـ ١٧ أيار ١٩١٦م) ، وكانت ولايتا بغداد والبصرة ضمن النفوذ الإنكليزي ، أما ولاية الموصل فقد وضعت تحت النفوذ الفرنسي وهذا فيما يخصّ العراق . ولكن بعد مناوراتٍ سياسيةٍ ، وإغراءاتٍ لفرنسا من قبل انكلترا أخذت ولاية الموصل من فرنسا ، وأُعطيت لانكلترا .

وما أن أحسّ اليهود باقتراب نصر الحلفاء النهائي حتى سارعوا إلى انكلترا يُطالبونها بتنفيذ ما وعدت ، فأبدى وزير خارجية انكلترا الموافقة ، ووعدهم في ١٧ محرم ١٣٣٦هـ (٢ تشرين الثاني ١٩١٧م) بإقامة دولة لهم في فلسطين .

الانتداب :

انتهت الحرب العالمية الأولى في ٧ صفر ١٣٣٧هـ (١١ تشرين الثاني ١٩١٨م) بطلب ألمانيا الهدنة وكانت العراق قد وُضعت ضمن مناطق النفوذ الإنكليزي ضمن الاتفاقات التي تمّت بين انكلترا وفرنسا ، في اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وبتنازل فرنسا لانكلترا عن ولاية الموصل . وتداعت الدول المنتصرة إلى باريس لوضع شروط الصلح ، وتوزيع الغنائم فيما بينها .

كان رئيس الولايات المتحدة (ولسون) قد تقدّم بشروطه الأربعة عشر والتي منها تأسيس عصبة الأمم ، وحقّ تقرير المصير ، وتألّفت عصبة الأمم في ٣٠ رمضان ١٣٣٧هـ (٢٨ حزيران ١٩١٩م) ، وحدثت الخلافات وخاصة عندما علم الرئيس الأمريكي باتفاقية سايكس ـ بيكو . ووجد نوع جديد عُرف باسم (الانتداب) وهو يخصّ الأمصار التي سُلخت من الخلافة العثمانية .

وتشكّلت لجنة الاستفتاء وزارت سوريا والعراق ، وقدمت تقريرها في ٢ ذي الحجة ١٣٣٧هـ ٢٨ آب ١٩١٩م) ومما جاء فيها أنها (اقترحت أن يُطبّق نظام الانتداب من نوع (أ) على سوريا وفلسطين والعراق ، على أن يكون لمدةٍ محدودةٍ ، وأن يُعامل العراق كوحدة ، وأن تُحافظ سوريا على وحدتها أي سوريا ولبنان وفلسطين ، فيكون شكل الحكومة في كلا القطرين ملكياً دستورياً ، ويكون الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا ، أما العراق فيختار مليكه بالاستفتاء ، وأن يُسار بالقطرين المذكورين نحو الاستقلال بالسرعة التي تسمح بها الأحوال ، وأن يُعدّل المنهاج الصهيوني المتطرّف الموضوع لفلسطين فلا (يعني جعل فلسطين دولةً يهوديةً لأن تسعة أعشار سكان فلسطين يرفضون المنهاج الصهيوني رفضاً باتاً) .

بقي تقرير اللجنة سرياً حتى عام ١٣٤١ ، ولم يشأ رئيس الولايات المتحدة نشره من باب مُجاملة انكلترا وفرنسا . ولكن رأى أنه يسير في طريق مختلفة عن طريق انكلترا ولذا فقد انسحب من مجلس الحلفاء . وربما كان هذا فرصةً لهم فاجتمعوا مباشرة في سان ريمو في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) وقرّروا تجزئة الشام وانتداب فرنسا على ما أسموه (سوريا ولبنان) ، وانتداب انكلترا على ما أسموه (فلسطين والأردن) ، وكانت العراق أيضاً قد وضعت تحت الانتداب الانكليزي في هذا المؤتمر . وعندما اجتمع المسلمون في بغداد ودوّنوا مطالب ترفع إلى الحلفاء يُطالبون فيها بإنشاء دولة لهم من شمال الموصل إلى الخليج العربي يحكمها عربي مسلم رفض اليهود

والنصارى التوقيع ، وطلبوا أن يكونوا رعايا بريطانيين .

الثورات :

كان الناس في معظم المناطق يشكـون من قبل من الحكم العثماني ، ويتألمون من انتشار الفوضى ، ووجود الرشوة ، ووقع الظلم أحياناً ، وسيطرة العشائرية ، ولكنهم أصبحوا الآن أكثر شكايةً ، وأشدّ تألّماً . كان المرء ينتقد ولا يستطيع أحد أن يُواجهه فيقول : هذا حرام ، وهذا حلال ، هذا يصحّ فعله وهذا لا يجوز عمله ، ويتكلّم الخطباء في الجوامع فيجد الإنسان شيئاً من التعزية لنفسه ، أو ما يُخفّف عنه بعض ما يُعاني ، أما الآن فقد أصبح الوضع يختلف اختلافاً بيّناً لاختلاف العقيدة التي تُعدّ مصدر كل جوانب الحياة . لم تكن من قبل مجاهرة في بيع الخمور أو تعاطيها ، فلما جاء الإنكليز أخذوا يغبّون منها غبّاً ، فاستغرب الناس هذا الأمر وأنكروه ، وكذلك أعمال الزنا ، والسير دون حشمةٍ ، والاختلاط ، والميوعة في الطرقات فأثر ذلك كله في المجتمع ، وتقزّزوا ، وربما كان هذا موجوداً من قبل الإنكليز ولكن بـالخفاء ولا يمكن المجاهرة به أبداً ، وكذلك كل المعاصي ، فالبيئة كانت لا تزال سليمةً بالفطرة وإن شذّ بعض أبنائها .

ومع هذا كله كان عند الإنكليز نظرة استعلاءٍ ، فهم الذين اقتحموا الديار بالقوة ، ودخلوا البلاد بالسيف ، وجاء منتدبين لرفع مستوى السكان ، والأخذ بأيديهم نحو الاستقلال ـ حسب زعمهم أو حسب ما ذكره المستعمرون ولجان الاستفتاء ـ بينما كان العراقيون ينظرون نظرة ازدراء لهم ولا يأبهون لهم ، وقد رأوا منهم ، ومن تصرفاتهم ، ومن أخلاقهم ما رأوا ، لذا فنظرة الإنكليز الاستعمارية قـد أثارت ضـمائر العـراقيين ، وحـرّكت عندهم روح المقـاومة والثورة ، فهم الأعلون بعقيدتهم ، وبأخلاقهم .

وهناك نقطة أخرى يجب أن لا نغفلها ، وهي أن أهل الكتاب من يهود ونصـارى كانـوا يعيشون بـين المسلمين منـذ زمنٍ بعيدٍ ، ويشعـرون بالأمن والطمأنينة ، وحسن المعاملة ، وكرم الخلق ، وكان المسلمون ينظرون إلى أهل

الكتـاب هؤلاء أنهم في ذمتهم ، لذا يجب مـداراتهم والإحسان إليهم ، ولم يُقصرّوا في هذا الجانب ، فلما جاء المستعمرون ابتهج أهل الكتاب ممن يعيش في البلاد ، واستقبلوا الغزاة بالترحاب ، وأعلنوا خضـوعهم لهم ، وأنهم في خـدمتهم ، وحسب أوامرهم ، وبـالمقابـل فإن الإنكليـز أكـرمـوا إخـوانهم النصارى ، وأعوانهم اليهود ، وقدّموهم في كل محفلٍ ، ومنحوهم المناصب ، وأعطوهم الإدارات ، فكانوا لهم مقابل ذلك أجراء وعيوناً على أبناء البلاد من المسلمين . وصحا المسلمون من غفلتهم ، وانتبهوا إلى أن الحرب صليبية ، وأنهم كانوا على جهالةٍ فندم أكثرهم على ما بـدر منهم ، وتولّـد في نفوسهم كراهية الإنكليز ، والرغبة في الانتقام ، والثورة ضدّ الغزاة المعتدين .

قرّرت جماعة في النجف قتل (مارشال) قـائد القـوات الإنكليزيـة ، فانطلقـوا نحو مقـرّه يلبسون لبـاس الشرطة ، وبيـد أحدهم رسـالة بـاسم (مارشال) ، وطلبوا مقابلته بسرعةٍ، فرفض الحرس، فقتلوهم ، ودخلوا ، ثم توزّعوا داخل المقرّ ، واتجه ثلاثة منهم إلى غرفة القائد الذي أحسّ بالخطر ، فتناول مسدسه من تحت وسادته ، فعاجله أحدهم وهو سعيد العامري بطلقةٍ ناريةٍ أبقته في مكانه ، كما قتلوا طبيبه الذي كان بجانبه ، ودارت معركة جُرح فيها جميع من دخل ، ولكنهم خرجوا بجراحهم ، ونجوا . فجاء حاكم جديد للمدينة وهو (بلفور) فقام بحصار المدينة ، وأعلن أن شرط فكّ الحصار هو تسليم الثائرين دون قيدٍ أو شرطٍ ، وتسليم جميع الأسلحة الموجودة في النجف إلى الحكومة الإنكليزية ، ودفـع غرامـةٍ عربيـةٍ . واضطر الأهـالي أخيراً إلى الاستسلام فأُعدم اثنا عشر منهم ، ونُفي إلى الهند مائة وسبعة أشخـاص . وكانت تلك الحركة يوم ٧ جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ (٢١ آذار ١٩١٨م) .

وفي إقليم زاخـو في الشـمال قتـل النقيب (بعسن) الـذي أراد رفـع النصارى فوق المسلمين ، وذلك في ٤ رجب ١٣٣٧هـ (٤ نيسان ١٩١٩م) .

وقُتل الحاكم الإنكليزي أيضاً في (العمادية) في ٣٠ رمضان ١٣٣٧هـ

(٢٨ حزيران ١٩١٩م) . وتكرّرت أمثال هذه الحوادث وخاصةً بين العشائر سواء في الشمال في منطقة الأكراد أم في الجنوب في لواء المنتفق . ولم تكن بقية المناطق أقلّ هياجاً وإنما كان الأهالي يقومون باحتفالاتٍ دينيةٍ بمناسبةٍ من المناسبات ، ويلقون الخطب الحماسية ، والأشعار التي تزيد من هياج الشعب واستعلائه على المستعمرين ، وحقده على الباغين . وعمل المستعمرون على منع هذه الاحتفالات .

وفي إحدى المناسبات ألقى عيسى حمدي قصيدةً حماسيةً ألهبت مشاعر السكان ، فألقت السلطة الإنكليزية القبض عليه ونفته إلى البصرة ، فتداعى الناس ، وشكّلوا مجموعةً تتألّف من خمسة عشر رجلاً لمفاوضة السلطة . وطلبوا مُقابلة الحاكم فوعدهم يوم ١٤ رمضان ١٣٣٨هـ (٢ حزيران ١٩٢٠م) وتمّ اللقاء فطالب المندوبون بعقد مؤتمرٍ وطنيٍ يُمثّل الأمة ، يقوم السكان بانتخابه ، ويكون هذا المجلس المخطط الأساسي للدولة ، وهو الذي يُحدّد العلاقة بين العراق وبريطانيا ، كما طالب الوفد بمنح الحريات العامة ومنها الصحافة والمطبوعات ، وحرية البريد .

وأصدرت السلطات البريطانية منشوراً يحمل رقم (٧٠) تاريخ الأول من شوال ١٣٣٨هـ (١٧ حزيران ١٩٢٠م) وقد جاء في بعض فقراته .

بما أن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد تقرّرت وكالتها في شأن العراق فنتوقّع أن تعمل على :

١ ـ جعل العراق حكومةً مستقلةً ، تضمن استقلالها عصبة الأمم .
٢ ـ تكليف الحكومة البريطانية بالمسؤولية عن حفظ الأمن الداخلي ، والأمن الخارجي .
٣ ـ وضع قانون أساسي ، ويُستشار السكان في أسلوب وضعه . مع ملاحظة حقوق الأجناس المختلفة الموجودة في العراق .

إن وكالة الحكومة البريطانية تقضي بأن تسير بالعراق نحو التقدّم حتى

تستطيع السير بنفسها ، وعندها تنتهي مدة الوكالة المناطة بحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى .

ويُكلّف (برسي كوكس) الذي سيتقلّد منصب الممثل العام لحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بعد انتهاء مدة الإدارة العسكرية في الخريف القادم ، وسيكون من مهمة (برسي كوكس) :

١ - تشكيل مجلسٍ للشورى برئاسة عربي .
٢ - انتخاب مؤتمرٍ عراقي يُمثّل جميع أهالي العراق، وتكون مُهمّته وضع القانون الأساسي .

كانت تحدث لقاءات واجتماعات في بغداد ، وقد يكون بعضها مع رجال السلطات البريطانية وكانت روح المقاومة تغلي في نفوس رجال القبائل حتى اندلعت الثورة في ١٤ شوال ١٣٣٨هـ (٣٠ حزيران ١٩٢٠م) عندما استدعى نائب حاكم الرميثة البريطاني (هيات) شيخ قبائل بني حجيم الشيخ شعلان المعروف بأبي الجون ليسأله عن بعض الأحداث وأسبابها . . . فلما جاء الشيخ أسمع (هيات) ما لم يكن يتوقّعه إذا اشتدّ عليه وعنّفه فأمر نائب الحاكم باعتقال الشيخ ، ونقله إلى الديوانية مُكبّلاً بحجّة أن عليه بعض الضرائب الواجب دفعها ، غير أن قبيلة بني حجيم هاجمت مقرّ الحاكم ، وخلّصت شيخها بالقوة ، وفتكت بحرسه ، وكانت هذه الحادثة الشرارة الأولى التي اندلعت منها الثورة العراقية ، إذ أرسل حاكم الديوانية (ديلي) كوكبةً لدعم حامية الرميثة ، فلم تصل إلى الرميثة ، ولم ترجع إلى الديوانية إلا بعد عشرين يوماً ، وقد فقدت الكثير من رجالها .

وتجمّعت حاميات المناطق القريبة من الكوفة في حاضرتهم الكوفة ليقوّي بعضهم بعضاً ، فهاجمهم رجال القبائل ، وألقوا الحصار عليهم مدة ثلاثة أشهرٍ .

استولى رجال القبائل على قرية الكفل ، وجاءت قوات من الحلّة

لتخليص (الكفل) ، فقتل الثوار من القوات الاستعمارية مائةً وثمانين ، وأسروا مائةً وستين ، وجرحوا ستين ، واستولوا على بعض المعدات العسكرية والذخائر كان منها مدفعان ، أغرقوا بهما الباخرة (فلاي) في شط الكوفة . كما سيطر رجال القبائل على المسيب ، وكربلاء ، والنجف ، وسدّة الهندية بعد أن أخلاها الجيش الإنكليزي ، وأقام رجال القبائل حكوماتٍ في هذه المدن .

كانت الثورة قد عمّت منطقة الفرات الأوسط ، حيث احتلّ رجال القبائل الكثير من مدنه ، وأقاموا فيها سلطاتٍ محليةً لحفظ الأمن ، وقد نجحت في مهمتها ، ومن الفرات الأوسط انتقلت الثورة إلى بعقوبة ، وديالي ، وأربيل ، وكركوك ، وخانقين ، وأسّسوا فيها حكوماتٍ محليةً ، كما قتل رجال قبيلة الزوبع) الضابط الإنكليزي المقدم (لجمن) بين بغداد والفلوجة ، فاندلعت الثورة هناك ووصلت إلى بلدة (عانة) .

وأخذت النجدات الإنكليزية تصل إلى العراق حتى وصل عدد القوات الغازية إلى (١٣٣) ألفاً ، وبدأت هذه القوات تستعيد المدن التي سيطر عليها الثوار وأقاموا فيها حكوماتٍ محليةً ، حتى انتهت الثورة . وبعد ثلاثة أشهرٍ من انتهائها أُعلن العفو عن الذين اشتركوا فيها جميعاً .

الإدارة :

بعد أن احتلّ الإنكليز بغداد في ١٨ جمادى الأولى ١٣٣٥هـ (١١ آذار ١٩١٧م) صدرت تعليمات إدارية جديدة ، ومما جاء في هذه التعليمات :

١ ـ تُدار المناطق المحتلّة من قبل الحكومة البريطانية ، وليس من قبل حكومة الهند .

٢ ـ تبقى البصرة ، والناصرية ، وشطّ الحي ، وبدرة بحدودها الغربية والشمالية تحت الإدارة البريطانية بصورةٍ دائمةٍ .

٣ ـ تُدار بغداد من قبل مملكةٍ عربيةٍ يُديرها حاكم أو حكومة من أهلها تحت حمايةٍ بريطانيةٍ في كل شيءٍ إلا الاسم (فإنه يبقى عربياً) ، وبطبيعة الحال

سوف لا تكون لها علاقة مع الدول الأجنبية التي يجب على قناصلها أن يُقدّموا أوراق أعتمادهم إلى الحكومة البريطانية .

٤ ـ تُدار بغداد خلف ستار عربي ، كإقليمٍ عربي قدر الاستطاعة ، بوساطة وكالةٍ وطنيةٍ وفقاً للقوانين والشرائع الموجودة نخص بالذكر منها :

أ ـ لا يُطبّق القانون العراقي (الموضوع للبصرة) بل تبقى القوانين المحلية مرعيةً بموادها وموظفيها ، على أن تحلّ فيها كلمة العربي محلّ كلمة العثماني .

ب ـ يُطبّق التحوير نفسه فيما يتعلّق بالإدارة التنفيذية والإدارية ، وأن تبعث الإدارة القبلية والمجالس الإدارية والبلدية وغيرها من جديد .

حـ ـ لا يمسّ نظام جباية الأرض في الوقت الحاضر .

د ـ لا يُستخدم الهنود في فروع الإدارة جميعها بصورةٍ مُطلقةٍ لأن ذلك يُخالف المبادىء المقررة أعلاه ولا يستخدم أي آسيوي خارجي إلا من كان عربياً أو فارسياً في الأصل ، أو كان مقيماً في بغداد ، ويُطبّق هذا الأمر على ولاية البصرة ما أمكن .

٥ ـ في حالة ما إذا كانت البصرة لم تلحق ببغداد ، فإن رئيس الإدارة العراقية العام يكون المندوب السامي المقيم في بغداد ، وتكون البصرة تحت إدارة حاكمٍ يرتبط به . أما إذا أُلحقت بها فإن رئيس الإدارة العراقية يُسمّى آنئذٍ (حاكم البصرة ومندوب العراق السامي) على أن يكون له مقرّ اسمي في البصرة ، أما إقامته الدائمة فتكون بغداد ، ويكون له وكيل حاكم في البصرة ، ووكيل مندوب في بغداد ينوبان منابه في غيابه .

٦ ـ ينتخب الموظفون من خليطٍ من موظفي الخدمة الإنكليزية والسودانية وسوريا ولبنان ، على أن يكون ذلك وفق الأصول المرعية في تبادل الموظفين . أما إذا احتيج إلى خدمات ضباطٍ بريطانيين من الخدمة الهندية المدنية فيُعارون مؤقتاً وفق أنظمة الخدمة الخارجية . أما الذين في الخدمة فيسمح لهم بالتطوع للخدمة على أن ينقلوا إليها نهائياً .

٧ ـ تكون أماكن الشيعة المقدسة إدارةً مستقلةً غير خاضعة للهيمنة البريطانية المباشرة على أن يُنتبه إلى عدم إدخال أراضي سقي أو قابلة للسقي فيها .

٨ ـ تكون مراقبة أعمال الري والملاحة وصيانة الأنهار للولايتين (بغداد والبصرة) تحت إدارةٍ بريطانيةٍ واحدةٍ .

٩ ـ تُدار الكويت والبلاد العربية الساحلية بما فيها عُمان من قبل البصرة .

١٠ ـ تنقل إدارة عدن وحضرموت إلى وزارة الخارجية البريطانية .

١١ ـ يكون جنوبي إيران (عربستان وفارس) منطقة نفوذ للحكومة الهندية .

١٢ ـ ومن الأهمية بمكان أن تكون الإدارة في بغداد منطبقةً منذ البدء على المبادىء المذكورة أعلاه. وقبل قرار مجلس الحلفاء الأعلى في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) بفرض الانتداب الإنكليزي على العراق بيومٍ واحدٍ ، تمّ الاتفاق بين انكلترا وفرنسا على جعل ولاية الموصل تحت النفوذ الإنكليزي بعد أن كانت تحت النفوذ الفرنسي حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وعندئذ أخذ يُفكّر وزير الخارجية البريطانية (كرزون) في كيفية إدارة العراق ، وعندما جاءت التعليمات التي صدرت بالمنشور رقم (٧٠) تاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٠م (الأول من شوال ١٣٣٨هـ) الذي سبق أن ذكرناه .

مع فيصل بن الحسين :

بعد الاتفاق الذي تمّ بين الحسين بن علي شريف مكة وهنري مكماهون مُمثّل الحكومة البريطانية على انفصال البلدان العربية في آسيا عن الدولة العثمانية ، واستقلالها ، وتعهّد الحكومة البريطانية بذلك ، واستلام الحسين ملك تلك الدولة . عادت انكلترا فنكثت بكل الوعود التي قطعتها على نفسها للشريف حسين ولغيره فاتفقت مع فرنسا وبعلم من روسيا على تقسيم البلدان العربية ، وإخضاعها للدولتين العظميين الاستعماريتين انكلترا ، وفرنسا (اتفاقية سايكس ـ بيكو) ، ثم عادتا فأكّدتا هذه الاتفاقية مع شيءٍ من التعديل في مؤتمرٍ لمجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو .

ظهرت انكلترا على حقيقتها بنكثها لوعودها ، وخيانتها لأصدقائها ، والنظر إلى مصالحها فقط ، والسير بسياسةٍ صليبية دون الاهتمام بأي نقد ، والضرب بكل القيم في سبيل تحقيق منافعها ، وبذا سقطت أسهمها لدى كثيرٍ من أصدقائها من رجالات العرب الذين كانوا على صلةٍ معها منذ وقتٍ ليس بالقصير ، وكانت موضع نقدٍ من كثيرٍ من ساستها ورجالاتها أيضاً .

رغبت انكلترا أن تبدو مُخلصةً لأصدقائها ، عارفةً جهودهم ، مُقدّرةً مصالحهم وذلك بإعطائهم بعض المراكز التي يطمحون لها ، والواقع أن هذا لم يكن أبداً ، وإن وجد فهو لمصلحتها لا لمصالحهم وسعياً وراء منافعها لا خدمةً لهم حيث رأت أنها لن تجد أكثر من أبناء الحسين بن علي نفوذاً ، بل لا يتقدم أحد عليهم وذلك لمكانتهم الدينية سواء أكان ذلك من حيث الأرومة فهم شرفاء أم من حيث المركز فهم على ولاية مكّة ، وفي الوقت نفسه فهم مع ذلك كله لا يدعون إلى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيدهم في خلافةٍ ، وهو ما تخشاه انكلترا وسائر الدول النصرانية ، وإنما يعملون إلى وحدة بعض الأقاليم العربية في دولةٍ يتسلّمون حكمها ، وهو أمر لا يُخشى منه كثيراً ، ولا يُشكّل خطراً على النصرانية حسب دعوى سدنتها . هذا إضافةً إلى أن الأقاليم التي كانوا يُفكّرون بوحدتها قد انتهى أمرها ، وأصبحت أجزاء ، ولم يعد بالإمكان جمعها في تلك المرحلة لأن ذلك مرتبط بالدول الكبرى صاحبة القوة ، وكان أهل تلك الأقاليم على مرحلةٍ كبيرةٍ من الضعف والجهل والتشتّت حيث لا يمكنهم عمل شيءٍ. كما أن الحسين بن علي وأبناؤه قد خذلوا من قبل أصدقائهم الذين لم يصحّ بالأصل موالاتهم ، إذ نُهينا عن ذلك ، وأصبح الحسين بن علي وأولاده ، يرضون بالقليل ، ويرون فيه شيئاً من النصر ، وربما كانوا يعدّون ذلك رضىً مرحلياً حتى يتقوّوا فينتقلون بعدها إلى مرحلةٍ ثانيةٍ .

كان فيصل بن الحسين ثالث الأبناء قد نُصّب ملكاً على سوريا ، الجزء الأكبر من بلاد الشام ، لكنه لم يلبث أن طُرد منها في ١٠ ذي القعدة ١٣٣٨هـ

(٢٥ تموز ١٩٢٠م) ، ودخل الفرنسيون دمشق .

ظنّ الإنكليز أن فيصلاً سيكون أنسب أبناء الحسين لحكم العراق ، فهو طريد يأوونه ، وضعيف يسوّدنه ، لذا فإنه سيكون أكثر طواعيةً من غيره لهم ، وأكثر مُسايرةً من إخوته ، كما أن له درايةً وخبرةً إذ حكم سوريا أكثر من أربعة أشهر ، وعرف أن المخالفة تُؤدّي به إلى الإلقاء ، ولا يريد أن تتكرّر معه المأساة حيث يكفيه ما ذاقه .

كتب وزير الخارجية الإنكليزية (كرزون) إلى نائب الحاكم الملكي في العراق يسأله إبداء الرأي في الموقف . فردّ النائب مبيّناً رأي الحسن في فيصل ، ولم يبخس عبد الله حقّه إذ كان مرشحاً لهذا المنصب ، وأن الرجل الكفء في العراق غير موجود . ومع ذلك فقد أبدى اقتراحاً بإسناد ملك العراق إلى أحد هؤلاء : ١ ـ هادي العمري . ٢ ـ نقيب أشراف بغداد . ٣ ـ أحد أبناء الحسين بن علي . ٤ ـ أحد أفراد الأسرة الخديوية في مصر . ويرى أن هادي العمري يُناسب الأمر ، هذا مع العلم أن نائب الحاكم كان من قبل يُعارض فكرة إقامة حكومة عربيةٍ في العراق أصلاً . أما وزير الخارجية فقد كان يرغب في عبد الله بن الحسين أخي فيصل . ولكن الظروف التي جدّت لفيصل جعلت الرأي يختلف ، وأصبح فيصل أكثر مناسبةً لهم ، إذ طُرد من ملكه ، والإنكليز بحاجةٍ إلى أن يُبقوا بينهم وبين الأشراف صلةً فربما احتاجوا إليهم كجواد رهان .

دعت الحكومة البريطانية فيصلاً لزيارة لندن ، فسافر إليها في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٩هـ (٢ كانون الأول ١٩٢٠م) ، وقابل الملك جورج الخامس ليشكره على الهدايا التي كان قد بعث بها إلى والده ، إشعاراً باستمرار الصداقة بين الحكومة البريطانية والشريف حسين ، فإن نكث انكلترا لعهودها ، وخيانتها لوعودها لم تُؤثّر على تلك الصداقة ، ولم يُنس الشريف حسين أبداً ، فإنه يُذكر دائماً ، وتُذكر خدماته لحكومة صاحب الجلالة .

كلّفت الحكومة البريطانية (كرنواليس) الملحق بوزارة الخارجية زيارة فيصل ، وعرض ملك العراق عليه . على حين يجب أن يُفاتحه مسؤول أكبر منصباً ولا يصحّ أن يكون أقلّ من رئيس الوزراء ، وفي أقلّ الحالات وزير الخارجية ، ومع ذلك يبدو أن فيصلاً قد ارتاح لهذا ، وانفتحت أساريره ، ولكن أبدى اعتراضاً صحيحاً ، تقتضيه الأخوة ، وتتطلبه الشهامة ، وهو أن الشاميين قد رشّحوا أخاه عبد الله لملك العراق في الوقت الذي رشّحوا شخصه لملك سوريا فكيف يُنافس أخاه عبد الله على هذا المنصب ؟ وخاصةً أن أخاه عبد الله يجمع الجموع ويعدّ العدة لمهاجمة سوريا ثأراً لأخيه ، أفي هذا الوقت الذي يعمل لمصلحتي أقبل منافسته إن لم أقل أطعنه ؟ .

أرسلت الحكومة البريطانية (لورنس) إلى جنوبي بلاد الشام ليستطلع رأي عبد الله ، ويُعرض عليه ملك سوريا مقابل التنازل لأخيه فيصل عن ملك العراق . والتقى (لورنس) بعبد الله ، وعرض عليه المهمة التي جاء من أجلها ، فوافق مباشرةً دون أية شروط ، وعاد (لورنس) سعيداً ، وأعطى نتيجة مهمته للمسؤولين .

بعثت الحكومة البريطانية (كرنواليس) إلى فيصل ثانيةً ليبلغه موافقة أخيه ، فارتاحت نفس فيصل ، وأراد أن يطمئن قلبه فأبرق إلى أخيه يتوثّق من الخبر ، فأجابه بصحة ما نُقل إليه .

وعلمت الحكومة الفرنسية بما يجري على الساحة في لندن ، فاحتجّت على هذا التصرّف الذي يُعدّ غير ودّي ، وذكرت وسائل الإعلام الفرنسية أن انكلترا وعدت فرنسا بمساعدتها ضدّ فيصل ، وأخذت الموصل التي كانت من نصيب فرنسا مقابل هذه المساعدة . ولعل الفرنسيين كانوا يريدون زعزعة الثقة بين فيصل وانكلترا ، ومحاولةً لإبعاد التفكير البريطاني عن إعطاء فيصل ملك العراق ، لأنه سيعمل ضدّ فرنسا نتيجة العدواة التي وقعت بينهما ، وستكون أرض العراق ملجأ للخارجين على سلطة الفرنسيين في سوريا . ولكن لم يتم ما أرادته فرنسا ، ولم تهتم انكلترا بالاحتجاج الفرنسي كثيراً .

الوضع في العراق قبل وصول فيصل :

كـان قد وصـل إلى البصرة في ١٨ محرم ١٣٣٩هـ (١ تشرين الأول ١٩٢٠م) (برسي كوكس) مُمثّلاً للحكومة البريطانية ، ومن البصرة انتقل إلى بغداد بالقطار ، فوصل إليها بعد عشرة أيامٍ ، فاستُقبل بالحفاوة ، وكـانت الثورة قد هدأت ، وإن كان رجال القبائل لا يزالـون يُغيرون عـلى القوات البريطانية أحياناً ، وينازلونها أحياناً أخرى ، ويحتلّ الثوار المدن أو يُحاصرونها في منطقة الفرات الأوسط ، وتقع الخسائر ، وتحدث الإصابات .

أعلن (برسي كوكس) للعراقيين أن الحكومة الـبريطانيـة انتدبتـه إلى العراق لتشكيل حكومةٍ وطنيةٍ بإشراف حكومة بريطانيا، وأنه ليصعُب عليه ذلك ، ما دامت بعض العشائر والجماعات تُعادي الحكومة وتشنّ الحرب على قواتها، وما ذلك إلا للوهم الـذي يُوجـد في نفوس بعض الجـماعات بنـوايا البريطانيين أو بعض الشكوك التي تُخامر تلك النفوس ، وإن ذلك لمن السهل إزالته ، ولا يدري بعد ذلك ما هو غرض العشائر من إشغال أنفسهم بهذه الحرب ؟ .

ورأى (برسي كوكس) أن تشكيل حكومةٍ وطنيةٍ في العـراق سيشغل الرأي العام مدةً من الزمن ، وفي الوقت نفسه ربما تحدث منافسات أو حزازات فيبدأ بعضهم بالتقرّب من السلطات البريطانية التي يمكنها وقتذاك اصطفاء ما تُريد من أعوان ، وتفرّق الشعْب ، وتضع نفسها في موقف الحكم .

قرّر تشكيل حكومةٍ من الرجال الذين يُمكنهم التعاون مـع السلطات الاستعمارية ، وفـوق هذا رأى أن يضـع في كل وزارةٍ مستشـاراً يكون هـو المتصرّف بالشؤون ، ويبقى الوزير صورة .

جمـع يـوم ٨ صفـر ١٣٣٩هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٢٠م) مجلسه الاستشاري المؤلّف من ناظر العدلية ، وناظر الماليـة ، ومساعـده ، وناظر الأشغال ، وفيلبي (ناظر الداخلية) ، وأمينة سره (غيرترود بل) ، وأبدى

للمجلس رأيه في تشكيل حكومةٍ تكون صلة الوصل بينه وبين الشعب في العراق ، وتتولّى مُهمّة إصدار العفو العام ، وإعادة الضباط العراقيين الذين يعيشون في سوريا ، وتأليف نواة الجيش العراقي . وأبدى لهم أنه قرّر تكليف عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد . بتشكيل هذه الحكومة لما له من منزلةٍ اجتماعيةٍ لدى الناس ، ومركزٍ ديني . ويبدو أن (برسي كوكس) كان يرغب في أن يعهد برئاسة الحكومة إلى طالب النقيب لكن اعترضته صعوبات جمة ، وبرسي كوكس يُجيد اللغة العربية ويُحسنها .

وافق عبد الرحمن الكيلاني على تشكيل الحكومة[1] وألّفها بمعرفة (برسي كوكس) التامة يوم ١٢ صفر ١٣٣٩هـ (٢٥ تشرين أول ١٩٢٠م) ، كما شكّل (برسي كوكس) له مجلس شورى[2] ضمّ اثني عشر رجلاً فكانوا بمثابة

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمن الكيلاني : نقيب بغداد، رئيساً للوزارة .
٢ ـ طالب النقيب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسن الباجه جي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني
٦ ـ عزّت الكركوكي : وزيراً للمعارف والصحة .
٧ ـ عبد اللطيف المنديل : وزيراً للتجارة .
٨ ـ محمد علي فاضل : وزيراً للنافعة .
٩ ـ مصطفى الألوسي : وزيراً للأوقاف .

ولكن اعتذر عن المنصب حسن الباجه جي فعهد إلى مصطفى الألوسي بوزارة العدلية ، وتسلّم محمد علي فاضل وزارة الأوقاف ، وتسلّم عزت الكركوكي وزارة النافعة وأصبح اسمها وزارة الأشغال والمواصلات ، وعُهد إلى محمد مهدي آل بحر العلوم الكربلائي بوزارة المعارف .

(٢) ضم المجلس الاستشاري كلاً من :

١ ـ حمدي بابان :	من بغداد .	٧ ـ محمد الصهيود :	من الكوت .
٢ ـ عبد الجبار الخياط :	من بغداد .	٨ ـ عجيل السمرمد :	من الكوت .
٣ ـ عبد الغني كبه :	من بغداد .	٩ ـ سالم الخيون :	من المنتفق .
٤ ـ عبد المجيد الشاوي :	من بغداد .	١٠ ـ أحمد الصانع :	من البصرة .
٥ ـ فخر الدين جميل :	من بغداد .	١١ ـ هادي القزويني :	من الحلة .
٦ ـ عبد الرحمن الحيدري :	من بغداد .	١٢ ـ داود اليوسفاني :	من الموصل .

=

مجلس استشاريٍ لمجلس الوزراء ، ويتناولون راتب الوزراء نفسه .

كلّف المعتمد السامي (برسي كوكس) مستشار وزراة الداخلية (فلبي) بوضع مذكرةٍ تُبيّن علاقة المستشارين الإنكليز مع الوزراء ، فكانت هذه المذكرة أول دستورٍ للعراق .

عملت الحكومة على إعادة المبعدين للبلاد ، وصدر عفو عام . وعملت على ضمّ لواء السليمانية إلى العراق بعد أن حاول محمود الحفيد التلاعب بالمنطقة حيث اتصل بالدولة العثمانية وأبدى عواطفه نحوها فعيّنته حاكماً على لواء السليمانية ، ولكنه لم يلبث أن اتصل بالسلطات الإنكليزية ، وأعلن تسليمها المنطقة فأبقته حاكماً من قبلها ، ثم أعلن نفسه حاكماً مُستقلاً على منطقته ، فقبضت عليه السلطات الإنكليزية ونفته إلى الهند ، وأعلنت ضمّ السليمانية إلى العراق في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٧ آذار ١٩٢١م) .

الملك فيصل :

بعد أن وافق فيصل بن الحسين على قبول ملك العراق تأخّرت الإجراءات في ذلك لأسبابٍ كثيرة ، وفي ٦ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (١٤ شباط ١٩٢١م) أصبح (ونستون تشرشل) وزيراً للمستعمرات أو نقل إليها من وزارة الحربية فأخذ يعدّ العدّة لإنهاء موضوع العراق ، حيث جاء إلى وزارة المستعمرات رغبةً في تقليل النفقات الناجمة عن الالتزامات الخارجية إلى أدنى حدٍّ ممكنٍ ، لأن الخزينة الإنكليزية تئنّ من ثقل النفقات التي استلزمتها الحرب العالمية الأولى رغم المبالغ الكبيرة التي سطت عليها من البلدان التي دخلتها ، فعندما دخلت العراق أخذت كل ما في خزائن الولايات بل تعدّت على أموال الأوقاف . ولكثرة النفقات ، وفراغ الخزينة فكّر بعض الساسة بالجلاء عن العراق ، غير أن هذا التفكير لا يعدو أن يكون كلاماً فارغاً ، أو أن

= وقد اعتذر حمدي بابان فعين مكانه ضاري السعدون من الناصرية ، واعتذر هادي القزويني فعين مكانه نجم البدراوي من العمارة .

أصحابه لا يُدركون مرامي السياسة الإنكليزية الصليبية التي ترى في الاستعمار أفضل طريقةٍ لتحقيق السياسة الصليبية بتطبيق المخطّطات الفكرية والاجتماعية. وأوجد (تشرتشل) في وزارة المستعمرات دائرةً خاصةً تتوحّد فيها المصالح والمسؤوليات البريطانية في الشرق الأدنى - حسب مصطلحهم - وكانت تُدار هذه من قبل وزارة الهند ، ووزارة الخارجية ، ووزارة الحربية حتى لتكثر النفقات نتيجة التعدّد .

عندما جاء (ونستون تشرشل) إلى وزارة المستعمرات ، وأُنيطت به شؤون العراق ، نبش موضوع ملك العراق ، لأنه كان يرى أن إعطاء الحكم لرجلٍ يُؤازره الشعب ، وتُحقّق انكلترا مصالحها من ورائه بربطه معاهدةٍ ليُخفّف على انكلترا الكثير من النفقات . والتقى بفيصل ، وساومه على الموضوع ، وأبدى له مشروع الانتداب البريطاني على العراق ، ومسؤولية انكلترا تجاه عصبة الأمم ، وعرّفه بالمصالح البريطانية بالعراق والأهداف التي ترمي إليها ، فوافق فيصل ووعده بالعمل على معاهدةٍ بين العراق وانكلترا تقوم مقام الانتداب وتُؤدّي غرضه .

كان يطمح في ملك العراق الشيخ خزعل أمير المحمرة ، وطالب النقيب، نقيب البصرة، كما كانت الأنظار تتجه إلى عبد الرحمن الكيلاني نقيب الأشراف في بغداد ، وطُرحت أسماء من بينها (آغا خان) زعيم الطائفة الإسماعيلية في الهند ، وغلام رضا خان أمير (بشت كوه) في إيران و . . . اقترح النظام الجمهوري ، غير أن الإنكليز يرون أن الحكم الجمهوري لا يستطيع الثبات في بلدٍ كالعراق ، كما يرون التغيير في الرئاسة يدعوهم إلى بذل الكثير مع كل مرتقٍ إلى هذا المنصب .

مؤتمر القاهرة :

دعا (تشرشل) الممثلين العسكريين والسياسيين البريطانيين في منطقة الشرق الأوسط والأدنى - حسب اصطلاحهم - إلى الاجتماع في مؤتمر يُعقد في

القاهرة في ٣ رجب ١٣٣٩هـ (١٢ آذار ١٩٢١م) ، وكانت مُهمّة المؤتمر تتلخّص في إنقاص النفقات البريطانية في المناطق المذكورة ، وإعادة النظر في السياسة المتبعة فيها وذلك بتقرير يتضمن :

١ ـ علاقات الدولة المقبلة ببريطانيا العظمى من حيث النفقات .

٢ ـ شخصية من سيتولّى العراق .

٣ ـ نوع وشكل قوات الدفاع في الدولة التي ستتمتع بمسؤولية أوسع في الدفاع عن نفسها .

٤ ـ علاقة المناطق الكردية بالعراق .

تشكل الوفد العراقي إلى مؤتمر القاهرة من :

١ ـ برسي كوكس : المعتمد السامي البريطاني .

٢ ـ جعفر العسكري : وزير الدفاع الوطني .

٣ ـ ساسون حسقيل : وزير المالية .

٤ ـ إيلمر هولدن : الجنرال قائد القوات البريطانية بالعراق .

٥ ـ سليترو أتكنسن : مستشار وزارة المالية والأشغال .

٦ ـ إيدي : الرائد مستشار وزارة الدفاع بالوكالة .

٧ ـ السيدة غيرترود بل : أمينة سر المعتمد السامي .

وطُرح موضوع الحكم في العراق ، وأيّد المؤتمرون النظام الملكي ، وطُرحت أسماء الذين يمكنهم تسلم ملك العراق ، فكان التأييد لفيصل بن الحسين عندما طُرح اسمه ، وقد كان فيصل في القاهرة ، حيث انتقل إليها لِيُراقب موضوع المؤتمر من بعيد .

كانت الفكرة أن تقوم دعاية واسعة لترشيح الفيصل لملك العراق ، حتى لا يُشاع أنه فرض فرضاً ، ويُقصد من الشائعات رغبة انكلترا فيه لأنه خير من يُوافق على سياستها ، ويسعى لتنفيذ مُخطّطاتها . ووضعت الخطّة بأن يُسافر المعتمد السامي إلى بغداد ، ويُشيع الخبر ، ثم يُسافر وزير المستعمرات ، ويُصرّح بموافقة حكومة صاحب الجلالة البريطانية على ترشيح فيصل لملك

العراق . كما يُبرق فيصل لكلٍ من رئيس الوزراء عبد الرحمن الكيلاني نقيب الأشراف ، وطالب النقيب نقيب الأشراف في البصرة ، ونوري السعيد ويخبرهم بترشيح نفسه لملك العراق ، ويطلب منهم السعي وبذلك الجهد للعمل له . ثم يُسافر فيصل إلى العراق . وقد هيء كل هذا ، وحسب ما رُسم له .

انتقل وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) إلى فلسطين ، ومنها سافر إلى انكلترا حيث قدّم للحكومة تقريراً عما تمّ في مؤتمر القاهرة ، وأخذ مُوافقتها على ترشيح فيصل ملكاً على العراق . وكان فيصل قد رجع إلى الحجاز .

أبرقت الحكومة البريطانية إلى الحجاز تطلب من فيصل السفر إلى العراق ، بعد أن انتهت من التمهيدات لقدومه . استقلّ فيصل في ٦ شوال ١٣٣٩هـ (١٢ حزيران ١٩٢١م) الباخرة الإنكليزية (نورث بروك) واتّجه نحو البصرة . وأبرق الشريف حسين من مكة إلى نقيب بغداد عبد الرحمن الكيلاني يُخبره بسفر ولده . وسافر مع فيصل (كرنواليس)[1] الذي عُيّن مستشاراً خاصاً للملك فيصل بعد تتويجه ملكاً على العراق ، وكذلك كان مع فيصل أمين سرّه الخاص رستم حيدر ، وثلاثة من مرافقيه ، وبعض الزعماء العراقيين الهاربين .

أبرق فيصل عندما اقترب من البصرة في ١٦ شوال ١٣٣٩هـ (٢٢ حزيران ١٩٢١م) إلى رئيس الوزارة العراقية عبد الرحمن النقيب بقرب وصوله . فتألفت لجنة الاستقبال من : وزير الدفاع الوطني جعفر العسكري ،

---

(١) يُروى أن وزير المالية العراقي (ساسون حسقيل) سأل وزير المستعمرات البريطاني (ونستون تشرشل) أثناء انعقاد القاهرة : إنه قد جرت العادة أن يُعيّن رجل من الشمال على الأقسام التي فُصلت عن الدولة العثمانية ، فما السر في تعيين رجل على العراق من الجنوب ؟ فأجاب : صحيح ، ولكن (كرنواليس) مسافر مع فيصل ، وهو من الشمال .

ومن كلٍ من : عبد الغني كبه ، وفخر الدين جميل ، وعبد الجبار خياط ، وعبد المجيد الشاوي ، وعبد الرحمٰن الحيدري من أعضاء المجلس الاستشاري .

وصول فيصل :

رست الباخرة البريطانية (نورث بروك) في ميناء البصرة في ١٧ شوال ١٣٣٩هـ (٢٣ حزيران ١٩٢١م) ، فاستقبل استقبالاً حاراً ، وأعدّ له متصرف لواء البصرة أحمد الصانع، وهو أحد أعضاء المجلس الاستشاري مأدبةً فخمةً دعا إليها الأشراف والأعيان ورجال الحكومة ، وبعدها تابع فيصل سفره إلى بغداد ، وكانت تُقام له الاحتفالات في كل المدن التي يمرّ عليها ، وقد مرّ على الحلّة ، والنجف ، وكربلاء ، ووصل إلى بغداد في ٢٣ شوال ١٣٣٩هـ (٢٩ حزيران ١٩٢١م) ، وقد بايعه مجلس الوزراء في ٥ ذي القعدة ١٣٣٩هـ (٥ تموز ١٩٢١م) ، وأعدت وزارة الداخلية صورة لمضبطة يعلن فيها الأهالي تأييدهم . وتوّج يوم ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ (٢٣ آب ١٩٢١م) .

البَابُ الأوّل

المَلَكِيّة

مرّت العراق بعد استقلالها بمرحلتين : كان نظام الملكية هو الذي يقوم عليه الحكم في المرحلة الأولى ، ونظام الجمهورية هو الذي يقوم عليه الحكم في المرحلة الثانية .

استمرّت الملكية في العراق ما يزيد على ثمانٍ وثلاثين سنة (١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ) ، وقد حكم فيها ثلاثة ملوك .

١ء) فيصل الأول : ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ ـ ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ .
٢ء) غازي بن فيصل : ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ١٤ صفر ١٣٥٨هـ .
٣ء) فيصل الثاني بن غازي : ١٤ صفر ١٣٥٨ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ .

وقد بقي فيصل الثاني عشرين سنة تحت الوصاية ١٣٥٢ ـ ١٣٧٢هـ . وتسلّم السلطة مدة ست سنوات ١٣٧٢ ـ ١٣٧٧هـ . وترك الملك ما يقرب من شهرين ١٤ ربيع الأول ١٣٦٠ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ . أثناء قيام حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني .

الفصل الأول

الملك فيصل الأول

١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ - ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ
(٢٣ آب ١٩٢١ - ٨ أيلول ١٩٣٣م)

قبل أن يُتوّج الملك فيصل بن الحسين بأسبوعٍ أخبر رئيس الوزارة عبد الرحمن الكيلاني[1] بالاستعداد لتشكيل الوزارة من جديدٍ ، فلما تُوّج قدّم رئيس الوزارة استقالة حكومته له، فعهد إليه بتأليف الوزارة من جديد[2]،

---

(١) عبد الرحمن الكيلاني ولد في بغداد عام ١٢٦١هـ ، ويرجع في نسبه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ، تسلّم نقيب الأشراف في بغداد عام ١٣٠٦هـ ، فأصبح الشخصية الثانية بعد الوالي ، وكذا كان أيام الاحتلال ، وكان من بين الذين رُشّحوا لاستلام ملك العراق غير أن كبر سنه ، وإصابته بمرض المفاصل كان له الأثر في استبعاده إذ كانت سنه آنذاك تزيد على الثامنة والسبعين ، استقال من رئاسة الوزارة عام ١٣٤٠هـ ، واعتزل في بيته حتى وافته المنية عام ١٣٤٦هـ .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ - عبد الرحمن الكيلاني : نقيب الأشراف ، رئيس الوزراء .
٢ - الحاج رمزي : وزيراً للداخلية .
٣ - ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ - ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٥ - جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني .
٦ - حنا الخياط : وزيراً للصحة .
٧ - عزت الكركوكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ - عبد الكريم الجزائري : وزيراً للمعارف .
٩ - محمد علي فاضل : وزيراً للأوقاف .
١٠ - عبد اللطيف المنديل : وزيراً للتجارة .

فشكّلها في ٩ محرم ١٣٤٠هـ (١٢ أيلول ١٩٢١م) .

وقـرّرت الحكومـة في ٢٧ ربيـع الثـاني ١٣٤٠هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٢١م) اتخاذ اللغة العربية في كتـابة الـدواوين ، وذلك أن الإنكليـز قد حاولوا فرض لغتهم على الدولة منذ أن أنهوا احتلال العراق ، إذ جعلوا اللغة الإنكليزية لغة الكتابة في الدواوين وكأنها اللغة الرسمية .

قاوم العراقيون فكرة الانتـداب ، وقد استمـرّت المقاومـة بعد هـدوء الثورة ، وازداد الأمر عنفاً عندما قامت حكومة وطنية ، إذ شعروا أنهم قـد استقلّوا ، وأصبحت العراق دولةً ، فما معنى الانتداب ؟ ورأى الإنكليز أن أفضل طريقةٍ لمواجهة هذه المقاومة استمرارية الحكم العسكـري ، غير أنهم عادوا فعدلوا عن هذه الفكرة ، ورأوا أن تقوم معاهدة بـين الطرفـين تُبقي الانتداب تحت مظلّة هذه المعاهدة ، إذ يمكنهم فرض شروطها وبنودها ما داموا يملكون القوة ، وكانوا يتحدّثون دائـماً من أعلى ، إذ بيـدهم السلطة حسب تصوّرهم ، وكان المعتمد السامي (برسي كوكس) يُكلّم الملك فيصل من أعلى حيث يشعر أنه مُمثّل لانكلترا صاحبة الفضل على العراق ، فهي قد خلّصته من الحكم العثماني ، وأنقذته من الفوضى التي كان يُعاني منها ، وهي التي احتلّت أرضه بالقوة ، فأهله أصبحوا لها تبعاً ، كما أنها صاحبة المنّة على ملكه ، إذ رفعته إلى سدّة الملك بعد أن كان طريداً ، ومن هذه النظرة ظهرت جفوة خفية بين الملك والمعتمد .

أما العراقيون فيرون أن المعاهدة تحديد للعلاقات المتبادلة بين الطرفين ،

= كانت الرغبة أن تسند وزارة الداخلية إلى ناجي السويدي ، غير أن المندوب السامي رفض هذا ، وطلب إسناد هذه الوزارة إلى توفيق الخالدي ، فأبى ذلك الملك بحجة أنه صاحب نزعة إلى النظام الجمهوري ، وفي الوقت نفسه عنده ميل إلى العثمانيين ، وهذا ما جعله خارج نطاق الوزارة .

واعتذر عبد الكريم الجزائري عن استلام وزارة المعارف أو الاشتراك في الحكم أساساً ، فاختير محمد علي هبة الدين الشهرستاني وزيراً للمعارف .

فالعراق دولة مستقلة ويمكنها الوقوف وحدها دون حاجةٍ إلى مساعدة دولةٍ أخرى أو انتداب من قبل أحدٍ مهما كانت صفته . أرادت انكلترا أن تُظهر للعراقيين ضعفهم عملياً ، وحاجتهم إلى مساعدتها بشكلٍ ملموس ، كي يتنازلوا عن كثيرٍ مما هم عليه ، ويُوافقوا على التوقيع على المعاهدة التي تراها من غير قيدٍ أو شرطٍ .

لم تكن حدود العراق قد رُسمت بشكلٍ مضبوط مع الدول المجاورة ، وكان لانكلترا نفوذ على بعض الجوار حيث يمكنها أن تستخدمهم في تنفيذ أغراضها وتحقيق أطماعها .

كانت الحدود بين العراق وسلطنة نجد غير واضحة المعالم إذ هي في أرضٍ صحراويةٍ قليلة المعالم الطبيعية ، وفي الوقت نفسه تُقيم فيها قبائل تنتقل بين الجزأين من هذه الأراضي العربية ، وأمر طبيعي أن يحدث نزاع بين القبائل كما جرت العادة . فقد هاجم الإخوان في نجد عشيرة (الظفير) في العراق في شهر ربيع الثاني ١٣٣٩هـ (كانون أول ١٩٢٠م) بحجة أنها حمت بعض عشائر (شمّر) التي هربت من نجد . ثم هاجموا قبيلة (الأعاجيب) العراقية ، وغزوا قبيلة (الزياد) بداعي الانتقام من هاتين القبيلتين اللتين تتعاونان مع قبيلة (شمر) .

طلب الزعماء العراقيون من المعتمد السامي (برسي كوكس) العمل على إيقاف ما يحدث على الحدود مع سلطنة نجد ، وكان ذلك قبل تتويج الملك فيصل بعشرين يوماً . وبعد أن أصبح فيصل ملكاً على العراق هاجم الإخوان بعض الأفراد من (شمّر) ممن يُقيم في العراق بين (النجف) و (السماوة) .

زاد ضغط الإخوان على القبائل العراقية فقد هاجم (فيصل الدويش) شيخ قبيلة (مطير) ، وأحد وجوه الإخوان القبائل العراقية ليلة ١٢ رجب ١٣٤٠هـ (١١ آذار ١٩٢٢م) ، ونجم عن هذه الغارة قتل (٦٩٤) رجلاً من قبائل العراق ، وسلب (٤٣٠١٠) رؤوس من الغنم ، و (٢٥٣٠) جملاً

و (٣٨١١) حماراً ، و (١٣٠) جواداً ، وتهديم (٧٨١) بيتاً .

وعادت القبيلة نفسها بمهاجمة أطرف (المنتفق) ، فهاج العـراقيون ، وأمرت السلطات البريطانية بإرسال طائرات استطلاع للمنطقة ، غير أن رجال قبيلة (مطير) أطلقوا النار على هذه الطائرات ، فأصلتهم بنارٍ كثيفةٍ اضطروا بعدها إلى الإنسحاب والفرار .

وفرّ حمود السويط أحد مشايخ قبيلة الظفير العراقية إلى نجدٍ بعد أن نهب مبلغاً من المال من أحد التجار ، وكانت هذه العملية من دواعي الصدام ، وخاصةً عندما عُيّن يوسف السعدون قائداً للقوات الهجّانة العراقية على الحدود الجنوبية ، وكان بينه وبين حمود السويط عداء قديم .

وبالمقابل فإن بطوناً من قبيلة (شمّر) قد فرّت إلى العراق بعد أن دخل سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن مدينة حائل عام ١٣٤٠هـ ، فكانت نفوسها تتوق دائماً للإغارة على نجدٍ وإلحاق الأذى بأهله .

واجتمع مجلس الوزراء وبحث هذا الموضوع ، وتساءل بعض الوزراء هل هناك خـلاف بين الحكم في العـراق وبين سلطان نجـد ؟ وهل انكلترا مسؤولة عن الدفاع عن حدود العراق أم لا ؟ وعندما رفع محضر جلسة مجلس الوزراء إلى الملك فيصل ، لم ترتح نفسه إلى بعض كلمات عددٍ من الوزراء ، لذا فقد استدعاهم وطلب منهم تقديم استقالاتهم[١] ، إذ فقد ثقته بهم .

وطلب من رئيس الوزراء اختيار أشخـاص آخرين ليشغلوا المنـاصب الوزارية التي شغرت بعد قبول استقالـة من تقدّمـوا باستقـالاتهم ، فاختـار الأشخاص ورفعهم إلى الملك[٢] .

---

(١) الوزراء الذين طلب منهم تقديم استقالاتهم هم : الحاج رمزي ، وناجي السويدي ، عبد اللطيف المنديل ، وعزت الكركوكي ، وحنا خياط .

(٢) صدرت الأوامر الملكية بتعيين :

توفيق الخالدي : وزيراً للداخلية . =

أبرق إلى سلطان نجد للموافقة على حضور مؤتمر تُخطّط فيه الحدود بين الدولتين ، فوافق على ذلك ، ووعد بأنه سيرسل من ينوب عنه .

مؤتمر المحمرة : عُقد المؤتمر في المحمرة ، وحضره مندوب عن سلطان نجد[1] ، ومندوب عن ملك العراق[2] ، ومندوب عن الحكومة البريطانية[3] . ووقعت معاهدة إثر المؤتمر في يوم الجمعة في ٧ رمضان ١٣٤٠هـ (٥ أيار ١٩٢٢م) ، وتشكّلت لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء حيث يُمثّل العراق مندوبان ، ويُمثّل نجد مندوبان ، وينتخب المندوب السامي أحد رجالات الحكومة البريطانية ليرأس اللجنة التي ستجتمع في بغداد وتضع الحدود الدائمة ، ويقبل الطرفان بها دون اعتراضٍ .

مؤتمر كربلاء : كان زعماء القبائل والأهالي يتداعون لبحث موضوع الخلاف على الحدود ، وعُقد مؤتمر في كربلاء ، حضره من قبل الحكومة العراقية وزير الداخلية توفيق الخالدي ، وانتهى المؤتمر في ١٥ شعبان ١٣٤٠هـ (١٢ نيسان ١٩٢٢م) أي قبل مؤتمر المحمرة بأربعةٍ وعشرين يوماً ، وكانت القرارات : الدفاع عن البلاد ، الثقة بسياسة الملك فيصل ، وطلب تعويضات عن الخسائر التي لحقت بالأهالي ، ودفع ديات القتلى .

مؤتمر العقير : رفض سلطان نجد التوقيع على مقررات مؤتمر المحمرة إذ قال : إنه لم يفوض مندوبه أحمد الثنيان آل سعود بالتوقيع على تلك المقرّرات ،

= صبيح نشأت : وزيراً للأشغال والمواصلات .
محمد جعفر جلبي أبو التمن : وزيراً للتجارة .
عبد المحسن الفهد السعدون : وزيراً للعدلية .
أما وزارة الصحة فقد أُلغيت ، وأصبحت مديريةً ملحقةً بوزارة الداخلية . كما رفضت استقالة ساسون حسقيل رغم إصراره عليها .

(١) مندوب سلطان نجد : أحمد الثنيان آل سعود .

(٢) مندوب ملك العراق : صبيح نشأت وزير المواصلات والأشغال .

(٣) مندوب الحكومة البريطانية : الميجر بورديللون .

واستمرّ الخلاف على الحدود ، وبقيت الغارات من الطرفين . وبعد جهودٍ عُقد مؤتمر في العقير ، وحضره سلطان نجد ، وذلك في ٥ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

وعُدّ اتفاق الحدود تتمةً لمؤتمر المحمرة وقد نصّ على ما يأتي :

المادة الأولى :

أ ـ تبدأ الحدود من الشرق من نقطة التصاق وادي العوجاء مع وادي الباطن ، ومن هذه النقطة تبدأ حدود المملكة النجدية على خطٍ مستقيمٍ إلى البئر المسماة (الوقبة) مع ترك الدليمية والوقبة شمال هذا الخط ، ومن (الوقبة) تمتدّ الحدود إلى الشمال الغربي إلى بئر (النصاب) .

ب ـ ابتداءً من النقطة الآنف ذكرها أي التصاق وادي العوجاء مع وادي الباطن تمتدّ حدود العراق على خطٍ مستقيمٍ باتجاه الشمال الغربي إلى الأحفر تاركاً هذا الموقع جنوب هذا الخط ، ومن هناك يمتدّ الخط باتجاه الجنوب الغربي على خطٍ مستقيمٍ إلى أن يتصل بحدود نجد في بئر (النصاب) .

جـ ـ المنطقة ذات الشكل المعين المرسوم بين النقاط المحدود آنفاً ، والذي يحتوي على النقاط جميعاً يبقى على الحياد ، وتشترك بين الحكومتين العراقية والنجدية اللتين تحصلان على جميع الحقوق المتساوية والمقاصد داخل هذه المنطقة المحايدة .

د ـ من بئر النصاب تمتدّ الحدود بين الحكومتين باتجاه الشمال الغربي إلى بركة (الحميمة) ومن هناك تتجه شمالاً إلى بئر العقبة ، ثم إلى قصر (العثمين)، ومن هناك تمتدّ إلى الغرب على خطٍ مستقيمٍ يمرّ من وسط (جال البطن) إلى بئر (ليفية) ، ثم بئر (المناعية) ومنها إلى (جديدة عرعر) ، ومنها إلى (مكار الناعم) إلى جبل (عنيزة) الواقع قريباً من التقاء خط الطول ٣٩° شرقاً مع خط العرض ٣٢° شمالاً .

المادة الثانية :

بما أن كثيراً من الآبار بقيت داخل الحدود العراقية ، وبقيت الجهة النجدية محرومةً منها ، تتعهّد الحكومة العراقية بأن لا تتعرّض لقبائل المملكة النجدية القاطنة على أطراف الحدود إذا اقتضت الظروف أن يردوا الآبار المجاورة لهم في الأراضي العراقية إذا كانت هذه الآبار هي أقرب الآبار الموجودة داخل الحدود النجدية .

المادة الثالثة :

تتعهّد الحكومتان كل من قبلها أن لا تستخدم المياه والآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرضٍ حربيٍ كوضع قلاعٍ عليها ، وأن لا تُبقي جنوداً على أطرافها .

المادة الرابعة :

لقد اتفق مندوبو حكومتي الطرفين على ما تقرّر في مواد هذا الاتفاق ، ووقّعوه في ميناء العقير في ١٢ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢ كانون أول ١٩٢٢م) .

مثّل العراق : وزير الأشغال والمواصلات ، صبيح نشأت .
ومثّل انكلترا : المعتمد السامي البريطاني في العراق ، والميجر مود قنصل انكلترا في الكويت .

وحضر من نجد : سلطان نجد بنفسه عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود ومستشاروه وأعوانه وحاشيته .

عبد الرحمٰن الكيلاني والوزارة الثالثة

نشأ خلاف بين الملك فيصل وبين المعتمد السامي برسي كوكس نتيجة الوزارة التي غدا كثير من أعضائها يُمالىء المعتمد ، وشعر بهذا الخلاف رئيس الحكومة فقدّم استقالة حكومته في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب

١٩٢٢م) إلى الملك فطلب منه الاستمرار بالمهمة المناطة بالحكومة حتى تقوم الحكومة الجديدة .

طلب المعتمد السامي من الملك تكليف رئيس الحكومة المستقيلة بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ على أن يكون أكثر أعضائها من الوزارة المستقيلة ، وما كان للملك إلّا أن يفعل .

ومرض الملك بعد ذلك بأربعة أيام فتأخّر تشكيل الوزارة الجديدة ، حتى عادت الصحة للملك، وفي ٧ صفر ١٣٤١هـ (٣٠ أيلول ١٩٢٢م) ، رفع عبد الرحمٰن الكيلاني قائمة للملك بأسماء الوزراء الذين وقع الاختيار عليهم ، والحقائب التي ستُسند إليهم ، وصدر إثرها تشكيل الوزارة[1] .

تصرّف المعتمد السامي :

في ذكرى تتويج الملك فيصل ملكاً على العراق (٢٣ آب ١٩٢٢م) الأول من محرم ١٣٤١هـ ، أُصيب الملك بالتهاب في الزائدة الدودية ، واقتضى ذلك إجراء عمليةٍ جراحيةٍ له ، وكان ذلك بعد استقالة الوزارة بأربعة أيام ، فتولّى المعتمد السامي أمر إدارة البلاد ، والتصرّف كما يشاء ، وذلك بعد

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمٰن الكيلاني : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عبد المحسن السعدون : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ توفيق الخالدي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع الوطني .
٦ ـ صبيح نشأت : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٧ ـ محمد علي فاضل : وزيراً للأوقاف .

وبقي منصب وزير المعارف شاغراً ، إذ أن رئيس الوزراء كان قد وقع اختياره على عبد المجيد شلاش الذي كان غائباً عن البلاد ، فلما حضر ، وصدر الأمر بتعيينه اعتذر ، وبقيت حقيبة المعارف شاغرة حتى استقالة الوزارة .

أن قام ومعه مستشار وزارة الداخلية (كرنواليس) بزيارة الملك بالمستشفى ، وطلب منه التوقيع على أمرٍ بإبعاد بعض الزعماء الوطنيين ، واتخاذ بعض التدابير الزجرية ، فلما رفض الملك ذلك قام هو بنفسه بهذه الأعمال الزجرية .

أصدر المعتمد السامي (برسي كوكس) أمراً بحظر الحزبين : الحزب الوطني العراقي برئاسة جعفر أبو التمن ـ بغداد ، وحزب النهضة العراقية برئاسة أمين الجرحفجي ـ الكاظمية ، وكانا قد قاما بمظاهراتٍ في اليوم الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) ، وأمر بإبعاد رؤسائهما إلى جزيرة (هنجام) في الخليج العربي ، وتعطيل جريدتي (المفيد) و (الرافدان) ، ونفي صاحبيهما أيضاً . وأمر محمد الصدر ، ومحمد الخالصي بمغادرة العراق إلى إيران .

وأمر سرباً من الطائرات بقصف القبائل بالفرات الأوسط ، ومن هذه االقبائل (آل فتلة) و (الأكرع) و(خفاجة) و (العزّة) .

وقام بفصل بعض كبار الموظفين عن مناصبهم مثل : علي جودت متصرف لواء الحلّة ، وخيري الهنداوي قائمقام الشامية، وشاكر الملا الحمادي قائمقام متصرف أبو صخير .

وهذه التصرفات أدّت إلى زيادة المعارضة وتأخير المعاهدة .

معاهدة ١٩٢٢م :

كان وزير المستعمرات البريطانية ونستون تشرشل قد اتفق مع الملك فيصل قبل تسلّمه ملك العراق أن تكون معاهدة بين الطرفين تحلّ مكان الانتداب ، غير أن الإنكليز قد فهموا من هذا العبارة أن الاستقلال صورة والواقع انتداب ، فالملك ليس أكثر من اسمٍ ، أما المتصرّف الحقيقي فهو المعتمد السامي ، والوزراء لا يملكون سوى التوقيع ، أما صاحب الكلمة فهو المستشار البريطاني . وأما الملك فيصل والعراقيون جميعاً فقد فهموا أن المعاهدة ستُلغي الانتداب وتبيّن العلاقات المتبادلة بين الحكومة العراقية ، والحكومة

البريطانية ، ونتيجة هذا التباين الواسع في فهم أو تفسير المضمون فقد تأخّر التوقيع على المعاهدة ، وأخيراً قُدّمت للدراسة والتوقيع عليها حسب النص المثبت أدناه :

المادة الأولى : بناءً على طلب جلالة ملك العراق يتعهّد جلالـة ملك بريطانيا بأن يُقـدّم في أثناء مدة المعاهدة مع التزام نصوصها ، ما يقضي لدولة العراق من المشورة والمساعدة دون أن يمسّ ذلك بسيادتها الوطنية . يُمثّل جلالة ملك بريطانيا بالعـراق بمعتمدٍ سـامٍ ، وقنصلٍ جنـرالٍ ، تُعاونـه الحاشيـة الكافية .

المادة الثانية : يتعهّد جـلالة ملك العـراق بأن لا يُعـيّن ، مدة هـذه المعاهدة ، مُوظّفاً ما في العراق من تابعيةٍ غير عراقيةٍ ، في الوظائف التي تقتضي إرادةً ملكيةً دون موافقة جلالة ملك بريطانيا ، وستعقد اتفاقية منفردة لضبط عدد الموظفين البريطانيين وشروط استخدامهم على هذا الوجـه في الحكومـة العراقية .

المادة الثالثة : يُوافق جلالة ملك العراق على أن يُنظّم قانوناً أسـاسياً ليُعرض على المجلس التأسيسي العراقي ، ويكفل تنفيذ هذا القانـون الذي يجب أن لا يحتوي على ما يُخالف نصوص هذه المعاهدة ، وأن يـأخذ بعـين الاعتبار حقوق ورغبات ومصالح جميع السكان القاطنين في العراق ، ويكفل للجميع حرية الوجدان التامة ، وحرية ممارسة جميع أشكال العبادة ، بشرط ألا تكون مخالفةً بالآداب والنظام العموميين ، وكذلك يكفل ألا يكون أدنى تمييزٍ بين سكان العراق بسبب قوميةٍ ، أو دينٍ ، أو لغةٍ ، ويُؤمّن لجميع الطوائف عدم نكران أو مساس حقها بـالاحتفاظ بمـدارسها لتعليم أعضـائها بلغـاتها الخاصة ، على أن يكون ذلك مُوافقاً لمقتضيات التعليم العامة ، التي تفرضهـا حكومة العراق ، ويجب أن يُعيّن هذا القانون الأصول الدستورية : تشريعيةً كانت أم تنفيذيةً ، التي ستتبع في اتخاذ القرارات في جميع الشؤون المهمة بما فيها الشؤون المرتبطة بالخطط المالية ، والنقدية ، والعسكرية .

المادة الرابعة : يُوافق جلالة ملك العراق ، وذلك من غير مساسٍ بنصوص المادتين (١٧) و (١٨) من هذه المعاهدة ، على أن يستدل ، بما يُقدّمه جلالة ملك بريطانيا من المشورة ـ بوساطة المعتمد السامي ـ جميع الشؤون المهمة ، التي تمسّ بتعهدات ومصالح جلالة ملك بريطانيا الدولية ، والمالية ، وذلك مدة هذه المعاهدة .

ويستشير جلالة ملك العراق المعتمد السامي الاستشارة التامة في ما يؤدي إلى سياسةٍ ماليةٍ ونقديةٍ سليمةٍ ، ويؤمّن ثبات وحسن نظام مالية حكومة العراق ما دامت تلك الحكومة مدانةً لحكومة جلالة ملك بريطانيا .

المادة الخامسة : لجلالة ملك العراق حقّ التمثيل السياسي في لندن ، وغيرها من العواصم والأماكن الأخرى، مما يتم عليها الاتفاق بين الفريقين الساميين المتعاقدين ، وفي الأماكن التي لا يُمثّل فيها لجلالة ملك العراق ، ويوافق جلالته أن يعهد إلى جلالة ملك بريطانيا بحماية الرعايا العراقيين فيها . وجلالة ملك العراق هو الذي يُصدّر التصديق على أوراق اعتماد ممثلي الدول الأجنبية في العراق بعد موافقة جلالة ملك بريطانيا على تعيينهم .

المادة السادسة : يتعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن يسعى بإدخال العراق في عضوية عصبة الأمم في أقرب وقتٍ ممكنٍ .

المادة السابعة : يتعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن يُقدّم من الإمداد والمساعدة لقوات جلالة ملك العراق المسلّحة ما يتفق عليه من وقتٍ لآخر الفريقان المتعاقدان الساميان ، وتُعقد بينهما اتفاقية منفردة لتعيين مقدار هذا الإمداد ، وهذه المساعدة ، وشروطها ، وتبلغ هذه الاتفاقية إلى مجلس عصبة الأمم .

المادة الثامنة : لا يتنازل عن أراضٍ ما في العراق ، ولا تؤجر إلى أية دولةٍ أجنبيةٍ ، ولا توضع تحت سلطتها بأية طريقةٍ كانت ، إلا أن هذا لا يمنع جلالة ملك العراق من أن يتخذ ما يلزم من التدابير لإقامة الممثلين السياسيين

الأجانب ، ولأجل القيام بمقتضيات المادة السابقة .

المادة التاسعة : يتعهّد جلالة ملك العراق بقبول الخطة الملائمـة التي يُشير بها جلالة ملك بريطانيا ، ويكفل تنفيذها في أمور العدلية لتأمين مصالح الأجانب بسبب عدم تطبيق الامتيازات والصيانات التي كان يتمتع بها هؤلاء بموجب الامتيازات الأجنبية أو العرف ، ويجب أن توضع نصوص هذه الخطة في اتفاقيةٍ منفردةٍ ، وتبلّغ إلى مجلس عصبة الأمم .

المادة العاشرة : يُوافق الفريقان الساميان المتعاقدان على عقد اتفاقياتٍ مُنفردةٍ لتأمين تنفيذ المعاهدات أو الاتفاقيات أو التعهّدات التي قد تعهّد جلالة ملك بريطانيا بأن تكون نافذةً في ما يتعلّق بالعراق وجلالة ملك العراق متعّهد بأن يُهيء المواد التشريعية اللازمة لتنفيذها ، وتبلّغ هذه الاتفاقيات إلى مجلس عصبة الأمم .

المـادة الحاديـة عشرة : يجب ألا يكون ميـزة مـا في العـراق للرعـايـا البريطانيين أو لغيرهم من رعايا الدول الأجنبية الأخرى على رعايا أية دولةٍ هي عضو في عصبة الأمم ، أو رعايا أية دولةٍ مما قد يُوافق جلالة ملك بريطانيا بموجب معاهدة ، على أن يضمن لها عين الحقوق التي قد تتمتع بها فيها لو كانت من ضمن أعضاء العصبة المذكورة (وتشمل كلمة رعـايا الـدولة الشركـات المؤلفة بموجب قوانين تلك الدولة) في الأمور المتعلّقة بالضرائب ، أو التجارة ، أو الملاحة ، أو ممارسة الصنائع والمهن ، أو معاملة السفن التجارية ، أو السفن الهوائية الملكية . وكذلك يجب أن لا تكون ميزة ما في العراق لدولـةٍ ما من الدول المذكورة على الأخـرى فيما يتعلق بمعـاملة البضائـع الصادرة منهـا أو المصدّرة إليها ، ويجب أن تُطلق حرية مرور البضـائع وسط أراضي العـراق بموجب شروطٍ عادلةٍ .

المادة الثانية عشرة : لاتتخذ وسيلة ما في العراق لمنع أعمال التنصير ، أو

للمداخلة فيها[1] ، أو لتمييز منصرٍ ما على غيره ، بسبب اعتقاده الديني ، أو جنسيته ، على أن لا تُخلّ تلك الأعمال بالنظام العام وحسن إدارة الحكومة .

المادة الثالثة عشرة : يتعهّد جلالة ملك العراق بأن يُساعد بقدر ما تسمح له الأحوال الاجتماعية والدينية وغيرها على تنفيذ كل خطةٍ عامةٍ تتخذها عصبة الأمم لمنع الأمراض ومقاومتها ، ويدخل في ذلك أمراض الحيوان والنبات .

المادة الرابعة عشرة : يتعهّد جلالة ملك العراق بأن يتخذ الوسائل اللازمة لسنّ نظام للآثار القديمة[2] ، في خلال اثني عشر شهراً من تاريخ العمل بهذه المعاهدة ، ويكفل تنفيذه ، ويكون هذا النظام مؤسساً على القواعد الملحقة بالمادة ٤٢١ من معاهدة الصلح ، الموقع عليها في سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠م ، فيقوم مقام النظام العثماني السابق للآثار القديمة ، ويضمن المساواة في مسائل تحري الآثار القديمة بين رعايا جميع الدول من أعضاء عصبة الأمم ورعايا أية دولة مما قد وافق جلالة ملك بريطانيا ، بموجب معاهدة ، على أن يضمن لها الحقوق نفسها التي قد تتمتع بها فيما لو كانت من ضمن أعضاء العصبة المذكورة .

المادة الخامسة عشرة : تُعقد اتفاقية منفردة لتسوية العلاقات المالية بين الفريقين المتعاقدين الساميين ، ينصّ فيها من جهةٍ على تسليم حكومة جلالة ملك بريطانيا إلى العراق ما يتفق عليه من المرافق العامة وعلى تقديم حكومة جلالة ملك بريطانيا مساعدةً ماليةً حسبما تقتضيه الحاجة في العراق ، من وقتٍ إلى آخر ، وينصّ فيها من جهةٍ أخرى على تصفية حكومة العراق تدريجياً جميع الديون المتكبدة في هذه السبيل، وتبلغ هذه الاتفاقية إلى مجلس عصبة الأمم .

---

(١) تُلاحظ الروح الصليبية .

(٢) يقصد بالآثار القديمة إبراز حضارة ، وإظهار التباين بين الأقاليم لترسيخ فكرة الانفصال والتجزئة لأمصار الأمة بعضها عن بعض .

المادة السادسة عشرة : يتعهد جلالة ملك بريطانيا على قدر ما تسمح له تعهداته الدولية بأن لا يضع عقبةً ما في سبيل ارتباط دولة العراق لمقاصد جمركية أو غيرها مع من يرغب في ذلك من الدول العربية المجاورة .

المادة السابعة عشرة : في حالة وقوع خلافٍ ما بين الفريقين الساميين المتعاقدين فيما يتعلق بتفسير نصوص هذه المعاهدة ، يعرض الأمر على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليها في المادة (١٤) من قانون عصبة الأمم ، وإذا وُجد في حالة كهذه أن هناك تناقضاً في المعاهدة بين النصّ الإنكليزي والنص العربي، يعدّ النصّ الإنكليزي هو المعوّل عليه .

المادة الثامنة عشرة : تصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول حالما تُصدّق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التأسيسي ، ويظلّ معمولاً بها لمدة عشرين سنة ، وعند انتهاءِ هذه المدة تُفحص الحالة فإذا ارتأى الفريقان الساميان المتعاقدان أنه لم يبق من حاجةٍ إليها تعدّ منتهيةً ، ويكون تثبيت الانتهاء من قبل مجلس عصبة الأمم ما لم تدخل المادة السادسة في حيز التنفيذ قبل ذلك التاريخ ، وفي الحالة الأخيرة يجب أن يبلغ إشعار الإنهاء إلى مجلس عصبة الأمم . ولا مانع للفريقين الساميين المتعاقدين من إعادة النظر من وقتٍ إلى آخر في شروط هذه المعاهدة ، وشروط الاتفاقيات المنفردة الناشئة عن المواد (٧) و (١٠) و (١٥) بقصد إدخال ما يتراءى مناسبته من التعديلات حسبما تقتضيه الظروف الراهنة آنئذٍ ، وكل تعديلٍ يتفق عليه الفريقان المتعاقدان الساميان يجب أن يبلّغ إلى مجلس عصبة الأمم .

عرضت مواد المعاهدة على مجلس الوزراء بتاريخ الأول من ذي القعدة ١٣٤٠هـ (٢٥ حزيران ١٩٢٢م) فقرّر مجلس الوزراء قبول مواد المعاهدة المذكورة المعدلة ، على أن تصبح نافذة المفعول حالما تصدّق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التأسيسي ، وأن يكون قبولها من مجلس الوزراء مقترناً بالشروع في الانتخابات لعقد المجلس التأسيسي .

غير أن وزير التجارة جعفر جلبي أبو التمن خالف بعض المواد واقترح :

١ ـ يجب النص على إلغاء الانتداب في مقدمة المعاهدة .

٢ ـ خالف المادة الثانية من المعاهدة لاعتقاده أنها تتنافى مع إلغاء الانتداب .

٣ اقترح حذف الجملة الآتية من المادة الثالثة (الذي يجب أن يكون وفقاً لنصوص هذه المعاهدة) .

٤ ـ اعترض على المادة الرابعة لاعتقاده أنها تتنافى مع إلغاء الانتداب .

٥ ـ اعترض على المادة الخامسة حيث رأى أن تقييد التمثيل الخارجي الوارد في هذه المادة ليس هو إلا مظهر من مظاهر الانتداب .

٦ ـ اعترض على المادة التاسعة ، وقال : إنها مظهر من مظاهر الانتداب أيضاً .

٧ ـ لم يوافق على قبول التعهدات الواردة في المادة العاشرة .

وفي اليوم التالي قدّم محمد جعفر جلبي استقالته من الوزارة فقُبلت مباشرةً ، ثم قرّر مجلس الوزراء إلغاء وزارة التجارة في ٢٧ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (٢٠ آب ١٩٢٢م) . وأخذ الوزراء يستقيلون حتى استقالت الوزارة كلها ، ولم يُصدّق على المعاهدة إلا في عهد وزارة عبد الرحمٰن الكيلاني الثالثة وبعد أن بطش المعتمد السامي بالحركة الوطنية يوم الثاني من محرم ١٣٤١هـ .

الأحـــزاب :

تتشكّل الأحزاب عادةً للوصول إلى هدفٍ معين في سبيل تحقيق غايةٍ ، أو لتطبيق منهج محدد ، وينخرط في الحزب الأشخاص الذين يرون رأياً واحداً ، ويسعون وراء غايةٍ ، ولما كانت المناهج ليست كثيرة التعدّد . لذا فالأحزاب عادةً محددة وغالباً ما يكون في البلد الواحد حزبان فقط أو ثلاثة ، ويطرح كل منها منهجه ، ويعمل على تطبيقه ، وهو يعتقد أن هذا هو ما يخدم به الأمة ، وأن غيره لا يصلح للتطبيق أو قليل الفائدة ، والممارسة والتطبيق هو

المحك الصحيح لاختيار الأفضل ، ولذا فإن الأحزاب تتنافس لاستلام السلطة لتطبيق منهجها أو سياستها ، وإظهار صلاحيتها بما يعود على الشعب من أمنٍ وطمأنينةٍ ، ورفاهٍ اقتصادي ، وحريةٍ ، وتأمين حقوق الرعية كافةً .

أما في البلاد المتخلّفة فإن الأحزاب تتشكل لإظهار القوة ، وإبراز الشعبية الموهومة ، ذلك لأن كل شخصٍ معروفٍ في منطقته ، لأسرته ، أو ثروته ، أو وظيفته ، أو كرمه ، أو خدمته للناس ويظنّ لهذا أنه معروف على درجةٍ واسعةٍ في البلاد كلها ، ويتصوّر أن تزعّمه لحزبٍ سيحقق نجاحاً ، ويمكنه الوصول إلى السلطة بسهولةٍ ، لذا يعمل على تشكيل الحزب مُجرّد أن يُسمح له بذلك ، ومن هنا تأتي كثرة الأحزاب ، إذ تتعدّد حسب المدن ، والمناطق ، والمهن ، والطوائف ، وأحياناً الأسر ، وكلها تهدف إلى الزعامة والوصول إلى السلطة ، وغالباً ما تجعل لنفسها مطالب مؤقتةً تُسمّيها أهدافاً ، وليس لها أي منهجٍ ثابتٍ معينٍ ، فهي والحالة هذه ليست سوى تجمّعات سياسيةٍ غايتها تحقيق بعض المصالح لأتباعها عندما تحصل على بعض النجاح . ومن هذه المطالب استقلال البلاد ، إن لم تكن مستقلةً ، أو تجميع أبناء جنسٍ واحدٍ ، وهو ما يُعرف بالعصبية القومية ، أو إظهار الإخلاص للبلاد ، وهو ما يُعرف بالوطنية ، وكأن هذا اتهام للآخرين جميعاً أنهم غير وطنيين أو غير مخلصين ، وغالباً ما تفقد الوطنية معناها إن لم يكن هذا التجمع الذي يحمل هذا الاسم غير وطني أو له ارتباطات خارجية . لذا فإن أكثر أحزاب البلاد المتخلّفة تبدأ بحمل مثل هذه الأسماء إذ ليس لها منهج معين في الحكم . وإذا ما حصلت البلاد على الاستقلال ، أو حقّقت المطالب التي كانت تسعى لها فإن هذه الأحزاب كانت تضيف إلى أسمائها ألقاباً لا تدلّ على أي منهجٍ ، وإن كانت تظنّ أنها منهج أو تدّعي ذلك لإيهام المواطنين ، كأن تُضيف الاشتراكي ، والديمقراطي ، والحرّ ، وهكذا، وهذا ما نلاحظه في معظم الأحزاب التي نشأت ، أو غيّرت أسماءها بعد الحصول على (الاستقلال التام) في البلدان المتخلّفة وبشكلٍ عامٍ بعد الحرب العالمية الثانية .

تأسّس في العراق أحزاب وجمعيات سرّية أو علنية عملت تحت عنوانٍ أدبي أو علمي أو ثقافي قبل الحرب العالمية الأولى ، أو انضمّ أفراد إلى جمعيات أو أحزابٍ من هذا النوع أيضاً تأسّست خارج حدود العراق الحالية ، وأكثرها كان يهدف إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وتجزئة دولة الخلافة وذلك بدافعٍ ذاتي نتيجة الضعف والجمود اللذين سادا الدولة آنذاك ، أو الضغط وعدم الحرية بسبب تغلغل النفوذ الأجنبي يومذاك ، أو الانبهار بالتقدّم الأوربي المادي الذي بد في تلك الآونة ، أو بدافع توجيهٍ خارجي من قبل أعداء الدولة لحقدٍ صليبيٍ ولإضعاف خصمهم الأول الذي كان يتمثّل بدولة الخلافة ، ويأتي هذا التوجيه إما مباشرةً وإما عن طريق أعوان الصليبيين من أهل الكتاب الذين يقيمون في البلدان العربية ، ويعيشون من زمنٍ بعيدٍ بين المسلمين بكل أمن وطمأنينةٍ ، وإن أصبحت لهم امتيازات خاصة مع قوة الدولة الأوربية النصرانية .

وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق أخذت تظهر تجمّعات بمناسبة احتفالات بالمولد النبوي على الطريقة التي كانت معروفة يومذاك كتقليدٍ للنصارى الذين يحتفلون بميلاد المسيح عليه السلام - حسب زعمهم - وبهذه الاحتفالات يحدث التجمّع والأحاديث السياسية التي تتعلّق بالبلاد ، غير أن وزارة الداخلية قد منعت أي تجمعٍ ما لم يحصل على إذنٍ من الحكومة وذلك في ٧ ذي القعدة من عام ١٣٤٠هـ (٢ تموز ١٩٢٢م) وكانت الحكومة قد أقرّت ذلك في جلستها المنعقدة بتاريخ ٤ ذي القعدة من العام نفسه .

وأخيراً سمح بتأسيس الأحزاب فنشأ .

١ - **الحزب الوطني العراقي** : سُمح بتأسيسه بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (٢ آب ١٩٢٢م) ، وكان مؤسسوه ، محمد جعفر جلبي أبو التمن ، وبهجت زينل ، ومهدي البصير ، وعبد الغفور البدري ، وحمدي الباجه جي ، ومولود مخلص ، وأحمد الداود .

وقام بمظاهراتٍ في الأول من محرم ١٣٤١هـ ، فأعلن المعتمد السامي

(برسي كوكس) حظره .

٢ ـ حزب النهضة العراقي : أخذ الموافقة بالتأسيس بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب ١٩٢٢م) ، وكان مؤسسوه : أمين الجرحفجي ، أحمد الظاهر ، ومهدي البير ، وآصف وفائي ، وعبد الرسول كبه ، وعبد الرزاق الأزري ، ومحمد حسن كبه .

وقام بمظاهراتٍ في الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) فأعلن المندوب السامي (برسي كوكس) حظره ، أي كانت مدة نشاطه خمسة أيام فقط .

٣ ـ الحزب الحرّ العراقي : وتأسّس في ١١ المحرم ١٣٤١هـ (٣ أيلول ١٩٢٢م) ، وكان برئاسة محمود الكيلاني أكبر أولاد رئيس الوزراء ، ومن مؤسسيه : داود النقيب ، وفخري جميل ، وحسن غصيبه ، وعبد المجيد الشاوي ، وجميل صدقي الزهاوي .

ويعدّ الحزبان الأوليان من المعارضين ،وقد انضمّ إلى صفوفهم الكثير ، على حين كان الحزب الثالث من المؤيّدين للحكومة فكان أتباعه قلّة ، فالناس بطبيعتهم يميلون إلى النقد والمعارضة .

وقد انتهى دور الحزب الحر العراقي بعد التصديق على المعاهدة في ٢١ صفر ١٣٤١هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٢٢م) .

المرحلة الأولى من الانتخابات : بعد إذاعة المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية انصرفت الحكومة إلى انتخابات المجلس التأسيسي لوضع الدستور ، والتصديق على قانون انتخابات مجلس النواب ، والتصديق على المعاهدة . غير أن العلماء قد أعلنوا مقاطعة الانتخابات ، وأبدوا ضرورة عدم الاشتراك فيها ما لم يتمّ :

١ ـ إلغاء سياسة الضغط التي يُمارسها المعتمد السامي ، وقد أسموها يومذاك الإدارة العرفية .

٢ ـ إطلاق حرية الاجتماعات والمطبوعات .
٣ ـ سحب المستشارين من الألوية إلى بغداد .
٤ ـ السماح بتأليف الجمعيات .
٥ ـ السماح بإعادة المنفيين السياسيين إلى وطنهم .

وتقرر البدء في الانتخابات في غرة ربيع الأول ١٣٤١هـ (٢٤ تشرين الأول ١٩٢٢م) .

مؤتمر لوزان :

سافر إلى لوزان كل من وزير الدفاع جعفر العسكري ، وتوفيق السويدي لحضور مؤتمر الصلح مع تركيا في لوزان بسويسرا ، وكان سفرهما في ١٢ ربيع أول ١٣٤١هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

استقالة الوزارة : كان عبد المحسن السعدون وزير الداخلية ذا حماسةٍ لإجراء الانتخابات ، وكان يتخذ سياسة الشدّة ، فلم يُوافقه زملاؤه الوزراء على هذا ، فقدّم استقالته من الوزارة في ١٦ ربيع الأول ١٣٤١هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٢٢م) ، وصدرت إرادة ملكية بإسناد وزارة الداخلية بالوكالة إلى مستشار وزارة الداخلية (كرنواليس) وذلك في ٢٤ ربيع الأول . غير أن رئيس الوزارة قد قدّم استقالة حكومته في ٢٦ ربيع الأول .

وعهد الملك إلى عبد المحسن السعدون بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ في ٢٨ ربيع الأول فشكّلها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تم تشكيل الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
=

إلغاء المعاهدة :

في ١٤ رمضـان ١٣٤١هـ (٣٠ نيسان ١٩٢٣م) جـرى اتفـاق بـين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية على أن ينتهي مفعول المعاهدة حين دخول العراق عصبة الأمم المتحدة ويجب ألا يتجاوز ذلك أربع سنوات .

وقد أُلحق هذا الاتفاق بالمعاهدة ، كما أُلحقت بها الاتفاقيات المنفـردة وذلـك لتقديمهـا إلى المجلس التأسيسي معـاً ، وتخصّ الاتفاقيـات المنفردة ، الموظفين الإنكليز ، والشؤون العسكرية ، والعدلية ، والمالية .

هنري دوبس : في ١٢ رمضان ١٣٤١هـ (٢٨ نيسان ١٩٢٣م) انتهت أعمال المعتمد البريطاني (برسي كوكس) وحلّ محله (هنري دوبس) الذي وصل إلى البلاد .

بداية القضية الكردية :

في جلسة مجلس الوزراء التي انعقدت يوم ٢٨ ذي القعـدة ١٣٤١هـ (١١ تموز ١٩٢٣م) وبعد زيارة رئيس مجلس الوزراء إلى منطقة السليـمانية تقرّر ما يلي :

١ ـ إن الحكومة لا تنوي تعيين أي موظفٍ عربيٍ في الأقضيـة الكرديـة عدا الموظفين الفنيين .

= ٦ ـ عبد اللطيف المنديل : وزيراً للأوقاف .

٧ ـ نوري السعيد : وكيلاً لوزارة الدفاع .

ثم جرت تعديلات على مدار العام الذي استمرت فيه الوزارة حيث :

١ ـ تسلّم رئيس الوزراء وزارة العدلية بالوكالة .

٢ ـ تسلّم ياسين الهاشمي وزارة الأوقاف بالوكالة .

٣ ـ تسلّم ناجي السويدي وزارة العدلية وترك وزارة الداخلية .

٤ ـ تسلّم رئيس الوزراء وزارة الداخلية .

٥ ـ عُيّن نوري السعيد وزيراً للدفاع .

٢ ـ إن الحكومة لا تُجبر سكان المناطق الكردية على استعمال اللغة العربية في مراجعاتهم .

وهذا القرار خطأ فإن المناطق الكردية جزء من أرض العراق ، يُعيّن فيها الموظف الكفء سواء أكان كردياً أم عربياً بغضّ النظر عن أصله ، وكذلك يُعيّن الكردي في أي منطقةٍ كانت سواء في منطقته أم خارجها حسبما تقتضي المصلحة .

والعراق أكثر سكانها من العرب ، ولغتهم هي اللغة الرسمية ، ويجب أن تسود البلاد كلها رضي أهل منطقة أم لم يرضوا ، وخاصةً أن الأكراد مسلمون واللغة العربية أساسية للعبادة وقراءة القرآن ، فيجب أن يحفظوها ويتعلّموها ، وهذا ما يُخفّف من الفكرة العصبية .

إن اتخاذ هذه القرارات وأمثالها قد أوجد الفكرة الانفصالية ورسّخها مع الزمن ، وأبعد الأكراد عن عقيدتهم ، وجعل العصبية القومية تحلّ محلّها تدريجياً ، فعانت البلاد بعدئذ الويلات منها وخاصةً عندما نشأت العصبية القومية عند العرب ، فغدا تناحر بين العصبيات يصعب إزالته إلا بالعودة إلى العقيدة التي تجمع بين الطرفين ، وكان هذا يجب أن يوجد منذ المرحلة الأولى ، غير أن الجهل ، واتخاذ القرارات دون النظر إلى ما ستؤدّي إليه قد أوصل العراق إلى ما هو عليه الآن .

وزارة جعفر العسكري : عانت العراق أزمةً ماليةً أيام وزارة عبد المحسن السعدون ، ولم تتمكّن من حلّها ، فاقتضت الأمور الإسراع في الانتخابات لتشكيل المجلس التأسيسي ، وبالتالي مجلس النواب كي يُعالج هذه الأزمة . وقدّم رئيس الحكومة عبد المحسن السعدون استقالة حكومته في ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣م) ، فعهد الملك إلى جعفر العسكري بتأليف حكومةٍ جديدةٍ بعد أن استدعاه من الموصل الذي كان قد

كلّف بإدارة لوائها قبل أسبوعين فقط . وقد ألّف الحكومة في اليوم نفسه[1] .

المرحلة الثانية من الانتخابات : كانت الانتخابات على مرحلتين ، وقد تمّت المرحلة الأولى في عهد وزارة عبد المحسن السعدون ، وانتخب السكان المرشحين الثانويين . وجرت المرحلة الثانية يوم ٢٠ رجب ١٣٤٢هـ (٢٥ شباط ١٩٢٤م) وقد أعلنت عن ذلك وزارة الداخلية قبل عشرة أيام .

جرت عملية الانتخاب ، وتشكّل المجلس التأسيسي ، وتمّت جلسة الافتتاح في ٢١ شعبان ١٣٤٢هـ (٢٧ آذار ١٩٢٤م) ، وانتخب عبد المحسن السعدون رئيساً للمجلس .

وفي ٢٨ شعبان قدّم رئيس الوزراء جعفر العسكري إلى رئيس المجلس التأسيسي عبد المحسن السعدون المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية والاتفاقيات الملحقة بها .

المعاهدة العراقية ـ البريطانية : أُحيلت المعاهدة إلى لجنةٍ مؤلفةٍ من خمسة عشر عضواً للتدقيق فيها ، ووُزّعت نسخ منها على أعضاء المجلس التأسيسي الذين كان عددهم مائة ، وقد جرت مناقشات كثيرة حول المعاهدة ، فالمعارضة تريد التعديل ، والمؤيّدون للحكومة يرون أنفسهم مضطرين للتصديق على المعاهدة خوفاً من التهديدات البريطانية التي لم تنقطع ، تارةً يحملها المعتمد السامي ، وأخرى ترسلها الحكومة البريطانية .

واجتمع المجلس يوم ٢٩ شوال ١٣٤٢هـ (٢ حزيران ١٩٢٤م) فلم يحضر الجلسة سوى ثلاثة وستين عضواً ، وتكلّم المعارضون ، وقسوا على

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جعفر العسكري : رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد المجيد شلاش : وزيراً للمالية .
٤ ـ أحمد الفخري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٦ ـ صبيح نشأت : وزيراً للأشغال العامة والمواصلات .

ثم عُيّن صالح باش أعيان وزيراً للأوقاف ، ومحمد حسن أبو المحاسن وزيراً للمعارف .

المؤيّدين ، واستمرت المناقشة أربع جلسات طويلة ، وفي يوم ٨ ذي القعدة ١٣٤٢هـ (١٠ حزيران) طالت الجلسة ، فاقترح بعضهم تأجيل المصادقة على المعاهدة حتى ينتهي أمر الموصل ، واقترح بعضهم الآخر التأجيل إلى الغد ، حتى إن رئيس الوزراء قد طلب من رئيس المجلس التأسيسي التأجيل إلى الغد ، فتأجّلت الجلسة ، وتضايق المعتمد السامي ، وأعدّ مذكرة يطلب فيها إصدار تشريع بحلّ المجلس التأسيسي ، وإصدار أمرٍ باحتلال بناء المجلس وما يحيط به . ونتيجة الضغط فقد دعي المجلس إلى جلسةٍ فوق العادة قبل منتصف الليل ، وأكره الأعضاء على الحضور ، فاجتمع تسعة وستون عضواً من أصل مائة عضو ، قبل منتصف الليل ، وأحاطت القوات المسلحة بالبناء ، ومنعت اقتراب أحدٍ ، وفُتحت الجلسة ، وبدأ التصويت ، فأيّد سبعة وثلاثون ، وعارض أربعة وعشرون ، واستنكف ثمانية أعضاء ، وبذا تمّ التصديق على المعاهدة .

ولكن الشعب كان ساخطاً على هذه المعاهدة وعلى الذين أيّدوها .

وفي ٨ صفر ١٣٤٣هـ (٢٧ أيلول ١٩٢٤م) رفعت الحكومة البريطانية المعاهدة والاتفاقيات الملحقة بها إلى عصبة الأمم فوافقت عليها ، وصادق عليها الملك جورج الخامس ملك بريطانيا في العاشر من تشرين الثاني ١٩٢٤م (١٣ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ) ، وصادق عليها الملك فيصل في ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ (١٢ كانون الأول ١٩٢٤م) .

انتهاء مدة المجلس التأسيسي : كانت مدة المجلس التأسيسي أربعة أشهر تنتهي في ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (٢٦ تموز ١٩٢٤م) ، وقد انقضت المدة ، ولم يُنجز سوى التصديق على المعاهدة ، وقد رأينا كيف انتهى ذلك التصديق على تلك العجالة ، والجلسة فوق العادية ، والتهديدات التي رافقت ذلك كله ، وصادق أيضاً على الدستور العراقي قبل انتهاء المدة . أما المهمة الثالثة التي وجد من أجلها وهي المصادقة على قانون الانتخابات فلم تُنجز ،

وهذا ما استدعى إلى إطالة مدته حتى ١٠ المحرم من عام ١٣٤٣هـ (١٠ آب ١٩٢٤م) ، وقد صادق على هذا القانون في ٢ محرم ١٣٤٢هـ (٢ آب ١٩٢٤م) ، ثم صدرت الإرادة الملكية بانتهاء مهمته وحُلّ .

وزارة ياسين الهاشمي : كان جعفر العسكري قد قدّم استقالة حكومته من ٢٧ رمضان ١٣٤٢هـ (الأول من أيار ١٩٢٤م) أي قبل أن يُنهي المجلس التأسيسي أية مُهمّةٍ من مُهمّاته الثلاث ، وذلك بسبب الهجوم العنيف عليه ، وبسبب الأزمة المالية ، ثم سحب استقالته بعد أن أخذ عهداً من المعارضة بدعمه ، فلما أنهى المجلس التأسيسي مُهمّته قدّم جعفر العسكري استقالة حكومته فعهد الملك إلى ياسين الهاشمي بتشكيل وزارة جديدة[1] في الأول من عام ١٣٤٣هـ . على حين كان وزير الدفاع نوري السعيد قد قدّم استقالته ٢٧ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (٢٩ تموز ١٩٢٤م) وقُبلت الاستقالة ، وأُسندت وزارة الدفاع إلى رئيس الوزراء جعفر العسكري .

كان ياسين الهاشمي من الذين يُعارضون المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وكان رئيساً للجنة التي أبدت عُوار المعاهدة ، وقد اختير لرئاسة الوزارة لإمكانية إدخال تعديلاتٍ عليها .

رفعت الوزارة الرقابة عن المراسلات البريدية والبرقيات . وشكّلت لجنةً وزاريةً برئاسة رئيس الوزراء وعضوية وزراء الداخلية ، والأشغال ، ومستشاري الداخلية والمالية للنظر في المسائل الآتية :

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ ياسين الهاشمي : رئيساً للوزراء ، ووزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ عبد المحسن السعدون : وزيراً للداخلية . ٥ ـ مزاحم أمين الباجه جي : وزيراً للأشغال .
٣ ـ ساسون حسقيل : وزيراً للمالية . ٦ ـ إبراهيم الحيدري : وزيراً للأوقاف .
٤ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للعدلية . ٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .

وتسلّم نوري السعيد وكيل القائد العام بناءً على رأي الملك بصفته القائد الأعلى للجيش ، وكان يرغب تسليمه وزارة الدفاع ، ولكن حالت دون ذلك موانع .

١ ـ تقرير العدد اللازم من الموظفين البريطانيين الذين يجري استخدامهم بموجب مُقاولات أو بغيرها في دوائر الدولة جميعها .
٢ ـ بيان مدة الاستخدام .
٣ ـ انتقاء الموظفين .

واستطاعت أن تُخفّف الكثير عن كاهل الخزينة بعد خلافٍ مع المعتمد السامي .

الانتخابات : نُشر قانون الجنسية العراقية في ١٠ ربيع الأول ١٣٤٣هـ (٩ تشرين الأول ١٩٢٤م)، ونُشر قانون الانتخابات في ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ، وقد تأخّر الإعلان عن هذا القانون بتلاعبِ من الإنكليز الذين رغبوا أن يتولّى مجلس الوزراء منح شركة النفط التركية امتياز التنقيب عن النفط ، واستخراجه في العراق ، فإن ذلك أولى من أن يتولّى هذا الأمر المجلس النيابي الذي لا تعرف تركيبه . وكان القانون يقضي بمباشرة الانتخاب للدورة الأولى من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية . كما كان يقضي بأن يُعطى النصارى مقعدين في الموصل ، ومقعداً واحداً في كل من لوائي بغداد والبصرة ، أما اليهود فيعطون مقعدين في لواء بغداد ، ومقعداً واحداً في كل من لوائي البصرة والموصل بغضّ النظر عن عددهم ، أي أن أهل الكتاب يشغلون ثمانية مقاعد ، لكل طائفةٍ منهم أربعة مقاعد .

وانتهت عملية انتخاب المرشحين ، وكان يتفق على تعيينهم الملك ووزير الداخلية ، ومن ورائه المستشار البريطاني ورئيس الوزراء .

وصدرت الإرادة الملكية باختيار أعضاء مجلس الأعيان في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (٧ تموز ١٩٢٥م) وتعيين يوم ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (١٦ تموز ١٩٢٥م) موعداً لافتتاح مجلس الأمة .

وقبل أن يجتمع مجلس الأمة كان ياسين الهاشمي قد قدّم استقالة حكومته إذ انتهت مهمتها بإجراء الانتخابات ، وعهد الملك بتأليف الوزارة إلى

عبد المحسن السعدون ، وزير الداخلية في الحكومة المستقيلة .

إلغاء الخلافة : كان كثير من العراقيين يتصوّر أن دولة الخلافة ستعود إلى العراق، ولا يمكن أن تترك الإنكليز الصليبيين يتحكّمون في شؤون المسلمين ، وقد مرّت العراق بصراعاتٍ طويلةٍ بين الدولة العثمانية وجيرانهم في الشرق ، فلما أعلن العثمانيون تسلّمهم الخلافة بعد دخولهم مصر ، وتنازل المماليك لهم عنها بذلوا جهدهم لإنقاذ العراق من خطر الرافضة وقد تمكّنوا ، وإن هُزموا مراتٍ غير أنهم انتصروا في النهاية ، وثبّتوا أقدامهم ، واليوم لا يُمكنهم التنازل عنها للإنكليز ، وإن هُزموا مؤقّتاً فإنهم سيعودون إليها . ومن هذا المنطلق فقد بقي زعماء كبار يرفضون الوضع القائم في العراق سرّاً ، وأحياناً تصل الأمور إلى مرحلة العلنية ، وقد كان يُعرف من بعضهم هذا رغم تسلّمهم مناصب عليا وحسّاسة في الدولة .

ومن هذا المنطلق أيضاً كانت الأقليات في العراق ساكنةً تنتظر عودة العثمانيين إليها ، وهي في وضعها الحالي لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، إذ أنها ضمن بحرٍ واسعٍ من المسلمين فهي فئة صغيرة لا يُمكنها فعل شيءٍ إن أرادت ، فإن كانت هذه الأقليات من شعوب مُسلمةٍ كالأكراد والأتراك فإن شأنهم شأن بقية الشعوب المسلمة كالعرب والفرس وغيرهم ما دام الحكم إسلامياً ، وهو يحضن الجميع ، ويجمع الكل . وإن كانت غير إسلاميةٍ كالآشوريين ، واليزيديين ، وربما الرافضة أحياناً وسواء أكانوا من العرب أم من غيرهم فهم فئة قليلة لا وزن لها لتتحرّك وسط البحر الزاخر بالمسلمين .

فلما ألغى مصطفى كمال الخلافة بتوجيهٍ من الإنكليز وغيرهم من الصليبيين في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م) ، وأعلن قيام الدولة التركية ، وحدّدها بالبقاع التي ينتشر فيها الشعب التركي ، وأقامها على أساس العصبية القومية فإن الفكرة الانفصالية بدأت تترسّخ في النفوس ، وتبرز فكرة ما عُرف باسم (الوطنية) ، وإذا كانت فكرة العصبية العربية (القومية) لم تبرز بعد بشكل واضح إلا أن المؤشّرات كلها تُشير إلى أنها ستظهر عاجلاً أو

آجلاً ، إنه منذ أن سيطرت جميعة الاتحاد والترقي على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية ، وتبنّت فكرة القومية الطورانية (التركية) نشأ ردّ فعلٍ في المناطق العربية دون تحديد هدفٍ حتى اختلط على الكثير الأمر ، ولم يستطع بعضهم التفريق بين الإسلام والدعوة إلى العصبية الجاهلية ما دامت تحمل اسم العرب . والآن وقد قامت دولة على أساس العصبية القومية بشكلٍ رسميٍ ، ألا يحدث ردّ فعلٍ من الجوار ؟ وخاصةً أنّه تكوّنت بذور هذا الخلاف في السنوات العشرين الماضية ، وأن تاريخاً مشتركاً امتدّ عدّة قرونٍ كان يجمع الأمة . إن العصبيات القومية المتجاورة لا يمكن أن تتعايش ما دامت كل منها ترفع قومها فوق غيره ، وتنسب له مفاخر ، وتحرم الآخرين منها بل كثيراً ما تلصق بغيرها صفات القبح وما لا ترضاها لنفسها .

عندما حدث إلغاء الخلافة شعرت الأقليات أنه قد أصبح لها وزن في هذا الكيان الجديد ، والصغير بالنسبة إلى الدولة العثمانية ، وما دام قد أصبح لهذه الأقليات وزن ، إذن يمكنها أن تتحرّك ، ويجب أن تُبدي رأيها ، ومن هنا نشأت الحركات ، وبرزت فكرة الأقلّيات .

فالترك مسلمون ، الأمر واحد عندهم من ناحية العقيدة سواء انضمّوا إلى تركيا أم إلى العراق ، ولكن ما دام الأمر عصبيات فهم يفضّلون الانضمام إلى تركيا ، وإن نسبتهم قليلة في العراق لذا فلن يكون لهم وزن ، ومن الخير لهم إلحاقهم بتركيا .

والأكراد مسلمون ، والأمر واحد عندهم من ناحية العقيدة سواء انضمّوا إلى تركيا أم إلى العراق ، ولكن ما دام الأمر عصبيات ، وكل عصبيةٍ شكّلت لنفسها دولةً ، فلماذا وُزّع الأكراد بين عدة دول ؟ في العراق ، وتركيا ، وإيران ، وأذربيجان (التي تحت سيطرة الروس) لهم وزن في كل هذه الدول ، ولهم أيضاً أقلّية في سوريا ، فلماذا لا يجتمع هؤلاء كلهم في دولةٍ واحدةٍ ، ما دام الأمر عصبيةً ؟ لماذا التخطيط كله ضدّ الأكراد ؟ لذا يجب أن نعمل لتوحيد الأكراد في دولةٍ واحدةٍ ، شأنهم في ذلك شأن بقية الشعوب ،

ومن هنا كانت الفكرة العصبية عنيفةً حتى طغت على الفكرة الإسلامية ، ومع ذلك بقي الأكراد يقولون : إذا أراد الجميع اللقاء على أساس الإسلام فنحن على استعدادٍ ، وشأننا شأن بقية الشعوب الإسلامية (ولكن هذا أخذ يضعف مع الزمن) ، ولكن إذا أبى الآخرون إلاّ العصبية القومية فشأننا شأنهم أيضاً ، وإننا نناضل من أجل قيام دولتنا .

والفرس مسلمون ، ولكن نسبتهم ضعيفة جداً ، وهم يفضّلون الانضواء تحت سلطان إيران ما دامت القضية عصبيةً ، وليست عقيدةً .

هذا بالنسبة إلى المسلمين من غير العرب . أما بالنسبة إلى الأقليات الدينية ، فإن ضعف نسبة اليهود والنصارى تجعلهم لا يستطيعون الحركة غير أنهم من أتباع الإنكليز ، والصليبيين عامةً ، بل هم أعوان لكل عدوٍّ للإسلام ، وقد تحرّك الآشوريون في الشمال ، وأراد اليزيديون إثارة القلاقل رغم ضعف نسبتهم أيضاً . وكانت روابط تربط الرافضة إلى إيران ، وتشدّهم إليها ، ولعلّ أهم ما تعرّضت له العراق في تلك الحقبة من حركات الأقليات .

١ ـ حركة محمود المعروف : أحد الزعماء الأكراد الذين برزوا في منطقة السليمانية ، وكانت لهم شعبية واسعة ، فعندما انسحب العثمانيون من بغداد ، ودخلها الإنكليز في الحرب العالمية الأولى ، ثم استولوا على مدينة كركوك ، أراد القائد العثماني علي إحسان باشا أن يستفيد من نفوذ محمود المعروف ، فأمدّه بالمال ، وطلب منه أن يحكم المنطقة باسم الدولة العثمانية ، وأصدر أوامره للفوج العثماني المرابط في المنطقة أن يكون تحت تصرّف محمود المعروف ، وبذا أصبح هذا الزعيم الكردي سيد المنطقة ، فالإنكليز لم يدخلوا إلى منطقته ، والعثمانيون خرجوا منها ، وابتعدوا عنها .

لاحظ محمود المعروف أن القوة قد أصبحت للإنكليز ، وأن منطقته فقيرة لا يمكنها الاكتفاء الذاتي ، وإذا بقي محصوراً مع أتباعه فيها فإنما يقضي على نفسه بالخنق ، لذا فقد استشار أتباعه ، واتفقوا على الصلة بالإنكليز ، فكتب

محمود المعروف إلى (ولسن) القائد الإنكليزي في كركوك يطلب منه أن يتخذ الإنكليز قراراً بتشكيل حكومةٍ في السليمانية برئاسة محمود المعروف ، وهو على استعداد أن يُدير المنطقة بتوجيه الإنكليز ، وفي ظل انتدابهم ، فوافقوا على ذلك ، وتمّ الأمر ، وتسلّم الإنكليز الفوج العثماني .

عيّن الإنكليز محمود المعروف حاكماً على لواء السليمانية براتبٍ قدره خمسة عشر ألف روبية ، ووضعوا بجانبه مستشاراً إدارياً هو النقيب (نوئيل) ومستشاراً عسكرياً هو النقيب (دانليس) . وشعرت حكومة بريطانيا أن الحكومة الكردية هذه ليست سوى إدارةٍ تابعةٍ لها ، فأخذت تتصرّف كما تشاء فيها ، وتُخطّط للمستقبل ، وتنظر إلى مصلحتها التي تقضي بأن تُقلّل من نفوذ محمود المعروف فبدأت تسير بهذه الخطة ، وأحسّ الزعيم الكردي بذلك ، فأعلن سيطرته على السليمانية ، واحتلّها ، وأخذ الضباط الإنكليز الذين فيها أسرى وذلك في ٢١ شعبان ١٣٣٧هـ (٢١ أيار ١٩١٩م) ، وجعل لنفسه علماً خاصاً يُمثّل هلالاً أحمر وسط أرضيةٍ خضراء ، وشرع في إصدار طوابع بريديةٍ خاصةٍ بدولته ، وقام بهجومٍ كاسحٍ على الجيش المرابط في مضيق (طاسلوجة) وتمكّن من السيطرة على المنطقة ، وأخذ كل القوات التي فيها أسرى ، وكذلك سيطر على مضيق (دربند) .

سيّر الإنكليز إلى محمود المعروف الفرقة الثامنة عشرة بقيادة الجنرال (فريزر) ، فحاصرته في مضيق (دربند) بمعاونة بعض زعماء الأكراد الذين يُؤيّدون السلطات الإنكليزية في العراق ، واستطاعت إلقاء القبض عليه بعد أن أثخنته الجراح وذلك في ٢١ رمضان ١٣٣٧هـ (١٩ حزيران ١٩١٩م) . وقُدّم للمحكمة التي قضت عليه بحكم الإعدام ، ثم خُفّف الحكم بالسجن المُؤبّد ، ونفي إلى الهند ، حيث بقي هناكِ ثلاث سنوات ، وأُعيد بعدها إلى السليمانية ، حيث رجع الانكليز ، وسلّموه حكم المنطقة مرةً أخرى ، فعاود إعلان استقلاله فيها ، فجرّد الجيش العراقي حملةً عليه احتلّت مدينة السليمانية في ١٧ ذي الحجة ١٣٤٢هـ (١٩ تموز ١٩٢٤م) ولكن محمود المعروف لم

يلبث أن طرد الجيش العراقي منها . وإثر ذلك جاءت حكومة ياسين الهاشمي إلى السلطة في الأول من المحرم ١٣٤٣هـ ، فأرسلت إلى الأكراد قوةً مُعزّزةً بالطائرات الإنكليزية فشتتت شملهم .

إن الأمور العقيدية والفكرية لا تحلّ بالسيف على هذه الصورة . قد يصلح السيف كحلٍّ بصورةٍ موقتةٍ عندما تتفاقم الأوضاع على أن يعقب ذلك حلّ فكري ، وتوضيح عقيدي يقضي على المشكلة من جذورها . لكن هذه المشكلة ساهمت فيها قوى بعضها خارجي ، وبعضها داخلي حتى بقيت على الصورة التي نعرفها على مدى ما يقرب من القرن ، ولا ندري بعد ما سيكون من أمر هذا الشعب الذي يُتخذ وسيلةً لتنفيذ المخططات ، وعنده استعداد ليكون أداة لذلك لشعوره بالظلم الذي يُحاك ضدّه من كل جهةٍ .

وهذه القوى الثلاث هي : الأكراد أنفسهم ، والدول الكبرى ، والحكم العراقي .

أما **الأكراد** فقد كانوا يعيشون ضمن الدولة الإسلامية كشعبٍ من الشعوب التي تتألّف منهم الأمة الإسلامية التي تُمثّلها دولة الخلافة ، وكان آخرها الدولة العثمانية ، ورغم كل ما تمّ من مخالفات أيام هذه الدولة إلا أن الأكراد كانوا راضين يعيشون في مناطقهم شأنهم شأن بقية الشعوب مع وجود حركاتٍ محليةٍ أو مخالفاتٍ كما يحدث في بقية الشعوب أحياناً ، بل كثيراً ما استخدم الأكراد بصفتهم أقوياء الشكيمة محاربون من الدرجة الأولى أداةً لخضد شوكة الأرمن الذين يتحرّكون ضدّ دولة الخلافة بتحريضٍ من الدول الأوربية النصرانية ، وبصفتهم يحملون عقيدةً تُخالف عقيدة الدولة بل تُعاديها ، وتحمل حقداً صليبياً دفيناً ضدّها ، وتتعصّب لذلك أشدّ التعصّب بل تعصّب عقيدي إضافةً إلى تعصّبٍ عرقيٍ . والأكراد قوم يُجاورون الأرمن ، ويُخالفونهم عقيدةً وجنساً ، فعندما يتمادى الأرمن في أذاهم وحركاتهم تحرّض الدولة عليهم الأكراد ، فيُقاتلونهم ويُلزمونهم على الطاعة . وتفعل الدولة ذلك كي لا تظهر أمام الدول النصرانية أنها تُحارب الأرمن فيتخذون من ذلك ذريعةً

للتدخّل في شؤونها وقتالها ، ولكن تدّعي أن فئتين من شعوبها اختلفتا ودخلتا في صراع ، وربما لجأت الدولة إلى إنزال بعض العقوبات بالأكراد تأكيداً لما تدّعيه ، وإظهاراً لعدم التمييز بين الشعوب التي تُكوّن الدولة العثمانية . فالشعب الكردي شعب مسلم راضٍ بحكم أي شعبٍ آخر باسم الإسلام .

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، وتجزأت الدولة العثمانية ، وقام كل شعبٍ يدعو إلى عصبيةٍ معينةٍ بل أحياناً كل إقليم وذلك تحت تأثير الأعداء ليتمكنوا من تفتيت الدولة حقاً ، ولا تُفكّر الشعوب الإسلامية بعدها بالتجمّع باسم الإسلام ما دام كل شعبٍ يحمل عصبيةً معينةً يدعو لها ، ويتعصّب لها ، ويجعلها فوق العصبيات الأخرى ، وينسب لها كل صفات الخير ، ويُلصق بغيرها ما لا يريده للعصبية التي يحملها ، وبذا تصبح المنافرة والمخالفة ، ويصبح الصراع ، ويقع الخلاف ، وربما أدّى ذلك إلى حرب .

ووجد الشعب الكردي نفسه مضطراً ليسلك السلوك نفسه حيث لم يبق سواه مُوزّعاً بين بقية الشعوب ، وفي كل مكانٍ هو المحكوم من قبلها ، بل يتصوّر نفسه أنه المضطهد من ناحيتها . فلما وضعت الحرب أوزارها ، وقامت الشعوب تدعو إلى العصبية القومية تحت تأثير وتوجيه الأعداء في سبيل تنفيذ مخططاتهم بتقطيع أوصال دولة الخلافة ، وكما قامت الشعوب قام الشعب الكردي ، واتصل بقادة الحلفاء وشكّل وفداً برئاسة شريف باشا ، وبعثةً إلى مؤتمر الصلح المنعقد في باريس ، وقدّم شريف باشا مذكرةً لمجلس الحلفاء الأعلى في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ (٢٢ آذار ١٩١٩م) ، طالب فيها بجمع الأكراد في دولةٍ واحدةٍ واستقلالها .

فالأكراد وقعوا إذن في شراك العصبية كغيرهم من الشعوب بل تمسّكوا فيها بشكلٍ أقوى نتيجة ظلم الشعوب الأخرى لهم ، وقد حلّت عندهم محلّ الرابطة الإسلامية ظناً منهم أن ظلم هذه الشعوب لهم كانت باسم الإسلام ، ما دامت تنتمي إليه ، وحتى أصحاب الفكرة الإسلامية قد وقعوا في هذا الشراك على حين أن أصحاب الاتجاه الإسلامي عند بقية الشعوب قد سلموا

من هذه العصبية ، وبقوا ينظرون إليها على أنها جاهلية .

أما الدول الكبرى فإنها كانت ترغب إضافةً إلى تقسيم الأمة الإسلامية إلى دولٍ وأمصار أن تبقى هذه الدول في صراعاتٍ فيما بينها باستمرارٍ كي لا تُفكّر بالتجمّع والوحدة بعضها مع بعضٍ ، بل فيما لو فكّرت جماعة بهذا نتيجة اتجاهها الإسلامي لاتُّهمت بعدم الإخلاص بسبب الخلافات القائمة بين الأمصار ، ولعدّت أنها لا تنظر إلى مصلحة البلاد .

وجدت الدول الكبرى في الأكراد خير ما يُحقّق لها أهدافها ، فهم أولاً أصحاب قوةٍ بسبب طبيعة بلادهم الجبلية ، ومن الصعب التفاهم معهم بسهولةٍ للسبب نفسه ، وثانياً فإن مناطقهم عند التقاء ثلاثة شعوبٍ وهي الشعب العربي ، والتركي ، والفارسي فبتقسيم بلاد الأكراد بين هذه الشعوب الثلاثة يبقى الصراع دائماً ، والخلاف قائماً . ويجب ألا ننسى أن للشعب العربي هنا دولتين قد أقيمتا وهما سوريا والعراق ، وفي كليهما مجموعة من الأكراد ، وكذلك يجب أن نُضيف وجود الأرمن بالقرب من منطقة الأكراد ، وبينهم ثارات قديمة بل أحقاد، وينتمي الشعبان إلى عقيدتين مُتباينتين ومُتصارعتين وبينهما إحن ، ويحمل النصارى في قلوبهم أحقاد على الإسلام ربما يزول كل شيء من نفوس البشر إلا هذا الحقد لأنه يُغذّى باستمرارٍ من رجال الكنائس ، وبعثات التنصير الذين لا يرون أمامهم إلا الإسلام ، ولا يخشون إلا الدعاة إليه ، لما يملكون من قدرةٍ ، لأن دينهم دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

ومن هذا المنطلق فإن الدول الكبرى قد وافقت في معاهدة (سيفر) التي عُقدت مع تركيا في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (١٠ آب ١٩٢٠م) على أن يُوضع مشروع للاستقلال المركزي للمناطق الكردية الواقعة في شرق الفرات ، وجنوب غربي أرمينيا ، وشمال الحدود التركية المتاخمة لسوريا والعراق ، في خلال ستة أشهر من تاريخ دخول هذه المعاهدة في حيز التنفيذ ، وفي مدة سنة من تاريخ تنفيذها فيما إذا فاتح أكراد هذه المنطقة مجلس عصبة الأمم برغبتهم في الاستقلال عن تركيا . أي أن الحديث كان مقصوراً على الأكراد في تركيا ،

ولم يذكر إخوانهم في بقية المناطق حيث توجد أعداد منهم في إيران ، والعراق ، وأذربيجان ، وسوريا . وإن كانت المعاهدة قد أشارت إشارةً خاطفةً إلى الأكراد في العراق إذ ذكرت أن الحلفاء لا يُعارضون بقية الأكراد القاطنين في كردستان العراقية إذا اختاروا الانضمام إلى دولةٍ كرديةٍ مستقلةٍ .

وهذا ما شجّع الأكراد في العراق إلى الدعوة إلى تشكيل دولةٍ مستقلةٍ لهم تضمّ خمسة ألويةٍ وهي : الموصل ، وأربيل ، والسليمانية ، وكركوك ، وديالي كمرحلةٍ أولى ، ثم تعمل إلى ضمّ أو الانضمام إلى الدولة الكردية الأخرى في شرقي تركيا ، ثم تحاول ضمّ بقية الأكراد في المناطق الأخرى .

رفضت تركيا الاعتراف بتكوين دولةٍ كرديةٍ في أراضيها الشرقية . كما أن انكلترا التي فرضت انتدابها على العراق في مؤتمر سان ريمو بإيطاليا في ٧ شعبان ١٣٣٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٠م) ، قد رفضت ذلك ، وخاصةً أنها كانت قبل يومٍ واحدٍ قد استطاعت ضمّ منطقة الموصل إليها إذ كانت قبل ذلك ضمن مناطق النفوذ الفرنسي حسب اتفاقية سايكس ـ بيكو .

وعندما تشكّلت أول حكومةٍ للعراق في ١٢ صفر ١٣٣٩هـ (٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠م) بقيت مسيطرةً على منطقة كردستان ، وعندما عمل محمود المعروف على الاستقلال أخضعته بالقوة . ثم جاءت معاهدة (لوزان) ونسخت معاهدة (سيڤر) وانتهى الأمر . وعلى كل فإن أهالي لوائي الموصل وإربيل قد رضوا بالأمر الواقع ، واشتركوا في انتخاب الملك فيصل ، ورفض ذلك أهالي لواء السليمانية ، وبقوا تحت سيطرة المندوب السامي مباشرةً ، وعُيِّن في كركوك متصرف من أهلها .

وبقيت الدول الكبرى تدسّ أنفها في قضايا الأكراد كلما أرادت إثارة مشكلةٍ أو تنفيذ مُخطّطٍ أو تهديد حاكمٍ . ويتجاوب الأكراد بسرعةٍ نتيجة شعورهم بالقهر . تارةً يتحرّك أكراد تركيا ، ويلقون عطفاً من إخوانهم في بقية المناطق ، وأخرى ، يتحركون في العراق ، وثالثةً في إيران ، وفي كل مرةٍ وفي كل منطقةٍ يُضربون بعنفٍ ليتكوّن حقد ، وتتراكم الأحقاد حتى لتصعب

إزالتهـا ، ولكن تستفيد الـدول الكبرى في لعبتهـا ، إذ تستغلّ هـذا الحقد بـالشكل الـذي تريـد . فالـدول الكـبرى حـرّضت الأكـراد بـالتلميـح إلى استقلالهم ، ثم وقفت دونه ، لتبقى الآمال معلقةً بالاستقلال ، والمطالبة به ، وتبقى الحركات والصراع والعدوان بين المسلمين بعضهم ضد بعض .

وأما الحكم العراقي فقد لعب دوراً خطيراً منذ البداية إذ أبقى مُتصرّفي المناطق الكردية من أهلها، وأبقى اللغة الكرديـة هي السائـدة والمستعملة، وهـذا ما جعـل الأكراد يشعـرون باستمـرارٍ أنهم يختلفون عن بـاقي سكان العراق ، ولهم وضعهم الخاص ، هذا الشعور سيُثير العاطفة وسيحرّك النفوس في كل وقتٍ ، ويمكن استغلاله في كل زمنٍ ، ويُؤدّي بكثيرٍ من السكان للسير وراء كل من يُطالب بالانفصال أو الاستقلال ، وإذا ما قامت حركة أُخضعت بالعنف الذي يُولّد الحقد . وكان من المفروض أن تُدرّس اللغة العربية باسم الضرورة لفهم الإسلام وأداء العبادة ، ويُوظّف في المنطقة من أبناء المنطقة ومن غيرهم ، كما يُعينّ أبناؤها في غير مناطقهم باسم وحدة البلاد ، والمصلحة ، وأن يُنادى بالرابطة الإسلامية التي تجمع الجميع في ظلّ عقيدةٍ واحدةٍ ، فلو تمّ ذلك لم تكن هناك مشكلة للأكراد . غير أنه عندما يُنادى بعصبيةٍ قوميةٍ لا بدّ من حدوث ردّ فعلٍ من الجماعات الأخرى ، وردّ الفعل هذا يُؤدّي إلى قيام حركاتٍ .

ولما جاءت اللجنة الدولية إلى العراق في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ (١٥ كـانون الثـاني ١٩٢٥م) للتحقيق في الخلاف العـراقي ـ التركي عـلى المـوصل ، وجـابت مدن الشـمال ، أوصت مجلس عصبة الأمم بـأن تُراعي الرغبات التي أعرب عنها الأكراد، وهي تعيين موظفين من الجنسية الكردية لإدارة بـلادهم ، ونشر التعليم في المدارس ، وجعـل اللغة الكـردية اللغـة الرسمية في جميع المصالح ، وهذه هي رغبة الدول الكبرى ـ كما رأينا ـ ، إذ هي حريصة على بقاء الخلاف لتستغلّه لمصالحها ، والحكومة العراقية في الوقت نفسه تنظر إلى سيطرتها على المناطق الكردية في الزمن الحاضر دون النظر إلى

المستقبل ولا إلى الجانب الإسلامي ، وقد جعلت المرافعة في المحاكم باللغة الكردية ، وترفق بها ترجمتها إلى العربية إذا كانت تقتضي الإحالة إلى محكمة التمييز ، وهكذا تمّ الوئام بين الحكومة والأكراد مؤقتاً غير أن المستقبل لا يمكن أن نتكهن ما سيخبئه غير أن الأمر الطبيعي يُنبىء عن حدوث خلافاتٍ شديدةٍ .

في ٢٨ شعبان ١٣٤٧هـ (٨ شباط ١٩٢٩م) قدّم ستة نواب من الأكراد مذكرةً إلى المجلس النيابي يُطالبون فيها بزيادة النفقات على المناطق الكردية ، وأن يكون الحاكم كردياً على ثلاثة ألوية هي : السليمانية ، وأربيل ، وكركوك ، وبعض أقضية الموصل .

وأخذ الأكراد يُقدّمون شكاوى إلى عصبة الأمم بعد نشر النص الأخير لمعاهدة (١٩٣٠م) ١٣٤٩هـ ، وأخذت تحدث بعض الاضطرابات في السليمانية .

القضية الآشورية : تسكن في شمالي العراق أقلية تدّعي أنها تعود إلى الآشوريين القدماء سكان شمالي بلاد الرافدين في تلك المرحلة التي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، كما تدّعي هذه الجماعة على أنها نصرانية تنتمي إلى بعض مذاهب النصرانية القديمة شأنها في ذلك كالنساطرة ، أوهكذا أشاعت انكلترا منذ احتلالها العراق لتتقرّب من هذه الجماعة أو لتُقرّبها إليها .

نقلت انكلترا عشرة آلاف من الآشوريين ، والذين يعرفون في العراق باسم (التيارين) ، من شمالي العراق إلى المناطق الوسطى منه ، وأقامت لهم مساكن قرب (بعقوبة) ، ومنحت كل امرأةٍ أو طفلٍ منهم إعانةً شهريةً قدرها مائة وعشرون روبيةً . واستمرّت على هذه الطريقة مدة ثلاث سنواتٍ .

وأخذت انكلترا تقبل من هؤلاء متطوعين في الجيش الإنكليزي ، ولما وجدت فيهم طاعةً كاملةً ، وخدمةً عسكريةً ممتازةً شكّلت منهم جيش (الليفي) الذي استفادت منه كثيراً في قتال الأكراد ، ومحاربة الأتراك .

واشتدّ تقرّب انكلترا من الآشوريين ، فأعفتهم من الضرائب ،

وأعطتهم أراضي واسعةً دون مُقابلٍ ، وإذا كان هذا التصرف قد أرضى الآشوريين ، وجعلهم يشعرون بالتفوّق على باقي السكان من حيث القيمة والقوة إلا أن هذا قد أغضب الآخرين من العراقيين .

وفي ٣ محرم ١٣٤٢هـ (١٥ آب ١٩٢٣م) حدث اعتداء منهم على الأهلين في سوق العتمة في الموصل ، وكاد الأمر أن يُهدّد سلامة الأمن في البلاد كافةً ، واضطرت السلطة أن تمنع رجوع جيش (الليفي) الموجود في (راوندوز) إلى الموصل ، وفي الوقت نفسه بأن تنقل قوات هذا الجيش من الموصل إلى كركوك . ولكن لم يلق أحد من هؤلاء الآشوريين عقوبةً .

وفي ٣٠ رمضان ١٣٤٢هـ (٤ أيار ١٩٢٤م) اصطدمت مجموعة من الآشوريين في سوق كركوك مع الأهالي فجرح أحد الآشوريين فهربوا إلى ثكناتهم واستنجدوا برفاقهم ، وهبّوا جميعاً يحملون الأسلحة ، ويُطلقون النار على كل من يرونه في طريقهم من السكان ، ووقف في وجههم اثنان من الشرطة العراقية فقتلوهما ، فأمر قائد الشرطة العراقي بقاء الشرطة في ثكناتهم خوفاً من تفاقم الأحداث ، وبناءً على تعليمات قائد الشرطة الإنكليزي ، واضطر الأهالي للدفاع عن أنفسهم ، والتجأ الآشوريون إلى دور النصارى ، واستمرّت المناوشات طيلة اليوم ، وزاد عدد الإصابات على المائتين .

وفي اليوم التالي استعدّت القبائل المحيطة بكركوك إلى النزول إلى المدينة والأخذ بالثأر غير أن المندوب السامي قد وصل إلى المدينة قبل نزول رجال القبائل ، وأمر بإخراج جنود جيش (الليفي) إلى معسكر (چمال) بين كركوك والسليمانية ، وأصدر أمراً إلى الأهالي بالتزام الهدوء ، ووعد بمحاكمة المعتدين ، ودفع الديات . غير أن السلطات البريطانية وإن كانت قد أعلنت عن محاكمة المعتدين إلا أنها كانت محكمةً صوريةً إذ كان رئيس المحكمة إنكليزياً ، كما ضمّت ضابطاً إنكليزياً آخر من قيادة الطيران ، وبطريرك الطائفة الآشورية (المار شمعون) ، وفيها اثنان من العراقيين فهما أقلية ، إضافةً إلى أنهما موظفان ويتبعان السلطات الإنكليزية ويخضعان لها .

وكان الآشوريون لا يُبالون بالحكومة العراقية ، وإنما تُقدّم طلباتهم كلها ، وشكاويهم جميعها إلى المعتمد السامي البريطاني أو إلى ضباط قوات الليفي من الإنكليز .

وفي ٢٧ شوال ١٣٤٢هـ (٣١ أيار ١٩٢٤م) أصدر المعتمد السامي البريطاني في العراق بياناً باسم الحكومة البريطانية ، أعلن فيه اهتمام انكلترا بقضية الآشوريين ، ووضع نصب عينيها الخدمات التي قدّمها هذا الشعب للحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا فإن انكلترا تريد أن تمدّ حدود العراق نحو الشمال لتشمل كل الأراضي التي يعيش عليها الآشوريون مهما قلّ عددهم فيها . ثم دعت انكلترا الحكومة العراقية إلى تقديم الضمانات الكافية للشعب الآشوري ومنها : تمليكهم الأراضي الشاغرة في شمالي البلاد ، والتي رحل عنها أصحابها ، دون ثمنٍ . وإعطاؤهم الحرية في إدارة شؤونهم المحلية . وقد قامت العراق بإعطائهم هذين الضمانين .

قرر مجلس عصبة الأمم في جلسته المنعقدة في ٣ ربيع الأول ١٣٤٣هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٢٤م) أن يتولّى بنفسه تعيين الحدود بين تركيا والعراق ، وإنهاء الخلاف بين الحكومتين على ولاية الموصل ، وأرسل مجلس عصبة الأمم لجنةً مؤلفةً من ثلاثة أعضاء ، وصلت إلى بغداد في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٢٥م) . وكانت انكلترا ترى أن المنطقة المتنازع عليها تضمّ مجموعاتٍ نصرانيةً ، وأخرى يهوديةً ، وكذلك مجموعةً يزيديةً ، وأن هذه المجموعات ستكون في ظلّ دولةٍ مسلمةٍ ولذا يجب أن تُتخذ التدابير الكافية لحمايتهم ، وكذلك كان رأي عصبة الأمم ، وكأن هذه المجموعات لم تكن تعيش من قبل في ظلّ دولةٍ إسلاميةٍ ، وتتمتع بالأمن والطمأنينة، ولكن هذا نوع من المغالطات لتبرير بعض التصرّفات التي تنمّ عن روحٍ صليبيةٍ حاقدةٍ . ومع هذا كله فإنه تظهر حقيقة الموضع الذي كانت عليه هذه الأقليات في السابق من كلام البريطانيين أنفسهم حيث يقولون (ولكنا نشعر أن من واجبنا أن يُضمن للآشوريين استعادة الامتيازات القديمة التي

كانوا يتمتعون بها بصورةٍ فعليةٍ وإن لم تكن رسميةٍ قبل الحرب)[1] . ولكن الإنكليز يُطالبون بشيءٍ أكثر من هذا بقصد إثارة السكان المسلمين ، وإمكانية إثارة القلاقل في الوقت الذي يريده النصارى ، فيتابع مجلس عصبة الأمم الذي يتكلم باسم الأمم النصرانية ويقول : وعلى الدولة السائدة أياً كانت أن تمنح هؤلاء الآشوريون شيئاً من الاستقلال الذاتي في شؤونهم المحلية ، وأن تُعيد لهم حقهم في اختيار موظفيهم من أنفسهم على أن لا تتقاضى منهم غير جزيةٍ تُدفع عن يد بطريكهم .

وإن انكلترا كانت تحرص حرصاً شديداً على إسكان الآشوريين في منطقة الحدود بين العراق وتركيا ويبدو أن ذلك الحرص ينبع من إمكانية تحريك هؤلاء العملاء في الوقت الذي تريد غير أن نظرة الأتراك لهم كانت تحول دون ذلك ، كما تحول دون أن تبقى هناك أية علاقاتٍ صافيةٍ حتى في المستقبل بين تركيا وانكلترا ، وحتى رأت انكلترا أن تنقل هؤلاء الآشوريين إلى منطقةٍ أخرى من مناطق نفوذها أو مستعمرةٍ من مستعمراتها وذلك في سبيل المحافظة عليهم أو الحرص على أداء المهمة الصليبية التي تحملها . أما نظرة كراهية الأتراك لهذه المجموعة فإنها قد جاءت من أنهم عاشوا ردحاً طويلاً من الزمن في منطقتهم هذه في ظلّ الإسلام ووجدوا كل رعايةٍ وعنايةٍ من المسلمين لهم ، وجاءت الدولة العثمانية وحكمت المنطقة وكانوا من بين رعاياها فحفظت حقوق الذمة فيهم ، فلما كانت الحرب العالمية الأولى كانوا أكثر الناس خيانةً لمن حفظ حقوقهم ، وأكثر البشر لؤماً لمن رعاهم ، إذ نشروا الرعب في مناطقهم وأعملوا بالمسلمين غدراً وقتلاً ، واعتدوا على الحرمات هدراً وهتكاً ، وأقبلوا على الممتلكات نهباً وسلباً بحجة أنهم من النصارى وتربطهم بالحلفاء أقوى وشائج الروابط ، وأن العثمانيين من المسلمين ، وهم أعداء الحلفاء ، وأن الآشوريين

---

(١) الواقع أنها رسمية إذ معروف في الشريعة الإسلامية حقوق أهل الذمة ، ولكن بريطانيا لا تعرف ذلك .

أعداء كل من عادى الحلفاء ، وأن من عادى الحلفاء ، فلا حرمة له عندهم فماله ، وعرضه ، وملكه ، ودمه مباح لهم . وهذا ما جعل العثمانيين ، والأتراك من بعدهم لا يستطيعون رؤية هؤلاء الآشوريين لما ارتكبوه من جرائم على غايةٍ من البشاعة ، ثم جاء الحلفاء عامةً والإنكليز خاصةً يحمونهم .

ومن هذا المنطلق فقد رفض الأتراك أن يكون الآشوريون على حدودهم ، ولم يقبلوا بحلّ قضية الموصل إلا ضمن هذا الشرط ، وأُبعد الآشوريون عن الحدود ، وقامت انكلترا بجمع مبالغ كبيرة لمساعدتهم على السكن ، وذلك في شتاء عام ١٣٤٤هـ ، تحت عنوان مساعدة النصارى الذين اضطهدهم الأتراك ، وسافرت لجنة كان من بينها عمة البطريرك (سرمة خاتون) إلى الولايات المتحدة لجمع التبرعات لهذا الشأن بعد أن كتب المعتمد البريطاني السامي إلى حكومة الولايات المتحدة يلتمس المساعدة في هذه التبرعات ، ولكن لم يصل إلى نتيجةٍ مرضيةٍ ، عندها وجّه المعتمد السامي نداء إلى الحكومة العراقية يطلب فيه أن تتخذ بعض التدابير التي تُسهّل للآشوريين السكن مثل : منح الأراضي ، والإعفاء من الضرائب وغير ذلك ، وإن كان هذا الطلب على شكل نداءٍ إلاّ أنه في الواقع يحمل صفة الأمر ، فاتخذ مجلس الوزراء العراقي في جلسته المنعقدة في ٥ رمضان ١٣٤٥هـ (٨ آذار ١٩٢٧م) ما يأتي :

١ - تسعى وزارة الداخلية دون أي تمييزٍ عنصري إلى إسكان اللاجئين الموجودين في المنطقة الشمالية الآن في الأراضي والقرى التي تراها مناسبةً لذلك .

٢ - يجب أن يعلم هؤلاء اللاجئون أن الحكومة العراقية ترغب في أن تعفو عن قسم من الضرائب لكل من يستثمر الأرض ويحرثها ويعمل بمشورة الحكومة وأوامرها ضمن القانون .

٣ - يمنع إسكان هؤلاء اللاجئين في المناطق التي قد تعارض أمر إسكانهم فيها الحكومات المجاورة أو السكان الأصليون بسبب حق التملك بالإشغال

المتقادم أو أي سببٍ آخر شرعي .

وعُيِّن بعدها ضابط إنكليزي لمتابعة أمور الإسكان، واعترفت الحكومة بالبطريرك (مار شمعون) بطريركاً على الآشوريين وخصّصت له راتباً شهرياً ضخماً ، وهكذا حصل الآشوريون على استقلالهم الذاتي بأمور دينهم . ونتيجة توزّعهم لم يعد بالإمكان حصولهم على استقلالهم الذاتي السياسي الذي دعت إليه عصبة الأمم بصفتهم نصارى .

أما الأكراد فقد كانوا يتعاقدون مع الآشوريين للعمل ويحسنون إليهم ، فلما قامت الحرب وأخذ الآشوريون يعملون لحساب الحلفاء ، ويعدّون أنفسهم عملاء لهم ، وبدؤوا يظهرون التعالي على الأكراد ، ولا يقصرون في أذاهم وانتهاك حرماتهم ما دام الأكراد من المسلمين ، فلما احتلّ الإنكليز العراق شعر الآشوريون بالحماية فزاد أذاهم للأكراد ما دامت السلطة الحاكمة أو المُنفّذة نصرانيةً . وهذا ما جعل الأكراد ينفورون من الآشوريين الذين عاشوا بالأمس على إحسان المسلمين من أكرادٍ ، وأتراكٍ ، وعربٍ .

ومن هذا المنطلق فإن الآشوريين شعروا بالمرارة والأسى عندما حصلت العراق على استقلالها حيث أحسّوا أن السلطة النصرانية المتمثّلة في انكلترا سترحل عن بلادهم ، وستقلّ الرعاية لهم والعناية بهم .

وبعد مرور عدة سنوات على المساعدات العراقية في منح الأراضي والإعفاء من الضرائب ، رأت الحكومة العراقية أن الوقت قد حان لوقف منح الأراضي ، والإعفاء من الضرائب ، ولكن الحكومة الإنكليزية أصّرت على ذلك ، كما سُمح للآشوريين الذين كانوا يعيشون في إيران وفي المناطق الإسلامية التي يسيطر عليها الروس في أذربيجان أن يدخلوا الأراضي العراقية دون جوازات سفرٍ .

ولما أصبحت العراق عضواً في عصبة الأمم ، ونالت استقلالها ، تضايق الآشوريون ، وأخذ بطريركهم المار شمعون يطالب بالاستقلال الذاتي ، ثم

قاموا بحركتهم المعروفة ، والتي سنتعرض لها في حينها ـ إن شاء الله ـ .

اليزيديون: بقايا من عبدة النار المجوس ، وكانت مدينة(يزد) مركز تلك الديانة ، فلما دخل الإسلام المناطق التي كانوا يقيمون فيها تركهم وشأنهم على أنهم مجوس ، وقد أُلحقوا بأهل الكتاب ، فلما أرادوا أن يقيموا طقوسهم ويعبدوا النار منعوا من ذلك ، إذ لا يصح أن يوجد في ديار الإسلام سوى من يعبد الله وهم : المسلمون ، وأهل الكتاب من يهود ونصارى ، وأُلحق بهم المجوس ، أما عبادة غير الله من نار ، ورجالٍ وأصنام وأوثانٍ و . . . فلا يصحّ أبداً وجودهم فيها فادّعى هؤلاء أنهم من أتباع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وهم مسلمون ، فسمح لهم المسلمون، وصدّقوا منهم ذلك، وعرفوا باسم اليزيديين ، على حين أنهم (يزديون) من أتباع جماعة يزد مقرّ عبادة النار . وبقي الناس يُطلقون عليهم اسم اليزيديين حسب ما ادعوه ، وظلوا يعدّونهم مسلمين ، وما هم كذلك ، . . .

إن أكبر تجمعٍ لليزيدين هو في بلاد العراق حيث يكثرون في قضاء (شيخان) وفي جبل سنجار وتقيم في جبل سنجار جماعتان منهم مختلفتان ، وتتنافسان باستمرارٍ من أجل الرئاسة والزعامة ، وهما : جماعة (حمو شيرو) وجماعة (داود آغا الداود) ، وقد حاولت الحكومة الصلح بينهما ، وإنهاء الخلاف ، ولكن جماعة (داود الداود) رفضت ذلك ، وأبى زعيمها الحضور إلى مقر اللواء بناء على دعوة الحكومة ، وأعلن التمرّد والعصيان ، فاستعانت الحكومة بالطيران البريطاني الذي قصف قرية زعيم المتمرّدين في ٢٥ رمضان ١٣٤٣هـ (١٨ نيسان ١٩٢٥م) ، وقابل العصاة الطائرات بإطلاق النار عليها ، وأُصيب قائد إحدى هذه الطائرات فسقطت ، ثم عادت الطائرات إلى القصف بعد يومين فاضطر المتمرّدون إلى الاستسلام بعد أن لحق القرية الكثير من الأذى . ولكن ذلك لم ينه الموضوع إلا مؤقتاً .

مؤتمر الكويت : لم ينته الخلاف بين نجدٍ والعراق بعد مؤتمر المحمرة

الذي عقد في (الفيلية) ، ولا الاتفاق الذي تمّ في (العقير) الملحق بذلك المؤتمر . حيث بقيت سلطنة نجد تُطالب بإعادة (شمّر) وغيرها من القبائل التي فرّت إلى العراق ، وإرجاع كلّ ما نهبته تلك القبائل أثناء فرارها .

في ٨ صفر ١٣٤٢هـ (١٩ أيلول ١٩٢٣م) أبرق الكولونيل (نوكس) الوكيل البريطاني في (بوشهر) بالخليج العربي إلى السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يستشيره فيما إذا كان يُوافق على عقد مؤتمر بالبحرين أو الكويت للبحث في الحدود بين الأردن ونجد ، وإذا كان هناك مجال للبحث في الموضوع المُعلّق بين نجد والعراق ، ومن جملتها قبائل شمّر الفارة إلى العراق . وإذا كان يحبّ بحث المشكلات القائمة بين نجد والحجاز . ، فالرأي له .

أبدى السلطان عبد العزيز استعداده وحبّه في أن تكون اتفاقات مودةٍ ومحبةٍ بين الحكومات التي يُجاور بعضها بعضاً . وتمّ الاتفاق على عقد المؤتمر في الكويت .

عقد المؤتمر في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ (١٧ كانون الأول ١٩٢٣م) برئاسة الكولونيل (نوكس) ، رئيس المعتمدين البريطانيين السياسيين في الخليج العربي . ومثّل العراق صبيح نشأت وزير الأشغال ورافقه عجيل الياور رئيس قبائل شمر في العراق ، وعبد الله المضايفي . ومثّل نجد عبد الله الدملوجي ، والملا حافظ ، وسعيد هاشم ، وعبد العزيز القصيبي ، وسعيد حبا . وأرسل أمير الأردن الأمير عبد الله مندوباً عنه ، وأما الملك حسين فلم يرسل مندوباً عنه إلى مؤتمر الكويت ، وفي الوقت نفسه لم يعتذر . واشترط سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن تكون المفاوضات بين وفد نجد ووفد كل حكومة وحده ، وذلك أن باقي الحكومات إنما تُمثّل حسين بن علي ملك الحجاز وولديه : عبد الله أمير الأردن ، وفيصل ملك العراق .

قدّم الوفد العراقي مطالبه ومرئياته ، وكذلك قدّم وفد نجد ، ودارت المناقشات ، ووضعت الأسس العامة للاتفاق ، غير أن الوفد العراقي اقترح أن

تضاف مادة جديدة خلاصتها أن لا يُعدّ الاتفاق نافذ المفعول ما لم يتمّ الاتفاق مع الحجاز ، فاعترض على ذلك وفد نجد ، ثم اقترح الوفدان أن يُؤجّل المؤتمر حتى ٩ جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٢٤م) كي يعود كل وفد إلى حكومته ويتلقّى التعليمات .

عاد المندوبون إلى الاجتماع ، وأبدت العراق رأيها في أنها لا تستطيع تسليم قبيلة شمر في الوقت الحالي إلى نجد، غير أنها تتعهد بأن لا تقوم شمر بأية غارةٍ على نجد ، وفي الوقت الذي لا تستطيع الحكومة العراقية منع شمر من ذلك ، فإنها ستخرجها من العراق ولكن ليس إلى نجد . وأما ما نهبته شمر من نجد قبل خروجها ثم فرارها به فإن الحكومة العراقية ترى أن تاريخ تحمّلها المسؤولية يُعدّ منذ تسلّم الملك فيصل المسؤولية في العراق وهو ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩هـ (٢٣ آب ١٩٢١م) إذ لا تستطيع العراق قبول مبدأ الإخراج لشمّر لأن ذلك يسبب لها مشكلات مع سوريا ، ومع تركيا وحتى مع إيران .

طلب الوفدان تأجيل المؤتمر ، وتمّ ذلك . . . ونتيجة البرقيات والمراسلات تم الاتفاق على أن يكون موعد استئناف اللقاء في ١٩ شعبان ١٣٤٢هـ (٢٥ آذار ١٩٢٤م) ،واقترب موعد اللقاء ، واتجه الوفد العراقي إلى الكويت ، ولما وصل إلى البصرة جاءت الأخبار أن الأمر قد تغيّر ، فإن خلافاً شديداً قد نشب بين الهاشميين الذين يحكمون الحجاز ، والأردن ، والعراق ، وبين السعوديين في نجد ، وذلك لأن الهاشميين في الحجاز يمنعون النجديين من أداء فريضة الحج فثارت ثائرة العلماء في نجد ، واتجهت حملة من نجد نحو الحجاز ، واستولوا عليها ، واضطر الحسين للتنازل لابنه علي عن الملك ، ثم اتفق الملك علي وخصومه على الرحيل عن الحجاز وتسليمها لسلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

وسارت حملة أخرى إلى الأردن غير أنها فشلت ، واستعدت العراق لتلقّي هجوم حملة نقلت عنها الأخبار . . . . ولكن لم يحدث سوى شن بعض الغارات .

مؤتمر بحرة : كان وزير المستعمرات البريطاني (إمري) في العراق أثناء وقوع بعض الاشتباكات القبلية بين العراق ونجد ، فرأى أن يُعقد مؤتمر جديد ، يضمّ ممثلاً عن انكلترا وآخر عن نجد لتسوية هذه العلاقات ، وفي حالة عدم رضوخ سلطان نجد لهذا فإن انكلترا عندها ستتولّى موضوع الأمن في العراق . وقام (إمري) بالاتصالات اللازمة ، وتمّ الاتفاق على أن يكون اللقاء في (بحرة) يوم ١٤ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٢٥م) ، وقد مثّل نجد سلطانها ، ومثّل انكلترا (جلبرت كلابتن) وهو في الوقت نفسه مُخوّلاً عن حكومة العراق ، وكان يُرافقه توفيق السويدي . وتمّ الاتفاق على شروطٍ معينةٍ من بينها تشكيل محكمةٍ من عددٍ متساوٍ من ممثلي الحكومتين في العراق ونجد لبحث التعديات التي تقع وراء الحدود ، وتحديد الأضرار ، وتعيين المسؤولين ، وتلتقي المحكمة بين الحين والآخر . وألا تتفاوض حكومة منهما مع عشائر الحكومة الأخرى ، ولا تتعقب المجرمين ضمن حدود الدولة الثانية .

بنت الحكومة العراقية بعض الحصون على الحدود لتجنُّب الغارات ، فكانت كمخافر ، فاحتجت نجد بأن هذا العمل مخالف للمادة الثالثة من اتفاق (العقير) التي تنصّ على أن « تتعهد الحكومتان كل من قبلها ألا تستخدم الماء والآبار الموجودة على أطراف الحدود لأي غرضٍ حربيٍ ، كوضع قلاعٍ عليها ، وألا تُعبىء جنوداً في أطرافها » .

دعت الأحداث إلى لقاءاتٍ جديدةٍ لبحث أوضاع الغارات على الحدود بين الدولتين ، وتمّ الاتفاق على اللقاء في جدة .

مؤتمر جدة : بدأ اللقاء في جدة في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٦هـ (٨ أيار ١٩٢٨م) ، ولكن لم يلبث أن تأجّل بسبب اقتراب موسم الحج . وبعد انتهاء الموسم عادت اللقاءات لتُستأنف من جديدٍ ، غير أن الخلاف قد ظهر من البداية حول وجود المخافر على الحدود ، وتمسّك كل برأيه ، وانفضّ اللقاء دون نتيجةٍ .

وعادت قضايا الأمن تظهر من جديدٍ ، ولكن بدا على الساحة أمر جديد ، وهو تمرّد فيصل الدويش شيخ قبيلة (مطير) في باديته المتاخمة لحدود العراق . فكان هذا مجالاً للقاءٍ رفيع المستوى بين العراق والسعودية . وهيّأ المعتمد البريطاني السامي هذا اللقاء على أن يكون قريباً من حدود البلدين وأن يحضره عاهلا الدولتين ، غير أنه تأجّل ، لانتقال مقرّ ملك المملكة العربية السعودية إلى قرب الحدود الكويتية . وأخيراً تمّ اللقاء بعد أن سلّمت انكلترا (فيصل الدويش) إلى حكومته .

مؤتمر الدارعة لوبن : والدارعة لوبن إنكليزية ترسو في الخليج العربي ، وحضر اللقاء الملك فيصل ملك العراق ووفد يُرافقه ، والملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود ووفد يُرافقه . وتمّ الاتفاق على عقد معاهدة حسن جوارٍ بين الدولتين ، وعلى المخافر على الحدود ، وعلى التفاهم حول ما نهبته القبائل من نجد ، وفرّت به إلى العراق . وانتهى الاجتماع في ٢٥ رمضان ١٣٤٨هـ (٢٤ شباط ١٩٣٠م) .

ووُقّعت معاهدة حسن جوارٍ في مكة المكرمة بين الطرفين في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٩هـ (٧ نيسان ١٩٣١م) ، ومثّل العراق رئيس الوزراء نوري السعيد ومثّل السعودية فيصل بن عبد العزيز آل سعود النائب العام لوالده ، وزير الخارجية .

وفي اليوم الثاني لتوقيع معاهدة حسن الجوار وُقّعت معاهدة تسليم المجرمين بين الدولتين ، وقد وقّع المعاهدة الممثلان نفسهما .

العلاقات مع تركيا : احتلّت انكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى البصرة ، ومنها تقدّمت إلى بغداد ، واتجهت بعدها إلى الشمال ، فلما كانت جيوشها على أبواب ولاية الموصل طلبت الدولة العثمانية وقف إطلاق النار ، وأعلنت هدنة (موندروس) في ٢٦ محرم ١٣٣٧هـ (٣١ تشرين الأول ١٩١٨م) . وكان القائد العثماني علي إحسان قد انسحب من الموصل إلى (زاخو)

و (نصيبين) لبناء التحصينات اللازمة في الجبال . ولكن وصل إليه خبر هدنة (موندروس) ، فطلب من موظفيه العودة إلى الموصل ، ولكن القائد الإنكليزي (لجمن) طلب منه الإنسحاب بناءً على شروط المعاهدة ، وفي الوقت نفسه جاء الأمر إلى القائد الإنكليزي (كوب) بالزحف على الموصل ، فنفّذ الأمر . وهكذا احتلّت انكلترا البصرة وبغداد عسكرياً ، على حين دخلت الموصل دون قتالٍ ، وحلّت محلّ العثمانيين اتفاقاً. وتنازلت الدولة العثمانية عن أجزاء منها مكرهةً في معاهدة (سيفر) في ٢٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ (١٠ آب ١٩٢٠م) .

أخذت تركيا الدولة القومية الحديثة التي أُعدت لتقضي على الخلافة تقوى بدعم الحلفاء عامةً ، وانكلترا خاصةً ، ومن أجل كسب التأييد الشعبي صارت تُطالب بالموصل ، ولم تر انكلترا التخلّي عنها ما دامت قد شغلتها بعد انسحاب العثمانيين منها . فتشكّلت مجموعات تركية غير نظاميةٍ (أي ليست من قبل الحكومة التركية) وأخذت تعكر صفو الأمن .

عُقد مؤتمر لوزان الأول في ٣ ربيع الثاني ١٣٤١هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢م) ، فلم يقبل الأتراك بمسودة المعاهدة التي أُعدّت للمناقشة ، ولكن عندما عُقد مؤتمر لوزان الثاني في ٨ رمضان ١٣٤١هـ (٢٣ نيسان ١٩٢٣م) جاءت التعليمات أو الأوامر للأتراك بالموافقة ، فأعلنوا رضاهم ، وصرّحوا بأنهم يريدون الانصراف إلى إعمار بلادهم ، فهو أفضل لهم من الاشتغال بخلافاتٍ مع الدول المجاورة . وتعهّدت عصبة الأمم بحلّ النزاع القائم على الحدود بين العراق وتركيا فيما إذا عجزت الدولتان عن حلّه .

سافر وفد من العراق برئاسة المعتمد السامي البريطاني (برسي كوكس) ، وعضوية كل من الفريق طه الهاشمي ، و (غاردين) أحد ضباط الجيش الإنكليزي في العراق ، إلى استانبول لبحث موضوع الحدود بين العراق وتركيا ، واستمرّت المناقشات عدة أشهرٍ ، ولم يصل المفاوضون إلى نتيجةٍ ، فأُحيل الموضوع إلى عصبة الأمم .

قرّر مجلس عصبة الأمم في جنيف في ٢ ربيع الأول ١٣٤٣هـ (٣٠ أيلول ١٩٢٤م) إرسال لجنةٍ ثلاثيةٍ لجمع المعلومات ، وضمّت اللجنة أعضاء من المجر ، والنرويج ، وبلجيكا ، مع الموظفين اللازمين للجنة ، قامت اللجنة بزيارة لندن ، ومنها انتقلت إلى استانبول ، ومنها إلى بغداد ، ثم انطلقت إلى الموصل فوصلت إليها في ٣ رجب ١٣٤٣هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥م) ، ووسّعت اللجنة نطاق عملها حيث شمل مناطق أربيل ، وكركوك ، والسليمانية ، وغادرت أخيراً الموصل في ٢٤ شعبان ١٣٤٣هـ (١٨ آذار ١٩٢٥م) ، وقدّمت اللجنة اقتراحاتها إلى مجلس عصبة الأمم والتي تتلخّص في :

١ ـ أن تبقى المنطقة تحت انتداب عصبة الأمم لمدة خمسةٍ وعشرين عاماً .
٢ ـ يجب مراعاة رغبات الأكراد في تعيين إداريين منهم ، وأن تكون اللغة الكردية هي اللغة الرسمية في مناطقهم . وأضافت أن الأكراد إذا لم يعطوا تعهداً رسمياً في الإدارة المحلية لبلادهم فإنهم يفضّلون حكم الأتراك على حكم العرب .

ويلاحظ أن هذه الاقتراحات لم تتعدّ الرأي الصليبي الذي تسير عليه عصبة الأمم ، وخاصةً انكلترا ، ولم يكن همّ اللجنة سوى إعطاء هذا الرأي الصفة الرسمية .

واقترحت اللجنة أنه من الأفضل ضمّ هذه المناطق لتركيا ذات الوضع المستقر ، وإن كان من الضروري أن يحتفظ العراق بمنطقة ديالي . وتقدّمت اللجنة أيضاً ببعض التوصيات التي من أهمها ضرورة حماية الأقليات غير المسلمة ، وأكّدت على هذا ، وصوّرت أن هذه الأقليات مضطهدة ، وستؤول في النهاية إلى الوضع تحت حكم دولةٍ مسلمةٍ ، فيجب أخذ التعهدات اللازمة لضمان حرية عقيدتها . وكأن هذه الأقليات لم تكن من قبل في ظلّ الدولة الإسلامية ؟

ورفع الموضوع إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي ، ولما أُعيد بأن القرار هو حكم ، قرّر مجلس عصبة الأمم أن تكون الحدود بين العراق وتركيا كما جاء في قرار ١ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٢٤م) . ودعا المجلس انكلترا إلى عقد معاهدةٍ جديدةٍ مع العراق تضمن استمرار الانتداب مدة خمس وعشرين سنة . كما دعا المجلس انكلترا إلى أخذ التعهّدات لإقامة إدارة محليةٍ للأكراد ، وحماية الأقليات حسب ما أوصت به اللجنة .

لم تقبل تركيا بالقرار فتقدّمت انكلترا بعروضٍ أخرى وهي :

١ ـ تعقد انكلترا اتفاقاً مع تركيا تتعهد فيه بالمحافظة على سلامة أملاكها مقابل بقاء الموصل للعراق .
٢ ـ أن تجرد الموصل من وسائل الدفاع ، وتعدّ منطقة حيادٍ .
٣ ـ أن تقدم قرضاً لتركيا بمبلغ عشرة ملايين جنيه .
٤ ـ أن تتنازل عن جزءٍ من السليمانية .

ورفضت تركيا هذه العروض ، وأصرّت على موقفها كنوعٍ من المناورة أو اللعبة إذ أن الأمر في المنطقتين إنما هو لانكلترا ، أو أنها هي صاحبة الكلمة الأولى في الحكومتين ، وهي إن كانت رسمياً في العراق باسم الانتداب ، فهي في تركيا باسم التعاون والصداقة . وتعرف تركيا أن سرّ تمسّك انكلترا بالموصل إنما هو حقول النفط الموجودة في المنطقة .

وافقت الحكومة التركية على عقد معاهدةٍ ثلاثيةٍ عراقيةٍ ـ تركيةٍ ـ إنكليزيةٍ في ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٤٤هـ (٥ حزيران ١٩٢٦م) . وقد مثّل العراق نوري السعيد وكيل وزارة الدفاع ، ومثّل تركيا توفيق رشدي وزير الخارجية ، ومثّل انكلترا سفيرها في أنقرة .

شملت معاهدة رسم الحدود ، وجنسية سكان المناطق التي كانت موضع خلافٍ ، وموضوع استثمار النفط ، إذ تعهّدت انكلترا أن تدفع لتركيا ١٠٪ من

عائدات النفط[1] من : شركة النفط التركية ، والشركات والأشخاص الذين يستغلّون النفط ، والشركات الفرعية التي تُؤسّس ، وذلك لمدة خمسٍ وعشرين سنةً . وتلا ذلك عقد معاهدةٍ تجاريةٍ ، واتفاقية إقامة ، وتحسّنت الأوضاع بين البلدين .

منح امتياز النفط : كانت الدولة العثمانية قد منحت شركة النفط التركية للتنقيب عن النفط في ولايتي الموصل وبغداد يوم ٥ شعبان ١٣٣٢هـ (٢٨ حزيران ١٩١٤م) ، وقد أخبر الصدر الأعظم سعيد حلمي سفير إنكلترا في استانبول ذلك . غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى قد أوقف العمل ، فلما انتهت طالبت الشركة المذكورة الحكومة العراقية تجديد منح الامتياز ، وعدم منح الشركات الأخرى أي امتيازٍ ، وتدخّل المعتمد السامي البريطاني في الموضوع إذ أن أكثر أعضاء شركة النفط التركية من الإنكليز وحلفائهم ، وبعد مناقشاتٍ واجتماعاتٍ تقرّر : أن حقّ التنقيب عن النفط ، إنما هو في ولايتي الموصل وبغداد فقط ، ولا يتعدّى ذلك إلى سواهما . وأن التنقيب في ولاية بغداد يجب أن يُحصر في مناطق مُحدّدةٍ حتى لا تتداخل مع المناطق التي حصلت على التنقيب فيها شركة النفط الإنكليزية ـ الإيرانية . وأن التنقيب عن النفط فقط ولا يتعدّى ذلك إلى الإسفلت . ويجب ألا يُعطى حق امتياز التنقيب إلى أكثر من ستين سنةً ، بدءاً من توقيع الاتفاقية ، كما يجب ألا يمدّد أجل الاتفاقية ، وتصبح جميع أملاك الشركة ومشروعاتها بعد انقضاء المدة ملكاً للحكومة العراقية ، ويجب أن يكون للحكومة حصة في رأس المال بمقدار عشرين بالمائة بدلاً من الحصة السنوية التي تدفع لها من النفط المستثمر .

وتبيّن أن عصبة الأمم لا تُوافق على إعطاء منطقة الموصل إلى العراق إلا إذا منحت الحكومة العراقية حقّ التنقيب عن النفط إلى شركة النفط التركية ،

---

(١) عرض نوري السعيد على توفيق رشدي أن تدفع العراق لتركيا مبلغ نصف مليون ليرة استرلينية مقابل التنازل عن نصيبها ١٠٪ لمدة خمس وعشرين سنة ، ولكن الحكومة التركية لم تقبل ذلك ، ورأت أن يبقى نصيبها كما جاء في المعاهدة .

وأخيراً تمّ منح الشركة حقّ الامتياز وتمّ الاتفاق على اختيار الشركة خمساً وعشرين قطعةً من الأراضي التي يشملها الامتياز وذلك خلال خمس سنواتٍ من تاريخ العقد لتستغلّها في استثمار النفط ، وكانت تُطالب بين المدة والأخرى بتجديد هذا الوقت ، كلما تعثّرت في الاختيار أو تعسّرت في الحفر حتى تقدّمت بتعديل الامتياز أو استبداله بغيره ، وقد تحقّق لها عندما تسلّم نوري السعيد رئاسة الوزارة لأول مرة في ٢٣ شوال ١٣٤٨هـ (٢٣ آذار ١٩٣٠م) .

وزارة عبد المحسن السعدون الثانية : بعد توقيع الوزارة على إعطاء حقّ امتياز التنقيب عن النفط لشركة النفط التركية استقال وزير المعارف محمد رضا الشبيبي ، ثم استقال وزير العدلية رشيد عالي الكيلاني رغم أنه كان في اللجنة الوزارية التي عهد إليها بتدقيق شروط الامتياز ، ورغم أنه كان هو الذي يُقدّم التقارير الوافية إلى رئاسة مجلس الوزراء . وحاول رئيس الوزراء استمرار مهمة الوزيرين لكنهما رفضا عندما وقّع الامتياز ، فصدرت إرادة ملكية بإعطاء حقيبة وزارة المعارف إلى عبد الحسين الجلبي ، وحقيبة الوزارة العدلية إلى مزاحم أمين الباجه جي بالوكالة .

ثم تقدّم ياسين الهاشمي رئيس الوزراء باستقالة حكومته في ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٣ هـ (٢١ حزيران ١٩٢٥ م) .

كلف الملك فيصل الأول وزير الداخلية في الحكومة المستقيلة عبد المحسن السعدون بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ وقد تمّ تأليفها[1] في ٥ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ (٢٦ حزيران ١٩٢٥ م) .

---

(١) تم تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للمالية .
٤ ـ حكمت سليمان : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للأوقاف .
٧ ـ صبيح نشأت : وزيراً للدفاع .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للأشغال والمواصلات .

استصدرت الوزارة إرادةً ملكيةً بافتتاح المجلس النيابي في ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٣ هـ (١٦ تموز عام ١٩٢٥ م) ، وقد تمّ اجتماع المجلس ، وترأس الجلسة أكبر الأعضاء سناً ، وهو سليمان غزالة . ثم جرى انتخاب الرئيس ففاز رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية ، وهذا ما ألزمه على تقديم استقالته من الحكومة ، وقد قبلت الاستقالة ، واقتضى الأمر إلى إجراء تعديلٍ في الوزارة [١] .

وفي اليوم التالي تمّ تعيين أعضاء مجلس الأعيان[٢] من قبل الملك .

الأحزاب : في هذه الأثناء تشكل حزبان رئيسيان هما :

١ ـ حزب التقدّم : برئاسة عبد المحسن السعدون ، وقد حصل على الترخيص في ٣ صفر عام ١٣٤٤هـ (٢٢ آب ١٩٢٥م) ، ويعدّ هذا الحزب ، الحزب الحاكم .

٢ ـ حزب الشعب : برئاسة ياسين الهاشمي رئيس الحكومة المستقيلة[٣] ، وقد

---

(١) أصبحت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ ناجي السويدي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للأوقاف .
٧ ـ صبيح نشأت : وزيراً للدفاع ، ووزيراً للأشغال والمواصلات بالوكالة .

(٢) ينتخب المجلس النيابي على درجتين لمدة ٤ سنوات ، ويكمله مجلس الأعيان ، وقد اختار الملك سبعة عشر عضواً من مجلس الأعيان ، وبعد أسبوع اختار ثلاثة آخرين ، فكان مجلس الأعيان كما يأتي :

١ ـ إبراهيم الحيدري . ٦ ـ عبد الله النقيب . ١١ ـ جميل الزهاوي . ١٦ ـ مولود مخلص .
٢ ـ آصف قاسم آغا . ٧ ـ محمد علي فاضل . ١٢ ـ فؤاد الدفتري . ١٧ ـ حسين العطية .
٣ ـ أحمد الفخري . ٨ ـ صالح باش أعيان . ١٣ ـ يوسف عمانوئيل . ١٨ ـ يوسف السويدي .
٤ ـ حسن الشبوط . ٩ ـ عبد الله صافي . ١٤ ـ محمد الصدر . ١٩ ـ عبد الحسين الكليتدار
٥ ـ عبد الغني كبه . ١٠ ـ عداي الجريان . ١٥ ـ قادر سعيد زاده . ٢٠ ـ مناحيم دانيال .

(٣) وكان من أعضاء هذا الحزب البارزين : أحمد الداود نائباً للرئيس ، ومحمد رضا الشبيبي =

حصل على الترخيص في ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ (٣ كانون الأول ١٩٢٥م) ، ويُعدّ حزباً معارضاً .

وكان قد تشكل في بغداد حزب سياسي وعُرف باسم حزب الأمة ، وذلك في ١٩ المحرم ١٣٤٣ هـ (١٩ آب ١٩٢٤ م) ، وكان أكثر أعضائه من المعارضة لذا فقد بذلت جهود لتوحيده مع حزب الشعب ، إلا أن المحاولات لم تنجح .

معاهدة ١٩٢٦م : لا شكّ أن عصبة الأمم كانت تعمل بخطٍ موازٍ تماماً للسياسة الإنكليزية ، وقد دعا مجلس عصبة الأمم الحكومة البريطانية أن تعرض معاهدةً جديدةً على العراق تضمن فيها استمرار نظام الانتداب مدة خمس وعشرين سنةً إلا إذا قُبل العراق عضواً في عصبة الأمم قبل انتهاء هذه المدة ، وإذا أُبلغ المجلس عن المعاهدة الجديدة خلال ستة أشهرٍ فإنه سيضع الحدود بين العراق وتركيا كما تمّ الاتفاق عليها بشكلٍ قطعيٍ .

وافق مجلس الوزراء العراقي على ذلك ما دامت هناك إمكانية إعادة في المعاهدة كل أربع سنواتٍ ، وما دامت ستضمن ضمّ لواء الموصل إليها ، وما دام العمل ينتهي بها عند قبول العراق عضواً في عصبة الأمم ، وهذا ما تعهّدت انكلترا بالسعي إليه ،ووافق مجلس الوزراء على المعاهدة في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ (١٣ كانون الثاني ١٩٢٦م) .

وزارة جعفر العسكري الثانية : افتتح المجلس النيابي في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) ، ورشّحت الوزارة حكمت سليمان رئيساً للمجلس النيابي ، ولكن النواب رشّحوا رشيد عالي الكيلاني ، ونجح مرشح النواب، فعدّ رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون هذا خذلاناً

= معتمداً ، وفخري جميل ، ورشيد الخوجة ، ونصرت الفارسي ، وسعيد الحاج ثابت الموصلي .

لوزارته وقدّم استقالة الحكومة غير أن الملك قد طلب منه استمرار العمل ريثما تتألّف حكومة جديدة ، وعهد إليه بتأليفها ثانية فلم يُوافق إلا إذا وافق الملك على حلّ المجلس النيابي ، ولم ير الملك ذلك لأن البلاد لا تزال في أول عهدها بالحياة النيابية .

استدعى الملك ممثله في لندن جعفر العسكري وكلّفه بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وفي ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) صدرت الإرادة الملكية بتشكيل الحكومة[١] .

وتمكّنت هذه الوزارة من إنهاء حركة محمود المعروف في منطقة السليمانية بالمفاوضة . ولكن فشلت المفاوضات في بغداد لتعديل الاتفاقيتين العسكرية، والمالية مع انكلترا ، وسافر رئيس الوزراء إلى لندن لاستئناف هذه المفاوضات ، وأناب عنه وزير المالية ياسين الهاشمي . وقد استطاع عقد معاهدةٍ جديدةٍ في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ (١٤ كانون الأول ١٩٢٧م)، وعاد إلى بغداد ، فوجد أن وزيري المالية والداخلية قد استقالا من منصبيهما . فقدّم استقالة وزارته .

أُحدثت في عهد هذه الحكومة وزارة الزراعة والري ، وأُسندت إلى عبد الحسين الجلبي، واستقال السيد عبد المهدي من الوزارة ، فتسلّم وزارة المعارف مكانه وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي ، على حين أُسندت وزارة الأشغال والمواصلات إلى علوان الياسري .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جعفر العسكري : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد الرؤوف الجادرجي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٦ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٧ ـ محمد أمين باش أعيان : وزيراً للأوقاف .
٨ ـ السيد عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

وتدفّق النفط في عهد هذه الوزارة في كركوك يوم ١٨ ربيع الثاني ١٣٤٦هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٢٧م) بينما كان المهندسون والعمال يمارسون أعمالهم وأدّى إلى مقتل عددٍ منهم .

وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة : فاتح الملك عبد المحسن السعدون بتأليف وزارةٍ جديدةٍ تخلف وزارة جعفر العسكري المستقيلة فاشترط حلّ المجلس النيابي الذي سبق له أن خذله ، وصارح الملك بأن هذا المجلس لن يُوافق على المعاهدة التي عقدها جعفر العسكري في لندن[1] .

وقدّم عبد المحسن السعدون الوزراء الذين وقع الاختيار عليهم إلى الملك فصدرت الإرادة الملكية في ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٢٨م) بتعيين الوزراء[2] .

صدر أمر بحلّ المجلس النيابي في ٢٧ رجب ١٣٤٦هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٢٨م) والبدء بالعمل لإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ .

وجاء إلى العراق (الفريد موند) وهو يهودي بريطاني ، فخرج الطلاب بمظاهراتٍ ضدّه في ٢٧ شعبان ١٣٤٦هـ (١٨ شباط ١٩٢٨م) فاتخذت إجراءات صارمة ضدّهم ، اعترض عليها وزير العدلية حكمت سليمان إذ كانت دون رأيه ، وتقدّم باستقالته ، وطُلب منه تأجيل الاستقالة إلى ما بعد

---

(١) وعدت إنكلترا العمل على إدخال العراق عضواً في عصبة الأمم عام (١٩٣٢م) ضمن شروط .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٤ ـ حكمت سليمان : وزيراً للعدلية .
٥ ـ عبد المحسن شلاش : وزيراً للأشغال .
٦ ـ سلمان البراك : وزيراً للري والزراعة .
٧ ـ توفيق السويدي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ أحمد الداود : وزيراً للأوقاف .
٩ ـ رئيس الوزراء : وكيلاً لوزارة الدفاع .

إجراء الانتخابات النيابية فوافق .

ورجع الخلاف عند الحدود مع نجد ، وكانت الغارات القبلية .

جرت الانتخابات النيابية ، واجتمع المجلس في ٣٠ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (١٩ أيار ١٩٢٨م) ، وانتخب وزير الداخلية عبد العزيز القصاب رئيساً للمجلس .

تمرّد غضبان الخيون ، أحد زعماء قبائل بني أسد ، وقامت الطائرات البريطانية بقصف مواقعه ولكنه لم يستسلم ، وأخيراً اضطر إلى الهرب من العراق .

جرى تعديل وزاري بعد استقالة وزير العدلية[١] .

كانت المعاهدة مع انكلترا قد نصّت بالعمل على عقد اتفاقيتين تحلّان محلّ الاتفاقيتين المالية والعسكرية السابقتين ، فلما شرعت الحكومة بالمفاوضات وجدت الطرق أمامها مسدودةً ، وهذا ما حدا بها إلى تقديم استقالتها في ٩ شعبان ١٣٤٧هـ (٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩م) . وبقيت البلاد دون وزارةٍ ما يزيد على ثلاثة أشهرٍ .

وانتهت مدة خدمة المعتمد السامي البريطاني (هنري دوبس) قبل أوانها نتيجة الخلاف الذي جرى بينه وبين الملك فيصل ، وجاء معتمد سامٍ جديد هو (كلبرت كلايتن) ، وعندها عهد الملك فيصل إلى توفيق السويدي ، فشكّل الوزارة[٢] في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (٢٨ نيسان ١٩٢٩م) .

---

(١) عُيِّن ناجي شوكت وزيراً للداخلية ، ونوري السعيد وزيراً للدفاع ، وداود الحيدري وزيراً للعدلية .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .

٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .

٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .

٤ ـ داود الحيدري : وزيراً للعدلية .

٥ ـ سلمان البراك : وزيراً للري والزراعة .

٦ ـ عبد المحسن شلاش : وزيراً للأشغال والمواصلات .

=

لما كان رئيس المجلس النيابي عبد العزيز القصاب قد عين وزيراً للداخلية ، لذا فقد أصبحت الرئاسة شاغرةً ، وجرى انتخاب فنجح عبد المحسن السعدون في هذه الرئاسة .

وجرت مظاهرات عنيفة ضد الحركة الصهيونية ، وهذا ما أثار قلق اليهود في العراق ، وأخذ التفكير يتجه نحو الارتحال إلى فلسطين .

وكانت مهمة الوزارة موقتةً ، لذا فلا بدّ من تقديم استقالتها ، وخاصةً بعد أن ألغت انكلترا الشرط الذي قيّدت به العراق للدخول في عصبة الأمم ، إذن لا بدّ من الدخول في مفاوضاتٍ مع انكلترا لتنظيم العلاقات الواجب اتخاذها قبل الدخول في عصبة الأمم .

تقدّم رئيس الوزراء باستقالة حكومته في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٨هـ (٢٥ آب ١٩٢٩م)، وقُبلت،ولكن بقيت الوزارة تُمارس مهامها حتى تشكّلت حكومة عبد المحسن السعدون الرابعة[1] في ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ (١٩ أيلول ١٩٢٩م) ، بعد أن أبلغت انكلترا العراق في العاشر من ربيع الثاني أنها مستعدة إلى دعم ترشيح العراق للدخول في عصبة الأمم عام (١٩٣٢م) ، وأنها سوف تبلغ مجلس عصبة الأمم ذلك ، كما ستبلغه أنها قد قرّرت عدم العمل في معاهدة (١٩٢٧م) .

= ٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للدفاع .
٨ ـ خالد سليمان : وزيراً للمعارف .

وقد أُلغيت وزارة الأوقاف ، وبقيت مديريةً .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد المحسن السعدون : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ ناجي شوكت : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عبد العزيز القصّاب : وزيراً للري والزراعة .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

كانت هذه الوزارة ترغب في سرعة التصديق على المعاهدة كي تكون هناك سرعة في دخول عصبة الأمم ، وإنهاء مسؤولية انكلترا في الدفاع عن البلاد ، وتطبيق الجندية الإلزامية ، ووضع موظفين عراقيين مكان الموظفين الأجانب ، وإنهاء عقود الأجانب التي دون خمس سنوات ، والاستغناء عن نصف المفتشين الإداريين . ومحاولة ربط أعمال الوزارة بالوزير نفسه ، أو بالأحرى عدم تجاوز صلاحية المستشار الإنكليزي حيث ترى الحكومة أنها لم تعد بحاجة إلى هؤلاء المستشارين الذين أصبحوا يُمارسون عمل الوزير ، والإدارة كافة .

وفي ٧ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ (١١ أيلول ١٩٢٩م) مات المعتمد السامي البريطاني (كلبرت كلايتن) في بغداد بالسكتة القلبية ، فعيّنت انكلترا مكانه (فرنسيس همفريز) .

وفي ٣٠ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ (٢ تشرين الثاني ١٩٢٩م) افتتح مجلس الأمة ، وانتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، وتوفيق السويدي رئيساً لمجلس النواب .

تألّفت لجنة وزارية لمفاوضة انكلترا، وقد ضمّت وزير الداخلية ناجي السويدي ، ووزير المالية ياسين الهاشمي ، ووزير الدفاع نوري السعيد .

وفي ١١ جمادى الآخرة ١٣٤٨هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م) شنّت المعارضة هجوماً على الحكومة فلم يتمالك رئيس الوزراء نفسه فأطلق الرصاص في صدره ، فقضى نحبه .

كلّف الملك فيصل وزير الداخلية ناجي السويدي برئاسة وزارة بالوكالة ، فامتثل وتسلّم منصب الحكومة بالوكالة ، وقد بقي أعضاء الحكومة هم أنفسهم ، وجرى بعض التعديل في توزيع الحقائب[1] ، كما انضمّ وزير

---

(١) كان التوزيع الجديد للحقائب الوزارية على النحو الآتي : =

جديد هو خالد سليمان .

أعلن رئيس الوزراء الجديد ناجي السويدي أن وزارته تسير على نهج سابقتها ، وبالفعل فقد أخذت تُقلّل من أعداد الموظفين الإنكليز ، وهذا ما أزعج المعتمد السامي البريطاني (فرنسيس همفريز) وحاول أن يقف في وجه الحكومة فلم يُسمع إليه ، فاضطر أن يطلب من الملك أن يُؤخّر موافقته على القرارات الوزارية . فما كان من رئيس الحكومة إلّا أن قدّم استقالته في ٩ شوال ١٣٤٨هـ (٩ آذار ١٩٣٠م) .

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن اللجنة التي شُكّلت لمفاوضة الجهة البريطانية التي كان يُمثّلها المعتمد السامي البريطاني ، قد وجدت ثلاث نقاط يجب بحثها وهي :

١ ـ تعديل الاتفاقية المالية والعسكرية ، حيث هناك اعتراض على قوة الطيران البريطانية الموجودة في العراق .

٢ ـ التجنيد الإلزامي .

٣ ـ امتلاك ميناء البصرة والسكك الحديدية .

أما الإنكليز فيرون أن قوة الطيران البريطانية لا يقصد منها سوى تأمين الاتصال مع الهند ، ولا مصلحة لهم فيها في العراق سوى ذلك .

وأما التجنيد الإلزامي فيرون أنه ليس من مصلحة حكومة العراق الأخذ به ، لأن الشعب لا يريده ، ولا يرغب في إرسال أبنائه إلى المعسكرات ، فإذا ما أخذ به فإن الشعب سيقوم بردّة فعلٍ ضدّ الحكومة ، وتُولّد نقمة عليها .

وأما السكك الحديدية ، وميناء البصرة فترى انكلترا تشكيل هيئةٍ لها على

= ١ ـ ناجي السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .

٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .

٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .

٤ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للعدلية .

٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .

٦ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .

٧ ـ خالد سليمان : وزيراً للري والزراعة .

٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

أن يكون أكثر أعضائها من الإنكليز .

وفي عهد هذه الوزارة تم عقد اتفاقيةٍ مع الولايات المتحدة تستطيع بموجبها إقامة مؤسسات صحية وثقافية ، وبعث إرساليات تنصيريةٍ إلى العراق .

كما تمّ في عهدها اللقاء بين الملك فيصل وسلطان نجد على ظهر الدارعة البريطانية (لوبن) في ٢٤ رمضان عام ١٣٤٨هـ (٢٢ شباط ١٩٣٠م) .

وزارة نوري السعيد الأولى : بعد أن قدّم ناجي السويدي استقالة حكومته في ٩ شوال ١٣٤٨ هـ عهد الملك إلى نوري السعيد بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ [1] فتمّ تشكيلها وصدرت الإرادة الملكية بتعيين أعضائها في ٢٣ شوال ١٣٤٨ هـ (٢٣ آذار ١٩٣٠ م) .

صدرت إرادة ملكية بحل المجلس النيابي في ٥ صفر عام ١٣٤٩ هـ (الأول من تموز ١٩٣٨ م) ، والبدء بانتخاب مجلس جديد .

وصدرت تعليمات ، ومن ثم قانون باعتبار اللغة الكردية لغةً رسميةً في المناطق الكردية ، وهذا ما سيكون له أكبر الخطر في الدعوة إلى الانفصال والتجزئة ، كما سبق أن ذكرنا .

وكانت الأزمة الاقتصادية في العالم قد بلغت أوجها ، وتأثّرت بها معظم الدول ، وإن كانت بنسبٍ متفاوتةٍ ، فقامت الحكومة في العراق ببعض الإجراءات لتخفيف حدة هذه الأزمة في البلاد ، ومن هذه الإجراءات ، إعطاء المزارعين بعض المبالغ من المال كسلفة . وإعفاء المواطنين من ديون

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .

٢ ـ جميل المدفعي : وزيراً للداخلية .

٣ ـ علي جودت : وزيراً للمالية .

٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .

٥ ـ جميل الراوي : وزيراً للمواصلات والأشغال .

٦ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع .

٧ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً بالوكالة للزراعة والري .

الدولة ، والطلب من انكلترا تحمّل نفقات دار اعتمادها في بغداد .

والأمر البارز في عمل هذه الحكومة التوقيع على المعاهدة العراقية ـ البريطانية الجديدة ، وقد بدأت المفاوضات في ٤ ذي القعدة ١٣٤٨ هـ (٢ نيسان ١٩٣٠ م) ، ودارت حول نقطتين أساسيتين :

١ ـ الاعتراف بحفظ وحماية المواصلات الجوية الإنكليزية في العراق بصورةٍ دائمةٍ ، وفي جميع الأحوال .

٢ ـ دخول العراق في عصبة الأمم عام (١٩٣٢ م) .

وكان الملك فيصل يُشرف على هذه المفاوضات بنفسه ، واضطر إلى السفر إلى لندن في ٢٧ محرم عام ١٣٤٩هـ (٢٣ حزيران ١٩٣٠م) ، وأناب عنه أخاه الأكبر علياً . وتمّ التوقيع على المعاهدة في ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ، وفي اليوم التالي صدر الأمر بحلّ المجلس النيابي ، وسافر نوري السعيد إلى لندن للمفاوضة في أمر القضايا المالية المعلّقة بين العراق وانكلترا ، وأناب عنه صهره وزير الدفاع جعفر العسكري . وهكذا أصبح الملك ورئيس وزرائه في لندن .

نُشرت بنود المعاهدة[1] في ٢٢ صفر فلقيت مُعارضةً واسعةً

---

(١) كانت مواد المعاهدة كما يلي :

المادة الأولى : يسود سلم وصداقة دائمين بين صاحب الجلالة ملك العراق ، وبين صاحب الجلالة البريطانية ، ويؤسّس بين الفريقين الساميين المتعاقدين تحالف وثيق توطيداً لصداقتهما وتفاهمهما الودي وصلاتهما الحسنة . وتجري بينهما مشاورات تامة وصريحة في جميع شؤون السياسة الخارجية مما قد يكون له مساس بمصالحهما المشتركة .

ويتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن لا يقف في البلاد الأجنبية موقفاً لا يتفق وهذا التحالف أو قد يجعل مصاعب للفريق الآخر .

المادة الثانية : يُمثّل كلاً من الفريقين الساميين المتعاقدين لدى بلاط الفريق السامي المتعاقد الآخر ممثل سياسي يعتمد وفقاً للأصول المرعية .

المادة الثالثة : إذا أدّى أي نزاع بين العراق وبين دولةٍ ثالثةٍ إلى حالة يترتب عليها خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة يُوحّد حينئذٍ الفريقان الساميان المتعاقدان مساعيهما لتسوية ذلك =

. . . .

= النزاع بالوسائل السلمية وفقاً لأحكام عصبة الأمم ، ووفقاً لأي تعهداتٍ دوليةٍ أخرى يمكن تطبيقها على تلك الحالة .

المادة الرابعة : إذا اشتبك أحد الفريقين الساميين المتعاقدين بحرب رغم أحكام المادة الثالثة أعلاه يبادر حينئذٍ الفريق السامي المتعاقد الآخر فوراً إلى معونته بصفة كونه حليفاً ، وذلك دائماً وفق أحكام المادة التاسعة أدناه .

وفي حالة خطر حرب محدق يبادر الفريقان الساميان المتعاقدان فوراً إلى توحيد المساعي في اتخاذ تدابير الدفاع المقتضية .

إن معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب ، أو خطر حربٍ محدقٍ تنحصر في أن يُقدّم إلى صاحب الجلالة البريطانية في الأراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يُقدّمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام السكك الحديدية ، والأنهار ، والموانىء ، والمطارات ، ووسائل المواصلات .

المادة الخامسة : من المفهوم بين الفريقين الساميين المتعاقدين أن مسؤولية حفظ الأمن الداخلي في العراق ـ بشرط مراعاة أحكام المادة الرابعة أعلاه ومسؤولية الدفاع عن العراق تجاه الاعتداء الخارجي تنحصران في صاحب الجلالة ملك العراق .

ومع ذلك يعترف جلالة ملك العراق بأن حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الأساسية بصورةٍ دائمةٍ في جميع الأحوال هما من صالح الفريقين الساميين المتعاقدين المشترك .

من أجل ذلك وتسهيلاً للقيام بتعهدات صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للمادة الرابعة أعلاه يتعهد جلالة ملك العراق بأن يمنح صاحب الجلالة البريطانية طيلة مدة التحالف موقعين لقاعدتين جويتين ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية في البصرة أو في جوارها ، وموقعاً واحداً لقاعدةٍ جويةٍ ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية في غرب نهر الفرات .

وكذلك يأذن ملك العراق لصاحب الجلالة البريطانية في أن يُقيم قواتٍ في الأراضي العراقية في الأماكن الآنفة الذكر ، وفقاً لأحكام ملحق هذه المعاهدة ، على أن يكون مفهوماً أن وجود هذه القوات لن يعتبر بوجهٍ من الوجوه احتلالاً ، ولن يمسّ على الإطلاق حقوق سيادة العراق .

المادة السادسة : يُعدّ ملحق هذه المعاهدة جزءاً منها لا يتجزأ عنها .

المادة السابعة : تحلّ هذه المعاهدة محلّ معاهدتي التحالف الموقّع عليهما في بغداد في العاشر من شهر تشرين الأول لسنة اثنتين وعشرين وتسعمائة بعد الألف النصرانية ، والموافق للتاسع عشر من شهر صفر لسنة إحدى وأربعين وثلاثمائة بعد الألف الهجرية . وفي اليوم الثالث عشر من =

. . . .

= شهر كانون الثاني لسنة ست وعشرين وتسعمائة بعد الألف النصرانية الموافق لليوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة لسنة أربع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف الهجرية مع الاتفاقات الفرعية الملحقة بها التي تصبح ملغاةً عند دخول هذه المعاهدة حيز التنفيذ .

وتوضع هذه المعاهدة في نسختين في كل من اللغتين العربية والإنكليزية ، ويُعدّ النص الأخير النص المعول عليه .

المادة الثامنة : يعترف الفريقان الساميان المتعاقدان بأنه عند الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة تنتهي من تلقاء نفسها ، وبصورةٍ نهائيةٍ جميع المسؤوليات المترتبة على صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق وفقاً للمعاهدات والاتفاقات المشار إليها في المادة السابعة من هذه المعاهدة وذلك فيما يختص بصاحب الجلالة البريطانية ، وإذا بقي شيء من هذه المسؤوليات فتترتب على صاحب الجلالة ملك العراق وحده .

ومن المعترف به أن كل ما يبقى من المسؤوليات المترتبة على صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق وفقاً لأية وثيقةٍ دوليةٍ أخرى ينبغي أن يترتب كذلك على جلالة ملك العراق وعلى الفريقين الساميين المتعاقدين أن يبادرا فوراً إلى اتخاذ الوسائل المقتضية لتأمين نقل هذه المسؤوليات إلى صاحب الجلالة ملك العراق .

المادة التاسعة : ليس في هذه المعاهدة ما يرمي بوجهٍ من الوجوه إلى الإخلال بالحقوق والتعهدات المترتبة أو التي قد تترتب لأحد الفريقين الساميين المتعاقدين أو عليه وفقاً لميثاق عصبة الأمم أو معاهدة تحريم الحرب الموقع عليها في باريس في (٢٧ آب ١٩٢٨م) .

المادة العاشرة : إذا نشأ خلاف ما يتعلق بتطبيق هذه المعاهدة أو تفسيرها فلم يُوفّق الفريقان الساميان المتعاقدان إلى الفصل فيه بالمفاوضة رأساً بينهما فإن الخلاف يُعالج حينئذٍ وفقاً لأحكام ميثاق عصبة الأمم .

المادة الحادية عشرة : تبرم هذه المعاهدة ، ويتمّ تبادل الإبرام بأسرع ما يمكن ، ثم يجري تنفيذها عند قبول العراق عضواً في عصبة الأمم . وتظل هذه المعاهدة نافذة المفعول مدة خمس وعشرين سنة بدءاً من تاريخ تنفيذها . وفي أي وقتٍ ما بعد عشرين سنة من تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، على الفريقين الساميين المتعاقدين أن يقوما بناءً على طلب أحدهما بعقد معاهدةً جديدةً ينصّ فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الأساسية في جميع الأحوال ، وعند الخلاف في هذا الشأن يُعرض ذلك الخلاف على مجلس عصبة الأمم .

الملحق العسكري

١ ـ يُعينّ صاحب الجلالة البريطانية من حينٍ لآخر مقدار القوات التي يقيمها جلالته في =

. . . .

= العراق وفقاً لأحكام المادة الخامسة من هذه المعاهدة ، وذلك بعد مشاورة صاحب الجلالة ملك العراق في الأمر .

ويقيم صاحب الجلالة البريطانية قوات في الهنيدي لمدة خمس سنوات بعد الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، وذلك لكي يمكن صاحب الجلالة ملك العراق من تنظيم القوات المقتضية لتحلّ محل تلك القوات ، وعند انقضاء تلك المدة تكون قوات صاحب الجلالة البريطانية قد انسحبت من الهنيدي ، ولصاحب الجلالة البريطانية أيضاً أن يُقيم قوات في الموصل لمدة أقصاها خمس سنوات تبتدىء من تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة ، وبعد ذلك لصاحب الجلالة البريطانية أن يضع قواته في الأماكن المذكورة في المادة الخامسة من هذه المعاهدة ، ويُؤجّر صاحب الجلالة ملك العراق مدة هذا التحالف صاحب الجلالة البريطانية المواقع الضرورية لإسكان قوات صاحب الجلالة البريطانية في تلك الأماكن .

٢ ـ بشرط مراعاة أي تعديلات قد يتفق عليها الفريقان الساميان المتعاقدان على إحداثها في المستقبل تظلّ الحصانات والامتيازات في شؤون القضاء والعائدات الحكومية (وفي ذلك الإعفاء من الضرائب) التي تتمتع بها القوات البريطانية في العراق وتشمل القوات المشار إليها في الفقرة الأولى أعلاه ، وتشمل أيضاً قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع الأصناف ، وهي القوات التي يحتمل وجودها في العراق عملاً بأحكام هذه المعاهدة وملحقها ، أو وفقاً لاتفاقٍ يتمّ عقده بين الفريقين الساميين المتعاقدين ، وأيضاً يواصل العمل بأي تشريعٍ محلي له مساس بقوات صاحب الجلالة البريطانية المسلحة ، وتتخذ الحكومة العراقية التدابير اللازمة للتثبت من أن الشروط المتبدلة لا تجعل موقف القوات البريطانية فيما يتعلّق بالحصانة والامتيازات أقلّ ملاءمةً بوجهٍ من الوجوه من الموقف الذي تتمتع به هذه القوات عند تاريخ الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة .

٣ ـ يوافق جلالة ملك العراق على القيام بجميع التسهيلات الممكنة لنقل القوات المذكورة في الفقرة الأولى من هذا الملحق وتدريبها وإعالتها ، وعلى منحها عين تسهيلات استعمال اللاسلكي التي تتمتع بها عند الشروع في تنفيذ هذه المعاهدة .

٤ ـ يتعهد صاحب الجلالة ملك العراق بأن يقدم بناء على طلب صاحب الجلالة البريطانية وعلى نفقة صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للشروط التي يتفق عليها الفريقان الساميان المتعاقدان حرساً خاصاً من قوات صاحب الجلالة ملك العراق لحماية القواعد الجوية مما قد تشغله قوات جلالة ملك بريطانيا وفقاً لأحكام هذه المعاهدة ، وأن يؤمّن سنّ القوانين التشريعية التي قد تقتضيها تنفيذ الشروط الآنفة الذكر .

٥ ـ يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن يقوم عند كل طلبٍ يطلبه صاحب الجلالة =

= ملك العراق بجميع التسهيلات الممكنة في الأمور التالية ، وذلك على نفقة جلالة ملك العراق وهي :

أ ـ تعليم الضباط العراقيين الفنون البحرية والعسكرية والجوية في المملكة المتحدة .

ب ـ تقديم الأسلحة ، والتجهيزات ، والعتاد ، والسفن ، والطائرات من أحدث طرازٍ متيسرٍ إلى قوات جلالة ملك العراق .

جـ ـ تقديم ضباط بريطانيين بحريين ، وعسكريين ، وجويين للخدمة بصفةٍ استشارية في قوات جلالة ملك العراق .

٦ ـ لما كان من المرغوب فيه توحيد التدريب والأساليب في الجيشين العراقي والبريطاني ، يتعهد جلالة ملك العراق بأنه إذا رأى ضرورة الالتجاء إلى مدربين عسكريين أجانب فإنهم يختارون من الرعايا البريطانيين . ويتعهد أيضاً بأن الأفراد الذين يرسلهم من قواته إلى الخارج للتدريب العسكري فإنما يرسلهم إلى مدارس وكليات ودور تدريب عسكرية في بلاد صاحب الجلالة البريطانية بشرط أن لا يمنع ذلك صاحب جلالة ملك العراق من إرسال الأفراد الذين لا يمكن قبولهم في المعاهد ودور التدريب المذكورة إلى أي بلاد أخرى . ويتعهد أيضاً بأن لا تختلف التجهيزات الأساسية لقوات جلالته وأسلحتها في نوعها عن أسلحة قوات صاحب الجلالة البريطانية وتجهيزاتها .

٧ ـ يوافق جلالة ملك العراق على أن يقوم عند طلب صاحب الجلالة البريطانية ذلك بجميع التسهيلات الممكنة لمرور قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع الأصناف العسكرية عبر العراق ، ولنقل ، وخزن جميع المؤن والتجهيزات التي قد تحتاج إليها هذه القوات أثناء مرورها في العراق ، وتتناول هذه التسهيلات استخدام طرق العراق ، والسكك الحديدية فيه ، وطرقه المائية ، وموانئه ومطاراته ، ويؤذن لسفن صاحب الجلالة البريطانية إذناً عاماً في زيارة شط العرب بشرط إعلام جلالة ملك العراق قبل القيام بتلك الزيارات للموانىء العراقية .

الملحق المالي

١ ـ تنقل حكومة المملكة المتحدة البريطانية العظمى وايرلندة الشمالية إلى الحكومة العراقية في خلال المدة المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف الموقّعة في (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) المطارات والمعسكرات التي في الهنيدي ، والموصل ، والتي تشغلها الآن قوات صاحب الجلالة البريطانية ، وتتقبل الحكومة العراقية انتقال هذه المطارات والمعسكرات إليها ، (عدا سقيفتين فولاذيتين من نوع (أ) ومعدات الثلج الموجودة في =

. . . .

= الهنيدي والموصل التي ستنقلها حكومة المملكة المتحدة) ، بثلث الثمن الذي تشهد وزارة الطيران لحكومة المملكة المتحدة بصحته ، ويشمل ذلك المباني ، والمعامل ، والمؤسسات ، والإنشاءات الدائمة الموجودة هناك ، ولا يدخل في هذا الحساب المباني الطينية التي تنتقل إلى الحكومة العراقية دون ثمن ، ولا تتأخر الحكومة العراقية في دفع هذا المبلغ إلى حكومة المملكة المتحدة عن التاريخ الذي يتم فيه الانتقال المذكور .

وفي خلال المدة القصوى المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف تظل قوات صاحب الجلالة البريطانية آمنة في إشغال مواقعها الحالية في الهنيدي والموصل والشعيبة ، وفي استعمال أماكنها الحالية المخصصة لنزول الطائرات الإضطراري ، ولا تطالب حكومة المملكة المتحدة بدفع بدل إيجار لهذه الأماكن يزيد على البدل الذي تدفعه الآن .

٢ ـ عند انسحاب قوات صاحب الجلالة البريطانية من الهنيدي والموصل وفق أحكام الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف إذا قررت حكومة المملكة المتحدة تأسيس قاعدة جوية بريطانية في جوار الحبانية فإن الحكومة العراقية تتخذ حينئذٍ جميع التدابير الممكنة دون أن يترتب في ذلك نفقات على أي من الحكومتين لإنشاء سكة حديدية تصل تلك القاعدة الجوية بالسكك الحديدية العراقية .

٣ ـ لا يستوفى بدل إيجار عن مواقع القواعد الجوية التي تؤجر من حكومة صاحب الجلالة البريطانية وفق أحكام المادة الخامسة من معاهدة التحالف متى كانت تلك المواقع في أراض حكومية خالية . أما إذا كانت تلك البقاع في أراضٍ غير حكومية فتجري جميع التسهيلات الممكنة لوجوب عقد تلك الايجارات بشروط معقولةٍ على أن تقوم حكومة العراق بعقد هذه الإيجارات بناءً على طلب حكومة المملكة المتحدة وعلى نفقة المملكة المتحدة ، وتعفى الأراضي المأجورة من جميع الضرائب والرسوم وتظلّ الإيجارات نافذة المفعول ما دامت قوات صاحب الجلالة البريطانية شاغلةً هذه القواعد وفق أحكام معاهدة التحالف السابقة الذكر ، أو وفق أحكام أي تمديدٍ آخر لها . وعند انقضاء أجل إيجار المواقع المذكورة أو أجل إيجار أي منها بصورةٍ نهائية إما أن تتسلم الحكومة العراقية نفسها المباني ، والمؤسسات ، والإنشاءات الدائمة المبنية في تلك المواقع بتقدير ثمنٍ معقول مع اعتبار استعمالها وإما أن تجري التسهيلات المعقولة التي تقضي بتمكين حكومة المملكة المتحدة من تصريفها على أفضل صورةٍ ممكنةٍ .

وبعد انقضاء المدة القصوى المنصوص عليها في الفقرة الأولى من ملحق معاهدة التحالف ، وما دامت معاهدة التحالف نافذة المفعول لا تطالب حكومة المملكة المتحدة بدفع أجور استعمال أي كان من الأماكن الحالية المخصصة لنزول الطائرات الاضطراري في العراق . =

٤ ـ تُنفّذ التدابير الآتية المتخذة للتصرف بالسكك الحديدية العراقية وإدارتها بأسرع ما يمكن ، وفي خلال مدةٍ لا يتعدّى حدّها الأقصى على كل حالٍ سنة واحدة ابتداءً من دخول معاهدة التحالف واقع التنفيذ .

أ ـ تنقل حكومة المملكة المتحدة ملكية السكك الحديدية الشرعية إلى الحكومة العراقية ، وتسجل باسم الحكومة العراقية ، وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه هذا الانتقال تخول هيئة خاصة أو نقابة ذات شخصية قانونية حق الانتفاع التام في سبيل الإيجار أو غيره وببدل إيجار اسمي وبشروط ترضاها حكومة المملكة المتحدة ، على أن تؤلف هذه الهيئة أو مجلس الإدارة بقانونٍ خاص تسنّه الهيئة التشريعية العراقية وتوافق على نصوصه كلتا الحكومتين .

ب ـ تكون النقابة جميعها مسؤولة عن إدارة السكك الحديدية العراقية وتدبير شؤونها ، ولها وحدها ، دون غيرها سلطة جمع رأسمالٍ جديدٍ باكتتابٍ عامٍ أو بعقد قرضٍ خاصٍ مع سلطة التصرف بدخل هذه السكك الحديدية على أن تراعي في ذلك القيود المفروضة في القانون المار ذكره .

ج ـ يتألف رأسمال النقابة المذكورة مما يأتي :

أولاً : يخصص لحكومة المملكة المتحدة ما قيمته ٢٧٥ لك روبية من الأسهم الممتازة بفائدة ٦٪ ، ولا تتراكم هذه الفائدة لمدة عشرين سنة ابتداءً من تاريخ انتقال ملكية السكك الحديدية ، ولكنها تتراكم بعد انقضاء هذه المدة . ويحسب ٢٥ لك روبية من هذا المبلغ قيمة رأس المال المدينة به السكك الحديدية لحكومة المملكة المتحدة على حساب التصفية .

ثانياً : يخصص ٤٥ لك و ٨٥ ألف روبية من الأسهم الممتازة بالشروط نفسها ، وهذا المبلغ يساوي المبالغ التي اقترضتها الحكومة العراقية للسكك الحديدية ، والتي أُعفيت من الفائدة .

ثالثاً : يخصص أيضاً للحكومة العراقية ٢٥٠ لك روبية من الأسهم المتأخرة ، وللحكومة العراقية الخيار في أن تشتري متى شاءت الأسهم المخصصة لحكومة المملكة المتحدة بقيمتها الأصلية .

د ـ يتألف مجلس إدارة النقابة من خمسة مديرين ، تُعيِّن الحكومة العراقية اثنين منهم ، والمملكة المتحدة تعين اثنين أيضاً . أما الخامس الذي يكون رأس مجلس الإدارة فيتم تعيينه باتفاق الحكومتين ، ويكون أول رئيس لمجلس الإدارة مدير السكك الحديدية العراقية الحالي .

تكون النقابة مسؤولة عن اقتراض رأس المال المطلوب لإصلاح السكك الحديدية العراقية وتوسعتها ، ولا تتعهد أي الحكومتين بضمان هذا القرض سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالفائدة أم برأس المال .

. . . .

هـ ـ كل رأس مال تقترضه النقابة لإصلاح السكك الحديدية العراقية أو لتوسعتها يقدم على الأسهم المخصصة للحكومتين وفقاً للفقرة (ج) السابقة .

و ـ تتقبل الحكومة العراقية بصفتها صاحبة الرقابة للسكك الحديدية التبعة النهائية عما يظهر فيما بعد من ديون على هذه السكك غير مترتبة على النقابة ، ومقابل هذه التبعة تحول حكومة المملكة المتحدة إلى الحكومة العراقية من الأسهم الممتازة ما تساوي قيمته الاسمية المبالغ التي لا يمكن استردادها مما قد تضطر الحكومة العراقية إلى دفعه تسديداً لتلك الديون ، وذلك متى ثبتت صحة تلك الديون ثبوتاً تقتنع به حكومة المملكة المتحدة .

ز ـ توقعاً لانتقال السكك الحديدية ، وتأليف النقابة تبادر الحكومة العراقية إلى منح عقود مدتها ثلاث سنوات وفق شروط (المعاهدة) لموظفي السكك الحديدية البريطانيين الذين قد يوصي بهم مدير السكك الحديدية العراقية لذلك ، ولا تبطل هذه العقود بعد منحها إلاّ بموافقة حكومة المملكة المتحدة . أما مسألة منح هؤلاء الموظفين عقوداً لمدة أطول من هذه المدة فتترك لقرار مجلس الإدارة بعد تأليفه .

٥ ـ إن امتلاك المملكة المتحدة لميناء البصرة ينتقل إلى الحكومة العراقية ، وتقوم بإدارة الميناء هيئة تدعى مجلس أمناء الميناء ، ولهذه الغاية يسنّ العراق تشريعاً بنصوص يتفق عليها مع حكومة المملكة المتحدة لتأليف مجلس أمناء الميناء ، له شخصية قانونية ، على ألاّ يعدل هذا التشريع إلاّ بموافقة حكومة المملكة المتحدة ما دام لحكومة المملكة المتحدة أي جزء كان من الدين المتعلق بالميناء .

وعند سنّ التشريع المذكور ، وتأليف مجلس أمناء الميناء ينتقل ملك الميناء إلى الحكومة العراقية ، ويسجل باسمها ، وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه هذا الانتقال يمنح مجلس أمناء الميناء حق الانتفاع التام على سبيل الإيجار ، أو الامتياز أو بواسطة أخرى مناسبة على أن توافق حكومة المملكة المتحدة على الشروط ، وذلك للمدة التي يكون فيها الميناء مديناً لحكومة المملكة المتحدة بأي جزءٍ كان من الدين .

المذكرة الإيضاحية

عند مناقشة بنود المعاهدة ، وقعت بعض الأسئلة حول المواد والتعبيرات التي رغب رئيس وزراء العراق في استيضاحها ، وقد تلقى نوري السعيد الأجوبة الآتية :

١ ـ تنص المادة الأولى من المعاهدة على أن يجري بينهما مشاورة تامة وصريحة .

إن هذه العبارة تنحصر في الشؤون الواقعة ضمن السياسة الخارجية ، وفي المصالح المشتركة الخارجية للفريقين المتعاقدين . أما الشؤون التجارية والاقتصادية البحتة فإنها خارجة عن نطاق هذه المادة .

. . . .

= ٢ ـ عطفاً على المادة الثالثة من المعاهدة فإنه في حالة وقوع نزاع بين بريطانيا العظمى وإحدى الدول المجاورة للعراق فإن الحكومة البريطانية تعمل بمشورة الحكومة العراقية وباتفاق الرأي معها وذلك بالصورة نفسها التي يعمل العراق بموجبها فيما لو كان النزاع بين العراق ودولة أخرى .

٣ ـ إن التسهيلات والمساعدات التي يقدمها العراق وفق أحكام المادة الرابعة من المعاهدة تكون على نفقة الحكومة البريطانية ، ولن يُكلِّف العراق شيئاً من ذلك .

٤ ـ إن المواصلات الأساسية لصاحب الجلالة البريطانية المنصوص عنها في الفقرة الثانية من المادة الخامسة هي المواصلات الجوية فوق العراق ، والمواصلات البحرية والجوية في رأس الخليج العربي .

٥ ـ إن ذكر القاعدتين الجويتين في البصرة أو بجوارها جاءت في النص الإنكليزي للمعاهدة بصيغة الجمع وذلك لعدم وجود التثنية في الإنكليزية ، فالعدد هو كما جاء في النص العربي ، وأيضاً في البيان الرسمي الصادر باتفاق المفاوضين في (١ تموز ١٩٣٠م) .

٦ ـ إن القوات البريطانية المسموح بإقامتها بموجب الفقرة الرابعة من المادة الخامسة هي قوات جوية صرفة مع الخدمات المساعدة .

٧ ـ ليس هناك أي معاهدة أو وثيقة سرية للحكومة البريطانية تتعلق بالعراق وتقع تحت مدلول الوثائق الدولية الملمح بها في الفقرة الثانية من المادة الثامنة من المعاهدة .

٨ ـ إن مجموع الحرس العراقي الوارد ذكره في الفقرة الرابعة من الملحق لا يتجاوز (١٢٥٠) رجلاً .

٩ ـ إيضاحاً لعبارة (مرور القوات عبر العراق) المشار إليها في الفقرة السابعة من الملحق فإن اتجاه هذا المرور قد حدد من غرب الفرات إلى الخليج العربي أو بالعكس .

١٠ ـ طلبت حكومة العراق إلى الحكومة البريطانية أن تزوّدها بقائمة للوثائق الدولية الملمح إليها في الفقرة الثانية من المادة الثامنة فتلقّت القائمة الآتية :

أولاً : التعهدات المقطوعة لشيخي الكويت والمحمرة عام (١٩١٤م) بشأن بساتين النخيل العائدة لهما في العراق .

ثانياً : اتفاقية النفط المؤرخة في سان ريمو في ٢٤ تموز (١٩٢٠م) .

ثالثاً : اتفاقية الحدود الإنكليزية ـ الفرنسية المؤرخة في ٢٤ كانون الأول(١٩٢٠م) .

رابعاً : معاهدة لوزان المؤرخة في ٢٤ تموز (١٩٢٤م) .

خامساً : معاهدة أنقره المؤرخة في ٥ حزيران (١٩٢٦م) .

وقد علّق رئيس الوزراء نوري السعيد على الوثيقة الأولى بقوله : (إن حكومة العراق لم =

= تعترف بأن التعهدات المقطوعة لشيخي الكويت والمحمرة أنها من جملة الوثائق الدولية التي تقع تحت مدلول المادة الآنفة الذكر .

الكتاب المختص بحرس المطارات

بعث نوري السعيد بهذا الكتاب إلى المعتمد السامي البريطاني (همفريز) يوم توقيع المعاهدة .

سيدي :

إشارة إلى المادة الرابعة من ملحق المعاهدة التي وقعناها اليوم أتشرف بإخباركم أنه عندما يأتي الوقت الذي تنفذ فيه أحكام تلك المادة ستكون الحكومة العراقية مستعدة للموافقة على الترتيبات التالية لأجل الحرس الخاص المشار إليه في هذا الملحق .

لا أتوقع أن تحصل ضرورة لاتخاذ أي تشريع لتأمين جريان هذا الترتيب بسهولة ، ولكن إذا كانت هناك نقطة ووجد من الجهة العملية أن القانون الحاضر لا يكفي بشأنها لهذا الغرض فإن التشريع اللازم سيمر دون تأخير .

أ ـ تتألف القوة من رجال لا يتجاوز عددهم (١٢٥٠) عدا الموظفين البريطانيين .

ب ـ تكون الخدمة في القوة اختيارية ، وتعفي هذه الخدمة أي عضو من القوة المذكورة من أحكام أي قانون لأجل الخدمة الإجبارية .

جـ ـ تكون القوة تحت قيادة قائد بريطاني ، ويكون العدد اللازم من الضباط البريطانيين والعراقيين الذين هم دونه درجة ، كلهم تابعين إلى جلالة ملك العراق ، ويدخل ضمن ذلك صغار الضباط ، وضباط الصف البريطانيون بحسب الحاجة ، وتكون لهم السلطات التي تختص برتبهم عادة ، وللقائد الصلاحية بوضع قواعد فيما يختص بالتجنيد ، والإدارة ، ونوع الأسلحة ، واللباس ، والتجهيزات ، وكيفية التدريب ، ومقدار الراتب وشروط الخدمة .

د ـ أما بخصوص النظام فستكون القوة باستثناء الموظفين البريطانيين خاضعة إلى النظام العسكري العراقي .

يمنح القائد والضباط البريطانيون التابعون السلطات الجزائية اللازمة ، ويكون للقائد الحرية التامة من جهة دعوة ديوان حرب وتأليفه ، تصدق الأحكام الصادرة من ديوان الحرب الذي لا يكون القائد عضواً فيه من قبله في الأحوال التي يكون فيها القائد نفسه عضواً في الديوان ، أو يكون الحكم الصادر منه يتجاوز الحبس سنة واحدة . ويجري تصديق الحكم من قبل وزير الدفاع .

هـ ـ تكون وظيفة القوة الأساسية حماية قواعد الطيران في العراق التي قد تكون بموافقة الحكومة العراقية مشغولة من قبل قوات صاحب الجلالة البريطانية ، وتتناول هذه الوظيفة

واحتجاجاتٍ كثيرةٍ ، وكان الأكراد ، والآشوريون من بين الفئات التي احتجّت حتى اضطر رئيس الوزراء بالنيابة جعفر العسكري إلى أن يُسافر مع وكيل المعتمد البريطاني إلى الألوية الشمالية ، لبث الطمأنينة في نفوس السكان .

وقّع رئيس الوزراء نوري السعيد على الاتفاقية المالية الجديدة في ٢٥ ربيع الأول ١٣٤٩ هـ (١٩ آب ١٩٣٠م) ، وعاد بعدها إلى بغداد في ٨ ربيع الثاني ١٣٤٩هـ (الأول من أيلول ١٩٣٠م) ، كما كان قد وقّع على الملحق العسكري بالمعاهدة ، الذي عدّته انكلترا جزءاً لا يتجزّأ من المعاهدة ، كما بعث كتاباً شخصياً إلى المعتمد السامي البريطاني يوم توقيع المعاهدة وتناول فيه قضية حرس المطارات وكان هذا الكتاب سرياً لم يطلع عليه الملك ، ولا الوزارة ، ولا المجلس النيابي ، وقد تمسّكت به انكلترا ، وعدّته صكّاً واجب التنفيذ .

أجرت الحكومة تبدلات واسعة بين كبار موظفي الدولة من متصرفين وقائمي مقام ، ومدراء عامين لتأمين نتائج الانتخابات لصالحها .

= مهمة المحافظة على مواد ومخازن قوات صاحب الجلالة البريطانية في العراق حيثما كانت . ولأجل القيام بهذه الوظائف التي تكون المسؤولية الإجرائية عائدة إلى القائد توضع القوة تحت تصرف قائد الطيران المطلق .

و ـ من المتفق عليه أنه قد تدعو الضرورة من وقت لآخر لأجل القيام بالوظائف المذكورة أعلاه بصورة منظمة أن يتلقى أعضاء القوة الأوامر من ضباط قوات صاحب الجلالة البريطانية . وتبلغ هذه الأوامر إلى القوة عادة بواسطة ضباطها غير أن الحكومة العراقية لا تعارض عند الحاجة في إصدار هذه الأوامر بصورة مباشرةً ، وتتخذ التدابير في هذه الحال لتأمين إجبار جميع أعضاء هذه القوة على امتثال هذه الأوامر ، وتمتعهم بالصيانات نفسها كما لو كانت الأوامر قد أعطيت من قبل ضباط قوات صاحب الجلالة ملك العراق . ومن المتفق عليه أن سلطة القيادة على القوات العراقية التي قد تمنح إلى ضابط قوات صاحب الجلالة البريطانية لا يمكن ممارستها إلاّ فيما يتعلق بالقوة الخاصة .

ز ـ تسدد نفقات القوة كلها من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية العظمى .

جرت الانتخابات النيابية ، وحدثت تدخُّلات حكومية لصالح مرشحيها ، ومقاطعة للانتخابات في لواء السليمانية ، وصدامات بين الأهالي والشرطة هناك ، ووقوع عدد من القتلى والجرحى ، وأُجّلت الانتخابات هناك مدة أسبوعٍ ثم جرت ، وفاز مرشحو الحكومة .

افتتح المجلس النيابي في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ (١ تشرين الثاني ١٩٣٠م) ، وانتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، وجعفر العسكري ، وزير الدفاع رئيساً لمجلس النواب ، فأسندت وزارة الدفاع إلى نوري السعيد رئيس الوزراء . واستطاعت الحكومة تمرير المعاهدة على المجلس النيابي ، وأخذ الموافقة عليها بشكلٍ سريع ، وادعاءاتٍ عاجلةٍ في جلسة يوم ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ (١٦تشرين الثاني ١٩٣٠م) .

أسّس نوري السعيد حزباً أسماه حزب « العهد العراقي » ونتيجة الانتخابات وتدخّل الحكومة فيها فقد حصل على الأكثرية الأمر الذي مكّنه من إبرام المعاهدة . ثم المصادقة عليها . وفي الوقت نفسه أسّست المعارضة حزب الإخاء الوطني ، الذي اتفق مع الحزب الوطني العراقي ، وتأليف الجبهة المتحدة لتقود المعارضة ، وقد تبنّت فكرة أن المعاهدة ظالمة جائرة يجب تعديلها ، وأن المجلس النيابي يجب أن يُحلّ لأنه لا يُمثّل الشعب نتيجة تدخّلات الحكومة في الانتخابات .

لم تستطع المعارضة التأثير على الحكومة ، وتغيير اتجاهها في المعاهدة ، فاضطر رؤساء المعارضة ياسين الهاشمي ، ورشيد عالي الكيلاني ، وعلي جودت الأيوبي على تقديم استقالاتهم من عضوية مجلس النواب ، واتهموا أعضاءه بموالاة الإنكليز، وقد وافق المجلس على هذه الاستقالة في ٢٧ شوال عام ١٣٤٩هـ (١٦ آذار ١٩٣١م) .

ورأى رئيس الوزراء نوري السعيد أن يُوجّه أنظار الشعب إلى الخارج ، ويُشغلهم عما في الداخل ، وعما يُوجّه إلى حكومته من انتقاداتٍ ، فسافر على

رأس وفدٍ ، في ٧ ذي القعدة ١٣٤٩هـ إلى عمان ، وعقد معاهدة صداقةٍ مع حكومة شرقي الأردن ، ومن عمان انتقل إلى مصر يوم ١٠ ذي القعدة ، ومن مصر سافر إلى مكة المكرمة فعقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع المملكة العربية السعودية في ٢٠ ذي الحجة . وكان طه الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي وأحد أعضاء الوفد قد سافر من مصر مباشرةً إلى صنعاء حيث عقد معاهدةً مع الإمام يحيى حميد الدين في ٢٢ ذي الحجة ١٣٤٩هـ .

استطاع الجيش العراقي في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٩هـ (١٣ أيار ١٩٣١م) أن يُرغم الزعيم الكردي محمود المعروف على الاستسلام ، وقد نقض العهد الذي أعطاه قبل أربع سنواتٍ ، وكان نقضه عندما حدثت الانتخابات في لواء السليمانية وأدّت إلى صدامات ، فقد طلب عندها محمود المعروف من المعتمد السامي البريطاني وجوب إنشاء دولةٍ كرديةٍ تمتدّ من (زاخو) إلى (خانقين) ، فلما أنذرته الحكومة العراقية بضرورة الابتعاد عن مثل هذه التصرفات لجأ إلى العنف ، وحرّض الأكراد على العصيان ، ونتيجة الضغط اضطر إلى الاستسلام ، وحُمل إلى (السماوة) ، ثم نقل إلى (الناصرية) ، وأخيراً سمح له بالإقامة في بغداد . وبقي فيها حتى حدث القتال بين الجيش العراقي والإنكليزي أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني فانتقل عندها إلى السليمانية بحجة جمع المجاهدين لقتال الإنكليز، وبقي بعدها هناك .

قبضت السلطات العراقية على متصرّف لواء السليمانية توفيق وهبي وعلى بعض العناصر الأخرى من زعماء الأكراد ، وبعض رؤساء الآشوريين بتهمة التآمر على سلامة الدولة وذلك في ١٤ ذي الحجة ١٣٤٩هـ ، حيث كان (مايكوب) البريطاني الجنسية قد أخذ منذ منتصف هذا العام بالتجوال في شمالي العراقي ، وتحريض الأكراد والآشوريين على الثورة وإظهار التمرّد والعصيان .

وحدثت مظاهرات واستياءات ، وقرر أهالي بغداد الإضراب العام يوم ١٩ صفر ١٣٥٠هـ (٥ تموز ١٩٣١م) نتيجة بعض الضرائب التي فرضت ،

ثم انتقل الإضراب إلى المدن الأخرى . ووقعت أحداث في (الناصرية) و (البصرة) ، واستخدمت انكلترا إحدى بوارجها لحماية رعاياها والأجانب على حد زعمها . وكان رئيس الوزراء ، ووكيله وزير المالية في لندن ، ويتسلّم مزاحم الباجه جي رئاسة الوزارة بالوكالة . فلما اشتدّت الأحداث اتخذ مزاحم الباجه جي الإجراءات الصارمة فوُجّهت إليه انتقادات شديدة ، وعاد رئيس الوزراء من رحلته ، وانتهى الإضراب ، وأخذت المطالبة بفصل وزير الداخلية مزاحم الباجه جي من الوزارة ، واضطر جميل المدفعي رئيس مجلس النواب إلى الانسحاب من حزب العهد العراقي .

لما كان الهجوم عنيفاً على الوزارة وخاصةً على تصرفات وزير الداخلية الذي كان يوم الإضراب والأحداث الذي هو رئيس الوزراء بالوكالة أراد نوري السعيد أن يتخلّص منه ، رغم أنه كان قد كسبه إلى صفّه منذ مدةٍ وجيزةٍ ، وضمّه إلى الوزارة ، وكان قبلها من المعارضة ومن أشدّها نقداً للمعاهدة ، وللانتخابات التي حدثت . ولكن القانون العراقي لا يسمح بإخراج وزيرٍ من أعضاء الوزارة دون استقالتها ، ولذا فقد رفع نوري السعيد استقالة حكومته في ٦ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ (١٩ تشرين الأول ١٩٣١م) ، ولكن الملك الذي قد قبل استقالة الحكومة قد عهد إلى رئيسها بتشكيل الوزارة من جديدٍ ، ففعل ، وتشكلت ، الوزارة في اليوم نفسه[1] .

رجع أعيان البصرة الذي نُفوا إلى (عانه) إثر حوادث الإضراب ،

---

(١) تشكّلت الوزارة الثانية لنوري السعيد على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد: رئيساً للوزراء . ٥ ـ جعفر العسكري: وزيراً للدفاع والخارجية .
٢ ـ ناجي شوكت: وزيراً للداخلية . ٦ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٣ ـ رستم حيدر : وزيراً للمالية . ٧ ـ عبد الحسين الجلبي: وزيراً للمعارف .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .

عندما تشكلت الوزارة كان وزير الداخلية ناجي شوكت ، ووزير الدفاع والخارجية جعفر العسكري خارج البلاد فأسندت وزارتا الداخلية والخارجية بالوكالة إلى رئيس الوزراء ، =

واستأنفت بعض الصحف صدورها ، وخفّت الرقابة على رجال المعارضة .

عقدت في ٢٩ رجب ١٣٥٠هـ (٩ كانون الأول ١٩٣١م) في أنقرة معاهدة تجارية ، ومعاهدة تسليم المجرمين ، واتفاقية إقامة وذلك بين العراق وتركيا .

وزار الملك فيصل ورئيس وزرائه نوري السعيد إيران . كما زار العراق وزير خارجية المملكة العربية السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود . وأمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين شقيق الملك فيصل . وشيخ الكويت أحمد الجابر ، كل منهم في وقتٍ متقاربٍ لزيارة الآخر .

وقد أُسندت رئاسة الديوان الملكي إلى أحد رؤساء المعارضة وهو رشيد عالي الكيلاني .

وقام أحمد بارزان أحد زعماء الأكراد بتمّردٍ في شمالي العراق ، فأرسلت الحكومة له قوةً أجبرته على الاستسلام ، فنفي إلى لواء المنتفق .

وضربت الحكومة النقد العراقي وحلّ الدينار العراقي محلّ الروبية الهندية بدءاً من يوم ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٠هـ (الأول من نيسان ١٩٣٢م) .

وافقت عصبة الأمم في ٣ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ (٣ تشرين الأول ١٩٣٢م) على قبول العراق عضواً فيها ، وبذلك انتهت مهمة وزارة نوري السعيد ، واقتضى الأمر استقالة وزارته ، أو أن العراق قد نالت استقلالها فكان على الوزارة الاستقالة .

= ووزارة الدفاع إلى وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي .

ولما عادا تسلم كل منهما حقيبته الوزارية ، غير أن جعفر العسكري قد انتخب رئيساً للمجلس النيابي يوم افتتاح المجلس النيابي في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ (الأول من تشرين الثاني ١٩٣١م) . فأسندت وزارة الخارجية بالوكالة إلى رئيس الوزراء ، ووزارة الدفاع بالوكالة إلى وزير الأشغال والمواصلات محمد أمين زكي .

استقال جعفر العسكري من رئاسة المجلس النيابي بعد شهرٍ من انتخابه ، وانتخب مكانه جميل المدفعي ، وعاد جعفر العسكري إلى الوزارة وأسندت إليه وزارتا الخارجية والدفاع .

قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩٣٢م) .

وزارة ناجي شوكت : بعد أن قدّم نوري السعيد استقالة حكومته عهد الملك فيصل الأول إلى ناجي شوكت بتأليف وزارةٍ جديدةٍ فتشكّلت في ٤ رجب ١٣٥١هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٣٢م)(١) .

كانت هذه الوزارة موقتة مهمتها حلّ المجلس النيابي ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ لتشكيل مجلسٍ نيابيٍ جديدٍ .

صدرت إرادة ملكية في ٩ رجب ١٣٥١هـ (٨ تشرين الثاني ١٩٣٢م) بحلّ المجلس النيابي رغم أن مدّته لم تنته بعد ، إذ بقي له أربعة أشهرٍ .

وجرت الانتخابات النيابية ، وصدر أمر ملكي باجتماع المجلس في ١٢ ذي القعدة ١٣٥١هـ (٨ آذار ١٩٣٣م) .

ولما انتهت مهمة هذه الوزارة تقدّمت باستقالتها في ٢٢ ذي القعدة ١٣٥١هـ (١٨ آذار ١٩٣٣م) وكان الملك يريد تشكيل وزارةٍ أئتلافيةٍ تشترك فيها المعارضة إضافةً إلى أعضاء من حزب العهد العراقي الذي يرأسه نوري السعيد رغم أن وزارة ناجي شوكت كانت حياديةً .

كلّف الملك فيصل الأول رشيد عالي الكيلاني بتشكيل وزارةٍ ائتلافيةٍ(٢) جديدةٍ ، وكان يرغب في أن تضم ياسين الهاشمي ، وحكمت سليمان ، ونوري السعيد ، إضافةً إلى رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني ، وذلك أنه

---

(١) تشكّلت وزارة ناجي شوكت على النحو الآتي :

١ ـ ناجي شوكت : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للمالية .
٣ ـ جميل الراوي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ رشيد الخوجه : وزيراً للدفاع .
٥ ـ جلال بابان : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٦ ـ عبد القادر رشيد : وزيراً للخارجية .
٧ ـ عباس مهدي : وزيراً للمعارف .

كان يرغب في وزارة المعارضة غير أنه لا يريد أن يبتعد خطوةً واسعـةً دفعةً واحدةً ولكنه حبذا الابتعاد التدريجي .

كانت المعارضة من حزب الإخاء الوطني والحزب الوطني تُهاجم المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية وتعدّها فاسدةً وجائرةً ، ولا بدّ من تعديلها ، فلما تسلّم أحد زعمائهم رئاسة الوزارة ، وهو رشيد عالي الكيلاني ، وتسلّم زعيم آخر منهم وزارة المالية وهو ياسين الهاشمي ، كما تسلّم حكمت سليمان أحد أقطابهم وزارة الداخلية . فكان لا بدّ لهم من أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ، وأوفياء مع الشعب ، لذا فقد كان في منهاج الوزارة تعديل المعاهدة تعديلاً يتفق مع الأماني الوطنية للبلاد .

وصدرت الصحف التي كانت لا تزال ممنوعةً عن الصدور .

الحركة الآشورية : وفي ١٤ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ (٥ آب ١٩٣٣م) قامت حركـة التمرّد الآشـورية . لقـد كان الآشـوريون وهم من النصـارى النساطرة يُقيمون في ولاية (وان) في شرقي الأناضول ، ويعيشـون في ظلّ الـدولة الإسـلامية بـأمنٍ وطمـأنينـةٍ آمنـين عـلى أرواحهم ، وأعـراضهم ، وأملاكهم ، ولا يخدمـون في الجيش ما دامـوا من غير المسلمـين ، وفي ذمة الأمة ، ولا يلقون أي اعتداء .

فلما اندلعت نار الحرب العالميـة الأولى ، استولى الـروس على ولايـة (وان) ، وأقاموا مؤسسات للأرمن بصفتهم نصـارى ، وأغروا الآشـوريين بالتمرّد على العثمانيين إذ قدّموا لهم السلاح ، وأعـطوهم المال ، ووعـدوهم

=(٢) شكّل رشيد عالي الكيلاني الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للداخلية .
٦ ـ جلال بابان : وزيراً للدفاع .
٧ ـ رستم حيدر : وزيراً للاقتصاد والمواصلات
٨ ـ عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

بالحماية ، وأثاروا فيهم الحقد الصليبي ، وادّعوا لهم أن قتل المسلمين مما يرضى عنه الرب ويأمر به ، فأقدم هؤلاء على جرائم وأعمالٍ وحشيةٍ تقشعّر لها الأبدان ، إذ جهدوا أن لا يبقى بينهم مسلم ، وأن لا تطال أيديهم واحداً إلا فتكوا به ، وبأهله ، ومثّلوا بهم بعد قيامهم بهتك الأعراض ، ونهب الأموال ، بصورٍ لا يمكن ذكرها لبشاعتها .

ولما انسحبت روسيا من منطقة (وان) بعد قيام الحركة الشيوعية وجدت الدولة العثمانية نفسها مضطرةً للفتك بهؤلاء المجرمين بعد تقديمهم إلى المحاكمة كي لا ينال الأبرياء أذىً من أعمال المجرمين ، غير أنه لم يوجد ـ مع الأسف ـ بين الآشوريين بريء . ولما وجد الآشوريون العقوبة ماثلة أمام أعينهم لجرائمهم التي ارتكبوها ، والتي لا يستطيعون إنكارها فرّ من لم تصل إليه بعد يد الدولة ، وانتقلوا إلى إيران ، حيث اتصلوا بالنساطرة الذين يعيشون هناك ، وعملوا على جمع بعضهم بعضاً .

وتشكّلت اللجنة الشرقية البريطانية التي كانت مهمتها إثارة العناصر النصرانية وتشجيع العناصر المعادية للعثمانيين نتيجة المصالح ، وكانت بلاد القفقاس ميدان عمل هذه اللجنة في سبيل عرقلة العمليات العثمانية في تلك الجهات ، وأرسلت الحكومة الإنكليزية بعثةً عسكرية إلى (أرومية) برئاسة الجنرال (ويسترفيل) لتحضّ النساطرة على العمل ضدّ العثمانيين ، وبعثت السلاح والعتاد لأولئك النساطرة ، غير أن العثمانيين قد داهموا (أرومية) قبل وصول ذلك السلاح ، وفتكوا بالنساطرة الذين خانوا دولتهم التي طالما رعتهم ، وحمتهم واتصلوا بالإنكليز ، ووافقوهم على طعن دولتهم .

عمل الإنكليز على نقل من بقي منهم إلى العراق ، وأقاموا لهم مخيمات على الضفة اليمنى لنهر (ديالي) قرب (بعقوبة) التي تبعد ستين كيلومترا إلى الشرق من بغداد ، وكانت الحكومة البريطانية تنفق عليهم ، وتشغّل من يستطيع العمل في تعبيد الطرقات ، وكل ذلك في سبيل استمالتهم إليها ،

واستخدامهم في تحقيق أغراضها ، وتنفيذ مخططاتها .

ضمّت هذه المخيمات ما يزيد على خمسين ألفاً منهم ١٣,٥٠٠ أرمني من جهات (وان) و (تفليس) و (أذربيجان) ، كما كان بينهم من نزح من المناطق الكردية في العراق، ويزيد عدد هؤلاء على خمسة عشر ألفاً . وبعد انتهاء الحرب عاد عشرة آلاف منهم إلى إيران ، وكانوا قد نزحوا منها تضامناً مع إخوانهم . بقيت انكلترا تعدّ نفسها مسؤولة عن الآشوريين ما داموا من النصارى ، وما داموا قد وافقوا الإنكليز على طعن العثمانيين من الخلف والفتك بالمسلمين ، وارتكاب الجرائم القذرة حسب توجيهات الإنكليز . ولهذا كان الإنكليز يرون أنفسهم مُلزمين بهم ،فجنّدوا ألفين منهم واتخذوهم أداة لإخماد الحركات الوطنية التي قامت ضدّ الإنكليز ، وفي قتال القوات التركية غير النظامية في شمالي العراق ، واتّخذوا بعضهم عيوناً لهم ، وقد عرفت القوة الآشورية التي شكّلتها انكلترا باسم (الليفي) .

ضاق الآشوريون ذرعاً في سكنى المخيمات في جوار نهر (ديالي) ، ورأى رؤساؤهم وجوب الانتقال إلى الجبال حيث اعتادوا على الحياة فيها ، وتعهّد لهم أحد زعمائهم ويُدعى (بطرس) إنشاء دولةٍ لهم على الحدود بين العراق وتركيا، وشجّعهم الإنكليز على ذلك ، ووعدوهم بالدعم ، إذ وجدوا في ذلك فائدةً لهم حيث يستطيعون عن طريقهم إثارة المشكلات بين العراق وتركيا في أي وقتٍ شاءوا ، ووجود الأعوان لهم هناك يُقلّل من أهمية الأكراد ، ويهدّد الأتراك ، ويُثير غيظهم . فوافق الإنكليز على المشروع ، وبدأ العمل له .

أسّس الإنكليز لهم معسكراً عند (جسر مندان) وقد عُرف المعكسر بهذا الاسم ، بين الموصل و (عقره) في أطراف جبل (مقلوب) ، ونقلوا إليه عشرة آلاف من النساطرة الذين كانوا بجوار (بعقوبة) ، وغدوا ينتقلون إلى الجبال ، ويُردّدون أفكارهم ، ويُعلنون عن أحلامهم ، فأثاروا عليهم الجوار ، فهاجموهم ، وفتكوا بأكثرهم ، فتحطّمت أفكارهم التي كانوا يحلمون بها ،

وانتقل (بطرس) إلى باريس ، وعاش فيها حتى هلك .

وسبق أن ذكرنا أن الآشوريين هؤلاء قد أحدثوا فتناً في العراق ومنها فتنة (سوق العتمة) في ٣ محرم ١٣٤٢هـ (١٥ آب ١٩٢٣م) ، وقد أراد السكان القضاء عليهم ، فنقلهم الإنكليز إلى كركوك ، فأحدثوا هناك فتنةً في ٣٠ رمضان ١٣٤٢هـ (٤ أيار ١٩٢٤م) ، وهمّت القبائل بالفتك بهم لولا تدخّل الإنكليز أصحاب السلطة يومذاك وحمايتهم، وألزموا الحكومة أن تتعهد للآشوريين بمنحهم الأراضي الشاغرة في شمالي البلاد شمال (داهوك) و (العمادية) . وقد عطفت عصبة الأمم عليهم بدافعٍ صليبيٍ ، وطلبت منهم الحكم الذاتي ، ورعايتهم ، ما داموا يُقيمون بين المسلمين ، وهم غرباء عنهم ، فأعطتهم الحكومة العراقية أكثر مما يستحقّون ، ومنحت بطريركهم (مار شمعون) راتباً ضخماً ، وعيّنت الضابط الإنكليزي النقيب (فايكر) ضابطاً لإسكانهم ، وله مطلق الحرية ، يُسكّن ، ويُرحّل كما يريد دون أن يُعارضه أحد ، بل لا يجرؤ أحد أن يُخالفه .

جاء إلى العراق نقيب إنكليزي يدعى (هرمز رسام) وادّعى أنّه نسطوري يرجع في أصله إلى الموصل ، واستدعى أحد الضباط البحرية الإنكليز ، وهو (مايثوكوب) الذي أخذ يتجوّل بين النساطرة ، ويُحرّضهم على طلب الانفصال عن العراق . ورجع (هرمز رسام) إلى لندن ، وأسّس جميعةً ، عُرفت باسم (لجنة إنقاذ الأقليات العراقية غير المسلمة) وتدّعي الكذب ، وتُثير حماسة الناس ضدّ المسلمين ، والعطف على النصارى العراقيين، وتكتب الرسائل إلى عصبة الأمم، وتذكر افتراءات عن المسلمين.

أبدى الآشوريون تخوّفهم من انضمام العراق إلى عصبة الأمم واستقلاله ، وأخذ زعماؤهم يكتبون الاحتجاجات على ذلك ، ويُصوّرون مصيرهم المظلم إذا تخلّت انكلترا عنهم وانسحبت من العراق . وأخذ (مار شمعون) يُطالب بسلطةً واسعةٍ على قومه من الناحية الإدارية ، والتمثيل لهم ، وأخذ يُثير الناس ويدعوهم إلى التمرّد ، وخاصةً أن الملاريا كانت قد

انتشرت في قراهم وأرادت الحكومة العراقية نقلهم منها ، وإسكانهم في أماكن غير موبوءةٍ . وتعبّأ الآشوريون حقداً على الحكومة نتيجة تصرّف (مار شمعون) ، وخاصةً بعد قبول العراق عضواً في عصبة الأمم .

استدعت الحكومة العراقية (مار شمعون) إلى بغداد ، ونصحته بالإقلاع عن أعماله المريبة ، وأوضحت له النتائج الوخيمة ، فلم يستمع فمنعته من العودة إلى الموصل إلا بتعهّدٍ بالكفّ عن التحريض ، والإخلاد إلى الهدوء . فأثار هذا المنع الأوساط النصرانية في الحكومات والشعوب في أوربا والولايات المتحدة ، وكان الملك فيصل الأول في لندن ، فلفت رجال الوزارة البريطانية نظره إلى هذا المنع فأبرق إلى الحكومة العراقية يطلب منها السماح لمار شمعون بالعودة إلى الموصل دون قيدٍ أو شرطٍ . فأجابت الحكومة : إن عودته ستؤدّي إلى اضطراباتٍ ، وأعاد الملك الطلب ، وأصرّت الحكومة على موقفها .

دعت الحكومة العراقية وجوه الآشوريين إلى عقد اجتماع في الموصل ، وطرحت عليهم الفكرة فاقتنع بعضهم ، وأصرّ الآخرون على موقفهم .

وطلب أحد ضباط البعثة العسكرية البريطانية في الجيش العراقي من وزير الدفاع العراقي جلال بابان نقل الفريق بكر صدقي من مقره في حامية الموصل بناءً على وعد قطعه الملك فيصل للسفير الإنكليزي ، فأنكر وزير الدفاع وجود مثل هذا الوعد .

أعلن الآشوريون أنهم يريدون الانتقال إلى سوريا حيث يوجد الانتداب الفرنسي فلم تُمانع الحكومة العراقية ، فانتقل فعلاً (١٣٥٠) رجلاً تاركين عائلاتهم في العراق . فأخبرت الحكومة العراقية السلطات الفرنسية بأنها لا تسمح بعودة أي نسطوريٍ إلى العراق كان قد خرج منها ، واستعدّت لمنعهم فيما إذا حاولوا .

وفي ١١ ربيع الثاني ١٣٥٢هـ (٢ آب ١٩٣٣م) أعلم الفرنسيون

العراقيين أنهم قرّروا إعادة النساطرة إلى العراق ، وأعادوا لهم السلاح الذي كانوا قد استلموه منهم .

وبعد يومين تدفّق النساطرة الأشوريون إلى العراق عبر مخاضةٍ في نهر دجلة ، وتلقتهم الحامية العراقية ، وبدأ العائدون بإطلاق النار ، وحدث الاشتباك ، وقُتل من الآشوريون ما يزيد على ألف رجلٍ ، وقام النساطرة في الداخل باعتداءاتٍ على السكان الآمنين .

واضطر الملك فيصل إلى العودة إلى العراق من أوربا نتيجة هذه الاضطرابات التي أثارت الدول النصرانية ، فكثرت الاحتجاجات ، والاتهامات ، وتشكيل الوفود ، وترحيب حكومات باستقبال المظلومين ، وتألفت لجان ، وقامت عصبة الأمم تريد التدخّل ، واهتزّت عصبية رجالها ، وتحرّك أعضاؤها ، فهل كان يحدث جزء من هذا لو كان الأمر مع مسلمين وقُتل منهم الملايين ؟ . ليت قومي يعلمون !!!!

نهاية الملك فيصل[1] : لما انتهت حركة الآشوريين النساطرة ، واطمأن الملك فيصل على الوضع ، رجع إلى أوربا للاستجمام والراحة ، فقضى نحبه في مدينة (برن) في سويسرا في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ (٨ أيلول ١٩٣٣م) ، ونقل جسده إلى بغداد في ٢٦ جمادى الأولى ، حيث ووري هناك في التراب .

---

(١) ولد عام ١٣٠٠هـ في مدينة الطائف ، وسافر مع أبيه حين أبعد إلى استانبول عام ١٣٠٨هـ ، ورجع معه عام ١٣٢٧هـ ، واختير نائباً عن جدة في مجلس النواب العثماني عام ١٣٣١هـ ، وزار دمشق بمهمةٍ من أبيه عام ١٣٣٤هـ وقاد الجيش العربي ، ودخل الشام في مطلع عام ١٣٣٧هـ ، وحضر مؤتمر الصلح في باريس نيابة عن أبيه ، وعاد إلى دمشق فبويع ملكاً على البلاد في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ (٨ آذار ١٩٢٠م) ، واحتل الفرنسيون سوريا فرحل فيصل عنها إلى إيطاليا ، ثم سافر إلى انكلترا ، وبويع ملكاً على العراق ١٣٣٩هـ ، وتوفي عام ١٣٥٢هـ .

الوزارات في عهد الملك فيصل الأول

١ ـ وزارة عبد الرحمٰن الكيلاني الثانية : ٩ محرم ١٣٤٠ ـ ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ .
(١٢ أيلول ١٩٢١ ـ ١٩ آب ١٩٢٢م) .

٢ ـ وزارة عبد الرحمٰن الكيلاني الثالثة : ٨ صفر ١٣٤١ ـ ٢٦ ربيع الأول ١٣٤١هـ .
(١ تشرين الأول ١٩٢٢ ـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٢م) .

٣ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الأولى : ٢٨ ربيع الأول ١٣٤١ ـ ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢هـ .
(١٨ تشرين الثاني ١٩٢٢ ـ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣م) .

٤ ـ وزارة جعفر العسكري الأولى : ١٣ ربيع الثاني ١٣٤٢ ـ ١ المحرم ١٣٤٣هـ .
(٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ ـ ٢ آب ١٩٢٤م) .

٥ ـ وزارة ياسين الهاشمي الأولى : ١ المحرم ١٣٤٣ ـ ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٣هـ .
(٢ آب ١٩٢٤ ـ ٢١ حزيران ١٩٢٥م) .

٦ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الثانية : ٥ ذي الحجة ١٣٤٣ ـ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ .
(٢٦ حزيران ١٩٢٥ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦م) .

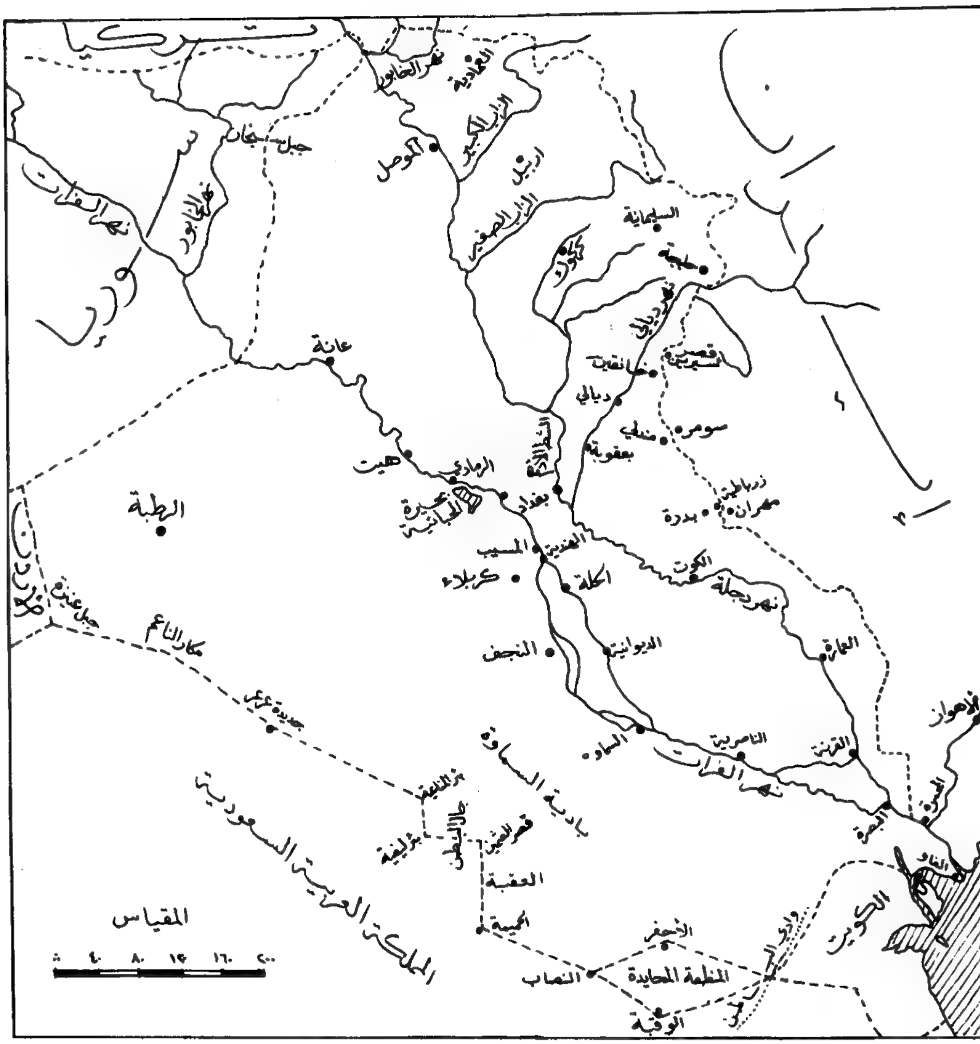
٧ ـ وزارة جعفر العسكري الثانية : ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٥ ـ ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ .
(٢١ تشرين الثاني ١٩٢٦ ـ ١٤ كانون الثاني ١٩٢٨م) .

٨ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة : ٢٠ رجب ١٣٤٦ ـ ٩ شعبان ١٣٤٧هـ .
(١٤ كانون الثاني ١٩٢٨ ـ ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩م) .

٩ ـ وزارة توفيق السويدي : ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧ ـ ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ .
(٢٨ نيسان ١٩٢٩ ـ ١٩ أيلول ١٩٢٩م) .

١٠ ـ وزارة عبد المحسن السعدون الرابعة : ١٥ ربيع الثاني ١٣٤٨ ـ ١١ جمادى الأخرة ١٣٤٨هـ .
(١٩ أيلول ١٩٢٩ ـ ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٩م) .

١١ ـ وزارة ناجي السويدي :	١٦ جمادى الآخرة ١٣٤٨ ـ ٢٣ شوال ١٣٤٨هـ . (١٨ تشرين الثاني ١٩٢٩ ـ ٢٣ آذار ١٩٣٠م) .
١٢ ـ وزارة نوري السعيد الأولى :	٢٣ شوال ١٣٤٨ ـ ٧ جمادى الآخرة ١٣٥٠هـ . (٢٣ آذار ١٩٣٠ ـ ١٩ تشرين الأول ١٩٣١م) .
١٣ ـ وزارة نوري السعيد الثانية :	٧ جمادى الآخرة ١٣٥٠ ـ ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ . (١٩ تشرين الأول ١٩٣١ ـ ٢٧ تشرين الأول ١٩٣٢م) .
١٤ ـ وزارة ناجي شوكت :	٤ رجب ١٣٥١ ـ ٢٤ ذي القعدة ١٣٥١هـ . (٣ تشرين الثاني ١٩٣٢ ـ ٢٠ آذار ١٩٣٣م) .
١٥ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الأولى :	٢٤ ذي القعدة ١٣٥١ ـ ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ . (٢٠ آذار ١٩٣٣ ـ ٩ أيلول ١٩٣٣م) .


الموصل
عانة
هيت
الرمادي
بغداد
الرطبة
المسيب
كربلاء
الحلة
النجف
الديوانية
الكوت
نهر دجلة
العمارة
الناصرية
القرنة
البصرة
السماوة
بادية السماوة
الكويت
المملكة العربية السعودية
المقياس
المنطقة المحايدة
النصاب
الوقبة
العقبة
السليمانية
ديالى
سومرة
بدرة
الاهواز

الفصل الثاني

الملك غازي

١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ١٤ صفر ١٣٥٨هـ
(٨ أيلول ١٩٣٣ ـ ٤ نيسان ١٩٣٩) .

كانت مُهمّة الملك فيصل الأول عند الإنكليز تهدئة الثورة ، وإشعار الناس بالطمأنينة والاستقرار ، وقد تمّ هذا ، كما كانت انكلترا ترغب في أن يشعر السكان أنها ليست عدوةً لهم ، وإنما صديقة جاءت لتُنقذهم مما يُعانون من الفوضى ، وتأخذ بأيديهم نحو الاستقلال ، وحكم بلادهم بأنفسهم ، وإن كان قد تمّ شيء من هذا ، وحصلت البلاد على الاستقلال ، غير أن شعور المواطنين بصداقة انكلترا لم يحدث إلا لدى فئةٍ قليلةٍ من المنتفعين وأصحاب المصالح . وحرصت انكلترا في هذه المدة التي أعقبت الاحتلال حتى نالت البلاد الاستقلال أن تصطفي لنفسها رجالاً يقومون بتنفيذ مخططاتها نيابةً عنها ، تتعهدهم ، وتحميهم ، وتدعمهم ، وهم يُؤدّون مُهمّاتهم بالشكل الذي تُريد ، وبذا تتحقّق أغراضها ، وهي في منأى عن المواجهة ، أو بعيدة إذا انسحبت من أرض العراق في المستقبل . وتركت لنفسها مجالاً للحركة أو التدخّل في شؤون العراق فيما إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، أو اقتضت الظروف ، وكان ذلك المجال هو الأقلّيات ، ومن اصطفت من الأعوان .

أما الملك فيصل نفسه فقد كان يرى أن من مُهمّته توطيد الأمن ، وتخطيط الحدود التي لم تكن قائمةً ، ويقتضي ذلك علاقةً حسنةً مع الدول المجاورة ، وتمّ ذلك بعد أن عمل له مدة حكمه ، وشعر بعدها أنه قد أصبح عليه النهوض بالشعب ، والبدء بالتقدّم ، وتطوّر المعارف والعلوم ، وإصلاح

الأرض ، وزيادة الإنتاج ولكن أخذت تحدث تغييرات نفسية بينه وبين انكلترا التي لا تزال لها الكلمة الأولى ، والنفوذ القوّي ، بل والسيطرة حيث لا تزال قواتها تُرابط في العراق .

كانت انكلترا تعدّ فيصل بن الحسين أكثر الرجال مُناسبةً لها لحكم العراق ، فنسبه الشريف ، ومكانته بين المسلمين يُشجّع العراقيين على قبوله والاطمئنان له . وإن الصلة التي كانت بينها وبين والده الشريف حسين ، ثم بينها وبين فيصل نفسه ستجعل إمكانية التفاهم معه على حكم العراق . وإن إعطاءه السلطة بعد أن كان طريداً ، وإيواءه بعد أن كان شريداً ، سيجعله أكثر استجابةً لمطالب انكلترا ، وتفهّماً لرغباتها ، وتقبّلاً لمشورتها ، وخاصةً أنه جرّب الحكم ، وعرف مصير من لم يُنفّذ رغبات الدولة النصرانية ذات النفوذ ، فقد جرّد له الفرنسيون حملةً ألزمته على ترك سلطانه ، ومغادرة البلد بشكلٍ سريعٍ ، ومن هذا المنطلق كان المعتمد السامي البريطاني في العراق يُعامل فيصلاً ، ويُريد أن يفرض هيمنته عليه ، أو يتصرّف بالشؤون الداخلية من ذاته .

أما الملك فيصل فيشعر بنفسه أنه الملك الحقيقي ، ولذا فهو المرجع الأساسي ، ولا يحقّ لغيره أن يُنازعه هذا الأمر ، ولا يرغب أن يرجع إلى الأيام الماضية ، ويذكر ما أورثته تلك السنة العجفاء . ومن هذا الاختلاف بالمنطلق بين النظرة الإنكليزية ونظرة الملك فيصل وقع سوء التفاهم بين الملك وبين المعتمد السامي البريطاني ، وكادت تقع أزمات في بعض الأحيان ، غير أن الملك كان يتلافى الأمر في أغلب الحالات ، ويتنازل ، ويسكت على مضضٍ ، ويُسرّ ذلك في نفسه ، ولا يُبدي شيئاً ، وإن كان في بعض المرات يُبرق إلى الحكومة البريطانية ، أو يراسلها متسائلاً ، فتدرك الموضوع وتعمل على رأب الصدع .

ولكن تغيّر الأمر بعد قبول العراق عضواً في عصبة الأمم ، فقد بدا

الملك فيصل أكثر تماسكاً ، وأظهر شخصيةً أقوى . وإن كنا لا ندري ما السبب الرئيسي في التغيير إلا أنه يمكننا أن نتساءل .

ـ هل حقد فيصل على الإنكليز بعد أن خانوا اتفاقهم مع أبيه وفعلوا به ما فعلوا ؟ لقد كان والده شريف مكة الحسين بن علي قد اتّفق مع الإنكليز إبّان الحرب العالمية الأولى نتيجة المراسلات مع المعتمد الإنكليزي السامي في القاهرة (هنري مكماهون) على أن يُعلن الثورة على العثمانيين باسم العرب ، وأن يُوجّه نداءً إلى المسلمين يدعوهم فيه إلى مُساندة الحلفاء ، ومُحاربة العثمانيين بعد أن خانوا الأمانة عند استلام الخلافة ، إذ اضطهدوا العرب ، وجعلوها قوميةً تركيةً ، ونتيجة مكانة الشريف وموقعه فقد أبطل نداؤه الدعوة التي وجّهها الخليفة إلى المسلمين ، وتعهّد الإنكليز للشريف أن يضمّ إليه البلدان العربية التي ينسحب منها العثمانيون ، وهي : الشام ، والعراق إضافةً إلى الجزيرة ، ويكون ملكاً عليها . وأعلن الشريف ثورته ضدّ دولة الخلافة الإسلامية ، وانحيازه إلى الحلفاء من دول أوربا النصرانية . وتحرّكت قواته نحو الشمال بقيادة ولده الثالث فيصل ، وكان لهذه القوات أثرها في تخفيف ضغط العثمانيين عن الإنكليز الأمر الذي جعل الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال (اللنبي) يتقدّم في فلسطين ، ويتراجع أمامه الجيش العثماني ، وفرض فيصل سيطرته على المناطق الداخلية ، وعاون الإنكليز في احتلال الأجزاء الشمالية من الشام . ومع هذه المساعدة الفعّالة من وجهة النظر الأوربية فإن الإنكليز كانوا يتآمرون على الشريف حسين ، ومن مشى بجانبهم من العرب ، وربما كان هذا كله جزاء ذلك الانحياز . لقد كان الإنكليز والفرنسيون يتّفقون فيما بينهم على تقسيم بلاد الشام (اتفاقية سايكس ـ بيكو) ، ثم أعطى الإنكليز اليهود وعداً بأن يُؤسّسوا لهم دولةً في فلسطين (وعد بلفور) بعد انتصار الحلفاء في الحرب ، هذا كله ولا تزال العمليات الحربية تجري ، وبعد أن انتهت الحرب اتّفق مجلس الحلفاء في (سان ريمو) تحت تأثير انكلترا وفرنسا على إعطاء انكلترا العراق ، وأجزاء من بلاد الشام وهي ما عُرف فيما بعد باسم

سوريا الجنوبية (فلسطين والأردن) ، وإعطاء فرنسا أجزاء أخرى من بلاد الشام وهي ما عُرف باسم سوريا الشمالية (سوريا ولبنان) . وتلا ذلك هزيمة الشريف حسين أمام سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، واضطراره التنازل عن حكم الحجاز إلى ولده الأول علي ، ثم لم يلبث علي نفسه أن اضطر إلى تسليم الحجاز إلى سلطان نجد ، والانسحاب مع أسرته إلى الشام . وأقام الشريف حسين عند ولده عبد الله في عمان عدة أشهرٍ ، ثم طلبت منه انكلترا ضرورة مُغادرة الأردن بحجة الخوف من مُهاجمة سلطان نجد للأردن ، ونقلت الشريف إلى قبرص حيث عاش هناك ست سنواتٍ تحت المراقبة والإقامة الجبرية ، حتى إذا شعرت أن الأيام قد طحنت جسمه ، وأن أجله قد اقترب بعلم الله أخبرت ولديه عبد الله وفيصلاً بحاله ، فهمّا بالسفر إليه، وعملت على نقله إلى عمان، ولكن لم يصل إليها وإنما أدركته المنية بالغور عند الجسر المعروف باسمه اليوم في ١٨ المحرم ١٣٥٠هـ (٤ حزيران ١٩٣١م) ، فنقل إلى القدس ، ودُفن فيها ، وكان جسمه على حالةٍ من الضمور ما يُنبىء عن مُعاناته النفسية والجسمية ، وكانت وسيلة نقله على حالةٍ من السوء تتعب معها الأصحاء الأقوياء ، فكان لهذا أثره الكبير على نفسية فيصل ـ والله أعلم ـ .

وإن إعطاء عبد الله حكم منطقة الأردن من الشام ، وفيصل حكم العراق ليس وفاءً من جانب انكلترا حيث لم تعرف الوفاء ، وإنما لخدمة مصالحها ، إذ أن مكانتهما لدى العرب يومذاك يجعلهما يُوطّدان الأمن لها ، وهذا ما تعمل له وترجوه ، إضافةً إلى رضا الشعب عن حكم الشريفين للأردن والعراق .

وربما أحسّ فيصل بمرارةٍ وأسىً ، وشعر أن وضعه مع انكلترا لن يكون أفضل من وضع أبيه فأخذ يزوّر عنها ، ويسير في طريقٍ غير التي كان يسير فيها من قبل مع شيءٍ من الكياسة والليونة .

ـ هل أن فيصلاً كان يُداري انكلترا ، ويُظهر لينه وتبعيته لها ، ما دام

تحت انتدابها ، وفي ظلّ هيمنتها ، فلما قُبلت العراق عضواً في عُصبة الأمم ، وعُدّ مُستقلاً ، غيّر طريقته ، وأصبح يتكلّم من باب أنه ملك ، وعلى درجةٍ واحدةٍ مع ملك انكلترا رغم أن قُوّاتها لا تزال تُرابط في العراق ؟ .

إن انكلترا كدولةٍ عظمى ، وخرجت منتصرةً في الحرب ، ولها دورها الاستعماري الكبير ، ومناطق نفوذها الواسعة التي لا تغيب عنها الشمس لا تقبل أن تُعاملها العراق معاملة الند وهي دولة ناشئة ، لم تشبّ بعد ، فعمرها لم يتجاوز السنة في عصبة الأمم ، وهي القابلة التي أخرجتها ، ولا تزال قواتها مُرابطةً في أرض العراق لحمايتها حسب زعمها . إن انكلترا لتنظر إلى غيرها من الدول الكبرى يومذاك نظرة التعالي ، فسياستها الدولية هي التي كانت ناجحةً ، وتجارتها في لعبة الأمم هي التي كانت رائجةً ، فهل يمكن أن تنظر إلى العراق في ذلك الوقت نظرة الندّ التي يراها أو يُريدها الملك فيصل ملك العراق ؟ .

- هل أحسّت انكلترا بموقف الملك فيصل المتغيّر الجديد ، فأرادت التخلّص منه قبل أن يبتعد نهائياً وتسير البلاد وراءه ، وتضطر إلى العمل في العراق من جديد ؟

- هل استطاعت انكلترا بمدة حكمها هذه للعراق أن تصطفي عناصر يُمكنها عن طريقهم حكم العراق بالصورة التي تراها وترغبها ، وتُريد ملكاً صورةً يملك ولا يحكم ، سواء أكان صغيراً لا يعقل أم كبيراً ضعيفاً أم مُدركاً لا يتدخّل ؟

- هل انكلترا هي التي قضت على حياة الملك فيصل - بإذن الله - بحقنةٍ من الزرنيخ أو بغيرها ، أم مات ميتةً طبيعيةً ؟

يبدو أن صحته كانت عندما دخل المستشفى في (برن) في سويسرا حسنةً . ولقد كان في أوربا قبل مدةٍ ، فلما سمع بحركة الآشوريين في العراق هبّ سريعاً إلى بلاده ، وكان يُتابع الأحداث بنفسه بشكلٍ جيدٍ ، ويُعطي

التوجيهات ، وتُنقل إليه الأخبار مُباشرةً ، وجسمه قوي ، وصحّته جيدة ، ولما انتهت تلك الحركة رجع إلى أوربا مرتاح البال ، باسم الاستجمام ، وحالته الجسمية طيبة ، ودخل المستشفى بإشارة من أطباء أوربيين ، الأمر الذي يُعطي إشارةً إلى أنّ موتته لم تكن طبيعيةً ـ والله أعلم ـ .

تُوفّي الملك فيصل على أيّة حال في ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٢ (٨ أيلول ١٩٣٣م) ، ونُقل جسمانه إلى بغداد ، فوصل إليها في ٢٦ جمادى الأولى ، ودُفن هناك . وكان قد بلغ من العرم اثنتين وخمسين سنةً هجريةً (١٣٠٠ ـ ١٣٥٢هـ) .

وبُويع ابنه غازي[1] ملكاً على العراق يوم وصول خبر وفاة أبيه (١٩ جمادى الأولى) ، وكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنةً .

الملك غازي : كانت انكلترا تتوقّع أن يكون الملك غازي بن فيصل أداة طيعةً أكثر بكثيرٍ من أبيه ، وتقوم تلك التوقّعات :

١ ـ على الملاحظات والدراسات التي قامت حوله عندما كان يدرس في انكلترا حيث قضى هناك عامين كان فيهما أقرب إلى اللهو والحبّ والإعجاب بالمجتمع الإنكليزي حتى رغب أبوه في سحبه ونقله إلى بغداد حيث أدخله في المدرسة العسكرية لتتغيّر عليه الحياة كلياً ، وإن كان ذلك لا يمكن الحكم عليه للسن التي كان عليها إذ لم تكن سنّه لتزيد على السابعة عشرة .

٢ ـ على العمر الذي كان عليه عندما تسلّم الملك ، وهو اثنتان وعشرون سنةً ، وهو عمر صغير بالنسبة إلى الحكم ، وليس لديه خبرة ولا دراية .

---

(١) غازي بن فيصل : ولد في مكة عام ١٣٣٠هـ ، وانتقل إلى العراق يوم تسلّم أبوه ملكها ، وسُمّي ولياً للعهد عام ١٣٤٢هـ ، وأرسله أبوه عام ١٣٤٥هـ إلى انكلترا ليدرس في كلية (هارو) حيث بقي هناك سنتين ، وعاد بعدها إلى بغداد حيث درس في المدرسة العسكرية وتخرّج منها . وعندما سافر أبوه إلى أوربا عام ١٣٥٢هـ أنابه عنه في حكم العراق ، فوقعت حركة الآشوريين ، فكان صلداً قوياً حازماً منها ، وتولّى المُلك بعد أبيه ، وتوفي عام ١٣٥٨هـ .

٣ ـ على الساسة الذين كانوا يسيرون حسبما تقتضيه السياسة الإنكليزية ، فالخبرة التي كانت لديهم ، وإمكاناتهم ، وعمرهم كل ذلك يُمكّنهم من أن يُسيّروا الملك غازي ، ويُوجّهوه إلى الوجهة التي يُريدون .

٤ ـ على حالة البلاد الحديثة الاستقلال والتي لم تستقرّ بعد حيث لا يزال الوضع يميد ، فالأقليّات ، والبلدان المجاورة التي بينها وبين العراق إحن وماضٍ مليء بالأحداث بين الأسرتين المالكتين .

٥ ـ على الخوف من انكلترا والحذر نتيجة ما فعلت بأبيه وجده ، ولها من القوّة الجوّية الكبيرة على أرض العراق ، ومن الضرورة مُسايرة الإنكليز حتى يستقيم الوضع .

٦ ـ على الحياة اللاهية التي كان يعيشها غازي إذ كان مُغرماً بالصيد مهتماً بالرحلة . غير أن توقّعات انكلترا لم يُحالفها شيء من التحقيق ، وربما يعود ذلك :

إلى التنبيه أو الضغط الخفيف الذي مارسه الملك فيصل على ولده عندما استدعاه من انكلترا حيث كانت له بعض الملاحظات عليه .

وإلى وفاة جده ، وما عاناه في أواخر حياته ، وما لقيه من حلفائه ، وما أثّر ذلك على نفسية والده التي لاحظها أفراد الأسرة جميعاً ، بل وبعض الأصدقاء . وهذا بالفعل ما غيّر شيئاً من طبيعة غازي ، واطمأنت نفس أبيه نسبياً ، حتى أنابه عندما سافر إلى أوربا ، ولما قامت حركة الآشوريين اتّخذ غازي الحكمة مع الصرامة في مُقابلة هذه الحركة ومُقاومتها ، فلما رجع أبوه أحسّ بالراحة للتصرّف الذي مارسه ولده . وعاد الأب إلى أوربا ، وترك غازياً مكانه ، وهو قرير العين ، وفي الوقت نفسه فقد أحسّ غازي بالثقة بالنفس ، وضرورة الإقلاع عن كل ما مضى ، والاهتمام بالحكم ما دام الأمر سيؤول إليه . ولم تمض إلا أسابيع حتى مُني الولد بأبيه ، وشعر بالأيدي التي خلف القضية . ولكنه قابل المصيبة بالتجلّد ، وأخفى كل ما يُخالج نفسه ، حتى ظنّ

الإنكليز أنه لم يُدرك الأمر ، وأن المنصب أغراه ، وسدّة الملك قد غطّت عليه كل النوافذ التي تصل بينه وبين الواقع . وقد سرّت لذلك أبلغ السرور ، وظنّت أنها حصلت على بعض مبتغاها .

وزارة رشيد عالي الكيلاني : وفي اليوم الثاني من تسلّم الملك غازي الحكم ، قدّم رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني استقالة حكومته فعهد الملك إليه ثانيةً برئاسة حكومةٍ جديدةٍ ، وفي اليوم نفسه صدرت الإرادة الملكية بتشكيل الوزارة[1] .

إن تكليف رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الوزارة له دلالته ، والتي تعني أن الملك غازي سيسير على السياسة التي سار عليها أبوه في المرحلة الأخيرة التي تلت الاستقلال ، والتي تُشير إلى عدم مُوافقة السياسة البريطانية تماماً أو عدم السير على خُطاها . لقد كان رشيد عالي الكيلاني من مُعارضي المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية ، وهذا يعني مُعارضة انكلترا ووضعها في العراق .

لما كانت الحكومة ترى أن المجلس النيابي لا يُمثّل الشعب في العراق تمثيلاً صادقاً ، لذا فقد اقترحت حلّه . غير أن رئيس الديوان الملكي علي جودت الأيوبي أشار على الملك غازي عدم الإقدام على حلّ المجلس النيابي ، لأن البلاد في حالةٍ لا تُساعدها على إجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ، ويبدو أن الملك قد مال إلى هذا الرأي ، فما كان من رشيد عالي الكيلاني إلاّ أن وضع الملك تحت خيارين إما الاحتفاظ بالحكومة القائمة وتحقيق رغبتها بحلّ المجلس النيابي أو قبول استقالة الحكومة .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حكمت سليمان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ ياسين الهاشمي : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد: وزيراً للخارجية .
٦ ـ رستم حيدر: وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٧ ـ جلال بابان : وزيراً للدفاع .
٨ ـ عبد المهدي : وزيراً للمعارف .

وهذه هي الوزارة السابقة لم يُعدّل فيها شيء .

قبل الملك استقالة الحكومة في ٩ رجب ١٣٥٢هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٣٣م)، ولكن طلب منها الاستمرار على القيام بشؤون الدولة حتى تتألّف حكومة جديدة ، وفي الوقت نفسه كلّف جميل المدفعي بتشكيل الوزارة .

وزارة جميل المدفعي الأولى : شكّل رئيس مجلس النواب جميل المدفعي الوزارة بعد أحد عشر يوماً من تكليفه[1] ، فاختار المجلس النيابي رشيد الخوجة رئيساً له ، مكان جميل المدفعي الذي غدا رئيساً للوزراء .

أجرت الحكومة تعديلاتٍ واسعةً في مُديري دوائر الدولة ، ومُتصرّفيها ، لتكون لها قاعدةً تستند عليها ، ما دامت حياديةً لا تعتمد على حزبٍ معينٍ . وكانت أسعار الكهرباء مرتفعةً في بغداد ، فقاطع أهل المدينة شركةَ التنوير صاحبة العلاقة ، وطالت هذه المقاطعة ، وظنّت الحكومة أن المعارضة من وراء هذا لذا فقد لجأت إلى الضغط على الأهالي ورجال المعارضة ، فعطّلت الصحف ، وألقت القبض على بعض الشباب ، واشتدت في المعاملة .

وجرى خلاف بين أعضاء الحكومة بدأ بانتقاد الحكومة في الشدّة التي اتخذتها الشرطة مع المواطنين ، ثم زاد الخلاف بشأن مشروع شطّ (الغراف) حيث أصرّ رئيس الوزراء على تنفيذه وأيّده كل من صالح جبر ، ورستم حيدر على حين عارضه نوري السعيد ، ونصرت الفارسي ، وناجي شوكت ونتيجة هذا الخلاف فقد اضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة حكومته في ٢٩ شوال ١٣٥٢هـ (١٣ شباط ١٩٣٤م) .

وزارة جميل المدفعي الثانية : ربما كان الملك غازي يرغب في تسليم

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ نصرت الفارسي: وزيراً للمالية .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٥ ـ رستم حيدر : وزيراً للاقتصاد والمواصلات.
٦ ـ صالح جبر : وزيراً للمعارف .
٧ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية ووزيراً للدفاع بالوكالة .

الحكم إلى حزب الإخاء الوطني على أنه مُعارض للسياسة الإنكليزية أو المعاهدة العراقية ـ البريطانية غير أن رجاله كانوا يُصرّون على حلّ المجلس النيابي الذي أيّد تلك المعاهدة ، والذي يعدّونه غير مُمثّلٍ للشعب ، ويحتجّون بأن النهضة بالبلاد يصعب تحقيقها إن لم يكن هناك انسجام بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ومع تأييد الملك لهذا الرأي إلا أن رئيس ديوانه علي جودت الأيوبي يرى غير هذا الرأي ، ويُشير عليه أنه ليس من الحكمة الانسلاخ فوراً من كل شيءٍ كان في عهد والده فتتحكّم به العاطفة على ما يبدو . وهذا ما ألزمه مرّةً ثانيةً على أن يعهد إلى جميل المدفعي بتشكيل حكومةٍ ثانيةٍ ، فألّفها[1] في ٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ (٢١ شباط ١٩٣٤م) .

حدث خلاف بين العراق وإيران على الحدود أدّى إلى نزاعٍ ، وحدثت معاركُ غير نظاميةٍ بين الطرفين . وقطعت إيران مياه الشرب عن مدينة (ماندلي) العراقية التي تقع على الحدود إلى الشرق من (بعقوبة) شمال شرقي بغداد ، وقد رفع الخلاف بين الدولتين إلى عُصبة الأمم .

وأقامت الحكومة مشروعات إنمائية منها : سدّ الحبانية لتخزين مياه الفيضان في البحيرة . وهو الذي يعرف باسم (سدّ الرمادي) ، كما أُقيم سدّ عند كوت العمارة لإحياء مشروع شطّ الغراف . كما أُقيم جسران في بغداد .

تعرّضت الحكومة لنقدٍ شديدٍ من المعارضة لكثرة الموظفين الجدد ، والترفيع الاستثنائي ، وكل ذلك كان يحصل لأسبابٍ سياسيةٍ ومذهبيةٍ . ونتيجةً لهذا النقد ، وبسبب الشكوى من سوء الإدارة في الحكم اضطر رئيس

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٤ ـ رشيد الخوجة : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عباس مهدي : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .
٦ ـ عبد الله الدملوجي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ جلال بابان : وزيراً للمعارف .

الوزراء إلى تقديم استقالته في ١٤ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ (٢٥ آب ١٩٣٤م) ، فعهد الملك غازي إلى رئيس ديوانه علي جودت الأيوبي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ .

وزارة علي جودت الأيوبي : ألّف وزارته[١] ، وصدرت أوامر التعيين في ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ . ولم يمض أسبوع على الحكومة حتى استصدر رئيسها أمراً ملكياً بحلّ المجلس النيابي ، وكان من قبل يُعارض الحلّ . وجرت الانتخابات العامة ، ووُجّهت الانتقادات الكثيرة لتدخّل الحكومة فيها ، وعدم النزاهة في إجراءاتها . وما أن ظهرت نتائج الانتخابات حتى هاجت معظم قبائل الفرات الأوسط . وأيّد المحامون رجال القبائل في مُعارضة الحكومة ، ومُطالبة الملك بإقالتها ، واضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة وزارته في ٢٠ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٢٣ شباط ١٩٣٥م) .

وكانت الحكومة قد ألّفت حزب (الوحدة الوطنية) لتدعم حكمها ، واستمالت بعض كبار الموظفين ، ولكن لم يلبث أن زال بعد أن دالت .

وفي عهد هذه الحكومة تمّ التوقيع على اتفاقية سدّ (كوت العمارة) ، وافتُتح خط أنابيب النفط من كركوك إلى طرابلس على ساحل البحر المتوسط .

وكان بدء الفوضى ، إذ أخدت تنتشر الشيوعية ، وتتوزّع المنشورات سرّاً ضدّ الدولة ، وتسري الشائعات ضدّ الملك ، ورئيس الوزراء .

وزارة جميل المدفعي الثالثة : كلّف الملك غازي رئيس حزب الإخاء

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ علي جودت الأيوبي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٣ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٥ ـ جميل المدفعي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ أرشد العمري : وزيراً للأشغال .
٧ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

الوطني ياسين الهاشمي غير أنه اعتذر لأن الجهات العليا ترغب في إدخال جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي بالوزارة ، ويرى الحزب غير ذلك ، وترى الجهات العليا إبعاد رشيد عالي الكيلاني عن الوزارة على حين يرى الحزب ضرورة مشاركته .

وبعد اعتذار ياسين الهاشمي عن رئاسة الوزارة ، وجد الملك أنه لا مناص من تكليف جميل المدفعي بتأليف الوزارة ، فقبل ، وتمّ تشكيلها[1] في ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٤ آذار ١٩٣٥م) .

تحرّكت القبائل في الفرات الأوسط ، وتحرّك إثر ذلك الجيش إلى (الديوانية) ، وإلى (أبي صخير) ، وإلى (السماوة) ، واختلف أعضاء الحكومة في اتخاذ إجراءاتٍ زجريةٍ ، وسافر وزير الداخلية إلى تلك الجهات في مُحاولة للإصلاح فلم يُفلح ، ثم سافر وزير المعارف للغاية نفسها ففشل . وكان رجال القبائل يُطالبون بتنحية الحكومة ، واستعدادهم للتعاون مع كل وزارةٍ تجعل هدفها خدمة البلاد . واستعدت للحكومة لتأديب الثائرين ، ولكن الملك غازي رفض اتخاذ أيّة إجراءاتٍ قمعيةٍ ، وهذا يعني أن الحكومة غدت غير مرضيٍ عنها ، واضطر رئيسها إلى تقديم الاستقالة في ١٠ ذي الحجة (ليلة عيد الأضحى)، ولم يكن قد مضى على تشكيل حكومته أكثر من أحد عشر يوماً .

وزارة ياسين الهاشمي الثانية : اضطرّ الملك إلى أن يعهد برئاسة الوزارة إلى زعيم المعارضة ياسين الهاشمي ، فقبل التكليف ولم يمكنه الاعتذار ، إذ لم توضع شروط أو قيود في وجهه ، كما حدث في المرة السابقة التي اعتذر فيها عن

---

(١) تألّفت وزارة جميل المدفعي الثالثة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ عبد العزيز القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٤ ـ توفيق السويدي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٦ ـ رشيد الخوجة : وزيراً للدفاع .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ عبد الحسين الجلبي : وزيراً للمعارف .

الحكم . وشكّل الوزارة(1) في ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ (١٧ آذار ١٩٣٥م) .

رفض بعض أعضاء حزب الإخاء الوطني الاشتراك بالوزارة ، إذ اختلفوا على اقتسام الحقائب فاعتزل بعضهم ، ومنهم حكمت سليمان ، الذي رفض التعاون مع رئيس الحكومة ، فكان هذا أول عقبةٍ في طريق الوزارة .

ألقت الوزارة منشوراتٍ إلى القبائل بالطائرات تُطمئنهم ، وتعدهم بتطبيق القانون ، ونشر العدل ، والإصلاح غير أن القبائل لم تعد تقنع بالكلام النظري لذا فقد رفض بعضها الانصياع إلى الأوامر ، وإلقاء السلاح ، والعودة إلى الأعمال خلال الأيام الثلاثة التي أعطتهم الحكومة إياها مهلةً حتى يعود النظام . فكان ذلك العقبة الثانية في وجه الحكومة الجديدة .

إن القبائل التي تُؤيّد وزارة علي جودت الأيوبي ، ووزارة جميل المدفعي قد صعُب عليها وجود معارضيهم في الحكم ، واستلام السلطة دون المؤيّدة لهم . فكان ذلك العقبة الثالثة .

دخلت القبائل التي تُؤيّد الحكومة الجديدة إلى بغداد على شكل استعراضٍ ، بل قد جاءت بأسلحتها ، ودخلت بها العاصمة بأمرٍ من وزير الداخلية رشيد عالي الكيلاني ، وخاصةً قبائل الألوية الشمالية فسبّب هذا نقداً شديداً للحكومة ، فكانت العقبة الرابعة .

يبدو أن بعض أعضاء الوزارة لم يكونوا صادقين مع حكومتهم ، ومنهم نوري السعيد ، حيث كانوا يعملون في الخفاء ضدّها ، ويُؤلّبون عليها ، ولم

---

(١) تشكّلت وزارة ياسين الهاشمي على النحو الآتي :

١ ـ ياسين الهاشمي : رئيساً للوزراء . ٥ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .

٢ ـ رشيد عالي الكيلاني : وزيراً للداخلية . ٦ ـ جعفر العسكري : وزيراً للدفاع .

٣ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للمالية . ٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .

٤ ـ محمد زكي البصري : وزيراً للعدلية . ٨ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للاقتصاد والمواصلات .

ينتبه رئيس الحكومة إلى هذا التصرّف المشين لشغله بما هو أهم من ذلك ، وأخطر ، وكان هذا عقبةً خامسةً أيضاً .

بدأت الأزمات تعترض الوزارة ، وكانت على شكل حركاتٍ أو ثوراتٍ على نطاقٍ ضيقٍ ومنها :

١ء ـ **حركة الكاظمية** : أخذت مديرية البريد والبرق تُشيد بناءً لها في مقبرةٍ قديمةٍ ، فاحتجّ الناس على هذا التصرّف غير الشرعي ، إذ لا تزال آثار قبور أجدادهم باقيةً ، واصطدم الناس مع الشرطة ، فقُتل ثلاثة عشر رجلاً ، وجرح ما يزيد على المائة ، وقدّمت الحكومة رؤساء الحركة إلى المحاكم ، وقضت بالحكم على عددٍ منهم بالسجن . ولكن لم تمض سوى ستة أشهرٍ حتى خرج الجميع من السجن بأمرٍ ملكي بعد تدخّل العلماء .

٢ء ـ **حركة الرميثة** : ألقت الحكومة القبض على الشيخ أحمد أسد الله بحجة تحريض السكان على السلطة ، فكانت أن ثارت قبيلة (بني زريج) بزعامة شيخها (خوام العبد العباس) ، وهاجمت دوائر الحكومة في بلدة (الرميثة) ، وعطّلت السكك الحديدية ، فأنذرت الحكومة هذه القبيلة فلم ترعو ، فأرسلت إليها قوةً عسكريةً ، تدعمها الطائرات ، وقبضت على (خوام العبد العباس) ، وألزمت القبيلة على الهدوء والإذعان .

٣ء ـ **حركة سوق الشيوخ** : ثار السكان في هذه المنطقة تأييداً لحركة (الرميثة) ، واحتلّوا مخافر الشرطة في القرى ، وأحرقوا سجلات الحكومة ، وحاصروا مدينة (سوق الشيوخ) ، واصطدموا مع الشرطة التي اضطرّت إلى الاستسلام لقلّة عددها ، وأعطت سلاحها لخصومها ، فاضطرّت الحكومة إلى إرسال قوةٍ إلى المنطقة ، ويدعمها الطيران أيضاً ، فقضت على الحركة ، وأعدمت تسعة أشخاصٍ من رؤساء مُثيري الفتنة بعد أن كانت قد قضت بالحكم على ثلاثة وستين منهم بالإعدام ، وسجنت الكثيرين ، وصادرت أملاك بعضهم ، وبعد عدة أشهرٍ صدر عفو ملكي شمل الجميع .

٤ - **حركة أحمد بارزان** : تحرّك أحمد زعماء الأكراد في منطقة السليمانية ، وقطع الطريق ، وأثار الفوضى في منطقته عندما شعر بضعف هيبة الحكومة التي أرسلت له قوةً أجبرته على الاستسلام .

٥ - **حركة اليزيدية** : قام عبدة الشيطان بثورةٍ ضدّ تطبيق قانون الخدمة العسكرية الإلزامية بحجة أنه يتعارض مع طقوسهم الدينية ، فأرسلت لهم الحكومة قوةً ، وأعلنت الأحكام العرفية في المنطقة ، واصطدمت مع اليزيديين الذين قُتل منهم أكثر من مائة قتيلٍ نتيجة الصدامات مع قوات الحكومة ، كما أُعدم منهم بضعة رجالٍ ، وأُلقي الكثيرون في السجون ، وفرضت الإقامة الجبرية على بعضهم .

٦ - **حركة الرميثة ثانيةً** : تجدّدت الحركة في الرميثة مرةً ثانيةً ، بعد مرور ما يقرب من سنةٍ عن الحركة الأولى ، غير أنه في هذه المرة احتجاجاً على قانون الخدمة العسكرية الإلزامية ، فأرسلت الحكومة قوةً إلى المنطقة ، وأعلنت الأحكام العرفية في الرميثة ، وقصفت الطائرات مواقع تجمّع الثائرين . واضطرّ أصحاب الحركة إلى الاستسلام .

٧ - **حركة شعلان العطية** : ثار رئيس قبيلة الأكرع (شعلان العطية) الذي يُؤيّد حزب الإخاء الوطني ، غير أنه يُناصر حكمت سليمان الذي رفض التعاون مع ياسين الهاشمي في الحكومة ، وأخذ يُحرّض عليه . وممن حرّضهم شعلان العطية هذا ، ولكن الحكومة قضت عليها بسرعةٍ بعد القضاء على حركة الرميثة الثانية .

وفي عهد هذه الحكومة أُلغيت الأحكام الصادرة بحقّ بعض الصحف ، وسمح لها بالصدور . واتّفقت مع الحكومة البريطانية لنقل ملكية السكك الحديدية إلى الحكومة العراقية بشروط ثقيلة . وصدرت إرادة ملكية بحلّ المجلس النيابي ، وجرت انتخابات ، وتشكّل مجلس جديد . وأنشأت داراً للإذاعة ، وبدأت بالبثّ من اليوم الثاني عشر من ربيع الثاني ١٣٥٥هـ (الأول

من تموز ١٩٣٦م) . وأجرت تنقلاتٍ بين موظفي الدولة .

وكثرت انتقادات المعارضة بسبب كثرة الأحكام العرفية ، وتنقّلات قطعات الجيش لإخماد الحركات التي كانت تقوم في مناطق مختلفةٍ وخاصةً في منطقة الفرات الأوسط .

ثورة بكر صدقي : كان بكر صدقي من كبار ضباط الجيش العراقي ، ويتولّى إمرة القطعات العسكرية في لواء الموصل ، وقادها في إخماد حركة الآشوريين ، مما لفت النظر إليه ، وزاد من ثقته بنفسه ، كما قاد الجيش في قمع الحركات التي حدثت في الأعوام التي تلت تلك الحركة مما رفع من مكانته ، فكان يطمع في أن يتسلّم رئاسة الأركان مكان طه الهاشمي شقيق رئيس الحكومة ياسين الهاشمي لذا كان حريصاً على إزاحة الحكومة القائمة لإمكانية الإطاحة بالفريق طه الهاشمي رئيس الأركان، ويعود بكر صدقي في أصوله إلى الأرومة الكردية ، الأمر الذي جعل بعضهم يتّهمه بالعمل لإقامة دولةٍ كرديةٍ ، وسواء صحّ هذا الكلام أم لم يصحّ ، إلاّ أنه لم يكن صاحب دينٍ ليُفكّر بالعمل للإسلام ، أو بالوحدة بين شعوب الأُمّة المسلمة ، والبدء بالوحدة بين أجزاء الدول العربية التي تضمّ شعباً واحداً ، ولم يكن يرى أن العراق جزء من البلدان العربية، ومن كثرة الشكوك حول حركته، زادت اتهاماته، وإن كان يبدو أن حركته لم تكن إلا لدوافع شخصيةٍ ، وتحقيق منافع ، ومن ذلك استلام رئاسة الأركان مكان الفريق طه الهاشمي كمرحلةٍ أولى ، ولم نستطع أن نتكهّن بماذا كان يحدّث نفسه بعد تلك المرحلة، أو ما يُخالج نفسه عندما يُحقّق ما يُريد . وقد شجّعه على الحركة حكمت سليمان الذي كانت له طموحات وأهداف أيضاً .

لقد كان حكمت سليمان من حزب الإخاء الوطني ، ولما عُهد إلى رئيسه ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة رفض التعاون معه ، واعتزله ، وأخذ يعمل ضدّه ، ثم انضمّ إلى جماعة الأهالي ذات الصبغة الاشتراكية تحت تأثير عبد الفتاح إبراهيم . وغدا حكمت سليمان من قادة هذه الجماعة ، واستطاع

أن يضمّ إليه بكر صدقي ، إذ كانت بينهما صلة ، فهو الذي شجّعه على القيام بحملةٍ ضد الآشوريين . ونتيجة ظهوره بعد تلك الحملة استطاع التأثير على الضباط الصغار . وكان تعاون حكمت وبكر يُحقّق هدف الطرفين فكلاهما يريد استلام منصب أخٍ من الشقيقين حكمت مكان ياسين ، وبكر مكان طه .

تقدّم الفريق بكر صدقي قائد الفرقة الثانية في ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ (٢٩ تشرين الأول١٩٣٦م) من لواء ديالي على رأس القطعات العسكرية إلى بغداد ، ومعه الفريق عبد اللطيف النوري قائد الفرقة الأولى الذي يقود المؤخّرة . وفي الطريق التقى الجيش بوزير الدفاع جعفر العسكري ، ومعه رسالة من الملك غازي يستنكر فيها هذه الحركة فقُتل وزير الدفاع ، ودخل الجيش بغداد بعد أن ألقى عليها ثلاث قنابل فقط . وقدّم الفريقان بكر صدقي ، وعبد اللطيف النوري طلباً إلى الملك غازي يرجوان فيه إقالة حكومة ياسين الهاشمي وإلا اضطرّ الجيش إلى استعمال القوّة لتحقيق ذلك ، ثم تكليف حكمت سليمان برئاسة الحكومة الجديدة .

فما كان من ياسين الهاشمي إلا أن قدّم استقالة حكومته في اليوم نفسه .

وزارة حكمت سليمان : كلّف الملك غازي ، وبناء على طلب الإنقلابيين حكمت سليمان في تشكيل حكومة جديدة[1] ، وكانت معدة من قبل وأعلن عنها في اليوم نفسه ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م) .

كان أول عملٍ قامت به الوزارة استصدار أمر بإحالة الفريق طه

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ حكمت سليمان : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ جعفر أبو التمن : وزيراً للمالية .
٣ ـ صالح جبر : وزيراً للعدلية .
٤ ـ كامل الجادرجي : وزيراً للأشغال .
٥ ـ عبد اللطيف النوري : وزيراً للدفاع .
٦ ـ ناجي الأصيل : وزيراً للخارجية .
٧ ـ يوسف إبراهيم : وزيراً للمعارف .

الهاشمي على التقاعد ، وإسناد رئاسة الأركان إلى الفريق بكر صدقي الذي كان قد أبرق إلى الفريق طه الهاشمي والذي كان في زيارةٍ إلى تركيا يرجوه في برقيته أن يتأخّر بعض الوقت في زيارته .

لقد كان في نية بكر صدقي أن يتخلّص بالقتل من كل من : ياسين الهاشمي ، ورشيد عالي الكيلاني ، ونوري السعيد ، غير أنه جرت تدخّلات من انكلترا ومن رئيس الوزراء حكمت سليمان الذي اقترح باسم الوزارة أن يُغادروا العراق ، واسترحم من الملك غازي أن يُشير عليهم بذلك ، ففعل ، وأرسل إليهم مُرافقه الخاص ليطلب منهم مُغادرة البلاد . فانتقل ياسين الهاشمي[1] ورشيد عالي الكيلاني إلى الشام ، أما نوري السعيد فقد استأذن له السفير الإنكليزي من رئيس الوزراء حكمت سليمان أن يُسافر إلى مصر على متن طائرةٍ من السلاح الجوي البريطاني ، فأذن له ، وسافر ، وعملت انكلترا هناك على حمايته ، فكانت تعرض عليه أسماء العراقيين الذين يُريدون دخول مصر ، فإن وافق ، سُمح لهم ، وإن رفض مُنعوا .

أرادت الحكومة أن تثبت قواعدها فأجرت تنقلاتٍ واسعةً بين كبار الموظفين لمصلحة مُؤيديها ، وحلّت المجلس النيابي ، وأجرت انتخاباتٍ جديدةٍ بإشرافها ، وسمحت للصحف المعطّلة بالصدور ، وللكتب الممنوعة بالفسح ، وعملت على استصدار أمرٍ ملكيٍ بالعفو عن المحكومين .

كان رئيس أركان الجيش العراقي بكر صدقي يُريد أن يتخلّص بالقتل من عددٍ من مُعارضيه ، سواء أكانوا من العسكريين أم من المدنيين ، وقد انتشرت هذه الشائعة بين الأوساط السياسية جميعها ، وقد اغتيل ضياء يونس أمين سر مجلس الوزراء في عهد الوزارة السابقة ، وادّعت الحكومة أن علي رضا العسكري شقيق جعفر العسكري قد انتحر . . .

---

(١) مات ياسين الهاشمي في بيروت في ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥هـ (٢١ كانون الثاني ١٩٣٧م) .

بدأت النقمة تظهر من تصرّف بكر صدقي أولاً ثم من سوء الإدارة عامةً . حتى فقدت الحكومة شعبيتها .

أعلن بكر صدقي عن خطوبته من إحدى الغانيات الألمانيات فكان هذا مجالٍ نقدٍ شديدٍ ، بشكلٍ سري أحياناً وعلني أحياناً .

وكان تعامله مع الوزراء بشكلٍ يُسيء إليهم حتى انقسمت الحكومة إلى فريقين أحدهما يُؤيّده والآخر يُعارضه ، وأخيراً قدّم أربعة وزراء استقالاتهم[١] . فأصبحت الوزارة حسب القانون مستقيلةً[٢] ، ولكن صدر أمر ملكي بتعيين أربعة وزراءٍ مكانهم[٣] . ثم صدر أمر ملكي آخر قضى بتعيين مصطفى العمري وزيراً للداخلية . وأدّت المعارضة لتصرفات بكر صدقي إلى قتله ـ كما سنرى ـ .

أما سوء الإدارة العامة فقد أدّى إلى وقوع فوضى في لواء الديوانية ، وسافر رئيس الوزراء حكمت سليمان إلى تلك المنطقة بصفته وزيراً للداخلية في مُحاولةٍ للقضاء على الفوضى ، والتفاهم مع الزعماء في اللواء غير أنه لم يُفلح ، وتطوّرت الفوضى إلى حركةٍ قامت بمُهاجمة الدوائر الرسمية ، فاضطرّت الدولة إلى استعمال القوّة ، واستغلّت السلطات العسكرية هذه العملية ، واتّخذت أسلوب القسوة لتزداد النقمة على الحكومة ، فإن العسكريين قد كرهوا بكر صدقي ، وشعروا أنه كابوس مُصلّت عليهم . ورفعت الحكومة الحصانة عن

---

(١) قدم الاستقالة وزير المالية محمد جعفر أبو التمن ، ووزير الأشغال كامل الجادرجي ، ووزير العدلية صالح جبر ، ووزير المعارف يوسف عز الدين إبراهيم .

(٢) يقضي القانون بأن لا يزيد عدد الوزراء على تسعةٍ ، ولا ينقص عن الستة ، وباستقالة هؤلاء الوزراء فإن العدد نقص عن الستة وبذا أصبحت بحكم المنحلّة .

(٣) عين الوزراء الآتية أسماؤهم مع وزاراتهم :

١ ـ محمد علي محمود : وزيراً للمالية .
٢ ـ عباس مهدي : وزيراً للأشغال .
٣ ـ علي محمود الشيخ : وزيراً للعدلية .
٤ ـ جعفر حمندي : وزيراً للمعارف .

اثنين من مجلس الأعيان[1] ، وعن نائبٍ واحدٍ[2] ، وذلك بعد مُوافقة مجلس الأعيان والنواب ، وهم من وجهاء لواء الديوانية ، فكان ذلك إيذاناً باندلاع نار الثورة ، فقامت الطائرات بقصف المدن والقرى ، وتحرّكت المظاهرات في النجف ، وزاد عدد القتلى على الثلاثمائة في المدة الواقعة من ٢ ـ ١٥ربيع الأول ١٣٥٦هـ (١٢ ـ ٢٥ أيار ١٩٣٧م) وكان عدد الجرحى أضعافاً مُضاعفةً لعدد القتلى .

ولما عُيِّن مصطفى العمري وزيراً للداخلية في ١٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ سافر إلى لواء الديوانية ، ورجا شيوخ القبائل أن يعملوا على إنهاء الخلاف القائم بين الشعب والحكومة ، وقد وعدهم بإعادة الذين نُفوا إلى الألوية الشمالية ، وإخراج المساجين ، وإعفائهم من الخدمة الإلزامية بالجيش ، فتوقّفت العلميات غير أن النفوس لا تزال مُتألّمةً من تصرّفات رئيس الأركان ، ولن تهدأ إلا بالخلاص منه .

مقتل بكر صدقي : دعت الحكومة التركية الحكومة العراقية إرسال بعثةٍ عسكريةٍ إليها لمشاهدة مناورات الجيش التركي التي سيقوم بها في منطقة تراقيا (القسم الأوربي من تركيا) فوافقت الحكومة العراقية على هذه الدعوة ، وكلّفت بعثةً عسكريةً برئاسة رئيس الأركان بكر صدقي .

أرادت البعثة السفر من الموصل ، وكان موعد المناورات ١١ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١٨ آب ١٩٣٧م) . ورأت البعثة أن تنطلق قبل مدةٍ ، وفي ٤ جمادى الآخرة بينما كان بكر صدقي في حديقة مطار الموصل مع زميله محمد علي جواد قائد سلاح الجو العراقي في الطريق إلى تركيا ، جاء جندي عراقي[3] ليقدّم لهما بعض المشروبات ، وكان يُخفي مسدساً تحت الصينية ،

---

(١) علوان الياسري ، ومحسن أبو طبيخ .

(٢) عبد الواحد الحاج سكر .

(٣) يُدعى الجندي القاتل : محمد عبد الله التلعفري .

فلما وصل إليهما ، أطلق رصاصتين على بكر صدقي فقتله، فهمّ محمد علي جواد بالقبض على الجندي ، فأدار عليه المسدس ، وقتله ، فأسرع بقية الضباط ، وقبضوا على الجاني .

صدرت الأوامر من الجهات المختصة بإلقاء القبض على بعض الضباط[1] الذين يحتمل أن تكون لهم علاقة بالحادث . فألقى أمير اللواء محمد أمين العمري آمر منطقة الموصل القبض عليهم، وأمر بنقلهم إلى بغداد ، فطلبُوا مُقابلته ، ورجوا حمايته بتأجيل إرسالهم ، إذ يخشون من الاغتيال في الطريق . فلما وافق على التريث قليلاً بإرسالهم إلى بغداد ، طلبوا منه إخلاء سبيلهم ، فأبى عليهم ، فهددوه باتهامه بالمشاركة في الحادث ، والتخطيط لتنفيذه ، فخشي مغبة الأمر ، واستشار ضباط الحامية ، فوجدهم قد تورّطوا جميعاً ، وأجمعوا على اتهامه إن لم يُسرع بإطلاق سراح المتهمين ، ففعل وأذاع بياناً أعلن فيه : أنه ألقى القبض على الجُناة ، وأبلغ الحكومة بذلك لكنها طلبت القبض على كثيرين من الضباط الذين لا علاقة لهم بالحادث، من باب إلقاء الذعر في نفوس الآمنين ، وتضخيم الحادث ، ولما همّ بالتنفيذ وجد الجيش قد آزر ضباطه ، وتضامن معهم ، الأمر الذي جعله يقطع الصلة مع الحكومة مع المحافظة على الإخلاص لمليك البلاد .

أرادت الحكومة أن تستعين بالجيش لتأديب حامية الموصل ، لكن الجيش رفض الأوامر ، وأعلن تأييده للموصل ، وأصدرت حامية (الوشاش) التي كلّفت بالحركة والتوجه إلى الموصل الميثاق الآتي :

١ ـ الإخلاص للعرش وصاحب الجلالة .
٢ ـ الجيش وحدة لا تتجزّأ ، وتُؤيّد مطالب قوات الموصل .
٣ ـ إبعاد بعض الضباط عن مناصبهم الحالية ، ووضعهم في مواقع أخرى ثانوية لتدخّلهم في السياسة .

---

(١) كان من بين هؤلاء الضباط العقيد فهمي سعيد ، والنقيب محمود المندي .

٤ ـ عدم تدخّل الجيش في السياسة .

أبرق رئيس الوزراء حكمت سليمان لوزير الدفاع عبد اللطيف النوري الذي كان خارج العراق يطلب منه الموافقة على استلام رئاسة الأركان مكان بكر صدقي، حتى تُسلّم وزارة الدفاع إلى جميل المدفعي الذي يقضي إجازته الصيفية في سوريا ، فوافق ، واتجه جميل المدفعي إلى العراق ، إلاّ أن الأحداث تطوّرت كثيراً ، واضطر حكمت سليمان إلى تقديم استقالته في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١٧ آب ١٩٣٧م) .

وزارة جميل المدفعي الرابعة : كاد الوضع أن يتدهور تماماً ، وكان الشعب يُفكّر بمن ينقذ البلاد ، ويُخرجها من المأزق التي وقعت فيه ، غير أن الشعب لا يُمثّل إلا طرفاً ، ويُعدّ الطرف الضعيف ، إذ أصبح الجيش يُشكّل طرفاً ، ويُعدّ هو القويّ ، إضافةً إلى الملك الذي أصبح أمره مُرتبكاً ، ويجب ألا ننسى أبداً السياسة الإنكليزية التي تلعب دورها في الخفاء، وتحرّك بعض الرجالات من وراء ستار .

برز على الساحة أربعة عقداء هم : فهمي سعيد ، وكامل شبيب ، وصلاح الدين الصباغ ، ومحمود سلمان ، وقد قابلوا الملك ، وطلبوا منه تكليف جميل المدفعي بالوزارة حيث كان يبدو أنه يتبع سياسةً معتدلة ، ورحب الملك بذلك ، واستدعي جميل المدفعي ، وعهد إليه بتأليف الوزارة . فاشترط عدم تدخّل الجيش ، فأُعطي ما أراد .

شكّل جميل المدفعي الوزارة في اليوم نفسه[1] ، وأُعلنت الأسماء ، ولم

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .

٣ ـ عباس مهدي : وزيراً للعدلية .

٤ ـ جلال بابان : وزيراً للاقتصاد .

٥ ـ محمد رضا شبيبي : وزيراً للمعارف .

٦ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .

٧ ـ إبراهيم كمال : وزيراً للمالية .

تتكـامل ، ولكن أُضيف إليهـا في اليوم الثـاني مُباشـرةً توفيق السـويـدي ، وأُسندت إليه وزارة الخارجية ، وإبراهيم كمال ، وأُعطي وزارة المالية وكانا في خارج البلاد .

ويرى بعض الساسة أنه كان من المفروض على جميل المدفعي ضمّ طه الهاشمي ونوري السعيد إلى وزارته ليكون إلى جانبه جميع خصوم بكر صدقي والوزارة السابقة ، وخاصـةً أن ياسين الهاشمي كان قد مات خارج البـلاد فكسب عطف الشعب بعد موته لأن الناس طُبعوا على العطف على من تحطّ به الأيام بعد علو وخاصةً إن حلّت به نكبة ، أو نزلت به نازلة ، وقد أصاب آل الهاشمي مُصيبة فياسين مات غريباً مُشرّداً ، وطه أُحيل على التقاعد . وأما نوري السعيد فقد قُتل صهره جعفر العسكري ، وشرّد هو إلى مصر . ولا شك أن دخوله الوزارة سيكون لها دعماً من انكلترا لثقتها بنوري السعيد الذي يُعدّ من أوائل من تثق بهم ، هذا إضافةً إلى صلته الوثيقة ببعض العسكريين . غير أن جميل المدفعي لم يكن عنده من الفراغ ليستمع إلى آراء بعض الساسة ، وإلى نصائحهم ، وإنما قدم مُباشرةً إلى الملك غازي ، وخرج من عنده يحمل كتاب التكليف ، وصدر أمر بتشكيل الوزارة في اليوم نفسه .

حاولت حكومة جميل المدفعي كسب الشعبية والتأييد لها من الشعب ، ومن الجيش على حدٍ سواء ، ولكن لم تفلح في ذلك ، فقد عملت على ترك الماضي ونسيانه ، والنظر إلى المستقبل ، ومع هذا فقد حاولت محاكمة المتهمين بقتل جعفر العسكري وزير الدفاع السابق ، غير أنها لم تنجح ، إذ أن القضاء رفض ذلك بحُجّة أن هذا يُخالف قانون العفو الذي صدر في عهد الوزارة السابقة .

استصدرت أمراً بحلّ المجلس النيابي في ١٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (٢٦ آب ١٩٣٧م) أي بعد تسعة أيامٍ فقط من تسلّمها السلطة ، وأخذت تستعدّ لإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ،كـي يأتي مجلس أكثر تأييـداً لها من سـابقه حسب تصوّرها .

واستصدرت أمراً بالعفو عن الذين ساهموا في حركة لواء الديوانية .

ومنحت امتياز نفط البصرة إلى إحدى الشركات الأجنبية في ٢ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ (٢٩ تموز ١٩٣٨م) ، وقد صدق المجلس النيابي على هذا المنح .

أما بالنسبة إلى الجيش فقد أعلن آمر منطقة الموصل أمير اللواء محمد أمين العمري أن الأسباب التي أدّت إلى قطع الصلة مع الحكومة قد زالت ، لذا فقد عاد الأمر إلى طبيعته ، ورجعت حامية الموصل إلى ارتباطها بأركان الجيش ، وبالتالي بالحكومة .

واستصدرت الحكومة أمراً بإحالة رئيس الأركان عبد اللطيف النوري على التقاعد ، وتعيين حسين فوزي رئيساً للأركان .

وأحالت عدداً كبيراً من الضباط من مُختلف الرتب على التقاعد في سبيل إبعاد الجيش عن التدخّل بالسياسة ، والانصراف إلى العمل العسكري من تدريبٍ ، وحماية البلاد فقط .

غير أن الضباط الذين كانت لهم يد في قتل رئيس الأركان السابق بكر صدقي ، خافوا أن تتخذ ضدّهم إجراءات ، ويُؤخذ منهم الواحد بعد الآخر لذا فقد وحّدوا أمرهم ، وتعاهدوا فيما بينهم على أن يكونوا كتلةً واحدةً ، ولذا فقد استمروا في بحث الموضوعات السياسية ، والالتقاء مع بعض السياسيين أمثال : سامي شوكت ، وتحسين العسكري ، وإسماعيل نامق ، وفي الوقت نفسه فقد كان يُخشى جانبهم ، وقد انضمّ إليهم محمد أمين العمري ، آمر منطقة الموصل ، ورئيس الأركان الجديد حسين فوزي ، فأصبح عددهم سبعة ، وهم : محمد أمين العمري ـ حسين فوزي ـ صلاح الدين الصباغ ـ فهمي سعيد ـ كامل شبيب ـ محمود سلمان ـ عزيز ياملكي .

استصدرت الوزارة مرسوماً عُرف باسم « منع الدعاية المضرّة » ، ولكن لم يُستخدم مدةً ، غير أنه فُرض على خريجي مدرسة الحقوق الذين قرّروا القيام

بمظاهراتٍ عندما فُرض عليهم الالتحاق بدورة الضباط الاحتياط ، وحُكم عليهم بالإبعاد إلى بعض الأقضية النائية[1]. ثم طُبّق ثانيةً على رشيد عالي الكيلاني وبعض الشخصيات الأخرى معه[2] . وكان لهذا دوره الكبير في النقمة على حكومة جميل المدفعي .

كان نوري السعيد يلتقي بالضباط السبعة ، ويطلب منهم أن يكونوا يداً واحدةً ، واقترح عليهم أن يكون طه الهاشمي وكيلاً عنهم ، ثم أخذ يُحرّضهم على إسقاط وزارة جميل المدفعي ، وربما كان ذلك ليتسنّى له استلام الحكم مكانه ، وربما ليتدخّل الجيش ، وتقع مصادمات ، وتجد انكلترا مُبرّراً للتدخّل في شؤون العراق ، وفرض ما تراه مُناسباً لمصلحتها ، مُوافقاً لسياستها .

وكان رئيس الوزراء يظنّ أنه يستطيع كبح جماح هؤلاء الضباط وغيرهم بصفته وزيراً للدفاع ، وقد أعطاهم مسؤولياتٍ تُسكتهم ـ حسب رأيه ـ أو تُقنعهم ، ويرضون بها . حيث كان قد عيّن محمد أمين العمري قائداً للواء المشاة الأول ، وصلاح الدين الصباغ مديراً للعمليات العسكرية ، ومحمود سلمان قائداً للقوات الآلية ، وكامل شبيب رئيس عمليات المشاة ، وعزيز ياملكي قائداً للنقل الآلي . ورغم أن الوضع كان يسير بخُطاً تتعثّر إلّا أنه يتحرك ، ولكن تدهور مباشرةً في ٨ رمضان ١٣٥٧هـ (٣١ تشرين الأول ١٩٣٨م) ، وذلك أنه اشتدّت الدعاية ضدّ وزير الداخلية مصطفى العمري ، فأحبّ رئيس الوزراء ، إجراء بعض التعديلات والمناقلات داخل وزارته فاستصدر أمراً ملكياً تضمّن :

١ ـ تعيين مصطفى العمري وزيراً للعدلية وترك وزارة الداخلية .

---

(١) كان من هؤلاء المبعدين : داود السعدي ، جميل عبد الوهاب ، علي محمود الشيخ ، شاكر الوادي ، إسماعيل الآغا ، علي غالب . واعتقل أيضاً يومذاك : يونس السبعاوي ، عبد الرحمن خضير ، صادق الحبة ، يوسف المولى .

(٢) وكان من هؤلاء الذين أبعدوا مع رشيد عالي الكيلاني ، فائق السامرائي ، عبد الوهاب محمود ، طالب مشتاق ، عبد القادر السباب .

٢ ـ تعيين عباس مهدي وزيراً للأشغال والمواصلات وترك وزارة العدلية .

٣ ـ تعيين صبيح نجيب وزيراً للدفاع وكان يشغل منصب مدير الخارجية العام .

٤ ـ تعيين جميل المدفعي رئيس الوزراء وزيراً للداخلية بالوكالة ، وترك وزارة الدفاع بالوكالة .

وكان لتعيين صبيح نجيب أثر كبير في توتّر الوضع واشتداد الأزمة ، إذ أنه كان قاسياً على الضباط ، ويسخر منهم ، فكرهوه ، واشتدّ حنقهم على الوزارة .

كان الضباط ينتقدون الحكومة في عدم محاكمة المتمرّدين الذين قاموا بانقلاب ١٤ شعبان ١٣٥٥ على حكومة ياسين الهاشمي من مدنيين وعسكريين ، وعدم مُلاحقتهم ، وينتقدون سوء الإدارة ، ويجاهرون بإبراز الأخطاء غير الظاهرة ، ويبحثون في تغيير الوزارة ، ويرون أن يُعهد بها إلى أحد رجلين : إما كبيرهم طه الهاشمي ، وإما مُوجّههم الذين يكثرون الاتصال به نوري السعيد .

وأحسّت الوزارة باللقاءات التي كانت تتمّ ، والأحاديث التي كانت تدور فرأت أن تُبعد هؤلاء الضباط إلى الأقضية النائية ، كما أبعدت المدنيين ، فتكون قد تخلّصت منهم ، وشتّت شملهم ، وشعر أيضاً الضباط بما تُخبىء لهم الحكومة فقرّروا إسقاطها مُباشرةً. فأرسلوا فرقة حمايةٍ إلى دار طه الهاشمي ، وأخرى إلى دار نوري السعيد ،واستنفروا قطعات معسكر الرشيد ، وانطلق عزيز ياملكي إلى رئيس الوزراء يُخبره بضرورة التخلّي عن الحكم ، فوجده في منزل أحد أعضاء مجلس الأعيان مع وزير الدفاع صبيح نجيب ،لذا فقد سُلّم الإنذار إلى وزير الدفاع الذي كتمه عن رئيس الوزراء رغم سؤاله عنه. وفي ذلك الوقت كانت قطعات الجيش تتحرّك وتأخذ مواقعها ، لتتّخذ التدابير

اللازمة فيما إذا فكّرت الحكومة بإجراءٍ ما ، أو وضعت خطّةً لإحباط الخطّة العسكرية .

رفع القادة العسكريون طلباً إلى الملك غازي يتضمّن ضرورة تخلّي الوزارة عن الحكم ، فبعث الملك رئيس ديوانه رشيد الخوجة إلى معسكر الرشيد ، واتّصل بالقادة ، وسمع منهم ، وكان مفاد آرائهم أنه لا بدّ من ترك الوزارة للحكم ، وتشكيل وزارة برئاسة طه الهاشمي أو نوري السعيد ، وأنه إذا لم يتمّ ذلك فوراً فإن الجيش سيحتلّ العاصمة ، وسيرغم الحكومة على النزول على رأي العسكريين . وبعد مُشاورات تمت بين الملك ورئيس مجلس الأعيان ، ورئيس مجلس النواب ، وبين رئيس الوزراء وأعضاء حكومته قدّم جميل المدفعي استقالة وزارته في ٣ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٣٨م) .

عهد الملك غازي إلى نوري السعيد بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ ، فألّفها في اليوم نفسه[١] . وقد سمحت للصحف المعطّلة بالصدور ، واستصدرت أمراً بحلّ المجلس النيابي ، وأجرت انتخاباتٍ جديدةٍ ، وذلك بعد أن أحسّت بقوة المعارضة التي طالبت بمحاكمة أعضاء الوزارة السابقة الذين اتّخذوا تدابير إداريةً ضدّ خصومهم السياسيين ، فاعتقلوا بعضهم ، ونفوا بعضهم الآخر .

كان رئيس الوزراء يُجامل الضباط كثيراً في بداية الأمر ، ويحترم آراءهم ، ويُنفّذ مُقترحاتهم ، حتى بدا أنهم أصحاب السلطة من وراء ستار .

---

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ - نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .

٢ - طه الهاشمي : وزيراً للدفاع ، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٣ - رستم حيدر : وزيراً للمالية .

٤ - عمر نظمي : وزيراً للأشغال والمواصلات .

٥ - صالح جبر : وزيراً للمعارف .

وبعد يومين وصل إلى بغداد من تركيا ناجي شوكت كوزير مفوض هناك ، وتسلّم وزارة الداخلية .

أرادت الحكومة أن تُوطّد نُفوذها ، واعتقدت أن هذا لن يكون إلا في تصفية المعارضة ، ثم إبعاد ضباط الجيش عن السياسة ، ولكنها لم تصل إلى السلطة إلّا عن طريق هؤلاء الضباط ، وأن بقاءها في الحكم مرهون بدعمهم لها ، لذا لا بدّ من اتخاذ سياسةٍ جديدةٍ لتنفيذ فكرتها .

أعلن رئيس الوزراء في ١٥ المحرم ١٣٥٨هـ (٦ آذار ١٩٣٩م) عن اكتشاف مؤامرةٍ هدفها الإطاحة بنظام الحكم القائم[١] ، وقتل الملك غازي ، وتنصيب الأمير عبد الإله ، وألقت القبض على المتهمين[٢] ، وشكّلت محكمةً عرفيةً[٣] ، فأصدرت أحكاماً قاسيةً[٤] .

وقد تدخّلت انكلترا في إنقاذ حياة حكمت سليمان ، إذ أبرق من لندن (لويد) مدير جمعية التمور العراقية إلى رئيس الوزراء نوري السعيد : (إن أصدقاءك في لندن لا يرتاحون لإعدام حكمت) ، وذلك بناءً على إشارة من الحكومة البريطانية . كما أن تركيا وإيران بذلتا جهداً لإنقاذ حياة حكمت سليمان نتيجة توسّط أخيه خالد سليمان . كما تدخّل في هذا الشأن جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، ومحمد رضا شبيبي .

---

(١) أعلنت الحكومة أن المؤامرة تريد قتل ٤٠ ـ ٥٠ رجلاً من كبار موظفي الدولة ، من بينهم أعضاء الوزارة الحالية ، وضباط الجيش عن طريق إقامة وليمةٍ في قصر الأمير عبد الإله ، ودعوة مائتين وخمسين شخصاً لها .

(٢) إتُّهم بالمؤامرة كلٌّ من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وحلمي عبد الكريم ، وجواد حسين ، وعلي غالب ، وعبد الهادي كامل ، والعقيد صالح صائب .

(٣) أُعلنت الأحكام العرفية في معسكر الرشيد ، وتشكّلت محكمة عرفية برئاسة العقيد عزيز ياملكي ، وعضوية كل من المقدمين سعيد يحيى ، ومحمود حلمي ، والقاضيين : معروف جياووك ، وعبد العزيز الخياط .

(٤) قضت المحكمة بالإعدام على كل من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وجواد حسين ، وحلمي عبد الكريم . وبالسجن ثمان سنوات على علي غالب . وبالسجن سبع سنوات على عبد الهادي كامل . وبرّأت ساحة العقيد صالح صائب .
ثم صدر أمر ملكي بتخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة على كلٍّ =

وعُيِّن رشيد عالي الكيلاني رئيساً للديوان الملكي ، وكان الملك غازي يُحبّه ، أما نوري السعيد الذي سعى في هذا التعيين ، فينوي التخلّص منه بوضعه تحت إشرافه ، وتسييره حسب هواه ، ولكن لم يُفلح إذ لم يكن رشيد عالي الكيلاني ذاك الفتى اليافع الذي يُغريه المنصب ، فيتبع من سعى له فيه ، ويأتمر بأمره ، وقد لام الإنكليز نوري السعيد على العمل لهذا التعيين .

مقتل الملك غازي : وفي ١٤ صفر ١٣٥٨هـ (٤ نيسان ١٩٣٩م) ، قُتل الملك غازي بحادث سيارةٍ كان يقودها بنفسه ، فاصطدمت بعمود الهاتف الممغنط الذي جذبها نحوه ، وما أن بلغ النبأ الناس حتى خرجت المظاهرات تُندّد بالإنكليز ، إذ سرت شائعات أن انكلترا كانت وراء الحادث ، وقد حاول المتظاهرون في بغداد قتل السفير الإنكليزي انتقاماً لملكهم ، فلم ينجحوا لوجود حراسةٍ مُشدّدةٍ على السفير ، على حين تمكّن المتظاهرون في الموصل من قتل القنصل الإنكليزي (مونك ماسون) ، واعتذر رئيس الوزراء لانكلترا عن هذا الحادث المؤلم ، وتعهّد بإجراء التحقيقات اللازمة والسريعة مع الرجال الذين كانوا في الشرفة مع القنصل،والذين يُظنّ بهم أو يُشتبه بهم . كما وعد بدفع تعويضٍ لأهل القنصل .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن مقتل الملك غازي لم يكن طبيعياً ، وإنما كان حادثاً مُفتعلاً ومُؤامرةً اشتركت فيها عدة عناصر منها : انكلترا ، ورئيس الوزارة العراقية ، ومرافق الملك غازي . فمغنطة العمود لجذب السيارة إليه ، أمر طبيعي أن تكون أصابع وراءها وذات نفوذٍ ، وجروح الملك كانت في الخلف من رأسه ، وقد سكت الطبيب الإنكليزي (سندرسون) عن هذا بل جعل الضماد يشمل رأسه كاملاً كي لا يخطر في بال أحدٍ السؤال عن سبب

= من : حكمت سليمان ، وإسماعيل عباوي ، ويونس عباوي ، وجواد حسين ، وبعد أيامٍ صدر أمر ملكي آخر بتخفيف عقوبة الإعدام أيضاً عن حلمي عبد الكريم .
وبقيت الأحكام العرفية نافذة المفعول في معسكر الرشيد مدة سنةٍ كاملةٍ .

وجود المجروح في الخلف ، حيث كان يجلس المرافق ، والمرافق قد مات مُتأثّراً بجراحه أو قتل لإخفاء الجريمة . ورئيس الوزراء نوري السعيد لم يتساءل عن الحادث ، وكيف تم ؟ فقد يكون اندفاع السيارة نحو العمود جاء بطيئاً إذ كانت سرعتها قليلةً ،فلم يُصب الملك بأذىً ، وعندها أقدم المرافق على ارتكاب جريمته التي أُخفيت بقتله . وعلى كلٍ فإن انكلترا لم تكن على وفاقٍ مع الملك غازي ، وتتمنّى نهايته ، وهو يُبادلها الشعور نفسه ، وكان يحذر نوري السعيد وربما صرّح أكثر من مرةٍ بذلك .

وإذا صحّت الافتراضات تكون قد انتهت حياة الملك الثاني في العراق على يد الإنكليز ، كما انتهت حياة الملك فيصل الأول ، وذلك لأنه لم يسر وفقاً لسياستهم تماماً ، وهذا ما تُريد التنبيه إليه انكلترا بطرفٍ خفيٍ ليكون الخلف على بيّنةٍ من أمره ، فيبقى دائماً رهن إشارتها ، ويعرف أنه في ساعة مُخالفتها ستكون نهايته . ولكن الأمر كله بيد الله ، وآجال العباد كلها مُقدّرة ، لا يزيد عمر فردٍ لحظةً ، ولا ينقص شيئاً ، ولو اجتمع لذلك أهل الأرض ، واتخذوا كل ما عُرف من أسبابٍ .

الوزارات في عهد الملك غازي

١ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الثانية : ٢٠ جمادى الأولى ١٣٥٢ ـ ٢٠ رجب ١٣٥٢هـ .
(٩ أيلول ١٩٣٣ ـ ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣م) .

٢ ـ وزارة جميل المدفعي الأولى : ٢٠ رجب ١٣٥٢ ـ ٧ ذي القعدة ١٣٥٢هـ
(٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ ـ ٢١ شباط ١٩٣٤م) .

٣ ـ وزارة جميل المدفعي الثانية : ٧ ذي القعدة ١٣٥٢ ـ ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ .
(٢١ شباط ١٩٣٤ ـ ٢٧ آب ١٩٣٤م) .

٤ ـ وزارة علي جودت الأيوبي : ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٣ ـ ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ ،
(٢٧ آب ١٩٣٤ ـ ٤ آذار ١٩٣٥م) .

٥ ـ وزارة جميل المدفعي الثالثة : ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣ ـ ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ .
(٤ آذار ١٩٣٥ ـ ١٧ آذار ١٩٣٥م) .

٦ ـ وزارة ياسين الهاشمي الثانية : ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣ ـ ١٤ شعبان ١٣٥٥هـ .
(١٧ آذار ١٩٣٥ ـ ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦م) .

٧ ـ وزارة حكمت سليمان : ١٤ شعبان ١٣٥٥ ـ ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ .
(٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ ـ ١٧ آب ١٩٣٧م) .

٨ ـ وزارة جميل المدفعي الرابعة : ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦ ـ ٣ ذي القعدة ١٣٥٧هـ .
(١٧ آب ١٩٣٧ ـ ٢٥ كانون الأول ١٩٣٨م) .

٩ ـ وزارة نوري السعيد الثالثة : ٣ ذي القعدة ١٣٥٧ ـ ١٦ صفر ١٣٥٨هـ .
(٢٥ كانون الأول ١٩٣٨ ـ ٦ نيسان ١٩٣٩م) .

الفصل الثالث

الملك فيصل الثاني - ١ -

١٤ صفر ١٣٥٨ - ٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ .
(٤ نيسان ١٩٣٩ - ٢ نيسان ١٩٤١م) .

لقد كان همّ فيصل الأول تثبيت أوضاع الملك لـذا انصرف إلى عقد المعاهدات مع انكلترا الواحدة تلو الأخرى ليحصل في كل مُعاهدةٍ على مزيدٍ من المنفعة عن سابقتها ، حتى قُبلت العراق عضواً في عُصبة الأمم ، وعُدّت أنها قد حصلت على استقلالها ، وكانت غالبية الشعب تعمل معاً ، وفي جبهةٍ واحدةٍ لمُقاومة الإنكليز ، وانتزاع ما يُمكن انتزاعه من وعـودٍ للحصول عـلى الاستقلال سواء أكان بالقوّة أم بالمجاملة وإظهار المُسايرة . كما بـذل فيصل جهداً لتثبيت الحدود مع الدول المجـاورة ، إذ لم تكن هناك حـدود واضحة المعالم ، ولا قائمـةً من قبل حيث كانت كلها أجزاء من الدولة العثمانية ، فلما جُزّئت بتخطيطٍ من الدول النصرانية على كرهٍ من أهلها ، كان لا بدّ من وضع معالم لهذه الحدود تحاشياً من حدوث خلافاتٍ في المستقبل ، وكان هذا يقتضي إقامة علاقاتٍ حسنةٍ مع الدول المجاورة ، وعقد اتفاقيات حسن جوارٍ ، وقد تمّ مُعظم هذا - بإذن الله - . وأما انكلترا فكان همّها في هذه المرحلة أن يكون الشعب راضياً من الملك كي يستقرّ الوضع ، وأن يكون الملك ألعوبةً بيدها لتتصرّف كما تشاء ، ولتستطيع أن تصطفي لها الأعوان ، وقدساير الملك في بداية الأمر حتى حصل على الإستقلال ، ثم بدا غير ما كان فكانت النهاية . واختارت انكلترا عناصر لها ، وأخذت تُمايز بينهم ، وتُفاضل لتضع رحلها عند من تشاء .

وآلت مُهمّة النهوض بـالبلاد عـلى عاتق غـازي غير أن نفسـه كانت

مشحونةً بالهموم مما حدث بين أبيه وجده وبين انكلترا صاحبة الكلمة في العراق رغم الاستقلال ، إذ لا تزال لها قوات تُرابط في البلاد ، ولها نُفوذها ، فكظم غيظه ، وكتم همومه فظهر وكأنه غير مُدرك لما جرى كي يستطيع العمل ، وإذا كان قد أوكل رشيد عالي الكيلاني برئاسة الوزارة ، لكنها لم تخل من وزراء ترضى عنهم انكلترا إذ تجاهل حتى ظُنّ أنه قد عهد بالوزارة إلى رجل سبق له أن كان رئيساً لآخر حكومةٍ أيام والده ، فهو يُتابع خُطا والده . وتوقّعت انكلترا أن يكون غازي أفضل لها من أبيه ، ولكن لم يلبث أن خاب فألها ، وأصبح عدم الثقة قائماً بين الطرفين ، فانكلترا تُريد القضاء على غازي ، وقد أحسّ بذلك ، وكان حذراً حتى من بعض رؤساء وزارته ، ومع ذلك فقد أحسّ بذلك ، وكان حذراً حتى من بعض رؤساء وزارته ، ومع ذلك فقد استمر في تجاهله ، ويُعيّن رؤساء للحكومات ، وهو يعلم أنهم خصوم له ، يُريدون القضاء عليه ، ويُوافق على اختيار وزراء ، ويعرف أنهم لا يرغبون به ملكاً عليهم ، فقد اشترك نوري السعيد في سبع وزاراتٍ من الوزارات التسع التي كانت في عهد الملك غازي ، ورأس واحدةً منها ، وشكّل جميل المدفعي أربع وزاراتٍ ، واشترك في خامسةٍ ، ورأس حكمت سليمان وزارةً ، واشترك في أخرى ، وشكّل علي جودت الأيوبي وزارةً ، هذا إضافةً إلى غيرهم ، وإلى رئيس الديوان الملكي أحياناً ، وممن تُشير إليهم أصابع الإتهام بشكلٍ أقل من هؤلاء .

وعرفت انكلترا الخطة التي يتبعها الملك غازي ، وقرّرت التخلّص منه ، وخاصةً بعد أن لا حظت حرصه الشديد في استلام المعارضة السلطة ، فلما تسلّمتها أثارت انكلترا عليها أعوانها ، وعلى من شاركهم ، من باب العصبية أحياناً ، ومن باب الجهل أخرى ، وانشقّ حزب الإخاء ، وكان جناح حكمت سليمان مُعارضاً بشدّةٍ ، وناقماً بعنفٍ ، وكان من وراء قيام حركة بكر صدقي .

لما قام بكر صدقي بحركته كانت انكلترا تتوقّع أن يفتك بالكثيرين ، وعلى رأسهم الملك غازي ، لما كان عليه من طموحاتٍ ورغبةٍ في الارتقاء ،

ولكن تلك التوقّعات كانت في غير مكـانها ، وظهر أن الجنس كـان المحرك الرئيسي له ، وغاص فيه إلى رأسه حتى أصبح موضع نقد معظم أصدقائه ، وأوقع هذا التصرّف بينهم ، فلو كـان الخلاف منصبـاً أو مالاً لاشـتركوا في قسمته ، ولكنه الجنس ، وكل يُريد الاستئثار بمن يراها في عينه جميلةً غير أن كبيرهم يحول بينهم وبين ما يشتهون إذ يحوز على كل ما يُفكّرون به ، ويُريد أن يقضي وطره قبلهم ، ويترك لهم فضلاته . . .

ولما رأت انكلترا انغماسه في الجنس إلى هذه الصورة ، وأن حقده لم يكن على الكبار إلا في سبيل ما يُخفي من ضغط الغريزة فيكبح جماحها بالحقد ، ولا يستطيع صرفها ، فلما سُهل عليه الطريق غطّى على كل شيءٍ ، وطلبت من حكمت سليمان أن ينصحه ، كما نصحته هي ألا يُقدم على الفتك بخصومه ، خوفاً على أعوانها أمثال نوري السعيد ، وجميل المدفعي وغيرهما ، وخوفاً من أن تسيـل الدمـاء فلا تستـطيع ضبط الأمـر ، ويذهب الـذين اعتمدتهم فيمن يذهب ، وتنكشف صلتهم بها ، فتنقلب النقمـة عليها ، لـذا نقلت نوري السعيد إلى مصر ، وأشارت بسفر ياسين الهاشمي ، ورشيد علي الكيلاني إلى الشام ـ كما رأينا ـ .

ولم ينتبه الكثير إلى أن انكلترا كانت وراء بكر صدقي ، وذلك بسبب إعلانه الدائم أنه ضدّ انكلترا ، وتصريحاته المستمرّة أنه يعمل ضدّ السياسة البريطانية ، وكأنهم نسوا أن المجرم لا يُعلن عن جريمته ، والخائن لا يعترف بخيانته ، والمرتبط لا يُصرّح بعلاقته والجهة التي يرتبط ، وإنما يُعلن ضدّ ذلك ليُبعـد عن نفسه الشبهـة ، ويُؤكّد العكـس ليُثبت النفي ، وهذا مـا تُريـده انكلترا ، بـل مُستعدّة لسـماع الشتيمة ، وقُبـول الطعن لتُظهر نـظافـة من تتبنّـاهم ، فلو عُرف ارتبـاطهم لما استفـادت شيئـاً ، ولفشلت سيـاستهـا ، وضُربت مُخطّطاتها ، وتعطّلت مصالحها ، وفقدت كل ما تسعى إليه وتحرص عليه .

والمشكلة في ضعف سياستنا ، وعدم معرفتنا للواقع أننا لا نقوّم الأمر

بالعقيدة والسلوك وإنما نقبل الكلام بالعواطف الباردة ، والادّعاءات الفارغة ، فما ادعاء الإخلاص ، وحبّ الوطن، والعصبية للقوم ، والعروبة و . . . . مع عدم وجود رادعٍ ديني أو وازعٍ خلقيٍ إلا كالديوث الذي يتعهّد بشرفه ، واللصّ الذي يفتخر بأمانته . فالذي لا يعرف الخوف من الله من يضمنه ألا يخون أمّته ، ومن لا يُدرك الحلال والحرام من يكفُله ألاّ يسرق ما ائتمن عليه . إن أولئك الذين يقضون أيامهم يُعاقرون الخمرة ، ويمضون وقتهم في مُعاشرة النساء ، ويسهرون الليالي على موائد القمار ، من هم أصدقاؤهم ؟ أتحول العروبة ، والوطنية ، والقومية ، وكلمات الإخلاص أن يرتكب المرء هذه الموبقات ؟ إنه لا يحول دون ذلك سوى الدين . أتحول هذه الكلمات الجوفاء بين التقاء مُدّعي الإخلاص والخائن ؟ لا ، وألف لا إن الملاهي لتجمع بين المدّعي وغيره ، ولتضمّهما الليالي الحمراء ، ويلتقيان على موائد الخمرة ، وعلى القمار ، وكم سُرقت معلومات عن طريق النساء !!! وأُخذت الأسرار من أفواه الذين أضاعت الخمور عقولهم !!! إننا مع الأسف لا نُقوّم الرجال على أساس العقيدة والأخلاق، وخاصةً في تلك المراحل. إن بكر صدقي كثيراً ما ادعى محاربة بريطانيا وسياستها، ولكن النساء كانت تسوقه إلى كل هاويةٍ، وتجمعه مع أمثاله . . .

ولما قطعت انكلترا الأمل من بكر صدقي تخلّت عنه ، وقُتل ، غير أنه لا يُمكنها أن تُضحّي بأعوانها ، إذ تخشى عليهم فيما إذا وقعت فوضى أو قامت ثورة عارمة في البلاد، لذا لا بدّ أن يتسلّم السلطة أحدهم ، ويقوم بدوره بإخفاء جريمة من سبقه ، وتُغطّى بصورةٍ تلقائيةٍ الصلة مع انكلترا . لجأت انكلترا إلى طريقين : أحدهما مُباشرة عن طريق حكمت سليمان رئيس الوزراء حيث دعا جميل المدفعي لاستلام منصب وزارة الدفاع . وكان الملك غازي نفسه قد لمس رغبة انكلترا ممن يتوقّع أنهم أعوان لها فاستدعى جميل المدفعي ليعهد إليه برئاسة الحكومة بعد أن أصبح استمرار الوزارة القائمة أمراً شبه مستحيلٍ .

ولكن الضباط اختلفوا مع الحكومة الجديدة ، لأنهم لم يعرفوا أبعاد

القضية، إما لجهلٍ ، وإما أنهم يُوجّهون، بعضهم يدري والآخر لا يدري، وعلى كل فقد كانت الحماقة العسكرية ، وإثبات الشخصية هو الذي يحدو هؤلاء الضباط ، وإن ادعوا الوطنية والعمل لها ، وسقطت الحكومة ، وابتهج الضباط بنصرهم ، وظنّوا أنهم قطعوا شوطاً إلى الأمام ، والواقع أنهم تحركوا خُطوات نحو الوراء ، أو ساروا باتجاه الهاوية .

واضطرّ الملك غازي أن يُظهر مُسايرة انكلترا ، وأن يُوافق على تعيين نوري السعيد رئيساً للحكومة ، وهو ما ترغبة انكلترا ، وما طالب به الضباط ، وظنّ أن ذلك تنازل منه للسياسة الإنكليزية ، وربما ترضى عن ذلك ، إلا أنه في الواقع قد تقدّم بنفسه خُطوةً نحو النهاية ، وكما طلبت انكلترا منه المسايرة أرادت منه أن يُقدّم تنازلاتٍ أخرى ، وبتعبير آخر أن يسير ضمن السياسة التي ترسمها له ، ولكن ليس لديه الاستعداد للتنازل أكثر من ذلك على ما يبدو .

إن انكلترا تريد ملكاً في هذه المرحلة على الأقلّ يخضع لها كلياً ، فكل المؤشّرات في أوربا تدلّ على نشوب حرب عظمى ، وربما تتسع ساحاتها حتى تشمل العالم كله ، وألمانيا أخذت تُوجّه الضربات إلى جيرانها ، فقد احتلّت النمسا في ١١ المحرم ١٣٥٧هـ (١٢ آذار ١٩٣٨م) ،وضمت إليها منطقة « السوديت » من تشيكوسلوفاكيا في ٦ شعبان ١٣٥٧هـ (٣٠ أيلول ١٩٣٨م) ، وحذت حذوها اليابان في آسيا ، وإيطاليا في أوربا و . . . . ويمكن أن نعدّ إسبانيا ضمن هذه القائمة ، حيث استبدّ (فرانكو) ، وقامت الفاشية في بلاده . ولذا لا يمكن لانكلترا أن تقبل ملكاً لا يدور في فلكها كلياً في مناطق نفوذها حيث تخشى أن ينقلب عليها في الساعات الحرجة ، لذا يجب أن تطمئن على وضعها قبل اندلاع الحرب ، أو قبل أن يأتي الوقت الذي لا يُجدي معه التغيير .

اتخذت انكلترا آخر وسيلةٍ لديها وهي إشعاره بأن القتل يدور حوله إن لم يستسلم لها ، ويُعلن الخضوع لسياستها والدوران في فلكها ، فأعلن رئيس

الوزراء العراقي نوري السعيد في ١٥ المحرم ١٣٥٨هـ (٦ آذار ١٩٣٩م) عن اكتشاف مؤامرةٍ هدفها الإطاحة بنظام الحكم لقائم ، وقتـل الملك غازي ، وتنصيب عبد الإله ، وألقـت القبض على المتهمين ، وشكّلت محكمةً عرفيةً ، وأصدرت حكم الإعدام على رؤوس المؤامرة .

تنبّه الملك غازي إلى الموضوع ، ولكنه بقي ثابتاً في مكانه لا يتزحزح عنه ، وإن زاد حذره ، وتوقّع مصدر الخطر فخافه ،ولكـن أمر الله نافذ ، ولا رادّ لحكمه، لم يكتمل الشهر حتى قُتل في الرابع عشر من شهر صفر .

وتـدخّلت انكلترا لإنقاذ رجـال المؤامرة الـذي سبق أن قضت عليهم المحكمـة بالإعـدام ، لأن القضيـة إحـدى دسـائسهـا ، وهي التي نسجت خيوطها ، وأخرجتها على الصورة التي تمّت عليها .

وهكـذا قوي أعـوان انكلترا في العراق ، وأصبـح لهم خطر ، ولـذا سيصبح عهد فيصل الثاني أو الوصيّ عهد صراعٍ بين هؤلاء الأعوان وبـين خصومهم ممن يُسمّى بالعناصر الوطنية ، وإن كانت الأمور كثيراً ما تتداخل بعضها مع بعضٍ إذ يلتقي رجال من هؤلاء ومن أولئك في مواضع السـوء وأماكن الشبهات على ما لا يُرضي الله ما دامت لا توجد هناك موانع دينية تحول دون ذلك ، وفي تلك اللقاءات تحدث الإغراءات والمُشجّعات فتنتقل عناصر من مواقع إلى أخرى ، وغالباً ما يكون الانتقال إلى الأدنى حيث لا تُعطي تلك الأماكن إلّا الفساد ، ولا تقود روّادها إلا إلى السوء ، وطرق الارتباط لتتمّ صفقات بيع وشراء الضمائر .

الوصايـة : اجتمع مجلس الـوزراء بعد مقتـل الملك غازي ، وأعلن تنصيب ولي العهد الأمير فيصل ملكاً على العراق باسم « فيصل الثاني »[1] ،

(١) فيصل بن غازي : ولد في بغداد في ٢٩ محرم ١٣٥٤هـ (٢ أيار ١٩٣٥م) ، وعندما آل إليه المُلك كان عمره أربع سنواتٍ ، فتولّى الوصاية عليه خاله عبد الإله ، فأدخله مدرسةً عربيةً ، ثم إنكليزيةً ، ومنها انتقل إلى كلية « هارو » ، ونُودي به ملكاً عام ١٣٧٢هـ ، كان يُعاني أزمةً صدريةً مُزمنةً ، فعاش مُنعزلاً في قصره ، واستبدّ خاله بالقصر ، فضجّ الناس ، وقُتل في ثورة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) .

وسمّى عبد الإله بن علي[1] وصيّاً على الملك الذي لم يبلغ سن الرشد القانونية . حسب وصية الملك غازي التي أفادت بها كل من عالية بنت علي زوجة الملك غازي ، وشقيقته راجحة ، كما دعا مجلس الوزراء مجلس النواب المنحلّ للانعقاد تمهيداً لاجتماع مجلس الأمة الذي سيبتّ في أمر الوصاية نهائياً ، وفي الوقت نفسه فقد أعلن مجلس الوزراء الحداد العام في العراق .

ثم عُقد اجتماع خاص في البلاط الملكي للبحث في أمر الوصاية حضره كل من : رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر ، ورئيس مجلس النواب مولود مخلص ، ورئيس مجلس الوزراء نوري السعيد ، ورئيس الديوان الملكي رشيد عالي الكيلاني ، ورستم حيدر وزير المالية ، وجميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، واستعرض الحضور أسماء الأمراء الهاشميين الذين تصلح وصايتهم على الملك فيصل الثاني فكانوا ثلاثة : عبد الله بن الحسين ، وزيد بن الحسين ، وهما : عمّا أبيه غازي بن فيصل بن الحسين ، والثالث وهو : ابن عم أبيه عبد الإله بن علي بن الحسين ، وفي الوقت نفسه خاله .

عرض رئيس الوزراء وجهة نظره ، فذكر أن عبد الله بن الحسين مشغول بشؤون إمارته في شرق الأردن ، وأن زيد بن الحسين لا يصلح لأن زوجته أجنبية ، وهي سيدة تركية ولم يبق سوى الأمير عبد الإله ، وهو أهل لذلك ، فأيّد الحضور هذا الرأي ، وتمّ تنصيب عبد الإله وصياً بصورةٍ رسميةٍ في ١٦ صفر ١٣٥٨هـ (٦ نيسان ١٩٣٩م) .

قدّم رئيس الوزراء نوري السعيد استقالة حكومته إلى الوصي في اليوم نفسه ، وهكذا تقتضي التقاليد الدستورية بأن تتخلّى الوزارات القائمة عن

---

(١) عبد الإله بن علي : ولد في الطائف عام ١٣٣١هـ ، وتعلّم فيها مبادىء العلم ، ثم انتقل إلى القدس ، والتحق فيها بالكلية الإسلامية ، ثم انتقل إلى كلية « فيكتوريا » بالاسكندرية ، وأتمّ دراسته في إنكلترا ، تسلّم الوصاية على ابن أخته « فيصل الثاني » ، واستبدّ بالسلطة حتى بعد بلوغ الملك سن الرشد القانونية ، وقُتل في ثورة ٢٧ ذي الحجة عام ١٣٧٧هـ .

الحكم عند حدوث تجدُّد في ملك البلاد ، أو إمارتـه ، وفي اليوم ذاته عهد الوصي إلى نوري السعيد ثانيةً بتأليف وزارةٍ جـديدةٍ ، فقـدّم أسماء وزارتـه السابقـة ، وتمّت الموافقة عليها مُباشرةً[1] .

كانت انكلترا قد أشاعت أن النية قائمة لقتـل الملك غازي وتنصيب عبد الإله مكانه ، بل لقد أعلنت الحكومة ذلك رسمياً ، عندمـا أذاعت نبأ اكتشاف المؤامرة ، والأهداف التي ترمي إليها ، وكان من جملتها قتل غازي ، وإقامة عبد الإله محلّه ، غير أنها عادت وعدلت عن فكرتها الأولى ، وجعلتها إبقاء المُلك وراثياً في أُسرة فيصل ، وإقامة عبد الإله وصياً على ابن أخته فيصل الثاني الذي لا يزيد عمره على الأربع سنوات ، حيث وجدت أن هذه السياسة أفضل لها لـ :

١ ـ ربما لو نُصّب عبد الإله ملكاً لنافسه آخرون ، وقالوا نحن أحقّ بالملك منه ، فهو صغير بعد نسبياً لم يتجاوز السابعة والعشرين من العمر ، وليس لديه خبرة في السياسة ، ولا حنكة في تصريف الشؤون ، أما حصر الملك في بيتٍ واحدٍ ، فليس هناك من مُنافس .

٢ ـ ربما لو نُصّب عبد الإله أو غيره لشعر بعد مدةٍ بكيانه ، ولأراد المحافظة على مكانته ، والاحتفاظ بشخصيته ، وقد يصعُب عليه فكرة قبول التوجيه من غيره . كما حدث مع فيصل الأول . أما الوصي فإنه يعمل باسم آخر ، ولو كان من أهله الأقربين ، وليس من يعمل لنفسه وباسمه كمن يعمـل لغيره وبغير اسمه .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نـوري السعيـد : رئيسـاً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٢ ـ ناجي شوكت : وزيراً للداخلية .
٣ ـ رستم حيدر : وزيراً للمالية .
٤ ـ محمود صبحي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عمر نظمي : وزيراً للأشغال .
٧ ـ صالح جبر : وزيراً للمعارف .

٣ ـ إن الملك لا يزال صغيراً ، ويحتاج إلى مدةٍ طويلةٍ نسبياً حتى يتسلّم الملك ، ويحتاج بعدها إلى مرحلةٍ ليست قصيرةً كي يتدرّب على مُمارسة المسؤولية ، وفي هذا الوقت يُمكن أن يُوجّه ، ويتلقّى التعليمات اللازمة في سبيل السير في فلك السياسة البريطانية إذا أراد المحافظة على ملكه ، وخاصةً أن أعوان انكلترا هم الذين أصبحوا أصحاب القوة والنفوذ في العراق ، وهم الذين سيتولّون نُصح الملك ، وتوجيهه إضافةً إلى ما يتلقّاه في المدارس الإنكليزية ، والمعاهد التي تُوليه رعايةً خاصةً .

لهذا كله اختارت انكلترا الوصاية لعبد الإله ، لا الملك كما كانت تُفكّر من قبل في أواخر أيام الملك غازي .

ويجب أن نُلاحظ أيضاً أن أعوان انكلترا هم الآن أصحاب السلطة في العراق ، وأصحاب النفوذ ، وقد تمكّنوا ، أما المعارضة فسيضعُف شأنها ، ولا تستطيع المُجاهرة بآرائها ، وإنما تكظم غيظها ، وتضطر إلى السكوت ، وإن كانت النفوس مشحونةً ضدّ رجال السلطة .

وقد أجرى تعديلاً في وزارته بعد أقلّ من عشرين يوماً من تأليفها ، إذ اعتذر لناجي شوكت الذي كان في زيارةٍ إلى تركيا ، وتسلّم وزارة الداخلية بالوكالة مكانه ، على حين أسند وزارة الخارجية إلى علي جودت الأيوبي وذلك في ٦ ربيع الأول ١٣٥٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٣٩م) .

وأجرت الحكومة الانتخابات في ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ(٥ حزيران ١٩٣٩م) ، ودعت المجلس إلى الاجتماع في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ وقد انتخب محمد الصدر رئيساً لمجلس الأعيان ، ومولود مخلص رئيساً لمجلس النواب ، في وقتٍ كانت الأحكام العرفية مُعلنةً في بغداد والموصل ، وإضافةً إلى ذلك فقد تدخّلت الحكومة في الانتخابات لصالح مُرشحيها ، ولهذين السببين فقد كان أكثر أعضاء المجلس النيابي من أنصار نوري السعيد، الذي وضحت سياسته تماماً في مُوافقة السياسة البريطانية ، وكان أنصاره إما من

الذين يُوافقونه على سياسته ، وإما من أصحاب المصالح الذين لا تُهمّهم إلاّ منافعهم ، وبعدها لا يعرفون شيئاً ، ولا يُفكّرون بشيء ، سواء عندهم أسارت البلاد في فلك انكلترا أو في فلك غيرها ، أم تميّزت بشخصيتها ، وكانت سياستها تنبع من كيانها الذاتي ومصالحها الخاصة .

وفي الوقت الذي استصدرت فيه أمراً ملكياً بتأجيل جلسات المجلس النيابي لمدة شهرين بدءاً من ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ (١٠ آب ١٩٣٩م) فإنها قد ألغت الأحكام العرفية المعلنة في الموصل منذ مقتل القنصل البريطاني يوم ١٤ صفر ١٣٥٨هـ ، كما أنها أعادت إلى محمود المعروف الكردي الذي صودرت أملاكه حين قام بحركته قبل ثمان سنوات كل ما صودر له .

الحرب العالمية الثانية : اندلعت نار الحرب العالمية الثانية في ١٧ رجب ١٣٥٨هـ (الأول من أيلول ١٩٣٩م) وبعد يومين أعلنت انكلترا الحرب على ألمانيا ، وأسرع السفير الإنكليزي في بغداد (بازل نيوتن) وزار وزير الخارجية العراقية علي جودت الأيوبي ، وسأله عن رأي العراق تجاه انكلترا في هذه الحرب ، ونسبة استعداد العراق لتنفيذ الاتفاقية العراقية ـ الإنكليزية ، فوعده باستشارة رئيس الوزراء ، ولكن يبدو أن الوصي ، ورئيس الوزراء قد اتخذوا موقفهم مُباشرةً ، ووافقهم وزير الخارجية نفسه ، وأعلنوا تأييد العراق لانكلترا . وبعد يومين فقط من إعلان انكلترا الحرب على ألمانيا أعلنت العراق قطع علاقاتها السياسية مع المانيا ، بل قبضت الحكومة العراقية على الرعايا الألمان في العراق ، وسلّمتهم إلى السلطات الإنكليزية ، التي اعتقلتهم في مُعسكر الحبّانية ، ثم سلّمتهم إلى حكومة الهند حيث نُقلوا إلى بلاد الهند .

كان لتصرّف الحكومة هذا الأثر السيء في نفوس الناس الواعين والعاديين ، فهو موقف لا يتّفق مع الكرامة ، فهؤلاء الرعايا الألمان آمنون ، لا علاقة لهم بالحرب ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ ، فإن من واجب الحكومة العراقية حمايتهم ، ولكنها فعلت العكس إذ قبضت عليهم وسلّمتهم إلى خصومهم ،

وإضافةً إلى هذا فهم لم يُعلنوا العدوان للشعب في العراق بل يعيشون معه ، فما ذنبهم ليُسلّموا إلى أعداء حكومتهم ؟

لقد كان إلقاء القبض على الرعايا الألمان بتوجيهٍ من انكلترا التي ذكرت لوزير الخارجية أن هؤلاء الألمان يُمكنهم مُراقبة تحرّك القوات الإنكليزية في العراق ، ونقل هذه المعلومات إلى حكومتهم ، لذا يجب الحظر على تنقّلهم ، وعلى حركاتهم بل حبسهم ، فامتثلت الحكومة العراقية ، وأقدمت على ما أشارت إليه السياسية الإنكليزية .

ويبدو أن رئيس الوزراء نوري السعيد هو الذي فرض على الوزارة الموافقة على قطع العلاقات مع ألمانيا وإعلان الوقوف إلى جانب انكلترا ، وكانت العراق بموقفها هذا أسرع من موقف دول رابطة الشعوب البريطانية أمثال كندا ، واتحاد جنوبي إفريقية ، واستراليا و . . . . وغيرها .

واجتمع مجلس الدفاع الأعلى العراقي برئاسة رئيس الحكومة نوري السعيد ، وتداول الرأي في موضوع الحرب ، وأبدى رئيس الوزراء رأيه في ضرورة إعلان العراق الحرب على ألمانيا ، وإرسال فرقةٍ أو فرقتين من العراق لدعم القوات البريطانية في ليبيا أو في منطقةٍ أخرى . ولكن مجلس الدفاع قد رفض هذا الرأي . وكانت آراء أعضاء المجلس تنحصر تقريباً في وجهتي نظر ، هما :

أولاً : الوقوف إلى جانب انكلترا ، وتقوم وجهة النظر هذه على أن ألمانيا لا بدّ لها من مُهاجمة الاتحاد السوفيتي ، وإن الميثاق الموقّع بين الطرفين في عدم الاعتداء لا يحول دون هذا الهجوم المبني على الأسلوب الذي يُعالج به هتلر الأمور . وإذا ما وقع الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي لا تلبث القوة الألمانية من أن تنهار ، فيكون النصر للحلفاء ، فإذا ما انتصر الحلفاء ، وكان العراق قد ساهم في تأييدهم ، فإنه سيحصل على بعض المنافع ، أما إذا تردّد العراق ، وامتنع من الوقوف إلى جانب الحلفاء ، وحال دون تنفيذ المعاهدة

العراقية ـ البريطانية في وضع الأراضي العراقية تحت تصرّف انكلترا في حالة وقوع حربٍ فإن العراق عندها سيحصد شوكاً بانتصار الحلفاء[1] .

ثانياً : مساومة الحلفاء ما دام دخول الحرب إلى جانب الحلفاء يقصد منه الحصول على بعض المنافع ، وأن دخول العراق إلى جانب الحلفاء يقدّم لهم بعض الفوائد ، فلنساوم الحلفاء ، فلنُطالب فرنسا مثلاً بمنح الاستقلال لشمالي بلاد الشام (سوريا ولبنان) ، ولنُطالب انكلترا في الاعتراف بحقّ الفلسطينيين بتأسيس دولةٍ لهم ، والتنصّل من وعد بلفور ، وتسليح الجيش العراقي ، وهذه المطالب ثمناً لدخول العراق إلى جانب الحلفاء ، والمشاركة الفعلية في القتال ، وهذا أفضل من أن ندخل متطوعين دون مُقابل ، فإن شاء الحلفاء عند النصر أعطونا شيئاً زهيداً ، وإن شاءوا امتنعوا فليس هناك من وعودٍ مسبقةٍ[1] .

ويبدو أن أصحاب الرأي الظاهري لم تكن هذه فكرتهم ، ولم يكن هذا واقعهم الذي ينطلقون منه ، وإنما عرضوا هذا في سبيل التأجيل ليس أكثر ، ما دام الأمر مفروضاً عليهم ، وهم ضمن أعضاء المجلس ، ولا يستطيعون إبداء أكثر من هذا الرأي ، ولو فعلوا لكانت نهايتهم إذ أن النفوذ لأصحاب الاتجاه الإنكليزي الواضح .

أما خارج مجلس الدفاع فإن الشعب تختلف آراؤه ، منهم أصحاب المصالح الذين يُؤيّدون الحكومة لا الأفكار التي تتبنّاها بعد أن اقتنعوا بها ، ولكن لأنها صاحبة السلطة ، ومصالحهم مرتبطة بها ، فهم يُؤيّدونها لتحقيق منافعهم لا للأفكار والآراء ، ومنهم الذين يرون المساومة ، ويُمثّلهم ناجي

---

(١) كان يمثل هذا الرأي : رئيس مجلس الدفاع نوري السعيد ، وعمر نظمي وزير الأشغال ، ومحمد أمين زكي (وزير سابق) .

(٢) وكان يمثل هذا الرأي رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، ورئيس وزراء سابق ، وطه الهاشمي وزير الدفاع ، وناجي السويدي وزير سابق .

شوكت ، وهو رئيس وزراء سابق ، غير أن هذا الفريق فئات تتراوح عندهم المساومة من تسليح العراق ، حتى تصل عند بعضهم إلى مختلف الأمصار العربية ، وحلّ مشكلاتها . أما أصحاب الاتجاه الإسلامي وإن كانوا قلّةً إلا أن العاديين من الشعب ، وهم غالبيته ، يتأثّرون بهم ، فيرون الوقوف على الحياد والبعد عن صراعات الدول الأوربية بعضها مع بعضٍ ، فكلّها صليبية ، وكلها تُعادي المسلمين ، وتُريد لهم الدمار ، فليس الألمان والطليان بأفضل من الإنكليز والفرنسيين ، وليس هؤلاء أقل سوءاً من أولئك ، فهم بالنسبة لنا سواء ، وقد تحقّق ذلك عندما استسلم للألمان الفيلق القرمي وغالبيته من المسلمين ، فبعد أن عرف الألمان واقعِ هذا الفيلق نزعوا من أفراده السلاح ، وساقوهم إلى السجن ، وتركوهم مدةً دون طعامٍ ، أو شراب ثم أبادوهم .

غير أن هذا كله لم يفد شيئاً ، فالسلطة بيد أعوان الإنكليز ، وهم الذين يفرضون رأيهم ، وتُنفّذ السياسة البريطانية على الوجه الذي تُريده ، وإن وُجد داخل الحكومة بعض من يُعارض هذا الاتجاه . فوزير المالية رستم حيدر كان يدعو للاتصال سراً بالألمان .

وفي يوم ٢٨ رجب ١٣٥٨هـ (١٢ أيلول ١٩٣٩م) أُعلنت حالة الطوارىء في العراق كلها ، ومُنح وزير الداخلية صلاحياتٍ استثنائية . كما عملت الحكومة على تنظيم الحياة الاقتصادية ، وفي اليوم الثاني ٢٩ رجب مُنح وزير الدفاع صلاحياتٍ في استخدام جميع المصانع ، وطرق النقل البرية والبحرية، والجوية،والجسور ، والموانىء ، والسكك الحديدية .

وفي ٧ شعبان ١٣٥٨هـ جرى تعديل وزاري[1] . وأرادت الحكومة

---

(١) شمل التعديل الوزاري :

أُسندت وزارة الداخلية إلى عمر نظمي وزير المواصلات .

وأُسندت وزارة المواصلات إلى جلال بابان .

وأُسندت وزارة الشؤون الاجتماعية إلى سامي شوكت .

وأُسندت وزارة الاقتصاد إلى صادق البصام .

إظهار النشاط في وزارة المعارف ، فاستقدمت مائة مدرسٍ من الشام .

وجاء مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني إلى بغداد في ٣ رمضان ١٣٥٨هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٣٩م) فاستقبل رسمياً ، ثم لعب دوراً في الأحداث السياسية .

وما عادت جلسات المجلس النيابي إلى الانعقاد بعد تأجيل دام شهرين ، حتى استصدرت الحكومة مرةً ثانية أمراً بتأجيل جلساته بدءاً من ٣ شوال ١٣٥٨هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٣٩م) .

انقسام الوزارة : قُتل وزير المالية رستم حيدر في مكتبه الرسمي في ٨ ذي الحجة ١٣٥٨هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٤٠م) على يد أحد ضباط الشرطة السابقين الذي يدعى حسين فوزي توفيق ، وقُبض عليه ، وادّعى أن القتل بدافعٍ شخصيٍ ، ثم عاد فادّعى أن وراءه مُحرِّضين ، فاختلف أعضاء الوزارة في نوع المحكمة التي ستُرفع إليها القضية . كما أُلقي القبض على وزراء سابقين منهم : صبيح نجيب ، وإبراهيم كمال ، ومنهم رجال سياسةٍ كعارف قفطان ، ونجيب الراوي ، ورجال شرطة مثل : حسن فهمي ، مدير شرطة سابق ، إضافةً إلى شفيق السعيدي . ونتيجة اختلاف الوزراء فيما بينهم لا بدّ من استقالة الحكومة .

وكما انقسمت الوزارة ، انقسم كبار ضباط الجيش الذين يتحرّكون على الساحة السياسية . إذ رأى رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى مشاة محمد أمين العمري ، وقائد إدارة النقل الآلي عزيز ياملكي أن مُهمّتهم السياسية قد انتهت ، وأن الأمر قد أصبح متروكاً للوصي ، وهذا ما أبدوه في لقاءٍ تمّ في دار طه الهاشمي وزير الدفاع . أما بقية الضباط السبعة ، وهم : كامل شبيب ، وصلاح الدين الصباغ ، وفهمي سعيد ، ومحمود سلمان . فقد أزعجهم ما أبداه زملاؤهم إذ يرغبون في السيطرة والتحكّم في أمور الحكومة ، ولذا انفضّ ذلك اللقاء دون ثمرةٍ ، ولكن خرج الضباط الأربعة وفي قرارة

نفوسهم التخلّص من زملائهم بالأمس ، فإنهم يخدعونهم ، ويُريدون بهم الوقيعة ، وغدوا يُفسّرون كل تصرّف ضدّ زملائهم ، ورأوا في تردُّد رئيس الأركان حسين فوزي على الوصي تزلُّفاً ، وستكون نهايتم قريبةً إن لم يتداركوا الأمر . لذا فقد جمعوا قواتهم في معسكر الرشيد ووضعوها في حالة تأهُّبٍ واستنفارٍ ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ ، فقد وجد الضباط الآخرون في الطرف الثاني وهم : رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى مشاة محمد أمين العمري ، وقائد إدارة النقل الآلي عزيز ياملكي الضباط الذين هم دونهم رتبةً يُسيئون الظنّ بهم ، وربما عملوا على إزاحتهم ، والسيطرة على الجيش ، ولما رأوا تجمّع قوات الآخرين في معسكر الرشيد ، عملوا هم أيضاً على حشد قطعاتهم في معسكر الوشاش ، ووضعوها في حالة استنفار أيضاً ، ولكن ظهر أن معسكر الرشيد أكثر قوةً من معسكر الوشاش .

أخذ نوري السعيد يتقرّب من ضباط معسكر الرشيد ، ويلتقي معهم ، ويُريد من ذلك دعمه في العودة إلى الحكم ثانيةً بعد أن أصبحت استقالة الوزارة أمراً لا مندوحة عنه ، وهم يبغون أمراً أيضاً ، وهو إحالة ضباط معسكر الوشاش على التقاعد ، ليحلّوا محلّهم في السيطرة على الجيش ، وبالتالي التدخُّل في شؤون الحكم ، وقد وعدهم نوري السعيد بالعمل على ذلك فيما إذا تمّ له استلام الحكم مرةً أخرى . وعلم ضباط معسكر الوشاش صلة ضباط معسكر الرشيد بنوري السعيد ، وما يتمّ بينهما .

قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ٩ محرم ١٣٥٩هـ (١٨ شباط ١٩٤٠م) ، ولما وصل الخبر إلى رئيس الأركان حسين فوزي باستقالة الحكومة أسرع إلى رئيس الديوان الملكي رشيد عالي الكيلاني وأخبره بأن الجيش لا يُوافق أبداً على عودة نوري السعيد إلى الحكم ، ولا على دخول طه الهاشمي الوزارة ، وإذا تساهل باستلام طه الهاشمي وزارةً غير أنه لا يمكنه قبول نوري بأي حالٍ من الأحوال ، ثم ذهب إلى الوصي عبد الإلٰه وأخبره برأي الجيش بصفته رئيساً لأركانه .

وصلت أخبار ما قام به رئيس الأركان إلى ضباط معسكر الرشيد ، فأسرعوا إلى اللقاء في منزل نوري السعيد ليتدارسوا الأمر ، وجاءت أخبار دعوة رئيس الأركان حسين فوزي لبعض القادة العسكريين إلى داره ، وأن قائد مدفعية معسكر الوشاش قد طلب ذخيرة من قيادة التسليح ، وأن قطعات ذلك المعسكر قد وضعت في حالة الاستنفار ، فتمّ إبلاغ الوصي مُباشرةً بما حدث .

استدعى الوصي رئيس الأركان حسين فوزي مساءً ليطّلع منه على ما يدور في الجيش فأعلمه أن الجيش يرفض عودة نوري السعيد إلى الحكم ، وهو ما سبق أن أخبره به قبل يومين . فاتصل الوصي بوكيل الفرقة الأولى كامل شبيب فنفى الخبر ، واتصل بقائد الفرقة الثالثة إسماعيل نامق فكذّب النبأ ، واتّصل بآمر القوة الجوية محمود سلمان فاستغرب القول ، واتصل بآمر القوة الآلية فهمي سعيد فأنكر معرفته بشيء ، واتصل بمدير الحركة والنقل صلاح الدين الصباغ فلم يكن عنده علم ، وكل من هؤلاء يطلب من الوصي أن يتصل بقادة القطعات خارج العاصمة ، فظهر للوصي كذب ما ادّعاه رئيس الأركان حسين فوزي .

ومن باب اتّخاذ التدابير الوقائية ، انطلق إلى معسكر الرشيد كل من نوري السعيد ، وطه الهاشمي وكبار معاونيهم[1] ، وباتوا مع قادة قطعات المعسكر ، وفي الصباح ذهب نوري السعيد وطه الهاشمي إلى الوصي ، وتكلّما معه في الموضوع ، وأبرزا له خطورة الأمر الذي أقدم عليه رئيس الأركان في وقتٍ تسود فيه الأحكام العرفية ، والعالم يصطلي بنار الحرب ، واقترحا عليه إحالة رئيس الأركان حسين فوزي ، وقائد الفرقة الأولى أمير اللواء محمد أمين العمري ، والعقيد عزيز ياملكي على التقاعد ، فوافق ، وصدر بيان بذلك .

عهد الوصي إلى نوري السعيد بتشكيل الحكومة من جديدٍ ، بعد أن

---

(١) كان من بين من ذهب معهم : سامي شوكت ، وأحمد المناصفي ، وصباح نوري السعيد نجل رئيس الحكومة .

اعتذر رشيد عالي الكيلاني عن قبول هذه المهمة . قبل نوري السعيد التكليف .

وزارة نوري السعيد الخامسة : في اليوم نفسه تمّ تشكيل الوزارة[1] ١٣ محرم ١٣٥٩هـ (٢٢ شباط ١٩٤٠م) .

وجرت محاكمة قاتل رستم حيدر حيث أُعدم في ١٨ صفر ١٣٥٩هـ بعد إصدار الحكم عليه بأسبوع ، وقضت المحكمة بالسجن على وزير الدفاع السابق صبيح نجيب ، أما المتهمون الآخرون فقد قضت ببراءتهم .

وجرت تنقّلات في قيادة الجيش ، إذ أصبح أمين زكي قائد الفرقة الثانية وكيلاً لرئاسة الأركان العامة للجيش بترشيحٍ من طه الهاشمي ، وأُسندت قيادة الفرقة الثالثة إلى صلاح الدين الصباغ بترشيحٍ من طه الهاشمي أيضاً ، وعُيّن كامل شبيب قائداً للفرقة الأولى، كما عُيّن إسماعيل نامق مديراً لشؤون الدفاع . وبذا أصبح وضع طه الهاشمي قوياً في الجيش ، يُطيعه عدد من القادة إضافةً إلى منصبه كوزيرٍ للدفاع .

كما دخل عنصر جديد في السياسة العراقية ، وهو مفتي فلسطين ، وقد خرج من القدس تحت ضغط الإنكليز الذين وافقوا على ذهابه إلى العراق ظنّاً منهم أنه سيعيش بعيداً عن بلده فيبقى مُنعزلاً ، ليس له أي تأثير ، وقد نسوا أن بلاد المسلمين واحدة ، وأن الرجل المُدرك لفكرته ، المخلص لدينه ، العالم بأمور عقيدته هو موضع احترامٍ وتقديرٍ في أي بلدٍ حلّ ، وتوقّع الإنكليز

---

(٢) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ - نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .

٢ - عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للعدلية بالوكالة .

٣ - عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للمالية .

٤ - طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .

٥ - صادق البصام : وزيراً للاقتصاد .

٦ - محمد أمين زكي : وزيراً للأشغال .

٧ - سامي شوكت : وزيراً للمعارف .

٨ - صالح جبر : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

كذلك أن محمد أمين الحسيني إن سافر إلى العراق ، وكان تحت نظر أعـوان انكلترا ، الذين لهم الدور الكبير هناك بل السلطة والنفوذ بأيديهم أفضل من أن ينتقل إلى مكانٍ آخر لا يخضع لرقابةٍ ، ولا تضبطه سلطة ، غير أنه قد ثبت لهم غير ما توقّعوه إذ التفّ الناس حول مفتي فلسـطين ، بل إن عـدداً من الضباط قد اجتمعوا إليه ، وكانوا يستنيرون برأيه ، ويسترشدونه بحكمته . إن جميع الذين يُعادون الإنكليز في العراق قد أحبّوا محمد أمين الحسيني لعداوته للإنكليز ، وجعلوه يشعر أنه بين أهله ، فإذا كانت بريطانيا قد أخرجته من بلده فقد انتقل إلى بلدٍ آخر له .

رأى الوصي ، ورأى نوري السعيد ، وكذلك طه الهاشمي أن يُؤلّف الوزارة رشيد عالي الكيلاني ، رئيس الديوان الملكي ، وعمل نوري السعيد على اقناع الضباط القادة الأربع على الطلب من رشيد المـوافقة عـلى رئاسـة الحكومة ، ففعلوا ، ومن جانبٍ آخر فقد لعب محمد أمين الحسيني دوراً أيضاً في إقناعه غير أن رشيد عالي الكيلاني قد حاول الاعتذار للضباط ، وأبدى لهم ثقته بهم ، وبإخلاصهم ، لكنه لا يستطيع أن يرى إنساناً يتدخّل في شؤون الحكم من جـانب العسكريـين ، وإذا ما حـدث ذلـك فـإنـه سيضـطر إلى الاستقالة ، وإلى وقوع الواقعة بينه وبينهم ، ولا يحب هذا أبداً ، وإنه ليشعر بهـدر كرامتـه الخاصـة ، كما أن الجيش ستضيـع هيبته وسمعتـه في نفـوس الشعـب . فلما أصرّ الضباط عليه طلب منهم أن يقطعوا على أنفسهم عهداً ألا يتـدخلوا في شؤون الحكـومـة ، وأن يكـونـوا بجـانب الحق ، وإذا جـانب الصواب ، عليهم نصحه ، وأنه مستعد للنـزول على رأيهم ، وسـماع كلمة الحقّ من أيّ ٍ كان مصدرها . فوافقه الضباط ، ومدّ يده لهم دليل الموافقة ، وقال لهم : إن سماحة مفتي فلسطين هو كفيلي ، وأعلمهم أنه قد اتفق مـع الوصي ، ونوري السعيد ، وطه الهاشمي على ذلك .

كان نوري السعيد يبغي توريط رشيد عالي الكيـلاني بالسـير في فلك

السياسة البريطانية برئاسته للحكومة ، وتأييده له ، ودعمه ، والوقت وقت حربٍ ، والأحكام العرفية هي المعمول بها ، ويضطر رئيس الوزارة للصلة باستمرار بالسفير الإنكليزي ، وسماع أخبار الحرب ، والالتزام بالمساعدة الأدبية على الأقلّ حسب الاتفاقيّة العراقية ـ البريطانية ، وخاصةً أنه لا توجد سفارة ألمانية في العراق ولا رعايا ألمان بعد أن تمّ الذي تمّ .

استدعى الوصي عبد الإله إلى مكتبه رشيد عالي الكيلاني ، وطلب منه تشكيل الوزارة فاعتذر ، وبعد إلحاحٍ من الوصي ، ومن نوري السعيد ، وطه الهاشمي اللذين كانا موجودين ، وافق ، واشترط ، وسأله الوصي عن شروطه ، فقال : أن يتعهّد السياسيون جميعاً ورؤساء الوزارات السابقين كتابة تعهّدٍ بالتأييد السياسي في الداخل والخارج ، وأن تُطلق يدي في رسم السياسة التي أراها مُناسبةً لصالح العراق . وهذا يدلّ على مقدار حرص الجهات المسؤولة على تولّي رشيد عالي الكيلاني الحكم لما يرون فيه من صلاحيةٍ لذلك ، وللضيق الذي أصابهم نتيجة تدخل الجيش في السياسة ، والإطاحة بالحكومات ، والتهديدات التي يُطلقها القادة العسكريون ضدّ هذه الوزارة ، وطلب تكليف ذاك برئاسة حكومةٍ جديدةٍ ، ويبدو أن الجميع كانوا يعرفون عدم قبول رشيد عالي الكيلاني التدخّل في شؤونه ، وهم يرغبون ذلك لوضع حدٍّ للقادة العسكريين .

وأبلغ الوصي بعض السياسيين ورؤساء الوزارات السابقة لضرورة اللقاء برشيد عالي الكيلاني والتفاهم معه على الحكومة القادمة . وجاءوا إلى مكتبه وكتبوا التعهّد الآتي :

نظراً لرغبتنا الأكيدة في جمع الكلمة ، وتصافي القلوب ، وإزالة الضغائن في هذه الظروف العالمية الخطيرة ، وما تتطلبه مصلحة البلاد من التفرّغ لمعالجة الأمور ، وتمشّيها بصورةٍ اعتياديةٍ ودستوريةٍ ، فقد اتّفقت آراؤنا على ما يلي :

١ ـ تُؤلّف وزارة قومية مُؤتلفة يختار رئيسها صاحب السمو حسب التقاليد الدستورية والاستشارات المُعتادة .
٢ ـ رؤساء الوزارات السابقون ورجال الدولة الموقّعون يتعاونون مع الوزارة المُؤتلفة في داخلها أو خارجها ، ومن يتعذّر عليه الاشتراك فيها بسببٍ مقبولٍ لدى سموه ، فإنه يُؤيّدها لتحقيق الغايات المذكورة أعلاه ، ويتجنّب مناوأتها .
٣ ـ تُوقّع هذه الاتفاقية ، وتُرفع إلى صاحب السمو .
علي جودت الأيوبي ـ توفيق السويدي ـ ناجي شوكت ـ جميل المدفعي ـ نوري السعيد ـ رشيد عالي الكيلاني ـ ناجي السويدي .

وعهد صاحب السمو الوصي إلى رشيد عالي الكيلاني بتشكيل الوزارة ، فألفها[1] في ٢١ صفر ١٣٥٩هـ (٣١ آذار ١٩٤٠م) .

أُلغيت الأحكام العرفية التي دامت أكثر من سنةٍ ، وصدر أمر بالعفو عن الذين حُكموا في المجلس العرفي العسكري . وعملت الحكومة جهدها في مُحاربة الرذيلة ، وطردت الأجنبيات اللواتي قدمن للفحش في عهد الانتداب الإنكليزي الذي حرص على نشر الفساد ليكون همّ الناس ، ولإبعادهم عن عقيدتهم عن طريق الإغراء والغواية .

وفي ٥ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (١٠ حزيران ١٩٤٠ م) قرّرت إيطاليا الوقوف بجانب ألمانيا ، وأعلنت الحرب على انكلترا وفرنسا ، فرغبت السفارة

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزارة ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ ناجي شوكت : وزيراً للعدلية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه الهاشمي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عمر نظمي : وزيراً للأشغال .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٩ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

البريطانية في العراق أن تُبادر حكومة رشيد عالي الكيلاني ، وتقطع علاقاتها السياسية مع إيطاليا كما فعلت حكومة نوري السعيد عندما قطعت علاقتها مع ألمانيا ، غير أن الحكومة العراقية لم تر من المصلحة ذلك ، وخاصةً أن السفارة البريطانية لم تتجاوب مع الحكومة العراقيـة عندما طلبت منها التـوسّط لدى حكومتها والحكومة الفرنسية لتحقيق أماني الشعب العربي في الشام (سوريا وفلسطين) ، والنظر إلى القضايا العربية نظرات عطفٍ وخاصةً فيما إذا انتهت الحرب ، وحقّق الحلفاء النصر ، ولكن الحكومتين لم تهتمّا بهذا الطلب نهائياً ، ولم تُجب إحداهما عليه ، وأهملته إهمالاً كُلياً ، ولهذا دلالته .

حرصت الحكومة البريطانية على إحراج حكومة العراق أمام الشعب بل زعزعة كيانها من الأساس فادّعت أن لا يُوجد لديها سلاح فائض نتيجة تطوّر الحرب ، وامتداد رقعتها بعد اشتراك إيطاليا ، وفتح جبهةٍ جديدةٍ في ليبيا ، لذا لا تستطيع تسليح الجيش العراقي في الوقت الراهن ، وللسبب نفسه لا يُوجد لديها مال لمساعدتها في تأمين بعض الحاجيات من الأسواق الأمريكية .

كان وزير الخارجية نوري السعيد ، ووزير الاقتصاد محمد أمين زكي يريان ضرورة قطع العلاقة السياسية مع ايطاليا في سبيـل تحسين العـلاقات العراقية البريطانية ، وللحصول على بعض المنافع سواء أكان السلاح أم المال ، ولم يتجاوب بقية الوزراء مع هذين الوزيرين ، وهذا ما أدّى إلى استقالة محمد أمين زكي من الوزارة في ٢٩ جمـادى الأولى ١٣٥٩هـ ، ثم استقال نـوري السعيد في ٢١ ذي الحجة من عام ١٣٥٩هـ (١٩ كانون الثاني ١٩٤١م) . وبالمقابل كان وزير العدلية ناجي شـوكت أكثر الـوزراء حماسـةً لعدم قـطع العلاقات مع إيطاليا إثباتاً للشخصية العراقية ، وتحقيقاً للاستقلال ، فتوتّرت العلاقات بينه وبين نوري السعيد ، وقدّم ناجي شوكت استقالته في ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٩هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٤١م) ، وبـذا تصدّعت الـوزارة ، ولكن صدر أمر ملكي عمل على ترميم الوزارة ومحاولة لمّ الشعث ، غير أن المعاول التي أخذت في التهديم ، والعمل على تقويض الوزارة أكبر منها ، وكان

الضبـاط يرون ضرورة بقـاء الوزارة في الحكم ، غـير أنه كلما طـالت مـدة بقائها كلما توتّرت العلاقة بين العراق وبريطانيا ، وقد أحسّ الوزراء بذلك لذا أخذوا يُقدّمون استقالاتهم[1] ، وأخيـراً قدّم رشيـد عالي الكيـلاني استقالـة حكومته في ٣ المحرم ١٣٦٠هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٤١م) .

ونتيجـة المتغيرات الكثـيرة التي حدثت في العـراق في هـذه الآونـة ، وتضايق انكلترا الشديد من حكومة رشيد عالي الكيلاني التي رفضت قطع علاقاتها مع إيطاليا ، وبقيت على الحياد ، لا بدّ من التلميح إلى بعض هذه الأحداث التي نتجت عنها .

سافر وزير الخارجية نوري السعيد ، ووزير العدلية ناجي شوكت إلى أنقرة بتاريخ ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٢١ حزيران ١٩٤٠م) ، وقد التقى ناجي شوكت ببعض السياسيين هناك دون معرفة وزير الخارجية ، كما أمّن له وزير المجر المفوض في أنقرة لقاءً مع وزير ألمانيا المفوض (فون بابن) ، وسأل ناجي شوكت الوزير المفوض الألماني عن نظرة الألمان إلى العرب ، فأجـاب الجواب الطبيعي الذي لا يمكن لسياسيٍ أن يجيب بغيره . أنهم لا يضمرون لهم إلا الخير ، ويتمنّون لهم استقلال بلادهم ، وسأله عما يحدث لو انهارت فرنسا ؟ وكان الألمان قد دخلوا باريس يوم ١١ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (١٦ حزيران ١٩٤٠)، والشكل الطبيعي أن يُجيب أن ألمانيا ستعمل على استقلال البلدان العربية . ومـا دامت الحرب مُشتعلةً بـين فريقـين ، فإن كـل فريقٍ سيعمل على كسب أنصـار إلى جانبـه ، ويبذل جهـده ليصرف الأعـوان عن خصمه ، فإن قول (فون بابن) بأن ألمانيا ترغب في استقلال البلدان العربية

(١) صدر أمر ملكي في ٢٨ ذي الحجة ١٣٥٩هـ (٢٦ كانون الثاني ١٩٤١م) يقضي بـ :
١ ـ إسناد منصب وزارة الخارجية بالوكالة إلى ناجي السويدي وزير المالية .
٢ ـ إسناد منصب وزارة العدلية بالوكالة إلى عمر نظمي وزير الأشغال .
وبعد يومين صدر أمر ملكي آخر يقضي بـ :
١ ـ إسناد منصب وزارة العدلية إلى علي محمود الشيخ علي .
٢ ـ إسناد منصب وزارة الاقتصاد إلى يونس السبعاوي .

سيكسب دولته أصدقاءً ، ودعايةً لها ، ويلحق بخصمه الكراهية منها ونفور المُؤيّدين لها .

ووصلت أخبار هذا اللقاء إلى انكلترا فتضايقت أشدّ الضيق ، وخاصةً أنها كانت تعدّ العراق من مناطق نفوذها ، وهي مسرح أعوانها ، ومع ذلك تبدأ الاتصالات السرية مع خصومها ، وكان ناجي شوكت قد التقى مع (فون بابن) دون علم نوري السعيد ، كما أن وزير الخارجية نوري السعيد قد رجع إلى بغداد يوم ٢٨ جمادى الأولى ، على حين سافر ناجي شوكت إلى استانبول .

وفي ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٢١ حزيران ١٩٤٠م) طلب السفير الإنكليزي من وزير الخارجية العراقية السماح بنزول قواتٍ بريطانيةٍ في البصرة ، ومرور هذه القوات عبر الأراضي العراقية إلى فسطين ، وبناء استراحاتٍ لها في كلٍ من البصرة ، وبغداد ، والموصل . وقرّر مجلس الوزراء العراقي في اليوم نفسه ، وقبل سفر وزير الخارجية إلى أنقرة بالسماح للقوات البريطانية بالمرور عبر أراضيه .

وفي شهر رجب ١٣٥٩هـ (آب ١٩٤٠م) اجتمع مجلس الدفاع العراقي ، ويضمّ رئيس الوزراء ، ووزيري الخارجية والدفاع ، وبعض الوزراء وكبار ضباط الجيش ، كما دُعي لحضوره كل من صلاح الدين الصباغ ، وكامل شبيب رغم أنهما ليسوا من أعضائه . واقترح نوري السعيد قطع العلاقات مع إيطاليا ، والسماح لانكلترا بحشد جيوشها جنوبي العراق ، وقدّم العقيد صلاح الدين الصباغ مُذكّرةً باسم أركان الجيش ، وقُرئت في الاجتماع ، وقد جاء فيها أن طلب حشد بريطانيا لقواتٍ لها في جنوبي العراق يُخالف لنصوص المعاهدة العراقية الإنكليزية ، وهذا ما أثار الخلاف ، واضطرّ وزير الدفاع إلى إنهاء الجلسة . وكان العقيد صلاح الدين الصباغ قد أيّد رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني بالوقوف على الحياد ، أي عدم قطع العلاقات مع إيطاليا ، وهذا كله خلاف لما عرضه نوري السعيد الذي كان يظنّ أن الضباط سيكونون في صفّه ، وحسب رأيه ، بل لم يتوقّع أن يُخالفوه

أبداً . فلما رأى هذا الموقف انسحب من اللقاء ، وكانت القطيعة بينه وبين الضباط الذين كان يعدّهم من أعوانه .

ومما ساعد رشيد عالي الكيلاني على وقوفه على الحياد .

الدعاية لدول المحور حيث كانت السفارة الإيطالية مقرّ هذه الدعاية ، إذ بقي السفير الإيطالي في بغداد ما دامت العلاقات لم تقطع ، وكان معه عدد من الرجال المسلحين لحمايته والسفارة .

ووجـود مفتي فلسطين محمـد أمين الحسيني الـذي التفّ حولـه مئات الأشخاص ، وكان على خلافٍ مع انكلترا ، لذا كان يعمل ضدّها ، ويعمل على نشر الأخبار الحقيقية عن الحرب .

ووجود عددٍ من الزعماء الشاميين من سوريا الذين كانوا على خلافٍ مع السياسة الفرنسية[1] ، وقد خرجوا من بلادهم فارين من الضغط الفرنسي ، وسرّهم انهيار فرنسا ، فأخذوا يعملون ضدّها ، ويتمنّون انتصار خصومها .

وانهيار فرنسا حيث دخل الألمان باريس في ١١ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ ، وتشكّلت فيها حكومة الجنرال (بيتان) الموالية للألمان ، وهذا الانهيار يُشير إلى قـرب سقوط الحلفـاء ، الأمر الـذي يُشجّع العمـل ضدّهم ، والبقـاء على الحياد .

الأخبار التي تنشرها وسائل الإعـلام العراقيـة ـ كما تحـدث ـ دون أن يحدث فيها تزوير أو تغيير لمصلحة أي فريقٍ من الفريقين ، ومُعظم هذه الأخبار كان في مصلحة دول المحور ، وضدّ الحلفاء . ومن إصرار حكومة رشيد عالي الكيلاني على الحياد رفضها لمنع الدعاية لدول المحور ، ومنعهـا قيام إذاعـةٍ متنقلة للدعاية للحلفاء ، ورفضها أيضاً توزيع إعلاناتٍ لصالح الحلفاء .

وفي شهر رمضان ١٣٥٩هـ سرت شائعات أن الحكومة العراقية تنوي

---

(١) من الزعماء الشاميين الذين كانوا في العراق : شكري القوتلي ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، وجميل مردم .

إعادة علاقاتها السياسية مع ألمانيا ، وهذا ما أقلق الحكومة البريطانية ، ولكن الحكومة نفت هذه الشائعات ، ومع ذلك فقد أبلغ السفير الإنكليزي في بغداد في ١٦ شوال ١٣٥٩هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٤٠م) الوصي عبد الإلـه ، ووزير الخارجية نوري السعيد أن الحكومة البريطانية لا تثق بحكومة رشيد عالي الكيلاني . وبعد عشرة أيامٍ عاد السفير الإنكليزي (بازل نيوتن) وقدّم تحذيراً شديداً لوزارة الخارجية العراقيـة فيما إذا استـأنفت العلاقـات السياسيـة مع ألمانيا ، وكلّفت الحكومة وزير الخارجية بالردّ على السفير وإبلاغه بأن الحكومة العراقية ليس لديها الرغبة في استئناف العلاقات مع ألمانيا ، ولكن السفير ردّ على الفور ، فقال : إن الحكومة البريطانية لا تثق برئيس وزراء العراق ، وعلى العراق أن يختار إما صداقة بريطانية وإما صداقة رئيس وزرائه . وطلبت انكلترا من الولايات المتحدة الضغط على الحكومة العراقية ، وتوقيف شحن السلاح الذي اشترته وزارة رشيد عالي الكيلاني أو على الأقل تأجيل ذلك ريثما تأتي حكومة ثانية للعراق .

وربما طلبت انكلترا من الوصي ونوري السعيد العمل على إسقاط حكومة رشيد عالي الكيلاني ، ولو باستقالة نوري السعيد منها ، وقام نوري السعيد بتقديم مذكرةٍ إلى الوزارة العراقية في ١٦ ذي القعدة ١٣٥٩هـ (١٥ كانون الأول ١٩٤٠م) وعرض فيها : عدم وجود تضامن بين الوزراء في الحكومة ، وأن انكلترا لن تخضع ، ولن تنهار ، كما انهارت فرنسا ، لذا يجب الحذر وعدم مُخالفة انكلترا ، ومُحاولة إرضاء الولايـات المتحدة التي قـد ينال العـراق من سخطها إن لم تتعاون حكومته مع انكلترا . ويرى أنه من الضرورة بمكان فتح قنصليةٍ عراقيةٍ في واشنطون، وقطع العلاقات مع إيطاليا ، ومُحاولة الإفادة من الحلفاء لتحقيق بعض المصالح العربية ، مثل حقـوق الشعب في فلسطين ، واستقلال سوريا و . . . . وحبذا لو سافر وفد برئاسة رجلٍ قديرٍ إلى الولايات المتحدة لكسبها إلى جانب الشعب العربي في فلسطين ، ويقصد مفتي فلسطين حيث يُريد أن يتخلّص منه في العراق .

وقدّم نوري السعيد صورةً من مذكرته إلى رئيس الديوان الملكي عبد القادر الكيلاني لتقديمها إلى الوصي . وبعد تقديم المذكرة انقطع وزير الخارجية عن جلسات الوزارة إلى النهاية . ويقصد من هذه المذكرة . نسف الوزارة بحجة أنه لا يُوجد تضامن بين أعضائها ، ونسف سياسة الحياد ، والانحياز التام إلى الحلفاء ، وتأسيس قنصلية للعراق في واشنطون ، وقطع العلاقات مع إيطاليا ، والتخلّص من محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين بإرساله على رأس وفدٍ إلى الولايات المتحدة . ولكن رفضت الوزارة هذه الآراء ، كما لم تجد عند رئيس الوزارة اهتماماً .

وفي ١٨ ذي القعدة ١٣٥٩هـ (١٧ كانون الأول ١٩٤٠م) طلب الوصي اجتماعاً عاجلاً للوزراء برئاسته في البلاط الملكي ، ولما اجتمع شمل الوزراء عنده ذكر لهم عدم وجود تضامنٍ بينهم ، فنفوا له ذلك ، ثم غادروا البلاط إلى ديوان رئاسة الوزراء لمتابعة الاجتماع ، وإذا بالوصي يُرسل رئيس الديوان الملكي عبد القادر الكيلاني إلى رئيس الحكومة رشيد عالي الكيلاني يطلب منه تقديم الاستقالة . فطلب رئيس الوزراء ، ووزير الدفاع طه الهاشمي ، ووزير المالية ناجي السويدي مُقابلة الوصي، وبيّنوا له أنه ليس من حقّ الملك إقالة الوزارة ، وأن طلبه بتقديم الاستقالة مطلب غير دستوري .

وطلب وزير الدفاع طه الهاشمي مُقابلة الوصي ، وتباحث معه في موضوع الوزارة بالاستقالة ، وتكليف ناجي السويدي ، بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ أو بقاء الوزارة ، واستقالة بعض أعضائها ، وتعيين وزراء آخرين مكان الذين يستقيلون فيمكن استقالة ناجي شوكت وناجي السويدي ونوري السعيد وتعيين توفيق السويدي وزيراً للخارجية .

والتقى مجلس الوزراء وقرّروا استقالة الحكومة ولكن رئيسها لم يُوافق على ذلك ، والتقى مع الوصي وتباحث معه ، وأصدر الوصي أمراً بتعيين بعض الوزراء وترميم الوزارة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تحت ضغط ضباط الجيش

صلاح الدين الصباغ ، وكامل شبيب ، ومحمود سلمان ، وفهمي سعيد في سبيل إبقاء الوزارة القائمة بالحكم . وقد نصح رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر الوصي بترك الوزارة بالحكم ريثما تهدأ الأوضاع ، والاستقالة أمر لا مهرب منه .

ولكن في الأول من محرم استقال ناجي السويدي وزير المالية احتجاجاً على تعيين يونس السبعاوي وزيراً للاقتصاد ، فصدر أمر ملكي بتعيين محمد علي محمود وزيراً للمالية ، وموسى الشابندر وزيراً للخارجية .

وفي ٢ محرم اجتمع المجلس النيابي ، وطالب علي جودت الأيوبي باستقالة الوزارة بعد هذه الاستقالات الجماعية التي تحدث سرّاً ، فطلب رئيس الحكومة من الوصي إصدار أمرٍ بحلّ المجلس النيابي ، فطلب الوصي الإمهال ، وغادر سرّاً بغداد إلى الديوانية حيث توجد هناك الفرقة الرابعة من الجيش تحت قيادة اللواء إبراهيم الراوي في محاولةٍ للوقوف في وجه الضباط في بغداد .

قدّم رشيد عالي الكيلاني استقالته برقياً إلى الوصي في الديوانية بعد أن نصحه بذلك محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان ، وطه الهاشمي ، كما وافق على ذلك الضباط . وقبل الوصي الاستقالة ولكن لم يجرؤ على العودة إلى بغداد مُباشرةً ، إذ قامت مظاهرات تُطالب بحلّ المجلس ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ تأييداً لرأي رشيد عالي الكيلاني ، وبعد مرور خمسة أيامٍ هدأت الأوضاع ، وعاد الوصي إلى بغداد .

وزارة طه الهاشمي : استدعى الوصي إلى مقرّ إقامته في الديوانية محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان على أن يصطحب معه وزير الدفاع طه الهاشمي ، وبعض السياسيين الآخرين ، كما سافر إلى الديوانية بدعوى من الوصي أيضاً كل من جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي ، وناجي السويدي ، وصادق البصام .

وقبل سفر محمد الصدر اجتمع الضباط الأربعة ، وطلبوا منه أن ينصح

الوصي بتكليف طه الهاشمي بالوزارة الجديدة . ولما اجتمع السياسيون بالوصي ، دار الحديث عن الحكومة ورئاستها والضباط الأربعة ، ومصلحة البلاد ، والحليفة انكلترا . . . . ولما التقى رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر مُنفرداً بالوصي نقل إليه رأي الضباط في بغداد ، واقترح عليه اختيار حلٍّ من اثنين ولا ثالث لهما ، إما المُوافقة على حكومةٍ برئاسة طه الهاشمي ، وتكليفه منذ الآن ، وإما البقاء في الديوانية ، واختيار من يشاء رئيساً للوزارة الجديدة ، وتحدّي ضباط بغداد، ومُعارضتهم ولو أدّى ذلك إلى قيام حربٍ أهليةٍ . واقتنع الوصي بأن إبراهيم الراوي قائد الفرقة الرابعة لا يمكن الاعتماد عليه ، لذا لا بدّ من الموافقة على حكومةٍ برئاسة طه الهاشمي . وكان محمد الصدر قد اعتذر عن قبول رئاسة الحكومة .

عهد الوصي إلى طه الهاشمي برئاسة الحكومة الجديدة فألّفها[1] في الرابع من شهر محرم ١٣٦٠هـ (الأول من شباط ١٩٤١م) . ولقد اختار الوصي الحلّ الوسط فطه الهاشمي أقرب ما يكون إلى رشيد عالي الكيلاني ، وإلى الضباط ، ولم يُفكّر بالانتقال بالحكم من المعارضة القوية إلى أعوان التحالف مع انكلترا ، والسير في فلك سياستها ، فالهوة واسعة بين الطرفين .

ارتاح الشعب كما ارتاح الجيش لحكومة طه الهاشمي ، وعدّوا الوصي مُعتدلاً في سياسته ، ولكن انكلترا كانت ترى في طه الهاشمي ، رجلاً لا يُوثق به . وتعمل على إبقاء نوري السعيد في الظلّ الآن كي لا يحترق في لهب الشمس ، إذ فقد نفوذه السياسي ، وأضاع صلته بالضباط ، وترى من

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ طه الهاشمي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع والخارجية بالوكالة .
٢ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للعدلية بالوكالة .
٣ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للأشغال بالوكالة .
٤ ـ عبد المهدي : وزيراً للاقتصاد .
٥ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٦ ـ حمدي الباجه جي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

وبعد ثلاثة أيام أُسندت وزارة الخارجية إلى توفيق السويدي .

الضرورة قيام وزارةٍ برئاسة جميل المدفعي ، ويدعمه علي جودت الأيوبي وإبراهيم كمال .

ويبدو أن الوصي أراد أن يُرضي ضباط بغداد بحكومة طه الهاشمي حتى إذا ما استقرّ عمل على نقلهم وتفرقة صفّهم بإبعاد بعضهم عن بعض . وسرت شائعة في بغداد أن الوصي سيبقى في الديوانية حتى يُنفّذ أمر نقل هؤلاء الضباط . كما وصلت أخبار إلى الوصي أن هؤلاء الضباط يُعدّون مُؤامرةً ضدّه ، وقد قبل هذه الأخبار ، بل توهّم ذلك ، فسار إليه رئيس الحكومة وأزال من نفسه ما علق في ذهنه ، فجاء في اليوم الثالث من تشكيل الوزارة إلى بغداد . وعندما وصل إليها همّ الضباط بالمثول أمامه وإظهار الطاعة له ، وأنه لا همّ لهم سوى خدمة البلاد ، ولكن السفير الإنكليزي نصحه برفض مُقابلتهم وبذا بقيت الأمور بينهما على شيءٍ من التوتّر .

وصدر أمر من وزارة الدفاع بنقل العقيد كامل شبيب من بغداد إلى الديوانية ، فاقتنع بقية الضباط من زملائه أن دورهم قادم ، وأن الإشاعة عن تشتيتهم قد صدقت على الرغم من صدوره عن وزارة الدفاع ، وليس عن البلاط الملكي ، وحاولوا الاستعداد لكل طارىءٍ ، وطلب بعضهم من رئيس الحكومة طه الهاشمي أن يستقيل من الحكم ، ليفسح المجال أمام عودة رشيد عالي الكيلاني إلى السلطة لأنه الوحيد حسب رأيهم الذي يستطيع أن يقف أمام السياسة البريطانية ، وهذا ما تعرّضت له حكومة طه الهاشمي من ناحية الجيش ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنها تعرّضت لضغط انكلترا ، حيث زار السفير البريطاني (بازل نيوتن) رئيس الوزراء في مبنى وزارة الخارجية بعد أربعة أيامٍ فقط من استلامه الحكم ، وعرض عليه برقيةً وردت إليه من الحكومة البريطانية تذكر أنه قد آن الأوان لتعود العلاقة العراقية البريطانية لسابق عهدها من الصفاء والودّ ، وخاصةً بعد ترك رشيد عالي الكيلاني الحكم . وتناول السفير إضافةً إلى البرقية الحديث عن قطع العلاقة السياسية مع إيطاليا ، وعدم التفكير في استئناف العلاقة مع ألمانيا فإنه إن تمّت هاتان النقطتان فليس هناك

من عائق لعودة ثقة الحكومة البريطانية بالحكومة العراقية . وأن المعاهدة العراقية ـ البريطانية تقضي بقطع العلاقة مع إيطاليا ، وقد أقدمت العراق على مثل هذا التصرّف مع ألمانيا ، ولذا فليس بغريبٍ ، كما أن مصر قامت بالدور نفسه ، فلماذا الخوف ؟ ، وإن انكلترا لتعدّ عدم قطع العلاقة مع إيطاليا مسألةً خطيرةً . غير أن رئيس الوزراء طه الهاشمي قد أجاب بأن المعاهدة العراقية ـ البريطانية لا تقضي بأن تقطع العراق علاقتها مع كل دولةٍ بينها وبين انكلترا حرب ، وهناك فرق بين مصر والعراق ، فإيطاليا في ليبيا التي تُجاور مصر ، وربما تعرّضت مصر لهجومٍ من قبل الطليان ، وتمّ هذا فعلاً ، إذن فالظروف مُختلفة بين العراق ومصر ، وإضافةً إلى ذلك فإنا لسنا مُلزمين بتقليد مصر ، والسير على منوالها ، بل لماذا لا تكون مصر هي التي تسير كالعراق في رسم سياستها ؟ ، ومع هذا فإن العراق ستضع المفوضية الإيطالية تحت المراقبة الشديدة . وأما استئناف العلاقة مع ألمانيا فإن العراق لا تُفكّر بهذا . وأما عن اليابان فإن العلاقة تجارية ، وقد صدرنا إليها التمر والقطن ، وإن انكلترا هي التي فرضت علينا ذلك إذ تركت محصول التمر في البصرة مُكدّساً دون أن تقوم بشرائه كالعادة . وأخيراً كرّر السفير أن قضية العلاقات مع إيطاليا مُهمّة جداً في نظر بريطانيا ، وقد لا يصفو الجو تماماً بين العراق وبريطانيا إذا لم تقطع بغداد علاقتها السياسية مع إيطاليا .

وفي ٨ صفر ١٣٦٠هـ (٦ آذار ١٩٤١م) قدم إلى القاهرة وزير الخارجية البريطانية (أنطوني إيدن) ويُرافقه (جون ديل) رئيس أركان الجيوش البريطانية قادمين من أثينا ، وكان في نيته زيارة بغداد بعد القاهرة ، ولكنه نُصح ألّا يفعل لتوتّر الأوضاع في بغداد ، وكثرة الدعاية لدول المحور ، فاستدعى رئيس وزراء العراق لزيارته فاعتذر طه الهاشمي لكثرة الأمور المتعلّقة به ، وقرّرت الحكومة سفر وزير الخارجية توفيق السويدي ، امتثل الوزير وأخذ معه مُستشار السفارة الإنكليزية (هولمان) ، واتّجه إلى القاهرة ، والتقى مع وزير الخارجية البريطانية (أنطوني إيدن) الذي سأله عن أسباب تفاقم

الخلاف في وجهات النظر بين العراق وبريطانيا ، فأجاب توفيق السويدي : دعاية دول المحور ، وسيطرة العسكريين على الأوضاع السياسية ، وتدارس معه في الحلول العملية لعلاج ذلك ،فاقترح وزير الخارجية العراقية،أن تعمل انكلترا على تسليح الجيش العراقي ، وقبول ضباط عراقيين في الكليات العسكرية الإنكليزية ، وإسعاف العراق ببعض القروض ، واتباع سياسة ترضيةٍ تُقنع الشعب في العراق أن انكلترا دولة حليفة . ولكن وزير الخارجية البريطانية ردّ على ذلك بأن روح السيطرة قد غدت مُسيطرةً على كثيرٍ من ضباط الجيش ، وطلب التسليح الملحّ لا معنى له ما دام العراق غير مُعرّض لخطرٍ أو لهجومٍ مباغتٍ من أية جهةٍ على حين أن انكلترا بحاجةٍ إلى هذه الأسلحة لاشتراكها في الحروب ، وعلى جبهاتٍ كثيرةٍ ، وكذلك فإن انكلترا لا تقدم السلاح إلاّ لمن يتعاون معها ، ولم نجد أي تعاونٍ من طرف العراق . وإن انكلترا تقبل الضباط العراقيين في كلياتها ، وتُطبق المعاهدة العراقية ـ البريطانية بشكلٍ دقيقٍ ، وإن المعاملة البريطانية للعراق جيدة ، وإن لم تجد أي تجاوبٍ ، ولم تلمس روح الصداقة المطلوبة ، ومع ذلك فإن انكلترا على استعدادٍ لتقديم المساعدة المادية والمعنوية للعراق فيما إذا وقف في وجه الدعاية لدول المحور .

بعد أن عاد توفيق السويدي من القاهرة ، وحدّث رئيس الوزراء بما جرى ، شعر طه الهاشمي بضغط انكلترا ، كما كان يلمس ضغط الوصي ، فاستدعى رؤساء الفرق العسكرية كلها إضافةً إلى إسماعيل نامق ، وأمين زكي ، وذكر أن على العراق أن يُلبّي طلبات انكلترا ، وهذا ما يُريده (أنطوني إيدن) وزير الخارجية البريطانية . وبعد ذلك تكلم قاسم مقصود ، فقال : إن الحرب لم تُعطنا فكرةً واضحةً عن الاتجاه الذي يجب أن نسير عليه ، فإنّ ألمانيا على ما يبدو هي القوية بعد انهيار فرنسا فكيف نربط مصيرنا بمصير دولةٍ ستنهزم على ما يبدو ؟ ونُناصب ألمانيا العداء ، وهي التي لم يسبق لها أن عادتنا أو وقفت في وجهنا ، على حين أن فرنسا وانكلترا لم تقفا موقفاً قط كان في صالح العرب بل كانتا دائماً في الخندق المعادي لهم ، وخاصةً انكلترا التي

أذاقت العرب الويلات في التاريخ الحديث كله وعلى مدى عدّة قرونٍ .

كان الضباط الأربعة قد اتخذوا الاستعدادات اللازمة لكل طارىءٍ ولإحباط كل عمليةٍ يمكن أن يقوم بها الوصي أو انكلترا معه . وقد شكّلوا أيضاً لجنةً سريةً عُرفت باسم (اللجنة العربية) ، وضمّت سبعة عناصر وهم : مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني رئيساً ، وثلاثةً من العسكريين ، ومثلهم من المدنيين[1]، وقد أقسم أعضاء اللجنة العربية على كتاب الله على أن يعملوا قصارى جهدهم لإنقاذ البلدان العربية من الاستعمار ، والعمل على استقلالها ، واتخذوا عدة قراراتٍ في مُواجهة الإنكليز ، منها : عدم إعطاء تنازلاتٍ جديدةٍ لانكلترا ، وعدم قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا ، وحلّ المجلس النيابي ، وانتخاب مجلس يُمثّل الأمّة تمثيلاً صحيحاً ، وإبعاد أعوان انكلترا عن العراق ، وتعيينهم في السفارات خارج العراق ، وأخيراً العمل على إسقاط حكومة طه الهاشمي ، إن لم يُوافق على هذه القرارات . وأخذ أعضاء اللجنة العربية يُوالون اجتماعاتهم ، وأحسّ بهذ النشاط رئيس الحكومة ، وأبقى ذلك في نفسه ريثما يتمكّن من وضع حدٍّ للعسكريين ، وتوتّرت الحالة بين الوصي والعسكريين ، وكان هناك من يلقي الرعب في نفس الوصي ويخوفه من الضباط الأربعة ، وفي الوقت نفسه يُحذّر الضباط من الوصي .

وفي ٢٨ صفر ١٣٦٠هـ (٢٦ آذار ١٩٤١م) صدر أمر من وزير الدفاع - كما ذكرنا - بنقل العقيد كامل شبيب إلى قيادة الفرقة الرابعة بالديوانية ، فأحسّ الضباط بالخطر ، وشعروا أن الوصي قد بدأ يُنفّذ ما يدور في خلده بإبعاد الضباط عن بغداد ، وتفرقة صفوفهم ، وحاول رئيس الحكومة على إبقاء الصلة مع الضباط الأربعة بالتساهل بتنفيذ أمر النقل ، لكن الوصي أصرّ على التنفيذ . وبدأت عملية حثّ الضباط للإطاحة بوزارة طه الهاشمي

---

(١) كان المدنيون : رشيد عالي الكيلاني ، وناجي شوكت ، ويونس السبعاوي ، أما العسكريون فهم : صلاح الدين الصباغ ، ومحمود سلمان ، وفهمي سعيد .

الذي كان من وراء نقل كامل شبيب .

وقبل أن تنتهي دورة مجلس النواب في ٤ ربيع الأول١٣٦٠هـ (٣١ آذار ١٩٤١م) أصرّ الوصي أن يُناقش مع الوزارة الوضع في البلاد ، فدافع رئيس الوزراء عن الضباط ، وذكر أنهم قد أقسموا له أن لا تبدر منهم أية بادرةٍ تضرّ بالمصلحة العامة .

عقد اجتماع في معسكر الرشيد يوم ٥ ربيع الأول ١٣٦٠هـ حضره كل من : رشيد عالي الكيلاني ، واللواء أمين زكي وكيل رئيس أركان حرب الجيش ، والعقيد صلاح لدين الصباغ ، والعقيد محمود سلمان ، والعقيد فهمي سعيد ، وأعلنوا الاستنفار بالمعسكر ، وقرّروا القيام بانقلابٍ إذا رفضت حكومة طه الهاشمي الاستقالة .

أرسل المجتمعون اللواء أمين زكي والعقيد فهمي سعيد إلى منزل العميد طه الهاشمي ، فسارا إليه، والتقيا معه ، ، وأخبراه بحركة الجيش وأنه لم يعُد يثق بالوصي ، الذي يضمر للجيش العداء ، في الوقت الذي يخضع فيه للإنكليز ، وطلبا منه التفاهم مع رشيد عالي الكيلاني لتشكيل وزارةٍ جديدةٍ فأبى ، فطلبا منه الاستقالة ، وهدداه ، فكتب الاستقالة ليرفعها إلى الوصي ، وأعطاهما إياها . تأكيداً لعزمه. وأخذا الرسالة إلى عبد القادر الكيلاني رئيس الديوان الملكي ليرفعها إلى الوصي فرفض استلامها .

أبلغ رئيس الوزراء طه الهاشمي الوصي هاتفياً بما تمّ ، وأنه قد وقّع الاستقالة تحت التهديد ، فهرب الوصي مُتسلّلا ، وفي الوقت نفسه اتصل طه الهاشمي هاتفياً بأعضاء وزارته ، ودعاهم للاجتماع في منزله مُباشرةً ، وكان الوقت منتصف الليل فجاءوا إليه .

وكان الجيش قد دخل المدينة ، واحتلّ دوائر البريد والبرق والهاتف ، وسيطر على مداخل الشوارع الرئيسية ، وحاصر قصر الرحاب الذي كان فيه الوصي ، وفرّ منه ، وقصر الزهور .

وفي صباح ٦ ربيع الأول ذهب رشيد عالي الكيلاني ، وأمين زكي ، وصلاح الدين الصباغ إلى دار طه الهاشمي لإقناعه بالإنضمام إلى حركتهم فوجدوا الوزارة لا تزال مجتمعةً ، وجرى نقاش حاد بين رشيد عالي الكيلاني وتوفيق السويدي ، ثم اتّفق المجتمعون على إبقاء الوزارة في الحكم ، وعقد اجتماع يضمّ الحكومة وكبار رجالات البلاد ، وقرروا أن لا يتدخل الجيش في السياسة ، ويتعهّد المدنيون والعسكريون على السواء بأن يقبلوا بما يتمّ الاتفاق عليه ، ويتشكّل وفد يعرض الأمر على الوصي ، ويطلب منه العودة إلى العاصمة .

وذهب توفيق السويدي لمقابلة السفير الإنكليزي ، فحرّضه السفير على التمسّك بالدستور ، وأن انكلترا مستعدة لمساعدة من ينهض من العراقيين للدفاع عن الدستور .

واتفق توفيق السويدي وزير الخارجية مع وزير المالية علي ممتاز الدفتري ، ووزير الاقتصاد عبد المهدي ، ووزير المعارف صادق البصام على السفر إلى البصرة للالتحاق بالوصي بوسيلةٍ تؤمنها السفارة الإنكليزية لهم غير أنهم لم يتمكّنوا من ذلك .

وفي صباح ذلك اليوم ٦ ربيع الأول كان الوصي قد تنكّر بزي امرأةٍ ، وخرج على عربةٍ تجرّها الخيول إلى المفوضية الأمريكية التي تولّت نقله إلى الحبانية ، حيث التقى مع السفير البريطاني الجديد (كينهان كورنواليس) الذي زوّده بالمال ، وأرسل معه مستشار السفارة (هولمان) ، وانتقل الوصي بطائرةٍ بريطانيةٍ إلى البصرة ومعه علي جودت الأيوبي ، وعبيد بن عبد الله المضايفي ، ومستشار السفارة البريطانية ، فوصل الجمع إلى البصرة يوم ٧ ربيع الأول . وكان الوصي ينوي تشكيل حكومةٍ جديدةٍ برئاسة علي جودت الأيوبي ، أو جميل المدفعي ويدعو مجلس الأمة من أعيانٍ ونوابٍ إلى البصرة ، فيُؤيّدونه ويؤيّدون موقف حكومته ، ويُعلن فصل الضباط الأربعة من الجيش، ثم يأمر

الجيش بالطاعة له ، واستلام زمام الأمر له .

وفي مساء ذلك اليوم ٦ ربيع الأول عاد الضباط ورشيد عالي الكيلاني فسحبوا ثقتهم من حكومة طه الهاشمي ، وحاولوا التفاهم معه دون جدوى ، وساءهم ما تمّ من تصرّف الوصي ، وارتمائه إلى السفارة الإنكليزيةوالمفوضية الأمريكية ، وأخيراً احتمى بالدارعة البريطانية (كوك شبير) .

ولما وصل الخبر إلى بغداد بقرار الوصي بتشكيل حكومـةٍ في البصرة ، خشي العسكريون أن تعمّ الفوضى البلاد ، فحكومة طه الهاشمي مستقيلة ، وبعض أعضائها يُفكّرون بالهـرب إلى البصرة ، وبعض الذين لا يشعـرون بالمسؤولية يتهامسون بالاعتداء على المؤسسات الأجنبيـة لذا قـرّر الجيش أن يتحمّل مسؤولية هذه المرحلة .

الوزارات في عهد الملك فيصل الثاني

المرحلة الأولى

١ ـ وزارة نوري السعيد الرابعة :	١٦ صفر ١٣٥٨ ـ ١٣ محرم ١٣٥٩هـ . (٦ نيسان ١٩٣٩ ـ ٢٢ شباط ١٩٤٠م) .
٢ ـ وزارة نوري السعيد الخامسة :	١٣ محرم ١٣٥٩ ـ ٢١ صفر ١٣٥٩هـ . (٢٢ شباط ١٩٤٠ ـ ٣١ آذار ١٩٤٠م) .
٣ ـ وزارة رشيد عالي الكيلاني الثالثة :	٢١ صفر ١٣٥٩ ـ ٣ محرم ١٣٦٠هـ . (٣١ آذار ١٩٤٠ ـ ٣١ كانون الثاني ١٩٤١م) .
٤ ـ وزارة طه الهاشمي :	٤ محرم ١٣٦٠ ـ ٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (الأول من شباط ١٩٤١ ـ ٢ نيسان ١٩٤١م) .

الفصل الرابع

حركة رشيد عالي الكيلاني

٧ ربيع الأول ١٣٦٠ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ
(٢ نيسان ١٩٤١ ـ ١ حزيران ١٩٤١م) .

لقد نجحت السياسة الإنكليزية بقتل الملك غازي ، وتنصيب عبد الإله وصياً على ولي العهد الذي لا يزال صغيراً ، واستمرّ نوري السعيد رئيساً للحكومة غير أن الوضع قد اختلف معه تماماً إذ كان في العهد الماضي يشعر أن قوّةً فوقه تكبح جماحه ، وتمنعه من التصرّف حسب هواه ، بل لا يستطيع فعل شيءٍ دون أخذ أذنٍ ، أو تلقّي أوامر من الملك ، صاحب السلطة والأمر والنهي ، أما الآن فقد أصبح الوصي عامل دعمٍ وتأييدٍ لنوري السعيد بل ومُشجّعاً للسير في فلك السياسة البريطانية ، وتبعاً لما تراه ، ومُنفّذاً لما ترسمه ، وجاء أصحاب المصالح يُهرعون يُريدون تحقيق أهوائهم ، والغبّ مما يستطيعون أخذه ، حتى بدا للناس أن أنصار السياسة البريطانية كثيرون ، وأنهم قد تمكّنوا من السيطرة ، ورسخت أقدامهم في الحكم ، وأن المخلصين قد ضعفوا إذ قلّ النصير ، وانعدم الصديق ، وضاع الوفاء . ونسي الناس أن المنتفعين كغثاء السيل لا يلبثون أن يضمروا ، ويزول أثرهم عند ارتفاع أول كلمة حقٍّ .

وانكمش المخلصون غير أن نفوسهم قد شُحنت حقداً على الإنكليز ، ومُلئت غيظاً من تصرّف أعوان السياسة البريطانية ، ولكن كتموا ذلك داخل أفئدتهم حتى الوقت المناسب ، وقد بدأ ذلك يظهر تدريجياً رغماً عنهم . فما أن أعلنت انكلترا الحرب على ألمانيا حتى أسرعت العراق ، وأعلنت تضامنها مع انكلترا ، وقطعت علاقتها السياسية مع ألمانيا ، بل قبضت على الرعايا الألمان

الذين لا علاقة لهم بالموضوع ، وسلّمتهم إلى انكلترا التي عدّتهم أسرى حربٍ ، فاستغرب الناس هذا التصرّف من الحكومة ، وعدّوها إنكليزيةً أكثر من الإنكليز ولكن صعُب عليهم أن يكون هذا التصرّف غير الشريف باسم العراق ، فاضطروا إلى الكلام ، وأُجبر المخلصون على الخوض فيه ، وزاد الأمر بشاعةً أن رئيس الوزراء ، رئيس مجلس الدفاع الأعلى اقترح ، وكان يصرّ على إرسال جزءٍ من الجيش العراقي ليُقاتل بجانب الجنود الإنكليز ، وانتشر الخبر بين الناس ، فظهر السخط ، لمصلحة من نرسل أبناءنا للقتال في أوربا ؟ ألمصلحة أعدائنا الإنكليز وخصومنا الصليبيين ؟ هل للإسلام فائدة ؟ هل يذهب القتلى من أبنائنا شهداء أم جيفاً ؟ هذه التساؤلات شحنت الشعب في العراق ضدّ الحكومة ، وضدّ الإنكليز معاً ، وكان المخلصون يضطرون للمشاركة في هذه التساؤلات ، وفي نقد الحكومة ومُعارضتها في سياستها غير الحكيمة .

وربما كان لانكلترا الدور الكبير في حمل الشعب في العراق للوقوف في وجه السياسة البريطانية ، وكراهيتها ، وعدّها خصماً له ، لا تربطه بها معاهدة ، ولا تجمعه بها اتفاقية ، فإضافةإلى الحقد الصليبي الذي تحمله منذ عدة عصورٍ من الحروب الصليبية وما قبلها إلى هذا اليوم وما بعده ، وكل المسلمين يذكرون ريتشارد قلب الأسد وما جاء إليه أيام الحروب الصليبية ، وما فعله ، وما أهدافه التي كان يرمي إليها ، وعلى نهجه سار خلفه الإنكليز ، وما تفعل انكلترا الآن في العراق ، إذ ترفض تسليح الجيش العراقي ، وتأبى تقديم أية مساعداتٍ ، وما يفعله أعوانها ، والذين تُسلّطهم على الشعب ، وليست سياستها هذه مقتصرةً على العراق فحسب بل تشمل أمصار العالم الإسلامي جميعها، ولكن الموقف الصارخ لها الآن ما تتبعه في فلسطين من بلاد الشام ، إذ وعدت اليهود بإعطائهم فلسطين ، وجاءت بهم ، ودعمتهم ، ووقفت في وجه المسلمين ، وحاربتهم ، وكل خُطاها تُشير إلى أنها تُريد أن تُسلّم فلسطين لليهود ، حيث تعمل للتمكين لهم حتى إذا اطمأنت على ذلك

خرجت وقدّمت لهم البلاد ، وتتناقل الركبان هذه الأخبار ، وتنقلها إلى العراق ، وتصل إلى أسماع الناس فيشعرون بالحسرة ، ويتضايقون من الإنكليز ، ويشمئزّون من أعوانهم ، ويتمنّون لو يضربون هؤلاء بهؤلاء ، ويُلقون بهم في البحر ، أو يدسّونهم تحت الثرى ، ويدوسون عليهم بأقدامهم ، ولكن أنّى لهم ، وللفريقين القوة والنفوذ !!!

وجاء مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني إلى العراق يحمل أكواماً من الهموم ، وينوء بحملها ، وكلها تتعلّق بالسياسة البريطانية في فلسطين ، وعداوتها الواضحة للمسلمين ، وصداقتها المميّزة لليهود ، وإخلاصها لهم ، والتفّ حوله الناس يستمعون منه ، ويسألونه عن فلسطين ، ومُجريات ما فيها فتتقد شعلة الإيمان في النفوس ، وتحمل المعارضة العراقية الأخبار ، وتتحدّث بها . ويتعجّب الناس من تعلّق الحكومة العراقية بأذيال انكلترا رغم هذا الذي تقوم به في فلسطين ، وغيرها من بلاد المسلمين ، وهذا ما يزيد الشعب نفوراً من حكومته .

ويصل إلى العراق بعض المشرّدين من الشام ، وتظهر عليهم أكداس من الأعباء الثقيلة ، والهموم المضنية من حماقة الفرنسيين وسياستهم ، وأتى الناس إلى الشاميين ، واستمعوا منهم ، وكم كان استغرابهم عندما يستمعون إلى هذا ، ويرون من حكومتهم الرغبة بالقتال إلى جانب هؤلاء الفرنسيين ، ويزداد تألّمهم من حكومتهم ونفورهم منها . وهكذا مُلئت النفوس كرهاً للإنكليز ، وسياستهم ، وأعوانهم .

شعرت انكلترا ما يُساور نفوس الشعب في العراق وما يختلجها ، فأحبّت أن تُخفّف من وطأة هذه الكراهية عليها وعلى أعوانها ، ورأت أن تُسلّم الحكم للمعارضة ، وقد برز بينها رشيد عالي الكيلاني ، وأن تعمل ما في وسعها ليدور في فلكها ، وربما يحدث هذا فيما إذا قرّبه أعوانها ، وأظهرت رضاها عن ذلك ، وإن لم تستطع تنفيذ مُخطّطها بجلبه إلى دائرة سياستها ، أبرزت كيفية استلامه الحكم ، وأنه قد تمّ عن ترشيح اصدقائها . وتبعاً لهذا

فقد رشّحه نوري السعيد ، والوصي معاً لاستلام السلطة ، غير أن رشيد عالي الكيلاني لم يعتمد على هذا الترشيح ، وإنما كان يرتكز على قاعدةٍ قويةٍ فالشعب يدعمه ، والجيش يُؤيّده ، وإضافةً إلى هذا فقد أخذ تعهداً من رجال السياسة سواء الذين يُناوئونه أمثال : نوري السعيد ، وتوفيق السويدي ، وعلي جودت الأيوبي ، وجميل المدفعي ، أم الذين يُؤيّدونه أمثال ناجي شوكت ، وناجي السويدي ، ورُفع هذا التعهّد إلى الوصي ، فأيّده ، وبذا كانت الأرض التي يقف عليها رشيد عالي الكيلاني صلبةً .

وخاب فأل انكلترا من كل النواحي فمن ناحيةٍ ابتهج الشعب ، وضمن سلامة الخط ، فأبدى مُعارضته للسياسة البريطانية ، وأخذ يُصرّح بذلك . ومن ناحيةٍ ثانيةٍ لم تستطع انكلترا من جرّ رشيد عالي الكيلاني إلى سياستها ، بل أبدى قوةً في الشخصية ، وأظهر استقلاليته حيث رفض قطع العلاقة مع إيطاليا التي أعلنت الحرب ضدّ انكلترا وفرنسا ، وهذا ما أغضب انكلترا أشدّ الغضب إذ أحسّت أن العراق ليست تحت نفوذها ، ولا تسير برأيها ، غير أنه من الجانب الآخر قد ألهب هذا التصرّف الشعب في العراق حماسةً لموقف حكومته ، وهذا ما زاده مُعارضةً للسياسة الإنكليزية . وانهارت فرنسا أمام الألمان فطار الشعب فرحاً ليس حبّاً بالألمان ولكن كرهاً لفرنسا ولسياستها الإستعمارية ، وفي الواقع فقد زادت الدعاية لدول المحور في العراق رغبةً في هزيمة الحلفاء ، ولم تُقصّر المفوضية الإيطالية بذلك وحتى توقّعت انكلترا أن تستأنف العراق علاقتها مع ألمانيا ، وهذا ما خشيته أشدّ الخشية ، واستشاطت انكلترا غضباً وأخذت تعمل للتخلص من حكومة رشيد عالي الكيلاني ، وكان لها ما أرادت ، لأن ما يُسمّونه بالأعراف (الديمقراطية) تقضي بذلك، إذ أوعزت انكلترا لأعوانها بالانسحاب من الوزارة ، فكان عليها أن تستقيل ، وتفسح المجال لحكومةٍ جديدةٍ .

وأرادت انكلترا أن تخرج من المأزق الذي وقعت فيه بتسليم رشيد عالي الكيلاني الحكم ، ورغبت أن يكون انسحابها بشكلٍ هادىءٍ ، فلا تُعطي

السلطة لأحد أعوانها إذ أن التغيير المفاجىء في السياسة يُؤدّي إلى مُضاعفاتٍ كثيرةٍ ، ويُحدث ارتباكاتٍ في الإدارة ، كما أن الناس لا يتقبلون فربما خرجت مظاهرات ، وإذا ما تفاقم الأمر ربما تندلع ثورة، لذا فالأفضل تسليم الوزارة إلى رجلٍ أكثر اعتدالاً من رشيد عالي الكيلاني، ولكن الثورة في النفوس لا تُهدّئها الحلول الوسط ، وامتصاص النقمة العارمة لا يكون بالمساومة ، وهذا ما تمّ فما أن طلب الوصي من رشيد عالي الكيلاني تقديم استقالة حكومته حتى اهتزّ الوضع فتحرّك الجيش ، وقامت المظاهرات تُطالب بتحقيق رأي الكيلاني بحلّ المجلس النيابي ، وإجراء انتخاباتٍ جديدةٍ ، وهرب الوصي إلى الديوانية تاركاً بغداد ، والنار تكاد تلتهمها ، ولولا التعقّل لانفجر الوضع .

تشكّلت وزارة طه الهاشمي ، وقد رضي الضباط عنها ، بل كانت برأيهم، ما دام استمرار رشيد عالي الكيلاني بالحكم يتعذّر، وطه الهاشمي قريب منه ، والشعب قد رضي للسبب نفسه ، والوصي قبل النصح ، أو أبدى هذا كي لا تنكشف السياسة الإنكليزية ، وإن كان يُخفي في نفسه أموراً ، إذ يُخطّط أن تكون هذه الوزارة لمرحلةٍ ريثما يسير الوضع في صالحه ، ويُشتّت الضباط الذين يتحكّمون بالوزارات ـ حسب رأيه ـ . وما أن قطعت الحكومة شوطاً حتى بدأ الضغط الإنكليزي من جهةٍ ، وضغط الوصي من جهةٍ أُخرى ، ويبدو أن طه الهاشمي لم يكن ذلك الرجل الصلب ليقف الموقف القوي في وجه خصومه ، بل لان تحت الضغط ، ولما شعر الضباط في بغداد بذلك تأهّبوا للمواجهة ، وسحبوا ثقتهم من رئيس الحكومة ، وقرّروا المواجهة ، والقيام بانقلاب إذا رفضت الحكومة الاستقالة .

وعاد الوضع فانفجر من جديدٍ ، وخاب ظنّ بريطانيا بالعودة إلى السيطرة على العراق تدريجياً ، بتشكيل حكوماتٍ أقلّ تطرّفاً يخلُف بعضها بعضاً ، حتى تصل المرحلة إلى قبول حكومةٍ من أعوانها . ووجد الضباط أنه لا بدّ لهم من تحمّل المسؤولية بعد أن خلا منصب الوصاية ، فالوصي هارب ، محتمٍ بالدارعة البريطانية (كوك شبير) في شطّ العرب ، والحكومة مُستقيلة ، والوزراء يرفضون مُمارسة العمل في مناصبهم الحكومية حتى يستبين الأمر ،

والنفوس غير الطيبة تشرئب للفساد في الأرض .

حكومة الـدفاع الـوطني : استدعى الضباط رشيد عـالي الكيلاني إلى معسكر الرشيد ، وبسطوا الأمر له ، وتدارسوا الوضع فيما بينهم ، وتوصّلوا إلى أنه إن قامت مُظاهرات ، وليس هناك من مسؤولٍ انفلت حبل الأمن ، ولا مجال إلا بتدخّل انكلترا التي ستجدها فرصةً مناسبةً لها ما كانت تحلم بها ، لذا يجب أن نستدرك الأمـر ، ونتحمّل المسؤوليـة ، ونُشرف على الـوضع ، وليس لهذا إلا رشيد عالي الكيلاني الذي هو موضع ثقةٍ من قبل الشعب ، وما نعتقد أن يتخلّى عن مسؤوليته أمام الأمة ، فإمـا أن يتحمّل المسؤوليـة وإما الرضوخ أمام الإنكليز ، والعيش تحت سيطرتهم ، وفي ظلّ سلطانهم ، فأُجبر على الموافقة أدبياً ، غير أنه اشترط عليهم ألا يتدخّلوا في شؤونه ، وأن يتركوه يُسيّر الأمور حسبما يراه وفق المصلحة العامة ، وأن يُساعـدوه عندمـا يطلب منهم ، حيث عليهم أن يكونوا في حالة استنفارٍ ، وتأهّبٍ في كل لحظةٍ لتنفيذ ما يُطلب منهم . فأجابوه إلى ما طلب ، وأبدوا أن هذه هي رغبتهم كـي لا يقال أن الجيش يتدخّل في الشؤون السياسية . وتوكّلوا على الله ، وتسلّم رشيد عالي الكيلاني المسؤولية مدعومةً من الجيش المرابط في المعسكـر دون أن ينزل إلى الساحة ، فكانت هذه الحكومة تُسمّى بحكومة الدفاع الـوطني ، ولا تضمّ سوى شخص رئيسها الذي يقوم بالاتصال بقادة الجيش ، وكبار السياسيين يستشيرهم .

استدعى رشيد عالي الكيلاني المستشار الإنكليزي بوزارة الداخليـة ، وأعلمه أن حكومة طه الهاشمي قد استقالت ، ورفض أعضاؤها الاستمرار في مُمارسة أعمالهم حتى يتمّ تشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، والوصي غائب ، وفي هذه الحالة فإن الجيش هو مصدر السلطة ، وقد أوكل إلي الأمر ريثما يتمّ تشكيل حكومةٍ بالوسائل الدستورية ، وأعلن تمسّكه بالمعاهدة العراقيـة ـ البريـطانية وإخلاصه للتحالف مع انكلترا ، وما دفعه إلى قبول هذه المُهمّة إلاّ المصلحة العامة .

أُذيع على الشعب بيان باسم رئاسة أركان الجيش العراقي ، وقّعه اللواء أمين زكي وكيل رئيس الأركان ، ثم أُذيع بيان ثانٍ باسم رئيس الحكومة رشيد عالي الكيلاني[1] ، وتولّى إذاعته بنفسه ، وأعلن فيه خطته بالوقوف على الحياد ، وعدم إقحام البلاد في أخطار الحرب . والمحافظة على التعهّدات الدولية ، وفي مقدمتها المعاهدة العراقية ـ البريطانية . وتقوية العلاقات مع البلدان العربية وخاصةً المجاورة للعراق . وطالب الشعب بالعمل الجاد ، والحذر من الوقوع في مكائد الأعداء .

ووصلت أخبار احتماء الوصي في الدارعة البريطانية (كوك شبير) إلى بغداد ، فعقد مجلس الدفاع اجتماعاً برئاسة رشيد عالي الكيلاني في مبنى وزارة الدفاع ، وقرّر ما يأتي :

١ ـ تقديم مذكرة احتجاج لانكلترا على تشجيعها للوصي ، والأشخاص الذين فرّوا إلى معسكر الإنكليز في الحبّانية ، ووضع وسائل النقل الإنكليزية تحت تصرّفهم ، كما طالبت المذكرة انكلترا بضرورة احترامها لنصوص المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وعدم التدخّل في شؤون العراق ، واحترام القوانين الدولية .

٢ ـ إرسال قوةٍ عسكريةٍ لتعزيز حامية البصرة .

٣ ـ توقيف متصرّف البصرة صالح جبر ، ونقله مخفوراً إلى بغداد .

وكان الشعب قد استقبل إعلان قيام حكومة الدفاع الوطني بكل حفاوةٍ ، وقامت مُظاهرات التأييد في كل مكانٍ تملأ الشوارع .

وحاول الوصي من جهته استقدام وزراء الحكومة السابقة فلم يستطيعوا الوصول إليه ، وعمل على كسب القطعات العسكرية في الجنوب إلى جانبه فلم يُفلح ، وسعى في تحريض القبائل ضدّ حكومة الدفاع الوطني في بغداد فلم ينجح ، ووزّع المنشورات ضدّ حكومة بغداد ، وكانت هناك إذاعة سرية

---

(١) اشترك في إعداد البيانين يونس السبعاوي ، وصديق شنشل .

إنكليزية تُذيع باسم الوصي من مطار (الشعيبة) إضافة إلى الإذاعة التي أعدّتها له الحكومة البريطانية على ظهر الباخرة الإنكليزية (كوك شبير) ، وعيّنت للإذاعة رجلاً من قبلها هو (أنور مخلص) . وأخيراً انتقل الوصي ، ومعه جميل المدفعي ، وعلي جودت الأيوبي إلى فلسطين .

وزارة رشيد عالي الكيلاني الرابعة : قرّرت حكومة الدفاع الوطني دعوة المجلس النيابي للاجتماع في ١٤ ربيع الأول (١٠ نيسان)[1]، وانتخب علوان الياسري لرئاسة الجلسة ، أما رئيس مجلس الأعيان محمد الصدر فقد اعتذر لصداقته مع الوصي عبد الإله ، وأما رئيس مجلس النواب مولود مخلص فكان قد سافر إلى كريت ، فتولّى رئاسة مجلس النواب نائبه محمد حسن حيدر . وعيّن المجلس الشريف شرف وصياً ، بناءً على اقتراح من رشيد عالي الكيلاني ، وهذا صحيح من الناحية القانونية ما دام الوصي السابق قد ترك أرض العراق فارّاً والتجأ إلى دولةٍ أجنبيةٍ ، إذ كان يُقيم في دارعةٍ إنكليزيةٍ .

سرت فكرة تغيير نظام الحكم ، وإعلان الجمهورية ، وقد حمل هذه الفكرة ناجي شوكت ، على حين رأى آخرون ، ومنهم ناجي السويدي تعيين وصيٍ جديدٍ ما دام الوصي السابق قد ترك واجبات الوصاية وغادر البلاد ، ولا شكّ أن الفكرة الثانية هي التي سادت ـ كما رأينا ـ .

ومن الملاحظ أن المجلس النيابي الذي قرّر عزل عبد الإله عن الوصاية ، وتعيين الشريف شرف هو المجلس الذي انتخب أيام حكومة نوري السعيد ، فلا يستطيع أحد أن يدّعي أن رشيد عالي الكيلاني قد انتخب أو اختار مجلساً برأيه يُؤيّده في تنفيذ سياسته .

وأصدر الوصي الجديد أمراً ملكياً بقبول استقالة حكومة طه الهاشمي على أساس أن الهاشمي كان قد رفع استقالة حكومته إلى الوصي السابق ، غير

---

(١) لبّى الدعوة ٩٤ نائباً من أصل ١٠٨ نواب .

أنه لم يصدر أمر ملكي بقبولها ، ثم أصدر الوصي الجديد أمراً آخر يعهد فيه إلى رشيد عالي الكيلاني بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] .

وكان رشيد عالي الكيلاني يُؤكّد دائماً أنه حريص على الالتزام بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية وحريص على صداقة انكلترا .

وأما الجيش فلم يكن راغباً بأي تنازلٍ لانكلترا ، ولا إظهار أي ضعف أمامها ، لا إبداء ذلك الحرص على صداقتها الذي يُبديه رئيس الحكومة ، كما كان مُقتنعاً بأن النصر في الحرب سيكون إلى جانب دول المحور ، وربما كانت آراء قادته تنطلق من هذه القناعة ، وكان محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين على هذه الشاكلة حيث كانت صلته بكبار الضباط حسنة .

وأما الشعب فقد سرّ بحركة رشيد عالي الكيلاني أي سرورٍ ، وعدّها نصراً عظيماً ، قهر فيه انكلترا ، ومن هذا المنطلق كانت الرغبة في انتصار دول المحور ، لأنه انتصار على أعداء المسلمين الأُوَل ، حتى أصبح الشعب نفسه يُصدر الدعاية لمصلحة دول المحور وبالأحرى لألمانيا بالدرجة الأولى ، حتى أشاع بعضهم عن هتلر أنه مسلم ، وسمّاه أبا علي ما دام يُقاتل أعداء الإسلام ، وأكثر الدعايات لدول المحور كانت من الشعب نفسه تشفيّاً من الإنكليز والفرنسيين ، ولم يكن لدول المحور دور كبير في تلك الدعاية ، وإن كانت هذه الدول قد استغلّت ذلك ، وأصبحت تدّعي أنها على صلةٍ بما يدور

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ رشيد عالي الكيلاني : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ناجي السويدي : وزيراً للمالية .
٣ ـ ناجي شوكت : وزيراً للدفاع .
٤ ـ علي محمود الشيخ علي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ محمد علي محمود : وزيراً للأشغال .
٦ ـ عبد الرؤوف البحراني : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ يونس السبعاوي : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للمعارف .
٩ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .

في العراق ، وساعدها على ذلك لقاء ناجي شوكت في تركيا مع (فون بابن) الذي سبق أن ذكرناه .

وأما انكلترا فقد عدّت الحركة ضدّ مصالحها بالدرجة الأولى ، وأنها قد قامت بصورةٍ غير دستوريةٍ ، ولم تكن رغبة رشيد عالي الكيلاني إلا السيطرة على الحكم ، وقد أعانه الجيش على السيطرة ، فالحركة عسكرية بحتة ، وهي لا تقبل التحكّم عن طريق القوة واغتصاب السلطة ، فالعمل غير مشروع ، ولا تثق لذلك بالحكومة القائمة مُطلقاً ، ولا برئيسها ، ولا يُمكنها أن تعترف بها ، وربما لعب دوراً رئيسياً في اتخاذ هذه السياسة السفير الإنكليزي الجديد في بغداد (كورنواليس) الذي قضى مُستشاراً في وزارة الداخلية مدة خمس عشرة سنة حتى أنهى خدمته رشيد عالي الكيلاني عندما تسلّم وزارة الداخلية في حكومة ياسين الهاشمي الثانية في ١٢ ذي الحجة ١٣٥٣هـ (١٧ آذار ١٩٣٥م) ، فكان بينه وبين الكيلاني علاقة غير ودّية وحيث كانت تقارير السفير لحكومته كلها هجوم على الوزارة العراقية وعلى رئيسها ، ومُغالاة في واقع الحال ، ومُبالغة في تصوير الأحداث . ودعم السياسة الإنكليزية في العراق مفوضية الولايات المتحدة ، والمفوضية التركية ، والمصرية ، حيث كانت كل من تركيا ومصر تسيران في فلك السياسة الإنكليزية .

قرّرت انكلترا سحق حركة رشيد عالي الكيلاني عسكرياً ، غير أن قواتها في العراق غير كافيةٍ لهذا الغرض ، وقد ألزمها على ذلك أو أخافها على العراق ذات الأهمية بالنسبة لها ، سيطرة الفرنسيين الموالين لألمانيا على سوريا ، أي اقتراب الأعداء من الحدود ، والهجوم الألماني الواسع في شمالي إفريقية والاقتراب من مصر ، دخول ألمانيا البلقان (يوغوسلافيا واليونان) ، واحتلال كريت بالمظلّيّين ، والحرب الدائرة ضدّ انكلترا وخاصة حرب الغواصات إذن أصبح الخوف على العراق قائماً وخاصةً أن الحكومة صاحبة العلاقة من أنصار الألمان حسب ادّعاء انكلترا ، وتوسّع الدعاية لدول المحور ، وتُوجد في بغداد مفوضية للطليان ، كما تُوجد علاقة تجارية مع اليابان ، وفوق كل هذا فإن

أنصار انكلترا في العراق ، إما خارج البلاد ، أو داخل المعسكرات الإنكليزية أو على الأقلّ ليس لهم شيء من النفوذ .

كانت انكلترا تُفكّر منذ أن برزت المعارضة في العراق إنزال قواتٍ لها في البصرة ، وحشدها هناك ، ولكن في الوقت نفسه تحرص ألا تُثير تلك المعارضة ، وتتجنّب الصدام معها خوفاً من تضامن الشعب في العراق مع المعارضة والوقوف في وجه انكلترا ، بل ربما أدّى ذلك إلى المطالبة بسحب القوات من القاعدتين الجويتين في (الحبانية) و (الشعيبة) ، والوقت ليس مُناسباً لإعادة الاحتلال من جديد ، والإلقاء بقواتٍ جديدةٍ هي بأشدّ الحاجة إليها على جبهات القتال ، لذا كانت انكلترا حريصةً على مُداراة الوضع ومُحاولة الحفاظ على القاعدتين الجويتين لها ، واستمرار ضخّ النفط إلى طرابلس وحيفا عبر الأنابيب القادمة إليهما من كركوك ، هذا إضافةً إلى بقاء إمكانية نقل الجنود عبر أرض العراق إلى فلسطين ، ومصر ، وتمّ هذا الانتقال عدّة مراتٍ ، ويهمّ انكلترا حشدّ القوات البريطانية في جنوبي العراق لنقلها إلى تركيا إن دعت الحاجة بعد سيطرة الألمان على البلقان ، وسيطرتهم الجوية على سماء بحر إيجه . وبالمقابل فإن المعارضة في العراق ورشيد عالي الكيلاني يرون تأجيل الصراع مع انكلترا ، ومحاولة التفاهم معها قدر الإمكان . ولكن تغيّرت الظروف في الوقت الراهن ، وأصبحت انكلترا ترى التدخّل المسلّح في العراق ، وإسقاط حكومة رشيد عالي الكيلاني .

طلبت الحكومة البريطانية من حكومة الهند إرسال فرقةٍ من القوات الهندية إلى البصرة نتيجة الظروف الراهنة في العراق ، ولأن الأمريكيين حريصون على بناء قاعدةٍ جويةٍ هناك . فوافقت حكومة الهند وأصحاب الاختصاص على تنفيذ هذا الطلب . وأخبرت الحكومة البريطانية سفارتها في بغداد بهذا القرار وأنها ستبحر من كراتشي من ١٧ ـ ٢٤ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (١٣ ـ ٢٠ نيسان ١٩٤١م) ، ويجب أن يكون هذا الخبر في غاية الكتمان ، وعلى السلاح الجوّي في (الحبانية) و (الشعيبة) توفير الحماية الجوية لوصول

هذه الفرقة ، كما أعلمتها بإرسال تعزيزاتٍ بريطانيةٍ للقاعدة الجوية في (الشعيبة) .

بوادر التفاهم : إن السفير الإنكليزي في بغداد قد غيّر رأيه في إرسال هذه القوات بعد تصريحات رشيد عالي الكيلاني أمام المجلس النيابي بعزمه على احترام المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، وأصبح السفير الإنكليزي (كورنواليس) يرى أن الفرصة التي كان يجب على انكلترا التدخّل بها قد انتهت بعد تصريحات رئيس الحكومة العراقية ، ويجب أن تختبر نوايا رشيد عالي الكيلاني بشكلٍ جيدٍ ، وإن إرسال القوات الهندية إلى البصرة لا يمكن إخفاؤه ، ويستفيد من ذلك الكيلاني إذ يُؤلّب الرأي العام ضدّنا . بل إن تأخير الاعتراف بحكومته من قبل انكلترا سيكون ورقةً رابحةً بيد دول المحور ، مع العلم أننا لا نستطيع الآن أن نخدم الوصي وبقية أصدقائنا في العراق حيث أن الوصي قد فقد ثقة الشعب به . وفرصة الأصدقاء قد ضاعت ، لذا فإن توصيات السفير كانت تأخير إرسال هذه القوات . أما إذا بدا الكيلاني كاذباً في نواياه فإنه في ذلك الوقت تكون لنا المبررات للتدخّل المسلّح ، هذا مع العلم أن السفير الإنكليزي (كورنواليس) كان قبل عدّة أيامٍ من أكبر أعداء رشيد عالي الكيلاني، ومن أكبر أنصار التدخّل المسلّح . ومالت الحكومة البريطانية إلى الأخذ بنصائح سفيرها وتأجيل إرسال القوات غير أن نائب الملك في الهند (لنلتغاو) ، وقائد القوات البريطانية في الهند (أوكنلك) قد أصرّا على ضرورة اتخاذ موقفٍ حاسمٍ في العراق لتقوية مركز انكلترا في الشرق الأوسط ، وإلا فإن هذا المركز سيهتزّ، وأخيراً قرّرت الحكومة البريطانية الأخذ بآراء نائب الملك في الهند وقائد قواتها هناك ، ورمي نصائح سفيرها في بغداد ، والإقدام على ما عزمت عليه .

صرّحت الحكومة البريطانية في لندن بأنها لن تعترف بالنظام الحالي في العراق لأنه غير دستوريٍ ، وأبلغت سفيرها في بغداد أن القوات في طريقها إلى البصرة ، وإن رفض رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني نزول هذه

القوات في البصرة فيجب إخباره بأن حكومة صاحب الجلالة مُصمّمة على نزول هذه القوات .

قابل السفير البريطاني (كورنواليس) رشيد عالي الكيلاني يوم ٢٠ ربيع الأول، وكانت مُقابلةً وديةً أبدى فيها الكيلاني احترامه للمعاهدة العراقية - البريطانية ، واستعداده لتنفيذ كل ما جاء فيها ، وسُرّ السفير لهذا . ثم عاد وقابله مرةً أخرى في ٢٢ ربيع الأول، وأخبره بخبر وصول القوات الإنكليزية من الهند إلى البصرة لمرورها ضمن أرض العراق ، فتلقّى الكيلاني النبأ بسرورٍ ، وعلّق عليه أن هذا من حقّ انكلترا حسب المعاهدة التي بيننا ، وكان السفير ينقل إلى حكومته كل ما يدور بينه وبين رشيد عالي الكيلاني وقد طلب من حكومته ألا تصل القوات دفعةً واحدةً وإنما سفينة إثر أخرى .

أخبر رئيس الحكومة العراقية وزراءه ، وضباط الجيش عن خبر نزول قواتٍ انكليزيةٍ في البصرة ، وأنها ستتخذ أرض العراق طريقاً لها حسب الاتفاقية . كما أبلغ رئيس أركان الجيش العراقي قائد القوات الإنكليزية في العراق بأن حامية البصرة قد أُعطيت التعليمات اللازمة لعدم مقاومة نزول القوات البريطانية ، وأخذت القوات الإنكليزية المحمولة جواً تصل إلى البصرة بدءاً من يوم ٢١ ربيع الأول وفي اليوم التالي أخذت القوات المحمولة بحراً تصل أيضاً .

أخبرت الحكومة البريطانية سفيرها في واشنطون لينقل لحكومة الولايات المتحدة عما جرى ، وأن انكلترا على استعدادٍ للاعتراف بحكومة رشيد عالي الكيلاني . وأوضح (كورنواليس) للحكومة العراقية شروط حكومته للاعتراف بالحكم القائم في العراق بأن تسمح حكومة العراق ببناء عدة مطاراتٍ عسكريةٍ إنكليزيةٍ على الخطّ الواصل بين البصرة والموصل ، وأن تُقيم إلى جوانب هذه المطارات مُستودعاتٍ للأسلحة والذخائر . وأن تطرد الشاميين الموجودين في العراق ، وعلى رأسهم مفتي فلسطين ، وجميل مردم ، وسعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، ومصطفى الوكيل لأنهم سبب بلبلة الرأي العام ، منع

الدعايات ضدّ الحلفاء في مختلف وسائل الإعلام ، ومقابل ذلك فإن انكلترا أيضاً ستنقل الوصي السابق عبد الإله ونوري السعيد إلى لندن ، وتُحدّد إقامتهما ، وتعمل على تسليح الجيش العراقي ، وتُقدّم مساعداتٍ اقتصاديةٍ للعراق هذا إلى جانب الاعتراف المباشر بحكومة رشيد عالي الكيلاني ، ولكن رئيس الحكومة العراقية قد رفض هذه المطالب جملةً وتفصيلاً ، وبإصرار كاملٍ ، وتعالٍ واضحٍ .

عودة الخلاف : أرادت انكلترا استغلال فرصة مُوافقة حكومة رشيد عالي الكيلاني على مرور قواتٍ إنكليزيةٍ في أرض العراق ، فهي أول وجود مُبرّرٍ للاعتراف بحكومته ، إن رضخ ، والإثارة عليه بين أفراد الشعب وضباط الجيش في العراق ، ومُحاولة إيقاع خلافٍ ، وإيجاد مبررٍ إن لم يرضخ ، ورفض هذه التصريحات، للتدخّل المسلّح بالعراق . وإن كانت الفكرة لديها أنه بعد تلك الموافقة لا بدّ من أن يسكت حتى لا تسجّل عليه أخطاء ، ويبدأ نقده ، وتظهر المعارضة ضدّ تصرّفاته .

أعلنت الحكومة البريطانية في لندن أن قوات كبيرةً من قوات الإمبراطورية وصلت إلى البصرة للمرور عبر العراق ، وأن حكومة الكيلاني قد قدّمت كافة التسهيلات لها . ولكن رشيد عالي الكيلاني قد شعر على ما يبدو بنوايا الإنكليز ، فقدّمت وزارة الخارجية العراقية مُذكرةً إلى السفارة البريطانية في بغداد لترفعها إلى حكومتها ، وتتضمّن المذكرة شروط مرور القوات الإنكليزية عبر أرض العراق ، وذكرت أربعة شروط وهي :

١ ـ إتخاذ جميع التدابير لنقل هذه القوات بأسرع ما يمكن من البصرة إلى الرطبة .
٢ ـ إبلاغ الحكومة العراقية عند مجيء قواتٍ جديدةٍ بالخبر قبل مدةٍ مُناسبةٍ .
٣ ـ يجب ألا تزيد مجموع أيّة قوّةٍ تريد الانتقال في حالة حركتها في أيّة مرةٍ على لواءٍ واحدٍ .
٤ ـ لا يصحّ إنزال قوةٍ جديدةٍ قبل أن تجتاز القوة السابقة لها حدود العراق .

بقيت القوات الإنكليزية في البصرة ، ولم تنتقل لذا فإن الحكومة العراقية قد أخذت تُطالب الحكومة الإنكليزية بترحيل هذه القوات ، كما كانت تُطالبها أيضاً بالإعتراف بالوضع القائم .

ووصلت ثلاث سفنٍ جديدةٍ محمّلةٍ بالجند ، فأبلغ رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني السفير الإنكليزي (كورنواليس) الذي كان قد جاء لمُقابلته أن مجلس الوزراء العراقي قد درس مسألة وصول السفن الثلاث الحاملة للجنود ، وقرّر التمسّك بقراره السابق ، وهو عدم السماح بإنزال قواتٍ جديدةٍ قبل أن تبدأ القوات التي وصلت من قبل في اجتياز الحدود العراقية ، وأن بقاء القوات البريطانية في البصرة يعدّ انتهاكاً لنصوص المعاهدة ، وأصرّ على عدم الدخول في مُناقشات مع الحكومة البريطانية بشأن المعاهدة أو أية مسائل أخرى إلاّ إذا قدّم أوراق اعتماده بصفةٍ رسميةٍ . ولما لم يستطع السفير زحزحة رئيس الحكومة عن موقفه أجاب بوقاحةٍ ستنزل القوات إن شئت أو أبيت ، وإن مُقاومة النزول ستؤدّي إلى نتائج خطيرةٍ .

وفي ٣ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٢٩ نيسان ١٩٤١م) رفضت وزارة الخارجية العراقية الموافقة على إنزال قواتٍ بريطانيةٍ جديدةٍ بالبصرة ، وأبانت أن بقاء القوات السابقة هناك مخالف لنصوص معاهدة التحالف وروحها .

ونزلت القوات الإنكليزية في البصرة دون موافقة الحكومة العراقية التي لم يكن منها سوى الاحتجاج ، وإصدار أوامر للجيش العراقي بالتحرّك إلى القاعدة الجوية البريطانية بالحبّانية ، وبالفعل فقد تحرّكت قوات معسكر الرشيد ، واتخذت مواقعها على التلال المواجهة للقاعدة الجوية ، ويبدو أن هذا الإجراء كان من تصرّف العقيد فهمي سعيد ، على حين أن الأوامر كانت من رئيس الحكومة الاستعداد لمواجهة الهجوم المرتقب من الجنوب أو من الغرب بوضع بعض القطعات العسكرية في (الرمادي) و (الفلوجة) في حالة الاستعداد . ولكن مفتي فلسطين ، ويونس السبعاوي كانا يتوقّعان وصول الطائرات الألمانية إلى العراق ، وأن بريطانيا لا تستطيع المقاومة لانشغالها في

شمالي إفريقية واليونان ، لذا لا يمكنها أن تتورّط بالحرب مع العراق أبداً .

طلبت السفارة البريطانية في بغداد من رعاياها نقل النساء من بغداد إلى الحبّانية ، ومن الرجال الالتجاء إلى سفارتهم أو إلى المفوضية الأمريكية حسب قرب المكان ، ووصلت عدة طائراتٍ إلى القاعدة الجوّية ، وفي الوقت نفسه بدأ نقل الجنود من البصرة إلى الحبّانية جوّاً .

وفي ٤ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٣٠ نيسان ١٩٤١م) طلبت الحكومة العراقية من قيادة قاعدة الحبانية عدم تحليق الطائرات في الجو ، وإبقاءها في قواعدها ، وأماكن صيانتها ، وأنذرتها بإسقاط كل طائرةٍ تُخالف هذه الأوامر ، غير أن قائد القاعدة رفض هذا الطلب والإنذار ، وأعلن استمرار التدريب ، وبقاءه على حاله ، وزاد على ذلك بأن طلب من الحكومة العراقية فكّ الحصار عن القاعدة ، وضرورة الإنسحاب من المناطق المحيطة بها .

وفي ٥ ربيع الثاني وزّعت السفارة منشوراً تتهم فيه رشيد عالي الكيلاني وقادة الجيش أنهم قد باعوا أنفسهم للألمان والطليان . كما أن الحكومة البريطانية قد خوّلت سفيرها اتخاذ ما يراه مناسباً .

عدّ الإنكليز حصار قاعدة الحبانية بدءاً بالعدوان ، ومن الضروري الإسراع بالهجوم لانتزاع زمام المبادرة من أيدي القوات العراقية . وفي صباح ٦ ربيع الثاني بدأ الهجوم الجوي الإنكليزي بضرب مواقع القوات العراقية التي ردّت على النار بالمثل . وحاولت بريطانيا إثارة الشعب العراقي ضدّ حكامه . وفي اليوم الثاني من القتال (٧ ربيع الثاني) قصفت الطائرات البريطانية معسكر الرشيد ، والطرق الرئيسية ، والمدفعية العراقية التي كانت تقوم بقصف القاعدة ، واستمرّ القصف لمدة يومين آخرين ، وفي ١٠ ربيع الثاني طالب انطوني إيدن بسحب الجنود العراقيين من جوار قاعدة الحبانية ، ووقف الأعمال العدوانية ضدّ القوات البريطانية ، وأعلن أن انكلترا مُصمّمة مهما كانت الظروف على الاحتفاظ بما منحتها إياه المعاهدة العراقية ـ البريطانية .

أخلت القوات العراقية يوم ١٠ ربيع الثاني بعض مواقعها من التلال المشرفة على القاعدة الجوية البريطانية ، وقد خلّفت وراءها أثناء إخلائها تلك المواقع الكثير من الأسلحة والذخائر ، وقصفت الطائرات الإنكليزية مواقع القوات العراقية في الديوانية ، والقوات المتقدّمة نحو القاعدة من الفلوجة ، وأرغمتها على التراجع ، وحاولت الطائرات العراقية القيام بهجوم على قاعدة الحبانية ففشلت . وفي ١١ ربيع الثاني (٧ أيار) قامت القوات العسكرية البريطانية في القاعدة بالهجوم على القوات العراقية المحيطة بالقاعدة فألزمتها على الانسحاب ، وانتهى بذلك الحصار ، وفي الوقت نفسه هاجمت الطائرات الإنكليزية ، المطارات العراقية ، وتمكّنت من تدمير الطيران العراقي .

منذ أن بدأ الهجوم الإنكليزي بالطيران وقصف مواقع القوات العراقية في ٦ ربيع الثاني (٢ أيار) عدّ رشيد عالي الكيلاني المعاهدة العراقية - البريطانية مُلغاةً ، وفي اليوم الثاني لبدء القتال أبرق رئيس الحكومة العراقية إلى برلين لاستئناف العلاقات السياسية ، ودعوة السفير الألماني السابق الذي كانت حكومة نوري السعيد قد طردته .

وفي ١٣ ربيع الثاني أعلن مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني الجهاد ، ودعا المسلمين لدعم شعب العراق ضدّ ما يتعرّض له من عُدوان ، غير أن الشعوب الإسلامية مغلوب على أمرها ، ولا تستطيع الحركة ، ومع ذلك فقد وصل إلى الرطبة بعض المجاهدين من بلاد الشام ، وكانوا بقيادة فوزي القاوقجي ، كما تطوّع الناس ، ورجال القبائل في العراق للعمل ضدّ الإنكليز .

بدأت القوات الإنكليزية بقصف الرطبة من الجوّ ، وبالمدفعية منذ ١٣ ربيع الثاني ، وبعد يومين تمكّنت من احتلالها ، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب منها .

أخذت القوات البريطانية تتعرّض لهجوم سلاح الجو الألماني بدءاً من ١٦

ربيع الثاني ، وكانت الطائرات الألمانية تنطلق من بلاد الشام الشمالية التي تخضع للاستعمار الفرنسي وحكومته الموالية للألمان ، كما أن هذه الطائرات كانت تهبط بالموصل ، وتنطلق منها .

وفي ١٧ ربيع الثاني تقدّمت القوات البريطانية من جنوبي العراق مُتجهةً نحو قاعدة الحبّانية متحاشيةً منطقة الرمادي . وأخذ التقدّم نحو الفلوجة ، فدمّر العراقيون السدود النهرية لإغراق المناطق بالماء ليحول ذلك دون تقدّم الإنكليز .

وفي ٢٠ ربيع الثاني حاول عبد العزيز علي المصري ، وعبد المنعم عبد الرؤوف ، وحسين ذو الفقار صبري الهرب بطائرتين من مصر والالتحاق بالعراق ، غير أن الطائرتين قد سقطتا قرب الحدود الليبية .

تقدّم الجيش الأردني بقيادة (غلوب) نحو الشرق باتجاه العراق حسب أوامر الحكومة البريطانية ، رغم أن قوة الحدود الأردنية قد رفضت التحرّك ، وتمرّد جنودها عند محطة ضخّ النفط (هـ ٣) على خط أنابيب كركوك ـ حيفا ، ورفضوا الاشتراك بالحملة ، وهدّدوا بإطلاق النار على ضباطهم من الإنكليز إن لم يسمحوا لهم بالعودة . وقد وصل (غلوب) بقواته إلى الحبّانية في ٢٢ ربيع الثاني .

وفي ٢٣ ربيع الثاني سقطت (الفلوجة) بيد الآشوريين الذين يعملون مع القوات الإنكليزية ، وقاموا بنهبها ، وارتكبوا جرائم كثيرةً انتقاماً من العراقيين حسب زعمهم . وبعد سقوط (الفلوجة) أصبح الطريق مفتوحاً إلى بغداد أمام الإنكليز ، وبدأ الزعماء يفرّون من البلاد .

رفض تشرشل رئيس وزراء بريطانيا المفاوضة مع رئيس الحكومة العراقية رشيد عالي الكيلاني وعدّ طلب المفاوضة ليس إلا كسباً للوقت كي تصل الطائرات الألمانية إلى العراق .

وقصفت الطائرات الألمانية قاعدة الحبّانية يومين متتالين (٢٥)

و (٢٦) من ربيع الثاني ولكن كان قصفاً ليس جاداً بالنسبة إلى ما عُرف عن الغزو الجوي الألماني .

طلب بعض الضباط من رئيس الحكومة العراقية الدفاع عن العاصمة ، وانسحاب الجيش إلى الموصل ، وكركوك واتخاذ الموصل عاصمةً فيما إذا سقطت بغداد بيد الأعداء ، وكان من هؤلاء الضباط محمود الدرة ، وحسيب الربيعي ، وقد استحسن رشيد عالي الكيلاني هذه الفكرة .

وفي ٢٥ ربيع الثاني انتقل إلى طهران علي ممتاز الدفتري مدير البنك العراقي الذي أنشأه رشيد عالي الكيلاني ، كما سافر في اليوم نفسه وإلى الجهة نفسها كل من وزير الخارجية موسى الشابندر ، ووزير الأشغال والمواصلات محمد علي محمود ، وسافر إلى أنقرة في اليوم نفسه أيضاً وزير الدفاع ناجي شوكت . إذ بدت الهزائم تظهر على العراقيين رغم التجاوب الكبير الذي أبداه الشعب والسياسيون مع الحركة .

وفي ٣ جمادى الأولى شكّل رشيد عالي الكيلاني لجنةً مؤلفةً من أربعة أشخاص برئاسة أمين العاصمة أرشد العمري للمحافظة على الأمن خوفاً من الفوضى ، وحمايةً لحياة الشعب . وقد بدأت هذه اللجنة التي عُرفت باسم « لجنة الأمن الداخلي » بالاتصال بالسياسيين لوقف القتال ، كما كان وكيل رئاسة الأركان العقيد نور الدين محمود يتصل بكبار الضباط لإنهاء الحرب .

وفي ٦ جمادى الأولى رحل إلى طهران رشيد عالي الكيلاني ، ومفتي فلسطين أمين الحسيني، والشريف شرف ، والفريق أمين زكي ، وبقي يونس السبعاوي الذي أعلن نفسه حاكماً عسكرياً ، غير أنه لحق بهم بعد عدة ساعاتٍ .

ذهبت لجنة الأمن الداخلي إلى السفير الإنكليزي (كورنواليس) وطلبت منه وقف إطلاق النار ، فشاور العسكريين الإنكليز في شروط الهدنة وأبرق إلى لندن حيث وافقت عليها هيئة أركان الحرب ، فأعلن السفير للـ

موافقته ، وسلم أمين العاصمة أرشد العمري ، ووكيل رئاسة الأركان العقيد نور الدين محمود نسخةً منها لمناقشتها ودراستها ، مع لجنة الأمن الداخلي وكبار الضباط العراقيين .

وفي ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (٣١ أيار ١٩٤١م) ذهب إلى السفارة الإنكليزية كل من أرشد العمري ، واللواء إسماعيل نامق ، والعميد حميد نصرت ، والعقيد نور الدين محمود لمناقشة شروط الهدنة . وبعد مُناقشاتٍ وجد أرشد العمري أنه لا فائدة من الجدال والحوار ، وأن انكلترا مصممة على هذه الشروط ، ولا إمكانية للمقاومة فوافق ، واضطرّ الضباط على الرضا والتسليم ، ولكن بامتعاضٍ كبيرٍ ، أما الشروط فكانت :

١ ـ تتوقّف جميع الأعمال العدائية بالحال .
٢ ـ يُسمح للجيش العراقي بالاحتفاظ بجميع أسلحته وتجهيزاته وذخائره ، ولكن يتحتم على وحداته جميعها العودة إلى المواقع التي كانت تُرابط فيها وقت السلم .
٣ ـ يُطلق فوراً جميع أسرى الحرب من جنود وطيارين ومدنيين .
٤ ـ يُعتقل جميع الموظفين المعادين من ألمان وإيطاليين على أن تحتفظ العراق بمهماتهم إلى حين صدور تعليماتٍ أخرى .
٥ ـ يُخلي الجيش العراقي مدينة الرمادي وما جاورها ، على أن يتمّ الإخلاء في الساعة الثانية عشرة من ظهر الأول من شهر حزيران .
٦ ـ تُمنح فوراً جميع التسهيلات للسلطات العسكرية البريطانية ليتيسر لها استخدام المواصلات بالسكة الحديدية ، والطرق البرية ، والنهرية .
٧ ـ يُمكن تسليم جميع أسرى الحرب العراقيين الذين أسرتهم القوات البريطانية إلى الضباط الذين ينتخبهم الوصي على العرش بمجرّد تنفيذ الشروط السالفة الذكر .

عودة أعوان السياسة الإنكليزية : كان الوصي السابق عبد الإله قد غادر البصرة عند تشكيل حكومة الدفاع الوطني في بغداد في ٧ربيع الأول

١٣٦٠هـ (٣ نيسان ١٩٤١م) ، واتجه إلى عمان على متن طائرةٍ حربيةً بريطانيةٍ ، ومن عمان كان يتصل هاتفياً بأصدقائه في بغداد ، ويُحرّضهم على رشيد عالي الكيلاني وحكومته ، وعلى الضباط العسكريين الذين يُساندون الحكومة العراقية . وانتقل بعدها إلى القدس ، ووضعت الحكومة البريطانية تحت تصرّفه مائة ألف جنيه ، وقد أصدر بياناً في ٨ ربيع الثاني (٤ أيار) إلى الشعب العراقي ، وتولّت الطائرات البريطانية إلقاءه على السكان ، أي في اليوم الثاني من أيام القتال .

وفي ٢٦ ربيع الثاني ١٣٦٠هـ (٢٢ أيار ١٩٤١م) ، عاد الوصي ومن معه إلى العراق على متن طائرةٍ بريطانيةٍ هبطت به في القاعدة الجوية البريطانية في الحبّانية وبعد يومين من وصوله أصدر بياناً إلى الشعب العراقي ، وتولّت الطائرات البريطانية إلقاءه ونشره على السكان . ثم انتقل إلى بغداد في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١ حزيران ١٩٤١م) ، بعد يومين من مُغادرة رشيد عالي الكيلاني لها ، وكذلك وصل إليها جميل المدفعي قادماً من البصرة، حيث كان في مُهمّةٍ هناك للقيادة العسكرية البريطانية ، حيث أوفده الوصي عبد الإله ليُمثّله ، وكذلك دخل مع الوصي إلى بغداد كل من نوري السعيد ، وعلي جودت الأيوبي ، وداود الحيدري ، والمرافقين العسكريين .

ورغم أن العراقيين قد استقبلوا الوصي من عدّة كيلومتراتٍ خارج بغداد فقد عمّت الفوضى العاصمة يومي ٧ و ٨ جمادى الأولى ، وجرت اعتداءات على اليهود الذين أبدوا شماتةً باندحار الحركة ، وهرب رشيد عالي الكيلاني(١)

---

(١) هرب رشيد عالي الكيلاني إلى إيران فلما دخلتها الجيوش البريطانية والروسية فرّ إلى تركيا عبر الحدود دون موافقة الأتراك ، والتقى هناك بعددٍ من الزعماء العرب ، وطالبوه بالعمل السريع من أجل العرب ، وحرّر المجتمعون وثيقةً تتضمن : اعتراف الحكومة الألمانية بأنه رئيس لوزراء العراق لتكون لمحادثاته صفة الرسمية . وأن يحصل على تصريحٍ رسميٍ من الحكومتين الإيطالية والألمانية باحترام استقلال الدول العربية المستقلّة ، وتأييد استقلال البلدان الواقعة تحت سيطرة الاستعمار ، ومنها فلسطين ، ونسف وعد بلفور ، كما عليه العمل =

وأنصاره ، حتى كان المسلمون يعدّون تصرّفات اليهود سبباً من أسباب فشل الحركة .

= على الحصول على تصريح رسمي من دول المحور لاحترام اتحاد البلدان العربية الذي سيعملون على تنفيذه بعد الحرب . وقابل الكيلاني وزير الخارجية الألمانية ، كما قابل هتلر ، وسافر الكيلاني ومفتي فلسطين إلى إيطاليا ، وقابلا وزير الخارجية (تشيانو) وموسوليني والملك .

عند هزيمة ألمانيا ، اتجه رشيد عالي الكيلاني إلى سويسرا ، غير أنها قد رفضت دخوله ، فاتجه إلى بلجيكا ، ثم فرنسا ، ومن مرسيليا هرب إلى بيروت ، ومنها إلى دمشق ، ومن دمشق سار إلى الرياض حيث حصل على حقّ اللجوء السياسي ، ورفض الملك عبد العزيز تسليمه إلى العراق رغم ضغط إنكلترا الشديد ، وحشد العراق لقواتها على الحدود مع السعودية .

انتقل رشيد عالي الكيلاني عام ١٣٧٤هـ إلى مصر ، ومُنح حقّ اللجوء السياسي ، وبقي فيها حتى قُضي على العهد السابق في العراق في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) ، وأُعلن النظام الجمهوري فانتقل إلى العراق فاستُقبل من الشعب استقبالاً رائعاً ، وهذا ما أزعج السفير الإنكليزي الذي طلب من عبد الكريم قاسم قتله بأي ثمن ، وأُشيع أن الكيلاني يُدبّر انقلاباً للإطاحة بحكم عبد الكريم قاسم ، فأُلقي القبض عليه ، وقُدّم للمحكمة التي قضت بإعدامه شنقاً يوم ٦ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (١٧ كانون الأول ١٩٥٨م) بتهمة العمل على تغيير نظام الحكم لصالح الجمهورية العربية المتحدة ، ولم يُنفّذ فيه حكم الإعدام ، ولكن بقي في السجن ، ويُهدّد كل يوم بتنفيذ حكم الإعدام فيه .

أُفرج عنه يوم ١ صفر ١٣٨١هـ (١٤ تموز ١٩٦١م) فسافر إلى بيروت ، ومنها إلى القاهرة ، وبعد زوال حكم عبد الكريم قاسم في ١٥ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٣م) رجع إلى بغداد ، ومنها انتقل إلى بيروت ، وهناك تُوفّي في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٢٨ آب ١٩٦٥م) . ونقل جثمانه إلى بغداد حيث وري التراب هناك .

الفصل الخامس

الملك فيصل الثاني ـ ٢ ـ

٧ جمادى الأولى ١٣٦٠ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ
(١ حزيران ١٩٤١ ـ ١٤ تموز ١٩٥٨م)

منذ أن عاد الوصي إلى بغداد في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١ حزيران ١٩٤١م) عهد إلى جميل المدفعي بتشكيل الوزارة[1] ، وقد تمّ إعلانها في ٩ جمادى الأولى ، ووصلت في اليوم نفسه طائرة نقلٍ بريطانية تحمل إلى بغداد فصيلةً من الجنود المزوّدين بالأسلحة لحراسة السفارة الإنكليزية حسب دعواها . وأعلنت الحكومة الجديدة الأحكام العرفية في بغداد وما جاورها ، وأصدرت بيانات بمنع التجوّل ، ومنع حمل السلاح ، وعدّت حكومة الدفاع الوطني ، وحكومة رشيد عالي الكيلاني غير شرعيتين .

وفي ١١ جمادى الأولى أُبلغ وزير الخارجية العراقية علي جودت الأيوبي بتكليفٍ من الحكومة العراقية ، قرارات مجلس الوزراء التالية :

١ ـ تُوافق الحكومة العراقية على أنه زمن الحرب ، وللأغراض الحربية وحدها للحكومة البريطانية الحق في أن تُعسكر قواتها البرية والجوية في الأمكنة التي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزارة .
٢ ـ علي جودت الأيوبي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ جلال بابان : وزيراً للأشغال والمواصلات.
٥ ـ إبراهيم كمال : وزيراً للمالية والعدلية .
٦ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ محمد رضا الشبيبي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ نظيف الشاوي : وزيراً للدفاع .
٩ ـ جعفر حمندي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

يتطلّبها الدفاع عن العراق ، بشرط أن تُحاط الحكومة العراقية علماً بذلك .

٢ ـ تُوافق الحكومة العراقية على إنشاء إدارة للرقابة على البريد والبرق ، وأن تحمي مصالح الحكومة البريطانية في هذه المسائل بأن تستخدم في الإدارة المذكورة موظفاً بريطانياً من بين الموظفين الذين يعملون في خدمة الحكومة العراقية .

٣ ـ تسمح الحكومة العراقية للسلطات العسكرية البريطانية بأن تتخذ الوسائل الضرورية بالتعاون مع السلطات العراقية للإشراف على منطقة القاعدة البريطانية بالبصرة ، كما أنها سوف تُصدر الأوامر لسلطات ميناء البصرة لكي تتعاون تماماً فيما يخص جميع الوسائل اللازمة لتسهيل وضمان سلامة وصول القوات البريطانية إلى البصرة .

وفي ١٤ جمادى الأولى قطعت الحكومة العراقية علاقاتها السياسية مع إيطاليا ، وغادر وزير إيطاليا المفوض ، وأعضاء المفوضية العراق عن طريق سوريا فتركيا ، وكذلك أُجبر الملحق العسكري الياباني على مُغادرة البلاد .

استبدلت الحكومة أعضاء السلك السياسي العراقي في عددٍ من عواصم الدول ممن يُشتبه بهم أنهم يُعارضون السياسة الإنكليزية أو يميلون إلى دول المحور . ووضعت في كل محافظةٍ ضابط ارتباطٍ إنكليزيٍ يُمثّل القوات البريطانية ، وأصبحوا يتدخّلون في كل أمرٍ من شؤون المحافظة .

وفي ٢٣ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (١٧ حزيران ١٩٤١م) استصدرت مرسوماً بمحاكمة الرجال الذين اشتركوا في حركة رشيد عالي الكيلاني ، وشكّلت مجلساً عرفياً لهذا الغرض ، وعملت كل ما في وسعها لتصفية أعداء بريطانيا تحت اسم معارضة الحكومة والهجوم عليها . وسخّرت إمكانات العراق جميعها لصالح انكلترا وهذا ما هيّأ المجال لدخول القوات الإنكليزية مع قوات فرنسا الحرة إلى سوريا وطرد القوات الموالية للألمان فيها ، كما استطاعت السلطات العسكرية البريطانية من دخول إيران مع القوات الروسية .

وأخذت السفارة البريطانية تُطالب الحكومة العراقية بدفع تعويضات عما لحق رعاياها من أضرار إبان حركة رشيد عالي الكيلاني . وبصورةٍ عامةٍ كانت حكومة جميل المدفعي تُنفّذ كل ما تريده انكلترا ، حتى انتشرت الدعاية للحلفاء على نطاقٍ واسعٍ ، وضدّ دول المحور على المستوى نفسه .

ومع أن نادي (إخوان الحرية) الذي أنشأه الإنكليز بإدارة أمينة سرّ السفارة البريطانية (فريا ستارك) ، قد قام بنشاطٍ كبيرٍ ، وكانت لجنته العليا تضمّ كلاً من : وزير الداخلية ، وزير المعارف ، وزير العدلية ، أمين العاصمة ، رئيس أركان الجيش ، مدير الشرطة العام ، إلا أن الحكومة بقيت متزنةً في بعض تصرّفاتها ، حيث رفض رئيس الحكومة جميل المدفعي اتخاذ أي تصرّفٍ ضدّ الذين تعاطفوا مع حركة رشيد عالي الكيلاني ، كما رفض استلام العناصر العراقية الذين قبضت عليهم السلطات البريطانية في إيران عندما دخلتها جيوشها خوفاً من أن يتصرّف الوصي ضدّهم ويعمل على الانتقام منهم فيهدر دمهم ، وهذا ما أجبر بريطانيا على نقلهم إلى روديسيا كأسرى حرب . وطردت الحكومة المدرسين الشاميين من العراق . ولكنها مع هذا كله كانت تخشى الرأي العام ، لذا حرصت أن تبدو معتدلةً ، فلم تُلق القبض إلاّ على الرؤوس البارزين في حركة الكيلاني .

ووقع خلاف بين رئيس الوزارة جميل المدفعي وبين وزير المالية والعدلية إبراهيم كمال ووصل الخلاف إلى درجةٍ لا يمكن معها الوفاق ، وهذا ما أجبر جميل المدفعي على تقديم استقالة حكومته ، وكان إبراهيم كمال يحلم في رئاسة الوزارة لكنه عجز عن ذلك ، فلم تكن له شعبية ، ولم يحصل على تأييدٍ من السياسيين . كما أن نوري السعيد الذي كان يشغل منصب وزير العراق المفوّض في مصر ، قد استدعي من القاهرة ليشارك في الوزارة التي ستخلف حكومة جميل المدفعي ، ولكنه رفض الاشتراك في وزارة يُؤلّفها إبراهيم كمال ، وأظهر رغبةً في رئاسة الحكومة ، ووجد الوصي نفسه مُلزماً بتكليفه بعد أن قبل استقالة حكومة جميل المدفعي ، ولم يجد من يخلفه .

وزارة نوري السعيد السادسة : كان جميل المدفعي قد قدّم استقالة وزارته في ١ رمضان ١٣٦٠هـ (٢١ أيلول ١٩٤١م) ، ولكن لم تُقبل استقالتها حتى ١٧ رمضان ١٣٦٠هـ (٧ تشرين الأول ١٩٤١م) حيث عهد إلى نوري السعيد فشكّلها[1] في ١٩ رمضان .

عمل رئيس الحكومة بصفته وزيراً للدفاع على إبعاد الجيش عن السياسة نهائياً ، ووجد سهولةً في الأمر لأن العناصر النشيطة قد غادرت البلاد ، ولأن الأحكام العرفية هي السائدة ، ولأن البلاد في حالة تغييرٍ ، وحُدّد للجيش دور واحد هو الدفاع عن البلاد ضدّ أي غزوٍ ألماني مرتقب . وقد وعد نوري السعيد السفير البريطاني (كورنواليس) أن يتعاون مع الإنكليز تعاوناً مطلقاً ، حتى عُدّ بالفعل أنه إنكليزي أكثر منهم ، فقد عرض على الحكومة البريطانية إرسال فرقتين من الجيش العراقي لقتال جيوش المحور في شمالي إفريقية إلى جانب القوات البريطانية ، ولكن رُفض هذا الطلب ، ولعلّ هذا الرفض كان لعدم الثقة بالجيش العراقي .

وما أن استلم نوري السعيد السلطة حتى أخذ يُلاحق الذين تعاونوا مع رشيد عالي الكيلاني بل الذين أبدوا تجاوباً معه أو تعاطفاً نحوه، وعدّ الجميع خونة . واعتقل مجموعة إثر مجموعةٍ حتى زاد عدد المعتقلين على ستمائة رجلٍ ، وملأ معتقل (الفاو) بهم، ومعتقل (العمارة)، وما أن يرد اسم شخصٍ في التحقيق حتى يُلقى عليه القبض ، ويُودع في السجن ، وهذا ما أوجد الرعب لدى الناس كلهم ، وخيّم السكوت التام على العراق .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزارة ، وزيراً للدفاع .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٣ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٤ ـ صادق البصام : وزيراً للعدلية .
٥ ـ عبد المهدي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ جمال بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ محمد أمين زكي : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ تحسين زكي : وزيراً للأشغال .

وفي ١٠ ذي القعدة ١٣٦٠هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٤١م) بدأت محاكمة رؤوس حركة رشيد عالي الكيلاني من أعضاء وزارته ، وكبار ضباط الجيش ، وفي ١٩ ذي الحجة ١٣٦٠هـ (٦ كانون الثاني ١٩٤٢م) صدرت الأحكام غيابياً على الذين كانوا خارج العراق[١] .

وعندما دخلت انكلترا إيران ألقت القبض على بعض زعماء العراق[٢] ، فحملتهم إلى بغداد غير أن الحكومة السابقة برئاسة جميل المدفعي قد رفضت استلامهم خوفاً عليهم من انتقام الوصي عبد الإله ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لذا اضطرت انكلترا لنقلهم إلى روديسيا وعدّتهم أسرى حرب . وهناك أبلغتهم الحكومة البريطانية بالأحكام التي صدرت ضدّهم . فلما سقطت حكومة جميل المدفعي ، وجاءت حكومة نوري السعيد وافقت على استلامهم ، وحاكمتهم مجدداً أمام المجلس العرفي ، وفي ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٢هـ (٤ أيار ١٩٤٢م) صدرت أحكام المجلس[٣] .

ثم أصدر المجلس أحكاماً في ٢٧ شعبان ١٣٦٣هـ (١٦ آب ١٩٤٤م)

---

(١) صدر الحكم بالإعدام غيابياً على : رشيد عالي الكيلاني ، وعلي محمود الشيخ ، ويونس السبعاوي ، والفريق أمين زكي ، والعقيد صلاح الدين الصباغ ، والعقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان . ثم أُبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة على الفريق أمين زكي .

وحكم على ناجي شوكت بالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة .

وعلى صديق شنشل بالسجن لمدة خمس سنواتٍ .

وعلى محمد حسن سلمان بالسجن لمدة سنةٍ واحدةٍ .

(٢) كان منهم علي محمود الشيخ علي ، ويونس السبعاوي ، والفريق أمين زكي ، والعقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان ، ومحمد صديق شنشل .

(٣) صدر الحكم بالإعدام شنقاً على العقيد فهمي سعيد ، والعقيد محمود سلمان ، ويونس السبعاوي .

وحكم على علي محمود الشيخ علي بالسجن الشديد لمدة سبع سنوات ، وصدر الحكم بحق الفريق أمين زكي بالسجن الشديد لمدة خمس سنوات . أما محمد صديق شنشل فقد بُرِّئت ساحته .

بحق مجموعةٍ جديدةٍ[1] .

وفي ٢٨ شوال ١٣٦٠هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٤١م) قطعت حكومة نوري السعيد علاقتها مع حكومة فيشي الفرنسية ، ومع الحكومة اليابانية لأنه قد سبق لهما أن اعترفتا بحكومة رشيد عالي الكيلاني .

ومع ظروف الحرب أخذت الأسعار ترتفع ، والمواد الأساسية تقلّ من الأسواق وخاصةً عندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اليابان في ٢٠ ذي القعدة ١٣٦٠هـ (٨ كانون الأول ١٩٤١م) . وزاد الأمر سوءاً أن التجار وخاصةً اليهود الذين يُشكّلون نسبةً كبيرةً من هؤلاء التجار قد امتنعوا من بيع البضائع التي عندهم أملاً في ارتفاع الأسعار بنسبةٍ أكبر مع أنها قد وصلت إلى عشرة أمثالها عما كانت عليه قبل مدةٍ وجيزةٍ .

ومع هذه الضائقة التي تعرّضت لها البلاد فإن قائمة الاعتقال تتلو القائمة لمن أيّدوا حركة رشيد عالي الكيلاني ، وهذا ما يزيد من الضائقة ، كما أن رئس الحكومة يُبدي صراحةً خضوعه للسلطات البريطانية فيزيد ألم المواطنين ، حتى الوزراء الذين كانوا بجانب رئيسهم في بداية الأمر إلا أنهم في النهاية أخذوا يتخلّون عنه ، ويتقدّمون باستقالاتهم ، وتجري التعديلات الوزارية ، ويبدأ الخلاف من جديد ، وأخيراً اضطر رئيس الوزراء إلى تقديم استقالة حكومته في ٢٣ رمضان ١٣٦١هـ (٤ تشرين الأول ١٩٤٢م)، فعهد

---

(١) أصدر المجلس العرفي الحكم بالإعدام على العقيد كامل شبيب ونُفِّذ به مباشرة ، وبالسجن الشديد على محمد علي محمود ، وموسى الشابندر لمدة سنتين . وبالسجن مدة ثلاث سنوات على الشريف شرف ، ولمدة سنتين على عبد الرؤوف البحراني ، ولمدة ثلاثة أشهر على عبد القادر الكيلاني .

أما العقيد صلاح الدين الصباغ فكان قد فرّ إلى إيران ، ثم هرب إلى تركيا حيث عُدّ لاجئاً سياسياً فيها ، وقد رفضت تركيا تسليمه إلى الحكومة العراقية ، ومكث هناك ثلاث سنوات سجّل فيها مذكراته ، وعندما انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وقوي نفوذ إنكلترا ، فزاد ضغطها على تركيا ، فسلّمت صلاح الدين الصباغ إلى السلطات البريطانية في سوريا ، غير أنه استطاع أن يهرب بعد أيام ، ولكن أُلقي القبض عليه ، وأرسل إلى بغداد حيث نُفِّذ فيه حكم الإعدام شنقاً بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٣٦٤هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٤٥م) .

إليه الوصي بتشكيل الحكومة من جديد .

شكّل نوري السعيد وزارته السابعة[1] في ٢٧ رمضان ١٣٦١هـ (٨ تشرين الأول ١٩٤٢م).

إعلان الحرب على دول المحور : طلب نوري السعيد من بعض النواب أن يتقدّموا بطلب إلى رئيس المجلس لانضمام العراق إلى مبادىء ميثاق الأطلسي ، ففعلوا . وأُحيل الموضوع إلى الحكومة ، فقدّمت مذكرةً في ٥ محرم ١٣٦٢هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٣م) قررت الحكومة اعتبار العراق في حالة حرب مع دول المحور الثلاث . وصدر مرسوم ملكي بعد خمسة أيام بهذا .

ونشطت السفارة الإنكليزية في بغداد ، وشكّلت جمعيات لإظهار نوايا الحلفاء ، ومحاربة أعدائهم من المواطنين ومن هذه الجمعيات : مكاتب الإرشاد ، وإخوان الحرية ، وأخوات الحرية . وكان هناك ضباط بريطانيون أُطلق عليهم اسم « ضباط ارتباط » لهم مهمات خاصة .

واستمرت اعتقالات المواطنين ، وكانت السفارة البريطانية تتدخّل في كل أمر ، وتُقدّم قوائم بأسماء الذين يجب اعتقالهم ، وتقوم الحكومة بالتنفيذ .

وفي ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٦٢هـ (٢٣ حزيران ١٩٤٣م) جرى تعديل في الوزارة فأصبحت على النحو الآتي :

١ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للمعارف

٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية

٣ ـ تحسين العسكري : وزيراً للأشغال

---

(١) كان تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للخارجية .

٣ ـ تحسين العسكري : وزيراً للداخلية .

٤ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية .

٥ ـ داود الحيدري : وزيراً للعدلية .

٦ ـ عبد المهدي : وزيراً للمواصلات والأشغال.

٧ ـ تحسين علي : وزيراً للمعارف .

٨ ـ عبد المحسن شلاش: وزيراً للاقتصاد .

٩ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

٤ ـ جلال بابان : وزيراً للمالية
٥ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية
٦ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للخارجية
٧ ـ تحسين علي : عُيِّن رئيساً للديوان الملكي .
٨ ـ داود الحيدري : نقل إلى السلك الخارجي .

وفي هذه الآونة بدأ العمل لتأسيس جامعة الدول العربية ، مع أن أكثر هذه الدول كان لا يزال تحت الانتداب أو مرتبطاً بمعاهدات مع الدول الاستعمارية .

أخذ الوزراء بتقديم استقالاتهم نتيجة تصرّف رئيس الوزراء ، فاستقال وزير الخارجية نصرت الفارسي لعدم استشارته في القضايا التي تتعلق بشؤون وزارته ، وقام بها رئيس الوزراء نفسه . واستقال وزير الداخلية صالح جبر لتوسطه لأحد اليهود فأشاع متصرف لواء الحلة عبد الهادي الظاهر القضية ، واستقال وزير المالية جلال بابان للقضايا التموينية ، وسُوِّيت الوزارة ببعض التعديلات حيث عين مُتصرّف لواء الديوانية عبد الله القصاب وزيراً للداخلية ، وأسندت وزارة الخارجية إلى تحسين العسكري وزير المواصلات والأشغال . ووزارة المالية بالوكالة إلى عبد الله الحافظ وزير المعارف . وأخيراً اضطر نوري السعيد إلى تقديم استقالة حكومته في ٢١ ذي الحجة ١٣٦٢هـ (١٩ كانون الأول ١٩٤٣م) ، ولكن الوصي عهد إليه أيضاً بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[١] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ توفيق السويدي : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ محمود صبحي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٦ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٧ ـ صادق البصام: وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للمعارف .
٩ ـ سليمان البراك : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ محمد حسن كبه: وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١١ ـ ماجد مصطفى : وزيراً دون وزارة . =

حركة مصطفى البارزاني : وهو أخو أحمد البارزاني الذي قام بحركةٍ سابقةٍ قبيل الاستقلال ، واستسلم في شهر محرم ١٣٥١هـ (منتصف حزيران ١٩٣٢م) ، واستغلّ الملا مصطفى البارزاني الظروف وقام بحركةٍ ثم استسلم في ١٢ محرم ١٣٦٣هـ (٧ كانون الثاني ١٩٤٤م) .

إضعاف الجيش : كان الوصي يعتقد أن الجيش العراقي لم يكن موالياً إليه تماماً ، إذ لا تزال فيه بعض العناصر غير المؤيدة ، وكذلك كان نوري السعيد يظنّ ، فيقول إن الجيش لم يُنظّف بعد، ولذا فقد عمل على تسريح أعدادٍ من الضباط بل وصل الأمر إلى الجنود ، وأوقف التجنيد الإلزامي من بعض الجهات ، ويبدو أن انكلترا كانت من وراء هذا كله حتى أخذت بعض المعامل التي كانت قد وجدت للذخيرة بحجة دعم المجهود الحربي ، وربما كانت تخشى من قوة الجيش بعد الانتهاء من الحرب وإلغاء الأحكام العرفية السائدة .

وأخيراً اشتدّت المعارضة على الحكومة ، ويبدو أن الوصي كان من ورائها ، وقدّم رئيس الوزراء استقالة حكومته في ٢٦ ربيع الثاني ١٣٦٣هـ (١٩ نيسان ١٩٤٤م) ، ولكن لم يهتم الوصي بالكتاب من باب الاستهانة ، واضطر نوري السعيد أن يعيد كتاب استقالته مرة أخرى في الأول من جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ (٢٣ أيار ١٩٤٤م) ، فوجد الكتاب ما وجد سابقه من الإهمال ، ولكن عاد الوصي وأجاب على الكتاب الأول ، وقبل الاستقالة ، وعهد إلى حمدي الباجه جي بتأليف حكومةٍ جديدةٍ[1] فألّفها في اليوم نفسه في

= ولكن لم يلبث أن استقال توفيق السويدي من منصبه كنائب لرئيس الوزراء لأن ذلك كان على غير رغبة الوصي الذي كان في نفسه شيء منه إذ لم يلحق به إلى البصرة عندما فرّ الوصي إليها وذلك لتشكيل حكومة هناك ، وكان توفيق السويدي قد حاول ذلك ولكنه فشل .

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ حمدي الباجه جي : رئيساً للوزراء .

٢ ـ أرشد العمري : وزيراً للخارجية ، وزيراً للتموين بالوكالة .

٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .

٤ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية . =

١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ (٣ حزيران ١٩٤٤م) .

ولكن هذه الوزارة لم يطل عمرها في الحكم ، وذلك لأن الحكومة البريطانية كانت تريد إنقاص الجيش العراقي الذي كان يتألّف من أربع فرق ، وتريد إبقاءه فرقتين : فرقة جاهزة والأخرى تحت التدريب ، وقد أرسلت الجنرال (رنتن) لهذه الغاية ، ويترتب على ذلك عدم إمكانية تطبيق قانون الخدمة الإلزامية ، وعدم خضوع العشائر لهذا القانون . وقد قابل الجنرال (رنتن) وزير الدفاع تحسين علي ، وقدّم له مذكرةً بذلك ، فأحال الوزير المذكرة إلى مجلس الدفاع الأعلى لدراستها ، وبعد الدراسة وجد مجلس الدفاع أن من المصلحة عدم إنقاص عدد القوات المسلحة ، وتبنّى الوزير هذا الرأي ، غير أن بعض الوزراء قد اعترضوا على ذلك . وعدّ الجنرال البريطاني ذلك تحدياً له ولدولته ورفع الأمر إلى الجهات العليا . وعُقد لقاء بحضور الوصي ، ووزير الدفاع ، والفريق (إسماعيل نامق) وكيل رئيس الأركان ، والعميد إسماعيل صفوت مدير الحركة ، والمقدم رفيق عارف والجنرال البريطاني (رنتن) وبعد عدة اجتماعات تقرر أن يكون الجيش ثلاث فرق ، فرقتين جاهزتين وفرقة تحت التدريب . وعند التنفيذ أصبح أربعمائة ضابط من مختلف الرتب خارج الملاك ، ويجب إحالتهم على التقاعد ، ولكن الوزير احتفظ بهم ، وتساءل بعض الوزراء عن سبب هذا الاحتفاظ فوقع الخلاف ، وقدّم وزير الدفاع استقالته . ولكن صدر أمر ملكي بتعيينه وزيراً للأشغال والمواصلات ، فرفض ذلك . . . .

وطلب منه تقديم استقالته من وزارة الأشغال والمواصلات فرفض إلا أن تكون من وزارة الدفاع ، أو يستقيل الوزراء الثلاثة[1] الذين ادعوا أنه لا يتفق

= ٥ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٦ ـ تحسين علي : وزيراً للدفاع .
٧ ـ عبد الأمير الأزري : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٨ ـ إبراهيم عاكف : وزيراً للمعارف .
٩ ـ توفيق وهبي : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

(١) الوزراء هم : أرشد العمري ، مصطفى العمري ، صالح جبر .

معهم . وعندها اضطر حمدي الباجه جي إلى تقديم استقالته لإمكانية إبعاد تحسين علي عن الوزارة .

وعهد الوصي إلى حمدي الباجه جي مرةً ثانيةً بتشكيل الحكومة في ٩ رمضان ١٣٦٣هـ (٢٩ آب ١٩٤٤م) فشكّلها في اليوم نفسه[١] ، وهكذا يبدو تدخّل الحكومة البريطانية علناً في شؤون العراق بل في أهم قضايا البلاد والتي يجب أن تكون خاصةً جداً ، ولا تمتد إليها يد غير عراقية ، وهي الجيش ، وقد جاء الجنرال (رنتن) ليفتش قطعات الجيش العراقي كلها . ويمكن أن تعطي هذه الحادثة مدى الهيمنة التي كانت لانكلترا على العراق ، ورجالاتها ، وجيشها .

ولم تكن هناك من قضيةٍ تُشغل السلطة ، فإن كانت أحداث الحرب العالمية الثانية تشغل حيزاً إلا أن ما بقي من وقت فراغ جعل الحكومة تشغل نفسها بها ، وكانت رئاسة المجلس النيابي قد استحوذت وقتاً ليس بالقصير . لقد فاز محمد رضا الشبيبي برئاسة المجلس في الانتخابات التي جرت في ٤ ذي الحجة ١٣٦٢هـ(الأول من كانون الأول ١٩٤٣م) غير أنه اتهم بالانحياز للمعارضة بصفته واحداً منها، فلما كانت انتخابات ١٧ ذي الحجة ١٣٦٣هـ (٢ كانون الأول ١٩٤٤م)، رشّحت الحكومة سليمان البراك لرئاسة المجلس ، ورشّحت المعارضة محمد رضا الشبيبي ، ففاز مرشح المعارضة رغم أن لعبةً قد جرت في الانتخابات ، واكتشفت عن طريق الأوراق . وحدثت لذلك ضجة

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي ، ولم يخرج من أعضاء الوزارة السابقة سوى تحسين علي .

١ ـ حمدي الباجه جي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ أرشد العمري : وزيراً للخارجية، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٣ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٤ ـ عبد الأمير الأزري : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٥ ـ توفيق وهبي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٧ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .
٨ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٩ ـ إبراهيم عاكف : وزيراً للمعارف .

انتهت بتخلّي محمد رضا الشبيبي عن رئاسة المجلس . وجرى انتخاب جديد فاز به وزير الشؤون الاجتماعية محمد حسن كبه، وهذا ما اقتضى تعيين خلفاً له، فصدر أمر ملكي ٥ محرم ١٣٦٤هـ (٢٠ كانون الأول ١٩٤٤م) بتعيين عبد المجيد علاوي وزيراً للشؤون الاجتماعية ، كما عُيّن إسماعيل نامق وزيراً للدفاع . كما سبق أن عُيّن في ٣ ذي الحجة ١٣٦٣هـ (١٨ تشرين الثاني ١٩٤٤م) يوسف غنيمة وزيراً للتموين .

ودعيت العراق لحضور « مؤتمر الأمم المتحدة » في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية في ١٤ جمادى الأولى ١٣٦٤هـ (٢٦ نيسان ١٩٤٥م)[١] .

الحركة الكردية البارزانية : بعد إجبار أحمد البارزاني على وضع السلاح عام ١٣٥١هـ فرّ مع أخويه ، ومائة من أتباعه إلى تركيا . وبعد مدة قامت مباحثات بين تركيا والعراق انتهت بتسليم الفارين إلى العراق بعد صدور العفو العام عنهم ، فألزمتهم العراق على الإقامة في الموصل ثم نقلتهم إلى الناصرية ، فالديوانية ، فالحلة ، فكركوك ، وأخيراً استقرّوا في السليمانية ، وكانت تعطيهم بعض المخصصات ، غير أن ارتفاع أسعار الحاجيات أثناء الحرب العالمية الثانية جعل الحاجة قائمة لديهم إذ لم تعد تكفيهم المخصصات السابقة ، فرفع مصطفى البارزاني عدة شكاوى ، وقدّم عدة مطالب فلم يُنتبه إليه ففرّ إلى بارزان مع ثلاثة من أتباعه في رجب ١٣٦٢هـ (تموز ١٩٤٣م) وكتب إلى الحكومة العراقية أنه مطيع ، وليس بعاصٍ ، ولكن ضيق ذات اليد ، وعدم سماع شكواه هما اللذان دفعاه إلى الخروج إلى بلده .

ولكن الحكومة لم تعمد إلى دراسة رسالته وإنما طلبت من قوات الأمن

---

(٢) تشكل الوفد العراقي من : أرشد العمري وزير الخارجية رئيساً وعضوية كل من : نوري السعيد من مجلس الأعيان ، وتوفيق السويدي ، ونصرت الفارسي من مجلس النواب ، وعلي جودت الأيوبي وزير العراق المفوض في واشنطن ، ومحمد فاضل الجمالي مدير الخارجية العام .

ملاحقته ، ولما وجد ذلك انضمّ إلى العصابات التي تقوم بقطع الطرق هناك، ولم تلبث أن قويت شوكته بسيطرته على بعض المخافر وأخذ الأسلحة من أفرادها . ولما كانت الحرب العالمية مشتعلة وليس من الحكمة الانشغال في حركاتٍ جانبية لذا فإن السفير الإنكليزي قد بعث إليه رسالة يطلب منه الهدوء ، والعمل على التفاهم مع الحكومة ، وإن هذه الحركة لتعدّ ضدّ انكلترا أكثر من أن تكون ضدّ العراق. وكان نوري السعيد قد شكّل حكومته الثامنة وضمت ثلاثة وزراء من الأكراد ، وهم : عمر نظمي ، وأحمد مختار بابان ، وماجد مصطفى . وعهد إلى الأخير بالاتصال بمصطفى البارزاني الذي أوقف القتال بناءً على رسالة السفير الإنكليزي ، وكتب بشروطه لإلقاء السلاح وهي :

١ ـ عزل أو نقل الموظفين الذين عرفوا بأخذ الرشوة .

٢ ـ تشكيل ولاية كردية ممتازة من ألوية : السليمانية ، واربيل ، وكركوك، ومن أقضية لواء الموصل الكردية وهي : داهوك ، وزاخو ، والعمادية ، وعقرة ، وشيخان ، وسنجار .

٣ ـ اعتبار اللغة الكردية لغةً رسميةً .

٤ ـ تعيين معاون وزير كردي في كل وزارة من وزارات الدولة .

٥ ـ تعيين وزير كردي يكون مسؤولاً عن ولاية كردستان .

وسافر ماجد مصطفى إلى المنطقة الكردية ، واتصل بمصطفى البارزاني ، ورجع ، وقدّم تقريراً إلى رئيس الحكومة عرض فيه بعض المقترحات ومنها :

١ ـ إطلاق سراح المبعدين من رؤساء بارزان .

٢ ـ إعادة تأسيس الإدارة في المناطق التي شملها العصيان ، وإرسال موظفين أصحاب إمكانات معينة .

٣ ـ الإنفاق بسخاء لمدّ شبكة هاتفية جيدة في المنطقة .

٤ ـ الايعاز لمصطفى البارزاني للقدوم إلى بغداد .

وشكّل رئيس الحكومة لجنة لدراسة مقترحات الوزير ماجد مصطفى . فوافقت اللجنة على هذه المقترحات وأضافت إليها ضرورة إعادة مصطفى البارزاني للأسلحة التي استولى عليها من جنود الحكومة في المخافر وغيرها .

وجاء مصطفى البارزاني مع مجموعةٍ من أعوانه إلى بغداد في ٨ صفر ١٣٦٣هـ (٢٢ شباط ١٩٤٤م) ، وقابل الوصي ، وصدر بيان حكومي بذلك عدّ مصطفى البارزاني نادماً على ما فعل ، وجاء مسترحماً معلناً الطاعة .

وطلب مصطفى البارزاني السماح له بالعودة إلى (بارزان) لجمع الأسلحة حسب قرارات اللجنة الوزارية التي قضت بذلك ، كما قضت أن يُقيم في (بيران) ، وأن يُبعد عن (بارزان) فوافقت الحكومة على طلبه ، وانطلق يتجول في المنطقة ، ويتصل بزعمائها . فارتابت الحكومة من فعله ، واتصلت بشقيقه أحمد البارزاني في بارزان، وطلبت منه تسليم الأسلحة، فأبى إذ داخله الشك من الإلحاح في الطلب ، وتوقّع الهجوم عليه ، فكيف يُسلّم سلاحه ؟ بل لماذا لا يبدأ بالهجوم ، والهجوم أحسن وسائل الدفاع .

أخذت المنظمات الكردية تتحرّك ، وبدأ حزب الأمل (هيوا) يتصل بالضباط الأكراد في الجيش ، ويدعونهم للانضمام إلى العمل من أجل الأكراد بإعلان العصيان والثورة ، وقد أثمرت الجهود ، واقتنع عدد من الضباط بمطالب الأكراد التي قدّمها مصطفى البارزاني .

أرسل السفير الإنكليزي مبعوثاً عنه إلى بارزان ، وحمّله رسالةً إلى مصطفى البارزاني ، وفيها :

١ - إن الجيش العراقي والجيش البريطاني سيقومان بتدريبات عسكرية جبلية قرب بارزان .

٢ - ليس في هذه الحركة أية صبغة سياسية ، لذا يجب ألا يكون هناك قلق أو شك عند البارزانيين .

٣ - ينصح السفير الإنكليزي بوجوب الطاعة والامتثال لأوامر الحكومة .

٤ ـ ويرى السفير أن يعود الضباط إلى أفواجهم .

فأجاب مصطفى البارزاني بما يأتي :

١ ـ نحن لا نتجاوز على جيش المسلمين ما لم يبدأ بضربنا .

٢ ـ يعود أمر رجوع الضباط إلى التسهيلات التي تتخذها وزارة الدفاع .

٣ ـ إن القلق وسوء الظن موجود عند الأكراد منذ حركة الفوج الرابع للاستطلاع بحجة التدريب .

إن مصطفى البارزاني ينتمي من حيث الأم إلى قبيلة شروان التي تُقيم في منطقةٍ قريبةٍ من منطقة بارزان التي يتزعمها أحمد ومصطفى ، وكان شيخ هذه القبيلة (أولوبك) خال مصطفى البارزاني في بلاد الأكراد فذهب إلى السوق للحصول على المواد التموينية ، فأراد رئيس مركز الشرطة تجريد البارزانيين من أسلحتهم فحدث خلاف دعا إلى صدام فقتل (أولوبك) ورئيس مركز الشرطة ، وبعض الأفراد ، واستولى البارزانيون على المركز ، ووصل الخبر إلى مصطفى البارزاني فأخذ يرسل البرقية إثر الأخرى إلى الحكومة يستنجد بها لتخفيف الضائقة عليه ، ووقف قصف الطيران للمنطقة و . . . .

قررت الحكومة في ٢٩ شعبان ١٣٦٤هـ (٨ آب ١٩٤٥م) احتلال المنطقة ، بعد أن فشل متصرف لواء اربيل سعيد القزاز بإقناع مصطفى البارزاني بالعدول عن رأيه .

أعلنت الحكومة الأحكام العرفية في المنطقة (قضاء الزيبار) ، ثم أخذت تتوسّع ساحة الأحكام العرفية ، وعينت مجلساً عرفياً[١] . واستطاعت الحكومة خلال شهرين السيطرة على المنطقة ، وفرّ أحمد البارزاني وشقيقه مصطفى إلى إيران . وقضت المحكمة العرفية المنعقدة في اربيل بالحكم

---

(١) تشكل المجلس العرفي من : العقيد عبد العزيز ياسين رئيساً ، والمقدم عبد الله رفعت حسن النعساني ، والرائد رحمة الله عبد الله الطالباني ، والقاضي خليل أمين المفتي ، والقاضي عبد الحميد مدحت أعضاء .

بالإعدام على خمسة وثلاثين رجلاً منهم أحمد البارزاني ، وشقيقه مصطفى ، وسبعة ضباط ، ومدرس ، ونائب عريف ، واثنين من الشرطة .

بعد الحرب العالمية الثانية : لقد عاش الناس إبان الحرب في ظلّ الأحكام العرفية ، وقد منعوا من أي نوعٍ من أنواع الحرية ، فالصحف ممنوع أكثرها ، وما يصدر منها فهو مُوجّه لا يستطيع نشر أي موضوع لا ترضى عنه السلطة وبالتالي الحكومة البريطانية ، واللقاءات والاجتماعات محظورة ، وكل لقاءٍ يتمّ لا بد من مُوافقة الدولة عليه ، ولو كان وليمةً ، وبالتالي فالأحزاب لا وجود لها ، وإن كانت الأفكار قائمة غير أنه لا يمكن البوح بها ، وربما كان شبه إجماع على تأييد الحلفاء من أصحاب الآراء المتباينة لأن الدول الكبرى كلها ضمن الحلفاء وهي التي لها أتباع ، فالشيوعية منها والرأسمالية تؤيدان السياسة البريطانية ما دامت روسيا وانكلترا والولايات المتحدة في صفٍ واحدٍ .

فلما انتهت الحرب تنفّس الناس الصعداء ، ووجد عندهم الأمل بإطلاق الحريات ، وخاصةً أن الحلفاء كان يصرّحون بهذا ، ووجدت انكلترا أن بقاء السجون تعجّ بنزلائها ، واستمرار إقامة معتقلات جديدة تتسع لمن يُلقى عليهم القبض يومياً لأقل تهمة بل لأدنى كلمة لا يقصد قائلها منها إلا المعنى القريب ، وأن تطبيق القوانين الاستثنائية ، ومراقبة البريد ، والهاتف ، والإشراف على الصحافة أمر صعب وقد ينشأ عن ذلك ردود فعلٍ، لذلك لا بدّ من التغيير ، وأوعزت انكلترا إلى رجالهابذلك ، وقد أعدّت بياناً بذلك ، وقام الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله بإلقائه في ٢٣ محرم ١٣٦٥هـ (٢٧ كانون أول ١٩٤٥م) ، ويشير إلى ما سيتمّ من أمور سياسية داخل العراق ، وكان يرى تبديل الوزارة ، وأشار إلى بعضهم أن ينصح حمدي الباجه جي بتقديم استقالة حكومته ، ففعلوا وقدّم رئيس الوزراء استقالة وزارته في ٢٥ صفر ١٣٦٥هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٦م) . إلا أن الوصي قد سافر إلى عمان ، وبذا تأجّل موضوع قبول الاستقالة ، وعندما عاد ، كلّف نوري السعيد بتشكيل وزارة جديدة غير أنه لم يُوفق ، فكلّف أرشد العمري

فأخفق ، فعهد إلى نصرت الفارسي فتردّد ، ثم كلّف توفيق السويدي فشكّل الوزارة في ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥هـ (٢٣ شباط ١٩٤٦م)[١] .

وفي الأول من جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٢ نيسان ١٩٤٦م) ، أعطت وزارة الداخلية ترخيصاً لخمسة أحزاب وهي : حزب الاستقلال ، وحزب الشعب ، وحزب الأحرار ، وحزب الاتحاد الوطني ، والحزب الوطني الديمقراطي . وفي الوقت نفسه رفضت طلباً تقدّم به الشيوعيون للحصول على ترخيصٍ لهم بتأسيس حزب سياسي باسم (حزب التحرر الوطني) .

وبعد مرور ست سنواتٍ من أيام الحرب ، والأحكام العرفية هي السائدة ، كانت المعارضة بحدود ، والخلافات الشخصية تكبح جماحها الظروف الراهنة ، فلما أُعطيت الحريات ، وتشكّلت الأحزاب ، انطلقت المعارضة ، بل أراد رجال الأحزاب أن يثبتوا مكانتهم ، ويبرهنوا على إمكاناتهم ، ليكون لهم دور في إدارة عجلة السلطة .

وبدأت المعارضة في مجلس الأعيان ، وفي مجلس النواب ، وظهرت الخلافات الشخصية ، وتعرّضت الوزارة لكثيرٍ من الهجوم بل إلى الاتهامات ، رغم أنها لا تزال في شهورها الأولى ، واضطّر توفيق السويدي إلى تقديم استقالة حكومته ، وحسب رأيه قد أدّى المهمة المناطة به وهي نقل البلاد من ظروف الأحكام العرفية إلى ظروف الحرية ، فقد سمح للصحف التي كانت ممنوعة بالصدور ، وإلى الأحزاب بالظهور ، وإلى الأفراد باللقاءات والنشاط .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ سعد صالح : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الوهاب محمود : وزيراً للمالية .
٤ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٦ ـ عبد الهادي الظاهر : وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للأشغال والمواصلات .
٨ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ إسماعيل نامق : وزيراً للدفاع .
١٠ ـ عبد الجبار الجلبي : وزيراً للتموين .

قدّم رئيس الحكومة توفيق السويدي استقالة وزارته في ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (٣٠ أيار ١٩٤٦م) . فعهد الوصي إلى أرشد العمري بتأليف وزارةٍ جديدةٍ فشكّلها في اليوم التالي : ٢ رجب ١٣٦٥هـ (١ حزيران ١٩٤٦م)(١) . وقد ضبط الأمور بشكلٍ قوي ، وكان شديد المركزية إذ ربط به الأجهزة المختلفة للدولة ، وعاد إلى كبت الحريات ، وضغط على الأحزاب حتى كثرت الشكاوى .

وقامت مظاهرة يوم ٢٩ رجب ١٣٦٥هـ تأييداً لفلسطين فقمعتها الحكومة بالقوة ، ووقع بعض القتلى والجرحى ، واحتجّ حزب الاستقلال ، ثم التقى زعماء الأحزاب الخمسة، وقابلوا الأمير زيد وكيل الوصي ، واحتجّوا على ما حدث .

وتجمّع عمال النفط في كركوك في ١٤ شعبان ففرّقتهم الشرطة بالقوة ، بعد أن أضربوا يوم ٥ شعبان من أجل زيادة رواتبهم ، ووقع عدد من القتلى ، واحتجّت الأحزاب ثانية على هذه الطريقة في استعمال العنف مع المواطنين ، وأخذت صحف الأحزاب تهاجم الحكومة . وحتى في انكلترا هاجمت الصحف البريطانية هذا التصرّف ، وأوضحت أن مقاومة الشيوعية لا تكون بالشدّة ، وإنما بتحسين أوضاعهم كي يتركوا الأفكار الفوضوية التي يحملونها .

واستقال وزير الداخلية عبد الله القصاب فجرى تعديل وزاري(٢) في

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أرشد العمري : رئيساً للوزراء .
٢ ـ عبد الله القصاب : وزيراً للداخلية .
٣ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .
٤ ـ سعيد حقي : وزيراً للدفاع .
٥ ـ نوري القاضي : وزيراً للمعارف .
٦ ـ فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .
٨ ـ عبد الهادي الجلبي : وزيراً للأشغال والمواصلات
٩ ـ بابا علي الشيخ محمود: وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ عبد الهادي الباجه جي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

(٢) كلّف رئيس الوزراء أرشد العمري بوزارة الداخلية . وعين عبد الإله حافظ وزيراً للتموين .

٢٩ رمضـان ١٣٦٥هـ (٢٦ آب ١٩٤٦م) ، ولكن ذلـك لم يُغن شيئـاً ، واشتدّت المعارضة ، فطلب رئيس الحكومة من الوصي إصدار قانون الطوارىء غير أن الوصي لم يقبـل ذلك لأن الـظروف لم تكن مواتيـةً ، فاضـطرّ أرشد العمري إلى تقديم استقالة حكومته في ١٥ ذي القعدة ١٣٦٥هـ (١٠ تشرين أول ١٩٤٦م) ، ولكن مرّ أكثر من شهرٍ ، ولم يتخذ الوصي أي إجراءٍ ، وهذا ما أجبر أرشد العمري على إعادة تقديم الاستقالة في ١٩ ذي الحجة ١٣٦٥هـ (١٤ تشرين الثاني ١٩٤٦م) فقبل الوصي الاستقالة ، ولكن طلب استمرار الحكومة في عملها ريثما تتألف حكومـة جديـدة ، وعهد الـوصي إلى حمدي الباجه جي بتشكيل الوزارة ، فأخفق ، واضطر إلى الاعتذار ، كما فشل أرشد العمري في تشكيل وزارةٍ ثانيةٍ ، وأصرّت بعدها السفارة البريطانية في بغداد على تكليف نوري السعيد بالوزارة الجديـدة فشكّلها[1] في ٢٧ ذي الحجـة ١٣٦٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦م) . وقد أراد نوري السعيد أن تكون وزارته ائتلافيةً يشترك فيها الأحزاب ، فاشترك الحزب الوطني الديمقراطي ، وتسلّم حقيبة وزارة التموين التي أسندت إلى محمد حديد ، على حين مثل علي ممتاز حزب الأحرار ، وأسندت إليه وزارة الأشغال والمواصلات ، وقد اشترك الحزبان بشرط إطلاق الحريات .

كانت الوزارة انتقـاليةً مهمتهـا إجراء الانتخـابات ، وقـد صدر أمـر ملكي ، وأخذت الاستعدادت تجري لإجراء عمليـة الانتخابـات ، وتُفاجـأ الأحزاب بعدم السماح لها بافتتاح فروع لها ، وبتدخّل الحكومة بالانتخابات .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للمالية .
٣ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ صادق البصام : وزيراً للمعارف .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري: وزيراً للأشغال والمواصلات.
٦ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ بابا علي الشيخ محمود : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للشؤون الاجتماعية :
٩ ـ محمد حديد : وزيراً للتموين .
١٠ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .

فانسحب ممثلا حزبي الوطني الديمقراطي ، والأحرار من الوزارة[1] ، واتهما بعض الوزراء ببقائهما بالوزارة لاستغلال منصبيهما فاضطرا إلى تقديم استقالتهما وهما : صالح جبر وزير المالية ، وصادق البصام وزير المعارف[2] . وقاطع حزب الأحرار الانتخابات ، ولم يفز أحد عن الأحزاب إلا ما حصل عليه الحزب الوطني الديمقراطي من فوزه بأربعة مقاعد، ولكنه قرّر الانسحاب من المجلس النيابي ، غير أن نائباً قد وافق على الانسحاب من المجلس[3] ، على حين أن الثلاثة الباقين من النواب قد تركوا الحزب ، وأعلنوا الانسحاب منه مفضلين نيابتهم عليه[4] .

قدمت الأحزاب طعوناً في الانتخابات ، ولكن لم يُؤدِّ ذلك إلى نتيجة ، واجتمع مجلس الأمة في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (١٧ آذار ١٩٤٧م) .

عدّ رئيس الحكومة مهمة وزارته قد انتهت فقدّم استقالتها في ١٨ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ . وعهد الوصي إلى صالح جبر في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (٢٩ آذار ١٩٤٧م) بتشكيل الوزارة الجديدة[5] . وأبرز ما قامت به هذه

---

(١) عيّن عبد الإله حافظ وزيراً للتموين ، وعبد الهادي الجلبي وزيراً للمواصلات والأشغال مكان الوزيرين المستقيلين .

(٢) أسندت وزارة المالية إلى وزير التموين عبد الإله الحافظ ، وأسندت وزارة المعارف إلى وزير الشؤون الاجتماعية جميل عبد الوهاب . (٣) هو النائب حسين جميل .

(٤) النواب هم : عبد الهادي البجاري ، جعفر البدر ، عبد الجبار الملاك .

(٥) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ صالح جبر : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ يوسف غنيمة : وزيراً للمالية .
٣ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية ، وزيراً للاقتصاد بالوكالة .
٥ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للتموين .
٦ ـ ضياء جعفر : وزيراً للمواصلات والأشغال.
٧ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٨ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٩ ـ توفيق وهبي : وزيراً للمعارف .

الحكومة تأسيس المجمع العلمي العراقي ، وتعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية .

الحركة الكردية : دخلت جيوش الحلفاء إيران أيام الحرب العالمية الثانية ، وكان دخول جيوش روسيا من الشمال بطبيعة الحال ، فكانت المنطقة الكردية من بين المناطق التي سيطر عليها الروس ، فتوطدت العلاقة بين الطرفين بسياسة من الروس ، حيث أن المناطق التي يسيطر عليها الروس فيما وراء القوقاز تضمّ أعداداً من الأكراد ، فأوحى الروس إليهم بضرورة التحرك لإقامة دولةٍ كرديةٍ .

فلما انتهت الحرب العالمية الثانية أقام الأكراد حكومةً كرديةً برئاسة محمد القاضي ، وكانت قاعدتها مدينة (مهاباد) وذلك بمساعدة الروس . وانضمّ إليها البارزانيون الذين كانوا قد فرّوا إلى إيران بعد أن سحق الجيش العراقي حركتهم التي قامت قبل سنوات ، وإن كان عددهم لا يصل إلى الألفين .

ولما انسحب الحلفاء من إيران ، ومنهم الروس، تحرّك الجيش الإيراني إلى قاعدة الحكومة الكردية (مهاباد) ، ودخلها في ٢١ محرم ١٣٦٦هـ (١٥ كانون الأول ١٩٤٦م) ، وألقي القبض على قادتها ، حيث أُعدموا[1] في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (٢١ آذار ١٩٤٧م) .

أما الأكراد العراقيون (البارزانيون) فقد أُحضر قادتهم إلى طهران ، وأُعطوا الخيار بين العودة إلى العراق وبين أخذ الجنسية الإيرانية بشرط الانصراف إلى الأعمال الزراعية في الأرض التي ستُقدّمها الدولة لهم . ففضّلوا العودة إلى العراق ، ورجع الملا أحمد البارزاني شقيق مصطفى إلى العراق في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ (١٧ نيسان ١٩٤٧م) ، فقبضت الحكومة

---

(١) أعدم رئيس الجمهورية الكردية محمد القاضي ، وأخوه صدر ، وابن عمه سيف ، وعدد من رؤساء الأكراد .

العراقية على الضباط منهم ، وهم الذين كانوا قد تركوا الجيش العراقي ، والتحقوا بالثورة الكردية ، وقد حُكم عليهم بالإعدام غيابياً ، فلما جاءوا الآن مستسلمين أُلقي القبض عليهم ، وقُدّموا إلى المحاكمة فأيّد القضاة الحكم السابق ، ونُفّذ فيهم الإعدام . وأما الملا مصطفى وبعض جماعته فقد رأوا الدفاع عن أنفسهم ، فاشترطوا على الحكومة العراقية الدخول بأسلحتهم ، فرفضت ذلك ، فتسلّلوا إلى مناطقهم ، فأعلنت الحكومة العراقية حالة الطوارىء في المناطق الشمالية ، وأرسلت القوات لمطاردتهم ، فهربوا إلى تركيا ، ومنها فرّوا إلى الأراضي التي يُسيطر عليها الروس فيما وراء القوقاز وقد قطعوا نهر (أراكس) سباحةً ، ومنح الروس الملا مصطفى رتبة فريق (ماريشال) ، وشكّلوا من جماعته قوةً عسكريةً غير نظامية ، وزوّدوهم بالأسلحة اللازمة .

المكاتب الإنكليزية : كان الإنكليز قد شكّلوا في العراق بعد دخولها إثر حركة رشيد عالي الكيلاني مكاتب أطلقوا عليها اسم (مكاتب الإرشاد) ، وتضمّ ضباط إنكليز مهمتهم الاتصال بالدوائر العراقية ، وأطلقوا عليهم ضباط الارتباط إضافةً إلى مُنصّرين ، وفتيات لنشر الفساد وكان الضباط يتحكّمون بشؤون العراق . وكانت ظروف الحرب ، والأحكام العرفية تُحتّم السكوت أو التغاضي عن ذلك فلما انتهت الحرب بدأ الهجوم على هذه المكاتب والمهمات التي تقوم بها ، ومنها السيطرة والتجسّس ، غير أن الحكومة العراقية قد أسكتت المعترضين ، وعرضت مبرراتٍ واهية إن لم نقل كاذبة . وسحب ترخيص حزب الشعب ، وترخيص حزب الاتحاد الوطني في ١٤ ذي القعدة ١٣٦٦هـ (٢٩ أيلول ١٩٤٧م) .

المعاهدة العراقية ـ الأردنية : عقدت معاهدة أردنية عراقية في ٢٠ رمضان ١٣٦٦هـ (٧ آب ١٩٤٧م) ، كان القصد منها الدفاع المشترك ، وكان القصد الإنكليزي منها إثارة الحكم السعودي والضغط عليه للحصول على بعض المنافع ، أو تمرير بعض المخططات .

ورأى العراقيون في المعاهدة مصلحة للأردن والعـراق كدعم لقضيـة فلسطين التي كانت تشغل المسلمين عامةً ، والأمصار المجاورة خاصةً . وقد وقف الشيوعيون في العراق موقفاً مؤيداً لليهود بكل صراحةٍ وأعلنوا ذلك في صحفهم ومنشوراتهم .

تعديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية : لم تنته مدة المعاهدة السابقة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ولكن بدأ التلميـح إليها من قبـل المعارضة ، وضرورة تعديلها ما دامت الظروف قد تغيّرت ، وانتهت الحرب العالمية الثانية ، وعندما شكّل صالح جبر الوزارة ، جعل من منهجها إعادة النظر في المعاهدة العراقية ـ البريطانية . وفعلاً عُرضت فكرة تعديل المعاهدة على الساسة الإنكليز ، وجرت محادثات في ١٥ و١٦ جمادى الآخرة ١٣٦٦هـ (٧ و ٨ أيار ١٩٤٧م) ثم توقّفت .

وسافر الوصي عبد الإله إلى لندن في ٢٦ شعبان ١٣٦٦هـ (١٥ تموز ١٩٤٧م) ، والتقى بوزير الخارجية الـبريطانيـة وفاتحـه في موضـوع تعديـل المعاهدة ، وكان رأي وزير الخارجية البريطانية (بيفن) أن التعديل يجب :

١ ـ ألا يتطرّق إلى إلغاء القواعد العسكرية البريطانية في العراق أبداً .
٢ ـ أن يقرّ بقاء مطاري الحبانية والشعيبة بيد القوات الإنكليزية .
٣ ـ لا مانع من إشغال المطارين من قبل الإنكليز والعراقيين معاً .

وعندما رجع الوصي إلى العراق ، وتباحث مع رئيس الوزراء في موضوع الاتفاقية ، أراد صالح جبر أن يُهدّد بالاستقالة لعل الساسة البريطانيين ينزلون عن بعض تشدّدهم .

أما رأي الساسة العراقيين الخاصـة من وجهة النـظر الوطنيـة ، وهذا الرأي لا يصرّون عليه أمام الإنكليز ـ مع الأسف :

١ ـ عدم إبقاء قوات بريطانية وقت السلم في العراق .
٢ ـ تسلّم القوات العراقية للقاعدتين الجويتين (الحبانية ـ الشعيبة) .

٣ ـ تسليح الجيش العراقي .
٤ ـ إلغاء حصر استخدام الإخصائيين في الحكومة العراقية بالبريطانيين .
٥ ـ رفع قيود التمثيل السياسي .

اجتمع بعض العراقيين من أنصار الوصي والسلطة ، وتباحثوا في الاتفاقية ، وانتشر الخبر ، فقامت الأحزاب تُهاجم المعاهدة العراقية ـ البريطانية .

تشكّل الوفد العراقي للمفاوضات[١] ، وسافر إلى لندن في ٢٣ صفر ١٣٦٧هـ (٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) . وبدأت المفاوضات في اليوم التالي لوصول الوفد ، وانتهت في ٢٨ صفر ١٣٦٧هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٤٨م) ، ولم يتغير شيء من رأي الإنكليز ، ولم يتزحزحوا عن موقفهم ، ومشى معهم المفاوضون العراقيون . ووقعت المعاهدة في مدينة (بورتسموث) لذا فقد عُرفت باسمها ، وذلك بتاريخ ٤ ربيع الأول ١٣٦٧هـ(١٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) .

ووصلت أخبار المعاهدة إلى العراق ، ونشرت مسودتها ، فقامت الأحزاب السياسية تنتقدها ، وعدّتها أشدّ وطأةً على العراق من المعاهدة السابقة . وقام الطلاب بمظاهرات يوم ٨ ربيع الأول ، وفي اليوم التالي ٩ ربيع الأول ، ووقع أربعة قتلى ، وطلب رجال الأمن من نائب رئيس الوزراء جمال بابان وزير العدلية إعلان حالة الطوارىء في البلاد ، أو استدعاء الجيش للتدخل ، أو السماح باستعمال السلاح في الهواء ، أو فسح المجال للطلاب ، ولكنه رفض كل هذه الخيارات . وفي اليوم التالي عندما انطلق أهل القتلى لاستلام الجثث من المستشفى كانت سيارات الشرطة تلاحق الطلاب الذين ذهبوا مع أهل زملائهم .

---

(١) ضمّ الوفد : رئيس الحكومة صالح جبر ، ونوري السعيد ، وتوفيق السويدي من مجلس الأعيان ، ومحمد فاضل الجمالي وزير الخارجية ، وشاكر الوادي وزير الدفاع .

وألقى رئيس الوزراء صالح جبر باللائمة على نائبه وزير العدلية جمال بابان الذي قدّم استقالته يوم ١٥ ربيع الأول . وفي اليوم نفسه أصدر رئيس الوزراء بياناً إلى الشعب فيه تحذير ووعيد فعمّت المظاهرات في اليوم التـالي المدن العراقية . واستقال عدد من النواب ، ثم استقال رئيس المجلس النيابي عبد العزيز القصاب . واستقال من الحكومة وزير المالية يوسف غنيمة ، ووزير الشؤون الاجتماعية .

وأخيراً قدم رئيس الحكومة صالح جبر استقالة وزارته إلى الوصي في ١٦ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨م) . وعهد الوصي إلى محمد الصدر ، وخرجت مظاهرات تأييد له غير أنه اعتذر إذ رأى أن الظروف غير مناسبة لتسلّم هذه المهمة ، فعهد إلى أرشد العمري فأخفق في مهمته إذ خذله السياسيون ، ورؤساء الأحزاب الذين تداعوا إلى لقاءٍ وأصدروا البيان التالي :

(إن الأحزاب العراقية ترى من الضروري في هـذا الظرف العصيب أن تُستجاب رغبات الشعب ، وذلك بتحقيق المطالب التالية :

١ ـ إبطال معاهدة (بورتسموث) الجائرة وإعلان ذلك دون إبطاء .
٢ ـ إجـراء التحقيق الدقيق عن إطـلاق النار ضـدّ أبناء الشعب ، وتعيـين المسؤولين عنه .
٣ ـ حلّ المجلس النيابي القائم ، وإجراء انتخابات حرة .
٤ ـ احترام الحريات الدستورية .
٥ ـ إفساح المجال للنشاط الحزبي .
٦ ـ حلّ مُشكلة الغذاء بشكلٍ يُوفّر للشعب قوته .

بغداد ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٨م .

كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي .
محمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال .
سعد صالح رئيس حزب الأحرار .

وذهب رؤوساء الأحزاب العراقية ، ومعهم جعفر حمندي عضو الجبهة الدستورية البرلمانية إلى دار محمد الصدر لإقناعه بإعادة النظر في قراره . فوضع شروطه بانتقاء الرجال الذين يرضى عن سلوكهم ، وكان عبد العزيز القصاب يقوم بدور الوسيط بين الوصي ومحمد الصدر، وأخيراً ، عهد الوصي إلى محمد الصدر بتشكيل الوزارة في ١٨ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨م) ، فشكّلها في اليوم نفسه(١) .

بدأت الوزارة بتشكيل لجنة تحقيق بالمظاهرات التي تمت في شهر ربيع الأول أيام وزارة صالح جبر ، والمسؤول عن إطلاق النار ، ومسؤولية الحكومة في ذلك ، والواجب المترتب عليها .

وتدارست الحكومة في أول جلسة عقدتها معاهدة (بورتسموث) وملاحقها ، والكتب السرية المرفقة بها ، ووجدت أن هذه المعاهدة لا تحقق الغاية المرجوة منها ، وأنها غير صالحة لتوطيد العلاقة بين المملكتين لذا فالحكومة لا توافق عليها ، وكلفت وزير الخارجية إبلاغ هذا القرار إلى الحكومة البريطانية ، ولكن وزير العدلية عمر نظمي لم يوافق على قرار الحكومة بحجة أنها معاهدة دولية ، جرت مفاوضات رسمية بشأنها بين دولتين ، ووُقّعت رسمياً ، ثم تلغى بجرة قلم دون اكتراث لذا فقد قدم استقالته من الوزارة .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ محمد الصدر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ جميل المدفعي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ حمدي الباجه جي: وزيراً للخارجية .
٤ ـ أرشد العمري : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عمر نظمي : وزيراً للعدلية .
٦ ـ مصطفى العمري: وزيراً للاقتصاد .
٧ ـ محمد رضا الشبيبي: وزيراً للمعارف .
٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ صادق البصام : وزيراً للمالية .
١٠ ـ محمد مهدي كبه: وزيراً للتموين .
١١ ـ جلال بابان : وزيراً للمواصلات والأشغال.
١٢ ـ نصرت الفارسي : وزيراً للدولة .
١٣ ـ داود الحيدري : وزيراً للدولة .
١٤ ـ محمد الحبيب : وزيراً للدولة .

وأقدمت الحكومة على الخطوة الثالثة من مطالب الأحزاب ، فاستصدرت أمراً ملكياً بحل مجلس النواب في ١٢ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ (٢٢ شباط ١٩٤٨م) .

وأعادت النظر في كل القرارات التي اتخذتها الحكومة السابقة في تعطيل الصحف ، وإحالة أصحابها إلى المحاكم ، واعتقال عدد من الطالبات والطلاب . وقررت إعادة الصحف إلى الصدور ، ورفع الرقابة عن البريد ، وإطلاق سراح المعتقلين ، واستئناف الدراسة .

وعملت على استيراد ثلاثين ألف طن من القمح من مجلس الطعام الدولي .

وجرى تعديل وزاري نتيجة بعض الاستقالات والوفيات(١) .

قضية فلسطين : قبل أن تتحرك القوات العراقية إلى فلسطين قبيل ٧ رجب ١٣٦٧هـ (١٥ أيار ١٩٤٨م) أعلنت الأحكام العرفية في العراق ، وتحرّكت القوات بقيادة اللواء صالح صائب ، وكانت عبارة عن أربعة أفواج ويتراوح عدد أفرادها بين ١٠ ـ ١٢ ألف جندي ، ولم تكن مستعدةً ، ومجهزة تجهيزاً ضعيفاً. وتجمّعت في المفرق في الأردن ، ويقول الفريق نور الدين محمود قائد القوات العراقية في فلسطين أنه فتش القطعات فوجد الفوج الآلي غير مدربٍ أبداً بل إن معظم أفراده لم يرموا بأسلحتهم الخاصة بهم . وبالإضافة إلى ذلك علمت أن الفوج المذكور استلم مدافع الهاون في يوم حركته من بغداد ، ولا يعلم أحد في الفوج ولا بالقوة الآلية كلها كيفية استخدام هذه المدافع، وقد تركت في السيارات بانتظار قدوم الأفراد اللازمة لإدارتها من بغداد ، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ ثانيةٍ وجدت أفراد أسلحة المدرعات لم يُدرّبوا

---

(١) قدّم جميل المدفعي ، وعمر نظمي استقالتيهما . فأصبح نصرت الفارسي وزيراً للداخلية ، ونجيب الراوي وزيراً للعدلية ، وداود الحيدري وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وتوفي حمدي الباجه جي ، فتسلّم نصرت الفارسي وزارة الخارجية ، ومصطفى العمري وزارة الداخلية .

على أسلحتهم مطلقاً فاضطررت إلى الإبراق إلى وزارة الدفاع للموافقة على رمي بضعة طلقات بصورةٍ مستعجلةٍ ليعرفوا خواص أسلحتهم على الأقل .

ودخلت الجيوش العربية فلسطين يوم ٧ رجب ، وكان الجيش العراقي فيما عرف بالمثلث العربي (جنين ـ نابلس ـ طولكرم) ، وأبلى بلاء حسناً ، ولكن لم تكن هناك أوامر صريحة له بالتقدّم . وقرر مجلس الأمن إعلان هدنة بين الجيوش العربية واليهود ، فوافقت الحكومات ، وتردّدت العراق حتى هدّدت بقطع تموين جيشها . . . وتمت الهدنة وحدث ما هو معروف .

وانتقدت الأحزاب السياسية العراقية اعتراف الولايات المتحدة المباشر بدولة اليهود المغتصبة .

الانتخابات : وعند الشروع ، بالانتخابات وقعت أحداث دامية ، واستقال وزير التموين محمد مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال لتدخل الحكومة في الانتخابات ، وكانت استقالته في غرة رجب ، وأسندت حقيبة وزارة التموين إلى صادق البصام وزير المالية . ومن قبل استقال وزير الشؤون الاجتماعية داود الحيدري .

وانتهت الانتخابات في ٧ شعبان ١٣٦٧هـ (١٥ حزيران ١٩٤٨م) ، وفي اليوم التالي قدّم محمد الصدر استقالة حكومته، وكلف الوصي نصرت الفارسي ففشل ، وتوفيق السويدي فأخفق، وجميل المدفعي فلم ينجح ، وعهد إلى مزاحم الباجه جي فشكّل الحكومة[1] في ١٨ شعبان ١٣٦٧هـ (٢٦

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مزاحم الباجه جي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية بالوكالة .

٢ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للتموين بالوكالة .

٣ ـ مصطفى العمري : وزيراً للداخلية .

٤ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .

٥ ـ جلال بابان : وزيراً للمواصلات ، وزيراً للشؤون الاجتماعية بالوكالة .

٦ ـ صادق البصام : وزيراً للدفاع .

٧ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للاقتصاد .

٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .

حزيران ١٩٤٨م) .

كان اليهود في العراق حتى هذه المرحلة يُعاملون معاملة المواطنين ، ولهم الحقوق كاملةً ، وكان عدد منهم موظفين في وزارة المواصلات ، وظهر للحكومة العراقية أن بعض الأخبار أخذت تتسرّب إلى الأعداء ، فقررت الحكومة فصل الموظفين اليهود .

وجرى تعديل وزاري نتيجة استقالة وزير الدفاع صادق البصام ، فأُسندت حقيبة وزارة الدفاع بالوكالة إلى وزير المالية علي ممتاز الدفتري .

وجرى تبديل آخر(١) في ١٧ ذي الحجة ١٣٦٧هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٤٨م) تحت ضغط البلاط . وحدث هجوم على الوزارة ، وانتقاد واسع لتعيين شاكر الوادي وزيراً للدفاع ، وهو من أقطاب معاهدة (بورتسموث) .

قضية فلسطين : بعد أن دخلت الجيوش العربية فلسطين في ٧ رجب ١٣٦٧هـ (١٥ أيار ١٩٤٨م) ، وعُيِّن الأمير عبد الله بن الحسين قائداً أعلى للجيوش العربية ، والفريق نور الدين محمود من العراق قائداً عاماً ، ولكن رُفضت الخطة التي وضعت للقتال بعد أن نقلها (غلوب باشا) إلى انكلترا .

وفرضت الهدنة الأولى على الجيوش العربية في ٤ شعبان ١٣٦٧هـ (١١ حزيران ١٩٤٨م) .

واستؤنف القتال ثانية في ٣ رمضان ١٣٦٧هـ (٩ تموز ١٩٤٨م) ،

---

(١) صدر الأمر الملكي بتعيين :

١ ـ علي جودت الأيوبي : وزيراً للخارجية .
٢ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية .
٣ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٤ ـ محمد الحبيب الأمير : وزيراً للدولة .
٥ ـ مصطفى العمري : وزيراً للدولة .

ولكن عندما رجع مصطفى العمري من رحلته رفض منصبه الجديد ، وقدّم استقالته من الوزارة .

ولكن لم تمض عشرة أيام حتى فرض مجلس الأمن الهدنة ثانية على الدول العربية في ١٢ رمضان ١٣٦٧هـ (١٨ تموز ١٩٤٨م) ، وقد حاولت بعض الدول العربية رفض هذه الهدنة ومن بينها العراق ، واقترح رئيس الحكومة العراقية يومئذٍ مزاحم الباجه جي على الدول العربية الانسحاب من هيئة الأمم المتحدة احتجاجاً على هذا الفرض[1] . وجرت احتجاجات في العراق وانتقادات وقرر كل من الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الأحرار تجميد نشاطه .

وعندما حوصرت القوات المصرية في (الفالوجة) تقرر أن تقوم الجيوش العربية بعملٍ ما لاستعادة (الفالوجة) وانتقل رؤساء أركان الجيوش العربية من القاهرة إلى الزرقاء في الأردن حيث وضعوا الخطة هناك ، وقضت بإرسال لواء عراقي من منطقة نابلس إلى الخليل ، وإرسال فوجين من سوريا مجهزين تجهيزاً كاملاً ، إلى منطقة الخليل أيضاً لدعم اللواء العراقي عند القيام بالهجوم على (الفالوجة) عن طريق (بيت جبريل) لإنقاذ حامية (الفالوجة) ، ولكن (غلوب باشا) عندما اطلع على الخطة رغم موافقة الجميع عليها ، اعترض عليها ، ورفضها وهدّد ، وقال إن قواته في منطقة القدس ستحول دون مرور الجيش العراقي ، وهكذا فشلت الخطة ، وتحمّل الجيش المصري ما تحمّله .

وانطلقت المظاهرات في المدن العراقية تطالب بدعم القوات المصرية ، وكان أشدها ما وقع في بغداد في غرة ربيع الأول ١٣٦٨هـ (١ كانون الأول ١٩٤٨م) حيث وقعت صدامات بين الشرطة والمتظاهرين ، وجرح أكثر من مائتي رجل . واضطر مزاحم الباجه جي إلى تقديم استقالة حكومته في ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ (٦ كانون الثاني ١٩٤٩م) . فعهد الوصي إلى نوري السعيد بتشكيل الوزارة فشكّلها في اليوم نفسه[2] . وفي ١٨ جمادى الأولى ١٣٦٨هـ

---

(١) وافقت الدول العربية على قبول الهدنة عدا العراق وسوريا ، ولكن فرضت عليها .

(٢) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

(١٧ آذار ١٩٤٩م) صدر أمر ملكي بتعيين :
١ ـ عمر نظمي : وزير دولة ، نائباً لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ توفيق النائب : وزيراً للداخلية .

ومع عودة نوري السعيد إلى السلطة عادت العناصر الموالية لانكلترا ، وانتهت آثار الحركة التي أطاحت بحكومة صالح جبر قبل ما يقرب من السنة .

قضية فلسطين : كانت المهمة الأولى لتشكيل حكومة نوري السعيد صرف الجهد والإمكانية لقضية فلسطين . وقد بُحث مشروع لتشكيل لواء آلي لا تقلّ قوته عن فوجين من المشاة ، وكتيبتين من المدفعية مع القوات المعاونة لها لإرساله إلى الجبهة الجنوبية لمساعدة الجيش المصري ، وقد كلف جميل المدفعي بالقيام بجولةٍ في البلدان العربية لبحث دعم القضية الفلسطينية . ولكن يبدو أن الموضوع كان مناورةً .

وفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٢٥ نيسان ١٩٤٩م) انسحب الجيش العراقي من المثلث العربي (جنين ـ نابلس ـ طولكرم) بعد أن سُلّم المثلث للجيش الأردني ، ولكن لم يلبث أن سُلّم لليهود في ٢٢ رجب ١٣٦٨هـ (١٩ أيار ١٩٤٩م) . وعندما دخل الجيش العراقي حدود بلاده كانت النقمة عليه والوجوم في استقباله ، حيث خرج للجهاد ، وعاد منسحباً دون أن يُحقّق أية مهمةٍ خرج من أجلها .

= ١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ جلال بابان : وزيراً للأشغال والمواصلات.
٣ ـ عبد الإله حافظ : وزيراً للخارجية .
٤ ـ محمد حسن كبه : وزيراً للعدلية .
٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٧ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ بهاء الدين نوري : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ خليل إسماعيل : وزيراً للمالية .

العلاقة مع سوريا : كان النفوذ الإنكليزي قوياً في سوريا ، وإن كانت عناصره دون العناصر في العراق موالاة وارتباطاً ، وقد حدث انقلاب في سوريا في غرة جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٣٠ آذار ١٩٤٩م) بقيادة حسني الزعيم ، وبتدبير أمريكي لإحلال نفوذ الولايات المتحدة محل النفوذ الإنكليزي ، وأخذ اللعب يظهر بين النفوذين ، فالأمريكان يريدون الاحتفاظ بما حصلوا عليه بل يحاولون مدّ نفوذهم نحو العراق ركيزة الإنكليز ، والبريطانيون يعملون على استعادة مكانتهم وعودة نفوذهم إلى سوريا .

وفي ١١ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٩ نيسان ١٩٤٩م) أرسل وزير العراق المفوض بدمشق برقيةً إلى بغداد يُعلم حكومته أن حاكم سوريا الجديد حسني الزعيم قد طلب منه إبلاغ حكومته بضرورة عقد اتفاقية عسكرية دفاعية وبصورة مستعجلة بين سوريا والعراق ، وعند موافقة الحكومة العراقية فإنه سيرسل وفداً إلى بغداد لوضع أُسس الاتفاقية .

رحبت العراق بهذا العرض ، وأرسلت وفداً عسكرياً برئاسة العقيد الركن عبد المطلب الأمين في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ ، ولما وصل الوفد إلى دمشق قابل حسني الزعيم ، ثم التقى بالمسؤولين الذين اختارهم الحاكم السوري ، وقد شعر السوريون أن العراقيين صادقون في نواياهم ، جادون في عقد اتفاقيةٍ عسكريةٍ بين الدولتين ، وعندها بعث حسني الزعيم وفداً إلى العراق[1] في اليوم التالي مباشرةً (١٥ جمادى الآخرة) ، وقدّم الوفد السوري صورةً عن الاتفاقية العسكرية المقترحة ، وكان نصها كما يأتي :

القصد الأول قضية فلسطين ، والثاني صيانة الأمن الخارجي للبلدين تجاه أي اعتداءٍ كان ، وأينما كان مصدره .

١ ـ أن تشترك قوات البلدين فوراً بالأعمال الحربية التي قد تنشأ من عدوان اليهود .

---

(١) ضمّ الوفد : فريد زين الدين ، أسعد طلس ، العقيد توفيق بشور .

٢ ـ أن يتضامن البلدان ، وأن يتحالفا لصيانة أمنهما الخارجي تجاه أي اعتداءٍ كان .

٣ ـ أن تُوحّد القيادة لدى القتال ، وتكون بيد الطرف الذي يتعرّض للعدوان أولاً .

٤ ـ أن توجد هيئة أركان مُوحّدة بالسلم والحرب لتنسيق الخطط والبرامج وإعدادها للتنفيذ ، وأن تُهيّء ما يلزم لزيادة الانسجام في التعليم والتدريب والتسلح والتجهيز وغيره .

٥ ـ أن تزيد كل دولةٍ قوة جيشها زيادةً مطردةً سنةً فسنةً لا تقلّ عن حدٍّ أدنى يُعيّنه في كلا الطرفين .

٦ ـ أن تُقدّم إحدى البلدين للأخرى بناءً على طلبها كل مساعدةٍ عسكريةٍ ممكنةٍ ، ناظرةٍ في آنٍ واحدٍ لإمكاناتها وحاجة الطرف الآخر ، وأن تتبادلا الضباط والبعثات العسكرية .

٧ ـ التعاون لدفع أي عدوانٍ يهودي عن أي من قوات البلدان العربية ، أو عرب فلسطين .

٨ ـ يهمنا الحصول على السلاح والعتاد بأكبر قدرٍ ممكن ، مهما اختلفت أنواعه .

٩ ـ أن تعتبر هذه الاتفاقية متلائمة مع التزامات أي من الطرفين ، ومع إمكانية عقد ما يُشبهها مع البلدان العربية الأخرى .

١٠ ـ مدة الاتفاقية تُعيّن وتُحدّد .

ملاحظة عامة أساسية : موضوعات البحث هذه ينظر في تحويرها عند المذاكرة في أُسس المعاهدة .

واجتمع الوفد السوري برئيس الحكومة العراقية نوري السعيد في داره ١٧ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ وفي نهاية اللقاء أخبر نوري السعيد الوفد السوري بعدم إمكانية الدخول في الاتفاقات التي يراد عقدها الآن ما لم ترجع الحياة الدستورية إلى سوريا ، ولا بدّ من انتظار استقرار الأحوال في سوريا كي تتضح

سياستها الخارجية قبل أن نستطيع إبرام اتفاقية عسكرية بين العراق وسوريا ، وحتى دون أي طلبٍ يقع من سوريا لأننا نعتبر الخطر الصهيوني مُوجّهاً إلينا جميعاً .

ورجع الوفد إلى سوريا ، ولم يحقق شيئاً مما كان يريده .

وعُقد اجتماع في بغداد تحت إشراف الوصي الأمير عبد الإله ضمّ كلاً من : رئيس الحكومة نوري السعيد ، ونائب رئيس الحكومة عمر نـظمي ، ووزير الخارجية محمد فاضل الجمالي ، ووزير الدفاع شاكر الوادي ، ورئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان ، ورئيس أركان الجيش اللواء الركن صالح صائب الجبوري ، وتقرر في هذا الاجتماع أن يُسافر رئيس الوزراء على رأس وفدٍ مؤلفٍ من وزير الدفاع ، ورئيس الأركان ، وبعض الضباط إلى دمشق لمقابلة حاكم سوريا وإعلامه عن عدم وجود ضرورة لعقد اتفاقٍ عسكري بين العراق وسوريا . وبعدها أصبحت العلاقة بين العراق وسوريا تحمل الكثير من الشكوك والريبة .

وفي ٢٠ شوال ١٣٦٨هـ (١٤ آب ١٩٤٩م) وقع انقلاب في سوريا بقيـادة سامي الحنـاوي وقتل حسني الـزعيم ورئيس وزرائه محسن الـبرازي مُباشرةً ، وكان للعراق ضلع في هذه الحركة ، وانتقل العميد سامي الحناوي قائد الانقلاب إلى العراق ، وسافر معه الملحق العسكري العراقي في دمشق العقيد الركن عبد المطلب الأمين ، وعاد الحناوي في اليوم نفسه إلى دمشق ، وأرسلت العراق رئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابـان إلى دمشق لدراسـة إمكانية اتحاد بين العراق وسوريا .

وفي ٢٨ صفر ١٣٦٩هـ (١٩ كانون الأول ١٩٤٩م) حدث انقلاب ثـالث بقيادة فـوزي سلو ، وأديب الشيشكلي ، حيث استـطاعت السياسـة الأمريكية أن تُعيد نفوذها إلى سوريا مرةً ثالثةً ، وكانت الدول الكبرى تعمل على بثّ الخلاف بين البلدان العربية ، حيث وُجد محوران أحدهمـا : يضمّ العراق والأردن ، على أن يشمل الآخر مصر والسعودية ، وتتجه سوريا تارةً

إلى هذا وأخرى إلى ذاك ، وهذا التقسيم لا يتعلق بمناطق النفوذ ، وإنما لإبقاء الخلاف بين البلدان العربية ، وعدم اتفاقها فيما بينها ، ورغم أن العراق ومصر كانتا ضمن مناطق النفوذ الإنكليزي إلا أنهما ضمن محورين مختلفين ، والدول الاستعمارية الكبرى متفقة بعضها مع بعض على إبقاء البلدان العربية مختلفة ، مع أن هذه الدول الاستعمارية على صراعٍ فيما بينها على مناطق النفوذ .

حزب الإصلاح: حصل على رخصةٍ من وزارة الداخلية بناءً على طلب تقدّم به كل من : سامي شوكت ، وعبد الحميد عبد المجيد ، ومكي الشربتجي ، وعبد الرزاق حسين ، وإبراهيم زهدي ، وفريق المزهر ، ومحمد الجرجفجي ، وديوالي الدوسكي .

حزب الاتحاد الدستوري وحصل كذلك على رخصة بناءً على طلب تقدّم به كل من : نوري السعيد ، ومحمد علي محمود ، وموسى الشابندر ، وخليل كنه ، وعبد الوهاب مرجان ، وسعد عمر ، وجميل الأورفلي ، ومجيد عباس ، وأحمد العامر .

وزارة علي جودت الأيوبي الثانية : قدّم نوري السعيد استقالة حكومته في ١٣ محرم ١٣٦٩هـ (٥ تشرين الثاني ١٩٤٩م) غير أن الوصي لم يردّ على كتاب الاستقالة مع أنه فاتح علي جودت الأيوبي بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وأعاد نوري السعيد تقديم كتاب استقالة جديد في ١٧ صفر ١٣٦٩هـ (٩ كانون أول ١٩٤٩م) ، فقبلت الاستقالة ، وشكّل علي جودت الأيوبي وزارته في اليوم التالي[1] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ علي جودت الأيوبي : رئيساً للوزراء .

٢ ـ مزاحم الباجه جي : نائباً للرئيس ، وزيراً للخارجية .

٣ ـ عمر نظمي : وزيراً للداخلية ، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٤ ـ علي حيدر : وزيراً للمواصلات والأشغال.

إن حسين جميل وزير العدلية كان عضواً في الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان مجمداً لنشاطه ، وكذا كان عبد الرزاق الظاهر عضواً في حزب الأحرار المجمَد أيضاً . أما سعد عمر فهو عضو مؤسس في حزب الاتحاد الدستوري .

ألغت الوزارة الأحكام العرفية التي كانت سائدة منذ تحرّك الجيش العراقي نحو فلسطين .

وعملت الحكومة على التقارب مع مصر ، وسافر وفد من العراق برئاسة نائب رئيس الحكومة مزاحم الباجه جي ، ووزير المعارف نجيب الراوي ، وتمّ عقد اتفاقية بين الطرفين قضت بعدم التدخل في شؤون سوريا ، وأنه من المصلحة تركها وشأنها حتى تستقر الأوضاع ، وأعطت الاتفاقية صفة التدخل في شؤون سوريا طرح فكرة الهلال الخصيب ، ولكن الوصي لم يرض عن هذه الاتفاقية ، كما واجهت انتقادات واسعة في الوزارة ، فكان أن قدّم علي جودت الأيوبي استقالة حكومته في ١٣ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ (١ شباط ١٩٥٠م) ، وعهد الوصي إلى توفيق السويدي بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ فشكّلها[1] في ١٧ ربيع الثاني .

= ٥ ـ سعد عمر : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٦ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٧ ـ حسين جميل : وزيراً للعدلية .
٨ ـ نجيب الراوي : وزيراً للمعارف .
٩ ـ عبد الرزاق الظاهر : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ توفيق السويدي : رئيساً للوزراء ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ صالح جبر : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسن سامي تاتار : وزيراً للعدلية .
٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع .
٦ ـ عبد المهدي : وزيراً للمواصلات والأشغال.
٧ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٨ ـ توفيق وهبي : وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ سعد عمر : وزيراً للمعارف . =

وزارة توفيق السويدي الثالثة : لم تزد أيام هذه الوزارة كثيراً على سبعة أشهر ونصف ، ولم تحدث أيامها كثير من المشكلات .

تمرّد : حدث أن تمرّد أحد ضباط الشرطة الذي يُدعى (علي خالد الحجازي) ، وقد كان مدير شرطة لواء بغداد ، فلما شكّل توفيق السويدي وزارته الثالثة ، وتسلّم صالح جبر وزارة الداخلية ، لم يجد مدير شرطة اللواء ارتياحاً مع وزير الداخلية ، وقرر الوزير نقل مدير الشرطة إلى لواء السليمانية بعد أن رأى في بداية الأمر فصله من العمل ، فأعلن مدير الشرطة تمرّده ، وقرر إجبار الحكومة على الاستقالة، واتصل برئيس الحكومة وهدده بانقلاب إن لم يُقال وزير الداخلية . وأعلن العصيان ، وأمر ضباط الشرطة بالتحرّك معه ففعلوا ، ولكن تمكنت الحكومة من إلقاء القبض على مدير الشرطة المنقول ، وقدّمته للمحكمة التي قضت بالحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة ، ثم أُعيدت محاكمته فحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، ثم عفي عنه أيام الوزارة التي تلت هذه الحكومة .

اليهود : شكّل اليهود في بغداد (الجمعية الصهيونية لبلاد ما وراء النهرين) في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٢٢ شباط ١٩٢١م) ، وحصلوا على رخصةٍ من حكومة الانتداب في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ (٥ آذار ١٩٢١م) كما كانت لهم مؤسسات في كثيرٍ من المدن مثل : بغداد ، وكركوك ، وخانقين ، واربيل ، والحلة ، والبصرة . وكانت لها أغراض أدبية ورياضية ، ولكنها كانت في الواقع تقوم بنشاطٍ سياسيٍ ، وتعمل على جمع التبرعات لليهود في فلسطين ، وكان المسؤولون يتستّرون على هذه المؤسسات نتيجة

= ١٠ ـ حازم شمدين آغا : وزيراً للدولة . ١٢ ـ خليل كنه : وزيراً للدولة .
١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للدولة .

وبذا فقد ضمّت هذه الوزارة عدداً من رجالات الأحزاب وخاصةً حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد .

الإغراءات الجنسية التي يُقدّمها اليهود لهم ، أو يسعون هم وراءها حيث تعرض الفتيات اليهوديات أنفسهن ثم يتمنعن ليحصلن على ما يردن .

وصار اليهود يهربون إلى إيران ومنها إلى فلسطين ، ويرغبون في ترك بلادهم التي عاشوا فيها بأمان في ظل الرعاية الإسلامية ، فقررت الحكومة إسقاط الجنسية عن كل من ترك البلاد بصورةٍ غير مشروعةٍ أو رغب في تركها ، ثم قررت إبعاد كل من أُسقطت عنه الجنسية . وهذا ما كان يرغبه اليهود بالسماح لهم بالخروج من العراق إلى فلسطين ، فكان ذلك خدمةً عظيمةً لليهود سواء أكانت مقصودةً أم من غير قصدٍ نتيجة الجهل والبعد عن الإسلام . وكان المفروض أن يُعامل هؤلاء أنهم مُحاربون ويعملون على الالتحاق بالأعداء ، وهذا الجرم يُعاقب عليه صاحبه بالقتل ، وهو ما يُقرّه الإسلام ، وتعمل به القوانين الدولية .

معاهدة صداقة مع باكستان : وقعت معاهدة صداقة مع باكستان في ٩ جمادى الأولى ١٣٦٩هـ (٢٦ شباط ١٩٥٠م) . وسعت الحكومة لتعديل امتيازات النفط غير أنها لم تُوفّق .

ونتيجة عدم الانسجام بين أعضاء الحكومة ، وخاصةً ما كان يجده الوزراء من عجرفة وزير الداخلية صالح جبر ، وتدخّله في شؤون الوزراء كافةً . اضطر رئيس الحكومة إلى تقديم استقالته في ٢٩ ذي القعدة ١٣٦٩هـ (١٢ أيلول ١٩٥٠م) ، وقبلها الأمير زيد نائب الوصي بعد ثلاثة أيام . وعهد إلى نوري السعيد بتأليف حكومةٍ جديدة فشكّلها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

٣ ـ حسن سامي : وزيراً للعدلية .

٤ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .

٥ ـ شاكر الوادي : وزيراً للدفاع ، وزيراً للخارجية بالوكالة .

٦ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .

اليهود : أخذ اليهود في العراق يقومون بجرائم في مناطق متعددة بإلقاء القنابل والمتفجرات لتخويف أبناء عقيدتهم من ملاحقة العراقيين لهم ، فيعملون على الهجرة من العراق . وهذه نتيجة عدم تطبيق الإسلام في معاملة المحاربين من أهل الكتاب ، وإن عدم الأخذ بالمبادىء ، وترك الأمور مائعةً يُسبّب الفوضى واختلال الأمن .

الجبهة الشعبية المتحدة : عمل زعماء المعارضة والأحزاب السياسية المناوئة على تشكيل جبهةٍ واحدةٍ باسم « الجبهة الشعبية المتحدة » ، وتقدّموا بطلب إلى وزارة الداخلية للحصول على رخصةٍ بذلك ، وذلك في تاريخ ٨ رجب ١٣٧٠هـ (١٤ نيسان ١٩٥١م) . وكانت الغاية من هذه الجبهة الدعوة إلى الوقوف على الحياد بين الغرب والشرق ، حيث كان قد صدر بيان بهذا الهدف ووقعه عدد من كبار الساسة[1] . ولكن وزارة الداخلية رفضت الطلب بحجة أن الحزب يتألف من مجموعة أفراد لا من مجموعة هيئات ، لذا فقد أُعيدت صياغة الطلب ، على أنه يتألف من أفراد ، وتكونت الجبهة الشعبية المتحدة ، وتعمل على تحرير العراق من كل نفوذٍ أجنبي ، والوقوف على الحياد بين المعسكرين ، ودعم البلدان العربية ، والعمل على صيانة فلسطين . وبرز من هذه الجبهة طه الهاشمي ، ومزاحم الباجه جي .

ثم جرى تعاون بين الجبهة الشعبية المتحدة ، والحزب الوطني الديمقراطي الذي كان قد جمّد نشاطه منذ مدّةٍ .

= ٧ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال ، وزيراً للمالية بالوكالة .

(١) وقّع البيان كل من : كامل الجادرجي ، جعفر حمندي ، عبد الهادي الظاهر ، برهان الدين باش أعيان ، عارف قفطان ، صالح شكاره ، عبد الرزاق الظاهر ، خدوري خدوري ، حسن عبد الرحمن ، جميل صادق ، جعفر البدر ، خطاب الخضيري ، محمود الدرة ، نجيب الصايغ ، عبد الجبار جومرد ، عبد الرزاق الشيخلي ، عبد الرحمن الجليلي ، عبد الرزاق حمود .

حزب الأمة الاشتراكي : تعمل الدول الكبرى الاستعمارية عادةً على اللعب على أكثر من جواد خوفاً من كبوة جوادها إن كان وحيداً ، فإذا ما تعثر جوادها الأول امتطت الآخر المسرج والمعد للركب أساساً ، وعلى هذا فقد شجّعت السلطات الإنكليزية صالح جبر على تأسيس حزب ليكون الرهان بينه وبين نوري السعيد رئيس حزب الاتحاد الدستوري ، وعلى هذا فقد نشط صالح جبر ، وتقدّم مع بعض أصحابه لأخذ رخصة لتأسيس « حزب الأمة الاشتراكي » ، وكانت موضة الاشتراكية قد أخذت تظهر سواء أكانت حقيقةً ومبدأً أم شعاراً تتستر خلفه لتخفي حقيقتها ، وتقدّموا بالطلب في ١٦ رمضان ١٣٧٠هـ (٢٠ حزيران ١٩٥١م) وبعد أربعة أيام حصلوا على الرخصة اللازمة[١] .

ولم يلبث أن اندمج حزب الإصلاح مع حزب الأمة الاشتراكي ، بعد أن عدّ نفسه منحلاً .

توسعة الوزارة : كان قد دخل الوزارة بعد إعلان تشكيلها توفيق السويدي الذي عُيّن نائباً لرئيس الحكومة وبعدها عُيّن كل من : محمد حسن كبة ، ومصطفى العمري ، وعمر نظمي وزراء للدولة . وعبد المجيد محمود وزيراً للاقتصاد ، وضياء جعفر وزيراً للأشغال والمواصلات بعد أن كان يشغل منصب وزير الاقتصاد وعبد الوهاب مرجان وزيراً للمالية ، وكان يشغل منصب وزير الأشغال والمواصلات .

العمل على الاتحاد مع الأردن : كان الملك عبد الله ملك الأردن قد وضع أسس الاتحاد بين المملكتين الهاشميتين وبعث بهذه الأسس إلى الوصي على اعتباره ابن أخيه والملك فيصل الثاني ابن ابن أخيه ، وله عليهما صفة

---

(١) كان الذين وقعوا على طلب التأسيس : صالح جبر ، عبد المهدي ، عبد الكاظم الشمخاني ، جواد جعفر ، عبد الرزاق الأزري ، عز الدين النقيب ، محمد النقيب ، أحمد الجليلي ، حبيب الطالباني ، حنا خياط ، نظيف الشاوي .

الإشراف والرعاية ، وأرسل بهذه الأسس مع وزير البلاط سمير الرفاعي في ١٦ شعبان ١٣٦٩هـ (٢ حزيران ١٩٥٠م) ليرى الوصي فيها رأيه ، وهي كما يأتي :

أولاً : تعتبر المملكتان العراقية والأردنية مملكتين متحدتين وفق الشروط المتفق عليها .

ثانياً : يقوم مجلس اتحاد عالٍ ، أعضاؤه يُنصّبون من حكومتهم على عددٍ واحد ، ومدةٍ معينةٍ ، وأن يجري اختيارهم من أعيان البلدين ، ومن رئيس الوزراء في البلدين أو نائبه ، ووزير الخارجية في كلا البلدين ووزيري المالية والدفاع .

ثالثاً : يجتمع مجلس الاتحاد بالمناوبة في كل عام بإحدى العاصمتين ، ويرأس مجلس الاتحاد رئيس وزراء تلك البلاد ، وفي حالة الحاجة للتذاكر في أمور فوق العادة يرأس المجلس صاحب الجلالة الملك في تلك البلاد، وتحتفظ كل مملكة بحقوقها الحاضرة ودستورها التام .

رابعاً : يفتتح أول جلسة كل عام حضرة صاحب الجلالة الملك الذي يجتمع المجلس في مملكته .

خامساً : تكون راية الاتحاد الراية الهاشمية الأولى الحجازية ، على أن تبقى الراية الحاضرة لكل بلدٍ منصوبةً عليها في داخلها .

سادساً : تعـاون إحدى المملكتين أختها معاونةً عسكريةً في حالة عداءٍ يُوجّه إلى إحديهما من أية دولةٍ أخرى ، أو أكثر من دولةٍ .

سابعاً : تُنسّق القوى العسكرية في البلدين على نظامٍ واحدٍ .

ثامناً : تُزال الموانع الجمركية ، وتذاكر المرور بين البلدين .

تاسعاً : تُنَسّق أمور المعارف على وتيرةٍ واحدةٍ ، ويُتّفق على قبول الطلبة في كلا المملكتين ، بطريقة تُسهّل الغرض من ذلك .

عاشراً : للمملكتين المتحدتين سياسة خارجية واحدة ، وتُمثّل كل بلد أختها في الخارج في حالةعدم وجود ممثل لإحديها في تلك البلاد الأجنبية .

حادي عشر : ترفع راية الاتحاد في البلاد الأجنبية على دور السفارات والمفوضيات والقنصليات العامة .

ثاني عشر : العائلة المالكة في المملكتين تعتبر لها عين الحقوق في البلدين فإذا توفي الملك دون وريث ، فيكون وريث العرش الشخص اللائق من ذرية المنقذ الحسين بن علي .

درست الحكومة العراقية هذه الأسس المقترحة ، واقترحت مشروعاً آخر ، وقد جاء فيه :

لما كان اتحاد المملكتين الشقيقتين اتحاداً فعلياً يُؤدّي حتماً إلى ازدهارهما وإلى تحقيق الأهداف الغالية التي توخّتها الثورة العربية الكبرى فإن الإجراءات التالية تتخذ حالاً بعد إبرام الاتفاق بالطرق الدستورية لكلا المتعاقدين .

أولاً : يُوحّد التاجان الأردني والعراقي بالطرق الآتية :

يعلن صاحب الجلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية الملك عبد الله بن الحسين قراره السامي في جعل حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العراقية الملك فيصل الثاني ولياً لعهد المملكة الأردنية الهاشمية منذ الآن ، وذلك تمهيداً لجعله ملك العراق والأردن في المستقبل ، وتتخذ الإجراءات الدستورية لتأمين ذلك .

ثانياً : إذا توفي ملك العراق والأردن دون وارث يعمل بحكم المادة ٢٠ من القانون الأساسي العراقي .

ثالثاً : يعتبر الاتحاد بين المملكتين في الوقت الحاضر اتحاداً في التاج ، وتبقى المملكتان محتفظتين بكيانهما الداخلي ، والتشريعي لمدة لا تزيد على الخمس سنوات ، تجري خلالها مفاوضات لتحقيق المطلوب ، أو أي شكل

آخر يُتفق عليه .

رابعاً : تتوحّد فوراً السياسة الخارجية ، والتمثيل الخارجي ، والعملة في المملكتين .

خامساً : تزال الموانع الجمركية ، وتلغى تذاكر المرور بين البلدين .

سادساً : تحتفظ كل مملكةٍ برايتها الحاضرة ، وتحدث راية مشتركة تُعينّ فيما بعد .

سابعاً : يجري تعاون عسكري وثيق ما بين المملكتين ، يُسارع كل منهما لإنجاد الآخر في حالة وقوع أي اعتداءٍ عليه .

ولكن مقتل الملك عبد الله المفاجىء في ١٦ شوال ١٣٧٠هـ (٢٠ تموز ١٩٥١م) حال دون تحقيق المشروع .

محاولة تمرّد اليزيديين : حاول اليزيديون القيام بحركة تمرّد ، وأخذوا يستعدون لذلك ، وأحسّت الحكومة بنواياهم ، فعملت على إرسال قوةٍ إلى سنجار ، ولما شعر العصاة باستعداد الحكومة والتهيؤ لكل طارىء استسلموا في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٧٠هـ (٥ آذار ١٩٥١م) .

العمل على تأميم النفط العراقي : عندما تسلّم محمد مصدق رئاسة الوزارة الإيرانية ، اتجه نحو تأميم النفط في بلاده ، وفسخ الامتياز القائم بين دولته وبين شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية ، فقوبل ذلك بحماسةٍ شديدة في العراق ، وقامت الدعوة لتأميم النفط ، وبدأت الأحزاب السياسية والصحف المعارضة تدعو إلى التأميم ، وتقدّم عشرون نائباً في المجلس النيابي العراقي إلى رئاسة المجلس بطلب سنّ لائحة قانونية لتأميم نفط العراق . وقد انتزع نفط العراق ، وأُخذ امتياز استثماره كرهاً وقت الانتداب البريطاني . وإن ما يأتي من دخلٍ وطني للعراق من النفط يُعدّ قليلاً جداً ، وإن المناطق التي عُثر فيها على النفط حديثاً ، أي بعد العراق بكثير ، حصلت على فوائد أكبر بكثير مما يحصل عليه العراق .

وأمام هذه الوقائع ، والمعارضة الشديدة ، والنقد العنيف لم تستطع الحكومة أن تصمد في وجه المعارضة فأخذت تطالب بتعديل شروط الاتفاقية وبتأميم الثروات النفطية في بلادها . ونتيجة الإلحاح الشعبي وإصراره على أخذ الحقوق فقد سهّل المفاوضات مع بعض الشركات والوصول إلى نتائج سريعة ، رغم أن مبدأ المناصفة في الأرباح قد أقرته الشركات مقدماً . كما أبدت بعض الشركات الأخرى الكثير من التعنت .

وكانت في العراق عدة شركات منها :

١ ـ شركة نفط خانقين : وهي فرع من شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية .

٢ ـ شركة نفط الرافدين : وهي أيضاً فرع من شركة النفط الإيرانية ـ الإنكليزية .

٣ ـ شركة نفط الموصل .

٤ ـ شركة نفط البصرة .

٥ ـ شركة النفط العراقية : وتتألف من عدة شركات إنكليزية ، وأمريكية ، وفرنسية ، وهولندية .

اتفقت الحكومة العراقية مع شركتي نفط الرافدين ، ونفط خانقين على امتلاك مؤسساتها ، وتكليف شركة نفط خانقين بإدارتها نيابةً عن الحكومة . وقد صدر بيان بذلك في ٢٧ ربيع الأول ١٣٧١هـ (٢٥ كانون الأول ١٩٥١م) .

أما الشركات الأخرى ، وهي شركة نفط الموصل ، ونفط البصرة ، وشركة النفط العراقية ، فقد بذلت الحكومة كل جهودها لزيادة واردات الحكومة عن الطن الواحد . وزيادة كميات النفط المستخرجة والمصدرة .

لقد أصبحت حصة الحكومة ٥٠٪ من صافي الأرباح التي تحصل عليها الشركات من عملياتها في العراق ، وذلك قبل تنزيل أية ضريبة عن هذه

الأرباح ، ويحقّ للحكومة أن تستوفي ـ كحد أدنى ٢٥٪ من قيمة إنتاج كل من شركتي النفط العراقية ، ونفط الموصل ، و٣٣,٣٪ من إنتاج شركة نفط البصرة، وذلك حسب الأسعار العالمية السائدة في ميناء التصدير البحري ، كما يحق للحكومة أن تأخذ ١٢,٥٪ من النفط الخام عيناً ، وذلك من مجموع إنتاج الشركات الثلاث ، على أن تسلّمه في ميناء التصدير البحري ، وتتصرّف بهذه الكمية حسب رغبتها .

ولقد تعهدت كل من شركتي النفط العراقية ، ونفط الموصل بتصدير ما لا يقلّ عن ٢٢ مليون طن من النفط الخام سنوياً كحدٍّ أدنى ، كما تعهدت شركة نفط البصرة بتصدير ثمانية ملايين طن من النفط الخام سنوياً كحدٍّ أدنى كذلك . وقد تعهدت الشركة بموجب التعديل الجديد بأن لا تقلّ واردات الحكومة عن عشرين مليون دينار خلال السنتين القادمتين و ٢٥ مليون دينار خلال السنوات القادمة .

ولما عرضت الاتفاقات على المجلس النيابي للتصديق عليها رفضتها الأكثرية ، وقدّم نواب حزب الاستقلال استقالتهم من المجلس ، ولما طُرحت للتصويت حصلت على النصاب القانوني .

موقف الأحزاب : عدّ حزب الاستقلال الاتفاقيات أنها قد فرضت فرضاً . وعدّ الحزب الوطني الديمقراطي ، والجبهة الشعبية المتحدة أنها غامضة . وأما حزب الأمة الاشتراكي فقد انتقد الاتفاقيات بعنف . ودعت الأحزاب الشعب إلى الإضراب العام يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (١٩ شباط عام ١٩٥٢م) ، فلبى الدعوة عدد من أصحاب المحلات ، وكانت التلبية للدعوة خارج العاصمة أكثر من بغداد نفسها ، ووقعت صدامات بين الشرطة والمتظاهرين ، ووقع الكثير من الجرحى .

وقدّمت الحكومة استقالتها في ١٨ شوال ١٣٧١هـ (١٠ تموز ١٩٥٢م) . وعهد الوصي إلى مصطفى العمري بتشكيل وزارة جديدة .

شكّل مصطفى العمري[1] الوزارة في ٢٠ شوال ١٣٧١هـ (١٢ تموز ١٩٥٢م) ، ورغم أنه لم يزد عمرها على الأربعة أشهر كثيراً ، إلا أن أكثر أيامها كانت فوضى وإضطرابات .

إضراب عمال ميناء البصرة : قررت الحكومة منح نصف راتب شهر للموظفين بمناسبة عيد الأضحى عام ١٣٧١هـ ، فظنّ عمال ميناء البصرة أن المنحة لا تشملهم فقاموا بإضراب عطّل الأعمال في الميناء ، وانقطعت المياه عن المدينة ، وكذا التيار الكهربائي . ولما علموا أن المنحة تنالهم تقدّموا بمطالب جديدة بعد أن رأوا أثر إضرابهم ، واهتمام الحكومة به ، وخاصةً أن الأيام قادمة على عيد ، فوقع صدام مسلح ذهب ضحيته عدد من القتلى والجرحى ، وقامت المعارضة تهاجم الأسلوب الذي اتخذته الحكومة في معالجة الموقف .

حلّ المجلس النيابي والانتخابات : صدر أمر ملكي بحلّ المجلس النيابي في ٨ صفر ١٣٧٢هـ (٢٧ تشرين الأول١٩٥٢م) . ولكن الأحزاب السياسية قد أعلنت مقاطعتها للانتخابات التي ستجري عدا حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد الذي طمع أن يحصل على الأكثرية . وأعلنت الأحزاب أن الطريقة التي تتم فيها الانتخابات غير صحيحة ، ويجب أن يكون الانتخاب مباشرةً (على درجةٍ واحدةٍ) ، وقد تضايق الوصي من هذه المقاطعات وخاصةً أن المنطقة تتعرّض لأزماتٍ متواليةٍ حسب رأي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ مصطفى العمري : رئيساً للوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٣ ـ عبد الجبار الجلبي : وزيراً للزراعة .
٤ ـ عبد الله الدملوجي : وزيراً للمعارف .
٥ ـ عبد المجيد علاوي : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للصحة .
٧ ـ جمال بابان : وزيراً للعدلية .
٨ ـ إبراهيم الشابندر : وزيراً للمالية .
٩ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للدفاع .
١٠ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
١١ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .

الوصي ، حكم محمد مصدق في إيران ، الانقلاب في مصر ، ومثله في لبنان ، والانقلابات تتوالى في سوريا ، وكل هذا ينذر بقية الحكومات التي لا تزال تستبد بشعبها . وعمل الوصي بناءً على رأي رئيس الحكومة مصطفى العمري ، ورئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان على دعوة الساسة إلى مؤتمر ، فلبوا الدعوة ، وعُقد المؤتمر في ٢ صفر ١٣٧٢هـ (٢٨ تشرين الأول ١٩٥٢م) ، فوقع في المؤتمر خلاف واتهامات ،وخاصةً ما كان بين الوصي وطه الهاشمي رئيس اللجنة العليا للجبهة الشعبية المتحدة . واضطر طه الهاشمي إلى الخروج من المؤتمر .

وقدّم وزير المالية إبراهيم الشابندر استقالته . وخرج الطلاب يوم الخميس في الثاني من شهر ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٢م) بمظاهراتٍ ، ووقع عدد من الشرطة قتلى وجرحى ، وتوقّفت الدراسة في المعاهد العليا ، وأضرب طلاب كلية الصيدلة والكيمياء ، وطالبوا بوجوب الأخذ بالانتخاب المباشر ، وطلبت الحكومة الاستعانة بالشرطة ، ثم بالجيش ، وتردّد رئيس أركان الجيش نور الدين محمود في تنفيذ الأوامر ، واستمرّت المظاهرات ، واضطرت الحكومة إلى تقديم استقالتها في ٣ربيع الأول ١٣٧٢هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٥٢م) . وعهد الوصي إلى الفريق رئيس أركان الجيش نور الدين محمود بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ ، فشكّلها[1] في ٥ ربيع

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ نور الدين محمود : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع ، ووزيراً للداخلية بالوكالة .

٢ ـ علي محمود الشيخ علي : وزيراً للمالية .

٣ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية ، وزيراً للاقتصاد بالوكالة .

٤ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية .

٥ ـ قاسم خليل : وزيراً للمعارف .

٦ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية ، وزيراً للمواصلات والأشغال بالوكالة .

٧ ـ رايح العطية : وزيراً للزراعة .

٨ ـ عبد المجيد القصاب : وزيراً للصحة .

الأول ١٣٧٢هـ (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢م) .

وزارة الفريق نور الدين محمود : اتخذت هذه الوزارة إجراءات قاسية للسيطرة على الوضع ، فقد أعلنت الأحكام العرفية في لواء بغداد ، وأغلقت الأحزاب السياسية ، وعطّلت الصحف الحزبية ، واعتقلت عـدداً كبيراً من السياسيين في معتقل « أبي غريب » ، ومع ذلك فلم تنقطع المظاهرات إذ أحسّ المواطنون عطفاً من قوات الجيش ، إذ كانت النار تُطلق في الهـواء لإرهاب الناس فقط .

وجرت الانتخابات العامة في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (١٧ كـانون الثاني ١٩٥٣م) . واجتمع المجلس النيابي في ٩ جمادى الأولى ، فانتهت بذلك مهمة الوزارة ، وقدّمت استقالتها ، إذ لم يكن رئيسها على درجةٍ من الراحة ، إذ لم يُرشّح للوزارة التي يرأسها سوى قاسم خليل وزير المعارف ، وعبد المجيد القصاب وزير الصحة . أما الآخرون فقد كانوا بترشيح من الوصي أو نوري السعيد ، وهكذا كانت كل وزارة ، يعهد الوصي إلى أحد الموالين له والمؤيدين للسياسة البريطانية بتشكيل الحكومة ، ويُرشّح له بعض عناصرها ، ويتدخّل نوري السعيد في تشكيلها ويُسمّي بعض أعضائها ، ويطلب من فلان عدم الموافقة على الاشتراك بالوزارة ، ويدفع فلاناً لها ، ويفرضها على رئيسها ، كما كان هناك دور لكلٍ من صالح جبر ، وجميل المدفعي ، وأرشـد العمري ، وعلي جودت الأيوبي ، وإن كانوا بشكلٍ أقلّ من نوري السعيـد ، ولتوفيق السويدي دور ، ولحكمت سليمان مثله . وفوق كل هذا فالسفارة البريطانية في بغداد تلعب دوراً بالتوجيه ، واختيار العناصر ، ومن تُوافق عليه ، ومن لا تُوافق عليه .

بعد استقالة نور الدين محمود عهد الوصي إلى نصرت الفارسي لتأليف الحكومة على شرط أن يكون حرّاً في اختياره ، ولكن لم يجد من يتعاون معه ما دامت أكثرية المجلس النيابي ليست بجانبه ، فيمكن أن تسقط كل حين ، وربما

بعد أيام ، إضافةً إلى الصراع مع المجلس ، ومع المعارضة . ولذا فقد اعتذر نصرت الفارسي عن المهمة التي كُلّف بها ، فعهد الوصي إلى جميل المدفعي بتشكيل الحكومة .

وزارة جميل المدفعي السادسة : شكّل الوزارة[1] في ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ (٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣م) . وفي اليوم التالي استؤنفت الدراسة .

وفي ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٢هـ (١٥ آذار ١٩٥٣م) رفعت تأشيرات الدخول بين العراق وبعض البلدان العربية كمعاملة بالمثل .

وخرجت المظاهرات الطلابية من دار المعلمين الابتدائية احتجاجاً على الأحكام العرفية السائدة والتي لا داعي لها ، هذا إضافةً إلى تعطيل الصحف عن الصدور ، وتوقيف نشاط الأحزاب السياسية وبالتالي تعطيل الحياة الدستورية .

تتويج الملك فيصل الثاني : بلغ الملك فيصل الثاني سن الرشد في ١٨ شعبان ١٣٧٢هـ (٢ أيار ١٩٥٣م) ، وبذا فقد وجب أن يتسلم المسؤولية وأن تنتهي فترة الوصاية عليه ، وجرت احتفالات في البلاد بهذه المناسبة ، وتُوّج الملك فيصل رسمياً .

استقالة الوزارة : تقضي التقاليد الدستورية أن يُقدّم رئيس الحكومة استقالة وزارته فيما إذا تغيّر رأس الدولة ، كي يتيح له فرصة اختيار من يراه

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي : رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت الأيوبي : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ نوري السعيد : وزيراً للدفاع .
٥ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية .
٦ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للعدلية .
٧ ـ ماجد مصطفى : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٨ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١١ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١٣ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال.

مناسباً لرئاسة الحكومة ، ولتطبيق السياسة التي يريد أن ينتهجها في دولته . ومن هذ المنطلق فإن جميل المدفعي قد قدّم استقالة حكومته ٢١ شعبان أي بعد الانتهاء من مراسم تسلّم الملك سلطاته الدستورية .

وعاد الملك فيصل الثاني فوجّه كتاباً إلى رئيس الحكومة المستقيلة يعهد إليه فيه بإعادة تشكيل الحكومة من جديد ، وكان ذلك بتوجيه من خاله الأمير عبد الإله (الوصي سابقاً) .

وزارة جميل المدفعي السابعة : أعاد رئيس الحكومة المستقيلة تشكيل وزارةٍ جديدةٍ[1] من أعضاء الوزارة السابقة أنفسهم مع إسناد الحقائب نفسها لأصحابها بعد إدخال وزيري دولة .

لم يلبث أن استقال من الوزارة عبد الوهاب مرجان وزير الأشغال والمواصلات لاختلافه مع مدير عام ميناء البصرة سعيد القزاز ففصله عن عمله ، فانتقد الوزارة الكثير ، واعترض من اعترض ، وتوسّط عدد من الوزراء في الموضوع ، وذلك لأن سعيد القزاز كان أول مدير عام للميناء من العراق وكان من قبله يتولّى هذه المهمة بعض الإنكليز . وكان الوزير يظنّ أن الناس يعملون لإعادة مدير الميناء إلى عمله ، لذلك قدّم استقالته .

كانت وزارة نور الدين محمود قد اعتقلت عدداً من الشيوعيين ، وأخذ

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ جميل المدفعي: رئيساً للوزراء .
٢ ـ علي جودت الأيوبي: نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ نوري السعيد: وزيراً للدفاع .
٥ ـ محمد علي محمود : وزيراً للعدلية .
٦ ـ علي ممتاز الدفتري: وزيراً للمالية .
٧ ـ ماجد مصطفى: وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٨ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للأشغال والمواصلات.
١٠ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١١ ـ حسام الدين جمعة : وزيراً للداخلية .
١٢ ـ عبد الرحمن جودة : وزيراً للزراعة .
١٣ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١٤ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للدولة .

عدد منهم بالهرب من السجن في بغداد فعـاملت الحكومـة السجناء معـاملةً قاسيةً ، فاحتجّ على تلك المعاملة عدد من الساسة العراقيين . ثم انتقل هربُ السجناء إلى سجن (الكوت) وكان بينهم عدد من اليهود الشيوعيين فقست عليهم الدولة ، فاحتجّ حزبا الاستقلال ، والوطني الديمقراطي رغم تجميـد نشاطهما بسبب إعلان الأحكام العرفية .

لم تكن الاحتجاجات لأن السجناء من الشيوعيين ، لا ، وإنما لأن هذه المعاملة لا يصحّ أن تكون من حكومة لرعاياها بغضّ النظر عن الأفكار التي يحملونها . مع العلم أن الشيوعية تسحق خصومها السياسيـين سحقاً ، ولا تدخلهم السجون ، وإنما تقضي عليهم قبل ذلك . ولكن لا يصحّ أن تكون سياستنا ومعاملتنا ردود فعل لما يفعله الآخرون .

ونتيجة كثرة الانتقـادات للحكومـة فقد قـدّم جميل المـدفعي استقالـة حكـومته في ٥ المحـرم ١٣٧٣هـ (١٥ أيلول ١٩٥٣م) ، وربما كـان السبب الرئيسي أن أكثريـة المجلس النيابي تُؤيّـد نوري السعيـد الذي يُعـدّ الخصم السياسي لجميل المدفعي ، إذ كان الوصي يشعل النار بينهما سراً ليستفيد من خصومتهما ، وتصل إليه الأخبار كاملةً ويعرف ماذا يجري عن طريقهما .

وزارة محمد فاضل الجمالي الأولى : بعد اتصالات واسعة أجراها الملك بين السياسيين لترشيح رئيس للوزارة التي ستخلف حكومة جميل المدفعي ، وقع الاختيار على محمد فاضل الجمالي فكلفـه بالمهمة ، فأتمها في السابع من المحرم ١٣٧٣هـ (١٧ أيلول ١٩٥٣م)[١] .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ محمد فاضل الجمالي : رئيساً للوزراء، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ محمـد علـي محمـود : نـائبـاً لـرئيس الوزراء.
٣ ـ علي حيدر سليمان : وزيراً للإعمار .
٤ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .
٥ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للعدلية .

ألغت الحكومة الأحكام العرفية التي فرضتها حكومة نور الدين محمود ، وسمحت للأحزاب بالعودة إلى النشاط بعد أن كانت أغلقتها حكومة نور الدين محمود أيضاً . كما عادت النوادي والجمعيات إلى مزاولة نشاطها مع إلغاء الأحكام العرفية .

ولكن عادت هذه الحكومة فأعلنت الأحكام العرفية في منطقة البصرة بناءً على إصرارٍ من وزير الداخلية ، وذلك أن عمال شركة نفط البصرة قد اختلفوا مع إدارة شركتهم ، وذهب إليهم وزير الشؤون الاجتماعية ، وحلّ الموضوع ، غير أنه عاد فأثير ، وتفاقم ، وتطوّر ، حتى أُعلنت الأحكام العرفية محلياً ، وعُطّلت تسع صحفٍ . فانسحب من الحكومة عبد الرحمن الجليلي ، وحسن عبد الرحمن بناءً على قرار من الهيئة العليا للجبهة الشعبية المتحدة اللذين هما من أعضائها . كما جرى احتجاج في المجلس النيابي على إعلان الأحكام العرفية في منطقة البصرة .

العمل على الإطاحة بالحكم في سوريا : كان العقيد أديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية ، وقد وصل إلى السلطةعن طريق انقلابٍ عسكريٍ قام به مع فوزي سلو ضدّ العميد سامي الحناوي ، ثم أعقبه بانقلابٍ آخر ضدّ الحكم المدني ، وتفرّد فيه بالسلطة . وكان يسير في خطٍ يُغاير الخط الذي تسير فيه العراق ، حيث قوي النفوذ الأمريكي في سوريا أيام أديب

= ٦ ـ عبد المجيد القصاب : وزيراً للمعارف .
٧ ـ عبد الله بكر : وزيراً للخارجية .
٨ ـ حسين مكي خماس : وزيراً للدفاع .
٩ ـ عبد المجيد عباس : وزيراً للمواصلات .
١٠ ـ عبد الرحمن الجليلي : وزيراً للاقتصاد .
١١ ـ حسن عبد الرحمن : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
١٣ ـ عبد الغني الدلي : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ أركان عبادي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ صادق كمونة : وزيراً للدولة .
١٦ ـ محمد شفيق العاني : وزيراً للدولة .
١٧ ـ رفائيل بطي : وزيراً للدولة .

الشيشكلي على حين كان النفوذ الإنكليزي هو المسيطر في العراق .

وكان أديب الشيشكلي يشنّ الهجوم على العراق باستمرار ، ويصفها بأنها قاعدة إنكليزية ، ومقرّ للاستعمار الغربي فعمل الساسة العراقيون على الاتصال بالمعارضة السورية، واستطاع محمد فاضل الجمالي الاتصال مع هاشم الأتاسي ، وبحث معه موضوع تغيير الحكم السوري ، وتم لقاء المعارضة السورية في مدينة حمص وعملت العراق على مدّ هذه المعارضة بالمال ، والسلاح ، والعتاد . ويبدو أن هاشم الأتاسي قد طلب مائة ألف دينار لإمكانية التحرّك . ورصدت العراق مبلغ ثلاثمائة ألف دينار نصفها للحرس الوطني الأردني والنصف الآخر لرجال سوريا للإطاحة بالحكم العسكري السوري ثم الانضمام إلى العراق .

كان العقيد أديب الشيشكلي يرصد تحرّكات المعارضة فاضطر إلى الهرب من سوريا إلى لبنان كل من : صبري العسلي ، وعدنان الأتاسي ، وحسني البرازي ، وميخائيل اليان . وقد سافر صالح جبر إلى لبنان يحمل مائة ألف دينار ، ويبدو أنه قد سلّم سبعين ألفاً منها . كما أن معروف الدواليبي رئيس الحكومة التي قام انقلاب أديب الشيشكلي عليها ، أو يوم تشكيلها قد وصل إلى بغداد سراً ، ونزل في دار عضو مجلس الأعيان عبد الهادي الجلبي ، وبقي هناك أربعين يوماً .

كان الاتفاق على دعم المعارضة السورية منذ أيام حكومة جميل المدفعي الذي كان يتردد ، كما أن نوري السعيد كان يرى فكرة ضمّ سوريا للعراق إنما هي نظرية ولا تتم . فلما كانت حكومة محمد فاضل الجمالي جازف في الموضوع . وأخيراً أُطيح بنظام أديب الشيشكلي ، وأُبعدت فكرة ضمّ سوريا للعراق .

وأخيراً اضطرّ محمد فاضل الجمالي إلى تقديم استقالة حكومته إذ تقضي الفقرة الثانية من المادة (٦٤) من القانون الأساسي العراقي ألا يبقى الوزير في

منصبه أكثر من ستة أشهر إن لم يكن عضواً في أحد المجلسين النيابي أو الأعيان . فقدم الاستقالة في ٢ رجب ١٣٧٣هـ (٨ آذار ١٩٥٤م) ، وكلّف ثانية بتشكيل الحكومة الجديدة بعد أن اعتذر رئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان ، كما حاول هو الاعتذار لعدم وجود أكثرية نيابية بجانبه ، وألمح إلى حلّ المجلس والبدء بانتخابات جديدة فطلب منه التجربة فشكّل وزارته الثانية[1] .

وزارة محمد فاضل الجمالي الثانية : إن المعاهدة العراقية ـ البريطانية التي تم عقدها في ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) كانت مدتها خمس وعشرون سنة بدءاً من تنفيذها الذي يعتبر بقبول العراق عضواً في مجلس عصبة الأمم ، وكان القصد منها إبقاء الاحتلال البريطاني للعراق ، فلما قاربت المعاهدة على الانتهاء ، عملت انكلترا على استبدالها بمعاهدة شبيهة لها إن لم تكن أشدّ وطأة على العراق ، وكانت معاهدة (بورتسموث) التي أطاح بها الشعب العراقي . ورأت انكلترا أن يكون بديل المعاهدة حلف يربطها مع الدول التي تسير بفلك انكلترا مثل تركيا وباكستان . وعرضت الموضوع على العراق تحت عنوان الوقوف في وجه الشيوعية ، وكانت الفكرة مقبولة لدى العراقيين ، ولم تر حكومة محمد فاضل الجمالي في هذا الحلف شيئاً ، وإن رأى تأخير ذلك ريثما تنتهي المحادثات المصرية ـ البريطانية من أجل الجلاء كي لا يكون الحلف عامل تعنت بالنسبة لانكلترا ، أو هكذا وعد محمد فاضل الجمالي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ محمد فاضل الجمالي: رئيساً للوزراء .
٢ ـ أحمد مختار بابان : نائباً للرئيس .
٣ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .
٤ ـ علي ممتاز الدفتري: وزيراً للمالية .
٥ ـ علي حيدر سليمان: وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الكريم الأزري: وزيراً للإعمار .
٧ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للمعارف .
٨ ـ عبد المجيد القصاب: وزيراً للصحة .
٩ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ حسين مكي خماس: وزيراً للدفاع .
١١ ـ عبد المجيد عباس: وزيراً للمواصلات .
١٢ ـ أركان عبادي: وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ عبد الغني دلّي : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ محمد علي محمود: وزيراً للعدلية .
١٥ ـ رفائيل بطي : وزيراً للدولة .

يومذاك رئيس الوزارة المصرية جمال عبد الناصر .

كانت الولايات المتحدة تريد أن تمدّ نفوذها إلى منطقة الشرق الأوسط ، وخاصةً العراق وذلك عندما رأت أن نفوذها في سوريا لا يلبث أن يثبت حتى يُزاح بتأثيراتٍ من العراق ، وقد مرّ معنا دور العراق بالإطاحة في حكم العقيد أديب الشيشكلي ، ومن أجل هذا عرضت الولايات المتحدة مساعداتٍ على دول المنطقة ، وطلب العراق من هذه المساعدات فجاءت الموافقة ، ولم تكن هذه المساعدات خالصةً دون الحصول على فائدةٍ ، ولكن من أجل أن تتمّ اللعبة ، وتنطلي على من يُفكّر من الشعب ، وهم قليل ، ثارت ثائرة اليهود ، وأعلنوا احتجاجهم ، واستنكارهم ، وأظهروا أن الولايات المتحدة تمالىء العراقيين لتحقيق بعض أغراضها. فجعلت الولايات المتحدة عندها شروطاً لهذه المساعدات في أن تستخدم للأمن الداخلي [لحماية النظام من الشعب] ، وألا تستعمل ضدّ دولةٍ أخرى فوافقت العراق ، واستطاعت الولايات المتحدة أن تضع الخطوة الثانية في العراق ، وأن تمدّ يدها إلى جانب النفوذ الإنكليزي .

لم يُوافق نوري السعيد أن تستمر الاتصالات مع السوريين لقيام مشروع الهلال الخصيب أو الاتحاد بين الإقليمين ، ولم يقبل بصرف الأموال التي أنفقتها الحكومة ، فاضطر رئيسها إلى تقديم استقالة حكومته في ١٦ شعبان ١٣٧٣هـ (١٩ نيسان ١٩٥٤م) .

وكانت آراء أكثر الساسة ترى حلّ المجلس النيابي ، وألح ولي العهد عبد الإله لنوري السعيد بالاستعداد لتأليف الوزارة ، فأخذ يتهيأ ، ولكن اعتذر محمد فاضل الجمالي بالاشتراك معه كوزير للخارجية بعد أن رأى موقفه منه فتعلّل بالمرض ، واعتذر علي ممتاز الدفتري ، وظنّ نوري السعيد أنها مؤامرة ضدّه فغادر العراق مُغاضباً ، وعُهد إلى أرشد العمري ليُشكّل وزارةً مُحايدةً تُشرف على الانتخابات النيابية .

وزارة أرشد العمري الثانية : شكّل أرشد الوزارة في ٢٦ شعبان

١٣٧٣هـ (٢٩ نيسان ١٩٥٤م)[1]. واستنكرت الأحزاب السياسية تشكيل هذه الوزارة لتاريخ رئيسها في الضغط على الحريات والتعنت في معالجة الأمور، والاستبداد في التصرّف . وطلب كل من حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي من الملك إعفاء هذه الوزارة .

وعمل حزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال على تشكيل جبهة وطنية بالاتفاق مع الشيوعيين تحت ستار المنظمات المهنية . وقد صدر بيان عن الجبهة الوطنية دعا إلى إطلاق الحريات، وإلغاء معاهدة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ، وطالب برفض المساعدات الأمريكية ، وعدم ربط العراق بالأحلاف الاستعمارية .

وحمل البيان إمضاء : حزب الاستقلال :

حزب الوطني الديمقراطي :

ممثل الطلاب	: مهدي عبد الكريم
ممثل الشباب	: صفاء الحافظ
ممثل الأطباء	: أحمد الجلبي
ممثل المحامين	: عبد الستار ناجي

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أرشد العمري : رئيساً للوزراء، وزيراً للإعمار بالوكالة .
٢ ـ محمد فاضل الجمالي : وزيراً للخارجية ، وزيراً للمعارف بالوكالة .
٣ ـ عبد المجيد محمود : وزيراً للمالية .
٤ ـ حسين مكي خماس : وزيراً للدفاع .
٥ ـ عبد الهادي الباجه جي : وزيراً للصحة .
٦ ـ عبد الغني الدلي : وزيراً للزراعة .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ فخري الطبقجلي : وزيراً للعدلية .
٩ ـ علي الصافي : وزيراً للاقتصاد .
١٠ ـ فخري الفخري : وزيراً للأشغال والمواصلات .
١١ ـ سامي فتاح : وزيراً للشؤون الاجتماعية .

ممثل الفلاحين	:	نايف الحسن
ممثل العمال	:	كليبان صالح

وعطّلت الحكومة بعض الصحف .

وجرت الانتخابات النيابية في ٨ شوال ١٣٧٣هـ (٩ حزيران ١٩٥٤م) ، ولكن المجلس عُطّل قبل أن يجتمع ، رغم أن حزب الاتحاد الدستوري (حزب نوري السعيد) قد حصل على ٥١ مقعداً .

وحصل حزب الأمة الاشتراكي (حزب صالح جبر) على	٢١ مقعداً
وحصلت الجبهة الوطنية على [1] .	١٤ مقعداً
٦ الحزب الوطني الديمقراطي	
٢ حزب الاستقلال	
٦ باسم المنظمات	
وحصلت الجبهة الشعبية المتحدة على	١ مقعد
وحصل المستقلون على باقي المقاعد وهو	٤٨ مقعداً
	١٣٥ مقعداً

ومع هذه النتيجة فقد خافت الأسرة المالكة وأنصارها ، وعُطّل المجلس . وترك أرشد العمري استقالة حكومته على مكتبه وغادر العراق إلى استانبول . وأما السفير الإنكليزي فقد اتصل بالأمير عبد الإله ولي العهد ، وطلب زيارته وأثناء الزيارة أعلمه أن الأمر عقيم ، ويحتاج إلى نوري السعيد ، وطلب منه أن يلحق به إلى لندن ، ويرضيه ، ويطلب منه العودة إلى البلاد لاستلام الحكومة ، وسيعود ، وسيحلّ الأحزاب جميعها .

---

(١) منهم : كامل الجادرجي ، محمد حديد ، محمد مهدي كبه ، حسين جميل ، محمد صديق شنشل ، عبد الجبار جومرد ، خدوري خدوري ، ذا النون أيوب ، مسعود محمد ، جعفر البدر .

سافر الأمير عبد الإله إلى لندن بحجة الاستشفاء للالتقاء بنوري السعيد . وحاول هناك الأمير زيد سفير العراق في لندن أن يلتقيا ولكن دون جدوى ، ثم اتفقا على أن يكون اللقاء في باريس ، وتمّ اللقاء ، وجرى العتاب بحضور رئيس الديوان الملكي الذي طلب نوري السعيد استدعاءه ، وتم الاتفاق على استلام نوري للوزارة بشروط وقعها كل من : الأمير عبد الإله ، ونوري السعيد . ولكن الأمير عبد الإله قد شعر أن نوري السعيد هو رجل انكلترا ، وتريد إبرازه ، وإعطاء الأمير صورة صحيحة عن واقعه وواقع نوري السعيد ولذا كان خطاب السفير لعبد الإله : تأخذ غداً أول طائرة مسافرة إلى أوربا ، وتقابل نوري السعيد ، وتسترضيه ، وتعود معه إلى بغداد . . . إن نوري باشا سيعود ، ويحل الأحزاب جميعها بما فيها حزب الاتحاد الدستوري . ولقد أحسّ عبد الإله بالمرارة ، وشعر أنه دون نوري السعيد عند الإنكليز ، فإن القرارات متفق عليها دون علم الملك فيصل الثاني ، ومن غير معرفة عبد الإله .

رجع نوري السعيد إلى العراق ، وعُهد إليه بتشكيل الوزارة ، فشكّلها[1] في ٣ ذي الحجة ١٣٧٣هـ (٣ آب ١٩٥٤م) .

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي

١ ـ نوري السعيد : رئيساً للوزراء، وزيراً للدفاع .
٢ ـ محمد علي محمود : وزيراً للعدلية .
٣ ـ شاكر الوادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٤ ـ ضياء جعفر : وزيراً للمالية .
٥ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للزراعة .
٦ ـ عبد المجيد محمود : وزيراً للإعمار .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
٩ ـ موسى الشابندر : وزيراً للخارجية .
١٠ ـ محمد حسن سلمان : وزيراً للصحة .
١١ ـ خليل كنه : وزيراً للمعارف .
١٢ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات والأشغال .
١٣ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٤ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للدولة .
١٥ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للدولة .
١٦ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للدولة .

وزارة نوري السعيد الثانية عشرة : كان أول عمل بدأت به الحكومة حلّ المجلس النيابي ، وكان هذا شرط من الشروط التي طلبها نوري السعيد قبل تأليف الوزارة ، وحصل على موافقة الجهات العليا . ثم قام بحل حزبه (حزب الاتحاد الدستوري) ولما رأت الهيئة العليا لحزب الجبهة الشعبية المتحدة ذلك عطّلت أعمالها ، وجمّدت نشاطها .

أما حزب الأمة الاشتراكي الذي يرأسه صالح جبر الذي كان خارج البلاد فقد رأى نائبه عبد المهدي مقاطعة الانتخابات ، أما نائب الرئيس فقد رأى حلّ الحزب . ولما رجع صالح جبر اجتمعت الهيئة العليا للحزب . وفصلت نائب الرئيس توفيق وهبي ، كما فصلت كمال السنوي ، وفاضل معلّة ، وأعلنت مقاطعة الانتخابات .

وأما الحزب الوطني الديمقراطي فقد أعلن مقاطعة الانتخابات أيضاً ، فلم يبق من الأحزاب سوى حزب الاستقلال الذي قرّر خوض المعركة الانتخابية .

وحدّت الحكومة من نشاط النقابات ، وألغت أكثر الجمعيات والنوادي ، وعطّلت الصحف والمجلاّت ، وحرّمت الاجتماعات والمظاهرات ، فاحتجّت الأحزاب على هذه السياسة التعسفية ، فكان أن سحبت الحكومة إجازة الحزب الوطني الديمقراطي ، ثم أقدمت على حلّ الأحزاب جميعها .

جرت الانتخابات النيابية في ١٧ محرم ١٣٧٤هـ (١٤ أيلول ١٩٥٤م) ودُعي المجلس للاجتماع في ١٩ المحرم ، ثم عطّل مدة شهرين ونصف .

قطع العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي : رأى رئيس الحكومة نوري السعيد أن المفوضية السوفيتية في بغداد قد أصبحت وكراً للشيوعيين، لذا طلب من الحكومة السوفيتية إغلاق مفوضيتها في بغداد ، وفي الوقت نفسه سحب كافة العناصر العراقية التي تعمل في السلك السياسي في موسكو .

معمل تكرير النفط في الدورة : عملت الحكومة على إنشاء مصنع

لتكرير نفط الاستهلاك المحلي في (الدورة) جنوب بغداد حيث تستهلك هذه المنطقة ثلثي نفط الاستهلاك .

مؤتمر باندونغ: عقد المؤتمر الآسيوي الإفريقي الذي دعت إليه الدول الآتية : أندونيسيا ـ باكستان ـ بورما ـ الهند ـ سيرلانكا في أندونيسيا في مدينة باندونغ ، وقد اقترح الوفد العراقي بحث قضية فلسطين ، ولكن رفض ذلك رئيس وزراء بورما (أونو) الذي كان صديقاً لدولة اليهود ، كما رفض ذلك نهرو رئيس وزراء الهند بحجة عدم إثارة المشكلات ، فهدّد الوفد العراقي بالانسحاب من المؤتمر إن لم تدرج قضية فلسطين فاضطرت لجنة التنسيق إلى إدراج القضية ضمن أعمال المؤتمر الذي عقد في ٢٦ شعبان إلى ٢ رمضان ١٣٧٤هـ (١٨ ـ ٢٤ نيسان ١٩٥٥م) .

تعديل اتفاقيات النفط : عملت الحكومة على تعديل اتفاقيات النفط التي عُقدت في ٨ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (٣ شباط ١٩٥٢م) ، وقد زاد دخل البلاد من النفط بهذا التعديل حوالي عشرة ملايين ونصف من الدنانير .

الدفاع المشترك : جرت محاولات بعد الحرب العالمية الثانية لجرّ البلدان العربية إلى أحلافٍ ترمي عزل الاتحاد السوفيتي ، وقد تغلغلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى بعض البلدان العربية والمناطق المجاورة لها عن طريق قروض بنك الإنشاء والتعمير ، ومشروعات النقطة الرابعة حيث كانت تقدّم بعض المساعدات في سبيل تنفيذ مخططاتها .

اقترحت كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وانكلترا ، وفرنسا إقامة مشروع يهدف الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط حسب تسميتها ، وتشترك فيه كل الدول العربية و (إسرائيل) ، وجنوبي إفريقية ، ونيوزيلندا ، وقد رفض الشعب العربي في بلدانه المختلفة هذا المشروع لأنه يهدف إلى جعل هذه البلدان محطات للقوات الاستعمارية ، إضافةً إلى القواعد التي يملكها المستعمرون أو يسيطرون عليها ، هذا بالإضافة إلى ما يهدف هذا المشروع من

اعترافٍ بـ (إسرائيل) إذ تصبح القوات مشتركة في القواعد وغيرها . كما أن الروس سيحتجّون على هذا المشروع وعلى انضمام البلدان العربية إليه .

حلف بغداد : كان من شروط نوري السعيد قبل أن يُؤلّف الوزارةالاستغناء عن معاهدة ٤ صفر ١٣٤٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٣٠م) ، ولكن تساءل أمام حكومته ، وكبار الساسة ألا يجب أن نُؤمّن البديل ؟ والمعاهدة حكماً قد انتهت ، ولم يبق من آثارها سوى القاعدتين الجويتين في (الحبانية) و (الشعيبة) ، ويمكن السعي لدى بريطانيا للتنازل عنهما ، ولكن إن تنازلت عنهما ستبقى مرتبطةً بالواقع بالدفاع عن العراق ، وسنبقى بحاجةٍ إلى دعمها ، وهنا قد تشترط بريطانيا من أجل هذا الهدف ، أو تطلب إبقاء بعض الذخائر في مستودعاتها ، والسماح لطائراتها بالهبوط في هاتين القاعدتين ، وهذا أمر طبيعي لها . وقد احتجّ بما تمّ باتفاقية الجلاء التي تمّت مع مصر وانكلترا حيث خرجت انكلترا من قناة السويس ، واشترطت أن تعود إليها في حالة الاعتداء على البلدان العربية أو على تركيا ، وهذا ما جرى الحديث به ، عند تبادل زيارة الوفود بين مصر والعراق .

سافر نوري السعيد إلى لندن بحجة الاستشفاء ، واتصل بالمسؤولين البريطانيين ، وحصل على التعليمات اللازمة ، لإقامة حلف مع تركيا .

وسافر نوري السعيد بعدها إلى تركيا في ١٩ جمادى الأولى ١٣٧٤هـ (١٢ كانون الثاني ١٩٥٥م) ، وجرت هناك مباحثات مع رئيس الحكومة التركية عدنان مندريس . ثم زار بغداد وفد تركي برئاسة عدنان مندريس وبدأت المفاوضات بين الطرفين ، وقامت مظاهرات في كثيرٍ من الأماكن ضدّ هذه المفاوضات ، وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تشعل النيران ، وتنتقد المفاوضات ، والأحلاف حتى اضطر نوري السعيد أن يرجو عدنان مندريس في تأجيل التوقيع على الميثاق . وكان هناك حلف بين تركيا وباكستان .

اقترحت مصر طرد العراق من جامعة الدول العربية ، غير أن الأمين

العام قد أعلن أن (ميثاق التعاون المتبادل بين العراق وتركيا) إنما هو حلف دفاعي فقط ، على حين أن المعاهدة التركية ـ الباكستانية حلف دفاعي هجومي .

وقد تمّ التوقيع على الاتفاق في ٣ رجب ١٣٧٤هـ (٢٤ شباط ١٩٥٥م) ، وصادق عليه المجلس النيابي ، ووقفت سوريا ومصر والمملكة العربية السعودية موقف المعارض من هذا الاتفاق .

زار بغداد وفد بريطاني برئاسة انطوني إيدن رئيس الحكومة البريطانية في ١٠ رجب ١٣٧٤هـ (٣ آذار ١٩٥٥م) ، وانضمت بريطانيا إلى ميثاق التعاون (حلف بغداد) في١٢ شعبان ١٣٧٤هـ (٤ نيسان ١٩٥٥م) ، وفي ١١ رمضان ١٣٧٤هـ (٢ أيار ١٩٥٥م) تم تسليم القاعدتين الجويتين (الحبانية) و (الشعيبة) إلى العراق .

وانضمت باكستان إلى الحلف في ٦ صفر ١٣٧٥هـ (٢٣ أيلول ١٩٥٥م) ، وأخيراً انضمّت إيران في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٣ تشرين الثاني ١٩٥٥م) ، ولم تدخل الولايات المتحدة في الحلف علنياً لإظهار موقف الحياد بين الدول العربية التي لها فيها نفوذ ولكنها تختلف فيما بينها بشأن حلف بغداد .

وجرى الاجتماع الأول لأعضاء الحلف في بغداد في ٧ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٢١ تشرين الثاني ١٩٥٥م) واستمر يومين .

واشتدّ الهجوم الإعلامي على الحكومة من الخارج والنقد والمعارضة من الداخل ، فقدّم رئيسها نوري السعيد استقالتها في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ (١٧ كانون الأول ١٩٥٥م) ، فعهد إليه ثانيةً بتشكيل حكومة جديدة ، فألّفها في اليوم نفسه[1] .

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي : =

وزارة نوري السعيد الثالثة عشرة: رفعت المعارضة كتاباً إلى الملك تشكو فيه تصرّف حكومة نوري السعيد التي عزلت العراق عن بقية البلدان العربية ، وقتلت الحركة الوطنية ، وجرّت الدولة إلى الأحلاف العسكرية ، إضافةً إلى الأغلال التي تقيد بها الشعب ، وهذا ما جعل وضع العراق ينحدر ، وسيستمر الانحدار حتى تتخلّى الوزارة الحالية عن الحكم . وقد وقّع الكتاب كامل الجادرجي ، ومحمد مهدي كبة ، ومحمد حديد ، وفائق السامرائي ، ومحمد صديق شنشل وحسين جميل ، وهم أعضاء في الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الاستقلال .

ومنعت الحكومة إعطاء تأشيرات للمحامين للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر المحامين العرب الذي كان مقرراً أن يعقد في ٢١ رجب ١٣٧٥هـ (٣ آذار ١٩٥٦م) ، وكان هذا المؤتمر يعقد سنوياً في إحدى العواصم العربية .

اتفق حزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال على الاندماج وتشكيل حزب واحد باسم حزب المؤتمر الوطني ، وتقدّما بطلب لممارسة النشاط الذي منعا منه ، غير أن الطلب قد رفض ، واستأنف حزب المؤتمر الوطني الدعوى فلم يُوفّق غير أن هيئة الحزب قد أخذت تمارس نشاطها .

وأنجدت الحكومة الأردن ، وأرسلت له قوات لترابط على أرضه لردع الاعتداءات اليهودية التي تكررت على الأرض الأردنية .

= ١ ـ نوري السعيد : رئيس الوزراء، وزير الدفاع بالوكالة .
٢ ـ أحمد مختار بابان: نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ ضياء جعفر : وزيراً للإعمار .
٤ ـ خليل كنه : وزيراً للمالية .
٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الرسول الخالصي: وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
٩ ـ برهان الدين باش أعيان: وزيراً للخارجية .
١٠ ـ صالح صائب الجبوري: وزيراً للمواصلات .
١١ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ عبد الجبار التكرلي: وزيراً للعدلية .
١٣ ـ منير القاضي: وزيراً للمعارف .
١٤ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

محاولة مدّ النفوذ الأمريكي: فقدت انكلترا الكثير من نفوذها في المنطقة العربية بعد العدوان الثلاثي على مصر ، والذي اشتركت فيه مع كل من فرنسا، ودولة اليهود. وقد تدخّلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لوقف هذا العدوان ، فأخذ النفوذ الأمريكي في التوسع ، وربما كان العدوان الثلاثي بالأصل لعبةً أمريكية لتحقيق هذا الهدف الذي وصلت إليه ، وهو تراجع النفوذ الإنكليزي ليحلّ محلّه النفوذ الأمريكي ، أو ليأخذ بالتسرّب والتغلغل في البلدان العربية .

ادّعى الرئيس الأمريكي (إيزنهاور) أنه قد حدث فراغ في (الشرق الأوسط) بعد انحسار النفوذ الإنكليزي ، ويجب على الولايات المتحدة أن تملأ هذا الفراغ قبل أن يملأه الاتحاد السوفيتي ، ولهذا قدّم مشروعاً إلى الكونغرس في ٤ جمادى الآخرة ١٣٧٦هـ (٥ كانون الثاني ١٩٥٧م) لأخذ الموافقة عليه ، ويتضمّن هذا المشروع أربع نقاط :

١ ـ ترى الولايات المتحدة أن استتباب السلام في الشرق الأوسط ، كما هو في أوربا الغربية وفورموزا أمر حيوي بالنسبة لها .
٢ ـ مطالبة الكونغرس باتخاذ قرار بشأن استخدام القوات المسلحة الأمريكية في الشرق الأوسط عند الضرورة .
٣ ـ إن مثل هذا القرار سيمنع الاتحاد السوفيتي من القيام بأي عملٍ عدواني في هذه المنطقة .
٤ ـ ستتوفر للشرق الأوسط درجة معقولة من الاستقرار ، حيث حلّ المشكلات السياسية للمنطقة .

أرسلت العراق بعثةً[1] إلى الولايات المتحدة لمعرفة أهداف هذا المشروع

---

(١) كانت البعثة برئاسة ولي العهد الأمير عبد الإله ، وعضوية كل من رؤساء الوزراء السابقين : جميل المدفعي ، علي جودت الأيوبي ، صالح جبر ، ومن نائب رئيس الوزراء أحمد مختار بابان ، واللواء غازي الداغستاني ، ومرض جميل المدفعي فاختير مكانه توفيق السويدي .

وتفاصيله . ودعا الوفد العربي أمريكا للاعتراف بحقوق العرب في فلسطين ، وجلاء إسرائيل عن سيناء ، ودعوة الولايات المتحدة للانضمام إلى حلف بغداد ، وتسليح الجيش العراقي ، ومرّ الوفد أثناء سفره بلندن ، فكان هذا موضع نقد شديد . وكان قد حذّر من هذا الوزير المفوض العراقي في لندن طارق العسكري .

أرسل الرئيس الأمريكي (ايزنهاور) مبعوثه الخاص (ريتشاردز) على رأس وفد خبير لتوضيح المشروع ، فدعت الحكومة العراقية هذا المبعوث مع الوفد المرافق له لزيارتها . وصدر بيان مشترك عن تلك الزيارة .

الاتصال مع المعارضة السورية : بعد أن عملت العراق على الإطاحة بحكم العقيد أديب الشيشكلي . أخذ الأمير عبد الإله يتصل به ، ويعمل معه للإطاحة بالحكم القائم ، وبعث له رئيس الأركان اللواء غازي الداغستاني مع ثلاثين ألف دينار إلى لبنان الذي أصبح يتردّد إليها أديب الشيشكلي ، غير أن غازي الداغستاني لم يكن يثق بأديب الشيشكلي كما يثق به عبد الإله ، ولأنه كان يسير قبل مدة في فلك غير الفلك الذي يجري فيه الساسة العراقيون يومذاك ، ولم تدفعه نحو العراق سوى المصلحة الآنية ، لذا فقد سلّم غازي الداغستاني لأديب الشيشكلي عشرة آلاف دينار ، وأودع الباقي وهو عشرون ألف دينار في خزانة السفارة العراقية في بيروت . وأصبح غازي الداغتساني يتردد بين بيروت وبغداد ينقل آراء وأخبار الساسة السوريين الهاربين إلى لبنان إلى القادة العراقيين ، وكانت ترسل الأسلحة والأموال إلى داخل سوريا ، غير أن السلطات السورية قد وضعت يدها عليها ، وقدّمت إلى المحكمة بعض الرجال ، وقضت بالإعدام حضورياً على بعضهم[1] . وبعدها أخذت

---

(١) كانت الخطة تقضي بجمع الأسلحة في محطة هـ٣ ، وتشكيل سرايا الحدود ، وتطويع البدو المسرّحين من الجيش الأردني ، وتسليح العشائر السورية ، ومدّ الذين يعيشون خارج سوريا بالمال والسلاح. وعمل إنكلترا لدى إسرائيل للقيام باعتداءاتٍ على سوريا، ويحشد الجيش =

البرقيات تتوالى لعدة دول لتتوسط دون تنفيذ هذه الأحكام .

العدوان الثلاثي على مصر : قامت انكلترا ، وفرنسا ، وإسرائيل بالعدوان على مصر في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م) وطالبت الأمم المتحدة الحكومات المتقاتلة وقف إطلاق النار فوراً ، ولكن انكلترا وفرنسا لم تستجيبا لهذا الطلب ، واقترح الاتحاد السوفيتي على الولايات المتحدة إجراء عمل مشتركٍ لوقف القتال ، فرفضت الولايات المتحدة هذا الطلب وعمل الاتّحاد السوفيتي منفرداً ، وتقدّم بإنذاره إلى الرئيس الأمريكي إيزنهاور في ٢٣ جمادى الآخرة (٥ تشرين الثاني) وأمام هذا التحدي قطعت الولايات المتحدة مساعداتها عن إسرائيل ، وعطّلت المصالح البريطانية والفرنسية في بلادها ، وضغطت على الإنكليز والفرنسيين لوقف القتال فوراً ، فاضطروا إلى الانصياع .

احتجت الحكومة العراقية على اعتداء الحكومتين الفرنسية والبريطانية على عدوانهما ، واستعدت وزارة الدفاع لمساعدة الأردن فيما إذا جرى اعتداء إسرائيلي عليها ، وأعلنت الحكومة العراقية الأحكام العرفية .

كانت الولايات المتحدة تهدف من وراء العدوان الثلاثي إلى إضعاف النفوذ الإنكليزي والفرنسي كي تحلّ محلهما ، ومن هذا الهدف كان التخطيط ، وكانت اللعبة فخسرت الدولتان بالعدوان ، وربحت الولايات المتحدة بالعمل على وقف العدوان .

قام الطلاب في العراق بمظاهرات احتجاجاً على العدوان ، واستنكاراً

= العراقي في الأردن ليقف في وجه التحرّشات اليهودية على الأردن ، ثم يدخل سوريا بحجة مساعدتها ضد اليهود ، كما تتدخل تركيا في الموضوع . وقد حكمت المحكمة بالإعدام وجاهياً على : هايل سرور ، سامي كبارة ، عدنان الأتاسي ، صبحي العمري ، حسن الحكيم . وغيابياً على : محمد معروف ، محمد صقر ، صلاح الشيشكلي ، سعيد تقي الدين ، ميخائيل اليان ، حسن الأطرش ، وشكيب وهاب .

لهذه الاعتداءات الوحشية . ولم تجد تحذيرات الحكومة التي قررت بعد ذلك تأجيل الدراسة في المدارس الثانوية ، والمتوسطة ، والصناعية والتجارية والفنية ودور المعلمين والمعلمات ، كما طُرد بعض الطلاب . وأعقب ذلك قيام مظاهرات في مدينة (النجف) استنكاراً للعدوان الثلاثي . وتكررت المظاهرات في اليوم التالي ، واستمرت أسبوعاً كاملاً ، وتصدّت لها الشرطة ، ووقعت أحداث مؤسفة ، ثم انتقلت المظاهرات من مدينة (النجف) في الجنوب إلى الألوية الشمالية (الموصل ، وكركوك ، واربيل ، والسليمانية) . وكانت الاحتجاجات ، وجرت الاعتقالات ، وإعدامات ، وأحكام أخرى جائرة[1] .

اتهمت الحكومة العراقية بأن النفط العراقي كان يتدفّق ضمن الأنابيب ، المعلن عنها أنها مقطوعة ، إلى مصفاة حيفا ، وأن الطائرات البريطانية كانت تتزود من القواعد في العراق ، وأن الجرحى الانكليز كانوا ينقلون إلى المستشفيات العراقية .

ورفعت عرائض إلى الملك مباشرة من السياسيين ، ومن الأساتذة ، ومن نقابة المحامين احتجاجاً على سياسة الحكومة العراقية برئاسة نوري السعيد . كما رفع عريضة رؤساء الوزارات السابقة ، والأعيان ، والنواب وأصحاب التجارة والأموال .

وأخيراً ألغيت الأحكام العرفية في ٢٨ شوال ١٣٧٦هـ (٢٨ أيار

(١) أُعدم عطا مهدي الدباس ، وعلي الشيخ حمود شنقاً .
وحكم المجلس العرفي على كامل الجادرجي بالسجن الشديد ثلاث سنوات . وعلى فائق السامرائي ، ومحمد صديق شنشل بالمراقبة لمدة سنة ، وعلى حسين جميل وسامي باش عالم بكفالة مقدارها خمسة آلاف دينار لمدة سنة ، وقد سجن كامل الجادرجي مباشرةً ، وأبعد (فائق السامرائي) إلى (حلبجة) و (محمد صديق شنشل) إلى (قلعة وزه) . كما أُبعد عميد كلية الحقوق (عبد الرحمن البزاز) إلى (بنجوين) ومعه كل من : جابر عمر ، ومحمد علي البصام ، وفيصل الوائلي ، وحسن الدجيلي ، ثم نقلوا إلى تكريت .

١٩٥٧م) . ثم قُبلت استقالة الحكومة في ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ (٢٠ حزيران ١٩٥٧م) .

عهد الملك إلى علي جودت الأيوبي بتأليف وزارةٍ جديدةٍ[1] أملاً في أن يخفّ ضغط الهجوم على العراق . فقد كانت إذاعات دمشق والقاهرة وعمان وغيرها تقيم النكير على الحكومة العراقية لسيرها في ركاب الاستعمار البريطاني . وقد عملت هذه الحكومة منذ تسلّمها السلطة على تحسين العلاقات مع بعض الدول العربية . فقد زار الملك حسين ملك الأردن بغداد وصدر بيان مشترك . وقدّمت العراق هديةً للجيش الأردني قوامها ست طائرات عراقية كانت تستعمل للتدريب والقتال .

قدّم الساسة العراقيون عريضة للحكومة الجديدة يطلبون فيها الإفراج عن المحكومين ومنهم كامل الجادرجي ، وإعادة الأساتذة والطلاب المفصولين ، وحرية التنظيم الحزبي والنقابي ، وحرية الصحافة والسماح للصحف العربية بالدخول إلى العراق .

وكانت أمريكا تُردّد دائماً أن النفوذ الشيوعي قد ازداد في سوريا وأن على العراق تدارك الوضع ، وكذا تركيا ، وكانت أمريكا ترغب في التدخّل العراقي

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ علي جودت الأيوبي : رئيساً لمجلس الوزراء .
٢ ـ علي ممتاز الدفتري : وزيراً للمالية ، وزيراً للخارجية بالوكالة .
٣ ـ أحمد مختار بابان : وزيراً للدفاع ، وزيراً للمعارف بالوكالة .
٤ ـ عبد الوهاب مرجان : وزيراً للمواصلات والأشغال .
٥ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للاقتصاد ، وزيراً للاعمار بالوكالة .
٦ ـ سامي فتاح : وزيراً للداخلية .
٧ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية .
٨ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
٩ ـ جمال عمر نظمي : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ أركان عبادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
١١ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

في سوريا ، وتُشجّعه ، وتجد المبررات له ، ويُؤيّد ذلك ولي العهد عبد الإله ، كما تُشجّع تركيا لتحشد جيوشها على الحدود السورية ليتسنى للعراق دخول سوريا عسكرياً بسهولة . وكان هندرسون مبعوث الرئيس الأمريكي ايزنهاور يتنقل في المنطقة ، ويُحرّض على العمل ضد سوريا التي توسّع فيها النفوذ الشيوعي .

اقترح رئيس الحكومة علي جودت الأيوبي حل المجلس النيابي ، فلم يُسمع إليه ، وكرر الطلب فلم يلتفت إلى هذا الطلب فقرر لذلك الانسحاب من المسؤولية ، وقدّم استقالة حكومته في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٧٧هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩٥٧م) ولكن طلب منه الاستمرار في تسيير شؤون الدولة ريثما يتم تأليف حكومة جديدةٍ .

عهد الملك إلى عبد الوهاب مرجان في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ (١٤ كانون الأول ١٩٥٧م) بتشكيل حكومة تخلف حكومة علي جودت الأيوبي المستقيلة .

شكّل عبد الوهاب مرجان الوزارة في ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ (١٥ كانون الأول ١٩٥٧م)(١) . ولم تلبث أن قامت الوحدة بين سوريا ومصر في ١١ رجب ١٣٧٧هـ (١ شباط ١٩٥٨م) وكان لهذا الحدث وقعه السيء في العراق والأردن واقترح وزير الخارجية البريطانية (سلوين لويد) إقامة اتحاد

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الوهاب مرجان : رئيساً للوزراء ، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للمالية .
٣ ـ عبد الرسول الخالصي : وزيراً للعدلية .
٤ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للخارجية .
٥ ـ محمد مشنحن الحردان : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف .
٨ ـ أركان عبادي : وزيراً للشؤون الاجتماعية .
٩ ـ سامي فتاح : وزيراً للداخلية .
١٠ ـ صالح صائب : وزيراً للإعمار .
١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ محمود بابان : وزيراً للصحة .
١٣ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .
١٤ ـ جواد الخطيب : وزيراً للدولة .
١٥ ـ عز الدين الملا : وزيراً للدولة .

بين العراق والأردن . فأوفد الملك حسين ملك الأردن وزير البلاط سليمان طوقان إلى بغداد يحمل رسالةً إلى الملك فيصل ملك العراق يدعوه فيها أن يتوجّه هو وولي عهده وبعض وزرائه إلى عمان للنظر في موضوع الاتحاد ، فلبّوا الدعوة[1] وجاءوا إلى عمان في ٢١ رجب وبدأت المفاوضات مع الوفد الأردني[2] .

اشترط الوفد الأردني لتحقيق الاتحاد انسحاب العراق من حلف بغداد حيث لا يمكن الاتحاد بين دولتين إحداهما ضمن حلف والأخرى بعيدة عنه ، ولكن الأمير عبد الإله الذي لم تكن عنده تلك الحماسة لهذا الاتحاد ، أجاب : إن الخروج من حلف بغداد غير ممكن ، لأنه يُشكّل الضمان الرئيسي لكيان العراق . وأخيراً اتفق الطرفان على أن تبقى العراق في حلف بغداد والأردن خارج ذلك الحلف ، وتستمر الحكومة الأردنية الهاشمية أيضاً على التزاماتها باتفاقية الهدنة مع (إسرائيل) ، ولا علاقة للعراق بها . وتمّ الاتفاق على ما يأتي :

١ ـ ينشأ اتحاد عربي بين المملكة العراقية والمملكة الأردنية الهاشمية باسم (الاتحاد العربي) اعتباراً من يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٣٧٧هـ الموافق ١٤ شباط ١٩٥٨م ، ويكون هذا الاتحاد مفتوحاً للدول العربية الأخرى التي ترغب بالانضمام إليه .

---

(١) كان الوفد المرافق للملك فيصل وولي عهده مؤلفاً من : وزير الخارجية برهان الدين باش أعيان ، ووزير المالية نديم الباجه جي ، ووزير العدلية عبد الرسول الخالصي ، ورئيس أركان الجيش رفيق عارف ، ورئيس الديوان الملكي عبد الله بكر ، ثم انضمّ إليهم توفيق السويدي عضو مجلس الأعيان ، وانضمّ إلى الوفد في عمان سفير العراق بهاء الدين نوري .

(٢) ضمّ الوفد الأردني رئيس الوزراء إبراهيم هاشم ، ونائب رئيس الوزراء وزير الخارجية سمير الرفاعي ، ووزير البلاط سليمان طوقان ، ووزير الاقتصاد الوطني خلوصي الخيري ، ووزير التربية والتعليم والعدلية أحمد الطراونة ، ورئيس الديوان الملكي الهاشمي بهجت التلهوني ، ووزير الدفاع عاكف الفايز ، والسفير الأردني في العراق فرحان شبيلات ، ورئيس أركان الجيش العربي الأردني حابس المجالي ، ومعاون رئيس الأركان صادق الشرع .

٢ ـ تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتها الدولية المستقلة ، وبسيادتها على أراضيها ، وبنظام الحكم القائم فيها .

٣ ـ تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التي سبق أن ارتبطت بها كل من الدولتين قبل قيام الاتحاد بينهما مرعيةً بالنسبة إلى الدولة التي عقدتها وغير ملزمة للدولة الأخرى . أما المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات الدولية التي ستعقد بعد قيام الاتحاد والتي تدخل ضمن موضوعات الاتحاد ، فمن اختصاص وسلطة حكومة الاتحاد .

٤ ـ اعتباراً من تاريخ الإعلان الرسمي لقيام الاتحاد تُنفَّذ إجراءات الوحدة الكاملة بين دولتي الاتحاد في الأمور الآتية :

أ ـ وحدة السياسة الخارجية والتمثيل السياسي .

ب ـ وحدة الجيش الأردني والعراقي (الجيش العربي) .

جـ ـ إزالة الحواجز الجمركية بين الدولتين وتوحيد القوانين الجمركية .

د ـ توحيد مناهج التعليم .

٥ ـ يتفق الطرفان بأسرع وقت على اتخاذ الإجراءات اللازمة لتوحيد النقد ، وتنسيق السياسة المالية والاقتصادية بين الدولتين .

٦ ـ عندما تقضي الضرورة ومصلحة الاتحاد توحيد أي أمرٍ من الأمور الأخرى غير الواردة في المادة الرابعة تتخذ الإجراءات اللازمة بموجب دستور الاتحاد لإدخال ذلك الأمر ضمن اختصاص وسلطات حكومة الاتحاد .

٧ ـ يكون علم الثورة العربية علم الاتحاد ، وعلماً لكل من الدولتين .

٨ ـ أ ـ تتولّى شؤون الاتحاد حكومة اتحادية مؤلفة من مجلسٍ تشريعيٍ ، وسلطةٍ تنفيذيةٍ .

ب ـ ينتخب كل من مجلس الأمة العراقي والأردني أعضاء المجلس التشريعي من بين أعضائهما بعددٍ متساوٍ لكلٍ من الدولتين .

د ـ يعيّن أعضاء السلطة التنفيذية وفق أحكام دستور الاتحاد لتولّي الأمور التي تدخل ضمن اختصاص حكومة الاتحاد .

٩ ـ يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد ، وفي حالة غيابه لسبب من

الأسباب يكون ملك الأردن رئيس حكومة الاتحاد ، ويحتفظ كل من الملكين بسلطاته الدستورية في مملكته ، وعند انضمام دولةٍ أخرى إلى الاتحاد ، يعاد النظر في وضع رئاسة الاتحاد حسب مقتضيات الأمور .

١٠ ـ يكون مقر حكومة الاتحاد بصورةٍ دوريةٍ في بغداد لمدة ستة أشهر من السنة وفي عمان ستة أشهر أخرى .

١١ ـ أ ـ تضع حكومة الاتحاد دستوراً للاتحاد وفق الأسس المبنية في هذا الاتفاق ، ويعدل دستور كل من الدولتين إلى المدى والحدود التي تقتضيها أحكام دستور الاتحاد .

ب ـ تتخذ التدابير والإجراءات اللازمة لإقامة حكومة الاتحاد ووضع دستور الاتحاد خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع هذا الاتفاق .

١٢ ـ يبرم هذا الاتفاق وفق الأصول الدستورية لكل من الدولتين .

وصادق المجلسان على مشروع الاتحاد العربي بالإجماع .

ولم تكن دول حلف بغداد راضية عن هذا الاتحاد .

وكان رئيس الحكومة العراقية عبد الوهاب مرجان يخالف ولي العهد والملك في تدخل الجيش العراقي في شؤون سوريا ، وهذا ما دعا إلى إقالته بعد الانتهاء من مشروع الاتحاد ، فقدم استقالته في ١٠ شعبان ١٣٧٧هـ (٢ آذار ١٩٥٨م) .

وزارة نوري السعيد الرابعة عشرة : عهد الملك إلى نوري السعيد بتشكيل وزارةٍ جديدةٍ إذ أن الظروف تقضي أن يكون على رأس السلطة لأنه يملك أكثريةً في المجلس النيابي ، كما أن المرحلة مهمة إذ سيتم فيها وضع دستور الاتحاد . وشكّل نوري السعيد[1] الوزارة في ١١ شعبان ١٣٧٧هـ (٣

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

آذار ١٩٥٨م) ، وكانت مهمة هذه الوزارة حلّ المجلس النيابي وإجراء الانتخابات ، ووضع دستور الاتحاد . وقد تمت هذه المهمات ، وكان التدخّل في الانتخابات مكشوفاً حتى نجح ١١٨ نائباً بالتزكية من أصل ١٤٨ نائباً ، واجتمع المجلس، وأقرّ لائحة تعديل الدستور العراقي ، ومشروع دستور الاتحاد . وقد رفعت عريضة من كبار ساسة العراق إلى رئيس الحكومة تبين له خطأ مساره في تفرقة الصف العربي .

جبهة الاتحاد الوطني : كان النقد شديداً للحكومة العراقية نتيجة موقفها من العدوان الثلاثي على مصر ، وهذا ما قرّب من زعماء الأحزاب بعضهم من بعض ، وتشكلت الجبهة الوطنية المتحدة التي تمثّل أربعة أحزاب هي : حزب الاستقلال ، والوطني الديمقراطي ، والبعث ، والشيوعي[1] . وكانت الجبهة تهدف إلى :

١ ـ حلّ المجلس النيابي . وتنحية نوري السعيد .

٢ ـ الخروج من حلف بغداد ، وتوحيد سياسة العراق مع سياسة البلدان العربية المتحررة .

٣ ـ مقاومة التدخل الاستعماري بشتى أشكاله ومصادره ، وانتهاج سياسة عربيةٍ

= ١ ـ نوري السعيد: رئيساً للوزراء،وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ توفيق السويدي : نائباً لرئيس الوزراء.
٣ ـ محمد فاضل الجمالي: وزيراً للخارجية .
٤ ـ جميل عبد الوهاب: وزيراً للعدلية .
٥ ـ ضياء جعفر : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الكريم الأزري: وزيراً للمالية .
٧ ـ سعيد قزاز : وزيراً للداخلية .
٨ ـ سامي فتاح : وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٩ ـ محمد مشحن الحردان: وزيراً للزراعة .
١٠ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف .
١١ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة .
١٢ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات .
١٣ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للإعمار .
١٤ ـ برهان الدين باش أعيان: وزيراً للدولة .
١٥ ـ محمود بابان : وزيراً للدولة .
١٦ ـ رابح عطية : وزيراً للدولة .

(١) مثّل الحزب الوطني الديمقراطي محمد حديد ، والاستقلال محمد مهدي كبه ، والبعث فؤاد الركابي فلما اعتقل مثل الحزب شمس الدين كاظم ، والشيوعي عزيز الشيخ ، فلما اعتُقل مثّل الحزب كمال عمر نظمي .

مستقلة أساسها الحياد الإيجابي .

٤ ـ إطلاق الحريات العامة .

٥ ـ إلغاء الإدارة العرفية ، وإطلاق سراح السجناء السياسيين ، وإعادة المدرسين والموظفين والطلاب المفصولين .

تتابعت لقاءات ممثلي الأحزاب ، وقرروا استخدام مطبعة الحزب الشيوعي السرية المهيأة تماماً من موسكو ، وتألّفت اللجنة العليا لجبهة الاتحاد الوطني ، وأصدرت بيانها الأول في ١٧ شعبان ١٣٧٧هـ (٩ آذار ١٩٥٨م) ، وأصبح لهذه الجبهة لجان رئيسية في معظم الألوية ، ولجان أصغر منها في الأطراف . وأخذت الجبهة تتصل بالعسكريين . وكان واسطة الاتصال العقيد رجب عبد المجيد الذي يتصل بحزب الاستقلال .ورشيد مصلح الذي يتصل بالوطنيين الديمقراطيين .

مشروع دستور الاتحاد : في ٢٥ شعبان ١٣٧٧هـ جاء وفد أردني[١] لإجراء المباحثات الخاصة بوضع دستور الاتحاد بين العراق والأردن ، والتقى بوفد الحكومة العراقية[٢] ، وبعد سلسلة من الاجتماعات وضعت الصيغة النهائية لمشروع الدستور الذي سيعرض على مجلس الأمة في كل من الدولتين .

اقترح السفير البريطاني في العراق على نوري السعيد أن تتحمل العراق المعونة المالية السنوية التي تقدمها بريطانيا للأردن .

وكان رئيس الحكومة العراقية نوري السعيد يرى أن تنضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي بعد حصولها على الاستقلال ، كي تدعمه بإمكاناتها المالية ، وقد

---

(١) كان الوفد الأردني برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية سمير الرفاعي وعضوية كل من : وزير الاقتصاد خلوصي الخيري ، ووزير المعارف والعدلية أحمد الطراونة ، ووزير الدفاع والزراعة عاكف الفايز ، ورئيس أركان الجيش حابس المجالي وعددٍ من الإخصائيين .

(٢) كان الوفد العراقي برئاسة نائب رئيس مجلس الوزراء توفيق السويدي ، وعضوية كل من : وزير الخارجية محمد فاضل الجمالي ، ووزير المالية عبد الكريم الأزري ، ووزير العدلية جميل عبد الوهاب ، ووزير الدولة برهان الدين باش أعيان ، وعدد من الإخصائيين .

عرض الأمر على وزير الخارجية البريطانية الذي رفع الرأي بدوره إلى مجلس الوزراء البريطاني فلم يعارض ذلك ، وأخبر السفير البريطاني وزير خارجية الاتحاد أن الأمر سيبحث في لندن بعد حصول الكويت على الاستقلال ، وذلك في (٢٤ تموز ١٩٥٨م) ، ولكن الثورة وإعلان الجمهورية قد تمّ قبل هذا التاريخ بعشرة أيام .

انتهت مهمة حكومة نوري السعيد بإجراء الانتخابات ، واجتماع المجلس ، وتعديل الدستور العراقي ، ووضع دستور الاتحاد العربي فقدّم رئيسها استقالتها في ٢٥ شوال ١٣٧٧هـ (١٤ أيار ١٩٥٨م) .

عهد الملك إلى أحمد مختار بابان بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ تخلف الحكومة المستقيلة فشكلها[1] في الأول من ذي القعدة من عام ١٣٧٧هـ (١٩ أيار ١٩٥٨م) .

كانت الأحداث في لبنان قد تأزّمت واشتدت المعارضة بل الثورة على رئيس جمهورية لبنان كميل شمعون ، وكانت الجمهورية العربية المتحدة تشدّ من أزر المعارضة ، أما الحكومة العراقية فقد وقفت مؤيدة لنظام الحكم القائم في لبنان ، وكانت الإذاعات تهاجم بعضها بعضاً ، ويشعر العراقيون بارتياح لما تردّده إذاعات الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة ودمشق ، ويرون فيما تبثّه إذاعة بغداد جفافاً وكلاماً مكروراً فيه مغالطات واتهامات لا فائدة منها سوى

---

(١) تمّ تشكيل الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد مختار بابان : رئيساً للوزراء . ٨ ـ رشدي الجلبي : وزيراً للاقتصاد .
٢ ـ سعيد القزاز : وزيراً للداخلية . ٩ ـ صالح صائب : وزيراً للمواصلات والأشغال.
٣ ـ نديم الباجه جي : وزيراً للمالية . ١٠ ـ برهان الدين باش أعيان : وزيراً للأنباء والتوجيه .
٤ ـ جميل عبد الوهاب : وزيراً للعدلية . ١١ ـ جميل الأورفلي : وزيراً للزراعة .
٥ ـ ضياء جعفر : وزيراً للإعمار . ١٢ ـ صادق كمونة : وزيراً للشؤون الاجتماعية.
٦ ـ عبد الحميد كاظم : وزيراً للمعارف. ١٣ ـ محمود بابان : وزيراً للدولة .
٧ ـ عبد الأمير علاوي : وزيراً للصحة . ١٤ ـ عبد الجبار التكرلي : وزيراً للدولة .
١٥ ـ علي الشرقي : وزيراً للدولة .

التشويش وتفرقة الصف . وقد عملت حكومة أحمد مختار بابان على وقف الهجوم على الجمهورية العربية المتحدة ، والتعليق على الأنباء . ولكن نتيجة أوضاع لبنان كانت قد أدت إلى نزول القوات الأمريكية في لبنان والقوات الإنكليزية في الأردن .

وفي اليوم نفسه الذي تشكّلت فيه الحكومة العراقية برئاسة أحمد مختار بابان تشكلت حكومة الاتحاد العربي برئاسة نوري السعيد ، وكانت كالآتي :

١ نوري السعيد : رئيساً لوزارة الاتحاد .
٢ ـ إبراهيم هاشم : نائباً لرئيس الوزراء .
٣ ـ توفيق السويدي : وزيراً للخارجية .
٤ ـ خلوصي الخيري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٥ ـ سليمان طوقان : وزيراً للدفاع .
٦ ـ سامي فتاح : وزير دولة لشؤون الدفاع .
٧ ـ عبد الكريم الأزري : وزيراً للمالية .

عُيِّن الفريق الركن محمد رفيق عارف رئيس أركان الجيش العراقي قائداً عاماً لقوات دولة الاتحاد العربي ، وعُيِّن الفريق حابس المجالي قائداً لقوات الاتحاد في الشطر الأردني .

تألف مجلس الاتحاد من أربعين عضواً ، من كل دولة عشرون عضواً . ورفع علم الاتحاد على وزارتي الدفاع والخارجية ، ورفعت الجوازات بين الدولتين ، كما ألغيت سفارات البلدين فيهما ، وأصبح موظفو السلك الخارجي ، وموظفو وزارة الدفاع في كلا الدولتين مرتبطين بحكومة الاتحاد العربي بدءاً من ١٤ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (الأول من تموز ١٩٥٨م) .

وأصبحت مدينة عمان مقراً لدولة الاتحاد للأشهر الستة الأولى . واعترفت الحكومة البريطانية بدولة الاتحاد العربي ثم تلاها الاعترافات الأخرى .

الوزارات في عهد الملك فيصل الثاني(٢)

١ ـ وزارة جميل المدفعي الخامسة :	٩ جمادى الأولى ١٣٦٠ ـ ١٩ رمضان ١٣٦٠هـ . (٣ حزيران ١٩٤١ ـ ٩ تشرين الأول ١٩٤١م) .
٢ ـ وزارة نوري السعيد السادسة :	١٩ رمضان ١٣٦٠ ـ ٢٧ رمضان ١٣٦١هـ . (٩ تشرين الأول ١٩٤١ ـ ٨ تشرين الأول ١٩٤٢م) .
٣ ـ وزارة نوري السعيد السابعة :	٢٧ رمضان ١٣٦١ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٢هـ . (٨ تشرين الأول ١٩٤١ ـ ٢٥ كانون الأول ١٩٤٣م) .
٤ ـ وزارة نوري السعيد الثامنة :	٢٧ ذي الحجة ١٣٦٢ ـ ١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣هـ . (٢٥ كانون الأول ١٩٤٣ ـ ٣ حزيران ١٩٤٤م) .
٥ ـ وزارة حمدي الباجه جي الأولى :	١١ جمادى الآخرة ١٣٦٣ ـ ٩ رمضان ١٣٦٣هـ . (٣ حزيران ١٩٤٤ ـ ٢٨ آب ١٩٤٤م) .
٦ ـ وزارة حمدي الباجه جي الثانية :	١٠ رمضان ١٣٦٣ ـ ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥هـ. (٢٩ آب ١٩٤٤ ـ ٢٣ شباط ١٩٤٦م) .
٧ ـ وزارة توفيق السويدي الثانية :	٢٢ ربيع الأول ١٣٦٥ ـ ٢ رجب ١٣٦٥هـ . (٢٣ شباط ١٩٤٦ ـ ١ حزيران ١٩٤٦م) .
٨ ـ وزارة أرشد العمري الأولى :	٢ رجب ١٣٦٥ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥هـ . (١ حزيران ١٩٤٦ ـ ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦م) .
٩ ـ وزارة نوري السعيد التاسعة :	٢٧ ذي الحجة ١٣٦٥ ـ ٧ جمادى الأولى ١٣٦٦هـ . (٢١ تشرين الثاني ١٩٤٦ ـ ٢٩ آذار ١٩٤٧م) .
١٠ ـ وزارة صالح جبر الأولى :	٧ جمادى الأولى ١٣٦٦ ـ ١٨ ربيع الأول ١٣٦٧هـ . (٢٩ آذار ١٩٤٧ ـ ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨م) .

١١ ـ وزارة محمد الصدر :	١٨ ربيع الأول ١٣٦٧ ـ ١٥ شعبان ١٣٦٧هـ . (٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ ـ ٢٣ حزيران ١٩٤٨م) .
١٢ ـ وزارة مزاحم الباجه جي :	١٨ شعبان ١٣٦٧ ـ ٦ ربيع الأول ١٣٦٨هـ . (٢٦ حزيران ١٩٤٨ ـ ٦ كانون الثاني ١٩٤٩م) .
١٣ ـ وزارة نوري السعيد العاشرة :	٦ ربيع الأول ١٣٦٨ ـ ١٧ صفر ١٣٦٩هـ . (٦ كانون الثاني ١٩٤٩ ـ ٩ كانون الأول ١٩٤٩م) .
١٤ ـ وزارة علي جودت الأيوبي الثانية :	١٨ صفر ١٣٦٩ ـ ١٧ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ . (١٠ كانون الأول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠م) .
١٥ ـ وزارة توفيق السويدي الثالثة :	١٧ ربيع الثاني ١٣٦٩ ـ ٣ ذي الحجة ١٣٦٩هـ . (٥ شباط ١٩٥٠ ـ ١٥ أيلول ١٩٥٠م) .
١٦ ـ وزارة نوري السعيد الحادية عشرة :	٣ ذي الحجة ١٣٦٩ ـ ٢٠ شوال ١٣٧١هـ . (١٥ أيلول ١٩٥٠ ـ ١٢ تموز ١٩٥٢م) .
١٧ ـ وزارة مصطفى العمري :	٢٠ شوال ١٣٧١ ـ ٥ ربيع الأول ١٣٧٢هـ . (١٢ تموز ١٩٥٢ ـ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢م) .
١٨ ـ وزارة نور الدين محمود	٥ ربيع الأول ١٣٧٢ ـ ١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢هـ . (٢٣ تشرين الثاني ١٩٥٢ ـ ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣م) .
١٩ ـ وزارة جميل المدفعي السادسة :	١٤ جمادى الأولى ١٣٧٢ ـ ٢٣ شعبان ١٣٧٢هـ . (٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣ ـ ٥ أيار ١٩٥٣م) .
٢٠ ـ وزارة جميل المدفعي السابعة :	٢٣ شعبان ١٣٧٢ ـ ٧ محرم ١٣٧٣هـ . (٥ أيار ١٩٥٣ ـ ١٧ أيلول ١٩٥٣م) .
٢١ ـ وزارة محمد فاضل الجمالي الأولى :	٧ محرم ١٣٧٣ ـ ٢ رجب ١١٣٧٣هـ . (١٧ أيلول ١٩٥٣ ـ ٨ آذار ١٩٥٤م) .
٢٢ ـ وزارة محمد فاضل الجمالي الثانية :	٢ رجب ١٣٧٣ ـ ٢٦ شعبان ١٣٧٣هـ (٨ آذار ١٩٥٤ ـ ٢٩ نيسان ١٩٥٤م) .

٢٣ ـ وزارة أرشد العمري الثانية : ٢٦ شعبان ١٣٧٣ ـ ٢ ذي الحجة ١٣٧٣هـ
(٢٩ نيسان ١٩٥٤ ـ ٣ آب ١٩٥٤م) .

٢٤ ـ وزارة نوري السعيد الثانية عشرة: ٣ ذي الحجة ١٣٧٣ ـ ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ .
(٣ آب ١٩٥٤ ـ ١٧ كانون الأول ١٩٥٥م) .

٢٥ ـ حكومة نوري السعيد الثالثة عشرة: ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥ ـ ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ .
(١٧ كانون الأول ١٩٥٥ ـ ٢٠ حزيران ١٩٥٧م) .

٢٦ ـ حكومة علي جودت الأيوبي الثالثة : ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦ ـ ٢٢ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ .
(٢٠ حزيران ١٩٥٧ ـ ١٤ كانون الأول ١٩٥٧م) .

٢٧ ـ حكومة عبد الوهاب مرجان الأولى : ٢٣ جمادى الأولى ١٣٧٧ ـ ١٠ شعبان ١٣٧٧هـ .
(١٥ كانون الأول ١٩٥٧ ـ ٢ آذار ١٩٥٨م) .

٢٨ ـ وزارة نوري السعيد الرابعة عشرة: ١١ شعبان ١٣٧٧ ـ ١ ذي القعدة ١٣٧٧هـ .
(٣ آذار ١٩٥٨ ـ ١٩ أيار ١٩٥٨م) .

٢٩ ـ وزارة أحمد مختار بابان : ١ ذي القعدة ١٣٧٧ ـ ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ
(١٩ أيار ١٩٥٨ ـ ١٤ تموز ١٩٥٨م) .

البَابُ الثَّاني

الجمهُوريَّة

انتهت الحـرب العالميـة الثانيـة ، وانتصر الحلفاء عـلى دول المحور ، وبرزت الولايات المتحدة كأكبر قوةٍ في الاقتصاد والحرب ، ولم يلبث أن انقسم العـالم إلى مُعسكرين : المعسكـر الغربي أو الـرأسـمالي ، ويضمّ دول أوربـا الغربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وقد عمل على تـوحيد قُـواه ضمن حلفٍ ، عُـرف بـاسم « حلف شـمالي الأطلسي » ، والمعسكـر الشرقي أو الشيـوعي ويشمل دول أوربـا الشرقية . والإمـبراطوريـة الروسيـة (الاتحاد السوفيتي) ، وقد عمل على توحيد قُواه ضمن حلفٍ ، عُرف باسم « حلف وارسو » نسبةً إلى عاصمة دولة بولندا مقرّ الحلف .

وكلّ مُراقبٍ سياسيٍ يُمكن أن يُلاحـظ أن حلف شمالي الأطلسي أكبر قوةً ، وأكثر إمكاناتٍ من حلف وارسو ، غير أن حلف وارسو أكثر تمـاسكاً وانضباطاً ، وأكـبر تجمّعاً وارتبـاطاً ، وذلـك أن رأساً واحـداً مُدبّـراً يُحرّكـه ويُوجّهه ، وهو الاتحاد السوفيتي ، بينما بقية أعضاء الحلف تذوب شخصيتهم تماماً ضمن السياسة العامة التي يرتئيها حُكّـام الكرملين ، وإنّ الخطّ الـذي يرسمه هؤلاء الحُكّام يُنفّذه الأعضاء الآخرون ، ولا يحقّ لهم سوى الامتثال ، وإذا ما خطر ببال أحد الأعضـاء اتباع سيـاسةٍ مُستقلةٍ أُلـزم على الخضـوع بالقوّة ، وأُجبر على ترك سياسته بالغصب ، كما حدث في المجر ، ومن بعدها في تشيكوسلوفاكيا .

نظرت الولايات المتحدة الأمريكية في هذه السياسة ، ورأت أنها ليست في صالح حلف شمالي الأطلسي ، مع مرور الزمن ، وخاصةً بعد أن رأت انضمام دولٍ بعيدةٍ إلى جانب سياسة حلف وارسو كالصين ، ومنغوليا الخارجية ، وكوريا الشمالية ، وألبانيا ، وكوبا ، وربما انتشرت الشيوعية العالمية على نطاقٍ أوسع نتيجة التخلّف السائد في كثيرٍ من المناطق ، وأطماع كثيرٍ من الناس في مُمارسة التحكّم والتسلّط على المتخلّفين ، ويسمع الفقراء والمستعبدون الشعارات المطروحة ويرونها برّاقةً فيمشون تحتها حتى يقعوا في حبائل الشيوعية ، وأباطيلها المُضلّلة ، ورأت الولايات المتحدة في الوقت نفسه أن للصراعات بين الدول الغربية دوراً في نجاح خصومها ، إذ تبرز السياسة الاستعمارية في أوضح صورها في تحطيم الشعوب ، ونهب ثرواتها ، ويفضح بعضها بعضاً ، لذا يجب وقف هذا الصراع ، كما يجب دمج اتجاهات الدول الغربية ضمن سياسةٍ واحدةٍ ، وتخطيطٍ واحدٍ .

رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن أفضل وسيلةٍ لتنفيذ ما يجول في خاطرها من وقف الصراعات بين الدول الغربية ، ولفّها في فلكٍ واحدٍ هو أن تحلّ محلّ أصدقائها من الدول الغربية في مناطق نُفوذها ومواضع سيطرتها ، وإذا تمّ لها ما تُخطّط له ، فإن حلف شمالي الأطلسي لم يخسر شيئاً إذ أن الثروات تكون قد انتقلت فيه من عضوٍ إلى عضوٍ آخر ، وكلا العضوين أعضاء في الحلف ، بل تكون قد حصلت فائدة إذ أنّ هذه الثروات تجمّعت في مكانٍ واحدٍ فيمكن استثمارها بشكلٍ أفضل ، وهذا ما يُؤدّي إلى تطوّرٍ علميٍ بصورةٍ أكمل . فتجمّع الثروة في مكانٍ واحدٍ أفضل من تبعثرها من عدّة أماكن ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى التفكير الرأسمالي الذي يقوم من أساسه على تجمّع الثروة . وتصبح الدولة التي تتركّز بيدها الثروات قادرةً على قيادة المعسكر والحلف بشكلٍ أمتن حيث تصبح بقية الدول الغربية تدور في فلكها ، ويتركّز التوجيه في نقطةٍ واحدةٍ ، ويفقد بذلك حلف وارسو الميزة التي يمتاز بها على حلف شمالي الأطلسي ، ويُصبح المعسكر الرأسمالي يملك

القوة ، كما يملك القدرة على التخطيط والتنفيذ دون أن يجد أيّ عائقٍ يحول دون ذلك . وفي الوقت نفسه تكون الصراعات قد زالت بين الدول الاستعمارية الغربية بفقدها مناطق نفوذها ومواضع سيطرتها ، وانتقالها كلها إلى مكانٍ واحدٍ هو الولايات المتحدة الأمريكية .

لم تجد الولايات المتحدة صعوبةً في دخول البلدان التي كانت لا تزال تخضع لسيطرة بعض دول أوربا الغربية إذ أعلنت الوقوف بجانبها ، ودعمتها في سبيل الحصول على الاستقلال الاسمي ، وقدّمت لها بعض المساعدات أو المعونات من أجل الاستثمارات ، فخضعت للنفوذ الاقتصادي الأمريكي ، وانتهى الأمر ، غير أن الولايات المتحدة قد وجدت صعوبةً كبيرةً في دخول البلدان التي كانت قد نالت استقلالها السياسي الذاتي على حين بقي النفوذ الأجنبي فيها ، وصبغها بصبغته كاملةً إضافةً إلى الركائز القوية التي يعتمد عليها في مناطق نفوذه ، وقد انسحب منها حسب مخططٍ يستفيد منه وحده دون أن تكون أيّة فائدةٍ للشعب الذي كان يُعاني ويلات الاستعمار ، حيث انقسم الشعب على نفسه وتسابق في خدمة من كان يُسيطر عليه لتكون له الغلبة على خصمه ، والسيطرة على بلده . ويُمكن أن نُعطي أمثلةً على النوع الأول دول المغرب العربي التي أمضت مدةً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولم تحصل على استقلالها السياسي لذا فقد دخلها النفوذ الأمريكي بسهولةٍ ، أما الدول التي نالت استقلالها قبل الحرب كالعراق ، أو بعد الحرب مُباشرةً كسوريا فقد كان دخول النفوذ الأمريكي إليها يجد صعوبةً كبيرةً ، ويحتاج الأمر إلى عددٍ من الانقلابات أو التغييرات الاجتماعية ، وربّما كانت تشذّ مصر عن هذا الموضوع إذ لم يحتج الأمر من الولايات المتحدة إلاّ إلى انقلابٍ واحدٍ ، فإن ذلك يعود إلى طبيعة الشعب في مصر الذي يخنع أمام أي حاكمٍ يصل إلى السلطة بأيّة صورةٍ من الصور .

لم تنجح الولايات المتحدة الأمريكية في كل ما كانت ترمي إليه إذ لم تقض على الصراعات بين دول غربي أوربا وإنما دخلت هي في صراعاتٍ

جديدةٍ ، وخاصةً مع انكلترا التي بقيت أقوى تلك الدول من حيث امتداد نفوذها واتساع رقعة سيطرتها . ومع ذلك يُمكننا أن نقول : إنها صراعات مخفية لا تكاد تظهر للمراقب العام حيث تحجبها الصراعات بين المعسكرين الكبيرين ، ويظنّ المرء أن انكلترا تدور في فلك الولايات المتحدة ، وأنه لم تبق هناك صراعات بين دول حلف شمالي الأطلسي ، والواقع أنّ الولايات المتحدة لها هيمنة على حلفائها ، ولكنها ليست تامةً ، ولهذا تبدو الصراعات بين المعسكرات ، وتختفي ما بين دول المجموعة الغربية ، إذن فالنجاح كان جزئياً .

لقد كان مركز انكلترا قوياً في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وخاصةً في الشام ، والعراق ، وتركيا ، ومصر فعندما أرادت أمريكا أن تقتحم هذه المراكز وجدت صعوبةً كبيرةً في الشام مع أنها ليست أقوى حصون انكلترا ، فما أن تقوم بانقلابٍ لصالحها ، حتى يقع انقلاب ثانٍ في غير صالحها ، واستمرّ ذلك أكثر من عشرين سنة من ١٣٦٩ ـ ١٣٩٠هـ ، وكانت العراق دائماً هي المركز الذي يدعم الحركة المضادّة لنفوذ الولايات المتحدة ، وغالباً ما يلقى النجاح . لذا فقد خطّطت لتقويض ذلك المركز ودخوله كي يتسنّى لها التمكّن النهائي في الشام ، وقد رسمت أن تكون انكلترا نفسها أحد أطراف اللعبة .

كانت انكلترا قد تورّطت في العدوان الثلاثي على مصر في ٢٥ربيع الأول ١٣٧٦هـ(٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م)وهذا ما أثار عليها سكان البلدان العربية ، فحملوا عليها ، وضعُف مركزها واهتزّ ، وفي الوقت نفسه ظهر نجم جمال عبد الناصر الرئيس المصري ، وأصبح الناس يتأثّرون بكلامه ، ويتعاطفون مع سياسته الظاهرة التي يبدو عليها الصدق والإخلاص ، وإن كانت في الواقع التبعية والارتماء في أحضان السياسة الأمريكية الجديدة في مصر ، غير أن الناس معظمهم من العامة ، ولا يعرفون من الأمر إلّا ما يُذاع ، ولكن كل ما يُعلنه الساسة ، وكل ما تُبرزه وسائل الإعلام لا يتكلم عن الواقع بل في الحقيقة هو ما يُغاير الواقع ، إذ لا يمكن لزعيمٍ يسير في فلك

الاستعمار أو يرتبط مع دولةٍ كبرى أن يُعلن ذلك ، ويُصرّح به بل على العكس يتشدّق باستمرار بالوطنية ، ويرفع صوته بالإخلاص ، ويتهم الآخرين ليُخفي حقيقة أمره ، ولبساطة العامة وصفائهم يأخذون ظاهر القول ، ويُصدّقونه . وخاصةً أن بروز الرئيس المصري جمال عبد الناصر كان حديثاً ، ولم يكن أمره قد عظُم فلم يُبال أعداؤه في السياسة بالموضوع كثيراً .

ومع ضعف مركز انكلترا ارتفع مركز الولايات المتحدة لارتفاع شأن صنيعتها جمال عبد الناصر ، ولموقفها من العُدوان الثلاثي ، إذ عملت على وقفه بعد الإنذار الروسي . وأصبحت مكانتها تخولها توريط انكلترا في اللّعبة الدولية ، وإعطاءها دوراً تقوم به ، أو دفعها في جهةٍ مُعينةٍ لتُؤدّي مُهمّةً خاصةً . ما دامت قد تسلّمت زمام الأمر منها ، وأصبحت المبادرة بيدها .

اقترحت الولايات المتحدة على انكلترا تشكيل أحلافٍ عسكريةٍ من الدول التي تُحيط بالأمبراطورية الروسية على أن تكون الولايات المتحدة وانكلترا أعضاء فيها لتوجيهها وتقويتها ، وليكون لها مجال التدخّل فيها إذا جرى اعتداء روسي على إحدى دول هذا الحلف ، فوافقت انكلترا على هذا الاقتراح ، ووجدت فيه مجالاً للعمل تحت مظلّة الحلف لمحاربة الشيوعية العالمية ، والوقوف في وجه امتدادها ، ورأت أن في هذا الاقتراح مجالاً لبروزها فمعظم هذه الدول تخضع للنفوذ الإنكليزي ، أو له المكانة الأولى فيها ، وهذا ما يُعزّز مكانتها بين دول حلف شمالي الأطلسي ، وفي دول الحلف المُزمع قيامه ، بل واقترحت أن تكون بغداد مقرّاً لهذا الحلف بصفتها مركز ثقلٍ بالنسبة لها ـ حسب رأيها ـ وهذا كل ما كانت تُخطّط له الولايات المتحدة ، وتعمل له . وباختصارٍ فإن انكلترا قد وقعت في الفخّ الذي نصبته الولايات المتحدة لها .

بدأت ولادة الحلف ، ودُعيت له عدّة دولٍ غير أن بعضها قد رفض ، وحارب الحلف ، وأخذ يُظهر عُواره ، والأهداف التي يرمي لها ، وأغلب هذه الدول التي عارضت الانضمام إليه ، وحاربت قيامه هي من الدول التي يحتلّ فيها النفوذ الأمريكي المكانة الأولى ، وهذا من التخطيط الأمريكي الذي

يهدف إلى اطمئنان انكلترا أنه ليست هناك لعبة أمريكية من وراء الحلف ، ومن ثَمّ لتبقى الدول العربية ضمن محورين يتصارعان كي لا يكون هناك اتفاق وعمل مُوحّد ، وليبقى فيها الشعب مُشعّب الأهواء ، مُفرّق الكلمة والصفّ ، وترمي صاحبة اللعبة محوراً بمحورٍ ، ويكون الهجوم الإعلامي ، وبثّ الشائعات التي تُريدها ، والتوجيه من خلال ذلك ، وأيّدت أمريكا الحلف ، واعتذرت بالانضمام إليه بحجة بقائها على الحياد بين المحورين العربيين المتصارعين .

أخذ السياسيون ، ورجال التخطيط ، والمخابرات يتردّدون على بغداد من أجل الحلف والترتيبات اللازمة ،وأخذوا يتصلون بمن يقع عليهم الاختيار ، وصحيح أن الاتصال يمكن أن يتمّ في بغداد وخارج العراق ، غير أن الصلة في ساحة العمل أكثر فائدةً ، إذ تُعطي لصاحب اللعبة الحجم الحقيقي لمن يتصل به . ولم يكن للولايات المتحدة ركائز في السابق تستحقّ الذكر ، وهذا ما دعاها إلى أن تعمل لإثارة الشبهات حول النظام ، وتجميع الرجال ضدّه ، ولكن ليس تحت إشرافها لتكون بعيدةً عن الشبهة ،نائيةً عن التهمة ، وأخذت تلتقي مختلف العناصر المعادية للنظام العراقي والمعارضة للسياسة الإنكليزية ، وكان من بين هذه العناصر : شيوعيون ، ووطنيون ، وإسلاميون ، إضافةً إلى عناصر شابةٍ من حزب البعث لأن القديمة إنما تربّت في ظلّ العهد القائم ، وتلقّت من مشاربه واتجاهاته التي لا تختلف فيها عن العناصر الشابة في الشام التي أسّست الحزب . وكان لهذه العناصر الشابة من حزب البعث دورها لأنه عن طريقها تتمّ الصلة .

نجحت العناصر المتباينة الاتجاه في توحيد الصف ، وقامت بالحركة وفازت ، وأنزلت بالحكم ضربةً قاصمةً كي لا يبقى له أثر،وقتلت الملك فيصل الثاني ، وولي العهد عبد الإله (الوصي سابقاً) ، ونوري السعيد منذ الساعات الأولى للنجاح ، وسيطرت على الوضع تماماً ، وهذا ما تلجأ إليه عادةً الحركة المضادّة ، ويمكن أن نُلاحظ ما قام به العميد سامي الحناوي زعيم

الانقلاب الثاني في سوريا ، والـذي قام في ٢٠ شـوال ١٣٦٨هـ (١٤ آب ١٩٤٩م) بدعمٍ من انكلترا ضدّ الانقـلاب الأول الذي قـام في ١ جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (٣٠ آذار ١٩٤٩م) والذي كان باكورة عمليات الانقلاب التي قامت بها الولايات المتحدة في المنطقة لتنفيذ خطتها التي نتحدّث عنها ، إذ قبض زعماء الانقلاب الثاني على المشير حسني الزعيم ، ورئيس وزرائه محسن البرازي وقتلوهما فوراً .

ردّ الفعـل : رحبّت بالحركة الانقلابية الدول العربية التي تسير في دائرة النفوذ الأمريكي تحت شعار نجاح الفكـر الوحـدوي ، وسقوط الـرجعية ، وتحطيم معقلٍ من معاقل الاستعمار ، كما رحّب بذلك خصوم النظام الملكي ، وأعـداء السياسـة الإنكليزيـة و . . . . . انتظرت انكلترا حتى انتهت بهجـة النجاح ، ومضت نشوة النصر ، فلما هدأت الأوضاع أخذت تعمل على تفتيت التجمّع الذي كان بالأمس، فحرّكت ضـدّ الإسـلاميين ، وأثـارت الفئات كلها عليهم ، وأبانت للشيوعيين أن اللعبـة أمريكيـة ، وأظهرت للوطنيـين ارتباط الحركة، وأوهمت الرؤوس أن الـذين رحّبوا بـالحركـة سيعملون على الإطاحة بها ، فأخذ الحذر مأخذه ، وتغيّر الاتجاه ، وخافت كلٍ مجموعةٍ من الأخرى ، ولم تلبث أن أصحبت انكلترا تحرّك المجموعات ، وتُمسك بيدهـا مختلف الخيوط ، وكان عبد الكريم قاسم الذي تدعمه الفئات الشيوعية يتلقّى التوجيهات من انكلترا ، وقد أوحت بالقبض على رشيد عالي الكيلاني الذي عاد إلى البلاد بعد قيام النظام الجمهوري ، فأُلقي القبض عليه ، وأُحيل إلى المحكمة التي قضت عليه بالإعدام بتهمـة العمل عـلى نظام الحكم لصـالح الجمهورية العربية المتحدة ، كما أوحت إلى النظام بالقضـاء على المجمـوعة الإسلامية فأبادها ، وتخلّص من قبل من عبد السلام عارف المؤيّد من قبـل الإسلاميين الذين يرون فيه صلاحاً ، فلا يخشى بأسه ، كما يُؤيّد من البعثيين الذين يعتقدون إمكـانية استغـلاله، وتسخـيره لمصالحهم ومُخطّطاتهم، ومن الذين يتأثّرون بالدعاية للرئيس المصري جمال عبد الناصر التي كانت في أوجها

يومذاك ، وكـان عبد السـلام عارف يـرى الاتحاد مـع الجمهوريـة العربيـة المتحدة . وبذا تخلّصت انكلترا من الإسلاميين الذين يُمكنهم الوقوف في وجه سياستها بل وسياسة أي دولةٍ أجنبيةٍ .

ولما قطع عبد الكريم قاسم خطواتٍ في التوجّه نحو المعسكر الشرقي عملت انكلترا والولايات المتحدة معاً على التخلّص منه ، وقضي على نظامه في ١٤ رمضـان ١٣٨٢هـ (٨ شبـاط ١٩٦٣م) ، وكـانت الفئـات التي أنهت حكمه ، وتخلّصت منه بـالقتل ، مجمـوعة من العنـاصر التي تُؤيّد السيـاسة الإنكليزية أو الأمريكية ، ومعهـا بعض العناصر الـطيّبة الـوطنية ، وأخيـراً تمايزت بعضها عن بعض ، وأخذ الصراع بين النفوذين يبدو على السيـاسة العامة ، يتغلّب هذا أحياناً ، ثم لا يلبث أن يُسيطر الثاني ، وتتبدّل الواجهات السياسية ، وإن كان هذا لا يظهر للعامة جلياً نتيجة المغـالطات ، والمنـاداة بشعاراتٍ تُخالف السير الحقيقي ، وادعاءاتٍ تحمل غير ما يُريده أصحابها .

الفصل الأول

عبد الكريم قاسم

٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧ ـ ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ .
(١٤ تموز ١٩٥٨ ـ ٨ شباط ١٩٦٣م)

أصبح الساسة العراقيون فئةً خاصةً همّها المحافظة على مصالحها الشخصية المادية ، ومكاسبها السياسية ، ومُعظمهم من أسرٍ ثريةٍ استطاعت بغناها أن تُعلّم أولادها ، الذين ورثوا الجاه ، وكسبوا العلم ، ومارسوا السياسة . فلما حصلت البلاد على الاستقلال ، وانتشر التعليم ظهر جيل جديد من عامة الأفراد، ووجد هذا الجيل نفسه بعيداً عن سابقه بل لا تعاون بينهما ، نتيجة النظرة الفوقية من السابقين ، وبسبب ما في نفوس الشباب على ساستهم الذين مزّقوا البلاد، وعزلوها عن غيرها من البلدان العربية .

تأثّر الجيل الجديد بالعصبية القومية إذ كانت الدعوة إليها واسعةً في هذه المرحلة لأن الناس كانوا في جهلٍ ، ليس لديهم فكر ، وإنما تأخذهم العاطفة ، ويتأثّرون بها ، ويبغون الحمية ، حمية الجاهلية التي كانت تلعب العصبية للقبيلة بين العشائر العربية ، وللقوم مع جيرانهم من الفرس، والروم، والأحباش دوراً كبيراً. أما اليوم فتقوم التجمّعات، واللقاءات، والدعوات، والاتحادات على أساس الأفكار ، وعلى أساس الأنظمة ، وعلى المبادىء والأفكار ، والدعوة القومية ليست نظاماً ، ولا مبدأً ، ولا فكراً ، وما هي إلا عاطفة كمن يتعصّب لأسرته أو لقريته أو على نطاق أوسع قليلاً ، ولكن لا يختلف من حيث الأسس . أما النظام ، والمنهج ، والمبدأ ، والفكر السائد في البلدان العربية ، وأمصار العالم الإسلامي كلها فإنما هو الإسلام ، فلما عمل

المستعمرون على حربه ، وخططوا لإزاحته عن الحياة لم يجدوا بُدّاً من طرح بديلٍ ، ورأوا أن البديل يجب أن يكون فارغاً من كل مضمونٍ ، لا يلتقي مع الإسلام، يوجد من يتبنّاه ، وإذا أمكن أخذه من المجتمع العربي فهذا مُهمّ جداً ، وقد وجدوا في القومية ما يشمل هذه الموضوعات كلها ، إذ لا مضمون فيها ، فليست سوى عاطفة حبٍّ لقوم ، ورغبةٍ في وحدته ، وعملٍ لذلك ، لكن حسب أيِّ نظامٍ ، أو أيِّ منهجٍ ، أو أيِّ دستورٍ ، وعلى أي مبدأ ، فهذا لا علاقة له بالقومية . والقومية لا تلتقي مع الإسلام الذي يشمل منهجه جميع جوانب الحياة ، ويعدّ العصبية الأسرية ، والقبلية ، والقومية نتنةً تُؤدّي إلى تفريق الأُمّة المسلمة ، وتشتيت شملها ، وترك العمل بالإسلام ، والدعوة إليه ، والعمل على نشره . والقومية يوجد من يحملها ، ويعمل لها مُباشرةً ، ويتبناها وهم أهل الكتاب الذين يعيشون في البلدان العربية، ويرجعون في أصولهم إلى العرب ، وقد لُقّنوا فعلاً هذه الدعوة ، وحملوها ، ثم سار معهم بعض المسلمين تدريجياً ، جهلاً ، ومصلحةً ، وشهوةً ، حتى كثُر عددهم ، ووصل الأمر إلى ما نراه اليوم ، والقومية مأخوذة من المجتمع العربي الجاهلي ، يوم كانوا يتقاتلون عصبيةً لقبائلهم ، ويذوب الفرد نهائياً في القبيلة ، وربما كان قول بعضهم ما يصوّر هذا حقّ التصوير .

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزيّة أرشد

وكان العرب في الجاهلية يتفاخرون في قبائلهم حتى لا يرى الواحد منهم مفخرةً إلا هي في قبيلته ، ولا سوءاً إلّا في غيرها . بل لا يرى في فعلٍ من أفعال عشيرته ما يشين ، فما أن يقوم سيّدها بعمل حتى يصبح هذا العمل شرفاً تُباهي به القبيلة ، وهذه هي القومية التي تجعل لأتباعها كلّ فضيلةٍ ، وتنسب إليهم كلّ مفخرةٍ ، وتسلب من غيرهم كلّ مكرمةٍ ، وتجرّدهم من كلّ مجدٍ . ولهذا تختلف مع جيرانها ، وتنشأ الحروب ، وتحدث الصراعات ، ويعيش الناس على الحدود بين الجوار في خوفٍ دائمٍ وحذرٍ مستمرٍ .

انتشرت القومية العربية في المشرق العربي بمعناها العلماني ، على حين

أنّها أخذت في المغرب المعنى الإسلامي لأنّه لا يوجد هناك نصارى عرب ، أو لا يوجد نصارى سوى المستعمرين . وتوسّع انتشار القومية نتيجة الجهل والغفلة ، ولعدم وجود ما يملأ الفراغ الفكري في المجتمع ، وبسبب الدعاية الواسعة لها ، وإضفاء صفة التقدّمية على أتباعها ، والرجعية على غيرهم ، والناس يتأثّرون وخاصةً الشباب منهم ، حيث تكون عواطفهم مُرهفةً ، وتعاونت وسائل الإعلام كلّها في سبيل انتشار القومية ، ولكن الأمر الخطير الذي جهله العامة ، وانطلى على الخاصة أن الدوائر الاستعمارية أظهرت عداوتها لأتباع القومية ، وأعلنت الحرب عليهم ، كي تُعطيهم صفة الوطنية ، ولو لم يكونوا كذلك ، ولتجعل الناس يُقبلون على التنظيمات القومية ، ما دامت من غرسها ، فيجب عليها أن ترعاها وتتعهّدها ، وبهذه الطريقة أصبحت التجمّعات القومية هي المحركة للشارع والمدلّلة لدى الحكام إن خالفوها اتهموا بالرجعية ، وإن سايروها وصفوا بالتقدّمية ، حتى عمّ هذا المفهوم ، وقُسّم الناس والحكام على أساسه، وعلى هذا الأساس صُنّف حكام العراق على أنهم من الرجعيين ، وبذا كانوا خصوماً سياسيين للجيل الناشيء الذي أقبل على فكرة القومية .

جعل القوميون شعارهم الدعوة إلى وحدة البلدان العربية ، غير أن هذا مطلب إسلامي ولكن على أساس تطبيق المنهج الإسلامي ، وليس شعاراً من غير مبدأ ، وعلى أنه وسيلة وليس غاية ، والغاية هي النظام الإسلامي ، وأن هذه الوحدة جزء من توحيد الأمة الإسلامية كلّها ، ما دامت البلدان العربية جميعها أمصار إسلامية . وبذا فإنّ الدعوة إلى وحدة البلدان العربية وجدت صدىً طيباً لدى العامّة الذين هم غالباً من المسلمين ، ولدى بعض المتنوّرين الذين يعملون في الميدان الإسلامي ، والذين لا يُميّزون بين الوسيلة والغاية ، ولا يُفرّقون بين الدعوة لتطبيق منهجٍ ، والدعوة العاطفية ، وبهذا لقيت حماسةً أوسع ، وميداناً أرحب إذ مشى بعض المسلمين إلى جانب القوميين تحت شعار الدعوة إلى الوحدة العربية ، جهلاً منهم بالشعار العلماني الذي تحمله القومية .

لكن العراق ليس وحدةً مُتجانسةً ، وإنما مجموعات ، ولكل مجموعةٍ رأيها الذي تُمليه عليها مصالحها ، فالأكراد يُطالبون بالاستقلال الذاتي ، وإقامة دولةٍ كرديةٍ لهم في مناطقهم التي يرسمونها هم في مخيلتهم ، ويرفضون الاندماج مع دولةٍ عربيةٍ في العراق إذ يرون أنهم يضيعون فيها ما داموا أقليةً ، ومن هذا المنطلق فهم بالأولى أن يرفضوا الوحدة العربية إذ تذوب فيها شخصيتهم تماماً ، ويزول كيانهم ، ولم يبحثوا في موضوع الوحدة العربية على أساس الإسلام إذ يتساوون فيها حينذاك مع بقية المجموعات ، غير أن طغيان القومية في ذلك الوقت قد حال بينهم وبين هذا التفكير إلاّ من قبل مجموعةٍ صغيرةٍ تتناسب مع مثيلتها عند العرب .

أما الشيعة فيرفضون الوحدة العربية كفكرةٍ دينيةٍ إذ يرون ضياعهم بين العرب الذين تقلّ فيهم نسبة الشيعة بل لا توجد في الأمصار التي هي في القارة الإفريقية أيّة نسبة من الشيعة ، غير أنّ بعضهم يُؤيّدون الوحدة العربية على أساسٍ علمانيٍ ، وهذا ما يدعم الفكرة القومية .

أما المسلمون (السنة) فيعملون للوحدة العربية للطغيان على الشيعة ، غير أن بعضهم يخشى من انفصال الأكراد ، ومناطقهم هي الغنية بالنفط ، حيث لم تكن حقول الجنوب قد استثمرت بعد بشكلٍ جيدٍ ، وكانت مناطق الاستثمار مقصورةً تقريباً على الشمال أيّ في المناطق التي يعدّها الأكراد ضمن منطقة « كردستان » .

لم يستطع الساسة العراقيون أن يصهروا هذه المجموعات في بوتقةٍ واحدةٍ ، ولم يطرحوا الفكر الإسلامي الذي يجمع هذا الشتات ، لأن أهواءهم كانت تُسيطر عليهم ، وتُبعدهم عن الإسلام الذي يقف في وجه تلك الأهواء ، حتى أعمتهم الشهوات ، وأضلّتهم المكانة فبقوا في غيّهم سادرين ، حتى أتاهم أمر الله ، وهذا ما أبقى الشعب في حالة نقدٍ وحذرٍ .

وكما عجز المسؤولون العراقيون عن لمّ شتات المجموعات العراقية ، فقد

عجزوا عن الإصلاح الاجتماعي فبقي الشعب في وضعٍ مُتردٍّ ، وظلّت الأوضاع في حالة فوضى ، والبلد في صورة مُتأخّرة ، لم تقم مشروعات إنمائية واسعة تستحق الذكر ، ولم تطل يد التحسين القرى ، وهذا ما جعل الشعب كثير الضيق النفسي ، كثير النقد .

وحرص الجيل الناشىء على الوصول إلى مناصب في السلطة ، وكثرت الطموحات ، ولكن لعبة الانتخابات أبقت المجلس النيابي حكراً على السياسيين القدماء ، وأعوانهم الناشئين ، وهذا ما أورث الحقد لدى الشباب على ساستهم المحترفين الذين استغلّوا أسلوب الانتخابات بطريقةٍ بشعةٍ .

وجاءت قضية فلسطين ومُشاركة العراق بالقتال ، ولم تكن هناك أوامر بالتقدّم في ساحات القتال إذ كانت القيادة العامة للعرب برئاسة (غلوب) ، حتى شاعت على الألسن باللهجة العراقية العامية (ماكو أوامر) ، ورجع الجيش العراقي من فلسطين بعد أن أعلنت الهدنة عام ١٣٦٨هـ ، وكان لهذه العودة أثرها السيء في نفوس الشعب .

وجاء العُدوان الثلاثي على مصر عام ١٣٧٦هـ ، ورغم الشجب العراقي للعُدوان إلّا أن الواقع كان فيه شيء من الشماتة ، فأثّر ذلك في نفوس الشباب ، وأخذ الحقد يغلي كالمرجل .

ووقع الخلاف بين سوريا ومصر من جهةٍ والعراق من جهةٍ ثانيةٍ حول حلف بغداد ، وأصبحت إذاعات دمشق والقاهرة تُهاجم بغداد ، فكان الشباب يُردّدون ما تُذيعه دمشق والقاهرة من أفكار .

وتوجّهت أعداد من الشباب إلى الأحزاب السياسية المعارضة لتُفرغ نشاطها فيها ، ولتجد متنفّساً لها تُعبّر فيه عن آرائها دون خوفٍ ما دامت العاقبة مضمونة ، وكان بعض هذه الأحزاب معروف مثل الحزب الوطني الديمقراطي الذي يرأسه كامل الجادرجي ، وحزب الاستقلال الذي يتزعّمه محمد مهدي كبه ، كما كانت بعض الأحزاب الأخرى تعمل بالخفاء مثل حزب البعث ،

والحزب الشيوعي ، أو من شيوعيين آخرين يعملون تحت اسم مُنظماتٍ ثانيةٍ مثل « أنصار السلام » و « الشبيبة الديمقراطية » .

إذن كان الشباب المُعارض يتألّف من الشيوعيين ، والاشتراكيين، ودعاة الوحدة من قوميين وإسلاميين إضافةً إلى المستقلّين المعارضين الذين لا ينضوون تحت عنوان أو تجمّع مُعينّ ، وإنما يُعارضون سياسة الحكم الخارجية والداخلية على حدٍّ سواء . ومعظم هؤلاء كانوا من أبناء العائلات المتوسطة الغنى ، أو الفقيرة ، كما أن غالبيتهم كانوا من أسرٍ لم يُمارس رجالها السياسة ، ولم يكن لهم دور في الحكم أو في المجلس النيابي .

ولما وجد هؤلاء الشباب عجزهم في الوصول إلى المجلس النيابي ، أو الدخول في معترك السياسة ، أمام تدخّل السلطة في الانتخابات ، واحتكار فئةٍ مُعيّنةٍ للسياسة حرصاً على مصالحها ، ونفاق الكثيرين للمسؤولين ، وتملّقهم الشديد لهم ، فكّروا في الاستعانة بالجيش ، ولم يكن في معزلٍ عن المدنيين ، وهل هو إلا أبناء هذا الشعب ؟ إذ كانت هناك صلات بين المدنيين والعسكريين ، صلات فردية ، وصلات اجتماعية .

الجيش : كان الضباط أصحاب الرتب المتوسطة والصغيرة أكثرهم من الأسر الفقيرة والمتوسطة الغنى ويحسّون كما يحسّ بقية أفراد الشعب بوطأة الحكم عليهم ، وبالسياسة غير الصحيحة ، والتي كانت لا تُمثّل آراء الشعب أبداً ، ولكن يُسيّرها ويستبدّ بها قليل من محتكري السياسة . وأن الالتفات إلى الجيش في سبيل إعداده وتقويته لم تكن لتأخذ أدنى اهتمام من كبار المسؤولين . وكانت صلة العسكريين مع المدنيين تجرّهم أحياناً إلى النقد أو محاولة إيجاد طريق للخروج من هذا الوضع ، ولا شكّ أن هذا لا يكون إلاّ عند وجود الثقة التامة ، لأنّ الرقابة كانت قويةً على الضباط ، وعلى المدنيين أيضاً . ثم إن الضباط يتعرّف بعضهم على آراء بعضٍ ، بالحديث والمناقشة أحياناً ، ويلتقي أصحاب الأفكار الواحدة ، أو الذين يلتقون على المطالبة بالإصلاح ،

وينتقدون السلطة ، وأخذت تظهر تجمّعات صغيرة في منـاطق مُتعدّدةٍ .

بدأ العمل العسكري داخل الجيش منذ عودته من فلسطين ، وقد وجد الضباط الشباب عدم جديّة القتال ، وإعطاء القيادة العـامة لـ (غلوب) ، وقلّة عـدد القـطعـات المُـرسلة إلى فلسـطين ، وضعف تسليحهـا ، وعـدم تدريبها ، وكلّ هذا مجال للانتقاد ، ووضع إشـارات الاستفهام عـلى رجال الحكم العراقي . ورُبّما كان تنظيم أوّل مجموعةٍ عسكريةٍ نعرفها هي المجموعة التي نظمّها الرائد رفعت الحاج سري ، ومع أنه كان ذا رُتبةٍ متوسطةٍ إلاّ أنه يتمتّع باحترامٍ كبيرٍ ، وتقديرٍ واضحٍ من قبل الضباط جميعاً لأخلاقه العالية ، وسلوكه المستقيم ، وكان صاحب دينٍ . بدأ لقاء هذه المجمـوعة مـع اليوم الأول من عام ١٣٧٢هـ (٢٠ أيلول ١٩٥٢م) . وكانت هذه المجموعة تضمّ إضافةً إلى رفعت الحاج سري كلاًّ من : عبـد الوهـاب الأمين ، وإسـماعيل عـارف ، وصالـح عبد المجيـد ، وشكيب الفضلي ، وكـانوا يلتقـون في دار إسماعيل عارف في ضاحيةٍ من ضواحي بغداد . وكان رئيس الأركان الفريق رفيق عارف يُراقب تحركات الضباط ، وعرف ما يدور من أحاديث بين بعض الضباط ، وانتبه إلى هذا اللقاء ، وكان يُفكّر بالبطش برجاله غير أنه اكتفى بعدئذٍ ببعض العقوبات، كي لا يفقد ثقة الضباط الناشئين الذين يمكن أن يكون لهم دور في المستقبل . لقد أصدر أمراً بنقل المُقدّم رفعت الحـاج سري إلى (قلعة صالح) على نهر دجلة للإشراف على التجنيد ، وقد بقي هناك حتى تقاعد من الخدمة برتبة عقيـد ، وعاد بعـدها إلى بغـداد . أما أعضـاء هذه المجموعة فصدرت أوامر بتعيينهم في سفارات العراق في الخـارج ، كملحق عسكري[1] . ولم تكن هذه المجموعة ذات فكر واحدٍ ، وإنما كانت أفكارهم

---

(١) صدر الأمر بتعيين : إسماعيل عارف ملحقاً عسكرياً في واشنطن .
صالح عبد المجيد ملحقاً عسكرياً في الأردن .
شكيب الفضلي ملحقاً عسكرياً في باكستان .
وبقي عبد الوهاب الأمين ضابطاً في قسم المعدّات .

مُتباينة ، فقد كان رفعت الحاج سري ذا دينٍ ، على حين كان إسماعيل عارف ذا فكرٍ شيوعي ، ولكن تجمعهم مُعارضة الحكم .

انتقلت القيادة من رفعت الحاج سري إلى آخرين ، ومن مجموعته إلى مجموعاتٍ أُخرى تشكّلت تلقائياً . وكذلك لم تكن هذه المجموعات لتضمّ ضباطاً من فكرٍ واحدٍ ، إنما تضمّ أيضاً أصحاب أفكارٍ مُتباينةٍ ، ومن هذه المجموعات : مجموعة بغداد بقيادة محيي الدين عبد الحميد ، ويُديرها رجب عبد المجيد ، وربما كانت على صلةٍ بالحزب الوطني الديمقراطي .

وبجموعة المنصور إحدى ضواحي بغداد بقيادة عبد الكريم قاسم .

ومجموعة الناصرية بقيادة شاكر محمود شكري .

ومجموعة الموصل بقيادة محمود عزيز .

ومجموعة الديوانية بقيادة إسماعيل علي .

ثم اندمجت مجموعة بغداد ، ومجموعة المنصور ، وأصبحت مجموعةً واحدةً بقيادة عبد الكريم قاسم . وبعد مُضي مرحلةٍ أصبح الفريق رفيق عارف يغضّ النظر عن لقاء هذه المجموعات لتبقى ثقة أعضائها فيه ، وإن لم يعرف تفصيل كل ما يجري .

كان بعض ضباط هذه المجموعات على صلةٍ ببعض الأحزاب مثل مجموعتي بغداد ، والمنصور اللتين كانتا تحت سيطرة الحزب الوطني الديمقراطي ، وكان المسؤول عن هاتين المجموعتين عبد الكريم قاسم ، ويتصل بالحزب المذكور .

وكان عبد السلام عارف ، ورفعت الحاج سري صاحبي دينٍ ، ويدعوان إلى الوحدة العربية ، والعمل مُباشرةً إلى الانضمام إلى الدول العربية الأخرى ، ولم تكن لهما صلات حزبية أو دولية .

وكان إسماعيل علي ، ووصفي طاهر من أصحاب الفكر الشيوعي ، ويتصلان بالحزب الشيوعي ، وخلاياه ، وقياداته .

وكان صالح مهدي عماش على صلةٍ وثيقةٍ بحزب البعث .

وربّما حاول بعضهم الاتصال بالزعماء السياسيين المدنيين المعارضين للاستفادة من التوجيه ، والاستشارة ، ولا شكّ أنّ كلّ ضابطٍ يتصل بأحد السياسيين لا بدّ من أن يكون أقربهم إليه صلةً ، أو فكراً ، أو إعجاباً بمواقفه .

اتصل رفعت الحاج سري بـ(محمد صديق شنشل) وبـ(فائق السامرائي) وكلاهما من أعضاء حزب الاستقلال الذي يرأسه محمد مهدي كبه . كما اتصل رجب عبد المجيد بفائق السامرائي أيضاً .

واتصل عبد الكريم قاسم بالحزب الوطني الديمقراطي عن طريق رشيد مطلق ، ثم اتصل مباشرةً برئيس الحزب كامل الجادرجي ، فاقترح عليه رئيس الحزب أن يكون مستشارهم محمد حديد أحد أعضاء الحزب البارزين .

كان بعض كبار هؤلاء الضباط على صلةٍ وثيقةٍ بالقيادة لحماية نفسه ، أو بأحد قادة البلاد للغرض نفسه ، وربما رأى أحدهم أن في هذا التصرّف حريةً له للحركة . فقد كان العقيد عبد السلام عارف يتصل برئيس الأركان الفريق رفيق عارف ، ويتقرّب منه ، حتى صار من أعوانه ، يُدافع عنه ، ويحميه ، ويردّ على من يتكلّم عنه ، وليس بينهما أية صلة قرابةٍ ، وإنما اتفاق عفوي في اسم الأسرة .

وكان عبد الكريم قاسم يتصل بنوري السعيد ، ويتودّد إليه ، حتى غدا من المقرّبين إليه ، يثق به ، ولا يهتمّ بما يُقال عنه . ويُعدّ عبد الكريم قاسم أكبر الضباط المعارضين رتبةً حيث كان يحمل رتبة عميد . ولكن صار اللواء محمد نجيب الربيعي يُؤيّد انتقادات المُعارضين ، أو يسكت عن ما يسمع .

صار أكثر هؤلاء الضباط يعرف بعضهم بعضاً ، فأطلقوا على أنفسهم اسم « الضباط الأحرار » على التسمية التي أطلقها على أنفسهم ضباط الثورة في مصر ، وهذا يدلّ على مدى تأثّرهم برجال تلك الثورة ، والدعاية لها . وشكّلوا لجنةً منهم لتنظيم الأمر ، أُطلق عليها « المنظمة المركزية » دلالةً على

التأثّر بالحركة الشيوعية ، التي تُطلق على قيادتها غالباً هذا الإسم . ووصل عدد أعضاء هذه المنظمة قبل الثورة بسنةٍ إلى أربعة عشر ضابطاً ، ولم يزد العدد بعدها على ذلك[1] ، وهم :

١ ـ العميد عبد الكريم قاسم .
٢ ـ العميد محيي الدين حامد .
٣ ـ العقيد ناجي طالب .
٤ ـ العقيد عبد السلام عارف .
٥ ـ العقيد عبد الرحمن عارف .
٦ ـ العقيد عبد الوهاب الأمين .
٧ ـ العقيد عبد الوهاب الشواف .
٨ ـ العقيد طاهر يحيى .
٩ ـ المقدم رجب عبد المجيد .
١٠ ـ المقدم وصفي طاهر .
١١ ـ المقدم عبد الكريم فرحان .
١٢ ـ المقدم محسن حسين الحبيب .
١٣ ـ الرائد صالح علي غالب .
١٤ ـ الرائد الطيار محمد السبع[2] .

---

(١) انتخب رفعت الحاج سري عضواً في المنظمة المركزية ولكن لم يحضر أي لقاءٍ من اجتماعاتها .

(٢) كانت أكثر اللقاءات تتم في بيت الرائد الطيار محمد السبع .

كانوا جميعاً من العرب ، ولم يكن بينهم ضابط كردي ، غير أنّ بعض الضباط الأكراد كانوا يُؤيّدونهم ، عسى أن يحصلوا على بعض المنافع للدولة الكردية التي يحلمون بها .

كانت غالبيتهم من المسلمين (السنة) ، ولم يكن بينهم من الشيعة سوى ناجي طالب ، ومحسن حسين الحبيب ، ولكن عبد الكريم قاسم كانت أمه من الشيعة . وكان تأييد الشيعة على أساس قيام دولةٍ علمانيةٍ لا دينيةٍ .

وكان معظمهم من بغداد ، ولم يكن من خارجها سوى ناجي طالب ، وطاهر يحيى ، وعبد الكريم فرحان . أما عبد السلام عارف وأخوه عبد الرحمن فأصل الأسرة من مدينة عانة على =

ولما لم يكن جميع أعضاء المنظمة المركزية أصحاب فكرٍ واحدٍ لذا لا يمكن أن يتّفقوا على صيغةٍ مُحدّدةٍ للعمل بعد نجاح حركتهم ، وإنما اكتفوا بوضع خطوطٍ عريضةٍ ، أطلق عليها بعضهم اسم « الميثاق الوطني » ولم تكن مكتوبةً ، وإنما تفاهموا عليها مُشافهةً ، إذ كانوا حريصين ألّا يتركوا أثراً مادياً يُدينهم فيما إذا كُشف أمرهم ، وأهم هذه النقاط :

١ ـ إعلان الجمهورية ، وإلغاء الملكية .

٢ ـ إقامة حكمٍ نيابيٍ صحيحٍ .

٣ ـ إقامة حكومةٍ مدنيةٍ ممن يثق بهم الضباط الأحرار ، بين مرحلة إلغاء الملكية وإقامة الحكم النيابي ، ويكون رئيسها مدني من زعماء المعارضة ،

= نهر الفرات قريباً من الحدود السورية ، ولكن انتقلت إلى بغداد ، وقد ولدا فيها .

كانوا جميعاً من الفقراء باستثناء ناجي طالب الذي كان أبوه ثرياً ، وعضواً في المجلس النيابي .

ولم يكن والد أحدٍ منهم قد عمل في سلك الجندية سوى والدي محيي الدين حامد، ووصفي طاهر .

درسوا جميعاً في المدارس الرسمية ، والتحقوا بعد تخرّجهم من المرحلة الثانوية في الكليات الحربية في بغداد ، وتخرجوا برتبة ملازمٍ ثانٍ ، ثم التحق عشرة منهم بكلية الأركان وهم : عبد الكريم قاسم ، عبد السلام عارف ، عبد الرحمن عارف ، محيي الدين حامد ، ناجي طالب ، عبد الوهاب الشواف ، عبد الكريم فرحان ، صالح علي غالب ، محسن حسين الحبيب .

وابتعث كل من ناجي طالب ، ورجب عبد المجيد إلى انكلترا ، ومحسن حسين الحبيب إلى الولايات المتحدة .

ودرس كل من ناجي طالب، ومحيي الدين حامد في كلية الحقوق في بغداد ، ولكن لم يتابع ناجي طالب الدراسة .

وقُبل عبد الرحمن عارف عضواً في اللجنة المركزية في ٣٠ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ (١ كانون الثاني ١٩٥٧م)، وقُبل أخوه عبد السلام عارف في ٤ ذي القعدة ١٣٧٦هـ (١ حزيران ١٩٥٧م) والذي رشّحه ، وزكّاه عبد الكريم قاسم حيث كان عبد السلام عارف على رأس كتيبةٍ في فلسطين تتبع عبد الكريم قاسم ، وكان بعضهم لا يرغب في مُشاركة عبد السلام عارف لهم .

ويختار الوزراء بعد استشارة الضباط .

٤ ـ إقامة مجلس سيادةٍ يضم ثلاثة أعضاءٍ ، يقومون مقام رئيس الدولة .

٥ ـ تحويل المنظمة المركزية إلى مجلسٍ لقيادة الثورة بعد نجاح الحركة .

ويبدو أن في ذلك التفاهم كان هناك نوع من التعاطف مع الأكراد .

لم يبحثوا في موضوع حلف بغداد ، ولكن أرجأوا ذلك إلى ما بعد نجاح الحركة ، وإلى الحكومة التي ستقوم يومذاك ، وذلك حتى لا يكون هناك تباين في وجهات النظر . ولم يبحثوا من أمر الأقليات سوى الأكراد ، وبشكلٍ غير مفصلٍ ، وإنما تطرّقوا إلى خطوطٍ عريضةٍ فيها اتفاق مسبق ، ومن البعيد أن يحدث فيها خلاف ، وهي التقيد بمبادىء الأمم المتحدة ، وميثاق جامعة الدول العربية .

وبسبب أن ضباط المنظمة المركزية ليسوا من فكرٍ واحدٍ ، وبعضهم يحرص على الزعامة لا بدّ من الوقوع بالخلافات السريعة لأن كلاً منهم يرغب في تحقيق ماتصبو إليه نفسه .

ولكن اتّفقوا فيما بينهم ومُشافهةً أنه إذا اقتضت الظروف ، وقامت مجموعة بالحركة أن تهبّ المجموعات الأخرى وتدعمها مُباشرةً .

وقبل الحركة نظروا في أمر أساطين المتلاعبين بالسياسة العراقية ، وأجمعوا على ضرورة قتل ولي العهد الأمير عبد الإله ، ونوري السعيد ، واختلفوا في وضع الملك ، ورأوا تركه حياً في السجن أو تحت الإقامة الجبرية رحمةً لصغره ، ومرضه . غير أنه قبل التنفيذ رأى عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف قتل الملك وإلحاقه بصاحبيه خوفاً من تدخل الدول الأخرى لصالحه .

محاولات التنفيذ السابقة : فكّر عبد الكريم قاسم بتنفيذ الحركة وهو عائد إلى العراق من فلسطين[1] ، ومُجرّد أن يدخل الحدود عند محطّة الضخّ

---

(١) آخر ما بقي من الجيش العراقي في الأردن .

(هـ ٣) ، وذلك لأن الملك ، وولي العهد ، ونوري السعيد كانوا سيحضرون احتفالات الاستقبال ، وأخبر المنظمة المركزية بذلك ، وأعلمهم أنّ هذا سيكون في شعبان ١٣٧٦هـ (تشرين الثاني ١٩٥٦م) ، ولكن أُلغيت الخطة ، لأنه جرى تعديل في الاحتفال ، ولن يحضر الثلاثة الكبار .

ووضع رفعت الحاج سري مُخطّطاً لتنفيذ الحركة بعد أن أُحيل على التقاعد في عام ١٣٧٧هـ غير أنه لم يُنفّذ .

وفي ٢٢ شوال ١٣٧٧هـ (١١ أيار ١٩٥٨م) جرت مُناورات للجيش في منطقة الرطبة ، وتقرّر حضور الثلاثة الكبار ، فقرّرت المنظمة المركزية التنفيذ ، غير أن نوري السعيد لم يحضر تلك المناورات ، لذا تقرّر إلغاء التنفيذ . لكن أُلقيت قنبلة على منصّة الملك من جهةٍ غير معروفةٍ ، ولم يُصب أحد بأذىً ، ولم يلحق ضرر بالضباط الأحرار ، كما لم يُتّهم أحد منهم .

وفي ٢٣ شوال ١٣٧٧هـ عندما انتهت المناورات ، وأخذ الجنود يعودون إلى قطعاتهم ، توقّف لواء البصرة في منطقة (أبو غريب) بقيادة العميد أحمد محمد يحيى ، وفكّر بإعلان الثورة ، وأخبر بذلك الضباط الأحرار الذين كانوا في بغداد بإمرة العقيد عبد الوهاب الشواف ، فلم يهبّوا لنجدته ، وربما كانت الزعامة وراء هذا التواني .

وفي ١١ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (٢٩ أيار ١٩٥٨م) فكّر المقدّم عبد الغني الراوي بتنفيذ الحركة في البصرة ، إذ كان مقرّراً حضور الثلاثة الكبار الاحتفال الذي سيُقام بمناسبة مرور خمسٍ وعشرين سنة على تأسيس كلية الأركان ، ووضع المقدّم الراوي تفصيلاً دقيقاً للخطّة ، ولكن لم يُوافق زعماء الضباط الأحرار على ذلك .

حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ : بعد عطلة عيد الأضحى مُباشرةً ١٣ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١ تموز ١٩٥٨م) صدر الأمر العسكري إلى اللواء العشرين من الفرقة الثالثة التي يقودها الفريق غازي الداغستاني ، والمعسكر في

منطقة جلولاء شمالي شرقي بغداد بالتحرّك يوم ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) إلى الأردن لتعزيز موقفها في وجه الهجمات التي يقوم بها اليهود ضدّها . وكان قائد هذا اللواء العميد أحمد حقي ، وهو ليس من الضباط الأحرار .أما الكتائب الثلاث التي يتألّف منها اللواء فهي : الكتيبة الثالثة بقيادة العقيد عبد السلام عارف ، وهو نائب قائد اللواء ، والكتيبة الأولى يقودها عبد اللطيف الدراجي ، وهو من الضباط الأحرار، وأما الكتيبة الثانية فيقودها ياسين محمد عبد الرؤوف .

أما اللواء التاسع عشر من الفرقة الثالثة فيقوده العميد عبد الكريم قاسم ، ويتمركز في ضاحية المنصور في معسكر المقدادية . فما أن صدر الأمر حتى أحسّ عبد الكريم قاسم أن الوقت قد حان لإعلان الحركة وأنّ الفرصة مُناسبة جداً لذلك ، وشاركه الرأي عبد السلام عارف الذي خشي أن يبتعد عن دوره في الحركة فيما إذا ترك لواؤه أرض العراق إلى الأردن . واتّفق الاثنان على أن يحتلّ اللواء العشرون بغداد ، وهو في طريقه إلى الأردن رسمياً ، وأن ينطلق اللواء التاسع عشر خلفه لحماية ظهره من حركةٍ مُضادّةٍ . ورأيا من الضرورة وجود الملك ، وولي العهد ، ونوري السعيد في بغداد .

وكان لا بدّ من الحصول على مُوافقة المنظمة المركزية ، لذا نزل عبد الكريم قاسم إلى بغداد يوم ١٧ ذي الحجة (٤ تموز) ، والتقى بداره مع ستةٍ منهم[1] ، في مُحاولةٍ للسرعة ، ولحصر الخبر في أقلّ عددٍ ممكنٍ ، وقرّروا تنفيذ الخطّة ، وأطلقوا عليها عملية (صقر) . وأخذ بعدها كل من عبد الكريم قاسم ، وعبد السلام عارف يُعمّيان عن الخطّة ، ويشيعان أن تأجيل التنفيذ قد تأخّر . . . . .

وفي ٢٦ ذي الحجة (١٣ تموز) أي قبل قيام الحركة بيومٍ واحدٍ قام

---

(١) كان هؤلاء المجتمعون : عبد الكريم قاسم ، ومحيي الدين حامد ، وعبد الوهاب الأمين ، وعبد الوهاب الشواف ، وناجي طالب ، وطاهر يحيى ، ومحمد السبع .

عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بزيارة بغداد ، وزارا بعض الذين تقع على عاتقهم بعض المهمّات في التنفيذ .

وفي الصباح الباكر من يوم ٢٧ ذي الحجة ، تحرّك اللواء العشرون بقيادة عبد السلام عارف ، وكان القائد العميد أحمد حقي قد اجتاز بغداد ، وسار باتجاه الفالوجة سابقاً لواءه . فأصدر العقيد عبد السلام عارف أمره باعتقال العقيد ياسين محمد عبد الرؤوف قائد الكتيبة الثانية ، وعيّن مكانه المقدّم عادل جلال . وسار على رأس اللواء إلى معسكر (كاسل بوست) ، فأصدر هناك الأوامر الآتية :

١ ـ يتسلّم العقيد عبد اللطيف الدراجي قيادة اللواء ، إضافةً إلى قيادة الكتيبة الأولى التي تكلّف باحتلال الإذاعة ، ومركز الشرطة في الباب الشرقي جنوب بغداد ، وتتصل بالضباط الأحرار في معسكر الرشيد .
٢ ـ يُعيّن المقدّم فاضل محمد علي قائداً للكتيبة الثالثة ، مكان العقيد عبد اللطيف الدراجي ، وعلى هذه الكتيبة احتلال الكرخ بالتعاون مع معسكر (الوشاش) الذي هو بقيادة عبد الرحمن عارف .
٣ ـ وتتحمّل الكتيبة الثانية بقيادة المقدم عادل جلال احتلال وزارة الدفاع ، وحصار الديوان الملكي ، وشلّ حركة الحرس الملكي .

ثم وزّع الذخيرة على القطعات ، وكان مُعسكر (كاسل بوست) على بعد ثلاثين كيلومتراً من بغداد ، وكانت الساعة الرابعة صباحاً ، فتحرّك فوصل إلى بغداد في الساعة الرابعة والنصف ، واجتاز نهر دجلة في الساعة الخامسة ، واتّجه نحو الإذاعة ، فاحتلّها ، وأقام فيها مقرّ قيادته . وأعلن من الإذاعة نبأ إعلان الجمهورية ، ودعا الشعب إلى تأييد الحركة .

وأصدر عبد السلام عارف أمره إلى الرائد عبد الجواد حامد بأن يتوجّه على رأس سرية لحصار قصر الرحاب حيث يُقيم الملك ، وولي العهد . وعهد إلى الرائد بهجت سعيد بمهمة إلقاء القبض على نوري السعيد ، وكلّف المقدّم

وصفي طاهر بمعاونته لأنه يعرف بيت نوري السعيد جيداً حيث عمل مُرافقاً له مدةً من الزمن . ولكنّ نوري السعيد استطاع الفرار[1] مدة يومين .

وجد الرائد عبد الجواد حامد مُقاومةً للوصول إلى قصر الرحاب ، فجاءته نجدة من معسكر (الوشاش) بقيادة الرائد عبد الستار عبد اللطيف على رأس قوةٍ مدرّعةٍ ، قضت على الملك وولي العهد .

ولما احتلّ عبد السلام عارف بغداد ، تسلّم العقيد عبد اللطيف الدراجي إمرة اللواء ، وأسند قيادة الكتيبة الأولى مكانه إلى المقدّم عبد الله الخالدي .

وكان عبد الكريم قاسم ينتظر سير الأمور في معسكر المقدادية ، وهو قائد اللواء التاسع عشر ، فلما بلغه احتلال عبد السلام عارف بغداد، لحق به ، وسمع من مذياع سيارته صوت عبد السلام عارف يُنادي من الإذاعة نبأ إعلان الجمهورية . فتوجّه إلى الإذاعة وهنّأ عبد السلام بنجاحه ، ثم توجّه إلى وزارة الدفاع حيث اتّخذها مقرّاً لقيادته . وربّما كانت هذه نقطة الخلاف الأولى بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ، وإن كانت لا شعوريةً . إذ كان عبد السلام عارف يشعر أنه هو الذي قام بالعملية ، ونجح فيها ، ولم يقم عبد الكريم قاسم بأيّ جهدٍ ، أمّا عبد الكريم قاسم فيحسّ بنفسه أنه كان قائد التنظيم للضباط الأحرار .

أعلنت البيانات نبأ تعيين عبد الكريم قاسم رئيساً أعلى للقوات المسلحة ، ومُنح صلاحيات واسعةً ، كما عُيّن رئيساً للوزراء لحكومةٍ مدنيةٍ ، ووزيراً للدفاع بالوكالة ، كما عُيّن عبد السلام عارف مُساعداً له في رئاسة

---

(١) أخذ ينتقل من مكان إلى مكان متخفياً ، ثم عُرف وهو يسير بزي امرأةٍ مع زوج أحد أصدقائه ، فظهر طرف البيجاما أسفل العباءة . فلما انكشف أمره انتحر بإطلاق الرصاص على نفسه ، ونقلت جثته إلى وزارة الدفاع ، ثم دُفنت ، ولكن العامة نبشوا القبر ، وأخرجوا الجثة ، ومثّلوا بها .

القوات المسلحة ، ونائباً له في رئاسة الحكومة ، ووزيراً للداخلية بالوكالة ، وكانت تصدر البيانات باسم مجلس السيادة .

وخرجت مُظاهرات التأييد تملأ شوارع العاصمة ، والمدن الأخرى . كما قامت مثيلاتها في كلٍ من دمشق والقاهرة . وجاءت قوات أمريكية إلى لبنان لحماية الوضع ، وجاءت قوات إنكليزية إلى الأردن ، وأُتبعت بقواتٍ أمريكيةٍ أيضاً للسبب نفسه . وأيّدت الجمهورية العربية المتحدة الوضع بكل ثقلها ، وأعلنت استعدادها لدعم الوضع الجديد في العراق ، وجاء وفد رسمي من بغداد برئاسة عبد السلام عارف إلى دمشق للتفاوض مع جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة الذي كان بدمشق ، وجرت مُفاوضات بين الطرفين ، ووُقّعت اتفاقية من الجانبين في اليوم نفسه ٢ المحرم ١٣٧٨هـ (١٩ تموز ١٩٥٨م) . ويظهر أنّ عبد السلام عارف قد ذكر لجمال عبد الناصر إمكانية انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة .

الحكم العسكري : تشكّل مجلس السيادة من ثلاثة عناصر برئاسة الفريق محمد نجيب الربيعي[1] . وتشكّلت الوزارة برئاسة عبد الكريم قاسم[2] ، وقرّرت في اليوم الأول من عام ١٣٧٨هـ (١٧ تموز ١٩٥٨م) إعادة

---

(١) تشكّل مجلس السيادة من محمد نجيب الرُبيعي رئيساً وعضوية كل من : محمد مهدي كبه ، والعقيد خالد النقشبندي .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الكريم قاسم : رئيساً للوزارة، وزيراً للدفاع بالوكالة .
٢ ـ عبد السلام عارف : نائباً لرئيس الوزارة، وزيراً للداخلية بالوكالة.
٣ ـ محمد حديد : وزيراً للمالية .
٤ ـ مصطفى علي : وزيراً للعدلية .
٥ ـ فؤاد الركابي : وزيراً للإعمار .
٦ ـ عبد الجبار جومرد : وزيراً للخارجية .
٧ ـ جابر عمر : وزيراً للمعارف .
٨ ـ محمد صديق شنشل : وزيراً للإرشاد .
٩ ـ هديب الحاج حمود : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ محمد صالح محمود : وزيراً للصحة .
١١ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للاقتصاد .
١٢ ـ بابا الشيخ علي محمود : وزيراً للمواصلات والأشغال.
١٣ ـ ناجي طالب : وزيراً للشؤون الاجتماعية.

العلاقات السياسية مع الجمهورية العربية المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، والصين الشعبية . كما ألغت الاتحاد مع الأردن وتشكّلت لجنة وزارية لوضع دستور موقتٍ فأنجزته خلال أُسبوعين .

تضايق الضباط الأحرار الذين لا يُريدون إقحام أنفسهم بالسياسة من تصرّف عبد الكريم قاسم باستلامه السلطة . وخاصةً أنّه أصبح يُصدر القرارات دون استشارة الوزراء ، ثم أعلن الأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد ، وعيّن العميد أحمد صالح العبدي حاكماً عسكرياً عاماً ، وجعله مسؤولاً أمامه . وصُودرت أملاك الأسرة الحاكمة . وأُنشئت محكمة عسكرية . وتأسّست المقاومة الشعبية ، وتألّفت من مُتطوعين ومُتطوعات ، وأصبحت مدةً تنشر الرعب في نفوس السكان نتيجة التصرّف غير المقبول .

الخلاف بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف :

بدأ الشعور بالخلاف من اليوم الأول ، إذ يعدّ كلّ واحدٍ منهما نفسه أنّه هو الذي أنشأ الحركة وقادها . فعبد الكريم قاسم رأس المنظّمة ، ومنه تصدر الأوامر ، وهو الذي يُخطّط ، أو يُوافق على مُخطّطٍ ، ولا يتمّ عمل دونه ، وباسمه تكون الحركة . ويرى نفسه أنّه هو المُخطّط لهذه الثورة ، كما أشرف على التنفيذ ، ولا يُنكر ضمناً دور عبد السلام عارف وما بذله ، وإن كان بينه وبين نفسه يحسّ بشيءٍ من الحسد مقرونٍ بشيءٍ من التقدير للدور الذي قام به عبد السلام عارف ، ولكن لا تلبث أن تعاف نفسه هذا التفكير وتعود إلى إعطاء صاحبها أكبر من حقّه فتتذكر أنّه هو الذي رشّح عبد السلام عارف إلى المنظمة المركزية وهو الذي زكّاه وقدّمه ، ولولاه لبقي عبد السلام مغموراً ، فهو إذن صاحب الأيدي البيضاء عليه .

ويرى عبد السلام عارف أنه هو الذي قاد الحركة ، وخاطر ، وتسلّم الإذاعة ، وهو أوّل من أذاع نبأ الحركة إلى الرعيّة ، وأعطى التعليمات اللازمة للسيطرة على الموقف ، وكتب الله للحركة النجاح برعايةٍ وفضلٍ منه ، ثم بما

أحدثه العهد السابق من بدعٍ وسوءٍ ، وما جرى على أيدي أتباعه من جرائم وظلمٍ وطغيانٍ ، ثم بفضل التعليمات التي أعطاها هو (عبد السلام عارف) .

ومن هذين المنطلقين المتباينين أخذ يتصرّف كل منهما دون النظر إلى الطرف الآخر بل دون النظر إلى المنظمة المركزية التي يجب أن يُؤخذ رأيها في كل موضوع ، ودون النظر إلى رأي الحكومة بل دون أخذ الاعتبار إلى مجلس السيادة الذي هو رأس السلطة ، وعنوان البلد .

كان عبد السلام عارف يدعو إلى الوحدة العربية الشاملة ، ويرى الانضمام مُباشرةً إلى الجمهورية العربية المتحدة التي يراها رمز هذه الوحدة ، ومنها تنطلق ، إضافةً إلى أنه كان مُعجباً برئيسها جمال عبد الناصر ، إذ كانت الدعاية مُركّزةً عليه من الداخل والخارج بل وحتى من دولة اليهود إذ يدّعون الخوف منه والعداوة له ليكبُر في عيون شعبه . ولم يكن عبد الكريم قاسم يرى ما يراه عبد السلام عارف .

في ٣ المحرم ١٣٧٨هـ (١٩ تموز ١٩٥٨م) أي بعد الحركة بخمسة أيامٍ قام عبد السلام عارف على رأس وفدٍ يضم ثلاثة وزراء بزيارة دمشق حيث كان جمال عبد الناصر فيها ، وجرت مفاوضات ، ووُقّعت اتفاقية ، وتكلّم عبد السلام عارف في موضوع انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وسأله جمال عبد الناصر عن موقف عبد الكريم قاسم ، فأجاب : مصيره مصير محمد نجيب ، ويُعرف من هذا تخطيط عبد السلام عارف ، وتفكيره ، ونظرته المستقبلية . ولكن قبل أن يرجع الوفد إلى العراق كان تفصيل ما جرى من أحاديث عند عبد الكريم قاسم ، وقد فاتحه بهذا عبد السلام فابتعد عبد السلام بالتحليل ، والتعليل ، والتحايل ، وتصديق بعض ما نُقل ، وإنكار بعضه الآخر ، فسكت عبد الكريم ، وأسرّها في نفسه .

وكان عبد السلام عارف يقوم بجولاتٍ في أنحاء العراق ، ويُلقي خُطباً حماسيةً ، وفي نهاية الخُطبة ، ينقل للجموع تحيات الرئيس جمال عبد الناصر

كأنّه رئيس البلاد ، ولا يُذكر عبد الكريم قاسم زعيم العراق ، ناسياً ذلك أو مُتناسياً ، وتُنقل الأخبار إلى عبد الكريم قاسم ، فيسكت عنها مُكرهاً ، على غير طبيعته الانفعالية، وكأنّه حريص فعلاً على صداقة عبد السلام، ومُقدراً له ، ومُحترماً للصلة التي كانت بينهما ، وقد كثُرت هذه التصرّفات ، وكثُر معها الواشون .

وكان عدد من الضباط والوزراء أمثال فؤاد الركـابي ، وناجي طـالب يُشجّعـون عبد السـلام عارف عـلى العمل للوحـدة مع الجمهـورية العربية المتحدة ، ويدفعونه إليها دفعاً ، وفي الوقت نفسه يوجد عدد آخر يُحـذّرون عبد الكريم قاسم من عبد السلام عارف وأعوانه ، ويُخوّفونه من التوجّه نحو الجمهورية العربية المتحدة أكثر من اللازم ، لأن النتيجة لن تكـون إلّا ضياع شخصيته ، وفقدان العراق لكيانه ، وصبر عبد الكريـم قاسم ، ثم أخذ ينزل العقوبة تدريجياً .

بدأ بإلغاء منصب عبد السلام عارف من منصب نـائب قائد القوات المسلّحة بحجة أن عدداً من الضباط أصحاب الرتب العالية ، والتي هي أعلى من رتبة « عقيد » رتبة عبد السلام عارف ، كانوا يحتجّون بمُخالفة نظام السلم العسكري ، إذ كيف يُصدر ضابط أوامره لمن هم أعلى منه رتبةً . وهذا ما ألزم عبد الكريم قاسم على هذا التصرّف ـ حسب زعمه ـ .

ثم ألغى منصب عبد السلام عارف السياسي كنائب لرئيس الوزراء ، ووزيرٍ للداخلية بالوكالة[١] ، بحُجّة اقتضاء المصلحة العامةً، العبارة السياسية المعروفة التي تُتّخذ في مثل هذا الموقف .

ورأى عبد الكريم قاسم أنّ إبعاد عبد السلام عارف إلى خارج البلاد قد يُنهي الصراع الذي حدث داخل البلاد بين زعيميها ، وفي اليوم نفسه الذى

---

(١) عُيّن مكانه وزيراً للداخلية العقيد أحمد محمد يحيى .

أزاحه فيه عن منصبه السياسي قرّر تعيينه سفيراً للعراق في ألمانيا الغربية، وأصدر أمراً بذلك في الوقت ذاته .

رفض عبد السلام عارف مُباشرةً منصبه الجديد كسفيرٍ في ألمانيا الغربية ، وقدّم استقالته في اليوم التالي ، وأصرّ على ذلك ، وقال : إنّه يفضّل الجلوس دون عملٍ في بلده على أيّ عملٍ مهما كانت قيمته خارج وطنه ، ولزم بيته . وأخذ الأصدقاء والأعوان يزورونه .

وحاول العقيد أحمد حسن البكر أحد أعضاء حزب البعث أن يُثير حماسة الضباط ضدّ عبد الكريم قاسم ، وانتصاراً لعبد السلام عارف ، ويقوم بحركةٍ ، ولكنها قُمعت فوراً .

وقام أعوان عبد السلام عارف بمظاهرةٍ أمام منزله في ٢٠ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٣ تشرين الأول ١٩٥٨م) وهتفوا له وعبّروا عن مشاعرهم تماماً .

حاول بعض أعوان عبد السلام عارف أن يُقنعوا عبد الكريم قاسم بالعُدول عن رأيه ، وإعادة اعتبار عبد السلام عارف ، فوافق على أن يُنفّذ عبد السلام الأمر ، ويلتحق بعمله ، ثم يُسوّي الأمر ، وحاول بعض الأعوان الآخرين إقناع عبد السلام بالامتثال والموافقة على السفر دلالةً على ولائه لرئيسه عبد الكريم قاسم ، غير أنّه أبى إلاّ الإصرار على عدم السفر .

وفي غرة شهر ربيع الثاني دعا عبد الكريم قاسم عبد السلام عارف إلى مكتبه بحضور رئيس الأركان أحمد صالح العبدي ، وفؤاد عارف وضباط آخرين ، وحاول الجميع إقناعه بقبول منصب سفير ، فأبى ، واحتجّ بأمورٍ عائليةٍ ، وأصرّ عبد الكريم قاسم إلاّ التنفيذ لأنّ بقاءه قد أحدث انشقاقاً في داخل البلاد . وأخيراً قرّر السفر على أن يستدعيه عبد الكريم قاسم للعودة إلى الوطن بعد ثلاثة أسابيع .

سافر عبد السلام عارف ومعه سفير العراق في بون علي حيدر سليمان عن طريق ڤيينا ، ومن هناك قرّر العودة ، ولكنهما سافرا إلى بروكسل . ثم

رجعا إلى ڤيينا، ورفض عبد السلام عارف الوصول إلى بون ، وعاد من فيينا إلى بغداد ، فأخبر علي حيدر سليمان السلطات مُباشرةً . ووصل عبد السلام عارف إلى بغداد ، وانتقل من المطار إلى منزله . دون علم أحدٍ ، فأخبرت إدارة الجوازات السلطة ، فأصدر عبد الكريم قاسم أمراً إلى رئيس الشرطة طاهر يحيى بإحضاره إلى مكتبه ، فحضر عبد السلام عارف إلى مكتب عبد الكريم قاسم الذي حاول إقناعه بضرورة العودة ولكن دون جدوى ، ثم طلب منه اختيار السفارة التي يُريدها ، فأبى إلاّ البقاء في العراق ، وخرج من المكتب عائداً إلى منزله .

وفي ٢٥ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ (٦ كانون الأول ١٩٥٨م) ، ألقت الشرطة القبض على عبد السلام عارف ، وأودعته السجن ، وقُدّم للمحاكمة يوم ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٥٨م) بتهمة محاولة قتل عبد الكريم قاسم في مكتبه ،يوم كان عنده يوم ٢٨ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (١١ تشرين الأول ١٩٥٨م) ، وتحريض الناس على العصيان في ٢٣ و ٢٤ جمادى الأولى ، واستمرّت المحاكمة حتى ٢٧ رجب ١٣٧٨هـ حيث أصدرت المحكمة حكمها عليه بالإعدام ، ولكن عبد الكريم قاسم لم يُصدّق الحكم ، وإنما احتفظ به عنده ، وبقي عبد السلام في السجن حتى حدث الانفصال في الجمهورية العربية المتحدة إذ انفصلت سوريا عن مصر ، حيث زاره عبد الكريم قاسم بالسجن وطلب منه العودة إلى بيته في ربيع الثاني ١٣٨١هـ ، كما سمح له في ذلك العام بأداء فريضة الحج .

أُحيل بعض أعوان عبد السلام عارف على التقاعد ، ونُقل بعضهم إلى مراكز غير حسّاسة . أما الشيوعيون فقد التفّوا حول عبد الكريم قاسم .

حركة رشيد عالي الكيلاني : إثر نجاح حركة الجيش في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ وصل رشيد عالي الكيلاني إلى دمشق قادماً من القاهرة ، وطلب السماح له بدخول العراق ، فسُمح له ، فرجع إلى القاهرة حيث التقى بالرئيس جمال عبد لناصر ، ثم عاد إلى دمشق ، ومنها إلى بغداد فوصل إليها في

١٩ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٢ تشرين الأول ١٩٥٨م) أي في الأيام التي كان عبد السلام عارف قد لزم بيته ، فاستُقبل استقبالاً رائعاً جداً ، وزاره في بيته عبد الكريم قاسم نفسه ، وعدد كبير من الضباط .

وعندما وُضع عبد السلام عارف في السجن في ٢٥ جمادى الأول ١٣٧٨هـ أخذ عبد اللطيف الدراجي ورفعت الحاج سري ، وأحمد حسن البكر ، وطاهر يحيى يزورون رشيد عالي الكيلاني في بيته ، وتدور الأحاديث السياسية في المنزل ، ويتكلّم الكيلاني بصراحةٍ ، وقد نُصح أكثر من مرةٍ بعدم الحديث إلّا مع من يثق بهم تماماً .

ترامى إلى عبد الكريم قاسم أنّ رشيد عالي الكيلاني يعدّ انقلاباً ، وسيقوم به يوم ٢٨ جمادى الأولى وأنّ شيوخ قبائل الفرات الأوسط هم الذين سيشعلون نار الثورة . فاستعدّت الاستخبارات العسكرية وكلّفت ثلاثة ضباط واثنين من المدنيين للاتصال بأكبر أعوان رشيد عالي الكيلاني ، وهما : المحامي عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني ابن أخي رشيد ، وادّعى العسكريون والمدنيون من رجال الاستخبارات أنّهم قد عملوا على تأسيس جمعيةٍ للعمل السياسي ، فتورّط في الموضوع كل من عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني ، وأخذوا يعملون معاً ، ووعدهم مبدر الكيلاني بأنه سيعمل على تأمين السلاح والمال عن طريق عمّه رشيد من الجمهورية العربية المتحدة .

وفي اليوم المُحدّد للحركة ، وهو ٢٨ جمادى الأولى أُلقي القبض على رشيد عالي الكيلاني ، وابن أخيه مبدر الكيلاني ، وعبد الرحيم الراوي ، وقُدّموا للمحكمة ، وادّعى رشيد أنّ عبد الرحيم ومبدراً قد تصرّفا من نفسيهما ، ودون علمه ، فقضت المحكمة بالإعدام على عبد الرحيم ومبدر ، وبرّأت ساحة رشيد . ولكن اللذين حُكم عليهما بالإعدام ، استأنفا الحكم بعد أن رأيا ثناء رشيد على عدالة المحكمة ، وأعادا إفادتيهما . . . . فقُدّم رشيد للمُحاكمة ثانيةً في ٤ جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ (١٥ كانون الأول ١٩٥٨م)، وتحدّث عبد الرحيم الراوي ، ومبدر الكيلاني عن المحادثات التي جرت بين

رشيد عالي الكيلاني وبين الضباط طاهر يحيى، وطه الدوري، وعبد اللطيف الدراجي ، وأحمد حسن البكر . . . . فأعادت المحكمة النظر في حكمها السابق، وقضت على رشيد بالإعدام غير أنّ الحكم لم يُصدق ، وبقي في السجن حتى أُفرج عنه في ١ صفر ١٣٨١هـ (١٤ تموز ١٩٦١م) ، وانتقل من العراق إلى بيروت ، ثم عاد إلى العراق بعد أن وقع انقلاب ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ . ولكن رجع ثانيةً إلى بيروت ، وتُوفي فيها .

وفي ٢٩ رجب ١٣٧٨هـ (٧ شباط ١٩٥٩م) أي بعد يومين اثنين من صدور الحكم بالإعدام على عبد السلام عارف ، تقدّم ستة وزراءٍ باستقالاتهم بصورةٍ جماعيةٍ[١] ، فقُبلت مُباشرةً ، وتشكّلت وزارة جديدة[٢] ضمّت عدداً من العسكريين أكبر مما ضمّتهم الوزارة الأولى .

---

(١) الوزراء الستة الذين تقدّموا باستقالاتهم من الحكومة :

١ ـ فؤاد الركابي: وزير الأعمار .

٢ ـ عبد الجبار جومرد: وزير الخارجية .

٣ ـ جابر عمر: وزير المعارف .

٤ ـ محمد صديق شنشل: وزير الإرشاد .

٥ ـ بابا الشيخ علي محمود: وزير المواصلات والأشغال.

٦ ـ ناجي طالب: وزير الشؤون الاجتماعية.

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الكريم قاسم:

٢ ـ أحمد محمد يحيى : وزيراً للداخلية .

٣ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للإقتصاد .

٤ ـ محمد الشواف : وزيراً للصحة .

٥ ـ طلعت الشيباني : وزيراً للتنمية .

٦ ـ

٧ ـ

٨ ـ محمد حديد :

٩ ـ حسين جميل* : وزيراً للإرشاد .

١٠ ـ حسن الطالباني :

١١ ـ محيي الدين حامد :

١٢ ـ عبد الوهاب الأمين:

١٣ ـ فؤاد عارف** : وزير دولة .

* أُرغم على الاستقالة بعد ثلاثة أيام لأنه اتّخذ إجراءً ضدّ صحيفةٍ شيوعيةٍ . وعُيّن سفيراً في الهند ، وحلّ محلّه وزير الدولة فؤاد عارف .

** فؤاد عارف : ضابط كردي ، وليست هناك أية صلة قرابة بينه وبين عبد السلام عارف ، وإنما تشابه في اللقب فقط .

حركة عبد الوهاب الشوّاف في ٢٨ شعبان ١٣٧٨هـ :

أخذ عبد الكريم قاسم يُشجّع العناصر الشيوعية ، والتي تقف موقفاً مُعادياً من الوحدة وذلك للوقوف في وجه العناصر التي تدعم عبد السلام عارف ، غير أن هذا التصرّف قد أثار كلّ العناصر التي تُعادي الشيوعية على اختلاف مشاربها، بالإضافة إلى أنّه أهمل الضباط الأحرار الذين كانوا دعامة الحركة ، فشعروا أنهم قد أصبحوا على الهامش ، لا يُؤبه بهم ، ومع مرور الوقت أصبحوا في عداد المُخالفين للنظام .

كانت وحدة الضباط الأحرار التي نشأت في الموصل بقيادة محمد عزيز ، وكانت تخضع للمنظمة المركزية في بغداد ، وقد أُرسل عبد الوهاب الشواف بعد حركة ٢٧ ذي الحجة ليتولّى قيادة القوات المسلّحة في الموصل . وكان صاحب أطماع ، وظنّ في بداية الأمر أن نقله إلى الموصل مؤقّت ، ولما مرّ الزمن دون إعادته، شعر أن إرساله كان إبعاداً له . وتأكّد لديه هذا عندما عيّن أحمد محمد يحيى وزيراً للداخلية مكان عبد السلام عارف وهو في رتبة دون رتبته ، وهذا ما جعله يقف موقفاً مُعادياً لعبد الكريم قاسم أو في الصفّ المقابل له ، وأصبح في الموصل مجموعتان إحداهما تُؤيّد النظام وزعيمه عبد الكريم قاسم بقيادة محمد عزيز ، والثانية تدعو إلى الوحدة ، وتُعارض مُمثّل النظام عبد الكريم قاسم ، وهي بقيادة عبد الوهاب الشوّاف . وجاءت الفرصة للصدام .

أعلنت مؤتمر مُنظّمة أنصار السلام الشيوعية[1] أنها ستعقد مُؤتمرها السنوي في مطلع عام (١٩٥٩م) في الموصل ، واحتجّ عبد الوهاب الشوّاف على عقد هذا المؤتمر في الموصل، وطلب من عبد الكريم قاسم منع عقد هذا المؤتمر في الموصل ، ولكن لم يستمع ، وكانت شكوى عامة من النشاط

---

(١) تأسّست في بغداد عام ١٣٦٥هـ ، ولكنها أُلغيت بعد سنتين ، ولكن حركة ٢٧ ذي الحجة عادت للنشاط بقيادة عزيز شريف زعيم الحزب اليساري سابقاً .

الشيوعي ، والتسلّل إلى كثيرٍ من المناطق ، اشتكى من ذلك قائد الفرقة الثانية في كركوك ناظم الطبقجلي ، أحد الضباط الأحرار ، كما اشتكى قائد الفرقة الرابعة في الديوانية عبد العزيز العقيلي الذي هو من الموصل ، كما اشتكى الضباط غير الشيوعيين ، وكان منهم رفعت الحاج سري الذي يعمل مديراً للاستخبارات ، ومكتبه في وزارة الدفاع قريباً من مكتب عبد الكريم قاسم .

اتّفق رفعت الحاج سري مع ناظم الطبقجلي على قيام حركةٍ تقوّض النظامِ القائم ، وكان الاتفاق أن يقوم ناظم الطبقجلي بثورةٍ في منطقته إذ أصبح محبوباً فيها ، وقد التفّ حوله التركمان ، وأحبّوه لحمايته لهم من شيوعيي الأكراد وإلغائه القنصليات الأجنبية في كركوك . أما رفعت الحاج سري فيقوم مع الضباط الوحدويين بتطويق مكتب عبد الكريم قاسم ، وإجباره على الاستقالة ومُغادرة البلاد ، أو قتله إن أبى . ثم انضمّ إلى الحركة في النصف الثاني من شعبان (٢٠ شعبان ١٣٧٨هـ) عبد الوهاب الشوّاف ، وتعهّد هو بالقيام بالثورة لوجود أعدادٍ مُعادين للوحدة في اللواء الثاني الذي يتبع ناظم الطبقجلي ، ويُعسكر في كركوك . كما تعهّد الزعماء المدنيون المُؤيّدون للوحدة بقيام مُظاهرات تأييد للحركة فور إعلانها .

عُقد مؤتمر أنصار السلام في ٢٦ شعبان ، ولم يحدث احتكاك بين الشيوعيين وسواهم من الضباط ، غير أنّ عبد الوهاب الشواف استنفر قواته عصر ٢٧ شعبان ، وقرّر مع نفسه أن تكون الحركة يوم ٢٨ شعبان ، ولم يُخبر بذلك رفعت الحاج سري ، ولا ناظم الطبقجلي . وقام محمود الدرّة ليُنسّق بين الرؤساء للحركة لكنه فُوجىء بقرار الشوّاف الذي رغب أن تكون الحركة باسمه ، على حين رغب آخرون أن تكون باسم ناظم الطبقجلي ، وإن تصلّب عبد الوهاب الشوّاف برأيه ، ورغبته في قيادة الحركة قد جعل الطبقجلي لا يُسرع في دعمه . ولما تباطأ الطبقجلي توانى رفعت الحاج سري . فكان مصير الحركة الفشل .

أعلن عبد الوهاب الشوّاف الثورة في الساعة السابعة من صباح يوم ٢٨

شعبان ١٣٧٨هـ (٨ آذار ١٩٥٩م) ، وأخذت العناصر المُؤيّدة ، والمُعارضة للشيوعية تنتقم من الشيوعيين، وسيطر الوحدويون على الموصل وأسرعت إلى المدينة بطون قبيلة شمر النازلة في الجزيرة السورية ، ووصلت إلى مدينة الموصل ، ودعمت الشواف . واتصل عبد الكريم قاسم بناظم الطبقجلي وسأله عن موقفه ، فأجابه أنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع . غير أن أجهزة البثّ التي يجب أن تصل من سوريا لم تصل ، وعُزلت قوات الشوّاف ، وأمر عبد الكريم قاسم بقصف المدينة ، فانهارت المقاومة ، كما هجمت على الموصل القبائل الكردية الموالية للنظام ، وأُصيب الشوّاف بجروح ، ونُقل إلى المستشفى ، وقضى عليه أحد الأكراد ، وهو بالمستشفى . وفي عصر اليوم التالي ، تغلّبت قوات الحكومة ، ومن يدعمها من الشيوعيين ، وانتهت سيطرة من ناصر الحركة . وأخذ الشيوعيون بارتكاب الجرائم ، إذ شكّلوا المحاكم في الشوارع ، وأخذوا في الإعدامات ، ونُهبت البيوت ، وانتُهكت الحُرمات . وعرف السكان الشيوعيين على حقيقتهم بما ارتكبوه من فظائع تجلّ عن الوصف .

بدأت المحاكمات ، واستمرّت مع التعذيب الشديد ما يزيد على خمسة أشهر ، ثم نُفذّت أحكام الإعدام في ١٨ ربيع أول ١٣٧٩هـ (٢٠ أيلول ١٩٥٩م) ، حيث أُعدم ناظم الطبقجلي ، ورفعت الحاج سري ، ومعهما أحد عشر من إخوانهم[١] .

كما أعدم في اليوم نفسه من غير الضباط الذين اتهموا بمؤازرة حركة

---

(١) تمّ في هذا اليوم إعدام كل من :

١ ـ العميد ناظم الطبقجلي .
٢ ـ العقيد رفعت الحاج سري .
٣ ـ العقيد طفيل سلمان .
٤ ـ المقدم عزيز أحمد شهاب .
٥ ـ المقدم علي توفيق .
٦ ـ المقدم إسماعيل هرفي .
٧ ـ الرائد محمد الجلبي .
٨ ـ الرائد توفيق يحيى آغا .
٩ ـ النقيب هاشم دبوني .
١٠ ـ النقيب داود سعد خليل .
١١ ـ النقيب زكريا طه .
١٢ ـ النقيب يحيى حسين الحماوي
١٣ ـ الملازم الأول حازم خطاب .

الشوّاف كل من : سعيد قزاز ، وبهجت العطية ، وعبد الجبار فهمي ، وعبد الجبار أيوب ، وكانوا في السجن ، قبل ثورة الموصل ، وذلك أن سعيد قزاز كان وزير داخليةٍ في وزارة محمد فاضل الجمالي ، وكان عبد الجبار فهمي متصرف لواء بغداد ، أما بهجت العطية فكان مدير الأمن العام ، وكان عبد الجبار أيوب مدير سجن بغداد وذلك لوقوفهم في وجه الشيوعيين في العهد الملكي .

كان رئيس المحكمة العسكرية العقيد فاضل عباس المهداوي ، وهو ابن خالة عبد الكريم قاسم ، وكان رئيس الادعاء العام العسكري العقيد ماجد محمد أمين .

ويوم الإعدام قامت مُظاهرات في الكرخ ، والأعظمية من أحياء بغداد ، ولكن لم يُبد عبد الكريم قاسم اهتماماً ، بل أمر باعتقال عددٍ من الزعماء المُعارضين .

وفي ٨ محرم ١٣٧٩هـ شكّل عبد الكريم قاسم حكومةً جديدةً[١] .

محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم : رأى حزب البعث العراقي أنه لا بدّ له من التخلّص من زعيم العراق ، ورأى أن يقوم بالاغتيال كوسيلةٍ سريعةٍ ، وعهد إلى اثنين من أعضائه للقيام بهذه المهمة[٢] ، فاختار عشرةً[٣] من

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ عبد الكريم قاسم :
٢ ـ أحمد محمد يحيى : وزيراً للداخلية .
٣ ـ محمد حديد : وزيراً للمالية .
٤ ـ عبد اللطيف الشواف : وزيراً للتجارة .
٥ ـ إبراهيم كبه : وزيراً للإصلاح الزراعي .

(٢) هما : إياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمي .

(٣) العشرة المغامرون هم : عبد الوهاب الغريري ، وصدام حسين التكريتي ، وحاتم العزاوي ، وعبد الكريم الشيخلي ، وأحمد طه العزوز ، وسليم زيبق ، وسمير نجم ، وياسين السامرائي إضافةً إلى إياد ثابت وخالد الدليمي .

المغامرين ليكونوا فدائيين في تنفيذ العملية ، وأخذوا يُدرّبونهم بشكلٍ مُستمرٍ ، وكانوا جاهزين للعمل مع مطلع عام ١٣٧٩هـ .

أخذ حزب البعث يعد العدّة لاستلام السلطة بعد تنفيذ العملية ونجاحها ، فاتصل الزعماء البعثيون برئيس مجلس السيادة الفريق محمد نجيب الربيعي ، ويبدو أنه قد وافقهم على استلام رئاسة الدولة ، وتشكيل مجلس ثورةٍ جديدةٍ بعد نجاح الخطّة ، كما أعطوا تعليماتٍ لضباطهم ليكونوا على أُهبة الاستعداد خوفاً من قفز الشيوعيين إلى السلطة . لكن تأجّل التنفيذ لتراجعٍ ظهر على عبد الكريم قاسم ، إذ حدّ من النشاط الشيوعي ، وأخرج بعض زعماء البعث من السجن . ولكن عندما أقدم على إعدام ناظم الطبقجلي وجماعته في ١٨ ربيع الأول ١٣٧٩هـ ، تقرّر تنفيذ الخطّة خلال أسابيع ، وفي ٥ ربيع ثاني ١٣٧٩هـ (٧ تشرين الأول ١٩٥٩م) ، قام المغامرون بالتنفيذ ، وقُتل سائق عبد الكريم قاسم ومرافقه ، وجُرح عبد الكريم قاسم ، كما قُتل من المغامرين عبد الوهاب الغريري برصاص رفاقه ، وجرح صدام حسين ، وسمير نجم .

ضبط شؤون البلاد رئيس الأركان ، حاكم بغداد العسكري أحمد صالح العبدي ، وتمّ إلقاء القبض على المغامرين في ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٩هـ ، ولكن كان بعضهم قد هرب إلى خارج البلاد ، ومن هؤلاء الذين خرجوا صدام حسين التكريتي الذي أصبح رئيس الجمهورية العراقية فيما بعد . وقُدّم المتّهمون إلى المحكمة ، واعترفوا بما فعلوا ، بل قالوا : إنهم ليسوا بنادمين على ما فعلوا ، وصدر حكم الإعدام بحقّهم ، ولكن لم يُصدّق عليه ، فبقوا في السجن حتى زال حكم عبد الكريم قاسم .

عودة الحياة الحزبية : في ٣ رجب ١٣٧٩هـ (١ كانون الثاني ١٩٦٠م) صدر قانون تنظيم الجمعيات . وبعد ثمانية أيّامٍ تقدّم بطلب ترخيص :

الحزب الوطني الديمقراطي برئاسة محمد حديد ، ومعه حسين جميل ، وهديب الحاج حمود ، ثم انضمّ إليهم كامل الجادرجي .

الحزب الكردي الديمقراطي برئاسة مصطفى البرزاني ، وإبراهيم أحمد، وقد رُفض الطلب ، كما رُفض طلب الحزب الشيوعي العراقي ، وهما صورة واحدة تقريباً .

الحزب الشيوعي العراقي برئاسة داود الصايغ .

الحزب الشيوعي العراقي برئاسة زكي خيري سعيد . وقد رُفض طلبه .

وفي ٥ شعبان تقدّم :

الحزب الإسلامي : فرع من الإخوان المسلمين ، وكان النشاط برئاسة عبد الله النعمة في الموصل . ومحمد محمود الصواف ، وعبد الرحمٰن سيد ، إبراهيم عبد الله شهاب . وأيّد هذا الحزب محسن الحكيم مجتهد الشيعة .

حزب التحرير : برئاسة نعمان عبد الرزاق السامرائي .

وفي ١٥ شعبان تقدم :

الحزبي الجمهوري ، وهو حزب شيوعي ، ومن مؤسسيه عبد الفتاح إبراهيم ، وعزيز شريف زعيم منظمة أنصار السلام . ومحمد مهدي الجواهري (الشاعر) ، وعبد الرزاق مطر رئيس نقابة المهندسين ، وجميعهم يُؤيّدون النظام القائم ، وقد رُفض طلبهم .

وفي ٦ محرم ١٣٨٠هـ تقدم محمد حديد بترخيصٍ لحزب باسم الحزب الوطني التقدمي بعد أن اختلف مع كامل الجادرجي .

ولكن لم تلبث أن عادت الحكومة فحدّت من النشاط الحزبي الذي لم يستمرّ أكثر من عامٍ .

المطالبة بالكويت : حصلت إمارة الكويت على استقلالها في ٦ محرم ١٣٨١هـ (١٩ حزيران ١٩٦١م) ، فأخذت العراق تُطالب بها ، وتعدّها جزءاً منها ، دخلها المستعمرون رغم أهلها ، واقتطعوها من البلاد . ولكن نزلت قوات بريطانية في الكويت في ١٨ محرم . وأصبحت العراق تُطالب بضرورة انسحاب القوات الأجنبية من أرض الوطن ، وتقدّمت الكويت إلى

جامعة الدول العربية لتكون عضواً فيها . فاشترطت العراق انسحاب الإنكليز منها ، واشترطت الجامعة من العراق عدم المطالبة بها ، وإحلال قوّةٍ عربيةٍ مكان القوات الإنكليزية ، وتمّ الاتفاق ، وأصبحت الكويت عضواً في الجامعة .

انسحبت القوات البريطانية من الكويت في الأول من جمادى الأولى ١٣٨١هـ (١٠ تشرين الأول ١٩٦١م) وحلّ مكانها ثلاثة آلاف جندي من الدول العربية معظمهم من سوريا ، والأردن ، ومصر ، والسعودية ، وبقوا فيها ما يقرّب من سنةٍ ، ثم رجعوا بعدها إلى بلدانهم . وإذا كانت المطالبة قد فشلت لكن عادت مرةً ثانيةً . بعد عودة القوات العربية ، فكان ذلك من أسباب إنهاء حكم عبد الكريم قاسم في العراق .

القضية الكردية : بعد أن قامت حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) عاد عدد من المبعدين الأكراد عن العراق إليها ، كما أُفرج عمن كان في السجن منهم . ورجع الملا مصطفى البارزاني من الاتحاد السوفيتي حيث كان يُقيم هناك منذ عدة سنواتٍ بعد فشل الحركة التي قام بها ، ووصل إلى العراق في ٢٢ ربيع الأول ١٣٧٨هـ (٥ تشرين الأول ١٩٥٨م) .

دُعي الملا مصطفى البارزاني إلى زيارة الاتحاد السوفيتي لحضور الاحتفالات بمناسبة ذكرى الثورة الشيوعية التي تُصادف (١٧ تشرين الأول ١٩١٧م) فلبّى الدعوة ، وسافر ، وبقي هناك عدة أشهرٍ ، ثم رجع ، وفي غيابه استُدعي إلى بغداد الملا أحمد البارزاني شقيق الملا مصطفى مع بعض زعماء الأكراد ، وطُلب منهم إعلان تأييد عبد الكريم قاسم ، كما حُثّوا ليكونوا زعماء الإكراد في العراق فإن زعامة الملا مصطفى البارزاني ستُؤثّر على مستقبل القضية الكردية ، غير أن الملا مصطفى أراد أن يُبرهن للحكم في العراق أنه لا يُوجد زعيم كردي في العراق سواه ، فأخذ يقوم بنشاطٍ ، ويتحرّك على الساحة الكردية ، غير أن زعماء الحزب الكردي الديمقراطي في بغداد لم يتعاطفوا معه .

قام عبد الكريم قاسم بردّ فعلٍ ضدّ تحركات الملا مصطفى في الشمال ، فعطّل الصحف الكردية ، واعتقل زعماء الأكراد . وعمل على سحق الملا مصطفى البارزاني ، ولكن لم يتمكّن فيما بقي له من عمرٍ .

الفصل الثاني

عبد السلام عارف

١٤ رمضان ١٣٨٢ ـ ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٥هـ .
(٨ شباط ١٩٦٣ ـ ١٣ نيسان ١٩٦٦م) .

لم يُثمر العمل العام في تقويض حكم عبد الكريم قاسم ، لأن الأمر كان ينكشف للنظام ، ولما في ذلك من اتكاليةٍ ، لذا أخذت كل مجموعةٍ تعمل وحدها ، وبذلك تكون السرية أدقّ ، والإحكام أفضل ، ومن هذه المجموعات حزب البعث الذي شاء الله أن يكون على يديه إنهاء النظام القائم .

كان فؤاد الركابي زعيم حزب البعث الأول في العراق قد توارى عن الساحة ، ووُجّهت إليه انتقادات كثيرة بعد فشله في اغتيال عبد الكريم قاسم ، لذا عُهد إلى علي صالح السعدي برئاسة الحزب في منتصف عام ١٣٨٠هـ(أوائل عام ١٩٦١م) ، فبدأ بالحركة والتخطيط ، ولكن مضت سنة ، ولم يفلح في عمل شيءٍ .

في الأول من شعبان ١٣٨٢هـ(٢٧ كانون الأول ١٩٦٢م) قامت مُظاهرات طلابية ، تُعدّ ضدّ السلطة رغم بساطة سببها ، وهو أن خلافاً وقع بين ابن رئيس المحكمة العسكرية فاضل عباس المهداوي وبين أحد الطلاب ، ولما أرادت إدارة المدرسة تطبيق النظام تدخّل المهداوي لمصلحة ابنه ، وألزم المدرسة على الأخذ برأيه ، فخرج الطلاب بمُظاهرات ، فاندسّ فيها البعثيون .

في ٩ رمضان ١٣٨٢هـ (٣ شباط ١٩٦٣م) اعتقل أحد ضباط البعثيين وهو صالح مهدي عماش ، فاجتمع زعماء الحزب من المدنيين في اليوم نفسه لتقرير ما سيكون، وعلم عبد الكريم قاسم باجتماعهم، فأصدر أمراً باعتقالهم ، ومن بينهم طبعاً زعيم الحزب علي صالح السعدي . فرأى العقيد أحمد حسن البكر رئيس المجموعة البعثية في الجيش السرعة في إعلان الثورة قبل أن تعمّ الاعتقالات ، وقرّر أن تكون في ١٤ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٢م) ، وخطّط لذلك .

بدأ التمرّد في حامية « أبو غريب » غرب بغداد ، وكان يعتمد على المدرعات ، وكانت توجد أربع كتائب ، وتقرّر أن تنطلق كتيبة إلى وزارة الدفاع حيث يُقيم عبد الكريم قاسم ، والثانية إلى معسكر الرشيد الذي يُعدّ مركز قوةٍ لعبد الكريم قاسم ، والثالثة إلى معسكر الوشاش ، والرابعة إلى مركز الإذاعة في « أبو غريب » . بدأت الحركة في الساعة الثامنة صباحاً ، إذ يعدّ الوقت مُناسباً بالنسبة إلى شهر رمضان ، فالدوام في الساعة العاشرة ، والناس نيام بعد السحور وصلاة الفجر .

اغتيل قائد سلاح الجو جلال الأوقاتي في بداية العمل . واحتلّ العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت محطة الإذاعة في « أبو غريب » . واقتضى الأمر اتخاذ سلاح الجو وسيلةً للإسراع في العملية إذ وجدت الكتائب التي انطلقت إلى معسكر الرشيد مقاومةً عنيفةً ، كما تعطّلت المدرّعات التي اتجهت إلى وزارة الدفاع . بدأ القصف الجوي ، ولم يكن عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع ، ولكن جاء بعد مُدّةٍ ، ودخلها ، استولت الحركة على مُستودعات الذخيرة في « أبو غريب » ، واتخذت الإذاعة مقرّاً لها ، وأعلنت أن حكم عبد الكريم قاسم قد انهار ، رغم أن المقاومة كانت لا تزال عنيفةً ، كما أذاعت نبأ تشكيل مجلسٍ عسكريٍ ، ولكن لم تُحدّد أفراده ، وأصرّ وألحّ علي صالح السعدي أن يُطرح اسم عبد السلام عارف كرئيس مُؤقّتٍ لرئاسة الجمهورية لما له من سمعةٍ طيبةٍ . على حين أن زعيم حزب البعث علي صالح السعدي لم يكن له

من سلوكه ما يرفعه لأن يكون زعيم البلاد ، وكذا بقية زعماء حزبه البارزين . وقد أفاد الحزب والحركة من تقديم عبد السلام عارف . واستمرّ القصف الجوي طيلة النهار ، ولم تُجد طلبات التفاوض . وفي صباح اليوم الثاني أي منتصف شهر رمضان عاد القصف ، واضطرّ عبد الكريم قاسم إلى الاستسلام ظهراً .

تشكّلت محكمة فورية وقضت بإعدام عبد الكريم قاسم ، وطه الشيخ أحمد ، وفاضل عباس المهداوي مُباشرةً ، ونُفّذ الحكم في الغرفة الثانية المجاورة لمكتب عبد الكريم قاسم .

أُذيع نبأ استلام عبد السلام محمد عارف رئاسة الجمهورية ، وتشكيل مجلس ثورة يضمّ عشرين عضواً من بعثيين وغيرهم[1] ، وبقي أسماء أعضائه سرّاً ، ويتولّى عبد السلام عارف رئاسة الجلسات . ويشغل أمانة السر أنور عبد القادر الحديثي ، وهو صلة الوصل بين المجلس والحكومة .

وتشكّلت الوزارة من بعثيين وغيرهم أيضاً برئاسة أحمد حسن البكر[2] ،

---

(١) ضمّ المجلس : عبد السلام عارف ، أحمد حسن البكر ، علي صالح السعدي ، صالح مهدي عماش ، طالب شبيب ، حازم جواد ، أنور عبد القادر الحديثي ، عبد الكريم مصطفى نصرت ، هاني الفكيكي ، طاهر يحيى ، عبد الحميد الخلخال ، حردان التكريتي ، دياب العلقاوي ، منذر الونداوي ، خالد مكي الهاشمي ، عبد الستار عبد اللطيف ، محسن الشيخ راضي ، سعدون حمادي ، حمدي عبد المجيد .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ علي صالح السعدي : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٣ ـ صالح مهدي عماش : وزيراً للدفاع .
٤ ـ طالب حسن شبيب : وزيراً للخارجية .
٥ ـ عبد الستار عبد اللطيف : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٧ ـ مهدي الدوالعي : وزيراً للعدل .
٨ ـ محمود شيت خطاب : وزيراً للبلديات .
٩ ـ بابا علي : وزيراً للزراعة .
١٠ ـ ناجي طالب : وزيراً للصناعة .

كما تشكّل الحرس القومي من المدنيين لحماية الثورة والتصدّي لأعدائها ، وعهد برئاسته إلى العقيد عبد الكريم مصطفى نصرت . وقد أخذ الحرس القومي يتجاوز صلاحياته ، ويتعدّى على الآخرين ، ويرتكب المُخالفات والجرائم . كما أعطى البعثيون أنفسهم صلاحياتٍ واسعةً ، ما داموا هم الـذين قادوا الثورة ، وحصلوا على الحكم بالقوة بعد أن قدّموا التضحيات غير أنه بعد مُدّةٍ قوي شركاؤهم في الحكم ممن لا ينتمي إلى حزب البعث ، وأبدوا آراءهم بقوةٍ في كل قضيةٍ .

أحالت الحكومة الجديدة الضباط الذين تعاونوا مع عبد الكريم قاسم على التقاعد ، وعُيّن مكانهم الضباط الذين اشتركوا بالثورة ، كما أعادت إلى الخدمة الضباط الذين أحالهم عبد الكريم قاسم على التقاعد أو طردهم من الخدمة[1] .

وفي ٢٠ ذي الحجــة ١٣٨٢هـ (١٣ أيـار ١٩٦٣م) تشكّلت وزارة جديدة ، حيث أُجريت بعض التعديلات[2] على الوزارة السابقة والتي تضمّ

---

١١ ـ عبد العزيز الوتاري : وزيراً للنفط .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية والتعليم .
١٣ ـ صالح كبه : وزيراً للمالية .
١٤ ـ علي الحسين : وزيراً للإسكان .
١٥ ـ شكــري صــالــح زكي : وزيــراً للتجارة .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيرا للإصلاح الزراعي .
١٧ ـ عبـد الحميـد الخلخـــال : وزيـراً للشؤون الاجتماعية .
١٨ ـ مسارع الراوي : وزيراً للإرشاد .
١٩ ـ عبد الكريــم العلي :وزيراً للتخطيط .
٢٠ ـ فؤاد عارف : وزيراً للدولة .
٢١ ـ حازم جواد : وزيراً للدولة .

(١) أُحيل أحمد صالح العبدي رئيس الأركان العامة على التقاعد .
عُيّن العميد طاهر يحيى رئيساً للأركان العامة .
والعقيد رشيد مصلح حاكماً عسكرياً عاماً .
والعقيد مدحت عبد الله مديراً للعمليات العسكرية .
والعقيد عارف عبد الرزاق قائداً لسلاح الجو .
وأُعيد العميد عبد الرحمن محمد عارف شقيق عبد السلام إلى الخدمة ، وعُيّن قائداً لإحدى الفرق . كما تسلّم أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، ومحمود شيت خطاب ، وعبد الستار عبد اللطيف مناصب وزارية .

=

مختلف الأقلّيات(١) .

وجاء ميشيل عفلق من دمشق إلى بغداد، بعد أن استلم حزب البعث الحكم في سوريا في ١٣ شوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣)،وأخـذ يتحـدّث في الاشتراكية ، ويُفلسف الأمور ، وكرهه البعثيون الذين لم يروه من قبل ، وإنما كانوا يسمعون به ، ويسمعون الثناء عليـه من أصحاب الأغـراض ، ورأى ميشيـل عفلق أن تطبيق الاشـتراكيـة في العـراق أمر صعب وسيُثـير الشعب عليهم ، وسيسقط حزب البعث ، لذا رأى أن الاشتراكية ستكـون في آخر مرحلةٍ من مراحل منهج حزب البعث ، أي أن البعثيين سيُناضلون من أجل الوحدة ، ثم يُعطون الحرية للشعب ، وبعدها تُطبق الاشتراكية ، وأصبح شعـار حزب البعث [وحـدة ـ حريـة ـ اشـتراكيـة] ، ولكن الفـلاحـين ، والعمال ، والفقراء يُـريدون الحصـول على الغنـائم سريعاً ، وقـد ناضلوا ، وتسلّموا السلطة ، الفلاحون يُريدون الأرض ، والعمال يُـريدون المعـامل ، والفقراء يرغبون في الأموال ، أخذ أموال الآخرين باسم الاشتراكية أو النهب تحت أيّ اسمٍ ، أو شعارٍ أو . . . . ومن هنا بدأت النفوس تتزعزع من حول الحزب .

إن الحـركة التي قـامت في سوريـا في ١٣ شـوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣م) والتي تعاون فيها البعثيون والناصريون قد جعلت الرئيس المصري جمال عبد الناصر يعدّها حركة ثأرٍ للوحدة ، وأيّدها ، وعرض الحكام الجدد التفاهم مع الرئيس المصري ، وذهبت الوفود من دمشق وبغداد إلى القاهرة ،

= (٢) أصبح علي صالح السعدي : وزيراً لشؤون رئاسة الجمهورية ، ووزيراً للإرشاد .
وحازم جواد : وزيراً للداخلية .
ومحمود جواد العيسى : وزيراً للمالية . مكان صالح كبه .
مسارع الراوي : وزيراً للدولة .

(١) ضمت الوزارة خمسة وزراء من الشيعة هم : طالب شبيب ، وصالح كبه ، وناجي طالب ، وحازم جواد ، وحامد الخلخال وثلاثة من الأكراد وهم : بابا علي ، وشكري صالح زكي ، وفؤاد عارف .

وجرت مُحادثات للوحدة تمخّضت عن اتفاقيةٍ وُقّعت في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٢هـ (١٧ نيسان ١٩٦٣م) ، ولكن لم يلبث الخلاف أن وقع في دمشق بين الناصريين والبعثيين ، وبطش البعثيون بخصومهم في ٢٦ صفر ١٣٨٣هـ (١٨ تموز ١٩٦٣م) بعد أن حاول الناصريون القيام بحركةٍ . وألقى الرئيس المصري كلمةً بعد أسبوعٍ بمناسبة الثورة التي قامت في مصر والتي يتزعّمها الآن ، وهاجم فيها رجالَ البعث في سوريا ، وعُدّت هذه الكلمة ، إلغاءً لاتفاقية الوحدة في ٢٤ ذي القعدة (١٧ نيسان) . وبناءً على هذا الخلاف فقد أخذ أنصار الوحدة في العراق ينكمشون عن البعثيين ، وأخذت تتوضّح الاتجاهات ويتمايز الضباط والسياسيون .

إنّ تسلّم حزب البعث الحكم في العراق ، والزعماء قلّة ، والضباط أكثرهم من الشباب قد جعل الكثيرين من المسؤولين في سنٍّ صغيرةٍ ليس عندهم دراية في الحكم ، ولا خبرة في السياسة والأصول في التعامل مع السلطة والرعية ، لذا أخذت تصدر أحكام ارتجالية مُستعجلة ، وتُنفّذ مُباشرةً دون أخذ رأى مجلس الثورة ، أو رجال الحزب ، وعندما كان يُسأل هؤلاء الذين يتصرّفون هذه التصرّفات ، يُجيبون تقتضي المصلحة السرعة ، وليس هناك من وقتٍ لانتظار اجتماع مجلس الثورة ، أو قادة الحزب ، لذا اكتفينا بسؤال بعض الرفاق ، واجتمع الرأي ، وهكذا أصبح كل فردٍ حزبيٍ كأنه رأس السلطة في تصرّفاته ، وفي صلاحياته ،ولذا أخذ غير الحزبيين الذينَ كانوا يُؤيّدون الحزب الحزب في رفع شعار الوحدة بدأوا يتفرّقون عنه .

عندما نجحت الحركة التي قادها حزب البعث ضدّ حكم عبد الكريم قاسم كثر المنتفعون حول البعثيين، منهم من يرغب بالوحدة ، ومنهم من يبغي مصلحةً أو مركزاً ، ولما كان البعثيون قلّةً بين الشعب ، وغير محبوبين لسلوكهم المصلحي ، وغير الإسلامي ، وغير الأخلاقي ، ويُريدون أن يملؤوا الشواغر التي حدثت نتيجة إبعاد العناصر التي كانت تُؤيّد الحكم السابق لذا كان عليهم يأخذوا من عناصرهم الشابة التي لا خبرة لها بعد،ومن المُؤيّدين الجدد لهم .

وهكذا أصبحت الدوائر تعجّ بالفوضى ، أما البعثيون فكانوا يقضـون عليها بـالسيف ، وأما غـيرهم فيتوقّفـون عن ذلك لأنهم لا يملكـون الذي يملكـه البعثيون ، فبدأت الانتقادات ، وبدأ التمايز عن البعثيين وغيرهم ، وأصبحوا في طريقين غير متوازيين .

والتقى زعماء البعث لدراسة بعض التجاوزات التي تحدث ، وضرورة اتّباع الأنظمة الحزبية في اتّخاذ القرارات ، والتفاهم مع العناصر الثانية التي تؤيّدهم ، أو التي كانت تُؤيّدهم ، فاختلفت الآراء فيما بينهم ، وانقسموا إلى ثلاث مجموعاتٍ :

أ ـ مجموعة ترى ضرورة التعاون مع العناصر المُؤيّدة للبعث ، والتي ارتبطت معهم ، ومن هذه المجموعة طالب شبيب وزير الخارجية ، وحـازم جواد وزير الداخلية ، وعبد الستار عبد اللطيف وزير المواصلات ، وطـاهر يحيى رئيس الأركان ، وحردان التكريتي قائد القوى الجوية .

وترى هذه المجمـوعة أيضـاً مُسايـرة العناصر العسكـرية القـريبة من البعثيين ، والتي يُمكن كسبها مع الزمن ، ومن هذا المنطلق فإنه من المفروض تأخير تطبيق الاشتراكية ، والأفكار المثالية . . . وهذا ما يُعزّز موقف الحزب . ويمكن أن نُطلق على هذه المجموعة بالمعتدلة .

ب ـ مجموعة ترى من الضرورة السرعة في تطبيق الاشتراكية لأن هذا يكسب الحزب تأييد العناصر المُناضلة والتي تتطلع إلى الأفكار المثالية ، ثم إن الاشتراكية هي شعار الحزب ، وقد تسلّم السلطة فيجب تطبيق ما نادى به ، ويمكن أن نُسمّي هذه المجموعة بالمتشدّدة ، ومن رجالها علي صالح السعدي وزيـر الإرشـاد ، ومحسن الشيـخ راضي ، وحمـدي عبـد المجيـد ، وهـاني الفكيكي . وقد حذّروا من الاعتمادعلى الضباط غير البعثيين .

وحدث صراعٌ بين علي صالح السعدي ، وبين الرجال المُخالفين له ، واشتدّ حتى رغب كلّ من طالب شبيب ، وحازم جواد بالاستقالة من الحكومة

بل ومن الحزب .

د ـ مجموعة وسط بين الطرفين السابقين ، ومن رجالها رئيس الوزارة أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش وزير الدفاع ، وقد عملت هذه المجموعة على التوفيق بين الفريقين المتصارعين .

وفي ٢٤ ربيع الثاني ١٣٨٣هـ (١٣ أيلول ١٩٦٣م) عُقد المؤتمر القطري ، وحضره ميشيل عفلق الذي جاء من دمشق لهذه الغاية ، وللتوفيق بين الطرفين . وقد فازت الفئة المتشدّدة على حين وقف ميشيل عفلق بجانب المعتدلين . وهكذ نجح علي صالح السعدي داخل الحزب غير أنه فقد مركزه داخل الحكومة لأنها ليست بعثيةً كلها .

أخفق المتشدّدون في تطبيق السياسة التي ركّزوا عليها في صراعاتهم مع رفاقهم ، واضطر أن يستقيل عبد الحميد خلخال وزير الشؤون الاجتماعية ، وأن يحلّ محلّه حمدي عبد المجيد .

وعُقد المؤتمر القومي السادس في ١٧ جمادى الأولى ١٣٨٣هـ (٥ تشرين الأول ١٩٦٣م)، واستمرّ ثمانية عشر يوماً . وبحث موضوع قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق . وتمّ توقيع اتفاقٍ اقتصاديٍ وآخر عسكريٍ ، واقتضى أن يكون وزير الدفاع العراقي قائداً للجيش الموحّد على أن تكون دمشق مقرّ القيادة . وأرسلت سوريا لواءً من الجيش للاشتراك في العمليات ضد الأكراد . ووجد عدد من الضباط المسلّحين في المؤتمر ، وقد تكلّم أحدهم وهو محمد حسين المهداوي ، فقال : إن ميشيل عفلق قال : إن بعض المتطرّفين من السوريين والعراقيين قد أثّروا على قرارات المؤتمر . وقد طالب القيادة القطرية : أن تعدّ زملاءه الضباط المسلّحين أعضاء فيها ، وأن تنتخب قيادةً قطريةً جديدةً ، وتحت الضغط فازت قيادة أكثر أعضائها من المعتدلين ، وطُرد المتشدّدون منها ، وحُمل خمسة منهم من مكان الاجتماع إلى المطار ، حيث نقلتهم طائرة عسكرية إلى مدريد ، وسُحبت منهم جوازات السفر حتى لا

يرجعوا إلى العراق ، وهم : علي صالح السعدي[1] ، حمدي عبد المجيد ، محسن الشيخ راضي ، هاني الفكيكي ، خالد مكي الهاشمي .

خرجت مُظاهرات في شوارع بغداد من البعثيين تـأييداً لعـلي صالـح السعدي ، وهدّدت بعض القطعات في سلاح الجو بمُهاجمة الحكومة ، وسافر إلى بغداد كل من أمين الحافظ وميشيل عفلق والتقى ميشيل عفلق بـاللجنة القومية ، وترأس اجتماعها ، ثم التقى برئيس الحكومة أحمـد حسن البكر ، ووزير الدفاع صالح مهدي عماش ، وتقرّر طـرد زعيمي الجناح المعتـدل ، وهما : حازم جواد ، وطالب شبيب ، بعد إعفائهما من منصبيهما في الوزارة ، وفي اليوم التالي سافرا إلى بيروت . وتشكّلت قيادة قطرية مُوقّتة . وبذا تداعى حزب البعث ، وضعف شأنه ، وقد أُخرج من البلاد أبرز زعمائه .

سقوط حزب البعث في بغداد : كان رئيس الجمهـورية عبـد السلام عارف يتفرّج على الأحداث ، ولا يستطيع أن يتـدخّل مـا دام غير بعثيٍ ، ويُطرد وزراء ، ويُنفوا خارج البلاد ، وهم يتبعونه ، ولا يستطيع فعل شيءٍ ، فتألم أشدّ الألم فاتفق مع رئيس الأركان طاهر يحيى للانتهاء من هذه المهزلة ، وفي يوم ٢ رجب ١٣٨٣هـ (١٨ تشرينِ الثاني ١٩٦٣م) ، أُلقيَ القبض على أعضاء القيادتين القومية والقطرية ، وأُودعوا السجن ، كما احتُجز كـلّ من أمين الحافظ وميشيل عفلق ، وكانا لا يزالان في بغداد ، ولم يُسمح لهما بالسفر إلّا بعد يومين .

أعلن طـالب شبيب وحازم جـواد من بيروت تـأييدهمـا لعبد السـلام

---

(١) عاد علي صالح السعدي من مدريد إلى دمشق ، وعمل ضدّ عفلق والبيطار ، وادّعى أنهما سبب سقوط البعث في بغداد ، ودعا السعدي القيادة القطرية في لبنان للاجتماع ، واستـطاع أن يحملها على إصدار قرارٍ تدين فيه ميشيل عفلق ، فسعى عفلق وطرد علي صالح السعدي من القيادة القومية ، ورجع السعدي إلى بغداد في شهر شوال ١٣٨٣هـ (آذار ١٩٦٤م) وعمل على تأسيس حزب باسم « الحزب الاشتراكي الثوري العربي » .

عارف ، وقد اجتمعت اللجنة القومية في دمشق ، وقرّرت طردهما من الحزب بتهمة التآمر مع أعداء الحزب عليه .

تفرّد عبد السلام عارف بالسلطة : أيّد رئيس الأركان طاهر يحيى الرئيس عبد السلام عارف طمعاً في أن يحلّ محلّ أحمد حسن البكر في رئاسة الحكومة .

أذاع عبد السلام عارف نبأ تغيير الحكومة وقيام نظام جديدٍ بقيادته محلّ النظام القديم ، وأعلن البيان الآتي :

« أدّت الهجمات على حريات الشعب التي قام بها الشعوبيون المُتعطّشون للدّفاع من أفراد الحرس القومي ، وانتهاكاتهم للمُقدّسات ، وامتهانهم القانون ، والأضرار التي ألحقوها بالدولة والشعب وأخيراً تمرّدهم المسلّح في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م إلى وضعٍ لا يمكن السكوت عليه بعد أن بات يُهدّد مستقبل هذا الشعب الذي يُشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الأمّة العربية . وقد تحمّلنا بالصبر تفادياً لسفك الدماء ، وما كان ذلك ليُخفّف من حدّة الإرهاب بل على العكس أمعن أفراد الحرس اللاقومي في إرهابهم مما حفز الجيش على الاستجابة لنداء الشعب في التخلّص من هذا الإرهاب . وتجاوباً مع نداء الشعب ومطالب الجيش والقوات المسلحة فقد قرّر المجلس الوطني للثورة ما يلي :

١ ـ انتخاب المشير عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية رئيساً للمجلس الوطني للثورة .
٢ ـ يُعينّ الرئيس عارف قائداً عاماً للقوات المسلّحة ، ويُمارس جميع السلطات المخوّلة له .
٣ ـ يُعينّ الزعيم الطيار حردان عبد الغفار التكريتي نائباً للقائد العام بالإضافة إلى منصبه الحالي .
٤ ـ يُخوّل المشير الركن عبد السلام عارف صلاحياتٍ خاصةً لمدة سنةٍ واحدةٍ تُجدّد تلقائياً عند الحاجة .

٥ ـ يُحلّ الحرس القومي ، وتلغى جميع القوانين والأنظمة والتعليمات والأوامر المتعلّقة به .

٦ ـ يُؤلّف المجلس الوطني للثورة على الشكل التالي :

أ ـ رئيس الجمهورية رئيساً له .

ب ـ الأعضاء : القائد العام للقوات المسلحة ، نائب القائد العام للقوات المسلحة ، رئيس الأركان العامة ، ومساعدوه قادة الوحدات ، قائد القوة الجوية ، الحاكم العسكري العام ، والضباط الذين يرتأي المجلس تعيينهم .

جـ ـ ينتخب المجلس أميناً للسرّ من بين أعضائه أو من الخارج ، ويجوز للرئيس تخويله صلاحيات توقيع البيانات ، والأوامر التي يُصدرها المجلس .

د ـ يُشكّل المجلس الوطني للثورة مجلساً استشارياً من المدنيين المُؤهّلين الذين يتمتعون بسمعةٍ طيبةٍ وخبرةٍ واسعةٍ .

٧ ـ يتخذ المجلس إجراءاتٍ قانونيةً فوريةً ضدّ المتمرّدين الذين اشتركوا أو تسبّبوا في تمرّد ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م .

حكومة طاهر يحيى : كلّف الرئيس عبد السلام عارف رئيس الأركان طاهر يحيى بتشكيل الحكومة فألّفها في ٤ رجب ١٣٨٣هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٣م)[1] .

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ الفريق طاهر يحيى : رئيساً للوزراء .

٢ ـ العميد حردان التكريتي : وزيراً للدفاع .

٣ ـ العقيد عبد الكريم فرحان : وزيراً للإرشاد .

٤ ـ العميد رشيد مصلح : وزيراً للداخلية .

٥ ـ اللواء محمود شيت خطاب : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .

٦ ـ المقدم صبحي عبد الحميد : وزيراً للخارجية .

٧ ـ المقدم عبد الستار عبد اللطيف : وزيراً للمواصلات .

٨ ـ عبد الكريم علي : وزيراً للتخطيط .

٩ ـ عبد العزيز الوتاري : وزيراً للنفط .

أعلنت الحكومة أنها ستقف إلى جانب الوحدة ، وأعلن رئيسها أنه سيعمل ما في وسعه لتنفيذ اتفاقية الوحدة التي تمّت بين مصر ، وسوريا ، والعراق في ٢٤ ذي القعدة ١٣٨٢هـ (١٧ نيسان ١٩٦٣م) ، وبأن هذه الوحدة ستكون نواةً للوحدة الشاملة . وأيّد الرئيس المصري هذه الحركة تأييداً مُطلقاً .

وأعلنت الحكومة كذلك أنها ستعمل على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي من أجل زيادة الإنتاج وتحقيق العدالة .

ولم تعد هناك أحزاب ، وأصبحت السلطة بيد العسكريين ، ولوحق زعماء حزب البعث ، وتشتّتوا خارج البلاد وداخلها .

وأعلن الأكراد ومصطفى ملا البارزاني التأييد التام للحركة ، وأذاعوا أنهم سيقبلون بالاستقلال الذاتي ضمن الدولة العراقية ، ولكن إذا أرادت حكومة العراق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، فإنهم لن يقبلوا عندها إلّا باستقلالٍ ذاتيٍ على أساسٍ اتحاديٍ . كما أعلن الملا مصطفى البارزاني استعداده للوصول إلى اتفاقٍ مع الرئيس عبد السلام عارف .

لم يكن العراقيون على استعدادٍ لترك منطقة كردستان تنفصل عن العراق مُقابل الوحدة مع مصر ، إذ أن منطقة كردستان هي الغنية بالنفط ، وحياة

= ١٠ ـ عبد الكريم هاني : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١١ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٢ ـ محمد عبد الجواد العبسي : وزيراً للمالية .
١٣ ـ كامل الخطيب : وزيراً للعدل .
١٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
١٥ ـ العقيد عارف عبد الرزاق : وزيراً للزراعة .
١٦ ـ عبد الفتاح الألوسي : وزيراً للإسكان والأشغال العامة .
١٧ ـ عبد الصاحب علوان : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٨ ـ كامل السامرائي : وزير دولة لشؤون الوحدة.
١٩ ـ عبد الكريم كمونة : وزيراً للصناعة .
٢٠ ـ مصلح النقشبندي : وزير دولة .

العراق مدينة بجزءٍ كبيرٍ منها إلى النفط ، كما أن منطقة كردستان مصدر معظم مياه نهر دجلة ، لذا فقدْ خفّت فكرة الاندفاع وراء الوحدة كما فترت همّة الرئيس عبد السلام عارف ، وإن بقي طوعاً للرئيس جمال عبد الناصر الذي يعدّ أكبر مُؤيّديه تلامذةً عنده إن لم نقل أجراء ، وكان عبد السلام عارف يعمل في مُؤتمرات القمة في القاهرة والإسكندرية ، والدار البيضاء على كسب التأييد للرئيس جمال عبد الناصر ، وهذا ما كان يزيد من غطرسة الرئيس المصري ، ونظرته الفوقية للآخرين ، وإن كانوا مثله رؤساء جمهورياتٍ .

جرت مُحادثات بين الرئيس العراقي عبد السلام عارف والرئيس المصري جمال عبد الناصر في القاهرة في شعبان ١٣٨٣هـ (كانون الثاني ١٩٦٤م) للعمل من أجل الوحدة التي كانت ستقوم على الاشتراكية العربية ، وقيادةٍ عسكريةٍ مُوحّدةٍ ، وإنشاء اتحادٍ اشتراكيٍ وطنيٍ في كل بلدٍ عربيٍ ، يحلّ محلّ الأحزاب السياسية .

وقبل أن تبدأ الخُطوات العملية للوحدة كان من الضروري إعادة تنظيم الأجهزة الدستورية ، في كل من العراق ومصر . فشكّل عبد السلام عارف لجنةً برئاسة وزير العدل لوضع دستورٍ مُوقّتٍ للعراق .

وفي ١٧ رمضان ١٣٨٣هـ (٣١ كانون الثاني ١٩٦٤م) جرى تعديل وزاري[١] . وفي ١٧ شوال ١٣٨٣هـ (الأول من آذار) أُعفي حردان التكريتي من منصبه ، وأُسند منصبه إلى رئيس الوزراء وكالةً .

وفي ١٤ ذي القعدة ١٣٨٣هـ(٢٧ آذار ١٩٦٣م) جرى تعديل وزاري ثانٍ[٢] .

---

(١) ١ ـ عُيّن رشيد مصلح وزيراً للصحة مكان عزت مصطفى .
٢ ـ عُيّن عبد الرزاق محيي الدين وزير دولة لشؤون الوحدة .

(٢) ١ ـ عُيّن عبد الغني الراوي وزيراً للزراعة مكان عارف عبد الرزاق الذي أصبح قائداً للقوة الجوية .

وفي ١٧ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٢٩ نيسان) انتهى وضع الدستور المُوقّت ، وصادق عليه الرئيس عبد السلام عارف ، ثم أُعلن في ٢١ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٣ أيار ١٩٦٤م) . وأعلن هذا الدستور :

أن العراق دولة ذات سيادةٍ تامةٍ ، دينها الرسمي الإسلام ، وهي دولة ديمقراطية اشتراكية تستمدّ ديمقراطيتها واشتراكيتها من التراث العربي وروح الإسلام . (لا معنى لهذاالكلام فكرياً) .

وأن الشعب العراقي جزء من الأُمّة العربية هدفه وحدة عربية شاملة ، ويتعهّد العراق بالعمل على تحقيق هذه الوحدة في أقرب وقتٍ مُمكنٍ مُبتدئاً بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة .

واشترط الدستور في رئيس الجمهورية أن يكون عراقياً مولوداً لأبوين عراقيين يُقيمان في العراق منذ سنة (١٩٠٠م) ، ويحملان الجنسية العثمانية ، وأن يكون مُسلماً يُمارس شعائره الدينية ، وألّا يكون متزوجاً من أجنبيةٍ .

وعند الاحتفال من المرحلة الأولى من بناء السدّ العالي في مصر في غرّة عام ١٣٨٤هـ (١٣ أيار ١٩٦٤م) جرى احتفال ، حضره عبد السلام عارف ، وجرت مُحادثات بين العراق ومصر لوضع نصّ الاتفاق على الوحدة بين البلدين ، وقد أُعدّت الخطوط العريضة لذلك(١) .

وفي ٨ صفر ١٣٨٤هـ (١٨ حزيران ١٩٦٤م) شكّل الفريق طاهر يحيى

---

(١) ضمّ الوفد العراقي كلّاً من : عبد السلام عارف ، وصبحي عبد الحميد وزير الخارجية ، وعبد الرزاق محيي الدين وزير الدولة لشؤون الوحدة ، وشكري صالح زكي سفير العراق في القاهرة .

أما الوفد المصري فضمّ كلّاً من : جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر النائب الأول لرئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة ، وعلي صبري رئيس الوزراء ، ومحمود فوزي مساعد رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية ، ومحمود رياض وزير الخارجية .

وزارةً جديدةً ، أو بالأحرى أجرى تغييراً على الوزارة السابقة[1] .

ونصّ الاتفاق بين العراق ومصر على أن الوحدة السياسية التي ستُنسّق المصالح المشتركة للبلدين سيرعاها مجلس رئاسةٍ مُشتركٍ يتألّف من رئيس الجمهوريتين ، ومن ثلاثة وزراء من كلٍّ من البلدين ، وثلاثة من أعضاء وزارة الوحدة من كلّ بلدٍ ، أمّا مُهمّات المجلس فهي :

١ ـ دراسة وتنفيذ الخطوات الضرورية لإقامة وحدة بين البلدين .

٢ ـ وضع سياسة للبلدين في المجلات السياسية، والعسكرية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والإعلامية ، وتنسيقها وفقاً للخطط المرسومة .

٣ ـ تحقيق الوحدة العقيدية بين شعبي الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية عبر مُنظّماتٍ شعبيةٍ ، وعملٍ شعبيٍ يُوحّد هذه المُنظّمات في المستقبل .

وتقرّر أن يجتمع مجلس الرئاسة مرةً واحدةً كل ثلاثة أشهر ، أو متى دعت الحاجة إلى ذلك بموافقة الرئيسين ، كما تقرّر أن تكون القاهرة مقرّاً للمجلس إلّا إذا تقرّر الاجتماع في مكانٍ آخر . وتعتبر قرارات المجلس مُلزمةً ، ويجب تنفيذها بعد إبرامها شريطة أن تكون القوانين اللازمة لتنفيذها قد سُنّت وفقاً للنظام الدستوري في كل بلدٍ من البلدين . وسيقوم المجلس بأعمالٍ عبر لجانٍ شتى تُؤلّف لوضع خُطط التنسيق والإشراف . وستكون هذه اللجان سياسيةً ، وعسكريةً ، واقتصاديةً ، وثقافيةً ، وإعلاميةً وعقيديةً ،

---

(١) جرى التغيير على الوزارة كالتالي :

١ ـ عبد المجيد سعيد : وزيراً للتربية محلّ أحمد عبد الستار الجواري .

٢ ـ محمد جواد العبسي : وزيراً للتخطيط إضافةً إلى وزارة المالية .

٣ ـ محمد حسن زلزلة : وزيراً للصناعة مكان عبد الكريم كمونة .

٤ ـ محسن حسين الحبيب : وزيراً للمواصلات مكان عبد الستار عبد اللطيف .

٥ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية مكان محمود شيت خطاب .

٦ ـ مسعود محمد : وزيراً للدولة .

وتنظيميةً . وتُساعد المجلس واللجان أمانة عامة في القاهرة يرأسها أمين عام يتمتع بصلاحية دعوة المجلس إلى الاجتماع ، ويعد جدول الأعمال ، ويحتفظ بمحاضر هذه الاجتماعات ، ويُصدر القرارات بعد أن يُبرمها البلدان .

وتُعتبر الأمانة العامة هيئةً مؤقّتةً إلى أن يتمّ تحقيق الوحدة بين البلدين ، وعندها تحلّ محلّها السلطة العليا للوحدة العربية التي يُصبح كل من البلدين تابعاً لها ، وهكذا ينتهي العمل تلقائياً باتفاق الوحدة .

واجتمع مجلس الوزراء العراقي والمجلس الوطني للثورة بصفتهما الهيئة التشريعية العليا ، وأبرما في اليوم التالي الاتفاق بالإجماع .

ودُعي الشعب للعمل ضمن الاتحاد الاشتراكي الذي سيُنشأ . وفي ١٠ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (١٦ تشرين الأول ١٩٦٤م) أُنشئت قيادة سياسية مُوحّدة بين العراق ومصر . ولكن تلقّى الشعب هذه القرارات بفتورٍ ، فالمسلمون يُعارضون القوانين الوضعية ومنها الاشتراكية ، وأفكارها ، والشيوعيون يُخالفون النظام سياسياً ، ويتلقّون التعليمات بذلك من موسكو ، والبعثيون على خلافٍ مع الحكم إضافةً إلى خلافهم مع نظام الحكم في مصر ، ورجال الأحزاب السابقة لهم آراؤهم الخاصة ،ولا يرون شيئاً من الحرية أو ما يُسمّونه بالديمقراطية و . . . .

وفي الاحتفال بذكرى (ثورة ١٤ تموز) ١٩٦٤م أصدرت الحكومة خمسة قرارتٍ تقضي بتأميم المصارف ، والصناعات ، وتنظيم مجالس إدارة الصناعات ، وإنشاء مُؤسسةٍ اقتصاديةٍ لتطبيق الاقتصاد الاشتراكي والإشراف عليه . وإنشاء الاتحاد الاشتراكي . وحضر الاحتفالات وفد من مصر برئاسة حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ، ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي .

وكانت ردود فعلٍ ضدّ التأميم حتى اضطرّت الحكومة إلى أن تُعلن أنها لا تُفكّر في إصدار قرارت تأميمٍ أُخرى ، كما أدّى التأميم إلى تهريب الكثير من رؤوس الأموال إلى الخارج ، وكذلك انخفض الإنتاج ، واضطر رئيس

الحكومة طاهر يحيى إلى تقديم استقالته في ٦ رجب ١٣٨٤هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٦٤م) ، غير أن الرئيس عبد السلام عارف قد كلّفه بإعادة تشكيل الحكومة[١] ، فوضع بالاتفاق مع رئيس الجمهورية ما يجب أن تُعلنه الحكومة في منهجها ، وكان من أهم ما قُدّم من نقاط هي :

١ ـ إعادة الحياة الدستورية والنيابية خلال مدة لا تتجاوز سنةً واحدةً .

٢ ـ إعمار شمالي العراق وحلّ جميع المشكلات المُعلّقة بشكلٍ يضمن الوحدة الوطنية .

٣ ـ إنشاء مجلس شورى خلال شهرٍ واحدٍ لمُساعدة الحكومة بالنهوض بمسؤولياتها .

٤ ـ العناية بالقوات المُسلّحة وعدم إقحامها بالأمور السياسية .

٥ ـ تحقيق نصوص اتفاق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة الموقع في ٨ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٦٤م) .

وعملت الحكومة على إرضاء الرأي العام ، فأعلنت إلغاء الأحكام العرفية ، والمحاكم العسكرية ، وأفرجت عن المعتقلين السياسيين بمناسبة عيد الفطر ٣٠ رمضان ١٣٨٤هـ (١ شباط ١٩٦٥م) .

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ الفريق طاهر يحيى : رئيساً للوزراء .
٢ ـ المقدم صبحي عبد الحميد : وزيراً للداخلية .
٣ ـ عبد الكريم فرحان : وزيراً للإرشاد .
٤ ـ أديب الجادر : وزيراً للصناعة .
٥ ـ عزيز حافظ : وزيراً للاقتصاد .
٦ ـ عبد الستار علي حسين : وزيراً للعدل .
٧ ـ فؤاد الركابي : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
٨ ـ
٩ ـ
١٠ ـ

أخذ الخلاف يظهر بين من عُرف باسم (الناصريين) الذين يُريدون الوحدة مع مصر مباشرةً دون دراسةٍ ، والخضوع للرئيس جمال عبد الناصر ، وبين عبد السلام عارف ومن يُؤيّده ، وأخذ الناصريون يشيعون أن عبد السلام عارف قد أخذ ينحو منحى عبد الكريم قاسم ، ولما زاد الخلاف قدّم ستة من الوزراء استقالتهم بصورةٍ جماعيةٍ . فقبلت استقالاتهم ، وعُينّ مكانهم مُباشرةً[1] .

أخذت أسهم عبد السلام عارف ترتفع عند الضباط الذين يُؤيّدون الوحدة لكنهم غير ناصريين في الوقت الذي أخذوا فيه يتخلّون عن طاهر يحيى وهذا ما جعله يتجه نحو الضباط البعثيين لكنهم لم يقبلوا به ، وبدت شبه جفوةٍ بين الرئيس عبد السلام عارف ورئيس وزرائه طاهر يحيى ، أُشير على رئيس الحكومة بتقديم استقالته لكنه أبى وتمّنع ، حتى هُدّد .

وفي الوقت نفسه كان عبد السلام عارف يطرح فكرة رئاسة الوزارة على عارف عبد الرزاق قائد القوة الجوية فاشترط أن يبقى قائداً للقوة الجوية ، وأن يتسلّم وزارة الدفاع بالوكالة إلى جانب رئاسة الوزارة ، فوافق عبد السلام عارف .

اضطر طاهر يحيى إلى تقديم استقالته في ٨ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٣ أيلول ١٩٦٥م) ، وكلّف عبد السلام عارف بعد ثلاثة أيامٍ عارف عبد الرزاق بتأليف حكومةٍ جديدةٍ[2] . ويُلاحظ في هذه الحكومة أن عدد العسكريين قد تناقص من تسعةٍ في الوزارة السابقة إلى ثلاثةٍ ، كما تناقص عدد

---

(١) عُيِنّ عبد اللطيف الدراجي وزيراً للداخلية مكان صبحي عبد الحميد .
عبد الرحمن خالد القيسي وزيراً للإرشاد مكان عبد الكريم فرحان .
جميل الملائكة وزيراً للصناعة مكان أديب الجادر .
قاسم عبد الحميد وزيراً للإقتصاد مكان عزيز حافظ .
أحمد عبد الهادي الحبوبي وزيراً للشؤون البلدية والقروية مكان فؤاد الركابي .
خضر عبد الغفور وزيراً للتربية .

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي : =

الشيعة من تسعة وزراء في الحكومة الماضية إلى أربعة في هذه الوزارة .

محاولة انقلاب : كان عارف عبد الرزاق يطمح بمنصب رئاسة الجمهورية وقد قبل بمنصب رئاسة الحكومة كمرحلةٍ ، وما أن تسلّم الوزارة حتى بدأ يتصل بالضباط وخاصةً أولئك الناصريين الذين تغيّرت نظرتهم إلى الرئيس العراقي بعد استقالة زملائهم من الحكومة السابقة .

سافر الرئيس العراقي إلى الدار البيضاء ومعه وزير الخارجية عبد الرحمٰن البزاز لحضور مؤتمر القمة الذي سيعقد في الدار البيضاء في ١٧ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (١٢ أيلول ١٩٦٥م) ، وما أن سافر الرئيس حتى بدأ نشاط رئيس الحكومة ، وأخذ الضباط الناصريون (مدير الاستخبارات العسكرية العقيد هادي خماس ، ومدير الأمن العام العقيد رشيد محسن ، وآمر الكلية الحربية العقيد عرفان وجدي ، وقائد لواء المدرعات الرائد عبد الأمير الربيعي)

= ١ ـ عارف عبد الرزاق : رئيساً للوزارة ، وزيراً للدفاع بالوكالة .

٢ ـ عبد الرحمٰن البزاز : نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للخارجية ، ووزيراً للنفط .

٣ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للمالية .

٤ ـ عبد اللطيف الدراجي : وزيراً للداخلية .

٥ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية .

٦ ـ جمال عمر نظمي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

٧ ـ عبد اللطيف البدري : وزيراً للصحة .

٨ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .

٩ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للمواصلات ، وزيراً للشؤون البلدية والقروية بالوكالة .

١٠ ـ عبد الرحمٰن محمد القيسي : وزيراً للإصلاح الزراعي ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .

١١ ـ جعفر العلوي : وزيراً للأشغال والإسكان .

١٢ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للاقتصاد .

١٣ ـ مصطفى عبد الله : وزيراً للصناعة ، وزيراً للتخطيط بالوكالة .

١٤ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .

١٥ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .

١٦ ـ حسين محمد السعيد : وزيراً للعدل .

١٧ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

يتصلون مع الضباط الذين يحتلّون مراكز حسّاسة ، ويُشجّعونهم على العمل ضدّ عبد السلام عارف إلى جانب عارف عبد الرزاق رئيس الحكومة . ووضعت خطّة للقيام بانقلابٍ عسكريٍ ، يتسلّم إثره عارف عبد الرزاق رئاسة الجمهورية ، ويُطلب من الرئيس المصري جمال عبد الناصر تحقيق الوحدة فوراً . وكان نجاح الانقلاب عند قادته مضموناً حيث يعتقدون أنه ليست هناك قوة تحول بينهم وبين ما يُريدون لذلك لم يهتموا كثيراً بالسرّية ، حتى كثُرت الأحاديث عن الانقلاب بين الناس .

بدأ التمهيد للانقلاب بقيام مُظاهراتٍ من الطلاب والعمال في ١٧ جمادى الأولى بتوجيهٍ من الضباط الناصريين وفي الوقت الذي كان الانقلابيون فيه يستعدّون للعمل كان أعوان عبد السلام عارف يعملون لإحباط الانقلاب ، وكان على رأس هؤلاء الأعوان (رئيس الأركان العامة بالوكالة عبد الرحمٰن عارف شقيق عبد السلام عارف ، والعقيد بشير طالب رئيس الحرس الجمهوري ، والعقيد سعيد الصليبي آمر موقع بغداد ، والمقدّم عبد الحميد عبد القادر آمر الشرطة) .

وفي ٢١ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (١٦ أيلول ١٩٦٥م) أخذ الانقلابيون يُحرّكون المدرّعات فوقفت في وجههم قوة بقيادة العقيد سعيد الصليبي آمر موقع بغداد ، والمقدّم عبد الحميد عبد القادر آمر الشرطة ، وأخبروهم أن القوات بيد رئيس الأركان ، وعلى استعدادٍ لتدميرهم فوراً ، فتوقّفت الحركة ، وفشل الانقلاب ، ووافق رئيس الأركان اللواء عبد الرحمٰن عارف على مُغادرة رئيس الحكومة البلاد ، ولكنه هرب بطائرةٍ عسكريةٍ إلى القاهرة في اليوم نفسه ٢١ جمادى الأولى .

وانتهى مؤتمر القمّة في الدار البيضاء ، وعرّج عبد السلام عارف على القاهرة ، والتقى بجمال عبد الناصر الذي طلب منه العفو عن عارف عبد الرزاق فرفض فتوتّرت العلاقات بين الرئيسين ، وإن عبد السلام عارف بقي على ولائه لجمال عبد الناصر ، ولم يتعدّ الأمر عنده أنه لم يقبل ما طلب منه الرئيس المصري بسبب الغدر الذي أراده له عارف عبد الرزاق ، أما جمال

عبد الناصر فكتمها في نفسه إذ كيف يردّ له طلباً أحد أتباعه .

وزارة عبد الرحمن البزاز : ما أن عاد عبد السلام عارف إلى بغداد حتى عهد إلى عبد الرحمن البزاز بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ[1] في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٨٥هـ (٢٤ أيلول ١٩٦٥م) .

مقتل عبد السلام عارف : سافر عبد السلام عارف إلى القاهرة والتقى بجمال عبد الناصر ، ورجاه أن يُخفّف حكم الإعدام الذي صدر بحقّ سيد قطب ، فأحسّ جمال عبد الناصر أنّ عبد السلام عارف لم يكن بجانبه في يومٍ من الأيّام ، وإنّما كان يُخادعه ، فهو يُؤيّد الإخوان المسلمين ، وها هو قد قلب ظهر المجن لأتباع جمال عبد الناصر في العراق كمرحلةٍ أولى ، وليس غريباً أن يُعلن حكماً إسلامياً في المرحلة الثانية مع بقاء دعواه أنّه وحدوي ، ومُؤيّد لجمال عبد الناصر .

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمن البزاز : رئيساً للحكومة ، وزيراً للخارجية .
٢ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للمالية ، وزيراً للنفط بالوكالة .
٣ ـ عبد اللطيف الدراجي : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عبد العزيز العقيلي : وزيراً للدفاع .
٥ ـ قاسم الروّاف : وزيراً للعدل .
٦ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .
٧ ـ فارس ناصر الحسن : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية ووزيراً للإصلاح الزراعي بالوكالة
٨ ـ عبد اللطيف البدري : وزيراً للصحة .
٩ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .
١٠ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية ، وزيراً للإسكان والأشغال بالوكالة .
١١ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ عبد الحميد الهلالي : وزيراً للاقتصاد .
١٣ ـ مصطفى عبد الله طه : وزيراً للصناعة .
١٤ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .
١٦ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

وتوقّع كل من عرف أنّ عبد السلام عارف قد كلّم جمال عبد الناصر بشأن سيد قطب أن عبد السلام عارف قد انتهت أيّامه ـ والله أعلم ـ لأن جمال عبد الناصر رجل حاقد ، يعرف كيف يُخطّط ليُزيل من أمامه الذين يُريد أن يزيلهم .

رجع عبد السلام عارف إلى بغداد ، أخذ يتجوّل في المناطق المختلفة يُلقي الخطب ، ويلتقي مع الرعية . وبدأ في الجنوب ، وفي ٢٣ ذي الحجة ١٣٨٥هـ (١٣ نيسان ١٩٦٦م) سافر من البصرة إلى بلدة (القرنة) بالسيارة ، وألقى هناك كلمةً استمرّت إلى ما بعد المغرب ، ثم تأخّر أيضاً لتحية الناس الذين احتشدوا في طريقه ، لذلك قرّر العودة إلى البصرة عن طريق الجوّ على حين كان المقرّر أن يعود بالسيارة ، غير أن احتفالاً هناك ينتظره ، فأعدّت ثلاث طائراتٍ مروحيةٍ ، ركب هو والوفد الوزاري الذي معه إحداها[1] ، وكان الوفد الصحفي في ثانيةٍ ، أمّا الثالثة فقد ضمّت أجهزة وسائل الإعلام ، وفي الطريق فُقدت طائرته ، ولم يُهتد إليها إلاّ في اليوم الثاني . ولا يزال الأمر غامضاً ، إذ أذاعت العراق وجود عواصف ، وأنكرت الكويت ذلك ، عادت الطائرتان إلى القرنة بعد ربع ساعة من إقلاعها ، وادّعى ملاحوها أنهم فقدوا الاتصال مع طائرة الرئيس . . . وتبينّ في اليوم التالي أنها كانت قد سقطت ، والواقع أنها انفجرت .

تولّى عبد الرحمن البزاز السلطة حسب الدستور ، وفرض نظام منع التجوّل ، وإغلاق الحدود ، وأُعلن الحداد لمدة شهرٍ ، ودُفن عبد السلام عارف في بغداد .

---

(١) كان معه من الوزراء عبد اللطيف الدراجي وزير الداخلية ، ومصطفى عبد الله طه وزير الصناعة .

الفصل الثالث

عبد الرحمن عارف

٢٧ ذي الحجة ١٣٨٥ - ٢١ ربيع الأول ١٣٨٨هـ .
(١٧ نيسان ١٩٦٦ - ١٧ تموز ١٩٦٨م) .

يقضي الدستور أن يتولّى رئيس الحكومة السلطة في حالة وفاة رئيس الجمهورية ، وعليه أن يضع الترتيبات كافةً خلال أسبوعٍ واحدٍ لاختيار رئيس الجمهورية الجديد . كما يقضي الدستور أيضاً أن يعقد المجلس الوطني لقيادة الثورة ، ومجلس الوزراء ، ومجلس الدفاع الوطني جلسةً مُشتركةً برئاسة رئيس الوزراء لاختيار رئيسٍ جديدٍ بأكثرية ثلثي الأصوات .

كان المجلس الوطني لقيادة الثورة قد أُلغي . وبقي مجلس الوزراء الذي يضمّ ستة عشر وزيراً ، قُتل اثنان منهم مع عبد السلام عارف ، فبقي العدد أربعة عشر عضواً . وأما مجلس الدفاع الوطني فيضمّ عشرين عضواً ، منهم ثمانية وزراء ، واثنا عشر ضابطاً . وبذا فإن العدد الكلي كان هو خمسةً وعشرين عضواً ، منهم اثنا عشر مدنياً ، وثلاثة عشر عسكرياً .

كان عبد الرحمن عارف في زيارة لموسكو ، ورجع إلى بغداد ليحضر الأحداث التي تجري فيها ، وفي ٢٦ ذي الحجة ١٣٨٥هـ عُقد الاجتماع الأول لبدء المباحثات حول اختيار رئيس جمهوريةٍ جديدٍ . وجرى النقاش حول اختيار مدني أم عسكري ، أو تشكيل مجلس رئاسة .

وفي اليوم التالي رُشّح عبد الرحمن عارف ، وعبد العزيز العقيلي عن العسكريين ، وعبد الرحمن البزاز عن المدنيين ، ونتيجة التصويت لم يحصل أحدهم على ثلثي الأصوات المطلوبة . وفي الاقتراع الثاني نجح عبد الرحمن

عارف إذ وقف بجانبه المدنيون ، ولا شكّ أن العواطف كانت بجانبه لمحبّة أخيه ، وللطريقة التي قُتل فيها . ويبدو أن القاهرة كانت تُؤيّد عبد الرحمٰن عارف لأن عبد العزيز العقيلي يُركّز على الوحدة الوطنية العراقية أكثر من اهتمامه بالوحدة العربية ، كما كان يشتدّ في حل القضية الكردية ، ويرى أن حلّها لن يكون إلاّ باستسلام الملا مصطفى البارزاني ، لا بعقد صلح معه ، وأنّ الإصلاحات الداخلية لا يُمكن القيام بها قبل حلّ القضية الكردية .

حكومة عبد الرحمٰن البزاز الثانية : وفي ٢٨ ذي الحجة رفع عبد الرحمٰن البزاز استقالة حكومته للرئيس الجديد ، فكلّفه بإعادة تشكيل الحكومة من جديد[١] .

القضية الكردية : كان قد جرى اتفاق بين حكومة أحمد حسن البكر ، والملا مصطفى البارزاني ، إذ توجّه من بغداد إلى منطقة السليمانية الوزيران فؤاد عارف ، وعلي بابا وهما من الأكراد ، ويُرافقهما رئيس الأركان طاهر

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرحمٰن البزاز : رئيساً للوزارة ، وزيراً للداخلية بالوكالة .
٢ ـ عدنان الباجه جي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .
٤ ـ شكري صالح زكي : وزيراً للمالية ، وزيراً للنفط بالوكالة .
٥ ـ محمد الأبطة : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٦ ـ صديق جلال : وزيراً للصناعة .
٧ ـ قاسم الرواف : وزيراً للعدل .
٨ ـ خضر عبد الغفور : وزيراً للتربية ، وزيراً للأوقاف بالوكالة .
٩ ـ عبد اللطيف البدري : وزيراً للصحة .
١٠ ـ محمد ناصر : وزيراً للثقافة والإرشاد .
١١ ـ أكرم الجفّ : وزيراً للزراعة .
١٢ ـ إسماعيل مصطفى : وزيراً للشؤون البلدية والقروية ، وزيراً للإشغال والإسكان بالوكالة .
١٣ ـ عبد الحميد الهلالي : وزيراً للاقتصاد .
١٤ ـ سلمان عبد الرزاق الأسود : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ عبد الرزاق محيي الدين : وزيراً لشؤون الوحدة .
١٦ ـ سلمان الصفواني : وزير دولة .

يحيى ، والوزير الكردي علي حيدر سليمان وذلك في ٨ شوال ١٣٨٢هـ (٣ آذار ١٩٦٣م) ، وأصرّ يومها الملا مصطفى البارزاني على الحكم الذاتي كخطوةٍ أولى على أن تُترك التفصيلات لمفاوضات لاحقةٍ، وكانت المطالب الكردية هي :

١ ـ المساواة في الحقوق بين العرب والأكراد في دولةٍ مُوحّدةٍ يكون فيها نائب رئيس الجمهورية ، ومُساعد رئيس الأركان من الأكراد .

٢ ـ تتألّف كردستان من مُحافظات (السليمانية ، وإربيل ، وكركوك) ومن الأقضية الكردية في مُحافظات الموصل وديالي . على أن يكون لها مجلساها التشريعي والتنفيذي ، وأن تشمل سلطات الإدارة الكردية العدل ، والشؤون الداخلية ، والتعليم ، والصحة ، والزراعة ، وتحتفظ الحكومة المركزية بالإشراف على جميع القضايا ذات الأهمية المشتركة بما فيها الدفاع والشؤون الخارجية . كما تشمل سلطات الإدارة الكردية كذلك تعيين الأكراد في جميع المناصب الرسمية في كردستان . وتكون اللغة الكردية اللغة الرسمية الثانية بعد العربية .

٣ ـ يكون عدد الأكراد في المجلس الوطني لقيادة الثورة وفقاً لنسبتهم المئوية من السكان .

٤ ـ يقسم دخل النفط والعائدات الجمركية وفقاً للنسبة المئوية من السكان .

٥ ـ لا يجوز أن تجري أي تحرّكات للجيش العراقي في كردستان إلّا بمُوافقة الإدارة الكردية

ثم عاد البعثيون فأرسلوا وفداً شعبياً لمفاوضة الملا مصطفى البارزاني ، ولم يكن هذا الوفد يُمثّل الحكومة ، ويتألّف من : محمد رضا الشبيبي الزعيم السابق لحزب الجبهة الشعبية ، وفائق السامرائي نائب رئيس حزب الاستقلال ، وحسين جميل الأمين لحزب البعث ، وعبد العزيز الدوري رئيس جامعة بغداد ، وزيد أحمد عثمان وهو محامٍ من الأكراد ، وكان عضواً في المجلس النيابي للاتحاد العراقي ـ الأردني . وقد تمّ الاتفاق في ١٣ شوال ١٣٨٢هـ (٨ آذار ١٩٦٣م) على استبدال عبارة الحكم الذاتي

بـ (اللامركزية) ، وأن يرفع الوفد إلى الحكومة تقريراً يتضمن المقترحات التالية :

١ ـ الاعتراف بحقوق الأكراد ضمن خطة (اللامركزية) التي ستضع تفصيلاتها لجنة مشتركة ، وينصّ عليها في الدستورين المُوقّت والدائم على السواء .

٢ ـ إصدار عفو عامٍ عن جميع الأشخاص المحكوم عليهم أو الملاحقين لاشتراكهم بالثورة الكردية .

٣ ـ تغيير مُوظفين مُعينين كانت لهم مواقف عدائية تجاه الشعب الكردي .

٤ ـ إلغاء جميع الأوامر بمصادرة ممتلكات الأكراد الذين اشتركوا بالثورة الكردية .

٥ ـ رفع الحصار الاقتصادي عن كردستان .

٦ ـ سحب الجيش إلى مواقعه العادية السابقة .

ولما وصل الوفد آيباً إلى بغداد رفع تقريره إلى الحكومة ، وصدر أمر رسمي رفع بموجبه الحصار الاقتصادي عن كردستان ، وصدر عفو عام عن جميع المحكومين والمعتقلين . كما أفرج الأكراد عن بعض الأسرى العرب . غير أن الشكوك بقيت تُساور النفوس من كلا الطرفين ، مع أنّ الحكومة قد أعلنت في ١٥ شوال ١٣٨٢هـ (١٠ آذار ١٩٦٣م) على الموافقة على المطالب الكردية .

وفي ٢٥ شوال ١٣٨٢هـ (٢٠ آذار ١٩٦٣م) وصل وفد برئاسة جلال الطالباني وعضوية ستة آخرين مع سبعة مُستشارين يُمثّلون الأكراد إلى بغداد لُفاوضة حكومتها ، والتي كانت مشغولةً بمفاوضة سوريا ومصر لإقامة وحدةٍ معهما . ودُعي جلال الطالباني لحضور تلك المفاوضات ، فلبّى الدعوة ، وسافر إلى القاهرة . وقدّم جلال الطالباني مطالبه في الأول من ذي الحجة ١٣٨٢هـ (٢٤ نيسان ١٩٦٣م) ، واتجه مُباشرةً إلى كردستان حيث لم يمرّ على بغداد ،وتلخص هذه المطالب بما يأتي :

١ ـ إذا بقي العراق على وضعه السياسي الحالي دون تغيير دستوريٍ فإن الأكراد يقبلون باللامركزية،كما أوردها البيان الحكومي الصادر في ١٤ شوال

١٣٨٢هـ (٩ نيسان ١٩٦٣م) .

٢ - إذا قرّر العراق الانضمام إلى بلدانٍ عربيةٍ أُخرى في اتحادٍ ، فإنّ الأكراد يُطالبون بـ (الحكم الذاتي) بكل ما في العبارة من معنىً .

٣ - إذا قرّر العراق الانضمام إلى بلدانٍ عربيةٍ أُخرى في دولةٍ مُوحّدةٍ ، فإنّ الأكراد يُطالبون بوجوب اعتبارهم أنهم يُشكّلون إقليماً مُنفصلاً ضمن تلك الدولة .

وأخذت الشكوك تُساور النفوس ، وسرت شائعات ، وحدثت قطيعة ، وعاد الخلاف ، وفي ١٨ المحرم ١٣٨٣هـ (١٠ حزيران ١٩٦٣م) اعتقلت الحكومة المُمثّلين الأكراد ، وطالبت باستسلام الملا مصطفى البارزاني خلال ٢٤ ساعة ، وشنّت هجوماً على الأكراد ، واستمرّ القتال ما يقرب من ثمانية أشهر وشارك لواء سوري في هذا القتال .

انتهى عهد حزب البعث ، وجاءت حكومة طاهر يحيى ، وهو الذي فاوض الأكراد من قبل ، عاد أيضاً للمفاوضة ، ولكن دون الوصول إلى نتائج ، ومع ذلك صدر عن رئيس الجمهورية عبد السلام عارف ، وعن مصطفى البارزاني بلاغان في وقتٍ واحدٍ يوم ٢٧ رمضان ١٣٨٢هـ (١٠ شباط ١٩٦٤م) وجاء فيهما قرار وقف إطلاق النار بين الطرفين ، وتعهّدت الدولة بـ :

١ - تأكيد الحقوق القومية للأكراد ضمن دولةٍ عراقيةٍ مُوحّدةٍ على أن يُنصّ ذلك في الدستور .

٢ - الإفراج عن المعتقلين السياسيين ، ورفع الحصار الاقتصادي عن المنطقة الكردية .

٣ - إعادة الإدارة المحلية ، واستئناف المسؤولين واجباتهم في المحافظة على القانون والنظام .

٤ - إعادة تعمير المناطق المُدمّرة في الشمال ، ودفع تعويضاتٍ عادلةٍ للأفراد في بعض المناطق .

وعادت المفاوضات دون نتيجةٍ ، وأخذت حكومة عبد الرحمن البزاز على عاتقها المفاوضات غير أن الأمر لم يكن بتلك السهولة ، وكان وزير الدفاع

عبد العزيز العقيلي يرى أنه لا بدّ من استسلام الملا مصطفى البارزاني .

قُتل عبد السلام عارف ، وترك عبد العزيز العقيلي وزارة الدفاع ، وعادت المفاوضات ، وأصدر عبد الرحمٰن البزاز رئيس الحكومة بياناً مُؤلّفاً من اثنتي عشرة نقطة في ١١ربيع الأول ١٣٨٦هـ (٢٩ حزيران ١٩٦٦م) . وبقيت الحكومات التي خلفت حكومة عبد الرحمٰن البزاز تُشيد بالنقاط الاثنتي عشرة ، وتدّعي العمل لها دون نتيجةٍ .

محاولة قيام عارف عبد الرزاق بانقلابٍ ثانٍ : كان الضباط الذين يُؤيّدون الرئيس المصري جمال عبد الناصر لا يرتاحون لرئيس الحكومة عبد الرحمٰن البزاز ، ويعدّونه مُسايراً لسياسة الغرب ، وأخذ الاستعداد لتهيئة انقلابٍ ، وفي شهر صفر ١٣٨٦هـ (أوائل حزيران ١٩٦٦م) غادر عارف عبد الرزاق مصر وتسلّل إلى العراق مع بعض الأشخاص ، ولم يعلم أحد بهم . ووصل إلى بغداد ، وفي يوم ١١ ربيع الأول تسلّل إلى الموصل مع عددٍ من الضباط ليستولي على المطار ، وقد تمكّن بجهود قائد الفرقة الرابعة يونس طه عطار باشي من السيطرة على الفرقة والمطار العسكري . وقامت الطائرات من الموصل لمُهاجمة الحرس الجمهوري والإذاعة في بغداد ، وهاجمت أربع طائراتٍ معسكر الرشيد ، ولكنها أُسرت وأخفق الهجوم ، وهاجمت طائرة معسكر الوشاش ، ولكنها أُلزمت على الهبوط والاستسلام ، وهكذا فشل الهجوم الجوي .

استولى العقيد هادي خماس على محطتي الإذاعة في أبي غريب ، وبغداد ، وأذاع بياناتٍ باسم عارف عبد الرزاق رئيس المجلس الوطني الجديد للثورة ، وقامت قوّة بالسيطرة على معسكر التاجي ، وتحرّكت المدرّعات إلى العاصمة للاستيلاء عليها ، وأذاع هادي خماس نجاح الانقلاب ، ودعا عبد الرحمٰن عارف وعبد الرحمٰن البزاز إلى التوجّه إلى منزليهما ، وترك مقرّيهما . وأذاعت محطة إذاعة حكومية فشل الإنقلاب ، واستسلام المتمردين .

قام رئيس الحرس الجمهوري العقيد بشير طالب بهجومٍ معاكس ضدّ القوات المتمرّدة ، وأمر عبد الرحمٰن عارف الضباط الموالين له بالموصل باعتقال عارف عبد الرزاق فاعتُقل ، وسحق بشير طالب القوات التي سيطرت على معسكر أبي غريب ومعسكر التاجي ، ووصلت النجدات إلى بغداد ، واعتقل رؤوس المتمرّدين ، وانتهى أمر الانقلاب ، وفي ١٣ ربيع الأول عادت الحياة طبيعية في بغداد ، أي لم تستمر الفوضى سوى يومين فقط . وكان عدد المعتقلين العسكريين والمدنيين ثمانية عشر رجلاً ، أُفرج عنهم بعد سقوط حكومة عبد الرحمٰن البزاز ، أما عارف عبد الرزاق فقد بقي سنةً في السجن ، ثم أُفرج عنه .

قدّم عبد الرحمٰن البزاز استقالة حكومته في ١٩ ربيع الثاني ١٣٨٦هـ (٦ آب ١٩٦٦م) بعد خلافٍ وقع بينه وبين رئيس الجمهورية . إذ كان عبد الرحمٰن عارف يُريد أن يثبت مكانته بين العسكريين ، وخاصةً بعد أن رأى محاولة الانقلاب التي قام بها عارف عبد الرزاق ، ومُؤازرة بعض الضباط له . على حين أن رئيس الحكومة عبد الرحمٰن البزاز أراد أن يثبت مكانته بين المدنيين فوعد بإجراء الانتخابات ، وتشكيل المجلس النيابي .

غير أن العسكريين الذين يُريد عبد الرحمٰن عارف أن يُوحّد جهودهم ليدعموا نظامه كانوا عدة فئاتٍ ، فئة منهم تدعو إلى وحدة البلدان العربية ، وفئة أخرى ترى الوحدة الوطنية العراقية ، ويمكن أن نُسمّيها « إقليمية » إذ أنها تهتّم بشؤون إقليم العراق، وتوحيد الأقلّيات فيه . والفئة الوحدوية عدة مجموعات :

١ ـ مجموعة لا ترى الوحدة إلّا مع مصر ، وبزعامة جمال عبد الناصر ، الذي لا تكون وحدة دونه ، ولا تصلح وحدة بغيره ، وهؤلاء هم الذين يُعرفون بالناصريين .

٢ ـ مجموعة البعثيين التي لا ترى زعامة جمال عبد الناصر ، وأن الوحدة يجب أن تتمّ بعيداً عنه ، لأنه لا يُهمّه سوى شخصه ، وهو يُنادي بالوحدة

ليركب موجتها العارمة فيكسب الزعامة ، ولو كان هناك شعار آخر يُؤمّن له الزعامة لاتخذه بديلاً ، ويُمثّل هؤلاء أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، وحردان التكريتي .

٣ ـ مجموعة ترى تحقيق اتفاقية الوحدة الموقعة في ١٥ محرم ١٣٨٤هـ (٢٦ أيار ١٩٦٤م) على مراحل ، ويُمثّل هذه المجموعة ناجي طالب على حين أنه ينتمي إلى الشيعة الذين لا يرون الوحدة العربية .

٤ ـ مجموعة عبد الرحمٰن عارف التي تُؤيّد النظام القائم ،ويُمثّل هذه المجموعة سعيد الصليبي ، وعبد الحميد عبد القادر ، وهم الذين ساندوا النظام عندما تعرّض للانقلاب .

وأما الفئة الإقليمية فهي عدة مجموعاتٍ ومنها :

١ ـ مجموعة يقودها عبد العزيز العقيلي ، ويدعو إلى الاهتمام بقضايا العراق ، وإنهاء مُشكلة الأكراد قبل كل شيءٍ ، ويُؤيّده رشيد مصلح ، وإسماعيل مصطفى .

٢ ـ مجموعة يقودها عبد الوهاب الأمين ، وعبد الغني الراوي ، ويرون مصلحة العراق قبل كل شيءٍ ، لذا فالانصراف إلى القضايا الإقليمية أهم مما سواه .

٣ ـ مجموعة يقودها طاهر يحيى ، ويُحاول التوفيق بين المجموعات . وكل هذه المجموعات علمانية ، تقريباً أو لا تهتمّ بالقضايا الدينية على حين أن بعضها يُحاربها صراحةً كالمجموعة البعثية ، أما عبد الرحمٰن عارف فيعدّ مُتديّناً ، ويُريد أن يُحافظ على هذا الجانب ، لذا فإنّ من يؤيّده إن لم يكن متديناً فلمصلحة له .

بعد أن قدّم عبد الرحمٰن البزاز استقالة حكومته في ١٩ ربيع الثاني ١٣٨٦هـ ، عهد عبد الرحمٰن عارف إلى ناجي طالب بتشكيل حكومةٍ جديدةٍ ، وفي ٢٢ ربيع الثاني أعلن عن تشكيلها[١] . وأعلنت الحكومة في

---

(١) تمّ تشكيل الوزارة على النحو الآتي : =

بيـانها عن العمل لتحقيق الـوحدة العـربية ، ولكن لم يحـدث شيء في هذا المجال .

أزمـة النفط مع سوريا : كانت شركـة نفط العراق قـد اتفقت عـام (١٩٥٥م) مع سوريا على المبلغ الذي تدفعه الشركة لسوريا ، غير أنه في مطلع عام (١٩٦٦م) ١٠ رمضان ١٣٨٥هـ طالبت الحكومة السورية الشركة بزيادة المبلغ الذي يُدفع مُقابل مرور النفط في الأراضي السورية ، وصبّه في ميناء بانياس على ساحل البحر المتوسط ، ما دامت كميات الضخّ قد زادت ، وأسعار النفط قد ارتفعت ، فتمنّعت الشركة بادىء الأمر ، ثم وافقت غير أنّ الحكومة السورية قد طلبت أن تكون هذه الزيادة ذات مفعولٍ رجعيٍ حيث تبدأ قبل عشر سنوات ، فرفضت الشركة، ولما احتدم الخلاف توقّفت الشركة عن الضخّ ، فاستولت الحكومة على ممتلكات الشركة في سوريا ، وتضرّرت العراق نتيجة وقف الضخّ وأخذ هجوم خصوم ناجي طالب على حكومته .

= ١ ـ ناجي طالب : رئيساً للوزارة ، وزيراً للنفط .

٢ ـ رجب عبد المجيد : نـائبـاً لـرئيس الوزارة ، وزيراً للداخلية .

٣ ـ عـدنـان البـاجـه جي : وزيـراً للخارجية .

٤ ـ عبد الله النقشبندي : وزيراً للمالية .

٥ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .

٦ ـ مصلح النقشبندي : وزيراً للعدل .

٧ ـ عـبـد الـرحمن الـقـيسي : وزيـراً للتعليم .

٨ ـ دريـد الدملوجي : وزيـراً للثقـافـة والإرشاد .

٩ ـ فريد فتيان : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .

١٠ ـ إسـماعيـل مصـطفـى : وزيـراً للمواصلات .

١١ ـ فؤاد حسن غالي : وزيراً للصحة .

١٢ ـ أحمد مهـدي الـدجيـلي : وزيـراً للزراعة والإصلاح الزراعي .

١٣ ـ محمـد يعقوب السعيـدي : وزيـراً للتخطيط .

١٤ ـ قاسم عبد الحميد : وزيراً للاقتصاد .

١٥ ـ خالد الشاوي : وزيراً للصناعة .

١٦ ـ داود سرسم : وزيـراً للبلديـات والأشغال العامة .

١٧ ـ عربي الحاج أحمد : وزيراً لشؤون الوحدة .

١٨ ـ أحمد كمال عبد القادر : وزير دولة لإعمار شمالي العراق .

وخاصةً أن رئيس الوزارة كان يرى رأي الحكومة السورية ومُطالبة الشركة ، وأخيراً سُوِّي الخلاف نهائياً بين الشركة وسوريا في ٢١ ذي القعدة ١٣٨٦هـ (٢ آذار ١٩٦٧م) . إذ وافقت الشركة على دفع الزيادة بدءاً من مطلع عام (١٩٦٦م) ويبحث أمر دفع الزيادة عن المدة السابقة فيما بعد ، ونتيجة ذلك تضاعف نصيب سوريا من المبلغ الذي كانت تتقاضاه من الشركة .

رئاسة عبد الرحمٰن عارف والدستور : انتخب عبد الرحمٰن عارف رئيساً لمدة سنةٍ فقط ، ويمكن تجديد المدة بعد انتهائها ، وها قد أوشكت على الانتهاء (١٧ نيسان) .

ونصّ الدستور الموقّت الذي أعلن في ١٧ ذي الحجة ١٣٨٣هـ (٢٩ نيسان ١٩٦٤م) أنّ على المجلس الوطني أن يضع دستوراً دائماً خلال ثلاث سنواتٍ .

اعترضت المعارضة على الدستور المُوقّت الذي لم يعترف إلّا بالاتحاد الاشتراكي كتنظيمٍ سياسيٍ في البلاد ، وكان الأكراد أشدّ المعترضين ، لذا أصبح من الضروري تعديل الدستور الموقّت ، قبل نهاية نظام الحكم المُوقّت .

وفي ٢٤ المحرم ١٣٨٧هـ (٣ أيار ١٩٦٧م) تمّ عقد اجتماعٍ مُشتركٍ من مجلس الوزراء ، ومجلس الدفاع الوطني ، وخوّل الوزارة إصدار القوانين حتّى يتمّ انتخاب مجلس الأُمّة ، وتمديد رئاسة عبد الرحمٰن عارف سنة أخرى .

لم يتّفق العسكريون على رئاسة الحكومة ، وهم طامعون بها ، لاختلاف مشاربهم وأهوائهم ، ولم يقبل أحد من المدنيين أن يكون ألعوبةً بيد العسكريين ، والحكومة القائمة أصبحت لا تقوى على شيءٍ ورئيس الجمهورية غير راضٍ عن رئيس الحكومة ، لذا لم يكن بدّ من أن يُشكّل عبد الرحمٰن عارف رئيس الجمهورية الحكومة بنفسه ، فقبل استقالة حكومة ناجي طالب في الأول من صفر ، وفي اليوم نفسه أعلن حكومته[1] ، التي تُعدّ حكومة ائتلافٍ

---

(١) تشكّلت الحكومة على النحو الآتي : =

وطني ، إذ ضمّت مختلف النـزعات ، والأقلّيـات ، إذ كان طـاهـر يحيى ، وعبدُ الغني الراوي من المسلمين العرب ، وفؤاد عارف من المسلمين الأكراد ، وإسماعيل مصطفى من الشيعة .

ولم يلبث أن حدث الاعتداء اليهودي على البلدان العـربية ، مصر ، والأردن ، وسوريا ، وساهم العراق بإرسال قوةٍ رمزيةٍ لدعم أشقاء العراق . وجاءت الظروف قاسيةً بعد الحرب الكردية ، ووجد عبد الرحمن عارف نفسه متعباً بمنصبي رئاسة الجمهورية والحكومة فأوكل أمر الحكومة إلى طاهر يحيى .

وسافر طاهر يحيى مع كلٍ من فؤاد عارف نائب رئيس الحكومة ، وشاكر محمود شكري وزير الدفاع ، وعدنان الباجه جي ، وزيـر الخـارجيـة ، وعبد الرزاق محيي الدين وزير الوحدة إلى القـاهرة لبحث موضوع الحرب القائمة .

وأراد طـاهر يحيى أن يُشغـل الناس عن الأحـداث الداخليـة فـاتجه

= ١ ـ عبـد الـرحمن عـارف : رئيس الجمهورية ، رئيس الوزراء .

٢ ـ طاهر يحيى : نائباً لرئيس الوزراء .

٣ ـ عبد الغني الراوي : نـائبـاً لـرئيس الوزراء .

٤ ـ إسماعيل مصـطفى : نائباً لـرئيس الوزراء .

٥ ـ فؤاد عارف : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً لإعمار الشمال .

٦ ـ عدنان الباجه جي : وزيراً للخارجية .

٧ ـ شاكر محمود شكري : وزيراً للدفاع .

٨ ـ عبد الرحمن الحبيب : وزيراً للمالية .

٩ ـ عبـد الستار عبـد اللطيف : وزيـراً للداخلية .

١٠ ـ مصلح النقشبندي : وزيراً للعدل .

١١ ـ عبد الكريم هاني : وزيراً للعمـل والشؤون الاجتماعية وزيراً للصحة بالوكالة .

١٢ ـ أحمـد مـطلوب : وزيـراً للثقـافـة والإرشاد .

١٣ ـ فـاضـل محسن الحكيم : وزيـراً للمواصلات .

١٤ ـ عبد المجيد الجميد : وزيراً للزراعة .

١٥ ـ محمـد يعقوب السعيـدي : وزيـراً للتخطيط .

١٦ ـ قاسم عبد الحميد : وزيراً للنفط .

١٧ ـ إحسان شيرزاد : وزيـراً للبلديات والأشغال العامة .

١٨ ـ عبـد الرزاق محيي الـدين : وزيراً للوحدة .

١٩ ـ عربي الحاج أحمد : وزيراً للدولة .

٢٠ ـ إسماعيل خير الله : وزيراً للدولة .

٢١ ـ قاسم خليل : وزير دولة للشبـاب واتحاد العمل .

٢٢ ـ عبـد الكـريم فـرحـان : وزيـراً للإصلاح الزراعي .

بأنظارهم إلى الخارج ، إذ أخذ يُعلن عن ضرورة قطع العلاقات مع الدول التي دعمت إسرائيل ، وهي الولايات المتحدة ، وضرورة قطع النفط عنها ، وأمر القوات العراقية المعسكرة في الأردن بالبقاء هناك ضدّ تعدّيات اليهود . وقامت الزيارات بين العراق والاتحاد السوفيتي وفرنسا ، وتحسّنت العلاقات التجارية مع فرنسا ، وأصبح الأمل كبيراً في استيراد الأسلحة الفرنسية . ومُنحت الشركة الفرنسية (ايراب) حقّ التنقيب عن النفط ، وأُممت صناعة النفط ، وأخذت شركة النفط الوطنية العراقية في استثمار حقول شمال الرميلة في الجنوب ، ومُدّ خط الأنابيب إلى الفاو .

أعلنت الحكومة عن إنشاء مجلسٍ تشريعيٍ مُوقّتٍ إلى حين انتخاب مجلس وطني . ولكن مشروع هذا القانون الذي ينصّ على تشكيل مجلسٍ يتألّف من مائةٍ وعشرين عضواً يُمثّلون العمال ، والفلاحين ، وأرباب المهن الأخرى ، قد تعرّض للنقد الشديد ، كما تعرّض للنقد من أجل الاتحاد الاشتراكي الذي يُعدّ التنظيم السياسي الوحيد في البلاد على حين أن المعارضة يعملون من أجل تعدّد الأحزاب ، إضافةً إلى أن أعضاء المجلس سيُعيّنون تعييناً ، ولا يُؤخذون بالانتخاب .

كانت المطالب الوطنية بتعيين مجلسٍ وطني يضمّ ثلاثين عضواً ، ويُخوّل بصلاحية إصدار القوانين إلى أن يتمّ انتخاب مجلس الأُمّة . وأن تُبدّل الوزارة ، وتحلّ مُشكلة الأكراد ، وتجري الانتخابات العامة في مدةٍ لا تتجاوز السنتين .

ورجع الشيوعيون إلى الساحة ، وأخذوا يقومون بالنشاط وخاصةً في الجنوب ، واضطرت الحكومة إلى إرسال قوةٍ من الشرطة إليهم لإعادة النظام واستتباب الأمن. وضعفت حكومة طاهر يحيى ، وتقدّم بعض أعضائها باستقالتهم ، وسرت شائعات بالاتفاق بين رئيس الحكومة والملا مصطفى البارزاني . وقبل أن يحدث تعديل في الوزارة حدث انقلاب أطاح بعبد الرحمن عارف ونظام حكمه في ٢١ ربيع الثاني ١٣٨٨هـ (١٧ تموز ١٩٦٨م) .

الفصل الرابع

أحمد حسن البكر

٢١ ربيع الأول ١٣٨٨ ـ ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ
(١٧ تموز ١٩٦٨ ـ ١٧ تموز ١٩٧٩م) .

كان لهزيمة الدول العربية أمام اليهود في ٢٧ صفر من عام ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م) أثر في اشتداد المعارضة لحكم عبد الرحمن عارف ، كما أن للشائعات ضدّ حكومة طاهر يحيى ، واتهامها بالمساعدة على نشر الفساد ، وبثّ الفوضى ، وأخذ الرشوة دوراً بارزاً في قوة المعارضة ، واتهام طاهر يحيى نفسه باستلام أربعة عشر مليون دولار من شركة الزيت الفرنسية (ايراب) .

وكان لمحاولات الانقلاب التي تُدبرها مصر ضدّ حكومة عبد الرحمن عارف ولصالح أنصار جمال عبد الناصر أثر في إضعاف الحكم ، واشتداد المعارضة الشعبية ، وفي الوقت نفسه إضعاف جماعة الاتحاد الاشتراكي غير المنظّم ، أو ما يُسمّون بالناصريين ، وذلك بالتسريح من الخدمة العسكرية أو الإلقاء في السجون .

وهذا كله شجّع على قيام تنظيمٍ سريٍ بين صفوف الضباط ، أطلقوا على أنفسهم اسم « الثوريون العرب » ، وقد حرّك هذه المجموعة مدير الاستخبارات العسكرية ، عبد الرزاق النايف ، وتمكّن من ربط الصلة مع رئيس الحرس الجمهوري إبراهيم عبد الرحمن الداود ، وهذا ما شدّ من أزر الثوريين العرب ، ومع ذلك وجدوا أنفسهم ضعافاً ، فرأوا أن يتعاونوا مع الجناح المعتدل من حزب البعث الذي يُمثّله أحمد حسن البكر ، وحردان

عبد الغفار التكريتي ، وصالح مهدي عماش ، وجماعتهم ، وقد رأوا فيهم جماعةً كباراً سبق لهم أن استلموا أو شاركوا بالحكم ، على حين أنهم هم لا يزالون صغاراً لم يسبق لهم تسيير شؤون الدولة . ولما شعروا بالاستعداد قاموا بالحركة .

في صباح يوم الأربعاء ٢١ ربيع الأول ١٣٨٨هـ (١٧ تموز ١٩٦٨م) تحرّكت الدبابات باتجاه القصر الجمهوري ، ولم يُبد رئيس الحرس أيّ مساعدةٍ للحكم ، وبعد عدة طلقاتٍ استسلم الفريق عبد الرحمن عارف ، وأُلقي القبض عليه ، وأذيع نبأ الإنقلاب ، وأُعلن عن تشكيل مجلس لقيادة الثورة من أحد عشر عضواً ، واختير أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ، وشكّل عبد الرزاق النايف الوزارة[1] ، وأُقيلت حكومة الفريق طاهر يحيى ، واتُّهم

---

(١) تشكلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ عبد الرزاق النايف : رئيساً للوزارة
٢ ـ صالح مهدي عماش : وزيراً للداخلية .
٣ ـ إبراهيم عبد الرحمن داود : وزيراً للدفاع
٤ ـ ناصر الحاني : وزيراً للخارجية
٥ ـ قاسم العزاوي : وزيراً للوحدة العربية
٦ ـ صالح كبه : وزيراً للمالية .
٧ ـ مصلح نقشبندي : وزيراً للعدلية .
٨ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
٩ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٠ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
١١ ـ طه الحاج الياس : وزيراً للثقافة والتوجيه القومي .
١٢ ـ محمود شيت خطاب : وزيراً للمواصلات .
١٣ ـ محسن القزويني : وزيراً للزراعة .
١٤ ـ عبد المجيد الجميلي : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٥ ـ إحسان شيرزاده : وزيراً للإسكان .
١٦ ـ محمد يعقوب السويدي : وزيراً للتخطيط .
١٧ ـ عبد الله نقشبندي : وزيراً للاقتصاد .
١٨ ـ خالد مكي الهاشمي : وزيراً للصناعة .
١٩ ـ مهدي حنتوش : وزيراً للنفط ومصادر الطاقة .
٢٠ ـ غائب مولود مخلص : وزيراً للحكم المحلي .
٢١ ـ دياب العكاوي : وزيراً للشباب . =

الحكم السابق بأنه شارك في نكبة عام ١٣٨٧هـ ، وأُعلن أن الهدف من الحركة هو الوحدة الوطنية ، وأُحيل الرئيس عبد الرحمن عارف على التقاعد ، ونفي خارج البلاد ، فغادرها إلى لندن عن طريق استانبول على متن طائرةٍ عراقيةٍ ، وسُجن الفريق طاهر يحيى مع بعض المسؤولين تمهيداً لتقديمه إلى المحكمة بتهمة الرشوة ، وصُودرت ممتلكاته ، وأُحيل اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاري رئيس الأركان العام للقوات المسلحة على التقاعد ، وعُيِّن العميد الركن حردان عبد الغفار التكريتي رئيساً للأركان ، ومُنح رتبة فريق طيار .

إن العهد الجديد قد ضمّ مجموعتين مُتباينتين ، ولا بُدّ من أن يقع الخلاف فيما بينهما بل لن يطول ذلك ، فالبعثيون لا يمكنهم العمل مع مجموعةٍ أخرى ، إلا إذا انضوت تحت جناحهم ، وإذا لم يتمّ هذا استمروا في الهجوم عليهم ، والحديث عنهم ، ولم تطل أيام التفاهم .

وفي ٤ ربيع الثاني من عام ١٣٨٨هـ (٣٠ تموز ١٩٦٨م) أي بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من وقوع الانقلاب تفرّد البعثيون بالسلطة ، وأُبعد رئيس الحكومة عبد الرزاق النايف عن البلاد حيث غادرها إلى لندن ، كما أُبعد أعوانه عن السلطة ، وشكّل الحكومة الجديدة الرئيس أحمد حسن البكر[1] ،

= ٢٢ ـ محسن ديزاني : وزيراً لإعمار شمالي العراق .
٢٣ ـ عبد الكريم زيدان : وزير دولة للشؤون الدينية .
٢٤ ـ راشد الرافعي : وزير دولة لشؤون مجلس الوزراء .
٢٥ ـ ماجد عيسى الخلاف : وزير دولة .
٢٦ ـ كاظم المولى : وزير دولة .
٢٧ ـ جاسم كاظم العزاوي : وزيراً لشؤون الوحدة العربية .

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :
١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ حردان عبد الغفاري التكريتي : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للدفاع .
٣ ـ صالح مهدي عماش : نائباً لرئيس الوزراء ، وزيراً للداخلية .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزيراً للخارجية .
٥ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٦ ـ مهدي الدولاي : وزيراً للعدلية .
٧ ـ عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .

وأصبح الحكم بعدئذٍ رئاسياً ، حيث استمرّ رئيس الجمهورية يتـولّى رئاسـة الحكومة إضافةً إلى منصب الرئاسة ، وقيادة مجلس قيادة الثورة .

والـذي يلفت النظر أن مجمـوعة الحكم الـرئيسية كـانت من مـدينـة تكريت ، أحمد حسن البكر ، وصالح مهدي عماش ، وحردان عبـد الغفار التكـريتي ، وصدام حسـين التكريتي ، وسعـدون غيـدان ، وحمـاد شهـاب التكريتي .

وأعلن دستـور مـوقّت في ٢٩ جمـادى الآخـرة ١٣٨٨هـ (٢٢ أيلول ١٩٦٨م) ، ثم نشر الـدستـور في ١٣ جمـادى الأولى ١٣٩٠هـ (١٦ تمـوز ١٩٧٠م)،[١] وعُيِّن نائبان لرئيس الدولة هما: حردان عبد الغفار التكريتي،

---

٨ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٩ - عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
١٠ ـ عبـد الله سلوم : وزيـراً للثقـافـة والتوجيه القومي .
١١ ـ محمـود شيـب خـطاب : وزيـراً للمواصلات .
١٢ ـ عبد الحسين عطية : وزيراً للزراعة .
١٣ ـ جاسم كـاظم العـزاوي : وزيـراً للإصلاح الزراعي .
١٤ ـ إحسـان شيرزاد : وزيـراً للأشغـال العامة والإسكان .
١٥ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٦ ـ فخـري يـاسـين قـدوري : وزيـراً للاقتصاد .
١٧ ـ خـالـد مكي الهـاشمي : وزيـراً للصناعة .
١٨ ـ راشد الرافعي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٩ ـ غائب مولود مخلص : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
٢٠ ـ شفيق الكمالي : وزيراً للشباب .
٢١ ـ محسن ديـزايي : وزيـراً لـلشـؤون الكردية .
٢٢ ـ عبـد الله الخضيري : وزيـراً للوحدة العربية .

(١) تشكلت الـوزارة على النحـو الآتي في تموز ١٩٧٠م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية . =

وصالح مهدي عماش ، وكان من المقرر أن يُعينّ نائب ثالث من الأكراد غير أنه لم يُسمّ . أما مجلس قيادة الثورة فقد ضمّ خمسة عشر عضواً ، منهم : الرئيس ، ونائبا الرئيس واثنا عشر عضواً آخرون .

أما الوزارة فلم يتغيّر سوى بعض الوزراء ، فهي أشبه ما تكون بالتعديل الوزاري ، لذا سنكتفي بإيراد الوزارة سنوياً ، ومنذ أن تفرّد البعثيون بالسلطة أعادوا إلى الخدمة العسكرية كل ضباطهم الذين كانوا قد سُرّحوا على مدار السنوات السابقة .

= ٣ ـ حمّاد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل .
٧ ـ عزيز شريف : وزيراً للعدل .
٨ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للتجارة .
٩ ـ أحمد الجبوري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للمواصلات .
١١ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للشؤون البلدية والقروية.
١٢ ـ محمد محمود عبد الرحمن: وزيراً للتنمية في الشمال.
١٣ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٤ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١٥ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للشؤون النفطية .
١٧ ـ صعب عبد الباقي : وزيراً للتربية .
١٨ ـ فؤاد خليل إسماعيل : وزيراً للتعليم العالي .
١٩ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
٢٠ ـ فخري قدوري : وزيراً للاقتصاد .
٢١ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٢٣ ـ خالد مكي الهاشمي : وزير دولة لشؤون الدفاع.
٢٤ ـ أحمد عبد الستار الجواري: وزير دولة لشؤون الرئاسة .
٢٥ ـ عبد الله سلوم الصمعري: وزير دولة .
٢٦ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٧ ـ راشد الرافعي : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الثقافة والإعلام شاغرة .

بدأ يبرز على الساحة صدام حسين التكريتي ، وأخذ يختفي عن الساحة الأشخاص الذين يراهم يقفون أمامه ، لقد وجد ناصر الحاني مقتولاً ، وهو وزير خارجية سابق في حكومة عبد الرزاق النايف .

استؤنف القتال مع الأكراد في رجب ١٣٩٠هـ (تشرين الأول ١٩٦٨م) بعد توقّف دام أكثر من عامين أي منذ شهر حزيران ١٩٦٦م ، وازداد القتال ضراوةً مع دخول فصل الشتاء حيث البرد الشديد في تلك البقاع الجبلية ، واشتدّت حدّته في العام التالي ، واتّهمت الحكومة الأكراد بالتمرّد ،

---

(١) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي في تموز عام ١٩٧١م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٣ ـ حماد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزيراً للخارجية .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة والحركة الاقتصادية .
٦ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٧ ـ شفيق كمالي : وزيراً للإعلام .
٨ ـ عزيز شريف : وزيراً للعدل .
٩ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للتجارة .
١٠ ـ حامد الجبوري : وزيراً للشباب .
١١ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للمواصلات .
١٢ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للبلديات .
١٣ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً للتنمية في الشمال .
١٤ ـ نوري الشاوي : وزيراً للإسكان .
١٥ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١٦ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
١٧ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٨ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٩ ـ فؤاد خليل إسماعيل : وزيراً للتعليم العالي .
٢٠ ـ راشد الرافعي : وزيراً للتخطيط .
٢١ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٢٣ ـ خالد مكي الهاشمي : وزير دولة لشؤون الدفاع .
٢٤ ـ عبد الستار جواري : وزير دولة لشؤون الرئاسة .
٢٥ ـ راشد الرافعي : وزير دولة .

وأنهم يحصلون على مساعداتٍ من إيران ، وإسرائيل . وقد طالب الأكراد بالاستقلال ، وطلبوا من الأمم المتحدة التدخّل لإنهاء القتال ، وما يجري فيه من عمليات قتلٍ جماعيٍ ، وفي ٤ محرم ١٣٩٠هـ (١١ آذار ١٩٧٠م) جرى اتفاق بين الحكومة والأكراد الذين منحوا حكماً ذاتياً بدءاً من ١٧ صفر عام ١٣٩٤هـ (١١ آذار ١٩٧٤م) أي بعد أربع سنوات من توقيع الاتفاق الذي تألف من خمسة عشر بنداً ، وتقرّر أن تكون مدينة إربيل عاصمة إقليم

(*) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٢م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ مرتضى سيد عبد الباقي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ حماد شبيب : وزيراً للدفاع .
٤ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٥ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٦ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٧ ـ خالد مكي الهاشمي: وزيراً للتجارة .
٨ ـ عزت الدوري : وزيراً للإصلاح الزراعي .
٩ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام .
١٠ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١١ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٣ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي .
١٤ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٧ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات .
١٨ ـ حسين الصافي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢٠ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للبلديات .
٢١ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢٢ ـ محمد محمود عبد الرحمن: وزيراً لتنمية الشمال .
٢٣ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة .
٢٤ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٥ ـ عزيز الشريف : وزير دولة .
٢٦ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٧ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الزراعة شاغرة .

كردستان ، ولكن الاستقرار التام لم يتمّ ، إذ أن العرب يشعرون أن مناطق غنيةً وخاصةً بالنفط ستخسرها العراق ، كما أن الأكراد شعروا أن المدة طويلة حتى يتمّ الحكم الذاتي ، وتطبيق الاتفاق المعقود بينهم وبين الحكومة العراقية ، لذا فقد جرت محاولة انقلابٍ في بغداد في جمادى الأولى ١٣٩١هـ (تموز ١٩٧١م) ، اشترك فيها الجيش والقوات الجوية ، كما جرت محاولة اغتيال الملا مصطفى البارزاني في رجب ١٣٩١هـ (أيلول ١٩٧١م) . وكان من بنود الاتفاق مشاركة الأكراد في حكومة بغداد مشاركةً كاملةً ، وتعيين الموظفين الرسميين من الأكراد في المناطق التي تسكنها أغلبية كردية، وأن تكون اللغة الكردية رسميةً مع اللغة العربية في المناطق الكردية ، ويجب إعادة صياغة الدستور الموقّت ليشمل حقوق الأكراد المكتسبة ، كما تقرّر إجراء إحصاء سكاني للأكراد . كل هذه البنود قُبلت في المجتمع الكردي ، وتوقّف إطلاق النار ، وذلك لأن الحرب كانت مُنهكةً للطرفين ، إذ كلّفت الحكومة الشيء الكثير ، ومن ناحيةٍ أخرى لحق الدمار المناطق الكردية ، وخسروا الكثير ، وتوقّفت المشروعات الإنمائية في جهاتهم . وفي شهر شعبان ١٣٩٠هـ (تشرين الأول ١٩٧٠م) أُلغيت حالة الطوارىء المعلنة من ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) بشكلٍ مستمرٍ . وأطلق سراح عددٍ من السياسيين بما فيهم بعض الوزراء السابقين ، كما أُلغيت الرقابة على البريد ، وعلى الاتصالات الخارجية .

وفي ذي الحجة ١٣٩٠هـ (شباط ١٩٧١م) ظهر الاتحاد الكردي بقرار من الحزب الثوري الكردي بالإندماج مع الحزب الديمقراطي الكردستاني تحت زعامة الملا مصطفى البارزاني .

وفي جمادى الأولى ١٣٩١هـ (تموز ١٩٧١م) أُعلن دستور مُوقّت جديد تضمّن كثيراً من النقاط المستمدة من قوانين العام الماضي ، والتي ظهرت نتيجة التفاهم مع الأكراد . وأصبحت المناطق الكردية تُدار من قبل القيادة العليا لشؤون الأكراد . ولكن حصلت محاولة جديدة في العام التالي لاغتيال

الملا مصطفى البارزاني ، وعادت الاصطدامات بين جنود الحكومة وبين الأكراد .

قطع حزب البعث العلاقة مع الأكراد ، وهدّد الحزب الديمقراطي الكردستاني بتجديد الحرب الأهلية .

اجتمع الطرفان لمناقشة نقاط الاختلاف ، وركّز الطرف الكردي على

---

(١) وكانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٣م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ مرتضى الحديثي : وزيراً للخارجية .
٣ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ نهاد فخري الخفاف : وزيراً للتجارة .
٧ ـ عزت الدوري : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٨ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام والثقافة .
٩ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ نافذ جلال : وزيراً للزراعة .
١١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١٢ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٣ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٤ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي والتقنية.
١٥ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٦ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٧ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية.
١٨ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات والدفاع .
١٩ ـ حسين الصافي : وزيراً للعدل .
٢٠ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
٢١ ـ إحسان شيرزاد : وزيراً للشؤون البلدية والقروية .
٢٢ ـ نوري الشاوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢٣ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً لتنمية الشمال.
٢٤ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة .
٢٥ ـ صالح اليوسفي : وزير دولة .
٢٦ ـ عزيز شريف : وزير دولة .
٢٧ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٨ ـ عبد الله سلوم الصمعري : وزير دولة .

اتفاق عام ١٩٧٠م . وأعاد حزب البعث المشروعات الإنمائية في المناطق الكردية .

وفي ذي القعدة ١٣٩٢هـ (كانون الأول ١٩٧٢م) ظهر انكسار في صفوف الأكراد عندما وردت أخبار أن الجناح الانفصالي بينهم قد وقف في وجه الحزب الديمقراطي الكردستاني .

(*) وكانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٤م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ شاذل طاقة : وزيراً للخارجية .
٣ ـ سعدون غيدان : وزيراً للداخلية .
٤ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة .
٦ ـ نهاد فخري الخفاف : وزيراً للتجارة .
٧ ـ عزت الدوري : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٨ ـ حامد الجبوري : وزيراً للإعلام والثقافة .
٩ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للشباب .
١٠ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
١١ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للتربية .
١٣ ـ هشام الشاوي : وزيراً للتعليم العالي والتقنية .
١٤ ـ جواد هاشم : وزيراً للتخطيط .
١٥ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للنفط والثروة المعدنية .
١٧ ـ راشد الرافعي : وزيراً للمواصلات .
١٨ ـ أمين عبد الكريم : وزيراً للمالية .
١٩ ـ هاشم حسان عقروي : وزيراً للبلديات .
٢٠ ـ عبد الستار طاهر شريف : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
٢١ ـ محمد محمود عبد الرحمن : وزيراً لتنمية الشمال .
٢٢ ـ عبد الله الخضيري : وزيراً للوحدة والعدل .
٢٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٤ ـ عزيز شريف : وزير دولة .
٢٥ ـ نزار الطبقجلي : وزير دولة .
٢٦ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٧ ـ عزيز راشد عقروي : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله مصطفى برازاني : وزير دولة .

وفي مطلع عام ١٣٩١هـ (آذار ١٩٧١م) قُتل حردان التكريتي في حادث طائرةٍ ، وبعد ستة أشهر أُعفي صالح مهدي عماش، وعبد الكريم الشيخلي ، وخلا الجو لصدام حسين التكريتي الذي أصبح نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة أحمد حسن البكر ، إضافةً إلى منصبه كنائبٍ لأمين حزب البعث القطري العراقي .

وقبل أن ينتهي عام ١٣٩٢هـ ، ظهر الرفض الكردي لمّا جاء ١٧ صفر ١٣٩٤هـ (١١ آذار ١٩٧٤م) وهو موعد تطبيق الحكم الذاتي ، ورجع التمرّد من جديد ، وقد أمكن القضاء عليه عام ١٣٩٥هـ .

وفي ٢٥ شعبان ١٣٩١هـ (١٥ تشرين الأول ١٩٧١م) طرح حزب البعث فكرة ميثاق العمل الوطني لإقامة جبهة بين القوى الوطنية والقومية حسب المفهوم البعثي . وأصبحت الجبهة الوطنية التقدّمية هو التجمّع السياسي الوحيد المسموح به ، ويضمّ حزب البعث العربي الاشتراكي ، وعدة أحزابٍ كرديةٍ .

وفي عام ١٩٧٢ وُقّعت معاهدة صداقة بين العراق والامبراطورية الروسية ، وانضمّ بعد ذلك الحزب الشيوعي العراقي إلى الجبهة الوطنية التقدّمية ، ثم تبع ذلك انضمام الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وتمّ إدخال وزيرين شيوعيين في الحكم ، ووزيرين آخرين ممن يُطلق بالقوميين عام ١٩٧٤م ، ولكن الحزب الشيوعي ترك الجبهة في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) .

تأسّست شركة النفط الوطنية في العراق عام ١٩٦٤م ، وفي ١٩ ربيع الثاني ١٣٩٢هـ (الأول من حزيران عام ١٩٧٢م) أصدر الرئيس أحمد حسن البكر قراراً بتأميم النفط ، وأصبح للعراق ٦٥٪ من النفط الوطني ، واضطرت الشركات الأجنبية للرضوخ إلى قرار التأميم في ٢٧ محرم ١٣٩٣هـ (الأول من آذار ١٩٧٣م) ، وتبع ذلك قرار تأميم حصة الولايات المتحدة الأمريكية من

شركة نفط البصرة في رمضان عام ١٣٩٢هـ (تشرين الأول من عام ١٩٧٣م) أي بعد الحرب التي جرت بين البلدان العربية واليهود ، والتي أسهمت فيها العراق بإرسال قوات من جيشها إلى الجبهة السورية ، وتلا ذلك تأميم حصة هولندا ، وحصة ورثة الأرمني (كولبنكيان) ، ووصلت حصة العراق من نفطها إلى ٨٥٪ من مجموع أسهم الشركات العاملة .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٧٥م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عزت مصطفى : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للصناعة والمعادن والتخطيط .
٥ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٦ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٧ ـ نعيم حداد : وزيراً للشباب .
٨ ـ غانم عبد الجليل : وزيراً للتعليم العالي والتقنية .
٩ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١٠ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١١ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٢ ـ هشام الشاوي : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٣ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للاقتصاد .
١٤ ـ راشد الرافعي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٥ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ سعدي إبراهيم : وزيراً للمالية .
١٧ ـ عدنان أيوب صبري : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ حسان فهمي جمعة : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للشؤون البلدية .
٢١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزير دولة .
٢٣ ـ حامد الجبوري : وزير دولة .
٢٤ ـ عبد الله الخضيري : وزير دولة .
٢٥ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٦ ـ عزيز الشريف : وزير دولة .
٢٧ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

وجرى تعديل في القيادة حيث أصبح صدام حسين التكريتي نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة أحمد حسن البكر ، وضمّ المجلس إضافةً إلى الرئيس ونائبه سعدون غيدان ، وعزت مصطفى ، وعزت الدوري ، ومرتضى عبد الباقي الحديثي ، وطه ياسين رمضان الجزراوي ، وشفيق حمودي الدراج . أما نائب رئيس الدولة أحمد حسن البكر فقد عيّن طه محيي الدين معروف ، واستمرّ في هذا المنصب مدةً طويلةً دون أي ذكرٍ أو دورٍ يقوم به ، وإنما صورة فقط ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيار ١٩٧٦م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزراء .
٢ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ فولايه حسن الجاسم : وزيراً للصناعة والمعادن .
٥ ـ عدنان حمداني : وزيراً للتخطيط .
٦ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ طاهر عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٨ ـ نعيم حداد : وزيراً للشباب .
٩ ـ غانم عبد الجليل : وزيراً للتعليم العالي .
١٠ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١١ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١٢ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ ـ حكمت العزاوي : وزيراً للتجارة الخارجية .
١٤ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة الداخلية .
١٥ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٦ ـ عزت مصطفى : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٧ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٨ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للنقل .
١٩ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
٢٠ ـ حسان فهمي جمعة : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢١ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٢ ـ أنور عبد القادر الحديثي : وزيراً للشؤون البلدية .
٢٣ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٤ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٥ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٦ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٧ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

واسم من غير مُسمّى .

وقد دعمت العراق نظرياً الحركة الفلسطينية ، وهدّدت الحكومة الأردنية لتدخّلها في شؤون منظمة التحرير الفلسطينية غير أنها لم تشارك في القتال الذي دار بين الحكومة الأردنية والمنظمة مع أن قوات للعراق كانت تتمركز في الأردن وذلك في رجب عام ١٣٩٠هـ (أيلول عام ١٩٧٠م) وفي شهر شوال ١٣٩١هـ (كانون أول ١٩٧١م) انسحبت معظم القوات العراقية التي كانت ترابط في سوريا والأردن ، ويزيد عددها على مائتي ألف جندي .

عاد الخلاف من جديد مع إيران بسبب شط العرب وذلك بعد تسلم البعثيين الحكم بسنةٍ واحدةٍ . وانتقدت العراق الاتحاد المزمع قيامه بين كل من : سوريا ومصر وليبيا ،كما وقفت موقفاً حاداً من العلاقات التي تمت بين مصر واليهود . كما قطعت العراق علاقتها مع إيران وبريطانيا بعد أن احتلت إيران جزيرتي (أبو موسى) و (وطنب الكبرى) في الخليج العربي في رمضان ١٣٩١هـ (تشرين الثاني ١٩٧١م) ، وكانت العلاقات فاترةً مع الغرب وخاصةً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وألقي القبض على عددٍ من السياسيين بتهمة التجسس للولايات المتحدة ، وأودع بعضهم السجن ، وأخرج بعضهم الآخر من البلاد ، ولكن العلاقات بقيت مع الروس الذين استمرّوا يزودون العراق بالعتاد الحربي ، وهكذا كان العراق في عزلةٍ .

وشمل مجلس قيادة الثورةالرئيس أحمد حسن البكر رئيساً ، وصدام حسين التكريتي نائباً للرئيس ، وكلاً من : سعدون غيدان ، وعزت مصطفى ، وعزت إبراهيم ، وطه ياسين رمضان الجزراوي أعضاءً .

وتمّ اجتماع الدول المصدرة للنفط (الأوبك) في الجزائر ، وحضر اللقاء نائب الرئيس العراقي صدام حسين التكريتي، وبمبادرةٍ من الرئيس الجزائري هواري بومدين ، تمّ اللقاء بين العراق وإيران ، ووقعت اتفاقية لوضع حدٍّ للخلاف بين الدولتين على شطّ العرب وذلك في ٢٣ صفر ١٣٩٥هـ (٦ آذار ١٩٧٥م) ، وسنتعرض لهذه الاتفاقية فيما بعد ـ إن شاء الله ـ ونتيجة لهذه

الاتفاقية انهار التمرّد الكردي الذي كان يتلقّى الدعم من إيران ، وانتقل الملا

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٧٧م :
١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٣ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٤ ـ محمد خليل : وزيراً للصناعة والمعادن .
٥ ـ عدنان الحمداني : وزيراً للتخطيط .
٦ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٧ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٨ ـ كريم محمد حسين : وزيراً للشباب .
٩ ـ محمد صادق ماشاط : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٠ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١١ ـ طارق حنا عزيز : وزيراً للإعلام .
١٢ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة .
١٤ ـ طه ياسين رمضان الجزراوي : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٥ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
١٦ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٧ ـ عبد الستار طاهر الشريف : وزيراً للنقل .
١٨ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
١٩ ـ لطيف ناصيف قاسم : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢١ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للري .
٢٢ ـ حامد الجبوري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٣ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٤ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٥ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٦ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .
٢٧ ـ فولاية حسن قاسم : وزير دولة (للشؤون الكردية) .
٢٨ ـ نعيم حداد : وزير دولة .
٢٩ ـ محي الدين عبد الحسين : وزير دولة .
٣٠ ـ طاهر توفيق : وزير دولة .
٣١ ـ عبد الفتاح محمود أمين : وزير دولة .
٣٢ ـ سعدون شاكر : وزير دولة .
٣٣ ـ جعفر قاسم حمودي : وزير دولة .
٣٤ ـ عبد الله الفضل : وزير دولة .
٣٥ ـ عدنان خير الله : وزير دولة .
٣٦ ـ حكمت عزاوي : وزير دولة .
٣٧ ـ محمد العايش : وزير دولة .
٣٨ ـ برهان الدين عبد الرحمن : وزير دولة .

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الشؤون البلدية شاغرة .

مصطفى البارزاني إلى طهران، وبعد توقيع الاتفاقية بأسبوع واحدٍ توقّف إطلاق النار ، وصدرت سلسلة من قرارات العفو عن الذين فرّوا إلى إيران من الأكراد فرجع أكثرهم إلى مواطنهم . ولكن لم يمض العام حتى عادت الاصطدامات بين الحكومة العراقية والأكراد ، وأخذ الملا مصطفى البارزاني يُعيد تنظيم حزبه الديمقراطي الكردستاني لاستئناف القتال .

أنشئت في دمشق منظمة « الاتحاد الوطني لكردستان » ، وهي تناوىء الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي تراه المنظمة أنه قد فقد أهليته لتمثيل الأكراد ، وعلى كل فالنشاط الكردي بقي ضعيفاً ، وتعهدت الحكومة العراقية عام ١٣٩٧هـ بإعادة بناء المدارس في المناطق الكردية ، كما سمحت لأربعين ألفاً من الأكراد الذين أجبروا على الاستيطان في جنوبي العراق بالعودة إلى مناطقهم في الشمال ، كما تقرر أن تكون اللغة الكردية هي الرسمية في كردستان العراقية .

وعندما اندلعت الحرب بين الدول العربية واليهود في العاشر من

---

(١) تشكّل مجلس قيادة الثورة من :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً .
٢ ـ صدام حسين التكريتي : نائباً للرئيس .
٣ ـ سعدون غيدان : عضواً .
٤ ـ عزت الدوري : عضواً .
٥ ـ طه ياسين رمضان : عضواً .
٦ ـ نعيم حداد : عضواً .
٧ ـ طاهر عبد الكريم : عضواً .
٨ ـ محمد محجوب : عضواً .
٩ ـ عدنان الحمداني : عضواً .
١٠ ـ غانم عبد الجليل : عضواً .
١١ ـ طاهر توفيق : عضواً .
١٢ ـ عبد الفتاح محمد أمين : عضواً .
١٣ ـ حسن العامري : عضواً .
١٤ ـ سعدون شاكر : عضواً .
١٥ ـ جعفر قاسم حمودي : عضواً .
١٦ ـ عبد الله الفضل : عضواً .
١٧ ـ طارق حنا عزيز : عضواً .
١٨ ـ عدنان خير الله : عضواً .
١٩ ـ حكمت مقدام إبراهيم : عضواً .
٢٠ ـ محمد العايش : عضواً .
٢١ ـ برهان الدين عبد الرحمن : عضواً .
٢٢ ـ محيي الدين عبد الحسين : عضواً .

رمضان ١٣٩٣هـ (٥ تشرين الأول ١٩٧٣م) أرسلت العراق قوةً إلى الجبهة السورية ، ولكنها عدت عدم استشارتها من قبل الرئيس المصري في بدء القتال إهانةً لها لذلك ما أن توقّف إطلاق النار حتى سحبت العراق قواتها من الجبهة السورية ، كما قاطعت مؤتمر القمة الذي عقد في الجزائر في شوال ١٣٩٣هـ

---

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٧٨م :

١ ـ أحمد حسن البكر : رئيساً للوزارة .
٢ ـ عدنان خير الله : وزيراً للدفاع .
٣ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
٤ ـ عزت الدوري : وزيراً للداخلية .
٥ ـ محمد العايش : وزيراً للصناعة والمعادن .
٦ ـ عدنان الحمداني : وزيراً للتخطيط .
٧ ـ سعدون غيدان : وزيراً للمواصلات .
٨ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٩ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٠ ـ إمام عبد العلي : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١١ ـ محمد محجوب : وزيراً للتربية .
١٢ ـ سعد قاسم حمادي : وزيراً للإعلام .
١٣ ـ كريم محمود شنطاف : وزيراً للثقافة والفنون .
١٤ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٥ ـ حسن العامري : وزيراً للتجارة .
١٦ ـ طه ياسين رمضان : وزيراً للأشغال العامة والإسكان .
١٧ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل .
١٨ ـ فوزي القيسي : وزيراً للمالية .
١٩ ـ مكرم الطالباني : وزيراً للنقل .
٢٠ ـ منذر الشاوي : وزيراً للعدل .
٢١ ـ لطيف ناصيف قاسم : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٣ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٤ ـ حامد الجبوري : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٥ ـ خالد عبيد عثمان : وزير دولة للشؤون الكردية .
٢٦ ـ عزيز عقروي : وزير دولة .
٢٧ ـ هاشم حسن : وزير دولة .
٢٨ ـ أمير عبد الله : وزير دولة .
٢٩ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٣٠ ـ عبيد الله البرازاني : وزير دولة .

(تشرين الثاني ١٩٧٣م) .

عادت الصدامات على الحدود العراقية الإيرانية ، ووضع مراقبون للأمم المتحدة ، وجرت محادثات مرتين بين الطرفين في استانبول غير أن ذلك كله لم يمنع من استمرار الاشتباكات على الحدود حتى وُقعت اتفاقية الجزائر كما سبق أن ذكرنا .

ولم يكن الخلاف بين العراق وسوريا بأقل مما هو بين العراق وإيران وإن لم تحدث هناك اشتباكات على الحدود السورية. وكان جناحا حزب البعث في العراق وسوريا يتنافسان . والعراق تنتقد اتفاقية فصل القوات بين سوريا واليهود في شهر رمضان عام ١٣٩٥هـ (أيلول ١٩٧٥م) . وحدث الخلاف حول توزيع مياه نهر الفرات بين الإقليمين ، أما سوريا فكانت تنتقد العراق في تصدير أكثر نفطها عن طريق البصرة والفاو ، وهذا ما يحرم سوريا الكثير من عائدات النفط فيما لو صدرت عن طريق موانئها على البحر المتوسط .

انسحب العراق من المؤتمر الذي دعت إليه الدول التي وقفت في وجه زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس في ذي الحجة عام ١٣٩٧هـ (تشرين الثاني ١٩٧٧م) ، ثم قاطع مؤتمر دول الصمود والتصدّي الذي عُقد في الجزائر في ربيع الأول ١٣٩٨هـ (شباط ١٩٧٨م) ، وبدا العراق في شبه عزلةٍ بين البلدان العربية .

وعارضت العراق اتفاقية كامب دافيد (مخيم داود) التي عقدت بين مصر واليهود في شوال عام ١٣٩٨هـ (أيلول ١٩٧٨م) ، وبقيت تُقاطع المؤتمرات العربية ، إذ لم تحضر مؤتمر القمة الذي عُقد في دمشق بعد اتفاقية كامب دافيد مباشرةً .

وفي ذي القعدة عام ١٣٩٨هـ (تشرين الأول ١٩٧٨م) زار الرئيس السوري حافظ الأسد بغداد، ووقع البلدان جدولاً يُحدّد خططاً لاتحادٍ سياسي واقتصادي بين البلدين ، ويزيل الخلافات والكراهية القديمة ، ويعمل على

تشكيل قوةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ يكون لها وزنها في الشرق الأوسط . واستضاف العراق مؤتمر قمةٍ عربيةٍ لمقاطعة مصر إن وقّعت معاهدة سلامٍ مع دولة اليهود . غير أن المعاهدة قد وُقّعت في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) ، ولم يهتم الرئيس المصري بذلك التهديد .

وعُقد اجتماع وزراء الاقتصاد العرب في بغداد ، وتم تنفيذ التهديدات التي اتخذت ضد مصر إن وقعت معاهدة السلام مع اليهود ، وأخذ العراق يخرج من عزلته . واستمر تنفيذ مخطط الاتحاد السياسي والاقتصادي بين سوريا والعراق وإن كان بشكلٍ بطيء حتى ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ (١٦ تموز ١٩٧٩م) حيث استلم صدام حسين التكريتي السلطة ، وأزاح الرئيس أحمد حسن البكر .

الفصل الخامس

صَدّام حُسَين التكريتي

٢١ شعبان ١٣٩٩هـ - . . . .
(١٦ تموز ١٩٧٩م - . . . .)

منذ أن رجع حزب البعث إلى الحكم واستلم السلطة في ٥ جمادى الأولى ١٣٨٨هـ (٣٠ تموز ١٩٦٨م) ، ووصل صدام حسين التكريتي إلى مركزٍ عالٍ أخذ يُزيح من أمامه الرجال الذين يرى فيهم عقبةً تقف في وجه طموحاته ، ويُقرّب الأشخاص الذين يرى فيهم إمكانيةً لتنفيذ ما يُخطط له ، ويعتقد أنهم يُطيعونه طاعةً تامةً ، ويُمكنهم أن يسيروا معه في طريقه إلى نهاية

---

(١) تشكّل مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي :
١ - صدام حسين التكريتي : رئيساً .
٢ - عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .
٣ - طارق حمد عبد الله : أمين السر العام .
الأعضاء :
١ - سعدون غيدان .
٢ - طه ياسين رمضان .
٣ - نعيم حداد .
٤ - تايه عبد الكريم .
٥ - طاهر توفيق .
٦ - عبد الفتاح محمد أمين .
٧ - حسن علي أمير .
٨ - سعدون شاكر .
٩ - جعفر قاسم حمودي .
١٠ - عبد الله الفضل .
١١ - طارق حنا عزيز .
١٢ - عدنان خير الله طلفة .
١٣ - حكمت مقدام إبراهيم .
١٤ - برهان الدين عبد الرحمن .

المطاف ، وساعده على ذلك تسلّمه منصب نائب الأمين العام القطري لحزب

---

(٢) تشكّلت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ نعيم حداد : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء وزير النقل والمواصلات .
٥ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٦ ـ عبد الجبار عبد الماجد : وزيراً للتربية .
٧ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٨ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
٩ ـ محمد الفضل : وزيراً للإسكان والإنشاء .
١٠ ـ طه إبراهيم العبد الله : وزيراً للتخطيط .
١١ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
١٢ ـ طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٣ ـ جاسم محمد خلف : للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٤ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
١٥ ـ حسان علي : وزيراً للتجارة .
١٦ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٧ ـ أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٨ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري : وزيراً للأوقاف .
٢٣ ـ خالد عبد عثمان : وزير دولة للتنسيق مع الإدارة النووية .
٢٤ ـ هاشم حسان : وزير دولة .
٢٥ ـ عبيد الله مصطفى : وزير دولة .
٢٦ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٧ ـ عزيز رشيد : وزير دولة .

ملاحظة : بقي منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ، رئيس ديوان الرئاسة شاغراً .

البعث العربي الاشتراكي في العراق ، وقد رأينا أنه قد استطاع إزاحة حردان

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٨٠م :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ سعدون غيدان : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير النقل والمواصلات .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ سعدون شاكر : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد الجبار عبد الماجد : وزيراً للتربية .
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١٠ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
١١ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٢ ـ طه إبراهيم العبد الله : وزيراً للتخطيط .
١٣ ـ رياض إبراهيم حسين : وزيراً للصحة .
١٤ ـ طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٥ ـ جاسم محمد خلف : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٦ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
١٧ ـ حسان علي : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
١٩ ـ أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢١ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٢ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٣ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٤ ـ نوري فيصل شاهر : وزيراً للأوقاف .
٢٥ ـ عبد الفتاح محمد أمين ياسين : وزيراً للحكم المحلي .
٢٦ ـ خالد عبد عثمان : وزير دولة للتنسيق مع الإدارة النووية .
٢٧ ـ هاشم حسن : وزير دولة .
٢٨ ـ عبيد الله مصطفى : وزير دولة .
٢٩ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٣٠ عزيز رشيد : وزير دولة .

عبد الغفار التكريتي ، ثم صالح مهدي عماش ، وكانا أكثر منه ظهوراً ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في تموز ١٩٨١م :

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ، رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٤ ـ سعدون غيدان : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٥ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٦ ـ أمير مهدي : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٧ ـ سعدون غيدان : وزيراً للنقل والمواصلات .
٨ ـ لطيف ناصيف جاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٩ ـ عدنان خير الله : وزيراً للدفاع .
١٠ ـ عبد الجبار عبد الماجد سلمان : وزيراً للتربية .
١١ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية .
١٢ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
١٣ ـ رياض إبراهيم : وزيراً للصحة .
١٤ ـ جاسم محمد خلف : وزيراً للتعليم العالي، والبحث العلمي .
١٥ ـ محمد فضل حسين : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٦ ـ طاهر توفيق : وزيراً للصناعة والثروة المعدنية .
١٧ ـ سعدون شاكر : وزيراً للداخلية .
١٨ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
١٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٢٠ ـ محمود بكر رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢١ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للحكم المحلي .
٢٢ ـ تايه عبد الكريم : وزيراً للنفط .
٢٣ ـ طه إبراهيم : وزيراً للتخطيط .
٢٤ ـ نوري فيصل شاهر : وزيراً للأوقاف .
٢٥ ـ حسان علي : وزيراً للتجارة .
٢٦ ـ كريم محمود حسين : وزيراً للشباب .
٢٧ ـ عبد الله إسماعيل أحمد : وزير دولة .
٢٨ ـ هاشم حسن : وزير دولة .
٢٩ ـ راشد محمد أحمد الزباري : وزير دولة .
٣٠ ـ خالد عبد عثمان : وزير دولة .
٣١ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .

وصاحبي إمكانات ، وأخيراً تخلّص من عدنان الحمداني ، إضافةً إلى إزاحة آخرين من القيادة القطرية ، ومن مجلس قيادة الثورة ، ومن الوزارة ، ولم يبق أمامه إلّا الرئيس أحمد حسن البكر ، بل كان صورةً ، أو هكذا بقي ، وصدام هـو المتصرّف بشؤون البلاد ، والتخـطيط ، ورفع الـذين يراهم أعـواناً لـه صالحين ، ووضع من يراهم يُخالفونه في تهوّره واندفاعه . ويبدو أنـه اعتمد على : عزت الدوري ، وطه ياسين رمضان الجزراوي ، وسعدون شاكـر ، وسعدون حمادي ، وطارق حنا عزيز عيسى ، وعدنان خير الله ، ونعيم حداد وآخـرين . . . ممن هم على استعـدادٍ للمسير مـع أي رئيسٍ لهم في سبيـل المحافظة على مركزهم ، وهذا ما يزخر به حزب البعث .

وفي ٢١ شعبان ١٣٩٩هـ (١٦ تموز ١٩٧٩م) ضرب آخر عقبة يراها في وجهـه وهو الـرئيس أحمد حسن البكـر ، باسم التنحيـة والإحالـة عـلى التقاعد ، وشكّل مجلس قيادة الثورة من جديد ، فتسلّم رئاستـه وأزاح منه خمسة أعضاء هم : محمد العايش ، وعبد الله الفضل ، وغانم عبد الجليل ، ومحمد محجوب ، وعـدنان الحمـداني . ونصّب نفسه رئيسـاً للجمهوريـة ، وتسلّم رئاسة الحكومة ، وجعل أربعة نوابٍ له في رئاستها ، وهم من الذين دعموه . كما عهد إلى نفسه برئاسة مجلس قيادة الثورة .

ومن الطريف أنه قد ألغى من اسمه نسب « التكريتي » واكتفى بصدام حسين ، كما أن طه ياسين رمضان الجزراوي ، قد ألغى نسب « الجزراوي » وأصبح اسمه طـه ياسـين رمضان ، عـلى حين كـان يُسمّى من قبل « طـه الجزراوي » ، كما أن عزت الدوري أصبح يُعرف باسم عزت إبراهيم ، ولكن إذا تغـيّرت الأسماء ، فـإن السلوك والتصرّفات لا تـزال ملتصقةً بـالأجسام وملازمةً للنفوس .

في صيف عام ١٣٩٨هـ أُعلن عن وجود تـنظيمٍ سريٍ في الجيش ، ويشمـل واحداً وعشرين من الضبـاط فأعـدموا جميعـاً ، وكان لهـذا أثره إذ انفصمت عـرا التحـالف بـين حـزب البعث والحـزب الشيـوعي ، وخـرج

الشيوعيون من الجبهة الوطنية التقدمية في ربيع الثاني ١٣٩٩هـ (آذار ١٩٧٩م) ـ كما ذكرنا .

وفي ٧ شعبان ١٤٠٠هـ (٢٠ حزيران ١٩٨٠م) جرى انتخاب المجلس الوطني لمدة أربع سنواتٍ ، وقد ضمّ مائتين وخمسين عضواً . أما مجلس قيادة الثورة فقلّ عدد أعضائه إلى سبعة أعضاء إضافةً إلى الرئيس ونائبه[1] .

---

(١) كان مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي :

١ ـ صدام حسين : رئيساً .
٢ ـ عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .
٣ ـ طه ياسين رمضان : عضواً .
٤ ـ عدنان خير الله : عضواً .
٥ ـ سعدون شاكر محمود : عضواً .
٦ ـ طارق حنا عزيز عيسى : عضواً .
٧ ـ حسن علي نصار العامري : عضواً .
٨ ـ نعيم حميد حداد : عضواً .
٩ ـ طه محيي الدين معروف : عضواً .

وكانت الوزارة في حزيران ١٩٨٢م على النحو الآتي :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ووزيراً للدفاع .
٤ ـ عبد الجبار عبد الرحمن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون حمادي : وزيراً للخارجية .
٧ ـ سعدون شاكر محمود : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين : وزيراً للتربية .
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١٠ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية والتخطيط .
١١ ـ محمد الفضل : وزيراً للتعمير والإسكان .
١٢ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٣ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٤ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٥ ـ عبد الرزاق قاسم الهاشمي : وزيراً للتعليم العالي ، والبحث العلمي .
١٦ ـ أحمد حسين الصمعري : وزيراً للشباب .

كانت العلاقات حسنة مع سوريا ، ولكن عادت إلى الانتكاس إذ بعد أن تفرّد الرئيس صدام حسين بالسلطة بعدة أيام فقط ، أُذيع عن قيام محاولة انقلابٍ لتغيير الوضع ، وظنّ الرئيس العراقي أن حزب البعث السوري كان من وراء ذلك ، ورغم إنكار سوريا لذلك إلاّ أن الخلاف قد ظهر بين البلدين واضحاً .

وفي ربيع الأول عام ١٤٠٠هـ (شباط ١٩٨٠م) أعلن الرئيس العراقي ما أسماه بالبرنامج الوطني ، وأكّد مبدأ رفض أي تحالفٍ لوجود جيوشٍ ، وقواتٍ عسكريةٍ ، وقواعد أجنبيةٍ في أرض الوطن العربي .

الحرب الإيرانية ـ العراقية : على الرغم من توقيع الاتفاقية في الجزائر

= ١٧ ـ صديق عبد اللطيف يونس : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٨ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٢ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .
٢٣ ـ سعدي عياش : وزيراً للحكم المحلي .
٢٤ ـ قاسم أحمد التقي : وزيراً للنفط .
٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .
٢٦ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .

مستشارو الرئيس برتبة وزير :
١ ـ محمد حمزة الزبيدي .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمود عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .

وزراء دولة :
١ ـ هاشم حسن .
٢ ـ عبيد الله مصطفى .
٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد .
٤ ـ أرشد أحمد الزباري .

في ٢٣ صفر ١٣٩٥هـ (٦ آذار ١٩٧٥م) بين العراق وإيران بشأن الحدود بين

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في حزيران ١٩٨٣م :

١ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الخارجية .
٣ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٤ ـ عبد الجبار عبد الرحمن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٥ ـ طارق حمد العبد الله : مدير ديوان الرئاسة .
٦ ـ سعدون شاكر : وزيراً للداخلية
٧ ـ عبد القادر عز الدين : وزيراً للتربية .
٨ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
٩ ـ ثامر رزوقي : وزيراً للمالية والتخطيط .
١٠ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان
١١ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٢ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٣ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٤ ـ عبد الرزاق قاسم الهاشمي : وزيراً للتعليم العالي ، والبحث العلمي .
١٥ ـ قاسم أحمد التقي : وزيراً للنفط .
١٦ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .
١٧ ـ أحمد حسين الصمعري : وزيراً للشباب .
١٨ ـ صديق عبد اللطيف يونس : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٩ ـ حامد علوان : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢١ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٢ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٤ ـ كامل ياسين راشد : وزيراً للحكم المحلي .
٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .
٢٦ ـ سعدون حمادي : وزير دولة مكتب الرئاسة .

المستشارون للرئاسة :

١ ـ محمد حمزة الزبيدي .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .

=

الدولتين وخاصةً شط العرب ، ولكن العراق لم تكن مقتنعةً بما تمّ إذ تنازلت عن السيطرة التامة عن شط العرب ، لذا أرادت استرجاع هذا الممر المائي العظيم ، فبدأت بالحديث عن هذا وعن ضرورة انسحاب إيران من جزيرتي (أبو موسى) و (طنب الكبرى) اللتين احتلتها عام ١٣٩١هـ ، كما أخذت تُطالب بمنطقة عربستان (الأهواز) أو (خوزستان) ، وهي المنطقة الغنية بالنفط والتي تتبع إيران ، وأخذت العراق تتخوّف من الثورة الإسلامية في إيران إذ كانت تخشى من تحرّك الشيعة في العراق .

بدأت الحرب في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) باندفاع القوات العراقية داخل إيران بحجة أن اتفاقية الجزائر تطالب الطرفين بالانسحاب من المناطق المحتلة من أرض الطرف الآخر ، غير أن إيران لم تنسحب من منطقة (زين القوس) وتتجاهل مطالبة العراق لها بالانسحاب ، وعلى هذا تكون إيران مخالفةً لاتفاقية الجزائر ، بل قامت بنقضها .

قامت إيران بهجوم معاكسٍ في جمادى الأولى ١٤٠٢هـ (آذار ١٩٨٢م) ، وتمكّنت من استعادة مدينة المحمرة (خرمشهر) بعد ما يقرب من شهرين من بدء الهجوم ، وبعد شهر آخر اضطرت إيران لسحب قواتها من الأراضي العراقية التي سبق لها أن دخلتها ، وبدا أن غزو إيران كان فاشلاً .

ومع هذا التراجع اشتدت المعارضة الداخلية ، فالإسلاميون الذين اشتدت وطأة السلطة عليهم ، والأكراد في مناطقهم ، والشيعة الذين تزعمهم محمد باكير حكيم والذي يعيش خارج العراق ، وأعضاء من حزب البعث الذين تدعمهم سوريا . هذا بالإضافة إلى الاهتزاز الاقتصادي الذي لحق العراق نتيجة انخفاض عائدات النفط بسبب تحطيم عددٍ من ناقلات النفط

= وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن .

٢ ـ عبيد الله مصطفى .

٣ ـ عبد الله إسماعيل أحمد .

٤ ـ أرشد أحمد الزباري .

العراقية ، وانقطاع النفط من التدفّق عبر الخطوط المارة في الأراضي السورية ، ويُضاف إلى ذلك انخفاض أسعار النفط عالمياً ، وهذا ما شدّ من ساعد المعارضة ، وأظهر النقد اللاذع لسياسة الحكومة ، غير أن الرئيس العراقي حزم الأمر ، وقسا على المنتقدين فاضطر الناس للانصياع والسكوت .

وبدأ الهجوم العراقي على ناقلات النفط في شهر شوال من عام ١٤٠٢هـ (آب ١٩٨٢م) كتدبير ضدّ إيران لترضخ ، وتطلب المفاوضات للصلح ، وتستطيع العراق الحصول على السيطرة على شط العرب كاملةً ، وتكون الملاحة في شط العرب وشمال الخليج تحت رحمتها ، وخاصةً نقل النفط ، كما تجبر إيران على وقف مساعدة الأكراد الذين هم في حالة تمرّدٍ ضدّ الحكومة العراقية شبه دائمٍ .

وفي شهر محرم من عام ١٤٠٤هـ (تشرين أول ١٩٨٣م) سرت شائعة عن محاولة انقلاب بعد خلع رئيس المخابرات العامة (برزان التكريتي) أخي الرئيس العراقي صدام حسين التكريتي من أبيه ، فأعدم مع عددٍ من الضباط .

وقامت إيران بشنّ هجومٍ من الجبهة الشمالية ، واستطاعت احتلال ما يقرب من سبعمائة كيلومترٍ مربعٍ من الأرض .

وزادت العراق من الهجمات الصاروخية والغارات الجوية ضدّ المدن

---

(١) كان مجلس قيادة الثورة على النحو الآتي في تموز ١٩٨٦م :

صدام حسين التكريتي : رئيساً .

عزت إبراهيم : نائباً للرئيس .

خالد عبد المحسن راشد : أميناً عاماً .

الأعضاء :

١ ـ طه ياسين رمضان .
٢ ـ عدنان خير الله .
٣ ـ سعدون شاكر محمود .
٤ ـ طارق حنا عزيز عيسى .
٥ ـ حسن علي ناصر العامري .
٦ ـ سعدون حمادي .
٧ ـ طه محيي الدين معروف.

والمنشآت النفطية في جزيرة (خرج) حتى أصبح من العسير تصدير النفط

---

(٢) كانت الوزارة على النحو الآتي :

١ ـ صدام حسين : رئيس مجلس الوزراء .
٢ ـ طه ياسين رمضان : نائب رئيس مجلس الوزراء .
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الدفاع .
٥ ـ عبد الجبار عبد الرحمن الأسدي : وزيراً للنقل والمواصلات .
٦ ـ أحمد حسين الصمعري : رئيس ديوان مجلس الرئاسة .
٧ ـ سعدون شاكر محمود : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية .
٩ ـ سمير محمود عبد الوهاب : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .
١٠ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل .
١١ ـ هشام حسن توفيق : وزيراً للمالية .
١٢ ـ محمد الفضل : وزيراً للإنشاء والإسكان .
١٣ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط .
١٤ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة .
١٥ ـ صبحي ياسين خضير : وزيراً للصناعة والمعادن .
١٦ ـ قاسم أحمد تقي : وزيراً للنفط .
١٧ ـ حسن علي : وزيراً للتجارة .
١٨ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب .
١٩ ـ عزيز صالح حسان النومان : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢١ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري .
٢٢ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
٢٣ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .
٢٤ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي .
٢٥ ـ طارق حمد العبد الله : وزيراً للصناعات الخفيفة .
٢٦ ـ عبد الجبار شنشل : وزير دولة للشؤون العسكرية .
٢٧ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئيس .

الإيراني ، وهدّدت إيران بإغلاق مضيق (هرمز) حتى يتم حجز الخليج عن الاتصال ببقية البحار ، وحاولت الأمم المتحدة كما حاولت مصر ، وسوريا ، والسعودية التوسط ليتم التفاوض بين العراق وإيران ، إلاّ أن إيران رفضت

المستشارون للرئاسة :

١ ـ محمد حمزة الزبيدي .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن ٢ ـ عبد الله إسماعيل أحمد . ٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في آب ١٩٨٧م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ورئيس الوزراء
٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس الوزراء
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس الوزراء ، ووزيراً للخارجية .
٤ ـ عدنان خير الله : نائب رئيس الوزراء ، ووزيراً للدفاع .
٥ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات
٦ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة
٧ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية .
٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للعدل
١٠ ـ هشام حسن توفيق : وزيراً للمالية
١١ ـ محمد فضل حسين : وزيراً للإنشاء والإسكان
١٢ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط
١٣ ـ صادق حميد علوش : وزيراً للصحة
١٤ ـ قاسم أحمد تقي : وزيراً للصناعة الثقيلة
١٥ ـ عصام عبد الرحمٰن شلبي : وزيراً للنفط
١٦ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة
١٧ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب
١٨ ـ عزيز صالح حسان النومان : وزيراً للزراعة والإصلاح الزراعي .
١٩ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .
٢٠ ـ عبد الوهاب محمود عبد الله : وزيراً للري
٢١ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية .
=

ذلك إلّا بعد تنحية صدام حسين عن الحكم ، وانسحاب القوات العراقية من المناطق التي دخلتها ، والموافقة على دفع العراق تعويضات خسائر الحرب .

ولما كانت العراق لا تستطيع القتال على جبهتين ، الجبهة الإيرانية ، وجبهة الأكراد لذا فقد لجأت إلى المباحثات مع (جلال الطالباني) رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردي ، ووقف القتال ، وتمّ التفاهم معه في شهر ربيع الأول ١٤٠٤هـ (كانون الأول ١٩٨٣م) على إطلاق تسعة وأربعين سجيناً سياسياً ، وعودة ثمانية آلاف عائلة كردية إلى مناطقها في كردستان ، وكانت قد أجبرت على الإقامة في جنوبي العراق ، وشمول منطقة الحكم الذاتي للأكراد على منطقة (كركوك) الغنية بالنفط ، وإعطاء نصيبٍ ثابتٍ للأكراد من عائدات النفط تتراوح من ٢٠ ـ ٣٠٪ ، وإن كان هذا من غير المحتمل فعله .

حرصت كل دولة من الدولتين المتصارعتين على الحصول على الأسلحة من أي مصدر يمكنه تأمين السلاح ، فقد زوّدت مصر العراق بالمعدات العسكرية وقطع الغيار بما قيمته ملياري دولار منذ بداية الحرب ، وباعت

= ٢٢ ـ عبد الله فصل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية

٢٣ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي

٢٤ ـ حاتم عبد الرشيد : وزيراً للصناعة .

٢٥ ـ عبد الجبار شنشل : وزيراً للشؤون العسكرية

٢٦ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئيس .

المستشارون للرئاسة :

١ ـ صبحي ياسين خضير .

٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .

٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي .

٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .

٥ ـ سعدي مهدي صالح .

٦ ـ مزبان قادر هادي .

٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن . ٢ ـ عبد الله إسماعيل أحمد . ٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

ملاحظة : بقيت حقيبتا وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، ووزارة دولة للشؤون الخارجية شاغرتين .

الصين للعراق من الأسلحة بما قيمته ثلاثة مليارات دولار . وزوّدت الولايات المتحدة الأمريكية العراق بطائراتٍ عاموديةٍ ومُعدّات عسكريةٍ ثقيلةٍ ، مع أنها تُصرّح دائماً أنها على الحياد ، كما زوّدت روسيا العراق بالأسلحة والصواريخ ،

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيلول ١٩٨٨م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ورئيس مجلس الوزراء
٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس الوزارة
٣ ـ طارق حنا عزيز : نائباً لرئيس الوزارة ووزيراً للشؤون الخارجية .
٤ ـ عدنان خير الله : نائباً لرئيس الوزارة ، ووزيراً للدفاع .
٥ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات
٦ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة .
٧ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية
٨ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية
٩ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي
١٠ ـ أكرم عبد القادر علي : وزيراً للعدل
١١ ـ حكمت عمر مخايلف : وزيراً للمالية
١٢ ـ طاهر محمد حسون المرزوق : وزيراً للإنشاء والإسكان
١٣ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط
١٤ ـ عصام عبد الرحمن الشلبي : وزيراً للنفط
١٥ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة
١٦ ـ كريم حسن رضا : وزيراً للزراعة والري
١٧ ـ لطيف ناصيف جاسم : وزيراً للثقافة والإعلام
١٨ ـ بكر محمود رسول : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية
١٩ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .
٢٠ ـ عدنان داود سلمان : وزيراً للحكم المحلي .
٢١ ـ حسين كامل : وزيراً للصناعة والانتاج العسكري
٢٢ ـ سعدون حمادي : وزير دولة للشؤون الخارجية .
٢٣ ـ عبد الجبار خليل شنشل : وزير دول للشؤون العسكرية .
٢٤ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئاسة .

=

ملاحظة : بقيت حقيبة وزارة الصحة شاغرةً .

وتُعلن أنها على الحياد . وباعت الكويت والمملكة العربية السعودية ربع مليون برميل من النفط يومياً من المنطقة المحايدة لصالح العراق ، وخمسين ألف برميل أخرى من السعودية .

أما إيران فقد اشترت من الصين أسلحة قيمتها ٥٧٥ مليون دولار ، واشترت كذلك من البرازيل ، والتشيلي ، كما زوّدتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا بكمياتٍ كبيرةٍ من الأسلحة ، وهاتان الدولتان تعلنان أنهما على الحياد ، غير أنهما تزوّدان الطرفين ، وتشعلان بينهما الحرب لبيع أسلحتهما ، وإهدار قدرتيهما العسكرية لصالح دولة اليهود ، وحقداً صليبياً على المسلمين .

قامت إيران بهجومٍ على العراق من قرب جزيرة (مجنون) في شط العرب ، وحشدت نصف مليون مقاتل ، وعملت العراق على إنشاء السدود والحواجز أمام الهجوم الإيراني المرتقب .

وتغيّر موقف الرئيس العراقي صدام حسين تجاه الاتحاد الوطني الكردي ، والحزب الشيوعي الكردي بعد الدعم الدولي للعراق في العام المنصرم ، ثم عاد فاستأنف الحوار ولكنه كان بشكلٍ جدلي .

أمرت إيران ناقلات نفطها بعدم الاقتراب من موانئها ، والبقاء بعيداً

= المستشارون :

١ ـ صبحي ياسين خضير .
٢ ـ عبد الغني عبد الغفور .
٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

١ ـ هاشم حسن .
٢ ـ عبد الله اسماعيل أحمد .
٣ ـ أرشد أحمد محمد الزباري .

عنها خوفاً من الهجمات العراقية ، وفي الوقت نفسه قامت بضرب الناقلات الكويتية والسعودية ، وموانىء الدولتين النفطية .

---

(١) كانت الوزارة على النحو الآتي في أيلول ١٩٨٩م .

١ ـ صدام حسين التكريتي : الرئيس ، رئيس مجلس الوزراء

٢ ـ طه ياسين رمضان : النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء

٣ ـ سعدون حمادي : نائب رئيس مجلس الوزراء

٤ ـ طارق حنا عزيز : نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الخارجية

٥ ـ عبد الجبار خليل شنشل : وزيراً للدفاع

٦ ـ محمد حمزة الزبيدي : وزيراً للنقل والمواصلات

٧ ـ أحمد حسين الصمعري : مدير ديوان الرئاسة

٨ ـ سمير محمد عبد الوهاب الشيخلي : وزيراً للداخلية .

٩ ـ عبد القادر عز الدين حمودي : وزيراً للتربية .

١٠ ـ منذر إبراهيم : وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي .

١١ ـ عبد الفتاح محمد أمين : وزيراً للشباب

١٢ ـ أكرم عبد القادر علي : وزيراً للعدل .

١٣ ـ حكمت عمر مخايلف : وزيراً للمالية

١٤ ـ طاهر محمد حسون المرزوق : وزيراً للإنشاء والإسكان .

١٥ ـ سامال ماجد فرج : وزيراً للتخطيط

١٦ ـ عبد السلام محمد سيد : وزيراً للصحة .

١٧ ـ عصام عبد الرحمٰن الشلبي : وزيراً للنفط

١٨ ـ محمد مهدي صالح : وزيراً للتجارة .

١٩ ـ عبد الله بدر دانوك : وزيراً للزراعة والري

٢٠ ـ لطيف ناصيف الجاسم : وزيراً للثقافة والإعلام .

٢١ ـ مدحت مبارك : وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية

٢٢ ـ عبد الله فضل عباس : وزيراً للأوقاف والشؤون الدينية .

٢٣ ـ علي حسان الهاجد : وزيراً للحكم المحلي .

٢٤ ـ حسين كامل : وزيراً للصناعة والإنشاءات العسكرية

٢٥ ـ هاشم صبحي عقروي : وزير دولة في مكتب الرئاسة .

المستشارون :

١ ـ صبحي ياسين خضير .

٢ ـ عبد الغني عبد الغفور . =

وحاولت العراق التفاهم مع تركيا للقضاء على المقاومة الكردية ، وعندها رفض حزب الاتحاد الوطني الكردي العرض العراقي بالعفو عن السجناء السياسيين .

وفي ٣ ربيع الأول ١٤٠٥هـ (٢٦ تشرين ثاني ١٩٨٤م) عادت العلاقات السياسية بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية بعد انقطاع دام ما يقرب من سبعة عشر عاماً أي منذ حرب (١٣٨٧هـ) بين البلدان العربية ودولة اليهود .

ونتيجة دعم العراق أصبح لديها خمسمائة وثمانون طائرة عسكرية مقاتلة ، ومائة وثلاثون طائرةً عاموديةً مُسلّحةً ، واستأنفت الهجوم على ناقلات النفط ، والموانىء وخاصةً جزيرة (خرج) ، فارتفع سعر التأمين على الناقلات بشكلٍ هائلٍ ، وانخفضت صادرات إيران من النفط .

وانهارت المفاوضات مع الأكراد مرةً أخرى حول الحكم الذاتي ، وعاد القتال ثانيةً بعد أن توقّف أربعة عشر شهراً ، وكان الاتحاد الوطني الكردي ينتقد الحكومة لاستمرارها في اضطهاد الأكراد ، وذلك في جمادى الأولى ١٤٠٥هـ (مطلع عام ١٩٨٥م) .

وبقيت ناقلات النفط تنقل الزيت الايراني ولكن من جزيرة (سوري) على بعد ثمانمائة كيلومتر جنوب شرقي جزيرة (خرج) ، حيث تتولّى إيران نقل نفطها إلى تلك الجزيرة .

= ٣ ـ سمير محمد عبد الوهاب .
٤ ـ عبد الحسن راحي فرعون .
٥ ـ سعدي مهدي صالح .
٦ ـ مزبان قادر هادي .
٧ ـ خالد عبد المحسن .

وزراء دولة :

هاشم حسن .
أرشد أحمد محمد الزباري .

وفي جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ (آذار ١٩٨٥م) حشدت إيران نصف مليون مقاتل على الجبهة الجنوبية ، شرق نهر دجلة ، وتمكنت هذه القوات من عبور النهر ، ثم توقّفت ، واتهمت العراق باستعمال الأسلحة الكيمياوية . وقامت العراق بالهجوم الصاروخي على طهران ، ووقع الهجوم على ثلاثين مدينة إيرانية ، وقامت إيران بهجوم صاروخي أيضاً على المدن العراقية .

وأظهرت الأردن ومصر تضامنهما الكامل مع العراق ، وقام الملك الأردني والرئيس المصري بزيارة بغداد مع العلم أن العلاقات السياسية بين مصر والعراق مقطوعة منذ أن وقعت مصر معاهدة السلام مع دولة اليهود عام ١٣٩٩هـ . وزار الأمين العام للأمم المتحدة (خافير بيريز دي كويلار) كلاً من طهران ، وبغداد في محاولة لإجراء المفاوضات بين الطرفين ، وخففت طهران من مطلبها في تنحية الرئيس العراقي صدام حسين عن الحكم ، ولكنها طالبت العراق بدفع مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف مليون دولار خسائر حرب . وأمر الرئيس العراقي بوقف الغارات الجوية عن المدن الايرانية ، ولكن إيران استمرت بقصف المدن ، ولم تبال بفعل العراق .

وجرت مناقشات في مجلس الأمن لوقف القتال والهجوم على المدن في رمضان ١٤٠٥هـ (حزيران ١٩٨٥م) ، وكان الرئيس العراقي يعمل على إلزام إيران لقبولها المفاوضات ، واضطر لسحب ممثلي العراق من طرابلس ، كما طلب من ليبيا سحب ممثليها في بغداد ، إثر التفاهم الإيراني ـ الليبي ، مع العلم أن العلاقات السياسية مقطوعة بين العراق وليبيا منذ بدء الحرب بين العراق وإيران في ١٣ ذي القعدة عام ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول سنة ١٩٨٠م) إذ كانت العراق تتهم ليبيا بمساعدة إيران .

كانت إيران تطلب من العراق الاعتراف ببدء القتال وعندها يمكن لإيران قبول قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) القاضي بوقف إطلاق النار ، أما العراق فيمكنها الاعتراف ببدء الحرب ولكنها ترفض شروط القرار .

وفي ٣٠ جمادى الأولى ١٤٠٦هـ (٩ شباط ١٩٨٦م) عبر أربعمائة ألف جندي إيراني شط العرب ، وبعد يومين من ذلك احتلت إيران ميناء نفطي غير مستعمل في شبه جزيرة (الفاو) .

وفي شهر شوال ١٤٠٦هـ (حزيران ١٩٨٦م) احتلت العراق جزيرة (خرك) الايرانية ، وأصبح تصدير نفط إيران يتمّ عن طريق جزيرة (لارك) .

دعمت إيران جيشها في عدة مواقع على طول الحدود مع العراق .

وفي مطلع عام ١٤٠٧هـ (أيلول ١٩٨٦م) دمرت العراق ناقلات النفط في جزيرة (لافان) ، وأخذت منذ شهر ربيع الأول ١٤٠٧هـ (تشرين الثاني ١٩٨٦م) تهاجم جزيرة (لارك) .

وفي ٢٢ ربيع الثاني ١٤٠٧هـ (٢٤ كانون الأول ١٩٨٦م) تقدمت فرقة كربلاء ـ ٤ ـ الإيرانية في منطقة البصرة .

أخذ يقلّ التهديد العسكري الإيراني فركزت العراق اهتمامها على الشمال إذ كان الأكراد قد سيطروا على عشرة آلاف كيلومتر مربع من الأرض ، واتخذت الحكومة سياسة الأرض المحروقة التي اتخذتها أيضاً عام ١٣٩٥هـ ، وسارت في طريق العنف فدكّت أكثر من ثمانمائة قريةٍ كرديةٍ على طول الحدود لإنشاء حزامٍ أمنيٍ مع إيران ـ حسب اصطلاح الحكومة ـ ثم أجبرت أعداداً من الأكراد على مغادرة مناطقهم والانتقال إلى الجنوب العراقي للاستقرار هناك ، واستمرّ ذلك حتى منتصف عام ١٤٠٨هـ .

وفي ٨ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ (٨ كانون الثاني ١٩٨٧م) قامت فرقة إيرانية تحمل اسم (كربلاء ـ ٥ ـ) بهجومٍ نحو البصرة ولكنها تكبدت خسائر جسيمة ، وتلا ذلك هجوم أيضاً من (كربلاء ـ ٦ ـ) ، وأعقب ذلك عدد من الهجمات الايرانية على طول الحدود مع العراق الذي طلب إنهاء الحرب وإجراء مفاوضات للسلام غير أن إيران رفضت ذلك .

وفي ١٦ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ تقدّمت (كربلاء ـ ٦ ـ) حوالي عشرة كيلومترات باتجاه البصرة دون أن تُحقّق أي هدف . وأعلن العراق أنه سيتوقّف عن قصف القرى والمدن الايرانية لمدة أسبوعين عسى أن يلين موقف إيران . ولكن ذلك لم يثن إيران عن عزمها ، وتقدّمت (كربلاء ـ ٥ ـ) ولكنها انتهت . وعاد العراق وأعلن أنه غير مُلزم بتنفيذ الاتفاقية غير الرسمية بعد قصف القرى والمدن بعد انقضاء الأسبوعين .

وفي شهر رجب ١٤٠٧هـ (آذار ١٩٨٧م) توغّلت (كربلاء ـ ٧ ـ) عشرين كيلومتراً في الشمال باتجاه (راوندوز) ، وتقدّمت (كربلاء ـ ٨ ـ) في شرق البصرة بعد مدة ، وقامت (كربلاء ـ ٩ ـ) بهجوم في القطاع الأوسط قرب (قصر شيرين) ، وبعدها عاد العراق فاستأنف القصف بشكل جدي .

وفي ٢٧ محرم ١٤٠٨هـ (٢٠ أيلول ١٩٨٧م) عقد مؤتمر عربي في تونس ، وعملت الدول العربية على قطع العلاقات مع إيران غير أن سوريا رفضت ذلك بحجة أن العلاقات وثيقة بينها وبين إيران .

وفي ١٢ ربيع الأول ١٤٠٨هـ أعلن وزير خارجية إيران أن دولته سوف تراعي وقف إطلاق النار فيما إذا نصّ مجلس الأمن في قراره أن العراق هو المعتدي وأنه قد بدأ الحرب ، غير أن انكلترا والولايات المتحدة فسّرتا هذا الإعلان ينطوي على مماطلةٍ عسى أن تُغيّر روسيا موقفها من حظر الأسلحة على إيران وتبيعها . وعقد مؤتمر عربي آخر في عمان في (١٧ ـ ٢٠) ربيع الأول ١٤٠٨هـ أدان إيران لإطالتها حرب الخليج ، واحتلالها شط العرب ، وحثّ إيران على تنفيذ قرار مجلس الأمن (٥٩٨) دون قيدٍ أو شرط ، كما أجّل هذا المؤتمر إقامة علاقات مع مصر .

وفي ١٠ ربيع الثاني ١٤٠٨هـ (مطلع كانون الأول ١٩٨٧م) اشترط وزير خارجية إيران أن تقوم العراق بدفع تعويضات خسائر الحرب لإيران

للموافقة على قرار مجلس الأمن . كما أعلن أن وجود السفن التابعة لـلأمم المتحدة في الخليج من أكبر عوائق حصول السلام .

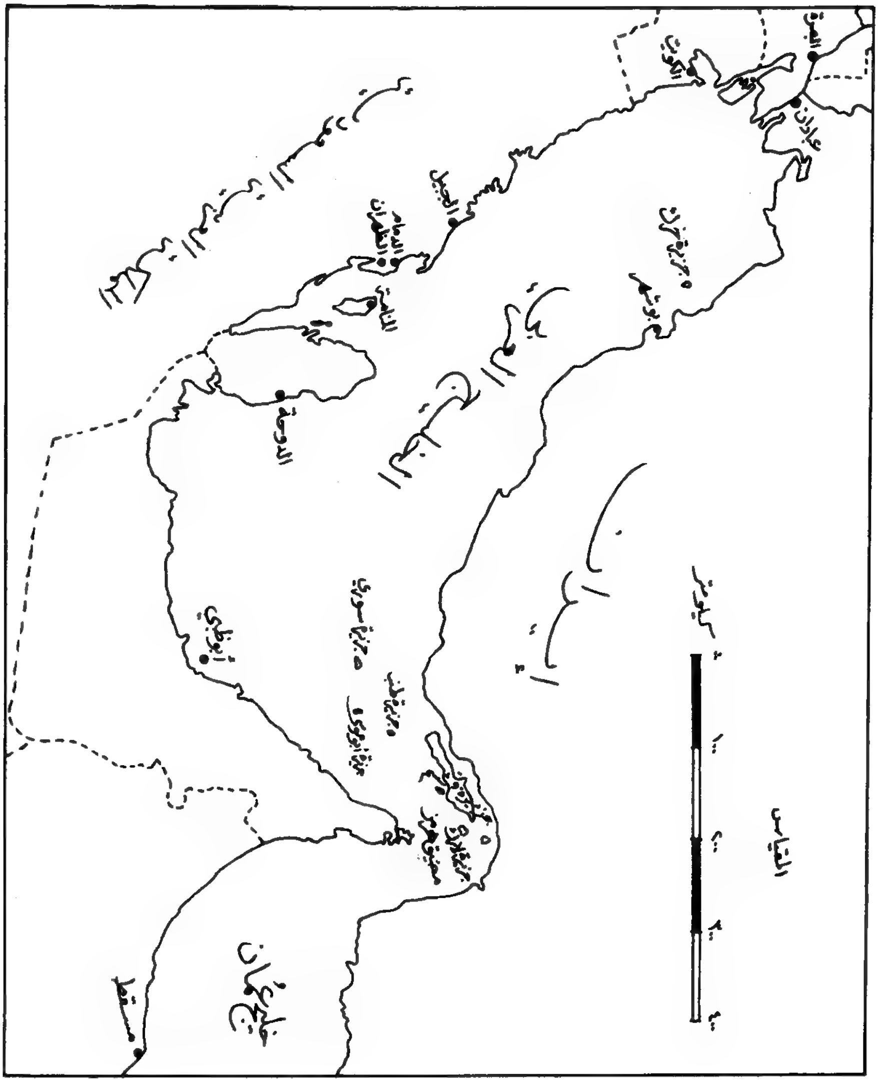
وزادت خسائر القطع البحرية في هذه الحرب إذ بلغت ١٧٨ زورقاً في عام (١٩٨٧م) منها ٣٤ زورقاً في الشهر الأخير من العام ، على حين أنها كانت ٨٠ زورقاً في العام السابق (١٩٨٦م) ، أما المجموع منذ بداية الحرب فقد زاد على ٥٤٦ زورقاً . وقُدّر مجموع المساعدات الروسية بعشرة مليارات دولار منذ حظر بيع الأسلحة عام ١٩٨٢م وحتى نهاية عام ١٩٨٧م .

منذ مطلع عام ١٤٠٨هـ بدأت إيران تتراجع لصالح العراق ، وما أن انتصف العام حتى كان العراق قد استعاد كثيراً من أراضيه التي كانت إيران قد احتلتها من قبل في السنوات السابقة . واقترحت سوريا باب الحوار بين دول الخليج العربية وبين إيران لإنهاء القتال ولكن العراق وإيران معاً قد رفضتا هذه المبادرة .

وفي بداية النصف الثاني من عام ١٤٠٨هـ (مطلع شباط ١٩٨٨م) استأنفت العراق قصف المدن بعد انقطاع ما يزيد على العام ، وكان قد سبق ذلك استئناف قصف الناقلات . ولكن الأكراد نجحوا في شنّ الغارات على الأراضي التي تسيطر عليها الحكومة ؛ فقامت العراق بهجمةٍ انتقاميةٍ ضد بلدة (حلبجة) بالأسلحة الكيمياوية ، وقتلت أربعة آلاف كردي ، واعترفت العراق بعد أربعة أشهرٍ باستخدام الأسلحة الكيمياوية .

وفي رجب من عام ١٤٠٨هـ بدأ جيش التحرير الوطني ، وهو الجناح العسكري لتجمع المقاومة الإيرانية من مجاهدي خلق ، المدعوم من العراق ببدء أعماله الهجومية بعد ما يقرب من سنةٍ على إنشائه فهاجم القوات الايرانية في إقلم (عربستان) خوزستان .

وفي ٢٨ شعبان ١٤٠٨هـ (١٥ نيسان ١٩٨٨م) استعادت العراق (الفاو) التي كانت إيران قد احتلتها منذ أكثر من سنة ونصف ، واتهمت إيران


البصرة
الكويت
عبادان
الجبيل
الظهران
بوشهر
الدوحة
أبوظبي
مسقط
خليج عمان
المقياس
كيلومتر

الكويت بأنها قد سمحت للعراق باستخدام أراضي جزيرة (بـوبيان) أثنـاء الهجوم على الفاو .

وفي بـدايـة شـوال ١٤٠٨هـ (أيـار ١٩٨٨م) استعـادت العـراق (شلمشة) جنوب شرقي البصرة ، ودفعت القوات الإيرانية إلى ما بعد شط العرب . ومن ناحية ثانية تمّ دمج التنظيمات الكردية بعضها مع بعض وهي :

١ ـ الحزب الديمقراطي الكردستاني . ٤ ـ حزب الاتحاد الاشتراكي الكردي
٢ ـ الاتحاد الوطني الكردي . ٥ ـ حزب الشعب الوطني الكردي .
٣ ـ الحزب الاشتراكي الكردي . ٦ ـ الحزب الشيوعي الكردي .

وذلك في سبيل الوقوف المشترك في وجه الحكومة العراقية .

وفي الأول من ذي القعدة ١٤٠٨هـ (١٥ حزيران ١٩٨٨م) استعادت العراق جزيرة (مجنون وطوّقت منطقـة (الحويـزة) ، وفي منتصف الشهر ، تمكنت من طرد الايرانيين من المناطق الكردية .

وفي ٢٩ ذي القعـدة ١٤٠٨هـ (١٣ تموز ١٩٨٨م) عـبرت العـراق الأراضي الإيرانية في القطاع الأوسط . وفي الرابع من ذي الحجة وافقت إيران على قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) دون قيدٍ أو شرطٍ بعد مماطلةٍ دامت أكثر من عام .

وفي العاشر من ذي الحجة عام ١٤٠٨هـ تقدمت السرايا العراقية داخل إيران قبل عملية انسحاب إيران إلى خلف الحدود ، وفي اليوم التالي دخلت العراق مسافة مائةٍ وخمسين كيلومتراً داخل إيران ، وادّعت أن جيش التحرير الوطني الإيراني هو الذي يقوم بمشاغلة الجيش الإيراني حتى لا يستطيع إعادة تنظيم نفسه أثناء عملية وقف إطلاق النار .

وفي أواخر شهر ذي الحجة ١٤٠٨هـ (آب ١٩٨٨م) دخلت العراق وإيران في مفاوضات لإنهاء الحرب وهذا ما سمح للعراق بنقل أكثر قواتها إلى منطقة الأكراد ، وخُصّص ما يقـرب من سبعين ألف جنـدي لإنهاء المسألـة

الكردية ، واستعملت الأسلحة الكيمياوية كسلاحٍ فعّال للإسراع في حلّ المشكلة ، وقد أجبر هذا السلاح الناس للفرار من وجه الجيش العراقي ، وقد هرب أكثر من مائة ألف كردي إلى إيران وتركيا . وتبنّى مجلس الأمن في ١٤ المحرم ١٤٠٩هـ (٢٦ آب ١٩٨٨م) القرار رقم (٦٢٠) الذي استنكر فيه استخدام الأسلحة الكيمياوية .

أُجّلت الانتخابات العراقية لمدة ستة أشهرٍ نتيجة الأحداث . وطلب العراق تأخير تنفيذ وقف إطلاق النار حتى تتم المفاوضات المباشرة مع إيران تحت إشراف الأمم المتحدة . وإن نجاح العراق في هذه الحرب قد قوّى مركز الرئيس العراقي صدام حسين .

وفي ٨ المحرم ١٤٠٩هـ (٢٠ آب ١٩٨٨م) توقّف إطلاق النار ، ووضع ثلاثمائة وخمسون ضابطاً من الأمم المتحدة للإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار .

وفي ٢٨ المحرم ١٤٠٩هـ (٩ أيلول ١٩٨٨م) أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي فرض عقوبةٍ اقتصادية على العراق ، وامتنعت الولايات المتحدة عن استيراد النفط العراقي ، وقامت مظاهرات في العراق ضدّ الولايات المتحدة .

وفي ٥ صفر ١٤٠٩هـ (١٦ أيلول ١٩٨٨م) صدر عفو عام ، ودعت الحكومة العراقية الأكراد للعودة إلى الوطن خلال ثلاثين يوماً ، ووعدت بإطلاق سراح المعتقلين جميعاً ، ورجع إلى البلاد فعلاً ما يقرب من ستين ألف كردي ، وفي اليوم التالي أجليت أعداد من الأكراد عن مناطقهم ، ووُزّعوا في بقية المناطق العراقية ، وأخذ الأكراد يناشدون للعمل على وقف عملية الإجلاء عن مناطقهم .

وجرت الانتخابات النيابية الثالثة التي كانت قد أُجّلت في شعبان ١٤٠٩هـ (نيسان ١٩٨٩م) ، وقد نجح فيها نصف الأعضاء من حزب البعث العربي الاشتراكي ، وأخذ العمل لصياغة دستورٍ جديدٍ .

المفاوضات : توقّف إطلاق النار كما ذكرنا في ٨ محرم ١٤٠٩هـ وبدأت مفاوضات من أجل السلام ولتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم (٥٩٨) بعد خمسة أيام أي في ١٣ محرم ١٤٠٩هـ (٢٥ آب ١٩٨٨م) ، ويقضي القرار بالتراجع إلى ما بعد الحدود المعترف عليها دولياً .

كانت إيران ترى أن المفاوضات يجب أن تكون على أساس اتفاقية الجزائر أي أن الحدود في شطّ العرب يجب أن تكون في منتصف الشط في خط أعمق النقاط ، وتُمارس الدولتان المشاركة في السيادة على هذا الممر المائي ، ولكن العراق ترى أن هذه الاتفاقية قد أُلغيت ببدء الحرب في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) ، وادّعى الذي وقّعها وهو الرئيس العراقي اليوم أنه قد وقّعها بالإكراه ، ويُطالب بالسيادة العراقية الكاملة على شطّ العرب حسب الاتفاقات كلها والتي سبقت اتفاقية الجزائر ، ولإيران حقّ الإبحار ، ولا يمكن إغلاق هذا الممر المائي الحيوي .

كانت إيران قد أعلنت يوم وقف إطلاق النار في ٨ محرم ١٤٠٩هـ أنها ستقوم بتفتيش السفن العراقية المارة من مضيق هرمز ، ولكن العراق قد هدّد باستئناف القتال إذا تعرّضت السفن العراقية للتفتيش في مضيق (هرمز) .

أصرّت العراق على أن حفر شط العرب وإصلاحه ، وتنظيفه من السفن الغارقة فيه يجب أن يتمّ قبل الانسحاب إلى ما بعد الحدود المعترف بها دولياً ، وقبل الشروع في تبادل الأسرى .

ادّعت إيران أنها لا تزال في حالة حربٍ مع العراق ، وأنها اكتسبت بذلك حسب القانون الدولي حق تفتيش السفن التي تقوم بنقل المؤن والمعدات الحربية ، مع أن العراق يحتلّ ما مساحته ألف وخمسمائة كيلومتر مربع من أرض إيران . وإن القرار (٥٩٨) لم يُفصّل هذه القضايا وإنما أخّرها إلى ما بعد وقف إطلاق النار .

يدّعي العراق أن الحرب بين الدولتين قد بدأت في ٢٤ شوال ١٤٠٠هـ

(٤ أيلول ١٩٨٠م) عندما قصفت إيران النقاط العسكرية الواقعة على الحدود بالقنابل ، وليس في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) كما تدّعي إيـران ، وبقي الخلاف مستحكماً حتى ١٤ صفر عام ١٤١٠هـ (أيلول ١٩٨٩م) .

وفي ربيع الثاني ١٤١٠هـ (تشرين الثاني ١٩٨٩م) وافقت كل من العراق وإيران على تبادل الأسرى ، وجرى أول تبادلٍ في الشهر نفسه ، ثم توقّف للاعتراف بأن العراق هو الذي بدأ الحرب .

وكان الأسرى حسبما هو مسجل في سجل الصليب الأحمر .

٥٠١٨٢ أسير عراقي .

١٩٢٨٤ أسير إيراني[1] :

---

(١) وقف المؤلف حفظه الله هنا ، لأنه يقوم على استكمال البحث تبعاً للمعطيات المتجددة .

الخلاف مع إيران : يرجع الخلاف بين العراق وإيران إلى ماضٍ ليس بالقريب إلى الأيام التي كانت العراق فيها جزءاً من الدولة العثمانية ، وكانت تحدث النزاعات على الحدود ، وعلى المياه ، وبين القبائل ، وقد جرت عدّة معاهداتٍ بين الطرفين ، وكان منها معاهدة « أرضروم الثانية » التي عُقدت عام ١٢٦٣ هـ . غير أن هذه المعاهدة قد فشلت أيضاً ، إذ استمرت الاشتباكات على الحدود ، وفشلت لجنة تخطيط الحدود التي نصّت عليها المادة الثالثة من المعاهدة المذكورة ، كما نشأت خلافات في تفسيرات نُصوص المعاهدة ، ويُضاف إلى ذلك أن انكلترا وروسيا كانتا ترغبان في إنهاء نزاعات الحدود بين الدولة العثمانية وبين إيران التي أصبحت ساحة نفوذٍ لكلتا الدولتين ، كل هذا دعا إلى إجراء مُفاوضاتٍ مُباشرةٍ بين الطرفين بتوسّط كل من انكلترا وروسيا ، وانتهت باتفاق طهران في اليوم الأول من عام ١٣٣٠ هـ (٢١ كانون الأول ١٩١١م)[1] .

اتفاق طهران : وتضمّن هذا الاتفاق خمس نقاط ، وهي :

١ ـ تعيين لجنةٍ مشتركةٍ لتثبيت خطّ الحدود ، وتتألّف من عددٍ مُتساوٍ من الأعضاء ، على أن تجتمع بأقرب فرصةٍ مُمكنةٍ لتنظيم سير العمل .

٢ ـ تزويد أعضاءاللجنة بجميع الوثائق والبيانات المؤيّدة لادّعاءات الفريقين لدراستها وتحليلها بأمانةٍ وموضوعيةٍ ، لاتخاذ القرارات النهائية في تثبيت خطّ الحدود تثبيتاً نهائياً .

٣ ـ في حالة فشل أعضاءاللجنة في الوصول إلى تفسير وتطبيق بعض نصوص معاهدة « أرضروم الثانية » تفسيراً مُرضياً تُحال عندئذٍ القضايا المختلف عليها إلى « محكمة التحكيم » في « لاهاي » لإصدار القرار النهائي .

٤ ـ تكون مُعاهدة « أرضروم الثانية » الأساس الذي تستند إليه قرارات اللجنة .

---

(١) مثل الدولة العثمانية في هذه المفاوضات (حسيب بك) سفيرها لدى البلاط الإيراني ، ومثل إيران وزير خارجيتها (وثوق الدولة) .

٥ ـ لايتّخذ أيّ من الطرفين من احتلال الأراضي المتنازع عليها حجةً قانونيةً للاحتفاظ بها والسيطرة عليها .

استمرّت المفاوضات أكثر من خمسة أشهرٍ دون الوصول إلى اتفاقٍ ، وتدخّل سفيرا الدولتين الوسيطتين (انكلترا وروسيا) ، وطالبا الدولة العثمانية بضرورة تطبيق نصوص معاهدة « أرضروم الثانية » مُباشرةً دون تأخيرٍ ، وكانت جمعية الاتحاد والترقي هي التي تتحكّم في شؤون الدولة العثمانية ، ولها علاقاتها وارتباطاتها مع انكلترا التي تعدّ صاحبة النفوذ الأقوى في الدولة .

توقّفت المفاوضات في طهران ، إلّا أنّه تقرّراستمرار المباحثات بين ممثلي الدولتين في استانبول .

اتفاقية الخليج : جرت مُباحثات في لندن بين وزير الخارجية البريطانية « ادوارد غراي » وبين مبعوث الباب العالي إبراهيم حقي أثناء زيارةٍ رسميةٍ له إلى لندن حول عددٍ من القضايا المشتركة بين الدولتين ، ومن بينها تثبيت خطّ الحدود بين الدولة العثمانية وإيران . وقد أعلن المبعوث مُوافقته على خطٍ مُقترحٍ في الجنوب يُعدّ أكثر قبولاً لدى إيران من أي خطٍّ مضى .

ومن بين الاتفاقيات التي جرت في لندن « اتفاقية الخليج » التي تنازلت فيها الدولة العثمانية عن قطر والبحرين ، وتعهدت بسحب جميع قواتها وموظفيها ، شريطة احتفاظ الدولة العثمانية بسيادتها على الكويت، والكفّ مُقابل ذلك عن التدخّل في شؤونها الداخلية والخارجية بأيّ شكلٍ من الأشكال ، وأن تتوقّف عن إرسال قُواتٍ مُسلحةٍ إليها ، وأجازت لشيخ الكويت برفع العلم العثماني ، ووضع اسم الكويت في زاويةٍ من زواياه . واعترفت الدولة العثمانية بموجب هذه الاتفاقية بالاتفاقات التي عقدها شيخ الكويت مع الحكومة البريطانية ، ومنها تأسيس خدماتٍ بريديةٍ غير الخدمات العثمانية القائمة . ويُلاحظ أن هذه الاتفاقية جرّدت الدولة العثمانية عملياً من سيادتها على الكويت ، وبالّتالي باعدت بينها وبين المناطق المجاورة سياسياً .

ومن الاتفاقات الأخرى التي أُبرمت ، اتفاقية خاصة بالملاحة في شطّ العرب ، تناولت حقّ الرسو على امتداد الساحل الواقع شمال وجنوب مصبّ نهر قارون ، وبيان آخر حول الملاحة في نهري دجلة والفرات ، وقد تضمّن الاتفاق الخاص بشطّ العرب عدّة أمورٍ منها :

١ ـ يبقى شطّ العرب مفتوحاً لسير السفن التابعة لجميع الدول .

٢ ـ تؤلّف الحكومة العثمانية لجنةً لتنظيم سير الملاحة في شطّ العرب من مدينة القرنة حتى مصبّه في الخليج ، على أن تتألّف من عضوين : عضو عثماني الجنسية ، وعضو بريطاني الجنسية تختاره الحكومة العثمانية من قائمة المرشّحين لهذا المنصب ، ويتقاضى كل واحدٍ منهما مرتباً سنوياً ، يُدفع من صندوق اللجنة .

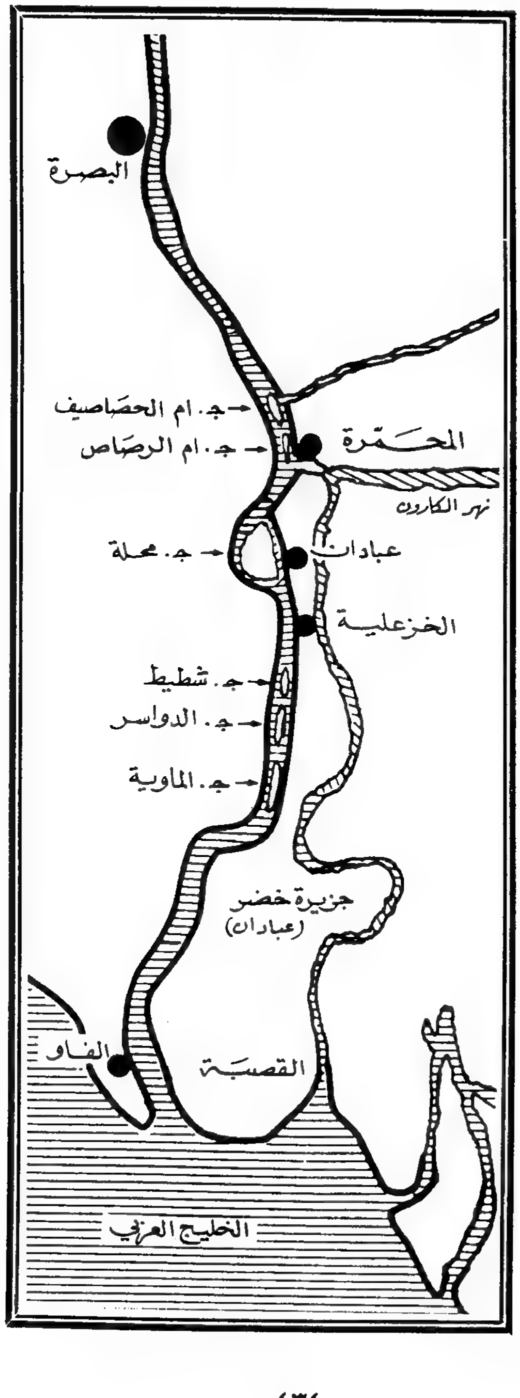
٣ ـ يكون تعيين المهندسين والمفتشين والمستخدمين من اختصاصات اللجنة .

وفيما يتعلّق بالملاحة في نهري دجلة والفرات اتفق وزير خارجية بريطانية ، وإبراهيم حقي على إصدار بيانٍ خاصٍ لتنظيم حركة نقل البضائع والأشخاص في ٢٥ شعبان ١٣٣١ هـ (٢٩ تموز ١٩١٣ م) . وقد نصّت المادة الأولى من هذا البيان على ما يلي : تمنح الحكومة العثمانية امتيازاً لشخصٍ بريطاني تُرشحّه الحكومة البريطانية لتأسيس شركةٍ تتولّى تسيير حركة السفن في مياه نهر دجلة من القرنة حتى الموصل على الأقل ، وفي نهر الفرات من القرنة حتى مسكنة .

ونتيجة المفاوضات في استانبول بين العثمانيين والإيرانيين ، وبين العثمانيين والبريطانيين في لندن تمّ التوقيع على اتفاقٍ في استانبول بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٣٣١هـ (٤ تشرين الثاني ١٩١٣م) ، وعلى تصريح في لندن .

اتفاق استانبول : وقّع هذا الاتفاق الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم باشا ، وعن إيران السفير المفوض والمندوب فوق العادة لشاه إيران لدى الباب العالي ميرزا محمود خان قاجار احتشام السلطنة ، وعن انكلترا وروسيا (لويس

شط العرب


البصرة
ج. ام الحصاصيف
المحمرة
ج. ام الرصاص
نهر الكارون
عبادان
ج. محلة
الخزعلية
ج. شطيط
ج. الدواسر
ج. الماوية
جزيرة خضر
(عبادان)
الفاو
القصبة
الخليج العربي

موليت) السفير والمندوب فوق العادة لدى الباب العالي، و(ميشيل دي جيير) السفير والمندوب فوق العادة لدى الباب العالي . وكانت الحكومة الروسية قد اقترحت رسماً لخطّ الحدود ، وجرت مناقشات ، وتبادل المذكرات ، وأخيراً وُقّع الاتفاق على تعريف لخطّ الحدود ، وذكر أنه يبدأ من علامة الحدود رقم (٣٧) على الحدود العثمانية ـ الروسية الواقعة بالقرب من(سرادار بولاق) على الذروة الواقعة بين جبل (أرارات) الصغير ، وجبل (أرارات) الكبير ، ثم يتجه جنوباً إلى مناطق العراق الشمالية ، والوسطى ، والجنوبية .

تصريح لندن : لم يتطرّق تصريح لندن إلى بحث خط الحدود العثمانية ـ الايرانية شمال موقع (مندلي-) ، وإنما ترك ذلك إلى لجنة تثبيت الحدود المشتركة .

أما خطّ الحدود الواقع بين منطقة (الحويزة) ومصبّ شطّ العرب فقد تمّ بحثه على أنه يبدأ من نقطةٍ تُسمّى (أم شير) إلى نقطةٍ تقع شرق اتصال خور (المحيسن) بخور (العظيم) على بعد تسعة أميالٍ إلى الشمال الغربي من البساتين الواقعة على الدرجة (٣١) والدقيقة (٤٣) والثانية (٢٩) من خط العرض الشمالي ، ومن نقطة (أم شير) ينحرف الخط باتجاه الجنوب الغربي لغاية الدرجة (٣٥) من خط الطول الغربي تقريباً في الطرف الجنوبي من بحيرةٍ صغيرةٍ تُعرف باسم (العظيم) أيضاً ، وتقع في خور (العظيم) على مسافةٍ قصيرةٍ من الجهة الشمالية الغربية لمدينة (السويب) . ومن هذه النقطة يُواصل الخطّ سيره نحو الجنوب بمحاذاة الخور لغاية خط العرض (٣١) شمالاً ، ويسير معه شرقاً تماماً حتى النقطة الواقعة إلى الشمال الشرقي من (كشك بصرة) ، حيث يبقى هذا المحلّ ضمن الأراضي العثمانية . ثم يتجه الخط من هذه النقطة إلى ناحية الجنوب حتى مصبّ قناة (الخيين) بشطّ العرب ، ثم يُتابع خطّ الحدود سيره بمحاذاة شطّ العرب حتى مصبّه في الخليج ، تاركاً النهر وما فيه من جزر تحت السيادة العثمانية مع مراعاة الشروط والاستثناءات التالية :

أولاً : أ ـ تعود لإيران :

١ ـ جزيرة محله ، والجزيرتان الواقعتان بينها وبين الضفة اليسرى من شط العرب (ساحل عبادان الإيراني) .

٢ ـ الجزر الأربع الواقعة بين شطيط وماوية ، والجزيرتان الواقعتان مقابل (منوحي) والتابعتان لجزيرة عبادان .

٣ ـ جميع الجزر الصغيرة الموجودة الآن ، أو التي تتكوّن بعدئذٍ ، مما له صلة بانحسار المدّ عن جزيرة عبادان أو بالأراضي الإيرانية إلى أسفل نهر (نازالله) .

ب ـ يبقى ميناء ومرسى المحمرة الحديثان من أعلى إلى أسفل ملتقى نهر قارون بشطّ العرب تحت سيادة إيران ، طبقاً لمعاهدة أرضروم الثانية ، ولكن دون المساس بحقّ الدولة العثمانية في استعمال هذا القسم من النهر ، ودون أن تمتدّ سلطة إيران إلى أقسام النهر الواقعة خارج حدود المرسى .

جـ ـ لا تغيير في الحقوق والأعراف والعادات الجارية بالنسبة لصيد الأسماك في الضفة الإيرانية من شطّ العرب . وتشمل كلمة ضفّة أيضاً الأراضي التي تتصل بالساحل وقت انحسار المد .

د ـ لا تمتدّ السيادة العثمانية إلى أقسام الساحل الإيراني التي تغمرها مياه المد بصورةٍ وقتيةٍ عند ارتفاع منسوب مياه شطّ العرب أو من جراء عوامل عرضيةٍ أخرى . ولا سلطة لإيران على الأرض الواقعة على الضفّة الشرقية لشطّ العرب التي تظهر بصورةٍ وقتيةٍ أو عرضية (حالة الجزر) لدى انخفاض منسوب الماء دون الحد الاعتيادي .

هـ ـ يبقى شيخ المحمرة مُتمتّعاً ، عملاً بأحكام القوانين العثمانية ، بحقوق ملكيته في الأراضي العثمانية .

ثانياً : يتمّ تثبيت خطّ الحدود على الأرض من قبل لجنة تثبيتٍ مؤلفةٍ من مُمثّلي أربع حكوماتٍ ، ويُمثّل كلّ حكومةٍ مُمثّل واحد ، ونائب واحد ، ويحلّ النائب محلّ الممثّل الأصيل الغائب عند الضرورة .

ثالثاً : لدى قيام لجنة تثبيت الحدود بوظائفها الملقاة على عاتقها ينبغي :

١ ـ التمسّك بأحكام هذا الاتفاق .

٢ ـ تطبيق النظام الداخلي للجنة المرفق بهذا الاتفاق .

رابعاً : إذا تضاربت آراء اللجنة حول خطّ الحدود في أيّ قسمٍ من أقسامه فعلى الممثّل العثماني والإيراني أن يُقدّما خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً بياناً خطياً إلى الممثّلين الروسي والبريطاني يُعزّز وجهة نظر كلّ منهما في الأمر ، وعلى الممثلين الوسيطين أن يعقدا اجتماعاً خاصاً لهذا الغرض لإصدار قرارهما ، وينبغي إدراج القرار في محضر الاجتماع العام ، والاعتراف بالقرار الصادر بكونه مُلزماً للأطراف الأربعة كافةً .

خامساً : حالما تتمّ عملية تثبيت قسمٍ من خطّ الحدود يُصبح ذلك القسم قد ثُبّت تثبيتاً نهائياً ، ولا يكون عرضةً لأيّ تدقيقٍ أو تعديلٍ بعدئذٍ .

سادساً : يحقّ للحكومتين العثمانية والإيرانية أن تُؤسّسا مخافر على الحدود أثناء سير أعمال لجنة تثبيت الحدود .

سابعاً : ليكن مفهوماً ، أن الامتياز الممنوح من لدن شاه إيران إلى (وليم نوكس دارسي) عملاً بالاتفاقية المؤرخة في (٢٨ أيار ١٩٠١)[١] ، التي انتقلت حقوقها إلى شركة النفط الإنكليزية ـ الإيرانية بموجب المادة التاسعة من الاتفاقية المذكورة (ويُشار إليها بكلمة اتفاقية في الملحق (ب) من هذا الاتفاق) تبقى نافذة المفعول بصورةٍ تامةٍ مطلقةٍ في جميع الأراضي التي حوّلتها إيران إلى الدولة العثمانية تنفيذاً لأحكام هذا الاتفاق ، والملحق (ب) .

ثامناً : تُقدّم الحكومتان العثمانية والإيرانية إلى الموظفين العاملين في مناطق الحدود عدداً كافياً من نسخ تثبيت الحدود التي رسمتها اللجنة الرباعية ، مشفوعةً بنسخٍ كافيةٍ من ترجمة البيان المنصوص عليه في المادة الخامسة عشرة من نظام اللجنة الداخلي ، على أن يكون مفهوماً بأن النصّ المدوّن باللغة الفرنسية سيبقى وحده النص المعوّل عليه رسمياً .

---

(١) العاشر من شهر صفر ١٣١٩هـ .

ووضع نظام داخلي للجنة تثبيت الحدود ، والتي بدأت أعمالها في (شهر كانون الأول من عام ١٩١٣م)[1] ووضعت أول دعامةٍ من دعامات تثبيت خطّ الحدود في الضفّة الشرقية من شطّ العرب في (الأسبوع الأخير من شهر كانون الأول ١٩١٣م)[2]، وانتهت أعمال اللجنة في ٨ ذي الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م)، وكانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت نيرانها في ١٣ رمضان ١٣٣٢هـ (٤ آب ١٩١٤م) غير أن أعضاء اللجنة قد أصرّوا على إنهاء عملهم ، لذا فقد استمرّوا به ، حتى النهاية ، ولكن بقيت مُشكلة منطقة (قتور) مُعلّقةً[3] .

كان خطّ الحدود مُطابقاً تقريباً للخطّ الذي رسمته « معاهدة أرضروم الثانية » عام ١٢٦٣هـ .

وشغلت أحداث الحرب العالمية الأولى الدول والناس عن الحدود ، وما يحدث عليها من نزاعاتٍ ، وبعد الحرب طالبت تركيا بمنطقة الموصل ، ولم تعترف باتفاق استانبول ١٣٣٢هـ ، ولا بمحاضر جلسات اللجنة الدولية المشتركة لتخطيط الحدود بين الدولة العثمانية وإيران على أساس أنهما لم يُعرضا على مجلس النواب العثماني ، ولم يُصادق عليهما السلطان طبقاً للأعراف الدستورية . وهذا ما جعل إيران تُعلن رفضها أيضاً لخطّ الحدود المرسوم ، وتُطالب بتعديله وخاصةً في منطقة « خانقين » حيث يوجد النفط في منطقتي « نفطخانه » و « نفطشاه » واللتان كانتا ضمن المنطقة التي منحت حقّ امتياز التنقيب عن النفط فيها لـ (دارسي) ، وعندما رُسمت الحدود كانت ضمن أراضي الدولة العثمانية .

وقعت اشتباكات على الحدود بين رعايا الدولتين العراقية والإيرانية في منطقة خانقين ، وقصر شيرين ، ولم تكن هناك علاقات بين الدولتين ، وإنما

---

(١) مطلع عام ١٣٣٢هـ .

(٢) الأسبوع الأخير من شهر محرم ١٣٣٢هـ .

(٣) العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون ـ سعد الأنصاري .

كانت تتمّ الصلات بين الطرفين عن طريق دار الاعتماد البريطانية في بغداد .

اعترفت إيران بالحكومة العراقية في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٧هـ (٢٥ نيسان ١٩٢٩م) في الحفلة التي أقامها رئيس وزراء إيران تكريماً للوفد العراقي برئاسة رستم حيدر رئيس الديوان الملكي في العراق ، وجرى تمثيل سياسي بين الدولتين ، وقام الملك فيصل الأول بزيارة إيران في ٢٢ ذي الحجة ١٣٥٠هـ (٢٨ نيسان ١٩٣٢م) ، غير أنّ ذلك لم يُنه المشكلة ، وخاصةً في شطّ العرب حيث كانت قبائل (المحيسن) تعيش على ضفّتي شطّ العرب ، وتنتقل بطونها من ضفّةٍ إلى أخرى ، فهي عراقية على الضفّة اليمنى ، إيرانية على الضفّة اليُسرى ، وتكرّرت الخلافات حول شطّ العرب ، وعلى الحدود ، وعلى المياه المشتركة .

أعلنت إيران إلغاء اتفاق ١٣٣٢هـ ، وطالبت بتعديل الحدود ، وقدّم العراق شكوى إلى عصبة الأمم على هذا الإلغاء في ٢١ رجب ١٣٥٠هـ (الأول من كانون الأول ١٩٣١م) .

تشكّلت لجنة ثلاثية من العراق وإيران وانكلترا لتحسين الملاحة في شطّ العرب في ٢٥ شوال ١٣٥٠هـ (٣ آذار ١٩٣٢م) .

وفي ٢٢ شعبان ١٣٥٣هـ (٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٤م) بعثت الحكومة العراقية إلى أمين عام مجلس عصبة الأمم مُذكرةً تطلب فيها عرض النزاع القائم بين العراق وإيران على مجلس العصبة . وأخبرت العراق إيران بذلك عن طريق المفوضية العراقية في طهران . وردّت إيران على مُذكرة العراق .

وفي ٩ شوال ١٣٥٣هـ (١٤ كانون الثاني ١٩٣٥م) عقد مجلس عصبة الأمم جلسةً للنظر في شكوى العراق على إيران ، ولم يصل المجلس إلى حلٍّ نهائيٍ ، ولكن تمّ الاتفاق على إجراء اتصالاتٍ شخصيةٍ بين وزيري خارجية الدولتين ، وأجّل المجلس بحث الموضوع إلى جمادى الآخرة ١٣٥٤هـ (أيلول من عام ١٩٣٥م) .

وفي هذه الأثناء قطعت إيران المياه عن مدينة (مندلي) العراقية ، وتجاوز مائة جنديٍ إيراني الحدود العراقية ، واحتلّوا ضواحي المدينة ، وساقوا راعياً مع ماشيته . ثم جرت مفاوضات في طهران ، وتحوّلت إلى معاهدة صداقةً ، وانضمّت تركيا إلى تلك المعاهدة .

ثم إنّ الشاه طلب السماح بتوسعة ميناء (عبادان) وترك مُشْكلة شطّ العرب للعراق فشعرت الحكومة العراقية بالارتياح ، وجرت مباحثات لتحسين الملاحة في شطّ العرب في بغداد ، ولكن طلبت إيران توسعة ميناء عبادان أربعة أميالٍ لا أربعة كيلومتراتٍ ، وإدارة الملاحة في شطّ العرب إدارةً مشتركةً ، ولم تُوافق العراق على ذلك لأن الميناء (عبادان) يصل إلى منتصف شطّ العرب أي تصبح طريق الملاحة كلها بيد إدارة الميناء أي بيد إيران . ثم دخلت إنكلترا في المباحثات كوسيط . . . وتقدّمت إيران بمذكرةٍ تُبيّن رأيها ، وقد جاء في هذه المذكرة :

١ ـ ينبغي أن يكون شطّ العرب مفتوحاً دائماً أمام جميع السفن التجارية التابعة لجميع الأقطار على حدٍّ سواء لتمخر أو ترسو فيه دون تمييزٍ ، وأن تُجبى الأجور المستوفاة من السفن ، وتُدفع الرسوم الأخرى مُقابل الخدمات التي تُسدى ، ومُقابل الحمولات ، بغضّ النظر عن جنسياتها ، ونوع حمولتها ، ومقدارها ، وألّا يتجاوز مجموع الرسوم المستوفاة وفقاً لهذه الطريقة الحدّ الأقصى للنفقات السنوية الخاصة بصيانة شطّ العرب .

٢ ـ ينبغي تنظيم سير السفن ، وتقرير تنظيف قاع النهر ، وصيانته بحيث يصبح شطّ العرب صالحاً للملاحة دائماً ، وتعيين طريقة جباية الرسوم وتطبيقاتها بموجب اتفاقيةٍ متبادلةٍ ، والسماح لكل طرفٍ من الأطراف بالعمليات الفنية التي تجعل شطّ العرب صالحاً للملاحة ، بحيث لا يُسبّب ذلك أيّ اضطراباتٍ في الترتيبات الخاصة بسير الملاحة ، بدعوى أنّ ذلك القسم من الشطّ يعود إليه وحده دون غيره .

٣ ـ يكون للبواخر البحرية وغير البحرية التي تعود لحكومتي إيران والعراق حقّ السير في شطّ العرب ، أو الرسو في أي وقتٍ من الأوقات ودون دفع أيّة رسومٍ .

٤ ـ تترتب حقوق مُتساوية للقطرين الجارين في صيد الأسماك ، واستخدام مياه شطّ العرب للأغراض الزراعية والصناعية .

٥ ـ يتعاون الطرفان على وضع التعليمات الصحيّة المتعلّقة بشطّ العرب ، وبوضع الإجراءات لمكافحة حركة التهريب ، وحماية شواطئهما بموجب اتفاقيةٍ مُتبادلة تعقد لهذا الغرض ، بحيث لا تقف ملكية كل طرفٍ لضفة النهر حائلاً دون تطبيق تعليمات وسلامة الطرف الآخر . وغني عن البيان أن الترتيبات السالفة الذكر ستنفّذ في ذلك القسم من شطّ العرب الذي يفصل القطرين(١) .

بعد الانقلاب الذي قاده بكر صدقي ، وأطاح بحكومة ياسين الهاشمي ، أسرعت حكومة حكمت سليمان التي تسلّمت السلطة بالمفاوضات ، وقدّمت مُقترحاتٍ جديدة في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٢٦ حزيران ١٩٣٧م) قدّمها المفوض العراقي في طهران خالد سليمان شقيق رئيس الوزراء . وسافر وزير الخارجية العراقية ناجي الأصيل إلى العراق ، وقد خُوّل بالتوقيع على معاهدة الحدود ، ومعاهدة عدم التعدّي ، واتفاقية حسن الجوار ، وبعد جهودٍ بالمفاوضات انتهت بالتوقيع على :

أولاً : معاهدة الحدود في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) ، وتنصّ على :

١ ـ الاعتراف باتفاق استانبول المبرم في ٥ ذي الحجة ١٣٣١هـ (٤ تشرين الثاني ١٩١٣م) ، وبمحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود المشتركة في ٨ ذي

---

(١) العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون ـ سعد الأنصاري .

الحجة ١٣٣٢هـ (٢٧ تشرين الأول ١٩١٤م) على أنهما وثـائق مشروعة ومُلزمة ، وأن خطّ الحدود ، عدا ما هو وارد في المادة الثـانية ، أصبـح « عين الخطّ الذي تمّ تعيينه وتخطيطه من قبل اللجنة المذكورة أعلاه » ، وعلى الصورة التالية :

٢ ـ إن خطّ الحدود عند مُلتقاه بمنتهى النقطة الكائنة في جزيرة « شطيط » في الـدرجة (٣٠) والـدقيقة (١٧) والثـانية (٢٥) من العـرض الشـمالي ، والدرجة (٤٨) والدقيقة (١٩) والثانية (٣٨) من الطول الشرقي على وجه التقريب ، يعود فيتصل على خطٍ مُمتدٍّ عامودياً من خطّ انخفاض المياه بشطّ العرب ، ويتبعه حتى نقطةٍ كائنةٍ أمام « الأسكلة » الحـالية رقم (١) في عبادان (في الدرجة (٣٠) والدقيقـة (٢٠) والثانيـة (٤,٨) من العرض الشمالي ، والدرجة ٤٨ والدقيقة (١٦) والثانية (١٣) من الطول الشرقي على وجه التقريب) . وفي هذه النقطة يعود خطّ الحدود فيسير مع مستوى المياه المنخفضة مُتابعاً تخطيط الحدود الموصوف في محاضر جلسات ١٩١٤م المادة الثانية ، وفي هذه المنطقة من المياه العراقية حدث ، كما لا يخفى ، تعديل في خط الحدود لصالح إيران ، حيث مُنحت رقعةً من المياه لتوسعة مرسى عبادان .

٣ ـ يقوم الفريقان المتعاقدان مُباشرةً بعد التوقيع على هذه المعاهدة بتأليف لجنةٍ لنصب دعائم الحدود التي سبق وأن عيّنت أماكنها لجنة الحدود الـدولية المشتركة ، ووضع دعائم جديدةٍ إذا ما وجدت ذلك أمراً ضرورياً .

٤ ـ تُطبّق الأحكام التالية على شطّ العرب ، ابتداءً من النقطة التي تنزل فيها الحدود البحرية بين الدولتين إلى النهر المذكور حتى عرض البحر :

أ ـ يبقى شطّ العرب مفتوحاً بالمساواة للسفن التجارية العائـدة لجميع البلدان ، وتكون جميع العائدات المجباة من قبيل أجورٍ للخدمـات المؤدّاة ، وتُخصّص فقط لتسديد ـ بصـورةٍ عادلـةٍ ـ كلفة صيـانة أو

تحسين طريق الملاحة ومدخل شطّ العرب من جهة البحر ، ولتدارك النفقات المتكبّدة لصالح حركة الملاحة ، وتُقدّر العائدات المذكورة على أساس الحمولة الرسمية للسفن أو مقدار انغطاسها ، أو على كليهما معاً .

ب ـ يكون شطّ العرب مفتوحاً لمرور السفن الحربية والسفن الأخرى المستخدمة في مصالح حكوميةٍ غير تجاريةٍ ، والعائدة للفريقين المتعاقدين .

جـ ـ إن هذه الحالة ، أي اتّباع خطّ الحدود في شطّ العرب ، مرّةً المياه المنخفضة ، وتارةً وسط المياه لا تتعارض مع حقّ استفادة أيٍّ من الطرفين وبأيّ وجهٍ من الوجوه ، في الشطّ كلّه (المادة الرابعة) .

٥ ـ لما كان للفريقين المتعاقدين « مصلحة مشتركة » في الملاحة ، كما هو معترف به في المادة الرابعة ، فإنهما يتعهدان بعقد اتفاقيةٍ بشأن صيانة وتحسين طريق الملاحة ، وبشأن أعمال الحفر ، ودلالة السفن ، واستيفاء الأجور ، والعائدات ، والتدابير الصحيّة ، والتدابير الأخرى اللازمة لمكافحة التهريب ، وكذلك بشأن جميع الأمور المتعلّقة بالملاحة في شطّ العرب .

أما الاتفاق المؤلف من خمس فقرات فقد اعتبر ملحقاً بمعاهدة الحدود ، وجزءاً لا يتجزأ منها ، ويدخل في حيز التنفيذ مع المعاهدة في وقت واحد .

وبهذا تنازل العراق عن أجزاء من شط العرب لصالح مينائي « عبادان » و « المحمرة » ، واعترفت إيران مقابل ذلك بخط الحدود الذي لم يسبق لها أن اعترفت به . كما أن انكلترا قد استبعدت من المشاركة في اللجنة المقترحة لصيانة وتحسين الملاحة في شط العرب[1] .

ثانياً : وُقّع ميثاق سعد أباد في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٨ تموز

---

(١) المرجع السابق نفسه .

١٩٣٧م) ، وانضمّت إليه أيضاً تركيا وأفغانستان إلى جانب العراق وإيران ، واتفق الفرقاء المتعاقدون بالامتناع التام عن أي تدخّلٍ في شؤونهم الداخلية ، والتشاور في جميع الخلافات ذات الصفة الدولية ، وذات المساس بمصالحهم المشتركة ، وبالامتناع التام ، وفي أي حالةٍ من الحالات ، منفرداً أو بالاشتراك مع دولةٍ أخرى من ارتكاب اعتداءٍ ضدّ فريقٍ آخر ، ويُعتبر من أعمال التعدّي : إعلان حالة الحرب وهجوم دولةٍ بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على أراضي دولةٍ أخرى ، أو بواخرها أو طائراتها ، ولو دون إعلان حالة حربٍ ، وإعانة وإسعاف المعتدي بصورةٍ مُباشرةٍ أو غير مُباشرةٍ . ويتعهّد كلّ فريقٍ كذلك ، كل داخل حدوده ، بعدم إعطاء المجال لتشكيل العصابات المسلحة والجمعيات ، أو كل عملٍ يستهدف قلب المؤسسات القائمة ، أو ارتكاب أعمال مُخلّة بالنظام العام والأمن في أيّ قسمٍ من بلاد الفريق الآخر ، سواء أكان في الحدود أم في غيرها ، أو الإخلال بنظام الحكم السائد في بلاد الفريق الآخر .

ثالثاً : معاهدة صداقة بين العراق وإيران، ووُقّعت في طهران في ١٠ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (١٨ تموز ١٩٣٧م) لإقامة سلمٍ دائمٍ وصداقةٍ لا تتغير ، ويتعهّد الطرفان بأن يعقد بأسرع وقتٍ ممكنٍ :

أ ـ اتفاقية حسن جوارٍ ذات علاقةٍ بأمن منطقة الحدود وتسوية المنازعات .
ب ـ معاهدة لاسترداد المجرمين .
جـ ـ معاهدة إقامةٍ وجنسيةٍ .
د ـ معاهدة تجاريةً .
هـ ـ اتفاقية تعاونٍ قضائيٍ .
و ـ اتفاقية بريدٍ وبرقٍ .
ز ـ اتفاقية قنصلية .

رابعاً : معاهدة لحلّ الخلافات بالطرق السلمية ، ووُقّعت في طهران في ١٦ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ (٢٤ تموز ١٩٣٧م) ، وتبقى نافذة المفعول لمدة

خمس سنواتٍ ، تتجدّد تلقائياً ، إلاّ إذا تخلّى عنها أحد الطرفين ، وبموجبها تعهّدت الدولتان :

١ ـ اتباع الطرق السلمية في حلّ كلّ خلافٍ يمكن أن ينشأ بينهما مما يتعذّر حلّه بالمفاوضات السياسية الاعتيادية .

٢ ـ عرض جميع الخلافات التي قد تنشب بينهما حول أيّ حقٍ من الحقوق على محكمة العدل الدولية الدائمة بموجب اتفاقٍ خاصٍ ، للبتّ فيها ، ما لم يُقرّر الفريقان مراجعة محكمة تحكيمٍ ما عدا الخلافات التي حدثت قبل دخول هذه المعاهدة حيّز التنفيذ ، أو بأمورٍ هي من اختصاص أحد الفريقين المتعاقدين فقط حسب القوانين الدولية ، والخلافات المتعلّقة بحدود أحد الفريقين المتعاقدين وأراضيهما .

٣ ـ إن كلّ خلافٍ لا يمكن حلّه بقرارٍ قضائيٍ أو تحكيميٍ بموجب نصوص المعاهدة يُصار في حلّه إلى طريقة المصالحة ، بعد تأليف لجنة مصالحةٍ لهذا الغرض ، يتّفق عليها الطرفان .

٤ ـ ليس في المعاهدة ما يمكن تفسيره بأنه يخلّ بحقوق الفريقين المتعاقدين في طلب مساعدة مجلس عصبة الأمم ، وذلك ضمن أحكام ميثاق عصبة الأمم وهذه المعاهدة .

خامساً : اتفاق خاص لتنظيم أعمال لجنة تحديد الحدود : وُقّع في بغداد في ١٦ شوال ١٣٥٧هـ (٨ كانون الأول ١٩٣٨م) تنفيذاً لأحكام المادة الثالثة من معاهدة الحدود المعقودة في ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) وأحكام المادة الأولى من الاتفاق الملحق بالمعاهدة المذكورة ، اتّفقت الدولتان على ما يلي :

١ ـ تُؤلّف لجنة لوضع دعائم الحدود ، قوامها مُمثّل أول ومُمثّل ثانٍ تُعيّنهما كل من الحكومتين ، ويحلّ الثاني محلّ الأول عند تغيّبه ، وتُناط به وظائفه ، ويتمتع بجميع امتيازاته وصلاحياته ، ولدى حصول أي خلافٍ يتعذّر حلّه ، يُحيل الممثّلان موضوع الخلاف إلى حكومتيهما لحلّه بالطرق السياسية ،

ويترأس الممثّلان جلسات اللجنة بالتناوب ، ويدوّنا محاضر الجلسات باللغات العربية والفارسية والفرنسية ، ويكون النصّ الفرنسي هو النصّ المعتمد عند حصول أيّ خلافٍ .

٢ ـ تُناط باللجنة الأعمال التالية : تعيين الحدود العراقية الإيرانية عملاً بمعاهدة الحدود لسنة (١٩٣٧م) ١٣٥٦هـ والاتّفاق الملحق بها ، وتتخذ أساساً لأعمالها :

أ ـ محاضر جلسات لجنة تحديد الحدود لسنة (١٩١٤م) ١٣٣٢هـ ، بما في ذلك جدول وصف الحدود ، مواقع دعائم الحدود ، والخرائط الأصلية المتطابقة ، والخرائط الإضافية المستعملة والموقّعة من قبل اللجنة المذكورة .

ب ـ المادة الثانية من معاهدة الحدود لسنة (١٩٣٧م) ١٣٥٦هـ المتعلّقة بتعيين خطّ الحدود لمرسى عبادان .

وعلى اللجنة كذلك أن تنظّم محاضر جلسات اللجنة ، وكراسة نقاط الإرشاد المنصوص عليها في المادة العاشرة من هذا الاتفاق ، وكذلك الخرائط ، وغيرها من الوثائق الأخرى التي تعدّها اللجنة بنسختين ، يُوقّع عليها الممثّلان ، مع احتفاظ كل من الحكومتين بنسخةٍ منهما .

ولكن لم يُصادق على المعاهدة المذكورة إلاّ بعد ما يقرب من مرور سنةٍ على توقيعها ، فالحكومة التي وقّعت عليها قد زالت مع اغتيال قائد الانقلاب بكر صدقي في ٤ جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ (١١ آب ١٩٣٧م) ، ولم يقبل الشعب العراقي ما تمّ فيها من تنازلاتٍ وخاصةً في شطّ العرب[1] .

وبعد المصادقة عليها وُجدت صعوبات في تنفيذها لعدم مشاركة انكلترا صاحبة النفوذ في اللجنة ، وقيام الحرب العالمية الثانية ، واحتلال العراق

---

(١) المرجع السابق نفسه .

وإيران من قبل الحلفاء ، بعد حركة الكيلاني في العراق ، وبعد الخوف من اقتراب الألمان من أذربيجان ، وظهور أهمية الخليج الحربية والنفطية ، وأطماع إيران في توسعة رقعة مياه ميناء عبادان ، وهرب عددٍ من قادة حركة الكيلاني إلى إيران الأمر الذي جعل توتراً بين الحكومتين .

وبعد الحرب عادت إيران لبحث الموضوع من جديد ، وقام الأمير عبد الإله الوصي وولي عهد العراق على رأس وفدٍ إلى إيران في ٨ شعبان ١٣٦٨هـ (٤ حزيران ١٩٤٩م) .

وقامت إيران بعددٍ من الاعتداءات على الحدود ، ولكن الوضع الداخلي فيها قد تردّى بعد انقلاب محمد مصدق والانقلاب المضاد ،وتدهور الاقتصاد الإيراني ، وهرب الشاه إلى بغداد مع زوجته ومرافقه بطائرته الخاصة في ٦ ذي الحجة ١٣٧٢هـ(١٦ آب ١٩٥٣م) ، كل ذلك قد أوقف موضوع مشكلة الحدود ، ثم إن عمليات مقاومة الشيوعية في البلدين ، والانصراف إلى معالجة القضايا المالية ، والنفطية قد أجّل موضوع بحث مشكلة الحدود . ثم جاء التقارب بعد عقد حلف بغداد حيث كانت الدولتان من بين أعضائه ، وإن كانت بين المدة والأخرى تُطالب إيران بتثبيت الحدود ووضع الدعائم .

أخذت إيران تُطالب العراق بعد زوال العهد الملكي فيه وقيام النظام الجمهوري بعد حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) بتعديل خطّ الحدود في شطّ العرب ، ليكون خطّ منتصف النهر (خطّ أعمق النقاط) ، ولما لم تجد استجابةً أعلنت عام ١٣٨٥هـ(١٩٦٥م) إلغاء معاهدة ٢٥ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ (٤ تموز ١٩٣٧م) ، ثم عادت وأعلنت ذلك الإلغاء مرةً أخرى عام ١٣٨٩هـ ، فتأزّمت العلاقات بين الدولتين .

أقامت العراق ميناءً حديثاً في « أم قصر » ، وأصبحت تُصدّر ثروتها النفطية عن طريق « خور العميا»، وميناء البكر. وتوقّفت المحادثات، ثم استؤنفت ، وكانت معاهدة الجزائر عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) . ثم عادت

فتوقّفت بسبب الثورة الإيرانية وما تلاها من حربٍ بين الدولتين .

وكان الخلاف على مياه الأنهار والأودية التي تجري من إيران نحو العراق حيث كانت إيران تبني سدوداً عليها ، أو تهدر المياه حتى تنقطع عن المدن والقرى العراقية ، وتحدث الشكوى ، وتجري الاتصالات بين الدولتين وغالباً ما كانت تحتجّ إيران بشحّ المياه ، ومن هذه المدن ، « مندلي » و « زرباطية » و « خانقين » وغيرها .

كما كان الخلاف يقع على الثروة النفطية في منطقة « خانقين » في المناطق الداخلية ، وكذلك في المياه الإقليمية ، إذ عرضت إيران استثمار ثرواتها النفطية في مياهها الإقليمية عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) فلاحظت العراق أن العمل يشمل جزءاً من مياهها الإقليمية ، فحدث الخلاف . وأخيراً جرت اتفاقية في ١٤ ربيع الأول ١٣٨٣هـ (٤ آب ١٩٦٣م) .

اتفاقية الجزائر : أثناء انعقاد مؤتمر القمة للدول الأعضاء في منظمة (الأوبك) في عاصمة الجزائر ، وبمبادرة الرئيس هواري بومدين تقابل مرتين صاحب الجلالة شاه إيران والسيد صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، وأجريا محادثاتٍ مطولةً حول العلاقات بين العراق وإيران . وقد اتسمت هذه المحادثات التي جرت بحضور الرئيس هواري بومدين ببديع الصراحة الكاملة وبإرادةٍ مخلصةٍ من الطرفين للوصول إلى حلٍّ نهائيٍ دائمٍ لجميع المشكلات القائمة بين بلديهما ، وتطبيقاً لمبادىء سلامة التراب ، وحرمة الحدود ، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية . قرّر الطرفان الساميان المتعاقدان .

أولاً : إجراء تخطيطٍ نهائيٍ لحدودهما البرية بناءً على اتفاق القسطنطينية لسنة (١٩١٣م) ومحاضر لجنة تحديد الحدود لسنة (١٩١٤م) .

ثانياً : تحديد حدودهما النهرية حسب خط (تالوك) « أي أعمق النقاط في وسط النهر» .

ثالثاً : بناءً على هذا سيُعيد الطرفان الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة ، ويلتزمان من ثم على إجراء رقابةٍ مُشدّدةٍ على حدودهما المشتركة ، وذلك من أجل وضع حدٍّ نهائيٍ لكل التسلّلات ذات الطابع التخريبي من حيث أتت .

رابعاً : كما اتفق الطرفان على اعتبار هذه الترتيبات المشار إليها أعلاه كعناصر لا تتجزأ لحلٍّ شاملٍ وبالتالي فإن أي مساسٍ بإحدى مقوماتها يتنافى بطبيعة الحال مع روح اتفاق الجزائر . وسيبقى الطرفان على اتصالٍ دائمٍ مع الرئيس هواري بومدين الذي سيقدّم عند الحاجة معونة الجزائر الأخوية من أجل تطبيق هذه القرارات .

وقد قرّر الطرفان إعادة الروابط التقليدية لحسن الجوار والصداقة وذلك على الخصوص بإزالة جميع العوامل السلبية لعلاقاتهما ، وبواسطة تبادل وجهات النظر بشكلٍ مُستمرٍ حول المسائل ذات المصلحة المشتركة ، وتنمية التعاون المتبادل .

ويُعلن الطرفان رسمياً أن المنطقة يجب أن تكون في مأمنٍ من أيّ تدخّلٍ خارجيٍ .

وسيجتمع وزراء الخارجية من العراق وإيران بحضور وزير خارجية الجزائر بتاريخ (١٥ آذار ١٩٧٥م) في طهران وذلك لوضع ترتيبات عمل اللجنة المختلطة العراقية الإيرانية التي أسّست من أجل تطبيق القرارات المتخذة في اتفاقٍ مشتركٍ والمنصوص عليها أعلاه وطبقاً لرغبة الطرفين ستدعى الجزائر إلى اجتماعات اللجنة المختلطة الإيرانية ـ العراقية ، وستُحدّد اللجنة المختلطة جدول أعمالها ، وطريقة عملها ، والاجتماع إذ اقتضى الحال بالتناوب في بغداد وطهران .

وقد قبل صاحب الجلالة شاه إيران بكل سرورٍ الدعوة التي وجّهها إليه سيادة الرئيس أحمد حسن البكر للقيام بزيارةٍ رسميةٍ إلى العراق ، علماً أنه

سيُحدّد تاريخ هذه الزيارة في اتفاقٍ مشتركٍ .

ومن جهةٍ أخرى قبل السيد صدام حسين القيام بزيارةٍ رسميةٍ إلى إيران في تاريخ يُحدّده الطرفان .

وقد أبى صاحب الجلالة الشاهنشاه والسيد صدام حسين إلا أن يُعبّرا بصفةٍ خاصةٍ عن امتنانهما الحار للرئيس هواري بومدين الذي عمل بدافعٍ من العواطف الأخوية وروح النزاهة على إقامة اتصالٍ مباشرٍ بين قادة الدولتين الساميتين ، وساهم بالتالي في بعث عهدٍ جديدٍ للعلاقة بين العراق وإيران ، وذلك تحقيقاً للمصلحة العليا في المنطقة المعنية[1] .

المعاهدة العراقية ـ الإيرانية :

إن رئيس الجمهورية العراقية وصاحب الجلالة الامبراطورية شاهنشاه إيران بالنظر إلى الإرادة المخلصة للطرفين المعبّر عنها في اتفاق الجزائر المؤرخ في ٦ أذار ١٩٧٥م في الوصول إلى حلٍّ نهائيٍ ودائمٍ لجميع المسائل المعلّقة بين البلدين ، وبالنظر إلى أن الطرفين قد أجريا إعادة التخطيط النهائي لحدودهما البرية على أساس اتفاق القسطنطينية ١٩١٣م ، ومحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود لسنة ١٩١٤م ، حدّدا حدودهما النهرية حسب خط أعمق النقاط ، وبالنظر إلى إرادتهما في إعادة الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة ، وبالنظر إلى روابط الجوار ، والروابط التاريخية ، والدينية ، والثقافية ، والحضارية ، ولرغبتهما في توطيد روابط الصداقة وحسن الجوار ، وتعميق علاقاتهما في الميادين الاقتصادية والثقافية وتنمية العلاقات بين أبناء الشعبين ورفعهما إلى مستوى أفضل على أساس مبادىء سلامة الإقليم ، وحرمة الحدود ، وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية ، لعزمهما على العمل

---

(١) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . السنة الأولى ـ العدد الثالث ـ ١٩٧٥م .
الثورة ـ بغداد ١٩٧٥/٣/٧م ـ الإخاء ـ طهران ١٩٧٥/٣/١٥م .

لإقامة عهدٍ جديدٍ من العلاقات الودّية بين العراق وإيران على أساس الاحترام الكامل للاستقلال الوطني ومساواة العدل في السيادة ، ولإيمانهما بالمشاركة بهذه الصفة في تطبيق المبادىء وتحقيق الأهداف والأغراض المنصوص عليها في ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، فقد قرّرا عقد هذه المعاهدة، وعيّنا مندوبيهما المفوّضين .

رئيس الجمهورية العراقية .

سيادة سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

صاحب الجلالة الإمبراطورية شاهنشاه إيران .

سيادة عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

اللذين بعد أن تبادلا وثائق تقويضهما التام ، ووجداها صحيحةً ومُطابقةً للأصول اتفقا على الأحكام التالية :

المادة الأولى : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن الحدود الدولية البرية بين العراق وإيران تلك التي أُجري إعادة تخطيطها على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها الاتفاق الملحق بإعادة تخطيط الحدود البرية وملاحق الاتفاق المذكور آنفاً بهذه المعاهدة .

المادة الثانية : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن الحدود الدولية في شطّ العرب هي تلك التي أُجري تحديدها على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها اتفاق تحديد الحدود النهرية وملاحق الاتفاق المذكور آنفاً المرفقة بهذه المعاهدة .

المادة الثالثة : يتعهّد الطرفان الساميان المتعاقدان بأن يُمارسا على الحدود بوجهٍ دائمٍ رقابةً صارمةً وفعّالةً لغرض وقف جميع التسلّلات ذات الطابع التخريبي من حيث أتت وذلك على الأُسس وطبقاً للأحكام التي تضمّنها اتفاق الأمن على الحدود الملحق بهذه المعاهدة .

المادة الرابعة : يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن أحكام الاتفاقات الثلاثة وملاحقها المذكور في المواد (١) و (٢) و(٣) من هذه المعاهدة والملحقة

بها ، والتي تُكوّن جزءاً لا يتجزّأ منها هي أحكام نهائية ودائمة وغير قابلة للخرق لأي سببٍ كان ، وتكون عناصر لا تقبل التجزئة لتسويةٍ شاملةٍ ، وبالتالي فإن أي مساسٍ بأي مقوماتٍ من هذه التسوية الشاملة يتنافى بداهةً مع روح اتفاق الجزائر .

المادة الخامسة : في نطاق عدم المساس بالحدود والاحترام الدقيق لسلامة الإقليم الوطني للدولتين يُؤكّد الطرفان الساميان المتعاقدان أن خط حدودهما البري والنهري لا يجوز المساس به ، وأنه دائم ونهائي .

المادة السادسة :

١ ـ في حالة حصول خلافٍ يتعلّق بتفسير أو تطبيق هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة وملاحقها فإن هذا الخلاف سيُحلّ في إطار الاحترام الدقيق لخطّ الحدود العراقية الإيرانية المبين في المواد الأولى والثانية المنوّه عنه أعلاه ، وفي إطار مراعاة المحافظة على أمن الحدود العراقية ـ الإيرانية طبقاً للمادة الثالثة أعلاه .

٢ ـ سيحلّ هذا الخلاف من جانب الأطراف السامية المتعاقدة في المرحلة الأولى عن طريق المفاوضات الثنائية المباشرة خلال فترة شهرين اعتباراً من تاريخ طلب أحد الطرفين .

٣ ـ وفي حالة عدم الاتفاق فإن الأطراف السامية المتعاقدة تلجأ خلال مدة ثلاثة أشهرٍ إلى طلب المساعي الحميدة لدولةٍ ثالثةٍ صديقةٍ .

٤ ـ في حالة رفض أحد الطرفين اللجوء إلى المساعي الحميدة أو فشل إجراءاتها فإن الخلاف سيُصار إلى حلّه عن طريق التحكيم خلال مدةٍ لا تزيد على الشهر اعتباراً من تاريخ الرفض أو الفشل .

٥ ـ في حالة عدم اتفاق الطرفين الساميين المتعاقدين حول إجراءات التحكيم فيحق لأحد الطرفين الساميين المتعاقدين اللجوء خلال خمسة عشر

يوماً التي تلي عدم الاتفاق إلى محكمة تحكيم . ولغرض تشكيل محكمة التحكيم لحلّ كل خلافٍ فإن على كلٍ من الطرفين الساميين المتعاقدين تعيين أحد رعاياه محكّماً ، وسيختار هذان المحكّمان محكماً أعلى . . . . وفي حالة عدم تعيين الطرفين الساميين المتعاقدين محكّميهما خلال فترة شهرٍ ابتداءً من تاريخ استلام أحد الطرفين إشعاراً من الطرف الآخر بطلب التحكيم أو في حالة عدم توصّل المحكمين إلى اتفاق حول اختيار المحكّم الأعلى قبل نفاذ المدة المذكورة نفسها فإن للطرف السامي المتعاقد الذي كان قد طلب التحكيم الحق في دعوة رئيس محكمة العدل الدولية إلى تعيين المحكّمين أو المحكّم الأعلى طبقاً لإجراءات محكمة التحكيم الدائمة .

٦ - إن لقرار محكمة التحكيم الدائمة صفة الإلزام والتنفيذ بالنسبة للطرفين المتعاقدين الساميين .

٧ - يتحمّل كل من الطرفين الساميين المتعاقدين نفقات التحكيم مُناصفةً .

المادة السابعة : ستسجّل هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة بها طبقاً للمادة (١٠٢) من ميثاق الأمم المتحدة . يُصادق كل من الطرفين الساميين المتعاقدين على هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة بها طبقاً لقانونه الداخلي . تدخل هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة حيّز التنفيذ اعتباراً من تاريخ تبادل وثائق التصديق الذي سيتمّ في مدينة طهران .

فبناءً عليه فإن الطرفين المفوضين من قبل الطرفين الساميين قد وقّعا هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة الملحقة .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران

سعدون حمادي وزير خارجية العراق

الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة :

أولاً : الاتفاق المتعلق بالأمن على الحدود بين العراق وإيران .

طبقاً للقرارات التي تضمنّها اتفاق الجزائر المؤرّخ في ٦ آذار ١٩٧٥م ، وحرصاً على تعزيز الأمن والثقة المتبادلة على طول حدودهما المشتركة، ولعزمهما على مُمارسة رقابةٍ صارمةٍ وفعّالةٍ على هذه الحدود لقطع جميع التسلّلات ذات الطابع التخريبي ، وإقامة تعاونٍ وثيقٍ بينهما . . . لهذا الغرض ولمنع أي تسلّلٍ أو مرورٍ غير شرعيٍ عبر حدودهما المشتركة بقصد التخريب ، والعصيان ، والتمرّد .

وبالإشارة إلى اتفاق طهران المؤرّخ في ١٥ آذار ١٩٧٥م ، ومحضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في بغداد في تاريخ ٢٠ نيسان ١٩٧٥م ، ومحضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في الجزائر في تاريخ ٢٠ أيار ١٩٧٥م . فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

١ ـ يتبادل الطرفان المتعاقدان المعلومات التي تخصّ كل تحرّكٍ للعناصر المخرّبة التي قد تُحاول التسلّل إلى أحد البلدين بقصد ارتكاب أعمال التخريب أو العصيان أو التمرّد في ذلك البلد .

٢ ـ يتخذ الطرفان المتعاقدان الإجراءات المناسبة المتعلّقة بتحركات العناصر المشار إليها في المادة الأولى ، ويُخبر كل منهما الآخر عن هوية هؤلاء الأشخاص ، ومن المتّفق عليه أنهما يستخدمان كافة الإجراءات لمنعهم من ارتكاب أعمال الهدم ، وتتخذ الإجراءات نفسها تجاه الأشخاص الذين يتجمعون في إقليم أحد الطرفين المتعاقدين بقصد ارتكاب أعمال الهدم أو التخريب في إقليم الطرف الآخر .

المادة الثانية :

يسري التعاون المتعدد الأشكال الذي أُقيم بين السلطات المختصة للطرفين المتعاقدين والتي تتعلّق بغلق الحدود لغرض منع تسلّل العناصر المخرّبة على صعيد السلطات الحدودية للبلدين ويُواصل ذلك حتى أرفع المستويات لوزارات الدفاع والخارجية والداخلية لكلٍ من الطرفين .

المادة الثالثة :

جرى تعيين المنافذ المحتملة التي تسلكها العناصر المخرّبة على الوجه التالي :

١ ـ منطقة الحدود الشمالية .

من نقطة التقاء الحدود العراقية ـ التركية ـ الإيرانية إلى خانقين ـ قصر شيرين (داخل) ـ ٢١ نقطة ـ .

٢ ـ من منطقة الحدود الجنوبية من خانقين ـ قصر شيرين (خارج) وحتى انتهاء الحدود العراقية ـ الإيرانية ١٧ نقطة .

٣ ـ إن نقاط التسلّل المذكورة في أعلاه معيّنة على وجه التفصيل في الملحق .

٤ ـ وتدخل في صنف النقاط المعينة في أعلاه أي نقطة تسلّلٍ أخرى يجري اكتشافها في المستقبل وتقتضي غلقها ومراقبتها .

٥ ـ تكون كافة نقاط المرور الحدودية باستثناء تلك التي تخضع حالياً لرقابة السلطات الجمركية ممنوعةً من كل اجتياز .

٦ ـ بالنظر إلى أهمية تنمية العلاقات المتعددة الأشكال بين البلدين الجارين ، فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن يجري في المستقبل وفقاً لاتفاق الطرفين إنشاء نقاط أخرى للعبور تكون تحت رقابة السلطات الجمركية .

المادة الرابعة :

١ ـ يتعهد الطرفان المتعاقدان بتخصيص الوسائل البشرية والمادية اللازمة لغرض غلق الحدود ورقابته بصورةٍ فعّالةٍ بوجهٍ يمنع كل تسلّلٍ للعناصر المخربة من نقاط المرور المذكورة في المادة الثالثة في أعلاه .

٢ ـ وفي الحالة التي يعتبر الخبراء فيها . . . . نتيجة الخبرة المكتسبة في الموضوع ، أنه يجب أن تتخذ إجراءات أكثر فعّاليةً يجري تحديد طرق ذلك من خلال الاجتماعات الشهرية للسلطات الحدودية للبلدين أو خلال اللقاءات التي تتم عند الحاجة بين تلك السلطات .

وتُبلّغ نتائج اللقاءات المذكورة آنفاً ، وكذلك محاضرها إلى السلطات العليا لكلٍ من الطرفين . وفي حالة حصول خلافٍ بين السلطات الحدودية يجتمع رؤساء الدوائر المعنيون سواء في بغداد أو في طهران للتقريب بين وجهات النظر ، وتُدرج نتائج اجتماعاتهم في محضر .

المادة الخامسة :

١ ـ يُعهد بالأشخاص المخربين المقبوض عليهم إلى السلطات المختصة للطرف الذي جرى القبض عليهم في إقليمه ، ويُطبّق عليهم التشريع النافذ .

٢ ـ يُعلم الطرفان المتعاقدان بعضهما بعضاً بالإجراءات التي اتخذت بشأن الأشخاص المشار إليهم في الفقرة ـ ١ ـ في أعلاه .

٣ ـ في حالة عبور الحدود من قبل الأشخاص المخربين الهاربين يجري الإخبار عن ذلك إلى سلطات البلد الآخر التي تتخذ جميع الإجراءات اللازمة للمساعدة في إلقاء القبض على الأشخاص المذكورين آنفاً .

المادة السادسة :

يجوز عند الحاجة وباتفاق الطرفين المتعاقدين أن تُقرّر مناطق مُحرّمة لغرض منع الأشخاص المخربين من تحقيق أغراضهم .

المادة السابعة :

لغرض إقامة وتطوير تعاونٍ مُفيدٍ مُتبادلٍ بين الطرفين تُشكّل لجنة مختلطة دائمة مكونة من رؤساء الإدارات الحدودية . . . ومن مُمثّلي وزارة الخارجية لكلا البلدين ، وتعقد اللجنة اجتماعين سنوياً (في بداية كل نصف سنةٍ من التقويم الغريغوري) على أنه يجوز بناءً على طلب أحد الطرفين عقد اجتماعاتٍ استثنائيةٍ للنظر في أفضل استخدامٍ للوسائل المعنوية والمادية بقصد غلق الحدود ومُراقبتها ، وكذلك فعّاليةً وحسن تطبيق الأحكام الأساسية للتعاون المنصوص عليه في هذا الاتفاق .

المادة الثامنة :

إن أحكام هذا الاتفاق المتعلّقة بغلق الحدود ومُراقبتها لا تمسّ الاتفاقات الخاصة بين العراق وإيران المتعلّقة بحقوق الرعي ورجال الحدود .

المادة التاسعة :

بقصد ضمان أمن الحدود النهرية المشتركة في شطّ العرب ، ومنع تسلّل العناصر المخرّبة من كلا الطرفين يتخذ الطرفان المتعاقدان إجراءاتٍ وافيةً ولاسيما بإقامة مخافر للمراقبة تتبعها قوارب الدورية .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م .

سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

لقد تمّ التوقيع على هذا الاتفاق بحضور

سيادة عبد العزيز بوتفليقة عضو مجلس قيادة الثورة ـ وزير خارجية الجزائر .

ثانياً : اتفاق إعادة تخطيط الحدود البرية بين العراق وإيران .

طبقاً لما تقرّر في بلاغ الجزائر المؤرخ في ٦ آذار ١٩٧٥م اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

أ ـ يُؤكّد الطرفان المتعاقدان ويعترفان بأن إعادة تخطيط للحدود الدولية بين العراق وإيران قد أُجريت على الأرض من جانب اللجنة المختلطة العراقية ـ الإيرانية ـ الجزائرية على أساس ما يلي :

١ ـ اتفاق القسطنطينية لسنة ١٩١٣م ، ومحاضر جلسات لجنة تحديد الحدود التركية ـ الفارسية لسنة ١٩١٤م .

٢ ـ اتفاق طهران المؤرخ في ١٧ آذار ١٩٧٥م .

٣ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع عليه في بغداد في ٢٠ نيسان ١٩٧٥م ، والذي وافق عليه . . . ضمن أمورٍ أخرٍ على محضر اللجنة

المكلفة بإعادة تخطيط الحدود البرية الموقع عليه في طهران في ٣٠ آذار ١٩٧٥م .

٤ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقع عليه في الجزائر ٢٠ أيار ١٩٧٥م .

٥ ـ **محضر وصفي لأعمال تخطيط الحدود البرية بين العراق وإيران الذي حرّرته اللجنة المكلفة بتخطيط الحدود البرية المؤرّخ في ١٣ حزيران ١٩٧٥ ، ويُؤلّف هذا المحضر الملحق رقم (١) الذي يكون جزءاً من هذا الإتفاق .**

٦ ـ خرائط من مقياس ١ / ٥٠,٠٠٠ التي رُسم عليها خط الحدود البرية ، وكذلك مواقع الدعامات القديمة والجديدة ، وتُؤلّف هذه الخرائط الملحق رقم (٢) الذي يكون جزءاً لا يتجزأ من هذا الاتفاق .

٧ ـ بطاقات الوصف للدعامات القديمة والجديدة .

٨ ـ وثيقة متعلّقة بإحداثيات الدعامات الحدودية .

٩ ـ صور جوية لتخوم الحدود العراقية ـ الإيرانية حيث يثبت عليها مواقع الدعامات القديمة والجديدة .

ب ـ يتعهد الطرفان بإكمال وضع علامات الحدود بين الدعامات ١٤ و ١٥ خلال فترة شهرين .

جـ ـ يتعاون الطرفان المتعاقدان على وضع صورٍ جويةٍ تخصّ الحدود البرية العراقية ـ الإيرانية لغرض استعمالها لرسم خطّ الحدود المذكورة آنفاً على خرائط من مقياس ١ / ٢٥,٠٠٠ مع تأشير مواقع الدعامات ، وكل ذلك في مدةٍ لا تتجاوز سنةً اعتباراً من ٢٠ أيار ١٩٧٥م لذلك تقرّر على وضع المعاهدة التي يكون هذا الاتفاق جزءاً لا يتجزأ منها ، وضع التنفيذ .

وسيجري نتيجة لذلك تعديل المحضر الوصفي للحدود البرية المذكورة في الفقرة (٥) في أعلاه .

وستحلّ الخرائط الموضوعة طبقاً لأحكام الفقرة (جـ) الحالية محلّ جميع الخرائط الموجودة .

المادة الثانية :

تتبع الحدود الدولية بين العراق وإيران الخط المبيّن في المحضر الوصفي والمرسوم على الخرائط المذكورة في الفقرتين (٥) و(٦) من المادة الأولى في أعلاه مع أخذ أحكام الفقرة(جـ) من المادة المذكورة بنظر الاعتبار .

المادة الثالثة :

إن خطّ الحدود المُعرّف في المادتين الأولى والثانية من هذا الاتفاق يُحدّد كذلك باتجاهٍ عمودي المجال الجوي وباطن الأرض .

المادة الرابعة :

يُنشىء الطرفان المتعاقدان لجنةً مختلطةً عراقيةً ـ إيرانيـةً لتسويـة وضع الأموال العقارية والمنشأت الفنية أو غيرها التي تتغيّر تبعيتها نتيجةً لإعادة تخطيط الحدود العراقيـة ـ الإيرانيـة بروح من حسن الجـوار والتعاون ، إمـا بطريق الاسترجاع بالشراء ، وإما بطريق التعويض ، وإما بأية صيغةٍ أخـرى وافيةٍ بالمرام ، وذلك لتجنّب أي مصدرٍ للنزاع . . . ستقوم اللجنة المذكورة لتسويـة وضع الممتلكات العامة خلال مدة شهرين، أما بخصوص المطالبات المتعلّقة فتقدّم اللجنة خلال فترة لا تتجاوز شهرين . علماً بأن تسويـة وضعية هـذه الممتلكات الخاصة ستتم خلال مدة ثلاثة أشهرٍ التالية لذلك .

المادة الخامسة :

١ ـ أنشئت لجنة مختلطة من السلطات المختصة للدولتين لغرض الكشف على دعائم الحدود والتثبُّت من حالتها .

ويجري هذا الكشف سنوياً في شهر أيلول من قبل اللجنة المذكورة آنفاً طبقاً لجدولٍ زمنيَ تضعه اللجنة قبل ذلك الوقت بفترةٍ مناسبةٍ .

٢ ـ يجوز لأيٍ من الطرفين المتعاقدين أن يطلب تحريرياً من الطرف الآخر قيام اللجنة في أي وقتٍ بكشفٍ إضافيٍ على الدعامات وفي هذه الحالة يُشرع

بالكشف خلال مدةٍ لا تتجاوز ثلاثين يوماً من تاريخ إبلاغ الطلب .

٣ ـ تقوم اللجنة المشتركة في حالات الكشف بتحرير المحاضر المتعلّقة به وترفعها مُوقّعةً من قبلها إلى السلطات المختصّة في كلا الدولتين ، وللجنة أن تقرّر تشييد دعاماتٍ جديدةٍ عند الحاجة بالمواصفات نفسها للدعامات الحالية شريطة أن لا يُؤدّي ذلك إلى تغيير سير خط الحدود . وفي هذه الحالة على السلطات المختصة للدولتين أن تتحقق من الدعامات وإحداثياتها على الخرائط والوثائق ذات العلاقة التي ورد ذكرها في المادة الأولى من هذا الاتفاق ، وتقوم تلك السلطات بوضع الدعامات المذكورة آنفاً في محلها بإشراف اللجنة المختلطة التي تقوم بتحرير محضر عن الأعمال التي أنجزت وترفعه إلى السلطات المختصة في كلا الدولتين لكي يُلحق بالوثائق المذكورة في المادة الأولى من هذا الاتفاق .

٤ ـ يتحمّل الطرفان المتعاقدان بصورةٍ مشتركةٍ كلفة صيانة الدعامات .

٥ ـ على اللجنة المختلطة أن تُعيد وضع الدعامات المنقولة في محلّها ، وأن تُعيد تشييد الدعامات المدمّرة أو المفقودة وذلك على أساس الخرائط والوثائق المذكورة في المادة الأولى من هذا الاتفاق مع الحرص على عدم تغيير موقع الدعامات في جميع الأحوال، وتحرّر اللجنة المختلطة في هذه الحالات محضراً عن الأعمال التي أنجزت ، وترفعه إلى السلطات المختصة في كلا الدولتين .

٦ ـ تتبادل السلطات المختصة في كلا الدولتين المعلومات المتعلّقة بحالة الدعامات ، وذلك لتأمين أفضل السبل والوسائل لحمايتها وصيانتها .

٧ ـ يتعهد الطرفان المتعاقدان باتخاذ جميع التدابير اللازمة لتأمين حماية الدعامات ومقاضاة الأفراد الذين ارتكبوا جريمة تحويل الدعامات المذكورة آنفاً عن موقعها أو إتلافها أو تدميرها .

المادة السادسة :

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أحكام هذا الاتفاق الذي جرى توقيعه

دون أي تحفظٍ يُنظّم من الآن فصاعداً أية مسألةٍ حدوديةٍ بين العراق وإيران ، ويتعهدان رسمياً أن يحترما على هذا الأساس حدودهما المشتركة والنهائية .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

د. سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

ثالثاً : اتفاق تحديد الحدود النهرية بين العراق وإيران .

طبقاً لما تقرّر في بلاغ الجزائر المؤرخ في ٦ آذار ١٩٧٥م اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام التالية :

المادة الأولى :

يؤكد الطرفان المتعاقدان ويعترفان بأن تحديد الحدود النهرية الدولية بين العراق وإيران قد أُجري حسب خط أعمق النقاط من قبل اللجنة المختلطة العراقية ـ الإيرانية ـ الجزائرية على أساس ما يلي :

١ ـ اتفاق طهران المؤرخ في ١٧ آذار ١٩٧٥م .
٢ ـ محضر اجتماع وزراء الخارجية الموقّع في بغداد في ٢٠ نيسان ١٩٧٥م الذي وافق ضمن أمور أخرى على محضر اللجنة المكلّفة بتحديد الحدود النهرية الموقّع على ظهر الباخرة العراقية (الثورة) في شطّ العرب في ١٦ نيسان ١٩٧٥م .
٣ ـ الخرائط المائية المشتركة التي بعد التحقّق منها على الأرض وتصحيحها ونقل الإحداثيات الجغرافية لنقاط خطّ الحدود في سنة ١٩٧٥م على تلك الخرائط وقّع عليها الفنيون المختصون بعلم المياه من اللجنة الفنية المختلطة ، كما صدّقها رؤساء وفود العراق وإيران والجزائر في اللجنة ، إن الخرائط المذكورة آنفاً والمحددة في أدناه قد أُلحقت بهذا الاتفاق ، وتكون جزءاً لا يتجزأ منه .

خريطة رقم (١) مدخل شطّ العرب رقم ٣٨٤٢ المنشورة من قبل الاميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٢) السدّ الداخلي في نقطة (كيدا) رقم ٣٨٤٣ المنشورة من قبل الاميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٣) نقطة (كيدا) إلى (عبادان) رقم ٣٨٤٤ المنشورة من قبيل الأميرالية البريطانية .

خريطة رقم (٤) (عبادان) إلى جزيرة (أم طويلة) رقم ٣٨٤٥ المنشورة من قبل الأميرالية البريطانية .

المادة الثانية :

١ ـ يتبع خط الحدود في شطّ العرب (التالوك) أي خط وسط المجرى الرئيسي الصالح للملاحة عند أخفض منسوب لقابلية الملاحة ابتداءً من النقطة التي تنزل فيها الحدود البرية بين البلدين في شط العرب حتى البحر .

٢ ـ إن خطّ الحدود المعرّف على الوجه المذكور في الفقرة الأولى في أعلاه يتغيّر مع التغيّرات التي يرجع أصلها إلى أسبابٍ طبيعيةٍ في المجرى الرئيسي الصالح للملاحة ولا يتغيّر خطّ الحدود بالتغيرات الأخرى ما لم يعقد الطرفان المتعاقدان اتفاقاً خاصاً لهذا الغرض .

٣ ـ يجري التحقّق من التغيّرات المذكورة في الفقرة (٢) في أعلاه بصورةٍ مشتركةٍ من قبل الأجهزة الفنية المختصة للطرفين المتعاقدين .

٤ ـ في حالة حدوث تحوّلٍ في مجرى النهر أو في مصبّ شطّ العرب بسبب ظواهر طبيعية وأدّى ذلك التحوّل إلى تغيّرٍ في العائدة الوطنية لإقليم الدولتين أو الأموال غير المنقولة أو المباني والمنشآت الفنية أو غيرها فإنّ خطّ الحدود يستمرّ في كونه (التالوك) طبقاً لما نصّت عليه الفقرة (١) في أعلاه .

٥ ـ ما لم يُقرّر الطرفان باتفاقٍ مشتركٍ بأن خطّ الحدود يجب أن يتبع من الآن فصاعداً المجرى الجديد يجب إعادة المياه على نفقة الطرفين إلى المجرى كما

كان عليه في سنة ١٩٧٥م بالاستناد إلى ما هو مُشار إليه في الخرائط الأربع المشتركة والمنصوص عليها في الفقرة (٣) من المادة الأولى أعلاه إذا ما طلب أحد الطرفين خلال السنتين اللتين تعقبان اللحظة التي تحقّق فيهـا لدى أحد الطرفين حدوث التحول وفي غضون ذلك يحتفظ الطرفان بحقّهما في الملاحة وفي استخدام المياه في المجرى الجديد .

المادة الثالثة :

١ ـ إن الحدود النهرية في شطّ العرب بين إيران والعراق ، كما جاء تعريفها في المادة الثانية في أعلاه قد رُسمت بالخطّ المبيّن في الخرائط المشتركة المذكورة في الفقرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه .

٢ ـ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على اعتبار أن نقطة انتهاء الحدود النهرية تقع على خطٍ مستقيمٍ يُوصل بين نهايتي الضفتين عند شطّ العرب في أخفض مستوى للجزر ـ أخفض مستوى للماء بالحساب الفلكي . وقد رسم هذا الخط المستقيم على الخرائط المائية المشتركة المذكورة في الفقـرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه .

المادة الرابعة :

إن خطّ الحدود المعرّف في المؤاد (١) و (٢) و (٣) من هذا الاتفاق يُحدّد كذلك باتجاهٍ عموديٍ المجال الجوي وباطن الأرض .

المادة الخامسة :

يُؤلّف الطرفان المتعاقدان لجنةً مختلطةً عراقيـةً ـ إيرانيـةً تُنظّم في مـدة شهرين وضعِ الأموال العقارية والمباني والمنشآت الفنية أو غيرها ، التي قد تتغير تبعيتها نتيجةً لتحديد الحدود النهرية العراقية ـ الإيرانية إما بطريق الشراء ، وإما بطريق التعويض ، وإما بأية صيغةٍ أخرى مُناسبةٍ وذلك لتجنّب أي مصدرٍ للنزاع .

المادة السادسة :

بالنظر إلى إنجاز أعمال المسح في شطّ العرب ووضع الخريطة المائية المشتركة المذكورة في الفقرة (٣) من المادة الأولى في أعلاه فقد اتفق الطرفان المتعاقدان على القيام بمسحٍ مشتركٍ لشطّ العرب مرةً كل عشر سنوات اعتباراً من تاريخ توقيع هذا الاتفاق ، ويحقّ لأيٍ من الطرفين أن يطلب القيام بصورةٍ مُشتركةٍ بمسوحاتٍ جديدةٍ قبل انتهاء مدة العشر سنوات .
ويتحمّل كل من الطرفين المتعاقدين نصف نفقات المسح .

المادة السابعة :

١ ـ تتمتع السفن التجارية والحكومية والعسكرية للطرفين المتعاقدين بحرية الملاحة في شطّ العرب وأيّاً كان الخط الذي يُحدّد البحار الإقليمية للبلدين في جميع أجزاء القنوات القابلة للملاحة التي تقع في البحر الإقليمي والتي تُؤدّي إلى مصبّ شطّ العرب .
٢ ـ تتمتع السفن التابعة لدولةٍ ثالثةٍ والمستخدمة لأغراض التجارة بحرية الملاحة في شطّ العرب على قدم المساواة وبلا تمييزٍ وأيّاً كان الخطّ الذي يُحدّد البحار الإقليمية للبلدين في جميع أجزاء القنوات الصالحة للملاحة والكائنة في البحر الإقليمي المؤدّي إلى مصبّ شطّ العرب .
٣ ـ يجوز لأيٍ من الطرفين المتعاقدين أن يأذن بدخول شط العرب للسفن العسكرية الأجنبية لزيارة موانئه والتي لاتعود هذه السفن لبلدٍ في حالة عداءٍ ، أو نزاعٍ مسلحٍ ، أو حربٍ مع أحد الطرفين المتعاقدين ، وعلى أن يجري إبلاغ الطرف الآخر مُسبقاً بمدة لا تقلّ عن ٧٢ ساعة .
٤ ـ يمتنع الطرفان المتعاقدان في جميع الأحوال من الإذن بدخول شطّ العرب للسفن التجارية التي تعود لبلد في عداءٍ ، أو نزاعٍ مسلحٍ ، أو حربٍ مع أحد الطرفين .

المادة الثامنة :

١ ـ يجري وضع القواعد المتعلّقة بالملاحة في شطّ العرب من قبل لجنةٍ مختلطةٍ

عراقيةٍ ـ إيرانيـةً حسب مبدأ الحقوق المتساوية في الملاحة للدولتين .

٢ ـ يُؤلّف الـطرفان المتعـاقدان لجنـةً لوضـع القواعـد المتعلّقة بمنـع التلوّث والسيطرة عليه .

٣ ـ يتعهّد الطرفان المتعاقدان بعقد اتفاقاتٍ لاحقةٍ في شأن المسائل المذكورة في الفقرتين الأولى والثانية من هذه المادة .

المادة التاسعة :

يعترف الطرفان المتعاقدان بأن شطّ العرب هو بصـورةٍ رئيسيةٍ طـريق للملاحة الدولية ، ولذلك فإنهما يلتزمان بالامتناع عن كل استغلالٍ من شأنه أن يُعيق الملاحة في شطّ العرب والبحر الإقليمي لكلٍ من البلدين في جميع أجزاء القنوات القابلة للملاحة الكائنة في البحر الإقليمي والمؤدّية إلى مصبّ شطّ العرب .

كتب في بغداد في ١٣ حزيران ١٩٧٥م .

عباس علي خلعتبري وزير خارجية إيران .

سعدون حمادي وزير خارجية العراق .

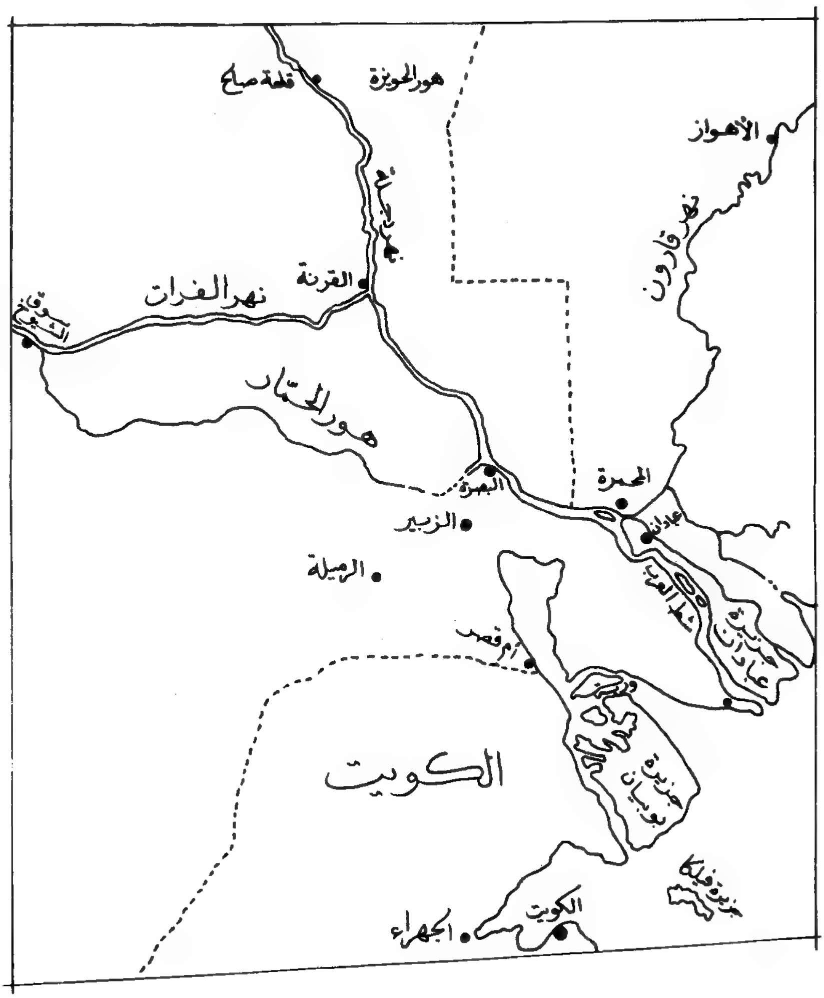
لقد تمّ التوقيع على هذه المعاهدة والاتفاقات الثلاثة وملاحقها بحضور سيادة عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر[١] .

غير أن هذه الاتفاقية كما سبق ـ أن ذكرنا ـ قد أُلغيت بقيام الحرب بين العراق وإيران في ١٣ ذي القعدة ١٤٠٠هـ (٢٢ أيلول ١٩٨٠م) ، وادعى العراق أنه قد وقّع هذه الاتفاقية مكرهاً ، ومعنى هذا أنها لم تُطبّق سوى خمس سنوات ونصف السنة .

٤ ـ **احتلال الكويت** : تعود فكرة ضمّ الكويت إلى العراق إلى قيـام الاتحاد العربي الذي شمل العراق والأردن ، إذ لاحظ المخططون أن ميزانية

---

(١) مجلة دارسات الخليج والجزيرة العربية . السنة الأولى ـ العدد الرابع . رمضان ١٣٩٥هـ .



قلعة صالح
هور الحويزة
الأهواز
نهر قارون
القرنة
نهر الفرات
سوق الشيوخ
هور الحمار
البصرة
المحمرة
الزبير
الرميلة
عبادان
شط العرب
جزيرة عبادان
أم قصر
جزيرة بوبيان
الكويت
الكويت
الجهراء
جزيرة فيلكا

الاتحاد ضعيفة، وأن الطريقة المثلى هي ضمّ الكويت ذات الإمكانات الضخمة إلى الاتحاد لتحسين الميزانية ، ولرفع مستوى الشعب في البلدان التي يتألّف منها الاتحاد . وقد قويت هذه الفكرة عندما طلب وزير الخارجية البريطاني (سلوين لويد) من الحكومة العراقية أن تتحمّل مسؤوليتها ، وتأخذ على عاتقها دفع المساعدة التي تُقدّمها الحكومة البريطانية إلى الأردن بدلاً منها .

وصل (سلوين لويد) وزير الخارجية البريطانية إلى بغداد في ٢٧ رجب ١٣٧٥هـ (٩ آذار ١٩٥٦م) لحضور الاجتماع الاستشاري للمجلس الدائم لميثاق بغداد ، ففاتحه نوري السعيد بضرورة إعلان استقلال الكويت تمهيداً لضمّها إلى حلفٍ يقوم بين العراق والأردن . فلما رجع (سلوين لويد) إلى لندن عرض الأمر على مجلس الوزراء البريطاني ، فخوّله المجلس مُفاوضة الحكومة العراقية لتحديد حدود الكويت ، ثم تمنح انكلترا الكويت استقلالها المنشود ، ويترك لها بعدئذٍ حرية الانضمام إلى الحلف المزمع قيامه .

وسافر توفيق السويدي نائب رئيس الوزارة العراقية إلى (شتورة) في لبنان في رمضان ١٣٧٦هـ(نيسان ١٩٥٧ م) حيث يصطاف أمير الكويت عبد الله السالم الصباح ، ودخل معه في مفاوضاتٍ سريةٍ طويلةٍ وهامةٍ حول ضرورة دخول الكويت في الاتحاد المرتقب بين العراق والأردن ، على ألا يمسّ هذا الدخول الوضعين المشيخي والداخلي لإمارة الكويت ، فأجاب الأمير : إنّه لا يملك حرية التصرّف في أمرٍ خطيرٍ كهذا بجرّة قلمٍ ، إذ لا بدّ من استشارة الأسرة .

وعمل نوري السعيد على إقناع أمير الكويت للقيام بزيارة العراق زيارةٍ رسميةٍ للوقوف على المشروعات العمرانية الحديثة ، والنهضة ، وقد وافق أمير الكويت على هذا الزيارة ، وتوجّه إلى العراق في ٢١ شوال ١٣٧٧هـ (١٠ أيار ١٩٥٨م) ، فاستُقبل استقبال الملوك ولما فاتحه نوري السعيد بموضوع الانضمام إلى الاتحاد ، أجابه لا بدّ من الاتصال بالإنكليز ، واستطلاع رأيهم قبل كل شيءٍ ، وهذا ما تقتضيه المعاهدة المبرمة بين الطرفين . وكان أمير

الكويت في مخططه زيارة دمشق والقاهرة ، وحاول نوري السعيد أن يثنيه عن عزمه ، فلم يُفلح ، وانتقل الأمير من بغداد إلى دمشق فالقاهرة .

وفي ٢٣ ذي القعدة ١٣٧٧هـ (١٠ حزيران ١٩٥٨م) سافر وزير الأنباء والتوجيه العراقي برهان الدين باش أعيان ومعه رئيس الديوان الملكي عبد الله بكر إلى الرياض ، وفاوضا ولي العهد ، وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود في ضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي فلم يُمانع فيها إذا كانت الكويت ترغب ذلك ، واشترط حفظ كرامة شيوخ الكويت لما لهم من فضلٍ على آل سعود .

وزار السفير البريطاني في بغداد توفيق السويدي وزير خارجية الاتحاد في داره في ٢٤ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١١ تموز ١٩٥٨م) ، وأخبره أن الحكومة البريطانية تُوافق على دخول الكويت في الاتحاد العربي بعد حصولها على الاستقلال ، وأن جميع التفصيلات ستُبحث في لندن يوم ٨ المحرم عام ١٣٧٨هـ (٢٤ تموز ١٩٥٨م) ، ولكن الثورة قامت في ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٨هـ فقضت على الاتحاد ، وبالتالي قضت على الأفكار التي كانت تُراود رجال ذلك الاتحاد .

إذن كانت فكرة ضمّ الكويت إلى الاتحاد العربي من وجهة نظرٍ ماديةٍ بحتةٍ دون النظر إلى فكرة الوحدة العربية أو الجانب الوطني ، وفي الحقيقة كانت الرغبة في الحصول على الأموال الكويتية الضخمة ، وكانت انكلترا تُؤيّد ذلك ، وتدفع إليه .

وحصلت الكويت على الاستقلال عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) .

أيام عبد الكريم قاسم : بعد أن تفرّد عبد الكريم قاسم بالسلطة ، وسار بالعراق بسياسةٍ تختلف عن سياسة بقية البلدان العربية ، لذا فقد عُزلت بلاده عن شقيقاتها ، وأخذ الهجوم الإعلامي يلعب دوره بين الطرفين ، وتأثّرت العراق بهذه العزلة اقتصادياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وعنّ على بال حاكم العراق أن يضمّ إليه الكويت ليسدّ العجز الذي يُعاني منه العراق.

ولكن خشي أن يتقدّم نحو الجنوب ، فيتحرّك الجيش السوري نحو العراق من ناحية الشمال . لذا رغب أن يأخذ الضوء الأخضر من الحكم السوري . وبعد تحرّكٍ سياسيٍ التقى ناظم القدسي رئيس الجمهورية السورية مع عبد الكريم قاسم في الرطبة بالعراق على مقربةٍ من الحدود بين الدولتين ، ولم يُعارض الرئيس السوري في ضمّ الكويت للعراق . وأحسّ أمير الكويت بما يُهيّأ له ، فتحرّك ، وتمّ عقد مؤتمرٍ في جنيف . ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى أُطيح بعبد الكريم قاسم في ١٥ رمضان ١٣٨٢هـ (٨ شباط ١٩٦٣م) وبعد شهرٍ زال حكم ناظم القدسي في دمشق أو ما كان يُعرف بحكم الانفصال ، وجيء بحزب البعث إلى السلطة في كلا البلدين مع التقاء بين البعثيين والناصريين في سوريا .

إذن كان الدافع لعبد الكريم قاسم في ضمّ الكويت إلى العراق دافعاً مادياً صرفاً ، ولم يكن هناك تفكير بالوحدة ، أو نازع وطني ، أو حرص على أموال الأمة التي تُبدّد في المحرمات أو تودع في المصارف الأجنبية لمصلحة حفنةٍ قليلةٍ ، فالوحدة تتمّ بالتفاهم ، والإيمان بضرورتها لا بالاحتلال والعمل العسكري ، وكانت انكلترا وراء ذلك أيضاً ، وتدفع هذا التيار ، وكان نفوذها هو القوي في البلدين العراق وسوريا إضافةً إلى الكويت .

أيام صدام حسين : مرّت مدة على بعض البلدان الإسلامية ، وهي تُقوّي جيوشها ، وتستعدّ للقتال الذي قد يقع مع دولة اليهود في فلسطين ، ولم تتعرّض بعض هذه الدول لأزماتٍ أو لم تتعرّض لحروبٍ مباشرةٍ كما حدث لمصر التي خضعت لاعتداءاتٍ ثلاثةٍ في مدةٍ تقلّ عن عقدين من الزمن ، العدوان الثلاثي في ٢٥ربيع الأول١٣٥٦هـ (٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦م)،وحرب ٢٧ صفر ١٣٨٧هـ (٥ حزيران ١٩٦٧م) وحرب ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) لذا فقد تأثّرت قواتها، وتراكمت عليها الديون، وبصورةٍ أقلّ من ذلك قليلاً سوريا التي تعرّضت للاعتداءين الأخيرين اللذين خضعت لهما مصر ، وهاتان الدولتان مصر وسوريا هما الرئيسيتان في الصراع مع اليهود بحكم الجوار . أما الدول المجاورة الأخرى وهما لبنان والأردن

فتعدّان أقلّ شأناً نسبياً نتيجة عدد السكان ، وإن كـان الجيش الأردني على درجةٍ من التدريب والروح المعنوية العالية . وإذا كان العراق قد شارك بالقتال فعلياً وأرسل قواتٍ ساهمت مساهمةً فعّالةً في الحرب ، وكان لها أثرها البارز إلا أن جيشه لم يتعرّض لضربةٍ قاسيةٍ ، وكذا شاركت المغرب ، والدول العربية الأخرى ، والتي لم تُشارك بالقتال عسكرياً فقد شاركت مادياً وقدّمت المزيد . وإذا كانت بعض الدول ذات إمكاناتٍ بشريةٍ كالمغرب ، والجزائر ، والسودان غير أن استقلالها جاء مُتأخّراً ، كما أن استعدادها كان على درجةٍ أقلّ نتيجة بُعد الأرض ، وعدم التماس المباشر ، والخلاصة فإنّ الجيش العراقي كان يستعدّ ، ويُشارك ، وتُسعفه إمكاناته النفطية ، وعدد سكانه ، ولم يتعـرّض لأذىً لذا بقي قوياً ، وربما يُخشى بأسه ، أو هكذا كانت دعاوي المدّعين .

وكانت إيران ذات جيشٍ قويٍ ساعدت انكلترا في بنائه، وأمريكا في تسليحه ، وأنفق عليه الشاه الكثير ، وساعد على ذلك ضخـامة السكـان ، والثروة النفطية التي تزوّد الحكومة بما تحتاج إليه من الأموال . وقامت الثورة في إيران التي عُرفت بالثورة الإسلامية ، وإذا كان قد أُبعد من القوات العسكرية بعض الضباط أصحاب الكفاءات فخسر الجيش بذلك بعض طاقاته إلاّ أن الثورة عملت من ناحيةٍ ثانيةٍ على تقـوية جيشهـا لحمايـة نفسها ضـدّ أعداء الداخل ، وأعداء الخارج ، والذين توقّعت أن يكونوا كثيرين جداً .

كانت الخطة الاستعمارية يومذاك تعمـل عى محورين ، المحـور الأول ضرب أية قوةٍ للمسلمين ، إذ يجب ألا يقوى جيش وحده أو أيّة جيوشٍ مُجتمعةٍ خوفاً من أن تُهدّد أمن دولة اليهود في فلسطين ، أو تستطيع الخروج عن إرادة الدول الاستعمارية الصليبية ، وقد رأى المستعمرون من هذا المنطلق أن يضرب الجيشان العراقي والإيراني بعضهما بعضاً حتى تزول قوتهما معاً ، وعلى هذا أخذت الدول الاستعماريـة ومن يسير في فلكهـا ، ولو كـان من الدول العربية أو الإسلامية تُساعد أحد الطرفين أو كلاهما معاً ، وتمدّه بالسلاح والمال وغيره للوصول إلى الهدف التي تُريده الدول الكبرى ، سواء أكـانت الدول

الصغرى تعرف ذلك أو لا تعرف فهي بحكم تبعيتها تسير ضمن اللعبة المرسومة ، وتُؤدّي دورها حتى بلغ عدد الدول الداعمة لأحد الطرفين أو لهما معاً اثنتين وخمسين دولةً . وليس غريباً أن تكون دولة من هذه الدول من أكبر أعداء أحد الطرفين وتُجاهر بعدائه ، ثم تمدّه سرّاً . واستمرّت الحرب بين الفريقين زهاء ثمان سنواتٍ حتى كلّ الطرفان ، وفقدا الكثير من قوة جيشيهما ، ومن إمكاناتهما ، وتعطّلت المشروعات الحيوية ، وملّ الناس في كلا الدولتين .

أما المحور الثاني فهو بثّ التفرقة بين المسلمين ، وقد أخذ الآن صفة الخلاف بين السنة والرافضة ، ويبدو أن المخطط الموضوع كان يهدف إلى مدّ جسرٍ رافضيٍ يشمل إيران ، وجنوبي العراق ، وشمال بلاد الشام (سوريا وجنوبي لبنان) إضافةً إلى إقامة دويلاتٍ صغيرةٍ للنصارى ، والنصيرية ، والدروز ، إلى جانب دولة اليهود القائمة في فلسطين ، وتكون هذه الدويلات إثارةً للخلافات وقت الضرورة ، ومجالاً للتدخّل الدولي ، ومركزاً للفتنة والفساد . وبذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب ، وبينهما الجسر الرافضي ، ويضطر الشمالي دائماً لطلب الدعم الاستعماري الغربي خوفاً من المعسكر الشرقي ، ويكون الجنوبي فقيراً باستثناء المناطق النفطية ، ويحتاج إلى المساعدة .

ولما كان الرافضة قلّة في العالم الإسلامي ، ولا تزيد نسبتهم على ٦,٤٪ من مجموع المسلمين لذا كان من الضرورة إعلان إسلامية الرافضة لتحصل على بعض التأييد من عامة المسلمين الذين يتوقون إلى الإسلام ، وقد حُرموا منه طويلاً ، وهذا ما حدث ، غير أن تنبُّه العامة إلى بطلان عقيدة الرفض ، وإعلان الخميني فكرة التشيّع صراحةً ، والعمل لها ، وهذا ما أبان أيضاً شيئاً من حقائقها التي كانت مخفيةً عن بعضهم ، لذا عاد الضمور لذلك الامتداد الذي حصلت عليه الثورة في إيران في بداية أمرها ، ولولا النشاط التعليمي والثقافي الذي نشطت به خارج حدودها ، وفي أمصار العالم الإسلامي أجمع ، على حين ضنّ به الذين يقفون منها في الصفّ المقابل ، وكذلك لولا التمسّك

بالشعائر الذي سار عليه أعوانها ، في الوقت الـذي سلك خصومهـا طريق التفلّت ، لولا هاتان النقطتان لم يتوسّع أبداً الفكر الرافضي بـل لانتهى من البداية ، وربما خرج منه بعض أتباعه . ومع هذا فقد توقّف المدّ الذي ظهر في بداية الثورة الإيرانية ، ومع هذا التوقّف كان لا بدّ من إجـراء تطويـر على المخطط الاستعماري أو على اللعبة الدولية .

تطوير في المخطط : لم تتغيّر الخطة الاستعمارية في ضرب أيّة قوةٍ إسلاميةٍ تظهر خوفاً على دولة اليهود قاعدتهم الأساسية في تأديب المسلمين وإفسادهم ، وخـوفاً عـلى مصالـح الـدول النصرانيـة الاستعـمارية ، كـما لم تتغـيّر الخـطة الاستعمارية في بثّ التفرقة بين المسلمين والعمل على إبقاء الصراع فيما بينهم تحت أسماء مختلفةٍ وصورٍ مُتباينةٍ ، وإن كانت تظهر بين المدة والأخرى بأشكالٍ جديدةٍ .

ولكن الأحداث التي طرأت على المنطقة هي التي جعلت تطويرا يحدث على المخطط . ومن هذه الأحداث :

١ء ـ الثروة التي أصبحت تتدفّق على الدول النفطية ، وخاصةً بعد عام ١٣٩٣هـ ، عندما قفزت أسعار النفط قفـزةً واسعةً إذ ارتفـع سعر الـبرميل الواحد من أربعة دولاراتٍ إلى خمسةٍ وثلاثين دولاراً . وإذا كان كثير من هذه الأموال يُبدّد في أمورٍ فرديةٍ وأسريةٍ وعلى شهواتٍ وأهواءٍ بصورٍ لا تكاد تُصدّق عند بعضهم إلّا أنه يبقى الكثير ، فيُنفق في التنمية والإنعاش والمساعدات حتى ارتفع دخل الفرد كثيراً ، وعاش الناس في رخاءٍ ، وتطوّرت البلاد ، وهذا ما لا يرضى عنه المستعمرون ، وربما كانوا يسكتون عن مثل هذا لو اقتصر الأمر عليه ، ولكن زاد الأمر إذ أصبحت المساعدات الحكومية والشعبية تصل إلى الأقلّيات المسلمة في كل مكانٍ فتتنشط بل وينطلق إليها دعاة ، وهذا لا يقبله المستعمرون ، ولا يُمكنهم السكوت عنه ، وأرادوا وضع حدٍّ له قبل أن يتفاقم هذا الخطر حسب زعمهم ، فوضعوا الخطط للوقوف في وجهه ، ولكن أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لبدء التنفيذ ، ويُعدّون أدوات التنفيذ ، والواجهات

اللازمة لذلك ، وطريقة التمثيل والإخراج .

٢ء ـ الشباب المسلم من نتائج الثروة التي تدفّقت على المنطقة افتتاح المدارس ، والمعاهد والجامعات والإقبال الشديد على العلم ، بل واستقدام طلبة من خارج المنطقة ، وجزيرة العرب مهد الإسلام ، ومركز انتشاره ، والتدين فطرة، والرغبة في الإسلام ملحّة والإقبال عليه شديد ، لذا وجد كثير من المعاهد والجامعات الإسلامية ، وكلها تُخرّج أفواجاً من طلبة العلم ، ولا شكّ أن بعضهم سيكونون من الواعين لواقعهم ، وإن كان عدد النابهين قليلاً إلا أن أثرهم سيكون مع الزمن واسعاً ، وهذا ما لا يقبله المستعمرون أبداً ، بل يخشونه أشدّ الخشية لأسباب كثيرةٍ منها صليبيتهم ، وعداؤهم للإسلام ، وحقدهم عليه ، ومنها خوفهم من التغيير الذي ربما يحدث على يد هذه الفئة ، والاندفاع نحو الإسلام الذي يُهدّد حسب مزاعم الصليبيين أوربا والحضارة الحديثة . إذن لا بدّ للمستعمرين من الوقوف في وجه هذا المدّ الإسلامي ، ولكنهم ينتظرون الوقت الملائم لوضع حدٍّ لهذا التوسّع .

إذن يكمن الخطر وراء النفط .

٣ء ـ النفط : الوقود أساس الصناعة الحديثة ، ووسيلة حركة المعامل ، والمادة الرئيسية لوسائل المواصلات ، ويأتي النفط في رأس قائمة الوقود ولا يكاد يُنافسه عنصر آخر ، لذا فهو غذاء الحضارة المادية القائمة اليوم . ومكامن النفط الرئيسية في العالم هي منطقة الخليج ، ودول هذه البقعة هي المسيطرة على هذه المكامن ، وإن كانت تتقاسم الأرباح مع الشركات الاستعمارية .

وفي القتال الذي وقع بين بعض الدول العربية وبين إسرائيل في ١٠ رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) قطعت دول الخليج النفط ، فتأثرت الدول الصناعية أيّما تأثّر ، وأحسّ المستعمرون أن صناعتهم ، وحركتهم مرتبطة كل الارتباط بمكامن النفط وبالتالي بالدول التي توجد فيها هذه المكامن، إذن لا بدّ من السيطرة عليها عسكرياً لاستمرارية ضخّ النفط ، ووصوله بشكلٍ دائمٍ إلى الدول الصناعية ذات الشأن . ووقف المستعمرون

ينتظرون الزمن اللازم لتنفيذ هذه الخطة الضرورية لهم - حسب رأيهم - ووسائل إعلامهم تُردّد دائماً لا يصحّ بقاء النفط بأيدي قلة من الشيوخ (. . . . . . .) يتحكمون في العالم وحضارته .

واندلعت الحرب بين العراق وإيران ، وأخذ الضخّ يزداد للحصول على المال ، وبدأ يتراجع السعر ، حتى عملت الدول المُصدّرة للنفط على تحديد الكميات المستثمرة لكل دولةٍ من دولها مُحافظةً على أسعار النفط ، وتوقّف الضغط على تنفيذ السيطرة على منطقة الخليج ، وإن لم يخرج من دائرة التنفيذ ، غير أن النية مُبيّتة ، وظهر هذا من كتابات وتصريحات المسؤولين في الدول الاستعمارية إذ يُؤكّد « نيكسون » على ضرورة وجود قوةٍ لبلاده في منابع النفط . كما بيّن وزير خارجيته لوزير خارجية الكويت صباح الأحمد الصباح أن الخطر قائم على الكويت ، ويكمن من ثلاث جهاتٍ ، وهي الاتحاد السوفياتي ، ودولة محلية ، وحركة موضعية . أما الخطر الأول فهو الاتحاد السوفيتي ، وهو أبعد الاحتمالات للتفاهم القائم بيننا في هذا الجانب ، وأما الدولة المحلية فيشير بذلك إلى إيران أو العراق ، وإن كان يركّز على العراق على أساس وجود محاولاتٍ سابقةٍ ، ويُبيّن قوة العراق ، وضعف الكويت النسبي ، وأما الخطر الثالث فيتوقّعه من حركةٍ إسلاميةٍ في المنطقة نتيجة المدّ الإسلامي ، ويُريد بذلك الضغط على الاتجاه الإسلامي ، لذا يطلب من وزير خارجية الكويت أن تُعطى حكومته تسهيلاتٍ خاصةٍ على أرض الكويت ، غير أن الوزير يُجيب أننا لا نطلب من أحدٍ الدفاع عنا ، وكل السفن تأتي إلينا تطلب التسهيلات في معاملتنا لها ، وأما العراق فلن تُهاجمنا لأنهم إخوة لنا ، وإنما الخوف يكمن منكم أنتم ، والدفاع المطلوب من هجومكم أنتم والاتحاد السوفيتي إذ تتفقون معاً على تقسيم المصالح ، فهذه منطقة نفطية لكم وهذه لهم .

ومع أن التقارير السرية الغربية أشارت إلى إحراج حكومات المنطقة فيما إذا تمّ إنزال قوات للمستعمرين ، حيث يُؤكّد ذلك اتهامات الشاميين لهذه

الحكومات ، إلا أنه لم تُؤخذ هذه التقارير بعين الاعتبار وأخذ الاستعداد للقيام بهذه المهمة ، واختيار الجنود المناسبين للمنطقة ، والتدريب في صحراء « نيفادا » ، وتمّ إنزال في جزيرة « غرينلندا » وآخر في « بناما » كتجارب للإنزال المطلوب ، فالنيّة مُبيّتة ، والتهيئة قائمة ، والاستعداد يتمّ ، والانتظار فقط للفرصة المناسبة .

وجاءت الفرصة المطلوبة :

١ ـ انتهت الحرب العراقية ـ الإيرانية ، وظهر أن العراق هو الدولة المنتصرة، وشعر رئيسها بشيءٍ من العظمة ، ورغب أن يُحقّق أطماعه ، وقد تعوّد أثناء القتال أن لا يُقال له : لا ، وإنما يأمر فيُطاع ، ويُشير فتُنفّذ إشارته ، كما اعتاد من قبل نتيجة الاستبداد والقسوة اللتين مارسهما ألا يُعصى في موضوعٍ ، ولا يُردّ له طلب ، ويُحبّ أن يستمرّ على هذا .

إن مثل هذه الشخصية يمكن أن يُلعب بها، وأن تُدفع في كل جهةٍ ، وتكون ورقةً رابحةً بيد من يلعب ، ويُراهن عليها .

وإن الشعب العربي في العراق الذي قاسى الكثير أثناء الحرب وعانى الكثير نتيجة الحرب يُريد أن يشعر بشيءٍ من الراحة بعدالحرب، يرغب بأن يتكلّم غير أنه ممنوعٌ من ذلك ، ويبغي أن يتحدّث حتى عن النصر ، ولكن لا يُسمح له ، ويتمنّى أن يحصل على شيءٍ من الرفاه الاقتصادي إلا أنه غير متوفّر ، الناس في ضائقةٍ ، منهم من فقد أهله ، ومنهم من شُرّد عن دياره .

إن مثل هذا الشعب إن لم يُوجّه إلى عمل خارجيٍ يشغله ، أو نصرٍ مصطنعٍ يُلهيه يمكن أن ينفجر ، وعلى راعيه أن يُحرّكه لمثل هذا الاتجاه وإلا أضرّ به ، وأزعجه ، وربما خاف المسؤول على مركزه ، ويعرف المستعمر هذا ، ويعمل على استغلاله .

وإن الجيش العراقي الذي قاتل مدة ثمان سنواتٍ ، وكان وقته كله مشغولاً بالحرب ، وظروفها ، وانتهى الصراع ، وتوقّف القتال ، وهدأ الأمر

فلا بُدّ من شيءٍ يُشغله ، وإلا تذكّر ما حدث ، وما فقد ، وما حلّ ، ومن أجل أيّ شيءٍ وقع القتال ؟ وفي سبيل من ؟ ومن استفاد ؟

إن مثـل هذا الجيش لا بـدّ من أن يعمـل عـلى جبهـةٍ ، وإلاّ سبّب إزعاجاً ، فالضباط يبغون نتائج ما حصدوا ، والجند يُريدون أجر ما قدّموا ، والأهالي يرغبون تعويضاً عما فقدوا . . . . والحالة الاقتصادية سيئة، فالبلاد خارجة من حربٍ استمرّت مدةً ليست بقصيرةٍ ، وبحاجةٍ إلى إعادة عمرانٍ بعد أن تخرّب فيها الكثير .

وأن مثل هذا الوضع الذي تعيشه العراق لا يمكن من توجيه قائدهم في أي دربٍ .

٢ ـ انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، لقد أعلن قادة المعسكر الشرقي الفشل الفكري والسياسي فألقـوا سلاحهم ، وتـوجّهوا نحـو الفكر الحرّ ، وطلبوا تقديم المساعدة من المعسكر الغربي ، ونتج عن هذا نتائج على غايةٍ من الأهمية .

أ ـ توقّف الصراع بين الشرق والغرب ، فبرز الصراع بين رؤوس المعسكر الغربي ، بين الولايات المتحدة من جهةٍ وأوربا التي تُريد أن تتوحّد من جهةٍ ثانيةٍ ، رغبةً من أوربا في عدم الخضوع للنفوذ السياسي والاقتصاد الأمريكي . وبين ألمانيا من جهةٍ وفرنسا من جهةٍ أخرى حول الـوحدة الألمانية خوفاً من قوة ألمانيا المستقبلية ، وتضع فرنسا نصب عينيها ما عانته من التفوّق الألماني ، وهـزيمة فـرنسا خـلال حروبٍ ثـلاثٍ في الحربـين العالميتين الأولى والثانية ومن قبلهما في حرب (١٨٧٠م) ١٢٨٨هـ، وبين انكلترا من جهةٍ وفرنسا من جهةٍ أخرى حول مناطق النفوذ ، ومـاضي الحروب الاستعمارية بين الدولتين معروف .

ب ـ إن المعسكر الشرقي لم يعد له ذلك الدور الذي كان له سـابقاً ليُهـدّد التصرّف الاستعماري الغربي ، وليُبدي وقوفه بجانب الدول الضعيفة من

باب المنافسة ، والكسب السياسي ، والمدّ الفكري الشيوعي ، والمتاجرة والمزاودة ، وليس من باب الإنسانية ، ومساعدة الضعيف ، وعدم وجود مصالح .

جـ ـ إن السيطرة على مناطق نفط الخليج سيجعل أوربا تخضع لمن بيدها مصادر النفط نتيجة الحاجة الماسة إلى تلك المادة التي تقوم عليها الصناعة ، وتتحرّك بها وسائل المواصلات .

د ـ إن القوات التي كانت في أوربا الغربية ، وتُعسكر هناك للوقوف في وجه قوات المعسكر الشرقي ، وتحمي أوربا من خطر المدّ الشيوعي ، ولم يعد لها الآن ضرورة ، ويجب سحبها من أوربا ، ولكن إلى أي منطقةٍ تُنقل ؟ إن تسريحها سيرفع نسبة البطالة في الولايات المتحدة من ٣٪ إلى ٧,٣٪ ، وهذا ما يُسبّب مشكلةً ، إذن يجب نقلها إلى منطقةٍ أخرى ، والمحافظة عليها ، وإذا كانت لا تُناسب البيئة التي ستنتقل إليها لاختلاف المُناخ ، فيمكن استبدالها بقواتٍ ثانيةٍ أكثر مُناسبةً للبيئة الجديدة ، وهذا ما قد حدث . ولكن يجب ألا يُرهق ذلك الميزانية إذ يجب أن تكون مُخصّصاتها على حساب الدولة التي تستضيف هذه القوات .

هـ ـ إن المساعدات التي وعدت بها دول المعسكر الغربي للشرق يجب أن تُؤمّن من جهةٍ ثانيةٍ ، ويبدو أن منطقة الخليج هي التي اتجهت الأنظار إليها لتُؤخذ منها أكبر نسبةٍ من هذه المساعدات بسبب غناها أولاً ، ولتحقيق المخطط الذي يهدف إفقارها ، كما يمكن توزيع نسبةٍ من هذه المساعدات على بعض دول العالم الأخرى تدفعها بشكلٍ غير مباشرٍ عن طريق زيادة أسعار النفط . وإن وجود مشكلةٍ في منطقة الخليج يكون مُبرّراً لارتفاع أسعار النفط ، وبذا تدفع كل دولةٍ حسب نسبة مشترياتها من النفط ، ولا ينال دول شركات استثمار النفط إلا نسبةً محدودةً جداً مع أنها هي أكثر دول العالم استهلاكاً للنفط نتيجة الصناعة المتقدّمة في بلدانها، ووسائل النقل المتطوّرة لديها ، غير أن ما تحصل عليه من أرباح بسبب ارتفاع

الأسعار يُعوّض عنها ما تدفعه .

و- إن مخازن الأسلحة لدى الدول الاستعمارية مليئة بما كانت تجمعه وقت الحرب الباردة بين الشرق والغرب لحين الحاجة ، والآن لا بدّ من صرفه لتحصل على ثمنه مُضاعفاً ، وإن وجوده بالمخازن يفسده ، كما أن الأسلحة تتطوّر باستمرارٍ ، فبقاؤه يُفقده قيمته ، وفعاليته ، ويُصبح لا فائدة منه ، وتصريفه لا يكون إلّا بإشعال حربٍ أو تهيئةٍ واستعدادٍ لذلك بإيجاد أزمةٍ ، والمنطقة الغنية هي التي يمكن أن تلتهمه بسرعةٍ وبدفعٍ مباشرٍ .

وإن معامل الأسلحة لا تزال تعمل ويجب تأمين سوقٍ لها بمواصفات كالأولى إن أمكن .

والخلاصة : وجدت الفرصة الملائمة ، وتأمّنت الوسيلة والأداة اللازمة ، وتحقّقت المصالح ، وضُمنت الأهداف .

وجدت الفرصة الملائمة بانتهاء الحرب العراقية - الإيرانية ، وانتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، واختفاء الصراع والمنافسة ، وانسحاب الروس من ميدان التهديد وتبادل المصالح .

وتأمّنت الوسيلة والأداة اللازمة للتنفيذ بإصابة الرئيس العراقي بجنون العظمة ، والاندفاع وراء تحقيق المزيد من الزعامة . هذا بالإضافة إلى بعض حُكّام المنطقة بتحمّل المسؤولية ، وطلب المساعدة ، وضمان الآخرين بعدم النقد ، والبعد عن الهجوم الإعلامي بل بالدعم وإظهار المساعدة ، ومشروعية التصرّف ، وباختصار فإن الأدوات جاهزة للعمل ، وبانتظار الأدوار التي تُعطى لها .

وتحقّقت المصالح بإيجاد مكانٍ للجنود المسحوبين من أوربا ، وسوقٍ للأسلحة الفائضة ، وتغطيةٍ للمساعدات المترتبة على الغرب للشرق ،

والسيطرة على المناطق النفطية ، وجعل أوربا ضمن دائرة الارتباط بالولايات المتحدة .

وضُمنت الأهداف بالسيطرة الصليبية ، وبوقف النشاط الإسلامي بإفقار المنطقة حيث يتوقّف الدعم ، وبتغيير بنية المجتمع الإسلامي بإفساده باستقدام أعدادٍ كبيرةٍ من الفتيات لهذا الغرض ، وإدخال المحرّمات ، والقبض على الرقبة ، وبثّ التفرقة بين المسلمين .

ولم يبق لإخراج المسرحية إلا تنفيذ اللعبة .

اللعبة : بدأت اللعبة بدفع الرئيس العراقي لاحتلال الكويت . لقد أخذت الكويت تضخّ النفط من جزيرتي « وربة » و« بوبيان » أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية ، وهذا الضخّ يصل إلى حقول النفط العراقية بـ« الرميلة » ، ولم تكن العراق لتلتفت إلى هذا لانشغالها بالحرب ، وللأموال التي تُقدّمها الكويت ، ودول الخليج الأخرى لها ، ولحاجتها في هذه الظروف العصيبة إلى أعوانٍ يقفون بجانبها لا إلى خصومٍ يزيدون من هُمومها ومُشكلاتها .

فلما انتهت الحرب طالبت العراق الكويت بتعويضاتٍ عما خسره من نفط « الرميلة » فكان جواب الكويت أننا قد قدّمنا الكثير من أجلكم ، ودفعنا الكثير لمساعدتكم ، فاحتجّت العراق بأن ما دُفع لنا لم يكن بأكثر من قيمة ما ضُخّ ، ولكننا نُطالب بثمن ما سيُضخّ في المستقبل ، وإلا فإن جزيرتي « وربة » و« بوبيان » من نصيبنا . ويبدو أنه كانت هناك مُوافقة لإعطاء العراق هاتين الجزيرتين حلاً للمشكلة ، أو أملاً في عدم وقوع أزمةٍ .

أبدت الولايات المتحدة أمام انكلترا تساهلاً وعدم اهتمامٍ في احتلال العراق للكويت ، فاندفعت انكلترا، وحرّضت صدام حسين على المضي في تفكيره ، على أنه أقرب إلى دائرة نفوذها من غيرها ، وعلى أنها ستحصل على مزيدٍ من نسبة الأرباح ، لأن حصتها في نفط العراق أكبر من غيرها . وفي

الوقت نفسه حُرّضت الكويت على الإصرار على عدم الدفع ، وأنه لا يستطيع أحد أن يمسّ ترابها مهما عتت قوته . وانكلترا هي وراء الاتحاد العربي الهاشمي ، وعبد الكريم قاسم سابقاً ومطالبتهما ودفعهما لضم الكويت ولا تزال .

اطمأنت الكويت إلى حمايتها من الولايات المتحدة ، فأصرّت على عدم الدفع ، وبكل ثقةٍ واعتزازٍ ، وشعرت العراق أنها أُعطيت الضوء الأخضر لاحتلال الكويت . فتقدّمت الجيوش العراقية في الحادي عشر من المحرم ١٤١١هـ (٢ آب ١٩٩٠م) واحتلّت الكويت .

ولم يكن هذا الاحتلال إلا كالمحاولات السابقة التي لم تكن إلا من أجل مصالح ماديةٍ حيث كانت الثورة النفطية ، وما تدرّه من منافع في بلدٍ صغير تُغري العراق البلد الكبير الذي يحتاج إلى المادة لمشروعاته الإنمائية الضخمة أو للحروب التي يخوضها ضدّ جيرانه كنوعٍ من أنواع المغامرة .

الأحـــداث :

أولاً : أخذت أجهزة الإعلام العالمية ووسائلها المختلفة تُبالغ وتُضخّم من قوة العراق حتى وضعتها في رأس الدول الكبرى بما تملكه من أسلحةٍ كيماويةٍ ، ومُعداتٍ حربيةٍ ، وقوىً بشريةٍ مُدرّبةٍ تزيد على المليون ، وتُردّد أن العراقيين لم يكتفوا بالكويت ، وإنما يريدون التوسّع في المنطقة ويحشدون قواتهم على الحدود[1] ، وذلك لـ :

أ ـ تتأكّد الدول المجاورة أنها لا طاقة لها بمقاومة القوات العراقية ، ولا بدّ لها من دعوة الدول الكبرى ذات العلاقة بشؤون النفط لحمايتها .

ب ـ تخاف الدول النصرانية من نشوء قوةٍ إسلاميةٍ ضخمةٍ قد تتعاظم أكثر فيما لو امتدت وتوسّعت لتشمل مناطق ثانيةٍ ، وربما انطلقت موجة إسلامية من جديدٍ ترفع راية الجهاد كالسابق لتُحطّم الحضارة المادية القائمة

---

(١) لم ينو العراقيون التوسّع خارج حدود الكويت ، ولم يحشدوا قواتهم على الحدود الخليجية المجاورة ، وإنما بقوا على بعد مائة كيلومتر منها .

اليوم . ولتشعر الدول النصرانية بضرورة تقوية دولة اليهود في فلسطين ودعمها لتقف في وجه المد الإسلامي . هذا مع العلم أن رئيس العراق صدام لم يُفكّر في حياته بالموضوع الإسلامي ، فهو رجل علماني ، مُعادٍ للإسلام .

ثانياً : جاءت قوات أجنبية ، أو طُلبت ، ونزلت في منطقة الخليج ، ومعها فتيات يعملن في الخدمة العسكرية ، أو يُرافقن الجيش للترفيه ؛ ومع القوات كل متطلباتها من أغذيةٍ ومشروباتٍ عرفها الخليج بصورةٍ علنيةٍ لأول مرةٍ في التاريخ ، وأخذت القوات تتجمّع في سبيل الردع العراقي[1] ، وشاركت أعداد من الجنسيات إذ كان شبه إجماعٍ عالمي على إدانة العراق في احتلالها للكويت . وكان على دول الخليج أنْ تتحمّل نفقات هذه القوات كلها . وكانت التصريحات أن الإقامة ستبقى حتى تستقرّ الأوضاع ، والاستقرار كلمة مرنة يُفسّرها صاحب القوة حسبما يريد ، بل كانت بعض هذه التصريحات تُشير إلى البقاء إذ جاء في بعضها : أننا لسنا على استعدادٍ لأن نُدعى كل عشر سنواتٍ . وهذا يهدف إلى :

أ ـ إفقار دول الخليج بدفع كامل نفقات القوات الضخمة التي شملت دولاً كثيرةً ، بل شارك بعضها للحصول على بعض المغانم عن طريق قواته .

ب ـ تغيير بنية المجتمع بإدخال الفساد عن طريق الفتيات ، والمحرّمات التي تُعدّ من متطلبات القوات الأجنبية التي هي القوة الرئيسية .

جـ ـ التحكّم الدائم بالثروة النفطية وتوزيعها حسب مصلحة القوي .

ثالثاً : **الكويت** : لم تستطع الكويت مُقاومة العراق للفارق في العدد ، والاستعداد ، وعنصر المفاجأة . وخرجت أعداد من البلاد مُشرّدةً ، تاركةً أملاكها وأموالها ، واتجهت إلى دول الخليج الأخرى ، ووقعت بعض الحوادث

---

(١) كانت العراق تقف تنتظر تجمّع القوات حتى تتكامل لتتلقّى الضربة القاتلة منها .

المؤلمة والمؤسفة من جانب الغزاة ، وقد بالغت فيها وسائل الإعلام ، وضخّمتها لدرجةٍ لا تكاد تُصدّق ، وأخرجت العراقيين من كل معاني الإنسانية ، والخلق ، وما هم في الحقيقة سوى جزءٍ من الشعب العربي ، وإن كان حزب البعث قد ساهم في التفلّت والتنكّر للقيم[1] ، وزاد الرئيس العراقي في هذه المساهمة وربما بالتعليمات التي أعطاها للقوات الغازية . وكان من أثر هذا التشريد ومبالغة وسائل الإعلام فيه .

أ ـ خوف سكان الخليج لدرجةٍ كبيرةٍ توقّعوا معها أن الحرب ستندلع بعد ساعاتٍ قليلةٍ ، وستدمّر كل شيءٍ ، وأنهم سيفقدون أملاكهم وأموالهم ، وسيُشرّدون كما حدث لأهالي الكويت ، وكأن كل فرد هو الهدف نفسه ، ولم تغب عن أحدهم أبداً صورة الأملاك والأموال لذا أصابهم الهلع ولم يعد من مانعٍ عندهم من طلب حماية أي جهةٍ مهما بلغ عداوتها السابقة لهم أو للإسلام .

ب ـ إسهام بعض الفتيات الكويتيات بنصيبٍ من الفساد ، إذ أن الكويت قد قطعت شوطاً في هذا المجال إذا ما قارناها مع السعودية وقطر اللتين تعدّان أكثر الدول مُحافظةً على القيم .

رابعاً: العراق: يبدو أن قسماً من الجيش العراقي لم يُوافق قائده على تصرّفه ، ولكن الخوف والضغط يُجبرانه على السكوت ، وكل من يُبدي أي تذمّرٍ زال وانتهى ، وأما الشعب فلم يقبل هذا أبداً ، وإذا كانت فكرة الوحدة

---

(١) قبل مدةٍ كانت وسائل الإعلام المحلية تُحاول أن تُغطّي جرائم الرئيس العراقي في قتل الأكراد جماعياً في قرىً كاملةٍ بالغازات السامة ، ومن هذه القرى « حلبجة » ، وتتهم وسائل الإعلام هذه ما ينشر في الخارج أنها دعايات مغرضة ضدّ الرئيس العراقي فلما قام بفعلته هذه وغزا الكويت ، انقلبت الآية ، ولكن كما بالغوا في الدفاع عنه بالغوا في الهجوم عليه حتى وصل الأمر عند بعضهم أن أخذوا يُردّدون بعد أن عُرض فيلم مُشوه، وكان يُظنّ فيهم العقل من قبل ، أن الجنود العراقيين قد جمعوا أطفال قريةٍ مع أمهاتهم وأخذوا يكسرون رؤوسهم على الدبابات ، ويستخرجون أدمغتهم أمام الأمهات ، وهذه دعايات ضدّنا عامةً ـ إذ لم نُسبق عليها ـ إذ كلنا نحمل اسماً واحداً عند الصليبيين هو « مسلمون » .

العربية تبرز عند بعضهم لكن على أن تتمّ بالتفاهم لا بالأعمال العسكرية والاحتلال بالقوة ، وقد اختفت زعامات عن الساحة تباعاً .

والغريب أن الرئيس العراقي أخذ يتكلّم بالإسلام ، ويدعو إليه ، وهو المعروف مدى حياته بعداوته للدين ، وتنكّره له ، لذا كانت دعوته باهتةً ، ومحكوم عليها أنها دعوة مصلحةٍ اقتضتها الضرورة ، فجاءت باردةً لم يقبلها منه أحد ، ولم يقتنع بها فرد .

وأما الحجة التي لا يملّ من ترديدها هي تبديد حُكّام الكويت لثروة بلادهم على شهواتهم بشكلٍ لا يقرّه عقل إذ تُعطى عشرات الملايين من الدولارات في قضاء ساعات شهوة ، وهذه الثروة من حقّ (الأمة العربية) حسب اصطلاحه ، ومن هذا المنطلق أعلن توزيع النفط مجاناً للدول التي من العام الثالث ، ولم يشترط أن تكون عربيةً ، وهذا حقّ (الأمة العربية) على زعمه ، فكيف يُبدّده هو أيضاً ؟ ، ويُهاجم حُكّام دول الخليج كلهم ويتّهمهم الاتهامات نفسها .

خامساً : دول الخليج : أخاف الإعلام سكان دول الخليج ، وهم الذين اعتادوا على الرفاهية والاستقرار ، وظنّوا أنه مصيبهم ما أصاب الكويت ، فوضعوا نصب أعينهم المال والأملاك فتمسّكوا بها ، وطلبوا النجاة من أي مصدرٍ ، وأيّدوا استقدام أيّة قوةٍ ، لم يختلف في ذلك الملتزمون من خريجي الجامعات وأساتذتها عن غيرهم ، وهذا يدلّ على ضعف الإيمان . وظهر أن الحكومات لم تكن لتستعد لمثل هذا اليوم .

أيّد عدد كبير من العلماء استدعاء القوات الأجنبية ، وإن كانت استدلالاتهم بقضايا فرديةٍ لا يُستشهد فيها ، فاستئجار إنسانٍ ، والاستعار من فردٍ لا تُقارن مع طلب حماية دولةٍ تُعدّ أكبر قوةٍ في العالم[1] ، وارتاح السكان

---

(١) لم يدرس هؤلاء العلماء الوضع العسكري ، ولم يروا الحشود على الحدود ، ولم يعرفوا ملابسات الوضع ، وإنما أعطوا الفتوى حسبما وصف لهم الوضع ، وتأييداً للمسؤولين .

لقول العلماء ولتصرّف الحكام . والنيّة في أذهان المسؤولين أن هذه القـوات ستعود إلى بلدانها بمجرد هدوء الأوضاع ، وعدم بقاء الحاجة إليها . ولم يكن طلبهم أكثر من انسحاب العراق من الكويت وعودة الحكومة الشرعية ، ولا يبدون أي تخوّف من القوات التي جاءت للدفاع ضدّ أطماع العراق وتهوّر رئيسه .

سادساً : الدول العربية : اجتمع مجلس جامعة الدول العربية اجتماعاً طارئاً لمناقشة الوضع ، فاختلفت الوفود ، وحصلت بعض المشادات الكلامية ، وخاصةً بين العراق والكويت ، بعضها من انتقد الاحتلال العراقي العسكري للكويت ، وبعضها من انتقد طلب القوات الأجنبية[1] .

وساهمت بعض الدول بإرسال قواتٍ إلى منطقة الخليج وهي : سوريا ومصر . وتطوّر هذا الخلاف إلى انتقال الجامعة من تونس إلى مصر ، أو بقائها . وإلى استمرارية عمل الجامعة والفائدة من ذلك ما دامت لا تستطيع أن تحلّ خلافاً يحدث بين أعضائها ، ولا تتمكّن من ردع دولةٍ معتديةٍ على جارتها وشقيقتها .

سابعاً : المسلمون : لم يقتصر الخلاف بين الحكومات بل امتدّ إلى الشعوب بل وإلى الأفراد ، حتى غدا الأمر شبه فتنةٍ لما وقع . وبعض الأحيان كانت الشعوب على طرفي نقيضٍ مع حكوماتها . فالعلماء البارزون في مصر قد أيّدوا حكومتهم وموقفها ، وأيّدوا الاستعانة بالقوات الأجنبية ، ومن أمثال هؤلاء : مفتي مصر محمد سيد طنطاوي ، وأحمد عمر هاشم نائب مدير جامعة

---

(٢) أيّد طلب القوات الأجنبية كل من : سوريا ، ولبنان ، ومصر ، والسعودية ، والكويت ، والبحرين ، وقطر ، والإمارات ، وعُمان ، وجيبوتي ، والصومال ، والمغرب ، وأدانوا العراق ، وطالبوه بالانسحاب ، وقد حصلوا نتيجة التصويت على الأكثرية (١٢) عضواً .
وأيّد العراق أو تحفّظ ، وأدان طلب القوات الأجنبية كل من : العراق ، فلسطين ، الأردن ، اليمن ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، موريتانيا (٨ أعضاء) .

الأزهر ، ومحمد متولي شعراوي ، وأفتى من لم يُفت من قبل ، وصار الحديث والتصريح وسيلةً للظهور ما دامت هناك وسائل الإعلام تتلقّف الأخبار ، وتُعلن استعدادها للنشر مهما كان المستوى العلمي أو الموضوعي .

واجتمع مجلس العلماء في مكة المكرمة ، وأعطى تأييده المباشر للسعودية ومجموعتها . وربما أيّدت بعض الحركات هذا الجانب وبعضها ذاك ، وقد تبدّل موقف بعضها ، وتغيّر حسبما اقتضت المصلحة السياسية الخاصة بأفرادها . وربما وجد من انتقد الطرفين .

والخلاصة كانت فتنة بين المسلمين خطط لها المستعمرون ونجحوا في بثّ الفرقة وإثارة الخلاف الشديد ، سقط فيه الناس ، وتاهوا ، وتعصّب بعضهم لرأي بعض بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ .

ويكفي أن يكون منهم أداةً لتنفيذ المخططات .

وتجمّعت القوات المتعددة الجنسيات في منطقة الخليج ، وفُرض حصار على العراق بحراً ، وبراً ، وجوّاً ، وإن كان بعضهم يُشكّك في جدية هذا الحصار .

بحث مجلس الأمن الموضوع ، وقرّر إلزام العراق على الانسحاب من الكويت ، وإن لم تجد الطرق السياسية والوسائل السلمية فلا بدّ من اتخاذ القوة وأُعطي مهلةً للانسحاب ١٥ كانون الثاني ١٩٩١م (٢٩ جمادى الآخرة ١٤١١هـ) ، ولا شك أن مجلس الأمن تُسيّره وتحرّكه الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن العراق لم يُبال بهذا القرار رقم (٦٦٠) بل عدّ الكويت جزءاً من العراق ، وأطلق عليها اسم (كاظمة) ، وأخذ يُردّد دائماً أن الكويت ليست سوى جزءٍ من العراق انتزعها المستعمرون منه ، والآن عادت إلى الأرض الأم ، وربما كان موقف العراق هذا ينبع من :

١ ـ الاعتماد على الأسلحة التي كدّسها في أراضيه ، فما ترك فرصةً لشراء الأسلحة إلا واهتبلها من أي مصدر كانت ، سرّاً وعلناً . واستفاد من

ثرواته النفطية ومن الأموال التي أخذها من دول الخليج مساعدةً أثناء الحرب مع إيران ، وقد حصل على دعم عسكري ومالي كبير أثناء الحرب مع إيران من مختلف الجهات دول الخليج ، وأمريكا ، وروسيا .

٢ ـ الاعتماد على التحصينات التي أقامها ، ومخابىء الطائرات ، والملاجىء ، وكلها من النوع القوي جداً ، وقد جهز الكويت بهذه التحصينات إذ بدأ بالعمل بها بعد احتلالها مباشرةً .

٣ ـ انتصاره على إيران .

٤ ـ الاعتماد على القوى الشعبية في البلدان العربية والإسلامية فيما إذا دخلت دولة اليهود في فلسطين الحرب ضدّ العراق ، إذ كان يُخطّط في ذهنه أنه باستطاعته إثارتها فيما إذا هاجمها بالصواريخ ، بل كان يعتقد أن كثيراً من الدول العربية والإسلامية ستُغيّر موقفها فيما إذا دخلت دولة اليهود الحرب إلى جانب الدول المتحالفة ضدّه .

٥ ـ الاعتماد على بعض الدول الأجنبية التي يبدو أنها كانت تدفعه ، ومنها : الامبراطورية الروسية ، وفرنسا ، وربما تصوّر أن الوضع سيكون لصالحه إذ أن أوربا ستدعمه حتى لا تكون تابعةً للولايات المتحدة وخاصةً بعد سقوط رئيسة وزراء انكلترا « مارغريت تاتشر » التي كانت تتبع بشكلٍ عامٍ سياسةً قريبةً من سياسة الولايات المتحدة ومجيء (جون ميجر) إلى السلطة ، وفي نيته السير بسياسة استقلالية عن أمريكا .

٦ ـ ويجب ألا ننسى السياسة الاستبدادية التي يسير عليها الرئيس العراقي حيث لا يستطيع أحد أن يُبدي آراءً تخالف آراءه ، فحسبها طاعةً ، وصواباً لآرائه .

واقترب الموعد المحدد ، واقترح (جورج بوش) لقاء وزير خارجية الولايات المتحدة مع وزير خارجية العراق ، وكذلك لقاء بين رئيس الدولتين الولايات المتحدة والعراق . ولكن ردّ العراق على هذا الاقتراح كان بطيئاً ، وفيه عدم اهتمام ، وهذا ما أزعج الرئيس الأمريكي (جورج بوش) ، وأخيراً

التقى وزير خارجية العراق (طارق حنا عـزيز عيسى) مـع وزير خـارجية الولايات المتحدة (بيكر) في جنيف ، ولم ينتج عن هذا اللقاء أي شيء ، وإنما كرّر وزير خارجية العراق ما اعتادوا تكراره .

١ ـ رفض الأسلوب الذي تُعامـل به الـولايات المتحـدة بقية دول العـالم ، ونظرةالاستعلاء التي تنظرها الولايات المتحدة لغيرها .

٢ ـ ضرورة معاملة الولايات المتحدة للدول الأخرى معاملة الند ، لا معاملة السيد للعبد .

٣ ـ لماذا تسكت الولايات المتحدة وغـيرها عن قـرارات مجلس الأمـن التي صدرت بالنسبة إلى القضية الفلسطينية ، وتتشدّد في هذا القرار الذي اتخذ بحق العراق .

٤ ـ استعداد العراق للانصياع لقرار مجلس الأمن رقم (٦٦٠) فيما إذا نفذت دولة اليهود في فلسطين ما اتخذ بحقها من قرارات .

وكـان لهذه اللهجـة من وزير خـارجية العـراق الصدى الحسن لـدى الشباب في الشعب العربي والأمـة الإسلاميـة ، لما فيـه من وقوف في وجـه أمريكا ـ حسب زعمهم ـ .

وجاء الأمين العام للأمم المتحدة (خافير بيريز دي كويلار) إلى بغداد ، وحاول أخذ كلمة الانسحاب من الرئيس العراقي ، ولو في المستقبل ، لكنه لم ينجح ، وفشل الأمين العام فشلاً واضحاً ، كما قامت فرنسا بمبـادرة للحلّ السلمي لكن دون جدوى ، كما رفضت الولايات المتحدة المبادرة الفرنسية . وجاء الموعد المحدّد ، ولم يحدث جديد على الساحة .

وبعد يومين من انتهاء الموعد المحدد كآخر مهلةٍ للعراق للانسحاب من الكويت ، بدأت القوات المتحالفة بالهجوم على العراق والكويت بالطائرات في الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢ رجب ١٤١١هـ (١٧ كانون الثاني ١٩٩١م) ، وأذاعت مُباشرة أن القوات المتحالفة قد قضت على القوة الجوية العراقية ، وأبادت الحرس الجمهوري ، وربما كان هذا البيان قد أُعد سابقاً

قبل القتال . ويقصد من هذا البيان الحرب النفسية وإضعاف الروح المعنوية لدى القوات العراقية ، لكن هذا أعطى عكس ما أريد منه إذ ارتفعت الروح المعنوية لدى الجيش العراقي عندما علم عدم صدق إعلام الخصم .

ولكن لم تلبث أن خرجت القوة الجوية العراقية من المعركة إذ لم تستطع عمل شيءٍ ، إنما بقيت في مخابئها ، وأخذت العراق تُهرِّب طائراتها العسكرية والمدنية إلى خارج العراق ، فإيران وصل إليها ما يقرب من مائتي طائرةٍ عسكريةٍ . وأعلنت إيران أن كل طائرة من أي طرفٍ تهبط على أرضها ستحجز ، ولن تسلّم إلا بعد نهاية الحرب .

واستمرّ القصف الجوي على العراق والكويت خمسة أسابيع (٢ رجب حتى ١٠ شعبان) اتخذت فيه أضخم الطائرات ، وأكثر المدافع ثقلاً ، بل وأُلقيت قذائف (النابالم) المحرقة ، وقيل أن ما أُلقي من متفجرات يفوق بأربع مرات ما أُلقي على مدينة (هيروشيما) اليابانية في الحرب العالمية الثانية . وأثناء هذه المدة اجتمع مجلس الأمن عدة مراتٍ ، وقُدّمت عدة مبادراتٍ سلميةٍ ، كان آخرها من إيران ، ومن روسيا ، وكانت المبادرة الروسية قريبةً غير أن الولايات المتحدة لم تكن على استعدادٍ لقبول أية مبادرةٍ لأن أهدافها لم تتحقّق بالمبادرات . ورغم أن العراق قد وافقت على الانسحاب من الكويت حسب المبادرة الروسية بمهلة ثلاثة أسابيع غير أن الولايات المتحدة أصرّت على أسبوعٍ واحدٍ .

أما العراق فكانت تقذف بصواريخ أرض أرض (سكاد) على دولة اليهود لعلّها تدخل الحرب إلى جانب الدول المتحالفة فيتفكك التحالف إذ تخرج منه الدول الإسلامية مثل سوريا ، ومصر ، والمغرب ، وباكستان وغيرها ما دامت دولة اليهود عدوّة الإسلام تُقاتل ، ولكن الولايات المتحدة ، وانكلترا قد ضغطتا عليها لتضبط نفسها ، ولا تقوم بردّ فعلٍ ، وانتهت الحرب ، ولم تستطع العراق إدخال دولة اليهود الحرب ، غير أن هذه الدويلة كانت تُصرّح بأنها ستقوم بردّ الفعل في الوقت الذي تراه مناسباً ، وستحتفظ لنفسها بهذا

الحقّ . وكانت إيران تُهدّد بدخول الحرب إلى جانب العراق فيما لو حدث اعتداء يهودي أو مُشاركة في الحرب . كما كانت العراق تُوجّه صواريخها إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ، وإلى مدينة الجبيل ، والظهران ، وحفر الباطن ، وأحياناً إلى البحرين، غير أنه كثيراً ما كانت الصواريخ المضادة من نوع (باتريوت) تعترض سبيل الصواريخ العراقية، وتفجّرها في الجو قبل أن تقع ، ولكن الشظايا المتساقطة والحطام كثيراً ما يُسبب بعض الأضرار إضافةً إلى الصواريخ التي تتفلّت من المضادة مع العلم أن بعضها كان يسقط في البحر أو يقع في مناطق خالية لاتساع الصحراء .

وعُقد مؤتمر في مكة ضمّ عدداً من المشايخ تأييداً لموقف المملكة العربية السعودية ، وعقد مؤتمر آخر في بغداد أيّد العراق وموقفها . كما أن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قد أقامت مهرجاناً للجهاد وتحدّث فيه عدد من الشيوخ تأييداً للسعودية .

وأسرعت الإمبراطورية الروسية بمبادرةٍ جديدةٍ ، وزار موسكو وزير خارجية العراق طارق حنا عزيز عيسى ، وأبدى ملاحظات العراق ، ورجع إلى بغداد لتلقي التعليمات والتوجيهات من الرئيس العراقي ، وأبدى استعداده للانسحاب بشروط ، ورفضت الولايات المتحدة إلا الانسحاب دون قيدٍ أو شرط . وعملت موسكو كثيراً على تأخير الهجوم البري دون جدوى .

واستطاعت دول التحالف إنزال الكثير من الخسائر في العراق سواء في ضرب القواعد الصاروخية ، والمطارات ، والطائرات الجاثمة في مخابئها ، ووسائل الاتصالات ، والجسور ، والملاجىء والتحصينات ، والمنشآت ، والعسكريين ، والمدنيين ، ولم تستطع العراق أن تقوم بأي مقاومةٍ سوى ما تطلقه من صواريخ قليلة الجدوى ، ومع كل هذا كانت التهديدات العراقية ، وإعلان الإيمان بالنصر ، وانتظار القتال البري الذي تتمنّاه .

بدأت المعركة البرية في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الأحد العاشر من شعبان ١٤١١هـ (٢٤ شباط ١٩٩١م) بعد ثلاثة أيامٍ من الرمي التمهيدي

المكثّف إضافةً إلى قذائف (النابالم) المحرقة ، والمحرّمة دولياً ، وكان العراق قد أحرق ما يقرب من مائة وخمسين بئراً من النفط فتشكّلت طبقة سوداء من الدخان لتُعيق الطائرات المهاجمة من رؤية أهدافها ، والرصد ، ولتحول دون تحديد الأهداف بدقةٍ من الأقمار الصناعية . كما فجّرت كثيراً من آبار النفط ، ودفعت بالنفط إلى مياه الخليج فتشكّلت طبقة واسعة من الزيت . وكان الهدف منها تعطيل محطّات تحلية المياه التي تعدّ أكبر محطّات في العالم ، والتي تمدّ المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وعاصمتها الرياض . كما كانت تهدف من وراء ذلك إلى إشعال الزيت لإحراق القطع البحرية الموجودة في الخليج والتي تُوجّه نيرانها إلى العراق . وتحطّم الزوارق العراقية ، والناقلات ، وتُفجّر الألغام التي وضعت في مياه الخليج . غير أنه بُذلت جهود ضخمة لحصر بقعة الزيت .

كما أن العراق كان قد حصّن مواقعه في الكويت تحصيناً منيعاً في الأشهر الخمسة والنصف التي احتلّ بها الكويت إذ جعل على الحدود مع السعودية ، تلالاً من الأتربة ، وخنادق مليئة بالنفط ، وأخرى بالأتربة كحواجز للدبابات .

كانت الطائرات التابعة للدول المتحالفة ترمي بقذائفها من علوٍ شاهقٍ ، خوفاً من المدافع المضادة ، ومصادر النيران الأرضية ، وكذلك فإن الجو لم يكن مساعداً للرؤية بشكل جيدٍ إضافةً إلى دخان الحرائق التي تنشب ، والقذائف التي تتفجّر ، لذا لم تكن الإصابات دقيقةً وربما هذا ما شجّع العراق على خوض الحرب البرية إذ توقّع أن تكون الهجمات الجوية قليلة الأثر ، وأن التحصينات قوية عند قواته تحول دون تقدّم القوات المتحالفة ، وخاصةً أن هذه القوات تصرّح وتدعي أن هدفها فقط هو إخراج العراق من الكويت ، وليس لها من هدفٍ آخر ، لا باحتلال أرض العراق ، ولا بتجزئتها ، ولا بإسقاط نظام الحكم القائم ، وهذا ما أغرى العراق ، حيث لم يتوقّع أن يكون الهجوم إلاّ من حدود الكويت ، فإن استطاع الصمود فهو نصر له ، وإن لم

يستطع انسحب من الكويت وانتهى الأمر ، وأن وقوفه أمام دول العالم يعدّ نصراً له ، ولم يتوقّع أن يأتي الهجوم من ناحية الغرب حيث تمتدّ الحدود العراقية ـ السعودية على مسافاتٍ طويلةٍ وسط الصحراء .

بدأت الحرب البرية ، وأذاعت القوات المتحالفة أنها تقدّمت على طول الحدود مع الكويت ، واستطاعت اختراق التحصينات العراقية على عدة محاور ، كما أنها احتلّت جزيرة (فيلكا) ، وقامت بإنزالٍ بحريٍ على الساحل الكويتي ، وإنزالٍ جويٍ في شمالي العراق . وادّعت العراق أنها احتوت الهجوم الأول ، وصدّت القوات المتحالفة ، وفي اليوم الثاني أذاعت القوات المتحالفة أنها تقدّمت مسافة خمسين كيلومتراً ، وادعت العراق أنها قد أسرت عدداً كبيراً من الخصوم ، كما استسلمت مجموعة من القوات المصرية .

ومع ذلك فقد وافق العراق على وقف إطلاق النار بناءً على المبادرة الروسية ، ولكن الولايات المتحدة رفضت ذلك ، وطالبت العراق بالانسحاب من الكويت ، وترك أسلحته كاملةً فيها ، وأعلنت أن الحرب لا تزال مستمرةً حتى تخضع العراق لقرارات مجلس الأمن كاملةً ، واستمرّ القصف الجوي ، والتقدّم العسكري ، وأعلنت العراق موافقتها على الانسحاب من الكويت بناءً على قرار مجلس الأمن رقم (٦٦٠) ، غير أن الرئيس الأمريكي (جورج بوش) أعلن أن على العراق التعهد بدفع كامل تعويضات خسائر الحرب .

وفي الليلة الخامسة من الهجوم البري شهدت بغداد أعنف الغارات الجوية ، وجرى إنزال جوي خلف الوحدات العراقية من القوات الأمريكية والفرنسية ، وزعمت العراق أنها قد أبادت عناصر الإنزال الجوي ، كما جرت معركة ضارية بالدبابات ، وأذاع كل طرفٍ أنه أحرز النصر .

وفي منتصف الليل وافق العراق على قرار مجلس الأمن كاملاً ، وعلى كل ما شرط عليها ، وفي الساعة الخامسة ألقى الرئيس الأمريكي جورج بوش خطاباً بعد اتصاله برئيس الوزراء البريطاني (جون ميجر) ، والرئيس الفرنسي

(فرانسوا ميتران) ، وأعلن في خطابه الموافقة على وقف إطلاق النار بدءاً من الساعة الثامنة صباحاً حسب توقيت بغداد ، ضمن الشروط الآتية :

١ ـ يجب على العراق إطلاق جميع الأسرى من دول التحالف .
٢ ـ إعادة الكويتيين الموجودين في العراق إلى الكويت .
٣ ـ إرشاد دول التحالف إلى الألغام المزروعة في البر والبحر .
٤ ـ التقيّد بوقف إطلاق النار ، وإن إطلاق أي صاروخٍ معناه استمرارية القتال .
٥ ـ الموافقة على شروط قرار مجلس الأمن كاملاً .

وجاء الوقت المحدّد ، وتوقّف إطلاق النار . وبقيت قوات الدول المتحالفة متمركزةً في العراق ريثما تتخذ الإجراءات اللازمة بعد المباحثات العسكرية ، ومناقشات مجلس الأمن في وضع العراق الجديد .

النتائج : حقّقت الولايات المتحدة الأمريكية كل ما خطّطت له ، وكانت هي المستفيدة الأولى من هذه الحرب ، وكذلك فإن دولة اليهود قد ضمنت فوائد كبرى بزوال أكبر قوةٍ معاديةٍ لها ، وبأموالٍ حصلت عليها كمساعدات باسم ما لحقها من أذى ، ولم تكن تحلم بالحصول على ما حصلت عليه من الولايات المتحدة ، ومن ألمانيا وغيرها . وكانت الخسارة العظيمة على المسلمين ليسوا كدولٍ فحسب وإنما كأمّة أصابتها التفرقة والاختلافات ، وربما حصلت بعض الدول العربية والإسلامية على بعض المنافع المادية مثل مصر ، وسوريا ، وتركيا ولكنها كأجزاء من أمةٍ أصابتها نكبة داخلية ، ضربتها في الصميم ، وربما كان هذا كله نتيجة ما أقدم عليه صدام حسين رئيس العراق . وإننا نجمل النتائج بما يأتي :

أولاً : تحطيم القوات العراقية التي أُنفق عليها الكثير من أموال الأمة الإسلامية ، والتي يجب أن تكون قوةً لهذه الأمة وتحقيق أمانيها وأهدافها ، ومنها استعادة فلسطين وطرد اليهود . غير أن الولايات المتحدة الأمريكية خاصةً وبقية الدول النصرانية لا يمكنها أن تسمح لقوةٍ مسلمةٍ أن تتجاوز حداً

مُعيّناً لضمان سلامة دولة اليهود أولاً ، وخوفاً من تجمّع الأمة المسلمة ، ودحر الصليبية ، ولا شك أن تحطيم القوات العراقية من أول مطالب دولة اليهود . وكان الحاكم العراقي السبب فيما أصاب بلاده .

ثانياً : العمل على إفقار دول المنطقة كي تُخفّف من مساعداتها الإسلامية ، ونشاطاتها الدينية ، فالصليبيه لا تريد إرسال مساعدات للمنظمات والمراكز الإسلامية التي تُعدّ في نظر الصليبيين غزواً لهم في عقر دارهم . كما لا تريد استقدام طلاب العلم إلى قلب الجزيرة العربية يحملون الدعوة السلفية ، والفكر السليم ، وفتح الجامعات الإسلامية . ولعلّ من أول ما ظهر أثره إغلاق مئات المستوصفات في باكستان التي كانت تتلقّى الجرحى الأفغانيين ، وكانت تقوم على أموال المحسنين من الكويت ، إذ ذهبت أموالهم ، فانقطعت مساعداتهم ، ودفعت دول الخليج وخاصة السعودية والكويت الكثير من نفقات الحرب ، ومن المساعدات .

ثالثاً : السيطرة على مكامن النفط حيث التفكير بهذه السيطرة قد بدأ من حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ (٦ تشرين الأول ١٩٧٣م) بين الدول العربية ودولة اليهود . إذ استعمل هذا النفط كسلاحٍ في الحرب وعملت المملكة العربية السعودية على قطعهُ عن الدول النصرانية التي دعمت دولة اليهود فتعطّلت عجلة الحياة ، فأخذت الصيحات تتعالى في أوربا خاصةً ، وفي الولايات المتحدة لا يصحّ أن تبقى حضارة العالم رهن تصرّف بعض أولئك الحفنة من شيوخ الخليج ، وأخذت الولايات المتحدة تعدّ العدّة منذ ذلك اليوم للسيطرة على مكامن النفط ، وجعلها تحت إشرافها ، وتنتظر الفرصة المناسبة لتنفيذ العملية ، حتى جاء دور صدام حسين فهيّأ الفرصة لتقوم الولايات المتحدة بهذه الخطة .

رابعاً : الهيمنة الأمريكية على أوربا ، بعد زوال مركز الكتلة الشيوعية ، لم يبق أمام الولايات المتحدة سوى أوربا التي ترغب بل وتسير في طريق الوحدة الأوربية . وكانت فرنسا من الدول التي لا تدور تماماً في فلك

السياسة الأمريكية ، وكذا ألمانيا . . . . وأما انكلترا فكانت أيام تسلّم (مارغريت تاتشر) السلطة تمشي وفق ما تقتضيه المصلحة الأمريكية ، فلما سقطت وجاء (جون ميجر) كان ينتظر منه أن يسير مع أوربا . . . وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في سيطرتها على منابع النفط في منطقة الخليج أن تجعل أوربا تسير في فلكها دون مناقشة ، وخاصةً أن أوربا قليلة الإنتاج للنفط ، ومعظم حاجياتها منه تقوم على الاستيراد . وشعرت بعض الدول الأوربية بهذا ، وعملت سراً على دعم موقف العراق ، ولكنها خشيت مواجهة الولايات المتحدة . وأعطي مثالين اثنين : اقترحت ألمانيا إنشاء قوة أمنٍ أوروبيةٍ، فأجابت هولندا: إن إنشاء مثل هذه القوة يعني المواجهة مع الولايات المتحدة ، إذ أن حفظ أمن أوربا منوط بحلف شمالي الأطلسي ، وليس بقوة الأمن الأوربية التي لا يمكن أن نعرف قوتها . وما دامت هناك قوة الحلف الأطلسي فإن إنشاء أية قوةٍ أخرى إنما هي موجهة ضدّ حلف شمالي الأطلسي ، لذا نلاحظ أن موقف ألمانيا قد تغيّر بعد هذا من حرب الخليج ، وأخذت تُبدي تأييد الموقف الأمريكي ، وقدّمت المساعدات الضخمة لدولة اليهود وهذا ما ترضى عنه الولايات المتحدة ، كما قدّمت مبالغ كبيرة كمعونة في نفقات حرب الخليج ، وأبدت استعدادها لإرسال قواتٍ مُدرّعةٍ لها عن طريق تركيا ، هذا بعد أن كانت متوانيةً تجاه الموقف الأمريكي . وكانت فرنسا تترنّح في موقفها ، ويريد الرئيس الفرنسي (فرنسوا ميتران) عرض مُبادرةٍ فرنسيةٍ لكن الرئيس الأمريكي(جورج بوش)وقف بعنفٍ تجاه هذه المبادرة فما كان من فرنسا إلاّ أن انصاعت للواقع ، وأخذت تزاود في حرب الخليج وتدفع بقواتها ، وتعلن عن عمليات قواتها . وأما روسيا فقد أصبحت ضعيفةً وتتلقى المساعدات من الغرب بل حصلت على مساعدة من المملكة العربية السعودية تقدر بأربعة مليارات دولار ، لذا لا يمكن لروسيا إلاّ أن تخضع لما تريده الولايات المتحدة ، وخافت اليابان أن تبقى منعزلةً وتُغضب أمريكا لذا أسرعت تدفع الكثير لتغطية نفقات الحرب ، وأعلنت تضامنها التام مع دول التحالف .

وهكذا بدت الولايات المتحدة سيدة الموقف ، واضطرت أن تدور الدول الأوربية في فلكها خوفاً على مصالحها التي قد تتعرّض للضرر في منطقة الخليج ، وخشية من اتخاذ موقفٍ يجعلها في مواجهة مع الولايات المتحدة مع علمها التام أن هذه الحرب ليست في مصلحتها ، ولكن فُرضت عليها فرضاً أو اضطرت إلى أن تسير في هذه الطريق .

ولم يكن التخطيط لسيطرة الولايات المتحدة على العالم فحسب ، وإنما يحلم رئيسها (جورج بوش) أن يكون هو زعيم الأرض بلا منازع ، وهذا ما تمّ له ، واستطاع تحقيقه ، ويمكن التأكد من ذلك من موقف الروس ، بعد أن كانوا يُهدّدون العالم ، ويصرّون على رأيهم ، نراهم في حرب الخليج لا يستطيعون أن يتكلموا بحرفٍ واحدٍ تجاه موقف جورج بوش ، الذي خلا له الجو فأخذ يتحكّم ، ويفرض هيمنته ، وهو رئيس المخابرات سابقاً ، ويحلو له السيطرة ، ويشعر بالغبطة عندما ينجح في تنفيذ رأيه على كرهٍ ممن يقف في وجهه ولو كان على حساب دماء أهل الأرض جميعاً .

خامساً : إن من المخططات المرسومة العمل على تغيير بنية المجتمع المسلم الذي لا يزال متماسكاً إلى حدّ ما وخاصةً في جزيرة العرب ، وأعني المملكة العربية السعودية وقطر ، وإن هذا التغيير سيكون نتيجة القرب الأمريكي من المنطقة والإشراف على العمل ، وقد استهل بمخططٍ قيادة المرأة للسيارة بعد نزول القوات الأمريكية بقليلٍ ، ولكن الحكومة وقفت في وجه هذا المخطط . ونأمل أن يفشل الأعداء فيما يسعون إليه .

سادساً : ويأمل الأعداء في الوقوف في وجه هذا التيار الديني الذي يزداد وعياً يوماً بعد يوم ، حيث تتخرج أعداد من الجامعات ، وخاصةً أن هناك ثلاثة جامعاتٍ إسلاميةٍ ، ويكون هذا الوقوف نتيجة القرب بالإفساد ، ونتيجة الإشراف بالإبعاد ، ونرجو أن يُخيّب الله مسعى المفسدين .

سابعاً : الفرقة بين المسلمين تشعّبت الآراء ، والأفكار ، والأهواء إذ

سار الناس في تيارين متباينين ، وكل فريقٍ يصوّر الفريق الآخر بالسير في طريق الضلال ، والتيه ، ويعتمد فيما يذهب إليه بأقوال بعض المشايخ ، وحدثت فتنة عمياء سيكون لها في المستقبل خطر بيّن . وسأترك للقارىء الحكم بنفسه بين الطرفين ، بتبيان ما ذهب إليه كل فريقٍ .

الفريق الأول المعادي للعراق :

١ ـ إن حزب البعث حزب علماني ، وهو الذي يسيطر على العراق . ومحاربته حرب للعلمانية .

٢ ـ إن أكثر جيش العراق من أتباع حزب البعث .

٣ ـ إن الرئيس العراقي مستبد ظالم ، عدو للإسلام ، وعدو للإنسانية ، وحربنا له حرب للظلم والاستبداد والطغيان . وإن توسّعه في الكويت وغيرها إنما امتداد للظلم والعلمانية ، ولذا يجب علينا الوقوف في وجهه للحدّ من هذا الامتداد .

٤ ـ إن ما فعله الرئيس العراقي بالأكراد ، واستعمال الأسلحة الكيماوية ضدّهم ، وهذا محرّم دولياً ، وإن الإبادة الجماعية التي ألحقها بهم لأمر يستنهض الهمم لردعه وقتاله .

٥ ـ إن أهل الكتاب أقرب إلينا شرعاً من العلمانيين الكفّار .

٦ ـ إن سيطرة أهل الكتاب علينا في أسوأ احتمال أقل خطراً من سيطرة العلمانيين الكفّار المستبدّين .

٧ ـ إننا نستطيع الدعوة ، ولنا الحرية التامة في ظلّ الأنظمة الحرّة ، ولكن لا نستطيع أن نتنفّس في ظلّ الاستبداد وخاصةً في ظلّ حكم كالحكم العراقي الحالي الذي فاق كل ظلمٍ واستبدادٍ .

٨ ـ إننا قد أخذنا رأي الشيوخ في طلب المساعدات من الدول العربية والإسلامية والصديقة وأعطونا الفتوى بذلك .

٩ ـ إن ما يدّعيه الرئيس العراقي من إسلام ليس سوى متاجرةٍ محضةٍ ، وواقعه يُكذّبه .

١٠ ـ إن ما فعله العراقيون بأهل الكويت من قتلٍ وسلبٍ وانتهاك للحرمات ليشجّعنا لاتخاذ أية وسيلةٍ لاتقاء شرّهم ، وخاصةً أنّ الكويت قد قدّمت الكثير للعراق أثناء حربه مع إيران لكن نكران الجميل كان صفة العراقيين بل ردوا عمل المعروف بالاحتلال وارتكاب الجرائم .

من أجل هذا كله طلبنا المساعدة ممن طلبنا ، ونحن على حقٍ في ذلك .

الفريق الثاني المؤيّد للعراق :

١ ـ إن كل ما قيل عن علمانية حزب البعث ، واستبداد رئيسه ، وما فعله بالأكراد صحيح . ولكن الذين يُهاجمونه اليوم كانوا يُدافعون عنه بالأمس ، ويدّعون أن ما فعله بالأكراد إنما هو محض دعايةٍ وافتراءٍ .

٢ ـ إن الذين يُقاتلونه اليوم كانوا بالأمس يُساعدونه ، ويُقدّمون له الأموال ، وهذه الأسلحة التي يُقاتلهم بها اليوم إنما اشتريت بأموالهم . وإن مساعدة الأمس وقتال اليوم لم يكن إلاّ لمصالح فئةٍ من دون الأمة ، وخطة من قبل الأعداء .

٣ ـ إن تبديد أموال الكويت وتبذيرها بالصورة التي عليها لا يقبله عاقل . وإنها لصورة أصبحت على ألسنة الخلق . وإن إنفاقها على الاستعداد وشراء السلاح خير من تبديدها على الفسق والفجور ، إذ تأخذ امرأة بنصف ساعةٍ ما يسدّ ميزانية إقليمٍ ، وربما هذا ما دفع العراق للقيام بما قامت به .

٤ ـ إن الذين جاءوا للمساعدة هم أعداء الأمة الحقيقيين ، كانوا وما زالوا ، هم الذين سلبوا من المسلمين فلسطين ، وهم الذين يتبنّون اليهود ودولتهم ، ويُساعدونها ، ويُدافعون عنها ، وما جاءوا للمساعدة صداقةً وحميةً ، ولكن جاءوا جرياً وراء مصالحهم ، وتنفيذاً لمصالح دولة اليهود ، وتحقيقاً لمخططٍ موضوعٍ .

٥ ـ وإننا نرفض احتلال الكويت بالقوة ، ونأبى اتخاذ هذه الأساليب ، والوحدة تتم بالتفاهم ، والإقبال عليها يتمّ بضرورتها الشرعية ، والفائدة العملية ، ولا يُجبر الناس عليها بالقسر ، ويُجرّون إليها جرّاً .

٦ ـ إننا لا نُؤيّد حزب البعث وعلمانيته ، والرئيس العراقي واستبداده وظلمه ، ولكننا نُؤيّد شعب العراق المسلم ، فرئيسه يزول ، والشعب يبقى . ونريد المحافظة على قوة العراق فإنه درع في المستقبل للأمة ، ورافد من روافد قوتها ، ولا نفرق بين حزب البعث في العراق وبينه في جهةٍ أخرى فهو علماني في كل مكان .

٧ ـ إننا نرغب بالوقوف في وجه العلمانية بالقوة بالحجة والبرهان ، وبأنفسنا لا بأعدائنا الذين لا يقلّون عداوة لنا عن العلمانيين ، فكلا الطرفين كافر عدوّ .

٨ ـ إننا نؤيد الوقوف في وجه الطغيان والفكر العلماني وتوسّعه لكن بأيدينا ونستعد لذلك ، وليس بأيدي خصومنا الذين يكيدون لنا ، ويعملون لمصالحهم . ونعتمد على نصر الله إن كنا على حقٍ ونعمل بشرع الله . فنحن نعتمد على هذا ، ولا نعتمد على قوة أمريكا ومن معها ، ونترك الاعتماد على الله .

٩ ـ إن ما أعطاه المشايخ من فتوى صحة وجواز الاستعانة باليهود والنصارى فيها نظر لـ :

أ ـ سبق للشيخ عبد العزيز بن باز ، وهو المعوّل عليه بالفتوى ، أنه أفتى بعدم جواز الاستعانة بالنصارى واليهود[1] . في كتابه « نقد القومية العربية » ، وهذا يعني أن للفتوى الأخيرة دلالتها .

ب ـ أن السؤال والفتوى كان بعد مجيء القوات ونزولها في أرضنا ، وهذا

(١) أنظر كتاب « نقد القومية العربية » ص ٣٩ ـ ٥٠ المكتب الإسلامي ـ في بيروت ـ الطبعة السادسة سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

يدلّ على أنه لا قيمة للفتوى ، فما يُفيد المسلمين لو كانت الفتوى بعدم الجواز ، والأصل أن يكون السؤال والفتوى قبل الطلب ، فإن قال : « لا يصحّ » امتنع المسؤولون عن الطلب ، وعن الإقدام عما قاموا به .

جـ ـ إن الاستدلالات التي جاء بها المشايخ ليس فيها ما يدلّ على الجواز ، وقد تحدّث كثير من الناس في هذه الأمور من غير علمٍ ، وأهمها :

١ء ـ إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، استأجر عبد الله بن أريقط المشرك دليلاً له في طريقه إلى المدينة المنورة يوم هجرته ، صلى الله عليه وسلم . فهل استئجار أجيرٍ ، ضعيفٍ ، فردٍ ، تابعٍ كاستقدام دولةٍ قويةٍ متبوعةٍ ، بل أقوى دول العالم ، ولها مصالحها ؟ فحادثة الاستئجار هذه يستدلّ بها بجواز استقدام أجراء ، والبلاد تعجّ بهم ، وليس هناك من ناقدٍ ، لأن شرعية ذلك ظاهرة .

٢ء ـ إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد استعار من صفوان بن أمية دروعاً ، وصفوان لا يزال على شركه إثر فتح مكة ، في سيره ، صلى الله عليه وسلم ، إلى حنين . وهل الإعارة والشراء من فردٍ ، ضعيفٍ ، لا حول له ولا قوة كاستقدام أقوى دولة بسلاحها وعتادها إلى بلادنا ؟ . إن هذه الإعارة يستدلّ بها بصحة شراء واستعارة أسلحة من بلاد الكفر . وأسلحة الأمصار الإسلامية كلها منها ـ مع الأسف ـ وليس من ناقدٍ لصحة ذلك .

٣ء ـ إعانة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقبيلة خزاعة عندما اعتدت عليها بنو بكر . إن قبيلة خزاعة هي التي استعانت ، وهي الضعيفة ، والمسلمون هم الأقوياء ، وبيدهم الموقف ، فالأمر متباين !!! ونحن قد سلمنا قيادتنا وفوضنا من استقدمنا

بكـل شيء ، بل أصبحت إذاعتنـا في أكثر الأوقـات تتحـدث بلغتهم .

د ـ إن عدداً من العلماء قد ردّ هذه الفتوى ، ومستواهم العلمي لا يقلّ عن أولئك .

هـ ـ إن عدداً من المشايخ مَن قِبل واقتنع بتصريحات الأعداء بالخروج من البلاد بعد طرد المعتدين العراقيين من الكويت . والغريب هـذا ، وهؤلاء المشايخ هم أدرى الناس بأن النصارى واليهود والكفار عامةً لا عهد لهم ، ولا أيمان لهم ، فكيف قبلوها ؟ ، والأغرب من هذا أن التأكيدات لم تكن لهؤلاء المشايخ وإنما لآخرين ، وقد نقلوها بدورهم إلى المشايخ فقبلوها منهم ، وهم أدرى الناس بمعرفة رواية الحديث ، ومن يُؤخذ منه الحديث ، ومن يُردّ حديثه ؟ وهم يعلمون علم اليقين أنّ من نقلها إليهم ، إنما هم من الذين لا يقبل حديثهم أبداً .

وهذا رأي العقلاء من كلا الفريقين ، أما العامة فقد زادت فرقتهم ، وظهر اختلافهم حتى بدا أنه يصعب لقاؤهم والتفاهم بينهم ، ونتج عن هذه الفرقة .

١ ـ عدم قبول رأي المشايخ إذ في كلا الجانبين بعض المشايخ . وهذا الحـدث هو ما تخطط له العلمانية . وله معناه ودلالته الخطيرة بالبعد عن الدين ، ورفض رأي الشرع وحكمه .

٢ ـ ترك عوامل اللقاء التي كانت تجمع الدول العربيـة بعضها إلى بعض ، والعوامل التي تلتقي عليها الأمة الإسلامية . إذ أن كلا الجانبين يدعو إلى الإسلام ، وينادي بالجهاد ، وإن كانت دعوة العراق حديثة العهد مما يدلّ عـلى أنها للمتاجـرة ، أو ظهـرت وقت المحنـة ، ولا تلبث أن تتـلاشى

بعدها ، هكذا تبدو الأمور ـ والله أعلم ـ .

وأخذت تُطرح عوامل جديدة للقاء بين الشعوب والأمم ومنها العامل الحضاري ، وهو طرح خطير ، فادعاء الحضارة واللقاء مع النصارى واليهود على أساسٍ حضاريٍ ، وكل يدّعي الحضارة ، ومن لا يقبل هذا اللقاء فهو متخلّف رجعي . وهكذا تُعزل دول عربية وإسلامية ، ولا يكون بينها وبين بقية البلدان العربية والأمصار الإسلامية أي لقاءٍ ، على حين يكون هناك أحلاف ولقاءات بين بعض هذه البلدان والأمصار وبين دولة اليهود والدول النصرانية ، وهذا ما يُباعد المسلمين بعضهم عن بعض ، ويتشتت شملهم ، وتختلف كلمتهم ، ويُجافي العرب بعضهم بعضاً ، ونرجو من الله ألا يحدث هذا .

وأما في العراق فقد انتفض الجنوب ضدّ الحكم القائم ، وقد استطاع الرئيس صدام حسين إخماد تلك الحركة بالحرس الجمهوري الذي احتفظ بقوته .

وانتفض الأكراد في الشمال وتمكّن الحكم من تأديبهم . ودخلت القوات المتحالفة إلى المنطقة الكردية عن طريق تركيا . وتوطدت العلاقة بين الولايات المتحدة والأكراد ، حتى طالب الأكراد ببقاء القوات الأمريكية في منطقتهم وخرجت المظاهرات تطالب بذلك . وقد حصلوا على الاستقلال الذاتي ضمن دولة العراق . وشملت منطقتهم ألوية السليمانية ، وأربيل ، وكركوك ، وأقضية الموصل ذات الأكثرية الكردية .

والنتيجة :

بقي الرئيس العراقي صدام حسين على رأس السلطة رئيساً للجمهورية ، رئيساً لمجلس قيادة الثورة ، القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة . بعد اهتزازٍ في حكمه مدة بسيطة . ولكنه انتقل من دائرة النفوذ البريطاني إلى دائرة النفوذ الأمريكي وهذا ما جعله يبقى على رأس السلطة .

أصبحت منطقة الأكراد قاعدة أمريكية مهمة وستتخذها منطلقاً للسيطرة على منطقة النفط حول بحر قزوين وهي المنطقة الثانية في العالم بعد منطقة الخليج العربي ، وذلك بعد انهيار النظام الشيوعي ، وتفكك الامبراطورية الروسية ، والتي ستبدأ جمهورياتها بالانفصال ، فتحل أمريكا محلّ موسكو في أذربيجان وتتصرف بنفط باكو ، وكذلك في منطقة داغستان وبلاد الشاشان ، وبلاد التركمان ، وكل بلاد القفقاس وآسيا الوسطى . وهي الجمهوريات الإسلامية ذات الثروات المعدنية الضخمة من نحاس ، ومنغنيز ، وكروم ، وذات الثروات الزراعية ، وخاصة القطن والقمح إضافة إلى الثروة الحيوانية . وهذا على ما يبدو ما تخطط له الولايات المتحدة ـ والله أعلم ـ .

وتخلى صدام حسين عن النظام الرئاسي فعهد إلى سعدون حمادي برئاسة الوزراء ، على حين عُيّن طه ياسين رمضان نائباً لرئيس الجمهورية ، وغاب عن الساحة نائب الرئيس السابق طه محيي الدين معروف الذي يتولّى منصب نيابة الرئيس صورةً منذ عام ١٣٩٤هـ وهو من الأقلية الكردية .

البابُ الثّالِث

الصِّراعات

تبلغ مساحة العراق ٤٤٨,٧٤٢ كيلومتراً مربعاً أي ما يقرب من مرة ونصف من مساحة بلاد الشام . ويزيد عدد سكانها على ستة عشر مليوناً ، وبذا تقرب الكثافة من أربعين شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد ، وإن كانت هذه الكثافة تختلف من منطقةٍ إلى أخرى ، إذ تزيد في السواد وعلى ضفاف الأنهار ، وتقلّ في البادية .

الأجناس : تعيش عدة أجناس في العراق ، ولكن يُعدّ العرب هم الأكثرية الساحقة ، ويشكلون ٧٩٪ من مجموع السكان ، ويسكنون في الجنوب والوسط سواء أكان ذلك في البادية أم في السهول المروية ، كما يعيشون في الشمال ، وكانت أرض الجزيرة التي هي شمال سامراء تسمى بديار ربيعة ، وتقع جنوب ديار بكر التي تمتد إلى داخل تركيا اليوم .

ومن جهة الشمال الشرقي كان نهر دجلة يعدّ الفاصل بين القبائل العربية والقبائل الكردية ، ولا تزال بعض مظاهر الحياة القبلية قائمةً في البادية وبعض جهات السواد .

ويعدّ الأكراد المجموعة الثانية ، ويُشكلون ١٦٪ من مجموع السكان ، ويسكنون المناطق الشمالية ، والشمالية الشرقية ، منهم الحضر الذين يسكنون المدن والقرى ، ومنهم القبائل الذين يرعون في الجبال ، ويتنقلون بين الأودية

والهضاب ، وهم رجال أشداء ، تعوّدوا على الخشونة والقتال نتيجة طبيعة بلادهم الجبلية ، وهم على صلة مع بني قومهم الذين يعيشون في البلدان المجاورة ، في إيران ، وأذربيجان ، وتركيا ، وسوريا .

وتعيش في العراق مجموعة من الإيرانيين تشكل ٢,٥٠٪ من مجموع السكان ، ويقطنون قرب الحدود إلى الشرق من بغداد ، وفي بغداد نفسها ، وفي الأماكن المقدسة لدى الشيعة مثل : النجف ، وكربلاء ، وإن أعداداً من إيران تأتي إلى هذه الأماكن ثم تفضّل البقاء فيها .

وهناك مجموعة من الأتراك تُشكّل ٢,٢٥٪ ، وتُقيم في منطقةٍ تمتدّ بين المناطق الكردية في الشمال ، والشمال الشرقي ، وبين المناطق العربية في الجنوب ، على شكل شريط يمتد من (تل عفر) غرب مدينة الموصل بستين كيلومتراً إلى (مندلي) في الشمال الشرقي من بغداد ، قرب الحدود الإيرانية .

وتوجد أعداد من الآشوريين ، ويقيمون في الشمال في جبل سنجار ، وفي مناطق أخرى من الشمال ، ونسبتهم ضئيلة لا تستحق الذكر .

وهذا بالإضافة إلى أعداد من الشركس ، والشاشان ، والداغستان ، والأرمن يتوزّعون في أنحاء البلاد ، وقد جاءوا إلى البلاد بعد سيطرة الروس على بلادهم في منطقة القفقاس ، أما الأرمن فقد طردوا من ديارهم نتيجة مواقفهم العدوانية من الدولة العثمانية التي كانوا يعيشون في كنفها .

المجموعة	النسبة	العدد
العرب	٧٩,٠٠	١٢,٦٤٠,٠٠٠
الأكراد	١٦,٠٠	٢,٥٦٠,٠٠٠
الإيرانيون	٢,٥٠	٤٠٠,٠٠٠
الأتراك	٢,٢٥	٣٦٠,٠٠٠
مجموعات أخرى	٠,٢٥	٤٠,٠٠٠
	١٠٠,٠٠	١٦,٠٠٠,٠٠٠

العقائد : ويعدّ أصحاب العقائد غير المسلمة قلّةً في العراق إذ لا تزيد نسبتهم على ٥٪ من مجموع السكان .

يُمثّل المسلمون ٩٦٪ من سكان العراق ، إذ أن الأقليات من أجناس الأكراد ، والأتراك ، والإيرانيين ، والداغستان ، والشاشان ، والشركس كلهم من المسلمين ، وكلها تدين بالإسلام (السنة) باستثناء بعض المجموعة الإيرانية التي هي من الشيعة . ويكثر الشيعة في الجنوب وخاصةً في النجف ، وكربلاء ، وبغداد ، وقد انتشرت تحت تأثير البويهيين ، وبجهود المغول ، والصفويين ، ومن جاء بعدهم إذ كانوا يسيطرون على أجزاء من العراق .

ويُمثّل النصارى ٣٪ فقط من مجموع السكان، ويُمثّلون مختلف الطوائف النصرانية، فهناك النساطرة من الآشوريين، واليعاقبة، والغريغوريون، وقد جاء معظمهم من تركيا من جنوب بحيرة (وان)، ويقطنون الآن (زاخو) و(راوندوز) و(العمادية)، ويطلق على هؤلاء اسم (النصارى الأحرار)، وهناك النصارى الاتحاديين من أرمن كاثوليك وكلدان، وهناك الأرمن الأرثوذكس، والبروتستانت، والكلدان الحديثون.

ويُمثّل اليهود ٠,٥٪ من مجموع السكان، ويقيم ثلثاهم في مدينة بغداد وما جاورها، ووجدوا في البلاد من القديم منذ الأسر البابلي أيام (بختنصر)، ولهم مجالس في كل من بغداد، والموصل، والبصرة، ويعملون في التجارة، وصياغة الذهب، وبيع الخمور، وقد ترك من كان يعمل بالزراعة منهم مهنته، وانتقل إلى هذه المهن، وفرّ عدد منهم إلى فلسطين، أو حصل على السماح بمغادرة البلاد بعد أن وافقت الحكومة على ذهاب من يريد منهم المغادرة.

وهناك أعداد من اليزيديين (عبدة الشيطان)، ويُقيمون في قضاء شيخان، وفي جبل سنجار، وكلا الموضعين في لواء الموصل، ويعملون في الزراعة وتربية الحيوان، ويبدو أنهم يعودون في أصولهم إلى الكردية، ويتكلّمون العربية والكردية.

وأما الصابئة (وهم غير عبدة النجوم الذين يتخذون من مدينة حران في تركيا قاعدة لهم) وإنما هم في الأصل جماعة من اليهود اتبعوا حسب أقوالهم (يوحنا المعمـدان)، وتنكّروا لليهـودية، ويُقيمـون في (العمارة) و(النـاصرية) و(سوق الشيوخ) و(بغداد) و(قلعة صالح) جنوب العمارة، ويعملون في صناعة السفن، والزوارق الصغيرة، والأدوات القاطعة، والأواني الفضية، ولا يزيد عددهم على ستة عشر ألفاً.

الفصل الأول

صراع الأقليّات

سبق أن قلنا أن الأقليات ضعيفة النسبة لذلك لا مجال لها للدخول في صراعات مع الأكثرية ، وخاصةً إذا علمنا أنها والأكثرية ضمن عقيدةٍ واحدةٍ هي الإسلام ، والإسلام لا يفرق بين الأجناس ، والألوان ، واللغات ، كما أنه يحترم أهل الكتاب ، ويُعدّهم في ذمته ورعايته ، ما داموا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم . غير أن مخالفة الإسلام ، وعدم اتباع تعاليمه تجعل بعض الصراعات تحدث نتيجة تلك المخالفات .

الصراعات بين الأجناس : قلنا إن الأجناس التي تعدّ ذات شأن إلى جانب العرب هم **الأكراد** الذين يُشكّلون ١٦٪ من مجموع السكان ، وعندهم الإمكانات للدخول في صراعات لا لنسبتهم فقط ، وإنما لطبيعة بلادهم الجبلية التي تصلح أن تكون معاقل ، كما أنها أثّرت على أبنائها فجعلت منهم رجالاً أشداء ، يمكنهم تحمّل الصعاب ، والصبر على المكاره .

عاش الأكراد في مناطقهم الجبلية ، وجاءهم المسلمون فاتحين ، فدخلوا بلادهم ، وأخذ الأكراد يدخلون في دين الله ، حتّى عمّ الإسلام بينهم ، وأخذت اللغة العربية تنتشر بينهم إلى جانب لغتهم التي بقوا محافظين عليها ، وربما كان من أسباب هذه المحافظة على اللغة حياتهم في مناطق جبلية غالباً ما تكون منعزلةً عن غيرها ، إذ نلاحظ أن الذين تركوا جبالهم ، وانتقلوا منها أيام الأيوبيين للدفاع عن ديار الإسلام في بلاد الشام ضدّ الصليبيين قد تركوا

لغتهم ، وتحدّثوا العربية فقط ، ولا نعرف أصولهم الكردية إلا من خلال أسماء الأسر ، وهذا ما نُلاحظه في مختلف المدن التي أقاموا فيها ينازلون الصليبيين منها كدمشق ، وحماه ، ودرعا ، والكرك و . . . .

رضي الأكراد بكل حكمٍ باسم الإسلام منذ دخولهم بهذا الدين حتى أواخر العهد العثماني ، وكانـوا مثال الشعب المسـالم رغم طبيعتهم الجبلية ، وكأنهم من سكان السهـول الذين لا يـرغبون في الحـركات ، ولا يحـاولون الثورات لارتباطهم بأرضهم ، ولانتظارهم لمحصولهم ، وخوفاً على الإنتاج ، فلم ينازع الأكراد الأمر أهله ، فلم يُطالبوا بخلافة، ولم يدعوا إلى إمرة ، ولم يقوموا بحركةٍ . وإذا كانت قد حدثت حركات على مستوى أفراد فهذا أمر ربما يحدث في كل وقتٍ ، ولدى كل شعبٍ ، أما الحركة على مستوى الشعب كله فلم تحدث أبداً .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وبدأت الحركات القومية تقليداً لما حدث في أوربا ، وتشجيعاً من دولها أيضاً لإبعاد الشعوب الإسلامية عن رابطة العقيدة، وإحلال الفكرة القومية محلّها. ومن هذا المنطلق عملت دول الحلفاء على تقسيم الدولة العثمانية إلى أجزاء حسب هذا المفهوم ، وقام على أشلائها ما عُرف باسم دول قومية باستثناء الأكراد الذين قُسّمت مواطنهم إلى عددٍ من الأقسام ، ووضعت ضمن دولٍ حيث بقوا أقليةً في كل دولةٍ حتى شعروا أن القصد من هذا كله لا يخصّ سواهم ، إذ كل شعبٍ أسّس دولةً إلا هم فقد جُزئت بلادهم ، وصحيح أن الشعب العربي قُسّم إلى عددٍ كبيرٍ من البلدان ، لكن الرقعة التي يعيش عليها تُعدّ شاسعةً جداً فيمكن تقسيمها ، ولكن كان من المفروض ألا يزيد عدد البلدان العربية على خمس دول ، كأن تكون : بلاد الشام ، والعراق ، وجزيرة العرب ، ووادي النيل ، وبـلاد المغرب أقـاليم للشعب العربي ، وكل إقليم يُؤسّس دولةً . وبلاد الأكراد منطقة ليست متسعةً فيمكن أن تقوم فيها دولةً . فلما رأى الأكراد ما حلّ بهم ظنّوا أن الأمر يعنيهم فقط ، وهذا ما أثار عندهم العصبية ، وأوجد فكرة النزعة القومية ، وبدأوا

يُطالبون بوحدة بلادهم من باب العصبية .

الواقع أن الحلفاء الذين كانت بيدهم هذه التجزئة ، وهم أصحاب هذه اللعبة قد خططوا ذلك ليكون الأكراد العصا التي يضربون بها الحكومة التي تريد أن تخرج عن دائرة سياستهم ، والأفعى التي يُثيرون بها الفتنة كلما أرادوها ، وفي أية بقعةٍ رغبوها .

وأما الحكومات التي عاشوا في ظلّها ، والتي يُهمّنا منها الآن حكومة العراق ، فقد أرادت أن تسترضيهم ـ حسب رأيها ـ فمنحتهم حقّ تعلّم اللغة الكردية ودراستها ، وجعلها اللغة الرسمية في مناطقهم ، والمرافعة والمقاضاة بها ، وهذا ما نمّى عندهم روح الاختلاف عن الشعوب التي تُجاورهم ، ووسّع الشقة عندهم ، وأوجد فكرة العصبية ما داموا يختلفون عن الآخرين باللغة ، ويتفاهمون فيما بينهم بينما لا يتفاهمون مع غيرهم ، إذ لكلٍ لغته ، ومفاهيمه ، واصطلاحاته .

ثم جاءت هذه الحكومات ودعت إلى العصبية القومية ، فوجد الأكراد أنفسهم أيضاً يعيشون خارج نطاق هذه الدائرة التي تدعو لها الدولة التي يُقيمون في ظلّها ، وهم بعيدون عن هذه الدعوة ، فكيف يُزجّون زجّاً ، وعلى كرهٍ منهم داخل بوتقةٍ لا يرتبطون بها برابطٍ ، ولا تجمعهم بها صلة ، فجفلوا عنها ، وأنفوا منها ، ووجدوا في الأرومة التي ينتمون إليها دعوةً يتفيّئون في ظلّها ، وكردّ فعلٍ للمحاولة التي أُريد لهم أن يُقحموا فيها .

وهكذا وجد الأكراد أنفسهم في دولةٍ يختلفون عن أكثرية سكانها في اللغة فلا تفاهم بينهم ، وفي القومية فلا صلة بينهم ، وفي الدعوة والمنطلق فلا جامع معهم ، فكيف يعيشون معهم وهم يفخرون عليهم ؟ وكيف يكونون إخوةً لهم وهم يحطّون من شأنهم ، ويسخرون منهم ، ويتعالون عليهم ، وكيف يكونون أنداداً لهم ، وهم يحرمونهم مما يفخرون به من الأصل ؟ إن هذا لن يكون أبداً بين مجموعتين تعيشان ضمن إطارٍ واحدٍ ، وهذا ما حرّك العصبية الكردية لدى أبنائها جميعاً حتى عند الذين يُحاربون فكرة العصبية والدعوة لها من المسلمين

نتيجة الظروف التي وجدوا فيها ، وإن كنا لا نرى مُبرّراً لأصحاب الفكر الإسلامي من الأكراد أن يسيروا في هذا التيار ، ولا أن يخضعوا للظروف التي تحيط بهم فتُلزمهم بالتحرّك ضمن إطار يُخالف فكرهم ، ولا نجد لهم مبرراً أيضاً ليعيشوا تحت وطأة المجتمع الذي يعيشون في ظلّه فيلفّهم بفكره . . . إلا أن الإنسان يضعف أحياناً ويحاول أن يجد لنفسه عللاً في مسلكه ، كأن يقول : إن هذا الوسط الذي أعيش فيه هو المجال الذي يجب أن أدعو فيه ، فإذا خالفته حدث انفصام بل انكسار وتعذّرت دعوتي ، وتوقّف نشاطي ، وحُرمت من أجري ، وإن سايرته قليلاً أمكنني العمل في داخله وربما استطعت حمله إلى فكري وما أريد . ولكن هذه العلل مرفوضة أيضاً في نظر الإسلام ، فرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دعا ضدّ ما تعارف عليه قومه ، وما اعتقدوا به ، ولم يتساهل في دعوته شيئاً ، ولو فعل لما بلّغ الأمانة ، ولا أدّى الرسالة ، ولما كان الرسول الخاتم للأنبياء والرسل ، ولا كانت دعوته للبشر كافةً ، ولا حمل الصفة التي تُؤهّله لما اختاره الله إليه ، بل لم يكن الله ليختاره لمثل هذه المهمة . ونشهد أنه خالف قومه ، وأدّى الأمانة ، وبلغ الرسالة .

ولا شك أن انكلترا كانت من وراء هذا كله ، فإن الحكومة العراقية عندما قرّرت أن تكون اللغة الكردية هي اللغة الرسمية في المناطق التي يقيم فيها أهلها كانت الحكومة العراقية يومذاك تخضع لنفوذ السياسة البريطانية ، وتعيش تحت تأثير فكرها المباشر ، وتوجيهها الرسمي ، ولم تفعل انكلترا ذلك حبّاً بالأكراد ، ولا كرهاً بالعرب ، وإنما لتُحقّق بذلك مُخطّطها فيكون الأكراد على خلافٍ مع العرب فتثيرهم في الوقت الذي تريد ، ولو لم تفعل ذلك لأمكن التفاهم بين العرب والأكراد ، ولفشل مخطط انكلترا ، ولم تنجح سياستها . وكذلك فالفكرة القومية التي شجّعت انكلترا على نموها للغرض نفسه في ترسيخ جذور الخلاف بين أصحاب الأصل المختلف فتحرّك الفتنة في الوقت الذي تشاء ، ولو كانت انكلترا تدرك أن القومية ضدّها ـ كما يدّعي دُعاتها ـ لخنقتها في المهد ولعملت على دفنها في كل بلدٍ سيطرت عليه أو كان لها نفوذ فيه ،

وكذلك كانت عملت فرنسا وكل دولةٍ استعمارية في مستعمراتها ومناطق هيمنتها . ولكن نجد على العكس أن هذه الدول الاستعمارية قد شجّعت الحركات القومية ، وسمحت بتأسيس أحزابٍ تقوم على هذه الفكرة وتحملها ، وتبّنت هذه الأحزاب ورفعتها ، ودعمتها ، وربطتها بسياستها . وعلى كلٍ فالفكرة القومية قد نبعت في المجتمع الأوربي النصراني وهو مُغاير تمام المغايرة للمجتمع المسلم سواء أكان عربياً أم كردياً أم غيرهما من المجتمعات الإسلامية ، ومن الوسط الأوربي انتقلت إلى البيئة الإسلامية المُخالفة لها كلياً بل المُعادية لها ، لذا فقد تبنّاها في بداية الأمر النصارى الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ، والذين ليس لهم من دعوةٍ سواها يتقرّبون بها من أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه حسب ظنّهم ، أو حسبما خُطّط لهم ، ويعملون من ورائها لتهديم الرابطة الإسلامية التي تصهر أفراد المجتمع كلهم في وحدةٍ واحدةٍ . ثم تبنّاها بعد ذلك الأفراد الذين ابتعدوا عن العقيدة وراء شهواتهم ، أو خلف مصالحهم ، أو تبعاً للنصارى من الأوربيين الذين لهم النفوذ والذين يستطيعون التمكين وتسليمهم السلطة، وقد أسّسوا الأحزاب لتحقيق هذا .

ولم تخرج انكلترا من العراق حتى قامت بمناوراتٍ بالأسلحة الحقيقية ، والدراسات الميدانية فحرّكت الأقليات حسب الأفكار القومية ، ووجدت آثارها بنفسها ، وقامت بدراسة النتائج وفعّاليتها في المستقبل ، ومدى تأثيرها على الدولة .

ولو كانت الحكومات التي جاءت بعد الاستعمار حرّةً في تفكيرها ، صادقةً في إخلاصها للأمة لتخلّصت من كل ما جاء به المستعمرون من أفكارٍ كالعصبية القوميةٍ ، وكل ما ضغطوا في سبيل تحقيقه كإحياء لغات الأقليات . ولعملت الحكومات الوطنية على دراسة التاريخ ، وبحثت في الأسباب التي جعلت الأكراد يقبلون حكم غيرهم دون أن ينازعوهم ، ومن غير أن يتحرّكوا ، أو يقوموا بثوراتٍ ، ولكانت قد توصّلت إلى أن الإسلام هو العامل الأساسي في قبول الأكراد حكم غيرهم إذ يعدّونه الرابط بين شعوب الأمة

الإسلامية ، ولما كانوا هم دون غيرهم في معرفة أحكامه لعزلتهم في مواقعهم الجبلية لذا لم ينازعوا غيرهم على الحكم . ولو كانت الحكومات التي خلفت الاستعمار صادقة في وطنيتها لعملت على التقرّب من الأكراد لإسكاتهم ولخيرهم وخير الأمة كلها في الدنيا والآخرة بالدعوة إلى الإسلام ، ونبذ التفرقة العصبية ، والاهتمام باللغة العربية على أنها لغة المسلمين جميعاً لأنها لغة العبادات، والأحكام، والقرآن ، والحديث ، والفقه .

ولكن هذه الحكومات لم تكن صادقةً في أي شيءٍ ادّعته لذا أبقت ما حثّ عليه الاستعمار وما شجّعه من فكر قومي وإحياء لغة الأقليات ، وهذا ما أدّى إلى قيام الحركات الكردية ، وبقاء أصحابها يشعرون أنهم مظلومون ، وأنهم عنصر لا يربطه رابط مع أكثرية سكان الدولة التي يعيش في ظلّها ، ومن هنا كان الأكراد يعتقدون أن حركتهم مشروعة ، وأن ثورتهم لا بدّ منها حتى ينالوا حقوقهم التي يُطالبون بها ، من توحيد مناطقهم المُجزّأة في دولةٍ واحدةٍ على أساسٍ كرديٍ ، ومن هنا كانت حركاتهم التي قضّت مضاجع الحكومات العراقية المتوالية ـ كما رأينا في السابق ـ ولما نُلمح إليه في المستقبل ـ إن شاء الله .

ولما كان الأكراد مُوزّعين في عدد من الدول المجاورة لذا لم تستطع دولة منها دعم حركةٍ كرديةٍ في دولة ثانية بشكلٍ جديٍ لأن هذا يُهيّج الأكراد الذين يعيشون ضمن حدودها ، وهذا ما تخشاه أساساً وإنما تعمل عادةً على فتح حدودها لهرب الذين يضطرون للفرار من مناطقهم ، وتأويهم ، وربما قدّمت إليهم بعض المساعدات المادية والأسلحة . ولكن هذه الدول تُخوّف إحداها الأخرى بإثارة الأكراد عليها غير أنها بالفعل عاجزة عن ذلك لأن ليست على وئام مع الأكراد في أرضها ، وإثارة الجوار يُثير مواطنيها لذا فهي تُحرّك الفتنة على حذرٍ ، غير أن الذي يُمكنه إثارة النعرات إنما هو الذي يعيش خارج المنطقة وله فيها قنوات وأصابع تمتدّ إلى داخلها ، وجسور يصل عن طريقها إليها ، وهذا ما يأتي غالباً من الدول الكبرى التي خطّطت لهذا ، وأخرجته لنفسها

بشكلٍ يُناسب سياستها ، ويُلائم نظراتها المستقبلية .

وأما الإيرانيون الذين يُشكّلون ٢,٥٪ فقط من مجموعِ السكان فإن نسبتهم الضئيلة هذه لا تجعلهم يستطيعون الحركة ، وخاصةً أنهم في مناطق محددةٍ ، ويمتدّون على شريطٍ طويلٍ من الحدود ، لا يجمع بينهم سوى اللغة ، ولم تكن اللغة في يومٍ من الأيّام رابطاً أساسياً ، ولكن رابطاً ثانوياً يتبع الأصل أو يرتبط بالعقيدة ، وعندما يلحق بالأصل يكون عاطفياً وعند المجموعات المادية . ويتصل بالعقيدة عندما يكون للفكر الدور الأساسي وهذا ما يحدث عند المسلمين الذين تعدّ اللغة العربية لغة العقيدة عندهم لأنها لغة العبادة التي لا تصح إلا بها ، ولغة القرآن الكريم وتلاوته بها عبادة وبغيرها تعدّ أو تكون قراءةً أو دراسةً لأنها تكون ترجمة . . . . . وكذا هي لغة الحديث وبها دوّن الفقه . والإيرانيون في العراق من أصولٍ متعددةٍ نتيجة الامتداد الشريطي الطويل ، ولا يلتقون مع سكان إيران جميعاً بالعقيدة لأن بعضهم من المسلمين (السنة) كاللّور ، على حين غالبية سكان إيران من الشيعة لذا كان أثرهم محدوداً ، ولا يمكنهم أن يقوموا بحركات بل ليس لهم أهداف واحدة .

وأما الأتراك الذين يُشكّلون ٢,٢٥٪ من مجموع السكان فإن نسبتهم الضعيفة هذه لا تجعلهم يستطيعون الحركة ، كما أن بعدهم عن الأتراك في تركيا يضعف من شأنهم أيضاً ، ولا يجمعهم سوى القومية التي هي دعوة عاطفية ، وغالباً ما تكون عند البدائيين ، وربما وجدت عند أقوام ماديين لأنها لا تحمل في ثناياها فكراً ، ولا تنتمي إلى عقيدةٍ التي غالباً ما تكون عالميةً ، كما أن اللغة تزول مع الزمن إن لم ترتبط بعقيدة ، ولغة العقيدة هنا كما سبق أن ذكرنا هي العربية التي يعرفها الأتراك هنا ، يتعلّمونها ، حتى غدت مع الزمن لغةً لهم ، وليست لهم أهداف لأنهم جميعاً من المسلمين عقيدة غالبية السكان ، الذين لم يختلفوا عنهم بشيء سوى الأصل الذي ليس له أي أثر ، ما دامت العقيدة والفكر يجمعان بينهم .

وهناك الشراكسة ، والشاشان ، والداغستان فهم من المسلمين جميعاً

حيث لم يخرج من بلادهم بالأصل إلا المسلم نتيجة الضغط، والظلم ، والتشريد النصراني لهم ، وهؤلاء لا يُشكّلون نسبةً وجاءوا إلى هذه البلاد ليعيشوا في ظلّ الإسلام ، ويتخلّصوا من الاضطهاد النصراني الروسي الذي دخل واحتلّ البلاد بالقوة ظالماً حاقداً مستعمراً ، يبغي إذلال المسلمين .

صراعات العقائد : عاش اليهود والنصارى في العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الحرب العالمية الأولى في ظلّ الإسلام آمنين على أموالهم ، وأملاكهم ، وأرواحهم ، وبيعهم ، وكنائسهم ، لم يُتعرّض لها بسوء ، وإذا حدث شيء فإنما وقت الفوضى عندما يتعرّض له الناس جميعاً ، أما من قبل المسلمين فلم يحدث هذا .

لما دخل الإنكليز العراق محتلّين اشرأبت أعناق اليهود والنصارى ، فاستقبلوا المستعمرين ، وأخذوا يتعالون على المسلمين ، وكأن الأمر قد استقرّ للإنكليز ، وارتفع شأنهم عنده فخانوا الذمة ، ونقضوا العهد ، وبالغوا في الإيذاء .

رفع البريطانيون من شأن اليهود والنصارى ، وأرادوا أن يضعوهم فوق رقاب المسلمين . لقد جعلت انكلترا من الآشوريين النصارى النساطرة جيشاً، وأعطته صلاحيات واسعةً حتى أصبح يعتدي على الأهالي دون أن يقف في وجهه أحد ما دام المحتلّون يدعمونه وكانت هذه الفرقة من النصارى اليد التي تضرب بها القوة المستعمرة ، وتبطش بها السكان الآمنين ، ولم تكتف هذه الفرقة بأن تعدّ نفسها من أعوان انكلترا وعملائها بل عدّت نفسها منهم ما دام الطرفان من النصارى، وقد مرّ معنا الفتن التي أثارتها ، والجرائم التي ارتكبتها ، والثورة التي قامت بها ، ثم كانت القوة التي احتلّت (الفلوجة) للإنكليز أيام حركة رشيد عالي الكيلاني . وعندما استقلت البلاد ، وخرج الإنكليز انتهى دور هذه الفرقة لأنه زال سندها . هذا مع العلم أن أكثر أفراد هذه الفرقة إنما جاءوا من خارج حدود العراق ، وخاصةً من جنوب بحيرة (وان) في شرقي تركيا عندما ظهرت خيانتهم ، وبانت جرائمهم حتى خرجت

روائحها لقذارتها .

وعندما خرج الإنكليز لم يجد أفراد هذه الفرقة حمايـةً لأنفسهم إلا أن يدخلوا في بعض الأحزاب القومية التي أخذت تُدافع عنهم باسم القومية في سبيل كسب تأييدهم ، وأخذ عناصرهم إلى أحزابها .

لننظر إلى هذه الفرقة من الناحية السياسية بغض النظر عن العقيدة . فرقة استقبلت المستعمرين فهي خائنة ، وانضمّت إلى صفوفهم ، وأصبحت قطعةً من قواتهم ، فكانت اليد التي يبطشون بها ، فخيانتها مضاعفة ، وجزاء الخيانة القتل في جميع القوانين ، والأعراف ، والسياسـة ، والمنطق . وهـذه الفرقة قد ارتكبت جرائم القتل المتعمد ، وحكمه القتل ، فكل من شارك من أفراد هذه الفرقة بالخيانة أو القتل يُقتل .

وإذا نظرنا إلى هذه الفرقة من وجهة نظر الإسلام لم يتعد الحكم على أفرادها ما نظرنا إليه من وجهة النظر السياسية . غير أن الحكومات التي جاءت بعد الاستعمار لم تنـظر إلى القضية من وجهـة نظر سيـاسيةٍ ولا من منـطلقٍ إسـلاميٍ ، وإنما نـظرت من وجهة النـظر الاستعـمارية حيث بقي النفـوذ الإنكليزي بعد الاستقلال ، وبقي تأثيره على الحكومات وضغطه . كما اتخذوا القومية مظلّةً استظلّوا بها ، لذا بقيت الخيانة ، وبقيت آثار الجريمة ، وظلّت هذه الفرقة على صلتها بولية نعمتها انكلترا ، تتعاون معها ، وتنقل لها الأخبار فبقيت شوكة في جسم العراق تحتمي بظلّ العصبية القومية مع العلم أنها ليست من العرب ، ولا من أبناء المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى . وهذا من أولى نتائج القومية .

أما اليهود فقـد استقبلوا أيضاً المستعمـرين الإنكليز بكـل ترحـابٍ ، وجعلوا من أنفسهم عيوناً لهم ، وبذا فقد خانوا الذمة ، ونقضـوا العهد ، فوقفوا ضدّ من رعاهم قروناً طويلةً ، وحماهم عصوراً ، وأمّنهم عمراً مديداً ، وقد جعل الإنكليز أحد أبناء اليهود وهـو (ساسون حسقيل) وزيراً لأخطر الوزارات ، وهي المالية .

ولما قامت حركة رشيد عالي الكيلاني شعر اليهود بأشد الحرج ، وأحسّوا بالضيق، فلما فشلت أبدوا شماتتهم مما جعل الأذى يلحق بهم في أيام الفوضى يومي الثاني والثالث من ربيع الثاني ١٣٦٠هـ ، لما أظهروا من شماتةٍ ، ولما نقلوا من أخبار للإنكليز أيام الحركة .

ولما سيطر اليهود في فلسطين على أكثر أرضها ، وأعلنوا قيام دولةٍ لهم فيها . أخذ اليهود في العراق يُطالبون بالسماح لهم بالانتقال إلى فلسطين بكل جراْةٍ بل بكل وقاحةٍ ، وأقول بصراحة أن الحكومة أخيراً قد وافقت لهم على ذلك مُخالفةً كل القوانين الدولية والسياسية . بل والشرع لذا فليس غريباً أن يحلّ بنا ما حلّ .

مجموعة تُطالب بالانتقال إلى دولةٍ عدوّةٍ لنا ، في حالة حربٍ معنا أي أنها تُجاهر بالخيانة وجريمة الخيانة القتل ، وتتحدّى السلطة بهذه المطالبة ، وأنها ستُجبرها على ذلك إن لم توافق بالرضا والاختيار . . . . ثم تأتي وتسمح بذلك لتُقاتلها ، ولتنضمّ إلى أعدائها بالقتال ، ولتُساعدهم بالحرب ، والاستعداد ، والإعداد ، والإنتاج . فمن الناحية السياسية تُقتل هذه الجماعة ، ومن الناحية الشرعية لم يتعدّ الحكم ذلك . فمن انتقل حارب العراق ، والعرب ، والمسلمين جميعاً ، ومن بقي ظلّ عيناً لليهود والمستعمرين ، وشوكةً في جسم العراق تُوخزه كل حين . لو طبّقت الحكومة الشرع يومذاك بل السياسة الدولية لارتاحت وأراحت الأجيال في المستقبل ، ولكن خالفت أمر الله . . . فأصابنا ما نتجرّعه اليوم .

وعبدة الشيطان (اليزيديون) أقلّ شأناً ، لكن لقوا من الإنكليز ما لقيت الفرق الدينية الأخرى من دعم لإضعاف المسلمين وإذلالهم .

وإذا كانت مجموعات اليهود ، والنصارى ، وعبدة الشيطان قد قلّ شأنهم بعد خروج الإنكليز ، إلا أنهم بقوا في العراق ضدّ أهله يُعادون كل صديقٍ ، ويُصادقون كل عدوٍ ، ويعملون في جسم العراقيين وخزاً وتجريحاً ،

وذلك لتصرّفاتنا البعيدة عن الإسلام .

والمشكلة المضحكة والخطيرة أن المسؤولين في العراق ، ودعاة العصبية يحتضنون هذه الأقلّيات باسم القومية والوطنية ، وخوفاً من أن يتهموا بالتعصّب ضدّ هذه الأقليات ، على حين أن أبناء هذه الفئات يدوسون على القومية والوطنية بأقدامهم ولا يُبالون ، كما لا يخشون أن يُقال عنهم عملاء للأجانب أو أعوان للصليبية أو اليهودية ، بل يقولونها بملء أشداقهم أنهم أعوان لأبناء عقيدتهم من نصارى أو يهود ، ولا يهتمون بعدها بما يقال عنهم .

وأما **الشيعة** فرغم ارتفاع نسبتهم إلا أنه لا يوجد بينهم وبين المسلمين صراع ، وذلك لأن السكان لم يبحثوا في تلك المرحلة في الفروق بين الجماعتين ، لأن الأمر لم يقم على أساسٍ عقيديٍ ، وإن كان الشيعة يحرصون دائماً على استلام وزارة المعارف لوضع المناهج بشكل يدفع الناس ليكونوا إلى جانب ما يرونه هم ، وبشكلٍ عام فقد كانوا يُخطّطون لنشر آرائهم غير الصحيحة ، ولم يكن المسلمون لينتبهوا إلى هذا ، ولكن أخذوا ينتبهون إليه فيما بعد عندما قامت الدولة في إيران على أساس المذهب الشيعي وتعصّبت إليه أشدّ التعصّب .

وإذا كانت عواطف الشيعة وميولهم إلى إيران إلّا أنهم مُتمسّكون بأرضهم لأنهم ليسوا أقليةً فيها ، ولأن العتبات المقدسة عندهم موجودة في أرضهم في النجف ، وكربلاء ، وحتى في بغداد ، ومع ذلك فهم يتمنّون لإيران السيطرة على العراق ، ويعملون لهذا بشكلٍ خفيٍّ وضعيفٍ ، ولذا أخذ المسلمون يحذرونهم ولكن مع الأسف ليس على أساس العقيدة ، وتبيان الواقع ، ولو تمسّكوا بعقيدتهم لظهر عُوار ما يعتقده الشيعة ، ولكن على أساس من التعصّب القومي ، ودون أي ارتباطٍ بالإسلام ، والتزامٍ بتعاليمه حتى ليخيل للعامة أن الشيعة مرتبطين بالإسلام إذ لا تعرف العامة بطلان عقيدة الشيعة وفسادها .

الفصل الثاني

صراعات الأحزاب

حتى الحرب العالميّة الثّانية

عندما دخل الإنكليز العراق مستعمرين إثر صراعٍ وحروبٍ مع الدولة العثمانية ظنّ بعض العراقيين أن الوضع سيكون أفضل ولو نسبياً ، وذلك نتيجة الدعاية التي كانت تُشيعها دول أوربا النصرانية وتروّجها في الداخل الأقليات من نصارى ويهود ضدّ العثمانيين ، والواقع أن القصد لم يكن العثمانيين وإنما المسلمين ، وذلك كي يتقبّلها أولئك الذين ينتمون إلى الإسلام سجّلاً ، ويسيرون على خُطا أوربا نهجاً ، وبالواقع فقد حمل هؤلاء الرجال الأفكار إلى جانب اليهود والنصارى ضدّ العثمانيين ، ويعنون المسلمين ، وقاموا بالدعاية لدول أوربا النصرانية عامةً ، وانكلترا وفرنسا خاصةً .

ولما تمكّنت انكلترا من السيطرة على العراق وجد السكان أن الأمر أصبح متبايناً ، إذ رأوا العثمانيين أفضل بكثيرٍ من الإنكليز ، فإذا كانت الفوضى شائعةً من قبل ، والرشوة معروفةً ، إلاّ أن الوضع الآن أشدّ وطئاً بكثير عما كان من قبل ، إذ اختلفت العادات ، وتغيّرت المفاهيم ، وتبدّلت القيم ، فهذه كلها تنبع من العقيدة ، إذ ما كان حراماً ، وما اعتاد عليه السكان أنه حرام غدا مُباحاً، فمعاقرة الخمرة قد شاعت، والسفور قد انتشر، والاختلاط تفشّى ، ومُعانقة النساء في الطرقات أصبح مألوفاً ، فاهتزّ المجتمع المسلم ، وشعر أنه قد ارتكب جريمةً ، وأحسّ أن الدعاية كانت مُغرضةً ، وأن المسلمين كانوا مغفلين . ورأى المسلمون أمراً آخر لم يكن أقلّ أهميةً من الأول ، وهو

ارتفاع شأن اليهود والنصارى ، وقد أصبحوا يتحكّمون بشؤون الناس بل بشؤون الدولة ، فصعُب الأمر على المسلمين إذ وجدوا العقوق بأسمى معانيه عند أهل الكتاب هؤلاء الذين طالما أحسنوا إليهم ، وعدوّهم أمانةً عندهم في ذمتهم وفي عهدهم فما أن دخل الإنكليز الذين يرتبطون معهم بالعقيدة حتى تطاولت أعناقهم ، وأظهروا حقداً دفيناً ، وسوءاً في السريرة ، وتمنّى المسلمون لو كانوا يُدركون هذا من قبل .

ولكن وجد أهل الشهوات ضالتهم في الوضع الجديد ، ووجد أصحاب المصالح فرصتهم للتقرّب من المستعمرين ما دام المسلمون قد نفروا منهم ، فتقرّب هؤلاء وأولئك من الإنكليز وكانوا بطانةً لهم من بداية الطريق ، ولم يكن هذا الأمر غريباً ، وإنما مُتوقّعاً .

أراد بعض رجالات البلاد أن يُنظّموا أنفسهم ليُمكنهم العمل المشترك في مواجهة الدخيل وأخذوا يلتقون بعضهم مع بعضٍ لدراسة الموضوع ، ويجتمعون مع الأعيان ومشايخ القبائل .

وصل خبر اللقاءات ، ونبأ الاجتماعات إلى الملك ، وكان رأيه البعد عن الأحزاب فإن فيه تفرقة لجهود الأمة ، ومنافسة بعضها لبعض ، في وقتٍ هي في أشدّ الغنى عنه ، وله تجربته في الشام ، لذا فقد أرسل إليهم وطلب منهم الكفّ عن التهيئة لتأسيس الأحزاب ، فامتثل من امتثل ، وأظهر بعضهم الطاعة ، وفي نفسه ضرورة العمل لذلك، وإن رأى أن ينتظر حتى حين .

الوطني العراقي والنهضة العراقية : وفي ٩ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (٢ آب ١٩٢٢م) تأسّس الحزب الوطني العراقي برئاسة محمد جعفر أبو التمن . كما أسّس محمد أمين الجرحفجي جمعية النهضة العراقية في ٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ (١٩ آب ١٩٢٢م) وبُذلت جهود للتوفيق بينهما ، ويبدو أن قادة الحزبين اتفقوا على الاندماج في حزبٍ واحدٍ في ذكرى تنصيب الملك فيصل ملكاً على العراق في الأول من محرم ١٣٤١هـ (٢٣ آب ١٩٢٢م) . كان

زعماء الحزبين يطالبون بوقف تدخل المندوب السامي الانكليزي في شؤون البلاد ، ودسّ أنفه في كل موضوع ، وتعيين الأكفاء في مناصب الدولة ، وعدم الدخول في مفاوضات أو عقد أية معاهدةٍ قبل انتخاب المجلس النيابي بصورة شرعيةٍ ، وهذا ما أزعج المندوب السامي فما أن خلا له الجو بمرض الملك فيصل حتى ألغى الحزبين ، واعتقل زعماءهما ، وأخرج من البلاد من أخرج ، بل وأمر بقصف أنصارهما بالطيران ، وكان لهذا أثره السيء في نفوس الشعب ، وقام بتعطيل جريدتي (المفيد) و (الرافدان) اللتين يصدرهما الحزبان .

كانت آراء معظم أفراد الشعب مُنصبّة ضدّ الإنكليز وتصرّفاتهم حتى نستطيع أن نقول : إن وحدة كلمة السكان جميعاً هي مُحاربة الانتداب والعمل على الاستقلال ، ولقد أزعج هذا التضامن الإنكليز الذين يريدون التفرقة كي يستطيعوا العمل بحريةٍ في ترسيخ أفكارهم، وتعميق جذور سياستهم ، وبث عاداتهم وأعرافهم ومحاولة تهديم القيم الاسلامية فإذا كانت كلمة الشعب موحدة صعب عليهم ، ولكن إن افترقت سُهل عليهم ذلك . كما أن اجتماع السكان على رأيٍ واحدٍ يحول دون اختيار عناصر لهم يُنفّذون عن طريقهم سياستهم وينشرون آراؤهم ، ومن هنا رأى الإنكليز وجود منافسةٍ حزبيةً بين السكان ربما يخدم مصالحهم ، إذ كل حزبٍ يريد أن يصل إلى السلطة ، ولا مانع عند بعضهم من أن يتنازل عن شيءٍ من منهجه في سبيل الفوز على خصمه ، وهذا التنازل إنما هو للمستعمرين أو المتسلطين من الإنكليز ، لذا فقد رأوا العودة إلى سياسة وجود الأحزاب .

الحزب الحرّ العراقي : أسّس محمود الكيلاني نجل رئيس الوزراء عبد الرحمن الكيلاني الحزب الحرّ العراقي في ١٢ محرم ١٣٤١هـ (٣ أيلول ١٩٢٢م) لتأييد سياسة والده ، ودعمه أمام المعارضين له ، إذن كان الحزب لمرحلةٍ محددةٍ ، وبالفعل انتهى الحزب عندما أُجبرت وزارة والده على الاستقالة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٤١هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٢٢م)، وذلك لأن الحزب

لم يقم على مبادىء معينةٍ ، ويسعى لتحقيقها ، ويدعو الناس للعمل لها بعد الاقتناع بها .

حزب الأمة : وتأسّس في بغداد في ٢٠ محرم ١٣٤٣هـ (٢٠ آب ١٩٢٤م) برئاسة داود السعدي في بداية الأمر ثم تولّى رئاسته أحمد الداود ، وانضمّ عدد من المحامين إليه . وكان تأسيسه إثر إجبار النواب على التصديق على المعاهدة العراقية ـ البريطانية الأولى .

حزب الاستقلال الوطني : تأسّس في الموصل في ٤ صفر ١٣٤٣هـ (٣ أيلول ١٩٢٤م) برئاسة آصف آل الآغا .

جمعية الدفاع الوطني : وتأسّست في الموصل أيضاً في ٢ رجب ١٣٤٣هـ(٢٦ كانون الثاني ١٩٢٥م) برئاسة أحمد الفخري .

حزب الوطني العراقي : وتأسّس في الموصل في ١٤ ذي القعدة ١٣٤٣هـ (٥ حزيران ١٩٢٥م) برئاسة عبد الله آل سليمان ، وهو الاسم نفسه الذي يحمله الحزب الذي أسّسه محمد جعفر أبو التمن في بغداد . وكانت أهم مشكلةٍ ركّزت عليها هذه الأحزاب التي تشكّلت في الموصل مشكلة الحدود مع تركيا ، وقضية الموصل .

وهناك موضوع لا بدّ من طرحه الآن ، وهو أن ما يُسمّى في أوربا بالنظام (الديمقراطي) قد يصلح لدول تلك القارة ومن يسير على نهجها من دولٍ أخرى ، نتيجة سيادة مفاهيم معينة ، والمرحلة التي قطعتها في تطبيق هذا النظام . ولكن هذا النظام لا يصلح لبقاعِ العالم كلها ، وخاصةً إن كانت في مرحلةٍ معينةٍ من حياتها السياسية ، ومثلاً لا يصلح للعراق في هذه المدّة التي نتحدّث عنها على الأقل ، وانكلترا تعرف هذا تمام المعرفة ، ولكن تريد ترسيخ الأفكار التي تحملها ، ومنها هذا النظام الذي تحمله وتُطبّقه . وليس هذا فقط فكل جوانب الحياة الوضعية التي تُناسب إقليماً من الأقاليم قد لا تناسب غيره وخاصةً إن كانت تختلف عنه في العقيدة ، والمفاهيم والأعراف والعادات ،

وإن كانت هذه كلها في الواقع تنبع من العقيدة غير أن الدول الاستعمارية وكذلك الأشخاص والفئات التي فُتنت بها تحاول تطبيق نظام تلك الدول كما هو على المجتمع الإسلامي ، وهذا لا يمكن أبداً .

نَلاحظ الأحزاب التي قامت في العراق بتلك المرحلة أنها ترتبط بشخصيةٍ أو باثنتين فإذا زالت هذه الشخصية زال الحزب، أو تعمل لنقطةٍ واحدةٍ فإذا حُلّت حُلّ الحزب كقضية الموصل التي حُلّت فحلّت الأحزاب التي قامت من أجل هذه القضية . أو لمرحلةٍ من التاريخ كالمطالبة بالاستقلال أو الدعوة لموضوعٍ معينٍ فإذا ما تمّ الاستقلال أو حقّق الموضوع انتهى الحزب .

ولما وافق حزب الإخاء على تشكيل الوزارة ، فسخ الحزبَ الوطني العراقي وثيقة التآخي التي بينهما .

حزب الوحدة الوطنية : وأسّسه علي جودت الأيوبي ليسند حكومته ، وذلك بعد تركه حزب الإخاء عندما انفصل عن الحزب الوطني العراقي ، أو كنوع من التمايز الذي ذكرناه ، وعمل الأيوبي على أن يضمّ حزبه عناصر من الأحزاب الأخرى كافة ، ولكنه لم يستطع أن يحتوي إلا النواب ، وكان ذلك في أوائل رمضان ١٣٥٣هـ (كانون الأول ١٩٣٤م) ، وانتهى الحزب عندما استقالت الوزارة الأيوبية في ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٣هـ (٣ آذار ١٩٣٥م) .

حزب الأهالي أو جماعة الأهالي : وقد تأسّست عام ١٣٥٠هـ ومن قادتها كامل الجادرجي ، وحكمت سليمان ، ومعهم مجموعة من الشباب (حسين جميل ، وعبد القادر إسماعيل ، وعبد الفتاح إبراهيم، وخليل كنه ، ومحمد حديد) ، وأصدرت جريدة الأهالي في أوائل رمضان ١٣٥٠هـ (كانون الثاني ١٩٣٢م) ، وادّعى هؤلاء الشباب أن حزبهم يتبنّى مبادىء الثورة الفرنسية ، والديمقراطية ، أي أنهم أعلنوا علمانيتهم من البداية ، وأظهروا تأثّرهم بالمادية الغربية ، والماسونية التي كانت وراء الثورة الفرنسية ، ثم أعلنت أنها اشتراكية تحت تأثير عبد الفتاح إبراهيم ، ومحمد حديد وغيرهم من الذين كانوا يحملون هذه الأفكار .

أيّدت هذه الجماعة حركة بكـر صدقي للتقـارب في كثير من الآراء ، والتفكير في طريقة التخلّص من الخصم بالقتل . ثم اختلفت الجماعة للتباين الكبير في آراء قادتها .

جمعيـة الإصلاح الشعبي : وتـأسّست في ٢ رمضـان ١٣٥٥هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٣٦م) ، وكان الهدف منها تأييد وزارة حكمت سليمان الذي تولّت السلطة أثناء سيطرة بكر صدقي .

الحزب الشيوعي : نشأ بشكلٍ سريٍ عام ١٣٥٣هـ ، غير أن وزارة ياسين الهاشمي قد اعتقلت أكثر أعضائه، وصادرت مـطبعة الحـزب . وأيّد الحزب حركـة بكر صـدقي لأنها قامت ضـدّ وزارة ياسـين الهاشمي عـدوّة الحزب ، ثم لأن التفكير كان واحداً في التخلّص من الخصم عن طريق القتل، ونشر الفوضى لسيطرة الغوغائيين الذين يجدون في الشيوعية مرتعاً خصباً لهم .

وهكـذا فإن الأحـزاب التي قامت في العـراق منذ دخلهـا الانتـداب الإنكليزي في الحرب العالمية الأولى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن أحزاب مبادىء ولكنها كانت في الغـالب لمصلحة الـوزارة القائمـة ، وتزول بزوالها ، وإن وجدت أحزاب لمعارضة السياسة البريطانية فقد وجدت أحزاب أخرى لتأييد تلك السياسة والسير في فلكها .

ومع أن هذه الأحزاب لم توجد بينها منافسة قوية إلا نادراً فقد استطاعت انكلترا أن تغري بعض رجالات العراق ، وبعض زعماء الأحزاب في استلام السلطة وتقديم الدعم لهم ، أما الأحزاب التي تقوم على مبادىء ، وتدعو إلى تطبيق نظامٍ معين وتسعى إلى تحقيقه فهي لم توجد في تلك الأيـام ، إذ أن البلاد لا تزال تحت السيطرة الأجنبية ، وهي في مرحلة من الضعف والهزيمة النفسية حتى إن عدداً ليدعو إلى تطبيق ما يُطبّقه العدوّ ويرى في ذلك تقدّماً للأمة وتطوّراً لمصالحها ، وهذه هي الهزيمة النفسية ذاتها .

حتى الانتخابات العامة لم تكن لتجري بشكلٍ طبيعي فـالشعب فقير

يمكن أن يُؤيّد من يُقدّم له منافع ماديةً أكثر ، وهو جاهل لا يقدّر نتائج انتخابه ، لذا كانت المجالس النيابية مُمثّلةً للحكومة التي أشرفت على الانتخابات ، لذا كلما جاءت حكومة جديدة عملت على حلّ المجلس النيابي ، ودعت إلى انتخاباتٍ جديدةٍ لتأتي بمجلسٍ يُؤيّدها في تصرّفاتها ، وتستطيع عن طريقه تمرير كثيرٍ من القضايا التي تُهمّها أو تعمل لها .

حزب التقدّم : وقد أسّسه عبد المحسن السعدون في ٤ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ (٢٠ تشرين الأول ١٩٢٥م) ليدعم وزارته الثانية ، فلما انتحر مؤسّسه مات الحزب معه .

حزب الشعب : وأسّسه ياسين الهاشمي في ٥ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٥م) ، وقد جرت محاولات لدمج الحزبين في حزبٍ واحدٍ ، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل .

وكان الملك فيصل قد تغيّر رأيه في الأحزاب حيث رأى أن المعارضة تخيف الحكم فيحاول أن يبتعد عن السقطات ، وإن ذلك ليحدّ من تدخل الإنكليز .

وفي ٢٥ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ (١ تشرين الثاني ١٩٢٦م)رشّح حزب التقدّم حكمت سليمان لرئاسة المجلس ، على حين رشّح حزب الشعب رشيد عالي الكيلاني لرئاسة المجلس وقد فاز فعلاً بالرئاسة ، فعدّ رئيس الحكومة عبد المحسن السعدون أن المجلس قد خذله فقدّم استقالة حكومته . وألف جعفر العسكري الوزارة الجديدة وساندها حزب التقدّم على حين وقف حزب الشعب موقف المعارضة .

حزب العهد العراقي : قد أسّسه نوري السعيد في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٩هـ (١٤ تشرين الأول ١٩٣٠م) ليدعم الحكومة التي ألفها ، فلما انتهت الوزارة انتهى معها الحزب .

حزب الإخاء الوطني : وقد أسّسه ياسين الهاشمي ، ورشيد عالي

الكيلاني ، وعلي جودت الأيوبي ، وحكمت سليمان ، وكامل الجادرجي ، في ٥ رجب ١٣٤٩هـ (٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠م) ، واتفقوا على إعادة نشاط الحزب الوطني العراقي ، وسجّلوا وثيقة التآخي . وقامت منافسة شديدة بين حزبي العهد العراقي والإخاء الوطني . وبشكلٍ أخذ الصراع يبرز بين الذين يُؤيّدون المعاهدة العراقية ـ البريطانية وبين الذين يُعارضونها ، وأخذت الأمور تتوضّح تدريجياً لتكون بين الذين يتبعون السياسة البريطانية وبين الذين يُخالفونها ، حتى مال الذين كانوا على الأعراف بين الفريقين إلى أحد الطرفين ، وخرج من كل حزبٍ من كان قد انضمّ إليه من باب الصداقة والمجاملة ليسير في الدرب الذي اقتنع به وخطّه لنفسه .

مع أن بعض الزعماء العراقيين قد وقفوا في وجه السياسة البريطانية بكل صلابةٍ ، ووقع صراع بين هاتين المجموعتين بعد أن تمايز بعضها عن بعض مع بداية الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى بعد وفاة الملك غازي الذي كان يُخفّف من بعد الشقة بين المجموعتين ، ويضغط بصورةٍ مقبولةٍ على أعوان السياسة الإنكليزية فلما توفّي توسّعت الفجوة ، وكانت الحرب مجالاً لمحاولة سيطرة الأعوان ، وهذا ما دفع المعارضة للحركة فكانت حركة رشيد عالي الكيلاني ، غير أنه لم يلبث أن قُضي عليها ،وفرّ من البلاد من فرّ من أنصارها ، وأُلقي القبض على بعضهم ، وأُبعد آخرون ، وسيطر أعوان السياسة الإنكليزية .

وكانت الأحكام العرفيه أثناء الحرب ، ولم تكن أحزاب ، وقد تقدّم بعض المحامين[1] بطلبٍ إلى وزارة الداخلية في الأول من عام ١٣٦٣هـ (٢٧ كانون الأول ١٩٤٣ك) لتأسيس حزب باسم (حزب الشعب) فرفض الطلب.

---

(١) المحامون هم : يحيى قاسم ، عبد الرحمٰن شريف ، محمود صالح السعيد ، توفيق منير ، إبراهيم الخضيري ، إبراهيم الدركزلي ، يوسف جواد المعمار ، عبد الأمير أبو تراب .

الفصل الثالث

صراعات الأحزاب

بعد الحرب العالمية الثانية

أُعطيت الحرية بعد الحرب العالمية الثانية ، وسمح بتأسيس الأحزاب السياسية ، وفي الأول من شهر جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (٢ نيسان ١٩٤٦م) ، أعطت وزارة الداخلية العراقية رخصةً لخمسة أحزاب سياسية ، ورفضت طلباً باسم (حزب التحرر الوطني) الشيوعي . والأحزاب التي سمح لها بالنشاط هي :

١ ـ **حزب الاستقلال** : تأسّس نادي المثنّى عام ١٣٥٤هـ ، وكان مقرّه لقاء الرجال السياسيين الذين يعملون على وحدة الشعب ، ومُحاربة الأفكار الدخيلة ، وقد تبعثر هؤلاء الرجال بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني ، فلما مُنحت الحرية تقدّم بعض هؤلاء الرجال[1] لتشكيل حزبٍ سياسيٍ يحمل اسم (حزب الاستقلال) . وكان يعمل لإلغاء المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية . ويُدافع عن فلسطين ، ويرفض وعد بلفور ، ويعمل على إقامة صلةٍ وثيقةٍ مع البلدان العربية ، ومع الشعوب الإسلامية ، ومع الجاليات العربية في المهجر .

٢ ـ **حزب الأحرار** : وكان مجرّد تجمعٍ سياسيٍ يهدف إلى الإفادة من

---

(١) الرجال الذين تقدّموا بطلب التأسيس هم : محمد مهدي كبه ، داود السعدي ، خليل كنه ، إسماعيل غانم ، فاضل معلة ، علي القزويني ، عبد المحسن الدوري ، رزوق شماس ، عبد الرزاق الظاهر ، وكان من بينهم أيضاً محمد صديق شنشل ، محمد فائق السامرائي ، لكن وزير الداخلية استبعدهما. ، ولكنهما انضمّا إلى الحزب بعد تأسيسه .

هذا التجمّع لتحقيق بعض المصالح لأفراده[1] ، وترأسه توفيق السويدي .

٣ ـ **الحزب الوطني الديمقراطي** : وهو من الأحزاب اليسارية حسب التصنيف السياسي المتعارف عليه بين أصحاب الأفكار الدخيلة ، ويمكن اعتباره امتداداً لجماعة الأهالي التي نشأت في أوائل مرحلة الاستقلال ، وربما كان يلقى التأييد من أغنياء المدن رغم ما ذكرناه ، ويُؤيّد السياسة الروسية رغم ظهوره بخصومته للشيوعية ، وعداوته لأفكارها .

والواقع أن هذا الحزب كانت قوته في شخصية رئيسه (كامل الجادرجي) ، وهو الذي يُوجّهه ، ولاقيمة للمبادىء المسجّلة والمعلنة للناس ، وهذه مع الأسف السمة الرئيسية للأحزاب السياسية التي تقوم عليها أكثر الأحزاب في البلدان العربية . كما أن معظمها تجمّعات سياسية ، وشخصية الرئيس هي الفعّالة في النشاط ، والتأييد الشعبي ، والقوة المعنوية للحزب[2] .

٤ ـ **حزب الشعب** : وهو من الأحزاب المصنفة يسارياً ، وكان أعضاء هذا الحزب يعملون بشكلٍ سري ، ويُوزّعون المنشورات المكتوبة باليد ، وقد رُخّص لهم عندما مُنحت الحرية بعد الحرب العالمية الثانية[3] .

٥ ـ **الاتحاد الوطني** : وهو أيضاً من أحزاب اليسار ومعظم أعضائه من الشيوعيين ، وتقدّم بعضهم[4] لأخذ حق المشروعية للحزب . ويمكن أن

---

(١) تقدّم بطلب تأسيسه كل من : داخل الشعلان ، محمد فخري الجميل ، عبد العزيز السنوي ، نوري الأورفلي ، عبد القادر باش أعيان ، حسن النقيب ، كامل الخضيري ، عباس السيد سلمان .

(٢) كان الذين تقدّموا بطلب أخذ الرخصة للحزب : كامل الجادرجي ، محمد حديد ، عبد الكريم الأزري ، يوسف الحاج الياس ، حسين جميل ، عبد الوهاب مرجان ، صادق كمونة ، عبود الشالجي .

(٣) الأعضاء المؤسسون للحزب هم : عزيز شريف ، عبد الرحمن شريف ، توفيق منير ، إبراهيم الدركزلي ، عبد الأمير أبو تراب ، والنصراني جرجيس فتح الله ، واليهودي نعيم شهرباني .

(٤) عبد الفتاح إبراهيم ، جميل كبة ، محمد مهدي الجواهري ، موسى الشيخ راضي ، عطا البكري ، موسى صبار ، ادوارد قليان .

نُضيف تجمعاً آخر ، لا يلتقي على أساسٍ حزبيٍ ، وإنما أفراد يأتمرون بأمر الوصي ، ومنهم أرشد العمري ، ومصطفى العمري ، وصادق البصام ، وحمدي الباجه جي ، ويوسف غنيمة ، وأحمد الداود ، وعبد المهدي .

ولم تكن هناك مبادىء تجمع الحزبيين بعضهم مع بعضٍ ، ولا أفكار مشتركة يعملون لها ، وإنما مصالح يُحقّقونها من تجمّعهم ، لذا كانت الحكومة إذا أرادت أن تخرج فرداً من جماعةٍ ، أو رغبت في استقطاب فئةٍ عرضت المناصب ، وقدّمت الأماني فيترك الحزب بعض رجاله أو تنسلخ مجموعة منه .

كانت هذه الأحزاب متفقة تعمل في صفٍّ واحدٍ كمعارضة لحكومة أرشد العمري التي عملت على كبت الحريات ، واضطرت الحكومة إلى الاستقالة نتيجة هجوم المعارضة .

وشارك الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار في الوزارة الجديدة التي شكّلها نوري السعيد على شرط منح الحريات . ولكن الحكومة تدخّلت في الانتخابات، ولم تسمح بنشاطٍ جديدٍ ، فانسحب ممثلا الحزبين من الوزارة ، وقاطع حزب الأحرار الانتخابات ، وفاز أربعة نواب من الحزب الديمقراطي ، غير أن ثلاثةً منهم قد انسحبوا من المجلس النيابي نتيجة تصرّف الحكومة .

وبعد توقيع معاهدة (بورتسموث) في ٤ ربيع الأول ١٣٦٧هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٤٨م) وقفت الأحزاب في وجه الحكومة والمعاهدة ، وأخيراً رُفضت المعاهدة المذكورة ، واشترك حزب الاستقلال في وزارة محمد الصدر بشخصية رئيسه محمد مهدي كبه .

كانت الأحزاب على شبه وفاق في المعارضة ، غير أن عددها قد زاد إذ تشكّل في مطلع عام ١٣٦٩هـ كل من حزب الإصلاح برئاسة سامي شوكت ، وحزب الاتحاد الدستوري برئاسة نوري السعيد ، ولكن كان قد جُمّد أيضاً كل من الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الأحرار ، ومع ذلك فقد شارك هذان

الحزبان في حكومة علي جودت الأيوبي بأسماء من أعضائهم بصفتهم الشخصية .

وعملت المعارضة على تشكيل جبهة باسم « الجبهة الشعبية المتحدة » ووقّع البيان عدد من كبار الساسة للوقوف على الحياد ، وتعاونت مع الحزب الوطني الديمقراطي الذي شارك أيضاً في التوقيع على البيان .

ثم تشكل حزب الأمة الاشتراكي برئاسة صالح جبر ، وانضم إليه حزب الإصلاح بعد أن عدّ نفسه منحلاً ، وبدا أول الأمر مسايراً للمعارضة التي انتقدت اتفاقيات النفط . إذ عدّها حزب الاستقلال قد فرضت فرضاً ، وعدها الحزب الوطني الديمقراطي والجبهة الشعبية غامضة، وانتقدها حزب الأمة الاشتراكي بعنفٍ . ودعت الأحزاب الشعب إلى الإضراب ، فقامت المظاهرات ، ووقع قتلى .

وقاطعت المعارضة الانتخابات ، وجاءت حكومة الفريق نور الدين محمود ، فألغت الأحزاب ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وبدأ الضغط على الشيوعيين .

عادت الأحزاب إلى النشاط في مطلع عام ١٣٧٣هـ في عهد وزارة محمد فاضل الجمالي ، ولكن عادت فأعلنت الأحكام العرفية محلياً في منطقة البصرة ، فانسحب أعضاء الجبهة الشعبية من الحكومة ، وهم اثنان ، واحتجّ المجلس النيابي على ذلك .

ووقفت الأحزاب ضدّ وزارة أرشد العمري الثانية لما عُرف عن رئيسها في كبته للحريات والضغط على الشعب .

واتفق كل من الحزب الوطني الديمقراطي ، وحزب الاستقلال ، والشيوعيين الذين تستروا بالمنظمات المهنية لتشكيل جبهة عُرفت بالجبهة الوطنية ، وقد دخلت معركة الانتخابات العامة التي جرت في ٨ شوال ١٣٧٣هـ (٩ حزيران ١٩٥٤م) وحصلت على أربعة عشر مقعداً . على حين

حصل حزب الأمة الاشتراكي الذي يرأسه صالح جبر على واحدٍ وعشرين مقعداً ، على حين حصل حزب الاتحاد الدستوري الذي يرأسه نوري السعيد على واحد وخمسين مقعداً . أما الجبهة الشعبية فلم تحصل إلا على مقعدٍ واحدٍ ، أما باقي المقاعد وهو ثمان وأربعون مقعداً فقد شغلها المستقلون .

وخشيت الحكومة من هذه النتيجة ، وترك أرشد العمري كتاب استقالة حكومته وسافر إلى استانبول ، وكان نوري السعيد قد رحل إلى لندن ، وخافت انكلترا من هذه الانتخابات ، ومع أن المجلس قد عُطّل ، إلاّ أن الخوف بقي قائماً، فطلب من الوصي أن يسافر إلى لندن ، ويسترضي نوري السعيد للعودة إلى البلاد ، واستلام الحكومة ففعل . وجاء نوري السعيد إلى السلطة فحلّ المجلس النيابي ، وحلّ حزبه أيضاً وهو حزب الاتحاد الدستوري . . . فاكفهر الجو ولذا جمدت الجبهة الشعبية نشاطها . وحدّت الحكومة كذلك من نشاطات النقابات ، وعطّلت الصحف .

قاطع كل من حزب الأمة الاشتراكي ، والحزب الوطني الديمقراطي الانتخابات ، ودخلها فقط حزب الاستقلال .

ولما احتجّت الأحزاب على سياسة الحكومة التعسفية سحبت ترخيص الحزب الوطني الديمقراطي ، ثم ألغت الأحزاب جميعها ، وبذا انتهت الحياة الحزبية في العراق في هذه المرحلة . وغدت المفوضية السوفيتية مكاناً لالتقاء العناصر الشيوعية ، فطلبت الحكومة إغلاقها ، وسحبت رجال السلك السياسي العراقي جميعهم من موسكو ، ثم قطعت العلاقات السياسية بين الدولتين رسمياً .

اجتمع المجلس النيابي في ١٩ محرم ١٣٧٤هـ ، ولكن عُطّل مدة شهرين ونصف بعد اجتماعه الأول . واشتدّ الهجوم الإعلامي من الخارج على العراق ، واشتدّ النقد الداخلي من المعارضة ، واضطر نوري السعيد إلى تقديم استقالة حكومته في ٢ جمادى الأولى ١٣٧٥هـ ، ولكنه كُلّف بتشكيل

حكومةٍ جديدة ، غير أن المعارضة استمرّت في هجومها ، ورفعت كتاباً إلى الملك تنتقد الحكومة التي عزلت العـراق عن بقية البلدان العـربية ، وقتلت الحركة الوطنية ، وجرّت البلاد إلى أحلافٍ استعماريةٍ ووقّع الكتـاب رؤساء حزبي الوطني الديمقراطي والاستقلال اللذين اتفقا على دمج حزبيهما في حزبٍ واحدٍ باسم حزب المؤتمر الوطني ، وقدّم رؤساؤه طلباً لمزاولة النشاط فرفض الطلب غير أنه أخذ يمارس النشاط دون رخصةً رسميةٍ .

كان للنشاط الحزبي الدور الكبير في السياسة العراقية العامة وظهر ولو من خلف حجاب بالمظاهرات والحركات التي كانت تحدث في العراق بين آن وآخر ، كالمظاهرات التي قامت احتجاجاً على العدوان الثلاثي عـلى مصر ، والمـظاهرات التي أعقبت ذلـك في مـدينـة النجف ، وفي ألـويـة الشـمال ، والاحتجاجات التي توالت على الحكومة نتيجة الاعتقالات ، والاعدامات ، والأحكام الجائرة التي كان صدورها يتوالى ، والعرائض التي رفعت إلى الملك من السيـاسيين ، والمحـامين ، والتجـار ، والأعيان ، والنـواب ، ورؤسـاء الوزارات السابقين ، حتى ألغيت الأحكام العـرفية في ٢٨ شـوال ١٣٧٦هـ (٢٨ أيار ١٩٥٧م) ، وأخيراً استقالت حكومة نوري السعيـد في ٢٢ ذي القعدة ١٣٧٦هـ .

وتقاربت الأحزاب المعارضة بعضها من بعض بسبب الدعوة إلى الوحدة العربية التي كانت تنادي بها كل من مصر وسوريا ، على حين كانت العراق في معزلٍ عن التيارات العـربية بـل وعن البلدان العربيـة وتشكلت جبهة من أحزاب المعارضـة باسم الجبهـة الوطنيـة المتحدة ، وضمّت كـلاً من حزب الاستقلال ، والوطني الديمقراطي ، والبعث ، والشيوعي ، وكانت الدعوة إلى حلّ المجلس النيابي ، وطرد نوري السعيد من الحكم ، والخروج من حلف بغداد ، وإلغاء الأحكام العرفية ، وإطلاق الحريات ، وأخيراً انتهى العمل بالقضاء على الحكم الملكي وإعلان الجمهورية .

الفصل الرابع

الصّراعات الحزبيّة في العهد الجمهوري

كان رجال حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ (١٤ تموز ١٩٥٨م) عدداً من التجمّعات السياسية والتي يحمل كل منها أفكاراً متباينة عن أفكار الآخرين ، وكان المحرّك الرئيسي في وسائل الإعلام المختلفة الجمهورية العربية المتحدة ، ومن وراء ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي تُنافس انكلترا على نفوذها في العراق . لذا كانت هذه التجمّعات العراقية المعارضة تبدي العمل للوحدة العربية ، وتُؤيّد سياسة الحياد ، والخروج من حلف بغداد ، وإطلاق الحريات . فلما تمّ الأمر ، وتسلّمت السلطة أبدت كل مجموعة ما تريد ولكن حسب قوتها وإمكاناتها ، لذا بدا هذا عند الزعماء الذين لعبوا دوراً في الحركة ، ولم يظهر على الأحزاب والتجمعات لأن بعضها كان قليل الأهمية كالبعثيين ، وبعضها ليس له قوة تذكر في الجيش كالإسلاميين .

كان عبد الكريم قاسم رأس الحركة يرى التفاهم مع الجمهورية العربية المتحدة ليس أكثر ، وكان الشيوعيون لا يرون الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة أبداً بل يُقاتلون ضدها ، ولهذا فقد التفّوا حول عبد الكريم قاسم ، وكانوا يبدون له خطر سيطرة جمال عبد الناصر واستبداده وغطرسته و . . .

وكان عبد السلام عارف الرجل الفعّال في الحركة يرى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة وفي الوقت نفسه كان معجباً بجمال عبد الناصر ،

ويعدّ نفسه من أعوانه وأتباعه ، وقد التفّ حوله الإسلاميون الذين يرون في دينه ما يحول دون انحرافه أو سوء التصرف ، والوطنيون الذين يرون الوحدة مع سوريا ومصر ، والبعثيون الذين يريدون استغلال الوضع ، كما يرون في عبد السلام عارف رجلاً يمكن استغلاله لطيبته وبساطته . وهكذا انقسم رجال الحركة إلى مجموعتين عرفت أولاهما اسم الوحدويين وعرفت الثانية باسم جماعة عبد الكريم قاسم أو الشيوعيين . وقد أيّد الشيعة ، وغير المتدينين من الأكراد المجموعة الثانية خوفاً على ضياعهم فيها إذا تمّت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة حيث أن مصر ليس فيها شيعة ولا أكراد ، وهي ذات العدد الكبير بالسكان، وأما سوريا فالأكراد فيها قلة، ولا تزيد نسبة الشيعة على النصف في المائة، وأقصد بالشيعة الاثني عشرية، أو الإمامية، أما الطوائف الأخرى التي يُظنّ أنها من أصلٍ شيعي ، ويعدّها بعضهم من الشيعة جهلاً ، فلا علاقة لهم بالأمر لأنهم ليسوا من الشيعة ، فلا هم ينسبون أنفسهم للشيعة ، ولا الشيعة تعترف عليهم بل تعدّهم خارجين عن الإسلام ، وليسوا من أهله أبداً ، وبذا تتفق الشيعة في هذا الجانب مع المسلمين (السنة) .

وجاء دور انكلترا التي تريد أن تثأر من الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت وراء الحركة ، والتي قضت على رجالها من العراقيين وبالتالي على نفوذها ، عملت انكلترا على توسعة الشقّة بين الطرفين ، فأشاعت أن الولايات المتحدة كانت وراء الحركة ، وهي في الوقت نفسه تُوجّه الجمهورية العربية المتحدة ، وجمال عبد الناصر من أكبر صنائعها ، فانكمش الشيوعيون ، وتشدّدوا في موقفهم ، وتغيّر موقفهم من رفاقهم بالأمس ، وأصبحوا يعدّونهم من أعوان الرأسمالية ، وغدت انكلترا تخوّف عبد الكريم قاسم من عبد السلام عارف عن طريق الشائعات ، ونقل الأخبار ، ومن رشيد عالي الكيلاني الذي جاء إلى العراق ، وأنهما من أعوان جمال عبد الناصر ، وسيعملان لإزاحة عبد الكريم قاسم ، وتسليم العراق إلى جمال عبد الناصر . . . فخاف رئيس العراق ، ولم يجد حوله من أعوان سوى

الشيوعيين الذين التفّوا حوله يريدون استغلاله والإفادة من مركزه للتسلّط على البلاد والعباد ، والسيطرة على الحكم وتنفيذ سياستهم في الالتحاق بروسيا .

الصراع أيام عبد الكريم قاسم : أخذ عبد السلام عارف يتجوّل في البلاد ، ويُلقي الخطب ، وينقل للحضور تحيات الرئيس جمال عبد الناصر ، وينسى رئيس البلاد عبد الكريم قاسم الذي نقم عليه لهذا التصرّف ، ولما كان يبلغه عنه من أحاديث مع جمال عبد الناصر منذ أيام الحركة الأولى بأن العراق ستنضم إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وسيكون مصير عبد الكريم قاسم هو مصير محمد نجيب نفسه ، وأخيراً كان الخلاف الذي لا لقاء بعده ، ووضع عبد السلام عارف في السجن ، وبدأ أعوانه والذين كانوا يدفعونه يعملون ضدّ عبد الكريم قاسم ، ومن معه من الشيوعيين .

ثم وضع رشيد عالي الكيلاني بعد أن وصلت الأخبار إلى عبد الكريم قاسم بأنه يعدّ للقيام بحركةٍ ، وأن جمال عبد الناصر يدفعه ، وكان مصير رشيد عالي الكيلاني مصير عبد السلام عارف ، وهذا ما زاد من الشقاق بين الوحدويين والشيوعيين .

وقام الوحدويون بحركة عبد الوهاب الشواف في الموصل ، وفشلت ، فاستأسد الشيوعيون، وفسح عبد الكريم قاسم لهم المجال، فأقاموا المجازر، وقتلوا الناس ، واعتدوا على الأهالي ، وظهروا على حقيقتهم الدموية ، والرغبة في التسلّط ، والتشفي من السكان ، حتى كرههم الشعب كله ، إذ وجد فيهم ما لم يتوقّعه من وحشيةٍ وحقارةٍ وظلم وأعمال لم يعهدها في تاريخ أشرس الطغاة .

نظم الوحدويون صفوفهم ، وأخذ عبد الكريم قاسم يتجه نحو المعسكر الشرقي فعملت انكلترا والولايات المتحدة على التخلّص منه ، وقام الوحدويون بالحركة ونجحوا فيها ، ونصبوا عبد السلام عارف رئيساً على البلاد ، فهو وحدوي ، وترى كل مجموعةٍ أنها تستطيع استغلاله .

الصراع أيام عبد السلام عارف : كان الوحدويون الذين قاموا بالحركة ضدّ عبد الكريم قاسم عدة فئات : منهم البعثيون الذين غدوا أكبر مجموعةٍ ، خاصةً أنهم كانوا في طليعة المناضلين ضدّ عبد الكريم قاسم، وحاولوا اغتياله، ولكنهم فشلوا حتى توارى زعيمهم فؤاد الركابي عن الساحة ، وبرز مكانه علي صالح السعدي . ويرى البعثيون الوحدة غير أنهم لا يرون وحدة إلا تحت مظلة حزب البعث لهذا فهم لا يقبلون بزعامة جمال عبد الناصر الذي يرتبط به بعض الوحدويين في العراق ولا يرون زعامة دونه ، وخاصةً بعد خلاف البعثيين السوريين مع جمال عبد الناصر ، وانفصال إقليمي الوحدة بعضهما عن بعض ، والهجوم الإعلامي بين الطرفين .

ومنهم مريدو جمال عبد الناصر الذين يعدّونه سيّد الساحة ، ولا زعيم سواه ، حتى عُرف هؤلاء بالناصريين ، وكان منهم فؤاد الركابي زعيم حزب البعث سابقاً ، وعدد من القادة العسكريين .

ومنهم أعوان عبد السلام عارف الذين يريدون الوحدة ، ولكن لا يعرفون كيف يتصرفون ، وقد انفصمت عرا الوحدة بين مصر وسوريا ، وهم يرون الوحدة مع مصر لأنهم ينظرون إلى جمال عبد الناصر ممثلاً للوحدة وعنواناً لها ، وبينهم وبين مصر دول فكيف السبيل ؟ .

ومنهم المسلمون الذين يرون أن عبد السلام عارف صاحب خلق ودين ، ويمكن عندما يستقر الوضع أن يسير بالبلاد بشكلٍ أفضل ، ولكن ليس لهم قوة بالجيش تذكر .

هؤلاء الذين عملوا على الخلاص من حكم عبد الكريم قاسم ، وبدا الخلاف فيما بينهم في موضوع الوحدة . أما الشيوعيون فقد تواروا عن الساحة وإن كان بعضهم قد لبس ثوب البعثية ، وتزيّ بعضهم بزيّ الناصرية ، وعاد بعضهم فرفع شعار الوحدة تستراً بأفكاره ، وانتهازية لمصالحه .

تسلّم البعثيون رئاسة الحكومة على أنهم أكثر الفئات تنظيماً ، واستغلالاً

للظروف ، وتشكّل الحرس القومي من المدنيين لحماية الثورة ، وبدأت التصرّفات السيئة ، والأعمال المشينة باسم السلطة حتى ضجّ الناس ، وتضايق السكان ، وكرهوا الحكم للتجاوزات التي يقوم بها أفراد الحرس القومي ، والتعدّيات والمخالفات التي لا يمكن تحمّلها أو السكوت عنها ، تارةً باسم الحزب ، وأخرى باسم رؤسائهم ، وثالثة باسم المسؤولية التي يحملون شعارها . وزاد الأمر سوءاً ما وقع بين قادة حزب البعث من خلاف ، حتى أخرج بعضهم بعضاً من البلاد ، وطرد قسم قسماً آخر من الحزب ، فوقعت البلبلة في أوساط السلطة ، واحتار المنتفعون الذين انضمّوا إلى حزب البعث بعد أن آل إليه الأمر فلم يعرفوا مع من يقفوا لأنهم لا يدرون من المنتصر ليكونوا في صفّه . فانتهز الفرصة عبد السلام عارف ، فأزالهم عن السلطة ، وسلّم أعوانه مكانهم ، فشعر الناس بالراحة ، وأحسّوا بالطمأنينة بعد أن زال عنهم كابوس الحرب ، وتسلّط الحرس القومي ، وزالت إحدى الفئات الحاكمة التي تحمل شعار الوحدة دون أن تعمل لها، إلا إذاكانت تحت سيطرتها وسيادة قادتها .

أما الفئات التي بقيت وهي الناصرية ، وأعوان عبد السلام عارف ، ثم المسلمون الذين هم ضعاف عسكرياً ، مختلفون تنظيمياً ، قليلون عدداً .

كان جمال عبد الناصر الرئيس المصري يرى انضمام العراق إلى مصر للإحاطة بسوريا ، واضطرارها للعودة إلى الوحدة لاستعادة مجده الذي فقده ، وزعامته التي تزلزلت بعد انفصام عرا الوحدة بين مصر وسوريا لتسلّط الفئة المسيطرة على السلطة ، ولكن عبد السلام عارف محتار في أمره كيف يعمل على وحدة مع إقليم تفصله عن العراق دول مخالفة لها ومُباينة لنظاميها فكان يتردّد في الأمر ، كما أن المسلمين يرون عدم قيام الوحدة إلا بعد قيام الدراسة الكاملة ، وقد أخذوا عبرةً مما وقع بين مصر وسوريا . ولكن جمال عبد الناصر لا يرى التأييد له فقط ولكن الخنوع التام أمامه والارتماء تحت أقدامه، ولا يرغب في المناداة بالوحدة من طرفٍ آخر إلّا إذا جاءه وأعلن الخضوع له ،

وتسليمه مقاليد أمور بلاده مُباشرةً . لذا لم يقبل سلوك عبد السلام عارف وعدّه مسوّفاً له ومماطلاً ، وأراد التخلّص منه ، واستبداله بشخصٍ آخر أكثر طواعيةً ، وأكثر سرعةً للانضمام إليه ، وجاء الوقت الذي عدّ فيه عبد السلام عارف مُخادعاً له ، يريد الإفادة من زعامته بحماية العناصر الإسلامية ، ومن ثم النهوض بها والارتفاع على أكتافها ، وتسلّم الزعامة مكان جمال عبد الناصر ، وذلك حين حاول الوساطة للإبقاء على حياة سيد قطب بتخفيف عقوبة الإعدام عنه ، إلّا أن عبد السلام عارف قد رفض طلب جمال عبد الناصر بالعفو عن عارف عبد الرزاق ، وكان هذا الرفض كالصاعقة على جمال عبد الناصر .

عدّ جمال عبد الناصر وساطة عبد السلام عارف ورفضه العفو خيانةً له ، واعتراضاً على أحكامه ، وابتعاداً عن سياسته ، والأصل أن يُوافق موافقةً كليةً ، ويطيع إطاعةً عمياء ، ما دام من أعوانه ، ويعدّ آراء سيده أوامر لا تُخالف ، ولذا لم تمض أيام على تلك الوساطة حتى كان عبد السلام عارف في سجل التاريخ إذ انتهى أمره مع بعض أعوانه في حادثةٍ مخطط لها .

الصراع في أيام عبد الرحمٰن عارف : تسلّم عبد الرحمٰن عارف الحكم بعد أخيه ، وسار على سياسته ، وهذا ما لا يرغبه جمال عبد الناصر ، لذا بدأ يُحيك المؤامرات ضدّه ، ولكن الناصريين قد ضعف شأنهم بعد محاولة الانقلاب التي قاموا بها ، وقادها عارف عبد الرزاق ضدّ عبد السلام عارف إذ أُبعد عدد منهم عن الجيش ، وتوارى آخرون ، كما اعتزل بعضهم السياسة ، وتقوقع على نفسه ، ولكن جمال عبد الناصر لا يُهمّه سوى تنفيذ ما يريد ، بغضّ النظر عما يذهب من ضحايا في تحقيق ما يرسم ، فألقى بعارف عبد الرزاق مرةً أخرى ، ودفع به إلى العراق ، وقام بمحاولته الثانية غير أنه فشل مرةً أخرى ، وتبعثرت رجالات الناصريين ، وضعف شأنهم ، كما ضعف أمر أعوان عبد الرحمٰن عارف فكان هذا أن قوي وضع البعثيين فأخذوا بالحركة ، ونشط الشيوعيون ، وأصبحت الدعوة إلى الوحدة مع مصر باهتةً

لسياسة جمال عبد الناصر ، وتضحيته بأتباعه ، وضرب أعوانه إن لم يُوافقوه على الحقّ والباطل ، ولوجود فاصل بين الأقليمين ، ولاستلام البعثيين للسلطة في سوريا الأمر الذي جعلهم يمدّون رفاقهم ، ويدعمونهم للعودة إلى الحكم ، وهذا ما تمّ .

وأخذت تنمو مجموعة جديدة في الجيش أطلقت على نفسها اسم حركة « الثوريون العرب » ، وضمّت عدداً من الضباط ، غير أن أكثرهم من أصحاب الرتب الصغيرة التي لا تستطيع أن تلعب دوراً مهماً في السياسة العامة ، وقد اكتشف أمرها قائد الاستخبارات عبد الرزاق النايف فأظهر عطفه عليها ، واستغلّها ، وأراد العمل لنفسه وتحقيق أطماعه من خلفها ، ولما رأى الوقت مناسباً للإشاعات التي تنطلق ضد رئيس الحكومة طاهر يحيى ، واتهامه بالفساد والرشوة ، وضعف الحكم عامةً أراد الحركة لكنه وجد في نفسه وفي مجموعته ضعفاً لصغر سنّ أكثرهم ، وعدم إمكانية تسيير الحكم ، لذا رأى الاستعانة بالجناح المعتدل من البعثيين الذين منهم أحمد حسن البكر وجماعته ، وكان البكر قد تسلّم رئاسة الحكومة في وقتٍ سابقٍ . وهو قائد التجمّع البعثي في الجيش ، وكان التعاون ، بل وجد البعثيون ذلك فرصةً مؤاتيةً ، وتمّ الإنقلاب ، وتسلّمت المجموعتان السلطة ، حيث اختير أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية ، وشكّل عبد الرزاق النايف الحكومة .

الصراع أيام البعث : لم يطل الوقت حتى وقع الخلاف بين المجموعتين ، بل لم يزد الوفاق على ثلاثة عشر يوماً ، إذ اقتيد عبد الرزاق النايف مكرهاً وتحت السلاح إلى خارج البلاد ، وانفرد البعثيون بالسلطة . غير أن تسلّط مجموعة صغيرة مكروهة من الشعب على الدولة سيثير نقمة عارمة ، ولا بدّ من أن تنفجر ، وقد لا يطول الأمر ، وربما أدّى الانفجار إلى إبادة أكثر البعثيين لذا لجأوا إلى المكر والخديعة ومحاولة مشاركة آخرين لهم في السلطة . وفي ٢٧ رمضان ١٣٩١هـ (١٥ تشرين الثاني ١٩٧١م) أعلن حزب البعث العربي الاشتراكي ميثاق العمل الوطني الداعي لإقامة جبهةٍ بين القوى الوطنية

والقومية التقدمية . وفي ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٣هـ (١٧ تموز ١٩٧٣م) وقع بيان مشترك بين حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي ، وذلك بعد توقيع معاهدة مع الامبراطورية الروسية ، ثم انضم إليها الحزب الديمقراطي الكردستاني ، وبعض القوميين والمستقلين وأصحاب المنافع غير أن الهيمنة الكلية كانت لحزب البعث ، والبقية يدورون في فلكه لتأمين مصالحهم الحزبية والخاصة . ثم وجد تنظيم سري للحزب الشيوعي في الجيش فقبضت السلطة على أفراده وقضت عليهم ، وهذا ما جعل الحزب الشيوعي يترك الجبهة ، كما أن الصراع مع الأكراد قد جعل الحزب الديمقراطي الكردستاني يخرج ، وبقي حزب البعث فيها مع ما يُسمى بالقوميين إضافةً إلى بعض المستقلين الذين لا يهتمون بالمبادىء ، وإنما يتحرّكون وراء مصالحهم وما تقتضيه ظروفهم .

أخذ الصراع الفردي داخل حزب البعث يلعب دوراً كبيراً ، وقبض صدام حسين على مركز القوى كنائب للأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي القطري ، وكنائب لرئيس مجلس قيادة الثورة بعد أن قضى على عددٍ من زعماء الحزب تارةً عن طريق الاغتيال ، وتارة عن طريق الإقصاء ، وأخرى عن طريق المناورة والحيل ، وثالث عن طريق الاتهام بالتآمر على الحزب أو على الثورة و . . . . فقد انتهى حردان عبد الغفار التكريتي بحادث طائرة ، وأقصي صالح مهدي عماش ، وذهب حماد شهاب التكريتي قتلاً في مقاومة محاولة انقلابٍ ، وأخيراً أبعد الرئيس أحمد حسن البكر ، ووصل صدام حسين إلى الرئاسة الأولى . . . . واستمرّت التصفيات بمختلف الطرق ، ولم يعد أحد يجرؤ بمخالفة رأي الرئيس بل لم يستطع أحد أن يُبدي اقتراحاً ، أو يُعبّر عما في نفسه ، وربما لم يعجبه سلوك عضوٍ من الحزب أو من مجلس قيادة الثورة ، أو من الوزارة فيصرفه بأية طريقةٍ ، وهذا ما حدث مثلاً عام ١٤٠٦هـ إذ فصل من الحزب ، ومن الوزارة جعفر قاسم حمودي لأنه شوهد يصلي ، فأخرجه من الحزب ، ومن مناصبه كلها مُتهكماً عليه أن درويش لا يزال يقوم ويقعد كما يفعل البلهاء مقتنعاً بما يفعله السفهاء .

المراجع

الكتاب	المؤلف	الناشر
١ ـ التاريخ الحديث ـ الشعوب الإسلامية	عبد العزيز سليمان نوار	دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣م
٢ ـ تاريخ العراق السياسي الحديث ١/٣	عبد الرزاق الحسني	مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) .
٣ ـ تاريخ الوزارات العراقية ١/١٠	عبد الرزاق الحسني	دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م) .
٤ ـ تطور العراق تحت حكم الاتحاديين	فيصل محمد الأرحيم	مطابع الجمهور ـ الموصل ١٩٧٥م .
٥ ـ حركة رشيد عالي الكيلاني	إسماعيل أحمد ياغي	دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٤م .
٦ ـ العراق الجمهوري	مجيد خدوري	الدار المتحدة للنشر ـ بيروت ١٩٧٤م .
٧ ـ العراق في دوري الاحتلال والانتداب ١/٢	عبد الرزاق الحسني	مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٥٧هـ ـ (١٩٣٨م) .
٨ ـ العلاقات العراقية ـ الإيرانية خلال خمسة قرون	سعد الأنصاري	دار الهدى ـ بيروت
٩ ـ المشرق العربي	صلاح العقاد	معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ١٩٦٧م .

فهرس الموضوعات

مقدمة : ٥
لمحة عن تاريخ العراق قبل إلغاء الخلافة ٩
الدولة الايلخانية ٩
الدولة الجلائرية ١٠
تيمورلنك ١١
عودة الدولة الجلائرية ١٢
دولة قره قوينلو ١٢
دولة آق قوينلو ١٣
الدولة الصفوية ١٤
الدولة العثمانية ١٥
أطماع الإنكليز بجنوبي العراق ٢٢
آثار النفوذ الإنكليزي بجنوبي العراق ٢٤
الأحزاب السرية ٢٥
الحرب العالمية الأولى ٢٩
الاحتلال الإنكليزي ٣٠
الانتداب ٣٢
الثورات ٣٤
الإدارة ٣٨
مع فيصل بن الحسين ٤٠

الوضع في العراق قبل وصول فيصل ٤٤
الملك فيصل ٤٦
مؤتمر القاهرة ٤٧
وصول فيصل ٥٠
البـاب الأول : الملكية ٥١
الفصل الأول : الملك فيصل الأول ٥٥
مؤتمر المحمرة ٥٩
مؤتمر كربلاء ٥٩
مؤتمر العقير ٥٩
عبد الرحمن الكيلاني ٦١
تصرف المعتمد السامي ٦٢
معاهدة ١٩٢٢م ٦٣
الأحزاب ٦٩
مؤتمر لوزان ٧٣
إلغاء المعاهدة ٧٤
بداية القضية الكردية ٧٤
المعاهدة العراقية ـ البريطانية ٧٦
إلغاء الخلافة ٨٠
حركة محمود المعروف ٨٢
القضية الآشورية ٨٩
اليزيديون ٩٥
مؤتمر الكويت ٩٥
مؤتمر بحرة ٩٨
مؤتمر جدة ٩٨
مؤتمر الدارعة لوبن ٩٩
العلاقات مع تركيا ٩٩

منح امتياز النفط ١٠٣
الأحزاب ١٠٥
معاهدة ١٩٢٦م ١٠٦
الحركة الآشورية ١٣٠
نهاية الملك فيصل ١٣٥
الفصل الثاني : الملك غازي ١٣٩
الحركات ١٥٢
ثورة بكر صدقي ١٥٤
مقتل الملك غازي ١٦٧
الفصل الثالث : الملك فيصل الثاني -١ - ١٧١
الوصاية ١٧٦
الحرب العالمية الثانية ١٨٠
الفصل الرابع : حركة رشيد عالي الكيلاني ٢٠٧
حكومة الدفاع الوطني ٢١٢
بوادر التفاهم ٢١٨
عودة الخلاف ٢٢٠
عودة أعوان السياسة الإنكليزية ٢٢٦
الفصل الخامس : الملك فيصل الثاني - ٢ - ٢٢٩
إعلان الحرب على دول المحور ٢٣٥
حركة مصطفى البارزاني ٢٣٧
إضعاف الجيش ٣٣٧
الحركة الكردية البارزانية ٢٤٠
بعد الحرب العالمية الثانية ٢٤٤
المكاتب الإنكليزية ٢٥٠
المعاهدة العراقية الأردنية ٢٥٠

قضية فلسطين ٢٥٥
العلاقة مع سوريا ٢٦٠
الأحزاب ٢٦٣
معاهدة صداقة مع باكستان ٢٦٦
العمل على الاتحاد مع الأردن ٢٦٨
العمل على تأميم النفط العراقي ٢٧١
موقف الأحزاب ٢٧٣
تتويج الملك فيصل الثاني ٢٧٧
العمل على الإطاحة بالحكم في سوريا ٢٨٠
قطع العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي ٢٨٧
مؤتمر باندونغ ٢٨٨
حلف بغداد ٢٨٩
العدوان الثلاثي على مصر ٢٩٤
الباب الثاني : الجمهورية ٣٠٩
الفصل الأول : عبد الكريم قاسم ٣١٩
حركة ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ ٣٣١
الحكم العسكري ٣٣٥
الخلاف بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف ٣٣٦
حركة رشيد عالي الكيلاني ٣٤٠
حركة عبد الوهاب الشواف ٣٤٣
محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم ٣٤٦
عودة الحياة الحزبية ٣٤٧
المطالبة بالكويت ٣٤٨
القضية الكردية ٣٤٩
الفصل الثاني : عبد السلام عارف ٣٥١
سقوط حزب البعث في بغداد ٣٥٩

محاولة انقلاب ٣٦٩
مقتل عبد السلام عارف ٣٧١
الفصل الثالث : عبد الرحمن عارف ٣٧٣
القضية الكردية ٣٧٤
محاولة انقلاب عارف عبد الرزاق الثانية ٣٧٨
أزمة النفط مع سوريا ٣٨١
الفصل الرابع : أحمد حسن البكر ٣٨٥
الفصل الخامس : صدام حسين التكريتي ٤٠٥
الحرب الإيرانية العراقية ٤١١
المفاوضات ٤٢٩
الخلاف مع إيران ٤٣١
اتفاق طهران ٤٣١
اتفاقية الخليج ٤٣٢
اتفاق استانبول ٤٣٣
تصريح لندن ٤٣٥
اتفاقية الجزائر ٤٤٨
احتلال الكويت ٤٦٥
أيام عبد الكريم قاسم ٤٦٨
أيام صدام حسين ٤٦٩
الأحداث ٤٨٠
النتائج ٤٩٢
الباب الثالث : الصراعات ٥٠٣
الفصل الأول : صراع الأقليات ٥٠٩

الصراعات بين الأجناس ٥٠٩
صراعات العقائد ٥١٦
الفصل الثاني : صراعات الأحزاب حتى الحرب العالمية الثانية ٥٢١
الفصل الثالث : صراعات الأحزاب بعد الحرب العالمية الثانية ٥٢٩
الفصل الرابع : الصراعات الحزبية في العهد الجمهوري ٥٣٥
المراجع ٥٤٣
الفهرس ٥٤٥